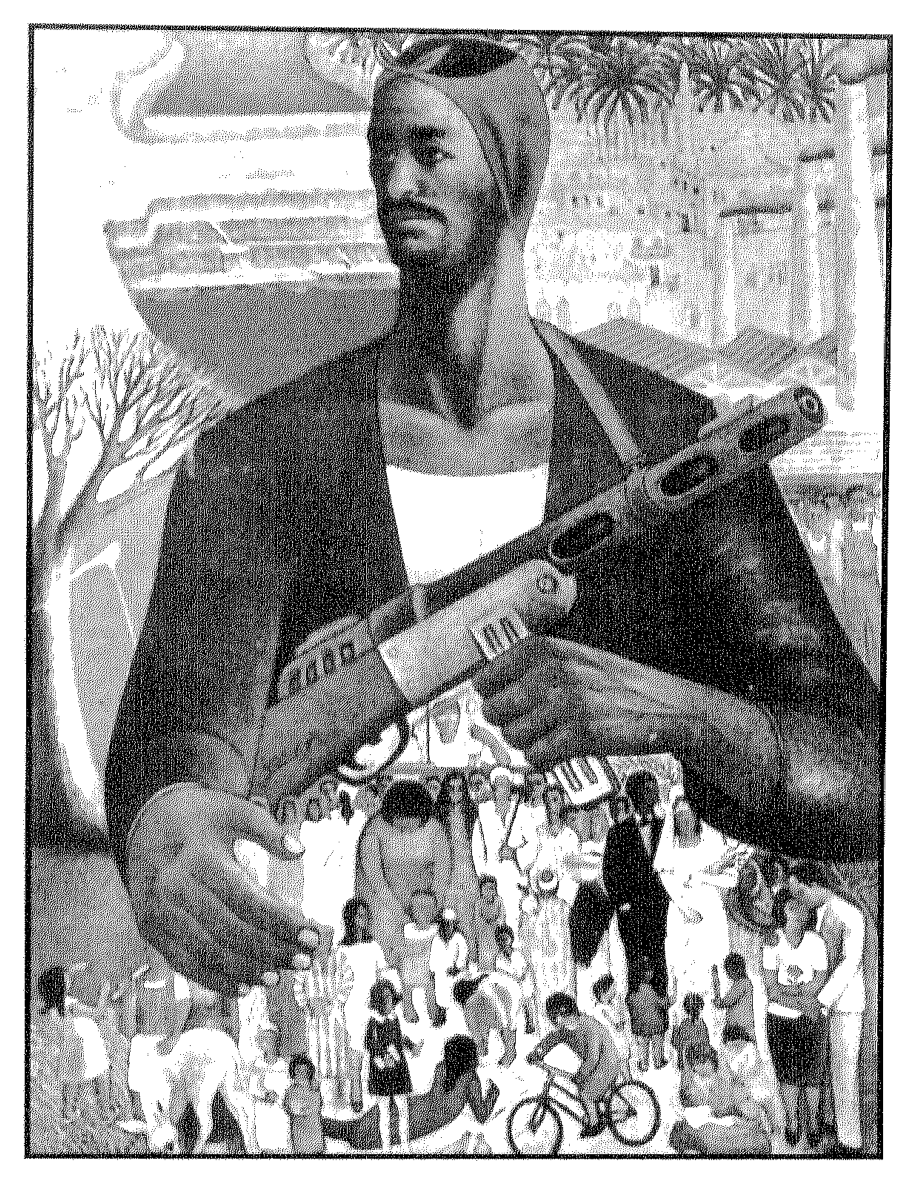
عدد تذكاري



يوليو ٢٠٠٢ الثمن ٥ جنيهات



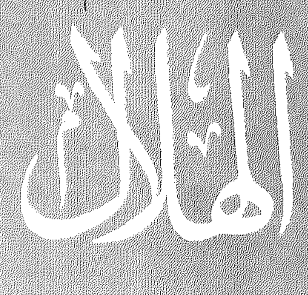
لوحة وفنان



كفاح الشعب   للفنان – محمد حامد عويس

عدد تذكاري

ثورة يوليو نصف قرن 1952 2002



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٨ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

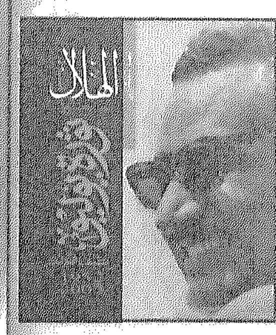
عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهم - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤
دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٥٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢.٢٥ دولار -
ايطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079/ ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة

ربيع ثاني ١٤٢٣ هـ - يوليو ٢٠٠٢م

أمريكا ويوليو

الإسلام والثورة

الصحافة والثورة

الأبواب الثابتة



اليوبيل الذهبى

هذا هو «العدد التذكارى» الذى نصدره بمناسبة الاحتفال هذا الشهر بنصف قرن على ثورة يوليو.
نتلفت خلال هذه المناسبة وراءنا ونتساءل.. هل مضى بالفعل على قيام ثورة يوليو خمسون عاماً..؟ فما أسرع مايمضى الزمن بإنجازاته وخيباته.
ولا يقاس أثر الثورات بخفوت صوتها أو ارتفاعه بعد انقضاء كل هذه السنين، وإنما يقاس ببقاء هذا الأثر فى ضمير الأمة وأحلامها..

لقد هوجمت ثورة ١٩٥٢ من كثيرين، بعكس ما لقيته ثورة ١٩١٩، التى اتفق الجميع على الحديث باسمها، وتجتمع اليوم الثورتان، اللتان تؤكدان على دأب الشعب على تحقيق أهدافه. بعد أن محا الزمن الكثير من الأحقاد فإذا لم يكن من حق ثورة ٥٢ أن تجحد جهود السابقين عليها، فلا يحق لهؤلاء أن يجحدوا دورها. خاصة فى هذا الوقت الذى تبحث فيه الأمة عن عون لطريقها الشاق الملئ بالصعاب والممتد أمامها.

●

ولا يفوتنى أن أؤكد أنه لا يوجد لثورة يوليو تاريخ مستقل عن شعبها، فالتشابك قائم بالضرورة بين الثورة وبين الوطن، بين نظام الحكم وجموع المواطنين، الذين دفعوا عرقهم ودماءهم من أجل العمل الوطنى.

ويلاحظ أن ثورة يوليو قد حققت الكثير من أهدافها، فتمكنت من إسقاط النظام الملكى القديم، والاستيلاء على الحكم، وهو ما لم تنجزه ثورة عرابى، بعد أن قضت قوات الاحتلال البريطانى عليها، كما لم تحقق ثورة ١٩١٩ هدفها وهو إجلاء الإنجليز الذى تم بعد ثورة يوليو أى بعد حوالى ٤٠ عاما على قيام ثورة ١٩١٩.

وقد أقدمت الثورة على تغيير المجتمع فى ظروف صعبة، وفى مجتمع يرفض فيه التغيير قطاعات واسعة مسيطرة على مقدراته، وتفجرت مع قيام الثورة أحلام المصريين فى إنجاز مشروع وطنى طموح، وفى إنجاز بناء اجتماعى وثقافى جديد، وبناء صناعة وطنية، وإنهاء الاحتلال، وتأميم القناة، وإتاحة التعليم لكل فئات الشعب، وتحسين صحة الشعب ومستوى معيشته، وزيادة الإنتاج الزراعى وتنميته بالسد العالى، والمشروعات المختلفة على طول النهر، وطموح كبير فى مواجهة الصهيونية والهيمنة الأجنبية وتحرير الإرادة الوطنية، والمضى فى طريق التطور المستقل.

●

ومع التسليم بأن القهر يرتبط - عادة - بالثورة، فنجد أن الثائر البريطانى كرومويل يقطع رأس ملك بريطانيا، وروبسبير الثائر الذى قطع رأس لويس السادس عشر، ولينين قطع رأس العائلة القيصرية بأكملها،

وأيضاً، وفي التاريخ العربى والإسلامى، قطع العباسيون رؤوس الأمويين، وقطع الأيوبيون رؤوس الفاطميين، وقطع العثمانيون رؤوس المماليك، وذات الشئ قام به محمد على مع المماليك في القلعة!

ولايغفر في كل الأحوال للثورة غياب الديمقراطية، ولا انتهاك حقوق الانسان، لا كجزء من الحديث عن الماضى ولكن لما له من آثار خطيرة على المستقبل.

وعلى من يبحث عن الحكم الموضوعى أن يدرك أنه فى حساب الإيجابيات والسلبيات، فإن الثورة قد حققت الكثير، وهناك أمر واحد وأساسى هو غياب الديمقراطية، وهى نقطة الضعف الأساسية التى غطت على السلبيات الأخرى، وهى المسئولة عن التستر على النواقص والسلبيات وبما فيها الفساد.

وفي ذلك جانب من طبيعة البشر، نرفضه ولكن علينا أن نعرفه، وما يهمنا منه ما يلقى بنتائجه وظلاله على الغد، فعندما تتعرض كل القوى السياسية النشطة للاضطهاد، فلن يكون أمامها سوى العمل السرى أو السلبية المطلقة، ومن الذى سيتولى عندئذ بناء المستقبل؟!

●

ولن نردد القول بأن الهزائم التى واجهتها الثورة، كانت إحدى نتائج المؤامرات الدولية للقضاء على العملاق الذى خرج من القمقم، وهو ما حدث من قبل لكل من محمد على وعرابى، لأن المسئولية تقع على هؤلاء الذين لم يقدروا تقديراً صحيحاً حجم المخاطر والتحديات، وأولئك الذين تركوا الثقوب والثغرات فى النسيج الوطنى، لكى ينفذ منها الأعداء.

ونهدف فى هذا العدد إلى إحياء الذاكرة التاريخية للأمة، فنسيان الماضى هدف عزيز على الكثيرين، وأن نتأمل تجاربنا، وأن نملك شجاعة استيعاب الدروس والعبر، وتأتى العبر من الصواب والخطأ معاً، ومن تراكم الخبرة التاريخية تظهر عبرة الإنجاز وعظة الإخفاق.

على أن ننظر إلى تاريخنا ومراحله المتتابعة، لابنظرة التسليم والتأييد، ولا بنظرة العداء والثأر، فهى أحداث تاريخية وقعت وانتهت ولايملك أحد لها تبديلاً.

●

ومع تقليب أوراق يوليو نلاحظ أن أول من استخدم كلمة «الثورة» عقب قيام ٢٣ يوليو، بعد أن كان يطلق عليها أصحابها «الحركة» هو الدكتور طه حسين، ولم يطلقها عفو الخاطر، فمعنى الثورة عنده هو التمرد على المجتمع الفاسد، والوعى بمتطلبات التغيير الاجتماعي.

ونتناول الثورة على صفحات الهلال تناولاً نقدياً وموضوعياً، كما ينبغى أن تعالجها المجلة الثقافية، نرحب بكتابات من أنصفها ومن تحفظ عليها أيضاً، ونترك الأمر للقارئ. مع الإدراك أنه لا يجوز محاكمة مرحلة سابقة بقوانين معاصرة.

كما توقفنا أمام مسألة هل انتهت الثورة برحيل قائدها جمال عبدالناصر، أم أنها مستمرة، وخاصة بعد أن أعلن الرئيس أنور السادات نهايتها، واخترنا أن نتناول نصف قرن من التغيرات والأحداث، التى كانت ثورة يوليو أبرز معالمه وأهم أحداثه، ونسعى إلى تقديم تتابع الأحداث والوقائع مع الاهتمام بتلك الأحداث القديمة التى لم يعش وقائعها الأجيال الجديدة، وحتى ننعش الذاكرة الوطنية، فلا مستقبل لما لاماضى له.

وستقرأ على صفحات هذا العدد عددا من المقالات السابق نشرها فى مجلة الهلال لكبار الكتاب، حتى ننقل إلى القارئ أجواء الماضى، جنباً إلى جنب مع مقالات نخبة ممتازة من الكتاب والمؤرخين المعاصرين.

المحــــــرر

يوليو ١٩٥٢

التحدى والاستجابة

بقلم : د. يونان لبيب رزق

بعد مضى نصف قرن على ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لازال اللجج دائرا حول وضع توصيف محدد للحدث الكبير، فخصومه يستكثرون عليه تسميته بالثورة، بينما بدا أنصاره وكأنهم متمسكون بهذا الوصف، ولكن على استحياء!.

ونري أن السبب وراء ذلك ماتعرض له الحدث الكبير، خاصة بعد وفاة صانعه الأول، جمال عبدالناصر، من هجمة شرسة، ومن أطراف عديدة، أسميناهام فى بعض كتاباتنا «بأمراء الانتقام»، وهى الهجمة التى أثرت فى قطاع كبير ممن «لايعلمون» فأصبحوا يرددون مفرداتها، خاصة ممن لا يقرءون ولم يعايشوا العصر، وكأنها حقائق لا تقبل الجدل، الأمر الذى انعكس على المناصرين فخفت صوت البعض وارتفع عند البعض الآخر على نحو غير مقبول، كثيرا ما أتى بنتائج عكسية!.

ويبدو أنه لم توضع دراسة تاريخية حتى هذه اللحظة لتصحيح المفاهيم، وما يترتب على ذلك من ضبط المسميات، الأمر الذى نحاوله فى هذه الدراسة القصيرة..



وزارة علي ماهر الجديدة بعد إقالة وزارة مصطفى النحـــــاس

فالمعلوم أن حركة التاريخ دائما ما تفرز متغيرات، وكثيرا ما يتمخض عن تلك العملية قوى جديدة ومصالح جديدة تعيش لفترة جنبا إلى جنب مع القوى والمصالح القديمة إلى أن تطغى عليها، ومن الطبيعي أن تعمل بعدئذ على إزاحة هذه الأخيرة، إذا لم تستطع بالطرق السلمية فلا مندوحة من استخدام القوة، وهو المنطق الذى ظل يتكرر، ليس فى التاريخ المصرى بل بامتداد التاريخ الإنسانى!.

إذا طبقنا هذا المعيار على الثورة الفرنسية، أم الثورات فى التاريخ الحديث، والتى اسماها المؤرخون «ثورة البورجوازية»، فهى قد تفجرت تعبيرا عن زيادة مصالح هذه الطبقة على نحو لم يستطع النظام القائم استيعابه، والذى ظل يغلب مصالح الإقطاعيين القدامى، هذا من جانب، ثم أن تلك الطبقة الجديدة قد أفرزت أفكارا مختلفة عبر عنها مفكرون أعلام بدءا من روسو، ومرورا بمونتسكيو ووصولا إلى ديدرو الذى وضع موسوعة تضمنت أهم أفكار الطبقة الجديدة والتى بشرت بأفكار الاستنارة التى تتعامل مع البشر من منطلق العطاء الإنسانى لكل فرد، بغض النظر عن أصله وفصله، كما كان حادثا مع القيم الإقطاعية التى كانت سائدة من قبل.

وبغض النظرعن الوسائل التى استخدمها الثوار فى هدم النظام القديم The old Regime والتى أخذ عليها البعض عنفها الشديد إلى حد توصيف إحدى مراحلها بعصر الإرهاب فإنها فى النهاية قد نجحت فى اسقاط هذا النظام واحلال نظام جديد أعطى للبورجوازية مكانها الطبيعي، وأزاح الارستقراطية القديمة عن مكان لم تعد تستحقه.

باختصار فإن حركة التاريخ تقوم على أساس وضع قائم لم يعد محتملا مما يمثل تحديا للإرادة الشعبية، وعندما لا تتمكن من تغييره فإنها تلجأ

للعنف، وعلى قدر نجاح هذا العنف فى التغيير تكون درجة الاستجابة، أما إذا عجز عن ذلك، فيما يحدث كثيرا فى العالم الثالث بتغيير شخوص الحكام دون تغيير للنظام القائم، يكون من الصعب التوصيف بالثورة، وبهذا المفهوم نرى أن الوقت قد حان للتعامل مع ما حدث فى يوليو عام ١٩٥٢ وما بعده ..

التحدى

تمثل حالة القلق العامة التى عرفتها مصر خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ - ١٩٥٢) أول مظاهر هذا التحدى، وهى حالة تبدت فى كثير من الظواهر :

ع عدم استقرار الحكم على نحو غير مسبوق، فالإنجليز قد نفضوا أيديهم من الصراعات الداخلية، بعد إقالة وزارة الوفد فى أكتوبر عام ١٩٤٤، وهو نفض لم تمله الظروف الداخلية فحسب، بل أملاه قبلها انحسار الدور البريطانى العالمى، بعد أن خرج الأسد العجوز واهن القوى من حرب لم تبق ولم تذر!

ولم يكن فاروق الأول على قدر المسئولية فقد توالت الوزارات وكان لكل منها منطق مختلف أحمد ماهر ثم النقراشى، إسماعيل صدقى ثم النقراشى مرة أخرى، بعده إبراهيم عبدالهادى فعلى ماهر حتى انتهى الأمر فى بداية عام ١٩٥٠ بتأليف الوزارة النحاسية السابعة والأخيرة، ولم تكن مثل أية وزارة سابقة من وزارات «الزعيم الجليل»!.

ونرى أنه مع هذه الوزارة بدأ احتضار النظام القديم.. فقد اختلت حالة التوازن القديمة التى ظلت تحكم المسيرة السياسية فى مصر، منذ صدور دستور عام ١٩٢٣ .. الإنجليز لم يعودوا طرفا مؤثرا، طغيان الدور الملكى، تهاوى أحزاب الأقلية، وأخيرا اهتزاز صورة الحزب الشعبى التى ظلت غالبة خلال السنوات الثلاثين السابقة، ولأكثر من سبب:

١ - فالوفد كان قد أخذ فى التحول بعد خروج أحمد ماهر والنقراشى أواخر عام ١٩٣٧، ثم مكرم عبيد بعد سن سنوات، وما تبع ذلك من دخول فؤاد سراج الدين وفئات قوية من الأرستقراطية الزراعية، الذين قادوا الحزب الكبير بمكانة العمد لامنطق المجاهدين، الأمر الذى كان لابد وأن يؤدى إلى انحسار التأييد الشعبى الذى طالما حظى به الحزب الكبير.

صحيح أنه قد جرت فى تلك الفترة محاولات للحفاظ على بعض شعبية الحزب الكبير من خروج جماعة يسارية صغيرة من معطفه، هى التى تسمت «بالطليعة الوفدية» والتى قادها ابن لأحد أقطاب الحزب الكبير، عزيز فهمى، وناقد أدبى شهير، محمد مندور، غير أن تأثير المحاولة كان محدوداً، فقد حوصرت من الداخل، إذ لم تكن القيادة الجديدة التى التفت حول النحاس باشا مستعدة أن تسمح لهذه الجماعة بتجاوز هامش محدد، مما حولها إلى جماعة ثقافية أكثر منها قيادة سياسية!.

٢ - ظاهرة التفسخ فى السلطة التى برزت خلال عامى الوزارة الوفدية الأخيرة، فالملك بعد أن قبل بعودة النحاس إلا أنه كان متوجسا منها أشد التوجس الأمر الذى تؤكده الوثائق البريطانية من ناحية وتسجله مذكرات رجل القصر، حسن باشا يوسف من ناحية أخرى.

وقد زاد من أسباب التوجس الحريات الواسعة التى أتاحتها الحكومة الوفدية للصحافة، مما مكن

بعضها، خاصة صحف الأحزاب العقائدية، وعلى وجه التحديد مصر الفتاة التى تحولت إلى ما أسمته «الحزب الاشتراكى». من الهجوم على الملك نهارا جهارا، وكان أشهر الحملات التى شنها أحمد حسين فى صحيفته صور مجموعة من البؤساء تحت عنوان كبير.. رعاياك يا مولاى!.

زاد منها أيضا موقف نواب الوفد من صدور قانون للحد من حرية الصحافة، وهو القانون الذى عرف باسم مقدمه، اسطفان باسيلى، وعلى الرغم من أنه كان نائبا وفديا، وعلى الرغم من أن مشروع القانون كان قد تم إعداده باتفاق بين القصر وسراج الدين، فإن هؤلاء النواب قد أسقطوه بأغلبية ساحقة، أكثر من ذلك أن جريدة «المصرى» التى كانت أكثر صحف الوفد رواجا فى تلك الفترة، قد خرجت على قرائها بصورة لباسيلى مجللة بالسواد. وهى تنعى حرية الصحافة!.

وزاد منها ثالثا تفجير قضية «الأسلحة الفاسدة»، والتى كان ورائها مجلة روز اليوسف ورئيس تحريرها الأستاذ إحسان عبدالقدوس وعدد من ضباط الجيش، وبغض النظر عما ثبت من ضعف الأدلة الخاصة بتلك القضية، إلا أنها فى مرحلة من مراحلها قد طالت بعض رجال الملك، الأمر الذى لم يكن ليغفره فاروق بسهولة للوزارة القائمة، خاصة أن جانبا من هذه القضية قد آثاره بعض النواب فى البرلمان ذى الأغلبية الوفدية الكاسحة!.

وكان من المنطقى مع ذلك أن ينتهز الملك أول فرصة ويقبل حكومة الوفد بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ليقع فى مأزق أكبر ولتزداد حالة عدم الاستقرار إلى الحد الذى تألفت معه أربع وزارات فى مدة تقل عن ستة أشهر، الأمر الذى مثل علامات نهاية الاحتضار والوصول إلى غيبوبة الوفاة، وهو ما لم يتأخر كثيرا!.

الفشل غير المنطقى الذى منيت به الحركة الوطنية خلال تلك السنوات السبع العجاف، فعلى الرغم من سقوط كثير من مفردات ما قبل الحرب، وهى المفردات التى أملت توقيع معاهدة ١٩٣٦، منها اختفاء حالة التوتر الدولى التى قادت إلى الحرب العالمية الثانية، ومنها انهيار الامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس بعد خروج الإنجليز من الهند عام ١٩٤٧، الأمر الذى فقد معه القول «بحماية المواصلات الامبراطورية»، الذى كانت تتذرع به حكومة لندن من قبل، كل مضمون، ومنها ظهور عالم جديد وصفه المؤرخون بعالم الدول المتوسطة والصغيرة حديثة الاستقلال.. ورغم ذلك فقد ظلت القضية الوطنية تتعثر بين القاهرة ولندن.

تعثرت بعد فشل مفاوضات صدقى - بيفن عام ١٩٤٦، وبعد اخفاق اللجوء إلى مجلس الأمن فى العام التالى والتى قادها رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى، ثم تعثرت أخيرا فى عهد حكومة الوفد الأخيرة بعد المفاوضات التى أجراها وزير الخارجية محمد صلاح الدين مع الجانب البريطانى.

وفى هذا الجو من التعثر العام لجأت حكومة الوفد إلى خطوتها الأخيرة بإلغاء اتفاقيتى الحكم الثنائى الخاصتين بالسودان المعقودتين عام ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر عام ١٩٥١، وإذا كان لا يستطيع أحد أن يمارى فى قيمة هذا العمل الوطنى، غير أنه أقام الدنيا ولم يقعدها وأخرج المارد الذى تكفل بالإجهاز على ما بقى من النظام القديم .. أخرجه من القمقم، ولم يكن ليستطيع أحد أن يعيده إليه، ولا الوفد نفسه!.

ما ترتب على زيادة حجم الطبقة الوسطى، وقدر المعاناة الذى كابدته فى ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية من «غلاء المعيشة» من انتشار أسباب السخط، ولم تكن مثل هذه الظروف غريبة على المصريين ، غير أنهم خصوصا فى شرائحهم الريفية لم يكونوا قادرين على التعبير عن سخطهم إلا فى انفجارات محدودة كما حدث فى قرية كمشيش لا فى ثورة عامة، وهو عجز نتج عن ضعف الوعى عند الفلاحين من جهة، وتبعثرهم فى قرى منعزلة من جهة أخرى، هذا فضلا عن تمكن العصبيات المحلية، خاصة الأسرية والإقطاعية، من رقابهم من جهة أخيرة.

بيد أن ظروف الحرب قد أدت إلى خروج أعداد من هؤلاء إلى المدن حيث عملوا فى المتاجر أو فى الصناعات الجديدة التى اقتضت تلك الظروف ظهورها، ثم ما لبث هؤلاء أن دفعوا بأبنائهم إلى المدارس والجامعات، واشتغلت قطاعات كبيرة منهم فى الوظائف الحكومية الصغيرة، التى لم تكفل لهم عيشا معقولا، خاصة وأنهم كانوا يعانون حالة البذخ التى يعيشها كبار ومتوسطو ملاك الأراضى الزراعية الذين كانوا قد وفدوا إلى العاصمة واستقروا فيها.

ولم يكن ليرضى هؤلاء أن يظلوا مهمشين على هذا النحو، خاصة وقد عرفت الفترة نفسها انتشار الأفكار الأيديولوجية التى وجدوا فيها طوق النجاة من وضع لم يعد محتملا.. من ثم جاءت الزيادة غير المسبوقة فى حجم أصحاب تلك الأفكار.. الماركسيين ومصر الفتاة (الاشتراكيين) والاخوان المسلمين، والمعلوم أن هؤلاء قد نجحوا فى سحب الأرض من تحت أقدام الوفد بعد أن سيطروا على الشارع السياسى المصرى، الأمر الذى بدا فى حركات الطلبة والعمال منذ عام ١٩٤٦ والتى أكدت أن تغييرا قد حدث، ولم يبق سوى ترجمته على أرض الواقع، مما شكل جانبا آخر من جوانب التحدى!.

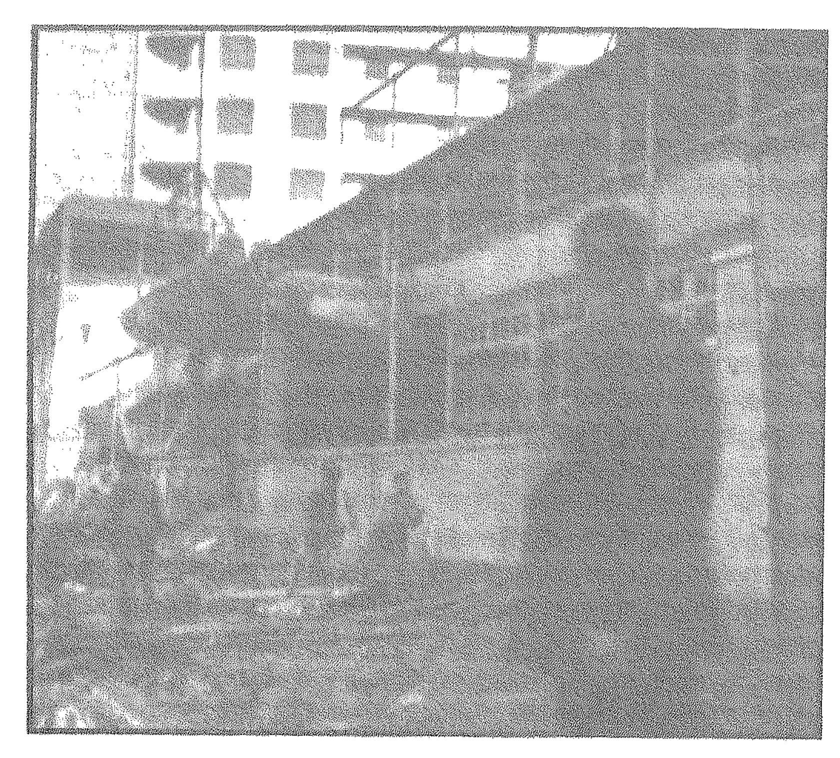
ع أخيرا فقد بدا النظام القديم عاجزا عن مواجهة المخاطر الخارجية ممثلة فى قيام دولة إسرائيل وما تبعها من مضاعفات، فلأول مرة فى التاريخ المصرى الحديث يقبع على الحدود عدو علنى يهدد التراب الوطنى.

صحيح أن مصر قد عرفت خلال الحرب العالمية الأولى احتمالات الغزو التركى الألمانى من الشرق، عبر سيناء وقناة السويس، وعرفت خلال الحرب العالمية الثانية غزوا حقيقيا، إيطاليا وألمانيا عبر الصحراء الغربية والذى تكسر عند العلمين، إلا أنه سواء فى المرة الأولى أو الثانية فإنه قد حدث فى إطار صراع عالمى انتهى بانتهاء دواعيه!.

أما بالنسبة لفلسطين فقد كان الخطر مقيما، ولا زال (!)، وكانت تلك القضية من أهم الأسباب التى أنعشت الوعى بالانتماء العربى بين المصريين، خاصة بعد النجاح فى إقامة منظمة «جامعة الدول العربية» عام ١٩٤٥ باتفاق من سائر الفرقاء ، فى السياسة المصرية، بمن فيهم الوفد وقصر عابدين.

ويشير التأمل فى مجريات الأحداث خلال تلك الفترة إلى حالة من التمزق قد انتابت المصريين، بين العمل الوطنى والسعى للتخلص من الوجود البريطانى الجاثم منذ نحو سبعين عاما على صدورهم، وبين التوجه العربى العامل على مواجهة الخطر الجديد، وكان مثل هذا التمزق يشكل جانبا أخيرا من جوانب التحدى!.

الاستجابة



بعد حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ ازدادت حالة عدم الاستقرار إلى الحد الذى تألفت معه أربع وزارات فى مدة تقل عن ستة أشهر

كان يمكن أن يتحول ما جرى ليلة ٢٢ – ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ إلى مجرد انقلاب عسكرى يؤدى إلى تغيير وجوه الباشوات والبكوات أصحاب الطرابيش، إلى وجوه الشبان من ضباط الجيش أصحاب الكابات، لو لم تكن الاستجابة مع قدر التحديات!.

ويخطىء البعض عندما يقرن بين فكرة الثورة وحجم العنف، وأنه حتى تكتسب مثل هذا الوصف فإنه يتوجب عليها أن تكون مقرونة بأكبر قدر من الضحايا، وقد تأثر هؤلاء بالنموذج التقليدى للثورات فيما جرى أواخر القرن الثامن عشر فى فرنسا، أو أوائل القرن العشرين فى الثورة البلشفية فى روسيا والتى ولدت القوة العظمى الثانية فى العالم، الاتحاد السوفييتى.. وهم تحت هذه الفكرة لم يعجبهم أن يروا مجموعة صغار الضباط وقد أطاحت بالنظام القديم فى ليلة ليلاء من ليالى التاريخ حسب اعتقادهم ، واستولت على السلطة!.

ويمكن التسليم بصحة هذا الاعتقاد إذا كان ما قام به رجال يوليو مجرد تغيير الحكام القدامى بحكام يوليو جدد دون استجابة للتحديات القائمة، الأمر الذى يتطلب تمحيص الموقف للتوصل إلى الحقيقة ووقف هذا الجدل العقيم..

عدم استقرار الحكم كان التحدى الأول، وهو ما بدا أن رجال العهد الجديد، كما أسموه أنفسهم، عاجزين عن مواجهته، فالتغير السريع فى الوزارات من ناحية، والصراع الذى طفا على السطح بين قادة هذا العهد، عبدالناصر ونجيب،

والذى وصل إلى ذروته خلال أزمة مارس عام ١٩٥٤، بدا معه ،كأن حالة عدم الاستقرار ظلت قائمة.

غير أن القائلين بهذا الرأى لم يميزوا الفارق بين تقلصات الاحتضار، وهو ما كان حادثا بالنسبة للعهد القديم، وبين صرخات الميلاد، وهو ما أصبح حادثا خاصة خلال العامين الأولين اللذين أعقبا الحدث الكبير، فبالنسبة للحالة الأولى هى نهاية لمرحلة استقرار، أو خاتمة لفترة حياة عهد بأكمله، وفى الحالة الثانية هي بداية لمرحلة جديدة من الاستقرار الذى كان مفتقداً!

يؤكد ذلك هدوء الشارع السياسى المصرى فى أعقاب الثورة، وهو الهدوء الذى يعزوه البعض إلى القبضة الحديدية التى أمسكت بها الحكومة الجديدة بأزمة الأمور، وهو رأى يستحق إعادة النظر، فالعنف وحده لا يكفى لصنع الاستقرار مع استمرار حالة السخط العام!.

ولا يمكن التفريق بين تلك الحالة وجملة المتغيرات التى عرفتها مصر خلال الخمسينات واستمرت على نحو أو آخر خلال العقد التالى والتى قدمن استجابات معقولة للتحديات التى كان النظام القديم قد عجز عن مواجهتها.

وكان من الطبيعى ، لصنع هذه الاستجابات، أن يبدأ رجال العهد الجديد فى التخلص من بقايا النظام القديم، الملك فاروق تنازل عن العرش، وقبل أن يمضى عام آخر تم إلغاء النظام الملكى برمته بعد نحو قرن ونصف من وجود أبناء أسرة محمد علي على رأس الحكم فى مصر، والأحزاب القديمة تم إلغاؤها فى يونيو عام ١٩٥٣.

وينتقد البعض بشدة الإجراء الأخير واعتبروه النقلة المميتة من العصر الليبرالى لعصر الاستبداد الناصرى، وهم فى هذا يتناسون حقيقة، حتى وإن بدت مؤسفة، ألا وهى أن مدة صلاحية تلك الأحزاب كانت قد انتهت، وأنها لو كانت تملك بعض القوة لقاومت الإجراءات التى لم يكن لها دور، أكثر من إعلان الوفاة والمواراة فى رمس التاريخ!.

فضلا عن ذلك فقد جاء قانون الإصلاح الزراعى الأول الصادر بعد شهرين فحسب من ليلة ٢٣ يوليو بمثابة قص الجناحين الاقتصادى والاجتماعى للقوى التى ظلت تجسد النظام القديم، والتى كما سبقت الإشارة، تمثلت فى الارستقراطية الزراعية، ولم يكن مقدراً لها أن تطير فى سماء الحكم بعد ذلك.

جاءت الاستجابة رقم (٢) متعلقة بالقضية الوطنية، حيث أقدم الحكام الجدد على مجموعة من الإجراءات لم تكن أى من الحكومات التقليدية لتجرؤ على اتخاذها..

من تلك الإجراءات الفصل بين قضية الجلاء وقضية السودان، وهو ما لم يحدث فى أى مفاوضات مصرية – بريطانية سابقة، إلا عام ١٩٢٩ التى لم تصل أبدا إلى بر النجاة، وكان معلوما أن القضية الأخيرة ظلت الصخرة التى تتحطم عليها محاولات التوصل لاتفاق بين الطرفين.

ومع أن رجال العهد القديم نزلوا تقريعا فى قادة يوليو ممن اعتبروهم شبانا قصيرى النظر يضحون بالمصالح المصرية فى ماء النيل، الذى هو أساس حياة البلاد، غير أنهم قد تجاهلوا فى ذلك ما أحدثه الزمن من متغيرات فى هذه القضية، بين حقوق السيادة التى كانت إحدى مفردات العصر الإمبريالى، وبين حق تقرير المصير الذى ساد

خلال فترة ما بعد الحرب والذى تمسك السودانيون به، ولهم كل الحق.

المهم انتهى هذا التحدى بعقد المعاهدة المصرية - البريطانية فى فبراير عام ١٩٥٣ والذى أدى إتمام تنفيذها بعد نحو ثلاث سنوات إلى ظهور الجمهورية السودانية فى الجنوب، وهذه النهاية وإن لم ترض كثيرين غير أنها أنهت هذا الشق من القضية الوطنية.

منها أيضا الشق الآخر المتصل بالوجود العسكرى البريطانى فى منطقة القناة، وكان ميسورا التوصل إلى حل له بعد تسوية الشق الأول من القضية، مما تحقق فى معاهدة الجلاء التى عقدت فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ونصت على جلاء آخر جندى بريطانى من البلاد خلال عشرين شهرا، بعد أن بقى أصحاب البيريهات الحمراء على أرض الكنانة لنحو ثلاثة أرباع القرن.

بسقوط هذه المفردة من المفردات التى ظلت تكبل النظام القديم انطلق الحكام الجدد يتخلصون من بقية القيود بالاستجابة لبقية التحديات.

فقد دخلت مصر بقوة فى عالم الدول الصغيرة والمتوسطة المستقلة الذى ساد وقتئذ، وهو ما ترجم عن نفسه بمشاركات قوية فى المؤتمرات التى جمعت قادة هذا العالم بدءا من باندونج عام ١٩٥٥ بكل ما ترتب على ذلك من دور قيادى فى هذا العالم ظل المصريون يحلمون به من قبل، وكان عبدالناصر، مع نهرو وتيتو وسوكارنو أحد أهم رموزه.

ساعد هذا الدخول من جانب وجلاء آخر جندى بريطانى من البلاد من جانب آخر إلى اتخاذ النظام الجديد لخطوة تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦، وعلى الرغم من أن تلك الخطوة قد أدت إلى تعرض مصر لغزو واسع، بريطانى فرنسى إسرائيلى، إلا أنه انتهى بالفشل وظفر المصريون بقناتهم، وهو ما لم يكونوا يحلمون به فى ظل النظام القديم، مما يشكل ذروة الاستجابة لتحد من أخطر التحديات التى واجهت ذلك النظام.

الاستجابة رقم (٣) تبدت فى جملة من المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى صنعها النظام الجديد.. بدأت بحركة تمصير محدودة وانتهت بحركة تأميم واسعة، فضلا عن تنفيذ مجموعة من الخطط الاقتصادية الخمسية التى أصلحت من حال أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة، بكل ما تبع ذلك من انحسار أسباب السخط، ولكن لا نقول اختفاءه!.

لم يبق بعد كل ذلك سوى الخطر الإسرائيلى الجاثم على الحدود الشرقية، ونرى أن الدعوة للفكرة العربية التى تصاعدت خلال الخمسينات ووصلت إلى ذروتها بقيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨، إنما كانت درجة عالية من الاستجابة لهذا التحدى، ونختلف فى هذا مع القائلين بأن تلك الدعوة قد أضعفت من الانتماء المصرى، فقد كان من أهم بواعقها أولا وأخيرا كفالة الأمن الوطنى لمصر.

وبغض النظر عما ترتب على الاستجابة للتحدى الأخير من مخاطر حاقت بمصر ووصلت إلى ذروتها فى حرب عام ١٩٦٧، إلا أن الاستجابة لجمل التحديات التى كانت قائمة قبل عام ١٩٥٢ إنما يضع ما جرى فى ٢٣ يوليو من ذلك العام فى مصاف الثورات الوطنية، الأمر الذى نتمنى معه وقف اللجج حول حقائق التاريخ!. ■

تنظيم الضباط الأحرار

فى مذكرات رجال الثورة

بقلم : د. رءوف عباس

تعد المذكرات التى ينشرها بعض من يشاركون فى صنع الأحداث فى بلادهم ، مصدرا مهما لدراسة ذلك الحدث ، أو تلك الحقبة التى لعب فيها صاحب المذكرات دورا فى الحياة السياسية لبلاده ، غير أن المذكرات لا تتساوى مع بعضها البعض من حيث الأهمية التاريخية ، فالحرص على تدوين مذكرات عن الأعمال التى شارك السياسى فى صنعها يتطلب وعيا عميقا بالتاريخ ، وحرص صاحب التجربة على أن يوصل صوته لمن يعنيهم أمر التأريخ للمرحلة ، بقدر ما يحرص على أن تبدو صورته أمام الرأى العام على النحو الذى يريد . وغالبا ما تكون المذكرات التى يعتمد صاحبها فى كتابتها على يوميات يسجل فيها الأحداث من زاوية رؤيته لها أولا بأول أكثر قيمة من غيرها ، ونادرا ما يقع فيها خلط فى الأحداث والوقائع ، على عكس المذكرات التى يكتبها صاحبها بعد تقاعده من العمل العام معتمدا على ذاكرة أوهنها الزمن

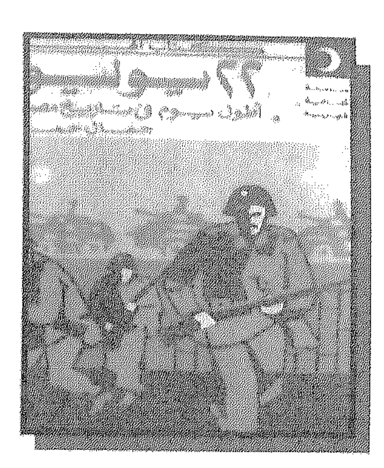


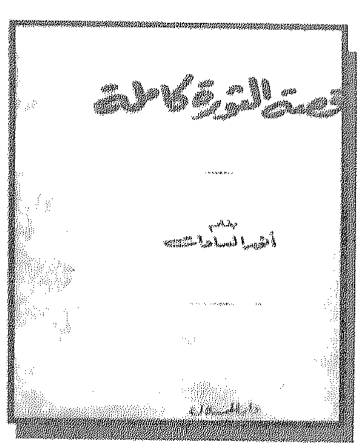
مجلس قيادة الثورة .. ويظهر في الصورة عبد المنعم أمين ، جمال عبد الناصر ، محمد نجيب ، جمال سالم ،عبد الحكيم عامر، وخلفه محمود الجيار ، محمد فهيم ريان ، خالد محيي الدين ، اسماعيل فريد ، مجدي حسنين ، كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي

، وهى التى نعتبرها «ذكريات» لا يعول عليها كثيرا كمصدر للتاريخ

•ورغم نضج وعمق الوعى بالتاريخ عند جمال عبدالناصر ، لم يحاول - فيما نعلم - أن يسجل يومياته التى كانت تقدم إضافة مهمة لمصادر دراسة ثورة يوليو ، تسد الفراغ الكبير الذى تركه موته المفاجىء دون أن تتاح له فرصة كتابة المذكرات الخاصة به ، أو إملائها على من يتولى صياغتها . ولعل ذلك يرجع إلى غلبة شخصية قائد التنظيم السرى على التكوين النفسى لعبد الناصر، إذا صح ما قيل من تفضيله الأوامر الشفهية أو «التوقيعات» (التأشيرات) على ما يعرض عليه من أوراق ، وألا يعرف معاونوه عما يسنده إليهم من موضوعات إلا ما يريدهم أن يعرفوه ، بحيث تظل الخيوط كلها مجمعة بين يديه .

وهناك أربعة - على الأقل - من رجال الثورة كان لديهم وعى متميز بالتاريخ ، وحرص بالغ على تدوين مذكراتهم ، ويأتى أنور السادات فى مقدمتهم ، فقد كان أسبق زملائه إلى نشر مذكراته عن الكفاح الوطنى فى ما قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها والسنوات الأولى للثورة ، وهى المذكرات التى نشرها «كتاب الهلال» فى يوليو ١٩٥٧ بعنوان «أسرار الثورة المصرية» والذى ترجم إلى الانجليزية والفرنسية تحت عنوان «ثورة على ضفاف النيل» ثم عاد أنور السادات إلى كتابة مذكراته مرة أخرى - فى السنوات الأخيرة من حكمه وعمره (معا) الذى حمل عنوان «البحث عن الذات» والذى حرص فيه أن يرسم لنفسه صورة براقة اقتضت صياغة





المعلومات التى سبق له ذكرها فى «أسرار الثورة المصرية» لتتفق مع ما يريد توصيله إلى القارىء . فبعد أن كانت علاقته بعبد الناصر بعد التخرج من المدرسة الحربية (١٩٣٨) فى منقباد تقوم على مشاركة مجموعة من الضباط الشبان الهم الوطنى فى أحاديث المساء داخل المعسكر ، نجده ينسب تأسيس تنظيم الضباط الأحرار إلى هذا التاريخ ، ويوحى للقارىء أنه مؤسسه ، وأنه أوكل الأمر إلى جمال عبدالناصر عندما اعتقل فى قضية الجاسوس الألمانى أثناء الحرب (على نحو ما جاء فى «البحث عن الذات») .

ومن أولئك الثوار الأربعة - أيضا - عبداللطيف البغدادى الذى بدأ يكتب يوميات منذ أزمة مارس ١٩٥٤ حتى يترك للأجيال قضية النضال الوطنى والثورة التى كان من أبرز من شاركوا فى صنعها ، ولكنه لم ينشر مذكراته التى اعتمد فى كتابتها على يومياته إلا عام ١٩٧٧ . وقد أثار نشر هذه المذكرات ثائرة أنور السادات لأن دوره فيها يغاير الصورة التى يريد أن يرسخها فى أذهان الرأى العام ، إلى حد تحركه «لتنظيم» الكتابة عن تاريخ الثورة ، فشكل «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» لهذا الغرض ، وأصدر قانونا يحرم نشر الوثائق التاريخية قبل مرور خمسين عاما دون الحصول على إذن مسبق ، ولم يلق الضوء على مذكرات البغدادى فى وسائل الإعلام، ولم ينشر - فيما أذكر إعلان عنها بالصحف سوى مرة واحدة . ومع ذلك تعد مذكرات البغدادى مصدرا مهما لدراسة تاريخ الثورة .

والثائر الثالث الذى ترك مذكرات عن دوره فى الثورة هو محمد نجيب الذى نشر كتابه «كلمتى للتاريخ» فى بيروت عام ١٩٥٧ ، وصدرت فى نفس الوقت ترجمة له بالإنجليزية بعنوان «مصير مصر»، وقد كتبها بعد إزاحته من السلطة ، أثناء وجوده فى البيت الذى حددت فيه إقامته ، ونجح فى تهريبها إلى الخارج ومنع تداول الكتاب فى مصر

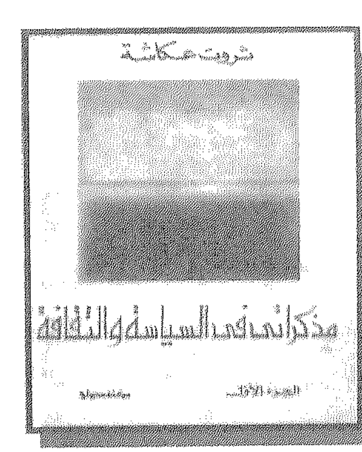
بطبعتيه العربية والإنجليزية ، وأخيرا أعيد طبعه في مصر (عام ١٩٨١) ، أما كتابه الآخر «كنت رئيسا لمصر ، مذكرات محمد نجيب» الذى نشر عام ١٩٨٤ ، فقد كتبه أحد الصحفيين مستخدما معلومات «كلمتى للتاريخ» إضافة إلى أحاديث أو قل إن شئت «دردشات» أجراها مع محمد نجيب في ظروف كان الزمن قد فعل فعله بذاكرة الرجل وزاد من حدة تأثيرها مدة الاعتقال الطويلة التى سلبته الحرية الشخصية ، وأثرت على تقييمه للأمور...

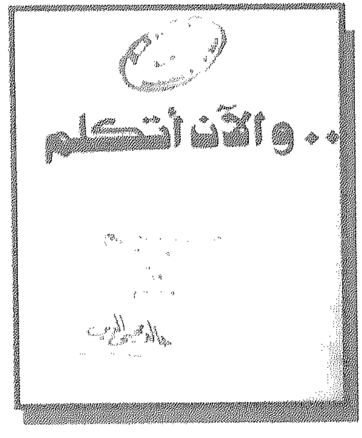
أما الثائر الرابع الذى حرص على تسجيل يومياته عن الظرف التاريخى لقيام الثورة ، ونشر مذكراته عنها في «كتاب الهلال» أيضا فهو جمال حماد صاحب « ٢٢ يوليو أطول يوم فى تاريخ مصر» (ابريل ١٩٨٣) ، الذى لا يكتفى فيه بشهادته ، ولكنه يعرض ويمحص شهادات الآخرين ويحلل شخصياتهم ، ومن ثم أصبح كتابه مرجعا أساسيا عن تلك اللحظة التاريخية الفريدة فى تاريخ مصر .

وفيما عدا ثروت عكاشة الذى نشر مذكرات مهمة عن دوره فى ثورة يوليو غلب عليها دوره فى تأطير وتنمية العمل الثقافى وتضمنت شهادته السياسية ، ونشرت فى مجلدين بعنوان «مذكراتى فى السياسة والثقافة» (١٩٨٧) ، فيما عدا هذا العمل الذى صاغه صاحبه بقلمه الرشيق ، جاءت معظم المذكرات التى نشرها جمع كبير (نسبيا) من رجال الثورة مجرد ذكريات أملوها فى شيخوختهم على من صاغها وأخرجها فى كتاب ، يظهر اسمه فى بعضها ، ويتوارى فى معظمها ، ولكنها عندما تنشر تحمل اسم صاحبها .

من ذلك مذكرات كمال رفعت التى أعدها مصطفى طيبة ونشرت بعنوان «حرب التحرير الوطنية» (١٩٦٨) وهى تتضمن تسجيلا لأعمال الكفاح المسلح فى منطقة القناة ، كما تضم نصوصا لبعض بيانات ومنشورات التنظيمات السرية وخاصة منشورات «الضباط الأحرار» من ذلك أيضا مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف التى صاغها (بعد وفاة صاحبها) أحمد عيد ، ونشرت بعنوان : « أرغمت فاروق على التنازل عن العرش » (١٩٨٨) ، ومذكرات حسين حمودة التى نشرت بعنوان «أسرار حركة الضباط الأحرار والاخوان المسلمين» (١٩٨٥) ، وقد حرص كل من عبدالمنعم عبدالرءوف وحسين حمودة على نسبة الثورة للضباط الاخوان ، مما يعنى أن عبدالناصر «استولى» على التنظيم من الاخوان ، وفتحه للضباط غير الملتزمين دينيا ، فحاق بالثورة غضب الله ، فكانت هزيمة ١٩٦٧ (!!) ، فقد بدأ عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين نشاطهم السياسى فى رحاب الاخوان المسلمين ، بل وأقسم بعضهم يمين الولاء والبيعة للمرشد العام حسن البنا ومن هنا يرى عبدالرءوف وحمودة أن ترك تنظيم «الضباط الاخوان» كان ردة ، بل وسلبا لدور الاخوان المسلمين و «عدم التزام» بالشريعة (!!) .

ولا نجد مما نشر من كتب تضمنت مذكرات أو أوراق خاصة ما يحاول التقليل من شأن دور





عبدالناصر فى الثورة (على نحو ما فعل السادات فى «البحث عن الذات») سوى تلك المجموعة من الأوراق التى أعدها أربعة من رجال الثورة بسلاح الفرسان (مصطفى نصير - عبدالحميد كفافى - سعد عبدالحفيظ - جمال منصور) التى قاموا بجمعها تلبية لطلب «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» وأرفقوا بها مذكرة عن دور «تنظيم ضباط الفرسان» فى ثورة يوليو .

وقد طرق جمال منصور بعض الأبواب من أجل نشرها ، ومن بينها باب عبدالعظيم رمضان الذى سارع بنشرها ضمن سلسلة «تاريخ المصريين» (١٩٩٧) ، بعنوان «ثورة يوليو والحقيقة الغائبة» وقدم الكتاب بمقدمة قصيرة أبدى فيها «سعادته» باكتشاف الحقيقة الغائبة وهى أن هؤلاء الضباط الأربعة هم مؤسسو تنظيم الضباط الأحرار ، وأن انضمام أصحاب الرتب الأكبر (جمال عبدالناصر ورفاقه) اليهم عام ١٩٤٩، جعل حقيقة كونهم أصحاب الثورة تصبح «غائبة» ، فلزم التصويب خدمة لتاريخ مصر (على حد قولهم وقول صاحب السلسلة التى نشر فيها الكتاب) .

شهادة يوسف صديق

كذلك نشر بنفس السلسلة (١٩٩٨) كتاب يضم بعض أوراق يوسف صديق ، تضمن شهادة يوسف صديق أمام لجنة تسجيل تاريخ الثورة التى قدمها كتابة ومعها بعض الأوراق وتتصل جميعا بدوره البارز فى الاستيلاء على قيادة القوات المسلحة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الذى يعزى إليه ما حققته الثورة من نجاح فى توجيه ضربتها الأولى للنظام فاق كل التوقعات ثم اختلافه مع مجلس قيادة الثورة حول قضية الديمقراطية .

وقد نشر أربعة آخرون من رجال الثورة ذكرياتهم عن أدوارهم فى الثورة تحت عناوين مختلفة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء خالد محيي الدين ، الذى اختار لذكرياته عنوان « .. والآن أتكلم» (١٩٩٢) ، ثم حلمى السعيد ، صاحب «شهادتى

للأجيال» ، وأحمد طعيمة ، صاحب «شاهد حق» وقد نشر الكتابان الأخيران (عام ١٩٩٩) ، وأخيرا ذكريات عبدالمحسن أبو النور التى حملت عنوان «الحقيقة عن ثورة يوليو» (٢٠٠١) .

وقد اعتمدت هذه الكتب على ما جاءت به ذاكرة أصحابها وعلى كتابات من سبقهم من زملائهم فى نشر مذكراته ، وقليلا ما استخدم بعضهم بعض ما لديه من أوراق خاصة أو نشر صورا منها ، ولكن حرص جميعهم على تزويد كتبهم ببعض الصور التى تسجل شبابهم الباكر ، وجوانب من الأدوار التى لعبوها فى السلطة فى عهد الثورة .

وإذا كانت هذه المذكرات التى ضمها (١٥) كتابا قد سجلت رؤية أولئك الرجال الذين ساهموا فى صنع ثورة يوليو وشاركوا فى مسيرتها ، فقد تفاوتت - أحيانا - رؤية بعضهم للتنظيم الذى خطط ونفذ الثورة وحدد مسيرتها ، ونعنى بذلك «تنظيم الضباط الأحرار» ، وهذا ضد الاختلاف فى الرؤية إما لأسباب سياسية نتجت عن طبيعة تكوين التنظيم من ضباط ذوى اتجاهات سياسية مختلفة ، يجمعهم العمل الوطنى والرغبة فى تفويض أركان النظام السياسى القائم ، وما ترتب على هذا التباين فى التوجهات السياسية من خلاف مع مجلس قيادة الثورة حول السياسة التى تم اتباعها بعد الاستيلاء على السلطة .

القضاء على الفساد السياسى

ويفهم من مجمل تلك المذكرات ، ومن غيرها من المصادر المتاحة أن الجيش المصرى أصبح يموج بالحركات السياسية التى انضم إليها الضباط الشبان ، والتى كانت تهدف إلى تخليص البلاد من الوجود البريطانى وتحقيق الاستقلال الوطنى .

واتسعت آفاق بعضهم لتشمل القضاء على الفساد السياسى وإقامة نظام ديمقراطى وتحقيق «العدالة الاجتماعية» . وأملت طبيعة الجيش على أولئك الضباط صيغة «التنظيم السرى» . وكان الرباط الذى يجمع أعضاء التنظيم الواحد هو الصداقة والشعور الوطنى ، والرغبة فى تحقيق الاستقلال ، وعلى حين رأى بعضهم فى القيام بعمليات محدودة ضد المعسكرات البريطانية والجنود الإنجليز تتضمن التخريب للمنشآت وقتل الأفراد ، رأى بعضهم الآخر أن يمتد نشاطهم إلى اغتيال «عملاء الإنجليز» من الساسة المصريين ، أما أولئك الذين التمسوا حلا أشمل للمسألة المصرية ، يجعل مصر تتبوأ مكانتها اللائقة بها ويحقق مستوى معيشة أفضل للمصريين ، فراحوا يطرقون أبواب التنظيمات السياسية المدنية مثل : « الاخوان المسلمين » و «المنظمات الماركسية» و «حزب مصر الفتاة» . وعلى حين استقر بعضهم فى واحد من تلك التنظيمات ، مر بعضهم الآخر عليها جميعا ثم رأى أن طريق الخلاص لمصر من قيودها وواقعها لا يمر عبر تلك التنظيمات .

وكانت المجموعة التى شكلت «تنظيم الضباط الأحرار» فى أواخر عام ١٩٤٩ ، وفى سبتمبر من ذلك العام (حسب رواية جمال حماد) وكونت اللجنة

التأسيسية بقيادة جمال عبدالناصر ، وعضوية ثمانية من الضباط هم : عبدالمنعم عبد الرءوف ، عبدالحكيم عامر ، خالد محيى الدين ، كمال الدين حسين ، حسن إبراهيم ، عبداللطيف البغدادى ، صلاح سالم ، جمال سالم ، وتم ضم أنور السادات فيما بعد (أواخر ١٩٥١ أو مطلع ١٩٥٢) بناء على طلب عبدالناصر لصلاته بيوسف رشاد والحرس الحديدى وبضابط المخابرات فى السفارة البريطانية (على حد قول عبدالناصر لخالد محيى الدين) فكان ضمه يفيد التنظيم فى التعامل مع الجهتين عند الحاجة لذلك .

وبدأ التنظيم يتصل بالتنظيمات الأخرى القائمة بالجيش لضم من يتوسمون فيه الرغبة فى العمل معهم من الضباط ، فتم ضم «الضباط الاخوان» كأفراد ، وكذلك بعض أعضاء قسم الأحذية (الجيش) بتنظيم حدتو الماركسى كأفراد أيضا ، لأن عبدالناصر كان حريصا على استقلال التنظيم وعدم وقوعه تحت سيطرة تنظيم سياسى معين ، لذلك عندما تحدث خالد محيى الدين مع جمال منصور حول انضمام تنظيم ضباط الفرسان إلى «الضباط الأحرار» ، اشترط عبدالناصر أن ينضم أعضاء التنظيم كأفراد أيضا.

وقد بدأ استخدام عبارة «الضباط الأحرار» فى أول منشور يصدر عن التنظيم فى فبراير ١٩٥٠ ، على نحو ما يذكر كل من أحمد حمروش (قصة ثورة يوليو) ، وخالد محيى الدين ، وجمال حماد . ولكن عبدالمنعم عبدالرءوف يزعم أن تنظيم الاخوان كان يستخدم «الضباط الأحرار» على منشوراته بدلا من «الاخوان الضباط» منذ الأربعينات ، وأن صاحب الفكرة هو الصاغ محمود لبيب وكيل الاخوان ، وذلك بهدف تضليل الأمن . ويحدد جمال منصور وزملاؤه الثلاثة . بداية تأسيس التنظيم عام ١٩٤٥ ، ويزعمون أنهم هم أصحاب تسميته «الضباط الأحرار» وأنهم بدأوا استخدامها عام ١٩٥٠ (أى بعد عام من انضمامهم فرادى إلى التنظيم) وأن تنظيم الفرسان (الذين أسسوه عام ١٩٤٥) كان يضم سبعين ضابطا ، من بينهم خالد محيى الدين ، وأنهم أصحاب المبادىء الستة الشهيرة التى أخذها عنهم تنظيم «الضباط الأحرار» .

الإخوان والعمل السرى

أما «الاخوان الضباط» فيعزون لأنفسهم فضل تأسيس العمل السرى فى الجيش ، فيعتبر عبدالمنعم عبدالرءوف بداية تأسيس تنظيم «الاخوان الضباط» عام ١٩٤٢ بداية للعمل السرى بالجيش ، وإن كان يعترف أن عدد أفراد التنظيم بلغ سبعة ضباط عام ١٩٤٤ ، وظل العدد ثابتا حتى عام ١٩٤٦ عندما قاموا بطقوس القسم والبيعة ، وكان من هؤلاء السبعة جمال عبدالناصر وخالد محيى الدين وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين ، وقد تركوا تنظيم الاخوان عام ١٩٤٧ ، لأن عبدالناصر كان يرى أن الاخوان لا يعلنون صراحة منهجا سياسيا محددا فيما يتعلق بالقضية الوطنية والإصلاح الاجتماعى ، ويشعر أن هدفهم هو السيطرة على تنظيم الضباط لتنفيذ

أغراض الجماعة وحدها فنفر هو وزملاؤه منهم ، وحتى بعد تشكيل التنظيم الخاص بهم (الضباط الأحرار) عام ١٩٤٩ ، ظلوا ينظرون بعين الشك إلى نشاط عبدالمنعم عبدالرءوف الذى استمرت علاقته التنظيمية بالاخوان مما أدى إلى تجميد عضويته بالتنظيم قبل قيام الثورة بثلاثة شهور ، رغم استمرار علاقات المودة بينه وبين عبدالناصر وقيادات الاخوان المسلمين الذين أبلغهم عبدالناصر بنفسه بموعد قيام الثورة قبل تحرك القوات المشاركة فى الانقلاب بثلاثة أيام .

والحق أن تنظيمات الضباط فى الجيش تعود إلى أوائل ١٩٤٠ عندما تأسست أول خلية ثورية بسلاح الطيران ضمت عبداللطيف البغدادى وحسن عزت وغيرهما من الضباط ، وضموا إليهم أنور السادات فيما بعد بتزكية من حسن عزت ، وقد تزامنت التنظيمات مع بعضها البعض دون اتصال بينها حتى استطاع جمال عبدالناصر أن يكون منها جبهة واحدة عام ١٩٤٩ كانت بمثابة التنظيم البديل والموحد ، وساعد ذلك على نمو التنظيم بشكل عنقودى بحيث يتولى كل عضو تجنيد أربعة آخرين لتكوين خلية برئاسته بشرط ألا يعرفوا عن التنظيم سواه ، إذ كان الأمن يأتى فى مقدمة اهتمام اللجنة التأسيسية بقيادة جمال عبدالناصر حتى لا يؤدى إهمال ذلك إلى تعرض التنظيم للخطر قبل أن يحقق أهدافه الوطنية ، وظل جمال عبدالناصر وحده يجمع كل خيوط التنظيم بين يديه ، ولعل ذلك يفسر ما يرد كثيرا فى مذكرات رجال الثورة سالفة الذكر فى أكثر من موضع أن صاحب المذكرات تحدث مع أحد زملائه الضباط حول الأوضاع السياسية للبلاد ، ثم يعرف - فيما بعد - أن زميله عضو مثله فى «تنظيم الضباط الأحرار» ، بل من المفارقات الطريفة أن هذا الاكتشاف لرفاق التنظيم من زملاء السلاح تم ليلة الثورة عندما وزعت قيادة التنظيم التكليفات على الضباط .

إن مذكرات «الضباط الأحرار» تقدم مصدرا لا غنى عنه ، يدعم غيره من المصادر الضرورية لدراسة تاريخ الثورة ، وتعدد المذكرات يساعد على تحقيق الشهادات المختلفة التى ترد بهذه المذكرات، واستخلاص النتائج منها . ورغم اعتراضنا على مبدأ قيام هيئة حكومية بالانفراد بكتابة التاريخ ، ومن ثم إحجامنا عن التعاون مع «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» ، فإن الفضل يعود إلى هذه اللجنة فى حث الكثير من «الضباط الأحرار» على كتابة مذكراتهم أو الإدلاء بشهاداتهم عن أدوارهم فى مسيرة الثورة ، وقد قامت اللجنة بتجميع كم هائل من الأوراق الخاصة من أيدى هؤلاء وغيرهم ممن لعبوا دورا فى الحياة السياسية قبل الثورة وفى عهدها . وكان المكان الطبيعى لهذه الأوراق والمذكرات هو «دار الوثائق القومية» ولكن بعد انتهاء عمل «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» لا نعرف أين استقرت تلك الأوراق التى يتعذر كتابة تاريخ دقيق لثورة يوليو دون الرجوع إليها ، ونأمل أن تعود يوما من تغريبتها إلى مكانها الطبيعى «دار الوثائق القومية» ولعل الاحتفال بالعيد الذهبى للثورة فرصة مناسبة لتحقيق ذلك . ■

يوليو ١٩٥٢ بين العلم والسياسة

بقلم : د. عاصم الدسوقى

منذ سبعينيات القرن العشرين أصبح الخلاف على ماجرى منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أشد ضراوة عما كان من قبل، وعلنا بعد أن كان يدور همسا، ولم يقتصر الخلاف على الباحثين كما يحدث عادة بينهم حول شخصيات التاريخ وقضاياه وتجاربه الكبرى، بل لقد اتسعت دائرة المشاركين فشملت سياسيين وصحافيين وأدباء وشعراء وفنانين وكل من وجد فى نفسه رغبة فى الكتابة حتى ولو لم يكن مؤهلا لها .

ولعل اتساع نطاق هذه المشاركة وتنوع أطرافها يرجع إلي مجموعة عوامل يأتي في مقدمتها موقف القيادة الحاكمة بعد تصفية الصراع السياسي - الذي وقع بعد وفاة عبدالناصر وحتي ١٥ مايو ١٩٧١ - لصالح الرئيس السادات الذي بادر باتهام منافسيه بأنهم مراكز قوي ناصرية تعمل لحساب السوفييت، وعلي هذا أخذ البعض يعيد ترتيب أوراقه، ويتخلي عن مواقفه السابقة، ويوجه شراعه ناحية المركز الجديد، ومن هذه العوامل أيضا اتجاه الحكم الجديد إلي فتح نافذة «للديمقراطية» تسمح بحرية التعبير أطلت منها ثلاثة منابر فكرية تمثل اليمين والوسط واليسار، سرعان ما تحولت في اكتوبر ١٩٧٦ إلي أحزاب سياسية وتشكلت معها أحزاب أخري استوعبت بقايا القوي السياسية التي كانت قائمة قبل ١٩٥٢ وأنصارها من الأجيال الجديدة وفي مقدمتها الوفد والإخوان المسلمون والشيوعيون فضلا عن الناصريين بطبيعة الحال الذين اعتبروا قوي قديمة.



صورة تجمع بين الرئيسين جمال عبد الناصر وشكري القوتلي اثناء توقيع وثيقة الوحدة بين مصر وسوريا ليكونا الجمهورية العربية المتحدة

والحال كذلك بدأ الجدل يحتدم بين خصوم يوليو وبين أنصاره حول مسائل أساسية وفرعية انطلق فيها الخصوم من رفض كل التغييرات التى تمت من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠ إما بدافع الثأر من سياسات الإصلاح الزراعى والتأميم، وإما بدافع الثأر والاعتقال فى السجون، ووجدوا فى بعض العثرات السياسية والانكسار العسكرى ضالتهم لكى يهيلوا التراب على كل ما تم من تغييرات فى البناء الاقتصادى والأوضاع الاجتماعية والأحوال الثقافية، وأما الأنصار فقد توقفوا عند هذه التغييرات التى رفعت من شأن الطبقة الوسطى

وشأن العمال والفلاحين أساسا التى لولاها لظلوا فى دائرة النسيان وقيد هامش المجتمع مثلما كان آباؤهم قبل ١٩٥٢ .

وعلى هذا اختلط ماهو نسبى بالمطلق ، وما هو علمى بالسياسة، وما هو موضوعى بالمصلحة الذاتية واعتقد كل طرف أنه صاحب القول الفصل دون منازع، واستخدم الجميع أسلحة التشهير للنيل من بعضهم البعض بالكليشيهات المتداولة من نوع العمالة والغباء والحماقة وكل هذا جاء بسبب إقحام السياسة وهى متغيرة على التاريخ وهو وقائع ثابتة، وبسبب دراسة التاريخ خارج نطاق التاريخ أى خارج سياق الظروف والحوادث، مع أن أبجدية العلم تقول لنا إن أى تفكير خارج المكان وخارج الزمان لايعد تفكيراً علمياً.

النجاح فى تحقيق الاستقلال

على أننى أعتقد غير جازم أن هناك اتفاقا على أن ثورة يوليو ١٩٥٢ لها مكانة خاصة بين ثورات التحرر الوطنى التى شهدها عالم المستعمرات عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لأكثر من سبب فهى أول ثورة تقوم فى المنطقة العربية وتنجح فى تحقيق الاستقلال زمن الحرب الباردة (بدأت هذه الحرب ١٩٤٧ - ١٩٤٩ بمشروع مارشال والنقطة الرابعة وحلف الأطلنطى أمريكيا، والكومنيفورم والكوميكون وحلف وارسو سوفيتيا) حين كان كل معسكر من المعسكرين العالميين يسعى لتوسيع نطاق نفوذه على حساب الآخر عن طريق طى القوى الصغيرة تحت جناحه بسلاح المساعدات أساسا. وقد عمل جمال عبدالناصر بالتنسيق مع نهرو الهند وتيتو يوغوسلافيا على شق طريق ثالث قد يبعدهم عن الاستقطاب لأحد المعسكرين ألا وهو طريق الحياد الإيجابى فى ١٩٥٥ الذي أضيف له عدم الانحياز عام ١٩٦٠.

وفى إطار هذا المبدأ شاركت ثورة يوليو فى حمل راية النضال ضد الوجود الاستعمارى فى العالم الثالث وخاصة فى البلاد العربية والإفريقية، وعلى هذا الطريق عمل جمال عبدالناصر على أن يجعل من القومية العربية حقيقة مذهبية تقوم على أساسها سياسة مصر لتحقيق الوحدة العربية بعد أن كانت العروبة مجرد تيار فكرى منذ أواخر القرن التاسع عشر لم يترجم إلى حقيقة سياسية حتى على يد جامعة الدول العربية، فكان قيام الجمهورية العربية المتحدة بالوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨) وتمسك عبدالناصر باسم الجمهورية بعد انفصال سوريا أملا فى تحقيق الوحدة فى قابل الأيام. وكان العمل على تحرير فلسطين جزءاً من هذا الطريق فى وقت كان المجتمع الدولى يتعامل مع قضية فلسطين على أنها قضية شعب من اللاجئين تبحث الأمم المتحدة ومنظماتها عن طريق لإعاشته وإيوائه، فتحولت على يد عبدالناصر إلى قضية شعب له

حق فى دولة علي أرضه التى اغتصبتها الأمم المتحدة بتقسيم نوفمبر ١٩٤٧ .

ومن ناحية أخرى فإن ثورة يوليو تعد حركة فريدة من نوعها فى تاريخ الثورات إذ قام بها عسكريون، والعسكريون فى المفهوم السياسى الشائع أداة فى يد الطبقة الحاكمة يعملون فى خدمة مصالحها، وقد ينقلبون عليها لصالح طبقة أخرى أكثر نفوذا، لكن هذه الثورة التى قام بها العسكريون خلخلت هذا المفهوم الشائع إذ قام الضباط بتغييرات اجتماعية شاملة لصالح العمال والفلاحين والطبقة الوسطى، فجمعت بذلك بين التحرر السياسى والتحرر الاجتماعى بسياسة التخطيط المركزى التى اتبعتها، وبتأميم رأس المال الأجنبى ثم المحلى وإنشاء القطاع العام ، وقيام الدولة دور اقتصادى - اجتماعى لصالح غالبية الجماهير، وأكثر من هذا فإن عبدالناصر خرج من انفصام الوحدة مع سوريا (سبتمبر ١٩٦١) بإضافة نظرية لفكرة الوحدة العربية عندما صك شعار «حرية - اشتراكية وحدة» ، أى تحقيق الوحدة العربية على أساس الأرضية الاشتراكية خلافا لمقولة حزب البعث العربى الاشتراكى التي تقوم علي تحقيق الوحدة قبل الاشتراكية، وخلافا لمقولة الماركسية التى ترى فى القومية حركة البورجوازية الرأسمالية.

ثورة بيضاء

على أن ثورة يوليو فى سعيها لتثبيت أركانها وتحقيق أهدافها دخلت فى صراع مرير مع أكثر من قوة محليا وعربيا وعالميا. ففى مصر دخلت فى صراع مع قوى النظام القديم الذين كانوا يدافعون عن مجمل امتيازاتهم الطبقية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ورأوا أن الثورة سلبتهم هذه الامتيازات دون وجه حق ومن ثم كان الصدام حتميا، ومع هذا فإن الثورة لم تلجأ إلى التخلص من حياة عناصر هذه القوى كما فعلت الثورة الفرنسية مثلا، بل اكتفت بعزلهم سياسيا بالغاء الأحزاب السياسية، وتجريدهم من سلاح القوة الاقتصادية بقوانين الإصلاح الزراعى والتأميم مؤكدة بذلك أنها ثورة بيضاء، وفى هذا قال عبدالناصر: إن الهدف هو تصفية دور الطبقة وليس تصفية حياة أبنائها .

كما واجهت الثورة مقاومة القوى التى تحظى بشعبية ما مثل جماعة الأخوان المسلمين والفصائل الشيوعية حول مبدأ المشاركة فى الحكم (الديمقراطية)، لكن جمال عبدالناصر لم يكن يؤمن بالدولة الدينية الإسلامية كما يراها الإخوان المسلمون فى مجتمع يضم طوائف، كما لم يكن يعتقد فى إقامة دولة شيوعية فى مصر، بل كان يريد تحقيق العدل الاجتماعى بتقريب الفوارق بين الطبقات فى إطار من التكافل الاجتماعى الذى تحض عليه الأديان، ومن ثم رأى فى هذين

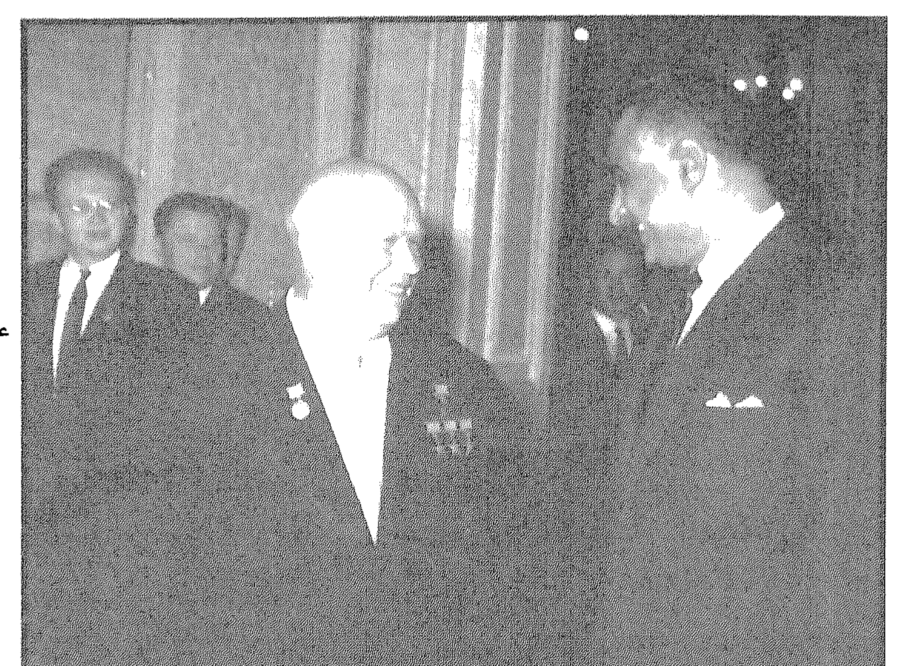
التيارين تطرفا لاتقبله طبيعة المصريين المعتدلة التى تقوم على التدين دون تطرف أوغلو، وترنو للعدل والمساواة دون سحق آخرين، واكتشف أن تيار المعارضة بكل أجنحته يتخفى وراء مبدأ الديمقراطية السياسية لكى يصل إلى الحكم، ولو كانت هذه القوى تستهدف التغيير السياسى والإصلاح الاجتماعى بإجلاء الإنجليز وإزالة النظام الملكى كما كانت تقول لوضعت يدها فى يد الثورة طالما أن الضباط يحققون الأهداف ذاتها، لكن المسألة كانت مجرد صراع على كراسى السلطة وفقط .

وعلى المستوى العربى اشتبكت الثورة فى خصومة مع ثلاث مجموعات متداخلة أولها نظم ملكية تستمد شرعيتها فى الحكم من الوراثة، رأت فى الثورة على النظام الملكى وإعلان الجمهورية خطرا على شرعيتها إذا ما اعتنقت شعوبها مبدأ الثورة، وثانيها نظم ترفض الاشتراكية منهجا لأن اقتصادها يدور فى نطاق الاقتصاد الرأسمالى التابع للسوق الرأسمالية العالمية، وثالثها نظم لاتؤمن بالقومية العربية وتقدم عليها الوحدة الإسلامية مع أن القومية العربية فكرة علمانية تستوعب أديان العرب ومعتقداتهم على حين أن الوحدة الإسلامية تشمل قوميات متنافرة لغة ومصالح وتوجهات.

تأميم قناة السويس

وأما على المستوى العالمى فقد واجهت الثورة خصومة شرسة من قوى الغرب الرأسمالى بسبب طريق التنمية الاقتصادية والعسكرية الذى أخذت به الثورة وكان من شأنه أن يخرج مصر تدريجيا من دائرة التبعية للسوق الرأسمالية العالمية ومن ذلك تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ورأس المال الأجنبى فى مصر (١٩٥٦-١٩٥٧) والشروع فى إقامة الصناعات الثقيلة كالحديد والصلب ومجموعة المصانع الحربية، وتقييد الاستيراد إلا فيما يتعلق بمستلزمات الانتاج مما كان يهدد باغلاق السوق المصرية أمام النتجات الأجنبية فى الوقت الذى تحارب فيه الرأسمالية العالمية. من أجل استمرار السوق الخارجية لتدوير رأس المال وإنعاش الطبقة الوسطى والعمال فى بلادها لتحقيق السلام الاجتماعى. وعسكريا تمكنت الثورة من عقد صفقة الأسلحة التشيكية (١٩٥٥) فانكسر احتكار الغرب لتوريد السلاح، واتجهت السياسة المصرية نحو المعسكر السوفييتى فاختل توازن القوى العسكرية فى الشرق الأوسط الذي كان قد تحدد بمقتضى التصريح الثلاثى فى مايو ١٩٥٠ بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا .

وكان من الطبيعى والحال كذلك أن تلتقى كل هذه القوى المعادية محليا وعربيا وعالميا على نقد ثورة يوليو دون بصيرة، ونقض أعمالها دون موضوعية إلا من مقاييس الذات،



عبد الناصر وخروشوف
عام ١٩٦٤



جمال عبد الناصر في
مؤتمر القمة الافريقي
الثاني عام ١٩٦٤



إذ نراهم يتغاضون عن إيجابيات إعادة بناء المجتمع لصالح الأغلبية، ويتوقفون عند الإجراءات الاستثنائية التى تصاحب عادة عملية الهدم والتغيير ، وهى إجراءات أخذت بها كل نظم الحكم التى عرفها المجتمع البشرى بما فى ذلك الدول الأكثر ديمقراطية أو الدول الأشد تدينا، والأمثلة على ذلك كثيرة لايتسع المقام لذكرها .

وأول الطعون التى يوجهها هؤلاء للثورة موضوع الديمقراطية والمشاركة السياسية وتداول السلطة والتعددية الحزبية .. الخ. ويعتبرون أن أزمة مارس ١٩٥٤ بمثابة إعلان لموت الديمقراطية، ولكن هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الديمقراطية فى أصلها اليونانى وممارساتها فى دول الغرب تعنى حكم صفوة معينة، بدأت بصفوة المواطنين فى أثينا اليونانية، ثم انتقلت مع التطور الى صفوة تملك رأس المال فى الزراعة أو الصناعة والتجارة والخدمات، وتسيطر بالضرورة على السلطة التشريعية والتنفيذية حماية لمصالحها ضد من لا يملكون إلا قوة عملهم فى خدمة هذه المصالح، والفارق بين نظام ديمقراطى وآخر مايعرف اصطلاحاً بهامش الحرية الذى يتمثل فى مدى إتاحة فرصة التعبير للجمعيات الأهلية والنقابات العالمية والمهنية عن مصالح أعضائها .

ومن العجب أن أولئك المعارضين يعتقدون أن تداول السلطة عبر التعددية الحزبية يمكن أن يتم باتفاق «جنتلمان» وكأننا فى نادٍ من أندية الروتارى أو جمعية من جمعيات الإدخار التى ينظمها الموظفون فى المصالح الحكومية أو الجيران فى المنازل ويتم تداول صرف الأنصبة أول كل شهر، ولم يعرف هؤلاء أن هذه الصيغة من ديمقراطية الحكم لم تأت منحة وطواعية من السلطة الحاكمة المتحكمة وإنما جاءت من خلال صراع طويل ومرير بين الحاكم والمحكومين.

الملاك الجدد بمجلس الأمة

والآن .. إذا كانت الديمقراطية عند هؤلاء تعنى حكم الأغلبية ، فإن ثورة يوليو ثورة ديمقراطية لأنها تمثل الأغلبية، أما إذا كانت الديمقراطية تعنى حكم الصفوة المالكة فإن ثورة يوليو أيضا ديمقراطية لأنها تمثل الملاك الجدد لوسائل الإنتاج بمقتضى الإصلاح الزراعى والتأميم وإنشاء القطاع العام، والدليل على ذلك أن أول مجلس أمة عام ١٩٥٧ كان يضم ٣٣٪ من رجال الأعمال و١٣٪ من أغنياء الريف حين كان الاقتصاد لا يزال فى نطاق النشاط الرأسمالى، ثم تغيرت النسبة بعد ١٩٦١ مع تغيير قاعدة ملكية وسائل الإنتاج بمقتضى الإصلاح الزراعى وإقامة القطاع العام فأصبح للعمال والفلاحين (الملاك الجدد) ٥٠٪ من مقاعد السلطة التشريعية .

ومن ناحية أخرى فإن أى ثورة فى العالم

نجحت فى الاستيلاء على السلطة لم تفتح الباب هكذا لكى يشاركها خصومها السياسيون فى الحكم، وهذا ما حدث فى الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، وفى الثورة الأمريكية ١٧٧٦ التى لم تصدر الدستور إلا فى ١٧٨٩ أى بعد أكثر من عشر سنوات من التخلص من الإدارة البريطانية ومن الصراع بين أصحاب المعتقدات المختلفة.

وفى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ التى يصفها خصوم الثورة بأنها عصر الليبرالية لم تكن هناك ديمقراطية بالمعنى الذى يطالبون به ثورة يوليو. فمن المعروف أن تداول السلطة كان يتم بين أحزاب طبقة اجتماعية واحدة انشقت كلها عن الوفد بسبب التنافس الشخصى على الحكم، وكان الملك يعصف بالدستور ويقيل الحكومات، والجميع تحت الهيمنة البريطانية والامتيازات الأجنبية، ولم يحدث أن اشترك أحد العمال أو الفلاحين أو أحد أبناء الطبقة الوسطى فى الهيئة التشريعية.

ومن الطعون الأخرى طالما وجهت للثورة مساندتها للثورات التحررية فى كل من الجزائر ١٩٥٤ - ١٩٦٢، والعراق (١٩٥٨)، واليمن على وجه الخصوص (١٩٦٢ - ١٩٦٧) لاتصالها بالهزيمة العسكرية فى حرب يونية ١٩٦٧، واعتبار هذه المساندة تدخلا فى شئون الغير، وتبديدا للأموال. ولم يلتفت أصحاب هذه المؤاخذة إلى دور الجغرافية السياسية (جيوبولتيك) فى تحديد سياسات الدول فيما يتعلق بدائرة المصالح الاستراتيجية الكبرى فما بالك بالثورات التى تسعى لتأمين نفسها بزيادة مساحة مثيلاتها من خلال ما تعلنه من مبادىء. هكذا فعلت ثورة المستعمرات الأمريكية والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية.

كما لم يلتفت هؤلاء الخصوم إلى أن السعودية مثلا تدخلت ضد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ فى اليمن ليس بسبب وجود الجيش المصرى هناك كما يتوهمون، ولكن بسبب الجغرافية السياسية بحيث أنه إذا لم تتدخل مصر لمساندة ثورة اليمن كانت السعودية سوف تتدخل لمساندة حكم الإمام والتاريخ السابق القريب يؤكد هذا. ففى مارس عام ١٩٤٨ وقبل يوليو ١٩٥٢ بأربع سنوات قام ابن الوزير بحركة ضد الإمام فما كان من الملك عبد العزيز آل سعود إلا أن تدخل بكل قواته ورجال قبائل الحدود لإعادة الإمام للحكم ،نجح فى هذا بعد حوالى شهر. وفى ثورة سبتمبر ١٩٦٢ حاول الرئيس الأمريكى كينيدى الذى اعترف بالجمهورية الجديدة فى ديسمبر ١٩٦٢ أن يقنع السعودية بالأمر الواقع وكانت القوات المصرية قد بدأت فى الانسحاب بناء على ترتيبات فى أبريل ١٩٦٣. لكن مقتل كينيدى فى نوفمبر ١٩٦٣ غير من كل الترتيبات حيث قام خليفته جونسون الذى كل يمثل احتكارات البترول بإرسال خطاب للأمير فيصل أبلغه فيه



مع الأسقف مكاريوس في القاهرة ١٩٦١

أن اليمن يمكن أن تكون مصيدة لعبد الناصر. وهكذا بدأ برنامج إطالة الحرب لاستنزاف قوة مصر بعد أن كانت التسوية قد تمت في أبريل ١٩٦٣ كما سبقت الإشارة وفي ١٩٦٥ (اتفاقية جدة). وآنذاك كانت الترتيبات تتم لتوريط الجيش المصري في مواجهة مع إسرائيل بعد إنهاكه في اليمن. وهذه أمور معروفة لمن يريد أن يستخدم العقل، ووثائقها الأمريكية مكشوفة.

ومن الطعون الساذجة القول بأن ما حدث في يوليو ١٩٥٢ كان انقلابا عسكريا وليس ثورة أو على أحسن التقديرات «حركة مباركة». وهذا استخفاف بالعقل ما بعده استخفاف، ذلك أن القاموس السياسي الذي وضعه الغرب يقول :إن الانقلاب هو تغيير السلطة الحاكمة دون مساس بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وإن الثورة هي تغيير السلطة وتغيير الأوضاع تغييرا أساسيا. فإذا كان خصوم يوليو يصفونه بأنه انقلاب عسكري وليس ثورة فلماذا يحاسبون قيادته على زوال الديمقراطية. وإذا كان خصوم الثورة يتفقون على أن محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة بسبب التغييرات التي قام بها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإن جمال عبد الناصر يصبح مؤسس مصر المعاصرة بذات المقاييس، فلماذا تختل المعايير.

والحق أن المقام لا يتسع لمناقشة أفكار خصوم يوليو على ذلك النحو، ولست أقصد أن أقول إن الثورة فوق مستوى الأخطاء أو أن رجالها لم يخطئوا، فهذا أمر يتنافى مع طبيعة الأشياء. لكن مشكلة هؤلاء الخصوم أنهم ينتزعون الحوادث من قلب سياقها، وأنهم يمشون وراء اختياراتهم الذاتية، وأنهم غير صرحاء في كشف حقيقة كراهيتهم ليوليو. ولو كانوا يتمتعون بالصراحة الواجبة فإن الشجاعة تقتضيهم أن يعلنوا أنهم يكرهون الثورة لأنها طبقت الإصلاح الزراعي فحررت الفلاح من سيطرة الملاك، ولأنها منعت الفصل التعسفي للعمال وطمأنتهم على غدهم قبل يومهم، ولأنها أقامت القطاع العام فانتعشت الطبقة الوسطى. وهذا النوع من الصراحة أفضل من التباكي على الديمقراطية التي طالما استباحوها قبل ١٩٥٢، وعلى اعتقال الخصوم والزج بهم في السجون، لأن الصراع السياسي لا يعرف الأخلاق والسجون قائمة في كل بلاد الدنيا، وسجون مصر قديمة قبل الثورة بزمان طويل، وطالما استضافت بين جدرانها الخصوم السياسيين الذين يعتقدون أنهم على حق. ■

أن أكثر الثورات نجاحا ونفعا هى تلك التى تعمل جادة على الآن تكون مجرد ثورة..

مكان الثورة المصرية فى تاريخ مصر الحديثة

بقلم : محمد شفيق غربال *

وهل الثورة كسائر أحداث الزمان ؟ أهى مما يستطيع مؤرخ أن يكتب فيه؟ إن من حق الثورات أن تحمى نفسها ممن يكيدون لها ويعملون على إفساد تدبيرها والحط من قدرها ، وقد يخشى الباحث المؤرخ أن يزج به فى زمرة الكائدين والمفسدين فيؤثر الصمت ، ويترك الكلام للمستقبل البعيد أو القريب .

والواقع أن هذا النوع من الحرج ليس مشكلة المؤرخ وحده بل يتعدى المؤرخين إلى المواطنين عموما فى عصور الانقلابات والثورات . أيقتصر الأمر على أن يكون المواطن رجلا مطيعا يلتزم الحدود ؟ أم ينبغى له وعليه أن يشارك فى التدبير بالفهم وفى التنفيذ بالعمل الايجابى؟.. وحل المشكلة يتوقف على شيئين : يتوقف أولا على المواطن نفسه ومقدار شعوره بمسئوليته، ويتوقف ثانيا على الثورة فى ذاتها وعلى روحها واتجاهاتها

والأمر بالنسبة للمؤرخ كذلك ، يتوقف عليه أولا كأن يحب الحقيقة ويحب الحرية ولا يطلب شيئا لنفسه ، ويتوقف ثانيا على الثورة نفسها كأن لا تضيق بالنقد النزيه .

* الهلال يوليو ١٩٥٣

إن تحقيق ذلك جاز للمؤرخ أن يبحث في الثورة التي يعاصرها ، فيحاول الكشف عن أصولها ، وأن يرد اتجاهاتها وأهدافها لمجرى التاريخ القومي . والمؤرخ إذ هو يفعل ذلك محقق للثورة نفعا حقيقيا وإن كان خفيا . فهو يزيل عنها عندئذ صفة الحادث العارض والأمر الاستثنائي، ولا يستهين أحد بذلك ، فقد طاشت ثورات لأنها لجت في مخاصمة الماضي ، ولم تستطع أن تكسب مكانا في قصة الماضي ولا في حاضر الأمة .

والثورة المصرية لا تخاصم تاريخ مصر ، وإن كانت قد اختصت بحبها عصورا وكرهت عصورا ورجالا .

وأهم من هذا بالنسبة للمؤرخ أنها تضع العمل الصالح للوطن فوق اعتبارات المذاهب والعقائد والنظريات ، فمكنت بذلك المواطنين من الالتفاف حولها إذ الأعمال لا تفرق الناس كما تفعل المطالبة برأي معين أو مذهب محدد . انظر إلى نابليون في عهد القنصلية يجمع الفرنسيين حول برنامج قومي حافل بالعمل الايجابي ، فلم يسأل عن ماض ، ولم يبعد إلاّ المتعصبين ودعاة التفرقة وخدام الغرور الشخصي باسم طهارة المذهب . ووفق كما نعلم إلى أن أدمج الثورة الفرنسية في تاريخ فرنسا، وشكل بها مستقبلها القريب والبعيد حتى اللحظة الحاضرة .

●●●●●

وبعد فلنحاول أن نبحث عن مكان الثورة المصرية في تاريخ مصر الحديث ونقرر - أول ما نقرر - أن الثورات - على عكس ما يتوهم الناس - قد تكون أكثر الأحداث القومية تأثرا بما جرى وبما يجرى خارج المحيط القومي . قلت: إن الناس يتوهمون عكس ذلك ولهم بعض العذر في وهمهم . فالثورة على شئ ما ، وهذا الشئ قومي ، وهي تهدف إلى تحقيق أشياء ، وهذه الأشياء قومية . ولكن الثورات تتعلم من ثورات عصرها أكثر مما تتعلم من تاريخ البلاد ، فالثورة نتيجة تدبير ، والمدبرون يدرسون كيف دبر غيرهم ممن كانوا في مثل ظروفهم ، والثورة ترمي إلى تنفيذ ، وفي التنفيذ يستهدون بما فعل غيرهم في مثل ظروفهم، فينبغي على هذا لمؤرخ الثورة المصرية أن يهتم أيضا بالثورات العسكرية في العراق وسوريا ، وبالتشكيلات والتنظيمات التي اتخذتها بعض الحركات في التاريخ الأوروبي المعاصر . ولكننا في بحثنا الحاضر نكتفي فقط بالتنبيه إلى هذا ونقصر اهتمامنا على مكان الثورة في تاريخ مصر الحديث .

●●●●●

أما عن ربط الثورة المصرية بالماضي أو بالتاريخ فلست ممن يرى أن الثورات تتأثر كثيرا بالتاريخ ،ولا يحملنك ما تشهده من الاستشهاد

بالماضى على أن تظن ذلك . فهذا الاستشهاد مما يتصل بفن الثورة ـ إن شئت ـ لا بأسبابها . وهو وسيلة قد تستدل بها على ما يستطيعه الشعب أو على ما تحمله الشعب ، أو تتخذها لبعث حماسته أو تعبئة معنوياته ، والحقيقة هى أن تأثير التاريخ أقوى فى تكوين رجل الفكر لا فى تكوين رجل العمل.

ولكن الثورات تحب أن تتصل بثورات سابقة ، وثورتنا المصرية وصلت نفسها بالحركة العرابية ، ولهذا ما يبرره ، فالحركة العرابية كان رجال العسكرية العنصر البارز فيها المحرك لها ، والحركة العرابية نطقت عن الشعب وعبرت عن آماله وآلامه ، والحركة العرابية نسبت الآلام للحكم المطلق فى يد رجل ضعيف هو الخديو محمد توفيق ، تحيط به بطانة من رجال السوء ، وتسيره الوكالات الأجنبية فى استنزاف دم الشعب البائس.

ولكن هذه «الابوة» التاريخية لا تفيد قط أن الثورة المصرية تتصل بالحركة العرابية من حيث أسبابها ومن حيث أنها استئناف لها من حيث انتهت . ففى التاريخ لا تكون فجوات ولا فراغ من هذا النوع .

●●●●●

فلنبحث اذن عن « أبوة » أعمق ولنقرب الفكرة بعض الشئ بمثل من تاريخ الثورة الفرنسية . من «أبو» الثورة الفرنسية؟. أجابوا عن ذلك بأنهم ملوك فرنسا ووزراؤها . قيل: أيصح ذلك فى الإفهام ، وها هى ذى الثورة تبطل الملوكية بل تمعن فى الابطال فنقطع رأس لويس السادس عشر؟. يردون على ذلك بأن الواقع هو أن الثورة الفرنسية أتمت عمل الملوكية فى الداخل وفى الخارج ، فأتمت عمل الملوكية فى استئصال الاقطاع والاقطاعيين ، وفى إنشاء الحكومة المركزية ، وفى الاتجاه نحو المساواة بين أفراد الرعية، وفى توجيه كلمة الأمة . هذا فى الداخل ، وفى الخارج عملت على تحقيق فكرة حدود فرنسا الطبيعية ، وفى تبوئة فرنسا مكان الصدارة فى أوروبا . فالثورة أو ـ على الأقل ـ المنفذة لوصيتها .

نخرج من هذا المثل الفرنسى بحقيقتين : نخرج منه أولا بأن الثورات قد تكون أيضا من فعل الملوك ، ونخرج منه ثانيا بأن الثورة فى أمة ما تنفذ مما تركه الماضى أشياء وتناقضه فى أشياء ، أو قل إنها حركة سريعة فى التطور التاريخى لأمة ما .

وأنا لا نجد قطعا أبوة ولا نجد بنوة للثورة المصرية فى فتن الأمراء ورؤساء العصابات فيما مضى من تاريخ مصر ، ولا نجدها قطعا فى الهياج أو الانفجارات الشعبية القديمة فى الريف

والحضر .

والأصح فى التــاريخ أن نتــرك البــحث عن الأبوات والبنوات فهذه ـ كما قدمت ـ لا تؤثر كثيرا فيما يجرى ، والأنفع أن يبحث المؤرخ عن أسباب الثورة المصرية فى الماضى القريب .

●●●●●

إنى أرجع هذه الحركة لانهيار ما يمكن أن أسميه نظام ١٩٣٦ بشقيه الداخلى والخارجى ، فأما شقه الخارجى فهو التحالف المصرى البريطانى ، وأما شقه الداخلى فهو ارتباك أداة الحكم وتوقفها عن العمل الصالح ، وعجزها عن اصلاح نفسها .

ونصيب الرجال فى أحداث الارتباك والفساد ظاهر ، وهو الناحية التى لقيت التأكيد من الكاتبين ، ولكنه يفسر جانبا واحدا فقط من جوانب الثورة المصرية ، وينبغى أن نتجه إلى ما هو أعمق .

فى رأيى أن الانحـراف الذى اعــتـور ثورة ١٩١٩ وحولها لحركة مفاوضات مسئول عن خيبة أمل الأمة المصرية وشعورها بأنها ينبغى لها أن تتجه نحو حلول جوهرية لآفاتها الاجتماعية ومآسيها الروحية .

لقد كانت ثورة سنة ١٩١٩ قابلة لكل شئ ، ولكن الزعامة ـ حكومة أو حرة ، عملت على تضييق نطاقها والحد من آفاقها ، ولم تسمح لها بتطور جوهرى ، وقد فعلت الزعامة ذلك عمدا ، خشيت إفلات الزمام ، وخشيت تشتت الفكرة السياسية وضعفها ، وخشيت أن دقة مركز مصر السياسى ومصالح الجاليات الأجنبية والأقليات وما إلى هذا كله يتيح للاحتلال البريطانى فرصا عديدة للدس للحركة القومية ، فعمدت إلى أن لا يتحدث الناس أو أن ينظموا أنفسهم لإحداث التغييرات الحقيقية

وقد تم من ذلك شئ غير قليل ولكنه جاء فاترا ، غير مشبع .

والأدهى اعتبار ١٩٣٦ خاتمة حركة ١٩١٩ ، وانه لم يبق إلا أن ينعم الناس بما نالوا ، أو على الأقل من يستطيع ذلك منهم ، وجاءت فترة تناهب الأرزاق ، وكانت خاتمتها ما شهدناه .

هذا تفسير الثورة المصرية وتفسير اتجاهاتها

لقد انقضى من حياتها عام واحد .. نشاهد مما حققته ما نشاهد . وبعد فكلمة الختام هى أن أكثر الثورات نجاحا ونفعا هى تلك الثورة التى تعمل جادة على أن لا تبقى مجرد ثورة ، بل تعمل على أن تطعم بالمضاء والعزم والتوثب ـ أو قل بروح الثورة ـ هذا الجسم الاجتماعى التليد : الأمة المصرية . ■

مـايبقى مـن

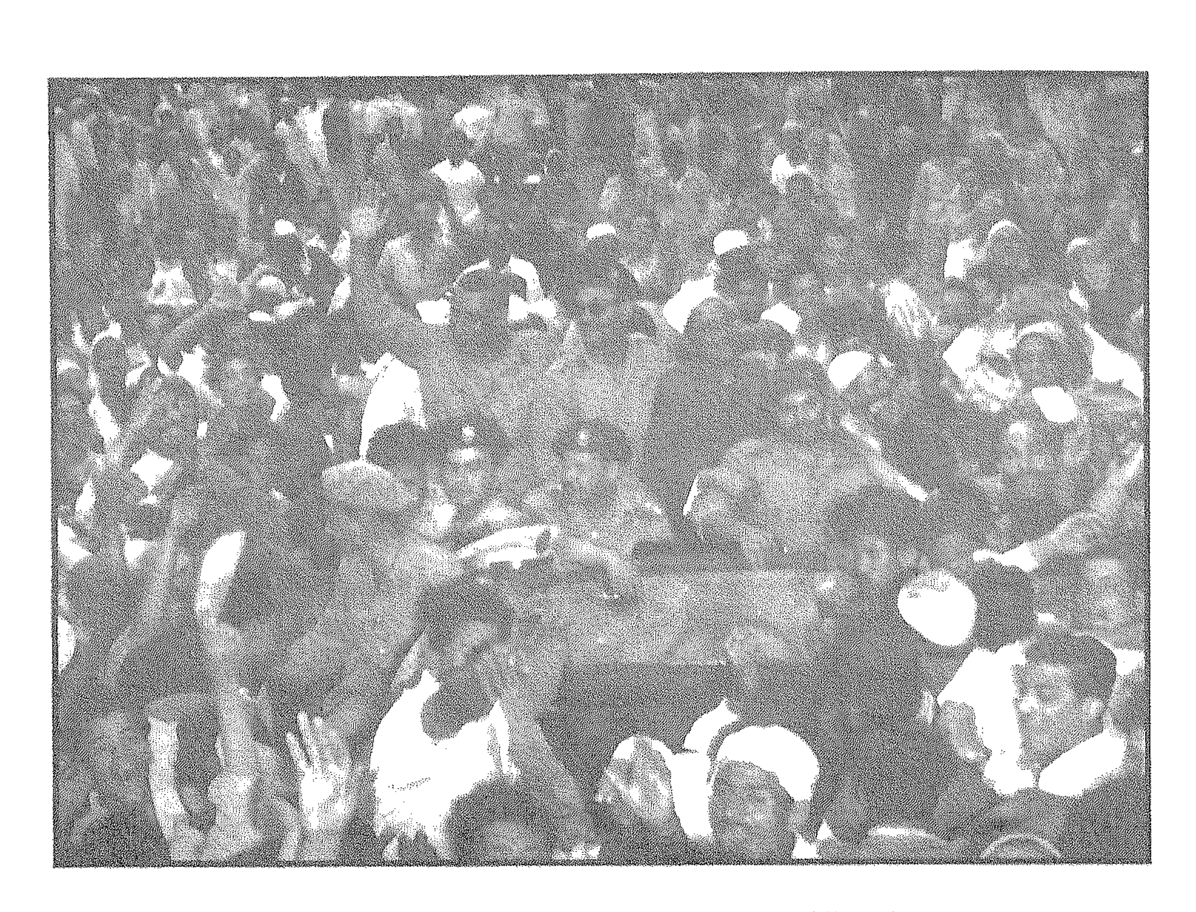
ثورة يوليو

بقلم : عبدالرحمن شاكر



من ثورة يوليو - بعد مضى نصف قرن عليها - لا يشمل منجزاتها فحسب، بل يشمل أيضا مسئولياتها إزاء الأهداف التى قامت تلك الثورة من أجلها، وما استجد بشأن تلك المسئوليات، فى ظل ظروف محلية وعالمية متغيرة، وبعبارة أخرى فإن هناك ما تم إنجازه كليا أو جزئيا من أهداف الثورة، وهناك أيضا ما ينبغى إنجازه، ابتداء أو استكمالا لما بدأ.

فإذا أتينا إلى ما تم إنجازه، فأوله هو الاستقلال الوطنى، وذلك أمر ليس بالهين. بالنسبة لمن عاصر أيام ما قبل الثورة ، من أمثالنا من المسنين، ولعل الشباب المعاصر وهم الأغلبية الآن ما بين أبناء الشعب المصرى، وكثير منهم ولدوا بعد الثورة أو أدركوها وأدركتهم وهم مجرد أطفال، يرون أن الاستقلال الحالى هو من طبيعة الأمور، وأن الدنيا وجدت هكذا. ولكن الذين رأوا دبابات الجيش الانجليزى تخرج من ثكنات قصر النيل التى كانت تقوم حيث يوجد الآن مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون، لتسحق - أى هذه الدبابات - أجساد الطلبة المصريين فى مظاهراتهم المطالبة بالجلاء - أى جلاء القوات البريطانية



جمال عبد الناصر وصلاح سالم و الشيخ الباقوري في استقبال شعبي حافل

عن أرض مصر - أو شاهدوا وبالقليل عاصروا خروج تلك الدبابات لكى تحاصر القصر «الملكى» فى عابدين، وتفرض على الجالس على العرش تشكيل حكومة بعينها - حتى لو كانت من حزب الأغلبية المضطهد، هم من يستشعرون تماما قيمة الاستقلال الوطنى. ولقد كانت الحادثة المشار إليها فى أقرب ما تقدم، هى المحرك الأول لتشكيل حركة الضباط الأحرار فى الجيش المصرى، التى أنجزت الثورة بعد عشر سنوات من تلك الحادثة، وعصفت فيما عصفت بالعرش ذاته والجالس عليه، لأن تلك الحادثة وكثير غيرها قد اسهمت تاريخيا فى إفساده، حتى صار من المحتم أن يخرج إلى الأبد من التاريخ.

لم يعد القرار المصرى يوضع فى «قصر الدوبارة»، مقر المعتمد البريطانى، أو المندوب السامى ، أو حتى السفير، وهى الألقاب التى حملها على التتابع الحاكم باسم.دولة الاحتلال فى مصر، وإنما أصبح القرار المصرى يصنع فى جهة

ما مصرية فى هذه «الدولة» العريقة عراقة التاريخ ذاته!

صحيح، إن الأوضاع العالمية، وعلاقات الدول، قد تفرض على صانع القرار المصرى مراعاة جوانب معينة فى بعض القضايا، أو حتى تحمل ضغوط دولية فى شأن سياسى أو آخر، فى عصر أصبح يوصف بأنه عصر العولمة، وتحول الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة، تتشابك مصالحها ومشاكلها، ويستعلى فيها قطب واحد دولى فائق المقدرة سياسيا وعسكريا واقتصاديا، ويصبح فيه حتى مبدأ الاستقلال الوطنى بمفهومه التقليدى، موضع إعادة نظر - على الأقل - ولكن ذلك أمر لا تنفرد فيه مصر وحدها، بل يكاد يلف معظم دول العالم، وتلك قضية أخرى، يتعين بالتأكيد مواجهتها، وسوف نأتى على ذكر ذلك فى موضعه، ولكن ذلك لا ينفى فضل ثورة يوليو فى انجاز الاستقلال الوطنى على ما نحن عليه، وخاصة نجاحها فى إجلاء القوات البريطانية المحتلة عن أرض مصر.

النفوذ العالمي

إن بعض خصوم ثورة يوليو، وخاصة من الذين أضيروا ببعض قراراتها ، مثل أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة، أو من صودرت أو أممت بعض مصالحهم المالية أو التجارية، يحاولون أحيانا الزراية على الثورة بوصفها بأنها «انقلاب عسكرى»، متجاهلين أن هذا الانقلاب قد مهدت له ثورة شعبية عارمة بكل المقاييس، من مظاهرات صاخبة ضد الاحتلال البريطانى وعملائه وخاصة الجالس على العرش، إلى أعمال فدائية ضد قوات الاحتلال المتمركزة فى منطقة قناة السويس ، إلى أحزاب راديكالية جديدة، وجمعيات سرية تصدر صحفا علنية أو سرية ومنشورات تهاجم الاستعمار والاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى .. الخ.

إن انقلابا عسكريا فى التاريخ - المعاصر على الأقل - لم يحظ بتأييد شعبى جارف مثل الذى حظيت به ثورة يوليو أو «انقلابها» «!» فيما عدا نموذجها الأولى وهو ثورة عرابى، قبلها بنيف وسبعين عاما! ولم يحظ قائد عسكرى شاب «منقلب» على حكومة بلاده بمثل ما حظى به جمال عبدالناصر، سواء على مستوى وطنه، أو أمته العربية أو العالم أجمع، من مكانة تشمل الحب العميق إلى جانب التقدير الهائل. فضلا عن الكراهية العنيفة من أعدائه والتى لا تخلو أيضا من تقدير وإحساس بخطورة مكانته عليهم وعلى مصالحهم. لا أذكر أنه يوم مات شهدت شوارع القاهرة أكبر جنازة فى التاريخ فحسب، من مواطنيه المفجوعين بموته، بل أذكر أيضا أن يومها كان الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون على ظهر إحدى سفن الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض المتوسط، ولم يعلم بعد بأن جمال عبدالناصر قد مات فيقول لرجاله: أطلقوا مدافع الأسطول السادس لكى يسمعها جمال عبدالناصر ويعلم أننى أحكم أكبر وأقوى دولة فى العالم!! كلمة لم تقل من قبل فى حق حاكم آخر، ولكن ما أطلقته مدافع الأسطول السادس يومها كان بمثابة تحية وداع غير مقصودة لرحيل الرجل

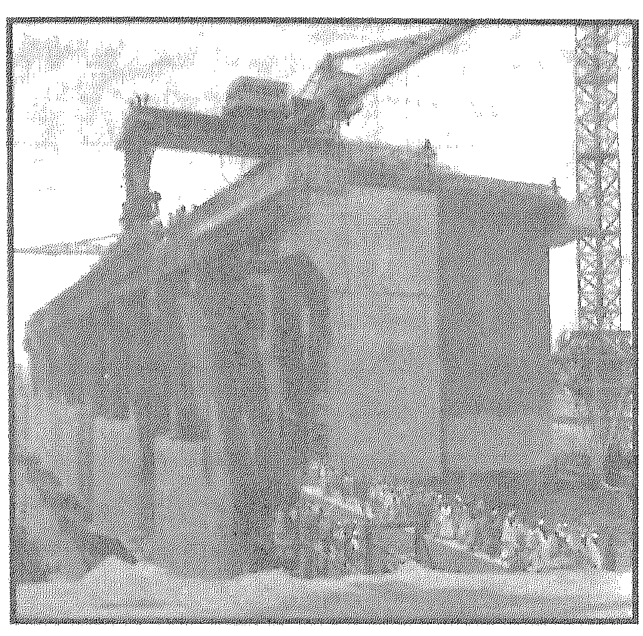
العظيم!

أكتب هذه السطور، والرئيس المصرى محمد حسنى مبارك، الخليفة الثانى لجمال عبدالناصر ، مجتمع او فرغ لتوه من الاجتماع مع الرئيس الأمريكى الحالى جورج بوش ليباحثه فى إيجاد حل لما يسمى «مشكلة الشرق الأوسط» ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وسائر الدول العربية التى تحتل إسرائيل بعض أراضيها. وأكاد أوقن أن الرئيس الأمريكى يعلم وهو يتباحث مع حسنى مبارك أنه لا يخاطب فيه مصر وحدها، تلك الدولة الصغيرة بمقاييس دولته الولايات المتحدة الأمريكية. ولكنه يخاطب فى شخصه مصر المعاصرة التى أوجدها جمال عبدالناصر بمدلولها السياسى بعد الاستقلال، زعيمة للوطن العربى والقارة الافريقية و من الجفاف الذى عم القارة الافريقية والعالم الإسلامى وإحدى القوى الرئيسية فى حركة عدم الانحياز وحركة العالم الثالث فى مجموعه من أجل التحرر والاستقلال والتقدم .

لكم عاب بعض قصار النظر أو الحاقدين على الثورة سعى مصر الناصرية لمد يد العون إلى الحركات الاستقلالية فى كل ارجاء المعمورة ، وخاصة دوآذرنا الثلاث الاقرب فالأقرب ، العربية فالافريقية فالآسلامية . ثم العالم باسرة . ولكن آلا يرون كيف نتلهف حاليا على التأييد العالمي ، من جانب الشعوب أساسا ، لموقفنامن القضية الفلسطينية ، حيث تميل القوى العالمية الكبرى والوحيدة الولايات المتحدة الامريكية الى مساندة الدولة الصهيونية وعدوانها الجاثم المستمر ، على الارض الفلسطينية وشعبها المعذب بويلات الاحتلال ، فضلا عن الاراضى العربية الاخرى فى سوريا ولبنان ! أقول كيف نتهلف حاليا على نصرة الشعوب المتطلعة إلى الحرية والتقدم والعدل الاجتماعى وخاصة بعد زوال المعسكر الذى كان يساندنا فى نضالنا من أجل الاستقلال والتحرر والتقدم الصناعى والاقتصادى، ويعززنا عسكريا وسياسيا فى مواجهة العدو الصهيونى، وهو المعسكر الاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفييتى السابق، والذى أصبحت بعض فلوله مرشحة حاليا للانضمام إلى معسكر أعدائنا؟!

منجزات باقية .. ولكن!

لا نستطيع أن نتكلم عما تبقى من ثورة يوليو، دون ان نذكر واحدا من اهم منجزاتها ، وهو بناء السد العالى، الذى حمى مصرنا المحروسة من الجفاف الذى عم القارة الافريقية منذ عقود قليلة، فضلا عن امدادنا بالمياه الضرورية للتوسع فى الرقعة الزراعية لمواجهة التزايد فى عدد السكان ، بحكم زيادة المواليد من ناحية، ولنقص وفيات الأطفال من ناحية أخرى. بسبب انجاز رئيسى آخر من منجزات الثورة وهو انتشار الوحدات الصحية التى تشرف على الرعاية الصحية للأمهات والمواليد بما فى ذلك تنظيم حصولهم على الأمصال المضادة للأمراض الوبائية ، ونحن نفضل بالطبع أن يتقاتل أبناؤنا على القوت بدلا من أن يموت معظمهم اطفالا! ونعود إلى مآثر سدنا العالى فنذكر إمداده لنا بالكهرباء اللازمة لصناعاتنا من ناحية ولزيادة التطور العمرانى فى



كان بناء السد العالى من اهم منجزات الثورة، وهو الذى حمى مصر من الجفاف و امدنا بالمياه الضرورية للتوسع فى الرقعة الزراعية

ربوع بلادنا من ناحية أخرى، فضلا عن توفيره مؤخرا إمكانية إنجاز مشروع توشكى ، الذى يبشر بلادنا بحضارة جديدة فى جنوب القطر، تخفق قلوبنا معه دعاء له بالتوفيق!

ونذكر أيضا من منجزات الثورة انتشار المدارس والجامعات على ربوع بلادنا بما لايقاس به ماكان عليه الحال قبل الثورة، ومازلنا نطلب المزيد فى الثورة التعليمية ، فالأمية ماتزال باقية لم يقض عليها بعد ولابد من العمل على محوها كلية من بلادنا كما حدث فى بلاد أخرى كثيرة منها شقيقات عربيات! فضلا عن أن برامجنا التعليمية ماتزال بحاجة إلى تطوير كبير لمواجهة أعباء عصر الثورة التكنولوجية، ولعلنا نصل إلى حل لمشكلة الدروس الخصوصية، فضلا عن الفجوة الكبيرة القائمة حاليا بين ما يسمى مدارس اللغات التى تقصدها «الصفوة» والمدارس الحكومية التى يؤمها الشعب وتعتمد اساسا على لغة البلاد، وتذكرنا تلك الفجوة بالانقسام القديم الذى وجد فى بلادنا بين المدارس العصرية والتعليم الأزهرى!

ولابد أن نذكر للثورة التوسع فى الصناعة وما تحقق على يد القطاع العام الصناعى من قدرة على مواكبة التقدم العمرانى، فضلا عن امداد القوات المسلحة بكثير من حاجاتها إبان الحروب التى اضطررنا إلى خوضها، وإذا كانت «الخصخصة» قد أصبحت هى شعار العصر بالنسبة للإنتاج الصناعى بعد أفول نجم النظم الاشتراكية، فإن الرأسمالية المصرية الحديثة التى ورثت القطاع العام لم تكن دائما على مستوى تطلعات الوطن والجماهير، فكثير من الصناعات المعتمدة على القطاع الخاص. قد أنشىء بطريقة

عشوائية غير مدروسة علميا بحيث أصبحت منتجاتها مهددة بالبوار، وعمالها مهددين بالبطالة التى لا ننكر أنها ظاهرة عالمية ولكن ذلك لا يغنى عن ضرورة مواجهتها. وإذا كانت قلوبنا تدمى حينما نسمع مؤخرا عن شباب أقدموا على الانتحار يأسا من الحصول على عمل أو مورد رزق، فأقترح أن تتولى القوات المسلحة أمر اليائسين من هؤلاء الشباب، وتخصص لهم إدارة خاصة بهم، تتولى لمن يرغب منهم تجنيده أولا ثم استخدامه فى مشروعات عامة وخاصة مشروعات التوسع الزراعى فى توشكى وأمثالها.

الديمقراطية والكيان الكبير

لا ننكر أننا فى عهد حسنى مبارك نتمتع بقدر من الديمقراطية لم تحظ به بلادنا من أول أيام الثورة وقيام الشرعية الثورية! ومع ذلك فمايزال الكثير مطلوبا فى هذا الصدد وخاصة تعديل بعض القوانين المتعلقة بحرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف حتى تكون أكثر حرية، فضلا عن إعادة النظر فيما إذا كانت الحاجة ماتزال قائمة للعمل بقانون الطوارىء.

وجانب آخر أراه شديد الأهمية فيما يتعلق بقضية الديمقراطية وهى ارتباطها بقضية الكيان العربى الكبير الذى نسعى الى إقامته فى بلادنا لكى تقوى على مواجهة أعباء التقدم العلمى والتكنولوجى والاقتصادى لجسر الفجوة ما بيننا وبين عدونا الصهيونى من ناحية، وسائر العالم الذى يقوم على الكيانات والتكتلات الاقتصادية الكبرى من ناحية أخرى. إن الديمقراطية أداه فعالة جربتها الأمم من قبلنا لحشد واطلاق الطاقات البشرية الابداعية فى مختلف الميادين العملية والفكرية والاقتصادية ، ولابد أن يعى عالمنا العربى هذه الحقيقة، وخاصة فى الظرف الراهن الذى تحاول فيه الصهيونية فرض إرادتها على بلادنا بما تحت أيديها من تقدم علمى وتكنولوجى ومدد لا ينفد من جانب القوى العالمية الكبرى. وإذا كانت الدول العربية قد كلفت الأمين العام الجديد لجامعة الدول العربية وهو الدبلوماسى اللامع عمرو موسى بإعداد مشروع لتطوير جامعة الدول العربية وتحسين أدائها فى المستقبل العربى، فإننا نعتقد أن من أهم عناصر هذا التطوير هو إيجاد جهاز معبر عن إرادة الشعوب العربية، نحن بالاختصار بحاجة إلى مجلس الشعب العربى، على غرار الكونجرس الأمريكى ، أو البرلمان الأوربى، أو فى مجلس الشعب الصينى أو الكونجرس الهندى، وللوصول إلى مثل هذا المجلس لابد من زيادة الوعى بأهمية الديمقراطية ليس بين صفوف الجماهير العربية فحسب ، أو صفوتها المثقفة ، بل لدى حكامها أيضا، حيث يكتشفون انه بإقامة الجهاز النيابى الذى يحكم باسم الجماهير ويتخذ على مسئوليتها القرارات المصيرية فيما يتعلق بمستقبل الأمة وتوجهاتها. إنما يرفعون عن كواهلهم إصرارا كبيرا فى مواجهة أحكام التاريخ! ■

القصة الكاملة لتشكيل

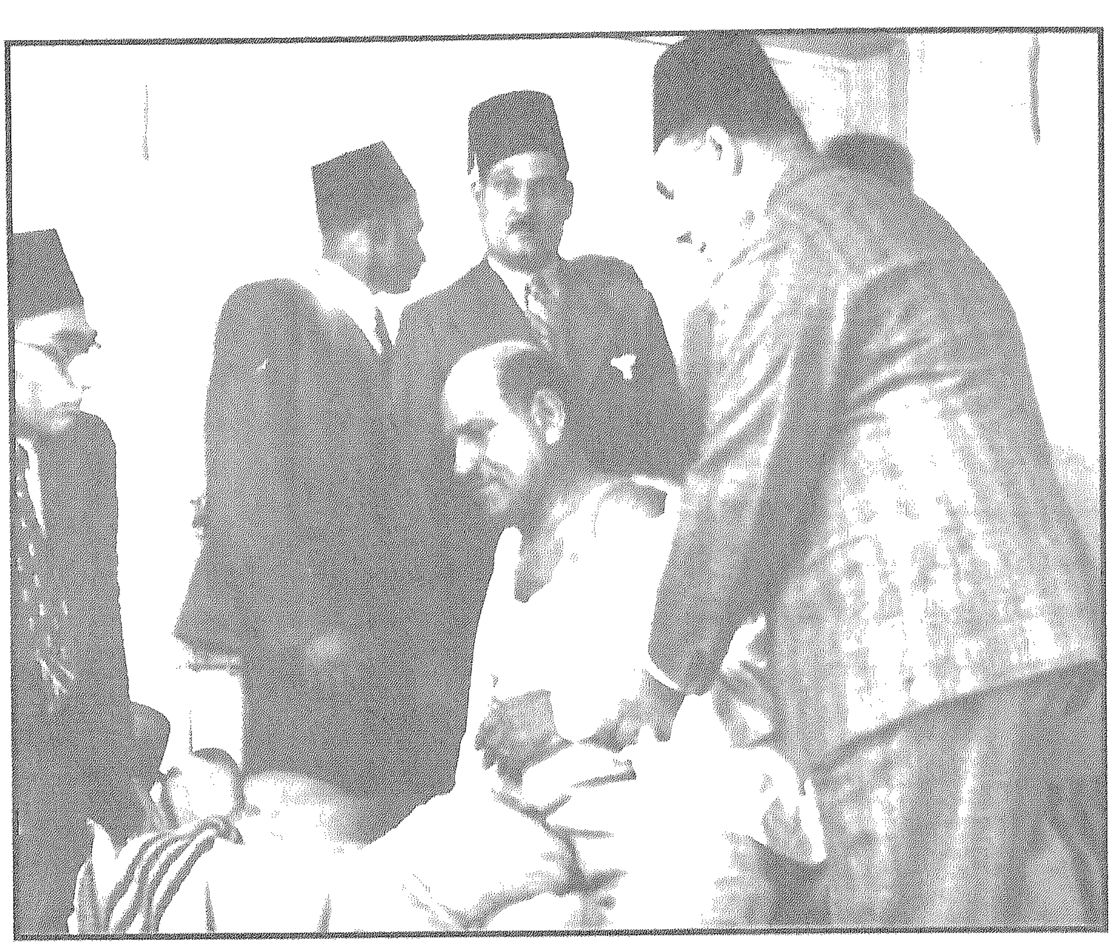
الحرس الحديدى

بقلم : د.عبدالمنعم الجميعى •

تعرض المجتمع المصرى قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لعدة أحداث مروعة هددت أمنه فى الصميم كان أبرزها جرائم الاعتداء علي المناوئين لسياسة السراى وما صاحبها من خسائر فى الأرواح والأموال والتى كان من أهمها اغتيال «أمين عثمان» ، و«عبدالقادر طه» ، ومحاولات اغتيال «مصطفى النحاس» ، ثم اختفاء القتلة .

لقد روعت هذه الجرائم أمن الوطن والمواطنين ، واستنكرتها جميع طوائف الشعب المصرى التى بدأت تتساءل : من هو المسئول عن التستر علي منفذى هذه العمليات فى طمس معالم جريمتهم والتعتيم عليها ودفعها إلى سراديب التضليل والضياع والنسيان ؟ وما هو موضوع العربة السوداء التى كانت تخرج فى جنح الظلام لاصطياد المعارضين للملك ؟ وهل يستطيع القتلة الخارجون على شرائع السماء وقف رياح التغيير ؟ وهل

• استاذ ورئيس قسم التاريخ - جامعة القاهرة - فرع الفيوم



النحاس باشا في المستشفي القبطى بعد احدي المحاولات الفاشلة لاغتياله علي يد الحرس الحديدي ١٩٣٨

يستقيم أمر الرعية إذا كان الراعى هو المسئول عن ذلك ؟

وعلى الرغم من كل هذه التساؤلات التى كانت تطرح نفسها بقوة فى الشارع المصرى فإن أحدا كان لا يعرف على وجه اليقين أن الملك فاروق ـ بصفة خاصة ـ كان قد أنشأ تنظيما يعد من أخطر التشكيلات السرية التى شهدتها مصر فى فترة ما قبل الثورة ، وأن هذا التنظيم كانت لديه قوائم بأسماء من يرغب فى تصفيتهم إخلاصا للعرش وتفانيا فى خدمة الملك ، وأنه كان ضالعا فى جرائم الاغتيالات التى تمت والتى نجح فى بعضها وفشل فى تنفيذ الآخر .

وبعد أن تأكدت الحكومة البريطانية من حقيقة ما يحدث وخطورته على مركزها فى مصر أمرت وزير خارجيتها «أرنست بيفن» باستدعاء السفير المصرى فى لندن وكان وقتها «عبدالفتاح عمرو» وإبلاغه بأن يسافر إلى القاهرة ليبلغ الملك بأنه لا يليق بالجالس على عرش مصر أن تكون لديه فرق لإرهاب خصومه السياسيين وقتلهم ، ومع كل ذلك فإن حقائق هذا الموضوع ظلت غامضة ويحاط بها الشكوك إلى أن خرج «سيد جاد» أحد أعضاء هذا الجهاز وأكثرهم معرفة بأسراره عن صمته فأوضح حقيقة الموضوع وكشف لنا الكثير من الأسرار التى حلت العديد من الألغاز فى هذه المرحلة المهمة من تاريخ مصر ، فإذا بنا أمام عالم غريب تتشابك فيه العلاقات المريبة والحكايات العجيبة والمعلومات المدهشة ، وإلى جانب ذلك فإن ما نشره «مرتضى المراغى» آخر وزير داخلية لمصر فى العصر الملكى من مذكرات قد زاد الصورة وضوحا وجعل حقيقتها بارزة للعيان .

قصة تشكيل جهاز الحرس الحديدى

وترجع قصة تشكيل هذا الجهاز إلى رغبة «الملك فاروق » فى مواجهة الأخطار التى كانت تحوم حول عرشه وتعترض حكمه خاصة بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى اضطر فيه إلى الموافقة على تولية «مصطفى النحاس» رئاسة الوزارة رغم أنفه مما ولد فى نفسه إحساسا بالغ الأثر، وترك فى قلبه جرحا عميقا وكراهية شديدة ضد الانجليز ، ومصطفى النحاس، ثم أخذت هذه الكراهية فى الازدياد بعد تعرضه لمحاولة اغتيال على طريق الاسماعيلية بالقرب من «القصاصين» يوم ١٥ نوفمبر ١٩٤٣ عندما اعترضت طريق سيارته التى كان يقودها شاحنة تابعة للجيش الانجليزى مما أدى إلى تحطيم سيارته ، وإصابته بكسر فى ضلوع الحوض، ونقله إلى أحد مستشفيات الجيش البريطانى وهو فى حالة حرجة بين الحياة والموت ، وانتداب الطبيب «يوسف رشاد» الذى كان يعمل ضابطا فى سلاح البحرية وقتذاك للإشراف على علاجه والذى توثقت علاقته به خاصة وأنه كان يمتلك الصفات المطلوبة لمن يتولى علاج الملك فقد كا شابا قويا مفتول العضلات يستطيع حمل فاروق من سريره ليضعه فوق كرسى ممدود نهارا ثم يعيده إلى السرير ليلا، ومكافأة له لبراعته فى أداء مهمته الشاقة أمر الملك بنقل يوسف رشاد من سلاح البحرية الذى كان يعمل به إلى القصر ليصبح واحدا من الحاشية ، كما ألحق زوجته «ناهد رشاد» بالقصر لتصبح وصيفة لشقيقته فايزة طليقة شاه ايران ثم الأثيرة إلى قلبه بعد ذلك .

وخلال ذلك ألمح « الملك فاروق » لطبيبه «يوسف رشاد» برغبته فى تشكيل جهاز سرى يكون تحت إشرافه مباشرة بحيث يضم عددا من الضباط الشبان الرياضيين خاصة البارعين فى لعبتى



يوسف رشاد وزوجته ناهد رشاد في محاكمة الغدر

المصارعة والملاكمة ليكونوا سندا له فى الوقت المناسب ضد الانجليز ومن يسير فى ركابهم وقد أطلق الملك على هذا الجهاز اسم «الحرس الحديدى» ، كما أوكل أمر تشكيله إلى «يوسف رشاد» وزوجته «ناهد» .

وقد بدأ «يوسف رشاد» فى تشكيل هذا الجهاز بعد أن أبلغ الملك باستعداد مجموعة من أصدقائه الذين كان يدعوهم إلى بيته والذين رأوا

فى حادث ٤ فبراير إهانة لمصر ، وفى «مصطفى النحاس» و«أمين عثمان» وكل من يتعاون مع الانجليز خونة وعملاء !

ولما كان «الملك فاروق» حتى ذلك الوقت لا يزال محبوبا من معظم أفراد الجيش والشعب الذين رأوا فيه رمزا لمصر ، واعتبروا الولاء له جزءا متمما للولاء لمصر فإنه لم تكن هناك صعوبة فى إقناع بعض الضباط بالانضمام إلى الحرس الحديدى خاصة وأن من يرغب فى الترقية منهم إلى رتب أعلى أو من يرغب فى التقرب من حاشية الملك كان سيحصل على ما يريده.

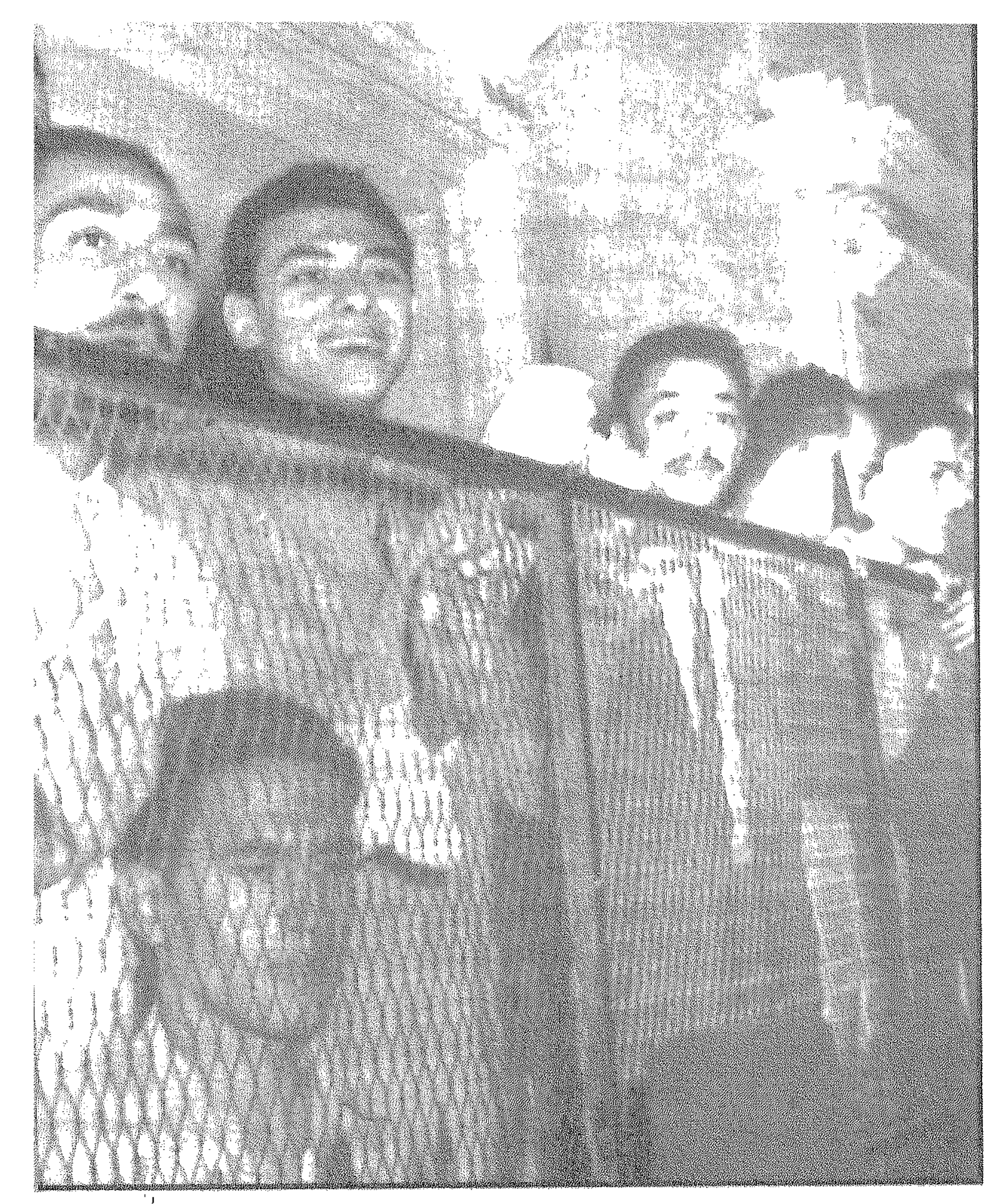
ومع ذلك فقد بدأ هذا التنظيم بأعداد محدودة حددها «مرتضى المراغى» فى مذكراته بستة أفراد عبارة عن أربعة من صغار ضباط الجيش ، والخامس ضابط مطافئ أما السادس فكان موظفا مدنيا ، ولم يفصح عن أسمائهم كاملة بل ذكر الاسم الأول لكل منهم وهم مصطفى ، وخالد، وفهمى، وحسن، وإبراهيم، وتوفيق.

أما «سيد جاد» فقد ذكر أسماء هؤلاء الأعضاء، وهم اليوزباشى «عبدالرءوف نور الدين» واليوزباشى «يوسف حبيب » واليوزباشى «خالد فوزى» واليوزباشى «مصطفى كمال صدقى» والطبيب «يوسف رشاد» و «ناهد رشاد» وصيفة القصر الملكى واليوزباشى «حسن فهمى عبدالمجيد» و«عبدالله صادق» (ضابط شرطة) و«بهجت بك» (سفير مصر فى ليبيا) واليوزباشى «أنور السادات» و«حسن التهامى» و«حسن عزت» واليوزباشى «سيد جاد» و«مرتضى المراغى» (وزير الداخلية) هذا بالإضافة إلى مجموعة من السيدات.

ولكى يقوم الجهاز بدوره المنشود دفع الملك فاروق إلى « يوسف رشاد» مبلغا كبيرا من المال لشراء ثلاث سيارات يعد لها أرقاما مزيفة وتشترى بأسماء مستعارة ، ومجموعة من المدافع الرشاشة والبنادق والقنابل اليدوية والديناميت لاستخدامها فى المهام التى سيكلف بها أعضاء الجهاز ، وكانت الأوامر الخاصة بعمليات الاغتيال تبلغ شفويا من الملك إلى الدكتور « يوسف رشاد» الذى كان يبلغها لأعضاء الجهاز ، وبعدها تخرج عربة سوداء من السراى الملكية وهى تحمل أعضاء فرق الاغتيال المسلحين بالرشاشات والمزودين بالقنابل والمفرقعات لتنفيذ المهمة الموكلة إليهم ثم تعود من حيث أتت دون أن يتعرض لها أحد . ومما يذكر أن الملك فاروق كان يرأس اجتماعات قادة الحرس الحديدى فى منزل «يوسف رشاد» بشارع مصر والسودان بالقاهرة ، كما كانت ناهد رشاد تجتمع بأعضاء الحرس الحديدى من السيدات والذى كان يتكون من خمس نساء .

الجرائم التى ارتكبها الحرس الحديدى

تضمنت اللائحة الداخلية للحرس الحديدى «أنها تعمل لحماية حياة الملك من أى خطر يتهدده سواء من جانب خصومه المصريين أو من جانب



«أنور السادات» كان يعمل بشكل مزدوج بين الحرس الحديدى، وتنظيم الضباط الأحرار

الانجليز» ومن أجل تنفيذ ذلك قاموا بعمليات تصفية جسدية وقتل وتنفيذ أحكام إعدام دون محاكمة فى كل ما يشتم منه عداوته للملك فكانت العربة السوداء تتربص به ليلا حتى تنتهى من أمره .

وكانت أول مهمة كلف بها هذا الجهاز هى اغتيال «أمين عثمان » أحد المقربين الوفديين إلى قلب السفارة البريطانية فى مصر ، ومؤسس رابطة النهضة التى كانت تهدف إلى توطيد الصداقة والتعاون بين المصريين والانجليز وتعزيز

الروابط بين مصر وانجلترا ، ونجاح القاتل «حسين توفيق» الذى حرضه بعض أعضاء الجهاز على تنفيذ جريمته وتمكنه من الاختفاء فترة ثم القبض عليه، وعلى الرغم من اعترافه أثناء التحقيق معه أنه ينتمى إلى أحد التشكيلات التى تهدف إلى قتل الانجليز وكل من يتعاون معهم من المصريين ، وأن هذا التشكيل كانت لديه خطة لاغتيال «النحاس» الذى تولى الحكم تحت حراب الانجليز فى ٤ فبراير فإنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة الملك بهذا الجهاز . والغريب فى الأمر أنه قبل أن تصدر المحكمة حكمها على «حسين توفيق » تم تهريبه إلى خارج البلاد مما جعل الشائعات تقترب من القصر الملكى وصلته بالحادث ، وإلى دوره فى تمييع القضية .

والجدير بالذكر أن عملية تهريب «حسين توفيق» لم تكن سهلة فبعد أن تلقفته عربة بها بعض ضباط الحرس الحديدى بملابسهم العسكرية واتجهت به نحو الحدود حتى يعبر من هناك إلى سورية أو أى بلد عربى آخر ، فإن وصول أخبارها إلى رجال البوليس وحرس الحدود كاد أن يفشلها لولا سرعة التصرف من جانب الحرس الحديدى .

وبالنسبة لتكليف الجهاز باغتيال الضابط «عبدالقادر طه» فقد تم بعد أن وصل إلى مسمع الملك أنه يتآمر عليه بعد عودته من فلسطين وأن الذى وشى به كانت ناهد رشاد الذى كان يتنافس عليها للوصول إلى قلبها .

أما عن المحاولات التى قام بها الجهاز لاغتيال «مصطفى النحاس» فكانت هناك محاولة استهدفت مسكن « مصطفى النحاس» والاعتداء على حياته وتم نجاته منها، وأعقب ذلك محاولة إطلاق النار عليه فى مساء ٨ فبراير ١٩٤٨ وهو يهم بدخول منزله وبصحبته « محمد فؤاد سراج الدين» ولكن رصاصاتها لم تصبه بل أدت إلى مقتل اثنين ، وجرح آخرين من حراس منزل النحاس الخصوصيين ، وبعدها اختفى القتلة وقيدت القضية رقم ٢٦٢٢ جنايات السيدة زينب لسنة ١٩٤٨ وبالاضافة إلى ذلك فقد فشلت محاولة اغتيال النائب الوفدى «رفيق الطرزى» عدو الملك ونتيجة لفشل هذه المحاولات ضعفت ثقة الملك فى الحرس الحديدى الذى كونه «يوسف رشاد» وزوجته «ناهد» ، وخشى من تكرار فشله وانكشاف أمره مما جعله يفكر فى إنشاء حرس حديدى آخر وهداه تفكيره إلى استدعاء أحد رجال حاشيته ممن يعرف بأنه على صلة بمهربى المخدرات ، طلب منه البحث عن شخص يستطيع القيام باصطياد الرؤوس التى فشل الحرس الحديدى فى التخلص منها ، وانتهى الأمر باختيار ضابط بوليس كبير اشتهر بقتل المجرمين وأرباب السوابق دون انتظار لمحاكمتهم وقد عهد الملك إلى هذا الرجل مهمة اغتيال الشيخ « حسن البنا » ، ونتيجة لذلك انقسم أعضاء الجهاز إلى قسمين قسم يؤيد تنفيذ أوامر الملك بالقتل الفورى لمعارضيه ، وآخر يرى ضرورة إجراء محاكمات قبيل تنفيذ أى عمليات اغتيال ، وازدادت حدة الانشقاق بين الطرفين عندما وضع اسم «اللواء محمد نجيب» ضمن قوائم الاغتيال ،

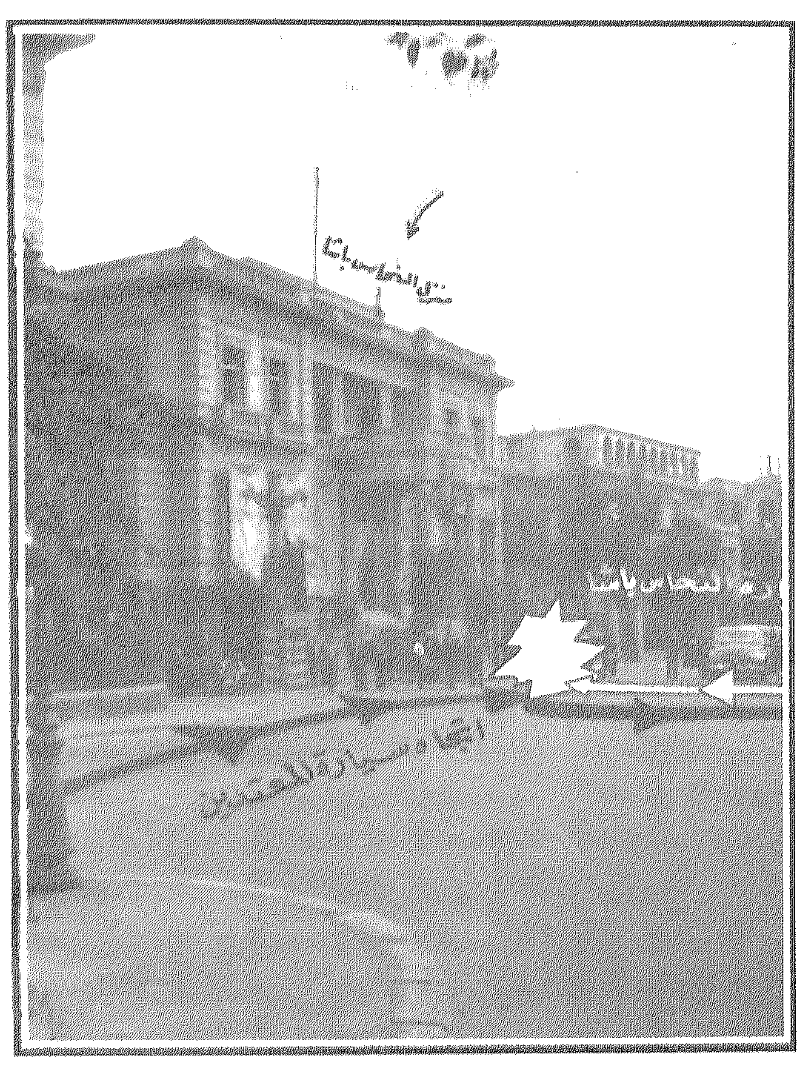
ووصول الأمر إلى تدبير عمليات اغتيال جماعي مثل العملية التي اقترحتها «ناهد رشاد» بنسف قطار الصعيد الذي كان يقل النحاس باشا عند مدينة «العياط» . هذا في الوقت الذي رأى فيه بعض أعضاء الجهاز تغيير تكتيك عمليات الاغتيال بإحالة العربة السوداء إلى المعاش ومعها المدافع الرشاشة واللجوء إلى طريقة أخرى للقتل باستخدام السم عن طريق الفم أو باستخدام دبوس مسمم لمن تصدر الأوامر بتصفيته . وقد بدأ الحرس الحديدي بتجربة هذه الطريقة لما لها من مميزات كثيرة فلا ضجيج ولا مدافع ولا حتى صوت . ويذكر «سيد جاد » أنه استخدم هذه الطريقة مع ضابط انجليزي برتبة «يوزباشي» كان يتمتع بقوة جثمانية كبيرة فاندفع تجاهه ووخزه بالإبرة القاتلة فصرخ وأخذ يعتذر له ويطيب خاطره فاستكمل سيره ثم سقط على وجهه فجأة، فحمله البوليس الحربي الانجليزي دون أن يعرف ما حدث له إلى أن مات ، وقد ظن الانجليز أنه شرب شيئا ساما مما دفعهم إلى نزول محلات الخمور ، وتحليل عينات منها ولكنهم لم يجدوا شيئا من ذلك.

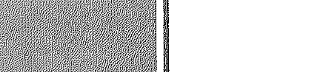
والجدير بالذكر أن جهاز الحرس الحديدي لم يقتصر نشاطه على اغتيال أعداء الملك من السياسيين المصريين فحسب بل ساهم في عمليات المقاومة ضد الانجليز في القتال ، بعد أن أمر الملك، بدعم نشاط الفدائيين هناك فقام مجموعة من ضباط الحرس الحديدي بتدريب المتطوعين من مختلف الأحزاب في صحراء الهرم ، كما تم إمدادهم بسلاح الحرس الحديدي الذي كان كامنا بمدافن الرفاعي ، واستخدم في التدريب في العلميات القتالية ، وذهب بعض رجالهم إلى منطقة العمليات للمشاركة في العمليات الفدائية والترصد لقتل الانجليز وكان الملك يساندهم ماديا بطريقة سرية حتى لا ينقلب الانجليز عليه كما حدث معه في حادث ٤ فبراير .

ويذكر «سيد جاد» أن بعض رجال الحرس الحديدي قاموا بالسطو على عربات قطار انجليزي محمل بالسلاح والعتاد والمؤن في منطقة القباري ونقولها إلى عزبة «الصفيح» بالورديان بالاسكندرية حيث تم تخزينها هناك ، وأنهم قاموا بقتل اثنين من الجنود الانجليز ، وتجريدهما من الأوراق والنقود والملابس ووضع أثقال حديدية حول جثتيهما وإلقائهما في البحر .

وإلى جانب ذلك فقد كان أعضاء الحرس الحديدي يكلفون بمراقبة الخطرين على الأمن والجواسيس وقتلهم ، فعندما بلغهم أن «ايزيفتش» اليوغسلافي الجنسية وصاحب المقهى الشهير بميدان الاسماعيلية – التحرير الآن – يقوم بمساعدة الشيوعيين الموجودين بمصر ويمدهم بالأموال ، ويروج لأفكارهم حاولوا قتله ولكنهم لم يتمكنوا لشعور الرجل بانكشاف أمره وهروبه إلى خارج البلاد .

وإلى جانب ذلك قام رجال الحرس الحديدي بمراقبة سيدة كانت تدخل فيلا أحد المسئولين الانجليز لإمدادهم بأسرار تخص القصر الملكي وكان الملك يرغب في التخلص منها ، ولكن رجال





صورة توضح مخطط
الاعتداء الفاشل علي
النحاس باشا ١٩٤٨

الحرس اختلفوا فيما بينهم بحجة احتمال أن تكون هذه السيدة مظلومة مما ضايق الملك وأخذ يزداد اقتناعا بفكرة حل الحرس الحديدى ، الذى يكلفه الكثير ولا يحصل منه إلا على القليل .

والواضح أن عمر هذا الجهاز السرى كان محدودا ، ولم ينعم طويلا بثقة الملك خاصة بعد أن أحس بفشله فى تأدية بعض المهام المكلف بها ، وبعد تآمر بعض أفراد الجهاز على الملك نفسه ، فقد أقدم «مصطفى كمال صدقى» أحد أفراد الجهاز على اغتيال الملك بسبب التنافس معه على وصيفة القصر ناهد رشاد ، كما قام بعض رجال الحرس الحديدى بمحاولة إرهاب الملك بعد قبوله

لقب جنرال فخرى بالجيش الانجليزى فأطلقوا بعض طلقات مدافعهم بالقرب منه ، هذا إلى جانب رغبة ناهد رشاد الرأس المدبر للجهاز فى الانتقام من الملك بعد أن فشلت فى الفوز بمنصب الملكة الذى كان قد وعدها به الملك فى لحظة غرام وانسجام بعد زواجه من «ناريمان» ، ونتيجة لذلك بدأت تكيد للملك سرا فأخفت عنه تحركات ضباط الجيش السرية ضد الملك بعد ما أبلغها بها اليوزباشى «أنور السادات» الذى كان يعمل بشكل مزدوج بين الحرس الحديدى، وتنظيم الضباط الأحرار ، كما كانت تضع للملك على سبيل الانتقام بعض المنشورات التى كانت تصلها ضده ضمن الأوراق التى كانت تعرض عليه .

وظل الأمر كذلك حتى ظهر تنظيم الضباط الأحرار الذى فجر ثورة يوليو ١٩٥٢، فبدأ كل فرد من ضباط الحرس الحديدى يبحث عن آخر من الضباط الأحرار للاحتماء به ، ويكون سندا له، كما انصرف كل فرد منهم يلتمس لنفسه مخرجا فحسن فهمى عبدالمجيد انقلب إلى جمهورى متطرف ، ومصطفى صدقى أصبح ثائرا من الثوار وخالد فوزى أضحى داعية خطيرا من دعاة الثورية، وعبد الله صادق أصبح مرشدا للنيابة والبوليس ، ويوسف حبيب انزوى وحيدا ينعى حظه العاثر وأمجاد الماضى، وتنصل الباقون برشاقة من ماضيهم وتحولوا إلى دعاة للثورة وراحوا يصفقون لها، أما سيد جاد فقد اعتقل وألقى به فى غياهب السجون وتخلى عنه الجميع .

وفى رأينا أن القصر الملكى كان قد أخطأ فى التورط بتشكيل هذا الجهاز وإدارته خاصة وأن سفك الدماء فى حد ذاته أمر لا يفيد القضايا الوطنية بل يزيدها تعقيدا ، وأن حل المشكلات الوطنية لا يتم عن طريق تصفية المعارضين بسفك دمائهم كما حدث لأمين عثمان وسيد طه وحسن البنا وغيرهم بل يأتى عن طريق المحاورة والنقاش، وتوضيح وجهات النظر مما يتيح لكافة الجوانب أن تعيد حساباتها ومواقفها بما يفيد الوطن وقضاياه . فالاغتيال يولد فى المجتمع جوا من الإرهاب، ويساعد على قتل حرية الرأى ومصادرتها وتكميم الأفواه ، كما أنه ليس لغة الشعوب المتحضرة ، بينما حرية الرأى تدعم الاطمئنان بين كافة المواطنين . وقديما قالوا إن الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية .

المصادر التى تم الاستعانة بها فى هذه الدراسة :

ملف تحقيق النيابة ومرافعات الدفاع فى قضية أمين عثمان (دار الوثائق) .

أحمد مرتضى المراغى : غرائب من عهد فاروق، وبداية الثورة المصرية / دار النهار اللبنانية .

سيد جاد : الحرس الحديدى : كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣ .

محمد حسنين هيكل : خريف الغضب، القاهرة ١٩٨٨ .

البلاغ : أكتوبر ١٩٥٢ ومارس ١٩٥٣.

الثورة والعرب

بقلم : د. أحمد يوسف أحمد

عندما طلب منى الأخوة الأعزاء المسئولون عن التحرير أن أكتب عن ثورة يوليو والعرب لبيت مرحبا. كنت بطبيعة الحال أنوى الكتابة عن ثورة يوليو بمناسبة مرور نصف قرن على قيامها، لكنى لم أكن قد اخترت زاوية الكتابة بعد، وتوافق طلب الكتابة عن ثورة يوليو والعرب مع أولوية اهتماماتى البحثية، ومن هنا كان ترحيبى، لكن الحيرة أعقبت الترحيب، وقد نبعت من البحث عن منهج المعالجة، فلقد كتبت كثيرا فى هذا الموضوع أو حوله، ولاشك فى أن ذكرى مرور خمسين سنة على قيام ثورة يوليو تتيح المجال لمدخل جديد فترى كيف يكون؟ فكرت أولا أن يرتبط المدخل بشخص قائد الثورة ذلك لأن بصماته على علاقة ثورة يوليو بالعرب أقوى منها بكثير فى حالة أداء الثورة فى الساحتين المصرية والعالمية، ففى الحالتين الأخيرتين يمكن الزعم بوجود تقاليد واضحة للحركة الوطنية المصرية استمدت منها ثورة يوليو أسس حركتها وبنت عليها، أما الساحة العربية فقد شهدت الى حد بعيد ممارسات مصرية جديدة وغير مألوفة لاشك فى أنها تعود لقائد الثورة وفكرته عن الدوائر الثلاث لحركة مصر، وإعطاء الأولوية بين هذه الدوائر للدائرة العربية. ولن يكون

ممكنا بطبيعة الحال فصل ما هو ذاتى يرتبط بعبد الناصر، عما هو موضوعى يتعلق بالظروف العربية والاقليمية والعالمية، لكن المدخل يبقى منبثقا من هذه القيادة الكاريزمية.

كان الأفق العربى لثورة يوليو واضحا لدى عبد الناصر منذ البداية. تشى بذلك بعض عبارات وردت فى خطبه وتصريحاته منذ السنة الثانية للثورة على أقصى تقدير، ثم تكشف الأمر على نحو أوضح فى فلسفة الثورة التى ظهرت بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤، وتحدث فيها عبد الناصر عن دوائره الثلاث المشهورة، وأعطى الأولوية للدائرة العربية تحديدا، وأردف بالحديث عن دور هائم أرهقه التجوال يبحث عن بطل، ولم يكن أقل من ذلك بعض الأفعال التى بدت رمزية فى حينها كافتتاح محطة صوت العرب فى ١٩٥٣، لكنها سرعان ما تكشفت عن رؤية استراتيجية بعيدة المدى. صحيح أن المرء لا يجد أبعادا لمشروع عربى متكامل لدى عبد الناصر منذ البداية، غير أن هذا المشروع أخذ فى التبلور عبر الزمن وبصفة خاصة من خلال تفاعله مع الجماهير العربية وقواها السياسية الفاعلة.

وهكذا تبلور المشروع العربى لعبد الناصر وفقا لأبعاد تتعلق بالتحرر والوحدة اذا نظرنا لهذين الهدفين نظرة شاملة بحيث يحمل التحرر مضمونا سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا واجتماعيا فى آن واحد، وتشمل الوحدة كل ما يتعلق بتكتيل الجهود العربية نحو تحقيق غايات النضال العربى.

ففى مجال التحرر كان مشروع عبد الناصر يتضمن محاربة الاستعمار وتصفيته فى الوطن العربى، ومن هنا قدم العون لكافة حركات التحرر العربية بدءا بالعون الاعلامى والدبلوماسى ووصولا الى المساعدة العسكرية كما وضح بجلاء فى حرب التحرير الجزائرية منذ منتصف الخمسينات وحتى أوائل الستينات من القرن العشرين وحرب التحرير فى جنوب اليمن فى الستينات من القرن نفسه، غير أن التوصل الى الاستقلال لم يكن شكليا لدى عبد الناصر، ومن هنا امتد بنطاق مشروعه ليشمل مواجهة محاولات ربط الوطن العربى استراتيجيا بسلسلة الاحلاف الغربية، فجاءت حركته الناجحة ضد كل من حلف بغداد فى ١٩٥٥ ومشروع ايزنهاور فى ١٩٥٧ وغيرهما من المشروعات المماثلة.

ولم يقتصر مفهوم الحرية بالنسبة لعبد الناصر على البعد السياسى الاستراتيجى فحسب، وانما امتد ليشمل بعدا اقتصاديا وثالثا

اجتماعيا.

ويلاحظ على البعد الاقتصادى أنه لم يكن بالوضوح نفسه المميز للبعد الأول لسببين على الأقل: أولهما أن البعد الاقتصادى للتحرر العربى كان يثير، فيما يبدو، حساسية لدى عبد الناصر خشية أن تتعزز الاتهامات بأطماعه فى ثورة البترول العربية، ولذلك لم يركز عليه كثيرا مكتفيا بجهده فى تأسيس نموذج مصرى للتنمية المستقلة، كما أن ظروف المواجهة السياسية الضاربة مع خصوم مشروعه لاشك فى أنها أسهمت فى تراجع بعده الاقتصادى الى أولوية تالية.

أما البعد الاجتماعى فعلى الرغم من الإشارة إليه منذ سنوات الثورة الأولى الا أن تطبيقه داخل مصر نفسها لم يتكامل الا فى أوائل ستينات القرن العشرين وبذلك طرح متأخرا فى السياق العربى، وارتبط طرحه بمشكلات معينة، منها ما قيل على سبيل المثال من أثر سلبى للقرارات الاشتراكية التى صدرت فى يوليو ١٩٦١ على التعجيل بانفصال سوريا عن مصر فى سبتمبر ١٩٦١، وكذلك على استبعاد بعض الشرائح الاجتماعية العليا من قاعدة التأييد العربية لمشروع عبد الناصر.

أما الوحدة فقد تحدث عنها عبد الناصر منذ سنوات الثورة الأولى وإن كان واضحا أنه نظر اليها باعتبارها توحيداً للجهود العربية فى اتجاه تحقيق أهداف مشتركة لا يأخذ بالضرورة الشكل الدستورى، مع ذلك فقد قبل بالوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا فى ١٩٥٨ استجابة لضغوط القوى القومية فى سوريا على الرغم من أنه كان يعتقد بضرورة وجود مرحلة انتقالية قبل انجازها، ولذلك لم يجد عبد الناصر بعد تفكك الوحدة المصرية - السورية فى ١٩٦١ صعوبة فى أن ينتقل الى أشكال غير دستورية لتحقيق الفعل الوحدوى العربى اذا جاز التعبير، سواء اقتصر هذا الفعل على شريحة معينة من النظم العربية الثورية كما تبدى فى شعار وحدة الهدف فى أعقاب الانفصال السورى، أو امتد ليشمل الدول العربية بأسرها كما ظهر فى تبنى عبد الناصر لألية القمم العربية اعتباراً من ديسمبر ١٩٦٣ وحتى نهاية ١٩٦٥.

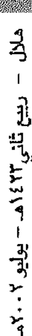
العرب ومشروع عبد الناصر:

اذا كنا قد بلورنا الخطوط الأساسية للمشروع العربى لعبد الناصر فى العجالة السابقة فترى كيف كان استقبال العرب له؟ لا يمكن من الناحية المنهاجية أن نتحدث عن العرب ككل، وقد يكون مفيدا أن نقسمهم الى جماهير ونخب: أما الجماهير فقد اتسق عبد الناصر مع

قدم ناصرالعون الاعلامى والدبلوماسى والعسكري لكل حركات التحرر العربية كما حدث فى حرب التحرير بجنوب اليمن فى الستينات

صـمـيم أهدافـهـا، ولذلك ايدته على نـحـو غـيـر مسبوق فى تاريخ العرب الحديث، ولايكاد المرء يقرأ كتـابا منصـفـا تناول المرحلة أو مذكـرات سياسى عاشها الا ووجد فيما قرأ ما يشير الى

هذه العلاقة الفريدة. والأهم من هذا أن الجماهير قد لعبت دورا فـاعـلا فى تنفيذ المشروع العربى لعبـد الناصـر وحـمـايتـه، ألم تلعب المظاهرات الجماهيرية الحاشدة المضادة لحلف بغداد دورا



فى اسقاطه؟ ألم تكن الجماهير العربية سندا معنويا هائلا لمصر ابان عدوان ١٩٥٦؟ اليست الجماهير السورية هى صاحبة الفضل الأول فى انجاز الوحدة المصرية - السورية فى ١٩٥٨؟ ألم يكن العمال العرب هم الذين حققوا نصرا فريدا فى المعركة - وإن تكن بالغة الدلالة - مع عمال الشحن الأمريكيين فى ميناء نيويورك ابان الحادثة الشهيرة لمقاطعة الباخرة المصرية كليو باترا فى هذا الميناء فى ١٩٦٠؟ ألم تكن الجماهير المصرية خاصة، والعربية عامة، هى التى حمت مصر والنظام العربى من السقوط فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الفادحة بتحركها التاريخى يومى ٩ و ١٠ يونيو؟ ألم توجه جماهير الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ رسالة واضحة لكل من يعنيه الأمر داخل الوطن العربى وخارجه مفادها أن عبد الناصر مازال زعيم هذه الأمة على الرغم من هزيمته المدوية فى ١٩٦٧، صحيح أن هذا التأييد الجماهيرى الغلاب لم يبدأ مع الثورة، فقد مرت سنوات نظرت فيها الجماهير العربية بريبة الى هذا البكباشى القادم على أسنة الرماح والى صدامه العنيف بقوى سياسية حقيقية فى الساحة المصرية، لكن الصورة اتضحت بعد ذلك، ومع بدايات ١٩٥٥ أخذ نمط العلاقة الكاريزمية بين عبد الناصر وجماهيره فى التبلور.

غير أن الأمر اختلف كثيرا بالنسبة للنخب السياسية، الحاكمة منها وغير الحاكمة. كان منطقيا أن تعاديه النخب الحاكمة أو المستفيدة فى النظم العربية التى اصطدم بها عبد الناصر، وأن لوحظ أن الاعجاب به وحتى تأييده قد تسلل الى بعض عناصرها، وأن الاحترام قد غلب على نظرة عديد من عناصر هذه النخب لعبد الناصر على الرغم من أنها لم تخف كراهيتها له فى بعض الاحيان، وكان منطقيا ايضا أن تنسلخ شرائح اجتماعية عليا فى المجتمعات العربية من قاعدة التأييد للمشروع بعد أن بدأت تضار من جراء بعض السياسات والإجراءات التى اتخذها ودافع عنها، وكان منطقيا من ناحية ثالثة أن تعاديه النخب السياسية العربية ذات التوجهات الاسلامية فى أعقاب صدامه المروع مع الاخوان المسلمين فى مصر لكن ما بدا غريبا بحق - وان لم يستعص على الفهم - صدام نخب سياسية معه تشاركه فى توجهاته، أو على الأقل تتفق معه فى أهداف مرحلية. وهكذا تصادمت معه أحزاب شيوعية عربية عديدة على أساس اتهامها له بغيبة الآفاق الاشتراكية الحقيقية عن مشروعه، وان كان المرء لا يمكنه أن يتجاهل أن السبب الحقيقى لهذا الموقف قد يكمن فى نفوذه على السياسة والجماهير العربية، الأمر الذى قضى

على أية امكانية لتطور مكانتها السياسية فى الوطن العربى، وتصادمت معه أحزاب قومية أخفقت فى أن تفرض عليه معادلة الزعيم فى مقابل الحزب. أى أن يكون هو الزعيم المعترف به عربيا القادر على أن يحكم الثورة العربية ويقودها من خلال هذه الاحزاب، وتصادمت معه نظم قطرية ثورية رأت فى قربها الزائد منه خطرا على استقلاليتها.

وولد هذا كله صراعا مزدوجا بين عبد الناصر وقوى معارضة له: فقد اصطدم من ناحية بالمحافظين الذين كان مشروعه يهدف بوضوح فى بعض مراحله الى القضاء عليهم، ومن ناحية ثانية بالثوريين الذين كان نجاح مشروعه يعنى بشكل أو بآخر تهميشهم. وصنع هذا جنبا الى جنب، مع التحديات الخارجية الهائلة التى واجهت عبد الناصر، معضلة اضطرته الى أن ينتقل أكثر من مرة بين صيغة العمل العربى المشترك الذى يشمل الجميع فى مواجهة العدو الخارجى سواء كان مشروعا أمنيا غربيا أو تهديدا إسرائيليا، وصيغة العمل العربى الثورى التى لا تشمل الا قوى عربية بعينها تشترك معه فى التوجهات وتحارب الى جواره العدو فى الخارج وأركانه فى الداخل من النظم العربية. وعلى الرغم من أن الباحث المنصف يرى أن انتقال عبد الناصر بين الصيغتين كان له دائما ما يبرره الا أنه قد يكون من المبكر - أو حتى من المستحيل - الحكم على الأثر الحقيقى الذى أوجده هذا الانتقال بين الصيغتين على تطور النظام العربى فى عهد عبد الناصر.

رؤية نقدية :

صادفت ثورة يوليو كغيرها من الثورات انتقادات حادة، بل وتشكيكا فى شرعيتها أصلا، واتهاما بأنها كانت السبب فى كوارث ألمت بالصعيدين الوطنى والعربى لمجرد واقعة قيامها وفقا لمعسكر خصومها، أو بسبب أخطاء استراتيجية وتكتيكية هائلة ارتكبت فى مسيرتها وفقا لبعض انصارها، أو على الأقل الذين لم يناصبوها العداء، ويكاد يكون مستحيلا أن نصل فى سياق محاولة اصدار حكم تاريخى على ثورة يوليو الى كلمة سواء بعد مرور نصف قرن فحسب على قيامها، فمازال المستفيدون من الثورة والمضارون منها كأفراد وتكوينات اجتماعية وسياسية ونظم حاكمة وقوى دولية موجودين فى ساحة الحركة السياسية، ولابد من تأثرهم بمصالحهم وهم يصدرون احكامهم على يوليو وقائدها. ومع ذلك فقد لا يكون من المبالغة أن نسجل أن الانتقادات لسياسة ثورة يوليو العربية جاءت من داخل مصر أكثر مما صدرت

عن دوائر عربية، وأنها تقل عبر الزمن بما يعكس احساسا متزايدا بأن ما ألم بالوطن العربى فى عهد يوليو يرجع الى ضراوة الهجمة الامبريالية الاستعمارية أكثر مما يعود الى أخطاء الثورة، وأن النظام العربى ربما يكون بحاجة فى الظروف الراهنة الى نهج التحرر والكرامة الذى انتهجته ثورة يوليو، أو على الأقل الى بعض هذا النهج.

غير أن هذا لا يعنى من ناحية أن ممارسات ثورة يوليو فى بعدها العربى كانت منزهة عن الأخطاء، أو العثرات أو السلبيات، ولا يعنى من ناحية أخرى أن كل ما وجه اليها من انتقادات واتهامات كان صحيحا.

لا يمكن لاحد بداية أن يشكك فى سلامة توجهات يوليو العربية عن التحرر والوحدة، وإن كان من الممكن الحوار حول اثر غياب رؤية واضحة متبلورة لدى الثورة وقيادتها للواقع العربى وسبل الحركة لتغييره، فلعل هذه الرؤية كان من شأنه أن يوفر على ثورة يوليو تكلفة التنقل المتكرر بين التحالف مع الكل ضد التهديدات الخارجية وبين قيادة الجزء لتغيير النظام العربي من الداخل، ولا يمكن لأحد أن يشكك فى الدور التاريخى الذى لعبته زعامة بقامة عبد الناصر وتوجهاته، لكن الاعتماد المفرط على كاريزما الزعيم حرم السياسة العربية لثورة يوليو من ذراع مؤسسية قوية، واتاح فى الوقت نفسه لبعض العناصر من الاشخاص المحسوبين على ثورة يوليو أن يلعبوا - بحسن النية أو بدونها - دورا تخريبيا فى تنفيذ تلك السياسة. ولا يمكن لأحد أن ينكر أن ثورة يوليو حاولت فى البداية جمع شمل العرب كافة وواصلت هذا المسعى كلما دعت الظروف لذلك، وأنها ليست مسئولة عن ظاهرة الصراعات العربية - العربية، فقد ظهرت قبلها وبقيت بعدها، لكن الطريقة التى أدارت بها قيادة الثورة بعض خلافاتها مع عدد من النظم العربية لم تكن الطريقة المثلى دائما، ولا يمكن لأحد أن ينكر سلامة التوجه الاستراتيجى للثورة فى الصراع ضد اسرائيل، لكن الأثر الفادح الباقى معنا حتى الآن لهزيمة يونيو ١٩٦٧ شكل مطعنا هائلا فى إنجازات الثورة فى هذا السياق.

ومع ذلك فإن الحكم النهائى عليها من هذا المنظور يبقى عملا بالغ التعقيد بكل المقاييس، فخصوم الثورة يرون أن كارثة يونيو ١٩٦٧ كفيلة بمحو أى أثر ايجابى لثورة يوليو فى تاريخ المنطقة، ومع ذلك فإن مثل هذا القول يمكن أن يرد بأن مشكلة اسرائيل كانت ميراثا ثقيلا ورثته



عبد الناصر بين الجماهير الحاشدة في الخرطوم التي أكدت على دعمها ووقوفها من خلفه

ثورة يوليو عن حقبة التبعية السابقة عليها، وإن هذا الميراث الثقيل قد عوق انطلاقها غير مرة وانها بلورت قبل هزيمة ١٩٦٧ رؤية استراتيجية سليمة للمواجهة، وأن الهزيمة الفادحة فى معركة عسكرية لم تكن من نصيب ثورة يوليو وحدها وإنما طالت نظما ديمقراطية عريقة قبل أن تنتصر هذه النظم فى حربها الشاملة ضد خصومها كما كان الحال بالنسبة لمعظم الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، وأنها - أى ثورة يوليو - قد سارت على الدرب نفسه فى السنوات التالية مباشرة للهزيمة. فتصاعد النضال العسكرى ضد اسرائيل على نحو غير مسبوق مهد لانجاز اكتوبر ١٩٧٣ الذى تم فى زمن قياسى بكل المعايير.

هل يمكن والأمر كذلك أن يسمح لنا خصوم ثورة يوليو بأن نهديها باقة عرفان وامتنان بعد نصف قرن على قيامها؟ وان نعبر عن احساسنا الصادق بافتقادنا قيماً نضالية أصيلة عبرت عنها وسعت الى تجسيدها فى الواقع العربى فنجحت حينا وأخفقت حينا لكنها تركت لنا ضوءا هاديا لعلنا أكثر ما نكون احتياجا إليه فى الظروف الراهنة . ■

دور القاهرة

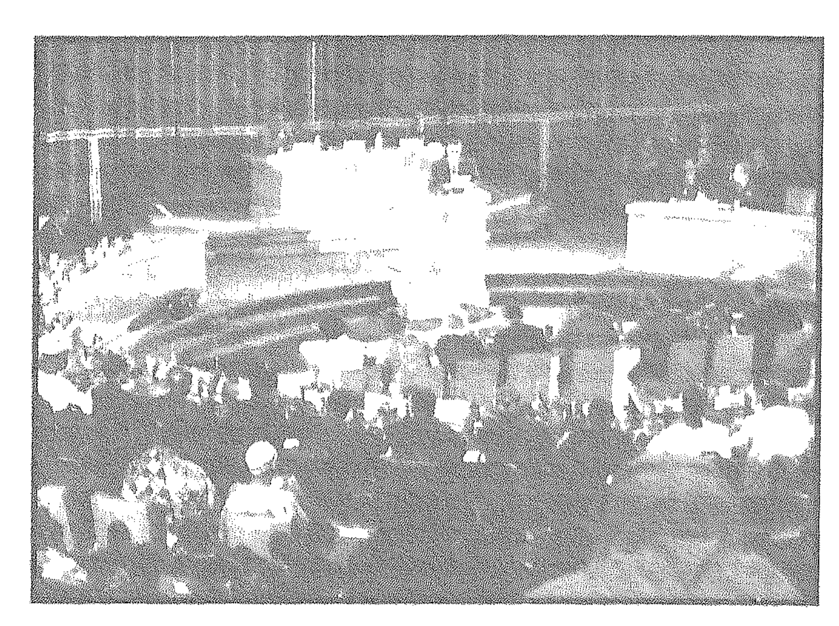
فى إقامة عالم جديد خال من الاستغلال والتبعية

بقلم : د. منير زهران

كان لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إشعاع تعدى حدود مصر والعالم العربى باعتبارها حاملة شعلة الحرية والكفاح ضد الاستعمار البريطانى والاحتلال الأجنبى والإمبريالية، والمطالبة بحق تقرير المصير للشعوب التى ترزح تحت نير الاستعمار والتى تعانى من السيطرة الأجنبية على مواردها الطبيعية .

وقد كان تأثير ثورة يوليو كبيراً على حركات التحرير فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، حيث كان للثورة المصرية صدى لدى المتطلعين للحرية والاستقلال فى مختلف أرجاء المعمورة .

وقد كانت نقطة البداية تحرر مصر من الاحتلال الأجنبى نتيجة الضغوط التى مارستها الجماعات الفدائية ضد معسكرات الجيش البريطانى المرابط فى منطقة قناة السويس ثم من خلال المفاوضات، ثم ممارسة السودان لحق تقرير المصير بدعم من مصر أمام الاستعمار البريطانى ثم حصول السودان على استقلاله، وتأييد مصر الثورة لحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره على ترابه الوطنى وفقا لميثاق الأمم المتحدة، وتأييد حركات التحرير فى أفريقيا ومساندة مطالب مختلف تلك الشعوب بإنهاء الاستعمار والاحتلال الأجنبى، ومن



مؤتمر القمة الافريقي
في القاهرة لأول مرة
١٩٦٤

ثم حصولها على استقلالها الواحد تلو الآخر. وقد انطبق ذلك على المستعمرات البريطانية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية . كما أدانت مصر نظم وسياسات الفصل العنصرى والابارتهيد الذى تمت ممارسته بأبشع الصور فى جنوب افريقيا واسرائيل ، إلى أن تم إلغاء ذلك النظام فى جنوب أفريقيا عام ١٩٩٤ باعتماد دستورها الجديد وانتخاب الزعيم نلسون مانديلا كأول رئيس للنظام الديمقراطى الحر فى بريتوريا .

وكان أحد مظاهر النفوذ الخارجي لثورة يوليو معارضة مبادرات الدول الغربية التى تذرعت بسعيها لملء الفراغ الناجم عن انسحاب بريطانيا من المنطقة من خلال مد مظلة حلف شمال الأطلنطى للشرق لتطويق الاتحاد السوفييتى وحلف وارسو من الجنوب . وقد تعاونت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا فى الترويج لتلك الخطة ، إلا أنها واجهت معارضة مصر ، وحذت غالبية الدول العربية حذوها، ثم تعدلت تلك الخطة بفكرة قيام تحالف جديد تم إنشاؤه فى ٢٤ فبراير ١٩٥٥ ضم العراق وإيران وتركيا وباكستان وبريطانيا تحت اسم حلف بغداد حيث تمركز فى العاصمة العراقية ، ولم تنضم لذلك الحلف الولايات المتحدة وإنما احتفظت فيه بصفة المراقب ، وكان إنشاء ذلك الحلف استفزازا لمصر الثورة التى انتقدت ذلك الحلف بشدة، وما لبث ذلك الحلف أن رحل من بغداد عقب خروج العراق منه بعد ثورة تموز عام ١٩٥٨، واتخذ الحلف من أنقرة مقرا له تحت اسم حلف السنتو .

★★★

وشاركت مصر فى عام ١٩٥٥ تحت زعامة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر فى مؤتمر تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية الذى عقد فى مدينة باندونج وذلك للتشاور فيما بين زعماء الدول الافريقية والآسيوية التى نالت استقلالها حول كيفية تعزيز التعاون والتضامن فيما بينها للمحافظة على استقلالها وكانت مشاركة مصر ذات أهمية كبيرة لما عرف عنها من تأييد حركات التحرير ضد الاستعمار وبصفة خاصة فى أفريقيا .

وقد تأكد فى مؤتمر باندونج انتهاج الشعوب الافريقية والآسيوية لسياسة الحياد الايجابى ، والتى تدعو لمكافحة الاستعمار وتأييد استقلال الشعوب وإنهاء الاحتلال الأجنبى ومساندتها فى ممارسة حق تقرير المصير ، ومعارضة محاولات الدول الغربية لتكبيل حرية الحركة للدول التى حصلت على الاستقلال لربطها باتفاقيات عسكرية .

★★★

وقد استمر دور مصر تحت تأثير مبادئ ثورة يوليو واتسع نفوذها فنشأت منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية عام ١٩٥٧ واتخذت من القاهرة مقرا لها ، ثم تحقق أول مشروع للوحدة بين مصر وسوريا بإنشاء الجمهورية العربية المتحدة عام ٥٨ .

وقد أسفرت مشاورات قادة باندونج واتسع نطاقها لتضم دولا من أوربا وأمريكا اللاتينية ، فوضعت معايير الانضمام لحركة عدم الانحياز فى مؤتمر تحضيرى عقد فى القاهرة فى يونيو ١٩٦١ ثم عقدت أول قمة للحركة فى بلجراد فى سبتمبر من نفس العام .. وفى نهاية سبتمبر ١٩٦١ انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة لأسباب عديدة من أهمها سعى فرنسا للرد على تأييد القاهرة لكفاح جبهة التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى ومساندة الشعب الجزائرى فى مطالبه الخاصة بممارسة حق تقرير المصير والاستقلال .

وكان دور مصر مؤثرا فى إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة للقرار ١٥/١٥١٤ فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٠ والقاضى بتصفية الاستعمار وحق تقرير المصير . وتجدر الإشارة إلى أن مصر دعت إلى عقد اجتماع وزارى فى القاهرة فى يوليو ١٩٦٢ حول «المشاكل التى تواجه التنمية الاقتصادية فى الدول النامية »، وقد ضم المؤتمر بالإضافة إلى الدول الأعضاء فى حركة عدم الانحياز دولا نامية لم تنخرط فى الحركة نظرا لاتساع الهدف من الاجتماع لمواجهة تحدى التنمية وهو لا يقتصر على الدول غير المنحازة .

وقد كانت نتائج مؤتمر القاهرة هى الأساس فى تعبئة الجهود فى الجمعية العامة للأمم المتحدة للدعوة لأول مؤتمر للأمم المتحدة حول التجارة والتنمية (UNCTAD) والذى عقد فى مدينة جنيف عام ١٩٦٤ تحت رئاسة الدكتور عبدالمنعم القيسونى وزير الاقتصاد المصرى حينئذ، وانتهى المؤتمر بإعلان وبرنامج عمل، بالإضافة إلى إعلان

وزارى بتأسيس مجموعة السبعة وسبعين (كان هذا هو عدد الدول النامية المستقلة حينئذ) فى ١٥ يونيو ١٩٦٤. ونظرا للدور المؤثر لمصر على إنشاء ونشاط تلك المحافل والتنظيمات الدولية فسوف نعرض لكل منها بايجاز .

أولا : منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية

تعتبر منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية امتدادا شعبيا لأهداف مؤتمر باندونج، فقد انعقد فى القاهرة فى نهاية عام ١٩٥٧ حتى أول يناير ١٩٥٨ المؤتمر الأول لحركة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية وانبثقت منه السكرتارية الدائمة للمنظمة ومقرها الدائم فى القاهرة . ويرأس المنظمة حاليا ومنذ عام ١٩٨٨ الدكتور محمد مراد غالب وزير خارجية مصر السابق ، ويتولى منصب السكرتير العام السيد/ نورى عبدالرزاق من العراق .

ومنظمة التضامن منظمة غير حكومية لها لجان وطنية فى أكثر من تسعين بلدا فى أفريقيا وآسيا، كما أن لها لجانا منتسبة فى أمريكا اللاتينية بل وفى أوربا. ويرأس اللجنة المصرية للتضامن الأفروآسيوى الأستاذ أحمد حمروش أحد الضباط الأحرار لثورة يوليو .

ولقد كان تأثير المنظمة كبيرا فى دعم نضال حركات التحرير فى أواخر الخمسينيات وخلال الستينيات ، وتوجت انتصارات حركات التحرير بالنجاح الذى حققه شعب جنوب افريقيا بالانتصار ضد الأبارتهيد والفصل العنصرى .

وقد كان نضال حركات التحرير وراء استقلال كثير من البلدان فى أفريقيا وآسيا ، وخروجها منتصرة على الاستعمار الذى جثم على أنفاس شعوبها، ومازال الشعب الفلسطينى يناضل ضد الاستعمار الاسرائيلى والاحتلال الأجنبى، ومازالت قضية السلام فى الشرق الأوسط إحدى أهم القضايا التى تدعمها منظمة التضامن من أجل إنشاء دولة فلسطين الحرة المستقلة وعاصمتها القدس ، وتتلقى منظمة التضامن والشعب الفلسطينى من مصر دعما متواصلا منذ الخمسينيات وحتى مطلع القرن الحادى والعشرين

وإزاء تغير العلاقات والظروف الدولية فى التسعينيات ومع بداية القرن الحادى والعشرين وانعكاسات ذلك على البلدان الافريقية والآسيوية خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة والقطبية الثنائية، فقد أخذت منظمة التضامن على عاتقها القيام بمسئولياتها الجديدة ، فأدرجت على جدول أعمال المنظمة ولجانها الوطنية الموضوعات الداخلية والخارجية التى أصبحت تشغل الدول الافريقية والآسيوية ومنها الديمقراطية وحقوق الانسان ، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والديون ونقل التكنولوجيا والثورة العلمية وقضايا البيئة والسكان والنزاعات الحدودية ، والنزاعات الداخلية القبلية والاثنية ، واللاجئين والنازحين والسكان الأصليين والأقليات ، ونزع السلاح ، والتعاون فيما بين دول

الجنوب ، والحوار بين الشمال والجنوب .

وهكذا تبنت منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية القضايا الجديدة التي تهم تلك البلدان والمدرجة على الأجندة الدولية المعاصرة .

وباعتبارها جزءا من حركة الشعوب الديمقراطية فى العالم ، تتعاون منظمة التضامن مع المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية التى تعمل من أجل الاستقلال ونصرة الحرية ، وتعمل من أجل عالم خال من الحرب والعنف، وتنادى بعدم الاستخدام أو التهديد باستخدام القوة فى العلاقات الدولية ، والعمل من أجل التسوية السلمية لمختلف النزاعات .

وتتمتع منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية بصفة استشارية فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة وبصفة المراقب فى منظمات دولية عديدة مع الاشارة بصفة خاصة لليونسكو واليونيدو والانكتاد . كما تتمتع بصفة مراقب فى حركة عدم الانحياز .

ثانيا : حركة عدم الانحياز

تأسست حركة عدم الانحياز رسميا عام ١٩٦١ كحركة حكومية لبلدان العالم الثالث باعتبارها تواصلا رسميا لمؤتمر باندونج ، بينما تعتبر منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية امتدادا شعبيا لذلك المؤتمر .

ومنذ مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ استمر التشاور فيما بين قادة الشعوب الافريقية الآسيوية ، وكان العدوان الثلاثى على مصر إثر تأميمها لقناة السويس اختبارا لمدى صلابة التضامن فيما بين حكومات وشعوب افريقيا وآسيا لدعم مصر فى صمودها أمام العدوان الذى اقترفته اسرائيل مع فرنسا وبريطانيا اللتين تجسدان الاستعمار القديم فى نفس الوقت الذى تتمتع فيه كل منهما بمقعد دائم فى مجلس الأمن ، وقد اتسع نطاق التشاور فيما بين القادة ليشمل دولا خارج افريقيا وآسيا ، مثل يوغسلافيا فى أوربا ، وكوبا فى أمريكا اللاتينية وبناء على المشاورات المكثفة التى جرت فيما بين الرؤساء جمال عبدالناصر وجوزيف بروز تيتو وأحمد سوكارنو ورئيس وزراء الهند حينئذ جواهر لا نهرو استضافت القاهرة فى يونيو ١٩٦١ اجتماعا تحضيريا على المستوى الوزارى للتمهيد لعقد اجتماع لقادة الدول النامية التى رفضت الانضمام للأحلاف لتأسيس حركة عدم الانحياز .

وقد رأس الاجتماع الوزارى التحضيرى المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير خارجية مصر حينذاك. وكان لى شرف المشاركة فى وفد مصر كأحد المختصين بهذا الملف فى وزارة الخارجية. وتم الاتفاق فى اجتماع القاهرة على أهمية عقد مؤتمر القمة الأول للحركة فى بلجراد فى سبتمبر ١٩٦١ استجابة لدعوة الرئيس تيتو ، وضرورة توسيع عضوية الحركة سواء من حيث النشاط أو من حيث النطاق الجغرافى بهدف تحويلها إلى آلية فيما بين الاقاليم للمحافظة على السلم والأمن الدوليين ، وأهمية عقد مؤتمرات دورية على مستوى



فى اجتماع مؤتمر عدم الانحياز ١٩٦٤ جمال عبد الناصر مع دورتيكوس (كوبا) وتيتو وسوكارنو والامبراطور هيلاسلاسي والسيدة باندرانيكه



القمة لإعطاء دفعة سياسية وعلى أعلى مستوى للتوصل إلى نتائج إيجابية لمواقف الحركة لخدمة السلام العالمى، وترجمة التعاون الدولى إلى واقع ملموس استجابة لتطلعات الشعوب فى الحصول على استقلال فعلى والارتقاء بمستويات المعيشة فى الدول الأعضاء .

وقد اتفق فى اجتماع القاهرة على المعايير التى تطبق على الدول التى تنضم إلى الحركة ، وبالتالى يمكن دعوتها لحضور اجتماع القمة الأول فى بلجراد ، وتلك المعايير هى :

١ ـ اتباع سياسة مستقلة تستند إلى التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة السياسية والاجتماعية المختلفة وإلى عدم الانحياز ، أو التى تعطى مؤشرات باتباع تلك السياسة .

٢ ـ تأييد حركات التحرر الوطنى .

٣ ـ عدم الانضمام إلى أحلاف عسكرية فى إطار الصراع بين الدول الكبرى .

٤ ـ إذا كانت الدولة المرشحة مرتبطة باتفاقية عسكرية مع دولة كبرى أو عضو فى حلف دفاعى إقليمى ، فيلزم أن تكون تلك الاتفاقية أو الحلف خارج إطار الصراع بين الدول الكبرى .

وتطبيقا لتلك المعايير وجهت الدعوة لحضور أول قمة للحركة فى بلجراد فى سبتمبر ١٩٦١ للدول النامية فى القارات الثلاث : إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

ومع تزايد عدد الدول النامية التى حصلت على الاستقلال والدول التى تخلصت من عضويتها فى الأحلاف أو أنهت وجود القواعد العسكرية على

أراضيها ، زاد عدد الدول الأعضاء فى الحركة من ٢٥ دولة عام ١٩٦١ إلى ١١٤ دولة مع انعقاد آخر قمة لحركة عدم الانحياز عام ١٩٩٨ فى ديربان بجنوب أفريقيا ، وكانت القمة الثانية عشرة ، وقد قبلت الحركة عرض المملكة الأردنية الهاشمية لاستضافة القمة الثالثة عشرة فى عمان فى أواخر عام ٢٠٠٢ .

هذا وقد استضافت القاهرة القمة الثانية عام ١٩٦٤ برئاسة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، وظلت رئاسة مصر للحركة أطول مدة إلى أن عقدت القمة بعد سبع سنوات فى لوزاكا عام ١٩٧٠ .

وبالنسبة للموضوعات التى تركز عليها حركة عدم الانحياز ، فيلاحظ التطور الذى طرأ على اهتمامات الحركة ، والذى صاحب اتساع نطاقها ثم انهيار الاتحاد السوفييتى وحلف وارسو منذ بداية التسعينيات . فقد بدأت الحركة بالتركيز على الموضوعات السياسية ، ثم ازداد اهتمام الحركة منذ مؤتمر القمة الثانى فى القاهرة عام ١٩٦٤ وتحت تأثير دولة الرئاسة، أى مصر، اهتمت الحركة بموضوعات التعاون الاقتصادى الدولى .

ومن أهم الموضوعات السياسية :

١ـ احترام حق الشعوب والأمم فى تقرير المصير والكفاح ضد الامبريالية وتصفية الاستعمار والاستعمار الجديد .

٢ ـ احترام السيادة الوطنية للدول والسلامة الاقليمية وعدم التدخل فى الشئون الداخلية .

٣ ـ التفرقة العنصرية والابارتايد .

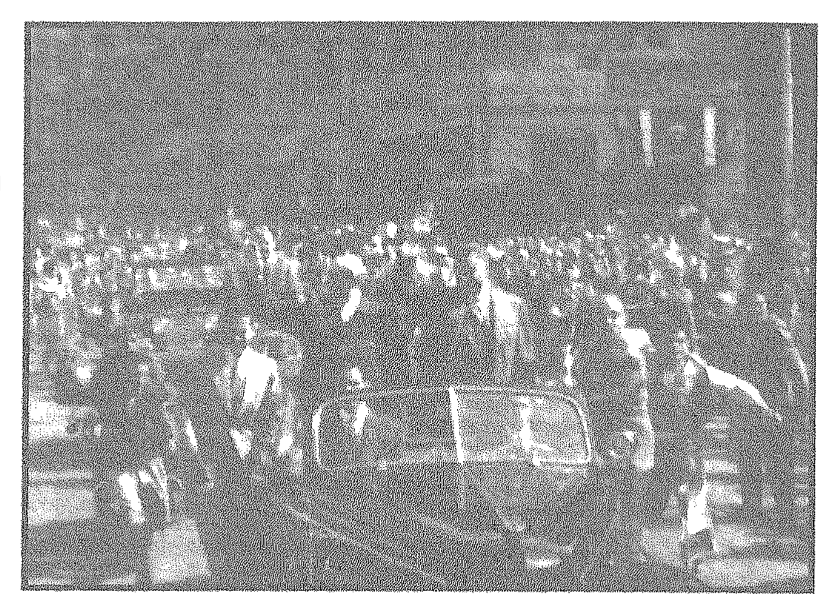
٤ ـ نزع السلاح الكامل والشامل ومنع التجارب النووية ومشكلة القواعد العسكرية الأجنبية .

٥ ـ التعايش السلمى فيما بين الدول التى تنتمى إلى نظم سياسية واجتماعية مختلفة .

٦ ـ دور الأمم المتحدة وتنفيذ قراراتها.

وجدير بالذكر أن مؤتمر القمة الثانى للحركة الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٦٤ أدان الامبريالية التى تهدد منطقة الشرق الأوسط وقرر تبنى الاستعادة الكاملة لحقوق الشعب الفلسطينى فى وطنه القومى وحقه فى تقرير المصير ، وأعلن تأييد حركة عدم الانحياز الكامل لشعب فلسطين فى كفاحه للتحرر من الاستعمار والعنصرية ، كما أيد حق جميع الشعوب التى تنادى باستقلالها بما فى ذلك حقها فى تقرير المصير والتخلص من الاحتلال الأجنبى ، وكان للحركة دور فى دعم استقلال انجولا وموزمبيق وناميبيا وإلى التخلص من نظام الفصل العنصرى وسياسة الابارتهيد التى كانت سائدة فى جنوب افريقيا واجراء انتخابات هناك بالمشاركة الكاملة لجميع المواطنين من سود وبيض

أما بالنسبة للموضوعات الاقتصادية ، فإن مؤتمر القمة الثانى للحركة الذى عقد عام ١٩٦٤ فى القاهرة برئاسة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر خصص فصلا كاملا من نتائجه لموضوعات التنمية الاقتصادية والتعاون



الالتفاف الشعبي حول جمال عبد الناصر وشكرى القوتلي أثناء مباحثات الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨

الاقتصادى الدولى .

وكان لجهود مصر - مع غيرها من الدول الرائدة فى الحركة مثل الهند ويوغسلافيا وكوبا - تأثير فى مواقف الحركة ومجموعة السبعة وسبعين وفى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية المعنية لاعتماد مبادرات دولية هامة لصالح تعزيز جهود التنمية وتوحيد صفوف الدول النامية فى هذا الشأن ومن أمثلة ذلك :

١ - اعتماد الاستراتيجية الدولية للتنمية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة بما فى ذلك تحديد هدف المساعدات الرسمية للتنمية بنسبة ٠,٧٪ من الناتج القومى الاجمالى للدول المتقدمة .

٢ - إصدار الأمم المتحدة لقرار الجمعية العامة التاريخى حول السيادة الدائمة على الموارد الطبيعية .

٣ - قرار القمة الرابعة لحركة عدم الانحياز فى الجزائر عام ٧٣ حول الآثار الاقتصادية للعدوان الاسرائيلى على الدول العربية ، والذى أدان إقامة وتوسيع المستعمرات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة ، واستنزاف اسرائيل للثروات الطبيعية فى الأراضى المحتلة ، والمطالبة باستعادة شعوب المنطقة لحقوقها غير القابلة للتصرف وممارستها لسيادتها كاملة على ثرواتها الطبيعية وغيرها من الثروات ، وكان هذا القرار حاسما فى توجيه مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة فيما بعد واستصدار القرارات المقابلة حول هذا الموضوع .

٤ - الاعتماد الجماعى على الذات للدول غير المنحازة وغيرها من الدول النامية لتعزيز التعاون

فيما بينها من خلال التعاون الاقتصادى والتعاون الفنى فيما بين الدول النامية (ECDC) و (ECTC).

٥ ـ الدعوة لإقامة نظام اقتصادى دولى جديد يتسم بالعدالة والانصاف ، وكانت هذه الدعوة أساسا لعقد الدورة السادسة الخاصة والدورة السابعة الخاصة للجمعية العامة حول إنشاء نظام اقتصادى دولى جديد عامى ٧٤ و٧٥ .

٦ ـ وضع الخطوط والتوجيهات لوفود الدول النامية التى شاركت فى الحوار بين الشمال والجنوب من خلال مؤتمر التعاون الاقتصادى الدولى الذى عقد فى باريس بدعوة من الرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان خلال الفترة من ديسمبر ٧٥ وحتى يونيو ١٩٧٧ . وقد كان لى شرف المشاركة فى وفد مصر فى ذلك المؤتمر الذى ضم تسع عشرة دولة نامية وثمانى دول متقدمة منها المجموعة الاقتصادية الأوربية . وقد فشل ذلك المؤتمر فى التوصل إلى أى نتائج مرضية سواء بالنسبة لإمدادات الطاقة أو ضمان استثمارات الدول المصدرة للبترول أو القطع بالتزامات محددة حول المساعدات الرسمية للتنمية أو تخفيف عبء ديون الدول النامية .

٧ ـ مبادرة حركة عدم الانحياز عام ٧٩ ببدء مفاوضات شاملة فى الأمم المتحدة كبديل لمؤتمر باريس ، ولم تؤد تلك المفاوضات لتحسين وضع الدول النامية لإصرار الدول المتقدمة على الهيمنة .

مجموعة السبعة وسبعين :

ترجع نشأة مجموعة السبعة وسبعين تاريخيا إلى تأثير ثورة ٢٣ يوليو بدعوة القيادة المصرية للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٢ إلى الاجتماع الوزارى الأول للدول النامية حول مشاكل التنمية الاقتصادية للدول النامية وما صدر عنه من إعلان القاهرة والذى تناول مشاكل التجارة والتنمية والمواد الأولية ومساعدات التنمية وتدفق الاستثمار ومشاكل التصنيع.

وكان مؤتمر القاهرة وما تمخض عنه من نتائج مقدمة للحملة التى قامت بها مصر ومعها العديد من الدول النامية فى الأمم المتحدة لعقد مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (UNCTAD) .

وقد عقد المؤتمر دورته الأولى فى جنيف فى مايو/ يونيو ١٩٦٤ برئاسة المرحوم الدكتور عبدالمنعم القيسونى وزير الاقتصاد المصرى حينئذ ، وانتهى المؤتمر بإصدار الدول النامية لإعلان مشترك حول إنشاء تجمع اقتصادى للدول النامية هو مجموعة السبعة وسبعين فى ١٥ يونيو ١٩٦٤ : وقد أشار الاعلان المشترك فى فقرته الأولى إلى أن إنشاء المجموعة يرجع إلى جهود الدول النامية المتواصلة لتنسيق مواقفها وتعبئة طاقاتها والتى بدأت بإعلان القاهرة الصادر عن الاجتماع الوزارى الأول للدول النامية الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٦٢ كخطوة هامة على طريق إنشاء نظام اقتصادى عالمى جديد وعادل يستند إلى اعادة تقسيم العمل الدولى ، بما يعجل من عملية التصنيع فى الدول النامية ورفع مستويات المعيشة

لشعوبها .

وقد عقد الاجتماع الوزارى الأول للمجموعة بعد ذلك فى الجزائر عام ١٩٦٧، حيث تم اعتماد «ميثاق الجزائر» الذى أنشأ هيكلا مؤسسيا دائما للمجموعة ، فأنشأ بالإضافة إلى اجتماعات المجموعة فى نيويورك حيث المقر الرئيسى للأمم المتحدة ، أنشأ فروعا (CHAPTERS) لمجموعة السبعة وسبعين فى العواصم والمدن التى توجد بها مقار لعدد من المنظمات الدولية والوكالات المتخصصة الهامة وذات الصلة بعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الدول النامية ، وهكذا نشأت فروع لمجموعة السبعة وسبعين فى روما حيث مقر منظمة الأغذية والزراعة (FAO)، وفى فينا حيث مقر منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (UNIDO) والوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA)، وباريس حيث مقر منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (UNESCO)، ونيروبى حيث مقر برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) .

هذا وتجدر الاشارة إلى أن المشاورات داخل مجموعة السبعة وسبعين تمخضت عن الحاجة إلى تنسيق مواقف الدول النامية بمناسبة الاجتماعات السنوية للبنك الدولى للتعمير والتنمية (WORLD BANK) وصندوق النقد الدولى (IMF) فى واشنطن، فتقرر إنشاء مجموعة مصغرة من الدول النامية يوكل إليها مثل هذا التنسيق ، وهى مجموعة الأربعة وعشرين .

ثم نشأت مجموعة مصغرة من الدول النامية ذات الاقتصاديات البازغة هى مجموعة الخمسة عشر منذ عام ١٩٨٩ . ورغم أن عدد البلدان النامية زاد حتى أصبح الآن ١٣٣ دولة إلا أن اسم المجموعة لم يتغير وتم الاحتفاظ به كمجموعة السبعة وسبعين لما له من مغزى تاريخى .

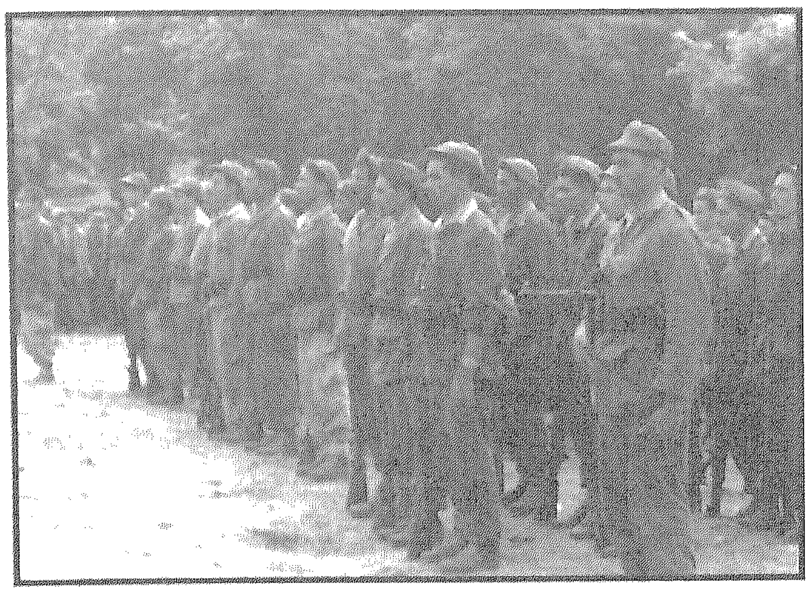
أهداف المجموعة :

وتعتبر مجموعة السبعة وسبعين أكبر تجمع للعالم النامى فى إطار الأمم المتحدة ، والهدف من إنشائها واجتماعاتها هو صياغة والدفاع عن المواقف والمصالح الجماعية لدول المجموعة فى المجال الاقتصادى ، وتدعيم قدراتها التفاوضية فى جميع الموضوعات الاقتصادية الدولية الكبرى فى إطار نظام الأمم المتحدة ، بالاضافة إلى تشجيع التعاون الاقتصادى والفنى فيما بين الدول النامية .

هيكل المجموعة :

ويتميز تنظيم ووسائل عمل مجموعة السبعة وسبعين فى مختلف فروع المجموعة بالحد الأدنى من المواقف المشتركة والمتشابهة فى العضوية وفى اتخاذ القرارات ووسائل التنفيذ العملى لتلك المواقف .

ويتم تنسيق المواقف فى كل من فروع المجموعة بواسطة رئيس يعتبر المتحدث الرسمى باسم المجموعة . ويتم التناوب فى رئاسة المجموعة فيما بين المجموعات الجغرافية الثلاث : بين افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والكاريبى . وتستمر رئاسة



جيش التحرير الجزائرى ساندته الثورة المصرية فى كفاحة للحصول على الحرية

المجموعة لمدة سنة فى كل فرع من الفروع . وترأس فنزويلا المجموعة فى نيويورك عام ٢٠٠٢ . وسبق لمصر أن تولت رئاسة المجموعة مرتين فى نيويورك منذ إنشائها فى سنة ٧٣/٧٢ وفى سنة ٨٥/٨٤ . كما ترأس مصر المجموعة فى جنيف عام ٢٠٠٢ .

ويعتبر الاجتماع الوزارى للمجموعة أعلى سلطة لاتخاذ القرار . ويعقد مرة فى السنة على هامش الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك ، كما يعقد دوريا بمناسبة الإعداد لمؤتمرات الأمم المتحدة للتجارة والتنمية التى تعقد مرة كل أربع سنوات . كما تعقد للاعداد للمؤتمر العام لكل من اليونسكو واليونيدو كما تعقد دورات خاصة للاجتماع الوزارى لمجموعة السبعة وسبعين كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، وهكذا عقد اجتماع وزارى للمجموعة بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على إنشاء المجموعة فى كراكاس فى يونيو ١٩٨٩ وبمناسبة مرور ثلاثين عاما على إنشاء المجموعة فى نيويورك فى يونيو ١٩٩٤ .

وقد عقدت أول قمة لمجموعة السبعة وسبعين فى هافانا فى ابريل عام ٢٠٠٠ وهكذا أصبح أعلى مستوى سياسى لاتخاذ القرار فى المجموعة على مستوى القمة منذ ذلك الحين .

وبالنسبة لمتابعة وتنسيق أنشطة مجموعة السبعة وسبعين تعقد اللجنة الحكومية للمتابعة والتنسيق على مستوى كبار المسئولين، وتعقد مرة كل سنتين The Intergovernmental Follow. up Cordination committee on Economic Cooperation anong Developing

Countries (IFCC) وذلك لمتابعة مدى التقدم فى تنفيذ برنامج عمل كراكاس The Caracas Programme of Action (CPA) والذى تم اعتماده فى الاجتماع الوزارى لمجموعة السبعة وسبعين فى عام ١٩٨١.

وهكذا نرى أن إشعاع ثورة ٢٣ يوليو على الدول النامية وتأثيرها كان كبيراً ومتعاظماً فى إطار مساندة حق الشعوب فى تقرير مصيرها وحصولها على الحرية والاستقلال السياسى والاقتصادى، بإنهاء الاحتلال الأجنبى وتحقيق السيادة الفعلية لكل دولة على مواردها الطبيعية، ووضع حد لسيطرة الاستعمار على الاقتصاد والتجارة الخارجية فى مختلف الدول النامية بالحصول على نصيب عادل من حصيلة تجارتها الخارجية وتوجيه مواردها لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية على طريق رفع مستويات المعيشة لشعوبها.

ومن هنا كان دور مصر الثورة فعالا ومؤثراً فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥، وحاسما فى نشأة حركة عدم الانحياز التى وضعت مبادؤها وأهدافها فى القاهرة عام ١٩٦١، ثم فى تجمع الدول النامية من خلال مؤتمر الدول النامية الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٦٢ وفى إنشاء مؤتمر التجارة والتنمية (UNCTAD) ومجموعة السبعة وسبعين عام ١٩٦٤ والتى تطورت حتى عقدت أول قمة لها فى هافانا عام ٢٠٠٠.

ونظراً للتداخل فيما بين اهتمامات وأنشطة حركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة وسبعين وخاصة بالنسبة للموضوعات الاقتصادية والتعاون الدولى من أجل التنمية، فقد تم الاتفاق على ضرورة إيجاد آلية للتنسيق فيما بين التجمعين خاصة فى ظل العولمة والتحول الى اقتصاد السوق وانهيار الاتحاد السوفييتى وحلف وارسو، وما تواجهه الدول النامية من تحديات العولمة وهيمنة الدولة المتقدمة من خلال الشركات عبر القومية على الاقتصاد العالمى، لذلك تم الاتفاق على إنشاء لجنة مشتركة للتنسيق فيما بين حركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة وسبعين تعقد اجتماعات دورية فى نيويورك لإعداد مواقف مشتركة بالنسبة للنظام الاقتصادى والتجارى والنقدى والمالى فى العالم وموقف الدول النامية من ضرورة إصلاح تلك النظم وكيفية اتخاذ القرار فيها على نحو ديمقراطى بما فى ذلك تنفيذ تعهدات الدول المتقدمة للدول النامية سواء بالنسبة للمساعدات الرسمية للتنمية أو تدفقات الاستثمار أو استقرار الأسواق المالية ونقل التكنولوجيا والبيئة وتخفيف عبء مديونية الدول النامية. وقد تأكد ذلك فى آخر قمة لحركة عدم الانحياز فى ديربان فى جنوب أفريقيا عام ١٩٩٨ وقمة الجنوب التى عقدت فى هافانا عام ٢٠٠٠. ■

مصر والطاقة النووية خلال نصف قرن

بقلم : د.فوزى حماد

كان إلقاء القنبلتين النوويتين على هيروشيما ونجازاكى فى أغسطس ١٩٤٥ إعلاناً مدوياً ببداية العصر النووى. وسبق هذا التدمير الهائل جهود سرية هائلة منذ اكتشاف الانشطار النووى فى برلين فى أواخر عام ١٩٣٨، وانتقاله إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٩، ثم موافقة الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت، بناء على خطاب توصية من اينشتين فى أكتوبر ١٩٣٩، على صناعة القنبلة الذرية. وأنشأ الرئيس الأمريكى لجنة اليورانيوم لدراسة هذا الموضوع وحصر الإمكانيات العلمية الأمريكية فى الجامعات الأمريكية، وتم بناء أول مفاعل نووى صغير، الذى أثبت إمكانية التوصل إلى تفاعل انشطار نووى متواصل، ثم مشروع مانهاتن - أكبر مشروع فى التاريخ منذ بناء الهرم الأكبر - لإنتاج اليورانيوم ٢٣٥ والبلوتونيوم - ٢٣٩ وصناعة القنبلة النووية

وعقب السباق النووى الذى حدث بعد هيروشيما، تحرك الرئيس أيزنهاور نحو برنامج «الذرة من أجل السلام» الذى أعلنه من على منبر الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٥٣، وتضمن البرنامج إزالة السرية عن النشاط النووى ونشر نتائج البحوث فى المجلات النووية السلمية وتبادل المواد النووية. فى إطار هذا الانفراج النووى أصدر الرئيس جمال عبدالناصر فى فبراير ١٩٥٥ قراراً بإنشاء لجنة الطاقة الذرية وبدأت مشوارها النووى ونتناول فى هذا المقال المراحل المختلفة للبرنامج النووى المصرى وهى كما نرى.

- مرحلة الإنشاء والتكوين ١٩٥٥ - ١٩٦٠.
- البرنامج النووى فى ظلال ديمونا ١٩٦٠ - ١٩٦٧ .
- تعدد الهيئات وتعدد المشاريع النووية.

ثم وصل « تالبوت » إلى النوع الثالث من الأسلحة فقال فى تقريره :
« وفيما يتعلق بالأسلحة النووية فقد أوضحت أن الرئيس جونسون أعرب
عن الأولوية العليا التى توليها الولايات المتحدة لمنع انتشار الأسلحة النووية . ونحن
كالجمهورية العربية المتحدة نفضل انتهاج الطريق الدولى على أساس ما جاء فى قرار
ايرلندا (فى الأمم المتحدة) . وإننا ندرك الخطر المصاحب لحيازة أى دولة فى الشرق
الأوسط للأسلحة النووية . وهناك أهمية كبرى فى الشرق الأوسط لضمانات الوكالة
الدولية للطاقة الذرية . إذ أنها تعطى المشكلة بعدها الدولى . وفى اعتقادنا أن
الجمهورية العربية المتحدة تنظر إلى المشكلة نفس النظرة . وإذا أمكن قبول الضمانات
فإن ذلك سيساعد على حل المشكلة . ورد ناصر فأشار إلى البيان الذى أدلت به حكومة
الجمهورية العربية المتحدة فى فيينا وأعلنت فيه قبولها للضمانات الدولية . وقال إنه
يعارض فى أن تقوم الولايات المتحدة بالتفتيش باعتبار أن ذلك عمل من طرف واحد .
ولكنه يوافق على العمل الدولى . وأنه لا يستطيع أن يسمح للولايات المتحدة منفردة
بامتياز كهذا . وذكر أن الجمهورية العربية المتحدة تملك مفاعلا صغيرا فى حين أن
لدى إسرائيل مفاعلا ضخما . وأن تلك فى حد ذاتها مشكلة تثير القلق ولا سيما بين
العسكريين . وإن كانت الحكومة (فى مصر) لم تتخذ بعد قرارا بإنشاء مفاعل كبير . »
واستطرد « تالبوت » يقول فى تقريره لوزير الخارجية الأمريكية :

تتضمن الوثائق الأمريكية المحاولات الدائمه للحيلولة دون السير في طريق تطوير النشاط النووي فى مصر. وضرورة إخضاع مفاعل انشاص إلى التفتيش الدورى بل وسعت الولايات المتحدة إلى الحصول على حقها فى التفتيش.

وهذا محضر لقاء بين عبد الناصر و تالبوت السفير الامريكي في ١٨ إبريل سنه ١٩٦٥

مرحلة الإنشاء والتكوين. ١٩٦٠ - ١٩٦٥.

كانت إسرائيل أول دولة فى المنطقة، عقب مشروع إيزنهاور تعلن عن تكوين لجنة للطاقة الذرية، ففى نوفمبر ١٩٥٤ أعلن العالم إرنست برجمان رئيس لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية عن هذه اللجنة. وفى هذا العام أيضاً قدمت الحكومة الأمريكية لإسرائيل عرضاً بإنشاء مفاعل تجريبى بحثى قدرته ٥ ميجاوات يستعمل وقوداً عالى الاغناء (الإثراء) نسبة اليورانيوم٢٣٥ فيه تصل إلى ٩٣٪. وللتعامل مع هذا العرض كان على إسرائيل أن تعلن عن لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية التى شكلت سراً فى يونيو ١٩٥٢، فى وقت قيام الثورة المصرية. فى ظل البرنامج الأمريكى الجديد ، وفى إطار العرض الأمريكى على إسرائيل، وإعلان تكوين لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية جاء التحرك المصرى فى عام ١٩٥٥ فى مجال الطاقة النووية، أصدر الرئيس جمال عبدالناصر فى ١٧ فبراير بصفته رئيسا للوزراء قراراً بتشكيل لجنة للطاقة الذرية تابعة لرئيس الوزراء من خمسة أعضاء برئاسة وزير التعليم (كمال الدين حسين) وتولى الدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن مهام سكرتارية اللجنة وإدارتها بجانب عمله أميناً عاماً لمجلس الوزراء وقد اختصت اللجنة بالنظر فى كل مايتعلق بالطاقة الذرية واستخداماتها وتطبيقاتها السلمية.

وفى مارس ١٩٥٥ اعتمد مجلس الوزراء قرارات السيد رئيس الوزراء وتحدد اختصاص اللجنة فى إعداد وتنسيق وتنفيذ كل مايتعلق بالطاقة الذرية من برامج ومشروعات وبحوث ودراسات علمية ومناهج التدريب وأجهزة وأدوات وإعداد التشريعات واللوائح اللازمة لتقدم بحوث الطاقة الذرية والعمل على استخدامها فى مختلف الأغراض السلمية .

وفى ٣٠ مارس ١٩٥٥ وافق مجلس الوزراء على البرنامج الذى أعدته اللجنة فى المرحلة الأولى من العمل وقد تكون البرنامج من المشاريع التالية:

- إعداد الأفراد.
- إنشاء مركز للنظائر المشعة
- الكشف عن الخامات الذرية
- إنشاء معمل للطبيعة النووية
- إنشاء مفاعل ذرى.

وقد أشرف على إعداد هذا البرنامج الدكتور

إبراهيم حلمى عبد الرحمن وهو فى تقديرى أول برنامج علمى متكامل فى تاريخ مصر الحديثة ، وتم إقراره بواسطة أعلى سلطة سياسية وهو مجلس الوزراء بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر.

وجاء هذا البرنامج متوازناً يجمع بين العلم والتطبيق، ويبدأ لأول مرة فى مصر الكشف عن الخامات الذرية وفى مقدمتها اليورانيوم مادة العصر النووى، ثم إنشاء مفاعل نووى مع الاهتمام بعلم الطبيعة النووية النظرى والتجريبى وهو أساس مهم من أسس العلوم النووية .

وأشرف أيضاً على تطبيق وتنفيذ هذا البرنامج فى الفترة من ١٩٥٥ - ١٩٨٥ الدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن، عالم الفيزياء والفلك الذى درس فى جامعات لندن وأدنبرة وكامبردج فى بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان لصلته القوية بالسلطة السياسية وقيامه بمهمة أمن مجلس الوزراء دافع للتقدم السريع فى هذه الفترة ، وقد تفرغ بعد ذلك للتخطيط القومى ابتداء من عام ١٩٥٨ .

بداية الاستخدامات السلمية

بدأ العمل فى مركز النظائر المشعة فى يوليو ١٩٥٥ فى مقر مؤقت بجامعة عين شمس، وتم تزويد المركز بالأجهزة والمعدات لاستخدام النظائر المشعة فى التشخيص والعلاج : ومن هنا انطلقت الاستخدامات الطبية النووية وهى أعظم تطبيقات الطاقة الذرية. ونعتقد أن الدافع وراء ذلك أن السيدة أم كلثوم مطربة الشرق كانت قد أصيبت بمرض فى الغدة الدرقية، وسافرت للعلاج فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٤ باستخدام النظائر المشعة وانتشر النبأ فى الصحف مما أعطى مساحة لمعرفة بعض استخدامات الطاقة الذرية مبكراً .

بداية الاحتكاك الدولى

شاركت مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة الأول للاستخدامات السلمية الذرية الذى عقد فى جنيف فى أغسطس ١٩٥٥ من خلال وفد رفيع المستوى قدم ثلاث أوراق توضح اتجاهات استخدامات الطاقة النووية .

- الورقة الأولى عن احتياجات مصر من الطاقة الذرية .
- الورقة الثانية عن اليورانيوم.
- الورقة الثالثة عن الوقاية من الاشعاع.

وهى اتجاهات رئيسية حتى الآن فى مجال الطاقة النووية وبنهاية عام ١٩٥٥ صدر القانون ٥٠٩ لسنة ١٩٥٥ (٢٣ اكتوبر) بإنشاء لجنة الطاقة الذرية لتمكين الدولة من الاستخدامات النووية السلمية.

وتوج كل ذلك القرار الجمهورى ٢٨٨ لسنة ١٩٥٧ الذى حول اللجنة إلى مؤسسة عامة تمارس نشاطا علمياً وحدد أقسام الهيئة ونظامها والهيكل الإدارى وطبق قانون الجامعات على الموظفين العلميين . ونقل تبعية المؤسسة إلى رئيس الجمهورية أو من يفوض من الوزراء.

على الجانب الإسرائيلى

وقعت إسرائيل والولايات المتحدة فى يوليو ١٩٥٥ عقداً على شراء المفاعل البحثى الذى أشرنا إليه سابقاً وهو مفاعل نحال سوريق . لم يكن هذا المفاعل من النوع الذى عملت إسرائيل على امتلاكه فلقد كان تخطيطهم منذ عام ١٩٤٩ على امتلاك مفاعل من طراز الماء الثقيل - اليورانيوم الطبيعى لإنتاج البلوتونيوم وإنتاج القنبلة الذرية. ولكنهم قبلوه لتقوية إمكانياتهم البحثية والتدريبية وإنتاج النظائر . ومن المهم الإشارة إلى أنه أثناء مؤتمر جنيف أوضحوا للجانب الأمريكى رغبتهم فى الحصول على البلوتونيوم واكتساب الخبرة فى هذا العنصر الجديد والتدريب عليه . وأنهم يريدون مفاعلات حقيقية أى مفاعلات إنتاج البلوتونيوم .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن النشاط الذرى الإسرائيلى بدأ بإنشاء قسم للنظائر بمعهد وايزمان للعلوم فى عام ١٩٤٩ برئاسة العالم الكيميائى ارنست برجمان وهو يهودى ألمانى

واهتم باستخراج اليورانيوم من خام الفوسفات وبحوث الماء الثقيل ونظراً للتقدم العلمى فى هذا المجال للإسرائيليين فقد بدأ برنامج للتعاون مع فرنسا فى المجالات النووية وكانت فرنسا تعمل فى مفاعلات الماء الثقيل اليورانيوم الطبيعى ، وسمحت لهم فرنسا بالتدريب والمشاركة فى العمل الفرنسى فى هذا المجال .. وأصبح هدف إسرائيل هو بناء هذا الطراز من المفاعلات ، ولقد تحقق لها ذلك فى ظروف العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ .

التعاون مع الاتحاد السوفيتى

عام ١٩٥٦ كان بداية التحرك نحو تنفيذ مشاريع الطاقة الذرية . كان هذا العام مليئاً بالأحداث السياسية، فقد شهد صداماً مع الغرب بعد أن سحبت الولايات المتحدة عرضها بتمويل مشروع السد العالى، وأعقب ذلك تأميم قناة السويس فى يوليو ثم العدوان الثلاثى فى نوفمبر ١٩٥٦ فى فبراير ١٩٥٦ تم توقيع عقد معامل الطبيعة النووية وفى مقدمتها معجل الفان دى جراف . وفى يونيو ١٩٥٦ تم توقيع الاتفاق الثانى للتعاون فى مجال الاستخدامات السلمية النووية تمهيداً لتوقيع عقد المفاعل النووى الذى تم فى سبتمبر. كانت قدرة المفاعل ٢ ميجاوات ويستخدم وقوداً مثرى بدرجة ١٠٪ يورانيوم ٢٣٥ ، وهو من نوع المفاعلات النمطية التى يصدرها الاتحاد السوفييتى لدول الكتلة الاشتراكية . إن إمكانيات هذا المفاعل أقل من إمكانيات مفاعل نحال سوريق الإسرائيلى الذى أشرنا إليه . وكان يمكن اختيار مفاعلات سوفييتية أكثر قدرة. ولكن يبدو أن الجانب المصرى لم يطلب ذلك، ويمكن تبريره بأن الخبرة فى هذا المجال كانت فى بدايتها، ولم تكن هناك معرفة بالنشاط السوفييتى. وكنت أعتقد أن وجودنا فى مؤتمر جنيف كان كفيلاً بأن نتابع التطورات فى مجال أبعاد المفاعلات النووية، وخاصة أنه فى عام ١٩٥٥ تعاقدت الهند على شراء مفاعل من كندا من طراز الماء الثقيل – اليورانيوم الطبيعى قدره ٤٠ ميجاوات ، وربما أيضاً لأن الاتصالات الدولية المصرية بالعالم النووى لم تكن كافية ولم تكن متاحة . مثل الاتصالات الإسرائيلية الفرنسية ، كما أن كثيراً من العلماء اليهود كانوا على صلة بالتطورات النووية فى العالم . كذلك كانت الهند عن طريق العالم هومى بهابها مهندس البرنامج النووى الهندى الذى درس فى كمبردج الفيزياء النووية وكان على صلة بالدوائر العلمية النووية ، وكان عبدالقدير خان مهندس البرنامج النووى الباكستانى فى قلب صناعة إغناء اليورانيوم الأوربية ، وتجدر الإشارة هنا أيضاً أنه بعد توقيع عقد مفاعل انشاص بحوالى شهر، وافقت فرنسا فى أكتوبر ١٩٥٦ أثناء مفاوضات سيفر للإعداد للعدوان الثلاثى على إعطاء إسرائيل مفاعلا يمكنها من صنع القنبلة الذرية وهنا تكللت الجهود الإسرائيلية التى بدأت فى عام ١٩٤٩ بالنجاح ، وبدأ حلم إسرائيل النووى فى التحقق . وتم ذلك فى سرية تامة، وسوف نعود إلى ذلك .

القوى البشرية

من الأمور التى أولاها دكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن رعاية كبرى هى التدريب والقدرات البشرية. تم حصر أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات الذين تخصصوا فى مجالات إشعاعية ونووية وكان عددهم قليلا وتم نقل من يرغب منهم للعمل باللجنة وتم إرسالهم للخارج فى الدورات التدريبية التى نظمتها الولايات المتحدة فى إطار برنامج الذرة من أجل السلام . كما تم إرسال بعثات للخارج للحصول على درجات علمية للدكتوراه ، وأخذ ذلك وقتاً كبيراً ومن الخطوات المهمة اختيار عدد من أوائل طلاب الثانوية العامة فى عام ١٩٥٦ وإرسالهم فى بعثات للاتحاد السوفييتى لدراسة العلوم النووية على مستوى البكالوريوس ثم درجة الدكتوراه وخاصة فى مجال الفيزياء النووية والرياضيات. وشكلت هذه

المجموعة قدرة علمية مصرية مهمة في هذه المجالات.

موقع إنشاص - المفاعل

في عام ١٩٥٦ أيضاً تم تخصيص مساحة ٤كم٢ على بعد حوالى ٤٠كم شمال شرق القاهرة في منطقة تقع على الحدود بين محافظتي القليوبية والشرقية (وبين أبو زعبل وانشاص) ليكون موقع النشاط النووى الأساسي في مصر .. ويطلق عليه اسم انشاص .

وبدأت حركة الانشاءات في هذا الموقع، كان أولها معامل الطبيعة النووية وأهمها معجل فان دى جراف الذى انتهى في عام ١٩٥٩ ثم قسم الوقاية (١٩٦١) وقسم الجيولوچيا والخامات الذرية (١٩٦١) وهكذا .. ولازال العمران العلمي يمتد في هذا الموقع الذى يتسع ليكون مدينة العلوم والتكنولوچيا النووية، وكان درتها في هذا الوقت مفاعل مصر البحثي الأول ودرتها الآن مفاعل مصر الثاني – متعدد الأغراض، والسيكلوترون أو المعجل الدائرى وهى من مرافق العلم الكبير والتكنولوچيا المتقدمة .

نعود إلى مفاعل مصر البحثي الأول ، لم يكن تشييده أمرا سهلاً ، حدث تأخر في التشييد عن الجدول الزمنى المحدد ، في فترة فراغ إدارى حينما ترك الدكتور إبراهيم حلمى الطاقة الذرية قبل تولى السيد صلاح هدايت رئاسة هيئة الطاقة الذرية في عام ١٩٦٠ .

شرح السيد صلاح هدايت هذه الظروف في احتفال بسيط ، أشرفت على تنظيمه في مبنى المفاعل بانشاص في عام ١٩٩١ بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على تشغيل المفاعل لتكريم الرواد الذين ساهموا في إقامة هذا العمل.

ذكر السيد هدايت أن الرئيس جمال عبدالناصر استدعاه للمقابلة ، وذكر له أن السوفييت شكوا من التأخير في التنفيذ، بالرغم من أن كل المعدات موجودة في الموقع، وطلب منه تولى مسئولية هيئة الطاقة الذرية والإشراف على عملية التشييد للانتهاء منها في أقرب فرصة ممكنة. ولقد قام هدايت – رحمه الله فقد فاضت روحه منذ عدة أسابيع – بالمهمة خير قيام ، فهو ضابط حصل على بكالوريوس علوم – كيمياء ، وخبير مفرقعات . وكون فريق عمل متكاملا يضم كل التخصصات والخبرات اللازمة، أتى بهم من جهات مختلفة لتدعيم طاقم المهندسين بالهيئة، وفي مطلع عام ١٩٦١ بدأت اختبارات بدء التشغيل ووصل المفاعل درجة الحروجية .

في فبراير ١٩٦١ بدأ المفاعل في العمل وتم الحصول على أول تفاعل انشطار نووى متسلسل في «مصر والأمة العربية» ، وذلك بعد ١٩ عاماً من تشغيل مفاعل قمين شيكاغو –١ أول مفاعل في العالم في ديسمبر ١٩٤٢ كان المفاعل المصرى خامس مفاعل بحثي في أفريقيا وآسيا، وقد سبقه مفاعل أسبارا الهندى قدرة ١ ميجاوات (٥٦/٨)، ونحال سوريق – إسرائيل ٥ ميجاوات، وقد أشرنا إليه (٥٨/٦) – تريكو – ١ زائير ٥٩/٦ (تم إيقافه في عام ١٩٧٠ ، والمفاعل الكندى الهندى – ٤٠ ميجاوات (٦٠/٧) الذى أشرنا إليه أيضا وهو أكبر مفاعل بحثي خارج الدول الكبرى. كل هذه المفاعلات بحثية وتدريبية وتستخدم لإنتاج النظائر ماعدا المفاعل الكندى – الهندى – فهو مفاعل إنتاج بلوتونيوم يستخدم اليورانيوم الطبيعي ، ومهدىء بالماء الثقيل .

مقابلة مع إبراهيم حلمى عبد الرحمن

أود أن أشير هنا إلى مقابلة تمت بيني وبين السيد الدكتور إبراهيم حلمى في عام ١٩٩٥ . أردت أن أستوضح الموقف في الفترة التى تولى فيها إنشاء لجنة الطاقة الذرية وإعداد مشروعاتها وتنفيذها . وسألته صراحة هل كانت هناك أى أهداف عسكرية .. ولكنه أوضح لى أنه لم يكن هناك أى توجهات بذلك. وذكر أنه كان بلجنة الطاقة الذرية عضو يمثل القوات المسلحة وكان

يحضر كل الاجتماعات ، ولم يحدث أبدا عرض مواضيع عسكرية .

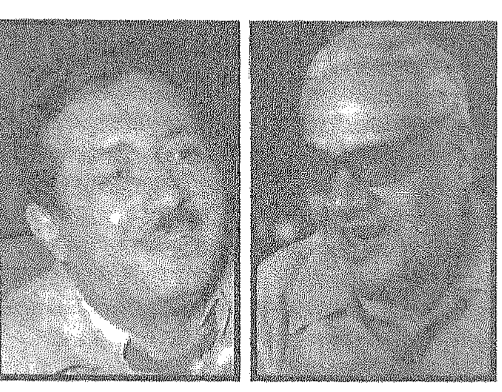
ولذلك كان التخطيط المصرى على ماهو ظاهر من البرامج الإسرائيلية ، ويبدو أنه لم يكن هناك جهد مصرى فى متابعة مايحدث فى إسرائيل سراً أو فى الباطن منذ عام ١٩٤٩، ولم يكن هناك معرفة بعمق الاتصالات الإسرائيلية الفرنسية النووية، كانت إسرائيل على معرفة وثيقة بالاتجاهات الجارية فى العالم حتى السرية منها فالعلماء اليهود كانوا وراء النشاط النووى الأمريكى وفى مشروع مانهاتن. كما كانوا فى كثير من المعامل النووية فى أوروبا . وهذا وضع لم يتح لمصر كما أن إرسال البعثات المصرية جاء متأخرا، وكان فى جامعات وليس فى مراكز بحوث نووية إلا فيما ندر كانت مصر مقطوعة الصلة النووية بالعالم .



عام ٥٦ ومفاعل ديمونا

أشرنا سابقاً إلى الجانب النووى من اتفاقية سيفر فى أكتوبر ١٩٥٦ ونشرنا عن تفاصيل ذلك فى مقال بالمصور (العدد ٣٧٦٠ أول نوفمبر ١٩٩٦) ، وتم تغطية هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب «إسرائيل والقنبلة (للكاتب الإسرائيلى أفنركوهين) الذى نشر فى عام ١٩٩٨» لقد أدركت إسرائيل مبكراً جداً أهمية العلم والتكنولوچيا فى صياغة مستقبل إسرائيل وأمنها . ولقد عبر بن جوريون عن ذلك فى خطاب له بالكنيست فى مطلع الخمسينيات قال فيه:

«إن أمن إسرائيل واستقلالها يتطلب أن يعمل مزيد من الشباب على تكريس جهودهم للعلم والبحوث الذرية والالكترونية والطاقة الشمسية ، وما شابه ذلك». كما اعتقد كثير من العلماء الإسرائيليين ومنهم «ارنست برجمان» بأنه لابديل «أى لابديل عن القنبلة الذرية» لبقاء إسرائيل وتضافرت جهود برجمان تحت قيادة شيمون بيريز مهندس البرنامج النووى الإسرائيلى ورئاسة بن



ابراهيم حلمي عبد الرحمن — صلاح هدايت

جوريون للوصول إلى هذا الهدف، إن الوصول إلى ماتم الاتفاق عليه فى سيفر استلزم قدرات علمية إسرائيلية مفيدة للفرنسيين وتحديد الهدف مبكراً عن نوع المفاعل الذى يريدونه ، والارتباط طويل المدى مع الفرنسيين منذ بداية برنامجهم النووى المستقل عن البرنامج الأمريكى، كماأدت هذه العوامل إلى توثيق العلاقات النووية الإسرائيلية الفرنسية، ورعى ذلك بيريز باستمرار ، ولم تنقطع الرعاية حتى حانت لحظة سيفر . البحث العلمى والتكنولوچيا هما قوة إسرائيل .. هدف لم تحد عنه الحركة الصهيونية قبل إنشاء الدولة وكان فى مقدمته الطاقة النووية وتحرك نحو الفضاء والصواريخ ثم إلى عصر المعلومات والتكنولوچيا المتقدمة . هذا سر الهيمنة الإسرائيلية التى تجنى ثمارها الآن بكل اقتدار.

فى أكتوبر ١٩٥٧ تم التوصل إلى الاتفاق الفنى والاقتصادى بخصوص ديمونا وكذلك بخصوص محطة إعادة المعالجة وفصل البلوتونيوم، وبدأت أعمال الحفر والإنشاء فى أوائل عام ١٩٥٨ وبدأ يتكشف السر فى ديسمبر عام ١٩٦٠. وحينما بدأت تشغيل مفاعل مصر البحثى فى انشاص، لم يعد ديمونا سرا.

وفى ٢٦ ديسمبر ١٩٦٣ وصل ديمونا إلى درجة الحروجة وبدأ التشغيل، وفى عام ١٩٦٦ –

١٩٦٧ بلغت إسرائيل مرحلة تطوير سلاحها النووى . وأصبح لديها قوة نووية صغيرة قبل حرب ١٩٦٧ وبحلول عام ١٩٧٠ أصبحت إسرائيل الدولة النووية السادسة فى العالم.

وكان هذا موقفاً جديداً ينبغى على مصر أن تواجهه .. موقفا لم تعلم عنه الكثير ولم تتابعه، بل لقد فوجئت به.

فى ظلال مفاعل ديمونا

تم وضع الخطة الخمسية ١٩٦٠ - ١٩٦٥ فى ظلال مفاعل ديمونا ، وفى ضوء تطور الوضع العالمى بالنسبة لمفاعلات القوى النووية وإنتاج الكهرباء . فقد تم تشغيل محطة أمريكية بالولايات المتحدة بالقرب من شيكاغو فى عام ١٩٦٠درسدن -١ ، وكانت قدرتها ٢١٠ ميجاوات، وهى من مفاعلات الماء الخفيف، وبدأت الهند مرحلة الكهرباء النووية - بعد أن سيطرت على تكنولوجيا البلوتونيوم - وعملت على إدخال محطة من هذا النوع. فى ظل هذه الظروف أشرف السيد صلاح هدايت على صياغة خطة تتناول مايلى:

● إنشاء مفاعل قوى نووى قدرة ١٥٠ ميجاوات كهربى وملحق به محطة لتحلية مياه البحر سعة ٢٠,٠٠٠ متر مكعب وملحق بها مزرعة تجريبية مساحتها حوالى ١٥,٠٠٠ فدان.

● السعى لدى الشركات المتقدمة بتقديم مفاعل تجريبى لأغراض التجارب والبحوث من نوع اليورانيوم الطبيعى والماء الثقيل.

● إقامة دورة وقود نووى بما فيها الطرف الخلفى لدورة الوقود النووى والتصنيع المحلى للوقود.

تبع ذلك نشاط كبير فى ظلال ديمونا على النحو التالى :

● فى عام ١٩٦١ تم تشكيل لجان للدراسات واختيار موقع المفاعل واختير موقع برج العرب سيدى كرير من ضمن خمسة مواقع رشحت لذلك. والملاحظ أنه تم التوصل إلى هذه الصياغة متأخرا جداً عن إسرائيل والهند.

● فى عام ١٩٦٢ تم تشكيل لجنة إنشاء مفاعل القوى ولجنة لتحلية المياه . وتم إنشاء إدارة عامة لمفاعل القوى بالهيئة .

● فى عام ١٩٦٣ تم طرح المناقصة العالمية للمفاعل وتحلية المياه ودورة الوقود. فلم تكن هناك علاقات نووية تسمح باتفاقات ثنائية .

● تقدمت ٤ شركات عالمية : منها شركتان ألمانيتان وشركتان أمريكيتان.ولم يتقدم الاتحاد السوفييتى بأى عرض بالرغم من الطلب منه .

● فى عام ١٩٦٦ تمت الموافقة على عرض من شركة وستنجهاوس وتم إعطاؤها خطاب التزام . كان عرضا ممتازاً لمفاعل قوى نووية قدرة ١٥٠ ميجاوات وبه وحدة لتحلية مياه البحر. وقدمت عرضاً إضافيا وهو مفاعل تجريبى قدره ٣٠ ميجاوات وملحق به وحدة لتصنيع الوقود.

● فى نفس الوقت طلبت عرضاً من الاتحاد السوفييتى لإقامة معمل حار لمعالجة الوقود النووى المشع. وشكلت لجنة تسمى لجنة العمل الحار عام ١٩٦٥.

ويعتبر هذا المشروع المتكامل هو الرد المصرى على مفاعل ديمونا وهو مشروع سلمى لتوليد الكهرباء وتحلية المياه وفى نفس الوقت يسهم فى بناء التكنولوجيا النووية فى المفاعل التجريبى ووحدة الوقود النووى.

ولكن حرب ١٩٦٧ كانت على الأبواب ؟ وتوقف هذا النشاط بالكامل؟ فهل كان هذا من أسباب حرب عام ١٩٦٧؟ يعتقد الكثيرون فى ذلك ولكن الموضوع يحتاج إلى دراسة تاريخية موثقة.

بالإضافة إلى ذلك يجب أن نشير إلى زيارة صينية حدثت عام ١٩٦٥ .

الزيارة الصينية

فى يوليو ١٩٦٥ زار وفد مصرى رفيع المستوى الصين برئاسة د. عبد المعبود الجبيلى الذى أصبح مديراً عاماً لمؤسسة الطاقة الذرية . كان ذلك فى أعقاب التفجير النووى الصينى فى

عام ١٩٦٤.

وقام الوفد بزيارة عدد من المعامل البحثية المتقدمة ومراكز البحوث والجامعات والصناعات التقليدية والمتقدمة، وبعد هذا البرنامج الحافل من الزيارات تمت مقابلات سياسية على أعلى مستوى وطرح فيها التعاون النووى العسكرى .. وكانت الإجابة على أعلى مستوى ..الاعتماد على الذات هكذا تقول المراجع الأجنبية .

وتطرح سؤالا هاماً .. لماذا لم يتم الحديث عن الاستخدامات السلمية قبل الحديث عن الاستخدامات العسكرية ؟

المرحلة الثالثة : تعدد الهيئات - تعدد المشاريع

بدأت عام ١٩٧٤ أثناء زيارة الرئيس نيكسون إلى مصر. وأعلن فيها عن تقديم مفاعل لمصر ومفاعل لإسرائيل لإنتاج الكهرباء. وعقب ذلك تم تقديم عرضين أمريكيين بالطبع أحدهما من شركة وستنجهاوس والآخر من شركة چنرال اليكتريك . وزادت قدرة المفاعلات إلى أكثر من ٦٠٠ ميجاوات. وبدأت المفاوضات واللجان وما إلى ذلك .. وتعيين مكتب استشارى أمريكى .

كما بدأت السفريات من هنا ومن هناك . وحدثت تحركات قوية لإعادة تنظيم الطاقة الذرية استعداداً للمرحلة القادمة فأنشئت هيئة المحطات النووية عام ١٩٧٦ لتتولى هذا المشروع الكبير، ونقل إليها العاملون بالإدارة العامة لمفاعل القوى وعدد من الأساتذة. وفى عام ١٩٧٧ انشئت هيئة المواد النووية ونقل إليها العاملون بقسم الچيولوچيا والخامات الذرية الذى أنشىء فى عام ١٩٥٧.

وفى عام ١٩٧٩ وقع حادث ثرى مايل آيلاند فى أمريكا وتوقف المشروع . ثم بدأت محاولة أخرى فى عام ١٩٨٢ مشروع الضبعة وانتهت فى عام ١٩٨٦ حين وقع حادث تشيرنوبل فى الاتحاد السوفييتى . وبدأت عقب ذلك اتصالات مع كندا لإقامة برنامج تزداد فيه نسبة الاعتماد على الذات .. وانتهت أيضا إلى نفس المصير . قد تكون هناك عوامل سياسية وراء ذلك الفشل المكرر !! ولكن هل تمت إدارة المشاريع بكفاءة ونجاح .. نحن فى حاجة إلى دراسة ذلك قبل أى تحرك جديد .

ولم يتحرك الموقف النووى منذ ذلك التاريخ .. لم تقم مفاعلات لتوليد الكهرباء .. ولم يعلن عن اكتشافات كبيرة لليورانيوم .. تحركنا من مشروع سيدى كرير إلى مشروع الضبعة وغيرها ولم تؤد إلى أى نتيجة.

التحرك الوحيد هو الذى قامت به الطاقة الذرية لإقامة مفاعل بحثى كبير قدرته ٢٢ ميجاوات ومصنع الوقود الملحق به وافتتحه السيد الرئيس حسنى مبارك فى عام ١٩٩٨ وهو أكبر مشروع علمى فى تاريخ مصر الحديثة ، وهو يحتاج إلى رعاية هائلة من كل النواحى .. لكى يؤتى هذا المشروع ثماره ويسهم فى نقلة عصرية نحو التكنولوچيا المتقدمة.

لقد قادت برامج الطاقة النووية السلمية المفاعلات ودورة الوقود النووى العالم المتقدم وكثيرا من دول العالم النامى الهند والصين وكوريا الجنوبية وغيرها إلى عصر التكنولوجيا المتقدمة .. وشكلت رادعا سلميا أمنيا .. ونحن فى أشد الحاجة إلى الردع بالتكنولوجيا النووية السلمية .

مصر الآن عضو فى معاهدة منع الانتشار وتحترم تعهداتها بكل دقة، وتسعى إلى إنشاء منطقة خالية من أسلحة التدمير الشامل . ويجب أن تسعى فى نفس الوقت إلى بناء التكنولوچيا النووية السلمية ، ولازال هدف الكهرباء النووية وتحلية المياه هدفا قومياً هاما يجب أن نسعى إليه بكل قوة لندخل إلى المستقبل التكنولوجى . ■

القنبلة الذرية يجب أن تصنعها مصر

بقلم : د. أحمد زكى *



نعم لابد لنا من القنبلة الذرية. لابد لمصر منها ولا تعجب ولا يأخذك مما أقول ذهول واذعار.

وسوف تسأل: لم؟

وسوف تسأل: كيف؟

وسوف أجيبك، فأقول لك لم، وأقول لك كيف.

القنبلة سلاح للإذلال السياسي

لن يمضى خمس سنوات أو عشر، حتى تكون القنابل الذرية عند كثير من الأمم ذات العلم، وذات الصناعة كبيرها والصغير وعندئذ تصبح القنبلة سلاحا للاذلال السياسى خطير. وتصبح أمة صغيرة، عندها قنبلة ولو واحدة، تسيطر ارادتها على أمة كبيرة، لا قنبلة عندها تقول لها افعلى، فإن لم تفعلى فأدمرك فى ساعة تدميرا وغير ذلك أن يكون عند الاثنين قنابل وغير ذلك أن لا يكون عند الاثنين قنابل.

إنها المساواة بينهما فى امكان الدمار العاجل تأتيانه كلاهما معا، فيمنع الخوف المتبادل من دمار أو هى المساواة بينهما فى استحالة الدمار عليهما تأتيانه باستحالة القنبلة أن تكون بأيديهما جميعا.

فإذا أنا رأيت أن أذكر بأمر القنبلة الذرية، أطلبها لمصر جريا مع ما سوف تجرى عليه وإليه الأمم الصغيرة، فى زمان غير بعيد، فما ذلك عن رغبة فى تدمير تأتيه مصر، أو رغبة فى اعتداء تكون هى صانعته ولكن رغبة فى دفع دمار مادى محقق أو اذلال سياسى شر منه، إذا ما كان لجاراتها أو غير جاراتها من القنابل الذرية ما ليس لها.

إنها جارة تثرثر بالدين

وهى جارة واحدة يجب أن نخشاها أشد خشية.

إنها جارة تثرثر بالدين أكثر مما يجب، وتعتدى باسم الدين وتقتل وتأتى البشاعة باسم الدين كأنه لم يكف البشرية ما أصابها من شرور التعصب الدينى، بين أهل الأديان جميعا، طوال

* الهلال يوليو ١٩٥٧

تلك القرون العشرين أو الثلاثين الماضية.

والدين يدخل قلوب بعض الناس فيكون طمأنينة وسلاما والدين يدخل عقول بعض الناس فيصيبها بالحمى، ويجعل من الرجال الوادعين وحوشا، ومن النساء وهو فساد في بعض العقول شقي به الاسلام طويلا، وشقيت به المسيحية زمانا أطول ولم يشق به من أهل الأديان شقاء تلك الجارة التي ضلت سبيلها إلى الله، وكان الضلال في سالف الزمان لها عادة.

القنبلة من صنع رجال هذه الجارة

ومما يزيد في احتمالات الموقف الحاضر وخطورته أن القنبلة الذرية كانت من صنع رجال يمتون إلى هذه الجارة بصلة من الدماء ذلك أن هتلر في فترة من نزواته، وحماقة من حماقاته، وبناء على رأى فاسد فاجر من آرائه الفاسدة الفاجرة، رأى أن يتخلص من أهل العلم في ألمانيا من غير ذوي الدماء الآرية! وضيق عليهم فهاجروا إلى حيث كانوا آخر الأمر وبالا عليه أي وبال.

وكان ممن هاجر منهم إلى أمريكا علماء وكان من هؤلاء العلماء علماء ذرة وقامت الحرب بين هتلر وأمريكا وأخذت ألمانيا فيما كانت آخذة فيه من صنع القنبلة الذرية ونبه هؤلاء المهاجرون رئيس الولايات المتحدة، روزفلت، إلى هذا وكان من العسير تنبيهه واسماع رجاله ولكنهم سمعوا أخيرا. وأخذت القنبلة طريقها إلى البحث مستندة إلى ما نقله المهاجرون من سر الذرة إلى الولايات ونجح البحث العلمي الذي مهد للقنبلة ودخلت القنبلة دور الصناعة، يدفعها الحذق الفني الرائع والثروة الطائلة والحرب المنذرة، وفي سبيل الحرب يهون العسير ويرخص الغالي وكان من أمر الذرة ما كان ومن أخطر ما كان أن سر الذرة، شقها، وتفجيرها هو اليوم في أيدي تلك الجماعة التي تمت إلى الجارة المجنونة بصلة الدماء.

احتمالات

وتستطيع أيها القارئ أن تتصور ما قد يكون نفر من هؤلاء العلماء يأتي هذه الجارة فيعلمها كيف تصنع القنبلة وهي قنبلة واحدة لا سواها تتحكم في الشرق كله أو قل قنبلتين أو ثلاثا أو تقوم حرب بين الولايات وخصومها، تكون القنبلة من أدواتها ويحملها رجال الولايات إلى هؤلاء الخصوم ومن رجال الولايات هؤلاء القوم المخوفون يكفي أن تأخذ برأسه تلك الحمى الدينية المعتوهة فيتوجه بتلك القنبلة، لا إلى ما قصدتها بها الولايات من خصوم، ولكن إلى من يراهم هو لدينه من أهل هذا الشرق خصما أو تسرق القنبلة من الولايات سرقة القنبلة الذرية، لا الادروجينية فالأولى أصغر وفي الأولى الكفاية غاية الكفاية والسرقة منها المكشوف والمستور. ومن حسن التدبير وسائل يضفي عليها عند الخروج مظاهر السرقة، وإغماض عين بعض الرؤساء المسئولين، كل شئ يجوز. وفي سبيل الله يجوز!

وكم زعموا لله عند أهل هذه الأرض من سبيل وطئها الإنسان، ما كان قد شقها غير الشيطان.

الأمر جليل خطير

الأمر إذن جليل

والأمر إذن خطير

ولن يقال أن تفكيرا على هذا النحو غلا وبالغ، وذهب مع الخيال من غير ضابط فنحن في عصر زالت فيه الحواجز ما بين الممكن وغير الممكن ما

بين الحقيقة والخيال ولو أن شيئا حق له أن يقع دائما فى نطاق الخيال دون الحقيقة لكان خراب الدنيا أحق الأشياء بالبقاء فى هذا النطاق.. ولكن خراب الدنيا تعدى منطقة الخيال فدخل منطقة الحقيقة. وليس بعد خراب الدنيا المنذر شئ يقال له لا يمكن، لاسيما إذا هو اتصل بالخراب والتخريب ولاسيما إذا هو اتصل بضمائر الناس وضمائر الأمم.

السبيل إلي القنبلة ليست وعرة

والسبيل إلى القنبلة ليست اليوم بالسبيل الوعرة الكثيرة الوعورة أن كل شئ وعر فى أوله، مستعص وهو كثير النفقة فإذا عرفت موضعه، فقد تجد طريقا إليه أقصر، وأقصر كثيرا وتبلغه على أسلوب أرخص وأرخص كثيرا.

والقنبلة الذرية الأولى، تلك التى كلفت الولايات فى البحث عنها بضع مئات من ملايين الجنيهات لا تتكلف الكثرة منها اليوم الا كسرا ضئيلا من هذا، هو لا شك غاية فى الضآلة لا يتناسب مع تلك النفقات الأولى، والطرق الفنية اختزلت والعمليات المعقدة تبسطت.

يدلك على هذا أن اليورنيوم نفسه أصبح مادة من مواد التجارة نعم أنه لا يتداول إلا بإذن ولكنه يباع للأفران الذرية فى الولايات كما يباع القطن، إن الولايات المتحدة تعالج من خامة اليورنيوم ٨٩٠٠ طن فى اليوم. وكندا، وبها أربعة أمثال الخامة بالولايات، تنتج اليورنيوم وسوف تبز الولايات فى انتاجه فى العام القادم. والولايات المتحدة بنت فى عام ١٩٥٦ نحوا من ٧٨ فرنا ذريا لمن اشترى أو يشترى، وكلها لانتاج الكهرباء.

ومن انتاج الأفران الذرية إلى انتاج القنبلة اليورنيومية خطوة ليست بطويلة.

لن يمضى من الزمن سنوات حتى تحتل الذرة المحل الأول فى الصناعة، وتتضاءل مكانة الزيت. فالذى يسبق إلى الذرة، وإلى علم الذرة، وإلى فنها، بل إلى ما يحيط بها من فنون فإنما يسبق إلى المستقبل، إلى خيره وإلى شره.

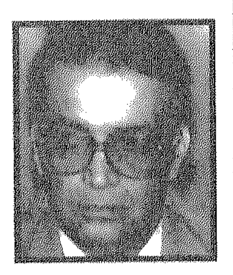
نود السلام لأهل الأرض جميعا

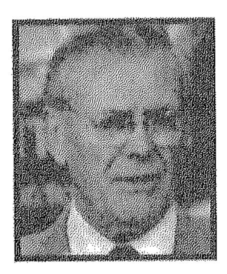
إن الشرق العربى، وغير العربى لا يود إلا السلام، وإلا الرفه والسعادة لبنى الإنسان، لأولئك الأبناء من البشر الذين يعرفون معنى التعايش، ولا يغتصبون الناس أموالهم، ولا يخرجونهم عن ديارهم وهم يطلبون الذرة وعلم الذرة، وفنون الذرة، من أجل السلم والسلام فإن هم طلبوا وراء ذلك شيئا، فإنما هم يطلبونه كما تطلب أنت الخنجر، تحمله مغمدا فى جرابه عند خاصرتك، عندما ترى من لا يرعون لبنى الناس حقوقا، ولا يخشون الله، قد حملوا الخناجر، غير مغمدة، يلوحون بها ويعتدون والشرق العربى، وغير العربى، لا يود أن يستيقظ يوما ليسمع أنه أصبح لقنبلة ذرية واحدة عبدا أن قنبلة واحدة تكون فى يد تلك الجارة التى أعنى سوف تصيبها فوق جنونها الدينى، بجنون ذرى، هو من بعض جنون القوة فى اليد التى لا تبالى العواقب.

فإذا قلنا لابد لمصر من القنبلة الذرية، فإنما نعنى أن نحصل عليها لنمنع هذه الجارة من ممارسة الجنون.

والله معنا. ■

أقوال معاصرة


د. محمد نور فرحات


دونالد رامسفيلد

● «الثقافة السائدة حجاب كبير ، لا على الإبداع وحده وإنما على التذوق أيضا» .

الموسيقار الألمانى هيلموت لاخنمان

● «ثقافتنا لا تستنكر الرذيلة فى حد ذاتها ، وأن كانت تفزع للفضيحة ، ولا تحبذ الفضيلة فى حد ذاتها ، وإن كانت تمجد التباهى بها» .

الدكتور محمد نور فرحات

● «الشعر رغم إنه يبدأ من الذات إلا أنه يتخطاها إلى معانقة الإنسانية برحابتها ، وبكل ما تحمله من مخاوف ومآس وآمال» .

شيركو بيكه سى
شاعر من كردستان العراق

● «الدولة التى أريدها هى دولة مفتوحة تضم الجميع ، وهى ليست فلسطين ولا إسرائيل !!» .

إيليا سليمان
مخرج «يد الهية» الفائز بجائزة
لجنة التحكيم الخاصة لمهرجان كان

● «أوروبا تجد نفسها فى العالم الذى تخلق بعد ٢٢ سبتمبر وكأنها لا تزن سوى وزن الريشة ، فى الوقت الذى جنح فيه الوزن الثقيل الأمريكى جنوحا خطيرا إلى الانفراد بالقرار» .

جان مارى كولومبانى
رئيس تحرير جريدة لوموند الفرنسية

● «الحرب الشاملة على الإرهاب ، وعلى الأنظمة التى تملك أسلحة الدمار الشامل بدأ ، ولن تتوقف» .

دونالد رامسفيلد
وزير دفاع الولايات المتحدة

● «التطرف كان بالفعل نتيجة التطرف المضاد ، وغياب الحرية» .

الصحفى السعودى داود الشريان

● «أنا عائد من العالم الآخر ، وأخبركم ماذا شهدت ، فجهنم بالتأكيد أحسن من هنا ، البلد فوضى ويسوده الهجر والمذيان ..

النائب اللبنانى غسان الأشقر
ردا على إشاعة سرت حول وفاته

أبي جمال عبد الناصر

بقلم : د. هدى عبد الناصر



صوته

لم يفارقني يوما .. حتى شريط السينما الذى صوره لنا كأسرة مازلت أحتفظ به داخل بيتى .. علمنى كل شىء بداية من قيادة السيارة ولعب الدومينو وحتى الحياة .. إنه بالنسبة لى إنسان من نوع خاص. لكنه كسائر الآباء حنون ، عائلي بالدرجة الأولى .. جعل طفولتنا سعيدة .. فلم يفارقنا برغم مسئولياته وعشقه لمصر الأم الكبيرة » .. أبــى

....

داخل بيت منشية البكرى عشنا كأسرة مصرية بسيطة، حياتها عادية رغم ما قد يغلفها من المظاهر غير العادية.. وكنت وأخوتى لا ندرك قيمة بعض الأمور ودلالة بعض الأحداث الدائرة حولنا .. برغم أن وقت الأزمات التى مرت بمصر كانت تنعكس على بيتنا أيضا وتتأثر الحياة بعض الشئ .. فكنا ونحن صغار لا ندخل على أبى وهو يعانى من أزمة ما أو متكدر من موقف ما ، لا نتحدث معه ونحترم تأمله .

....

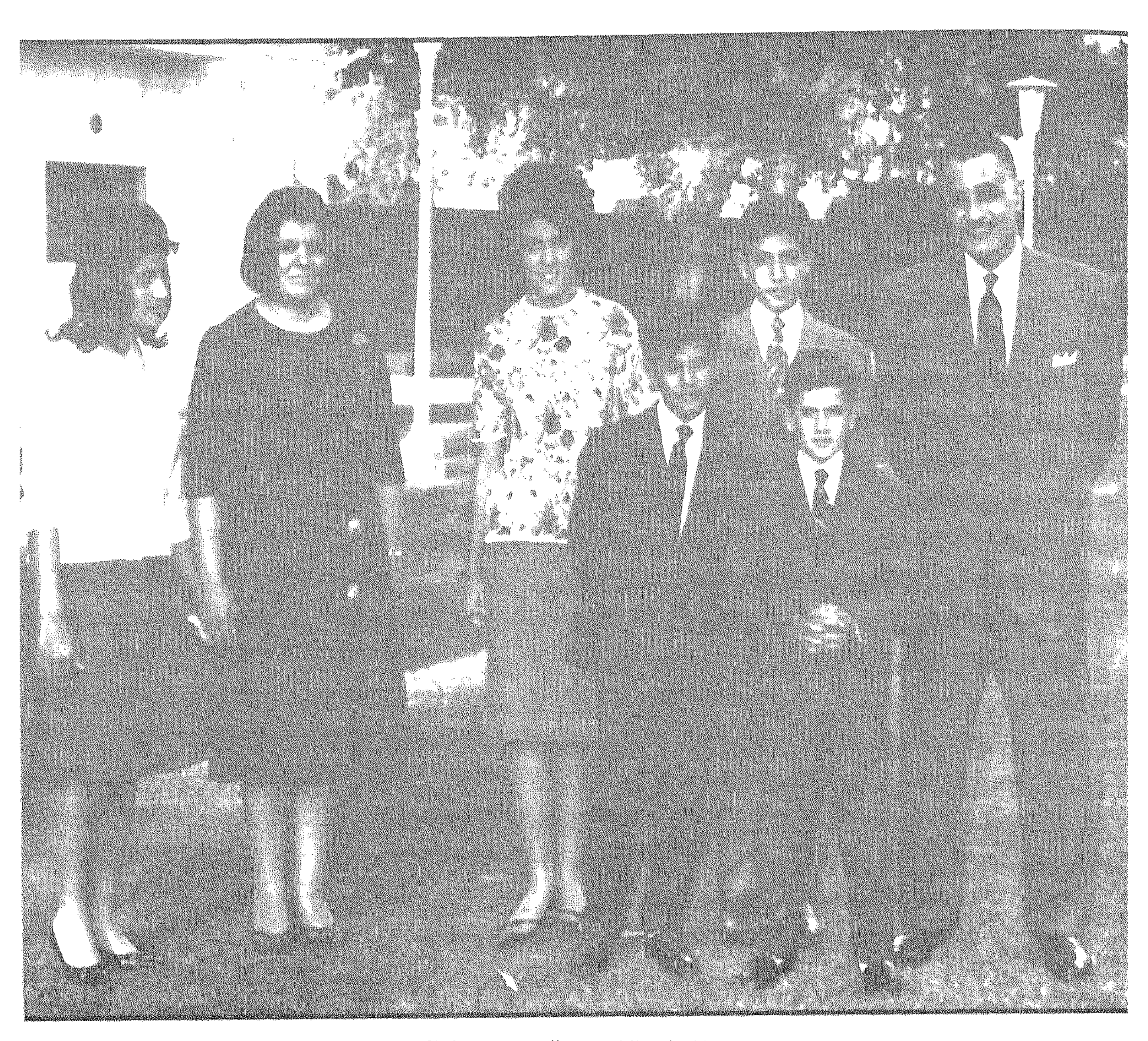
●● وفى حالة الفرح والنصر كان البيت يمتلئ بالسعادة وأذكر أنه مع إعلان الوحدة مع سوريا كان وجه أبى يتهلل فرحا .. وكان حديث المائدة وقت الغداء لا يخلو من الحكى عن الإنجاز وعن مدى سعادته به .

....

●● عايشنا أيضا لحظات القلق الممزوج بالفرح مثال ذلك شغلت حرب الاستنزاف جانبا كبيرا من مشاعرنا .. القلق يتزايد مع بداية كل عملية وينتهى بالفرح مع نجاحها .. فأول دورية عبرت القناة كانت لها فرحة كبيرة .. وأول معركة نشبت « معركة « رأس العش » ثم غرق المدمرة إيلات .

....

●● أمى كان عبدالناصر محور حياتها.. تزوجته فى ٢٩ يناير ١٩٤٤..



صورة عائلية لعبد الناصر مع السيدة قرينته وأبنائه



مع حاتم صادق وهدي عبد التاصر وابنتهما الاولي هالة فى بيته بمنشية البكري

كانت من قبله وحيدة .. توفى والديها.. فكان هو أهلها.. بعد أن أنجباني وأختى منى، رحل أبى إلى جبهة القتال ليشارك فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.. ورغم الصعاب والقلق تحملت المسئولية طوال فترة الحرب.. وحتى بعد عودته سالما من الحرب لم يترك العمل الوطنى حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ والتى كانت فى البداية محفوفة بالمخاطر ونسبة نجاحها ضعيفة.. وهو الأمر المقلق جدا..

رب الأسرة

●● كنا محظوظين جدا .. نعمنا بطفولة سعيدة وهانئة فى ظل حنان أبى ووجوده معنا دائما كان أبى حريصا على وقت العائلة وقضاء الأجازات الصيفية وأيام الجمع معنا برغم انشغاله بهموم الأمة والثورة .. حتى أنه كان يملك من الصبر ما يجعله يجيب عن جميع أسئلتنا مهما بلغت .. فكنا أنا وإخوتي نذهب إليه دائما بعد عودتنا من المدرسة نحكي له عن يومنا ، عن أصدقائنا ، وعن مدرستنا .. كان أبا مثل كل الآباء حريصا على دراستنا ويوقع لنا الشهادات المدرسية .. ومن يحصل منا على درجة مرتفعة كان يسارع إليه ليوقع شهادته أولا .. أما من يحصل على درجة منخفضة فكان يضع شهادته بجوار سرير أبى ليقوم بتوقيعها قبل ذهابه للمدرسة خوفا من عتابه . بل وكان يحضر باستمرار الحفلات المدرسية الخاصة بكل منا ..

مما جعلنا نشعر بالفرقة . فافتقدنا بيتنا فى منشية البكرى الذى كان يحتوينا .. ورغم أنه ليس صغيرا إلا أنه كان مقسما . الدور الأول يضم الصالونات الخاصة باستقبال الضيوف والزائرين . أما الدور العلوى فهو خاص بنا .. به غرفة للمعيشة وأخرى للطعام نجتمع داخلهما كأى أسرة عادية أمام تليفزيون واحد وهذا هو أهم مظهر من مظاهر الرباط الأسرى .

صعيدى بالدرجة الأولى

. . . .

●● كان أبى رجلا صعيديا بالدرجة الأولى لا يحب أن يقتحم أحد خصوصيات حياته ولا حياة أسرته أو يعكر صفوها .. كان المقربون منا قليلين جدا حتى لا تقوم علاقاتنا بالبشر على أساس مكانة أبى ولا تقوم على النفاق والخداع بل على الصدق فقط، بعيدا عن منصب والدى .

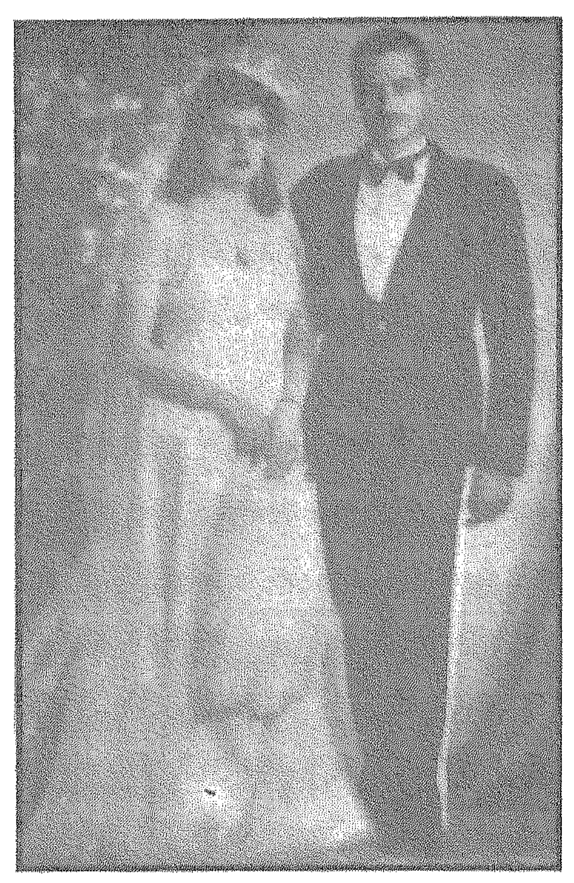
وكان شديد الحرص على تربيتنا لنكون كسائر أفراد الشعب .. فأدخلنا المدارس الحكومية العامة .. فدرست بمدرسة دار السلام الإبتدائية ثم سراى القبة الإعدادية ثم القومية الثانوية بالعجوزة ولا تزال صورنا داخل تلك المدارس حتى الآن .

. . . .

●● ولم نكن نحضر أية اجتماعات رسمية ، كنا نحضرها فقط فى حالة وجود وفد أجنبى أو عربى يرافقه أطفالهم أطفال فقط . أو إذا طالب أحد رؤيتنا . وأذكر أن خروشوف لدى حضوره مصر كانت تصحبه ابنته مما استدعى وجودنا معها ، كذلك الرئيس اليوغسلافى تيتو حضر ومعه أولاده . كذلك لم نكن نسافر مع أبى باستثناء مرتين فقط كانت إحداها إلى يوغسلافيا .

. . . .

●● كان يسمح لنا بحضور أعياد الثورة من كل عام باستثناء خطاب ٢٣ يوليو الذى لم يكن مسموحا لنا حضورها . كنا نشاهد المظاهر



صورة زفاف عبد الناصر والسيدة تحية

وأذكر أن زوجى حاول الاعتذار عن حضور أول حفلة مدرسية لابنتى هالة نظرا لانشغاله فنظرت له بدهشة وقلت له «أبى عبدالناصر كان حريصا جدا على مسائل الأسرة رغم انشغاله بهموم الأمة كلها .. فبماذا أنت مشغول؟» . وأعتقد أن أبى اهتم كثيرا بعائلته نظرا لحرمانه فى ذلك الجو الأسرى ففقد والدته عندما بلغ الثامنة من عمره وعاش فترة داخل مدرسة داخلية ومن الطريف أيضا أننا فى البداية عند التجهيز لمنزل منشية البكرى اضطررنا للسكن داخل قصر الطاهرة .. الأمر الذى سبب لنا إزعاجا كبيرا .. كل واحد منا له غرفة كبيرة



مباراة في الشطرنج مع ابنه خالد

الاحتفالية فى القاهرة والاسكندرية كالعروض العسكرية صباح يوم الثالث والعشرين ، وعرض الشباب فى استاد القاهرة .. ثم نسافر للاسكندرية لحضور احتفال وخطاب ٢٦ يوليو بل قد حضرنا مرة واحدة مناورة عسكرية ضمن مظاهر الاحتفال . ورغم كوننا أنا وإخوتى صغار السن لم يكن يوجه لنا أية محاذير أو ارشادات قبل الذهاب إلى أية احتفالية . كان يترك لنا مطلق الحرية والتصرف على هوانا الطفولى .

علمنى قيادة السيارة

....

●● كان عبدالناصر الرجل الثورى هادئ الطبع .. صوته خافت داخل المنزل، ولا ينهرنا أبدا . كان عقابه هو النظر إلينا بعينه فقط . ورغم قربنا منه لم يحمل أحد منا شخصيته . كل منا يحمل جزءا أو صفة منه أو حتى لمحة صغيرة فقط حتى أحفاده لم يرثوا منه الكثير وإن ظل داخلنا طوال الوقت .. حتى أننى لدى رؤيتى للأفلام التى جسدت شخصية أبى لم أكن أجده داخلها .. ففرق شاسع بين الأصل والتقليد .

●● هواياته كانت متعددة .. لكن كان التصوير والفوتوغرافيا هما هواياته المفضلة.. فكان يعشق التصوير السينمائى والفوتوغرافى . وحتى الآن أحتفظ بالأفلام الـ ٣٥ ملى التى صورها لنا فى منزلنا وعلى شاطئ البحر .. وكان يعشق القراءة خاصة مجلة «الناشيونال جيوجرافيك» و«لايف» و«لوك» لما تحتويه من صور تغذى هواية التصوير لديه . وكان يهتم كثيرا بمجلة «المصور» و«الهلال» .

....

●● علمنى قيادة السيارة أنا وأختى منى . وكان يلاعبنا خلال الأجازة الصيفية ونحن فى برج

العرب «الشطرنج» و«البينج بونج» بل وعلمنا «الدومينو» .. كما كان يعشق الطبيعة والبحر والسباحة . كم من الآباء يعلمون أولادهم ويتفرغون لممارسة أحب الهوايات معهم ؟!

. . . .

●● في بداية حياتي عملت معه داخل مكتب السكرتارية فتعلمت مغزى العمل ومعنى الحياة وتعلمت كيف تصدر القرارات المصيرية .. وكيف تتم الاتصالات الحرجة وقت الأزمة ، واستفدت من حرصه الشديد على دراسة الموقف والاطلاع على جميع الدراسات .. والانفتاح على نظم الحكم فى العالم والدساتير المكتوبة فى الغرب والشرق . كل ذلك خلال فترة زمنية سادت العالم فيها أفكار جديدة وحركات تحرر ومد ثورى وحرب باردة ونظم مختلفة للحكم ..

. . . .

●● ويكفى أن أبى كان زعيما استطاع أن يحرك القوى العظمى الكامنة داخل الشعب المصرى وعرف كيف يوظفها لصالح الأمة .. آمن بالأفراد البسطاء المهمشين وغير القادرين .. عبر عن أحلامهم ومطالبهم ولبى كل ما كان مطروحا من مطالب قبل الثورة .. آمن بالشعب فآمن به الشعب كزعيم وقائد مسيرة .

كان مناضلا يؤرقه العام وليس الخاص .. عايش الاحتلال الانجليزى وحزم فى الجيش إيمانا بدور الجيش في القضاء على الفساد وتحرير الوطن من الاحتلال ، وشارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وفى حرب الفدائيين عام ١٩٥١ ويكفيه فخراً قيامه بإصدار قرارى تأميم قناة السويس وبناء السد العالى .. ولنعلم أن مصر كافحت طوال القرن الماضى من أجل استعادة دخل قناة السويس فهو قرار مبنى على قصة كفاح طويلة . صدر فى أعقاب خروج القاعدة البريطانية من مصر ليتحدى بذلك القوى الكبرى فى العالم .. إنه أبى عبدالناصر . ■

كان يعشق التصوير السينمائى والفوتوغرافى

فى نزهة علي الاقدام مع والده في الاسكندرية ١٩٦٤



مبنى قيادة الثورة

متحف على الورق

ينتظر ٤٠ مليون جنيه لتمويله

أمانى عبد الحميد

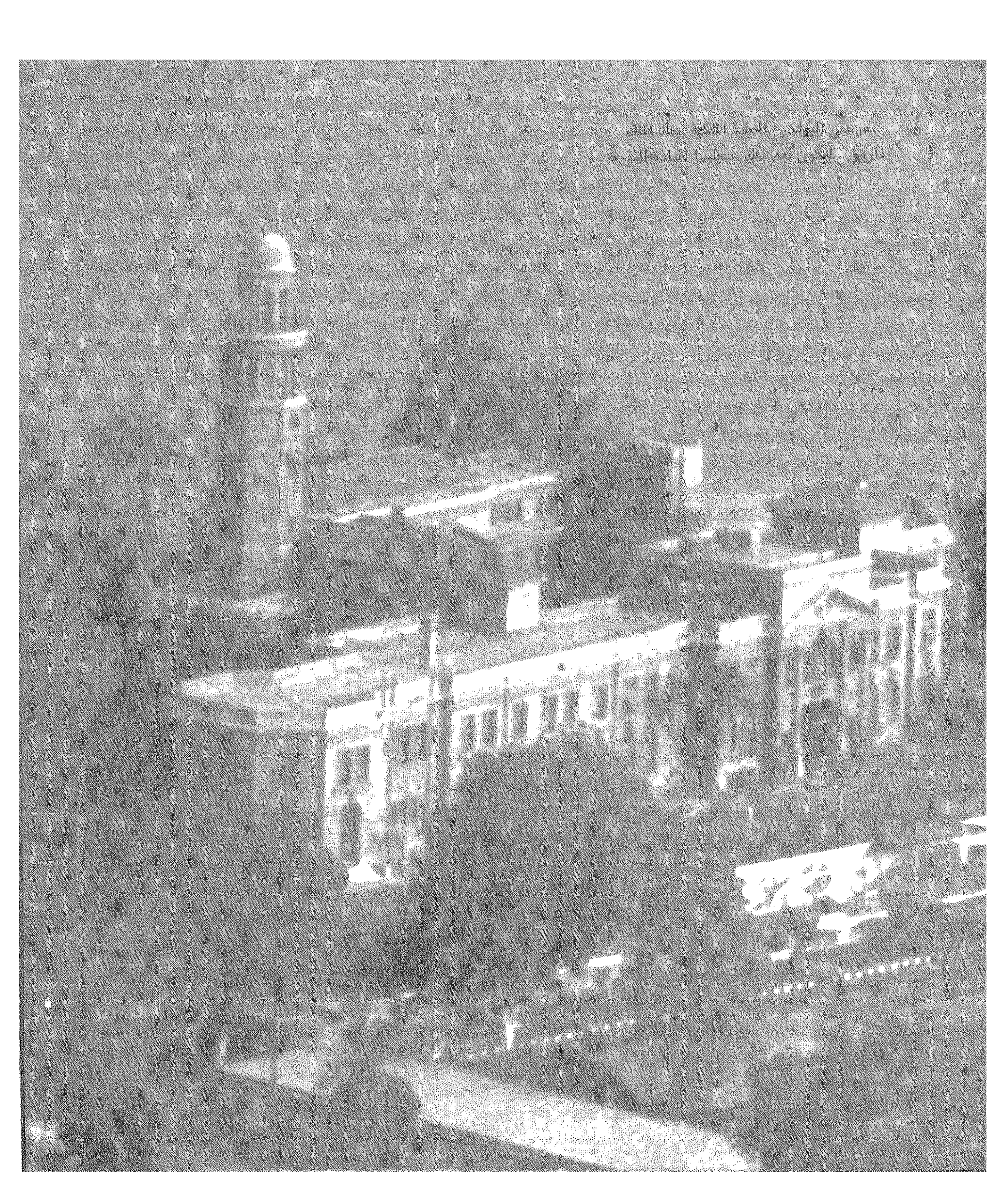
بعد مرور خمسين عاما على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ فإن وقعها فى النفس لايزال غائرا فى نفوسنا وفى ضمائرنا والتى تمثلت فى العزة والكرامة والاستقلال.

مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة والذى يطل على ضفاف نهر النيل، يعد واحدا من أهم الأماكن التى شهدت أخطر القرارات التى صدرت بعد أن اتخذه أعضاء مجلس قيادة الثورة مقرا لهم، وحيث شهدت غرفه الأربعين قرارات مهمة غيرت مجرى التاريخ المصرى وقد أهمل هذا المبنى - تماما - منذ حوالى ثلاثين عاما، ولم يعد هو ذلك المكان الذى شهد أخطر الاجتماعات وضم الكثير من الوثائق والقرارات، والتى لو خرجت من مكانها لأفصحت عن كثير من الحقائق الغائبة، والتى تجيب عن تساؤلات طالما تمنينا الإجابة عنها!

فلماذا هذا الجحود لهذا المكان، وعدم الاهتمام به لكى يصبح متحفا يضم وثائق الثورة والتى تتيح للباحثين ورجال التاريخ الإطلاع عليها، فضلا عن تعريف الأجيال الشابة بكل ما يودونه حول ثورة يوليو.

وفى عام ١٩٩٩ صدر قرار جمهورى بتخصيص المبنى ليصبح متحفا لزعماء ثورة يوليو، ومرت ثلاث سنوات ومازال المبنى على

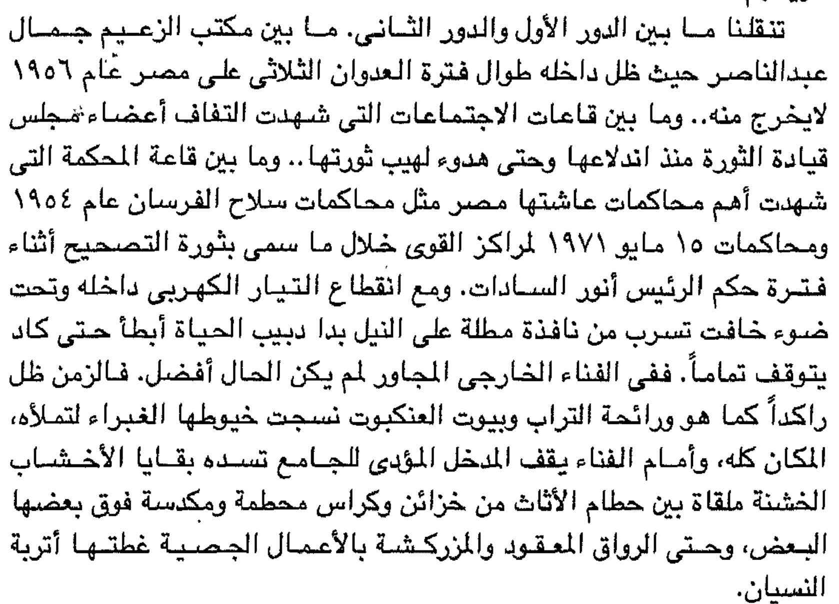
هلال - ربيع ثانى ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م



مرسى البواخر الملكية بناه الملك
فاروق . ليكون بعد ذلك مجلساً لقيادة الثورة

ما هو عليه من الإهمال.. لماذا؟!

ومتى وكيف يرى هذا المشروع النور ؟!صورة غائمة

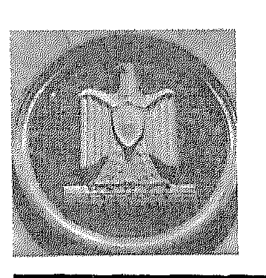


في زيارتنا للمبنى للوقوف على حالته الراهنة.. لم نكن نتوقع أن الزمان لايزال راكداً ويغط في سبات عميق.. وبرغم الهواء الطلق من حوله وبقايا الذكرى المنثالة هنا وهناك . فإن مظاهر الأبهة قد بادت.. حتى جدرانه العتيقة أصبحت آخذة في التفتت ولا تحتاج إلاّ إلى دفعة واهنة لتنهار أجزاء منها ..

خيل لنا وكأننا عبرنا بوابة زمن بعيد.. داخل غرفة يبدو الهواء أقل كثافة والصمت أكثر رسوخاً، وفي ردهات المعقل الحكومي الرحب بدت الأشياء غائمة الصورة.. فأين مظاهر القوة والقيادة والقرار..؟ أين الحرس وأين عسكريو الجيش المرابط الذي حكم مصر؟.. لم يبق في عصر بطولاتهم سوى ختم النسر المعلق على أعمدة المداخل.. أين أوراقهم؟ أين وثائقهم ومكاتبهم؟ أين تاريخهم..؟

تنقلنا ما بين الدور الأول والدور الثاني. ما بين مكتب الزعيم جمال عبدالناصر حيث ظل داخله طوال فترة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ لايخرج منه.. وما بين قاعات الاجتماعات التي شهدت التفاف أعضاء مجلس قيادة الثورة منذ اندلاعها وحتى هدوء لهيب ثورتها.. وما بين قاعة المحكمة التي شهدت أهم محاكمات عاشتها مصر مثل محاكمات سلاح الفرسان عام ١٩٥٤ ومحاكمات ١٥ مايو ١٩٧١ لمراكز القوى خلال ما سمي بثورة التصحيح أثناء فترة حكم الرئيس أنور السادات. ومع انقطاع التيار الكهربي داخله وتحت ضوء خافت تسرب من نافذة مطلة على النيل بدا دبيب الحياة أبطأ حتى كاد يتوقف تماماً. ففي الفناء الخارجي المجاور لم يكن الحال أفضل. فالزمن ظل راكداً كما هو ورائحة التراب وبيوت العنكبوت نسجت خيوطها الغبراء لتملأه، المكان كله، وأمام الفناء يقف المدخل المؤدي للجامع تسده بقايا الأخشاب الخشنة ملقاة بين حطام الأثاث من خزائن وكراس محطمة ومكدسة فوق بعضها البعض، وحتى الرواق المعقود والمزركشة بالأعمال الجصية غطتها أتربة النسيان.

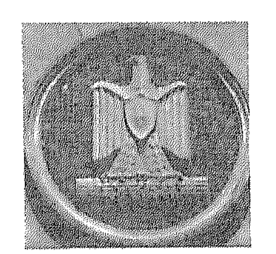
لم نكن نتخيل أن الطيور فقط اتخذت المبنى الذي هجره أهله مكاناً لها. فعششت فيه ووجدت داخله مكاناً تتسابق فيما بينها تتنقل ما بين شبابيكه وأبوابه، ووسط كم من «الرديم» تسلقنا الفنارة القديمة بسلمها المعدني الحلزوني الشكل. والذي احتلت الأتربة سطحه.. ومن فوقها تجلت القاهرة والنيل جميلة بهية على يميننا كوبري الجامعة وحي المنيل وعلى يسارنا كوبري قصر النيل.



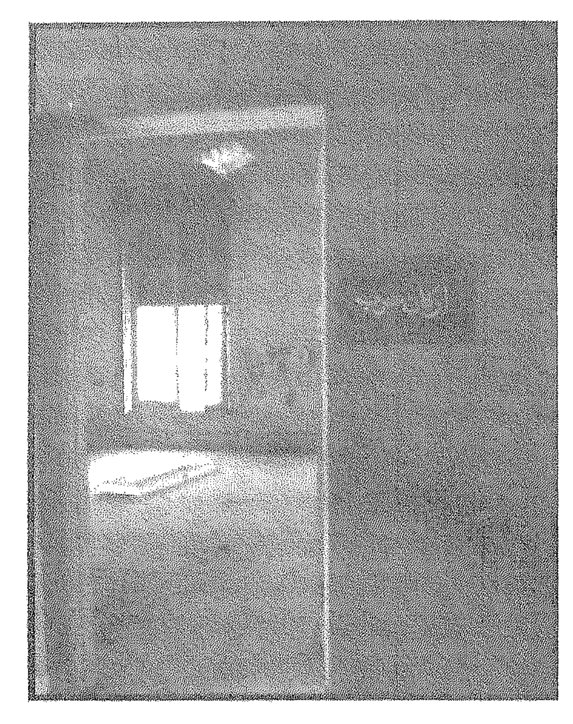
المصلحة من إخفاء بعض الوثائق لدي الأفراد دون الاعلان عنها ؟



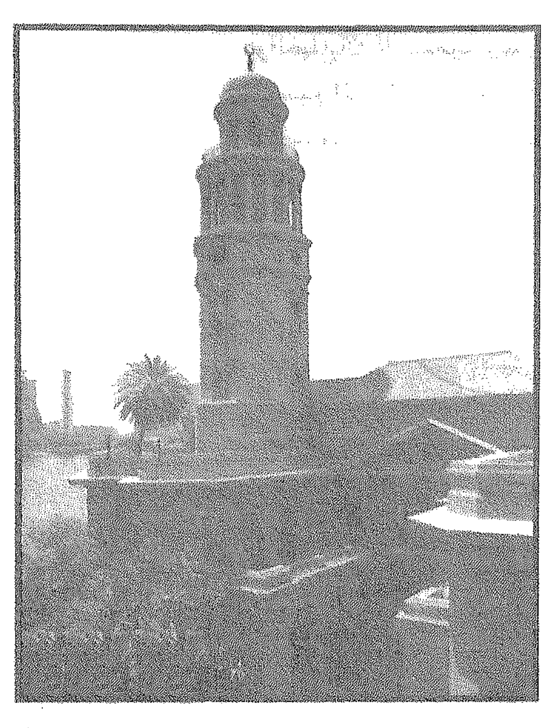
على الطراز المعماری اليونانی الرومانی القديم، وقد انتهت أعمال البناء فی عام ١٩٥١ بتكلفة وصلت وقتها إلى حوالی ١١٨ ألف جنيه مصری. هذا المبنی مكون من ثلاثة طوابق على شكل مربع تقريبا ويحتوی على أربعين غرفة. وعقب قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقع اختيار أعضائها علي هذا المبنی ليكون مقراً للقيادة.. وقد تميز بشرفته الكبيرة التی تطل على ثكنات قصر النيل مقر القوات البريطانية فی مصر قبيل الجلاء. فبعد أن كان مبنی القيادة العامة للجيش بكوبری القبة مقراً للثورة فی أيامها الأولى بينما ظل أوصياء العرش يتخذون قصر عابدين مقراً لهم وتحول المبنی تدريجيا إلى مقر يجتمع فيه الثوار ساعات طويلة للتشاور واتخاذ القرار.. وشيئا فشيئا بدأ المبنی يفقد بريقه خاصة بعد الانتهاء من محاكمات ثورة التصحيح التی كانت تتم بداخله ليتحول بعدها إلى مقر للسكرتارية نظراً لقربه من منزل الرئيس أنور السادات بالجيزة. ثم ليصبح بعد ذلك، مقراً للجنة التی تم تشكيلها بقرار جمهوری عام ١٩٧٥ لتقوم بأعمال التوثيق والتأريخ لوثائق يوليو وذلك برئاسة الرئيس حسنی مبارك وكان وقتها نائبا لرئيس الجمهورية، وبعد توقف أعمالها نظراً لتطور الأحداث السياسية، عندئذ توقف الزمن داخل مبنی مجلس قيادة الثورة وفقدت الصلة بكل ما يتعلق



قائق المجلس فی محاضر اجتماعات، ومن تسجيلات المحاكمات حتى
فترة حكم اسلات التی صدرت من داخل المكان.
ضوء خافت تسرب موزها الوطنية التی تعتز بها، وتحاول دوما إبرازها،
يتوقف تماماً. ففی الفنا خلال الأعوام الأخيرة تعالت أصوات تنادی
راكداً كما هو ورائحة الترا يخية فی مصر سواء كانت تلك الرموز أشخاصا
المكان كله، وأمام الفناء يقف
الخشنة ملقاة بين حطام الأثاث من من المبانی التی حازت هذا الاهتام على
البعض، وحتى الرواق المعقود والمز بدر قرار جمهوری رقم (٢٠٤)
النسيان.
لم نكن نتخيل أن الطيور فقط اتخذت ا . وبالفعل تسلمت وزارة الثقافة
فعششت فيه ووجدت داخله مكاناً تتسابق فيما ة عن غرف عارية وأبواب
وأبوابه، ووسط كم من «الرديم» تسلقنا الفنارة القديمة غة المبنی لتحويله إلى
الشكل. والذی احتلت الأتربة سطحه.. ومن فوقها تجلت المفترض أن يضم
بهية على يميننا كوبری الجامعة وحی المنيل وعلى يسار ب جميع الوثائق
يوليو والأفلام
ضمن المشروع



هكذا يبدو الإهمال داخل المبني ......



فمتي يتحول الي متحف حقيقي وليس على

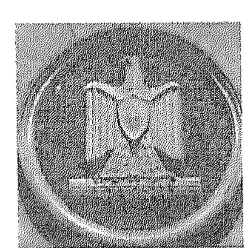
تخصيص جناحين للرئيسين جمال عبدالناصر وأنور السادات داخل مكتبيهما، ليضمان جميع المتعلقات الشخصية والأوسمة والنياشين، بالاضافة إلى قاعة عرض فى الدور الثانى للرئيس محمد نجيب.. ومن المقرر انشاء مرسى خاص علي شاطيء النيل لاستقبال الزائرين عن طريق النيل. وقد وصلت تكلفة المشروع على الورق طبقا للمعلومات الواردة فى قطاع الفنون التشكيلية المسئولة عن المبنى حوالى ٤٠ مليون جنيه مصرى . وحتى وقتنا هذا لم تتوافر أى من بنود التمويل فى أجل البدء فى مشروع التطوير.

الوثائق .. رحلة بحث طويلة

كل ذلك يقودنا نحو قضية بالغة الخطورة.. فبرغم جميع الجهود المبذولة من أجل الحفاظ على رموز بلادنا وبرغم انقضاء خمسين عاماً على قيام ثورة يوليو.. الا أن قضية وثائق الثورة لاتزال قضية مسكوتاً عنها.. فلماذا حتى يومنا هذا لم يتم الكشف عن جميع وثائق ومحاضر اجتماعات الثورة خاصة التى كان يضمها المبنى؟ ولماذا حتى الآن لم يتم الاعلان عن كافة الأوراق الحكومية

والخطابات الرسمية وغيرها فى وثائق الأرشيف الرسمى للبلاد، مع الاحتفاظ بجميع الوثائق التى قد يمس الكشف عنها قضية الأمن القومى... ولماذا لم نكشف النقاب عن تفاصيل وحقائق ووثائق التاريخ المصرى خلال أحرج الفترات الزمنية التى عاشها الوطن؟ بل والسؤال الملح هنا، ماذا حدث بعد توقف لجنة توثيق وتأريخ الوثائق منذ ما يقرب من عشرين عاماً؟ إن الإجابة عن التساؤلات يجعلنا نقف أمام رحلة بحث طويلة لكن بلا إجابة ؟!

يذكر التصور الذى أمامنا لشكل المبنى لما سيضمه بعد الانتهاء من أعمال التطوير حيث يضم مكتبة ضخمة تحتوى على وثائق الثورة.. فهل تلك الوثائق فى حوزة وزارة الثقافة أم عن أية وثائق يتحدثون؟.. لقد كانت رحلة البحث عن وثائق الثورة طويلة، تنقلنا خلالها ما بين دار الكتب والوثائق القومية والتردد بالخطابات على ديوان رئيس الجمهورية بقصر عابدين، ومجلس الوزراء. والتقينا بالدكتورة هدى عبدالناصر والتى تتبنى قضية البحث عن الوثائق كما حاولنا الاتصال بالدكتور صبحى عبدالحكيم أحد رؤساء لجنة التاريخ لمعرفة ماذا تم فى أعمال التوثيق داخل اللجنة. ولكن كل المحاولات باءت بالفشل ولم نصل إلى شىء فالكل ينكر وجود الوثائق لديه.. ويأتى الرد إما بالصمت وإما بالنفى وإما بعدم المعرفة..



إن مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة قد شهد إجتماعات حيوية وبالتالى فإن الحل النموذجى لا يكون فقط بترميمه وتحويله إلى متحف بانورامى لقادة الثورة مع إضافة بعض مظاهر الحداثة الفنية من ليزر وأضواء وغيرها.. بل المطلوب أكثر من ذلك.. وهو ضرورة فتح الباب أمام الباحثين للإطلاع على جميع الوثائق التى تحوى تاريخ مصر الحقيقى بعيداً عن المذكرات والذكريات .. وحتى لا نقع فى شراك تحريف التاريخ وإعادة سرده كل على هواه! ، أو على قدر ما تعينه الذاكرة: بل إن القضية الأخطر، أن هناك عدداً من الأفراد ممن حظوا بموقع قريب من إدارة الحكم، فاحتفظوا بجميع الوثائق التى طالتها يدهم لأنفسهم. وبعضهم احتفظ بها فى خزائن بنكية خاصة سواء داخل مصر أو خارجها. وكأن تاريخ مصر أصبح ملكاً له أو لأحد دون غيره. فلماذا لم يتم حتى الآن تجميع جميع الوثائق التى لدى الأفراد لحفظها بدار الكتب والوثائق القومية تحت قسم خاص يحمل اسم «وثائق الأفراد» لضمان عموم الفائدة منها. كذلك مطلوب مزيد من الشفافية من قبل الجهات الحكومية خاصة بعد انقضاء خمسين عاماً على الثورة أى مرور فترة السرية الخاصة بأية وثيقة. ومطلوب مزيد من المصارحة حول موقع وجود الوثائق ومحاضر الاجتماعات لنعلم ما هو موجود وما هو مفقود.



فكيف يمكن تحقيق تاريخ دولة ما دون الإستعانة بالوثائق والمستندات الرسمية خاصة فيما يتعلق بحدث مهم كثورة يوليو ١٩٥٢.

رحلة بلا نهاية

خلال الشهر الماضى تسلمت دار الكتب والوثائق القومية برئاسة د. صلاح فضل وثائق الأرشيف الرّسمى البريطانى والأمريكى المتعلقة بشئون مصر بعد انقضاء فترة السرية الأمر الذى دفعنا إلى التوجه إلى د. فضل لسؤاله عن وثائق الثوره ووثائق مجلس قيادتها .. لكن الرد جاء محبطاً فالمشكلة تكمن طبقا لأقوال د. فضل فى .. أن القوانين المطبقة داخل مصر وتختص بالوثائق المصرية لأتلزم أية جهة إدارية أو وزارية بإيداع وثائقها لدى دار الوثائق (الجهة المختصة بحفظ الوثائق) أى أن كل وزارة تحتفظ بوثائقها داخل مكاتبها إلى حين التخلص منها دون وجود أى دافع قانونى يجبرها على ايداعها داخل الوثائق للاحتفاظ بها كوثيقة قد يحتاج للإطلاع عليها الباحثون . لذا أكد د. فضل أن دار الوثائق لا تحتوى خزائنها أية وثائق تتعلق بثورة يوليو لا بمجلس قيادتها كما أن لجنة تسجيل وتوثيق التى تشكلت فى عام ١٩٧٥ لم تودع أية وثائق ولا كتب نتجت عن أعمالها التوثيقية ... وفى مقابلة مع وزير الثقافة فاروق حسنى نفى وجود الوثائق بحوزة الوزارة وإن جاء رده مؤكداً أن الوثائق تحتفظ بها الدولة فى مكان ما. وأنها (يقصد الدولة) تنتظر الوقت المناسب لإعلانها فليس من مصلحة الدولة إخفاء الوثائق وانما تنتظر الوقت المناسب وعن احتفاظ الأفراد ببعض الوثائق أوضح وزير الثقافة أن أى فرد لا يمثل أية قوة منع أو افصاح عن الوثائق كما تمتلك الدولة . وأوضح أن كل فرد يمتلك وثيقة يعلم جيداً مصلحة الدولة ويعلم متى يظهرها ويفصح عما لديه كما يقول ليس من مصلحة أحد إخفاء الوثائق .. فما قيمة مايمتلكون من وثائق اذا لم يتم استعمالها واظهارها فلأى وقت ولماذا فعاجلا أو آجلا ستفقد قيمتها اذا لم يعلن عنها فى وقتها المناسب !

وفى نهاية رحلة البحث عن الوثائق لم نتوصل إلى مكان وجود وثائق مجلس قيادة الثورة برغم إيماننا بوجودها لدى الدولة لكن يبدو أن فترة خمسين عاماً على اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢ ليست الفترة الكافية لإنهاء حالة السرية التامة المحاطة بها الوثائق فالوقت لايزال غير مناسب للاعلان عنها وإتاحتها أمام الباحثين .. وسؤالنا الأخير متى يأتى الوقت المناسب الذى لا يأتى ؟

■

تحقيق مصور

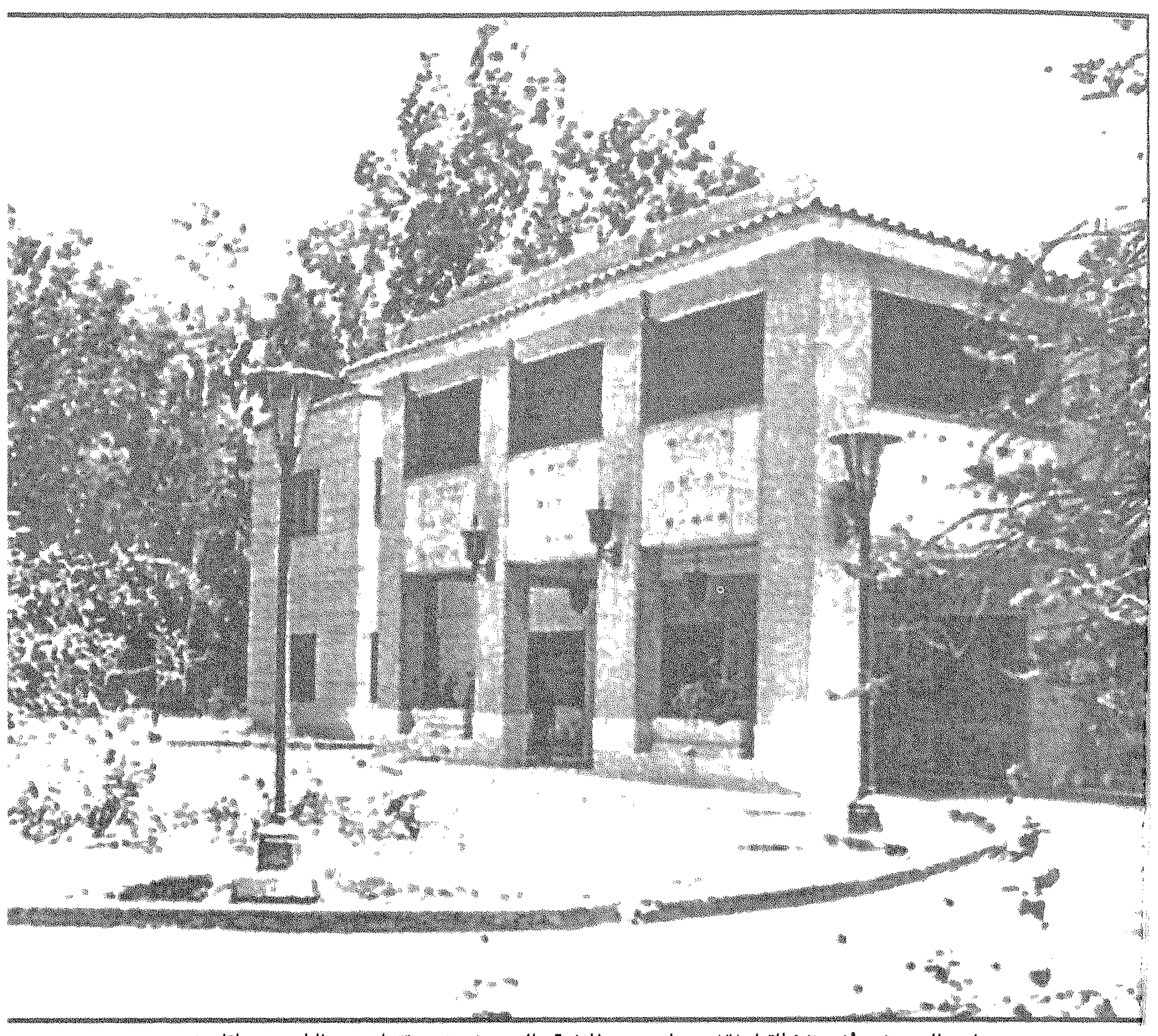
متى تعود الحياة لمنزل جمال عبد الناصر؟
لماذا تأخر تحويله الى متحف ١٢ عاما؟

لماذا

تأخر تنفيذ القرار (٧٧) لمدة ثلاثين عاما .. والذى سيعيد الحياة لمنزل الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وتحويله لمتحف يضم مقتنياته ومتعلقاته .. ولماذا أسقطنا من حساباتنا ذلك المنزل الذى شهد مولده. ولماذا تقف ـ دائما ـ العراقيل أمام أية فرصة لإحياء ذكرى رموزنا التاريخية والسياسية. إنها تساؤلات لا نجد إجابة شافية عنها حتى الآن؟!

جمال عبدالناصر.. شخصية لا تسقط ذكراها بتقادم التاريخ فقد كان له الأثر البالغ فى تاريخ الأمة المصرية .. وله دلالة قوية داخل نفوس المصريين والعرب جميعا..

ففى ١٥ يناير ١٩١٨ شهد المنزل رقم ١٨ شارع أنواتى - حى باكوس - محطة الرمل الاسكندرية مولد الزعيم جمال عبدالناصر داخل البيت المتواضع والذى تتوسطه غرفة أكثر تواضعا قضى بها سنوات طفولته. ومنه بدأ طريق الآلام حيث توفيت والدته عندما بلغ الثامنة من عمره، ثم انتقل للعيش فى القاهرة، حيث قضى شبابه وسنوات دراسته الثانوية عند عمه «خليل حسين» من حارة خميس العدس بحي الخرنفش، والذى شهد كثيرا من اجتماعات الطلبة لتنظيم مظاهرات سنة ١٩٣٥ .

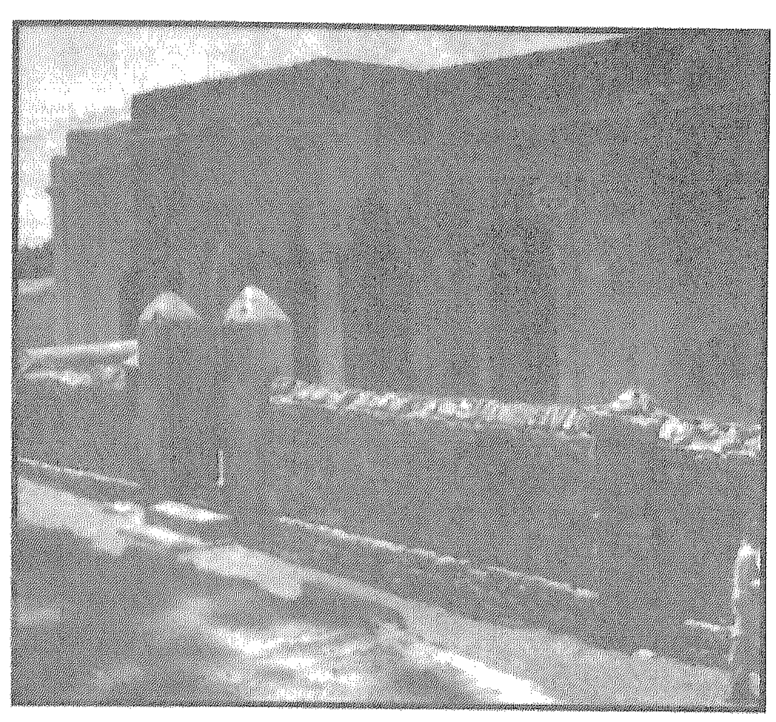


ما هو السبب فى تأخر تنفيذ القرار ٧٧ بتحويل « بيت المنشية » الى متحف يضم مقتنيات عبد الناصر ومتعلقاته ؟

وانتهى به المطاف داخل بيت منشية البكرى حيث قاد من داخله البلاد خلال سنوات حكمه وحتى وفاته عام ١٩٧٠ .

تلك كانت البداية والنهاية.. فجمال عبدالناصر لم يمتلك طوال حياته منزلا لدرجة ان منزل منشية البكرى ومايحويه من اثاث ومفروشات كان عهدة حكومية.

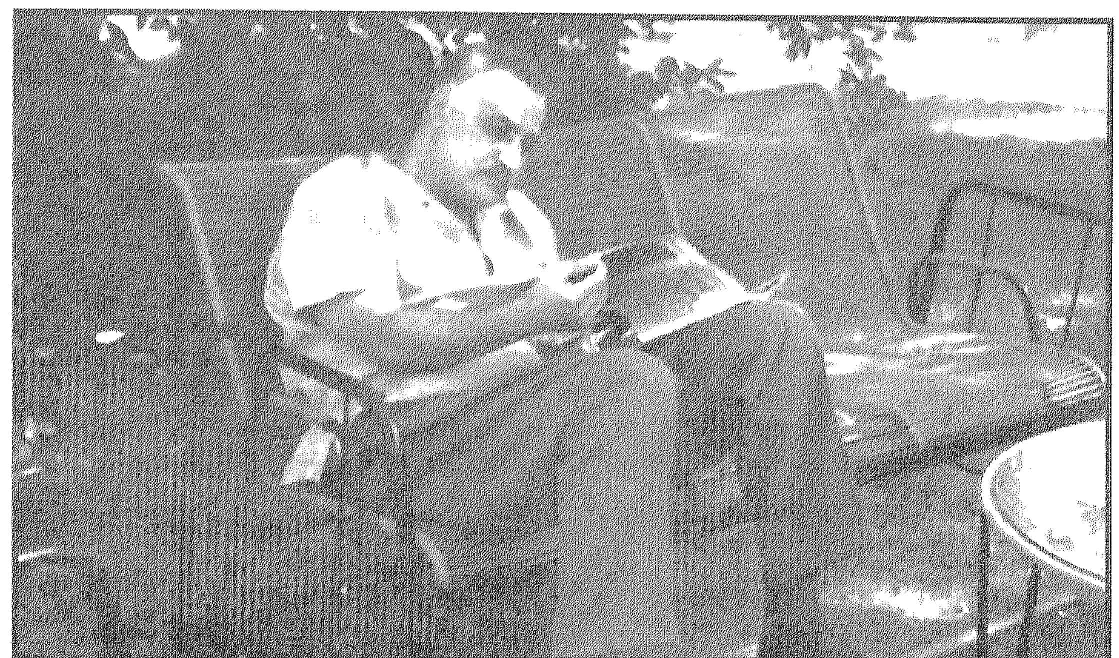
ظل طوال حياته مجرد مواطن خرج من بين



المنزل رقم ١٨ «شارع أنواتى» في حى باكوس بالاسكندرية الذي شهد مولد جمال عبدالناصر



بعيداً عن السياسة عبد الناصر يتصفح احدى المجلات فى حديقة بيت المنشية



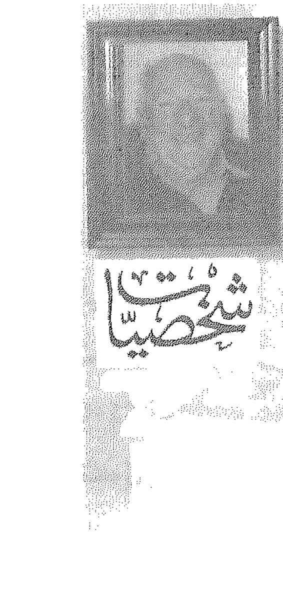
صفوف الشعب وعاش هموم تلك الفترة مثله مثل بقية أبناء الشعب المصرى. كان هدفه الأساسى بناء وطن حر يقوم على أسس العدل والمساواة بين الناس. ولم يمتلك غير مرتبه كرئيس جمهورية .

وفى عام ١٩٧٠ عقب وفاته أصدر مجلس الأمة قرارا رقم (٧٧) تتنازل فيه الدولة عن ملكية الدار (منشية البكرى) لأسرته طوال حياتها . على أن تخصص بعد ذلك كمتحف ومزار تخليدا لذكرى الزعيم «جمال عبدالناصر» . وتلحق به مكتبة تضم أكثر من عشرين الف كتاب. وتنفيذا لهذا القرار قامت الأسرة بتسليم المنزل للدولة بعد وفاة أرملته فى عام ١٩٩٠ . ومند ذلك التاريخ. والمنزل لا يزال مغلقا .. دون وجود أسباب حقيقية؟ فلماذا تأخر تنفيذ القرار (٧٧) بتحويل منزل جمال عبدالناصر الى متحف يضم مقتنياته ومتعلقاته حتى الآن؟ وذكرت د. هدى عبدالناصر أنه منذ بضع سنين صدر قرار آخر بتحويل منزل منشية البكرى الى مكاتب تابعة لرئاسة الجمهورية وطالبونا بضرورة نقل جميع محتويات المنزل ومتعلقات الرئيس عبدالناصر، الأمر الذى أحزن أسرة الزعيم .

وتوجهت الهلال بسؤال لوزير الثقافة فاروق حسنى والذى أوضح بأن المنزل لم يكن ملكا لجمال عبدالناصر بل كان ملكا للدولة وأنه مقر لأقامة رئيس الجمهورية وأوضح الوزير أن متحف مبنى مجلس قيادة الثورة سيخصص جناح منه لاسم الزعيم جمال عبدالناصر ولمتعلقاته والأوسمة والنياشين التى حصل عليها خلال فترة رئاسته للجمهورية نظرا لقيمتها التاريخية. وكان فاروق حسنى قد صرح من قبل انه اتفق مع محافظ الاسكندرية اللواء محمد عبدالسلام المحجوب على أن يؤول البيت الذى ولد فيه الرئيس عبدالناصر الى وزارة الثقافة لتحويله الى متحف خاص يحمل اسمه كخطوة اولى فى سبيل إحياء ذكراه .

وأوضح الوزير أن البيت سيتحول إلى متحف يحوى داخله كل ما يتعلق بجمال عبد الناصر، وسيعرض كافة المعلومات عن حياته وسيرته الذاتية.

وعلى الرغم من كل هذه التصريحات والقرارات الوزارية فكل ما نرجوه ان يتعدى الأمر ذلك بكثير .. فالاهتمام برموز مصر السياسية ينبغى ألا يتوقف عند حد اصدار القرارات فقط.. فالتنفيذ الفعلى فى رأينا هو أهم خطوة من خطوات الاهتمام.. بل إن الوقوف عند المستوى الادارى فقط يفتح الباب أمام مزيد من المبررات والاسباب التى قد تعيق تنفيذ أى قرار جاد بتخليد ذكرى رموز بلادنا .. وبالطبع لا أحد يستطيع انكار الدور الذى لعبه جمال عبدالناصر طوال حياته من أجل الوطن ولا ينكر انجازاته خلال قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . ■





رجل إدارة حازم وقيادة نادرة

بقلم : د.ابراهيم سعد الدين

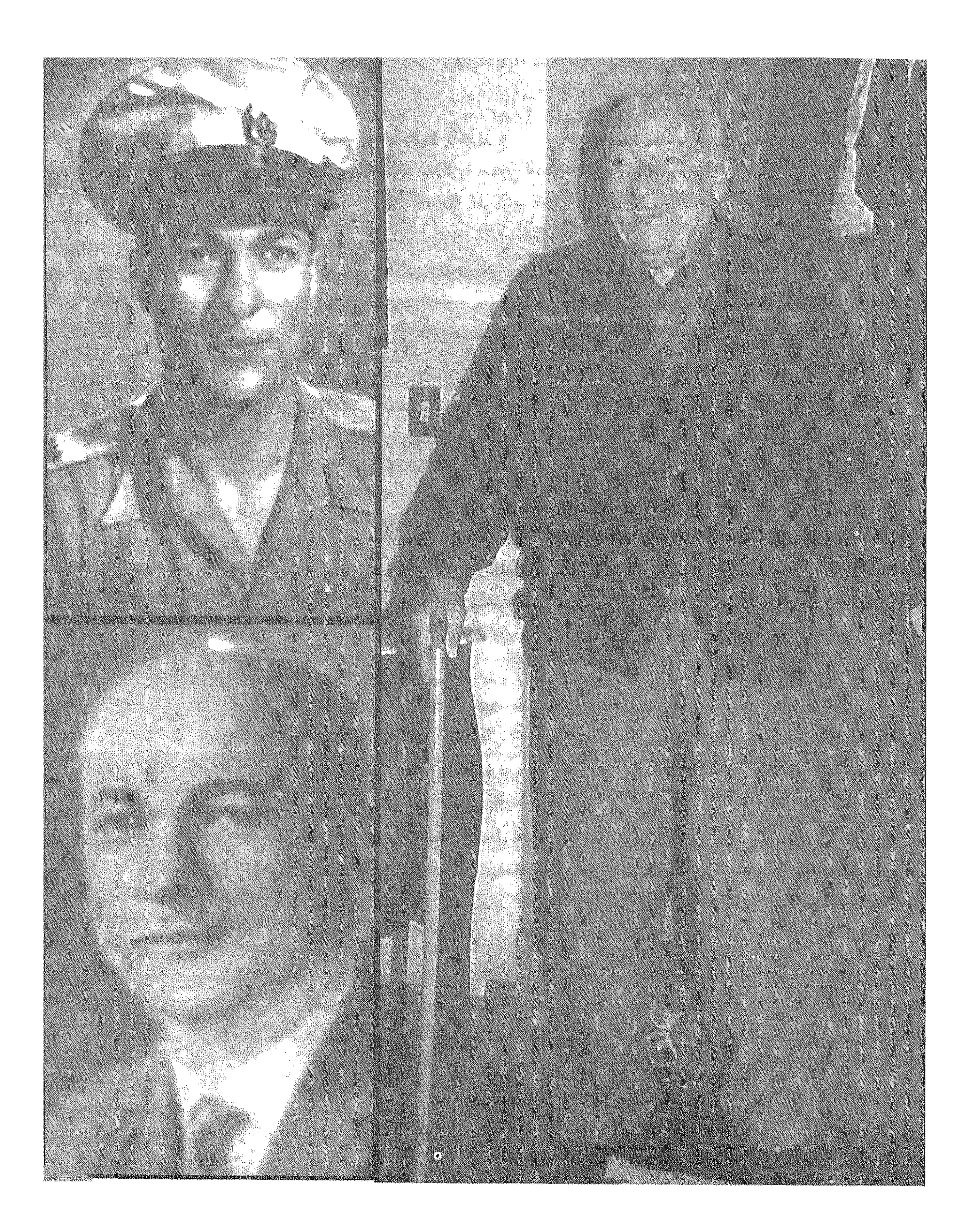
زكريا

محيى الدين الوحيد الذى لم يدل برأيه فى الأحداث المهمة التى كان طرفا فيها ونأى عن المهاترات، فضلا عن دوره المهم فى أنه كان أحد الذين رسموا خطة تحرك الجيش ليلة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

وهو الوحيد من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى لعب واحدا من أهم الأدوار فى ثورة ٢٣ يولو ١٩٥٢، والذى تولى العديد من المناصب المهمة، حيث أنشأ إدارة المخابرات العامة، وعين وزيرا للداخلية، ورأس مجلس الوزراء، فضلا عن أنه رئيس الوزارة الذى استقال احتجاجا على رفع الأسعار خاصة التى تمس عامة الشعب المصرى.

.. وكان الدكتور إبراهيم سعد الدين لصيقا به، وعمل معه لفترة طويلة، وهو هنا يقدم لنا بعض أبعاد هذه الشخصية الفريدة الفذة، من خلال وقائع ومسئوليات كلف بها مع زكريا محيى الدين

زكريا محيى الدين فى مراحل مختلفة من حياته ◀





نقدمها للقارىء العزيز.

عرفت السيد زكريا محيى الدين عن قرب، فى مرحلة إنشاء منظمة الشباب، ثم فى مرحلة رئاسته للجهاز المركزى للمحاسبات.. فى المرحلة الأولى دعيت مع مجموعة من الزملاء لمناقشة نوع البرنامج التثقيفى الذى لابد أن يوجه لأعضاء منظمة الشباب التى كانت فى مرحلة التكوين فى عام ١٩٦٤، ودعيت لهذه المشاركة مع مجموعة كانت تضم الدكتور محمد الخفيف، والدكتور حسين كامل بهاء الدين والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والدكتور أحمد الشقيرى وغيرهم.. وكان المطلوب من هذه اللجنة وضع برنامج تثقيفى لأعضاء منظمة الشباب .

كنا نجتمع لوضع الخطوط الأساسية لمثل هذا البرنامج وكنا نجتمع منفردين فى العادة، وقد توجد بيننا اقتراحات نصل فيها إلى اتفاق، أو نصل فيها إلى خلاف فى بعض الأشياء.

وكان السيد زكريا محيى الدين رغم عدم حضوره للجلسات يحصل على تقارير وافية عن المناقشات، وعما يدور فيها وعما اتفق عليه، وعما صار من خلافات بشأنها .

هذه التقارير كانت تنقل إليه عن طريق سمير مصلح، وكان فى سكرتارية زكريا محيى الدين حيث كان يعطيه صورة دقيقة عن المناقشات التى دارت، وعما انتهينا إليه من آراء .

وكان زكريا محيى الدين يجمعنا مابين وقت وآخر لنجتمع به ولنناقش معه ماوصلنا إليه، ويبدى الرأى، ويصدر حكمه على بعض الخلافات إذا كانت موجودة، فى محاولة للوصول إلى اتفاق بشأنها .

وقد طلب منا أن نضع البرنامج الخاص بإنشاء منظمة الشباب موضع التنفيذ، فى شكل سلسلة من المحاضرات تولى كل منا جانبا مِن جوانبها وكنت قد كلفت بأن أكتب محاضرة عن حتمية الحل الاشتراكى، وتوليت هذا، فى الوقت الذى كانت فيه بقية المجموعة لها تكليف فيما يختص ببرنامج هذه المنظمة، وكانت هذه المحاضرات بعد ذلك موضع عناية زكريا محيى الدين الذى كان يقرؤها و يناقش بعد ذلك ماوجد من ملاحظات فى إطار المجموعة وبرئاسته شخصيا.

ولاحظت أنه كان فى هذا الأمر مثالا للإنجاز السريع والدقة وأشير هنا الى الإنجاز السريع، لأن جميع المسائل كان يتم النظر والبت فيها، بمجرد تقديمها، كانت هذه هى المرحلة الأولى التى عرفت فيها السيد زكريا محيى الدين وتم اختيارى لهذه المشاركة

لأنه كان مسئولا عن وضع برنامج لإنشاء منظمة الشباب، والتى هى جزء من تنظيم الاتحاد الاشتراكى، وكان فى الوقت نفسه مسئولا عن الاتحاد الاشتراكى فى مدينة القاهرة، ولاحظت أنه كان يوالى مسئولياته بدقة شديدة، وبعمل صبور، ودقيق، وكان هذا من صفاته فضلا عن الإنجاز السريع والبت في الموضوعات دون أى تسويف.

أما المرحلة الثانية التى عملت فيها معه، كانت بعد صدور القانون الخاص بإنشاء الجهاز المركزى للمحاسبات، وكان قد اختير ليكون مسئولا عن إنشاء الجهاز ، ووضع القانون موضع التنفيذ.

لا يتدخل في شيء

كان زكريا محيى الدين مثالا للإنجاز السريع ، يوالى مسئولياته بدقة شديدة

كنت فى ذلك الوقت أعمل كعضو لمجلس إدارة المعهد القومى للإدارة العليا، حيث كان هذا المعهد تحت إشراف زكريا محيى الدين باعتباره نائب الرئيس جمال عبدالناصر للإنتاج، وكان يشرف على المعهد القومى للإدارة العليا فى إطار المهام الموكلة إليه، وكنا نجتمع فى مجلس إدارة المعهد ونناقش الأمور، وكان المجلس برئاسة المرحوم الدكتور فؤاد الشريف، وكان معنا فى المجلس الدكتور عبدالعزيز الشربينى، والدكتور حامد جمال الدين وأنا وزميل خامس، وكنا نجتمع كأعضاء مجلس إدارة ونناقش الأمور، ونضع برامج التدريب للإدارة العليا وغير ذلك .. وكان يحضر معنا أحد سكرتيرى السيد زكريا محيى الدين وكان يتولى سكرتارية المجلس، وبدوره كان ينقل إليه صورة مايجرى من مناقشات وفى هذه الاجتماعات، كنا نحدد ماهو ضرورى، وماهو غير ضرورى وكان لايتدخل فى أى شيء اللهم إلا إذا كان هناك مايدعو إلى الاتصال بنا، إذا كان هناك فيما وصله، مايتطلب منه أى نوع من التدخل، إنما ماعدا هذا فنحن نقرر كل الأشياء دون أى تدخل .

وكنت وأنا أتولى مهمتى فى المجلس مستمر في عملى دون أى اتصالات به اللهم إلا متابعته لنا، وأى تدخلات قد تتم عن طريقه، فهذه التدخلات فى العادة، تكون خلال نقاش معنا حول ماوصل إليه، ومايراه، ولم تكن قرارات تصدر منه منفردا وعلينا التنفيذ بأى حال من الأحوال.

وقد طلب منى وأنا إذ ذاك فى المعهد أن أزور السيد زكريا محيى الدين، وذهبت إليه فى منزله، وسألنى ما إذا كنت قد اطلعت على القانون الجديد الخاص

بإنشاء الجهاز المركزى للمحاسبات، وأخبرته بأننى قرأت القانون، ولكننى لم أدرسه فلم يكن موضع عناية منى، فطلب منى أن أدرس هذا القانون جيدا، ثم أحضر الىّ لجنه فى جهاز المحاسبات مكونة من مجموعة من الأشخاص يقوم هو باختيارهم وأن أرأس هذه اللجنة لكى أناقش وضع قانون الجهاز موضع التنفيذ.

وعندما ذهبت إلى ديوان المحاسبات، وجدت اللجنة تضم الدكتور طاهر أمين، والأستاذ ابراهيم لطفى، ووكيل ديوان المحاسبات ومجموعة أخرى من الزملاء، واجتمعنا، وتداولنا، وبدأنا العمل لوضع قانون الجهاز موضع التنفيذ وكان الجهاز إذ ذاك قد وكل إليه طبقا لقانون المراقبة الحسابية لشركات القطاع العام، ومتابعة تنفيذ الخطة إلى جانب مراقبة الصرف فى الجهاز الإدارى، والتى كانت هى دائما مهمة ديوان المحاسبة .. ثم اجتمعنا عدة مرات، وناقشنا ووضعنا خطة مشتركة تقدمنا بها إليه، واقترحنا أن يتكون الجهاز المركزى للمحاسبات من عدة أقسام. جزء لمتابعة الجهاز الإدارى للدولة، وجزء خاص لمتابعة حسابات شركات القطاع العام، وجزء لمتابعة الخطة، وجزء خاص بالنواحى القانونية، وقضايا المخالفات المالية التى يتم للجهاز متابعتها.

ملاحظات بناءة

عندما انتهى هذا التقرير تقدمت به إليه وفى أقل من ٤٨ ساعة كان قد أنجز قراءة ماقدم إليه وأبدى بعض الملاحظات هنا وهناك، ثم طلب منى أن أكون مسئولا عن وكالة الجهاز لمتابعة الخطة، وأن أضع الميزانية اللازمة لإنشاء الجهاز وأتقدم بها وأناقشها مع وزير المالية إذ ذاك وهو الدكتور نزيه ضيف، وبالفعل وضعت المقترح الخاص بالميزانية، وتقدمت به إلى الدكتور نزيه وأقره.

وطلب منى زكريا محيى الدين أن أتولى الإشراف على تنفيذ القانون ووضعه موضع التنفيذ.

وبدأنا العمل، وتم وضع المسئولين عن الجهاز المركزى للمحاسبات وهم د.محمد محمود الإمام مسئولا عن متابعة العمليات، وأنا كمسئول عن متابعة الخطة وإبراهيم لطفى كمسئول عن متابعة محاسبة الشركات وزميل من ديوان المحاسبات كمسئول عن متابعة الجهاز الإدارى، وهكذا نشأ الجهاز.

وبدأنا العمل، وبدأنا التنفيذ بالفعل فى إطار الميزانية التى وضعت فى ذلك الوقت وكان ذلك فى الفترة مابين عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ .

وكان زكريا محيى الدين يتابع عملنا بدقة، وكان فى العادة مانتتهى إليه نقدم تقريرا له، ومن الأشياء المهمة بالنسبة لى دائما أن أى تقارير كانت تقدم إليه، كان يتصل مباشرة بى بعد ليلة على الأكثر ويكون قد قرأ التقرير بدقة، وله ملاحظاته أوله استفساراته ويتصل تليفونيا وبشكل مباشر للاستفسار أو لإعطاء التوصية متوليا مهمته بدقة.

.. فى بعض الأحيان كان زكريا محيى الدين يطلب أشياء معينة بناء على معلومات لديه، وليست لدى .. وبالطبع فإننى أقوم بالتنفيذ.

وقد استمريت مع السيد زكريا محيى الدين وأنا فى هذا الموقع، إلى أن اختير رئيسا للوزراء وفى ذلك الوقت كانت قد تكونت الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى وتم اختيارى بها ولأكون مسئولا عن أمانة المعاهد الاشتراكية، وبدأت مع مجموعة من الزملاء فى ذلك الوقت لوضع برنامج للمعاهد الاشتراكية .

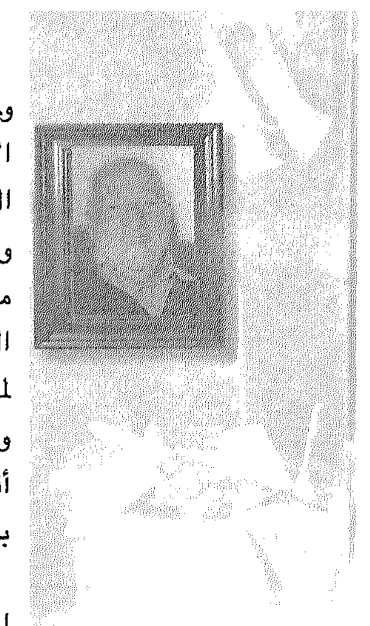
كل قراراته تحمل مسئوليتها وما ترتب عليها من آثار دون تردد وبحزم وشجاعة

وقد اتصل بى يطلب منى أن أعمل معه فى إنشاء جهاز لمتابعة تنفيذ الوزارات لمهامها، وكنا قد بدأنا بالفعل فى العمل فى برامج المعاهد الاشتراكية، وعلى الرغم من أن العمل معه فيه فائدة فكرية كبيرة واكتساب خبرة واسعة فإننى فى ذلك الوقت اخترت فى أن أتم مهمتى فى إنشاء معاهد الدراسات الاشتراكية واعتذرت عن المهمة التى كلفنى بها، ورشحت بدلا منى الدكتور محمد محمود الإمام، ليتولى هو إنشاء جهاز المتابعة .

وخلال المرحلتين اللتين عملت فيهما معه، عرفت فيه شخصية دقيقة موضوعية حازمة، يقوم بإدارة المهام الموكلة إليه بدقة، ويعطى الحرية الكاملة لمن يعملوا معه، فى أن يتولوا هم المسئوليات المناطة بهم دون أن أى تدخل، ويناقش معهم نتائج أعمالهم، أو أية أمور ومعلومات قد تصله دون أن يأخذ قراراً مفاجئا دون أن يفاجىء به من يعملون به وقبيل معرفتهم المسبقة، ودون مناقشة .

تمتعت بالعمل معه

فضلا عن أننى عرفته فى أثناء مشاركتى فى عضوية الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى وكان يحضر دائما مناقشات الأمانة العامة، عندما كانت برئاسة الرئيس جمال عبدالناصر وكانت هذه الاجتماعات تناقش كل الأمور، وعادة كانت المناقشات تدور مابين الرئيس جمال عبدالناصر وبين أعضاء الأمانة من غير أعضاء مجلس قيادة الثورة وعلى العادة أن زكريا محيى الدين وأنور السادات



وحسين الشافعي وغيرهم من مجلس قيادة الثورة لايتناقشون في الأمور في ضمن الأمانة العامة، ومن وجهة نظرى الخاصة أن الأمور من الممكن أن تكون نوقشت مع الرئيس جمال عبدالناصر، إما بعد أو قبل الاجتماع، إنما فى العادة أثناء الاجتماع، والمناقشات كانت تجرى فى العادة ودائما بين أعضاء الأمانة العامة من غير أعضاء مجلس قيادة الثورة . واستطيع القول بأننى تمتعت بالعمل معه، واعتبره من القيادات القادرة والنادرة فى وقتها، وفى قدرتها على حسم الأمور والبت فيها، وإعطاء الحرية لمن يعملون بلا تدخل وفى سرعة الانجاز وفى عدم ترك أي أمر معلق دون قرار محدد وواضح .. حتى إذا اختلفت فى بعض الآراء، فإننى كنت أعرف دائما أين يقف وأين أقف، وهو دائما فى مثل هذه الحالة، مادام متوليا المسئولية، فهو صاحب القرار وأنا بالتالى لا أجد أى غضاضة فى أن أنفذ قراره، لأنه هو صاحب القرار.

ومرة ثانية أقول إننى تمتعت بالعمل تحت رئاسة زكريا محيى الدين سواء فى فترة إعداد برنامج التثقيف لمنظة الشباب الاشتراكى، أو فى عملى فى الجهاز المركزى للمحاسبات، وقد حدث أن قرر أن أكون نائبا له فى الجهاز، إلى جانب استمرارى فى تولى مسئولية متابعة الخطة .

وكنت فى بورسعيد فى صيف ١٩٦٥ عندما طلب منى أن أتصل به وهو فى الاسكندرية، وبعض المسئولين فى بورسعيد اتصلوا بى ، وطلبوا منى أن أذهب إلى مكتب المباحث العامة، حيث تم الاتصال به فى الاسكندرية فأخبرنى أنه قرر أن أكون نائبا لرئيس الجهاز فشكرته على ذلك.

وأود أن أؤكد على طبيعته كرجل دولة مسئول وأشير هنا إلى أمر يختص بمسألة رفع الأسعار فى وزارته عندماتولى مسئولية الوزارة، وكانت قد بدأت ارتفاعات للأسعار غير مطبقة، ونوعا من التضخم غير المخطط فى الاقتصاد المصرى كنتيجة لزيادة كبيرة فى الاستهلاك.

وكان من الضرورى إذ ذاك أن يتم العمل على توازن الميزانية، ورفع الايرادات بصفة مخططة، بما فى ذلك رفع بعض الأسعار وقدأعلن ذلك فى بيانه الوزارى، وكنت قد اطلعت على البيان إذ ذاك، وعرفت بأنه كان هناك اتجاه لرفع الأسعار، فسألته أليس من الأفضل أن يعلن الرئيس جمال عبدالناصر هذا الأمر، بدلا من أن يلقى العبء على كاهل الوزارة التى تبدأ عملها إذ ذاك، وأنه قد يكون من المناسب أن يأتى هذا فى خطاب الرئيس، لأنه سيكون له قبول أكبر من المواطنين، مما لو أعلن القرار

بواسطة رئيس الوزارة الجديد.

تقدير كامل للمسئولية

وذكر لى زكريا محيى الدين فى عبارة موجزة أنه لو أعلن زكريا محيى الدين قرار رفع الأسعار وتمت مهاجمة زكريا محيى الدين، فإن الأمر ليس خطيرا ومن الممكن أن يذهب زكريا محيى الدين ويتولى غيره رئاسة الوزارة، أما إذا تعرض عبدالناصر لهذا الأمر، وكان هذا الأمر موضع غضب الناس، فمعنى ذلك أن الهجوم سيكون على الثورة وعلى النظام، وليس على فرد أو آخر.

هذا التقدير للمسئولية والاستعداد لتحمل المسئولية، وتحمل مايترتب على القرار من آثار، دون تردد حماية للثورة فى الصفة الأساسية لرجل الدولة المسئولية.

وأنا أعلم وكنت أعيش هذه الفترة أن هذا القرار كان موضع هجوم شديد، وكان موضع هجوم من الاتحاد الاشتراكى بالذات، وتعرض فيه زكريا محيى الدين من منظمة الشباب التى ساعد فى إنشائها، ولكنه لم يتردد فى أن يصدر القرار اللازم، وأن يتحمل مسئوليته حتى إن كان غير مسئول عن السياسات الاقتصادية، التى أدت إلى هذه الضرورة.

زكريا محيى الدين فى سطور

* ولد في عام ١٩١٨
* عمل مدرسا بالكلية الحربية بعد انتهاء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ثم مدرسا لمادة التكتيك في كلية أركان الحرب حتي قيام ثورة يوليو ١٩٥٢
* بعد قيام ثورة يوليو عمل مديرا للمخابرات الحربية، ثم مديراً للمخابرات العامة سنة ١٩٥٣ حتي عين وزيراً للداخلية في أكتوبر ١٩٥٣
* عين وزيرا للداخلية في عهد الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٨ .
* سنة ١٩٦١ عين نائباً لرئيس الجمهورية للمؤسسات وفي سنة ١٩٦١ تولي وزارة الداخلية إلي جانب منصبه كنائب لرئيس الجمهورية ورئيس الجهاز المركزي للمحاسبات.
* في سنة ١٩٦٤ عين عضواً باللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي
* عين رئيسا للوزراء سنة ١٩٦٥ ثم نائبا لرئيس الجمهورية .
* وفي مارس ١٩٦٨ قدم استقالته من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية

شخصيات

هيكل في السجن

بقلم : حسين عبد الرازق

لم تكن «حبسة» سبتمبر ١٩٨١ شيئاً عاديا فى تاريخ مصر ، ولا فى تاريخ عمليات «القبض» التى تعرض لها كثيرون من المتصدين للعمل العام خلال السبعينيات أو قبل ذلك . ليس فقط لأنها استندت إلي المادة ٧٤ من الدستور، التي تعطى «لرئيس الجمهورية إذا قام خطر يهدد الوحدة الوطنية أو سلامة الوطن أو يعوق مؤسسات الدولة عن أداء دورها الدستوري أن يتخذ الإجراءات السريعة لمواجهة هذا الخطر ويوجه بيانا إلى الشعب ويجرى الاستفتاء على ما اتخذه من إجراءات خلال ستين يوما من اتخاذها» .. أو لأن الاستفتاء تم على موضوعات لم يتصور أحد أنه يمكن أن يستفتي الناس حولها ، مثل التحفظ على ١٥٣٦ مصريا أو على الأصح اعتقالهم ، ونقل ٦٤ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية إلى وظائف أخرى ، ونقل ٦٧ من الصحفيين والعاملين فى المؤسسات الصحفية واتحاد الإذاعة والتليفزيون إلى هيئة الاستعلامات ، وعزل البابا شنودة ، وسحب تراخيص جريدة الشعب ومجلات الدعوة والاعتصام والمختار الإسلامى وجريدة وطنى ومجلة الكرازة ومجلة الموقف العربى ، وحل عدد من الجمعيات الأهلية الإسلامية والمسيحية .. ولكن أكثر ما يميز هذه الحملة من الاعتقالات هو نوعية الناس الذين شملتهم ، فقد ضمت عشرة وزراء سابقين ، من العهد الملكى «فؤاد سراج الدين» وعبد الفتاح

حسن - رحمهما الله - ومن عهد الثورة المرحوم فتحى رضوان، ومحمد حسنين هيكل ومحمد فائق ود. حلمى مراد» ، ومن وزراء السادات د. اسماعيل صبرى عبد الله ، والمرحوم د. فؤاد مرسى ، والمرحوم عبد السلام الزيات ، والمرحوم المهندس عبد العظيم أبو العطا ، وامتدت من الجماعات الإسلامية والمسيحية وقادة أحزاب وقوى سياسية (التجمع - الوفد - العمل - الإخوان المسلمين - الحزب الشيوعى - الناصريين) ، إلى أعضاء مجالس النقابات المهنية والعمالية ومواطنين عاديين .

منذ اللحظة الأولى التى ألقى القبض على فيها مساء ٣ سبتمبر ١٩٨١ أدركت الطبيعة الخاصة لهذه الحملة ، بل وكانت هناك مؤشرات لذلك قبلها ، فقد حضر إلى حزب التجمع فى الصباح الزميل (المرحوم) بدوى محمود الصحفى بالجمهورية يحمل رسالة عاجلة من المهندس ابراهيم شكرى لخالد محيى الدين ، ، تقول إن هناك حملة اعتقالات ستبدأ هذه الليلة وستطال الجميع . وعندما حضر ضابط مباحث أمن الدولة إلى منزلى - ومنازل الآخرين - لم يكن لديهم أى رغبة فى «التفتيش» المعتاد والاستيلاء على المضبوطات من كتب وصحف ومسجلات وأصول مقالات «تهدد أمن الدولة» . وصلت إلى سجن الاستقبال بطره ، وهو سجن جديد بناه المرحوم المهندس عثمان أحمد عثمان (المقاولون العرب) بعد تمثيلية هدم السادات لسجن ليمان طره عقب انقلاب ١٣ مايو ١٩٧١ (المشهور إعلاميا بثورة ١٥ مايو) ، لتضم منطقة طرة عدة سجون منها الليمان، والمزرعة وملحق المزرعة والاستقبال . فوجئت بالتنوع الغريب للمقبوض عليهم . فالزنزانة التى دخلت إليها فى أول ليلة كانت تضم زملاء من حزب التجمع والوفد والعمل والاخوان والجماعات الإسلامية والتكفير والهجرة (الجماعة الإسلامية).

محمد حسنين هيكل

وعندما تم نقل من أطلق عليهم السياسيون (من غير الجماعات الإسلامية والمسيحيين) وهم ٢٣ من حزب التجمع و ٥ من حزب العمل و ٩ من حزب الوفد و ٢ من الإخوان المسلمين و ١٣ من القيادات الناصرية الشابة والمستقلين ، وتم نقلهم على دفعتين إلى سجن ملحق مزرعة طره ، توقفت طويلا أمام «محمد حسنين هيكل» الذى كان يمثل حالة خاصة ، بالنسبة لى على الأقل .

هيكل وإعجاب اليسار به

لم أكن قد التقيت به من قبل إلا مرتين . الأولى عابرة ، وكنت فى الأهرام مع محمد عودة وأمينة شفيق ، نهم بالصعود إلى الأهرام عندما فتح باب المصعد وخرج منه هيكل وكان هذا اللقاء العابر

قبل أن يترك هيكل الأهرام عندما قدمتني له أمينة شفيق ، سألني بثقة عن رأيي فيما يكتب في الأهرام في ذلك الوقت ، كان للسؤال معنى واضح . فقد فصلت من العمل في الجمهورية ومن الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي عام ١٩٦٨ بتهمة إلقاء محاضرة في الاتحاد الاشتراكي تعرضت فيها بالنقد للأوضاع السياسية التي أدت للهزيمة . وللأستاذ هيكل وكتاباته في الأهرام . وكانت مقالاته الأخيرة في الأهرام محل إعجاب وتقدير اليسار كله وأنا منهم . وأجبته على سؤاله بحسم «هايله» . ثم التقيت به في عشاء بمنزل «لطفي الخولي» رحمه الله ، حضره قادة الحركة الطلابية عام ١٩٧٢، إلى أن التقيت به في سجن ملحق مزرعة طره ، أو «الملحق» كما كان يطلق عليه اختصارا !

كان هناك ارتباط واضح في أذهاننا جميعا بين ثورة ٢٣ يوليو ومحمد حسنين هيكل . فرغم أنه من الناحية الرسمية كان رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ورئيسا لتحرير الأهرام ، فقد كان منذ بداية الثورة وحتى رحيل جمال عبد الناصر ولفترة محدودة خلال حكم السادات ، واحدا من صناع السياسة المصرية . فعلاقته بعبد الناصر علاقة من نوع خاص . فقد أثر في جمال عبد الناصر وسياساته بصورة واضحة . كانت بينهما - كما يقول دائما - علاقة صداقة . وبقدر ما أخذ من عبد الناصر بقدر ما أعطى . وكان المهتمون والمشتغلون بالسياسة ، من المعجبين بهيكل أو الذين اتخذوا منه موقف المعارضة والرفض ، حريصين على قراءة مقاله «بصراحة» كل يوم جمعة ، أو الاستماع إليه في الإذاعة ، حيث كان دائما يحمل معلومات لا يعرفها أحد ، وتحليلات ووجهات نظر تشير إلى اتجاه الريح في الحاضر وأحيانا كثيرة في المستقبل. أصبح هيكل ظاهرة في ثورة ٢٣ يوليو وفي الحياة السياسية المصرية والعربية . وقد حاول البعض لعب هذا الدور ، سواء في مصر أو بعض الدول العربية ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . فلم يكن لديهم قدرات هيكل ونفوذه وعلاقاته مع دوائر الحكم في مصر والعالم ، ولم يكن عبد الناصر بكل تفرده له شبيه بين الرؤساء في مصر والعالم العربي ، ولم تكن علاقة هيكل وعبد الناصر أمرا يمكن تكراره بمجرد قرار من هذا الصحفي ، وذاك .

وعندما ضم السجن هذا الكم الهائل من الشباب والشيوخ المنتمين إلى أجيال مختلفة ، من فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسني (رحمهما الله) الأكبر سنا إلى حمدين صباحي وكمال أبو عيطة الأصغر سنا ، كان هناك تساؤل .. كيف سيواجه محمد حسنين هيكل تجربة السجن ؟ .. فكل الذين جمعهم السادات في حملة ٣ - ٥ سبتمبر ١٩٨١ في الملحق سبق لهم المرور بتجربة السجن عدا القليلين ومنهم محمد حسنين هيكل ، فهذا قدر كل من يتصدى للعمل العام في مصر، وأظن أن هيكل نفسه لم يكن يتوقع أن يمر بهذه التجربة ، وعادة ما يصيب الارتباك الذين لم يضعوا احتمال دخول السجن في حساباتهم .

بين السجين والسجان

ولا أنكر أن كثيرين منا اهتموا بمتابعة تعامل هيكل مع السجن والسجان بحثا عن إجابة لهذا التساؤل ، والغريب أننا واجهنا بعد الإفراج عنا العديد من الأسئلة كان من أبرزها كيف تصرف هيكل في السجن ، وكانت الإجابة واضحة ، لقد مر بنجاح في هذا الامتحان . لم تفزعه التجربة وتعامل معها بقوة وتماسك ، وأكاد أقول إنه امتلك نوعا من التميز والخصوصية بين كل المحبوسين

رغم أهميتهم جميعا بدرجة أو أخرى .

ومازلت رغم مرور ما يقرب من ٢١ عاما على هذه التجربة أتذكر تفاصيل وحكايات كان محمد حسنين هيكل طرفا فيها ، منها على سبيل المثال مشهد توقفنا أمامه بعض الوقت . وهو ذلك الحوار المتصل بين هيكل وقائد السجن وبعض ضباطه . هيكل داخل زنزانته المغلقة طوال الليل والنهار عدا دقائق معدودة فى البداية يسمح لنا خلالها بالخروج والحديث معا ، يقف خلف القضبان يتحدث مع السجان باهتمام . لم نكن نعرف ما يدور من حوار بينهما باستثناء رفيقى هيكل فى الزنزانة .. عبد العظيم المغربى (أمين التنظيم فى حزب التجمع فى ذلك الوقت وأحد قادة الحزب الناصرى ونائبه فى البرلمان حاليا) وصابر بسيونى (عضو حزب التجمع والعامل الشيوعى فى الستينيات - رحمه الله) . بعد فترة اكتشفنا سر هذه الأحاديث . كان هناك تقرير - وقيل تسجيلات - ترفع يومياً للرئيس الراحل أنور السادات ، تركز عما يفعله هيكل تحديدا ، ماذا يقول وكيف يتصرف ، وهل انهار أم مازال متماسكا . وقرر هيكل - كما يبدو - استغلال هذه القناة لتوصيل رسائل يومية للسادات ، تؤكد أولا أنه هو وكل «أسرى» مذبحة سبتمبر ١٩٨١ متماسكون ، ويضع أمامه ثانيا بعض الآراء السياسية فى كل ما جرى وما يجرى حولنا .

وكانت عزلتنا عن الخارج شبه تامة لا صحف ولا زيارات ولا أى مصدر للمعلومات ، وكنا نفتقد المساجين الجنائيين الذين كنا نحبس عادة معهم فى نفس السجن ، ويتطوع بعضهم عن طيب خاطر لتوظيف الحريات النسبية المتاحة لهم فى الاتصال بالخارج ، فيهربون لنا الصحف والرسائل إلى أن يسمح لنا بالزيارات والصحف والكتب ، واكتشف بعض الزملاء وجود «راديو» فى حقيبة ملابس الأستاذ هيكل ، التى تم حبسها مع كل الحقائب فى زنزانة بالدور الأرضى ، وتطوع حمدين صباحى وكمال أبو عيطة . بإحضار الراديو بعد أن أحاطهم هيكل بأوصاف حقيبته وأعطاهم المفتاح ، وادعى حمدين وكمال حاجتهما للابس من حقائبهما . وسمح لهما بدخول زنزانة الحقائب . وبسرعة وفى غفلة من الحارس فتح أحدهما حقيبة هيكل وأخفى الراديو والسماعة الخاصة به فى ملابسه وسلمهما لهيكل دون أن يلحظهما أحد . وبرزت مشكلة أخرى ، لا توجد بطاريات فى الراديو ، كلفنا أحد جنود الحراسة المتعاطف معنا بأن يحضر لنا البطاريات عن طريق المتهمين فى قضية الحزب الشيوعى وعلى رأسهم نبيل الهلالى والمحبوسين فى سجن المزرعة . كان الجندى بطبيعة عمله ينتقل بين الملحق والمزرعة ، وكان زملاؤنا فى سجن المزرعة محبوسين منذ مارس ١٩٨١ ولديهم حقوق المحبوسين احتياطيا من زيارات وصحف وكتب والتعامل مع الكانتين .

ووصلت البطاريات بالفعل . وفى المساء وبعد إغلاق الزنازين علينا بدأ أول اتصال لنا بالعالم الخارجى، جلس الأستاذ هيكل فوق سريره وفتح الراديو مستخدما السماعة حتى لا يكتشف أحد وجود الراديو . طال وقت الاستماع ، وعبد العظيم المغربى وصابر بسيونى فى شوق لمعرفة الأخبار التى يستمع إليها هيكل . أغلق هيكل الراديو بعد ما يقرب من ساعة - وكما روى صابر بسيونى - فقد سأله عن الأخبار التى استمع إليها كل هذا الوقت، ورد هيكل بهدوء قائلا إنه كان يستمع لموسيقى برامز - فجن جنون صابر وقال غاضبا .. «ده موسيقار بورجوازى عفن» .

وجاء يوم ٢٣ سبتمبر ، وهو يوافق عيد ميلاد

هيكل .. كنا قد بدأنا فى بث إذاعة الملحق ، يستغل المسئولون عن الإذاعة فترة فتح الأبواب ليضعوا برنامج اليوم ويتفقوا مع المشاركين فى الإذاعة وتحديد الفقرات التى يشاركون بها . وبعد إغلاق أبواب الزنازين ، تبدأ الزنزانة التى تدير الإذاعة فى تقديم الفقرات المختلفة التى تذاع من زنازين عديدة ، وكان يقيم فى زنزانة إذاعة طرة حسب ما أتذكر ، حمدين صباحى - كمال أبو عيطه و أبو العز الحريرى قبل ترحيل الأخير إلى ليمان «أبو زعبل» تقرر تخصيص كل الفقرات فى ذلك اليوم للحديث عن محمد حسنين هيكل . توالى المتحدثون كل يتناول هيكل من زاوية مختلفة حتى الذين لم يكن قد تم الاتفاق معهم مسبقا تحدثوا ، فلم يتخلف أحد عن المشاركة فى هذه المناسبة . وجاءت مشاركة د. عصمت سيف الدولة (رحمه الله) لتكون من نوع خاص جدا . كان الحديث قطعة من الأدب من ناحية الصياغة ، تناول الكثير مما يحسب لهيكل ، ولكنه أيضا احتوى نقداً لاذعا له فى صورة مديح ! استطت من موقعى ومعى حامد الأزهرى وإبراهيم مراقبة زنزانة د. عصمت وزنزانة الأستاذ هيكل فى الصف المقابل لنا ، وكيف بدا الضيق على هيكل دون أن ينطق بكلمة .

ومرت أيام طويلة وحضرت جلسة مصارحة ومصالحة بين هيكل وعصمت . سأله هيكل عن سر هذا النقد اللاذع . وقال د . عصمت إن أحمد الجندى شقيق زوجته وصديق هيكل وكانا معا فى لندن ، نقل إلى هيكل خبر إلقاء القبض على د. عصمت متهما فى أحد القضايا السياسية فى بداية حكم السادات ، وعلق هيكل قائلاً «أحسن .. يستاهل ». ونفى هيكل هذه القصة تماما ، واعتبر د. عصمت الأمر منتهيا عند هذا الحد ، وعادت المياه إلى مجاريها بينهما .

بعد فترة طويلة ، وفى ١٨ نوفمبر ، وكان السادات قد اغتيل وتحسنت أحوالنا فى السجن وبدأت الزيارات ، احتفلنا بعيد ميلاد «شاهنده مقلد» بطريقة مختلفة . كانت شاهنده متحفظا عليها فى سجن النساء بالقناطر الخيرية ومعها «فريدة النقاش» - أو على الأصح كانتا محبوستين احتياطيا - منذ مارس ١٩٨١ ، ولكن السادات أضاف اسميهما إلى قائمة المتحفظ عليهم فى سبتمبر ١٩٨١ بتهمة إثارة الفتنة الطائفية والمسئولية عن أحداث الزاوية الحمراء !

أحضرت أمينة النقاش لنا تورتة فاخرة ، وتجمعنا ومعنا الأستاذ هيكل فى حوش السجن وغنينا «عيد ميلاد سعيد» لشاهنده ، وأكلنا «التورتة» .

يوم اغتيال السادات

وعندما اغتيل السادات صباح يوم ٦ أكتوبر ، كنا الوحيدين فى مصر الذين لم يعرفوا بالحدث لمدة ٢٤ ساعة . فالحصار المفروض علينا كان محكما . وفى صباح اليوم التالى (٧ أكتوبر) قال لنا صبرى مبدى من خلف باب زنزانته إنه لم ينم طوال الليل ، فهتافات المقبوض عليهم من الجماعات الإسلامية فى سجن الاستقبال الذى يبعد عنا عدة كيلو مترات لم تنقطع وهم يرددون كلمة واحدة «هلك الهالك» . و لم نفهم المعنى الكامن وراء هذا الهتاف ، تأخر فتح أبواب الزنازين عن الموعد المحدد ، وبدأ مدير السجن وعدد من معاونيه يمرون على الزنازين الواحدة تلو الأخرى ويمضى المدير بعض الوقت يتحدث ثم يخرج ويغلق باب الزنزانة مرة أخرى ، وجاء دورنا ليبلغنا بأن الجميع يثق فى وطنيتنا وحرصنا على هذا البلد ، ثم ينقل إلينا خبر «وفاة» السادات

وعندما سأله أحدنا هل قتل ، أجاب بقوة لا .. توفى بأزمة قلبية، وبعد أن أتم جولته فتحت أبواب الزنازين وخرج عادل عيد مندفعا وهو يهتف «تحيا مصر» وردد الجميع الهتاف بعده . وعلمنا أن هيكل بكى عندما سمع الخبر .

بعد أيام بكينا جميعا عندما أصيب عبد العظيم أبو العطا بنوبة قلبية ولم نستطيع إنقاذ حياته ، وكنا فى حاجة إلى حقنة لا يساوى ثمنها عدة قروش ، ولكنها لم تكن موجودة بعيادة السجن وفشلت محاولات إرسال أحد الجنود لشرائها من الخارج ، كان لابد من الحصول على إذن من جهات أعلى من مدير السجن ورحل عبد العظيم أبو العطا قبل أن يصل الإذن. كان رد فعلنا عنيفا ورفضنا الدخول إلى الزنازين قبل حضور النيابة العامة . وتم كتابة مذكرة حملنا فيه السلطات مسئولية وفاته ووقعنا عليها جميعا . وأظن أن هذه هى المرة الأولى التى شارك فيها هيكل فى اتخاذ موقف جماعى مع آخرين . فالحدث كان يتجاوز أية حسابات .

هيكل وخريف الغضب

ويبدو أن هيكل اتخذ قراره بتأليف كتاب عن فترة السادات بمجرد اغتياله . وهو الكتاب الذى نشر بعد ذلك تحت اسم «خريف الغضب» وتم منعه من دخول مصر سنوات طوال . وبدأ يضع خطوطه العريضة وهو مازال داخل سجن ملحق مزرعة طره . ومن المشاهد التى تكررت كثيرا فى هذا الوقت ، هيكل يقطع حوش السجن ذهابا وإيابا ويستمع إلى صلاح عيسى أو د. ميلاد حنا . كان الحديث مع صلاح يدور حول الجماعات الإسلامية ، بينما الحديث مع ميلاد يتركز حول الكنيسة القبطية . لفت نظرى بعد ذلك أن هيكل لديه معلومات كثيرة جداً عن الحكم وصراعاته فى مصر وخارج مصر ، ولكن معلوماته عن الأحزاب والقوى السياسية والحركات الشعبية لم تكن على نفس المستوى .

كان لقائى الأخير مع محمد حسنين هيكل داخل السجن عندما ذهب مع عدد من «المتحفظ عليهم» للتحقيق أمام المدعى الاشتراكى ، وعادوا فى المساء متأخرين عن المعتاد ساعات طوال . سألت أحدهم عن سبب هذا التأخير فقال إنهم كانوا فى انتظار الأستاذ هيكل الذى استمر التحقيق معه من الصباح إلى المساء . لم أجد الأمر مقنعا وجاءنى خاطر غريب وتوجهت لهيكل وسألته مباشرة ، ماذا جرى فى لقائك بالرئيس مبارك ؟! لم ينف هيكل أنه غادر مقر المدعى العام الاشتراكى للقاء مهم ، ولم يؤكد أن اللقاء كان مع الرئيس . وقال إن الحبسة فى طريقها للتصفية، وهو ما تحقق بعد ذلك عندما أفرج عن الغالبية فى ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ - حسب ما أتذكر - ولم أكن من بينهم . وخرج الآخرون على دفعات . وكان بين المفرج عنهم فى نهاية الحبسة أبو العز الحريرى الذى احتاج لجهود شديدة حتى يخرج من السجن .

وأظن أن هناك علاقة خاصة نشأت بينى وبين الأستاذ هيكل منذ هذه التجربة ، وخلال رئاستى لتحرير الأهالى (١٩٨٢ - ١٩٨٨) واليسار (١٩٩٠ - ٢٠٠١) .

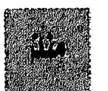
قد لا أكون من بين أصدقائه الذين يلتقون به دائما ، ولكن هناك مشاعر خاصة نحوه ولدت فى هذه الأيام الصعبة ، ومازالت مستمرة . ■

شخصيات

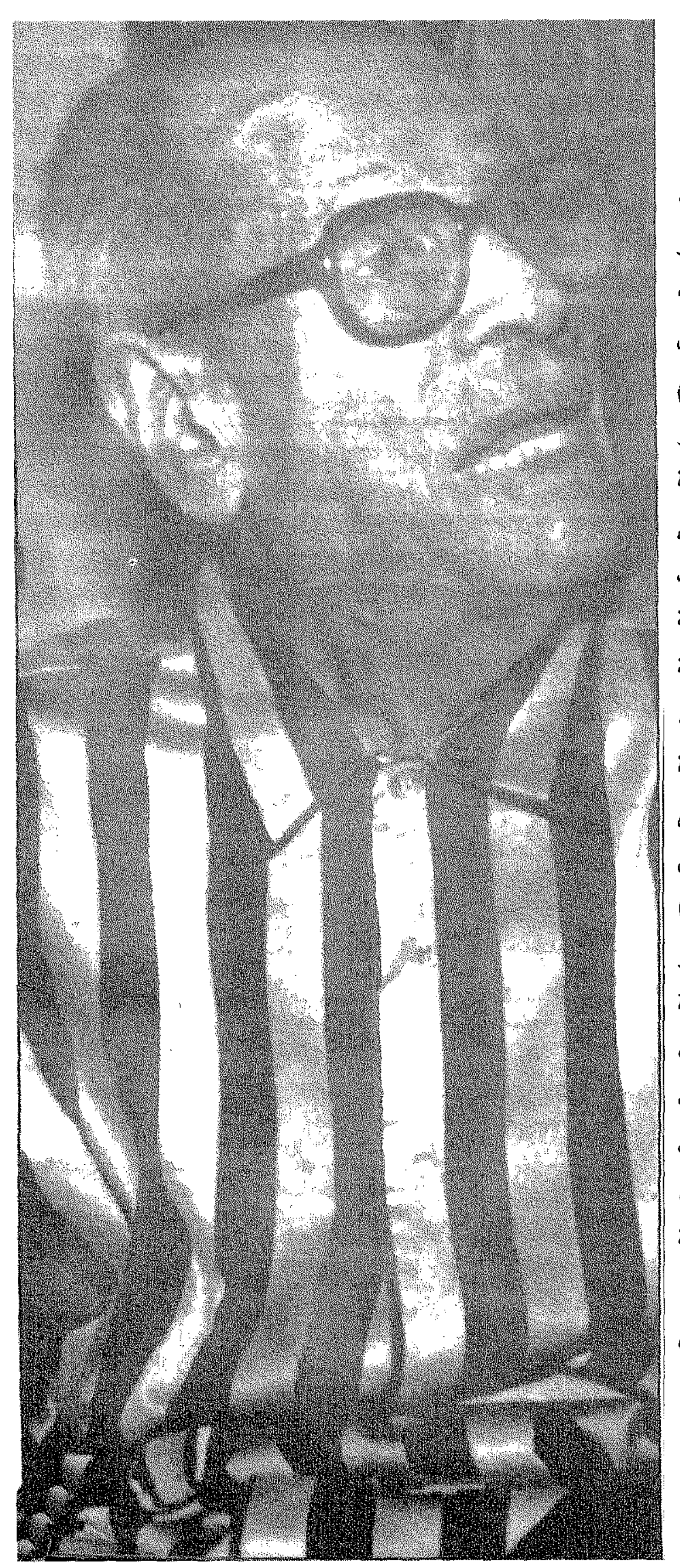
نجيب محفوظ

بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو

بقلم : ابراهيم فتحى



الطفولة والشباب الغض، كان محفوظ مثل أقرانه من المصريين يتنفس السياسة الوطنية باعتبارها محورا للحياة، فسياسة الحكام الدكتاتوريين الممالئين للقصر الملكي المستند على حراب الاحتلال البريطانى كانت تتحكم فى رقاب الناس، وفى مستوى معيشتهم وقدرتهم على العمل والكسب وتعليم أبنائهم ، لذلك كانت المقاومة الوطنية الديمقراطية هى أمل الناس فى التخلص من الأوضاع الجائرة وفى مستقبل متحرر، وفى بيت محفوظ كان والده يتكلم بحماس عن «أبطالنا» القوميين وكانت أسماء مصطفى كامل ، ومحمد فريد، وسعد زغلول محاطة بالقداسة، وحينما كان والده يتحدث عن رجال السياسة بانفعال شديد، كان الطفل يشعر أنهم ينقسمون إلى أصدقاء أو أعداء شخصيين وفقا لمقتضيات الروح الشعبية فى الشارع وأماكن العمل والسوق والساحات العامة.

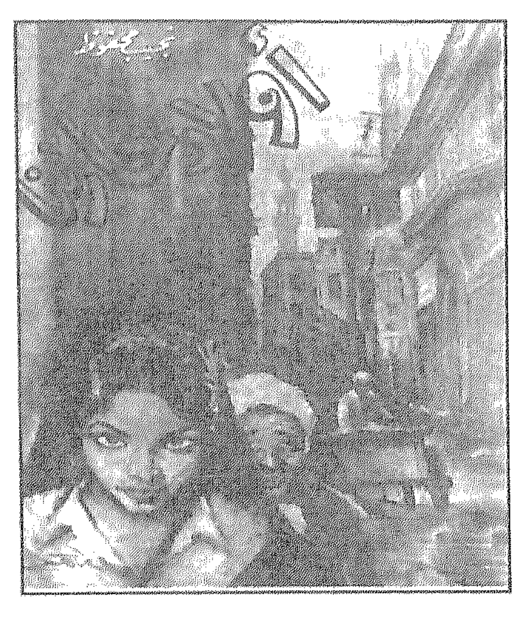


وعند محفوظ كان الوفد ضمير الأمة ومعقد الآمال كما صور ذلك فى الثلاثية من وجهة نظر يحيطها بالتعاطف عند شخصية كمال عبدالجواد، التى تحمل طرفا من تطور أفكار محفوظ، ولم يكن محفوظ عضوا فى أى حزب طوال حياته كما لم يشغل قط أى منصب سياسي، وفى شخصية عامر وجدى فى رواية «ميرامار» قبل الهزيمة مباشرة (١٩٦٦) كان الوفد يمثل للصحفى الذى اقترب من الثمانين جانب الثورة العالمية الخالدة ١٩١٩ جانب الأوهام المحلقة فى السحب والعبارات الحماسية ذات الدوى الشعرى، بعيدا عن المصالح الطبقية الأنانية، وأكياس أعيان الريف الممتلئة بالفضة، وبعد ذلك حينما ألغى مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ عادت روح ثورة ١٩١٩ عام ١٩٥٠ إلى الحياة السياسية المصرية فى ظروف محتدمة من الصراع الطبقى والفكرى. وفى «المرايا» (١٩٧١) تقول شخصية إن الوفد زحف عليه العجز والتدهور وتقول شخصية يسارية أخرى الثورة أفضل من الوفد، وفى فترة ما قبل ١٩٥٢ كانت «الاشتراكية» فى رواياته متعددة الاتجاهات وكانت «الكلمة» تلقى تعاطفا واسعا وتنتحلها التيارات السياسية الجماهيرية كافة: الطليعة الوفدية، الاشتراكية الوطنية (مصر الفتاة) الاشتراكية الإسلامية، أما الاشتراكية الماركسية فكان ينقصها حزب علنى معترف به وقاعدة جماهيرية . وكان

الشيوعى يحاط بالتعاطف أحيانا فى رواياته، ويساق بعد ذلك إلى العزلة فى صخب تصريحاته المعادية للدين أو إلى السجن. ولكنه لم يكن يحيط «جماعة الإخوان المسلمين» بعطف خاص كتنظيم سياسى، وإن تعاطف مع بعض أفراد هذه الجماعة من الشباب من ناحية تعبيرهم عن قيم عامة لا تطبيقات عملية واقتصادية وسياسية مستمدة من عصور ذهبية متخيلة تصلح لجميع العصور إلى أبد الآبدين. فقد تعاطف القص مع القيم الدينية والإنسانية فى العدل والرقى الخلقى.

الثورة .. وموقف الترقب

وجاءت حركة الجيش في يوليو ١٩٥٢، ولم تكن تطلق على نفسها اسم الثورة بل كانت «حركة مباركة»، وفي سنواتها الأولى كانت في الممارسة ذات توجه إصلاحى يحاول التخلص من عاهات النظام القديم مع الاحتفاظ بأسسه ، كان الإصلاح الزراعى محدودا جدا بالنسبة إلى حاجات التنمية، وكانت «النقابات» التى أقرها منطوق القانون للعمال الزراعيين مطاردة بوحشية فى الواقع، ولم تكن أراضى الإصلاح الزراعى نفسها تطبق قانون الحد الأدنى للأجور وكان الاتجاه إلى الغرب صارخا، فالمسألة الوطنية فى السنوات الأولى انحصرت فى «الجلاء» والأمل فى رءوس الأموال الأجنبية التى ارتفعت حصتها فى قانون الشركات إلى ٥١٪ أى إلى معدل أعلى فى القانون أيام



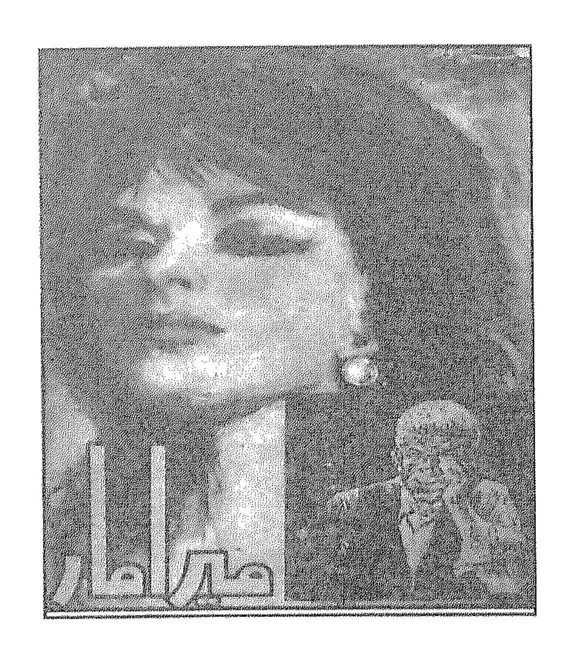
العهد البائد (٤٩٪ عام ١٩٤٧) ، وكتب عبدالناصر فى مقدمة كتاب «حقيقة الشيوعية»: إننا لا نعترض على الأحلاف العسكرية ويمكن أن نناقش إمكان الانضمام إليها بعد الجلاء.

ففى بداية الحركة المباركة لم يكن التوجه «الثورى» شيئا يمكن التنبؤ به أو كامنا فى نوايا مجلس قيادة الثورة بل تحقق عبر تناقضات وصدامات وتأرجحات داخل مصر والعالم العربى والوضع العالمى.

لذلك كان موقف محفوظ هو موقف الانتظار والترقب، ولم يكن مجتمع ما بعد ١٩٥٢ قد تشكل أو وضحت معالمه.

أولاد حارتنا

وأول عمل نشر له بعد ذلك هو «أولاد حارتنا»



(١٩٥٧) ، وكان من الطبيعي أن يناقش هذا العمل فكرة الثورة من أجل التقدم الفكرى والعدالة الاجتماعية والحرية السياسية، لقد كان الواقع منذ ١٩٥٢ وبعد قمع هبة مارس ١٩٥٤ واعتقال وفصل ممثلى الاتجاهات المعارضة جميعا ثم ممارسة التعذيب الوحشى فى السجن الحربى خانقا، وكان تغييب الديمقراطية (ابتداء من إعدام العاملين خميس والبقرى بعد محاكمة هزلية ومطاردة النقابيين وسجنهم وسيطرة الاتحاد القومى على النقابات والانتخابات بجميع مستوياتها وأشكالها وفرض الرقابة على كل مجالات التعبير) يجعل من بعض القرارات «الثورية» حبرا على ورق أو يعرقل تنفيذها أو يجعل تنفيذها هشا، فالحارة (رمز مصر) تطرح السؤال على «الثورة»، على أهدافها المعلنة الوطنية والديمقراطية والاجتماعية التى يوافق عليها محفوظ، ماذا عن التطبيق فى «نظامها» الفعلى؟ هل تسير فى طريق الثورات العالمية السياسية والروحية؟ الثورة الفرنسية استولى عليها الرأسماليون الاستعماريون والروسية استولى عليها البيروقراطيون الدكتاتوريون ، والثورات الروحية الكبرى استولى عليها مرابو شعب مختار أو كهنة امبراطوريات اقطاعية «مقدسة»، أو أصحاب ملك دنيوى عضوض، فهل تسير ثورتنا المباركة فى اتجاه سيطرة أقلية طبقية جديدة تقهر الشعب وتسرقه باسم الشعب؟

وهل تعود الثورة إلى ممارسة تنتمى إلى قوى البغى المتماثلة فى الماضى والحاضر.

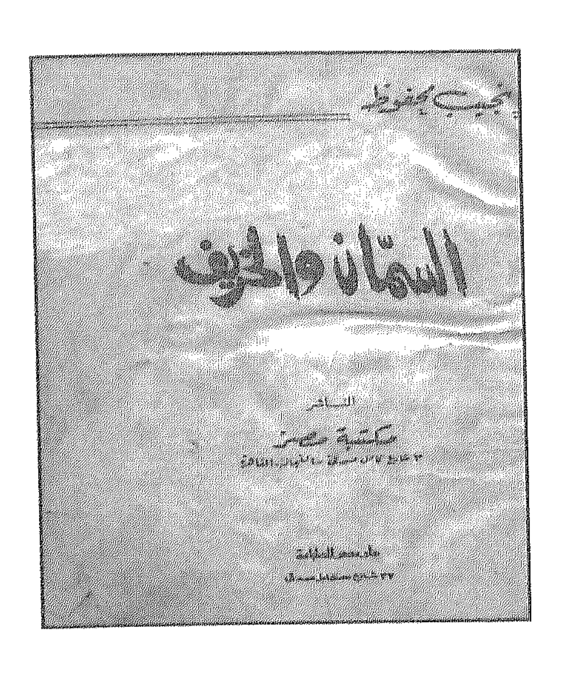
ولكن أولاد حارتنا تؤكد أنه كما يواصل الاستغلال والاستبداد العود الأبدى تواصله كذلك حركة الرفض والاحتجاج والمقاومة، ولكن تاريخ الحارة (والعالم) لا يسير فى الرواية داخل دورات مغلقة متشابهة، ولم تكن الثورات السياسية والروحية عبثا، فالعود ليس رجوعا إلى نقطة البداية، فثمة مكاسب ضخمة حققتها أغلبية الناس فى التقدم المادى والعلمى والفكرى، وفى آفاق أهدافهم الجديدة. إن قضية الخبز والحرية والتسامى الأخلاقى والروحى التى انتهت الثلاثية

بإبرازها تنبثق من جديد فى أولاد حارتنا، على مستوى أعلى يناسب ما أضافته حركة ضباط يوليه إلى أهداف ثورة ١٩١٩.

وبدأت حركة الجيش تتخذ طابعا ثوريا حقيقيا ظهر خافتا فى مؤتمر باندونج ثم نما عندما قطعت صلتها على أساس تدريجى بمحاولاتها السابقة فى الاستعانة بالأمريكان فى بناء الاقتصاد ، وبناء السد العالى، وأممت القناة بعد رفض الأحلاف العسكرية وقاومت الغزو الاستعمارى الإنجليزى الفرنسي الإسرائيلى، واتجهت إلى استغلال التناقضات بين المعسكرين العالميين مع الاستقلال عنهما، ورفضت نظرية ملء الفراغ الأمريكية أيام أيزنهاور، لأنها تعنى حلول الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم . وكان محفوظ فى تصريحاته ورواياته يؤيد هذه النقاط الحاسمة.

بين ثورتين

وحينما يصور العلاقة بين ثورة ١٩١٩ ومنجزات ثورة يوليه ١٩٥٢ فى رواية «السمان والخريف» (١٩٦٢) وبطلها وفدى مرموق نحته الثورة جانبا، ولا سبيل له إلى انكار أن الثورة قد حققت أهم الأهداف الوطنية لحزبه الذى أصبح محظورا ، وهل كان من الممكن لحزب الأغلبية الشعبية أن يحقق شيئا مما أنجزته الثورة فى المجال الوطنى؟ إن عيسى الدباغ بطل الرواية كان فاسدا مرتشيا، وتسخر الرواية من المتسلقين الذين



يتسللون إلى تنظيمات الثورة دون إيمان بمبادئها ، ومن أغنياء «الاشتراكية»، ويقرأ (محمود الربيعى) الرواية باعتبار أن بطلها رمز للماضى الذى يتصف بصفات خاصة وقد جوبه بالحاضر «الثائر المتوثب» كما جوبه قبل ذلك بتحجره الذاتى وإفلاسه ، والسؤال الحيوى هو هل يستطيع رمز الماضى أن يتغلب على هزيمته الذاتية (قراءة الرواية) وأصدقاؤه مثله من رجال الماضى ولكن بعضهم ينافق الثورة أو يهرب إلى القمار والنشوة الحسية، فالرواية لا تتخذ موقفا نقديا من الثورة أو تقدم رفضا لها، بل ترسم صورة حية لاستمرار الحيوانات المنقرضة فى الحاضر. وكذلك الحال مع اللص والكلاب (١٩٦١) فهى تصور المتاجرين

بشعارات الثورة والتمرد عليهم بالإرهاب الفردى طائش الرصاصات، ولا تعتبر الروايات المحفوظية أن الثورة قد شكلت الواقع الاجتماعى والنفسى للناس وخلقتهم على مثالها من جديد أو أنها مسئولة عن مظاهر السلوك السلبية فى المجتمع، فهذه المظاهر مستمرة منذ زمن بعيد، ولم يكن محفوظ عابدا لسعد زغلول مبغضا لعبدالناصر.

ميرامار .. ورموز الماضى

وفى «ميرامار» يوجه النقد الحاد لممثلى «النظام القديم» ومحاولاتهم المنحطة استعادة الماضى ومعاداة الثورة، إن «زهرة» الفلاحة ممثلة الشعب تؤمن بالثورة إيمانا فطريا، وجميع النزلاء فى البنسيون يميلون إليها ، كل حسب رؤيته السياسية، ولكنها تصد ممثلى الملكية الكبيرة للأرض وممثلى الطبقات المنقرضة كقطة متوحشة فقد مضى عهد الباشوات، وتعطى قلبها وذراعيها وشفتيها لمن بدا لها ممثلا للثورة ولكنها لا تفقد معه الشىء الذى لا يعوض، فقد حفزتها الثورة إلى أن تتعلم وإلى إدراك أن الفوارق الاجتماعية فى سبيلها إلى الذوبان: فالدنيا تغيرت وكلنا أبناء حواء وآدم، ومن حقها أن تنظر إلى فوق

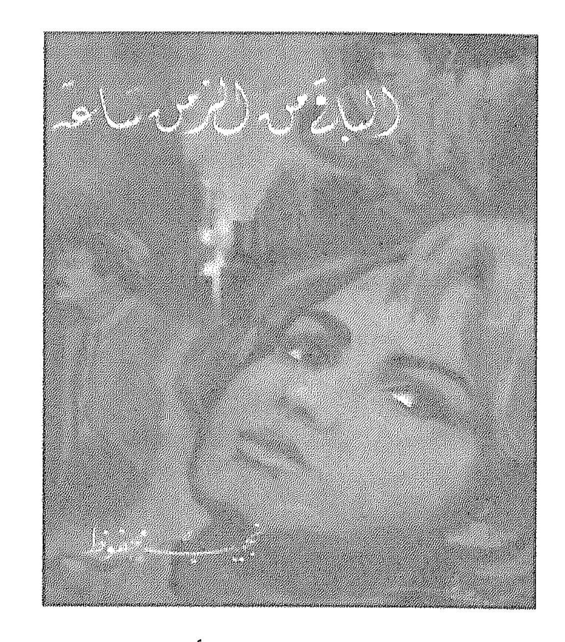
وهى تبصق عليه بعد أن اكتشفت حقيقته. وترفض بائع جرائد ميسور الحال ولا تعتبره كفؤا لها لأنه يروض النساء بالحذاء وستعود معه إلى مثل حياة القرية قبل الثورة.

ويسخر السرد فى الرواية من شهادة أحد أعمدة النظام القديم عن الثورة ويقرنها بشهادة «ماريانا» عشيقته القديمة صاحبة البنسيون ، القوادة المتقاعدة، وهما يعزفان لحنا واحدا .الأول يرى فى طرف الحبل المشدود حول عنقه طيف سعد زغلول الذى بذر فى رأيه البذرة الخبيثة للثورة الحالية، وشهادته تجىء مماثلة لما ينسبه بعض النقاد إلى محفوظ على الرغم من سخرية السرد الروائى ورفضه الكامل لها: ما الذى يدعو أحدا إلى الالتصاق بالثورة؟ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم، وحوش يتعاركون على أسلابنا هاتفين تحيا الاشتراكية والتقشف، ما تحت بذلة الثورى إلا مولع بالترف، الجواسيس وعملاء البوليس ينتشرون كالوباء أين أيام الديمقراطية (أيام إسماعيل صدقى وإبراهيم عبدالهادى!) الاشتراكية الحقة أيام سيدنا عمر لأنه كان يمشى جائعا فى الأسواق، إنه يرى أن الاعتداء على فدادينه الألف اعتداء على كون الله وسننه وحكمته، ومملكة السماء عنده مخفر لحراسة مصالحه وقد أنابت عنها أمريكا للقيام بالمسئولية المقدسة (هل كان يحلم برئيس مؤمن ينتمى إلى العالم «الحر») إنه يواصل عزف اللحن المشترك مع ماريانا (التى فقدت زوجها الضابط البريطانى فى ثورة ١٩ ومالها فى ثورة ١٩٥٢)، فهل كانت «مأساتها» فاصلا كوميديا يؤديانه معا كما يوحى

السرد؟ إنهما فى ليلة رأس السنة يعجزان عن ممارسة الحب، هو فى حاجة إلى معجزة لتحريكه بعد أن تجردت أمامه ماريانا مومياء من شمع مذاب، وانتابتها آلام الكلى بدلا من تأوهات المتعة، وأصبحا غير جديرين بالصباحية المباركة، والسرد المحفوظى هنا كان يقطع بأن كل محاولاتهما الكحولية لاسترداد الزمن الضائع ميئوس منها، وهل كان أحد يستطيع أن يتنبأ بأن «الصباحية المباركة» بين ديناصورات النظام القديم ودمى التبعية لأمريكا ستعقب احتفالات زفاف صاخبة من داخل سرداق ثورة يوليه الذى أبعد بالكامل ممثلى أى رقابة شعبية من جانب إخوة زهرة وأخواتها أصحاب المصلحة الحقيقية فى استمرار الثورة وتعميقها؟ فهل تحمى الأجهزة البوليسية والإدارية وممثلوها فى أعلى عليين ثورة شعبية؟، ما أسهل أن يتساقطوا «كأوراق» الخريف» كما تردد بعد ذلك.

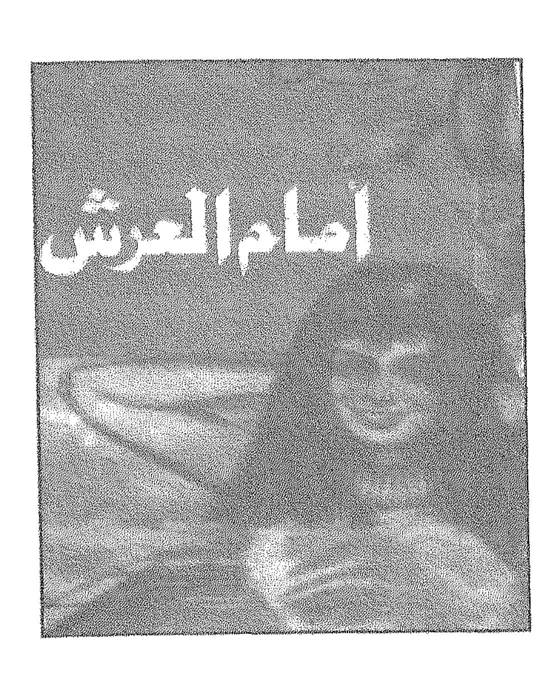
محاكمة ناصر

وفى «أمام العرش» يتعرض محفوظ مؤرخ الحياة الشعبية لمناقشة القمم الحاكمة من مينا إلى السادات (بعد اغتياله) والعرش هو عرش أوزيريس، إله العالم السفلى وميزانه هو ميزان الانجاز الوطنى، ولكن هذا الميزان فى الحقيقة يمسك به محفوظ لا أوزيريس، والأحكام هى تصريحات عامة مباشرة لا علاقة لها بالفن الروائى أو الدرامى وتعكس الرأى السائد فى الإعلام الرسمى أيامها (١٩٨٣) وقد اختلف محفوظ مع بعضها فى روايات تالية، إن محكمة أوزيريس يجلس بين أعضائها الحكام الموعودون بالجنة ليشتركوا فى محاسبة من جاء بعدهم ، إن تحتمس الثالث يأخذ على عبدالناصر رجل الجيش مسئوليته عن الهزائم العسكرية، وكأن الجيش المصرى الذى بنى وسلح فى سنوات قليلة (بعد ١٩٥٥) كان من المطلوب منه ولو كان على رأسه تحتمس الثالث أن يهزم عدوانا تقوم به امبراطوريتان عظيمتان وقتها (إنجلترا وفرنسا) وإسرائيل ربيبة أمريكا وألمانيا عسكريا ولم يكن عبدالناصر مخطئا فى تأميم القناة، ولو كانت الشركة ستعيد القناة بعد زمن قصير فلماذا شنت بريطانيا وفرنسا العدوان لاستردادها؟ إن العدوان كان على استقلال مصر وبناء اقتصادها، أما هزيمة ١٩٦٧ فترجع إلى خطة مدبرة كشفت عنها الوثائق بين أمريكا وإسرائيل، وإلى أخطاء نشرت بعد ذلك من جانب شخصيات فى القيادة العسكرية لم تكن خاضعة لسيطرة عبدالناصر ولم تكن متفرغة للجيش، وكان الجيش المصرى بتضحية رجاله وبسالتهم يقوم بواجبه فى الدفاع عن حدود مصر، ولم يعتد على أحد ولم يهاجم أحدا، أما اتهام سعد زغلول لعبد الناصر بالاستبداد، فقد تعرض هو لمثله من جانب الأحرار



الدستوريين الرجعيين، كما كان أول من قبض على الشيوعيين الذين قبض عليهم عبدالناصر بعد ذلك، وقام بدور فى ضرب نقابات العمال وتحريم حق الاضراب واخضاع النقابات لحزب الوفد كما أدان كتاب طه حسين «فى الشعر الجاهلى» ودعا إلى محاكمة مؤلفه، ولكن خطيئة الثوريين فى مصر بين ١٩١٩ و١٩٥٢ كانت استدعاء جماهير مجردة من سلاح التنظيم السياسى والنقابى إلى المبايعة والتصفيق وإعطاء أصواتها فى الصناديق ثم تسريحها بعد ذلك كأفراد مبعثرين، وأنفار فى طابور التأييد بلا مشاركة فى اتخاذ القرار، وفى محاكمة عبدالناصر يقول مصطفى النحاس على لسان نجيب محفوظ إنه مذنب فى إلغائه حقوق الإنسان رغم ما فعله من أجل الفقراء، ولا شك فى أن أجهزة الثورة البوليسية اعتدت أبشع اعتداء على حقوق الإنسان وكرامته استمرارا لهذه الاعتداءات قبل الثورة، ولا شك فى أن السنوات القليلة التى سمح فيها للوفد بأن يحكم دون إقالة تميزت بحريات واسعة، أما القول بأن عبدالناصر دمر المثقفين طليعة الأمة فإنه يقبل المناقشة ، حقا إنه سجن معارضيه ولفقت لهم الأجهزة التهم وعملت على تشويه صورتهم وشاركت أقلام مأجورة فى ذلك (وهى ممارسة طويلة الأمد مستمرة)، ولكن القول بأن المثقفين عموما فقدوا احساسهم بالكرامة الإنسانية وروح المبادرة فهو قول ظالم، إن عبدالناصر إلى حد ما قصر ضرباته على المثقفين المعارضين ولكنه عندما أمم الصحافة وفرض الرقابة على كل وسائل التعبير سمح لكل الاتجاهات الفكرية بالتعبير عن نفسها إن لم تعارض سياسته العملية، وكان المثقفون اللامعون أيامه طه حسين وتوفيق الحكيم وسهير القلماوى ونجيب محفوظ (الذى عرف أكبر ازدهار له فى الفترة الناصرية رغم كل شىء) وعباس العقاد (طوال عشر سنوات) وعزيز أباظة «باشا» وثروت أباظة (طبعت أعماله فى مؤسسات الدولة وجلس فى لجان المجلس الأعلى للآداب والفنون مؤيدا (بالكسر) لرجل الثورة فى الآداب والفنون يوسف السباعى ومتمتعا برؤية أعماله فى سينما الدولة وتليفزيونها، وحائزا على أول جائزة تشجيعية عام

١٩٥٨، كما قررت روايته «ابن عمار» على شهادة الإعدادية عام ١٩٦٣) ولم يكن أحد منهم يحسب على الثورة وهل حارب عبدالناصر يحيى حقى أو زكى نجيب محمود أو عبدالرحمن بدوى أو أحمد بهاء الدين أو صلاح عبدالصبور أو عبدالرحمن الشرقاوى.. إلى آخر القائمة الطويلة ، (دعك من مجانية التعليم ومن توفير الوظائف للخريجين) وبعد ذلك نجد اتهامات النحاس لعبدالناصر مختلطة بنبرات صوت محفوظ التى رددها بعد ذلك



ألم تكن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم؟ ولكن النحاس كان رجل دولة يعرف علاقة استقلال مصر بثورات العالم، وقد تبنى الوفد ثورة مصدق فى إيران حينما أمم البترول بعد علاقة وثيقة مع حزب المؤتمر الهندى، وإقامة علاقات مساندة مع حركات الاستقلال فى المشرق والمغرب العربى، ورفض مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط، ودخول الحرب الكورية رغم الضغوط الأمريكية وانتقادات صحافة أمريكا الضاحكة ، وهل كان استقلال مصر ممكنا دون الثورات ضد «الامبريالية» العالمية؟

بيد أن محفوظ لا يستمد قيمته الكبيرة من تصريحاته السياسية والاقتصادية بل من أعماله الروائية والقصصية و«أمام العرش» تصريحات مجردة. إن أوزيريس يتردد فى إرسال عبدالناصر إلى الجنة، بزعم أن القليلين هم الذين خدموا بلادهم مثلما خدمها وأقل منهم هؤلاء الذين أضروا بها بقدر ما فعل(!!) بل إن مأثرة السادات التى صعدت به إلى الفردوس هى «تصحيح» ما ورثه من نواحى خلل حكم عبدالناصر.

مرحلة السادات

ولكننا سنجد فى رواياته التالية «باقى من الزمن ساعة» مثلا اختلافا مع تصريحاته فى أعياد الثورة عن أهوالها وانجازاتها، ومع تأييده للديمقراطية البازغة فى عهد السادات (حتى بعد قمعه «لانتفاضة الحرامية» فى ١٨ و١٩ يناير) ، كما نجد فى الرواية اختلافا عن تصريحاته حول تبنيه من كل قلبه للتطبيع مع إسرائيل لأن ذلك هو

الطريق إلى الرخاء، ففى رواية «باقى من الزمن ساعة» (١٩٨١) يؤكد السرد كذب ذلك الوهم فى الواقع، «وفى يوم قتل الزعيم» (١٩٨٥) يصور السرد الانفتاح الاستهلاكى وسيرك لصوصه، والحنين إلى أيام عبدالناصر لدى الذين عاشوا أيام ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ وثورة التصحيح المضادة، وقد لقيت الرواية استجابة سريعة من المثقفين وجرى اعدادها إعداداً مسرحيا باسم القاهرة ١٩٨٠ لتذكرنا برواية القاهرة الجديدة (القاهرة ٣٠ فى الفيلم) عن فساد نظام ما قبل ثورة ١٩٥٢، وهل كان أحد يستطيع نقد الأوضاع أيام السادات ويبقى فى مصر، أيام الخروج الكبير للمثقفين التى انتهت «بثورة» ٥ سبتمبر ١٩٨١، باعتقال كل ممثلى تيارات الثقافة المصرية بتهمة التجسس والخيانة وإشعال الفتنة الطائفية؟، ورغم نقد الرواية لسياسات السادات فقد اعتبرت الصحافة العالمية محفوظ مؤيدا بشدة لتلك السياسة، وقال متحدث رسمى إسرائيلى فى الأمم المتحدة إن محفوظ جار طيب لإسرائيل، ويتعاطف السرد مع من يقول لقد فقدنا زعيمنا الأول (عبدالناصر) ومطربنا الأول (عبدالحليم حافظ) وخرجنا من الهزيمة على يد زعيم مضاد (السادات) الذى أضاع علينا حلاوة النصر، والزعيم المضاد فى الرواية خلق امبراطورية لصوص ومملكة منحرفين وتحول إلى زعيم عصابة

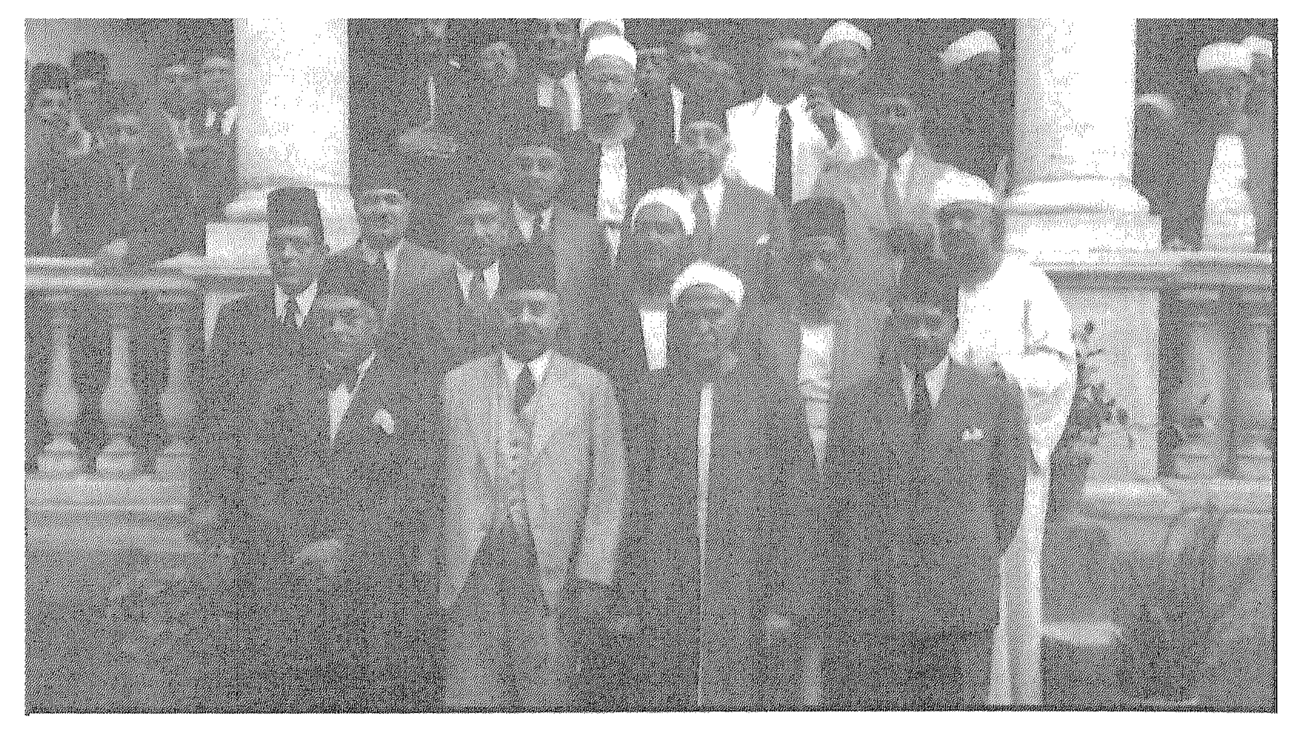
ويمثل عهده فى عيون الشباب انحدارا هابطا من أيام عبدالناصر ، وتصور الرواية توازيا - كما فى القاهرة الجديدة - بين الانفتاح الاستهلاكى والتبعية من ناحية والدعارة السياسية والإعلامية من ناحية أخرى، وتصور الرواية «رندة» التى يدفعها الواقع إلى السقوط (رمز مصر؟) استمرارا لحميدة فى زقاق المدق أيام الملكية والاستعمار (د. سامية محرز)، ولكن «زهرة» أيام الثورة فى ميرامار لا تسقط وتدافع عن شرفها وتقدمها وبالمثل تردد الرواية أصداء أقوال جيل الشباب المثقف فى مقهى ريش. هذا الجيل يقدم قرابينه للبطل الراحل عبدالناصر، رمز الآمال الضائعة، آمال الفقراء والمهمشين، كما يصب لعناته على بطل الحرب والسلام، هل يؤدى النصر إلى لعبة الاستسلام يقول الشباب المثقف ذلك على مسمع من السياح الإسرائيليين.. صديقى بيجن صديقى كسنجر. «الزى زى هتلر والفعل فعل شارلى شابلن»، وقد لا يكون منطق السرد الروائى مطابقا لتصريحات محفوظ، ولكنه كعادته أمين فى الإنصات إلى الاتجاهات المختلفة وتجسيدها وفى اتخاذ موقف نقدى من الأنظمة السياسية المحلية والعالمية جميعا، لأن أدبه ينظر إليها من زاوية حلم الإنسانية بمجتمع المثل الأعلى . ■

أى ديمقراطية

بقلم : محمد عوده

من أشهر البرقيات فى تاريخ مصر الحديث برقية «جرانفيل» وزير الخارجية البريطانى التى بعث بها إلى القنصل العام ايفلين بارنج - كرومر - فى يناير عام ١٨٨٣ ليبلغها إلى الحكومة المصرية ولتكون القاعدة السياسية الرئيسية ثم ابلغها إلى الدول «العظمى» أيضاً للعلم.

وقالت - لا أرى حاجة إلى أن أنصح لكم أنه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائماً فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى تقديمها إلى الخديو فى المسائل المهمة والتى تستهدف فيها حكومة مصر وسلامتها للخطر ويجب على الوزراء والمسئولين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التى تقررها ولا مناص من أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مسئول لا يقر هذه السياسة وينفذها، وإن حكومة جلالة الملكة واثقة أنه إذا اقتضت الحال استبدال أى من الوزراء فإن هناك من المصريين سواء ممن شغلوا مناصب الوزارة من قبل أو مناصب أقل درجة من هم على



الهيئة البرلمانية لحزب الأحرار الدستوريين

استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها لهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملك.

وقد ظلت هذه البرقية الحاسمة الصارمة والبالغة الإهانة مطبقة منذ وصلت حتى نهاية الإحتلال . وقد توالت على قمة السلطة فى مصر أكثر من ستين وزارة دام بعضها ثلاثة عشر عاماً طويلة ودامت آخرها يوماً واحداً ولكنها جاءت وذهبت كلها بلا استثناء طبق مانصت عليه برقية جرانفيل.

وكانت البرقية نتيجة استفزاز رئيس مجلس النظار محمد شريف باشا الذى رفض إخلاء السودان بناء على طلب الحكومة البريطانية ورفع شعاراً سريا فى البلاد «إذا تركنا السودان فإن السودان لايتركنا».

وكانت بريطانيا ترى أن احتلال مصر لايحافظ على طريق الهند فحسب ولكنه القاعدة لاقامة الإمبراطورية الافريقية من القاهرة إلى «كيب تاون» فى أقصى الجنوب وهو مشروع اشتهر باسم أحد بناة الإمبراطورية سيسيل «رودس».

وكانت نهاية محمد شريف باشا دامية وكان ذات يوم يلقب «أبو الوطنية والدستور» وقد اختاره عرابى باشا ليكون أول رئيس وزارة للثورة وفرضه على الخديو ولكنه انقلب على كل مبادئه وتاريخه ورحب بالاحتلال وتشفى فى العرابيين.

واختاره اللورد دوترين ليكون ساعده الأيمن فى وضع النظام الجديد الذى اقتبسه من ولايات الهند ثم عهد اليه بتطبيقه فى أول وزارات الإحتلال وكان عند حسن الظن به واستبسل فى توطيد

الوجود البريطاني في عامه الأول ولما لم يكن يستطيعه سواه . وانتهى بجزاء «سنمار» ولم يعش طويلا بعده ..

وحينما اعترفت بريطانيا باستقلال مصر بعد ثورة ١٩١٩ ومع تحفظات أربعة هيىء للجميع أن برقية جرانفيل قد طويت صفحتها ولكن لم يحدث . ولم يصدر دستور«الاستقلال» عام ١٩٢٣ عن جمعية تأسيسية منتخبة كما صدر دستور عام ١٨٨١ ولكن لجنة وصمها سعد زغلول باسم لجنة «الأشقياء» وحينما نص مشروع الدستور على أن يكون لقب الملك الجديد «ملك مصر والسودان» ذهب فخامة المندوب السامي البريطاني إلى القصر يحمل إنذاراً بحذف «السودان» من اللقب وكان له ما أراد !

وتولت السلطة أول وزارة وطنية دستورية وسط فيض جارف من الحماس والتفاؤل وبزعامة «تاريخية» تعد الثانية بعد عرابي.

وضاعف من التفاؤل إن كانت الوزارة البريطانية «عمالية» أول حكومة في تاريخ بريطانيا، وكان رئيسها المستر ماكدونالد قد زار مصر وأبدى تعاطفاً شديداً مع المسألة المصرية .. واتضح على مائدة المفاوضات أن لا فرق بين العمال والمحافظين وأن الإمبراطورية عقيدة بريطانية.

وتجرع الوفد الصدمة المريرة وعاد لكي يصب اهتمامه على الاصلاح الداخلي .

حادث اغتيال السردار

وفوجئت البلاد بحادث اغتيال «السير لي ستاك باشا» حاكم السودان وقائد عام الجيش المصري..

وكان فخامته استعماريا قحا من المؤمنين بضرورة فصل السودان عن مصر . ولكن لم يكن هناك مبرر لاغتياله خاصة في ذلك الوقت ولازالت أسرار الحادث خافية إلى الآن.

لم تكن جريمة ضد شخصية من أكبر الشخصيات البريطانية فحسب بل كانت مصوبة أيضاً إلى وزارة سعد حتى كأنها دبرت لاسقاطها لأن كل الدلائل والملاحظات تدل على أن الوزارة القائمة ستكون هدفاً لمطالب جسيمة تؤدي حتماً إلى استقالتها ولذلك قال سعد إن جريمة اغتيال السردار قد أصابت مصر وأصابتني شخصياً وأنا أول المهزوزين لهجومها والمتطيرين من شرها وأشد الناس اعتقادا بتدبيرها ضد وزارة كنت متشرفا برئاستها والتي كانت نية الدساسين معقودة على اسقاطها.

إنذار اللنبي

وردا على الحادث ارتدى فخامة المندوب السامي البريطاني الفيكونت فيلد مارشال اللنبي فاتح القدس سترته العسكرية ونياشينه واخترق شوارع القاهرة في سيارة مكشوفة وفي موكب «إرهابي» يتقدمه ٢٥٠ من جنود الفرسان البريطانيين حاملي الرماح وقصد رأساً إلى مكتب رئيس الوزراء ودفع الباب وألقى على مكتبه وثيقة إنذار .

وحينما سأله سعد ساخراً : هل أعلنت الحرب..



مصطفى النحاس يتوسط أعضاء وزارته الجديدة أمام قصر عابدين

لم يجب وخرج عائداً بنفس الموكب وتضمن الإنذار هذه المطالب:

١ - أن . تعتذر الحكومة المصرية عن الجناية.

٢ - أن تبحث عن الجناة وتوقع بهم أشد العقاب.

٣ - أن تمنع أى مظاهرة شعبية سياسية وأن تقمع أى مظاهرة تقوم بأقصى الشدة.

٤ - أن تدفع غرامة نصف مليون جنيه استرلينى لأرملة السردار.

٥ - أن تسحب الجيش المصرى نهائياً من السودان وتحول الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية لتسوية معاشات من اعتزلوا الحكومة منهم وأن تبقى منصبى المستشار المالى والمستشار القضائى وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نص عليها عند الغاء الحماية وتحترم أيضاً نظام القسم الأوروبى فى وزارة الداخلية واختصاصاتها وتنظر بعين الاعتبار الوافى إلى ما يبديه مديره العام من المشورة.

ورفضت أرملة السردار قبول الغرامة واتهمت الحكومة البريطانية بامتهان كرامة زوجها وفزع اقطاب الأحرار والعمال فى بريطانيا من هول ماحدث، وأثارت صحف الإثارة مأساة التضحية بجوردن ذات يوم لصالح الامبراطورية خاصة تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها.

٦ - أن تطلق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة أطيان مشروع الجزيرة من ٣٠٠ألف فدان إلى مساحة غير محدودة .

٧ - أن تعـدل الحكومـة المصـرية عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطـانية فيمـا يتعلق بحماية الأجانب فى مصـر وأن يعـاد طبقاً لهذه الرغبـات النظـر فى شـروط خـدمـة الذين لايزالون فى خدمة الحكومة المصرية وفى الشروط المالية .

انهيار التجربة الديمقراطية

وانهـارت التـجربة الوطنيـة الديمقـراطيـة فى ميلادهـا وتـولى رئاسـة الحكـومة أحمـد زيور باشـا وهـو شـخصـيـة هزلية أعلن مـهمـة وزارته وهى انقـاذ مـايمكن انقـاذه ، من حطام الحـيـاة السياسية.

وسـارع جـلالة الملك فـؤاد لملء الفراغ وانشـأ حزباً ملكياً باسم حزب الاتحاد من ضباط الجيش المتقاعدين ، وكان فخامة المندوب السامى قد سبقه بانشاء حزب موال تمثلا بتجربة سلفه كرومر باسم حـزب الأحـرار الدسـتوريين يرث مـابقى من حـزب الأمـة ويضـيف اليـهـا ابناء البـيـوتات ضـد حـزب الرعاع - أى الوفد .

وقـام الحزب على قاعدة التسـاهل مع الانجليز للوصول إلى حل للقضيـة المصرية وكان اعضـاؤه يفاخرون لهذه السياسة ويسمونها كياسة وما هى من الكياسـة فى شىء بل هـى سبـيل التـفـريط فى حـقـوق البـلاد . وكـان وجـود الحـزب مـوضـع اطمئنان السياسة البريطانية إذ كانت تهدد به كل هيئة نيابيـة لاتميل إلى التسليم فى حقـوق البـلاد كما كـان مع غيـره من الأحـزاب الرجعيـة وسيلة لاسـتعـادة الحكم المطلق ، كما كـتب عـبدالرحـمن الرافعى.

وقد تولى الوفد حزب الأغلبية وصاحب الحق الشـرعى السلطة الحكم مـرات مـتـقطعـة انتـهت جميعاً بالاقالة فى خطاب من بضعة سطور تتراوح فى البذاءة والغطرسة .

عزيزى مصطفى النحاس باشا :

نظرا لما اجتمع لدينا من الادلة على أن شعبنا لم يؤيد طريقـة الوزارة فى الحكم ولتـعـذر ايجـاد سـبـيل لاسـتـصـلاح الأمـور على يد الوزارة التى ترأسونها لم يكن بد من اقالتها تمهيداً لاقامة حكم صـالح يقـوم على تعرف رأى الأمـة وتسـتـقـر به السكينة والصفاء فى البلاد ويوجه سياستها خير وجهـة فى الظروف الدقيقة التى تجتازها ويحقق أمانينا العظيمة فى رقيها وعزتها.

فاروق

٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧

عزيزى مصطفى النحاس باشا :

لما كنت حـريصـاً على أن تحكم بلادى وزارة ديموقـراطيـة تعـمـل للوطن وتطبـق أحكـام الدسـتـور نصـاً وروحـاً وتسـوى بين المصـريين جميعاً فى الحقوق والواجبات وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب فقد رأينا أن نقيلكم من منصبكم.

٨ أكتور سنة ١٩٤٤

فاروق

وكانت الاقالة الأخيرة التى خرج بها الوفد من التاريخ.

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس

باشا:

إن أشد ما نحرص عليه ونعمل له هو أن تنعم بلادناالعزيزة بحكم يحفظ سلامتها ويرعى الأمن بين ربوعها وتسود فيه كلمة القانون ويستتب معه النظام وتتوافر فى ظله طمأنينة الناس على أراوحهم وأموالهم.

ولقد أسفنا أشد الأسف لما أصيبت به العاصمة أمس من اضطرابات نتجت عنها خسائر فى الأرواح والأموال وسارت الأمور سيرا يدل على أن جهد الوزارة التى ترأسونها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام .

لذلك رأينا إعفاءكم من منصبكم ..

وكانت ذروة الزيف والقهر والعبث السياسى الذى عانته مصر منذ الاحتلال وخاصة منذ إعلان «الاستقلال» مع التحفظات .

وخلال سبع وعشرين عاما تتالت على البلاد أربعون حكومة أقيلت جميعا بخطاب من بضعة سطور.. توحى به السفارة البريطانية ويوقعه جلالة الملك .

والقول إنه كانت هناك ديموقراطية وتعددية حزبية قضت عليهما ثورة يوليو إثم وبهتان مبين .. لم يكن ممكنا ذلك كان مستحيلا أن تقوم أى ديمقراطية قبل أن يذهب الملك ويلحق به الاحتلال .. وتسترد مصر السيادة كاملة ..

لم تكن مغامرة عسكرية

لم تكن ثورة يوليو مغامرة عسكرية انتقاما للهزيمة فى فلسطين ثم اكتشفت طريقها براجماتيا عبر التجربة والخطأ ولكنها كانت ثورة ذات رؤية وفلسفة واستراتيجية أرسى جوهرها قائد المتطوعين القائمقام أحمد عبدالعزيز حين أعلن لضباطه (إن المعركة الحقيقة فى مصر وكان يعنى أن تحرير فلسطين الحقيقى يبدأ بتحرير مصر ثم يمتد ليشمل العالم العربى ثم الأفريقى ثم الإسلامى وأن الثورة لاتتجزأ وأنها لا تأمن إذا ظل الاستعمار فى أى ركن أو حجر من هذه الآفاق الثلاثة . ولذا قرر قائد الثورة أن يحتفظ بالجيش سليما ونقيا للمهمة التاريخية وأن يسلم السلطة إلى أصحابها الشرعيين والذين أبعدوا ظلما ، وذهب إلى سكرتير عام الوفد فؤاد سراج الدين وعرض عليه أن يسترد الوفد اعتباره وهيبته وأن يعود معززا مكرما إلى السلطة فى حراسة الجيش الوطنى وباسم الشعب الذى خرج عن بكرة أبيه يحتفل بالثورة التى حملت إليه الخلاص .

سوف يعود حزب الأغلبية لينفذ كل برامجه التى أجهضها القصر والاحتلال وسوف لايجرؤ أحد على إقالته أو عزله بخطاب من بضعة سطور

وعزز قائد الثورة، عرضه بالشعار الذى رفعته الثورة وحفلت به جدران العاصمة نحن نحمى الدستور .

ولم يشترط أى شئ سوى قبول الاصلاح الزراعى «المعتدل» والذى ترك للملاك ثلاثين ضعف الأرض التى تركها القانون المماثل الذى صدر يومئذ فى اليابان وعقد الاثنان أربعة اجتماعات طويلة، ثم طلب سراج الدين عرض الأمر على سلطات الحزب وهيئاته العليا ثم عاد فى النهاية

ليعلن اعتذاره عن قبول العرض وأن الحزب .. حزب الأغلبية الشعبية الساحقة يفضل الضرائب التصاعدية التى لا يملكها عمال التراحيل والأغلبية المعدمة فى الريف، والتى يتهرب منها الملاك والاقطاعيين ورسب الدرس عميقا فى نفس قائد الثورة ولم يكن الدرس الأول والأخير.. وفوجئ قائد الثورة بمعارضة «خبيثة» للاصلاح الزراعى من الحكومة القائمة التى اختارتها الثورة، وأن ذلك يوحى الدوائر البريطانية والأمريكية التى هالها سقوط الطبقات التى كانت تعتمد عليها .

وكانت المفاجأة الأشد وقعا هى معارضة مجلس الوصاية الذى كان يرأسه أحد كبار ضباط الثورة.. للقانون .

واتسعت الرقعة وتألفت رابطة باسم رابطة الملاك، جمعت كل الذين افنوا ربع قرن فى الصراعات السياسية والحزبية دائما وأعلنوا أن الحد الأدنى للملكية يجب أن يكون ألفى فدان ، ثم وزعت سكرتيرة الرابطة وكانت سيدة معروفة من أقطاب الحزب السعدى استر فهمى نصا منشورا عاما يحذر من أن الاصلاح الزراعى هو الخطوة الأولى للانزلاق إلى الشيوعية .

انقسام القوى السياسية

وضاعف من التحدى انقسام القوى السياسية الفاعلة والرئيسية فى تلك المرحلة ازاء الثورة .

انقسم الاخوان المسلمون إلى فريق يرأسه أخو المرشد العام الذى اغتاله الملك، وأيد الثورة، وشارك فى السلطة بوزيرين كانا من أبرز الوزراء وفريق آخر برئاسة المرشد العام طالب بولاية الفقيه وأن يكون له حق «الفيتو» على قرارات الثورة.. وكان فضيلته قد تصالح بعد توليه مباشرة مع جلالة الملك وقابله وخرج من المقابلة مبهورا ليصرح أنه «ملك كريم وابن ملك كريم» وغفر له اغتيال المرشد العام والمؤسس ثم أفتى بأن مقاومة الاحتلال فى القناة «تهلكة» يجب أن لا يلقى الشباب بنفسه فيها قبل أن يعدوا لها ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل » .

وانقسم الشيوعيون بدورهم إلى فريقين وأيدت تجربة الديموقراطية للتحرر الوطنى «حدتو» الثورة على أن تلزم برنامجها ، وأعلن الحزب الشيوعى المصرى أن الثورة انقلاب أمريكى قام لاجهاض الثورة الاشتراكية التى كان على وشك إضرامها ونادى بضرورة الإطاحة «العاجلة» بالديكتاتورية العسكرية .

وتعاطفت الطليعة الوفدية التى اضطهدها ونكل بها سكرتير عام الوفد مع الثورة.. وكذلك الملاك المستوطنون عصب الحزب والذين أدركوا ماسوف يحققه الاصلاح الزراعى من استقرار فى الريف الذى بدأت شرارات الثورة تسرى إليه .

بناء الديمقراطية الجديدة

وكان قائد الثورة يدرك تمام الادراك وعن وعى تام أن بناء التنظيم السياسى حتمية .. استراتيجية .

وكان يدرك أيضا أن البناء من أعلى ومن قمة السلطة تحد وامتحان عسير وغير مسبوق .

ولم يكن هناك سوى طريق واحد، هو الطريق الذى تحققت به الديموقراطية عامة سواء الليبرالية الغربية أو الاشتراكية أو الديموقراطية الجديدة

الآسيوية الأفريقية فى العالم الجديد الثالث وهو التجربة والخطأ ..

ومرت تجارب الثورة واخطائها فى ثلاث مراحل .

ـ هيئة التحرير .

ـ الاتحاد القومى .

ثم تجربة خلاقة أضافت إلى تراث الديموقراطية «الجديدة» وهى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الذى أضرم حوارا عاما من الثورة وقائدها وكل القوى والقيادات الفكرية والسياسية من كل المذاهب والاتجاهات الوطنية .. وانتهى المؤتمر إلى وضع «ميثاق» يرسى الأسس العقائدية والطريق الخاص «العربى» الذى أضافته يوليو لتحقيق الثورة القومية والاجتماعية ثم التنظيم السياسى الذى يعنى ويقود قوى الثورة فى مواجهة قوى الثورة المضادة ثم مشروع الدستور الجديد «الشعبى» الذى يحدد حقوق المواطن فى السلطة والثورة والمعرفة ..

وفى ظل هذه الديموقراطية «الجديدة» حققت الثورة أول خطة تنمية متكاملة وأنجح تجربة فى التنمية اعتمدتها الأمم المتحدة نموذجا للدول النامية عامة .

وفى ظلها صمدت لأشد محنة واجهتها مصر منذ الاحتلال .

وقامت ببناء أقوى جيش فى تاريخ مصر العسكرى «جيش المثقفين» يدرك لماذا يحارب وكيف يحارب، وخاضت به أول حرب أليكترونية « فى التاريخ كما قال معلق بريطانى» إدوجار أوبلانى « وانتهت بتقويض سلاح العدو الحاسم وبكاء جولدامائير» فى أسبوع تساقط الطائرات ، وطلبت إلى وزير خارجية الدولة «الأم» فى واشنطن أن يسعى لعقد هدنة .

واستشهد قائد الثورة وهو يقاتل ويدافع على جبهتين فى مصر وفلسطين وعاش بطلا ورحل بطلا من الشعب وللشعب وبالشعب، ولم يختلف إلا الذين فى قلوبهم مرض .. يغفر الله لهم . ■

عبد الناصر فى كلمته امام المؤتمر العام للاتحاد القومى (١٩٦٠)

شهادات

من شهادة مواطنة مصرية على سنوات عاشتها..

صافي ناز كاظم

لا أكاد أصدق أنه قد مضى نصف قرن بتمامه على ١٩٥٢/٧/٢٣ . ولا أكاد أصدق أن يشاء الله سبحانه وتعالى مدّ عمرى لأمسك بوعى كامل بداية تلك «الحركة المباركة» وأعيش مشوارها كله ، على مدى خمسين عاما ، ويكون قدرى أن أجلس وأقول: هل ٢٠٠٢/٧/٢٣ هو احتفال بعيد ميلاد لحى لا يزال قائما بيننا يسعى ، أم هى ذكرى لرحيل حلم ، وهم ، سراب ؟

كان هناك من عادى ، ولا يزال يعادى، ١٩٥٢/٧/٢٣ لأنها أزاحت الملكية، وطبقت الاشتراكية ، ودعت إلى الوحدة العربية ، وتناطحت مع الغرب والتغريب لصالح رفع شأن الهوية المصرية والعربية .. إلخ .

وكان هناك من عادى ، ولا يزال يعادى ، ١٩٥٢/٧/٢٣ لأنها ضحكت على الذقون ولم تزح الملكية بالشكل الكامل ، ورفعت شعارات العدالة الاجتماعية ولم تحققها ، ونادت بضرب الإقطاع وأعطته المبررات ليبدو مظلوما ، وأصدرت القوانين الاشتراكية وخالفتها ، ودعت إلى القومية العربية ونسفتها ، وقامت أساسا لتحرير فلسطين ودحر الكيان الصهيونى ، الذى لم يكن قد مر عليه سوى أربع سنوات حين قامت ١٩٥٢/٧/٢٣، وتصحيح أخطاء



عدد من المتهمين في طريقهم الى الحجز المؤقت بمصنع النسيج بكفر الدوار



اعضاء المحكمه العسكريه التى حاكمت المتهمين وهم يحلفون اليمين

وخيانات هزيمة العرب عام ١٩٤٨، فلم تفعل شيئا سوى تدعيم ذلك الكيان بالانهزام أمامه فى الحرب وفى اتفاقيات السلام معه، وضربت الهوية المصرية والعربية فى مقتل حين سارت مع تيار العلمانية، فلم تبلغ بها شرقا ولا غربا، وإن خلخلت دعائم الروح الإيمانية وشجعت السفهاء على التقافز فوق أكتاف المؤمنين، والأهم أنها انتقدت تجاوزات «العسكرى الأسود» و«البوليس السياسى» فى العهد الملكى وابتكرت آليات فى القهر والتنكيل بالمواطنين بدا معها ذلك العسكرى الأسود وذلك البوليس السياسى ملائكة من نفحات الجنان!

* * *

لا زلت أذكر ذلك الصباح، الساعة الثامنة والنصف، والمذياع يعلن بصوت محمد أنور السادات زوال «العهد» الملكى «الفاسد»، الذى سيظل اسمه «العهد البائد» لفترة لا بأس بها، وقيام «العهد الجديد» و«الحركة المباركة»، وذلك بتنازل «فاروق» عن العرش لوليده «أحمد فؤاد» ومغادرة البلاد، وصوت جلال معوض المطجن يهلل: «وقد «طفضل» جلالته فوافق على المطلبين».

كانت النتيجة المعلقة فوق مكتبتى الصغيرة تحمل صورة الملك فاروق، ولم أتردد فى تخزيق عينيها وخدش ملامحها تعبيرا عن تأييدى الكامل لكل هذه الأخبار «السعيدة»، مندمجة تماما فى صيحات الفرح التى عمت الشارع وانطلقت من الكبير والصغير والوقور والمندفع والمتحفظ والمتهور.

كان باقيا على عيد ميلادى الخامس عشر فى ١٩٥٢/٨/١٧، ٢٥ يوما، ولدى دفترى الذى أسجل به أحوال البلاد ونشاط «الفدائيين» ضد معسكرات جيش الاحتلال الانجليزى على خط القناة - الدفتر بحوزتى حتى الآن - الأجازة الصيفية فى منتصفها وأنا ناجحة منقولة من السنة الثالثة الثانوية إلى السنة الرابعة، وكان اسمها شهادة الثقافة العامة وهى السنة قبل شهادة التوجيهية التى تتمم الدراسة الثانوية لدخول الجامعة.

أكمل الأجازة الصيفية مع الجيشان الشعبى الفرحان، متمنية لو قابلت مدرس التاريخ «إبراهيم عبدالواحد» بروحه المهزومة الذى كان قبل شهور قليلة يضرب حماسنا مع المقاومة الفدائية ضد الانجليز وهو يتهكم قائلا: «اتلهوا على عينكم، انجليز ايه اللى انتم فاكرين شوية عيال على القناة ممكن يطردوهم، انتم تساووا حاجة من غير الانجليز؟ ده حتى الإبرة بنبعت ناخدها من عندهم ..»، كنت أريد أن أواصل تحديه بقولى: «شفت؟ إيه رأيك بقى!».

* * *

أمى التى تلبس السواد، منذ وفاة أبى ١٩٤٤/٤/٤، أراها تضحك لأول مرة، تقف، بدون قواعدها الصارمة، تلوح معنا لمواكب «الضباط الأحرار» أو «الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى» - كما أطلق عليهم وقتها سيد قطب -، وقائدهم صاحب الوجه الطيب الباش محمد نجيب، الذين يمرون يوميا من تحت شرفتنا بشارع العباسية بسيارات مكشوفة وبلا حراسة سوى حراسة الجماهير التى تتلقاهم بشلالات هادرة من الحب والهتاف.

* * *

مع التصعيد بزوال الغمة والبغى والقهر والفساد يقوم عمال مصانع كفر الدوار للغزل

والنسيج بمظاهرات ضد الإدارة التابعة لـ «العهد البائد» يوم الثلاثاء ١٩٥٢/٨/١٢ بظن تأييد «العهد الجديد»، ورئيسه الطيب البشوش وفتيانه الشباب التقى النقى ، لنهضتهم المحتجة على «البائد» والمؤيدة بحماس لـ «الجديد» ولكن .... وتدق الفجيعة قلبى الصبى يوم عيد ميلادى ١٩٥٢/٨/١٧ بصدور أحكام بإعدام العاملين الشابين الفقيرين المعدمين ، كحال معظم الشعب الحالم بالخلاص ، القمرين خميس - ١٨ سنة - والبقرى ١٩.٥ سنة - وأبكى بانتحاب ولا أصدق ما يقال عن «خيانتهما» لـ «الثورة» . وأخشى حينئذ أن أقابل أستاذ التاريخ « إبراهيم عبدالواحد» حتى لا أرى فى وجهه الشماتة والبرهان على خيبة الأمل .

* * *

عندما قامت حركة ١٩٥٢/٧/٢٣ لم تكن مصر أرضا نائمة أيقظتها هذه الحركة ، ولم يكن المصرى مكسور العين مطأطئ الرأس محتاجا لمن يصيح به : «ارفع رأسك ياأخى ... قد زرعت فيكم العزة والكرامة» . لا والله، لا وألف لا .. كان وراء مصر والمصريين السجل الطويل من المقاومة والفدائية والعزة والكرامة التى لم تكف عن احتضان كل هبة وطنية ترفع راية «الجلاء بالدماء» و«نموت نموت ويحيا الوطن» . كانت مصر حبلى بالثورة وبالتمرد معا ، وكانت خارجة من مظاهرات الأربعينيات متلمظة ضد القصر والانجليز ومخاتلات الأحزاب السياسية والهزيمة القاسمة على أرض فلسطين ، متهيئة للوضع والميلاد ، بعد طول انتظار ، راجية الانطلاق إلى فجر عصر جديد . ولذلك عندما سبقت حركة الضباط كل التكتلات الوطنية الأخرى إلى إعلان الخروج على الأوضاع الفاسدة وعلى الوضعية السياسية ، التى كانت شرعيتها السياسية قد انتهت فى أذهان الناس حتى قبل سقوطها ، التف حولها الشعب مسقطا عليها كل أحلامه الثورية التى تشوق إليها طويلا خاصة بعد مرارة الهزيمة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . وفى غمرة الحماس الشعبى الذى تبنى حركة الضباط ولقبها بـ «الثورة» - لأنه كان يريدها كذلك - لم يكن بوسع أحد أن يقف ليراقب بدقة مواقف هذه الحركة الجديدة ، بل على العكس وافق الحماس الشعبى على أن يقوم - بوعى منه أو بلا وعى - بدور «المبرر» لكل الأخطاء التى ارتكبتها هذه الحركة منذ الشهر الأول لإمساكها الزمام فى مصر ، هذه الأخطاء التى وصلت فى حالات إلى درجة الخطأ الفادح وفى حالات أخرى إلى درجة الجريمة النكراء ، ثم بلغت فى نهاية جولتها درجة درجة درجة ... ... درجة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

لم يقف الشعب «الفرحان » ليناقش مفهومات ومدلولات شعار « الثورة البيضاء» الذى أطلقه الضباط على حركتهم ليتساءل ويقارن «بيضاء» على من و«حمراء» على من و«سوداء» على من : فقد خُلع الملك وتم الإبقاء فترة على ولى عهده الأمير أحمد فؤاد ، وأعطى الملك حق «الموافقة» على «الثورة» بأن تقدم الضباط للملك بطلب التنازل عن العرش وترك البلاد و«تفضل جلالته فوافق على المطلبين»! وتم رحيل الملك فاروق فى ١٩٥٢/٧/٢٦ عن مصر فى يخته المحروسة مودعا بكامل الاحترام والحقوق الملكية الواجبة له ، ولم يمس كادر ملكى من أتباعه بشعرة أذى واحدة - ومع ذلك أخذ الجميع على خاطره لنزولهم من

عليائهم وحرمانهم من الاستثناءات التى كانت تعزز امتيازات ترفهم ـ وكان هذا هو الجانب الأبيض السلمي لهذه الحركة ، لأنه ، وبعد أسبوعين فقط من تطبيق هذا السلوك المهذب «الحضاري» مع ملك مدان هو ونظامه بعديد من الجرائم ضد شعب مصر ومصالحه ، قامت مظاهرات عمال مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج ـ (الثلاثاء ١٩٥٢/٨/١٢) ـ ضد الإدارة الرجعية التى لم يكن قد تم تغييرها بعد من قبل حركة الجيش . رفعت مظاهرات العمال شعارات «الحركة الجديدة» ضد الفساد والاستغلال ، وهتف العمال بحياة القائد العام ـ محمد نجيب ـ وفتيته الثوار، وكان التصور أن هذا «العهد الجديد» لابد وأن يتبنى مطالب العمال ويساندهم ضد الإدارة الرجعية ، ولكن العجيب هو الذى حدث : إذ كشرت الحركة الجديدة صاحبة شعار «الثورة البيضاء» عن أنيابها وتحالفت مع الإدارة الرجعية وصدقت كل ادعاءاتها ضد العمال ، وتم قمع المظاهرة ـ أو الهبة العمالية ـ من دون أى محاولة لتفهمها ودراسة بواعثها، وأقيمت فوراً المحكمة العسكرية لمحاكمة العصاة ، وتم تقديم مايربو على ٦٠ متهما وتم تحديد زعمائهم بشهود الزور والبهتان ـ باتهام العامل «محمد مصطفى خميس» ـ ١٨ سنة ـ والخفير محمد حسن البقرى ـ ١٩,٥ سنة (وهو أب يعول خمسة أطفال وأم معدمة تبيع الفجل وتكسب مليمين فى اليوم)، وكان من بين المقدمين للمحاكمة أطفال فى سن العاشرة والحادية عشرة «شاءت إنسانية المحكمة وعدالتها أن تحكم ببراءتهم رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم »... (كما جاء فى تقرير أحكام قضية عمال كفر الدوار الذى صدرعن إدارة القوات المسلحة ١٩٥٢/٨ برجاء الرجوع إليه لمن لا يصدقنى لأنه وثيقة كاملة دامغة تساعدنا فى فهم الطبيعة الفاشستية لهذه الحركة التى عبرت عن سياستها ضد الشعب المصرى منذ الشهر الأول لقيامها) .

فى أقل من أربعة أيام تمت محاكمة هذا العدد الكبير من المتهمين ، (من صميم الشعب الفقير صاحب المصلحة الحقيقية لقيام الثورة كما زعمت الشعارات) ، وصدرت الأحكام بإعدام خميس والبقرى والأشغال الشاقة المؤبدة وسنوات سجن أخرى على بقية المتهمين ، وجمع عمال المصنع كلهم فى النادى الرياضى وأجلسوا حلقة كبيرة على الأرض حيث أذيعت فيهمم الأحكام المرعبة من خلال مكبرات الصوت وسط طقس من الذهول الكامل تذكر فيه الوعى الوطنى محاكمات دنشواى وشنق الفلاحين لصالح خاطر المحتل الإنجليزى وجنوده .

فى الفترة نفسها حدث تمرد حقيقى بالصعيد معاد «للعهد الجديد» ومعاد لمصالح الشعب . قام بهذا التمرد «المسلح» إقطاعى اسمه عدلى لملوم ، لم يكف هو وأمه عن كيل السباب أثناء محاكمته ، ضد «الثورة» وضد الفلاحين ، وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ثم خففته فيما بعد حتى تفسح له مكانا من رحمة شعارها «الثورة البيضاء» ، (وتجدر الإشارة هنا إلى الإفراج الصحى الذى حصل عليه عدلى لملوم بعد ذلك ، كما تجدر الإشارة إلى أن محاكمته كانت حافلة بأقطاب المحامين ، بينما كانت صرخات خميس والبقرى تذهب أدراج الرياح : هاتوا لنا محامى .. هاتوا لنا محامى .. ياناس!) .

وهكذا لم نر شعار «الثورة البيضاء » يشمل



المتهم الأول مصطفى خميس بعد أن سمع الحكم عليه بالإعدام

أحدا سوى الملك وأسرته وشقيقاته، ولم يتسع سوى لكل الفاسدين والمفسدين من سفاحى الشعب المصرى حقا ، من وزراء ورجالات وإقطاعيى «العهد البائد» والذى ظل يضيق ويعجز تماما عن رحمة كل أبناء مصر المخلصين من العمال والفلاحين والعلماء والقضاة وأصحاب الرأى . (أمثال الشهداء سيد قطب ، عبدالقادر عودة ، شهدى عطية .. إلخ) .

هذه البداية لحركة ١٩٥٢/٧/٢٣ ننظر لها الآن ونستطيع أن نستشف فورا خلوها الكامل من فكر ووعى والتزام إيمانى يعطى لها منطلقا ثوريا يحدد لخطواتها الطريق الذى تصعده متدرجة نحو غاية محددة أو رؤية تقدمية شرعية أو فلسفية إنسانية تحسم لها المواقف وتحلل لها الظواهر بحيث يمكن لها أن تفهم الفوارق الواضحة بين : تمرد إيجابى للعمال ، وتمرد سلبى لإقطاعى متجبر ، فلا تصل إلى قرارات تقتل بها أبناء الشعب المخلصين وتحافظ على حياة أعدائه وتستمر فى ذلك على الدوام ...

* * *

منذ هذا الخلط الأول - (خميس وبقرى/ عدلى لملوم) - الواضح فى مبدئية حركة الضباط ، استمرت تلك «الحركة» فى اتخاذ سياسة : ذبح كل الاحتمالات الواعدة التى كان يمكن أن تشرئب من بين صفوف الشعب المصرى لتحاسبها أو تناقشها أو تفضحها وتقول لها : مكانك لقد خدعتنا فيك ولست أنت أمل مصر ولا صيغة خلاصها . وحين بدأت الخلافات تقع بين أعضائها لم يكن بينهم بطل أو شهيد، فالظاهر البادى أمامنا الآن أنهم جميعا كانوا سواء . «يتخاصمون إذا المآرب عطلت، فإذا انقضين فلا خصام ولا مرا»، ولا أرى نفسى تأسف على محمد نجيب أو تفرح بانتصار جمال عبدالناصر عليه ، فلا يوجد لدينا مبرر واحد يؤكد لنا أنه لو انتصر محمد نجيب وحاز السلطة

بين يديه لما فعل الأفعال الدكتاتورية التى كانت النهج الذى اختاره عبدالناصر وبلوره وأجاده منذ انفراده بالسلطة عام ١٩٥٤ معتمدا معه سياسة سرابية ، تغذى الأحلام ، وتداعب المشاعر، دون أن يجد أى حلم سبيله للتحقيق على أرض الواقع .

* * *

مع انفراد عبدالناصر بالسلطة ، لم تعد هناك - عمليا - «حركة ضباط» ، إذ تمركزت «الحركة» و «الثورة» بل ومصر كلها فى شخصية «الفرد» الفارس الآسر الزعيم الأوحد جمال عبدالناصر ، وتولد ربما لأول مرة التعبير الشرير . «من البديل»؟ والبدائل العظيمة تسحق دوريا بالمشانق والتعذيب والاعتقالات التى لا تنتهى ، ولقد بلغ اتجاه التمركز فى شخص عبدالناصر أوجه عام ١٩٥٦ عند إصداره قرار تأميم قناة السويس الذى صاغه بحيث يبدو هو من ورائه «الشجيع» الذى يصفع أمريكا فى مقابل رفض البنك الدولى تمويل مشروع بناء السد العالى ، فتم إخراج القرار كضربة شجاعة لا يقدر عليها إلا « الجدع » عبدالناصر . وتاهت فى الصخب حقيقة أن تأميم قناة السويس حق من حقوق الشعب المصرى كان يجب أن يناله سواء قبل البنك الدولى أو رفض تمويل بناء السد العالى أو غيره، وحقيقة أن هذا «الحق» كان يجب أن يصدر بقرار هو جزء من خطة منهجية فى برنامج «الثورة» - (وتجدر الإشارة هنا إلى أن قرار تأميم قناة السويس تضمنه البرنامج السياسى لبعض الهيئات الشعبية، مثل الاخوان المسلمين والحزب الاشتراكى لأحمد حسين ، قبل ١٩٥٢/٧/٢٣) - ولا يمكن لمصر أن تغفر لعبدالناصر إخفاءه عن الشعب المصرى حقيقة الواقع العسكرى الذى نشأ فى المنطقة إثر العدوان الثلاثى ، فقد تصورت الجماهير ، العاشقة لبطلها عبدالناصر ، أنها انتصرت مائة بالمائة ، وأن الاحتلال الأجنبى قد رحل تماما ولم تعلم أى شئ عن وضع مضايق تيران أو شرم الشيخ أو الموافقة السرية من عبدالناصر للسماح للسفن الإسرائيلية بالمرور عبر المياه المصرية .

* * *

استمر الصعود المتنامى لشخص عبدالناصر الذى أحبت الجماهير العربية أن ترى فيه أملها المنشود ، خاصة بعد قرار الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ : هذا القرار الذى تم - كالعادة - بأمر فردى مباغت ومفاجئ ، ومع ذلك ساندته كل القوى الوطنية العربية . وتسجل سنوات ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ (تأميم الصحف) حتى ١٩٦١ أوج الصعود لشخص عبدالناصر مجسدا بشعاراته أمانى وأحلام الأمة ، خاصة بعد أن أعلن سياسته المتجهة نحو ما أسماه «الاشتراكية العربية» . مع ذلك الصعود لشخص عبدالناصر كان هناك الهبوط لسعر الشعب المصرى وقيمة الفرد فيه ، حيث كانت هذه السنوات نفسها هى سنوات بزوغ وتألق المنهج الإجرامى لإلغاء شخصية وحيثية الإنسان المصرى ومحوه، ذلك المنهج الذى ابتدعه عبدالناصر - وألهم به معظم زعماء الوطن العربى من بعده - وسلطه هو وقنواته وأدواته الوحشية ليحول الشعب المصرى المتكلم الساخر الفصيح إلى بجع مسحور مسلوب الإرادة ، لا يعرف سوى التصفيق بأجنحته الكسيرة ، وسوى إخفاء الكلام كالسمك فى كيس منقاره . سنوات تأسيس منهج إشاعة الذل والقمع والإرغام والاقتلاع من الجذور وجدع الأنوف وقطع الألسنة - (ولو بقول النكتة

التى لا يحيا بدونها المصرى) - وقصم الظهر والهيمنة على النفس الصاعد والهابط ، سنوات تقنين المنهج البدائى الهمجى فى التعذيب الذى عُيِّر به المغول والتتار ، ونراه فى وحشية الأعداء ، منهج إحراق مكتبات بكاملها بعد شنق مؤلفيها الأفذاذ حتى لا يقرأ الشعب المصرى ، ومن ورائه الشعب العربى ، الكتب التى تمد إليه طوق نجاته ليغرق بدلا عنها حتى أذنيه فى مؤلفات الركاكة والسماجة والأكاديمية المزيفة والشقشقات والطقطقات التى ترضى الزعيم وتخلص دائما إلى النتيجة بأنه «ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وأن الفزع الوحيد الذى يجب أن يواجهه الشعب المصرى هو فزع احتمال غياب عبدالناصر فمن يكون «البديل» للفلتة المفلوتة من دورة الزمان !

وبما أن لكل عملة وجهين ، فإن خمر السلطة وكرباج القمع تمكنا من عزل عبدالناصر تماما حتى عن موقع قدميه حيث أصبح لا يرى ، وتحت وطأة منهجه فى تعبيد شعب مصر ، الذى حاول ممثلوه أن يقرروه على شعب سوريا ، كسرت الوحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٦١ وكان هذا الكسر هو الهزيمة الأولى الواضحة لعبد الناصر بعد أن صار اسم «عبدالناصر» يعنى كل شئ : «الحركة المباركة» و«العهد الجديد» و«الثورة» بل و«مصر » و « الأمة العربية » .

وبدلا من أن يراجع «عبدالناصر » سياساته ورجالاته وحوارييه والطبقة الجديدة - التى صارت بفسادها تنافس فساد العهد الملكى - حتى يقف على الأسباب التى تكالبت على الوحدة وكبدت الجماهير العربية خيبة أمل محزنة أدت إلى التراجع نحو التعصب القطرى لكل بلد عربى ، وقف يعلق كل الأخطاء على مشاجب خارجية ، متعاميا تماما عن أسباب كانت مسئوليته فيها مباشرة ، معتمدا على ، ومستغلا ، مكانة الحب الهائلة التى كانت تضعه فى قلوب الجماهير العربية المصرة على ألا تتبدد أحلامها. واحتمى عبدالناصر بعد *هزيمة الانفصال* عن سوريا خلف قوانين ١٩٦١ *الاشراكية* التى ألهت طبولها ومزاميرها وأفراحها الناس عن رؤية الأخطاء والأخطار الكامنة فى سياسة عبدالناصر الفردية السرابية ومنهجه القمعى ، وقد أدى تأثيرهما فيما بعد إلى تعطيل كل القوانين الاشتراكية عن فعاليتها المثمرة ، فلم يذق منها الناس إلا شدتها ومرارتها ولم يفلحوا - بعد الصبر - فى الوصول إلى حلاوتها .

وهكذا .. كما تشوهت *الخطوات نحو الوحدة العربية* ، تشوهت الخطوات نحو العدالة الاجتماعية، وظل الشعب العطشان عطشان يلهث وراء قطرات من حقوقه فى خدمات التعليم والعلاج والمواصلات ولا يكاد يبلل حلقه، وبعد نصف قرن نلتفت لنرى «الفقر والجهل والمرض» كما هى مشكلاتنا ، ولنسمع « وستعمل حكومتى على تسهيل وسائل المواصلات ... » كما هى وعود الكذابين ، ولنرصد المجئ والذهاب والدوار وقد تقلصت قضية تحرير فلسطين من *احتلال* ١٩٤٨، إلى تحرير الأرض المحتلة ١٩٦٧ ، إلى فك حصار عرفات وكنيسة المهد ، وإنا والله لمحزونون ... ...
... ...
... ... وتنتهى المساحة المتاحة ولم ينته الكلام والشهادة ... ■

شهادات

ثورة عبد الناصر ذكريات وتأملات

بقلم : د.على الراعى*

نظرت الي الصورة ولم أصدق عيني لا يمكن! مستحيل هذه صورة دبابات تحاصر قصر عابدين وعنوان الصحيفة الانجليزية يقول : ثورة في مصر...

هل يمكن أن يكون هذا قد حدث حقا ؟

لا، لا مستحيل لا يمكن أبدا ..!

الجيش ؟ جيش فاروق يفعلها؟ غير معقول . مرفوض تماماً !

***

ورحت أدقق في الصورة : الدبابات حول القصر فعلا، ومدافعها مصوبة نحو القصر، وليس تجاه الشعب كما اعتدت أن أرى الدبابات في مصر ... دبابات الانجليز مثلا في عام ١٩٤٦، التي طافت شوارع القاهرة تحاول أن تخنق الروح الوطنية، والدبابات الأخرى المصرية، التي كانت تخرج أيام الزفف وأوقات الاستعراض ..

الدبابات - فعلا - تحاصر قصر عابدين ..!

***

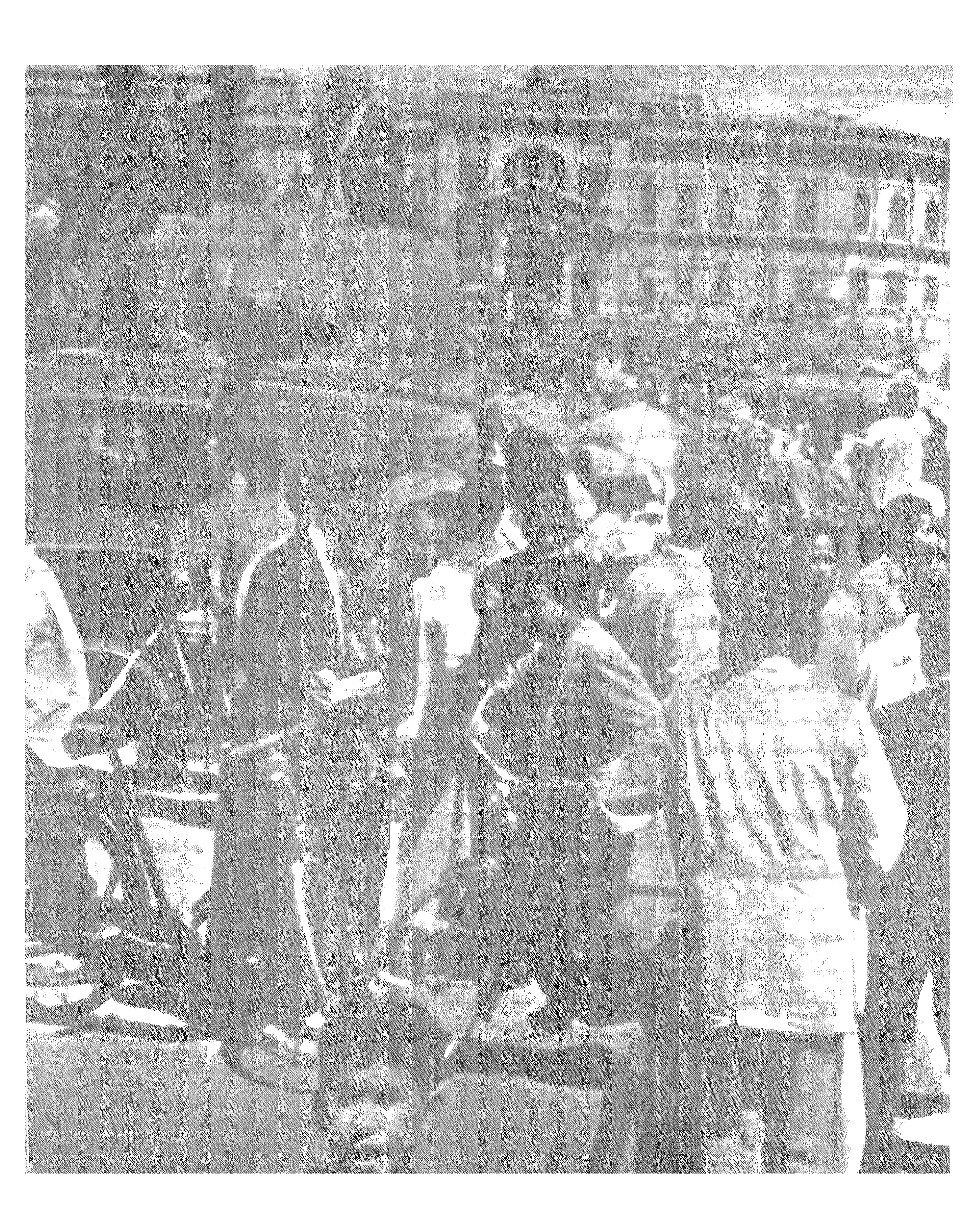
كنت أيامها في انجلترا لم تمض على إقامتي بها سوى أشهر قليلة .. حافلة بكل ما يشير، كل ما يقطع على الطالب هدوءه وراحة باله، أثمن ما يحتاج للبحث والتعمق والاستيعاب .

لم تكد تمضي أيام على وصولي إلى انجلترا في خريف ١٩٥١ حتى الغيت المعاهدة ، وقامت مظاهرة نصف المليون تشيد بهذا الالغاء ، وبدأت معركة حرب التحرير الشعبية التي شنها فدائيو القناة .

وجاءت وزارات «عمر الزهور» في تتابع سريع، كانت الواحدة منها تمكث في الحكم أياما، ثم تسقط كأوراق الخريف، وكان عهد فاروق يلفظ مع

*الهلال نوفمبر ١٩٧٠

يوم الثورة ... وحصار قصر عابدين



كل واحدة منها نفسا من أنفاسه الأخيرة.

وتصاعدت الحوادث سراعا ورحنا نركض وراءها لاهثين - حتى فى انجلترا الى أن بلغت الذروة بحريق القاهرة، واحترق مع مبانى المدينة الباسلة آخر ما تبقى لمصر الملكية من أرض وجاه ونفوذ .

وهذه هى الدبابات تحاصر قصر عابدين ..!

***

مضت الدقائق ، واخذت - شيئا فشيئا - أصدق بأن ماوقع قد وقع فعلا يالمتعتى .. يا لمتعتى أنا، قبل كل الناس ..

كنت أيام الصبا الباكر، وأنا بعد طالب فى المدرسة الثانوية ، أطوف بميدان عابدين الفسيح ، وأقول : هذا ميدان الثورة !

وكنت ارى أن الميدان الذى شهد المواجهة بين عرابى وتوفيق والذى انطلقت منه أول شرارة ضد الطاغوت الخديو، هو أجدر الميادين بأن يصبح ميدان الثورة وها هى ذى الثورة تحدث فعلا .. فى الميدان الذى اخترته لها فى خيالى .

ها هى ذى الثورة تعبر - سريعا - هزيمة الشكل الأول لها، ثورة عرابى، وتجاوز نكسة ثورة ١٩١٩ وتنتفض واقفة ، مرفوعة الرأس فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

موقف حافل بكل الامكانات وجميع المخاطر. الصحف هنا تسأل : من صنع هذه الثورة، وماذا تريد؟ وواضح أن الإنجليز قد أخذوا على غرة .

وجنود الاستعمار الثمانون الفا فى قاعدة السويس قد أمروا بالتأهب، وصدرت التعليمات الى المدمرة «برمنجهام» الانجليزية بأن تغير طريقها وتتجة من فورها إلى مدينة بورسعيد لتنتظر مزيدا من التعليمات .

ومرت ثلاثة أيام حافلة بكل ألوان القلق ...

ماذا يا ترى الانجليز فاعلون؟ وهل يعقل أن يتركوا الثورة وشأنها ولهم على بعد ساعات من القاهرة ثمانون الفا من الجنود مدججون بالسلاح؟

ولكن الايام الثلاثة انقضت ولم يحدث للثورة شئ مما كنا نخشاه وسمعت نبأ طرد فاروق وأنا أتأهب للقيام برحلة تطوف فرنسا وسويسرا وايطاليا .

كان ضمن رفاقى فى الرحلة كندى عجوز ، مازلت أذكر قسمات وجهة واضحة على قلة ما أذكر الوجوه والاسماء .

قال لى الرجل : ما هذا الذى يحدث فى العالم؟ قلت : ماذا؟ قال : هؤلاء العسكريون الذين يتولون الحكم فى كل مكان ديجول وايزنهاور وشان كاى شيك .. وعندكم - مؤخرا - جمال عبد الناصر .

قلت له: ما رأيك أنت ؟ قال ارى أنكم متجهون الى ديكتاتورية عسكرية شر الوان الديكتاتوريات !

وللأمانة المطلقة أقول : أن ما كنت أعرف اذ ذاك عن جمال عبد الناصر، هو أقل من القليل لا يتعدى ما قالته الصحف البريطانية يومذاك من أنه المدير الحقيقى لثورة ٢٣ يوليو، وانه رجل صموت، يحب أن يسمع أكثر مما يتكلم غير أننى وجدتنى استمع الى رفيق الرحلة الكندى فى هدوء، وأنا استثنى - فى نفسى - جمال عبد الناصر من الاندماج تحت سلك الحكام العسكرين الديكتاتوريين .

لماذا؟ ولأى سبب؟ لا ادرى لم يكن لدى سبب واحد يدعونى إلى هذا لعله كان مجرد رجاء بألا يكون جمال عبد الناصر مجرد ضابط آخر من الضباط الذين يقلبون الحكومات فى كل مكان، ثم يثبتون من بعد أنهم ليسوا أحسن ممن انقلبوا عليهم .

وكانت انقلابات سوريا المتلاحقة فى أواخر الاربعينات مازالت فى الاذهان ويبدو – مما كتبه السيد أنور السادات فيما بعد – انه كان ثمة خطر حقيقى لأن تنقلب الثورة ديكتاتورية عسكرية لولا عبد الناصر، ولولاه وحده فقد وضع الديكتاتورية فى كفة ووجوده هو على رأس الثورة فى كفة أخرى .

وانتصر عبد الناصر أول انتصار هام وأساسى، فى سلسلة انتصارات أخرى كانت تنتظره .

***

يئست الصحف البريطانية فيما يبدو – من أن يصيب الثورة مكروه كانت تتمناه، وأصبح واضحاً من تأييد الشعب الإجماعى للثورة أنها قد كانت هى بالضبط ما يحلم به الناس ويتمنون حدوثة وانها جاءت تعبيرا حقيقا وأمينا عن كل ما عملت له حشود بعد حشود من الوطنيين المختلفى الآراء والمشارب، منهم من سقط شهيد محاولته ، ومنهم من عاش ليصمت أو يتنكس .

وكان مثار العجب عند بعض المعلقين أن النظام الملكى الذى هوى لم يطلق فى الدفاع عن نفسه من الرصاص أكثر مما يطلق الفلاحون فى فرح ريفى متواضع .

واستنتج الانجليز من هذا أن النظام الملكى كان قد تهافت وهوى من الداخل، وظل موجودا شكلا بلا موضوع ، حتى هبت ثورة يوليو الخلافة فأطاحت بالشكل بعد الموضوع .

ذلك ان الجذور الحقيقة لثورة يوليو بدأت فى الفالوجة وأخذت القوى الثورية التى فجرها عبد الناصر تتكاتف مع غيرها ومن القوى الثائرة حتى ثم تخريب بناء الظلم تخريبا تاما من الداخل واصبح سقوطه مسألة وقت .

هنالك قررت بريطانيا ان تحتوى الثورة، وتماشيها بعض الطريق يأمل أن تستولى عليها فيما بعد .

وأخذت الصحف البريطانية تتحدث علانية : أحيانا فى مواربة، وأخرى فى سذاجة مضحكة عن الادوار التى يمكن أن يسندها الغرب لجمال عبد الناصر .

أيمكن ان يقوم بدور نابليون؟ أنستطيع أن نسند اليه دور جورج واشنجتون؟ وقالت أشد هذه الصحف عداء، ان هذا الرجل الصموت الذى يحسن التوارى عن الناس لا يصلح الا لدور بروتس : المتآمر الأكبر !..

كان واضحا من هذا كله مدى الحيرة التى وقعت فيها بريطانيا بإزاء عبد الناصر وهى حيرة لم يفعل الرجل العظيم شيئا واحداً ليبددها بل لعله تعمد أن يزيد الاستعماريين الانجليز خبالا على خبال .

كان المراسلون يقابلون بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة ويعودون وهم يفركون الايدى فرحا، ويكتبون فى صحفهم : «فى *مجالسهم الخاصة*،

يقول هؤلاء الاعضاء: إنهم مع الغرب » . ويحلم المراسلون بأن يكون هذا صحيحا، ثم تأتى وقائع بعينها فتعكر عليهم صفو الاحلام .

****

التحية التى وجهت الى الاتحاد السوفييتى عقب وفاة ستالين مثلا. علام تدل؟ ماذا يقصد هؤلاء الناس؟ أى اتجاه يتجهون ؟.

قانون الاصلاح الزراعى فى سبتمبر عام ١٩٥٢ وما تلاه من تقويض للأساس الذى اعتمد عليه الاستعمار البريطانى من اقطاع. وما وجه من ضربات لملكية الأجانب للأرض ، وما أثمر من رفع بعض الغبن عن الأجراء الزراعيين .

علام يدل هذا؟ أمسير نحو الاشتراكية؟ أم اصلاح لبعض مظاهر الظلم الفاقع، حتى تخف حدة الثورة على الاوضاع ؟

لم يكن أحد يعرف على وجه التحديد . لأول مرة يعيش الاستعمار البريطانى فى ظلام لا يعرف ماذا يحدث ، ولا ماذا تكون الخطوة التالية .

ومما عرفناه جميعا عن عبد الناصر حين تفتحت أكمام قيادته ، ونمت وازدهرت، نستطيع ان نقرر واثقين أن الرئيس كان يبتسم فى سعادة لهذا الذى احدثه داخل معسكر الاستعمار من بلبلة ، وأنه كان يسخر - لا ريب من محاولات الاستعمار ان يسند اليه ادوارا معينة ينتقى الواحد منها بعد الاخر، من مخازن التاريخ .

***

كان عبد الناصر قد أسند لنفسه دوراً واحداً لم يغيره قط ولم يتنازل عنه، هو أن يكون ابن مصر البار، ومحررها من كل الوان الاستغلال والاستعمار مهما كان مصدرها .

عام ١٩٥٤ العام المشرق .. عام باندونج وشعار الحياد الايجابى يرتفع عالياً خلاقاً.

قصار النظر يظنون ان الحياد هو أن ندير ظهورنا للدنيا كلها، ما بين شرق وغرب ولكن عبد الناصر يصحح هذا بالنظرة الخلاقة للوضع العالمى ليس كل الناس سواء ولا مواقف الدول منا متشابهة هناك دول يهمها أن يتحطم الاستعمار وتعلو موجة التحرر الوطنى وهذه الدول ترتبط مع الدول المجاهدة بمصلحة مشتركة هى تحطيم الاستعمار العالمى أو إضعافه الى حد كبير وهى فى سبيل تحقيق هذا لا تبخل بالعون ، ولا تشترط كى - تبذله - أن ننحاز الى صفها يكفى فقط الا ننظم الى اعدائها وأن نسير فى الطريق الذى اخترناه لأنفسنا : طريق التحرر من التبعية السياسية والاقتصادية للدول الاستعمارية .

وهذا ما أدركه جمال عبد الناصر بالنظر الثاقب والتحليل الدقيق . وهذا هو الذى رفع مقامه ومقام مصر كلها درجات كثيرة فى رأى العالم .

بعد باندونج أصبحنا نسير بوضوح على طريق : نصادق من يصادقنا ، ونعادى من يعادينا .

وانهارت الاسوار التى كانت تحبسنا فى الارض الضيقة ، وتحرمنا تأييد ملايين الملايين فى دول العالم الثالث وفى معسكر الاشتراكية.

ولابد أن المصابيح الحمراء - اشارات الخطر - أخذت من ذلك اليوم تومض فى معسكر الاستعمار الحديث، الذى ظل حتى ذلك التاريخ يأمل فى أن ينجح فيما فشل فيه الاستعمار القديم ، من احتواء لثورة عبد الناصر، وتحويلها من ثورة

حقيقية الى مجرد حركة تبديل لاشكال الاستغلال القديمة وإحلال اشكال جديد محلها .

***

عام ١٩٥٥، وهانذا أعود الى بلادى بعد غيبة اتصلت أربع سنوات أعود الى وطن تركته بين براثن ملكية متعفنة جعلت منا جميعا أضحوكة بين الناس .

كان أول ما صادفنى وساءنى فى انجلترا هو الصور الكاريكاتورية التى تنشرها صحيفة ديلى أكسبريس ، الممعنة فى الاستعمار ، ضد ملك مصر ، وضد مصر بالتالى، والتى كان النظام البائد يحتج عليها فى وهن، فيقال له : الصحافة حرة فى بلاد الانجليز !

كانت بلادنا ذليلة بل كسيحة فى ظل النظام البالى. يعرضون علينا فى عام ١٩٥٦ أن ننضم الى حلف الدفاع المشترك، ويظنون أنهم يمسحون الجرح، ويجعلون القهر أمراً مقبولا باقتراح غريب، هو أن يرأس الحلف قائد عسكرية مصرى، يأتمر بأمره العسكريون الانجليز، فنصبح بهذا رؤساء وليس مجرد تابعين !

كلام لا يجوز حتى على الاطفال ولكن بهذا القدر من السذاجة كان الاستعمار يظن الحركة الوطنية فى بلادنا ..

وما بين ١٩٥١ حين تركت مصر مترددا، موزع الخاطر وعام ١٩٥٥ حين عدد سعيدا لارض الوطن، كانت المعجزة قد تحققت وكان نور الاستقلال الحقيقى للشعوب قد أخذ يبزغ من جاكرتا ، وكان عبد الناصر واحدا من ابرز من وضعوا له الزيت وأشعلوا المصباح .

ولم يكن عجبا - بعد هذا - أن تصطدم ثورة عبد الناصر بالاستعمار الجديد أيضا، بعد أن تجرأت على كسر السدود ومن ثم بدأت سلسلة من المعارك المجيدة .

وكان من حسن حظى أنى عدت فى الوقت المناسب لاعيش مع ملايين المصريين والعرب هذه المعارك المجيدة كلها وأولاها: تأميم القناة .

***

هل كان الاستعماريون يظنون يوما أن عبد الناصر سيجرؤ على تحديهم بكل هذه الجرأة ؟

بل هل كان بعض المصريين يظنون فى قائدهم كل هذه الشجاعة والاقتحام ؟

شاءت الظروف أن أكون واحدا من المصريين القلائل الذين علموا باعتزام عبد الناصر تأميم القناة .

عرفت هذا السر الذى حرص عبد الناصر على أن يبقى طى الكتمان، قبل اعلانه بساعات ، كانت كافية لإسعادى أياما طويلة ، حتى بعد أن أعلن الحدث الكبير .

كان يداخلنى شئ من الزهو، لأن حدثا بالغ الاهمية فى حياة بلادى يوشك أن يحدث ، وأنا بين قلة قليلة تعرف أنه سوف يحدث فى ميعاد مرسوم.

وكنت أشعر أيضا بشعور من أطلع على سر من أسرار لعبة بالغة الخطورة، ولكنها أيضا بالغة الطرافة والامتاع .. وكان مما يزيد من شعورى بالسعادة أن اللعبة موجهة ضد اعدائنا ، واننا نحن الذين نوجه الضربة للاستعمار، بعد

أن جاء دورنا أخيراً ، بعد أن ظل هذا الاستعمار ذاته يوجه لنا الضربات المذلة المتوالية .

وقناة السويس، وشركتها ، وما كانت تشيعه في البلد من تيارات ضارة، ليس فقط في محيط الاقتصاد، بل وفي حياة الجماعات والافراد ايضا، هي جزء من حياتي فقد عشت طفولتي الباكرة كلها في الاسماعيلية ورأيت كيف تقسم الشركة الفرنسية البلد قسمين ظالمين قسم به كل الوان المتع وأرقى آيات الحضارة : فيللات فاخرة، وحدائق رائعة الحسن، ومدارس ومستشفيات وحفلات ، ومحال للبيع كلها على أحدث وأجمل طراز حتى كان هذا الحي الأوروبي يسمى : باريس الصغيرة .

وقسم آخر به الفقر كله : الازدحام، والحفاء والمرى والبيوت المتهالكة والمدارس القليلة المهدمة ، والمستشفى الاميري، بكل ما يعنيه هذا من شقاء ومرض وعذاب - كل هذا موجود في الحي العربي - أي حي المصريين ، أصحاب الأرض ، وأصحاب القناة .

كان أقصى ما يمكن أن يطمح اليه المصريون هو أن يقبلوا للعمل في خدمة شركة القناة اذا حدث هذا لفرد فقد رأى ليلة القدر .

ومازلت اذكر طفلا من أصدقائي، يشير الى مواطن كان يعمل بستانيا في خدمة الشركة ، كل مهمته أن يروي بعض الحدائق بخرطوم طويل . قال الولد : ترى هذا الرجل؟ أنه يعمل في خدمة الشركة وهي تعطيه عشرة جنيهات في الشهر.

عشرة جنيهات - قلت لنفسي ذلك نصف مرتب والدي المرتب الذي وصل اليه في أواخر خدمة امتدت أكثر من ثلاثين عاما .

كنا نعيش في الاسماعيلية على هامش البلد ما بين الشركة الفرنسية، وهي حكومة داخل حكومة، وما بين معسكر قوات الاستعمار القريب من البلدة . وهو طبعا حكومة أخرى، أقوى وأعتى كنا نعيش نهبا للمذلة ضيوفا غير مرغوب فيهم في بلد لم يعد ملكا لنا .

لهذا كله كان خبر تأميم القناة الموشك الحدوث ذا مغزى خاص بالنسبة لي . كان بمثابة انتقام طال انتظاره لسنوات من الاذلال عرفتها وذقت غصصها، طفلا وحدثا .

وأخذت الساعات تدنو من السادسة، وأخذت دقات قلبي تشتد، وتشتد معها سعادتي، إذ ينفرط عقد الساعات ولا يقوم ما يمنع الحدث الكبير المرتقب من أن يحدث .

وفي الميعاد المحدد أو حواليه . انطلق صوت جمال عبد الناصر يقول : باسم الامة : رئيس الجمهورية.. تؤمم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية ...

دارت عجلة الزمن دورة كاملة وعادت القناه لأحفاد الفلاحين والأجراء الذين حفروها بأظافرهم وسواعدهم المعروقة، وجوعهم، وأسمالهم البالية ..

***

كان هذا بدء الصدام الحقيقي بين ثورة عبد الناصر والاستعمار العالمي. وهو الصدام الذي بلغ ذروته في عام ١٩٦١، عام التأميمات الشهيرة، التي نقلت الجزء الاكبر من الاقتصاد المصري الى ملكية الشعب وجعلت الحديث عن مجتمع ينتقل الى الاشتراكية حقيقة واقعة وليس مجرد أمنية من

أماني العمال والفلاحين .

ومن يوم تأميم القناة الى يومنا الحاضر لم تهدأ ثائرة الاستعمار العالمى، ولن نهدأ نحن فى كفاح هذا الاستعمار .

وقد كانت هذه سنوات كفاح مرير، وتضحيات ودم مسفوك ولكنها شقت لمصر طريقا واضح المعالم، أصبح من غير المقبول بل من غير الممكن تنكب السير فيه .

ذلك أن عبد الناصر لم يقم السد العالى وحسب . لم يحول مجرى النيل وحسب . لم ينشئ المصانع والمدارس والجامعات وحسب بل شق أيضا – وأهم من هذا كله – – لمصر طريقا حفر مجرى لنهر كبير يواكب النيل، ويضاهيه نهر له فرعان : الاشتراكية الخلاقة، والانفتاح على العالم كله، ما بين قريب وبعيد .

حفر هذا النهر وسط مصاعب لا حصر لها . فلم يكن هينا أنه يصادق العالم الاشتراكى فى ابان حرب باردة عاتية بين المعسكرين ، وفى وجه انقسامات داخلية كثيرة فى المعسكر الاشتراكى ذاته .

ولم يكن سهلا ان يحدد الطريق الى الاشتراكية فى وجه معارضة ظاهرة وخفية من قوات التخلف فى الداخل، وأن يفعل هذا بأقل قدر ممكن من التضحيات .

ولم يكن سهلا أن يهتم بمشكلات الوطن، ويمد النظر فى الوقت ذاته الى الوطن العربى الاكبر، ثم الى الوطن الام، افريقيا ثم إلى دول العالم الثالث الشبيهة بنا والقريبة منا، ثم الى العالم كله من بعد: وطن الانسانية كلها .

ولكن هذا دائما شان القائد الكبير الواسع الافق العالى الهمة كجبل راسخ تضرب قمته فى الفضاء ويعرف سطحه النبات كله، والمناخ كله، ويرى ما يحيط ، وما يقبع من بعيد .

لا عجب أن نكس ثوار فيتنام اعلامهم فى الادغال تحية له . ولم يجد قنصل أمريكا فى القدس المحتلة مفرا من تنكيس علم أمريكا وبين هذين النقيضين كانت الاعلام كلها منكسة .

غير أن اعلام العدو والصديق لن ثلبت أن ترتفع وكذلك تفعل اعلامنا، وحق لأعلامنا أن ترتفع لقد أصبح لها معنى ومغزى ، بعد أن كانت فى السابق شارات زينة صار علم الجمهورية العربية المتحدة ذو النجمتين يعنى شيئا بذاته رؤية محددة للأشياء، وعدا للافراد والجماعات والشعوب بأن سياستنا ستكون دائما الانشغال بالانسان ، بوصفه أثمن ما يحمل هذا الكوكب، والعمل الدائب على تحريره من كل مظاهر الاستغلال والاستعمار، بصرف النظر عن جنسه ولونه ودينه ومكان مولده .

لقد أصبح عالم الجمهورية عندنا شعاراً مجيداً يقول: عاش الإنسان حراً، ممجداً فى كل مكان .

ولقد بذل عبد الناصر أيام حياته جميعاً فى سبيل أن يرتفع هذا الشعار .

وبعض التكريم الذى يستحق هذا الرجل الكبير هو أن نرفع شعاره دائما، عاليا خفاقا . ■

شهادات

شاهد على عصر...

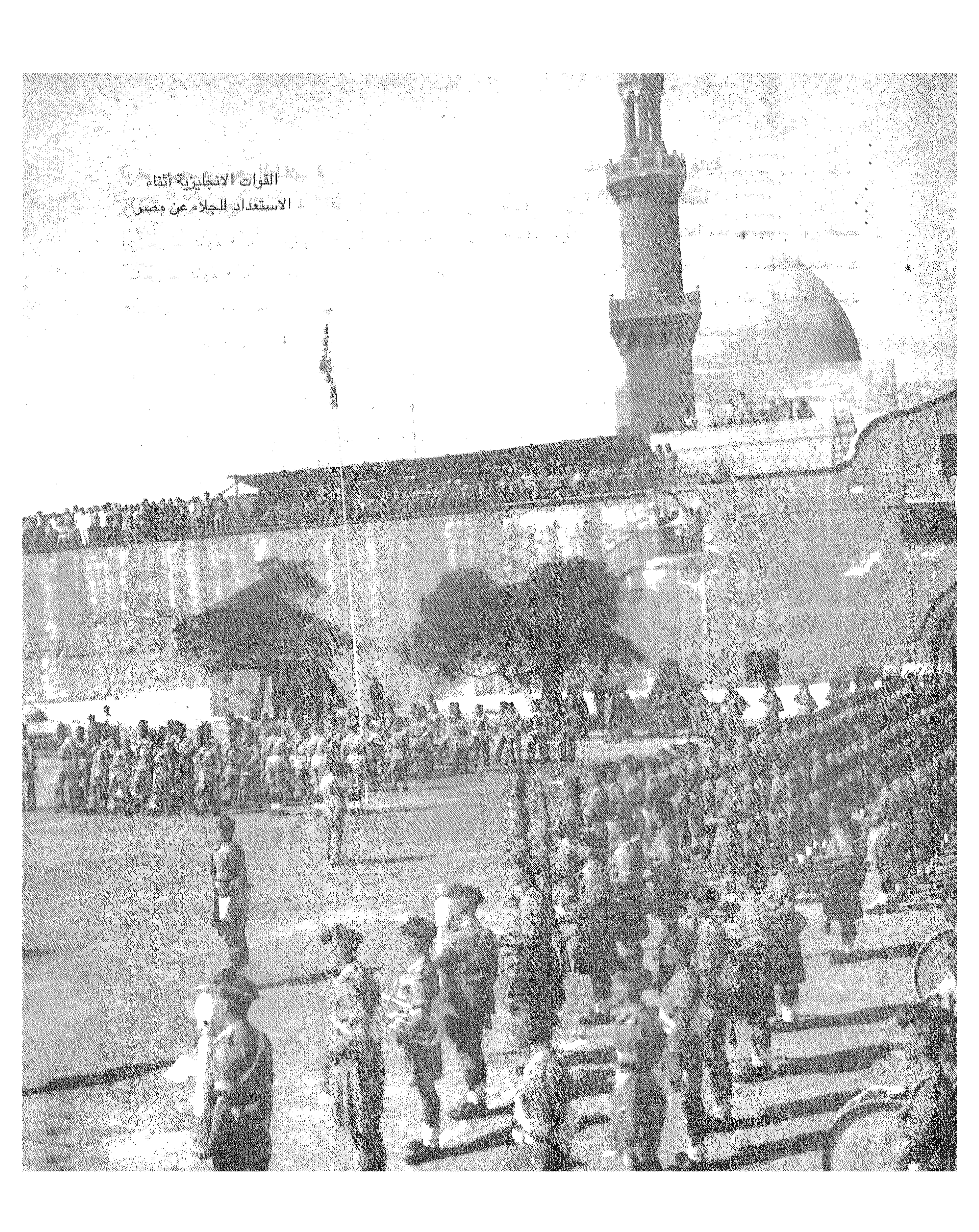
ما قبل وبعد ٢٣ يوليو

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

ما أقدمه ليس تاريخا، لأن للتاريخ مناهجه، وأصوله، ومكانه أيضا، وإنما هى ذكريات مواطن مصرى، شهد أحداث ٢٣ يوليو ١٩٥٢ طالبا فى الجامعة، وعاصر الأحداث التى سبقتها تلميذا فى الثانوى، ثم واكبها فى سنيّها الأولى موظفا فى الحكومة، وهى شهادة قد تصلح تمهيدا للتأريخ، أو تمثل خطوة فى الطريق إليه، ولكنها لا تحل مكانه، ومع أنها مجرد ذكريات فإنى لم أستوحها من الذاكرة وحدها.

انتهت الحرب العالمية الثانية فى النصف الثانى من عام ١٩٤٤ ، وهدأ ضجيج المدافع، وصمت أزيز الطائرات فى كل مكان، وبدأ العالم ينشغل بما خلفته الحرب من دمار مادى واجتماعى، وكان ما صنعته فى مصر تحت جنح الظلام قويا وعميقا: السوق السوداء، الرواج الاقتصادى أثناء الحرب والانكماش بعدها، أرباح العمال الهائلة، ثم البطالة من بعد، طبقات تهاوت فى بؤرة الإفلاس، وأخرى صعدت إلى قمة الثروة، دون أن تخضع أى منهما فى صعودها أو هبوطها لقانون اقتصادى أو اجتماعى، وإنما هى الصدفة وحدها.

وبدأ الشارع المصرى يموج بتفاعلات وأفكار تتدافع، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، لا يعرف أحد إلى أين وجهتها، وما هى غايتها، يسودها التوتر والقلق، وتحركها العفوية والنوايا الطيبة، ومصالح تتصارع، ويأكل القوى منها الضعيف، وتيارات بعضها قادم من وراء الزمن، أو وافد من وراء الحدود، حركات إسلامية أو يسارية، تعمل علانية أو تحت الأرض، تتقاتل فيما بينها، أو تواجه السلطة القائمة، وهذه بدورها لم تكن واحدة، وإنما هى أحزاب مختلفة، تعتمد على دعم الشعب، أو قوة القصر الملكى، أو ذكاء المناورة، أو تلاقى المصالح، وتتخذ مسرحها فى كل مكان من



القوات الانجليزية أثناء
الاستعداد للجلاء عن مصر

أرض مصر، بين الطلاب فى الجامعة والأزهر والمدارس، أو بين العمال فى النقابات والمصانع، أو بين المثقفين فى المنتديات، وفى تجمعاتهم، بين أناس تشغلهم هموم الوطن، أو يبحثون عن موضع قدم فى قطار السلطة.

جدت فى ساحة النضال الوطنى اتجاهات لم تكن تعرفها مصر من قبل، أو كانت محدودة الأثر، وطفت على السطح قوى فاعلة، كانت تنمو بنظام، وفى تؤدة وثبات، بعيدا عن الرقابة والملاحقة، إنها الفترة التى بلغت فيها حركة «الإخوان المسلمون» ذروة نشاطها ونجاحها، تغلغلا فى أحياء المدن وفى القرى والعزب والكفور، وسيطرة فى الجامعة والمدارس ونقابات العمال، وتسربوا إلى الجيش والشرطة، يبشرون بحل فى نطاق مشروع لا يكون بعيدا عن الدين، يلقونه مجملا، غير واضح المعالم والسمات لغير قادته، وربما كان ذلك مقصودا.

وكان الشيوعيون.. يمثلون القوة الجديدة الثانية، ذلك أن مصر اعترفت رسميا خلال الحرب، بالدول الشيوعية بضغط من الحلفاء (انجلترا وفرنسا وأمريكا) وبدأت المطبوعات الشيوعية تأخذ طريقها إلى القارئ فى مصر، سرا آونة، وعلى استحياء آونة أخرى، تتحرك مستقلة أو دراسات فى مجلات وصحف شيوعية، تطبع فى مصر أو قادمة من بيروت، وتجلى دور الشيوعيين واضحا فى قيادة الجماهير للتصدى لمعاهدة صدقى - بيفن، عن طريق «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، وهو تنظيم أبدعوه، وفيه التقت الطبقة المثقفة مع الطبقة العاملة، وكان ذلك غاية استراتيجية، وفيه ظهرت الفتاة المصرية مناضلة سياسية فى شخص لطيفة الزيات «الدكتورة فيما بعد» الطالبة فى قسم اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب، فقد انتخبت عضوا فى مجلس الإدارة، وكانت اللجنة تقود المظاهرات، وتصوغ لها الشعارات، تؤكد على مقاومة الاحتلال، وتلمس القضايا الاجتماعية، وعندما أسقطت المعاهدة سقط إسماعيل صدقى معها.

كان الإخوان المسلمون وحدهم، من دون بقية الهيئات السياسية الأخرى، الذين أدركوا مبكرين خطورة اللجنة، وقوة دورها، وأنها تمثل فى العمق خطا شيوعيا واضحا، فاصطدموا معها، وانسحبوا منها، وألبوا بقية القوى الشعبية عليها، فخفت صوتها، وانتهى دورها عمليا.

إزاء تزايد قوة الشعب وصلابته فى مقاومة الاستعمار البريطانى، وجد الإنجليز أن الاعتماد على القصر الملكى وحده، أو الباشوات وأتباعهم، مغامرة غير محمودة العواقب، على حين أن الطبقات الشعبية أصبحت فى عمقها ساحة لغزو سياسى سرى منظم من جهتين، كلتاهما تكره بريطانيا: الشيوعيين والإخوان المسلمين، وهكذا دخلت الساحة بتنظيم أرادته أن يكون شعبيا أيضا، وأن يتجه إلى قاع المجتمع، ودنيا الطبقة الوسطى فيه، وأسمته «إخوان الحرية»، ومع أنه علنى، ولكنه فى تحركه اتخذ نظام الخلايا، وأعطته غايات واضحة: التبشير بالديمقراطية الإنجليزية،

وتأكيد الصداقة بين الشعبين، وكان يدعمه بقوة أساتذة قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، في جامعة فؤاد، وعلى رأسهم كريستوفر سكيف، وهو الذى أهداه الدكتور لويس عوض ديوان شعره «بلوتو لند وقصائد أخرى » ونشره عام ١٩٤٧، وقد لعبت هذه الجماعة أدوارا مشبوهة فى حرق كنيسة السويس فى ١٩٥١/١/٤، وفى حريق القاهرة، وعندما ألغت وزارة الوفد معاهدة ١٩٣٦ فى ١٩٥١/١٠/٨ أصدرت قرارا بحل هذه الجماعة وحظر نشاطها.

ولم تشغل القضية الوطنية جماهير الشعب فى حركتها الهادرة ضد الاستعمار عن القضايا العربية، فتظاهرت متضامنة مع فلسطين فى ثورتها ضد الاستعمار البريطاني، ومع سوريا ولبنان فى وقوفهما ضد عودة الاستعمار الفرنسي، وفى هذه الأعوام (١٩٤٥ وما بعدها) فتحت مصر أبوابها لزعماء المغرب العربى بكل أقطاره (المغرب وتونس والجزائر) وتجمعوا فى «بيت المغرب العربى» فى القاهرة ، يديرون منه صراعهم ضد الاستعمار الفرنسي، ووضعت تحت أيديهم كل إمكاناتها المتاحة، وتحولت القاهرة إلى مركز حقيقى لكل المطالبين بالحرية والاستقلال والوحدة فى العالم العربى بأجمعه.

وكان الأمل فى أمة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج تجمع بينها أواصر اللغة الواحدة، والثقافة الواحدة والدين الواحد، والامتداد الجغرافى المتصل، وروابط الأمن والمصلحة والآمال المشتركة، يداعب وجدان الجماهير، ويملأ مخيلة المثقفين والفنانين، وهم أقدر من غيرهم على تخطى حواجز الحدود، ومحاولة خلق قوة فاعلة تبشر بوحدة عربية، قد يطول بها الزمن، ولكنها آتية لا محالة ، وهى طريق العرب الوحيد إلى القوة، وهى دعوة كانت تجد من الإقبال فى كل بلد عربى، بقدر ما فيه من الثقافة والتقدم والشعور بنبض الزمن. ومن ثم شاعت: أم كلثوم مطربة الشرق، وشوقى أمير الشعراء، وخليل مطران شاعر القطرين، مصر والشام، والرسالة مجلة كل الكتاب العرب. إنها الفترة التى حمل فيها الأساتذة المصريون رسالة التنوير فى كثير من الجامعات والمدارس فى البلاد العربية، مدفوعة رواتبهم من مصر نفسها، وفتحت مطابع القاهرة أبوابها لكل المؤلفين والمبدعين من الأقطار العربية المختلفة.

كان الشارع المصرى هائجا، يموج بتفاعلات متناقضة، لا يعرف أحد إلى أين وجهتها، ويلفها التوتر والقلق، وفيما عدا الاخوان المسلمين والشيوعيين ينقصها القيادة والتنظيم، وتحديد الغاية والهدف، وإنما تحركها العفوية والنوايا الطيبة، وفى غيبة التخطيط والقيادة الواعية أسلمت نفسها وقيادها لطلقات المسدس ، وبدأ الرصاص يلعلع فى مختلف أركان العاصمة. وكلهم شارك فى القتل: الملك بحرسه الحديدى، والحكومة بشرطتها، والإخوان المسلمون بتنظيمهم السرى، الشيوعيون وحدهم لم يلوثوا أيديهم بدماء الاغتيال.

اغتيالات بالجملة

في هذا المناخ أغتيل أحمد ماهر رئيس الوزراء في مبنى البرلمان، والنقراشي رئيس الوزراء في مبنى وزارة الداخلية، وكان وزيرا لها، واللواء سليم زكي حكمدار العاصمة، وكانت الحكومة الأمريكية قد دربت له فرقة خاصة من قوات الشرطة، سلحتها بمدرعات خفيفة، وحملت اسم «فرقة الباشا»، ويقودها سليم زكي بنفسه، وعندما قادها ليواجه مظاهرة قام بها طلاب كلية قصر العيني، تلقفته قنبلة، أمام الكلية، من أعلى سطح بيت مجاور، أودت بحياته فى الحال، واغتال رجال الملك أمين عثمان باشا، واغتالت وزارة الداخلية حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين، ونجا النحاس باشا من محاولتين لاغتياله.

وعندما تتناسى الحكومة القانون، وتتخلى عن وظيفتها فى حفظ الأمن، وتنزل إلى الشارع لتقتل خصومها، فذلك يعنى أنها فقدت دواعى وجودها، وأنها فى طريقها إلى الزوال.

وتوالت الأحداث.

انقض صدقى على الشيوعيين وكل التقدميين، وتجلى للرأى العام بوضوح، وربما للمرة الأولى، أن كل الرؤوس المدبرة، والتى لها الكلمة، فى كل الحركات الشيوعية، من اليهود أجانب أو مصريين.

وانقض النقراشى بعده بضربة أعنف وأشد على «الإخوان المسلمين»، ولم يكن لها ما يبررها، ودفع حياته ثمنا لها.

وأعلنت بريطانيا أنها ستتخلى عن انتدابها على فلسطين، والجلاء عنها، فى الوقت الذى ترفض فيه الجلاء عن مصر، لحاجتها فيما تقول إلى قواعد عسكرية تؤمن مصالحها، وكان واضحا أنها تود تسليمها لليهود، أو الجانب الأكبر منها على الأقل، وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة، بضغط أمريكي، الموافقة على قرار يقضى بتقسيمها بين العرب واليهود.

فى أعقاب قرار التقسيم كان العالم العربى على مستوى الشارع يموج بالحركات الشعبية تنادى الحكام العرب وتستصرخهم لإنقاذ فلسطين، وكان صوت الإخوان المسلمين هو الأعلى فى الدعوة إلى نصرتها، وكان شبابها أول من اشترك فى فصائل المقاومة العربية، وقاموا بدور باهر فى الاستيلاء على بعض المواقع الهامة، خصوصا فى النقب، وحول القدس، وعلى الطرق المؤدية إليها، وكان يقود المتطوعين من الإخوان وغيرهم كوكبة من شباب ضباط الجيش، طلبوا الإحالة إلى الاستيداع ، وتطوعوا بقيادة هذه القوات، وفى مقدمتهم: أحمد عبدالعزيز، وكمال الدين حسين، ومعروف الحضرى وآخرون وقد استشهد أولهم برصاصة طائشة، فى ظروف غامضة، من جندى مصرى، أما الشيوعيون فقد رأوا فى محاربة اليهود فى فلسطين مؤامرة رأسمالية عربية على الطبقة العاملة في البلدين، وأن الدولة اليهودية التى ستقوم فى فلسطين تستحق الدعم والترحيب بنشأتها وقيامها والتعاون معها من كل التقدميين، لصالح السلام العالمى،

ولانتصار الشيوعية الدولية، وصوروا ما يجرى فى فلسطين على أنه صراع طبقى فى أساسه، بين طبقة عاملة عربية ويهودية تريد السلام، وطبقة رأسمالية مستغلة عربية ويهودية ضده، وهذا هو جوهر الصراع والتناقض، فيما كانوا يرون. على حين يرى الرأى العام، باستثناء قلة من الساسة، أن الحرب فى فلسطين دفاع عن مصالح مصر ومستقبلها قبل أن يكون نصرة لشعب عربى شقيق.

وهزمت الجيوش العربية كلها وأدى ذلك إلى تداعيات سياسية عميقة وخطيرة لم تتوقف، على امتداد الوطن العربى.

فى مصر تعمقت روح القلق والتمرد، وبلغت حتى قوات الشرطة، فأضربوا عن العمل احتجاجا على ضعف مرتباتهم، وامتنعوا عن القيام بدورهم فى حفظ الأمن، مما جعل عبء ذلك يقع على عاتق الجيش، وحدث هذا فى مصر للمرة الأولى.

مغامرات الملك العاطفية

وفى هذه الفترة بدأت سمعة الملك تتردى حتى انتهت إلى الحضيض، وكان الناس فى النوادى والمقاهى ومختلف التجمعات يتهامسون عن آخر مغامراته وغرامياته، والعلاقات العاطفية التى تربط بين أمه ورئيس ديوانه، أو بين زوجته الملكة فريدة ووحيد يسرى. وإزاء هزيمة الجيش فى فلسطين ، واضطراب الأمن فى القاهرة، وتعنت الانجليز فى المفاوضات الخاصة بالجلاء، وعجز حكومات الأقلية عن القيام بأى عمل جاد فى أى جانب من جوانب الحياة لتحسين الأوضاع، جعل الكل يتنبأ بأننا على أبواب كارثة قادمة، لا يعرف أحد ماهيتها ولا لونها، ولكن الجميع واثقون بأنها قادمة لا محالة.

وفى هذا الجو الملبد بالغيوم انتهى مستشارو الملك إلى أن أفضل طريقة للخروج من الأزمة هى الاستغناء عن خدمة أحزاب الأقلية بالكامل، وأن الوسيلة الوحيدة لذلك هى إتاحة الفرصة لحزب الوفد، لكى يعود إلى الحكم عن طريق الانتخابات الحرة، فهو وحده القادر على إشاعة الأمن والاستقرار، ومفاوضة الإنجليز، وإرضاء الشعب، مما يتيح للملك فرصة الهدوء والتفكير والتقاط الأنفاس.

وألف حسين سرى، وهو سياسى مقرب من القصر، ويتصف بالاستقامة والاعتدال، وزارة محايدة لإجراء الانتخابات فى أواخر عام ١٩٤٩، وقرر الوفد أن يرشح نوابا فى كل الدوائر، وألا يترك واحدة منها يفوز فيها نائب من الأحزاب الأخرى بالتزكية، حتى ولو كانت خسارة الوفد فيها مؤكدة. ووجد مرشحين لمعظم الدوائر، ولكن دائرة باب الشعرية فى القاهرة استعصت عليه، لم يجد من يقدم من أتباعه على الترشيح فيها، ضد نائبها السابق سيد جلال، وهو عامل بسيط صعد بكده وجهده واستقامته، من القاع إلى القمة، وأصبح من كبار الأغنياء، ولم يتنكر لأصوله الأولى أبدا، وكان شديد الالتصاق بأهل دائرته، أقام لهم مستشفى ومدرسة تحملان اسمه حتى يومنا هذا، وقدم لهم خدمات لا تنقطع، وكان ينتمى إلى حزب

السعديين. وأخيرا قبل الترشيح ضده طالب فى السنة النهائية فى كلية الهندسة، ورئيس لجنة الطلبة الوفديين فيها، اسمه: مصطفى موسى، دفع له الحزب التأمين، وأمده بقليل من المال، وبداهة لم يكن الحزب، ولا هو نفسه ، يؤمل فى شىء من النجاح، كل ما كان يأمل تحقيقه، ألاّ يفوز النائب السعدى بالتزكية، وقد اعتمد فى دعايته على زملائه الطلاب، ينتشرون فى مقاهى الحى، ويحاورون روّادها: «نعم إن سيد جلال شخصية عظيمة، وخدماته على الحى لا تنسى، ولكنه فيه عيب خطير أضر بالبلد كله: إنه سعدى، وانتخابه يعنى استمرار هذا الضرر ودعمه»، وسرت هذه المقولة بين الناس سريان النار فى الهشيم، ووجدت صدى بلا حدود: «عيبه أنه سعدى!».

حين انتهت الانتخابات، ترقب الناس نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف مساء، واتجهت كل الآذان إلى أخبار دائرة باب الشعرية، فمن المؤكد أن فوز سيد جلال سيكون ساحقا! ولكن ، حدثت المفاجأة، وكانت قنبلة سياسية من الحجم المربع، عميقة الدلالة بلا حدود، لقد نجح مصطفى موسى، وفقد سيد جلال قيمة التأمين، لأنه لم يحصل على ١٠٪ من عدد الأصوات !.

كان ذلك يعنى أن الوفد قد اكتسح الانتخابات بأغلبية كاسحة، جاءت به إلى الحكم، فى انتخابات نزيهة حرة، أجرتها وزارة محايدة، وكان قبلها مبعدا عن الحكم بالقوة لمدة ست سنوات. وقد وضع نصب عينيه منذ اللحظة الأولى أن يصل إلى حل مع بريطانيا فيما يتصل بمفاوضات الجلاء، ولكنها أخذت تراوغ كعادتها. وفى منتصف عام ١٩٥١ وصلت الأمور بين الدولتين إلى طريق مسدود، رفض الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر العظيم، مؤيدا بقوة من النحاس باشا أى تحالف عسكرى مع بريطانيا أو الغرب قبل جلاء القوات البريطانية عن مصر، وكان الشعب يدعمه بقوة، ويفسد أى محاولة للالتفاف حوله، وفى لحظة بلغ فيها التأييد الشعبى أعلى درجاته اتخذ النحاس باشا قراره الخالد فى ٨/١٠/١٩٥١: إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ووقف فى مجلس النواب يقول جملته الخالدة: «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر ألغيها» .

مقاومة باسلة للاحتلال

وتظاهر الشعب كله مؤيدا.

وبلغت شعبية الوفد عنان السماء، ونشطت المقاومة الوطنية ضد معسكرات الاحتلال، وأسهمت فيها جميع القوى الوطنية، وردت القوات البريطانية بعنف، وسحبت الحكومة كل العمال المصريين الذين يعملون فى القواعد البريطانية، وقررت القوات البريطانية طرد قوات الشرطة فى الإسماعيلية من معسكراتها، وقاومت هذه ، وقاتلت ببسالة، حتى آخر طلقة كانت معها. وفكرت حكومة الوفد فى تفجير توصيلات الماء والكهرباء والمجارى بالمعسكرات البريطانية، واستقدمت خبراء من ألمانيا متخصصين فى هذا الأمر كانوا لاجئين فى البرازيل، وكان الأهالى فى الشرقية يمنعون وصول

الأغذية إلى قوات الاحتلال .

كانت إرادة المقاومة قوية، ورد الفعل الشعبى جارفا، ولم يتخلف فرد ولا طبقة من المساهمة فيها: المحامون والأطباء والعمال والفلاحون والتجار وضباط الجيش والشرطة.

وفى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ تآمر الاحتلال والملك وأعداء التقدم على حرق القاهرة، وكان الملك يحتفل بتقديم ولى عهده الوليد إلى ضباط جيشه، ويتناولون الغداء على مائدته وطلبت الحكومة تدخل الجيش لوقف المظاهرات والحرائق بعد أن عجزت الشرطة وماطل الملك.

وفى مساء اليوم نفسه اجتمع مجلس الوزراء وقرر إعلان الأحكام العرفية، (وكانت معلنة منذ ١٩٣٩ فلما تولى الوفد الحكم رفعها) وبعد ساعة من إعلانها تلقى النحاس باشا خطابا من الملك بإقالته، وحين احترقت القاهرة بدا أن عصرا بأكمله يعيش آخر أيامه، ويلفظ آخر أنفاسه!.

وتبقى معالم وطنية بارزة فى تاريخ هذه الفترة، يذكرها جيلى بكل فخر واعتزاز :

● الاعتداد بمكانة مصر والحرص على كرامتها، وعدم الارتعاش أمام أية قوة أجنبية مهما عظمت وعندما أصدر مجلس الأمن قرارا بالسماح للبواخر الإسرائيلية بالمرور فى قناة السويس رفضت مصر لأن الهدنة لا تنهى حالة الحرب.

وأعلنت وزارة الحربية والبحرية المصرية فى ١٩٥٠/١٢/٢١ أن منطقة المياه الساحلية الواقعة غرب الخط الموصل بين رأس محمد ورأس نصرانى، منطقة ممنوعة لا تجوز الملاحة فيها، وأخطرت بذلك جميع شركات الملاحة والقنصليات الأجنبية فى مصر.

● منع السفن الحربية الإسرائيلية بالقوة من المرور فى هذه المنطقة.

● ضبط السفن الإسرائيلية التجارية وحجزها إذا حاولت المرور فى المياه الإقليمية المصرية بما فى ذلك مدخل خليج العقبة.

يتم التحقق من حالة ووضع السفن الحربية والتجارية الأجنبية المحايدة، قبل السماح لها بالمرور بمدخل خليج العقبة، وللسفن الحربية المصرية اتخاذ الاجراءات اللازمة فى هذا الشأن.

وعندما خالفت السفينة الإنجليزية إمباير روش التعليمات فى ١٩٥١/٧/١، أوقفتها السلطات المصرية وحجزتها أربعا وعشرين ساعة ووضعت حرسا عسكريا على ظهرها ، واحتجت السفارة البريطانية، ورفضت مصر الاحتجاج فاقتنعت السفارة، وسجلت حق مصر وقالت بأنها ستراعى الاجراءات عند مرور سفنها بالمياه الإقليمية المصرية.

إن الوطنية فى تلك الأيام لم تكن تجارة، يطلب أصحابها فى مقابل نضالهم مغانم ومرتبات وترفا لهم ولأبنائهم من بعدهم ، ومعظم الوزراء لم يكن يستخدم غير سيارة واحدة حتى لو تعددت وظائفه ويحرم على أسرته استخدام أى سيارة حكومية وبعضهم بلغت به الطهارة مبلغها فلم يكن يستخدم سيارة الوزارة فى الإجازات الرسمية.

وحين اغتيل محمود فهمي النقراشي رئيس الوزارة لم يجدوا في جيبه غير ثمانية جنيهات وبضعة قروش ولم يخلف أرضا ولا عقارا ولا أسهما ولا سندات ولا حسابا جاريا، وعرف الناس من نعي الصحف فقط أن له أخا يعمل موظفا صغيرا في جمرك الإسكندرية، والشئ نفسه يمكن أن يقال عن النحاس باشا ومكرم عبيد، وغيرهم وعندما أقيلت الوزارة الوفدية وكان عبدالفتاح حسن أحد وزرائها ، اقترض من البنك الأهلي مبلغ ألف جنيه بفائدة ٥٪ ليواجه بها نفقات إعادة فتح مكتبه للمحاماة.

كان هذا هو الأصل وغيره، وهو نادر هو الاستثناء!

بعد إقالة وزارة الوفد في ٢٧ يناير ١٩٥٢، بدأ تأليف الوزارات وإسقاطها يأخذ شكلا عبثيا، وبين إقالة وزارة الوفد و٢٣ يوليو تألفت ست وزارات، وقد وضع الجيش حدا لهذه المهازل في بيان أذاعه أنور السادات ، أحد ضباط الحركة ، من الإذاعة المصرية، في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الأربعاء ٢٣ يوليو يعلن أن الحركة التي قامت بها مجموعة من الضباط للاستيلاء على السلطة، قد نجحت.

وفي ٢٦ يوليو وقع الملك وثيقة التنازل عن العرش لابنه وغادر أرض الوطن إلى إيطاليا، ولم يعد إليه إلا جثة هامدة بعد سنوات ليدفن في ثراه.

اتسم تقبل الرأي العام للحركة العسكرية في بداية الأمر بالوقار، وضبط النفس في انتظار ما يأتي به الغد، فلا مظاهرات ولا توترات وحرص الجميع على الهدوء، لأن مظاهرة واحدة من مائة شخص تهتف بحياة الملك كانت كفيلة بتعقيد الأمور إلى أبعد حد، وتفتح الباب على مصراعيه أمام الأجنبي للتدخل والمساومة.

ولكن ما إن انتهت الحركة من تثبيت سلطانها حتى ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وبدأ الناس يناقشون في تجمعاتهم ما تصدره الحركة من قرارات كان أولها وأهمها قانون الإصلاح الزراعي.

في رأي عتقاء السياسة لم يكن القانون يستهدف إصلاحا اجتماعيا أو اقتصاديا بقدر ما كان يبغي هدم القلاع الضخمة بين المصريين والتي كانت تمثل أصحاب المصلحة الحقيقية، والتعبير لكبيرهم إسماعيل صدقي، وكانوا في جملتهم يستمدون قوتهم من ثرواتهم، وهذه عمادها الأرض التي يملكون وتجريدهم منها تدمير لقوتهم ، أما بقية الأغنياء من التجار وأصحاب الصناعات فهم في جملتهم من الأجانب ويستظلون برايات أجنبية وعلى ثقة من أن العسكريين آخر من يفكر في الاشتراكية أو التأميم.

وبداهة هلل له صغار الفلاحين لأسباب متعددة أوضحها عاطفي، فقد رأوا فيه ثأرا لاستعبادهم وآبائهم من قبلهم، على امتداد مئات السنين وتحريرا لهم من العوز والفقر، ومعه أحسوا بأنهم أصبحوا ملاكا، وهو معنى كبير للغاية في الريف المصري، وعلى النقيض منهم كان كبار الملاك الذين جردهم القانون من أملاكهم ولكنهم وجدوا

أنفسهم عاجزين عن عمل أى شئ إلا ترويج الإشاعات، ومحاولة بذر الفتنة بين رجال الحركة أنفسهم.

مصادرة اراضي الامير

وكان الشيوعيون من أشد المصريين معارضة للقانون بالطريقة التى صدر فيها فقد شد من تحت أقدامهم بساط الدفاع عن الفلاحين ، ولأنهم يقفون فى الصف المواجه لكبار الملاك ، اتخذوا من المزايدة وسيلة للهجوم العنيف، فدعوا إلى مصادرة أراضى الأغنياء دون تعويض وتوزيع الأراضى على فقراء الفلاحين بلا مقابل.

وأما كبار الاقتصاديين وخاصة الجامعيين منهم، فنظروا إلى الأمر نظرة اقتصادية بحتة فرأى د. عبدالجليل العمرى، وهو نموذج فذ للجامعى الشجاع المعتد بنفسه والمترفع عن المناصب، واشترط لقبول الوزارة تعويض أصحاب الأراضى الزراعية المصادرة وأن يكون الحد الأعلى للملكية مئتى فدان، وللأسرة الواحدة مائة.

وقد تابع المثقفون تعلق الخلافات الحادة التى بدأت تظهر بين كبار ضباط الحركة، وأبرزها ما كان بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر ورأوا فيما حدث من الثانى للأول مؤشرا واضحا على نزوعه إلى التفرد بالسلطة، وأحسوا أن مصر تتحول بالتدريج إلى سجن رهيب، وأن نوافذ الحرية بدأت تغلق نافذة وراء أخرى وأن الحركة العسكرية قهرت حرية الرأى والفكر، وكممت الأفواه وسقطت فى أحضان النفاق والمنافقين والانتهازيين والوصوليين وأن شأنها شأن أية حركة عسكرية أخرى قامت فى العالم تبدأ وطنية وترفع شعارات براقة ولكنها بطبيعة تكوين رجالها ، تكره الديمقراطية، ولا تعرف الاختلاف فى الرأى وترى تداول السلطة والتشاور عبثا، وتميل إلى الحكم المطلق، وتدوس فى سبيل الوصول إليه كل شئ، وكان المثل واضحا فى الحركات العسكرية التى تشهدها أمريكا اللاتينية كل يوم، ولعل هذا الفهم وإن لم يعلنه صاحباه كان وراء اعتذار الدكتور محمد صلاح الدين وعبدالفتاح حسن عن المشاركة فى التشكيلات الوزارية الأولى، وقد عرضت عليهما قبل أن ينتهى بهما الحال إلى المحاكم والسجون.

وبدأ السخط ينتشر والناس يتململون مما يجرى أمام أعينهم وضاقوا بعسكرة الوظائف العليا دون مبرر، وبدأوا يحلمون بحياة ديمقراطية وأخذ الضيق يستشرى بين كل الطبقات وفتحت السجون أبوابها وقامت المحاكم العسكرية ثم جاء تأميم القناة فذهب بكل هذا الضيق، وفتح أبواب الأمل من جديد ومسح كل خطايا عبدالناصر، وجاء العدوان الثلاثى فجعل منه بطل القومية العربية ، وزعيم العرب دون منازع ، وأحست الجماهير أنه البطل الذى تنتظره لكى يمسح عنها عار الهزيمة والضعف والتخلف.

وتوالت الأمجاد.

جلاء قوات العدوان الثلاثى

الوحدة مع سوريا.

وكانت هذه الأخيرة خاتمة الأمجاد، وفكها بداية الهزائم التى مازلنا نعانى منها، وندفع ثمنها، نحن والأمة العربية على السواء. ■

شهادات

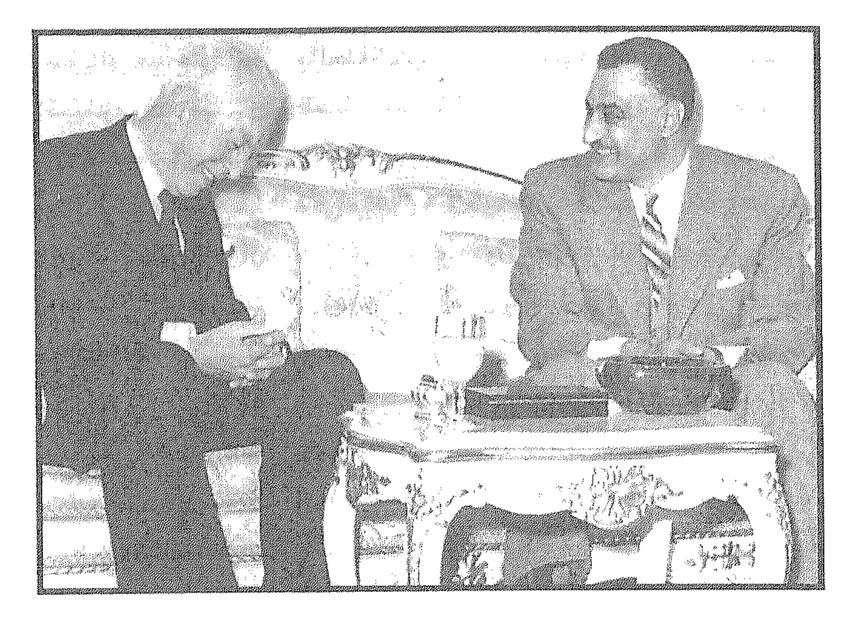
مصر.. ونصف قرن من

الحصاد الفكرى

بقلم : حسين أحمد أمين

مقارنة

حصاد الفكر المصرى فى فترة نصف القرن التالى لثورة يوليو ١٩٥٢ بحصاده خلال الأعوام الخمسين السابقة عليها، تبرز فى وضوح تفوّق فترة ماقبل الثورة.. كان قادته وأعلامه وقت نشوبها إما قد ماتوا، أو أنتجوا خيرة أعمالهم ولم يبق فى جعبتهم غير القليل، ثم تتابعت وفياتهم تاركين الساحة لأبناء جيل جديد: (زكى مبارك١٩٥٢ ، أحمد أمين ٥٤ ، محمد حسين هيكل ٥٦ ، سلامة موسى ٥٨ ، بيرم التونسى وشفيق غربال ٦١ ، أحمد لطفى السيد ٦٣ ، عباس العقاد ٦٤ ، على عبد الرازق وأمين الخولى وعبد الرحمن الرافعى ٦٦ ، أحمد حسن الزيات ٦٨ ، طه حسين وعزيز أباظة ومحمود تيمور٧٣) ، بينما توقفت عن الصدور أهم مجلتين ثقافيتين مصريتين، وهما مجلتا «الرسالة» و«الثقافة» ، بعد الثورة بأشهر قليلة



عبد الناصر مع المؤرخ
العالمى ارنولد توينبى

أقول هذا رغم علمى بأنه ليس ثمة علاقة حتمية بين ازدهار الثقافة والفكر فى بلد أو منطقة وبين ازدهار النظم السياسية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى هذا البلد أو هذه المنطقة. ذلك أنه مع الثقافة، كما مع الشعوب والدول والأفراد، لا ترتبط أجمل الفترات ببلوغ مجد أو تحقيق انتصار، أو نيل ثروة أو الوصول إلى غاية، وكلنا يعلم كيف أن الأدب والموسيقى بلغا أَوْجَهما فى روسيا فى ظل النظام القيصرى، وأن العصر الذهبى فى الأدب الفرنسى كان فى ظلّ الملكية المطلقة السابقة على الثورة الفرنسية وعهد نابليون اللذين لا يكادان يفخران بغير أديبين معاديين لهما، هما مدام دوستال وشاتوبريان، وأن ازدهار الآداب والفكر فى المشرق العربى إنما كان فى العصر العباسى الثانى الذى تفككت أثناءه دولة الإسلام، وانحطّت فيه أشكال الحكم السياسى، وفى المغرب العربى، فى الأندلس، فى عهد ملوك الطوائف ومَنْ تلاهم من الحكام حيث شاعت الفُرقة بين المسلمين .

تحقيق الآمال

كلّ ما يمكن قوله هنا هو أن أزخر الحقب بثمرات الفكر والآداب والفنون ليست بتلك التى تُحقّق فيها الشعوبُ آمالها، وإنما هى تلك التى تعمر الثقةُ فيها قلوب أبنائها بالقدرة على بلوغ الآمال والوصول إلى الأهداف، وذلك من قبل أن تبلغها، حتى إن اقترنت تلك الحقب بالفقر وانتشار الأوبئة، وكثرة الحروب والجرائم، وغير ذلك من الشرور الاجتماعية.. وأبرز مثال على ذلك زمن شكسبير فى ظل حكم إليزابيث الأولى. فقد تمخّضت عدة أحداث، كانتصار الأسطول

البريطاني على الاسطول الإسباني في موقعة الأرمادا، وبدء استيطان الانجليزي في شمال القارة الأمريكية عن خلق توقّعات جمّة وآمال عريضة لدى الانجليز، عمرت قلوبهم بالثقة في مستقبل مجيد أكيد، وإن كان الحاضر لا يزال مفعما بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الضخمة، وقد كانت هذه الثقة بالضبط - كما يذهب مؤرخو العصر الإليزابيثي - هي السبب الأعظم في ظهور أناس في مثل قامة شكسبير، وكريستوفر مارلو، وبن چونسون، وفرانسيس بيكون، وبومونت وفلتشر، وعشرات غيرهم.

مثل هذه التوقّعات نجد شبيها بها في تاريخ مصر في حقبة العشرينيات من القرن العشرين التي وصفها لي القانوني البارز مصطفى مرعي بأنها أخصب وأسعد الحقب في تاريخ مصر الحديث. فقد شهد ذلك العقد نهضة عظيمة في كل مناحي الحياة، ربما كان من أهم أسبابها ما تركته ثورة ١٩١٩ من أثر عميق في الروح المصرية، ثم ذلك الرخاء الاقتصادي الناجم أساسا عن ارتفاع سعر القطن، ففي المجال السياسي والحزبي والتشريعي، شهدت مصر بدء الحركة التشريعية الحديثة، وإلغاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلالها، وتأسيس حزب الأحرار الدستوريين، وإعلان دستور ١٩٢٣، ووزارة سعد زغلول. وفي المجال الاقتصادي بدأ العقد بافتتاح طلعت حرب لبنك مصر، وانتهى بإنشائه مصانع الغزل والنسج بالمحلة الكبرى . وفي مجال حقوق المرأة، سُمح للنساء عام ١٩٢٢ بالخروج دون نقاب، وبدأت هدى شعراوي دعوتها بالمطالبة بحقوق المرأة السياسية، وفي مجال التعليم، شهد عام واحد - هو عام ١٩٢٥ - افتتاح أول مدرسة ثانوية للبنات، وافتتاح جامعة فؤاد الأول بالقاهرة. وفي مجال السينما، أسست عزيزة أمير أول شركة سينمائية مصرية، وظهر فيلم «ليلى» أول فيلم مصري طويل صامت. وفي مجال المسرح، تواصل عرض أوبريتات سيد درويش، ومسرحيات محمد تيمور، وظهرت مسرحية «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم، و«مصرع كليوباترا» لأحمد شوقي، بالإضافة إلى تكوين عدد كبير من الفرق التمثيلية الهامة، وبزوغ نجوم أمثال يوسف وهبي ونجيب الريحاني وعلى الكسار، وفي ميدان الغناء، قدمت إلى القاهرة عام ١٩٢٠ لاحتراف الغناء فيها فتاة قروية تدعى أم كلثوم، كما شرع محمد عبد الوهاب يتغنّى بقصائد شوقي، وفي ميدان الصحافة، صدرت جريدة «السياسة» التي رأس تحريرها محمد حسين هيكل، وصحيفة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة، وأسست الفنانة فاطمة اليوسف مجلتها «روز اليوسف». وفي مجال الآثار، كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ بداية اهتمام مكثّف بتاريخ مصر الفرعوني سرعان ما أضاف بُعدا جديدا إلى أبعاد الهوية المصرية، أما في مجال الفكر والأدب فحدّث ولا حرج فقد سطعت في ذلك العقد نجوم العقاد والمازني وزكي مبارك

وبيرم التونسى إلى جانب المنفلوطى وشوقى، وخلّفَ محمود تيمور أخاه محمدا فأخرج مجموعته القصصية «الشيخ سيّد العبيط»، وواصل لطفى السيد ترجمته لأعمال أرسطو، وظهر أهمُّ عمل أدبى فى تاريخ الأدب العربى الحديث، وهو كتاب «الأيام» لطه حسين، وصدر فى عامين متتاليين كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق (١٩٢٥)، وكتاب فى الشعر الجاهلى لطه حسين (١٩٢٦)، وهما كتابان وصفهما طه حسين عام ١٩٤٧ بأنهما «قد نجحا فى إرساء دعائم الفكر الحرّ فى الإسلام بصورة حاسمة».. وفى عام ١٩٢٨ نشر أحمد أمين كتابه «فجر الإسلام»، وهو أول مجلد فى تأريخه للحضارة الإسلامية، وصفه المستشرق سير هاملتون جيب بأنه «أول محاولة شاملة لإدخال منهج النقد فى التأريخ الإسلامى العربى الحديث».

خَبا ضوء تلك الحقبة الزاهرة بنشوب الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩، وتلاها انحسار وتدهور فى مختلف مناحِى الحياة. فمن ضائقة اقتصادية صحبها ارتفاع جنونى فى الأسعار، إلى وقف العمل بالدستور وتولّى الوزارة أناس لديهم نزعة تسلّطية كإسماعيل صدقى ومحمد محمود، إلى فساد الحياة الحزبية والسياسية بعد وفاة سعد زغلول، إلى نموّ التطرف الدينى بتأسيس حسن البنا عام ١٩٢٨ لجماعة الإخوان المسلمين بمدينة الإسماعيلية، إلى اتجاه الكثيرين من كبار الكتّاب إلى الاستجابة لهذا التيار الدينى سعيا وراء الكسب، إلى تحجّر فكرىّ قضى على الكثير من المواهب، وعلى قدر كبير من حرية الفكر والتعبير.

الصدارة والريادة

غير أنه بالرغم من ذلك الانحدار التدريجى، ظل لمصر لثلاثة عقود أو أربعة أخرى مكان الصدارة والزعامة والريادة فى العالم العربى بأسره، وظل الكل فى الأقطار العربية المختلفة، ولأمد طويل، لا يرون منافسا عندهم لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب فى الغناء، ولزكريا أحمد والقصبجى والسنباطى فى الموسيقى، وليوسف وهبى ونجيب الريحانى فى التمثيل، ولزكى طليمات فى الإخراج المسرحى، ولتوفيق الحكيم، فى الأدب التمثيلى، ولطه حسين وأحمد أمين والعقاد ومحمد حسين هيكل فى الأدب والفكر، ولمحمود تيمور ثم يوسف إدريس فى القصص القصيرة، وشوقى وحافظ وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى فى الشعر، وبيرم التونسى فى الزجل، بالإضافة إلى ذلك التفوق المصرى الكبير فى مجالات السينما والصحافة والإذاعة. صحيح أن الكثيرين من روّاد النهضة الثقافية الحديثة فى مصر كانوا من اللبنانيين أو السوريين، كجرجى زيدان ويعقوب صروف وفارس نمر وأنطون الجميل وخليل مطران ويعقوب صنوع .. إلى آخره، غير أن معظم هؤلاء كان قد وفد إلى مصر واستقرّ فيها فرارا من الحكم العثمانى فى الشام، أو طلبا لميدان أرحب وجمهور أكبر لنشاطهم الفنى، فاعتُبر نشاطهم هذا

جزءاً لايتجزأ من الحياة الثقافية والفكرية والفنية المصرية، بالضبط كما ننظر اليوم إلى مؤلفات سلمان رشدى أو أهداف سويف أو ڤيديا نايبول وغيرهم من المهاجرين إلى بريطانيا باعتبارها من ثمار الأدب الإنجليزى.

لقد كان للحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ وانفتاح مصر على الحضارة الأوروبية من جرّائها، وانفصالها منذ ذلك الحين عمليا ثم شكليا عن الدولة العثمانية، فى حين لم تنل معظم الأقطار العربية الأخرى استقلالها عن تلك الدولة إلا بعد هزيمة الأتراك فى الحرب العالمية الأولى أثر حاسم فى أن تظل مصر سابقة على الدول العربية الأخرى فى المجال الثقافى والفنى بنحو قرن وربع قرن. فلم يكن من المستغرب أن تظل لها ولمفكريها وفنّانيها الرّيادة فى هذا المجال لعدة عقود تلت نيل تلك الأقطار لاستقلالها، غير أن الزمن يمضى، والعوامل المعاكسة للثقافة والفنون المصرية تزداد، فإذا هى خلال الأعوام الخمسين الماضية تفقد تدريجيا مكان الصدارة فى مجال ثقافىّ تلو مجال، وإذا الأنظار التى ظلت معلقة بها لأكثر من قرن تتحوّل إلى نجوم ساطعة غير مصرية فى سماء الفنون والفكر، كصباح فخرى وفيروز وماجدة الرومى فى مجال الغناء، وسعد الله ونّوس فى مجال المسرح، ومحمد الماغوط فى مجال الأدب، وأدونيس ونزار قبانى وعبد الوهاب البياتى فى ميدان الشعر، ودريد لحام فى مجال التمثيل، وإدوار سعيد فى مجال المقال السياسى، وجريدة «الحياة» فى مجال الصحافة، ونضال الأشقر فى مجال الإخراج المسرحى .. إلى آخره.

الإضرار بالمناخ الفكري

نعم قد أثارت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ والسنوات الأولى من عهد عبد الناصر توقعات وتطلعات إلى مستقبل أفضل لدى شطر كبير من شعب مصر شبيهة بتلك التى أثارتها ثورة ١٩١٩، غير أن ثمة فارقا ضخما بين الثورتين، هو أن الأولى (ثورة ١٩١٩) أعقبها نموّ مطرد فى كل المجالات، سريع وقوىّ لكنه هادئ متناسق، فى حين اتّسمت الأعوام التالية على ثورة يوليو بالعنف والحدة، والحروب والتقلبات، وتذبذب السياسات والتوجهات على نحو أضرّ إضرارا رهيبا بالمناخ الفكرى والثقافى على نحو يذكّرنا بما ألحقته الثورة الفرنسية وعهد نابليون من أضرار بالحياة الفكرية والثقافية الفرنسية، لهذا لا يبدو الأمر مستغربا أن يكون الكتاب الذى يكاد رأى الغالبية يستقر على أنه أهم كتاب مصرى صدر فى الأعوام الخمسين الماضية، وهو «شخصية مصر» لجمال حمدان، هو من تأليف رجل نأى بنفسه بعيدا عن كل الأحداث والمؤثرات والتيارات فى مجتمعه.

فما الذى عساه أن يكون قد حدث فى العقود الخمسة الأخيرة فيما يتصل بالفكر والثقافة والأدب والفنون فى مصر؟

تدهور التعليم

● ثمة أولا ذلك التدهور الملحوظ فى مستوى التعليم المقترن بالتزايد المفرط فى تعداد السكان،

واكتظاظ الفصول في المدارس والجامعات بالطلبة، والافتقار إلى خطة حكيمة محكمة لإعداد شبابنا لمواجهة التحدّيات الفكرية للعصر الذى نعيش فيه، والانحطاط المطّرد فى مستوى المدرسين والأساتذة نتيجة لهجرة خيرتهم إلى الدول الخليجية، وضآلة المخصصات المالية للتعليم، وقلة اكتراث الطلبة بغير اجتياز الامتحان ولو عن طريق الغش الذى بات الآباء أنفسهم يقرّونه ويغضّون الطرف عنه، وتضاؤل ثقة الشباب في أن سعة العلم والثقافة هما المدخل إلى ما يطمحون إليه، وتزايد ثقتهم فى أن النجاح الدنيوى لا يتوقف على ما يعرفونه بقدر ما يتوقف على من يعرفونه.. إلى غير ذلك من عوامل أثّرت في طبيعة التكوين الثقافى لأعلام الثقافة ولقرائّهم وجمهورهم.

● وثمة تزايد ضعف حصيلة الشباب من اللغة العربية، وضعف قدرتهم على التعبير بها عما يدور بنفوسهم من مشاعر، وبأذهانهم من أفكار، وقد حرمهم فسادُ منهج تعليم اللغة العربية في مدارسنا من القدرة على النظر فى كتب التراث العربى القديم لعجزهم عن فهم لغتها، فإن نظروا فيها كان ذلك من قبيل الرغبة فى التندّر على سخافة نظر الأسلاف، خاصة من جانب المتفرنجين المبالغين فى النظرة إلى الغربيين وكأنهم أنصاف آلهة، والمبالغين فى التحقير من شأن تراث أمّتهم الذى حسبوه خطأ المسئول عن التخلّف الذى صرنا إليه . وقد نجم عن انقطاع الصلة بتراثهم وماضيهم افتقارٌ إلى القدرة على الاستعانة بالجانب الإيجابى الحيّ من التراث فى مواجهة التحديات المعاصرة.

● كذلك فانه لابدّ من الإشارة إلى تكاثر مشاغل الحياة وضجيجها المعنوى، وتنامى الاحتياجات الكمالية التى ترفع الكل تقريبا إلى التكالب بكل السبل على تحصيل المال، مما لا يدع فى النهاية فائض طاقةٍ أو وقتٍ لتحصيل الثقافة، فقد انحصر الشغل الشاغل للغالبية فى وسائل الكسب، والكسب السريع إن أمكن، ولم يعد أحد يطيق الصبر أو التدرّج أو يؤمن بجدواهما، كان ثمة تجار فى مجتمع ما قبل ثورة يوليو غير أن الناس وقتها كانوا فريقين: تجارا. وغير تجار. أما اليوم فقد أضحت الكافة تجارا فإن كان الأساتذة الجامعيون قد استغرقهم الاتّجار بالعلم ، وملائكة الرحمة بالرحمة، فما يحول بين الأديب أو الصحافى أو الفنان وبين أن يبيع قلمه أو فنه لمن بيده سلطة إغداق الأموال أو التعيين فى المناصب، خاصة أن هدف هؤلاء لم يعد مجرد الحصول على ما يُعينهم على مواجهة أعباء الحياة، وإنما أصبح الاستمتاع، وإلى أقصى حدّ متاح، بأطايب الحياة ومباهجها، وهو ما ليس بالوسع من أجل تحقيقه الاعتماد على القلة القليلة المتضائلة ممن لايزال بمقدورها أن تقدّر فكرا، أو تسيغ فنا، فإن أضفنا إلى ذلك حقيقة انتقال المال والثروة فى العقود الثلاثة الأخيرة من صفوة القوم إلى حُثالتهم، من أولئك الذين كانوا يرعون النهضة الثقافية إلى من تمكّنوا بفضل ثرائهم الجديد من فرض أذواقهم فى

الفن والثقافة، وفرض مفهومهم عنهما (وهو مجرد الترفيه) على مجتمعنا كله، بما فى ذلك المشتغلون بالآداب والفنون ممن باتوا يراعون إرضاء هذه الطبقة الجديدة ذات القدرة المالية، بات من السهل علينا أن نفهم كيف انتقلنا من عصر التنوير، عصر طه حسين وسيد درويش ومحمود مختار، إلى عصر أحمد عدوية وشعبان عبد الرحيم وفيفى عبده!

خطب ود السلطات

● ما نجم عن ظهور الثروة النفطية فى بعض الأقطار العربية من اتجاه شطر كبير من الكتاب والفنانين المصريين إلى خطب ودّ السلطات فى تلك الأقطار حتى يستفيدوا ماليا من نشر أعمالهم فيها، وهو ما اقتضى منهم مراعاة الالتزام بالشروط المعلنة وغير المعلنة لفحوى ما ينشرون، حتى إن كانت الشروط رجعية فى اتجاهاتها السياسية والدينية، مما زعزع فى النهاية من القدرة على الابتداع، وعلى كل فكر حر، بل وزعزع من ثقتهم بأنفسهم وبأخلاقياتهم وبضاعتهم، وانتهى بهم إلى تبنّى موقف من الحياة والقيم والثقافة مفعم بالشك والسخرية.

● ما لاحظناه من اقتران تزايد المدّ الإسلامى الشعبى وإرهاب الجماعات الدينية المتطرفة بمواقف من شيوخ الإسلام الرسمى لا تختلف كثيرا عن موقف تلك الجماعات، إما خشية من فقدان النفوذ لدى العامة، أو بتأثير من الجوّ الفكرى الرجعى السائد. وقد كان من نتائج حاجة السلطة السياسية إلى تلك الهيئات الدينية «الرسمية» لمساندتها ضد الإرهاب، ونفوذ الجماعات المتطرفة، ولإضفاء «الشرعية» على إجراءاتها ضدهم، والشهادة بحسن إسلامها، أن أضحت السلطة السياسية مضطرة إلى مراضاة تلك الهيئات، وغضّ الطرف عما يُصادر من كتب توحى بفكر حر، أو أحكام قضائية ضد مفكرين كتلك التى صدرت ضد نصر حامد أبو زيد وغيره وكان أن وجد المثقفون السلامة إما فى التزام الصمت، أو الالتزام بما يمليه علماء الدين الرجعيين الذين اطمأنوا إلى مناصرة السلطة لهم، وإلى فقدان المفكرين للجرأة على التحدّى والنقاش، فلم يجدوا ضرورة للتسلّح بالمزيد من العلم والمعرفة من أجل ضمان النصر فى أىّ جدل أو حوار مع المخالفين. وبالتالى فقد أهملوا الدرس والتحصيل، وقلّت بضاعتهم من العلم، مكتفين بالاستناد إلى السلطة السياسية وإلى القضاة فى حماية العقيدة، ومحاربة البدعة.

● ثمة أمر آخر يتّصل بالضائقة الاقتصادية التى كانت الثقافة من أولى ضحاياها مع ما نعلمه من أن الناس متى ماغشيتهم أزمة مالية كان أول ما يضحون به فى سبيل التمكّن من تلبية احتياجاتهم المادية الأساسية هو ما كانوا ينفقونه على الكتاب وسبل الثقافة الأخرى. والملاحظ على أىّ حال أن الكتب والمجلات الجادّة (خاصة الأجنبية منها) هى من ارتفاع السعر بحيث بات

شراؤها خارج متناول جمهور الناس، حتى أصحاب الدخول المعقولة منهم، وبحيث باتت من الكماليات التى لا يقدر عليها غير الهيئات والمكتبات العامة أو واسعى الثراء. وهو أمر أسهم فى انقطاع صلة المثقفين فى بلادنا بكل ما يجرى فى الساحة الفكرية والثقافية خارج مصر، على نحو يذكّرنا بالحال التى كنّا عليها أثناء حكم العثمانيين الذى عَزَلَنا عن تأثيرات عصر النهضة فى أوروبا.

● كذلك فقد زاد الطلب فى الحقبة الأخيرة على ما قد نسميّه بالشهرة الفورية، أسوة بالأطعمة الفورية، والقهوة الفورية، مما دفع البعض إلى القول بأن «الممثلة كانت فى الماضى تحاول جاهدة أن تصبح نجمة، أما اليوم فليس ثمة غير نجمة تحاول أن تصبح ممثلة»!. فالملاحظ أن معظم العاملين فى الحقل الأدبى - وهم المتعطشون إلى الشهرة الفورية - أضحوا يفضلّون كتابة المقالات للصحف والمجلات واسعة الانتشار على قضاء السنوات الشاقة فى تأليف كتاب تُطبع منه ثلاثة أو خمسة آلاف نسخة لا تنفد إلا بعد انصرام أعوام فإن طُبعت لهم كتب فهى إما تجميع لمقالات سبق للصحف والمجلات نشرها، أو من صنف الكتب مضمونة الرواج السريع. وهمّ الكاتب دائما إنما هو أن يلمع إسمه، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وأن تستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة المتخلّفة له، وأن يُدعَى للاشتراك فى ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وأن تُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومى، أو مقال أسبوعى، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُمطر بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التى يهواها، والأغانى التى يفضلّها، وعلّة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق!

★★★

لقد باتت الحياة الفكرية والثقافية والفنية اليوم أشبه شئ بخليّة النّحل التى فقدت ملكتها، قد نرى النّحل مستمرا فى مجيئه وذهابه: الكتب والمجلات والصحف تصدر ، والمعارض الفنية تتوالى، والأفلام والمسرحيات الجديدة تشغل دور العرض، والتمثيليات المسلسلة التليفزيونية تتدفّق دون انقطاع، وقد نحسب هذه الحركة حياة.. غير أننا متى اقتربنا من الخليّة لنتأمّلها بعناية، هالَتْنا مظاهر الفوضى التى ضربت أطنابها بعد رحيل الملكة، والتى جعلت من الأجدى التخلّص من الخلية بإلقائها طُعمة للنيران.

حياة فكرية وثقافية وفنية لا تنشُدُ فى محنتها الراهنة غير أمر واحد لاشريك له، هو العودة إلى مناخ كذاك الذى ساد مصر فى العشرينيات من القرن العشرين، حين كانت ثمة طموحات وتطلّعات لدى أبناء مجتمعنا، وأمل وثقة فى أن تتحقق تلك الطموحات، وفى أن يأتى المستقبل بالخير، حتى إن كان الحاضر مُفْعما بالمشكلات . ■

ذكـــــــريات

حرائق وثورة ورقابة

بقلم : مصطفى درويــش

كان عاما فاصلا. مليئا بأحداث جسام، حسمت مصير مصر لنصف قرن من عمر الزمان.

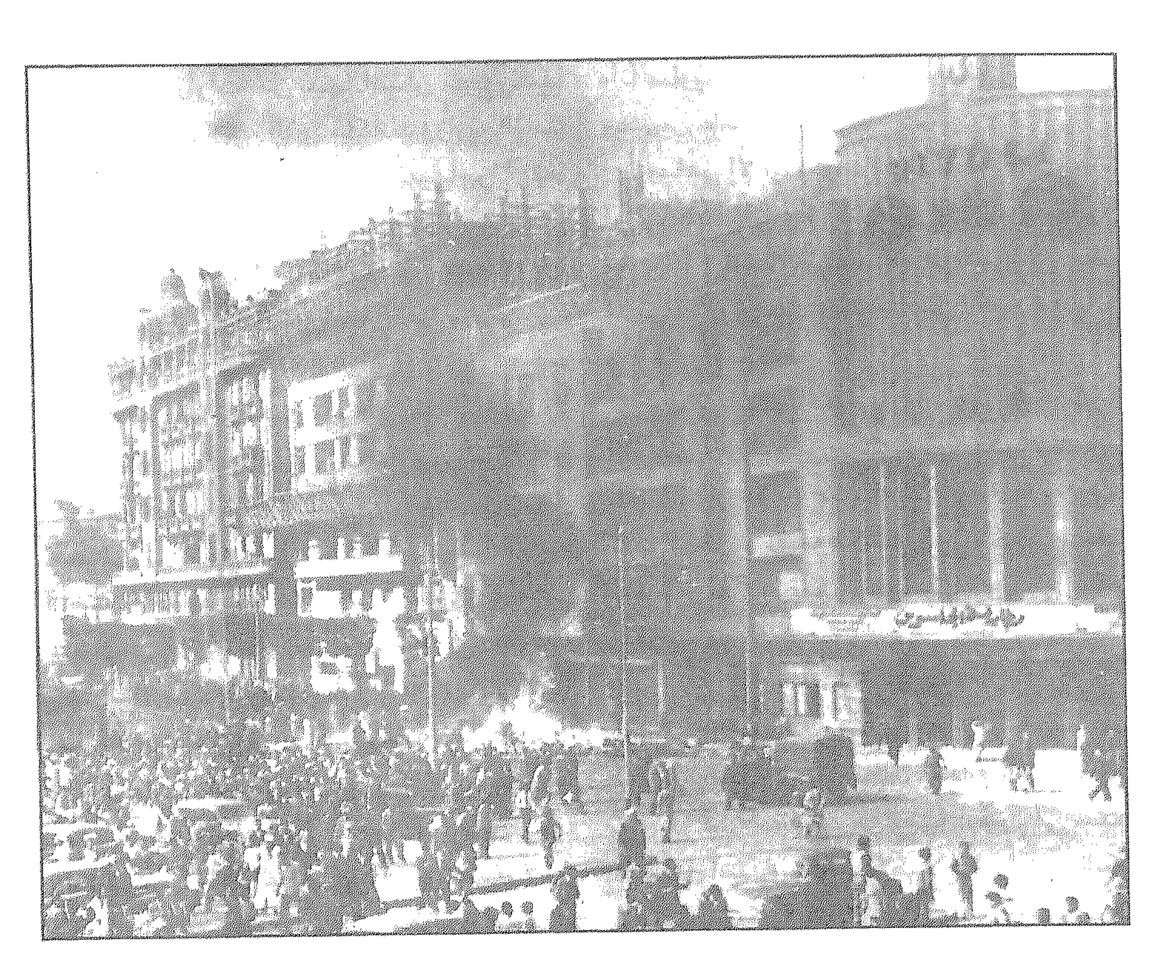
وتلك الأحـداث بدأت بما جـرى للقـاهرة فى السـادس والعشرين من يناير لعام ١٩٥٢.

ولأن ذلك التـاريخ وافق يوم سبت، فـقـد سـمى بالسـبت الأسود.

وما هكذا سمى، إلا لأن وسط القاهرة تعرض خلال بعض ساعات منه لأهوال حرائق متعمدة، يشيب لها الوليد، أتت على معظم معالمه، التى جرى تشييدها بسواعد المصريين، منذ عصر الخديو اسماعيل.

نهاية عصر

ففى ذلك السبت الأسـود التـهـمت ألسنة النيـران مـبنى فندق شـيـبـرد، الأسطورى بمعمارة العربى، ومشاهير نزلائه من أمثال ستانلى مكتشف اعالى النيل، غوردون فاتح الخرطوم، عاصمة السودان، لورنس المغامر، والعاشق للعرب والصحرا، مارى بيكفورد حبوبة السينما الصامتة وزوجها دوجلاس فيربانكس، بطل أفلام المغامرات إنتاج مصنع الأحلام فى بلاد العم سام.



حريق القاهرة (يناير ١٩٥٢)

أقول التهمته ألسنة النيران، تحولت به إلى بقايا من سقوف وجدران.

ومن أطلاله انتقلت الألسنة جنوبا إلى حيث مبانى المصارف الأجنبية، ومحلات شيكوريل وشملا وبنزيون ومطعم وبار جروبى وكازينو بديعة بميدان الأوبرا، دور سينما متروبول، ريفولى ومترو مفخرة الشرق فى ذلك الزمان، وغيرها كثير.

كل ذلك لم تبق منه النيران شيئا، جعلته انقاضا.

باختصار تحول السبت الأسود بوسط القاهرة الى أرض خراب، وبمصر كلها إلى بلد تحت حصار حكم عرفى، بغيض.

أزمة حكم

وبدءا منه، وعلى امتداد ستة أشهر توالت على

مصر أربع وزارات، من بينها اثنتان تحت رئاسة نجيب باشا الهلالى، الذى ماكادت وزارته الثانية تتشكل وتحلف اليمين، حتى كان نعيها يزف الينا نحن المصريين، ببيان يذاع بصوت محمد أنور السادات من حين لآخر من الراديو، صباح يوم الثالث والعشرين من يوليه، مبشرا بزوال عهد الفساد.

ولم تمر سوى ثلاثة أيام على ذلك البيان، إلا وكان فاروق الملك الضال، مكرها على التنازل عن العرش لفؤاد ابنه الوحيد. وعلى مغادرة أرض مصر إلى الأبد، على اليخت المحروسة، ومعه زوجته الثانية، وولده منها الملك الطفل فؤاد الثانى فضلا عن بناته الثلاث من زوجته الأولى، ومطلقته وقت مغادرته البلاد وفوق هذا، معه سبائك ذهبية مهربة فى صناديق ويسكى، وغير ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه من متاع الحياة اللذيذة، يبدده فى ربوع ايطاليا، ذلك البلد الذى تآمر مع نظامه الفاشى، فى أثناء الحرب العالمية الثانية، لا من أجل مصر حرة مستقلة، وإنما من أجل استبدال استعمار فتى باستعمار شاخ، تؤذن شمسه بالغروب، الأمر الذى أدى إلى فاجعة الرابع من فبراير، بعارها الذى يندى له الجبين.

ميتة مفاجئة

وظل رجلا ضالا، مدمنا التردد على علب الليل، ومطاعم شارع ڤينيتو، رمز الحياة اللذيذة فى روما، وقتذاك الى أن باغته الموت، مساء السابع عشر من مارس لعام ١٩٦٥، وهو يتناول وجبة دسمة بمطعم «آيل دى فرانس» ومعه شابة «أنا ماريا» ولم يكن لها من العمر سوى اثنين وعشرين عاما.

وماهى إلا أيام، بعد وفاته، حتى كانت جثته فى طريقها إلى عاصمة ملكه الذى لم يصنه (٢٧ مارس)، لا لتدفن فى مسجد الرفاعى، إلى جانب الموتى الآخرين من آل محمد على الكبير، وإنما فى مقبرة إبراهيم باشا.

وهكذا شاءت الأقدار لمن امضى حياته ساكنا القصور، أن يمضى مماته أسير قبر، تحده من ناحية مبان فقيرة مكتظة بالأحياء المعدمين، ومن ناحية أخرى مقابر مكتظة، هى الأخرى، بأحياء محتلين لها بوضع اليد، فيما يسمى بمدينة الأموات.

إيقاع سريع

وفيما بين مغادرته بر مصر من قصر رأس التين، مودعا باللعنات توالت أحداث كثيرة بايقاع سريع، غير معتاد، من بينها أذكر على سبيل التمثيل اصدار قانون الإصلاح الزراعى، تشكيل محكمة عسكرية لإدانة عمال قاموا بإضراب فى كفر الدوار، وانحدرت أحكامها إلى حدّ الحكم بإعدام عاملين، جرى إعدامهما فعلا، استحداث لجان لتطهير الجهاز الحكومى من رجال العهد البائد الفسدة، سمى بعضها بلجان التطهير، وبعضها الآخر بلجان فصل الموظفين بغير الطريق التأديبى.

الغاء دستور ١٩٢٣ وإعلان الجمهورية فى الثامن عشر من يونيه لعام ١٩٥٣.

الاعتداء على رئيس مجلس الدولة بالضرب

فــى مكتبه، واثــناء قيامه بالعمل .

الاطاحة بأول رئيس للجمهورية، وتحديد اقامته لأعوام طوال.

إصـدار قـانون لتنظيم الرقـابة عن الأشـرطة السـينمـائية ومـصنفات فنيـة أخرى، جـرى العمل بأحكامه، بدءا من الثالث من سبتمبر لعام ١٩٥٥ .

الترخيص للمخرج الأمريكى سيسيل ب.دى ميل بتصوير بعض مشاهد فيلمه الوصايا العشر فى صحراء مصر.

هزيمة عدوان

جلاء القوات البريطانية، بعد احتلال مقيت استمر دون انقطاع، زهاء ثلاثة وسبعين عاما.

تأميم شركة قناة السويس، وكان من بين توابعه العدوان الذى انتهى بهزيمة ساحقة ، ماحقة للدول الثلاث المعتدية، وسقوط رؤساء وزرائها الثلاثة انطونى ايدن، جى موليه وبن جوريون

.من بين هذه الأحداث، وهى قليل من كثير، لن اقف، إلا قليلا، عند : أولا لجان فصل الموظفين بغير الطريق التأديبى، وثانيا تصوير بعض مشاهد الوصايا العشر فى صحراء مصر.

والحق أن تلك اللجان كان القصد منها أولا وأخيرا، هو التخويف.

الليل والضباب

ولقد وجدتنى فى ذلك الوقت الذى اضحى فيه الخوف من المجهول سمة تضاف إلى المناخ العام : وجدتنى امين سر لجنة فصل الموظفين الخاصة بوزارة الحربية، وكان رئيسها مستشارا بالقضاء العادى، غدا فيما بعد وزيرا للعدل، فى عهد السادات.

وأغرب ما عجبت له، وأنا أراجع اسماء الموظفين المحالين إلى اللجنة من أجل البت فى أمر بقائهم فى الخدمة من عدمه، وأسباب احالتهم، أن واحدا من بينهم كان ذنبه الأوحد، أنه سار – على حسابه – إلى باريس، بهدف الحصول على إجازة الدكتوراه فى مادة القانون المدنى، وبالتحديد «التعبير عن الإرادة».

وأنه فى سبيل استكمال بحثه، سعى إلى الحصول على اجازة مرضية، اتاحت له فرصة البقاء فى العاصمة الفرنسية، إلى أن تحقق له ما كان يتمناه.

استخلاص غير سائغ

واستخلصت من ذلك إدارة التجنيد، حيث كان يعمل، أنه تمارض، وغاب، دون وجه حق، عن العمل، على نحو أضر بالصالح العام، الأمر الذي يجعله غير أهل للبقاء فى خدمة دولة ثورية، سمتها الرئيسية النقاء، وعدم الالتواء.

هذا الموظف المذنب، كان الدكتور الفاضل ويليم سليمان قلادة.

ووقتها لم يكن بينى وبينه سابق معرفة ومع ذلك، ولأن المداولة بين أعضاء اللجنة كانت فى صالحه إلى حد كبير، فقد طمأنته، دون أن أضع فى الاعتبار ماقد يحدث من متغيرات ، وليدة نزوات.

فدون سابق، انذار، وبعد سماع ممثل الإدارة، جهة الاتهام، ودون مواجهة الدكتور بما هو منسوب اليه وسماع دفاعه، قرر رئيس اللجنة

فصلته، وأسرع بكتابة الحيثيات .

وفيما أنا حائر، كيف اتصل بالدكتور، وانبهه للخطر الذى يتهدد مستقبله، إذا به وكأن السماء ارسلته يطل باستحياء من باب الحجرة، حيث مكتبى، مستفسرا عن الأحوال.

افشاء سر

وكان على ألا اخفى حقيقة ما يتهدده، رغم مافى ذلك من افشاء للأسرار.

ولم أكتف بذلك، بل اتحت له فرصة التسلل إلى حجرة اللجنة، والمثول، لأول مرة، أمام اعضائها، حيث ابدى دفاعا، اقنعهم بعدالة قضيته.

وانتهى الأمر برئيسها إلى كتابة حيثيات تبرئته، على ظهر نفس الورقة المكتوب عليها حيثيات فصله.

ولم تمر سوى بضعة أشهر على هذه الواقعة ذات الدلالات، إلا وكان كلانا، وياللعجب، منقولا إلى سلك القضاء.. وأين؟

فى مجلس الدولة، حيث بقى كلانا، إلى أن بلغ سن الإحالة إلى المعاش، هو بدرجة وكيل وأنا بدرجة نائب رئيس .

وإلى أن جاءه الموت، قبل عامين، ظل صديقا مخلصا ، من أهل العطاء، وكم هم قليل فى هذه الأيام .

اسطورة الوصايا

فإذا ما انتقلنا إلى الوصايا العشر وتصويره فى صحراء مصر، فسنجد انفسنا أمام مفارقة عجيبة حقا .

معروف أنه من مسلمات الدين اليهودى أن «عودة» اليهود من الشتات إلى جبل صهيون فى أورشليم (القدس) أمر حتمى، ومن مسلمات التاريخ اليهودى أن حنين اليهود، وبالذات فقرائهم إلى الأرض الأم فى فلسطين، إن هو إلا رد فعل عاطفى لفظاعة الحياة واليأس من صلاح الأحوال فى المنفى، وربما خير تعبير عن هذا الحنين هو نشيدهم الذى يجرى بهذه الكلمات :

«لانزال مشردين فى هذا العالم، ولكن فى العام القادم سنكون فى أورشليم .. ولانزال عبيدا فى هذا العام .

ولكن فى العام القادم سنكون أناسا احرارا ...» .

ومفهوم هذا النشيد أن مايعذب فى الشتات هو التشرد والعبودية، وأن ما يبعث الأمل هو العمل لا من أجل حرية اليهود فى الأرض حيث يعيشون ، وإنما من أجل الخروج للعودة إلى أورشليم .

توظيف الأسطورة

ولا يسع من يقرأ التوراة إلا أن يعترف بما فى قصة النبى موسى، وهو يقود بنى اسرائيل من أرض الفراعين إلى أرض اللبن والعسل، من معان ورموز تستطيع الصهيونية أن تطوعها لخدمة الدعوة بين يهود الشتات، من أجل التحرر من العبودية والخوف «بالعودة إلى أرض الميعاد».

ويتضح من القصة أنها تفيد الصهيونية، فيما لو أحسن ترجمتها إلى لغة السينما.

ففيها التشرد والعبودية والأمل والعمل من أجل الخروج والعودة «بالشعب المختار» الى الأرض

الموروثة.

ومن هنا اختيار شركة بارامونت لصاحبها آودلف زوكور المنحد من أصل يهودي مجري، اختيارها لقصة النبي موسى لتنتجها تحت اسم «الوصايا العشر» مرتين، الأولى صامتة بلا الوان عام ١٩٢٣، في أيام قل فيها اقبال اليهود على الهجرة الى أرض الأنبياء، والأخرى ناطقة بالألوان (١٩٥٦)، وعقب إعلان قيام دولة اسرائيل، وفي أيام انحسرت فيها موجة هجرة ابناء «الشعب المختار».

تحريف التاريخ

وفي كلا الفيلمين كان «دي ميل» هو المخرج، وفي كليهما كان لا هم له إلا أن يتناول قصة النبي موسى وبني اسرائيل أثناء وجودهم في مصر، ثم اثناء الخروج منها، على نحو مشوه يراد به باطل، هو تصوير أهل مصر، وكأنهم ابناء شعب منبوذ، كتب عليه ذل العيش في أغلال العبودية لفرعون، وقومه الظالمين.

وهذا السبيل الذي سلكه «دي ميل» لايثير دهشة أحد.

أفلم يسبق له في فيلمه عن السيد المسيح «ملك الملوك» أن القى بمسئولية موت المخلص على «كايفاس» بدلا من يهوذا مرواعاة منه لشعور اليهود.

مايثير الدهشة حقا أن يجيء «دي ميل» إلى مصر إبان عام ١٩٥٤، ليصور فيلمه في صحرائها، وبمشاركة جيشها في بعض المشاهد، لاسيما مشهد البحر الأحمر، وهو ينغلق كالطود العظيم لينجو موسى ومن معه اجمعين ثم يغرق الله الآخرين ، أي فرعون ومن معه من الجنود المصريين .

وأن يلعب «عباس البغدادلي» – وهو ضابط مصري سابق من سلاح الفرسان، وقعت في حبه حفيدة المخرج، واصطحبته إلى الولايات المتحدة، حيث عاشا زوجين، إلى حين – يلعب دور سائق عربة رمسيس فرعون مصر (يول برونر).

وأن يتوج ذلك كله بحفل افتتاح كبير، يعرض فيه «الوصايا العشر» بمدينة نيويورك، يوم التاسع من نوفمبر لعام ١٩٥٦، أي فور اجتياح القوات الإسرائيلية لشبه جزيرة سيناء بأيام، بل قل بساعات معدودات.

عام المائة عام

وفيما بين ذلك الاجتياح الذي مهد للعدوان البريطاني الفرنسي، وعدوان يونيه (حزيران)، توالت أحداث كثيرة بسرعات تفوق الخيال، وكان أبرز هذه الأحداث بالنسبة لي، انتدابي من مجلس الدولة لوزارة الثقافة وذلك لشغل وظيفة مدير الرقابة على المصنفات الفنية، لا مرة واحدة بل مرتين والأولى لمدة خسمة شهور (١٩٦٢) بعد بضعة شهور من انفصال سوريا، والثانية لمدة قاربت العشرين شهرا، من بينها عام عدوان الخامس من حزيران، الذي يعتبر، وبحق، بمثابة مائة عام.

أما لماذا انتدبت مرتين، وكيف تكثفت الأحداث في عام واحد، بحيث أصبح في مقام مائة عام، فذلك في اعتقادي، موضوع آخر. ■

شاهد عيان على ما جرى

مشاهد فى موكب ثورة يوليو

بقلم السفير: محمد وفاء حجازى

يسجل التاريخ الأحداث والوقائع ويدونها فى بعض الأحيان بكافة تفاصيلها ويدونها فى أحيان أخرى مع تلافى ذكر التفاصيل ولكن تبقى المشاهدة الحية للأحداث من أهم الذكريات لدى من عاصروا تلك الأحداث.. ذلك أن الصورة تظل محتفظة بألوانها وبحيويتها، وبنبضها فى ذهن المشاهد وفى ذاكرته.. وفى مشاعره ووجدانه..

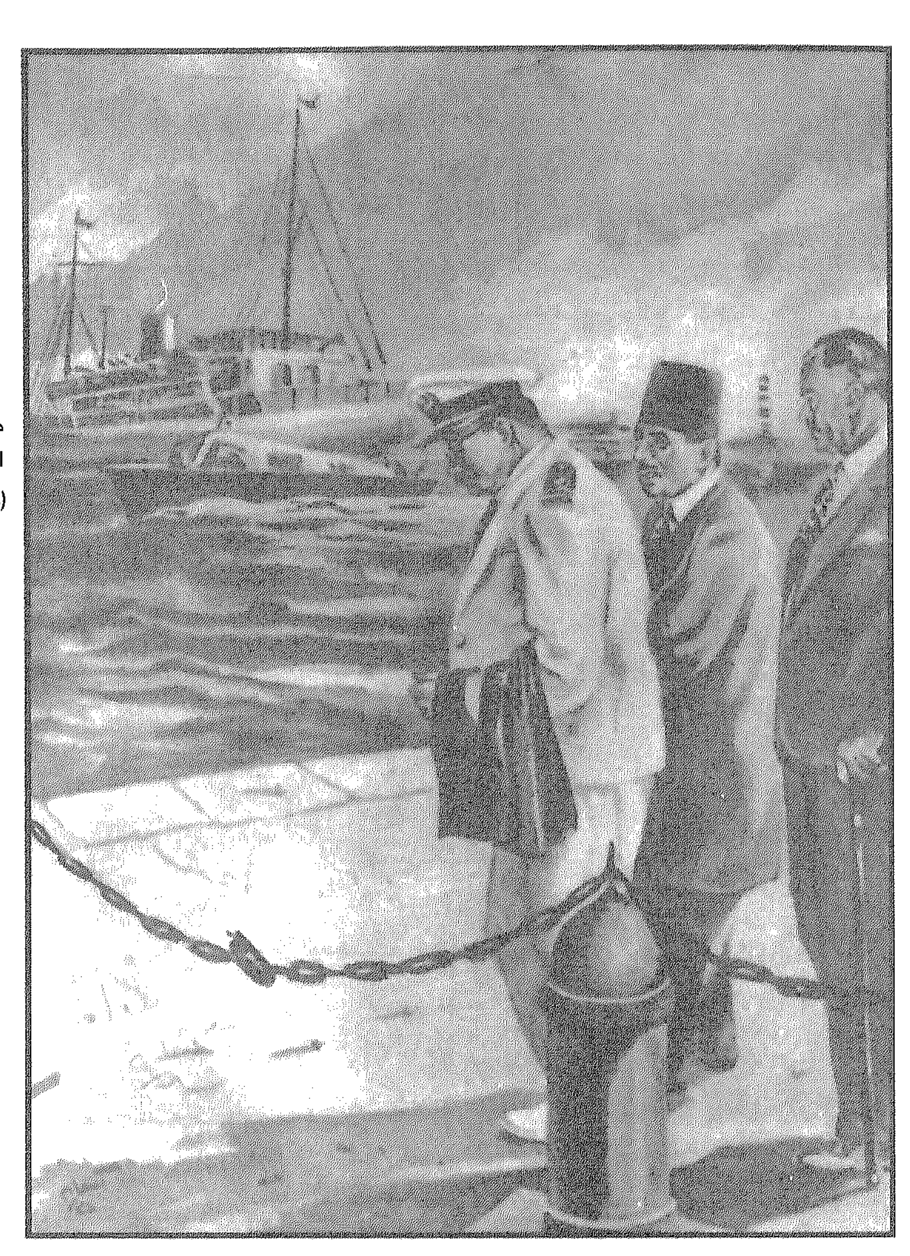
شاءت الأقدار، أن أكون شاهد أو معاصرا على أحداث، تسجل أجزاء من الطريق، الذى سارت فيه ثورة ٢٣ يويو ١٩٥٢.

والمشاهد متعددة ومهمة ولكن اخترت منها خمسة مشاهد.

تنازل الملك عن العرش

مشهد مغادرة الملك فاروق من مصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ من المشاهد المثيرة والتى مازلت أحتفظ بها فى مخيلتى كأنها صورة حية.

كنت فى ذلك الوقت ، ضابطا فى الحرس الملكى، بقصر رأس التين بالإسكندرية..



لحظة رحيل فاروق الى منفاه على الباخرة المحروسة (رسم تخيلى)

وشاءت الأقدار، أن أكون الضابط المناوب، فى قصر رأس التين ، فى نفس اليوم الذى أعلن فيه تنازل الملك عن العرش، شهد القصر لأول مرة صورة مختلفة، عن التى اعتادها والتى اعتدناها

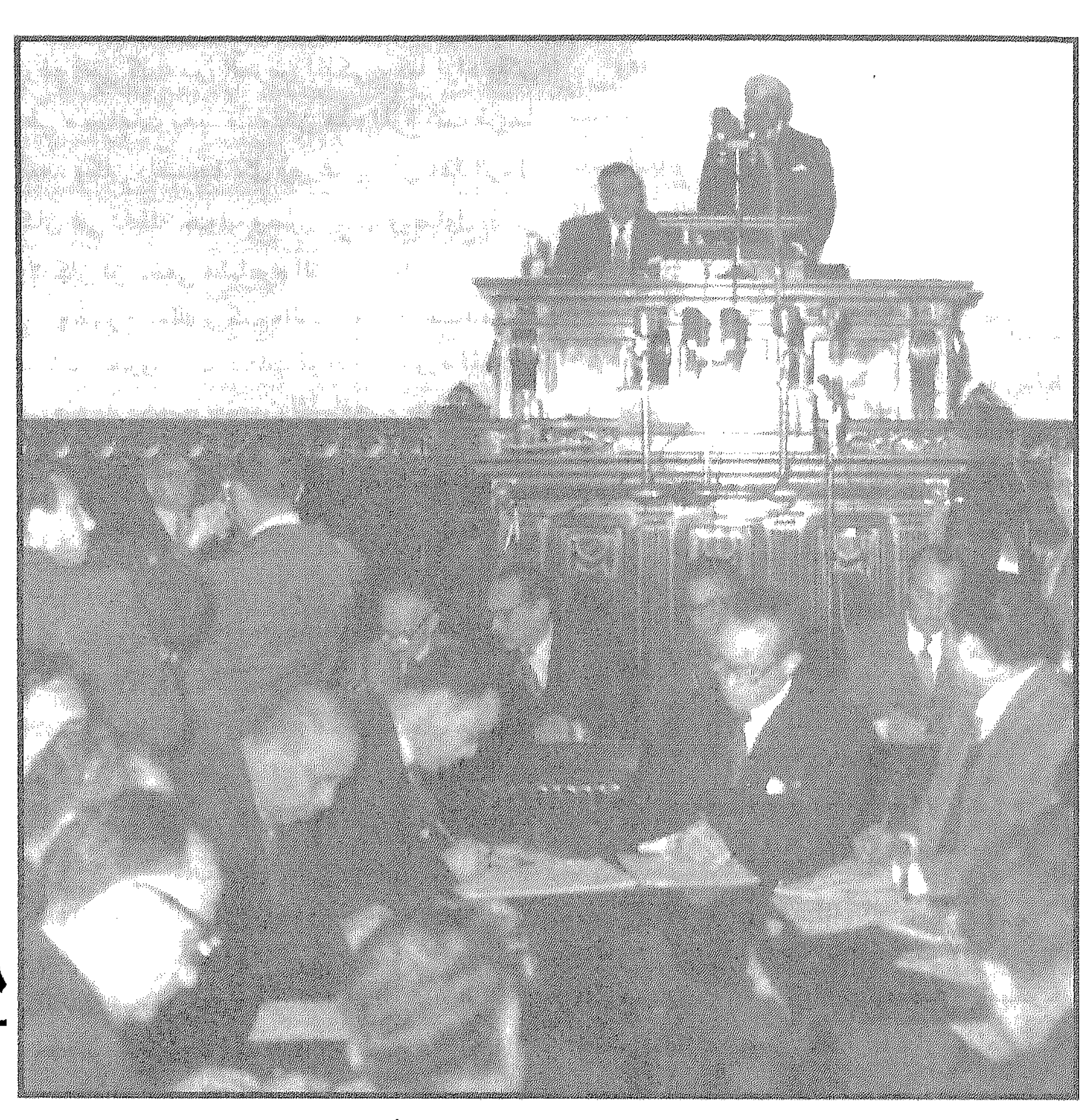
سابقا عليه. فقد كان الانضباط والوجاهة هما سمات هذا القصر وإضفاء الهيبة هو الشغل الشاغل لكل القيادات السياسية وكل القيادات التى كانت تتولى حراسة وحماية الملك.

ولكن فى ذلك اليوم انهارت هذه الصورة، وتاكلت، ورأينا مشهدا آخر يتنافى تماما مع هذه الصورة الجمالية التى كانت تبهر بعض الناس أحيانا.. رأينا الشخوص على حقيقتها.. ورأينا الأحداث وهى تقع فهى تبدل أوضاع وتغير هيبة ومكانة قيادات فى هذا البلد.. شاهدنا الملك المنهار الذى لم يستطع أن يتحمل الصدمة. وشهدنا عددا من كبار رجال الدولة الذين كانوا يبكون بين يدى الملك. ولا يعلم أحد هل حزنا عليه أم خوفا من المستقبل الذى ينتظرهم، شهدنا النساء العاملات فى القصر وهن فى إطار من الأبهة والفخامة والادعاء بالانتماء إلى المدرسة الفرنسية فكلهن يتخفين وراء قناع اللكنة الفرنسية متشبهات ومتعلقات بعادات الغرب وتقاليده.. وثقافته ولغته.. شاهدتهن وهن يولولن كنساء قاع المدينة الكل يبكى ويصرخ بصوت عال، رأيت هذا التحول المفاجىء والصاعق والذى لم يكن يتصوره أحد يحدث فى لحظة واحدة.. ساعة ما عرف الجميع أن هناك وثيقة يقوم الملك بالتوقيع عليها بالتنازل عن العرش. رأيت على ماهر باشا وهو يدخل على الملك ويخرج لعدة مرات وفى يده هذه الوثيقة لكى يصحح جملة أو يعدل فقرة إلى أن تم الاتفاق على شكل الوثيقة النهائى ووقع عليها الملك، وعلمت من بعض الأصدقاء الذين كانوا فى القاعة التى وقع فيها الملك على الوثيقة أنه قام بالتوقيع على الوثيقة مرتين، حيث اهتزت يده فى المرة الأولى، ولكن فى المرة الثانية لم تمتنع يده عن الاهتزاز!

كل هذه المشاهد رأيتها وأحسست بها وأنا فى مكتبى كضابط مناوب وكنت أتجول فى طرقات القصر لأتابع الأحداث بدافع الفضول .. وعلمت أن الملك على وشك مغادرة القصر بعد ساعات.. وخلال هذه الساعات تحول القصر إلى مأتم تحيطه الغربان من كل ناحية لا تسمع فيه إلا صراخا وولولة النساء، الكل فى لوعة على المجد الزائل والأبهة التى انهارت فى لحظة.

السلطة ضاعت والأبهة تلاشت مع توقيع الملك عى وثيقة التنازل عن العرش، ثم كانت الطلقات النارية المدوية والتى أفزعت الجميع وخاصة أنه نتج عنها تحطيم الواجهات الزجاجية غالية الثمن، وكان ذلك أثناء احتكاك حراس القصر مع جنود الثورة المكلفين بتنفيذ الأوامر الجديدة.. وخشى الجميع من حدوث معركة دامية ولكن الله سلم ولم يحدث اشتباك يؤدى إلى قتل أو دمار..

ذهبت إلى رصيف الميناء الغربى لأشاهد خروج الملك وأرى الموكب الحزين والمثير ولكن شاهدت فى تلك الأثناء خروج صناديق وخزائن وحقائب فى أحجام مختلفة، لتسبق الملك على مركب المحروسة، ثم اصطف بعد ذلك حرس الشرف المكلف بتوديع الملك، وجاء بعض كبار الضباط من الجيش ومن قيادات الثورة لتوديع



مراسم اعلان قيام الوحدة المصرية - السورية أمام مجلس الأمة

الملك الوداع الأخير.

وقبل الساعة الثالثة خرج الملك مرتديا الزى البحرى الرسمى وعلامات التوتر والكآبة والضيق بادية على قسمات وجهه.. وكنت قريبا منه ولذلك رأيت تفاصيل ما حدث على وجه كله خوف وفزع ودهشة .. ولأول مرة أرى الملك عن قرب شديد

برغم أنني كنت من الحرس الملكى.. كنا نراه ولكن على مسافات بعيدة.. ولكن هذه المرة كنت قريبا منه.. وكان واضحا لكل ذى عينين أن هذا الرجل كان فى داخله خوف وحزن وندم، ويحاول بقدر الإمكان أن يخفى مشاعره التى خانته!

وخرج الملك وركب «اللنش» الذى قاده إلى مركب المحروسة ثم دخلت قيادات الثورة المتمثلة فى محمد نجيب، حسين الشافعى، جمال سالم، وعلى ماهر، وآخرين.. وركبوا لنشا آخر.. لتوديع الملك.. وفى هذه المناسبة يحضرنى ما سمعته مؤخرا وأثار دهشتى حيث أذاعت بعض القنوات التليفزيونية على لسان واحد ممن عشقوا تمجيد هذا الملك وجميع رموز العصر الملكي، أن الملك قبل توقيعه على وثيقة التنازل عن العرش، رفض الاقتراح بالتدخل الانجليزى لتغيير الموقف وحمايته تحت دعوى أنه لا يريد أن يرى حربا أهلية وأنه يفضل أن يتنازل عن العرش عشرات المرات ولكنه لا يسمح لنفسه أن تحدث حرب أهلية.. وهى ليست أكذوبة ولكن ذلك لا يتناسب مع طبيعة هذا الملك، فهذا الملك كما رأيناه أثناء خدمتنا فى الحرس أو قبل ذلك لم يكن يعنيه أمر هذا الوطن من قريب أو بعيد.. بالعكس كل همه كان منصرفا إلى المتع والملذات لدرجة أن البعض كان يطلق عليه «الحلوف» ولم نسمع فى هذه الآونة وأثناء تلك الأحداث عن هذه الحادثة وهذا الادعاء الذى ليس له أساس من الصحة..

ونسب بشكل فج إلى ملك ، لم يكن يعنيه مثل هذه الأمور.

وهذا يدل على أن الثورة حتى بعد خمسين سنة من عمرها، يحاول أعداؤها إعادة الاعتبار إلى ناس أساءوا إلى هذا البلد وارتكبوا فى حقه أفظع الجرائم والفواحش، وهذا محض افتراء وكذب ولا يقصد بذلك إنصاف الملك بقدر ما يقصد به الإساءة إلى ثورة ٢٣ يوليو، هذا مشهد مازلت احتفظ بصورته واضحة حتى الآن.

يوم إعلان تأميم القناة

كنت فى ميدان المنشية بالإسكندرية أثناء خطاب الرئيس جمال عبدالناصر وإعلانه تأميم القناة، ورأيت الفرحة الطاغية التى عمت الناس فى الشارع والتى أعادت إلى مصر حقا كان مغتصبا.

فى ذلك اليوم ، عندما تقابلت مع المرحوم يوسف صديق على أحد المقاهى ومع بعض الأصدقاء، وكانت فرحته غامرة ولا أنسى عبارة قالها «إن هذا الخبر خبر مزعج» أى مزعج فى فرحته ومزعج فى شموخه وضخامته.

حيث إن دلالة الخبر تنبىء بمستقبل مشرق، وإن هذه خطوة على طريق تمصير مصر، واستعادة روحها الوثابة ومحاولة استرجاع حقوقها.. فلم يكن هذا القرار خاصا بقناة السويس وإنما كان قرارا خاصا بكل المصريين، شىء في مصر كان ملكا للأجانب وحكرا عليهم من أكبر المؤسسات الاقتصادية والبنوك إلى أصغر المتاجر ، إنه إعادة مصر إلى أهلها.

يوم إعلان الوحدة

هذا مشهد آخر من مشاهد الفرحة والفخر

والافتخار، يوم إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، حيث كنت فى ذلك الوقت فى الساحة أمام مجلس الوزراء ومن الشرفة الجانبية، طلع علينا عبدالناصر ومعه شكرى القوتلى ليعلنا من خلال هذه الشرفة عبر ميكروفون صغير أنه قد تم الاتفاق بين القيادة السورية والقيادة المصرية على إقامة الوحدة بين مصر وسوريا، وعمت الفرحة الناس فى كل مكان، وغزا القلوب حماس فريد نحو خطوة مهمة، لوحدة مصيرية كنا نتمناها ومازلنا نتمناها، والمشهد الذى كان أكثر جمالا وروعة هو رقص السوريين فى ميادين مصر وكانت رقصاتهم الشعبية المشهورة «الدبكة» تنتشر فى شارع ٢٦ يوليو وسط القاهرة، ويشاركهم الرقص عدد كبير من المصريين فى فرحة لا مثيل لها.. وما حدث فى مصر حدث فى سوريا، حيث خرجت الشعوب تعبر عن فرحتها بالوحدة المنشودة.

ونتمنى أن قبسا من هذه الأحاسيس والمشاعر التى عشناها فى الخمسينيات تعود الآن فى قمة الأزمة التى نعانيها والتى لا علاج لها إلا الوحدة، وأنا فهمت قيمة الوحدة الآن أكثر من أى وقت آخر، وأن الخطأ الذى ارتكبناه أننا لم نحافظ على الوحدة ولم نقيها الوقاية الكاملة ضد المخاطر التى ستتعرض لها.. والتى كان وقوعها وقع الصاعقة على الاستعمار وأعوانه والقوى الصهيونية، لأنهم رأوا أن استمرارية الوحدة فيها القضاء على خطط الاستعمار والصهيونية العالمية، والقضاء على الظلم التاريخى الذى وقع على الشعب الفلسطينى، لقد فرحنا بالوحدة ولكن لم نتنبه للأخطار التى تحاصرها والتى أطاحت بها، ومع ذلك ستبقى أمل، وستبقى التجربة تستحق أن نستفيد منها ونحاول أن نكررها لا بالنسبة لبلد واحد ولكن بالنسبة للوطن العربى كله.

التنحي

عم مصر مشهد باك حزين فى أعقاب النكسة وطغى على الشعوب العربية فيضان من الحزن والألم والتحدى أيضا لأنه كان أمامنا طموحات واسعة جدا وآمال عظيمة وأمنيات رأينا بشائرها تتحقق، ولكن فجأة أصيبت أمتنا بهذه النكسة الأليمة أو أصابتنا الهزيمة العسكرية بالنكسة وبالتراجع والانحسار..

والإحساس بالألم مرجعه أننا فى معركة من معارك المصير لم ننتصر، وإن جاءت بعد انتصارات كبيرة - مثل انتصارات على العدوان الثلاثى - بناء السد العالى - الوحدة وغيرها.. أن نصاب بهزيمة، ولابد أن نعترف أنها كانت هزيمة عسكرية بكل المقاييس، ولكن نقول إنها مأساة حدثت ولكنها بدلا من أن تصيبنا بالانهيار أصابتنا بالتحدى.. قام الشعب المصرى والعربى بعد سماع خطاب التنحى وانفجر بقوة مشحونة بالتحدى والإرادة والعزيمة والإصرار على أن تسترد كرامتها وأن تعبر هذه الهزيمة وتحقق الانتصار بإرادتها مرة أخرى، وهذا اختبار للشعب أكثر منه للقيادة السياسية، لأن الذى خرج يوم ٩ و ١٠ يونيو هو الشعب الأصيل ليعبر

عن القيم الحقيقية للشعب المصرى والعربى، والكل رفض الهزيمة ورفضوا أن تُملى عليهم إرادة خارجية، ورفضوا أن يكونوا خاضعين لمخططات تستهدف إذلالها وإهانتها..

هذه هى روعة الموقف..

كنت فى القاهرة ونزلت من منزلى لأعيش مع نبض الشارع المصرى وأرى الحزن يعم الجميع، ورأيت الشارع عبارة عن إرادة وكلمة واحدة لا للهزيمة، لا للانكسار، لا للخضوع. لا للخنوع.. وأعتقد أن هذا الموقف هو الذى لا يتوقعه الذين خططوا لهزيمة يونيو..

ومن منظور التاريخ ومنظور الرصد الوطنى القومى يوما ٩ و ١٠ يونيو هما إعلان لإرادة وطنية قومية تتمسك بحقوقها، وتجعل من الهزيمة نقطة انطلاق نحو رد الاعتبار ورد كل الخسائر التى خسرها الوطن ونحن مازلنا فى هذه المعركة.

وإذا كان نصر أكتوبر ٧٣ بداية الانتصار فى معركتنا، إنما فصوله لم تتم وعلينا أن نتمم هذه الفصول، أن نتممها فى مواجهة الاجتياح الذى يحدث للشعب الفلسطينى.. علينا أن نتممها فى مواجهة الحصار الذى تقوم به أمريكا لعديد من الدول العربية.. مثل العراق وليبيا والسودان وسوريا.

علينا أن نتممها بتلاحم أبناء الأمة العربية وعلينا أن نتمم هذه الخطوة برفض كل هذه الأجزاء الوطنية القومية ونتوحد لكى نشكل جبهة قادرة على التعامل مع هذه التحديات اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وأمنيا .

ناصر يقدم عرفات للسوفييت

من موقعى كدبلوماسى أثناء عملى فى سفارة مصر فى موسكو عام ١٩٦٨، أكتب عن مشهد لا أنساه أبدا، ألا وهو تقديم عبدالناصر لياسر عرفات إلى القيادة السوفييتية.

جاء عبدالناصر إلى الاتحاد السوفييتى ومعه ياسر عرفات تحت اسم مختلف ، ولم يكن هناك علاقة بين الاتحاد السوفييتى ومنظمة التحرير الوطنى الفلسطينية وكان هناك لغط كبير حول المقاومة الفسلطينية، وهل يعترف بها الاتحاد السوفييتى أم لا؟ وهل يساعدها أم لا؟! وكان هناك فريق داخل الاتحاد السوفييتى يرفض المساعدة بحجة أن الحركة غير موجودة على أرض فلسطين؟ وهى تعمل من الخارج ولذلك يرفضون مساعدتها.

وقدم عبدالناصر ياسر عرفات إلى القيادة السوفييتية على أنه هو الذى يقود حركة المقاومة الفسطينية وهو الرجل القادر على محاربة الصهيونية، وأصر عبدالناصر على أن يكون ياسر عرفات جزءا من الوفد المصرى الذى يجلس على مائدة المفاوضات الرسمية، وأصر على أن يكون هناك علاقة قوية مع منظمة التحرير حتى يمكنها من تأديه دورها الوطنى فى استرداد حقها المسلوب.

وبالفعل كنت شاهدا على هذا الاجتماع التاريخى والذى فرض فيه عبدالناصر ياسر عرفات على القيادة السوفييتية، ونتج عن ذلك



عبد الناصر لحظة
اعلانه قرار التنحى

موافقة القيادة السوفييتية على التعاون مع ياسر عرفات وتقديم المساعدة اللازمة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وعندما أفكر فى هذه المشاهد وغيرها أتأكد من دور ثورة يوليو واهتماماتها الوطنية والقومية.

وأخيرا.. ومنذ مشهد مغادرة الملك للقصر حتى هذه اللحظة.. كانت اهتمامات ثورة يوليو تتصل بقضايا الوطن ، وقضايا الأمة وقضايا المستقبل ، ولم يكن يهمها سوى الانتصار لهذه القضايا.. من الممكن جدا أن تنهزم فى معارك، ومن الممكن جدا أن تنتصر فى معارك ولكن الأهم من ذلك أن تحافظ على مشروعها الوطنى القومى الذى يستهدف إعلاء شأن الوطن والمجتمع. ■

شهادات

أنــا .. وجمــال عبد النــاصــر والـــزمـــان ..

بقلم : محمد مستجاب



- وألعن - مافى هذا العنوان : أن اسمى يسبق اسم جمال عبدالناصر ، حتى لو انتهى بنا الأمر إلى الزمان، وهو زمان آخر يختلف عن الزمن التاريخى - المدرسى ، والزمن الذى وقع فى براثن قوانين الطاقة الخاصة بالزميل إينشتين ، وكوارث مربع سرعة الضوء ، إنه زمان آخر يبدأ دون امتداد (زمن) فى حالة انفعال أمى أثناء تفقدها المحزون لساحة الوغى (رجاء عدم الإمعان في الوغى) التى امتلأت بعدد متناثر من أشلاء كتاكيت مداهمة (السروة) لمأواها قبل الفجر بقليل .

والسروة هى المصطلح الخاص بالعرسة فيما يبدو ، إلا أن العرسة عندنا أقل حجماً وذكاء من السروة ، ولا يوجد في كل المعاجم - المعلنة والمختفية - أي أثر للسروة ، وعندما تنتهى أمى من استيعابها الباكى للموقف ، أو ما يشابهه من فواجع مداهمة الثعالب للدواجن ، أو تمزيق جسد على عبدالنظير - ذى الصوت الجميل - وإحراقه ثم إلقائه بين حقول البرسيم تحت (بكاء أو نحيب قطرات الندى الثلجية) ، أو جلسة سعيد أبو برغوث - وهو غير آل البرغوثى الذين تقوم إسرائيل بتدميرهم والتمثيل بجسد وطنهم فلسطين - رعاكم الله) - حيث يأتى إلى بيتنا الجميل - أقصد كوخنا - أقصد الشاليه الخاص بعائلتنا - ليحاول الحصول على فتات من خبز وجبن ولفت مخلل ، يستند إلى الحائط بعيون مكسورة بالملابس المكسورة والجسد المكسور ، ويمعن فى وجه أمى ، تلك التى أوعزت لأبى أن يسرع فيشترى بيت هذا الذليل ، وقمنا جميعا - حتى أنا الذى لايدرك - بتحطيم الباقى من ثمن أرضه الصغيرة الممتدة وراء - لا مؤاخذة -

الشاليه ، ليأتى بين حقبة وأخرى راجياً أن يحصل على ماهو حقه ، فنمنحه بعضا منه على أنه صدقة ، فتقوم أمى - فور ذلك - بإطلاق هذه الكلمة : .. زمن ، حيث أعتقدت - أنا - بعد ذلك بثلاثين عاماً (١٩٤٨ - ١٩٧٨) أن هذه المرأة التى أنجبت عدداً مذهلاً من الحكايات نسيت المصطلح الذى جعلها صبورة ممتثلة خانعة خاضعة لما يجرى : .. زمن ، وأن الأمور قد تغيرت بها وبلسانها وثقافتها فى العاصمة الكبرى بعد أن هجرت معنا الماضى القروى ، إلا أننى فوجئت ذات أمسية منزلية باهظة التكاليف ، وأثناء قيام واحد من الوجوه السياسية التليفزيونية بإعادة صياغة أقواله الثورية عن عبدالناصر ، لأقوال شوكية - من الشوك - فى ديمقراطية جديدة بعد رحيل عبدالناصر بثمانى سنوات ، أن أمى رفعت وجهها الشرس الرافض من فوق شاشة التليفزيون إلى صورة جمال عبدالناصر التى تحتل الحائط الأصلى فى شقتنا - أى فى العاصمة ، وهمست بطريقة لا تدركها زوجستى ولا أبنائى ولا التاريخ ولا المدارس ولا الكتب : .. زمن .. !! وحين انتبهت إلى أنى ألاحظها جيداً ، أعادت الهمس بامتداد بالغ الشجن .. زمان ، فأيقنت حينئذ أن أمى .. لكنها كانت قد أغلقت عيونها واسترخت فى جلستها الخاضعة الخانعة الممتثلة .. وكان واضحاً أنها وضعتنى فى صف المهتمين بأمور وسلوك وموضوعات تثير الحزن فى القلب : ،، زمان ، ويالهول هذا المصطلح الممتد فى الشرايين والعروق والعيون ، بقدرته الفائقة على عدم التفريق بين الفضائل والفضلات .

كنت - قبل أن التقى بجمال عبدالناصر - قد تجاوزت مرحلة ركوب الخيول المصنوعة من أعواد البوص تقليدا لأفراد من العائلات ذات السطوة المهيمنة - أقصد المستعبدة - لكثير من أفواج وجحافل عائلاتنا فى ديروط الشريف ، حيث لم يكن مباحاً أو مسموحاً لأى واحد من أهلنا وأهل غيرنا أن يعبر أو يمر فى طريق ممتطيا حمارته أمام أى واحد منهم دون النزول من فوق الركوبة كى يصافحه منحنيا ومبتسماً فى رضى - وبعض منا لابد من تقبيل اليد الكريمة ، وهو مشهد معروف ومرهق وصارخ الألم كتبت عنه من قبل ، وتتكره الأجيال التالية منا بعد أن قلب عبدالناصر الأمور وألغى - دون قرار - هذا المشهد الاستعبادى المروع ، وقد حاول - قبل عبدالناصر - سراج منير أن يزرع فينا الرفض العنيد حينما أصبح عنترة العبسى الذى اخترق قلاع السطوة ليتزوج كوكا - أقصد عبلة ، ثم فشل كمال الشناوى في إستثارة الهمم المشتعلة كى نحصل على تحية كاريوكا بصفتها أميرة الجزيرة - فى فيلم لايعرف طريقه أحد من إخراج حسن رمزى ، وتناثرت فوق المصاطب والمقاهى وأجران القمح ووراء حوائط الجوامع والكنائس ودير أبو سربانة (الأنبا سرابمون) وحقول قصب المرج وعمر أغا : حكايات أبوزيد الهلالى وسعد زغلول وذات الهمة والعقاد ومحمد باشا محمود (أنا ابن من عرضوا عليه الملك فأبى) ومصطفى النحاس الذى ألغى معاهدة ١٩٣٦ ، وجيد عبدالنور بطل حادثة قطار ثورة ١٩١٩ بين دير مواس وديروط (وقد رأيته ذليلا مستكيناً فى ظل حائط الرحمة ، وما ترتب عن ذلك من وقوعنا جميعاً - أنا ومصطفى جبارة وصلاح عبدالرحمن وعدد مذهل من جيلنا - الذى

تعلم العشق والغرام المشتعل من سينما قرشي وبدأ بريقه تحت حوائط وعيون الفتيات سليلات «الأثر» الظالمة ، وبالتالى فإن كل هذه المصائب المبكرة في العشق انتهت كما يقضي بذلك قانون العشق الموروث والمعروف : بالدمار ، دون تحقيق هدف واحد ممن كانت تكافح السينما على تحقيقه : بالزواج المفتعل فى النهايات الساذجة المفتعلة .. ، فقمنا بتسلم قلوبنا لأغانى كارم محمود وأم كلثوم ومحمد الفخرانى وأخته ذات الصوت الجميل.

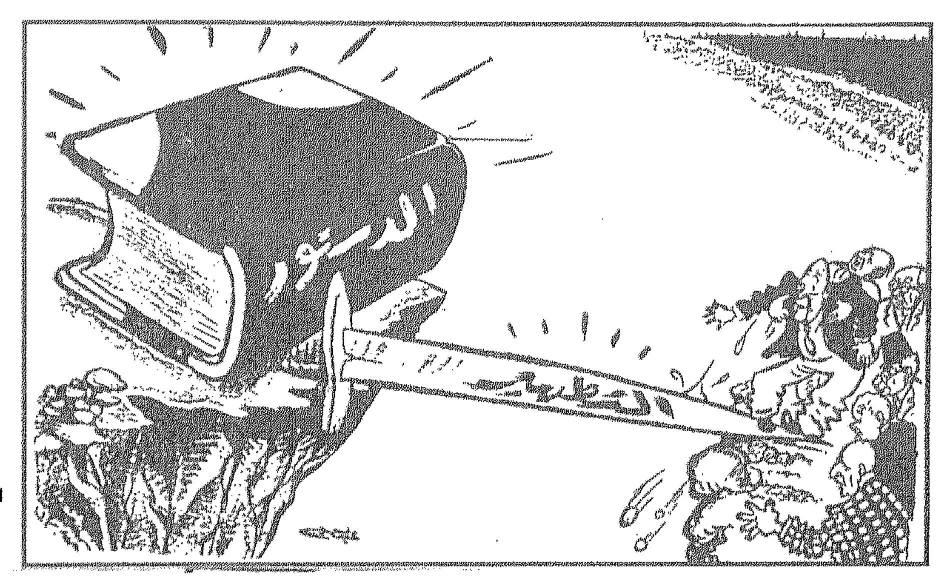
وبينما نحن كذلك ، جاء جمال عبدالناصر ، الاتحاد والنظام والعمل ، أما الاتحاد فظل يضغط على أعصاب السبورات (جمع سبورة التى تكتب عليها بطباشير المدارس) ويدخل أناشيد خالى أحمد خميس الذى نجح فى اختراق قارة قبلى البلد ويجالس العمد والأعيان بعد ارتدائه الشرخ (أى القفطان المفتوح) ، حيث يلقى قصائده الفاخرة عند حلول مفتشى المعارف ومديرى المديريات لمدارس قريتنا ، وبالتالى فقد ظل الاتحاد لايعنى عندنا اتحاد الشعب بطوائفه وأديانه وشرائحه ، بل اتحاد قلوب العشاق فى الشجن المتألق تحت النخيل ووراء الحوائط والأفراح ذات الغوازى الراقصة ، أما النظام فلم نكن نجيد الفوضى حتى تسعى للنظام ، حياتى – أنا بالذات – هائمة فى الأفاق الممتدة وسط الحقول وبنات ذيل القط والترع الملتفة فى رونق النهر الخالد لأبن عمنا محمود حسن إسماعيل على شواطىء الإبراهيمية والبدرمانية والديروطية والشريفية وبحر يوسف – إضافة إلى أنواع أخرى من الترع الغلبانة : الرياح والمصرف والدلجاوى – هل رأيت أو سمعت فى حياتك عن قرية تحتضنها الترع والقلوب العاشقة المظلومة مثل قريتنا ؟ ، وهو مايؤدى إلى العنصر الثالث الذى جاء به جمال عبدالناصر : العمل ، ونحن نمتلك عدداً مذهلاً من الطبقات يفوق ما ورد عند كارل ماركس وانجلز وسلامة موسى ومحمود أمين العالم ودعاء كروان طه حسين مع إضافة نوال السعداوى وعبدالرحمن الشرقاوى وكامل زهيرى ، الطبقة العليا تملك وتحكم وتلعب القمار وتتابع فى إدراك جميل وقوى كافة أنواع الحشيش والغوازى والجنس والمرح المتألق فى الكئوس ، وقد وضعناهم فى صفوف الإقطاع دون انطباق هذه الصفة عليهم لأسباب ضمور الملكية الزراعية للحدود التى تجعلهم فى مسافة نائية عن الحاجة ، واتساع ذات الملكية الزراعية التى يستمتعون بها حتى أنهم يهتمون بمبانى المساجد والكنائس والعطف على اليتامى والمعوزين – مع الزيارة السنوية الضرورية لمستعمرات الفن واللهو فى العاصمة عند بديعه مصابني وصفية حلمى فى مواسم الانتهاء من جنى القطن وإقامة الليالى المزدهرة بالطبول والانشاد الدينى والأذكار واللحوم والبسبوسة والهريسة والبسيمة والفولية ، ثم الطبقة التى تليها ومنها ما تسمح ظروفه بمصادقتهم من كبار الموظفين والأقل منهم شأناً فى امتلاك الأراضى ، ثم ما تسمح ظروفه بمجالستهم فقط بصفتهم تابعين يبتسمون موافقين فى إعجاب ممتثل ، ثم من يكون راغباً فى التطوع لخدمتهم دون أى مقابل سوى مواقعة بواقى الموائد، بعدها أناس يعملون فى حقولهم – وبعضهم فى حقول الآخرين ، وعدد كبير من ذوى المهن : نجارين وحدادين

ومصلحى كلوبات (جمع كلوب) وفراشى المدارس وعـمـال المجلس البلدى (القروى) والخـفـراء والحمارين (الذين يعملون مع حميرهم بالأجرة) والجمالين وعمال الأرض - وهم غير الفلاحين ، وعمال الفواخير أصحاب الدراية فى تحمير الطوب وصناعة الأباريق والقلل والمناطيل (جمع منطال - كوز من الفخار) والأزيار والمواجير ، ثم عدد محدود يتاجر فى السكاكين ويصلح أنواعاً من الأسلحة النارية ، مع عدد آخر من صناع الأحذية والمراكيب والشبشب ، ثم واحد أو إثنان فى كل مربع متخصص فى طلوع النخل وتقليمه ومراعاة الناتج من البلح منذ نعومة بوادر النينى (بواكير البلح) حتى يصبح رطباً جنياً .

بداية العزة والكرامة

وكنا فى حالة هابطة فقيرة بالغة الرثاء عندما جاء جمال عبدالناصر ، (دعك من ظهور محمد نجيب بعض الوقت) ، فقررنا - كعادتنا - أن نردم على كل ما مضى ، وبدأت العزة والكرامة تبدو على وجوهنا التى عبثت فى محتوياتها أنواع من الأنيميا الواضحة ، لقد جاء فى الوقت المناسب كى يوقف - ثم يحطم كل الإقطاع والظلم والبؤس الذى حال دون الكثير من دخول المدارس الأميرية - التى بالبندر فى ديروط مقر السلطة الإدارية ، وإنى أقر هنا أن ملكيتنا المسكينة نحن آل مستجاب - كانت أحسن من غيرنا ألف مرة ، لكنها لم تكن تتيح لنا أن نأكل ونشرب خلال الوجبات الثلاث المعهودة ، ولا نستطيع أن نطبخ سوى مرة أو مرتين كل دهر من الدهور ، وقد رقصنا فى الشوارع ، كل ديروط الشريف رقصت فى الشوارع إبتهاجاً بجمال عبدالناصر العظيم ، والذى - بعد أن أطلعنا على مبادىء الثورة القائمة على الاتحاد والنظام والعمل - أثار فينا هذا التحدى التاريخى المشار إليه فى الكتب ، ليقف معنا ضد الظلم - والصحيح أن نقف معه بعد أن أوقظنا ، وأثبتت التجارب أننا على المستوى المطلوب : فى العشق والسمر والوصول إلى غرف الحشيش والتعامل مع آمين أبوعلة أشهر المشرفين علي أنواع الخمور فى ذلك العصر ، وانفتحت المدارس والعقول والنوافذ والأناشيد ، وبالذات ما أحسست به أنا بصفتى ولدت آخر ساعات يوم يوليو ١٩٣٨ - لأستقبل صباح ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ مبتسماً فخوراً شديد الزهو لقدرة أمى على إنجاب الذكور ، بعد أن فشلت فى هذا الأمل الأبوى فى الأحقاب الماضية بسبب إنجابها الهادر للإناث .

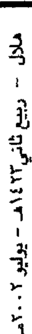
وهو ما أدى بى إلى أن أقف مع جحافل الجماهير فى أكتوبر ١٩٥٤ أنتظارا لعضو مجلس قيادة الثورة محمد أنورالسادات ، الذى جاء ممثلاً للثورة العظيمة ضد الاستبداد والإقطاع مناديا بالحرية والاتحاد والنظام والعمل والسيطرة على الزمن أو الزمان وكان ذاك اليوم عظيماً ، وجاء السادات قوياً وشامخاً وشديد الصلابة ، ليستقبله بحفاوة - على رأس القوى الشعبية - أفراد من الطبقة الأولى التى أشرت إليها ، وأصطحبوه إلى قصر إسماعيل بك كامل ذى الحدائق الرائعة ، ووقفنا نحن - فى سعادة لا نهاية لها - خارج القصر والحدائق - نمور ونثور ونجلجل بآيات الاحتفاء والاحتفال .. دون أن نتنبه للزمن .. أو الزمان . ■



الطريق إلى
لدستور ؟! ..

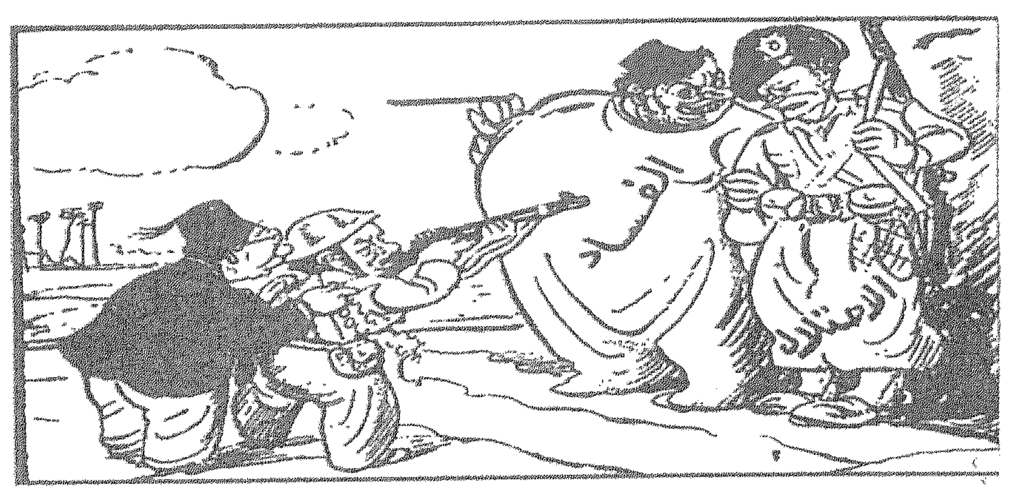
الكاريكاتير

٥٠ عاماً من السخرية


الهلال - ربيع ثاني ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م

لم يكن فن الكاريكاتير يوماً مجرد هزل ولا ضحك أو ترفيه.. بل تعدى ذلك .. فهو النكتة الساخرة اللاذعة التى تدمع العين لا من شدة فكاهتها بل لقوة تأثيرها وقربها اللصيق بالقلب.. وهو الصرخة الجريئة فى وجه الخطأ بمختلف أشكاله ..

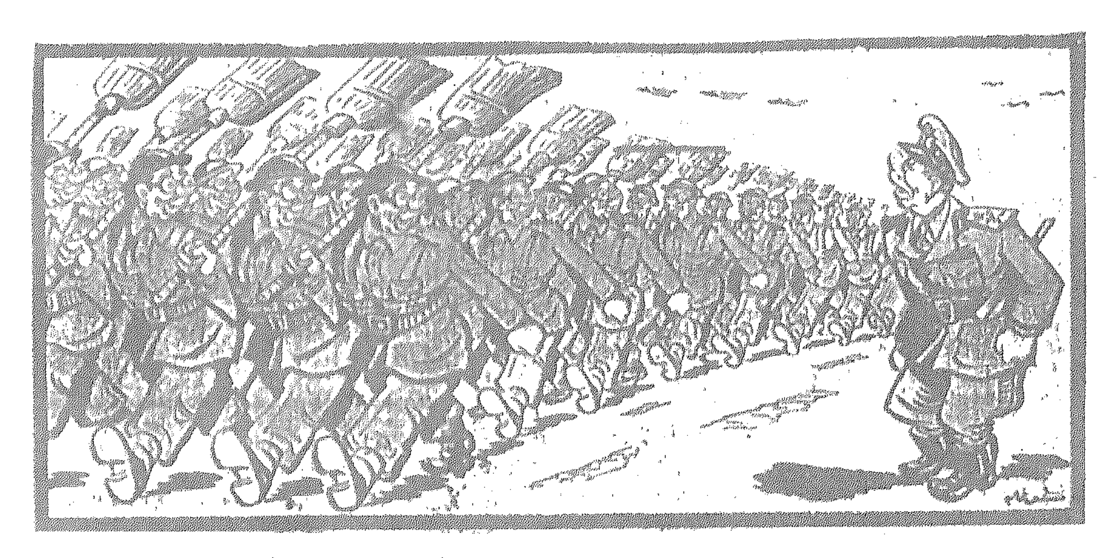
وفى مصر لعبت رسوم الكاريكاتير دورها باقتدار خلال أشد الأزمات التى تعتصر البلاد، فكانت وقود الشعب، واللهيب الذى يشعل الثورة على الظلم والفساد والقهر.. فقادت ثورة من نوع خاص على جميع الأوضاع التى لا يرضى بها الشعب .. فكانت نقطة النور التى تكشف



المصرى أفندى - اضرب الأثنين مرة واحدة .
لأنك لو سبت واحد راح يضربك ويضربنى

كل تفاصيل حياتنا الرقيقة بما فيها من عيوب وأخطاء بلا رتوش أو مجاملة، وتنقدها وتعرى قبحها.. فلم تسلم شخصيات مجتمعنا من ريشة فنانى الكاريكاتير الساخرة ، فلا رئيس الدولة ولا رئيس الوزراء أو حتى الموظف البسيط أو المرأة العاملة أو الزوج المطحون أو حتى ربة البيت المتسلطة أو الخادمة المغلوبة على أمرها. إلا وتناوله فنانو الكاريكاتير بالنقد اللاذع والهادف، ومن يتأمل تلك الرسوم قبل ثورة ١٩٥٢ لا يستطيع إغفال انتقاداتها اللاذعة ضد الفساد الملكى والحزبى المتفشى فى مصر.. ومع اندلاع ثورة يوليو لم تخفف رسوم الكاريكاتير من وتيرتها الساخرة .. فملأت الصحف والمجلات ضجيجاً وسخرية.. فكانت الريشة التى ألهبت قلوب الشعب المصرى بتأييد الثورة وقراراتها وجعلت منها ثورة شعبية سلاحها الكاريكاتير.

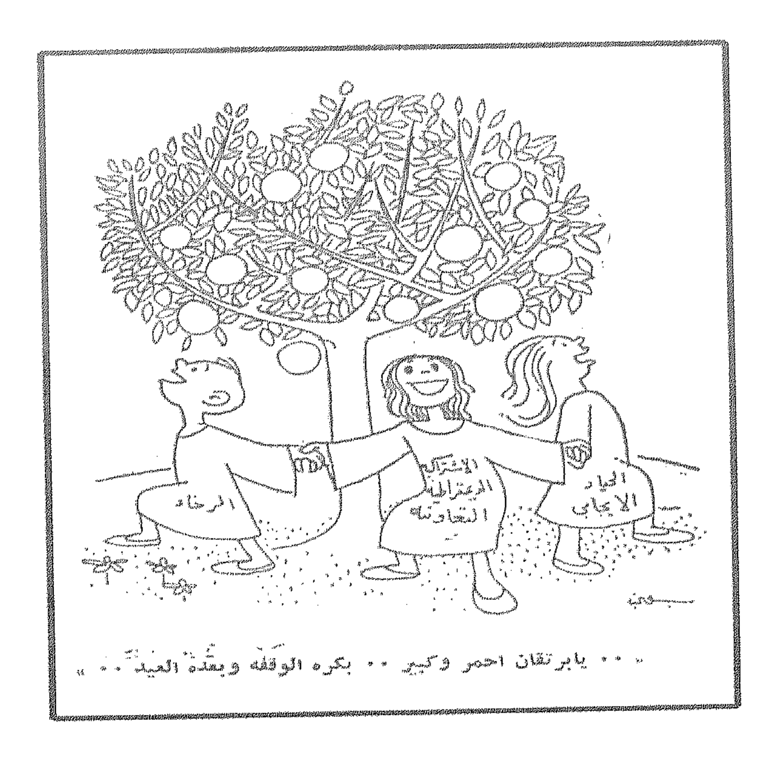
وبالطبع لا نستطيع أن نغفل رواد هذا الفن الجميل الذين رسخوا قواعده على صفحات مجلاتنا وجرائدنا. فمن منا ينسى صاروخان بعبقريته اللاذعة فى التعبير عن مرارة أوضاع الفقراء.. أو خطوط صلاح جاهين الرشيقة وكلماته التى تمس شغاف القلب.. أو رسوم بهجت عثمان الأنيقة ذات الشفافية.. ولا جرأة وجسارة رسوم عبدالسميع.. وفروسية «رخا» فى محاربة الفساد ولا شخصيات أحمد حجازى الذكية ولا حماسة وصدق رسومات زهدى .. وغيره من الرسامين الذين أخرجت ريشتهم رسومات ساخرة ثائرة أضحكتنا على عيوبنا وأخطائنا ضحك يصل إلى حد البكاء .. فدخلت تاريخ الصحافة وقادت حربا شاملة بلا هوادة على الجهل والظلم والاستكانة ! ■



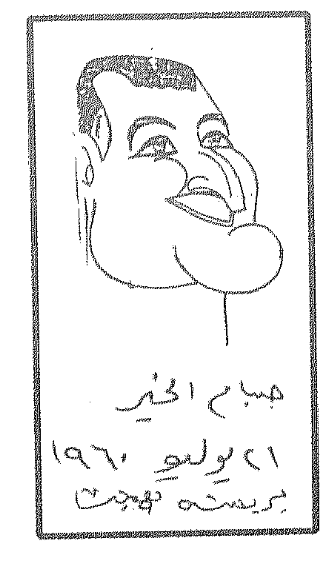
لواء "الكنس والتطهير"

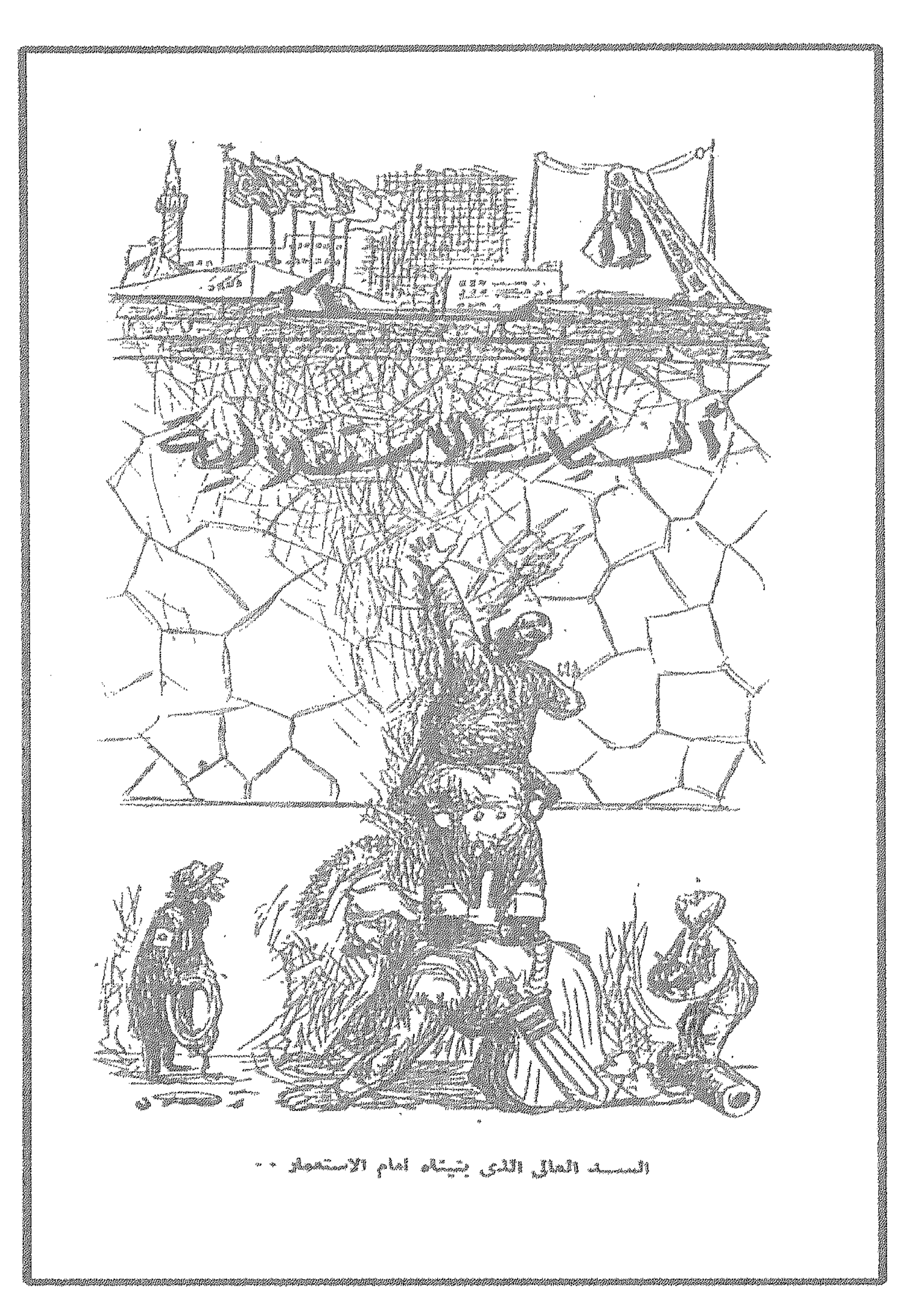
الماريشال المصري أفندي : إلى الفساد السياسي ... مارش!

الأخبار ٨ أغسطس ١٩٥٢



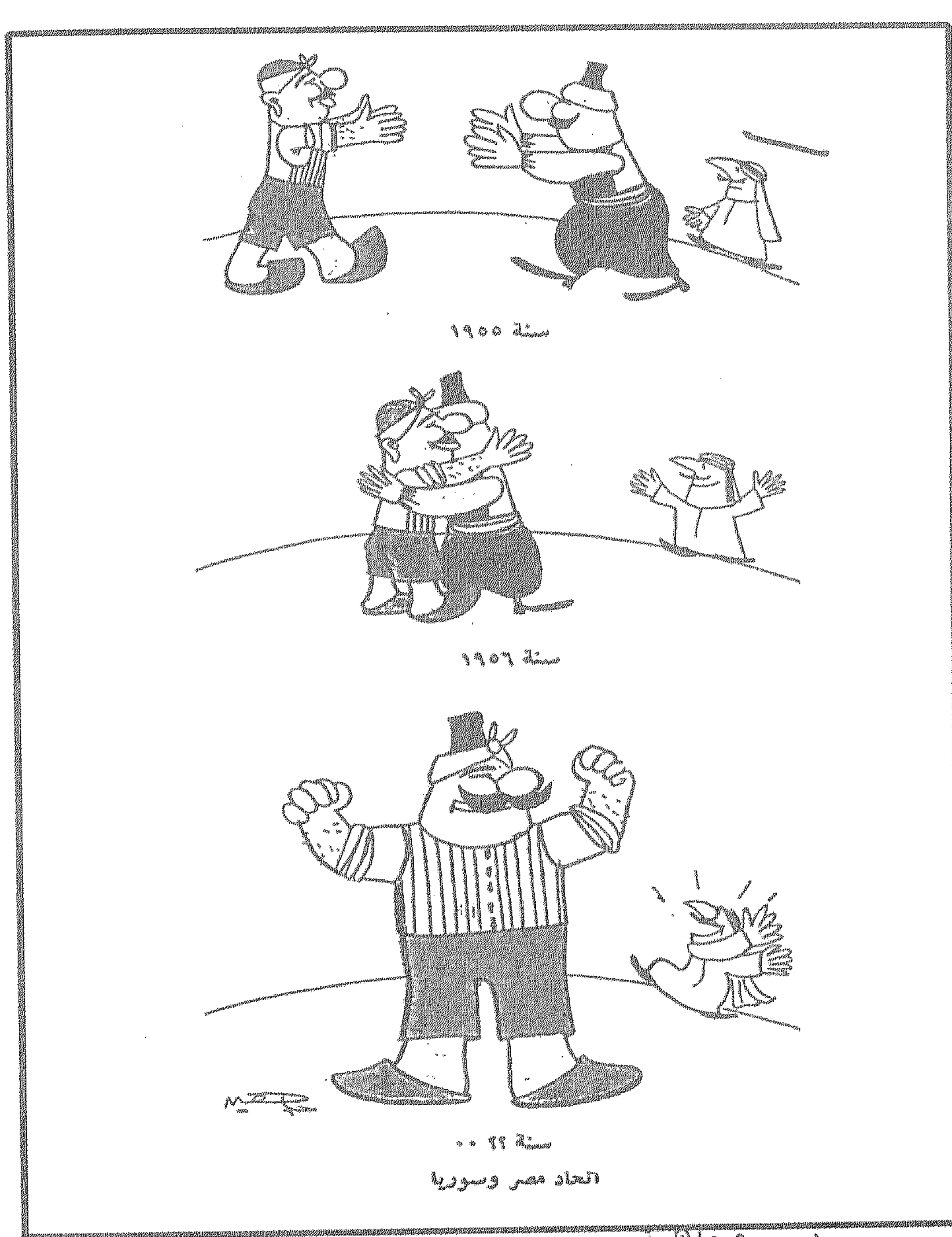
".. يابرتقان احمر وكبير .. بكره الوقفه وبعده العيد .."





السد العالي الذي بنيناه أمام الاستعمار ..

صباح الخير – ١٦ فبراير ١٩٥٦



سنة ١٩٥٥

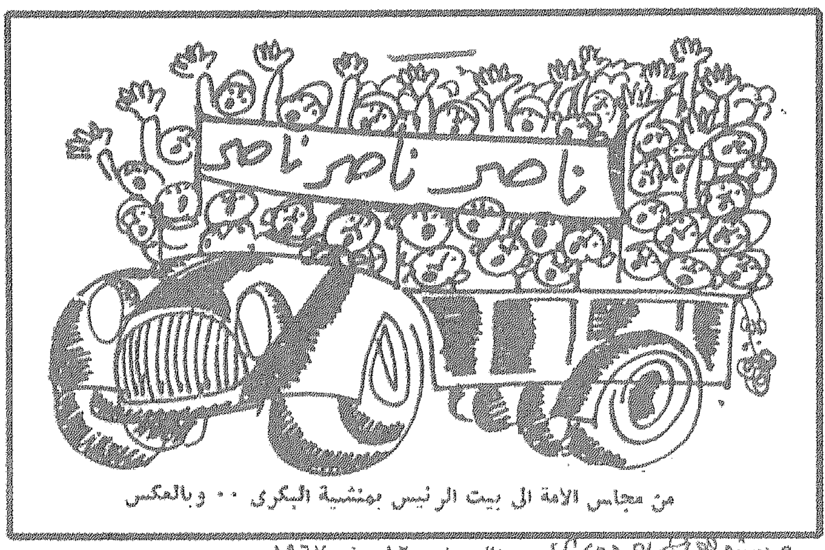
سنة ١٩٥٦

سنة ؟؟ ٠٠

اتحاد مصر وسوريا

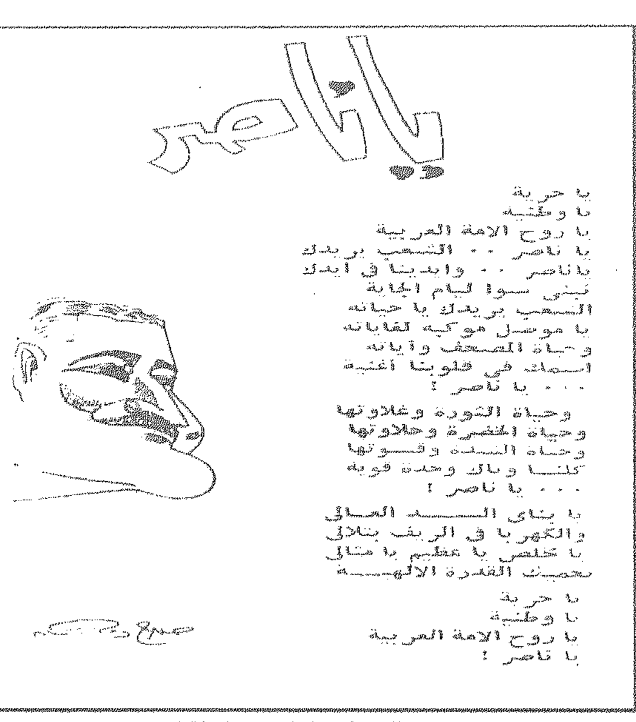
رسم صلاح جاهين

صباح الخير – ٥ يوليو ١٩٥٦



من مجلس الامة الى بيت الرئيس بمنشية البكرى .. وبالعكس

روزاليوسف - ١٢ يونيو ١٩٦٧



روزاليوسف - ١٢ يونيو ١٩٦٧



وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

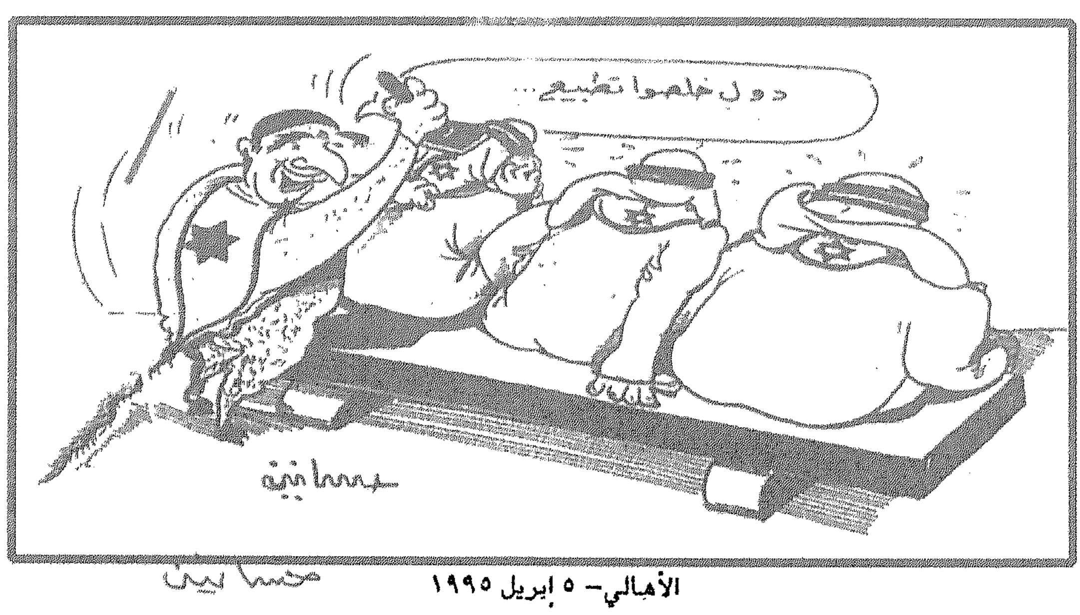
جزارة المعلم

- إتفضل ..
- متشكر يامعلم .. بطلتها هى والسجاير ..!!

ناجى



- احنا ما عملناش اى حاجة ضد روح كامبديفيد .. بالعكس احنا بنطلعها !



الأهالي– ٥ إبريل ١٩٩٥

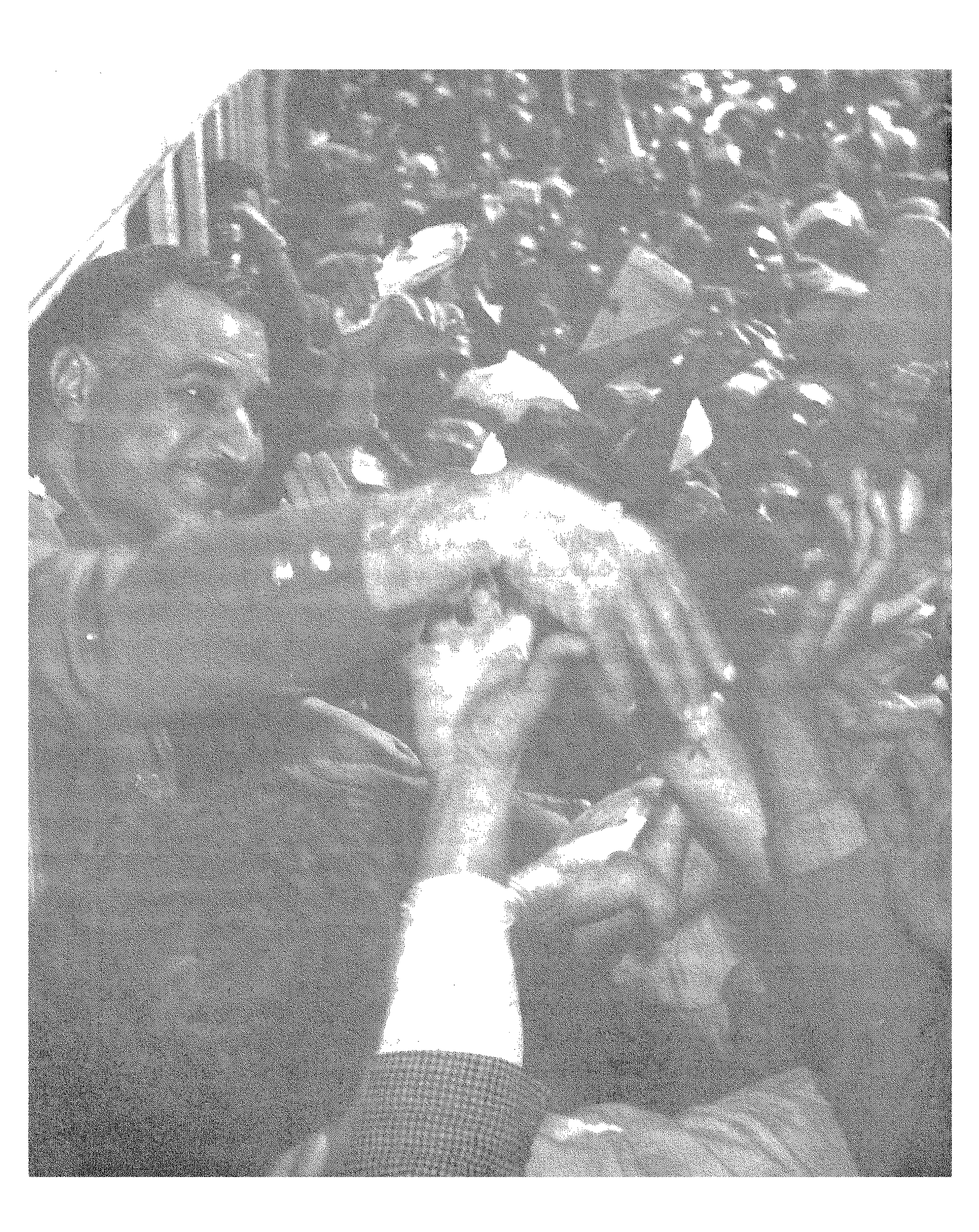
المغزى التاريخى

لثورة يوليو

بقلم : د. جلال أمين

خلال السنوات الثلاث أو الأربع السابقة على قيام ثورة يوليو ،كان يسود المصريين شعور عام بأن شيئاً لابد أن يحدث. كان يحكمهم ملك فاسد تأتيهم الأخبار كل يوم عن مغامرة جديدة له مع النساء أو على موائد القمار. وفي ١٩٤٨ كان الجيش المصرى مع ستة جيوش عربية أخرى، قد منى بهزيمة منكرة فى فلسطين أعلن بعدها قيام دولة إسرائيل. وكانت الحكومات المصرية تتوالى بسرعة على فترات متقاربة، وكل منها أكثر فسادا من سابقتها، مع تفاوت صارخ فى الدخول، وزيادة سريعة فى السكان، دون أن يبدو من واضعى السياسة الاقتصادية أنهم يأخذون هذه الزيادة فى الاعتبار، بفرض أن كانت هناك سياسة اقتصادية على الإطلاق. والامتيازات كلها، سواء فى المناصب السياسية أو في الحياة الاجتماعية أو الثقافية، تحتكرها نسبة جدّ ضئيلة من السكان، مع وجود حاجز حديدى يمنع ما لا يقل عن سبعين أو ثمانين بالمائة من السكان من القيام بأى دور فى الحياة العامة أو التمتع بطيبات الحياة، ابتداء من التعليم وحتى التصييف .

التوحد الوطنى حول رمز ثورة ٢٣ يوليو ◀



كان هذا إذن هو سرّ ذلك الفرح العظيم الذى استقبل به المصريون خبر قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فقد اعتبرت الغالبية العظمى منهم ما حدث شيئا طبيعيا تماما وضروريا. لقد فوجئنا بالطبع بأن الذى قام بالتحرك وأحدث التغيير هم ضباط الجيش. ولكننا قلنا لأنفسنا : «ولم لا؟ أليسوا مصريين مثلنا ؟ يشعرون بنفس ما نشعر به؟ ومن غيرهم، على أى حال، كان يمكن أن يقوم بهذا العمل الجرىء والحاسم؟»

ليس هذا فحسب، بل كان من الواضح جدا للمصريين، عندما سمعوا بقيام الثورة، ما يجب على الثورة عمله. فهذا أيضا لم يكن هناك خلاف جدى حوله، وهو ما تضمنته مبادىء الثورة الستة المشهورة: القضاء على الاستعمار وأعوانه، القضاء على الاقطاع، القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم، إقامة جيش وطنى قوى، إقامة عدالة اجتماعية، وإقامة ديموقراطية سليمة.

كان كل هذا واضحا وبديهيا. ولكن من المهم أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بكل هدف من هذه الأهداف، سواء تعلق بالسياسة الخارجية أو الداخلية، بالتغيير الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى، كانت هناك عدة احتمالات مختلفة أشد الاختلاف، لما يمكن أن يحدث بشأنه.

ففى السياسة الداخلية، هل يعود الجيش إلى ثكناته بعد أن أدى مهمته العظيمة ويتأكد فقد من إجراء انتخابات نزيهة، أم يستمر الضبّاط فى الحكم؟ وفى السياسة الخارجية، ما الذى سيحدث بعد أن تنجح مصر فى التخلص من الاستعمار الانجليزى والاحتلال؟ هل ستصبح دولة حرة مستقلة، أم تقبل أن تصبح تابعة لأمريكا؟ أم لروسيا؟ أم تقف على الحياد بين الدولتين؟ وفى سياسة مصر الاقليمية، هل ستتحد مصر مع السودان؟ أم تدخل فى وحدة عربية أكبر، أم تحاول تكوين جبهة مع الدول الأفريقية أو الإسلامية؟

وفى الموقف من إسرائيل، هل سنعقد صلحا ونقبل الأمر الواقع، أم ندخل فى حرب على الفور أم ننتظر حتى نكون جيشا قويا ثم نحارب؟ وفى السياسة الاقتصادية، لاشك أن التنمية ضرورية، ولكن التنمية أشكال وألوان. فهل نركّز على الزراعة أم على التصنيع أم كليهما؟ هل سنعتمد على النفس أم على المعونات الأجنبية؟ على القطاع الخاص أم على القطاع العام؟ وفى التصنيع، هل تكون الأولوية للصناعة الخفيفة أم الثقيلة؟ ونطبق أساليب للإنتاج كثيفة الاستخدام لرأس المال أم للعمل؟

وفى سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية، إلى أى مدى سوف نذهب للتخفيف من حدة التفاوت بين الطبقات؟ هل نطبق اشتراكية من النمط السوفييتى أم الصينى؟ أم نكتفى بإعادة توزيع الدخل عن طريق الضرائب التصاعدية دون إلغاء للملكية الخاصة؟ هل يكون نظامنا هو الاشتراكية أم رأسمالية الدولة؟

★ ★ ★

إنى سوف أزعم فى هذا المقال أن الذى حدد «اختيارات» رجال الثورة فى كل هذه المسائل لم يكن انحيازا أيديولوجيا أو تفضيلات شخصية من جانب هذا القائد أو ذاك، هذه المجموعة من الضباط أو تلك، بل الذى حدد هذه «الاختيارات» كان هو «ظروف العالم».

لم يكن الأمر واضحا لنا على هذا النحو حينئذ، ولكنه الآن أكثر وضوحا بكثير. وهذه سمة

طبيعية، أى أن المغزى التاريخى لأى تجربة لا يتضح إلا بعد مرور فترة من الزمن، هكذا كان الأمر فى تجربة محمد على مثلا، وفى تجربة اسماعيل وفى تجربة طلعت حرب... إلخ. إن مرور الزمن يضع التجربة فى إطارها التاريخى على نحو لم يكن واضحا أبدا أثناء حدوثها، فإذا بالذى كان يبدو اختيارا حرًا، أو محض صدفة، أو نتيجة لاختلاف تافه فى الأهواء والأمزجة، يتضح أنه كان اتجاها ضروريا يصعب جدا تصور حدوث غيره.

ولكنى أريد أن أذهب إلى أبعد من هذا فأحاول أن أحدد السمة الرئيسية لـ «ظروف العالم» خلال الخمسين عاما الماضية، تلك السمة التى حددت إلى حد كبير مسار ثورة يوليو، فإذا بى لا أجد تشخيصا لهذه الخمسين عاما، من وجهة نظر العالم ككل، أنسب من تشخيصها بأنها كانت تمثل «العصر الأمريكى»، أو تمثل بداية هذا العصر.

نعم، لقد كان قد بدأ يتضح، منذ بدايات القرن العشرين، أن الاقتصاد الأمريكى ينمو بسرعة تفوق بكثير سرعة نمو الاقتصاد الأوربى، بما كان يحمل فى طياته أن تصبح الولايات المتحدة القوة الأولى فى العالم، ولكن ظلت بريطانيا وفرنسا طوال النصف الأول من القرن هما الدولتان المهيمنتان فى السياسة الدولية وعلى اقتصاديات العالم، ولم تتسلم الولايات المتحدة مركز القيادة فى العالم إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

★★★

إن معظمنا سوف يتفق، فيما أظن، على أنه لو لم تكن الولايات المتحدة راضية عن قيام الجيش المصرى بحركة سياسية فى ١٩٥٢ ما نجحت هذه الحركة. بل والأرجح أن إحجام القوات البريطانية التى كانت مرابطة وقتها على قناة السويس، عن التدخل لوأد حركة الجيش، كان سببه تدخلا أمريكيا بصورة أو بأخرى. ونحن نعرف أن الملك فاروق كان أول ما فعله عندما فوجىء بدخول الضباط إليه فى ٢٦ يوليو ومعهم وثيقة التنازل عن العرش، هو الاتصال بالسفير الأمريكى تليفونيا للتحقق من أنه راضٍ عما يحدث، فلما تحقق من ذلك وقّع على التنازل. ويروى أحمد حمروش (قصة ثورة ٢٣ يوليو، الجزء الأول: مصر والعسكريون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٣٨ - ٩).

القصة التالية التي حدثت في أوائل سبتمبر ١٩٥٢

«أصدر (مجلس القيادة) قرارا باعتقال ٦٤ سياسيا يوم ٧ سبتمبر دون الرجوع إلى رئيس الوزراء (على ماهر) وأعلن جمال عبد الناصر الخبر» فى اجتماع لمجلس القيادة كان يحضره الدكتور عبد الرازق السنهورى وسليمان حافظ. وتحدد بهذا القرار مصير وزارة على ماهر. وبدأ البحث عن اسم رئيس الوزراء الجديد. ورشح سليمان حافظ الدكتور السنهورى رئيسا للوزراء. ولكن على صبرى همس شيئا فى أذن جمال سالم، وكان حاضرا لهذا الاجتماع باعتباره سكرتيرا لمجموعة الطيران. وقال جمال سالم إنه يجلّ السنهورى ويعرف قدرته ويعترف بجدارته ويثق فى إخلاصه للحركة، كما بدا واضحا فى تأييده لقانون الإصلاح الزراعى، ولكنه يستسيغ الصراحة والإخلاص فى عرض السبب الذى يحمله مرغما على العدول عن ترشيحه. وكان السبب كما قاله جمال سالم هو أن الأمريكان سوف يعترضون

على الترشيح لأن بعض الصحف الغربية نسبت إليه في أواخر عهد الملك السابق وأثناء حكم الوفد أن له ميولا يسارية. واستطرد جمال سالم قائلا إنه رغم يقينه ببطلان هذه التهم فإن مصلحة الحركة - وقد أخذت بعض الصحف في الخارج تتهمها بالشيوعية - تقتضى تفادى كل ما من شأنه أن يستغله الأعداء. ويقول خالد محيى الدين « إن الأمريكيين كانوا قد أبلغوا على صبرى بذلك عندما شعروا باقتراب السنهورى من مجلس القيادة ورجوع الأعضاء إليه في كل مشاكلهم الدستورية، وأجاب الدكتور السنهورى في ثقة هادئة بأنه يقرّ وجهة نظر جمال سالم بعد أن قال إن الذريعة التى استندت إليها صحافة الغرب فى اتهامه بالشيوعية ترجع إلى أنه وقع هو وزملاء له من مستشارى محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة نداء للسلام هو ماعرف فى ذلك الوقت باسم (نداء استوكهولم) ومضمون النداء لايعدو أن يكون دعوة لإقرار السلام العالمى ومقاومة أسباب الحروب. وأنهى الدكتور السنهورى كلامه طالبا الانتقال للحديث عن مرشح آخر، وانتهى الأمر إلى الاقتراح بتعيين محمد نجيب رئيسا للوزراء وسليمان حافظ نائبا لرئيس الوزراء؟» .

وللقارئ أن يتصور كم كان من الممكن أن يتغير مسار التاريخ المصرى فى تلك المرحلة لو افترضنا أن أصبح على رأس الحكومة أمثال الدكتور السنهورى.

لم تكن أمثال هذه القصص معروفة وقت حدوثها، ولكن حتى لو عرفنا بعضها فقد كان فرحنا بالثورة غامرا ورغبتنا جامحة فى أن نتصورها خالية من الشوائب لدرجة منعتنا من أن نفهم فهماً صحيحا تلك المؤثرات الحاسمة التى كانت تجرى وراء الكواليس. فإذا تأملنا الآن ما حدث خلال الخمسين عاما الماضية أدركنا إلى أى حد كان هذا الذى حدث متأثرا بهذه السمة الأساسية لهذه الفترة، وهى أنها كانت تمثل فى الحقيقة الخمسين سنة الأولى من «العصر الأمريكى».

هل كان من قبيل الصدفة مثلا أن تتخذ الثورة المصرية فى ١٩٥٢، ضد الفساد السياسى والاقتصادى، شكل الانقلاب العسكرى، وهو، كما ظهر فى انقلابات أخرى قبله وبعده، الطريقة المفضلة لدى الأمريكيين لإحداث التغيير المطلوب فى دول العالم الثالث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية؟ وهل كان من قبيل الصدفة أن يكون أول قانون للإصلاح الاقتصادى الاجتماعى يصدر بعد الثورة هو قانون الإصلاح الزراعى، وقد كان الإصلاح الزراعى فى ذلك الوقت هو شكل الإصلاح المفضل عند الأمريكيين عندما يتعلق الأمر بالدول المتخلفة كطريقة للحد من انتشار الشيوعية؟ وهو إصلاح يقوم على توسيع نطاق الملكية الخاصة للأرض لا على إنشاء مزارع مملوكة للدولة يعمل فيها المزارعون كأجراء. بل وهل كان من السهل حقا أن نتصور أن توقع بريطانيا اتفاقية الجلاء عن مصر فى سنة ١٩٥٤ وأن يتم الانسحاب فعلا فى ١٩٥٦ بعد ٧٤ عاما من الاحتلال، ومن دون ضغط من الولايات المتحدة عليها بالانسحاب؟

قد يقال إن هذا التشخيص قد يكون مقبولا للسنوات الأولى من حياة ثورة يوليو، ولكن كيف يمكن القول به عن السنوات التالية؟ كيف يمكن أن نستخدم وصف «العصر الأمريكى» على عصر شهد كل هذا الاصطدام بين الإرادة المصرية

والإرادة الأمريكية، وكل هذا التحدى من قادة ثورة يوليو للمطامع الأمريكية فى المنطقة؟

وأنا أطالب القارئ ببعض التروّى وعدم التسرع. فدعنا نعترف أولا بأن الفترة التى قد يثور حولها الشك فى مدى ملاءمة وصف «العصر الأمريكى» لها، من بين الخمسين عاما الماضية، هى فترة لا يكاد يزيد طولها على عشر سنوات، وهى الواقعة بين منتصف الخمسينيات ومنتصف الستينيات، أى منذ اشتراك مصر فى مؤتمر باندونج وعقدها صفقة الأسلحة التشيكية فى ١٩٥٥، وبين إخطار الولايات المتحدة لمصر فى ١٩٦٥ بأنها ستتوقف عن إعطائها المعونات الغذائية ثم شن إسرائيل هجوم ١٩٦٧ على مصر بتأييد ودعم الولايات المتحدة، قبل هذه الفترة لم يكن هناك صدام بين الثورة وبين الولايات المتحدة، وبعد انتهاء هذه الفترة كان من الواضح أن الولايات المتحدة قد أخذت تتخذ موقف الهجوم مما سمح لها شيئاً فشيئاً بإخضاع مصر لإرادتها.

فإذا تأملنا هذه الفترة (٥٥-١٩٦٥) وجدنا أن من الواجب الاعتراف ببعض الحقائق التى قد لا تجعل استخدام وصف «العصر الأمريكى» مرفوضا تماما، ففى هذه الفترة اتخذت قيادة ثورة يوليو الكثير من الإجراءات الوطنية والقومية مما يتفق تمام الاتفاق مع آمال المصريين والعرب، ولكن بعضا من أهم هذه الإجراءات كان يتفق أيضا، فى تلك المرحلة، مع مصالح الولايات المتحدة. إنى أقصد بذلك مواقف من نوع مساعدة ثوار الجزائر ضد فرنسا، والعراق ضد بريطانيا والأردن ضد وجود القائد البريطانى جلوب، ولبنان ضد كميل شمعون وممثلى النفوذ الفرنسى. بل أو لم تحقق فكرة الثورية العربية نفسها مصالح مهمة للولايات المتحدة فى العشر سنوات المنقضية بين منتصف الخمسينيات ومنتصف الستينيات، كوسيلة للتخلص من النفوذ البريطانى والفرنسى من ناحية، ولإقامة سد مانع ضد انتشار النفوذ السوفييتى والفكرة الشيوعية ، من ناحية أخرى؟

إنى أعرف أن هذا الكلام يمكن أن يؤخذ بمعانٍ مختلفة ويحمّل أكثر مما يحمله من معان . ولكن هل من الصعب على المرء أن يميز تمييزا صارما بين اتفاق ظاهرة أو سياسة ما مع بعض مصالح الأعداء وبين ما إذا كانت هذه الظاهرة أو السياسة فى حد ذاتها نبيلة وجديرة بالاحترام وفى صالح الأمة نفسها؟ إنى مثلا لم أفقد، فى أى مرحلة من حياتى، إيمانى بالثورية العربية وضرورتها لتحقيق نهضة عربية حقيقية ، سياسية واقتصادية وثقافية، ولم أشعر قط بأى تعاطف مع أعداء فكرة القومية العربية أو ناقديها أو الساخرين منها أو المقللين من شأنها . ولازلت أعتبر أن صورة من صور الوحدة العربية لا غنى عنها لتحقيق هذه الأمة لآمالها. فهل يتعارض أى شىء من هذا مع الاعتقاد بأن الولايات المتحدة كان من مصلحتها تشجيع حركة القومية العربية لفترة ما لتحقيق مصالح خاصة بها على أن تقوم بضربها فى وقت لاحق وقبل أن تصبح تهديدا حقيقيا لهذه المصالح ويصبح من الصعب استئصالها؟

ألم يحدث شىء شبيه جدا بهذا خلال الحرب العالمية الأولى، عندما أيدت الحكومة البريطانية بشدة ، بل وشجعت بقوة، قيام ثورة عربية ضد الأتراك «تحقيقا لمآرب بريطانيا الخاصة» فقدمت مختلف الوعود البراقة للشريف حسين فى مكة بدعمها لقيام خلافة

عربية مستقلة بمجرد انتهاء الحرب، ثم نكصت عن كل هذه الوعود بعد ذلك؟ هل يتعارض الإيمان بضرورة ومزايا إقامة دولة عربية موحدة مع الاعتراف بأن بريطانيا كانت تدعم الفكرة وتؤيدها في ذلك الوقت؟

أو فلننظر إلى سياسات الثورة الاقتصادية. لقد قبلت حكومة الثورة فى البداية مشروع النقطة الرابعة الأمريكي، وهو الصورة الأولى من صور المعونات الأمريكية الخارجية فى أعقاب الحرب الثانية. ثم قبلت حكومة الثورة أن تعتمد على المعونات الغذائية الأمريكية، اعتمادا كبيرا، فيما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٥ وقبل أن تتوقف تماما فى ١٩٦٧. فهل كان هذا الاعتماد على المعونة الأمريكية ضروريا حقا لتحقيق التنمية السريعة فى مصر. من وجهة النظر الاقتصادية البحتة؟ لا أعتقد ذلك بالمرة.

فالحقيقة أنه كان من الممكن جدا لمصر، ودون تضحيات جسيمة فى ذلك الوقت، أن تحقق تنمية سريعة دون الاعتماد على القمح وسائر السلع الزراعية الأمريكية. كان هذا أسهل بكثير مما أصبح فى السبعينيات أو الثمانينيات، بعد أن أدمنت مصر هذه المعونة، وأسهل بكثير أيضا منه الآن.

بل إن مفهوم التنمية نفسه، الذى تبنته الثورة، كان له سمات أمريكية واضحة، بمعنى ملاءمته للأغراض الأمريكية فى المنطقة. لقد تبنت الثورة نفس فلسفة التنمية التى شاعت فى الخمسينيات والستينيات وروجت لها منظمات الأمم المتحدة، وقبلناها نحن دون تروٍ، ثم تبين لنا فيما بعد أنها تقوم على مفهوم خاص جدا، ليس هو المفهوم الوحيد ولا هو بالضرورة المفهوم الأصلح لنا. لقد قبلنا تعريف التنمية بأنها زيادة متوسط الدخل، وليس إشباع الحاجات الأساسية للناس، والأمران مختلفان. إذ من الممكن أن تنجح فى تحقيق الأول نجاحا باهرا وتفشل فى الثانى، كما أن من الممكن أن تنجح نجاحا باهرا فى تحقيق الثانى مع تقدم بسيط فى رفع متوسط الدخل.

إن تبنى هذا المفهوم للتنمية دون تروٍ هو الذى سمح باتخاذ سياسات اقتصادية تقوم عى تدليل الطبقة الوسطى وتشجيع استهلاكها لكثير من السلع والخدمات الترفية والكمالية بدرجة أكبر بكثير مما كانت تبرره مستويات المعيشة السائدة فى ذلك الوقت لغالبية المصريين، من أجهزة التكييف إلى السيارات إلى إنشاء المصايف الجديدة اللائقة بالطبقة المتوسطة الجديدة حتى قبل أن تشبع بعض الحاجات الأساسية لأقل الناس دخلا.

نعم لقد حدث خلال الخمسينيات والستينيات تقدم كبير فى مستويات التغذية والتعليم والإسكان حتى لشرائح الدخل الدنيا، خاصة إذا قورن هذان العقدان بالعقود التالية لهما، ولكن كان من الممكن أن يحدث تقدم أفضل بكثير فى كل هذه الأمور «ولو فى مجال محو الأمية مثلا» لو كانت الإرادة المصرية حرة حقا فى تشكيل السياسة الاقتصادية.

كان تبنى هذا المفهوم الخاطىء للتنمية هو أيضا الذى سمح بإنفاق أكبر من اللازم على شراء الأسلحة وبالاستخدام الكثيف لرأس

المال بدلا من الاستخدام الكثيف للعمل، بل وسمح أيضا باستمرار فقدان النظام السياسى لدرجة معقولة من الديمقراطية.

كل هذا لم يكن إلا نمطا معينا من الأنماط الممكنة للتنمية، تقدمت به مصر، بلاشك ، خلال الخمسينيات والستينيات، خطوات كبيرة إلى الأمام، وبدرجة أعلى بكثير مما حققته مصر فى العقود التالية، سواء من حيث معدلات التصنيع وتغير الهيكل الإنتاجى، أو من حيث إعادة توزيع الدخل، ولكن كان يعيبه عيبان أساسيان ، كان كلاهما يتلاءم مع المصالح الأمريكية فى ذلك الوقت وهما.

١ - الاعتماد الكبير على المعونة الأمريكية.

٢ - رضوخ غير مبرر للمطامح الاستهلاكية لدى الطبقة المتوسطة.

لقد تفاقم هذان العيبان فى السبعينيات والعقدين التاليين لهما، فزادت المديونية للولايات المتحدة وللغرب عموما بمعدلات مذهلة، كما اشتدت قوة النزعة الاستهلاكية لدى أصحاب شرائح الدخل الوسطى من المصريين، بدرجة مذهلة أيضا، الأمر الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه الآن، من مختلف أوجه الضعف فى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء.

إن قراءة ما حدث يمكن أن تؤدى بنا إلى اتخاذ أحد موقفين:

موقف يؤكد على أوجه الاختلاف المهمة بين المرحلتين، مرحلة الخمسينيات والستينيات من ناحية، والمرحلة التالية لهما من ناحية أخرى، وإلقاء اللوم كله، أو معظمه، فيما حدث للاقتصاد والمجتمع والسياسة المصرية على إحدى المرحلتين دون الأخرى، وموقف آخر ينظر إلى المرحلتين باعتبارهما حقبتين متتاليتين من نفس العصر، لم تتمتع مصر خلال أى منهما بحرية حقيقية فى الحركة، أو باستقلال كبير فى الإرادة، وإن كان من الممكن أن نعترف للمرحلة الأولى بأن حرية الحركة فيها كانت أكبر واستقلال الإرادة أوسع، بسبب ظروف الحرب الباردة (خاصة فى الفترة ٥٥ - ١٩٦٥) والتى طرأ عليها تغير كبير ابتداء من منتصف الستينيات. وهذا القدر الأكبر من حرية الحركة هو الذى سمح فى رأيى بأداء أفضل فى الخمسينيات والستينيات، فى كل ناحية من نواحى حياتنا، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بل والسياسية أيضا، بالمقارنة بالعقود التالية عليهما.

هذا الموقف الثانى، الذى ينظر إلى الخمسين عاما ككل، ويؤكد على أوجه الشبه بين المرحلتين بدلا من أوجه الاختلاف، هو فيما يبدو لى الموقف الأنسب ونحن نحاول، فى سنة ٢٠٠٢، تأمل حقبة نصف القرن بأكمله، أملا فى اكتشاف المغزى التاريخى لهذه المرحلة بأسرها. فإذا فعلنا ذلك فإنى لا أجد تشخيصا أفضل لهذا العصر بأكمله أنسب من تشخيصه بأنه كان «العصر الأمريكى» ، أو الخمسين سنة الأولى من هذا العصر. ■

العلاقات الأمريكية المصرية

من ثورة يوليو إلى مباحثات السلام

بقلم السفير: د.رضا شحاته

خمسون عاما تمر اليوم على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وفى عام ٢٠٠٢، نستذكر أيضا خمسة وثلاثين عاما على حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧، وما يقرب من ثلاثين عاما على حرب أكتوبر ١٩٧٣، وخمسة وعشرين عاما على رحلة الرئيس السادات إلى القدس فى أكتوبر ١٩٧٧.

معالمنا التاريخية الكبرى فى مصر إما ثورات وإما حروب ولكل من الثورات والحروب على أرض مصر آثارها البعيدة والعميقة فى تطورنا السياسى والاجتماعى وفى مسيرتنا العربية والدولية.

ووراء ثورة يوليو وما بعدها حتى حرب ١٩٥٦ ثم منذ حرب ١٩٦٧ وما تلاها من آثار لم نزل نعيشها إلى اليوم بل ووراء حرب ١٩٧٣ والزلزال الذى أحدثته فى الشرق الأوسط وآثارها الاستراتيجية حتى مبادرة السلام عام ١٩٧٧، وراء كل هذه الثورات والحروب نقرأ ونرى على الخلفية دائما صورة أمريكا وسياستها ومواقفها تجاه مصر، تجاه عبدالناصر فى ثورة يوليو وتجاه حرب ١٩٦٧، وتجاه السادات فى حرب ١٩٧٣ ومبادرته عام ١٩٧٧، وتجاه مصر مبارك منذ عام ١٩٨١.

وعلى خلفيات علاقات أمريكا بقادة مصر فى يوليو ٥٢، ويونيو ١٩٦٧، وأكتوبر ١٩٧٣ وأكتوبر ١٩٧٧، وحتى حين عقد مؤتمر مدريد للسلام، نقرأ دائما ونرى صورة علاقة أمريكا بإسرائيل منذ ما قبل ثورة يوليو وإلى اليوم، تلقى بالظلال على كل زوايا علاقات مصر بأمريكا وعلاقات أمريكا بمصر والعرب والشرق الأوسط.

★★★

منطلقات السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط، ومن ثم نحو مصر، قبيل ثورة يوليو، هى فى الجوهر، منطلقات استراتيجية نحو منطقة بكل أبعادها، الموقع، والثروات، وخطوط النقل، والإطار الدولى السائد عندئذ، وهو سياق ومناخ الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية وإطلاق مبدأ ترومان فى ١٢ مارس ١٩٤٧ لمواجهة التهديد السوفييتى للشرق الأوسط، ونذر الصراع العربى الإسرائيلى وهى كلها عوامل إقليمية ودولية تضافرت لتدفع بالشرق الأوسط إلى دائرة الاهتمام المباشر فى الاستراتيجية الأمريكية العالمية والإقليمية بعد الحرب العالمية الثانية.

طبيعة المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط تستمد فى الأساس من الواقع الاستراتيجى للمنطقة، من حيث صلتها بالأمن العالمى، وبحكم موقعه شرق البحر المتوسط، والبحر الأحمر والخليج فى حركة المواصلات البحرية والجوية والبرية بين الشرق والغرب، يضاف إلى ذلك إمدادات النفط والطاقة التى تمثل عصب القوة الاقتصادية لأوروبا الغربية والولايات المتحدة، ويختزل موقع مصر أحد أهم الدول فى المنطقة كل هذه العناصر، بحكم سيطرتها على قناة السويس.

كانت الاستراتيجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، وتجاه مصر قبل يوليو تواجه - فى تقديراتها - عدة مصادر تهديد، أو أخطار أولها، الخطر الشيوعى ومن ثم ضرورة احتوائه بوضع منظومة دفاع تفرض مصالحها فى الشرق الأوسط ضد التغلغل السوفييتى، ومن أجل مواجهة هذا الخطر كان على الاستراتيجية الأمريكية أن تعالج عدة مشكلات شبه مستعصية أولها النزاع المصرى البريطانى، ثم الصراع العربى الإسرائيلى.

مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط

الوثائق الأمريكية السرية تشير إلى أن وزارتى الدفاع والخارجية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية انشغلت خلال عام ١٩٥١ ومطلع عام ١٩٥٢ ببحث مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط وشرقى البحر المتوسط، وقد حددت تقارير مجلس الأمن القومى الأمريكى، منذ هذا التوقيت المبكر منذ أكثر من خمسين عاما، حددت لمصر مكانا مفصليا فى أى قيادة أو منظومة للدفاع عن الشرق الأوسط، لكن كل هذه الأجهزة الأمريكية كانت تدرك المحاذير التى تحد من استجابة مصر

للتعاون مع الولايات المتحدة فى خطتها لتحقيق أهدافها الاستراتيجية والدفاعية فى الشرق الأوسط، وأول هذه المحاذير - كما تقول التقارير السرية الأمريكية عام ١٩٥١ - هو شعور المرارة تجاه الولايات المتحدة بسبب المواقف فى فلسطين، بالإضافة إلى النزاع المصرى البريطانى وهو ما يطرح صعوبات خاصة فى تنفيذ التصورات والرؤى الأمريكية للدفاع عن الشرق الأوسط ولعل ما قيل وكتب منذ خمسين عاما أقرب ما يكون لما يجرى اليوم من تطورات وأحداث فى المنطقة (وإن اختلف العدو من التغلغل الشيوعى إلى الإرهاب الدولى).

قبل عام كامل من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وضعت تفاصيل الاستراتيجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وتجاه مصر لتحقق أهدافا محددة من بينها ومن أهمها إدخال مصر شريكا أساسيا فى بناء منظومة الدفاع الإقليمى عن الشرق الأوسط مع ضمان تدفق البترول للغرب وتأكيد استعداد النظام الأمريكى للمشاركة فى الدفاع عن المنطقة ثم تحقيق التعايش بين العرب وإسرائيل (فهل اختلفت الأهداف والوسائل منذ خمسين عاما عما هى عليه الآن؟)

كان دخول مصر فى منظومة الدفاع الأمريكى عن الشرق الأوسط، ثمنا يعرض عليها مقابل المساعدة فى التوصل لاتفاق بين بريطانيا ومصر حول القوات البريطانية لكن مصر - قبل الثورة - وجدت فى مقترحات القيادة المشتركة مجرد امتداد للاحتلال البريطانى ليس بواسطة بريطانيا بل بواسطة دول أخرى لا تعترف بالآمال الوطنية لمصر ولا تضع نهاية للاحتلال لأراضى مصر، وخسرت الولايات المتحدة أولى معاركها لجر مصر إلى الدخول فى خطط الدفاع عن مصالحها الاستراتيجية ، كل ذلك قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ التى كانت لاتزال تدق على أبواب مصر.

السياسة الأمريكية تجاه مصر، قبل الثورة، جعلت تسوية النزاع المصرى الانجليزى مرهونة أو لنقل مشروطة بارتباطها وتعاونها مع قيادة الحلفاء للدفاع عن الشرق الأوسط، لكن مصر حتى قبل ثورة يوليو تمردت على هذا الشرط الذى ينقل إرادتها من التبعية البريطانية إلى التبعية الأمريكية.

ومع ذلك ظلت السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، تتمحور حول أهمية مصر ومكانتها ودورها الإقليمى، وظلت الولايات المتحدة - حتى بعد قيام ثورة يوليو تتابع السير لتحقق هذا الهدف - تسعى إلى تكامل مصر مع منظومة الدفاع الأمريكية الإقليمية فلعبت واشنطن دورا نشطا فى المفاوضات المصرية البريطانية حتى تصبح مصر عنصرا فاعلا فى دائرة الاستراتيجية الأمريكية لتكوين الأحلاف العسكرية، وخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٢ اتخذت الولايات المتحدة من المواقف ما جعلها وسيطا مهما بين

الحكومات المصرية والحكومات البريطانية فى مشاورات متصلة بين واشنطن والقاهرة وكانت مصر فى الحقيقة ترحب بهذا الدور أو بهذه الوساطة الأمريكية من منطلق التقدير الأمريكى لأمن الشرق الأوسط ووصف «صدقى باشا» هذا الدور الأمريكى بأنه تدخل من الدولة التى كانت مصر تعلق عليها دائما الآمال.. وأن مصر تشارك الولايات المتحدة اهتماماتها بالنسبة لأمن المنطقة. لكن مصر تؤكد أن اهتمامها بالأمن يرتبط بضرورة استعادة حريتها.

منذ ما قبل يوليو ومصر لا تساوم ولا تقايض على حريتها مقابل أمنها حتى ولو كان أمنا أمريكيا.

خطوط متوازية

وتحركت السياسة الأمريكية عندما حذرها السفير الأمريكى فى القاهرة (جيفرسون كافرى) من التباطؤ فى المفاوضات المصرية البريطانية ومن مشاعر الغضب التى تجتاح البرلمان المصرى الذى يطالب بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ومقاطعة بريطانيا والهجوم على السياسة الأمريكية والبريطانية فى الشرق الأوسط (هل تقرأ فى ذلك خطوطا متوازية بين تطورات اليوم فى الصراع العربى الإسرائيلى وبين ردود الفعل المصرية والعربية تجاه السياسة الأمريكية عموما) ولم تكن الولايات المتحدة تنظر بعين الرضا إلى إجراء منفرد من جانب مصر بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ولم يكن ثمة ما يهم الولايات المتحدة فى كل جوانب النزاع المصرى البريطانى سوى بقاء قاعدة قناة السويس الحيوية جاهزة ومتاحة للدفاع عن الشرق الأوسط والمصالح الأمريكية أما تحقيق المطالب القومية لمصر بجلاء القوات البريطانية فكان مطلبا ثانويا يأتى فى المرتبة التالية.

وموطن القصور فى السياسة الأمريكية تجاه مصر فى ذلك الوقت أن هدفها الأساسى ظل دائما ليس تحقيق الاستقلال التام لمصر بجلاء القوات البريطانية بل ضمان أمن الغرب شرقى البحر المتوسط وحث مصر على الانضمام لقيادة الدفاع عن الشرق الأوسط لكن مصر رفضت كل هذه المقترحات، وألغت معاهدة ١٩٣٦.

كانت قدرة السفير الأمريكى فى مصر عشية ثورة يوليو فى الحصول على المعلومات الدقيقة الموثوقة قدرة فائقة، فضلا عن قدرته على قراءتها وتحليلها بدقة، وكانت الخارجية الأمريكية فى واشنطن تعلم علم اليقين بمقدمات الثورة فى مصر وقد كشفت نشاطها لمعرفة تحركات الضباط الأحرار وحاولت احتواء آثار الأزمات الداخلية والوزارية المتعاقبة ونصحت بريطانيا بعدم التدخل عسكريا أو التورط فى استخدام القوة وكان اهتمام واشنطن بتطورات الأوضاع فى مصر باتجاه قيادة الثورة مرتبطا باهتمام الولايات المتحدة باستقرار مصر وتأثيرها على أمن الغرب فى شرق البحر المتوسط وعلى المصالح

الاستراتيجية الأمريكية.

أمريكا تنفتح على ثورة يوليو

من الحقائق التاريخية الثابتة الآن بالوثائق التى كشفت عنها دار الوثائق القومية فى واشنطن تلك الظواهر الإيجابية فى ردود فعل السياسة الأمريكية تجاه قيام الثورة فى مصر، وكان للسفير الأمريكى مرة أخرى دور مهم فى رفض مساعى الملك فاروق أو مساعى مرتضى المراغى وزير الداخلية لحث الولايات المتحدة على التدخل العسكرى ، فضلا عن نصيحة (كافرى) للملك فاروق بألا يرتكب (عملا طائشا) عندما اتصل به يطلب إخراجه هو وأسرته من مصر فى حراسة سفينة حربية أمريكية، لكن الخارجية الأمريكية أكدت لسفيرها فى القاهرة ضرورة نصح فاروق بألا يسلك سلوكا طائشا وأن يقول له إن الولايات المتحدة لا تريد التورط، ومؤدى هذا الموقف الأمريكى عمليا أن واشنطن سعت إلى ترك الأمور أمام الثورة لتسير فى مجراها المرسوم دون تدخل من جانب الملك أو البريطانيين، وقد تزامن هذا الموقف مع بدء أولى اتصالات السفارة الأمريكية مع ضباط ثورة يوليو خاصة فى المخابرات العسكرية المصرية (مع عبدالمنعم النجار وسليمان محمود) وتأكيدهما لمسئول السفارة الأمريكية نوايا الثورة فى الداخل والخارج.

فتحت السفارة الأمريكية أبواب الاتصالات والمباحثات بينها وبين ضباط الثورة لجمع أكثر قدر من المعلومات عن الحركة واتجاهات أعضائها وتفكيرهم السياسى حتى تتمكن من إعادة تقييم سياسى متكامل للثورة فى مصر وقد انعكس ذلك فى رد فعل علنى وإيجابى صدر فى تصريح لوزير الخارجية الأمريكى عن (التطورات المشجعة) فى مصر فى الثالث من سبتمبر ١٩٥٢.

لماذا كانت التطورات فى مصر «مشجعة» فى نظر السياسة الأمريكية فى مثل هذا الوقت المبكر؟ تقول الوثائق الأمريكية إن الضباط على صبرى وزكريا محيى الدين ومحمد نجيب فى أحاديثهم مع أعضاء السفارة الأمريكية أكدوا (الطابع المعادى للشيوعية) فى الحركة، وكانت الاتصالات قبل الثورة وفى أيامها الأولى تتم عن طريق قائد الجناح على صبرى والبكباشى عبدالمنعم أمين ويؤكد أحمد حمروش فى «قصة ثورة يوليو» عام ١٩٨٢ هذه الرواية التى نشرتها الوثائق الأمريكية وإن كان «مايلزكوبلاند» فى كتابة الكلاسيكى «لعبة الأمم» الذى اعتمد عليه «حمروش» قد أشار إلى هذه الاتصالات المبكرة بالتفصيل.

كانت أولى أهداف حركة الضباط كما نقلها «عبدالمنعم النجار» إلى الضابط الأمريكى «ديفيد ايفانز» مساعد الملحق الجوى الأمريكى هى «تطهير الجيش من الفساد وطلب المعونة العسكرية من الولايات المتحدة والاشتراك فى قيادة مشتركة مع الحلفاء والقضاء على النفوذ الشيوعى وتأكيد عدم أى تدخل عسكرى ضد الثورة» وقد لعب على

صبرى بصفة خاصة دورا بارزا فى هذه الاتصالات المبكرة لكن مستوى الاتصالات كان يرتقى أحيانا إلى الاتصال مع محمد نجيب وكافرى، الذى كان يؤكد له نجيب «الرغبة فى الصداقة مع الولايات المتحدة» ورفع مستوى معيشة الشعب وتطهير الحكومة من الفساد والأحزاب السياسية وإعادة تنظيم الجيش وبرامج الإصلاح الزراعى حتى أكد له السفير الأمريكى «تعاطفه مع ضباط الحركة وتهنئته له ولزملائه على النظام وعدم العنف وانتهاج سياسة الاعتدال» وأوصى كافرى واشنطن بأن تشيد بالحركة الإصلاحية فى مصر فاستجابت له الخارجية الأمريكية «واعتبرت السياسة الأمريكية هذا التغيير فى النظام فى مصر محققا لأعظم الآمال من أجل الاستقرار وتشجيع الإصلاح الحقيقى».

هكذا كانت السياسة الأمريكية تجاه ثورة يوليو فى أيامها الاولى ذات توجهات إيجابية ترى كما يقول وزير الخارجية الأمريكى «اتشيسون» إن اللحظة مواتية للولايات المتحدة للتحالف مع القوى السياسية للتغيير والإصلاح من خلال برامج التعاون أو كما يقول سفيرها فى القاهرة (كافرى) بتعبير من تعبيراته المجازية يجب أن تكون الولايات المتحدة هى الضمير لمصر تذكرها دائما بأن هنالك فى العالم مشكلات تؤثر على مستقبل مصر (ربما كان يقصد الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية ، والسلام مع إسرائيل).

أعدت الخارجية الأمريكية خلال عام ١٩٥٣ خطة إقليمية لمصر يهمنا أن نشير إلى أنها اليوم وبعد خمسين عاما تكاد تختزل جوهر السياسة الأمريكية تجاه مصر فى مطلع الألفية الثالثة، قامت هذه الخطة على تطوير مواقف مصر لتسهيل التعاون مع الغرب، خلق إدراك لدى مصر بخطورة الاستعمار السوفييتى والتخريب الشيوعى وتنمية الإمكانيات الاقتصادية الاجتماعية فى مصر، كل ذلك من منطلق إسهام مصر فى الدفاع عن الشرق الأوسط من خلال تعاون إقليمى وتعميق إحساس مصر بقوة الولايات المتحدة، والأهم من ذلك كله ومنذ خمسين عاما تشجيع مصر على قبول إسرائيل كدولة والتأكيد بأن السلام مع إسرائيل لا يهدد مصالح مصر.

كانت السفارة الأمريكية تتابع باهتمام خاص صراع عبدالناصر ضد قوى الإخوان المسلمين وما أدى إليه هذا الصراع من مواجهات بين عبدالناصر ومحمد نجيب، ولم تكن التقديرات الأمريكية تخفى ميولها إلى ترجيح كفة عبدالناصر الذى اعتبرته «العقل الحقيقى والشرارة وراء حركة الجيش» وكانت ترى محمد نجيب «رجلا طيبا وأمينا ووطنيا مخلصا ومحبوبا لكنه كان ضعيفا».

وأدركت واشنطن منذ وقت مبكر عام ١٩٥٤ قوة شخصية عبدالناصر حتى قالت فيه «لا الرأى العام العالمى ولا حتى الرأى العام المصرى يدرك مدى قدرة عبدالناصر على التخطيط والتنفيذ

لحركة الجيش وان عبدالناصر وهو ابن ٣٦ عاما كان أطول قامة وأقوى شخصية من محمد نجيب» وصفت الوثائق الأمريكية قدرة عبدالناصر في مواجهة أزمة مارس ١٩٥٤ مع نجيب وعدد من ضباط سلاح الفرسان بأنه «رجل جسور وذكي ولا تؤثر فيه «النكسات» يعتمد على عنصرين هما العمال والجيش داخليا . فضلا عن الاتجاه العالم للحركة التي يقودها للتوصل إلى تسوية سياسية مع بريطانيا مما يفتح الباب أمام المعونة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية لمصر».

تبددت أماني الولايات المتحدة في ثورة يوليو وفي قائدها عبدالناصر لرفض مصر الرضوخ للشروط الأمريكية بالانضمام إلى نظام الدفاع الإقليمي عن الشرق الأوسط، ومنذ ذلك التاريخ في نهاية عام ١٩٥٤ بدأت مرحلة بل مراحل التدهور في العلاقات المصرية الأمريكية وصلت إلى ذروتها في سحب عرض تمويل مشروع السد العالي في ١٩ يوليو عام ١٩٥٦.

ولم تتوقف السياسة الأمريكية في تنفيذ مخططاتها لإنشاء منظومة الدفاع الإقليمي الجديدة عند مصر بل مضت نحو إنشاء حلف دفاعي جديد «حلف بغداد» يضم تركيا وباكستان «ثم العراق» لإنشاء حزام شمالي أثار رد فعل شديد العنف لدى عبدالناصر أدى إلى صدام ومواجهات بينه وبين السياسة الأمريكية.. وكانت أولى نقاط الاحتكاك إنشاء هذا الحلف الجديد المرتبط بحلف الأطلنطي، ثم مشاركة مصر في تجمع «حيادي» جديد عرف باسم. «مؤتمر باندونج» مما فجر صداما بين السياسة الأمريكية التي تقوم على التحالفات العسكرية وسياسة مصر التي تدعو إلى الحياد والاستقلالية في السياسة الخارجية لكن أخطر نقاط الصدام قاطبة كان سعي مصر الحثيث للحصول على السلاح من مصادر جديدة وتوصلها إلى اتفاقية الأسلحة التشيكية في سبتمبر عام ١٩٥٥.

إسرائيل كعقبة

كان عبدالناصر يعارض تحالف القوى الكبرى مع القوى الصغرى مما دفع إلى المزيد من التدهور بين أمريكا ومصر في هذه الفترة، كانت المواجهة العسكرية مع إسرائيل التي شنت هجوما مسلحا على قطاع غزة في فبراير ١٩٥٥ كأول هجوم منذ اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٩ بزعم الرد على عمليات التسلل من القطاع وكان لهذا الحادث «٢٨ فبراير ١٩٥٥» أثره بعيد المدى على موقف مصر من السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لرفض واشنطن المتكرر تزويدها بالسلاح مما أدى إلى أن يتخذ عبدالناصر قرارات استراتيجية لسياسة تسليح القوات المسلحة المصرية ولسياسة مصر الخارجية عموما وضعها موضع الصدام مع الولايات المتحدة .

ولم يكن أمام عبدالناصر إلا التحدي وإعلان صفقة الأسلحة التشيكية في سبتمبر ١٩٥٥

فهاجت الإدارة الأمريكية لخشيتها من التغلغل السوفييتى ، وهاج الكونجرس وأوفدت مدير وكالة المخابرات المركزية «الان دلاس» إلى عبدالناصر ليجرى معه مقابلة تاريخية مشهورة فى أكتوبر ١٩٥٥ ليقتنع فيها عبدالناصر بالرجوع عن سياسته للتسلح من الاتحاد السوفييى وليصر عبدالناصر على قراره ولتبدأ رحلة العد التنازلى لحرب السويس ١٩٥٦ وإن حاولت الإدارة الأمريكية الدخول من باب جديد إلى مصر هو باب المعونات الاقتصادية بعد أن فشلت فى الدخول من باب المعونات العسكرية المشروطة لكنها - مرة أخرى - أخطأت نفس الخطأ حين سحبت عرضها لتمويل مشروع السد العالى لضغوط اللوبى الصهيونى فى الكونجرس ، ولاستيائها من سياسة عبدالناصر المناهضة للأحلاف وفتحه الباب أمام النفوذ الشيوعى وتعريضه السلام للخطر فى الشرق الأوسط، كان الكونجرس الأمريكى يرى أن تسليح مصر لقواتها بأسلحة من الكتلة الشيوعية هدفه الرئيسى تهديد دولة إسرائيل الديمقراطية كما نصت على ذلك محاضر الكونجرس ومجلس النواب فى فبراير ١٩٥٦.

★★★

ظلت قضية النزاع العربى الإسرائيلى عامة والتسوية السلمية بين مصر وإسرائيل منذ قيام يوليو هدفاً أساسياً وأولوية عالية فى السياسة الأمريكية تجاه مصر، فبذلت جهوداً من اليوم الأول لعلاج مشكلات إغلاق مصر لقناة السويس أمام الملاحة الإسرائيلية ولمشكلات الاشتباكات المتكررة عبر خطوط الهدنة على مصر وإسرائيل ١٩٥٤-١٩٥٥ بل والأهم والأخطر كما تؤكد الوثائق الأمريكية والبريطانية بذل الجهود السرية للوساطة بين مصر وإسرائيل لتحقيق تسوية سلمية عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ فأجرت مشاورات أمريكية بريطانية لإعداد خطة سرية عرفت باسم (خطة ألفا) لتحقيق التسوية بين مصر وإسرائيل وقام مبعوثون أمريكيون مثل «المور جاكسون» بمهام سرية بين عبد الناصر وبن جوريون عام ١٩٥٥ لنفس الهدف كما قام (روبرت اندرسون) بمهام سرية مماثلة بين عبد الناصر وبن جوريون أيضاً وسجل كلاهما هذا كله فى كتبه وتقاريره ومن الحقائق التاريخية الثابتة الآن بالوثائق الأصلية أن الدبلوماسية الأمريكية منذ اليوم الأول لثورة يوليو وضعت الخطط للوساطة بين مصر وإسرائيل للتوصل لتسوية سلمية خاصة بعد تصاعد التوتر فى أعقاب «اتفاق الجلاء عام ١٩٥٤» وكانت دائماً تحث أعضاء مجلس قيادة الثورة فى مصر وكذلك إسرائيل على التوصل إلى مثل هذه التسوية .

كانت (خطة ألفا) خطة شاملة لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى تناولت موضوعات الحدود واللاجئين وقطاع غزة وكانت الخارجية الأمريكية قد كلفت سفيرها فى القاهرة «بايرود» بعرضها

على عبد الناصر، لكن إسرائيل لم تمهل الخطة بل شنت غارتها المعروفة على قطاع غزة عام ١٩٥٥ لتدفع بالموقف كله إلى مسار الصدام المصرى الأمريكى لا إلى مسار التسوية التى تسعى إليها الإدارة الأمريكية ولم تحرز الجهود الأمريكية السرية نتائج تذكر لا من خلال المهام السرية (لالمور جاكسون) ممثل جماعة الكويكرز فى الأمم المتحدة و«روبرت اندرسون» مبعوث الإدارة الأمريكية، وذلك كما تقول الوثائق إلا أن إسرائيل رغم لهفتها للسلام مع مصر، ترفض (التنازل عن بوصة واحدة من الأرض) وكل ما تطلبه هو السلاح وفى الربع الأول من عام ١٩٥٦ كان وزير الخارجية الأمريكى «دلاس» قد كتب قراراً سلبياً عن علاقة أمريكا مع مصر بسب نكسة جهود الوساطة الأمريكية بين مصر وإسرائيل .

مجمل القول إنه منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كان العامل الإسرائيلى ولازال بالطبع أقوى العوامل المؤثرة فى علاقة الولايات المتحدة بمصر رغم حرص واشنطن الدائم على تسوية النزاع لكن إخفاق الجهود الأمريكية، ومواقف الكونجرس المتحيزة لإسرائيل أدى إلى تحول تدريجى فى السياسة الأمريكية تجاه ثورة يوليو ومصر منذ الربع الأول لعام ١٩٥٦ حتى حرب السويس بآثارها ونتائجها.

إن مواقف ثورة يوليو منذ يومها الأول هى مواقف رافضة للانضمام إلى منظومة الأحلاف العسكرية، ورافضة لتسوية سياسية مع إسرائيل بشروط أمريكية ثم المواقف الاستقلالية لثورة يوليو على الساحة الدولية هذه المواقف المتراكمة قد وسعت الفجوة العميقة بين النظام الجديد فى مصر وبين السياسة الأمريكية حتى اقتربت من نقطة الافتراق الحقيقى .

بناء السد العالي

ومن الناحية التاريخية كانت آمال ثورة يوليو فى بناء اقتصاد مصر معلقه على إنشاء مشروع وطنى كبير ببناء سد جديد على نهر النيل عند أسوان لزيادة الرقعة الزراعية وتوليد الطاقة الكهربائية. وكانت الإدارة الأمريكية تعلم ذلك علم اليقين وكانت تبدى اهتمامها بالمشروع منذ الأيام الأولى لثورة يوليو كما جاء فى شهادة يوجين بلاك الرئيس السابق للبنك الدولى وهى شهادة تغنى عن كل اجتهاد ففيها اعترف (بلاك) فى مذكرته إلى الرئيس ايزنهاور بإمكانية مساهمة الولايات المتحدة فى تنفيذ مشروع السد العالى وأهمية ذلك بالنسبة لمكانة أمريكا فى مصر والشرق الأوسط عموماً.

لكن «بلاك» كان يعلم أنه لابد من معالجة مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط وقاعدة قناة السويس، ومشكلة إسرائيل واللاجئين العرب كما وصفها بلاك فى شهادته ومذكرته إلى ايزنهاور وانه من شأن هذه المشكلات تشتيت اهتمام الشعب المصرى عن معالجة مشكلاته الاقتصادية

والاجتماعية الخطيرة، وانه لا يتوقع للنظام في مصر محاولة تسوية هذه المشكلات الدولية دون أن تتوافر له قاعدة داخلية قوية تستند إلى سياسة اقتصادية ترفع مستوى الشعب في مصر، وهذه السياسة الاقتصادية تتكلف أموالاً باهظة.

يسجل التاريخ أن عبد الناصر كان قد قبل العرض الأمريكي لتمويل السد العالي لكنه كان يعرف تماماً أبعاد المعركة الضارية التي تدور في أروقة الكونجرس وفي الإدارة الأمريكية رغم أن السفير الأمريكي في مصر في ذلك الوقت (هنرى بايرود) حذر واشنطن من ذلك التردد الذي قد يدفع مصر إلى اللجوء إلى السوفييت كما فعلت في صفقة الأسلحة، لكن جون فوستر دلاس كان قد اتخذ قراره بسحب العرض الأمريكي لتمويل مشروع السد في ١٦ يوليو ١٩٥٦ في اجتماع مهم سجلته وثائق الخارجية الأمريكية التي قيل فيها إن عبد الناصر كان يصر على رفض الشروط الأمريكية باعتبارها «تدخلاً في شئون مصر الداخلية» ولكن الثابت أن موقف الكونجرس الذي كان شديد العداء لعبد الناصر كما سبق القول كان هو العامل الحاسم في سحب عرض التمويل الذي أبلغه دالاس للدكتور/ أحمد حسين سفير مصر في واشنطن في اجتماع تاريخي مشهود في ١٩ يوليو ١٩٥٦، كان هو المقدمة المباشرة لقرار تأميم قناة السويس بعد أسبوع من القرار الأمريكي وذلك في السادس والعشرين من يوليو، وكان بمثابة رفع الستار عن أحداث درامية متلاحقة وصلت إلى حرب أو بتعبير أدق عدوان ثلاثي مسلح بدأته إسرائيل في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٦.

والسؤال المطروح مرة أخرى هل أخطأت السياسة الأمريكية بسحبها عرض تمويل مشروع بناء السد العالي ثم أخطأت مرة ثانية في قياس رد فعل عبد الناصر الذي تمثل في تأميم شركة قناة السويس وتفجير أزمة السويس؟ كان ذلك القرار الخاطيء نقطة الذروة في تغير اتجاهات السياسة الأمريكية نحو مصر وربما كانت شهادة «وليام فولبرايت» رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي من أفضل الشهادات لتأكيد هذا الخطأ الأمريكي بمثلما تؤكدها رواية روبرت ميرفي وكيل الخارجية في كتابه (دبلوماسي وسط المحاربين).

ولعل مثل هذا الخطأ الأمريكي في التقدير والتنبؤ يمثل نموذجاً على أخطاء مماثلة في تقديرات السياسة الأمريكية نحو مصر في سنوات لاحقة دفعت بعلاقات واشنطن والقاهرة إلى نقاط الصدام والمواجهة التي طغت على علاقات أمريكا بثورة يوليو سنوات عبد الناصر وامتدت إلى ما وراءها ولكن في سياق تاريخي ودولي مختلف.

حاولت الدبلوماسية الأمريكية عبر مشاورات محمومة مع بريطانيا وفرنسا أن تمارس ضغوطاً دولية على عبد الناصر من خلال عقد مؤتمر لندن

في أغسطس ثم في سبتمبر ١٩٥٦ وبإيفاد رئيس وزراء استراليا إلى عبد الناصر حاملاً إنذاراً رفضه عبد الناصر وحاولت من خلال مجلس الأمن تكثيف الضغط وكانت واشنطن تتشكك في نوايا حليفتيهما بريطانيا وفرنسا بالسعى لاستخدام القوة ضد مصر وكانت تعلم دوافعها للتخلص من عبد الناصر، فرنسا لحربها في شمال أفريقيا ودعم عبد الناصر لثوار الجزائر، وبريطانيا لرغبة رئيس وزرائها في كبح جماح عبد الناصر.

أجل كانت واشنطن تعلم نوايا وخطط بريطانيا وفرنسا للتدخل العسكرى ضد مصر، وكانت تعلم باحتمالات تحرك إسرائيل . والوثائق الأمريكية تسجل أن الدبلوماسية الأمريكية رغم كل معارضتها لعبد الناصر وقراره بتأميم قناة السويس كانت تحاول بشتى السبل إقناع البريطانيين بعدم اللجوء لخيار استخدام القوة، كما لو كانت في سباق مع الزمن قبل الانتخابات الأمريكية الرئاسية الوشيكة في نوفمبر من العام نفسه .

أمريكا وحرب السويس:

الموقف الأمريكي من حرب السويس يمثل مادة من أغزر المواد التاريخية التي سجلت في علاقات أمريكا بثورة يوليو وليس المجال بالطبع إعادة قراءة هذه المواد التي تملأ دور الوثائق في العواصم لندن وواشنطن وباريس وموسكو وتل أبيب والقاهرة.

وصف ايزنهاور سياسة أمريكا تجاه العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر بقوله «أنا لا أؤمن بأن الحرب هي العلاج للمشكلات في الشرق الأوسط الذي وقعت فيه مظالم عدة على كل الأطراف ولا يمكن أن نقبل قانوناً للضعفاء وقانوناً للأقوياء لمن يعارضنا وقانوناً لمن يتحالف معنا، فليس هناك إلا قانون واحد هو ميثاق الأمم المتحدة» فهل حافظت السياسة الأمريكية بعد حرب السويس على هذا القول التاريخي للرئيس ايزنهاور؟

لكن الفكر الاستراتيجي تجاه الشرق الأوسط وليس تجاه مصر وحدها بعد حرب السويس طرأت عليه تحولات جذرية فقد طرح إيزنهاور عقيدة استراتيجية جديدة لملأ ما أسماه (بالفراغ في الشرق الأوسط) بعد هزيمة الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في حرب السويس ضد عبد الناصر وثورة يوليو، وطرح المبدأ الذي عرف بمبدأ ايزنهاور لملأ الفراغ الذي خلفته آثار حرب السويس لتبدأ مرحلة جديدة من المواجهة والتفاعل الساخن بين السياسة الأمريكية وثورة يوليو في العقد التالي ١٩٥٧ - ١٩٦٧.

المواجهة

حاولت السياسة الأمريكية في عهد الرئيس جون كيندي فتح الحوار من جديد مع مصر في رسائل تاريخية متبادلة بين كيندي وعبد الناصر في ٢٧ مايو ١٩٦٣ في ذروة الفوران والغليان في

البلدان العربية وفى ذروة المد القومى العربى وتوقعات حدوث انقلاب لصالح أنصار القومية العربية فى الأردن واحتمالات نشوب حرب عربية إسرائيلية بعث كيندى إلى عبد الناصر برسالة ليس بوصفه رئيساً للجمهورية العربية المتحدة فقط بل بوصفه أقوى وأهم الزعماء العرب كما تقول التقارير الأمريكية يؤكد فيها «أن التزام واشنطن بأمن إسرائيل لا يحول دون تطور العلاقات الأمريكية مع الجمهورية العربية المتحدة» وقال كيندى «وأرجو ألا يحول مثل هذا الالتزام الأمريكى تجاه إسرائيل تطور العلاقات فيما بيننا».

لكن (الناصرية) أو (الفكر الناصرى) القائم على دعامتين الفكر القومى العربى من ناحية، والأخذ بالنهج الاشتراكى من ناحية أخرى جعل عبد الناصر، ومصر وثورة يوليو كلها لا تشكل فى منظور السياسة الأمريكية مصدر خطر لإسرائيل فقط بل للدول العربية مثل الأردن وإمارات الخليج والسعودية فى ذلك الوقت (١٩٦٣) كما تقول التقارير الأمريكية خاصة وأن هذه السنوات الأولى فى عقد الستينيات شهدت تطور التعاون العسكرى الوثيق بين إسرائيل والإدارة الأمريكية منذ بداية عهد كيندى عام (١٩٦٢) واستمراراً فى عهد «جونسون» بل إن الوثائق الأمريكية الحديثة تقول إن بذور التحالف العسكرى والاستراتيجى الأمريكى الإسرائيلى قد غرست فى غمرة الاتصالات التى كانت تجريها إدارة الرئيس كيندى مع عبد الناصر وبن جوريون، وبينما أغلقت إدارة كيندى الباب فى وجه عبد الناصر كما تقول الوثائق الأمريكية فُتحت على مصراعيها أمام إسرائيل لتخطو الخطوات الأولى نحو حرب ١٩٦٧ ضد مصر عبد الناصر ويوليو رغم تجديد الحوار عام ١٩٦٤ وتبادل المراسلات بين عبد الناصر وجونسون والذى كان همه الأول «تحذير عبد الناصر من الحصول على أسلحة الدمار الشامل والابتعاد عن الصراع النووى فى الشرق الأوسط» كما جاء فى رسالته إلى عبد الناصر فى أغسطس ١٩٦٤ .

أيدت السياسة الأمريكية فى هذا العقد بعد حرب السويس النظم الملكية فى السعودية وفى الأردن، وكذلك حكومة لبنان بهدف احتواء النفوذ المصرى فى الشرق الأوسط والوقوف أمام المد القومى العربى الذى أطلقته سياسة عبد الناصر العربية.

وكانت نقطة مهمة من نقاط الصدام الأمريكى المصرى، توجه الأحزاب فى سوريا عام ١٩٥٨ إلى عبد الناصر لتحقيقه الوحدة بين سوريا ومصر والتى أطلقت تيارات القومية العربية بكل قوتها فى معارضته السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط حتى سقوط هذه الوحدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١.

أما نقطة الصدام الثانية كذلك كانت بُعداً آخر من سياسة عبد الناصر العربية حين تدخل عبد

الناصر عسكرياً فى اليمن بعد ثورته على النظام الملكى عام ١٩٦٢ مما عمق الشكوك والتوتر بين مصر والسعودية والسياسة الأمريكية بشكل عام فى شبه الجزيرة العربية.

ولعل سياسة عبد الناصر العربية تجاه الأردن ثم سوريا والانقلاب العسكرى فى العراق ثم الانفصال عن سوريا، والتدخل العسكرى فى اليمن كانت تشكل بمراحلها وتقلباتها وكل عنفوانها مشاهد مثيرة من المصادمات السياسية الحادة بين أمريكا وسياسة ثورة يوليو العربية عبر السنوات الأولى من عقد الستينيات.

أمريكا وحرب ١٩٦٧

تدهورت العلاقات المصرية الأمريكية تدهوراً مطرداً ما بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٧ ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى التدخل العسكرى المصرى فى اليمن وإلى التوترات العربية الإسرائيلية خاصة عام ١٩٦٦ بعد إغارة إسرائيل على قرية السموع فى الأردن والمعركة الجوية بين إسرائيل وسوريا أبريل عام ١٩٦٧ وتعكس تقارير السفير الأمريكى لوشيوس باتل إلى الخارجية الأمريكية قلقه من إقدام عبد الناصر على مغامرة عسكرية مثل تسخين الصراع العربى الإسرائيلى (أزمة مايو ١٩٦٧ والتوترات على الحدود السورية الإسرائيلية).

ليس المقام هو العودة للحديث عن مقدمات حرب يونيو ١٩٦٧ لكن الثابت تاريخيا اليوم أنها وقد وقعت كان الرئيس الأمريكى جونسون قد ترك إسرائيل تتصرف كما تريد أو كما تراه ملائماً ولو إلى حد المضى إلى الحرب «كما يقول وليام كوانت» فى كتابه عن النزاع العربى الإسرائيلى منذ عام ١٩٦٧.

فى الشهور بل الأسابيع والأيام القليلة السابقة على حرب ١٩٦٧ زار واشنطن وزير خارجية إسرائيل «ابا أيبان» وقابل الرئيس جونسون، وزارها (مائير آميت) رئيس الموساد - المخابرات الإسرائيلية - قبل الحرب بأربعة أيام (٣١ مايو ١٩٦٧) للتأكد من موقف الرئيس جونسون، وكانت المخابرات المركزية تعرف تماماً أن إسرائيل على وشك بدء القتال (مقابلات مدير الموساد أميت مع هلمز مدير وكالة المخابرات المركزية).

لم يكن الرئيس الأمريكى «جونسون» صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ بحاجة إلى الشعور بالدهشة عندما استيقظ فى الصباح لإبلاغه بأن الحرب قد بدأت ويقول (كوانت) إن جونسون أعطى (ضوءا أصفر) لإسرائيل، ولكن أى قائد سيارة (ويقصد هنا إسرائيل) يمكن أن يعتبر الضوء الأصفر ضوءا أخضر لبدء شن الحرب على مصر.

بعد نشوب حرب ١٩٦٧ لم يعد الشرق الأوسط، ولا العلاقات المصرية الأمريكية بعد هذا التاريخ أبداً كما كانت عليه قبل الخامس من يونيو، ودخلت علاقة أمريكا بمصر وبالمنطقة العربية كلها وبالصراع العربى الإسرائيلى فى مرحلة جديدة

ولم يوجه الرئيس الأمريكى «جونسون» لإسرائيل (لوماً) لأنها بدأت الحرب واكتفى بالإعراب عن (خيبة الأمل) لكنه حتى وإن كان متشككا فى هواجسه بشأن بدء إسرائيل الحرب عام ١٩٦٧ فقد تحول إلى أشد المؤيدين لها بمجرد بدء القتال ويقول «وليام كوانت» بكل صراحة ووضوح «لم يكن من الممكن أن يمنع إسرائيل من استخدام القوة (ضد مصر) إلا التزام أمريكى مبكر لكن هذا ما لم يكن جونسون قادراً عليه».

خيارات السلام

فى عام ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة اتخذت السياسة الأمريكية مواقف لم تكن لتؤدى إلى انسحاب إسرائيل من الأراضى التى استولت عليها عام ١٩٦٧ فخاضت مصر فى عصر السادات حرب ١٩٧٣ إبان إدارة الرئيس نيكسون ووزير خارجيته «كيسنجر»، وقلب الرئيس السادات بذلك كل المعادلات الدولية والإقليمية بحرب ٧٣ ثم بمبادرة السلام فى أكتوبر ١٩٧٧ لتبدأ مسيرة طويلة وشاقة نحو السلام انضمت إليها منظمة التحرير الفلسطينية ثم سوريا والأردن وكذلك معظم الدول العربية منذ مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ ولأول مرة منذ أكثر من خمسين عاما من العلاقات المصرية الأمريكية أو العربية الأمريكية لم يعد السلام مع إسرائيل حلماً بعيد المنال لكنه اليوم فى منتصف عام ٢٠٠٢ يبدو أن تحقيق هذا الحلم يزداد بعداً وصعوبة وسيظل مرهوناً ليس فقط بنوايا الدول العربية أو بمبادرات السلام العربية بل سيظل مرهوناً وبنفس القدر والميزان بمصداقية النوايا الإسرائيلية، وحقيقة الأهداف والسياسة الإسرائيلية وطبيعة الدور والشراكة وطبيعة الوساطة الأمريكية فى عملية السلام وجوهر ومحتوى العلاقات الإسرائيلية الأمريكية فى المستقبل المنظور وغير المنظور.

دفعت ثورة يوليو فى عهد عبد الناصر ثمناً باهظاً لسياستها العربية قبل حرب ١٩٦٧ فاصطدمت ثورة يوليو بالسياسة الأمريكية عقوداً طويلة بسبب خيارها العربى، ثم تلاقت مع السياسة الأمريكية على مساحات عريضة من العمل من خلال خيارها من أجل السلام الذى بدأه الرئيس السادات وسار على دربه الرئيس مبارك.

فهل انتهى التناقض بين السياسة المصرية - سياسة ثورة يوليو العربية - والسياسة الأمريكية بعد خمسين عاما على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أم أن خيار مصر العربى سيظل هو تلك الصخرة، التى ستظل تعمل دوائر معروفة ونشطة فى السياسة الأمريكية على إزاحتها بعيداً من أمام طريقها للانفراد بعلاقات استراتيجية بين إسرائيل والولايات المتحدة، قد يكون الثمن لها دائماً علاقات مستقرة ونامية بين مصر وأمريكا أو بين الدول العربية والولايات المتحدة فى إطار شرق أوسط يسوده السلام والعدل والأمن والاستقرار للجميع دون استثناء. ■

عبد الناصر وقضية الصلح

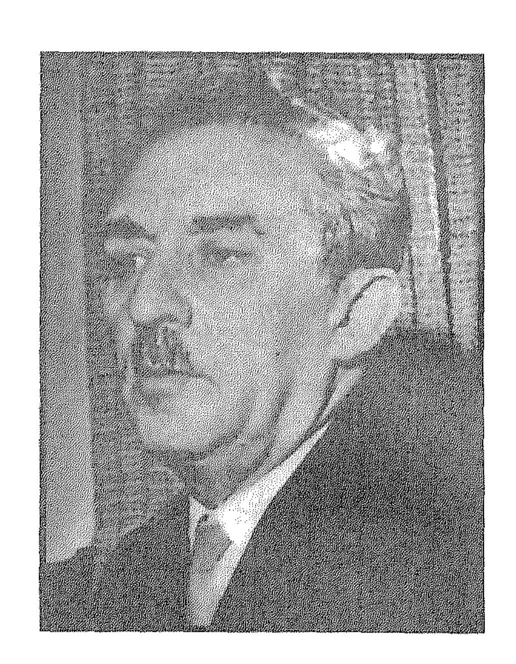
بقلم : د.عبد العظيم أنيس*



طلب منى رئيس التحرير أن أكتب شيئا عن ثورة يوليو بمناسبة اقتراب موعد هذه الذكرى ترك لى أن أختار الزاوية التى أتناول منها هذه الثورة، وبعد تفكير استقر رأيى على أن أتناول على وجه التحديد مسألة الجهود التى بذلت من الغرب لدفع عبدالناصر إلى الصلح مع إسرائيل خصوصا فى السنوات الأولى للثورة ، وقد استمرت هذه الجهود إلى وقت زيارة وزير الخزانة الأمريكى - أندرسون - للقاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ الذى جاء يعرض على مصر مقايضة السد العالى بالصلح مع إسرائيل .

وسبب اهتمامى بهذا الجانب اليوم ينقسم إلى شقين ؛ الشق الأول هو أن هذه القضية حية اليوم فى ضوء المفاوضات والعثرات بين العرب واسرائيل فى واشنطن ، ووصول جولات المفاوضات فى هذا المضمار إلى عشر جولات .

* الهلال يوليو ١٩٩٣ .

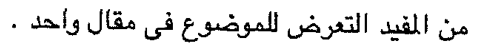


موسى شاريت



ايبا ايبان

أما الشق الثانى فهو تاريخى فى حقيقة الأمر، فهذا الجانب - ثورة يوليو وقضية الصلح - لايعرف عنه غالبية الناس شيئا ، وقلما تجد حتى بين المثقفين من اهتم ببحث هذه القضية . وهناك عدد من الكتب التى تناولت فى السنوات الأخيرة هذه القضية وفى مقدمتها كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل ، خصوصا كتاب «ملفات السويس» بالإضافة إلى بعض الكتب الأمريكية ومنها الكتاب القديم «لعبة الأمم» لمؤلفه ضابط المخابرات السابق مايلز كوبلان . إلا أن مثل هذه الكتب والوثائق المصاحبة لبعضها (كتب هيكل على وجه الخصوص) غير متيسرة لغالبية الناس وقد يكون



من المفيد التعرض للموضوع فى مقال واحد .

قبل وقوع ثورة يوليو -ووفقا لرواية كوبلاند - عاد كيرميت روزفلت (مسئول المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط) إلى واشنطن بعد زيارة القاهرة وقدم لوزير الخارجية الأمريكى تقريرا عن الأوضاع فى مصر ملخصه ما يلى : أن الثورة الشعبية المتوقعة فى دوائر الخارجية، والتى يسعى إليها الشيوعيون والاخوان ليست مطروحة ، وأنه لا توجد طريقة لإبعاد الجيش عن التحرك ، وأن الضباط الذين يرجح أن يقودوا الانقلاب على نظام فاروق لهم دوافع سياسية ، وأن على الولايات المتحدة أن تقبل إزاحة الملك فاروق وربما نهاية

الملكية ، وأنه إذا كان لا مفر من عدو لايخاف من هذا الانقلاب فهى الطبقات العليا فى مصر والانجليز وليس إسرائيل .

أمريكا ومساعٍ للصلح مع إسرائيل

وكان هذا التقرير هو أول إشارة فى التقرير الأمريكى إلى أن الثورة قد لا تكون معادية تماما لإسرائيل . وبعد الثورة وبالتحديد فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ أعدت - وفق رواية هيكل فى «ملفات السويس»- مذكرة «تقدير موقف» فى الخارجية الأمريكية تتضمن تأكيد أهمية تأييد النظام ماديا ومعنويا بهدف تحقيق أهداف الغرب وخصوصا الصلح مع إسرائيل ، وتشير المذكرة إلى أهمية أن يصدر النظام تصريحا علنيا فى وقت ما يعلن فيه نواياه غير العدوانية تجاه إسرائيل ..

ولسنا نعلم شيئا عن الأسس التى جعلت رجال المخابرات الأمريكية يتوقعون أن يكون موقف ثورة يوليو «مرنا» فى قضية الصلح . فربما يكون قد جرى نقاش بين هؤلاء وبين بعض الضباط الأحرار وخرجوا بهذا الانطباع من النقاش . ومن المؤكد أن هذا الموقف كان موجودا فى أوساط عدد من الضباط الأحرار ، فأنا مثلا أتذكر خطابا غريبا لصلاح سالم فى المحلة - عام ١٩٥٣ تحدث فيه عن الصلح مع إسرائيل بشكل صريح وكان محل اندهاش العديد من المثقفين .

وفى أول زيارة لكيرميت روزفلت بعد الثورة فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ وفى حفل العشاء الذى أقيم فى منزل الوزير المفوض الأمريكى ، وحضره عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم وعبدالمنعم أمين أثير موضوع الصلح مع إسرائيل من جديد . ثم جاءت زيارة ريتشارد كروسمان - النائب العمالى والوزير البريطانى السابق- فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وكان هدف الزيارة الصريح سؤال عبدالناصر : «ماذا تنوى أن تفعل مع إسرائيل ؟» وهو نفس السؤال الذى وجهه أينشتين لهيكل عندما قابله فى بريستون بعد ذلك بسنوات .

ولم تكن زيارة كروسمان مجرد مبادرة شخصية . فالثابت أنه طار بعد مقابلة عبدالناصر إلى «تل أبيب» وقابل بن جوريون ، ثم عاد إلى القاهرة بعد أسبوع يطلب مقابلة عبدالناصر مرة ثانية ، وعندما تم اللقاء عرض عليه اقتراحا إسرائيليا باجتماع مشترك للاثنين فى أى مكان فى العالم سرا أو علنا .

وفى كل عمليات «جس النبض» هذه للنظام الجديد كان خط دفاع عبدالناصر هو أن موضوع إسرائيل لايقع فى سلم أولوياته ، وأن هذه القضية

على أى حال تخص الدول العربية مجتمعة لا مصر وحدها ، وبالتالى لاتستطيع مصر أن تبت فيها وحدها . أما سلم أولويات الثورة فهو جلاء الانجليز والتنمية . ولقد ظل هذا هو موقف عبدالناصر حتى عندما بدأت مرحلة المفاوضات مع بريطانيا للجلاء عبر قناة السويس .ويذكر هيكل فى كتاب «ملفات السويس» أنه عندما بدأت هذه المفاوضات أرسل رئيس الوزراء الإسرائيلى - موسى شاريت - مبادرات مستقلة مع رسل كثيرين باقتراح لقاء مفاوضات مباشرة ، وكان رد عبدالناصر على هؤلاء الرسل هو أن موضوع إسرائيل مؤجل بالنسبة له وأن مشكلة فلسطين هى مشكلة جماعية عربية .

ثم جاءت زيارة وزير الخارجية الأمريكى دالاس لمصر فى مايو سنة ١٩٥٣ ، وكان دالاس قد قابل السفير الإسرائيلى فى واشنطن أبا إيبان قبل سفره إلى القاهرة واعترف له فى هذا اللقاء أن خبراء الخارجية نصحوه بعدم فتح موضوع الصلح مع إسرائيل فى زيارته الأولى لمصر ، فرد «أبا إيبان» قائلا : «إنها نصيحة تفوح منها رائحة البترول» .

لكن دالاس لم يأخذ بوجهة نظر خبرائه وأثار موضوع الصلح على مائدة العشاء فى منزل السفير كافرى - وكان عبدالناصر وعامر من حضور هذا العشاء - بإلحاح وقال إن السلام مع إسرائيل هو من طبيعة الأمور ، وإن الإسرائيليين ساميون مثل العرب وأولاد عمومتهم وإن الخطر الحقيقى هو الشيوعية وليس إسرائيل ووفق رواية هيكل اضطر عبدالناصر إلى الرد على بعض هذه الادعاءات مفندا ، وعندما سأله دالاس : «هل يعنى هذا الرد استحالة السلام مع إسرائيل» لجأ عبدالناصر إلى رده التقليدى وهو أن إسرائيل ليست شاغله اليوم !

إسرائيل ضد جلاء بريطانيا

وعندما بدأت مفاوضات الجلاء مع الانجليز كان عبدالناصر يدرك أن إسرائيل ستكون فى مقدمة المعارضين لجلاء القوات البريطانية عن القناة ، لذا حاول عبدالناصر تطمين إسرائيل بأنه عند جلاء الانجليز يمكن حل مشكلة الصلح بينها وبين العرب ، ويحكى خالد محيى الدين فى كتاب (شهود ثورة يوليو) أنه خلال إقامته فى الخارج بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ علم أن هناك اتصالات سرية مع إسرائيل يقوم بها عبدالرحمن صادق - الملحق الصحفى بسفارتنا بباريس - بهذا الهدف ، وحتى لا تتأخر مفاوضات الجلاء .

لكن إسرائيل كانت لا تريد تنفيذ اتفاقية جلاء

بريطانيا عن مصر دون اتفاق صلح مع إسرائيل وعندما وقعت اتفاقية الجلاء فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ كانت إسرائيل قد بدأت تفقد الأمل فى أن ينحاز عبد الناصر إلى صف التفاهم والصلح مع إسرائيل ، وثبت لها خطأ تقديرات المخابرات الأمريكية فى هذا الصدد ، ومن هنا بدأت تحرك عملاءها فى القاهرة والإسكندرية فى عمليات تخريب واسعة النطاق بالقنابل بأمل إضعاف مركز النظام فى مصر وإثبات عجزه ، وهو الأمر الذى عرف بعد ذلك بـ «فضيحة لافون» بعد أن قبضت السلطات المصرية على الفاعلين وقدمتهم للمحاكمة. ولقد كان الهدف الأساسى من عمليات التخريب هذه الإساءة إلى اتفاقية الجلاء وإلى العلاقات المصرية الأمريكية ، وفى فبراير سنة ١٩٥٥ بدأت عمليات الاستفزاز ضد الجيش المصرى فى قطاع غزة بالغارة الإسرائيلية الأولى التى قتل فيها العشرات من الجنود والضباط المصريين ، وكان الهدف من هذه العملية إثبات عجز النظام محليا وعربيا خصوصا أن الغرب قد رفض أن يعطى عبدالناصر السلاح الذى كان قد طلبه لتسليح الجيش .

ولقد كانت هذه الأعمال الاستفزازية من جانب إسرائيل تعنى أن إسرائيل بعد أن فقدت الأمل من التفاهم مع عبدالناصر قد قررت أن تلجأ إلى استفزازه ، لكن لم يكن هذا هو موقف الجانب الأمريكى بالدقة حتى مع بداية طريق باندونج فعندما كان عبدالناصر على وشك الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية ، حاول كيرميت روزفلت إقناع عبدالناصر بأن يتضمن إعلانه فقرة تستهدف تطمين إسرائيل على أمنها ووافق عبدالناصر لكنه رفع الفقرة بعد ذلك من خطابه .

ثم جاءت زيارة وزير الخزانة الأمريكى - أندرسون - فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ بعد صفقة الأسلحة التشيكية ، وجرت آخر محاولة لمحاصرة قيادة الثورة فى موضوع الصلح مع إسرائيل فقد بدأ أندرسون أول اجتماع له مع عبدالناصر بسؤاله عن فرص السلام مع إسرائيل . وكان عبدالناصر قد بدأ يتخلى عن خط دفاعه القديم فى المسألة الإسرائيلية عندما كان يقول إنها ليست من أولى أولوياته وإنها مشكلة عربية وليست مصرية . لقد تخلى عبدالناصر عن هذا القول لأنه لم يعد مقنعا ، فاستبدل به خط دفاع ثانيا بمناسبة الأزمة التي أثارها اقتراح اشتراك إسرائيل فى مؤتمر باندونج باعتبارها دولة آسيوية . لقد كان هذا هو رأى «أونو» رئيس بورما إحدى الدول الخمس التى وجهت الدعوة إلى المؤتمر .وأرسل عبدالناصر رسالة إلى «أونو» يقول فيها لأول مرة إن العرب

على استعداد لقبول مشروع الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين فإذا قبلته إسرائيل فإن الطريق يكون ممهدا لاشتراكنا فى باندونج . وبالطبع لم تقبل إسرائيل المشروع ولم تشترك فى باندونج .

عبدالناصر ورفض المفاوضات

والآن نعود إلى زيارة أندرسون وسؤاله لعبدالناصر الذى أعاد موقفه الذى اتخذه فى باندونج وهو قبول مشروع التقسيم .

وطار أندرسون إلى تل أبيب للتداول مع بن جوريون ، وعاد مرة أخرى بعد أسبوع يحمل اقتراح بن جوريون بمفاوضات مباشرة فى أى مكان علنا أو سرا .. ورفض عبدالناصر .

ثم سافر أندرسون إلى واشنطن لقضاء عطلة عيد الميلاد مع أسرته وللتشاور مع حكومته ، ثم عاد إلى القاهرة يحمل معه اقتراحا أمريكيا مؤداه أن واشنطن مستعدة لأن تتقدم إلى الطرفين المصرى والإسرائيلى بمشروعات حلول تفصيلية يوقعها الطرفان دون لقاء بينهما ، ثم تتاح فرصة اللقاء بعد التوقيع . وحمل أندرسون معه إلى القاهرة ملفا يحتوى على ثلاثة مشروعات رسائل : إحداهما موجهة من عبدالناصر إلى إيزنهاور ، والأخرى تتضمن مبادىء التسوية مع إسرائيل كما تراها مصر ، والثالثة موجهة من عبدالناصر إلى البنك الدولى يوافق فيها على إشراف البنك على موارد مصر المالية وأوجه صرفها خلال سنوات تنفيذ مشروع السد .

وبعد مداولات متصلة انهارت المفاوضات التى عرفت تاريخيا باسم «مقايضة السد العالى بالصلح مع إسرائيل» ورفض عبدالناصر الصفقة وشروطها ، وسافر أندرسون غاضبا واستعد دالاس لإعلان رفض أمريكا تمويل مشروع السد العالى على نحو ما هو معروف .

يحكى هيكل فى كتاب «ملفات السويس» أنه قد عقد اجتماع فى المخابرات الأمريكية حضره جيمس إنجلتون وكيرميت روزفلت وفرانسيس راسل وريمون هير فى أوائل ١٩٥٦ ، لمناقشة الموقف من عبدالناصر بعد باندونج وصفقة الأسلحة التشيكية ورفضه مقايضة السد العالى بالصلح مع إسرائيل . وفى هذا الاجتماع اقترح إنجلتون إطلاق إسرائيل ضد مصر . لكن روزفلت قال فى الاجتماع «إن أسلوب الانقلاب على عبدالناصر لا يصلح فى مصر ، وإنه ليست هناك وسيلة للخلاص منه إلا إذا تقرر اغتياله» .

ولقد حاولت المخابرات البريطانية تدبير هذا الاغتيال بعد هذا الاجتماع ، وعندما فشل هذا التدبير بدأ الاستعداد للعدوان الثلاثى . لكن تلك قصة أخرى . ■

مابين أهل الثورة وسلاطين الطرب

بقلم : د. نبيل حنفى محمود

تسجل لنا كتب التاريخ دوماً علاقة ذات اتجاهين فيما بين أهل السلطة وأهل الغناء، في الاتجاه الأول تأخذ العلاقة صورة استمتاع أهل السلطة بما حبا الله به أهل الغناء من موهبة وبريق، وفى الاتجاه الآخر تبدو العلاقة وكأنها طمع أهل الغناء فى ذهب السلطة وحمايتها، إن كتب التاريخ تفيض بعشرات الحكايات التى تؤكد على أزدواجية اتجاه هذه العلاقة .

حفل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالوقائع والمواقف والحكايات التى جمعت بين قادة الثورة والعديد من أهل الغناء، ومما هو جدير بالذكر هنا أن اقتصار البحث على الرؤساء الثلاثة الأول فى حقبة الثورة .. يرجع إلى عديد من الاعتبارات ، منها أن ما عاصره الثلاثة من أحداث ارتبط بشكل أو بآخر بالغناء، أو لأن الثلاثة كانوا من مجموعة القيادة التى خرجت على رأس طلائع الثورة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ، وهو مايعنى سبق انتمائهم إلى الثورة .

محمد نجيب

وضع محمد نجيب (١٩٠١ - ١٩٨٤م) منذ الشهور الأولى للثورة الأسس التى يرى النظام الجديد أن يقوم الفن عليها فى عهد الثورة، جاء ذلك فى مقالة حملت توقيع الرئيس اللواء بالصفحة الثالثة من العدد رقم (٦٧) من مجلة «الكواكب»



عبد الناصر يسلم أم كلثوم وسام الاستحقاق من الدرجة الاولي

الصادر فى ١١/١١/ ١٩٥٢ ، كانت المقالة بعنوان «رسالة الفن» وبدأها نجيب بقوله : «يمكن القول إن الفن عندنا، كان إلى ماقبل يوم ٢٣ يوليه - وربما حتى الآن - صورة للعهد الذى قامت نهضتنا للقضاء عليه .. كانت الميوعة، والخلاعة - إلا فى القليل النادر - هى سمات المسرح، والسينما ، والغناء»، هكذا جاء أول رئيس لمصر فى عهد الثورة بفكر جديد للغناء .. يرى هو - وبالطبع النظام الجديد - أنه الأجدر بأن يتبع، وهو مايعكس مدى اهتمام النظام القادم إلى الحكم منذ أيام قليلة بالغناء وبما يمكن أن يسهم به فى تحقيق سياسات النظام .

قرن محمد نجيب القول بالفعل ، ولتكون المرة الأولى فى تاريخ مصر بالقرن العشرين الميلادى المنصرم التى يحضر فيها رأس النظام الحفلات الغنائية ويجيء مجلسه فيها بين الجماهير، فى تلك الحفلات التى حضرها نجيب .. سقطت الحواجز القديمة التى كانت تفصل بين الملك وبين أهل الغناء وعامة الشعب فى الحفلات الملكية، غنت أم كلثوم قصيدة «مصر تتحدث عن نفسها» فى بداية الوصلة، والقصيدة هى العمل الوحيد الذى شدت به أم كلثوم من شعر حافظ إبراهيم وكانت من تلحين رياض السنباطى وقدمتها أم كلثوم فى موسمها الغنائى ١٩٥٠ - ١٩٥١ (حنفى المحلاوى : شعراء أم كلثوم - ص١٠٧ : ١١١) ، ثم أتبعت أم كلثوم القصيدة الأولى بالقصيدة الثانية وهى قصيدة «صوت الوطن» التى سجلتها بالإذاعة فى مطلع الأسبوع الثانى من شهر أكتوبر ١٩٥٢ (الإذاعة المصرية: العدد٩١٧ - ١١/١٠/١٩٥٢)، ولقد أذيعت «صوت الوطن» للمرة الأولى من الإذاعة فى سهرة يوم الأحد ١٩ /١٠/١٩٥٢ (الإذاعة المصرية : العدد ٩١٨- ١٨/١٠/ ١٩٥٢)، وتصف مجلة «الكواكب» غناء أم كلثوم أمام محمد نجيب فى حفل الخميس ٣١ أكتوبر ١٩٥٢ فتقول: «ولأول مرة تصدح مطربة الشرق فى جو حر ، وانطلقت تغنى(مصر تتحدث عن نفسها) فى وصلتها الثانية.. فاستمع كل مصرى إلى أمانيه القومية ، وهتف الجميع من قلوبهم مشتركين مع أم كلثوم فى إلقاء نشيدها الحماسى، وبعد ذلك علا (صوت الوطن) يتردد على كل لسان فى كلام عذب ومعان سامية ، واستمرت أم كلثوم فى غنائها حتى بدأت فى إلقاء كلمات العهد الجديد التى صاغها رامى وصور بها شعور كل

فرد فى هـذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر، مصر التى فى خاطرى وفى فمى، وانتهت أم كلثوم بعد أن قادت مظاهرة حماسية أسمعت العالم أجمع والشرق خاصة صوت مصر وصوت الوطن» ، ومما هو جدير بالذكر هنا .. أن تسجيل قصيدة «صوت الوطن» التى شدت بها أم كلثوم فى هذا الحفل قد قدم فى إحدى حلقات برنامج «ألحان زمان» من إذاعة البرنامج العام بالإذاعة المصرية قبل قليل من السنوات، أيضاً ... فإن مابذلته أم كلثوم من جهد فى هذا الحفل - الذى تزامن مع بداية مشاكلها الصحية مع الغدة الدراقية - قد أصابها ليلتها بأزمة صحية، وهو ماترتب عليه استدعاء اثنين من الأطباء - بعد فراغ أم كلثوم من أداء القصيدتين - لمتابعة حالتها الصحية ..

كانت المطربة ليلى مراد تجوب أوروبا كعادة الكثير من أهل الفن عندما يسافرون لقضاء الصيف فى المصايف الأوروبية الشهيرة، ولسبب لايعرفه أحد ومن مكان مجهول ... انطلقت إشاعة ثلاثية وذات ثلاث شعب لتصيب الفنانة حيث كانت تقيم بباريس آنذاك، قالت الإشاعة : إن ليلى مراد زارت إسرائيل وتبرعت لها بمبلغ خمسين ألف من الجنيهات وإنها توفيت - أى ليلى- بباريس إثر صدمة سيارة بعد عودتها من إسرائيل ، فزعت ليلى مراد عندما وصلت إلى أسماعها الإشاعة، فتركت باريس على عجل وقفلت عائدة إلى القاهرة لتضع نفسها رهن طلب الحكومة المصرية ولتثبت كذب هذه الإشاعة ، ويقول محرر الموضوع الذى نشر عن هذه الإشاعة بالعدد رقم (٦٦) من مجلة «الكواكب» : «ثبت أن هذه الإشاعات مكذوبة من أساسها ولاصحة لها على الإطلاق ، وقد ثبت ذلك بعد التحريات الدقيقة والتحقيقات الواسعة النطاق التى قام بها قلم المخابرات السرية»!، لذلك اهتمت ليلى مراد بأن تقدم أغنية تشيد فيها بالعهد الجديد ولتقطع دابر تلك الإشـاعة وتزيل من النفـوس ما قد تكون تركته بها من آثار، فكان أن وفقت إلى نشيد جديد ألفه ولحنه الموسيقار مدحت عاصم بأسلوب المارش، ويقول مطلع النشيد الذى حمل اسم نشيد «التحرير»:

على الإله القوى الاعتماد
بالنظام والعمل والاتحاد
فانهضى يامصر ياخير البلاد
واصعدى للمجد وامضى للجهاد
بالاتحاد والنظام والعمل

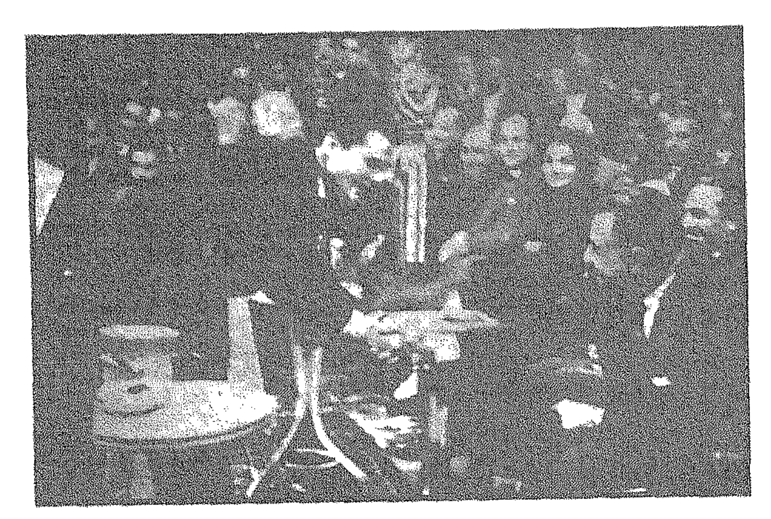
جمال عبد الناصر

احتل جمال عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) سدة قيادة الثورة .. ليس بطول مدة بقائه فى الحكم والتى بلغت سبعة عشر عاماً لتفوق بذلك فترة حكم كل من محمد نجيب وأنور السادات مجتمعين، ولا بسبق تأسيسه لتنظيم الضباط الأحرار الذى قاد الثورة ، وإنما بكثرة ماشهدته مصر فى عهده من تحولات ومعارك، ولقد شهد الفن فى عهد عبدالناصر واحداً من أزهى عصوره بمصر فى العصر الحديث .. إن لم يكن أزهاها على الإطلاق.

شارك الغناء فى تحولات ومعارك عهد عبدالناصر بجهد وافر مما جعله سجلا تاريخيا لتلك الفترة ، وهو ماجعل من فرصة التقاء الزعيم بأهل الغناء حدثا متكرراً ومعتادا، لذلك حفلت الأدبيات اللتى تناولت عهد عبدالناصر بإشارات وحكايات عن مواقف جمعت بين الزعيم والبعض من أهل الغناء وهم أهل القمة بالطبع،

***

تتناثر فى أدبيات الثورة حكايات كثيرة عن عشق عبدالناصر لصوت أم كلثوم، والبعض من هذه الحكايات يرجع إلى الفترة التى قضاها عبد الناصر على أرض فلسطين محاربا فى صفوف الجيش المصرى إبان نكبة قيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، لكن المؤكد والثابت لنا حتى الآن ...



جمال عبد الناصر يصافح عبد الحليم حافظ .. وكان قد منحه وسام العلوم والفنون من الدرجة الاولي

أن أول لقاء بين عبدالناصر وأم كلثوم حدث فى الحفل الساهر الكبير الذى أقيم احتفالا بتوقيع اتفاقية الجلاء بميدان التحرير مساء يوم الأربعاء ١٩٥٤/١٠/٢٠ (الأهرام : ٢٠/ ١٠/ ١٩٥٤ - ص ١٧)، فى تلك الليلة تقدمت أم كلثوم نجوم الحفل كما تقدمتهم فى الغناء، إذ صعدت قبل الحادية عشرة إلى المسرح الكبير الذى شيد من ٥٠٠ مائدة طعام فى قلب الميدان وأمام متحف الآثار المصرية كما ذكرت صحيفة الأهرام، كان صعود أم كلثوم إلى المسرح بعد حضور جمال عبدالناصر إلى المكان وفى صحبته بعض قادة الثورة والوزراء ، والذين حضروا مع عبد الناصر من قادة الثورة فى تلك الليلة كل من : كمال الدين حسين- صلاح سالم - عبدالحكيم عامر- زكريا محيى الدين - عبد اللطيف البغدادى وحسين الشافعى وذلك بترتيب جلوسهم حوله، غنت أم كلثوم فى تلك الليلة قصيدتها الأولى للثورة «صوت الوطن» وبلغ تجاوب الجمهور معها فى أدائها حداً مذهلاً، وهو ما وصفته مجلة «الكواكب» فى تغطيتها للحفل بالصفحات (١٣ : ١٥) من عددها رقم (١٦٩) الصادر فى ١٩٥٤/١٠/٢٦ فقالت: «ردد الشعب مع أم كلثوم كلمات الأغنية (نحبها من روحنا .. ونفتديها بالعزيز الأكرم) ، وكان جميل من السادة قوّاد الثورة أن يشتركوا فى الترديد، وكان السيد كمال الدين حسين أقواهم صوتا»، وقد بلغ عدد الجماهير التى حضرت هذا الحفل حوالى خمسين ألف متفرج كما جاء بالتحقيق المنشور بمجلة «الكواكب» ، وقد انصرفت أم كلثوم بعد غنائها مباشرة لارتباطها بالسفر فى صباح اليوم التالى إلى بيروت لإحياء حفل زفاف كريمة رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الراحل (آنذاك) إلى الأمير طلال بن عبدالعزيز آل سعود .

صعد فريد الأطرش - نجم الحفل الثانى - بعد أم كلثوم إلى المسرح ليقدم أغنيته الثانية للثورة وهى قصيدة «البعث» من شعر أحمد خميس، وتصف مجلة «الكواكب» فى تغطيتها للحفل .. صدى قصيدة «البعث» لدى قادة الثورة فى هذه الليلة فتقول : «كان الموسيقار فريد الأطرش موفقاً فى اختيار قصيدة (بنى مصر قد راح ليل العبيد)، وقد صفق له قواد الثورة كثيراً خصوصاً عندما اختتم أغنيته قائلاً :

بنى مصر هذا الصباح لنا
تفجر بين الربى والسنا
ينشر فى الكون أمجادنا
يحيى الجلاء يحيى الجنود
ونهتف قد راح ليل العبيد
فدمنا لمصر الضياء الجديد

وعند انصراف قادة الثورة فى منتصف الليل .. ألقى عبدالناصر كلمة شكر فيها كل من شارك فى الحفل من أهل الغناء .

لم يكتف أهل الغناء بحفل ميدان التحرير كمظهر وحيد للتعبير عن فرحتهم وفرحة الشعب بالجلاء ، بل أقيم حفل آخر بعد أسبوع بدار الأوبرا المصرية ، كان فريد الأطرش هو نجم الحفل الثانى وشاركه فى إحياء الحفل كل من أوركسترا الإذاعة المصرية والفرقة المصرية الحديثة، قدم فريد الأطرش فى هذا الحفل رائعته الخالدة «أول همسة»، بينما قدم أوكسترا الإذاعة منتخبات من الموسيقى العالمية، وذلك إضافة إلى الفصل الأول من مسرحية الحاكم بأمر الله الذى قدمته الفرقة المصرية الحديثة ، وفيما بين الفقرات ... التقى المشاركون من أهل الفن بالرئيس عبدالناصر لتبادل التهنئة بالجلاء ، وقد قدمت مجلة «الإذاعة المصرية» فى الصفحة السابعة من عددها (١٠٢٤) الصادر فى ١٩٥٤/١٠/٣٠ صورة لعبد الناصر مرتديا الزى العسكرى وهو يصافح فريد الأطرش ... بينما يظهر يوسف وهبى فى منتصف الصورة وقد علت البسمة وجوهم جميعاً، كانت تلك الصورة هى الأولى التى يظهر فيها عبد الناصر منذ نجاح الثورة مع واحد من ثلاثى القمة فى الغناء المصرى خلال تلك الحقبة.

***

لم ينصرم عام ١٩٥٤ حتى حدث لقاء عبد الناصر بمحمد عبدالوهاب ، ليكتمل بذلك لقاؤه خلال عام واحد بالثلاثة الكبار فى عالم الغناء المصرى آنذاك، جاء لقاء عبدالناصر بمحمد عبدالوهاب فى حفل سلاح الفرسان الذى أقيم بثكنات السلاح بكوبرى القبة مساء الخميس ١٩٥٤/١٢/٢ (الجمهورية : ١٢/٣/ ١٩٥٤ - ص١)، كان الحفل ابتهاجاً بتوقيع اتفاقية الجلاء وبنجاة عبدالناصر من محاولة الاغتيال الفاشلة التى تعرض لها فى ميدان المنشية على يد أحد أفراد الإخوان المسلمين فى يوم الثلاثاء ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ ، ليلتها غنى عبد الوهاب أغنيته الشهيرة «كل ده كان ليه» بعد أن غنى أغنيته «تسلم ياغالى»، وضعت أغنية «تسلم ياغالى» خصيصاً لتهنئة كل من عبدالناصر بنجاته من محاولة الاغتيال والجيش بنجاح ثورته وبتحقيق الجلاء ، والأغنيتان من نظم الشاعر عبدالمنعم السباعى وهو أحد الضباط الأحرار وقد كان يعمل آنذاك فى وظيفة استحدثتها الثورة وأسمتها «أركان حرب الإذاعة»، ويتحدث محمد عبدالوهاب عن هذا الحفل فيقول : «جمال عبدالناصر، الله يرحمه، هو الذى طلب منى أن أغنى فى تلك الحفلة، لأننى كنت قد امتنعت عن الغناء فى الحفلات العامة ، وهو مستمع لدرجة أنه عندما نزلت من على المسرح وسلّم على قال لى وهو يقبلنى : أنت رجعتنى لشبابى يامحمد، أنا كنت أذهب إليك فى تياترو رمسيس، وأجلس فى الصف الثانى فى الرقم كذا» (غنيم عبده :المصور - العدد ٣٤٧٤ - ص ٢٥ - ١٩٩١/٥/١٠)، ويذكر غنيم عبده فى مقاله المشار إليه بالعدد رقم (٣٤٧٤) من مجلة «المصور» أن صوت عبدالناصر قد ظهر على شريط الأغنية المسجل وهو يقول «الله .. الله»، وبالرجوع إلى تسجيل الأغنية الذى طرحته إحدى شركات الصوتيات .. يتضح للمستمع أنه عند انتهاء عبدالوهاب من أداء أغنيته «تسلم ياغالى» وأثناء تصفيق الجمهور يظهر صوت لمستمع يقول بانتشاء واضح : «ياسلام .. الله ... الله»، وفى ضجيج تصفيق الجمهور ... فإن أحدا لايستطيع الجزم بأن المستمع صاحب الصوت هو عبدالناصر، إن الصورة الوحيدة التى نشرت عن هذا الحفل وجاءت فى الصفحة السابقة بالعدد رقم (١٠٣٠) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادرة فى ١٩٥٤/١٢/١١ تظهر جمال عبدالناصر وقد جلس

ناصر يكرم محمد عبد الوهاب وأم كلثوم في يوم واحد .. فقد كان تكريم عمالقة الفن حلقة من حلقات إشادة الثورة بدورهم الخالد في شحذ وجدان الأمة

فى مقدمة الجمهور وإلى يمين الصورة، بينما يجلس إلى يمين عبدالناصر (أويسار الصورة) كل من إسماعيل الأزهرى رئيس وزراء السودان وجمال سالم ثم اللواء عبدالعزيز مصطفى (مدير سلاح الفرسان آنذاك) وفى أقصى يسار الصورة يظهر صلاح سالم، لكن ماتظهره الصورة بوضوح .. ابتسامة عبدالناصر ويديه المرفوعتين بتصفيق الإعجاب لمحمد عبدالوهاب .

جاءت مشاركة أهل الغناء فى حفلات عام ١٩٥٤ تطوعا ودون الحصول على أجر، لكن أصواتهم لم تكن عماد تبرعاتهم الوحيد ، وإنما اتخذت تبرعاتهم للنظام الجديد أشكالاً أخرى، ومن ذلك أنه فى يوم ١٩٥٥/٢/٧ وعند بدء عرض فيلم «عهد الهوى» وهو الفيلم رقم (١٧) فى سلسلة أفلام فريد الأطرش، تصادف أن يكون بطل الفيلم طريح الفراش إثر أزمة قلبية أصابته فى الأيام الأولى من شهر يناير، ولما كان بطل الفيلم لم يتماثل للشفاء قبل حفلة العرض الأولى للفيلم ، فإن جمال عبد الناصر وافق على حضور حفل افتتاح الفيلم بسينما ديانا فى مساء الاثنين ١٩٥٥/٢/٧، وذلك بناءً على برقية بعث بها فريد الأطرش من فراش مرضه يرجو فيها الرئيس تشريف حفل افتتاح فيلمه الجديد، ويعلن فريد الأطرش فى البرقية أيضاً عن تبرعه بإيراد حفل الافتتاح لصالح كل من منكوبى السيول بقنا وجمعية تحسين الصحة، وفى صباح الخميس ١٩٥٥/٢/١٠ ... تنشر صحيفة «الأخبار» بباب «أخبار المجتمع» فى الصفحة الخامسة صورة

جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم وأنور السادات وهم وقوف بشرفة سينما ديانا يلوحون بأيديهم لجمهور حفل الافتتاح ، كان لحضور عبدالناصر وصحبه من قادة الثورة حفل افتتاح فيلم «عهد الهوى» فعل السحر فى نفس فريد الأطرش ، فغادر فراش مرضه فى صباح السبت ١٩٥٥/٢/١٢ متوجها إلى مقر مجلس الوزراء ليلتقى بجمال عبدالناصر - رئيس الوزراء آنذاك - ويصافحه معبرا عن امتنانه لتشريف الرئيس حفل افتتاح فيلمه الجديد ، وليقدم له شيكا بمبلغ مائتى جنيه هى كل إيراد اليوم الأول لعرض الفيلم .. تبرعاً منه لمنكوبى السيول بقنا ولجمعية تحسين الصحة، ولقد نشرت صورة هذا اللقاء بين عبدالناصر وفريد الأطرش فى الصفحة الرابعة

بعدد يوم الأحد ١٩٥٥/٢/١٣ من صحيفة «الأخبار».

***

تعددت لقاءات جمال عبدالناصر بأهل الغناء فى عام ١٩٥٥ ، وجاءت كل هذه اللقاءات فى إطار العمل الوطنى لصالح مشروعات دولة الثورة وأهدافها ، فعندما أعلن عبدالناصر فى ٢٧ سبتمبر من عام ١٩٥٥ عن نجاح مصر فى كسر احتكار السلاح - المفروض عليها من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا - وذلك باتفاقها مع حكومة تشيكوسلوفاكيا على صفقة السلاح الشهيرة ، أعلنت حكومة الثورة إثر ذلك عن فتح باب التبرعات الموجهة لتمويل تلك الصفقة فى أسبوع سمى آنذاك «أسبوع التسليح»، أسرع فريد الأطرش - أيضاً - إلى رئاسة الجمهورية فى صباح ١٩٥٥/١٠/١٣ ليسلم عبدالناصر شيكا بمبلغ مائتى جنيه إسهاماً منه فى تبرعات أسبوع التسليح (الأخبار : أخبار المجتمع - ص ٥ - ١٩٥٥/١٠/١٤)، لكن أم كلثوم آثرت أن يكون تبرعها فى أسبوع التسليح بالغناء ، فأحيت حفلا فى سينما ريفولى مساء الخميس ١٩٥٥/١٠/٢٠ خصص إيراده لصالح أسبوع التسليح ، وقد حمل هذا الحفل فى ثناياه مفاجأة ذات دلالات مهمة ، إذ فوجىء جمهور الحفل بحضور الرئيس جمال عبدالناصر ومعه مجلس قيادة الثورة ، وكان الطريف فى أمر حضور الرئيس ومجلس قيادة الثورة - كما ذكرت مجلة «الكواكب» بالصفحة الرابعة من عددها رقم (٢٢١) الصادر فى ١٩٥٥/١٠/٢٥ - أن عبدالناصر قدم تذكرة للحفل - كان قد اشتراها من ماله الخاص - عند باب السينما ، إن لحضور عبدالناصر حفل أم كلثوم فى تلك الليلة دلالتين مهمتين، أولاهما أن حضوره لسماع شدو أم كلثوم .. يؤكد ماتردد دائماً عن عشقه لصوتها ، بينما تتمثل ثانى الدلالات فيما التزمه عبدالناصر طوال حياته من طهارة يد وما امتلأ به قلبه من حب لمصر ، لأن الرئيس الذى يشترى تذكرة لحفل كهذا ... يريد أن يؤكد لشعبه صدق دعمه لحملة التبرع وأن يرسخ فى عقول الجميع قدسية الالتزام وسلامة القصد فى كل مايمس ذمة الزعيم المالية، وهو ماتأكد طوال حياته وبعد وفاته رحمه الله.

فى تلك الأيام من السنوات الأولى للثورة .. شارك المطرب الصاعد - آنذاك - عبدالحليم حافظ فى حملة فنية لجمع التبرعات فى «أسبوع التسليح»، ضمت الحملة أسماء مثل : فاتن حمامة - سامية جمال - شادية - إيمان وعبدالحليم حافظ (الكواكب: تعبئة فنية فى أسبوع التسليح - العدد ٢٢١- ص ٦:٩ - ١٩٥٥/١٠/٢٥)،

لم تشر الأخبار والمقالات التى تناولت الغناء فى سنوات الثورة الأولى إلى أن عبدالحليم حافظ قد غنّى أمام عبدالناصر أو التقى به خلال تلك الحقبة من عمر الثورة، وذلك بالرغم مما يحاول البعض الإيهام به فى كتابات نشرت فى السنوات الأخيرة من عقد التسعينيات، ولكن الثابت - مما هو متاح من مطبوعات تلك الحقبة - أن المرة الأولى التى غنّى فيها عبدالحليم أمام عبدالناصر كانت فى حفل أضواء المدينة الذى أقيم مساء الأحد ١٠ يناير ١٩٦٠ بمدينة أسوان احتفالا ببدء العمل فى مشروع السد العالى، وهو الحفل الذى حضره مع جمال عبدالناصر من أعضاء مجلس قيادة الثورة كل من: عبداللطيف البغدادى - كمال الدين حسين - صلاح سالم - زكريا محيى الدين وأنور السادات، وذلك إضافة إلى ضيف مصر الكبير ملك المغرب محمد الخامس وولى عهده الأمير الحسن (الملك الحسن الثانى فيما بعد)، وقد شارك فى إحياء هذا الحفل بجانب صوت عبدالحليم حافظ أصوات كل من: فريد الأطرش - شادية - محمد عبد المطلب - صباح - محمد

قنديل – نجاة ونجيب السراج، ليلتها تغنّى عبدالحليم برائعته «حكاية شعب» وأنشد فريد الاطرش أغنية «يا أسطى سيد» عن السد العالي.. بينما قدمت شادية أغنيتها الشهيرة «بلد السد»، وقد ذهب عبدالحليم حافظ بعد فراغه من أداء «حكاية شعب» إلى مكان جلوس عبدالناصر حيث صافحه هناك (الكواكب: العدد ٢١٧٤ – ص ٤٧ – ١٩٩٣/٣/٣٠)، ثم تكرر غناء عبدالحليم حافظ أمام جمال عبدالناصر فى أعياد الثورة خلال النصف الأول من عقد الستينيات كما هو مثبت بأعداد المجلات الفنية والثقافية التى تناولت هذه المناسبات بالتسجيل والتحليل، ومن ذلك حفل عيد الثورة العاشر الذى أقيم بنادى ضباط القوات المسلحة بالزمالك مساء ٢٣ يوليو ١٩٦٢، شهد هذا الحفل حدثا فنيا لم يتكرر قبل هذه الليلة أو بعدها، يقول الصحفى سيد فرغلى عن هذا الحدث: «إذ اشترك فيه (أى الحفل) عمالقة الفن العربى: عبدالوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ، الذين لم يسبق لهم الاشتراك جميعا فى حفلة واحدة» (سيد فرغلى : عمالقة الفن – الكواكب – العدد ٥٧٤ – ١٩٦٢/٧/٣١)، وللقارىء أن يتخيل الآن شكل الحفلة التى أحياها الأربعة الكبار فى الغناء المصرى.. ليس فى القرن العشرين وإنما – أعتقد – فى كل عصوره، فى تلك الليلة غنّى عبدالوهاب نشيده الجديد – آنذاك «دقت ساعة العمل» وهو من كلمات حسين السيد، وإن كنت أعتقد أنه قد أداه بطريقة «البلاى باك»، وشدت أم كلثوم بأغنية أعدتها لتلك المناسبة وحملت اسم «بالمحبة بالاخوة بالسلام» وهى من نظم عبدالفتاح مصطفى، ويقول مطلع هذه الأغنية التى لحنها رياض السنباطى:

بالمحبة بالاخوة بالسلام

وبعزيمة شعب ثائر لاينام

أمة بتنور طريقها للأمام

كل خطوة تسبق الأيام بعام

الزعيم والثورة وفوا بالعهود

لسّه دور الشعب يوفى بالجهود

شارك فريد الأطرش فى ذلك الحفل بنشيده «المارد العربى» والذى صاغ كلماته حسين السيد، ويقول المقطع الأخير للنشيد:

ياللى خلقت شباب المارد

وعى وثورة بكل نضال

كبر المارد وصبح قائد

يحمى شعوب ويصون أجيال

عاش القائد عاش المارد

والاثنين صنعك يا جمال

بينما كانت أغنية عبدالحليم فى تلك الليلة هى أغنية «مطالب شعب» والتى كتبها أحمد شفيق كامل ولحنها كمال الطويل، حملت هذه الأغنية مفاجأة لم يتوقعها جمهور الحفل وملايين المستمعين، يقول سيد فرغلى عن هذه المفاجأة: «إن الأغنية تعتبر عملا فنيا جديدا، خاصة وهى فريدة فى مطلعها، إذ تبدأ بعبارات بصوت الرئيس جمال عبدالناصر، حتى أن البعض قد ظنوا أن عبدالحليم يقلد صوت الرئيس» ! ، اختار عبدالحليم ومجموعة العمل التى كانت وراء أغنية «مطالب شعب» مجموعة من العبارات المؤثرة لعبدالناصر فى بعض خطبة الشهيرة مثل خطبة تأميم قناة السويس لوضعها وبصوت جمال عبدالناصر فى مقدمة الأغنية وقبل المقطع الذى يبدأ به غناء عبدالحليم، فتبدأ الأغنية بصوت عبدالناصر يقول : «النهارده بعد عشر سنوات من الثورة أقدر أقول إن هذا الجيل جاء فى موعده مع القدر، إن هذا الجيل من شعب مصر العربى استطاع أن يحقق فى عمره كل ما كانت تتطلع إليه أجيال سابقة، لقد كان ٢٣ يوليو سنة ٥٢ بدء تاريخ جديده لهذه الأمة الثائرة المناضلة»، لذلك كان من الطبيعى أن يكرم عبدالناصر الأربعة

الكبار في هذه الليلة، فدعا عبدالوهاب وأم كلثوم للجلوس إلى مائدته في فترة الاستراحة، ثم أتبع عبدالناصر ذلك بأن صافح فريد الأطرش وعبدالحليم حافظ وكمال الطويل وعلي إسماعيل وأحمد فؤاد حسن في نهاية الحفل .

لم يكن جلوس عبدالوهاب وأم كلثوم إلى مائدة عبد الناصر ومصافحة الرئيس لفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ هو مظهر التكريم الوحيد لأهل الغناء في عام ١٩٦٢، وإنما سبق ذلك تكريم الأربعة دفعة واحدة في الاحتفال بعيد العلم، حيث منح عبدالناصر أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ، بينما سلم كلا من فريد الأطرش وعبدالحليم حافظ وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى، وقد تكررت مظاهر تكريم عبدالناصر للأربعة الكبار ولأهل الغناء بصفة عامة في كثير من المواقف والمناسبات، من ذلك منح أم كلثوم جائزة الدولة التقديرية في الفنون عام ١٩٦٨ تقديرا لدورها في دعم المجهود الحربي بعد عدوان ١٩٦٧ ولكل مشوارها الفني، بالإضافة إلى منحها جواز سفر دبلوماسي .

تتناثر حكايات تكريم عبدالناصر ورعايته لأهل الغناء خاصة والفنانين عامة على طول سنوات حكمه لمصر، ولعله من الجدير بالتأمل هنا أن نذكر أن آخر ما أمر عبدالناصر بمنحه من أوسمة لأهل الغناء، كان هو وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى الذي منحه عبدالناصر لفريد الأطرش في ١٩٧٠/٣/١٥ .

أنور السادات

يعد أنور السادات (١٩١٨ - ١٩٨١) أكثر الرؤساء الثلاثة ممن جاءت بهم ثورة يوليو التقاء بأهل الغناء قبل وصوله إلى رئاسة مصر وبعد أن أصبح رئيسا في عام ١٩٧٠، ففي الأسبوع الأول من شهر مايو ١٩٥٣ وقبل أن ينصرم عام من عمر الثورة.. سافرت أم كلثوم لعلاج مرض أصاب غدتها الدرقية في مستشفى البحرية الأمريكية الشهير بالولايات المتحدة الأمريكية ، قدمت مجلة «آخر ساعة» تحقيقا مصورا عن وداع أم كلثوم في مطار القاهرة على الصفحات من ١٨ إلى ١٩ بعددها رقم (٩٦٧) الصادر في ١٩٥٣/٥/٦، حوى الموضوع الذي جاء تحت عنوان «دموع أم كلثوم وهي تغادر الوطن».. عشر صور قام بالتقاطها المصور الشهير محمد يوسف، تظهر أم كلثوم في أربع من هذه الصور مع البكباشي أنور السادات «الذي جاء ليودعها ممثلا للقيادة العامة»، وذلك بنص التعليق الموجود تحت هذه الصور، أخذت صور السادات الأربعة مع أم كلثوم على سلم الطائرة.. إذ رافقها حتى باب الطائرة، لكن الشيء اللافت للنظر في هذه الصور الأربعة جميعا .. أنها أوضحت أن أم كلثوم تقف على درجة من سلم الطائرة أعلى من الدرجة التي يقف عليها أنور السادات!.

عديدة هي الحكايات والمواقف التي حوتها الكتب والمجلات والصحف عن ميل السادات الواضح لصوت فريد الأطرش، وإن في استعراض البعض منها هنا ما يدعم الذي يخلص إليه المقال الحالي من حقائق واستنتاجات ، الحكاية الأولى يوردها الأستاذ/ أنيس منصور في ثنايا مقال له بعنوان «كنا نغني وعبدالحليم حافظ يقول لنا : الله» في العدد (٣٩) من ملحق «أيامنا الحلوة» الصادر مع العدد الأسبوعي للأهرام في ٢٠٠٢/٢/٨، يقول أنيس منصور : «وفي مذكرات السيدة جيهان السادات التي عنوانها (سيدة من مصر) ، ذكرت أنه في عيد ميلادها لم يكن معهما فلوس، فاقترح عليها زوجها أنور السادات أن يقيم لها حفلا خاصا وعلى قد فلوسهما، تقول السيدة جيهان السادات إن الرئيس غنى لها عددا من أغنيات فريد الأطرش!» ، ومن الواضح من ملابسات هذه الحكاية أنها حدثت قبل الثورة وربما

عندمـا كـان السـادات مـفصـولا من الجـيش، أمـا الحكاية الثـانيـة.. فـإنهـا تدور حـول لقـاء أنور السـادات بالسـيـد/ كـمـال أدهم مـسـتـشـار الملك فـيصل والمشرف على المخـابرات السـعـودية، وهو اللقاء الذى قال عنه الكاتب الكبير/محمد حسنين هيكل فى كتابه «خريف الغضب» مايلى: «كان أول لقاء بين الاثنين (السادات وكمال أدهم) فى حفل عشـاء فى بيت مطرب مـشـهـور هو فـريد الأطرش (ص ٨٥)، وقد جاء هذا اللقاء إبان شغل السادات لمنصب الأمـين العـام للمـؤتمر الإسـلامـى بدءا من عـام ١٩٥٤، ثم تجىء الحكاية الثـالثـة فى عـام ١٩٧٨ ومن منتجع كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية وأثناء المفاوضـات الشهيرة بين السادات وكارتر وبيـجين، وقد ذكـر الأسـتاذ/ مـحـمـد البـاز هذه الحكاية فى سياق موضع بعنوان «الله لايزور كامب ديفيد ـ السـادات شاهد أفلام فريد الأطرش هناك»، وهو الموضـوع الذى جاء بالصفحة الأخيرة (رقم ٢٠) من العدد رقم (٧٤) من صحيفة «صوت الأمة» والصادر فى ٢٠٠٢/٤/٢٩ ، يقـول مـحـمـد البـاز: «كـان الرئيس السـادات يمـارس حـيـاته بطريقـتـه الخـاصـة، كـان السادات يسـهـر إلى وقت متأخر من الليل، يشاهد وهو يرتدى بيجامة بيضاء بعـضـا من أفـلام فـريد الأطرش، وقت راحـتـه بالاسـتـراحـة التى يقيم بهـا . وقـد أخـذ مـعـه إلى كامب ديفيد ستة أفلام شهيرة»، ثلاث حكايات من مـراحل مـخـتلفـة فى رحلة السـادات مع الحـيـاة والسـيـاسـة.. تقـول جـمـيـعـهـا إن الرجل كـان من عشاق صوت فريد الأطرش .

لم يقف حب السـادات لصـوت فـريد الأطرش حـجـر عـثـرة فى طريق لقـائه بمـحـمـد عـبـدالوهاب وعبدالحليم حافظ، ولكن الثابت فيما نشر عن هذه اللقـاءات..أنهـا حـدثت بعـد وصـول السـادات إلى منصب الرئيس، لحن مـحـمـد عبدالوهاب أغنيـتين عن السادات، كانت أولاهما «يازعيمنا ياسادات» وغنتـهـا فـايدة كـامل فى عـام ١٩٧٦، أمـا الثـانيـة فكانت باسم «مصـر السـادات» وغنتهـا المجـموعة، جـاء لقـاء السـادات الأول بمـحـمـد عـبـدالوهاب بأكـاديمـيـة الفنون فى يوم الثـلاثاء ٩ يونيـو ١٩٧٥ عندما سلمه شـهـادة الدكتوراه الفخرية، يومـهـا .. كـانت أم كلثـوم قـد رحلت قبل مـايقـرب من أربعـة شـهور وقبلها بتسعة وثلاثين يوما كان رحيل فريد الأطرش ، وكلاهما لم يلتق بالسادات بعد انتخابه رئيسـا لمصر، ثم التـقى مـحـمـد عـبدالوهاب مـرة أخـرى بالسـادات فى حـفـل تسليم الاسطوانة البـلاتينيـة لعبـد الوهاب من شـركة إيمـى العالميـة، أقيم الحفل بقاعة سيد درويش بالهرم فى مسـاء الخـمـيس ١٩٧٨/٢/٢، ثم كـان اللقـاء الثـالث بين السادات وعبدالوهاب فى مطار القاهرة عندما قاد موسيقار الأجيال الفرقة الموسيقية العكسرية التى عـزفت السـلام الوطنى الجـديد (بلادى بلادى)، حدث ذلك عند استقبال السـادات عند عـودته من كامب ديفيد صبـاح السبت ١٩٧٨/٩/٢٣، خرجت الجماهير يومـهـا فى اسـتقبال أسطورى ـ بتـأثير الصـورة التى قدمـهـا الإعلام عن الاتفاق ـ لتمـلأ شـوارع القاهرة وتحيط بالسـيارة المكشوفة التى استقلها الرئيس العـائد بأكاليل الغار من أمريكا وبجـانبـه نائبـه مـحـمـد حسنى مـبـارك (الأهرام: ١٩٧٨/٩/٢٤ – ص ١)، وقد عمل السـادات على اسـتـغـلال هذا الاسـتـقـبـال الأسطورى على النحـو الأمثل .. بأن جـعل زفـاف نجله الوحيد جمال فى اليوم التالى لعودته من كامبد ديفيد ، وفى مسـاء الأحـد ١٩٧٨/٩/٢٤ وقف السـادات وزوجـتـه السيدة جيـهـان يستقبلان ضيوف زفـاف ابنهما جمال، ليلتها استعاد السادات أجواء الاستقبال الأسطورى فى اليوم السـابق.. عندمـا تقـدم إليـه مـحـمـد عـبـدالوهاب ـ كـواحد من النخبة المدعوة ـ ليـصـافـحـه مـهـنئـا بزفـاف نجله (الأهرام : ١٩٧٨/٩/٢٥ – ص ٣) ، وبالرغم من كل مـا

أحاط به السادات عبدالوهاب من تكريم.. إلا أن عبدالوهاب لم يغن ولو أغنية واحدة للسادات أو لعهده!.

لم تحفظ مطبوعات السنوات السبع التى عاشها عبدالحليم حافظ من رئاسة السادات ولو صورة واحدة للقاء له مع الرئيس الراحل، وهو ما ساعد بعد ذلك على انتشار مقولة إن السادات لم يكن يحب عبد الحليم لأنه مطرب عبدالناصر ، وقد نفت السيدة / جيهان صفوت رءوف حرم الرئيس السادات تلك المقولة وردت عليها بقولها : «عبدالحليم كان نجم فرح أولادى وكان أحسن مطرب فى مصر، أتذكر أنه فى فرح صغرى بناتى أنه حضر وكان مريضا ، وقلت له : معقول ياحليم تيجى وانت مريض بالشكل ده، فقال : معقول لا أغنى لجيهان، عبدالحليم كنا كلنا بنحبه » «الكواكب : العدد ٢١٨٨ ـ ص ٤١ ـ ١٩٩٣/٧/٦)، وبالرغم مما قالت السيدة جيهان .. فإن الثابت أن عبدالحليم حافظ غنى فى أثناء حرب اكتوبر الأغنيات التالية : «خلى السلاح صاحى» – «عاش اللى قال» – «لفى البلاد ياصبية» و«صباح الخير ياسينا» ، وغنى أيضا بمناسبة إعادة افتتاح قناة السويس للملاحة فى ١٩٧٥/٦/٥: «النجمة مالت ع القمر» و«المركبة عدت» ، إلا أن كل هذا لم يكن كافيا ليفتح له الطريق إلى قلب السادات، فكان أن رحل عبدالحليم حافظ فى عام ١٩٧٧ دون أن يلقى أى تكريم من السادات، وبالرغم من أن عبدالحليم جعل أغنية «عاش اللى قال» ـ والضمير هنا يعود إلى السادات ـ مفتتح غنائه فى كل حفلته منذ عام ١٩٧٣ وحتى رحيله .

ما وراء الحكايات

إن ما تقدم من حكايات ومواقف ربطت بين الرؤساء الثلاث الأول فى نظام ثورة يوليو والبعض من أهل الغناء.. ليست هى كل الحكايات.. ولكنها تكفى لهذا المقام، وإذا ما نحينا جانبا ما يخص الرئيس الأول ـ محمد نجيب ـ من حكايات مواقف لصغر مدة بقائه فى الحكم، فإن التحليل الآن سوف ينصرف إلى ما يخص كلا من الرئيسين : عبدالناصر والسادات، ولعله من المناسب أن يكون هناك معيار واحد لهذا التحليل حتى يكون القياس واحدا فى الحالتين، وليس هناك معيار أدق من رأى كل من الرئيسين فى الفن والفنانين ، فبينما يقول عبدالناصر فى إحدى خطبه : «إن الفن أصبح من أقوى الأسلحة فى معركة الحرية السياسية ضد الاستعمار وضد الاستغلال، مازالت فى ذاكرتنا جميعا مشاهد من أعمال فنية، كانت من أكبر مصادر الإلهام فى كفاحنا الوطنى، كذلك مازالت فى أسماعنا أصداء أناشيد كانت من أقوى ما حملنا معنا إلى ميدان القتال من عتاد.. كانت الكلمة فى مثل قوة طلقة الرصاص فى نضالنا وكذلك كان النشيد»، نجد السادات يقول فى مقال له نشر بالعدد رقم (٧٠٥) من صحيفة «الجمهورية» الصادر فى ١٩٥٥/١١/٢٨: «إننى لا أجد نفسى حقيقة إلا فى صحبة الممثلين» ، وهو ما جعل الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل يقول عن هذه الجزئية من شخصية السادات : «إن الذين عرفوا أنور السادات فى ذلك الوقت لا يذكرون شيئا غير عادى من الناحية السياسية فيما يتعلق به، وكل ما يذكره معظمهم عنه فى ذلك الوقت كانت براعته فى الغناء وفى التمثيل وفى تقليد الرؤساء من الضباط» (محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ـ ص ٤١)، هكذا تضى أقوال كل من الرئيسين جوانب شخصية كل منهما أمامنا، فعبدالناصر ينظر إلى الفن نظرة أيديولوجية تعده سلاحا من أسلحة الحرب، والسادات ينظر إليه نظرة ذاتية كهواية محببة إلى قلبه، ولهذا اختلف أسلوب تعامل كل منهما مع أهل الغناء ، فبينما يستشعر عبدالناصر فى أعماق نفسه بمشاعر الزعامة والأبوة تجاه أهل الغناء كفصيل من



عبد الناصر يسلم فريد الاطرش وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولي

المصريين الذين يتزعمهم، فجاءت لقاءاته بهم فى الأعياد والمناسبات القومية فقط، وكان مطلبه الدائم منهم هو الفن والإخلاص فيه، ولعل ذلك مادفعه لأن يطلب فى احتفالات العيد الحادى عشر للثورة (٢٣/٧/١٩٦٣) من أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب أن يلتقيا فى عمل مشترك (د. رتيبة الحفنى: أم كلثوم *معجزة الغناء العربى* - ص ١٣١)، فكان أن ظهرت للناس أغنية اللقاء الأول «إنت عمرى» فى أول خميس من شهر فبراير سنة ١٩٦٤ وبعد حوالى سبعة شهور من طلب عبد الناصر، أما السادات.. فإن الكثير من لقاءاته بأهل الغناء - وبالأخص قبل سنة ١٩٧٠ - ظللتها سمات الخصوصية والمشاعر الإنسانية ، وهو ما انعكس على الفن فى عهده بصفة عامة والغناء على وجه الخصوص، فمثلا .. كانت دعوته عبدالوهاب لحضور زفاف ابنه الوحيد للتعبير عن امتنانه لما قام به موسيقار الأجيال من استقباله بالمطار وإعادة توزيع السلام الوطني وقيادة الفرقة الموسيقية بالمطار، ومن ذلك أيضا .. أنه أوقف الكاتب الكبير/ محمود السعدنى عن العمل طوال ستة شهور فى مجلة (التحرير) عندما أفحش فى هجومه على فريد الأطرش بأحد أعداد المجلة، ومجلة «التحرير» كانت تصدر فى السنوات الأولى للثورة عن «دار التحرير» التى عمل السادات مشرفا عليها (مشوار حياة محمود السعدنى: أكتوبر - العدد ١٠٢٣ - ص ٥٦ : ٥٧ - ٢/٦/١٩٩٦)، بينما كان موقف السادات من أم كلثوم وعبدالحليم حافظ على النقيض من ذلك، إذ لم تشر أدبيات السنوات الأولى من حكم السادات إلى أى لقاء جمع بينه وبين قطبى الغناء الكبيرين، أو *إلى تكريم أى منهما*، .. لا *هم لقب* «فنانة الشعب» الذى أهدى إلى أم كلثوم فى يناير من عام ١٩٧٢ .

كبيرة هي الفروق بين ما كان من علاقات أهل السلطة وأهل الغناء في عهدى الرئيسين، ففي عهد عبد الناصر توحد اتجاهي العلاقة.. لتصبح علاقة ذات اتجاه واحد يصب في خانة الوطن، وفي عهد السادات عادت ازدواجية الاتجاه مرة أخرى، إن ذلك مايلمسه المستمع اليوم في الفرق بين صدق الغناء وحرارته في كلا العهدين. ■

موضوع تسجيلي عن بنك مصر

دولة طلعت حرب

بقلم : فتحي رضوان

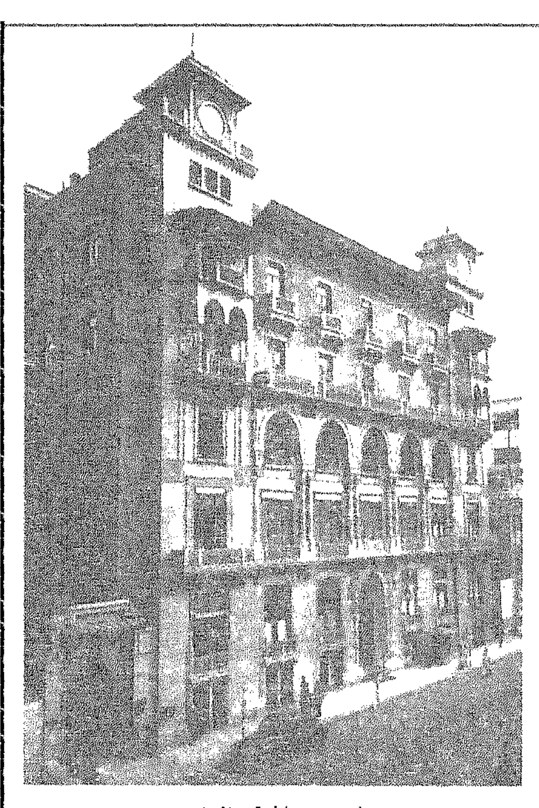
حينما جاءت ثورة يوليو لتقوم بالتأميم، كانت أهم الشركات التي أممت هي شركات بنك مصر وقرار التأميم الذي تم في يوليو ١٩٦١، كان يطول الملكيات الكبيرة لوسائل الانتاج والخدمات، دون تفرقة بين مالك وآخر.

وظلت الشركات التي تتبع بنك مصر تعمل بكل القوي العاملة بها، وتم تحديث الآلات وتزويد هذه الشركات بكفاءات فنية عالية من خريجي الجامعات، فظل دور هذه الشركات قويا في بناء الاقتصاد المصري وحمايته من الاستيراد الأجنبي.

ولنتعرف علي دور الرائد الكبير طلعت حرب مؤسس بنك مصر كتب المفكر الكبير فتحي رضوان مقالا في كتابه «طلعت حرب بحث في العظمة والذى نشر عام ١٩٧٠.. ننشر فصلا من هذا الكتاب بعنوان «دولة طلعت حرب» والذي يقول فيه



طلعت حرب



بنك مصر المركز الرئيسي

كان طلعت حرب، يتمنى أن يتسلم مقاليد الأمور في مصر، وأن تتاح له فرصة تغيير أوضاع بلاده، ابتداء بالشئون الاقتصادية والمالية، وانتهاء بشئون الفكر والثقافة، والحياة الاجتماعية، فقد كان له في كل هذه الأمور آراء، وكانت له الى جانب هذه الآراء في كل جانب من جوانب حياة المصريين، نظرة شاملة، تستند الى ماضي البلاد، وتقاليدها وتراثها الروحي. ولا تدع هذه النظرة، ناحية مهما صغرت. في كلمة ، كان لطلعت حرب برنامج سياسي شامل، ولو طلب اليه أحد أصدقائه الحميميين الذين لهم عليه دلالة. أن يفرغ الى نفسه ساعة أو بعض ساعة، ليضع برنامج حزب، على خلاف برامج الأحزاب التي كانت قائمة وقتذاك. لما وجد في ذلك أدنى صعوبة .

نعم ، كان في وسع طلعت حرب أن يضع برنامج حزب. وخطة عمل لهذا الحزب، وكان سيجد لذة ومتعة، في أن يشرف على أجهزة الدعاية في هذا الحزب، وأن يتولى توجيه - إن لم يكن تحرير - صحيفة الحزب .

ولكن طلعت حرب، كان سياسيا نافذ البصيرة

لذلك رد نفسه عن أن تستهلكه السياسة الحزبية. أدرك أنه على مواهبه التنظيمية واطلاعه الواسع على شئون مصر وعلى صلته الوثيقة بكثير من كبار الرجال فضلا عن قدرته القلمية التى تضعه فى الصف الأول من كتاب أمته أدرك أنه مع كل هذه المواهب لايستطيع أن يحقق نجاحا ما إذا ما خاض المعركة الحزبية وأنه إذا نجح فيها فلن يكون نجاحه الا نجاحا فى الظاهر سيكون به واحدا من هؤلاء الزعماء الذين ينقم بينه وبين نفسه على أساليبهم وعلى إهمالهم للجوهرى الرئيسى من حاجيات مصر.

ولذلك قرر طلعت حرب أن يكون سياسيا من طراز جديد، وأن يطرق ميدان السياسة لا من أبوابه التقليدية ولا من أبوابه الخلفية، بل إنه يشق لنفسه طريقا جديدا لم تدب عليه الأقدام .

وقد كان ...

اختار طريق المال والاقتصاد ، حيث يستطيع أن ينفرد ويمتاز، وبدأ بالبنك، ولكنه لم يكن البنك وحده ليشبع أطماعه الروحية، ولا يحقق الخطة التى وضعها، ليهيمن، - ما استطاع - على حياة المصريين ، ليخرجهم مما هم فيه.

كان لابد أن يكون لبنك مصر، على جوانبه الأربعة، اليمين واليسار، والأمام والخلف، أجنحة يبسط بها سلطانه الروحى والمادى على نواح لم تطلها يد البنك .

فكانت الشركات .

ولكيلا تظن أنى ألقى القول على عواهنه، أدعوك لأن تتأمل هذا الاتساع فى الميدان الذى اختارت شركات بنك مصر العمل فيه .

قد يكون مفهوما وطبيعيا أن يتجه بنك مصر، وهو بنك بلد زراعى، يلعب فيه القطن الدور الرئيسى، فى الاقتصاد والاجتماع، الى القطن وتصنيعه فى الأدوار المختلفة : من نقل وحلج وغزل ونسج وصباغة وتصدير وتجارة. هذا ميدان طبيعى .

وقد تكون دار لطباعة دفاتر ومطبوعات البنك الكثيرة خطوة طبيعية أيضا، بل قد لا تكون نشاطا يستأهل الوقوف أمامه. فما أيسر أن يشترى البنك مطبعة، كبرت أم صغرت.

ولكن ما شأن بنك مصر بالتمثيل، ان فهمنا اهتمامه بالسينما، باعتبارها صناعة وباعتبار حاجة البنك وشركاته والنشاط التجارى والصناعى كله الى الدعاية، ثم ما شأن بنك بالفنادق والسياحة، والفنادق فى البلاد العربية وما مدى احتمال بنك ناشىء كبنك مصر، لتكاليف، شركات الملاحة البحرية، وشركات الطيران، وهو نشاط يؤود الدول، ويبهظ كاهلها ، ولكنها دولة طلعت حرب، لا تكف عن مغازلة خياله، ومداعبة خاطره، وهو يستجيب لهذا الغزل، ويضعف، ويلبى دواعيه، ويخف لتحمل ضرائبه. إنه حقا هيام .

لقد مر بنا قول طلعت حرب وهو يتحدث عن شركات بنك مصر ، اذ قال :

«وقد وفقنا الله فى ذلك، فكان لنا فى هذه الفترة القصيرة – فترة الخمسة عشر عاما – أن ركز البنك، فى السهل والجبل، وفى الشرق والغرب، وعلى الماء، ومتن الهواء علم البلاد.. يخفق

تحت الشمس باسم بنك مصر وشركات بنك مصر.. بل باسم مصر كلها أو بعضها بعد أن طال احتجابه بين الظلام عهدا طويلا..».

وهذا كلام رئيس دولة، لا رئيس بنك .

وإن خالجك شك، فى طبيعة النبرة التى يتكلم بها طلعت حرب عن الشركات، فاستمع الى هذا الكلام :

«لعلكم لاحظتم ونحن نسرد لكم شركات مصر، أن هذه الشركات تكون حلقات متصلة بعضها ببعض، دون أن يكون تأسيسها اعتباطا.

«فالمطبعة والمكتبة، والشركة المساهمة لصنع الورق، حلقة.

«وللقطن حلقة، تتمثل فى الحلج والنقل، والتصدير، والتأمين، والغزل والنسج.

«ويتصل أيضا بحلقة القطن أيضا حلقات الحرير والكتان.

«ومن النقل تكونت حلقة بين النقل فى النهر، والنقل فى البحر، والنقل فى الجو».

«كما اتصل بهذه الحلقة مسألة السياحة .

«ومن اتصالنا بالبحر، نشأت حلقة أخرى، هى «حلقة السمك»، وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف.

«ثم الحلقة التى تربط جميع الحلقات ، وتتبع كل ماتهم اذاعته، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية، ثم ان لهذه الشركات، التى مر ذكرها، منتجات طيبة، يصح بل يجب أن تكون فى متناول جميع المصريين وغيرهم. ففكر بعض «كبار المصريين» فى ذلك؛، واتفقت كلمتهم على تأسيس شركة (بيع المصنوعات) .

وقد يقول قائل ماذا فى هذا الكلام، مما يخرج عن نطاق كلام رئيس بنك، وفق فى انشاء هذه الشركات، فوقف يسرد أسماءها ، ويبين صلة بعضها ببعض، وصلة البنك بها .

والواقع أن هذا قول صحيح، ولكن الذى يحتاج الى التعليق، هو أن يكون لبنك ناشىء، وبنك تجارى، أى بنك ودائع، أن يكون له كل هذه الشركات الصناعية المتعددة، وأن يتم انشاؤها فى هذه الفترة القصيرة. وقد أدرك طلعت حرب، أن هذه الكثرة من الشركات، وهذه السرعة فى الانشاء، مما يتوجه اليه النقد، والتشكيك فى سلامة هذه السياسة، وقد بقيت حملة النقد والتشكيك فى هذا الموضع، قوية ومتجددة، حتى انقطعت صلة طلعت حرب بالبنك، وألجئ الى عزلة قاتمة مريرة حتى توفاه الله فى الحادى والعشرين من أغسطس ١٩٤١ .

لذلك وجد طلعت حرب نفسه مضطرا الى الرد على هذا النقد فقال :

«نعم أيها السادة أن يكون بنك مصر، مجرد بنك كالبنوك الأجنبية الكثيرة العدد، فى البلد، وهى بنوك تستوحى فى الغالب سياستها من أمهاتها فى الخارج .

«ولقد رأى بنك مصر العبء الذى تركته هذه البنوك فادحا وثقيلا، ولكنه لم يتردد فى أن يحمله، فحمله وحده بشجاعة وأمانة معتمدا على الله الذى يجزى اليد الصالحة بما هى أهل، والذى لايضيع أجر من أحسن عملا..» .

ثم قال: ولم يكن للبنك مفر من الاسراع فى تأسيس المشروعات المهمة الضرورية ، لا سيما وعصرنا الحاضر، عصر سرعة بكل ما تحمل من معنى هذه الكلمة.

«وقد يكون هناك بعض الذى يخشون هذه

السرعة التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته، ولكن أمثال هؤلاء لايلبثون أن يقتنعوا بأن استمرار تطفل الأمة على موائد غيرها يعرض كرامتها للتجريح» هل رأيت؟ أنه مشغول بكرامة الأمة، لا بقدرة (البنك) وطاقته على تحمل أعباء هذه الشركات، تأسيسا واشرافا وتوجيها وتقويما وتمويلا . إنه لم يطق أن يستمر تطفل الأمة على موائد الغير والعيش على فتات تلك الموائد ، وهذا احساس سليم، ولكنه لايصدر إلا عن رئيس دولة، لا عضو مجلس ادارة بنك منتدب، فعضو كهذا، مهما كانت مشاعره الوطنية، وطموحه القومي، نشاطه، أراد أو لم يرد، مقصور على الميدان الذى يمارس فيه البنك نشاطه، والذى يقره المساهمون، والا ثار عليه هؤلاء المساهمون، لأن هذه الآمال العريضة، تودى بأموالهم، أن سكتوا عليها إن آجلا وإن عاجلا .

ولكن لم يكن نشاط شركات بنك مصر، مجرد آمال في الهواء، لا يقوم على سند من الدراسة الاقتصادية، وتحرى الحاجات القومية الحقيقية، مع ادارة ذات كفاية وذات دراية.

ونظرة واحدة الى ما طرأ على رأس مال هذه الشركات من زيادة، في عدد قليل من السنوات يرينا أن هذه الشركات، كانت عملا اقتصاديا ناجحا، وأن البنك لم يتورط في انشائها، والمساهمة في رأس مالها، تحت ضغط طلعت حرب وطموحه ، ورغبته في أن يقي الكرامة المصرية من الهوان والتجريح. وانه كان يفكر في هذه الشركات، بروح رئيس الدولة الحقيقي والأمين معا، واليك هذا البيان عن مركز هذه الشركات حتى سنة ١٩٤٥ فقط، أى بعد وفاة طلعت حرب بأربع سنوات:

ففي سنة ١٩٢٢ أسست شركة مطبعة مصر برأسمال قدره ٥٠٠٠ جنيه زيد حتى أصبح ٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٢٤ أسست شركة مصر لحليج الأقطان برأس مال قدره ٣٠ ألف جنيه زيد إلى ٢٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٢٥ أسست شركة مصر للنقل والملاحة برأسمال قدره ٤٠ ألف جنيه زيد الى ١٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٢٥ أسست شركة مصر للتمثيل والسينما برأس مال قدره ١٥ ألفا زيد الى ٧٥ ألفا .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر لنسيج الحرير برأسمال قدره ١٠ آلاف من الجنيهات زيد الى ٢٥٠ ألف جنيه .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى برأس مال قدره ٣٠٠ ألف جنيه زيد الى مليون جنيه، الى جانب سندات أصدرتها الشركة على ثلاث دفعات تبلغ قيمتها المليون جنيه تستهلك في كل عام .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر لمصايد الأسماك برأسمال قدره ٢٠ ألف زيد الى ٧٥ ألفا .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر للكتان برأسمال قدره ١٠ آلاف زيد الى ٤٥ ألفا .

في سنة ١٩٣٠ أسست شركة مصر لتصدير الأقطان برأسمال قدره ١٢٠ ألفا زيد الى ١٦٠ ألفا .

في سنة ١٩٣٢ أسست شركة مصر للطيران

برأسمال قدره ٢٠ ألفا زيد الى ٨٠ ألفا .

فى سنة ١٩٣٢ أسست شركة بيع المصنوعات المصرية برأسمال قدره ٥ آلاف جنيها زيد الى ٨٠ ألفا .

فى سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر للتأمين برأسمال قدره ٢٠٠ ألف جنيه .

فى سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر للملاحة البحرية برأسمال قدره مائة ألف جنيه زيد الى ٢٠٠ ألف .

فى سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر للسياحة برأسمال قدره ٧ آلاف جنيه مصرى.

فى سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر لدباغة وصناعة الجلود برأسمال قدره ٥ آلاف زيد الى ٥٠ ألفا .

فى سنة ١٩٣٨ أسست شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار برأسمال قدره ٢٥٠ ألفا ثم زيد الى نصف مليون جنيه .

فى سنة ١٩٣٨ أسست شركة مصر للمناجم والمحاجر برأسمال قدره أربعون ألفا .

فى سنة ١٩٣٨ أسست شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت برأسمال قدره ٣٠ ألفا .

وقد كانت شركات الغزل والنسيج فى المحلة وكفر الدوار، عملا اقتصاديا ناجحا غاية النجاح، وقد أدت خدمات هائلة للمستهلك المصرى، فى فترة الحرب العالمية الثانية، واضطرد انتاجها فى التحسن، والتوسع، حتى أصبحت مصنوعاتها قادرة على منافسة انتاج أعظم البلاد الصناعية كسويسرا والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا .

ويمكن أن يقال أن الشركات التى يتصل نشاطها بالقطن كشركات حلج القطن أو تصديره والاتجار فيه فى الداخل أو الخارج وتقلمه، كانت ايضا، شركات ناجحة.

أما شركات الملاحة والطيران والتمثيل والسينما، فقد كانت بذورا، ألقيت بيد طلعت حرب، لتضع الحكومة المصرية امام الأمر الواقع، ولتحملها فى المستقبل القريب او البعيد، على النزول الى هذا الميدان الذى تستلتزم كرامة الأمة والدولة معا، النهوض بتبعاته، وأداء تكاليفه مهما كانت باهظة، فإن لمكانة الوطن مقتضيات لا سبيل الى الفرار منها، وان كانت الحكمة تقتضى الدول، أن تقتصد ما استطاعت الاقتصاد ، فى المجالات التى لا تزيد على كونها ، ألوية ترفع، ورايات ترفرف، ومظاهر للوجود فهى أشبه ما تكون بالتمثيل السياسى الذى يكون التوسع فيه ، حيث لا نفع ولا جدوى منه، اسرافا ممقوتا، وتبديدا تأباه المصلحة الحقيقية للوطن .

أما باقى شركات بنك مصر، فقد كان تجارب . يتفاوت حظها من التوفيق، فبعضها كانت محاولات مخففة تماما، وبعضها كانت بدايات، قد تثمر فى المستقبل ثمرا لا بأس به.

ولكنا اذا نظرنا الى شركات طلعت حرب، ككل، استطعنا ان نقول، انها كانت ارتيادا للحقل الاقتصادى المصرى، وان للريادة دائما، ثمنا يدفع، فليست كل خطوة فى الدروب المجهول، والمجالات البكر، مضمونة النجاح، ولكن النجاح لا يأتى للناس، اذا لزموا أماكنهم، وتحاشوا المجازفة واستهداف الخطر، فالشركات ان لم يحالفها جميعا النجاح، الا انها كانت مدارس لتعليم الشبان المصريين وتدريبهم. واهابة للرأسمال المصرى ان يتحرك ويجازف ويستكشف، ولو قام الرأسماليون الآخرون بواجبهم، وقامت الدولة بواجبها كذلك ، لوفروا جميعا على طلعت حرب



وبنك مصر ما بذل من جهد، وما أنفق من مال، وما تعرض له من نقد .

ولكن شركات بنك مصر ، كان لها دور آخر، فى حياة طلعت حرب ونشاطه، فقد منحته الحق، فى أن يتحدث ويعمل ويتحرك، بوصفه رئيسا لدولة غير رسمية، تكمل الدولة الرسمية ، ويقوم عنها بما لا تقوم به، ويقول مالا يقوله رؤساء الوزارات، والوزراء الزعماء، للصحف، ويشغل نفسه بأكبر وأعظم وأبقى مما يشغل بال ونفس هؤلاء جميعا، وقد يكون من الصعب تعقب كل ما قاله طلعت حرب فى هذا الصدد، بصفته رئيسا غير متوج لدولة هو واضع أساسها، وراسم بناؤها، ومحدد أهدافها. وقد لايستطيب القارئ كثيرا هذه المقتبسات المنتزعة من خطب طويلة، فقد لا تكون للمقتبسات روح الخطبة الكاملة، وأثر سياقها المتصل، ولذلك لابد من الاقتصاد ما استطعنا فى هذه الاستشهادات .

وأول ما يعرض أو يفرض علينا نفسه من هذه الاستشهادات ، هو ما قاله طلعت حرب فى ٣ من مارس سنة ١٩٢٤، فى وليمة أولها للقناصل المصريين الجدد وأنى لأرجوك أن تتبين المعنى فى هذه الوليمة. فلقد كان التمثيل القنصلى جديدا فى مصر، عقب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وبعد انعقاد أول مجلس نيابى مصرى فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

إنى أستطيع أن أؤكد أن هؤلاء القناصل الجدد الذين تهيأوا للسفر الى مقار أعمالهم لم يتلقوا من أحد غير طلعت حرب دعوة لتكريمهم أو التحدث اليهم، بل لعل وزير الخارجية المصرى نفسه لم يلتق بهم مجتمعين، أما الهيئات الأخرى مثل اتحاد التجار أو اتحاد الغرف التجارية، أو وزير المالية، فلعلهم لم يشعروا تماما بأن جهازا جديدا وضع فى خدمتهم هو جهاز السلك القنصلى.

أليس صحيحا اذن ما أقوله من أن طلعت حرب، كانا يفكر بالنيابة عن رئيس الدولة ورئيس الوزراء، والوزراء فيعوض على البلاد، ما يضيعه هؤلاء، بنقض ثقافتهم السياسية. وقلة ادراكهم لواجباتهم الوطنية .

اجتمع طلعت حرب بالقناصل المصريين، فاسمع ماذا قال لهم :

قال أولا : «اذا كنا نأسف لأن حوادث التاريخ قد حرمتنا حق التمثيل فى مدى عدة قرون فاننا نفرح لأن العصر الحاضر قد اتصل بالعصر الغابر فى استعادة هذا الحق الذى لم يضع بالتقادم. ونفرح بالذات لأننا نرى فيكم وفيمن سبقوكم منذ أسابيع من رجال التمثيل السياسى حلقة الاتصال بين هذا الحاضر وذاك الغابر .

ثانيا : أنتم تتمون بناء الأجداد وكم عمل هؤلاء الأجداد قديما منذ عهد توت عنخ آمون الى عهد الدولة الفاطمية، كان لهم فى غضون المدنيتين العظيمتين اللتين ورثناهما عنهم فى دمائنا . مدنية الفراعنة القديمة، وثناهما ومدنية العرب المجيدة جهود لم تقف عند حد تشييد القصور والقبور، والمنائر والآثار بل اتجهت الى كل معنى من معانى الروح والدين وما بعد الممات.

ثالثا : نرى الآن حلقة الاتصال بالخارج قد انقطت بنا عدة قرون فكان انقطاعها مضافا الى

أسباب أخرى داعيا الى جعل الترقى فى أساليب الانتاج ضعيفا.

رابعا : لهذا نحن لا نطلب الى حضرات القناصل أن يقوموا بما هو مفروض على بقية الأفراد والجماعات العاملة من الأمة المصرية ، ولكننا نطلب إليهم أن يعملوا كما كان يعمل أسلافهم من الأجداد الغابرين ، نطلب إليهم أن يزدادوا معرفة بأحوال بلادنا الاقتصادية بحيث لا يكون ابتعادهم عن مصر ، سببا فى عدم معرفة شئونها الاقتصادية ثم نطلب إليهم أن يدرس كل منهم فى جهته أحوالها الاقتصادية من جميع الوجوه ، وأن يتفهم ما ينتج وما يصلح من أنتاجها لبلادنا وما تحتاج إليه من منتجاتنا ويرشد عن طريقة الانتفاع من التبادل التجارى بين البلدين : وأن يتفهم طرائق كل قوم يعيش بين ظهرانيهم فى الانتاج والتوزيع ويرشدنا عن الجديد من هذه الأساليب ارشادا يصح أن يكون محل التجربة للانتفاع به فى بلادنا ، أو يبقى قائما فى ذاته ، فإن من الأساليب ما لا نرى فى تطبيقه اليوم نفعا وقد نرى فى اقتباسه فى الغد فائدة» .

وأكاد أقطع بأن القناصل المصريين منذ ذلك اليوم ، لم يفكر أحد فى دعوتهم لشىء مما دعاهم إليه طلعت حرب ، ولم يسمعوا من رئيس أو وزير مصرى منذ تلك الوليمة الفكرية التى أولها لهم ، كلاما كهذا الكلام ، الذى لا يصدر إلا عن مثقف، يعرف تاريخ بلاده ، ويحبها ، ويحب هذا التاريخ ، ويحترم عقول الذين يتحدث إليهم، ويشعر بأن له الحق فى توجيههم ، وفى رسم منهاج العمل لهم ، وإن كان مجرد عضو مجلس ادارة منتدب فى بنك مصرى ، وشركات تتبعه .

وإذا كان طلعت حرب ، لا تكاد تتاح له فرصة ، تمكنه من التحدث عن برنامجه العام إلا وعض عليها بالنواجذ ، فقد وجد هذه الفرصة واسعة ، وهو يتحدث باسم التجار فى حفلة تكريم رئيس الوفد سعد زغلول ، وأعضائه عند عودتهم إلى مصر ، بعد سنتين قضوها فى الخارج من ابريل سنة ١٩١٩ حتى فبراير سنة ١٩٢١ . قال:

«أمامكم أمم العالم فهل رأيتم أمة بينها تترك للصدفة حبلها على غاربها فى شئونها الاقتصادية لا رأى لها فى الذب عن مصالحها وتترك طعمة للآكلين ومضغة لكل ماضغ . أين الغرف التجارية التى أسسها (المهيمنون على أمورنا) أو ساعدوها ؟ أين النقابات الزراعية والصناعية التى نظموها ؟ أين البنوك والشركات المصرية التى عملوا على ايجادها ؟ أين التشريع الذى يقى المصريين ويحمى صناعتهم ومحاصيلهم ؟ تركوا المصريين عزلا من كل سلاح بين منافسين ومزاحمين مدججين بأحسن طراز من الأسلحة الحديثة ، وبعد ذلك يعتبروننا لا نصلح لشىء ، لأننا لم نعمل شيئا . وهم هم الذين لم يؤهلوا لعمل بل أفسدت الساسة ما كان صالحا لدينا» .

لم يقنع طلعت بقبول هذا الكلام ، فهو لم يكن يقوله لسامعيه ، وإنما كان يحدث به نفسه ، بصوت عال ، فهذا برنامجه هو، أهملته الحكومات الخاضعة للنفوذ الأجنبى ثم أهملته حكومات الأحزاب ، فليقم به هو ، معتمدا على نفسه ، وعلى الشعب الذى كان يحسن الظن به ، صدقا لا ادعاء ولا دجلا . ■

أنا والليل

شعر
نازك الملائكة

ارجعْ، فالليل تثير مخاوفهُ قلقى
وأنا وحدي والنجم بعيد فى الأفق
يخدعنى أمل فى فجر لم ينبثقِ
وحبابة دمع باردة لم تحترقِ

٢

ومددت يدى فرجعت بجفنة ظلماء
وسألت الليل فبؤت ببضعة أصداء
أصداء مغرفة فى سورة إغماء
جاءت تزحف من أغوار الماضى النائى

٣

دربى حاولت سدى أن أرفعَ أستارهْ
تصخب فى عتمته أشباح ثرثارهْ
أنكرت الدرب كأن لمَ أعرف أحجارهْ
يوما بالأمس، ولم أستكشف أسراره

٤

أرجع ،أواه ،ألا تسمع صوتى الموهون
لن أبقى وحدى فى هذا الدرب المجنون
هذا الأفق المستغلق حيث النجم عيون
حيث الأشجار هياكل أفكار وظنون

٥

تتردد فيه أصواتٌ تنْذر حبى
أصوات غادرة تنبح ملء الرحب
صدقنى وارجع أخشى أن تجرح قلبى
صدقنى إنى أسمعها تملأ دربى

٦

فى المعبر سعلاة ترمقُ طيفى بفتور
ووراء المفترق المتشعب بعض قبور
خذ بيدى ، ولنترك هذا الأفق المهجور
لا تتركنى روحا صارخة فى الديجور

الهلال - ربيع ثاني ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م



هذا الملف استعراض لأحداث نصف قرن، البعض عاش بعض هذه الأحداث بقلبه وعقله،

والبعض الآخر من الأجيال الجديدة لم يعش هذه الأحداث.

خمسون عاما مرت على ثورة يوليو ١٩٥٢ .. هذه السنوات شهدت أحداثا هامة ، بدءا من تحرير الإرادة المصرية والقضاء على الفساد المتمثل فى إسقاط الحكم الملكى ، وخروج الانجليز من مصر ، وإقامة الحياة الاجتماعية الكريمة لغالبية الشعب المصرى ، والتى تمثلت فى مجانية التعليم وقانون الإصلاح الزراعى ، وإقامة الصناعة الوطنية، وإعداد جيش قوى يدافع عن الوطن .

تحققت الوحدة مع سوريا، وقيام حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الإفريقية .

ثم بناء السد العالى وتأميم قناة السويس وخروج الانجليز من مصر، ومقاومة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .. وعلى الرغم من هزيمة يونيو ١٩٦٧ وما تلاها من تداعيات تم تحقيق النصر عام ١٩٧٣ وعبرنا خط بارليف وتم تحرير سيناء .

فقدت مصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ جمال عبد الناصر ، وفى ٦ أكتوبر ١٩٨١ فقدت أنور السادات ، وكلاهما قدم الكثير من أجل الوطن، ثم تولى الرئيس مبارك قيادة مصر ليواصل مشوار نهضتها وتقدمها .

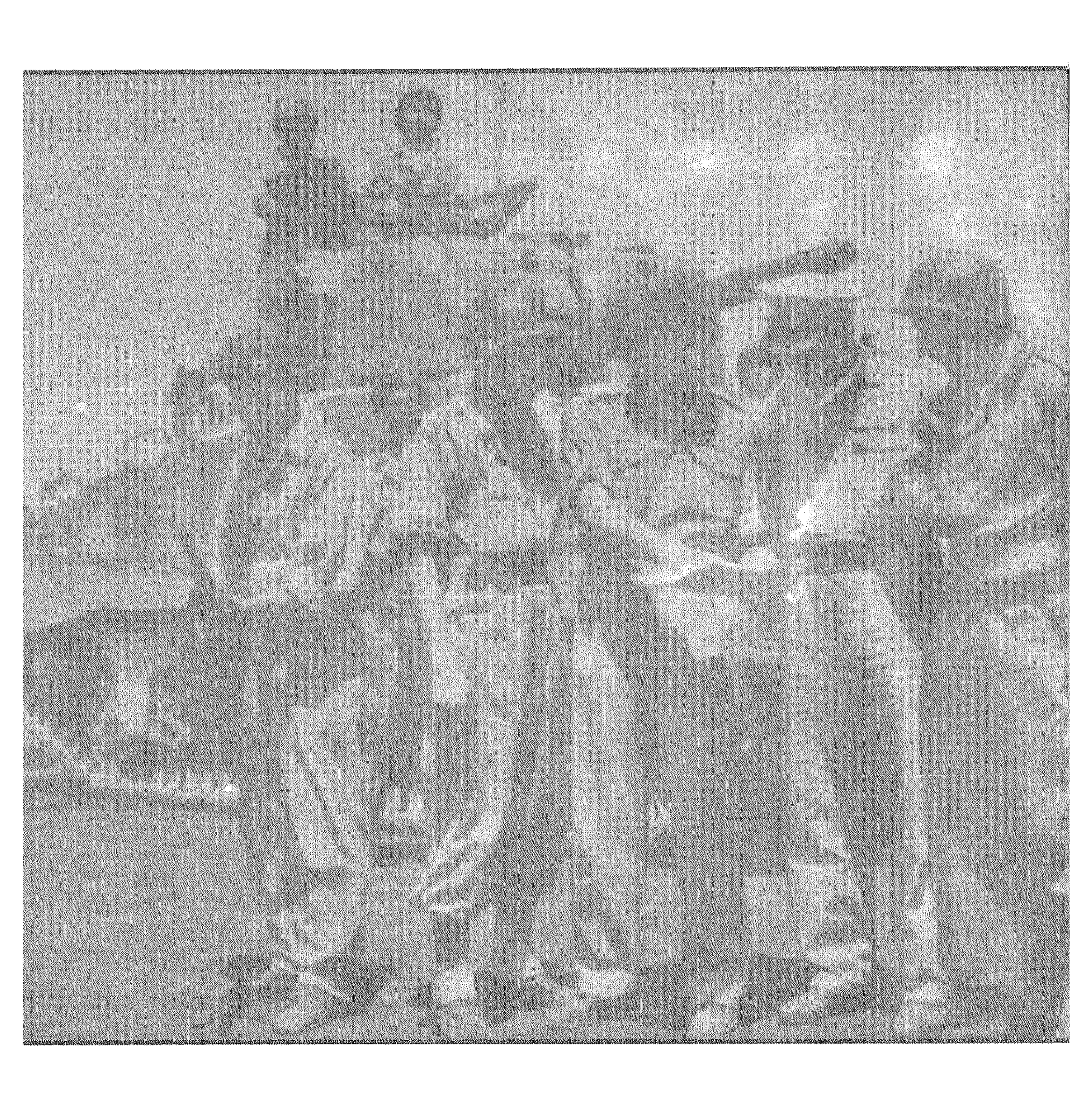
هذاالجزء أشبه بشريط سينمائى عن بعض الأحداث خلال نصف قرن .

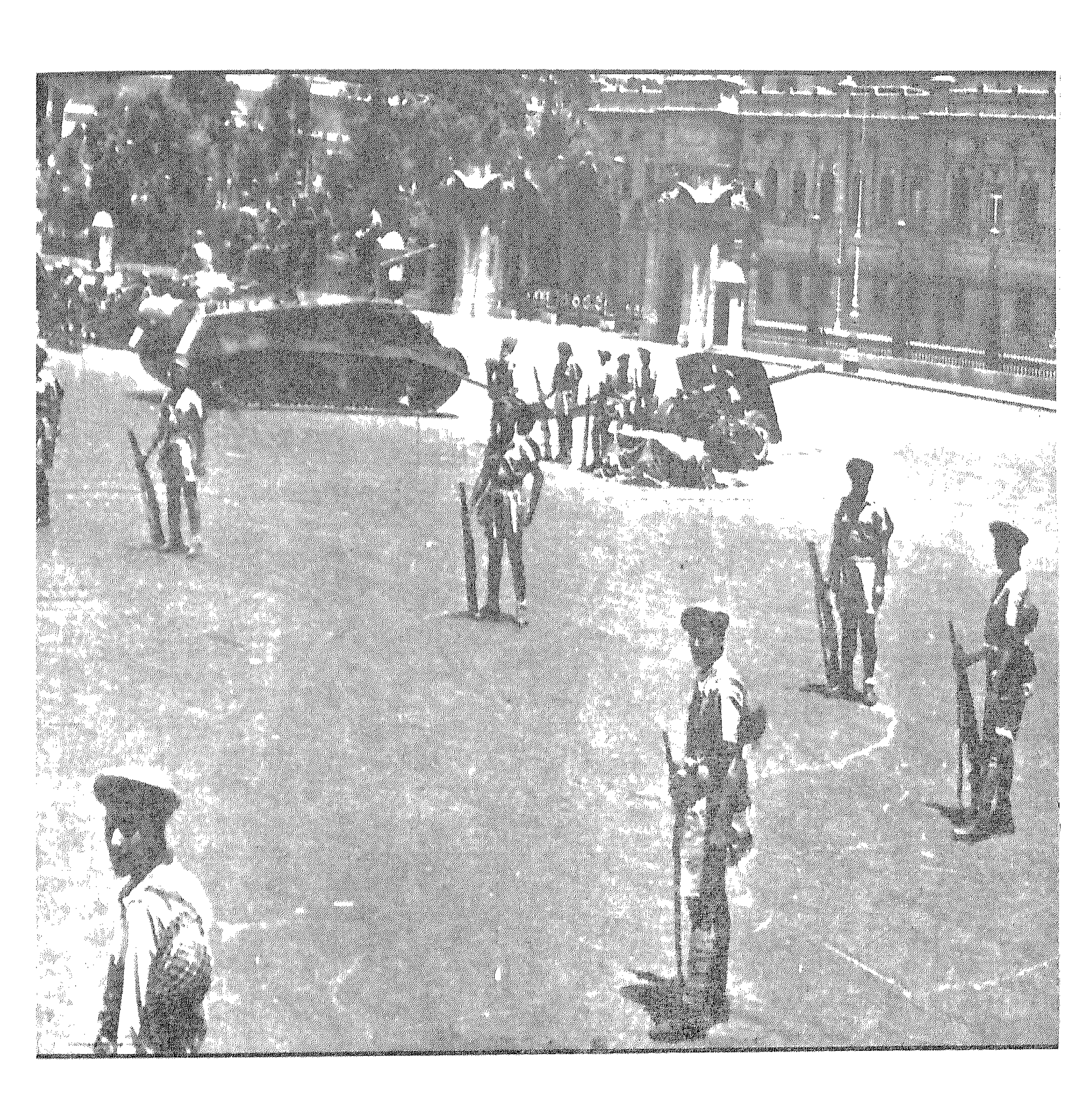
الهلال





صورة من حرب فلسطين وقضية الأسلحة الفاسدة وصورة لحريق القاهرة تعبيرا عن غضب الشعب المصرى وفى الصفحة المقابلة قائد الدبابات يدرس خطة حصار قصر عابدين .





أمر ملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢

نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان

لما كنا نتطلب الخير دائماً لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها

ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ونزولاً على إرادة الشعب

قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه.

صدر بقصر رأس التين في ٤ ذي القعدة ١٣٧١ (٢٦ يوليو ١٩٥٢).

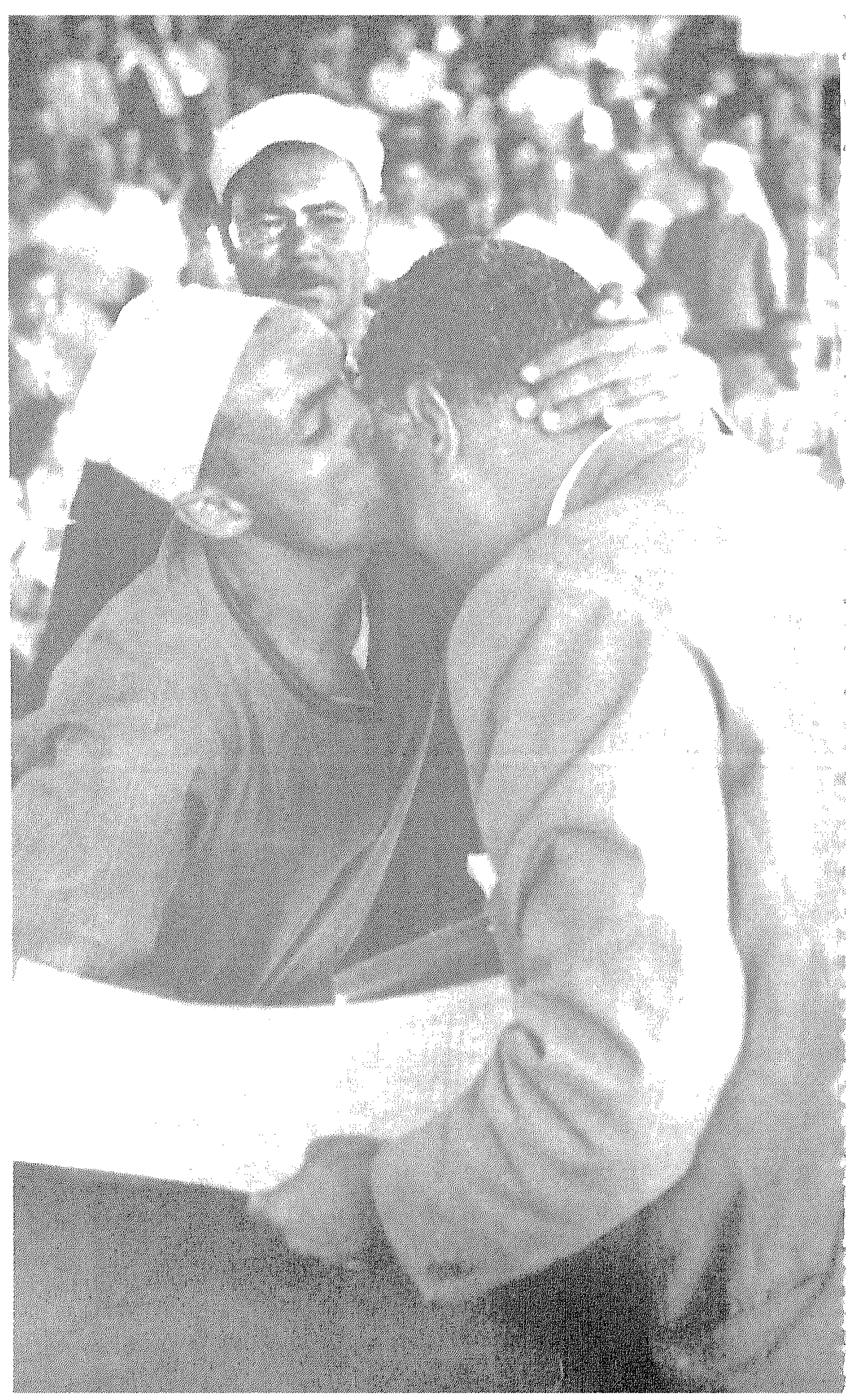
الحصار ورحيل الملك يوليو ١٩٥٢

طلائع ثورة ١٩٥٢ متمثلة في حصار قصر عابدين، وقد انتشر الضباط في ساحة القصر ، وهم يحاصرونه باسم الشعب وصورة ضوئية من وثيقة تنازل الملك فاروق عن عرش مصر والتي وقعها الملك مرتين نظرا لاضطرابه، فالمفاجأة أذهلته تماما وشلت تفكيره !



ولقطة لرحيل الملك فاروق عن البلاد ويرى وهو يلقى آخر نظرة وداع على بلاده التي لم يصنها ويعمل على رخائها.





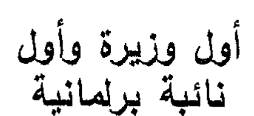
أول وزارة بعد الثورة

محمد نجيب يهنئ على ماهر بعد تشكيل الوزارة والتى لم تستمر أكثر من شهرين وشكل بعدها محمد نجيب وزارته ويرى فى الصورة جمال عبدالناصر وجمال سالم.

وبدأت الثورة تحقق أهدافها فى العدالة الاجتماعية .. ونرى أحد فلاحى مصر وهو يقبل عبدالناصر ابتهاجا بتسليمه وثيقة ملكية خمسة أفدنة من أراضى الإقطاع

كان يا ما كان





أول وزيرة وأول نائبة برلمانية

أول وزيرة مصرية كانت في عهد الثورة وقد حصلت المرأة على الكثير من حقوقها، فحصلت على حق التصويت والترشيح، وتولى وظائف كبرى في النظام السياسي.

وكانت د.حكمت أبو زيد أول وزيرة، للشئون الاجتماعية وراوية عطية نائبة في أول برلمان يتيح الفرصة للمرأة.

* * *

وعلى الصفحة المقابلة بدأت المباحثات المضنية من أجل خروج الانجليز من مصر ويرى في الصورة العليا عبدالناصر والجنرال روبرتسون في ابريل ١٩٥٣ أثناء مباحثات الجلاء، ثم لقطة لعبد الناصر وأنتونى ناتنج أثناء توقيع اتفاقية الجلاء.











مؤتمر باندونج

عبدالناصر وحوله عدد من الزعماء العرب الذين شاركوا فى مؤتمر باندونج فى مواجهة الأحلاف والتكتلات الغربية ، كان قرار تأميم قناة السويس أحد أهم أسباب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ولقطة تبين اثار الدمار على بعض المباني فى مدن القناة

* * *

العدوان الثلاثي

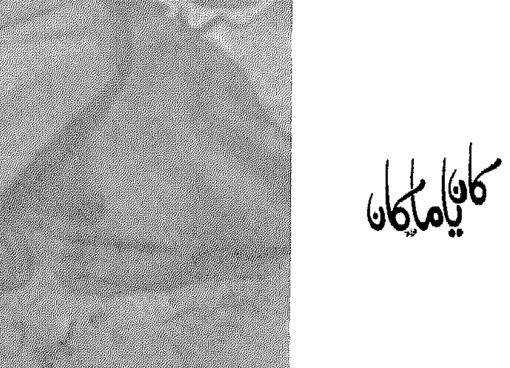
و جمال عبدالناصر يخطب في الجامع الأزهر عقب العدوان الثلاثي علي مصر ويحشد الجماهير لمواجهة المعتدين من انجلترا وفرنسا واسرائيل .

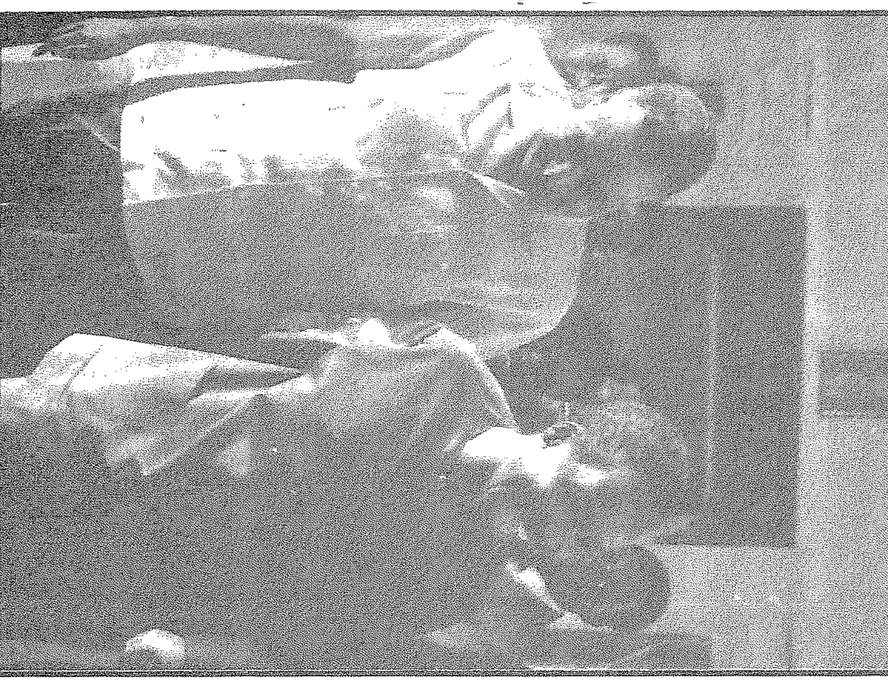
عـبـدالناصـر يطفئ ظمأه ويرتوى من ماء «قلة» وبجـواره الشـيخ أحـمـد حـسن البـاقـورى وزير الأوقاف .

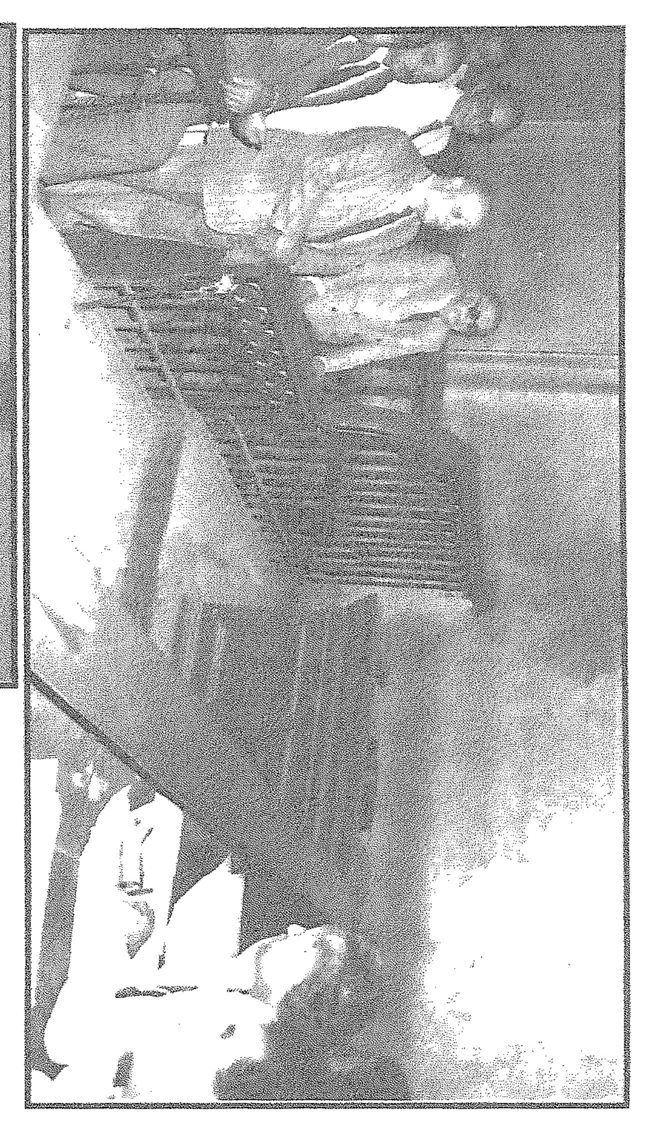
وعلى الصفحة المقابلة إحدى الجلسات التي يتم فيها محاكمة فؤاد سراج الدين

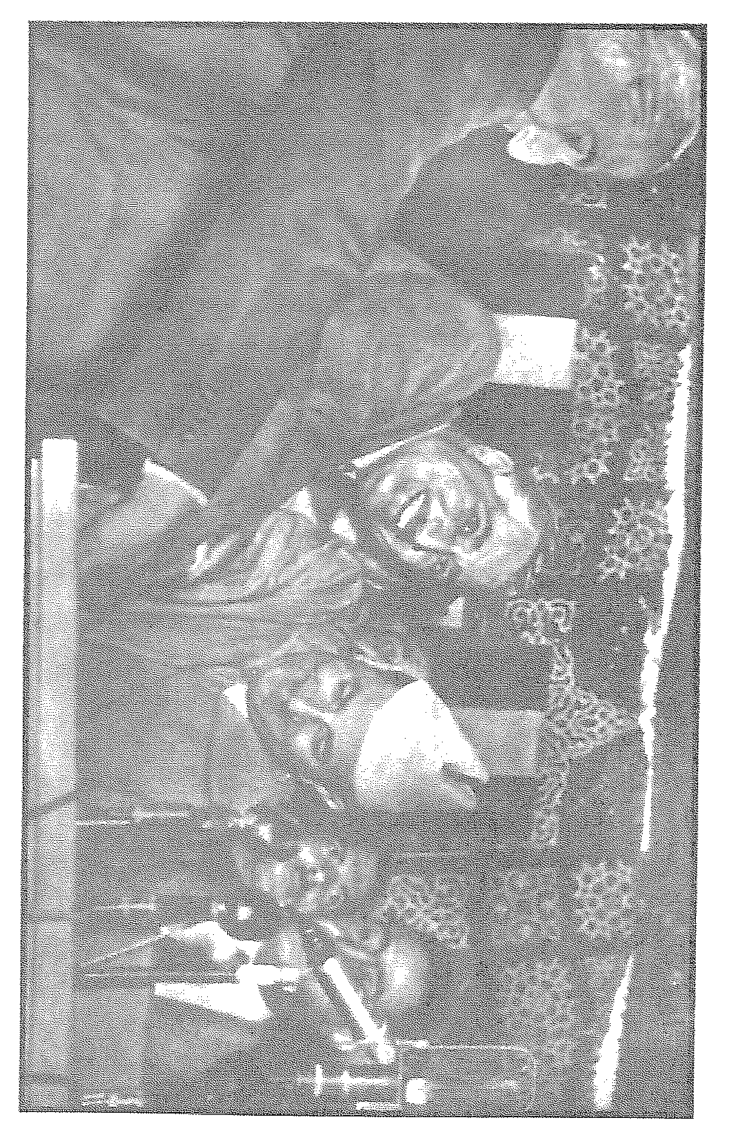
وصـورة لجـمـال عبدالناصر فى واحد من لقاءاته مع زعيم إفريقى .



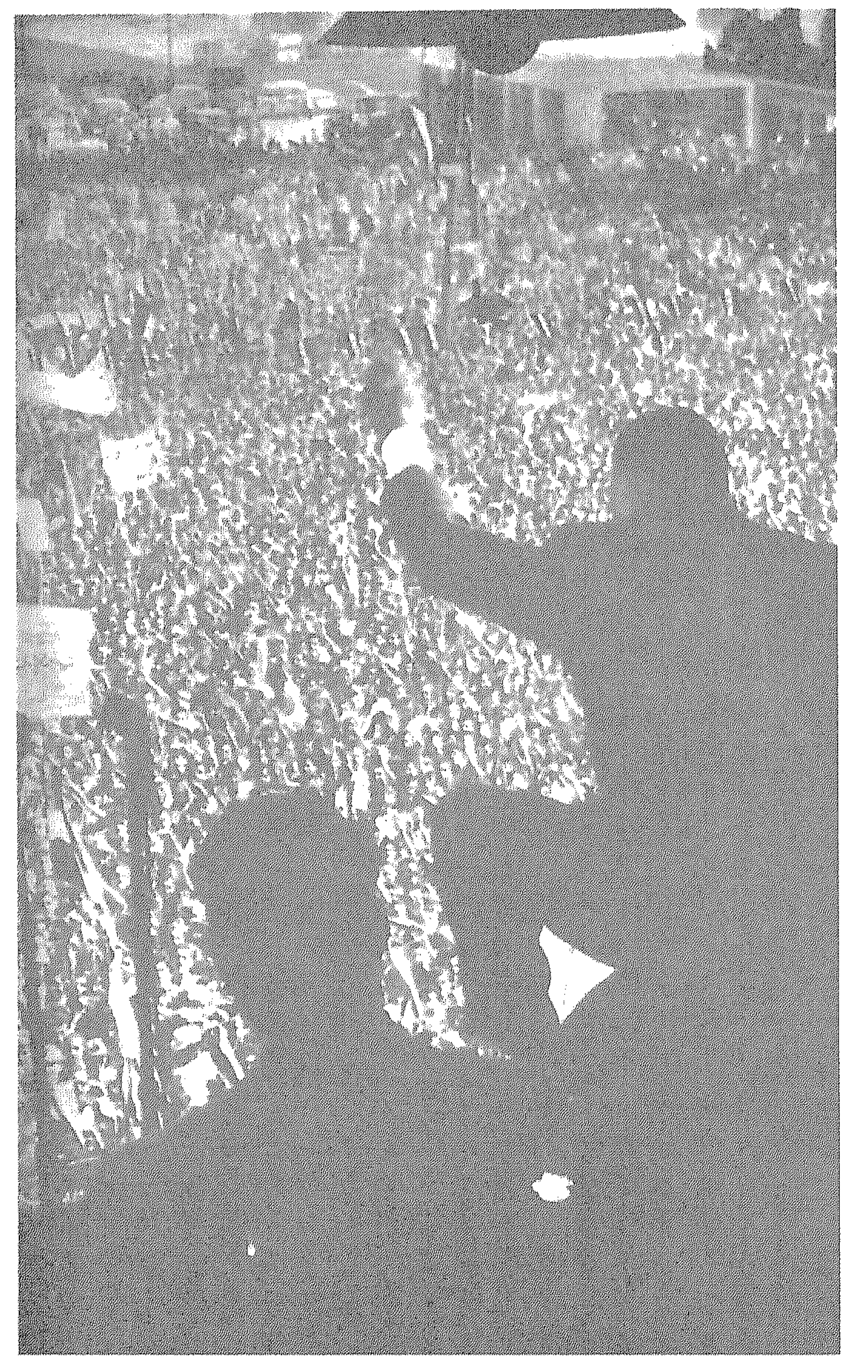












إقامة السد العالى

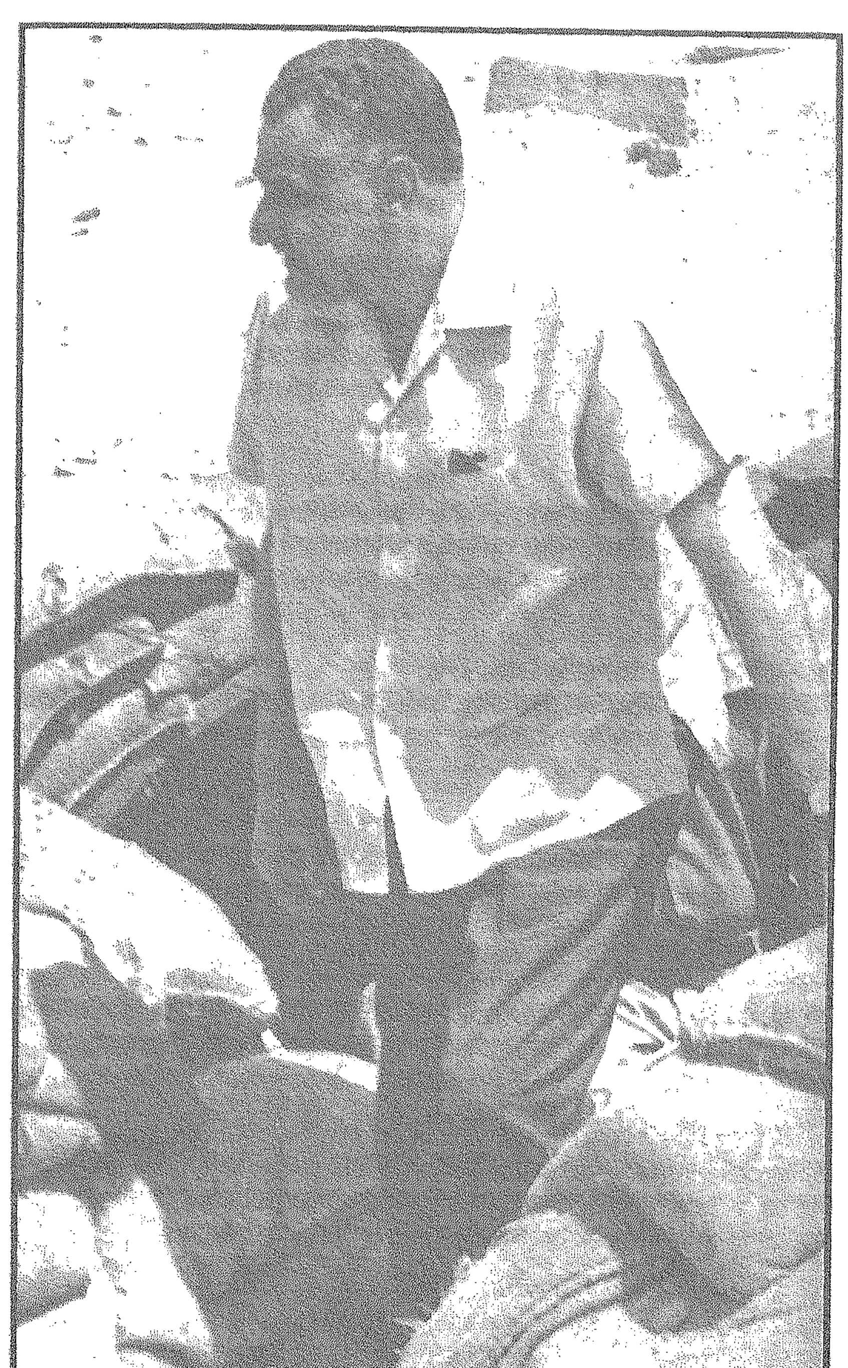
على الصفحة المقابلة بداية مشروع السد العالى .. ويرى جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى والملك محمد الخامس ووزير الرى السودانى أثناء وضع حجر الأساس.

مؤتمرات القمة العربية ١٩٦٤

ولقطة تجمع عبد الناصر والملك سعود وأمير الكويت فى إحدى جلسات أول مؤتمر للقمة العربية بالقاهرة ١٩٦٤

الوحدة بين مصر و سوريا

ثم مشهد تاريخى للجماهير السورية التى سارعت للقاء عبد الناصر فى حلب عقب إعلان الوحدة المصرية – السورية فى فبراير ١٩٥٨



جمال عبد الناصر يزور أحد المواقع العسكرية أثناء حرب الاستنزاف والتى بدأت بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧.

سبتمبر الأسود

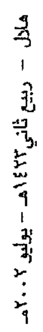
على الصفحة المقابلة مؤتمر القمة العربية الذى عقد خلال أحداث أيلول الاسود والصراع الذى دار بين القوات الأردنية وقوات من منظمة التحرير الفلسطينية .. بذل عبدالناصر جهده ودمه من أجل إيقاف نزيف الدم العربى ..

ولقطة تضم عبد الناصر وياسر عرفات ومعمر القذافى بعد المصالحة.

وبعد انتهاء مؤتمر القمة قام عبد الناصر بوداع الرؤساء المشاركين فيها.







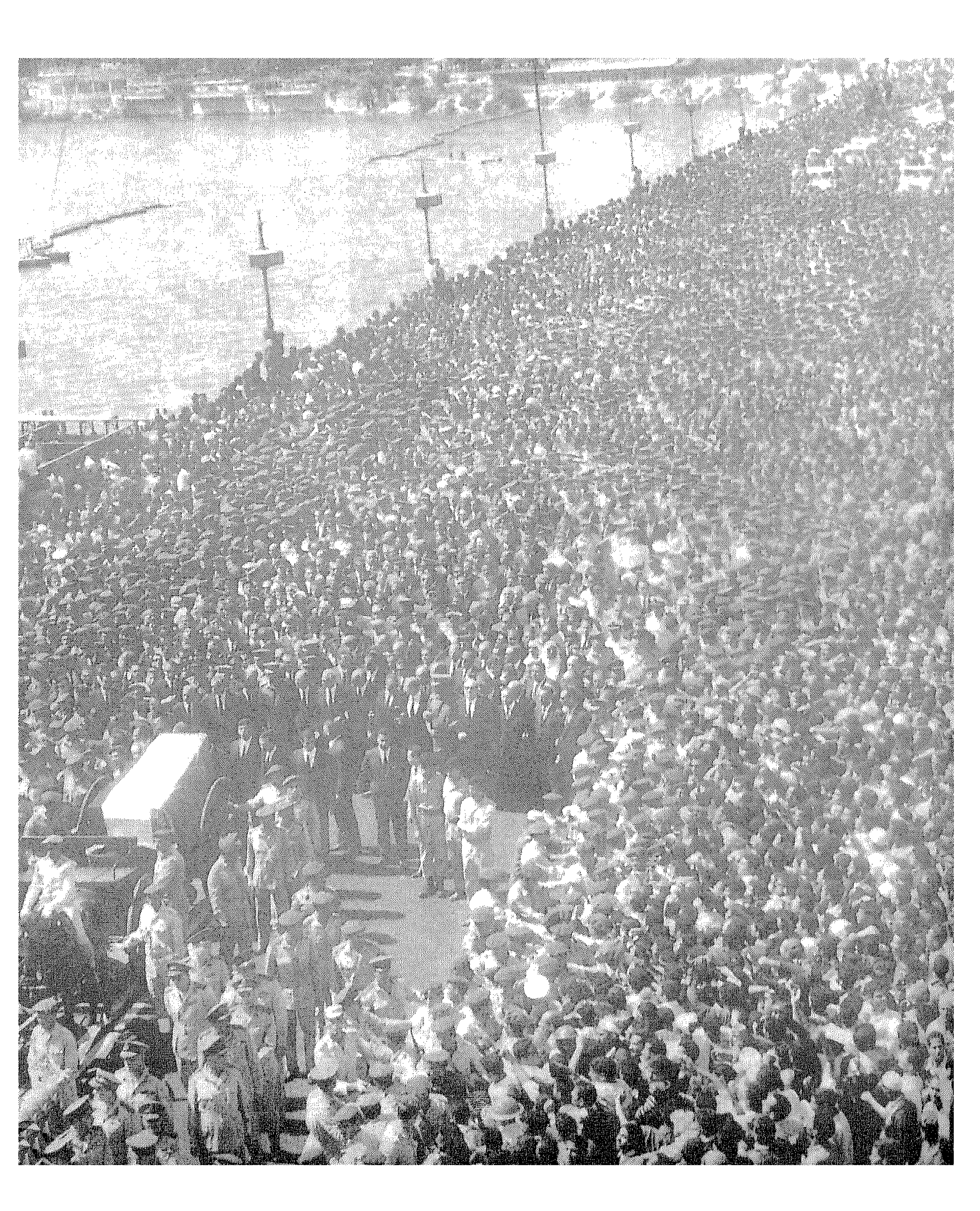
يوم وفاة عبدالناصر

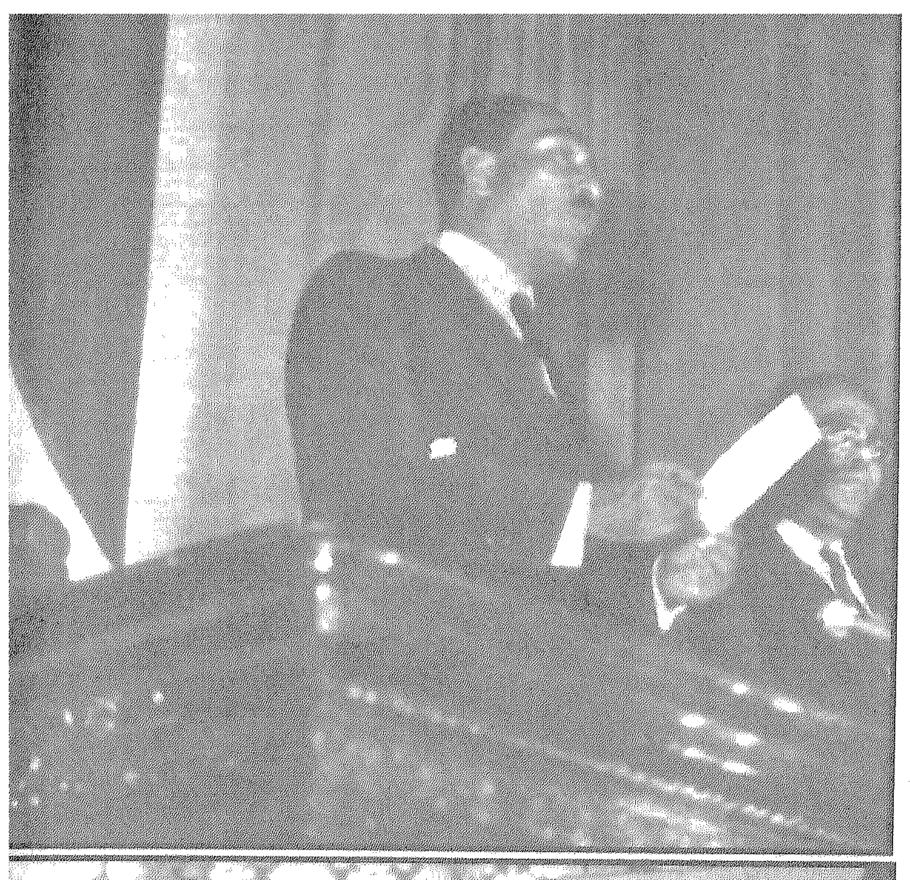
كان آخر من قام بوداعه فى مطار القاهرة أمير الكويت ، ثم عاد إلى منزله لكى يسلم الروح وعمره لم يتجاوز الثانية والخمسين .

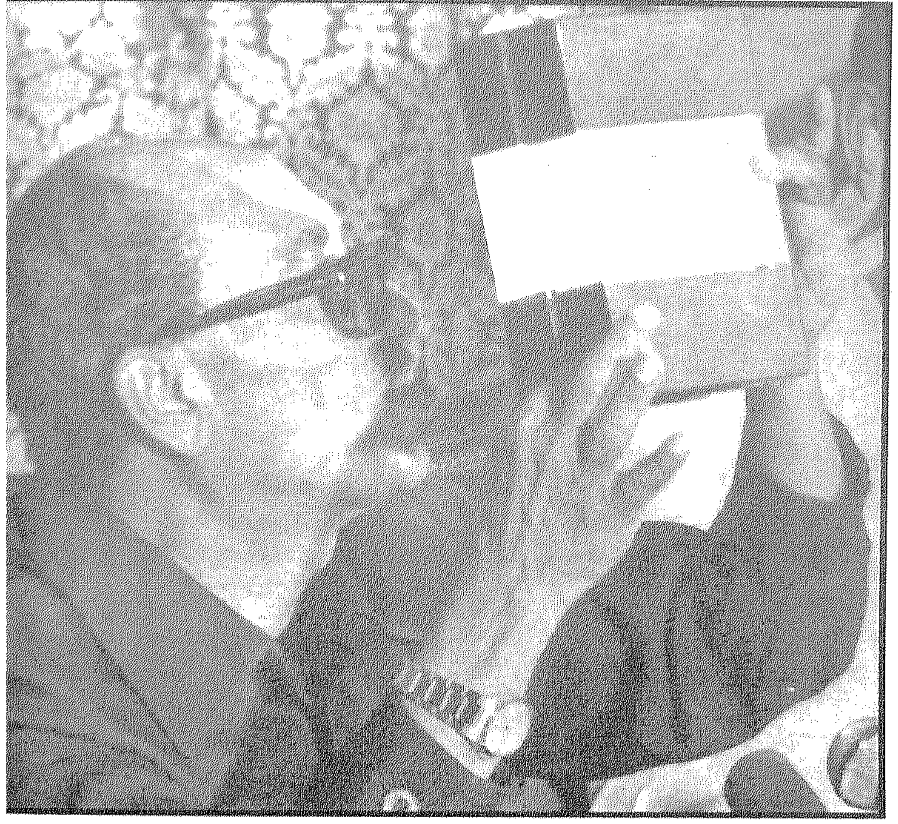
على الصفحة المقابلة

جنازة الرئيس جمال عبد الناصر والتى حضرها ملوك ورؤساء أغلب دول العالم .

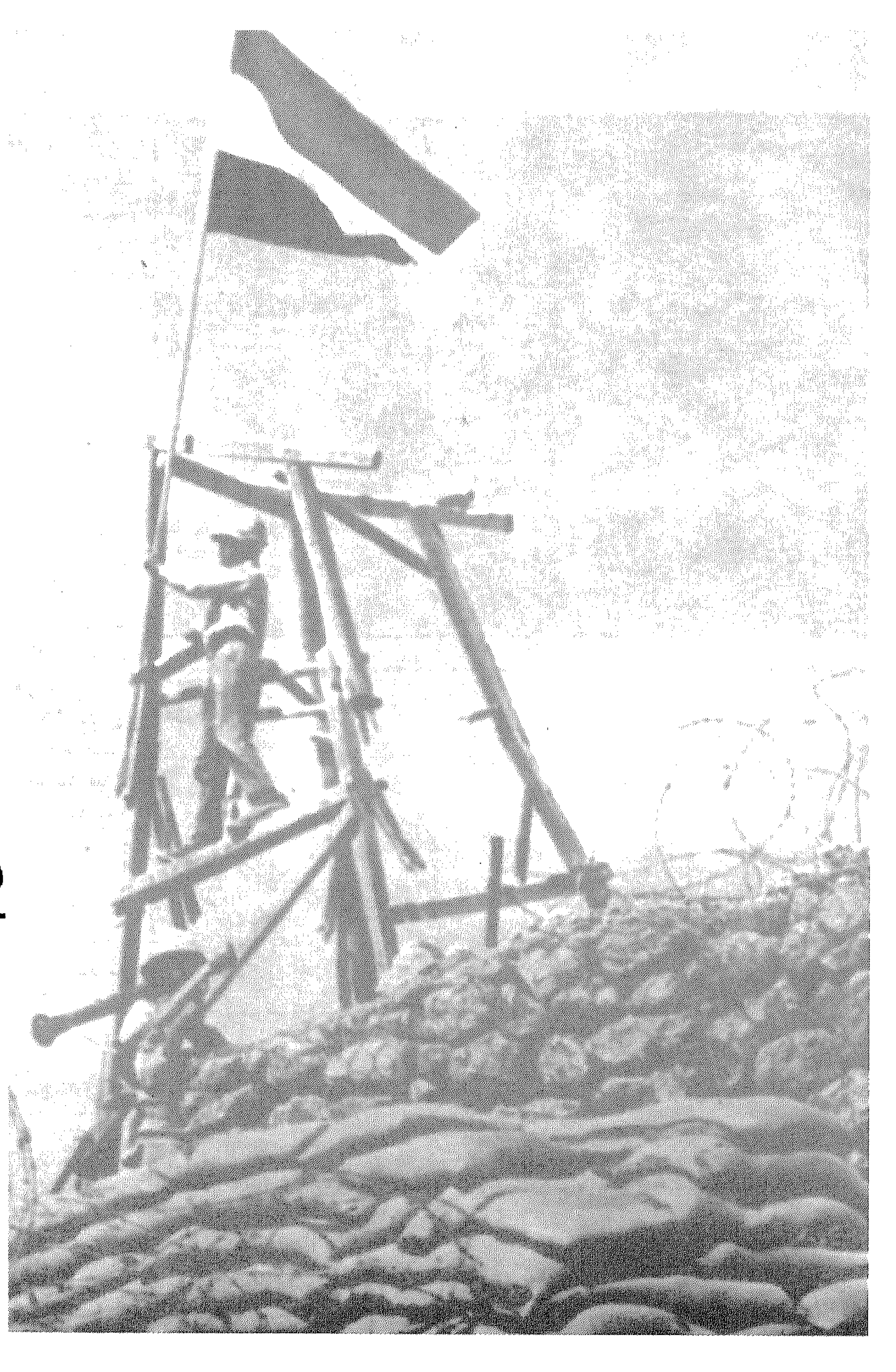








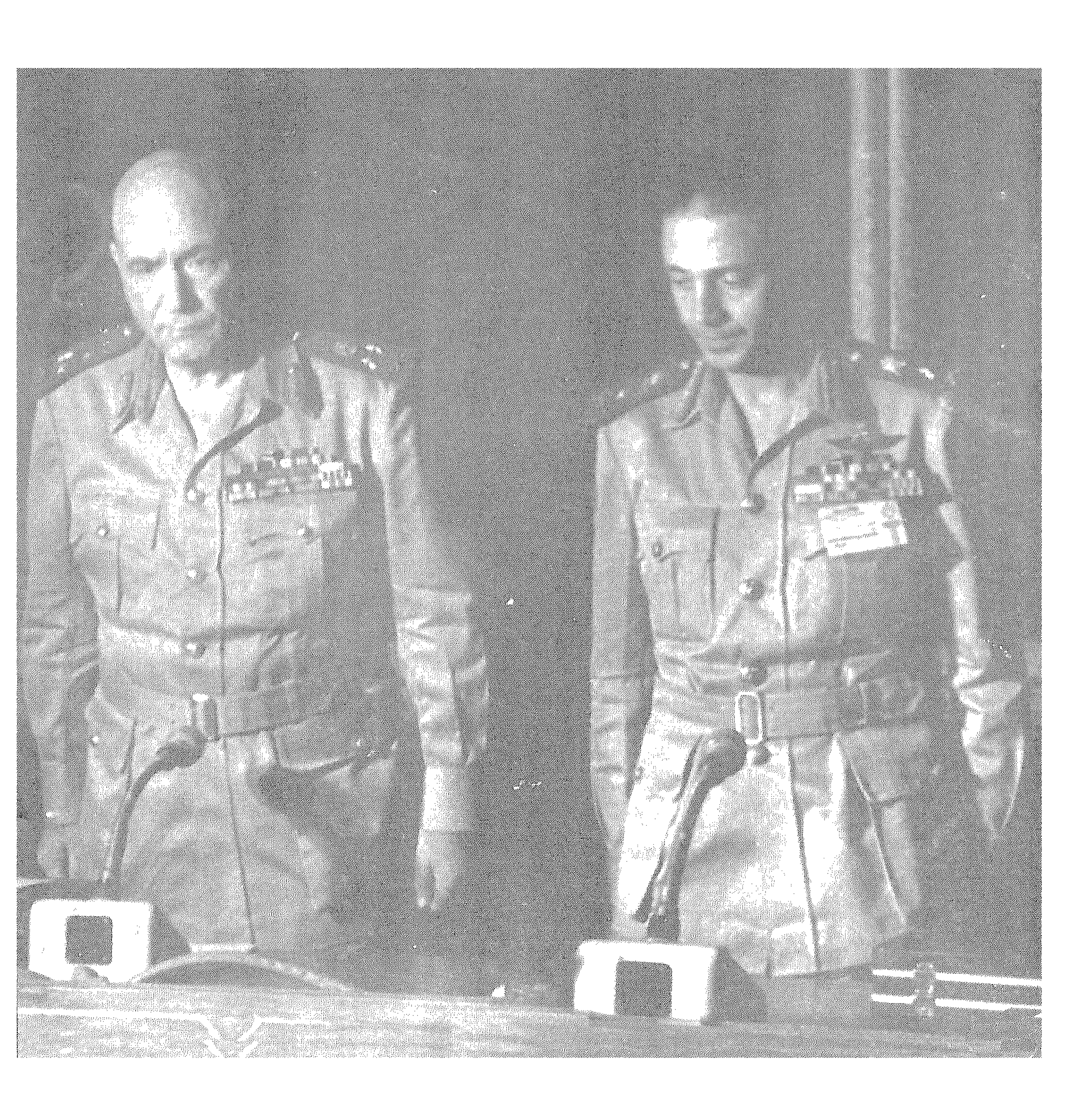
تولي أنور السادات مقاليد الحكم في أكتوبر عام ١٩٧٠، وفاجأ العالم بقرار العبور في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، والذي أذهل العالم واندفعت قواتنا المسلحة تتخطي خط بارليف وتكسر حاجز الخوف ، لتسترد سيناء وتستعيد الكرامة، ويري أول مشهد لرفع العلم علي أرض سيناء الحبيبة .







الفريق أحمد إسماعيل واللواء طيار حسني مبارك قائد القوات الجوية وأحد نسور الجو يدرسون خطط الهجوم علي العدو الإسرائيلي أثناء حرب ١٩٧٣.
ولقطة لعودة قناة السويس أمام الملاحة العالمية في ٥ يونيو ١٩٧٥
وعلي الصفحة المقابلة لقطة تجمع بين الفريق سعد الدين الشاذلي والفريق أول أحمد إسماعيل



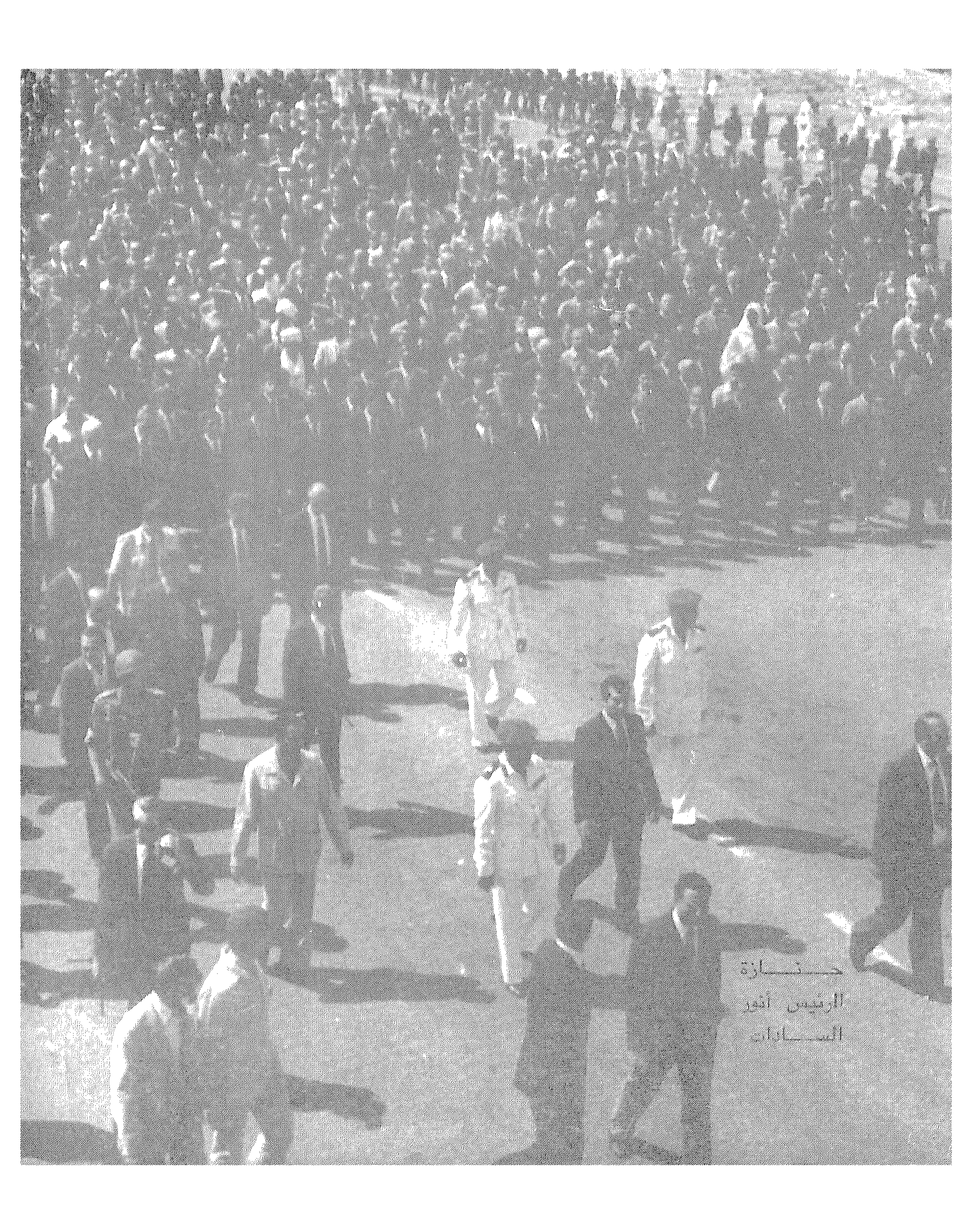


مباحثات كامب ديفيد

الرئيس السادات والرئيس الأمريكي جيمي كارتر أثناء المباحثات في كامب ديفيد عام ١٩٧٩

حادث اغتيال الرئيس السادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ .





جنازة
الرئيس أنور
السادات



عقب تولي الرئيس حسني مبارك مقاليد الحكم استقبل عددا كبيرا من المعتقلين السياسيين وأمر علي الفور بالإفراج عنهم.

الرئيس حسني
مـبـارك يرفـع
علم مصـر علي
سيناء الحبيبة
بعد تحـريرها



الهلال

وشقيقاتها

- مجلة الهلال تصدر أول كل شهر.
- كتاب الهلال يصدر فى الخامس من كل شهر.
- روايات الهلال تصدر يوم ١٥ من كل شهر.

بالإضافة إلى كتب النشر الخاص الذى يتضمن الثقافة الرفيعة بأقلام كبار الكتاب

إحرص على اقتناء هذه المطبوعات التى تزدان بها مكتبتك ، ويشارك فى تحريرها وكتابتها أعلام الفكر والثقافة العربية

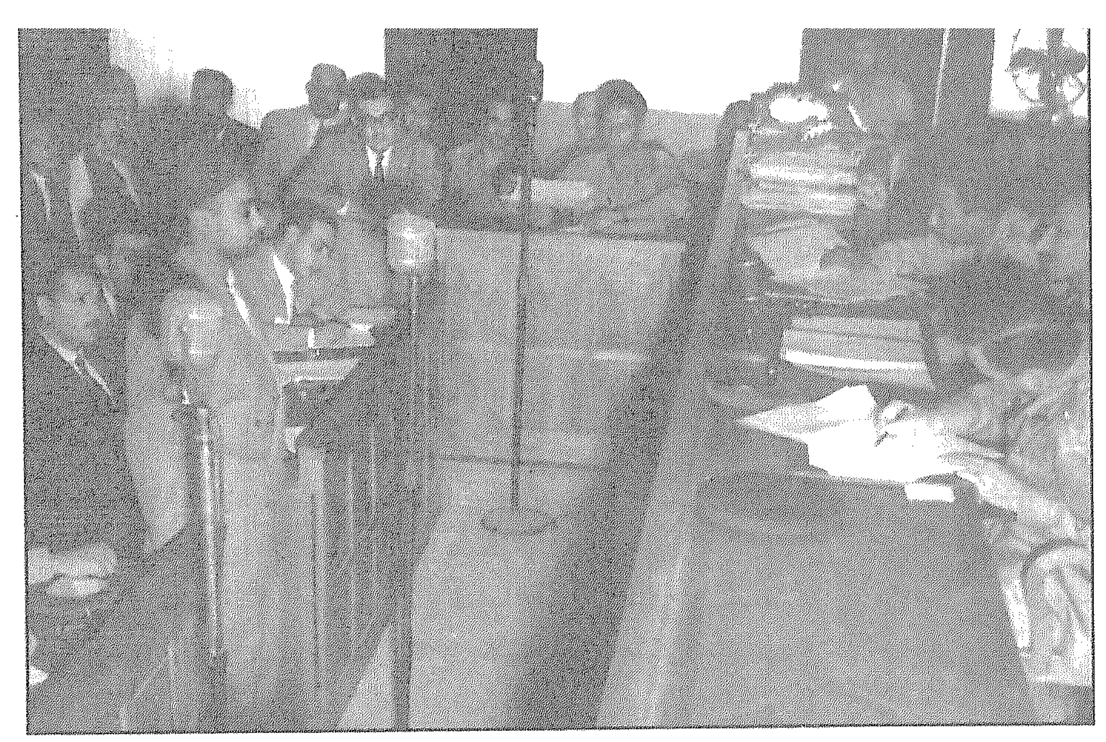
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الإخوان وعبد الناصر

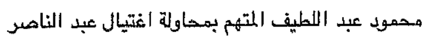
إتصالات الأخوان بالإنجليز عام ١٩٥٣م

بقلم : د. أحمد زكريا الشلق

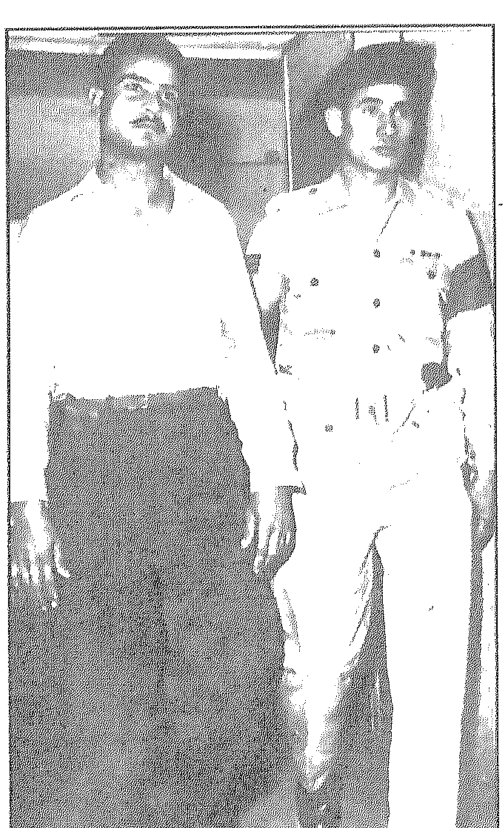
في واقعة غير مسبوقة أجرت السلطات البريطانية في مصر اتصالات ومحادثات سياسية مع تنظيم شعبي، وهو جماعة الإخوان المسلمين في فبراير عام ١٩٥٣، أي بعد قيام الثورة بنحو سبعة شهور، دارت حول تسوية العلاقات المصرية - البريطانية ، وكانت هذه المسألة تمثل تدخلا مباشرا من جانب جماعة الإخوان للمشاركة في هذه القضية السياسية المهمة التي عادة ما تناط بالحكومات، كما كانت هذه المسألة إحدى القضايا التي ساهمت في تدهور العلاقات بين مجلس قيادة الثورة وبين الإخوان، مما ساعد على التمهيد لمرحلة صراع عنيفة، أعقبت مرحلة التوجس والاستكشاف من كلا الجانبين، تلك المرحلة الجديدة التي بلغت ذروتها في حادث محاولة اغتيال عبدالناصر، فيما عرف بحادث المنشية في أكتوبر ١٩٥٤.



محكمة الثورة بعد حادث محاولة اغتيال عبد الناصر بالمنشية ويرى على المنصة جمال سالم وانور السادات



محمود عبد اللطيف المتهم بمحاولة اغتيال عبد الناصر



الصيدلي خميس حميدة واستقبال حكم المؤبد أثناء
محاكمة الجهاز السرى للاخوان المسلمين



وسوف نحاول هنا إلقاء بعض الأضواء حول الاتصالات وما دار خلالها من مباحثات، كيف بدأت وتطورت؟ وهل كان عبدالناصر يعلم بها وبما دار فيها بدقة؟ وما الذى طرح خلال هذه الاتصالات؟، وما هو هدف الإنجليز والإخوان من إجرائها؟، وإلى أى مدى يعد صحيحا ذلك الاتهام الذى وجهته قيادة الثورة للإخوان بأن ما وافق عليه ممثلوهم خلال هذه الاتصالات قد قيد المفاوضات الرسمية التى أجرتها القيادة، والتى نتج عنها فى النهاية توقيع اتفاقية الجلاء.

إن محاولات الإخوان إختراق الجيش والشرطة خلال الأربعينات قد نجحت فى خلق علاقات تنظيمية وشبه تنظيمية بعدد من الضباط الذين قادوا الثورة، وكان هؤلاء يتعاطفون مع الإخوان بحكم أنهم يصبون فى التيار الداعى لإقامة دولة إسلامية، فضلا عن أن حركة الضباط ذاتها كانت تتقارب، بشكل محسوب، مع التنظيمات الشعبية والجماهيرية التى تعادى النظام القائم، وقد لاحظ صلاح شادى أثناء اجتماعات الضباط بقيادة الإخوان فى أعقاب حريق القاهرة، أن الضباط لهم أعضاء مندسون فى كثير من الأحزاب لمعرفة أخبارها، وكانت قيادة حركة الضباط الأحرار تفطن كذلك إلى تغلغل الجماعة داخل الجيش، لذلك بدأت تقترب من الجماعة لأسباب تكتيكية بالدرجة الأولى، لتستفيد من دورها عندما تحين الساعة، ولكن قيادات الإخوان فطنت إلى ذلك وقررت عدم التورط فى نشاطهم داخل الجيش، ما دام تنظيمهم لا يقبل وصاية الجماعة حسب رواية «عبدالمنعم عبدالرءوف» فى مذكراته.

ومع ذلك سار الإخوان مع التيار العام لحركة الضباط ، وخاصة أنها أوشكت على القيام، أملا فى نجاحها وإتاحة الفرصة لهم لمحاولة احتوائها، بل إنه من الثابت أن عبدالناصر لم يقطع صلته بهم فى الساعات الحاسمة ليبلغهم بالتحرك ويطلب مساعدتهم فى حالة تحرك الإنجليز، وقد استجاب الإخوان بالاستعدادا للمعاونة بالفعل، ودفعوا بمتطوعيهم إلى طريق السويس، تحسبا لتحرش القوات البريطانية بالجيش الثائر، كما وزعوا أعدادا منهم على المرافق العامة ودور العبادة لحمايتها ولتأمين الثورة على نحو ما هو معروف وأكدته مصادر كثيرة.. ولم يتعارض الولاء المزدوج لعدد من الضباط ، لتنظيم الضباط الأحرار ولجماعة الإخوان، مع



سيد قطب خلف القضبان اثناء المحاكمة

كون هؤلاء استطاعوا القيام بدرهم فى حركة الضباط لقيادة الثورة تخطيطا وتنفيذا، وفى تنظيم الضباط الأحرار ذاته، وفى المقابل كان التيار العام للإخوان وتوجههم السياسى خلال هذه الفترة بالذات مؤيدا للحركة الثورية فى مجمل توجهاتها، ليتسنى لهم تحقيق أهدافهم فيما بعد، وسينعكس هذا بطبيعة الحال على مواقفهم من قيام الثورة فور نجاحها.

ويبدو أن عبدالناصر، خلال مشاوراته مع قادة الإخوان قبيل ٢٣ يوليو . قد أوحى إليهم أنهم سيتولون الحكم، بشكل أو بآخر، وأنه – حسب رواية صلاح شادى – قد أقنعهم بأنه ليس من المصلحة أن يتم ذلك فى البداية حتى لا تكشف عن اتجاه إسلامى يثير رد فعل دولى من جانب أعداء هذا الاتجاه، وقد ذكر عمر التلمسانى «أن قادة الإخوان كانوا على علاقة طيبة برجال الانقلاب، ظنا منهم أنهم ينفذون ما اتفقوا عليه، وأن فضيلة المرشد قد أقر هذا الانقلاب».

التنصل من الوعود

وعندما نجحت حركة الضباط تأخر الإخوان عن تأييدها لنحو أسبوع، مما أحنق قيادتها عليهم فقد كانت تنتظر تأييدا سريعا وواضحا ، وقد اتهمتهم فيما بعد بالتقاعس، وأن مرشدهم ظل بمصيفه بالإسكندرية ولم يحضر للقاهرة إلا بعد عزل الملك، بينما كان الإخوان خلال هذه الأيام يتحسسون خطواتهم بحذر شديد.. وقد سجلت كتابات الإخوان أن قادتهم تشاوروا مع عبدالناصر فى ٣٠ يوليو، مشاوات بدأ معها المرشد العام يدرك أنه تنصل من وعودة بشأن التشاور مع الإخوان فى الأمور السياسية العامة قبل اتخاذ قرار نهائى فيها بصفتهم شركاء فى المسئولية، ثم لم يلبث المرشد، أن أبدى عدم اطمئنانه إلى الحركة وعدم ثقته فى القائمين بها. وأيقن أنها ليست حركة إسلامية، وإنما حركة إصلاحية يبتغى القائمون بها الانفراد بالعمل.

واستجابة من الإخوان لنداء «التطهير» الذى اطلقته قيادة الثورة ، أصدروا بيانا عن الإصلاح المنشود فى العهد الجديد، عبروا فيه عن آمالهم فى جيش مصر العظيم، الذى وفقه الله فى هذه الحركة المباركة، كما تحدثوا فيه كذلك عن ضرورة جلاء الإنجليز عن مصر والسودان، وذلك بإشارة عامة قصدوا بها ألا يخوضوا فى هذه المسألة بشكل أوضح، مبتعدين عن التورط فى المسائل السياسية بشكل مباشر ومؤثرين التركيز على النواحى الاجتماعية والخلقية، حتى يتسنى لهم تفهم توجهات القيادة الجديدة فى هذا المنعطف المهم من تاريخ البلاد.. وجاءت أزمة محاولة قيادة الثورة إشراك الإخوان فى وزارة محمد نجيب (سبتمبر ١٩٥٢ – يونيو ١٩٥٣) والتى يمكن تفسيرها بقصد إحداث أزمة داخل الجماعة بسبب ذلك أو شراء سكوت الجماعة بإيهامها أنها صارت شريكة فى الحكم أو حتى يجذب عدد من قادتها وابعادهم عنها، خاصة وأن الجماعة كانت تشهد صراعا مكتوما بين فريق من الشباب المتحمس للثورة وتأييدها وبين

فريق من الكبار المحتفظين والمتوجسين منها، وبالفعل نتج عن المحاولة أزمة داخلية تغلب فيها رأى الفريق الأخير.

وحين أصدرت الثورة قرارها بحل الأحزاب، الذى أعفى الجماعة من مشكلة اعتبارها حزبا سياسيا، تلك المشكلة التى سببت أزمة داخلية، ما كانت خافية على قيادة الثورة، رأى الإخوان أن الساحة قد خلت لهم، فحاولوا الاقتراب من قيادة الثورة، وإشعارها بأنهم القوة الشعبية الوحيدة التى تستطيع مساندتها جماهيريا، مقابل أن تتشاور معهم قبل اتخاذ قراراتها إن لم يشاركوها فى الحكم، لكن عبدالناصر رفض ذلك معتبرا أنه نوع من الوصاية على الثورة، مما أدى إلى عودة التوتر من جديد، عبرت عنه مظاهرات الإخوان وهتافاتهم الشهيرة، والتى أدركت معها قيادة الثورة أن قطاعا مهما من الجماهير ليس فى صفها تماما، وأنه بات يشكل خطورة على مسيرتها.

كما بدأ الإخوان من جانبهم ينشطون من جديد لتجنيد عناصر من الجيش، والشرطة لصالحهم . مما اعتبره مجلس قيادة الثورة اختراقا لمؤسستهم العسكرية. واتجه لإصدار قراره بحل الجماعة، بعد اختراقها من الداخل وتمزيق صفوفها، وقد نجحت جهود عبدالناصر فى اجتذاب عبدالرحمن السندى ومؤيديه من الجهاز السرى للإخوان (النظام الخاص)، مما حدا بقيادة الإخوان إلى تشكيل جهاز سرى جديد زاد من تعقيد الأمور، وجاء تأييد الإخوان لمحمد نجيب خلال الأزمة التى عرفت فيما بعد بأزمة مارس ١٩٥٤ لتزيد الخلافات بينهم وبين مجلس قيادة الثورة، ولم تكن اتصالات الإخوان بنجيب، التى بدأت منذ ديسمبر ١٩٥٣ خافية على عبدالناصر ، الذى أعطاه الإخوان فرصة، عندما تحركت مظاهرات طلابهم فى الجامعة مع بدايات يناير ١٩٥٤ ، عندئذ أصدر مجلس قيادة الثورة بيانا اعتبر فيه أن الإخوان يمثلون حزبا سياسيا ومن ثم ينطبق عليه قرار حل الأحزاب ، واتهمهم البيان كذلك بمعاداة «هيئة التحرير» والتسلل إلى صفوف الجيش والشرطة لإحداث فتنة وإسقاط النظام، كما أنهم قاموا بإجراء اتصالات ومحادثات بشأن الجلاء مع السفارة البريطانية، أضرت بموقف وفد مجلس قيادة الثورة أثناء مفاوضاته مع الإنجليز بشأن الجلاء.. وكانت تلك مبررات قرار القيادة بحل الجماعة والذى صدر فى ١٤ يناير ١٩٥٤.

اتصالات السفارة البريطانية بالإخوان ·

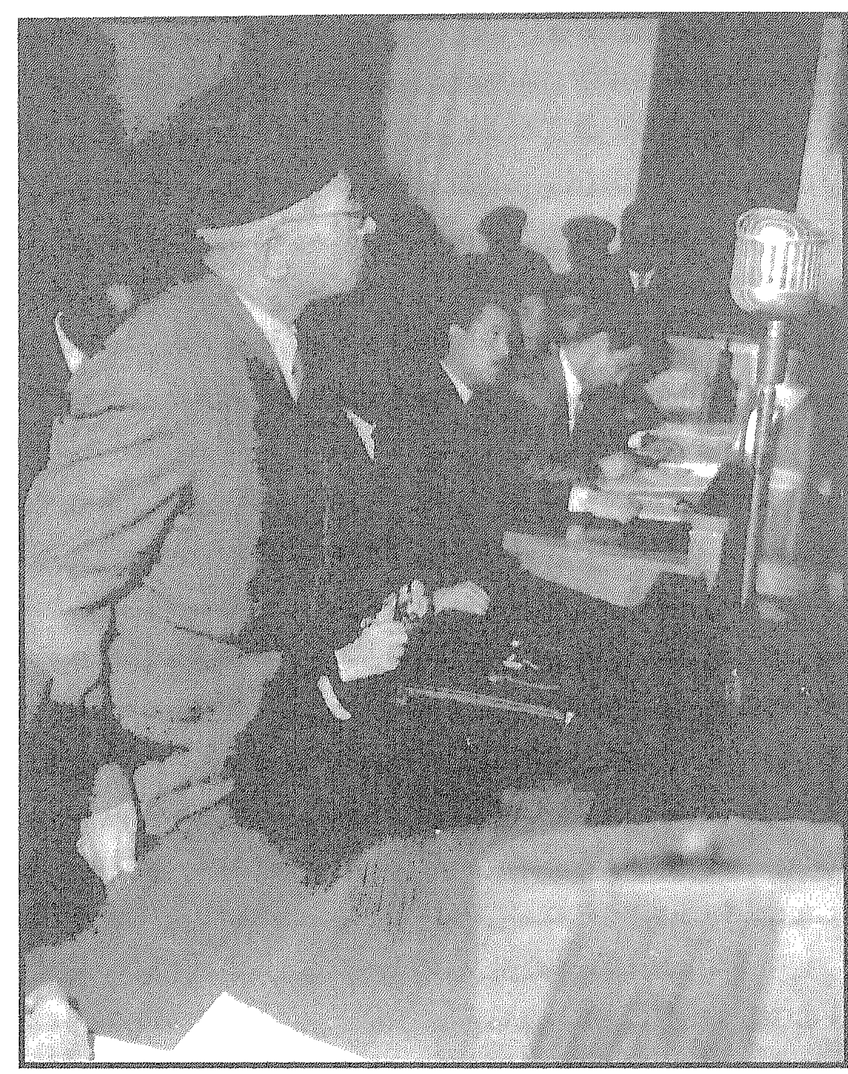
من الثابت أن هذه الاتصالات جرت خلال

شهر فبراير ١٩٥٣ وإن لم يعلن عنها فى حينها، حيث كان ثمة أمل فى استمرار العلاقات الودية بين الإخوان ورجال الثورة، ولكن عندما تدهورت العلاقات، كشف مجلس قيادة الثورة عن هذه الاتصالات معتبرا إياها من مبررات قراره بحل الجماعة فى يناير ١٩٥٤ ، بل إن مسألة المفاوضات المصرية - البريطانية ونتائجها فيما بعد، صارت أحد العوامل التى أفسدت العلاقة بين الثورة والإخوان بشكل نهائى.

وتبدأ قصة هذه الاتصالات ، طبقا لمصادر الإخوان ومصادر قيادة الثورة، فى أواخر عام ١٩٥٢ عندما طلب المستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية بالقاهرة إلى أحد أصدقائه المقربين من الإخوان، وهو الدكتور محمد سالم (المستشار القانونى لوزارة المواصلات) أن يجمع بينه وبين بعض المسئولين من جماعة الإخوان لاستطلاع رأيهم فيما يرتضونه لنجاح مفاوضات الجلاء، التى ستبدأ مع الحكومة المصرية، فأبلغ الدكتور سالم ذلك إلى صالح أبو رقيق فى أوائل فبراير ١٩٥٣ ، حسب رواية صلاح شادى ، الذى عرض الأمر بدوره على المرشد العام حسن الهضيبى، الذى وافق على ذلك من حيث المبدأ، معتبرا ذلك اعترافا بريطانيا بالإخوان، مشيرا إلى ضرورة موافقة جمال عبدالناصر وزملائه على ذلك، حسب شهادة صالح أبو رقيق.

وبناء عليه بدأت اللقاءات فى ٧ فبراير بين أبو رقيق باعتباره الشعبة السياسية بمكتب الإرشاد ومعه منير دله عضو مكتب الإرشاد، وبين المستر إيفانز فى منزل الدكتور محمد سالم فى المعادى، وكان المرشد عند موافقته على اللقاء قد طلب إليهما الاستماع إلى إيفانز دون إبداء رأى حول ما يعرضه، كما عهد إلى حسن عشماوى إبلاغ الأمر إلى عبدالناصر وعبدالحكيم عامر قبل أن تتم الاجتماعات ، اللذان رحبا بذلك ليعلم الإنجليز مدى وقوف أكبر هيئة شعبية وراء مطالب الحكومة فى الجلاء.

وبعد أن استطاعت السفارة البريطانية تحسس آراء الجماعة الوحيدة الموجودة على الساحة، كما استهدفت معرفة مدى توافقها أو اختلافها مع قادة الثورة، طلبت لقاء إيفانز بالمرشد العام، الذى أبلغ عبدالناصر فى ٢٠ فبراير ١٩٥٣ بهذه الرغبة وسأله عما إذا كان هناك شىء يمكن أن يضيفه إلى رأى الإخوان المعروف بشأن «الجلاء غير المشروط» لكن عبدالناصر أجاب بأنه يريد فقط أن يدخل المفاوضات وهم متفقون مع الإخوان على كل التفاصيل. وبالفعل حضر إيفانز إلى منزل



حسن الهضيبى أثناء محاكمته فى قضية الجهاز السرى للإخوان

الهضيبى فى ٢٤ فبراير ١٩٥٣، وأحيط عبدالناصر وزملاؤه علما بما دار فى الاجتماع بعد انتهائه خلال لقاء له مع المرشد فى اليوم التالى (حسب رواية حسن عشماوى).

وتفيد الرواية الإنجليزية التى سجلها إيفانز فى تقريره عن المحادثة فى ٢٤ فبراير أنه التقى مع المرشد العام للإخوان المسلمين بمنزله وأن الاجتماع حضره كذلك كل من

صالح أبو رقيق والدكتور محمد سالم ومنير دله وعزيز تركي. وقد وصف التقرير الهضيبي بأنه لا يتمتع بشخصية جذابة، ورغم أنه ودود، إلا أنه شخصية ليست قوية، ولا يبدو عليه التعصب، وأنه بعد التعارف المعتاد ذكر الهضيبي أن الشعب البريطاني أقرب شعوب العالم إلى الإسلام، ثم انتقل إلى الحديث عن الجلاء والدفاع المشترك، وأن إيفانز أوضح له أن تسهيلات القاعدة في مصر ضرورية للدفاع عن الشرق الأوسط، ورغم أن المفاوضات حول القاعدة البريطانية ستكون معقدة، فإن من الممكن عمل الترتيبات المحسوبة جيداً للتأكيد على الجوانب الموضوعية، التي فهمت - والحديث لإيفانز - من معاونيه أنها موضع اهتمام مشترك للإنجليز والإخوان معاً .

وقد أضاف الهضيبي أن الأمر يتوقف على الإطار العام لتلك الترتيبات، وأن الاشتراك في منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط غير مقبول لدى قطاعات كبيرة من الرأي العام الإسلامي، فهل من الممكن عمل الترتيبات اللازمة لتظل بلاد الشرق الأوسط على الحياد رسمياً؟ وذكر أن فرص احترام الحياد قد تكون محدودة، ومن ثم يجب اتخاذ الاستعدادات الضرورية لمواجهة كل الطوارئ، وقد يتطلب ذلك تقوية الجيوش العربية، وتقديم تسهيلات القواعد، وإبرام اتفاقيات سرية، إذا لزم الامر، تنظم استخدام تلك القواعد.

رواية إيفانز

وورد برواية إيفانز أنه سأل الهضيبي عما إذا كانت مصر ستطلب المساعدة الفورية في حالة تعرض بلد آخر من بلدان الشرق الأوسط للعدوان، كإيران مثلاً؟ أجاب الهضيبي بأن المسألة تحتاج أن تدرس بعناية، وأنه يرى أن الإجابة تعتمد على مدى اتساع نظام ميثاق الدفاع العربي المشترك، الذي لا يعتد به في الوقت الحاضر لعدم فاعليته. وقد أضاف إيفانز في نهاية تقريره أن من الممكن أن تكون فكرة الحياد انعكاسا للخلاف في الرأي بين الإخوان أكثر من كونها نابعة من اقتناع المرشد العام نفسه، ويبقى علينا أن نرى ما إذا كان من الممكن تشجيع الهضيبي في هذ الخط، وما إذا كان في استطاعته ومؤيديه كسب جميع كوادر الإخوان أكثر من كونها نابعة من اقتناع المرشد العام نفسه، ويبقى علينا أن نرى ما إذا كان من الممكن تشجيع الهضيبي في هذا الخط، وما إذا كان في استطاعته ومؤيديه كسب جميع كوادر الإخوان إلى جانب هذه السياسة.

وفي رواية صلاح شادي حول نفس المقابلة أن المرشد سأل إيفانز عن فكرة انسحاب الإنجليز من البلاد الإسلامية كلها على أن تقف على الحياد بينهم وبين الروس، وأن إيفانز قال باستحالة تنفيذ الحياد .. وعندما أضاف إيفانز بأن روسيا لها مطامع أجاب المرشد في حسم: «أننا لن نسلم

أنفسنا لأحد، ولكن يمكن بعد خروجكم من مصر أن نعقد معكم اتفاقاً سرياً على مساعدتنا إذا هاجمتنا روسيا، ويكون دخولكم مصر بناءً على طلبنا وتخرجون حالما تنتهي مهمتكم».

وفي اليوم التالي للمقابلة روى حسن عشماوي وصلاح شادي أنه عقد اجتماع في منزل منير دله بالعجوزة حضره المرشد العام وصالح أبو رقيق وعبد القادر حلمي، فضلا عن عشماوي وشادي من جانب الإخوان، كما حضره جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وصلاح سالم من رجال الثورة، وأن المرشد العام شرح لهم ما دار في لقائه مع إيفانز ، وأنه شرح للإنجليز وجهة نظره بشأن وجوب التمسك بانتهاء معاهدة ١٩٣٦، وأن الأمر لا يحتاج لمعاهدة جديدة مع بريطانيا «لأننا نؤمن بموقف الحياد الذي نود أن نتخذه في السياسة الدولية». وأنه بالرغم من الخلاف في الرأي بين الإخوان من جهة وبين عبد الناصر وزملائه من جهة أخرى إلا أن عبد الناصر قد أبدى ارتياحه لموقف المرشد العام، لأن تشدده في الحياد سيعطي الحكومة فرصة التوصل إلى أحسن اتفاق مع بريطانيا بشأن السودان والجلاء عن قاعدة قناة السويس.

وقد أضافت رواية صلاح شادي حول نفس اللقاء أن عبد الناصر أظهر موافقته مبدئياً على إبقاء القاعدة الإنجليزية في القناة مع مفاوضة الإنجليز في أسلوب إدارتها وعدد الخبراء الذين تحتاجهم، وأن عبد الناصر يوافق على مبدأ عودة الإنجليز إلى القاعدة في حالة قيام حرب فعلية تصل إلى بلاد تقع في خط الدفاع الأول عن مصر، مثل تركيا، وليس كما يعرض الإنجليز في حالة وجود خطر قيام الحرب، وأكملت راوية عشماوي أن المرشد دعا عبد الناصر ورفاقه إلى دراسة فكرة مؤداها أنه إذا ما اضطر إلى عقد محالفة مع الإنجليز فإن عليهم مناقشة أن يكون تقرير خطر الحرب باتفاق الطرفين، فإن اختلف، فبقرار من مجلس الأمن، وحيث أن قرارات المجلس لا تصدر إذا اعترضت إحدى الدول صاحبة الفيتو فإن ذلك سيضمن حياد المنطقة من منطق القول بوجود حالة حرب.

موقف المرشد العام للإخوان

لقد صورت مصادر الإخوان موقف المرشد باعتباره مخالفاً لرأي عبد الناصر، وأن المرشد ذكر بأن الانجليز يجب أن يخرجوا نهائياً من مصر وبدون شروط، وأنه لاحق لهم في البقاء في تلك القاعدة، وأن أي قاعدة عسكرية في البلاد لاينبغي أن يكون الإشراف عليها إلا للجيش المصري وحده، وأن عودة الإنجليز إلى القناة في حالة تهديد بحرب ضد مصر، أمر مرفوض تماماً، وأنه ليس من حق أي دولة أن تأتي بجيوشها إلا إذا كان بطلب من مصر، وأن مصلحتها لاينبغي

ربطها بالشرق أو الغرب.

ومع مـلاحظة أن الحكومـة لم تعلن عن تلك الاتصالات إلا فى يناير ١٩٥٤، عندما اتخذتها كأحد مبررات قرار حل الجماعة، فقد تناولت الموضوع باعتباره «مفاوضات سرية بين الجماعة والإنجليز، جرت من وراء ظهر رجال الثورة ولم يكن هذا صحيحاً بطبيعة الحال، كما اتهم الهضيبى بأنه وافق على شروط معينة بشأن الجلاء، قيدت بعد ذلك يد

المفاوضين المصريين، ودفعت بالبريطانيين إلى التشبث بموقفهم بعناد أكبر.. وأهم ما أشارت اليه مصادر الحكومة بهذا الشأن هو موافقة الهضيبى «المزعومة» على حل مشكلة القاعدة العسكرية بعد الجلاء بانشاء لجنة مصرية بريطانية ، لتسهيل عودة القوات البريطانية، إذا صدر قرار من الأمم المتحدة يقول بتعرض الأراضى المصرية لخطر الحرب (حسب بيان مجلس قيادة الثورة بحل الجماعة فى ١٤ يناير ١٩٥٤).

إنكار التهم

لقد ردت السفارة البريطانية عندما كشفت الحكومة المؤامرة التى دبرت بينها وبين جماعة الإخوان ، فأنكرت كل التهم والمعانى التى انطوت عليها عبارات الحكومة باستثناء أن إيفانز التقى مع أعضاء من جماعة الإخوان ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون جانباً معتاداً من مهامه الرسمية وكذلك أنكرت الجماعة التهم التى وجهت اليها بشكل قاطع، وجاء فى تعليقها أن مجلس القيادة ورئيس الوزراء كانوا على علم مسبق بأمر المقابلات والاتصالات وأن المرشد العام أكد من جديد خلال المقابلة أن للجماعة موقفا تقليدياً بأنه لا مفاوضات قبل الجلاء ، وأنه قبل من حيث المبدأ إمكانية عقد اتفاق سرى مع البريطانيين لمساعدتنا فى حالة تعرضنا لهجوم روسى بحيث يكون تدخلهم بناء على طلبنا ويرحلون فور انتهاء المهمة، وأن الهضيبى قدم تقديراً لمجلس قيادة الثورة بما دار فى الاجتماع فضلا عن إرساله تقريرين أحدهما لوزير الداخلية والآخر لوزير الخارجية ، وأنهم جميعاً أعربوا عن إعجابهم بموقف الهضيبى .

ربما لا نسطيع أن نحدد الشروط التى وافق عليها الإخوان أثناء اتصالاتهم على وجه الدقة، لكن من المؤكد أن هذه الاتصالات لم تكن سرية أو من وراء ظهر مجلس قيادة الثورة ، الذى كان بوسعه اختراق كل الجماعات ومعرفة كل شئ ، وهذه بديهية لم تغب عن قيادة الإخوان لكن كان من الواضح أن قيام الإخوان بإجراء هذه الاتصالات .قد سبب استياء واضحاً لدى قيادة الثورة التى رأت فيه تجاوز الجماعة لحدودها ، وأن هذه الاتصالات قد أكسبت الانجليز معرفة أكثر وهيأ لهم وضعاً أفضل فيما أعقب ذلك من مفاوضات ، خاصة وأنهم وأدركوا أن ثمة صراعاً كامنا بين جماعة الإخوان وبين جماعة الضباط ، مما أضفى على المفاوضات الرسمية مزيدا من الصعوبات ويمكن الاعتقاد كذلك بأن سعى

الإنجليز بالتعرف على آراء الإخوان قد أضفى على هؤلاء أهمية خاصة باعتباره اعترفاً بريطانيا بأن لهم صوتاً فى شئون البلاد يجب أن يسمع ، وقد كرس الهضيبى ذلك باستجابته للمحادثات ، مما أضعف مجلس قيادة الثورة الذى اعتبر الأمر بمثابة تحد له، زاد من تعقيد الأمور .

إستخدام الإخوان كأداة للتهديد

لقد كان المظهر الودى لعلاقة الإخوان بالثورة يخفى تنافراً واضحاً بدا عندما سأل صلاح سالم المرشد لعام عن موقف الإخوان فى حالة استئناف عمليات مسلحة ضد البريطانيين فى أعقاب توقف مؤقت للمفاوضات الرسمية، فجاء رفض الهضيبى مغلفاً بعبارات عامة تفيد بأن لهم خططهم وأهدافهم وقد أبدى تشككه فى أن قيادة الثورة تخطط لاستخدام الإخوان كأداة لتهديد البريطانيين حتى تستأنف المفاوضات، كما كان طلب صلاح سالم ينطوى على معرفة معلومات عن حجم القوات الواقعية والممكنة التى ستساهم بها الجماعة والتى ستتولى الحكومة تنظيمها بطبيعة الحال ، والأمر الذى سيكشف إمكانيات الجماعة ويضعها تحت سيطرة الحكومة .

ولم تلبث قيادة الثورة أن طلبت إلى الجماعة فى مايو ١٩٥٣ أن تلغى وحدات جهازها السرى التى توجد داخل القوات المسلحة والشرطة، ويمكن اعتبار إنشاء قيادة الثورة للحرس الوطنى على أنه جزء من الصراع مع البريطانيين، كما أنه فى نفس الوقت يعد خطوة أولى فى سبيل إنشاء ثقل معاد للإخوان المسلمين، فضلا عن أن مجلس القيادة جعل ينشط فى شد أزر جماعة من المنشقين داخل الإخوان كانت تسعى لعزل المرشد العام ، فتداعت علاقة الإخوان بالضباط، مما أدى الى الأحداث التى أدت إلى إحداث قرار حل الجماعة الأول فى عهد الثورة فى يناير ١٩٥٤ .

وعندما نجحت المفاوضات المصرية - البريطانية فى التوصل لأسس اتفاقية الجلاء وتم إذاعتها، انتقدها الإخوان بشدة وأعلنوا رفضهم لمبادئها الأساسية من خلال المنشورات والمظاهرات التى تطورت إلى صدامات مسلحة امتدت إلى الأقاليم ، فردت عليها الحكومة بحملة من المصادرات والقمع والاعتقالات ، مما دفع بالجماعة إلى العمل السرى على نحو خطير حتى كان تخطيط بعض عناصر من الجهاز السرى لاغتيال عبد الناصر ، فيما عرف بحادث المنشية الشهير الذى أطلق فيه الرصاص عليه فى محاولة لاغتياله ، وكانت سلسلة المحاكمات والأحكام التى أصدرتها محكمة الشعب على معظم قيادات وكوادر الإخوان، مما كان ضربة قاصمة للجماعة اعتبرت نقطة تحول خطيرة ليس فى علاقة الإخوان بالثورة فحسب وإنما فى مجمل نشاطهم السياسى فيما بعد . ■

الإسلام عند جمال عبد الناصر

بقلم : د. عبد العزيز كامل *

قادني الصديق الاستاذ محمد احمد السكرتير الخاص للسيد الرئيس جمال عبدالناصر إلى قاعة الاستقبال بمنزل الرئيس بمنشية البكرى وبقيت فيها فترة قصيرة استعدادا للقاء القائد المعلم.

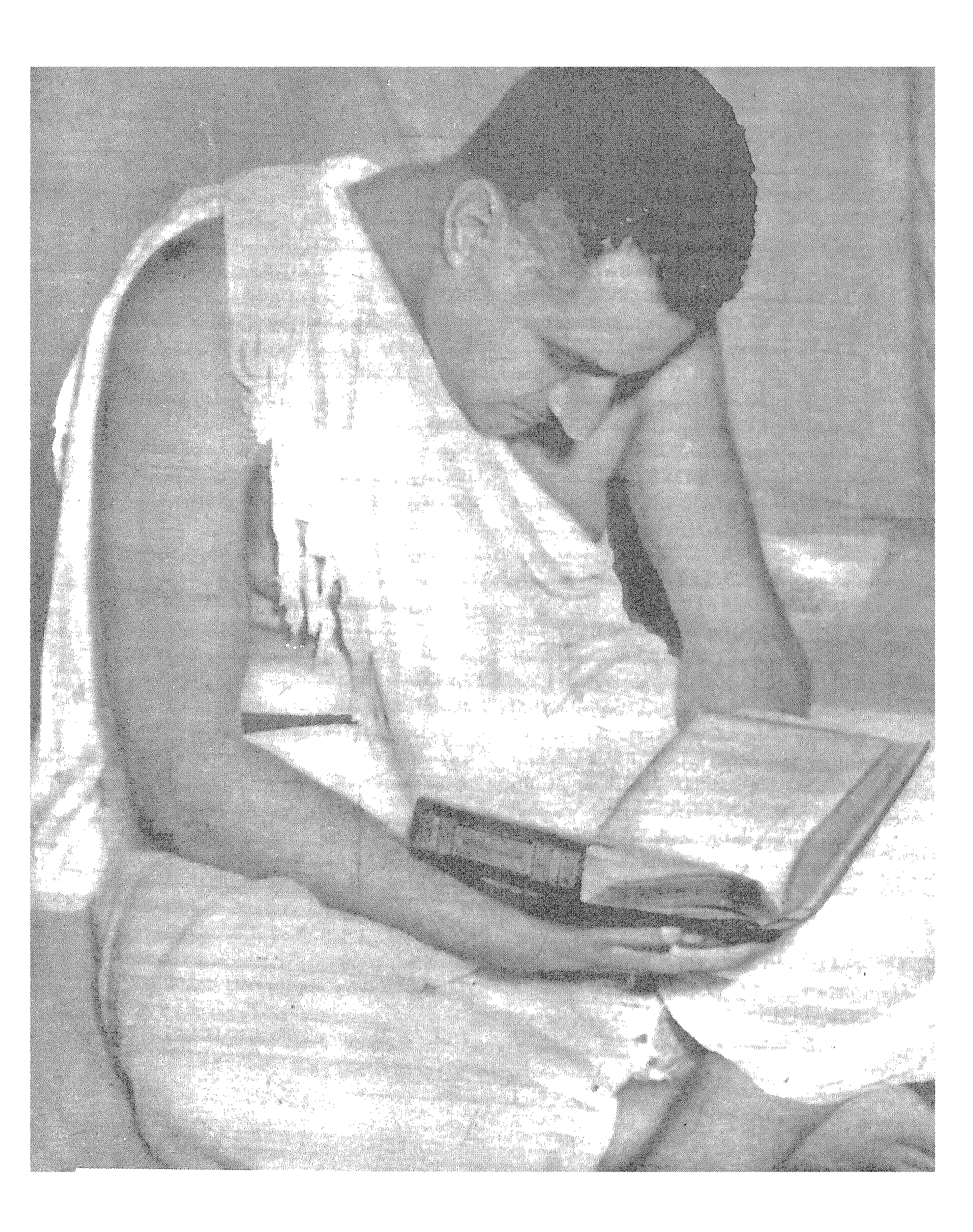
استرعت نظرى لوحة زيتية تتصدر القاعة، ويعلو مكانها على جميع ما فى القاعة من صور تذكارية طفلان صغيران تبدو عليهما مظاهر الفقر. أقدام عارية . ثياب رثة. الطفلة جالسة. الطفل إلى جوارها يقدم إليها في براءة ووداعة بعض الثمار. يداه فى التقديم كانهما تدعوان اللّه، أو تقدمان قربانا. هو فى حاجة إلى ما يقدم، ولكنه يؤثر الطفلة على نفسه. عطية من فقير إلي فقير تحمل انبل ما فى النفس وتقرأ فيها قول اللّه «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» وقوله «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا».

وتحت اللوحة مجموعة من صور الزعماء الذين زاروا الرئيس فى بيته، وتنتقل عينى بين صور الرؤساء وصورة الطفل والطفلة.. صورة البراءة والحب والايثار، فى مكانها من صدر قاعة الاستقبال فى بيت الرئيس.

وانظر إلى الاثاث. فلا تستوقفنى الا بساطته. والاحساس بأنه فى حجرة عمل، كساكن هذا البيت، يعمل دون توقف.

واستمع إلى خطوات الرئيس وهى تقترب فأقف استعدادا للقائه، وتتلاقى الاعين والايدى بعد أن تلاقت القلوب.

* الهلال يوليو ١٩٧٠ جمال عبد الناصر بملابس الاحرام يقرأ القرآن أثناء تأديته شعائر فريضة الحج



هذا الايثار والحب كان المحور الرئيسى فى حياة الرئيس، آثر وطنه الكبير.. آثر العطاء على الأخذ. والتعب على الراحة. والنضال على المهادنة وحل قضايا الحياة اليومية للملايين. سعادته في أن تشبع السعادة وراحته فى أن يستريح الناس، وإن واصل هو ليله بنهاره فى عمل دائب.

الدين : بين الفكر والتطبيق

كان اللقاء يوم ١٩ مارس ١٩٦٨، وسألنى الرئيس عن صحتى وأسرتى الصغيرة بصوته الهادئ الدافئ ثم بادرنى بقوله:

– لقد قرأت كتابك الآخير «دروس من غزوة أحد».

وفوجئت بذلك. فصدور الكتاب كان قبل اللقاء بأيام. والمهام التى عليه ثقيلة مضنية، ووقته عزيز، ويتابع الرئيس قوله :

– قرأت الكتاب كله، ولكن أود أن أقول لك شيئاً ليس فيه : من اليسير أن تكتب. ومن العسير أن تطبق ذلك على الناس. معاناة الناس شئ غير الكتابة. وأنت عشت فى الجامعة بين زملائك وتلاميذك تحبهم ويحبونك. ولكن قضايا الجماهير تحتاج إلى صبر طويل. وتلقى فيها مشكلات لا تتوقعها، من أفراد لاتنتظر منهم المشكلات. والفارق كبير بين ما يعلمه الانسان وما يعمل به مما يعلم!

وتابع قوله :

– وهذه تجربة أود أن تقوم بها فى الحياة التنفيذية، ولكنى أود أن أقول لك أمرين : الأول : أنك قد تجد السوء ممن تنتظر منه التعاون والخير، فلا تجعل ذلك يصرفك عن هدفك. والثانى : أدعو الله فأقول : أعانك الله.

نحن بحاجة إلى عمل طويل فى جميع الميادين. شعبنا شعب طيب مؤمن. شعب وفى مخلص، فاربط نفسك دائماً بالقاعدة، ولا تجعل حياة المكتب عازلا بينك وبين الناس».

هكذا كان فهمه العميق الواضح للمسائل فى شمولها، وفى العناية بتفاصيل الحياة اليومية والحديث عنه ينبغى أن يشمل كلا من الجانبين.

شمول الدين

فى الشمول كانت نظرته إلى الاسلام – كدين – مرتبطة بنظرته إلى الدين كله. إلى القيم الفاضلة التى هى ميراث الاديان جميعاً، وإلى تطبيقات ذلك فى الحياة اليومية.

١ – فى حديث له فى ٨ نوفمبر ١٩٦٠ فى حفل استقبال الرئيس الباكستانى أيوب خان «نحن شعب مسلم. ونحن أمة مسلمة. ولكننا فى الوقت نفسه نعيش مع أشقائنا فى العروبة فى بلادنا من جميع الأديان. نعيش فى محبة وإخاء. إننا حينما جابهتنا هذه الحملات فى الماضى لم يستطع الاستعمار أبداً أن يفرق بيننا. وأننا اليوم كشعب مسلم نرفع راية الاسلام فى بلادنا. ونحن نرفع أيضاً راية القومية العربية التى تجمع المسلم والمسيحى تحت راية الوطن الواحد».

٢ – وفى ترحيبه بالأسقف مكاريوس فى ٣ يونيو ١٩٦١ قال له : «إن الله الذى أودع الانسان انسانيته، منحه الإرادة التى يتحتم عليه بها أن يحمى وديعة الله، وأن يصونها وأن يعز كرامتها.. إن الارتباط بين الدين والوطنية وثيق فكل منهما دعوة دين وكل منهما انتفاضة وطنية. وهما فى الحقيقة نداء إلى الحرية أحدهما من نور الله والثانى من انعكاس هذا النور على ضمائر البشر».

الاسلام عند جمال عبدالناصر مرتبط بالفكر الدينى كله فى جوهره وأفاقه، مرتبط بالعمل من أجل التحرير وبناء الاوطاء. مرتبط بحياة أفضل تستهدف منع استغلال الانسان للانسان.

٣ – من أجل ذلك يقول الميثاق الوطنى : «إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الانسان، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة، إن رسالات السماء كلها فى

جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانسان وسعادته. وأن واجب المفكرين الدينيين الاكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته. إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة وإنما ينتج التصادم - فى بعض الظروف - من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية. لقد كانت جميع الاديان ذات رسالة تقدمية، ولكن الرجعية التى ارادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها، أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها، لكى توقف تيار التقدم».

«إن جوهر الاديان يؤكد حق الانسان فى الحياة وفى الحرية بل إن أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل انسان. إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر ولا يرضى الدين بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم».

«إن الله جلت حكمته. وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساساً للعمل فى الدنيا وللحساب فى الأخرة».

«وينبغى لنا أن نذكر دائماً أن حرية الانسان الفرد هى أكبر حوافزه على النضال».

على مستوى التطبيق العالمى

أما على المستوى التطبيقى فقد كانت الدوائر المحيطة بمصر، والتى تتفاعل معها بلادنا تفاعلا عضوياً محددة فى ذهن الرئيس منذ قيام الثورة :

ففى فلسفة الثورة حدد ثلاث دوائر : العربية والافريقية والاسلامية التى تمتد عبر قارات ومحيطات .. «والتى قلت إنها دائرة أخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات».

وكان دور الازهر الطليعى فى هذه الدائرة واضحاً : أنه الجامعة الكبرى : المصرية موقعاً، العربية لساناً، الاسلامية دينا، الانسانية هدفاً الجامعة التى سمت فوق اللون والجنس والموطن، وأشاعت جواً من الإخاء الانسانى وفتحت أبوابها لكل طالب علم من أى قطر، وكفلت حياة أبنائها وأساتذتها فحققت كل شروط الحرية والالتزام الجامعى.

وعن دور الازهر الحضارى يقول ميثاقنا الوطنى عن شعبنا «ثم كان قد تحمل المسئولية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً أو رجعية باسم الدين، والدين منها براء».

واتخذ العمل الاسلامى العالمى فى مصر طريقين.

١ - الاستجابة لرغبات الحكومات والشعوب والجاليات الإسلامية فى مدها الأزهر بقراء القرآن وعلماء الدين على المستوى الجامعى والمستويات الممهدة له. وأصبح مبعوثو الأزهر والأوقاف فى الوقت الحاضر يمتدون على جبهة تبدأ من جزائر الفلبين فى أقصى الشرق إلى أمريكا اللاتينية غرباً ويتكامل مع هذا مؤتمرات دورية سنوية يعقدها مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف. وهذ المجمع فى تكوينه وعضويته ونشاطه واهدافه أسلامى إنسانى، يعنى بقضايا العروبة والاسلام على المستوى العالمى..

وقد قدر الرأى العام العالمى هذا الدور العلمى الروحى الانسانى الذى يقوم به الازهر فوجهت كثير من الدول الدعوات إلى كبار المسئولين فيه وفى مقدمتهم فضيلة الامام الاكبر، وكانت آخر رحلاته فى شهر سبتمبر الماضى لزيارة مسلمى الاتحاد السوفييتى بدعوة مشكورة منهم.

٢ - وحرص الرئيس فى الوقت نفسه على ألا

يتخذ الاسلام ذريعة وأداة لاى نوع من السيطرة والاستعمار، فى أية صورة من صورهما. ومن هذا المنطلق كان موقفه الواضح المحدد من الحلف الاسلامى، ومن محاولات التسلل باسم الاسلام إلى تفكيك أية وحدة وطنية أو جر بلادنا إلى دوائر الاحلاف السياسية.

رفض استغلال الدين سياسيا

وفى الوقت الذى نفسه رفض فيه فكرة الحلف الاسلامى لما شابها وقتئذ من شوائب، ظل محافظا بكل قوة واخلاص على التعاون الفكرى والثقافى بين مصر والعالم الاسلامى. وظل الازهر ومعاهد الجمهورية تتلقى أبناء العالم الاسلامى بصرف النظر عن المواقف السياسية لدولها.

وذكر الرئيس عند مناقشة الميثاق فى الجلسة الخامسة ٢٨ مايو ١٩٦٢: «بالنسبة إلى الروابط الاسلامية اشرنا فى الميثاق إلى الاسلام، وأشرت إلى هذا من أول يوم من أيام الثورة فى كتاب فلسفة الثورة.. ولكن بعد ذلك بعض الدول الاسلامية دخلت فى مواثيق وانحازت إلى الغرب. وبدأنا نسمع الكلام عن الحلف. حلف اسلامى.. وعن محاولات لاستغلال الدين الاسلامى من أجل الانحياز الذى يتنافى مع سياستنا.. وهذا الانحياز يتنافى مع الاسلام الذى ينادى بالحرية وبأن نكون أحرارا وأسياد أنفسنا».

ثم ميز الرئيس بين هذه المواقف التى كانت تقفها بعض الحكومات فى العالم الاسلامى وواجبنا الدائم نحو الشعوب الإسلامية فعقب على هذا بقوله فى الجلسة نفسها «أما عن الروابط الروحية فإننا ندعو إلى هذه الروابط بكل الوسائل فى جميع ومع كل الدول الاسلامية سنسير فى طريق ارسال البعثات والمدرسين من الازهر. ونحن ننفق فى هذا أموالا طائلة. ونرجو أن تكون هذه الروابط الروحية من أجل الاسلام والمنفعة الاسلامية».

على المستوى المحلى

وكان لابد من دعم القاعدة الاسلامية فى مصر ممثلة فى الازهر والاوقاف وبث الروح الدينية فى الجيل الصاعد من شبابنا والدين فى مجتمعنا أصيل عميق الجذور. وميثاقنا الوطنى ينص على رفض الشعب المصرى الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة والذى «كان يفرض عليه دونما مبرر حقيقى تصادما بين الإيمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين إرادة الحياة التى ترفض الاستبداد».

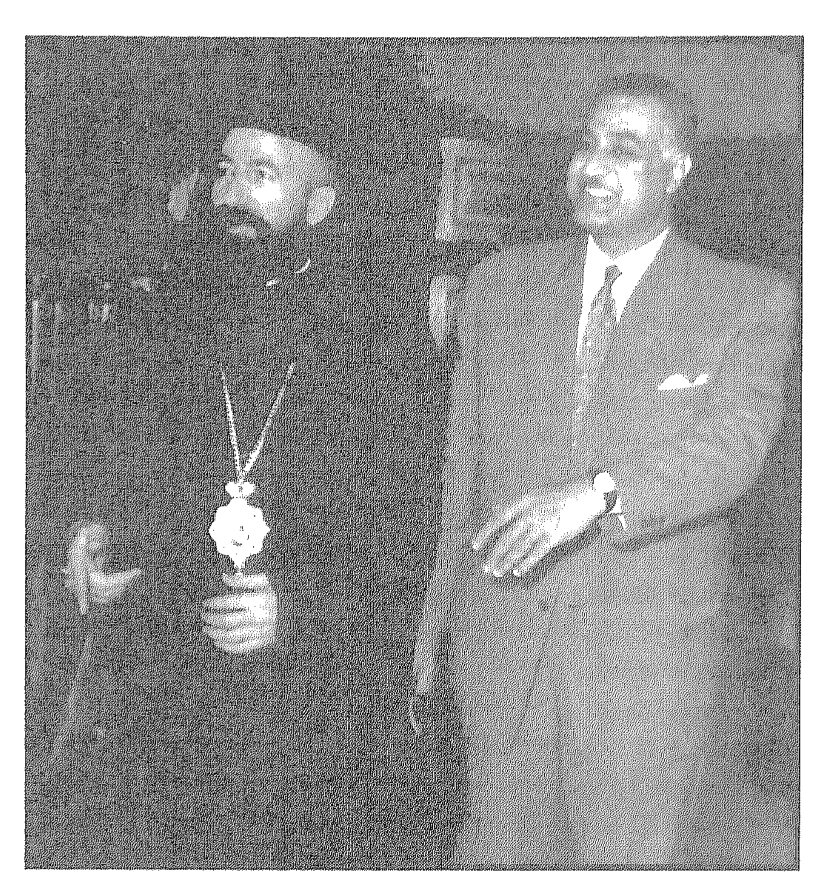
واتخذ العمل الاسلامى خطين :

١ - الخط التنفيذى فى الازهر والاوقاف والوزارات المعنية بالتعليم .. ويكفى أن نذكر أن ميزانية الازهر بجميع هيئاته ارتفعت من نحو مليون ونصف مليون جنيه فى عام ١٩٥٢ إلى سبعة ملايين وتسعمائة ألف جنيه فى عام ١٩٧٠.

وصحب هذا تطوير فى الازهر بضم كليات حديثة إلي كلياته الاصيلة : اللغة العربية وأصول الدين والشريعة وأصبح الازهر جامعة تمثل الثقافة الانسانية فى آفاقها الدينية والعلمية. وخريج الازهر قد تراه إماما فوق المنبر أو طبيبا فى مستشفى أو مهندسا فى السد العالى أو خبيراً فى علوم الذرة، أو واعظا في القوات المسلحة، أو قانونياً فى وزارة العدل.. وتفتحت آفاق جديدة أمام الازهر فى عهد عبدالناصر ليستطيع أن يواكب الحياة : وانتشر المتفوقون من أبنائه فى بعثات دراسية يحصلون فيها على أرقى مستويات المعرفة فى مراكز إزدهارها العالمية.

وفتحت كلية البنات بالأزهر أبوابها للطالبات فى كافة نواحى المعرفة الانسانية يقبلن عليها من أقطار العالم، حيث يجدن الجو الاسلامى الذى يتطلعن إليه، كما وفرت لهن سبل الاقامة الداخلية فى مدينة خاصة للطالبات.

وفى الوقت نفسه أعيد النظر فى برامج التعليم الازهرية فى جميع مستوياتها حتى تكون أكثر ربطا بين الدين والحياة كما نص على هذا قانون



قال جمال عبد الناصر عند استقباله للاسقف مكاريوس ١٩٦١ إن الارتباط بين الدين والوطنية وثيق فكل منهما دعوة دين وكل منهما انتفاضة وطنية

تطوير الازهر رقم ١٠٣ لعام ١٩٦١.

وفى مدينة ناصر للبعوث الاسلامية - التى تجمع نحو ألفين وخمسمائة طالب - يقيم أبناء نحو سبعين دولة يطلبون العلم والدين ويعيشون فى المدينة أخوة متحابين. ويحملون فى أنفسهم لها - بعد تخرجهم - كما شهدت بنفسى عند زياراتى لهم فى الشرق الاقصى أجمل وأطيب الذكريات .. لقد قالوا لى عندما زرتهم فى الفلبين فى مايو ١٩٦٩ «لو كانت مصر عندنا عقيدة فهى الاسلام. ولو كانت مؤسسة فهى الازهر. ولو كانت شخصا لكانت جمال عبدالناصر».

وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ عندما حاول أبا أيبان وزير خارجية اسرائيل أن يلقى محاضرة عن اسرائيل فى جامعة مانيلا، أبى الشعور الاسلامى ومن يؤازره من محبى السلام والمؤمنين بعدالة قضيتنا هذا، فحالوا أولاً بين أبا إيبان وبين الخروج من الباب الرئيسى فى مطارمانيلا، ثم جعلوا من أجسادهم جدارا يحول بينه وبين دخول قاعة الاحتفالات الكبرى فى الجامعة، مما اضطرت معه الجامعة إلى الغاء المحاضرة، وانقاذ أبا إيبان من هذه الغضبة المؤمنة.

وهذه الصلة الروحية بين الطلبة بمدينة ناصر والازهر استطاعت أن توجد ركيزة قوية من الوفاء الصادق، وهو رافد طيب من روافد الرأى العام

العالمى، الذى أخذ يتحول بوعى وبعلم نحونا ويؤمن بعدالة قضيتنا.

٢ - وكما حال الرئيس دون استغلال الدين سياسيا على المستوى العالمى، حال دون ذلك على المستوى المحلى، فقاوم كل محاولات استغلال الدين أو الاستتار وراءه، كما قاوم فى نفس الوقت كل محاولات الهجوم على الدين واضعافه فى نفوس الشباب - وأراد الدين لنا إخاء ومحبة - وأن يد الرئيس التى تزيح الستار سعيدة بانشاء مسجد، هى نفس اليد التى تسعد بازاحة الستار عن انشاء كاتدرائية، وأن نفس الارادة التى توفر سبل انشاء المساجد، هى نفس الإرادة التى تعين على بناء الكنائس. فالكل أخوته وأبناؤه. ولكل منهم حق واجب الرعاية مكفول الوفاء.

على المستوى الشعبى

وانعكست هذه الروح على الشعب كله وأقول : إن جهود الازهر والاوقاف تقصر عن الوفاء بحاجات شعبنا المؤمن المتطلع إلى ربه ودينه. الشعب الذى لم ينقطع عن الايمان بربه من أقدم عصور حياته، وإن تتابعت عنده صور الايمان. بل إن وزارة الاوقاف نفسها لا تعدو أن تكون حلا ذاتيا أراده الصالحون من أبناء هذه الامة عبر القرون ليقفوا أرضهم وأموالهم لابواب الخير. لقد كانت صورة بسيطة من صور التأميم التى ترصد فيها الأموال للصالح العام، يفعلها الفرد اختيارا ولها نظائر كثيرة فى عالمنا الاسلامى.

وتوضح الارقام الآتية صورة مقارنة عن الجهود الحكومية والشعبية فى بناء المساجد ما بين عامى ١٩٥٢، ١٩٧٠ :

١ - ارتفع عدد مساجد الوزارة من ٢٠٠٠ إلى ٣٥١٦ منها ١٢٥ مسجدا أنشأتها الوزارة بناء على طلب اصحابها.

٢ - ارتفع عدد مساجد الشعب من تسعة آلاف إلى سبعة عشر ألفا أى أن عدد المساجد الشعبية فى عهد الثورة كان ثمانية آلاف مسجد والذى عاق الضم مؤقتا ظروف العدوان وقصور الميزانية، ورغم هذا فإن شعبنا المؤمن - مقدرا للظروف المصيرية التي نعيشها قام برعاية هذه المساجد، كما رعى بيوت الله عبر القرون.

الجيش والمسجد

والذى يستوقف النظر أنه بعد النكسة أقبل شعبنا إقبالا كبيرا على بناء المساجد وجاء هذا تعبيرا صادقاً من إيمانه. ومتواكبا فى نفس الوقت على إقباله على بناء جيشه ودعم الجيش بجميع قواه المادية والروحية. وسلاحنا فى معركتنا اعداد الجيش العلمى المتفوق. والجندى العقائدى المؤمن وسلاحنا فى القاعدة الشعبية : عقيدة عميقة فى الله ونصره وحقنا فى الحياة، وترجمة هذه العقيدة إلى انتاج فى كل مرافق حياتنا : اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافياً.

وهذه طبيعة الروح الضخمة فى صعيد مصر استعدادا لحرب الهكسوس ثم شكرا بعد النصر.

- بناء الكنائس فى عهود الاضطهاد الرومانى.

- بناء المساجد عندما قام شعبنا يصد غارات الصليبيين والتتار.

- الاندفاع الكبير إلى دعم القاعدة الدينية والقوات المسلحة بعد النكسة فى عام ١٩٦٧.

الكتاب الاسلامى

وأنت إذا نظرت إلى مساجدنا فى عهد جمال وجدتها عامرة بالشباب حتى ضاقت المساجد على كثرتها بروادها، وأصبحت تبنى فى أسفل العمارات وإلى جوارها. وأصبحت صلاة الجمعة تقام فى الاسواق بالحلول الذاتية. ساعد على هذا تطوير دراسة الدين فى مدارسنا والربط بينه وبين الحياة، وتقريبه إلى جيلنا الجديد وظهور موجة عالية من التأليف والنشر العلمى الدينى نرى فيها انتاج وزارات الثقافة والازهر ومجمع البحوث الاسلامية وانتاج المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، إلى ما تقوم به دور النشر. وأثبت

الكتاب الاسلامى قدرته الفائقة على دخول قلوب الناس، بحيث أصبح - كما تثبت الاحصاءات - أوسع الكتب انتشارا.

جمال في حياته اليومية

وأعــود إلى الرئيس الذى حــرك هذا المد الاسلامى فى طهارته ونقائه وفى سماحته وفيض محبته :

لقد كان يعيش الاسلام فى نفسه :

فى زهده وتواضــعــه فى اعــادة الدين إلى بساطته وإلى تطبيقه فى حياته اليومية على نفسه وعلى الناس..

كان متخففا فى طعامه. طاهراً فى شرابه وبيته وأهله محافظا على عبادته ولقد ذكر لى - رحمه اللّه - أنه فى زيارة له للاتحاد السوفييتى اقترب موعد صلاة الجمعة. وكان فى مباحثات مع القادة السوفييت والمسلمون مجتمعون فى المسجد ينتظرون قدومه. فطلب ايقاف المباحثات واستعد لصلاته وذهب ليؤدى صلاة الجمعة مع أخوانه.

كان الاسلام عنده اسعاد الناس. ولهذا ترجم الاشتراكية إلى منع استغلال الانسان للانسان. كان أمله أن يتعلم كل شاب وأن تتزوج كل فتاة وأن تتكون الاسرة الصغيرة الهانئة.

وحبب اللّه اليه فى العام الاخير زيارة بيوت اللّه.

أكون جالسا فى المكتب يوم الخميس فاذا بالصديق الاستاذ سامى شرف - وزير الدولة وسكرتير الرئيس للمعلومات - يخبرنى أن السيد الرئيس سيصلى الجمعة غدا فى السيدة زينب.

وفى الاسبوع التالى.. أدى صلاة الجمعة فى نفس المسجد وزار الازهر مرات والامام الحسين مرات. وكان يوصى بتوسعة هذه المساجد والعناية بفرشها وتهويتها واضاءتها ورعاية العاملين فيها.

ومازلت أذكر وقوفه يوماً أمام ضريح السيدة زينب وقد جاء الرئيس على غير موعد، الا الشوق الذى دعاه إلى زيارة بيت الله وقد وقف أمام الضريح فى خشوع وهدوء ونظرة عميقة من عينيه إلى المقام أكان يذكر كربلاء أكان يذكر الدماء المسلمة التى سالت بأيدى المسلمين، أكان يخشى كربلاء جديدة تراق فيها دماء بريئة ويضطر هو إلى الوقوف فيها، ليحول دون إراقة الدم الطاهر!

وأسأل الصديق اللواء سعد الدين الشريف ياور السيد الرئيس :

- ماذا كانت مناسبة زيارة السيد الرئيس للسيدة زينب!

فيرد أخى سعد :

- أنها رغبته الخاصة هو الذى اختار المسجد وموعد الزيارة.

كان - رحمه اللّه - فى لقائه يذكر الموت والحياة متجاورين. عميق الايمان بأن الموت والحياة باذن اللّه «فإذا جاء اجلهم فلا يستاخرون ساعة ولايستقدمون».

ويذكر فى هذا قصصا عن حياته فى فلسطين وموت بعض الذين كانوا يتجنبون الموت. وبقاء الذين تعرضوا له ثم يبتسم فى وداعة قائلاً «الاعمار بيد اللّه».

وداع

نعم بيد اللّه يا قائدنا: عشت مؤمنا بالعدل والسلام ومت فى سبيل السلام. طاهر القلب واليد واللسان. فجزاك الله عنا خير ما يجزى الله قائدا مخلصا مؤمنا عن أمته. وكتب لك فى رضوانه صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

سلام عليك فى محياك سلام عليك يوم وداعك وسلام عليك يوم يقوم الناس لرب العالمين. ■

صراع ثورة يوليو مع الاخوان

سياسى وليس دينيًا

بقلم : د.عبدالمعطى بيومى

خمسون

عاما مرت على يوليو ١٩٥٢ ، نصف قرن كامل حافل بالأحداث والمتغيرات والمؤثرات قامت دول وسقطت، وازدهرت أفكار وأيديولوجيات ثم بادت واندثرت ، تحت عوامل الحركة السريعة التى يتسم بها عصرنا فى التغيير والتأثير .

ولقد كان النصف الأخير من القرن الماضى على وجه الخصوص أسرع حركة وأكثر تغييرا من أى حقبة مضت فى تاريخ البشرية ، حيث انهارت ممالك، وتفككت تجمعات ، واشتعلت حروب ضروس أعادت ترتيب العالم .

لكن الذى يعنى أمثالنا باستمرار هو رصيد حركة الحضارات والعقائد وسط «طاحونة» الصراعات وحركات التغيير ، لأن الذى يغير وجه العالم فعلا ، ويبدل أشكال الوجود الانسانى وأنماط الحكم هو التغير العقائدى ، فالعقائد والثقافات هى القاطرة التى تجر أنماط الحكم وتشكل كيفيات الوجود الإنسانى فى المجتمعات العديدة .

ولأن حركة يوليو ١٩٥٢ فى مصر كانت لها تأثيراتها البعيدة المدى فى المنطقة العربية والإسلامية وفى العالم بحيث كانت لها آثار فى دوائر العالم وأسهمت فى تشكيل أنماطه، لا فى حركة عدم الانحياز التى كانت هى صاحبة ريادة فيها ولا فى حركة التحرير الوطنى ضد الاستعمار التى بذلت فيها معظم رصيدها وإنما كان لها تأثيرها أيضا فى الثقافة .

والذى يشغلنا فى هذا المقال هو رصد التأثير الذى قامت به الحركة على الإسلام الذى كان يواجه إبان قيام الحركة تيارين عالميين هما التيار الاشتراكى

والتيار الرأسمالى بما لكل منهما من ثقافة وأنماط سياسية واجتماعية، وسؤالنا محدد فى هذا المقام هو : ما نوع التأثير الذى أثرته حركة يوليو وتوابعها على الإسلام فى مصر والعالم .

ولكى نرصد هذا التأثير بدقة وموضوعية لابد أن نبحث عن آثاره فى الفكر والمجتمع وفى المؤسسات .

فى الفكر

كانت الحركة الاشتراكية التى بدأت فى الاتحاد السوفييتى على يد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ قد قسمت العالم إلى قسمين رئيسيين . عالم اشتراكى يحتوى الاتحاد السوفييتى ثم الصين بعد ذلك ودول أوربا الشرقية التى تطبق النهج الاشتراكى بدرجات متفاوتة وعالم رأسمالى ويضم الولايات المتحدة وأوربا الغربية . ويستحوذ كل قسم من هذين القسمين على دول عديدة متناثرة فى العالم فى آسيا وأفريقيا .

وأحيانا كانت المنطقة الواحدة أو الإقليم الواحد موزعا بين هذين التقسيمين .. جيران لكن غرباء بغربة الفكر الذى ترك آثاره فى السياسة والاقتصاد والمجتمع .

بل كان البلد الواحد يضم التيارين المتصارعين فكانت هناك أحزاب شيوعية وأخرى ليبرالية فى أكثر بلاد العالم، حتى البلاد الأوربية لم تنج من غزو التيارات الشيوعية التى اتخذت لنفسها أحزابا فيها .. كانت علنية تارة وسرية تارة أخرى .

وفى مصر معقل الحركة كانت كل هذه التيارات تعمل بهمة ونشاط وكان لكل منها أنصار وأفكار تتعامل مع الثقافة الأصيلة، الثقافة العربية الإسلامية التى يمثلها الأزهر بطبيعة الحال. كما كانت تتعامل مع تيار إسلامى تقوده حركة الاخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا فى أواخر العقد الثالث من القرن العشرين، ومنذ نشأت كانت قوية وفاعلة حتى بعد أن اغتيل مؤسسها وحلت قبل قيام حركة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

كان المخاض إذن وسط صراع أيديولوجى عالمى ومحلى على مستوى العالم كله وفى قلب مصر .

وكان الشرق على وجه الخصوص يبحث عن طريق ..!

ولم يكن الغرب مؤهلا للتأثير الإيجابى وإغراء الشرق بالنظام الديمقراطى الرأسمالى لأنه كان يريد أن يعقد الأحلاف ، ويحاصر النظرية الماركسية وكانت سمعته وسمعة دوله الاستعمارية ، وتاريخه القريب من استغلال دول الشرق واستعمارها يحول بين أن يتأثر العالم الإسلامى خاصة، وكان انحيازه لاسرائيل فى قلب العالم العربى حاجزا صلبا عن أن يتأثر به هذاالعالم ويقيم معه تعاونا إيجابيا .

لذلك انعطفت حركة يوليو نحو الكتلة الشرقية، ومع تأثرها الفكرى بالاشتراكية إلا أنها ظلت متمسكة بتراثها الإسلامى وراحت تبحث فى هذا التراث لتجد صيغة مقبولة للتطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فكانت نظريتها الاشتراكية العربية هى نظامها الفكرى المختار لحل المعضلات الاجتماعية وإنصاف العمال والفلاحين .

الحرص علي الإسلام

وسواء كانت هذه النظرية محكمة فكريا أو

شابتها بعض الاجتهادات المخطئة فى النظرية أو التطبيق فالحق الذى لا مرية فيه أن التوجه العام كان حريصا على الإسلام، فلم تتم ثورة ثقافية كالتى حدثت فى الصين مثلا يمكن أن تمس أصول الدين ولم يشعر الناس بحرج فى أداء الشعائر الدينية، وإنما كان الشعور العام هو احترام الأديان والقيم الروحية النابعة منها واحترام طبيعة الشعب المصرى وتدينه التاريخى منذ نشأت حضارته الضاربة فى جذور التاريخ والقائمة فى جوهرها وعلى مر تاريخها على أساس الدين .

صحيح أنه حدثت صدامات بين حركة يوليو وحركة الاخوان المسلمين ، تركت ظلا ثقيلا وشعورا مقبضا من بعض ألوان الكبت السياسى والاعتقالات والمحاكمات التى أدت أحيانا إلى الإعدام كما أدت إلى تقليص الحريات .

لكنه فى التحليل العميق والدراسة المتأنية فإن المسئولية فى ذلك ترجع فى النهاية إلى كل الفرقاء من نقصان الحكمة هنا أو هناك، ولو روعيت الحكمة من كل الأطراف وتعاون الكل على تحقيق التطور الاجتماعى والسياسى، فى ظروف الصراع العالمى والتوتر الإقليمى لتفادى الكل سلبيات كثيرة نتجت عن غياب الحكمة .

ولا يستطيع الباحث المنصف أن يرجع ما حدث من سلبيات إلى سوء النوايا أو افتراض موقف معاد من الإسلام .

ذلك أن موقف حركة يوليو من المؤسسات الإسلامية ينفى تماما افتراض سوء النية حتى ما كان منها محلا للشائعات التى تساند هذا الافتراض مثل الموقف من المحاكم الشرعية أو من تطوير الأزهر .

فإلغاء المحاكم الشرعية فى نهاية الأمر تنظيم لم يؤد ولم يكن مطلوبا فيما بدا بعد ذلك إلى إلغاء التقاضى فى مجال الأحوال الشخصية، قصارى ما أدى إليه هذا الإلغاء نقل التقاضى من دائرة إلى دائرة، من دائرة محاكم خاصة إلى دوائر خاصة بالأحوال الشخصية وظلت الأحكام الإسلامية التى تنظم هذا القضاء هى أساس الفصل فى المنازعات فى هذا المجال .

تطوير الأزهر

وتطوير الأزهر الذى صدر به القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ذلك القانون الذى أحاطته الشائعات بأكبر قدر من سوء السمعة وحملته مالا يحتمل فى إشاعة التآمر على الأزهر ، والقانون من ذلك براء ربما يكون بالطريقة التى أقر بها هذا القانون دخل فى إحاطته بالشبهات لكن القانون فى بابه الأول يمجد الأزهر ويلقى على عاتقه أعظم المسئوليات فهو يقول فى المادة ٢ «الأزهر هو الهيمنة العلمية الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته وتجليته ونشره، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر ورقى الحضارة وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا والآخرة ، كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية، وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها ، وتعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية والعربية

ولغة القرآن، وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة ، وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات الإسلامية والعربية والأجنبية» .

كما يضع القانون مسئولية كل ما يتصل بالشئون الدينية على شيخ الأزهر الذى سماه القانون لأول مرة فى تاريخ الأزهر الذى امتد أكثر من الف عام «الإمام الأكبر» .

جاء فى المادة (٤) من هذا القانون :

« شيخ الأزهر هو الأمام الأكبر وصاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشئون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام ، وله الرياسة والتوجيه فى كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية فى الأزهر وهيئاته».

كما يبين عن موقف حركة يوليو من الأزهر ما ألقته على مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر - الذى حل محل هيئة كبار علماء الأزهر - من مسئوليات غاية فى الجسامة والأهمية لقيادة التطور الفكرى والاجتماعى .

تقول المادة ١٥ من هذا القانون .

«مجمع البحوث الإسلامية هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ، وتقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث ، وتعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسى والمذهبى وتجليتها فى جوهرها الأصيل ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفى كل بيئة وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة» .

فإذا وضعنا هذه النصوص التى تعظم من شأن الأزهر أمام التأمل العميق وبالتوازى مع ما أقرته حركة يوليو فى عهد الرئيس السادات فى المادة الثانية من الدستور أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع مما جعل حرص مجلس الشعب - وهو المجلس التشريعى الأعلى فى مصر - على ألا يصدر قانون أو تشريع ما إلا إذا كان موافقا للشريعة الإسلامية، لأدركنا أهمية الإسلام والأزهر فى نظر حركة يوليو، فلا مناص طبقا لهذا من موافقة كل القوانين للشريعة الإسلامية ولا مناص من اعتبار الأزهر المرجع الذى يرجع إليه كلما أراد المجلس التشريعى إصدار قانون أو سن أى تشريع .

والذى يطالع مواد القانون لا يجد فيها مادة واحدة تعطل من دور الأزهر فى تحقيق المهمة التى أنيطت به منذ مئات القرون وخاصة فى العصر الحديث، من تجديد للثقافة الإسلامية ومد الأمة الإسلامية بل والبشرية جمعاء بالحضارة الإسلامية الراقية .

وإننى إذ أبدى شهادتى لله والتاريخ فقد قمت على تطبيق هذا القانون منذ سنة ١٩٨٠ عميدا لكلية ، أصول الدين ووكيلا لها ورئيسا لقسم العقيدة والفلسفة بها فما صادفت عقبة للتجديد المستمر فى أى مادة من مواد هذا القانون .

وإذا كان التطوير والتجديد المستمر للأزهر

ورسـالتـه إنما ينبع بشكل أسـاسـى من تطوير المناهج العلمـيـة وتجـديدها، فـإنه لا توجـد مـادة واحدة تعوق العاملين على تطوير المناهج وتجديدها ، لأن المناهج العلمـيـة يضـعـهـا العلمـاء فى كل مجالات العلوم ولم يتضـمن القانون تفصيلا لأى منهج علمى لأن ذلك ليس من مـهـمـة القوانين وإنما مهمة القوانين أن تضع آليات للعمل والتطبيق .

لقد كان الأزهر بحاجة إلى التجديد فى قوانينه التى كان الأستاذ الإمام محمد عبده أول من طالب بها وعمل لها شيوخ تاريخيون عظام من تلاميذ الإمـام، كـالشـيـخ المراغى والشـيـخ مـصـطفى عبدالرازق والشيخ شلتوت، ولم تكن أحكام القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ كـافـيـة لإحـداث التطور الذى يلاحق تطور الجامعات الأخرى فى مصـر، بينما كان هو أقدم منها وأعرق من كل جامعات العالم ، فـأن تقـوم حـركـة يوليـو بإحـداث هذا التطوير الضرورى ليجسب لها ذلك فى ميزان أعدل ميزان

على أن الذى يضاف إلى تجديد قوانين الأزهر واستحداث آليات الحركة العلمية فيه تجديد بناء الجـامع الأزهر نفسـه فى عـهـد الرئيس حسنى مبارك .

ولقـد كـان الأزهر بعـد أكـثـر من ألف عـام معرضا للخطر الداهم بعد ارتفاع منسوب المياه الجـوفيـة، وتآكل أسـسـه التى حملت البناء، هذه القرون المتطاولة حتى قرر الخبراء تعرضه للسقوط خلال سنين قلائل إن لم يسعف بالتجديد الشامل للأسس والبناء، ذلك التـجـديد الشـامل الذى لم يحدث منذ أن بناه جوهر الصقلى .

وقـد رأى المهندس خالد عبـدالمنعم انس الذى كـان المهندس المقـيم فى مـشـروع تجـديد الأزهر لوحـة تشـيـد بجـهـود الخـديوى فى تجـديد الجناح الغـربى من الأزهر، فـإذا بجـهـود الرئيس مـبـارك التى تذكر له فى تاريخ الأزهر عـبر القرون تشمل تجـديد الجـامع الأزهر كله أسـسـه ومـبـانيـه، هذا بالإضـافـة إلى جـهـوده فى بناء دارين فى غـايـة الأناقـة والفـخـامـة المعـمارية لمشيـخـة الأزهر ودار الإفتاء مما يعكس روح حركة يوليو نحو مؤسسات الإسلام .

ولا يفوت الباحث فى هذا السياق أن يقف عند معلمين من معالم موقف يوليو من الإسلام هما :

- إذاعة القرآن الكريم .

- المجلس الأعلي للشئون الإسلامية .

فـقـد انطلق من مـصـر يوليـو إلى آفـاق العـالم وإلى آذان وقلوب المحـبين للقـرآن إذاعـة القـرآن الكريم التى بدأت أول ما بدأت بإذاعة تلاوة القرآن لمشاهير القراء فى مصر، وتاريخ مصر مع القرآن يلخـصـه قـول سـمـعـتـه فى الهند من الشـيـخ أبى الحـسن الندوى رحـمـه الله يقـول عن القـرآن «نزل فى الحـجـاز وطبـع فى الاستـانة وقـرئ فى مصـر» فـالصـوت المصرى والأداء المصرى للقـرآن الكريم يتلبس بالروح المصـرى حـيث تسكن الشـخـصـيـة المصـرية مـوسـيـقى التـراتيل الدينيـة عـبـر آلاف السنين، فتميز الصـوت المصرى بالخشوع حتى فى كلامـه العـادى فضـلا عن تلاوته للقرآن الكريم مما جعل إذاعة القرآن الكريم من مصر صوت الإيمان المصرى يتسلل إلى كل قلب مؤمن فى العالم .

ولقد طورت هذه الإذاعة نفسها بعد ذلك بتقديم البـرامج الدينيـة التى تفى بتـفـسـيـر القـرآن واستخراج معانيه وأحكامه مما أضاف إلى رسالة مـصـر الأزهر صـوتا للثـقـافة الإسـلاميـة الشـاملة

بأحدث أساليب العصر من أساليب الإعلام والدعوة .

أما المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقد كان هو الآخر سمة من سمات حركة يوليو فى دوائرها الثلاثة التى حددت منذ أيام عبدالناصر الدائرة العربية والدائرة الإسلامية والدائرة الافريقية .

فقد كان نشاط هذا المجلس منذ أنشئ فى ربط هذه الدوائر بمصر بالبعثات من علماء الأزهر والمنح التى تعطى لشباب هذه البلاد فى الدوائر الثلاث والذين وجدوا من مدينة البعوث الإسلامية المدينة المتكاملة التى تؤوى مئات من أبناء العالم الذين وفدوا إلى مصر ليتفقهوا فى دينهم ثم يعودوا إلى أوطانهم بالعلم والتنوير الإسلامى الوسطى المعتدل، وسطية الإسلام واعتدال الأزهر وما أخرج المجلس الأعلى للشئون الإسلامية من كتب التراث ومراجع الدعوة فهو عمل جميل بكل المقاييس .

تطوير المناهج وتجديدها

وإذا كانت هناك كلمة أخيرة تقال فى موضوع هذا المقال عن موقف حركة يوليو من الأوقاف الإسلامية سواء كانت الأوقاف الخيرية أو أوقاف الأزهر التى وزعتها حركة يوليو على المنتفعين بالإصلاح الزراعى، فهى تجربة يجرى تصحيحها الآن، وعندما يتم التصحيح بإرجاع هذه الأوقاف إلى ما رصدت من أجله فى خدمة الدعوة إلى الإسلام، لتؤدى ما تؤديه هيئة الأوقاف المصرية القائمة على كل الأوقاف خدمة للدعوة ولكل غرض نبيل ورسالة سامية .

تلك هى تصوراتنا عن مواقف حركة يوليو والإسلام التى مازالت تعطى الامتداد الطبيعى لرسالة مصر فى تاريخ الإسلام .

على الجانب الاجتماعى

على أنه مما يذكر لحركة يوليو فى تطوراتها الأخيرة فى عهد الرئيس مبارك جانبان مهمان طالما كان كل منهما ثغرة ينفذ منهما الطاعنون على الإسلام وهى :

- قضايا المرأة .
- حقوق الإنسان .

ورغم أن يوليو منذ بداياتها أعطت المرأة الحقوق السياسية فى التصويت والترشيح وتولى وظائف كبرى فى النظام السياسى، إلا أنه ظل جانب التشريع الذى يحمى حقوق المرأة فى الأسرة فى حاجة إلى دعم ومساندة حتى تكون لها حقوقها التى كفلها الإسلام .

من ثم بذلت المحاولات لتعديل القوانين حتى تتسق مع الإسلام وحتى لا تكون هناك ثغرة ينفذ منها من يظلم المرأة أما وزوجة، وجاءت أنجح المحاولات فى هذا السبيل قانون ١ لسنة ٢٠٠٠ الذى حمى المرأة من استبداد بعض الأزواج فى التعسف فى استخدام حق الطلاق فأباح لها الخلع بالضوابط التى كفلتها شريعة الإسلام .

ثم أنشئ المجلس القومى للمرأة الذى يعمل بكافة فروعه على تنمية المرأة والدعوة إلى تعليمها وتنويرها، تنمية للمجتمع وتنويرا له .

أما فى حقوق الإنسان وكفالة الحريات، وضمان أن يصل صوت الناخبين إلى غايته فقد ضبطت انتخابات مجلس الشعب سنة ٢٠٠٠ بكافة الضوابط التى جعلت للقضاء الإشراف الكامل على كل مراحل الانتخابات، مما أنتج مجلسا قويا يشعر أعضاؤه والأمة من خلاله بقدر أكبر من الحرية واحترام الحقوق والواجبات . ■

يوليــو في عيــون الســينمـا العـالميــة

الثورة .. برهان الحياة

بقلم : محمـود قاسـم

لكل ثورة مؤيدوها، وخصومها..

ولم يكن هناك من مناصرين، وقد يعين، قدر ما واجهت الثورة المصرية خاصة فى فنون السينما، والثورة المصرية واجهت هؤلاء الخصوم بشراسة من خلال الحملات الدعائية المتعددة التى قامت بها السينما فى هوليوود، وانجلترا..

أبرز سمة فى السينما الأمريكية، أنها تحاول أن تبحث عن خصوم أشرار فى كافة أفلامها ومهما كنا أمام أفلام رومانسية، أو تاريخية، فإن السيناريوهات التى تتحول إلى أفلام، تحاول الانتقام من الثوار الذين ناهضوا السياسة الأمريكية، بتشوية صورتهم وتقدمهم إلى المشاهدين من خلال رؤية سلبية.



جريجوري راتوف فى (عبد الله الكبير)

على سبيل المثال فإن روميل «ثعلب الصحراء» القائد العسكرى الألمانى الذى شهد له خصومه وانصاره تحول فى الفيلم الذى انتجته ستوديوهات هوليوود عام ١٩٥٣ الى مجرد معارض لسياسة هتلر وتم تخليصه فى الفيلم، ومن كافة قدراته، ومواهبه العسكرية.

وانعكس ذلك على ارنستو جيفارا، فى الفيلم الذى اخرجه ريتشارد فلايشر ١٩٧٢، وايضا على المنظمات الثورية فى أمريكا اللاتينية فى فيلم «برهان الحياة» «٢٠٠١» الذى قام ببطولته راسل كرو، فتحولت الى مجرد عصابات تخطف الرهائن، وتطالب بفدية لهم.

وناهضت السينما الأمريكية كافة الثورات العالمية ابتداء من الثورة الروسية «دكتور زيفاجو» وناصرت انقلاب بينوشيه ضد الليندى فى «مفقود»، كما صورت الثورات الأفريقية باعتبارها أعمالا همجية فى فيلم «الرجل المناسب» المأخوذ عن رواية للكاتب ويليام بويد، والتى سبقت ترجمتها فى روايات الهلال.

لكن ماذا عن ثورة يوليو فى هذه السينما؟

من الواضح أن السينما الأمريكية ذاتها لم تشأ إلى تتوقف عن هذه الثورة فى افلامها السينمائية وتركت هذا لأقرانهم البريطانيين، بينما سرعان ما تم اعداد فيلم تليفزيونى عن «السادات» يحمل نفس الأسم فى اوائل الثمانينات، أى عقب رحيل الرئيس بعدة أشهر باعتبار تكريمه لأنه أول من فتح طريق المفاوضات مع الدولة العبرية.

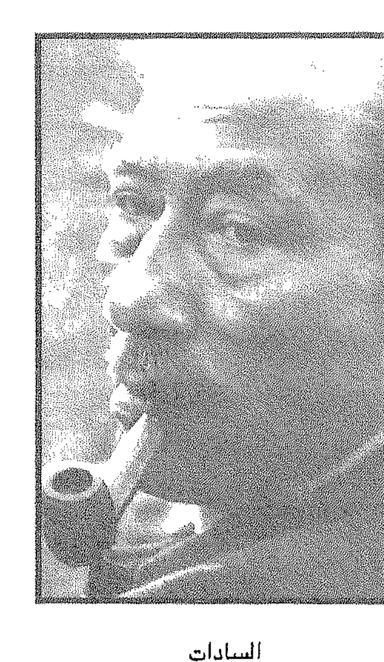
أما البريطانيون الذين أقاموا فى مصر قرابة سبعين عاما، فكان عليهم أن يقدموا فيلماً طازجا يتماشى مع الأحداث الجارية، وذلك فى عام ١٩٥٦، يحمل اسم «عبد الله الكبير» من اخراج وبطولة الممثل البريطانى، ذو الأصل الروسى، جريجورى راتوف، وهو أيضا مؤلف القصة، وكاتب السيناريور، واشتركت فى البطولة ممثلة بريطانية مشهورة تدعى كامى كيندل، ماتت عام ١٩٥٨، وكانت فى تلك الآونة قرينة للممثل ركس هاريسون، كما شارك فى البطولة الممثل سيدنى تشابلن، الابن الأكبر للممثل والمخرج شارلى تشابلن، حيث ادى دور الضابط قائد الثورة. ومن المعروف أن الفيلم كان يحمل عنوان «حريم عبد الله» الا أن اسمه التجارى فى مصر هو «عبد الله الكبير»، حسب النسخة التى ظلت تعرض فى الصالات المصرية، على فترات متقطعة، حتى منتصف الثمانينات.

ملك.. ثروته الحسان

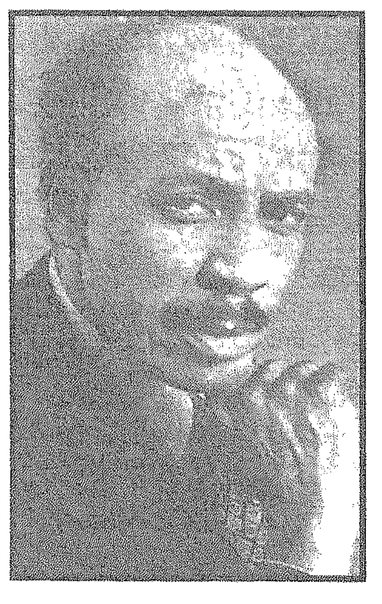
يعنى هذا، أن حكومة الثورة أيدت ما جاء بالفيلم، ووجدته على هواها، فقامت الشركة المصرية التى وزعت الفيلم بعمل كراس دعائى أنيق للفيلم، الذى انتقل بين دور العرض، كشاهد

على فـسـاد الملك والجـدير بـالذكـر أن بعض المـمثلين المصريين قد شاركوا بأدوار بارزة فى الفـيلم، وعلى رأسهم عباس فارس.

وراتوف البـريطانى، ينحدر من أسرة روسية، وقد تم اخـتـيـاره ليـقـوم بدور الشـخصية الاجنبية، ورغم الاسم العـربى للفـيلم، فـإن الأحداث تدور فى مملكة متخيله، غير موجودة فى الواقع، حـول ملك فـاسـد، تم خلعـه عن الحكم، فـاختـار أن يعيش فى إمارة مونت كارلو، يحـيا حـول موائد اللعب، ويستـمـر مع ذكرياته التى لا تنمـحى حـول أيامه الخوالى، حين كان ملكا على ممكة «يونراريا».



السادات



لوغارسيت في دور السادات

ليس هنـاك أى ذكر للأسـمـاء الحـقيـقـة فى الفيلم، ولكننا أمام ملك لاه يسيل لعابه كلما مرت به حسناء، ويمكنه أن ينصرف عن شئون الحكم لو تعلق قلبه بواحدة منهن، مثلما حدث فى الفيلم المصـرى «لاشين» عـام ١٩٣٨ الذى أخـرجـه الالمانى فريتزكرامب.

نحن أمام قصة تقليدية عن نهاية ملك فاسد يعقد صفقات الأسلحة، ويتاجر فى الفاسد منها ويأخذ العـمـولات والرشـاوى، ويسـتـغل قـصـوره ويخوته لتحويلها إلى مواخير لنزواته، كما أنه لا يغـادر موائد اللعب فى العواصم العـالمية، وتبدو مهام الحكم، وأداره الدولة كأنها آخر شىء يمكنه أن يتنبه اليه والملك هنا ليس شابا، مثلما كان الملك فـاروق، ولكنه أكـبـر سنا، لكن هذا لا يمنعـه عن إحاطة الأماكن التى يعيش فيها بالحسان، خاصة الأجنبيات ومنهن عارضة أزياء بريطانية تأتى إلى

مملكته، فتلفت انتباهه من اللقاء الأول . ويحاول القاء شباكه حولها، إلا أن المرأة لا تنجذب إليه، وترفض أن تنصاع له، وكلما صدته ازداد شغفا بها، وتتضاعف محاولاته لمحاصرتها، فتلجأ إلى أحد الحرس الذين يقومون بحماية الملك، وتستنجد به، من أجل مساعدتها فى الهروب من المملكة، ويوافق الحارس، باعتبار أنه الآخر سقط فى هواها، ويسعى بكل مالديه من حيل إلى إعادتها إلى بلادها فرنسا.

الملك هنا، ليس له من هم سوى اصطياد النساء، إنه فاشل فى أمور السياسة الخاصة، لكنه يكرس كل وقته من أجل إعادتها إلى مملكته، ويرسل رجال استخباراته، تحت رئاسته من أجل أن يفعل ذلك، وعندما يعرف ان حارسا من رجاله، كان وراء مساعدتها، فانه يأمر بالقبض عليه، وإعدامه رميا بالرصاص.

الثورة.. لم تقتل الملك

السيناريو هنا أقرب إلى « لاشين » وهو بدوره مأخوذ من عمل أدبى للكاتب الألمانى هاينريش فاين، والمرجح أن الفيلمين مقتبسان من نفس المصدر، ومثلما طلبت الأمة من السلطان فى « لاشين » أن تمنحه قلبها، وجسدها مقابل العفو عن حبيبها لاشين، فإن المرأة الفرنسية وهبت نفسها للملك، مقابل العفو عن حبيبها الحارس. وفى كلتا الحالتين تصير المرأة جسدا بلا روح فى أحضان الحاكم وبينما هو منشغل بالمرأة، التى قلبت حياته، فإن الجيش يعلن تمرده، ويحاصر القصر، ويدفعون الحاكم للتنازل عن العرش.

إذن فالثورة هنا لم تقتل الحاكم، ولكنها أجبرته على الذهاب إلى منفى من اختياره، ويقول الناقد أحمد رأفت بهجت فى كتابه عن الشخصية العربية فى السينما العالمية.. إن الفيلم يعتبر فى بعض جزئياته من حياة الملك فاروق والدوافع التى أدت لقيام الثورة، ولكنه لم يستطع أن يقف فى وجه أى نقد أو تحليل دقيق لأنه يكشف من البداية هدفه الذى لا يرتبط بما حدث فى مصر من أحداث كانت بؤرتها ملك فاسد.. بل كان هدفه الأساسى تقديم شخصية الفتاة الفرنسية باعتبارها عنصر التوازن بين كل الشخصيات العربية التى تراها..

أيام .. السادات .. الأمريكية

أما الفيلم الثانى «سادات»، فهو تليفزيونى الانتاج، من إخراج ريتشارد ميكاليس، وبطولة نجوم عرفناهم فى السينما، وعلى رأسهم لوى جوست الصغير، الذى رشح عن دوره فى هذا الفيلم لجائزة «ايمى» لعام ١٩٨٣، وهى السنة التى تم فيها انتاج الفيلم، كما قامت آن هايوور

بدور السيدة جيهان السادات، أما بارى مورس فقام بدور مناحم بيجن.

والفيلم الذى تستغرق مدة عرضه أربع ساعات، منقسم إلى جزئين، الأول يبدأ من الشباب الأول لحياة الرئيس الراحل أنور السادات، أما الجزء الثانى بأكمله فيدور حول دور الرئيس فى عقد اتفاقيات سلام مع اسرائيل، ومباحثاته فى كامب دافيد، حتى اغتياله.

والغريب أن هناك تقاربا واضحا بين المراحل التى مر عندها الفيلم، وبين فيلم «أيام السادات» لمحمد خان، سواء من حيث المراحل الأساسية التى توقف عندها، عدا قصة غرامه بجيهان، أو فى منظوره للأشخاص، فالفيلم يبدأ بالحديث عن الشاب الذى عرف السجن فى قضية اغتيال سياسى، ثم هو مشارك فى قيام الثورة.

ونقطة التشابه الواضحة بين الفيلمين، تتضح فى تصوير شخصية الزعيم جمال عبدالناصر، ففى الفيلم الأمريكى بدا جمال عبدالناصر (جسد الدور الممثل جون ريس ـ دافيز) أقرب إلى المهرج، فهو قصير القامة، يتكلم دوما بعصبية، ويبدو هامشياً فى دوره، كما أنه بدين بشكل ملحوظ، ويبدو بمثابة شخصية ثانوية قياسا إلى السادات.

وهى كما نلاحظ أقرب إلى ما صوره خان فى فيلمه، فقد تعمد المخرج اخفاء وجه ناصر، وبدا أقرب إلى الشبح الباهت قياسا إلى الشخصية الرئيسية.

وقد تعمد الفيلم الأمريكى اظهار بطله باعتباره مركز الأحداث، وحاول تشويه صورة الثورة، ومسخ صورة المواقف البطولة لزعيمها، خاصة قرار تأميم قناة السويس، وقرار مساعدة الثورة اليمنية بإرسال جيش مصرى للوقوف إلى جوار زعيمها عبدالله السلال.

كما أن النهاية التى تم بها تصوير حادث المنصة يكاد يكون متقاربا، فنحن لم نشاهد وقائع إطلاق النيران على السادات، ولكن الطائرات التى حلقت فى السماء، وسماع صوت الرصاص كان دليلا على أن شيئا ما يدور فى المكان.

السينما البريطانية فى الفيلم الأول، انقلبت على الملك، وانتقمت منه بفيلم، ربما محاولة للوقوف بجانب الثورة، لكن فى نفس العام تم العدوان الثلاثى، والتليفزيون الأمريكى حاول من خلال فيلم لتمجيد السادات، أن يشوه الرموز التى كان إلى جوارها ليلة الثورة، فجاء الفيلم باهتاً. سرعان ما نسيه الناس. ■

ماضى الصّحافة ومستقبلها

بقلم : د.محمود خليل*

يستطيع المتتبع لنشأة وتطور الصحافة المصرية أن يرصد عددا من الملامح الأساسية، إن لم يكن القوانين، التى تفسر تاريخها وحاضرها ومستقبلها، الملمح الأول يتمثل فى ارتباط الصحافة المصرية منذ نشأتها، بل فى فكرة نشأتها ذاتها، بالسلطة السياسية، ويمتد هذا الملمح بخيوطه فى الحاضر، ومن المتصور أنه سيظل متدخلا فى رسم اللوحة الصحفية المصرية فى المستقبل .

ويتمثل الملمح الثانى فى ارتباط الصحافة - فيما تقدمه من مضامين - بالنخبة منذ نشأتها، سواء نظرنا إلى النخبة هنا بالمفهوم التعليمى أو الثقافى أو الجغرافى وأحيانا الاقتصادى، وفى إطار هذا التوجه النخبوى (نقصد بالنخبوى هنا: الفئوى، إذا شئنا الدقة) تظل معادلة البحث عن صحافة شعبية تعتمد على الإثارة والبساطة (وأحيانا السطحية) فيما تقدمه قائمة، ترتفع أسهمها فى فترات معينة، وتقل قيمتها فى بورصة القراء فى أحيان أخرى، ولكن وجود هذا

* كلية الإعلام - جامعة القاهرة

النوع من الصحف لا يرسم مثل الصحافة النخبوية خطا مستقيما متصلا بل خطا متقطعا يتصل فى فترات وينقطع فى أخرى.

أما الملمح الثالث فيتمثل فى النظر إلى الوسيلة الصحفية كمظهر من مظاهر القوة وكأداة للسيطرة على الجماهير، وهذا الملمح ليس بدعا فى الصحافة المصرية، وإنما هو سمة تميز نظرة العديد من المجتمعات إلى الصحافة كحامل ومروج لأفكار القوى السياسية والاجتماعية المختلفة، بالإضافة إلى تدخلها فى تحديد نظرة القارئ إلى العالم الذى يعيش فيه، كما تعد إحدى الأدوات الأساسية للتنمية الثقافية سواء نظرنا إلى الثقافة بمعنى الفن والأشكال التعبيرية ذات الدلالة أو نظرنا إليها بمعنى طرق وأساليب الحياة Life-Style .

وهناك من الباحثين الإعلاميين اليوم من يرفض النظر إلى الصحافة ووسائل الإعلام باعتبارها بناءات ثانوية خاضعة تماما فى توجهاتها لتأثيرات سياسية واقتصادية من خارجها، ويرون أنها تمتلك مقومات ذاتية للقوة تتمثل فى قدرتها على إشباع احتياجات الجماهير وما يؤدى إليه ذلك من إكسابها قدرا من مصداقية وقدرة على إضفاء سمات معينة على الأحداث والمواقف والشخصيات.

وقد تعاملت ثورة يوليو مع الصحافة بوعى بهذه المبادئ والملامح الأساسية التى تحكم الحالة الصحفية المصرية، لذا فقد سعت منذ قيامها إلى امتلاك أدواتها الصحفية الخاصة لإيمانها بقوة الصحافة كوسيلة من وسائل السيطرة على الجمهور وقدرتها على نقل رؤية رجال الثورة للأوضاع المختلفة إليه ودفعه إلى تبنيها، وذلك على الرغم من أن الصحف التى كانت تعج بها الساحة – حينئذ – تحولت منذ الوهلة الأولى إلى التهليل للثورة وتبنى رؤيتها، يستثنى من ذلك بالطبع نماذج صحفية محدودة.

ولكن الثورة كان لها رأى آخر فى المسألة، فقد كانت تنظر بعين الارتياب إلى الصحف التى خلفها العهد البائد، وربما نظرت إليها كميراث شرعى لها، إيمانا منها بأنها من الخطورة بمكان أن يظل جزء من أدوات توجيه الرأى العام بعيدا عنها حتى لو كان يواليها على سطور ما يقدمه من مضامين (بعيدا عما يقع بين السطور وأسفل منها وعن يمينها وعن شمالها!).

ومن هنا كان صدور قانون تنظيم الصحافة (١٩٦٠) أى قبل صدور قوانين التأميم بعام (وهو أمر له دلالته)، وكان المدخل الأساسى فى تمهيد الرأى العام إلى صدور هذا القانون هو مبالغة بعض الصحف القائمة آنذاك فى نقل صورة غير مكتملة عما كان يقع فى المجتمع المصرى (الذى تحالفت طبقاته) من تحولات وصعود لأدوار العمال والفلاحين الذين يكدون فى بناء المجتمع الجديد، وصرف اهتمام الجمهور إلى القضايا الهامشية المثيرة حول أخبار زواج وطلاق الفنانات وغير ذلك، لقد كان العتاب حول تحول بعض الصحف إلى

الإثارة ومحاولة إعادتها إلى حظيرة المضمون (النخبوى) مرة أخرى.

وبصدور هذا القانون أصبحت الصحف التى تصدر فى مصر (باستثناءات محدودة جدا) مملوكة رسميا للاتحاد الاشتراكى الذى يعبر عن تحالف قوى الشعب العامل، لتضاف إلى الأدوات الصحفية التى أنشأتها الثورة من خلال دار التحرير مثل القاهرة والمساء والصحف الأخرى التى كانت مملوكة لعائلات مثل الأهرام والأخبار وأخبار اليوم وروز اليوسف وصحف دار الهلال.

والمشاهد لصحافة الستينات يرصد بوضوح التوجه الجاد الذى حكم مضمونها، فرغم تبعيتها الكاملة للسلطة السياسية، إلا أن ذلك لم يمنعها من محاولة تقديم مضامين صحفية رفيعة، خصوصاً فى مجالات الفن والثقافة والأدب، بالإضافة إلى الاعتناء بالمضامين التى تخدم قضية التنمية والنهضة، وكذلك المضامين التى تخدم دعم إحساس الجمهور بالمشروع القومى الذى تبنته السلطة على المستويات المحلية والعربية ودفعه إلى المشاركة فى فعالياته.

ولعبت صحافة الستينات دورها فى التأثير على الرأى العام المصرى وحشده وتعبئته فى اتجاه الأهداف العامة التى رسمتها السلطة السياسية للمجتمع، واعتمدت فى ذلك على لغة مشحونة بالمعانى والدلالات والمبالغات التى كانت تقفز على الواقع فى بعض الأحيان بهدف الحشد والتعبئة (كانت لغة تعتمد على الوصف أكثر مما تعتمد على تقرير الحقائق)، ويمكن القول بأن الصحافة فى ذلك الوقت حققت أهدافها فى الشحن النفسى والعقلى، وليس أدل على ذلك من الصدمة التى شعر بها الجيل الذى عاصر هذه الفترة بعد نكسة (١٩٦٧) وكان أحد أسرار هذه الصدمة هو لغة الخطاب الصحفى آنذاك.

وقد استند عهد الرئيس السادات - خصوصاً فى بدايته فى الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣ - على ذات الأرضية التى استند إليها الرئيس عبد الناصر فى التعامل مع الصحافة، وإن قام بإحداث نوع من الانفراج السياسى سمح للصحف بهامش من الحرية فى التعبير (ولكن فى إطار التوجه العام للدولة)، مع السماح بعودة الصحفيين المستبعدين إلى عملهم بالصحف، وقد قام بهذه الإجراءات فى إطار سعيه للتأسيس لشرعية حكمه، وظل هذا الوضع قائماً حتى إحراز نصر أكتوبر ١٩٧٣، بعدها بدأ فى الانفراد وحده بالسلطة السياسية. وكان الرئيس السادات قد أصدر قراراً فى مارس ١٩٧٥ بتشكيل المجلس الأعلى للصحافة برئاسة الأمين العام للاتحاد الاشتراكى ليضبط أمور الصحافة المصرية.

وفى إطار المشروع الجديد الخاص بالتحول نحو الغرب وسياسات الانفتاح، تم طرح التجربة الحزبية بالمعاونة فى قيام تعددية حزبية قدمت لها التسهيلات المطلوبة فى ظل دستور يتحدث عن الاتحاد الاشتراكى كتنظيم سياسى وحيد، وظهرت صحف الأحزاب وعبرت عن توجهات أحزابها.

وكان ميلاد أول صحيفة حزبية فى مصر متمثلاً فى صحيفة «مصر» عام ١٩٧٧، وقد حاولت الصحافة الحزبية بعد فترة قليلة من ظهورها إبراز تمايزها فى رؤية الأحداث والأوضاع، وهو أمر لم تكن تتصوره السلطة السياسية، مما أدى إلى صدام الطرفين ونجم عن ذلك قيام بعض الأحزاب بحل نفسها وتجميد أنشطة البعض الآخر ومصادرة بعض الصحف الحزبية.

وقد واكب ذلك قيام السلطة السياسية بفرض القيود على الحريات ومحاولة ضبطها، وكان قانون الأحزاب السياسية، بما يحتويه من قيود، غير كاف، فظهرت مجموعة من القوانين الاستثنائية لتحكم القبضة على مختلف القوى السياسية كان أبرزها قانون سلطة الصحافة رقم ١٤٨ لسنة ١٩٨٠ بما قننه من صلاحيات للمجلس الأعلى للصحافة.

لم يكن الرئيس السادات - إذن ليتخيل أن تخرج الصحافة (الحزبية) عن خط السلطة (وهى ابنة أو زوجة شرعية لها)، فضلاً عن مهاجمة سياساته ، وأن دور هذه الصحف - فى تصوره - كان لابد أن يتمثل فى الدعاية لسياسته. وفى هذا الإطار كانت شكوى الرئيس . وقد انتهى الأمر إلى صدام السادات مع كافة القوى السياسية ووقف العديد من الصحف الحزبية والصحف التى كانت مملوكة لأفراد (لم يحدد قانون تنظيم الصحافة موقفها) مثل مجلة الدعوة وجريدة وطنى لتحقيق تصوره فى إعادة الصحافة كاملة إلى عصمة السلطة.

وقد ظلت الصحافة طيلة الفترة الممتدة من عام ١٩٨٠ إلى منتصف التسعينات خاضعة لأحكام قانون سلطة الصحافة فى الإطار التشريعى الحالى الذى ينظم عملها. وإن كان النظام السياسى قد كفل نوعا من الحرية للصحف الحزبية امتد أثرها إلى الصحف القومية. فقدمت هذه الصحف معالجات تمثل خروجا على نمط معالجاتها المألوفة للأحداث المتسم بالتبعية المطلقة لسياسات ومواقف ورؤى السلطة التنفيذية، وإن كان الأمر لا يخلو من واقع صدام تبلور بشكل واضح فى أزمة القانون رقم ٩٣ لعام ١٩٩٥. وقد انتهى أمر هذا القانون باستجابة رئيس الجمهور لمطالب الصحفيين بإلغائه، وتشكيل لجنة لإعداد قانون جديد للصحافة، وقد مثلت هذه الأزمة مقياسا واقعيا لمدى التطور فى حجم القوة الذاتية للمنظومة الصحفية فى علاقتها بالسلطة.

وكان صدور القانون رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٦ الذى لايمثل فى عمومه اختلافا دالا فى فلسفته العامة عن قانون سلطة الصحافة (١٩٨٠)، وإن وجدت بعض الإضافات التى تسير فى صالح الصحافة المصرية. فقد كفل للأشخاص الاعتبارية العامة والخاصة حق إصدار الصحف.

وقد شهدت فترة النصف الأول من التسعينات انتعاشا فى السوق الصحفية المصرية بصدور (٩١ إصدارا جديدا) مقارنة بالنصف الأول من الثمانينات الذى شهد ظهور (٧٠ إصدارا جديدا).

ويرتبط هذا الأمر بالتحولات الاقتصادية التى شهدتها البلاد فترة التسعينات باتجاه المزيد من خصخصة المشروعات ومنح رأس المال الخاص فرصة أكبر للحركة والتقليص المستمر للدور الاقتصادى للدولة. والتجربة التاريخية تثبت دائماً أن اعتماد المجتمع على اقتصاديات السوق يؤدى باستمرار إلى دعم الآلة الإعلامية وزيادة درجة امتدادها الكمى والكيفى. يضاف إلى ذلك اتجاه العديد من المؤسسات الصحفية القومية إلى إصدار صحف متخصصة.

المشهد الحالي للصحافة

تتشكل الخريطة الحالية للصحافة فى مصر من عدد من المجموعات الصحفية التى يصدر عن كل مجموعة منها عدد من الصحف التى تختلف فى عددها وفى نفوذها الصحفى وقدرتها التمويلية والإطار القانونى الذى يحكمها عن الصحف التى تصدر عن باقى المجموعات. ويمكن القول بوجود مراكز قوى - تتفاوت فى درجة قوتها - بين المجموعات . تتشكل منها الخريطة الصحفية وتتمثل فى مجموعة الصحف القومية ومجموعة الصحف الحزبية ومجموعة الصحف التى تصدر عن شركات خاصة.

١ - مجموعة الصحف القومية:

,ويأتى على رأس مركز الثقل الصحفى مجموعة الصحف التى تصدر عن مؤسسات صحفية قومية ويتحقق لدى هذه المجموعة من الصحف عدد من المميزات الأساسية:

- توافر الإمكانيات : فنظراً لوجود الدولة كمالك قانونى لهذه الصحف من خلال مجلس الشورى ولأن هذه الصحف تعبر أساساً عن سياسة الدولة وتفسرها وتبررها فإنها تتمتع - من خلال الدولة - بكافة الإمكانيات المادية والبشرية التى تساعدها على البقاء والتطوير المستمر خصوصاً فيما يتعلق بالإمكانيات الفنية والطباعية وتوفير الورق والأحبار اللازمة للصدور. ويزيد من القدرة الاقتصادية لهذه الصحف - بالإضافة إلى دعم الدولة - ما يتحقق لها من دخل كبير من خلال الإعلانات الخاصة بالشركات والمؤسسات لمساعدتها فى ممارسة دورها فى الإعلام عن وتفسير الخطاب السياسى للدولة. ويوفر انتماء هذه الصحف للدولة درجة حرية أكبر فى الحركة المهنية للمحررين والمندوبين العاملين بها سواء فى الاتصال بالمصادر - وخصوصاً من المسئولين بالدولة - أو الحصول على معلومات صحفية منهم نظراً للحرص الشديد من جانب المسئولين وكذلك بعض المتخصصين ونجوم المجتمع على الظهور على صفحات هذه الصحف لاقتناعهم بأنها تمثل الصوت الرسمى للدولة، كما انها الصحف الأكثر توزيعاً.

- التنوع : فالصحف التى تصدر عن المؤسسات الصحفية القومية تتميز بقدر كبير من التنوع ما بين جرائد يومية صباحية وجرائد يومية مسائية بالإضافة إلى المجلات التى تتنوع بدورها بدورها ما بين مجلات عامة ومتخصصة، وتتعدد

الإصدارات الصحفية الخارجية عن هذه المؤسسات فى دوريتها ما بين إصدارات يومية وإصدارات أسبوعية وإصدارات شهرية وإصدارات ربع سنوية . وتغطى هذه الإصدارات من خلال هذا التنوع مساحات زمنية وموضوعية فى اهتمامات القراء تساعدها بشكل مستمر على احتلال موقع متميز فى سوق قراءة الصحف فى مصر.

– التفاوت فى حدود الرسمية : فالصحافة القومية تقوم على معادلة صحفية مكونة من طرفين أحدهما رسمى وهو الطرف الذى تعمل من خلاله كصوت للدولة من خلال ما تنشره من مواد صحفية ذات طابع رسمي، والآخر جماهيرى وهو الطرف الذى تعمل من خلاله على مخاطبة اهتمامات القراء الحقيقية وعند هذا الطرف يبدأ خط العمل المهنى فى الصحافة القومية. ومن الملاحظ أن الصحف القومية تحاول أن ترصد ما هو عام للتعبير عن الدولة وما هو متخصص لمخاطبة اهتمامات الجمهور. وفى هذا الإطار نجد أن الجرائد اليومية وكذلك المجلات العامة أكثر رسمية من المجلات المتخصصة، ونجد أن الصفحات العامة فى الجرائد والأبواب العامة فى المجلات أكثر رسمية من الصفحات والأبواب المتخصصة.

٢ – مجموعة الصحف الحزبية :

ويأتى على موقع الصدارة – بعد الصحف القومية – على خريطة الصحافة المصرية مجموعة الصحف الحزبية. وقد شهدت هذه الصحف نمواً متزايداً فى عددها خلال حقبتى الثمانينات والتسعينات وكذلك فى نوعها حيث تحول بعضها من الإصدار الأسبوعى إلى الإصدار اليومى كجرائد الوفد والأحرار والعربى.

وهناك مجموعة من الخصائص الأساسية التى تجمع بين هذه المجموعة من الصحف :

أ – ضعف وتفاوت الإمكانيات : فمنذ نشأتها (عام ١٩٧٧) تعانى الصحف الحزبية من عدد من المشكلات الناتجة عن ضعف الإمكانيات المادية والبشرية والتى تتمثل أبرز مؤشراتها فى عدم انتظام بعضها فى الصدور، وضعف المادة الإخبارية لها وضعف الطباعة والإخراج وعدد الصفحات وحجم المطبوع من كل عدد.

وتتفاوت الصحف الحزبية فيما بينها من حيث حجم الإمكانيات المتوافرة لها فهى تبدأ من أقصى اليمين عند صحيفة الوفد التى صدرت كجريدة يومية بعد فترة قصيرة من صدورها الأسبوعى واستطاعت أن تكون لنفسها مساحة خاصة فى السوق الصحفية بمصر وتنتهى عند أقصى اليسار عند صحيفة الأمة التى تصدر كلما توافر لدى حزب الأمة مبلغ يسمح بإصدار عدد.

ب – التنوع على مستوى الخطاب المقدم : ويتبلور التنوع هنا فى الصحف الحزبية يتبلور بشكل أساسى على مستوى الخطاب الصحفى المقدم والذى يعكس غطاءً أيديولوجياً يختلف من حزب إلى حزب كما يختلف فى درجة قربه أو بعده

عن الخطاب الحكومى كما ينعكس فى الصحافة الحكومية (القومية)، فنجد خطابات صحفية حزبية تتقارب فى مواقع كثيرة مع خطاب الدولة (جريدة الوفد على سبيل المثال) فى حين نجد خطابات أخرى تبدو مفارقة فى مواضع عديدة لخطاب الدولة (جريدة الأهالى على سبيل المثال).

٣ - مجموعة الصحف الخاصة :

يأتى بعد الصحف الحزبية على الخريطة الصحفية فى مصر الصحف التابعة لشركات خاصة محدودة سواء طبقاً لقانون سلطة الصحافة رقم ٤٨ لعام ١٩٨٠ أو القانون رقم ٩٦ لعام ١٩٩٦، وقد بدأت هذه الصحف فى فرض نفسها على الساحة الصحفية فى مصر خلال حقبة التسعينات، ومن أبرزها صحف النبأ والأسبوع والزمان والميدان وغيرها. وهناك مجموعة من الخصائص الأساسية التى تجمع بين هذه الصحف لتحدد موقعها من الإعراب على الخريطة الصحفية العربية وتتمثل فى :

أ - الاعتماد على معادلة الإثارة فى التسويق الصحفى : فقد حددت الصحف الخاصة منذ ظهورها اختياراتها الصحفية فى إطار المساحات الغائبة داخل النصين الصحفيين القومى والحزبى واتجهت إلى تقديم مواد صحفية تعتمد على مبدأ الإثارة بتنويعاته المختلفة بدءاً من الإثارة الجنسية بنشر الصور المثيرة والموضوعات التى تضرب فى هذه المنطقة من مناطق اللامساس الصحفى وانتهاء بالإثارة السياسية بالتركيز على فضائح بعض المسئولين بالدولة وقضايا الفساد والانحراف.

ب - إفراز لغة صحفية أكثر شعبية : فالملاحظ أن اللغة المستخدمة فى الكتابة الصحفية داخل هذه الصحف تحاول أن تأخذ باستمرار من القاموس الشعبى، وبذا فإنها لا تترفع عن استخدام العديد من المفردات والأمثلة والمقولات الشعبية فى عناوين بعض موادها الصحفية.

ج - الاعتماد على التوزيع فى تمويل الإصدار: فمن خلال تقديم مادة صحفية أكثر قدرة على جذب الجمهور استطاعت هذه الصحف أن تخلق لنفسها سوقاً قرائية رفعت من أرقام توزيعها، الأمر الذى وفر لها قدرة على الاستعانة بالتوزيع كمصدر أساسى للتمويل، بالإضافة إلى الاعتماد على الإعلان بشكل جزئى.

د - تكريس فكرة الصحافة الاستهلاكية : استطاعت الصحف التابعة لشركات تكريس فكرة العمل الصحفى كصناعة هادفة إلى الربح وتستطيع تحقيقه إذا استطاعت تقديم منتج صحفى يحسن مخاطبة القارئ، وخصوصاً على المستوى الغريزى، بغض النظر عن الاعتبارات الأخلاقية، ومستوى الجودة الحقيقية لهذا المنتج. وبالتالى فقد أكدت هذه الصحف فكرة الصحيفة كمشروع استثمارى يتم فى الإطار الاستهلاكى، وليس فى الإطار الإنتاجى الذى يعمل على تطوير

حياة القارئ بشكل حقيقى.

رهانات المستقبل :

يمكننا أن نحدد مجموعة من المنطلقات الأساسية يتصور أن تحكم مسار نمو النظام الصحفى المصرى فى المستقبل :

١ - إعادة النظر فى بعض القوانين المنظمة للعمل الصحفى : وهو أمر لن يتم فى المستقبل القريب استنادا إلى الثبات النسبى للبنية التشريعية المنظمة للعمل الصحفى فى مصر، فقانون سلطة الصحافة رقم ١٤٨ لعام ١٩٨٠ ظل حتى صدر قانون تنظيم الصحافة رقم ٩٦ لعام ١٩٩٦ وقبل ذلك ظل قانون تنظيم الصحافة الصادر عام ١٩٦٠ فى العمل حتى عام ١٩٨٠، ولكن من الضرورى الالتفات إلى أن التحولات الإقليمية والعالمية الناجمة عن الانخراط فى ظاهرة العولمة بتأثيراتها المختلفة تدفع فى اتجاه ضرورة إعادة النظر فى عدد من القوانين التى تنظم ملكية الصحف فى مصر كجزء من آليات تطوير هذه الوسائل لتستجيب للتحديات الجديدة التى تفرضها التحولات المحلية والدولية.

٢ - الاتجاه نحو تحجيم سيطرة السلطة التنفيذية على صناعة القرار الصحفى : وتتحدد السيطرة هنا فى آليات الارتباط غير المباشر وسيطرة السلطة التنفيذية على الصحف القومية من خلال صلاحيات مجلس الشورى والمجلس الأعلى للصحافة. فالتعديلات التى ستطرأ على القوانين واللوائح المنظمة للعمل الإعلامى فى مصر ستتجه بشكل مستمر نحو تحجيم دور السلطة التنفيذية.

٣ - تفعيل دور المؤسسات المنوط بها متابعة الممارسة المهنية من زاوية المسئولية الاجتماعية : فمن الضرورى تنشيط دور المؤسسات المنوط بها متابعة درجة التزام وسائل الإعلام المختلفة بقيم المجتمع وتقاليده. ويتم تحقيق ذلك من خلال ما ينص عليه ميثاق الشرف الصحفى الذى يلتزم المجلس الأعلى للصحافة بسن معاييره فى ضوء ما يحرص المجتمع على حمايته وتأكيد احترامه داخل الآلة الإعلامية وذلك لإيجاد بديل للرقابة بشكلها التقليدى ومحاولة السيطرة وضبط أداء عناصر النظام الصحفى لكى لا تخرج عن المسار المحدد لها.

٤ - رفع مستوى الأداء الصحفى : ويتم ذلك من خلال تحسين الأوضاع الاقتصادية للصحفيين بهدف رفع مستوى الأداء على أساس ما هو ملاحظ من اتجاه العديد من الصحفيين إلى تنويع مصادر دخلهم من خلال العمل لدى أكثر من جهة صحفية محلية وخارجية قد تتناقض فى أهدافها وسياساتها بل وفى مواقعها الجغرافية فى الداخل والخارج. ويتعلق بهذا الجانب أيضاً زيادة اتجاه الصحف نحو الاستعانة بكوادر متخصصة ومدربة للقيام بأوجه الممارسة الصحفية المختلفة بداخله. ■

صحافتنا الأدبية

فى ظلال الثورة

مجلة (المجلة) نموذجاً

بقلم : د. ماهر شفيق فريد

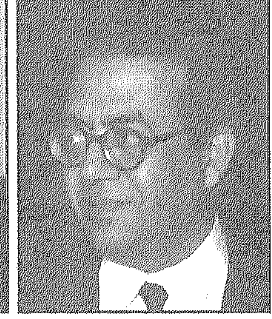
كما

كان عقد الستينات هو أعلى نقطة بلغها المسرح الجاد فى مصر خلال القرن الذى انطوت صفحته كان ذلك العقد، أيضا، الفترة الذهبية فى تاريخ المجلات الثقافية والصحافة الأدبية المصرية: فإلى جانب نشاط حركة النشر، والحفاوة بالتأليف والترجمة وتحقيق التراث، وإنشاء إذاعة البرنامج الثانى، وازدهار فنون الموسيقى والفن التشكيلى والسينما والباليه والفنون الشعبية بفضل جهود الدكتور ثروت عكاشة ومعاونيه، وصدور عدد من السلاسل زهيدة الثمن عظيمة القيمة، شهدت الساحة الثقافية فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) عددا من المجلات الثقافية العامة والأدبية المتخصصة: الطليعة، تراث الإنسانية، الشهر، القصة، جاليرى ٦٨، الشعر، الكاتب، الفكر المعاصر، المسرح، الهلال، الأدب، كتابى، كتب للجميع، المسرح، المسرح والسينما، الكتاب العربى، الرسالة، الثقافة، ديوجين، لوتس: الأدب الأفريقى.

الآسيوى، الفنون الشعبية، ثم «المجلة» التى أريد أن أفرد لها هذا المقال.

تعاقب على رئاسة تحرير مجلة «المجلة» خلال سنى صدورها (١٩٥٧ - ١٩٧١) خمسة رؤساء تحريرهم على الترتيب: د. محمد عوض محمد، د. حسين فوزى، د، على الراعي، يحيى حقى ، د. عبد القادر القط، إلى جانب مجموعة متغيرة من المحررين ومستشارى ونواب ومديرى التحرير والمشرفين الفنيين وفيهم رجال من طبقة حسن كامل الصيرفى وأنور المعداوى وشكرى عياد ويوسف الشارونى وفؤاد دوارة وسامى فريد وكمال ممدوح حمدى. وطوال تلك السنوات ظلت المجلة وفية لشعارها «سجل الثقافة الرفيعة» حتى لأعدها أرقى مجلة أدبية مصرية بعد الكاتب المصرى التى كان يصدرها الدكتور طه حسين فى الأربعينات، وربما كانت أعلى نقطة بلغتها «المجلة» تقع فى الفترة التى حررها فيها يحيى حقى ما بين ١٩٦٢ - ١٩٧٠ .

فى مقالة له بمجلة «الثقافة» (يناير ١٩٧٥) عنوانها «تجربتى فى الأدب والحياة» كتب حقى: «لم أتصور وظيفة رئيس التحرير على أن الدولة سلمت مجلة ليتبحبح فيها على هواه، ويطلع على القراء كل عدد بمقال له أو عنه، بل إن واجبه يفرض عليه أن ينشر فى المجلة أحسن ما يصله، ومن بين ما يصله مقالته هو، فإذا وجد فيما يصله ما هو أفضل منها لم ينشرها»، صدق الرجل، إن الرائد لا يكذب أهله، وعلى هذه السنة الحميدة من الترفع وإنكار الذات جرت كل مجلة أدبية تحترم ذاتها، عندنا أو عند غيرنا: «ذاكريتريون» (المعيار أو القسطاس) (إليوت) «سكروتنى» (التمحيص)



د. محمد عوض محمد — د. حسين فوزي

(ليفيز وزملاؤه) «الفكر المعاصر» (زكى نجيب محمود ثم فؤاد زكريا) «فصول» (عز الدين إسماعيل ثم جابر عصفور ثم هدى وصفى)، ويذكر الدكتور صبرى حافظ فى كتاب «سرادقات من ورق» (ديسمبر ١٩٩٨) «أن مدرسة التفانى فى العمل الثقافى العام التى أرسى حقى دعائمها فى «المجلة» كانت تحذف اسم رئيس التحرير نفسه من أى مقال ينشر فيها ناهيك عن أن تسمح بنشر مقال عنه أو عن أحد العاملين فى المجلة التى يرأس تحريرها».

كانت «المجلة» مجلة ثقافية عامة تنشر أبحاثا فى الفكر السياسى والعلوم الطبيعية والفلسفة وعلم النفس والموسيقى والفنون التشكيلية والأدائية والسينما والمسرح والتاريخ والجغرافيا والفولكلور ، وفيها أبواب ثابتة مثل المكتبة العربية، والمكتبة الغربية، وتحقيق التراث، وكتاب الشهر، والرسائل الجامعية، والندوات الثقافية، والفكر والأدب قبل ستين سنة، وشهرية الفنون التشكيلية، وجولة المجلات العربية والأجنبية. لكن الأدب بفنونه المختلفة من شعر وقصة ومقالة ومسرحية كان،

كما هو طبيعي، أغلب عليها، ويبقى أمام التاريخ أن يحيى حقى هو صاحب الفضل الأول فى استقطاب نخبة من كبار الكتاب (مثل العقاد وأمين الخولى) إلى صفحاتها، واحتضان مواهب شابة كثيرة من جيل الستينيات بخاصة، كما يبقى أنه المسئول، بعد الكتاب، عن أية سلبيات.

فى كتابه المسمى «يحيى حقى عازف الكمان» (الدار المصرية اللبنانية ، مايو ١٩٩٨) يصف لنا القاص والصحفى سامى فريد - وقد عمل مع حقى عدة سنوات فى سكرتارية تحرير «المجلة» ومن ثم تراكم لديه رصيد من الذكريات عنه - جلسات حقى فى المجلة فيقول : «يستمع إليهم وهم يقرءون عليه أعمالهم.. وتتغير أشخاصهم ويحيى حقى كشيخ العامود لايزال جالسا يستمع إليهم معتمدا بوجهه على راحتيه.. متابعا قصيدة لشاعر.. سارحا وراء معانيها.. شاردا بين إيقاعاتها.. أو منصتا لقصيدة يتلوها كاتبها، يكاد يحيى حقى يتلمسها حرفا.. حرفا.. أو متابعا مقالا لناقد .. مصححا .. موجها .. موضحا.. باذلا نصحه وخلاصة تجربته ورؤيته فى تواضح وصبر إلى زائره، ممسكا بعصاه، ثم يرفع رأسه أو يومئ، أو يقول لازمته الشهيرة (أفندم).. إذا كان الأديب مقيما فى أحد الأقاليم يكتب له يحيى حقى رسالة مطولة (انظر أيضا ذكريات القاص سعيد الكفراوى، على صفحات مجلة «أدب ونقد» عن كاتبنا الراحل فى نفس السياق).

كان حقى يكتب عادة افتتاحيات «المجلة» وإن كان يخليها أحيانا لنشر خطب الرئيس جمال عبدالناصر فى عيد العلم، أو مقالات الدكتور عبدالقادر حاتم، أو الدكتور ثروت عكاشة عن إنقاذ آثار بلاد النوبة، وتناولت افتتاحيات حقى موضوعات مختلفة: جمال عبدالناصر، السد العالى، بيرم التونسى، فوز نجيب محفوظ بجائزة الدولة التقديرية فى الأدب لعام ١٩٧٠، قصص محمد سالم، كما رثى محمد محمود غالى، والشهيد عبدالمنعم رياض، وحسن محمود، وصلاح الدين كامل، وأنور المعداوى عند رحيلهم، وتميزت افتتاحياته التى كان يكتبها تحت عنوان «من إحدى الزوايا» (فهو كما ترى لا يدعى شمولا للرؤية) بالفطنة والذكاء والفكاهة، كتب مرة مقالة عنوانها «حسن» بدأها بقوله: «وليست كلمة حسن هذه اسم خولى الجنينة الوسيم فتحسبنى أغريك أن تدندن بأغنيته الشعبية الحزينة وأنت فى الحمام بل هى كلمة «الاستعانة» ، وبالتنوين من فضلك التى تتردد عند بدء مقاطع الحوار على ألسنة الممثلين عندنا فى المسرحيات المترجمة بالفصحى: حسن، وماذا تريد؟ ، سأنصرف! حسن، إذا كان الأمر كذلك ، وهكذا وهكذا.. أتململ لها كلما سمعتها، تقلقنى قلقلة المطب للسيارة، حسن هنا ترجمة لكلمة well التى كثيرا ما يبدأ بها الإنجليز كلامهم، وهى كلمة محيرة فى الترجمة على بساطتها الظاهرية، فهى أحيانا لا تعدو أن تكون كسبا للوقت، يحشد المرء قواه أثناءه لكى يقول ما يريده أو يفكر أو يتذكر، ومن ثم انبغى ترجمتها فى ضوء السياق.

ومن الافتتاحيات التى أكاد أجزم أن حقى لم يكن كاتبها تحية إلى مجلتى «الثقافة» و«الرسالة» وكان يرأس تحريرهما - على التعاقب - محمد

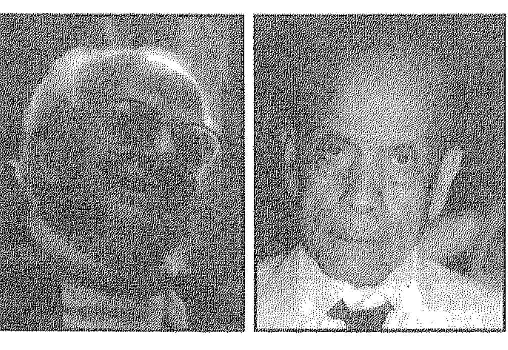
فريد أبوحديد وأحمد حسن الزيات، فى إصدارهما الثانى البائس، وذلك حين سعى المسئولون إلى إقامتهما من الأموات، مثل لعازر مكفناً بأكفانه البيضاء، شاخص الحدقة دون حياة، متى ندرك أن النجاح لا يتكرر لأنه مرتبط بلحظة حضارية وفكرية بعينها، وأن «الثقافة» و«الرسالة» اللتين كانتا تحملان «مشعل الفكر فى الأربعينات والخمسينات لم يعد لهما مكان فى أوائل الستينات؟ كانت الافتتاحية - وإن تكن موقعة باسم «المجلة» - مجموعة سجعات تتجه شكوكى إلى أنها من قلم الشاعر حسن كامل الصيرفى - مساعد حقى فى التحرير - وكانت تجرى على هذا النمط:

«بين الألحان العذبة التى يطلقها الشعب فى أهازيجه وأناشيده ، وبين الأنوار التى تتلألأ فى سماء الوادى فى موعد عيده، وبين الفرحة التى تغمر أبناءه جميعا من دلتاه إلى صعيده، تنبعث الحياة من جديد - كما انبعثت فى كل مرافق حياتنا فى ظل هذه الثورة المباركة، فى مجلتين كانتا منارتى تثقيف وعرفان ، ومنبرى بلاغة وبيان، وملتقى إشعاع فكرى عربى فى كل مكان».

لا تعليق على هذا الكلام إلا كلمات الملك عجيب بن الخصيب، عند صلاح عبدالصبور، بعد تحويرها لما يناسب المقام فأقول:

ما أضجر هذى القافية النونية
لن يسكت هذا الكاتب حتى يغنى حرف النون.

استكتبت المجلة عددا من كبار المفكرين على رأسهم العقاد الذى كتب سلسلة مقالات عن رجال


د.علي الراعي — يحيى حقى

عرفهم مثل مصطفى كامل ولطفى السيد ويعقوب صروف، وأمين الخولى الذى كتب عن التراث والمنهج (تعرض الخولى - فى أحد الأعداد - لنقد قاس من عبدالكريم العثمان الذى نقد - فى باب تحقيق التراث - تحقيق الخولى للجزء السابع عشر من كتاب «المغنى فى أصول الدين» للقاضى عبد الجبار)، وشكرى عياد الذى كتب مقالاته عن مفهوم التأصيل وعن النقد التفسيرى، وإدوار الخراط الذى كتب عن إبراهيم الكاتب وهموم العصر (المازنى) وعالم نجيب محفوظ وأندريه موروا وشولوخوف عند فوزه بجائزة نوبل فى الأدب، ومن المقالات المتميزة التى نشرتها المجلة: «إصلاح الأداة الحكومية» لفتحى رضوان، «مقدمة للشعر العربى» لأدونيس، «الصداقة والحب فى التراث النثرى العربى» و«اللا معقول فى أدبنا المعاصر» ليوسف الشارونى، «سطور من كراسة مترجم» لمحمد عبدالله الشفقى، «الحديقة الموحشة» لصلاح عبدالصبور حيث قدم نماذج مختارة من شعر المعرى مع تعليق قصير على نحو ما فعل طه حسين فى كتابه «صوت أبى العلاء».

ونشرت المجلة دراسات فى علم اللغة لأساتذة من طبقة محمد كامل حسين ومحمود فهمى حجازى، ودراسات فى الأدب العربى للعلامة محمود شاكر الذى كتب تحت عنوان «نمط صعب ونمط مخيف» سلسلة مقالات عن لامية تأبط شرا:

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

ودراسات لشوقى ضيف وحسين نصار ويوسف خليف، فضلا عن مقالات فى الأدب الغربى لأساتذة جامعيين، ودراسات أوربية قديمة عن التراث الإغريقى واللاتينى، وعنيت المجلة بالأدب العربى كما يبدو فى أعين الغربيين فنشرت مقالة للمستشرق چاك بيرك عن الأدب العربى المعاصر (من ترجمة عبدالصبور شاهين) ومقالة لدزموند ستيورات عن الأدب العربى وهل هو قابل للتصدير (من ترجمة يحيى حقى) ومقالة لتريڤور لى جاسيك عن ثلاثية نجيب محفوظ (من ترجمة أسما حليم).

وفيما يتعلق بالشعر، تاج الفنون القولية وخلاصتها المستقطرة، نشرت المجلة قصائد عمودية مثل «الوحدة الكبرى» لمحمود غنيم :

أيها العرب أرهفوا الآذانا
هل سمعتم كما سمعت الأذانا ؟

وشعرا عموديا مع تنويع القوافى وأطوال السطور لعبد الرحمن صدقى، وشعرا منثورا لذلك الشاعر المستشار مرهف الحس حسين عفيفى، منه مقطوعة «مناجاة» التى تبدأ بقوله:

أحبهما وقد مددتهما، أو وضعتهما ساقا على ساق

أحبهما فى وقوفك وفى مشيتك ، وعاريتين وفى الجورب الحرير
وكلما راقصتك فدّبنا، ووقعتا النغم الجميل.

ونشرت لشعراء عرب كالسياب والبياتى وبلند الحيدرى، وشعراء مصريين مخضرمين مثل حسن كامل الصيرفى، وشعراء دراعمة كحامد طاهر وأحمد درويش، ومن القصائد البارزة التى نشرتها: «السلام الذى أعرف» لمحمود حسن إسماعيل، «الملاح وحوريات البحر» لمحمد إبراهيم أبو سنة، «يوميات كهل صغير السن» لأمل دنقل.

وفى مجال القصة القصيرة نشرت أعمالا لمحمود البدوى، و«تحت الجامع» لإدوار الخراط (فى عدد فبراير ١٩٦٣) وهى أول قصة للخراط يعود بها إلى الساحة الأدبية منذ صدور مجموعته القصصية الأولى «حيطان عالية» فى ١٩٥٩، و«حمال الكراسى» ليوسف إدريس، و«أسمع المطر يتساقط فوق خالد عبدالحليم» لحليم بركات، و«الناس والحب» لأبو المعاطى أبو النجا، و«شلالات الكهف الداعر» لمحمد إبراهيم مبروك.

وخصصت المجلة ثلاثة أعداد كاملة لفن القصة القصيرة هى أعداد أغسطس ١٩٦٦، أغسطس ١٩٦٩، أغسطس ١٩٧٠، كان أول هذه الأعداد مخصصا للشباب أو طلائع القصة القصيرة، إلى جانب دراسات ليوسف الشارونى وعبدالله الشفقى وصبرى حافظ، وكانت كل قصة منشورة يعقبها تعليق نقدى: فقصة «الحديقة» لضياء الشرقاوى يعلق عليها محمد عبدالحليم عبدالله، و«مؤامرة» لحمدى أبو الشيخ يعلق عليها يوسف جوهر،

و«بناقص واحد» لمحمود دياب يعلق عليها عز الدين إسماعيل، وهكذا.. وفى ذيل العدد مسرحية لأديب الأقاليم محمد الخضرى عبد الحميد.

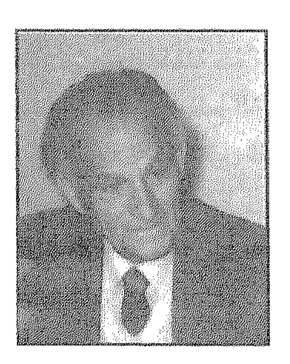
أما عدد أغسطس ١٩٦٩ فقد حمل قصة «جرح مفتوح» للخراط و«الليل الرحم» لمحمد روميش وغيرهما.

وضم عدد أغسطس ١٩٧٠ قصاصين من مصر والعراق وسوريا وفلسطين والسودان وتونس والجزائر والمغرب ، ومن محتوياته فصل من رواية «السفينة» لجبرا إبراهيم جبرا، و«ميخائيل والبجعة» لإداور الخراط، و«الأم والوحش» ليوسف الشارونى.

ونشرت «المجلة» بعض مسرحيات قصيرة لفتحى رضوان وغيره.

وعنيت «المجلة» بترجمة نماذج من الأدب الحديث، فقدمت - من الشعر - «مرثية مصارع ثيران» للوركا (من ترجمة عبد الرحمن بدوى) ومن القصة القصيرة: «غرام فى الصحراء» لبلزاك (ترجمة سامية أسعد) و«مس بريل» لكاثرين مانسفيلد (ترجمة فاطمة موسى محمود) و«إطلاق النار على فيل» (وهى أقرب إلى الصورة القصصية) لجورج أورديل (من ترجمة رمسيس عوض)، ومن المسرح : «أغنية الوداع» لتشكوف، «الشريط الأخير» لبكيت (من ترجمة أنور لوقا).

ومن المقالات النقدية التى قدمتها المجلة: «محاورة الشجرة» لڤاليرى (ترجمة أنور لوقا) «بول ڤرلين والانحلاليون» لجوركى (ترجمة فؤاد دوارة) «مختارات فى فهم الشعر ونقده» لإليوت (ترجمة صلاح عبدالصبور) «من مبادىء النقد» لرينيه ويليك (ترجمة غالى شكرى) ومقالات عن ستاينبك وفروست من ترجمة يحيى حقى، ومقالات لبيراندلو (ترجمها محمد إسماعيل محمد) وليونسكو (ترجمها صنع الله إبراهيم).


د. عبد القادر القط

دراسات متنوعة

وعنيت المجلة بالآداب الشرقية فقدمت دراسات عن الأدب التركى والباكستانى والهندى، وبالأدب الجزائرى المكتوب بالفرنسية فقدمت أعمالا لمولود فرعون وآسيا جبار، وترجم إدوار الخراط مقالة لمالك حداد عنوانها «الأصفار تدور فى حلقة مفرغة»، كما عنيت بالأدب الزنجى فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وخصصت إحدى افتتاحياتها لمحاضرة قيمة ألقاها سنجور عن الزنجية والعروبة بجامعة القاهرة فى ٢٦ فبراير ١٩٦٧ وذلك عند زيارته لمصر، كذلك نشرت المجلة مقالات عن آداب أوربية غير معروفة فى بلادنا كالأدب اليوغوسلافى والهولندى والتشيكى ، وعن أدب جواتيمالا وفنزويلا، وعن مسرح الكابوكى اليابانى ، وكتبت نبيلة إبراهيم عن ملحمة جلجامش البابلية.

وقدمت المجلة مقالات عن رواد الأدب العربى الحديث منذ مطلع القرن العشرين : عائشة التيمورية وميخائيل نعيمة وتوفيق الحكيم وبشر فارس وإسماعيل مظهر وفرح أنطون وغيرهم.

ولفتحى رضوان مقالة عن «المازنى» روى فيها كيف أن أحد أصدقاء المازنى من الرجال كتب له رسالة إعجاب بتوقيع معجبة تدعى فاخرة ، وانطلى الأمر على المازنى فبدأ يكاتب هذه الفتاة أو المرأة المزعومة وهى تكاتبه، وتطور الأمر - كما يحدث فى مثل هذه الأحوال، إلى تعلق وافتتان من جانبه، فراح يكتب إليها رسائل حارة يتضرع إليها فيها أن تقابله، ويشكو اضطرام أشواقه إليها وفتورها نحوه، وهى تعتذر بالتقاليد الاجتماعية والرقابة الأسرية إلى أن برح الخفاء، وانكشف الطعم الذى بلعه الأديب على حدة ذكائه وخبرته بالحياة ومعرفته بالأمور، ما أضعف الرجل - ولو كان أديبا عظيما - أمام غواية المرأة! حقا إن الأنثى الخالدة تجتذبنا، كما يقول «فاوست» جوته!

وكان باب المكتبة من أقيم أبواب المجلة إذ يحرره نقاد من طراز مندور وغنيمى هلال وعز الدين إسماعيل، بينما يحرر باب المكتبة الغربية فايز إسكندر وأنجيل بطرس وعزيز سليمان ورمسيس عوض وشبان أصبحوا الآن أساتذة ونجوما لامعين: محمد عنانى وسمير سرحان وعبد العزيز حمودة وفاروق عبد الوهاب ووديع كيرلس ، وذلك المترجم الموهوب الذى فقدناه فى ١٩٩٨: محمد على زيد، وكانت فاطمة موسى محمود تكتب جولة المجلات الإنجليزية والأمريكية، أما المجلات الفرنسية فيكتب عنها رمسيس يونان وسامية أسعد والسيد عطية أبو النجا وهيام أبو الحسين وأنور عبدالعزيز وزينب عبدالعزيز وفتحى العشرى، وكتب عبد الغفار مكاوى مرة جولة المجلات الألمانية ، والمجلات العربية كان يقدمها الصيرفى وعبدالله خيرت وسامى فريد وغالى شكرى.

ومن الأشياء التى كانت تنفخ الطاقة والحركة فى محركات «المجلة»، وتضفى عليها حياة وحيوية، تلك المساجلات الفكرية والنقدية رفيعة المستوى التى كانت تدور على صفحاتها ، فى المتن تارة، وفى باب «تعقيبات» تارة أخرى، ومن أمثلتها مساجلة زكى نجيب محمود (ومن ورائه يستخفى شبح العقاد) مع محمد كامل حسين حول كتاب «وحدة المعرفة» لهذا الأخير، ومساجلة محمد غنيمى هلال مع مصطفى السحرتى حول كتابه «النقد الأدبى من خلال تجاربى»، ومساجلة إبراهيم حمادة مع رشاد رشدى حول كتابه «نظرية الدراما من أرسطو إلى الآن»، ومساجلة أحمد كمال زكى مع ماهر حسن فهمى عن أدب السير والتراجم، ومن النقود العنيفة، وإن لم يعقبها ردود، نقد عبدالمعطى شعراوى لترجمة لويس عوض لنصوص النقد الأدبى عند اليونان، ونقد أحمد إبراهيم الشريف ترجمة زاخر غبريال لقصيدة كيتس «دعاء إلى كروان» وصواب عنوانها - إن أردنا الدقة - «أنشودة إلى عندليب».

أعداد خاصة مهمة

وأصدرت المجلة أعدادا خاصة عن «غاندى»، وعن قضايا اللغة العربية (يونيو ١٩٦٦)، وعن أحمد شوقى (ديسمبر ١٩٦٨) وعددا عن المسرح (مارس ١٩٦٦) تتصدره كلمة لتوفيق الحكيم ألقيت

فى يوم المسرح العالمى، ورسالة من آرثر ميلر، وندوة عن «لماذا لم يعرف الأدب العربى المسرح؟» شارك فيها طه حسين والحكيم والزيات وزكى طليمات وعبد الرحمن صدقى وباكثير مع دراسات فى التأليف المسرحى والإخراج، وثمة عدد خاص فى أغسطس ١٩٦٧ (عقب كارثة الخامس من يونيو) يمكن أن ندعوه «ضد أمريكا» - على نحو ما كتب ماركس «ضد دورنج» - وهو مجموعة مقالات ، لابد أنها صادرة بتوجيه سياسى، تحمل على مختلف جوانب الحياة الأمريكية وسياستها، وقد تزامن صدوره مع عدد آخر من مجلة «الكاتب» خصص أيضا للهجوم على الولايات المتحدة الأمريكية.

وأجرى نبيل فرج وفؤاد دوارة وغيرهما مقابلات أدبية هامة - تعد الآن وثائق نقدية - مع طه حسين ومندور ونجيب محفوظ ولويس عوض ومحمود أمين العالم والخراط، كما نشرت المجلة مقابلات مع سارتر (بترجمة أنور لوقا) ومورياك (بترجمة ذلك الناقد والمترجم الموهوب الذى انتزعه الموت من بين ظهرانينا فى عز وعده وألقه: وحيد النقاش) وبازولينى وروبرت لويل وإلسا مورانته زوجة موراڤيا أو إحدى زوجاته فهن - بتعبير أبى فراس - كثر.

واحتفت المجلة - بشجاعة محمودة - بالاتجاهات الطليعية التجريبية فكان مما نشرته قصص «مخلوقات براد الشاى المغلى» لمحمد حافظ رجب - صاحب صيحة «نحن جيل بلا أساتذة» - و«نزف صوت صمت نصف طائر» لمحمد إبراهيم مبروك، ومسرحية «محاضرة قيمة فى علم وظائف الأعضاء» لمعيد الكلاسيكيات الشاب، وقتها، بجامعة القاهرة يحيى عبدالله، وكانت تردف هذه المواد أحيانا بتعقيبات نقدية - لحقى وصبرى حافظ وغيرهما - تسعى إلى إلقاء الضوء عليها وتهيئة القارئ لاستقبالها، ونشرت مقطوعات نثرية - لم تسع إلى إلقاء الضوء عليها وتهيئة القارئ لاستقبالها، ونشرت مقطوعات نثرية - لم يدع صاحبها أنها شعر - لنعيم عطية تحت عنوان «العصافير» ومن أمثلتها هذه المقطوعة التى تحمل اسم «الأجنحة»:

عندما
ينهمر
المطر
تذوب أجنحة
الملائكة

ونشرت المجلة محاضرات ندوات عقدت بها، وشارك فيها أدباء ونقاد عرب ومصريون، حول عديد من الموضوعات : الموقف الحاضر فى القصة العربية، وضع الفنون الأدبية الراهن ومشكلاتها، حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث، تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية فى الجامعات، الموقف الحاضر فى النقد.

ومن أدب الرحلات كتب حسين مؤنس عن الأندلس، وعبد العزيز الأهوانى «مشاهدات فى الهند» ، ومصطفى الديوانى «من وحى كربلاء».

كذلك ضمت «المجلة» مقالات سياسية لكمال الدين رفعت ورفعت المحجوب وحسين ذو الفقار صبرى (صاحب الكتاب الفريد «يا نفس لا تراعى» عن كارثة يونيه ١٩٦٧) ومقالات فى الطب والفلك

وعلوم البحار والطبيعة واستكشاف الفضاء وعلم الأحياء، وفى الفلسفة إسلامية وغربية، ومقالات فى علم النفس لمصطفى سويف وأحمد فايق ، ودراسات فى الجغرافيا لجمال حمدان ومحمد السيد غلاب، وفى التاريخ المصرى القديم لأنور شكرى، ودراسات استشراقية، ومقالات فى الفولكلور.

وعنيت المجلة بالفنون الجميلة التى ترفد فن الأدب: فكتبت سمحة الخولى عن الموسيقى الغربية والشرقية ، وحسن فتحى عن فن العمارة، وهاشم النحاس وأحمد الحضرى عن السينما، ونعيم عطية وبدر الدين أبو غازى عن التصوير والنحت إلى جانب مقالات عن الفكاهة والكاريكاتير فى الفن المصرى القديم، وملف عن الخط العربى ماضيه وحاضره ومستقبله ، والمصور الفارسى بهزاد ، وكتب سعد أردش عن تجربته مع مسرح برخت، كما ظهرت مقالات عن مسرح العبث (هاجمه عبدالرحمن بدوى تحت عنوان «كارثة اللا معقول» بينما حاول غنيمى هلال أن يفهمه على نحو أكثر موضوعية) وأعلام المسرح المصرى كإبراهيم رمزى وعباس علام، ونشرت «المجلة» مقالات عن الرقص الأكاديمى (الباليه) ومقالة لفوزى العنتيل عن الرقص الشعائرى قديما وحديثا.

أدب الستينات

وقد سلف القول إن «المجلة» - بحكم لحظتها الزمنية - كانت هى التى قدمت أدب الستينات إلى الجمهور القارىء: فظهر على صفحاتها من الشعراء غير من ذكرت : فاروق شوشة وفتحى سعيد وأنس داود وكمال نشأت وعبدالمنعم عواد وبدر توفيق وملك عبدالعزيز ووفاء وجدى وحسن فتح الباب وعفيفى مطر ونجيب سرور ، وظهر من كتاب القصة عبدالحكيم قاسم وبهاء طاهر وإبراهيم أصلان ومحمد البساطى وحمدى الكنيسى وأحمد الشيخ ومجيد طوبيا، وظهر من النقاد صبرى حافظ وإبراهيم فتحى ممن والوا هذا الجيل الأدبى بالمتابعة والتقديم والتقويم.

وإلى جانب دراساتها الدسمة وأبحاثها المعمقة، لم تهمل المجلة جانب المتابعات فنشرت رسائل من لندن وباريس وروما وبيروت وبغداد، وتعريفات بالفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية فى شتى المجالات.

هل لى - إذ تدنو هذه المقالة من ختام - أن أقول بضع كلمات عن علاقتى بمجلة «المجلة»؟ لقد ظهرت أول مقالة لى فيها فى عدد سبتمبر ١٩٦٣ وكانت عرضا لكتاب إنجليزى عن إليوت، وأنا وقتها طالب بكلية الآداب، جامعة القاهرة ، فى التاسعة عشرة من العمر: ظهرت مقالتى جنبا إلى جنب مع مقالات فى نفس العدد للعقاد وأمين الخولى وعبدالرحمن بدوى وفتحى الشنيطى وغنيمى هلال وإبراهيم الإبيارى ومحمود على مكى وزكريا إبراهيم وحسن كامل الصيرفى، إنى أعد هذه المقالة ثانى شهادة ميلاد لى كاتبا، أما الأولى فكانت أول مقالة تنشر لى فى مجلة «الأدب» لسان حال الأمناء وشيخهم أمين الخولى، وقد ظهرت فى عدد يوليو ١٩٦١ وكنت أعرض فيها مجموعة قصصية لمحمود البدوى، كان الخولى وحقى يعرفان الرجال بالحق لا الحق بالرجال، فلا مجاملة ولا وساطة وإنما هو العمل الجيد يأخذ

سبيله إلى النشر دون ضجة، وفي عزة وكرامة، لقد نشر حقى أغلب المقالات التى قدمتها له ورفض أقلها، وكان مصيبا فى الحالتين وعندما كنت أزوره فى بيته بميدان روكسى بمصر الجديدة - حيث يستقبلنى كلبه فيدل، وقد كاد مرة ينشب أسنانه فى ساقى دون ذنب جنيته - كان يطلب إلىّ أن أقرأ له من «ملحق التايمز الأدبى» وهو يستمع ويسألنى أحيانا عن معانى بعض الكلمات كأنه لا يعرف (أخطأت مرة فقلت له: إن كلمة empiri-cal معناها إمبراطورى ، والصواب : تجريبى أو إمبيريقى كما يعربها البعض)، لا شك أنه كان يريد بهذه القراءة إراحة عينيه من ناحية، ولكنه كان يريدُ فى المحل الأول - هذا العزيز الماكر - أن يمتحن قدراتى فى الإنجليزية ، وقد كنت وقتها شابا يافعا، ليرى هل يمكنه الثقة بما أكتب لمجلته وأترجمه أم لا، وكم من أمور صغيرة تعلمتها منه وأنا أقرأ عليه مقالاتى! كتبت ذات مرة : «أجريت له عملية جراحية» فقال: «بل أجريت له جراحة»، وكنت أكتب «على الرغم من.. إلا أنه» فعلمنى أن أحذف «إلا» وأقول بدلا منها «بالرغم من أنه .. فإنه أو فقد»، وكتبت ذات مرة (وأنا أعرض كتابا لجروفر سميث عن شعر إليوت ومسرحياته) أن «أوبريت مقاطعة تقع فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية ، بين توسكانيا والمستنقعات شمالا وشرقا، ولاتيوم والأبروزى جنوبا وغربا، شاملة مقاطعتى بيروجيا وتيرنى» فنهرنى بقوله: «هو درس جغرافيا؟ كفاية تقول مقاطعة فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية»، فحذفتها ووجنتاى تتضرجان خجلا، على أنى في مناسبة أخرى رفضت الأخذ باعتراضه - لا أذكر الآن فيم اختلفنا - فأذعن لى، لا أدرى أعن اقتناع أم عن ضجر وضن بوقته - وهو ثمين - أن يضيع فى لجاج وجدل.

كلمة هادئة

فى ١٤ مايو ١٩٦٥ نشر الدكتور لويس عوض فى أهرام الجمعة مقالة عنوانها «كلمة هادئة عن مجلات وزارة الثقافة» ذهب فيها - من واقع الاحصائيات والأرقام - إلى أن الاقبال على هذه المجلات ضعيف، وأنها فشلت فى اجتذاب القراء إليها، وأن الانجازات التى حققتها لا تتناسب بحال من الأحوال مع إنفاق الوزارة عليها، لكنه استثنى «المجلة» بقوله : «إن مجلة «المجلة» هى الوحيدة بين مجلات الثقافة العامة الصادرة من وزارة الثقافة التى تصل إلى الجمهور الذى أنشئت لتخاطبه، ورغم أن هذا الجمهور محدود العدد ، فهو الجمهور الطبيعى لمجلة شهرية جعلت رسالتها مخاطبة صفوة المثقفين بالثقافة الموضوعية والبحوث الأكاديمية وشبه الأكاديمية، وقد ثبت جمهورها تقريبا حول ٣٠٠٠ مشترٍ نصفهم فى مصر ونصفهم فى الخارج» (لويس عوض الثورة والأدب، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٢٣٨)، هكذا كانت «المجلة» على محدودية انتشارها والضآلة النسبية لأرقام توزيعها ، وجها مشرقا للفكر والإبداع فى العقدين الأولين من عمر ثورة يوليه.

مازلنا حتى اليوم نعيش منجزات «المجلة» ونرتد إليها بنوع من النوسطالجيا لا يمحوه كر العشية والبكور. ■

الهلال

وأوراق يوليو

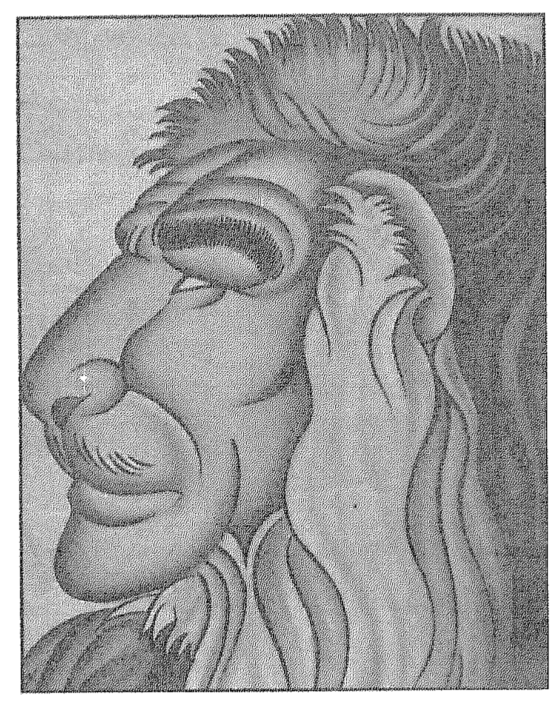
بقلم : مصطفى نبيل

هل تعتبر مجلة الهلال بحق سجل الحياة الاجتماعية، ومرآة الحياة الثقافية، تعكس بصدق الأجواء في كل مرحلة من تطورنا..

وإذا كانت الهلال تعتز بتاريخها، فذلك لأنها تعكس التطورات السياسية التي تمر بها البلاد، وهي حافظة للذاكرة الوطنية. وكتب علي صفحات الهلال من قادة يوليو كل من محمد نجيب وجمال عبدالناصر وأنور السادات وعبداللطيف البغدادي وحسن إبراهيم وثروت عكاشة، يقدمون الثورة ويشرحون مبرراتها وغاياتها.

وتباينت ردود فعل كتاب الهلال إزاء ما جري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومعظم الكتاب أعلنوا تأييدهم لها، وأنها أحد أحلامهم، وجاء التحفظ عليها في مقالين أحدهما للدكتور أحمد زكي والآخر لفكري أباظة.

ولنقلب معا بعض صفحات الهلال.




أسد الثورة (محمد نجيب) ونمر الثورة (جمال عبد الناصر)
كما رسمهما فنان الهلال سانتي ١٩٥٣

احتفت مجلة الهلال بقيام ثورة يوليو، وهو ما فعلته معظم الصحف المصرية، سواء تأييداً حقيقياً أو تقية فى مواجهة الحكام الجدد.

ولا تجد فى العدد الأول - عدد أغسطس- أية إشارة إلى الحدث الكبير، فأغسطس أحد أشهر الصيف، شهر الاسترخاء والإجازات، وتخصص الهلال معظم صفحاتها عن الصيف، ويكتب الدكتور أحمد أمين «الدنيا حر»، ويكتب فريد أبوحديد «ليالى الصيف»، ويكتب العقاد «ماذا نقرأ فى الصيف؟ ».

وأفاق المجتمع كله على الحدث الكبير، وعكست صفحات الهلال موقف الكتاب والمثقفين من الثورة، كما أفردت صفحاتها لقادة الثورة الذين لم يكن معروفاً منهم سوى اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة، والذى كتب على صفحاتها رسالة إلى الأجيال الشابة، جاء فيها.. «لا أحسب شباب مصر إلا فى مقدمة شباب العالم جرأة ويقظة.. فعلى سواعده نهض

وعينا القومى، وبتضحياته دوى صوت مصر فى الخافقين، وعلم من لم يعلم أن مصر لا يمكن أن تموت وبها فتية آمنوا بربهم وازدادوا إيمانا بأن الحق لا يؤخذ بالضعف والاستكانة وإنما يؤخذ غلاباً .. «فكتب الخير لهذا الوطن على يدى الشباب، شباب الجيش، فأنقذه من الشر واقتلع جذور الفساد».

وحققت الهلال بذلك إنجازاً كبيراً، فهى المجلة الثقافية التى اختارها الرئيس الجديد منبراً له، يخاطب من خلالها الشباب والرأى العام.

ومن ناحية أخرى أبدى الكثير من الكتاب وجهات نظرهم فيما يجرى، وكتب المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى مقالاً فى هلال سبتمبر يرى فيه أن ثورة يوليو هى استمرار طبيعى للثورة العرابية، وجاء فيه.. «شهدت مصر فى خلال نيف وسبعين سنة «انقلابين» قام بهما الجيش، وتمثلت فيهما الوطنية الحربية، أولهما سنة ١٨٨١ على يد أحمد عرابى، والثانى سنة ١٩٥٢ على يد محمد نجيب.. وكثيراً من أوجه الشبه تجمع بينهما.. فالثورة العرابية كانت صدى لرغبات الشعب وسخطه على نظام الحكم الذى كانت تعانيه البلاد، وقوامه الاستبداد والفساد والمظالم، والحركة التى قام بها الجيش سنة ١٩٥٢ كانت أيضاً صدى لشعور المواطنين فى تبرمهم بفساد الحكم وتدخل غير المسئولين فيه، وتضحية مصالح الشعب فى سبيل أهواء المحظوظين.

فالثورتان قامتا لأغراض وطنية متماثلة، وكلتاهما تعبران عن مشاعر الأمة وآلامها وآمالها، وهما وليدتا إرادة الشعب.. فلا غرو أن قوبلتا من طبقات الشعب بالتأييد والمؤازرة، والغبطة والابتهاج، ولم يصدر الجيش فى كلتيهما عن نزعات شخصية أو مطامع فردية، بل كان ترجمانا لآمال الشعب مدافعاً عن حقوقه.. وكان الجيش فيهما وكيلا عن الشعب.. فلا غرابة فالجيش من الشعب وللشعب».

وهكذا وضع شيخ المؤرخين رأيه فيما يجرى ولم يمض سوى شهر واحد.

هؤلاء الطغاة

ويكتب فريد أبو حديد فى ذات العدد مقالاً يلقى خلاله الضوء على ما جرى بعنوان.. «هؤلا الطغاة.. لماذا أسقطوا عن العرش» يروى خلاله مأساة حكم فاروق، الذى تولى الحكم، وكان شابا وسيما، رأى الناس صورته طفلا وصبيا ثم شابا.. وكان يخيل إلى كل منهم أنه ابنه هو، كانوا يحسبون أن ميلاده إبان الثورة المصرية فى عام ١٩١٩، ونشأته فى أعقاب الثورة تجعله يدرك



تحية أقطاب الشرق للهلال في عيده الستيني

يتقدم الهلال بجزيل الشكر للرئيس اللواء محمد نجيب وحضرات ممثلي الدول العربية الذين تفضلوا بهذه الكلمات تحية للهلال في عيده الستيني

كلمة الرئيس اللواء محمد نجيب

ستون عاما في خدمة الصحافة - ستون عاما في خدمة الأدب - ستون عاما في خدمة وادي النيل.

ليس بعد هذا فخر يداني فخر أسرة دار الهلال ولا شرف يداني شرف صحفها الرشيدة التي تهدف الى خدمة الثقافة والعلم والأدب بأحدث الاساليب ولن ينسى أحد جهادها المجيد للنهضة الصحفية في البلاد ومساهمتها في حركة التحرير. وللهلال الغراء مكانتها المرموقة في بلاد العروبة جميعا فلله در دار الهلال فأهنئها والقائمين عليها بهذا العيد الستيني السعيد وهو عيد ذهبي في تاريخ الصحافة والأدب.

محمد نجيب لواء أ.ح.

٢١/١٠/٥٢

الحقائق التى غابت... ولما تزوج أول مرة قام الشعب يحيى عرشه بابتهاج منقطع النظير.. وكل فرد يحسب أنه عرس ولده.. وبدلاً من أن يكون فاروق وليد الثورة وابن الشعب.. انطلق يعبث فى حياته كما يفعل الولد المدلل الذى لم يعرف فى حياته حدوداً، ولم يعرف فى ضميره قيوداً، وانعكس مسلكه العابث على الشعب، فإذا موجة هائلة من العبث والانحلال الخلقى تطغى على الناس رجالاً ونساءً.. وها هى أبناء الخطايا والبلايا تملأ الصحف فى كل صباح وكل مساء.. ولم يكن قصر النظر مقصوراً على الملك وحده بل أصاب السادة والقادة.. حتى كاد يعم الجميع، إلى حد انقلبت فيه الأوضاع وانعكست الأيام، فصارت الأذناب رؤوسا، والرؤوس أذناباً.. وأصبحت الرذائل فضائل ، والمخازى مفاخر، فإذا البلاد ميدان عفن لصراع حقير تسابق فيه أصحاب الأطماع إلى العبودية، وتنافسوا على وضع الأغلال فى أعناقهم حرصاً على القربى من صاحب العرش، وطبعاً من أجل السلطان والمشاركة فى الطغيان.. وبدأت الكارثة.. وينهى فريد أبو حديد حديثه قائلا.. «عندما ذهب جيش مصر الباسل وراء قائده النبيل محمد نجيب إلى سراى رأس التين، لكى ينفذ مشيئة الأمة فى إزالة الطغيان.. كانت قلوب أهل مصر جميعاً تحتشد وراء الجيش».

تحقيق النهضة

وتمضى «*الهلال*» تنقل التغيرات الضخمة التى تحدث، وينشر «هلال نوفمبر» حديثاً أدلى به الرئيس محمد نجيب حول ما ينصح به الطلبة، وعن مثله الأعلى فى الحياة، وكيف يرى طريق تحقيق النهضة، ويتحدث فى ذات العدد فتحى رضوان، الذى خرج من السجن إلى مقعد الوزارة ويدعو الشباب إلى الاهتمام بالسياسة..

وما يدهشك ما يطالب به الكاتب الكبير «عباس محمود العقاد» فى أول تعليق له، ويطالب الدولة بالتطهير فى عالم الكتابة والكتاب، وهو الكاتب الليبرالى، مما يعكس أجواء هذه الفترة، وبعد أن رفعت الثورة شعار التطهير. ويؤكد على مطلبه بقوله.. «نعم تطهير لابد منه فى عالم الكتابة ولعله أوجب وأنفع من أى تطهير، بل لعل عالم الكتابة أحوج إلى التطهير من كل بيئة نودى إلى اليوم بوجوب التطهير فيها.» ويضيف «ويحزننا أن نقول إن الكتابة فى جملتها لم تكن قط قامعة للطغيان فى عهد من العهود، وإنها كثيراً ما كانت عونا للطغيان وسترا له من يقظان العيون والأذهان، ويجب أن تتطهر.. ويشمل التطهير كتاب الصحف

من اللواء محمد نجيب
الى مجلة الهلال

مجلة الهلال دعامة الأدب

...

٥/٨/١٩٥٢

القائد العام

تحية لمجلة الهلال من اللواء محمد نجيب سنة ١٩٥٢

كما يشمل كتابة المصنفات والرسائل وكل كتابة منشورة على العموم.. وعلى الحكومة أن تراجع أضابير الدواوين وتستخرج منها أسماء أصحاب «الرواتب السرية» فى عهد كل وزارة غابرة - وهو ما وقع بالفعل بعد ذلك - وأن نحاسب الوزراء الذين أخذوا من خزانة الدولة مالا باسم المصاريف السرية، وكيف أنفقوه، وعلى من وزعوه، وكيف استجازوا أن يستعينوا بمال الأمة على تضليل الأمة وحملها على قبول الرأى المأجور والثناء الزائف والفكرة التى يكتبها الكاتب غير مؤمن بها ولا مخلص فى الدفاع عنها». (انتهى)

أما الكاتبة أمينة السعيد، فكتبت فى ذات العدد تقول.. «الحمد لله»، نشكر العهد الجديد لإلغاء الرتب والألقاب، بما يجعل المواطنين جميعا سواء، لا فضل لمصرى منهم على مصرى، إلا بقدر ما يؤدى لبلاده من خدمات.

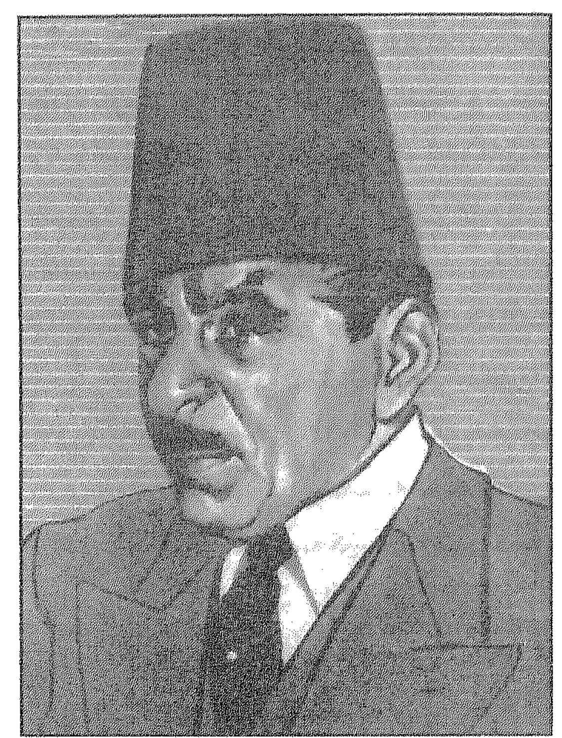
الجيش وقائده

ويعود العقاد ويكتب في العدد التالي لهلال ديسمبر مقالا تحت عنوان «الجيش وقائده» يشيد فيه بنجيب.. «من التوقعات الإلهية أن يدخر القدر لحركة الجيش رجلاً من أصلح الناس، أن يكون قدوة لمن يحاربون الإقطاع ويعتصمون بنزاهة اليد والضمير من آفات الإقطاع وفتن الإقطاع..» ويقدم تصوره بقوله.. «لا نعتقد أن فاروق يضع لنفسه سياسة يحمي بها عرشه ويوطد عليها دعائم ملكه، ولكنني أرجح أنه تلقى من أبيه وصية مكتوبة أو محنوطة تلخص له قواعد السياسة التي يعتمد عليها لحماية العرش وتوطيد دعائم الملك، ومنها الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الأزهر.. فليس أنفع للعروش من ولاء القوة والعقيدة.. وطالما كررت القول.. إذا خلع فاروق فلن يتم خلعه بمعزل عن الجيش أو الأزهر..» ويضيف.. « فلما تكشفت حرب فلسطين عن فضائح السلاح لم يبق في الجيش المصري ضابط، ولا جندي يضمر الولاء للملك المجرم الذي بلغت به الضعة، أن يتجر بأرواح جنده وهم في ساحة القتال.. وعندما جرى ذكر الكوارث التي تتعاقب على الأمة في مجلس يضم أكثر من عشرين مصرياً بين أديب وصحفي وأستاذ وطالب، قال قائل: وما العمل..؟! قلت: إنها الثورة لا محيص لنا منها، وليكن ما يكون.. والحمد لله جاءت الثورة ولم يمض شهران، وجاءت سليمة لم يسفك فيها دم، ولم يضطرب فيها حبل الأمور..»، ويختم رؤيته بالقول..« لم يكن كافيا لتمام العمل التاريخي الذي لا يتكرر كل يوم أو كل جيل أن يزول فاروق ويبقى بعده ألف فاروق أو أكثر من ألف فاروق فليست نهاية فاروق هي نهاية الحركة، ولكنها فاتحة عهد لابد أن يستقر على أساس وطيد..».

وتتوالى الأوراق والكلمات، وتصل إلى بداية عام ١٩٥٣، ويزيد الاهتمام بالحكام الجدد، من هم..؟ وكيف الوصول إليهم..؟!

ويكتب الرئيس محمد نجيب تحية للهلال تنشر بخطه، ويكتب مقالا مهما حول مستقبل الجيش المصري في ظل التحديات التي تواجهه.

ويسجل المؤرخ عبدالرحمن الرافعي.. «استرد الشعب سلطته، واستقبلت البلاد هذه «الوثبة» المباركة بأعظم مظاهر التأييد والغبطة والابتهاج وكان الجيش فيها معبرا عن أحاسيس الشعب ومشاعره.. وكان هذا هو أول انقلاب في تاريخ أسرة محمد علي منذ مائة وخمسين عاماً تنازل فيه الملك عن العرش نزولا على إرادة الشعب والجيش، واستفتحت البلاد عهداً جديداً من الإصلاح والتطهير والحرية والعزة والكرامة،




على ماهر و محمد نجيب (رجلا التطهير) بريشة الفنان كنعان

وازدادت مكانتها فى العالم رفعة واحتراماً.

ناصر في الهلال

ويكتب الزعيم الفعلى للثورة جمال عبدالناصر فى هلال مارس ٥٣ مقالاً بذات العنوان الذى كتبه الرئيس محمد نجيب فى عدد يناير وهو «شعب وجيش» يفسر خلاله الدوافع التى اضطرت الجيش للقيام بالثورة.. جاء فيه.. «كانت الفرقة تدب فى مصر فى العهد الماضى، وتسرى فى أوصالها روح المنازعات، وكان الانتهازيون يؤثرون مصالحهم على مصالح الوطن، ويتخذون من كل غاية وسيلة لتحقيق مآربهم حتى تعارضت مع مصلحة الوطن العليا.

وكانت مصر تدفع من دماء شبيبتها الزكية التى أريقت فى ثوراتها المختلفة.. وفى سبيل كيانها واستقلالها ليغترف من منهل النفعية أولئك الرجال المقنعون الذين يتصدرون محافلها، ويتكلمون باسمها، ويرتدون مسوح الوطنية، وهم

سماسرة لا يهمهم إلا الربح، وهم تجار لا يرضيهم غير النفع، وقادة يعملون لحسابهم قبل أن يعملوا لحساب الوطن الذى نكب بهم!

كانت الثورة تعتمل فى صدور الجيش، كان الفساد يستشرى فى كل مكان، وكانت ريح الرشوة تحرق الأخضر واليابس، وكانت الفضائل آخر ما يظهر فى القصور، وكانت مصر تتطلع إلى أولئك الجناة، وهى لا تجرؤ على الشكوى.. وعندما كانت مظاهر الكبت يتسع نطاقها، وتضيق حلقاتها، كانت مراجل الثورة تفيض بالقوة وتنبض بالحياة، شأنها فى ذلك شأن كل قوة طبيعية تعترضها قوة غير طبيعية.

ولما اندفعت الثورة فى محيطها الضيق إلى أفقها الكبير، كانت الأيدى تهتز مع القلوب، وكان الإخلاص ينفعل مع الخير، فإذا الثورة تجتاح كل شئ، ولا تبقى من عناصر الفساد على شئ، وإذا بكلمة مصر هى العليا.

وإذا كان لكل ثورة هدف، فهدف الثورة هو الإصلاح الشامل لكل مرفق من مرافق البلاد، وتوفير كل وسائل الاستقرار لهذا الشعب الذى دفع من عصارة قلبه ثمنا لأمنه وسلامه، بعد أن حجبت عنه الحقائق.. وضاعت المثل العليا فى ظلام اليأس.

وكان وعداً علينا.. أن نأخذ بيد الفقير والجائع، وأن نحمى التاجر والصانع، وأن نوفر لكل مواطن حياة كريمة، ليس فيها نفاق ولا التواء، ولا كذب ولارياء.. حياة جديرة بمصريتنا العريقة قبل أن يضيع الرعاة البائدون كرامة مصر.. وقد وجد الاستعمار أكثر من ثغرة نفذ منها، ووطد سلطانه، وشيد بنيانه، وظن أن مصر لن تقوم لها قائمة. وحسب المستعمر ما رأى،.. على عشر مصر ملك كان عبثه ومجونه مضرب الأمثال.. ملك ينظر إلى شعبه نظرة الجلاد إلى ضحيته.. ملك تسيره عصابة من المرتزقة توجهه كيف شاءت وتسخره كيف شاءت دون أن يهمها من الأمر إلا الكسب الحرام.. وكان فى محيط مصر أحزاب جنت على الأخلاق، وغرست فى نفوس الناس فيضا من النفاق قوض الدعائم وبدد الفضائل، وعلم الشباب الزلفى..

وقد برهنت النهضة الجديدة أن عهد الفساد قد ولى، وأن روح الفرقة لا وجود لها فى مصر الناهضة بعد أن غدت مصر شعبا واحداً وجيشا وحداً.. وليس فى الدنيا قوة تعادل قوة الشعب مع الجيش.

ولعل منطق الأحداث يوضح أننا لن نقبل بعد اليوم مساومة فى حقوقنا لأننا أصحاب حق فى مطالبنا، وأن «حركتنا» «لا تشوبها شوائب الحزبية أو يفت عضدها أنها لصالح شخص بذاته أو

جماعة بذاتها، وإنما هى حركة أمة وجيش اتفقا على النضال حتى الفناء، ولن تقف أمامها قوة بلغت ما بلغت من الجبروت.

ولن نمد أيدينا إلى أحد قبل أن نحصل على حقنا، فإذا حصلنا على هذا الحق كاملاً غير منقوص، فلا مانع لدينا أن نصادقه صداقة الند للند، كأمة تتعاون مع دول العالم فى تقرير مصير الشعوب، وزوال آثار الاستعمار البغيض فى وجه البسيطة». وختم عبدالناصر مقاله بقوله.. «إن مصر راغبة فى السلام، وفى صداقة الجميع، وهى تسعى إلى هذا جاهدة ولكنها تؤمن اليوم – فى عهدها الجديد – أن بقاء جندى أجنبى واحد فى أراضيها عمل لا يتفق مع العدالة. بل هو وصمة عار تتفانى فى شريعة الحرية ومواثيق الأمم المتحدة».

ويكتب فى ذات العدد محمد نجيب عن جمال عبدالناصر، وذلك قبل صراع السلطة الذى نشب بينهما فى مارس ٥٤، ويقول.. «عرفت فيه صفاء النفس وخبرته، فلمست فيه ما وراء الحس.. وأدركت فيه من الخصائص ما لم يتوافر إلا فى النفوس الكبار.. هو رجل عسكرى بقامته الحديدة، وقوامه الرياضى، وهو شجاع إلى أبعد حدود الشجاعة، وصريح ما وسعته الصراحة، ومثالى وفدائى إذا تطلب الوطن بذلاً وفداء، يفنى نفسه فى الجماعة، ويحتجب دائماً وراء الظلال، يعمل فى صمت، ويوجه فى إناة وصبر، ولا يذكر نفسه إذا ذكر الناس أنفسهم، ولا يتطلع إلى شئ إلا الخير العام والصالح العام.

فهو يرضى بكل شئ إلا أن يرى بلاده تهوى بها عناصر الفساد، وتسئ إليها عصابات السوء، عندئذ ينقلب الإنسان الحليم الوديع هائجاً لا يتقهقر ولا يضعف...

وقد تعلم عبدالناصر فى مدرسة الوطنية، تعلم أن حق الشعب لن يضيع مهما طال عليه الأمد، وأن ليل الظلم قصير، وإن طال، كما تعلم أن مصير الطغاة إلى زوال.

ولا يهدأ له بال فى نهضة الإصلاح، فهو أبداً يتطلع إلى بعيد، ولا يرضى لنفسه حياة غير حياة الكفاح، فكيف يرضى حياة الهدوء والاستقرار.

واليوم.. تشيد النمور المصرية البناء الذى تهدم، وهو بناء جديد، فيه كل المجد التليد، وليس فى حياة عبدالناصر وقت فراغ. فهو أبداً مشغول بالواجبات الوطنية الجسام حتى ألقى أعباءها عليه العهد الجديد. من أجل ذلك يواصل السعى ليل نهار، حتى نصل بنهضتنا إلى غاية الاستقرار..

فهو رجل لا يرضى بأنصاف الحلول، ويأبى إلا أن يظفر بحقه الكامل إذا طلب إليه أن يستخلص حقا من الحقوق أو يعالج مشكلة من المشاكل..

وهو نسيج وحده في تفكيره، لا يرتجل أبداً، وإنما يدرس كل شيء، ويقدر كل احتمال، وله من اختياره وإدراكه لدقائق الحياة ما يجعله يحرص على ألا يضع قدمه إلا إذا قدر موضعاً لخطواته، ومن أجل ذلك احترمه من يعرفه، واشتاق إلى معرفته من لا يعرفه.

وظل على تواضعه وإنكاره لذاته الذى عرف عنه قبل أن ينبثق فجر الحركة المباركة، التى أنقذت البلاد من الطغيان، وارتفعت بكرامتها من الحضيض، وطهرت الحكم من الفوضى والفساد.».

هذا ما قاله نجيب عن عبدالناصر قبل سنة واحدة من الصراع الذى وقع بينهما.

عيد الثورة

وفى أول عيد للثورة كتب الرئيس محمد نجيب افتتاحية الهلال، وكتب أنور السادات مقالاً حول الصداقة المتينة التى تجمع بين أعضاء مجلس قيادة الثورة.

أما أولئك الذين ملكوا شجاعة إبداء رأى مختلف، وسجلوا بجسارة تحفظاتهم على ما يجرى، فهما د.أحمد زكى العالم والوزير السابق، وفكرى باشا أباظة العضو الدائم فى البرلمان المصرى.

يتساءل د.أحمد زكى فى هلال يوليو ٥٣.. لماذا يتأخر أهل الفكر عن مناصرة الثورة..؟!، ويجيب.. أهل الفكر أهل معرفة أولاً، وأهل علم، يقضون فى الأمور بناء على علم سديد وعلى معرفة أصيلة، وهم أقل من غيرهم تأثرا بحال طارئة، ولا تستهويهم ظواهر الأمور وزخارف الأشياء...، وأهل الفكر هؤلاء، كانوا ومازالوا أقرب الناس للثورة فهم طلاب تغيير متصل دائماً، إنهم طلاب ثورة توزع نارها على السنين، فنارها على السلم، وعلى التدرج خابية.. وأنت حيثما نظرت فى ثورة وجدت وراءها نفراً من أهل الفكر هم خالقوها، وهم صانعوها.

ويؤكد.. «إن ثورة مصر، ككل ثورة، خلقها أهل الفكر فى الأمة، وبدأوا فى خلقها قبل أن تولد ببعيد، خلقها فى مصر أهل الفكر فى القرن التاسع عشر، وخلقها أهل الفكر فى هذا القرن الحاضر، هذا القرن العشرين وأكثرهم قد ذهب.. فأهل الفكر ناصروا الثورة، وفعلوا أكثر من مناصرتها، إنهم خلقوها، ونضج الثمر فسقط بنقره.

....

والاستقصاء يقول إن من عادة أهل الفكر فى الثورات أن يتخلفوا، اطلعت منها فى التاريخ على ثلاث:

– اختلاف فى المزاج وإن اتحدت الغاية. ذلك أن أهل الفكر ينظرون حينما ينظرون متجردين.

فالنظر المجرد هو وسيلتهم، وهو غايتهم.

والثورة لا تعرف إلا الجامد المجمد. وأهل الفكر ينظرون فى المبادئ والأصول، وينظرون فى العموم، والثورة يهمها ما ينشأ عن الأصول من فروع وعن العموم من خصوص. وأهل الفكر فى مزاجهم الفكرى الأناة، والثورة تطلب الثمرة العاجلة.

أما السبب الثانى فاختلاف فى الجو، إن جو الفكر صفاء، وعادته الانطلاق، ومن الإرهاق مطالبة الثورة بصفاء فى حين نارها تندلع وتخرج إلى الجو دخانها، وتخرجه كثيفا.

أما السبب الثالث، فإننى عرفت فى الثورات العالمية، فقدان الثقة بين موقديها والأحياء من حاطبيها، والثقة تفتقد فى قلوب الموقدين، فتدخلها من الحاطبين الخشية، وتدخل الريبة.

الباشا ضد الحزب الواحد..!

أما فكرى أباظة، فكتب فى هلال يوليو ٥٣ يقول.. «لم أكن من أنصار تحديد الملكية على وضعه المعروف، واعتبرناه طفرة، أو اعتبرناه جرعة دواء، كميتها أكثر من اللازم بكثير، وكنا نفضل الضريبة التصاعدية ممزوجة بتحديد الملكية على آجال أطول، ولتتفادى الثورة التحول الفجائى الخطر الشأن.. ثم يقول فى موضع آخر من المقال.. عندما صدر قانون الأحزاب عارضناه بشدة، ورجحنا أنه كان قانوناً مؤقتا لأن أحكامه كانت عجيبة الأطوار.. ألغيت الأحزاب وصودرت ممتلكاتها، وقامت مرحلة انتقال ولى الجيش أمرها.. فالثورة لابد معلنة أن عملها قد إنتهى، وأن الأمانة التى فى يدها يجب أن ترد للشعب وممثليه، وأن أوان الحكم العادى السياسى قد عاد» ثم يقول.. «لم أكن من أنصار الحزب الواحد، ولئن كان الجيش قد نجح فى أن يكون مثاليا فليس معنى هذا أنه قد نجح فى أن يجعل سائر الناس مثاليين، إذا كان القصد من هيئة التحرير أن تكون أداة حزبية سياسية فإننى أشك فى أنها تحقق هذا الهدف على أساس سليم». وقد كشفت الأيام صحة رأيه فى مسألة الحزب الواحد.

وتدور الأيام وتمضى الأحداث وتظل مجلة الهلال سجلاً أمينا للتاريخ، تحافظ على ذاكرة الأمة، وتمثل وعاء لحكمة الوطن المتراكمة.

وكم من الحياة جرت وتغيرت وتجددت. واكتفينا بتسجيل البداية، وليست البدايات دائماً مثل النهايات، ولو توغلنا أكثر لاحتجنا لكتاب لامقال. ■

ثورة يوليو .. ومشروع

النهضة الفنية

ماذا ضاع منه ... وماذا بقى ؟!

بقلم : عز الدين نجيب

هل كان لنظام ثورة يوليو ٥٢ مشروع ثقافى متكامل تنضوى تحته مجالات الإبداع المختلفة، ومنها الفنون التشكيلية ؟

للإجابة : ينبغى التمييز بين عدة مراحل زمنية فى تاريخ هذا النظام: مرحلة أوائل الستينيات، ثم مرحلة ٦٤ - ٦٦، ثم مرحلة ٦٦ -و٦٧، وأخيرا مرحلة ٦٧ - ٦٩ .. ففى الأولى كان المشروع يقتصر على توجيهات ثقافية عامة تخدم التوجهات السياسية المخلوعة يمينا أو يسارا، وقد نجح د.ثروت عكاشة - مهندس السياسة الثقافية لثورة يوليو - فى فترة وزارته الأولى أوائل الستينيات، فى ترجمة ذلك التوجه من خلال وضع حزمة من الأطر التنظيمية للعمل الثقافي، جمعت المثقفين والمبدعين تحت مظلة الدولة، فى مؤسسات وأجهزة نوعية لكل نشاط مهنى، مثل المسرح والسينما والفنون التشكيلية والفنون الشعبية، والمعاهد الفنية والمجلات والنشر وقصور الثقافة، وعبر هذه المؤسسات والأجهزة الرسمية انتقلت الدولة من دور الراعى والمرشد والمشجع - الذى لعبته وزارة الإرشاد القومى خلال السنوات الأولى للثورة وكان وزيرها فتحى رضوان - إلى دور الممول والمدير والمنفذ للأعمال الفنية والفكرية والتنظمية فى كل مجال.

هلال - ربيع ثانى ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م

المرحلة الأولى

● كانت تلك هى الفترة التى تم خلالها تأسيس الهيئات العامة المختصة بإنتاج أعمال المسرح والسينما، وإنشاء معاهد أكاديمية الفنون وفرقها الفنية المختلفة، وإقامة عدة متاحف وقاعات عرض، وإصدار كتب ومطبوعات للفنون التشكيلية

● وكانت هى الفترة التى شهدت حشد أكبر عدد من الفنانين والمسرحيين والسينمائيين والموسيقيين والروائيين والشعراء والنقاد والباحثين لمعايشة مشروع تهجير أهالى النوبة وبناء السد العالى، من خلال رحلة نيلية استغرقت شهرا كاملا توحدوا خلالها مع هذا المشروع العملاق بكل ما يمثله من انطلاق نحو النهضة القومية الشاملة، وراحوا يبحثون - عبر هذه التجربة - عن سمات جمالية جديدة فى مجالات الإبداع المختلفة، لا تزال تجلياتها مشعة فى تاريخ فنوننا فى النصف الأخير من القرن العشرين بسمات الهوية والحداثة معا، كانت تلك درة الإبداع المصرى الجماعى فى القرن العشرين، التى يمكن مقارنتها ببعثة العلماء والفنانين الفرنسيين إلى مصر التى صحبت حملة نابليون العسكرية عام ١٧٩٧، وقدموا بفضلها كتباهم الأشهر «وصف مصر» .. ومن الفنانين الذين تألقت مواهبهم فى تلك التجربة: حسين بيكار، صلاح طاهر، تحية حليم، سيف وأدهم وانلى، عفت ناجى، سعد الخادم، عبدالغنى أبو العينين، عبدالسلام الشريف .. وغيرهم كثيرون.

● كما كانت تلك هى الفترة التى شهدت ميلاد نظام التفرغ للفن والأدب، لقد أسست الدولة بهذا النظام واحدا من أهم مشروعات الرعاية الحكومية للإبداع فى العالم، خاصة وقد صاحبها تخصيص عدة بيوت أثرية إسلامية كبيوت إبداع لهؤلاء المتفرغين، مثل وكالة الغورى بحى الأزهر، وبيت السنارى بحى السيدة زينب، وبيت جمال الدين الذهبى بحى الغورية، ولحق بها فيما بعد (١٩٦٨) قصر المانسترلى بحى الروضة، وقصر المسافر خانة بحى الجمالية، وسبيل أم عباس بحى الخليفة، وكان من بين الفنانين التشكيليين

الفلاح والأرض - جمال السجينى

الذين حصلوا على منح التفرغ أو المراسم في تلك البيوت، أو حصلوا على المنحتين معا : حامد عويس، محمود موسى، أنور عبدالمولى، آدم حنين، جمال السجينى. عبدالبديع عبدالحى، محيى الدين طاهر، سيف وأدهم وانلى، تحية حليم، إنجى أفلاطون، جاذبية سرى، كمال خليفة، راتب صديق، مصطفى أحمد، خميس شحاتة ، حامد ندا، رمسيس يونان، فؤاد كامل، محمد طه حسين، صالح رضا، رمزى مصطفى، جمال محمود، عبدالقادر مختار، محمد حسنين على، محمد مصطفى، أحمد الرشيدى، على دسوقى، صبرى منصور، محمود بقشيش، سيد سعد الدين .. وغيرهم كثيرون.

أما رائد ومهندس المشروع فهو المفكر والفنان حامد سعيد، وسوف نعود إلى فكره ودوره بعد قليل، فيما تولى منصب المدير العام للفنون الجميلة خلال الستينيات وأوائل السبعينيات تباعا الفنانون صلاح طاهر وعلى الديب وعبدالقادر رزق .

بين التراث والحاضر

وأشرقت من هذه المواقع الأثرية موجة من الإشعاع الحضارى، ربطت بين التراث والحاضر، وتعد رائدة على مستوى العالم فى توظيف المبانى الأثرية لأغراض الإبداع المعاصر، كما أشرقت منها رسالة لاتقل تحضرا أو ريادة: وهى إحياء التراث الشعبى والحرف التقليدية المهددة بالانقراض، بعد جمعها من بيئاتها الإقليمية وتوثيقها وتدريب أجيال جديدة من الصبية - من خلال مبنى وكالة الغورى - كى يواصلوا رسالة آبائهم وأجدادهم، تحت إشراف شيوخ الحرف الباقين وبعض الفنانين الأكاديميين من الشباب الذين تم تعيينهم للقيام بمهام البحث الفنى واستلهام التراث باسم «مركز بحوث الفنون التقليدية» فى بيت السنارى ، فتحققت بذلك مناظرة ثقافية غير مسبوقة بين الجانبين، كما تحقق استمرار نهر الإبداع لدى الفنانين المتفرغين موصولا بجذور الهوية .

وفى الفترة نفسها وعلى الطريق ذاته تم تأسيس مراكز أخرى لتحقيق الغاية نفسها، فى تخصصات حرفية مختلفة، مثل مركز الخزف بالفسطاط، الذى أسسه رائد فن الخزف سعيد الصدر، ودار النسجيات المرسمة بحلوان، التى أسسها المهندس د. مراد غالب.

● وشهدت تلك الفترة أيضا إقامة مسابقات عديدة فى الفنون التشكيلية لحفز الفنانين نحو التعبير عن المجتمع الجديد وعن أهداف الثورة وقيمها، من خلال موضوعات مثل : الميثاق الوطنى، العمل فى الحقل، حفر قناة السويس، التصنيع، ملحمة دنشواى، النيل، الطبيعة المصرية .. وفاز فى هذه المسابقات مصورون أمثال: عبدالهادى الجزار، حامد ندا، إنجى أفلاطون، حسن سليمان، جاذبية سرى ... ونحاتون أمثال : منصور فرج، جمال السجينى، أنور عبدالمولى، أمين عاصم ..

● كذلك شهدت تلك الفترة - وما لحق بها - إقامة صروح فنية فى المواقع الجماهيرية المزدحمة، سعيا نحو خروج الفن إلى عامة الشعب، عبر محطات السكك الحديدية، ومجمعات المحاكم والسنترالات الكبرى وبعض الحدائق العامة (مثل حديقة الأندلس) .

● ومن بين ماتم تأسيسه فى تلك الفترة

مشروع قصور الثقافة، ليخدم جماهير الشعب فى المحافظات، أسوة بما يتبع فى دول أوربا الشرقية والغربية، كى تكون مفاعلات إبداعية لتفريخ وإطلاق طاقات الفنانين والأدباء، والشعراء وسط أقاليم مصر الخصبة بالمواهب، وخلق مواقع ثقافية حية ترتقي بوعى الجماهير وتقودها تجاه أهداف الثورة، عبر جيل جديد من القادة الثقافيين كجسر بين العاصمة والأطراف، يعمل على كسر احتكار العاصمة لمنتجات الثقافة، وقد أعيد تشكيل هذا الجهاز بعد عودة ثروت عكاشة إلى الوزراة عام ١٩٦٦ بمفهوم أكثر عمقا واتساعا، فكان واحدا من أخطر الإنجازات الثقافية فى مصر وأعمقها تأثيرا على امتداد القرن، باعتماده على قيادات شابة غير تقليدية من الفنانين والأدباء والمثقفين، أذكر منهم: الكتاب المسرحيين ألفريد فرج ومحمود دياب وعلى سالم ويعقوب الشاروني، والفنانين التشكيليين هبة عنايت وفاروق حسني وكاتب هذه السطور، والنشطاء الثقافيين محمد غنيم وهاني جابر وحسن إمام، تحت قيادة الكاتب الصحفي سعد كامل ...

وخلال عامين اثنين قام هذا الجهاز بما يشبه العاصفة الفكرية على ربوع الأقاليم المصرية، قبل أن ينكسر انكساره المأساوى - على يد الوزير نفسه - منتصف عام ١٩٦٨!.

وإذا كانت بعض المؤسسات الأخرى - مثل المسرح والسينما - قد شهدت نكوصا واضمحلالا خلال السنوات التالية، فإن بعضها الآخر أفلت من هذا المصير، مثل النشر والمعاهد الفنية وفرق المسرح والباليه والموسيقى والفنون الشعبية والسيرك القومى .. لأنها بمثابة قاعدة الصناعة الثقافية الثقيلة التى تقوم عليها الحياة الثقافية فى مصر حتى اليوم.

مطب منتصف الستينيات .. قبـل الزلـــزال!

وقد مرت هذه المؤسسات بفترة من الركود والتوجيه الدعائى وغلبة النشاط الكمي الأجوف فى أواسط الستينيات، تعد كمطب صناعي أبطأ مسيرة القافلة الثقافية المندفعة، وذلك لمدة عامين بين ٦٤ - ٦٦ فترة غياب ثروت عكاشة عن الوزارة التى تم ضمها إلى وزارة الإعلام وتولاها د.عدالقادر حاتم، حيث طغى الخطاب الإعلامى على الخطاب الثقافى واختلطت الأمور بينهما، مما أدى إلى ابتعاد عدد من أهم المثقفين والمبدعين عن أنشطتها، بالرغم من أن تلك الفترة كانت فترة ازدهار المشروع الناصرى بشكل عام فى مصر وعلى الصعيدين العربى والدولى .

وعاد ثروت عكاشة إلى الوزارة عام ٦٦، ولا ندرى لماذا غادر ولماذا عاد(!).. وعلى الفور بادر بعقد أربعة مؤتمرات نوعية للمثقفين (فى فروع النشاط المختلفة) حول أهداف العمل الثقافى، سمح لهم خلالها بهامش من حرية التعبير لمناقشة قضاياهم وهمومهم وتصوراتهم حول مشروع ثقافى شامل ونوعى - لهذه المرحلة، وطبعت نتائج هذه المؤتمرات فى أربعة كتب مهمة، لا تزال تمثل الصيغة الثقافية الوحيدة فى تاريخ مصر التى وضعت بأسلوب ديمقراطى (أى من القاعدة)، وعملت الوزارة - بمساعدة المثقفين والمبدعين - على تفعيل ماتضمنه المشروع خلال العام الوحيد الفاصل بين إقراره وبين زلزال هزيمة يونيو ٦٧، ثم استمر تنفيذه بآلية قوة الدفع الذاتية المتبقية

والمتراجعة بالتدريج زهاء عامين لاحقين خلال وجود الوزير في منصبه، حتى صدر الأمر بتصفية جميع مؤسسات الوزارة من جميع الرموز الثقافية المنتسبة إلى اليسار الذين استعان بهم لتنفيذ هذا المشروع، وكانوا يمثلون أغلب قيادات المؤسسات والمواقع الثقافية، وأخيرا انتهى الأمر بإبعاده هو نفسه عن الوزارة حول منتصف ١٩٦٩

وقد تم بعد ذلك أن قام المثقفون اليساريون بدور تاريخي فى التمهيد لتصفية مراكز القوى التى قيل إنها السبب فى النكسة، عن طريق أقلام الكتاب ، وقيادات قصور وقوافل الثقافة الذين أطلق لهم العنان فى نقد تلك القوى وكشف سوءاتها وحشد الشعب للتصويت ضدها فى الاستفتاء على بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨، وما إن انتهى الاستفتاء وتحت تصفية مراكز القوى واستتب الأمر لعبد الناصر، حتى طلب من ثروت عكاشة تطهير الوزارة من كل العناصر اليسارية!

إن هذا الموقف لا يزال دافعا للتساؤل .. فهل كان أثرا جانبيا من آثار الهزيمة وما صاحبها من انكماش المد الثورى وثقة النظام فى نفسه وفيمن حوله خاصة مع ارتفاع المد السلفى المناهض للثورة؟.. أم كان محاولة من النظام للتحرر من الأوزان الزائدة فى السفينة التى أوشكت على الغرق، إرضاء للقوى الراغبة فى التخلص من المد اليسارى؟

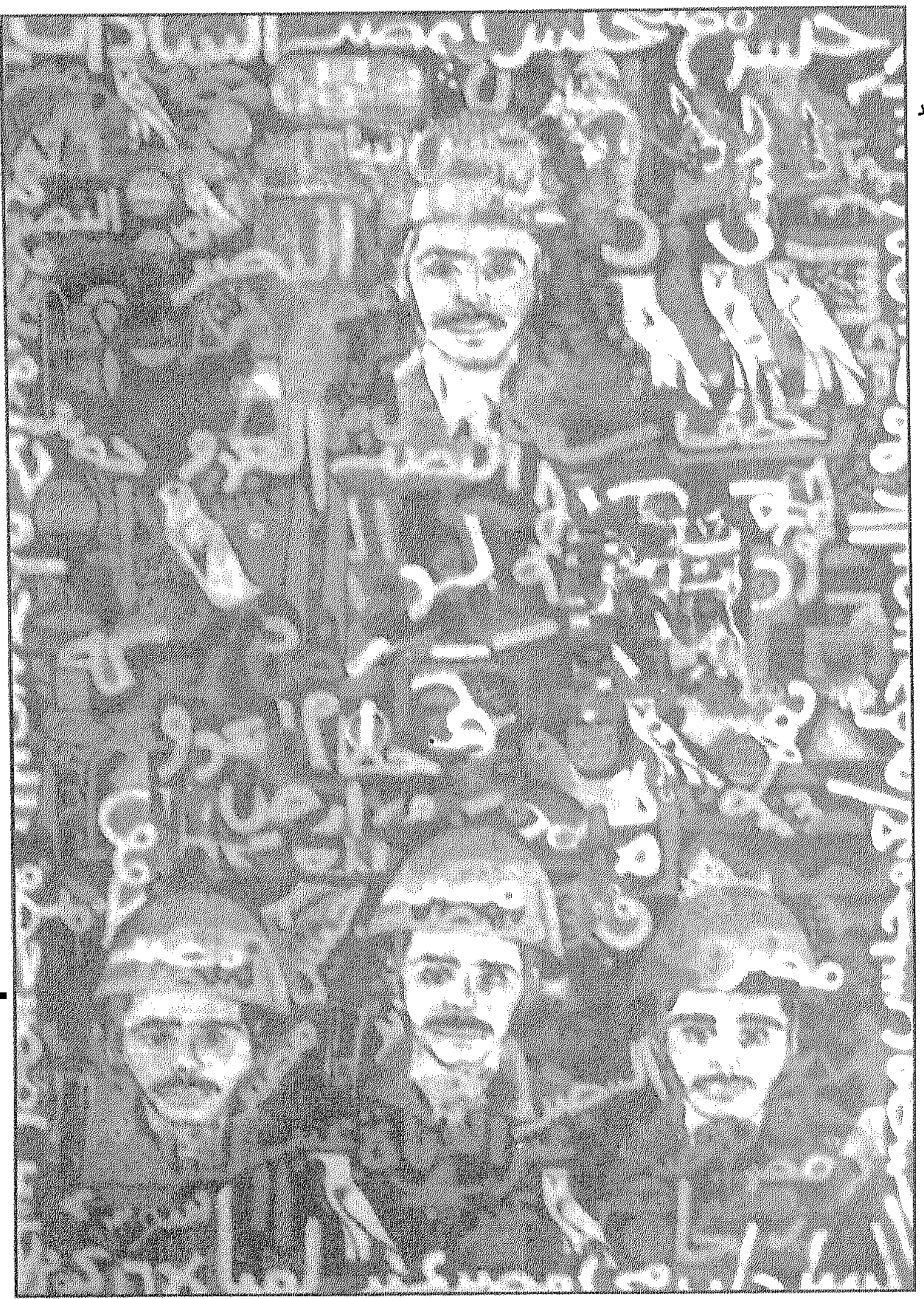
الحقيقة - فيما أظن - غير هذا وذاك، وعلينا أن نبحث عنها فى صميم العلاقة التاريخية المشوهة بين المثقفين والثورة منذ قيامها، حيث رفضت بإصرار أن تتعامل معهم كجماعات أو قوى، بل كأفراد مسموح لهم فقط بالاندماج والذوبان فى منظمات السلطة بلا هامش للاختلاف معها .. ولم تكن الثورة لترضى بأقل من الولاء الكامل لها من جانب الفنانين والمثقفين، ولا بأقل من تخليهم عن أى فكر أو ممارسة سياسية تصب فى استقلال وعى الجماهير وطليعتها الثورية عن خيارات الثورة، وإذا ظهر لديها أى شك فى نواياهم، تسارع بإبراز قبضتها الحديدية وتزج بهم فى السجون والمعتقلات ليقضوا فيها أزهى سنوات شبابهم وعطائهم، حتى وإن كانوا يعتنقون الاشتراكية التى تعتنقها، وحتى لو لم يكن الخلاف بينها وبينهم إلا حول سبل التطبيق، ولم يشفع لهم أنهم - وهم داخل سجونهم ومعتقلاتهم - كانوا يهتفون بحياة الثورة وزعيمها، ويكتبون إليه معبرين عن تقديرهم لإنجازاته، ويبدون الآراء حول القضايا التى تطرح على الساحة خلال غيابهم القهرى، ولم تفرق السلطة فى موقفها ذاك بين سياسى محترف وبين فنان أو أديب أو شاعر، يبنى مشروعه الثورى فى منطقة الألوان واللغة والحلم والمثال، ليخاطب المستقبل أكثر مما يخاطب الحاضر!.

ذبول الجماعات الفنية

ومن المعروف أن الساحة الثقافية فى مصر - عشية قيام الثورة - كانت تتفجر بالعديد من الجماعات الفنية الثورية المعبرة عن واقع الشعب والمدافعة عن حقوقه فى الخير والحرية والتقدم، مثل جماعات الفن والحرية والفن المعاصر والفن الحديث، وكان جديرا بمثل هذه الجماعات أن تنمو وتزدهر فى ظل الثورة التى جاءت لتحقق آمالهم، باعتبارهم رسلها المبشرين بقيامها .. والحقيقة

نصـر اكـتـوبر

يوسف سـيـد



أنها عملت على تحقيق آمالهم بشأن المجتمع بيد، وأغلقت الطريق أمامهم للمشاركة الثورية فى عملية التغيير باليد الأخرى، حيث فرضت نظام الطوارىء لمنع الاجتماعات والتجمعات، ووضعت القيود على النشاط الثقافى الأهلى، ومنعت إنشاء الاتحادات والنقابات المهنية للفنانين، مما أدى إلى الانكماش وذبول الجمعيات القائمة .. والحالة الوحيدة المستثناة من ذلك – وهى جمعية الأدباء – وضعت الثورة على رأسها أحد رموزها الذى جمع بين العسكرية وبين الأدب (وهو يوسف السباعى)، فأمسك جيدا بزمام الأدباء بالترغيب والترهيب وحال دون تجاوزهم للخطوط الحمراء لتوجهات الثورة!..

وانعكس هذا المناخ فى عزوف المثقفين والفنانين عن المكشاركة فى العمل العام بكل أشكاله، خوفا من تصنيفهم فى خانات اليسار أو اليمين ومن تعرضهم للمطاردة والسجون، مثلما حدث للعديد من زملائهم، واتجه بعض الفنانين إلى مجاراة العهد الجديد بأعمال فنية تسير فى اتجاهه، وإن كانت لاتتعارض مع أهدافهم قبل الثورة، لكنهم حرصوا على تصفيتها من النوازع النقدية والذاتية والأسلوبية الغامضة، مثل بعض أعمال الجزار والسجينى وعويس، ومن ثم انفتحت أمامهم السبل للسفر فى بعثات فنية ، ولعرض أعمالهم فى بعض الدول الاشتراكية كالاتحاد السوفييتى وألمانيا الشرقية، حيث قدمت أعمالهم فى متاحفها وطبعت فى كتب وموسوعات فنية .. هذا بينما ارتد فنانون آخرون بعيدا عن أفكارهم الثورية واحتموا فى قواقع مختلفة .. فاحتمى رمسيس يونان وفؤاد كامل بالتجريد، واحتمى حامد ندا بالفنتازيا ، واحتمى ماهر رائف بالتراث الدينى، وهرول الكثيرون الى واحة المناظر الطبيعية أو الزخارف الشعبية والإسلامية أو إلى استظهار ملامح البيئة .

مأساة الفنانين فى السجون

لكن المأساة الحقيقية كانت من نصيب الفنانين الثوريين الذين قضوا فى السجون والمعتقلات سنوات طوال، بين القلعة وأبو زعبل والقناطر الخيرية وأسيوط والواحات الخارجة .. لقد حاولوا ببسالة منقطعة النظير أن يتغلبوا على قهرهم بالإبداع، وتألقت داخل معتقل الواحات حركة فنية مبهرة شارف بعض تجليات أساليب المدارس التكعيبية والتعبيرية بحس مصرى أصيل، وعندما أفرج عنهم عام ١٩٦٣ كان عليهم أن يذوبوا فى نظام ٢٣ يوليو الذى سجنهم وأن يصبحوا من أدواته إن أرادوا أن يجدوا وظيفة أو لقمة عيش، وكان ذلك بداية الانهيار النفسى والإبداعى لكل منهم بدرجات وأشكال مختلفة .. لقد تحولوا بغير اختيار إلى مسارات لاتصب غالبا فى نهر الإبداع العميق، وإن حققوا نوعا من الانتشار الجماهيرى من خلال الصحافة أو المسرح والسينما، بينما كان كل منهم يبشر بقامة شامخة وعطاء متفرد فى فن التصوير .. وهكذا ابتلع العمل الصحفى حسن فؤاد وعبدالمنعم القصاص وعبدالغنى أبو العينين، وابتلعت الوظيفة الحكومية الميتة داود عزيز فى وزارة التموين، وابتلع المجهول سمعان إلياس، وصاع وليم اسحق فى الهجرة خارج الوطن بل وداخله، وضاع عبدالوهاب الجريتلى بالموت العبثى غرقا فى النيل فور الإفراج عنه .

ولعل مثال الفنانة إنجى أفلاطون يكشف لنا

مفارقة عبثية حول موقف سلطة يوليو من الفنان ، ففي عام ١٩٥٩ تقدمت للاشتراك فى إحدى المسابقات الفنية التى أعلنت عنها وزارة الثقافة، وكانت من الفائزين فيها، وعندما تأخرت فى الذهاب إلى الإدارة المختصة لاستلام جائزتها توجه مندوب من هذه الإدارة إلى منزلها ليسلمها شيك الجائزة فلم يجدها، لأنها ببساطة كان مقبوضا عليها فى سجن القناطر الخيرية حيث قضت به أربع سنوات .. وهناك منعوا عنها كل أدوات الرسم التى أرسلتها والدتها إليها، لأنها تعد من الممنوعات، ومع ذلك نجحت الأسرة فى تهريب تلك الأدوات إليها، كما نجحت هى فى اختلاس الأوقات التى رسمت خلالها أروع لوحاتها عن سجن النساء، ومرة أخرى بذلت المستحيل لتهريب هذه اللوحات إلى الخارج .. ولعل تلك هى *الحالة الاستثنائية الوحيدة التى استطاع* فيها فنان أن يحافظ على روحه الخلاقة داخل السجن سنوات ممتدة، ويواصل بعد ذلك عطاءه *الفني بغير انكسار نفسى أو نقمة على المجتمع*، بل بتفاؤل روحى وحسىّ نادر عبر أفراح الطبيعة بالخصوبة والعطاء!.

والموقف الذى حدث مع المثقفين والفنانين اليساريين عام ٦٨ نجد شبيها له عام ٥٦ فترة العدوان الثلاثى (الإنجليزى/ الفرنسى/ الإسرائيلى) على مصر، حيث سمحت لهم الثورة بالمشاركة فى الصفوف الأمامية للكفاح الشعبى فى بورسعيد، وفي التوجيه المعنوى للجماهير بالكلمة واللوحة عبر مختلف المنابر، وقاموا بدور تاريخى مشهود فى ذلك المضمار، خاصة فى المعارض الفنية التى أقاموها فى بعض الميادين العامة (مثل ميدان باب الحديد) .. فماذا كان جزاؤهم بعد ذلك؟.. كان السجن والاعتقال .. والتهمة واحدة مثل ماسبقها وما لحقها : تنظيم سرى لقلب نظام الحكم .

ركائز المشروع الثقافي

وبعيدا عن هذا الموقف المنافى للديمقراطية وحرية المثقف، استطاع المشروع الثقافى لثورة يوليو أن يرسى بالممارسة الفعلية (وبشكل غير مكتوب) أساسا لمشروع قومى للنهضة الفنية يرتكز على ثلاثة ركائز :

الأولي هى حق الجماهير العريضة فى الاستماع بثمار الفن وإبداعات الفنانين، وليس فقط حق الصفوة المثقفة أو القادرة.

والثانية هى حق المبدع فى الحصول على دعم الدولة له ليواصل الانتاج والعرض، وحقه فى التجريب الفنى بحرية ليحقق رؤيته الجمالية، حتى ولو لم تخدم النظام .

والثالثة هى أهمية أن يتميز الفن المصرى بشخصية مستقلة ذات جذور موصولة بالهوية وبالوجدان المصرى .

بالنسبة للركيزة الأولى حول حق الجماهير، فقد ظهرت نتائجها فى خروج الفن إلى الأماكن العامة عبر المنشآت الحكومية والتجمعات الجماهيرية كما أسلفنا، وعبر إقامة المتاحف الفنية مثل متحف الجزيرة ومتحف الحضارة ومتحف محمد محمود خليل ومتحف مختار ومتحف ناجى ومتحف محمود سعيد، وإقامة قاعات للمعارض المحلية والدولية مثل قاعة اخناتون الأولى بشارع قصر النيل وقاعة ميدان باب اللوق وقاعة مبنى الاتحاد الاشتراكى على النيل، وقاعات متحف البلدية بالاسكندرية، التى

أصبحت مقرا لبينالي الاسكندرية، وقد افتتحه الرئيس جمال عبدالناصر لأول مرة عام ٥٦ واستمر يقام كل عامين بانتظام .

وأسست وزارة الثقافة عام ٦٨ المعرض العام السنوى للفنون التشكيلية، كحصاد لإبداعات الحركة الفنية طوال العام، لتتعرف الجماهير من خلاله على خلاصة الاتجاهات الفنية السائدة والجديدة، وإذا كانت الدولة قد حرمت الفنانين والشعب (فترة حكم الرئيس السادات) من قاعات باب اللوق واخناتون والاتحاد الاشتراكي، وكذلك من متحف محمد محمود خليل بعد أن تحول إلى ثكنات للحرس الجمهورى بجوار منزل الرئيس (وهى القضية التى استقال بسببها الناقد بدر الدين أبو غازى من منصبه كويزر للثقافة لرفضه هذا القرار) .. فقد نجحت ضغوط الفنانين والمثقفين فى استعادته فى الثمانينيات، كما نجحت جهودهم وجهود بعض وزراء الثقافة اللاحقين مثل : (منصور حسن، وعبدالحميد رضوان، وأخيرا فاروق حجسنى) فى تعويض الشعب والفنانين عنها بقاعة النيل بالأوبرا (التى أصبحت تحمل اسم قصر الفنون بعد تطويرها)، ومتحف الفن الحديث، وقاعة الفنون التشكيلية بدار الأوبرا.، وجميعها تقع فى الدائرة نفسها، ثم قاعات مركز الجزيرة للفنون أسفل متحف الخزف الإسلامى الجديد، وإن بقى متحف الجزيرة للفن العالمى - الذى يضم أعمالا قدرت بثلاثين مليارا من الدولارات - مغلقا منذ ربع قرن، لعجز الدولة عن توفير الاعتمادات المالية اللازمة لبنائه طبقا للمشروع المعتمد له.

وبالنسبة لحقوق المبدع، فقد تمثلت فى نظام التفرغ للفن، الذى استفاد منه عدد هائل من الفنانين من مختلف الاتجاهات الفنية بغير تحيز لأحداها على حساب الآخر، حتى الاتجاهات التجريدية - مثل رمسيس يونان وفؤاد كامل - والتجريدية التعبيرة مثل عفت ناجي وصلاح طاهر - وغير ذلك من اتجاهات وأسماء أشرنا إليها من قبل، وإلى ذلك خصصت الدولة اعتمادات مالية كل عام لاقتناء مجموعة متميزة من أعمال الفنانين التى أنجزوها خلال العام وعرضت فى معارض خاصة أو بالمعرض العام السنوى، مما كان يمثل سندا اقتصاديا وحافزا معنويا لمواصلة الإنتاج، فوق استخدام هذا الرصيد فى تجميل المبانى الحكومية وإثراء متحف الفن الحديث به، ولا يزال هذان النظامان ساريين حتى اليوم، كركائز ثابتة يصعب على الدولة التخلى عنهما، وإن شابهما الكثير من علامات الاستفهام والتعجب!.

الشخصية المصرية فى الفن

أما عن الشخصية المصرية فى الفن فقد عملت ثورة يوليو على تأكيدها من خلال المسابقات التى حرصت على إقامتها من وقت لأخر بين الفنانين حول موضوعات تاريخية أو استلهام للبيئة أو التراث أو الرموز القوية والحضارية، إلى جانب إنشاء مركز الفن والحياة برئاسة المفكر الفنان حامد سعيد عام ١٩٦٨ لبلورة مفاهيم ونماذج تبرز ملامح الشخصية المصرية فى الفن قديما وحديثا بأبعادها المتعددة، مستعينا بفنانين بارزين خاضوا تجارب إبداعية فى استلهام التراث والطبيعة، أمثال أنور عبدالمولى وخميس شحاتة وراتب صديق وعايدة شحاتة وعايدة عبدالكريم وزكريا الخنانى واحسان خليل وعبدالغنى الشال ومحمود عفيفى .. ودأب حامد سعيد على إلقاء محاضرات

شهرية بالمركز لتأصيل هذا الاتجاه والتوعية به، بروح صوفية مغلفة بالشعر ومرتبطة بالحلقات المتصاعدة للحضارة المصرية التى تشكل فى مجملها وحدة عضوية لاتتجزأ تقوم على القبول والإيجاب من جانب المبدع والمتلقى، بعكس الثقافة الغربية الحديثة التى تقوم على التمرد والرفض، ويمكن أن تلخص الكلمات التالية من إحدى المحاضرات فلسفة حامد سعيد:

«... نحن لانصدق الكتب التى تقسم تاريخ هذا البلد الى أحقاب متنافرة لا رابط بينها ولا وحدة فى ضميرها ولا منطق فى سياقها، لأن أعمال هذا الشعب تنبض بقلب واحد وتترجم عن روح واحد، بدأ من البداية ونما فكان لزاما أن يتغير مظهره وليس لزاما - إذا تغير المظهر - أن يتغير الجوهر .. نحن نعتقد أن هذا الروح كامن يوحى ويوجه ليكون لنا نسقا جديدا .. نحن لانؤمن بالسلفية ولكن بالتاريخ، ونعتقد أن لهذا الشعب دورا فيه، لهذا كان التجديد على هدى التقاليد لاستعادة بناء الشخصية المتميزة للبلاد يتطلب تجديدا جذريا فى ثقافتنا، يتطلب استعادة لغة التشكيل، لغة الفن، لغة الطبيعة ... وإن إهدارها إهدار لخبرات الأجيال ولمعنى الطبيعة ولمعنى الحياة..».

والآن ...

ماذا ضاع وماذا بقى من مشروع ثورة يوليو فى الفن بركائزه الثلاثة؟.

● لقد ضاع منه حق الجماهير، بعد انسحاب الفن إلى القاعات المغلقة بعيدا عن الأماكن العامة والمنشآت الحكومية والتجمعات الشعبية ، حيث أصبح شأنا خاصا بالصفوة وحدها ولا شأن للجماهير به .

● وضاعت منه الشخصية المصرية، لانغماس الفنانين فى محاكاة الأساليب الغربية الحديثة بعيدا عن «نبض قلب الشعب» الذى تحدث عنه حامد سعيد منذ نيف وثلاثين عاما، فقد سار التجديد الجذرى الذى نادى به لثقافتنا بعيدا عن جذورنا «ومهددا خبرات الأجيال ومعنى الطبيعة والحياة» الذى حذرنا منه آنذاك!

● وضاع حق الفنانين فى دعم الدولة عبر توفير المراسم التى يمارسون فيها إبداعهم، بعد أن تقرر إخلاؤهم منها فى وكالة الغورى، وبعد أن أبعدوا عن قصر المسافر خانة ثم حرق ودمر عن آخره عقب خروجهم منه، على عكس الاتهام الملصق بهم دائما بأن وجودهم فى الأثر سبب فى تدميره!

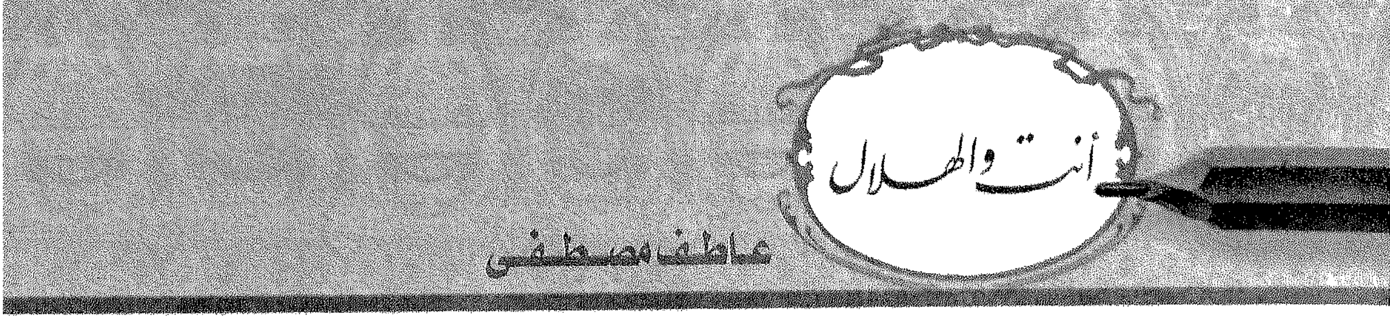
● وضاعت من المشروع روح الهوية وخبرات الأجيال بإخلاء الحرفيين من وكالة الغورى إلى حيث لا مأوى، ويتوقف قوة الدفع لمركز الفن والحياة ومركز بحوث الفنون التقليدية ودار النسجيات المرسمة ومركز الخزف، توقفت تلك الرابطة العضوية بين الفن والحياة، وأصبح التراث أو الشخصية المصرية كلمات لامعنى لها، بعد أن باتت تلك المراكز عبئا زائدا على كاهل الوزارة لا وجود له على أجندتها، فأصبحت أماكنها أبنية جوفاء تنعى من بناها!.

● وبقى من تراث مشروع ٢٣ يوليو للفن بضعة أبنية فخمة أنفقت عليها عشرات الملايين من الجنيهات كمتاحف ومعارض، ازدادت مع الزمن عددا وأبهة، ونقصت جمهورا وحياة، كما بقى من هذا المشروع نظامان أثريان للتفرغ والمقتنيات ، لخدمة النخبة المرضى عنها من الفنانين المعبرين عن مثاليات المرحلة! . ■

الهلال

عشرة بالمائة خصماً للمشتركين فى الهلال

إذا كنت تريد أن تصلك الهلال أينما كنت أول كل شهر، أو أردت أن تهديه لصديق، فأشترك واحصل على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك بارسال حوالة بريدية غير حكومية داخل جمهورية مصر العربية. أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب مسجل لإدارة الاشتراكات بدا الهلال.



من الذي غضب؟!

بعد مرور خمسين عاما على قيام ثورة يوليو مازالت الآراء تطرح، هل ثورة يوليو حقا بيضاء، وهل هذه الثورة بلا أخطاء؟

لكنني هنا ومن منطلق رؤية محايدة أشير إلى أن الأخطاء التى حدثت تمثلت فى الإجراءات الاستثنائية التى تصاحب عملية التغيير الثورية، لأن أى تغيير يقابل بالمقاومة.. والسلطة الجديدة لابد أن تواجه هذه المعارضة، وهذا يحدث فى جميع الثورات فى العالم، حدث هذا فى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وأعدم الملك نفسه، وسجن أنصار الملكية، ونفى آخرون وصودرت أملاكهم.

وثورة يوليو اشتهرت بأنها ثورة بيضاء لأنها لم تقم بمثل هذه الإجراءات العنيفة، وكل ما فعلته لحماية العمال والفلاحين والطبقة الوسطى ، أنها غيرت علاقة الايجار لصالح المستأجر، وحددت الملكية الزراعية فى البداية بمائتى فدان ثم مائة فدان عام ١٩٦١، ووزعت على الأسر فى الريف بحد أقصى خمسة أفدنة.

فمن الذى غضب؟

إنهم الملاك الذين امتصوا دماء الفلاحين سنين عددا ثم حمت العمال فى المصانع فى المدن من الفصل التعسفى ثم عندما أممت الثورة وسائل الإنتاج الكبيرة وأنشأت القطاع العام، وفتحت الباب لتعيين خريجى الجامعات والدبلومات، مما أدى الى التماسك الاجتماعى.

مع الثورة والانتماء غضب الرأسماليون!

إبراهيم مجاهد
المطرية - دقهلية

حول معرض حلمي التوني

استوقفتنى بعض فقرات من مقال الناقد عزالدين نجيب فى مقاله بعدد إبريل الماضى من الهلال حول معرض الفنان حلمى التونى ومن بينها بحثه للخطاب السياسى والاجتماعى فى ثنايا اللوحات، وتأكيده فى أكثر من فقرة فى المقال، على الفصل مابين جمالية العمل الفنى أو حلاوته، وبين الفكرة أو الرؤية الخاصة للفنان حيال الموضوع.

فهل ينبغى من الفنان أن يكون باحثا اجتماعيا فى تصويره للموضوع؟

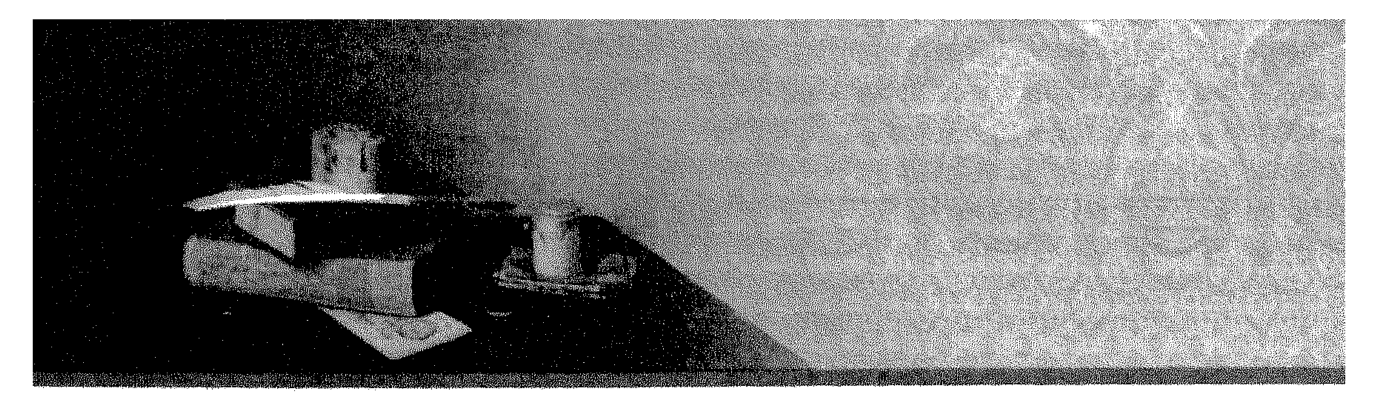
علما بأن هذا المعرض قد غابت عنه رموز «التونى»، أو العناصر التى أطلق عليها عزالدين مصطلح «العناصر الفلكلورية».

خالد عبدالغنى - الكويت

آخر تأويل.. للثري..!!

يادمعة الزيتون.. نامى
حيث شئت أن تنامى
فالعالم المحزون ينعى
كل غصن فى سلامى
نامى على وريد حلمى
واحلمى
كل الصبايا كم توارت فى منامى
وإذا رحلت عن ديارى فاذكرى
أن السواقى كن تضخ العتق..
فى روض انهزامى
فالشمس ملت أن تذوب
فى أغاريد الثرى
أو أن تحط
فوق برج للحمام
يادهشة الزيتون لى
من حناياك.. الرحيل
قبل أن يسافر الصمت الغريب
فى تجاعيد القتام
فكل شىء
فى أنينى مل تأويل الخنوع
مل تأويل الحطام
دم الضياء.. غاليا
ما عاد يغريه النحيب..
أو شطوط للكلام
يادهشة الزيتون.. نامى
نامى كما اعتدت مساء أن تنامى
نامى على الوعود..
وارقبى
ترانيم السلام
هذا رنين الصحو يخبو
فانقذيه
كيف أغصان السلام..
تقتل الآن..
حمامات السلام ؟!

عبدالناصر الجوهرى
دكرنس - دقهلية



إبنة زكي مبارك ترد على وديع فلسطين

آشار الكاتب وديع فلسطين فى مقاله فى عدد يونيو «أضواء على زكى مبارك» بعض المعلومات التى أود توضيحها حيث قال انه فى السنة الدراسية ١٩٣٨ و١٩٣٩ كان فى السنة التوجيهية ، وأن عبدالسلام زكى مبارك كان زميلا له ولكن وعبدالسلام من مواليد عام ١٩٣٢، فكيف يكون زميلا له، ويضيف الكاتب أنه فى هذه السنة دخل عليه زكى مبارك مفتشا، وقال عنه انه كان أشعث الشعر، غليظ العوينات، لا يهتم كثيرا بأناقة ملبسه.

وللعلم فإن زكى مبارك كان حتى أواخر أيامه يضع الطربوش على رأسه، فكيف كان أشعث الشعر؟

وزكى مبارك قريب العهد بنا، وصوره تملأ الصحف والمجلات وما كان غليظ العوينات ويقول عنه الشاعر إبراهيم ناجي:

فى حمى سنتريس شب غلام
شاعرى الكلام والأنظار
أزرق العين هادىء هدأة البحر
بعيد الرضى، بعيد القرا-

وقبل رحيله كان قد فقد بعض كيلو وات من وزنه فاتسعت ملابسه، ولم يشأ أن يذهب إلى «الترزى» لتضييق ملابسه .

أما عن رحلة زكى مبارك إلى العراق، حيث عمل أستاذا للأدب العربي بدار المعلمين العليا بين عامى ١٩٣٧، ١٩٣٨ فقد قال وديع فلسطين فى مقاله بالهلال: إن زكى مبارك كان يتمنى لو أنفق بقية عمره فى العراق، ولكن المعهد الذى كان يقوم بالتدريس فيه أغلق بعد هذه السنة الدراسية.

وللحقيقة فإنه هو الذى رفض تجديد العقد

كريمة زكى مبارك
القاهرة

إنابة

أتـــوب إلـــيـــك يـــاربـــى	مـــتـــاب الخـــوف والحب
وأعــــرف أن شـــمـــس التـــوب	تمـحـــو ظلمـــة الذنب
وأن الـــنـــاس خـــطـــاءون	مـــذ ســـاروا على الدرب
وأن الـــلـــه تـــواب	إذا تـابـوا.. وذا حـــســبى



أتـوب لأنـنـي أمـنـت
بـالرحـمن رحـمـانـا

وأن عـدونـا إبـليـس
يـسـبـح فى خـلايـانـا

وأن النـفـس قـد تـنـصـاع
لـلأوهـام أحـيـانـا

وأن المـوت يـرصـدنـا
ويبـقـى الحـكم مـيـزانـا

يـسـدد قـيـمـة الأعـمـال
جـنـات ونـيـرانـا

أتـوب لأنـنـي أسـلـم
- مـخـتـارا - إلى ربى

وأن مـحـمـداً أوصـاه
رب الخـلـق بـالـتـوب

وعـاهـده الـقـبـول إذا
أنـاب الـعـبـد من قـرب

ولـم يقـبـض، وقـرص الشـمـس
لـم يـخـرج مـن الـغـرب

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

الثورة.. وتصحيح الصورة

من خلال متابعتى للأعداد الخاصة التى يصدرها الهلال، منذ بداية ثورة يوليو، تابعت مقالات لكبار كتابنا ومفكرينا على مدى خمسين عاما.. لكننى أود أن أشير إلى المعاناة التى مرت بمصر، خصوصا ومصر تحتفل فى ٢٣ يوليو بمرور ٥٠ عاما على هذه الثورة.

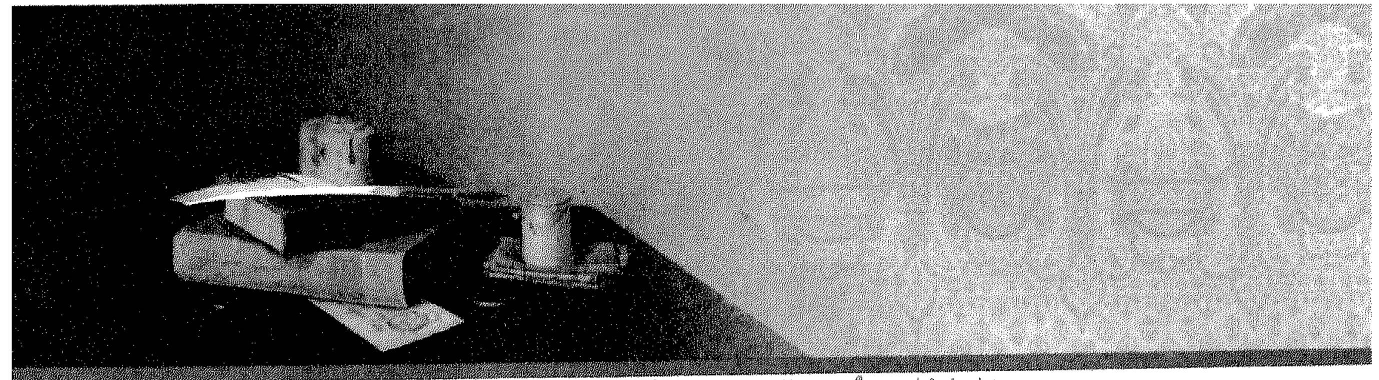
● أذكر حكاية «الحفاء» والذى كان منتشرا فى مصر، وكانت حكومات ماقبل الثورة من ضمن مشروعاتها الاجتماعية مقاومة «الحفاء».

وجاءت حكومة الثورة لتصحح هذه الصورة، ولتباع أحذية وشباشب من مادة «البلاستونيل» بأسعار زهيدة جدا.. لمقاومة الحفاء.

● أما عن مياه الشرب.. فالكل يذكر أن أحياء السيدة زينب والخليفة والسيدة عيشة وبولاق وباب الشعرية، كانت تعيش على مياه السقا، الذى يحمل قربة على ظهره، أو يحصل المواطنون على مياه من الحنفية العمومية.. وقس على ذلك ماكان يحدث فى ريف مصر الذى كان يشرب من مياه المصارف والترع المليئة بالطحالب والبلهارسيا ثم إختفي ذلك بعد الثورة.. نشرب المياه النقية، والريف المصري كله مضاء بالكهرباء بفضل السد العالى.

● أيضا جعلت الثورة التعليم مجانا خاصة فى الجامعة وبدأت البعثات تسافر إلى الخارج وفق خطة تعمم فى جميع التخصصات مع الإكثار من البعثات فى الهندسة والعلوم والطب وغيرها.

محمد الزهار - الأسكندرية



الهلال دائما متجدد منذ بداية صدوره

صدر العدد الأول من مجلة «الهلال» فى سبتمبر عام ١٨٩٢ وكان غلافه من جزءين الأعلى كتب بالعربية والأسفل بالانجليزية وبأعلى الغلاف كلمة الهلال بخط كبير وكتب بأسفلها بخط صغير مجلة علمية تاريخية أدبية أنشأها چورچى زيدان وكتب فى الصفحة الأولى بعد الغلاف قيمة الاشتراك السنوى ٥٠ قرشاً مصرياً بالقطر المصرى أو ١٢ شلنا أو ١٥ فرنكا فى الخارج، وقد تضمن هذا العدد بابا بعنوان أعظم الرجال وباباً آخر بعنوان أشهر الحوادث ومقالا طويلا عن العصر العثمانى وآخر عن القائدين الرومانيين بومبى ويوليوس قيصر وآخر عن الصحف التى تصدر فى العالم العربى مثل التنكيت والتبكيت وأبونضارة والمصرى والزمان وغيرها كما نشر بالعدد تحقيقا ميدانيا عن مدينة الزقازيق الحديثة التى بنيت فى عصر محمد على باشا وتضمن العدد أيضا تحقيقات ومقالات أخرى.

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الهلال : شكراً للصديق على متابعته المستمرة، وحرصه على قراءة الهلال منذ عدده الأول، حيث يتم الهلال فى سبتمبر القادم ١١٠ سنوات من الصدور وبلا توقف وليكون المجلة العربية الأولى التى توالى الصدور بلا توقف بفضل القارىء الذى يحرص دوما على مجلته الأولى.

صباح

صباح وليد
جميل ، رقيق،
وئيد الخطى..
لا ينام
يشق ظلام الليالى
يداعب قلب البلاد
يطير عصفور فرحى
يردد صوت النداء
يبرعم كل الحروف اللواتى احترقن،
بنار هواك
يموت على شفتينا السكات!!

محمود أحمد المصلى
شربين



كيف نوقف نزيف الدم الفلسطيني؟!

قضية فلسطين هى التى تشغل بال كل عربى ومصرى بشكل خاص، وقد حان الوقت لكى نكشف الدور الذي تقوم به إسرائيل ، وذلك على ضوء المؤتمر الإقليمى العربى التحضيرى للمؤتمر العالمى ضد العنصرية منذ عام تقريبا وتم فى ختام أعماله اختيار القاهرة لمناهضة العنصرية، حيث عجز المجتمع الدولى طوال ثلاث وخمسين عاما منذ انشاء إسرائيل عن مساءلتها عما اقترفته من جرائم بحق الشعب الفلسطينى.

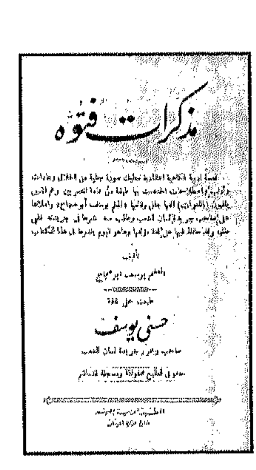
إن إسرائيل تهدف إلى تدمير الحركة الوطنية الفلسطينية، ثم الحركة الوطنية العربية.

ولقد حان الوقت لنقل حركة التحرر الوطنى العربية المضادة لإسرائيل من التراجع والتقاعس إلى الهجوم المضاد؛ عسكريا إذا تحتم ذلك، ودبلوماسيا عقلانيا فى المقام الأول لكى نوقف نزيف الدم الفلسطينى.

وأقول بأن الانتفاضة الفلسطينية الآن هى بشائر الفجر الجديد فى العودة طبقا للقرارات وللشرعية الدولية.

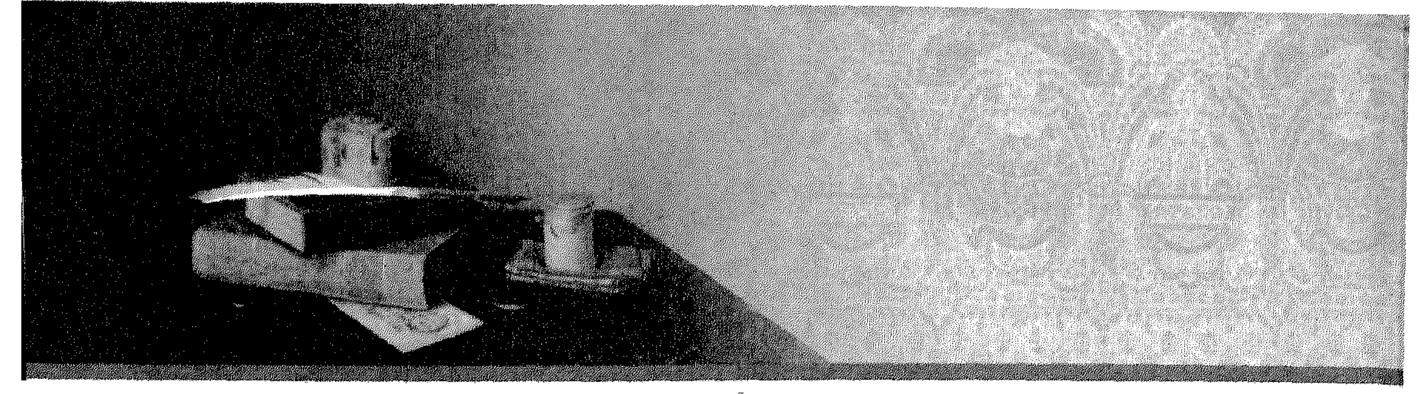
د. صموئيل لبيب - المنيا

مذكرات فتوة ليست من تأليف فكري أباظة



مذكرات فتوة هى من فكرة وتأليف «المعلم يوسف أبوحجاج» أملاها على صاحب جريدة لسان الشعب «حسنى يوسف» ونشرها فى جريدته، ويلاحظ أنه قد حافظ فيها على لغة مؤلفها، وفى رأيى أنها أعمق من «مذكرات عربجى» والتى نوه عنها الهلال فى أعداده الأخيرة، كما أنها ليست من تأليف فكرى أباظة.

المهندس شريف عفت - العجوزة



ردود للأصدقاء

● د. سامى منير عامر - الأسكندرية: شكراً على متابعتك للهلال وما ذكرته حول أستاذنا الراحل د. شكرى عياد، ومقالاته بعنوان القفز على الأشواك.. كما أشير إلى أن قصيدة الشاعر على محمود طه:

أخى جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفدا

والتى يغنيها عبدالوهاب، قد نالت عناية فائقة من شبابنا العربى فى الآونة الأخيرة.

● محمد طلعت أبوزيد: اقتراحاتك الخاصة بإعادة نشر بعض الأبواب فى كتب مثل: «التكوين» و«شخصية العدد» وغيرها من الأعداد الخاصة، فنحن نتفق معك فى مواصلة طبع «التكوين» فى كتب، والتفكير أيضا فى طبع «شخصية العدد» فى كتاب.

● ورد إلينا خطاب من جماعة أصوات الأدبية، وهذا الخطاب منشور فى إحدى المجلات، وماهو مطلوب منا قد نشرب الفعل.

● إسلام عوض - بلقاس: «الشمس تبكى السنديانة» عنوان جميل لقصيدة، بذلت فيها جهدا طيبا، نطلب منك مواصلة قراءة الشعر والمحاولة من جديد.

● لطفى عزالدين - تونس: وصلتنا قصيدتك «نداء فلسطين» والتى تقول فيها:

فلسطين نادتك ياعربى

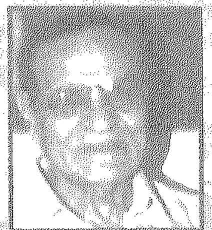
فقم لب دعوتها ياأبىّ

وقم شاهرا سيفك للوغى

لتحريرها من يد الغاصب

سوف ننشرها فى عدد قادم.

● عاصم فريد البرقوقى - الأسكندرية: تسعدنا دائما رسائلك وخصوصا حول ما ذكرته بالنسبة لتواصل الأجيال وليس صراعها.



عن الحداثة والتحديث

بقلم : سعد زهران

الحداثة كلمة أضافتها دول الغرب الصناعي إلى قاموسها اللغوي، لاجمال ما استحدثته أثناء القرنين الأخيرين فى المجالات المادية: الصناعية والتكنولوجية، وإنشاء المدن الضخمة، ووسائل الاتصال والمواصلات، وأنواع من الأسلحة الشديدة الفتك، بدءاً بتطوير الأسلحة النارية وصولاً إلى أسلحة الدمار الشامل.. وكذا ما استحدثته تلك الدول في المجالات غير المادية: أساليب لإدارة الدولة وشئون الحكم يلخصونها فى مصطلح «الديمقراطية»، وكذلك فى مجال ما يسمونه «حقوق الانسان» المفترض أنها تقوم على عدم التمييز بين الناس لأسباب تتعلق باختلاف الجنس أو الجنسية أو العرق أو الدين أو لون البشرة أو السن.. وكذلك ما استحدث في أنماط الإبداع الثقافى الأدبى والفنى .. وفى نظام القيم والمعايير السلوكية والأعراف الاجتماعية.

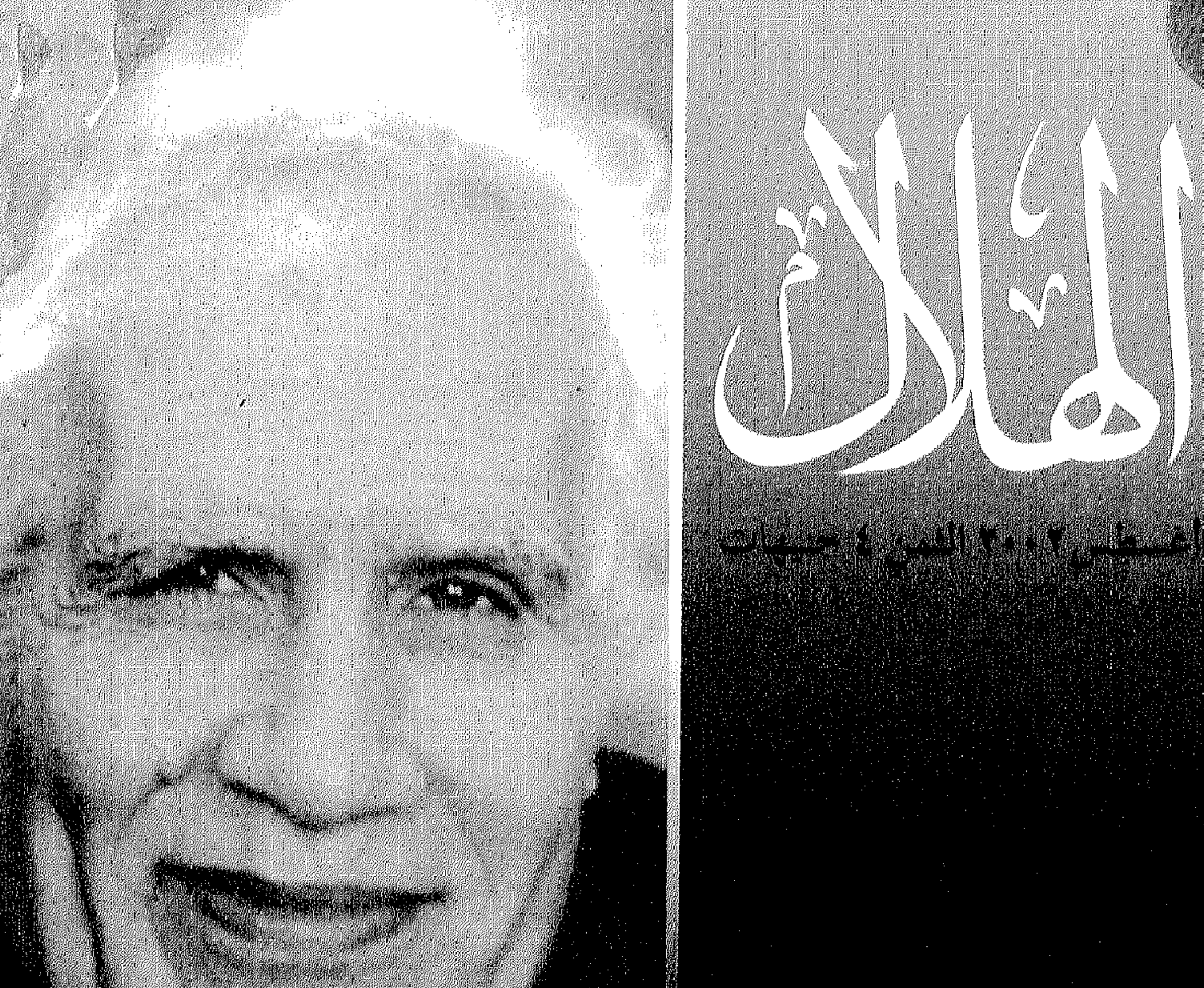
وبالإستناد إلى القوة العسكرية، والهيمنة الاقتصادية، والتغلغل السلطوى، أعطى الغرب نفسه الحق فى تعليمنا كيف نتحدث (أى كيف نصبح مؤهلين للحياة فى العصر الحديث) وقبلت الطبقات العليا والمتوسطة فى بلادنا التسليم للغرب بهذا الحق، وأرسلت حكوماتنا بعثات من خيرة أبنائنا إلى بلادهم للتعلم منهم، كما فتحت أبواب بلادنا لمبعوثين منهم (لم يكونوا - بطبائع الأمور - من خيرة أبنائهم)، ليعلموا المتنفذين فى شئوننا كيف يحدثون صناعتنا وزراعتنا وجميع أحوالنا.. أى كيف يجعلوننا جديرين بالحياة فى العصر الحديث.

والحصيلة الراهنة لجهودنا، بعد قرنين من السير فى هذا النهج، أن الأغلبية الساحقة من الناس فى بلادنا، كما فى بلاد يسكنها أكثر من ثلاثة أرباع الجنس البشرى - لا تزال خارج التحديث، أى خارج حياة تليق بالبشر فى العصر الحديث. لا تزال غالبية الناس فى بلادنا ترزح تحت نير الفقر والمرض والجهل (بل والأمية). والأدهى من ذلك، أن غالبية أفراد الطبقات العليا والمتوسطة، فى بلادنا، الذين قنعوا من الغنيمة بتحديث سلة استهلاكهم، وبعض من أسلوب حياتهم وسلوكياتهم - ما يزالون يشعرون بأن «الفجوة الحداثية» التى تفصلهم عمن يتشبهون بهم فى الغرب تزداد اتساعاً.

ومع ذلك، لا يزال من يسمونهم «النخبة» مستسلمين لأجندة التحديث التى لا تمل الآلة الدعائية والتعليمية الغربية عن ترديدها ونشرها وفرضها على الجميع، بكل إصرار وجبروت.

***


روايات مصرية للجيب
أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات
روايات مصرية للجيب
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
معشوقة شباب العالم العربى
من مشرقه إلى مغربه



الهلال

أغسطس ٢٠٠٧ الثمن ٤ جنيهات

د. أحمد مستجير
العالم والجائزة

دعوة لإنقاذ ماتبقى من البيوت الأثرية

لوحة وفنان



لوحة : بيكار
للفنان : أحمد صبرى

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٢٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة
جماد أول ١٤٢٣ هـ - أغسطس ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة

وصف مصر

حدث ثقافي كبير: استكمال وإعادة نشر كتاب «وصف مصر»، فهو وصف بانورامى لما كانت عليه مصر منذ أكثر من مائتى عام.

ونشر هذا الكتاب هو بالتأكيد أحد إنجازات مكتبة الأسرة، ودعم لهدف «القراءة للجميع»، وهو يظهر التباين فى منهج التفكير بين الغرب والشرق.

وجاء الاهتمام هذا العام من قبل السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس حسنى مبارك بواحد من أهم الكتب التى تؤرخ لمصر، والذى اهتم بكل ثقافة الشعب المصرى، بدءا من الحضارة الفرعونية، ومرورا بتاريخ مصر المعاصر، بالكلمة والصورة وليكون خير شاهد على أن الحملة الفرنسية عادت أدراجها بمدافعها وقواتها، وليبقى هذا الكتاب العلمى ذا أهمية فى أن تقرأه الأجيال الشابة لتتعرف على تاريخ مصر.

وتعتبر موسوعة «وصف مصر» والتى تطرحها الهيئة المصرية العامة للكتاب بسعر رمزى هذا العام، وقد وضعها العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م) من أكثر الموسوعات العالمية الموثقة عن تاريخ مصر وفنونها وتراثها التاريخى والعلمى. وأصبحت بالتالى جزءا من التراث الفكرى العالمى.

وقد ظلت تلك الموسوعة المكتوبة باللغة الفرنسية مهملة على أرفف المكتبات العامة، ودار الكتب، دون أن تصل إلى القارىء العربى، حتى تصدى الأديب الراحل زهير الشايب لترجمتها، على الرغم من أن مثل هذا العمل الجبار كان يحتاج إلى مؤسسة لكى يتحقق لكن زهير استطاع أن يحقق حلم حياته، وأن ينجز فى فترة وجيزة ترجمة «وصف مصر» فى عشرة أجزاء فكان عمله هذا أشبه بالمعجزة ومنحته الدولة جائزتها

التشجيعية عام ١٩٧٩، ثم رحل عن الحياة سنة ١٩٨٤ قبل أن ينجز مشروعه بالكامل بعد أن أضناه العمل وسهر الليالى.

وظلت بقية الأجزاء تنتظر من يستكمل ترجمتها إلى العربية ولتكون فى متناول القارئ العربى، وخاصة ملاحق الكتاب، وهى عبارة عن ١٢ مجلدا كبيرا تضم ٩٠٠ لوحة، تعد مكملة للأجزاء النصية.

وقد ركز زهير الشايب عمله مع مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، واتبع بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل.

وقد سبق وطبع كتاب وصف مصر الذى يعتبر إنسكلوبيديا مصرية مرتين: الأولى استغرق العمل فيها من سنة ١٨٠٩ إلى سنة ١٨٢٢م وظهر المجلد الأول بالفرنسية عام ١٨٠٩، لكن بقية المجلدات التسعة ظهرت بعد سقوط الامبراطور نابليون الأكبر.

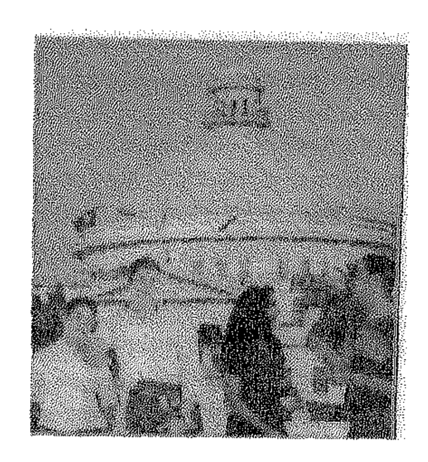
وتضم المجلدات التسعة: مجلدين لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر من طيور ونبات وأسماك وحشرات وحيوانات وأربعة مجلدات لدراسة العصور القديمة، وثلاثة مجلدات لدراسة الدولة الحديثة لمصر، والتى تبدأ على وجه التقريب منذ الفتح الإسلامى لمصر، وحتى مجيء الحملة الفرنسية.

وصدور موسوعة «وصف مصر» فى هذا التوقيت يعد إنجازا حقيقيا لإثراء الفكر الثقافى والحضارى لمصر، فضلا عن أن كل ما تضمنته يعد جهدا لا يمكن إغفاله لعلماء الحملة الفرنسية الذين لم يضيعوا وقتا، بل أنجزوا هذا العمل الذى يثبت أن مصر بلد الحضارة العريقة من خلال كل ما سجلوه وكتبوه.

تحية للدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب على جهده الذى جعل لدى كل مهتم مكتبة غنية بالمعارف المتعددة.

إنه كتاب ضرورى فى كل مكتبة.

المحـــــرر



استقلال الجامعة

يجب التركيز على هدف إرساء قناع العلم والعقلانية

بقلم

د. حامد عمار

فى ندوة عقدت مؤخرا فى المركز الثقافى الفرنسى شاركت فيها مع الصديق الجليل أ. د. حسن حنفى حول رسالة الجامعة، تركز الحديث حول مفهوم رسالة الجامعة وما يقتضيه احتضان هذه الرسالة فى المؤسسة الجامعية. وكان محورها منذ البداية التفرقة بين وظيفة المؤسسة ورسالتها، والتأكيد على أن الرسالة تحمل فى خطابها مضامين ومعانى وقيماً ذات أبعاد إنسانية مترامية الأطراف، لا تقتصر فى أدائها على الحدود المكانية أو الزمانية فى داخل المؤسسة أو التنظيم . وهى فى الوقت ذاته تحتوى على قضايا رئيسية متعددة تسعى إلى الانشغال بها، كما هو الشأن فى احتواء رسالة الجامعة لقضايا رقى المجتمع واكتساب المعرفة وإنتاجها، وتكوين قيادات علمية وفنية فى مجالات العلوم التطبيقية والاجتماعية والإنسانية، وشمول روادها لكل من الذكور والإناث، ولطلاب مصر والوافدين من الأقطار العربية والإسلامية. ثم تتصل امتداداتها إلى ما قبلها من المنظومة التعليمية المدرسية التى تستقبل طلابها، وإلى ما بعدها من الأطر والتنظيمات المجتمعية المختلفة حيث من المنتظر أن يعمل فيها خريجوها.





ومع هذا المضمون القيمى فى قوميته وإنسانياته وتعدده وامتداداته، فإن أى رسالة تتضمن، كجزء من مفهومها، نشاطات دعوة تقوم لتكسب أنصاراً، أو لتشكل فكراً معيناً، أو لترسخ قيماً ومعتقدات تؤمن بأهميتها وصلاحيتها فى حياة الأفراد والجماعات. ومن ثم فإن لكل رسالة داعية أو دعاة، ولابد لدعوتهم من أن تتجسد فى تنظيم محدد يتولى العمل على تحقيق أهداف الرسالة ومقاصدها. والجامعة كمؤسسة هى حاضنة تلك الأهداف، والمسئولة عن اتخاذ كل الإجراءات المناسبة للقيام بالمهمات الضرورية تحقيقاً لمضامين رسالتها.

وبين المحاولات الفكرية لتحديد المفاهيم وعلاقاتها تقفز فجأة مع أحداث اللحظة التاريخية مواقف الطلاب خلال مراحل نضالات الأمة فى مواجهة الاستعمار وطلباً للحرية والعدالة. ويبرز النصب التذكارى المقام أمام كلية الآداب فى جامعة القاهرة للشهيدين الجراحى ومرسى ممن استشهدوا فى الثورة ضد الاستعمار البريطانى، وتذكرنا هذه اللحظة التاريخية كذلك استبعاد (٤٥) أستاذاً جامعياً عام ١٩٥٤ حين عبرت أقلامهم وكلماتهم عن أهمية الاستمساك بالديمقراطية فى الحكم. وتتداعى الذكريات ليأتى الطلاب مرة أخرى عام ١٩٦٨ مطالبين فى تظاهرهم بتصحيح الأوضاع بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وتتردد أشعار أحمد فؤاد نجم ورفيقه الشيخ أمام (ياعم حمزة، رجعوا التلامذة للجد تانى). ومن حولنا فى كل جامعة يحتشد الطلاب ومعهم أساتذتهم تناشد صيحاتهم الصاخبة وبياناتهم الغاضبة الأمة العربية، العمل على إيقاف الغزو الشارونى الدموى للأرض الفلسطينية، و مساعدة الشعب الفلسطينى على الاستمرار فى مقاومته البطولية تحريراً للأرض وللمقدسات.

الرسالة فى نشأة الجامعة

ثم تعود الندوة بعد أن طرحت هذه المشاهد الرائعة لمعالجة موضوعها بصورة منهجية.. ولتتساءل حول مسيرة المؤسسة الجامعية فى احتضان رسالتها، وعن تطور تلك المسيرة، ومدى احتفائها بالتفاعل مع رسالة تحرص عليها، وتدعو لها، وتؤكد التزامها بها. ومما ورد ذكره فى هذا الصدد ضرورة الالتفات إلى السياق التاريخى المجتمعى والدوافع لإنشاء الجامعة المصرية لفهم ديناميات المؤسسة/ الرسالة.

لقد تمت الدعوة لإنشاء الجامعة الأهلية من خلال صفوة من أعلام الحركة الوطنية منهم مصطفى كامل وسعد زغلول، وشارك فيها الأثرياء والأمراء ومختلف الفئات الشعبية بإسهامات رمزية، كذلك جاءت الدعوة بعد حادثة دنشواى

المروعة، وفى أجواء سياسية دولية أدت إلى دعم شرعية بريطانيا فى احتلالها لمصر بعد الاتفاق الودى الثنائى بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٠٤. وفى هذه الأجواء المحبطة تمخضت الحركة الوطنية عن إنشاء الجامعة الأهلية عام ١٩٠٨ رغم معارضة دنلوب ومحاولة توجيه الأنظار إلى أهمية نشر الكتاتيب ومراكز التدريب المهنى.

ونخلص من هذا إلى أن إنشاء الجامعة الأهلية استهدف بطريقة غير مباشرة العمل على أن تحمل رسالتها لمقاومة الاستعمار فى خطابها المسكوت عنه. ولم يكن فى الفكر المصرى أو حتى العالمى إذ ذاك الفكر الليبرالى فى مفهوم (العلم للعلم)، وفى التعليم الجامعى للنخبة لتكوين جماعة العلماء الذين (يحملون عن مصر واجبها فى المسئولية العالمية عن تقدم العلوم والفنون فى مدينتنا الحاضرة) ويتابع أحمد لطفى السيد فى خطابه إلى الاتحاد العلمى فى كلية العلوم عام ١٩٤٠ مشيراً إلى أن (قوة الأمة ومنعتها واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة، ليست آخر الأمر إلا نتيجة لتربيتها الجامعية).

ومع ما يبدو من المفهوم الليبرالى (العلم للعلم) من انفصاله عن تطلعات المجتمع، إلا أنه فى ذلك الوقت هو التعبير عن امتلاك القوة والاقتدار على مواجهة الاستعمار من خلال العلم والثقافة، ودعم الوحدة الوطنية وتكوين النخبة المثقفة فى مقابل إعداد (موظفين للإدارة الحكومية لا أكثر ولا أقل) مما كانت تقوم به آنذاك معاهد التعليم العالى الحكومية. وهذا ما ورد فى قانون تأسيسها من توضيح رسالتها فى (ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف دياناتهم، وذلك بنشر الآداب والعلوم). ولم يكن هدف ارتباط التعليم بالاقتصاد أو بسوق العمل وارداً فى الفكر الاقتصادى أو التربوى على المستوى العالمى أو فى الجامعة المصرية إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

وتستمر الجامعة حاملة لواء الليبرالية والاستقلالية حتى بعد أن تحولت من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية باسم الجامعة المصرية عام ١٩٥٢ وبعدها باسم جامعة الملك فؤاد الأول، يتم تمويلها من موازنة الدولة السنوية. ومما يستحق التنويه أن الجامعة أصبحت فى بؤرة الاهتمام الحكومى مع تنامى الشعور القومى بأهمية التعليم الجامعى بعد ثورة عام ١٩١٩ وما تلاها من الاستقلال الذاتى عام ١٩٢٢ وصدور الدستور عام ١٩٢٣ بعده تحولت إلى جامعة رسمية عام ١٩٢٥.

وهكذا تتخلق الجامعة فى تطورها مع أحداث الوطن ومصائره وتطلعاته. ولم يكن تدخل الدولة إذ ذاك تدخلاً ضاغطاً، بل كان تدخل الأحزاب وما تكون فى الجامعة من أحزاب طلابية، هو الأكثر ظهوراً

والأقوى صوتاً. وأذكر من خبرتى الشخصية حين كنت طالباً فى كلية الآداب فيما بين عام ١٩٣٧ - ١٩٤١ ما حدث من بدايات التدخل الحكومى استبعاد د. طه حسين من عمادة الكلية واستبداله بالأستاذ سليم حسن الأثرى المشهور. وحين سئل د. طه حسين عن سبب إبعاده أجاب بمقولته البليغة الموجزة «إن كلية الآداب أضيق من أن تسعنى وتسع سليم حسن».

بيد أنه كثيراً ما كان ممثلو الأحزاب يدخلون إلى حرم الجامعة فى تلك الفترة، ويلتف حولهم أشياعهم من الطلاب يرددون هتافات وطنية أو حزبية. ولن أنسى مقدم د. محمد حسين هيكل من قيادات حزب الأحرار الدستوريين حين دخل إلى حرم الجامعة وخطب فينا محرضاً على التظاهر والإضراب (لقد أدينا واجبنا وعليكم أن تؤدوا واجبكم). ومما يستحق ذكره عن هذه الفترة الليبرالية حتى عام ١٩٥٢ الإشارة إلى ما كانت تموج به الكليات من تشكيلات للطلاب من مختلف الأحزاب السياسية. وأذكر كذلك أن طالباً من الأخوة الأقباط كان ملتحقاً بقسم اللغة العربية وكان شاعراً نتجمع حوله لنسمع قصائده فى المناسبات الوطنية، كما كان هناك من اليهود فى كثير من أقسام كلية الآداب فى ذلك الوقت.

ومع أن التعليم الجامعى بمصروفات يتيح للأثرياء والشريحة العليا من الطبقة الوسطى تحمل أعبائه المالية إلا أنه كان ثمة نصيب محدود للفقراء من الحاصلين على درجات عالية فى امتحان البكالوريا ثم التوجيهية فى نهاية المرحلة الثانوية. كما كان من حق طلاب مديرية (محافظة) أسوان التمتع بدفع ربع المصروفات فى القسم الداخلى بالمدرسة (عشرة جنيهات) ولم تكن قضية العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص التعليمية ملحة فى السياق التعليمى حتى عام ١٩٥١ حين تقررت مجانية التعليم فى المرحلة الثانوية.

ومن مآثر مؤسسة الجامعة احتضانها لرسالة تعليم البنت والتى يقول فى شأنها أحمد لطفى السيد فى خطابه المشار إليه فى عام ١٩٤٠ (إن الجامعة قد قبلت الطالبات أعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بإخوانهن فى الدرس، لأننا بعد أن سرنا على هذا النهج أكثر من عشر سنين، قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط، فلم نأبه لها على يقين من أن التطور الاجتماعى معنا.. ومعنا العدل الذى يسوى بين الأخ وأخته فى أن يحصل كل منهما على كماله الخاص على سواء.. ويسرنى أن أذكرهم أنى لم تعرض لى جزئية من الجزئيات تجعلنى أندم، ولو وقتياً، على ما شرعته الجامعة من هذه

الخطة من غير أن نستفتى فيه العرف العام) وذلكم - فى تقديرى - هو معدن القيادة الجامعية التى تحمل رسالتها، وتدعو لها، وتدافع عنها فيما تراه لصالح الوطن فى مستقبل نهضته والواقع أن الفترة الليبرالية التى خاضت الجامعة تياراتها كانت فترة ثرية، التقت فيها غالباً رسالة الفكر وتصاريف المؤسسة فى مواجهة سلطة الدولة التى أخذت تزحف إليها . كما تجلت فيها سلطة المؤسسة مع التزام الأساتذة بهدايات الرسالة وضوابط المؤسسة، بل وتصالح معهم جميعاً الطلاب فى حركات اتحاداتهم وأنشطتهم. وفى تقييمنا لهذه الفترة كثيراً ما يثير البعض قضية انفصال الجامعة وبرجها العاجى عن المجتمع، مبررين ذلك بدعوى أنها كانت تعلو العلم لحب العلم والمعرفة لحب المعرفة، متجاهلة دورها فى قضايا التنمية. وهذا ما يعيب دراستنا للتاريخ، حين نجر الماضى جراً إلى الحاضر، أو حين نجر الحاضر باتجاه الماضى، فنسىء إلى فهم الماضى حين لا نستطيع تقييمه وتوظيفه، ويضطرب معنا التفكير حين نجر الحاضر إلى الماضى باعتباره المنقذ من الحاضر، فى تطلعنا إلى المستقبل.

الجامعة بين الاستقلال والسلطة

ومع الفترة الناصرية منذ عام ١٩٥٢ يتخذ التعليم الجامعى منعطفات جديدة فى رسالته ومؤسسته، وقد شهدت مصر إنهاء آخر مراحل الاحتلال البريطانى، وسيطرت المؤسسات العسكرية على مقاليد الحكم، وأخذت مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تشق طريق إنجازاتها من خلال التخطيط المركزى. وبلغ المد القومى العربى والتصدى للعدو الصهيونى مداه، وتمت الوحدة مع سوريا التى سرعان ما أجهضت . ومع أوائل الستينيات تصدر القوانين الاشتراكية تحت شعار الكفاية الإنتاجية والعدالة الاجتماعية، وإذابة الفوارق بين الطبقات ، وما تطلبه ذلك من خطط التنمية وتأميم مصادر الإنتاج. وتتواصل قبضة الدولة ومركزية الحكم إلى أقصى درجاتها.

وارتبط بالتوجهات القومية والاشتراكية اكتمال مبدأ المجانية فى كل مراحل التعليم، بعد أن أصبح التعليم الجامعى والعالى بالمجان منذ عام ١٩٦١. وأضيفت إلى مناهج التعليم المطورة موضوعات عن القومية العربية، والاشتراكية العربية، والتدريب العسكرى. وانتهت جهود التنسيق وإحكام العلاقات بين الجامعات إلى إنشاء المجلس الأعلى كان حلقة مهمة فى عمليات الضبط والتقنين والتنميط فى مسيرة الجامعات. وشاع مبدأ إيثار أهل الثقة على أهل الخبرة فى المواقع القيادية بما فى ذلك القيادات الجامعية. وغلبت قضايا العدل الاجتماعى على قضايا

الحرية فى المجتمع وفى السياسات الجامعية.

وانعكست كل تلك التوجهات على مؤسسة الجامعة التى تم خضوع رسالتها لرسالة الحكم، وغدت رسالتها مسايرة لتوجهات السلطة وظهرت أحياناً توترات بين الرسالة والمؤسسة. مع التوسع الهائل فى الالتحاق بالتعليم الجامعى، وفى إيفاد البعثات وبخاصة إلى الاتحاد السوفييتى (سابقاً). ثم أدخل الحكم شريحة الأساتذة الجامعيين فى الوزارات والقيادات التنفيذية من أجل الاستعانة بهم كخبراء لدعم مسيرة النظام. ويعتبر هذا التوجه فى ضم الجامعيين إلى الأجهزة القيادية فى السلطة معلماً مميزاً من معالم اجتذاب الجامعات إلى دعم نظام الحكم، مما سار تقليداً امتد إلى التشكيلات الوزارية فى مصر منذ ذلك الوقت حتى اليوم.

وأخذت المؤسسة الجامعية تذعن - راضية أو متململة - للتوجهات من السلطة السياسية، ومنها إلى أجهزتها التنظيمية، تتساقط من المجلس الأعلى للجامعات ، إلى مجالس الجامعات، فمجالس الكليات، متجسدة فى الجهود الضابطة لتطوير قانون الجامعات. وقد أدى ذلك إلى أن تفقد الجامعات استقلاليتها الحقيقية، وأن تتكثف أجواء التعبئة والتنميط والضبط والحشد فى المناهج والأنشطة وعلى مختلف مستويات العمل المؤسسى.

ومما يستحق التنويه أن هذه الفترة قد شهدت نمواً هائلاً فى الالتحاق بالجامعات بدرجة غير مسبوقة، مما أتاح لنسب متزايدة من أبناء وبنات العمال والفلاحين وذوى الدخل المحدود دخول الجامعات. وقد أدى ذلك إلى التضخم الكمى فى جسم الجامعات حيث لم تشهد نمواً مناظراً فى بناء جامعات جديدة وبدأ الحديث حول ما عرف «بالجامعات الكبيرة» وأهميتها. ومع الحراك الاجتماعى الذى جرى، انفتحت الشهية للطلب على التعليم الجامعى بدرجة غير مسبوقة مما لم تستطع المراحل التالية أن تواجهه بما يلزمه من الإمكانات.

الجامعة والانفتاح الاقتصادي السياسي

ويأتى الانعطاف الثالث فى رسالة الجامعة ودور مؤسساتها مع الفترة الساداتية منذ بداية السبعينيات حتى أوائل الثمانينات، وفيها تجلت بوضوح غلبة المؤسسة على الرسالة من حيث استسلامها لأيديولوجية السلطة الحاكمة. وقد تمثلت فيما عرف بالانفتاح الاقتصادى وتشجيع الاستثمار للقطاع الخاص حيث ألغيت القوانين والتنظيمات الاشتراكية، وتم عقد معاهدة الصلح مع إسرائيل، والتوجيه السياسى نحو المجتمع الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وظلت المركزية

واستقبال التوجهات من الخارج ومن أعلى تحكم مسيرة الجامعة ونظمها ومعظم قياداتها وأساتذتها. وامتد التوتر السياسى وصراعات القوى السياسية إلى طلاب الجامعة، ولكى يحكم (رب العائلة) سيطرته على الجامعة بتشجيع تكوين فريق الجامعات الإسلامية فى مواجهة فريق الناصريين واليساريين.

ومع ظهور ما عرف بالصحوة الإسلامية انعكست فى الجامعات دعوات ضد اختلاط الجنسين، كما شاع لبس الحجاب وغيره من رموز الزى، كما ظهر خطاب التصادم فى انتخابات اتحادات الطلاب فيما حدث من مواجهات بين التيار الإسلامى والتيارات الأخرى. ورغم سيطرة السلطة على الجامعة إلا أنها أفرزت ثنائية حادة من التوتر بينها وبين استقلالية الجامعة وحرية الفكر فيها، بل غامت أية علاقة بين أطراف المؤسسة ورسالتها، فلم يعرف أى طرف ما ينتظره الطرف الآخر على وجه التحديد. ومن ثم انفتح المجال لمظاهر العنف فى التعامل أحياناً أو إلى مظاهر الاغتراب أحياناً، أو إلى مظاهر حمل المباخر والسعى إلى الاقتراب من السلطة لدى كثير ممن كانوا قيادات جامعية وثقافية.

وفى هذه الفترة كذلك تزايد نمو أعداد هيئات التدريس التى انصرفت عن جامعاتها هجرة أو طمعاً فى نصيب من تدفق الثروات النفطية. وقد صاحب الاستقلال السياسى لدول الخليج منذ مطلع السبعينيات إلى العمل على إنشاء جامعاتهم الوطنية أو التوسع فيما كان قائماً منها، مما أتاح فرصاً وافرة لاستقبال الأساتذة المعارين من الجامعات المصرية. واستطالت طوابير الانتظار للإعارة، والانشغال بالطموحات المادية مما أثر فى الأداء التعليمى والبحثى لهيئات التدريس. وتراوحت نسبة الهجرة إلى النفط مابين ٦٠٪ - ٥٠٪ وأسهم فى اطراد تدفقها القانون الذى أباح إطالة مدة الإعارة على فترين لتصل إلى عشر سنوات مع الاحتفاظ بحق المعار فى العودة إلى موقعه السابق فى الجامعة وقد كانت الإعارة من قبل حسب قانون ١٩٧٢ لمدة سنتين قابلة للتجديد مرة واحدة أى لمدة أربع سنوات لا غير.

وازدادت وتيرة التمحور حول الخلاص الفردى للأساتذ والطلاب من خلال الاعتراف بالكتاب الجامعى المقرر، وبدعمه وتقدير ثمنه على أساس عدد الملازم وحجمه على أساس عدد ساعات التدريس للمقرر. وتفشت حرفة تأليف الكتاب السريع على أساس تجارى، وحدثت أحياناً توترات بين أساتذة القسم من جراء الاتفاق على تأليف الكتب وتوزيعها وإغراء الطلاب بشرائها بطرق مشروعة وغير مشروعة. وقد سعد الطلاب بخطيئة الكتاب الجامعى المقرر الذي يتوجب على الأساتذة إعداده قبل بداية كل فصل دراسى، وإلا

احتج الطلاب صائحين أين الكتاب، وأين الفصول أو الموضوعات المقررة فيه، وماذا يمكن حذفه منها، وهل يمكن تصويره، إلى آخر تلك المناوشات التى عادة ما يثيرها الطلاب حول الكتاب الجامعي؟. وهكذا تستقر أطراف العملية التعليمية، وكل قوم بما لديهم فرحون، الأساتذة بإعاراتهم وانتداباتهم وكتبهم وعوائدها. وكذلك الطلاب سعداء باختزال عملية التعليم والتعلم والتقييم الامتحاني فى المقروء، ولا خروج عن النص.

وباختصار اتسمت الفترة الساداتية بتآكل مفاهيم القومية العربية والتوجهات الاشتراكية، ولم يعد الخطاب السياسى مركزاً - كما كان - على العدالة الاجتماعية، وإنما أدت أجواء الانفتاح الاقتصادى وشعار (أكسب ما شئت طالما التزمت بدفع الضريبة) إلى مزيد من دوافع الخلاص الذاتى. ومع كل ما سبق ذكره من مظاهر الخلاص الذاتى ومن تدفق الإعارات الخارجية، والاتجار بالكتب، وانتهى الأمر بالجامعة إلى افتقاد مضامين رسالتها القومية والاجتماعية ، ولم تستعد استقلاليتها وحرية قرارها، بل خضع عدد من أساتذتها للاعتقال فى هوجة غضب الرئاسة فى سبتمبر عام ١٩٧٩.

وحدثت شروخ عميقة فى الفكر الطلابى نتيجة لتدخل السلطة وجماعات المصالح خارج الجامعة، واتشحت بعض صدامات الطلاب بزى الفكر الدينى، بل ظهرت مفاهيم كأسلمة العلوم والتأصيل الإسلامى لكل المقررات. وهكذا اضطربت أجواء الجامعة فى تحديد هوية رسالتها، بل إن أداءها الأكاديمى والمهنى والقيمى قد أصابه قدر كبير من الخلل، مما أثر فى دورها كمؤسسة ذات فاعلية داخلية سواء كان ذلك فى جامعات العاصمتين أو الجامعات الإقليمية التى أنشئت خلال هذه الفترة.

فترة الليبرالية الجديدة والخصخصة

ومع مقدم الثمانينيات اتسعت آفاق الليبرالية الجديدة وشيوع التكيف الهيكلى الاقتصادى مع توجهات السوق الطليقة، والخصخصة للقطاع العام وتشجيع الاستثمارات للقطاع الخاص المصرى والأجنبى. وتزايد دور الشركات المتعدية الجنسيات والبنك الدولى ومنظمات الأمم المتحدة. وكان للمؤتمرات الدولية وسياسات تلك المنظمات الدولية تأثيرها فى السياسات التعليمية والجامعية. وتنامت ضغوط الدولة وتدخلاتها فى مسيرة المؤسسة الجامعية كما حدث فى اختيار عمداء الكليات بالتعيين، وفى عمليات فرز المرشحين لاتحادات الطلاب.

وكان من نتائج تشجيع الاستثمار الخاص أن أنشئت الجامعات الأربع الخاصة، وبدأت الدولة فى التصريح لإنشاء

جامعات أجنبية منها جامعة بريطانية وثانية فرنسية وثالثة ألمانية فى طور التأسيس هذا فضلاً عن ازدهار شأن الجامعة الأمريكية والتنافس على الالتحاق بها، كما أن هناك جامعات خاصة مصرية تنتظر دورها فى الموافقة على تأسيسها. وفى جميع هذه المؤسسات تمتد عيونها وعيون خريجها إلى خدمة الشركات المتعدية الجنسيات أو الشركات المصرية أو سوق العمل فى الخارج.

ومع بداية اندماج الاقتصاد المصرى فى السوق العالمية، وما ارتبط بها من الأهمية البالغة لدور الثورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية والاتصالية كان لابد للجامعة، رسالة ومؤسسة، من أن تتأثر بتلك القوى. واستدعى ذلك أن تكون قضايا التكنولوجيا واللغات الأجنبية الشغل الأوفر حظاً فى الخطاب الجامعى الرسمى وفى سياسات الجامعات وتطويرها. وبدأ تعليم مهارات الحاسوب والتعامل مع شبكة المعلومات العامة وشبكة المعلومات الجامعية التى تم ربط كل الجامعات، كما كانت مطالب تعلم اللغة الإنجليزية من مطالب الدراسات العليا.

ثم إن التعليم بلغة أجنبية قد اعتمد فى بعض أقسام الكليات كما هو الحال فى كليات التجارة والحقوق والإعلام والتجارة الدولية والتربية والاقتصاد والعلوم السياسية. وخفت صوت أولئك الذين كانوا يطالبون بالتعريب والتعليم من خلال اللغة العربية فى جميع الكائنات الجامعية بما فيها كليات الطب والهندسة والعلوم.

وكان من نتائج تلك المتغيرات العالمية أن تنامى الانشغال فى رسالة الجامعة بالتكنولوجيا والحاسوب واللغات الأجنبية دون إحداث تطور فى احتياجات الكفاءات البشرية من اهتمام بقضايا التنمية الذاتية وما تتطلبه من تكوين شامل للذهنية العلمية والتوجهات المجتمعية المستقبلة. ولعل استمرار سياسة الكتاب الجامعى المقرر وطرق التعليم ونظم الامتحانات، دون الاستعانة بتكنولوجيا التعليم والإلمام بمصادر المعلوماتية وتوظيفها دليل على عدم القدرة على الدخول إلى قلب المعرفة - لا أطرافها - المطلوبة للتطوير الحقيقى لرسالة الجامعة ومتطلبات المؤسسة فى سياق النظام العالمى الجديد. وبقيت رسالة الجامعة وتكييف المؤسسة لدور فاعل فى إنجاز تعليم جامعى متطور تمثل أزمة اجتماعية وعلمية، تعثرت معها المحاولات العسيرة فى إصدار قانون جديد لتنظيم الجامعات، والذى لم يتغير منذ قانون تنظيم الجامعات رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢.

ثم إن السعى إلى إنشاء جامعة مفتوحة، ودراسات عن طريق التعليم من بعد من خلال الوسائط التكنولوجية المختلفة لم تنته إلى ما كان متوقعاً، وربما كان ذلك ناتجاً عن قصور فى الموارد المالية أو فى الخبرات الفنية والتنظيمية لمثل هذه المؤسسات. واختزل الأمر إلى إنشاء مراكز



للتعليم المفتوح فى بعض التخصصات مما تبنته جامعات القاهرة والإسكندرية وأسيوط حيث تسمح لمن قضوا خمس سنوات بعد حصولهم على الشهادة الثانوية (العامة أو الفنية) بالالتحاق فى تلك المراكز للحصول على شهادة جامعية. ومع ذلك فإن تلك المراكز لم تتجاوز فى مناهجها النماذج التقليدية فى تأليف الكتب أو فى الأشرطة التسجيلية ما يدرس فى الجامعات القائمة.

وهكذا تفقد الجامعة رسالتها الكبرى من أهداف وقيم، ويحرم الطلاب من حق التنظيمات السياسية فى كلياتهم باعتبارها مجالاً للتثقف السياسى والوطنى والمدنى ومجالاً لتنمية القيادات الشبابية. وينصرف الأساتذة إلى الانشغال إما ببحوث سطحية للترقية العلمية أو للإعارة وتجديدها، أو للترقية إلى مناصب إدارية أو سياسية، أو إلى الاتجار فى الدروس الخصوصية إلى غير ذلك مما يقف فى سبيل إصدار قانون لتنظيم الجامعات يحقق عملية تطوير شامل وعميق. ولعل صعوبات عدة تحول دون التحرك الحثيث نحو ما انتهى إليه المؤتمر القومى لتطوير التعليم العالى من قرارات، من بينها توفير الموارد المالية، والقيادات العلمية والتنظيمية الجسورة فى مواجهة المصالح المكتسبة والمصالح الطامعة فى توظيف الجامعة نحو أهدافها الخاصة، فضلاً عن مخاوف أمنية تهدد الاستقرار الرتيب لأجواء الحياة الجامعية.

أهداف الرسالة المستقبلية

جرى العرف فى إصدار قانون تنظيم الجامعات أو مراجعته أن تتصدر مادته الأولى ذكر ما تختص به الجامعات من مهمات التعليم الجامعى والبحث العلمى مضافاً إليها تنمية المجتمع وخدمة المجتمع. وتتبع هذا الثالوث المبهم عبارات تتعلق بمساهمة الجامعات فى رقى الفكر، وتقدم العلم، وتنمية القيم الإنسانية، والتربية الدينية والخلقية والوطنية، وبعث الحضارة العربية والإسلامية، والتقاليد الأصيلة للشعب المصرى، وتوثيق الروابط مع الجامعات الأخرى. وباستثناء قانون ١٩٧٢ الذى تأثر بالقوانين العامة فى الفترة السابقة حين أضاف هدف المساهمة فى بناء وتدعيم المجتمع الاشتراكى، فإن معظم قوانين تنظيم الجامعات إن لم يكن كلها لم يتناول إلا اختصاصات الجامعة. ويجىء هذا التناول فى عبارات ومعان مكرورة أغلبها مثالية مجردة كما انعكس منذ قانون تأسيس الجامعة المصرية عام ١٩٢٥، ويمكن أن تكون تلك الاختصاصات والأهداف من مقاصد أى جامعة عربية أو من جامعات العالم الثالث.

ومع هذه العمومية والتسطيح لأهداف الجامعة يمتلىء القانون مزدحماً بكل ما يمكن تصوره من تفاصيل فى كل مناحى

التنظيم المؤسسى تصل إلى ما يقرب من ٧٠ صفحة. وتتلوه اللائحة التنفيذية لتزيد تفاصيل القانون بمزيد من التفاصيل، بحيث يتم تنميط مسيرة كل جامعة، بنية وهياكل وكليات وهيئات التدريس ونظم الدراسة والامتحانات.

وفى صدد أزمة الجامعة الحالية بين الرسالة والمؤسسة اعتقد فى ضرورة إعادة صياغة الأهداف من أجل أن تتوحد الرسالة مع المؤسسة، وتغدو كل قوانينها وأنشطتها مشبعة بقيم الرسالة التى يمكن التعبير عنها بصورة محددة، تنطلق مع التوجه نحو صناعة المستقبل القومى، ومؤكدة على أن الجامعة وهى قلب المنظومة التعليمية. سوف تضخ الحياة والحيوية. وتدعم المناعة الذاتية فى جسم الأمة وفى حياة مواطنيها. ولنتذكر فى هذا الصدد مقولة توفيق الحكيم (إن الأمة الحية تحيا بأمواتها والأمة الميتة تموت بأحيائها).

لذلك أدعو إلى التأكيد على إطار التوجهات المجتمعية فى رسالة الجامعة/ المؤسسة، وصياغتها فى القانون أو فى اللائحة التنفيذية بطريقة يمكن ترجمتها وتقييم منجزاتها فى مسيرة الجامعة، واقترح النموذج التالى على سبيل المثال:

- إعداد العلماء والخبرات والكفاءات العلمية العالية لقيادة مسيرة التنمية الشاملة والمستدامة، فضلاً عن الوفاء بمطالب الأمن القومى من خلال ما يسهمون من جهد وطنى وعمل خلاق.

- إرساء مقومات ثقافة عربية قومية إنسانية منفتحة للتطوير والتجديد، وتنوع الرؤى، فى إطار إيجابى بصير للثورات المعرفية ومنجزاتها، وايلاء اهتمام خاص بإشاعة الثقافة العلمية بين الجماهير.

- ترسيخ مقومات النهج الديمقراطى وآلياته فى الحوار والتفاعل بين الرأى والرأى الآخر، من أجل وفاق قومى وقرار مجتمعى وفعل مثابر ومتجدد.

- التعاون والتكامل مع الأقطار العربية والإسلامية فى مختلف مجالات الأنشطة الجامعية ، وبخاصة فى تيسير قبول الطلاب الوافدين، وفى السياسات والبحوث العلمية والتكنولوجية.

ومن ناحية أخرى يمكن النص على ترجمة هذه الأهداف المجتمعية إلى أهداف أكاديمية ومهنية لمؤسسة الجامعة، نقترح التأكيد على:

- التوسع المطرد فى فرص التعليم الجامعى باعتباره من حقوق الطالب المؤهل للالتحاق به، واعتبار الجامعة هى المسئولة عن إعداد الكفاءات البشرية العالية، نحو تأسيس مجتمع المعرفة.

- تمكين الطالب من التزود بالمعرفة من مختلف مصادرها المتاحة، بما فيها توظيف تكنولوجيا المعلومات ، دون الاقتصار على مصدر واحد، فيما عرف بالكتاب الجامعى. وفى هذا الصدد يقول لطفى السيد فى مفتتح خطابه السابق متحدثاً إلى الطلاب. (نحن لا نعطيكم كتباً مقررة، فإن غرض التعليم الجامعى تثقيف العقل، لا ملء

المحافظة ، غرضه تنمية ملكة البحث العلمى ومعرفة مناهجه وأنماطه، وتوسيع آفاق الإدراك).

- تقترن عملية التعليم بتكوين مهارات التعلم الذاتى، وتأكيد دور كل من المعلم والطالب فى ممارسة التعلم الذاتى، كجزء لا يتجزأ من رسالة تكوين الطالب الجامعى.

- تنمية مختلف القدرات العقلية وأنماط التفكير العلمى بمختلف مناهجه ومناظيره، واكتساب المهارات التكنولوجية المرتبطة بتطبيق المعرفة النظرية.

- يعتبر الانشغال بالبحث العلمى من بين أهم واجبات الأستاذ الجامعى، وهو واجب متصل لا ينقطع طوال حياته الجامعية. والحرية الأكاديمية فى إجراء البحوث ونشر نتائجها هى اللحن المميز لرسالة الجامعة نذكر هنا على سبيل المثال ما يشيع من شعارات فى الأوساط الجامعية الأمريكية.

أنشر أو اختفى Publish or Perish

ابتكر أو تبخر Innovate or Evaporate

- تمكين الطلاب من تنظيم وممارسة أنشطتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية من خلال تنظيمات اتحادات الطلبة وانتخاب قياداتها، وكما يقول لطفى السيد «تدعيما لترتيبهم الاستقلالية» فيما اسماه بتكوين «حى الطلبة» ويؤكد لنا أن «بناء هذا الحى أجدى على الجامعة والتربية الجامعية من بناء إحدى الكليات» ويتابع تأكيده على رسالة الجامعة من حيث (أن التعليم الجامعى أساسه حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال، لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال. كذلك التربية الجامعية قوامها عندنا حرية العمل).

- وأخيراً وليس آخراً تبقى عملية الدعوة لرسالة الجامعة فى قيمها القومية والإنسانية والمعرفية والأخلاقية الشحنة التى تحرك ما تقوم به من تعليم وبحث وتنمية للمجتمع. كما تتجسد فى دعوتها لتجديد والتطوير، وللانتاج المتميز والمبدع فى داخلها وفى خارجها، فى أبحاثها وكتبها، وفيما تنظمه من مؤتمرات، ومحاضرات فى مختلف فروع المعرفة، مع التركيز فى كل نشاط أو محاضرات على هدف إرساء نتاج العلم والعقلانية والتفكير المركب، والذى يواجه أنماط التفكير السائد فى التفسير والتبرير والتحيز والرؤية المغلقة والأحكام القاطعة.

ومن ثم ينبغى أن تمثل قضية الدعوة فى داخل الجامعة وفى خارجها جزءاً لا يتجزأ من مهمات الجامعة، رسالة ومؤسسة. ■

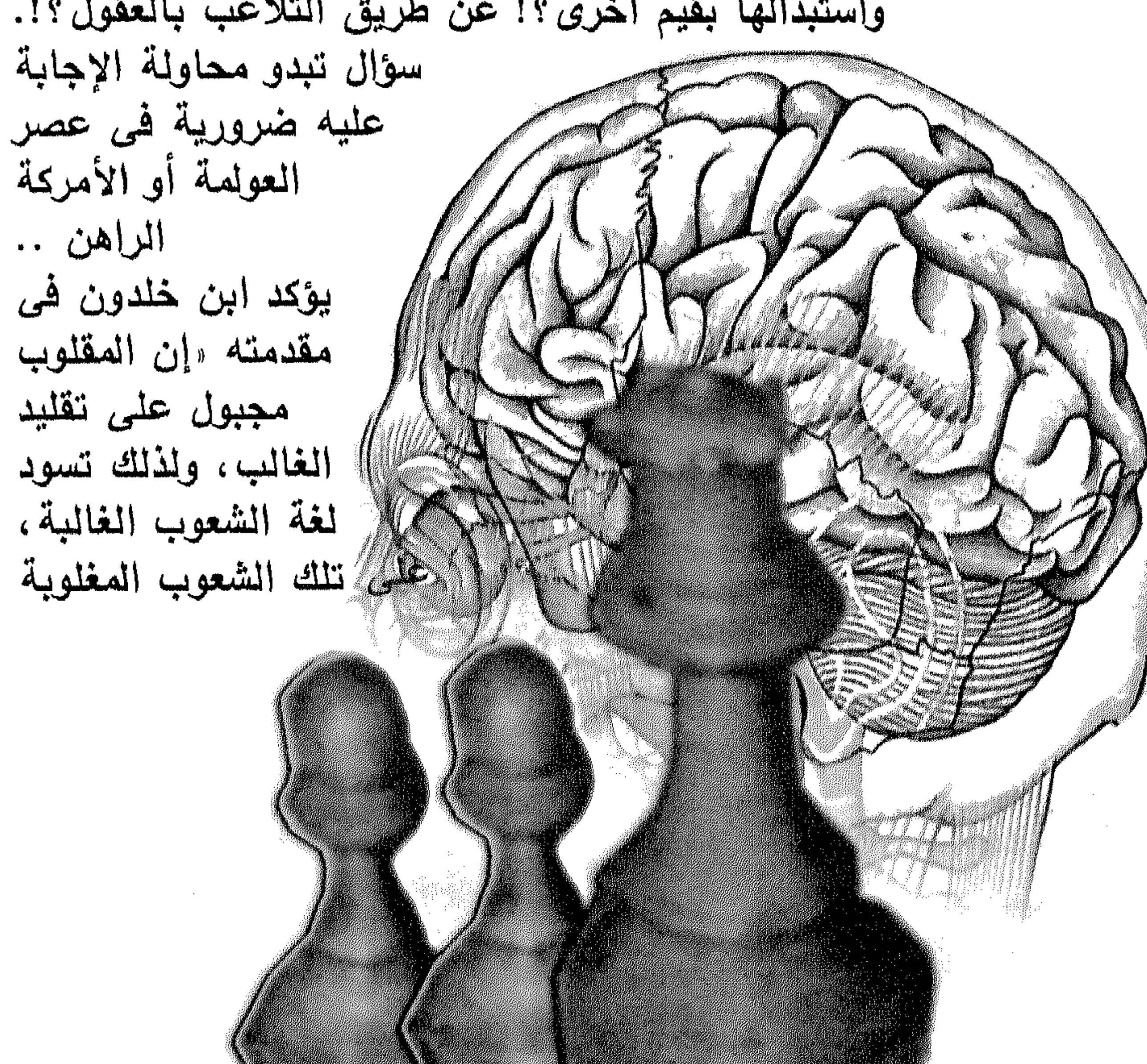
فى المسألة الثقافية

بقلم
مصطفى نبيل

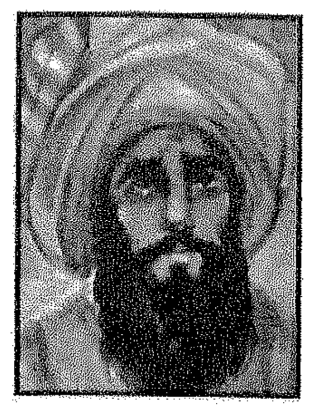
هل يمكن حقا أن تجتاح حضارة، حضارة أخرى ؟! وتقضى عليها ؟! أى تمحو مجموع القيم والأفكار السائدة واستبدالها بقيم أخرى ؟! عن طريق التلاعب بالعقول ؟!.

سؤال تبدو محاولة الإجابة عليه ضرورية فى عصر العولمة أو الأمركة الراهن ..

يؤكد ابن خلدون فى مقدمته «إن المقلوب مجبول على تقليد الغالب، ولذلك تسود لغة الشعوب الغالبة، على تلك الشعوب المغلوبة



هذا رغم وجود تجارب تاريخية وقع خلالها العكس، أى أمم مغلوبة أثرت فى الغالبة، فعندما انتصرت وسادت الإمبراطورية الرومانية، سادت الحضارة الإغريقية المغلوبة، وترى هذه التجربة مرة أخرى عندما سادت الحضارة الإسلامية وسط قوات المغول الغازية، فانتصر المغول على بلاد الإسلام، وسرعان ما اعتنقوا الإسلام.



ابن خلدون

وتؤكد هذه الخبرات التاريخية، أن الذى يخص الحضارة ويحمى الثقافة تقوم على قوة المجتمع ومدى تماسكه، ومدى قوة قيمه وثقافته. تتعاظم أهمية هذه القضية مع تصاعد الصيحات التى تطالب بالتغيير الذى يشمل مجموع القيم السائدة فى المجتمع، وتنقية التراث من الشوائب التى تكرس التخلف، وتدفع إلى العنف والإرهاب!.ويروج المستعربون



كمال اتاتورك

داخل اسرائيل وفى كثير من الأوساط الغربية، ادعاءات أن «التراث» يدعو إلى استخدام العنف، ويدللون على ذلك بآيات من القرآن الكريم تدعو للجهاد بعد أن يخرجوها من سياقها!

ولم يقتصر الأمر على عدد من الأبحاث أو المقالات، بل تحولت الى سياسات وخطط وبرامج لتحقيق هذا الهدف وتنقية التراث مما يرونه خطرا، وشاهدنا عمليات رصد خطب تلقي فى المساجد فى صلاة الجمعة، وتحليل مضمونها، وحصر للتعليم الدينى فى البلاد الإسلامية، وإبداء الرغبة فى ضرورة تقليصه، ويبدون خشيتهم من أن

• اكتسح المغول العالم الإسلامى. واعتنق الغزاة الإسلام

• كيف اختفي نظام «الساموراى» في اليابان؟

يصبح طلبة المعاهد الدينية مثل «طالبان» فى أفغانستان، التى قامت على طلبة المعاهد الدينية، وتتناول الصحف الغربية العديد من الأبحاث حول برامج تعليم التاريخ واللغة والدين، ويقترحون الخطط البديلة من أجل تنقيتها مما يحرض على العنف!.

وهنا يخلطون خلطا فاحشا بين المقاومة والإرهاب، فالمقاومة أحد أنبل الظواهر البشرية عندما يرفض الإنسان القهر والاستعباد.

وحقيقة الأمر، لكل من يتابع هذه الحملة، وجود خطة تهدف إلى القضاء على مناعة العالم الإسلامى، والنيل من روح التضامن داخله.

فهناك فارق واضح بين نشر القيم وطريقة الحياة الأمريكية وبين محاربة الولايات المتحدة الإرهاب، ولايجوز الخلط بينهما.

وتظل السياسة الأمريكية تنتهج فى المنطقة العربية والإسلامية سياسة تطويع العديد من القوى الإقليمية والمحلية فى المنطقة، حتى تتواءم مع سياستها وتتوافق مع المصالح والأهداف الأمريكية، كما تظل تعمل على التأثير على طريقة تعامل دول المنطقة مع التيارات الدينية. كما تعمل على تقييد المناهج الدينية فى مؤسساتها التعليمية.

فتتخذ السياسة الأمريكية اتجاها محددا مع دول الشرق الأوسط التى تضم فى تكوينها الدينى والعربى ذات السمات التى اتسمت بها المجموعة المتهمة بأحداث ١١ سبتمبر، وهى تسعى إلى نشر القيم الأمريكية تحت شعار «العولمة»، وتحاول رفع شعوب المنطقة إلى هذه القيم بكل الوسائل المتاحة، وتستخدم فى ذلك الهيئات والمؤسسات الدولية بمؤتمراتها وتجمعاتها المختلفة، سواء المتعلقة بالقيم التى تحكم الحياة السياسية أو الاجتماعية مثل حقوق المرأة والطفل، بل حتى الشواذ وتجاهل تضارب ذلك مع القيم الدينية، والتقاليد والثقافة السائدة.

وتتهم الولايات المتحدة بعض دول المنطقة بغياب الديمقراطية، وآخر ماتتطلبه هو الديمقراطية التى فى ظلها ستتمكن الشعوب من الدفاع عن مصالحها، كما يتجاهل الجميع أن قوات الإحتلال البريطانى دخلت مصر فى يوليو ١٨٨٢ لضرب التجربة الديمقراطية التى أقامتها الثورة العرابية.

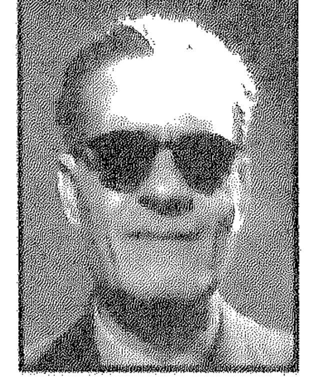
كما تعمل الولايات المتحدة على دعم التحولات التى تشهدها بعض المجتمعات العربية، وإنشاء المدارس والجامعات التى تتبع المناهج الأمريكية لغة وثقافة، مما يؤدى إلى غربة أجيال جديدة عن قيمهم ولغتهم ومجتمعهم وتذهب صيحات د.طه حسين هباء والذى طالب وألح على وحدة التعليم فى مراحل التعليم الأولى..



هنرى ميللر

والغريب ترويجها لاتهام الصحافة بمعاداة السامية، واعتبارها تأييد القضية الفلسطينية تأييدا للإرهاب!.

أوراق القرن العشرين



د. طه حسين

إذا اعتبرنا التجارب التاريخية التى وقعت فى العصور السحيقة مثل ماجرى للرومان والمغول، وانها لاتصلح للقياس عليها، وقلبنا أوراق القرن العشرين ، وجدنا تجارب حديثة، تهدف إلى الهيمنة الثقافية، وتغيير الهوية وقامت تجربتان، غنيتان بالدروس والعبر :

أولاهما : ماجرى للدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى، وماشهدته أسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية.

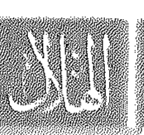
وثانيتهما : ماشهدته اليابان بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، عندما قام القائد الأمريكى الجنرال ماك أرثر بوضع خطة بتغيير كل ما تمثله اليابان من قيم.

العمامة والقبعة

قامت تركيا الحديثة على أنقاض الدولة العثمانية الممتدة بين الشرق والغرب، والتى عاشت رحلة طويلة قاسية زاخرة بالمعارك بين الشرق والغرب بذلت خلالها الكثير من الدم والعرق.

لذا لم يكن غريبا الحرب الشرسة التى شهدتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، والذى تحدد هدفها بالنيل من الهوية الشرقية والدينية بعد أن وصلت بجيوشها وبيارقها إلى القارة الأوربية.

وانتهت الحرب بعد أن خلعت العمامة وارتدت القبعة، وبعد أن توجهت للغرب، وأدارت ظهرها للشرق، وألغت الخلافة الإسلامية التى كان مقرها أسطنبول، ونقلت



العاصمة من اسطنبول التى تتوسط جغرافيا الشرق والغرب، إلى أنقرة الواقعة فى الغرب.

فدار الصراع حول انتماء تركيا وجذوره وأبعاده التاريخية، فبقدر مايعتبر انتماء لندن أو طوكيو أو القاهرة مسألة بديهية، نجد أن هذه المسألة هى التى سعى الغرب لتغييرها.

وعندما توقفت المدافع وانتهت الحرب تحول المجتمع من مجتمع شرقى بكل معالمه إلى مجتمع غربى، تغيرت فيه الأزياء واللغة، فتحولت حروف الكتابة العربية إلى حروف لاتينية، يضمن عدم الرجوع إلى أى كتاب قديم وانتقلت الإجازة الأسبوعية من يوم الجمعة إلى يوم الأحد، وتم ذلك بسلطان الدولة، وليس بالاختيار الحر لأهلها.

فمنذ قيام الدولة العثمانية وحتى انهيارها وهى فى صدام مع الغرب، حتى أصبح لفظ «تركى» قرين «المسلم»، فقد ارتكب العثمانيون الجريمة التى لم يغفرها الغرب أبدا، فبعد أن توقفت الفتوحات الإسلامية عند جبال طوروس، وأصبح الحد الفاصل بين البلاد الإسلامية وبقية العالم هى هذه البلاد، نجحت الدولة العثمانية فى تخطى هذه الجبال، ثم وقفت الدولة العثمانية لكى ترد الغزو الغربى عن الشرق الإسلامى، وكانت الدولة العثمانية آخر وأطول الدول الإسلامية العالمية فى الشرق، بل ومن أطول الإمبراطوريات التى شهدها التاريخ.

ومنذ حصار فينا الثانى سنة ١٦٨٣م، بدأ التراجع والانحدار، وتم استيلاء الروس على الشاطىء الشمالى والشرقى للبحر الأسود فى القرن الثامن عشر واستمر حتى القرن العشرين، عندما خرجت القومية الطورانية من نار الهزائم المتتالية والإمبراطورية المنهارة، ووجد فيها الاتراك ملاذهم.

وتداخل فى هذه المرحلة التغريب مع التتريك، كما تتداخل اليوم العولمة مع الأمركة!.

ونجحت تركيا فى إجلاء قوات الاحتلال، واستعادة سيادتها على أرضها، وأنقذ مصطفى كمال استقلال تركيا، وأذعن فى سبيل ذلك إلى الشروط الغربية، وتوالت التغييرات التى تغير وجه تركيا وهويتها، وسلم بحق

الدول الكبرى فى التصرف فى أراضى الدولة العثمانية فى الأقاليم غير التركية رافضا أن يمس أحد الأراضى التركية..

وفرضت هذه الدول شروطها، بأن تتخلى تركيا عن ارتباطها بالخلافة الإسلامية، وتحول مصطفى كمال من الدعوة الدينية إلى الدعوة القومية، وقطع شوطا كبيرا فى طريق فصل الدين عن الدولة، وأعلن أتاتورك فى الجمعية التركية فى أكتوبر ١٩٢٣م قطع علاقة تركيا بالشرق وقضاياه، وعاد الأتراك إلى الأناضول، وكان ذلك سهلا على القائد المنتصر، وفى مارس سنة ١٩٢٤ ألغى الخلافة الإسلامية، وفى يونيو غيرت الحكومة التقويم الهجرى إلى التقويم الجريجورى.

وتحصنت هذه القرارات بالدستور والجيش التركى.

فعادة بعد الهزائم يفقد المجتمع المهزوم الثقة بقدرته على المقاومة، ويتطلع فى الوقت نفسه إلى مابين أيدى المنتصر.

وتقدم قصة «الدولة العثمانية» درسا بليغا، يحكى عن كيف يمكن أن تتحول وتتبدل الأفكار والمبادىء والقيم السائدة، عندما تتغير موازين القوى، وتؤكد أن من يريد الحفاظ على هويته لابد أن يحافظ على قدرته.

وتظل بقايا الصراع حتى اليوم، فرغم كل ماقدمته تركيا للغرب، مازالت لم تقبل حتى اليوم، فلم تحصل على العضوية الكاملة فى الوحدة الأوربية.

الساموراى

وتجربة أخرى أكثر معاصرة، وأكثر وضوحا، وسجلتها الوثائق الأمريكية شهدتها اليابان عقب الهزيمة التى لحقت بها فى الحرب العالمية الثانية، ورغم التسليم وإعلان استسلامها ألقيت عليها القنبلة الذرية فى هيروشيما وناجازاكى، ولم تكتف الولايات المتحدة بالدمار المادى الشامل، وإنما استهدفت العقول والوجدان، وحتى يكتمل الانتصار.

وكان لابد من القضاء على سر قوة اليابان، وعلى روح اليابان التى دفعت الجندى اليابانى يقاتل بضراوة وعناد، وهو على استعداد ليدفع حياته دفاعا عن وطنه، ويفضل الموت أو «الكارى هارى» عن قبول الهزيمة، فلابد من القضاء على مجموعة القيم والمفاهيم التى جعلت اليابان تملك تلك القوة العسكرية الأسطورية.

وفور وصول «ماك آرثر» القائد العسكرى الأمريكى إلى اليابان ، شرع فى تشكيل

لجنة من الخبراء والمتخصصين تبحث سر قوة اليابان، وكيف يمكن نزع هذه القوة، وكيف يمكن تفكيكها.

وكان المجتمع اليابانى يقوم مثل الهرم الذى يقف على قمته الإمبراطور المقدس إله الشمس، يليه طبقة «الساموراى» بتقاليدهم العسكرية الصارمة، يليهم جموع الشعب التى ترى فى طاعة الإمبراطور طقوسا دينية.

ويذكر الكاتب الأمريكى «باتريك سميث» فى كتابه «بدأ الأمريكيون احتلالهم لليابان بخطة طموحة لإعادة صياغة الحياة اليابانية» ولم يقبل الأمريكيون من اليابان شيئا إلا إذا كان انعكاسا لذواتهم ومفاهيمهم والأخذ بطريقة الحياة الأمريكية التى سرعان ماتؤثر على طريقة التفكير وعلى القيم والمفاهيم السائدة... ويضيف .. لم يقبل ماك أرثر أقل من تحرير اليابانيين من عبء ماضيهم، ومن سدنة الحكم المطلق الإقطاعى الذى دفع اليابانى إلى الكارثة، وهدف إلى نشر الديمقراطية، وأن يغير كل شيء، قلوب اليابانيين وعقولهم وحتى أرواحهم!، وتصور أنه حقق بالفعل النجاح المنشود عندما أدخل موائد البلياردو وحفلات الرقص ولعبة البولينج وفرق الجاز ...»

ويضيف الكاتب الأمريكى قائلا ... «كان احتلال الحلفاء لليابان من سنة ١٩٤٥ وحتى سنة ١٩٥٢، وقام المشروع الثقافى الأمريكى على اكتافهم أولئك الذين قادوا اليابان إلى الحرب، وهؤلاء – أى الساموراى – فعلوا الكثير لمساندة أمريكا فى إعادة اختراع بلادهم، واليابان التى نشاهدها اليوم، هى ذاتها التى صنعتها أمريكا من فساد وسيطرة السوق وتدمير البيئة، بينما الفردية فيها تختنق، والعمل السياسى متعثر وبلا قيادة.

ويعود ذلك كله إلى ذلك الدستور الذى كتب تحت إشراف ماك أرثر..»

أما الأساليب التى اتبعت ، فهى العمل على القضاء على طبقة الساموراى من جانب، والعمل على قيام الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات الأهلية كأدوات للقضاء على توحد الشعب وراء الإمبراطور، واستخدمت من أجل الوصول إلى هذه الأهداف الأعمال الأدبية والأفلام السينمائية وأدوات الاتصال المختلفة.

ولكن رغم ذلك ورغم مايقوله الكاتب الأمريكى، نتساءل هل قضى على القيم اليابانية، وهاهو خبير أمريكى فى الإدارة يقول.. «عندما يفشل مشروع إقتصادى فى أمريكا تستغنى الإدارة عن العمال، وعندما يفشل

مصنع فى اليابان تتغير الإدارة ويبقى العمال...».

ويرى البعض أن كل ماجرى فى اليابان، هو التحول من الجهد الحربى إلى الجهد الاقتصادى، وبدلا من التضحية فى الحروب أصبحت التضحية من أجل بناء اقتصادى قوى، وبدلا من المنافسة فى ميادين القتال انتقلت المنافسة على كسب الأسواق.

من يدفع للزمار؟!

وإذا تلفتنا فى الحاضر وأخذنا نبحث عن المحاولات المختلفة للتأثير الفكرى والثقافى، فسنجد الكثير من الأدوات الظاهرة والذي يقف على قمتها وسائل الاتصال الحديثة أما الخفى فيقفز إلى الذهن كتاب مهم صدر أخيرا وترجمه طلعت الشايب فى مشروع المجلس فالأعلى للثقافة، والكتاب بعنوان «من يدفع للزمار؟»، والزمار هنا هو المثقف، كاتبا كان أم موسيقيا أم رساما، لكاتبته فرانسيس سوندرز البريطانية، وهى من مواليد ١٩٦٦، وخريجة جامعة أوكسفورد، والتى أخذت القارىء وأبحرت به فى بحر هائج يزدحم بالخفايا والأسرار، وبكل مافى هذه الرحلة من مخاطر وأهوال.

بعد أن قضت الكاتبة أربع سنوات تقتفى أثر كل معلومة أو خبر يتعلق بالمخابرات المركزية الأمريكية، تبحث فيما هو متاح وتصل منه إلى ماهو خفى.

تلتقى بكل الشهود الأحياء، وبدأت مشروع الكتاب بعد إعداد برنامج للتليفزيون البريطانى عن علاقة (السى. آى. إيه) بالفنون المختلفة، ووصلت إلى نتيجة مؤداها أن عمل (السى. آى. إيه) فى ميدان الثقافة، أشبه بفيل يدوس بهدوء فى الساحة على التحف التى لايعرف قيمتها دون أى شعور بالمسئولية.

وكشفت من خلال البحث والتقصى أن مئات المؤتمرات والندوات والمحاضرات، والأعمال الفنية المختلفة، كانت تقف خلفها المخابرات الأمريكية، تخطط لها وتمولها.

والكتاب رد واضح على أولئك الذين ينكرون التأثير الخارجى، ومن ينكرون محاولة الدول الكبرى التأثير على غيرها من الدول عن طريق «التلاعب» بالعقول ورد واضح على من لايدركون أن أخطر المعارك تلك التى تدور فى عقول البشر، ومن الطبيعى أن تدور هذه المعارك فى الخفاء، وأن تظهر غير ماتبطن.

ويستعرض هذا الكتاب – الوثيقة – تفاصيل النشاط السرى الذى يدور فى ميدان الفكر والفن، يستهدف الوجدان والمفاهيم والقيم الراسخة

بدأت الدور الذى قامت به المخابرات الأمريكية تحت لافتة مكتب الخدمات الاستراتيجية، والذى قام خلال الحرب العالمية الثانية، وتحدد مهمة هذا المكتب بالقدرة

على اكتشاف الخطر قبل وقوعه، والقضاء عليه من منبعه، وتجدد هذا النشاط مع اشتعال الحرب الباردة، ويروج للنموذج الأمريكى وينفر من النظام الشيوعى.

وأصبح هذا النشاط هو الجانب الفكرى من مشروع «مارشال» الذى يعيد بناء ماتهدم من أوروبا بعد الحرب .. «فيد تقدم الخبز ويد أخرى تقدم ثقافة دولة الخبز»، وأخذت الآلة تدور وتسعى إلى تجنيد الكتاب والفنانين والسينمائيين، وتنظم عقد الندوات والمؤتمرات والمحاضرات، وتستخدم الناشرين والفرق الفنية المختلفة ومعارض الفن التشكيلى، ووصلت إلى حد استخدام الفولكلور والأغنيات الشعبية والرواة الجائلين.

وتبينت الأجهزة السرية أن أنجح الوسائل هو استخدام المنشقين عن اليسار... «وتقوية اليسار غير الشيوعى» وإقامة هياكل تنظيمية متعددة تابعة للمخابرات الأمريكية، وجاء التمويل بالإضافة إلى مشروع مارشال من مؤسسات مالية مثل مؤسستى فورد وروكفلر.

ويدهشك، أن كل ماكان يقال على أنه شائعات أو هواجس، قدمته الكاتبة على أنه حقائق موثقة، ويلاحظ هنا دور اليهود البارز فى هذا النشاط، فكانوا الخميرة لكل نشاط فى المجال الفكرى، وبالتحديد اليهود الشرقيين فى المنفى، ومنذ اللحظة الأولى لهذا النشاط، حددت اللجنة العاملة فى ١١ مايو ١٩٤٩ .. «استخدام المهارات المتنوعة لليهود الشرقيين من أجل التصدى للسيطرة السوفيتية».

وصدرت فى إطار هذا النشاط مجلات كل من كومنترى، ونيو ليدز، وبارتيزان ريفيو، والعلم والحرية، وإنكاونتر التى ساهم فى تحريرها أرنولد توينبى وبراتراندراسل، وهربرت سبنسر كما قام نادى القلم بنشاط ملحوظ فى هذا المجال وهو القائم حتى اليوم وله ٧٦ فرعا فى ٥٥ دولة ومن بينها مصر!

المثقفون وقطع الشطرنج

وكالعادة يخلقون الوحش ثم يعملون على القضاء عليه، وتؤكد الكاتبة.. «أن الأمريكان هم أنفسهم الذين مونوا آلة الدعاية الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية بالزيت.. وهم الذين سعوا بعد ذلك إلى تدمير هذه الآلة».

وتنقل الكاتبة عن المؤرخ الأمريكى آرثر شيلزنجر قوله .. «لم يكن نفوذ

السى. آى. إيه عادة شريرا أو رجعيا»، وكان معظم الكتاب يرحبون بالتعاون معها.

واستطاعت مؤسسة التجسس الأمريكية بالفعل التدخل فى أوروبا .. «وقيامها كعامل مجهول بتسهيل سلسلة عريضة من النشاط الإبداعى، ووضع المثقفين وأعمالهم مثل قطع الشطرنج فى اللعبة الدولية الكبرى!».

وتتساءل الكاتبة .. «أى نوع من الحرية يمكن أن يسفر عنه هذا النوع من الخداع، حينما يعتقد الناس أنهم يتصرفون بحرية بينما هم مكبلون بقوى لاسيطرة لهم عليها». وترصد الكاتبة ما أطلقت عليه «شبكة الدعارة الأكاديمية الدولية»، والتى نشرت العديد من المؤلفات التى انتهى بها الحال إلى محلات بيع الكتب القديمة والمستعملة.

وإذا كان من الطبيعى أن يكون لدى أجهزة التجسس الأمريكية ماتروجه إضافة إلى «طريقة الحياة الأمريكية»، إلا أن مجموعة العمل أخذت تواصل البحث عن الفكر الذى تسوقه، يقول لاسكى «إن ما نحتاجه هو حقيقة نشطة، حقيقة لديها الجسارة الكافية لأن تدخل ساحة الصراع، وليست حقيقة تتصرف مثل المتفرج على الأولمبياد»!.

وتقرر الكاتبة فرانسيس ساندرز أن جورج كينان هو أحد آباء المخابرات الأمريكية، وهو الذى سمح بتدخل سرى فى الانتخابات الايطالية، وهو صاحب الاستراتيجية الأمريكية بعد الحرب الثانية.. يقول .. «لقد فاز الشيوعيون بوضع قوى فى أوروبا عن طريق الاستخدام الذكى والوقح للأكاذيب، حاربونا باللاحقيقة واللامنطق، فهل بإمكاننا أن نحارب اللاحقيقة بالمنطق وننجح؟!» وأصبح ذلك هو دستور الأعمال السرية..

وتورد الكاتبة نص توجيه الرئيس الأمريكى ترومان .. «لابد أن تكون جميع الأنشطة السرية مخططه ومنفذه جيدا بحيث لاتظهر أى مسئولية على صاحبها، ويمكن للولايات المتحدة أن تتنصل بشكل مقنع من أية عمل منها فى حالة اكتشافه...» أما النشاط السرى فهو .. «أى نشاط سرى يهدف إلى التأثير على الحكومات الأجنبية أو الأحداث أو المنظمات أو الأفراد لمساعدة السياسة الأمريكية، ويتم بطريقة لاتظهر أى تورط للأمريكيين»!!

الوسيلة هى الرسالة

هذا هو الشعار الذى عملت على أساسه السى. آى. إيه فى المجال الثقافى، وهنا يظهر مغزى وجود «عدو» فهو لايتعلق فقط بإمكانية حشد الرأى العام وراء السلطة

القائمة، ولا بالإنفاق على العتاد العسكرى، وإنما هى فرصة للكثيرين من أجل العمل والكسب كما لم يكن الهدف هو مواجهة الشيوعية فحسب بل تدمير كل أنواع الفكر النمطى المذهبى، واستغلال الفراغ الذى ينتج عن ذلك.

وقد نجحت المخابرات فى هذه الجولة فى تجنيد كتاب مرموقين، مثل هوارد فاست، وإيليا كازان.

وأقامت منظمة «الحرية الثقافية» مكاتب لها فى كل من المانيا وبريطانيا والسويد والدنمارك وايسلندا، بل وفى قارات أخرى، فى اليابان والهند والأرجنتين وشيلى واستراليا ولبنان والمكسيك وبيرو وكولومبيا والبرازيل والباكستان..

ولم يسبق لأحد أن حاول تعبئة المثقفين والفنانين فى كل أنحاء العالم للقيام بحرب أيديولوجية قبل هذه المرة، وللدفاع عما كان يسمى «موروثنا الثقافى»، وتحطيم الأسطورة الأوربية عن «ضآلة ونقص الثقافة الأمريكية».

وتستعرض الكاتبة المؤتمرات والندوات التى خططت لها المخابرات الأمريكية، وكأنها وزارة ثقافة العالم، كما أصدرت عددا كبيرا من المجلات، مجلة «بريف» فى باريس لتنافس مجلة «الأزمنة الحديثة» التى كان يصدرها سارتر وسيمون دى بوفوار، وصدرت مجلة «القرن العشرين» فى لندن لكى ترد على مجلتى نيشن ونيوستيتسمان!.

ويصف جيمسون السهولة التى كان يقابلها لإشراك الأمريكيين فى المشروعات السرية، بقوله : «لم يكن هناك أحد أذهب إليه وأقول إنى من الـ (سى. آى. إيه) إلا ويرحب بما أعرضه، ويتحدث إلى بكل احترام». وكان رونالد ريجان الرئيس الأمريكى الأسبق هو المتحدث الرسمى باسم لجنة جمع الإعانات فى حملة مشاعل الحرية»، وكانت إحدى المغامرات الأولى لمؤسسة فورد هى بدء برنامج النشر المتبادل بإشراف جيمس لوفلن التى أصدرت أعمال أورويل وهنرى ميللر، وحصلت دار تشيكوف للنشر، على نصف مليون دولار من مؤسسة فورد لشراء أعمال روسية ممنوعة، كما كانت مؤسسة روكفلر، بدرجة لاتقل عن فورد إحدى ركائز آلة الحرب الباردة

الثقافية. وتولى بعد ذلك الرجال الذين ساهموا فى هذا العمل أرفع المناصب.

إنكا ونتر..

وقامت محاولات فكرية مزيفة بتخطيط وتحريض من المخابرات الأمريكية، وكانت الحكومة الأمريكية قد وافقت على طلب الحكومة البريطانية بعدم القيام بنشاط داخل بريطانيا، وفى أواخر ربيع ١٩٥٢ اتفقت المخابرات البريطانية والأمريكية على القيام «بأهم تدخل فى مسار التاريخ الثقافى» وصدرت مجلة ثقافية هى إنكا ونتر تهدف إلى توصيل الأفكار المعادية للشيوعية إلى المثقفين فى العالم الثالث على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية بشراء عدد من النسخ، تشحن وتوزع عن طريق المجلس البريطانى، وكتب ماجروج الذى اشترك فى تحرير المجلة «إن السرية لازمة لعمل المخابرات لزوم الرداء الكهنوتى، ولزوم البخور للقداس، أو الظلام لجلسات تحضير الأرواح، لابد من توفيرها بأى ثمن بصرف النظر عما إذا كانت تخدم أو لاتخدم أى غرض».

ومما يجدر ذكره أنه طلب من ت. س. اليوت الكتابة للمجلة فكتب رسالة يقول فيها .. «إن لديه شكوكا بالنسبة لفعالية المجلة وتأثيرها، ومن الواضح أنها تصدر بدعم ورعاية أمريكية .. وإذا أراد الأمريكى أن يقول شيئا للرأى العام، فمن الأفضل له أن يكتب فى صحيفة أمريكية..».

كل ذلك يلقى بالمسؤلية على المثلث الذهبى الذى يضم الإعلام والتعليم والثقافة، وعلى هذه الأطراف الثلاثة أن تقوم بتجلية القيم العربية، التى تقوم على العدل والحرية واحترام حقوق الإنسان.

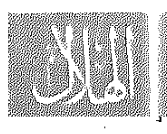
وأن تظل الثقافة العربية قادرة على التفاعل الفكرى، كما كانت دائما، وأن تبقى مفتوحة للتفاعل موصدة أمام الهيمنة.

فهذه الحضارات القديمة فى صراعها، رأينا كيف أثر الإغريق فى الدولة الرومانية، وكيف تأثر المغول بالحضارة الإسلامية، فكلاهما قوة غاشمة بلا عقل، ورأينا محاولتين لطمس هوية كل من الدولة العثمانية واليابان، وتابعنا الصراع الذى اشتعل خلال الحرب الباردة والذى استخدمت فيه كل الأدوات العلنية والسرية.

واليوم يدور الحديث عن صراع الحضارات!

وما نحن فى أشد الحاجة إليه توافق العقل الجمعى للأمة، القادر على التمييز بين مايقال ومالايقال، والذى يميز بين مانعتقده ومانفصح عنه.

فهذا وقت الفعل لا الكلام. ■



غطرسة القوة

وخطر الإمبريالية الجديد

بقلم
محمد يوسف عدس

من عجائب الطبيعة الإنسانية أن يولّد انعدام الثقة بالنفس – عند بعض الناس – شعورا متضخما بالقوة والرسالة ، وأنه إذا اجتمع فى أمة واحدة أقصى القوة مع انعدام الثقة بالنفس تصرّفت بأسلوب فيه خطر على نفسها وعلى الآخرين ... وعادة ما يتملك مثل هذه الأمة رغبة جامحة بحاجتها لأن تبرهن على ماهو واضح جلىّ لكل ذى عينين ... وهذه حالة مرضية من أبرز أعراضها أن تخلط الأمة بين فكرة القوة العظمى والقوة المطلقة ، وبين المسئولية العظمى والمسئولية الكلية .. ويصحب هذا إصرار عجيب على أنها لابد أن تكسب أى مناقشة مع الآخرين مهما بلغت تفاهة ما لديها من مبرّرات. ومن أخطر أعراض هذه الحالة سوء تقدير الأمة لقوتها الحقيقية حيث تتجافى الحكمة عن مواقفها ويتضاءل دور الإدراك الصحيح فى حكمها على الأشياء.

صاحب هذا الكلام الحكيم سياسى أمريكى مخلص لوطنه كتبه ليحذر بلاده من خطر التورط فيما أسماه بـ «غطرسة القوة»، فقد تبين له من دراستــه وتحليله لنشــأة الإمبراطوريات الكبرى فى العالم وانهيارها أن قادة هذه الإمبراطوريات كانوا يفتقرون إلى الحكمة وحسن التقدير فى استخدام ما لديهم من قوة.

وفى إسقاط على الحالة الأمريكية يقول:

«لقد بلغنا الآن نقطة فى التاريخ عندها تصبح الدولة العظمى فى خطر أن تفقد رؤيتها الصحيحة لما هو فى نطاق قوتها وماهو خارج عن حدود هذه القوة، وعندما بلغت أمم أخرى هذا المنحنى الخطير فى حياتها حلّقت أعلى مما ينبغى لها وبسطت جهدها أبعد من طاقتها فانهارت ثم سقطت»

هذا المصير المأساوى وذلك السقوط المروّع من ذروة القوة هو الذى يحذر منه الكاتب والسياسى الأمريكى الحكيم بلاده من خطر الوقوع فيه . إنه وليام فولبرايت. كان نائبا فى مجلس النواب ثم فى الكونجرس. بدأ عمله فى السياسة سنة ١٩٤٣ وأصبح عضوا فى لجنة العلاقات الخارجية ثم رئيسا لها ، شهد عهود خمسة من رؤساء الولايات المتحدة هم روزفلت وترومان وأيزنهاور وكندى وجونسون، وتعاقب عليه ثمانية من وزراء الخارجية .

وللثقة فى خبرته العريضة وحكمته وشجاعته استدعته كلية چونز هويكنز للدراسات الدولية بواشنطن سنة ١٩٦٤ لإلقاء ثلاثة محاضرات عن بعض جوانب من السياسة الأمريكية الخارجية التى يعتبرها الأعظم أهمية والأجدر أن تحظى بإعادة النظر فيها ، فاختار لهذه المحاضرات عنوانا جامعا هو «غطرسة القوة»، على أساس هذه المحاضرات الثلاث ألف وليام فولبرايت كتابا بهذا العنوان نشر له سنة ١٩٦٦.

توقف فولبرايت طويلا وهو يبحث عن إجابة لسؤال كثيرا ما حيره ألا وهو : «لماذا تتنازع الأمم حول قضايا بعينها.. ولماذا تُعنى أصلا بهذه القضايا بالذات!؟». لم يجد فولبرايت إجابة مقنعة أو مريحة فانتهى إلى القول بأنه : «فيما يتعلق بالحرب والسلام ستبقى هناك أسئلة معلقة كأنها غير قابلة للإجابة».

ولكنه وجد مخرجا فى كتابات «ألدوس هكسلى» فاقتبس منها هذه الفكرة كما نتبينها فى السياق التالى:

«قد يحدث بين الناس نقاش حول أفضل طريقة لزراعة القمح فى مناخ بارد، أو حول إعادة تشجير الجبال التى تعرّت من أشجارها، ولكن مثل هذه المناقشات لا تؤدى أبدا إلى مذابح منظمة، إنما تنتج المذابح المنظمة من الجدل حول أسئلة من هذا النوع :

من هى الأمة الأفضل؟

ماهو الدين الأفضل؟

ما أفضل نظرية سياسية؟

ما أفضل شكل من أشكال الحكومات؟

لماذا الشعوب الأخرى بهذا الغباء وذلك الشر؟

ولماذا لا يستطيعون أن يروا كيف أننا أخيار وأذكياء ؟

ولماذا يقاومون محاولاتنا الخيِّرة لجعلهم تحت سيطرتنا لكى نصنعهم مثلنا».

الأسباب المعلنة والأسباب الخفية

يقول وليام فولبرايت معلقا : كثير من الحروب التى خاضتها البشرية كانت حول هذه الأفكار المجردة، وكلما تأملت فى الحروب الكبرى عبر التاريخ كلما زاد اقتناعى بأن الأسباب التى نُسبت إليها مثل الأرض والأسواق ومصادر الثروة والدفاع عن المبادىء الكبرى ، لم تكن فى الحقيقة هى الأسباب الجذرية العميقة، وإنما كانت ذرائع أو شرحا لدوافع كامنة يصعب أو يتعذر سبر أغوارها فى أعماق الطبيعة الإنسانية، ونظرا لغياب الفهم الواضح لماهية هذه الدوافع فإننى أشير إليها بعبارة «غطرسة القوة».. وكأنها حاجة نفسية دفينة تحتاج إليها الأمم لتبرهن لنفسها وللآخرين أنها أعظم وأفضل وأقوى من الأمم الأخرى.

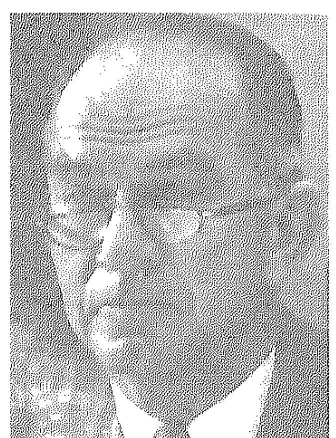
فى أعماق هذه الدوافع الغامضة هناك افتراض غامض لا يحتاج إلى برهان، وهو أن القوة نفسها هى البرهان المطلق على التفوق.. وتفسير ذلك أنه عندما ترينا أمة من الأمم أنها تملك الجيش الأقوى فكأنها بذلك تبرهن لنا ضمنًا أن شعبها ومؤسساتها ومبادئها هى الأفضل، وبصفة عامة أنها تملك الحضارة الأفضل من جميع الحضارات الأخرى.

يستطرد فولبرايت فى تدعيم هذه الفكرة فيقول : «دليلى على صحة هذا أجده فى التناقض الصارخ بين الأسباب المعلنة والأسباب الخفية لكثير من الحروب الحديثة، وفى التناقض بين أسبابها المعلنة وبين النتائج التى وصلت إليها».

ويضرب لنا عدة أمثلة نكتفى بمثلين منها:

١ – كان السبب المعلن للحرب البروسية الفرنسية ١٨٧٠م خلافا بينهما حول من يخلف العرش الأسبانى، وقد اختلط هذا السبب بسبب آخر كان مفهوما ضمنا وهو معارضة فرنسا للوحدة الألمانية، ولكن كان من الواضح أن عملية توحيد ألمانيا كانت تسير فى طريقها، وكان يمكن إتمام هذه العملية بدون الحاجة إلى شن حرب على فرنسا، وفى معاهدة السلام التى انعقدت بينهما لم يرد أى ذكر للعرش الأسبانى فقد نسى الجميع أمره! فما هى النتيجة الواقعية التى تحققت بعد الحرب: خسرت فرنسا مقاطعتى الالزاس واللورين، وتم إذلال فرنسا، وظهور ألمانيا باعتبارها أكبر قوة فى أوربا، وذلك كله لم يكن ليتحقق بدون حرب. ويعجب الإنسان إلى أى مدى كان الألمان مدفوعين برغبة جامحة لتقليص أولئك الفرنسيين المتعجرفين إلى حجمهم الحقيقى!.

٢ – فى سنة ١٨٩٨ ذهبت الولايات المتحدة إلى كوبا تحت شعار تحريرها من الطغيان الأسبانى، ورغم أن أسبانيا كانت مستعدة لدفع ثمن باهظ لكى تتجنب الدخول فى حرب مع الولايات المتحدة، ولكن الأخيرة لم تلتفت إلى ذلك بل مضت فى حربها ضد إسبانيا حتى رحلت عن كوبا.. فما الذى فعلته أمريكا بعد ذلك؟ إنها لم تطلق سراح كوبا وإنما


وليام فولبرايت

وضعتها أولا تحت حمايتها ثم ضمتها إلى أملاكها. كانت الفلبين أيضا تحت الاحتلال الأسباني فقامت أمريكا بشرائها [illegible] وعشرين ألف دولار وفرضت عليها الاحتلال. وبدلا من أن تعترف أمريكا أن احتلالها للفلبين كان وراءه أطماع إمبريالية فى ثروات الفلبين وأسواقها وفتح مواقع جديدة للاستثمارات الأمريكية الرأسمالية، يعلن الرئيس الأمريكى ماكنللى أن الله أوحى إليه أن من واجب أمريكا أن تنهض بعبء تربية الفلبين ورفع شأنهم وتحضيرهم وتنصيرهم... ويستطرد قائلا : «سوف نبذل قصارى جهدنا معهم لأنهم إخواننا فى الدين الذين مات المسيح من أجلهم».

ويعلق فولبرايت على هذا الكلام ساخرا فيقول: «أليس من المثير حقا أن يكون الصوت هو صوت الرب بينما الكلمات هى كلمات «ثيودور روزفلت» و«هنرى كابوت لودج» و«الأدميرال ماهان»؟!.. وكان هؤلاء هم قادة الإمبريالية وروادها سنة ١٨٩٨، الذين أرادوا أن يبنوا لأمريكا إمبراطورية لمجرد أنها دولة كبرى قوية.

كانت هذه هى روح العصر التى عبر عنها بوضوح «ألبرت بفريدچ» بقوله: «إننا عنصر غازٍ بطبعه.. وينبغى أن نطيع دوافع الغزو التى تجرى فى دمائنا.. وأن نحتل أسواقا جديدة وإذا لزم نحتل أراضى جديدة».

والسبب كما يراه بفريدچ: «أن الله فى قدره وخطته الأزلية أن تزول الحضارة المتردّية وتتلاشى الأجناس المنحطة أمام زحف الحضارة الأرقى والإنسان الأقوى والأنبل».

فى إطار سيادة «غطرسة القوة» على ثقافة الشعب الأمريكى يحاول وليام فولبرايت تقييم مواقف الأمريكيين تجاه الشعوب الأخرى الصغيرة، تلك الشعوب التى ذهب الأمريكيون لمساعدتها، يقول: «بصفة عامة يمكن القول بأن هناك علامات لغطرسة القوة لا تخطئها العين فى مسلك الأمريكيين عندما يذهبون إلى البلاد الأخرى.. وغالبا ما يعلق الأجانب على التناقض الملحوظ بين سلوك الأمريكيين فى بلادهم وفى الخارج، فهم فى بلادهم كرماء أما فى الخارج فإن شعورهم بالانتماء إلى أكبر وأغنى دولة فى العالم يجعلهم يتصرفون بشىء من التعالى كأنهم يملكون المكان وكأن أهل البلاد أنفسهم غير موجودين.

الشعور بالرسالة

إلى جانب الشعور بالقوة المتفوقة يأتى شعور آخر مرتبط به وهو شعور بالرسالة، أو الواجب الذى يرى الأمريكيون أن يؤدوه تجاه الآخرين. ويضرب على ذلك فولبرايت بمثالين نلاحظ فيهما اختلالا فى فكرة الواجب ونشازا فى السلوك المترتب عليها:

يحكى الدكتور «تشيشو لم» قصة عن أحد المبشرين المسيحيين البارزين،

ذهب يعظ فى بلاد الإسكيمو.. قال عن لسانه: «لقد مكثنا معهم عددا من السنين لم نستطع أن نعمل شيئا على الإطلاق.. فهؤلاء الإسكيمو لايقترفون أى إثم كما نفعل.. ويبدو أنه لكى نستطيع فعل أى شىء معهم لابد أن نعلمهم أولا كيف يرتكبون الآثام لعدة سنوات!».

أما المثال الثانى فيأتى فى قصة أخرى لثلاثة من تلاميذ الكشافة كتبوا فى تقرير لرئيسهم: أنهم استطاعوا مساعدة امرأة عجوز فى عبور الطريق.. فسألهم: ولماذا احتاج الأمر إلى ثلاثة؟ ألم يكن واحد منكم فقط قادرا على القيام بالمهمة؟ فأجاب التلاميذ ببساطة: «كانت المرأة ترفض عبور الطريق..!»، وفى هذا إيحاء بأن المرأة لم تكن تريد ولا كانت بحاجة لعبور الطريق، ولكن التلاميذ المتحمسين لفعل الخير أجبروها قسرا على فعل ما لا تريد!

كوريا وڤيتنام

تتجلى غطرسة القوة وانحراف الرسالة فى علاقة الولايات المتحدة بكل من كوريا الجنوبية وڤيتنام.. وهنا نجد فولبرايت متأثرا بالأهداف البراقة المعلنة عن أسباب التدخل فى هاتين البلدين.. وخلاصتها أن أمريكا ذهبت لمساعدتهما فى الدفاع عن نفسيهما وعلى إقامة حياة ديمقراطية .. ولكنه يثير على ذلك اعتراضا مهماً يتصل بأسلوب التدخل العسكرى واستخدام القوة فى تحقيق مثل هذه الأهداف.

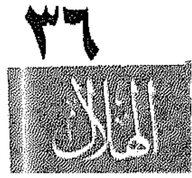
هو يعترض فى الأساس على قدرة الولايات المتحدة أو أى دولة غربية أخرى عندما تذهب إلى شعب آسيوى صغير غريب ومتخلف لكى تخلق عنده استقراراً حيث تسود الفوضى، وتحيى إرادة النضال حيث تسود روح الانهزام، وتقيم ديمقراطية حيث لا توجد تقاليد ديمقراطية، وحكومة أمينة حيث الفساد هو اسلوب الحياة.

لذلك نراه يعبر عن دهشته من المظاهرات التى اندلعت فى ربيع ١٩٦٦ في شوارع سيجون ضد الولايات المتحدة حث أحرق المتظاهرون سيارات الچيب الأمريكية وحاولوا الاعتداء على الجنود الأمريكيين، وأخذوا يهتفون بسقوط الإمبريالية الأمريكية، ووقف رجل دين بوذى يخطب فى الجماهير فلعن الولايات المتحدة والشيوعيين باعتبارهم جميعا مصدر تهديد لاستقلال كوريا.

يقول فولبرايت معلقا على ذلك: «لقد شعر الأمريكيون بصدمة كبرى وغضب شديد أن يفاجأوا بكل هذه المشاعر المضادة من شعب لولا تضحيات الأمريكيين بأموالهم وأرواحهم ما كان له أن يتحرر».

ويتساءل مستنكرا : «أهم حقا يكنون لنا كل هذه الكراهية وهذا الجحود!؟».

ومرة أخرى يقدم فولبرايت عن هذا التساؤل إجابة يبدو فيها تأثره بالأنماط الفكرية السائدة فى الولايات المتحدة فيقول: «إنه التأثير القاتل للغنىّ والقوىّ على الفقير الضعيف.. فالقوة الأمريكية إهانة لضعفهم والغنى الأمريكى سخرية بفقرهم والنجاح الامريكى تذكرة لهم بفشلهم..»، «ويستخلص من ذلك» أن ما



ينكرونه منا هو الأثر القاهر لثقافتنا القوية على ثقافتهم الهشة».

أسباب وهمية للكراهية

نلاحظ هنا أن فولبرايت يكاد ينسى فكرته الأصلية عن غطرسة القوة وتأثيرها على السلوك الأمريكي تجاه الشعوب الأخرى، فراح يلتمس أسبابا وهمية للكراهية والتمرد على الولايات المتحدة.

من أجل هذا لا ينبغي أن نستغرب الأفكار أو التصريحات التي أطلقها الرئيس جورج بوش الأصغر بعد حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عن حرب الإرهاب الإسلامي والحملة الصليبية التي كان يزمع شنها على الإرهابيين الأصوليين، وأهم من كل هذا هو تصويره لمشاعر العداء للولايات المتحدة أنه عداء للديمقراطية والحضارة والرخاء الذي يتمتع به الشعب الأمريكي.

إنه نفس المصدر الذي خرج منه البيان الذي وقعه ستون من المثقفين الأمريكيين يهاجمون فيه الإسلام وينسبون إليه الإرهاب، ويحرضون الولايات المتحدة على ردع المسلمين أعداء الغرب والحضارة الغربية، تأكيدا لوجهة نظر الصهيوني العريق صامويل هانتنجتون في نظريته عن صدام الحضارات..

ربما نلتمس لوليام فولبرايت العذر في أنه كان يحمل في مخيلته صورة مشرقة لبلاده في ذلك الوقت من عام ١٩٦٦، ولم يكن الخطاب السياسي في الإدارة الأمريكية قد انحدر إلى هذا المستوى الذي نشهده اليوم بحيث تصف واحداً من أكبر مجرمي الحرب في التاريخ المعاصر بأنه رجل سلام، ربما نلتمس العذر لوليام فولبرايت لأنه لم يشهد دولته تنتهك الديمقراطية وحقوق الإنسان على الأرض الأمريكية كما تفعل اليوم حيث تنتهك حرمات البيوت وتلقى القبض على آلاف الأبرياء وتصادر المؤسسات الخيرية الأمريكية التي يملكها المسلمون بحجة محاربة الإرهاب.

المشهد الڤيتنامي

تستقيم الصورة عند فولبرايت عندما ينتقل إلى المشهد الڤيتنامي حيث يقتبس تقريراً لمراسل نيويورك تايمز ويعلق عليه باعتباره نموذجا متكررا لتقارير صحفية أمريكية أخرى كثيرة.. والحديث عن ڤيتنام الجنوبية في الوقت الذي كانت تتعرض فيه لهجمات الڤيتكونج الشيوعيين، وكانت القوات الأمريكية تملأ البلاد بحجة الدفاع عن الفيتناميين في الجنوب.

هذه بعض محتويات التقرير الصحفي:

«وجد كثير من الڤيتناميين أنفسهم مضطرين للسماح لنسائهم وبناتهم للعمل في الحانات لخدمة روادها من الجنود الأمريكيين، وإشباع غرائزهم الجنسية.. وقد انتحر جندي ڤيتنامي تحت وطأة الشعور بالعار لأن زوجته افترسها جندي أمريكي في واحدة من هذه الحانات»... ويمضي التقرير الصحفي ليتحدث عن صعوبات الحياة اليومية والمعيشية التي يعانيها الڤيتناميين بسبب وجود القوات الأمريكية في بلادهم فقد أصبح من الصعب على الفيتنامي ايقاف تاكسي لأن صاحب التاكسي يفضل الزبائن الأمريكيين لأنهم يدفعون ببذخ. في هذا المناخ الذي أشاعه الأمريكيون بدولاراتهم صعدت طبقة من بنات الحانات والعاهرات وأصحاب الملاهي

الليلية وسائقى التاكسى إلى أعلى درجات الهرم الاقتصادى فى ڤيتنام الجنوبية، وعلى عكس ذلك تدهورت أوضاع الطبقة المتوسطة فأصبحت الأسر فيها لا يستطيعون الحصول على مسكن مناسب، لأن الأمريكيين رفعوا إيجارات المساكن إلى مستويات لا يقدر عليها الڤيتناميون، حتى أن أصحاب العقارات كانوا يطردون سكانها الوطنيين لتأجيرها للأمريكيين، وأصبح الموظف الڤيتنامى والجندى.. بل الضباط الڤيتناميين غير قادرين على إعالة أسرهم بسبب التضخم المالى الذى أحدثه الأمريكيون فى الاقتصاد الڤيتنامى..

التقى الصحفى الأمريكى بعدد من الڤيتناميين فى الطريق وسألهم عن مشاعرهم تجاه الوجود الأمريكى، فلم تخرج إجاباتهم عن هذه العينة: قال أحدهم: «فى أى وقت وفى أى مكان يحلّ فيه الأمريكيون البيض تحل الأزمة بالسكان الوطنيين»، وقال آخر «نحن لا نحب الأجانب .. أى نوع من الأجانب فلا تتعجبوا أننا لا نحبكم».

ويعلق وليام فولبرايت على ذلك بقوله:

«وهكذا فإنه برغم الجهود الأمريكية لبناء الحرية فى ڤيتنام الجنوبية فإن النتيجة كانت مختلفة عما قصد بها فكأن كل هذا النضال والمعاناة لجعل العالم مكانا أفضل كان خطأ كبيرا».

هو يفترض أن هذا كان هدف الولايات المتحدة فى ڤيتنام، ونحن قد لا نتفق معه فى افتراضه ولكننا نوافقه على النتيجة التى توصل إليها، وهى «أن الوسيلة التى لجأت إليها الولايات المتحدة فى تحقيق هذا الهدف كانت خطأ كبيرا، «ذلك أننا كنا نريد تغيير المجتمع الڤيتنامى بالقوة وهى مهمة لا يمكن - بطبيعتها - أن تتحقق بالقوة ولا بأى وسيلة أخرى يملكها جنودنا فقد يكون الهدف مرغوبا ولكنه مستحيل» ويستشهد على ذلك بعبارة لجورج برنارد شو حيث يقول: «إن الدين قوة كبرى بل هو القوة الحقيقية المحركة فى هذا العالم، ولكن ما لا تفهمونه أيها الأصدقاء، هو أنه لابد أن تصل إلى الإنسان من خلال دينه هو، لا من خلال دينك أنت».

يقول فولبرايت فى موضع آخر: كان هدفنا البرئ هو تعزيز التنمية والديمقراطية فى البلاد التى أردنا مساعدتها، ولكن فلاسفتنا رأوا أنه للوصول إلى هذه الغاية لابد من تدمير أساليب الحياة القديمة العقيمة.. فى هذا الجزء الأخير كنا أكثر نجاحا، ويرجع ذلك إلى المعرفة والمهارة والمال والموارد التى توفرت لنا بمقادير لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ومن ثم استطعنا السيطرة على سكان البلاد الأصليين وعلى مقدراتهم.. وهنا انتهى نجاحنا، فقد انهار نظام الحكم التقليدى وانهارت المؤسسات وأساليب الحياة تحت طرقات الثراء الأمريكى والقوة الأمريكية.. ولكننا فشلنا فى استبدال ذلك بمؤسسات جديدة وأساليب جديدة فى الحياة، ولم يسفر هذا التفكيك عن ديمقراطية أو تنمية أو تقدم بل أسفر عن فوضى عارمة وانحطاط، ذلك لأننا خلال عملية هدم الأساليب التقليدية فى العمل هدمنا الثقة بالذات والاعتماد على النفس، وهما ركيزتان لا يمكن لمجتمع بدونهما أن يبنى مؤسساته.. فتحول الناس بين يوم وليلة إلى حالة من التسوّل والعالة


ثيودور روزفلت

وامتهان الذات».

في ضوء هذه الحقائق التي ساقها وليام فولبرايت بقوة ووضوح ألا يحقّ لنا أن نتوقف قليلا لنتأمل سر الضغوط الأمريكية لعولمة ثقافتها ولتغيير نظمنا التعليمية دينية كانت أو مدنية؟. لا أحد ينكر أن نظمنا التعليمية مثل نظمنا السياسية والإدارية بحاجة ماسة إلى التغيير والإصلاح. ولكن أي إصلاح؟ هذا الذي تفرضه علينا إرادة أجنبية متغطرسة أم الإصلاح الذي نراه نحن ونخططه وفق اقتناعنا وفي إطار إرادتنا الجماعية؟.

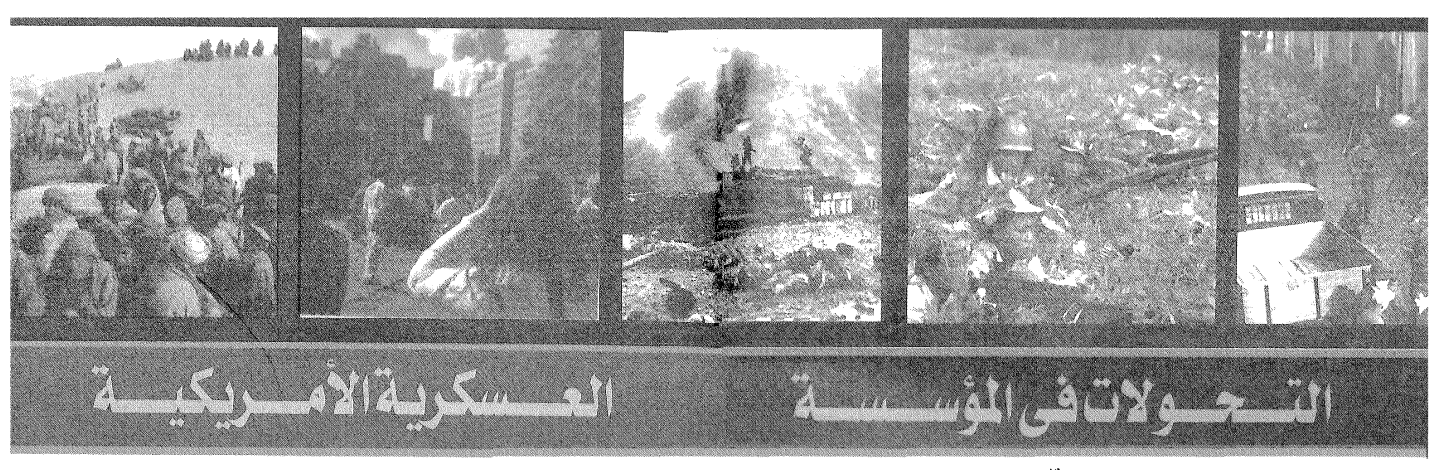
أليس من حقنا أن نتساءل: أين ومتى سعت الولايات المتحدة لإصلاح شأن أو مساندة نظام ديمقراطي حقيقي في أي دولة من دول العالم الثالث الذي ننتمي إليه؟!.

إن الإنسان ينظر حوله فلا يرى سوى أعمال القمع والتدمير والعقوبات الجماعية والمؤامرات التي تمارسها الولايات المتحدة وحليفتها الاستراتيجية إسرائيل في هذا العالم من أفغانستان إلى فلسطين عبر العراق. ولا يعرف من أصدقاء أمريكا إلا طرازا نمطيا من الطغاة الفاسدين الذين كانوا وبالا على شعوبهم، من أمثال ماركوس وشاه إيران وسوهارتو، ثم جنرالات الانقلابات الدموية في أمريكا اللاتينية، وجنرالات تركيا الذين يقفون حجر عثرة في طريق الديمقراطية، ويفرضون على شعب مسلم تحالفا مشبوها مع الكيان الصهيوني ضد إرادة الشعب، وينّصبون من أنفسهم حُراسا على نظام غبيّ يعتبرونه مقدسا، وأعني به نظام أتاتورك. أليس من دواعي السخرية أن تروج الولايات المتحدة لهذا النظام بالذات وتدعو الدول المسلمة كلها أن تحذو حذوه!؟.

★★★

لم تعد الولايات المتحدة تهتم بتغليف خطابها السياسي بشيء من الدبلوماسية، فقد أصبح خطابا صريحا ينطوي على أوامر مباشرة مصحوبة بالتهديد السافر «إما أن تكون معنا أو ضدنا.. وعليك أن تتحمل نتائج موقفك!»، فإذا توجه الخطاب إلى البلاد العربية والاسلامية يبلغ أقصى استهانته واستخفافه: «على قادة الدول في المنطقة أن يكونوا مواطنين صالحين.. عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في محاربة الإرهاب»، والإرهاب في القاموس الأمريكي يشمل المقاومة الفلسطينية واللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي.

ليس من المستغرب إذن أن تختار أمريكا ممثلا لسياستها الخارجية جنرالا لم يمارس الدبلوماسية قط، فهي لم تعد بحاجة إلى دبلوماسية.. وعلينا أن ندرك أن العالم الآن يواجه إمبريالية جديدة تتمتع بطاقة هائلة من غطرسة القوة، وتتكشف أمامنا عن حالة مرضية لم يشهدها العالم منذ انتحار هتلر وسقوط النازية. ■



التحولات فى المؤسسة العسكرية الأمريكية

بقلم
محمود عزمى

تعودت الولايات المتحدة الأمريكية أن تخوض الحروب خارج أراضيها خلال القرن العشرين، مثل الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) والحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) والحرب الفيتنامية (١٩٦٥ - ١٩٧٥)، دون أن تتعرض أراضيها لأية هجمات مباشرة. ولذلك ترسخ لدي شعبها وقادتها السياسيين والعسكريين - خاصة فى ظل تمتعها بقوة عسكرية تقليدية ونووية ضخمة للغاية - اعتقادا بأن أرض الوطن الأمريكى ليست عرضة لأية هجمات جوية تقليدية. ومن ثم كانت الصدمة السياسية والعسكرية والمعنوية التى لحقت بها شعبا ودولة، نتيجة الهجمات الانتحارية بالطائرات المدنية المخطوفة التى جرت فى كل من مدينتى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، والتى أسفرت عن ٣٤٠٦ قتيلا ومفقودا، كبيرة وعميقة التأثير سياسيا وعسكريا ومعنويا بدرجة غير مسبوقة فى تاريخها طوال القرن العشرين.

* باحث استراتيجى مصرى

وهذا ما عبر عنه دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الأمريكى الحالى، فى مقال بعنوان «تحويل المؤسسة العسكرية» نشرته فصلية «شئون خارجية» (فورين أفيرز) فى عدد مايو/ يونيو عام ٢٠٠٢، تناول فيه التطورات التى لحقت بالعقيدة العسكرية الأمريكية وكذلك بالمؤسسة العسكرية، بعد هذه الأحداث التى جعلت الولايات المتحدة تدرك بطريقة مؤلمة تحديات القرن الجديد، حيث قال: «من كان يمكنه أن يتخيل، منذ شهور قليلة فقط، أن الإرهابيين سيحولون طائرات خطوط جوية تجارية إلى صواريخ، ويستخدمونه ضد مبنى البنتاجون ومركز التجارة العالمى، ويقتلون الآلاف من الناس. وفى السنوات المقبلة، ستفاجأ الولايات المتحدة على الأرجح مرة أخرى، بمغامرين جدد قد يلجئون إلى ضربها بأساليب غير متوقعة. ونظرا لأنهم يملكون أسلحة فعالة تتمتع بمدى وطاقة متزايدين، فإن الهجمات قد تكون أكثر فتكا من تلك التى عانينا منها فى ١١ سبتمبر».

وأوضح رامسفيلد أن هذا تحدى صعب فى القرن الجديد، لأنه يعنى الدفاع عن الولايات المتحدة: «ضد أخطار مجهولة، وغير مؤكدة، وغير مرئية، وغير متوقعة. الأمر الذي قد يعنى أنها مهمة مستحيلة ولكنها ليست كذلك». ولذلك «يجب أن ننحى جانبا أنماط التفكير المريحة ونخطط للمخاطر ونستخدم أساليب جديدة، حتى يمكننا ردع وهزيمة قوى معادية لم تظهر للعيان بعد لتتحدانا».

استراتيجية جديدة

ومن هنا كان من الضرورى للولايات



المتحدة – فى رأيه – التوصل إلى استراتيجية جديدة لمواجهة تحديات المستقبل. ولذلك قررت الخروج من إطار الاستراتيجية السابقة التى مارستها فى مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة مباشرة. والتى كانت تقضى بالاحتفاظ بقوات عسكرية تكفى لخوض «حرب فى مسرحى عمليات رئيسيين» وتكون قادرة على احتلال عاصمة عدوين فى آن واحد وتغيير أنظمتهما السياسية. وذلك بعد أن أصبح ذلك المفهوم الاستراتيجى يجعلها غير متأهبة لمواجهات تحديات القرن الحادى والعشرين الطارئة وغير المتوقعة. وفى هذا الصدد يقول رامسفيلد: «فبدلا من الاحتفاظ بتشكيلات تكفى لتشكيل قوتى احتلال رئيسيتين، قررنا أن نولى تركيزا أكبر لتوفير الردع فى أربع مسارح عمليات حرجة ، مدعومين فى ذلك بالقدرة اللازمة لإلحاق الهزيمة الحاسمة والسريعة بعدوين فى آن واحد، مع الاحتفاظ بخيار تنفيذ هجوم مضاد كاسح واحد لاحتلال عاصمة عدو وتغيير نظام الحكم فيه. الامر الذى يحرر قوة الاحتلال الثانية، التي ستوفر مصادر عسكرية جديدة للمستقبل لمواجهة القوي الطارئة التى قد تواجهنا».

وأضاف رامسفيلد موضحا أن الولايات المتحدة قررت أيضا أن تتحرك بعيدا من إطار الإستراتيجية «المنطلقة من التهديد» التى حكمت التخطيط الدفاع الأمريكى نحو نصف قرن، وتبنت مفهوما استراتيجيا جديدا قائما على القدرات» يركز بصورة أقل على من يمكن أن يهدد الولايات المتحدة، أو أين، وبصورة أكثر على كيف يمكن أن يتأتى التهديد وما تحتاجه لردع مثل هذه التهديدات والدفاعى ضدها. وقال: «بدلا من إعداد قواتنا المسلحة على أساس خطط مقاتلة هذا البلد أو ذاك، نحن فى حاجة إلى فحص نقاط ضعفنا. وأن نسأل أنفسنا. كما فعل فردريك الاكبر فى كتابه «المبادىء العامة للحرب» الذى قال فيه: «أى مخطط كنت سأقوم به فيما لو كنت محل العدو»؟. ثم نكيف قواتنا على أساس ما هو ضرورى لردع وهزيمة هذا التهديد. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أنه بسبب امتلاك الولايات المتحدة لقوة لا نظير لها فى البر والبحر والجو، فإنه من غير المنطقى أن يحاول أعدائها الكامنين منافستها بشكل مباشر. فهم تعلموا فى حرب الخليج أن المواجهة المباشرة للقوات المسلحة الأمريكية يعد عملا متهورا. ولذلك فإنهم بدلا من إعداد جيوش وقوات بحرية وجوية منافسة سيبحثون. على الأرجح، على تحدينا على نحو غير متماثل من خلال البحث عن نقاط الضعف لدينا ومحاولة استغلالها. وهؤلاء الأعداء المحتملين ، على سبيل المثال، يعلمون أن

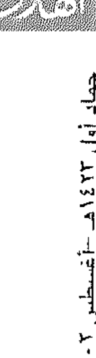
المجتمع الأمريكى المفتوح أكثر عرضة لهجمات الأنماط الإرهابية الجديدة. إنهم يعتقدون أن الوسائل الفضائية وشبكة المعلومات الأمريكية قابلة لمهاجمتها. إنهم يعرفون أن قدرة أمريكا لاستخدام القوة العسكرية فى أماكن بعيدة من العالم يعتمد، فى بعض الحالات، على قواعد أجنبية عرضة للهجوم. وإنهم يعلمون أيضا أنه ليس لدي الولايات المتحدة دفاع ضد هجمات الصواريخ الباليستية، الأمر الذى يوفر باعثا على تطوير أسلحة دمار شامل ووسائل توصيلها. ولذلك يجب على الولايات المتحدة أن تتوقع مهاجمة الوسائل الفضائية، وشبكة المعلومات ، وصواريخ «كروز» (الصواريخ الجوالة) «قصيرة المدى التى تتابع الأهداف الجوية المعادية تلقائيا، والصواريخ الباليستية، والأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. وفى الوقت نفسه عليها أن تدعم مجالات القدرات التى تتميز فيها، مثل القدرة على إسقاط قوة عسكرية عبر مسافات بعيدة، وأسلحة الضربات دقيقة التوجيه، والقدرات الفضائية، والاستخبارية، وقدرات الحرب تحت سطح الماء».

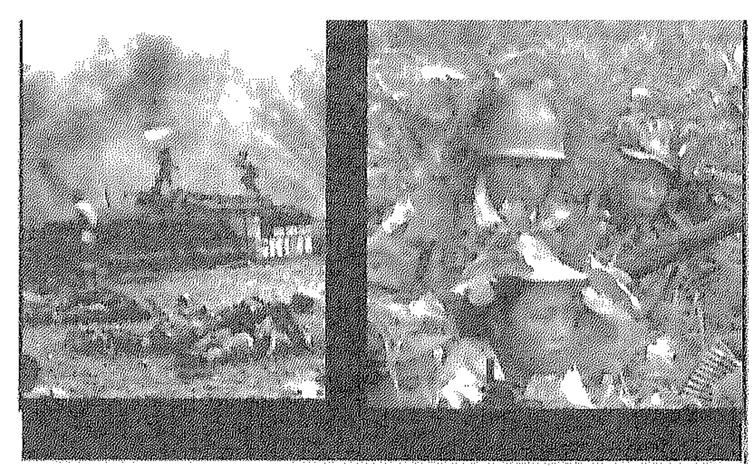
ستة أهداف للتطوير

وأوضح رامسفيلد أنه قبل وقوع الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن كانت وزارة الدفاع الأمريكية قد قررت بالفعل، التركيز علي تحقيق ستة أهداف تستند إليها عملية تطوير كل من العقيدة والمؤسسة العسكرية الأمريكيتين:

أولا: توفير الحماية الدفاعية لأراضى الولايات المتحدة وقواعدها العسكرية الخارجية. ثانيا: تأمين القوة العسكرية الأمريكية وإدامتها فى مسارح العمليات البعيدة. ثالثا: حرمان أعداء الولايات المتحدة من المأوى والملجأ، والتأكد من علمهم أن ليس هناك مكان فى العالم مهما كان نائيا أو في جبل وعر أو تحت الأرض، يمكن أن يحميهم من إمكان وصول القوة العسكرية الأمريكية إليهم. رابعا: حماية شبكة المعلومات والاتصالات من الهجمات. خامسا: استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال المتوافرة لدى الولايات المتحدة لتأمين الربط بين مختلف فروع القوات المسلحة الأمريكية حتى يمكن لها أن تقاتل بشكل مشترك. سادسا: الاحتفاظ بالسيطرة على الفضاء وحماية القدرات الفضائية الأمريكية من أية هجمات معادية.

وقد دعمت خبرات ١١ سبتمبر، وحملة أفغانستان التالية لها، الحاجة إلى تحريك وضع الدفاع الأمريكى فى الاتجاهات المشار إليها. وذلك هو السبب فى أن ميزانية الدفاع عن عام ٢٠٠٣ قد صممت لتطوير كل من هذه الأهداف الستة من خلال زيادات مهمة فى الاعتمادات المالية الخاصة بها. ولذلك يجرى زيادة الاعتمادات الخاصة بتطوير برامج التحويل التى توفر قدرات جديدة تماما، وتحديث البرامج التى تدعم التحويل المذكور فى الوقت نفسه. وفي خلال السنوات الخمس التالية، سوف





تزداد المخصصات المالية للدفاع عن أرض الوطن الأمريكي والقواعد الخارجية بنسبة ٤٧٪، وعلى البرامج الهادفة إلى حرمان الأعداء من المأوى والملاذ بنسبة ١٥٧٪، وعلى البرامج الهادفة لتأكيد قدرة إسقاط القوات العسكرية الأمريكية فى المناطق المعادية البعيدة بنسبة ٢١٪، وعلى برامج الربط والاتصال بين المعلومات التكنولوجية بنسبة ١٢٥٪، وعلى برامج مهاجمة شبكات معلومات العدو والدفاع عن شبكات المعلومات الأمريكية بنسبة ٢٨٪، وعلى البرامج الهادفة إلى تقوية القدرات الفضائية الأمريكية بنسبة ١٤٥٪.

وفى الوقت نفسه افترضت وزارة الدفاع الأمريكية إنهاء مجموعة من نظم التسلح غير المتوافقة مع الاستراتيجية الدفاعية الجديدة مثل «برنامج البحرية للدفاع الصاروخى عن المنطقة»، والصواريخ الباليستية (أرض - أرض) العابرة للقارات «ل ج - ١١٨ بيس كيبر». كما افترضت أيضا التخلى عن المشروعات التسليحية المتقادمة والمكلفة للاحتفاظ بقدراتها، مثل مقاتلات «ف - ١٤» و١٠٠٠ هليكوبتر تعود إلى مرحلة الحرب الفيتنامية.

ولم يكن الهدف من وراء ذلك كله تطوير المؤسسات العسكرية الأمريكية بأكملها خلال عام واحد، أو حتى خلال عقد واحد. لأن ذلك أمر غير ضرورى وغير حكيم فى الوقت نفسه. نظرا لأن التحويل ليس حدثا، وإنما هو عملية تقدم مستمرة. ولن تكون هناك نقطة يمكن أن يعلن عندها أن القوات المسلحة الأمريكية قد أتمت تحولها وتطورها.

الوصول السريع لمسرح العمليات

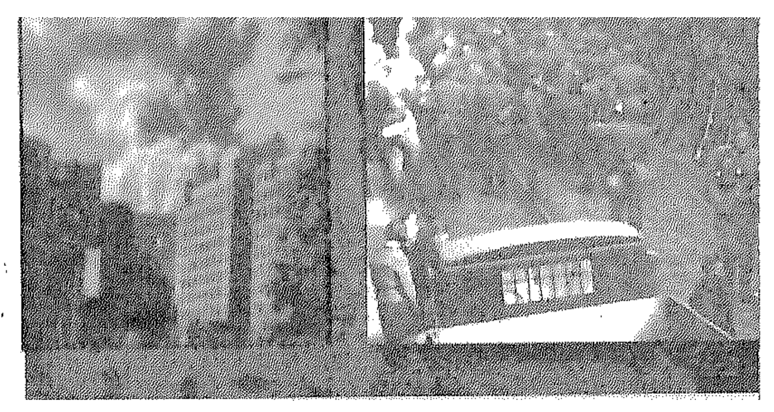
ويقول رامسفيلد فى هذا الخصوص: «إن التحدى الذى يواجهنا فى القرن الحادى والعشرين هو الدفاع عن مدننا، وأصدقائنا وحلفائنا وقواتنا المنتشرة وأجهزتنا الفضائية وشبكات الكومبيوتر، ضد الأشكال الجديدة من الهجوم، فى الوقت الذى نرسل فيه قوات لمسافات بعيدة لمقاتلة الأعداء الجدد. وهذا يتطلب توفر قدرة سريعة على نشر قوات مشتركة مندمجة بالكامل، قادرة على الوصول السريع إلى مسارح بعيدة للعمليات والعمل مع القوات الجوية والبحرية لضرب الأعداء بسرعة وبنتائج فعالة. وهذا يتطلب استخبارات محسنة، وقدرات قصف بالغة الدقة، ومنصات بحرية للمساعدة فى التصدى لقدرات وسائل دخول الأعداء. إن هدفنا ليس ببساطة مجرد خوض الحروب وكسبها، وإنما العمل على منع وقوعها. ولكى نحقق ذلك يجب أن نجد سبل للتأثير على صناعة القرار لأعدائنا المحتملين، وردعهم ليس فقط عن استخدامهم

الأسلحة الموجودة لديهم ولكن أيضا وأساسا لمنعهم عن بناء أسلحة جديدة خطيرة». وأضاف موضحا أنه يجب على الولايات المتحدة تطوير مصادر قوة جديدة يشكل مجرد امتلاكها عامل غير مشجع لأعدائها على منافستها. فعلى سبيل المثال يشكل نشر دفاعات فعالة مضادة للصواريخ الباليستية عاملا قد يثنى الآخرين عن إنفاق مبالغ طائلة لامتلاك صواريخ باليستية، لأنها لن توفر لهم فى الحالة المذكورة ما يبتغونه من وراء امتلاكها: وهو القوة التى تجعل مدن الولايات المتحدة وحلفائها رهينة الابتزاز النووى. وإن تقوية النظم الفضائية الأمريكية وتطوير وسائل الدفاع عنها يمكن أن تثني أعداء الولايات المتحدة المحتملين عن تطوير أسلحة صغيرة مدمرة للأقمار الاصطناعية لمهاجمة شبكة الأقمار الاصطناعية الأمريكية. كما أن أسلحة اختراق القشرة الأرضية وأسلحة الديناميكية الحرارية مثل تلك التى استخدمت ضد قوات «طالبان» و«القاعدة» المختبئة فى الجبال بأفغانستان، من الممكن أن تؤدى إلى هجر الكهوف والملاجىء الموجودة فى العمق تحت الأرض والتى يختفى داخلها الإرهابيون والتى يمكن أن تخفى الدول الإرهابية داخلها أسلحة الدمار الشامل.

وبالإضافة لبناء قدرات جديدة، فإن تطوير المؤسسة العسكرية الأمريكية تتطلب أيضا إعادة التوازن بين القوات الموجودة والقدرات، من خلال مزيد من الوسائل التى يسميها البنتاجون «معدات منخفضة الكثافة/ ذات متطلبات عالية. فعلى سبيل المثال أوضحت خبرة الحرب فى أفغانستان مدى فاعلية الطائرات بدون طيار، وفى الوقت نفسه كشفت نقاط الضعف فى الطائرات المذكورة ومدى قلة ما لديها منها.

وقد عرفت وزارة الدفاع الأمريكية منذ فترة أنها لا تملك عددا كافيا سواء من الطائرات بدون طيار سواء أو للقيادة والسيطرة للاستطلاع والمراقبة، أو من قدرات الدفاع الجوى، أو من وحدات الدفاع الكيمائى والبيولوجى ، أو وحدات كافية من بعض أنواع وحدات عمليات القوات الخاصة. ورغم علمها بهذه النواقص فى الأسلحة والوحدات القتالية المشار إليها، فقد أجلت الوزارة المذكورة الاعتمادات اللازمة فى هذا الخصوص. بينما استمرت، ضمن استعادتها للماضى، فى تمويل برامج أقل وتحتاج إلى تغيير.

وحين يتم تغيير أولويات تمويل برامج التسليح الأمريكية، يرى رامسفيلد، ضرورة البدء بتغيير التوازن فى الترسانة الأمريكية بين الأسلحة والمعدات التى يشغلها الرجال وتلك التى تعمل بدون رجال، وبين نظم التسليح قصيرة المدى وبعيدة المدى، ونظم التسليح المستخدمة سرا وغير المستخدمة سرا ، وأسلحة الرمى ونظم التجسس ، والنظم القابلة للإصابة وتلك ذات الصلابة كما يجب تحقيق الوثبة إلى عصر المعلومات، التى تشكل الأساس



الحاسم لكل جهود التحويل فى المؤسسة العسكرية الأمريكية. وقد تبين للمؤسسة المذكورة، بعد أحداث ١١ سبتمبر، أن المسئوليات الجديدة فى الدفاع عن أرض الولايات المتحدة ذاتها تفاقم كل هذه النواقص. ولذلك يجب على أى رئيس أمريكى أن لا يختار بين الدفاع عن المدنيين فى أرض الوطن واهتمامات الولايات المتحدة وقواتها فى الخارج. لأنه يجب أن تكون المؤسسة العسكرية الأمريكية قادرة على القيام بالمهمتين معا. وأن فكرة إمكان إجراء التحويل المذكور مع تقليل الموازنة الدفاعية وإن كانت فكرة مغرية إلا أنها خاطئة.

●●●

وبطبيعة الحال رغم أن تحويل المؤسسة العسكرية يتطلب بناء قدرات جديدة وزيادة الترسانات الموجودة منها، فإنها تعنى أيضا تخفيض المخازون غير الضرورى من الأسلحة. ومثل ماهو صحيح بأن الولايات المتحدة لم تعد بحاجة إلى قوات ضخمة وثقيلة لتتصدى لغزو سوفيتى بالدبابات فى سهول أوربا، فإنها أيضا لم تعد بحاجة إلى الاحتفاظ بعدة آلاف من الرؤوس النووية الهجومية التى تم تجميعها فى مرحلة الحرب الباردة لردع هجوما نوويا سوفيتيا. وذلك حين كان أمن الولايات المتحدة يتوقف على امتلاك قوة نووية كبيرة على نحو كاف ومتعدد الأشكال، بحيث تكون كافية للبقاء والرد المضاد فى حالة حدوث ضربة سوفيتية أولى. والآن تغير أعداء الولايات المتحدة وبالتالى يجب أن تتغير حسابات الردع. فمن الواضح أن الإرهابيين الذين قاموا بضربات ١١ سبتمبر لم تردعهم ترسانة الولايات المتحدة النووية الضخمة. ولذلك فإن الولايات المتحدة يجب أن تجد وسائل جديدة لردع أعدائها الجدد. ولذلك فإن الرئيس بوش يسعي إلى التوصل لمفهوم جديد للردع، يجمع بين إجراء تخفيضات كبيرة فى القوات النووية الهجومية وبين بناء قدرات عسكرية تقليدية ودفاعات ضد الصواريخ يمكنها أن تحمى الولايات المتحدة وقوتها وأصدقائها وحلفائها فى مواجهة هجمات صاروخية محدودة.

وفى الوقت نفسه يجب على الولايات المتحدة وهى تخفض عدد أسلحة ترسانتها النووية، أن تقوم أيضا بتجديدها، وتطور نظم أسلحة تقليدية جديدة، هجومية ودفاعية، أكثر ملائمة لردع الأعداء المحتملين التى تواجههم. وفى الوقت ذاته يجب عليها تأكيد سلامة أسلحتها النووية وإمكان الاعتماد عليها.

ويختصر رامسفيلد متطلبات القوة العسكرية الأمريكية فى صيغتها الجديدة المقترحة فى تعبير «الثلاثى الجديد»، الذى سيشكل مدخلا جديدا

للردع، ويتضمن: تخفيض القوات النووية الهجومية، وتطوير القدرات الهجومية التقليدية، وتطوير سلسلة من الأسلحة الدفاعية الجديدة التى تضم أسلحة دفاع ضد الصواريخ الباليستية العابرة للقارات ، ودفاع ضد «صواريخ كروز» ، ووسائل دفاع فضائى، والدفاع عن «وسائل التحكم التلقائى الآلية»، أى شبكات المعلومات القومية (الكمبيوترات) التى تتحكم تلقائياً وآليا فى وسائل الدفاع المختلفة، تدعمها كلها «بنية تحتية دفاعية مجددة».

ويستطرد رامسفيلد قائلا أنه وفى ظل هذه الوسائل والأسلحة فإن من الضرورى الحاجة إلى مفهوم جديد فى موازنة المخاطر الأمنية، ففى العام الماضى كان مفهوم التهديد يركز الانتباه على المخاطر بالمعنى القريب، ويستبعد الاستثمارات فى البشر، والتحديث، والتحويل. ذلك لأن بناء مؤسسة عسكرية للقرن الحادي والعشرين يعني إيجاد توازن بين جميع هذه المخاطر. ولذلك يجب تحويل ليس فقط القوات المسلحة ولكن أيضا المؤسسة الدفاعية (التى تضم وزارة الدفاع «البنتاجون» ووكالات الاستخبارات والمعلومات وأجهزة الأمن والاستطلاع بجميع فروعها) التى تخدمهم، من خلال تشجيع ثقافة الإبداع وتناول المخاطر بذكاء. ويضيف: «وأخيرا يجب أن لا نغير فقط القدرات القتالية الموجودة فى حوزتنا، ولكن يجب أن نغير أيضا طريقة تفكيرنا عن الحرب.. فإن جميع الأسلحة ذات التكنولوجيا المتطورة فى العالم لن تحول القوات المسلحة الأمريكية ما لم نغير طريقة تفكيرنا، وتدريبنا، ومناوراتنا العسكرية ، وأسلوب قتالنا».

وأوضح رامسفيلد أن البنتاجون تبنى، خلال عام واحد ٢٠٠١ فقط، استراتيجية دفاعية جديدة . واستبدل الاستراتيجية ، التى استمرت خلال العشر سنوات السابقة، والتى كانت قائمة على مفوم «حرب فى مسرحى عمليات رئيسيين» بمفهوم أكثر ملائمة للقرن الحادى والعشرين. وهو استراتيجية جديدة تقوم على توازن المخاطر وتعيد تنظيم وإحياء بحوث الدفاع الصاروخى وبرنامج اختباراته، مع التحرر من قيود معاهدة «الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية» (أى معاهدة «سالت - ٢» الموقعة مع الاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٩). كما أعيد تنظيم المؤسسة الدفاعية لتركز بصورة أفضل على القدرات الفضائية. وبالنسبة للقوى النووية فقد تم تبنى طريقة جديدة للردع الاستراتيجى تزيد من الأمن بينما يتم تخفيض الاعتماد على الأسلحة النووية الاستراتيجية.

استخلاص الدروس المستفادة

وأكد رامسفيلد أنه بينما يقوم البنتاجون بالتحويل فإنه يجب عدم الوقوع فى خطأ الإدعاء أن الخبرة فى أفغانستان سوف تكون نموذجا للحروب المقبلة. ذلك لأن الترتيب لإعادة خوض آخر حرب تمت ممارستها هو خطأ تكرر فى معظم التاريخ العسكرى، وهو أمر



يجب تجنبه. ولكن يمكن استخلاص الدروس المهمة المستفادة من هذه الخبرة الحديثة التي يمكن أن تطبق فى المستقبل . ثم عرض أبرز الدروس المستفادة أمريكيا من حرب أفغانستان الأخيرة على النحو التالى:

أولا: إن حروب القرن الحادى والعشرين سوف تتطلب على نحو متزايد تجميع كافة عناصر القوة القومية: اقتصاديا ، دبلوماسيا، ماليا، استخباريا، قانونيا، وكل من العمليات العسكرية العلنية والسرية. وذكر بما قاله «كلاوزفيتز» من قبل وهو: «إن الحرب هى استمرار للسياسة بوسائل أخرى». معلقا: «وفى هذا القرن، قد تكون معظم هذه الأساليب غير عسكرية».

ثانيا: إن قدرة القوات المسلحة على الاتصال ببعضها البعض والعمل بشكل جيد فى مسرح العمليات القتالية سوف يشكل عنصرا حاسما لتحقيق النجاح. ففى أفغانستان قامت أطقم قتالية من القوات الخاصة الأمريكية تعمل برا بالعمل على تحديد الأهداف وتنسيق توقيت الضربات الجوية، الأمر الذي حقق نتائج تدميرية ساحقة بالنسبة إلى العدو. والدرس المستفاد من هذه الحرب أن الفاعلية فى القتال تتوقف بشكل كبير على «التعاونية» القتالية، أى مدى قابلية الأفرع المختلفة من القوات المسلحة على الاتصال وتنسيق جهودها فى ساحة المعركة. ولكن تحقيق التعاونية القتالية فى زمن الحرب يتطلب بناتها فى زمن السلم. لذلك يجب أن يتم التدريب مثلما سيتم القتال وأن يتم القتال مثلما تم التدريب.

ثالثا: إن سياسة هذه الحرب فى قبول المساعدة من أى بلد، وفقا لقواعد ترتاح إليها حكومة هذا البلد، والسماح للبلد المعني تحديد كيفية تقديم مساعدته (بدلا من فرض توصيف المساعدة المطلوبة من البلد المعنى). وقد مكن هذا الأسلوب من الحصول على الحد الأقصى من التعاون من البلدان الأخرى وأقصى فاعلية قتالية من قبل القوات المسلحة الأمريكية فى مواجهة العدو.

رابعا: يمكن للحروب أن تستفيد من التحالفات المؤقتة التلقائية ولكن من المؤكد أن الحروب لا يمكن أن تخاض بواسطة لجنة. ذلك لأن المهمة القتالية يجب أن تحدد التحالف، وليس للتحالف أن يحدد المهمة القتالية، وإلا فإن المهمة القتالية تسقط إلى أقل مستوى من التعاون القتالى.

خامسا: إن الدفاع عن الولايات المتحدة يتطلب تحقق الوقاية وأحيانا «الضربة الوقائية المسبقة»، أى «الهجوم المضاد المسبق» الذى يعرف أيضا بـ«الهجوم المضاد الإجهاضى» لهجوم من المحتمل أن يقوم به الخصم. (وهذا

التعبير مأخوذ لغويا من كلمة «حق الشفعة»، أى حق الأولوية فى الشراء للجار المالك بدلا من المشترى الأصلى فى حالات معينة). ويبرر رامسفيلد ذلك فيقول: «لأنه ليس من الممكن الدفاع ضد كل تهديد، فى كل مكان، وفى أى وقت يمكن تصوره. إن الدفاع ضد الإرهاب، وأية تهديدات أخرى، قد تظهر يتطلب أن ننقل الحرب إلى العدو. ذلك لأن الأفضل – وفى بعض الحالات يكون هو الحل الوحيد تكون الدفاع هو الهجوم الجيد».

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الرئيس جورج بوش قال فى خطاب له مع الضباط الأمريكيين الجدد، يوم أول يونيو عام ٢٠٠٢: «يجب أن ننقل المعركة إلى العدو، ونربك خططه، ونواجه أسوأ التهديدات قبل أن تظهر للعيان». وأضاف أنه يري دور أمريكا الجديد فى العالم بعد هجمات ١١ سبتمبر: «ليس فقط فرض الضربة الوقائية المسبقة، والاستخدام الأحادى الجانب للقوة فى الزمان والمكان الذى تختاره، وإنما أيضاً معاقبة هؤلاء الذين شاركوا فى الإرهاب والعدوان وتعمل على فرض الوضوح الأخلاقى الدولى بين الخير والشر». وفى ذلك إشارة إلى التهديدات التى وجهها فى خطابه عن «حال الاتحاد»، يوم ٢٠٠٢/١/٢٩، إلى العراق وإيران وكوريا الشمالية باعتبارها «محورا للشر».

وقد عقبت صحيفة «واشنطن بوست» على أقوال بوش هذه فقالت: «تاريخيا، لما تمارس المؤسسة العسكرية الأمريكية هجمات وقائية مسبقة أو هجمات مفاجئة، مثلما فعلت إسرائيل حينما هاجمت المفاعل النووى العراقى «أوزوريس» عام ١٩٨١، وكما فعلت اليابان حين هاجمت بيرل هاربور عام ١٩٤١».

والواقع أن مبدأ «الضربة الوقائية المسبقة»، المبرر لشن حروب عدوانية بدعوى إحباط هجوم مزمع من قبل خصم ما، إنما يشكل عنصرا رئيسيا من عناصر «نظرية الأمن» الإسرائيلية (أى العقيدة العسكرية الإسرائيلية)، التى طبقتها إسرائيل بوضوح فى حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧.

وتكشف لنا أقوال رامسفيلد وبوش هذه مدى التغيير الذي يجرى من أجل تطوير العقيدة العسكرية الأمريكية بحيث تخدم الأهداف العدوانية المزمعة ضد دولة مثل العراق، وغيرها من دول «محور الشر» الحالية ، وكذلك من الدول التى يمكن أن تضاف إلى لائحة «محور الشر» مستقبلا، بدعوى ضرب الإرهاب مسبقا. ويؤكد هذا ما ذكرته محطة «سى إن إن» التليفزيونية الأمريكية، فى إحدى نشراتها يوم ٢٠٠٢/٦/١٨، من أن أمريكا تلمح بشدة إلى أن العراق سيكون الجولة الثانية فى حربها ضد الإرهاب: «فيما تعيد إدارة بوش صياغة الأمن القومى التى تتجه إلى اعتماد الضربات الوقائية المسبقة تكتيكا جديداً».■



على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إذا كانت الإنترنت مكانا عظيما لتبادل الأفكار، والتواصل الإنسانى، فهى أيضا بوتقة للتمييز العنصرى، وبث الاحتقار للآخرين! ونشر الكراهية العرقية! ففى الوقت الذى كان يعمل فيه مناهضو العنصرية على مدى سنوات لرفع الوعى بهذه القضية والتحذير من خطورتها، كانت الجماعات التى تحض على الكراهية العنصرية تحتمى بالإنترنت لنشر رسالة الكراهية التى تحملها!

وفي تقرير قدم إلي المؤتمر الأخير لمناهضة العنصرية في ديربان بجنوب إفريقيا والذي حضرته مائة وخمسون دولة أوضح فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر مكانا آمنا لذوي الدعوات العنصرية ونشرها عبر الإنترنت، حيث يستغل مروجو الدعوات العنصرية الحرية التي يكفلها القانون الأمريكي، لكي ينشروا دعوات إلي الكره والنازية ونبذ الأجانب، وخلال السنوات الخمس الماضية تدفق علي الولايات المتحدة عدد كبير من الجماعات العنصرية خوفا من التعرض للملاحقة القانونية في بلادها، خاصة وأن الولايات المتحدة ترفض حتي الآن المشاركة في أي آلية لفرض نوع من الرقابة علي الإنترنت.

وحين ظهر موقع «ستورم فرونت» الذى يدعو إلى تفوق الجنس الأبيض فى عام ١٩٩٤، كان أول موقع للنازيين الجدد على الإنترنت، ولم يتوقع مستخدمو الإنترنت أن وجودهم سيستمر، بسبب عدم قانونيته، وقد أسس هذا الموقع بمعرفة شخص يدعى دون بلاك وهو خبير فى الكومبيوتر وعضو سابق فى جماعة كو كلوكس كلان العنصرية البيضاء، واستغل الإنترنت لتجنيد مزيد من الأعضاء لصالح قضية البيض التى يزعم الدفاع عنها!.

مواقع عنصرية

وكان انطلاق موقع «ستورم فرونت» هو البداية لإطلاق مئات بل آلاف المواقع العنصرية على الشبكة الدولية للمعلومات، وأصبحت مواقع الإنترنت والبريد الإلكترونى ومنتديات الحوار من أفضل الوسائل لتجنيد أنصار جماعات الكراهية العنصرية وجمع التبرعات لها، بعد أن كان عليهم فى السابق الذهاب إلى محلات التصوير لنسخ نشراتهم والتجول بها على السيارات فى المواقف لتوزيع ما لديهم على زجاجها، أما الآن فبإمكانهم الاتكاء بعيدا عن المشاكل والمخاطر والبقاء مجهولين فى الظلام ونشر فكرهم وانحرافاتهم بلا مقابل لتصل إلى ملايين الناس، والنازيون الجدد فئة تستعدى اليهود والملونين وكل من لا يتصف بصفتهم والتى منها الانتساب للعرق الآرى والتدين بالمسيحية، وبدأت نذر صراع دستورى فى الولايات المتحدة بشأن السماح لهذه الجماعة العنصرية الأمريكية بالاستمرار فى تقديم نفسها إلى العالم عبر موقعها على الإنترنت، وتكمن خطورة استخدام الإنترنت فى أن العنصريين يستغلونها فى تجنيد صغار السن والذين يعانون الوحدة، من خلال مواقع الدردشة التى تقبل عليها هاتان الفئتان.

وتحول القواعد المعمول بها فى الإنترنت دون تنفيذ رغبة البعض فى إخضاع الشبكة للرقابة أو ملاحقة الناشرين فيها، كما تعارض جماعات الدفاع عن الحريات المدنية مثل تلك المحاولات، حتى إغلاق المواقع التى تبث دعوات عنصرية ليس مجديا حيث ينتقل الناشرون بسهولة إلى موقع شركة بث أخرى، أو ينشئوا هم مواقعهم الخاصة، وكان مدار الصراع حول قانونية وجودهم فى الواقع، وكذلك قانونية أفكارهم التى يبثونها من خلال مواقعهم، فقامت على الإنترنت وقتها ثورة الشريط الأزرق Blue Ribbon الشهيرة والذى يرمز به لحرية التعبير، وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٩٥ ، والتى تزامنت مع الدعوات التى رفع لواءها المعتدلون بمنع المواقع الإباحية من استخدام الإنترنت، وقد انتصرت حملة الشريط الأزرق، فلم تخل رسالة بريدية ولا موقع من دعوة لحرية التعبير بل إن بعض المواقع البعيدة عن العنصرية احتجبت تماما، واستبدلت صفحاتها الأولى بصورة مكبرة من الشريط الأزرق تعبيرا عن استهجانهم لكبت الحريات على الإنترنت، ومع ضعف الحملات المضادة لظهور هذه المواقع على الإنترنت تنامى عدد المواقع العنصرية التى تقف خلفها منظمات الكراهية والحقد العرقى وبلغ عددها فى أواخر عام ١٩٩٧، ما يزيد على ١٦٠ موقعا نشطا تمارس فعالياتها العنصرية بكل حرية دون تدخل من السلطات الأمريكية أو غيرها.

وهذه الجماعات تحارب كل من هو أجنبى فى الولايات المتحدة، وكل ملون أو لا يدين بالمسيحية وما إلى ذلك من الصفات التى يصر النازيون الجدد على أن يصطبغ بها كل أمريكى، وفشلت الجهات المسئولة فى الولايات المتحدة فى مواجهة هذه الحملات، وانهارت محاولات السيطرة على تلك المواقع بصورة قانونية، وقد حذت الجمعيات الإسلامية الأمريكية والبريطانية هذا الحذو وصارت تبث حملات مناهضة عبر البريد الإلكترونى ضد المواقع التى تحارب الإسلام وقد حققت تقدما ملموسا خلال السنوات القليلة الماضية وكان آخرها إغلاق الموقع الذى حرف القرآن ونشره على الإنترنت.

[illegible]

ومادامت الإنترنت تحكمها الأنظمة الأمريكية فإن مواقع من هذا النوع ستستمر فى الظهور، دون رقيب لأن الإنترنت عالمية، وتحكمها قوانين أمريكية محلية مثل قانون حرية التعبير، وهى قوانين لا يعترف بها غالبية رعايا الدول المرتبطة بالإنترنت، وتواجه مكافحة التطرف العنصرى الموجود على الإنترنت صعوبات تكنولوجية وقانونية هائلة، وحتى لو أصبح من الممكن فنيا إعاقة الوصول إلى المواقع العنصرية، فإن

الطبيعة العالمية لهذه الوسيلة – الإنترنت – تجعل من المستحيل صدور تشريع يسمح بذلك، وحتى إذا وجد هذا التشريع فإن تطبيقه مستحيل فى بلد يضمن حرية التعبير مثل الولايات المتحدة.

وحتى عام ٢٠٠٠ كانت الأرقام العالمية ترصد على الإنترنت ما بين ٢٥٠ – ٤٠٠ جماعة لها مواقع على الإنترنت تبث من خلالها الكراهية للآخرين، وأغلبها يبث من الولايات المتحدة الأمريكية، لكن مركز سايمون ويسينثال لوس Simon Wiesenthal مقره فى لوس أنجليز، وهو يهتم بتتبع مواقع جماعات الكراهية والعنصرية على الإنترنت ، أصدر عام ١٩٩٩ إحصائية تقول إن هناك حوالى ٢٠٠٠ موقع ظهرت على السطح تلبث الكراهية والعنصرية منها المواقع المؤيدة لجماعة كوكلاكس كلان العنصرية، والنازية الجديدة، والمواقع التى تنشر كيفية صنع القنبلة الذرية فى البيت لقتل الآخرين، وتلك المدافعة عن السامية! وفى عام ٢٠٠١ أعلن المركز فى أحدث تقرير له عن الكراهية العنصرية عبر الإنترنت وجود ثلاثة آلاف موقع تثير مشاكل عنصرية وتروج للعنف العرقى والإرهاب وموسيقى الكراهية! وقوبلت الحملة التى يقودها المركز ضد المواقع العنصرية بانتقاد فى بعض الأحيان من الجماعات المدافعة عن الحريات المدنية! وفى نفس الفترة أعلن معهد القوانين المقارنة فى لوزان بسويسرا عن كشف إحصاء علمى بوجود أربعة آلاف موقع عنصرى تقريبا على شبكة الإنترنت منها ٢٥٠٠ فى الولايات المتحدة وحدها! وتم إحصاء خمسين ألف صليب معقوف على الإنترنت ألفان منها فى ألمانيا من أصل مليار موقع تم التحقق منها، و٨٥ فى المائة من الرموز الفاشية كانت موجودة فى مواقع أمريكية، وازدادت هذه الظاهرة العنصرية انتشارا فى السويد وفنلندا والنمسا كما فى ألمانيا، وكشفت الدراسة على أن السرية والشعور بالإفلات من العقوبة يحثان أنصار العنصرية على التجمع وارتكاب أعمال عنف مثل إعداد لوائح سوداء بأسماء شخصيات يعتبرونها معادية أو تبرير هجمات عنيفة لليمين المتطرف.. وكشف تقرير أعدته الحكومة الألمانية، عن حجم القلق الرسمى من ظاهرة الإقبال المتزايد على منظمة «النازيين الجدد العنصرية، التى شهد العام ٢٠٠١ ارتفاعا ملحوظا فى عدد المنتسبين إليها، كما شهد تزايدا فى اعتداءاتها التى يتصدر العرب قائمة ضحاياها، حتى الغجر لم يسلموا من العنصرية، فقد عبر قادة جماعات الغجر فى جمهورية التشيك عن قلقهم واحتجاجهم على ظهور لعبة تمارس عبر الإنترنت ويرون أنها تثير مشاعر العنصرية ضدهم وفكرة اللعبة هى إطلاق النار على شخصيات تمثل غجرا يحاولون تدمير حائط يفصلهم عن شعوب أخرى، ويقال إن فكرة اللعبة مستوحاة مما حدث بالفعل فى بلدة أوستى ناد لابم، حيث قامت السلطات ببناء حائط

خرسانى ضخم ليفصل بين المنطقة التى يسكنها الغجر وبين منازل المواطنين التشيك! وما أكثر العاب الكمبيوتر على الإنترنت ، التى تمثل العرب والمسلمين كإرهابيين، وإن كانت لا تسميهم، بل يظهر ذلك من الأسماء والملامح والملابس والبيئة التى تجرى فيها فعاليات اللعبة! ومن أغرب المواقع العنصرية، موقع عرقى أطلق على شبكة الإنترنت التونسية لليهود المحليين، ويعتبر الموقع اليهود شعبا نوعيا الأقرب من الإنسان الخالص أو ما وصفوه بـ (الفرادة الإنسانية).

العنصرية ضد العرب والمسلمين

بعد أحداث إرهاب سبتمبر على أمريكا، تزايدت نغمة العنصرية، واصبحت الولايات المتحدة ملجأ آمناً للعنصريين الذين ينشرون كلمتهم عالميا باستعمال الإنترنت ، ومن يحاول الإبحار فى منتديات الحوار والمناقشة على الإنترنت يستطيع أن يلحظ بسهولة، إن هناك من استغل حرية الكلام على الإنترنت فى بث الكراهية والإحتقار للآخرين بكافة لغات العالم! وهناك من عمل محرقة للآخرين ! فبعد هجوم الثلاثاء الأسود يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة الأمريكية، والذى جعل العالم يقف على أطراف اصابعه، وبعد انتهاء الصدمة الأولى بدأت حربا حقيقية فى منتديات الحوار بالإنترنت ، واشتعل فضاء الإنترنت بأعنف موجة حقد وكراهية ضد كل ما هو عربى وإسلامى، وانتشرت الموجة فى كافة منتديات الحوار عبر العالم كله، واشتدت بصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا، وانغمس آلاف البشر فى حوارات عنصرية شوفينية متعصبة مطالبين بالثأر الفورى والقوى لضحايا مركزى التجارة والبنتاجون! وأعلن المجلس الإسلامى الأمريكى أن القضاء فى الولايات المتحدة ينظر فى ٢٥٠ قضية تتعلق بممارسات عنصرية وقعت بعد هجمات الثلاثاء.

وأشار المجلس الإسلامى إلى أن حوالى ٧٠٪ من هذه الجرائم ارتكبت مباشرة بعد الهجمات والرعب الذى عاشه الأمريكيون، وهذا جعل أيضا الكثير من المواقع المناهضة للعنصرية ترفض الحرب وتنادى بالعودة لساحة القانون وترفض القوة والبطش، وتوجه النصائح للمسلمين والعرب عن كيفية التصرف والتأثير فى مجتمعاتهم الغربية، فضلا عن الدعوات المناهضة للعنصرية الأمريكية، ونبذ العنف من جميع الأطراف.. ويذكر أن فى الولايات المتحدة ما بين ستة وسبعة ملايين من الأمريكيين المسلمين ونحو ثلاثة ملايين من العرب الأمريكيين، واتسمت ردود

أفعال العرب والمسلمين خلال تلك الحوارات بالدهشة والحساسية الشديدة.

بين العرب والمسلمين

ففي العقدين الأخيرين بدأنا لنلمس انتشار النزعة الشوفينية بين العرب والمسلمين أنفسهم! ورصدت الحوارات العنصرية والشوفينية بوضوح فى منتديات الحوار العربية والإسلامية على الإنترنت ، حيث حوار التعصب والتمييز العنصرى وكراهية الأجانب، والأستعلاء أو الانغلاق العنصرى، والدينى، والعرقى، والثقافى، والقومى، والعجيب ان العرب والمسلمين وخاصة الأصوليين منهم يتعاملون مع مبادىء الحرية فى منتديات الحوار بالإنترنت بمقاييس متباينة، فإذا كان الانتقاد موجهاً لهم ضاقوا به وسخطوا عليه وتألبوا ضد قائله، فى حين أنهم فى الوقت نفسه يمنحون أنفسهم حرية واسعة فى الهجوم على كل ما هو غربى، وعلى كل من ليس له علاقة بمبادئهم ومذاهبهم واتجاهاتهم ، فإذا تصدى لهم من يذودهم عن هذا الهجوم جأروا بالشكوى وتباكوا على الحرية المهدرة التى تحول بينهم وبين التطاول على عقيدة الآخرين وتلويث مقدساتها وإهانة رموزها، وهذا المنطق العجيب يفترض أن الحرية المطلقة تخصهم وحدهم وأن ما عداهم ليسوا أهلا لهذه الحرية التى ينشدونها لأنفسهم ويحظرونها على غيرهم، فهم يتعاملون مع الحرية بازدواجية تتلون بتلون غاياتهم وأهدافهم، لدرجة أن فى المنتديات السلفية على الإنترنت (٧٠٪ من منتديات الحوار العربية سلفية التفكير) لا يسمحون بالمشاركات التى تخالف اطروحاتهم وأفكارهم ولا يسمحون لأصحاب الافكار الأخرى حتى بالتسجيل لديهم، وهذا التيار الأصولى يحرم على المسلمين دخول مواقع الكفر والإلحاد على اختلاف أشكاله وصوره.. ولا أدرى ما يقصدونه بمواقع الكفر والإلحاد، هل يقصدون الجنس؟ فهم ذكروا ذلك فى قائمة محرماتهم! ويحرمون أيضا الدخول فى مواقع أهل البدع كالرافضة والصوفية والأشاعرة والإباضية وغيرهم من مواقع أهل الاتجاهات المخالفة لهم كالعلمانية والحداثة والقومية ونحوها.. ومواقع السحر والكهانة والتنجيم والحظ وما إليها ومواقع الأفلام والصور ومواقع الأغانى والموسيقى ومواقع الأفلام والفيديو مثل: المسرحيات والتمثيليات وعروض الأزياء والرقص ومواقع التعارف والصداقة بين الجنسين، ويحرمون فى الإنترنت أيضا التحدث مع الجنس الآخر غير المحرم بلا غرض شرعى، وعدم التحدث فى قضايا الغزل والحب، ويحرمون إمكانية مشاهدة صورة الرجل للمرأة والعكس وتبادل الصور وتبادل رسائل الغرام والغزل بين الجنسين وإرسال بطاقات التهانى بأعياد الميلاد وغيرها من المناسبات المحرمة!

هكذا هو الحال فى منتديات الحوار بالإنترنت ، ويصبحون، فى نفس الوقت هدفا نموذجيا لممارسات العنصرية والشوفينية من قبل رواد منتديات الحوار الغربية! وهذا يدفعنا إلى طرح السؤال التالى لماذا لا يسترعى انتباهنا سلوكيات العنصرية والشوفينية التى تمارس فى الحياة اليومية فى بلاد العرب والمسلمين؟! فالإهانات اليومية التى تمارس على أساس العرق أو اللون أو الدين أو الجنس لماذا اصبحت شيئا معتاداً لا يسترعى الانتباه؟!.

ففى بعض المطارات العربية خاصة الخليجية تجد العنصرية والشوفينية واضحة تماما! وهى تفرق فى طريقة الاستقبال بين العرب والأجانب. بل أيضا بين الجنسيات العربية نفسها .

لقد ساد السلوك العنصرى فى اللغة واللاوعى، حتى أصبح خطابا ثقافيا معتاداً! وظهر واضحا فى المنتجات الثقافية والإعلامية، وأصبح يعكس ثقافة عامة تقسم الناس إلى رتب حسب العرق والجنس واللون والدين والجنس! وأزعم أن الإهانة العنصرية التى يمارسها بعض العرب والمسلمين فيما بينهم، إنما هى جزء من إهانة منظومة القهر التى تطال المواطنين فى تلك البلاد فى حريتهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحين يكون المرء مقهوراً، لن يشعر بالإهانة العنصرية!وهناك العديد من قضايا العنصرية المسكوت عنها فى بلاد العرب والمسلمين، هناك القهر والطغيان وشن الحروب ضد بعض الأقليات ، والممارسات التى تقوم على الإقصاء من المشاركة السياسية على أسس طائفية أو دينية أو عرقية، والدعاية والتحريض التى تقوم على التعصب والاستعلاء الدينى والقومى وغيرها ، فهناك قضية الأكراد، والحرب الأهلية فى السودان، ومشكلة عديمى الجنسية فى دول الخليج، والتمييز ضد النساء، والتمييز ضد العمال المهاجرين داخل أو خارج العالم العربى، كلها قضايا شوهت صورة العرب والمسلمين فى الغرب!

[illegible]

ورغم الجهود المتواصلة المبذولة لمناهضة العنصرية، فإن العالم وهيئاته مثل الأمم المتحدة، وجمعيات حقوق الإنسان، يساوره قلق بالغ من زيادة انتشار العنصرية والتمييز العنصرى وكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب، وكذلك أعمال عنف، وإرساء سياسات تقوم على الاستعلاء أو الانغلاق العنصرى، والدينى، والعرقى، والثقافى، والقومى، وزاد القلق أيضا من أن أولئك الذين يسيئون استخدام تكنولوجيات الاتصال الجديدة، بما فى ذلك شبكة الإنترنت لنشر

آرائهم العنصرية، البغيضة! وتعددت المؤتمرات والندوات العالمية لمكافحة العنصرية والكراهية، فنجد الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى، تحظر نشر الأفكار القائمة على التفوق العنصرى أو الكراهية العنصرية هو أمر يتفق مع الحق فى حرية الرأى والحق فى التعبير على النحو المبين فى المادة ١٩ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وتؤكد الاتفاقية على أن أعمال العنف العنصرى ضد الآخرين النابعة من العنصرية لا تشكل تعبيرات عن رأى بل تعد جرما ، وتشجع جميع الدول على أن تدرج، فى مناهجها التعليمية وبرامجها الاجتماعية، على جميع المستويات، حسب الاقتضاء، المعارف المتعلقة بالثقافات والشعوب والبلدان الأجنبية والتسامح إزاءها واحترامها، وتشجع الحكومات على اتخاذ تدابير ملائمة للقضاء على جميع أشكال العنصرية والتمييز العنصرى وكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب، وترفض بشكل قاطع إساءة استعمال المطبوعات والوسائل السمعية البصرية والالكترونية وتكنولوجيات الاتصال الجديدة، بما فى ذلك شبكة الإنترنت ، للتحريض على العنف بدافع من الكراهية العنصرية.

ومنذ أكثر من سنة عقد مؤتمر حول جريمة الإنترنت فى بوادبست بالمجر ناقش فيه الخبراء اعداد مشروع اتفاق يهدف مكافحة الدعاية العنصرية والترويج لكراهية الأجانب عبر الإنترنت.

وبعد اعتداءات ١١ سبتمبر قامت لجنة وزراء مجلس أوروبا بتعزيز اتفاقية محاربة جريمة الإنترنت عبر تضمينها بنودا تتعلق بنقل رسائل ذات مضمون إرهابى عبر الإنترنت وفك رموزها . واشترطوا ان الاتفاقية لا تشكل بأى حال أساسا ولا عذرا للرقابة، ويطالب البعض بالملاحقة القضائية لمدراء الشركات التى تسمح بنشر مواد عنصرية على المواقع التى تتحكم فيها، ويقترح آخرون طريقة ما لتحقيق هذه الصيغة، تتمثل فى تركيب مستخدمى الإنترنت القلقين من الدعايات العنصرية فلاتر على أجهزتهم وإبلاغ السلطات بأى رسائل عنصرية تصلهم عبر الإنترنت ، كما يقترح أن يلجأ مناهضو العنصرية إلى الأسلوب الهجومى فى تصديهم للدعوات العنصرية، مشيرة إلى أن الإنترنت التى أصبحت وسيلة اتصال لحظى بين مختلف الجماعات البشرية فى جميع أنحاء العالم يمكن أن تصبح وسيلة لنشر التقارب والتسامح، ومهما اختلفت الآراء حول السبل المثلى لمواجهة العنصرية على الإنترنت فإن الجميع يتفقون على ضرورة وجود تعاون عالمى قوى فى هذا المجال. ■

ذكريات باريس

(تأليف الدكتور زكى مبارك)

بقلم
د. محمد رجب البيومى

يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات عن الدكتور زكى مبارك (١) :

«وزكى مبارك مجاهد باسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم فى الحياة بالقوة وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد ، وأحلوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع ، وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبى على الظروف والحظ ، وإذا كان الحظ قد وقع فى حياته فهو الحظ المنكود ، لأنه تعلم بكدح قلمه ، وتقدم بفضل جهاده ، ثم كانت الظروف التى تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة .. ولو استطاع زكى مبارك أن يتملق الظروف ، ويصافح السلطان ، ويحذق شيئاً من فن الحياة لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع، وجفاوة الصراحة ، ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفى الناس، ويبقى ذلك المجهود الذى قدمه للأدب العربى فى شتى مناحيه الحظ شاهداً على صدق خدمته للأدب ، ورفيع مكانته فى النهضة» .

فى هذه السطور القليلة قدم الأستاذ الزيات عناصر أصيلة تصلح أن تكون أساساً لمؤلف رائع ، يترجم حياة زكى مبارك ، وقد أغنتنى فى هذا التقديم عن الحديث عن مجده الأدبى ، وكفاحه المرير، منتقلاً إلى الحديث الأصيل عن كتاب (ذكريات باريس) وأنا حين أتحدث عن الكتاب لا أبعد عن ترجمة حياة الدكتور ، لأن صفحاته حافلة بالكثير من تاريخ هذه الحياة ، وأسلوبه الرائق الشفاف يجذب كل قارىء إليه ، با إنه يغفر كثيراً مما يسهب فيه من الحديث عن نفسه ، لأنه مع صدقه الواقعى مسرح لآلام مضنية لم يشأ الكاتب أن يحبسها فى ضلوعه بل هتف بها فى إخلاص وجد تجاوبه من القارىء البصير ، لأنه يدرك تمام الإدارك أن كاتبه مجاهد شريف :

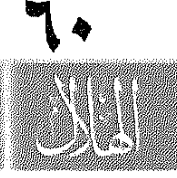
تلمس هذه الحسرة الكاوية فى أول فصل من فصول الكتاب ، حين يذكر المؤلف أنه اتجه إلى محطة باب الحديد مسافرا إلى الإسكندرية فكان مودعوه ثلاثة ! وغاب عن الوداع أصدقاء كان يأمل لقاءهم فحسد المسافرين الآخرين الذين احتفل بهم مودعوهم الكثيرون ومن بينهم فتيات من الجنس اللطيف

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٨٧ – ٢ يناير سنة ١٩٣٩

الذى يحسن التوديع بالقبلات والعناق ، ثم التلويح بالمناديل البيض » ، وأنا أنقل ذلك لأنص على أن الدكتور زكى مبارك كان لا يخفى عن قارئة الدقيق من خطرات نفسه، بل إنه فى سائر فصول الكتاب يسمعه همس الجوانح ورفيف الشغاف ، وأظن كثيراً من المسافرين قد أحسوا إحساسه فى مثل موقفه ، ولم يستطيعوا الجهر به ، ولكن الرجل يلتمس زيت وقوده من أعصابه المتأججة ، وعواطفه المشتعلة ، ولا يهمه أن يقع حديثه موقع الرفض أو القبول .

ثم يتابع حديثه المرير ، فيتحدث عن جلوسه فى الباخرة التى أقلته من الإسكندرية فيقول (ونقلت أمتعتى إلى مكانى فى السفينة ، وشغلنا عن توديع الإسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن ؟ وما فراقه ؟ إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب) .

وإذا كان الدكتور مبارك قد وطن نفسه على أن ينقل مشاهداته إلى جريدة البلاغ ، حيث شاء صاحبها الاستاذ الكبير عبد القادر حمزة أن يجعله مراسلاً للجريدة فى مدينة النور بأجر يسعفه ببعض تكاليف الحياة ، إذا كان الدكتور قد فهم مهمته تلك، فإنه أحسن أداءها خير الإحسان ، حيث كان فى كثير مما كتب يتجاوز أسلوب الصحافى إلى أسلوب الشاعر المرهف ، وكتاب الرحلات يحملون صفة المؤرخ الراصد ، ولكن زكى مبارك مع احتفاظه بخصائص كاتب الرحلة قد ضم إلى أسلوبه مالا يستطيع الفكاك منه ، إذ هو فى أعماقه أديب مطبوع تنفحه الشاعرية بصور لا تتاح إلا للملهمين من ذوى الاستبطان النفسى الدقيق ، ويظهر ذلك جليا فى أول فصول الرحلة ، فبعد أن وصف بإجمال أماكن الغذاء والنوم والرياضة جال بشاعريته إلى ما رآه من أحوال الراهبات والرهبان ممن كانوا زملاءه فى الباخرة بعد أن سجل فى خفة روح أن الملائكة استراحت من تسجيل آثامه فى رحلة الباخرة حيث اضطر إلى الانزواء متأملا وجوه الراهبات ، وقد قال فى تحليله الأدبى البديع «إن الراهبة أعقل من الراهب ، وأبعد عن الفضول وقد لاحظت أن بينهن فتيات يترقرق فى وجوههن ماء الحسن ، ويقطر من أعطافهن دم الشباب فبدا لى أن الله قد أخذ يتخير لنفسه أطايب الجمال (هذا كلام لا يقوله غير شاعر) ورأيت أن التقوى لا تصلح إلا من مثل تلك الوجوه الملاح . وليس من العنف فى شيء أن نصارح القارىء بأنه لا خير



فى تقوى كثير من الناس لأن أكثرهم لا يتقى الله إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق .ثم أمتد الحديث فى هذه المعانى ، وهى تؤكد تماما أن الدكتور يكتب كل ما يفد على خاطره دون احتياط وهو مذهب فى الأدب كان الدكتور رائده الأول فى مصر ، وقد جر عليه من العداء ما باعد بينه وبين ما يستحقه من المناصب المرموقة كما أشار إلى ذلك الأستاذ الزيات ، ولم يكن العداء بسبب آرائه الوجدانية ، بل لمهاجمته من يراه موضع المهاجمة من الكبار ! وفى حديثه عن الباخرة ثورة على من يتظاهرون بالتقى وهم مراءون ، وكأنه بذلك يبرر صراحته الكاشفة للنقائص الجاهرة بالنقد الجارح يقول الدكتور :«والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام ، فأوغلوا فيها، وافتنوا فى جمع أسبابها ، والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ، فأسرفوا فى العناد حتى لا أمل فى ردهم إلى الحد المعقول ، وأنا والله غير نادم ، فتلك كلها حظوظ لا يفرح بها غير الضعفاء » .

ركوب الطائرة والشعور بالعزة

وأنتقل بعد حديث الباخرة إلى ما وصف به الكاتب شعوره وقد ركب الطائرة لأول مرة في حياته ، وكانت في ذلك الوقت مظنة إشفاق لدى الكثيرين حتى حذره أحد أصدقائه من ركوبها ، فلما صمم قال له : أكتب وصيتك إذن!! ركب الدكتور الطائرة ، فلاحظ أنها أرفق بركابها من السيارة فوق الأرض ومن الباخرة فوق الماء ، فسير الطيارة لين هين لاعنف فيه ولا اضطراب ، فهى أرق فى نظره من المطايا الذلول التى تجوب البيداء ، وأسعفته شاعريته الممتازة بخواطر لاتتاح لرحالة إلا إذا كان أديباً من طرازه ، فقد قال فيما قال :

لقد شعرت بالعزة الإنسانية حين توغلنا فى آفاق السماء ، وكنت بين الراكبين كثير التلفت من النوافذ إلى ما نمر به من المنازل والقصور والبساتين ، فراعنى أن شعورى بجمال الطبيعة كان أعمق مما تربى فى خيالى وأيقنت أن الطير أكثر نعيما منا ، وأدق إحساساً وأعمق شعوراً ، وأبصر بمواقع الحسن ، وأعرف بمواطن الجمال ، وكيف لا ، وأنت على الأرض لا تدرك من الطبيعة إلا بعض الجوانب ، حتى إذا أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة فى زخارفها ، وتهاويلها ونقوشها وصورها وجميع ما تتحلى به من الحسن المجلوب والجمال الموهوب ، وإن نظرة إلى بعض مناظر

باريس التى أخذت من الطيارة تريك الفرق البعيد ، بين المنظرين ، منظر يؤخذ من مصور يقف على الأرض ، ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء» قلت إن زكيا كان شاعراً لأنه فسح لخياله أن يتصور مبالغات هى موضع جدل ! لأن راكب الطائرة لا يرى فى علوه السامق القصور والدور إلا كبعض الأشباح ، فهل كان له بصر زرقاء اليمامة التى ترى ما لا يراه الناظرون ! أو لديه من الجلاء البصرى ما يتحدث عنه المتصوفون ! وقد كان منهم فى وقت ما كما قرر ! ووافقه الأستاذ الزيات !

ومظاهر الحب ، وسحر الفتيات أكثر ما يلفت الرحالة الشاب من معالم باريس، وكذلك كان زكى مبارك فقد شغل صفحات كثيرة فى الحديث عن عرائس باريس ، وإذا كنا نعلم أن الرحلة مقالات متفرقة نشرت خواطرها فى أعداد مختلفة من جريدة البلاغ فلا محل لتلمس بعض المتناقضات فيما يروى الدكتور ، لأنه فى يوم ما يرى من مشاهد العفة والطهر ما يسجله عن صدق ، وفى يوم آخر يرى من مشاهد التبذل والإسفاف ما يسجله عن صدق ، وإذن فلا يقول قائل هذا عكس ما روى من قبل، وإنما يدرك أن الليل والنهار يتداولان الحياة ، ولكل لونه الخاص ، فالدكتور يقول فى موضع من كتابه «أتريد الحق ، إن أهل باريس لا يرون فى الحب ما نراه، هو عندهم شريعة الحياة ، وقد يقع أن يتعانق فتى وفتاة فوق أحد المقاعد وبجانبه صبية مشغولة بكتاب تقرأه ، أو شعار تحوله ، أو أمل مرموق ، فى صدرها المفتون ثم تظل فى عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين رنين القبل ، وهدير العناق » .

الحياة فى باريس

وقد يزيد فيأتى بحديث التى تساوم على المتعة ، وتطلب الأجر المضاعف ! مما نكتفى بالإشارة إليه فحسب ، ثم يقول فى موطن آخر «لقد تغلغلت فى أعماق الحياة الفرنسية ، ولم يصل أحد إلى مثل ما وصلت إليه من الألفة الصافية، ، والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقتهم فى باريس وغير باريس ، فالمرأة الفرنسية الصميمة الأصلية يغلب عليها النبل والطهارة والعفاف ، وإن نبرة من صوتها لتبدل الأرض غير الأرض وإنها لتذل من تذل، وتغر من تغر ، وهى فى مكانها كالطود

الراسخ لا تغلب ولا تنال ، ولو كانت المرأة الفرنسية هينة إلى الحد الذى يتوهمه الأفاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات فى فرنسا لما أنجبت فرنسا كاتبا ولا شاعرا، وظل أهلها فقراء العواطف موتى الأحاسيس » .

و يندفع إلى أبعد ما يبلغه المحامى فيقول : هل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والملاجىء والمستشفيات ؟! وأنا أقول له إن أمير الشعراء كان أبعد نظرا، حين حكم بوجود الجانبين فى المدينة ، جانب اللهو والتبذل ، وجانب العلم والدرس فقال يخاطب هذه المدينة الساحرة .

إن كنت للشهوات ريا فالعلا

شهواتهن مرويات فيك

ومن العجائب أن واديك الشرى

ومراتع الغزلان في واديك !

فالناحيتان موجودتان ، وتلك سنة الحياة !

وحديث الدكتور عن الحى اللاتينى صادق فى مجموعه ، فهو يقرر أن عصابات من النساء ، وأسراباً من الفتيات يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللاتى يبحثن عن معالم الشباب والجمال ، ولهؤلاء النسوة نفوس ظماء إلى الحسن الغض ، وهناك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن عن الرفيق ولا يجدن ! على أن أحس ما جاء فى هذا الباب هو ما قرره الدكتور عن المرأة الشرقية حيث قال :

إن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال المرأة فى الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش فى أقفاص ، هى سيدة لأنها لا تزال تطلب وتعشق ، ويقال فيها الشعر ، أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها ، ودلت أيامها ، لأن الغرب رزى ببلايا زهدت الرجال فى النساء .

الحب لمصر

هذا عن باريس أما مصر ، فقد كانت ماثلة فى ذهن زكى مبارك ، تجيش عواطفه نحوها بأصدق انفعالات الحب ، حتى حين ينقد أوضاعها، إذ يأتى النقد صادرا عن رغبة فى الإصلاح ، وحافزا للتقدم ، كما ينقد الوالد ابنه فى تصرفه ، وقد يهم بعقابه بالضرب لا كراهية له ، بل رغبة فى إصلاحه ، فإذا أخذ المؤلف على الكتب المدرسية اهتمامها بالقديم دون الحديث ، وإذا أخذ على الشباب المصرى أنه يعرف عن خلفاء العباسيين

والأمويين أكثر مما يعرف عن مصطفى كامل وأحمد عرابى ، فهو توجيه سديد ، وقد حادث بعض الشباب فى مصر فرأى أنهم يقولون إن النهضة المصرية بدئت بثورة سنة ١٩١٩ فهم يجهلون إذن كفاح عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ، ومرد ذلك إلى الكتب المدرسية التى لا تحفل بغير القديم ! . وكم كان المؤلف شديد الأسف على سبق فرنسا السياسى إذا قورن بمصر ، منتهزاً كل فرصة لتوعية قومه بما يجب أن يكون ، إذ أن حديثه هذا ينشر تباعا بجريدة سيارة هى جريدة البلاغ ، ومن أمثلة ذلك حديثه عن المعرض الدولى الباهر الذى أقيم بباريس فجذب أنظار العالم جميعه ! لقد وصف المعرض وصف الأديب البارع ، ثم اتجه إلى أمر له مغزاه ، ذلك أنه لاحظ أن وزراء فرنسا قد جاءوا إلى المعرض كما يجىء أى فرد من أفراد الشعب ، حتى لم يشعر بهم زكى مبارك إلا حين أخبره أحد الزائرين عرضا بأنهم جاءوا فرادى وذهبوا دون أن يشعر بهم أحد ، يقول زكى مبارك :

«لقد دهشت حين علمت بعد نصف ساعة من ذهابهم ، أنهم حضروا وشاهدوا ما أهمهم من مختلف المعروضات وانصرفوا ولم يشعر بهم أحد، فعرفت أنهم وزراء مختارون من الشعب، لا يحيط بهم المخبرون ، ولا يحرسهم البوليس حيث لا مدفع ولا مسدس ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» .

وحين يتحدث زكى عن حرية النقد فى صحف باريس وصدوره عن صدق خالص لا يعرف الملق ، يأسف كل الأسف لما يراه فى الصحف المصرية من مجاملات فارغة لا تمت إلى النقد الصحيح ، ويقول متألماً فى خطاب لصديق (كم رأينا من أذلاء ، لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أدعياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال : هذا مؤلف بارع ! وذلك كاتب مجيد ، وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع ، فلتعلم أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف ! اصنع معروفا وأكتب لنا كلمة فى تقريظ كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية ، إذ

أعرف أن أكثر التقريظ من وضع المؤلفين » .

لماذا سكتوا عنه

وقد يكون من المناسب أن أذكر أن الدكتور زكى مبارك خص كبار الأدباء من زملائه ببحوث جيدة ، نشرت فى كتاب مستقل بعد وفاته ، وهؤلاء جميعا قد سكتوا عن مؤلفاته سكوتا مخزيا ، غير كلمتين للمازنى وأحمد أمين لم تخلوا من نقد ! وأنت تقرأ كتاب ذكريات باريس فلا تجد ما يدل على صلة ما بينه وبين كبار الأدباء ممن زاملهم فى تحرير الصحف والمجلات ، إنك تجد رسائله لأحمد الزين ومحمد السباعى وحسن القاياتى ، وذكرياته عن عبد الباقى سرور نعيم ومحمود بيرم التونسى ، ولكن أين طه والعقاد والمازنى وهيكل ومحمد لطفى جمعه ؟ وقد كتب عنهم جميعاً فأفاض ! لقد كان هذا التجاهل أحد أسباب الألم النفسى الذى تراكمت دواعيه مع آلام أخرى أدت إلى العزوف فالانهيار ! فوا أسفا !

فإذا تركنا مصر إلى البلاد العربية فإننا نجد عواطف الحب والإخلاص تشع زاهية براقة فى كثير من الصفحات ، لقد شهد احتفالا لعيد الحرية بباريس فساءه أن يرى أبناء الجزائر والمغرب يشاركون فى الاحتفال ، وهم مكبلون بأغلال الاحتلال الفرنسى ، فصاح متأوها !

ويلاه ، هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين الصحراء ، ملكتهم هذه الدولة العاتية - يريد فرنسا - فمزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، وأذاقتهم حلاوة الترف (بعض الوصوليين فقط) فعادوا نبتا يؤكل ! ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز ، وكانوا كلما لوحوا بإشارة الرضا ازددت حسرة على حسرات ! كان هؤلاء الجنود يخطرون بخيولهم على شاطىء السين وهم صاغرون ، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوربا ، وأذلوها فى القرون الوسطى أشنع إذلال ، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير» هذا هو مبارك العربى المسلم الأصيل !

وبعد فلو كان لكاتب المقدمة أن يطيل فى الاستشهاد لأطلت . ولكن الكتاب يقدم نفسه للقراء بما يغنى عن كل تقديم واستشهاد وهو زهرة ناضرة من روضة زكى مبارك تقدمها دار الهلال فى حب واعتزاز ، لتكون بعد ذلك نسمة عاطرة تنفح القراء بعبير فواح ، ومرأى قشيب ! ■

بقلم

د. محمد عادل عبد العزيز*

أين اختفى قبر الإسكندر الأكبر؟ وحكايات النبي دانيال

CHANGE

هناك خطأ وقعنا فيه جميعا حينما استقر فى أذهاننا أن الأسكندر الأكبر دفن فى مقبرة . إنما الحقيقة أنه وضع فى السوما أو السيما وهو مبنى أنشئ خصيصا ليكون مشهدا لجثمان الإسكندر الأكبر ، وهى حالة فريدة فى التاريخ ليس لها مثيل سوى قاعة عرض جثمان لينين فى الميدان الأحمر فى موسكو.

وتشير الأدلة التاريخية أن بسيدوكليثينس (Pseudo - Callis-thenes) ذكر أن بطلميوس الأول وضع الإسكندر الأكبر فى المعبد الذى أطلق عليه سيما (Sema) .

وينص سترابون (Strabo) على أن جثمان الإسكندر الأكبر (السوما) يقع فى جزء من القصر الملكى ويقع بعد المتحف، وأنه كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعا ولذلك فإنه يصعد إليه بواسطة سلم حلزونى .

كما ذكر الدكتور هنري رياض نقلا عن مؤرخ قديم أن قبر الإسكندر يشتمل علي سلم يؤدي إلي فناء مربع الشكل ثم ممر طويل يؤدي إلي السوما . كما ذكر أحد المؤرخين في العصر القديم أن السوما كانت تحوطه الأشجار .

وهذا زينوبيوس (Zenobius) وقد نص علي أن جثمان الإسكندر (السوما) يقع في منتصف الإسكندرية .

وهذا أخيل تاتيوس (Achill Ta-tiuus) الذي أشار أيضا إلي أن جثمان الاسكندر يقع في منتصف المدينة بالنسبة لعرضها .

ولكن أين يقع وسط اسكندرية العصر القديم من إسكندرية اليوم؟

وهكذا اقتضت أهمية معبد أو مشهد جثمان الإسكندر الأكبر أن يقام في وسط الإسكندرية .

ولما كان المسجد الجامع من التكوينات المعمارية الأساسية فى المدينة الإسلامية ، حيث يمثل محورا رئيسيا من محاور تخطيطها ، كما اقتضت وظائفه المتعددة أن يكون موضعه وسط المدينة أيضا – ويبدو أن هذا هو السبب فى أن يرتبط أقدم مساجد الإسكندرية باسم ذى القرنين .

مسجد ذى القرنين

ولكن ما هو الدليل على أن قبر الإسكندر الأكبر تحول إلى مسجد ؟

إن أول ما يصلنا من نصوص فى هذا الشأن تصلنا من ابن عبدالحكم الذى زار الإسكندر سنة ٨٧١م وشاهد مسجد ذى القرنين حيث يقول :

«خمسة مساجد بالاسكندرية مسجد موسى النبى عند المنارة أقربها إلى

* كلية اللغة العربية – جامعة الازهر – الزقازيق

الكنيسة ، ومسجد سليمان عليه السلام ، ومسجد ذى القرنين أو الخضر عليهما السلام وهو الذى عند اللبخات بالقيسارية، ومسجد الخضر أو ذى القرنين عند باب المدينة حين تخرج من الباب ولكل واحد منهما مسجد ، ولكن لا ندرى أين هو ، ومسجد عمرو بن العاص الكبير .

من النص السابق يتضح أن المسلمين قد اتخذوا من قبر الاسكندر الأكبر مسجدا لأن القاعدة الإسلامية في مسميات المساجد تجعلنا أمام أحد احتمالين : إما أن الذى بنى هذا المسجد يدعى ذى القرنين ، وإما أن هذا المسجد كان ضريحا لذى القرنين .

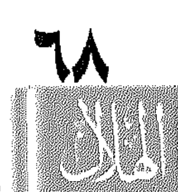
ونحن نرجح الاحتمال الثانى ، فقد أورد ابن جرير الطبرى ، والأموى فى مغازيه ، وابن كثير فى تفسيره حديثا عن عقبة بن عامر : أن نفرا من اليهود جاءوا يسألون النبى - صلى الله عليه وسلم - عن ذى القرنين . فأخبرهم أنه كان شابا من الروم وأنه بنى الإسكندرية . ورغم أن ابن كثير قد استشهد بهذا الحديث فى تفسيره ، لكنه يذكر أنه حديث ضعيف .

وهنا نود أن نشير إلى موطن القوة فى هذا الحديث من الناحية التاريخية ، فلو كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال هو الإسكندر بدلا من (شابا من الروم) . لقلنا أى إسكندر يا رسول الله ؟ لأنهم كثير ، لكن الحديث جاء دقيقا ، حيث يحدد جنسيته أولا ، ثم يشير إلى بنائه مدينة الإسكندرية ثانيا ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أنه بلغ مطلع الشمس ، ومغرب الشمس . فلن يكون هذا إلا الإسكندر الأكبر .

أدلة أثرية

آخر نص وصل إلينا من نصوص العصر الإسلامى أورده أحد الرحالة الذى زار الذين زاروا الإسكندرية فى القرن السادس عشر ، وهو الحسن الوزان (ليون الافريقى) . فيقول : «ولا يجوز أن نغفل ذكر مكان فى قلب المدينة فى وسط الأطلال ، فيه بيت صغير منخفض ، كأنه نوع من مسجد يقع فيه ضريح مبجل جدا ومكرم عند المسلمين ، حيث توقد الأنوار فيه ليلا ونهارا . ويقال إن هذا هو قبر الاسكندر الأكبر ، الذى كان نبيا وملكا كما ورد فى القرآن الذى نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم .

نص ثالث ورد على لسان تربى منطقة كوم الدكة فى القرن التاسع عشر يفيد أن محمد على والى مصر كان يعرف أن صاحب الضريح هو الإسكندر الأكبر ، وليس النبى دانيال .



– ويمكن أن نضيف دليلاً آخر فى غاية الأهمية يؤكد أن ضريح الإسكندر الأكبر كان قد تحول إلى مسجد ، وهذا الدليل ينحصر في تطابق النصوص التاريخية التى حددت موقع قبر الإسكندر، مع النصوص التى حددت موقع مسجد ذى القرنين . فكما وردت نصوص العصر القديم تؤكد أن قبر الإسكندر الأكبر يقع فى منتصف مدينة الإسكندرية . جاءت نصوص العصر الإسلامى تؤكد أن مسجد ذى القرنين يقع فى منتصف المدينة أيضا .

فهذا زينوبيوس (Zenobius) ينص على أن جثمان الإسكندر الأكبر السوما يقع فى منتصف الإسكندرية .

وهذا أخيل تاتيوس (Achill Tatiuus) ينص على أن جثمان الإسكندر يقع فى منتصف المدينة بالنسبة لعرضها .

ونفس الحال فى نصوص العصر الإسلامى .

فهذا ابن عبدالحكم ينص على أن مسجد ذى القرنين يقع فى القيسارية وهو وسط المدينة . وهذا ليون الإفريقى الذى يحدد مسجد ضريح الإسكندر الأكبر فى قلب المدينة .

وهذا رحالة آخر وهو مرمول الذى زار الإسكندرية سنة ١٥٤٦ وشاهد قبر الإسكندر فى وسط المدينة .

ونحن أمام هذا الإجماع من أقوال المؤرخين والرحالة لا نملك إلا أن نقرر أن هناك تطابقا فى موقع قبر الإسكندر ، ومسجد ذى القرنين . الأمر الذى يؤكد أن قبر الإسكندر الأكبر كان قد تحول إلى مسجد بعد فتح الإسكندرية .

الأدلة الطبوغرافية

انتهينا فيما سبق إلى أن موقع قبر الإسكندر الأكبر هو نفسه موقع مسجد ذى القرنين . لهذا فإن البحث عن أحدهما يقودنا بالضرورة إلى الآخر . وحيث أنه لم توجد دراسات تقودنا إلى موقع مسجد ذى القرنين بينما توجد دراسات تحدد موقع قبر الاسكندر طبوغرافيا لذلك سنكتفى بالبحث عن موقع قبر الإسكندر الأكبر .

وقد انتهت الدراسات الطبوغرافية التى اهتمت بتحديد موقع قبر الإسكندر الأكبر إلى ثلاث مدارس :

المدرسة الأولى : وعلى رأسها محمود الفلكى باشا . وهذه المدرسة انتهت إلى أن وسط المدينة بالنسبة لعرضها يقع عند تقاطع الشارعين الرئيسيين ، وأن موقع السوما (شاهد الإسكندر) عند سفح تل كوم الدكة على الشارع الطولى الكبير فى

اتجاه الجنوب بين الشارعين المتقاطعين ل١ ، ص٥ حسب خريطة محمود الفلكى ، ولذلك كان محمود الفلكى يرى أن قبر الإسكندر يقع فى المنطقة الملاصقة لمسجد النبى دانيال .

المدرسة الثانية : ومن روادها أوسفلد (Ausfled) وقد انتهت هذه المدرسة إلى أن قبر الأسكندر الأكبر يقع عند سفح تل كوم الدكة على الشارع الطولى الكبير ولكن فى اتجاه الشمال وذلك اعتمادا على شهادة سترابون الذى ذكر أن شاهد الاسكندر فى الحى الملكى .

وأعتقد أنه لا تعارض بين من قالوا بأن قبر الاسكندر الأكبر فى حى السوما وبين شهادة سترابون بأنها فى الحى الملكى لأن الموقعين لم يفصلهما سوى ثلاثين ياردة ، وهى عرض الشارع الفاصل بينهما . كما يجب ألا ننسى أن سترابون نفسه حينما ذكر أن شاهد الاسكندر يقع فى الحى الملكى ذكر أيضا أن السوما كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعا وذلك ما ينطبق على منطقة كوم الدكة حاليا حيث أنها كانت أكثر مناطق الاسكندرية ارتفاعا فى العصر الإغريقى .

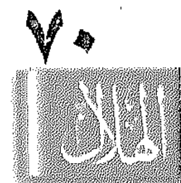
المدرسة الثالثة : وعلى رأسها أدريانى (Adrinani) وترى هذه المدرسة أن موقع شاهد الاسكندر الأكبر فى منتصف المدينة لا يتفق وعبارة أخيل تاتيوس (Achill Tatious) «إلى بضعة ستاد من باب الشمس» . ولذلك فقد انتهت إلى أن قبر الاسكندر يقع عند تقاطع الشارع الطولى الرئيسى ل١ مع الشارع العرضى ص١ بحسب خريطة محمود الفلكى .

أى أن أصحاب هذا القول ابتعدوا بقبر الاسكندر مسافة تقاطع أربعة شوارع عرضية عن الموقع الذى حددته المدرسة الأولى فى اتجاه باب الشمس ، والخطأ الذى وقعت فيه تلك المدرسة فى اعتقادنا أنها لم تنتبه إلى ذلك التعارض بين النص الذى اعتمدوا عليه وهو (إلى بضعة ستاد من باب الشمس) وبين ما ذكره أخيل تاتيوس نفسه حينما يذكر أن شاهد الاسكندر يقع فى وسط المدينة بالنسبة لعرضها .

وحيث أن المسجد هو مفتاحنا فى قضية قبر الاسكندر ، وحيث أن مسجد النبى دانيال هو المسجد الذى وجدناه فى تلك النواحى التى أشارت إليها الدراسات الطبوغرافية سالفة الذكر ، وحيث أن موقعه يتطابق والموقع الذى أشار إليه محمود الفلكى . لذلك فإن رأى محمود الفلكى هو أرجح الآراء فى اعتقادنا .

الأدلة الأثرية

قبل أن نحدد موقع تابوت الإسكندر الأكبر فى مسجد النبى دانيال يجب أن نتعرض لملاحظة فى غاية الأهمية فى



أقوال المؤرخين .

فبعد أن كان ينص المؤرخون على لفظ جثمان وتابوت ، نجدهم يتحولون عن ذلك إلى لفظ ضريح وقبر دون ذكر جثمان أو تابوت .

فمثلا :

Strabo الذى زار مصر فى الفترة من سنة ٢٥ إلى ١٩ ق.م. فقد ذكر أن جثمان الإسكندر «السوما» Soma فى الإسكندرية فى المكان الذى ما زال موجودا فيه حتى الآن ، وأن التابوت الحالى مصنوع من الزجاج ، وهو بديل عن التابوت الذهبى الذى وضع فيه الجثمان فى البداية .

كما أن هناك مصادر قديمة متعددة تشير إلى زيارة بعض أباطرة الرومان لقبر الإسكندر . فقد زاره أغسطس أول الأباطرة (٣٠ ق.م - ١٤م) حيث وضع على رأسه إكليلا من الذهب ونثر عليه الزهور .

كذلك زاره كاركالا Caracalla (٢١١ - ٢١٧م) حيث خلع رداءه وجميع ما كان يتزين به من حلى ووضعها على جثمان الإسكندر .

ومن العصر الإسلامى يذكر المسعودى قبر الإسكندر حيث يصفه أنه فى تابوت من المرمر ثم يقول ما نصه : «وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الإسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة» .

ويفهم من هذا النص أن تابوت الإسكندر المرمرى كان موضوعا على منصة من الرخام .

ثم حدث أمر ما فتتغير لهجة المؤرخين ولنراجع معا قول الحسن الوزان : «ولا يجوز أن نغفل ذكر مكان فى قلب المدينة فى وسط الأطلال ، فيه بيت صغير منخفض ، كأنه نوع من مسجد يقع فيه ضريح مبجل جدا ومكرم عند المسلمين ، حيث توقد الأنوار فيه ليلا ونهارا . ويقال: إن هذا هو قبر الاسكندر الأكبر .

وهذا مرمول يذكر أنه شاهد قبر الإسكندر في وسط المدينة ، وهذا ابن عطاء الله السكندرى يذكر أن الشيخ مكين الدين أخبره أنه زار قبر النبى المدفون بالديماس (كوم الدكة) .

إذن حدث أمر خطير . فما الذى حدث ؟

نحن نعلم أن الاسكندرية تعرضت لزلزال مدمر أتى على كل العمارات الإغريقية على وجه الخصوص نظرا لقدمها ، وقد كان من هذه المبانى معبد كليو باترة ثم منارة الإسكندرية الشهيرة ، والتى بحجارتها وفى نفس موقعها بنى السلطان قايتباى قلعته المعروفة حتى اليوم.

لذلك فنحن نرجح ان السوما (مسجد ذى القرنين) قد انهار أيضا إنهيارا جزئيا نظرا لأنه أصبح مستندا من كل الجهات بالرديم الذى أتى به فعل الزمن وطبيعى أن هذا الإنهيار الذى حدث فى السوما قد دفن تحت إنقاضه التابوت والمنصة الرخامية مع الأسف .

والدليل على ذلك :

أولا : المحافظة علي هيئة القبر لتشير إلي أن التابوت مدفون في الردم من تحته .

حقا لقد ذكر حسن عبدالوهاب أنه أسندت إليه فى فبراير سنة ١٩٤٣ أعمال التنقيب فى ضريح النبى دانيال بناء على طلب الأمير عمر طوسون وموافقة عبدالهادى الجندى باشا وزير الأوقاف فى ذلك الوقت . وقد أثبتت أعمال الحفر أنه لا توجد أى مقبرة أسفل المقصورة الخاصة بالنبى دانيال حتى عمق حوالى ٢,٥ متر، كما أن نتائج اختبار التربة جاء ليثبت أنها من الردم وليست تربة طبيعية . وقد وضعتنا هذه التجربة أمام أحد احتمالين .

الاحتمال الأول : أن يكون ذلك الضريح المعروف بالنبى دانيال ضريحا صوريا للاستجداء ولا شئ غير ذلك .

الاحتمال الثانى : أن يكون ذلك الضريح قبرا قديما توارثته الأجيال بهيئته وأن المقبرة التى بها صاحب الضريح تقع على عمق أكثر من الذى نزل إليه حسن عبدالوهاب .

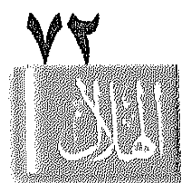
فإذا كان الضريح صوريا للاستجداء . لماذا وضع مخالفا للشريعة الإسلامية .

ألم يكن من الأفضل أن يوضع متفقا مع الشريعة حتى تكتمل أبعاد التمثيلية !!

ثم لماذا قالوا إن صاحب القبر (نبى) ؟ ألم تكن هذه جرأة لم يعرفها المصريون على مدى تاريخهم الطويل ؟ ألم يكن كافيا أن ينسبوا إليه صفة العارف بالله ، أو ما إلى ذلك من الصفات التى تعرف بها أضرحة أولياء مصر الصالحين ، والتى تمثل حصيلة صدقاتها أكبر بكثير من حصيلة صدقات النبى المزعوم !؟

ثانيا : الطراز المعماري للضريح أغريقي :

انتهت الدراسات الأثرية التى قام بها برشيا Breccia فى الفترة من ١٩٢٥ وحتى ١٩٣١ على مسجد النبى دانيال بأن المسجد المدفون (الضريح) من طراز غريب فِى الحقيقة على العمارة الإسلامية ، ويرجع تصميمه إلى السراديب



الإغريقية ، كالتى اكتشفت بالشاطبى ، والأنفوشى ، والورديان ، وان احتوى بعض العناصر الإسلامية ، والتى تكشف الدراسات أنها اضيفت فى عصر المماليك .

ثالثا : انخفاض القبر إلي منسوب العصر القديم :

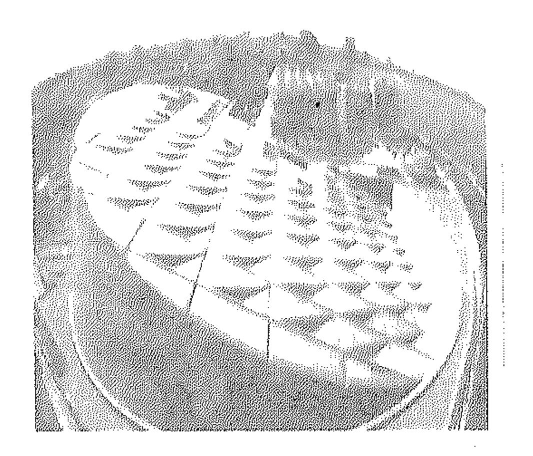
طبيعى أن يطرأ على مستوى سطح الاسكندرية تغييرات بمرور الزمن ، فقد ثبت من أعمال الحفر أن مستوى الإسكندرية اليوم يرتفع عن مستواها القديم بعدد من الأمتار نتيجة لتراكم مخلفات العصور المتعاقبة فوق سحطها حتى أنه لا يعثر الآن على مخالفات العصر الرومانى إلا بعد حفر مسافة ستة أو سبعة أمتار فى باطن الأرض . ولاشك أن العصور على مخلفات العصر الإغريقى يتطلب مزيدا من الحفر ، وهذا ما ينطبق على قبر النبى دانيال حيث ينخفض منسوبه عن سطح الأرض حاليا حوالى ستة أمتار ، رغم ارتفاع منطقة كوم الدكة أصلا عن الإسكندرية ، الأمر الذى يدل دلالة واضحة على أن قبر النبى دانيال لا ينتسب إلى العصر الإسلامى ، وأنه أقرب إلى العصر الإغريقى من أى عصر آخر .

رابعا : أن دانيال الذى أصبح المسجد يعرف به هو أحد شيوخ المذهب الشافعى ، وأسمه محمد بن دانيال الموصلى ، أنه قدم إلى الإسكندرية فى نهاية القرن الشامن الهجرى ، وأنه اتخذ من مسجد ذى القرنين مكانا لتدريس الأصول وعلم الفرائض ، ثم لما توفى سنة ٨١٠هـ دفن فى مؤخرة المسجد . وحيث أن وفاة الشيخ محمد بن دانيال كانت بعد دفن تابوت الإسكندر الأكبر تحت الأنقاض ، وبعد أن أعاد المماليك بناء المسجد ، فقد كان طبيعيا أن يغلب اسم دانيال .

مما سبق يتضح أن الحفائر التى قام بها حسن عبدالوهاب كانت غير كافية لأنه لم يصل بحفائره إلى أرضية السوما الأصلية .

وبعد ، لقد أخطأ حسن عبدالوهاب خطأين : الأول حينما لم يواصل أعمال الحفر حتى يصل إلى الأرض الطبيعية ، وأخطأ خطأ ثانيا حينما كان سببا فى أن يحجم الجميع أن يضعوا أيديهم على المنصة الرخامية وحطام التابوت .

وأخيرا أقول أما آن لنا أن نتحرك ، وأن نحبط إقامة هيكل يهودى جديد ، وأن نعيد إلى مسجد النبى دانيال اسمه القديم (مسجد ذى القرنين) عليه السلام . ■



مكتبة الإسكندرية

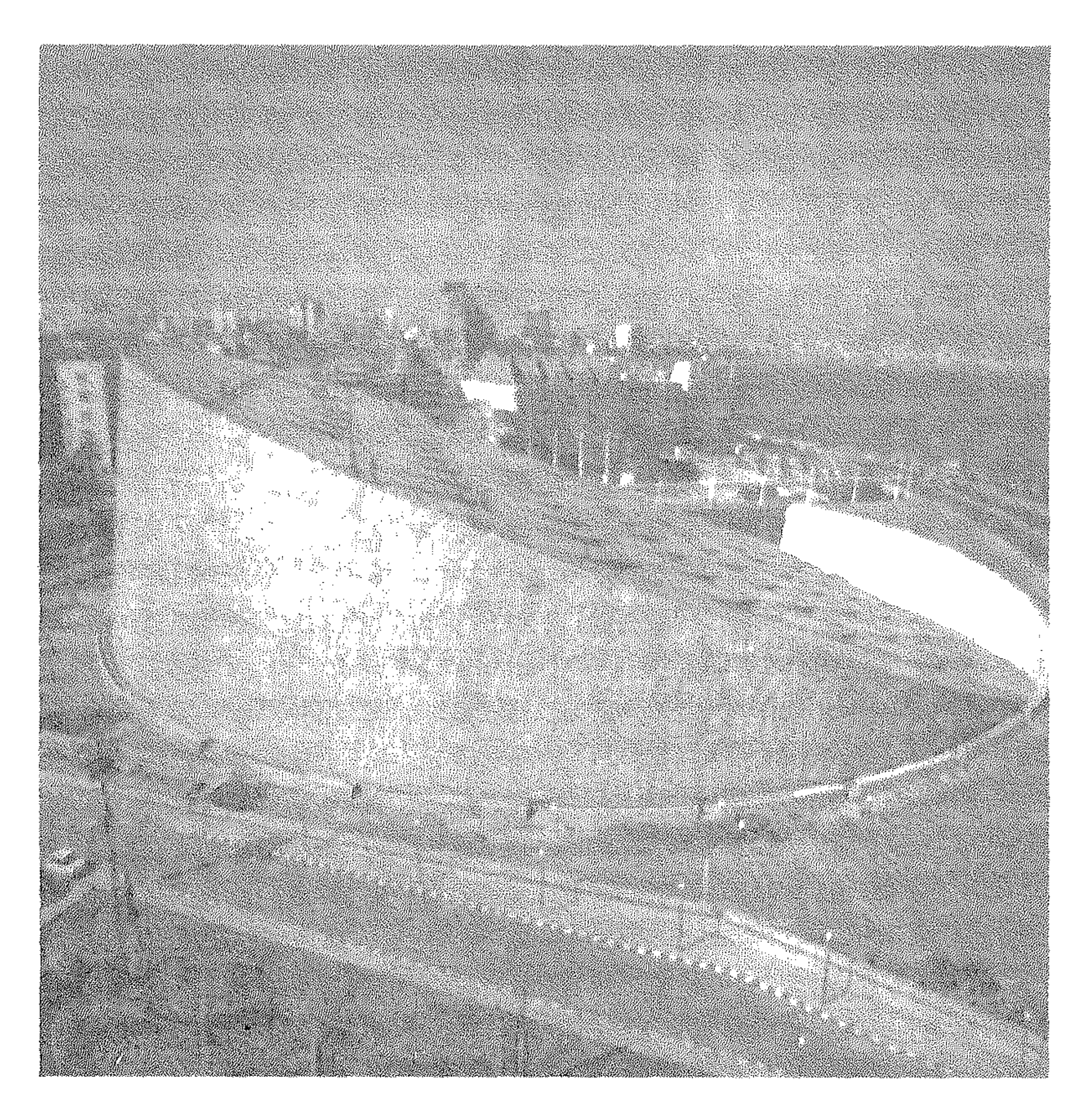
هل تثقف العالم؟!

وأبعاد السلام السكندرى

بقلم
د. أحمد عتمان



لمكتبة الإسكندرية أبعاد عالمية لا يفطن إليها البعض، والبعض الآخر يخشى على مصر وعلى المكتبة من هذه الأبعاد العالمية. ولذا نسارع بالقول إن هذه الأبعاد العالمية هى سر عظمة مكتبة الإسكندرية، القديمة والحديثة ولا نبالغ إذا قلنا إن موقع مصر الجغرافى ومكانتها التاريخية ودورها الحضارى منذ القدم وإلى اليوم هو الذى أعطى لهذه المكتبة صفة العالمية.

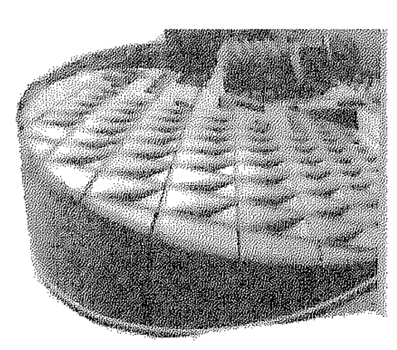


ضمت مكتبة الاسكندرية كل حضارات المنطقة من العلم والمعرفة والادب والفنون

ولكى تتضح الصورة أمام القارئ نود هنا أن نصحح بعض الأفكار الشائعة أولى هذه الأفكار الظن بأن مكتبة الإسكندرية مكتبة إغريقية ليس إلا. صحيح أن الذى أسس مدينة الإسكندرية هو الإسكندر الأكبر والقادة خلفاؤه ولاسيما بطلميوس الأول فى نهاية القرن الرابع ق.م. ولكن راكوتيس البلدة المصرية القديمة (راكودة أو راقوده الآن) كانت النواة وقام البطالمة الأوائل بإنشاء المكتبة بوصفها ملحقا للموسيون (معبد ربات الفنون) الذى كان بمثابة جامعة يقيم فيها رجال العلم والأدب.

ولم تك مكتبة الإسكندرية الأولى فى التاريخ فالمعابد المصرية القديمة ضمت مكتبات وضعت فى خدمة الكهنة أرباب العلم، وعرفت حضارة ما بين النهرين المكتبات أيضا. أما فى العالم الإغريقى فإن أكبر مكتبة عرفت قبل مكتبة الإسكندرية فهى مكتبة أرسطو معلم الإسكندر الأكبر.

وتحفظ لنا الروايات القديمة شبه التاريخية - دون أن يتوافر لنا الدليل المادى القاطع - أن الطاغية



بيسيستراتوس (٥٧٠ - ٥٠٧ تقريبا) كان أول من أسس مكتبة عامة فى أثينا، وأن الأثينيين قد عملوا من بعده على زيادة مجموعات الكتب التى اقتناها. ورد ما يفيد ذلك عند أولوس جيلليوس الكاتب الرومانى الذى عاش إبان القرن الثانى الميلادى ويرى بعض العلماء أن الرواية التقليدية الشائعة بأن هذا الطاغية كان أول من أمر بجمع وتدوين أعمال هوميروس إنما ترمز فى الواقع إلى أنه حاول تركيز تجارة الكتب فى أثينا. ويقال كذلك إن طاغية جزيرة ساموس الشهير بوليكراتيس قد جمع إبان النصف الثانى من القرن السادس كتبا كثيرة فى هذه الجزيرة جاء ذلك فى رواية أثينايوس الذى عاش حول عام ٢٠٠م فى مدينة نوكراتيس المصرية الإغريقية (كوم جعيفة الحديثة بالقرب من إيتياى البارود). وقيل كذلك إن نيكو كراتيس (؟) من قبرص - وهو ينتمى إلى فترة زمنية أقدم - قد فعل نفس الشئ غير أن بعض العلماء يرجحون ألا تكون هذه الروايات صحيحة، إذ من المحتمل أن يلصق الكتاب المتأخرون بهؤلاء الحكام القدامى عادات وسمات حكام العصر الهيللينستى. ومن المشكوك فيه - كما سبق أن ألمحنا - أن تكون الكتب شائعة التداول قبل عصر بريكليس وهذا لا ينفى أن مجموعات من الكتب قد استخدمت بحكم الضرورة فى المدارس آنذاك. ومما يروى فى هذا الصدد أن ألكيبياديس (٤٥٠ - ٤٠٤ تقريبا) قد ضرب ناظر إحدى المدارس لأنه لم يكن يحتفظ بنسخة من أشعار هوميروس فى مدرسته أما مجموعات الكتب الخاصة بالأفراد فقد كانت نادرة وتعد من الأمور اللافتة للنظر إلى حد أن يوريبيديس قد أصبح موضوع سخرية أنه يمتلك مكتبة خاصة ويخبرنا كسينوفون أن يوثيديموس صديق سقراط قد أنشأ لنفسه مكتبة لا بأس بها، إذ كانت تضم الشعراء والسوفسطائيين إلى جانب كتب فى الطب والعمارة والهندسة والفلك. وفى شذرة للشاعر الكوميدى أليكسيس (٣٧٥ - ٢٧٥) نجد إشارة إلى مكتبة تضم المؤلفين الإغريق الكلاسيكيين (شذرة رقم ٢٤٥). هذا وقد راجت تجارة الكتب إبان القرن الرابع، حتى أنه عندما وصلت بقايا حملة العشرة آلاف إغريقى بقيادة كسينوفون عبر الأناضول إلى ساليديسوس على البحر الأسود وجدت بين حطام السفن التى كانت قد وصلت إلى هذه المنطقة النائية كتبا كثيرة منسوخة كان البحارة قد نقلوها فى صناديق خشبية.

أرسطو القدوة

ومما لا شك فيه أن أفلاطون قد احتفظ فى مدرسته «الأكاديمية» بمجموعات من الكتب أو المخطوطات التى استخدمها هو وتلاميذه بيد أن

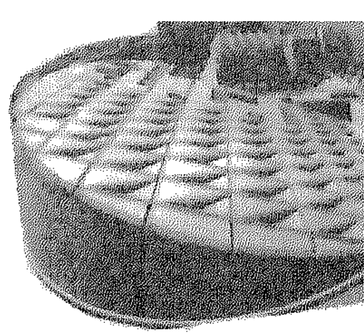


سترابون (٦٤/٦٣ق.م - ٢١م على الأقل) يروى أن أرسطو هو أول من جمع الكتب، فكان بذلك القدوة والرائد الذى حذا حذوة ملوك مصر البلطمية إذ تعلموا منه - وهو معلم قائدهم الإسكندر الأكبر - كيف ينشئون وينظمون مكتبة ضخمة مثل مكتبة الإسكندرية.

ومن هنا تأتى أهمية الحديث عن مكتبة أرسطو ومدرسته إذ كانت دراسة التراث القديم تشكل واحدا من أبرز الموضوعات التى أولاها هذا الفيلسوف عنايته فهو مربى الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣) الذى أشرف على تعليمه طفلا وصبيا وشابا يافعا فكان يدرس له أشعار هوميروس ومسرحيات شعراء التراجيديا الأتيكية. وربما ألف من أجله كتابا عن مؤسسى المستعمرات وآخر عن حكم الفرد. وعندما مات والد الإسكندر الملك فيليب عام ٣٣٦ عاد أرسطو إلى أثينا، وهناك فى مكان خارج المدينة أى إلى الشمال الشرقى منها فيما بين صخرة ليكابيتوس وإليسوس وجد كهفا مقدسا لدى الإله أبو للون لوكيوس Apollo Lykeios ولربات الفنون الموساى. هناك أقام أرسطو مدرسته التى عرفت باسم اللوكيون (Lykeion)، وكانت تحتوى على فناء مغطى اعتاد أرسطو أن يتمشى فيه (Peripatos) وهو يحاضر تلاميذه حتى أن أتباع مدرسته الفلسفية حملوا اسم المشائين فيما بعد.

دراسة التراث

ما يهمنا الآن هو أنه فى هذه المدرسة جمع أرسطو العديد من المخطوطات وأسس مكتبته النادرة التى حوت فيما حوت الخرائط الجغرافية كما ألحق بها متحفا يضم مجموعات من وسائل الإيضاح المتباينة من الحيوانات والنباتات وغيرها، استخدمها الفيلسوف العظيم أثناء تدريسه ومما يروى أن الإسكندر الأكبر قد أهدى إلى أرسطو مبلغ ثمانمائة تالنت ليساعده على جمع هذه المقتنيات. كما أمر هذا العاهل المقدونى والشاب الفاتح لكثير من الأقطار صياديه فى البر والبحر أن يحضروا إلى أستاذه أرسطو كل ما يصادفهم ويمكن أن يكون ذا فائدة علمية له. ولقد وضع أرسطو الفيلسوف المعلم نظاما دقيقا للحياة فى المدرسة، بما فى ذلك الوجبات المشتركة ومائدة الشراب الوحيدة أو ما نسميه المأدبة symposion مرة كل شهر، ولقد ألف هذا الفيلسوف العظيم فى كافة مجالات المعرفة كما سبق أن ألمحنا فى الباب السابق، واحتلت دراسة التراث القديم جزءا كبيرا من اهتمامه وكذلك الدراسات الأدبية واللغوية بصفة عامة يضاف إلى ذلك أنه بمفرده أو بمساعدة تلاميذه قد أعد قوائم كثيرة تاريخية وعلمية، وذلك مثل قائمة الأبطال المنتصرين فى الألعاب الأوليمبية (Olympionikai)، وقائمة الأبطال المنتصرين فى الألعاب البيثية (Pythionikai)، وقائمة بنماذج من



عادات الشعوب (Nomina) ونظام أو دستور الأثينيين (Athenaion Poli-teia) المكتوب حوالى عام ٣٢٩/٣٢٨ والذى اكتشف نصه على ورقة بردية حفظتها رمال مصر حتى عام ١٨٩٠م فأثار ضجة فى أوساط دارسى الكلاسيكيات فى العالم الغربى. وامتد صداها إلى مصر حيث ترجم د. طه حسين هذا النص إلى اللغة العربية، واهتم به الكثيرون من المفكرين المصريين. ومن القوائم المهمة التى وضعها أرسطو وكان فقدها خسارة جسيمة يحس بها كل مهتم بالتراث الكلاسيكى أو بالدراسات الأدبية بصفة عامة والفن المسرحي بصفة خاصة هى الديداسكالياى (Didaskaliai) وهى سجل بالعروض المسرحية التى قدمت فى أثينا، يضم اسم الشاعر المؤلف واسم المواطن الأثينى المكلف بتمويل وتجهيز الجوقة أى الخوريجوس (Choregos) وسنرى أن هذا الكتاب - الذى لم يصلنا سوى فى صورة شذرات مهلهلة ومتناثرة - قد ترك تأثيرات واضحة على أدباء وعلماء الإسكندرية مثل كاليماخوس وأريستوفانيس البيزنطى وغيرهما ولا شك أن هذا الكتاب يعتبر أول لبنة توضع فى أساس بناء ضخم نسميه الآن علم التاريخ الأدبى.

ومن ثم يطرح السؤال التالى: إذن ما الذى أعطى لمكتبة الإسكندرية كل هذه الأهمية؟

ومن الملائم تماما أن نبدأ بالظرف التاريخى، فلقد غيرت فتوحات الإسكندر الأكبر - القرن الرابع ق.م - وجه العالم المعروف آنذاك. انتهى عصر الدول الصغيرة أو الدولة - المدينة (polis) الذى قامت على أساسه الحضارة الهيللينية وبدأ عصر الدول الكبيرة والإمبراطوريات واختلط الشرق بالغرب وبدأ ما يسمى بالعصر الهيللينستى الذى يفهمه الغربيون - بفعل المركزية الأوروبية - على أنه تأغرق (هلنة) الشرق ونفهمه نحن بأنه تزاوج وتمازج الشرق بالغرب.

وامتزاج الحضارات هذا إذن نوع من العولمة بمعايير ذلك الزمان وعندما أقام البطالمة دولتهم واتخذوا من الإسكندرية عاصمة لهم علينا أن نفهم دور هذه المدينة التى تحمل اسم صاحب العصر الاسكندر الأكبر فى ضوء هذه المتغيرات كانت الإسكندرية بمثابة مدينة عالمية أو كونية Cosmopolis ترى فيها كل ألوان البشر وكافة الأجناس وتسمع فى طرقاتها كل اللغات المتداولة فى منطقة البحر المتوسط، ومن ثم فلا غرو أن تكون مكتبة الإسكندرية القديمة مرآة لعولمة ذلك العصر إنها مكتبة أسسها اليونانيون على أرض مصرية، فضمت بين جوانحها كل حضارات المنطقة ولذلك أصبحت قبلة كل الباحثين



عن العلم والمعرفة وكل المبدعين فى الآداب والفنون.

الإسكندرية المثل الذي يحتذي

كانت الإسكندرية بالنسبة لروما الناشئة المثل الذى يحتذى بل كان الرومان يحلمون بأن يبنوا عاصمة فى إيطاليا على منوال الإسكندرية وكان للإسكندرية تأثيرات ضخمة على حياة الرومان وفنونهم وآدابهم.

وسنضرب مثلين فقط للاستدلال على إعجاب الرومان بالإسكندرية المثل الأول هو أنطونيوس الذى باع الإمبراطورية الرومانية برمتها ليس فقط من أجل جمال كليوباترا وتعلقه بها، ولكن أيضا من افتتانه بالحياة فى الإسكندرية أما الإمبراطور هادريان فى مزرعته الريفية على بعد ٣٠ كيلو متر شرق روما والمسماة فيلا هدريانا Villa Hadriana والتى لاتزال باقية إلى اليوم، فقد بنى فيها جزءا من الإسكندرية ونعنى كانوبوس Cano-pus (أبو قير) بما فى ذلك التماسيح وهكذا جسد هذا الإمبراطور الحلم الرومانى التقليدى القديم أى أن تكون لهم عاصمة مثل الإسكندرية على الأرض الإيطالية.

باختصار شديد وبوضوح أشد هناك ثلاثة عوامل رئيسية أسهمت بها مصر فى مكتبة الإسكندرية القديمة وهى:

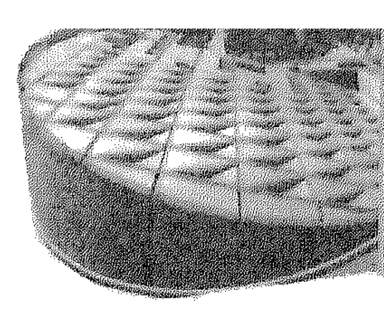
أ - الحضارة المصرية القديمة، حيث قدمت الأنموذج الذى يحتذيه الإغريق والرومان فى كل مناحى الحياة.

ب - نبات البردى الذى صنع منه المصريون الورق منذ القدم فصارت الحضارة المصرية القديمة حضارة كتابية تعلم منها الآخرون فن الكتابة فى حين تغلب على الحضارات الأخرى ومنها الإغريقية - الشفاهية.

ج - الثراء المصرى الواضح حتى فى كنوز الذهب المكتشفة فى الآثار المصرية كما كانت مصر مخزن الغلال بالنسبة للإمبراطورية الرومانية هذا الثراء المصرى هو الذى مكن البطالمة من الإنفاق على مشروعهم الثقافى الطموح وهو بناء المكتبة واجتذاب الأدباء والعلماء من كل الأرجاء.

على أن هناك بعض المعلومات الشائعة والخاطئة عن حرق مكتبة الإسكندرية، وبادئ ذى بدء نقول إنها عدة حرائق - لا حريق واحد - التى أتت على المكتبة فى النهاية. كان الحريق الأول عام ٤٨ ق.م عندما حوصر يوليوس قيصر فى قصر كليوباترا الملكى واضطرت الإمدادات العسكرية التى جاءته من الخارج إلى أن تدك هذا القصر دكا لكى تنقذ يوليوس قيصر فاشتعلت النار فى جانب من المكتبة وقضت على ٤٠ ألف مجلد كما يرد عند بعض الكتاب الإغريق والرومان. وهذه الخسارة هى التى عوضها أنطونيوس لكليوباترا بعد ذلك بعدد هائل من مخطوطات مكتبة برجامون (برجامم) فى آسيا الصغرى.

وفى عام ٢٧٣م تعرضت المكتبة



لحريق هائل أثناء حرب الإمبراطور أوريليانوس ضد زنوبيا وفى القرن الرابع الميلادى وبعد أن أعلنت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية تعرضت المكتبة للحرق باعتبارها رمزا للوثنية.

وعندما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى ودخلوا الإسكندرية لم يكن للمكتبة أثر يذكر ولا داعى لتصديق الروايات التى تقول: إن عمرو بن العاص هو الذى حرقها واستغرق ذلك ستة أشهر، حيث كانت مجلدات كانت المكتبة وقودا لحمامات الإسكندرية.

ومعروف أن العرب المسلمين كانوا يقايضون الكتب الإغريقية بالأسرى الروم، وأنهم كانوا يبحثون عن هذه المخطوطات أينما وجدت وكان الخلفاء العباسيون يزنون كل كتاب إغريقى مترجم بالذهب مكافأة لمترجمة.

فهل من المعقول أن قوما هذا شأنهم وشغفهم بالتراث الإغريقى يقدمون على إحراق مكتبة كاملة وقعت فى أيديهم؟

على أننا نود تصحيح خطأ آخر شاع بين الناس ويتمثل فى السؤال: مادامت مكتبة الإسكندرية قد أحرقت مرة أو مرات وانتهى أمرها فلماذا نحيى أثرا باليا اندثر؟ ألم يختف هذا التراث السكندرى للأبد؟

أضخم مكتبة في العالم

وقد يبدو هذا التساؤل معقولا ومقبولا للوهلة الأولى، ولكن قليلا من التمحيص يظهر الأمر غير ذلك فالحرائق التى اندلعت فى مكتبة الإسكندرية القديمة تباعا لم تأت على تراثها الفكرى والعلمى فالمكتبة - أى مكتبة ناجحة - لا يقتصر إشعاعها الثقافى على موقعها أو ما يحيط بها من دائرة مكانية وزمانية محدودة كانت مكتبة الإسكندرية القديمة هى أضخم مكتبة فى العالم آنذاك، وقصدها القاصى والدانى طلبا للعلم والمعرفة والتف حولها الأدباء والعلماء من كافة أنحاء العالم آنذاك وكان الكثيرون منهم ينسخون الكتب الموجودة فى مكتبة الإسكندرية فيعودون بها إلى أوطانهم - صقلية ورودس مثلا - لكى يقوموا بتدريسها لطلابهم وربما يضعونها فى خزانة الكتب بالمدارس، ومن ثم يمكن أن تتخيل مئات الكتب السكندرية وهى تشق طريقها إلى المراكز الثقافية فى أنطاكية ودمشق وحلب والرها وجزر اليونان وقورينة وشمال أفريقيا، ثم جاء خلفاء بغداد ومترجموها وحاولوا جمع كل تلك المخطوطات فى وقت لاحق. ويكفينا أن نضرب مثلا واحدا على تراث الإسكندرية الذى وصل بغداد ومنها إلى عالمنا الحديث ونعنى جالينوس الذى عرف له حنين بن اسحق أفضل المترجمين العرب ١٢٩ عملا ترجم منها مائة عمل، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا لا تعرف منه سوى بضعة أعمال. ولد جالينوس فى برجامسون وتربى فى الإسكندرية وبلغ من العلم شأوا رفيعا حتى أصبح الأستاذ المفضل فى روما ويعتبره العرب إله الطب. أليس هذا تراثا سكندريا نتداوله بين أيدينا وفى

رسائلنا العلمية إلى يومنا هذا؟

ومن باب أولى أن تكون مكتبة الإسكندرية قد أغدقت العطاء للمدارس اليونانية المنتشرة فى مدن وادى النيل وقراه النائية، وإلا فمن أين لهذه المدارس بآلاف البرديات التى وصلت إلى أيدينا وقرأنا عليها نصوصا أدبية وعلمية (طبية) وأشعارا ومسرحيات هذه البرديات تغطى الأدب الإغريقى من هوميروس إلى شعراء التراجيديا والكوميديا الإغريق تملأ البرديات الأدبية والعلمية متاحف العالم وكلها مكتشفة فى مصر وكان مصدرها الرئيسى فى الأغلب مكتبة الإسكندرية إذن فتراث مكتبة الإسكندرية مازال يتواصل معنا برغم الحرائق المدمرة وبرغم القرون الطويلة التى تفصل بيننا وبينها.

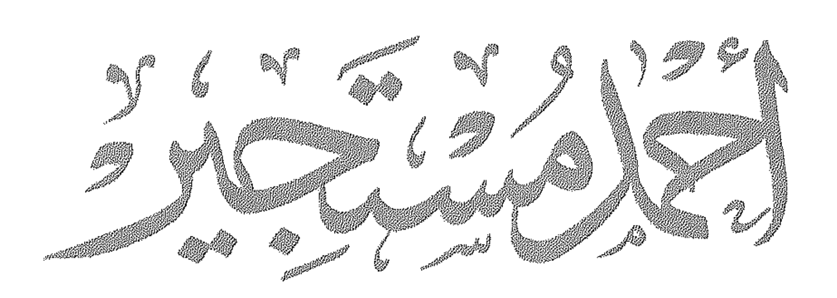
فلا عجب إذن إذا قلنا إن مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية هو تاج يوضع على هامة الجهود المصرية فى مجال الدراسات اليونانية واللاتينية والحضارية بصفة عامة، وهو تاج يكلل هامة رواد الفكر والثقافة منذ رفاعة رافع الطهطاوى وطه حسين ولطفى السيد وتوفيق الحكيم وأحمد شوقى إلى جيلنا هذا.

ولادة عالم جديد

أما القيادة السياسية المصرية فقد استشعرت نبض المثقف المصرى وتبنت مشروعا حلم به هذا المثقف الواعى طوال القرن العشرين ليرى النور فى نهاية نفس هذا القرن وهاهو ويفتتح رسميا فى العام الثانى من القرن الحادى والعشرين بل إننى أرى أن القيادة السياسية قد أصابت بهذا المشروع الثقافى هدفا سياسيا ضخما. حقا فما أشبه اليوم بالبارحة فإذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قد نشأت فى ظل متغيرات ثقافية وفكرية جوهرية سبق أن ألمحنا إليها حيث انتقل الإنسان من حياة المدينة - الدولة -po lis الضيقة إلى آفاق الحياة فى مدينة كونية Cosmopolis مثل الإسكندرية فإننا فى أيامنا الراهنة نشهد ولادة عالم جديد تحت ظل العولمة وثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات فإذا بمصر شعبا وحكومة تقدم للعالم الأنموذج الأمثل للعولمة وثقافة السلام والعدالة والتآخى بين الشعوب - ثقافة حوار الحضارات لا تصادمها وتلاكمها. ها هى شمس مكتبة الإسكندرية الحديثة تطلع على البحر المتوسط والعالم بهذا الأنموذج المصرى التاريخى والتقليدى إنه مشروع السلام السكندرى -Pax Alexandri na لا هيمنة فيه إلا لنور العقل ولا طمع فيه إلا فى العلم والمعرفة.

هذه مصر تمد يدها بمكتبة الإسكندرية وبسلامها السكندرى، ونحن على ثقة تامة بأن العالم أجمع سيتلقف هذه اليد الممدودة وسيتعاونون معنا من أجل البناء برغم الأشرار ذوى الأطماع وبرغم الأنقاض التى نثروها حولنا لا يستطيع أحد أن يطفئ الشمس شمس السلام السكندرى (باكس أليكساندرينا) الذى علينا أن نتشبث به أملا فى خلاص العالم. ■

العالم المصرى الأصيل



بين العلم والجائزة

بقلم
د. مصطفى ابراهيم فهمى *

يعد د. أحمد مستجير من العلماء المتميزين من متعددى المواهب الفكرية والقدرات العلمية والأدبية المتفردة، فهو بجانب كونه عالما من علماء الزراعة، فهو مترجم قدير، وشاعر متميز، وأديب ضليع جمع بين كل هذه الألوان العلمية والأدبية والفكرية فى قدرة ودأب وإخلاص .

وهو يذكرنا بذلك النمط من العلماء الأدباء أمثال د. أحمد زكى و د. ابراهيم ناجي و د. محمد كامل حسين ، سار على نفس درب الجمع بين الأدب والعلم والترجمة ،وهو احد ابرز كتاب مجلة الهلال فضلاً عن انه اصدر ديوانا شعريا، وترجم في سلسلتي الهلال وروايات الهلال كتابين هما: «ثلاثة في قارب »و« يوميات رجل كسول» ، بجانب تمكنه من أصول اللغة العربية مما أهله ليصبح عضوا بمجمع اللغة العربية ..

في محاولة لعرض بعض ما أعرفه من ملامح في شخصية عالمنا الكبير د. أحمد مستجير الذي فاز أخيراً بجدارة بجائزة مبارك للعلوم. عندما ذكرت في العنوان أن د. مستجير عالم مصري لم أقصد بذلك أن جنسيته مصرية مثله مثل الملايين الستين أو السبعين من غيره من المصريين، وإنما عنيت بذلك أنه مثال للفلاح المصري القح الذي يحمل معه هموم وطنه في كل زمن ومكان ، والذي تشرب مصريته حتي النخاع بكل مايملؤها من معان وآمال . وأهم مايتضح ذلك في أبحاثه العلمية التي يدور معظمها حول تحسين الانتاج الزراعي في مصر ، وله في ذلك أبحاث مختلفة في تحسين إنتاج الماشية المصرية لحماً ولبناً ، باستخدام شتي الوسائل الوراثية ، مع اهتمام خاص بالجاموس، ثم هناك بحثه الفذ الأخير للعمل علي نجاح

*استاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية

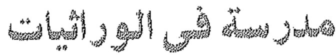


زراعة الأرز والقمح في أراض ومياه مالحة ، بتهجينها بالغاب. وكثيراً مايقول مستجير إن أبحاث التهجين هي أبحاث الهندسة الوراثية للدول الفقيرة .



○ يعد د. مستجير من أفضل من ترجم كتب الثقافة العلمية إلى العربية ، وقد ترجم في هذا المجال مايزيد على ثلاثين كتاباً

ومن سمات الفلاح المصرى عند د. مستجير كرمه الريفى الذى يبذله طبيعيا وبسخاء وعن طيب خاطر ، وقد كان أول تعارفى معه فى ظروف ظهر فيها كرمه وشهامته ، وكان ذلك منذ مايقرب من أربعين عاماً فى اسكتلندا بالمملكة المتحدة أثناء دراسة الدكتوراه فى جامعة ادنبرة. وكنت وقتها فى بعثة علمية لدراسة التحاليل التى تجرى لعمليات القلب الجراحية . وكان من بين برنامج التدريب أن أدرس هذه التحاليل فى معمل مستشفى أدنبرة . وتصادف أن كان لنا صديق مشترك عرض على مستجير أن يستضيفنى فى شقته بأدنبره فقبل ذلك على الفور دون سابق معرفة . والحقيقة أن هذه الشقة كانت بمثابة دوار العمدة فى الأرياف. فهى مفتوحة لأى من المصريين الذين يزورون ادنبرة لأسباب شتى لعل أهمها هو الدراسة أو العلاج . وكان أثاث الشقة مثل أثاث دوار العمدة الضيق الذى يفوح بعبق عز غابر ، وفيها ثلاث حجرات للنوم يشغل اثنين منها مستجير وزميل دراسة آخر يقيم معه، أما الغرفة الثالثة فهى لاتخلو أبداً من أحد الزوار . وأحياناً يأتى زائر آخر إضافي فيبيت فى حجرة الجلوس فوق أريكة فى مواجهة بيانو متهالك . وقد أقمت فى هذه الشقة الدوّار طوال شهر رأيت فيه زوارا إضافيين يفترشون الأريكة مابين صحفي أو زراعى أو طبيب أو ضابط ... الخ وكان أكثر هؤلاء الضيوف يقدرون كرم د. مستجير كل التقدير . إلا أن هناك قلة منهم كانت أحياناً تسبب له بعض المتاعب، كان يتضح بعد سفر أحدهم أنه أجرى مكالمات تليفونية بمبالغ لها قدرها ولم يدفعها، أو أن يحيل بعضهم ديونه على مستجير بدعوى ظروف تفرض تعجله للسفر . وكان هذا يسبب ارتباكاً فى ميزانيته المحدودة وقتها . فقد كان مايصرف له من مرتب هو مايوازى مرتبه فى مصر حيث أنه كان فى إجازة دراسية وليس مبعوثاً .، وكان هذا المرتب لايزيد على ثلاثة وعشرين جنيها أو نصف مرتب طالب البعثة وقتها ، وعندها كان مستجير يضطر إلى زيادة جرعة التقشف كان يقتصر بروتين الطعام على مصادر رخيصة لايقبل عليها أهل ادنبرة مثل «المخ والأكارع». ومع كل هذه المتاعب وهذا التقشف ظل دوار العمدة يواصل استقبال الضيوف أحسن استقبال .



مدرسة فى الوراثيات

ومستجير بالإضافة لكرمه الفلاحى يبذل العطاء العلمى لكل من يحتاجه من طلبة

سواء طلبة التخرج أو طلبة الدراسات العليا . وهو إلى جانب القاء الدروس الأكاديمية يحاول دائماً إعداد صف ثان وثالث ورابع من باحثى الوراثة ، وقد كون بالفعل كتيبة علمية من توسم فيهم النشاط والقدرة على مواصلة خط أبحاثه. ولو وجدت هذه الكتيبة فى مجتمع آخر تتوافر له استراتيجية شاملة للإنتاج الجدى، تتضمن فى طياتها خطة علمية متكاملة لتكونت من هذه الكتيبة مدرسة علمية مصرية فى الوراثيات الزراعية (والدكتور مستجير لسبب ما لايحب كلمة وراثيات)، ولكننا بكل أسف مازال ينقصنا مقومات لاغنى عنها لبناء المدارس العلمية المتصلة، وإن لم يكن من بين هذه المقومات المنقوصة نقص الأفراد الأكفاء المخلصين.

ود. مستجير يعد من أفضل من يترجم إلى العربية كتب الثقافة العلمية . وقد ترجم فى هذا المجال مايزيد على ثلاثين كتاباً ، وله فى الترجمة أسلوب سلس يكاد - أحياناً - يقترب من الشعر كما فى ترجمته الشهيرة «للربيع الصامت» لراشيل كارسون، وأعتقد أن ترجمته لهذا الكتاب أعيد طبعها ثلاث أو أربع مرات. ومرة أخرى فإن مستجير العالم والفلاح المصرى لايبخل بمد يد العون لكل من يدخل حديثاً فى مجال الترجمة العلمية ، مادام يتوسم فيه جديته وقدرته. وأذكر أن أول كتب الثقافة العلمية التى تمت ترجمتها ثم نشرت، كان كتاباً أعطاه لى مستجير من مكتبته وشجعنى على ترجمته، عندما سمع منى - أنى لا أعرف بعد - ماذا سأفعل بما توفر لى من فراغ بعد خروجي إلى المعاش . ومازالت لدى النسخة الانجليزية لهذا الكتاب وهى تحمل فى أول صفحة اسم د. مستجير ، وعنوان هذا الكتاب «التنبؤ الوراثى» ويدور حول محاولات التنبؤ بالأمراض الوراثية . ومقرر الوراثة الذى درسه جيلنا فى الطب لاتزيد مدته على ساعات معدودة ، ومعظم المقرر له اتجاه تطبيقى فيهتم بتوصيف الأمراض الوراثية ، ولا يذكر إلا القليل عن الأساس النظرى للوراثة . وكان على أن ألجأ كثيراً للاستعانة بمستجير ليشرح لى النظريات والمصطلحات الوراثية، ولم يبخل على قط بعلمه أو وقته . ولكنه ظل دائماً يتندر بقلة معلومات الأطباء عن النظريات الوراثية الأساسية، وانغماسهم مباشرة فى دراسة الأمراض الوراثية بلا أسس نظرية، وبلا تعمق فى «ميكانزمات» التغيرات الكيميائية فى المجالات الوراثية أو مايسمى أحياناً بالوراثيات الجزيئية ، وبلا معرفة بتفاصيل الهندسة الوراثية ووسائل العلاج بالجينات . وعبثاً أحاول اقناعه بما حدث مؤخراً بين زيادة الاهتمام فى دراسات الطب بكل هذه الأمور، وبأن تقريرا للجمعية الطبية البريطانية ترددت فيه شكوى علماء الوراثة على نطاق العالم كله من قلة الساعات المخصصة لدراسة مادة الوراثة وتكررت فيه الدعوة للعمل على زيادتها.

التعالى العلمى !

وكما تعرض مستجير أحياناً لمن حاولوا استغلال كرمه الفلاحى ، فإنه تعرض أيضاً



الانشغال بهموم الوطن جعله يفكر في تهجين القمح والأرز بـ«الغاب» كي يزرعا في الأراضي المالحة

فى بعض الأحيان لمن حاولوا استغلال كرمه العلمى وإقباله على رعاية تلاميذه وكل من يلجأ إليه علمياً. ومن ذلك حالة لأحدث الأدعياء زعم له أنه من حوارييه في الترجمة العلمية وعرض عليه بعض ماترجمه لإبداء رأيه فيه ، وتحايل على د. مستجير ليكتب له رأيه كتابة، وما لبث أن طبع هذا الرأى فى أول كتابه على أنه مقدمة كتبها مستجير لهذا الكتاب، وذلك بدون أى استئذان منه . وكان أن فقد هذا الداعى بعدها أى تعاطف منه وخسر بذلك أكثر مما كسبه بتحايله . ومع ذلك فمازال مستجير يواصل العطاء العلمى نفسه باذلا الكثير من علمه وخبرته لمن يستعين به من الطلبة والمترجمين .

عناد الفلاح المصرى

وأحمد مستجير صاحب رؤية واضحة ومبادىء محددة ويعرف دائماً ما يريده وكيف يحققه حسب هذه المبادىء. وهو عندما يقتنع برأى فى مسألة ويتخذ قراره فيها فإنه يتمسك بذلك بعناد الفلاح المصرى ولايقبل بديلاً . وقلما يندم على قرار اتخذه لأنه لايتخذه إلا بعد بحث ودراسة. أحياناً أداعبه قائلاً إنه كان ولابد مثل كل طالب فى القسم العلمى بالثانوية العامة يهفو لدخول كلية الطب ومادام قد دخل الزراعة فهو إذن قد عجز عن الحصول على المجموع اللازم للطب. ويرد مبتسماً فى أول الأمر ثم محتدا مع مواصلة كلامه، بأنه حصل على مجموع يتيح له دخول كلية الطب بسهولة ، ولكنه لم يدخلها لما انتابه من قرف من منظر الجثث فى المشرحة وأنه لايندم أبداً على عدم دخوله كلية الطب . وأعلق معاندا بأن هذا ربما فيه كسب كبير للزراعة فى مصر، وربما فيه أيضاً كسب كبير للطب فى مصر !

بعد تخرج مستجير من الزراعة بتفوق (الخامس) كانت أول وظيفة مارسها هى العمل كمشرف فى الاصلاح الزراعى فى عزبة بمركز دكرنس ، أسعده أنها كانت قريبة من قريته. ولاشك أنه ذهب إلى عمله وهو مفعم، ككل الشباب وقتها، بآمال واسعة بأنه من خلال هذا العمل سيسهم فى تقدم بلده وإصلاح شئون الريف والزراعة . ولكنه بعد فترة تقل عن الشهرين لمس من أمور الفساد والبيروقراطية ، ما جعله يحسم أمره بعد أن أدرك أن هذا ليس المجال الذى يحب العمل فيه ، بما يحيطه من ظروف محبطة وقرر أنه لابد وأن يشتغل بالبحث العلمى، وكتب فيما بعد مقالاً عن

ذلك من ارق ماكتبـه بما فيه من شجن ورومانسية وحسرة على الآمال المحبطة.

وقد حدث لمستجير أثناء دراسته فى ادنبرة وهو يتحمل قلة الموارد والحياة المليئة بالتقشف أن أتيحت له فرصة التحول إلى عضو بعثة من بعثات كلية الزراعة بأسيوط ، ولكنه بالتزامه وأمانته العلمية رفض هذه البعثة لأنه كان يعرف أن ظروفه الخاصة لن تسمح له بعد عودته من انجلترا بأن يعمل فى أسيوط مع أن قبوله للبعثة كان يترتب عليه أن يتضاعف مرتبه، ومع أن كثيراً ممن ذهبوا فى بعثات خارجية لحساب جامعة أسيوط لم يعودوا لها قط، وأمكنهم بطريقة أو بأخرى الالتحاق بجامعات أخرى، أو أنهم عاشوا أساساً فى القاهرة، ليسافروا إلى أسيوط ساعات معدودة من كل أسبوع، ولكنه رفض هذا كله لأنه لايتفق مع مبادئه وأسلوبه فى الحياة . كما أدى به وضوح رؤيته ومبادئه إلى أن رفض عرضاً للعمل فى انجلترا بعد حصوله على الدكتوراه، وفضل العودة إلى الوطن ، على الرغم من إدراكه لكل المصاعب التى يلقاها الباحث العلمى الجاد فى مصر . كما أنه رفض أيضاً فى حياته العلمية فيما بعد أن ينخرط فى مناصب إدارية تبعده عن البحث العلمى ، واكتفى برئاسة قسمه فى الكلية وبانتخابه عميداً للكلية ، فهذان المنصبان لم يكونا مما يعوقه عن نشاطه العلمى. وحسب ماعرفته من أكثر من مصدر فقد عرض عليه قبل انتخابه عميداً منصبا فى الكويت ، وسافر بالفعل إلى هناك ليستطلع أسلوب العمل ، ولكنه عندما انتخب عميداً اعتذر عن منصبه فى الكويت . كذلك عرفت أيضاً أنه اعتذر عن منصب وكيل الجامعة لأن هذا المنصب وما يتلوه عادة من مناصب ادارية أخرى سوف يبعده عن كليته وأبحاثه . ثم اتخذ قراره أيضاً بعد بلوغه سن الستين برفض عمادة أى من كليات الجامعات الأهلية لعدم إيمانه بها. ولعل القرار الصحيح الوحيد الذى كان ينبغى أن يتخذه العالم مستجير من زمن بعيد ولم يتخذه حتى الآن، هو أن يقرر المبادرة إلى الامتناع عن التدخين. وهو مازال يدخن بعناد وإصرار، مع معرفته طبعاً بكل ما يؤديه له التدخين من مخاطر صحية رأى بعضا منها وهو يودى بحياة زميل عزيز لديه، خاصة وأن هناك أيضاً فى الخلفية تاريخاً عائلياً فيه مايندر بتجنب التدخين . وهذا حقا تناقض غريب عندما يسلك أحد العلماء فى حياته اليومية مسلكاً يتعارض مع منهجه وثقافته العلميين. إلا أن المنطق أحياناً يتلاشى إذ يحس كل إنسان مهما كان علمه بأن «هذا لن يحدث لى»، وكأنه محصن ضد سلوكه اللاعقلانى.

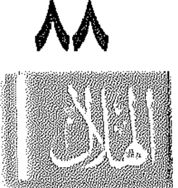
تشابه فى الأسماء

وكما أن لعالمنا المصرى أحمد مستجير صفاته الفريدة فإن له أيضاً اسمه الفريد الذى لا يماثله اسم. هذا وإن كان الأديب الفنان محمد مستجاب يزعم وهو يستعيد أن



اسم مستجير مشابه لاسمه، بل وانهما يتشابهان فى القوام والملامح! على أن تشابه الأسماء لايزيد عن الحروف الثلاثة الأولى التي توجد فى أول أسماء كثيرة مثل مستنير ومستحيل ومستعار . كما أن اسم مستجير يحمل شحنة من التواضع حيث يطلب صاحبه من يجيره ، بينما اسم مستجاب فيه شحنة من الكبر حيث يعتقد صاحبه أنه مجاب لما يطلبه إلا أن القاسم المشترك الأساسى بين الصديقين مستجير ومستجاب هو أن كلاهما مبدع . فالعالم المتمكن الذى ينتج علماً جديداً ، لابد وأن تكون لديه جرأة فى الخيال وسعة فى الأفق والقدرة على الابتكار. وهذه هى نفس العناصر المطلوبة لكل من يعمل بالإبداع سواء فى العلم أو فى الفن بشتى صنوفه.

والبحث العلمى لا يجرى دائماً فى خطوات منطقية صارمة كما يظن الكثيرون. وفى أحيان كثيرة يبدأ الإبداع العلمى بأفكار غائمة أو فروض جامحة يغلب عليها الحدس والتخمين وتخالف الكثير من الأفكار التقليدية السائدة . ومع اتفاق الإبداع العلمى والفنى فى هذه البدايات إلا أن كلا منهما لايلبث أن يتخذ طريقاً مختلفاً، خاصة عندما تأتى مرحلة التجريب والتفنيد والتقييم النقدى . والبحث العلمى يرتبط عادة ارتباطا وثيقا بفكرة التقدم بينما لايلزم أن يكون العمل الفنى كذلك . والعمل العلمى يكتسب قيمته أساساً من محتواه بصرف النظر عن الشكل أو الأسلوب ، بينما يكتسب العمل الفنى قيمته من التوقف بين المحتوى والشكل . والعلم عموماً يوصف عالما خارجياً يدعى أن له وجوداً مستقلاً عن العقل البشرى، بينما يوصف الفن عادة عالماً داخليا له نشأته العقلية الخالصة ووجود ذاتى أكثر مما له فى الواقع. ويشيع الاعتقاد أحياناً أنه حتى يؤدى المرء بحثا علميا فكل ما عليه هو أن يجرى بعض الملاحظات ويجمع نتائج التجارب ليخرج من ذلك بإحدى النظريات. على أن هذا قد ينتج عنه مجرد بحث روتينى تكون نتائجه دائماً شبه متوقعة كما يقول فرانسوا جاكوب عالم البيولوجيا الجزيئية. بل وربما يظل أحد الباحثين يواصل تأمل إحدى المسائل من كل زاوية لسنين طويلة ولا ينتج عن ذلك أى ملاحظة أو نظرية لها قيمتها العلمية . وحتى يتوصل الباحث لما له قيمة علمياً ينبغى أن يكون لديه منذ البداية فكرة عما تكون عليه ملاحظته . وكثيرا ما يحدث أن النظرية العلمية الجديدة التى تؤدى إلى تقدم ملموس، تنبجس فجأة فى لحظة تنوير،



ليتضح مرة واحدة جانباً من الأمور لم يكن ملموساً من قبل . ويتطلب هذا عموماً أصالة في تفكير العالم، ونظرته للأمور من زاوية جديدة غير متوقعة تسترشد دائماً بمفهوم معين عما يمكن أن تكونه الحقيقة .

بحث عبقرى

ويتوافر هذا كله فى العالم أحمد مستجير، وعلى ضوء ذلك يمكننا أن ندرك كيف توصل إلى بحثه العبقرى الأخير الذى يبشر بإمكان زراعة الأرز والقمح المهجن بالغاب أو البوص فى أراضى مالحة أو تروى بمياه مالحة . وما أكثر من سافروا بالطريق الصحراوى إلى الإسكندرية ورأوا عند الملاحات المجاورة لبعض أجزاء الطريق كثافة الغاب الذى ينمو فى هذه الملاحات رغم زيادة تركيز الملح فيها. ولكن مستجير وحده ، العالم المشغول دائماً بهموم وطنه ، عندما لاحظ هذا الغاب طرأ إلى ذهنه هذا الخاطر الطموح شبه الخيالى لزراعة قمح وأرز مطعم بالغاب . وفكرته هذه قد جاوزت الآن مرحلة التجارب التمهيدية وبدأت تدخل المراحل التنفيذية .

●●●

هذه بعض جوانب عرفتها فى شخصية العالم المصرى أحمد مستجير . وهناك جوانب أخرى عديدة فى هذه الشخصية الموسوعية الرحبة لايتسع المجال لذكرها كلها. فهو إلى جانب اشتغاله بالعلم والترجمة العلمية أديب وناقد وشاعر، وله نظرية فى عروض الشعر استخدم فيها ترقيمات الكمبيوتر وصحح وأضاف لأوزان الخليل وزنا، الأمر الذى أثار فقهاء العروض التقليديين . وهو يكتب شعراً شجياً رقيقاً أشبَه بما سماه الناقد الراحل د. محمد مندور بأنه شعر مهموس. اسمع له وهو فى لحظة شجن يقول :

جفت السحب فوق الغدير القديم
والشجيرات أغفت على ضفته
لم تعد نسمة تعبره
ماتت الساقية
ماؤها قد نضب
صوتها قد ذهب
لم يعد فوقها مايطل سوى قمر ينتحب.

إن الشيء المهم الذى أحب أن أؤكد عليه هو أن مستجير لايمارس أى عمل فى هذه الأنشطة المتعددة إلا لأنه يحبه من صميم قلبه ، فهو يحب البحث العلمى الذى يجريه ويحب الكتاب الذى يترجمه ويحب الأدب الذى يبدعه، ولأنه يحب هذه الأنشطة جميعاً فقد نجح فيها نجاحاً فذا.. ■

رحلة البحث عن الماس

أماني عبد الحميد

عالم براق بدايته الحلم بالثراء ونهايته لعنة الموت

أحجار الماس.. رمز للحب والثراء والقوة.. وعلى الرغم من بريقها ولمعان سطحها، والنور الكامن فى أعماقها ، وشفافيتها الدالة على نقائها ، إلا أنها تحمل داخلها الكثير من الغموض والأسرار.

ورحلة البحث عن أحجار الماس، رحلة درامية لم تنته بعد مشاهدها الدامية على أرض الواقع. فمن أجل ارضاء رغبات المترفين من البشر استعر صراع محموم حولها. فمن أجل ثمن باهظ تدفعه شعوب فقيرة تزداد فقرا لتثرى شعوبا غيرها.

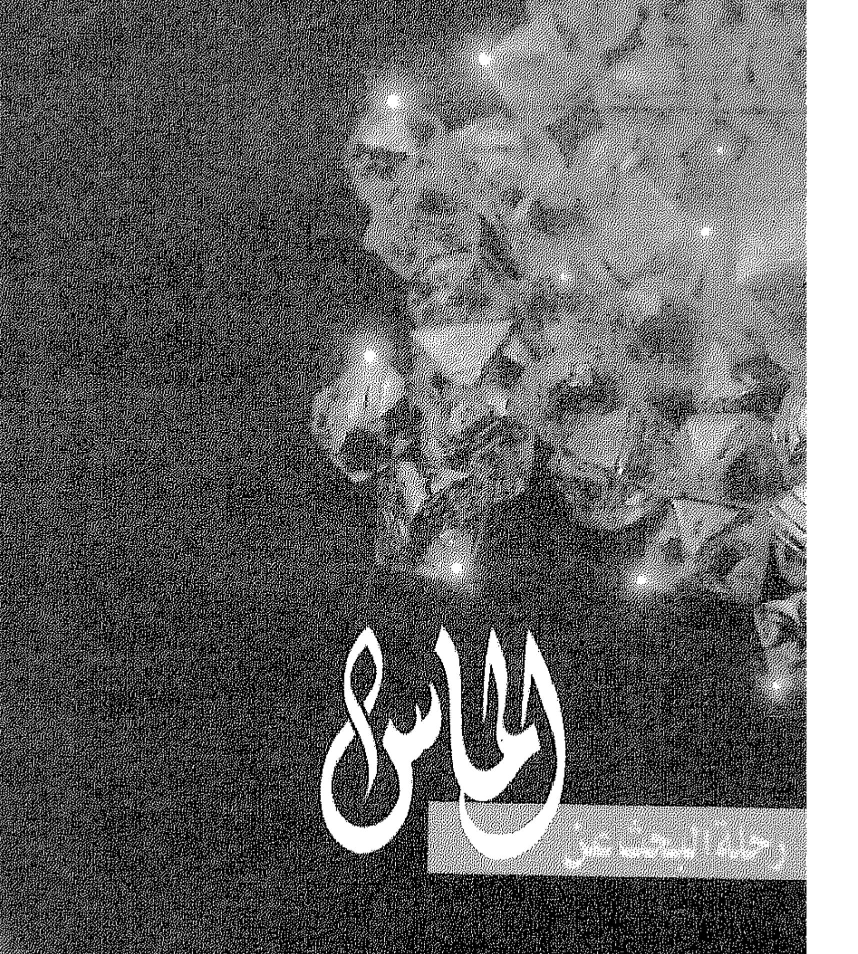
بدأت الرحلة ولم تنتـــه . بدأت بأمل الثراء واستمرت على أمل تحقيق الرخاء والتخلص ممن لا يرحم. ولا تزال مشاهدها تتكرر يوميا داخل حقول الماس فى أعماق صحراء سيبيريا وفى مجاهل افريقيا وحتى أمام ضفتى نهر الأورانج أغلى أنهار العالم.

أطلق علماء الجيولوجيا على الماس لقب سيد الأحجار الكريمة وأغلاه على وجه الأرض.. فهو معدن طبيعى ذو مظهر جمالى فريد؛ تكَّون نتيجة لضغوط ودرجات حرارة هائلة، أثرت على مواد كربونية موجودة داخل القشرة الأرضية، وعلى مدى ملايين السنين تجمع الماس على هيئة عروق داخل أرضيات زرقاء فى باطن الأرض. حتى أن الماس الخام يشبه الى حد كبير قطع الزلط السوداء. فلا يعلم حقيقته ولا قيمته سوى الجيولوجى الخبير المدرب، ولا تظهر فتنته إلا بعد أن تتناوله يد الصانع الماهر لتقطعه وتهذبه لتصل الى جوهره المتلألئ.

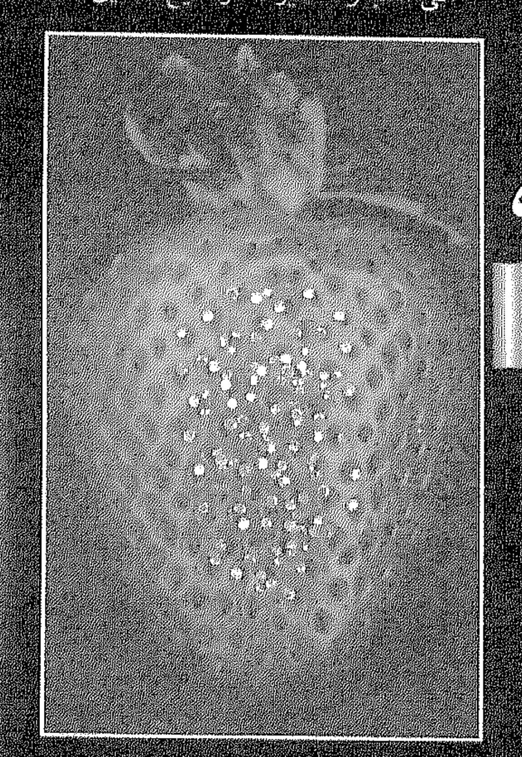
ويشتهر الماس بقدرته الفائقة على قطع وخدش أى معدن آخر. فهو أصلب الأحجار الكريمة الموجودة على الكرة الأرضية. وتعادل صلابة قوته ٩٠ مرة من معدن «الكورندم» ثانى أصلب المعادن المعروفة. ومن هنا تأتى قيمته الكبرى فى الصناعة اذ يستخدم كمادة قاطعة للزجاج وللماس نفسه. كما يستخدم فى آلات حفر الصخور أو حفر آبار البترول والمياه وعمليات التعدين.

سباق لاكتشافه

وخلال القرن الثامن عشر كانت الهند المصدر الوحيد للماس. تأتى من بعدها البرازيل فى أعقاب اكتشافه فى أنهارها. ولكن مع بدايات القرن الماضى احتلت



الحرفية الهندية فى تقطيع وصقل الماس
الى احجار صغيرة للترصيع الدقيق



القارة الأفريقية مكانة متقدمة داخل السباق المحموم على حقول الماس فى العالم خاصة مع اكتشافه فى حوض نهر الغال والأورانج بجنوب افريقيا ودول السيراليون وبيتسوانا والكونغو الديمقراطية وانجولا .

وتقدر الاحصائيات الدولية حجم التبادل التجارى بين العالم أجمع بحوالى ١٢٠ مليون قيراط فى الماس الخام خلال العام الواحد. يصل وزنه الخام الى ٢٤ طنا بما قيمته حوالى ٧ بلايين دولار ويرتفع السعر الى حوالى ٥٠ بليون دولار عندما يصل إلى أيدى المنتجين، وتتحول أحجار الماس الى فصوص ماسية

مصقولة جاهزة للبيع للجمهور.

ويعد منجم صحراء «كالاهارى» بدولة «بتسوانا» الافريقية أهم المناجم وأكثرها انتاجا فى العالم. وقد تم اكتشافه عام ١٩٧٣ ويصل حجم انتاجه الى حوالى بليون دولار سنويا .

وتعد تل أبيب وامستردام وبلجيكا وجوهانسبرج أكبر أسواق صقل الماس وتجارته عالميا.

الماس.. وأحلام الغريق

كان من المفترض أن تكون رحلة البحث عن الماس رحلة شيقة مليئة بالطرائف لتخفف فى وطأة حرارة وقيظ ليالى الصيف.. لكننا «كالمستجير بالنار من الرمضاء.. فطوال محطات رحلة البحث كانت ملامحها تجتمع واحدة تلو الأخرى لترسم لنا ذلك الوجه القبيح لعالم أصبحنا تعيش فيه.. فلم تكن يوما رحلة البحث والتنقيب عن الماس رحلة نبيلة غايتها رفاهية الشعوب التى تملكه. بل كانت رحلة غايتها الحقيقية تكمن فى فرض مزيد من الهيمنة والاحتكار.. وبالتالى مزيد من الانفراد بالسطوة العالمية.

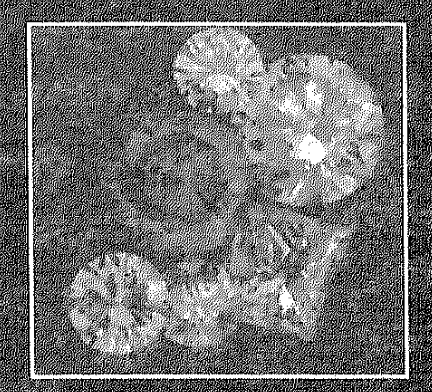
فالكثيرون سرقتهم أحلام الثراء وداعبت خيالهم بآمال الرخاء والراحة. فلا تعب ولا شقاء بعد اقتناص الماس. فلم يكن فقط الصراع من أجل الوجود أو البقاء هو المحرك الرئيسى الذى يحرك آلاف العمال الفقراء داخل مناجم الماس .

ففى أواسط أفريقيا تبتلع الصحراء مئات من الذين استحوذ عليهم حلم الثراء الى حد الموت. فكل منهم كانت محاولته عبور رمال الصحراء أملا فى الوصول الى مناجم الماس. ولكن منذ اللحظة الأولى لاكتشافه فى أفريقيا أصبح الصراع محموما ويزداد لهيبا كلما ازداد ارتفاع أسعاره . خاصة مع تفشى الفقر والجوع وسط جموع شعوبها. حتى تحول لهيبه الى نار تأكل كل بلد أفريقى بما عليه من بشر .

ففى مدن حكمها المرتزقة والعسكريون، ووسط طوفان من الانقلابات العسكرية أصبحت شعوب الماس ترتطم يوميا بمزيد من المرايا الفجة التى تعكس واقعا مريرا يشابه الى حد كبير واقع العبودية.. وتحولت حقول الماس الى حقول سُخرة وحقول عذاب. كما تحولت الدول التى أنعم الله عليها بخبرات الماس إلى دول سقطت تحت رحمة تجار أشبه بأسماك القرش الهائجة وسط محيطات متمردة . وتحول حلم الرخاء والثراء كحلم غريق يستوحش بر الأمان.

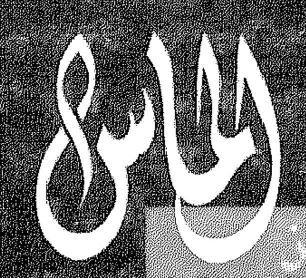
لعنة الماس

اشتعلت الحرب بين عدة مجموعات مسلحة بهدف السيطرة على حقول الماس. ومثال ذلك تلك الأوضاع المتردية فى أنجولا. وكأن اللعنة قد أصابت تلك البلاد نظرا لإكتشاف الماس فى أراضيها. فلم تكن الحرب الأهلية لتستمر من دون وجود

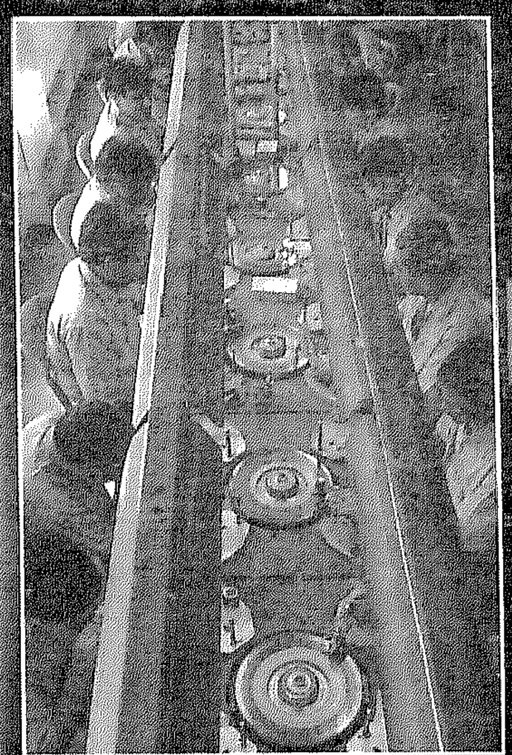


الماس الملون أزرق أصفر وردى من أندر وأغلى الأحجار

الماس



أحد مصانع الهند الخاصة بقطع وتلميع الماس حيث تشتهر بوجود أكثر من ٨٠٠ ألف عامل ماهر يستطيعون صقل سطح الماسه الواحده الى ٥٨ سطح الماس لامع



الماس. وأبلغ دليل على ذلك شهادة ناشطى حقوق الإنسان الذين أكدوا أن صناعة وتجارة الماس مسئولة عن مأساة أنجولا .

ورغم شيوع مقولة «الماس خير صديق للمرأة» الا أن الأوضاع داخل المناجم تختلف تماما. فالقوات المسيطرة على مناجم الماس تجبر النساء والأطفال بقوة السلاح على القيام بأعمال الحفر والتنقيب واستخراج الماس. ومن لا يلتزم بالعمل تطالبه القوات باختيار اليد أو الرجل التى ستقطعها له عقابا على التقصير فى العمل ليكون عبرة لمن يعتبر .

والأمر لا يختلف كثيرا فى سيراليون حيث يقوم مجموعات أطفال لا تتعدى أعمارهم الثالثة عشر عاما باستخراج الماس تحت تهديد السلاح. فالعقد أو الخاتم الماس الذى قد يشتريه أحدهم أغلى كثيرا مما قد يدفعه فى مال مقابله. الأمر الذى جعل كندا - تفخر بأن الماس المستخرج من أراضيها نقى كنقاء الثلج الذى يغطى سفوح جبالها. فلا دماء ولا حروب من أجل استخراجه .

الماسة الكبيرة

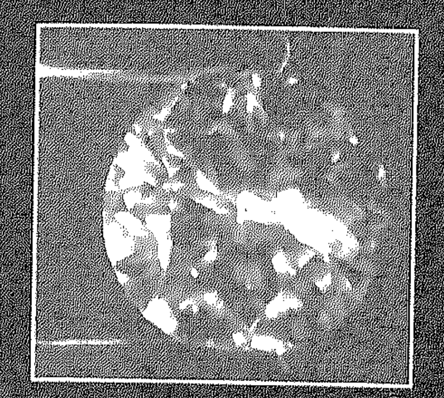
وبالرغم من الإدعاء بازدراء الحروب الا أن دور اسرائيل فى تغذية الصراعات الافريقية وفى تهريب وشراء الماس بطرق غير شرعية مقابل تزويد القوات المتمردة بالسلاح وهو أمر لا يخفى على أحد. وتعد منطقة البحيرات العظمي مثالا واضحا على ذلك. كما أن سوق «رامات جان» الإسرائيلى هو المستفيد الأول من صفقات الكونغو الديمقراطية.. ومثال ذلك عندما عثر أحد الحفارين فى الكونغو على حجر ماسى ضخم أطلق عليه اسم «الماسة الكبيرة» . حاول بيعها لكنه لم يكن يعلم أن الصفقة غير عادلة. فقد قدرها السماسرة بـ ٣ ملايين دولار. ولكن رغم أن ثمنها الحقيقى يصل الى ٢٠ مليون دولار. ولكن ظروف الحرب الأهلية المشتعلة لم تمكنه من بيع تلك الماسة. ولكن استطاع شركاء اسرائيليون فى تل أبيب على رأسهم وليم جولدبرج فى شرائها منه بـ ٨ ملايين دولار فقط،

احتكار الماس

وبرغم ضخامة حجم سوق الماس والأحجار الكريمة فى العالم والذى يقدر بنحو ٨٠٠ مليار دولار سنويا إلا أن سوق عرض الماس تتحكم فيه ثلاثة شوارع فقط فى العالم كله. أولها شارع رقم ٤٨ فى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية. وشارع هاتون جاردن بلندن، ورامات جان بتل أبيب، وتتداخل معهم منطقة دار الأوبرا فى مدينة بومباى بالهند، وتشتهر الهند بتوافر الأيدى العاملة الرخيصة التى تقوم بتصنيع وتلميع الماس داخل أكبر مصنع فى العالم . حيث يصل عدد العمال داخله الى ما يقرب من ٨٠٠ ألف عامل. والمعروف أن حقول الماس تنتج خلال العام الواحد حوالى ٨٠٠ مليون حجر ماسى. يستخدم ٨٠٪ منه فى الحلى والمجوهرات. ويقوم العمال المتخصصون فى قطع وتلميع الماس فى الهند بإعداد حوالى ٩٠٪ من حجم الانتاج العالمى، وان كانت أغلبيته تعرض داخل متاجر المجوهرات فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتحتاج عملية اعداد وتلميع حجر الماس الخام الى عامل «حكاك» يقوم بحك الحجر واعطائه الأشكال المطلوبة لخدمة السوق . ويعتبر «مونى برنستين» من أشهر حكاكى الماس فى العالم. حيث يعمل فى منطقة الماس بوسط «منهاتن» بنيويورك، ويرى أن الماس برغم نقائه إلا

صقل الماس يعطيه جمالا ويبرز نقاءه





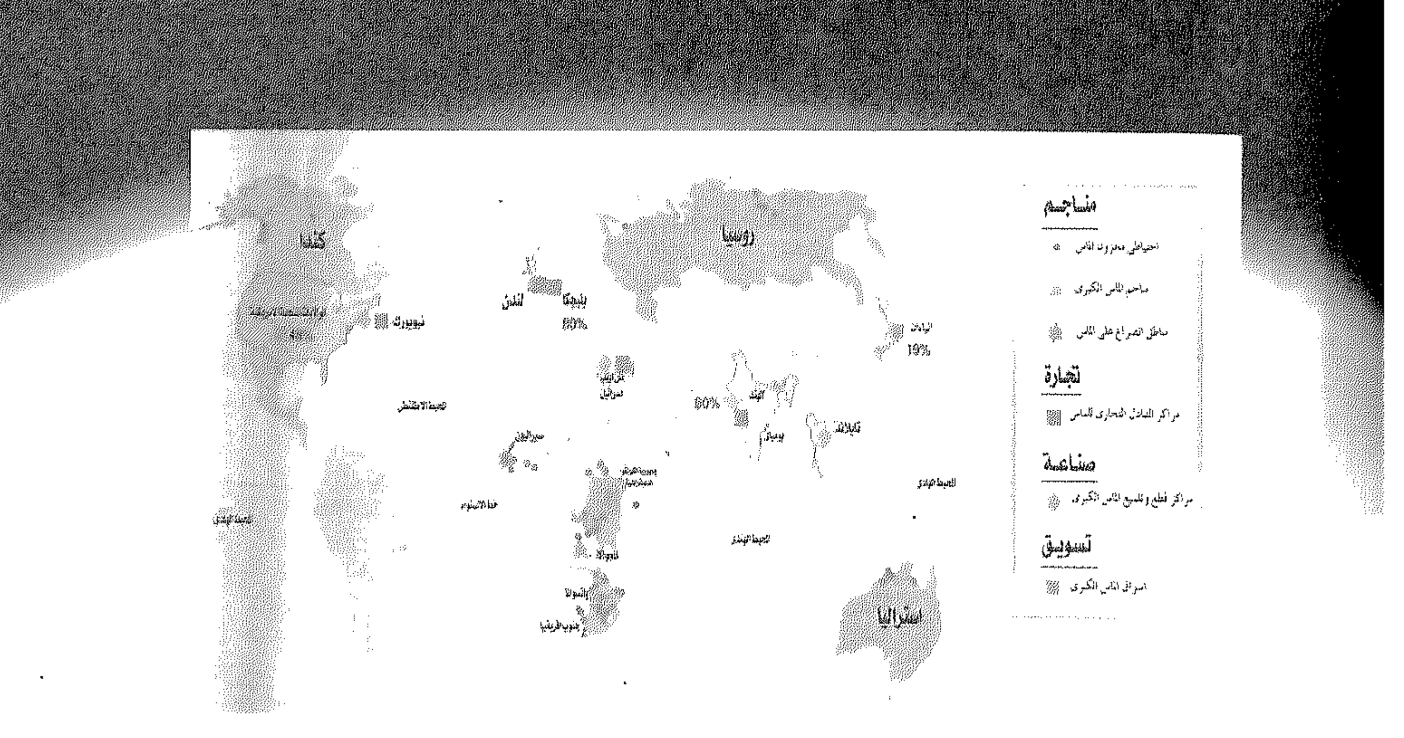
هكذا تبدأ رحلة البحث عن الماس عند ضفاف الأنهار باستخدام الأيدى



الذى يحمل داخله الغموض. وهو يراعى عند تحديد الشكل النهائى للحجر التقليل من حجم الفاقد منه والشكل الجمالى له. فأسطح الماسة التى يقوم بحكها هى التى تسمح بانعكاس الضوء على سطحها وداخل قلبها وبالتالى «تبرز» جمالها ونقاءها .

٢٠٠٠ قدم تحت الأرض

تقتضى عمليات التنقيب عن الماس من العمال تقليب الرمال السطحية بأصابعهم، أو التقاط أحجار الماس أو الغوص تحت سطح المياه لا نتشالها من القاع أو الغوص داخل باطن الأرض لأعماق بعيدة. حتى الوصول لعروق



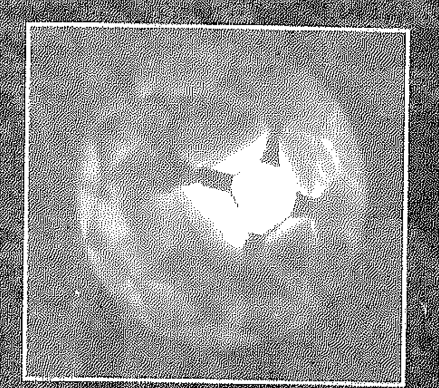
خريطة توضح مناطق المناجم وتجارة وصناعة وتسويق الماس فى العالم

الماس. كما هو الحال فى منجم الماس الذى تم اكتشافه فى صحراء سيبيريا عام ١٩٥٧ . حيث يصل عمق المنجم الى ٢٠٠٠ قدم تحت سطح الأرض. بل تحتاج السيارة الى ٩٠ دقيقة للصعود الى سطحه .

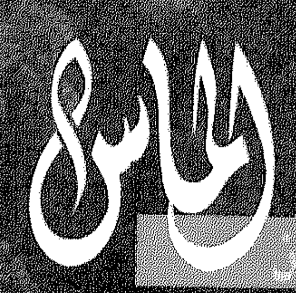
والمعروف أن هناك قوانين تتحكم فى أقاليم الماس. فيحرم الدخول أو الخروج من منطقة المناجم إلا بتصاريح خاصة. وبعد الدخول يحظر على الزائر أن يلمس الأرض بيده. لأنه يسير وسط بحر من الأحجار تحوى كنوزا ماسية باهظة الثمن، ولدى الخروج من المنطقة يتعرض الخارجون لعمليات تفتيش دقيقة، والكشف باستخدام الأشعة السينية خشية التهريب عن طريق ابتلاع الماس.

أما نهر الأورانج الذى يمر ببتسوانا وجنوب افريقيا فهو أغلى أنهار العالم أجمع حيث تتدفق أحجار الماس داخله كما تتدفق مياهه عبر ملايين السنين. وتمتلك حق التنقيب والتعدين عن الماس على ضفتيه وداخله وحتى مصبه فى البحر شركة «دى بيريز» فوفقا لإحصائياتها فإنها تستخرج حوالى ١٩ ألف قيراط من الماس شهريا بمعدل ٢٦ قيراطا فى الساعة أغلبها الأحجار عالية الجودة والنقاء ويصل حجم الفص الواحد منها حوالى قيراطا واحدا كاملا وشركة دى بيريز انجليزية ـ جنوب أفريقيا تابعة لعائلة «أوبنهايمر» اليهودية أبرز ملوك الماس فى العالم وقد تأسست فى عام ١٩٣٠ إبان الاستعمار البريطانى لعدد من الدول الأفريقية . واتخذت من لندن مقرا لها . وتقوم كل عام بتوزيع حصص الماس على الأسواق. فهى تتحكم فى ٦٠٪ من حجم تجارة الماس فى العالم وتسيطر على سوق العرض والطلب. وتعتبر مركزا عالميا

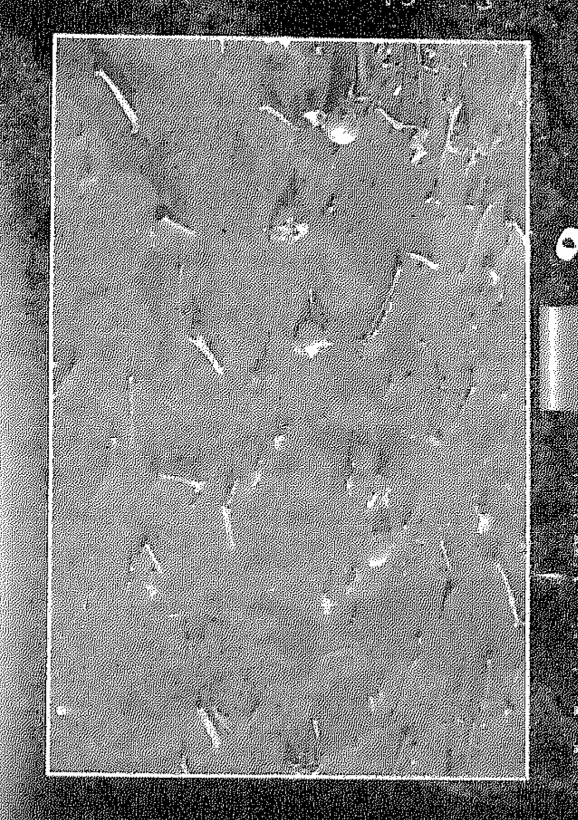
ماسة مصنعة «زيركون» تحاكي الماس الملون النادر الوجـــود



الماس



ابتلعت الصحراء أرواح كثيرين ممن سرقتهم أحلام الثراء فلم ترأف بهم ولا حتى الفقر التي يعيشونها



للماس. وكانت الشركة لدى تأسيسها تلعب دورا مهما، فى تسويق الماس المستخرج في المستعمرات البريطانية فى جنوب افريقيا وناميبيا وغيرها. بالاضافة الى استقطاب الماس الروسى والبرازيلى والكندى حتى تتحكم فى آليات تحديد أسعار الماس فى الأسواق العالمية.

أندر أحجار الماس

ويعتبر حجر الكسندرايت المتعدد الألوان أندر أحجار الماس وأغلاها ويصل ثمن حجر وزنه ٤ قراريط منه الى حوالى ٣٠٠ ألف دولار. وقد اكتسب اسمه نسبة الى الكسندر قيصر روسيا فى أعقاب اكتشافه فى روسيا عام ١٨٣٠. ويشتهر

الماس بتعدد ألوانه مثل الأزرق والأصفر والوردى. ويرتفع سعره كلما ازداد شفافية وأصبح لونه أكثر وضوحا. واغلاه على الاطلاق الماس الأزرق نظرا لندرته. وفى يومنا هذا أصبح الماس يخضع لعمليات تلوين باستخدام أشعة الليزر. كما خضع لعمليات تصنيع كاملة والذى يطلق عليه «الزيركون».

ملوك الفيروز

وفى مصر قدرت شركة «دى بيريز» أن حجم تجارة الماس لا يتعدى ٥٠٠ مليون جنيه سنويا. بعد أن كانت السوق المصرية للماس قبل الخمسينات مركزا دوليا وبورصة عالمية مهمة لتحديد سعر الماس فى العالم.

واليوم تحول السوق المصرى الى سوق مستورد بالدرجة الأولى دون أن يلعب دورا فى صناعة الماس أو حكه أو تلميعه . يتم استيراده من الخارج ولا يزال تجار المجوهرات من مصر يحملون شعار «نحن ملوك الأحجار الكريمة من فيروز وزبرجد وزمرد في العالم بل لايزالون ينصبون أمير أغا ملكا للفيروز برغم وفاته منذ سنوات عديدة وطوال الفترة الماضية حافظت عائلة آل كاظم وآل خراسان وآل عاشور على اهتمامها بالاحجار الكريمة كما حاولت الدخول في معترك التنقيب عن تلك، الاحجار داخل الأراضى المصرية بحثا عن الفيروز والزمرد والزبرجد ، إلا أنها كانت دائما تصطدم بالقوانين المحلية التى تعرقل مثل تلك الأنشطة علاوة على التكلفة المرتفعة للأدوات والماكينات المستخدمة فى عمليات التنقيب . ويكفينا أن نعلم أن لدينا فى مصر فى منطقة البحر الأحمر «جزيرة زبرجد» لكن السلطات حولتها الى منطقة عسكرية لدواعى أمنية كما أننا نملك أجود أنواع الفيروز لكن عملية استخراجه تحرمها قوانين المحميات الطبيعية نظرا لوجوده داخلها، كما نملك فى أعماق البحر الأحمر اللؤلؤ لكن استخراجه أيضا يحتاج إلى تكاليف باهظة تفوق القدرة المحلية. كما تشتهر بلادنا بالمرجان الذى يخضع لقوانين المحميات الطبيعية. فالمعروف أن المرجان ينمو سنتمترا واحدا فقط كل مائة عام وبالتالى فلا يقدر بالمال. وبرغم ما تشتهر به بلادنا من هذه الاحجار الكريمة الا أنه لا يوجد على أرضها أحجار الماس، الأمر الذى حماها من السقوط فى بئر الدمار كما هو الحال داخل القارة الافريقية وكأن عناية السماء رأفت بحالنا ولم تود أن تصيبنا بلعنة «الماس» التى مست جيراننا. فعندما تصيب اللعنة أحدهم لا تنجده أية تعاويذ أو أحاجى من سحره فبرغم أن الرمال التى نسير فوقها قد تحمل بين طياتها كنز الكنوز إلا أنها قد تخفى أيضا إحدى تلك اللعنات لعنة أحجار الماس ! ■

تجربتي الإبداعية

حياتي في الشعر

بقلم

أحمد سويلم

قصتى مع الإبداع الشعرى لا تخرج عن ساحات ودهاليز هذه القلعة.. التى قد تبدو - من البعد - قلعة حصينة فولاذية بالرغم من أنها مفتحة الأبواب والنوافذ، ولا أدرى تماماً .. متى كانت أول طرقة على باب هذه القلعة.. وإن كنت متأكدا من محاولاتى الأولى لهذه المغامرة منذ فتحت عينى على قراءات مكثفة للتراث الشعرى العربى الصوفى.. فى تلك الكتب الصفراء القديمة التى كان والدى الشيخ - رحمه الله - يحتفظ بها فى خزانته بعيداً عن عبث الصغار أمثالى.



أحمد سويلم

فكثيراً ما كنت أتسلل إليها فى غياب أبى عن البيت،، مشغوفاً بما سطر فى أوراقها.. فأنهل منها ما أستطيع .. حتى إذا أحسست بخطاه أسرع بإعادتها والخروج إلى استقباله نافضاً عقلى وقلبى من تأثيرها حتى لا يفطن إلى (جريمتى) .. لكننى اكتشفت أننى كنت أحيط هذا الرجل الطيب بهالة من الهيبة المخيفة التى لم تكن فيه.. ففى أحد الأيام .. فاجأنى أبى فى غرفته مستلقيا على صدرى محتضناً ديوان ابن الفارض أسفل وجهى.. وأدمعى تملأ عينىّ من شدة التأثر بما أقرؤه.. وحينما شعرت به فوق رأسى.. قفزت من مكانى.. لكنه نظر إلى فى حنان وحب.. وأدرك كل شىء.. فضمنى إلى صدره.. وبدأ يشجعنى على القراءة فى الشعر والتراث الشعبى .. بل كان يضمنى إلى حلقة الذكر التى كان يعقدها فى البيت ليلة كل أربعاء.. أهتز فيها على أنغام المنظومات الدينية وبردة البوصيرى.

وكعادة أبناء الريف.. كانت وسائل الثقافة والترفيه محدودة جداً.. وكان المسجد بالنسبة لى مدرسة ثقافية جامعة

إلى جانب المدرسة التي تسقينا العلم.. ومكتبتها التي كنا نلتهم فيها الكتب دائماً.. وأذكر أنني كنت حريصاً على قضاء فترة ما بين صلاتي العصر والمغرب في المسجد حيث كان (الشيخ عبدالهادي) يتصدر المجلس ليتحدث إلينا في كل شيء ويجيب عن كل سؤال.. والعجيب أن هذا الرجل لم يكن يملك من حياته إلا شهادتي (الفقر) و(لا إله إلا الله محمد رسول الله) - على حد قوله - لكنه لعب دوراً مع جيلي في بلدتنا - بيلا كفر الشيخ - في غرس قيم الحرية والرأي والحوار .. ومزيد من الثقافة العامة.

وقد كنت أحسّ دائما بجمرة الإبداع في داخلي .. ومن ثم كانت أولى علاقاتي بالكتابة في صورة رواية طويلة بعنوان (حب في الظلام) تدور أحداثها في القرية المصرية وتتصادم فيها القيم والعادات والتقاليد .. ثم جربت القصة القصيرة - على قدر سني وخبرتي وطموحي مستمداً مضامينها أيضا من بيئتي الريفية - وأيضا جربت التعبير عن ذاتي في بعض الخواطر والتأملات في الحياة.. إلى أن جاء عام ١٩٥٦ وتلقت مصر تهديداً بعد تأميم قناة السويس.. وامتنعت كل دول العالم عن تسليح مصر.. وبدأت الدعوة للتبرع لشراء السلاح الجيش المصري.. وغنى عبدالوهاب أيامها أغنية (سلح جيش أوطانك .. واتبرع لسلاحه) فانهالت التبرعات من أجل المجهود الحربي وإنقاذ مصر وكرامتها.. ووجدتني في براءة الوطنية أكتب - بالعامية - على غرار أغنية عبدالوهاب متحمساً ومشاركاً هذا الشعور الوطني الفياض.. ثم عرضت ما كتبت من قبيل التجربة على صديقي الأزهري - حسن محرم الحويني - وهو الآن مدرس بجامعة الأزهر - فوجدته يطالبني بإعادة كتابة هذه المقطوعة بالفصحى.

إنني على يقين بأن صديقي هذا قد أدرك أن شيئاً بداخلي ينبغي أن يتفجر.. ولابد أنه أحس يومها هذا الاشتعال الكامن الذي أنتبه إليه .. فاستفزه داخلي .. وحركه من ركوده وكمونه !

وأعجبني كثيراً في قراءاتي الأولى: صعلكة عروة بن الورد.. وبطولة عنترة.. وشموخ امرئ القيس برغم عمره القصير.. وتجديد أبي العتاهية.. وروميات أبي فراس .. وفلسفة أبي العلاء.. ومقدرة ابن الرومي.. وتفرد المتنبي.. وتمرد أبي نواس.. ودراما عمر بن أبي ربيعة.. وشعبية البهاء زهير.. وتحدي البارودي .. ومعاصرة شوقي وحافظ.. ورومانسية ناجي وعلي محمود طه وجماعة أبوللو.. وتأملات مدرسة المهجر .. وتجديد مدرسة الديوان.

سكن كل هذا في وجداني طوال سنوات ثلاث (١٩٥٦ - ١٩٥٩) وحاكيت شيئا منه في قصائدي الأولى وأنا طالب في المرحلة الثانوية.. تغمرني البراءة والثورية والدهشة والحماسة الشفافة التي استمدها - بلا إرادة - من الإعلام السائد آنذاك .. ومما كنت أتلقاه في الفصل الدراسي من الشعور القومي الخالص من أي شوائب أو أفكار مضادة .. فكان شعري انعكاسا تلقائيا لا يحيد إلى دروب أرحب من هذا .

والحقيقة أنني ودعت أي لون آخر إبداعي سوى الشعر.. وكأني وجدت ذاتي فيه.. فقررت أن أخلص له دون غيره .

وأرحل في منتصف عام ١٩٥٩ إلى القاهرة حاملاً اتمام الثانوية العامة .. وستة عشر عاماً لم أبرح خلالها هذا الريف التقليدي !

ويصل الشاب الريفى إلى القاهرة .. تلك المدينة الصاخبة

ووجدت نفسى فى قلب هذه المدينة.. لألتحق بعمل أعول به أسرة مكونة من أم فقدت زوجها من سنوات وثلاثة إخوة صغار.

ترى .. أكانت تجربة جديدة.. أم هى إضافة للوجدان الشعرى؟

وما الذى يمكن أن تمنحه تلك المدينة الموحشة المخيفة لهذا الوافد البسيط الرقيق.. الذى حمل فى قلبه الإيمان والبراءة معاً .. وماذا عن الشعر والشعراء.. والإعلام .. والسياسة .. ماذا عن كل هذا ؟..

لقد أدركت منذ الوهلة الأولى أن المدينة تقتحمنى.. تتسلل داخل شراييني.. تتوحد بخلاياى.. وتصارع مكان الشعر.. علىّ إذن أن أقاومها وأحتفظ بصفاء الوجدان.. وإذا لم أستطع المقاومة فعلىّ مهادنتها.. أو التواصل معها بلا جراح.

جذبتنى الساحة بما فيها من إيقاع سريع يخالف تماماً إيقاع الريف الذى أحمله داخلى.

وكانت الساحة الشعرية - وهى ما تعنينى الآن - فى بداية الستينيات ذات ملامح محددة .. فهى ساحة فرضت عليها حتمية التغيير من مجتمع يعانى بقايا الرأسمالية والإقطاع والرجعية والصراعات على السلطة.. إلى مجتمع وجد فى النظام الإشتراكى خلاص المرحلة.. وطبيعى أن يجد هذا التغيير من يناصره من شباب مصر الذى كان يرى فى عبدالناصر قدره المنتظر.. وطبيعى أيضا أن يجد هذا التغيير من يقاومه من هؤلاء الذين ينتمون إلى الماضى.

هى إذن مرحلة انعكست ظلالها على كل شىء فى حياتنا.. اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وفنياً وأدبياً.. وما يهمنا هنا ما انعكس منها على الشعر.

فمنذ سنوات عشر تقريبا على تلك المرحلة بدأت مدرسة الشعر الجديد تعلن تمردها على تقليدية القصيدة.. ورتابتها ، وإن كانت تحترم الحوار مع التقليديين برغم إعلانهم خصومتهم لهذا التطور الجديد.

وكان صلاح عبدالصبور رائد هذه المدرسة فى مصر.. والسياب ونازك الملائكة والبياتى فى العراق.. وبالرغم من المقاومة الضارية فى جميع وسائل الإعلام فإن إصرار أبناء هذه المدرسة كان أقوى وأشد قدرة على التصدى والصمود.. مسلحين بالثقافة المنوعة التى تمزج التراث البعيد بمعاصرة الحديث.. والثقافة العربية بالثقافة الأجنبية.

وبدأت القصيدة الحديثة تأخذ مسارها فى الساحة بمفرداتها الخاصة.. وتشكيلها الجديد وإضافاتها وآفاقها المتعددة بين الغنائية والدرامية .. وبين الرومانسية والواقعية .. وبين إضافاتها المسرحية على أيدى الشرقاوى وعبدالصبور .. مؤكدة ثراءها .. وعدم جمودها فى قوالب بعينها.

أين أنا إذن فى هذا المعترك الصاخب؟ .

إما أن أكون أو لا أكون!

أدركت بعد استيعاب ظلال هذه الساحة الجديدة.. أن ما سبق وكتبته طوال السنوات السابقة - وما زهوت به كثيراً - لم يعد يصلح لهذه الساحة الأكثر حركة وقلقاً .. ووجدت نفسى فى قلب المدرسة الجديدة أشرب من نبعها وألتقط خيوطها.. وأنسج إبداعاتى متكئاً على هذا الزاد المتميز الذى حملته من



التراث.. وما أقبلت عليه من الثقافة الحديثة.. وساعدني على ذلك كثيراً عملي في دار النشر (دار القلم) حيث أتاح لي هذا العمل مزيداً من التعرف على الساحة من خلال القراءة واللقاءات مع الشعراء الذين كنت أسمع بهم في مرحلة الدراسة وأتمنى لقاءهم .

كان علي أن أعيد حساباتي في كل شيء .. وأن أعيد ما قرأت - سابقاً - لكن برؤية أخرى تماماً.. وأضيف إليه ما استحدث في قلب الساحة.. ثم بعد ذلك أبدأ في إفراغ رؤيتي الخاصة.

وكان سباقا مع الزمن.. واصلت فيه دراستي الجامعية (في كلية التجارة جامعة الأزهر) في أثناء عملي اليومي الذي أحببته كثيراً.. لكن الشعر كان يحفر لنفسه مساره الخاص الذي لا يطغى عليه أي مسار آخر:

التحمت بالساحة الجديدة لعلني أحظى فيها بمكان لخطواتي .. فوضعت ما كتبت سابقاً في (ظرف كبير) خاص وكتبت عليه (ما قبل التاريخ) ثم انطلقت من جديد مسلحاً بإصراري على خوض هذا المعترك.

وفي أوائل عام ١٩٦٤ - بعد خمس سنوات من التجريب - استرحت إلى قصيدة رأيتها تصلح أن تقدمني للقارئ.. وعلى الفور أرسلتها إلى جريدة (الحرية) في بيروت باسم رئيس تحريرها وسعدت بها منشورة على صفحاتها.. إذن يمكن أن تكون هذه الجريدة (غير المصرية) جواز مروري إلى الساحة المصرية.. وبالفعل رحب بأشعاري د. عبدالقادر القط حينما كان رئيسا لتحرير مجلة الشعر القاهرية لتبدأ رحلتي مع النشر بلا انقطاع.

وتتناثر حولي دواوين الشعر الجديد.. كل له مذاقه وتجربته وإضافته.. وأنا أكتب وأنشر قصائد متفرقة هنا وهناك داخل وخارج مصر.. ويشير علي أصدقائي أن أنشر ديواني الأول.

لم يكن ميسوراً - وقتذاك - أن ينشر شاعر جديد ديوانه الأول - كما هي الحال اليوم - فقد كان النشر له معايير قاسية ولجان أكثر قسوة.. لكنني أقدمت على التجربة .. وراقت لي .. ووجدتها فرصة اختبار حقيقية لقدرتي الإبداعية.. فجمعت عدداً من القصائد ودفعتها إلى (دار الكاتب العربي) وكانت داراً قومية .. وبعد فترة روتينية طويلة امتدت لأكثر من ستة أشهر تمت الموافقة على الديوان ليصدر بعد ذلك بنحو سنة في أعقاب نكسة ١٩٦٧ (سبتمبر ١٩٦٧).

كانت المضامين السائدة آنذاك تدور حول محاور الذات والحب والتعاطف والخلاص والتمرد والتنبؤ بالغد.. وكنا جيلاً نشكل منظومة كاملة من شعراء قرأوا التراث قراءة عميقة فاتخذوه قاعدة فنية ينطلق منها الشاعر إلى العصر ودراما الإنسان مع الوجود حيث يثور ويتمرد.. ويتطلع إلى الغد.

إن علاقة الشاعر بالتراث علاقة وثيقة حتى لو أنكرها.. فالشاعر يحمل في داخله - رغماً عنه - جينات الشعراء والأجيال السابقة عليه منذ بدأ الشعر العربي حتى زمن الشاعر.. لكن يبدو أن التمرد على التراث يصبح أحياناً موجة من موجات التمرد الدونكيشوتي .. مسايرة لمدارس الثورات وإنكار الماضي بحجة السلفية وغيرها.

وقد غاب عن وجدان هؤلاء الموهومين .. أن تراثنا - كأي تراث حضاري - يتضمن قيماً إيجابية وأخرى سالبة ..

ونظرة الشاعر ومشروعه الإبداعى هما اللذان يحددان موقفه من هذا وذاك.

ومن ثم كانت نظرتى للتراث العربى أنه جزء من التراث الإنسانى بعامة، وأننى لابد أن أعيد النظر إليه فى ضوء هذه الفكرة.. فكرة الانتقاء.. فإذا تعاملت معه فينبغى أن أستعيد منه - فى شعرى - ما يستطيع أن يحمل دلالات العصر.. وإلا أصبت شعرى بالتخلف.

وأحسب أن التجربة الشعرية هى التى تحدد احتياج الشاعر إلى استخدام التراث أم لا.. فليست هناك قاعدة فى ذلك .

بدأت إذن رحلتى الجديدة مع الكشف والارتياد فى أقاليم الليل والنهار والتراث والواقع والمستقبل.. وكنت أحرص كل يوم على اكتساب خبرة جديدة وتجارب أكثر تأثيراً تتسلل إلى داخلى.. وتؤكد كل مقومات الإبداع.

التجربة الشعرية

والتجربة الشعرية عندى عميقة الجذور.. تبدأ - فى دهاليز الزمان الممتد داخلى منذ الطفولة حتى لحظة كتابة القصيدة.. بل تمتد بأطراف مختلفة فى ماضى الإنسانية القديم.. وهى تعيش داخلى فى ركن مجهول.. وما أكثر أركان ذاتى المجهولة.. حتى إذا لمست هذه (الخلية الأولى) لحظة تفجر معاصرة سرعان ما تتحول هذه (الخلية) إلى محور (مغناطيسى) داخلى ينجذب إليه كل ما يحمل طرفاً من خصائص هذا المحور دون غيره.. وتظل عمليات الجذب والطرد.. والقوة والضعف - حتى يكتمل المحور تماماً ويتشبع بهذه المفردات المنجذبة .. ولحظتها فقط أحس بقوة أشواك هذه التجربة داخلى.. وأن علىّ أن (أتخلص) منها على الورق.

وفى يقينى أيضا أن متعتى الحقيقية هى فى ذلك العذاب الجميل الذى أعانيه فى داخلى حتى تأتى لحظة المخاض.. وهنا أكتب تجربتى فى جلسة واحدة.. ثم أترك ما كتبت قليلاً حتى أستعيد طبيعتى - قبل القصيدة - لأتحول إلى قارئ أو متذوق أو ناقد.. فأقبل على القصيدة مرة ومرة أصلح منها.

لقد قصدت هنا أن أقترب من مراحل التجربة الشعرية.. لكننى أدرك تماماً أن بها عوامل أخرى كثيرة تتداخل وتتشابك وتتنافر حتى تتم التجربة.. يعجز أى مبدع أن يقبض عليها أو يصفها أو يحدد ملامحها تماماً.. أو حتى يعبر عنها تعبيراً نهائيا.. وبالرغم من هذا فأنا أومن - كما يقول ناظم حكمت - أن (القصيدة الجيدة هى التى لم تكتب بعد) وإلا توقف الإنسان عن الإبداع مادام كتب أجود ما عنده!.

دخلت بهذا ساحة الشعر - والنشر - من أوسع أبوابها .. وطرقت تجارب كثيرة من التشكيل الشعرى والتجارب والتجريب بكل آفاقه.. وما أصدرته من دواوين إنما وقع تحت اختيار دقيق من بين عدد كبير من القصائد.. أردت أو رضيت أن أقدم نفسى من خلال ما نشرته فى هذه الدواوين فقط - فى حينها بالطبع -

وحاولت فى كل ديوان أن أعبر عن تجارب متقاربة .. وليس معنى ذلك أنها ترتبط بآنيّة الزمن بالضرورة .. وإنما هى تجارب يضمها غلاف واحد وتبوح بما عندى ساعة إصدار الديوان .

الدواوين الأولى

.. ففى ديوانى الأول وديوانى الثانى .. كنت أتحسس خطاى فوق هذه الأرض

الوعرة الملتهبة.. وكانت أمامى تجارب الرواد الكبار.. وغيرهم من رواد العالم الذين تصل إلينا أعمالهم كل يوم.

وكان لا مفر من أن أقع - فى البداية - تحت تأثير ما أقرأ . وأتذوق .. وأحاول الانفلات منه حتى أتخذ لنفسى مساراً خاصاً تجلى فى ديوانى الثالث (البحث عن الدائرة المجهولة).

لقد كان هذا الديوان الذى صدر فى أوائل عام ١٩٧٣ حصيلة تجربة طويلة قاسية من الإحباط والتحمل والتوجس والتوقع الوهمى الذى عاشه المجتمع العربى فى هذه الفترة التى سميت (باللا سلم واللا حرب) والتى انعكست بلا شك فى أعمال جيلنا كله.. وكان معظمه مجنداً فى القوات المسلحة منذ سنوات سابقة فى انتظار الخلاص.

وكانت رؤيتى للخلاص تتكىء على مقومات عديدة.. أولها على الإطلاق الاعتماد على الذات والتحدى لهذا المصير الذى اقتحم الساحة العربية فأصابها فى مقتل وكأننا نحيا عصر الموت.

تجربة حرب أكتوبر

وتحققت الرؤيا دون أن تكذب حين جاءت حرب أكتوبر (١٩٧٣) وكنت واحداً من المشاركين فيها.. وتهطل علينا آثارها - الإيجابية والسلبية - وتتعدد وتتفرد الرؤى لهذا الحدث الكبير.. ويقع المبدعون فى مأزق شديد.. فما حدث كان عظيماً بكل المقاييس لكنه ليس نهاية العظمة وقمة الخلاص.. وما جناه الإعلام فى حق هذا الحدث من مبالغات أظهرته بصورة غير واقعية .

ماذا إذن يفعل المبدعون؟

إن هم صدقوا مع أنفسهم خرج إبداعهم أقل من الصورة الإعلامية التى اقتحمت وجدان المواطن المصرى .. وإن هم واكبوا ركب الإعلام.. أصبحوا مبدعين إعلاميين وشاركوا فى جريمة المبالغة.

إنه إذن مأزق شديد دفع المبدعين إلى الصراخ والبحث عن حل هذه المعادلة الصعبة - خاصة بعد اتفاقية كامب ديفيد - فلجأ المبدع إلى الرمز والتراث والتشكيل الشعرى الذى يثرى التجربة ويبعدها عن الآنية والمباشرة ويجعلها ممتدة فى الزمان القادم.

وكان ديوانى : الليل وذاكرة الأوراق (١٩٧٧) انعكاساً حقيقياً لهذا القلق الإبداعى.

الدراما الشعرية

وفى هذا الديوان طرقت باب الدراما الشعرية - على مستوى القصيدة - بعد أن طرقتها من قبل على مستوى المسرحية فى عملى الأول (اخناتون).

ومن خلال تجربتى الدرامية .. أستطيع أن أؤكد فروقاً عميقة بين دراما القصيدة .. ودراما العمل المسرحى المركب.. فليس كل من يتفوق فى دراما القصيدة يمكنه أن يكتب دراما المسرحية.. فهما وإن اتفقا فى التسمية يختلفان فى كثير من الملامح.

بهذا الفهم الخاص والعلمى للدراما.. حاولت أن أعمق تجربتى المسرحية فكتبت ثلاثة أعمال مسرحية هى : اخناتون - شهريار - الفارس- وكما نلاحظ فهى تقدم (نماذج) ورؤى وليست شخصيات بعينها وإلا فلنقرأ التاريخ فهو أصدق من كل شىء.

لقد حاولت فى كل عمل مسرحى أن أعالج أفكاراً عصرية تماماً.. ففى اخناتون عالجت موضوع عدالة الحاكم..

وقابله شهريار ليعالج موضوع الظلم الاجتماعي والسياسي.. أما الفارس فهي تعالج قضية الإعلام ومدى قدرته على تزييف الواقع !

وأعترف أن هذه المسرحيات الثلاث حاولت فيها أن أستخدم طاقات الإيقاع الشعرى بلا حدود.. كما أننى حاولت أيضا أن أستخدم طاقات الدراما بما تتيحه لى من حرية الحركة والدينامية المتوترة .

وفى عام ١٩٨٠ أصدرت ديوانى الخامس (الخروج من النهر) حاولت أن أؤكد فيه قدرة الإنسان على تجاوز الألم وقدرته على الحياة فى ظل حضارته وواقعه وتحديه لمصيره .

وتتوالى بعد ذلك دواوين : السفر والأوسمة (١٩٨٥) - العطش الأكبر (١٩٨٦) وفى هذا الديوان أنظر إلى البحر وإن كنت لا أعيش على شاطئه وأفسر طلاسمه وأمزج ذلك بمصير إنسان العصر.

ثم يأتى ديوان (الشوق فى ملكوت العشق) ١٩٨٧ والذى حصلت به على جائزة الدولة التشجيعية فى الشعر.. وفى هذا الديوان رؤية صوفية عصرية خاصة.

ثم جمعت دواوينى الثمانية الأولى (السابقة) فى مجلد واحد عام ١٩٩٢.

ثم أصدرت ديوانى (قراءة فى كتاب الليل) عام ١٩٨٩ ثم انتقلت نقلة شكلية فى ديوان (شظايا) ١٩٩٣ حيث يضم الديوان مجموعة من القصائد القصيرة.. وأحسب أن كتابة القصيدة القصيرة لا يقدر عليها سوى شاعر تمرس وباح كثيراً واكتسب خبرة الشعر.. وله تاريخ فى مجال الإبداع بحيث يهيىء له كل هذا التقاط الفكرة والتعبير عنها دفعة واحدة.

ولأن التجربة الإبداعية هنا ينبغى أن تشمل ألوان الإبداع المختلفة لى.. فقد تناولت الشعر والمسرح الشعرى للكبار.. غير أن هناك جانباً مهماً من إبداعى هو جانب الدراسات أو الرؤى الأدبية .. وأحسب أننى عاشق للتراث والشعر معاً وأرى أنهما يتعانقان فى كثير من الدروب .

ثلاثية الحب والحلم ورؤية الخلاص

وربما صعب على الشاعر أن يسير وفق خطة مرسومة مسبقة .. وقد أشار النقاد فى دراساتهم عن أعمالى إلى أن أشعارى قد تبلورت فى مثلث متكامل الأضلاع: الحب .. والحلم .. ورؤية الخلاص المتعددة.

أما الحب فهو نابع من داخلى أنا .. وبمقاييسى الخاصة.. وليس بما يرضاه الآخرون.. ويبدو أن الجدية فى حياتى قد فرضت علىّ أن أعلو فوق الصعب وأحاول التفوق على نفسى.. وكبح عواطفى .. فنظرتى إلى المرأة تبدأ من عقلها.. ذكائها.. وإعجابى بها من هذا الموقع يضفى عليها كل جمال وحسن.. فأنا لا تأسرنى المرأة الجميلة المحشوة بالفراغ أو القش.. لأنها ذات جمال زائف غبى.. أما المرأة الذكية فلا يمكن أن تكون قبيحة.. لأن الذكاء هنا والثقافة والعقل والحوار المستمر الذى لا يهدأ.. يشكل فى المرأة ملامح الجمال والأنوثة التى يطلبها الرجل القوى .

إننى أعترف للمرأة بكيانها الاجتماعى والجمالى معا.

فهى تشارك الرجل كل شىء.. ولهذا فأنا أفضل المرأة التى تجبرنى على احترامها وتقدير مواهبها واستقلالها.. ولا أحب المرأة التى تذوب فى الرجل لمجرد أنها أنثى وهو ذكر !!

وربما يندهش البعض من هذا التصور المثالى .. لكننى - حتى فى

حالات الفناء العاطفي - أتطلع إلى المرأة من خلال هذا التصور : فأنا أحب أي أقدر وأحترم وأجن .. وأنا أمنح المرأة قبلاتي أو لمساتي تقديراً لما حباها الله من جمال .. وهكذا !

والعاطفة في شعري تبدأ من تلك العلاقة الخاصة الثنائية بين الرجل والمرأة .. ثم سرعان ما تتطور وتتسع وتتأكد حيث أضفي عليها مزيدا من الألوان والظلال التي تحتوي كل شيء في الوجود.

إنني أعني بالحب هنا .. هذا الإحساس بالحياة .. وليس مجرد شيء هامشي أو مكمل لمفردات هذه الحياة.. ولهذا فالحب عندي هو ذلك السباق بين الطرفين في العطاء .. إنه لا يقبل المساومة .. أو انتظار العطاء .. لأنه يمتلك قدرة لا تحد على هذا العطاء بين الطرفين.. حتى تنعدم بينهما المسافة.. وتسقط الأسوار .. ويصلا معاً إلى مرحلة السمو والغوص والاحتواء والفناء والجنون بلا توقف .. إنه صدق بلا حدود .. صدق في العطاء .. وصدق أيضا في التعبير.

- ويتصل بهذا المحور - الحلم - .. فالشعراء كلهم حالمون .. مهما ادعوا الواقعية .. والقصيدة أصدق حلم عندالشاعر.. وشاعر بلا حلم ناظم جاف جامد مطرود من ملكوت الشعر.. لكن حلم الشاعر يختلف عن حلم العالم .. فحلم الشاعر لون من التمني الذي يسقطه على الوجود.. أما حلم العالم فقد خطط له من قبل لكي يتحول إلى حقيقة.. وإلا أخفق في حلمه .. ولهذا فإن أحلام الشعراء كثيرا ما تكون إما من الأحلام الخضراء .. أو الأحلام المستحيلة .

أما المحور الثالث فيكمل شكل المثلث.. وربما يمثل قاعدته أحيانا: وهو (رؤية الخلاص المتعددة) وهو بعد معرفي إلى حد كبير ينطلق حيث يعجز الحلم أو يصل إلى طريق مسدود .

إن هذه الرؤية تتفجر بما يشبه التوقع في النهايات المفتوحة وترتبط ليس بالخلاص الشخصي وإنما هي أصلاً تبدأ من الخلاص الجماعي.. باعتبار الشاعر واحداً من هذا المجموع.

وتتعدد في أشعاري رؤى الخلاص والتي تبدأ من الهروب إلى الحب.. حتى آخر الطرف الآخر- الهروب إلى الموت - وبينهما تتعدد (الخلاصات) والتي تتكيء دائما على تلك المتغيرات ومفردات الحياة التي تواجهني كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة.

ولأن تجربة الشعر الحديث تمتلك القدرة على استشراف آفاق لا تحد ولا تعد.. منها المسرحية مثلا.. والملحمة .. والدراما القصصية وغيرها.. فأنا هنا أصارح القارىء بقلقي الشديد على مستقبل الشعر.. بعد أن سادت الساحة تحت مسمى (التجريب - الحداثة - الحساسية الجديدة - الـ .. الـ..) تلك البدع التي تبناها بعض شعراء الجيل الجديد.. وأصبحت هدفاً بعد أن كانت وسيلة .

إن ساحة الشعر اليوم تعاني خللاً شديدا.. وبدعاً تطغى على الإبداع.. ووجعاً بلا دواء.. ومهاترات بلا طائل.. لا تليق بالشعر والشعراء .. تتيح لأعداء الشعر أن يصرخوا: هذا عصر الرواية .

فهل نحن الشعراء راضون عن ذلك ؟. إنه سؤال يمثل وخزاً حقيقياً في جسد الشعر العربي الحديث وعلينا أن ننتشله من هذا الألم العميق . ■

حديث
الشعر والشعراء

بقلم
وديع فلسطين

الشعراء محظوظون ، ترصد لهم الجوائز السخية ، وتقام لهم المهرجانات فى العواصم العربية ، وتعقد عليهم الدراسات ، وتتغنى بقصائدهم مطربات العصر ، وتتقصى الصحف أخبارهم - ولو باعتبارهم مؤلفين للأغانى أو مقيمين لسهرات شعرية فى الفنادق وعيادات الأطباء ! - وتكتب عنهم الرسائل الجامعية ، ويستشهد بكلامهم فى كتابات الكاتبين ، وكثيراً ما تتجاوز شهرتهم تواضع منازلهم فى حياة المجتمع . وقد عرفت شعراء كباراً عاشوا على الكفاف .

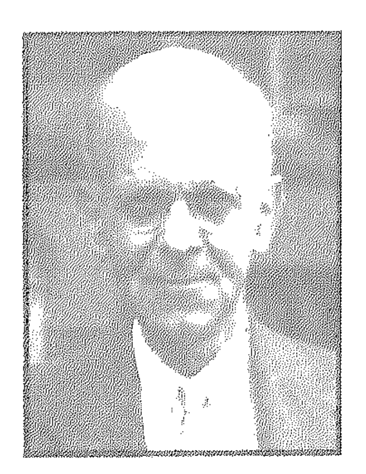
وعلى مدى العمر ، تهيأت لى صلات واسعة بكثيرين من الشعراء ، سواء فى مصر أو فى العالم العربى أو فى المهاجر الأمريكية ، مما أتاح لى الوقوف على أخبارهم ودقائق حياتهم وعلى المعانى المستترة فى شعرهم ، وهى التى لايبيحونها لقرائهم .

وقد عرفت من أسرة المعالفة اللبنانية إثنين من كبار الشعراء ، هما شفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦) صاحب «ملحمة عبقر» ورياض معلوف المولود في عام ١٩١٢ والذي رحل عن دنيانا في الحادي والعشرين من شهر أبريل الماضي . أما ثالث الإخوة ، وهو فوزى المعلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) صاحب ملحمة «على بساط الريح» فقد توفي وهو في الحادية والثلاثين من عمره على إثر جراحة أجريت له ، ولم يتسن لى أن أعقد معه أى صلة .

والشعراء الثلاثة هم أبناء العلامة اللبنانى عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ - ١٩٥٦) الذى كان عضواً مؤسساً فى مجمعى القاهرة ودمشق ، وله آثار كثيرة مازال بعضها مخطوطاً .

ورحيل رياض المعلوف عن تسعين عاماً هو خبر تجاهلته صحفنا المصرية ، ولم تشر إليه حتى صحف الأدب التى انشغلت فى الفترة الأخيرة بالمعتركات السياسية أكثر من اشتغالها بالأدب الذى هو من صميم اختصاصها . ولهذا ارتأيت أن أدير الحديث هنا على رياض المعلوف حتى لا يقال إن مصر تجاهلت وفاة هذا الشاعر الكبير ولم تعرف له فضلاً .

ولد رياض المعلوف فى مدينة زحلة اللبنانية التى اشتهرت فى الأدب العربى بقصيدة الشاعر أحمد شوقى (١٨٦٩ - ١٩٣٢) الموسومة «يا جارة الوادى» ، ودرس فى مدارس سورية ولبنانية ،



إيليا أبو ماضي

واستطاع الحصول بالمراسلة على شهادة فى الحقوق . وبفضل إجادته للغتين الانجليزية والفرنسية ، قام برحلات واسعة فى فرنسا والولايات المتحدة إلى أن استقر فى البرازيل فى عام ١٩٤٠ حيث اتخذ التجارة وسيلة للرزق . ولكن ذلك لم يحل دون انخراطه فى النشاط الأدبى المهجرى ، فانضم إلى جماعة «العصبة الأندلسية» و«نادى القلم الدولى» و«الرابطة العالمية للصحفيين والكتاب» ، ولكن رياض المعلوف ضاق بحياة المهجر ، فقرر العودة فى عام ١٩٤٧ إلى زحلة ليعيش بقية عمره فى مهرجانات شعرية ينصبها فى «كوخه الأخضر» أو تقام تكريماً له فى الحواضر اللبنانية المختلفة .

ولعل رياض المعلوف من القلة النادرة التى استطاعت أن تصدر دواوين بثلاث لغات . ففى اللغة الفرنسية أصدر «التلاوين» و«غيوم» و«حبات رمال والفراشات البيضاء» و«مسامير العاج» ودراسة عن «شعراء الخمرة والمرأة عند

العرب» . وأصدر باللغة الانجليزية ديوانى «غيوم» و«حبات رمال والفراشات البيضاء» بعدما ترجمهما من اللغة الفرنسية .

أما فى اللغة العربية فقد أصدر ملحمة «الأوتار المتقطعة» ودواوين «خيالات» و«زورق الغياب» و«غمائم الخريف» و«صور قروية» و«ريفيات» عدا أنه أصدر كتاباً عن «شعراء المعالفة» ، كما وقف على نشر «تاريخ فخرالدين المعنى» من تأليف أبيه العلامة عيسى اسكندر المعلوف. وأعاد نشر دواوين شقيقه فوزى ووضع كتاباً عنه .

ويبدو أن عدوى الشعر تنتقل فى أسرة المعالفة جيلاً بعد جيل . ففى رسالة وجهها رياض المعلوف إلى صديق له قال «أبعدنا نجلى الحبيب (عيسى) عن الشعر، ودرس بالجامعة اليسوعية إدارة الأعمال . ولكن غلب عليه نظم الشعر ، وفاجأنا ببعض غزليات من نظمه الشخصى يشهد الله على ذلك . وفى حفلة تكريمى فى بيروت ألقى قصيدة لطيفة نالت الاستحسان الكثير» .

ولأن زحلة هى موطن أسرة المعلوف ، وفيها خزائن كتب العائلة ومقتنياتها الأثرية ، فقد أقام رياض المعلوف من نفسه حارساً على هذه الخزائن التى تضم نفائس الكتب بين مطبوع ومخطوط ، بما فى ذلك المؤلفات التى مات والده دون نشرها ، وكان عاكفاً على إخراجها خدمة للضاد .

وكانت لرياض زيارة دورية لتمثال شقيقه فوزى المنتصب فى زحلة . وعندما دعى شقيقهما الشاعر شفيق معلوف من البرازيل لإزاحة الستار عن التمثال ، خاطبه بقوله :

فوزى ، ومالى فى الخطوب يدان
ما هكذا الأخوان يلتقيان
قدمت صدرى للعناق فلم يقع
إلا على حجر من الصوان

ومع أن رياض المعلوف أقام فى لبنان عمراً أطول من السنوات السبع التى قضاها فى البرازيل ، فإن أغلب الدارسين يعدونه من شعراء المهجر .

ومن المفارقات أن أكبر الأشقاء الثلاثة، وهو فوزى ، مات عن ٣١ عاماً ، وأن أصغرهم وهو رياض مات عن تسعين عاماً ، وأن الشقيق الأوسط شفيق مات عن ٧١ عاماً فى حين أن والدهم عيسى اسكندر المعلوف مات عن ٨٧ عاماً .

موسوعتان عن الشعراء

أعرف الأديب الفلسطينى راضى صدوق شاعراً متميزاً بدواوينه «كان لى قلب» و«ثائر بلا هوية» و«النار والطين» و«بقايا قصة الإنسان» و«أمطار الحزن



والدم» و«الحزن أخضر دائماً» و«رياح السنين» ، ولكننى اكتشفت فيه مؤخراً أنه من مجترحى الموسوعات الضخام التى لا تقوى على إنجازها إلا العصبة من ذوى العزم والمضاء . وقد عرتنى دهشة ممتزجة بالانبهار وأنا أستقبل موسوعته «شعراء فلسطين فى القرن العشرين» وهى تقع فى نحو ٧٤٠ صفحة وصدرت فى بيروت عام ٢٠٠٠ ، وموسوعته «ديوان الشعر العربى فى القرن العشرين» وقد صدر جزؤها الأول فى ٨٢٠ صفحة وصدرت عن دار كرمة للنشر فى روما ، ويرجى أن يصدر لهذه الموسوعة جزءان آخران فى هذا الحجم عينه لتصبح أشمل موسوعة عن الشعراء العرب فى قرن كامل من الزمان .

وأى كلام يساق عن هاتين الموسوعتين لن يوفيهما حقهما من الإنصاف والتقدير، ولن يجزى راضى صدوق عن الجهد العنيف الذى بذله فى توثيق مادة الموسوعتين ، سواء بالاتصال الشخصى أو بالرجوع إلى جمهرة كبيرة من المراجع المتناثرة فى العالم العربى . وإذا كانت الموسوعة الفلسطينية قد اقتصرت على الشعراء الفلسطينيين وحدهم ، فإن موسوعة «ديوان الشعر العربى» ترامى فضلها فشملت شعراء من جميع البلاد العربية . والموسوعتان تسجلان سير الشعراء وتحصيان آثارهم وتعرضان نماذج من شعرهم وهى نماذج منتقاة بذوق جميل لأن صاحب الموسوعة شاعر مطبوع وموهوب .

وقد بذل راضى صدوق قصارى جهده فى سبيل الإحاطة الكاملة بجميع شعراء فلسطين والأمة العربية ، غير مغفل أى شاعر مهما قل إنتاجه أو افتقر إلى الشاعرية المكينة ، فليس همه أن يدرس شعرهم أو يخضعه لنواميس النقد الصارمة ، وإنما مراده أن يحصر بين دفتيه كل من قال شعراً عربياً ، متساهلاً مع الذين يتحررون فى النظم من القوافى والبحور ، ولكن المقدمات المسهبة التى صدر بها راضى صدوق موسوعتيه تقدم للقارىء صورة بانورامية واضحة للمشهد الشعرى فى جميع الأمصار ، وهو فى مقدماته يلتزم بالمنهجية الأكاديمية الأصولية وبمذهبه الخاص فى الشعر .

وربما غابت بعض الأسماء عن عناية راضى صدوق ، لأن وسائله لم تسعفه بالوصول إليها ، ولكن كيف يتأتى للباحث أن يستقصى أخبار جميع الشعراء والوطن العربى ممزق إلى وحدات صغيرة تقوم بينها تخوم شاهقة وتمتنع بينها حركة انتقال الكتب والدوريات الأدبية ؟ وحتى معارض الكتب التى تقام فى العواصم العربية باتت تفرض على الكتب حواجز جمركية فحيل بين الناشرين العرب والمشاركة فى معرض القاهرة الدولى للكتاب ، أما الجزائر فقد صادرت جميع شحنات الكتب الواردة للعرض فى معرضها

عندما تعذر على الناشرين أن يسددوا الرسوم الجمركية الباهظة ! في هذا الجو الثقافي الخانق الذي تعاني منه أمة العرب ، كيف يستطيع باحث جاد دءوب مثل راضي صدوق أن يحيط بالنشاط الشعرى إحاطة شاملة بريئة من الثغرات ، اللهم إلا إن قام برحلة بطوطية إلى البلدان العربية ، يدق فيها أبواب بيوت الشعراء لجمع مادته ، وهو ما فعله الشاعر المصرى عبدالعليم القباني في الإسكندرية (المتوفى في ١٤ يناير ٢٠٠١).

ولكن الذي ليس منه ريب أن موسوعتي راضي صدوق قد جاءتا فتحاً عظيماً في دنيا الموسوعات ، وهو بعمله قد هون على الباحثين مهمتهم وقدم لهم المفاتيح التي بها يفتحون الأبواب التي استعصت على الفتح طويلاً ، وإذا كانت موسوعة «ديوان الشعر العربي في القرن العشرين» لم تستكمل طباعة ، فالأمل معقود على إمكان إتمام هذا العمل الرائد دون إبطاء .

وما أحوجنا نحن - أهل النثر - إلى موسوعة مماثلة تؤكد لنا أن النثر فرع أصيل ثان من فروع الضاد ، ولا يصح إهمال أمره .

توفيق مفرج

كان توفيق مفرج يحب أن يحشر بين الشعراء ، ألم يترجم بعض مقطوعات من رباعيات عمر الخيام بشعر منثور ، أولم ينشر في مجلة «المقتطف» قصيدة عنوانها «إلى ...» في عام ١٩٢٢ ؟ فمن هو توفيق مفرج الذي ضاع في زحام الحياة ؟

في عام ١٩٤٨ أو نحوه ، تلقيت في مكتبي في الجريدة التي كنت أعمل بها ثلاثة كتب مطبوعة طباعة فاخرة مهداة من مؤلفها توفيق مفرج ، دون أي معرفة سابقة به ، وأرفق بالكتب بطاقة تدل على عنوانه، فسعيت إليه في مكتبه بشارع الشواربي - وقد حلت محله عمارة مشمخرة - حيث رغبت في شكره على هديته وفي السعي للاستزادة من معرفته ، ولاحظت أن المكتب الذي يحتله يحمل أسماء شركات أجنبية للأدوية ، فسألته عن صلته بهذه الشركات ، فقال إنه يقوم بأعمال الوكالة لها ، ويوزع منتجاتها على المستشفيات والصيدليات في مصر ، ولكنه استدرك قائلاً إن عمله التجاري يستغرق بعض وقته ، أما هوايته الأدبية فتستأثر ببقية وقته يقضيها في المطالعة وفي الكتابة .

ولم يفتني أن ألاحظ في مظهر توفيق مفرج وملبسه وإيماءاته امارات الأرستقراطية الواضحة ، ولا غرو ، فهو يحمل رتبة الباشوية أهديت له من أمير عربي . ولاحظت على مكتبه صورة لمصطفى النحاس باشا تستقر في إطار

مـذهب ، فـسـألتـه : هل أنت وفـدى ؟ فـأجـاب: إننى صـديق صـدوق للنحـاس باشـا ، وهذه الصورة مـهداة منه ، ولهذا أتشرف بتزيين مكتبى بها .

وحـاولت بـعـد ذلك أن أرصـد إسـهامـات توفـيق مـفـرج فى الأدب من واقع مجموعات مجلة «المقتطف» فوجدته بدأ النشـر فـيـهـا منذ عـام ١٩٢١ فكتب مـقـالات تتفـاوت فى مـوضـوعـاتهـا ، فمن مـقال عن «سـجن ريا وسكينة» إلى مقـال عنوانه «على ضـريح من أحب» إلى غيره عنوانه «كـيـف خلق الله المرأة» ، ومـقـال آخر عنوانه «بريطانيا العظمى والحرب» ومـقـال عنوانه «أنا الحى الميت» . فـإذا انتـقلت إلى عـام ١٩٢٧ وجـدت له أقصوصة عنوانها «راسم» ، أما فى عام ١٩٤٧ فكتب مـقـالاً عن رحلة روزيتـا فوربس إلى واحة الكفرة ، وهى الرحالة الانجليـزية التى رافـقت أحـمـد حـسنين باشـا فى رحلتـه الاسـتكشـافـيـة إلى الصحراء الغربية .

أما الكتب الثلاثة التى أصدرها فهى ترجمته لرباعيات عمر الخيام وقد طبعت ثلاث مرات ، وكتاب «على ضـفاف النيل من مـينا إلى فـاروق» وكـتـاب «أحـلام وآمـال». وترجمـتـه للرباعـيـات خـضـعت لدراسة أكاديمية أعدها الباحث الأردنى الدكـتـور يوسف بكار فى كـتـابه الكبـيـر «الترجـمـات العربيـة لرباعـيات الخـيام» الذى صدر فى عام ١٩٨٨ .

وتوفـيق مـفـرج من مـوالـيـد كـورة بشمزين فى لبنان ومن خريجى جامعة كولمبيا فى الولايات المتحدة . وكان قد اختـار الإقامة فى مصر لمزاولة أعماله التـجـارية ، ولكن عندمـا بدأت هجـرة الشوام العكسية من مصر فى أوائل عقد الخمسينات من القرن الماضى ، عاد إلى لبنان حـيث اسـتأنف نشـاطه التجارى . وفى لبنان أصبح توفيق مفـرج من ألمع نجـوم المجـتـمـع ، يصـادق الوزراء والأعيان، ويخطب وده كل ذى حيثيـة . وكنت تراه فى معظم الحفلات الساهرة التى تقـام فى العـاصـمـة اللبنانيـة فى أزهى أيامـها ، وفى ٩ يونيو ١٩٦٨ أقام توفيق مفرج حفلاً ساهراً فى قصره دعا إليـه زبدة المجـتـمع اللبنانى . ولما كـان يخاف أن يتـعرض الحفل للإفسـاد على يدى نجله المتخلف عقلياً ، فقد عمد إلى عـزله فى إحـدى غـرف القـصـر وأحكم إغلاقها ، ولكن الصبى أفلح فى الخروج من مـحـبـسـه ، وتوجـه رأسـاً إلى المطبخ حيث امتدت يده إلى ساطور ، ثم اقتحم صالة الحفل وهوى بالساطور على أبيه فسـقط مضـرجاً فى دمائه ولفظ أنفاسه على الفور، ثم التفت إلى أمه وأصابها إصابات بالغة ولكن أمكن إنقاذها . أما الابن القاتل فقد أودع مصحة نفسية .

من دعابات الشعراء

خلت الدواوين المهجرية من كثير من الدعابات التى كانت تجرى بين الشعراء ، ولدى طائفة غير قليلة من هذا الشعر الفكاهى تلقيتها من أصـحابها فى حينها وعددتها من ضنائنى .

ولكن لا بأس من إيراد هذه الدعابة التى جرت بين شاعرين كبيرين من شعراء المهجر الشمالى هما إيليا أبوماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ونعمة الحاج (١٨٨٩ - ١٩٨٨) .

ففى عام ١٩٢٠ ، أى بعد عامين من زواج إيليا أبو ماضى من ابنة الصحفى نجيب دياب صاحب جريدة «مرآة الغرب» النيويوركية اتفق أن زار نيويورك صديقه الشاعر نعمة الحاج قادماً من بلدة كارولينا ونزل ضيفاً على آل دياب ، وعند رحيله ، وعد مضيفه بهدية هى سرب من الدجاج المسمن فى مزرعته . وبوصوله إلى كارولينا قام بشحن الدجاج مع بطاقة كتب عليها :

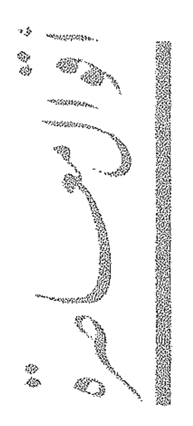
قد وعدناك وها نحن نفيكا
مانسينا وعدنا ، لا وأبيكا
نحن إن قلنا فعلنا ، لا كمن
يبذل الوعد ولا شيئاً يريكا
الدجاجات التى نرسلها
بدماها وحشاها تفتديكا
قد أعرناها الهوى أجنحة
فاحتضنها ثم عضعضها بفيكا
واترك الديك لإيليا ، عسى
بعد أن يأكله يخلف ديكا

ولم يكن إيليا أبوماضى وقتها قد أنجب أولاداً .

فتلقى الشاعر نعمة الحاج من أبى ماضى الرسالة الشعرية التالية :

وصل الديك ناحل الجسم مسترخى الجناحين خائر الأعصاب
لم يقارع خصماً عنيداً ولا كان طريداً لدى ضوارى الكلاب
لا ولا فارق الصحاب فنعزو ما به من ضنى إلى الأحباب
إنما أكثر الوثوب على هذى وهذى فى غفلة الركاب
فأتانى مشوش الريش والطرة والذيل ، ذابل الأهداب
رابنى أمره ، ولكن وجود (الست) فى ركبه أزال ارتيابى
فهو طاوى الحشا ، وهن سمان كل ردف منهن ملء الباب
ألغيرى تلك الجوارى الصبايا
ولى الديك وحده ياصحابى ؟
ويله ، إننى تعلمت منه
كيف حز المدى وجز الرقاب

ولئن صدر لأبى ماضى ديوانان فى حياته هما «الخمائل» و«الجداول» وصدر له بعد وفاته ديوان «تبر وتراب» ، فإن نعمة الحج لم يصدر فى حياته إلا ديواناً واحداً عنوانه «من نافذة الخيال» ، وكان أخبرنى أنه باع أسهمه لكى يوفر لنفسه نفقات السفر إلى لبنان ليطبع مجموعته الشعرية الكاملة ، ولكن الأحداث اللبنانية المدلهمة حالت دون سفره ، ومات دون أن يحقق أمنيته . ولا أدرى ما مصير مخطوطة ديوانه . ■



● «كل فتوحات العلم سبقها الخيال، والعالم فى الأصل أديب محلق»

العالم المصرى د. أحمد مستجير

● «لا أحد، ولا أية قوة قادرة بمفردها على تحقيق عالم أفضل»

دومينيك دى فيلبان
وزير خارجية فرنسا

● «الحكم الصالح هو الذى يقوم على توسيع فرص الحرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية»

من تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢

● «على المشفقين على فقراء العالم الثالث أن يتحدثوا عن فساد الادارات»

عبدالحميد البكوش
رئيس وزراء سابق


عبد الحميد البكوش

● «حصلت على نجاح يكفينى للعيش ثلاث حيوات»

المخرج الأمريكي ستيفن سبيلبرج

● «بقدر ما تكشفين من جسمك سيتألق مستقبلك»

نصيحة لممثلة شابة من النجمة كيم باسنجر الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة


كيم باسنجر

● «الشاعر عليه أن يكون ذاته هو، لا مستغرقا فى ذوات الآخرين»

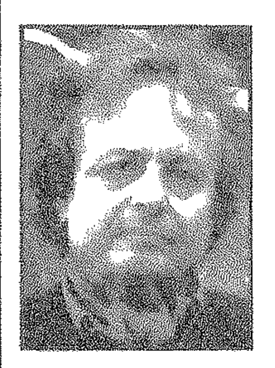
الشاعر المصرى محمد آدم

● «مكسب للامة لو أن المثقف الدينى، بذل فى الدفاع عن العدالة الاجتماعية، بمقدار ما بذل باعفاء اللحى وتقصير الثياب»

الكاتب السعودى عبدالله الحامد

● «الشعر سؤال يولد سؤالا آخر»

الشاعر السورى أدونيس


ادونيس

عن المسرح و«التلبيخ» بالثقافة

بقلم
صافى ناز كاظم

صرحت الدكتورة نهاد صليحة، عميدة المعهد العالى للنقد الفنى، فى الحوار الذى نقل عن لسانها بمجلة نصف الدنيا عدد ٢٠٠٢/٧/٧، ص ١١٦، فى الملف الخاص عن المسرح، بعد شكواها من القيود علي «الحرية» التى تمنع المسرح من مناقشة موضوعات «الهوية والأديان»، أن مسرحنا، كذلك، لا يستطيع مناقشة : «... بعض الحقوق التى أصبحت فى العالم الغربى مثل المثلية الجنسية والتى يمكن أن يعبر عنها فى مسارح أوروبا، بينما فى مصر لا نستطيع مناقشتها على خشبة المسرح بالرغم من وجود مثليين فى مصر، فلدينا قدرة غريبة على القضاء على حرية التفكير والتعبير المسرحى بفكره وجسده...»، ثم تقول فى تصورها لحل أزمة المسرح المصرى، وهى عميدة المعهد العالى للنقد الفنى قد الدنيا، «... على المسرح أن يتوسع عبر البصر ويتخلص من الحياء الذى يلازمه وأن يتحرر من فكرة العيب المتأصلة تماما منذ الطفولة فى ثقافتنا العربية....» .

وناهيك عن أخطائهـا فى معلوماتها عن المسرح المصرى واعتبارها د. طه حسين من نقاد مسرح الستينيات، وهى كما نعيد التنويه عميدة المعهد العالى وأستاذة النقد، فهى ترى أن المسـرح: «.. ليس منبـرا فى البرلمان...»، ولن أتوسع فى الرد وأقول لها: بل إن المسرح هو «مجلس الأمة» ذاته، فليست هى من أحب أن أعلمها شيئا، لكننى أعرض كلامها على الوعى الشعبى والثقافى الذى يقرأ ، وأحب أن أترجم لـ «الأبرياء» مصطلحها المتوارى خلف «المثلية الجنسية» و«المثليين»، بما نعرفه من مصادر ثقافتنا العربية وغير العربية، فهى تعنى أتبا ع «فاحشة» قوم سيدنا لوط – الذين لم يسبقهم فيها أحد من العالمين – وهى الفاحشة التى جلبت عليهم لعنة الله وأرسل من أجلها رسله إلى النبى لوط ليطمئنوه بأن «موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب»؟، وقال الله سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم، سورة هود، آية ٨٢ – ٨٣ : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسوّمة عند ربك، وماهى من الظالمين ببعيد) صدق الله العظيم – وقانا الله شر صبحهم وشر الوعيد – وقد



د. نهاد صليحة

أسماهم الناس «اللوطيين» و«الشواذ جنسيا». وهم نعم موجودون فى كل مكان، كثروا أو قلوا، ووجودهم فى مصر لا يعنى المطالبة لهم بـ «حقوق» وإلزام المسرح المصرى بعرضها أو تبنيها ليكون برأى نهاد «مسرحا» بحق، بديلا عن عرض حقوق «الفقراء» و«المقهورين» وأصحاب المظالم.. الخ، إذ تظن حضرتها أن مثل هذه العروض ستخرج «المسرح» من كونه «مسرح» ويصير برأيها، وهى أستاذة النقد وعميدته، «منبرا فى البرلمان» .

★★★

وماهى – بما يشاء الشيطان – «حقوق» هؤلاء ورثة أصحاب فاحشة إتيان الذكران فى عرف الأستاذة نهاد صليحة المنادية بـ «حرية» المسرح

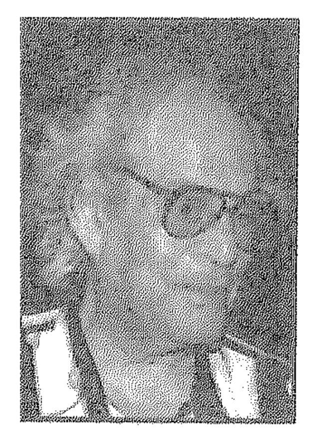
المصرى؟ هل هى ما نالوه فى «الغرب» من السماح لهم بالزواج الكنسى «الشرعى» – (فى الوقت الذى يهاجمون فيه مؤسسة الزواج هجوما أدى إلى إلغائها تقريبا بين الأسوياء الذين يفضلون العلاقات الحرة من دون قيود الزواج!) – ؟ أم حقوقهم فى تبنى الأطفال – (لأن يعنى نحرمهم من أولاد يملوا عليهم البيت، وكل ذنبهم أن علاقتهم المثلية لاتمكنهم من الإنجاب؟) – ولا يهم أن يتربى الأطفال فى ظل قيم هذه العلاقات الشائهة؟ أم حقوقهم بعدم التعريض بإثمهم، وبتحسين المصطلح من «لواط وشذوذ وفاحشة.. الخ» إلى هذا المصطلح «الشيك» المترجم عن اللغات الغربية والعولمية: «المثلية الجنسية» و«المثليين»؟

★★★

أما رغبة الست العميدة، المسئولة عن تخريج نقاد مسرح، فى أن يتخلص مسرحنا من «الحياء» وأن يتحرر من فكرة «العيب»، فهى رغبة تم التعبير عنها من قبل، بلا «حياء» وبلا خوف من «العيب» أو استعظام لـ «الحرام»، فى مقال كتبته الدكتورة «منى أبوسنة» فى نشرة المسرح التجريبى رقم ٨ بتاريخ ١٩٨٩/٩/٨ تحت عنوان : «ماهو التجريب» فقالت ما نصه: « ...أما الثقافة العربية فهى محكومة باللفظ، ومحكومة أيضا بالمحرمات الثلاثة التى دمرها المسرح التجريبى فى العالم ... وحيث إن الرؤية الكونية السائدة فى العالم العربى هى الرؤية الدينية ، وحيث إن المسرح علمانى بطبيعته ، وحيث إن العلمانية مرفوضة بدعوى أنها ملحدة، فإن جذور المسرح التجريبى مقطوعة فى الثقافة العربية ... والسؤال الآن : كيف يتجاوز مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى هذه المعوقات؟» وبإجابة هذا السؤال قالت الدكتورة منى أبوسنة فيما قالت: « ... من خلال توفير المناخ الثقافى اللازم لنمو الإبداع وهو مناخ يتسم بتحرير الفكر من القيود التى تكبل

الإبداع... إلخ» ... وساندها فى رأيها المخرج سعد أردش قائلا : « ...التجريب هو نوع من التحدى لحقائق منها ثالوث المحرمات المقدس لدينا كعرب ...» (ويقصد بثالوث المحرمات ما ذكرته منى أبوسنة عن: الدين والسياسة والجنس) .

وخلاصة هذه الهجمة تعنى طرحا مفاده أن «الدين» فى منطقتنا العربية من «معوقات» المسرح التى يجب «إزالتها» . وبما أن «الدين» فى منطقتنا العربية يعنى فى غالبه «الإسلام» فالطرح الذى تطرحه هنا السيدة الدكتورة منى أبوسنة والسيد المخرج سعد أردش - الذى يوصى بالتحدى ولم نشهد له فى تاريخه تحديا واحدا لسياسة السلطة - ينادى فى الواقع بإزالة «المعوق» الذى يكبل «المسرح» و«القيود» التى تكبل الإبداع أى - من غير لف أو دوران وبالتلبيخ المباشر- «إزالة الإسلام» . وهنا يبدو لنا أن هؤلاء السادة الملبخين بالثقافة يريدون أن يسد بالاسمنت الباب بين المسرح والإسلام، ويقررون أن لا حياة لأحدهما فى وجود الآخر.. والذى يفكر بهذه الطريقة - إلا



سعد أردش

إذا كان قد فقد عقله - يدرك تماما أن الجماهير العربية - بما فيهم العصاة - إذا ما خيّرت بين «الإسلام» أو «المسرح» فالبديهى أن تقول : اذهبوا أنتم ومسرحكم إلى الجحيم. والحقيقة أن مثل الدكتورة العميدة نهاد صليحة والدكتورة منى أبوسنة والمخرج سعد أردش لا يخدمون الفن أو المسرح بهذا «التلبيخ» ، بل يكشفون عن الوجه المرفوض للتطرف العلمانى الذى يهدد حقا مسيرة الفن والمسرح والموسيقى فى بلادنا ويستهدف «التعويق» الفعلى لتطور هذه الأشياء ، إذا كان لها أن تتطور، على طريق النهضة الحضارية الرشيدة الإيمانية المرجوة لأمتنا.

★★★

بقى أن نشير إلى أبجدية ، يعرفها كل دارس للمسرح وتاريخه، وهى أنه بدأ أولا فى معابد مصر القديمة، ثم

انتقل ليولد ميلاده الثاني في معابد اليونان القديمة مع احتفالاتهم الدينية بمعبودهم الإله المزعوم «ديونيشس / باكوس» ، ثم تلقفته المسيحية الأوروبية وأعطته مضامينها بدلا عن الألفاظ والمضامين الوثنية الاغريقية ، وهذا يجعلنا نقول إن المسرح ليس علمانيا بطبيعته بل على العكس : هو ديني في نشأته وتطوره على مسار حقبات تاريخية طويلة . ومن يتأمل بوعي مسرح شكسبير يجده مسرحا أخلاقيا بالدرجة الأولى، يندد بقلة «الحياء» وضياع قيمة الخجل من «العيب»، وهو حين يهاجم زيف بعض المتدينين يطرح في مقابلهم القيم الدينية الصادقة، كما نرى في مسرحية «هاملت» وثورته على الملك الفاسد كلوديوس، والذي يتحدد إطار فساده في : إدمانه للخمر وانغماسه في الشهوات الحسية، وارتكابه جرائم الزنا والقتل والكذب والتجسس واغتصاب الحق بالزور والبهتان ... الخ. فالمرجعية الأخلاقية التي يستمد منها «هاملت» ثورته هي مرجعية دينية مسيحية غير مزيفة وغير مستغلة للدين هذا الاستغلال الذي كان من بين خطايا المنافق الملك كلوديوس – (وهي مرجعية تتشابه إلى حد كبير مع قيم الإسلام الفاضلة: لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تكذب، لا تغتصب، وبالطبع لا تمارس اللواط / المثلية، وتزين بالحياء واعرف العيب !) –

ومنذ ٢٥ قرنا يقدم «سوفوكليس» مسرحية «أنتيجون» يصور بها الصراع بين القانون الديني والقانون الوضعي: فأنتيجون تموت شهيدة الدفاع عن القانون الديني الذي يأمر بدفن الموتى ، وتتحدى الملك «كريون» الذي يسن قانونا مغايرا يمنع دفن الموتى ويهدد من يتحدى قانونه بالموت. وتقول «أنتيجون» للملك «كريون» : «حكمك عليّ بالموت لايهم»! ويقف سوفوكليس مع الموقف الأنتيجوني ناصرا القانون الديني على القانون «الملكي / العلماني» فمن أين أتت حضرة الدكتورة، أستاذة الأدب الانجليزي،



بمقولة إن المسرح علمانى بطبيعته؟

★★★

إذا كانت بعض التجارب المسرحية قد استطاعت فى الغرب «علمنة» المسرح، مثل تجارب بريخت، فذلك لأن بريخت كان يريد أن يكتشف أساليب جديدة يعبر من خلالها عن أيديوليجيته الماركسية، أى دينه الجديد، ومع ذلك لم يستطع بريخت أن يتغلب على كثير من السمات الدينية المتغلغلة فى طبيعة المسرح. أما تجارب جروتوفسكى فى مسرحه الذى أسماه «المسرح الفقير» ، فقد اعتمدت على القدرة الروحية لدى الممثل التى تشابهت فى بعض تدريباتها مع «طقس» المتصوفة ووسائلهم فى «الكشف» و«الوجد».. إلخ.

وصحيح أن هناك تجارب مثل تجارب «مارثا جرام» فى الرقص والتعبير الجسدى.. إلخ إلخ . لكن هذه كلها «تجارب» ، وهى جزئية من مشهد واسع، ليست «كل» المسرح حتى نجبر عليه ويفرض علينا الاختيار الضيق: «إسلام» أو «مسرح».

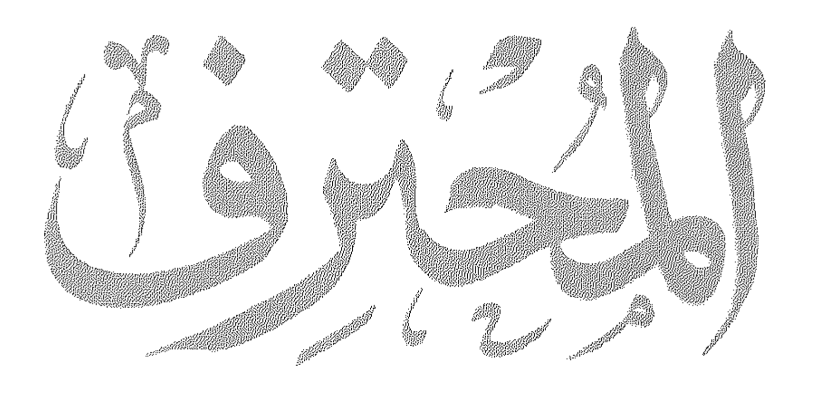
★★★

إن التجريب الذى يجب أن ينشغل به المسرح العربى هو ابتداع الوسيلة التى تقرب «المسرح» من «الإسلام» ،



د. منى أبو سنة

التى تستأصل من المسرح «المعوقات» التى تجعله من «المحرمات». لابد من صيغة تبنى لنا «المسرح» الممتع والمفيد الذى يستلهم «الإسلام» ويحترم قوانينه ، كما تعب بريخت وصنع مسرحه من أيديولوجيته الماركسية . إن التجريب لا يعنى أن «أنقل» بغباء وتبعية «تجريب» الآخرين، لكنه يعنى أن أحدد مشكلتى وأحدد هدفى وأتعرف على عقيدتى بعمقها، وأنشد التواصل مع جماهيرى المؤمنة، العربية، عبر وسائل أكتشفها بالتجريب والبحث، تجريبنا نحن، الذى لن يقودنا بالحتم إلى خلع ملابسنا والتخلى عن «الحياء» و«العيب» لننشغل بـ «حقوق» أتباع «فاحشة» قوم لوط، من أسمتهم حضرة الدكتورة عميدة معهد النقد الفنى : «المثليين». ■

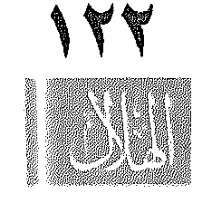


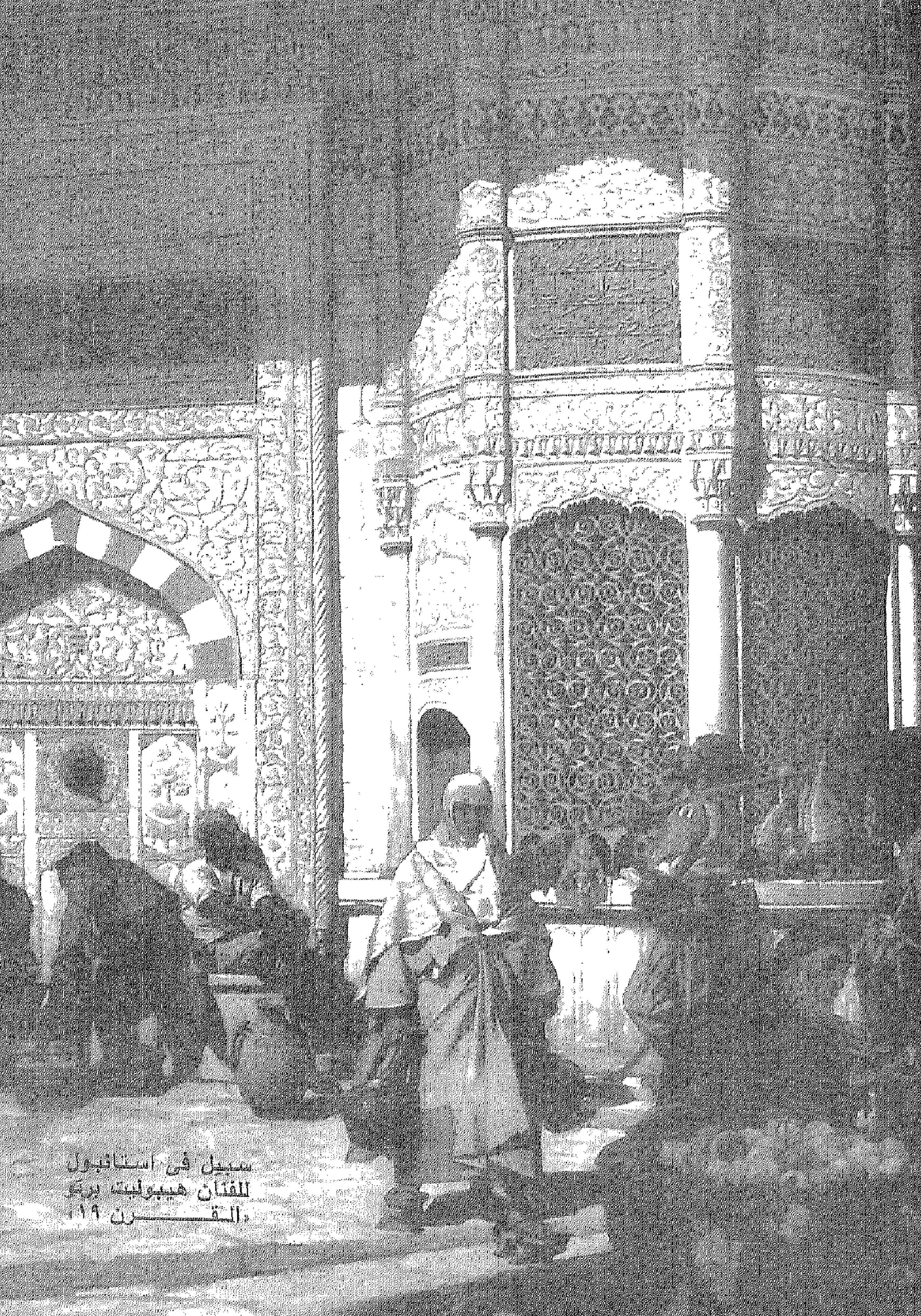
ورقش الفنون

بقلم
د. محمد المهدى

- الفن الجميل ونظام الحرف والطوائف
- «الرسم» فى الغرب و«المحترف» فى الشرق

طرقات ضيقة لا تمنع الحمار النشط من العدو برأس مرفوع، لا يعوقه سوى حركة الجمل الصبور. قد يحمل الحمار صاحبه ذا العمامة السوداء الكثيرة الثنيات، وفى حزامه سلاحه.. دواه، وريشه. إنه الكاتب القبطى. وقد يسعد حمار آخر بملمس هدهل يبدو كهرم مجلل بالسواد، ولكن فى داخله غادة معطرة بالمسك والعنبر خارجة من الحمام.





سبيل في استانبول
للفنان هيبوليت بريكو
«القرن ١٩»

يوقظ اللوحة من غفوة الجمل ذلك الحصان الجامح الذى يحمل العربى ذا العباءة الواسعة، والبندقية المستعرضة فى ظهره. يعود الإيقاع بطيئا بمشية ذلك المملوك المتباهى بعبوديته، ينافسه فى عظمته المزيفة ذلك الألبانى بملابسه المزركشة، وخيلائه بالانتساب إلى ربيب نعمته «الباشا».

فى الإطار تكوينات عديدة لأزياء هندية، وحبشية، ويونانية، وفارسية، وغربية. تصحب الجميع أصوات العواء، والدق، ونداء الخدم المصاحبين للحمير تحمل الأسياد... «اوع يمينك، اوع شمالك.. اوع يا جدع.. ياست. يابت.. يافندى.. يا ولد.. يا خواجه.. يامعلم.. ياشيخ.. يا عروسه».

قدم المستشرق الانجليزى الشهير «ادوارد وليم لين» هذه الصورة عن القاهرة فى القرن التاسع عشر. وعلى وجه التحديد عام ١٨٢٩ كنموذج للمدينة الإسلامية. بتداخلات مع تنافرات . وفى نهاية القرن قدم ابن شقيقه «ستانلى لين بول» نفس الصورة خابية المعالم حتى من التداخلات.

رقش المدينة يتفكك . ورقش المدينة الإسلامية يتكون من مقر السكن والسكينة. أى البيت والمسجد. ومن مقر العمل وإبداع الفنون، أى المحترف، «مقر معلم الحرفة وتلاميذ الحرف اليدوية»، ونظام الطوائف.

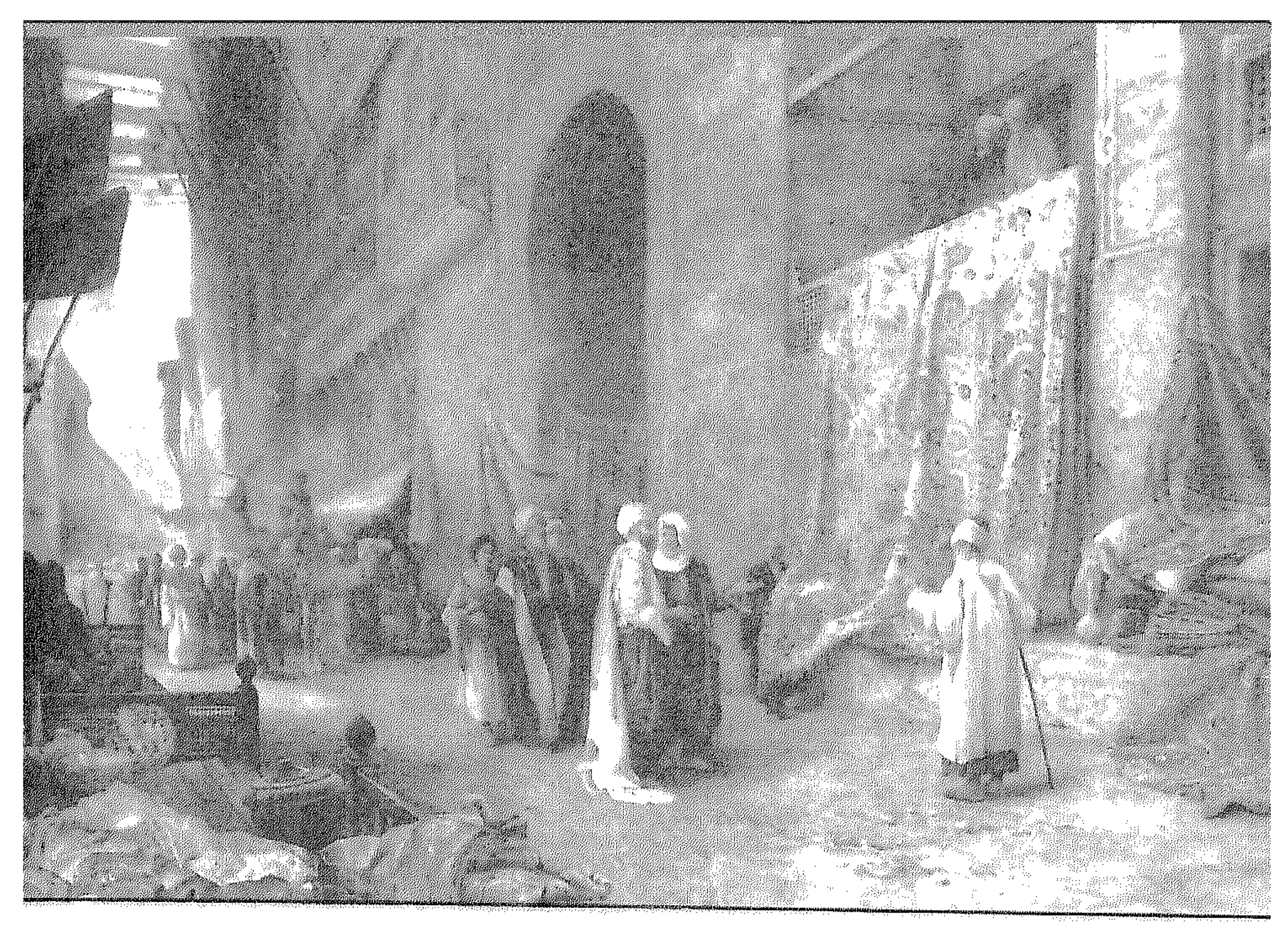
بقدر ما جمع نظام الطوائف.. السقاء، والحلاق، والسباك، والدلال، والتاجر، والنوتى، جمع الموسيقى، والمغنى، والقصاص، والمكفت، والنقاش، والخطاط.

جمع هذا النظام الصناعة والتجارة، أى كل عطاء بجهد، وإنتاج مشهود، وكلها تدور فى دورة المدينة الكبيرة، لتنتهى إلى دورة الدار الصغيرة. جدرانها تضم الأسرة الكبيرة.. القاعة، والدرقاعة ، والإيوان ينفتح إلى مالا نهاية.. إلى اتساع الرقش «الأرابيسك» ، والوحدة الزخرفية الجابذة، النابذة. الإيوان موجود أيضا فى المسجد.أربعة أواوين. منها إيوان القبلة. قد يكون الصحن مفتوحا على السماء، وقد يكون مغلقا . المهم ترابط الجدران الأربعة. بل الستة، فقد شاركت الأرضية والسقف فى إتمام الدورة.

فى الزوايا مقرنصات . خلية نحل هندسية متشابكة حتى وإن كانت وحدتها نباتية.. تربط السقف بجدران اليمين واليسار. ليست مجرد حلية زخرفية . انها



التكفيت..
لوحة للفنان
لودفيج
دويتش
القرن ١٩.



سوق السجاد.. لوحة للفنان شارلز روبرتسون «القرن ١٩»

تكسر حدة الزاوية لتربط الجهات. فرغم أن الفن الإسلامى هندسى الطابع، تجريدى المزاج، إلا أن هندسته مترابطة، متشابكة. وأيضا ممتدة إلى أبعد من قدرة فرد. إنها قدرة ترابط الجماعة. جماعة الحرفة، والعديد من الحرف. تنتج بترابط إنساني، كأنه رقش بشرى متعدد الأعراق والعقائد.

حفل التخرج

ولأن القاعدة التى تحكم الجميع هى قدرة «التمامية». أى اتقان الصنعة.. فعلى جميع الطوائف إذ تحضر حفل التنصيب، وتشهد بجدارة الصبى الجديد.

ولكن كيف بدأ التدريب؟

تقوم الرابطة الأولى بين المبتدىء وحرفته عندما يقبله «المعلم» فى مصنعه. عندئذ تتلى الفاتحة بحضور أعضاء الطائفة، ويقال إذ ذاك إن التلميذ قد دخل «الباب» الأول للطائفة الحرفية.

يقضى التلميذ عدة سنوات دون أن يتقاضى أجرا. وعزاء الأسرة فى ذلك أنه



القاعة نموذج لفن الإحاطة من ست جهات. اللوحة للفنان جان فردريك لويس «القرن ١٩»

يكتسب مهارة، ويتعلم حرفة. ومتى أتقن الصنعة يأخذ أعضاء الطائفة فى حث معلمهم على إلحاقه بالطائفة، ويعمد المعلم عادة فى إرجاء ذلك قائلا «هذا الفتى يجيد العمل كالصانع الماهر، ولكن شرابه لايزال رقيقا». وعندما يرى المعلم أهليته قد اكتملت يأمر الشاويش «موظف مهمته مراقبة الأسواق» أن يعطى المرشح عودا أخضر من الريحان، أو أى نبات آخر عطر الرائحة. يتلقى التلميذ العود بامتنان ويقبله . ويضعه على رأسه.

يسجل المعلم اسم المرشح مع غيره من المرشحين - إن وجدوا - حتى يتسنى الاحتفال بضمهم إلى عضوية الطائفة ويقوم الشاويش بدعوة كبار الطائفة للحفل، وكان يقام عادة فى إحدى الحدائق، أو فى منزل أحد أعضاء الطائفة. يبدأ الحفل بأن يقود الشاويش المرشح وقد وضع يديه على صدره علامة التوقير، إلى بساط أخضر فى وسط

الحجرة. وحينئذ يأمر نائب رئيس الطائفة الشاويش بقراءة الفاتحة جهرا، ويجثو الجميع على ركبهم.

يتقدم النائب لشد النطاق او الحزام (عبارة عن وشاح أو شال) على خصر المرشح، ويرفع يدى المرشح من صدره إلى قمة رأسه، ثم يبسط الحزام، ويلفه حول التلميذ من خصره إلى كعبيه، ثم يشده من الخلف إلى الأمام. ويربط طرفه بثلاث عقد تكريما لرئيس الطائفة، ومعلم التلميذ، والشاويش. ولا يسمح بفك العقدة الأولى إلا لرئيس الطائفة، متى يعرف التلميذ أنه يدين له بالطاعة، ويتولى كبير الصناع فك العقدة الثانية. أما العقدة الثالثة فيفكها الشاويش. هذه العقد الثلاث ترمز أيضا إلى العهد الذى يربط التلميذ بأعضاء الطائفة. ومتى فك العقد الثلاث عين النائب أحد المعلمين الحاضرين ليكون أبا حرفيا للتلميذ. وفى الغالب يتم تعيين معلم التلميذ أبا له، ولكن من حقه أن يختار شخصا آخر إذا أراد. وعلى أبى الحرفة أن يضمن سلوك التلميذ وإتقانه الصنعة.

ويقدم رئيس الطائفة للتلميذ النصيحة العالية «يابنى إن جميع الطوائف الحرفية تشتغل بحرف يؤتمن فيها المرء على المال، والملك، والحياة، والجودة. وحرفتك هى ملكك فحافظ عليها بكل قواك.. وإذا تسلمت أحوال الناس، فلا تخن الأمانة بتبديدها . حذار من أن تخون أعضاء طائفتك لأن الخائن لابد من محاكمته». ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم: ما رأيكم أيها الاخوة والصناع والمعلمون: هل هذا الفتى جدير بأن يصبح صانعا؟ فيجيبون : نعم إنه لجدير بذلك.

القسم والإتقان

يقترب أبو الحرفة من التلميذ ليأخذ عليه العهد وجها لوجه، يثنى كل منهما ركبته اليمنى حتى تمس الأرض قبل أن يقترب كل منهما من الآخر حتى يتماس إبهامهما من الجانب الأيمن ، وركبهما من الجانب الأيسر. ثم يمسك أبو الحرفة يد التلميذ اليمنى فى يده، ويمسك كل منهما إبهام الآخر، وسبابته فى إبهامه وسبابته. ويغطى الشاويش أيديهما بمنديل أو منشفة حتى لا يرى الواقفون العلامة التى يتبادلانها . ثم يقول ابو الحرفة للتلميذ « أقسم أمامى يمين الله ورسوله ألا تخون أعضاء الطائفة، أو تغش فى صنعتك» يردد التلميذ ذلك، ثم يأخذ الشاويش التلميذ والوشاح على كتفه ويطوف به حول شيوخ الطوائف ليتلقى تهانيهم واعترافهم



بقايا الحرفية دون محترف

به.

بعد انتهاء الحفل يجلس الجميع إلى وليمة بسيطة تسمى «التمليحة» نسبة إلى الملح الذى يرمز لرابطة الجماعة. ويرمز لكسبهم رزقهم بالعرق والصبر. وفى وسع الحرفى أن يترقى إلى رتبة «معلم» إذا نجح فى امتحان المهارة والإتقان. فإذا توافرت فيه الشروط مثل امام جماعة من الطائفة لتقرر هل يستحق الترقية أم لا.

يطلب من الصانع أن يقدم عينة من أروع أعماله قبل النظر فى ترقيته. تعرض العينة على الجماعة فإذا وجدوا فيها عيبا أرجأوا الترقية. ويطلق على المعلمين الذين وصلوا إلى مراكز النفوذ اسم الشيوخ أو الأشراف. وهم يساعدون رئيس الطائفة فى وظائفه، كما يساعدون المحتسب «مفتش الأسواق» فى المحافظة على القانون والنظام بالسوق. وكان على معلم الطائفة احترام لوائح الحرفة، ومراقبة الدقة. إذا أنتج أحد النساجين تحفة من النسيج تخالف مقاييس الطول أو العرض المعتاد، أو بها عيوب أو تلاعب، فإن معلم الطائفة يمزقها إربا، ويعلقها فى السوق تحذيرا للجميع. وإذا حامت شبهة حول تصرفات أحد التجار أوفد المعلم الشاويش لإغلاق المحل. وإذا اتهم حدادا، أو «مكفت» بالغش يقلب رئيس الصاغة سندانه، ومن يطرد من الطائفة يقاطع وتشن عليه حرب كبيرة.

وكان من مهام معلم الطائفة إيجاد العمل للعمال المهرة المتعطلين، وتسوية المنازعات، فضلا عن مكانته الأدبية وتوقيره بين الاسر.

بين المحترف والمرسم

والآن هل يعادل المحترف فى المدينة الإسلامية . المرسم فى المدينة الغربية؟

لا .. المرسم الغربى مقصور على الفنان الذى يقدم الفن الفرد، والمحترف جامع لكل فنان «حرفى» يشارك فى فن الجمع.

الفن الإسلامى يحتاج للجمع. لايعرف الفراغ.. يكسر الفراغ. لا يتعمد ذلك كما فعل «ماتيس» الذى هام بهذا الفن. حاول التوفيق بين زمانه ووحدات الرقش الإسلامى . كان من الصعب استعادة الزمن الذاهب الذى تكون بفطرة اليد العاملة كل ساعة. وكل يوم وكل عام. وكل قرن. أحدث دورة متكاملة دون تساؤل ، أو مدرسة، أو تفلسف.

قد نمدرس الآن. وقد نشغل فراغ المؤلفات والنقد التشكيلى حول الأصول التراثية، ولكننا لم نسمع أو نقرأ عن

افتتاح متحف للفن الإسلامى أيام المأمون مثلا، أو معرض للفن الحديث أيام قلاوون.

قد نقرأ عن مناظرة تشكيلية طريفة حدثت أيام الفاطميين بين رسام اسمه «القصير» وآخر اسمه «ابن العزيز»، صور الأخير راقصة تبدو وكأنها تخرج من الحائط. وصور الآخر راقصة تبدو وكأنها تدخل إلى الحائط. ولكن فى المقابل نسأل كم عدد الفنانين المشاركين فى صياغة عمارة «الحمراء» أو «فاس» ، أو «القيروان» أو «القاهرة» ، أو «دمشق» أو «بغداد» أو «استانبول» أو «بخارى» أو «تاج محل»؟

لا توجد لدينا وثائق عن حركة الفنانين آنذاك. فالحدود لم تكن موجودة، والحواجز لم تكن مقامة.. أما الأعداد فتجل عن الحصر.


الخيامية.. نموذج للفنون الحرفية

الهلال

تدعو لإنقاذ

بيوت القاهرة القديمة

بقلم
د. أحمد عبد الجواد

إذا استمرت حالة الإهمال والتجاهل القائم للتراث المعمارى للقرن التاسع عشر، فستفقد مصر فى السنوات القليلة المقبلة عدداً من أبرز هذه النماذج التى تشكل ثروة معمارية لاتقدر بثمن.

ونوجه هذا النداء عن طريق مجلة الهلال لحماية هذا التراث الانسانى..

تعد العمارة المحلية نتاج تراكم طويل الأمد لخبرات في مجال البناء والزخرفة امتدت منذ العصر الفرعوني ، هذه العمارة تعكس أيضاً تأثير وتأثر بأنماط معمارية وافدة كثيرة ومتنوعة امتدت علي مدي تلك الفترة الطويلة من الزمن.

وتمثل عمارة القرن التاسع عشر في مصر عامة، والقاهرة خاصة ثروة لاتقدر من ناحية طرازها المعماري الفريد ، ومن ناحية تأثيرها في نماذج العمارة التي ظهرت في القرن العشرين. وقد شهد هذا القرن نهاية حكم المماليك ، وانسحاب الحملة الفرنسية ، تم تولي محمدعلي الحكم (١٨٠٥ - ١٨٤٩). هذا القرن يعد أيضاً حاسماً بالنسبة لعمق التغيرات التي

منزل المناديلي بحارة القربيبة بباب زويلة حيث تمثل الخرجات و الزخارف واجهة المنزل بالكامل



طالت تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وهي التغيرات التي أثرت بدورها علي مجال العمارة وبالتالي علي الفنون والصناعات المرتبطة بها.

تميزت عمارة البيوت السكنية ، سواء كانت للطبقة العليا أو الوسطى أو الفقيرة، والتى كانت سائدة منذ فترة محمد على ، بخاصيتين أساسيتين ، وهما : القدرة على التكيف مع ظروف فصل الصيف الحار ، وتوفير جانب الخصوصية لسكان هذه البيوت .

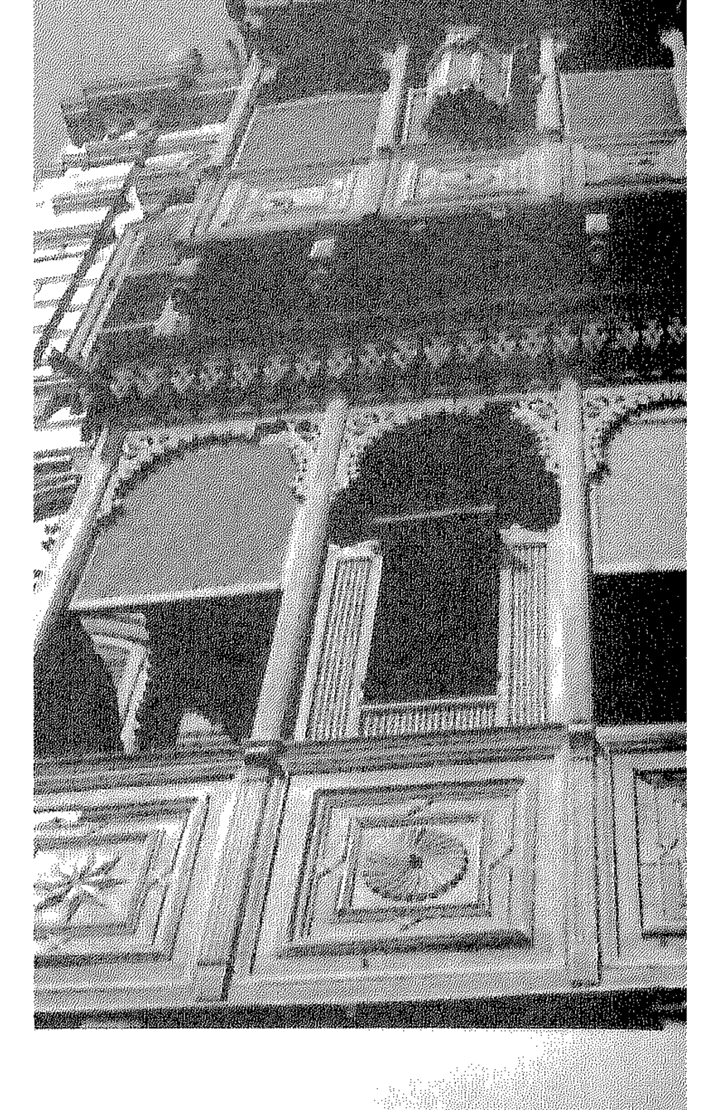
المعمار يواجه الطبيعة

كانت المشكلة التى واجهت المعمارى المصرى منذ العصر الفرعونى هى كيفية التغلب على شمس الصيف الساطعة ، وهوائه الحار . وقد ابتكر المعمارى المصرى «المشربية» حتى يستطيع تقليل حدة الشمس وضوءها الساطع. وقد تطور شكل المشربية مع تطور وظيفتها كأحد عناصر العمارة الحضرية فى مصر منذ عهد دولة سلاطين المماليك . وقد اشتق الاسم (المشربية) من وظيفتها الأولى حيث كانت قاعدتها تحتوى على فتحات مستديرة لوضع الأوانى الفخارية المستعملة فى تبريد المياه، وقد أطلق عليها كذلك اسم (المشربية) من حيث اشرافها على الطريق كذلك . وقد قامت المشربية أو المشرفية بتنظيم ثلاث وظائف مهمة فى العمارة المصرية وهى التهوية والاضاءة والرؤية .

وتتطلب الحاجة إلى تهوية الحجرات عمل فتحات كبيرة ، والتى سوف تسمح بدخول كميات كبيرة من الضوء والحرارة المباشرة أو المنعكسة من اسطح جدران المنازل المقابلة ، ولتخفيف حدة الضوء واستبعاد الحرارة المنعكسة لجأ المعماريون إلى ملء الفتحات الكبيرة هذه بواسطة مخمل مصنوع من برامق الخشب الدقيق بمقاسات محددة من حيث أقطار هذه البرامق ، ومن حيث سعة الفتحات التى بينها بما يضمن أكبر كفاءة فى حجب الحرارة وأشعة الشمس وفى السماح بمرور الهواء. وان فى عمل البرامق مستديرة مايجعل الضوء والظل يتوزعان عليها بحيث تخف حدة التضاد بين حواف البرامق وبين الفتحات المضيئة بينها عما إذا كانت قطاعات البرامق مربعة أو مستطيلة . وبهذه الطريقة أمكن للمعمارى المصرى أن يجعل فتحة الشباك بالكامل تماثل مسطح الجدار الخارجى للحجرة دون حرج مع الحفاظ على خصوصية الأفراد داخل المنزل . فلما كان الطريق هو محور النشاط الاجتماعى والاقتصادى للأفراد ولما كان الكثير من السلع والخدمات يعلن عنها بواسطة الباعة الجائلين كانت الحاجة ملحة لأفراد المنازل برؤية الطريق دون أن يراهم من هم بالخارج .

المشكلة الأخرى التى تتعلق بظروف فصل الصيف، هى الهواء الساخن . وفى هذا المقام لجأ المعمارى المصرى إلى





خرجات المنزل الكائن بحى الخليفة(تم هدم هذا المنزل فى عام ٢٠٠٠

طريقتين مكملتين لبعضهما البعض ، أحدهما خارجية وتقوم على استخدام وحدتين معماريتين وهما «الملقف» و«الشخشيخه» أما الطريقة الأخرى الداخلية فتتعلق بتصميم أجزاء الوحدة السكنية من الداخل.

و«الملقف» عبارة عن مصد خشبى كبير على هيئة زاوية قائمة . يقام فى أعلى المنزل . والضلع المستوى (أى الأفقى) من هذا التكوين يوازى سطح المنزل، والضلع المائل يمثل الناحية التى تواجه اتجاه الجنوب أما الضلع القائم فهو الناحية التى تواجه اتجاه الشمال . (أى البحرى) . وتحتوى تلك الناحية على فتحات يمكن التحكم فيها باغلاقها أثناء فصل الشتاء . والغرض من «الملقف» هو دفع الهواء البارد الذى يصاحب الرياح الشمالية التى تهب على مصر فى فصل الصيف . ومن هنا أصل تسميته «بالملقف» أى لقف الهواء وتحويله إلى داخل المنزل . كان هذا الهواء البارد هو ماتستفيد به كل الوحدات السكنية أثناء فصل الصيف الحار. وفى مقابل هذا «الملقف» ، وهو «مدخل» الهواء البارد ، كان هناك «الشخشخة» وهى «مخرج» الهواء الساخن الذى يندفع إلى أعلى بعد مروره بأجزاء المنزل . وتوجد



الخارجه المفتوحه بالمنزل القائم بميدان أبو الريش - القرن العشرين تم هدم هذ المنزل فى عام ٢٠٠٠

الشـخـشـيـخـة أعلى المنزل وتصنع من الخشب فى أشكال مختلفة مثل متعدد الأضلاع والأسطواني وتنتهى غالباً بقبة يعلوها الهلال . «الملقف» و«الشخشيخة» يتحكمان فى دورة الهواء بالمنزل كله اعتمادا على خواص الهواء ، فالهواء البارد يهبط إلى أسفل ، أما الهواء الساخن فيرتفع إلى أعلى .

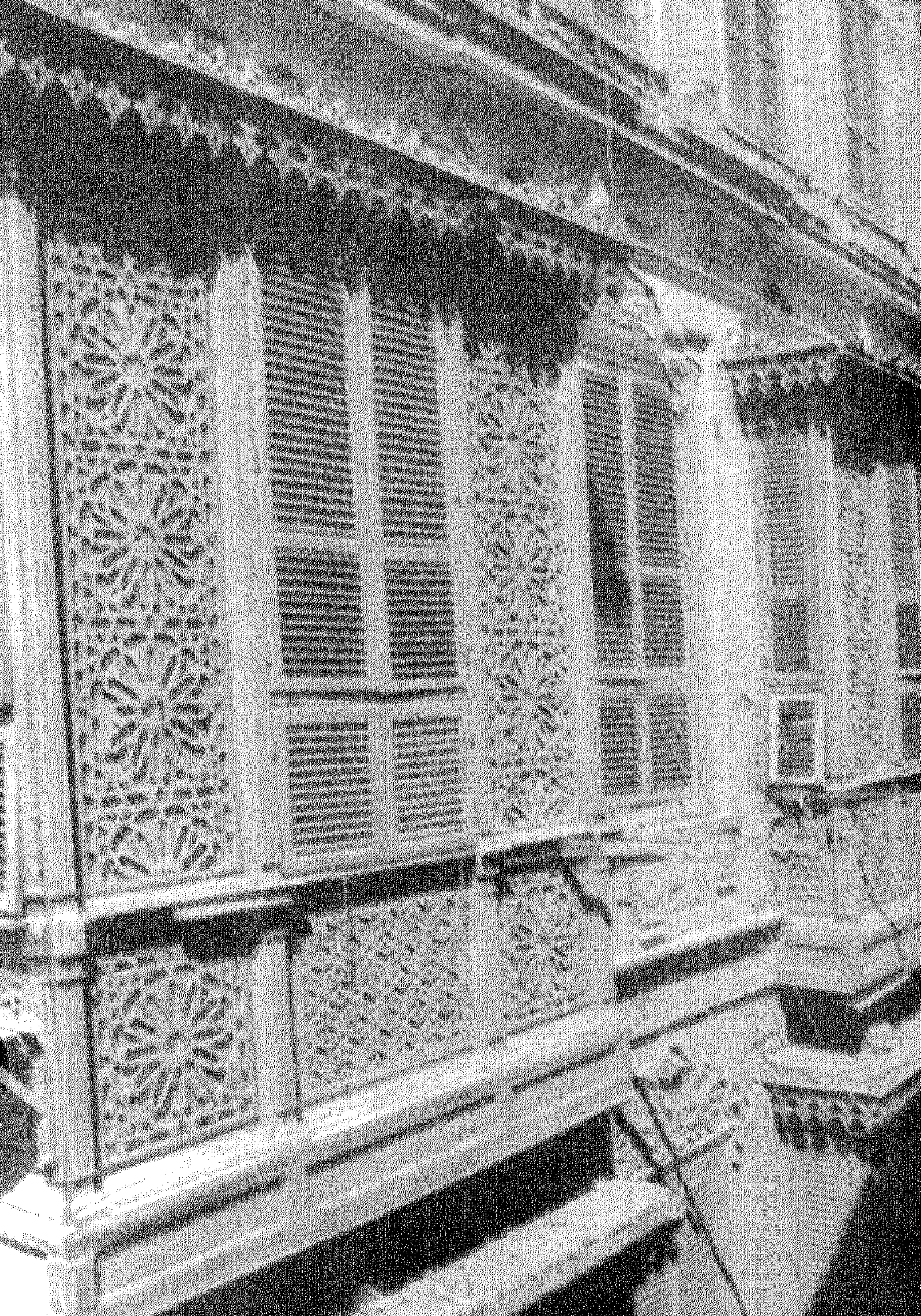
عبقرية المعماري المصري

ظهرت عبقرية المعمارى المصرى فى الاستفادة من دورة الهواء البارد والساخن فى تصميم الوحدات السكنية من الداخل. فقد كان هناك الجزء المخصص للمعيشة، وهى الصالة أو «الريسبشن» بلغة اليوم ، فى مقابل الجزء المخصص للنوم، ويتميز الجزء المخصص للمعيشة بارتفاع السقف، ويستحدث هذا التصميم دورة أخرى للهواء بحيث يهبط الهواء البارد لأسفل ويرتفع الهواء الساخن لأعلى ، مما يعمل على تجديد جو هذا الجزء بالهواء البارد المنعش . أما الجزء المخصص للنوم (خزانة النوم) فقد كان يتميز بانخفاض ارتفاع السقف فيه حتى يمكن الاحتفاظ بالهواء الدافىء أثناء فصل الشتاء .

الضوء الساطع والهواء الحار لفصل الصيف كان لهما الآثر الكبير فى ظهور «المشربية» و«الملقف» و«الشخيشخة» كأحد العناصر المعمارية والزخرفية للعمارة المحلية فى تلك الفترة .

الخاصية الثانية المميزة للعمارة المحلية تتعلق بجانب الخصوصية . فبجانب ما أسهمت به «المشربية» فى تحقيق تلك الوظيفة ، كان للتصميم الداخلى للوحدات التى يتكون منها المنزل دورا مهما فى هذا الاتجاه . فقد كانت تلك الوحدات ، سواء فى بيوت الطبقة العليا أو الوسطى أو فى الأربع (جمع ربع) محل سكن الطبقات الفقيرة ، منفصلة عن بعضها البعض . ففى بيوت العائلات الكبيرة كان هناك مدخل واحد يؤدى إلى حوش واسع تتوزع على جوانبه عدة وحدات سكنية لكل منها مدخله الخاص ، كما فى منزل الخرزاتى الكائن بالدرب الأصفر بحى الجمالية ، والمنزل القائم بشارع وابور الرز بحى بولاق (١٢٩٥ هـ) ومنزل مدكور باشا بشارع باب الوزير بحى الدرب الأحمر ، والمنزل القائم بـ ٥٠ شارع الخليفة (١٢٦٣هـ) أما بيوت الطبقة الوسطى ، والتى كانت تخلو من هذا الحوش فقد ابتكر المعمارى المصرى حلا آخر لتحقيق عامل الخصوصية متمثلاً فى توزيع تلك الوحدات التى يتكون منها المنزل على مستويات مختلفة . فقد كان لكل وحدة سكنية مستوى أو طابق خاص بحيث لا توجد أى وحدتين سكنيتين متقابلتين وفى مستوى واحد. ويبدو هذا النظام فى المنزل القائم خلف جامع أم السلطان شعبان والذى يرجع تاريخ بناءه إلى نهاية القرن التاسع عشر.


زخارف تحتوى على حشوات بالغة الروعة (عمارة بداية القرن العشرين)



بيوت القاهرة القديمة

وتعكس الصور الفوتوغرافية والمناظر التي سجلها الرحالة الأوروبيون لمدينة القاهرة في بداية القرن التاسع عشر مدى انتشار المشربية بأشكالها وزخارفها المختلفة . وقد قام حول المشربية مجتمع اقتصادي وفني كذلك متمثلاً في فئة الحرفيين الذين استطاعوا تحويل قطع الخشب الصغيرة المتبقاه من كتل الخشب ذات الأطوال والأحجام الكبيرة إلى أشكال غاية في الروعة والجمال من الخرط الصغيرة الحجم على مخارطهم اليدوية ذات القوس اليدوى . وهناك الكثير من أشكال هذا الخشب الخرط مثل الشكل الميمونى المستقيم والمائل والصليبى الفارغ والممتلىء وغيرهما ، والتى استخدمت كوحدات زخرفية في تلك المشربيات.

بداية انهيار التقاليد المعمارية

ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر حدث انهيار في تقاليد العمارة المحلية بخصائصها السالفة الذكر تحت تأثير ثلاثة عوامل وهى : التأثر بالأنماط الأوروبية في العمارة التى ازداد تأثيرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ثم ضعف دور النقابات الحرفية منذ عهد محمد على باشا وأخيراً تجاهل دور الصناعات الحرفية التقليدية في مشروع دولة محمد على حتى الآن .

١ - وبالنسبة للعامل الأول يذكر حسن عبد الوهاب أن محمد على باشا قد استعان بمهندسين وعمال أجانب وأتراك أثروا في ايجاد عناصر جديدة في العمارة والزخرفة لم تكن موجودة من قبل . فقد وجدت تصميمات جديدة للقصور مستوحاة من نمط العمارة الأوربية . كما ظهرت زخارف «الركوكو» التي تمثل زهور وعناقيد العنب والتى انتقلت عن طريق المهندسين والعمال الاتراك الذين تأثروا بهذا الفن الذى انتقل إلى تركيا بعد انتشاره في أوربا . ويذكر أيضاً أنه تحت تأثير هذه العوامل انعدمت المشربيات وحل محلها الشبابيك الحديثة. ويذكر ادوارد لين بعد زيارته الثانية لمصر عام ١٩٣٦ كيف تدهورت صناعة المشربيات وحرفة الخراطة القائمة عليها فيقول «كان الخراطون كثيرى العدد وكان عملهم حينذاك أكثر اتقاناً أما الآن فقد قلت أعمالهم لأن نوافذ المنازل الحديثة تصنع من الزجاج». وتمثل مرحلة الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩)، ذروة التأثير الأوربى في العمارة والزخرفة المحلية . وفى تلك الفترة أيضاً تم بناء العديد من المنشآت العامة والقصور للعائلة المالكة والأمراء وكبار رجال الدولة في محاكاة للنظام الأوربى في العمارة والزخرفة . فقد تم الانتهاء من تشييد قصر عابدين عام ١٨٧٤ وتم بناء الأوبرا أثناء احتفالات قناة السويس على نفس الطراز أيضاً . وكان لوجود جالية أجنبية كبيرة في هذه

المنزل الكائن بميدان سيدى عبد الجواد شارع بولاق الجديد - القرن العشرين



الفترة دور كبير فى انتشار نمط العمارة الأوربية . فقد وصل عدد السكان الأجانب فى مصر إلى ١٦٨.٦٥٣ عام ١٨٧٨ . وصل عددهم فى مدينة القاهرة وحدها إلى ٧٦.١٧٣ عام ١٩٣٧. وفى خلال هذه الفترة أصبح المثلث المحصور بين ميدان الاسماعيلية (التحرير حالياً) وحديقة الأزبكية ومنطقة الفجالة منطقة سكن هذه الجالية ومحور النشاط الاقتصادى لمدينة القاهرة ومركزا للتجارة والبنوك والبورصة . وقد شيدت هذه المنطقة على الطراز الأوربى مما أصبحت معه نموذجاً يستوحى فى كل المنشآت العامة وبناء المنازل فى المناطق القديمة لمدينة القاهرة مما أضاف بعداً آخر فى انهيار استعمال المشربية والزخارف المرتبطة بها.

انتشار الأسلوب الأوربي

ويذكر أندريه ريمون أنه ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ساد الأسلوب الأوربى حتى بالنسبة لتنظيم المنزل الداخلى وتقسيماته مع توكيد الاهتمام بغرفة الاستقبال (الصالون)، ويشتمل هذا التقسيم على غرف ومطابخ وحمامات، وأصبحت القاهرة جزءاً من المعمار الغربى وتم ذلك بالتضحية بخصائص العمارة المحلية والتى تعتمد على تعدد مستويات الوحدات السكنية وتنوع الوظائف للأجزاء المختلفة للمنزل .

٢ - يتعلق العامل الثانى بانهيار النقابات الحرفية . فقد كان الحرفيون ينتظمون فى طوائف لكل منها شيخ . وتعتبر هذه الطوائف تنظيمات اجتماعية واقتصادية . وكانت هذه الطوائف تقوم بمهام متعددة بإشراف شيخ الطائفة ومعاونيه تشمل الحفاظ على التقاليد الحرفية بتنظيم مستوى اجادة الحرفة. واستمر هذا الوضع حتى مجىء محمد على حيث تعرض تنظيم الطوائف الحرفية لهزات عنيفة نتيجة لعدة عوامل ، كان أولها هو سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على فى الصناعات اللازمة لبناء الجيش والأسطول وخاصة صناعة النسيج والأحذية والملابس مع إهمال الصناعات الحرفية الأخرى وبذلك أضمحل الدور الاقتصادى للطوائف تحت ضغوط ازدياد نمو الدولة المركزية . وأدى انشاء صناعات جديدة للأسطول والجيش فى مناطق جديدة إلى القضاء على تقاليد التوطين . حيث كان أفراد كل حرفة يقيمون فى منطقة واحدة تعرف بالنشاط الحرفى الغالب عليها مثل الفحامين والنحاسين والكعكيين. وأدت سياسة محمد على بالعزل والتعيين الادارى لمشايخ الحرف بدلاً من اختيارهم عن طريق أفراد الطائفة إلى سلب مشايخ الطوائف لامتيازاتهم واشرافهم على طوائفهم وتقلص دورهم إلى مجرد توريد الحرفيين اللازمين لمشروع محمد على.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أسهمت ظروف جديدة فى التعجيل بانهيار طوائف الحرف منها نمو مدن جديدة مثل السويس والإسماعيلية

المنزل الذى ولد به طلعت حرب بحى قصر الشوق ويظهر السلاملك وتعلوه المشربية -القرن التاسع عشر

وبورسعيد مما ألغى احتكار الطوائف فى تحديد عدد من يعملون بكل حرفة بهذه المدن الجديدة . وتزامن هذا مع ظهور مؤسسات اقتصادية واجتماعية جديدة قامت بدور الطوائف فى تحديد الأجور لعدد من الخدمات . وفى عام ١٨٨١ أعفت الحكومة شيوخ الطوائف من مهمة جمع الضرائب المفروضة على المهن المختلفة . وفى عام ١٨٩٠ صدر القانون الذى يعطى الحرية الكاملة لجميع أنواع الحرف. كما ألغى التمرين اللازم لكل حرفة، وهو القانون الذى أدى بالتدريج إلى اختفاء العديد من الطوائف وموتها موتا بطيئاً ولم يسجل موتها أى مرجع . فقد اختفت طائفة تجار العبيد عام ١٨٧٨. وطائفة جزارى القاهرة عام ١٨٩٢ وطائفة المراكبية ١٨٩٣ - ١٨٩٦، والسقايين بالأسكندرية ١٨٩٥. وصيادى السمك بالمنزلة عام ١٩٠٢ . ولا يعرف تاريخ محدد لاختفاء طائفة عمال الخرط والمشربيات ولا طائفة البنائين.

٣ - ويتعلق العامل الثالث بتجاهل دور الصناعات الحرفية وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية من حيث أنها تعكس خبرات وثقافة المجتمع . ورغم جهود محمد على فى إقامة صناعات جديدة فان أياً من هذه الجهود لم يشمل الاهتمام بالصناعات الحرفية التقليدية مثل صناعة المشربيات والخشب الخرط

المشربيات التى تزين واجهة المنزل الكائن بشارع الدرب الأحمر - القرن التاسع عشر

وصناعة الأثاث والأوانى الفخارية.

ويذكر أحد التقارير أنه فى عام ١٩٠٠ لم تكن هناك غير مدرستين صناعيتين احداهما ببولاق والتى أنشئت سنة ١٨٤٣ والتى أشرف عليها الفرنسيون وأنشئت بجانبها عام ١٩٠٢ بعض الورش النموذجية . أما المدرسة الأخرى فقد أنشئت بالمنصورة عام ١٨٨٩ . وقد عمدت تلك المدارس إلى تدريب الحرفيين على استخدام السلع والآلات الحديثة وفى مسايرة الأذواق الجديدة وترويجها مع تجاهل مميزات الانتاج المحلى وتقاليده.

وفى بداية القرن العشرين توسعت الحكومة فى انشاء العديد من المدارس الصناعية متبعة فى ذلك نفس السياسة السابقة فى المدن المختلفة . فقد أنشأت مدرسة أسيوط الصناعية عام ١٩٠٧. وفى نفس السنة تم انشاء المدرسة الصناعية بالفيوم وبنى سويف والاقصر ودمنهور ونجع حمادى والجيزة . وفى عام ١٩٠٩ أنشئت مدرسة أبوتيج الصناعية وأنشىء بها قسم للنسيج وآخر للنجارة والآثاث المنزلى على النمط الأوربى . وبجانب هذه المدارس فقد تم انشاء مجموعة من المدارس الصناعية الحرة ، فقد أنشأت جمعية العروة الوثقى الاسلامية مدرسة صناعية عام ١٩٠٢ بالاسكندرية وانشأت جمعية التوفيق القبطية مدرسة صناعية بالفجالة عام ١٩٠٤ . وقد تم انشاء اتحاد الصناعات الفنية بمصر فى ١٦ يونيو ١٩١١ وكان هدفه هو تشجيع الصناعات والحرف الفنية لمختلف الصناعات المصرية التى تنزع إلى محاكاة الطراز العربى والمصرى لكن الجهود لم تصل إلى نتيجة مرجوة فى إحياء الصناعات أو الحرف التى انقرضت مثل صناعة المشربيات وحرفة الخرط وطرز البناء المحلية .

مابقى من تراثنا المعمارى

رغم تلك العوامل السابقة التى اسهمت فى اضمحلال العمارة المحلية بخصائصها المميزة السابقة، الا أن هناك نماذج مازالت باقية منها بمدينة القاهرة، تحتفظ بتلك الخصائص ممثلة فى انفصال وحدتها الداخلية عن طريق المدخل الخاص بكل منها. وممثلة كذلك فى وجود المشربيات والشخيشخة بأشكالها وأحجامها المختلفة والتى تعكس جماليات أعمال الخرط والحشوات المتعددة الأشكال. هذه النماذج تتميز أيضاً بوجود قاعات متسعة المساحة تزين أسقفها صور وزخارف ملونة مميزة لتلك الفترة . هذه البيوت التى تنتمى إلى تلك الفترة كانت محلا لسكن عائلات مشهورة . كما كانت أيضاً محلا لسكن العديد من رجال الفكر والأدب والاقتصاد الذين أثروا فى تاريخ مصر الحديثة. فالمنزل الكائن بقصر الشوق كان محلا لسكن طلعت حرب باشا وهو المنزل الذى ولد به . والمنزل الكائن بجنينة ناميش كان محلا لسكن الأديب والمفكر مصطفى لطفى المنفلوطى . أما المنزل الكائن بـ ٥٠ شارع الخليفة والذى بنى فى عام ١٢٦٣هـ حسب اللوحة

التأسيسة الموجودة به كان محلا لسكن بعض أفراد عائلة محمد على باشا.

أثرت عمارة القرن التاسع عشر على شكل عمارة الطبقة الوسطى القاهرية والتى أنشئت فى أوائل القرن العشرين فى الأحياء القديمة بمدينة القاهرة. وقد خضعت هذه العمارة الأخيرة بالكامل لطراز العمارة الأوروبية من ناحية تقسيم الوحدات السكنية ، بحيث أصبحت تلك الوحدات (الشقق)، التى تشترك فى نفس التقسيم الداخلى للحجرات، توجد فى مستوى واحد (أى طابق واحد) هذه الطوابق أو الأدوار يعلو بعضها البعض فى تكرار رتيب . بجانب أن هذه الوحدات تشترك كلها فى مدخل واحد . ورغم أن هذا التقسيم يستبعد ميزة الخصوصية التى ميزت لفترة طويلة عمارة القرن التاسع عشر وما قبله . الا أنها احتفظت بتقاليد المشربية ممثلة فى تلك «الخرجات» التى تصنع من الخشب. وتحتل واجهه البناء . هذه «الخرجات» احتفظت بجانب الشباك الأوروبى بمشربيات صغيرة غاية فى الروعة والجمال . وتمثل تلك الخرجات «المقفلة» ابتكارا من قبل المعمارى المصرى فى تحوير شكل البلكونة الأوربية «المفتوحة» بالكامل والتى تتعارض مع جانب الخصوصية.

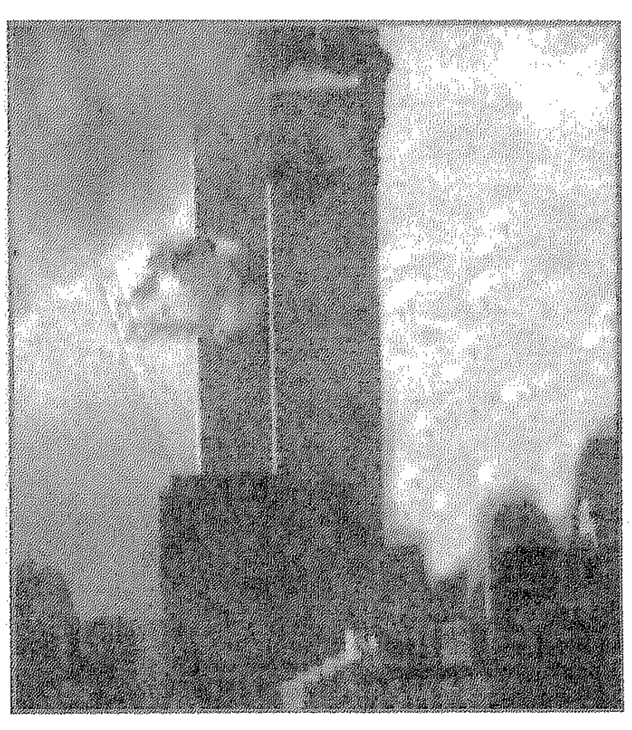
تميز هذه «الخرجات» وما بها من مشربيات صغيرة أو ضرف تنزلق إلى أعلى وإلى أسفل تصنع من شرائح الخشب Lattice ، عمارة القرن العشرين والتى انتشرت بأحياء القاهرة القديمة مثل الدرب الأحمر وسوق السلاح وباب الوزير والخليفة والسيوفية والأزهر والعطوف حتى منطقة بولاق . وتحتوى هذه «الخرجات» على مسطحات كبيرة جعلت جزءاً كبيراً من واجهة هذه المنازل، أو كل الواجهه تملأ بالكامل بحشوات مختلفة الأشكال . هذه «الخرجات» كانت المادة التى ساعدت حرفة الخرط والزخرفة العربية على الاستمرار حتى الوقت الحالى.

تتعرض كل هذه النماذج التى تنتمى للقرن التاسع عشر أو القرن العشرين للانهيار السريع والهدم والإزالة. فرغم أن معظم هذه المنازل مر على انشائها أكثر من مائة عام وينطبق عليها قانون حماية الآثار، الا أنها لاتخضع لاشراف أو رعاية المجلس الأعلى للآثار. وتتعرض هذه المنازل لاهمال متعمد يعرضها للزوال السريع. فالمنزل القائم بـ ٥٥ شارع باب الوزير والذى ينتمى إلى فترة القرن التاسع عشر والذى كان سكنا للشيخ عبدالرحمن قراعة أحد رجال الأزهر البارزين، أصبح يحتل طابقه السفلى تجار مستلزمات التنجيد مثل ألواح الأسفنج والمواد اللاصقة السريعة الاشتعال. وهو ما أدى إلى اشتعال حريق هائل أودى بالمنزل فى شهر سبتمبر عام ٢٠٠١ . أما المنزل رقم ٥٠ شارع الخليفة فيتعرض للانيهار نتيجة لعدم الاهتمام باصلاحه من قبل ملاكه.

وبطبيعة الظروف .. فإذا استمرت هذه الحالة من الاهمال والتجاهل ، فمن المتوقع أن تفقد مصر عبر السنوات القليلة القادمة عدداً من أندر هذه النماذج التى تمثل ثروة معمارية وزخرفية مميزة. ■

ثقافة الظلم وظلم الثقافة

بقلم
عبد الرحمن شاكر



إن أهم ما يشغل الإعلام العربى اليوم، وكثيرا من الجهود الثقافية والسياسية والدبلوماسية، هو التصدى للحملات الضارية الشرسة التى تشنها أجهزة الدعاية الصهيونية والقوى الموالية لها فى الغرب وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، على العرب والمسلمين، واستغلال أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية، والمتهم بتدبيرها بعض العرب والمسلمين. فى إثارة الغضب والكراهية ضد هؤلاء فى جميع أنحاء العالم، بما فى ذلك الادعاء بأن الدين الإسلامى هو الذى يحض على كراهية الغير.

وأهم من ذلك استغلال تلك الأحداث والمشاعر المستثارة على هذا النحو لتسويغ كل عمل من أعمال العدوان على العرب والمسلمين، سواء فى ذلك ما تتعرض له الجاليات الإسلامية والعربية من اضطهاد وعدوان يصل إلى حد القتل وتخريب الممتلكات ومصادرة الأموال وإهانة المقدسات، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى استمرار اغتصاب حقوق المسلمين القومية سواء فى كشمير، أو الشيشان، أو سنكيانج الصينية، أو فى فلسطين، إلى حد تصوير الاعتداءات المتواصلة البشعة على الشعب الفلسطينى من حصار وتجويع وبطش وقتل وتدمير للمنشآت العامة والخاصة وتعطيل الخدمات العامة من علاج وتعليم.. إلخ. وتقويض لمقومات الحياة الاقتصادية والاجتماعية مع استمرار الاحتلال الجاثم على ربوع الأرض الفلسطينية منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما، أقول تصوير كل ذلك بأنه جزء من الحرب على الإرهاب من نوع الحرب التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية بعد الأحداث المشار إليها فى أفغانستان والتى ماتزال تقتل فيها المدنيين العزل كل يوم كما حدث مؤخرا حينما تصوروا إطلاق بعض الأعيرة النارية فى عرس من الأعراس على نحو ما يحدث عندنا على أساس توهم أن تلك الأعيرة كانت موجهة ضد الطائرات الأمريكية التى تولت دك العرس ومن فيه!

آخر ما تناهى إلى أسماعنا من قصص الحملة على العرب والمسلمين فى أجهزة الإعلام الأمريكية الخاضعة للصهيونية ، هو استخدام العبارات التى وردت فى العهد القديم من الكتاب المقدس عن اضطهاد المصريين القدماء لبنى إسرائيل ، والتى أرسل النبى موسى طبقا لها للخروج ببنى إسرائيل من مصر لتخليصهم من ذلك الاضطهاد.. أقول استخدام تلك العبارات فى محاولة النيل من المصريين المعاصرين، جاهلين أو متجاهلين أن معظم المصريين حاليا يؤمنون بالنبى موسى ومن سبقه ومن تلاه من الرسل، سواء فى ذلك المسيحيون الذين يقرأون تلك القصة فى العهد القديم أو المسلمون الذين يقرأونها فى القرآن الكريم ، فكيف يمكن تعيير سكان مصر بتلك القصة التى وقعت منذ أكثر من ثلاثين قرنا، تبدل فيها الناس غير الناس والعقائد غير العقائد ولكن هكذا يفعل المغرضون!

السيطرة على المال والأعمال

ولكن القصة الحقيقية التى ينبغى أن تروى ، ويعرفها جميع الناس سواء فى بلادنا العربية الإسلامية أو غيرها من البلدان، هى قصة اليهود المعاصرين الذين تتشكل منهم الحركة الصهيونية بكافة أساليبها الوحشية وألاعيبها الخسيسة . إن أكثر من تسعين فى المائة من هؤلاء القوم، كما سبق أن ذكرت أكثر من مرة على صفحات «الهلال» وغيرها ، هم من الخزر الأشكناز الذين تحولوا إلى اليهودية فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن

الثامن للميلاد، بعد ظهور كل من المسيحية والإسلام، وأن موطن هؤلاء الخزر كان من القوقاز جنوب روسيا حاليا وأن سبب نشوء الحركة الصهيونية ، هو ما لقيه هؤلاء المتهودون الخزر من اضطهاد على يد القياصرة الروس خلال القرن التاسع عشر، وبسبب هذا الاضطهاد كان «الخروج» الأكبر لهؤلاء اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث توجه معظمهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث شكلوا الجالية اليهودية الكبرى هناك وخاصة في ولاية نيويورك ، حيث سيطروا على دوائر المال والأعمال وكذلك أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون وسينما ودور نشر، وكذلك الأجهزة الثقافية في الجامعات وغيرها وصولا إلى شبكة الإنترنت ، وهم يسخرون هذه الوسائل جميعا من أجل أغراضهم السياسية بما في ذلك تعزيز قوة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ودعم سياستها العدوانية وتحويل ذلك الكيان ليس إلى حاملة طائرات لا تغرق فحسب، كما كان يقول الساسة الأمريكان منذ عقود قليلة، ولكن إلى القوة النووية الثالثة في العالم، حيث يعلنون في زهو أنها تملك حوالي أربعمائة رأس نووية، في محاولة لإرهاب العالمين العربي والإسلامي ومحاولة فرض هيمنتها عليهما وعلى مصيرهما!

خطورة الإرهاب

وليست مصر هي المستهدفة وحدها في الإرهاب الصهيوني الأمريكي ولا الحملات الإعلامية الظالمة التي تتم باسم الحرب ضد الإرهاب (!) ، رغم أن مصر كانت أول دولة نبهت إلى خطورة الإرهاب وعانت على أيديه ما عانت، بل الاستهداف يشمل العراق التي لا يكف الساسة الأمريكان عن التلويح بالانقضاض عليها عكسريا لتبديل نظامها، ويشمل المملكة السعودية التي كانت صداقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية منهجا ثابتا في علاقاتها الخارجية، حيث ينادي بعض المتهوسين الأمريكان بسحق مكة والكعبة المشرفة بالقنابل النووية، لنسف أكثر الأماكن قداسة عند المسلمين الذين هم عند هؤلاء هم مصدر كل الشرور!

ولكن من أغرب ما نتعرض له في سيل الحملات الظالمة على الحضارة والثقافة العربية والإسلامية، هو ما عمد إليه كاتب عربي شهير، يكتب مقالا أسبوعيا في جريدة عربية كبرى، من تعاقل وادعاء كاذب بالإنصاف حيث يرمي العرب القدماء بالعنصرية، التي هي السمة البارزة في مسلك القوى الصهيونية ومن والاها وفي أصل ثقافتهم . ودليله على ذلك - أي عنصرية العرب هو لفظان عربيان حيث يقول في الخامس من يونيو الماضي:

«لقد كان العرب يعتقدون أنهم وحدهم الذين أوتوا رجاحة العقل وطلاقة اللسان، وأن غيرهم ممن ينطقون بما لايفهم أعاجم، يشاركون الحيوانات العجماء عجزها عن الإفصاح، وكانوا يسمون الأجنبي الذي لم



اشتباكات بين مقاتلى طالبان ومحاربى تحالف الشمال بالقرب من قندوز

يدخل فى دينهم علجا، والعلج هو الحمار المكتنز، أو الحمار الوحشى»!

ولو كلف الكاتب نفسه الرجوع إلى معجم عربى مثل لسان العرب لتردد كثيرا فيما ذهب إليه فبالنسبة للفظة الأولى ، جاء فى مادة عجم:

«قال أبو اسحق: الأعجم الذى لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربى النسب، مثل زياد الأعجم، قال الشاعر:

منهل للعباد لابد منه

منتهى كل أعجم وفصيح.

والأنثى عجماء، وكذلك الأعجمى، أما العجمى فهو من جنس العجم».

والكلام فى هذه المادة الطويلة عن الناس ، من عرب وغير عرب، أما صلة هذه المادة بالحيوان ففى موضع آخر يقول:

«والأعجم الذى يجمع على عجم ينطلق على ما يعقل وما لا يعقل».

فالتشبيه هنا هو للحيوان بالإنسان غير الفصيح وليس العكس.

أما الكلمة الثانية التى استدل بها الكاتب على أن العرب عنصريون وهى كلمة «علج» ، فهى أيضا طبقا للسان العرب صفة للإنسان قبل أن تكون صفة للحيوان

تبدأ مادة «علج» فى لسان العرب هكذا: «العلج» الرجل الشديد الغليظ وقيل هو كل ذى لحية ....

«واستعلج الرجل: خرجت لحيته وغلظ، واشتد وعيل بدنه...

وبعدها:

«والعلج الرجل من كفار العجم...

أما صلة ذلك بالحيوان فهو أيضا لشبيه بالإنسان، حيث جاء فى موضع آخر من المادة قوله:

و«العلج حمار الوحش لاستعلاج خلقه وغلظه ... ».

أما تشبيه الإنسان بالحيوان، فلعله لم يرد فى كلام العرب أكثر مما ورد فى تسمية أنفسهم وأولادهم، من ذلك: تسميتهم كلب، وكلابا، وكليبا، وفأرا ويربوعا وثعلبا. وذؤيبا (مصغر ذئب) .. إلخ.

هل يعرف الكاتب معنى اسم أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى الأول، وقيصر العرب كما وصفه بعض معاصريه؟ إن المعنى الحرفى لهذا الاسم كما فى مادة «عوى» من لسان العرب أيضا هو : «الكلبة المستحرمة التى تطلب السفاد» فهى تعاوى الكلاب الأخرى، أى تتبادل معها العواء أو النباح عسى أن يحس بها ذكر منها فيلبى حاجتها.

هل وصف العرب أحدا من الأعاجم بأقبح من هذا؟!

فلماذا إذن هذه الحملة الظالمة على لغة العرب؟

ونسأل الكاتب: كيف يريد أن «نراجع ثقافتنا ، ونمتحن أنفسنا، ونفتش عن عيوبنا ونتخلص منها» كما جاء فى مقاله ؟

هل يريد أن يتوقف العرب والمسلمون عن تلاوة آية فى القرآن الكريم مثل التى نصها : «لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» «سورة النحل»؟

أم يريد أن يكف العرب والمسلمون عن ترديد الحديث المشهور : «ليس لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى»؟ وهو الحديث الذى يعتز العرب والمسلمون بأنه يمثل غاية المساواة بين البشر بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وألسنتهم؟!

نعم: بعض العرب تباهوا قديما بلون بشرتهم وأهانوا بعض ذوى البشرة السوداء، مثل الصحابى أبى ذر الغفارى، حين قال لرجل منهم : يا ابن السوداء، فنهره النبى العربى وقال له «أنت امرؤ فيك جاهلية».

كان السواد منتشرا ما بين العرب، وكان السود منهم يعرفون باسم «أغربة العرب» ، على أن كلمة غراب هى أيضا مما تسمى به العرب، ولو نظرت فى وجوه أكثر الأفارقة حاليا لوجدت الملامح العربية تغلب عليهم، مما يدل على التداخل الكبير ما بين العرقين اللذين لا يفصل بينهما إلا البحر الأحمر الضيق فى مبدئه ومنتهاه.

العنصرية يا سيدى هى آفة العصر الاستعمارى الذى مازلنا نعيش أقسى فصوله بظهور القطب الأوحد الذى يمتطيه ألد أعدائنا، فلا تكن عونا لهم علينا أصلحك الله! ■



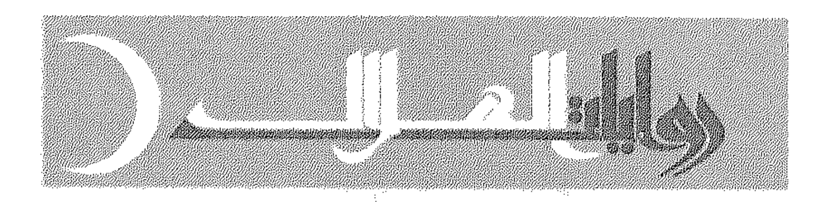
ذكريات باريس

بقلم

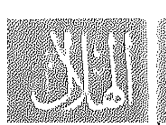
د. زكي مبارك

يصدر ٥ أغسطس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



١٤٩



حالة مستعصية

بقلم

سعيد سالم

تصدر ١٥ أغسطس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

جماد أول ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م

رحلة إلى ايطاليا

الفراعنة

فى المتحف المصرى بتورينو

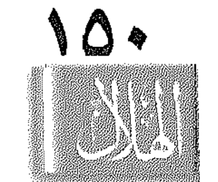
أطلال بومبى وبركان ڤيزوف

بقلم
مصطفى درويش

كان من حسن الطالع أن تحققت لى ثلاث أمنيات، فى مدة من عمر الزمان لم تزد عن عشرة أيام.

ومتى؟ فى أثناء شهر الاحتفال بالعيد الذهبى الثالث والعشرين من يوليه ، وثورته التى اطاحت بحكم فاروق ملك علب الليل.

والامنيات الثلاث التى تحققت هى زيارة المتحف المصرى فى مدينة تورينو، التجول بين اطلال مدينة بومبى التى اهلكتها حمم بركان ڤيزوف، قبل ألفى عام، والقاء نظرة طائرة على كاتدرائية «ساجرادا فاميليا» - تعنى العائلة المقدسة - ببرشلونة - تلك الكاتدرائية التى أعطاها المهندس الفنان «انطون جاودى» من حياته أربعين عاماً، ويؤمها الناس من كل فج عميق، لا للصلاة، فبناؤها لم يكتمل بعد، ولا ينتظر اكتماله قبل خمسين عاماً - وإنما للاحتفال بآفاق خيال، بلا شطآن .



جماد أول ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م



أطلال بومبي



مومياء لرجل كانت فى احد التوابيت الحجرية

أعياد ذهبية

أما لماذا تحققت الامنيات الثلاث فى اثناء شهر الثورة بالذات، فذلك سببه صدفة ميلاد ابن شقيقتى وفعلاً تم اللقاء فى المطار على النحو المرسوم ، جاء مفاجئا ، مرحاً .

مدينة عائمة

بعده، توجهنا ، جنوباً إلى ميناء جنوة المطل على شمال غربى البحر الأبيض المتوسط ، حيث صعدنا إلى ظهر سفينة ، ولا أقول مدينة عائمة ، أكبر من تيتانيك المنكوبة حجماً ووزنا وارتفاعاً ، تكاد تناطح السحاب، جديدة عمرها يحسب لا بالأعوام ، بل بالأيام.

وبنا طافت سبعة موانىء . من بينها نابلى، حيث على بعد بضعة أميال بركان فيزوف، وكعهدنا به، يغلى من جديد .

وبرشلونة ثانى مدن أسبانيا ، وعاصمة اقليم كاتالونيا ومع انتهاء ليالى البحر السبع عادت بنا السفينة ، واسمها «يوريبيان ستارز ، إلى اليابسة فى جنوة، ومنها صعدت السيارة بنا إلى اقصى شمال إيطاليا، حيث بحيرة ماچورى، بشطآنها الأقرب إلى جنات تجرى من تحتها الانهار ، وتتقاسم بعضها سويسرا مع إيطاليا، حيث اقمنا فى فندق مطل على البحيرة الساحرة ، يرجع تاريخه إلى بداية القرن السابع عشر، وحيث احتفلنا باليوبيل الذهبى لأبن شقيقتى.

الحياة اليومية أيام الفراعنة

فرعونيات إيطالية

وفى أثناء اقامتنا التى لم تدم سوى أربع ليال ذهبت كالأحلام، توجهنا بالسيارة إلى المدينة المشهورة بصناعة سيارات فيات، واعنى بها تورينو، حيث يوجد المتحف المصرى.

وما سموه كذلك إلا لأنه خاص بآثار قدماء المصريين ، ولا شىء آخر.

فهو يحتوى على مجموعة نادرة من تلك الآثار ، لا تعلو عليها منزلة سوى مجموعة الآثار الفرعونية التى يزهو بها المتحف المصرى ، وسط القاهرة.

وعكس متحفنا الاقرب إلى مخزن للآثار ، رأينا القطع الفرعونية فى متحف تورينو، معروضة مع عظيم الاحترام، وفى اطار من الجمال والجلال ؛ داخل حجرات لا زينة فيها ، الزينة كانت فيما احتوت، تماثيل ارباب وملوك واعيان ، رسوم حائطية. أو بمعنى أصح كتابات هيروغليفية ، سجلت تفاصيل الحياة، كما كان يعيشها الناس فى أزمنة الفراعين، سجلتها بألوان، لاتزال تسر الناظرين.

موميــاءات لسادة وسيدات أشبه ما كانوا وهــم على قيــد الحيــاة ، قبــل آلاف السنين. حتى ان بعض النســاء لازلن محتفظات بشعرهن كما كان لامعا، فاحما.

حجرة من بعد حجرة ، فيها قطع الآثار توزعت، وتقسمت ، على نحو علمى، مدروس.

بردية هيرودوت

وعند بردية شهيرة تعرف ببردية تورينو، سجل عليها المؤرخ الاغريقى هيرودوت اسماء جميع الفراعين الذين حكموا مصر على امتداد ثلاثين قرنا، أمامها عندها وقفت طويلاً.

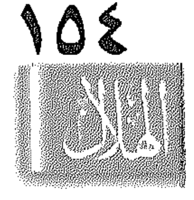
وبينما أنا أمام تلك البردية اتأملها معلقة على الجدار ، أعجبت بكيفية الحفاظ عليها من عاديات الزمان استرعى انتباهى فى جانب آخر من الحجرة وجود صورة طبق الأصل من كتابات حجر رشــيد بلغاتهــا الثلاث، فى اشارة واضحــة إلى شامبليون الذى زار تورينو، ولعب دوراً فى تصنيف ما كان موجــوداً وقتذاك فى أحــد متاحفها من آثار فرعونية.

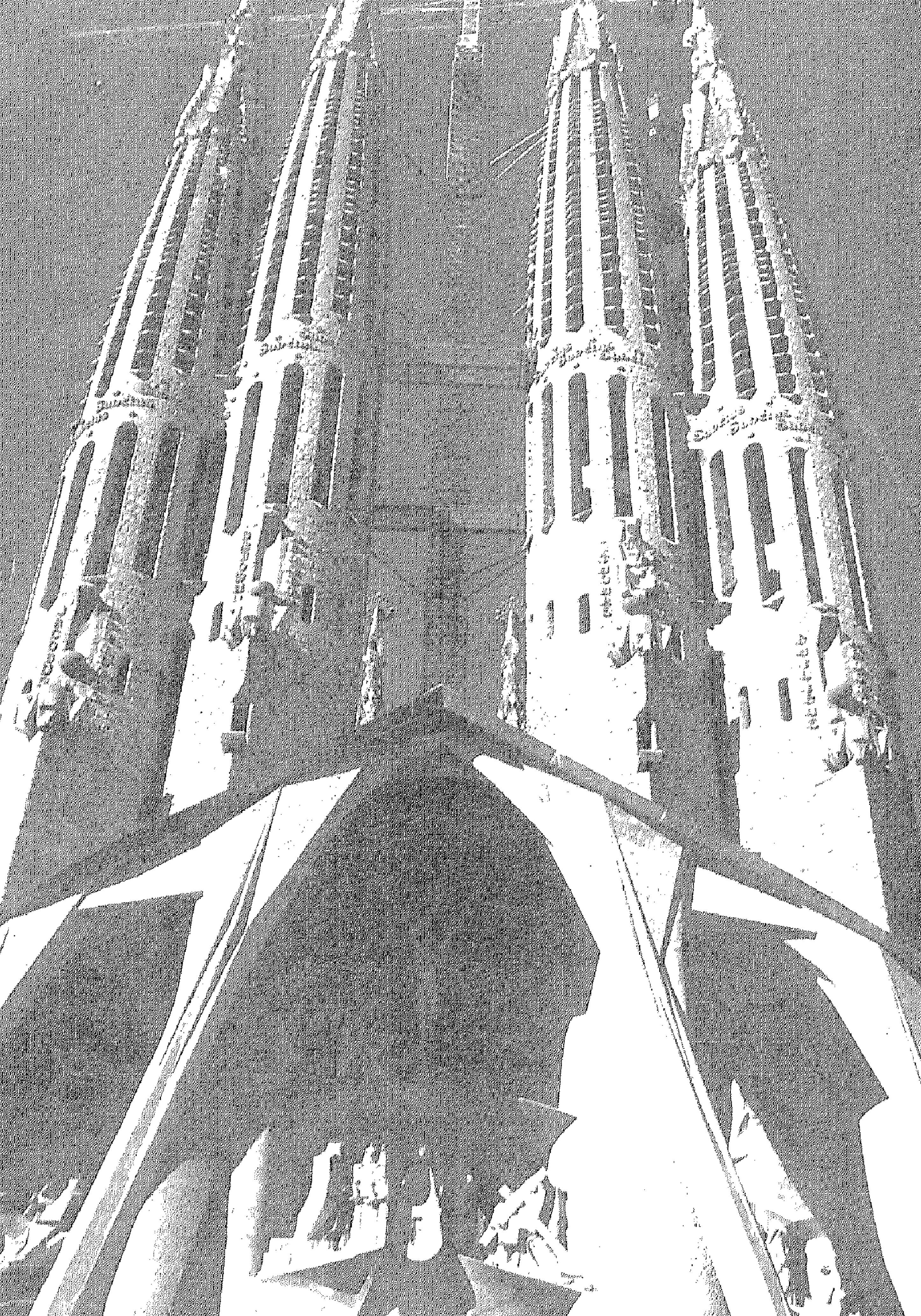
فك اللغز

ومما يعــرف عن شــامــبليــون ان الفــضل يرجع له وحــده فى فك لغــز اللغــة الهيروغليفية.

وكالشأن فى كل المكتشفات المحولة لمجرى التاريخ كان فك شامبليون للغز تلك اللغة التقاء بين قمة بلغتها أشواق روحه، وقمة بلغها تحصيله العلمى، كى يستكمل استعداده بدراسة اللغات القديمة واللهجات المنحدرة منها .

كاتدرائية ساجرادا فاميليا ببرشلونة



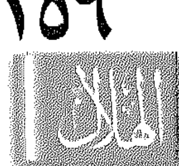


تمثال لأمنحتوب

فذلك الاكتشاف، والحق يقال، عادت بفضله إلى الحياة أمة ماتت.

داء النسيان

وهنا، وأنا القى نظرة أخيرة على كتابات الحجر الشهير، وجدتنى استرجع على شاشة ذاكرتى قول يحيى حقى أديبنا الكبير:



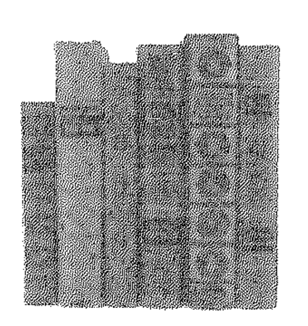
معبد فى مقبرة من دير المدينة

«من سخرية الاقدار أن هذه الأمة انفردت من بين جميع الأمم السابقة والمعاصرة لها فى الحرص على أن تخلف وراءها بالكتابة سجلا كاملا لحياتها. ثم صانته تربتها من التلف أو الضياع».

فإذا بهذا السجل يمتد - وكأنما فى غمضة عين - إلى عالم المجهول .

يصبح من الألغاز والمعميات التى تتحطم عليها كل محاولة للفهم مهما بلغ ذكاؤها وعلمها، إلى أن اشرقت اللحظة فى بصيرة رجل عاش فى أوائل القرن التاسع عشر.. وأين؟ فى فرنسا .

وتساءلت ، قبل أن أغادر الحجرة ، حيث بردية تورينو وحجر رشيد، أليس مما يدخل فى باب العجاب ألا تعود الحياة إلى تاريخنا القديم إلا بفضل فرنسى كرس حياته القصيرة من أجل فك لغز لغتنا، والا نعرف شجرة عائلة الفراعين على امتداد آلاف السنين الا بفضل اغريقى قديم لا نتذكر من أقواله سوى مصر هبة النيل!!



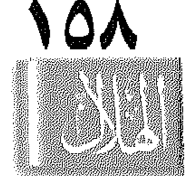
الطبقات الكبرى

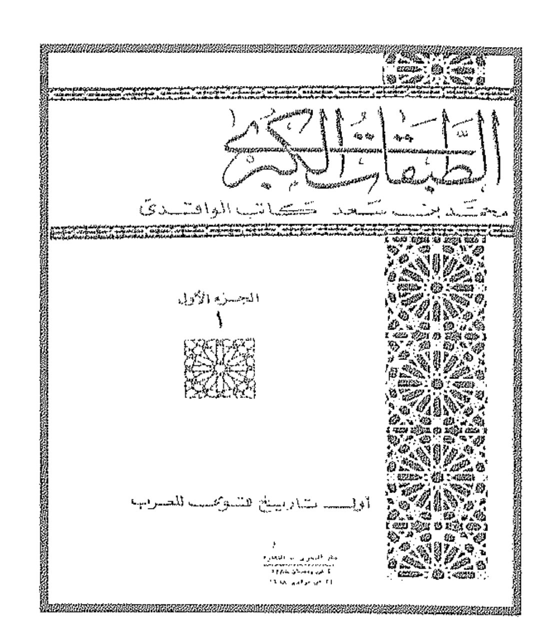
لمحمد بن سعد كاتب الواقدى

أول موسوعة لتاريخ العرب المسلمين

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

لم يعرف التاريخ الإسلامىّ كتابا مثل «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدىّ، فقد مضى على تصنيف ابن سعد لهذا السفر الجليل نيف واثنا عشر قرنا .. لم ينقطع خلالها سيل الملتجئين إليه من باحثين وقراء ، فمنذ البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) وحتى الدكتورة عائشة عبدالرحمن .. يمتد طابور طويل من المؤلفين الذين أفادوا من كتاب ابن سعد بوجه أو بآخر ، إذ احتل «الطبقات الكبرى» مركزا متقدما فى صدارة المراجع التى استعان بها العديد من المؤلفين القدامى والمعاصرين .





فمن القدامى نرصد على سبيل المثال: الإمام ابن كثير فى كتابه «البدايه والنهاية » – المؤرخ أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى فى تاريخه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ، والحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه «تاريخ الخلفاء »، ومن المعاصرين تبرز أسماء أدباء وكتاب كان «الطبقات الكبرى» خير معين لهم فيما تصدوا له من دراسات وكتب عن تاريخ الإسلام ، ومن هؤلاء نذكر: الدكتور/ طه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣م) فى كتبه «فى الأدب الجاهلى» و«الفتنة الكبرى »– الدكتور / محمد حسين هيكل (١٨٨٨ – ١٩٥٦م) فى كتبه «حياة محمد» و«الفاروق عمر» و«عثمان بن عفان» – أحمد أمين (١٨٨٧ – ١٩٥٤م) فى كتبه «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام »الدكتورة / عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) فى كتابها «أم النبى عليه الصلاة والسلام» ، وبموازاة طابور المؤلفين وحوله اصطفت أعداد لا نهاية لها من قراء نهلوا المعرفة بأحداث القرنين الأولين من تاريخ الإسلام من نبع ابن سعد الصافى .

أجيال من المؤرخين

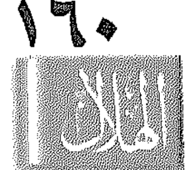
كان المسلمون يلجأون فى صدر الإسلام إلى كبار الصحابة فى المدينة للسؤال فى القرآن والعقيدة وغير ذلك مما يشكل عليهم فيما يخص السياسة والحقوق والأنساب ، فقد حفظ أولئك الصحابة الكثير من هذه المسائل شفاهة عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– ، ومن هؤلاء الحفظة : قارئ القرآن أبى بن كعب الذى أملاه الرسول –صلى الله عليه وسلم–، البعض من سور القرآن – أبو هريرة ، عبدالرحمن بن صخر – عبدالله ابن عمرو ابن العاص وعبدالله بن عمر ابن الخطاب، لقد اشترك هذا النفر من الصحابة فى كثرة رواياتهم الصادقة عن أيام الإسلام الأولى ، وقد أشار إلى ذلك المستشرق المعروف إدوارد ساخاو فى معرض حديثه عن عبدالله بن عمر بقوله : « كان عبدالله عمدة للرواية القديمة ، وعنه تدفقت روايات كثيرة ، تجمعها كلها صفة الصدق ولا يرقى إليها الاتهام أو التكذيب، إذ إنه كان راويها فقد كان الشاهد العيان أو السامع لمجريات الحوادث المهمة أيام الإسلام الأولى ، ولم يعرف عنه قط الرغبة فى التدليس أو دس الخبر الكاذب».

شكلت أحداث حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، وأحاديثه الشريفة عماد الروايات الأولى عن تاريخ الإسلام ، تلك الروايات التى جاء بها أولئك النفر من

الصحابة المشار إليهم فيما سبق ، فلما فصلت الأحاديث وبوّبت طبقا لمباحث الفقه، فإن ما تبقى من أحداث عن حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وجهاده وغزواته .. عرف باسم «المغازى والسيرة» وأفردت له في كتب الفقه أبواب منفصلة تحت هذا المسمى ، ويعد أبان بن عثمان ابن عفان (ت ١٠٥هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (٢٩ - ٩٢هـ) من أوائل من صنف من المؤرخين المتقدمين فى المغازى والسير.

ولد الجيل الثانى من رواة التاريخ الإسلامى بعد سنوات من رحيل الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فجاءت رواياتهم نقلا عمن عاصروه -صلى الله عليه وسلم-، من الصحابة أو شهود عصر النبوة ممن لم يشرفوا بجواره الكريم ، ويأتى سعيد ابن المسيب (١٣ - ٩٤هـ) على رأس هذا الجيل من الرواة، وتنبع أهمية رواية ابن المسيّب من أنه عاصر العديد من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، منهم والد زوجته الصحابى الجليل أبو هريرة ، لذلك كان ابن المسيب حجة في جميع مسائل العقيدة والشريعة .. كما كان على معرفة تامة بتاريخ ظهور الإسلام وانتشاره ، وبالرغم من تلك الأهمية التى اكتسبتها رواية ابن المسيّب والمكانة العلمية التى حققها .. إلا أنه كان زاهدا فى حياته مترفعا عن الانغماس فى دروب السياسة ومشاكلها ، لكل ذلك .. جاءت رواية ابن المسيّب لتاريخ الإسلام شفاهية يلقيها على أعلام التابعين مثل عطاء بن أبى رباح ومحمد الباقر وعمرو ابن دينار ومحمد بن مسلم الزّهرىّ فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، ولم يؤثر عن ابن المسيّب تأليف الكتب أو تدوين روايته ، وهو الذى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : « أفضل التابعين سعيد بن المسيّب » .

بدأ تدوين التاريخ الإسلامى مع الجيل الثالث من رواته ، هذا الجيل الذى لم يدرك أغلب أفراده أحدا من صحابة النبى -صلى الله عليه وسلم- وعمّر أفراده حتى أدركوا بعض عقود القرن الهجرى الثانى ، ويعد محمد بن مسلم الزُّهرى (٥٠ - ١٢٤هـ) زعيم هذا الجيل وصاحب السبق إلى تدوين علمه ، روى عن الزُّهرى كل من عمر بن عبدالعزيز وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار وآخرون ، وقال عنه أبو داود : «حديثه ألفان ومائتا حديث... النصف منها مسند» ، ويعد الجيل الثالث من الرواة هو الجيل الذى قام بتدوين التاريخ الإسلامى طبقا لواحد من مناهج البحث التاريخى ، لذلك يقول إدوارد ساخاو عن الزُّهرى: «فقد جمع الأخبار من كل مكان ومن كل شخص... كبيرا كان أم صغيرا... رجلا كان أم امرأة ، جمعها حتى من قبائل الأنصار القليلة ووعاها فى ذهنه ، وإن كان قد أثبتها فى نفس الوقت أو أثبت معظمها بالتدوين والكتابة» ، لم يكن الزُّهرى من أنصار



تدوين الأحاديث والتاريخ الإسلامى فى بداية اشتغاله بالعلم ، وإنما اضطره لذلك نهوضه بتعليم الأمراء من أبناء خلفاء بنى أمية الذين عمل فى قصورهم ، وهو ما نقله الحافظ شمس الدين الذهبى فى ترجمته للزُّهرى التى جاءت بين تراجم أعلام الطبقة الثالثة عشرة وضمنها الجزء الثالث من كتابه الشهير « تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام» ، يثبت الذهبى ما نقله معمر عن الزُّهرى ونصه الآتى : «كنا نكره الكتاب حتى أكرهنا عليه الأمراء فرأيت ألا أمنعه مسلما » ، ولقد فقدت مدونات الزُّهرى على مر التاريخ كما فقد غيرها من مؤلفات ، ولكن شمس الدين الذهبى يشير إلى ماهيتها فى الصفحة رقم ٥٥٥ من الجزء الثالث من كتابه السابق الإشارة إليه بقوله : « فقد جمع أحمد بن صالح المصرى علم الزُّهرى وكذا ألف محمد بن يحيى الذهلى حديث الزُّهرى فأتقن واستوعب وهو فى مجلدين».

خلف من بعد هذا الجيل من الرواة جيل رابع لحق بالعصر العباسى وأحدث فى التأريخ للإسلام جديدا ، ولعل أشهر مؤلفى هذا الجيل هم محمد بن اسحاق ومحمد بن عمر الواقدىّ ، ومن الغريب أن معظم مؤلفى هذا الجيل قد ولدوا بالمدينة المنورة وبها تعلموا وذاعت شهرتهم .. ثم هاجروا جميعا إلى بغداد والكوفة حيث مقر الخلفاء العباسيين ، ولد محمد بن اسحاق بن يسار سنة نيف وثمانين للهجرة بالمدينة ، تلقى ابن اسحاق العلم فى المدينة عن بعض أبناء الصحابة مثل أبان بن عثمان ومحمد بن أبى بكر ومحمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب إضافة إلى الزهرى ، ويعد كتاب «المغازى» أهم مؤلفات ابن اسحاق ، وقد ضمن ابن اسحاق كتابه هذا ما جمعه من أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأخبار بعثته ومغازيه ، ويرى أحمد أمين أن أهم ما جاء به ابن اسحاق هو «جمع الأحاديث وترتيبها وتبويبها وسلسلتها » ، وقد اختلف العلماء فى كل من المدينة والعراق فى ابن اسحاق ، يقول الذهبى نقلا عن أحمد بن زهير وابن مهدى : « كان يحيى بن سعيد الأنصارى ومالك يجرحان محمد بن إسحاق » ، بينما ينقل الذهبى عن يونس بن بكير قوله: « سمعت شعبه يقول : ابن اسحاق أمير المؤمنين فى الحديث » ، ثم يجمل الذهبى رأيه فى ابن اسحاق بقوله : «الذى استقر عليه الأمر أن ابن اسحاق صالح الحديث وأنه فى المغازى أقوى منه فى الأحكام» ، وقد توفى ابن اسحاق ببغداد سنة ١٥٢ هـ .

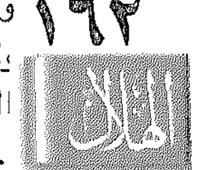
حينما توفى ابن اسحاق .... كان محمد بن عمر بن واقد الواقدىّ قد أتم العام الثانى والعشرين من عمره فى المدينة حيث ولد وعاش ، تلقى الواقدى العلم من بعض شيوخ المدينة مثل عمر بن راشد ومالك ابن أنس وسفيان الثورى ، ولكنه أخذ الكثير عن المغازى والتاريخ من أبى معشر السِّندى ، رحل الواقدى إلى العراق فى عام ١٨٠ هـ بناء على طلب الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، ليستقر هناك ويجدّ فى طلب العلم والتأليف ، حتى ولى القضاء فى خلافة المأمون وظل



يعمل به حتي وافته المنية ببغداد فى نهاية سنة ٢٠٧ هـ ، قال عباسى الدورى : «مات الواقدى وهو على القضاء وليس له كفن .. فبعث المأمون بأكفانه» ، انصب اهتمام الواقدىّ على المغازى وتاريخ الإسلام ، وقد أجمل منهجه فى ذلك بقوله : « ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا وسألته ، هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمنى مضيت إلى الموضع فأعاينه»، وهذا هو نص ما نقله أحمد أمين عن الخطيب البغدادى (٣٩٢ - ٤٦٣هـ) من كتابه «تاريخ بغداد » ، فأثمر ذلك كتبا كثيرة أحصاها ابن النديم للواقدى فى كتابه «الفهرست» منها : «المغازى» «التاريخ الكبير» وكتاب «الطبقات» ، وتتضح ريادة الواقدىّ ومنهجية فكره من اتباعه ترتيب التاريخ طبقا لتسلسل السنوات فى كتابه «التاريخ الكبير» ، ومن ابتكاره فكرة الترجمة للصحابة والتابعين فى طبقات بكتابه «الطبقات» ، وليس هناك ماهو أدل على ريادة الواقدىّ من أن كتبه - وبالرغم من خلاف البعض حوله كالعادة - كانت مصدرا لاقتباسات العديد من لاحقيه من المؤرخين مثل ابن كثير والمسعودى والسيوطى وابن حبيش وابن جرير الطبرى .. وتلميذ الواقدىّ محمد بن سعد مؤلف كتابنا هذا .

محمد بن سعد

ولد أبو عبدالله بن سعد فى البصرة سنة ١٦٨هـ لأسرة من الموالى تدين بعتقها للحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن العباس بن عبدالمطلب ، تنقل ابن سعد بين الكوفة ومكة طلبا للعلم ، ثم استقر به المقام ببغداد حيث اتصل بأستاذه الواقدىّ ، تصدى ابن سعد للتدريس فى حلقة دراسية ببغداد - بعد رحيل الواقدىّ - ضمت العديد من الشباب المشتغل بالعلم ومنهم المؤرخ المعروف أحمد بن يحيى البلاذرىّ صاحب كتاب «فتوح البلدان» ، لم يعرف عن ابن سعد الاشتغال بأى عمل إدارى فى الدولة العباسية ، وإنما عرف بأنه «كثير العلم .. كثير الحديث .. كثير الكتب» كما حدث عنه الحسين بن فهم ، ومن كتبه التى حفظت لنا كتب التراث أسماءها : كتاب «الطبقات الكبير» الذى عرف أيضا باسم «الطبقات الكبرى» وكتاب «الطبقات الصغير» ، وقد روى عن ابن سعد الكثيرون مثل : أحمد بن يحيى البلاذرىّ - أبو بكر بن أبى الدنيا - الحسين بن محمد بن فهم والحارث بن أسامة وآخرون، ويعد ابن سعد موضع ثقة جمهور لاحقيه من كتاب ومؤرخين ، وذلك لما أثر عنه من صدق وحيدة ولما اتسمت به كتاباته من موضوعية وترفع عن زخرف القول وغثه ، وهو ما وشت به كتب التاريخ وتراجم الإعلام بما جاء عنه فيها ، إذ تنتشر ترجمة ابن سعد فى كل الكتب التى اهتمت بالتاريخ والمؤرخين منذ وفاته وحتى عصرنا الحالى ، فبين ترجمة الخطيب



البغدادي (ت ١٠٧٢ م) له في كتابه «تاريخ بغداد» وحتى ترجمة أحمد أمين (ت ١٩٥٤م) له في كتابه «ضحى الإسلام»... تنتشر العديد من التراجم له في كتب التاريخ والتراجم، مثل تلك الترجمة الضافية التي أوردها المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ) في كتابه «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»، وليس ببعيد عن ترجمة الذهبي لابن سعد .. الترجمة الأخرى التي ضمنها الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠٥ - ٧٧٤هـ) كتابه «البداية والنهاية»، وبعد ذلك وقبله .. عديد من التراجم الأخرى التي جاءت تعبيرا عن مكانة ابن سعد بين المؤرخين وكتاب السيرة، وقد لقي ابن سعد وجه ربه ببغداد في يوم الأحد الرابع من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ .

محتوى الكتاب

يقع كتاب «الطبقات الكبير» المعروف باسم «الطبقات الكبرى» في ثمانية أجزاء، أفرد ابن سعد الجزء الأول والشطر الأكبر من الجزء الثاني لسيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وألحق بالجزء الثاني في ختامه فصلا عن «من كان يفتي بالمدينة من الصحابة على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-»، افتتح ابن سعد الجزء الأول بفصل تحدث فيه عن الأنبياء السابقين وأنسابهم، ثم أتبع ذلك بالحديث عن نسب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وتاريخ أسرته، وفيما تبقى من القسم الأول من الجزء الأول يقص علينا ابن سعد أحداث حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، منذ ميلاده ومرورا بمبعثه وانتهاء بهجرته إلى المدينة، وفي القسم الثاني من الجزء الأول يؤرخ ابن سعد لحياة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، في المدينة، فيصف مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومنزله وملابسه وأسلحته ودقائق حياته حتى البئار (جمع بئر كما استخدمها ابن سعد) التي شرب منها -صلى الله عليه وسلم-، ويتحدث ابن سعد في هذا القسم أيضا عن وفود العرب التي قدمت إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، في المدينة، ثم يكمل ابن سعد سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بالحديث عن غزواته ومرضه ووفاته في القسم الأول ومعظم القسم الثاني من الجزء الثاني، وابن سعد في كل ذلك يهتم بالدقائق والتفاصيل التي جعلت باحثا مثل الدكتور/ عوني عبدالرءوف - مترجم الشروح والتعليقات والمقدمات التي وضعت للكتاب باللغة الألمانية - يقول عنه: «حتى ليمكن أن نعد هذين الجزعين كتابا قائما بذاته».

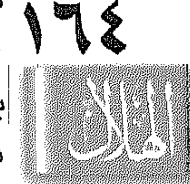
يفرد ابن سعد الجزء الثالث بتسمية لمن شهد بدرا من المسلمين، فيترجم لشهود بدر من المكيين في القسم الأول من هذا الجزء، وعددهم ستة وثمانون من المهاجرين وأولهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم يتبعهم بتراجم المدنيين من شهود بدر في القسم الثاني والذين يبلغ تعدادهم مائتين وتسعة وأربعين من الأنصار، بينما يقدم ابن سعد في القسم الأول من الجزء الرابع تراجم للطبقة



الثانية من المهاجرين والأنصار ممن لم يشهدوا بدرا وقد بلغت عدتهم تسعة وتسعين صحابيا ، وهم الذين هاجر معظمهم إلى الحبشة وشهدوا موقعة أحد وما بعدها من المشاهد ، وأما فى القسم الثانى من الجزء الرابع .. فإن ابن سعد يترجم للصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وقد بلغ عددهم مائة وثلاثة وأربعين صحابيا .

ينتقل ابن سعد فى الجزء الخامس إلى تراجم أعلام الطبقات من الأولى إلى السابعة من أهل المدينة التابعين ، وهم الذين روى البعض منهم عن عثمان وعلى وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد وأبى بن كعب وغيرهم ، وقد أحصى ابن سعد فى هذه الطبقات عدد أربعمائة وسبعة وسبعين مدنيا ، ثم يتبعهم بطبقات أهل مكة ممن روى عن عمر بن الخطاب وغيره وعددها خمس طبقات ضمت مائة واثنين وثلاثين مكيا ، ثم يقسم ابن سعد أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ممن نزلوا بالأمصار المختلفة إلى طبقات تبعا لبعد هذه الأمصار عن مكة ، فيبدأ بتسمية طبقتى صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، والفقهاء والمحدثين ممن نزلوا بالطائف وعددهم أربعة وثلاثون صحابيا وواحد وعشرون فقيها ومحدثا ، ويتبعهم بتسمية من نزل باليمن من صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وطبقات المحدثين باليمن ، وعددهم سبعة وعشرون صحابيا وأربع طبقات من المحدثين ضمت أربعة وثلاثين من المحدثين ، ويكرر ابن سعد الأمر نفسه مع من نزل باليمامة من الصحابة ومن كان بها من الفقهاء وعددهم ستة من الصحابة وثلاثة عشر فقيها ومحدثا ، ويختتم ابن سعد هذا الجزء بتسمية من نزل بالبحرين من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وقد بلغ عددهم خمسة وعشرين صحابيا ، وبذلك يبلغ إجمالى من نزل بهذه الأمصار من الصحابة والفقهاء اثنين وتسعين صحابيا بالإضافة إلى ثمانية وستين فقيها ومحدثا .

يخصص ابن سعد الجزء السادس من الكتاب لطبقات الكوفيين ، وهم من نزل بالكوفة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ومن كان بها بعدهم من التابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم ، فيبدأ ابن سعد بذكر من نزل بالكوفة من الصحابة وعددهم مائة وتسعة وأربعون صحابيا وأولهم على بن أبى طالب - رضى الله عنه -، ثم يرتب ابن سعد أهل الكوفة ممن نقلوا الأحاديث عن خلفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وكبار الصحابة بعد ذلك فى تسع طبقات تبعا لمكانة وعدد من نقلوا عنهم من الصحابة ، وقد بلغت عدتهم ثمانى مائة وسبعة وخمسين كوفيا ، ولعل هذا العدد الكبير يرجع إلى إقامة ابن سعد بالعراق قريبا من موطنهم .. مما أتاح له أسباب تقصّى ذلك العدد من مصادره الحقيقية .



يتحدث ابن سعد فى القسم الأول من الجزء السابع عمن نزل البصرة من الصحابة وعدتهم مائة وخمسون صحابيا، ثم يواصل حديثه فيما تبقى من القسم الأول عن الفقهاء والمحدثين والتابعين من أهل البصرة ، فيصنفهم فى طبقتين .. الأولى وهى التى تضم أصحاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه - أو من روى عنه وكان عددهم اثنين وخمسين فقيها ومحدثا، وأما الطبقة الثانية فقد تحدث فيها ابن سعد عمن روى من المحدثين عن عثمان وعلى وطلحة والزبير وأبىّ بن كعب وأبى موسى الأشعرى وغيرهم وأحصى منهم مائة وأحد عشر محدثا ، وأما فى القسم الثانى من الجزء السابع .. فإن ابن سعد يرتب أعلام المحدثين ممن نزلوا بالبصرة فى الطبقات من الثالثة إلى الثامنة ، وقد بلغت عدتهم مائتين وسبعين محدثا ، ثم يختتم ابن سعد القسم الثانى بتسمية من نزل مدن العراق وغيرها من مدن الأمصار التى عرفت الإسلام فى مطلع القرن الثانى للهجرة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، والفقهاء والمحدثين ، وقد أحصى ابن سعد منهم خمسة وتسعين صحابيا وسبعة وخمسين فقيها ومحدثا .

يختتم ابن سعد عمله الموسوعى الرائد هذا بالجزء الثامن الذى أفرده لتراجم «النساء المسلمات والمهاجرات من قريش والأنصاريات المبايعات وغرائب نساء العرب وغيرهن» وذلك بنص تقديمه ، ويناقش المستشرق المعروف كارل بروكلمان - محقق الجزء الثامن - أسباب إفراد ابن سعد الجزء الأخير من كتابه للنساء وذلك فى مقدمة التحقيقات والشروح لهذا الجزء ، فيقول : « فالمؤلف إنما يهتم بالنساء فى المقام الأول باعتبار أنهن شاهدات على الحديث ، ويلزم لصحة الحكم على الرواة وتعديلهم أو تجريحهم ضرورة معرفة أحوالهم المعيشية ، لذلك جمع كل ما يمكن أن يتصل بهذا ، ولذا ينقل لنا الكثير من الأخبار التاريخية القيمة ، وقد اهتم بصفة خاصة بالأخبار الثقافية التاريخية طبقا لما يمليه عليه وضع المرأة المفروض فى الإسلام ، ويعتبر هذا الكتاب مصدرا خصبا لمعرفة الحياة المنزلية آنذاك » .

تجىء ترجمة السيدة خديجة - رضوان الله عليها- فى مقدمة تراجم النساء ، ثم يتبعها ابن سعد بتراجم بنات النبى - صلى الله عليه وسلم -، ومن بعدهن عماته وبنات عمه صلى الله عليه وسلم ، ، يلى ذلك ذكر أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم- ، ومن خطب من النساء ولم يتم زواجه منهن، ومن وهبت نفسها من النساء للنبى - صلى الله عليه وسلم -، بعد ذلك يترجم ابن سعد للمهاجرات من قريش والمهاجرات من غير قريش والأنصاريات المبايعات ، ويرتب ابن سعد الأنصاريات المسلمات المبايعات فى طبقات، تضم الطبقة الواحدة النساء من كل حىّ من أحياء الأنصار ، وقد بلغ عدد من ترجم لهن ابن سعد فى طبقات بنات النبى - صلى الله عليه وسلم -، وعماته وبنات عمه وزوجاته والمهاجرات والأنصاريات خمسمائة وتسعا وعشرين مسلمة ، ثم ينهى ابن سعد الجزء الثامن

والكتاب بتراجم النساء اللواتى لم يروين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وروين عن أزواجه وغيرهن وعددهن أربعة وتسعون سيدة من بينهن بعض حفيدات الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل أم كلثوم وزينب ابنتى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، إن هذا العدد من تراجم النساء يجعل مجموع ما قدم ابن سعد من تراجم فى «الطبقات الكبرى» لأعلام الإسلام يبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشر ترجمات .

منهج ابن سعد

لا يمكن لمدقق أن يعد «الطبقات الكبرى» - بأى حال - واحداً من كتب تراجم الأعلام.. ولا واحداً من كتب المغازى أو الفقه، ولكن الانصاف يقتضى أن يعد المرء هذا الكتاب موسوعة تاريخية جمعت من تلك الصنوف من الكتب كل طيب ومبتكر، إن مصداق ذلك يأتى فى مقولة فضيلة الشيخ / حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر التى وصف بها الكتاب فى مقدمة طبعة «دار التحرير» التى بدأ صدورها فى الرابع من شهر رمضان سنة ١٣٨٨ هـ (الموافق ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٨م)، يقول الشيخ / حسن مأمون: «وطبقات ابن سعد ليست تاريخاً فقط لحياة - رسول الله صلى الله عليه وسلم - وللقرنين الأولين من تاريخ الإسلام، إنما هى فوق ذلك كله سجل حافل بالأحاديث النبوية والأحكام الفقهية وكثير من الأمور الاجتماعية المتعلقة بالبيت والسوق والمهن والتجارة وشتى الثقافات» ، إن ما أكسب «الطبقات الكبرى» هذه الخصائص هو ما أنتهجه ابن سعد من أسلوب فى كتابته.

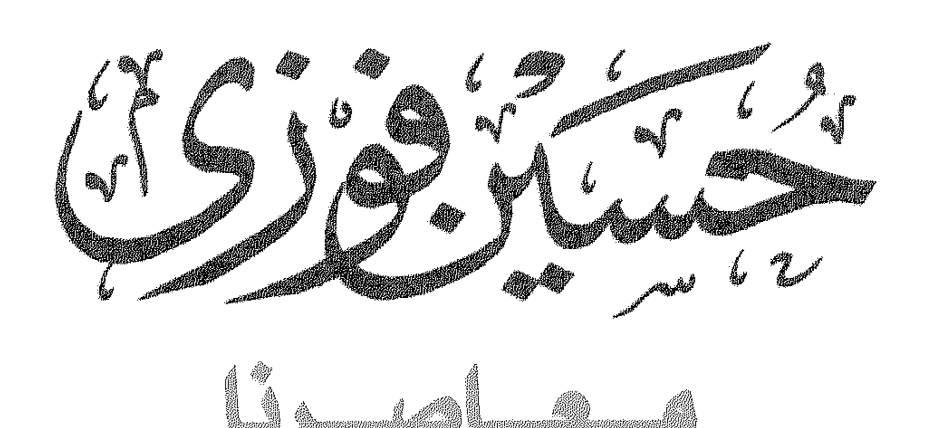
يُفصّل المستشرق إدوارد ساخاو منهج ابن سعد فى «الطبقات الكبرى» فى ثنايا مقالته التى حملت عنوان «تطور الرواية التاريخية عند العرب ومنزلة ابن سعد من ذلك» وصدّر بها تحقيقات وشروح الجزء الثالث من الكتاب، يقول ساخاو عن منهج ابن سعد فى الترجمة لأعلام الكتاب: «ويبدأ (أى ابن سعد) كل ترجمة بتحقيق نسب المحارب، متحدثاً عن نسب أبيه ونسب أمه متتبعاً سلسلة هذه الأنساب إلى أجيال عديدة، ثم ينتقل إلى الحديث عن أولاده وأمهاتهم، متحدثاً عن نسب هؤلاء الأمهات أيضاً» ، ثم «يستطرد ابن سعد بعد ذلك متحدثاً عن سلالة الصحابى المحارب وعن تاريخها وعما إذا كانت ذريته بقيت بالمدينة أو رحلت عنها متخذة لها من أى مكان آخر بالدولة الإسلامية موطناً» ، ويعزو ساخاو سلاسل الأنساب الكثيرة عند ابن سعد إلى أنه أخذها من رواية هشام عما خلفه له أبوه من كتب، ويضيف ساخاو بعد ذلك: «وفى النهاية يصف ابن سعد نهاية الصحابى، متحدثاً عن كيفية الوفاة وسببها وزمانها ومكانها» تلك هى الخطوط العريضة - كما استشفها - ساخاو من الكتاب - لمنهج ابن سعد فى الترجمة لأعلام كتابه،

والتى كانت تختلف من علم إلى آخر طبقاً لما أتيح لابن سعد من أخباره، ولقد نهج ابن سعد فى تتابع ترجمته لأعلام كتابه ما اختطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من ترتيب فى الديوان الذى أنشأه ودون فيه أسماء المستحقين من المسلمين، وأن قارئ الكتاب ليتفق مع ما أسف له ساخاو من أن ابن سعد لم يخرج كثيراً عما استنه لنفسه وكتابه من منهج، وهو ما يستطيع أن يلمسه المدقق فى إيجاز المادة التى حواها الكتاب عن بعض الأحداث التاريخية المهمة مثل الحروب التى نشبت فى عهدى أبى بكر وعمر.

كتيبة من المحققين

إن كتاباً مثل «الطبقات الكبرى» لم يكن ليصل إلينا فى صورته الحالية.. لولا الجهد الكبير الذى بذله إدوارد ساخاو (١٨٤٥ - ١٩٣٠م) الأستاذ بجامعة برلين ومعه تلامذة مدرسته العلمية الذين تتلمذوا على يده بمعهد الاستشراق ببرلين، قام ساخاو بتحقيق بعض القسم الثانى من الجزء الأول والقسم الأول من الجزء الثالث والقسم الثانى من الجزء السابع، كما قام أيضاً بوضع فهارس الكتاب التى صدرت فى جزء تاسع، تصدى أويجن متفوخ (١٨٧٦ - ١٩٣٢م) لتحقيق القسم الأول من الجزء الأول.. كما حقق الملازم الست الأولى من الجزء الثانى، وقد نهض يوسف هوروفتس (١٨٧٤ - ١٩٣١م) لتحقيق القسم الأول من الجزء الثانى والقسم الثانى من الجزء الثالث، بينما قام فريدريش شفاللى (١٨٦٣ - ١٩١٩م) بتحقيق القسم الثانى من الجزء الثانى، أما يوليوس ليبرت (١٨٦٦ - ١٩١١)... فإنه قام بتحقيق الجزء الرابع من الكتاب، وكان تحقيق القسم الأول من الجزء السابع من نصيب برونو ميسنر (١٨٦٨ - ١٩٤٧م)، وكما تم التنويه عنه قبل ذلك.. فإن كارل بروكلمان (١٨٦٨ - ١٩٥٦م) كان هو محقق الجزء الثامن، لكن الجهد الأكبر فى عملية التحقيق هذه.. كان من نصيب كارل فيلهلم تسترستين (-) الذى نهض بتحقيق الجزءين الخامس والسادس، ولقد اعتمدت كتيبة المحققين هذه على خمس مخطوطات للكتاب كانت موجودة بمكتبات: القاضى ولىّ الدين جار الله أفندى باسطنبول - الملكية فى جوتا - الملكية ببرلين والدار الهندية بلندن، ومن ثم فإن إصدار الكتاب بأجزائه الثمانية استغرق الأعوام منذ ١٩٠٤م وحتى ١٩١٨م، ثم انصرمت عشرة أعوام أخرى حتى اكتمل صدور جزء الفهارس، إذ صدر القسم الأول من جزء الفهارس فى عام ١٩٢٠م، بينما صدر القسم الثانى بعد الأول بثمانى سنوات وذلك فى عام ١٩٢٨م، وليكتمل بذلك بين أيدى أجيال المسلمين القادمة على مر الزمان - ومنذ هذا التاريخ - واحد من أهم كتب تراثهم على مر عصور حضارتهم. ■

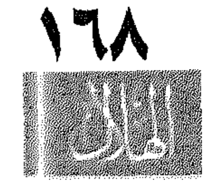
الدكتور



معاصرنا

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

لماذا أدعو الدكتور حسين فوزى المولود فى ٢١ يوليو ١٩٠٠ والمتوفى فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ معاصرنا؟ فى ذهنى، جزئياً، عنوان كتاب للناقد البولندى يان كوت عنوانه «شكسبير: معاصرنا» Shake-speare our Contemporary وفيه سعى إلى إقامة وشائج بين خبرة كاتب القرن السادس عشر وخبرة إنسان القرن العشرين، فرأى فى مسرحية «الملك لير» استباقاً لتجارب العبث عند بكيت وغيره. رآها هزلية ميتافيزيقية، إن جاز التعبير، وحسين فوزى - الذى قرأ شكسبير وعرفه - كان أيضاً من أبناء عصر النهضة الأوروبية، بل هو محدر أصيل من تلك السلالة التى جعلت من المنظور الهيومانى وسيلتها إلى استكشاف العالم الداخلى والعالم الخارجى على السواء، جمع فى شخصه بين طبيب العيون وعالم الأحياء المائية والقاص والناقد والرحالة ومتذوق الموسيقى والفن التشكيلى والباليه، وكان إدارياً قديراً كما كان فناناً متوحداً يلوذ فى آخر اليوم، بعد نهار حافل بالصراعات مع أقرانه من الرجال، بسكون غرفته حيث يلتمس فى الموسيقى أو الأدب أو مستنسخات الفن التشكيلى ما يزيل عن روحه أوضار السعى فى مناكب الدنيا، ويسكب فى أعماقه ذلك الصفاء الداخلى الذى لا يعرفه غير عشاق الفنون.





إننا حين نحتفل بذكرى حسين فوزى لا نحتفل بقطعة متخفية غدت جزءاً من الماضى الغابر أو حتى القريب، وإنما نحتفل بفلذة حية من لحم الواقع، واقعنا بكل همومه وأفراحه وأتراحه. مازالت مشكلاته - مشكلات المثقف داعية التنوير - هى مشكلاتنا، ومازالت انشغالاته هى انشغالاتنا، ومازالت الحلول التى قدمها، والذى أخفق فى تقديمها على السواء، تناوش وعينا فى عبث قاس وإصرار عنيد لا يتوقف، ولكنه لذيذ رغم ذلك، لأنه دليل حيوية وحياة. وأى قيمة لحياة قد خلت من المشاكل والصعوبات؟

كان حسين فوزى ثرى النفس، متعدد الجوانب وكأنه أحد رجال عصر النهضة الأوروبية الذى عشقه وكتب عنه، فهو، أصلاً، متخصص فى طب العيون وفى علوم البحار والأحياء المائية. وهو الرحالة الأبدى الذى كتب «سندباد مصرى» و«حديث السندباد القديم» و«سندباد إلى العالم الجديد» و«سندباد إلى الغرب» و«سندباد فى رحلة الحياة» و«سندباد عصرى يعود إلى الهند» وكلها نماذج فريدة من أدب الرحلات الذى يحوى علماً وفنارا وتعليماً وتسلية، وجداً ولهواً. ثم هو عاشق الموسيقى الكلاسيكية (شأنه فى ذلك شأن الحكيم وحسن محمود ويحيى حقى ولويس عوض من أبناء جيله، وفؤاد زكريا فى جيل تال) الذى ظل سنوات طويلة يتولى روائعها بالشرح والتقديم على موجة البرنامج الثانى (البرنامج الثقافى الآن) بالإذاعة، مما تجد له أثرا فى كتابيه «الموسيقى السيمفونية» و«بيتهوفن». وهو المتعبد فى محراب الثقافة الغربية (دون أن يفقد طابعه المصرى الأصيل - ولد فى درب الوطايط بحى الحسين) صاحب الكتاب الصغير الجميل «سان جوست ملاك الإرهاب» عن عصر الثورة الفرنسية وكتاب «تأملات فى عصر الرينسانس» الذى صدر له قرب نهاية حياته (من غرائب المصادفة أن يختم لويس عوض أيضاً حياته بكتابين فى نفس هذه الموضوعات: «الثورة الفرنسية» و«ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوربية». ترى أى دلالة لهذا؟ أو تراه كان رد فعل ضد موجات السلفية والظلامية التى رآها هذان المفكران - ببصيرتهما الثاقبة - تزحف على حياتنا الثقافية لكى تقوض كل ما بناه رواد الفكر الهيومانى، شرقاً وغرباً، منذ القرن الخامس عشر، وكل ما سعى رفاعة الطهطاوى وطه حسين والعقاد وسلامة موسى والمازنى وهيكل وأمين الخولى إلى إقامته منذ أواخر القرن التاسع عشر؟).

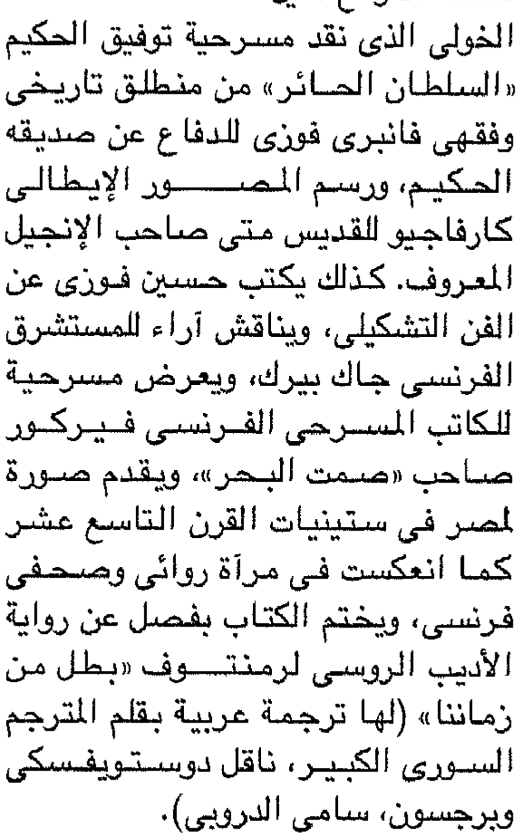
مما يذكر فيشكر للمجلس الأعلى للثقافة ولجنة الموسيقى والباليه بالمجلس تحت قيادة الدكتورة سمحة الخولى أن المجلس أصدر منذ عهد قريب كتابا للدكتور حسين فوزى عنوانه «فى براح الفكر: اثنتان وثلاثون سندبادية» حررها وأشرف على إصدارها الأستاذ إبراهيم عبدالعزيز، وكتاب «فى براح الفكر» (يذكرنى العنوان بأقصوصة رائعة

للقاصة المجددة اعتدال عثمان عنوانها «وقفت فى ثقب والدنيا براح) يتألف من مقالات نشرت فى صحيفة «الأهرام» خلال عقد الستينيات. وللكتاب - صدق أو لا تصدق! - مقدمة من خمس صفحات لنجيب محفوظ العظيم يروى فيها ذكرياته عن حسين فوزى منذ عمل بمصلحة الفنون مع يحيى حقى ثم مع توفيق الحكيم وفوزى فى مبنى الأهرام (كيف تسنى لإبراهيم عبدالعزيز أن يستل هذه المقدمة من بين براثن الأسد العجوز المعروف بكراهيته كتابة المقدمات وعزوفه عن إصدار الأحكام النقدية على أحد؟). تلى ذلك مقدمة طويلة لإبراهيم عبدالعزيز، ورسائل من فوزى إلى طه حسين والحكيم. ويبدأ إبراهيم عبدالعزيز مقدمته بقوله: «جنت السياسة على د. حسين فوزى فى أخريات حياته الأدبية والفكرية والعلمية الحافلة فصار مجهول الفضل والذكرى». والإشارة - بطبيعة الحال - إلى تأييد حسين فوزى (ومعه الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض، ثم لطفى الخولى فى فترة لاحقة) مبادرة السادات وزيارة القدس، وزيارة فوزى لإسرائيل وحصوله على الدكتوراه الفخرية من إحدى جامعاتها، مما أخذه عليه كثيرون. وهنا أقول، دون ترقيق من حواشى الكلم: ليس فى هذا الموقف ما يعيب حسين فوزى، وليس لأحد أن يزايد على وطنيته وهو المصرى العريق المغروس حتى النخاع فى تاريخه وقوميته، فقد كانت اللحظة التاريخية آنذاك تبرر ذلك، وقد لاح وقتها أن السلام بين الجارين المتعاديين صار قاب قوسين أو أدنى، ورأى فوزى (وأحسبه فى هذا على صواب) أن التبادل الثقافى بين مصر وإسرائيل خليق أن يكسر كثيراً من الحواجز النفسية بين الشعبين، وأن يمحو قسماً ليس بالقليل من مزارة الماضى، وأن هناك رقعة من الإنسانية المشتركة (تتجسد فى الفن والعلم والأدب) يمكن أن تجمع بين الثقافة العربية والثقافة العبرية. ليس إذن، لدى حسين فوزى ما يخجل منه، ولا يحتاج إلى اعتذار. لقد كان وطنياً مخلصاً، ومفكراً شجاعاً مستقلاً، وفناناً هيومانى النزعة رحب النظرة يعلى من القيم الإنسانية العليا ويراها أبقى من صراع القوميات وتقلبات السياسة.

وفى الكتاب الذى وضعه إبراهيم عبدالعزيز بين أيدينا (وقد أعده صاحبه للمطبعة فى باريس فى ١٣ سبتمبر ١٩٨٢) نرى خصائص حسين فوزى كاتباً ومفكراً وفناناً كما عهدناها فى أعمال له سابقة، ولكنها هنا قد استحصدت واستوت على سوقها: إنه الجوّال الأبدى فى حقول المعرفة، كاره الابتذال والدمامة، الجامع بين خير ما فى حضارة الغرب وتراث الشرق. إنه يروى حواراً له مع صديقه توفيق الحكيم، ويكتب عن سلاح الفكر وكيف كان من أمضى أسلحة الثورة الفرنسية، وعن الفنان المصرى القديم، وعن تأنيس عاصمة الرعامسة والمسلات، وعمارة حسن فتحى، ومعنى التقدم والتخلف، وقصة هاروت وماروت، وفن القصة، ومقابلة أجراها نيلز دالجرن مع الروائى الأمريكى فوكنر قبيل وفاة هذا الأخير فى ١٩٦٢، وألبرت شفايتزر الطبيب الفيلسوف محب الإنسانية، واينشتاين،



و«حوار الموتى» للكاتب الاغريقي لوقيانوس أو لوسيان. وثمة مساجلات مع أحمد الصاوى محمد ومع أمين الخولى الذى نقد مسرحية توفيق الحكيم «السلطان الحائر» من منطلق تاريخى وفقهى فانبرى فوزى للدفاع عن صديقه الحكيم، ورسم المصور الإيطالى كارفاجيو للقديس متى صاحب الإنجيل المعروف. كذلك يكتب حسين فوزى عن الفن التشكيلى، ويناقش آراء للمستشرق الفرنسى جاك بيرك، ويعرض مسرحية للكاتب المسرحى الفرنسى فيركور صاحب «صمت البحر»، ويقدم صورة لمصر فى ستينيات القرن التاسع عشر كما انعكست فى مرآة روائى وصحفى فرنسى، ويختم الكتاب بفصل عن رواية الأديب الروسى لرمنتوف «بطل من زماننا» (لها ترجمة عربية بقلم المترجم السورى الكبير، ناقل دوستويفسكى وبرجسون، سامى الدروبى).



يتكامل هذا الكتاب وكتب حسين فوزى السابقة، كما ينبغى أن يقرأ جنباً إلى جنب مع مقابلتين أجريتا معه فى حياته: إحداهما أجراها فؤاد دوارة فى كتابه «عشرة أدباء يتحدثون» (كتاب الهلال، يوليه ١٩٦٥) والأخرى لعبد العال الحمامصى، صاحب المجموعة القصصية الممتازة «بئر الأحباش»، فى كتابه «هؤلاء يقولون فى السياسة والأدب» (كتاب الهلال، مارس ١٩٧٦)، الكتاب تذكرة، جاءت فى وقتها، بما تدين به حياتنا الثقافية لهذا المثقف الكبير الذى تولى عدة مناصب قيادية فى الحياة الجامعية والثقافية، وكان من أوائل من فتحوا أعيننا على ثقافة الغرب الرفيعة وآدابه وفنونه التشكيلية وموسيقاه. ثم كان - كما أوضح يحى حقى فى كتابه الصغير بالغ الأهمية «فجر القصة المصرية» - من أعلام «المدرسة الحديثة» التى خطت بالفن القصصى المصرى خطوات واسعة نحو النضج فى العقود الأولى من القرن العشرين، وكان لحسين فوزى ذاته مساهمات إبداعية مسرحية وقصصية أذكر منها أقصوصته المسماة «السبع الحلاوة» وقد عرفنى بها الصديق الشاعر الكبير فاروق شوشة منذ قرابة أربعين عاماً.

دعوة لجمع تراثه

أريد هنا أن أحيى المجلس الأعلى للثقافة الذى يحرص - بقيادة الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور - على استنقاذ صفحات مطوية من تراثنا الأدبى لعبدالرحمن شكرى ومحمود البدوى وحسين فوزى وغيرهم، وأتمنى على إبراهيم عبدالعزيز الذى أصدر حديثاً كتابا عن أساتذة نجيب محفوظ: طه حسين والعقاد وسلامة موسى وحقى والحكيم وغيرهم) أن يستكمل العمل الذى بدأه هنا بجمع مقالات حسين فوزى التى كان ينشرها على هيئة افتتاحيات لمجلة «المجلة»، سجل الثقافة الرفيعة، إبان توليه رئاسة تحريرها فى الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٩ حيث أن هذه الافتتاحيات - التى كانت تحمل عنوان «الحق أقول لكم» - لم تجمع بعد

بين دفتي كتاب. إنها تتضمن كتابات في موضوعات مختلفة أذكر لكم أغلبها هنا دون ترتيب: ذكـريات عن المدرسـة السعيدية الثانوية وفكرى أباظة، حكاية عن المخرج الإيطالى فيتوريو دى سيكا، نبذة عن الموسوعة الكبرى لديدرو، الموسيقى الأندلسية، المخرج السوفييتى سيرجى آيزنشتاين، التجربة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى والصين، تأملات فى أوجه الشبه والاختلاف بين مصر وأوروبا، الأزهر، فتحى رضوان، أسفار حسين فوزى إلى موسكو والمجر، بيللا بارتوك الموسيقى المجرى، آفات السينما المصرية والغناء المصرى، سلامة موسى، رواية «صوناتة إلى كرويتزر» لتولستوى، قصة «ياجوج وماجوج» للكتاب الإيطالى جيوفانى بابينى، رحيل السيدة روز اليوسف عن عالمنا، فيلم «عصيان على السفينة باونتى»، توفيق الحكيم وما أثير عن تأثره بديوان «بلاتيرو وأنا» للشاعر الإسبانى خيمينث، مسرحيتا «رجل الأقدار» لبرنارد شو و«المومس الفاضلة» لسارتر على خشبة المسرح القومى، يوحنا سباستيان باخ، رأى الجاحظ فى قضية العامية والفصحى، تدوين تراثنا الموسيقى بالنوتة، كتاب جوردون كريج «الفن المسرحى» وكتاب ستانسلافسكى الذى يحمل نفس العنوان، أبو بكر خيرت، المتحف المصرى، سيد درويش، الموسيقى الفنلندى جان سيبليوس، زيارة الخليفة المأمون لمصر عام ٨٣٢ ميلادية، تاريخ الجبرتى، قصيدة من الأدب المصرى القديم، قضية «الدكتور جيفاجو» لباسترناك، على إبراهيم أستاذ الجراحة وعلى مشرفة عالم الرياضيات، مسرحية ثورة الموتى لاروين شو، قصيدة لبيرون، مشروع إصدار دائرة معارف عربية، مقتطفات من كتابى «قبل الفلسفة» لهنرى فرانكفورت و«تاريخ المجتمع الأوربى فيما قبل التاريخ» لجوردون تشايلد، إلى آخر هذه السندباديات المطوفة بكل أفق، الضاربة فى كل واد.

من أدب الأمناء

أود أيضا أن أقدم نموذجاً من أدب حسين فوزى الرفيع، كلمة قصيرة كتبها تحية لمجلة «الأدب» التى كان يصدرها الأستاذ أمين الخولى رائد جماعة «الأمناء» وقد حدثنى الشاعر الناقد الدكتور عبدالعزيز شرف نائب رئيس تحرير «الأهرام»، أنه ينوى إعادة إصدارها كاملة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، مثلما أعاد إصدار مجلات «الكاتب المصرى» و«أبولو» و«الزهور». يقول حسين فوزى فى افتتاحية مجلة «المجلة» (عدد يونيه ١٩٥٨) تحت عنوان «أدب الأمناء»:

«إذا أردت أن تعرف القيمة الحقيقية لشىء ما، أو أن تزن بميزان حساس مقدار صداقتك لإنسان، فما عليك إلا أن تحساب نفسك: ماذا تكون حالك لو اختفى هذا الإنسان، أو زال هذا الشىء من حياتك؟

لبثنا أعواماً نسخر من مجلتى «الثقافة» و«الرسالة» وننعى عليهما التقاعس، والانحدار عن المستويات الفكرية التى بلغتها الواحدة تلو الأخرى فى أول نشأتها، فلما اختفتا من الميدان أحسسنا بفراغ مؤلم، ولو أن بعضنا، والشباب منا على وجه التخصيص،

شيعوهما بما يشبه صراخ الهنود الحمر فى المعركة، وقال بعض آخر: إنهما لم تستطيعا العيش لأن حياتنا المعاصرة لا تسمح لهذا النوع من المجلات أن يعيش.

وأسائل نفسى وأنا أطالع العدد الأول من السنة الثالثة لمجلة «الأدب»: ماذا يحدث لو اختفت المجلة التى يصدرها الأمناء؟

وسأجيب عن نفسى :

أولاً : أفقد مجلة تكتب بلغة أطمئن إلى صحتها .

ولا تعجب من هذا التصريح الساذج، فإنك لا تتصور كيف تفسد لغتك ولغتى فى حياتنا اليومية، على أيدى الصحف والمجلات والمكاتبات الحكومية، والإعلانات فى السينما، وفوق الجدران، ولغة بعض الإذاعيين.

لقد نسيت قواعد النحو والصرف والبيان والبديع، ولكن مطالعتى العربية فى كتب القدماء والمحدثين من أئمة اللغة، واستماعى لتلاوة القرآن، وأحاديث المجودين ومحاضراتهم، تشحذ إحساسى السليم باللغة الصحيحة، وتردنى إلى الصواب إن أخطأت، وتدلنى على الحقيقة فى موضع الشك، فاللغة العربية لغة شاقة وعرة، لا تنفع فيها ألفية ابن مالك ولا أبى مالك، إنما هى لغة أشبه بلغة الموسيقى، أهم شىء فيها أن تكون أذنك مهيأة لها، حساسة باللحن فيها (وكلمة اللحن هنا تؤدى المعنيين).

لا يكفى أن تؤجر الصحيفة أو المجلة مصححاً لأسماء إن وأخواتها، وإنما الذى أعنيه بصحة اللغة سلامة الأسلوب، والإحساس الفنى عند الكاتب والمحاضر، وإلا فخير عندى ألف مرة أن أستمع لمتحدث باللغة الدارجة، أو أقرأ لكاتب أزجال ومواويل من أن أعود أذنى الفهاهة والتفاهة والعى.

وثانياً: أفقد مجلة صادقة في كل صفحاتها صدق ما ترويه فى صدرها، فهى «الأدب، فنية، شهرية يصدرها الأمناء».

من الأمناء؟ لا أدرى وإن عرفت بعضهم، وما أسهل أن أسأل شيخهم، وهو جارى فى أكثر من مجلس! ولكن ما حاجتى بالسؤال، ومجلة «الأدب» جعلتنى أعرفهم عن طريق تفكيرهم، وأسلوبهم، وسجايا من تحدثت إليهم؟ يكفينى أن يكونوا حفاظاً للغة، أمناء على الفكر.

وثالثاً : إذا غابت مجلة «الأدب» أنطفأ مصباح، منير وهاج من مصابيح الثقافة والفكر السليم، وأعتذر عن صيغة الجمع هذه، فما أعرف للثقافة مصلحة كمصلحة الغاز والكهرباء !

ورابعاً : إذا غابت مجلة «الأدب» فإن ذلك نذير باختفاء مجلتنا هذه، وإنذار بأننا على شفا إفلاس ثقافى. وما أحلى الجهاد يحمل لواءه رفيقان متحابان! و«المجلة» إذا تحيي شقيقتها، تحنى لها الرأس إعزازاً وإكباراً .

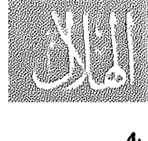
وأخيراً : اختفاء مجلة «الأدب» معناه

اندحار قوى الشكيمة والمثابرة، أمام السهولة والغثاثة والملق، فمجلة «الأدب» من رأسها إلى أخمص قدميها وليدة الإرادة، إرادة الخير، وبنت الإخلاص، وربيبة الإيمان بالمثل العليا».

لن أتوقف هنا عند الخلق الرفيع الذي يجعل رئيس تحرير مجلة يحيى مجلة أخرى قد تقوم بينها وبينه شبهة تنافس أو صراع، فقد كان هذا الخلق العالى أمراً عادياً لا يستثير دهشة فى ذلك الجيل العظيم. لكنى أتوقف عند هذه الكلمات المكتوبة منذ أربعة وأربعين عاماً لأجد كل ما فيها حياً طازجاً نحتاج إليه اليوم. ما الصفات التى يزكيها حسين فوزى فى مجلة «الأمناء»؟ إنها صحة اللغة، وصدق المحتوى، وعلو الأفق الفكرى الإبداعى الثقافى، وكلها أمور نحتاج إليها اليوم - بل لعل حاجتنا إليها أشد - كما كنا نحتاج إليها فى أواخر الخمسينيات. وهكذا كان الشأن فى أغلب ما كتب حسين فوزى - مع التسليم بأن فيه قدراً زائل القيمة عابر الأهمية: إنه سهم منطلق فى اتجاه المستقبل، يستبقى من الماضى ما هو جدير بالحياة وبالنماء، ويلتحم بمشكلات الحاضر.

مفكر لن يتكرر

حسين فوزى ابن لحظة تاريخية لن تتكرر، ومن ثم فهو مفكر لن يتكرر. لقد ولى عصر المفكر الموسوعى، على طريقة ليوناردو أو جوته، ودخلنا عصر التخصص الدقيق بل الأشد دقة مما ينبغى بحيث كادت تغيب عنا الصورة الكلية للغابة فى غمرة انشغالنا بتأمل أشجارها المفردة. قد نجد علماء أكبر من حسين فوزى، أو أدباء أعظم موهبة، أو رحالة أعمق معرفة بالأماكن التى زاروها، أو محللى موسيقى أقرب إلى الاحترافية Professionalism وأبعد عن لمسة الهواية amateurishness التى لعلها قد شابت بعض جهوده فى التقديم والتعريف. ولكن أين نجد رجلاً واحداً - فى يومنا هذا - جمع فى شخصه بين كل هذه الجوانب؟ إنه مثل يانوس فى أساطير الإغريق ينظر بعين إلى بلاغة الجاحظ والتوحيدى والدميرى وابن إياس والجبرتى، وبعين أخرى إلى تراكيب العامية المصرية وصورها ومأثورها الشعبى وتترقرق فيها روح شعبية حلوة كتلك التى تجدها فى شعر البهاء زهير، وفى نثر المازنى ويحيى حقى وإدوار الخراط. انظر رائعتيه «حديث السندباد القديم» «وسندباد مصرى» وهما عندى خير ما كتب وأبقاه على الزمان. قل عنه ما شئت تحبيذاً أو نقداً، ولكنه فى كل الأحوال يظل شاهداً ساطعاً على خصب الخبرة الإنسانية وقدرتها على التأليف بين أبعد الأقطاب على الثراء الروحى والعمق الفكرى ودربة الحساسية حين تجتمع فى إهاب. وما أحوجنا إلى هذا كله فى عصر يزداد - مع كارثة العولمة وسيادة قيم المجتمع الاستهلاكى - سطحية وابتذالاً وزيفاً عاماً بعد عام، بل شهراً بعد شهر، بل يوماً بعد يوم. ■



كلمة حق

عن السفير د. مصطفى كامل

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

قرأت كتاب «حكايتي مع الدبلوماسية» للأستاذ جميل مطر قراءة مستوعبة، إذ دفعتني إلى ذلك دواع عديدة لا تقف عند مجرد الإعجاب بالكاتب ومنهاجه الشيق في العرض، بل كانت هناك الى جانب ذلك دوافع ذاتية فقد كنت على صلة بكثير من الوقائع التى تناولها المؤلف، وبالعديد من الأشخاص الذين تعرض لهم.. وكان من بين ما أثار اهتمامي - حديث المؤلف عن شخصية كان لها أثر في حياته، لا يزال يذكره ويتذكره رغم انقضاء أكثر من اربعين عاما على الوقائع التى يرويها. وربما كانت لنا وجهة نظر أخرى تخالف نظرة المؤلف بالنسبة لتلك الشخصية التى تحدث عنها الأستاذ جميل مطر حديثا مطولا فى أكثر من موضع من مؤلفه، كان إيجابيا فى أول الأمر، ثم ما لبث أن صار حديثا سلبيا لا يروى سوى العديد من الأخطاء التى يمكن اغتفارها، ثم ما لبثت أن أصبحت خطايا وآثاما تجل عن الغفران .

وإذ لم نكن بصدد الدفاع عما رواه المؤلف من أخطاء وخطايا نسبها إلى صاحب تلك الشخصية، إلا أن لنا وجهة نظر مخالفة بشأن صاحب الشخصية، التى تناولها جميل مطر بحديثه - نرجو أن يأذن لنا الهلال بالتعبير عنها فى هذه السطور بأن نقدم صاحب تلك الشخصية المحورية - من منظورنا الشخصى - الذى قد يكون متميزا، وإن

مال إلى الإنصاف دائما ، مع التريث فى إصدار الأحكام التى ما يصح أن تبنى على الشائعات أو المقولات المرسلة .

وإذ نعرض لصاحب تلك الشخصية فإننا نذكر أنه ما كان اختياره ليكون سفيرا لمصر فى الهند إلا لما تميز به من سعة أفق ، وعمق تفكير، وشخصية آسرة مؤثرة. مع علم غزير وإجادة لأكثر من لغة. وهو أن تخصص فى القانون ، ونال فيه أعلى الدرجات العلمية وقام بتدريس القانون العام بكل فروعه لأكثر من جامعة كانت آخراها جامعة القاهرة. إلا أن أولى الأمر من أوائل عهد الثورة، وبعد ما تحقق لمصر من مكانة عالمية بدورها الرائد فى مؤتمر باندونج. رأوا اختياره ليكون واحدا من سفراء مصر الناطقين باسمها فى الخارج، والممثلين لها لدى هذه الدولة أو تلك. فكان اول منصب تولاه هو سفير مصر فى الهند ومن بعده شغل منصب سفير مصر لدى الولايات المتحدة فى فترة من أحرج الفترات. وفى المنصبين أثبت بالفعل كفاية واقتدارا وأدى مهامه خير أداء يشهد بذلك ما قدم من تقارير، وما أجرى من اتصالات، وما حقق من نجاحات. وأشهد بأن كفايته تلك كانت مصدر حسد لدى كثيرين، وكانت تلك الكفاية مقترنة بزهد فى الحياة، وترفع عن الدنايا، ونأى عن الإغراءات أيا ما كان وزنها أو نوعها، وكان كل ما يهمه هو الأداء الجيد، والإخلاص المتناهى، والدقة الكاملة، فما أوفدته مصر إلا ليرفع رأسها، وليعمل على رفع مكانتها، واذ يتحدث عن سياستها - فإنه يقدم لحديثه بالأدلة الحقيقية والملاحظات الذكية، مستعينا بحاضرها المشرق، ومستقبلها المبشر غير ناس ماضيها الذى خلده التاريخ.

ذلكم هو الدكتور مصطفى كامل. الذى كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الولايات المتحدة الأمريكية. ثم اعتزل العمل الدبلوماسى بل والعمل العام، وقضى الشطر الأخير من حياته متنقلا بين مصر ودول أوروبا حتى وافاه الأجل بعد عمر حافل بالجهاد .

والواقع أنه ترك فى القانون ذخيرة طيبة من المؤلفات شملت القانون الدستورى والقانون الإدارى وربما كان كتابه عن القضاء الإدارى من أوائل الكتب التى ظهرت فى هذا الفرع الحديث من القانون.

ولنا أن نقرر أن دوره كأستاذ للقانون العام – وقد كنت واحدا من تلاميذه - كان دورا كبيرا ومؤثرا ، فهو المحاضر المتميز والعالم الثبت، والأب العطوف الحنون، وكتبه من أعمق المؤلفات فكرا، ومن أبدعها عرضا وأسلوبا وتناولا للموضوعات العلمية والفقهية.

وما كان اختياره سفيرا لمصر إلا رغبة فى الإفادة من علمه وفضله فى مثل هذه المواقع التى تحتاج - فى بعض

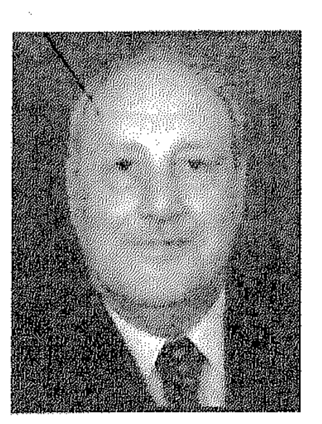
الأحيان والظروف - إلى من هم فى مثل علم وفضل الدكتور مصطفى كامل.

والعجيب فى الأمر أن يطالعنا كتاب الهلال - عدد أبريل ٢٠٠٢ - بمؤلف للأستاذ / جميل مطر يحمل عنوان : «أول حكاية : حكايتى مع الدبلوماسية» وقد ورد فيه ذكر لهذا الرجل فى أكثر من موضع، وهو وإن تحاشى أن يذكر اسمه إلا أنه كان يشير اليه دائما بأنه :

«السفير الدكتور الذى يرتدى بدلة سوداء، ويضع نظارة سوداء، ويربط عنقه بربطة سوداء، وفى قدميه جوارب سوداء وحذاء أسود».

وقد تكرر هذا الوصف عبر صفحات الكتاب أكثر من مرة، وكلما عرج الحديث إلى صاحب تلك الشخصية التى كان لها - ولاشك - دورها البناء لا يمكن اغفاله فى المجالات التى عمل فيما صاحبها، وفيما أسند إليه من مهام وطنية جسيمة. الأمر الذى يدعونا الى التساؤل : أما كان الأجدر - والأقرب الى الإنصاف - أن يكون اختيار كاتبنا لتعبير آخر وهو يتحدث عن تلك الشخصية الأسرة المؤثرة - حتى وإن اختلف رأيه بالنسبة لها - تعبير يكون أكثر موضوعية ودلالة دون الوقوف عند لون النظارة والثياب وربطة العنق والجوارب والحذاء..!!

وحكاية جميل مطر مع السفير مصطفى كامل انه التقى به عندما ألحق الكاتب للعمل بسفارة مصر فى الهند،


جميل مطر

وقد سعد بلقائه للسفير، وتعامله معه حتى اختاره للعمل فى مكتبه، وكان يتعاون معه، وقد وضع فيه ثقته، وأولاه تقديره، واستعان به فى العديد من المهام والأعمال، وكانت علاقة السفير به لا تقف عند الحدود الرسمية، بل كان يتعامل معه فى بساطة وعدم تكلف، يزوره فى بيته، ويشاركه جلساته هو وزملاءه، ثم اصطحبه معه فى مهمة مكلف بها لدولة تحقق لها الاستقلال حديثا. وهنا يرى كاتبنا أمرين أولهما: أن السفير فى تلك الرحلة شغله بأن راح يملى عليه ترجمة كاملة لمقال منشور فى إحدى المجلات الأجنبية - والثانى - أنه عندما جرى استقبالهما فى تلك الدولة حديثة الاستقلال جعل السفير يقارن بينها وينتقد ماهو قائم فى مصر من أوضاع . وعند العودة الى الهند. حدث خلاف بين الكاتب والسفير كان مرجعه ما أبدى من انتقاد لبعض آراء السفير. كما يذكر ضمنا أن تلك المقالات التى يترجمها ويمليها عليه كان يبعث بها السفير الى الجهات المسئولة فى مصر على أنها آراؤه أو تعليقاته. ويذكر أنه على أثر ما أبداه الكاتب من رأى مخالف. ضاق به السفير، فقد بادر

يطلب من الجهات المسئولة اتخاذ اجراءات حازمة ضده حيث وصفه بأنه لا يصلح، بل ويضيف أن السفير ظل يلاحقه ليلحق به بالغ الأضرار لولا أن هيأ الله له من قدر مواهبه واحتضنه واقتنع بكفايته واقتداره .

تلك هى القصة التى رواها الأستاذ/ جميل مطر فى كتابه والتى شغل بها العديد من صفحات الكتاب. وربما كان لنا أن نعلق عليها بالملاحظات الآتية :

– إن هذه روايته هو . ولم يعد من المتاح أن نسمع رواية الطرف الآخر عنها .. ومن ثم فنحن لا ندرى ما دفع السفير الى ذلك الموقف.. ربما كان ثمة خلاف بين حقيقة ما وقع، ونص ما يرويه الكاتب، بل وربما حتى لو لم يكن هناك اختلاف فى الرواية فربما كان ثمة خلاف فى وجهات النظر، ومن ثم فليس لنا أن نسلم بهذه القصة على إطلاقها، وانما نأخذها بحذر.

– إن قيام الدكتور مصطفى كامل بترجمة ما يلفت نظره من مقالات فى المجلات الأجنبية وموافاة المسئولين بها انما هو عمل جيد ربما لا يجيده كثيرون، ومع ذلك فإن لى أن أشك فى أنه كان ينسب ما ورد فى تلك الترجمات من آراء لنفسه، فالذى أعرفه عن أمانته العلمية يجعل تصديق ذلك أمرا مستحيلا. وإذا سلمنا مع الكاتب بحدوثه فإنه يكون خطأ يمكن اغتفاره.

أما عما أشار اليه الكاتب من أن الدكتور مصطفى كامل تعقبه حتى بعد أن نقل من الهند وظل مصرا على إلحاق الأذى به، فتلك رواية للأستاذ / جميل مطر. تحتمل بالطبع أكثر من وجه. وربما كانت حماسة الشباب وراء تلك الرواية.. ونحن لا ننفى صدق الرواية، لكننا نرى أنها ربما نقلت اليه فى مبالغة من الرواه .

ويبقى أن الأستاذ / جميل مطر فى أول حديثه عن الدكتور مصطفى كامل قد أشاد به، وتحدث عن كفايته ومقدرته، وعن شخصيته الودودة والبسيطة. وربما كان مايعيبه - فى رأيه - هو أنه كان يميل إلى الجدية فى معظم الأحيان .

⊛

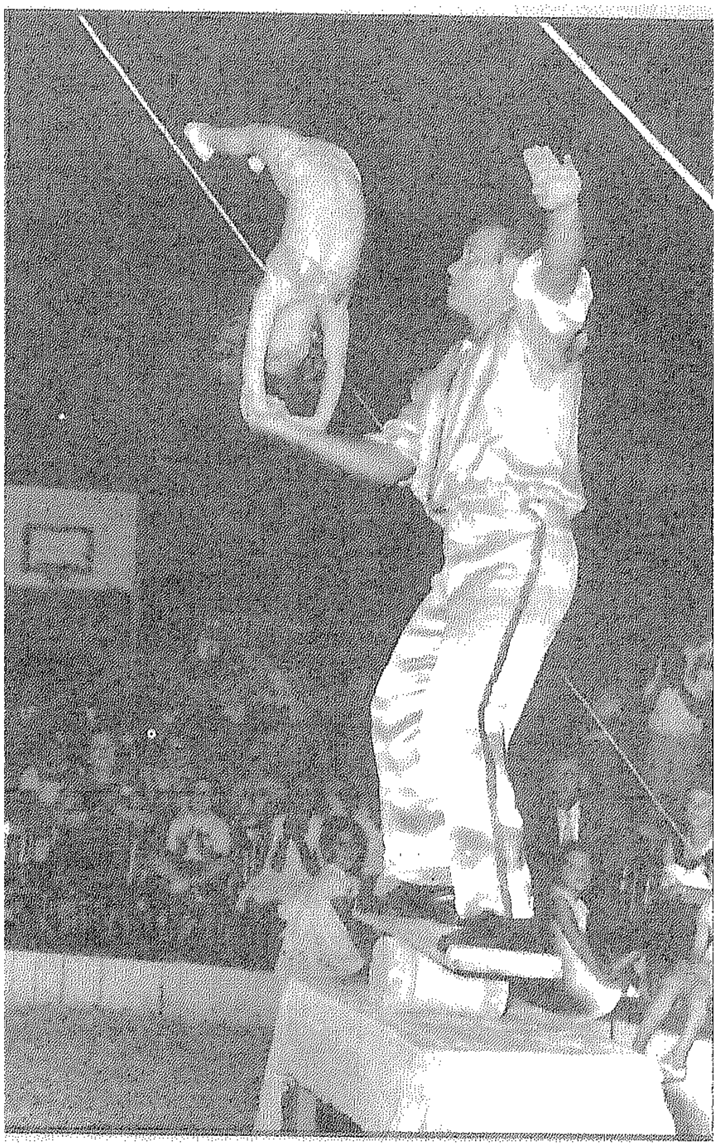
وفى ختام هذه الكلمات أقول إننى وقد عاشرت الدكتور مصطفى كامل واقتربت منه كثيرا فإننى أقرر انه كان شخصية سمحة طيبة ودودة ولم يكن يحمل حقدا لأحد وكانت دوافعه دائما هى حب مصر والتفانى فى خدمتها. ورغم ذلك فقد لقى فى أخريات أيامه تعنتا وحربا لم يكن لهما ما يبررهما إلا أنه قد تلقى ذلك بصبر وإيمان حتى وافاه الأجل - رحمه الله ، فقد كان، رغم حديث جميل مطر عنه، إنسانا نادر المثال، قدم لوطنه الكثير مما يبقى له فى مجال أعماله الطيبة. ■

من هو؟

بقلم
د. يحيى الجمل

سيدى

هل تعلم أنه لم يبق من لاعبى السيرك غيرك أنت وحدك الذى تقفز من حبل إلى حبل من لعبة إلى لعبة وأن كل الصحاب القدامى منهم من وقع من حالق فدقت عنقه ومنهم من قضم الأسد ذراعه فلم يعد يصلح لشئ ومنهم من فقأ القرد عينيه فأصبح ضريراً يتكفف الناس ولا يستطيع أن ينتقل من مكان إلى مكان دون أن يأخذ أحد بيده .



احد عروض السيرك

أنت وحدك دون الجميع بقيت حيث أنت تؤدى دورك وتقوم بألاعيبك وتنتقل من نمرة إلى نمرة ورغم أن السيرك قد تغير عليه عدد من الملاك والمديرين إلا أنك أنت وحدك بقيت محل رضا الجميع رغم اختلاف مشاربهم وميولهم ونوعية الجمهور الذين يحرصون على اجتذابه .

وما أكثر رواد السيرك من المعجبين بأدائك وقدرتك ومهارتك . وما أكثر أولئك الذين يريدون أن يلتحقوا بالسيرك يؤدون هذه اللعبة أو تلك أو يقومون بتلك النمرة أو تلك وقد يلقى بعضهم بعض القبول ويؤوب كثرتهم بخفى حنين .

وأنت هناك تنظر إلى الجميع من رواد السيرك ومن راغبى العمل بابتسامة غامضة لا يستطيع أحد أن يسبر أغوارها أو أن يدرك معناها.

وكلهم ينظرون إليك بإعجاب.

بعضهم لا يخفى مع الإعجاب حقداً دفيناً.

وبعضهم يحيط إعجابه بكثير من النفاق الفج أحياناً والمتقن أحياناً أخرى.

وأنت حيث أنت تعاملهم جميعاً برفق وأدب بارد وفى نهاية الأمر لا ينال أحد منهم منك شيئاً قط.

الناس جميعا في نظرك سواء.

ليس فيهم أعداء ولا أصدقاء.

كلهم كلهم عدو محتمل وصديق محتمل.

وهكذا كفيت نفسك شرهم وعرفت زيف ما عندهم من ود وحب وتقدير.

وحاروا جميعاً فى أمرك.

إلا صاحب السيرك فإنه أخذ منك أحسن ما عندك.

وأنت بدورك لم تبخل عليه وأعطيته ما فى وسعك من مهارة وخفة حركة وخبرة بعالم الحيوان والإنسان.

وأدركت منذ وقت مبكر - منذ أول صاحب سيرك تعاملت معه - طبيعة مأموريتك وأتقنتها ولم تفكر يوما فى أن تحيد عنه وأخذت عبرة من كثيرين من لاعبى السيرك الآخرين عندما خطر فى ذهنهم فى بعض لحظات أن يتخطوا حدود مهمتهم أو ينظروا إلى أبعد مما قدر لهم فإذا بهم يخسرون كل شئ وإذا بهم يتركون لوحوش السيرك ينهشونهم بغير رحمة.

وحرصت منذ وقت مبكر أيضا - منذ الصاحب الأول للسيرك - أن تظل بعيداً عن الأضواء لا تزاحم فيها أحدا. إن الأضواء ليست هى طلبتك فأنت قد

عرفت أنها أضواء زائفة غير صحيحة وأنها لا تسمن ولا تغنى من جوع وأن عمرها قصير كل القصر، أقصر حتى من عمر الشموع.

وصدق حدسك. كل الذين تكالبوا على الأضواء ضاعوا كما تضيع الفراشة تحوم حول المصباح فيحرقها، وتساءل الجميع عن قدراتك تلك الخارقة التى وصلت بك إلى ما وصلت اليه ونسوا جميعا انك رجل درست المسرح دراسة جيدة وعرفت ابعاد اللعب فيه وما يتاح فيه من أدوار ولمن من اللاعبين.. ورضيت بدورك وأتقنته إتقاناً غير محدود بحيث لم يعد عنك فيه غنى.

ولم تخدع نفسك ولم تخدع غيرك. أنت لا تطلب مجداً. وليس فى السيرك مجد. إنما أنت تطلب دوراً وأعطيت الدور. وأتقنت الدور وبرعت فيه إلى المدى الذى لم يعد أحد يجرؤ على أن ينازعك فيه أو ينتزعك منه.

أتذكرذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى أحد الصحاب تدعوه فيه إلى العمل قريبا من السيرك فقال لك ذلك الصاحب إننى لا أستطيع أن أعمل مع فلان فبادرته بهدوء بارد ولماذا فلان فقط وهل يرضيك فلان وفلان وفلان إنهم جميعا ليسوا أفضل منه ولا أسوأ منه. إنهم هناك لأنهم مطلوبون وعليك أن تتلاءم معهم . بل إن عليك أن تدرك أن أدوارهم قد تكون أهم من دورك وأبقى وأنفع لصاحب السيرك لاعم نفسك معهم إن كنت تريد أن تدخل هذا الميدان وإلا فاتركهم فى حال سبيلهم واذهب إلى حال سبيلك غير مأسوف عليك وإن تصورت أو صور لك البعض غير ذلك من أوهام .

ومضى كثير من الفرقاء إلى حيث يدعون أنهم راضين عن أنفسهم وإلى حيث الظلام يتصورون أنه عارض وهو مقيم .، ومضيت أنت «تنط» من حبل إلى حبل وتقفز من شبكة إلى شبكة وتلاعب كل الحيوانات لا تخشى من بأسها شيئاً حتى كأنها أصبحت لك بديلاً عن كل الأصدقاء .

والله على كل شئ قدير ،

■



شعر :

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

خجولة ياليتني لم أكن ... خجولة أخاف شمس النهار
ياليتنى جريئة كى أرى ... كواكب الحب وحقل الهزار
ها قد دعانى اليوم شاب إلى ... حفل ولكنى أهاب البحار
ماذا إذا لم أحسن الرقص فى ... هذا المسا بين يدى شهريار
وهل .. وهل هذا الفتى المرتدى ... قبعة البحر يحب القمار؟
أم أنه يحببنى مثلما ... أحببته نجماً طويل المدار
ماذا إذا ارتبكت فى الحفل أو ... رأى حماقتى حبيبى وطار
إلى ذراع امرأة ، عينيها ... جريئة وثغرها كالمطار
ملابسى قديمة ، لونها ... مكتئب كأنها فى شجار
هذا الحذاء شكله مرعب ... يصافح الإحباط فيه الغبار
والشجا حقيبتى استسلمت ... لمنزل مستسلم للدمار
والكحل لن يليق بى ، كم أنا ... كالحة من دعوة مثل نار
ما أسخف الأعذار قدمتها ... سكبتها على زوايا السوار
لو إننى مقدامة فى الهوى ... لما .. لما خفت نداء البحار
حقيقة واحدة كالقنا(١) ... تطعننى ، تطعن نور النهار
تملأ عينى بدمع الأسى ... ترغمنى دوماً على الاعتذار
خجولة أعوم فى حمرتى ... أبدو كحمقاء إذا الحب ثار

(١) القنا : الرماح)

تنويعات على أرض الخصوصية

تكوين الفنان أحمد عبد الحميد

بقلم
عـــز الدين نجيب

فرض الرحيل المفاجىء للخزاف الكبير د.نبيل درويش فى الشهر الماضى عن عمر يناهز ٦٢ عاما ، ظله الثقيل على الحركة الفنية والثقافية ، لأنه لم يكن مجرد فنان مبدع بأستاذية واقتدار ، بل كان كذلك مشاركا إيجابيا فعالا فى الساحة ، سواء من خلال عضويته بمجلس نقابة التشكيليين لسنوات طويلة ، أو بلجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة ، أو بهيئة التدريس بكلية الفنون التطبيقية وغيرها من الكليات الفنية بالقاهرة والاسكندرية ، كأستاذ مخلص لرسالته التعليمية .

وفى كل من هذه المجالات كان دائم التفاعل مع الأحداث ، والمبادرة بطرح الأفكار والمشروعات ، للنهوض بواقع الفنون التشكيلية أو الشعبية أو التربوية فى الجامعات ، ولعل هذه الطاقة من الحيوية والإيجابية والاشتباك الدائم

مع الأحـداث كـانت نابعـة من قـدر عظيم من الحلم بالتقدم لبلده الذى ذاب فيه عشقا .

نبيل درويش .. ورؤيته للهوية

لكن رؤيتـه للتقـدم كانت فى اتجاه عكسى مع دعاة اللحاق بالنهضة الأوروبية أو العالمية الحديثة ، حيث كان يرى أن التقدم الحقيقى يبدأ بالعودة إلى جذورنا الحضارية وإلى جوهر القيم الكامنة فيها ، لنستمد منها زادنا وزوادنا وعدتنا للمستقبل ، فبغير ضمير أخلاقى وعقيدة إيمانية بالحب وبما بعد الحياة - كما كان عند المصرى القديم - وبغير ارتباط بين العلوم والتكنولوجيا والفنون والصناعات من جهة ، وبين قيمة الخَير والحب بين البشر فى ارتباطها جميعا بفطرة الحياة وجوهر الطبيعة وبساطتها من جهة أخرى ، وبغير تأكيد على وحدة الأمة ، بذوبان الفرد فى الجماعة والجماعة فى الفرد ، وعلى قيمة التواصل بين الحضارات المتتابعة وامتزاجها فى نسيج يمثل شخصية الأمة .. بغير ذلك كله فإن أى تقدم علمى أو تكنولوجى لا يعنى إلا التبعية لثقافة الغرب ، وإلا الغربة للإنسان عن ثقافته وجذوره ، التى تنتهى بعزلة الفن عن المجتمع واغتراب الفنان فيه .

الفنان الراحل نبيل درويش

عاش نبيل درويش بهذه المنظومة الفكرية على هدى أفكار أستاذه الفنان سعيد الصدر رائد فن الخزف الحديث فى مصر ، الذى ظل يعترف بفضله عليه وإن حرص على أن يؤكد تجاوزه لما وصل إليه أستاذه من كشوف وابتكارات فى تقنيات وجماليات الخزف ، كما عاش على هدى فلسفة المفكر الأستاذ حامد سعيد حول الفن والحياة ، وهى لا تخرج كثيرا عن جوهر تلك الأفكار ، وإن لم يتطرق درويش إلى أنه ينتسب إليها أو إلى ذكرها ، بل سعى إلى تحقيقها عمليا من خلال مشروعه الإبداعى طوال ما يقرب من أربعين عاما ، فلم يكتف بتأمل الطبيعة أو تأمل منجزات الحضارات المصرية المتعاقبة ، بل تعمق فى دراسة دوافعها الفلسفية والعقائدية وارتباطها بالحياة والخلود وبالعادات والتقاليد ، مؤمنا بقدرة الإنسان المصرى البسيط على الإبداع ، مما جعله يستلهم الكثير من أشكاله وتقنياته ويتعلم منها ويضيف إليها ، خاصة فيما يتعلق بالخزف الأسود والتوصل إلى أسلوب صنع الفوهة السوداء للإناء كما كان يستخدمها المصريون القدماء ، والتوصل أيضا إلى سر عملية الاختزال بالطريقتين الفرعونية والاغريقية / الرومانية ، خاصة فى الرسم على الإناء بالكربون أو بالدخان

وليس بالأكسيد ، وغير ذلك من الاكتشافات مثل التوصل إلى الطينة الزرقاء والطينة البيضاء على زرقاء أو سوداء .. إلخ .

وقد ساقه هذا الإيمان المطلق بما اعتنقه من أفكار وما توصل إليه من اكتشافات إلى حافة التعصب ، وإلى اتخاذ موقف حاد ضد مشجعى تيارات الفن الحديث المتأثرة بأساليب الغرب بعيدا عن جذور الهوية المصرية ، جعله مستهدفا للهجوم عليه والعمل على تهميشه على الساحة الفنية ، وأدى ذلك بدوره إلى ترسيخ الشعور بداخله بالاضطهاد ، ومن ثم إلى قيامه بعملية تعويض ذاتى ، بالزهو دائما بعبقريته غير المسبوقة وريادته المطلقة لفن الخزف المعاصر فى مصر ، بينما هو فى حقيقة الأمر – بعيدا عن هذا الصراع السلبى – كان إنسانا ودودا ومحبا للحياة وشديد البساطة والتواضع والسماحة، بقدر موهبته العظيمة المتفردة ، ولعل هذا الشعور المركب (بين الاضطهاد والعظمة) قد استهلك كثيرا من طاقاته وضاعف من طعم المرارة فى أعماقه بغير طائل .



«أقنعة » للفنانة شادية القشيرى

لكن تراثه الضخم من أعمال الخزف بمتحفه الذى أسسه وأهداه إلى وزارة الثقافة ، جدير بأن يحسم مع الأيام هذه الاشكالية المتجددة للهوية والتواصل مع العصر ، خاصة وأن أعماله ذاتها تحمل الكثير من الإجابات لحل هذه الاشكالية ، وربما كان تصديه شخصيا للأطراف الأخرى فى الصراع بشأنها ، وخلطه فى ذلك بين الجانب الذاتى والجانب الموضوعى ، من أسباب تصاعد الموقف المضاد له وتفاقم رد الفعل بداخله ، فى حين أن بعض كبار النقاد أنصفوه وأبرزوا فى كتاباتهم عنه أهمية خبراته واكتشافاته .

وعلى أى حال ، فإن حركة النقد الموضوعى ومسار الفن الملتزم بالهوية سوف يتوليا نيابة عنه دور التقييم الحق لمجمل مشروعه الفنى ، مما يضعه فى مكانه اللائق به فى تاريخ الفن المصرى المعاصر .

هاجس الهوية المتصاعد

إن المتابعة النقدية لما تقدمه قاعات العرض فى السنوات القليلة الماضية حتى الآن

، تثبت أن تيار الفن القومى النابع من خصوصية التراث وجماليات الفنون الشعبية وزخم الحياة الفطرية ، يتنامى ويتسع أبعد من حدود المساحة الضيقة التى كان محصورا فيها قبل ذلك فى قاعات الدولة ، بينما أوشك هذا التيار أن يكتسح أغلب ساحات العرض بالقاعات الخاصة ، ولو بدافع تجارى ، باعتبار أنه الأكثر مبيعا بالنسبة لتيارات الحداثة على الطريقة الغربية ، خاصة التجريد بأنواعه و«العمل المركب» بشطحاته ، ولا شك أن القائمين على قاعات الدولة ، الذين كرسوا فرص العرض فيها - لزمن طويل - للتيارات الحداثية بهذا المعنى، قد أدركوا - مع تغير الأوضاع والمواقع والحسابات فى السنوات الأخيرة - مدى العزلة التى وجدوا أنفسهم فيها ووجدتها أيضا تلك التيارات ، حتى اقتصرت على مخاطبة شريحة بالغة الصغر من المجتمع ، بعد أن ضعف الاقبال على اقتناء أعمالها .. وهكذا قلت تدريجيا درجة التشدد لدى القائمين على الحركة الفنية من أصحاب «الدوجما» الحداثية الثابتة المنساقين خلف النموذج الغربى دون قدرة على تزويجه بجماليات الواقع والشخصية المصرية ، فأفسحوا هامشا أخذ يتسع على خريطة المعارض التى تقدمها الدولة للفنانين .

فوق هذا الهامش قدمت قاعات مجمع الفنون بالزمالك فى الشهر الماضى معرضين مهمين لفنانين من أصحاب هذا التيار ، أحدهما فى التصوير والثانى فى النحت .

وجوه ثناء عز الدين

كان المعرض الأول فى التصوير للفنانة د . ثناء عز الدين ، وقد استوحت فكرته من لوحات وجوه مقابر الفيوم الشهيرة التى أنتجت خلال الحكم الرومانى لمصر بأيدى الفنانين المصريين لتوضع فوق تابوت الميت عملا بطقوس العقيدة الفرعونية ، لكنها اتخذت لديهم أسلوبا مختلفا عن الأسلوب المصرى القديم ، قد يقترب من ملامح الفن الرومانى لكن بحس شعبى يذكر بلوحة الأيقونة المسيحية .

وقد عملت ثناء عز الدين (الأستاذة بالمعهد العالى للفنون التطبيقية بمدينة ٦ أكتوبر) على إعادة إنتاج الفنون التراثية ، قبطية وإسلامية وشعبية ، فى تطبيقات وظيفية ، مثل الأزياء والعرائس والستائر والنسجيات الطباعية ، وهى معنية بخلق حالة إنسانية حية تتعايش مع الواقع بتقنيات معاصرة ، تعطى دور البطولة فيها للتأثيرات الجرافيكية والذبذبة البصرية ، على خلفية من ألوان قوية ناصعة وتأثيرات ملمسية على سطح اللوحات ، التى تخلت عن الاطار الخشبى التقليدى ، لتبقى الأعمال كمعلقات حرة تتماوج على الجدران ، بما يعيد إلى الذاكرة تلك الرقائق الجلدية أو المعلقات النسجية فى العصور السحيقة ، ويبدو بوضوح تأثير الفن القبطى ، وبشكل خاص تأثير الروح الفطرية الخشنة الكامنة فيه ، مع الاستفادة من أسلوب

الفنان الشعبى الذى يميل إلى شغل فراغات اللوحة بأشكال خطية زخرفية أو رمزية .. لكنها ، بقدر قربها من هذا السمت التراثى فهى أكثر قربا من البنائية الجمالية المعاصرة ، خاصة وهى تستخدم تقنيات وخامات وأساليب تضع لوحاتها فى إطار «التعبيرية» ، مثل اعتمادها على خامات الأقمشة والأوراق والجلود والشبكيات والصبغات ، وعلى تقنيات الطباعة بالشاشة الحريرية وبقوالب الخشب والجلد ، وقد نجحت أن تحقق فى بعض لوحاتها نوعا من خداع البصر والحركة التبادلية المراوغة بين شكلين على سطح اللوحة ، أحدهما أمامى متمثلا فى شبكية من النسيج الأبيض الشفاف وقد ثبتت على مسافة محسوبة فوق لوحة ملونة بإيحاءات غامضة ، إلا أن أهم ما يميز هذه الوجوه هو ما تتمتع به من حس إنسانى بالغ الثراء ، حتى يجعلك تصدق أنك تعرفه !

إن ثناء عز الدين لم تنفصل قط عن انتمائها الروحى إلى أفكار الفنان والمفكر الرائد حامد سعيد ومدرسته ، هذا الانتماء الذى تعمق فيما بعد بتوليها إدارة مركز الفن والحياة الذى أسسه حامد سعيد أواخر الستينات ، وقد حاولت خلال فترة عملها بالمركز أن تطبق عمليا ما آمنت به من أفكار الأستاذ ، عبر أنماط من الطباعة الجرافيكية والزخرفية على الأقمشة والأزياء ، مستفيدة من جماليات الحروف العربية حينا ، ومن «الموتيفات» الشعبية حينا آخر ، ثم ركزت بحثها الفنى فى السنوات الأخيرة على العرائس القطنية الشعبية الملونة ، ونجحت فى ابتكار تشكيلات جماعية من أنواع مختلفة من فروع التخصص ، مثل التصوير والمجسمات والطباعة والمسطحات البارزة .

وتبقى السمة الأساسية لرحلتها الفنية هى إحياء الخصوصية الجمالية، بقدمه فى الموروث والأخرى فى قلب العصر .

منحوتات سركيس طوسونيان

تواكب هذا المعرض مع معرض ثناء عز الدين بمجمع الفنون ، محققا حالة من التواصل الروحى غير المباشر معه ..

ذلك أنه يستدعي - بالوجدان - حسا تاريخيا يجمع بين الفنين المصرى القديم والرومانى ، فى شكل تماثيل برونزية سوداء ممشوقة القوام ، بغير تفاصيل تشريحية أو أوضاع حركية مباشرة ، بل تقف فى رسوخ ومهابة وكأنها تخاطب الأبدية أو تقيم صلاة طقوسية فيما وراء الزمان والمكان والأديان ، غير أن ما تحققه من قوة الحضور الروحانية يتجاوز أى تصنيف تاريخى أو حتى مدرسى ، إنها قوة حضور تنبع من روح الفنان نفسه ، وتتبدى فى حس بغموض مبهم ، موحية بنبل النفس الإنسانية المغلفة بالكبرياء والشموخ عبر مشخصاته البرونزية ذات الأحجام



الصغيرة والملامح المطموسة السوداء حتى تبدو أقرب إلى الأشباح المحلقة - بالرغم من قوة استقرارها فوق قواعدها .

وبقدر انتمائها إلى أنماط شبه تقليدية من التراث الحضارى (مع الميل إلى التعبيرية) فإن تماثيل «سركيس طوسونيان» ذات نبض معاصر بعيد عن النمط المتكرر ، قريب إلى الذاتية المتفردة ، تلك التى تعكس حالة عاطفية دافقة بمشاعر الحب أو الوحدة أو حلم اليقظة .

ولكى يخرجنا من تحت سيطرة التراث التقليدى للنحت ، استخدم أسلوب كشط مناطق معينة من سطح البرونز الأسود أو البترولى القاتم ، على شكل شريط أو وشاح أو تاج أو حزام أو حلية ، فبدت لامعة كالذهب وسط القتامة الغالبة على التمثال ، وأدت إلى تحريك السكون المخيم فوقه بحركة بصرية مشعة ، كما عملت على إثراء الشكل الجمالى بحوار بصرى متناقض الطرفين على سطح إثراء التمثال .

من أعمال سركيس طوسونيان

إن موهبة سركيس (الذى يبدو من اسمه أنه أرمنى الأصل ، والمولود بالاسكندرية عام ١٩٥٣ ، وخريج كلية الفنون الجميلة بها عام ١٩٧٩) تؤكد أننا كسبنا إضافة مهمة لفن النحت المصرى الحديث ، ذات رصانة بنائية وطلاقة تعبيرية ووعى بالخصوصية وعلاقتها بالعالمية ، بغير نزعة استعراضية للشكل أو مواكبة التيار السائد للحداثة المغتربة وربما تأخر ظهوره فى الوسط الفنى بالقاهرة حتى اقترب من سن الخمسين ، لكن هذا الظهور المفاجىء على الساحة وبهذه القوة يعنى أنه حضر ليبقى ، وإن كان ذلك مرهون بمدى طموحه وإصراره على تحقيقه ، فالموهبة ليست هى أكبر عوامل النجاح فى مثل ظروف حركتنا الفنية ، بل لابد للفنان أن يكون مناضلا ودؤوبا لتبليغ صوته ورسالته حتى يفسح له المجتمع الثقافى المكان اللائق به .

الأصالة .. بين مندور والبدرى

قدمت قاعة شهر زاد بالمعادى (التى أنشأتها جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة) معرضا مشتركا للفنانين محمد مندور - فى الخزف - وعبد الفتاح البدرى - فى التصوير - لترسى بهذا المعرض تقليدا جديدا فى نشاطها ، وهو التبادل بين معارض متخصصة فى مجالات إبداعية معينة ، وبين معارض جامعة لمختلف الحرف التقليدية والفنون التشكيلية .

ولم تمض غير أيام على انتهاء المعرض حتى أعلن فوز الفنان مندور بإحدى الجوائز الرئيسية لبينالى الخزف الدولى بالقاهرة ، فتوجهت مسيرته الكفاحية التى أسس خلالها نفسه بنفسه منطلقا من فواخير مدينة الفسطاط الاسلامية بمصر

القديمة ومنتهيا إليها أيضا ، حيث ينتمى إليها بكل خبرته وتاريخه ، ويقيم فيها حتى الآن مرسمه المتواضع ، برغم أن بإمكانه أن يحقق ثروة طائلة من إنتاجه الخزفى ، لو عمل على تلبية احتياجات السوق السياحى التى يتهافت عليها كبار الخزافين ويقيمون من أجلها المصانع .

وقد أسقطت هذه الجائزة الدولية - التى منحتها له لجنة تضم أغلبية من النقاد الأجانب - الاتهامات التى كان يوجهها إليه «أولياء أمور الحداثة» فى مصر بأنه يمارس شكلا إقليميا تقليديا فى الخزف جمد عند وضع ثابت بغير قدرة على الابتكار والتطور ولا يرقى إلى مستوى العالمية ، فجاء الرد من هيئة تحكيم عالمية اختارته من بين أسماء اكاديمية مرموقة فى الخزف المصرى المعاصر ، اشتهرت بالتجديد التقنى الملاحق للأساليب الحداثية فى العالم ، إن معنى ذلك أن أعماله تتمتع بقيم جوهرية للفن الحقيقى بغض النظر عن منابعه الإقليمية ، مثبتة أن معنى الأصالة لا يقتصر على التراث أو البيئة ، بل يعنى - قبل كل شىء - الموهبة وخصوصية الذات المبدعة للفنان ، وقدرته على الجمع بين هذه الخصوصية الذاتية وبين الملامح القومية والأسس الجوهرية للفن الحقيقى .

ولعل مكمن الخصوصية والفرادة فى خزفيات مندور هو احتوائها طاقة روحية وأسراراً دفينة ، فتعيد إلى الذاكرة الخزفيات الفرعونية التى كانت تدفن مع المومياء ، حافظة أسرار صاحبها وكنوزه ، كى تبعث معه فى يوم البعث العظيم .

وتمثل الضخامة الوقورة الكاتمة للسر لقدوره المستديرة أو المستطيلة بفوهاتها الضيقة وآذانها الملتصقة بالفوهة ، سمة أسلوبية لدى الفنان ، يؤكدها الإيجاز الشديد لخطوط الشكل ، والهمس الموحى فى انسياب الخطوط ، كما تمثل تقنية حريق الطينة السوداء والألوان الرمادية المكتومة أو الوردية المشرقة أو البترولية ذات البريق المطفأ - بعيدا عن بهرجة الزخارف والألوان - سمات أخرى تجتذب الناظر الى أعماله بسحر من نوع خاص ، يجعلك تحار بين ما تمتلئ به من حس الفطرة لشعبية والنبل الأرستقراطى والزهد الصوفى ، والخلاصة أنه يقدم لنا نموذجا لسهل الممتنع ، كالصانع الماهر الذى بات يشكل الذهب بتلقائية وكأنه يلعب به !

***

أما لوحات عبد الفتاح البدرى فهى معزوفات شعبية على وتر الربابة، فى أحجام صغيرة موحدة الأسلوب والموضوع ، نفذت بخامات سريعة الأداء كألوان الشمع والباستل والجواش ، أما الموضوع فهو رقصة التحطيب فى الصعيد ، فجعل من حركات الراقصين بملابسهم البيضاء الفضفاضة وعمائمهم المستديرة وألوان وجوههم السمراء إيقاعا منتظما لخطوط متكررة أو متوازية أو متقابلة أو متعاكسة ، على سلم

موسيقى يتنقل عليه الايقاع البصرى للخطوط والملامس والألوان والحركة ، بأبسط قدر من التقنية وبناء التكوين.

وبالرغم مما يبدو من تلقائية الحركة والتكوين ، فإنها محسوبة حسابا هندسيا محكما ، يقابل حساب توزيع المجاميع فى رقصات الباليه ، وهو ما ينخدع به البعض ممن ينظرون إلى مجموع الأعمال نظرة خارجية عابرة ، فيرون أنها متشابهة مكررة ، وفى الحقيقة أنها مختلفة بقدر اختلاف تشكيلات الرقصات الايقاعية على المسرح ، أو اختلاف «التونات» الصوتية فى أنغام الربابة .

«وجوه» للدكتورة ثناء عز الدين

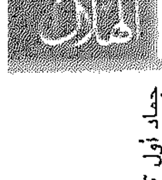
وقد تختلف هذه التجربة عن تجارب البدرى السابقة ، التى تتمتع بغنائية لونية وتنوع فى اتجاهات الخطوط وايقاع الحركة ، والحقيقة أن تجربته الأخيرة - على بساطتها وتقشف ألوانها وخاماتها - هى خلاصة مختزلة لتجاربه السابقة .

وهكذا نلمح أكثر من صفة مشتركة بينه وبين الخزاف مندور ، تؤكد قناعتنا بأن نبع الأصالة فى حياتنا الشعبية لايزال فياضا وملهما لمن يدرك سره !

تداعيات الصمت !

كان هذا هو عنوان المعرض الأول للفنانة الناقدة شادية القشيرى فى الشهر الماضى بقاعة إكسترا بالزمالك، وهكذا وقفت الناقدة لأول مرة موقف «المنقود» بدلا من الناقد ، خاصة وأنها جازفت باختيار موضوع واحد وخامة واحدة لجميع اللوحات ، أما الموضوع فهو القناع ، وأما الخامة فهى ألوان الباستل الزيتى على ورق أسود فى أغلب الأحيان ، وأما الأسلوب الذى أتخذته فهو التعبيرية التى قد تجنح أو تتماوج على ضفاف السريالية حينا والتجريدية حينا آخر .

وقد كان متوقعا أن تدس الناقدة أنفها فى عمل الرسامة وتضع أمامها الخطوط الخضراء والحمراء كي تستمر فى الرسم أو تتوقف ، وذلك أخطر ما يواجه الفنان الذى يمارس النقد دائما ، لكن من حسن حظ شادية القشيرى أنها أغلقت درج مكتبها على الناقدة قبل أن تشرع فى رسم لوحاتها ، وفى مقابل ذلك فتحت درج



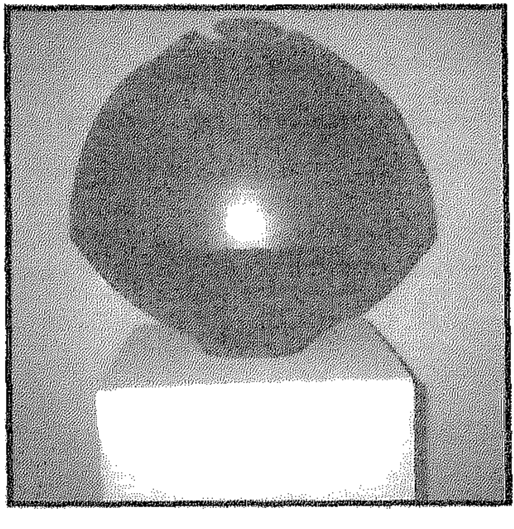
الطفلة الكامنة بداخلها ، فانطلقت خيالاتها وهواجسها وكوامن نفسها المختزنة بغير رقيب ، وبغير تصور مسبق للأسلوب الذى تنفذ به لوحاتها ، وهو ما جعل هذه اللوحات تجليات فطرية طفولية النظرة والمذاق ، وإن حفلت بالمعانى والتأملات التى تقبل اختلاف التأويل من مشاهد إلى آخر .

وأول ما يلفت النظر فى إيقاع خطوطها ، أنه إيقاع دائرى يقوم على الأقواس والمنحنيات والدوائر ، إنه إذن إيقاع عاطفى يناسب حالة المرأة والطفلة معا . والملاحظة الثانية هى انبثاق وجوهها أو أقنعتها من ظلام المساحة السوداء ، فهى وجوه وأقنعة ليلية هائمة كأرواح غامضة ، والملاحظة الثالثة هى الرمزية ، فكثيرا ما تجعل من عيون القناع طاقات تنطلق منها طيور غريبة ، أو تجعل الشفاه محكا لفراشات أو عصافير ، كأنما هى صور شعرية رومانسية مجنحة ، أما الملاحظة الأخيرة فهى الانسيابية الطليقة لخطوطها أو لمسات قطع الطباشير الملونة فوق الورق الأسود ، وأحيانا تقودها هذه الانسيابية إلى حالة من الثرثرة الخطية بدوائر متداخلة كخيوط تتلوى وتلتف على بعضها بغير نهاية ، لكنها تظل محصورة داخل مساحة القناع ، إن هذه الملامح جميعا تتناسب بالفعل مع تكوين امرأة أطلقت عقال مشاعرها فخرجت بصدق لا يعرف التصنع ، وهو إرهاص إلى مخزون فياض من الرؤى التعبيرية التى تحتاج مزيدا من الصبر والخبرة والتقنية المكثفة ، وبذلك تكسب الحركة الفنية وجها جديدا قد يكون مصدر ثراء لها.

البر الغربى

عرفت الفنان الشاب أحمد عبد الحميد لأول مرة منذ عامين فى مدينة الأقصر ، من خلال إشرافى على ورشة عمل إبداعية لعدد من الفنانين الشباب هيأتها لهم هيئة قصور الثقافة من خلال مرسم خاص ملحق بقصر الثقافة هناك ، ولاحظت فيه طاقة من الحيوية الزائدة لا تهدأ لحظة واحدة ، ولهفة مشتعلة للمعرفة والتجربة ، فهو لا يضع حدودا فاصلة بين الرسم والمعايشة ، أو بين الخيال والواقع ، ويبدو - مع طلعة كل صباح - كصفحة بيضاء مفتوحة أمام الطبيعة ، لتدفق فوقها بكارة اللون ووهج الضياء وعفوية الأشكال والظلال وسيولة الحركة ... إنها تلك الحالة التى تجمع بين روح الطفل وموهبة الفنان ، تلك الموهبة التى لم تمر عبر بوابة القواعد الأكاديمية ... وقد

من أعمال الخزف محمد مندور



كان هو الوحيد بين مجموعة الفنانين الشباب فى ورشة العمل تلك ، الذى لم يدرس الفن بأية كلية أو معهد أو حتى مرسم أحد الفنانين ، فى الوقت الذى كان الآخرون جميعا خريجين ومدرسين ودكاترة بكليات الفنون ، وكان ذلك كفيلا بإشعاره بالتضاؤل ويدفعه إلى الانزواء والاحساس بالنقص ، لكنه - على العكس - انطلق بفطرة الفنان الشعبى البسيط الذى لا يعنيه غير إمتاع نفسه بلا مطمع وراء إنتاجه ، وأقصى ما يسعده أن يسمع كلمة تشجيع تطمئنه إلى أنه على الطريق الصحيح .

«رقصة التحطيب» للفنان عبد الفتاح البدرى

وفوجئت به فى الشهر الماضى يدعونى إلى معرضه الخاص بأتيليه القاهرة ، وكنت أتوقع وأنا ذاهب إليه أن أجد مجموعة مناظر طبيعية ومشاهد من الحياة اليومية بالأقصر - وكم كانت دهشتى حين وجدت كماً كبيراً من اللوحات الصغيرة لا تكاد تلمح بينها شيئاً من الطبيعة والحياة فى الأقصر ، بل يمكن القول أن ما فيها هو «روح المكان» وليس المكان ، فقد أحال الفنان المرئى إلى محسوس ، وأحال المحسوس إلى مجرد ، مثيرا موجات من الحيوية اللونية والخطية المتدفقة بغير انقطاع ، تعادل حالة صاحبها فى سلوكه الشخصى ، والتى قد تخدع البعض فى قدراته ، إذ لا يتوقع منه مثل هذا المزيج الابداعى المشبع بالحلم .

وقد لا يجدى كثيرا أن تسمعه وهو يشرح لوحاته ، حتى يحيلها إلى استبطانات لا يعيشها أو يلاحظها غيره ، تماما مثل الطفل حين يشرح لك رسمه ، متصورا أنك على نفس موجة وعيه وإدراكه ، ولذلك فمن الأنسب لهذا الفنان الشاب أن يواصل تجاربه على سجيته ، مستعينا بمصفاة بصيرته الخاصة وخبرته التلقائية التى ستقوده إلى التطور الخاص به وحده ، وربما كسبنا فنانا متميزا لو وفرنا له وقت الفراغ الذى ينتج فيها أعماله ، حيث تبتلع وظيفته فى المصانع الحربية كل وقته وطاقته. وإذا لم يخدم نظام التفرغ للفن مثل هذا الفنان ، فما جدواه إذن ؟!

يموت هنا يزدهر هناك

بقلم
محمود قاسم

هل آن الآوان لاغلاق صناعة النشر الأدبى فى مصر؟!

تأتى الاجابة مؤكدة من خلال ما نشرته مجلة الاكسبريس الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٣ يونيه الماضى، حول أحوال النشر الأدبى فى باريس خلال الصيف الحالى.

التحقيق الذى أجراه ثلاثة من محررى المجلة، امتلأ بأرقام توزيع عالية للكتب الأدبية، وهذه هى المرة الأولى منذ زمن طويل التى يتم الحديث فيها عن القراءة اثناء موسم الصيف، باعتبار أن موسم القراءة الحقيقى يبدأ مع دخول المدارس، وأن الناس لا تقرأ اثناء الاجازات سوى ما هو طريف، وخفيف يتناسب مع أجواء البهجة.

ففيما سبق كانت الروايات البوليسية، وقصص التجسس، والتخويف، تتصدر قوائم المبيعات، وتباع هذه الكتب من أجل الاستهلاك اليومى، ويبدو ذلك واضحاً لو مررت بأسواق الكتب القديمة فى المدن الأوروبية، واكتشفت الى أى حد يتخلص الناس من هذا النوع من الكتب، لدرجة أن أحد الباعة عرض علىّ أثناء زيارتى بچينيف فى صيف عام ٢٠٠١ مجموعة صناديق من الكتب يمكنها أن تصنع مكتبة، بالمجان.

لكن، مع موسم صيف عام ٢٠٠٢، بدا الأمر يختلف الى حد ما، فالناس تتحدث عن جدوى قراءة أشياء أكثر جودة، وافادة من الكتب البوليسية، وهاهى، فى الأيام الأولى من الأجازات، تحقق بعض الكتب مبيعات خيالية فى فرنسا بشكل خاص.

الاستثناء الأول والوحيد فى قوائم المبيعات يتمثل فى رسوخ الرواية الأخيرة للكاتبة الأمريكية مارى هيجنز كلارك، حيث ظلت «أنت الذى أحببته طويلا».. فوق سلم المبيعات طوال الأشهر الماضية، وبيع منها قرابة نصف مليون نسخة.

وهذا الرقم يعتبر ضئيلا بالنسبة لما تحققه مبيعات الكاتبة فى بلادها، والغريب أن واحدة من أهم رواياتها قد ترجمت قبل عامين فى روايات الهلال باسم «قنبلة فى نيويورك» تنبأت فيها بتفجير مبنى التجارة العالمى، وهذه الرواية طرحت للبيع مرة أخرى عقب أحداث سبتمبر، لكن القارىء العربى يبدو كأنه لم يعد يهتم بقراءة الأدب، على مستوى واسع، لذا فإن مبيعات الرواية فى مصر، تحقق ماكان منتظرا منها مقارنة بتوزيعها الذى تجاوز الملايين العشرة فى الولايات المتحدة، وأوروبا.

صناعة النشر فى أوروبا تقوم على أسس معرفة ماذا يريد القارىء، فى الوقت المناسب، وهناك موعد محدد لصدور الكتاب فى السوق، يتم الاعلان عنه، وعمل حملة إعلامية له، بحيث يترقبه القراء، ولا يعنى بيع نصف مليون نسخة من رواية لمارى هيجنز كلارك سوى أن الناس قد طبع على كمية مضاعفة، وانه عمل حساباته، وعرف جيداً الأرقام المتوقعة للبيع.

يجيء هذا التحقيق فى وقت، نشرت فيه إحدى الصحف أن النشر الأدبى يتناقص توزيعه ، وأن الكاتب فى الكثير من الأحيان يشترى عدداً كبيراً من النسخ، أى اننا امام صناعة تكاد تموت، تحت ادعاء أن الوسائل المنافسة تمثل خطراً للكتاب، وكأنما العالم التقنى لا يستخدمها أكثر منا.

الروايات العشر الأولى فى قائمة المبيعات الفرنسية فى الشهر الماضى كانت كما يلى: الرواية المذكورة لمارى هيجنز كلارك، ثم رواية «كتاب الوهم» للأمريكى بول اوستر، و«مأوى الحجارة» للفرنسى چان اويل، و«اليد الرابعة» للأمريكى چون ارفنج،

و«احبته» للفرنسية آنا جاڤالادا، و«أرحل بسرعة وارجع متأخرا» لفريد فارجاس، و«ليلة فى النادى» لكرستيان جايلى، و«الأربعون التائهون» لريمون ديفوس، و«بيجى سو والأشباح» لسيرج بروسلو، ثم «مجهول هذا العنوان» لكرسمان تايلور.

هوس بالفراعنة

لكن فى مصدر آخر، فإن الكتب المبيعة، تتوقف من ناشر لآخر، حيث ان البان ميشيل يبدو كأنه يمتلك إدارة خاصة، اقرب الى المجسات فى عملها، أو الرادار الذى يستكشف به درجة قبول النص الأدبى لدى القراء، وقد راهن هذا الناشر، فى الصيف الحالى، على العديد من الروايات الفرنسية ، فغامر باصدار أحدث رواية للكاتب باتريك كوڤين تحت اسم «دم الورود» ثم نشر رواية «أنا مركب» للكاتبة سيلڤى جرانوتييه. ويقول مدير النشر انهم يعدون معسكراً كاملاً لكتب الصيف، ويرسمون أشكالاً بيانية متوقعة لمبيعات كل كتاب، وفى الغالب ما تأتى النتائج مثلما تم التوقع.

ولا أعتقد أن لدينا فى مصر، فيما يتعلق بالنشر الأدبى، ما يشبه هذه الإدارة، ففى الوقت الذى يحجم فيه الناشرون المصريون (القطاع الخاص) عن النشر الأدبى ، إلا فى حدود مجاملات الصحفيين المبدعين الذين يعملون فى الصحافة الأدبية، فإن المؤسسات الحكومية تطبع الكثير ، دون أن نعرف الأرقام الحقيقية للمطبوع، أو الموزع، وتبدو النتيجة واضحة فى هذا الكم الهائل من المرتجعات المباعة بأسعار متدنية، بهدف التخلص منها، وتفريغ المخازن من أجل استقبال المخرون الجديد.

وليس صحيحاً أن المبيعات الأعلى فى الصيف، ينحصر هذا العام على القصص البوليسية، فقد تمكن جون جريشام الأمريكى من منافسة مواطنيه فى الترجمات الأدبية عن روايته الأخيرة «الحصار الأخير». والمعروف أن جريشام هو ابرز كُتاب القصص البوليسية فى السنوات الأخيرة، وأن اعماله تحولت جميعها الى روايات ، لكن هذا الكتاب ليس رواية، بقدر ما هو تجربة ذاتية وسيرة خاصة.

وأكثر ما يثير الدهشة فى عالم الربح والخسارة فيما يتعلق بالنشر، هو ظاهرة اسمها كرستيان چاك، ذلك الرجل المصاب بهوس التاريخ الفرعونى، وقدم على مدى السنوات الأخيرة أكثر من عشرين رواية ضخمة الحجم، وبعضها يقع فى اجزاء متتالية، مستمدة جميعها من التاريخ الفرعونى.

انه أمر اقرب الى المزاح، فالفرنسيون يعشقون تاريخنا أكثر منا، ومن بين هذه الروايات الأكثر مبيعا لم تتم ترجمة عمل واحد الى اللغة العربية، فى مصر، حتى الآن، وقد حققت رواية الصيف الفرعونية هذا العام لنفس الكاتب واسمها



«ملكة الحرية» ما لايقل عن ٣٥٠ الف نسخة لكل جزء من الأجزاء الثلاثة معا. أى مليون نسخة.

خزانة الروح

ليس هناك لدى الناشرين دوما كتاب لديهم نفس أرقام المبيعات مثل جريشام، وكلارك. خاصة فى الصيف، لذا، فإن العديد من أصحاب دور النشر، يلجأون الى الدعاية المكثفة، ليس فى التليفزيون، ولكن عن طريق طبع عدد كبير من ملصقات الدعاية، ووضعها عند محطات الترام، والمترو، ولأن مواعيد القطارات منتظم، فان الناس تجد نفسها أمام الملصقات ، فلتلتصق بذهنها، وتشترى الكتاب الذي أوحت له الافيشات انه يستحق القراءة، وهذه هى سياسة دار النشر «جراسيه». التى ترفع شعار «متعة القراءة». وقد حدث هذا بقوة فى الشهور الماضية مع رواية «عواجيز بريتون» تاليف جونزاج سان - يرى الذى كان من المفروض أن يطالعه الناس مع أول الموسم الدراسى.

والملاحظ أن حركة الترجمة الى اللغة الفرنسية تزداد فى الفترة الأخيرة، فقبل أن يشاهد الناس فيلم «عازف البيانو» إخراج رومات جولافسكى فى مهرجان كان، ودور العرض، كانت دار نشر روبير لافون قد أصدرته مترجما عن مؤلفه البولندى فلاديسلاف سبيلمان. ولاشك فى أن المبيعات قد تضاعفت بعد فوز الفيلم بالسعفة الذهبية.

ووسط هذه الأجواء التى تتغير، فإن المنافسات تشتد بين دور النشر، من أجل اكتشاف المبدعين الجدد، والمراهنة عليهم، وقد نشرت الصحف، والصفحات الأدبية فى المجلات ، طوال الأسابيع الماضية متابعات أدبية متعددة، للروايات الجديدة التى يكتبها مؤلفون ينشرون أعمالهم لأول مرة، فراهنت دار نشر روبير لافون على رواية «السم الأخضر» تأليف باتريك نوتريه، وراهنت دار نشر (XO) على رواية «خزانة الأرواح» للكاتب داڤيد خياط، ذى الأصل التونسى، وهى رواية يقول إنها تنتمى الى الروايات البوليسية الطبية، أما دار نشر فلاماريون، فقد راهنت على رواية مترجمة بعنوان «أعراس هندية للكاتب الأمريكى شارون ماس، فى نفس الوقت الذي دخلت رواية «خبز البحر» للكاتبة جويل روجنس المنافسة من قبل الناشر لاتيس.

هذه الظاهرة ، لم تكن موجودة من قبل، فى شهور ماقبل الصيف، وفى موسم الأجازات نفسه، فالمتابع للصفحات الأدبية ، ولتواريخ اصدارات روايات الشباب، فيما سبق، فانه سيلاحظ انها كانت تصدر تباعا، وبالتناسق بين دور النشر، مع بداية سبتمبر ، وذلك من أجل أن تتاح لها فرصة التنافس على الجوائز الأدبية التى

تعلن عادة فى أوائل شهر نوفمبر.

أى أن الناشرين قد ضربوا أكثر من عصفور، بمحاولة واحدة ، فهم يضمنون البيع فى الصيف، ودخول المنافسة، والفوز بالجوائز، والغريب أن ظاهرة المراهنة على اصدارات الصيف لم تجيء مصادفة، بل تحمس لها جميع الناشرين معا هذا العام، بما يوحى بالتنسيق البالغ الدقة بين هؤلاء العاملين فى مجالات النشر، واتضح الأمر من خلال المواعيد المحددة لظهور كل كتاب على حدة.

موت.. وحياة

فكما أشرنا، فان موعد ظهور كتاب، أشبه فى أليته، بموعد عرض فيلم، حيث يعرف القارىء مسبقا، متى سيظهر الكتاب، وعليه أن يحجز نسخته.

لكن السؤال هو: هل يمكن لموسم العودة أن يتم وأده، بما ظهر مؤخراً ، فيما يتعلق بموسم النشر الصيفى؟.

الاجابة تقول إن هناك ٥٥٧ عنواناً جديداً ستصدر فى التاسع عشر من أغسطس الحالى، أى مع بداية موسم العودة، وتقول مديرة إحدى دور النشر «إنهم يبيعون مابين ٨٠ ألفا الى ١٠٠ ألف كتابا شهريا خلال الصيف، فلماذا يتم تجاهل هذا الرقم من المبيعات دون إصدار عناوين جديدة».

ولعل بزوغ هذه الظاهرة الثقافية الجديدة فى أوروبا، كان سببه حدث لم يمر اعتباطا فى فرنسا، ففى صيف عام ٢٠٠١، طبع الناشر أربعة آلاف نسخة فقط من كتاب «الحياة الجنسية لكاترين م» من تأليف كاترين ميليه، لدواعى القراءة الصيفية، ففوجيء بطلب متلاحق على الكتاب ، وكانت الحصيلة بيع ٢٢٦ ألف نسخة فى أشهر الصيف.

الحياة تتغير من حولنا، فيما يتعلق بالنشر الأدبى، وفى مصر، فإن الأمر يتغير، صحيح أن مشروع القراءة للجميع يسد فراغا هائلا فى النشر الأدبى، والثقافى، وهو يختلف تماما عن الخطط التى لدي الناشرين، خاصة القطاع الخاص، وفى الوقت نفسه، فإن الأمر يتعلق بدرجة إقبال القارئ العربي على متابعة الروايات ، خاصة الجديد منها، وبخصوصية أدق الأبداع الجديد لكتاب يؤلفون لأول مرة.

فى الوقت الذى يفخر فيه الناشرون فى العديد من المدن العالمية، بأن توزيع الكتب الأدبية يزدهر. فإن البعض يعلن هنا عن «اقتراب موت النشر الأدبى» ، خاصة المنظم منه، وأن مؤسسات بعينها هى التى تفعل هذا، ومنها الثقافة الجماهيرية، وهيئة الكتاب، وبعض الدور الصحفية فى حدود ما. ■



الموروث الشعبى في روايات الأمريكية زورا هرستون

بقلم
د. عزه مازن

رغم كونها واحدة من أبرز الكاتبات السود الأمريكيات فى فترة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين فإن هرستون لم تحظ باهتمام النقاد فى عصرها، فقد غابت أعمالها عن معظم الدراسات النقدية ولم يفهمها معاصروها ولكن مع اهتمام الكاتبات المعاصرات من السود الأمريكيات بإرساء تقاليد أدبية تقوم على فهم تراث الأجداد واستيعاب قيمه الجمالية، وبفضل بعض من النقاد المعاصرين المتميزين ظهر الاهتمام بأعمال زورا نيل هرستون، واعتبرها النقاد المعاصرون واحدة من أبرز رموز الحركة الأدبية فى العشرينات والثلاثينات. يرجع تميز هرستون ككاتبة سوداء إلى قدرتها على الاحتفاظ بالموروث الشعبى للسود فى أعمالها الروائية وغير الروائية فقد استمدت معايرها الأدبية الجمالية من ثقافة السود وتراثهم الشعبى، وأساليبهم فى الحكي والسرد. وبذلك ساهمت هرستون فى القضاء على الرؤية الأحادية للأدب من حيث الفهم والإبداع. اعتمدت هرستون فى أعمالها الروائية على جماليات الثقافة المجتمعية للسود وعلى منظومتهم الأخلاقية والعقائدية الشعبية

الموروث الشعبي

مولدت هرستون في بلدة ايتنوفيل في أعماق الجنوب الأمريكي وهي بلدة سكانها جميعا من السود. من هنا ترسخت في أعماقها جذور الثقافة الشعبية السوداء واتحدت في نفسها مع موهبة متميزة في الحكي جاء الاحتفاء بهذا الموروث الشعبي في جوهر أعمالها الأدبية: «يونس وكرمة العنب» (١٩٣٤) «عيونهم ترقب السماء» (١٩٣٧)، «موسي: رجل فوق الجبل» (١٩٣٩) ليشكل مشروعا أدبيا ومجالا للفخر والاعتزاز لم يغب أثر هذا التراث حتي عن روايتها الأخيرة «ملاك فوق نهر سواني» (١٩٤٨) والتي اتخذت أبطالها من البيض في الجنوب.

اتجهت هرستون في نهاية العشرينات إلي دراسة الأنثروبولوجي وأثمرت رحلاتها البحثية عن كتابين متميزين في هذا المجال: «بغال ورجال» (١٩٣٥) «وقل لحصاني» (١٩٣٥). كرست هرستون حياتها لإثبات قيمة ثقافة السود وثراء موروثهم الشعبي، بل وتميز هذه الثقافة وتفوقها.

التحم التاريخ مع الموروث الشعبي في أعمال هرستون ليكوّنا معا جانبين لاستراتيجية واحدة تسعي لمواجهة الماضي من أجل العمل لمستقبل أفضل. بوعي عميق لتاريخ السود كأحد مكونات موروثهم الشعبي استخدمت هرستون التاريخ كوسيلة لمواجهة الماضي واستشراف المستقبل. أدي هذا الوعي الخاص بالتاريخ إلي مفهوم خاص للقيم المجتمعية للسود فاعتبرت ذكرياتها الخاصة جزءا من التاريخ المجتمعي للسود في الجنوب الأمريكي. جاءت أحداث من سيرتها الذاتية لتمثل مكونا أساسيا في سياق أعمالها الروائية، حيث إلتقت مؤثرات من حياتها الخاصة بأحداث تاريخية مهمة كان لها تأثير كبير علي الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسود في أمريكا.

كانت تجربة العبودية من أهم الأحداث التاريخية التي ألقت بظلالها علي حياة السود. في كتاباتها غير الأدبية أعلنت هرستون موقفها الرافض لأولئك الكتّاب الذين يتخذون من مشكلة العرقية محورا أساسيا لأعمالهم الأدبية ومن ثم كان رفضها لتيار أدب الاحتجاج الاجتماعي الذي ساد روايات السود في الثلاثينات والأربعينات فلم ترض هرستون عن المفهوم السائد في ذلك الوقت الذي يحتم علي الكُتّاب السود ضرورة تكريس فنهم لعرض مظاهر معاناة السود من اضطهاد البيض في زمن العبودية، ومع ذلك لم تهمل هرستون أثر تجربة العبودية علي التكوين النفسي والفكري للسود وتأثيرها علي علاقاتهم بعضهم ببعض وبالعالم الخارجي. أدركت هرستون تمام الإدراك أن تجربة العبودية جزء لا يتجزأ من الموروث الثقافي الجمعي للسود. فتناولت في أعمالها الأدبية أثر هذه التجربة علي تشكيل وعي أبطال رواياتها وعلاقاتهم الاجتماعية ومدي تأثيرها في تكوين صورتهم الخاصة عن أنفسهم وعن العالم من حولهم. لم تغفل هرستون ما خلفته هذه التجربة في نفوس السود من إحساس بالدونية حال دون تحررهم النفسي وعرقل انطلاق مواهبهم الإبداعية. ولكن جاء تناولها لهذه التجربة




زورا هرستون

مختلفا عن تناول تيار الرفض السائد في الثلاثينات والأربعينات فلم تقدم هرستون هذه التجربة في سياق الاعتراض والشكوي، وإنما لمواجهة الماضي والتحرر من سلبياته من أجل بناء المستقبل من هنا كانت رسالة هرستون أن قوة التحرر الكبري للسود تكمن في ثقافتهم الغنية. فبوعيهم بثراء هذه الثقافة يمكنهم التحرر من عقدة الدونية التي زرعها البيض فيهم، ومواجهة مضطهديهم من منطلق ثقافة مساوية لهم بل ومتفوقة عليهم.

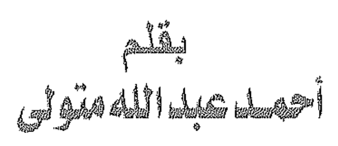
انطلاقا من مفهومها لمشكلة العرقية تناولت هرستون تاريخ السود في أعمالها تناولا خاصا فقد تناولت أحداثا تاريخية مهمة مؤكدة علي دور الأمريكان الأفارقة في تاريخ الولايات المتحدة وبنائها الاقتصادي. من أهم هذه الأحداث الهجرة الكبري للسود من الجنوب الأمريكي الزراعي ونزوحهم نحو الشمال الصناعي في أعقاب الحرب العالمية الأولي، وما أسفر عنه ذلك من تغيير في البناء الاقتصادي الأمريكي.

توحد مفهوم هرستون الخاص للتاريخ مع مفهومها للموروث الشعبي للسود. فلم ترعيه كيانا جامدا من الماضي بل استمرارية حضارية تمتد بأثارها في الواقع المعاش.

استعرضت هرستون في أعمالها جماليات ثقافة السود مؤكدة تأثيرها الكبير علي مدي إيمان السود بقدراتهم الذاتية وتحررهم من عقدة الدونية. استخدمت هرستون أيضا، كوسيلة للنقد السياسي والاجتماعي، الأساليب المختلفة التي لجأ إليها السود في ظل هذه الثقافة للتعبير عن آرائهم في زمن العبودية والسخرية المستترة من مضطهديهم البيض. ومن ذلك منهج الحكاية الشعبية التي يعبر السود من خلالها عن رغباتهم الدفينة وآرائهم مستخدمين في ذلك أشكالا رمزية من الحيوانات ومن ذلك أيضا أسلوب القناع الضاحك حيث لجأ السود إلي الحكايات الضاحكة للتغلب علي معاناتهم وتحقيق رغبهم الدفينة في السخرية من الرجل الأبيض بأسلوب لا يفهمه البيض.

انطلاقا من علاقتها المباشرة بالسياق الأصلي لموروث الثقافة الشعبية للسود ومن ثم التحامها الأصيل بمكونات هذه الثقافة، استطاعت هرستون بنجاح وبراعة أن تستمد معايير الجماليات الأدبية في أعمالها من تاريخ السود وجماليات موروثهم الشعبي. وبذلك أرست هرستون الأساس لجيل من الكاتبات السود المعاصرات يسعين لبناء تقاليد أدبية خاصة تستمد أصولها من وعي عميق بتاريخ السود وموروثهم الثقافي وجمالياتا المجتمعية. ■

قصة قصيرة



لقاء في طنجة

كان الجو بارداً، البحر يلقى رذاذه على جلدي، أتدثر بالماء المالح تحت فضاء رحب، السماء زرقاء، صافية ، مرصعة بالحمام الأبيض.

اشتاق جسدى لصلابة الشاطىء.. أمضغ قطعة خبز جافة، تتجول العين فى رؤيا اللا شيء.. وكل شيء.

على الحجر تجاعيد، ويصمات الزمن الماضى.. جاءت لفحة هواء دافئة، وعلى حين بغتة ارتفعت تنورة حمراء.. رفعت بصرى إلى حسناء.. يا للبهاء! أهى حورية من البحر أم من البر؟

لاحظت عيناى وهما تلعقان جسمها المرسوم بضوء النهار.. وتتجولان فى تضاريس الحرارة والدفء والحسن.

ابتسمت وهى تصوّب نظرتها صوبى.. يا للمرح الطفولى، أقبلت، تسألنى فى صوت كلحن فى نشيد.

– معك نار؟

كانت لحظة التعارف سريعة كاللهب بين فتاة أوربية لا تعرف البطء وبينى.. نظرت إلى عينيها .. بوابتين خضراوتين، وحين تكلمت تخرج الألفاظ كالموسيقى، وبحماسة قلت : «احتوانى جمال المكان فنسيت نفسى!..» الجملة غامضة لكنها لم ترفض قولى.. وغمزت لى بعينها ثم قالت : كثير ما يحدث لى هذا .. فى طنجة.

كانت طويلة، ممشوقة القوام .. كالرمح .. على رأسها تاج من الشعر الذهبى الجميل المضموم فى بساطة على شكل ذيل حصان

لست مراهقا.. ماذا أقول لطغيان الجمال إذن!.. لابد من لاعتراف بأن نظراتى - بالرغم منى –



كانت ترحل فى مجاهل تكوينها.. إنها قطعة موسيقية تجسدت فى شكل أنثى!

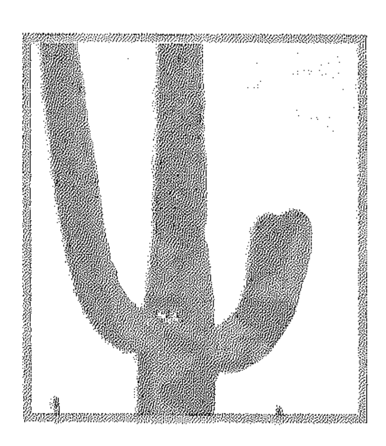
وجاءت سيرة الطعام.. وطلبت الشهية ما تشتهى.. فرحت أقدامنا نحو مطعم فاخر.. أشارت صاحبتى إلى ركن دافىء فى المطعم .. بالنسبة لى لم أفهم تعبيرها itis cozy ، جلسنا، لفتنا غيمة عبير دافئة.

أكلنا لحماً مشوياً وشربنا بعض البيرة. مازلت أرحل فى سعادة خفية.. أتطلع - فى رفق - إلى ملامحها المتوردة .. مسامها تمنح قلبى لمسة دفء عجيبة.. وتسلل السؤال إلى أعماقى هب العين السعيدة تجعل القلب يمرح فى دنيا الألوان المنسجمة.

سمعتها تقول والبسمة تنبض على الشفتين: الجلوس بعض الوقت على رصيف المقهى فى هذا الوقت، عادة أمارسها، هل تشاركنى.

- بكل سرور.

- أعتقد أن الراحة القليلة بعد الأكل مطلوبة.. هذا درس الأطباء لنا!



وتجولنا قليلا ، فى جو منعش.. قادتنا أقدامنا إلى قهوة فسيحة متعددة الأبواب، فى بناية قديمة عالية السقف.

لكننا جلسنا خارج المقهى على الرصيف، على مقاعد خيزرانية ملونة وأمامنا طاولات صغيرة مستديرة.

كان المقهى مطلاً على شارع فسيح، هادىء، يجلس بعض السائحين وأهالى البلاد، تتصاعد دوائر الدخان الزرقاء.. من «البايب» أو السجائر.. والبعض يدخن النرجيلة.. وآخرون يحملقون فى وجوه الأشكال المتحركة.

جاء الجرسون .. التفتت إلىّ «يارا»: - ما رأيك فى الشاى؟ وكأنها تعرف عاداتنا.. وحبنا لشرب الشاى بعد وجبة دسمة.

- عظيم .

سمعت صوتها الحريرى يهمس فى أذنى: هل تسمح لى بسؤال عابر؟

قلت : أهلاً بالسؤال.

قالت : ما الذى جاء بك إلى طنجة؟

- وهل قدومى إلى طنجة ، يثير التساؤل؟

ابتسمت كأنا تعتذر عن السؤال.. ولكنها أضافت: انظر حولك، نكاد تكون المصرى الوحيد هنا!.. انت ترى أمريكان، إنجليز، فرنسيين إيطاليين، وبالطبع مغاربة! ولكنك الوحيد من نوعك.

قلت وقد أزعجتنى الملاحظة بعض الشىء ولم ترض غرورى:

- على أية حال .. أنا هنا.. فهل يرضيك حضورى؟

- بكل سرور ، وأنا سعيدة بمعرفتك.

وكأنها تعتذر عن سؤالها قالت : ما رأيك فى جولة.. هل تعرف الأمكنة هنا؟

نظرت إلى الأفق البعيد وقلت: موافق على الجولة.. أما عن معرفتى

بالأماكن فأنا أكثر غربة منك!

قـالت بأدب - تداعبنى - المفروض أنك قريب لأهل هذه البلاد وتتكلم لغتهم .

قلت لها وأنا أحبس انفعالات طارئة : اللغة ليست وحدها أداة تفاهم.

وأضفت وفى حلقى بعض المرارة.. (وقد تكون أداة تباعد)!!

أحضر الجرسون الشاى والماء المثلج وانصرف.

وضعت «يارا» حقيبتها فوق ركبتيها وأخرجت أوراقا نقدية، يبدو أنها تريد أن تدفع نصيبها من الحساب.. أمسكت يدها بالنقود وأقسمت ألا تفعل، فتعجبت ولم تفهم سلوكى، ورحت أغير الموقف:

- يارا .. سألتنى ما الدافع إلى زيارتى لطنجة ، فى الحقيقة أنه الملل.

نعم الملل الذى يحركنى من مكان إلى آخر.

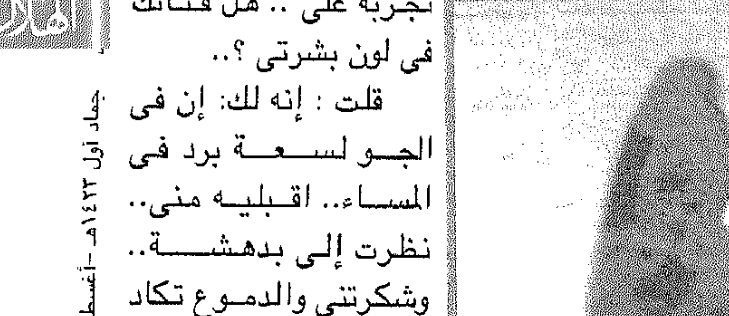
- أما زلت تفكر فى سؤال عابر.. كان وسيلة للتعارف!

وراحت تثرثر حول أشياء كثيرة، ترصد الأشياء بذكاء ومداعبة مرحة، تجعل النفس تتشبع بالبهجة، وأينما نظرت إليها وجدت ابتسامة تنبض على شفتيها كطائر جميل.

كنت أحسب نفسى المسرف فى المشى والتجوال، فاقتنى يارا حباً للمشى ورغبة فى التجوال، تمسح بعينها شوارع المدينة فى عشق.. سمعتها:

- طنجة مدينة رائعة، وقد زرتها عدة زورات. إنها مدينة لها أكثر من بوابة بل طنجة نفسها بوابة المغرب.. ايه لن أقلد المرشد السياحى الغبى!

مشينا فى الدهاليز، الشوارع ليست ممتدة، انها تفاجئك بدوران، أو منحنى أو تصعد بك أو تهبط.. لكنها مدينة



صريحة، سهلة، ترحب بالضيوف، تشعرك أنها مدينة متاحة، مثل امرأة بلا عقد، تفتح ذراعيها بلا حياء!

يا لبهجة الألوان التى تمطر فوق عينى!.. يارا تسير بجانبى، حورية، تطالع المعروضات والبضائع.. عرجت نحو بائع ملابس .. قالت يارا تخربشنى:

- كنت أحسب النسوة وحدهن المتلهفات على الشراء والاقتناء!

لم أعلق.. أمسكت شالاً قطنياً غيرته بآخر من القطيفة .. أحمر اللون.

- ما ريك يا فنانة ؟

- رائع .

دفعت للتاجر ثمن الشال .. وأخرجت الشال من الكيس النايلون وأحطته حول كتفى يارا.. قالت يارا باسمة : هل تجربه علىّ .. هل فتاتك فى لون بشرتى ؟..

قلت : إنه لك: إن فى الجو لسعة برد فى المساء.. اقبليه منى.. نظرت إلى بدهشة.. وشكرتنى والدموع تكاد تسيل من عينيها.. وقالت فى نعومة: هذا كثيرا.

أشكرك .. شكراً جزيلاً !.

وأثلج صدري أن وجدت أناملها تداعب أطراف الشال.

ارتمت على عيني بعض النباتات الملونة، فشحذت ذهني بالسؤال قلت لها:

– هل هي طنجة التي عرفتها في أول زيارة ؟

– لا.. المكان يختلف دائماً.. كنبض الاحساس!.. طعمها الآن أجمل .

سرتني مقولتها ..

المقاهي الرصيفية مرصعة بالكراسي، مزركشة بالسائحين، وتطل علينا في ترحيب ابتسامات الباعة في «البازارات» التجارية المتراصة بجوار بعضها في ود. وتطل علينا البضائع الفاسية والتطوانية والمراكشية، وتشعرك بالأيدي البارعة المنتجة لهذه الأعمال البديعة.

نظرت في وجه يارا، فوجدت طنجة بوجهها البشوش.. قالت يارا:

– هل تسمح لي بالذهاب إلى الفندق.

نظرت في عينيها، وجدت لون السماء الزرقاء سألتها: هل أنت متعبة؟

– نجلس قليلاً، ونأتي بأدوات الرسم وبعض الأوراق.. ألا تحب أن تراني وأنا أعمل.

– لم لا.. ربما أتعلم منك كيف تختارين التكوين.

– تقصد أختار اللقطة ، ثم أصنع التكوين.

التقفتنا الدهاليز، ثم خرجنا بحذاء البحر، قالت يارا: أتعرف يا صديقي أن البعض أطلق على طنجة اسماً جذابا .. «بوابة الأحلام». ما أجمل أن تراقب امرأة تعشق مدينة! تقول يارا في حماس..

(أتحدى أن يزورها انسان ولا يقع في عشقها..).

تتفرس العين.. في مظهر المدينة العتيق . تهمس لي :

– ألا يوحي المكان بالرسوخ والثبات؟

أمسكت بكفها وقلت : لا أفهم الثبات!

تنبسط المدينة بلا ضوضاء ولا صخب!

شاهدت سيدات محتشمات يلبسن غطاءً للرأس، قبعة عريضة جميلة، مكملة للأثواب الفضفاضة، وبعضهن حاسرات الرأس يكشفن عن سيقانهن.

سألتني : أتعرف شيئا عن تاريخ طنجة .

قلت مغتاظا : منك أستفيد!

قالت : كانت طنجة محمية فرنسية منذ سنة ١٩١٢ – ١٩٢٣، ١٩٥٦ وربما قلنا هذا هو عصر المدينة الذهبي.. أنا لا أسرف في حكمي .

– يبدو أن النكهة الفرنسية تعجبك.

– بل الجو الدولي ، انها مدينة كوسموبوليتية بكل ما في الكلمة من معنى.

– أنني أراها مدينة عربية، لها بصمة عربية. ربما تكون عيني متحيزة.

– وجهة نظر .. ثم أمرتني في لطف:

قـف .. أريـد أن أمـسك لحظة في يدي.. وراحت تلتقط صورة.

ثم ثبتنا الكاميرا لتلتقط لنا معا .. صورة ..

وحين اقتربت مني .. صاح صوت داخلي يقول في تمن :

«كـم أتمـنـى أن يضمني معها ملليمتر مربع»!

وفي موضوعية لا مكان لها قالت : أتعرف أن الضواحي تتضخم بسرعة. انها تمتلىء بعمارات لها طابع غربي.

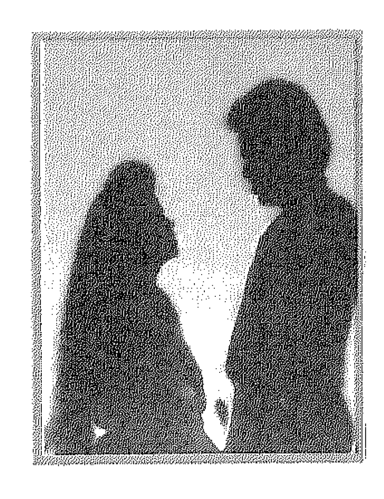
– لكنها عمارات نظيفة وجميلة وصحية.

– لكنها دخيلة مثل الطبقات التي كانت تسكنها.

وقلت لها متسائلاً : لماذا القول بأنها طبقات دخيلة؟

– هي بالفعل كذلك، كانت طبقة عاشت في ظلال الحامية الفرنسية وجنت بعض الثروات المتواضعة من الأجانب !

خرجت فتاة صغيرة من أحد البيوت أو «الخيم الخشبية» كما تسميها «يارا» وأشارت لنا بكرم – وحب للغرباء – تفضلوا.



أمـسكت (يارا) الفرشاة وراحت تضرب في مهارة على الورق، واقتربت منها الطفلة في شغف .. ترمقها يارا.. مازلت ترسم وتدندن بلحن غامض.

خاطبت يارا الطفلة : أتحبين الرسم؟.

– جـداً ، ولكنني لست ماهرة مثلك.

– هل تحـبين أن أرسمك ؟.

– بكل سرور.

فقبلتها وأشارت لها أن تقف في مكان قريب.. تحـدث الطفلة وهي ترسمها تضع اللمسات للشعر الكستنائي والخرز الملون حول العنق النحيل.

أخرجت يارا ورقة مالية ومدت يدها للفتاة الصغيرة، البنت ترفض في خجل، أمسكت برأسها وقبلتها في وجنتيها ودست الورقة المالية في جيبها، وطلبت من الطفلة كأساً من الماء البارد ذهبت الصغيرة.

– بنت لطيفة جداً .

قالتها في رقة.

عادت البنت بزجاجة مـاء بارد وكـأسين وزجاجتين من المانجو على صينية نظيفة مشغولة برسوم وزخارف عربية أنيقة.

رحـبت يارا بكرم الفتاة الصغيرة، وأكثرت من الاعتراف بالجميل.. وعادت إلى رسمها ترصد المساكن الفقيرة .. وسألتني وهي مشغولة بعملها:

– هل يعجبك الرسم؟

قلت بصوت لا يخلو من الضيق لانشغالها عـنـي : رائـع ، إنـه يـصـالحني مع هذه النفايات! وما نرفضه في الواقع يجمله لنا الفن. وأضفت كمن يعتذر عن غلطة ليس لها مبرر.. أعني يجعلنا نقبل الواقع ونفرح به.

لم ترفع بصرها عن الورق: الرسم لا يزيف الواقع .

وفي مهارة التلوين

قالت انظر هناك .. هل ترى تلك التلة الرائعة .

- أراها..

- البعض يقول عن التل «الجبل».. وأهل الوطن يعتبرونه رمزاً من رموز العهد البائد!.. لعلك تلاحظ الفيلات الرحبة المبنية على طراز أوربى صرف.

- أتسعدين بالرسم؟

- جداً .. ولكن كيف ننقل لغة الريح وحفيف الشجر وصمت الصحراء.. الرسم يحاول ، صحيح أن الرسم يحاول الوصول إلى العمق.. ويمكن أن يتحول الرسام إلى متصوف.. وأنا أحاول.

- هل أدعوك لبعض البيرة .

- بكل سرور .. ولا تنسى السجائر!.. مدت يدها بالنقود.. قبلت اليد ولم أقبل النقود.

انتقلت يارا تحت شجرة، واستغرقها العمل. وانسدل الشعر الأصفر على جانبى وجهها. ضمت شفتيها السيجارة بشغف.. تقول

- أتعرف أن طنجة محط كثير من الأدباء والفنانين.

- مثل من ؟

نظرت إلىّ باستغراب، كمن يجهل كنوز بلاده ، تشرب البيرة .. اسمعها:

- جاء إلى هنا ديلاكروا وماتيس وفرانسيس بيكون وجوزى هيرنانديز، وليام بيروكس وچاك كيرواك، الين جينسبرج ، وصمويل بكيت، وأعتقد أن بكيت يأتى إلى هنا فى الشتاء.

- لماذا الشتاء ؟

- لا أدرى ! رغم أن الناس لا تأتى هنا فى الشتاء ! ربما يعشق المنافى البعيدة ولا يحب الزحام.. الشتاء له صفة خاصة هنا ، أنه يعطيك الفرصة فى الانفراد.

- تصورى .. أنا أيضا أحب زيارة الإسكندرية فى الشتاء .

خذ البيرة .. أكملت :



قابلت هنا فى المرة السابقة الكاتب الأمريكى تنسى وليامز. ويأتى إلى هنا رولان بارت، وسفير كوبا سيفيرو ساردى، إنه شخصية لطيفة جداً. يحب التسكع بين حارات طنجة القديمة ، ويتحدث عنها بعشق اسطورى.

بالمناسبة .. هل تعجبك كتابات ويليام بيروكس.

قلت متحرجاً: لم أقرأه.. وأضفت .. تتحدثين عن طنجة كأنها الفردوس الذى يضم الملائكة.

- إنه القطاع الذى يهمنى.. بالطبع هناك من يأتى للسرقة والتهريب ، منذ أصبحت طنجة مدينة دولية.. ولا غرابة أن تجمع الشعراء والفنانين والمهربين وقطاع الطرق!. وإنها صارت سوقا للصفقات من كل نوع.. عموماً الناس البعيدون عن قوانين بلادهم يتصرفون بحرية أكثر.. الكثير من البضائع الممنوعة موجودة فى الأزقة الملتوية، حيث أصبحت مساحة لعملياتهم المشبوهة.

ونظرت إلى بعد

الفقرة الطويلة.. تمتص السيجارة بشغف، تشرب البيرة بتلذذ.. تقول كأنها تعتذر عن وجهة نظرها: أنا يا صديقي لا أبحث عن الرومانتيكية، ولا أبحث عن ماض مزيف!

راحت تعرض عليّ بعض الاسكتشات حول طنجة.. انها تجهز لمعرض كامل عن هذه المدينة.. صور جميلة .. فرشاة رقيقة.. ألوان تجذب النظر.. توقفت أمام النساء الجبليات ومعهن بضاعتهن ويرتدين قبعات عريضة من الخوص الأصفر مطرزة بنقوش جميلة، وبعضهن يرتدين ثيابهن الملونة بالخطوط البيضاء والحمراء، يتلفعن بالشيلان البيضاء ذات الشراشف.

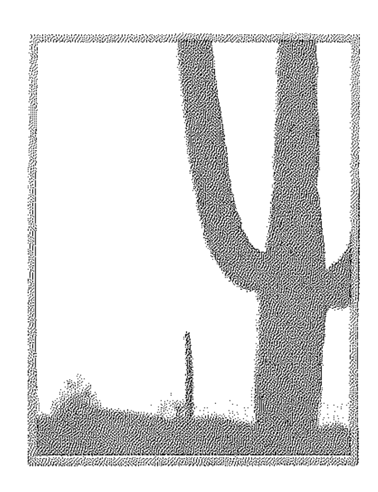
ملت نحوها.. سألتها : ألم تفكرى فى الزواج؟.

بدا السؤال شخصياً وسخيفاً ولكنها ابتسمت وردت على السؤال بسؤال:

– عندك عريس ؟

قلت بحماس : هذا الجمال له ألف مليون زبون.

– آه .. زبون !.. لا



أحب أن أتحول إلى سلعة.

– أسف .. خانني التعبير.. يالقبح اللسان!

– الفن قضية تستوعب عمرى كله، ورحلة البحث فى الدنيا .. فى الناس.

لا تنتهى .. ولا أبحث عن عريس.. ولا زبون!

– أتقصدين أن ..

– بالضبط .. أنا رحالة .. لم أستقر بعد على شيء!

– ودور المرأة عندك .. حرام هذا الجمال الفاتن ..

قاطعتني بإبتسامة ..

– هناك من ينهض بهذا الدور.. إن كنت تقصد الانجاب وتربية الأولاد.. و.. وعني شخصياً فالمرأة المدجنة لا أقبلها فى نفسى!..

– لكن المرأة حصلت على حريتها فى أوربا .. وفى بلادنا.. و.. قاطعتني على غير عادتها مرة أخرى.

– لا.. وسوف تسمع عن تظاهرات هذا العام وبعد مائة عام .. المرأة مسكينة فعلاً، ويكفى أن تعرف نظرة الناس عندكم للمرأة .. والجنس.. والتزمت العجيب حتى داخل كليات الطب!.. والجنس يعنى العيب عندكم ! أليس كذلك؟.. انهم يحذفون كلمة مشاكل جنسية ويقولون مشاكل نفسية!.

ولا تنس أنني لا أكتفى بقراءة الكتب .. لقد جبت نصف العالم.. ورأيت كيف يضرب الأب ابنته لعلاقتها بزميل أو جار!.. وربما لا يسمح الناس عندكم بمثل الحوار بيننا الآن.

– وما السبب فى رأيك ؟.

– الخلط بين المشكلات الاقتصادية والسياسية والدين .

– عفواً .. تتحدثين فى مسائل خطيرة بسهولة عجيبة.. فهل اتخذت قرارك فى حياة

يلا أسرة .. وتتوقعين السعادة .

– القرار ملكي ، وفي بلادنا .. يمكن أن أعيش على ما أقرر، أما مسألة السعادة فالعمل يمنحني السعادة .. والعطاء يعطي سعادة أفضل من الأخذ.. والفن نوع من العطاء .. والهرب من ساقية تدور للابد نوع من الحل.. وعموماً تحرير المرأة يرتبط بحرية المجتمع نفسه.

– يبدو أن لك عقلاً سياسياً.

– ربما .. وليس المفهوم الشائع في بعض البلاد.. فلا أجيد المناورات وأمقت لعبة الانتخابات .. وأكتفي بالفن والتأمل والرحلات.. والسعادة أن تعيش يوماً بيوم..

شعرت أن أصابع قوية تعتصر قلبي .. هذا الكيان الجميل يفكر هكذا.. العيب فيّ أم فيها.. لأول مرة .. أجد مسافة .. قلت لها وكأنها تقرأ أفكاري ومشاعري :

– احترم وجهة نظر الآخرين .. تسعد .

لملمت حاجياتها وجذبتني من يدي : تعال .. أريك شيئاً.

تخطو بخطوات واسعة، لا تذهب بجمال طولها وعودها الفارع .

– أنظر .. «مقبرة الكلاب».

تشير إلى أسفل الحي الرامي بمنطقة «الجبل» في مكان مسوّر .. وكأنها ترد على دهشتي سمعتها : ألا ترى أنه الوفاء النادر من الإنسان للحيوان! راحت تدفعني للإمعان والنظر في بلاطات رخامية، ورسومات لأنواع عريقة من السلالات والنسب!.. ثمة كتابات بحروف لاتينية جميلة، غائرة في رخام ناعم.. تقول لي فجأة بصوت هامس : انظر لهذه السيدة الأوربية .. انها تضع زهوراً على قبر كلبها المدفون!.. ربما منذ ربع قرن.. لو حدقت في عينيها سترى الدموع قلت ساخراً دون وعي : كأنه الشهيد!.

ها نحن نصل إلى مرتفعات «مرشان».. ليصافحنا مقهى الشاطيء الصخري قالت يارا : أراك تعبت من كلامي .. فلتسترح في هذا المكان.. جاء الجرسون قالت يارا : هات شاي منعنع!.. يا للذوق الحلو !.. بعد قليل أقبل الجرسون بلباسه الأنيق، البنطلون الأسود والقميص الأبيض وعلى صدره فوطة بيضاء. المكان ينسحب على نفسه في سكينة! ثمة شبان يتكلمون بهدوء .. رحت أفكر في كلمات يارا .. واجدل الحوار بالصمت.. وأخلط كل شيء بحكايات البحر وزرقة السماء الممتدة إلى ما لا نهاية.. المكان بطل حقيقي، كأنه يرفض عادات السياح الاستعراضية، حيث (يارا) رجلا يجلس على باب المقهى.. قالت عنه : «إنه صاحب المقهى، رجل طيب.. كنت هنا يوما.. وضاعت حافظة نقودي.. وتعرضت للاعتذار والاحراج فعرض عليّ الرجل نقوداً من جيبه، رجل شهم.. ويصر على تقديم طلب مجاني .. هدية ! كلما أتيت هنا .

لم أتعجب .. إنها تتآلف بسرعة مدهشة مع البشر والحجر! وتفهم حتى لغة البقر! رحت أغمض عيني، لأتذكرها

وهى تمشى بين الدكاكين المزدحمة بالبضائع، وتطل علينا التحف النحاسية وأباريق مشغولة بالزخارف وخناجر مزركشة ، إنها امرأة تلتهم العالم بلا مهادنة، وما كنت أتصور نفسى أسير كل تلك الساعات فى التجوال فى أزقة نصف مظلمة، لكنها نظيفة رغم الازدحام.

وأخرجت الكاميرا، تلتقط فى هوس صوراً تعبر عن تشابك البيوت وتداخلها المعمارى.

يارا تقول مهما كان.. الصورة صماء، ليتنى أسجل الحوار والصخب فهو جزء من الصورة! الكاميرا تحنط اللحظة، لا شىء يستوعب هذا إلا السينما، الآن عرفت لماذا تحول كوكتو من الشعر إلى المسرح ومن الرسم إلى السينما دون أن يتخلى عن وسيلة فنية يملكها! المهم كيف تسجل هذا المجال الحميمى !

فارقنا الأزقة الملتوية والضيقة، واتجهنا صوب شوارع فسيحة ، أصبحت العين ترى المدى المكشوف ، والسماء العارية.

سألت أحد المواطنين : أين ضريح (ابن بطوطة).. قال بحماس .. هناك .. وأشار إلى الاتجاه المؤدى إليه، مررنا على مقبرة ابن بطوطة المتواضعة ثم صعدنا نحو «باب العصا» ثم إلى نقطة شاهقة تشرف على التقاء الأطلنطى بالمتوسط.

لا أدرى كيف أصف طنجة من هنا .. وكيف قذفت يارا بكل هذه المشاعر إلى أعماق قلبى، وأشارت يارا إلى موضع ارتطام البحر والمحيط وقالت :

- انظر .. هنا تورطت طنجة بتاريخ حافل..

سافر عقلى إلى مصر.. لعقد مقارنات أدق وأخطر.. ولكنى سمعتها كأنها لا تتكلم معى.. أين الواقع وأين الحلم.. أين الحقيقة والخيال.. كل شىء يمر بى يؤكد أننا فى حلم .. حتى الصور والألوان .. مجرد حلم، غداً أترك كل هذا وأعود إلى بلادى، وفى لهجة واضحة : لن أنسى هذا اللقاء .. سوف أضع اسمك فى هذه المرحلة.

اشتدت موجة برد مفاجئة .. أحكمت الشال على كتفيها.. كأنها قرأت خاطرى..

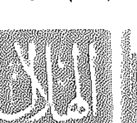
- ربما نلتقى مرة أخرى.. ستكون هناك رسائل .. أليس كذلك؟

همست بحرارة: يارا .. أتمنى أن أذهب معك إلى آخر الدنيا.. ولكن أفكارك عجيبة .

ضحكت يارا.. وفى نغمة مرحة قالت : هكذا أنتم .. ساخنون سريعا.. باردون سريعاً.

وفى إضافة حريرية قالت : لا شىء يدوم !.

موجات البحر ذاهبة فى سرعة عظيمة ، كانت الشمس تضرب فى الأفق وتترك لمسة من الدفء على شعر يارا قبل غروبها الكلى.. وصمت يخيم على كل شىء. ■



التكوين

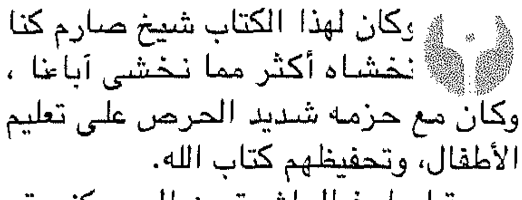
كانت لقراءاتي الأدبية الأولى أثرها العميق في تكويني الأدبي

محمد الدسوقي

كنت أحد أربعة من الصبية نعيش في بيت العائلة الكبير، الذى كان يتكون من خمسة من الإخوة لم يقدر لأحدهم أن يتزوج ، وكان لكل من الأربعة الآخرين زوجة وأولاد.

وكان ينشب بين هؤلاء الصبية وهم يلعبون فى باحة البيت تشاجر وتعارك فى بعض الأحيان لأتفه الأسباب، وكان هذا التشاجر يؤدى إلى تدخل الأمهات بصورة تثير غضب الآباء ، وتعكر جو الحياة فى الأسرة.

وفى يوم من الأيام احتدم التضارب بين الصبية ، وارتفع صوت بعضهم بالبكاء، مما حمل العم الذى كانت له الكلمة الأولى فى العائلة - فهو يتولى الإنفاق عليها، لأن عائدات الإنتاج الزراعى وتربية الماشية تصب فى جيبه، وما كان أحد من إخوته يسأله عما ينفق أو يدخر، وهو إلى هذا يحفظ القرآن الكريم، ويجيد كتابة الصكوك، وله رأى مسموع فى مجالس التحكيم فى الريف - على أن يدفع بهؤلاء الصبية إلى كتاب القرية، عله يشغلهم عما يقع بينهم من تعارك ، ويتعلمون ما قد يعود عليهم بالنفع فى حياتهم.



وكان لهذا الكتاب شيخ صارم كنا نخشاه أكثر مما نخشى آباءنا ، وكان مع حزمه شديد الحرص على تعليم الأطفال، وتحفيظهم كتاب الله.

وقبل بلوغ العاشرة من العمر كنت قد حفظت القرآن الكريم، ورأى الشيخ مرسى - رحمه الله - شيخ الكتاب إرهاصات الاستعدادات لمواصلة التعليم لدىّ، فقابل والدى وهو رجل أمىّ كل همه منصرف إلى الزراعة، والحرص على زيادة عدد الأفدنة التى تمتلكها العائلة، وقال له: إنك رجل لا تعرف شيئا عن ولدك، لقد أتم حفظ القرآن ، وهو الذى يصلح للتعليم دون أولاد أعمامه. ويجب أن يذهب إلى المدينة لتجويد القرآن ودراسة بعض العلوم التى تؤهله للالتحاق بالأزهر.

وتكلم والدى مع العم المسئول الذى استجاب لما نصح به الشيخ مرسى، وفى نحو عام كنت قد أنهيت دراسة أهم قواعد علم التجويد، مع الإلمام بقدر من علم الحساب الذى يتيح لى أن أجتاز امتحان القبول بالسنة الأولى الابتدائية بالأزهر.

مرحلة الأزهر

وكان نظام التعليم فى الأزهر منذ نحو خمسين عاما خلت لا يسمح للطالب فى السنة الأولى الابتدائية بالانتقال إلى السنة الثانية، وكذلك من هذه السنة إلى الثالثة إلا إذا نجح فى كل المواد المقررة فى امتحان الدور الأول، ولا يسمح لمن رسب فى مادة أو أكثر أن يمتحن فى الدور الثانى، فقد أُلغى ذلك النظام بالنسبة لطلاب السنتين الأولى والثانية، ومن يرسب فى مادة واحدة فإنه يعيد السنة ، ويدرس المواد كلها مرة ثانية.

وأقبل الفتى على دروسه فى الأزهر بجد ونشاط ، لا يضيع وقتا فى لهو أو



د. محمد الدسوقى أثناء مناقشة رسالته

لعب، وإنما يذاكر ما يتلقاه عن شيوخه فى حرص ومتابعة، وجاء امتحان آخر العام ، وكان الفتى قد تهيأ له، وكاد أن يحفظ كل المقررات، وإن لم يكن قد فقه كل فصولها وأبوابها، وظهرت النتيجة التى سعد بها، فقد نجح فى كل المواد وتحصل فيها على درجات عالية تكاد تقرب من درجة النهاية الكبرى اللهم إلا مادة واحدة كانت درجته فيها تزيد درجة واحدة على النهاية الصغرى، وهى مادة الإنشاء، وانزعج الفتى من درجة هذه المادة ، وقال له بعض زملائه: لو نقصت مادة الإنشاء درجتين لرسبت، ولضاع عليك جهدك الذى بذلته فى المذاكرة. وتساءل الفتى كيف يمكن أن يكون قويا فى الإنشاء، وأن يحصل فيها على درجات عالية؟ فقيل له : إن السبيل إلى ذلك هو قراءة المجلات والكتب الأدبية..

وفى الإجازة الصيفية للسنة الأولى حفظت «مجموعة النظم والنثر» وإن لم أفهم كثيرا من نصوصها، وهذه المجموعة كانت وزارة المعارف قد قررتها



على طلاب المدارس فى الأربعينيات من القرن الماضى.

وقبل بداية العام الدراسى الثانى بالأزهر بنحو شهر انفرط عقد الأسرة؛ فقد انقسم الإخوة، وأصبح لكل منهم أرضه الزراعية الخاصة، وأشار أحد أعمامى على والدى بإخراجي من التعليم لأعاونه فى الزراعة، لأنى أكبر أولاده الذكور، فضلا عن أن رحلة الدراسة طويلة، ونفقات التعليم ليست يسيرة، بيد أن والدى رفض ما أشار به هذا العم، وقال له: سأنفق على ولدى فى التعليم، ولو بعت كل ما أملكه.

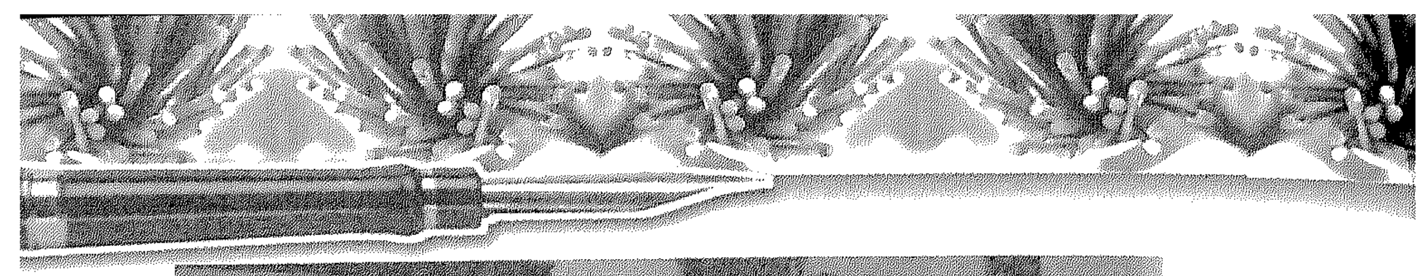
وأخذ الفتى منذ العام الثانى له بالأزهر يطالع بعض المجلات كالأزهر والرسالة والهلال، وعرف عن طريق هذا المجلات بعض الكتب التى قرأها، وأصبح الوقت الذى يقضيه فى القراءة فى غير المواد المقررة أكثر من الوقت الذى يذاكر فيه هذه المواد، وكان سعيدا بذلك، فالقراءة الأدبية لم تفده فى مادة الإنشاء فحسب، وإنما أفادته فى كل المواد، فقد يسرت له فهم ما لم يكن يفهمه، وأتاحت له الإجابة فى الامتحانات بعبارة رصينة، ولغة سليمة أرضت شيوخه فكانوا يمنحونه الدرجات العالية، ولا ينسى حصوله على جائزة مالية فى النقل من السنة الثالثة الابتدائية إلى السنة الرابعة، وكان مقدارها أربعة جنيهات فى وقت كان الجنيه المصرى أقوى اقتصاديا من الجنيه الاسترلينى، وذلك للتفوق فى النجاح، كما لا ينسى حصوله على الدرجة النهائية فى مادة الإنشاء.

واستطاع الفتى فى المرحلة الابتدائية بالأزهر قراءة عدد من مؤلفات المنفلوطى والزيات وأحمد أمين وطه حسين والعقاد والرافعى وغيرهم، بالإضافة إلى ما قرأه من التراث القديم كأجزاء من العقد الفريد وزهر الآداب، وأثمرت هذه القراءة ثمرتها الطيبة، فقد عرف وهو فى مستهل المرحلة الثانوية بالأزهر سبيله للكتابة والنشر، وكان أول ما نشره فى باب البريد الأدبى بمجلة الرسالة، ثم نشر بعد ذلك فى مجلة الأزهر وبعض الصحف الإقليمية.

وقدر لى بعد الحصول على الثانوية الأزهرية الالتحاق بكلية دار العلوم، وكان لهذه الكلية دورها فى صقل المواهب وتنميتها، فالدراسة تختلف مادة ومنهجا عما درسته من قبل، وكان أهم مادة لها تأثيرها فى التكوين العلمى مادة قاعة بحث، التى تفرض على كل طالب أن يقدم بحثين فى كل عام دراسى، أحدهما فى فرع من فروع علوم اللغة العربية والثانى فى فرع من فروع الدراسات الإسلامية.

واقتضى إعداد البحوث الثمانية فى المرحلة الجامعية الرجوع إلى بعض ما كتب فى المناهج العلمية، وكذلك المصادر الخاصة بموضوع كل بحث، فضلا عن توجيهات الأساتذة الذين كانوا لا يبخلون بالإرشاد وتقديم خبرتهم فى البحث لجميع الطلاب. فهذه المادة فتحت مجالات جديدة للقراءة، والتعمق فى الكتابة وإعداد البحوث وفق أصول المنهج العلمى، مما كان له أثره فى تمهيد الطريق للدراسات العليا، والحصول على درجتى الماجستير







مع شيخ علماء البوسنة وعميد كلية الدراسات الاسلامية بسراييڤو

والدكتوراه

فى مجمع اللغة العربية

وتنتهى المرحلة الجامعية بنجاح وتفوق، ومع أن ترتيبى كان الثانى على دفعتى لم أعين معيدا بالجامعة ، ولكن هذا النجاح فتح لى باب العمل بمجمع اللغة العربية محررا علميا، وكان العمل فى مجمع الخالدين لنحو عشر سنوات فرصة ذهبية من حيث القراءة والفائدة العلمية، فمكتبة المجمع غنية بذخائر المؤلفات العربية فى علوم اللغة والتفسير والسنة والفقه والأصول والتاريخ وغيرها.

مع د. طه حسين

ويضاف إلى ما أومأت إليه آنفا أن عملى فى المجمع كان سببا فى علاقة مع عميد الأدب العربى، ورئيس المجمع اللغوى الدكتور طه حسين، وقد بدأت هذه العلاقة فى أواخر سنة ١٩٦٤م، وامتدت إلى صيف ١٩٧٢م، أى قبل وفاته بنحو عام، فقد وقع الاختيار على لأرافق العميد مدة أسبوعين: لأن سكرتيره فريد شحاتة فى حاجة ضرورية إلى إجازة، وبعد هذا كنت أذهب للعميد يوما كل أسبوع على الأقل، وهو يوم إجازة فريد، فضلا عن إجازته السنوية وكانت نصف شهر، وكانت تبدأ غالبا عقب عودة العميد من رحلته الصيفية، ثم ساءت العلاقة بين العميد وسكرتيره الذى عمل معه نحو أربعين عاما. ولم يعد السكرتير يحافظ على الذهاب إلى رامتان كل يوم بحجة طوارىء المرض، وكان العميد يعتقد أن سكرتيره يفتعل المرض، وأنه أصبح بهذا السلوك - على حد تعبير العميد - لا يطاق.

وبعد أن ترك فريد العمل مع العميد فى يناير سنة ١٩٦٩م، كان على أن أذهب إليه يوميا، وأن أتولى مهمة السكرتير الخاص له ، على الرغم من أن هناك عددا من الشباب جاء ليقوم بهذه المهمة ، غير أنهم ما كانوا يستمرون فى القيام بها، فقد كان الواحد منهم يعمل أسبوعا أو شهرا ثم يعتذر لأسباب لا



مجال للحديث عنها.

وكنت فى هذه الأيام التى سعدت فيها بلقاء العميد أمكث معه كل يوم خمس ساعات، نصفها فى الصباح ونصفها الآخر فى المساء، وكنت أقرأ له الكتب والصحف العربية .وقد قرأت له كتبا كثيرة، أغلبها تراثية ، يتألف معظمها من عدة أجزاء، وقرأت معه بعض هذه الكتب أكثر من مرة كالكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة.

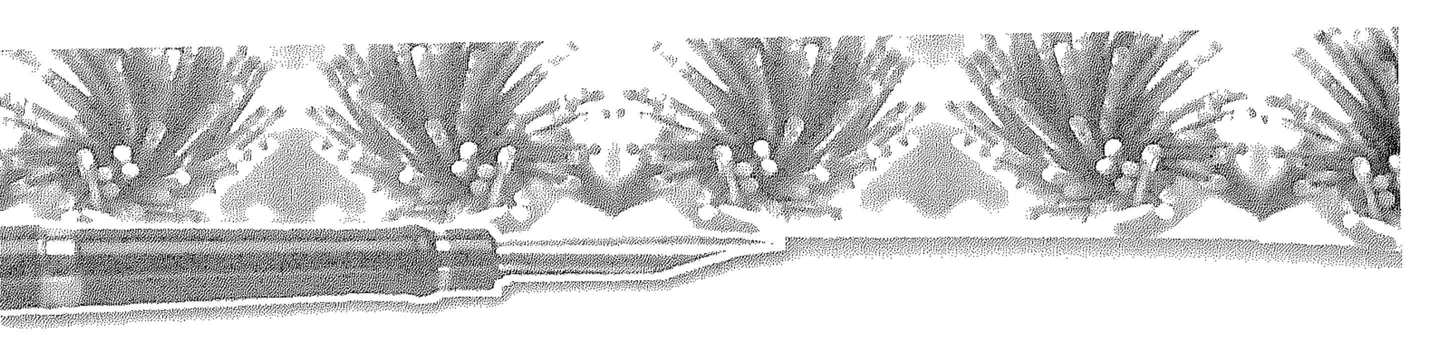
وما كان العميد وأنا أقرأ له الكتب سواء القديم منها والحديث يكتفى بالاستماع والإنصات ، فقد كانت له تعليقاته وانتقاداته المختلفة، وما كان ينتهى من قراءة كتاب دون أن يومىء إلى رأيه فيه، وكان الرجل فى بعض تعليقاته يشركنى فى الحديث معه، وأحيانا يطلب منى الرجوع إلى بعض المصادر لتفسير عبارة، أو التأكد من معنى.

فى سلك التدريس الجامعى

وبدأت رحلة التدريس الجامعى بعد الحصول على الدكتوراه فى عام ١٩٧٢، ومازالت حتى الآن، والتدريس الجامعى فى جوهره جهد علمى متواصل، وعطاء فكرى متجدد، وما لم يكن كذلك فإنه لايبنى عقولا، ولا يخرج مبدعين أو مجددين، ولا يختلف اختلافا ذا بال عن التدريس فى المرحلة الثانوية. وآفة التعليم الجامعى المعاصر أنه يقدم على التقليد والجمود، ولا يعرف التطوير أو التغيير، فلا غرو أن تفشت ظاهرة السرقات الأدبية فى الأبحاث والرسائل، واتسم النتاج العلمى بوجه عام بالضحالة، وعدم الابتكار، ومن ثم حرصت منذ بداية هذه الرحلة على أن تكون المواد التى يعهد إلىّ بتقديمها للطلاب دراسة علمية منهجية تعتمد على المصادر الأصيلة والمقارنة الموضوعية والاجتهاد المستطاع، وأبيت أن تكون هذه الدراسة فى صورة مذكرة يدرسها الطلاب دون أن يعرف الآخرون عنها شيئا ، ويتكرر طبعها فى كل عام من غير إضافة أو تطوير كما يفعل البعض.

فى البوسنة

وكان لهذا النهج فى التدريس جدواه فى تعميق التكوين فى مجال التخصص، والارتقاء بمستوى البحث والتأليف، وكانت ثمرته أكثر من خمسة وعشرين كتابا، ونحو ثلاثين بحثا فى حوليات محكمة، ونحو مائة مقالة فى مجلات شهرية أو أسبوعية، والفوز بعدة جوائز علمية على المستوى العالمى والإقليمى، والمشاركة على مستوى العالم الإسلامى فى نحو عشرين مؤتمرا علميا، أو ندوة ثقافية ، فضلا عن بعض المهمات العلمية التى كلفت بها، وأذكر منها مهمة استغرقت شهرا كاملا فى جمهورية البوسنة والهرسك، فقد كان المسلمون فى هذه الجمهورية مثلا صارخا للوجود الإسلامى الذى يجهل جمهور الأمة تاريخه وبخاصة فى العصر الحاضر، فلما حدثت المؤامرة الكبرى التى كانت تسعى - وماتزال - للقضاء على هذا الوجود، وأخذت وسائل الإعلام تبث أنباء الجرائم البشعة التى اقترفها الصرب والكروات ضد المسلمين، عرف المسلمون أن هناك إخوة لهم فى البوسنة والهرسك يعانون مما يقع عليهم كل يوم



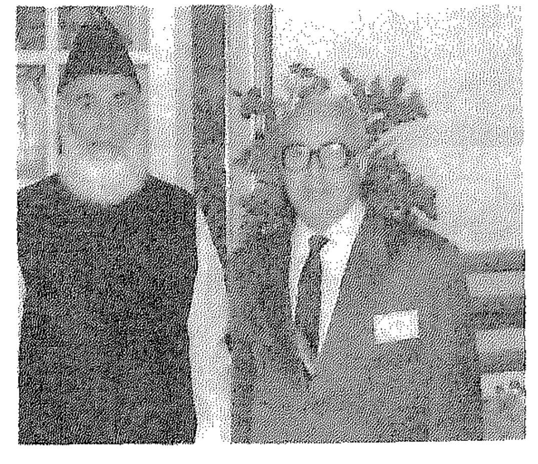
من قتل وتشريد واغتصاب وتدمير للمقدسات وسعى محموم أرعن لمحو كل ما هو إسلامى فى أرض البلقان.

وكان من فضل الله علىّ أن رشحت أستاذا متخصصا فى الشريعة الإسلامية فى الكلية الإسلامية فى سراييفو، وهى مهمة فى مجال العلوم الشرعية، واتخذت كل الإجراءات الرسمية للسفر والبقاء فى البوسنة لمدة شهر يوليو سنة ١٩٩٦م.

وقمت بتوفيق من الله بأداء المهمة العلمية التى كلفت بها

تكوين لا يعرف

وبعد فإن التكوين لا يعرف مرحلة من العمر يقف عندها، إنه يقوم على الاستمرار فى الطلب مادام الإنسان قادرا عليه، والإسلام وهو دين الحضارة الإنسانية خاطب الأمة أول ما خاطبها بالأمر بالقراءة والتعلم بالقلم «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» (١/٥/ العلق) هذه الأمة التى خاطبها الوحى بهذه الآيات لن تفارق العلم؛ لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم. والمسلم فضلا عن حرصة البالغ على التزود بالعلم ، وطلبه له من المهد إلى اللحد يشعر بأنه مهما يبلغ من العلم يظل منهوما إلى المزيد منه ، فهو لا يشبع أبدا ولذا كان دعاؤه «وقل رب زدنى علما» (١١٤/ طه) لأنه كلما حصل نصيبا من العلم تطلع نحو نصيب آخر، وأدرك أنه يجهل أكثر مما يعلم «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (٨٥/ الإسراء) فلا يفتأ مواصلا جهاده فى الطلب، موقنا بأنه إن



مع رئيس جمهورية باكستان السابق - اكتوبر ١٩٩٨

لم يفعل ذلك فلن يحتفظ بما ناله من العلم ، فطلبه له أشبه ما يكون بالتجديف ضد التيار، والذى يتابع التجديف يتقدم بكل ضربة خطوة إلى الأمام فإن حل به الوهن أو جنح إلى الكسل، ولم يواصل مقاومة التيار فلن يحتفظ بما بلغ إليه، لأن التيار سيدفعه إلى الخلف، حتى يرجع به إلى نقطة البداية، ويذهب كل ما بذله من جهد سدى، وهكذا العلم يزكو وينمو بالمتابعة والاستمرار ويخبو ويضمحل بالإهمال والهجران.

وآفة الآفات فى التكوين أن يظن الإنسان أنه بلغ فى العلم درجة لم يرق إليها سواه، وأنه بهذه الدرجة أصبح فى غنى عن طلب المزيد، فمن ظن أنه قد علم فقد جهل، والعالم إذا لم يبرأ من شوائب الغرور والزهو والادعاء وعدم الرضى بما حصله من العلم فإنه لن يكون عالما بالمعنى الصحيح، ويكون لغيره مثلا سيئا فى طلب العلم والتبحر فيه. ■

◆ عاطف مصطفى

«الهلال» وخمسون عاما على ثورة يوليو

منذ صدور الهلال الماضى وكلمات الثناء لاتتوقف، وعبارات الاستحسان تأتى إلينا، والطلبات على هذا العدد التذكارى تلاحقنا فى كل مكان .. وحرىٌ بنا أولا أن نتقدم بالشكر لقراء الهلال الأعزاء ولكل النقاد الذين احتفوا بالهلال، فضلا عن أن البريد قد أتى يحمل بعض التعليقات ، نكتفى ببعضها.

يقول د.صموئيل لبيب سيحه : لنبض السنوات ذكرى خالدة محببة إلى النفوس، ونحن الآن نحتفل بالذكرى الخمسين لثورة يوليو، وجاء العدد الماضى من الهلال تذكاريا يتضمن هذه المناسبة، ولاجدال أن الهلال دوما فى إصداراتها لاتغفل هذه المناسبة القومية.

وجاء فى عدد ديسمبر ١٩٥٢ وقت أن أتمت الهلال ستين عاما من حياتها فى خدمة الثقافة فى العالم العربى مقالات للاستاذ عباس العقاد تحت عنوان «الجيش وقائده» قال فيه : «من التوفيقات الإلهية أن يدخر القدر لحركة الجيش رجلا من أصلح الناس، أن يكون قدوة لمن يحاربون الإقطاع، ويعتصمون بنزاهة اليد والضمير من آفات الإقطاع وفتن الإقطاع».

ومن نافلة القول أن الهلال كانت معاصرة آنذاك لنهضة المشرقين الإسلامى والعربى، وسايرت الأدوار التقدمية التى مرا بها، ولعلها مرآة صادقة للتطورات الفكرية والاجتماعية والعمرانية، وحافظت على مزيتها الأولى.

والهلال بحق مجلة كل جيل .. وسفيرة الثقافة الحديثة، والأفكار الراقية الحرة بين الشرق والغرب، وبات هذا جليا واضحا فى عدد يوليو الماضى الذى صدر فى ثوب قشيب تحريرا وإخراجا .. حقا إنه إبداع يحسب لمجلة الهلال .

المغزى التاريخى لثورة يوليو

ويقول الدكتور سامى منير : لقد أعجبنى مقال المغزى التاريخى لثورة يوليو للدكتور جلال أمين على مافيه ، ولم يعجبنى إهمال الزميل الدكتور ماهر شفيق فريد لاسم الشاعر والناقد صلاح عبدالصبور كمؤسس لمجلة فصول حين تحدث عن مجلة المجلة .

كما يقول لقد سعدت بالكلمات التى جمعت فى طياتها ثراء ماضينا منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأفضل مايمكن أن يتوقع من أحلام حاضرنا ومستقبلنا، حتى نضمن ألا تخبوا شعلة هذه الثورة، بما قد أثارته وأضاءته للأجيال المقبلة من شبابنا.



طريق المستقبل والرخاء

ويكتب سعيد عبد القوى حواس، نصف قرن مضى وثورة يوليو المصرية ماضية مضيئة، تقضى على الاستعمار والاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم، وتقيم جيشا وطنيا قويا، وعدالة اجتماعية، وحياة ديمقراطية سليمة.

رفع ذكرها فى العالمين جمال بالحرية والسد والقنال والاشتراكية والوحدة والنضال، وأقالها من عثرتها أنور بالقتال والسلم وفتح لها طريق المستقبل والرخاء والاستقلال مبارك.

وستظل مصر بضمير دينها وصوت عروبتها وفكر تاريخها على طريق البناء والنماء.

ويعقب عمرو عبدالمنعم حمودة علي ما أثارته زميلتنا أماني عبدالحميد في مقالها «مبنى قيادة الثورة: متحف على الورق » والذى يتناول قضية ملفات ووثائق ثورة ٢٣ يوليو وتاريخنا القومي ويطالب بضرورة رفع الحظر عن هذه الوثائق وفتح الباب أمام الباحثين للإطلاع على الوثائق الرسمية والحقيقية والأصلية، إلى توثق للأحداث فى أسبابها ونتائجها ودوافعها فى تاريخنا المعاصر .

العدد التذكارى



هذا العدد من أروع ما أصدرته دارالهلال مبنى ومعنى، الغلاف رائع، والطباعة، وحجم الكتاب، والموضوعات وتسلسلها واختياراتها من حيث الصور المنتقاة والكتاب، وعناوين الموضوعات .. الخ إنه عمل متكامل من الناحية الصحفية والتاريخية .. وحرفيا ينال درجة إمتياز.. ولكن .. وللأسف الشديد، من يرغب الآن فى اقتناء هذا العدد لايجده متوفرا فى الأسواق، ونرجوكم إعادة طبع هذا العدد وطرحه والإعلان عن ذلك حتى يتسنى لمن لم يسعد به أن يقتنيه، ومن حصل علي نسخة واحدة - مثلى - أن يجد نسختين على الأقل، بل إنى أقترح إصدار «نسخة شعبية» إن أمكن ذلك من هذا العدد الحرفى البديع.

م .شريف عفت - القاهرة

الهلال: شكراً لك أيها الصديق وفعلاً نفذ الهلال، وأعدنا طباعتة مرة ثانية نزولا على رغبة القراء الأعزاء

طغيان

لأن القدس شمس الله عن دنياه لم تغرب
لأن عبيرها المهموس يحضن ريحها الأعذب
لأن الأنبياء بها : وعود الغيب
كانت يقظة الأحلام.
منطلق الغمام،
مسافة الإلهام فى أيامنا الأرحب
وكانت للدم العربى أكفانا معطرة
وللحلم النبى رؤى معبرة عن الكوكب
وكانت للبنات. الأغنيات صراط منطلق إلى الجنات
كانت للشباب مراكب الأحباب
في شجر الحياة إلى محيط ذهب
وكانت للضمير الحر عرق الصبر
ينبض فائضا بالخير عند الموقف الأصعب
وكان الليل طوافا بها
والريح والأقمار
كان الشدو والأسمار
كان الشعر لايتعب
وكان الغدر يحمل بعضه بعضا
ليسرق سرها الأمضى
فتحرق جانحيه شهب!
فكيف يبيح هيبتها بنو صهيون؟

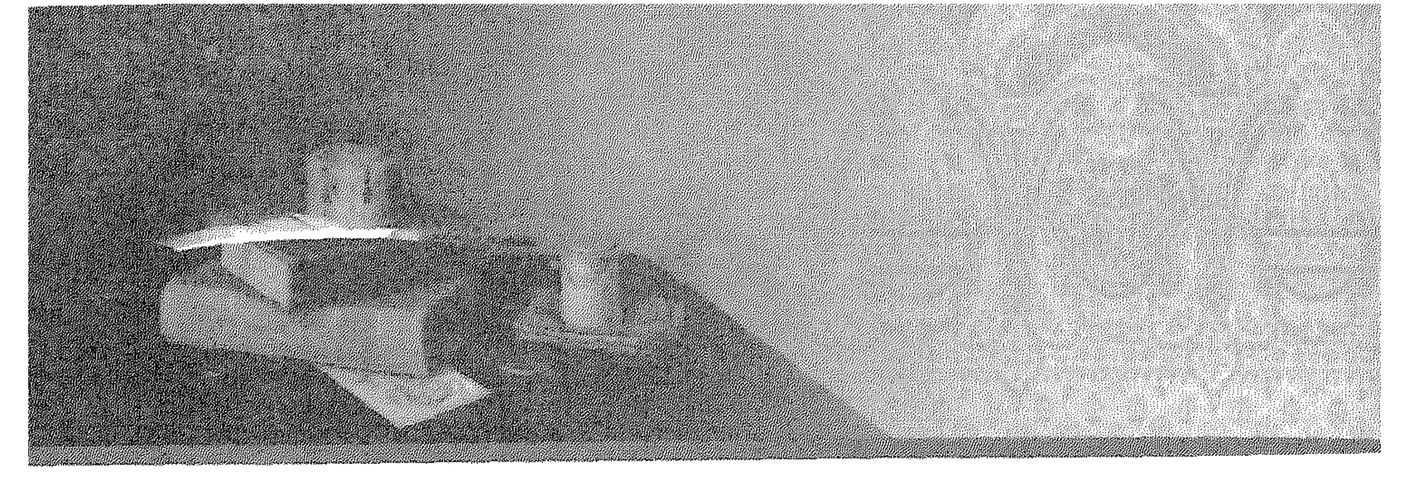
عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

د.مصطفى سويف والنزاهة العلمية

أتابع باهتمام سلسلة المقالات التى ينشرها د.مصطفى سويف بالهلال والتي تتناول رؤياه الثاقبة لتطورات الأوضاع المتوازية فى مصر والوطن العربى.

وقد تضمن عدد الهلال الصادر فى مارس ٢٠٠٢ حلقة بعنوان «انتفاضة الحرامية» ووردت بها إشارات إلى ماعرف بحرب «الأوجادين» التى وقعت بين الصومال وأثيوبيا عام ١٩٧٧.

وأود توضيح بعض الحقائق من بينها.



- أن الجيش الأثيوبى أطاح بحكم هيلاسلاسى، ونجح منجستو هيلا ماريام بالانفراد بالسلطة.

- ظن الرئيس الراحل الجنرال محمد سياد برى أنه يمكنه شن حرب خاطفة لتحقيق أحد أحلام الصوماليين التاريخية فى إنشاء الصومال الكبير، باسترداد اقليم «الأوجادين» الذى ضمته الصومال على مراحل بمساعدة الدول الغربية، وبالفعل حقق الجيش الصومالى انتصارات سريعة إلا أن هذا الانتصار مالبث أن أجهض، فاضطر الجيش الصومالى فيما بعد إلى الانسحاب، وتحول النصر السريع إلى هزيمة منكرة.

وكانت هناك أخطاء للرئيس سياد برى ، كما أن الدول العربية لم تقدم دعما كافيا باستثناء عون مالى محدود من السعودية وانقسام الدول العربية فى تأييد الصومال.

إن مقالات د.سويف فى الهلال والتى تتابعها الأجيال بشغف، تتسم بالموضوعية والروح العلمية والنزاهة والحياد.

السفير محمود مصطفى - القاهرة

ديمقراطية صورية!

رسالة وصلت إلى الهلال من الصديق عبدالحميد الصراف الذى يشكر على وصول كتابين وعدد شهر مارس من الهلال، ويتحدث عن الحياة فى «كاردف» وكيف أن الناس هناك يعيشون يوما بيوم فإذا ترك أحدا عمله ، أو طرد منه، فلسوف يموت جوعا، لولا أن تسعفه الحكومة فورا، لأنه لايجد شخصا يقرضه، وإن وفر أحدهم فذلك لأجل السفر خلال إجازته السنوية وأما الحياة الاجتماعية فتختلف عن حياتنا فى الشرق مائة بالمائة

ويذكر مثالا : فقد سأل صديقا عن صحة ولده الوحيد فأجاب : سوف يتركنا هذا الولد غدا لأنه سوف يبلغ سن الرشد (١٨ سنة) ومن حقه أن يتصرف كما يشاء، ويعيش فى غرفة فى دار مشتركة مع آخرين، وهو يسدد مصاريفه لأنه الآن يستحق المساعدة الحكومية حتى يجد عملا فى أى مكان وفى أية مهنة.

أما الديمقراطية التى يتحدثون عنها ليل نهار فلا وجود لها لأنها ديمقراطية صورية يعلن عنها فى جميع وسائل الدعاية .

قصائد قصيرة

١ - ارتواء
افتحي قلبي وارتوي.
من شعري،
قصائدا ..
كي تهاجر منه الجراح!!
٢ - هل ؟!
هل تسمحين - حبيبتي - لي
أن أذوب على شفاهك شعرا؟!
حتى..
يعيد لنا تواريخ اشتياق!!
٣ - لاحظة
كان يأتي
يطرق الباب الأدبي
باب قلبي
كي ينال
غيمة الشعر ..
ويمضي!!
٤ - رسم
والنيل يداعب البلاد
ويغسل أحزانها
يرسم الورود عمرا
يرسم العمر قلبا
يرسم القلب قدسا
متشحا بالسواد!!
٥ - ميم ياء
قلبان اثنان
حرفانِ اثنان
ميمٌ ياءٌ
مزجا
ثم ائتلقا
ثم انطلقا
صارا وطنا ..
يتسكع في طرقات الأحزان!

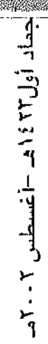
محمود أحمد المصلحي
شربين - دقهلية

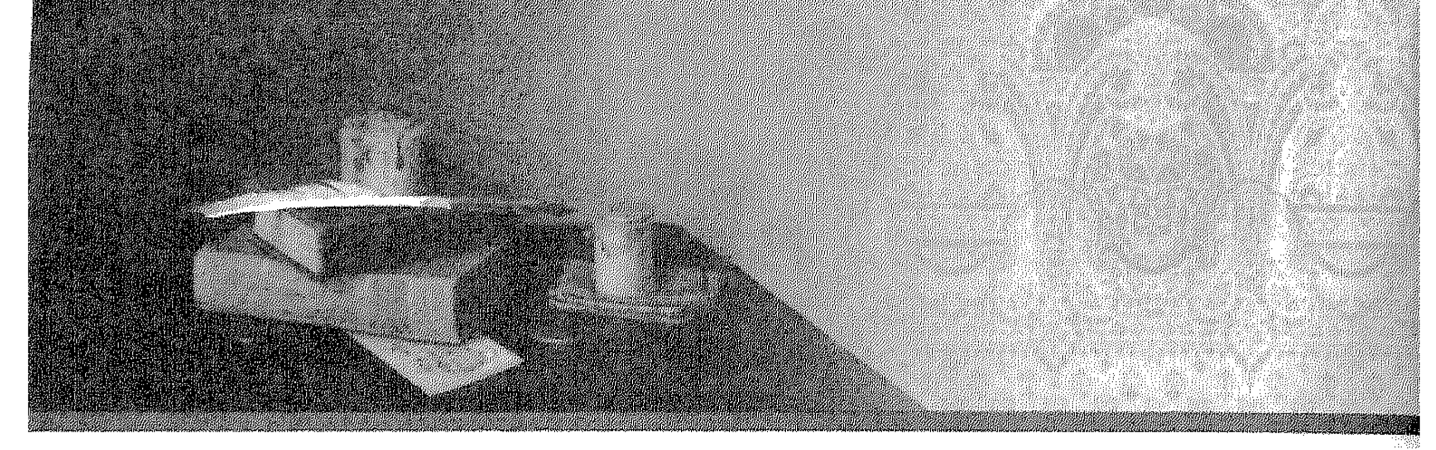
الرياضة..والعولمة

كنت أفهم أن الرياضة لاعلاقة لها إطلاقا بما شاهدناه في مباريات كأس العالم الأخيرة التي أقيمت في كوريا واليابان هل تطلق كلمة «العولمة» حول ما شاهدناه في هذه المباريات الأخيرة .. فقد دخل الاحتراف مباريات كرة القدم، وتم استغلال الرياضة للسياسة، وترك الناس أعمالهم لأن غالبية المباريات كانت تقام صباحا.

لقد شهدنا دولة مثل كوستاريكا تلعب مع الصين، في حين أن عدد لاعبي كرة القدم في الصين يزيدون على عدد سكان كوستاريكا.

ومن الدلائل على تغيير الأحوال في العالم وفي كرة القدم بالذات، خروج فرنسا الحائزة على الكأس السابقة مبكرا مع بقاء السنغال إلى أدوار أعلى علما بأن فرنسا كانت تستعمر السنغال من قبل.





ووضحت العولة أن اللاعب الأسود يلعب فى المنتخب الأوروبى الأبيض، ووضحت العنصرية عندما أحرز لاعب كوريا هدف الفوز لفريقه ضد إيطاليا، وهذا اللاعب الكورى يلعب فى ناد إيطالى، وقالوا إنه لم يلعب إلا لإحراز هذا الهدف الذى حرم إيطاليا من الفوز، وقالوا إنه سوف يحرم من دخول إيطاليا ولن يلعب فى نواديها أبدا

رأينا أشياء غريبة .. فأرباح اليابان تصل إلى ٢٥ مليار دولار فيما تصل أرباح كوريا ٨ مليارات فقط..

رأينا ظلم الحكام .. وتقاليع اللاعبين.

حتى الرياضة طالتها العولمة.

د.جمال العطار - الإسكندرية

الاهتمام بوصول مطبوعات الهلال للسعودية

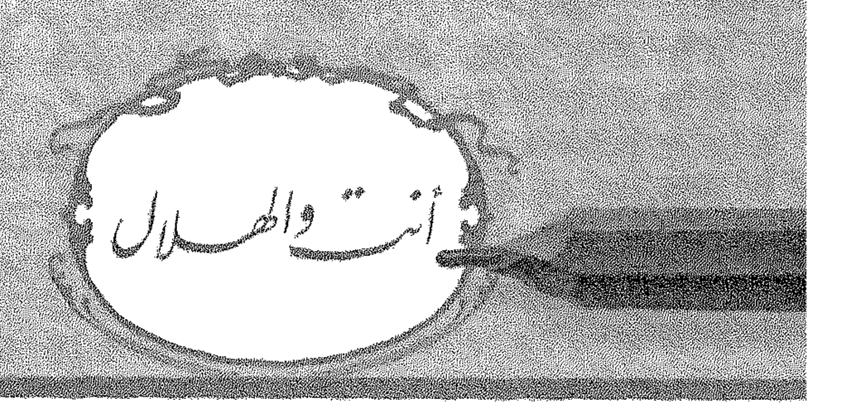
أتابع مجلة الهلال والكتاب والرواية بانتظام ومنذ سنوات طويلة، وما لاحظته هو ارتفاع أسعار هذه المطبوعات مقارنة مع غيرها من المطبوعات وأنا فى رسالتى إليكم لا أتحدث عن هذه الزيادة وإنما كل ما أطلبه هو أن يتم الاهتمام بوصولها كما يحدث بالنسبة للمطبوعات الأخرى.

على بن متروك السادة
سيهات - السعودية

الهلال: لقد تم الاتصال بقسم التوزيع، وبدوره اتصل بالشركة القومية للتوزيع، حتى تصل إليكم الإعداد بصورة سليمة، وبالطبع أنت ترى هذا التطور الكبير الذى حدث فى مجلة الهلال ابتداء من يناير ٢٠٠١، وفى العدد الأخير (يوليو) الماضى والذى نفد من الأسواق وأعيد طبعه مرة ثانية.

جارية كالغزال

أقبل أبو زيد الأسدى على سليمان ابن عبدالملك وهو فى إيوان قصره والمفروش أن حيا أبو زيد الأمير رفع الأمير رأسه اليه وسأله: أبا زيد ما يطيب فى يومنا هذا قال: قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء أشربها من كفها ثم أمسح فمى بخدها فلما سمع الأمير ذلك تغير وجهه وقال لأبى زيد: والله لأضربن عنقك إن لم تخبرنى ما الذى دفعك إلى هذا الكلام قال أبو زيد: نعم فقد كنت أمر بقصر أخيك سعيد فإذا بى أرى جارية تخرج من باب القصر كأنها غزال أنفلت من شبكة صياد



فى رجليها نعلان حمراوان قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها ولها خدان كأنهما نونان وحاجبان مقوسان وعينان ساحرتان وهى تقول: عباد الله من لى بدواء طال الحجاب وأبطأ الجواب والقلب حائر والنفس والهة والفؤاد مختلس والنوم محتبس فى رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام وسيلة لكان أمرا جميلا فقلت لها: ياجارية أنسية أنت أم جنية فقد أعجبنى ذكاء عقلك وحسن منطقك فتركتنى وانصرفت فوالله ما أكلت طعاما طيبا إلا غصصت به لذكرها ولا رأيت حسنا إلا قبح فى عينى لحسنها فقال سليمان: إن هذه التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها:

أنما الذلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان

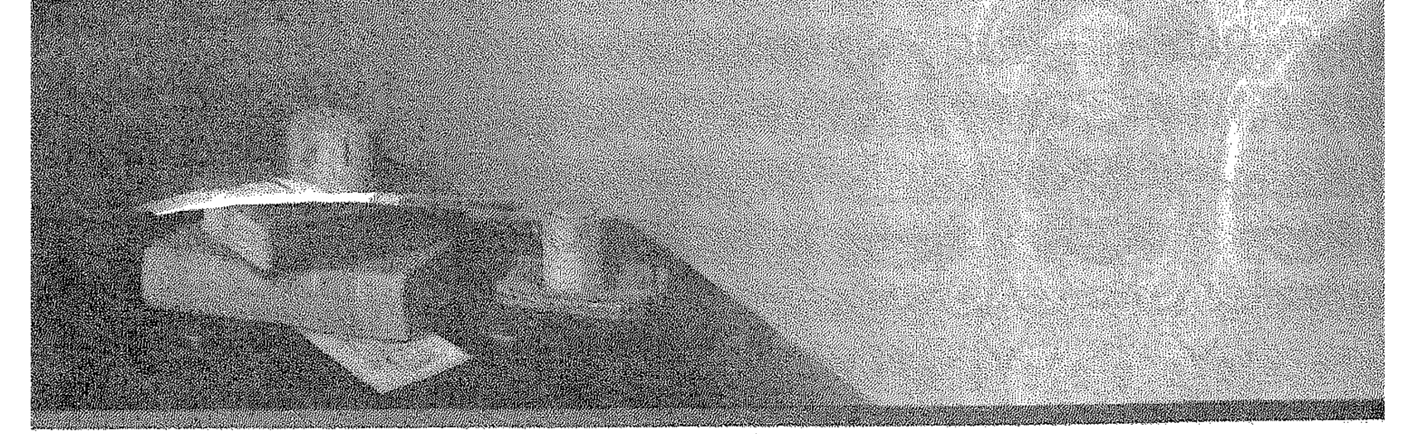
ثم استطرد سليمان قائلا: وقد اشتراها أخى سعيد إلا أن قلبها ظل معلقا بصاحبها وإنى يا آبازيد قد عفوت عنك.

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

خمسون عاما

خمسون عاما انتظر
خمسون عام
أرقب الفجر البعيد
أرسم على مر الزمن
ذلك الوطن العتيد
وانتظر
خمسون عاما
لم أكن يوما جبانا
لم أكن أبدا
يائسا .. أو خاضعا .. أو خائفا
خمسون عاما
انتظر ..
خمسون عاما
أحمل فى كف سلاحا
وفى كف كفن
آمضى.
أرحل من ألم إلى ألم
أحلم يوما
أن يصنفنى حضن الوطن
خمسون عاما
انتظر
خمسون عاما ..
يتقاسم الشياطين أرضى
زوجتى .. أولادى
يستبيحون بلادى
فى مشهد مخز
وزمن عفن

د.دعاء طه تليمة -صيدلانية



في جفون المستحيل

فى جفون المستحيل
أمنيات وانفجار
وارتحال فى صبابات
التمنى ...
كلما أحسست أنى
أحتسى كأس المرار
***
رشفة من ماء زمزم
يا إلهى يرتوى منها
جفاف النفس قبل الاحتضار
إننى نجم تجلى فى سماء
العشق يشكو فرط شوق
وانشطار
أشعل الليل حنينى
وانبرت شمس الرؤى
بين الحنايا تحتوينى..

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا المنصورة

من الأصدقاء

تصل قصائد ومساهمات لكنها تحتاج إلى مزيد من الصقل، فالشعر له أوزانه التى ينبغى أن يلم بها كل من يقرض الشعر بالإضافة إلى الموهبة.

● ونقول لمحمد إبراهيم من البحيرة عليك مواصلة قراءة الشعر، صحيح لديك الموهبة، ولكن من الضرورى الاهتمام بالوزن.

● عاصم فريد البرقوقى : الإسكندرية : شكرا على متابعتك المستمرة لكل ماينشر فى الهلال أما قصة «طفلى» فهى بعيدة تماما عن أن تكون ضمن فنون القصة القصيرة.

● أبو رحاب رجب الخولى : كتب لنا عن الدكتور عبدالله شحاتة الذى رحل عن عالمنا أخيرا . وأشار إلى أنه خريج كلية أصول الدين وحصل على الماجستير والدكتوراه من كلية دار العلوم والتى عمل أستاذا بها منذ عام ١٩٦٨ إلى ١٩٩٠ ومن بين مؤلفاته : الشباب المسلم وقضاياه المعاصرة - أركان الإسلام، قبس من سيرة الرسول، منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم .

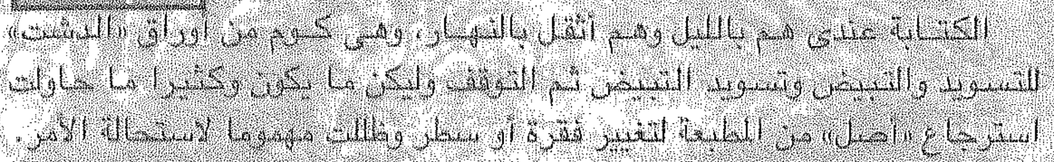
● إبراهيم خالد - الأسكندرية : يمكنك الحصول على أعداد الهلال فبراير ٢٠٠١، وأبريل ٢٠٠١ عن طريق إدارة التوزيع بدار الهلال والتى ستقوم بإرسالها إليك بالبريد بعد تسديد مايطلب منك . ويمكنك الاتصال هاتفيا بدار الهلال عن طريق أرقام الهواتف الموجودة على الهلال .

الكلمة الأخيرة

«همـــوم الكتـــابـة»

بقلم: محمـــد عـــودة





الكتابة عندى هم بالليل وهم أثقل بالنهار، وهى كوم من أوراق «الدشت» للتسويد والتبيض وتسويد التبيض ثم التوقف وليكن ما يكون وكثيرا ما حاولت استرجاع «أصل» من المطبعة لتغيير فقرة أو سطر وظللت مهموما لاستحالة الأمر.

وكنت أحسد المرحوم أحمد بهاء الدين على السهولة والعذوبة التى يكتب بها .. ترى باب غرفته مغلقا ويقولون الأستاذ يكتب وبعد ساعة على الأكثر يناديك ويقدم ورقة منمنمة ببنط خطاط أنيق ويسأل ما رأيك (هذه قصيدة أو «سوناتا» وليست تعليقا) ..

كان لابد أن يقرأ أعمدته ثلاث مرات مرة للفهم وثانية للنقد وثالثة للمتعة ومهما اختلفت تظل فى نشوة!!

كانت قدرته على اكتشاف المواهب ورعايتها رائعة وكان ألمعهم رئيس تحرير الهلال الآن والذى أضاف للتراث وأثراه إلى أبعد مدى .. خاصة بهذا العدد.

ولاشك أن كل أب أوجد يستطيع أن يقدم عدد الهلال التذكارى عن ثورة يوليو «٥٠ سنة» إلى أبنائه وأحفاده وأن يفاخر هذا ماقدمناه.. واستطعناه .. وهو ليس نهاية التاريخ وليس ذروة المنتهى ولا تزال الثورة المصرية مستمرة، وهى قد تتراجع أو تنتكس ولكنها، لابد وأن تنتصر.

ولم تبدأ ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فى ذلك اليوم ولكن بدأت فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ بثورة القاهرة الأولى ضد أول غارة استعمارية فرنسية على مصر .. وظل الجمر تحت الرماد حيا ومشتعلا يصنع التاريخ ويغيره. حينا آخر .. وهذا قدر الأمم العريقة.

عدد الهلال التذكارى حساب يقدمه جيل لأبنائه وأحفاده .. ويذكرهم بمهمتهم التى لا تقل وطأة وقد خلفنا الاستعمار الأوربى وعليهم أن يخلعوا استعمارا أشد وطأة، وضراوة استعمارا اسرائيليا أمريكيا هو لاشك آخر الطغاة وبنهايته سوف ينتهى عصر طويل كالح دام من التاريخ عصر سيادة الغرب وسوف ترتد الحضارة إلى ينابيعها الأولى على ضفاف النيل، واليانجستى والبراهما بدئرا ... فى مصر والصين والهند .. مثلا وسوف ينقرض الاستعمار والاستبداد والاستغلال ويتحقق حلم البشرية العريق فى عالم يسوده السلام والرخاء والإخاء .. وسوف تصلنا أخباره ونباركه معهم . لاشك !!!



روايات مصرية للجيب
أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات
روايات مصرية للجيب
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
معشوقة شباب العالم العربى





- الطعام والتفاعلات الثقافية بين الشعوب
- المجتمع وتكنولوجيا المعلومات

سبتمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

أفراح الأنجال

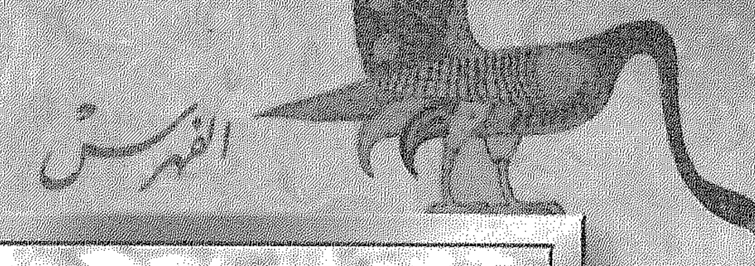
الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١– العتبة – الرقم البريدي: ١١٥١١ – تلغرافيا–المصور–القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ – فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

سوريا ١٢٥ ليرة ـ لبنان ٤٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١,٥ دينار ـ الكويت ١ دينار ـ السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار ـ قطر ١٠ ريالات ـ دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم ـ سلطنة عمان ١ ريال– تونس ٣ دينارات ـ المغرب ٣٠ درهما ـ الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال ـ غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار– إيطاليا ٤ يورو ـ سويسرا ٥ فرنكات ـ المملكة المتحدة ٢,٥ جك ـ امريكا ٨ دولارات





تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

١١٠ سنوات من عمر الهلال

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

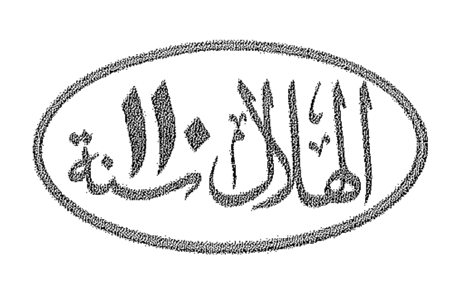
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

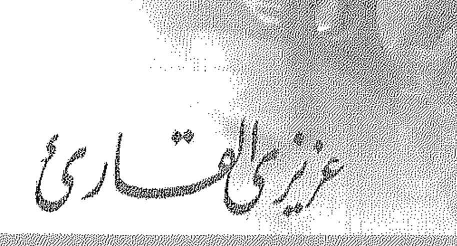
E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادى عشر بعد المائة

جماد آخر ١٤٢٣ هـ - سبتمبر ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة





كل عام وأنت بخير .. عزيزى القارىء ، ففى هذا العدد يدخل الهلال عامه العاشر بعد المائة من عمره المديد .

ومعنى هذا أن الهلال لبث وحده فى ساحة الصحافة الثقافية طوال هذا العمر الموصول .

ولا تتخذ مجلة الهلال من هذه المناسبة سبيلا إلى حديث عن النفس ، إلا لأنه حديث عن الثقافة العربية ، وعن مسيرة ثبات التقدم فى بلادنا الذى بدأ مع الهلال فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ .

ويالها من رحلة طويلة شاقة ، تقطعها مجلة ثقافية ساهم فى الكتابة فيها معظم الكتاب والأدباء .

ولعل خير احتفال بالهلال أن نذكر الذين أضاءوا صفحاتها بعصارة فكرهم ، ولولاهم لما أصبحت للهلال هذه الحياة المتصلة .

فقد أصدر الهلال عددا خاصا عن نجيب محفوظ فى فبراير ١٩٧٠ قبل فوزه بجائزة نوبل ، وكأنها نبوءة من الهلال ، كما أصدر اعدادا خاصة متوالية عن طه حسين والعقاد وشوقى وتوفيق الحكيم وغيرهم .

ويعتز الهلال أن أول طبعة ظهرت من «عصفور من الشرق» عام ١٩٢٦ نشرت فى الهلال ، كما نشر به «الأيام» للدكتور طه حسين فى الهلال فى أول ديسمبر من نفس العام ، وتوالت باقى الأيام عام ١٩٢٧ .

كما نشرت مذكرات أحمد عرابي في الهلال وعدد قليل من المجلات الشهرية فى كل أنحاء العالم ، استطاعت أن تجذب اليها القارىء ، وتثير اهتمامه خلال قرن وعقد من الزمان و «الهلال» من هذه المجلات التى استطاعت أن تواكب الزمن ، وأن تعيش فى عالم سريع التغير .

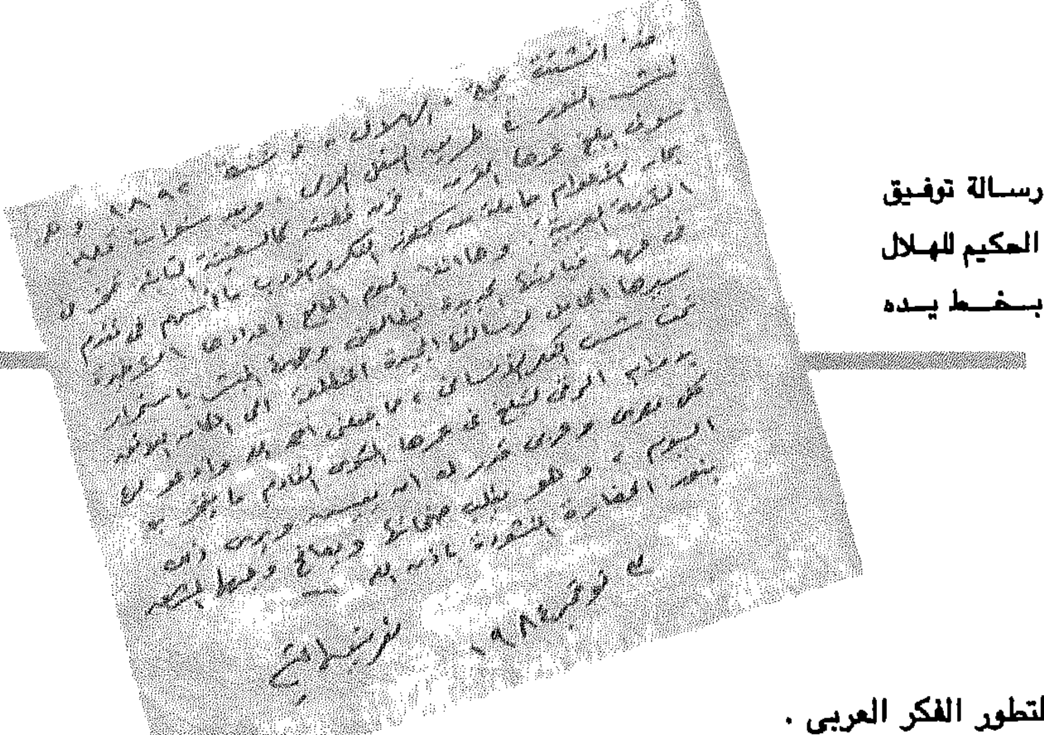


لأنها أدركت أنها تجدف ضد التيار إذا توقفت سرعان ما تعود إلي الوراء ، فكانت فى حالة تجديد مستمر في جميع المجالات ، وتمضى بقدم ثابتة فى طريقها حاملة مشعل الحرية ، وتشعر فى الهلال بتواصل الأجيال ، أجيال جديدة تتعلم من الأجيال السابقة عليها ، ولا ينقطع الخيط الواصل بين الأجيال ، ولا بين الماضى والحاضر والمستقبل مع حلول الجديد دائما محل القديم .

لكل هذه الأسباب أصبحت مجلة الهلال هرم الثقافة المصرية والعربية الذى يطل على القراء خلال عشرة أعوام ومائة سنة من الآداب والعلوم والفنون .

فلم يكن غريبا أنها كانت أول من دعت إلى إقامة الجامعة العربية فى عدد فبراير فى مطلع القرن العشرين وأنها واكبت علي الدوام عمليات التحديث وتطورت فى كل المجالات .

وتعترف العديد من الجامعات بأن أعداد «الهلال» تعد مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه



رسالة توفيق الحكيم للهلال بخط يده

لتطور الفكر العربى .

وقال شوقى أمير الشعراء عنه :

قد أكمل الله ذاك الهلال لنا   فلا رأى الدهر نقصا بعد اكمال

وفى ذكرى الكاتب الكبير توفيق الحكيم الذى خرجنا من عباءته، واستضأنا بنور كلماته ، الذى كان أحد أساطير هذا الزمان .

ومازلت أذكر تلك الرسالة التى تلقيتها منه باعتزاز والذى كتبها وهو على فراش المرض ، يؤكد فى رسالته على دور الهلال منذ نشأتها فى نشر النور فى طريق العقل العربى ، وجاء فى الرسالة .. قرن قضته الهلال كالسفينة الثابتة تمخر فى بحار الأعوام حاملة من كنوز الفكر والأدب ما أسهم فى تقدم الأمة العربية .

ويضيف الكاتب الكبير .. هأنذا أطالع أعدادها الأخيرة فى عهد قيادتها الجديدة ، فيطالعنى وجهها المبشر باستمرار سيرها الحامل لرسالتها المجيدة المتطلعة إلى المكان اللائق تحت شمس الفكر الإنسانى ، مما جعلنى أحمد الله وأدعو لها بدوام الرقى .. ما يفخر به كل مصرى وعربى وهو يقلب صفحاتها ويصافح وجهها المشرق بنور الحضارة المنشودة بإذن الله .

وعلاوة على مقالات كل من الدكتور مصطفى سويف والدكتور محمد رجب البيومى والأستاذ وديع فلسطين ، فقد اخترنا عددا من المقالات التى سبق نشرها والتى كتبها د. طه حسين ، ود. محمد حسين هيكل وانطون الجميل وفكرى أباظة ، والتى تعيد أجواء عصر مضى .

ولا تطمع الهلال سوى أن تستمر تعبيرا صادقا وأمينا عن واقع الحياة الثقافية ، وأن تفتح صفحاته لكافة «المدارس الفكرية ، وأن يجد رموز الحياة الثقافية وأجيالها الشابة فى مجلة الهلال انعكاسا لابداعهم وفكرهم .

فعلى اقلام الكتاب والمفكرين قامت ، وبهم تستمر فى تأدية رسالتها.

وبقى أن أقول إن هناك أمنية مازلنا نحلم بها ونسعى إليها ، وهى تسجيل أعداد الهلال على اسطوانة « سى . دى» حتى تتوافر للباحثين والمؤرخين فهى بحق مرأة الفكر العربى .

المحرر



توثيق التجربة

بقلم
د. مصطفى سويف

رأيت فى دعوتى إلى الكتابة عن «تجربتى مع الهلال» فرصة لتوثيق هذه التجربة لأنها تحتل فى نفسى مكانة لها سماتها الفارقة بينها من ناحية وغيرها من تجارب تماثلها بدرجات متفاوتة من ناحية أخرى، فقد سبق أن استكتبنى أساتذة أفاضل، فى مقدمتهم يحيى حقى، وزكى نجيب محمود، وعبدالحميد يونس رحمهم الله جميعا، الأول لمجلة «المجلة» والثانى «للفكر المعاصر» والثالث «للفنون الشعبية» ومع أن استجابتى للدعوات الثلاث كانت إيجابية، فكتبت للمجلات الثلاث ما وفقت إلى كتابته، فقد جاءت تجربتى مع مجلة الهلال تجربة فريدة، سواء فيما يتعلق بشكل الدعوة، أو توقيتها، أو فيما يتعلق بالكيفية التى استجبت بها لهذه الدعوة

وهذا بالضبط ماسوف أتناوله فى مقالى الراهن: سوف اتكلم عن الدعوة توقيتا، وشكلا، وعن المراحل والصور التى مرت بها استجابتى، ثم أتكلم عن الكيفية التى رأيت أن أنظم بها عملي للمجلة، وأخيرا سوف أتناول بالشرح والتوضيح تلك الصيغة التى أدركت (ولا أزال أدرك) من خلالها الدلالة النفسية الاجتماعية للمجلة بالنسبة لى.

الدعوة إلى الكتابة التوقيت والشكل والاستجابة

تلقيت الدعوة إلى الكتابة فى بواكير سنة ١٩٩٠ وجاء هذا التوقيت مواكبا لحدث مهم فى حياتي كمؤلف، كانت معظم جهودى فى التأليف موجهة منذ بداية السبيعينيات إلى خدمة التخصص العلمى الدقيق، وكانت تنصرف إلى الكتابة بالإنجليزية توخيا للنشر فى دوريات هيئة الصحة العالمية، وما كان على شاكلتها، وكانت تدور معظمها فى مجال سلوكيات تعاطى المخدرات، ولم يكن هذا تشيعا منى للغة الإنجليزية، ولكنه كان واجبا اقتضاه اختيارى خبيرا بمجلس خبراء بحوث التعاطى بالهيئة الدولية (منذ يونيه سنة ١٩٧١) ولكن وقعت أحداث فى مصر فى أواخر الثمانينات برز على أثرها اهتمام واضح لدى الدولة بأخطار المخدرات على الشباب، فرأيت من واجبى عندئذ أن أوجه بعض جهودى إلى التأليف بالعربية فى هذا الميدان (ولسان حالى أننى مستعد للاتجاه هذه الوجهة فى الكتابة مادامت مؤلفاتى سوف تجد من يقرأها). فى ذلك الوقت تلقيت الدعوة للكتابة فى الهلال، ولم تكن لهذه الدعوة أية علاقة بتسلسل الأحداث الخاص بكتاباتى حول تعاطى المخدرات، ومع ذلك فقد اعتبرت مجيء الدعوة فى هذا الوقت على وجه التحديد مصادفة سعيدة، لأنها فى نهاية الأمر طلب للكتابة بالعربية سوف ينضاف بما يحمل من ثقل إلى قرارى السابق على الدرب نفسه، والنتيجة (كما أرجو) سوف تكون مزيدا من التكريس للتأليف بالعربية.

ولا أذكر الآن على وجه اليقين أى شيء عن الصيغة اللفظية التى تلقيت بها الدعوة على لسان الاستاذ عادل عبدالصمد (مدير تحرير كتاب الهلال)، ولكنى أذكر أن الدعوة تركت فى نفسى حينئذ أثرا طيبا ربما كان مرجع بعضه إلى مضمونها، لكن من المؤكد أن البعض الآخر كان مرجعه إلى كياسة الاستاذ عادل وعنايته الفائقة بانتقاء ألفاظه وعباراته ، وما كان وجهه يشف عنه من معان ومشاعر طيبة.

ومع ذلك لم أكن على استعداد للرد بالقبول أو الاعتذار فى التو واللحظة فطلبت أن تمهلنى المجلة بضعة أيام حتى أحسن التفكير فيما عساه يترتب على قرارى من نتائج ومسئوليات، وكان همى الحقيقى حينئذ أن أجد الإجابة الصادقة عن سؤال بدا واضحا فى ذهنى منذ الدقائق الأولى: هل سأجد فى وقتى وجهدى متسعا للقيام بالمهام الثلاث بالصورة اللائقة، وأعنى بالمهام الثلاث الاستمرار فى الكتابة بالإنجليزية (للصحة العالمية) مضافا إليها الكتابة بالعربية (فى التخصص)، ثم الكتابة بالعربية (فى القضايا العامة) لمجلة الهلال؟ وكان مايزيد من شعورى بالهم أننى لا أريد أن أعد وعدا غير مشفوع بالوفاء، واستشرت فى الأمر قلة من الأعزاء ذوى العقل الراجح والنفس الصافية ، وأعملت مع المشورة التى تلقيتها كثيرا من الفكر والحساب، وانتهيت إلى قرار بأن أكتب: وقد صغت قرارى على النحو الآتى:

سوف أكتب لأن لدى فكرا أحب أن أسهم به فى الشأن العام، ولأن هذا أقل مايجب أن أقدمه للمجلة جزاء وفاقا على مبادرتها الكريمة، هذا عن الرد المباشر، أما أن أواصل الكتابة بعد ذلك من شهر إلى شهر، ومن عام إلى عام، فأمر موكول إلى ما نوفق له، المجلة وأنا، من قبول متبادل وسعة فى الصدر سداها التسامح ورحابة فى الأفق لحمتها التكافل.

مسيرتى فى الكتابة

ونشرت مقالى الأول فى المجلة فى أول مارس سنة ١٩٩٠.

وانتظمت فى الكتابة منذ ذلك التاريخ، وقد اجتمع لى على صفحات المجلة حتى أول يونيه سنة ٢٠٠٢ مايقرب من ستة وثمانين مقالا، وهو مايعنى أن صدر المجلة اتسع لمتوسط يقرب من سبع مقالات لى فى كل عام على امتداد هذه الفترة، فترة عقد وسنتين تقريبا.

وقد ألزمت نفسى فى معظم هذه المقالات (إن لم يكن فيها جميعا) بعدد من القيود الكمية مراعاة لاعتبارات عملية بعينها، وكان من أهم هذه القيود أن يتراوح عدد الكلمات فى المقال الواحد حول ٢٥٠٠ كلمة، مسترشدا فى هذا التحديد ببعض المتوسطات التى قدرتها لمقالات بعض الكتاب الأفاضل الذين سبقونى إلى الكتابة فى المجلة أو زاملونى على صفحاتها، ولكى أفسح المجال أمام غزارة المادة التى كانت تفرض نفسها علىّ أحيانا ابتكرت طريقة المقالات الثلاثية أعنى كتابة ثلاثة مقالات متتالية يتناول كل منها جانبا بعينه من جوانب الموضوع الذى أعرض له، بحيث تكون فى مجموعها ثالوثا متكاملا،

دون الإخلال في الوقت نفسه بالوحدة الداخلية للمقال الواحد، أضرب لذلك مثلا أو مثلين، فقد كتبت فى مايو ويونيه ويوليه سنة ١٩٩١.

ثلاث مقالات عن «العمل»، جاءت على النحو الآتى: «العمل فى حياة المواطن»، و«العمل ركيزة للصحة النفسية»، و«الآثار النفسية للبطالة»، وكتبتُ فى مارس وأبريل ومايو سنة ١٩٩٥ ثلاث مقالات عن الهوية الوطنية، تتابعت على الوجه الآتى : «نحن والهوية الوطنية»، و«عواقب الانسلاخ من الهوية الوطنية»، و«دعم الهوية الوطنية» وثمة أمثلة أخرى كثيرة تقوم على التصميم نفسه.

المجلة وأنا

الآن ، وقد انتهيت من هذه الجولة التى راعيت أن أجمع فيها بين التفصيل والتركيز، آن الأوان لكى أتحدث عن الكيفية التى قرأت بها دلالة المجلة النفسية الاجتماعية بالنسبة لى، وغنى عن البيان أن هذه الدلالة لم تكن واضحة أمام عينى منذ بداية الطريق، ولكنها سرعان ما وضحت وربما أعنتها على الوضوح ببذل الجهد من جانبى لكى أكشف عن ركائز للرؤية حتى أستطيع أن أعطيها من وقتى وجهدى ماهى جديرة به، وإلى القارىء ذكر الركائز الثلاث التى استطعت أن أحدد معالمها ، وأن أكفل لها فى نفسى قدرا معقولا من الدعم بعد القبول:

١ - كان أول ما ارتسم فى خاطرى عن المجلة أنها منبر يتيح لى الوصول برأيى إلى دائرة معينة من القراء، ولم يكن يعنينى كثيرا أن تكون الدائرة واسعة بقدر ما كان يهمنى أن تكون فاعلة، وأصبحت أحمل الهم كل الهم لمدى التوفيق فى أن تكون عباراتى بالغة الدقة فيما أريد لها أن تحمل من معان وشحنات تجعل هذه المعانى تنبض بالحياة فى نفوس المتلقين، ولا أذكر فى هذا الشأن أننى كنت أرضى دائما عن مستوى التوفيق الذى أبلغه، ولكن مما لاشك فيه أننى كنت عندما أبلغ حافة الرضا كانت كل مشاعر السعادة تغمرنى، لا بالنسبة لما أكتبه فحسب، ولكن بالنسبة للحظة التى وافقت فيها على الكتابة للمجلة، بل واللحظة التى تلقيت فيها دعوة المجلة إياى أن أكتب.

٢ - وكانت الركيزة الثانية للمجلة فى نفسى أنها بدت لى بكتابها وشعرائها وقصاصيها ومايجرى بينهم من حوار منطوق أحيانا وحوار مهموس أحيانا أخرى، مايدور حولهم بين الحين والآخر من أخبار وأقاصيص،

أقول بدت لى المجلة بكل هذه الشخوص والحوارات والأحداث وكأنها أسرة لى تغنى عالمى بمزيد من الأنس يقى النفس شر مايعتريها أحيانا من مشاعر الوحشة وأحاسيس الاغتراب، وربما كنا نحن المشتغلين بالفكر أكثر تعرضا من غيرنا لهذه المشاعر والأحاسيس المعاكسة، وإذن فما أحوجنا إلى مثل هذه المجلة نطل منها على رفاق القلم، ونأتنس بإطلالتهم علينا.

٣ - وكانت الركيزة الثالثة للمجلة فى نفسى أن أجدها تتيح لى الاقتراب (فيما أكتب) من شاعرية اللغة ما أمكن، فأنا عندما أكتب لدوريات التخصص العربية، (من قبيل «المجلة الجنائية القومية» و«المجلة الاجتماعية القومية» اللاتين يصدرهما المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) أجدنى أتعامل مع قوالب وقواعد شديدة الصرامة، تكسب الافكار حدودا حادة، وتخضع العلاقات فيما بينها لمقاييس تتخذ من الفكر الرياضى مثلا أعلى يحتذى، ولست أنكر أن لعالم الضبط الفكرى الدقيق جاذبيته بالنسبة لى، ولكنى أعترف بأننى أهفو إلى عالم الوجدان الشاعرى من حين لآخر، ومن خلاله أتجه إلى شاعرية اللغة والصورة، وهذا ماتيسره لى مجلة الهلال تلقيا وإبداعا.

خاتمة

أكتفى بهذا القدر الذى قدمته من الحديث عن تجربتى مع «الهلال»، وقد أوضحت فيه كيف ومتى حاولت المجلة أن تجتذبنى إلى الكتابة فيها، وكيف كانت استجابتى لهذه المحاولة المشكورة، وأوضحت كيف أن استجابتى التى كان يشوبها فى البدء شىء من الحذر أسفرت حتى الآن عما يقرب من ستة وثمانين مقالا نشرت على امتداد مايقرب من إثنى عشر عاما، وأنا الآن، تماشيا مع عاداتى العقلية أتخيل لو أن المجلة لم تكن إيجابية فى محاولتها اجتذابى حين حاولت، إذن لما كنت قد انتجت هذه المقالات وأودعتها ما أودعتها من عناصر فكرية ووجدانية تعبيرية، وأفكر فيما يعنيه ذلك بالنسبة لى؟ وأشعر ردا عن هذا التساؤل بأننى مدين للمجلة بالشكر الجزيل لأنها صاحبة فضل فى ذلك لاينكر.

ولعل فيما ذكرت عن المعانى التى أقرأها الآن فى المجلة، ودلالتها بالنسبة لى، مايلقى الضوء ساطعا على حقيقة العلاقة التكافلية التى تضمنى وإياها. ■

أقوال معاصرة

● « لن يتخلى الشعر عن الوزن إلا حين يتخلى الجنس البشرى عن إحساسه بالموسيقى » .

الدكتور عبدالقادر القط

● « نحن فى حاجة قصوى إلى الشعر ، لأننا فى أشد الحاجة إلى مخاطبة الذات » .

كريستينا بيكييرى

أستاذة الفلسفة فى جامعة كيرنجى ميلون بالولايات المتحدة

● « علينا ألا نقول للنقاد الأمريكيين ، أنتم انتقدوا أمريكا ونحن أيضا ننتقدها، دون أن ننتقد أنفسنا » .

الصحفى اللبنانى حازم صاغية

● « ظاهرة النساء تعمل وفق جدلية مزدوجة ، تشريك الخسائر ليتحمل وزرها المجتمع بكامله ، وتخصيص الأرباح ليعود نفعها على الأفراد واحدا أحدا » .

جويلم فايز

صاحب كتاب الصين - الأزمات - التحول

● « ما هو رائع حقا فى أوروبا هو أن للعدالة وجودا حقيقيا ، وهى تحسم هنا بين أى مواطن بسيط وبين الجنرال ، حتى وإن كان واحدا من الرجال الأقوى فى بلده » .

الجندى الجزائرى حبيب سوايدية

مؤلف كتاب الحرب القذرة

● « الإنسان غير الحر فقير » .

المفكر المصرى نادر فرجاني

صاحب تقرير التنمية البشرية العربية

● « الموقف النفطى السودانى الواعد بأكثر مما هو مرئى حتى الآن ، ساهم مساهمة إيجابية فى الدفع نحو السلام » .

الصادق المهدى

رئيس الوزراء السودانى الأسبق وزعيم حزب الأمة

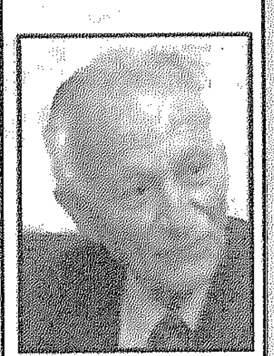
● « أنا لست فى المنصب لابقى ، واسأل نفس كل صباح عن أمثل طريقة لخدمة الجزائر » .

خليدة مسعودى

الناطقة باسم الحكومة الجزائرية -ووزيرة الاتصال والثقافة

● « حتى يجيد الممثل تقمص الشخصية ، عليه أن يكون سعيدا أثناء التصوير » .

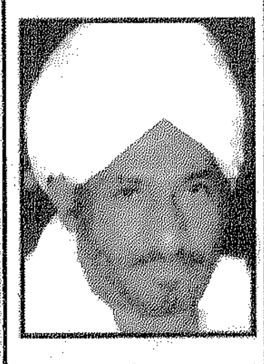
جان مورو -نجمة السينما والمسرح الفرنسية



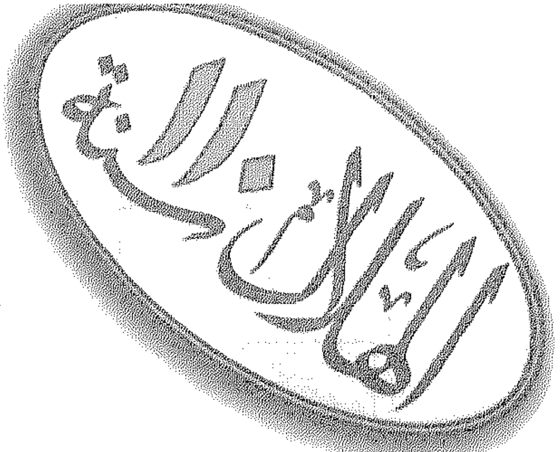
عبد القادر القط

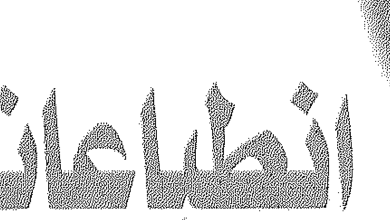


حبيب سوايديه



الصادق المهدي





انطباعات صادقة

الحوار الهادئ على صفحات الهلال

بقلم
د. محمد رجب البيومى

ما أظن نقاشا هادئا موضوعياً يأخذ سمته المتزن ، كما يتجلى على صفحات مجلة الهلال منذ عهدها الأول فى أواخر القرن التاسع عشر إلى الآن ! حيث لم تحد هذه المجلة الكبيرة عن سمتها الخلقى الرفيع فيما تعرض من نقاش قد تختلف فيه وجوه الرأى من أنأى اليمين إلى أقصى الشمال . ومع هذا الاختلاف البارز فى تناول القضية ، فكرية كانت أو سياسية فإنك تلمس طابع الهدوء التام ، والالتزام بالموضوعية الدقيقة فى الكثير الكثير مما تقرأ ومن أعجب ما يلحظه القارىء المطمئن ، أن كاتباً كبيراً يعالج موضوعاً حوارياً على صفحات الهلال . فيجرى حديثه وادعا ملتزما ، ثم يضطر إلى نقاش آخر فى الموضوع ذاته فى جريدة يومية أو مجلة شهرية فترى النغمة غير النغمة ، والصوت الصاخب غير اللحن الهادىء ، ومعنى ذلك أن مجلة الهلال فى مدى أكثر من قرن قد طبعت كاتبها على منهج خاص يلتزم به واعياً مدركاً ، أو لاشعورياً مبهما .



جورجى زيدان



أمين الخولى

وكثيراً ما تساءلت بيني وبين نفسي ، أمن الجائز أن يرد إلى المجلة رد حاد صاخب فتعتذر عن نشره مهما بلغت درجة صاحبه من الاشتهار والذيوع ، أو أنها إذا قررت نشره حذفت منه ما لا تراه متفقاً مع سننها الموضوعي ؟ سألت نفسي هذا السؤال . وكان الاحتمالان واردين ، غير أني بالرجوع إلى واقعي العملي أرجح أن الكاتب من تلقاء نفسه يعرف اتجاه الصحيفة المثالية فلا يحاول أن يشذ عن منهجها القويم ، وأصارح القارىء أني كتبت في دائرة الحوار بمجلة الهلال أكثر من مرة ، فكنت تلقائياً ألتزم من الهدوء ما قد أتحلل من صرامته في مكان آخر ، لأني أحترم ضوابط المجلة أولاً ، كما أحترم قارىء المجلة ثانيا ، إذا عرف تساميه الخلقي وتقديره لمجلة هي أم المجلات الثقافية التي تصدر في العالم العربي ، ومن دوحتها تفرعت غصون كثيرة في شتى الحدائق الفكرية فآتت أكلها الطيب ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

المصدر الأول

ولعل السبب الرئيسي المباشر لهذا الاتجاه الحميد ، هو ما اتجه إليه مؤسسها الأول العالم المؤرخ جورجي زيدان منذ قام على توجيهها الفكري في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد كان هذا الرجل الأعجوبة بل المعجزة يقرأ الفرنسية والانجليزية والألمانية قراءة مستوعبة ويراقب ما يصدر في هذه اللغات من صحف علمية راقية ، فارتاحت نفسه الكريمة إلى ما تلتزمه بعض هذه الدوريات من سلوك موضوعي ، ورأى فيه نمطاً يحتذى ، فطالع القراء بمنحاه الخلقي في حوار المجلة العلمي ، وكان عميقاً أن ترى الحوار صاخباً في غير الهلال حتى ليبلغ مبلغ الشتائم في مجلة محترمه لها تقديرها العظيم كصحيفة «مصباح الشرق» التي كان يقوم على توجيهها الأديب الكبير محمد المويلحي رحمه الله ، ثم ترى النبرة مختلفة تماما على صفحات مجلة الهلال ، حتى حين يستدعي المجال بعض الحدة ، فقد أصدر المؤرخ الكبير جورجي زيدان كتابيه الخالدين عن تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ الأدب العربي ، فقوبلا معاً بعاصفة من النقد تجاوزت الموضوعية إلى الذاتية ، وأذكر أن العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني كبير علماء الهند ، قد قابل الكتاب الأول بهجوم عاصف ، إذ ادعى أن المؤرخ لم يتعرض للعصر النبوي بنقد ما خيفة وحذرا ، ولكنه انتقد العصر الأموي تشفياً لغرضه بعيداً عن العصر النبوي ، هكذا قال الرجل الكبير فيما قال ! ويكفي في الرد عليه أن الشهيد العظيم الأستاذ سيد قطب وهو من لا مغمز في حميته الإسلامية قد قال في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» عن

العصر الأموى أكثر مما قال الأستاذ جورجي وما جرؤ أحد أن يتهمه بالغرض ، أما كتاب تاريخ الأدب العربى فقد هاجمه العلامة الاستاذ أحمد السكندرى وكان حينئذ فى فورة شبابه المتوثب هجوماً لا يخلو من التفسير الشاط لبعض الآراء ، ومحاولة إيجاد بواعث خاصة ، وكان الأستاذ جورجي زيدان متأدباً بأدب الإسلام حين رد على هذين الفاضلين فى حوار جاد ، دفع فيه السيئة بالحسنة وجادل بالتى هى أقوم ، ولو كنت مكانه ما ملكت من هدوء الأعصاب وسعة الصدر بعض ما يملك ، بل أذكر أن المجلة (مجلة الهلال) فسحت صدرها لنقد تاريخى كتبه المؤرخ السورى الشهير الأستاذ رفيق العظم بك لكتاب التمدن ، فنشرت النقد كاملاً على ما يتضمن من احتمالات كثيرة توجب الخلاف ! وهذا السلوك الممتاز خلقاً ، قبل أن يكون ممتازاً علمياً هو ما سنه المؤرخ الكبير لباب النقد فى مجلة الهلال فى نشأتها الأولى وعلى هذين سار من خلفوه جميعاً على رئاسة التحرير حتى الآن ، فأنت تطالع المجلدات الضخام التى تتابعت منذ صدور هذه المجلة إلى الآن فلا نجد فى الحوار غير نزاهه القصد ، وسواء السبيل ، بل تعجب كثيراً لأقلام العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ، والمازنى وزكى مبارك كيف تنازلت عن حدتها فى صحف البلاغ والوادى وكوكب الشرق والجهاد والسياسة اليومية والعصور ، ثم عادت هادئة منطبقة على صفحات الهلال ! وأعتقد أن هذا الهدوء مما يساعد على اجتلاء الحقائق من أقرب طريق .

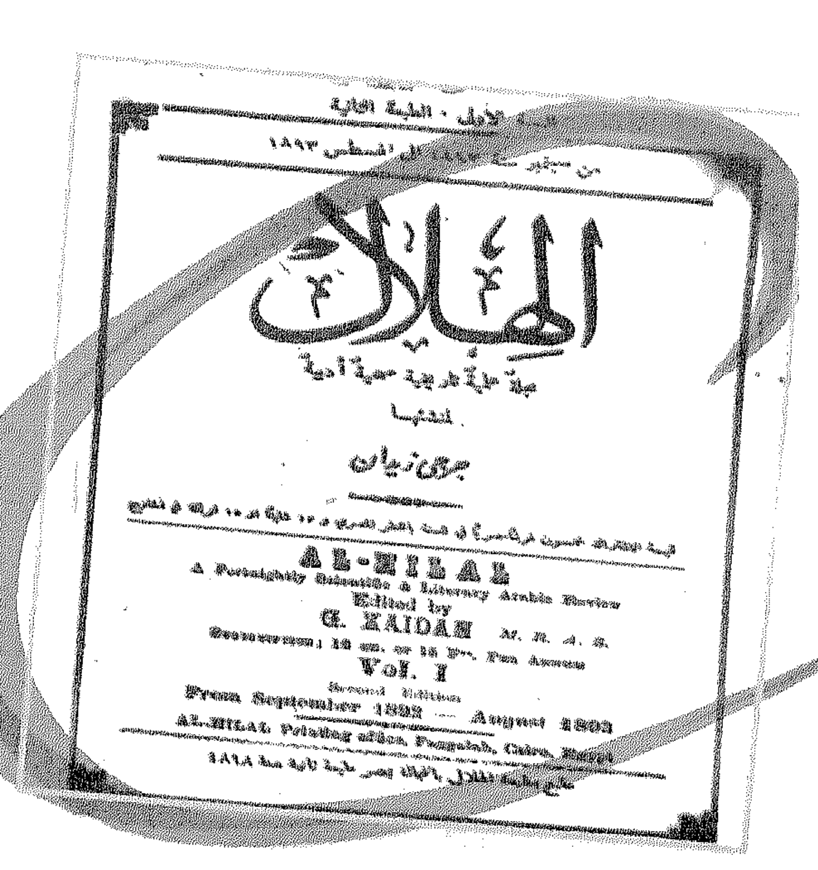
مثال من الرافعى

وحين انتقل الاستاذ جورجي زيدان إلى رحمة الله فجأة ، واضطر ولده الشاب إميل زيدان أن يقطع رحلته العلمية فى أوربا وأن يعود ليقوم على إصدار مجلة الهلال ، رأى من الحيطة ، كما ذكر الأستاذ سليم سركيس فى مجلته، رأى أن يسترشد بآراء الكاتبين الصحفيين النابهين داود بركات ، وسليم سركيس ، وخاطبهما فى ذلك فأبديا كل ترحيب ، ولكن ظهور عددين من المجلة على نحو كريم ، قد دعا الرجلين إلى الإشادة بمواهب إميل ، واعترفا أن مثله فى إلمامه الصحفى ، واتجاهه الواقعى لم يعد فى حاجة إلى استشارتهما ، بل إنهما قد يحتاجان إلى استشارته المثمرة ! وواضح أن الصحفى الشاب قد التزم صراط أبيه علميا وخلقيا ، ولكنه فى ميدان الصحافة قد سعى إلى الارتقاء بالمجلة ، حتى أصبحت الأولى فى مضمار الثقافة المتطورة ، واتسعت لتشمل ميادين لم تتح لها من قبل ، فزاد اهتمامها بثمار الفكر العالمى ، وفتحت من الأبواب ما كان غير متيسر من قبل ، واحتذت حذو أرقى المجلات الأوربية حين أبدعت أسئلة عصرية مهمة توجهها لكبار





عبد الرحمن الرافعى



المرموقين شرقا وغرباً ومن أهمها أبواب: ما أكبر شيء أثر فى حياتى ؟ ومجلة المجلات ، وشئون الدار ، وأعلام السياسة العالمية ، وغيرها ، وفى ميدان الحوار العلمى كانت السابق فى اختيار ما يشغل الذهن العربى من معاضل السياسة والاجتماع ، ومسألة القديم والجديد ، فى الأدب كانت موضع حوار ساخن بين طه حسين وسلامه موسى ومحمد فريد وجدى ومصطفى الرافعى ومحمد حسين هيكل على مدى أكثر من ربع قرن ، وكان الحوار ساخناً يبلغ درجة العنف لدى الكثيرين من هؤلاء ، ومن أبرزهم إمام البيان العربى الأشم ، وصاحب اللسان الصارم دون منازع ، وهو الاستاذ مصطفى صادق الرافعى الذى كان يحمل الراية المعارضة فى صرامة واندفاع فيبلغ من خصومه مالا يبلغه صاحب السيف الباتر فى ميدان الصيال ، على حين لا يعتمد على حزب سياسى ، أو منصب جامعى ، أو موالاة جريدة شهيرة تجزل له الأجر ، إذ كان يعتمد على قلمه وحده ، بل على قلبه النابض بحقائق الوجود الإنسانى قبل أن ينبض بمشاعر العروبة والإسلام والوطنية ، هذا العملاق الثائر الجبار ، يكتب معارضا خصومه فى البلاغ وكوكب الشرق وأخبار

أمين الرافعي فتحسب ناراً حامية تلفح الوجوه ، ثم هو يكتب في مجلة الهلال فيما يكتب فيه بالصحف الأخرى ، فترى مع اتفاق الفكرة ، ووضوح الهدف هدوءاً عاقلا ، وأسلوباً هادئاً لا يلفحه الشواظ ، وأنقل هنا بعض ما قاله في مجلة الهلال (فبراير سنة ١٩٢٤) رداً على الاستاذ سلامة موسى ، ليجد القارىء في أسلوب الرافعي غير ما يعهد من الثورة والحمية بل من التوهج والاشتعال يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعي :

«المذهب القديم هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها تنزل من الزمن منزلة أمة العرب من العظماء ، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو كما نزل به الوحي أمس ، لا يفتننا عنه علم ولا رأى ، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شيء كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً .

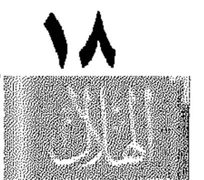
فإذا أرادوا بالمذهب الجديد أن يكتب الكاتب في العربية منصرفاً إلى المعنى تاركاً اللغة وشأنها متعسفا فيها . آخذا ما يتفق كما يتفق ، وما يجرى على قلمه يجرى . إن أرادوا بهذا واشباهه المذهب الأدبي الجديد قلنا : لا ، ثم لا ، ثلاث مرات ، ثم أي خير لأدبنا وعلومنا وكتبنا من أن نحرص على الأصل الصحيح القوى الذى في أيدينا ، ونحتمل فيه ضعف الضعفاء حتى ينشأ جيل أقوى من جيل ، وتخرج أمة خيرا من أمة أم ندع الإصلاح للنساء ، ونتراخى في القوة حتى تصير ضعفاً ».

ولا أستطيع أن أنقل هنا مقالاً طويلاً كتب في عدة صفحات ، وإنما اكتفيت بما ينبيء عن هدوء الرجل على صفحات مجلة الهلال ، وكتاب (تحت راية القرآن) يكفى لتأييد ما أرمى إليه من نهج الحوار على صفحات مجلة الهلال ، وهو نهج لو التزمت به الصحف الأخرى لقضى على لجاج يمتد سنوات طوالاً دون أن ينتهي إلى رأى جازم ! ولعل الاستاذ محمد فريد وجدى رحمه الله وقد قضى عمره في ميدان الحوار الجاد ، كان القدوة المثلى لحين يلتزم الحياد الهادف في عرض الآراء ، وقد اتسعت مجلة الهلال لكثير من آرائه البصيرة ذات الأسلوب العف ، والرأى النزيه !

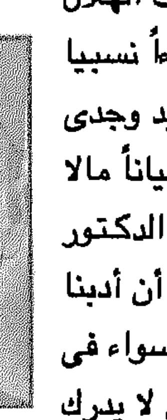
أأترك الأستاذ الرافعي إلى مجادل آخر ، فأتخذه مثلا للهدوء الملتزم المترفق على صفحات الهلال حين يكون في مجال آخر يخز بالسيف لا بالقلم ، ويضرب بالحديد لا باليراع !

أمين الخولي

عرف الأستاذ الخولي بسطوة الجدل ، وتشقق الخلاف ، ومقدسات كتبه تحمل من الإيقاع الحاد ما قد يكون ثقيلاً على بعض الأسماع ، إذ يفترض أنه يضع



مناهج عقل الناس عن ضرورتها الحاسمة ، وأنا أستغفر تلاميذه ومريديه حين أقرر أنى أتابع المقدمة إلى غيرها من الأبواب ، فأجد التجديد المبتكر حقا فى بعض ما قرر ، ولكن لا أجد ما كنت أتوقعه بعد هذه الصيحات المدوية ! وإذن فلماذا هذه الصاخة تلو الصاخة المفزعة ، فى مقدمة كل كتاب ، بل وفى أكثر البحوث التى طرقها بالمجلات !



سلامة موسى

مصطفى صادق الرافعى

هذا المجادل النظار إذا تعرض للنقد على صفحات الهلال يصطنع من الهدوء مالا نعهده فى قلمه ، وقد يكون هدوءاً نسبيا كما فى مجادلته للأستاذ يوسف الدجوى ، والأستاذ فريد وجدى على صفحات الهلال ، ولكنه يبلغ من الرقة والتواضع أحياناً مالا نتوقعه من قلمه ، ومن ذلك مناقشته لأستاذه الكبير الدكتور أحمد أمين حين كتب فى مجلة الهلال مقالا يقرر فيه أن أدبنا العربى لا يصلح أن يكون غذاء كافيا للجيل الحاضر ، سواء فى ذلك الأدب القديم أو الأدب الحديث ، لأن الأدب القديم لا يدرك فحواه غير الخاصة أما الأدب الحديث فهو لا يكفى لغذاء الجيل الحديث لأنه لم يملأ حياتنا ، ولم يحقق رسالة ما ، مع أن أدب كل أمة يجب أن يساير نهضتها، بل يجب أن يكون أمامها ، وأدبنا ليس كذلك ، فهو كالثوب القصير للرجل الطويل ، أو الثوب البدوى للمرأة المتحضرة ، وإذن فأدبنا لا يمثلنا فى رأى الكاتب الكبير .

هذا فحوى مقال الدكتور أحمد أمين ، وقد شاء الأستاذ الخولى أن يعارضه بمقال تال على صفحات الهلال ، فقد نشر بالجزء الرابع من عام سنة ١٩٣٧ مقالاً تحت عنوان «أدبنا الآن يمثلنا، وما الأدب إلا صورة الحياة»، وقد بدأه ملاطفاً مجاملا حيث قال «بينى وبين الأستاذ أحمد أمين من الأواصر والصلات كثير يتقاضانى السكوت ، طاعة لشرعة هذا النقد المتعارف ، فلى منه الأستاذ ، والصديق ، والزميل ، والجار وما إلى ذلك من نعوت كلها محبب مقرب ، وكلها يبدى مخالفتى إياه فى صورة منغصة عند من يعرف النقد على هذا المعنى الفاسد لكنى أتقدم لمخالفته ومناقشته ونقده فى غير ما تهيب ، وفى غير ما هوى له أو عليه ما استطعت ، وفى عبارة لن يراه إن شاء الله مثيرة لغير الرضا التام ».

هذا الترفق الوديع مما يناسب منهج الهلال دون نزاع ، وقد ذهب الأستاذ الخولى

فى رده إلى أن الأدب المعاصر يمثلنا تمام التمثيل ، لأننا مبعثرون غير مجتمعين ، فقد ورثنا حضارة لها مزاجها وكيانها . وطلعت علينا حضارة لها توابع آخر وهاجمتنا محاولات لإحياء قديم أسبق من الحضارتين ، تشير إلى بعض مجد الفراعين ، فتحن فى هذا المضمار أشتات بدد يذهب كل فريق إلى ناحية ويلوذ بزاوية ، أو يقوم وسطا بين هذا وذاك ، ثم انتهى الأستاذ بعد أن بسط هذا المنحى فى وضوح شاف كاف ، إلى أن الأدب الحاضر فى عربيته وغربيته ، وقدمه وحداثته ، وتململه وقلقه ليس إلا صورة لحياتنا الاجتماعية فهو يمثلنا تمام التمثيل .

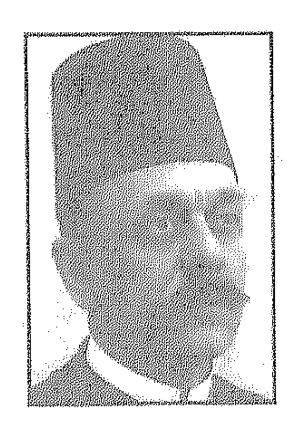
هذا المنطق الدقيق المترفق ، كان جديداً على قارىء الأستاذ الخولى ، وأنا فى مجال التعقيب عليه ، أعرف أن الاستاذ أحمد أمين كان لا يجهل ما قرره الأستاذ الخولى ، ولكنه كان يطمح إلى أدب قائد يجمع المتفرق إلى هدف واحد فهو يشرئب إلى أفق جديد ، أما الخولى فقد وصف الواقع كما هو ، وقرر أنه يمثلنا باختلاف مناحيه ، لأننا نحن مختلفون معاً ، فالناقد يصور الواقع ، والمنقود يطمح إلى مثل أعلى» .

وقريب من الحوار الأدبى على صفحات الهلال ما هو شبيه من ذكر رأيين متعارضين فى مسألة اجتماعية وقد أتى حين من الدهر على الصحف المصرية كانت قضية المرأة الشرقية ومدى اقتباسها من سلوك المرأة الغربية موضع الجدل الذى لا يكاد يقف عند حد ، بين متطرف ينزع إلى إهمال كل تقليد شرقى ومتطرف آخر ينزع إلى أهمال كل منحى غربى ، ولكن هدوء الحوار على صفحات مجلة الهلال ، واتزان المتحاورين اتزانا منصفا ، جعل الخلاف يضيق بين المتحاورين وهما ليسا من منزع واحد ، فالأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى غير مجلة الهلال يصف المرأة الغربية بما يحذر منه المرأة الشرقية ، يقول ذلك صريحا لا مواربة به ، والأستاذ أمين الريحانى الكاتب اللبنانى يدعو إلى لحاق الشرقية بالغربية فى كثير مما كتب ، حتى إذا استضافتهما مجلة الهلال رأيا من الصواب أن يتقارب المتباعدان قدر المستطاع ، بحيث تضيق الفجوة كثيراً عن ذى قبل ، فالأستاذ مصطفى صادق الرافعى يقول فى إجابته الشافية بالعدد الثالث من مجلة الهلال الصادر فى سنة ١٩٢٤ م « أما ما يحسن أن يقتبسه نساؤنا من المرأة الغربية فهو العلم وحده ، وما هو من نتائجه كالتدبير والحزم والتبصر فى أمور الحياة ، وحسن التصرف فيها ، وما كانت المرأة الشرقية فى حاجة إلى هذا من قبل ، فعليها إذن أن تقتبس من تاريخها لا من تاريخ المرأة الغربية ، وكل فضيلة المرأة الغربية عندى معرفة فن الحياة المنزلية على أحسن أشكاله ، وأرقى ما انتهى إليه من إنشاء



المرأة للبيت ثم إنشاء للأسرة ثم إنشاء الأسرة للمجتمع ، أما ما وراء ذلك من التبرج والسفه والإسراف وفنون اللهو بين الجنسين ، فهذا ما يجب أن تكون المرأة فيه شرقية خالصة» .

هذا لباب ما قاله الرافعي أما لباب ما قاله الريحاني في العدد نفسه ، فهو «أن المرأة الغربية نوعان واحدة تعيش لنفسها وللذاتها ، فلا تهتم بغير الأزياء وأهواء النفس ، وتقضي أيامها في مسارح اللهو والطرب والغناء ، وتجعل الحب ألعوبة من ألاعيب الحياة ، وهذا مما لا يحسن بالمرأة الشرقية أن تأتيه ولا تقتبس منه شيئاً .


محمد فريد وجدي

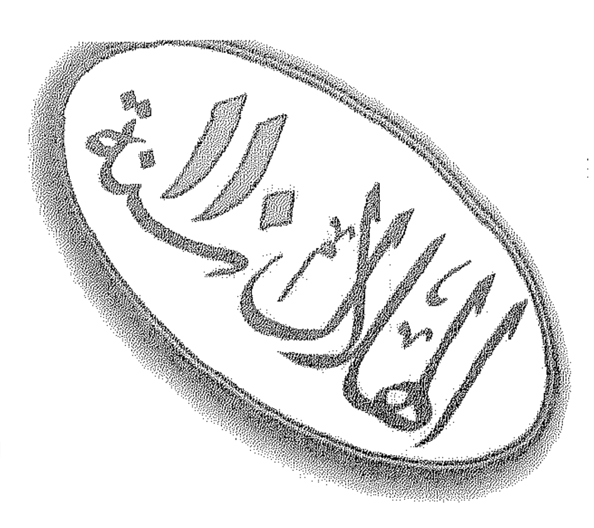
وأما النوع الآخر وهو المرأة المهذبة الحكيمة التي لم تفقد شيئاً من مزايا القلب الإنساني الشريف . ولا شيئاً من ارتقاء عقلها ، فهي الأم الرءوم ، والزوجة الصالحة ، والعضو العامل في الهيئة الاجتماعية ، ولها ذوق سليم في الآداب والفنون الجميلة ، وعندها واجبان مقدسان بيتها ووطنها ، وبين الواجبين تخص ساعة لنفسها فتحضر حفلة موسيقية ، ولا تنسى أنها امرأة ! وتلك هي المرأة التي يحسن بالشرقية أن تحتذيها» .

فالجوابان على صفحة الهلال يتقاربان ولا أقول إنهما يتفقان ولعل هذا التقارب وجد حين فهم الكاتبان رسالة الهلال نفسها ، التي توجب القصد والاعتدال ، وهما في صميم نفسيهما يودان ذلك ، هذا وقد استمرت مجلة الهلال على مبدأ الحوار الهادف حتى أصبح باب الحوار ، في عهدها الراهن من الأبواب الثابتة المحببة للقراء ، وأنا أحيي القائمين عليها لاتجاههم الرائع ، في فتح النوافذ المغلقة ، وتحديد الهدف المراد ، والبعد عن الخطابيات ، وترك الحرية لكل ناقد أن يقول ما يشاء .

وبعد أتراني أفصحت فيما كتبت عن ناحية من نواحي مجلة الهلال ، كان لها أثر بارز في اتجاه سلوكي قبل أن تترك أثرها في تثقيف ذهني ، وهو تثقيف أولعت به منذ أخذت أقرأها في ميعة الصبا واقتبال الشباب ، ومازلت بعد تقدم السن أجد آثار هذا التثقيف تتسرب إلى منافذ تفكيري ، فأولع بالمجلة وشيخاً ، كعهدي بها شابا ، مرددا قول الشاعر القديم .

دعاني من نجد فإن سنينه

لعبن بنا شيباً ، وشيبننا مردا ■

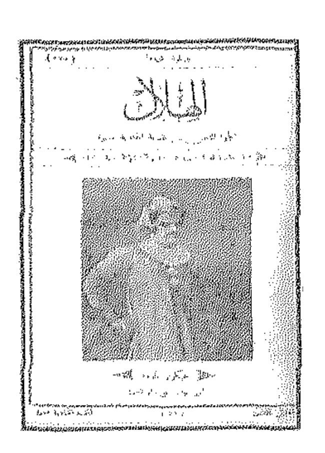


نزهة بين أعداد قديمة من «الهلال»

بقلم
وديع فلسطين

هويت منذ ما تركت مقاعد الدرس اقتناء المجلات الأدبية والاستمتاع بقراءتها ، فالعدد الواحد من المجلة يضم أشتاتاً من الموضوعات بين أدبية وعلمية وترفيهية وسياسية ، فيقف المرء على زبدة أفكار الكتاب مكثفة ومجلوة . فإذا فرغ القارىء من مطالعة المجلة ، لم يهملها كما يهمل الجريدة اليومية ، بل يحتفظ بها شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة فتتألف من مجموعاتها دائرة معارف شاملة لعصر كامل برجاله وأحداثه وبكل ما اضطرب فيه من آراء وأفكار هذا إلى كونها تعتبر مرجعاً موثقاً بما تنشره من سير الأعلام الراحلين والمعاصرين ، وما أكثر ما رجعت إلى مجموعاتى من المجلات للتحقق من واقعة معينة ، أو من تاريخ وفاة أديب ، أو لمتابعة معركة اشتجرت حول موضوع كان وقتها موضوع الساعة .

وقد بدأت اقتناء مجلة «الهلال» منذ عام ١٩٤٥ عندما قامت المجلة بالتعريف فى أحد أعدادها بكتابى الأول ، وهو ترجمة لمسرحية «الأب» للأديب السويدى أوجست سترندبرج ، وحاولت بعد ذلك أن أضيف إلى أعداد المجلة ما سبق له الصدور منها قبل هذا التاريخ ، أرصدها على سور حديقة الأزبكية أو فى المكتبات التى تبيع الكتب القديمة ، فتوافرت عندى أعداد ترجع إلى الثلاثينات من




القرن الماضى تغرى بأن أتجول بينها فى نزهة عقلية لاستخراج بعض مما جاء فيها من مستطرفات .

المرأة جنس غير فنى

ففى شهر نوفمبر ١٩٣٥ أصدرت مجلة «الهلال» عدداً ممتازاً عن الفن والجمال شارك فى تحرير مادته الشاعر الأديب عبدالرحمن صدقى (١٨٩٧ - ١٩٧٣) فكتب مقالاً عنوانه «النساء جنس غير فنى» استهله بعبارة جان جاك روسو وهى «النساء على وجه العموم لا هوىً لهن فى فن من الفنون ، ولم يعرف عنهن النبوغ فى أحدها، وليست العبقرية من نصيبهن» .

ومضى عبدالرحمن صدقى يستقصى دور المرأة فى الفنون المختلفة مؤكدا أن الصدارة فى فن الموسيقى كانت للرجال دائماً ، وأن نصيب المرأة فى تطور الموسيقى جد ضئيل ، وقال إنهن «بين الهمج والحضر فى جميع أنحاء المعمورة جد متوافرات على الموسيقى ، ومع هذا كله فإنهن فى الغالب الأعم عازفات ، أما منشئو الموسيقى فكلهم من الرجال» .

فإذا انتقل الكاتب إلى ميدان الأدب قال إن «المباحث العقلية مقصورة على الرجال ، ولا تكاد تستبين اسم امرأة حتى بين المتخلفين من طلاب هذه الدراسات . وإذا كان قوام عمل الفيلسوف هو إقامة عالم مثالى مفترض على أساس من كيانه النفسى الخاص ، فإن هذا ينافى طبيعة المرأة» .

ويؤكد عبدالرحمن صدقى «أن هناك فناً واحداً يمكن القول بأن النساء فيه لاينافسن الرجال فحسب ، بل يسبقهن فى حقيقة الواقع ويبرزن عليهن ، وذاك هو

فن التمثيل ، كما أن بين النساء من برعن في تحرير الرسائل ، ومع هذا فإنهن لم ينشئن أدباً عالياً ، وأشيع ما تعاطاه النساء من هذا الفن رسائل الحب ، فلهن القدم السابقة والقدح المعلى ، على أن النساء جميعهن فى هذه المقدرة سواسية ، وأن ألوف الرسائل المعطرة التى يتلقاها العشاق من عشيقاتهم فيودعونها أدراجهم زمناً ثم يسلمونها طعما للنار ، لو أنها طبعت بدلاً من ذلك لرأينا أن مدام دى سفينى لها فى تحبير الرسائل منافسات كثيرات» .

وختم عبدالرحمن صدقى مقاله مستشهداً بقول شوبنهور بأن النساء جنس غير فنى .

حرية الفتيات فى اختيار الأزواج

وفى عدد نوفمبر ١٩٣٦ الخاص «بالاستقلال» نشر الشيخ عبدالعزيز البشرى (١٨٨٦ - ١٩٤٣) مقالاً عنوانه «حرية الفتيات فى اختيار الأزواج» قال فيه إن «البنت المصرية الآن إن لم تكن ثائرة ، فهى على جناح ثورة بالآباء والأمهات وبمأثور العرف والتقاليد جميعاً . إن لها لعقلاً وقلباً ، وإن لها لإرادة وعاطفة وحساً ، ولقد توافرت لها جميع الشرائط اللازمة لحرية التصرف المباحة لجميع العقلاء الأحرار ، فكيف يجوز الحجر عليها فى التصرف فى أخص شئونها ؟» .

ومضى الشيخ البشرى يورد أمثله على سوء تقدير الفتاة إذا ما استأثرت باختيار شريك حياتها متحررة من وصاية الوالدين فقال «إن الهوى كثيراً ما يكون نزعة وقتية لا تلبث أن تخمد جذوتها الأيام ، لأن الفتاة - فى الأغلب - غرة ، تملأ جوانحها المنى ، ولا يتراءى لها إلا معسول الأحلام ، وقَلّ أن تفطن إلى أعقاب الأمور أو تنفذ بصيرتها إلى ما وراء الظواهر من الشرور والمحن ، فإذا كان مما لاريب فيه أن للفتيات حرية كسائر الناس ، ولكن هذه الحرية يجب الحد منها ، وإنما يحد منها حفظاً للفتاة نفسها وكفالة لأمنها وسعادتها على الأيام ، وهذا مايذهب إليه رأى الآباء» .

وختم مقاله بقوله : «ترى هل لهذه المشكلة الجديدة من علاج ؟» .

وفى عدد أغسطس ١٩٣٧ كتب الدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ - ١٩٦٦) مقالاً عنوانه «هل الحياة جديرة بأن نحياها ؟» بدأه بقوله «فى هذا السؤال من الناحية البيولوجية تناقض لاشك فيه ، إذ كيف تكون الحياة حياة ، وهى غير جديرة بأن

نحياها ؟» . ثم سأل : «متى تكون الحياة جديرة بأن نحياها وحتى لا تكون ؟» . وأجاب عن هذا السؤال بقوله : «يمكن القول بوجه عام إن الحياة جديرة بالعيش طالما كان الإنسان حياً ، أى كل حياته . غير أن التوازن بين صحة البدن والعقل والنفس هو فى اعتقادى أهم العوامل التى تجعل صاحبها مطمئناً للحياة راضياً عنها مشغوفاً بها أميناً لها ، فإذا ما رأينا إنساناً يسخط على الحياة ويصر على إنكارها وينادى أن الحياة غير جديرة بأن نحياها ويتمادى فى القول زمناً طويلاً ، فلابد أن يكون هناك خطأ جسيم فى توازنه .

وإذا اختل التوازن ، رأى الشمس كاسفة ، والقمر ظلاماً حالكا ، وأطايب الحياة بؤساً» .

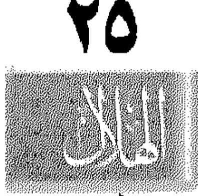
وختم مقاله بقوله «إن الحياة فن من الفنون الجميلة ، بل قل إنها الفنون الجميلة كلها مجتمعة . والرجل الذى يدرك معنى الحياة ، يستطيع أن يجد فى العمل ، وأن يستخرج من الهزل الجد ، ويتطلب الفرح فى الحزن ، ويتلمس اللذة فى الألم» .

المصالحة

وفى عدد مارس ١٩٣٨ نشر الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤) مقالاً عنوانه «المصالحة» ذهب فيه إلى أن هذه اللفظة هى المقابل الدقيق للفظة compaomise الانجليزية ، مع أننى أعتقد أن ترجمتها الأقرب إلى الصحة هى «التراضى على حل وسط» .

ويقول أحمد أمين فى شرح نظريته إن «التعصب لوجهة النظر الشخصية كثيراً ما يؤدى إلى شر النتائج ، وإن الخير كل الخير فى إجراء المصالحة بين الطرفين المتخاصمين أو بين الحزبين المتنافرين بحيث ينزل كل منهما عن شىء من مطالبه ، وهكذا يتحقق الحل الوسط الذى يحسم النزاع ويقرب بين وجهات النظر» .

وفى رأى أحمد أمين أنه «لايجد أقرب فى اللغة العربية للدلالة على هذا المعنى من كلمة المصالحة فمن معانى المصالحة القانونية فى كتب الفقه أن يكون بين اثنين خصومة ، وكل منهما يدعى بحق ، فيأخذ كل منهما حقه وينزل للآخر عن بعض حقه. فإذا وسعنا هذا المعنى ، وجعلناه يطبق على المعنويات كما طبق على الحقوق المالية، كانت هذه الكلمة أنسب للدلالة على



كلمة compromise الانجليزية ، ثم إذا أكثرنا استعمال هذا المعنى فى حياتنا اليومية ، اضطر الناس للتعبير عنه بهذا اللفظ ، فصقل وأخذ حيزه من الأفكار ومن المعاجم» .

وختم أحمد أمين مقاله متمنياً أن «يتنبه الناس لهذا الخلق ، خلق المصالحة ، وأن يكرروه وأن يستعملوه فى لغتهم وفى معاملتهم . وأن يضعوه فى أول ثبت للأخلاق بجانب الصدق والشجاعة والعدل» .

حرق الموتى فى رأى أبى العلاء

وفى عدد يوليو ١٩٣٨ نشر الدكتور محمد بك عبدالحميد مقالاً عنوانه «حرق الموتى فى رأى أبى العلاء» قال فيه «لم تقتصر آراء المعرى فى الطب على تحريم لحم الحيوان وإكتفائه بالنبات ، بل تحدث كذلك عن حرق جثث الموتى وآثرها على دفنها فى التراب . فقد خشى أبوالعلاء أن تتسع جنبات الأرض للموتى ، فلا يجد الأحياء فيها مكاناً يقيمون فيه ، وهو ما عبر عنه فى لزومياته بقوله :

لوهب سكان التراب من الكرى ... أعيا المحل على المقيم الساكن

لغدوا وقد ملأ البسيطة بعضهم ورأيت أكثرهم بغير أماكن

ولهذا أستصوب المعرى إحراق جثث الموتى فقال فى لزومياته :

إذا حرق الهندى بالنار نفسه فلم يبق نحض للتراب ولا عظم

فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر لايقوم لها نظم ؟

وقال في موضع آخر :

لو شك بالطعن ميت لم يجد ألماً فالرمح فيه كأشفى الخرز فى الأدم

سيان إلباسه ما لان من كفن وحرقه فى لظى للنار تحتدم

وفى أبيات أخرى يقول المعرى :

يحرق نفسه الهندي خوفاً ويقصر دون ما صنع الجهاد

يقرب جسمه النار عمداً وذلك منه دين وإجتهاد

الأدب بعد خمسين عاما

وفى عام ١٩٤٢ أصدرت مجلة «الهلال» «الكتاب الذهبى «١٨٩٢ - ١٩٤٢» ، وأرتأت أن تستقرىء رأى الأديب إبراهيم عبدالقادر المازنى (١٨٩٠ - ١٩٤٩) عن مستقبل الأدب بعد نصف قرن فكتب يقول : «إنى أحسب أن الثروة اللفظية للغتنا لن تكون فى المستقبل من مزاياها ، وسيكون هم الناس الاجتزاء بما يفى

بحاجات التعبير وطرح الباقى الذى لا خير فيه ولا حاجة إليه ولا حياة له لأنه غير لازم . ما أظن أحداً منا يستعمل من كل هذه الثروة اللفظية التى تملأ عدة مجلدات ضخمة أكثر من بضع مئات من الألفاظ هى الحية الصالحة ، أما ماعداها فميت» .

وقال إن «هذا يستدعى أن تختفى كتب البيان والبديع وأن لايبقى من النحو والصرف إلا مالاغنى عنه لصواب التأليف» .

ويضيف المازنى إلى ذلك قوله «ويكبر فى وهمى أن الشعر لن يكون له محل - أو إلا محل ضئيل فى هذا المستقبل ، فيقل الإقبال عليه ، وتفتر الرغبة فيه ، فلا يقول القائل سوى أبيات مفردة تكون كالفلتات» .

ومن غريب ماذهب إليه المازنى قوله «وهذا الذى أتخيله فى المستقبل القريب نسبياً ليس إلا مرحلة فى الطريق إلى ما أنا مقتنع بأن الأمر صائر إليه لا محالة بعد زمن كافٍ ، وأعنى ذلك الاستغناء عن اللغة جملة وعن أداة اللفظ فى التفاهم والاكتفاء بموجات نفسية يتبادلها الناس ويتفاهمون بها ولا يحتاجون معها إلى كلام وثرثرة .

تبادل الشكوى بين الرجال والنساء

وفى عام ١٩٤٣ جرت مناظرة بين السيدة إبنة الشاطىء (١٩١٣ - ١٩٩٨) والدكتور أمير بقطر حول شكوى كل من النساء والرجال من الجنس الآخر . فكتبت إبنة الشاطىء تقول : «دخل فى وهم الرجال قديماً وحديثاً أن لهم علينا نوعاً من السلطان ، وأن هذا السلطان حق لهم مقرر تؤيده الطبيعة وتقره النساء ، وقد أقاموا من أنفسهم حماة لذلك السلطان وابتدعوا النظم والأوضاع التى تؤيده . ثم رأوا أن سلامة هذا الحق تقتضى ضعفاً من المرأة وقصوراً فيها ، فبدأ بينهم وبينها صراع خفى ، يظل كامناً ما رضيت المرأة بالضعف وشعرت بالعجز والحاجة والقصور ، ولكنه يحتدم حيثما وجدت امرأة طامحة ممتازة تحس شخصيتها القوية وترى من إمتيازها مايدفعها إلى الطموح لتأخذ مكاناً لها فى الدنيا التى أستأثرت بها الرجال. والواقع أنها خصومة باطلة وصراع مزعوم» .

ومضت تقول «لقد تكشفت حركتنا الأخيرة عن مهزلة أليمة موجعة ، ظهر أن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم وهم يوهموننا أننا نعمل - ويعملون معنا - لحسابنا .... أبداً إن أقسى ما نلقاه فى محنتنا هو شعورنا بما

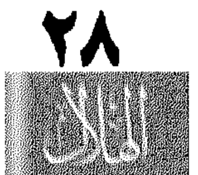
انكشف من ضعف الرجال وصغارهم . كنا نناضل لنلحق به ونكون أهلاً له ، فإذا هو يغدو غير أهل لنا . كنا نرجوه جديراً باحترامنا فإذا به يثير إشفاقنا ورثاءنا . لقد زين لنا الخروج على فطرتنا ، ودفعنا إلى المعركة ، فإذا بنا نناضل غير كفء لنا في النضال» .

أما الدكتور أمير بقطر فقد بث شكواه من المرأة قائلاً : «لمن نشكو والخصومة بيننا أشد إيلاماً من الحب ، وأقدم عهداً من التاريخ ، ولمن نحتكم ، وقد أدخلت الشيطان شريكاً لنا في الدعوة ؟ ألم تطردي من الجنة فزعمت أن الحية أغوتك ؟ وأنى للرجل أن يقوى على المرأة والحياة والشيطان في آن واحد ؟» .

ثم قال «إعلمي ياسيدتي أن الشكوى من المرأة ستبقى ما بقيت الطبيعة البشرية، وأن التوتر بين الجنسين سيظل هو هو ماظلت العاطفة الإنسانية ، وأن النضال بين القلب والقلب سيدوم ما غرد طير وفتح زهر . واليوم الذى يعيش فيه الرجل والمرأة بسلام ، هو اليوم الذى نقول فيه على الحضارة والعلم والمدنية السلام . فالفنون الجميلة والشعر والموسيقى والاختراع والعلم وأشد ما نعتز به من طيبات الحياة ، إنما يعزى إلى ما توحيه أنت إلينا من خيال وابتكار وحب وجمال فعفوا ياسيدتي ، ولا تأخذى ما قلت فيك بحرفيته ، فإننى أحبك لأن لنا نحن معشر الرجال من بين جنسك أمهات وشقيقات وعمات وخالات وحبيبات صادقات . فلمن نشكو ، وأنت الخصم والحكم ؟»

كيف تصبح مليونيرا

وفي كتاب «مختارات دار الهلال» الصادر عام ١٩٤٦ نشر المليونير أحمد عبود باشا (١٩٨٩ - ١٩٦٣) مقالا عنوانه «كيف تصبح مليونيرا» أورد فيه النصائح التالية :



- لاتأنف من القيام بأى عمل شريف، وانهض بهذا العمل، واجعل منه عملا عظيما، ولا تنتظر الربح السريع، ولاتستسهل عملا لأن السهل ينافسك فيه كل الناس.

- أعط عملك كل وقتك، وباشر فيه كل صغيرة وكبيرة ليشعر معاونوك بيقظتك فيضاعفوا من نشاطهم، وأعلم أنك إذا أهملت أهملوا، وإن تساهلت تهاونوا.

- الذين فشلوا من أصحاب الأعمال سببه أنهم أقبلوا على العمل بنشاط في بادىء الأمر، فلما شعروا ببوادر النجاح انصرفوا إلى حياة الترف والكسل،

وتركوا لمعاونيهم العمل يديرونه، ومثل هذا العمل لاينجح.

– لاتفرح للربح، فقد تعقبه خسارة، ولاتيأس إذا خسرت، بل اعتبرها امتحانا لكفاءتك. اقتصد دائما ، ما تستغني عنه اليوم تحتاج إليه غدا .

– تفقد أحوال معاونيك وعمالك، وأشعرهم أنهم شركاء فى العمل، وكافىء المجد منهم بسخاء، واشتد مع المهمل.

– دع الناس يثقون بكلمتك الشفهية، واجعل لها قوة الوعد المكتوب.

– أشعر كل من تتصل بهم أنك تعتز بصداقتهم وتعمل بمشورتهم، فقد تجد بين آرائهم رأيا صائبا يعود على عملك بالنجاح.

– ابتكر فى عملك وجدد.

– الحياة البيتية المنتظمة والهناء العائلى من أكبر أسباب النجاح.

كيف ينظم الشاعر قصائده؟

فى كتاب «الهلال فى أربعين سنة» الصادر عام ١٩٣٢ سئل الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ – ١٩٤٩) كيف تنظم قصائدك فأجاب :

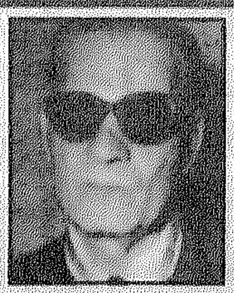
«عندى نوعان من الشعر الأول شعر الطلب فى المدح والرثاء ونحوهما، وهذا لايكلفنى مجهودا لأنى لا أبذل جهدا فى اتقانه، فأكتبه كيفما اتفق».

«أما النوع الثانى فهو الشعر الفنى، وهو يحدث لى وكأنى حسب الظاهر اختاره، وإنما هو فى الواقع بإيجاد قاهر من حادثة أو قصة أو غاية اجتماعية أو سياسية يخطر لى تأييدها والدعوة إليها، وعندئذ تجتمع فى ذهنى على جملة أمام فكرة القصيدة بمجموعها، وأحيانا أدون مايخطر ببالى من الأفكار بشأنها فى قالب النثر ثم أعود فأنظمها، وأحيانا لا أدون هذه الأفكار، ولكن المهم أن خاتمة القصيدة أو الغاية المنشودة تكون حاضرة فى ذهنى قبل الشروع فى النظم، ومعظم نظمى فى الصباح، وأحيانا أنشد الخلوة الذهنية فى قهوة ولايعوقنى عن النظم عندئذ كلام الأشخاص أو لعبهم النرد أو الموسيقى، وأنا أعيد النظر كثيرا فيما أنظم ولا أتعجل، ولكن هناك ظروفا كانت تجعلنى أحسن النظم فأوفيه حقه ولو كنت مع ذلك مستعجلا.

***

وإذا كنت استمتعت بهذه النزهة فى أعداد «الهلال» القديمة، فعسى أن يشاركنى فى هذه المتعة قراء لم يدركوا هذه السنوات المبكرة من المجلة. ■

قالوا في الهلال



طه حسين

المصور ١ ديسمبر ١٩٦٧

«كانت مجلة الهلال مثال الجد فى العمل والإخلاص للعلم، ثم أصبحت - إلى جانب ذلك - مثال الفطنة لأذواق القراء والنشاط لأرضائهم، وهى على كل حال أخف المجلات العربية ظلا» .

«طه حسين»


العقاد

«الهلال ييسر المعارف ولا يبتذلها» .

«عباس محمود العقاد»

«كان الهلال مجلة الشيوخ فصار مجلة الشيوخ والشبان» .

«الشيخ مصطفى عبدالرازق»


أحمد شوقى

«أعجب ما أعجب له أن أرى «هلالا» ملأ الشرق سناء، وزاحم أشعته كل كوكب من كواكب العلوم والآداب، ثم ما يزال يكبر حتى فاق البدور ونافس الشمس فى توابعها المنيرة «التى كلما أكتشف منها تابع» زاد من توابع «الهلال» مثله» .

أمير الشعراء «أحمد شوقى»


حافظ ابراهيم

«الهلال مجلة سائرة فى طريق الرقى المستمر وتقدم الآداب المصرية والاجتماعية» .

«شاعر النيل حافظ إبراهيم»

«الهلال مجلة من يدرسها يدرس عناصر النجاح فى الحياة» .

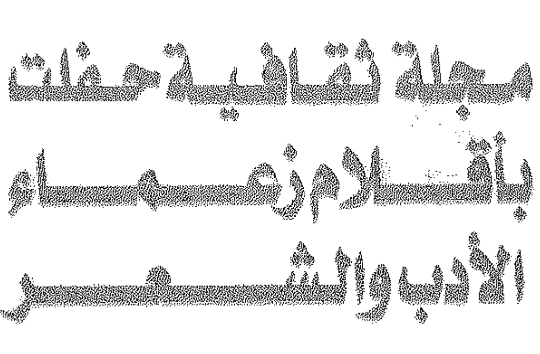
«إبراهيم عبدالقادر المازنى»


مى زيادة

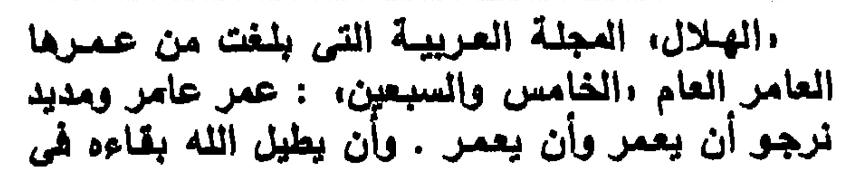
«الهلال صورة واضحة للتطور الحديث» .

«مى زيادة»









«الهلال» المجلة العربية التى بلغت من عمرها العامر العام «الخامس والسبعين» : عمر عامر ومديد نرجو أن يعمر وأن يعمر . وأن يطيل الله بقاءه فى عالم الصحافة ذخرا متينا . وكنزا ثمينا يغترف منه قراؤه العديدون فى الشرق العربى - والأسيوى الأفريقى - وفى أوروبا - وبين المهاجرين العرب فى أمريكا الشمالية والجنوبية ..

طاف «الهلال» طوافه الطويل فى خمسة وسبعين عاما ببحوثه العلمية والأدبية . والفنية . وبأقلام الأقطاب والأقيال من زعماء الأدب والشعر والعلم ولا يزال يطوف .. «الهلال» أنجب بنين وبنات ملأوا دنيا الصحافة العربية فى ميادين سياسية وأدبية وفنية فى داره العامرة وهى «دار الهلال» التى تصدر هذا العدد الوافر من المجلات الأسبوعية على أحدث طراز إنتاجا وأخراجا وتصويرا حتى استحقت بجدارة تلك المكانة فى الكيان العربى الواسع النطاق ..

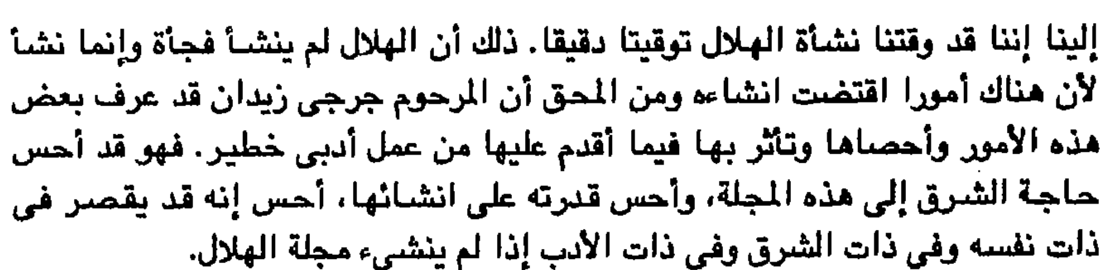
هذا العدد الممتاز من مجلة «الهلال» يصدر فى أول ديسمبر جامعا بين الأقدمين والمخضرمين والمعاصرين من كبار الكتاب ومنهم الذين اختارهم الله إلى جواره ينعمون بثوابه وجزائه الحسن . ومنهم الأحياء المعاصرون الذين يمثلون النهضة الفكرية العصرية ومن ثمار هذه الأقلام يقتطف القارىء ما شاء أن يقتطف من ثلاثين إلى خمسين إلى أربعين إلى اليوم الذى يصدر فيه وفكرة الجمع بين هذه الروائع بآرائها وأفكارها وأساليبها القديمة والحديثة فكرة موفقة جامعة تعتبر «سبقا صحفيا» يهنأ به «الهلال» ويهنأ به قراء الهلال ...

المصور ٢٤ ديسمبر ١٩٦٧

أثر الهلال

بقلم الدكتور طه حسين

أنشىء الهلال مثلا سنة ١٨٩٢ وكان إنشاؤه حدثا من الأحداث الأدبية ذات الخطر البعيد كما سنرى، فإذا استطعنا أن نوقت نشأة الهلال بالعام والشهر واليوم فقد لا ينبغى أن يخدعنا هذا عن أنفسنا وألا يغرنا عن الحق وألا يخيل إلينا إننا قد وقتنا نشأة الهلال توقيتا دقيقا. ذلك أن الهلال لم ينشأ فجأة وإنما نشأ لأن هناك أمورا اقتضت انشاءه ومن الحق أن المرحوم جرجى زيدان قد عرف بعض هذه الأمور وأحصاها وتأثر بها فيما أقدم عليها من عمل أدبى خطير. فهو قد أحس حاجة الشرق إلى هذه المجلة، وأحس قدرته على انشائها، أحس إنه قد يقصر فى ذات نفسه وفى ذات الشرق وفى ذات الأدب إذا لم ينشىء مجلة الهلال.



ولكن لماذا أحس هذا كله ، ولماذا خطر له هذا كله، ولماذا دفع إلى أن يحس هذا كله ويفكر فيه؟ الأسباب كثيرة ما أظن إنه عنى باحصائها أو استقصائها. فقد كان رجل عمل يعنى بالاقدام أكثر مما يعنى بشطر الشعرة شطرين كما يفعل بعض المؤرخين وبعض مؤرخى الآداب بنوع خاص وأكبر الظن أن الأسباب التى دعت إلى انشاء الهلال كانت أقدم وأبعد من التفكير فيه، بل كانت أقدم وأبعد من وجود جرجى زيدان نفسه فقد اتصل الشرق بالغرب اتصالا قويا فى آخر القرن الثامن عشر وأحس الشرق الحاجة إلى أن يأخذ مناهج الغرب فى التفكير والتثقيف والنشر والاتصال بين أفراد المثقفين وجماعاتهم وظهرت محاولات لذلك كله أتيح لبعضها الفوز وقضى على بعضها الاخفاق. وجعل الشرق كلما تقدمت به الأيام اشتدت حاجته إلى استئناف هذه المحاولة والوصول بها إلى الفوز، وكان الجهد الذى بذله



جرجى زيدان فى أنشاء مجلته وتعهدها جهدا من هذه الجهود الخصبة الموفقة. وليس من شك فى إننا نستطيع أن نرجع إلى أسباب أخرى أبعد من القرن التاسع عشر ومن القرن الثامن عشر .

فإذا أرادنى صديقى اميل زيدان على أن أؤرخ له اللغة والأدب فى نصف قرن وعلى أن يكون هذا التأريخ فى فصل قصير فإنى استأذنه فى أن أتجاوز نصف القرن هذا وفى أن ألاحظ أن التطور الذى غير الحياة الأدبية العربية فى مصر خاصة وفى الشرق العربى بوجه عام ربما كان أقدم من نصف القرن هذا، وربما كان من المقارب أن نرجع به إلى أيام إسماعيل حين كثرت آثار المطبعة وحين كثرت آثار البعوث العلمية إلى أوروبا وآثار البعوث العلمية من أوروبا إلى الشرق وحين أصبح الاتصال الدقيق المنظم السريع غير مقصور على أوروبا والشرق القريب بل متناولا للشرق البعيد أيضا بعد أن احتفرت قناة السويس، وغير مقصور على التعليم والتعلم بل متناولا للسياسة والإدارة والاقتصاد والمال، وحين نشأ عن هذا كله جيل ساخط يشعر بنفسه وبكرامته وبآماله، وحين نشأ عن هذا السخط العام اضطراب عام فى الشرق العربى كان من بعض مظاهره الخطيرة الثورة المصرية التى وقعت أحداثها قبل نشأة الهلال بعشر سنين.

وقد كان جرجى زيدان رحمه الله رجلا من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه كما كان محمد عبده رجلا من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكما كان الاصلاح الدينى وحرية الرأى نتيجة لسخطه وطموحه. وقل مثل ذلك فى قاسم أمين وقل مثله فى البارودى وحافظ وشوقى وغيرهم من الذين قامت عليهم نهضتنا المعاصرة مهما تختلف فروعها ومظاهرها.

وفى الأدباء كثير من الاعتداد بالنفس والاكبار لآثارهم فى الحياة العقلية بل فى الحياة عامة.. ويكاد كثير من الأدباء يقطع بأن تطور الحياة انما هو أثر من آثار الإنتاج العقلى لهذا الكاتب أو لهذا الشاعر، وربما تطول فآمن بأن فكرة لعالم من العلماء أو اختراعا لرجل من رجال الفنون التطبيقية قد كان لها أثر فى هذا اتطور ولكن الأدباء قلما يحفلون بالمؤثرات الاقتصادية وبالمؤثرات المادية بوجه عام. ومع ذلك فلهذه المؤثرات المادية والاقتصادية خاصة نتائجها الخطيرة فى الحياة الإنسانية جملة وفى الحياة العقلية والأدبية على وجه التحديد كما يقولون. وقد يكون من المبحوث الطريفة الخصبة أن يحاول محاول استكشاف الاثار القريبة والبعيدة التى تركها فى لغتنا وآدابنا احتفار قناة السويس وما نشأ عنه من هذا الاتصال المنظم بين أقصى الشرق وأقصى الغرب وما نشأ عن ذلك من تغير حياتنا الاقتصادية والمالية ومن تحقيق الغاية التى كانت مصر تطمح اليها منذ أقدم عصورها وهى أن تكون مركز الالتقاء بين الشرق والغرب.

ولست أقول هذا كله تزيدا أو تعمدا للاسراف فى الاحصاء والاستقصاء وانما أريد أن ألاحظ أن من أصعب الأشياء وأشدها عسرا. أن نفترض فى تاريخ الظواهر



الأدبية وقتا معينا تبدأ فيه أو تنتهى عنده. والشيء الذى لاشك فيه أن مجلة اسمها الهلال نشأت منذ نصف قرن وكان منشئها رجلا من رجال هذا الجيل الذى صورته ساخطا طامحا شديد الطموح عظيم التوثب تنطوى نفوس أبنائه وضمائرهم على آمال ضخام عراض يتبينها المثقفون الممتازون من رجاله وكان منشيء هذه المجلة من هؤلاء الرجال. فلم تستأنف نهضة لغوية أو أدبية فى الوقت الذى أنشئت فيه مجلة الهلال وانما كانت هذه النهضة موجودة قوية سريعة الحركة إلى أمام وكانت مظاهرها واضحة كل الوضوح، كانت تتناول الشعر والنثر والتفكير الاجتماعى والدينى كما كانت تتناول العلم أيضا. ومن الحق أن هذه النهضة قد صدمت صدمة عنيفة قبل إنشاء الهلال بعشر سنين حين كانت الثورة المصرية والاحتلال البريطانى. ولكن من الحق أيضا أن هذه الصدمة لم تمح النهضة ولم تحولها عن وجهتها وإنما وقفتها أعوام ثم لم يلبث هذا الجيل الساخط نفسه أن أفاق من الصدمة واسترد نشاطه القديم واستأنف سيره إلى الأمام وكان إنشاء الهلال مظهرا لاستئناف هذا النشاط. ولاحظت فى غير هذ الفصل وكان ذلك بعيد الأثر فى حياتنا الأدبية وأنه يكفى أن ننظر إلى الأجزاء الأولى من هذه المجلة وإلى الأجزا ء الأخيرة لنلاحظ أن منشيء الهلال كان يكتب مجلته كلها على وجه التقريب وأن صاحب الهلال بعد الحرب الماضية لم يكن يكتب فيه إلا قليلا جدا ومعنى ذلك أن مجلة الهلال لم توجد لنفسها القراء فحسب وانما أوجدت لنفسها القراء والمحررين أيضا. وهى لم توجد القراء والمحررين فى البيئة المصرية وحدها ولا فى البيئة الشرقية وحدها وإنما أوجدتهم فى بيئات بعيدة جدا عن مصر والشرق، فى البيئات الغربية الأمريكية . ومعنى هذا كله أن نصف القرن الذى يريد صديقى أميل زيدان على أن أورخ الأدب واللغة فيه قد امتاز بظاهرة أدبية شديدة الخصب عظيمة الخطر بعيدة الأثر جدا فى الحياة الأدبية العربية وهى نشأة الهلال.

وما أريد أن يظن قارىء هذا الفصل انى أكتب تحيه للهلال لأنه قد أنفق من حياته الطويلة نصف قرن، فأنا لا أريد على أن أكون مؤرخا للأدب العربى ولكن مؤرخا يحرص على ألا يتشعب عليه الموضوع وعلى ألا يحاول فى فصل قصير ما لا يوفى إلا فى كتاب ضخم. ويكفى أن ألاحظ لاثبات ما أقول أن مجلة الهلال قد كانت مصدر أحداث أدبية خاصة كان لها أبعد الأثر في حياة الأدب العربى المعاصر وقلما يشاركها فيها مظهر من مظاهر النشاط الأدبى الحديث . فليس من الغلو فى شيء أن يقال أن منشيء الهلال قد أوجد فى اللغة العربية هذا العلم الحديث الذى نسميه تاريخ الأدب، لا بتأليف كتابه المشهور فحسب ولكن بالبحوث الكثيرة التى نشرها فى الهلال وبالكتب التى أرخ بها الأمة العربية والحضارة الإسلامية .

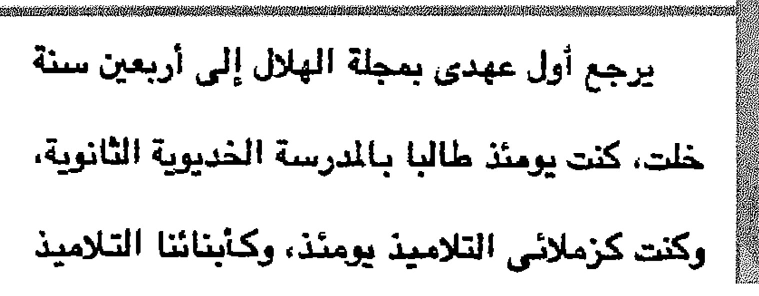
على أن منشيء الهلال لم يقف عند هذا الحد ولكنه بسط العلاقة بين الشرق والمستشرقين وألغى المسافة أو كاد يلغيها بين العلماء الدارسين للغة والأدب فى الشرق والعلماء الدارسين للغة والأدب فى الغرب. ولست أنكر أن لغير منشيء الهلال آثارا قيمة فى هذه السبيل ولكنى أزعم أنه هو الذى مهد لهذه الآثار وفتح للشرقيين



هذا الباب من أبواب العلم. ثم لصاحب الهلال رحمه الله أثر آخر بعيد فى حياة الأدب العربى المعاصر وهو أثر أدبى خالص لم يوف حقه من الدرس والإكبار . فصاحب الهلال هو الذى نقل إلى أدبنا العربى مذهبا من مذاهب الأدب الأوروبى هو القصص التاريخى.. ولست أزعم أن القصص التاريخى الذى كتبه جرجى زيدان كان يمتاز بروعة الأسلوب وبراعة اللفظ ولكنى أسجل هذه المحاولة أولا على أنها نحو جديد من أنحاء الإنتاج الأدبى فيه احياء للتاريخ العربى وفيه توجيه للشباب وفيه بعد هذا كله تأثير قوى فى الخيال . كنت فى أيام الصبا والشباب أبدا فى قراءة القصة التاريخية من قوى فى الخيال ومهما أنس فلن أنسى انى كنت فى أيام الصبا والشباب أبدأ فى قراءة القصة التاريخية من قصص جرجى زيدان فلا أكاد أتقدم فى قراءتها شيئا حتى أفتن بها وإذا هى تشغلنى عن دروس الأزهر حتى أتمها. وإذا هى تأخذ على تفكيرى وقتا طويلا بعد أتمامها.. ويستطيع النقاد أن يقولوا ما يشاءون ، ولكن الشىء الذى لاشك فيه هو أن القصص التاريخى الذى أصدره جرجى زيدان قد كان من أهم المؤثرات التى أتاحت لهذه النهضة أن تؤتى الثمار القصصة التى يستمتع بها قراء العربية الآن.

ومن الواضح أن جرجى زيدان لم يكن وحده الذى يعمل وينتج ويغزو الثقافة العربية فقد كان هناك علماء وكتاب وشعراء ومفكرون كما كانت هناك مجلات كثيرة مختلفة . ولكن من الواضح أيضا أن جرجى زيدان كان أبعد هؤلاء المثقفين أثرا فى الحياة الأدبية المعاصرة. كما أن مجلة الهلال كانت أبعد المجلات أثرا فى هذه الحياة الأدبية. وقد يكون من الحق على أن أعلل هذه القضية وقد يكون تعليلى لها مدهشا لبعض الذين يتعجلون الأحكام فى التاريخ الأدبى. ولكنه مع ذلك تعليل صحيح فيما أعتقد. ذلك أن جرجى زيدان لم يكن أرستقراطى الأدب وانما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ولكنهما نافعتان أشد النفع إحداهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الأدبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة. والثانية النزعة الشعبية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه وفى فصوله الثقافية العامة. فهو قد كان يتجه إذن بعلمه وأدبه إلى أوساط المثقفين ولست أعرف بيئة أحسن استعدادا للانتفاع بالثقافة من هذه البيئة المتوسطة التى لا يرتفع بها الامتياز عن الاستفادة ولا ينحط بها الجهل عن الانتفاع بما يقدم إليها من غذاء العقل والقلب والروح. وقد كان جرجى زيدان شعبيا فى علمه وفى أدبه ولكنه كان بعيدا كل البعد عما يتعرض له العلم الشعبى والأدب الشعبى أحيانا من الاسفاف والابتذال. فكان له من أجل هذا أعمق الأثر فى نفوس الذين قرأوه وفى عقولهم أيضا. وما أسعد الذين يستطيعون أن يحصوا لأنفسهم بين العلماء والأدباء وأوساط المثقفين تلاميذ كالذين نستطيع أن نحصيهم لجرجى زيدان. وما أسعد الذين يعجز التاريخ الأدبى عن أن يمر بأسمائهم وأعمالهم دون أن يقف عندها وقفة طويلة كالوقفة التى يقفها التاريخ الأدبى عند اسم جرجى زيدان وآثاره.





بقلم الدكتور: محمد حسين هيكل

يرجع أول عهدى بمجلة الهلال إلى أربعين سنة خلت، كنت يومئذ طالبا بالمدرسة الخديوية الثانوية، وكنت كزملائى التلاميذ يومئذ، وكأبنائنا التلاميذ اليوم، أقضى الأجازات المدرسية بقريتنا فى الريف، وكان والدى مشتركا فى مجلتى الهلال والمقتطف، وكان حريصا على أن يتناول الطعام مع أبنائه فى الوجبات الثلاث، وبخاصة فى وجبة الظهر، فإذا فرغنا من تناولها أوى إلى مضجعه يقضى فيه ساعة أو بعض ساعة وكان يقرأ قبل أن ينام، فلما انتقلت من دراستى الابتدائية الى المدرسة الثانوية كان يدعونى بعد الغداء لأتلو الفصل الذى يختاره من مجلة الهلال، وأظل فى تلاوتى حتى إذا أطمأننت إلى أنه نام انسحبت من مخدعه وفررت إلى حيث يلعب أخوتى وأعمامى لاشترك معهم فى لعب النرد أو كرة القدم، أو غير ذلك مما يكونون بسبيله من ألوان اللعب، وكثيرا ماحدث أن أعتقدت أنه نام فوضعت المجلة وتأهبت للانسحاب فإذا هو ينبهنى إلى أنه لم ينم، ولا بد لى عند ذلك من متابعة القراءة حتى ينام.

خلقت هذه القراءات شيئا من الألفة بينى وبين مجلة الهلال من ذلك العهد.

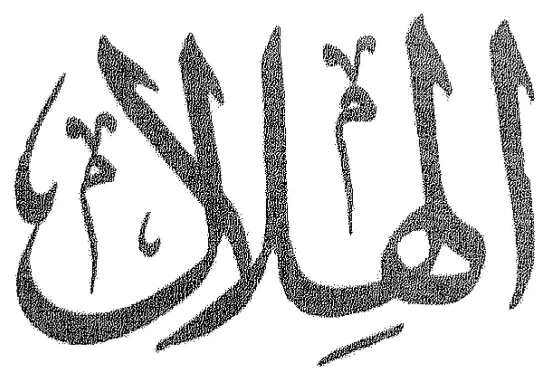
وكثيرا ما كنت أقرأ فى صحفها الأخيرة ماتنشره من فصول لهذه الروايات التاريخية الإسلامية التى كان يكتبها جرجى زيدان، وقد سرنى قراءة هذه الفصول أثناء الأجازات ودفعتنى إلى قراءة هذه الروايات كاملة وكانت دار الكتب المصرية - أو الكتبخانة الخديوية كما كانت تدعى إذ ذاك - تحتل جزءا من البناء الذى كان يجمع وزارة المعارف ، والمدرسة الخديوية، وهذه الكتبخانة الخديوية، فكنت أخرج عقب انتهاء الدروس يوم الخميس فأذهب إلى دار الكتب لأجلس فى غرفة المطالعة وأطلب هذه الروايات التى كتبها جرجى زيدان، وتنشرها الهلال، ولايزال الأثر الذى تركته قراءاتى لغادة كربلاء عالقا بنفسى إلى اليوم سردت ماتقدم ليرى أبناء اليوم ما كان للهلال من أثر فى توجيه ثقافتنا نحن أبناء الأمس، وأثر الهلال لم يقف فى حدود مصر حيث كان يظهر، ولم يقف فى حدود بلاد الشرق العربى، بل كان يتخطاها إلى كل متكلم بالعربية حيثما كان من بقاع الأرض.

وكانت ميزة الهلال، فى عهد منشئه، البساطة فى عرض المسائل الأدبية والاجتماعية والتاريخية بساطة تقربها إلى الذهن وتحببها إلى النفس، كما أنه كان يتجه بأبحاثه الأدبية والتاريخية الى بعث التراث العربى إلى نشر الثقافة العربية على نحو يؤلف بين الذين يتكلمون العربية ويطبع نفوسهم وقلوبهم بطابعها ويبعث الى جوارحهم محبتها والتشبث بها.

وهذه الميزة قد احتفظ بها أبناء منشىء الهلال بعد والدهم، ولهذا بقيت الصلة بين الهلال وقرائه الأولين، أقام الهلال على الوفاء لهم وأقاموا على الوفاء له، مع تطوره كتطورهم ليلائم الجميع روح هذا العصر السريع التطور، ولعل الهلال قد بلغ من مجاراته العصر فى سرعة تطوره ما لم يبلغه غيره من صحفنا ومجلاتنا.

● **الهلال - الكتاب الذهبي - ١٨٩٢ - ١٩٤٢.**





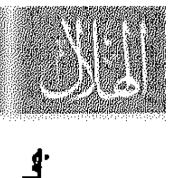
فى نصف قرن

بقلم
طاهر الطناحى

كان مؤسس الهلال فى أول نشأته يتولى وحده جميع شئونه التحريرية والإدارية ، ويشرف بنفسه على أعمال طبعه .. ولما اتسع نطاق المجلة عهد فى إدارتها إلى شقيقه واستخدم آخرين للأشغال الأخرى وعكف هو على التحرير والتأليف ، وعنى عناية عظيمة بالتاريخ ، وعلى الأخص تاريخ الشرق وتاريخ رجاله البارزين سواء أكانوا ملوكا أم قواداً أم فلاسفة أم رجال علم وأدب .

وبدأ الهلال فى أول سبتمبر سنة ١٨٩٢ ، وكان يظهر مرة فى الشهر ، وكانت سنته اثنى عشر شهرا .. فكان يبتدئ فى سبتمبر وينتهى فى أغسطس ، واستمر الهلال يصدر على هذا المنوال (مرة فى الشهر) إلى نهاية السنة الأولى ، وفى أثناء هذه السنة ظهرت رغبة كثير من القراء فى زيادة حجم الهلال واتساع مادته، واقترح بعضهم أن يصدر مرتين فى كل شهر ، فوعدهم مؤسسه بذلك ابتداء من أول السنة الثانية .

فلما كانت السنة الثانية ظهر الهلال مرتين فى الشهر : الأولى فى أوله ، والثانية فى منتصفه ، وأصبح عدد أجزاء الهلال فى السنة أربعة



وعشرين ، كل جزء يحتوى على ٣٢ صفحة ، وفى غضــون هذه السنة زادت أبواب الهــلال بابا سادسا هو « باب السؤال والاقتراح» .. فصارت أبوابه ستة .

وفى السنة الثـالثـة من حـيـاة الهـلال زاد مؤسسه عدد صفحاته ١٦ صفحة، فصار مجموع الجزعين ثمانين صفحة فى الشهر ، وأضاف إلى أبوابه بابا سابعا دعاه «باب الأخبار العلمية» درج فيه ما كان يحدث فى العلم والصناعة من المبتكرات والاختراعات والاكتشافات ، وذلك تحقيقا لما وعد به القراء من الزيادة والتحسين كلما رأى منهم إقبالا وتشجيعا .

وفى السنة الرابعة زادت أبواب الهلال بابا ثامنا درج فيه قسما من فصول رواية تاريخية غرامية بعنوان « أرمانوسة المصرية » وصار ينشرها تباعا ، ولابد من ملاحظة أن هذا الباب سبق أن وعد به فى افتتاحية الجزء الأول من السنة الأولى ، ولكن لكثرة أعماله واحتياج هذا التأليف الروائى إلى طول البحث اضطره إلى الاستعاضة عن هذا الباب فى السنوات الثلاث الماضية بباب آخر سماه « باب المراسلات» ثم لما اشتد إلحاح القراء عليه فى إضافة هذا البـاب إلى الأبواب الأخرى لم يسعه إلا أن يجيبهم إلى رغبتهم .

وزاد فى السنة الخامسة بابا جديدا وهو «باب مشاهير العصر » وفيه رسوم مشاهير العصر الأحياء فأصبحت الأبواب تسعة، وما انتهت هذه السنة حتى كان «الهلال» قد انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها وأصبح له كثير من القراء فى سورية، والعراق وفارس والهند واليابان وتونس والجزائر ومراكش وغربى أفريقيا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية وجزائر الهند الغربية وجزائر الهند الشرقية واستراليا وزيلاندا وأواسط السودان وجنوبه وشرقيه وفى زنجبار والترنسفال وفى أكثر مدائن أوروبا .

واستمر «الهلال » فى تقدمه ونموه حتى كان العام الأخير من العقد الأول من حياته، وهو العام الاشر فدخل فى طور جديد من التقدم والنمو يظهر فيما يأتى :

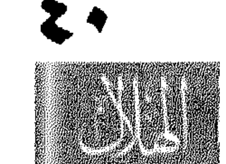
١ – العناية بشئون الصحة، ففتح لها بابا خاصا سمى «صحة العائلة» .

٢ – زيادة عدد الرسوم مع اتقان حفرها وطبع بعضها على ورق خاص .

٣ – العناية بجودة الورق .

٤ – تقديم هدايا إلى المشتركين . وكانت هدية السنة العاشرة «تاريخ التمدن الإسلامى» لمؤسس الهلال .

هذا مجمل نمو الهلال وتطوره فى العقد الأول من حياته .. وفى العقد الثانى ظهر النمو والتطور بمظهر أكبر وأحسن . ففى السنة الحادية عشرة زادت العناية بطبع الهلال واختير له ورق أجود مما كان عليه فى السنين الماضية ، وزين كثير من الصفحات بعدد من الرسوم الواضحة ، وجعل لكل صفحة إطاراً جميلا يفصل الكلمات عن الهامش، وبقى يصدر مرتين فى الشهر .. ولكن نظرا لهذه التحسينات رؤى أن تعود صفحات كل جزء إلى ٣٢ صفحة ، وزيدت قيمة الاشتراك عشرة قروش .



غير أن مؤسس الهلال أراد أن يعوض قراء الهلال من نقص وزيادة الاشتراك بشئ يفيدهم علاوة على التحسينات المطبعية، فأنشأ بابا جديدا من أول تلك السنة عرض فيه بالتوالى أعجب وأغرب ما فى الطبيعة من المخلوقات ، وهو باب « عجائب المخلوقات » .

وما كادت تبدأ السنة الثانية عشرة حتى أعد مجموعة من الحروف الإسلامبولية الجميلة ، وهى

أجمل أنواع الحروف فى ذلك الوقت ، وتمتاز بصغرها عن الحروف التى كان الهلال يطبع بها ، وبذلك أمكن أن يستوعب الهلال كثيرا من المواد والموضوعات .

وفى هذه السنة نفسها رأى مؤسس الهلال أن يصدره عشرة أشهر فى السنة مع بقائه مرتين فى الشهر ، وأن يعوض المشتركين عن الشهرين الباقيين بكتاب يهدى إليهم بحجم أجزاء الشهرين .

وفى السنة الثالثة عشرة شكا قراء الهلال من قلة الصفحات مع كثرة الموضوعات التى تستلزم زيادة عدد صفحاته ، واستحسن أغلبهم ضم الجزءين إلى بعضهما وصدورهما جزءا واحدا فى آخر كل شهر . فلم يسع مؤسس الهلال إلا إجابة رغبة الأكثرية، وعاد الهلال يصدر مرة فى الشهر على أن تكون صفحاته ثمانين صفحة ، وسنته عشرة أشهر وأن يعوض القراء عن جزأى الشهرين بكتاب.

وفى خلال السنين الماضية كانت المقالات الخارجية التى تأتى إليه من بعض العلماء والأدباء للنشر فى الهلال نادرة . ولكن فى العقد الثانى من حياة الهلال ظهر على صفحاته أسماء لبعض العلماء والأدباء الشرقيين كالمرحوم «المقدسى» صاحب كتاب «علم الأدب عن الأفرنج والعرب» وطالما أتحف هذا العالم قراء الهلال بمقالات تاريخية وفلسفية وعمرانية جيدة ، وكذلك الدكتور نقولا فياض ، وأخوه المرحوم إلياس فياض، وحافظ بك إبراهيم والدكتور شبلى شميل .

وأخذ الهلال فى هذه المرحلة ينشر بقلم مؤسسه مقالات اجتماعية واقتصادية فضلا عن المقالات التاريخية مثل « النهضة المالية المصرية» و« الإحصاء المصرى» و«اللغة العربية والمدارس » و«تاريخ التعليم فى مصر» ونحو ذلك مما يحتاج إلى درس وتنقيب .

العقد الرابع

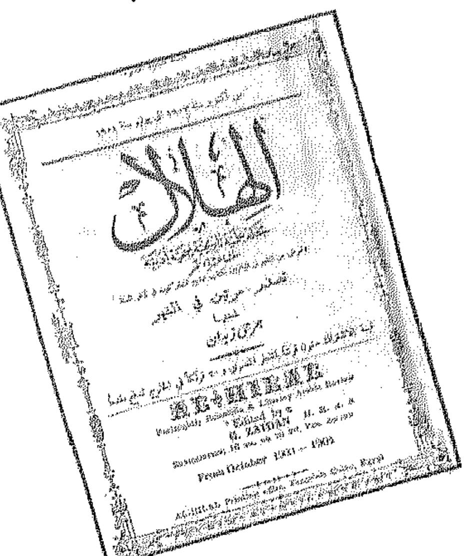
وفى العقد الرابع دخل الهلال فى طور يمتاز عن سابقه بكثرة التحسين تماشيا مع التطور الحديث وتيار الرقى والتقدم الراهن وقد ألغت منه بعض الأبواب ، واستعيض عنها بأبواب جديدة وموضوعات

أجل فائدة وأكثر ملاءمة للتطور المادى والأدبى والعلمى فى السنين الأخيرة .

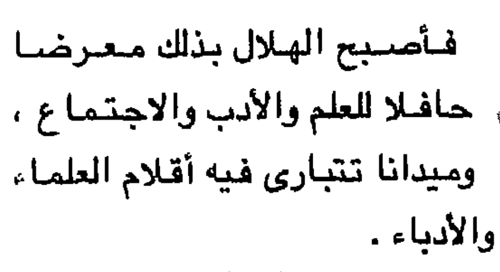
أما الأبواب الأخرى فقد نالها كثير من التعديل ، فغيرت عناوينها ، واختير لها عناوين أخرى واصطبغت بصبغة جديدة فى الأسلوب والاختيار والترتيب ، ومن ذلك «باب السؤال والاقتراح» فتغير عنوانه باسم « بين الهلال وقرائه» و«باب التقريظ والانتقاد» أصبح عنوانه « عالم الأدب» و«الأخبار العلمية » صار باسم «سير العلوم والفنون» وفيه من الصور مالم ينشر من قبل و«أخبار اجتماعية» باسم «من هنا وهناك » و«صحة العائلة» باسم «شئون الدار» أما « باب عجائب المخلوقات» فقد استعيض عنه بعرض صور مختلفة لهذه المخلوقات العجيبة مع التعليق عليها .

وقد ألغى «باب تاريخ الشهر » ثم أعيد أخيرا بمظهر جديد وذلك باسم «معرض الشهر» ويشتمل على صور أهم الشخصيات والحوادث التى شغلت الأذهان فى الشهر المنصرم ، هذا فضلا عن التجديد فى الورق والتحسين فى الطبع والتصوير : ومنذ جلبت دار الهلال مكنات الطبع بالروتوغرافور ، صارت صفحات هذه المجلة تزدان بصور جميلة تضاهى الصور الفوتوغرافية فى وضوحها وحسن طبعها .

وقد اتجه الهلال وجهة جديدة باتجاه الأفكار الآن نحو المغرب وعلومه وآدابه ، ولكنه مازال صورة واضحة لتطور الشرق وتقدمه ، وقد حاز من تقدير العلماء والأدباء ما جعله مجالا لبحوثهم القيمة وآرائهم الناضجة ، وأخذ نخبة منهم ينشرون فيه مقالاتهم وقصائدهم وآرائهم .



فأصبح الهلال بذلك معرضا حافلا للعلم والأدب والاجتماع ، وميدانا تتبارى فيه أقلام العلماء والأدباء .



العقد الخامس

بدأ الهلال عقده الخامس سنة

١٩٣٢ وكانت فى مصر وسائر بلدان العالم أزمة مالية استحكمت حلقاتها ، وعانت منها جميع الأمم متاعب مادية ومشاكل اقتصادية عدة، ويختتم هذا العقد فى إبان أزمة أخرى أشد وأروع ، وهى أزمة الحرب الراهنة التى هدمت كثيرا من معالم المدنية الحديثة، ورزأت الأمم بضائقة خطيرة، وكما صمد الهلال فى تلك الأزمة الاقتصادية وفى أزمة الحرب العالمية الماضية التى مر بها ، يصمد الآن لأزمة هذه الحرب مؤديا رسالته فى خدمة الشرق وخدمة النهضة الشرقية .

وقد امتازت السنوات العشر الأخيرة من حياته بما أصدره من أعداده الخاصة المتعددة تماشيا مع النشاط الفكرى والاجتماعى والسياسى في مصر والأقطار الأخرى، وقد بلغت هذه الأعداد ١٨ عددا تتناول أهم الموضوعات التى تشغل الأذهان فى المناسبات العلمية والأدبية والسياسية أيضا . ونذكر من هذه الأعداد : « الفاروق عمر بن الخطاب» . «حياتنا الجديدة» . «أبو الطيب المتنبى» . «المرأة والحب» .. « أبو نواس» .. « أبو العلاء المعرى » .. «العرب والإسلام» .. «العالم العربى والحرب» .. «الإنجليز» .. «الحرب» .. «العرب والديمقراطية» إلى آخر هذه الأعداد الممتازة فى تحريرها ، وفى تنسيقها ، وفى طبعها ، وقد صادفت نجاحا وتقديرا من جميع القراء ، وكانت سجلا لجانب كبير من الحياة العلمية والأدبية وصورة واضحة للنهضة الفكرية وجهود العاملين فيها .

وقد اضطر الهلال فى السنتين الأخيرتين أن يدمج عددين فى عدد واحد تحت تأثير الأزمة الحربية الحاضرة ولكن ذلك لم ينقص من قوة تحريره والرقى الفنى فى طبعه ، ولا من الرسالة التى أنشئ لأجلها ، ولم يخمد من هذه الشعلة التى أوقدها مؤسسة ، وتعهدها الذين جاءوا من بعده ، ولا ريب فى أن تلك الأزمة ستمر كما مرت الأزمتان السالفتان ، وسيعود الهلال كما كان ، وخيرا مما كان ، وسيبقى كما بقى فى الخمسين عاما الماضية مؤديا واجبه فى خدمة العلم والأدب والاجتماع .

هلال - الكتاب الذهبى - ١٨٩٢ - ١٩٤٢

الهلال منذ البدء

ذكريات عن الهلال ومنشئه

بقلم الأستاذ انطوان الجميل

ألا رحم الله منشئ الهلال ونفعنا بآثاره الباقية .

ومد الله فى عمر مجلة الهلال، وأبقاها عاملا فعالا فى خدمة الشرق واللغة العربية.

أما منشئ الهلال فلا أزال أذكر ما كان له من الفضل يوما ما على نشأتي الأدبية وإذا كنت أعمد مغتبطا، لمناسبة هذه الذكرى الخمسينية إلى تسجيل هذا الفضل فلا شك أن كثيرين غيرى من حملة الأقلام اليوم يعودون مثلى إلى ماض قريب أو بعيد فيذكرون مثلما أذكر.

.. كنا قبيل الحرب الماضية، وكان جيلنا من شبان تلك الحقبة يتطلع إلى النهضة الفكرية فى الشرق، ويتلمس آثارها فى كتابات من كان فى الطليعة من أدبائنا.

وكان أن صدر ديوان الخليل لأستاذنا مطران فانصرفت إليه أطالع مقطوعاته فى كثير من الشغف والاعجاب لأنى وجدت فيه الكثير مما كانت تشوف إليه نفوسنا الفتية التى نهلت من الأدب الفرنجى، وأصبحت تبحث عن مثل هذا المعين دون أن تجده فى أدبنا العربى العصرى . وبعد أن رويت ظمأ نفسى من هذه المطالعة أحببت أن أدون ما جال فى خاطرى من أثر هذا الشعر الجديد فعكفت على كتابة بحث طويل عن شاعرية خليل وعوامل التجديد فى قصائده وموضوعاتها ولما أتممت بحثى وأتقنت تبييضه حملته إلى منشئ الهلال، لأن صفحات الصحف اليومية لم تكن تتسع وقتئذ لمثل هذه البحوث .

وكان رحمه الله يقصد عند مغرب كل يوم إلى مكتبة الهلال، فى أول شارع الفجالة حيث تلتف حوله عصبة من رجال القلم يتفكهون ويتنادرون فدفعت إليه المقال على أن أعود إليه فى اليوم التالى لأعرف رأيه فيه بعد اطلاعه عليه.

وعند مغرب اليوم التالى عدت إلى مكتبة الهلال، فوجدت المرحوم جرجى زيدان بين رهط من أصدقائه كالمعتاد فابتدرنى بالتحية مرحبا وقال: أهنئك بمقالك، وسأنشره فى هلال الشهر القادم، ثم اسمعنى بعض عبارات التشجيع قائلا: أبشرك بمستقبل حسن فى الأدب إذا ثابرت على البحث والكتابة وفى الشهر التالى قرأت بحثى منشورا فى الهلال وتفضل، رحمات الله عليه، بأن أهدى إلى المجلة على سبيل المكافأة.

ولا شك فى أن هذا الحادث كان من الحوافز التى دفعتنى إلى الكتابة فى المستقبل.

هذه أولى ذكرياتى عن منشئ الهلال.

أما مجلة الهلال وما قامت به من الخدمات الجلي للأدب والتاريخ واللغة فقد يكون بعض الدليل عليه في القصة الآتية:

كنا في مطلع صيف سنة ١٩٢٧ نتأهب للسفر إلى أوربا وقصدنا مع بعض الأصدقاء إلى بورسعيد للسفر منها على باخرة كانت قادمة من جزر الفيلبين إلى جنوى.

وتأخرت الباخرة عن موعد وصولها إلى الميناء المصرى بسبب هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندى، فقضينا ليلتنا في أحد الفنادق ننتظر قدومها وقبل طلوع الفجر أيقظنا وكيل شركة الملاحة مبشرا بأن الباخرة قد اجتازت قناة السويس، وانها لا تلبث أن تواصل سفرها حالا فأسرعنا بحقائبنا إليها وما كدنا نستقر على ظهرها حتى أطلقت صفارتها مؤذنة بالرحيل.

يعرف الذين يسافرون كيف تقضى أيام السفر البحر: مطالعة، وحديث، وسمر، في حلقات يعقدها الذين تعارفوا وذهاب واياب على ظهر السفينة للرياضة.

وبينما كنت في اليوم الثانى من السفر أذرع السفينة ذهابا وايابا، رأيت رجلا وسيدة في مقعدين متجاورين وكان منظرهما قد لفت انتباهنا منذ اليوم الأول.

الرجال مثال للعنصر الشرقي بشرة سمراء، وعينان سوداوان وشعر كث فاحم كظلام الليل، وهو في نحو الخمسين من عمره.

والسيدة مثال للعنصر الانجلوسكسوني: بشرة ناصعة البياض، وعينان زرقاوان، وشعر أشقر كشعاع الشمس، وهى فى نحو الثلاثين من عمرها.

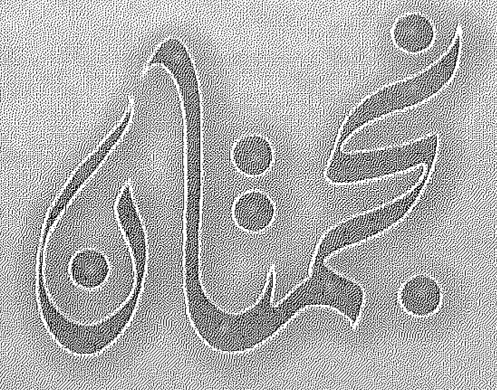
بينما أنا في في طوافي جئية وذهابا بادر الرجل بتقديم نفسه إلى

فقال: أعرف هذا الاسم.. ورحب بى، وقدمنى للسيدة، وهى زوجته، ثم ذكر اسمه، وسرد قصته قال:

– اسمى عزيز توفيق هاشم، من كفر شيما بلبنان هاجرت من قريتي وأنا في الثانية عشرة من عمرى وقد مر على فى المهجر أربعون سنة كاملة لم أرجع فيها إلى الشرق.. ذهبت في أول أمرى إلى أمريكا الشمالية، ثم انتقلت منها إلى أمريكا الجنوبية، ولم يصادفنى التوفيق في كلتا الأمريكتين، فيممت شطر جزر الفيلبين، وتعاطيت بعض الأعمال التجارية فى مانيلا، فحالفنى النجاح ثم اشتريت بالاشتراك مع الدكتور صليبى أراضى واسعة، وكان من حظنا أن كشفنا فيها منجم فحم، فكان لنا منه ثروة طائلة قال، واطلعنى على مجموعة صور فوتوغرافية لذلك المنجم ومئات العمال يشتغلون به وكان الرجل يروى لى قصته هذه فى لغة هى مزيج من اللغة الفصحى واللغة العامية الدارجة في لبنان يتخللهما شطرة بيت من الشعر أو كلمة بالانجليزية أو الأسبانية.

ولما أبديت له استغرابى من أسلوب تعبيره المختلط قال:

لا تعجب! قلت لك انى هاجرت من الشرق منذ أربعين سنة، وأنا فتي يانع وبعد بضع سنوات تلقيت كتابا من المرحوم والدى يقول لى فيه ما معناه: يابنى، أخشى أن تنسى في ديار الغربة لغة قومك وعادات عشيرتك لأنك لاتزال صغير السن. لذلك اشتركت لك بمجلة الهلال لتظل تطالع فيها لغتنا فلا تنساها، وتقرأ فيها أنباء شرقنا العزيز..» وهكذا عرفتك عندما تسميت لأنى قرأت لك فصولا فى الهلال، وهكذا ترانى بعد غياب أربعين سنة أحتفظ بلغتنا، وأن كانت العادة قد أدخلت على عباراتي كلمات أجنبية كثيرة.



شعر
د.حسن فتح الباب

أشعل شمعة لعلها
تضيء لي الماضى الذى انطفأ
أسأله : ماذا جنيت
حين عدوت فى طريقى الطويل
لعلنى أقطف نجمة المساء
رأيتها كأنها على الأفق
لؤلؤة تسبح فى الضياء
لعلها تصحبنى فى ليلى الغريق
أشدو لها ... لعلها
تعيرنى سفينة من بحرها
صغيرة تمخر فى العباب
لعلها تقلنى
إلى سواحل بعيدة
عن أعين القرصان
تمنحنى الأمان
وفجأة رأيت نجمتى
ترمقنى بنظرة مشفقة
لأن كفى الصغيرتين
اسلمتا الشراع للقرصان
فكان لى الربان !!
وعاد بى من حيث جئت
سفينة ولا شراع
مويجة ولا بحار
لانجمة أقطفها من الفضاء
تصحبنى فى ليلى الغريق
إلى مرافئ الأمان
إلى السموات العلا
طيرا طليقا كالضياء

***

مفردا مع الملائكة
صحوت من حلمى على يدين
وقبلتين من حنان :
بنى .. لاحت نجمة الصباح

كتاب الهلال

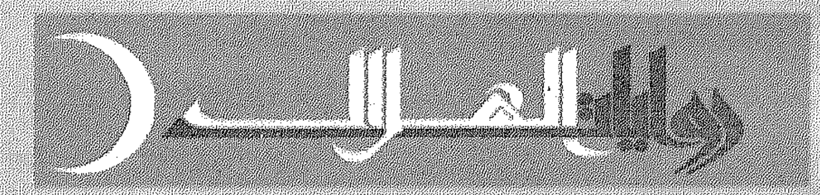
هارون الرشيد

تأليف: سينت جون فيلبى

ترجمة: د. صبرى حسن

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

يصدر ٥ سبتمبر
سنة ٢٠٠٢



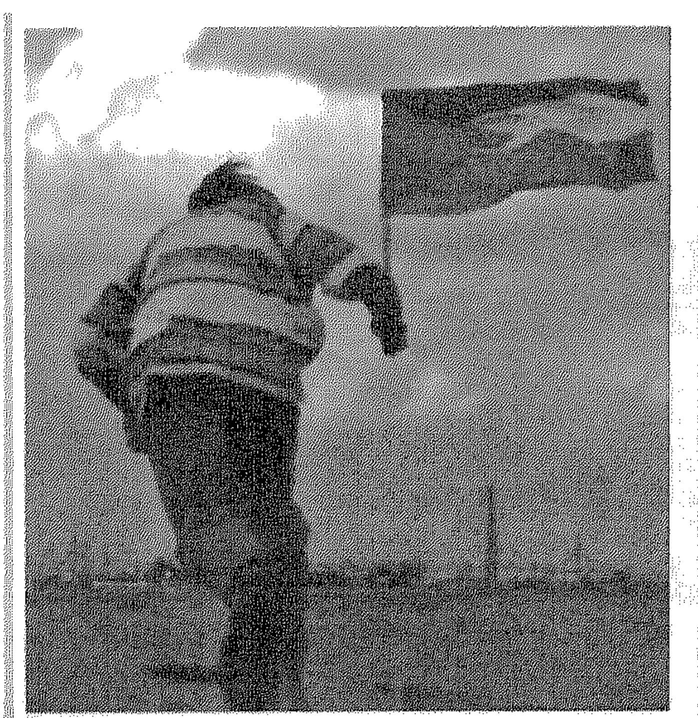
صهاريج اللؤلؤ

بقلم

خيرى شلبى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ سبتمبر
سنة ٢٠٠٢



عامان من النضال الفلسطينى

بقلم
د.أحمد يوسف أحمد

ترددت طويلاً قبل أن أشرع فى الكتابة عن انتفاضة الأقصى وهى تستعد لاستقبال عامها الثالث، وكان مبعث ترددى أمرين : أولهما أن الوقت قد يكون مبكرا لإصدار حكم موضوعى تسلم به أغلبية المتابعين لها، ففى مثل هذه العمليات التاريخية لايمثل عام أو عامان سوى قطرة فى محيط هذه العمليات التى تكون عادة شديدة التعقيد، وقد يمر النضال الفلسطينى بلحظة بالغة الصعوبة والخطر، غير أن هذه اللحظة ربما تكون بوابة للانتقال إلى مرحلة أرقى، أو إلى إنجاز حقيقى حتى ولو كان محدداً ، هذا فضلا عن أن الحقائق الخاصة بما جرى وتأثيراته لاتكون معروفة فى البداية بشكل متكامل ودقيق، ناهيك عن الحاجة لدراسات مقارنة عن مسار حركة التحرر الوطنى الفلسطينى الراهن فى سياق الخبرات المعاصرة لحركات التحرر العالمية.

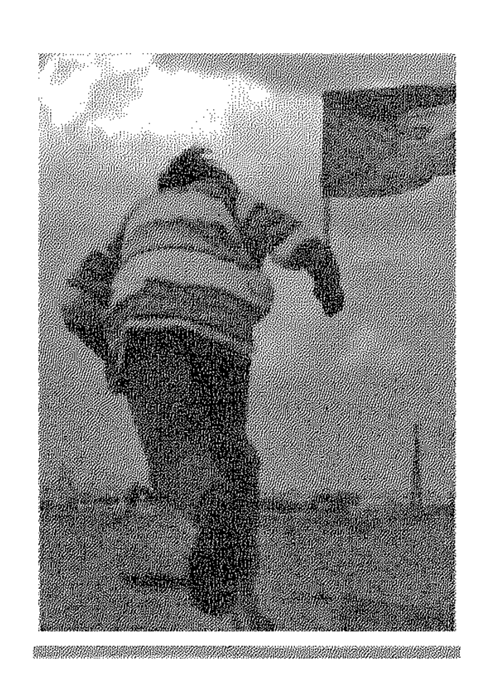
مع ذلك كله فإن الحاجة الموضوعية لوقفة مع مسار الانتفاضة تبدو ملحة ليس بغرض التوصل إلى حكم تاريخي عليها، وإنما لأن مثل هذه الوقفة ضرورية لتقديم الدعم للانتفاضة في وجه من يشنون عليها حربا فكرية وسياسية ونفسية تحاول أن تقوضها من أساسها، وتنفي أية إمكانية للحديث عن إضافة إيجابية قدمتها في مسار التحرر الفلسطيني.

أما الأمر الثاني الذي أفضى إلى ترددي في الكتابة، فهو مخافة التكرار في الأفكار، فلقد تابعت مسار الانتفاضة في العامين السابقين، واجتهدت في الكتابة عنها من موقف المدافع الذي يحاول الاستناد في دفاعه إلى أسس موضوعية، بغض النظر عن التوجهات القومية والإنسانية التي تضع المرء بالتأكيد في موقف التعاطف معها، وتناولت في هذا الصدد عدداً من الأفكار التي لاشك في أن الحديث عنها مطلوب في السياق الراهن، وعلى الرغم من أن تفادي التكرار ضرورة إلا أن ثمة أفكاراً لايمكن اسقاطها ونحن بصدد الحديث عن الانتفاضة في عامين بحجة أنها قد نوقشت من قبل خاصة وأن تطورات الأحداث تحمل لنا الجديد في كل يوم.

كيف يمكن في إطار القيود السابقة أن يحاول المرء تقديم إطار لتقييم مسار الانتفاضة في عامين؟ قد يكون من المناسب أن نقترح إطاراً رباعي الأبعاد يتضمن تناولاً للبيئة الخارجية للانتفاضة، وصمودها في النضال، ومدى حفاظها على وحدتها الوطنية، وتأثيرها على الكيان الصهيوني، وهي أبعاد متداخلة موضوعيا دون شك، وإن كان الفصل بينها ضروريا بغرض الوضوح، ولن يسمح الحيز المكاني المتاح للأسف سوى بتناول البعد الأول من هذا الإطار أملاً في أن نتمكن من تناول باقي الأبعاد في مناسبة قادمة

السياق العالمي للانتفاضة

تظهر خبرة حركات التحرر الوطني المعاصرة أنها نمت وتطورت في سياق خارجي إقليمي وعالمي إما أنه كان مواتياً إلى حد بعيد، وإما أنه على الأقل ضمن لها الحد الأدنى من الدعم. لم يقاتل الأنصار الخارجيون أبداً معارك الشعوب من أجل تحررها، لكن دعمهم وفر ظروفا مواتية وأحياناً مثالية لهذه المعارك. تؤكد هذا خبرات التحرر في الجزائر وفيتنام وجنوب اليمن وجنوب افريقيا وغيرها، فلقد اتسمت بنية النظام الدولي حينذاك بقطبية ثنائية ساند أحد ركنيها وهو الاتحاد



السوفيتي حركات التحرر في العالم بصفة عامة مادياً ومعنويا ، بينما لم يكن الركن الثاني المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية حريصاً بصفة خاصة على الحفاظ على البنية التقليدية للنظام الاستعماري العالمي طالما أنه - أي القطب الأمريكي - كان يخطط لتأسيس هيمنته العالمية وتعزيزها .. وهكذا عملت الحركات التحررية السابقة وغيرها في إطار عالمي يمكن وصفه بصفة عامة بأنه مواتٍ بما ساعد على سرعة إنجاز أهدافها.

بالمقابل نجد أن الحلقة الراهنة من حلقات تطور حركة التحرر الفلسطيني تتم في إطار ظروف عالمية بالغة الصعوبة والعسر، فقد سقط نظام القطبية الثنائية، وانفردت الولايات المتحدة الأمريكية ولو إلى حين بمقاليد القيادة العالمية ، وفقدت حركات التحرر على هذا النحو أية إمكانية لدعم يأتيها من قمة النظام العالمي إلا أن تكون في نجاحها مصلحة محققة لقطب هذا النظام والأدهى من ذلك أن حركة التحرر الفلسطينية بصفة خاصة تعمل في ظل ذلك التحالف العضوي التام بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي يجعلها تبدو وكأنها لاتواجه الاستعمار الصهيوني وحده، وإنما الهيمنة الأمريكية بأسرها، وهي مهمة تنوء الجبال بحملها خاصة في ظل أوضاع عربية سنأتي إلى ذكرها لاحقا.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها

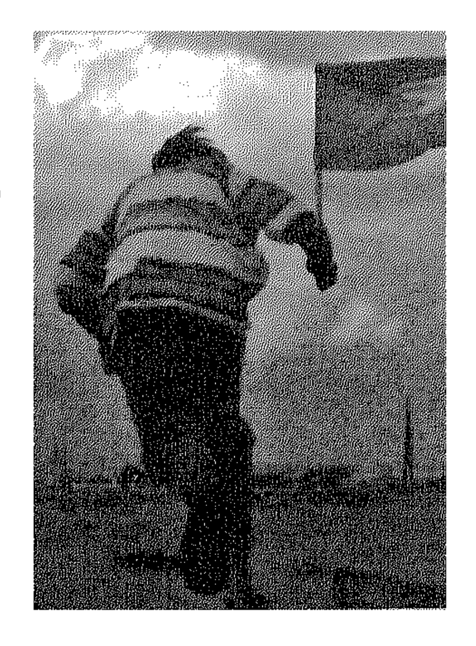
ازدادت الأمور سوءا دون شك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ . ساد في البداية ظن أو أمل في أن الإدارة الأمريكية قد تدرك أن المناخ الذي أفضى إلى تلك الأحداث يتمثل في عدم العدالة السائد على الساحة العالمية عامة، وفي المنطقة العربية خاصة، ومن ثم فقد تدخل هذه الإدارة قدراً من التغيير أو حتى التعديل على سياستها الخارجية في اتجاه قدر أكبر من العدالة بما يساعد على إنجاز الأهداف المتواضعة الراهنة للنظام

العربى فى شقه الرسمى وكذلك السلطة الفلسطينية القائمة فى مواجهة إسرائيل، غير أنه سرعان ما بدأت الإدارة الأمريكية تنزلق – تحت وطأة توجهاتها اليمينية المتطرفة والنفوذ الغلاب للوبى الصهيونى – فى اتجاه تأييد الممارسات الاستعمارية العقيمة للحكومة الإسرائيلية فى مواجهة الشعب الفلسطينى بل – وهذا هو الأخطر – إعادة تكييف الصراع العربى – الإسرائيلى كصراع ضد الارهاب الفلسطينى ينبغى أن تخوضه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والنظم العربية يدا بيد ، وليس كصراع من أجل تحرير أراض فلسطينية تحتلها إسرائيل ، وفى ضوء هذا التكييف يمكن بعد تحقيق الأهداف الأمريكية الإسرائيلية – أى بعد النجاح فى وأد المقاومة الفلسطينية – أن يعطى الفلسطينيون بعض الفتات ، وهكذا مثل خطاب الرئيس الأمريكى جورج بوش فى شهر يونيو الماضى بداية مشئومة لمرحلة جديدة فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع تسقط فيها كل ثوابتها ، وإن احتفظ لها ببعض اللافتات التى لامعنى لها ، وتحل محلها بعض الوعود الغامضة التى لن تختبر مصداقيتها إلا بعد وأد المقاومة الفلسطينية والقضاء على أى تأييد عربى لها ، لكى تذوب بعد ذلك – أى تلك الوعود الغامضة – أو تتكشف حقيقتها فى لحظة الوصول إلى السراب.

تخاذل المواقف الدولية

يلفت النظر بعد ذلك أن هذه التحولات الخطيرة فى الموقف الأمريكى لم تلق مقاومة دولية رسمية تذكر، أو اذا شئنا الدقة فإن هذه المقاومة لم تكن فاعلة، فقد اكتفى أطراف الاتحاد الأوروبى دوما ببعض الاختلافات الطفيفة مع السياسة الأمريكية، ولعل أبرز نماذج هذه الاختلافات فى الآونة الاخيرة قد تمحور حول الاعتراض على القرار الأمريكى بعدم التعامل مع القيادة الفلسطينية الراهنة، وكأن القضية قد اختزلت فى شخص فرد ، بالإضافة إلى بعض التصريحات الرسمية التى تعجب العرب من حين لآخر ، أو تعطيهم على الأقل أملاً فى تغيير السياسات الأوربية إلى الافضل.

ولعلى لا أكون مبالغاً إذا أضفت إلى ماسبق أن الاتحاد الأوربى قد لعب بشكل أو بآخر دورا فى مزيد من تقويض الشرعية الدولية المؤيدة للحقوق الفلسطينية بالجهود المستمرة لإقناع



الفلسطينيين والعرب بأن يعتدلوا (!) أكثر وأكثر فى مطالبهم من المنظومة الدولية حتى يمكن تمرير قرار بشأن هذه المطالب أو تحقيق إجماع أو أغلبية كبرى حولها فتكون النتيجة هي رفض القرار كما يحدث عادة فى مجلس الأمن أو حتى رفض تقديم مشروعه أصلا إلى المجلس على الرغم من الاعتدال العربى الذى يسجل كموقف عربى رسمى جديد، أو تحقيق اغلبية معقولة أو حتى كبرى حول قرارها - وهو ما يحدث عادة فى الجمعية العامة- ولكن مضمون القرار فى هذه الحالة يبدو وكأنه يساوى بين القاتل وضحيته ، ويفرغ الصراع من جوهره، والمطالب المشروعة من أسانيدها ، كما حدث فى القرار الأخير للجمعية العامة للأمم المتحدة فى أعقاب مذبحة غزة والذى احتفت به أطراف عربية عديدة دون دا ع.. والأكثر سوءا من هذا أن ما ذكر عن المواقف الاوربية ينطبق على نحو أسوأ بالنسبة لقوى دولية فاعلة عديدة .

دواع للأمل

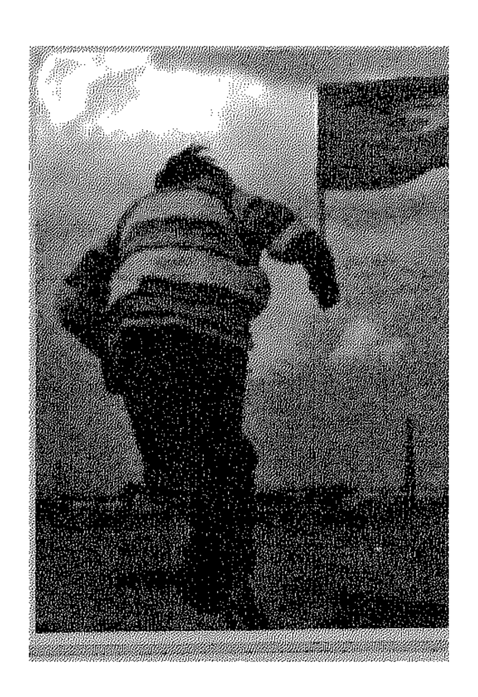
على أية حال فإن التحليل السابق للسياق العالمى الذى تعمل فيه حركة التحرر الفلسطينى الراهنة يجب ألا يحجب عنا أمرين بالغى الأهمية أولهما أن الانتفاضة قد تمكنت بأدائها الرفيع طيلة العامين السابقين من أن تكسب أرضية لدى عدد من القوى السياسية أو على الأقل العناصر الفاعلة داخل هذه القوى فى دول أوربية وغير أوربية عديدة، وكذلك لدى بعض أجهزة الإعلام الأجنبية التى انتقلت مواقفها من اللامبالاة إلى الاهتمام ، ومن الانحياز الاعمى إلى حالة أقرب إلى الحياد وفى بعض الأحيان التفهم للموقف الفلسطينى ، وهو تطور إيجابى قد يكون محدوداً ، ولكنه مرشح للاستمرار والتنامى إذا حافظ النضال الوطنى الفلسطينى على أدائه الرفيع.

أما الأمر الثانى فهو الأكثر أهمية، إذ يتعلق بإمكانية مواصلة النضال التحررى

فى ظل ظروف عالمية بالغة التعقيد والمشقة ، والحق أن المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله كانت قد تمكنت فى ظل ظروف شديدة الصعوبة من النجاح فى تحرير الجنوب اللبنانى فى مايو ٢٠٠٠ ، أى بعد حوالى عقد على تفكك الاتحاد السوفيتى ، وأكثر من عقد على فقدانه لدوره العالمى فى النصف الثانى من ثمانينات القرن العشرين قبل تفككه ، ومن الحقيقى أن الظروف الراهنة تعد أسوأ بكثير مما كانت عليه إبان تصاعد النضال التحررى اللبنانى فى العقد الأخير من القرن العشرين ، غير أن خبرة حركات التحرر الوطنى تشير إلى قدرة هذه الحركات على إبداع الوسائل الخاصة بها لمواجهة الظروف شديد الصعوبة ، وإن صمود الانتفاضة الفلسطينية لعام كامل بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، وما أتاحته من إطلاق يد العسكرية الإسرائيلية الهمجية بطشا وتنكيلا بالشعب الفلسطينى ليزودنا بالأمل فى أن الانتفاضة سوف تتمكن من اجتياز هذا الاختبار الصعب بنجاح كما اجتازته حركات التحرر الوطنى من قبلها.

عن الظهير العربى للانتفاضة

تناولت الفقرات السابقة السياق العالمى الذى ناضلت فيه الانتفاضة الفلسطينية على مدار ما يقارب العامين ، أما السياق الإقليمى العربى فحدث عنه ولاحرج، فثمة فارق هائل بين الظروف التى عملت فى إطارها حركتا التحرر الجزائرية واليمنية على سبيل المثال فى خمسينات القرن العشرين وستيناته فى ظل تصاعد المد القومى العربى الذى قادته ثورة يوليو ١٩٥٢ بمشروعها التحررى وبين الظروف العربية الراهنية . لانقصد بذلك أن نلمح إلى استبعاد النظام العربى الرسمى خيار الحرب ضد إسرائيل دعما للانتفاضة ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الشعوب المعنية دون سواها كانت هى التى تحملت عبء النضال ضد المستعمر ، ناهيك عن أن ذلك الاستبعاد له مبرراته الموضوعية التى نوقشت غير مرة فى مناسبات سابقة، لكن المقصود أن مستوى الدعم الذى قدمه النظام العربى كان فى حده الأدنى ، بل لقد بدا أحياناً وكأن هذا النظام يسلك – ولو دون قصد على نحو يضر



بالانتفاضة بل وقد يقوض أركانها.

فعلى الصعيد الرسمى لم يعمل النظام العربى الرسمى ، أو على الأقل دوله المحيطة بفلسطين كقاعدة دعم نضالية تزود الفلسطينيين بالأسلحة والذخائر ، وتقدم لهم خدمات التدريب والمأوى.. إلخ

كما حدث فى كافة الخبرات المعروفة لمختلف حركات التحرر الوطنى بما فى ذلك حركة التحرر الفلسطينى ذاتها فى مراحل سابقة، ولاشك أن هذا السلوك من قبل النظام العربى الرسمى قد تولد عن حسابات معينة لموازين قوى إقليمية وعالمية غير مواتية ، وحتى لو كان دعم من هذ القبيل قد تم فمن المؤكد أنه جاء على نطاق محدود للغاية على أساس أن من قام به حريص كل الحرص على عدم انكشاف أمره مما يفرض بالضرورة قيودا هائلة على ذلك الدعم المفترض . وعلى الصعيد الاقتصادى قررت أكثر من قمة عربية منذ انعقاد قمة الأقصى فى أكتوبر ٢٠٠٠ دعماً اقتصاديا لابأس به للانتفاضة الفلسطينية، لكن سداد الدول لأنصبتها في هذا الدعم والقرارات المتعلقة بكيفية تقديمه عانى دائما من مشكلات حقيقية جعلته بعيدا عن المستوي المطلوب.

غير أن الأخطر من ذلك كله ما بدا من أن النظام العربى الرسمى والمتحدثين باسمه فكريا يتبنون ، فى أكثر من مناسبة من المواقف ما يضر بالانتفاضة بل وقد يساعد فى تقويضها، ومن هذه المواقف على سبيل المثال التشكيك فى جدوى الانتفاضة أصلاً، والترويج لفكرة أنها أجهضت تسوية معقولة كانت فى الطريق (أين هى منذ أكثر من نصف قرن قبل أن يبدأ النضال الفلسطيني؟) أو السقوط فى شرك الحديث عن العنف أو الانتقام المتبادلين ، وضرورة تقديم الطرفين لتنازلات فى مساواة ممقوتة بين القاتل والضحية، وحديث البعض فى منعطفات زمنية شديدة الوعورة بالنسبة للنضال الفلسطينى عن أنه قد آن الأوان للتوقف

عن النضـال لجنى ثمـاره . (أية ثمـار لاندرى؟!) ، أو الإسـراع بالتـصـدى للعمليات الاستشهادية بدعوى أنها تضر بالنضـال الفلسطينى دون التكرم بتوضيح أن مثل هذه العمليات ليست عـرضـا مـرضـيـا خـاصـا بالشـعب الفلسطينى ، وإنما هى إفراز طبيـعى لوحشية إسرائيلية بلغت آفاقا لايمكن احتمـالها، ولمسالك للتسوية سدت جميعها بما يقطع الأمل ، وأن الطريقة الوحيدة لوقف هذه العمليات لاتكون إلا بالاستجابة للحد الأدنى على الأقل من المطالب المشروعة للنضال الفلسطينى ، أو مواصلة الاتصالات بحكومة مجرمى حرب يعلم الكافة أنها لايمكن أن تكون طرفاً فى أية تسوية مقبولة بحيث لايكون لهذه الاتصـالات من أثر سـوى إعطاء شرعية – ولو على نحو غير مباشر – لأفعال الحكومة الإسرائيلية الراهنة.

ومن الأمانة أن نشير إلى أن أطرافا فـاعلة فى النظام العربى الرسـمى قد حـافظت على حـد أدنى من المواقف السياسية السليمة فى إدارتها للصراع ، وأن النظام العـربى غيـر الرسـمى ، أو الشارع العربى وفقا للتعبير الشائع ، قد قـام بدور لابأس به سـواء فى ابداء التعاطف مع الانتفاضة وتأييدها من خلال المظاهرات والمؤتمرات وكـافـة اشكال الحركة الجماهيرية ، أو فيمـا هو أهم بالدعم المادى لها عن طريق حملات جمع التبرعات وحركة المقاطعة الاقتصادية الشعبية الفاعلة للسلع التى ينتجها العدو وحلفاؤه على الرغم من كل الصعاب التى واجهتها هذه الحركة ، وان كان الاعتراف واجبا بأن حركة الشارع العربى قد عانت بدورها من عثرات مفهومة مازال الأمل موجودا فى إمكانية تجاوزها فى مستقبل قريب

***

فى هذه الظروف يمكن تصنيف صمود الانتفاضة الفلسطينية لسنتين حتى الآن ضـمـن نطاق المعـجـزات إذا شئنا التعبير بلغة بلاغية ، أو ضـمن الأفعال التى تكشف عن حركة تحرر صلبة المراس حسنة التنظيم مؤمنة بأهدافها معبرة عن شعبها إذا اخترنا التعبير بلغة الواقع .. وفى هذا الإطار يمكننا أن نتحـدث عن صمود النضال الفلسطينى طيلة عامين من الانتفاضة وتأثير هذا الصمود على الكيان الصهيونى ، وهو موضوع يحتاج تناولا تفصيليا نتمنى ان تتاح له فرصة قريبة قادمة. ■

أفراح أنجال الباشا

بقلم
د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى

تمثل الأفراح لدى المصريين سواء الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة مهمة تبرز فيها الكثير من العادات الموروثة والمستحدثة، فالبحث عن بنت الحلال التى تسعد زوجها، وتريح قلبه، وتحفظه بحسن تدبيرها، وتكون سترا له فى الدنيا من الأمور التى تهفو إليها القلوب

وإذا كانت أفراح أنجال الباشوات تتميز بالبذخ الزائد، والتنافس على تقديم الهدايا الثمينة وإنفاق الأموال الكثيرة، فإن أفراح أنجال العامة تتميز بالبساطة ويسودها التقاليد الشعبية التى يطغى عليها ضرب الدفوف والطبل البلدى والمزمار، وزغاريد النساء، ويظهر فيها الجدعان والفتوات من أبناء الحارة وهم يتبارون بالنبابيت ويلعبون بالجريد والسيوف والرماح .

وإذا كانت بنات الباشوات تنقلن إلى بيت الزوجية من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقات العسكرية، ويتم خلالها توسعة الشوارع التى يسير فيها شوار العروس بعد تنظيفها ورشها بالماء، فإن العروس من بنات العامة كانت تحمل فى هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير، ومحمل على جملين زينت أعناقهما بقلائد حريرية، وأجراس مختلفة فى رقابها، وكانت الشوارع التى يمر فيها موكب العروس تضاء بالمشاعل والقناديل الصغيرة التى تسير خلفها الفلاحات فى ملابسهن الزرقاء، وهن يصدرن أصواتا تعبر عن فرحهن حتى يتم الوصول إلى منزل العروسين وسط ضجيج وصخب كبيرين.

وإذا كان الذى يحضر حفلات عقد قران أنجال الباشوات أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء، والأعيان بملابسهم الجديدة اللافتة للنظر، وكان



صوره نادرة تجمع بعض انجال الخديو اسماعيل وزوجاتهم مع اثنتين من زوجات الخديو نفسه ، من اليمين : الاميرة ملك زوجة الامير حسين كامل ثم زوجة الامير ابراهيم حلمي وحدي زوجات الخديو اسماعيل والامير حسين كامل ثم زوجة اخري للخديو خلفها الامير احمد فؤاد وابنة الامير ابراهيم حلمي ثم الامير ابراهيم حلمى



احدي الاميرات امام قصر الجزيرة حيث كانت تقيم والدة الخديو اسماعيل وحيث اقيم الاحتفال بزواج الانجال

تقدم لهم أفخر المأكولات والمشروبات فإن الذى كان يحضر حفلات أنجال العامة هم العمال وأصحاب الجلاليب الزرقا، أمثال المعلم شلبى، والأسطى حنفى، وزعيط الفلاح، وكانوا يجلسون القرفصاء أو على أقفاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية، ويتعاطى بعضهم الأدخنة والحشيش وهم يستمعون إلى الأمثال العامية وإلى قصص أبو زيد الهلالى وعنترة.

وبينما كان يدعى لإحياء أفراح أنجال الباشوات كبار الموسيقيين الذين تدفع لهم المبالغ الطائلة فإن أنجال العامة كانوا لايدفعون فى غالبيتهم أجرا للموسيقيين أو المهرجين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم، أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقوط والمساهمة فى تكاليف الفرح.

وبينما كانت الهدايا المقدمة لأنجال الباشاوات تمثل صورة من الحياة الطبقية الصارخة، فإن هدايا أنجال العامة كانت لاتزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والأوز.

وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التى يتناولها ضيوف أفراح أنجال الباشاوات فى صحون المحمر والكباب والكفتة والفاكهة وغيرها، فإن ضيوف أفراح أنجال العامة كانوا لايتناولون سوى العدس أو «البيصارة» أو الفول بالإضافة إلى المش والجبن والفجل والمخلل.

وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم فى قصور الباشاوات فإن العامة كانوا لا يعرفون طريقة استخدامها، بل يجلسون القرفصاء على الأرض، ويستعملون أياديهم وأصابعهم حيث كانت أسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها.

أفراح أنجال الخديوى اسماعيل

وتعد أفراح أنجال الخديوى اسماعيل من الأفراح القليلة التى مازالت أصداء لياليها الباهرة تتردد فى أذهان المصريين نظرا لما عاشته مصر خلال أيامها الأربعين من احتفالات فخمة، وإسراف أسطورى لم تر مثله فى عصرها الحديث، والتى ذكّرت الناس بليالى ألف ليلة وليلة، وباحتفالات قطر الندى ابنة «خمارويه» أمير مصر الطولونية بالخليفة العباسى «المعتضد» فقد تشابهت ليالى أفراح أنجال الباشا مع هذه الأفراح، من حيث البذخ الشديد، وإقامة الزينات الفخمة وإعداد المواكب التى تعزف الجوقات الموسيقية الرائعة.

ففى حفل مهيب عقد الخديوى إسماعيل قران أولاده الثلاثة، وإحدى بناته فى وقت واحد. إذ عقد لولى عهده «محمد توفيق» على الأميرة «أمينة هانم» بنت إلهامى باشا ابن عباس الأول والتى عرفت فيما بعد بأم المحسنين، وللأمير «حسين» والذى عرف فيما بعد بالسلطان «حسين كامل» والذى نصبه الإنجليز سلطانا على مصر على الأميرة «عين الحياة هانم» بنت الأمير أحمد رفعت ابن ابراهيم باشا نجل محمد على الكبير.

وللأمير «حسن» ثالث أنجاله على «خديجة هانم» بنت الأمير محمد على وحفيدة محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة، كما زوج الخديوى ابنته الأميرة «فاطمة الزهراء» صاحبة اليد الطولى فى إنشاء الجامعة المصرية للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا ابن محمد على.

وقد بدأت أفراح الأنجال فى ١٥ يناير ١٨٧٣، واستمرت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها، وقد أقيمت هذه الأفراح أمام القصر العالى الذى كانت تقيم فيه والدة الخديوى وفى أرض قشلاق حرس القصر وحديقته والتى أطلق عليها بعد ذلك اسم «المنيرة» نظرا لإضاءتها بالأنوار طوال الأربعين ليلة، كما أصدر الخديوى اسماعيل أمرا بأن يطلق اسم «أفراح الأنجال» على أحد شوارع هذا الحى احتفالا بهذه المناسبة، وكرمز لأعظم فرح ارتدت فيه القاهرة أجمل ما لديها من حلى. كما فاقت مظاهر الإسراف والبذخ الوصف ما جعلها موضع أحاديث الناس فقد أنفق الخديوى على هذه الأفراح وكما ورد فى الوثائق الرسمية مبلغ عشرة ملايين جنيه وسبعمائة وثلاثة وأربعين ألف وخمسمائة وثلاثة وسبعين قرشا وثمانية عشر فضة وهو مبلغ بالغ الضخامة بالنسبة للعصر الذى أنفق فيه، وبالنسبة للميزانية المصرية وقتذاك.

اعتبار أفراح الأنجال مناسبة قومية

جعل الخديوى من حفل زواج أولاده الأربعة مناسبة قومية، فعطلت المدارس، واستقبل الأهالى نبأ هذا القران بغبطة شديدة، وعم الفرح مدينة القاهرة بأكملها،



صوره نادرة لبعض الأمراء من الاسرة الخديوية حول النارجيلة و يظهر فى الوسط الامير حسن كامل بن الامير حسن ابن الخديو اسماعيل الى يساره

كما شارك الآلاف من المصريين من كافة الطبقات سواء من كان بالعاصمة أو من ظل فى إقليمه فى هذه الاحتفالات، وسارع بعضهم بعقد قران أولاده فى هذه الأيام احتفالا بهذه المناسبة الخديوية، وقد تجلى البذخ خلال هذه المناسبة فى أوضح مظاهره، فزينت شوارع العاصمة بالثريات والفوانيس المختلفة الألوان، ووضع فى نهايتها أقواس نصر فى أشكال متعددة، ونصبت السرادقات الفخمة المزدانة بأفخر الرياش لاستقبال المدعوين الذين قدم لهم صنوف الأطعمة على مختلف أنواعها، كما وزع على الأهالى صحون نحاسية مملوءة بالأرز المطهى بخلاصة رؤس الضأن

والعجول الصغيرة والذى أطلق عليه «أرز اسماعيل» وقدم لهم الخدم العصائر والحلوى والقهوة، ونثروا عليهم الماء المعطر برائحة الورد، وإلى جانب ذلك أقيمت سرادقات فى العديد من الميادين، دعى إليها كبار المطربين والمطربات، وأشهر العوالم والراقصات كما نصبت تخوت الآلاتية التى استمرت تصدح وتشنف الآذان بأعذب الألحان وكان منها تخت «عبده أفندى الحامولى» الذى كان يبعث فى الحضور طربا وانتعاشا، كما نصبت المسارح على بوابة قصر عابدين وسور حديقته، وأقيمت المسارح المرتجلة التى جمعت غواة الفن من أنحاء القاهرة والأقاليم لتمثيل المسرحيات المضحكة، فكان البهلوانيون وفرق الحواة والقراقوز وخيال الظل يمددن حبالهم لعرض ألعابهم على الحاضرين، كما كانت الصواريخ تنطلق فى الليل بين تهليل الصبيان وصياحهم، واحتفاء بهذه المناسبة قدم الخديوى دعوة لطلاب المدارس للاشتراك فى تناول الأطعمة والحلوى، وسماع الموسيقى والأغانى، ومشاهدة الصواريخ التى تنطلق من حديقة الأزبكية التى تحولت ساحاتها إلى مولد حقيقى. وخلال ذلك أرسلت الهبات السنية التى وهبها الخديوى لمستحقيها، ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين، كما تنافس الأمراء والذوات والأعيان فى التسابق إلى سرايات الخديوى لتقديم الهدايا الثمينة، وبالغ الخديوى فى منحه الأراضى لأنجاله وأعضاء أسرته والأقارب والأصهار حتى الخدم والحشم ابتهاجا بهذه المناسبة.

وبينما كانت الاحتفالات فى شوارع العاصمة وميادينها قائمة على قدم وساق كانت هناك احتفالات خاصة فى سراى عابدين دعى إليها الأمراء والوزراء والأعيان وشيخ الأزهر، ورجال السلك الدبلوماسى من الشرقيين والأجانب وعقيلاتهم، وفيها أقيمت الولائم الفاخرة والمراقص الساهرة التى شارك فيها الخديوى بنفسه.

ولم يقتصر الأمر على تجمعات الرجال، بل شغلت قصور الحريم تجمعات النساء. وقد شارك فى إحياء هذه الليالى مشاهير المطربين، ففى أماكن تجمع الرجال غنى «عبده الحامولى» و«محمد عثمان» و«المعلم شاكر» أما فى قصر الوالده باشا وغيره من القصور التى تجمع فيها النساء فقد غنت «ألماظ»، و«الأسطى ساكنة»، و«الوردانية» كما قامت امرأة تسمى «بهلوانة» بالسير فوق الحبل على ارتفاع كبير وهى تحمل معها شاة صغيرة تقوم بذبحها، وإلى جانب ذلك فقد أقيم بالعباسية مهرجان سباق للخيل، ومُدّ فيه على نفقة الخديوى الخاصة مقصف للمدعوين، كما أقيم مرقص فى قصر الجزيرة دُعى إليه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف من الأجانب وأعيان البلاد ووجهائها، وأضيئت الطرق من عابدين إلى الجزيرة بفوانيس من الورق الملون.

جهاز العرائس

وقد بلغ شوار العرائس من الفخامة مبلغا تجلت فيه نزعة اسماعيل فى الشغف



الاميـرة امينة الهـامي زوجـة الخـديو توفـيق الملقـبـة بأم المحسنين



الاميره عين الحياة التي زفت الى السلطان حسين كـامل فى افـراح الانجـال

بالترف والإسراف والبذخ فكان جهاز كل عروس منسقا في ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالي للعرض على الأنظار وهو يتكون من أنواع الحلي المختلفة الأشكال، المرصعة بالجواهر والماس، هذا عدا الأواني الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بزخرفتها الذهبية المحلاة بالجوهر، وفصوص الماس والياقوت.

وكان كل جهاز من الجهازات الأربعة يطاف به في أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسة الجند الراكب تتقدمها فرقة موسيقية لإرسالها إلى سراى العروس، وكانت الشوارع التي يمر بها تزدحم بجماهير الناس، وكذلك كانت شرفات المنازل والفنادق تغص بالمتفرجين الذين يهللون ويكبرون ويدعون للخديوى وأنجاله بدوام العز والبقاء.

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل أمثال «إلياس الأيوبى»، و«أمين سامى» في الحديث عن شوار العرائس وخط سيره فذكر صاحب تقويم النيل أن أول من خرج من شوار العرائس كان شوار الأميرة «أمينة هانم» زوجة الأمير «محمد توفيق»، حيث انتقل إلى قصر القبة حيث يقيم العريس فسارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة في موكب عسكرى تتقدمه جوقة موسيقية، وكان يتبع هؤلاء عربات المدعوين، وكانت العروس تركب عجله التشريفة الكبرى يجرها ثمانية من الخيول البيضاء، وكانت الهدايا موضوعة في أسبته مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة

المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة جنود فى كل عربة، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية، والسيوف مشهرة فى أيديهم، وكان من بين الهدايا هدية الخديوى إسماعيل لابنه توفيق وهى عبارة عن سرير من الفضة الصب الخالصة شبيه بالذى أهداه إلى الامبراطورة الفرنسية «أوجينى» زوجة نابليون الثالث أثناء إقامتها بمصر وكان محلى بماء الذهب، وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر، والزمرد والفيروز.

وقد تبع هذا الموكب مواكب مشابهة تحمل شوار الأميرات «عين الحياة»، و«خديجة»، و«فاطمة»، والهدايا المهداة إليهن، والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل تم شراء جهاز الأميرات السابق ذكرهن من خارج البلاد أم من داخل مصر؟

الواقع أن الخديوى اسماعيل كان يفضل الشراء من المتاجر المصرية بدلا من الأجنبية، فعلى الرغم من رسو العطاء على محل «باسكال» الفرنسى، فقد رأى اسماعيل أن يتم الشراء من المحلات المصرية بقوله إذا كانت المحلات والمتاجر المصرية لا تنتفع من أفراح أولادى فمن أفراح من تستفيد؟

وعلى أى حال فقد تبارى الشعراء والكتاب فى تأليف المنظومات والأدوار الغنائية المختلفة، فألف «رفاعة الطهطاوى» رسالة أدبية سماها «الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة» وصف فيها تلك الأفراح التى لم تعرف مصر قبلها أو بعدها مثيلا، وقد بدأ رفاعة هذه الرسالة بمقدمة مدح فيها الخديوى اسماعيل وأثنى على طريقته فى تزويجه أولاده من بنات أعمامهم، ثم أخذ يثنى على كل أمير وزوجته خاتما ثناءه عليهما بأبيات تؤرخ هذا الزواج، فلكل زوج تهنئة باسمه، ولكل زوجة تهنئة أخرى باسمها كذلك.

كما وضع «اسماعيل صبرى باشا»، و«محمود سامى البارودى»، والشيخ «على الليثى»، والشيخ «عثمان الجندى»، والشيخ «محمد الدرويش»، وضعوا طائفة من أبدع الأغانى، كما تبارى رجال الموسيقى فى وضع المقطوعات الخاصه بهذه المناسبة، وكان فى مقدمة هؤلاء الموسيقيين وقتذاك «محمد ذاكر بك» الذى وضع «مارش أفراح الأنجال»، و«مارش أفراح القبة»، و«مارش الهوانم».

وكان من أشهر المطربين الذين اشتراكوا فى إحياء حفلات هذه الأفراح الشيخ «محمد عبد الرحيم» المشهور باسم المسلوب والشيخ «محمد الشلشمونى»، و«محمد عثمان»، و«أحمد صابر» و«عبده الحامولى»، و«يوسف المنيلاوى»، و«عبد الحى حلمى».

ومن أشهر العازفين «محمد العقاد»، و«محمد ابراهيم»، و«عبد الحميد



الاميرة خديجة زوجة الامير
حسن نجل الخديو اسماعيل

الامـــير حســن

القضايى».

ومن المطربات «ألماظ» و«الوردانيسه» و«نزهة».

وهكذا كانت أفراح أنجال الباشا بمثابة بانوراما فنية سهرت فيها القاهرة أربعين ليلة شبيهة بليالى ألف ليلة وليله التى أضحت أمامهم حقيقه لا خيال، خيّل للناس خلالها أن هذه الأفراح هى أفراح الأمة بأسرها، فقد غنّى الناس وزمروا وطبلوا فى هذه الافراح الذين اسبهواهم صخبها وضجيجها دون أن يدرك معظمهم أن ما ينفق فيها من أموال، وما يظهر من بذخ كان نتاج عرقهم وجهدهم، وأن ما حدث من سفه وابتذال بغير حساب هو من أموالهم وأقواتهم وأنه سيكون فى النهاية خطرا على مسار الدولة الاقتصادى الذى يمكن أن يساعد على إفلاسها. وحتى لو عرف بعض هؤلاء المصير المنتظر ماذا كان بيدهم أن يفعلوه مع حاكم شرقى لا يُسأل عما يفعل، فقد حدث مثل ذلك من قبل أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ بل وأكثر منه حيث كان الخديوى ينثر أموال الخزانة المصرية ذات اليمين وذات اليسار، ولم يستطع أحد أن يهمس ببنت شفة.

وهكذا كانت حياة الشعب المصرى يكتنفها البؤس والحرمان مقابل النعمة والثراء والترف التى يعيشها هؤلاء الذين جعلوا من حفلات زواج أنجالهم ومراسيمه معرضا للحفلات الأسطورية، ومصدرا للتفاخر والأبهة مما أدى إلى استنزاف أموال الدولة بلا طائل سوى مظاهر خادعه ساعدت على تعرض أبناء مصر للفاقة والحرمان. وإذا كان ترف «خمارويه» وتبذيره خلال زواج ابنته «قطر الندى» وتجهيزها ومراسم اسقالها إلى بغداد قد أدى بيبت مال مصر إلى الإفلاس فإن الحفلات التى تمت خلال أفراح أنجال اسماعيل باشا، والأموال التى صرفت من خلالها لاشك أنها أثرت على الخزانة المصرية التى كان مفتاحها فى جيب الباشا الخاص. ومع كل ذلك فإن هذه الأفراح قد بلغت من الشهرة ما جعلها تتناقل على ألسنة الناس جيلا بعد جيل.

حقيقة لقد كان عصرا اسماعيل عصر المتناقضات فقد جمع بين القوة والضعف، والنور والظلمة، والازدهار والانهيار، والهناء والشقاء، والخصب والجدب، والعز والمذلة، والعدالة والظلم، ولكنه فى النهاية كان العصر الذى فتح أبواب مصر على مصراعيها أمام طوفان رأس المال الأجنبى الذى تسبب فى نهاية الأمور إلى سيطرة الأجانب على شئون البلاد.

وانتهى أمر هذه الأفراح، ولم تبق من ذاكرها إلا لافتة صغيرة زرقاء أُلصقت على أحد جدران البيوت فى حى المنيرة، وكتبت عليها شارع «أفراح الأنجال». ■



الاميرة فاطمة اسماعيل التي زفت الى الامير طوسون

الامير طوسون

ذكريات من حياتى

لعبد العظيم أنيس

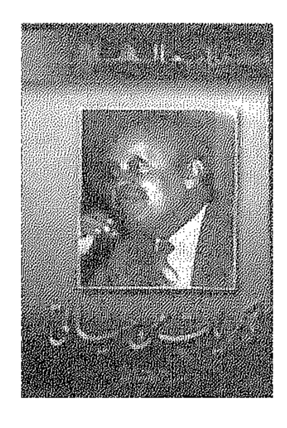
بقلم
د. جلال أمين

كان لدىّ أكثر من سبب للسرور عندما سمعت بظهور كتاب «ذكريات من حياتى» للدكتور عبدالعظيم أنيس (كتاب الهلال، يونيو ٢٠٠٢) . فها هو كتاب من كتب السيرة الذاتية التى تجد فى الكثير منها مزيجا من العام والخاص، الموضوعى والشخصى ، يضفى على المشاعر الخاصة مغزى وعمومية، ويكسى الأحداث العامة دما ولحما ويبث فيها الحياة. ينطبق هذا أحيانا حتى على تراجم بعض الأشخاص العاديين، فما بالك إذا كان الشخص مهما، وكان له وجود محسوس ومحمود فى حياتنا الثقافية لمدة تزيد على نصف قرن، مثل الدكتور عبدالعظيم أنيس ، رجل دخل السجن عدة مرات لأسباب تتعلق بالمبادىء السياسية، وخرج منه ليحتل مراكز مرموقة فى الجامعة أو فى رئاسة بعض الهيئات الثقافية المهمة فى مصر. كما دخل معارك ثقافية وسياسية كثيرة مع بعض من كبار شخصيات عصره، وعرف كثيرين من عظماء ومشاهير المصريين والعرب عن قرب.. فما أكثر ما لديه ليرويه لنا عن هؤلاء الأشخاص وعن تلك المعارك والأحداث.



ولكن لدىّ أسبابا أخرى كذلك للابتهاج بظهور كتاب عن حياة عبدالعظيم أنيس بقلمه. فأنا أعرفه ككاتب منذ مدة طويلة، أى منذ نشر كتابه «فى الثقافة المصرية» فى ١٩٥٥ بالاشتراك مع الأستاذ محمود أمين

العالم، ومنذ ذلك الحين لا يمكن أن أجد كتابا أو مقالا يحمل اسمه دون أن أقتنيه وأقرأه.. فهو واحد من الكتاب القليلين الذين لا يقولون إلا ما يعنونه حقيقة، وهو يصف الشيء كما يشعر به دون إضافة لا لزوم لها. ودون حذف لا لزوم له أيضا. ثم كان من حسن حظي أن تعرفت عليه شخصيا فإذا بي أجده يجمع بين عدة صفات ترفع كلها من شأن الكاتب وتزيد كتاباته جاذبية. من بينها أنه «حكاء» عظيم، أي يجيد رواية ما لديه من حكايات ، فيعرف كيف يثير اهتمامك بها ابتداء ويحتفظ بتشوقك إلى سماعها حتى ينتهي من روايتها. والأهم من ذلك أنه يعرف ما الذى يجدر به أن يحكيه وما يجدر به الامتناع عن الخوض فيه. فليس كل الحكايات تستحق الرواية، وإنما فقط الحكايات ذات المغزى.، وحكايات عبدالعظيم أنيس كلها ذات مغزى.





الصدق في التعبير

ثم قرأت الكتاب فلم يخب ظني فيه، بل تأكد لي كل ما قلته حالا. لم أشعر بالأسف إلا على شيء واحد، وهو أنه لسبب أو آخر، لم يكتب أكثر من ذلك.. إن غالبية فصول الكتاب سبق نشرها وكتبت في مناسبات مختلفة بقصد روايته حكاية بعينها، أو التعليق على حدث بعينه، دون أن يكون في ذهن الدكتور عبدالعظيم أن يصبح هذا المقال أو ذاك جزءا من «سيرة ذاتية» فلما طلب منه الناشر نشرها مجتمعة وافق على ذلك، وحسنا فعل. ولكنه لم يشعر بأن الأمر يستدعي إضافة فصول جديدة عن مراحل مهمة أخرى من حياته لم يكن قد كتب عنها. ربما لأنه شعر بأن هناك اعمالا أهم تستحق منه بذل جهده فيها، أو موضوعات أكثر إلحاحا تتطلب إدلاء الرأى بشأنها. ولكن هناك سببا آخر قد يكون هو الذى صرفه عن استكمال هذا النقص، وهو ما يعبر عنه في مقدمة هذا الكتاب بقوله: «هل حياتي تستحق أن يصدر عنها كتاب ؟.. فأنا لا أصدر كتابا شاملا عن حياتي وإنجازاتي بالمعنى الذى يقصده



الأوربيون تحت اسم (autobiography).. فمن أنا حتى أطمع في كتاب من هذا النوع؟».

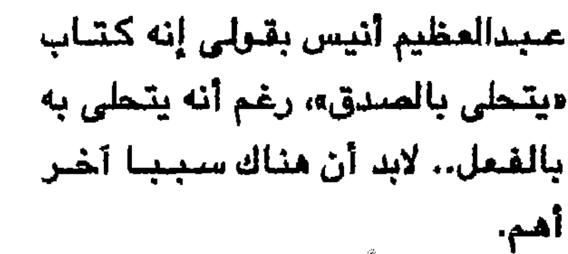
لاشك عندي في أن د. عبدالعظيم كان صادقا في التعبير عن شعوره في هذه الفقرة، يمكنني أن أصف هذا التصرف من جانبه «بالتواضع» فهو بالفعل كذلك ، ولكني بصراحة لا أميل قط إلى الثناء على أي شخص بالقول بأنه «متواضع» حتى لو كان متواضعا حقا.. ذلك أن التواضع كلمة تشير إلى سلوك الشخص ازاء الآخرين. ولكنها لا تصف ما يشعر به هذا الشخص في داخل نفسه. والشيئان ليسا دائما متطابقين ، فما أكثر من صادفت في حياتي من الأشخاص «المتواضعين» في سلوكهم إزاء الآخرين، والملوئين غرورا مع ذلك في داخل أنفسهم. هؤلاء قد يمكن وصفهم بالتواضع ولكني لا أتعاطف كثيرا معهم، إذ المهم هو ذلك الشعور الداخلي. وأنا أعرف جيدا أن عبدالعظيم أنيس، بالإضافة إلى تواضعه مع الآخرين، لا يشعر في داخله بما يتعارض مع ذلك. إذن فالوصف الملائم في هذه الحالة ليس هو التواضع بالضبط ، وإنما هو أقرب إلى وصف الشخص بأنه «لا يبالغ في الاعتقاد في قدر نفسه»، أو أنه «لا يبالغ في أخذ نفسه مأخذ الجد»، وهذه هي الصفة المحببة حقا، وهي محببة في أي شخص، ولكنها محببة ومطلوبة بوجه خاص في الكتّاب، وهي قطعا صفة متوفرة في عبدالعظيم أنيس وإن كانت قد حرمتنا للأسف من الحصول على سيرة ذاتية أكبر حجما من كتاب «ذكريات من حياتي».

ها هو ذا إذن سبب آخر للاحتفاء بكتاب «ذكريات من حياتي»، ولكني لا أشعر عندما أذكر هذا، بأني وضعت يدي بعد على أهم أسباب هذا الاحتفاء.

هل السبب هو «الصدق»؟ طبعا الكتاب صادق مائة بالمائة ولكن إلى أي حد يجوز لنا أن نمتدح كتابا، ولو كان من كتب السيرة الذاتية ، بقولنا إنه «يتحلى بالصدق»؟ إذ ما الذي ننتظره من الكاتب بالضبط؟ هل القاعدة العامة في الكتّاب أن يقولوا لنا كذبا محضا فنفرح كلما عثرنا استثناء على كاتب يلتزم الصدق؟ أليس الأجدر بنا أن نعكس الأمر ونفترض الصدق من الكاتب ونتوقعه منه فلانثني عليه إذا

وجدناه قد التزمه ولكن نلومه إذا حاد عنه؟ أظن أن هذا هو الأجدر والأليق. ومن ثم فإنني لن أثني على كتاب عبدالعظيم أنيس بقولي إنه كتاب «يتحلى بالصدق»، رغم أنه يتحلى به بالفعل.. لابد أن هناك سببا آخر أهم.





أسلوب ناجح تماما

هل هذا أسلوب الكتاب؟ أسلوب عبدالعظيم أنيس في هذا الكتاب مثل أسلوبه في كل ما قرأته: أسلوب سهل وواضح وسلس مثلما يجب أن نتوقع، فيما أظن، من أستاذ للرياضيات إذا كتب في شيء آخر غير موضوع تخصصه. الجمل قصيرة، والتكرار منعدم، والاستطراد قليل، والكلمات مألوفة، ولكن الكلمات المطلوبة لأداء المعنى المقصود متوفرة دائما في يد الكاتب لا يجد صعوبة في العثور عليها، فلا يلجأ إلى اللف والدوران للتعبير عما يجول بخاطره. كل هذا صحيح ، ولكن ليس هذا هو الذي يقصده القارئ العربي عادة عندما يصف أسلوب كاتب معين بأنه أسلوب جميل ، إنه قطعا ليس كأسلوب طه حسين، الذي يمكن وصفه دون تردد بأنه أسلوب جميل، بل ولا كأسلوب زكي نجيب محمود مثلا، الذي قد يصفه البعض بذلك. أسلوب عبدالعظيم أنيس أسلوب ناجح تماما لأنه يفي بالغرض ، ونجاحه يأتي من شفافيته، أي أنه كالزجاج النظيف الرائق الذي لا يحجب الرؤية. وما أكثر ما نصادف من كتّاب متخصصين في حجب الرؤية.. إن جمال أسلوب كاتب مثل طه حسين هو كجمال الزخرفة في الرسم، وليس كل الناس مغرمين بالزخرفة ولكنه على أي حال جمال منفصل إلى حد كبير عن موضوعه، أي أن تأثيره في نفس القارئ له مصدر مستقل عن الموضوع الذي يكتب فيه أو عن الأفكار التي يعبر عنها. ليس كذلك أسلوب عبدالعظيم أنيس. مهمة الأسلوب فيما يكتبه هو فقط كمهمة المركبة التي توصل المعنى إلى هدفه، بأسرع طريق وبأقل عناء وكاملا غير منقوص.. هل

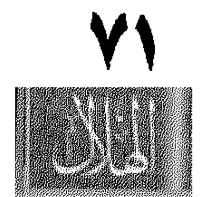
يوصف مثل هذا الأسلوب بالجمال؟ ربما. ولكنه بكل تأكيد أسلوب «رائق» وملائم تماما.

ما هو إذن السبب الأساسى للاحتفاء بكتاب عبدالعظيم أنيس؟ لقد شعرت بأنى وضعت يدى على هذا السبب الأساسى عندما خطر لى أن من أهم ما يميز الكتاب من أول صفحة إلى آخره هو «نبل المعنى» لكن هذا يحتاج إلى توضيح.

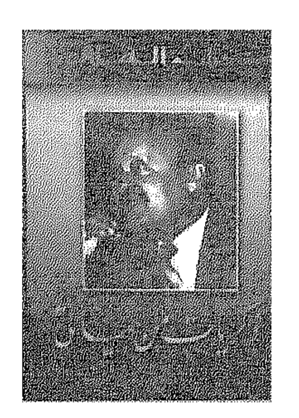
نبل المعنى

الكتاب يتكون ، عدا المقدمة، من ٢٢ فصلا ، تتراوح بين وصف نشأته وأسرته ، وبين ذكرياته عن دوره فى الحركة الوطنية منذ أن كان تلميذا فى المدرسة الثانوية ثم وهو معيد شاب فى كلية العلوم بجامعة الاسكندرية، ثم وهو أستاذ للرياضيات في جامعة لندن، ثم عندما كان يشتغل بالصحافة قبيل اعتقاله في ١٩٥٩. وهناك أيضا أربعة فصول جميلة عن سنوات الاعتقال والرسائل المتبادلة بينه وبين زوجته خلال تلك الفترة القاسية ويوم لقائهما عند خروجه من السجن.. إلخ.. وفي بعض الفصول الأخرى يركز على علاقته بشخصيات شهيرة بعينها، فهناك مثلا فصل عن علاقته بطه حسين، وفصل عن علاقته بإحسان عبدالقدوس، وآخر عن لقائه بجيفارا.. إلخ. فما الذى أقصده «بنبل المعنى» فى هذه الفصول كلها؟ الذى أقصده باختصار هو الطابع الإنسانى الذى تتركه رواية كل قصة من هذه القصص فى نفس القارئ. أن شخصا ما قد يقابل رجلا كطه حسين، على سبيل المثال، ويتبادل معه الحديث ، ثم يأتى ليصف لك هذا اللقاء، فلا تخرج من هذا الوصف إلا بمعنى «صغير» أو «تافه» يتعلق مثلا بأنه هذا الشخص طلب من طه حسين أن يحقق له رجاء فلم يستجب له فوصفه الرجل بأسوأ الأوصاف. (وهو مثال لا أستمده من خيالى بل من بعض السير الذاتية التى قرأتها لكتاب مرموقين).

أما عبدالعظيم أنيس فهو عندما يتكلم عن طه حسين ينقل فى صفحات قليلة صورة رائعة لذلك الرجل العظيم: صورة رجل قوى الشخصية، أو جبار كما كان يصفه من يعرفه ، يأمر فيطاع، ولا يستطيع أحد من عظماء البلد أن يرفض له طلبا. ولكن الأهم من ذلك هو انتصاره للحق، وجرأته فى الدفاع عنه، واستخدامه تلك القوة التى



حباه الله بها لنجدة المظلوم والدفاع عمن لا يملك وسيلة للدفاع عن حقوقه، ثم استعداد طه





رجلا من كبار رجالها ومفكريها فحسب، وإنما كنت أحس أننى فقدت إنسانا عزيزا على نفسى قريبا من قلبى ، على الرغم

حسين لأن يغفر الاساءات الصغيرة لمن تجرأ عليه من فرط ثقة طه حسين بنفسه، أى استعداده «للعفو عند المقدرة» ، وترفعه عن الرغبة فى الانتقام ممن أخطأ فى حقه. وهو بالإضافة إلى ذلك يتابع انتاج الشباب من الأدباء المصريين ويشجعهم ويحنو عليهم أيا كان موقفهم منه هو أو رأيهم فى أدبه، وكأن المهم ليس ما يصيبه هدفهم بل ما يمكن أن يعود على البلد من خير من انتاجهم بسبب هذه الصفات نجد عبدالعظيم أنيس يختم هذا الفصل عن طه حسين بالفقرة الآتية:

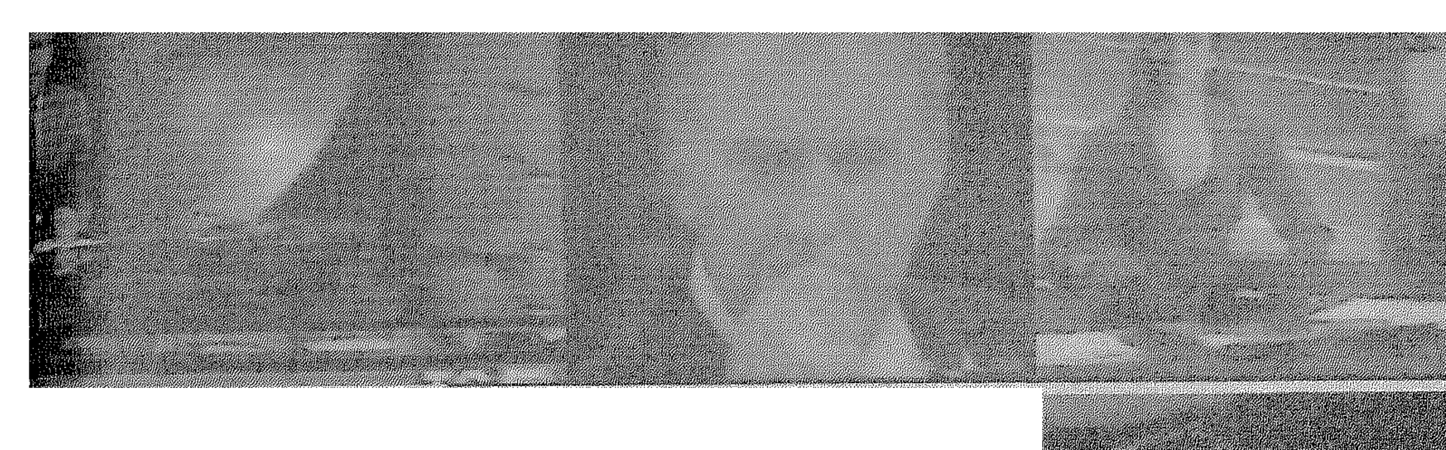
«ثم جاء النذير بالنبأ التعيس، نبأ وفاته فى اكتوبر عام ١٩٧٣. وأحسست بغم يقتل، وتملكتنى كآبة دامت أياما، وعندما مشيت فى جنازته التى خرجت من جامعة القاهرة لم أكن أحس أن مصر فقدت

من أننى لم أقابله غير مرات معدودة لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة، وعلى الرغم من خلافنا فى الفكر».

مثل هذا الترفع عن الصغائر، والتطرق مباشرة إلى المعنى النبيل، تجده أيضا فى فصول الكتاب عن إحسان عبدالقدوس وعن على مصطفى مشرفة عن ثروت عكاشة، وفى الفصل الخاص بموقفه من النظام الناصرى وموقف عبدالناصر منه. وكذلك فى الفصل الذى يصف فيه تجربته الشيقة جدا فى الترشيح لمجلس الأمة فى سنة ١٩٥٧، فى أول انتخابات تعقدها حكومة الثورة بعد انتهاء عدوان ١٩٥٦. فى هذا الفصل تجد مثلا ذكرا لبعض كبار المثقفين المصريين، مثل أحمد بهاء الدين ولويس عوض، الذين دفعهم حماسهم لانتخاب عبدالعظيم أنيس (ولتجربة الثورة نفسها) إلى الحضور إلى السرادق الذى أقامه فى

ميدان الوايلى والجلوس معه على المنصة أمام الآلاف من أهل الدائرة ومن خارجها، كما يذكر أيضا أنه لم يسع إلى الحصول على توقيع نجيب محفوظ على بيان المثقفين بتأييد انتخابه، إذ لم تكن ثمة علاقة شخصية بينهما، ومع ذلك يقول : «إننى عندما أزور بعض المنازل فى منطقة (بين الجناين) حيث كان يسكن هو «أى نجيب محفوظ» آنذاك، أفاجأ بمن يخبرنى من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابى».

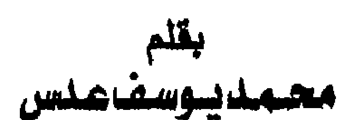
على الرغم من سرورى الشديد بظهور كتاب عبدالعظيم أنيس وتمتعى بقراءته . فقد ران على قلبى بعض الحزن بعد أن انتهيت منه. إذ لابد أن يؤدى التفكير فى هذا الكتاب بعد قراءته إلى التساؤل : «لماذا أصبحنا نفتقد فى حياتنا المعاصرة هذا الشىء الذى يميز هذا الكتاب ونسميته «نبل المعنى» ؟ ان هذا الافتقاد لا يقتصر على حياتنا الثقافية فى مصر، بل إننا نلحظه على مستوى العالم بأسره. تذهب إلى المسرح أو تشاهد فيلما سينمائيا أو تقرأ رواية حديثة أو قصة، أو ترى لوحة من لوحات الرسم الحديث وعملاق أعمال الفنون التشكيلية الأخرى، فتجد طغيانا مدهشا «للتكنيك» على «المعنى» ، أى طغيانا لفن الأداء على مضمون الرسالة أو المغزى. بل لقد شاع الاعتقاد بأن هذا المعنى أو المغزى ليس له أهمية كبيرة بل وربما لا ضرورة له أصلا إلى حد أن يضرب الصفح عن المعانى اللاأخلاقية أو الخفيرة، ناهيك عن المعانى الصغيرة، والتافهة إذا رؤى أن العمل ذو قيمة فنية عالية من حيث طريقة الأداء أو «التكنيك» وليس هذا المقال بالطبع هو مجال الخوض فى هذه القضية، أو التساؤل عن أسباب هذا التدهور فى أخلاقيات الحياة الثقافية ، وما إذا كانت التضحية بالمعنى. من أجل التكنيك أمرا مشروعا أم غير مشروع. ولكنى لا أملك إلا الشعور بأن شيئا ثمينا جدا قد فقد بهذا التنازل عن توفر شرط «نبل المعنى» فى كتاباتنا الأدبية وحياتنا الثقافية بوجه عام. ولهذا فنحن مدينون بشدة لهذا الصنف النادر من الرجال الذى ينتمى إليه عبدالعظيم أنيس، والذى يذكرنا بين الحين والآخر، بأنه ليس من الضرورى أبدا أن تستمر الأمور على هذا النحو. ■





الحيل الدرامية




بقلم
محمد يوسف عدس

يتوقع الناس أن تدور الحملات الانتخابية بين المرشحين لعضوية البرلمان والمناصب السياسية حول المشكلات الهامة والموضوعات الأساسية التى تؤثر على حياتهم ، ولكن لاحظ علماء النفس الاجتماعى والسياسى أن الخطاب السياسى الأمريكى فى العقود الأخيرة من القرن باهتمام الناخبين فشغلتهم عن القضايا الأهم - كما لاحظوا غلبة اللغة الانفعالية على هذا الخطاب وارتفاع شعارات معبأة بالعواطف السلبية..



خضعت هذه الظاهرة لدراسات وأبحاث اتضح منها أن هذه الأساليب الدعائية تختزل فهم الناخبين للقضايا المطروحة وتهبط بقدرتهم على التفكير فى المشكلات العامة إلى أدنى مستواها.

ولأن السياسة العامة تنطوى على قضايا ومشكلات معقدة وليست من النوع الذى ينفع فيه التناول السطحى أو التبسيط المخل، فقد وجد الباحثون أن الحملات الانتخابية التى يجيدها الغوغائيون أصبحت تأتى للسلطة بمرشحين يفتقدون الحكمة ولا يصلحون للحكم أو إدارة شئون البلاد.

للإعلامى الأمريكى «بل مويارز» سلسلة تليفزيونية مشهورة بعنوان «الصورة والحقيقية» قدم فى إحدى حلقاتها سيدة خبيرة تدعى «بولا دريلمان» تعمل فى مجال تطوير صناعة الحملات الإعلانية – تحدثت فى اللقاء على طريقتها فى التعرف على احتياجات الجمهور العاطفية لتوظيفها فى صياغة الإعلانات ، لهذا الغرض تنظم لقاءات مع مجموعات من النساء ثم توجه إليهن أسئلة معينة.. وتطلب منهن الإجابة عليها بسرعة وبطريقة عفوية – من هذه الأسئلة مثلا: ما الفكرة التى ترد إلى ذهنك إذا سألتك كيف تقييمن مهارتك فى صنع الطعام.

وما هو الأثر الذى تلاحظينه على الأسرة؟

تقول «بولا دريلمان»: «لاحظت أن إجابات النساء تدور حول عواطف الأطفال والأسرة.. وعن الصورة التى رسمتها كل واحدة منهن لنفسها كأم نموذجية .. وكيف ترتسم الابتسامات السعيدة على وجوه الأطفال عندما يعودون من المدرسة فيجدون الأم تعدلهم مفاجأة سارة فى الفرن الذى تنبعث منه رائحة طعام أشهى».

تأكيد الذات

كذلك اكتشفت «بولا دريلمان» من تحليلها لإجابات النساء أمراً

على جانب كبير من الأهمية وهو أن الأم تجد فرصة متاحة لاسترجاع خبراتها الطفولية الخاصة - من خلال تقمصها لانفعالات أطفالها، ولكن بعد تعديل هذه الخبرات وإعادة صياغتها بشكل أفضل، إذ تستبعد منها العناصر المؤلمة وتستبقي العناصر السارة.

وهكذا نرى أن المجموعات النسائية . موضع الدراسة كن يعبرن - ربما بدون وعي - عن حاجتهن العميقة لتأكيد الذات وللحب الذى افتقدنه فى طفولتهن الخاصة . فماذا استفاد خبراء الاعلانات المتلفزة من هذه الحقيقة النفسية ؟ :

لجأ هؤلاء الخبراء إلى حيلة خبيثة حيث قاموا بإدماج هذه الاحتياجات العاطفية فى نسيج الإعلان عن السلعة، فجعلوا من شراء خلطة معينة لـ «كيكة» رمزا لحب الأم لطفلها ومجلبة لسعادة الطفل وحبه، وبذلك تتحول خلطة الفطيرة وسيلة تؤكد بها الأم لنفسها أنها محبوبة . ومن ثم تقبل على شرائها لا لأنها تتميز بشئ يتصل بقيمتها الغذائية (فقد تكون عديمه القيمة) .. ولكن تشتريها تحت تأثير الإعلان التليفزيونى وإغرائه الواعد بجائزة عاطفية .

بناء على هذا ترى «بولا دريلمان» أن التحدى الذى يواجه خبراء الإعلان هو أسلوب المزج بين المعلومة الإعلانية عن السلعة وبين الصورة العاطفية الأكثر إثارة، وذلك بطريقة مقبولة عند المستهلك، بحيث لا يتنبه إلى الحقيقة الخفية وهى أن الإعلان لا يحمل إليه رسالة واحدة عن المنتج بل رسالتين: تحمل أولاهما بعض معلومات عن السلعة قد تكون مبالغا فيها أو زائفة، وتحمل الثانية الصورة المصاحبة المثيرة للعاطفة وهى الأكثر أهمية فى الإعلان.

يستخدم خبراء الإعلانات السياسية نفس هذه الحيل والأساليب ولكن فى مجال الانتخابات العامة، ولكى ندرك مدى خطورة هذا النوع من الخطاب السياسى الذى يعتمد على الحيل المثيرة بدلا من الحقائق نحتاج إلى استعراض بعض الدراسات الأمريكية التى أجريت فى هذا المجال.

مسرحة الأخبار

فى كتابه «الأخبار: سياسة الوهم» يحلل «لانس بنيت» خصائص الأخبار التليفزيونية مركزاً على الطريقة التى يتم بها «مسرحة» الأخبار أو بمعنى آخر صياغتها صياغة درامية حيث يتم تفكيكها والتلاعب بأجزائها تقديما وتأخيراً.. إضافة وحذفا.. وربط الخبر دائما بشخصية معينة هدفها التأثير على مشاعر



المشاهدين وعواطفهم ودفعهم لاتخاذ مواقف مقصودة.

لاحظ «لانس بنيت» مثلا أثناء حرب الخليج الثانية أن آليات الدراما في عرض الأخبار كانت تستخدم بأعلى درجة من الاتقان المسرحي:

فهناك مقدمة وموسيقى.. وهناك الحبكة الدرامية والأسلوب والمنطق الداخلي لتتابع الأحداث وتشابكها، كل ذلك كان موضع إثارة بالغة عند المشاهدين، فقد رأينا صورا مذهلة لصواريخ .. باتريوت وهي تنطلق ثم رأيناها تعترض صواريخ إسكود العراقية فتدمرها في الجو .. ورأينا القذائف الذكية التي تبحث أوتوماتيكيا عن أهدافها فتدق عليها الأبواب بإحكام.. ورأينا لوحات ورسوم تستخدم تشرح المناورات العسكرية، كل هذه الحيل المسرحية كانت تأخذ بألباب المشاهدين.. وفي قلب هذه الدراما تظهر شخصيات الأبطال الخيرين والخصوم الأشرار.. يقول «لانس بنيت»:

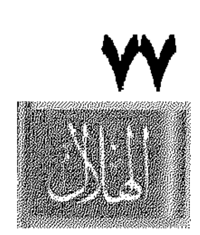
«وبالطبع كانت قواتنا في الجبهة تلعب دور الأبطال بينما صدام حسين يتلبس دور الشرير اللئيم».

المهم أنه في خضم تدفق الأخبار الدرامية المصنوعة وأثناء إنبهارنا بالحيل وألاعيب التكنولوجيا الأمريكية الأخاذة كانت القنابل الذكية تخترق الجدران الخرسانية وتنفجر داخل الملاجيء المحصنة لتقتل آلاف المدنيين من النساء والأطفال العراقيين.

ولكن هذه الإخبارية ، فإذا أكتشف أمرها بطريقة أو بأخرى كان الإنكار التام هو رد الفعل الأول فإذا ظهرت أدلة قيل في تبريرها: لابد في الحروب من بعض الضحايا المدنيين، أو لابد من الأخطاء الطفيفة في التصويب لا تستحق الذكر، وفي بعض الحالات كان اللوم يوجه إلى الضحية فيقال: إنه خطأ «العدو» الذي يحتفظ بأهدافه العسكرية في وسط المدنيين. سمعنا هذه المبررات الكاذبة من كبار مجرمي الحرب من أمثال ميلوسفيتش وكاراجيتش وشارون وسمعناها من رامسفيلد.

إثارة عواطف الجماهير

ننتقل إلى نقطة بالغة الأهمية في سيناريو الأخبار ومسرحتها حتى قبل نشوب الحرب.. والهدف هنا هو إثارة عواطف الجماهير وتعبئتهم بالغضب واكتساب تأييدهم للتدخل العسكري.

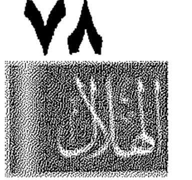


يقول: «لانس بنيت» قبل أن تبدأ معارك الخليج لم يكتف البيت الأبيض بترك أعمال صدام حسين تتحدث عن نفسها وإنما أراد أن يرسخ فى عقول الأمريكيين وغيرهم أن صدام حسين هو هتلر الثاني، وهنا جاء دور الكويت لاستكمال الصورة الدرامية المطلوبة حيث لجأت إلى مؤسسة «هل» ونولتون للعلاقات العام فدفعت لها نيابة عن الحكومة الأمريكية إحدى عشر ونصف مليون دولار لإنتاج برنامج إعلامى يثير الشعب الأمريكى ويحفزه على مزيد من المساندة والدعم للتدخل العسكرى من أجل تحرير الكويت.

وبعد البحث والدراسة وجدت المؤسسة أن صورة هتلر هى أكثر الصور المثيرة للرعب والكراهية ، ومن ثم بدأ رجال البيت الأبيض وأبواق الصحافة يتوسعون في استخدام المقارنة بين صدام حسين وهتلر فوجدوا تماثلا بينهما حتى الشوارب كانت واحدة!.

وهكذا بين يوم وليلة أصبح صدام حسين بشخص هتلر الجديد الذى يهدد العالم بالدمار الشامل.

وفى هذا السياق الدرامى جاءت الصورة الحية المفعمة بالبراءة متمثلة فى فتاة كويتية اسمها «نيرة»، لتقدم شهادتها أمام لجنة من أعضاء الكونجرس ، فادعت أنها شاهدت أحداثاجرت أمام عينها عندما اقتحمت القوات العراقية مستشفى كويتيا فنزعت المواليد الرضع من الحضانات الصناعية وألقت بهم على الأرض ليموتوا .. كانت «نيرة».. تحمل معها تقارير عن حالات موثقة لهؤلاء المواليد بلغت ٣١٢ حالة سلمتها إلى اللجنة



هذه الحكاية بتفاصيلها الدرامية وردت فى مقالة لأحد الباحثين اسمه «أ. و. راوز» A.W. Rowse نشرتها له مجلة Lolomlia Jowrmalism Revie-ot في عدد سبتمبر – أكتوبر سنة ١٩٩٢م.

يقول راوز معلقا: «لقد اتضح فيما بعد أن هذه الصور الدرامية المفزعة التى أحدثت ثورة بين الجماهير الأمريكية ضد العراق لم يكن لها أى أساس من الصحة بل كانت مزيفة، وقد اهتمت مجموعة من الصحفيين الأمريكيين الذين تشككوا فى صحة القصة التى روتها «نيرة» فذهبوا يبحثون عن الحقيقة حتى عرفوا أن هذه القناة التى قدمت التقارير كانت إبنة سفير الكويت فى واشنطن، وأنها اضطرت إلى التراجع عن شهادتها إذ قالت أنها شاهدت رضيعا واحدا

أخرج من حضانته.. وبعد انتهاء الحرب لم يتابع الصحفيون التحقيق فى القصة أكثر مما فعلوا.. ولكن الصورة الدرامية المتأججة للعراقيين قاتلى الأطفال الرضع قد أصبحت شائعة، وبالتأكيد قامت بدورها السحرى المطلوب فى دعم الجماهير الأمريكية للتدخل العسكرى فى الخليج.

الإرهاب فى المحتوى الدرامى للأخبار

كثير من الأبحاث التى أجريت على المحتوى الدرامى للأخبار المتلفزة، أو بمعنى آخر الصياغة المسرحية للأخبار، أظهرت أن هذه العملية تؤدى إلى تبسيط المشكلات المطروحة وتسطيحها فى عقول المشاهدين . تشهد بذلك الدراسة التى قام بها أحد علماء النفس الاجتماعى مع فريق من زملائه هو «مايكل ملبورن» .

نشرت بمجلة علم النفس السياسى سنة ١٩٩٢ تحت عنوان : «العرض الدرامى للأخبار وأثره على الإدراك»، ثم عمقها بدراسة أخرى مع فريقه اشتملت على مقابلات مكثفة مع عدد كبير من الناس فى «ماسا شوسيتس»، أتضح منها أن أكثر الموضوعات التى تحظى بإقبال المشاهدين هى الموضوعات الأقل تعقيدا فى تفسير ظاهرة الإرهاب، وأن أبسط تفسير مقبول عند هؤلاء الناس هو أن الإرهاب مجرد إفراز طبيعى لشخصية الإرهاب نفسه .. مثلا: جميع الإرهابيين مجانين»..

كذلك وجد الباحثون أن جزءا من المشكلة الإعلامية التى تؤدى إلى هذا الفهم السطحى لظاهرة الإرهاب أن الأخبار المتلفزة لا تقدم عادة أى خلفية تاريخية ولا تتعرض للسياق الواقعى الذى تجرى فيه هذه الأعمال العنيفة بحيث يمكن للمشاهد أن يفهم الأسباب أو البواعث التى دعت إليه فقد يكون هناك ظلم واقع أو يأس من تحقيق العدل المفقود.

إنطلاقا من هذه الحقيقة يمكن القول بأن المشاهدين وهم على هذا الحال فى الضلال والسطحية يمكن أن يقبلوا أى تفسير ساذج أو ملفق لمثل هذه الأعمال التى توصف بأنها إرهابية، بل يمكن للمتلاعبين بالعقول أن ينتقلوا التهمة من جهة إلى جهة أخرى دون تقديم أى أدلة على الاتهام ودون إلتزام بمنطق .

ولعلنا نتذكر أن تهمة إسقاط طائرة لوكربى وجهت فى أول الأمر إلى إيران

وقيل فى تبرير ذلك إنه كان انتقاما لإسقاط الطائرة المدنية الإيرانية بواسطة قوات البحرية الأمريكية فى الخليج.. ثم نقلت التهمة إلى سوريا ثم أتهم الفلسطينيون بالجريمة .. حتى استقرت أخيراً على ليبيا.. وقبل التحقيق والمحاكمات وثبوت التهمة بالأدلة قامت أمريكا بقصف منزل العقيد القذافى وفرض الحصار الاقتصادى على ليبيا.. وتجرى الآن عملية ابتزاز كبرى لإجبار ليبيا على دفع تعويضات تصل إلى عشرة مليارات جنيه استرلينى لأسر الضحايا.

تهمة بن لادن

ويتكرر التسطيح والتلفيق مرة أخرى فى حادثة الهجوم على مركز التجارة الدولى بنيويورك وعلى البنتاجون فى واشنطون يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

فبدون تحقيق ولا أدلة أيضا تم تثبيت التهمة على بن لادن و«الاقعدة».. وقد عبر الرئيس بوش الابن عن هذا التسطيح عندما نسب الحادثة إلى كراهية أولئك الأشرار المسلمين للديمقراطية والحضارة وحقدهم على الرفاهية التى يتمتع بها الشعب الأمريكى. وأغفل تماما الظلم الواقع على الشعب العربى فى فلسطين والمساندة الأمريكية المستمرة لإسرائيل فى احتلالها للأراضى الفلسطينية وفى عملياتها الإجرامية المتواصلة ضد الفلسطينيين.

الدراما والميلودراما

فى دراسة مقارنة قام بها الكاتب المسرحى «برتولت بريخت» (سنة ١٩٥٧) بين المسرح الدرامى والمسرح الملحمى.. يحدد ثلاثة خصائص للدراما يرى أنها الأكثر تأثيرا فى انجذاب الجمهور:

أولها: أن الدراما تزود المشاهد بالمشاعر والإثارة.

ثانيها: أنها تتيح للمشاهد الانخراط فى التجربة الدرامية عن طريق المشاركة العاطفية.

ثالثها: أنها تؤكد على الأحاسيس والمشاعر أكثر من تأكيدها على العقل والتفكير.

ويلاحظ «فاجنر باسفيتش» أن التليفزيون الأمريكى لا يتوقف عند حدود الدراما بل يتخطاها ليغرق فيما يسمى بالميلودراما.

وهنا نجد أن المشاعر المستثارة مشاعر سطحية بسيطة ومزيفة، فالشخصيات المسرحية فى الميلودراما أحادية البعد، البطل يمثل الخير المطلق

أما الخصم فنذل يمثل الشر المحض، وإذا كان هذا هو الحال فلا يوجد فى الميلودراما سوى حل واحد هو أنتصار البطل والقضاء على النذل الشرير وليس لدى المشاهد سوى اختيار واحد وهو أن يصفق للبطل ويلعن الخصم الشرير.

هذا الانتصار عادة ما يستبعد فكرة الحل الوسط تماما كأن يعود العدو أو الخصم إلى الحق فيندم أو يعلن التوبة أو تحدث له يقظة ضمير، وهذه كلها مشاعر إنسانية وواقعية ولكنها مستبعدة كلية من الميلودراما الأمريكية ، فقدر العدو أنه شرير لا ينفك عن شره أبدا ولا علاج له سوى الإبادة والمحو التام.

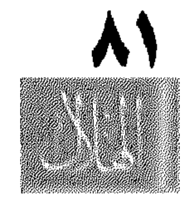
حكمة عقلانية

أزعم أن هذا النموذج الميلودرامى فى الثقافة الأمريكية يتضح لنا بجلاء فى السياسة الأمريكية الحالية وفى الحرب التى تشنها الآن ضد ما تسميه الإرهاب، على سبيل المثال يردد الناس عندنا فى مجالس فكاهاتهم الحكمة القائلة: «إذا كان عدوك نملة فلا تنم له» وهى حكمة عقلانية تدعو إلى اليقظة وعدم الاستهانة بالعدو مهما كان صغيراً، أما الأمريكيون فلا يتورعون عن ضرب النملة فى أفغانستان بقنبلة نووية!

من الخصائص المشتركة بين الدراما والميلودراما أنهما يعتمدان على أسطورة ما تبطن الأحداث ويقوم عليها البناء الدرامى.

وقد استخدم الخبراء هذه الآلية فى تقديم الأخبار على نطاق واسع.. ومنطقهم هو أنك لكى تجتذب أكبر جمهور من المشاهدين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم لابد أن تلجأ إلى اصطناع اسطورة معينة يمكن أن ينتمى إليها أكبر عدد من الناس ويفهمونها.

وقد أشرنا إلى أسطورة «هتلر الثانى» التى استخدمت فى الحرب الأمريكية على العراق.. وحديثا يطلقون أسطورة جديدة يسمونها «مثلث الشر»، والشرير الأكبر بن لادن و«القايدة» أو (شبكة الإرهاب العالمى) التى لا يعرف اليوم أحد إذا كانت على الأرض أو فى كوكب آخر، هذه «القايدة» العجيبة تفرز نوعا من الفيروسات القاتلة تنتقل بقدرة غير مفهومة علميا إلى كل مكان فى الدنيا ، وقد علمنا فى الأخبار الأمريكية أن هذا الفيروس قد أصاب تسعة وسبعين دولة تستوعب كل البلاد المسلمة، وكل جماعات المقاومة الإسلامية فى العالم بصفة خاصة، على رأسها قوى المقاومة الوطنية فى لبنان وفلسطين لأنها موجهة ضد القاعدة الأمريكية الإسرائيلية فى قلب الأمة العربية. ■



التعامل الإسلامى

مع واقع العولمة

بقلم
د. محمد عمارة

إن عظم المخاطر، وشراسة التحديات - التى تواجهنا بها العولمة - لا تعنى أن الصورة قاتمة، ولا أننا أمام طريق مسدود .. ونقطة البداية - فى مخاطر العولمة .. ومواجهتها والتعامل معها - هى أن تعى قوى اليقظة والأصالة الوطنية والقومية والإسلامية - فى عالم الإسلام حقائق الموقف، دونما تهوين ولا تهويل، وأن تحدد نقاط قوتها، والفرص المتاحة أمامها فى مواجهة هذه التحديات .. أى أن تعى حقائق وقوى وتضاريس الموقف الداخلى والخارجى على السواء. فالغرب، الذى تأتى منه أعاصير العولمة ليس كتلة واحدة مصمتة ولا صماء .. وإنما يجب أن نميز فيه بين «الإنسان» الغربى ... و«العلم» الغربى .. و«المشروع» الغربى .. فالإنسان الغربى لامشكلة لنا معه، بل قد يكون هذا الإنسان ضحية «لصناعة الصورة» فى مارد الإعلام المتحيز ضد قضايانا العادلة ومن ثم فهو بالنسبة لقضايانا يمثل إمكانية صداقة ومعاونة .. بل إن هذا الإنسان يفتح عقله وقلبه حتى إسلامنا إذا نحن أحسنا خطابه وعرضنا عليه بضاعتنا بمنطق العقل والعدل والمصلحة .. وفى قضية العولمة قد يكتشف هذا الإنسان الغربى أنه هو نفسه - معنا - ضحية لمخاطر التوحش الرأسمالى الذى تهددنا عولمته !.

وكذلك العلم الغربي.. ليست بيننا وبينه مشكلة.. بل إنه - بالنسبة لنا - هو الحكمة المنشودة، التى هى ضالتنا، والتى يجب أن نسعي اليها أنى وجدناها، فنحن الأحق بها .. فهو سلاح من أمضى أسلحة قوتنا ، التي بدونها لن نستطيع مواجهة ما يتهددنا من مخاطر وتحديات ..

أما مشكلتنا مع العولمة الغربية فهى مع «المشروع الغربى» والأمريكى بالدرجة الأولى، و«قفازه» الصهيونى على أرض فلسطين .. فعلينا أن نميز بين غرب وغرب، وأن نستعين على «المشروع» الغربي- وبالذات جوانبه المعادية - بما فى الغرب من إمكانات وطاقات يمكن الاستفادة منها، والاستعانة بها، أو على الأقل «تحييدها »، ولنتذكر تلك السنة الحميدة لمشروعاتنا النهضوية وحركات تحررنا الوطني- إبان الاستعمار التقليدى- عندما كانت قوانا الحية والقائدة تتحالف مع قوى العدل والحرية فى الغرب، أو تحسن الاستفادة من التناقضات الغربية.. صنع ذلك محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ - ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) وتنظيم «العروة الوثقى» ومصطفى كامل باشا (١٢٩١- ١٣٢٦م هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) وحزبه الوطني .. وكذلك كل العقلاء عندما يخوضون المواجهات مع التحديات.. ولقد كانت لنا تجربة فى مواجهة عولمة القيم، عندما تحالفنا مع الكنيسة الكاثوليكية ضد سلبيات وثيقة مؤتمر السكان والتنمية سنة ١٩٩٤م... وعندما وجدنا أنفسنا في خندق واحد مع مئات منظمات المجتمع المدنى الغربية ضد العولمة ومنظمة التجارة العالمية فى مدينة «سياتل» - الأمريكية -- فى نوفمبر ١٩٩٩م تلك المنظمات التى هتفت مظاهراتها: نريد تجارة عادلة، لاجائزة ! فكانت عونا لمندوبى دول الجنوب ومؤتمر «سياتل» وسيبا حال بين قوى العولمة وبين تحقيق ما تريد .



محمد على باشا

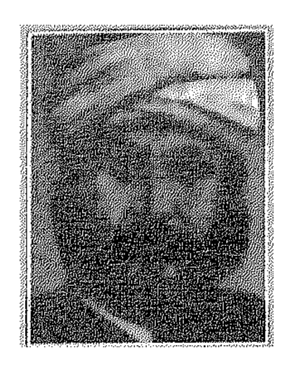
كذلك على قوى اليقظة والأصالة فى عالم الإسلام، أن تميز فى مكونات ظاهرة العولمة بين التقنيات التى تحول العالم إلى قرية واحدة، والتى هى بالنسبة لنا «فرصة متاحة» للتطور والتقدم والتعلم، إذا نحن أحسنا استخدامها وتوظيفها وحملناها بالمضامين المتسقة مع هويتنا وقيمنا الإسلامية.. علينا أن نميز بين هذه التقنيات وبين العولمة كأيديولوجية تشرع وتبرر وتكرس لهيمنة الغرب والشمال على العالم بأسره وأيضا، أن نميز بين هذه التقنيات وبين المصالح الغربية غير المشروعة، التى تسعى إليها شركات الغرب العابرة للقارات من وراء العولمة.. إن تحول العالم بتقنيات ثورة الاتصال، إلى قرية عالمية، هو حقيقة وواقع .. ولكن أيديولوجية هيمنة العولمة العربية لاتجعل بيوت هذه القرية وسكانها سواء، لأن ايديولوجية العولمة تريد السيادة «سلتوازن القوى» - وهو مختل خللا فاحشا - بدلا من «توازن المصالح» والثقافات والحضارات، الذى يحقق «العالمية الإنسانية» بدلا من «العولمة الغربية» فنحن نريد «القرية العالمية» التى يسودها هذا التوازن فى المصالح والتفاعل فى الثقافات ونرفض «القرية المعولمة» التى فيها القاتل والمقتول، ومن تنزع سيادته عن أرض وطنه، ومن ينزع هذه السيادة من أصحابها، ومن يحرم من حقه الفطرى فى تقرير المصير ومن يقرر مصائر الآخرين، ومن يحمى - بالقوة - طغيان الاحتكارات الراسمالية العالمية على حساب الحمايات الوطنية لاقتصادات الدول النامية .. فموقفنا يجب أن يكون ضد «القرية المعولمة» ومع «القرية العالمية» إننا لسنا ضد التقنيات التى تفتح الحدود وتزيل السدود، ولكننا نريد استخدام هذه التقنيات لفتح الحدود بين دول عالم الإسلام، لا أن يكون الفتح فقط لحدود كل بلد مسلم مع مركز الهيمنة الغربية.. فالتقنيات التى تفتح الحدود - رأسيا - مع الشمال، يمكن ويجب أن تفتح حدودنا - أفقيا - مع دول الجوار الإسلامى، لتحصيل العافية التى تمكننا من تحمل رياح الشمال !..

وكذلك الحال بين عالم الإسلام ودول وحضارات الجنوب فتساند دائرتنا الحضارية مع هذه الحضارات هو جزء من ترتيب الإمكانات لتحقيق شروط التوازن فى هذه المواجهات. كذلك على قوى اليقظة والأصالة - الوطنية والقومية والإسلامية- أن تكشف زيف التغريب الفكرى فى بلادنا ذلك الذى رحبت رموزه بالعولمة ، باعتبارها «واقعا .. وقطارا .. ركوبه قضاء وقدر».. والامتناع عن اللحاق به سيؤدى



بالرافضين والمترددين إلى مصير الهنود الحمر.. هؤلاء الذى زعموا « أن الحداثة الغربية عموما، والعولمة المعاصرة خوصوصا، وما افرزته من ثقافة .. فى طريقها ، إلى أن تصبح ثقافة عالمية أو كونية شاملة بكل ما فى الكلمة من معنى فلا شئ قادر على الوقوف فى طريقها ولن تستطيع الثقافات التقليدية أن تصنع شيئا أما ثقافة العولمة، أحببنا ذلك أو كرهنا، وافقنا أو رفضنا» (١) ..

علينا أن نكشف زيف هذا «المنطق» التغريبي، بالتمييز بين «الواقع» وبين التسليم بهذا الواقع».. فالعولمة كطور جديد فى واقع وعلاقة النظام الغربى وخاصة الأمريكى بالعالم- هى حقيقة لاينكرها إلا واهم ولكن المطلوب هو «التعامل» مع هذا الواقع وليس «التسليم والقبول» بهذا الواقع.


جمال الدين الافغانى

لقد جاء على عالمنا الإسلامى حين من الدهر عمته بلوى الاستعمار الأوربى الحديث .. ومن قبل واقع هذا الاستعمار الحديث، عاش عالمنا الإسلامى واقع الغزوة الصليبية التى دامت - هى الأخرى - قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) .. وإبان ذلك واجهت امتنا واقع الاحتلال العسكرى والنهب الاقتصادى والاستعمار الاستيطانى .. وفى مفردات ذلك الواقع تحولت القدس إلى مدينة لاتينية صليبية والمسجد الأقصى إلى كنيسة.. والأزهر إلى اصطبل لخيل «بونابرت» .. والجزائر إلى قطعة من فرنسا.. الخ . لكن الأمة تعاملت مع هذا «الواقع» حتى غيرته، ولم تقبل بذلك الواقع أو تلحق به أو تندمج فيه فالاعتراف بالواقع شئ والقبول به شئ آخر وتلك حقيقة يجب أن نكشف بها زيف التغريب الفكرى الذى جعل نفرا من مثقفينا أشد حماسا للعولمة الغربية، ولتحرير التجارة العالمية من جماهير غربية تظاهرت - فى «سياتل» و«ديفوس» ١٩٩٩ م. و«بانكوك» سنة ٢٠٠٠م - ضد هذه العولمة واصفة اياها بالإمبريالية الجديدة» !

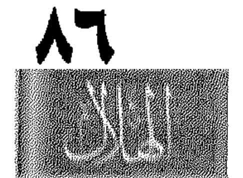
كما لابد من كشف العمالة الحضارة للذين لم «ينبهروا» بالعولمة فقط، وانما رحبوا بها باعتبارها الاجتياح للقيم والثقافة الإسلامية التى يكرهون !..

كذلك علينا أن نبرز ونثمن ونعظم وعى كثير من حكوماتنا ونظمنا وطبقاتنا الاجتماعية بمخاطر العولمة وسعيها إلى ترتيب البيت الإسلامى فى مواجهة تحدياتها.. وأن نميز بين مواقف «صانع القرار» ويده فى النار - وبين شرائح التغريب الثقافى، المحسوبة أحيانا على صانع القرار!.. ففى الوقت الذى كان نفر من شواذ المثقفين فى مصر يحتفلون مع فرنسا بمرور مائتى عام على غزوها - بقيادة «بونابرت» - لمصر والشرق - أى يحتفلون «بالاحتلال» بدلا من الاستقلال - كانت الحكومة المصرية تتململ، شاكية من العولمة، التى جعلت أوربا ، وفى المقدمة منها فرنسا، ترفع على مصر دعوى إغراق الأسواق الأوربية بالسلع المصرية.. الأمر الذى أفضى إلى خسارة مصر ٤١٪ من تجارتها مع أوربا.. فى حين أن واقع أرقام التجارة كان يقول: إن مصر قد صدرت إلى فرنسا بـ ٤٠ مليون دولار، واستوردت منها بـ ٧ مليارات!! »

ولقد كان خطاب مصر الدولة فى مؤتمر «ديفوس» ١٩٩٨م دعوة لموقف موحد ضد مخاطر العولمة، لا على اقتصادات الجنوب النامية وحدها، وإنما على اقتصادات الدول «المتقدمة»، فى المدى الطويل، ذلك أن إفقار دول الجنوب - وفيها ٨٠٪ من سكان العالم - معناه انعدام القوة الشرائية لسلع ومنتجات هذه الدول «المتقدمة»، وتحول رأس المال الحالى إلى المضاربات، بدلا من الإنتاج، لن تقف كوارثه وزلازله عند الدول النامية وحدها لأن عولمة الاقتصاد ستجعل الكوارث عالمية أيضا!.

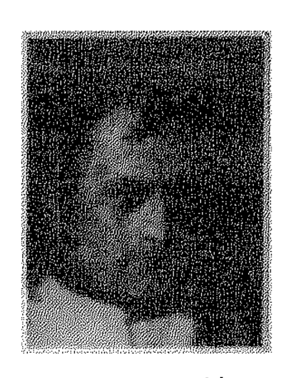
ولقد تجلى هذا الوعى بمخاطر العولمة الاقتصادية فى السعى الحثيث - رغم المعوقات الخارجية والداخلية - لترتيب البيت العربى والإسلامى، بالتكامل الاقتصادى، والمناطق الحرة، والسوق المشتركة.. وشهدت السنوات الأخيرة المساعى لإقامة العلاقات والتكامل والتساند بين الدول الثمانى - الإسلامية - والدول الـ ١٥ ... والكومسا - العربية الإفريقية - الخ..

كذلك وعت التجارب التنموية الآسيوية - وخاصة التجربة الماليزية - دور العولمة .. ورأس المال الحالى. «بتياراته الساخنة الهائمة فى البورصات



والمضاربات» فى إجهاض هذه التجارب التنموية ، وتخريب ثمرات المعاناة التى بذلتها شعوب تلك البلاد فى سبيل التقدم والنهوض والرخاء.

ووعت أفريقيا مخاطر العولمة، فجاء «إعلان الجزائر»، الصادر عن قمة منظمة الوحدة الإفريقية - فى ١٤ - ٧ - ١٩٩٩م ليحدد المخاطر الخمسة التى تواجه القارة، وعالم الجنوب، فإذا بالعولمة هى الخطر الأول ومعه: تهميش الأمم المتحدة - وهو من آثار العولمة - ونزع السلاح النووى والإرهاب والجريمة المنظمة - وانحسار آفاق التنمية للدول النامية في ظل الاقتصاد العالمى - وهو أيضا من آثار العولمة.



نابليون

فهذا الوعي بمخاطر العولمة، عند «صانع القرار» وهذه المساعى - غير الكافية حتى الآن، والتي لا تتناسب مع شراسة التحدى -جديرة بأن تكون فى وعى وحسابات قوى اليقظة والأصالة - الوطنية والقومية والإسلامية - فى بلادنا ، وذلك لدعمها وتعظيمها، والحذر من طغيان التناقضات الثانوية بين قوى اليقظة هذه وبين صناع القرار على التناقضات الرئيسية والعدائية بين الأمة - حكاما ومحكومين - وبين قوى «الهيمنة العولمية».

لقد عرفت بلادنا، فى مواجهة الاستعمار التقليدى والمباشر، إطار «الجبهة الوطنية» العريضة التى جمعت قوميات الأمة وطبقاتها ومذاهبها وتياراتها الفكرية والاجتماعية ضد الاحتلال الأجنبى.. ومطلوب اليوم: الدعوة إلى جبهة وطنية عريضة لمواجهة الامبريالية الجديدة - العولمة - التى تجتاح عالمنا دون جيوش!.. وكما استفدنا من تقنيات الثورة الصناعية الأوربية - التى أفرزت ظاهرة الاستعمار - فى مواجهة هذا الاستعمار، وفي تغيير واقعه،

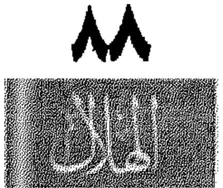
علينا - اليوم - الاستفادة من تقنيات عصر العولمة فى «ترتيب البيت الإسلامى» لتحقيق عالمية العالم، بدلا من عولمته.

إن عالم الإسلام، ومعه حضارات الجنوب، يملك من الإمكانات ما يغرى المخلصين والواعين بترتيبها وتعظيمها لا للعزلة بها والانغلاق عليها، فذلك وهم غير ممكن وغير مفيد، وإنما لتعديل موازين القوى الدولية، وتحقيق العالمية الإنسانية، بدلا من العولمة الغربية.. فعالم الجنوب يستورد «المواد المصنعة» من الشمال - وأكثرها متخلفة.. والحديث منها هو الاستهلاكى لا الانتاجى - يستوردها الجنوب بأغلى الأسعار، بينما يصدر للشمال - بأرخص الأسعار - ٤٠٪ من المعادن - و ٣٥٪ من النفط - و ٩٣٪ من القصدير - و ٦٥٪ من الخشب - و ٤٠٪ من القطن.. والعالم الإسلامى وحده يمتلك وطنا مساحته ٣٥ مليونا من الكيلو مترات المربعة.. تعيش فيه أمة يبلغ تعدادها نحو ربع البشرية - ١,٣٨٤,٨٠٠,٠٠٠ - نسمة - بينما يعيش فى الصين قرابة هذا التعداد على مساحة هى ٩ من مساحة العالم الإسلامى.

وغير الإمكانات الروحية والحضارية والثقافية التى يملكها العالم الإسلامى - وحدة العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحضارة.. ودار الإسلام - فإن هذا العالم هو:

- العالم الأول فى البترول والغاز والمنجنيز والكروم والقصدير والبوكسيت..
وهو العالم الثانى فى النحاس والفوسفات.
وهو العالم الثالث فى الحديد..
والعالم الخامس فى الرصاص.
والسابع فى الفحم.

وإذا كانت أغلب ثروات العالم الإسلامى إنما تستخرج من باطن الأرض - وهى مركوزة فيها - فإن بابا واحدا من أبواب الزكاة، وهو زكاة الركاز - ٢٠٪ من قيمة ما يستخرج من باطن الأرض - يمكن أن يقيم صندوقا لتنمية كل العالم الإسلامى - بالحلال - وفقا لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «.. وفى الركاز الخمس» - رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو دواد ومالك والإمام أحمد - .. وبعيدا عن الربا الذى فاق فى فحشه ربا الجاهلية



القديمة.. وخارج أغلال المؤسسات الاقتصادية للعولمة الغربية - صندوق النقد الدولى.. والبنك الدولى -.

وباستطاعة التكامل الاقتصادى أن يجعل عالم الإسلام حرا فى مصادر غذائه، ففيه أطول أنهار الدنيا، وأقدم فلاح علم الدنيا فن الزراعة ومئات الملايين من الأفدنة التى يمكن أن تزرع باستثمار الفوائض النقدية الإسلامية، المودعة فى بنوك العولمة الغربية، والتى تتآكل هناك بالمخاطر والمؤامرات!.. وباستطاعة التكامل الاقتصادى أن يفتح حدود عالم الإسلام أمام التجارة البيدنية - التى تقف الآن عند ٨٪ من حجم هذه التجارة بينما ٩٢٪ منها قائم بين كل دولة قطرية وبين الشمال!.. فتقنيات العولمة يمكن وأولى بها أن تعولم عالم الاسلام أولا، فتفتح حدوده للتجارة الإسلامية المتكاملة، وللتكامل الصناعى، وبعد ذلك يكون التعامل مع الشمال ككتلة اقتصادية.. فذلك هو قانون العصر، الذى تطبقه أوربا، كقارة وأمريكا كقارة، ونحن أولى بتطبيقه، لأننا «أمة» ولسنا مجرد مساحة فى الجغرافيا.


مصطفى كامل

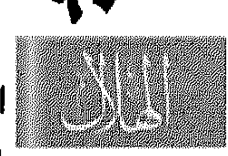
ومنظماتنا الإقليمية - العربية - والإسلامية.. والإفريقية - لو نفخت فيها الروح، وتم تفعيلها، يمكن أن تمثل الشكل المعاصر لوحدة أمة الإسلام ودار الإسلام - أى الخلافة الإسلامية الجديدة - التى تزدهر فى إطار جوامعها العامة والمرنة ومصالحها المشتركة الدول القطرية والقومية .. هذا الشكل وهذه الصيغة التى أفرد لها المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا (١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م) دراسته النفيسة عن (فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية).. والتى سبقه فى الإشارة إليها جمال الدين الأفغانى - فى (العروة الوثقى - قبل مائة وعشرين عاما - عندما قال: «إن الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية

الإسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين.. والدول الإسلامية متصلة الأراضى، متحدة العقيدة، يجمعها القرآن ، فلم لا تتفق على الذب والإقدام كما اتفقت عليهم سائر الامم؟.. ولو اتفقت فليس ذلك ببدع منها، فهو من أصول دينها.. لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعها القرآن، ووجهة وحدتها الدين، وكل ذى ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه، ألا إن هذا، بعد كونه أساسا لدينها، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات.

* * *

أما الخطوة الأولى على الطريق - الشاق.. والذى هو الطوق الوحيد لنجاة هذه الأمة - فهى الوعى بحقائق الواقع، وما فى هذا الواقع من «فرص» ومن «مخاطر».. واستخدام هذا الوعى فى تجديد الفكر الإسلامى، وفى الإبداع بمختلف ميادين هذا الفكر ليكون لأشواقنا النهضوية «دليل العمل» الذى ينير لطلائع الأمة الطريق .. ولتكون لهذه الأمة الثقافة والآداب والفنون التى تملأ النفس الإسلامية وتغذى الوجدان الإسلامى ، وتروح عنهما، حتى لا تملأ العولمة فراغنا الثقافى والروحى بقيم الانحلال وثقافة الحداثة اللادينية.. فاذا لم نملأ فراغنا بثقافة الحلال وفنونها وآدابها، فإن فراغنا هذا سيمتلىء بثقافة الانحلال.

فإذا كانت العولمة تعنى صب العالم فى قالب الحضارة الغربية المهيمنة اقتصادا وسياسة وقيما وثقافة.. فإن العالمية الإسلامية والإنسانية، تريد العالم «منتدى حضارات» تتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام، وتتمايز فى الهويات الحضارية والخصوصيات الثقافية .. لتتدافع الأمم وتتسابق وتتعارف، بدلا من الصراع والهيمنة والقهر والاستغلال .. ولما كان البدء - عادة.. ودائما - هو للكلمة.. فعسى أن تكون هذه الكلمات قبسا مضيئا على درب أمة الإسلام فى مواجهة ما تواجه من ابتلاءات وتحديات.. وصدق الله العظيم (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم



مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب).

-- البقرة ١١٤ .. (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين أمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) – آل عمران : ١٣٨ - ١٤٢ - .. (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما) – النساء : ١٠٤ –..

إن التقدم، وكذلك تداول الأمم للنهوض والتراجع ليس سخطا صاعداً باستمرار ، ولا هابطا دائما وأبداً.. وإنما هناك السنن التى تحكم دورات الصعود والهبوط فيه.. وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عندما قال: «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل ، فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره» - رواه الإمام أحمد ..

وصدق الله العظيم (لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) – يوسف : ٨٧ – ......

والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والتوفيق .■

الاحتفال بمائة عام على إنشاء المتحف المصرى

نموذج خشبي للقوارب يرجع الي الدولة الوسطي، حوالي ٢٠٤٠ - ١٦٤٠ ق.م.

بداية مرحلة جديدة للاهتمام

بآثار مصر القديمة

أماني عبد الحميد

مبنى المتحف المصرى المطل على قلب العاصمة القاهرة ليس مجرد مبنى بلغ فى العمر مائة عام (اقيم عام ١٩٠٢) لكنه مكان يستمد شموخه من روعة وجمال مقتنياته البالغ عددها ١٦٠ الف قطعة.

فعند دخولك البهو الرئيسى للمبنى تتلبسك روح الخلود التى طالما أمن بها أجدادنا الفراعنة. فكانت ناموس الحياة الخالدة ولا تملك وانت تتجول داخل قاعاته سوى أن يزداد شعورك بالانبهار الشديد بتلك الحضارة التى تبدو فيها الحياة جذابة ومرغوبة برغم قدسية الموت والانشغال الكامل بالمراسم الجنائزية اكثر من اى شيء آخر وامام قناع مومياء خشبى تلاشت كثير من رقائق الذهب التى تغطيها تتهادى كلمات كتاب الموتى المقدس:

يامن تذهب ستعود
يا من تنام سوف تنهض
يا من تمضى سوف تبعث
فالمجد لك
للسماء وشموخها
للأرض وعرضها
للبحار وعمقها

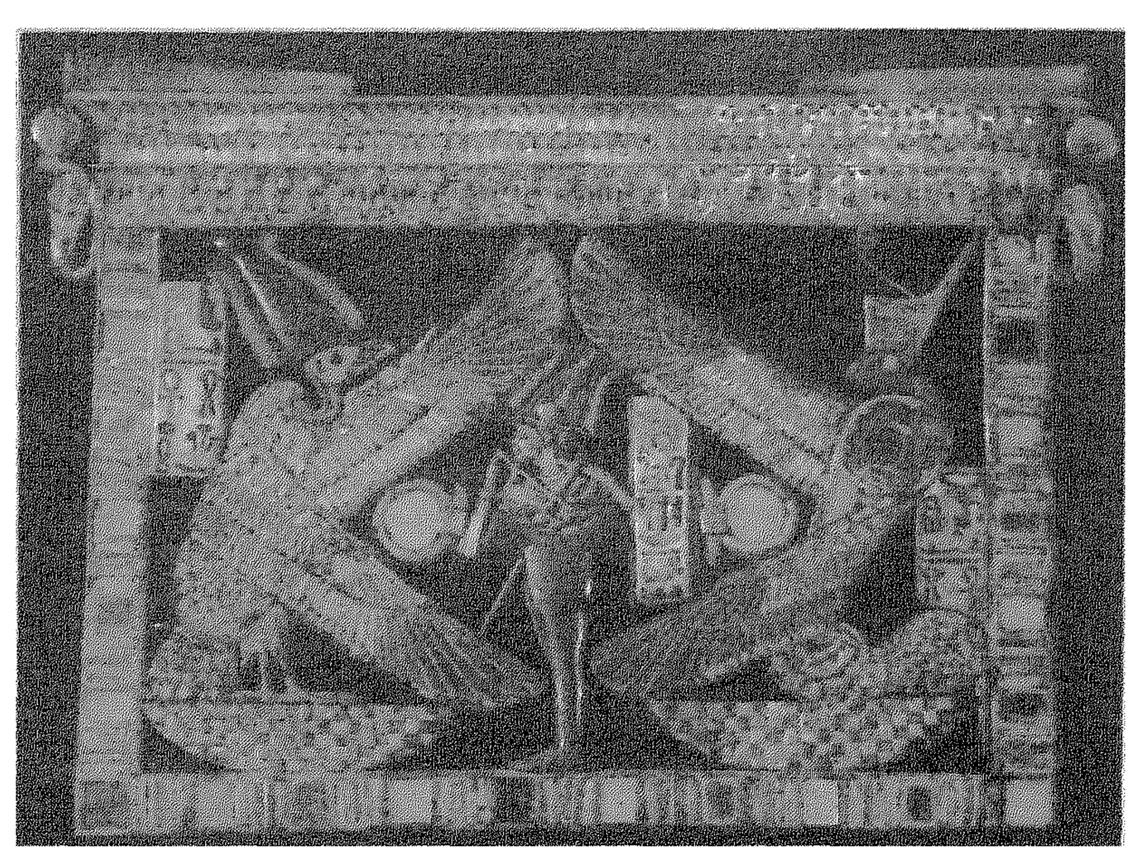
وهى أبيات تدل على شموخ أولئك القدماء المصريين بتصورهم لأنفسهم ولعالمهم. وشموخ فى أفكارهم عن الآلهة والحياة بعد الموت. إنها صورة مجتمع استطاع أن يدرج ما هو مقدس وفائق فى نسيج حياته اليومية. وأن يجمع من مزاج فريد بين ماهو أرضي عابر وبين ما هو باق وخالد.

العشق المقدس

يحكي لنا التاريخ حكايات عديدة لأناس علماء ، رحالة، فنانين، دبلوماسيين كانت الحضارة الفرعونية بالنسبة لهم راية للخلود ورمزا للعشق المقدس. الكل كان يهتم بها بطريقته ، إما عن طريق الاكتشاف أو عن طريق الرسم أو الكتابة أو حتي السرقة والنهب ، لكن فى النهاية يجمعهم ولعهم المفعم بجمال آثارها وعقائدها ولغتها الصامتة.. فخلال رحلته الوحيدة الى مصر والتى استغرقت ١٩ شهرا صاح شامبليون - الذى فك رموز اللغة الهيروغليفية - أمام معبد الكرنك متهللا «لسنا فى أوروبا سوى أقزام، لا يوجد شعب قديم أو حديث تصور الفن المعمارى مثلما فعل المصريون.. إن الإبداع الذى يحلق عاليا فوق أروقتنا فى أوروبا يسقط عاجزا عند أقدام بهو الأعمدة فى الكرنك الذى يضم ١٤٠ عمودا. هكذا كانت مصر من وجهة نظر عشاقها.

لكن هذا العشق وذلك المجهود العلمي كان يشوب بعضه أغراض أخرى تقوم على عمليات سرقة تاريخ. أقدم دولة حضارية عرفتها البشرية فشهدت أرضها خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعمال نهب هائلة ازدانت بها أغلب متاحف العالم، وأصبحت تمثل فيها أقساما كاملة مثل متاحف برلين - اللوفر تورين. المتحف البريطاني وكان حلم إقامة متحف مصرى هو الخطوة الأولى نحو حماية أرضنا من لصوص الآثار والتي لولاه لما كنا رأينا مجموعة الملك توت عنخ أمون. ولا مجموعة المومياوات الملكية وغيرها من الآثار فلم تكن ساحة الآثار المصرية منطقة

● المتحف نواة لعرض آثارنا الفرعونية.. ومازالت هناك مشكلة التكدس داخل قاعات العرض!



حلية صدرية عليها صورة للإله اوزيريس وجدت في مقبرة توت عنخ آمون

محصورة على العلماء الجادين فقط.بل كانت مسرحا لقراصنة الآثار خاصة في عدم وجود قانون وقتها يمنع خروج الآثار من مصر. وكان قناصل السلك الدبلوماسى هم أبطال هذا العصر.

ويكفينا ان نسرد حكايات برناردينو دورفيني القنصل الفرنسى في مصر (١٨١٠ - ١٨٢٩) وأشهر جامع تحف في ذلك العصر. والذى حقق أرباحا طائلة من جراء تهريب الاثار. كان عملاؤه ينهبون المواقع الأثرية دون وازع وتمكن في بيع ثلاث مجموعات أثرية ضخمة لكل من الملك شارل العاشر ملك فرنسا، ولملك بدمونت وملك بروسيا مما جعل متحفى «تورين» و«اللوفر» يفتخران بالأقسام المصرية داخلها. وحذا حذوه الرسام هنرى سولت قنصل انجلترا في مصر (١٨١٦) الذى باع ثلاث مجموعات ضخمة للمتحف البريطانى ولمتحف اللوفر. ومنها تابوت سيتى الأول المصنوع من المرمر والذى اشتراه احد أثرياء أوروبا بثمن مجموعة كاملة.

ومن تلك النماذج جيوفانى بلزونى

الذى وصف بأنه وحش آدمي وأكبر قرصان للآثار عرفه التاريخ، وترتب على ذلك انتشار ما يطلق عليه «الاجيتومونيا» أو الهوس بالمصريات. وأصبحت أمنية أى متحف عربي أن يحصل وبأى ثمن على رأس تمثال مصرى قديم أو مومياء من أى أسرة. وفي المقابل ازدادت كتابات العديد من الرحالة بداية من هيرودوت وديودور الصقلي وأسترابون وبلوتارك وحتى بريس دافن ومولنى وأميليا إدوارد وروبرتس وغيرهم كثيرين. وتعد مصر بالنسبة للأوربيين مصدرا يغذى الأساطر بصمتها حتى اعتبرها الماسونيون مصدر الحكمة بل أطلقوا عليها إسم بلاد العجائب والغرائب فهى بالنسبة لهم بلاد قديمة قدم التاريخ اليهودى والمسيحى.

ومن الطريف أن الشغف الأوروبى وصل إلى أبعد الحدود. لدرجة أن العطارين فى فرنسا كانوا يبيعون عقارا باسم «المومياء» وهو مسحوق يميل لونه إلى السواد. ويدعون أنه مستخرج من حرق المومياوات وآمنوا بشفائه لأمراض الجهاز التنفسى والهضمى ونزيف الدم بل ولإثارته للشهوة الجنسية، كما كان البحارة يعتقدون أن وجود المومياوات على ظهر السفن يثير العواصف ويعزون ذلك إلى قوة سحرية شريرة. كما يذكر لنا الكاتب الفرنسي. وبيرسوليه فى كتابه «مصر ولع فرنسى».

إعادة الاكتشاف

وهيمنت مصر على كتابات كثيرة مثل كتابات بنوادى مايبه. وكلود سيكار، فرانسوادى فولينى وتضمنت كتبهم معلومات مفصلة عن جغرافية مصر ومعابدها الكبرى. كما اتسمت كتابات كلود اتيين سافارى بالانبهار الشديد. كما جاء فى كتابه «خطابات عن مصر» ولكن فيفان دينون استطاع أن يعرف الأوربيين بمصر عن طريق رسومه. فهو الذى انشأ متحف نابليون أو اللوفر بعد عودته من رحلته خلال حملة نابليون بونابرت على مصر. وكان كتابه «رحلة الى مصر السفلى ومصر العليا» إيذانا ببدء حركة احياء لحضارة مصر القديمة. فرسمه لجميع

• محاولة لكي يضم المتحف القطع التي ترصد ملامح تاريخ الفن الفرعوني.


البوابة الرئيسية
للمتحف المصري

المعابد في كتابه الصادر عام ١٨٠٢ عزز موجة الافتتان بجمالها. وعقب صدور كتاب دينون نشرت دراسات المائة والخمسين عالما الذين اصطحبهم نابليون بونابرت خلال حملته وهي عبارة عن تسعة مجلدات من النصوص وأحد عشر اطلسا من الصور فيما بين ١٨٠٩ - ١٨٢٢ وهو ما أسفر عن كتاب «وصف مصر» الشهير.

وفي عام ١٧٩٩ تسبب اكتشاف حجر رشيد في اشتعال نار التنافس بين الأوروبيين بلا هوادة حول فك رموز الكتابة الهيروغليفية حتى تمكن جان فرانسوا شامبليون من فك رموزها في سبتمبر ١٨٢٢ مما أعاد اكتشاف مصر القديمة.

ومن العلماء الجادين «لبسيوس» واضع الاساس العلمي لعلم المصريات والعالم الألماني «برجش» مؤسسة مدرسة «اللسان القديم» أول مدرسة لتدريس الآثار المصرية. وأدولف أرمان الذي أعد قاموسا للغة المصرية القديمة وجاستون ماسبيرو مدير عام مصلحة الآثار ومؤسس المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية.

ومن العلماء أيضا جون ولكجسون مؤسس علم دراسة المصريات بانجلترا. وصاحب كتاب «آداب وعادات المصريين القدماء» والفرنسي اميل بريس دافن الذي اهدى متحف اللوفر «غرفة الملك» المسلوبة في معبد الكرنك وأهدى أيضا فرنسا «بردية بريس» وهي وثيقة مسهبة يرجع تاريخها الى «٢٠٠٠ ق.م» وتعتبر أقدم كتاب في العالم.

وأخيرا جاء لمصر أوجست مارييت الذي استطاع ان يكفل لعلم الآثار مستقبله في مصر. وكان سعيه الأول هو حماية كل الآثار والقطع المصرية القديمة خاصة بعد اكتشافه «للسرابيوم» في سقارة/ وما به من توابيت للعجل أبيس المقدس.

وكان له الفضل في إرساء الأسس اللازمة لمصلحة الآثار المصرية. ومن بعدها المتحف المصري. ولولاه لكان طريق النهب استمر حتى طال مخبأ المومياوات الملكية في الدير البحري

• من الضروري أن يكون المتحف الكبير دليل على مدى الحرص على عرض الآثار المهملة



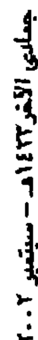
ومقبرة توت عنخ آمون.

رمز الخلود
حلم المائة عام

وعندما تجد نفسك قد دخلت قاعات المتحف تجد أن لديك اسبابا مهمة للتأمل او حتى مجرد التفكير فى كونك أحد أحفاد أولئك العظماء وان زيارة واحدة لا تكفى فهناك شىء ينتعش فى عقلك ويدفعك نحو آفاق بعيدة لتطوف فى أغوار الماضى. وبرغم جمال المبنى فى الداخل والخارج. وعظمة كل قطعة مهما صغر حجمها. الا ان التكدس الرهيب داخل قاعات العرض لا يتيح لك فرصة الاستمتاع بالجمال المتناثر من حولك. خاصة ان المصرى القديم كان يعتقد ان المهابة والفخامة والرحابة هى أهم ملامح الفن الحقيقى فقامة الرجال ترتفع دائما لتطال السماء ليتحقق لها المجد الخالد وهذا التكدس موجود داخل مخازن المبنى حيث ترقد اكثر من ٨٠ الف قطعة لا تجد مكانا لعرضها وإن كان هذا الرقم غير مؤكد كما يوضح لنا مدير المتحف الدكتور ممدوح الدماطى فنحن لا نملك الاحصاء الدقيق لحجم الآثار التى يضمها المتحف سواء المعروض أو المخزون وإن كان عددها يتراوح ما بين ١٤٠ الى ١٦٠ الف قطعة أثرية.

ويوضح لنا أيضا أن الحلم الاكبر يكمن فى أن يتحول المبنى البالغ من العمر مائة عام الى متحف يضم كل القطع التى ترصد ملامح تاريخ الفن الفرعونى. فى حين ترحل المجموعات الأثرية الكبيرة مثل مجموعة توت عنخ آمون الى المتحف الكبير المزمع اقامته عند هضبة الأهرامات.

واذا رجع بنا الزمان إلى عام ١٨٣٥ م، لكى نتعرف على بداية قصة انشاء متحف يضم مجموعة الاثار المصرية. نجد أن البداية كانت داخل مبنى ملحق بحديقة الأزبكية ثم انتقل إلى مبنى متحف بولاق فى عام ١٨٥٨ بدعم من الوالى سعيد باشا . لكن الذى قام بافتتاحه هو الخديو اسماعيل فى عام ١٨٦٣ ونظرا لتعرض المتحف المستمر لفيضان النيل تم نقل المجموعة الأثرية الى ملحق بقصر اسماعيل باشا بالجيزة. ولكن الزيادة المستمرة لمجموعات الآثار دفع الى الاتجاه نحو اختيار موقع جديد يتضمن مساحة كافية. وبالفعل تم وضع حجر الاساس للمتحف المصرى بميدان التحرير فى حضور الامير عباس حلمى الثانى وعالم المصريات

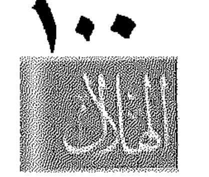


ماسبيرو وذلك في ابريل عام ١٨٩٧ وفي ١٥ نوفمبر ١٩٠٢ تحقق الحلم بافتتاح مبني المتحف الذى صممه المهندس المعمارى الفرنسي مارسيل دورنون، على مساحة ١٥ الف متر مربع وبتكلفة تصل الى ٢٣٠ الف جنيه مصرى ليعرض حوالي ٥٠ الف قطعة أثرية.

وينقسم المتحف إلى قسمين قسم في الدور الأرضى ويضم مقتنيات تم ترتيبها طبقا للتابع الزمني والتاريخى منذ بداية الأسرة الملكية الأولى.

وحتى الأسرة الملكية الثلاثين «٣٠٠٠ - ٣٤٢ ق. م» ثم العصر الفارسى الثانى حتى عام ٣٣٢ ق . م. بالإضافة إلى بعض مجموعات العصر اليوناني الروماني. ومن أشهر القطع المعروضة في الدور الأرضى تمثال للملك «زوسر» صاحب الهرم المدرج بمنطقة سقارةكذلك التمثال الوحيد للملك خوفو صاحب الهرم الأكبر بمنطقة الأهرامات بالجيزة. وهو تمثال لا يتعدى حجمه ٩ سم . أما الدور الأول أو القسم الثانى بالمتحف فهو عبارة عن أشهر المجموعات المكتشفة ومن اهمها حجرة المومياوات الملكية. وهى تضم احدى عشرة مومياء قديمة والتى عثر عليها بخبيئة الدير البحرى بالقرب من معبد الملكة حتشبسوت بالبر الغربى بالأقصر. من عام ١٨٧٥ - ١٨٩١ م ومقبرة الملك امنحوتب الثانى بوادى الملوك بالاقصر عام ١٨٩٨ م. كذلك من أهم المجموعات مجموعة الملك توت عنخ آمون. والتي اكتشفت عام ١٩٢٢ وضمت ما لا يقل عن ٣٥٠٠ قطعة معظمها من الخشب المذهب والمطعم بالاحجار وهى المقبرة الوحيدة التى نجت من أيدى اللصوص علاوة على مجموعة مقبرة يويا وتويا التى عثر عليها عام ١٩٠٥ بوادى الملوك بالاقصر وهى مقبرة لولدى الملكة «تى» زوجة الملك امنحوتب الثالث حوالى ١٣٨٠ ق . م علاوة على مجموعات الحياة اليومية والحلى المصرى القديم وكنوز المقابر الملكية بمنطقة تانيس ومجموعة برتريهات الفيوم. وكانت أول مجموعة تم اكتشافها في عام ١٨٨٨.

وها نحن نحتفل بذكرى مرور مائة عام على إنشاء المتحف المصرى تلك الذكرى التي تستحق منا الكثير من التأمل . فهى بداية مرحلة جديدة نبدأ بها مائة عام أخرى نحاول من خلالها بذل مزيد من الرعاية والوعى والاهتمام بتاريخ مصر القديم فاذا نظرنا لها على اعتبارها الخطوة الأولى نحو وقف

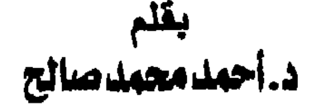


مقطع من رسم في مقبرة الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثاني

عمليات النهب والسرقة المنظمة لاثار أجدادنا فبالتالى نأمل أن تكون المائة الثانية هى الخطوة التالية نحو وقف نزيف السرقة المستمر حتى وقتنا هذا وان اختلفت مظاهره . ونحلم أن يحقق مشروع انشاء المتحف المصرى الكبير بالقرب من هضبة الاهرامات الحماية الكافية كما وفرها من قبله المتحف المصرى لدى انشائه عام ١٩٠٢.



المجتمع وتكنولوجيا المعلومات



يتوقع تقرير الاتجاهات العالمية ٢٠١٥ الذى وضعته المخابرات المركزية الأمريكية سى آى أى فى موقعها على شبكة الانترنت، أوضاع العالم خلال السنوات الخمس عشرة المقبلة، وصنف التقرير سبعة عوامل أساسية تحرك وتوجه العالم، كان العلم والتكنولوجيا فيها في المرتبة الثالثة بعد السكان والموارد الطبيعية والبيئية وقبل السياسة وطبيعة الحكم وقبل العولمة والاقتصاد الرقمى الجديد وأعطى التقرير رؤية متشائمة جدا للأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية فى الدول العربية، والشئ اللافت فى هذا التقرير هو الدور المتزايد الذى يؤديه العلم، وخصوصا المعلوماتية والبيولوجيا، فى تحديد وتوجيه التطور العالمى.

ويشبه التقرير ثورة المعلوماتية والاتصالات بالثورة الصناعية الكبرى في منتصف القرن الثامن عشر، التي غيرت مسار التاريخ والبشرية وأن ما تراكم من معرفة عن الثورة المعلوماتية يمثل كما ضخما لكنه أدنى بكثير مما لا نعرفه عنها، ونحتاج دراسة مستمرة لآثارها الاجتماعية والفكرية والثقافية والقانونية والأخلاقية لذلك أصبح من الأهداف الأساسية للتعليم في القرن الجديد هو إكساب وتزويد الأفراد بفهم واضح لأحوال العالم، بصورة خاصة التكنولوجيا العصرية وبدون هذا الفهم لا يمكن تطبيق تلك التكنولوجيات في سياقها الإنساني والبيئي المناسب، حتى تستخدم فقط حين تكون نافعة وغير ضارة للإنسان والبيئة فضلا عن ذلك فإن نقص الفهم الواضح للمبادئ الأساسية التي تنظم آلية تطبيق تلك التكنولوجيات غالبا ما يؤدى إلى شلل عقلي وهو النقص في حب الاستطلاع والبحث والتدقيق في مدى مناسبة تلك التكنولوجيات للإنسان الذى يفترض فيه البحث عن المعرفة الواعية التي تؤدى إلى الفهم الصحيح، وهذا النقص يقلل الشروط الإنسانية لتكنولوجيا. فكم عدد الناس الذين يعرفون مبادئ عمل محركات الاحتراق في الطائرات؟! أو الآلية التي تعمل بها محطات إرسال المحمول المنتشرة فوق الأسطح لكي نحدد مدى نفعها أو ضررها للإنسان والبيئة؟ لقد أصبحت التكنولوجيا صغيرة جدا ورفيعة جدا ومخفية جدا عن العين وبقية حواس الإنسان وهي في الغالب تتخفى في دوائر اليكترونية مدمجة صغيرة جدا في الحجم، وهو ما يعرف باسم الناتو تكنولوجي وهي فرع هندسي يتصل بتصميم الدوائر الإلكترونية المتناهية الصغر! ونتيجة الشلل العقلي أصبحنا نستعمل تلك التكنولوجيات ونحن نتجنب استفهاما أساسيا، هو السؤال: كيف تعمل هذه التكنولوجيا؟.

لذلك تحاول دائما بحوث اجتماعيات المعلومات Social Informatics (SI) استكشاف تصميم واستعمالات وتطبيقات تكنولوجيات المعلومات والاتصالات (ICTs)، في تفاعلها مع السياقات الثقافية والمؤسساتية. فهناك مهنيون كثيرون ومديرون وصناع سياسات لا يتفهمون بعمق أسباب وحوافز وتسهيلات وعقبات التطبيق الفعلى الموثوق لتكنولوجيات المعلومات في مقار العمل أو في المجتمع الواسع وخلال السبعينات

والثمانينات ركزت بحوث اجتماعات المعلومات على المنظمات والمؤسسات لأنها كانت المواقع الرئيسية التي تطبق فيها الحوسبة وفى السنوات القليلة الماضية فقط انتشرت تطبيقات تكنولوجيات المعلومات ولم تقتصر على الاخصائيين التقنيين وانضم ناس كثيرون آخرون فهموا نظم الكمبيوتر والإنترنت للاستعمال المنزلى، وأصبح العمل يتم فى البيت والاتصال يجرى من البيت حتى الترفية والمعلومات الطبية والاستعمالات الشخصية الأخرى تتم كلها من خلال البيت.

تأثير تكنولوجيات المعلومات على المجتمع

وهذه الظواهر المهمة نحتاج دراسة أبعادها الاجتماعية والنفسية وكانت أسئلة البحوث التى تدور حول تأثير الحوسبة تصاغ بطريقة حتمية الأثر الناتج مثل: ماذا سوف يكون أثر الكمبيوترات على السلوك التنظيمى إذا نحن عملنا كذا؟! ما هى التغييرات فى الحياة الاجتماعية التى ستحدث إذا نحن عملنا كذا؟، هل سوف تحسن نظم الكمبيوتر على سبيل المثال، جودة ونوعية العمل؟ هناك العديد من الدراسات التى حاولت أن تجيب عن تلك الأسئلة وكانت الأسئلة تطرح فى الدراسات بشكل مباشر وبسيط مثل: ماذا سوف يحدث؟ س أو ص؟ والإجابة: أحيانا س، وأحيانا أخرى ص، لكن لم تكن هناك أبدا نتيجة تبين أثر الحوسبة بشكل مباشر وواضح ، وكثير من خصائص التغييرات اعتمدت على القدرة النسبية للعمالة على سبيل المثال: تبين بعد إدخال الحوسبة أن الكتبة والبائعين ومساعدى المحاسبين المؤقتين غير الدائمين أقل جودة فى المتوسط، من المهنيين المحترفين لكن أحيانا كانت السكرتارية التى تنتمى إلى الطبقات العليا، قادرة على إحداث تحسينات فاعلة فى أعمالها بالمقارنة ببقية الناس خاصة النساء اللاتى كن يعملن ويعالجن الصفقات فى الحجرات الخلفية للبنوك وشركات التأمين فقد لعبت القدرات المهنية دورا مهما فى تسوية وتشكيل الطريقة تلك تؤثر بها الحوسبة فى إعادة تشكيل مقار العمل وحاولت البحوث أيضا أن تبين إلى أى مدى كانت مركزية الإدارة فى المنظمات والمؤسسات بعد إدخال الحوسبة؟ وكانت هناك نقاشات ومجادلات رئيسية تقول: إن نظم الكمبيوتر سوف تمكن مديرى الإدارة العليا أن يحصلوا على معلومات مفصلة وكثيرة عن العمليات التى تجرى فى مقار العمل البعيدة عنهم،



مثل مواقع العمل الأمامية وحجرات التحرير، والفصول الدراسية وبذلك تصبح المنظمات أكثر مركزية وقالت دراسات أخرى أن الحوسبة ستجعل المنظمات والمؤسسات أكثر توزعا وعدم مركزية! حسنا ناس كثيرون يريدون أن يعرفوا: هل إدخال نظم الكمبيوتر فى أى مؤسسة أو منظمة يجعل هناك مركزية فى الإدارة أو عدم مركزية؟ وكما ذكرنا وجدت بعض الدراسات أن استعمال تكنولوجيا المعلومات أدى إلى المركزية فى بعض المنظمات ودراسات أخرى وجدت أن استعمال تكنولوجيا المعلومات أدى إلى عدم المركزية! وكانت أسئلة تلك الدراسات قائمة كلها على القاعدة البسيطة فى حتمية الأثر التكنولوجى؟ وكان إخفاق المذهب التحليلى لحتمية الأثر التكنولوجى هو أحد المكتشفات القوية والمثيرة من بحوث اجتماعيات المعلوماتية.

واليوم أيضا بعض المحللين ونقاد كثيرون يصيغون مزاعم كثيرة حول حتمية أثر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى الحياة الاجتماعية مثل تلك المزاعم التى تقول إن شبكة الويب تعنى أن الجمهور سوف يصبح فى متناول يده معلومات كما ونوعا أفضل كثيرا من أى وقت فيما مضى! وكاتب هذا المقال كان من ضمن الذين كانوا يؤيدون تلك المزاعم لكن دراسات اجتماعيات المعلوماتية نجحت فى التشكيك بصحتها وصحة حتمية الأثر التكنولوجى ونتساءل: كيف تمكن شبكة الويب الجمهور أن يحدد المعلومات الأفضل؟ وتحت أى شروط؟ فمن؟ ولماذا؟ يضع ثقة أكثر فى ذلك الموقع أو غيره ومن الذى يضمن لنا ولماذا أن نثق فى تلك المعلومات ونفقد الثقة فى غيرها؟! سواء معلومات عن الصحة طب الأعشاب أو الجراحة عن بعد؟ أو فى أى مجال من مجلات الحياة، اقتصاد سياسة ثقافة إلخ، وهذه الأسئلة لا توصل إلى فهم مهنى عميق لتأثير تكنولوجيات المعلومات والاتصالات فى الحياة الاجتماعية بقدر ما هى نوع من الاستفسار السياقى يترجم إطار التحليل لباحثى اجتماعيات المعلوماتية لتحليل وفهم أثر تكنولوجيات المعلومات فى الحياة الاجتماعية وناقشت بعض الدراسات طريقة إيضاح تأثير تكنولوجيا المعلومات فى نسق الحياة الاجتماعية من خلال دراسة حالة بعض الشركات الاستشارية التى تبنت نظم كمبيوتر وثائقية ففى دراسة حالة لإحدى كبيرات الشركات الإستشارية Price Waterhouse التى اشترت عشرة آلاف نسخة من النظام الوثائقى الشهير

اللوتس Lotus Notes كنظام مساند وثائقى لموظفيهم فى ١٩٨٩ وهو نظام شبيه بسطح الإنترنت حيث لوحات إعلانات ومجموعات المناقشة والبريد الإليكترونى فهو يمكن أن يعمل كنظام بريد إلكترونى كامل، ونظام مناقشة ونظام نشر إلكترونى ونظام مكتبات رقمية وهذه الشركة وظيفتها الاستشارات الدولية، فيها عشرات الآلاف من الموظفين فى كل أنحاء العالم وحوالى ١٠,٠٠٠ منهم يقيمون فى الولايات المتحدة وكانت أهم نتيجة لوحظت بعد إدخال البرنامج أن موظفى الشركة فى جميع فروعها فى العالم لوحظ أنهم يتقاسمون ويتشاركون فى المعلومات بعدوانية شديدة جدا لافتة للنظر، لم تكن منتشرة بينهم قبل إدخال هذا البرنامج!

والسياق الاجتماعى يشير إلى مصفوفة معينة للعلاقات الاجتماعية ونقصد به هنا هو تلك الأنظمة المحفزة والدافعة لاستعمال وتنظيم وتقاسم المعلومات وكيفية توظيفها فى العمل. فالحوسبة منظومة مترابطة من نظم الكمبيوتر والشبكات والقرارات حول التكنولوجيا وتنظيم العمل . ومن سوء الحظ أن الكلام والتفكير في الحوسبة على أنها مجرد تركيب واستعمال تكنولوجيات جديدة أكثر انتشارا من النظرة المتكاملة للحوسبة بأنها تركيبة اجتماعية وتكنولوجية، فمن الشائع للمديرين والتكنولوجيين أن يناقشوا بعض النتائج الاجتماعية للتكنولوجيات الجديدة مثل رعاية المشروعات وتدريب الناس لاستعمال النظم الجديدة والتحكم فى مداخل المعلومات لكن هذه المناقشات عادة تعالج معظم السلوك الاجتماعى كحالة منفصلة عن التكنولوجيات بينما اجتماعيات المعلوماتية تقترح رؤية انتقادية سوسيولوجية وتقنية متكاملة socio technical.

تأثير المجتمع على استعمال تكنولوجيات المعلومات

وإذا كانت بحوث اجتماعيات المعلوماتية قد شككت فى الأثر الحتمى لتطبيق تكنولوجيات المعلومات على المجتمع فهى أكدت فى نفس الوقت على أن المجتمع بنظمه السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية يؤثر تماما على الطريقة التى يستعمل ويوظف بها المجتمع تلك التكنولوجيا والفكرة الأساسية فى

بحوث اجتماعيات المعلوماتية هى أن السياق الاجتماعى لنمو تكنولوجيا المعلومات واستعمالها يلعب دورا مهماً فى التأثير على الطريقة التى يستعمل بها الناس المعلومات والتكنولوجيات وهكذا تتأثر نتائج أعمالهم ومنظماتهم والعلاقات الاجتماعية الأخرى ونقدم أمثلة فى كيفية تأثير السياق الاجتماعى على الطريقة التى يستعمل بها الناس تكنولوجيات المعلومات، المثل الأول من مصر فقد فوجئت بإعلان فاخر جدا وبالألوان فى أشهر مجلات الكمبيوتر العربية يتكلم عن العالم الخفى، وماذا تعرف عن الجن؟! كيف يأكلون؟ ويشربون وأين يسكنون؟ وكيف يتشكلون ويتصورون؟ هل الجن تسكن بيوت الأنس؟ وكيف يمكن طردهم منها؟ كيف تعالج المس وتخرج الجن من الشخص المسوس؟ كيف تعالج الشخص المسحور بالقرآن الكريم؟ كيف تتحدى الساحر وتبطل سحره؟ كيف تعالج الشخص المحسود والمسوس، وكيف تعالج نفسك من حسد الحاسدين وسحر الساحرين؟ كل ذلك تجده فى برنامج كمبيوتر تنتجه شركة عربية لها عنوان فى القاهرة منشور فى المجلة والحقيقة أن هذه الشركة جمعت الكتب الصفراء التى تباع على الأرصفة وتتكلم عن الجن والشعوذة وحولتها إلى صورة إليكترونية فى شكل إسطوانة CD، فى الوقت الذى تعتبر إسرائيل الدولة رقم واحد فى الشرق الأوسط فى إنتاج تكنولوجيات المعلومات من برامج وأجهزة جادة ومفيدة والهند تصدر كل عام برامج كمبيوتر بعدة مليارات من الدولارات، بل وانتجت أخيرا برامج كمبيوتر يستطيع الشخص الأمى الذى لا يعرف القراءة والكتابة التعامل من خلالها مع الكمبيوتر! والمثل الثانى من السعودية فقد أذاعت أسوشيتد برس فى ٢٠٠١/٤/٢٩ على لسان مسئول سعودى أن المملكة العربية السعودية ستستخدم تقنية متقدمة لحجب نحو ٢٠٠ ألف موقع على الإنترنت، مضاعفة بذلك عدد المواقع الممنوعة من قبل السلطات السعودية وقال المشرف على الإنترنت بمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتكنولوجيا إنهم يقومون بحجب المواقع الممنوعة بشكل يومى مضيفا أن تقنية جديدة سيبدأ العمل بها قريبا وأكد المشرف أن مزيدا من المواقع سيتم حجبها تدريجيا خلال هذا العام بعد استخدام التقنية الجديدة، بيد أنه لم يذكر مواصفات تلك التقنية أو المواقع المستهدفة بها وتقول الأنباء إن

معظم مواقع الإنترنت المحظورة في السعودية التي سمحت بدخول هذه التقنية عام ١٩٩٩ تحتوى على انتقادات للنظام السعودى أو الأنظمة الخليجية المجاورة أو مواقع ذات محتوى إباحي وتستخدم السعودية أحدث الأنظمة فى مجال حجب مواقع الإنترنت لكنها مع ذلك لم تستطع منع نحو ٤٤٪ من مستخدمي الشبكة من دخول المواقع المحظورة.

والمثل الثالث جامع وشامل ويعكس الكيفية التى يؤثر بها نظام المجتمع فى الطريقة التى يوظف بها تكنولوجيات المعلومات فقد انتشرت فى الويب مواقع كثيرة تتحدث عن الإسلام، وحينما شرعت فى الكتابة عنها، تراقصت أمام عينى كل المحرمات الثقافية التى تسجن عقولنا، واعترف لكم أننى لا أملك المقومات المعرفية، التى تمكنى من نقد تلك المحرمات الثقافية واعترف أيضا أننى لا أستطيع تحمل تبعاتها فى مجتمع يكفر كل من يختلف معه فى الرأى، فأنا لا أملك جرأة وشجاعة اقتحام المحرمات الثقافية، ومناقشتها، ونقدها، ولا أملك العقل الناقد لعلى عبدالرازق وطه حسين ولطفى السيد وسلامة موسى وشلبى شميل، وفرح انطوان ولويس عوض وزكى نجيب محمود ونجيب محفوظ ونصر أبو زيد وغيرهم ممن من ملكوا القدرة المعرفية وشجاعة النقد، حتى وصل الأمر بتكفيرهم ومحاولة قتلهم لذلك حاولت الحرص والحياد فى كتابة هذا الجزء من المقال، وكنت أقرب إلى الرصد، وأبعد من النقد، وعلى القارئ أن يستنتج المعانى التى لم أقصدها!

فإذا دخلت الإنترنت وبحثت عن الإسلام تجد آلاف المواقع غالبيتها بالانجليزية وبقيتها بالعربية والفرنسية والألمانية والعبرية والفارسية والتركية والاردية بكل لغات العالم وأن كل من هب ودب عمل موقع وأعطاه الصفة الإسلامية، وأخذ يبث أفكاره، بصرف النظر عن صحتها من عدمها، وكل موقع نصب نفسه راعى حمى الدعوة الإسلامية واكتشفت أنه يستحيل الكلام عن العالم الإسلامى في الإنترنت باعتباره كتلة واحدة أو رؤية إسلامية موحدة فالمواقع الإسلامية التى تعكس فلسفة الشيعة، مختلفة عن تلك التى تعكس فلسفة السنة وتختلف أيضا تلك المواقع حسب الجهة التى تصدر منها، من المنطقة العربية أو أمريكا أو أوربا وهكذا، بل أن المواقع الإسلامية السلفية يختلف كل منها عن الآخر باختلاف الدولة

التى ترعاه فهذا يعكس الإسلام السعودى بفتاويه المعروفة، وذاك يعكس فلسفة شيوخ قطر وآخر يمثل المواقع التى تصدر من باكستان وأخرى مختلفة فى أندونيسيا وجنوب أفريقيا ونيجيريا وهكذا! حتى المواقع الإسلامية فى الويب الصادرة من أوروبا تختلف من مجتمع أوربى إلى آخر حسب أوضاع المسلمين فى كل مجتمع وتكرر فى كل المواقع تقديم الخدمات التعليمية الإسلامية كل حسب لغة الموقع من قرآن وسنة وحديث وصلاة وزكاة ومعاملات مالية وحج وفتاوى، وكل حسب مستوى الموقع فى التصميم، وأبرز الملحوظات على معظم المواقع الإسلامية الصادرة من المنطقة العربية التكرار الشديد، وقليل منها ما أتى بجديد وغياب أدوات البحث، وكثرة القوائم البريدية الإليكترونية ولم تضارع مواقع الأديان الأخرى من حيث الكيف والكم . ولا يخفى على المتابع لتلك المواقع أن كلا منها ينتمى إلى بلد معين على الرغم من ادعاءات الجميع التى تقول أن مواقعهم للمسلمين فى كل مكان بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية والمذهبية ويمكن القول إن ٧٠٪ من تلك المواقع ذات اتجاهات فكرية تتبع المنهج السلفى، ونقلوا لمواقعهم كل أمراض الظاهرة الإسلامية وهم يمثلون أغلبية المواقع، ولم نقرأ فى أى موقع عن كيف نحاكم حكام المسلمين الفاسدين؟ وكيف نحاسبهم؟ بل العكس هناك فتاوى تؤكد على طاعة والانصياع للحكام! لأن مخالفة الحكام هى مخالفة لله تعالى! وتسود تلك المواقع فتاوى وأحاديث الشيوخ الذين انتجهم النفط، وهم أصحاب مصلحة اقتصادية حقيقة وأصيلة فى فتاويهم وتفسيراتهم ويغيبون العقول فى فقه دوره المياه، والمرأة والجن والأنس، والزواج من الجنيات والشياطين، ومحاربة أفكار الانحلال والملاحدة والشيوعيون والزنادقة وفى بعض هذه المواقع نقلوا الكتب الصفراء من على الأرصفة إلى صورة اليكترونية صفراء أيضا فى الإنترنت نفس الرؤية نفس المشاكل نفس الفتاوى عن الجن والشياطين والجنس والمرأة ويسأل المسلمون فى الإنترنت هل المرأة شر كلها!! وعن السفور والحجاب؟! عن حب المرأة لغير زوجها؟ هكذا لا يعرفون ماذا يفعلون بالمرأة فهى شغلهم الشاغل حتى فى الإنترنت! ولا أحد يسأل كيف تحارب الفساد والقهر الذى يعانى منه المسلمون فى المنطقة كيف نزود إنتاجنا؟ كيف

نشـــارك العـــالم فى اخـــتـــراعـــاتـه التكنولوجية؟! كيف نسد الفـجـوة التكنولوجـيـة بيننا بين إســـرائيل! وهكذا نتكلف بنيــه أساسية ونستورد أحدث التكنولوجيات لندخل الإنترنت لكى نسـأل عن العفاريت والجن وزواج الإنسان من الجن ونشترى ونسـمع أناشـيـدا وتحـولت مـعظم تلك المواقع فى الإنتـرنت إلى سـوق مـفـروش مثل الأسـواق التى تفرش أمام المساجد لبيع الكتيبات الصفراء وشرائط الكاسيت والفـيـديو ، التى تتكلم عن غـسـيل الموتى والنـهـاية السـوداء لكل من لا يسـمع تلك الشـرائط . إن تلك المواقـع تشـجع وتنمى قيم التزمت وحـجب وعزل المرأة والمبالغة فى النزعة الذكورية وتفضيل الماضى ونبذ العلم والتـفكير العلمى وتضـخـيم النزعـة العـائلية والقبليـة وتنمـيـة الروح القـدرية وذلك لخدمة نظمـهـا السـيـاسـيـة، وتنتشـر الأفكار المسطحـة والسلوكيـات المصـابة بالانفـصـام بين الكلام والعـمل وفى تلك المواقع سـواء باللغة العربية أو الانجليزية والألمانية وغيرها من اللغـات مـثل الاردية والأندونسـيـة تنتشـر فـيـهـا لغـة التـهـديد والوعيد، وإتـهـامـات بالكفـر، وأن الغـرب وأنصـاره ملاعين شيـاطين يعيشـون فى ظلمـات ونجاسـات ويعـتـرضـون على نشر تشـريع الله وحكمـتـه وهذه المواقع بـعـيـدة تمامـا عن المشاكل الحقيقية والواقعية فى المنطقة الإسلامية من قصور نظم التعليم، وتخلف سـيـاسـى واقـتـصـادى وثقـافى، وفسـاد وإفسـاد وانفـجار سكانى وغيـاب التـعـاون العـربى والإسـلامى والتـخلف التكنولوجى تلك القـائمــة الطويلة من مـشـاكل العـرب والمسلمين تلك المواقع لا تقـدم كـيـف نحـول الطاقـة الدينيـة التى يملكها المسلمون إلى طاقة إنتاجية فعالة تقـابل احـتـيـاجـات العـصـر، وتظهـر فى سلوكيات المسلمين اليومية ومن جانب آخر هناك الكثير من المسلمين من جنسـيـات أمـريكيـة وأوربيـة اسلمـوا فى بلادهم أو انحـدروا من أسـر مـسلمـة تعيش هناك وأغلبـهـم من الزنوج أنشـأوا العـديد من المواقع الإسـلامـيـة بلغة بلدانهم الأجنبية وأغلبـيـتـهـا بالانجليزية وهى تقـدم القـرآن والسنة والأحـاديث ومواعيد الصلاة والحج والصوم وكيفية أدائها والزكاة، وتحاول أن توظف الدين فى خـدمـات حـيـاتيـه يوميـة لهؤلاء المسلمين، ولـهم كتبهم ومطبوعاتهم ومجلاتهم ودعاتهم ومشـايخـهم وأغانيهم وأناشـيـدهم الخـاصـة إنهم لا يعرفـون أى



مؤسسة دينية رسمية أو أهلية من المنطقة الإسلامية الكلاسيكية بل لهم منظماتهم وهيئاتهم وهم هناك لهم همومهم كأقليات وتفسيراتهم للإسلام وفقا لعاداتهم وتقاليدهم هناك، والبعض منهم يطالب بفقه إسلامي خاص بهم يناسب احتياجاتهم هناك، بل إن البعض افتى هناك بسماح زواج المسلمة من غير المسلم ولوحظ الندرة الشديدة فى المواقع الأكاديمية العربية التى تتكلم عن ا لإسلام مقابل كثرة المواقع الأكاديمية الأجنبية التى تبحث فى جميع الأديان ومنها الإسلام، فجامعات مثل اكسفورد، وبيركلى، وكورنيل وغيرها من الجامعات العالمية خصصت مواقع للدراسات الإسلامية تتكلم لغات العالم المختلفة أغلبها الانجليزية وهى غنية جدا بالكتب والبحوث الإسلامية وفيها فيض ضخم من المعلومات الأكاديمية عن الإسلام، فهل يعرف دارسونا فى الإسلاميات تلك المواقع فهى تحت أيديهم هل يملكون المهارات التكنولوجية واللغوية فى الدخول إلى تلك المواقع ونقد وتفنيد تلك الدراسات؟!

أظن بعد هذه البانوراما السريعة للمواقع الإسلامية فى الإنترنت أصبح واضحا تماما للقارئ كيف يؤثر نظام المجتمع فى توظيف واستعمال تكنولوجيات المعلومات فالانترنت وسيلة إيجابية فعالة للتواصل الإسلامى والعربى ويمكن أن تقوم بدور كبير فى تعليم المسلم خاصة الجيل الجديد عقائد دينه السليمة من خرافات وعبادات خالصة من البدع والتشويه والتعسير والتعقيد والمعاملات السليمة بدون تزمت وتسيب وتفتح الإنترنت الأبواب كلها حتى يمكن للعالم كله سماع صوت المسلمين، وهم يدافعون عن الإسلام ويفندون تلك الادعاءات الباطلة عنه، وتتيح الفرص للتواصل مع الديانات الأخرى . إن الوعاء الإليكترونى للثقافة الإسلامية فى الإنترنت فى مواجهته مع التحديات الجديدة فى القرن الجديد يحتم على تلك الثقافة أن تتكلم لغة العصر.

والسؤال المطروح الآن على المسلمين، هو كيف يوظفون تكنولوجيات المعلومات وخاصة الإنترنت لخدمة الإسلام؟! لكن هذا التوظيف يستلزم أولا تغيير المنظومة الاجتماعية والسياسية والإدارية للمجتمعات العربية والإسلامية! ■

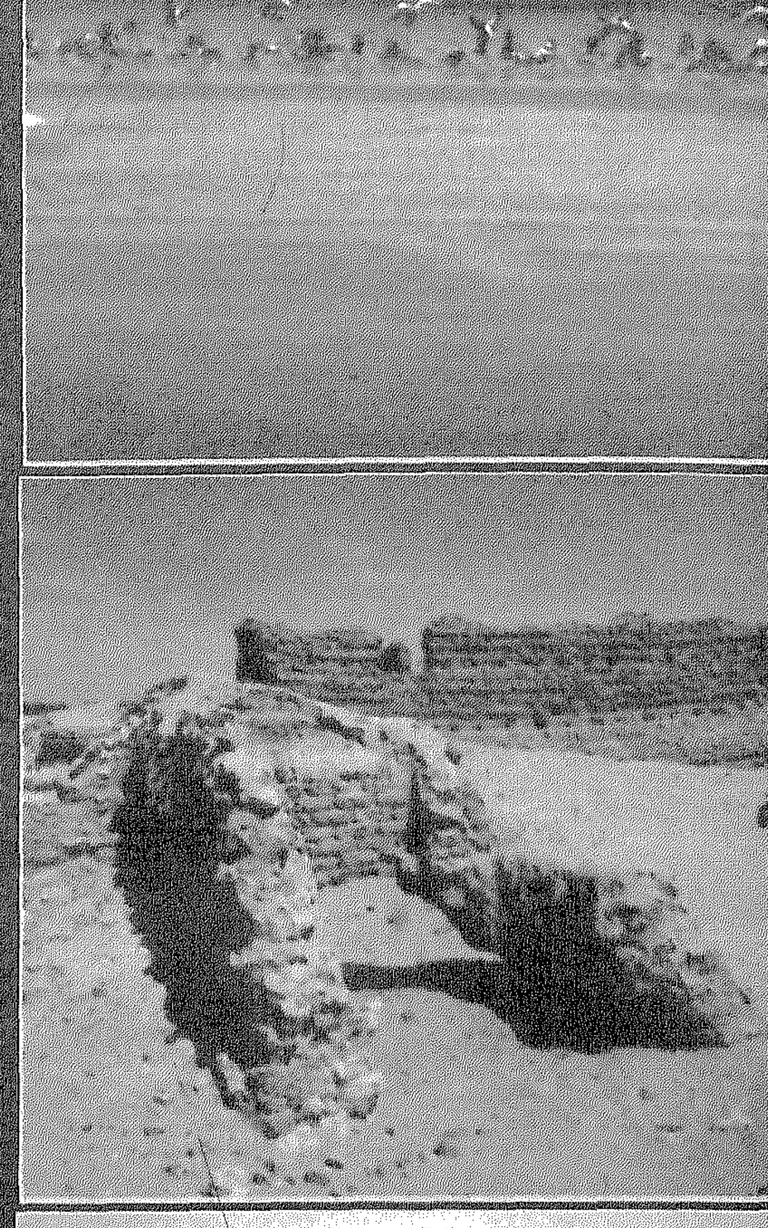

الفيوم
واحة مصر الجميلة

بقلم
د.ماهر شفيق فريد

«باردة الأسحار ، بارزة الأشجار ، كثيرة الثمار ، قليلة الأمطار» .

هكذا وصف الفيوم - منذ أقل من ٧٥٠ عاما خلت - أبو عثمان النابلسى وهو أمير سورى كان حاكما عليها . لم يمل النابلسى كثيرا إلى سكان الإقليم ، ولكنه كان شديد الإعجاب بغنى الأرض وجمالها ، وكانت تذكره بغوطات دمشق وبساتينها .

بهذه الكلمات يبدأ رونيل هيوسون كتابه «الفيوم : تاريخ ودليل» (١) الذى صدر عن الجامعة الأمريكية الطبعة الثالثة - فريدة ومنقحة ، من كتاب غدا منذ صدوره فى ١٩٨٤ أوفى دليل إلى هذه المحافظة الجميلة ، مزودا بالصور الملونة والخرائط مع ببليوجرافيا بأهم الكتابات السابقة عنها بالانجليزية والفرنسية .





الفيوم - جغرافيا - منخفض كبير خصب فى صحراء مصر الغربية، على مبعدة قرابة تسعين كيلو مترا جنوب غربى القاهرة، وهى غنية بتذكارات التاريخ وجمال الطبيعة على السواء، إن ميراثها التاريخى يشمل معابد وأهرامات ومدنا يرجع تاريخها إلى المملكة الوسطى والعصر البطلمى فضلا عن كنائس وأديرة ومساجد من عصور لاحقة. وأراضيها التى ترويها السواقى من بين أخصب الأراضى فى مصر، كما يمتاز منظرها الطبيعى بالتنوع والجمال. إن بركة قارون الكبيرة القديمة تقع منها فى الشمال بين الأرض الخضراء من جهة والصحراء القاسية من جهة أخرى. وحديثا حفرت بحيرتان - تصل بينهما الشلالات الوحيدة فى مصر - فى وادى الريان غربا - وهو الوادى الذى كان مجدبا قاحلا - مما جعل الصيادين والمزارعين والسائحين يقبلون على ما كان من قبل منطقة صحراوية، ولم تعد التماسيح - التى كانت مقدسة فى الأزمنة القديمة - تعيش فى مياه الفيوم، ولكن الحياة البرية فيها غنية بالقطط البرية والنمس وطيور أبى ملعقة والبشروش وأبى قردان.

ويقدم الكتاب لمحات من تاريخ الفيوم (بل وعنها فى حقبة ما قبل التاريخ) وبحيراتها واصفا زراعتها وحياة الفلاحين فيها وأهم مواقعها الأثرية وأماكنها السياحية حائدا عن الطريق الرئيسى - كلما دعا الأمر - لكى يتوقف بهذه البقعة أو تلك، داعيا إيانا إلى استكشافها والتعرف عليها.

***

ليست الفيوم، طوبوغرافيا، جزءا من وادى النيل أو من الدلتا، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا يمكن القول بأنها جزء من الصعيد، ولا الوجه البحرى، ولا حتى مصر الوسطى، وليست واحة (وإن دعوناها كذلك فى عنوان هذا المقال) حيث إنها تعتمد تماما على مياه النيل، وإنما هى منخفض طبيعى كبير أشبه بمنخفض القطارة وإن تكن أخصب تربة. ومجموع مساحتها حوالى أربعة آلاف كيلو متر مربع. ومناخها معتدل لطيف فهى ليست حارة فى الصيف حرارة أقاليم مصر العليا. وأمطارها فى الشتاء ليست بغزارة أمطار القاهرة والوجه البحرى، إن المطر فيها قد يسقط فى أى فترة بين شهرى أكتوبر ومايو، ولكن الأرجح أن يكون سقوطه فى ديسمبر ويناير وفبراير، وهو عادة مطر خفيف لا يدوم طويلا.

وتعداد سكان المحافظة - بحسب آخر تعداد فى ١٩٩٦ - يقرب من المليون و ٩٨٩ ألف نسمة (أى حوالى ٣٪ من مجموع سكان مصر). وقربها من القاهرة يجعل من اليسير على كثير من سكانها أن يعملوا أو يدرسوا فى العاصمة ثم يعودوا إلى الفيوم فى عطلة نهاية الأسبوع للاستمتاع بالراحة وطهو البيت على حد تعبير المؤلف! على أنه قد افتتحت بالفيوم، فى السنوات الأخيرة، كليات للتربية والزراعة والهندسة والخدمة الاجتماعية والطب. وكلها تتبع جامعة القاهرة.

وأهم محاصيل الفيوم الزراعية القطن الذى تشرف الحكومة على زراعته وهو يزرع فى أبريل ويجنى فى سبتمبر وينمو



الطبيعة الخضراء أهم ما يميز الفيوم

أساسا فى المناطق الوسطى من المحافظة. أما المناطق الهامشية، حيث التربة أكثر رميلة ، فتزرع الطماطم من سبتمبر إلى أبريل، فضلا عن كثير من الأعشاب الطبية والعطرية.

ماذا عن تاريخ الفيوم؟ فى الأساطير المصرية القديمة إن بحيرتها الكبيرة كانت هى نون، المحيط الأولى وأصل كل حياة ، بينما الأرض المرتفعة المحيطة بعاصمة الإقليم هى التل الأولى الذى برغت فيه الحياة لأول مرة.

البحيرة المقدسة

ويقول ديودور الصقلى إن الملك مينا موحد القطرين خرج فى حملة صيد بالفيوم، ولكن كلابه هاجمته قرب البحيرة ولم ينقذه منها سوى تمساح حمله على وجه الماء الى بر الأمان. وعلى سبيل العرفان بالجميل جعل البحيرة مقدسة للتماسيح، وأقام المدينة التى تعرف الآن باسم كيمان فارس والتى غدت مركزا لعبادة التسماح الإله سوبيك وقد ظل سوبيك. هو كبير أرباب الفيوم طوال عهد الاسرات والعصر اليونانى حتى العصر الرومانى وكانت كل المعابد تبنى. او تبنى جزئيا على الأقل لاسمه. وقد شاهد كل من هيرودوت وسترابو تمساحا مقدسا كان يحتفظ به فى المعبد الرئيسى لمنطقة كيمان فارس.

وأغلب الظن أن أمنمحات الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، هو الذى غمر الفيوم بالمياه لكى ينشىء البحيرة التى وصفها هيرودوت بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة وما لبث سنوسرت الأول أن شاد مسلة أبجيج، وكان هرم اللاهون قبرا لسنوسرت الثانى.

وفى أعقاب وفاة الاسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ ق.م شرع بطليموس الأول فى تجفيف البحيرة، واستصلح حوالى ١٢٠٠

كيلو متر مربع من الأرض الخصبة. وواصل ابنه بطليموس الثانى (فيلادلفوس) عمله فمنح هذه الأرض لضباطه وجنوده الإغريق والمقدونيين الذين استقروا بالإقليم.

غدت مصر ولاية رومانية بعد أن استولى عليها أغسطس قيصر عام ٣٠ ق.م واستمرت الفيوم على ازدهارها بعض الوقت ، ولكن أحوالها بدأت تتدهور إذ اضطربت أحوال الإمبراطورية الرومانية الكبرى، وأعوزها الاستقرار، ودبت فيها عوامل الاضمحلال، ومع تقسيم الامبراطورية إلى قسمين فى ٣٩٥م غدت مصر خاضعة للامبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة . وظلت المسيحية هى الدين الرسمى الى أن فتح العرب مصر وغدا الإسلام ديانة أغلب المصريين.

تدهورت أحوال الفيوم فى ظل الاتراك العثمانيين الذين حكموا مصر من ١٥١٧ الى ١٧٩٨ . وكانت اسطنبول ترسل، مرة فى السنة ، قاضيا إلى الإقليم بينما يحكم نائبه بقية العام فى ديوان ينعقد مرتين فى الاسبوع ويحضره ستون من مشايخ العرب.

وفى يوليو ١٧٩٨ - بينما كان اثنان من البكوات المماليك، مراد بك وابراهيم بك يحكمان مصر - غزا جيش نابليون البلاد وهزم المماليك فى موقعة الاهرام. حتى اذا رحل الفرنسيون عن مصر فى ١٨٠١ نشب صراع على السلطة بين الأتراك والمماليك إلى أن استتب الأمر لمحمد على الذى استولى على الفيوم فى يوليه ١٨١٠ ، وفى العام التالى دبر مذبحة المماليك فى القلعة فدانت له البلاد من أدناها إلى اقصاها.

ويذكر بديكر - صاحب الدليل السياحى المشهور - ان الخديوى اسماعيل كان يولى الفيوم عناية خاصة لاسيما وقد كان فى وقت من الاوقات يملك خمس أراضى مصر المزروعة ومع الاحتلال البريطانى لمصر قرب نهاية القرن التاسع عشر مهد البريطانيون عدة طرق وأنشأوا أنظمة للرى يسرت استصلاح الأراضى.

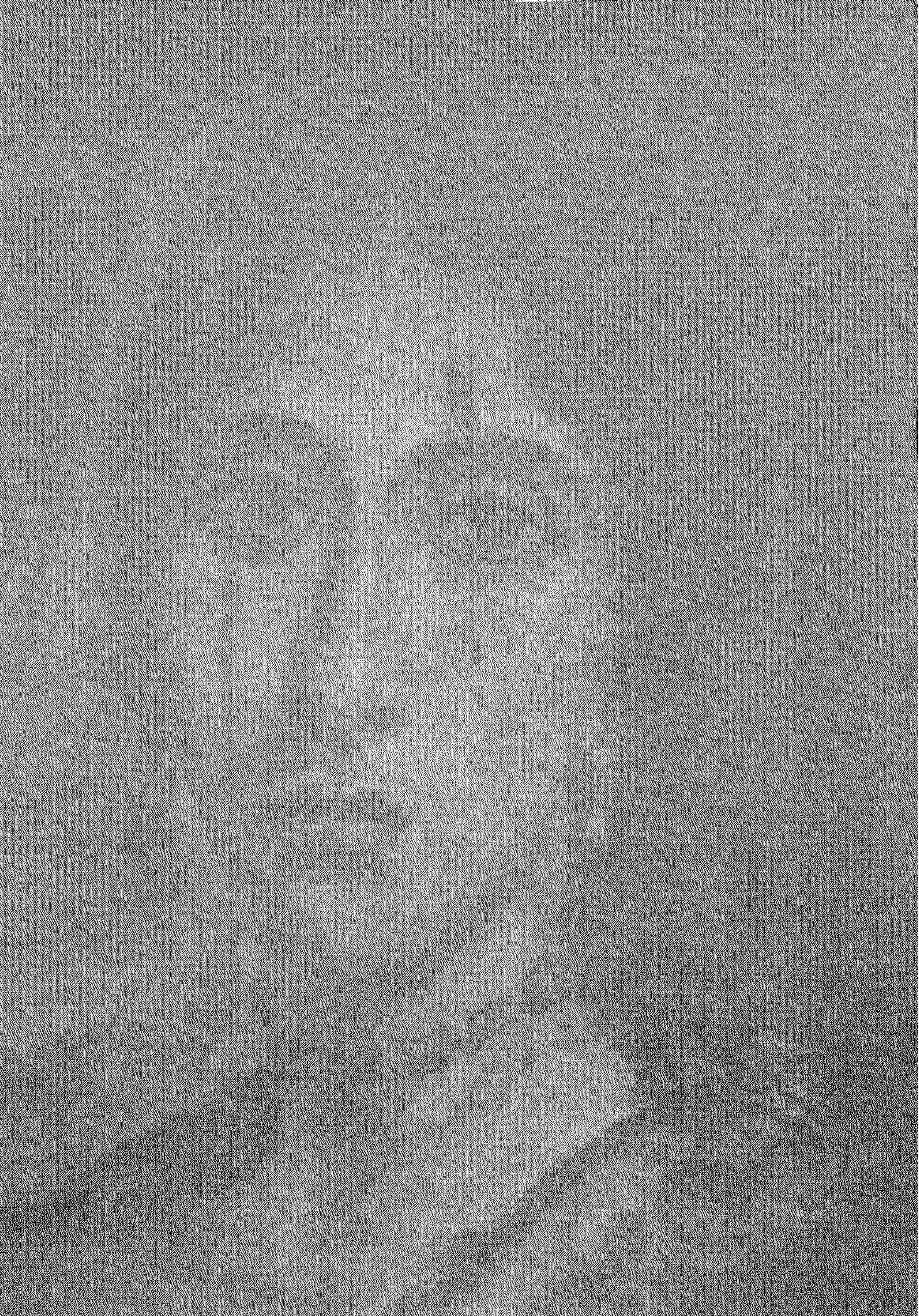
ومع صدور قوانين الاصلاح الزراعى التى اعلنها الرئيس جمال عبدالناصر فى الخمسنيات تمكن الفلاحون - لأول مرة - من امتلاك الأرض التى يفلحونها، وأنشئت عدة جمعيات تعاونية لمساعدة الفلاح ودخلت الكهرباء القرى.

قصر التيه

وينتقل بنا المؤلف إلى أوائل الرحالة الذين زاروا الفيوم وأبرزهم هيرودوت من هاليكارناس الذى زارها فى منتصف القرن الخامس ق.م. وسجل انطباعاته عنها فى المجلد الثانى من كتابه المسمى «التواريخ» وخلال رحلته شاهد قصر التيه «اللابيرنث» بالهوارة حاليا، والبحيرة التى كانت أصلا لبحيرة قارون، كما حدثنا عن التمساح المقدس الذى كان موضع رعاية وتبجيل هنا.. بخلاف الحال فى جزيرة فيلة.. مثلا، حيث كانت التماسيح تصاد وتؤكل.

وسترابو رحالة اغريقى آخر جال فى انحاء مصر فى العقد الثالث ق.م أى قبل أن تغدو البلاد ولاية رومانية بفترة قصيرة وبعد اكثر من مائتى سنة من استقرار الإغريق البطالمة والمقدونيين فى الفيوم وقد نوه سترابو بخصوبة التربة وكونها الإقليم الوحيد فى مصر الذى يزرع أشجار

◄ إحدي لوحات «وجوه الفيوم»



الزيتون وينتج زيت الزيتون.

وقد شرع الرحالة والمغامرون الاوربيون فى استكشاف الشرق الاوسط فى القرن السابع عشر، وكان أغلبهم مدفوعا بالرغبة فى مشاهدة الاثار التى تحدث عنها هيرودوت وسترابو.

وفى يناير ١٨٠١ شرع الدكتور ب . د. مارتان. وهو مهندس فرنسى جاء مع حملة نابليون – فى استكشاف الاقليم، خاصة بركة قارن، بعد أن نال ثقة البدو، ترك لنا سجلا لرحلاته التى وصلت به الى مشارف الصحراء فى كتاب «وصف مصر».

ومن الماضى ننتقل الى الحاضر : إن مدينة الفيوم اليوم تقع على أرض مرتفعة «حوالى ٢٢ مترا فوق سطح البحر ، وحوالى ٨ أمتار تحت مستوى النيل فى بنى سويف جنوب شرقى منخفض الفيوم على كلا شاطئى بحر يوسف.

ظلت المدينة فى موقعها الحالى منذ القرن الثالث عشر على الاقل حين كان يحكمها ابو عثمان النابلسى وفى كتابة المسمى «تاريخ الفيوم» وبلداتها المكتوب فى ١٢٤٥ يذكر أن الفيوم – وهى على مبعدة ثلاثة أيام من الفسطاط – بنيت على كلا شاطئى بحر يوسف، كما هو الشأن الآن. كان لكل نصف من المدينة اسواقه. بينما تزخر المنطقة كلها بالبساتين والحدائق الخصبة التى تخرج فاكهة من كل نوع وياسمين وورداً.

واذا كنا قد أشرنا الى أسطورة الملك مينا والتمساح . فإن لأهل الفيوم فى عصرنا الحاضر أساطيرهم . فهم يعتقدون ان مدينتهم بنيت فى الف يوم. ومن ثم سميت «مدينة الف يوم» التى ما لبثت ان حرفت – بتغيير يسير – إلى «مدينة الفيوم» انها قصة جذابة ولكنها للاسف بلا سند من الواقع ، فكلمة الفيوم مشتقة من كلمة قبطية هى بمعنى «البحر».

وأهم معالم الفيوم السياحية هى: مسلة أبجيج الجرانيتية وقد أقامها سنوسرت الأول (ثانى ملوك الأسرة الثانية

منظر خلاب لبحيرة قارون



عشرة وبانى مسلة هليوبوليس الشهيرة) وقد انطمست للأسف نقوشها وغدا من الصعب قراءتها ، وكيمان فارس شمالى المدينة، والسبع سواقى (رمز محافظة الفيوم) وهى سوداء صلبة لامعة ينبثق الماء من قواديسها، والمسجد المعلق، ومسجد قايتباى ، وقبة مسجد على الروبى، وكنيسة العذراء، والسوق حيث الصاغة.

عين السيليين

وهناك عين السيليين بحدائقها ومياهها ومزارعها الوفيرة ومياهها المعدنية التى يعتقد أنها قادرة على شفاء العديد من الأمراض. وبركة قارون التى تقع تحت سطح البحر بـ ٤٥ مترا فى القسم الشمالى الأدنى من منخفض الفيوم، وتحمل اسم قارون الذى ترد قصته فى العهد القديم وفى القرآن الكريم . فنحن نقرأ فى سفر العدد (الإصحاح السادس عشر) «قارون» (قورح) تمرد على موسى ومن ثم عاقبه الله بأن خسف به الأرض مع أسرته وممتلكاته.

فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت. عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة. وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور».

فى سورة «القصص» (٧٥ - ٨٢) نقرأ قوله تعالى:

«إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما أتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا

«السواقى السبع » أهم معالم الفيوم



يحب المفسدين.، قال انما اوتيته على علم عندى او لم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته. قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون».

ويتوقف بنا المؤلف عند الأوبرج الذى كان فى وقت من الأوقات استراحة للملك فاروق ومسرح محادثات سياسية وزعماء منهم تشرشل والملك ابن سعود فى فبراير ١٩٤٥ ، وبركة قارون التى تبلغ مساحتها ٢١٤ كيلو مترا مربعا ، ووادى الريان وهو منخفض كبير فى الصحراء غربى الفيوم يعرفه مشاهدو فيلم «المهاجر» ليوسف شاهين ، وقد صورت فيه عدة لقطات سينمائية وفيديو كليبات لجماله ومناظره الطبيعية .

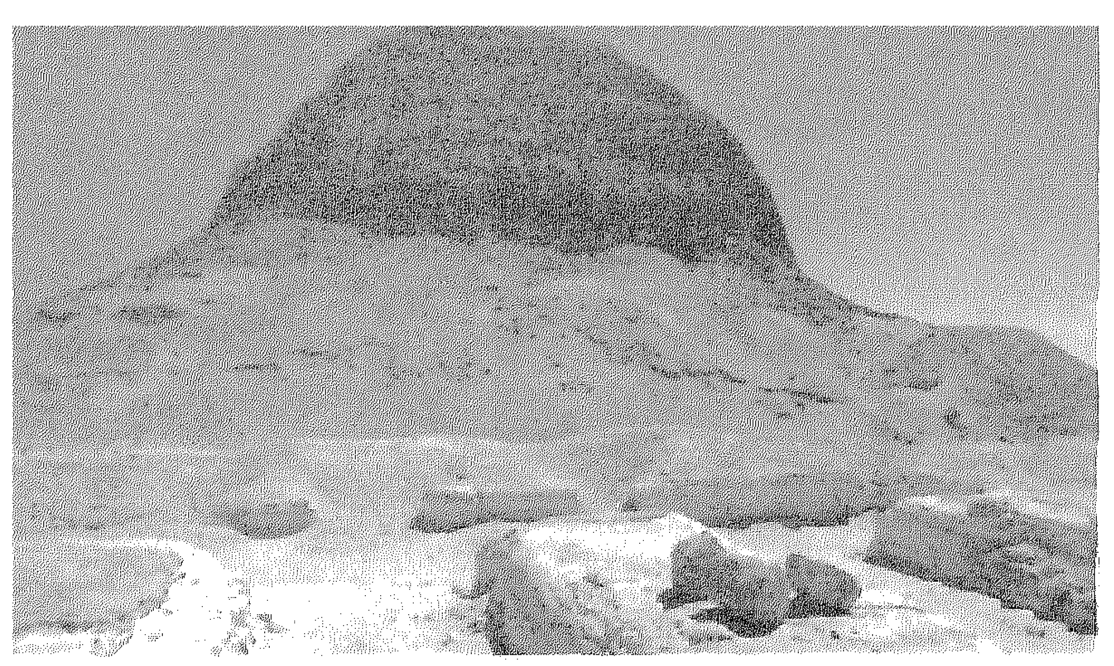
وفي الفيوم عدد من الأديرة أقيمت فى الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد ، أى بعد فترة قصيرة من نشأة نظام الرهبنة فى صحراء مصر الشرقية . وأهم هذه الأديرة : دير الغرب ، ودير الملاك (٢) .

أما مواقع الفيوم الأثرية فاهمها كوم أوشيم (وهى بلدة من العصر البطلمى الرومانى تضم متحفا) وديمية السباع (بلدة من العصر البطلمى تضم معبدا من عصر المملكة الوسطى) والصنم (قواعد تمثالين لأمنمحات الثالث من عصر المملكة الوسطى) وقصر قارون (معبد بطلمى مازال محتفظا ببهائه) ومدينة ماضى (تضم معابد من الأسرة الثانية عشرة والعصر البطلمى ، أما المدينة فقد غدت أطلالا دارسة) وأم البريجات (مصغر : برج ، وتضم معبدا من المملكة الحديثة) وهرم هوارة (بناه أمنمحات الثالث من عصر المملكة الوسطى ، وفيه كان قصر التيه «اللابيرنث») وهرم اللاهون (بناه سنوسرت الثانى من ملوك المملكة الوسطى) وهرم ميدوم (بناه سنفرو ، المملكة القديمة) وأم الأثل (قرية بطلمية / رومانية) وهرم سيلا (هرم غامض بناه سنفرو / المملكة القديمة) .

وتكتنف هالة من الأساطير كثيرا من هذه المواقع فجنوب شرقى المعبد الحجرى لمدينة ماضى ، مثلا ، بلدة تربط المأثورات بينها وبين أبى زيد الهلالى ، بطل الملحمة الشعبية ، زاعمة أنه قاد رجاله من صحراء نجد عبوروا بمصر إلى تونس فى القرن الحادى عشر للميلاد . وحين وصل إلى البلدة طلب من حاكمها الملك ماضى أن يزوده بالطعام والسكن . ولكن الملك رفض طلبه فسوى أبو زيد البلدة بالأرض ومحاها محوا وقتل الملك وكل رعاياه واستولى على كل ما يريد من مئونة ثم مضى فى طريقه لا يلوى على شيء .

أما قصر التيه ، قرب هرم هوارة وكان معبدا جنائزيا للملك أمنمحات الثالث فقد اختفى كل أثر له ، للأسف ، وقد كتب عنه





الفيوم ليست مدينة زراعية فقط وانما احتوت على عدد كبير من الآثار المصرية القديمة

هيرودوت يقول (٣) :

«لقد رأيته بنفسي ، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان . إذ لو قدر لامرىء أن يجمع معرضا للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون ، لبدت عملا أقل من هذا «اللبيرنث» بشأن ما تطلبه من نفقات ومن عمل شاق . ولو أن معبدي «إفسوس» و«ساموس» ليستحقان الكلام كذا لاحظنا أن الأهرام تجل عن الوصف وأن كلا منها يكافىء كثيرا من آثار يونانية ، حتى عظيمها . ولكن «اللابيرنث» يفوق الأهرام أيضا وبه إثنا عشر بهوا مسقوفا مداخلها متقابلة ، ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متتابعة ، يحيط بها سور خارجي واحد . وهناك نوعان من القاعات ، بعضها تحت الأرض وبعضها فوق الأرض ، تحت سطح الأرض . وعددها ثلاثة آلاف قاعة . خمسمائة وألف من كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التي فوق سطح الأرض وجسنا خلالها وإنا لنتكلم عما شاهدناه بأعيننا .. أما القاعات التي تحت الأرض فوقفنا على أمرها مما قيل لنا ، لأن هؤلاء الذين يشرفون عليها من المصريين لم يرضوا البتة أن يرونا إياها ، مدعين أنه توجد بها توابيت الملوك الذين بنوا ، أول الأمر ، ذلك اللابيرنث ، وبها توابيت التماسيح المقدسة أيضا وهكذا تلقفنا الحديث عن القاعات السفلى ، وعرفناه عن طريق السماع ، أما القاعات العليا فقد رأيناها بأعيننا وهي تفوق أعمال البشر . فالممرات خلال الردهات والمنعرجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الأبهاء كانت لنا مصدر إعجاب لا حد له ، أثناء مرورنا من البهو إلى القاعات . ومن هذه إلى الأروقة ، ومن هذه إلى ردهات أخرى ومن القاعات إلى سائر الأبهاء. وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران ، والجدران ممتلئة الأشكال المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض متداخلة بإتقان فائق» .

الثقافة والمطبخ

• تقاليد وعادات الأكل والتفاعلات الثقافية بين الشعوب
• أسماء بعض الأكلات تمثل مصدرا مهما عن العلاقة بين الثقافات

بقلم
جميل مطر

اثنان من كبار المفكرين الأمريكيين أثارا اهتمامى لمدة طويلة . الاثنان ديانتهما يهودية ، والاثنان لا يخفيان كراهيتهما للعرب والمسلمين . والاثنان مبدعان فى تخصصهما . واحد من الاثنين وليام سافاير الكاتب فى صحيفة نيويورك تايمز ، وصاحب العمود الأسبوعى الشهير تحت عنوان «لغة» . فمن هذا العمود تعلمت وغيرى الكثير . وأحاول ألا يفوتنى قراءة ما يكتب فى هذا العمود وحين أقرأ ما يكتب فيه أنسى أنه يكرهنى . وكثيرا ما جال فى خاطرى أن للرجل شخصيتين .. شخصية إنسان ودود وبالغ الدقة فى كل كلمة وحرف يكتبهما ، وشخصية إنسان حقود وكاذب وعنصرى وسخيف . أكاد لا أصدق أن من يكتب هذه الروائع فى عمود اللغة يستطيع أن يكتب بكل هذه الكراهية فى عموده السياسى .



الثانى هو بنارد لويس المؤرخ والمستشرق ، وقد صار المرجع الأساسى لكل باحث أو قارئ مهتم بالإسلام والعرب والشرق الأوسط . بل لعله المستشار الأهم لعديد من أجهزة صنع السياسة الغربية المتصلة بالشرق الأوسط ومشكلاته ، وبخاصة العلاقة مع الشعوب والحكومات الإسلامية . ولما كان انحيازه ليهوديته ، أو لقبيلته اليهودية شديدا ، وبسبب اختراق هذا الانحياز لموضوع تخصصه ، وهو الإسلام والشرق الأوسط ، تعلمت عندما أقرأ ما يكتب أن أكون حريصا و«شكاكا» . إنه أحد المؤرخين ، وفى صدارة المفكرين ، الذين يثيرون فى نفسى نوازع لا أحبها ، ومنها الاحتماء بقبيلتى فى مواجهة التزامه الصارخ والمتزمت بقبيلته .

***

وقعت منذ فترة على مقال كتبه برنارد لويس تحت عنوان «فى منطقة الإصبع» ، ونشرته له مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» فى أحدث ما وصلنى من أعدادها الأخيرة . بدأت بمقاله ، وكان ممتعا ، رغم ما يصيبنى عادة من تحفز خلال قراءة مقالاته . فبعد قراءة سطور قليلة اتضح أنه يكتب عن تقاليد وعادات الأكل ، ومصادر وأسماء مأكولات وفاكهة فى مختلف المجتمعات ومنها الشرق الأوسط . ولما كانت الأكلات وما يتصل بها هواية فضلتها فى معظم الأحيان عن هوايات أخرى ، فقد وضعت هذا المقال فى صدارة المقالات التى احتفظ بها للامتاع عند اللزوم وفى الوقت المناسب . فى هذا المقال يحاول برنارد لويس أن يشرح كيف أن أسماء بعض الأكلات والمأكولات يمكن أن تكون مصدرا غنيا لمعلومات عن العلاقات التاريخية بين الثقافات وعن تطور هذه الثقافات .

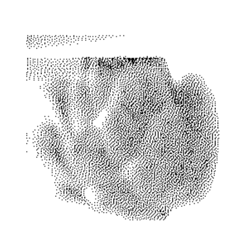
ثمار تكتب التاريخ

يقول لويس إن أسماء المأكولات والثمار والأغذية بوجه عام لعبت دورا مهما كمصدر من مصادر كتابة التاريخ وكانت دائما موضع تقديس من جانب الشعوب . ففى قديم الزمن اعتقد الإغريق أن غذاء الآلهة يتكون من العنبر والأكبرى . وتحدثت ديانات سماوية عن الحليب والعسل المتوفرين بوفرة فى الأرض الموعودة . والمعروف أن الشرق الأوسط بحكم موقعه كمهد لعديد من الحضارات القديمة غنى بهذه الأسماء . وقد استفاد المؤرخون من هذه الوفرة فى الحصول على المعلومات عن الشعوب والثقافات القديمة . ولكن الوفرة لا تعنى أن المؤرخين يستخدمونها دون تدقيق . ويضرب المثل بثمرة البرتقال . ففى اللغة الإنجليزية يطلق عليها «أورنج» وكذلك الفرنسية وإن بنطق مختلف ، وكلاهما من الكلمة الأسبانية «نارانخا» . وفى العربية أطلقوا عليها أحيانا «نارانج» أو «اللارنج» وأصلها من اليابانية «نارانج» .

أما العرب والأتراك والفرس المعاصرون فيطلقون عليها «البرتقال» ، نسبة إلى البرتغال . بمعنى آخر يستخدم الغربيون اسما استعاروه من الشرق الأوسط ، ويستخدم أهل الشرق الأوسط كلمة استعاروها من أوروبا . السبب هو أن ثمرة البرتقال جاءت إلى الشرق الأوسط عن طريق البرتغال ولم تأت مباشرة من موطنها الأصلى ، ولم تكن معروفة فى الشرق الأوسط . كان البرتقال المر المعروف باسم النارنج هو السائد فى الشرق الأوسط . أما ثمرة البرتقال الحلو فقد جاء بها تجار أوروبيون من الشرق الأقصى وزرعوها فى البرتغال وأعادوا تصديرها إلى الشرق الأوسط فعرفت باسم البرتغال .

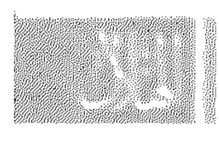
ويروى لويس قصة الرئيس الأمريكي هارى ترومان الذى أراد أن يعبر عن مشاعره الودية تجاه تركيا عندما وافقت على الانضمام إلى حلف الأطلسى ، فأمر مساعديه بإرسال ديك رومى إلى الرئيس التركى بمناسبة عيد الشكر فى أمريكا ، وهو عيد يحتفل الامريكيون فيه بتناول هذا الطائر محشوا ويطلقون عليه «التركى» Turkey . أما الأتراك فيسمونه «الهندى» . هذا الطائر لم يكن معروفا فى العالم القديم ولا فى العصور الوسطى ، أى قبل اكتشاف أمريكا منذ خمسمائة عام . واختلف المستوطنون الأوروبيون الذين نزلوا إلى الشاطئ الأمريكي على تسميه هذا الطائر . البعض أطلق عليه التركى والبعض الآخر من ذوى الأصول الفرنسية اختار له اسم Dinde d'inde أى الهندى . ومن أمريكا وصل الطائر إلى الشرق الأوسط ، فأطلق عليه العرب اسم الديك الحبشى وأحيانا الديك الرومى (أى اليونانى) . اللافت للنظر أن كافة الشعوب كانت تختار لهذا الطائر بالذات اسماً يرتبط بهوية أو بجنسية ربما لغرابة شكله أو صوته .

من المصادر المهمة التى اعتمد عليها المؤرخون ، بخلاف ما يسجله الرحالة عن المأكولات الغريبة التى استهلكوها فى البلاد التى زاروها ، ما سجله الحجاج عن أكلات شهية تناولوها فى طريق ذهابهم إلى الحج أو عودتهم منه . وقد استقى الأوروبيون عن هذا الطريق مادة وفيرة من البهارات التى لم يكونوا يعرفون شيئا عن أغلبها . واعتمدوا كذلك على قصص وحكايات وأساطير وقصائد شعرية . فمن القصائد الشعرية التى كانت تلقى بعد المآدب والحفلات تكريما للمضيف أو لقضاء الوقت ، استخرج بعض المؤرخين والمستشرقين وصفات لأطباق اشتهرت بها مطابخ بغداد ودمشق والأندلس . من هؤلاء دافيد وينز المستشرق الكندى الذى كتب كتابا ذاع صيته وكان عنوانه مطبخ الخليفة . وجدير بالذكر أن وينز عاش بالقاهرة سنوات عدة قام خلالها بتدريس التاريخ



الإسلامى فى الجامعة الأمريكية . ويروى لويس فى مقاله قصة ينقلها عن كاتب فارسى . والقصة عن الباذنجان . فبهذا الاسم كانوا يعرفونه فى بلاد فارس. ومنها اشتقت كلمة أوبرجين فى الفرنسية . حدث ذات يوم أن السلطان محمود (٩٨٨ - ١٠١٠م) شعر بجوع شديد فأحضروا له صحنا من الباذنجان أعجبه جدا وقال إن الباذنجان أكلة شهية، فانطلق أحد رجال البلاط يمدح فى الباذنجان بطلاقة . وبعد أن شبع السلطان وبدأ يمل هذه الأكلة قال أن الباذنجان شئ ضار جدا . فانقلب رجل البلاط فورا يسرد مضار الباذنجان وخطورته على الصحة . فغضب السلطان وقال لرجله ألم تكن منذ قليل تمدح فى الباذنجان وأنت الآن تعدد مضاره . أجاب رجل الحاشية ، ولكنى أعمل فى حاشيتك يا مولاى وليس فى حاشية الباذنجان . ويقال إن الشاعر الفارسى الداسجان قضى معظم عمره ينظم شعرا عن المأكولات الشهية . وقد عاش فى القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر فى شيراز . حمل أهم دواوينه عنوان «كنز الاشتهاء» . وكتب قطعة نثرية طويلة بعنوان «ملحمة الأرز وفطيرة اللحم المطبوخين بالزعفران» ، وملحمة أخرى بعنوان «مغامرات الأرز والفطير» . ووضع قاموسا لمفردات المطبخ والأكلات .

وينتقل لويس إلى خاصية أخرى من خصوصيات الشرق الأوسط ، وهى الكتابات القانونية والدينية التى تحدد بالتفصيل أحيانا ما يؤكل وما يحرم أكله . يقول إن اليهودية والإسلام حافلتان بهذه القواعد على عكس المسيحية التى لم تهتم بالأكل . فالمسيحيون يأكلون ويشربون أى شئ بينما الأنبذة مثلا محرمة فى الإسلام ، ولكن لا يحرمها المسلمون على غير المسلمين . وإلى جانب القواعد القانونية والدينية استفاد المؤرخون من الوثائق العثمانية ، وهى وفيرة وبالغة الأهمية . كان ممكنا مثلا أن يعرف المؤرخ اتجاهات الأذواق ووصفات الأطباق من وثائق دوائر المكوس والضرائب التى كانت تحدد ضريبة على كل مكون من مكونات الطبخة أو الأكلة ، ومن وثائق كان يحتفظ بها فى مطابخ قصور الحكام والأغنياء ، وفى مطابخ المعسكرات وأماكن توزيع الغذاء بالمجان على الفقراء . ويستخدم مؤرخون علم الآثار . فقد اكتشف خبراء الآثار لوحة قديمة منحوتة على قصر أحد ملوك الأشوريين تسجل الأطباق التى قدمها الملك لضيوفه فى إحدى الحفلات الكبرى . ويقال إن الملك أراد بتسجيل هذه الأكلات ومكوناتها أن يبلغ العالم من بعده مدى قوته واتساع ملكه . فالأكلات كانت تمثل كافة بقاع المملكة . أراد أن يقول انظروا كم من الشعوب استعبدت وكم من الأراضى احتللت . وتحكى اللوحة أن المأدبة استمرت عشرة أيام ، وحضرها ٦٩,٥٧٤ مدعوا من الرجال والسيدات . واحتوت قائمة الطعام على أنواع متعددة من اللحوم ، فكانت هناك أطباق من لحوم البقر والضأن ، والأوزى ، والغزال ، والبط والأوز والحمام وطيور أخرى والأسماك والبيض والخبز والخضراوات



والفواكه والمكسرات والبهارات ، و١٠ آلاف برميل من البيرة ، وعشرة آلاف قربة من النبيذ .

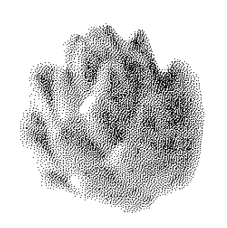
ويحتمل أن يستفيد المؤرخون مستقبلا من التقدم فى «التكنولوجيا الحيوية» ، بل حدث فعلا أنه منذ أربعين عاما اكتشفت بعثة كانت تنقب فى أواسط آسيا الصغرى عن مقبرة لأحد ملوك العصور القديمة . ويبدو أن الملك أقام مأدبة فاخرة ومات أثناءها فدفنوه فى هذه المقبرة مع بقايا المأكولات . ولم يتمكن علماء الآثار من تحديد الأكلات أو مكوناتها بسبب تعفنها وتحللها . ولكن بعد التقدم الذى أحرزته علوم البيولوجيا بدأ يظهر علماء آثار مهتمون بتحليل البقايا لزيادة معلوماتهم عن أمزجة وتقاليد الشعوب .

الزيتون أوقف توسع المسلمين ؟!

وفى القسم الثانى من المقال ، يتساءل لويس عن أهم مكونات المطبخ القديم ، ويجيب أنها الحليب والعسل بطبيعة الحال. ويقسم العالم إلى ثلاث مناطق لبنية أو حليبية . إحداها منطقة الحليب المحلى ، وأخرى منطقة الحليب الحامض والثالثة منطقة اللاحليب . أما الأولى فهى أوروبا والأمريكتان ، ومنطقة الحليب الحمضى هى الشعوب الإسلامية والهند . والثالثة حيث لا تشرب الشعوب الحليب ولا تستهلكه فى المطبخ التقليدى ، لا حليب ، لا جبن ، لا زبد فهى اليابان والشرق الأقصى .

بنفس القدر من الأهمية فى الزمن القديم كان العسل . فالعسل أقدم المحليات التى استعملها الإنسان قبل السكر . واستخدمه القدماء فى صنع الخمور . ويبدو أنه اكتشف قبل الإسلام بوقت قليل - ففى العصر الرومانى - الإغريقى لم يكن مستخدما ، ولم يعرفه المطبخ الفرعونى المصرى . ويأتى على سيرة الأرز فيروى أن قائدا عربيا فى الأهوار عثر جنوده على سلتين ، إحداهما تحتوى على تمر والثانية على أرز غير مضروب . قال لجنوده كلوا التمر ولا تقربوا هذا الشئ الآخر فقد يكون سما ، فأكله حصان ولم يمت ، وبعده صار الأرز من أهم الأطباق فى المطبخ العربى .

أما الخبز فلعله أقدم الأكلات على الإطلاق ويكاد يحتل مكانة تقديس . وينقل عن الفقيه الغزالى (مطلع القرن الثانى عشر) أنه كتب ، فى رسالة شهيرة عن آداب وسلوكيات تناول الطعام ، ينصح الناس بأن يقطعوا رغيف الخبز بأيديهم وليس بالسكين ، فالتقطيع بالسكين يعنى احتراما أقل للخبز ، وأن يبدأوا أكله من حوافه وليس من وسطه . وينقل عن آخرين نصيحتهم أن يقطعوا الرغيف بأسنانهم ، وأن لا يوضع صحن أو وعاء



فوق الخبز . يوضع فقط مأكولات أخرى . احترام الخبز واجب لأن الله بعث به كبركة من السماء . لا تمسح يدك بالخبز . إذا سقطت منك قطعة خبز ، التقطها ونظفها ، ولا تتركها إلى الشيطان . ويقول لويس إن ظاهرة احترام الخبز إلى درجة تقترب من التقديس موجودة فى ثقافات متعددة وليس فقط عند المسلمين .

كان اللحم دائما شيئا ثمينا ونادرا . ولم يكن أبدا من النصيب اليومى للناس العاديين . واللحوم بينها ما هو محرم وما هو حلال . ويزعم بعض المؤرخين أن الإسلام انتشر فى كل اتجاه . انتشر فى الشمال والجنوب والشرق والغرب ، ولكن توقف توسعه فى كل هذه الاتجاهات عندما وصل إلى أماكن تأكل شعوبها الخنازير بوفرة ، أماكن مثل الصين والبلقان وأسبانيا . ويزعم آخرون أن الفتوحات الإسلامية توقفت عندما وصلت إلى أقاليم لا تزرع الزيتون ، باعتبار أن الزيت أهم مكون فى جميع الأطباق العربية . وفى الحالتين مبالغة شديدة .

وفى القديم ، والعصور الوسطى ، احتلت فواكه معينة مكانة مهمة ومنها التفاح حتى أنهم صاروا يطلقون كلمة التفاح على أى فاكهة جديدة لا يعرفونها . فقد أطلق أحد الحجاج الإيطاليين على الموز عندما شاهده فى مصر لأول مرة فى عام ١٣٨٤ ميلادية «تفاح الفردوس» . وأطلق الألمان على البرتقال أبفلسين أى تفاح الصين .

كذلك لم تكن ثمرة «البطاطس» معروفة فى العالم القديم – أى فى آسيا وأفريقيا وأوروبا – حتى وصل الفرنسيون إلى أمريكا فأطلقوا عليها «تفاح الأرض» وعندما بحث اليهود خلال سعيهم لإحياء لغتهم عن كلمتين تناسبان البرتقال والبطاطس لم يجدوا ، فأطلقوا عليهما «التفاح الذهبى وتفاح الأرض» . من ناحية أخرى عندما أدخل الإيطاليون «الطماطم» إلى بلادهم أطلقوا عليها تعبير «التفاح الذهبى» Pomodoro . ومن إيطاليا انتقلت الكلمة إلى العالم العربى تحت اسم بنادورة أو بندورة .

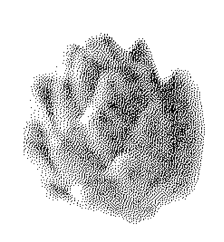
ثم هناك المكونات العديدة التى تدخل فى طهو المأكولات لتعطيها طعما مختلفا هناك مثلا البصل والكراث والثوم ، وكلها إضافات موجودة منذ العصور القديمة مثلها مثل السكر الذى جاء من إيران عبر الهند ، ولم يكن معروفا فى العصر الرومانى أو الإغريقى ، وعندما استعمل لأول مرة كان لأغراض طبية . ولم ينتشر استعماله إلا بعد الفتح الإسلامى فانتقلت استخداماته من إيران إلى مصر ، ومن مصر إلى شمال افريقيا فأسبانيا فجزر المحيط الأطلسى ومن هذه الجزر إلى العالم الجديد . وبعد سنوات طويلة بدأت رحلة العودة فانتقل السكر من جزر العالم الجديد إلى الشرق الأوسط . فقد استطاع المستوطنون الأوروبيون زراعته بوفرة فى جزر الهند الغربية بتكلفة أقل كثيرا من تكلفة زراعته فى الشرق الأوسط وأوروبا .

وبالمناسبة كان للبن والقهوة قصة مماثلة.

كذلك كان للتوابل دور كبير فى قصة التجارة العالمية بين الشمال والجنوب . ويشير لويس إلى دورها فى انتشار الأديان واختلاف الثقافات . وقد اشتهر الأدب العربي شعرا ونثرا وأساطير بالأنبذة والمشروبات الكحولية رغم تحريمها ، واشتهر أيضا بعدم الاهتمام بالمشروبات الساخنة . إذ يبدو أن مشروبات كالقهوة والشاى والكاكاو لم تكن معروفة فى منطقة البحر المتوسط والمناطق المجاورة فى الأزمنة القديمة والعصور الوسطى . كتب بعض الرحالة العرب عن عادة شرب الشاى فى الصين ولكن كان واضحا أنهم اشمأزوا منه أو على الأقل استغربوه ، وربما لهذا السبب لم يستوردوه . ولكن توجد مؤشرات على أنه حين احتل المغول بلاد فارس فى القرن الثالث عشر اصطحبوا معهم عادة شرب الشاى ولكنها لم تستقر كعادة فى فارس أو غيرها من بلاد المنطقة إلا على أيدى الأوروبيين . فأصبح الشاى يستورد رأسا من الصين عن طريق القوافل أو البحر ، واستخدم العرب نفس اسمه المستخدم في الصين . ولذلك تجده فى بعض بلاد العرب باسم تشاى Chai أو شاى وفى بعض آخر تحت اسم «تيه» Tey ، وهى الكلمة التى يستخدمها الغرب بكافة لغاته حتى الآن .

وحازت القهوة على اهتمام مؤرخين كثر وقد وثق لها العديد منهم . نشأت أصلا فى الحبشة . ويقال إن اسمها مشتق من إقليم «كافا» حيث تنبت شجرة البن شيطانيا كما يقول العامة . ويؤكد برنارد لويس أن البن احتاج إلى عبقرية خاصة ليتحول إلى مشروب ، إذا قورن بغيره من المشروبات . وقد جلب اليمنيون البن إلى بلادهم من أثيوبيا ، ومن اليمن عبر الجزيرة العربية إلى مصر وسوريا وتركيا ، حدث هذا فى القرن السادس عشر . ويقال إن الأوروبيين لم يقبلوا على شرب القهوة واعتبروها مدعاة للدهشة ، وفى كتابه «تشريح الحزن» كتب روبرت بيرتون فى عام ١٦٢١ يقول «لدى الأتراك مشروب يسمى «كوفا» (لأنهم لا يشربون النبيذ) ، مستخلص من ثمرة سوداء ومرة، يشربونه ساخناً وعلى المهل ، فى «مقاه» مثل الصالونات التى نشرب فيها البيرة . وفى هذه المقاهى يتحدثون ويشربون لقتل الوقت وليتسلوا ، لأنهم اكتشفوا بالخبرة أن هذا المشروب يساعد على الهضم ويثير البهجة» . وكالسكر أخذ الأوروبيين البن إلى مستعمراتهم فى جزر الهند الغربية وجنوب شرق آسيا . وبحلول القرن الثامن عشر كان البن والسكر كلاهما فى صدارة واردات دول الشرق الأوسط من أوروبا .

ويستخدم لويس تعبير «شرب» الطباق والحشيش كما يستخدم فى العالم العربى . ويقول إن شرب الحشيش



عادة قديمة في الشرق الأوسط أما التبغ Tobacco فقد ورد حديثاً من أمريكا إلى المنطقة ولم يكن معروفاً من قبل . فقد استورده من أمريكا في بداية القرن السابع عشر تاجر بريطاني وانتشر بسرعة مدهشة . ويقول لويس إن كلاً من القهوة والدخان آثارا جدلاً حول إن كان شربهما حلالاً أم حراماً ، ويزعم أن التدخين كان محرماً وكانت عقوبته الإعدام ، وأن الوهابيين وبعض أتباعهم مازالوا يحرمونه .

أسعد المقدم ، الصحافي اللبناني المعروف ، رجل يحب الطهو . ذواقة من الطراز الأول . أقمنا معاً لفترة في إحدى الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط . تميزت هذه الدول بعديد من المزايا الممتازة. وللأسف لم يكن بين هذه المزايا مطبخها. كان مطبخها متواضعاً إذا قورن بمطابخ دول أخرى مجاورة ، ولما كان الطعام هواية مفضلة لكلينا ، كنا - أسعد وأنا - نقضي نهاية الأسبوع نناقش ، نختلف ونتفق ، على ترتيب المطابخ . وكان لأسعد نظرية تقول إن حضارة أي شعب تبدأ في مطبخه ، أي في جودة ولذة وإتقان وأناقة الأكلات التي يشتهر بها . كنا أحياناً نضع المطبخ المغربي في الصدارة ، وفي أحيان أخرى نقرر أن المطبخ الصيني يأتي في المقدمة . وقد نختلف حول ترتيب المطبخ الفرنسي أو العربي - العثماني ، أو الهندي . ولكن لم نختلف كثيراً على ترتيب المطبخ الإنجليزي والألماني والمطابخ الإسكندنافية والأفريقية وعدد لا بأس به من المطابخ العربية . فهذه كلها كانت دائماً تأتي في نهاية أي قائمة نقوم بترتيبها .

يكاد يجمع الرحالة على أن قلة قليلة جداً في المجتمعات العربية كانت تطهو أكلاتها في المنازل ودار السكني، الأغنياء والعظماء فقط كانوا يفضلون ذلك . وأما الغالبية العظمى فكانت تشتري الأكلات جاهزة من مطاعم ومطابخ في السوق . وقد كلف السلطان مراد الرابع في عام ١٦٣٠ موظفيه بإعداد قائمة بنقابات ومشيخات المهن في استانبول ، وجاء بينهم العاملون في مهنة الغذاء ابتداء من المزارعين ومروراً بالخبازين وصانعي الملح وطباخي الفطائر وخبازي الخبز المرقوق والطحانين وصانعي الحلوى والنشا والبسكويت ، ثم يأتي بمن كان يطلق عليهم «التجار المصريون» . وهؤلاء كانوا يعملون في استيراد البن والأرز والسكر ، وانتهاء بمحلات تقديم الشربات والحلويات والأرز والعدس والقهوة . وهذه بلغ عددها ثلاثمائة رجل ودكان ، كلهم من اليونانيين وكلهم أغنياء .

وكانت هناك مجموعة أخرى احتوتها القائمة وتضم الجزارين وهؤلاء أنواع . فهناك المتخصصون في لحم البقر وآخرون في لحم الخنازير ونوع ثالث متخصص في لحم الضأن . ثم تأتي مجموعة منتجي الألبان وبائعيها وهؤلاء أيضاً ينقسمون حسب مصادر اللبن . فهناك من ينتج ويبيع ألبان البقر فقط وآخرون ألبان الضأن

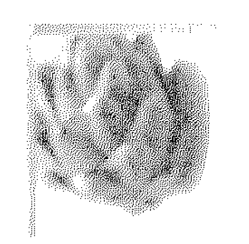


وتجار القشطة وتجار الزبد وتجار اللبن الزبادى . وضمت القائمة كذلك أسماء وعناوين الطباخين الذين يتخصصون في السوق في إنتاج وبيع اللحم المجفف واللحم المملح والكبد والفواكه والخضراوات المخللة والثوم والبصل . ووجدت في السوق دكاكين متخصصة يطبخون للفقراء فقط ، وكان هناك متخصص في هذه الدكاكين والمطابخ يقدم الأكل إلى الزبون ويتمتم «اسم الله» ، ثم يقتطع قضمتين من الأكل ويأكلهما وبعدها يطلب من الزبون أن يبدأ في تناول طعامه، ويقول لويس إن وراء هـذه العادة كان ربما الخوف من التسمم .

ويعتقد لويس أن الشرق الأوسط وإن عرف المطابخ العامة إلا أنه لم يعرف المطاعم .ويدلل على ذلك برفاعة رافع الطهطاوى الذى زار باريس واندهش لوجود محلات تقدم الأكل واسمها «رستوران» ، حتى أنه نقل الكلمة كما هى، بمعنى أنه لم يجد لها مقابل فى اللغة العربية . ويستطرد لويس أنه رغم أن بعض المؤشرات التاريخية تقول إن القدماء فى الشرق الأوسط عرفوا المقاعد والموائد، إلا أن المؤكد أن أهل العصور الوسطى لم يستخدموها ، وهذا فى رأيه يعود إلى أن المنطقة كانت تشكو قلة الخشب ووفرة الجلود والأقمشة ، واختار الناس ما يناسب بيئتهم وظروفهم واستعملوا ترتيبات أخرى للجلوس وتناول الطعام .

بماذا يأكلون ؟ يقول لويس إن الشعوب تنقسم ثلاثة أقسام أو مناطق . منطقة الشوك والسكاكين وهذه فى الغرب، ومنطقة العصى وهذه فى الشرق، ومنطقة الإصبع وهذه فى الشرق الأوسط . ويقول إن الشوك والسكاكين وردت إلى الغرب حديثا نسبيا وأن الشوكة أصلها بيزنطى ووصلت إلى بريطانيا فى القرن السابع عشر عن طريق تجار إنجليز وجدوا الإيطاليين يستعملونها . وبالفعل يعود أصل كلمة شوكة بالإنجليزية إلى كلمة «فورشيتا» الإيطالية ، ولم تكن قد وصلت إنجلترا عندما كتب شكسبير مسرحياته وإلا لجاء ذكرها فيما كتب . أما العصى فهى بالغة القدم فى الشرق الأقصى .

ويحكى الرحالة عن اختلاف تنظيم المآدب فى الشرق عنها فى الغرب . فى الزمن القديم كان النساء والرجال يأكلون معا . ثم تغيرت هذه العادة فصار الرجال فى الشرق يأكلون منفصلين عن النساء بينما استمر الاختلاط يمارسه الغربيون . وينقل لويس عن رحالة شرق أوسطى واسمه وحيد أفندى وكان سفيرا لاستانبول فى باريس . كتب وحيد أفندى فى ١٨٠٦ أو ١٨٠٧ عن هذه الممارسة فى الغرب فيقول «فى المآدب الأوروبية تشارك سيدات كثيرات ، يجلسن إلى المائدة بينما يقف خلفهن الرجال يراقبونهن كالحيوانات الجائعة بينما النساء تأكل ، فإذا شعر النساء بالعطف على



الرجــال فكن يعطيهن شيئا ليأكلون ، وإلا بقى الرجال جوعى» .

ويشكك لويس فى روايته ، ويقول إن لديه عشرات الروايات عن المتب فى الشرق الأوسط لا تقل غرابة عن الرواية التى يرويها وحيد أفندي عن المتب الغربية .

***

وجدت فى قراءة مقال برنارد لويس متعة ، ومدخل مفيد لفهم التاريخ ومصادره . وكان أكثر ما استرعى انتباهى هو ظاهرة انتقال السلع والمنتجات الزراعية بحرية كاملة . وعدت إلى عناوين الصحف فى الآونة الأخيرة وتقاريرها عن التشبث المريع من جانب الولايات المتحدة وشركاتها بحماية حقوق الملكية الفكرية . قرأت عن المطاردة «الإرهابية» التى تقوم بها حكومة أمريكا وتنظمها التجارة الدولية ودول أوروبا لدول فقيرة تئن شعوبها من المرض والجوع ، اختارت أن تقلد منتجات الغرب وتبيعها أو توزعها على شعوبها بأثمان بسيطة ، فحق عليها العقاب . وهو بشع ورهيب . وتصورت للحظة ماذا يمكن أن يحدث لو عقد برنارد لويس مؤتمرا يجمع مؤرخين موضوعيين يقدمون شـــهاداتهم عما ورد فى وثائق الرحالة العظـام فى التاريخ ، عن بذور وثمار وطيـور وأدوية وسلع انتقلت بحرية من أقصى الشرق إلى أوروبا ، ومن أقصـى الغرب أى من أمريكا إلى الشرق الأوسـط وأوروبا ، ولم تكن من قبل معروفة إلا فى مواطنها الأصلية .

ألم يكن هذا التداول السهل المباح القاعدة التى بنيت عليها حضارات الغرب؟ ألم يكن الفعل فى حد ذاته عملا حضاريا . أيهما أرقى حضاريا ، أن تسافر ثمرة البن أو ورقة الشاى من الحبشة أو الصين إلى أوروبا وأمريكا حرة وبريئة وكريمة فيعيد زراعتها الأوروبيون فى مزارعهم بالهند الغربية والهند الشرقية وسيلان وأفريقيا ، وأن تسافر ثمرة البرتقال من الشرق الأقصى حرة وبريئة وكريمة فيعيد زراعتها شعوب الشرق الأوسـط ، ويتمتع العالم كله بمذاق وفائدة هذه الثمرة وتلك ، أم أن تنتج أمريكا وأوروبا أدويـة لا شـفـاء بدونها لمرضى الإيدز والملاريا والسل وتمنع إعادة إنتاجها فى دول هى فى أمس الحاجة إليها بحجة حقوق الملكية الفكرية . فى الزمن القـديم ازدهرت الحياة بفضل حرية انتقال الاختراعات ، وفى الزمن الحاضر يموت مئات الألوف بسـبب تقييد حرية انتقال السلع والمنتجات .

يتأكد يوما بعد يوم أن الحضارة والقيم الحضارية ليست بالضرورة ما يزعم أهل زماننا . هى شىء آخر أرقى وأعمق . ■

فيلبى وكتاب

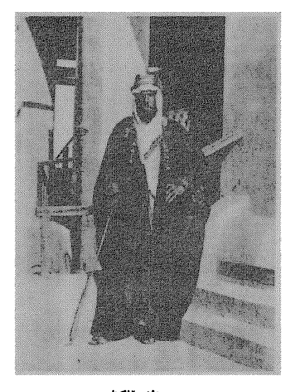
قلب الجزيرة العربية

بقلم
د. صبرى محمد حسن

اسمه هارى Harry سينت .st جون John بردجر -Brid ger فيبلى philby ، وهو مستكشف، مؤلف بريطانى ولد فى عام ١٨٨٥ الميلادى، أى قبل أن يبدأ بالجريف رحلته «وسط الجزيرة العربية وشرقها» بعام واحد، ومات فى عام ١٩٦٠ الميلادى. هذا يعنى أن هذا المؤلف الرصين عاش حوالى خمسة وسبعين عاما. وفى عام ١٩١٧ الميلادى، أى عندما كان فى الثانية والثلاثين من عمره التحق بالعمل فى وزارة الخارجية البريطانية، وأوفد فى مهمة خاصة إلى الجزيرة العربية على رأس بعثة نجد التى تشكلت مؤخرا للمشاركة فى المناقشات المهمة مع حاكم نجد والأحساء عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، الذى يعرفه العرب باسم ابن سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣).

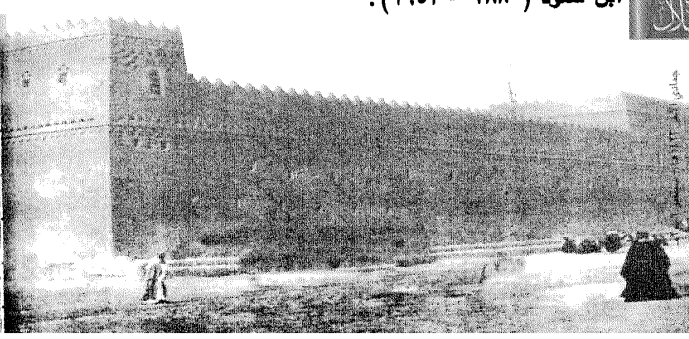
كان هدف البعثة الرئيسى هو مناقشة ابن سعود فى الرياض فى إمكانية تجريد حملة عسكرية على حائل، التى كانت حليفا لتركيا فى ذلك الوقت، ومناقشة بعض المسائل الخاصة بكسر الحصار الذى كان مفروضا على الكويت من قبل البريطانيين لوقف استيراد البضائع من الخليج ومنع وصولها إلى الأتراك وحلفائهم. وكان من بين أهداف تلك المناقشات البحث عن وسائل لتهدئة العلاقات بين ابن سعود والشريف حسين فى مكة، استهدافا لضمان اشتراك الشريف حسين فى الثورة العربية على الأتراك وعدم انسلاخه عنها.

وبالرغم من نجاح فيلبى فى اقناع ابن سعود (وذلك على العكس مما نصحه به شعبه) فى تجريد حملة على حائل، إلا أن السياسة البريطانية الرسمية طويلة الأمد لم تكن تتفق أو



مؤلف الكتاب

تتطابق دوما مع سياسة ابن سعود. إذ كانت بريطانيا تود للحاكم السعودى هو والشريف حسين فى مكة أن يعشا فى سلام ووفاق ووئام (فى حين واصل ابن سعود فى عشرينيات القرن العشرين ضم الحجاز وبعض المناطق الأخرى ليكون دولة موحدة هى السعودية). وكانت بريطانيا تود أن تقتصر مطامح ابن سعود الإقليمية على الشمال وتأمين استقلال دولة



شرق الأردن الجديدة (الأردن حاليا)، وبذلك تكون تلك السياسة هى أنجح السياسات. ومع ذلك، أحس فيلبى بالصدمة والاستياء عندما نقض البريطانيون وعودهم ورفضوا امداد ابن سعود بالمال والسلاح. وكان السبب في ذلك أن الحملة المزمع قيام ابن سعود بها على حائل أصبحت غير ذات بال بعد استيلاء البريطانيين على كل من القدس ودمشق. وبالرغم من كل ذلك، تواصلت علاقة الاحترام المتبادل والصداقة بين ابن سعود وفيلبى سنوات طويلة بعد ذلك. وبذلك يصبح فيلبى أول أوربى يزور المناطق الجنوبية من نجد. والغريب فى الأمر أن ذلك الرجل عمل طوال مايقرب من ثلاثين عاما، مستشارا لابن سعود، ملك السعودية.

كان فيلبى مستشرقا مستعربا بارزا، سافر إلى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، وسرعان ماذاع اسمه وصيته، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أمضى بضع سنوات فى استكشاف السعودية، ووضع مجموعة من الكتب هى التى فتحت شبه الجزيرة العربية المجهول أمام القراء فى كل أنحاء الدنيا. زد على ذلك، أن النسخ الخاصة التى احتفظ بها فى مكتبته، وكذلك للطبعات النادرة من كتاب «جنوبى نجد» على سبيل المثال، والذى طبع منه فى القاهرة مائة نسخة فى عام ١٩١٩، وكذلك كتاب «الربع الخالى» الذى طبع فى لندن فى عام ١٩٣٢ الميلادى، اضافة أيضا إلى مجموعة كبيرة من الكتب الكثيرة التى كانت فى مكتبته، ومن بينها الكتاب الذى كتبه ولستد wellsted عن أسفاره وترحاله فى الجزيرة العربية، والذى نشر فى لندن فى عام ١٨٤٨، كل هذه الكتب الكنوز موجودة حاليا فى جامعة جورجيتون George town ، التى تلقت تلك الكتب هى وكتب وأبحاث أخرى هدية من السيدة هوب هيدلى Hope Headly ابنة روبرت ولستد Robrt Wellsted هيدلى. وبعد أن أسلم فيلبى أطلق على نفسه اسم عبدالله فيلبى، وكتب كتابا عن «هارون الرشيد» نشرته دار بيتر ديفز ليمتد فى عام ١٩٣٣، كما كتب كتابا آخر بعنوان «الحاج فيلبى» وكتابا أيضا بعنوان الجزيرة العربية فى ظل الحكم الوهابى».

وجديد فيلبى الذى رحل عنا منذ ما يقرب من اثنين وأربعين عاما أن صالة سوزبى للمزادات فى لندن، عرضت للبيع فى اليوم العاشر من شهر مايو من عام ٢٠٠١ الميلادى، ثمانى عشرة رسالة بالغة الأهمية، لم يسبق نشرها،



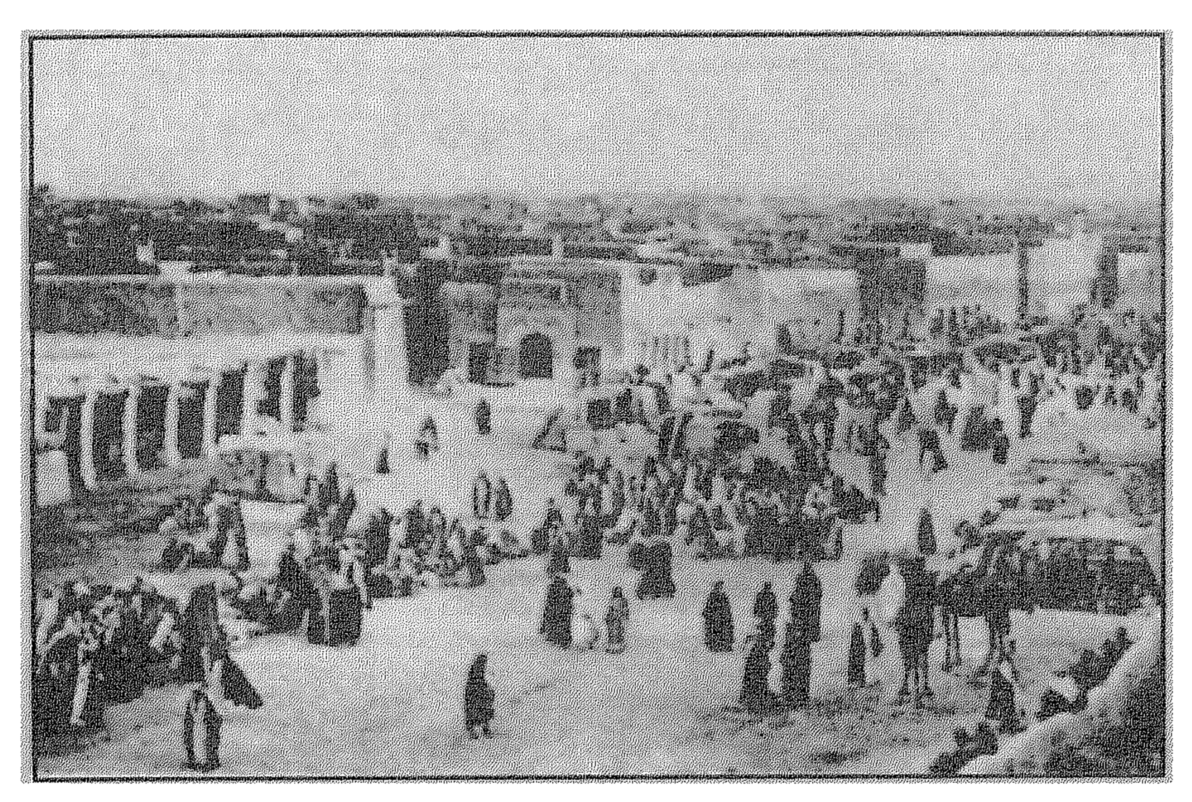
وحددت لها ثمنا يتراوح بين ٨٠٠٠٠ و١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني. وهذه الرسائل كلها تقريبا معنونة إلى السير Sir بيرسي PERCY كوكس Cox المفوض المدني في بلاد الرافدين في ذلك الوقت، كما يتعلق أيضا بالمهمة التاريخية التي قام بها فيلبي إلى الجزيرة العربية في أواخر الحرب العالمية الأولى. الأهم من ذلك أن تلك الرسائل لها صلة أيضا بتعاملات فيلبي مع عبدالعزيز بن سعود الاسطوري، مؤسس السعودية وأول ملك لها، يضاف إلى ذلك، أن الرسائل تحكي بالتفصيل عن أول رحلة يقوم بها رجل من الغرب إلى جنوب نجد وعن قبيلة الدواسر الموجودة في تلك المنطقة. وفيلبي، في تلك الرسائل، يعلق بين الحين والآخر على النجاح وكذلك على الفشل الذي أصاب معاصره لورانس الذي أطلق عليه اسم «لورانس العرب».

والقسم الأكبر من تلك الرسائل، يغطي الفترة من شهر يونيو من عام ١٩١٨ الميلادي إلى شهر أغسطس من العام نفسه، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبي في فترة متأخرة، أي في عام ١٩٢١ - ١٩٢٢ الميلادي.

وترجع الأهمية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم، من ناحية، صورة حية لفراسة فيلبي ونفاذ بصيرة بريطانيا في مطلع علاقتها بابن سعود، وتعد، من ناحية ثانية، قبسات نورانية قيمة من إلمام فيلبي إلماما وثيقا ودقيقا بالشئون العربية، كما توضح من ناحية ثالثة، رأيه الشخصي والصريح في أولئك الناس الذين تعرفهم تعرفا جيدا ووثيقا ، هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبي في استكشاف المناطق المجهولة، وابراز مشاعر الود والاحترام والولاء التي كان يكنها لابن سعود. أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية في بداية تأسيسها ومع ذلك يظل كتاب «قلب الجزيرة العربية» موضوع هذا العرض بمثابة حجر الزاوية من كا أعمال وكتابات فيلبي.

قلب الجزيرة العربية

إذا كان بالجريف، صاحب كتاب «وسط الجزيرة العربية وشرقها». قد تنكر في زي طبيب مزيف، عجزت السلطات المحلية كلها عن اكتشاف حقيقته، مما جعله يتمكن من جمع مادة كتابه بعيدا عن أعين السلطة وعن رقابتها، ليخرج على القراء وعلى الباحثين وعلى المهتمين بشئون الجزيرة العربية، في ذلك الوقت، بكتاب ينطوي على مادة غزيرة جمعها ذلك



الهفوف : سوق الخميس في يوم السوق وأعمدة القيسارية على اليسار ، واسواق الكوت على اليمين

الرجل، من أفـواه الناس، إذا كـان بالجريف قد بعد عن أعين السلطات المحلية تخوفا منها وتجنبا لها فإن فـيلبى philby فى كـتـابه «قلب الجزيرة العربية»، الذى نشره فى عام ١٩٢٤ الميلادى عن «القسم الأول فقط من تجـوالى فى الجـزيرة العـربيـة، والذي انتهى بعودتى إلى العاصمة الوهابيـة بعـد رحلة قـمت بهـا فى صـيف العـام ١٩١٨ الميـلادى إلى المناطق الجنوبية، جمع مادته العلمية تحت أعين السلطة، وهذا لا يعنى أن الرجل كان يتحسب لتلك السلطة أو يحاول التزلف إليها، وإنما كان الأمر عكس ذلك تمامـا، إذ كـان فـيلبى مطلوبا من السلطة ومرغوبا فيه أيضا

والغـريب فى الأمـر أن فـيلبى كـان مساعدا للقائد العام للقوات البريطانية المتمـركـزة فى بغـداد فى ذلك الوقت، كانت تركيا وألمانيا قد بدأتا تتقاربان تقاربا شديدا، مما عكر صفو بريطانيا العظمى وجعلهـا تتخـوف من ذلك التعاون وتعمل له ألف حساب وحساب، ولذلك كـان الهـدف الرئيـسى لفـيلبى عندما نوى السفـر إلى الرياض، هو العمل على استعداء القيادات المحلية ممثلة فى الشريف حسين، فى الحجاز، وابن سـعـود فى الرياض على الأتراك وقواتهم من ناحية ، وإحكام الحصار



جلوى وابنه سعود والمراسلون يقفون فى الخلف

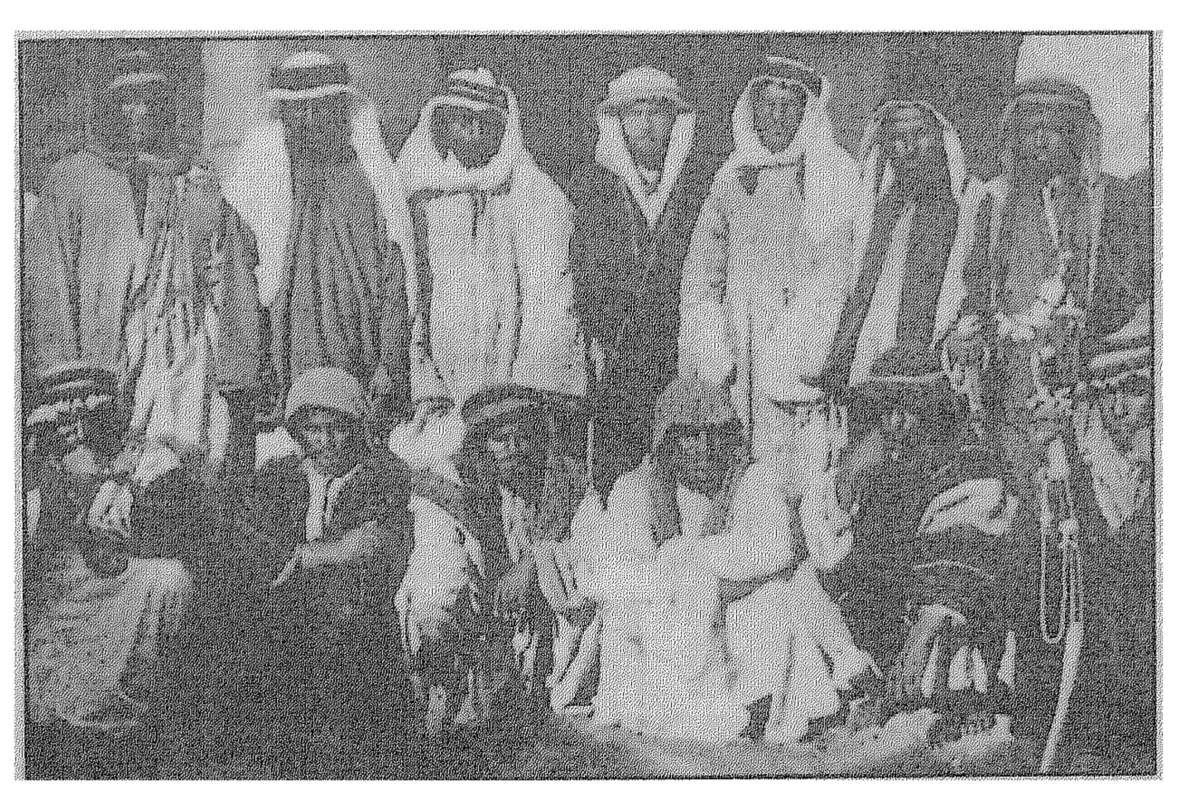
حول الحاميات التركية التى كانت فى الاحساء وفى الجنوب من الناحية الأخرى.

كانت بريطانيا قد أنعمت على الشريف حسين بلقب «ملك الحجاز»، الأمر الذى أثار حمية ابن سعود وأغاظه، وهنا حاولت بريطانيا اللعب على حبل التوتر بين الشريف حسين، وابن سعود استهدافا لتحقيق الهدف الرئيسي. والمؤسف ان الحكام المحليين لم يدركوا ذلك، أو يفطنوا إليه، ولذلك استطاعت بريطانيا توظيف جهود الشريف حسين لتحقيق مآربها، ثم لعبت على حبل الخلاف بين الشريف حسين وابن سعود مما أسفر عن هزيمة الثاني للأول بتحريض من بريطانيا.

كان ابن سعود ، كما يقول فيلبى، قد وقع اتفاقية رسمية مع بريطانيا فى العام ١٩١٦ الميلادى، واعتمادا على تلك المعاهدة وجه ابن سعود ضرباته إلى الحاميات التركية الموجودة فى الأحساء وفى الجنوب مما أسفر عن جلاء الأتراك عن بلاده، وبخاصة بعد أن تورطت تركيا فى أتون الحرب إلى جانب ألمانيا.

كسر شوكة ابن الرشيد

وبحكم المعاهدة الرسمية ومن باب

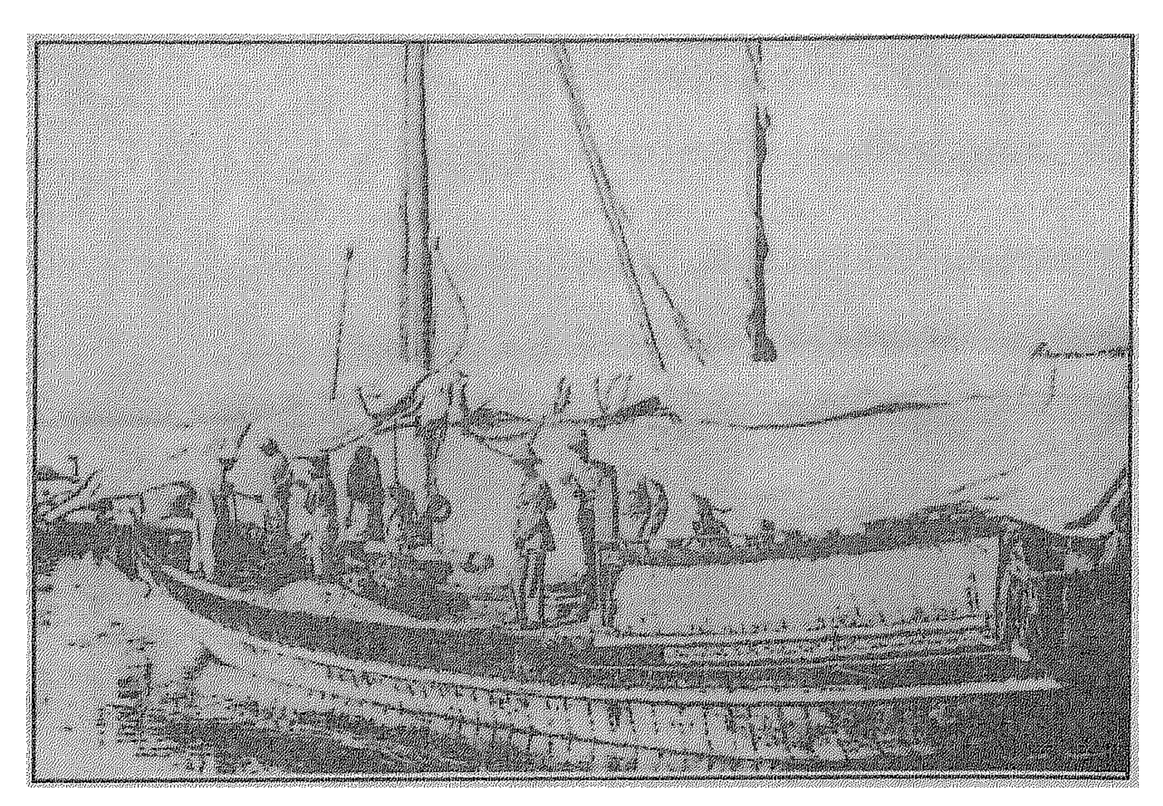


بعض الذين صاحبوا المؤلف فى رحلته التى قام بها عبر الجزيرة العربية : الوقوف من الشمال الى اليمين هم :
مطيليخ ، تامى ، ابراهيم ، المؤلف ، سعد ازماى ، حيلان ويدر ؛ الجلوس - شايا ، سعيد ، ابن ناصر ، ابونوره ، جرمان

اللعب على حبل الخلاف مع الشريف حسين من ناحية، ومن باب التلويح باستقلال العرب واعطائهم حقوقهم من الناحية الأخرى، أصبح فيلبى، مرغوبا من الطرفين، ولم يغب عن بال فيلبى، حسب الخطط الموضوعة، أن يعمل على كسر شوكة ابن الرشيد ، في حائل، فى شمال الجزيرة العربية، نظرا لأن حائل كانت تناصر الأتراك.

والغريب فى الأمر أيضا، أن فيلبى زار الرياض مرتين: المرة الأولى اتجه منها مع ركب وفره له ابن سعود، إلى جدة كي يلتقى الشريف حسين بعد أن أنعمت عليه بريطانيا العظمى بلقب «ملك الحجاز»، ولكنه كان يطمع فى لقب «ملك البلاد العربية» الأمر الذى أغضب بريطانيا، وأثار حمية ابن سعود، الذى أصر على مخاطبته بلقب «ملك الحجاز». وعندما التقى فيلبى الشريف حسين، ولم يصل مع الأخير إلى تحقيق مبتغاه أصر الشريف حسين على ألا يعود فيلبى إلى الرياض بطريق البر، وإنما عن طريق البحر، وذلك على سبيل تحقيره والانتقام منه.

ويعود فيلبى إلى بريطانيا ليواجه بإصرار مليكها على عودته مرة أخرى إلى بغداد ومنها إلى الكويت ، ومن



الدهو، وعليه البعثة البريطانية ، تقطره السفينة التجارية لورانس احدى سفن صاحب الجلال ، في حين يقف العقيد كينلف في المنتصف

الكويت على رأس وفد صغير إلى الرياض في شهر أكتوبر من عام ١٩١٧ الميلادي، حيث يبقى إلى جانب ابن سعود فترة من الوقت انتظارا لتنفيذ المطلوب، ويستغل فيلبي الوقت المتاح في القيام برحلة إلى الجنوب، ظاهرها الاستكشاف، وباطنها الوقوف على حقيقة الأمور في تلك المنطقة بعد جلاء الأتراك عنها، وكذلك الوقوف أيضا على مسألة احكام الحصار ووقف تهريب المؤن للقوات التركية المشاركة في القتال.

يجمع فيلبي مادته العلمية تحت أعين السلطة ودون اعتراض منها ليكتب كتابا في مجلدين، يكشف فيهما الكثير مما كان يدور في تلك المنطقة، وعن أهلها، والتيارات القوية والضعيفة فيها، وكلمة ابن سعود التي كانت نافذة ولها مكانتها في تلك الأماكن.

قسم فيلبي المجلد الأول إلى ستة فصول: عتبة الجزيرة العربية، الصحراء الشرقية، العاصمة الوهابية، طريق الحج، والأراضي المقدسة، ثم ظهير الفرات وأخيرا هضبة عارمة. ثم يعزز المؤلف مادة هذا المجلد الأول بأربعين صورة التقطها فريقه



العقيد ر . أى. ايه هاميلتون الي اليسار ومعه فهد من الحرس الملكى فى الرياض

لبعض الأفراد والأشياء والأماكن ذات الصلة بموضوع الكتاب.

دقة فيلبى فى الوصف

ويتناول فيلبى، فى الفصل الأول، بالوصف الدقيق الطريق من البحرين إلى العقير، ثم يبدأ بعد ذلك فى الإسهاب فى وصف العقير نفسها، ثم يصف بعد ذلك الطريق من العقير إلى الأحساء، التى يسهب أيضا فى وصفها. ترى لماذا لجأ فيلبى إلى الإسهاب فى الوصف؟ معروف أن كل من سبقوا فيلبى لم تكن معلوماتهم أو معطياتهم من الطراز الأول، أن بعض من سبقوه كانوا يقولون بوجود بحيرة كبيرة فى وسط الجزيرة العربية، ولكن بعض المستكشفين اثبتوا عدم صحة ذلك. يضاف إلى ذلك، أن الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن أفادت كثيرا من دقة فيلبى فى الوصف، والتى مكنت المتخصصين فى تلك الجمعية من توقيع تلك المعطيات والأوصاف على خرائط دقيقة بعد ذلك، وفيلبى نفسه يقول: تمكن خبراء الجمعية الجغرافية الملكية من الإفادة من بيانات تجوالى المفصلة فى إعداد ورسم خرائط مناسبة لذلك البلد الذى ظل حتى ذلك الحين موقعا على الخرائط من واقع معلومات من الدرجة الثانية.

والمجلد الثانى يشتمل على أربعة فصول: الخرج، الأفلاج، عتبة الوادى، وحاجز هضبة الطريق، وينهى فيلبى المجلد الثانى بملحق عبارة عن مقتطفات من تقريره أعده ر. ب. نيوتن. من المتحف البريطانى، عن مجموعة من الحفريات جرى الحصول عليها من وسط الجزيرة العربية (جبل طويق)، ويضيف ملحقا آخر بالمصطلحات والكلمات والتعبيرات العربية التى وردت فى الكتاب. وإمعانا من فيلبى فى تأكيد الحقائق التى أوردها يعزز المجلد الثانى بثمانى صور التقطها هو شخصيا لبعض

الأماكن والمعالم التى تخدم مموضوع كتابه القيم.

لم يغب عن بال فيلبى أن يعزز ذلك المجلد بخارطتين أحداهما لجنوب نجد، وتبين الطرق والمسارات فيما بين الرياض ووادى الدواسر، وذلك من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيا. والخارطة الثانية لوسط الجزيرة العربية، وفيها يبين الطريق الذى سلكه من الخليج العربى إلى البحر الأحمر، وذلك أيضا من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيا. وامعانا أيضا من فيلبى فى نسب الفضل إلى أهله، أقر فى تصدير المجلد، بأن أساتذة وفنيي الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية هم الذين ساعدوه على الوصول بخرائطه إلى الشكل الذى هى عليه فى الكتاب.

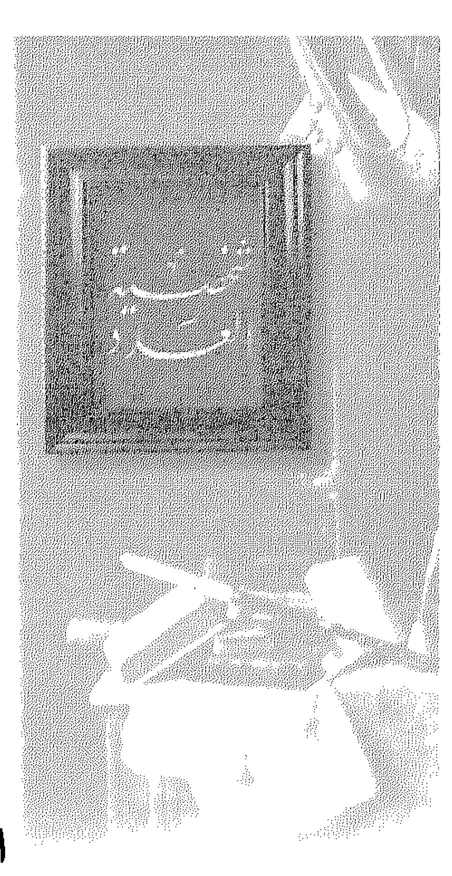
مادة علمية دقيقة

وفيلبى إذا كان قد قرأ كتاب بالجريف قبل أن يقوم هو برحلته، إلا أنه لم يغب عن باله أن يخصص حوالى خمسين صفحة أو ما يزيد على ذلك قليلا، لمناقشة بعض المقولات، وبعض التعبيرات التى وردت عند بالجريف. والفارق هنا كبير بين هذا وذاك نظرا لأن بالجريف ادعى أن قسما كبيرا من المادة العلمية التى جمعها ضاعت منه فى حادث انقلاب القارب الذى وقع له، وأنه كان يكتب معتمدا على الذاكرة، أما فيلبى فكان على العكس من ذلك، لديه الأدوات التى - برغم عدم كفايتها - مكنته من جمع مادة دقيقة إلى حد بعيد جدا. يضاف إلى ذلك أن السلطات المحلية كانت تتودد إليه وتسترضيه. ولذلك كان حرا فى تجواله وفى تنويع المصادر التى كان يجمع منها مادته ومعطياته.

ولا يسعنا إلا أن نقول: إن كتاب فيلبى يغطى فترة زمنية غاية فى الأهمية، هى فترة الحرب العالمية الأولى والصراع الذى دار فى تلك المنطقة بين تركيا وبريطانيا من جهة، وبين السلطات المحلية والحاميات التركية من جهة ثانية، والصراع الذى دار بين حائل، بحكم موالاتها للأتراك، والقوى المحلية من جهة ثالثة.

والمهتمون بتأريخ تلك الفترة الزمنية الدقيقة ، فى تلك المنطقة بالذات التى هى بمثابة الدماغ من الجسم البشرى المتمثل فى الجزيرة العربية يجدون، فى كتاب فيلبى، الكثير من الحقائق الخفية والمهمة أيضا.

ولو قدر لهذا الكتاب أن يرى النور مترجما على يدى ناشر محترم فسوف يشكل إضافة قيمة إلى المكتبة الخليجية فى المقام الأول ثم المكتبة العربية فى المقام الثانى. ■

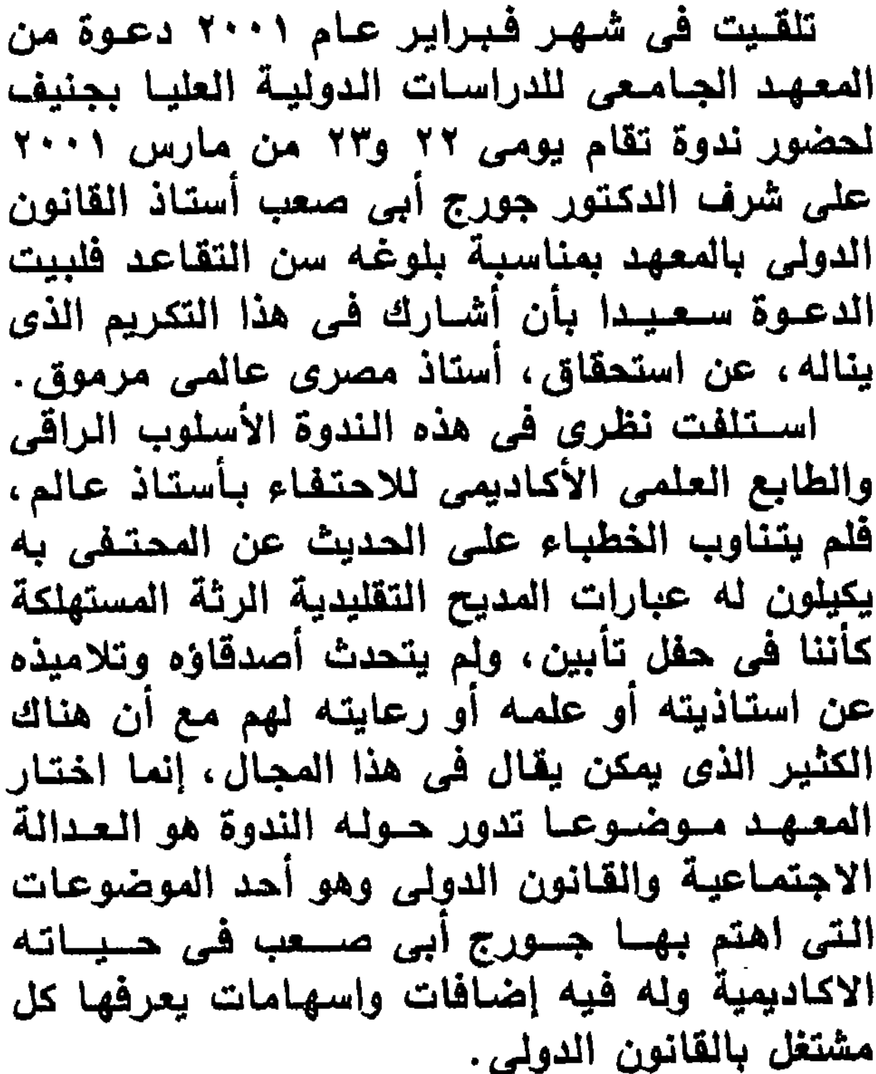


الدكتور

جورج أبى صعب

بقلم

شكرى فؤاد



تلقيت فى شهر فبراير عام ٢٠٠١ دعوة من المعهد الجامعى للدراسات الدولية العليا بجنيف لحضور ندوة تقام يومى ٢٢ و٢٣ من مارس ٢٠٠١ على شرف الدكتور جورج أبى صعب أستاذ القانون الدولى بالمعهد بمناسبة بلوغه سن التقاعد فلبيت الدعوة سعيدا بأن أشارك فى هذا التكريم الذى يناله، عن استحقاق، أستاذ مصرى عالمى مرموق.

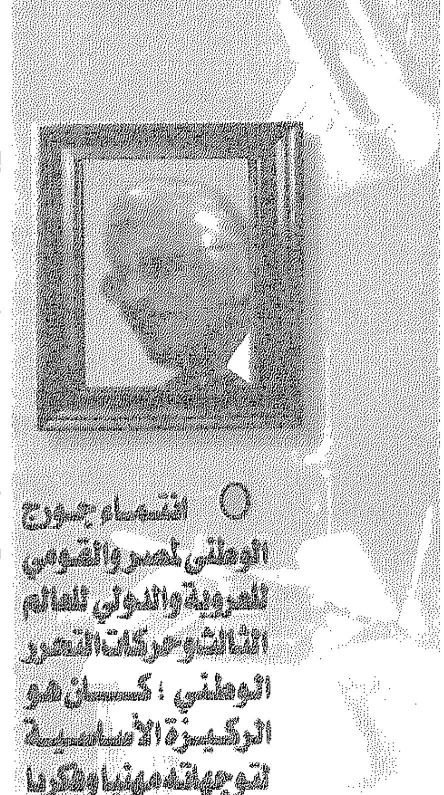
استلفت نظرى فى هذه الندوة الأسلوب الراقى والطابع العلمى الأكاديمى للاحتفاء بأستاذ عالم، فلم يتناوب الخطباء على الحديث عن المحتفى به يكيلون له عبارات المديح التقليدية الرثة المستهلكة كأننا فى حفل تأبين، ولم يتحدث أصدقاؤه وتلاميذه عن استاذيته أو علمه أو رعايته لهم مع أن هناك الكثير الذى يمكن يقال فى هذا المجال، إنما اختار المعهد موضوعا تدور حوله الندوة هو العدالة الاجتماعية والقانون الدولى وهو أحد الموضوعات التى اهتم بها جورج أبى صعب فى حياته الاكاديمية وله فيه إضافات واسهامات يعرفها كل مشتغل بالقانون الدولى.



وقد شارك بالحديث فى الندوة مجموعة من أبرز أساتذة القانون فى جامعات ومعاهد سويسرا وفرنسا واليونان وإيطاليا والولايات المتحدة واستراليا واليابان وبعض قضاة محكمة العدل الدولية فى لاهاى استغرقت محاضراتهم جلستين سادتهما الروح العلمية فكان اسم جورج لا يذكر إلا عند الاشارة إلى اسهامه الفكرى فى الموضوع الذى يتناوله المحاضر وفى الجلسة الثالثة والأخيرة القى الدكتور بطرس بطرس غالى محاضرة عن الديمقراطية والقانون الدولى ثم تقدم الدكتور جورج ليلقى ما أطلق عليه اسم الدرس الأخير أو محاضرة الوداع باعتبارها آخر محاضرة دراسية يلقيها بالمعهد، وفى الختام أعلن مدير المعهد إطلاق اسم جورج على إحدى القاعات وهى المرة الأولى التى يطلق فيها اسم أستاذ مازال على قيد الحياة على قاعة بالمعهد ولم تغب مصر عن المشاركة فى هذا التكريم فأقامت السفيرة فايزة أبو النجا - سفيرة مصر بجنيف فى ذلك الوقت ووزيرة الدولة للشئون الخارجية الآن - حفل استقبال بمقر سكنها دعت إليه كل من حضر الندوة ورؤساء البعثات الدبلوماسية فى جنيف ولا يفوتنى أن أقول إن الاحتفال كان على الطريقة السويسرية فالجلسات تبدأ وتنتهى فى موعدها بالضبط ووجبات الغداء والعشاء يدفع ثمنها المشاركون بعيدا عما ألفناه فى مصر من إقامة الندوات فى فنادق الخمس نجوم.

***

والدكتور جورج أبى صعب مصرى ولد بالقاهرة عام ١٩٣٣ لأبوين مصريين ترجع أصولهما العائلية إلى لبنان أتم دراسته الثانوية فى مدرسة مصر الجديدة الثانوية عام ١٩٥٠ والتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ونال منها درجة الليسانس عام ١٩٥٤ وإذ كان متفوقا فى دراسته حصل على منحة



○ انتماء جورج الوطني لمصر والقومي للعروبة والدولي للعالم الثالث وحركات التحرر الوطني: كان هو الركيزة الأساسية لتوجهاته مهنيا وفكريا

لدراسة الاقتصاد فى جامعة متشيجان بالولايات المتحدة عام ١٩٥٦ وبعد درجة الماجستير ينتقل إلى جامعة هارفارد ويتجه إلى دراسة القانون الدولى فينال درجة الدكتوراه منها عام ١٩٦٣، ويذهب إلى جنيف فى مهمة علمية فيتلقى عرضا للتدريس لفترة محدودة فى المعهد الجامعى للدراسات الدولية العليا وهناك يلتقى بشريكة حياته السويسرية السيدة الفاضلة روز مارى فيستقر فى جنيف كأحد أعضاء هيئة التدريس بالمعهد ويحصل منه على درجة ثانية للدكتوراه فى العلوم السياسية عام ١٩٦٧ وكان قد نال قبل ذلك دبلوم أكاديمية القانون الدولى فى لاهاى عام ١٩٦٤ وهو أول مصرى يحصل على دبلوم الأكاديمية وفى عام ١٩٦٩ يصبح أستاذا للقانون الدولى بالمعهد ويستمر فى هذا المنصب حتى عام ٢٠٠١ ليتوقف عن التدريس والمحاضرات ويستمر فى عطائه العلمى مشرفا على رسائل طلبة الدكتوراة طبقا للنظام الذى يأخذ به المعهد مع أساتذته الذين يبلغون سن التقاعد.

****

كانت سنوات التكوين الأولى لجورج أبى صعب هى الفترة بين منتصف الأربعينات ومنتصف الخمسينات من القرن الماضى والساحة المصرية تموج حينئذ بمختلف التيارات السياسية والاجتماعية فانخرط فى العمل السياسى بالأسلوب الذى يناسب طبيعته الهادئة المتزنة التى تعمل الفكر والتحليل بعيدا عن الصخب وحب الظهور والأضواء الزائفة والزبد الذى يذهب جفاء، ومنذ البداية كان اختياره واضحا وانحيازه حاسما مع المستضعفين ضد الاستغلال بكافة أشكاله السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلى جميع مستوياته استغلال الفرد للآخرين وقهر الحكومات للشعوب واستنزاف الدول الاستعمارية ومؤسساتها المالية والاقتصادية للدول النامية، ويستمر على هذا

الموقف طوال حياته فكان انتماؤه الوطنى لمصر والقومى للعروبة والدولى للعالم الثالث وحركات التحرير الوطنى هو الركيزة والمعلم الأساسى لتوجهاته فى حياته المهنية والفكرية، فوظف قدراته الأكاديمية للدفاع عن هذه القضايا التى آمن بها والمبادئ التى اعتنقها وأصبح واحدا من أبرز القانونيين - أن لم يكن أبرزهم - الذين أغنوا المدرسة الاجتماعية فى القانون الدولى بعلمهم وهى المدرسة التى تبنت قضايا العالم الثالث ودافعت عنها أمام اساطين القانون الغربيين فكان جورج هو صوت الدول النامية والمنظر لوجهات نظرها فيما يطرح من موضوعات واستوعب التغيرات الكمية والكيفية على الساحة الدولية التى أحدثتها حركة تصفية الاستعمار والنضال من أجل التحرر الوطنى بازدياد عدد الدول المستقلة فى المجتمع الدولى من ناحية وبظهور مصالح ومطالب لهذه الدول الحديثة تقتضى من ناحية أخرى أن تشارك فى عملية تطوير قواعد القانون الدولى التى كانت حتى ذلك الوقت وقفا على المركزية الأوربية ويذكر له دائما أنه عندما كان عضوا فى الوفد المصرى الرسمى إلى مؤتمر الخبراء الحكوميين ثم المؤتمر الدبلوماسى لتقرير وتطوير قواعد القانون الإنسانى الواجبة التطبيق فى المنازعات المسلحة الذى استمرت أعماله بين عامى ١٩٧٤ و١٩٧٧ تم اختياره متحدثا رسميا باسم مجموعة عدم الانحياز فى موضوع حروب التحرير الوطنية فكان المنظر لمشروعية هذه الحروب ولطبيعتها الدولية وانها ليست حروبا أهلية وبالتالى فإن اتفاقيات جنيف وملحقاتها تنطبق عليها.

وإلى جانب نشاطه الأكاديمى فإن جورج قاض ومحكم دولى معروف تم اختياره قاضيا خارجيا فى محكمة العدل الدولية فى لاهاى مرتين فى قضيتين من قضايا نزاع الحدود بين بعض الدول الأفريقية، وهو كمحكم دولى يأخذ دائما جانب الدفاع عن مصالح الدول النامية فى مواجهة الشركات المتعددة الجنسية العملاقة وينجح دائما فى أن يوائم بين المبادئ والممارسة والنظرية والتطبيق ولعل هذا هو سر السلام مع النفس الذى يتمتع به ويعرفه عنه كل من صاحبه.

عرفت جورج أبى صعب عام ١٩٧٩ عندما نقلت للعمل فى بعثة مصر



○ كان جورج - بالإضافة إلى نشاطه الأكاديمي - قاضيا ومحكما دوليا، اختارته محكمة العدل الدولية في لاهاي مرتين في قضايا نزاع الحدود بين بعض الدول الإفريقية

الدائمة لدى مقر الأمم المتحدة في جنيف وكان السفير عبدالرءوف الريدى قد نصحنى قبل سفرى بالاتصال بجورج والتعرف إليه وحالت ظروف ومتطلبات الاستقرار الأول فى مدينة جديدة دون ذلك فور وصولي حتى التقيت به في عشاء عند الدكتور محمد البرادعي مدير وكالة الطاقة الذرية فى فيينا الآن، وكان يعمل فى البعثة المصرية في جنيف فى ذلك الوقت، فكان هذا اللقاء بداية صداقة وطيدة اعتز بها زادها وثاقة وصول السفير الريدى فى العام التالى إلى جنيف كمندوب دائم لدى الأمم المتحدة فأصبحنا لسنوات متتالية نقضى نحن الثلاثة مع أسرنا أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من إجازات العام الجديد (ديسمبر – يناير من كل عام) فى منتجع شتوى بأحد جبال سويسرا نعيش عيشة مشتركة يتولى الأعداد لها وتنظيمها جورج وزوجته روز مارى وكنا نقول له دائما أنه نجح فى أن ينقل قطعة من مصر إلى قمم جبال الألب فالأحاديث والمناقشات والمطارحات تدور دائما حول الشأن العام المصرى والعربى سواء فى السياسة أو الأدب أو الفنون، والموسيقى العربية لا تنقطع عن المنزل وأفلام الفيديو المصرية هى تسلية المساء وصوت عبدالحليم حافظ مطرب التوبة وقارئة الفنجان.. إلخ وجورج يقول إن هذه الأسابيع هى الزاد المصرى الذى يعيش عليه باقى العام، وكانت هذه الاجازات من أسعد أيامى فى سويسرا بالرغم من الخضوع فى كثير من الأحيان للنظام الصارم والتخطيط المحكم الذى يفرضه علينا جورج وروز مارى.

والواقع أن جورج وإن كان قد غادر مصر ليعيش خارجها منذ عام ١٩٥٦ فإن مصر ظلت دائما فى سويداء القلب منه، يأبى أن يحصل على جنسية أخرى غير جنسيته المصرية ويحمل جواز سفر واحد هو جوازه المصرى يزور مصر مرات كل عام ويحرص على متابعة كل ما يجرى فيها، يأتى محملا بالهدايا

ليعود محملا بآخر الاصدارات من الكتب والمجلات والأفلام يقضى وقته كله مع أصدقائه الكثر ويترك منزله فى القاهرة مغلقا أغلب الأوقات ليقيم مع صديق شبابه الأستاذ سميح صادق حيث يستقبل زملاءه وتلاميذه المصريين الذين درسوا عليه فى معهد جنيف الذى أصبح اسمه عندهم مهعد جورج أبى صعب وجميعهم يبادلونه وفاء بوفاء وحبا بحب.

***

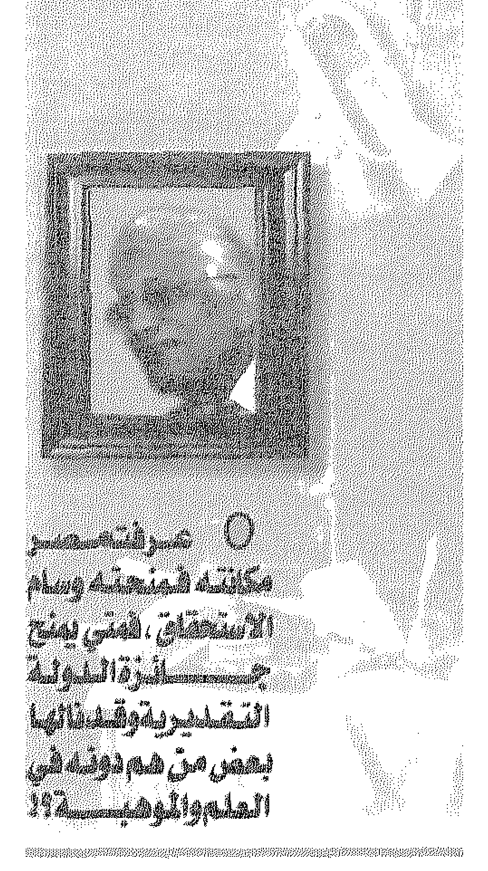
وجورج هو المحامى الدولى الدائم لمصر فى المحاكم والمحافل القانونية الدولية، كان مستشار الحكومة المصرية فى إجراءات طلب الرأى الاستشارى من محكمة العدل الدولية بلاهاى فى قانونية نقل المكتب الاقليمى لمنظمة الصحة العالمية من الاسكندرية إلى دولة عربية أخرى عقب توقيع اتفاقيات ١٩٧٩ مع اسرائيل ومقاطعة أغلب الدول العربية لمصر وأبلى فى مهمته بلاء حسنا فجاء رأى المحكمة مساندا لبقاء المكتب بالاسكندرية، ومثل مصر عند طلب الرأيين الاستشاريين من المحكمة نفسها حول شرعية استخدام دولة للأسلحة النووية فى نزاع مسلح وشرعية التهديد باستخدام أو استخدام أسلحة نووية.

أما أبرز أعماله دفاعا عن مصالح مصر وحقوقها فكان مشاركته فى تحكيم طابا، وإذا كان لم يشارك فى البداية فى المفاوضات المصرية الاسرائيلية لتسوية النزاع وذلك لتحفظات له على اتفاقيات كامب دافيد، فإن ذلك لم يمنعه من تقديم مشورته القانونية للمفاوض المصرى فلما فشلت المفاوضات ولجأت مصر إلى التحكيم شارك مع مجموعة من خيرة القانونيين المصريين فى الاعداد للتحكيم وكان العضو البارز فى هيئة الدفاع عن الموقف المصرى أمام المحكمين الذين نظروا فى النزاع وأعمل فكره وعلمه وفقهه بكفاءة عالية فى إعداد المذكرات والدراسات التى تدعم وجهة نظره وأخيرا فى مرافعته الشفوية أمام المحكمة فكان له دور بالغ الأهمية فى صدور الحكم لصالح مصر.

وهو إلى جانب هذا كله المستشار القانونى الفعلى لوزارة الخارجية المصرية تستدعيه للتشاور والاستئناس برأيه قبل اتخاذ قرار فى أى

موضوع مهم له صلة بالقانون الدولى، يقوم بهذا كله متطوعا قانعا بتقدير بلاده له وقد عرفت مصر مكانته وقدرت خدماته فمنحته وسام الاستحقاق وعندما طلب من الحكومة المصرية ترشيح أحد أبنائها لعضوية المحكمة الدولية لجرائم الحرب في يوغسلافيا اختارت جورج إلى صعب الذى ظل عضوا بالمحكمة حتى استقال بسبب ظروف عمله، وفى عام ٢٠٠٠ رشحته مصر لعضوية هيئة النقض لجهاز تسوية المنازعات فى منظمة التجارة العالمية وهى أعلى هيئة تحكيم فى المنظمة ففاز بالعضوية وأصبح بذلك واحدا من سبعة محكمين أو قضاة على مستوى العالم كله هم أعضاء هذه الهيئة.

كما اختارته كلية حقوق جامعة القاهرة أستاذا متفرغا بها عام ١٩٩٧.



○ عرفت مصر مكانته فمنحته وسام الاستحقاق، فمتى يمنح جائزة الدولة التقديرية وقد نالها بعض من هم دونه في العلم والموهبة؟!

***

تقول الدكتورة فرجينيا ليرى الأستاذة بكلية هاستنج للقانون بجامعة كاليفورنيا: جورج أبى صعب ليس مجرد استاذ لامع أو قاض دولى أو كاتب ملهم فى القانون الدولى فالأهم من ذلك بالنسبة لنا نحن تلاميذه أنه كان يتابع مسيرتنا المهنية ويرشحنا للمناصب المناسبة ويستمر فى الاهتمام والتوجيه بعد التخرج وأصبح صديقا لنا منذ تتلمذنا على يديه ولذلك لم يكن غريبا أننا أصبحنا نشكل حلقة (من المريدين) يجمع بيننا تأثرنا به ونحن نشق طريقنا فى مجال القانون الدولى وشعورنا الدائم بالامتنان العميق له.

يذكرنى جورج أبى صعب فى علاقته بطلبته بما نقرأه عن شيوخ طوائف الحرفيين فى القاهرة المملوكية والعثمانية فهو بالنسبة لطلبته شيخ القانونيين الدوليين، وكما كان قبول عضو جديد بإحدى الطوائف الحرفية يتم بمراسم يتولاها شيخ الطائفة تبدأ بحفل الالتحام عندما ينضم الصبى لأول مرة إلى



جورج وقرينته روز مارى مع د. بطرس غالى قبل « الدرس الأخير »

الطائفة ثم يليه حفل العهد ويتدرج إلى حفل الشد وأخيرا يحصل الصبى وقد أصبح رجلا على الاذن من شيخ الطائفة بمزاولة المهنة وبتعليم غيره حرفته بعد أن صار أسطى، فكذلك يفعل جورج مع طلبته الذين يختارهم بعين الخبير المتمرس يقوم بدور شيخ الطائفة ليبدأ بالأخذ بأيديهم فى مراحل الدراسة والاعداد للدكتوراه ثم يلازمهم بالاشراف والتوجيه ولا تنقطع صلته بهم بعد التخرج بل يستمر فى رعايتهم يزكيهم للمناصب المختلفة ويرشحهم للوظائف المناسبة فانتشر طلبته من كل الجنسيات فى أنحاء العالم أساتذة فى الجامعات وعمداء للمعاهد وسفراء لدولهم يعترفون دائما بفضله ويكنون له كل محبة وتقدير وامتنان.

هذه عجالة عن هذا المصرى الوطنى النبيل لا أستطيع أن أختمها دون أن أتساءل كيف أخطأته جائزة الدولة التقديرية حتى الآن وقد نالها بعض من هم دونه فى العلم والموهبة. ■

مازالت لوحات الجزار وندا تتربع على عرش الإبداع المصرى

بقلم
صلاح بيصار

فى عام ٢٠٠٠ أقيم معرض للفنان عبد الهادى الجزار (١٩٢٥-١٩٦٦) بمناسبة مرور ٧٥ عاما على ميلاده، وذلك بقاعة المرسم بمدينة نصر.. افترشت القاعة بأكثر من ٥٠ عملا بالحبر الشينى والجواش والألوان الزيتية.. هذا مع مجموعة من لوحاته الصرحية التى تعد من أهم أعماله، من بينها «فرح زليخة» وبورتريه «تأمل» للسيدة زوجته ولوحة «البقعة المجهولة».

ووقت أن كان المعرض مقاما عرض ربع مليون جنيه لاقتناء «زليخة» لكن السيدة ليلى عفت حرم الفنان الجزار رفضت العرض مؤكدة أن «زليخة» و«المجنون الأخضر» ملك لأسرة الفنان ولا يمكن التفريط فيهما.



«فرح زليخة » للفنان عبد الهادى الجزار

تكررت هذه الواقعة مرة أخرى هذا العام لكن الطريف أن العرض تجدد من أحد رجال الأعمال على أن يدفع ٦٠٠,٠٠٠ جنيه للوحة الواحدة وقوبل أيضا بالرفض.. يؤكد هذا ابراهيم عبد الرحمن مدير قاعة «بيكاسو» للفن التشكيلي والخبير في تقدير القيمة المادية للوحات المصرية .. ويضيف بأن لوحات الجزار في بورصة الفن التشكيلي هي أغلى اللوحات على الإطلاق من حيث التداول تليها لوحات حامد ندا التي تصل قيمتها إلى ١٢٠ ألف جنيه للوحة.. ويعد ذلك لوحات الجيل الأول والتي تصل قيمتها إلى ٥٠ ألف جنيه للوحة بالنسبة لأعمال محمد ناجي ويوسف كامل وأحمد صبري وراغب عياد.. أما أعمال محمود سعيد فتصل قيمتها إلى ٨٠ ألف جنيه.

■ لماذا الجزار وحده؟

في قمة التوهج وعبقرية الإبداع رحل عن دنيانا عبد الهادي الجزار عام ١٩٦٦ عن ٤١ عاما.. ورغم حياته القصيرة إلا انه ترك تراثا فنيا ضخما يتجاوز الـ ٥٠٠٠ عمل فني.. تراثا كتب له البقاء والخلود.. وما أشبه رحلته في الإبداع برحلة فان جوخ (مع فارق الشخصيتين) والذي ترك أكثر من ٢٧٠٠ لوحة ورسم في رحلته القصيرة التي لم تتجاوز ٣٧ عاما.

ولقد تنوعت مراحل الجزار الفنية بدءا من مرحلة القواقع التي صور فيها الإنسان عاريا من كل شيء خارجا من قوقعة الزمن إشارة لبداية الحياة مسكونا بالألم والخوف والتساؤلات.

أما أعماله التي صور فيها الطقوس الشعبية فقد غاص في الوجدان الشعبي المقهور بالخوف من المجهول أسير الهموم والأساطير والأحزان محاصرا بالتمائم والأحجبة والتعاويذ حتى أنه عند تأملنا للوحاته في هذا الاتجاه يظل عالمه يرتعش بداخلنا ويصرخ فينا من فرط دراميته.. وقد جاءت لوحة «فرح زليخة» صورة لقوة السحر حيث تقف زليخة ممسكة بوردة ذات ورقة وحيدة خضراء تطل من اناء ومعها ابنتها الصغيرة المتوجة بالتعاويذ والتمائم ويقف القط مع تلك الخلفية التي تمثل جدارية شعبية تموج بوجوه آدمية متوحشة.. واللوحة أبدعها الجزار عام ١٩٤٨.

أما لوحة الجزار الشهيرة «المجنون الأخضر» والتي صورها عام ١٩٥١ فهي لواحد من مجاذيب الحسين يحمل وجها



«يوم جمع الثمار» للفنانه انجي افلاطون

أخضر مسكونا بوطأة المعتقدات الشعبية أسيرا للتعاويذ بقرط فى أذنه ووردة حمراء وخلفه حائط برسمين للكف وفى كل كف عين الحسود.. ينقلنا فيها إلى عالم من الرموز الشعبية التي تصور دراما الحياة من واقع الموالد الشعبية.

وفى لوحة «المتأملة» للسيدة زوجته أضاف على ملامحها عالمه الخاص حيث تتوحد الرموز بين توهج الألوان وخفوتها وبين الجلال والخشوع وهذه المسحة من السحر الصوفى الذى لا ينتهى.

أما عالم الفنان حامد ندا فهو ينتمى أكثر إلى مرح الحياة الشعبية أو الخيال الفنتازى الذى يأسرنا برشاقته وطرافته حيث نطالع نساءه الداكنات المسطحات فى استطالة شديدة ويضيق الخصر وتنفرد الأذرع فيتحولن إلى كائنات أشبه بفرسة النبى من خلال هذا الجسد المطوط والمسكون بالسحر والغموض مع مفرداته الشعبية العديدة: الديك والقط والحصان والعصفورة والسمكة والمفتاح وحبل الغسيل وعربة الروبابيكيا وكلها تمثل نداءات الحياة الشعبية.

● جيل الرواد

فى بورصة الفن وصلت القيمة المادية للوحة الواحدة من أعمال الجيل الأول إلى ٥٠ ألف جنيه من تلك الأعمال التى يقتنيها أفراد. فهى تمثل انطلاق الشرارة الأولى للإبداع المصرى والذى امتد بين البحث فى جذور تراث مصر القديمة واستلهام البيئة المصرية مع هذا المزيج من المؤثرات الغربية .

فى أعمال محمد ناجى امتزجت روح مصر التى تمتد من طيبة إلى الإسكندرية بوهج شمس الحبشة بحضارة العرب واليونان.. فكانت نهضة مصر «ايزيس» التى تقود الركب، وكانت صور الطبقات الشعبية ومناظر الريف الذى توحد فلاحوه مع حيواناته.

ويقودنا راغب عياد إلى هدير الحياة الشعبية من الزار والأسواق والمقاهى والحقول والحمامات الشعبية والأفراح والموالد والأديرة المنتشرة فى صعيد مصر بأسلوب تعبيرى مفعم بروح الفن القبطى.

ولقد أبدع أحمد صبرى فى التعبير عن مجتمع الطبقة الوسطى من خلال الصورة الشخصية فخرجت من الواقع الفوتوغرافى إلى واقع جديد..واقع فنى تحقق فى أبلغ صورة فى «الراهبة» و«بعد القراءة» وغيرهما من الصور.

ولقد ظهرت مصرية يوسف كامل حين صور بالنور معالم القاهرة القديمة وبهاء القرية بطيورها وحيواناتها الأليفة وأسواقها.. مع مناظرة المسكونة بأريج الحقول من زهور البرسيم إلى رائحة الجميز.

لكن لوحات محمود سعيد والتى تصل إلى ٨٠ ألف جنيه للوحة فتبدو فيها ملامح من مصر متمثلة فى بنت البلد الممتلئة بالخصوبة وقوة الحياة.. مثلما هى فى «بنات بحرى» و«ذات العيون العسلية».

أما أعمال رائد التربية الفنية حبيب جورجى فتصل قيمة اللوحة إلى ٢٥ ألف جنيه وهى معزوفات لونية من مناظر الريف وأشجار الدوم والنخيل و السواقى والغروب على الجبل وأيضا لوحاته حول الأديرة وبيوت العبادة والتى تعد بمثابة تجليات صوفية بألوان غاية فى الاقتصاد من «مائدة الرهبان» ولوحة «داخل الدير».

● الجيل الثانى

أما لوحات الرائد حسين بيكار التى تتنوع من فن البورتريه «الصورة الشخصية» التى مزج فيها روحه الشفافة الحالمة فتألقت مسكونة بابتهالات الضوء.. إلى لوحات الحصاد والنوبة التى تمثل ايقاعات بصرية بألوان حاذقة من الرماديات والأسود والأبيض ومساحات من الأزرق والأخضر فتصل إلى ٢٠ ألف جنيه.

يقول ابراهيم عبد الرحمن: والحقيقة أن قيمتها أكبر من ذلك بكثير فهى تقدر بخمسين ألفا للوحة ولكن الأستاذ بيكار متواضع فى أسعار لوحاته.

دنيا البيانولا للفنان حامد ندا

وبالنسبة لرسومه واسكتشاته ودراساته فتبدأ من ١٠٠٠ جنيه.

ومن الجيل الثانى أيضا تصل لوحات كامل مصطفى وجمال السجينى إلى ٣٠ ألف جنيه ولقد بيعت هذا الموسم لوحة للفنان حسنى البنان بـ ٥٠ ألف جنيه.. لوحة «مشهد ريفى» والتى تعد بمثابة ملحمة مرئية تغنى للريف المصرى بالبشر من الفلاحين والفلاحات وحيوانات القرية مع النيل والنخيل والمراكب، ولقد تتلمذ البنان على يد الرائد يوسف كامل وربطت بينهما المصاهرة مع حب الحياة الشعبية والريفية ويتميز اسلوبه بالاتجاه التاثيرى.

وتصل أعمال الفنان صلاح طاهر إلى ٥٠ ألف جنيه بالنسبة لأعماله الواقعية وأيضا أعماله التجريدية بمراحلها العديدة



وتنوعاتها من التعبيرية التجريدية إلى الغنائية الشكلية والتجريدية الرمزية.

وبالنسبة لوجوه صبرى راغب التى تطل بالحلم والرومانسية باتساع مشاعر وأحاسيس البشر فى لمسات ملونة أو بهجة من الهمس والنور والضياء وأيضا زهوره التى تعد بمثابة بورتريه آخر أشبه بالإنسان فتصل إلى ٢٠ ألف جنيه.

وفى أعمال حسن سليمان التى تجمع بين القوة والرصانة وأستاذية الأداء فلوحات الفحم تبدأ من ٢٥٠٠ جنيه والألوان ٦٥٠٠ جنيه أما لوحات الزيت فتصل إلى ٣٥ ألف جنيه.

ولقد صور رائد الباستيل الفنان محمد صبرى وجه مصر فى لوحاته لقاهرة المعز التى صور فيها سحر الدروب والأبهاء والمشربيات والمناظر الشعبية المسكونة بالباعة والحوانيت ومعها مناظر النيل والنخيل والجبال والريف المصرى.. تصل أعماله إلى ٢٠ ألف جنيه.

ورائد الفن الشعبى الفنان سيد عبد الرسول الذى يطل عالمه شديد الخصوصية والتعبيرية له ايقاعه الخاص الذى يموج بفنتازيا الألوان مع الأفراح المسكونة برقصات الخيل والتحطيب وعازفى الربابة والأرغول والمنشدين والرقصات الايقاعية لصبايا الريف وأيضا حاملات الجرار والعمل فى الحقل وصندوق الدنيا .. تلك الأعمال تقدر قيمتها بـ ٣٥ : ٤٠ ألف جنيه.

أما سيف وأدهم وانلى .. وقد أضاءا سطوح اللوحات بدنيا المسرح والسيرك والباليه فلوحات الأحبار والجواش من انتاجهما تقدر بـ ٧ آلاف جنيه أما الصور الزيتية فتبلغ قيمتها من ٣٠ :٤٠ ألف جنيه .. (٣٠ ألف بالنسبة لأعمال أدهم و٤٠ ألفا لأعمال سيف).

وفى أعمال عبد الوهاب مرسى نطل على مصر الزمن والتاريخ من خلال هذا الايقاع الذى يسكن روح الجداريات المصرية الفرعونية وصور الفن الشعبى.. تبلغ لوحاته التى يشكلها من الرمال ٤٠ ألف جنيه.

وتكمن قيمة أعمال جورج البهجورى التى تنتمى لمرحلة الستينات لهذا النبض الشعبى حيث تطل الوجوه بعيون شاخصة كوجوه الفيوم . تصل لوحات هذه المرحلة إلى ٢٠ ألفا أما أعماله الحديثة والتى جمع فيها بين التصوير الزيتى والكولاج وقصاقيص الخيامية فقيمتها من ٣ آلاف إلى ٧ آلاف جنيه.

ولوحات الفنان حامد عويس التى



صـورها بتلك الملامح البـارزة من قـوة الأيدى والأذرع والأقدام العملاقة والعيون المتسعة المتطلعة والأكتاف العريضة والتى تمثل ترنيمـة بطلها الإنسان.. واكسبت ثورة يوليو وباركت انجازاتها بالخطوط والألوان وتبنت أحلام الطبقة الصاعدة.. قيمة اللوحة ٢٥ ألف جنيه.

● لوحات الفنانات

ومارجوفيون المولودة بالقاهرة عام ١٩٠٧ من أم نمساوية وأب سويسرى التى تقـول عن لوحاتها إنها رمزية تجريدية ساخرة شيطانية أو أى شىء من الممكن أن نسميه ما دام يرتبط بسحر الفن. قيمة أعمالها ٤٠ ألف جنيه للوحة. أما تحية حليم والتى تمثل مرحلة النوبة قمة أعمالها فتقدر بـ ١٥٠ ألف جنيه وبالنسبة للاسكتشات والدراسات فتبدأ من ٥٠٠٠ جنيه.

وتلتـقى جـاذبيـة سـرى مع إنجى أفلاطون فى القيمة فتصل قيمة لوحات كل منهما إلى ٢٠ ألف جنيه.

أما أعمال الفنانة فسيلا فريد التى نطالع فيـها المرأة الكادحـة من الحى الشـعبى والتى صـورتها فى حـزنها وشقائها فى صمتها وهمسها وحيدة خارجة من خلفية اللوحة أو ممتزجة بها فى ألوان من الرماديات والأصفر والأزرق والأسود فتقدر بـ ٧٠٠٠ جنيه.

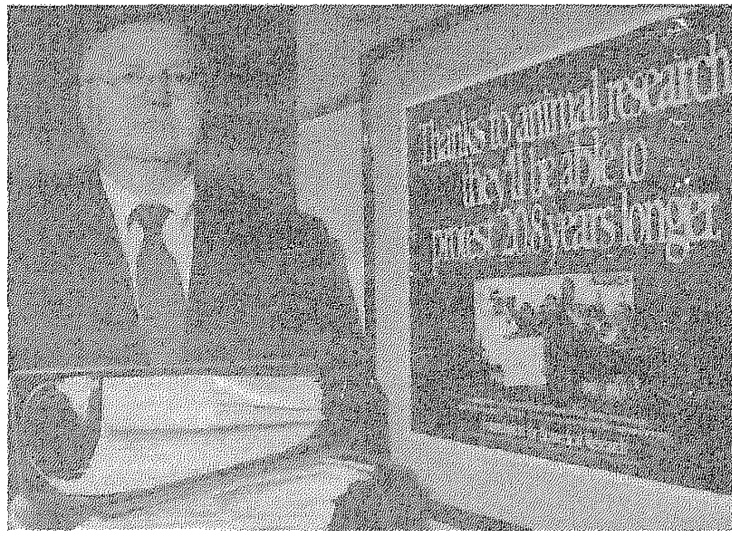
وتجىء لوحات الفنانة كاترين باخوم المصرية الأصل الفرنسية الجنسية والمقيمة بباريس خروجا من إطار الفن الاستشراقى فهى تصيغ بقلبها تلك الألحان التى تجمع بين القوة والهمس فيطل الانسان فى رياش من القفاطين والعباءات والسترات المطرزة بالقصب الذهبى والفضى كما لو أن ضوء الشمس يغمر طياتها تبلغ قيمة لوحاتها الصغيرة ٤٠٠٠ جنيه.

أما الفنانة زينب السجينى والتى تصور أحلام البنات فتصل لوحاتها من المقاس الكبير إلى ٣٠ ألف جنيه.

وتبقى أعمال جيل الشباب مثل عمر عبد الظاهر وعماد ابراهيم وفتحى عفيفى وخالد السماحى وتقدر قيمتها من ٢.٥ ألف: ٧ آلاف جنيه .

وبعد.. تلك كانت إطلالة علي بورصة الفن التشكيلي والتي تمثل واجهة حضارية لمدي احترام المتذوق المصري للأعمال الفنية وهي تشير أيضاً إلي ملامح القيم التشكيلية ومؤشراتها المسكونة بالخصوصية والتي تجعل من العمل الفني نافذة مسكونة بالأضواء والظلال وسحر الحياة. ■

جماعات حقوق الحيوانات تحاصر جامعة أوهايو لإنقاذ القطط من الموت؟!



د. برادلى نائب رئيس جامعة اوهايو للأبحاث والتجارب

فى البداية تدفقت الخطابات الغاضبة من أفراد وجماعات حقوق الحيوانات على جامعة أوهايو الأمريكية.. تهدد وتتوعد، وتطالب برأس الدكتور مايكل بودل والداعمين لمشروع البحث الذى يقوم به، لدراسة تأثير بعض العقارات فى الإسراع بالاصابة بمرض الايدز!.

ذلك لأنّ الدكتور بودل المشرف على هذا المشروع، يقوم بحقن القطط بهذا العقار، ويظل يتابع حالاتها لفترة، ثم يقوم بحقنها بعد ذلك بالسم حتى تموت بسرعة!.

لكن الأمر لم يتوقف على الخطابات ، وكل وسائل الاتصال الأخرى .. فقد تحدد الموعد بين هذه الجماعات منذ أسابيع.. وتجمع المئات، وحاصروا الجامعات ومركز الأبحاث.. ورابطوا أمام أبوابها.. ورشوا بيت مدير الجامعة باللون الاسود، وقاموا بتصميغ أبواب مبنى الإدارة واقفالها.. ووقفوا فى انتظار د. بودل أو غيره، لكنهم كانوا قد هربوا قبل الحصار!!

يقول جوردان كوهين رئيس الجمعية الأمريكية للكليات الطبية : إنه من المستحيل أن يتوقف البحث العلمى والتجارب المعملية .. لكننى أرى أنه يجب أن يتحول هؤلاء الباحثين إلى تماثيل صامتة.. فيقتلون فى أنفسهم كل شهوة نصر أو دعاية.. ويعلمون أنه قد كتب عليهم الصمت والصبر وروح التضحية!

د. بودل الذى وصله ١٢ تهديدا بالموت من حماة القطط وعشاقها، عمره ٤٤ سنة متزوج وله طفلان، يترقى فى مركزه الأكاديمى لنجاحه فى مشروعه الذى حصل له على منحة قدرها ١.٧ مليون دولار من معاهد الصحة الوطنية، صرح لجريدة

النيويورك تايمز طالبا عدم نشر صورته: سأتخذ القرار المناسب بالنسبة لي شخصيا.. سأترك الجامعة والعمل والبحث الطبي فورا.. سأضحي بمستقبلي الأكاديمي والبحثي انقاذا لحياتي وللبحث والتجارب التي لاشك سيواصلها غيري بطرق أخرى مختلفة.. ذلك أفضل أيضا لأسرتي..

وقال: سأتجه للعمل في عيادة بيطرية لعلاج الحيوانات، لن تكون لي ولا باسمي.. سيكون ذلك في ولاية أخرى، واعفوني من ذكرها وتحديدها!.

يقول د. برادلي مور نائب رئيس جامعة أوهايو للأبحاث والتجارب: سوف لن نضع الكاميرات في غرف التجارب، سنعمل بهدوء.. لكن الذي أخشاه أن تتراجع بعض الجهات المانحة خوفا من جماعات التخريب العلمي هذه.. لكننا سنعمل بهدوء..

المعروف أن د. مايكل بودل قد أجرى تجاربه في مشروعه هذا الأخير على الإيدز، على ١٢٠ قطة، وهو يقول: سأستخدم خبرتي هذه في علاج القطط المريضة، ويوم أصل إلى علاج ١٢٠ قطة، آمل أن يصفح عني حماة القطط ويتركوني أربي أولادي وأرعى أسرتي!!

معركة فلسطينية إسرائيلية في عالم سمسم!؟

الطريف أنها معركة تنافسية ودية، كانت ضمن ما اتفق عليه في أوسلو في إطار الصداقة والجوار «الحتمي» بين الجانبين.. وذلك أنه إذا كان هذا الجوار الحتمي يستتبع سلاما لا مفرّ منه، فإن البدء بالأطفال والتقريب فيما بينهم، هي الخطوة الأولى، إضافة إلى «فرض» العولمة الفكرية «المطلوبة» للإنسان الجديد في كل أنحاء هذا الكوكب!.

انه «عالم سمسم» الذي تموله ٨ جهات أمريكية، مع الاتحاد الأوروبي، وكندا.. بكل من اللغتين العربية والعبرية.. كان اسم البرنامج «شارع سمسم» باعتبار أن الشارع هو أفضل رمز للصداقة والاحتكاك والصداقة بين الأطفال ومعهم تلك «الدمى» التي تزيد ارتباط الشعبين من الأطفال.

البرنامج واجه مرحلة جديدة: الانتفاضة والحصار الإسرائيلي الذي لم يترك مدينة أو قرية بكل ساحاتها وشوارعها بما فيها شارع سمسم، ودخول الأردن كشريك ثالث

يحصل بها على نسخة عربية هي نفسها النسخة الفلسطينية مع ما يمكن أن نعطي الضرورة من اختلافات محلية.. الطرف الأردني رأى الخروج من الشارع الواحد، إلى عمومية أكثر، فاقترح تسمية البرنامج: «قصص سمسم».

«نحن ندرك أن صداقة العولمة تأتي بمواجهة الحقائق، بعيدا عن أية ظروف مؤقتة وكل ما يحدث الآن» تقول شارلوت كول نائبة رئيس الدراسات لشركة سمسم اسمها الرسمي «The children's Television workshop» في نيويورك.. وبعد أن كان الفلسطينيون يذهبون بشكل عادي قبل الانتفاضة إلى تل أبيب للعمل في إنتاج الحلقات، ويلتقون في لندن ونيويورك، أصبحوا مع توقف الإنتاج مع الأمل في عودته واستمراره بحكم ما أسند إليهم من مهام ووظائف، يستخدمون في اتصالاتهم الهواتف والبريد الالكتروني.. وتقول الونا إيبت المنتجة الإسرائيلية المسئولة: «من الضروري مواجهة هذا الواقع ومعالجته» بينما يقول الفلسطينيون أنه من الحماقة إذاعة حلقات وقصص تدعو للتسامح بينما لا يوجد سلام ولا حتى اتفاقية سلام موقعة..

ويقول داود كُتاب المنتج الفلسطيني المسئول، والذي يملك ستوديو تصوير في رام الله: «الإسرائيليون يدمروننا فكيف نقول للأطفال كونوا طيبين ومتسامحين مع الذين يقفون بدباباتهم ومدافعهم أمام بيوتهم؟

كـــتـــاب أمـــريكي.. يحـــاكم في أنقـــرة..

الكتاب وعنوانه «أيّ غفران هذا .. بعد كل هذه المعلومات؟» لا يركز على تركيا، ولا ينتقد الحكومة التركية، لكنه يتحدث عن الأكراد، ويشير في المقدمة إلى أنّ للأكراد في تركيا شعورا بالأمل في المستقبل..

مؤلف الكتاب جوناتان راندل وهو مراسل سابق لصحيفة الواشنطن بوست وله خبرة طويلة بالشرق الأوسط، وهو أمريكي، يعيش الآن في باريس.

ناشر الكتاب عبد الله كيسكين، وهو مثقف تركي «كردي» أصدر عبر دار النشر التي أنشأها في عام ١٩٩٦ (١٣٠ كتابا)، منها نحو خمسين كتابا باللغة الكردية،

وتضم كثيرا من الترجمات للأدب الكردى من العراق وإيران وكذلك من الأدب العربى واللغتين الانجليزية والفرنسية.

الاتهام وجّه إلى الناشر، باعتبار أنّ الكتاب المترجم عن الانجليزية، يوحى بأنّ كردستان الأكراد أمة لها شخصيتها وانفصالها عن الآخرين، إضافة إلى أنه نشر خلال الأعوام الثلاثة الماضية عدة كتب فى نفس المجال، وواجه تهما جنائية بسبب هذه الكتب، حول التاريخ والأدب والتراث الكردى، توقظ النضال الكردى وتؤكد على لغتهم وهويتهم.. مما يدل على أنه ماضٍ فى طريقه.

تمت مصادرة الكتاب بعد أيام من ظهوره، ووجهت التهمة لكيسكين ببث الفرقة، والدعوة إلى الانفصال، وإثارة النعرة التركية، والايحاء برسم خريطة محددة وواضحة المعالم لكردستان داخل الأراضى التركية..

قضية كيسكين ترصد اهتماما بها خارج تركيا، ليس فقط لأن مؤلف الكتاب المترجم أمريكى، ولكن لأن دار النشر «أفستا» لها سمعة دولية طيبة، خاصة فى أوروبا..

عندما أنشأ كيسكين دار نشره قال : «بعض الناشرين يركزون على النشاط السياسى، وآخرون لا تهمهم سوى التجارة، أما هذه الدار فهى فى مكان ما بين النشاطين، إنها تعتبر متنفسا متواضعا لسلعة قليلة الحظ، هى الأدب الكردى، لكننى لست ناشرا سياسيا، وليست لى ارتباطات أو علاقات بأى تنظيم سياسى كردى».

يقول كيسكين الذى يحاكم أمام محكمة أمن الدولة، والذى يواجه حكما بالحبس ثلاث سنوات يتوقف على «مزاج» القاضى أو «امتزاجه».. فالمؤلف لا تتم محاكمته، وأنا لا أسعى إلى الإثارة، وكل هدفى أن أقدم للأتراك والأكراد الفرصة والقدرة على الحوار التعددى..» المعروف أنّ البرلمان التركى قد أصدر الشهر الماضى قوانين جديدة تتيح الفرصة للأقليات ومنهم الأكراد (١٢ مليون نسمة أى ٢٠٪ من السكان) فى استخدام لغاتهم ونشاطاتهم، بهدف الاقتراب من رضا الاتحاد الأوروبى لضمها إليه، ومن هذه القوانين مايمنع إصدار أية أحكام بالاعدام إلا فى أوقات الحرب.. بما يستدعى بشكل عام براءة كيسكين على الأقل.

لكنّ بعض المراقبين والمحللين فى أوروبا والولايات المتحدة، يرون أنّ تركيا - على الأرجح - سوف تنتظر طويلا، لأن أوروبا لن تستطيع تحمل أن تصبح حدودها الشرقية جارة للعراق وسوريا وإيران؟!!

الولد على طريق خاله!

نيل بســوندات من ترينداد أديبــا فى كندا


نيل بسوندات

أهدى نيل بسوندات روايته الجديدة «Doing the heart good» إلى خاله ومعلمه نيبول البريطانى الترينيدادى الأصل، والحاصل على جائزة نوبل، والذى أثارت أفكاره عددا من النقاد في مصر لموقفه من ثوابت المعتقدات والتقاليد.

فى إهدائه ومقدمة روايته يشير بسوندات إلى خطاب أرسله له الخال نيبول ولم يكن بسوندات قد تجاوز العشرين بعد .. يقول : «نصحنى أن أهاجر إلى كندا، وأن أتابع طموحى إلى أن أكون كاتبا وأديبا.. وحذرنى من أنّ تمسك الإنسان وانغلاقه داخل أصله وتاريخه وتقاليده، يصبح قيدا عليه وفخاً له».

يحكى نيل بسوندات ذلك وهو جالس فى حديقة بيته الخلفية التى تتشكل بأنوا ع مختلفة من الزهور البرية، فى أحد أحياء مدينة كيبيك الكندية الهادئة..

لقد أصبح ابن الأخت بالفعل أديبا كنديا، له أربع روايات، ومجموعتا قصص قصيرة.. وكتاب يضم أهم مقالاته وأفكاره..

● يقول : لقد حققت نصيحة خالي، والآن أجد نفسى داخل مركز حوارات حادة، حول أسباب وجذور السمات الانسانية والمواهب البشرية، وأنّ الفروق العرقية تولّد فى إطار الاحتكاكات والتعاملات الفردية والدولية، تولّد امتيازا فطريا وحقدا عنصريا!!

إن المدن الكندية مزدحمة بالمهاجرين بمعدلات مدهشة، وذلك يسبب اهتياجا ضدها من الأوربيين.. الذين يعارضون فتح أبواب الهجرة على مصارعها!.

أغلب روايات بسوندات يتناول حياة المهاجر ، ومدى قدرته على «الاندماج المريح» فى المجتمع الجديد ، وربما يرتكز هذا الاندماج على سلوكيات ناعمة ومنافقة ولينة مع المجتمع الجديد، ليحاول اخفاء واقعه الذى يجعله يزداد تضخما مؤلما داخل

أعماقه.. بعض شخصيات بسوندات من المهاجرين، يجدون الخلاص الفاشل فى العودة إلى وطنهم الأصلى، ليزداد تمزقهم، يجدون الخلاص الفاشل فى العودة إلى وطنهم الأصلى، ليزداد تمزقهم بعودتهم إلى «النار» من جديد.

يطرح بسوندات أفكاره الصريحة فى كتابه أوهام رائجة « Selling illusions» والتى أثارت عليه المهاجرين من أبناء وطنه الذى ينزوى فى ركن صغير بين دول أمريكا اللاتينية.. حيث ولد هناك فى مدينة أريما، ويقول إن أفكاره وفلسفة حياته تقوم على «الفردية» أو المذهب الفردى «individualism» حيث تكون مصلحة الانسان فوق كل الاعتبارات.. ويعود هذا إلى نشأته وسط أسرته الكبيرة، فأجداده كانوا فقراء، يعملون فى حقول الأرز والسكر، ولكنهم خططوا لأنفسهم للخروج من دائرة الفقر، بامتلاك أعمالهم الخاصة، فأبوه كريسن امتلك محلا للبيع بالتجزئة..

● يقول : أعتقد أنّ البراعة الفردية هى التى تشكل حياة الانسان..

والدته ساتى - شقيقة ينبول - لها دور كبير فى حياته، فقد كانت زاخرة الخيال بالحواديت والحكايات، وأتاحت له مئات القصص وروايات الخيال فى سن مبكرة .. وفتحت عالمه الصغير على الدهشة التى لا حدود لها.. ولما كبر ، ورأى فى مكتبة أمه عشرات الكتب التى ألفها خاله ينبول، امتلأ قلبه بالأمل الكبير فى أن يصبح كاتبا.. ووضعته نصيحة خاله بالهجرة، خارج حدود بلاده، ونزعته بعيدا عن جو التخلف والانقلابات السياسية التى عاشتها ترينداد لسنوات طويلة، رغم ثرائها باعتبارها دولة بترولية وزراعية معا. ومساحتها الصغيرة التى تصل إلى نحو ٦ آلاف كيلومتر مربع.. أى أكثر قليلا من نصف مساحة لبنان.. اللغة الفرنسية، وكانت هوايته المناقشات السياسية ومتابعة السينما. طلاب الجامعة من زملائه وأبناء بلده لم يقبلهم ولا قبلوه واتهموه بالخيانة لأنه كان يطلق على بلده أنها «مهرجان كبير من المتطرفين والمجانين»..

كان أول ما نشره مجموعة قصص قصيرة بعنوان «حفر الصخور» سنة ١٩٨٥، وتخرج من الجامعة وأكمل دراساته العليا .. وواصل الكتابة، وعمل أستاذا للإبداع الأدبى فى جامعة لاڤال فى كيبيك وهى جامعة أسسها الرومان الكاثوليك، وتزوج من كندية فرنسية.

ولديه ابنة عمرها ١١ سنة، يعيش فى حى يقل فيه عدد المهاجرين.. يدافع عن القضايا المحلية والمحافظة على التراث الفرنسي للسكان!. يحتفظ فى بيته بمئات التحف من كل أنحاء العالم.. إلا من بلده ترينداد!.

يقول : أحب أن أكون معروفا بأننى أديب كندى. ■

باريس - جنيف

مشاهد ثقافية في رحلة أوروبية

بقلم
محمود قاسم

هل يقرأ رجل الشارع الفرنسي عشرات أضعاف ما يقرأه المثقفون في بلادنا ...؟

المشهد الأول

مترو أنفاق ، في مدينة باريس ، مزدحم بالركاب و أغلبهم ملون البشرة ، قادم من أفريقيا والكاريبي ، ينطلق المترو في أنفاق عملاقة ، وجوه الكثيرين تحدق في صفحات كتب ، أغلبها روايات ، لا تكاد تلحظ ظاهرة الحملقة أو «البص» .. في وجوه من حولك ، لكن هناك رباطا شديد الأصرة بين الناس ، وما يقرأونه .

الظاهرة لا تخف ، سواء كان المترو مزدحماً ، أم به أقل عدد من الركاب ... في الصباح الباكر حيث يذهب الناس إلى أعمالهم ، أو وهم عائدون في آخر النهار إلى ديارهم .

المشهد الثاني

الحدائق العامة ، وما أكثرها ، مقاعدها تذكرك بالرواية الحدث التي كتبها جورج بيريك عام ١٩٦٦ بعنوان «رجل نائم .. حول الانفصام الإنساني بين البشر ، فيجلس إلى جوارك شخص في الحديقة نفسها ، وعلى المقعد نفسه ، فلا يتبادلان الحديث مهما طال وقت جلوسهما، وتجاورهما ، قد تجد أحدهما عند طرف المقعد ساهما ، شارداً ، يفكر في لاشيء ، والآخر وجد له صحبة في كتاب يأخذه إلى حيث قصص الحب ، والعلاقات الإنسانية الدافئة ، إلى عالم منشود يفتقده غالبا ..



كل هذا الزخم من الكتب ، فى احدى دور النشر ، كم حياة يحتاجها المرء لقراءة كل هذا العدد من الكتب

مثل هذا المشهد يتكرر وجوده في جميع الحدائق ، الناس فى حالة عزلة ، يعانون من غربة أشد وطأة من تلك التى استبدت بـ «ميرسو» بطل رؤية «الغريب» لألبير كامى عام ١٩٣٩ .

القراءة هنا ليست ترفيها ، إنها ضرورة ... ملحة بحثا عن صديق ورفيق فوق الورق .

المشهد الثالث

في مركز بومبيدو الثقافى ، الواقع فى قلب العاصمة ، عند الساحة الخارجية ، موسيقيون يعزفون ، واشباه حواة يؤدون نمرتهم، ورسامون ، يلحون عليك أن يرسموالك بورتريه فى أقل وقت ممكن . وشباب يتمدد فوق الأرض ، اما نائم ، أو قارىء ، عشاق يتبادلون قبلات توحى لك بالشهوة لكنهم لايتجاوزون حدود القبلات والملامسة، فلا تبدو الشهوانية على تصرفاتهم ، بقدر ما يعبر المنظر عن حاجة كل منهم إلى حنان من نوع خاص من رفيقه الذى عثر عليه ، وصار كل همه أن يحتفظ به ، حتى لايعود إلى حالة الوحدة الموحشة فى حالة الفراق .

المشهد الرابع

المكان نفسه .. داخلى أى بداخل مركز بومبيدو ، حيث توجد قاعات ضخمة لتوزيع وبيع الكتب الثقافية ، التابعة لدور النشر .

محيط هائل من الكتب ، والعناوين ، لاتستطيع عيناك أن تلحق بها ، وتحتاج لمراجعتها إلى يومين بأكملهما ، فقط لقراءة العناوين .

شعور موحش ، وانبهار يلاحقان المرء، وهو يشاهد هذه العناوين ، وسرعان ما يكتشف جهله الزائد ، المجسد ، المتضاعف ، وأنا على سبيل المثال ، عندما زرت أوروبا لأول مرة عام ١٩٨٦ ، كنت أعرف هذه الكتب ، وعناوينها ، ومؤلفيها ، وقرأت الكثير من ملخصات هذه الكتب ، والقليل القليل من بعضها ، لكن اليوم فإن العدد يزداد ، والاحساس بالأمية يتنامى بعدد هذه الكتب ، ويتولد احساس بأن مائة حياة متفرغة لاتكفى لقراءة كل هذا الإبداع البشرى ، وأن المطابع الظالمة ترمى كل يوم بعشرات العناوين الجديدة ، من أجل إشباع شبق القراءة ، وغريزة الاطلاع التى أصابت هولاء الناس ، فى المترو ، والحدائق والبيوت وأثناء التهام وجبات الطعام فى المحلات العامة ، حين يفتقدون إلى الصحبة .

المشهد الخامس

متحف اللوفر ، باتساعه الشديد ، ومحلاته ، والمطاعم ، وبازرات بيع الهدايا، ثم صالات عرض أجمل الإبداع البشرى فى فن الصورة ، ومكتبات تبيع لك كتبا مصورة ، ومتخصصة عن ما شاهدته ، أو مالم تتمكن من متابعته ، بحر من الكتب المتراكمة ، المطبوعة بشكل جيد ، وجذاب، كتب عن الجناح المصرى ، لم نصنعها ، ولم تصل الينا ، وازدحام الرواد ، والمجموعات السياحية ، تحاول أن تبحث عن فوج عربي ، أو زائر من بلادنا يتفرج على ثقافات الشعوب ، فلا تجد ولاتسمع من حولك سوى من «يرطنون .. بكل اللغات ، عدا لغتك أنت ... فتحس باغتراب خاص ، لا تستطيع أن تتخلص منه .

المشهد السادس

انهم هنا ، فى شارع الشانزليزيه العريض ، أثرياء العرب وأسرهم ، على الجانبين ، حيث المطاعم الفخمة ، المرتفعة الأسعار ، يزدحمون ، وهم يرتدون زيهم التقليدى ، رجال ونساء ، يلتهمون الأطعمة الفرنسية ، ويملأون الأماكن صخبا بلكناتهم المتعددة ، المتقاربة ، ويحملون حتى جريدة بين أصابعهم ، وأقصى ما يفعلونه هو التجوال في محلات العطور ، والأزياء القريبة التى تنتظرهم ، من أجل سحب أكبر أرقام من أرصدة بطاقات الإئتمان ، رغم ارتفاع سعر اليورو قياسا إلى إنخفاض سعر الدولار .

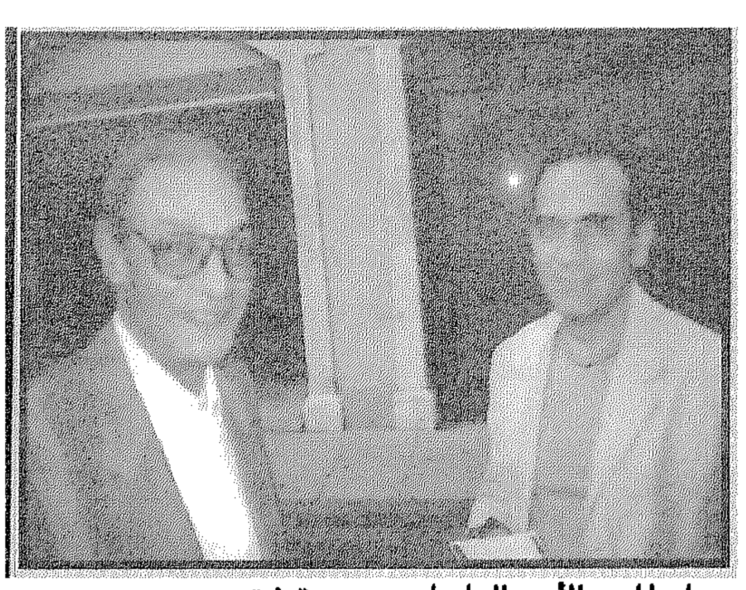
أنهم لايقرأون .. بالمرة ...

المشهد السابع

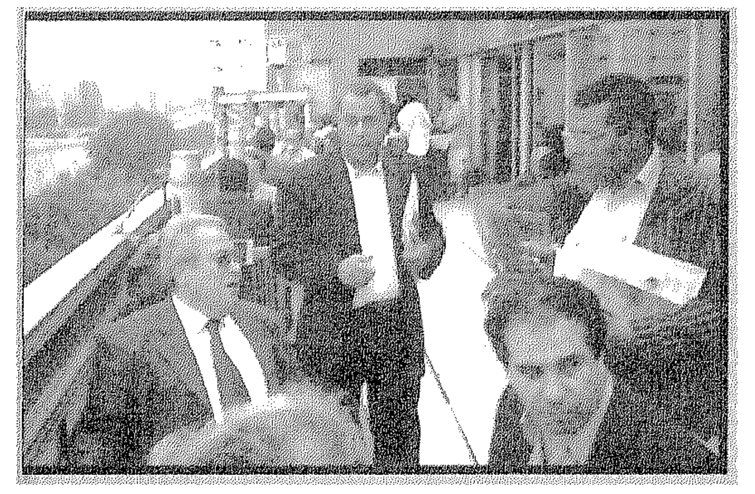
معهد العالم العربي ، المطل على نهر السين ، قلعة حصينة للدفاع عن الثقافة العربية وتقديمها إلى الفرنسيين بشكل خاص ، والأوربيون عامة ، يحتفل هذا العام بمرور خمسة عشر عاما على تأسيسه ، بؤرة متدفقة من النشاط ،

المحاولة ربط الثقافتين العربية والفرنسية فى إطار واحد ، مهرجان سينما ، معرض كتاب ، معرض لوحات للقدس ، ندوة عن التقاء الحضارات ، لكن أبرز ما فى المكان وجه كاتب جزائرى هو الحبيب ولد العروسى السالمى ، أكثر من عرفت شراهة لتجميع الكتب من جميع الثقافات، العروسى ، يتولى شئون المكتبة ، ويعكف حاليا على إعداد أول موسوعة ضخمة لكل الشخصيات العربية والمستشرقين ، تشرف على المشروع سارة واصف المصرية ، المليئة بتوتر، وحساسية الحصول على المعلومة المتكاملة الصحيحة ، لو أن المشروع الذى تعده بإتقان تم تنفيذه خلال السنوات القادمة ، فإن مقولة أن اللجان تصنع فى الوطن العربى من أجل تعطيل المشاريع الناجحة ، تصبح فى محلها ، فسارة تعمل بمفردها ، والموسوعة تعدها مباشرة على الكومبيوتر باللغتين العربية والفرنسية.

ملحوظة أساسية أن المترددين لمتابعة أنشطة المعهد الثقافية أكثرهم من الفرنسيين ، وأن الكثيرين من العرب المقيمين بالعاصمة ، لايكادوا يعرفون عن المعهد سوى أنه محطة أتوبيس شهيرة .. وذلك رغم الجهود المضنية التى يبذلها د. ناصر الأنصارى ليصبح المعهد بيت كل العرب والفرنسيين والأوروبيين .



بهاء طاهر والأديب الدبلوماسى محمد توفيق ، أثناء احتفال الادباء العرب بجنيف بذكرى قيام ثورة يوليو الخمسين.



المبدعون العرب، فى الطابق الاعلى من معهد العالم العربى المطل على نهرالسين ، جاءوا لمناقشة الحوار الثقافى بين الحضارات فى الصورة د. جابر عصفور ، ومدحت الجيار ، والناقد السورى صلاح سرفيه

المشهد الثامن

قطار أوروبا السريع ، المزدحم المقاعد، يندفع وسط الحقول الشديدة الخضرة ، وأمطار الصيف المنعشة ، وفى عربات القطار ، يستفيد المسافرون إلى جنيف من الساعات الثلاث التى يستغرقها

القطار بين المدينتين في القراءة ، استطاع أكثر من قارىء أن ينتهي من التهام صفحات كتب مهمة ، من ثقافات متعددة ، منها رواية «بلزاك والحائكة الصينية الصغيرة .. للكاتب الصيني داي سيجي ، الحاصل على جائزة أحسن رواية معارضة عام ٢٠٠٠ ، وهو كاتب صيني أقام في فرنسا منذ ستة عشر عاما ، وكتب روايته الأولى كلها باللغة الفرنسية.

هناك أيضا من انتهى من قراءة رواية «الوصية الفرنسية» لاندريه ماكين الحاصل على جائزة جونكور عام ١٩٩٥ ، وهناك روايات عديدة لماركيز ، وكورتثار ، والياباني أشجورو ، وروايات من إيران ، وأفغانستان ، وروسيا .

امرأة في الستين من عمرها ، تقرأ في القرآن الكريم ، نسخة ضخمة ، مكتوبة باللغتين العربية والفرنسية ، تتابع الصفحات باهتمام :

- أنت تقرأين القرآن الكريم ... هذا شيء رائع .

- أحاول أن أفهم ماذا يعني الإسلام .. خصوصا بعد أحداث سبتمبر .

- هل توصلت إلى مفهوم محدد ؟...

- لم أنته بعد من القراءة ، لكن من المهم التعرف على ثقافات الآخرين .

إجابة مدهشة ، تذكر المرء بتلك الحساسية المفرطة تجاه ثقافة الغرب التي تعلو نبرات الذين يهتمون ببعد واحد فقط من الثقافة ، ويتعاملون مع إبداع الآخر على أنه نتاج الزندقة ، والخصوم ، وأنه من الواجب تجنب هذه الثقافة ، وإلقائها في البحر ، لأنها ضد مبادئنا وثقافتنا .

المشهد التاسع

ساحة البلان باليه ، في مدينة جنيف، كانت معروفة من قبل باسم ميدان السيرك، مكان متسع يأتي إليه باعة الأشياء المستعملة يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع ، يبيعون كل شيء بأسعار زهيدة ، لاتصدق .

البضاعة الرائجة ، والمنتشرة ، التي تجد لها أكبر عدد من الزبائن هي الكتب ، مؤلفات بجميع اللغات ، خاصة الفرنسية ، روايات وموسوعات ، وكتب أطفال ، وكتب سياسية ، وفكرية ، وسياحية ، وعدد الكتب المترجمة عن ثقافة الآخر أكثر بكير من الكتب المؤلفة بالفرنسية ، منها الأعمال الكاملة المترجمة إلى الفرنسية لنجيب محفوظ .

في هذا المكان ، يصبح للكتاب القديم سوق ضخم ، وتغدو الثقافة بضاعة رخيصة تماما ، وفي متناول الجميع بالفعل ، تمتزج المجلات الخليعة مثل «لوي» ، و«بلاي بوي» ، بمجلات ثقافية راقية من طراز «اكتيول» ، وتكتشف أن



جناح الكتب عن مصر ، في المكتبة الكبرى الملحقة بمتحف اللوفر

أغلب المؤلفات الخليعة قد اندثرت ، وأن أغلب هذه المطبوعات قد توقف عن الصدور منذ عشر سنوات ، وأن حالة محن «الحشمة» بدأت تعود إلى أوروبا .

في نهاية كل يوم سوق ، يتخلى الكثيرون من الباعة عن الكتب ، ويضعونها في مكان خاص ، في ركن من السوق ، لمن يشاء أن يأخذ منها دون حساب ، قبل أن يتم التخلص من الكتب الباقية في عربة القمامة .

القلب يتمزق والكتب تهرس في مؤخرة عربة القمامة الضخمة ، وأتخيل كاتبا من طراز أنتوني بيرجيس ، أو ميشيل تورنيه، أو ويليام بويد ، وغيرهم ، وهم يرون عصارة فكرهم يتحول إلى عصارة ورق في عربة قمامة ، فالكتب زائدة عن الحد .

الناس في أتوبيسات جينيف لايقرأون بنفس القدر ، والقراء تزداد أعدادهم في الحدائق العامة ، وفي حمامات السباحة حيث تبحث الأجساد على شمس دافئة تصبغها باللون البرونزي .

المشهد الأخير

طائرة مصر للطيران تقطع رحلتها من جينيف إلى زيورخ فالقاهرة في قرابة سبع ساعات ، سيدة مصرية مقيمة في باريس منذ ربع قرن ، تجلس إلى جوار نافذة الطائرة ، تطالع رواية قديمة بعنوان «موبي ديك» للكاتب الأمريكي هيرمان ملفيل ... لم تقرأ سوى ثلاث صفحات ، ثم فجأة دخلت في ثرثرة تافهة مع جارتها، استغرقت منها كل الرحلة . ■

الفلسطينى بين الغربة فى الوطن والغربة في المنفى

بقلم
مها محمود صالح

صامد

«الغضب يشحن الذاكرة وينعشها، وبدون هذه الشحنة فإنك تستسلم وتتخلى حتى عن حقك فى الدفاع عن الحقيقة. تترك الآخرين يكتبون تاريخك، وذلك هو الاستسلام النهائى. ونحن الصامدين، لا نستطيع مقارعة القوات الإسرائيلية الشرسة. ولكن علينا أن نبقى الغضب مشتعلاً، ونعقد العزم على محاربة الأكاذيب، فأن نتذكر وندون، أمر منوط بنا وحدنا».

«الصامد : رجا شحادة»

هذه الصفحات لا تقدم صورة متكاملة للقضية الفلسطينية فى أعمال الأدباء والمفكرين، بل لعل العكس هو الصحيح! فنحن نحاول أن نقدم من خلال بعض هذه الأعمال صورة تقترب من حقيقة ما جرى وما يجرى على الأرض فى فلسطين المحتلة. وفى عدد سابق من الهلال قدمنا الرؤية الفنية والفكرية التى عرضها الروائى فتحى غانم من خلال روايته «أحمد وداود»، وفى هذا العدد نتناول واقع الحياة فى الأرض المحتلة، وذلك الواقع الذى لا تكشفه عناوين الصحف عندما تتحدث عن نسف البيوت أو تفريق المظاهرات بالقوة أو الإهانة المتعمدة للفلسطينيين عند حواجز الطرق أو غير ذلك من مظاهر الظلم ومحاولات الإذلال التى يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطينى مع كل يوم جديد.

ذلك الواقع نتعرف عليه من خلال كتابين: الأول هو «صامد: يوميات صامد فى فلسطين المحتلة» للمحامى الفلسطيني رجا شحادة الذى أنهى دراسته للقانون فى إنجلترا ثم عاد ليعمل محامياً فى الضفة الغربية المحتلة، أما الكتاب الثانى فهو للشاعر الفلسطينى مريد البرغوثى الذى فاجأته حرب يونيو ١٩٦٧ وهو يؤدى امتحانات السنة النهائية فى كلية الآداب جامعة القاهرة وأجبرته على البقاء خارج الوطن حتى نجح أخيراً فى الحصول على تصريح للزيارة وأثمرت الزيارة كتابه «رأيت رام الله».

صامدون

يقدم لنا رجا شحادة فى كتابه حكاياته عمن يسميهم «عرب الداخل الجدد» وهم عرب المناطق المحتلة عام ٦٧ بالمقارنة بعرب «الداخل» الذين تشبثوا بأراضيهم فوجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها قد أصبحوا رعايا دولة أجنبية غازية هى

إسرائيل!

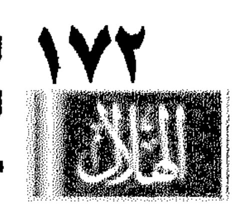
لقد اختار هؤلاء درجات متفاوتة من الاقتراب من الحكم العسكرى الإسرائيلى والقبول به . فهناك الصامدون والفدائيون وهناك أيضاً المتعاونون، وبتعدد نوعيات الصمود والتعاون تتعدد الحكايات.

الصمود للبعض معناه ببساطة التكيف مع الاحتلال باعتباره مشيئة إلهية عليهم احتمالها منشغلين بحياتهم اليومية ومشاكلها التى لا تنتهى حتى يغير الله مشيئته!.

أما رجا شحادة فيقدم لنا تعريفه لمفهوم الصمود الذى يمارسه، فيقول: «صمودك يعنى أن ترى بيتك يتحول إلى سجن، وأن تكون صامداً معناه أن تختار البقاء فى هذا السجن لأنه وطنك، ولأنك تخاف إذا ما تركته ألا يسمح لك سجانك بالعودة إليه، وأن تعيش هكذا، معناه أن تبقى على الدوام تقاوم أحد أمرين، أن تذعن لخطة السجان بيأس المستسلم أو تتحول إلى معتوه استهلكته الكراهية لسجانه ولنفسه السجينة» ص ٨.

المؤلف إذن يحاول بصموده أن يختط طريقاً ثالثاً غير الاختيارين الذين يدفعه إليهما السجان وهما اليأس والكراهية ، ولإنه يعمل بالمحاماة فإن مجال صموده الأساسى هو العمل كمحام أمام المحاكم الفلسطينية الخاضعة للحكم العسكرى الإسرائيلى، هى حقاً محاكم نزعت منها هويتها الفلسطينية إلا أنها، كما يرى شحادة ، هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لمحاولة الوقوف أمام الحكم العسكرى الذى يعمل على انتزاع الأراضى من أصحابها قطعة قطعة!

إن محامين آخرين فى الأرض المحتلة قاطعوا هذه المحاكم، منذ بداية الاحتلال، إيماناً منهم بعدم شرعيتها وهم يعتبرون أن أمثال رجا شحادة من المترافعين أمام هذه المحاكم يستخدمون «لتكريس الاحتلال الإسرائيلى». أما رأى شحادة فيتلخص فى أن عدم وجود هؤلاء فى المكان المناسب لمقاومة الإسرائيليين هو الذى ترك الحكم العسكرى يخرج بالكثير مما خرج به، وترك محاكمنا المدنية تسقط إلى درك الوضع المزرى الذى هى عليه الآن،... وهو الوضع الذى يريده الإسرائيليون تماماً» ص ١٥٤ . وحتى نفهم المناخ القانونى الذى تتم فيه محاولات الحفاظ على دونمات من الأراضى العربية علينا أن نتعرف على شبكة متداخلة من الهيئات، والقوانين التى استحدثتها إسرائيل بهدف نزع الأراضى العربية من أصحابها والاستيلاء عليها! تبدأ هذه الشبكة بما أسمته إسرائيل «القيم على أموال الغائبين»، وهم بالطبع الفلسطينيون الذى خرجوا من ديارهم بالترويع والمذابح!



وتنتهي إلى تلك القوانين التي تسمح بتأجير الأراضى أو بيعها لليهود، ولو كانوا من غير قاطنى إسرائيل، بينما يحرم ذلك على العرب حتى لو كانوا من حاملى الجنسية الإسرائيلية!!

يقف المحامي رجا شحادة إذن أمام محاكم يؤمن بعدم شرعيتها، وإن كان لا يستطيع الاشارة إلى ذلك، فى محاولة لمواجهة نظام قانونى جائر يطلب من كل من يحاول التشبث بأرضه أن يثبت أنها أرضه بدلاً من أن يثبت المغتصب حقه فيها! بل أن لجنة الاعتراضات التى تتبع المحكمة قد اعتبرت سجلات الضرائب «غير موثوق بها» مما جعل ملكية الفلسطينى لأرضه تكاد تكون غير قابلة للإثبات أصلاً.

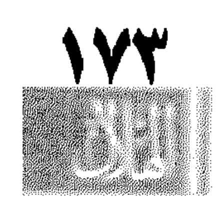
رجا وأينوخ

ولعل أحد أهم عناصر ذلك الصمود الذى يمارسه شحادة هو علاقته بالآخر: الإسرائيلي، وهى علاقة متشابكة متعددة الجوانب كما سنرى.

هناك أولاً صداقة رجا الفلسطينى بأينوخ الإسرائيلي وهو طبيب نفسى يهودى متدين أتى إلى إسرائيلى من كندا محاولاً تحقيق حلم أمه بعد وفاتها. لكن ما رآه فى إسرائيل لا يعجبه، وهو يعلن أن «العلاقات بين اليهود والعرب هى الاختيار الأخلاقى الذى ينبغى على الديانة اليهودية أن تجتازه». ص ٥٤.

إن كلا الصديقين يحاول أن يصل لصيغة تسمح لهما بالتعايش على تلك الأرض التى يؤمن كل منهما أنه ينتمى إليها، وهما مصممان على عدم ترك الأمر فى أيدى دعاة الحرب. ويعى رجا شحادة أن أينوخ يمثل نموذجاً نادراً لا يكاد يؤثر فى صنع سياسات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة. أما النقيض لنموذج أينوخ من حيث الانتشار وقوة التأثير، فيمثله مائير كاهانا من حركة كاخ اليهودية المتطرفة، الذى ذهب فى ٢٨ إبريل ١٩٨٠ إلى بلدية رام الله، حيث سلم رسالة اعتبر فيها عرب فلسطين «قنبلة موقوتة» بالنسبة للدولة اليهودية ثم اقترح إخراج كل العرب منها إلى الدول العربية والغرب وجلب يهود العالم بدلاً منهم!.

وانطلاقاً من هذا التوجه العنصرى التوسعى الصريح تقوم جماعات اليهود المتطرفين وكذلك جماعات المستوطنين بنشاطات إجرامية متعددة بهدف دفع الفلسطينيين إلى ترك ديارهم والتوقيع على صك التنازل عن حق العودة! من هؤلاء مستوطنو جماعة «جوش ايمونيم» التى تعلن أنها أخذت القانون بأيديها، وقد كونت جيوشاً خاصة تجوب الشوارع معلنة أن «أى عربى يجرؤ على التعرض لأنشطة الاستيطان سوف يعاقب على يدى المستوطنين». ص ٦٢ . وفيما بين النقيضين السابقين تقع نماذج متعددة من السلوك الإسرائيلي تجاه الفلسطينيين . هناك الإسرائيلي الذى يرسم على وجهه ابتسامة ودية معلنا أنه ضد الاحتلال، وهذا «التلميح بالصداقة» يعتبره المؤلف فى كثير من الأحيان «ليس أكثر من رغبة فى

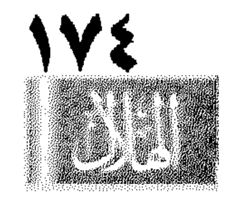


إرضاء النفس، لتهدئة الضمير الإسرائيلي المتألم» ص ٥٢. وهناك أيضاً الجندي الإسرائيلي الذي يقف على أحد حواجز الطرق ويتفنن في تعريض الفلسطينيين الذين يوقعهم حظهم العاثر في طريقه لأقصى ما يستطيع أن يصل إليه من إهانة لهم واستفزاز لمشاعرهم . يحكي لنا المؤلف أكثر من موقف مؤلم على هذه الحواجز، وفي أحد هذه المواقف وصل شحادة وأهله إلي حالة نفسية «مهلهلة»، حتى أنه لم يكد يشعر بالركلة التي وجهها إليه الجندي من الخلف وهو ينحني لركوب السيارة. ص ١٢٩. أما الإهانة الحقيقية فقد شعر بها رجا شحادة جارحة حارقة في سياق مختلف تماماً! لقد وضع المؤلف كتاباً مع صديق له تحت عنوان «الضفة الغربية وحكم القانون» يوضح فيه كيف يستر الإسرائيليون همجيتهم بثوب القانون وكيف تنتهك حقوق الإنسان الفلسطيني، وهاله أن يواجه كتابه بعداء - دون أن يقرأ ! - حتى من أكاديميين يفترض أن يتصفوا بالموضوعية. لقد فتح ذلك الموقف عينيه على حقيقة لم يدركها بذلك الوضوح من قبل، وهي أنه حتى الإسرائيليين المتعاطفين مع الفلسطيني في محنته قد «يتحدثون إليه ويربتون على كتفه.. ولكنهم لا يستمعون إليه أبداً!.. فاليهود هم الذين يقدرون على توجيه الانتقاد أو الدفاع، هم الذين يحق لهم أن يقولوا فيما يتعلق بنا (أي الفلسطينيين) هذا حسن وهذا سيء.. (أما) إن تجرأت وفتحت فمك، فسوف تستفز كراهيتك الحقيقية كراهيتهم واحتقارهم».

الفدائي والمتعاون !

الفدائي هو الوجه الآخر للصامد! كلاهما يرفض الاحتلال وإن كان الأول أكثر جرأة وتحدياً في إظهار رفضه! يحدثنا المؤلف عن الفدائية «مها» ذات التسعة عشر ربيعاً، قضت منهم ثلاثة في السجن كجزء من عقوبة تبلغ اثنى عشر عاماً، بتهمة زراعة متفجرات في القدس. لقد كبرت مها وهي ترى جنود الاحتلال كإحدى حقائق الحياة المعتادة في شوارع مدينتها، لكنها بهدوء وبدون أن يلحظ أحد، انضمت إلى الفدائيين فأصبحت فدائية مهمتها أن تزرع القنابل حيث يطلب منها، ويؤكد المؤلف أن مها ليست هي الصامدة الوحيدة التي تحولت إلى فدائية ودخلت السجن» فهي هناك مع آلاف من الشباب المراهقين والرجال والنساء، معظمهم كانوا صغاراً عندما بدأ الاحتلال، ولا يعرف أحد ولا كيف ولا متى بالضبط تعلموا أن يصبحوا مقاتلين في سبيل الحرية، لكن أعدادهم تتزايد باستمرار» ص ١٠٢

والصامد رجا شحادة لا يخفي تعاطفه بل إعجابه الذي يصل إلى حد الانبهار بالفدائي الفلسطيني! يعترف شحادة أنه مشوش مضطرب، بل وخائف بينما



الفدائى يعرف ماذا يفعل ومصمم وشجاع ويتبع طريقاً حددها بنفسه لنفسه، مقدراً للمخاطر، ولديه الإرادة ليتحداها، ولكنه يدرك أيضاً أن كليهما، الصامد والفدائى، يعملان لنفس الهدف. ورغم أن العمليات الفدائية الفلسطينية تتبعها عادة عمليات إسرائيلية انتقامية، وغالباً ما تتضمن عمليات تفتيش يتمادى فيها الجنود الإسرائيليين فى إهانة العرب وإذلالهم وافساد مخزونهم من الأطعمة، إلا أن معظم الصامدين لا يقبلون بأحد اختيارين يرى شحادة أن إسرائيل تأمل فيهما وهما أن يتخلوا عن صمودهم جسدياً بمغادرة أراضيهم إلى المنفى، أو أن يتخلوا عنه معنوياً وذلك بالتعاون مع سلطة الاحتلال، بل إنهم أى الصامدين - لا يقبلون حتى بشجب تلك الأعمال الفدائية! وها هو الشعب الفلسطينى - الصامد حقاً - يرفض نفس الموقف خلال الأحداث الأخيرة. إن أبناء الشعب الفلسطينى الذين نجوا من مذابح جنين خرجوا بعد انسحاب الجنود الإسرائيليين يدفنون شهداءهم ويعيدون بناء بيوتهم ، لكن أحداً منهم لم يشجب العمليات الفدائية أو يطالب بوقفها!.

ولأن الطبيعة البشرية لا تتصف بالمثالية، ولأن القدرة البشرية على الصمود تتفاوت، فإن وجود متعاونين مع الاحتلال الإسرائيلى هو من طبائع الأمور. هناك مثلاً نموذج رجل الأعمال الفلسطينى الذى انتفخت جيوبه نتيجة المكاسب الهائلة التى حققها من العمل مع الاحتلال، وهناك أيضاً نموذج الفلسطينى الذى يعمل محققاً مع السجناء غير الأمنيين . إنه يؤدى واجبه بإخلاص يؤنبه عليه أحياناً رئيسه الإسرائيلى، فالضرب يجب الا يترك أى علامة على أجساد السجناء !.

سجن الغربة

وإذا كان رجا شحادة قدم لنا فى كتابه الصادر فى عام ١٩٨٥ صورة شديدة الحيوية للحياة فى سجن الوطن، حيث يعيش الإنسان على أرضه دون أن يملك إعلان حقه فى هذه الأرض، فإن مريد البرغوثى فى «رأيت رام الله» يحدثنا عن تجربة الحياة فى سجن الغربة، بعيداً عن الوطن. ومن خبرة ثلاثين عاماً فى المنافى المتعددة بين القاهرة والكويت وبودابست، يقدم لنا البرغوثى تعريفاً «بليغاً للغريب :

«.. لا تعنيه التفاصيل الصغيرة فى شئون القوم أو سياستهم «الداخلية» لكنه أول من تقع عليه عواقبها. قد لا يفرحه ما يفرحهم لكنه دائما يخاف عندما يخافون. هو دائماً «العنصر المندس» فى المظاهرة إذا تظاهروا، حتى لو لم يغادر بيته فى ذلك اليوم!» ص ٨.

إنها علاقة معقدة بين المغترب ومنفاه، قد يكون فيها أحياناً شيئا من التعاطف لكنها أيضاً لا تكاد تخلو من سوء الظن!

وبينما قدم لنا شحادة في كتابه مناخ الغضب والإحباط الذي أثمر قيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى في ١٩٨٧ وتحول الصامدون إلى منتفضين، يقدم لنا البرغوثي مناخ ما بعد اتفاقية أوسلو ١٩٩٣. وقد اختلفت الآراء بطبيعة الحال في هذه الاتفاقية لكن الجميع على تباين آرائهم قد حاولوا الاستفادة من ذلك القليل الذي أتاحته! ولعل أفضل ما قيل في ذلك هو ما جاء على لسان أحد الذين قرروا العودة من تونس إلى رام الله بعد أوسلو: «... الموافق مكانه هناك (يقصد المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية) والمنافق مكانه هناك. والمعارض مكانه هناك. احسبوني في أي خانة تشاؤون فأنا سأذهب، ولا فرق عندي أن أذهب لأكون في السلطة أو في الشارع أو في السجن».

يعود البرغوثي إذن إلى رام الله زائراً ليلتقي بأقاربه وأصدقاء طفولته الذين بقوا في رام الله، وأيضاً أولئك الذين عادوا بعد أوسلو ليعملوا مع السلطة الفلسطينية الوليدة في محاولة بناء قراهم ومدنهم التي أخر الاحتلال نموها لسنوات طويلة.

ومن رام الله يكتب المؤلف عائداً بذاكرته ويعين خياله إلى سنوات طفولته وصباه فيسجل كيف كانت رام الله بأسواقها ومتنزهاتها، ويصحبنا معه لنتعرف على علاقاته بتلك الأماكن كما نتعرف على تاريخه الشخصي: سنوات الصبا والمراهقة وأول الشباب، والتأثر بأحداث العالم العربي ، مثل القرارات الاشتراكية في مصر والوحدة مع سوريا، والتفاعل معها، وفي الوقت ذاته يرصد المؤلف بعين الواقع التغيرات العديدة التي طرأت على المكان والناس خلال سنوات البعاد، أي سنوات الاحتلال! ومن خلال هذا الرصد يمكننا استكمال صورة ما يحدث في فلسطين المحتلة.



المستوطنات والسلطة

تقتحم المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية عيني البرغوثي منذ الصباح الأول لزيارته لرام الله! يراها من نافذة الحجرة في منزل مضيفه، ويدرك أنها تقع أعلى التلة عندما يلاحظ أن الشارع الذي يسير فيه «يصبح أكثر اتساعا ونعومة وأناقة» ثم ينفصل عن الطريق متجهاً إلى أعلى ، أو عندما يرى الأعلام الإسرائيلية على مداخلها ويلاحظ أن الكتابة على إشارات المرور بالعبرية فقط.. أما عبارة «تفكيك المستوطنات» فهي لا تبعث - في رأيه - إلا على الضحك! فالمستوطنات على حد تعبيره هي «إسرائيل ذاتها.. هي الميعاد اليهودي.. وهي التيه الفلسطيني ذاته». ويعد وجود المستوطنات واحداً من مظاهر «صورية السيادة» التي تتمتع بها

السلطة الفلسطينية، وقد لاحظ البرغوثي أنه مما يثير غضب الناس واستفزازهم هو أن بعض مسئولي السلطة يبالغون في مظاهر سيادتهم الشخصية، مثل ركوب السيارات الفارهة واستئجار مساكن بأسعار عالية وغير ذلك ، مما لا يتناسب على الإطلاق مع «هشاشة» السيادة الوطنية، إذ تستطيع إسرائيل في أي وقت تشاء أن تغلق منطقة تريدها لأيام أو لشهور، وليس أدل على ذلك بالطبع من أحداث الأسابيع الأخيرة حيث اجتاحت إسرائيل مناطق السلطة الفلسطينية دون أن تحفل بأي اتفاقيات!

شحادة والبرغوثي

وجدير بنا أن نشير إلى العديد من نقاط التشابه في الآراء بين رجا شحادة ومريد البرغوثي، مثلاً يؤكد شحادة في مؤلفه على دور المرأة الفلسطينية الصامدة في المجتمع الفلسطيني ويتنبأ بأنها ستقود الثورة ضد الحكم العسكري الإسرائيلي، وإذا بالبرغوثي يشيد بدور المرأة الفلسطينية في الانتفاضة والذي لم تكتب قصته بعد! كذلك يؤكد المؤلفان على الدور البطولي الصامد الذي تمارسه جامعة بيرزيت في الأرض المحتلة رغم قلة الإمكانيات والتضييق المادي والقانوني الذي تمارسه ضدها سلطات الاحتلال، كذلك يكاد رأي المؤلفين يتطابق فيما يختص بسلوك الإسرائيلي «المعتدل» تجاه الفلسطينيين، والذي يلخصه البرغوثي قائلاً «الإسرائيلي قد يتعاطف معنا، غير أنه يجد صعوبة عظيمة في التعاطف مع «قضيتنا».

لكن التشابه الذي أراه عميق الدلالة وجديراً بأن نختم به حديثنا عن الكاتبين فهو رؤية المؤلفين للشباب الفلسطيني الذي يمثل الأمل في المستقبل . أما رجا شحادة فيعتقد ببساطة أن «الدنيا دولاب.. يكشف عن وجوه مختلفة في أوقات مختلفة» . ستدور العجلة إذن وستكون أجيالنا القادمة عندئذ، وقد صقلتهم مرارة تجربة التصدي للاحتلال أقوى من أجيالهم المدللة وأقدر، بالتالي، على المواجهة . أما مريد البرغوثي فإنه يلخص نفس ثقته بالمستقبل وهو يحكي عن أطفال الانتفاضة الذين رأوا الكثير وتحملوا مسئوليات مبكرة فجمعوا بين «شفافية المشاعر واقتحامية السلوك» ص ٢٤٥ .

وما الصفحات السابقة إلا محاولة متواضعة تضاف إلى عملي رجا شحادة ومريد البرغوثي، وغيرهما كثير، لتكثيف وعينا وشحن ذاكرة أبنائنا بتفاصيل ما جرى وما يجري، حتى إذا أتى زمان المد العربي، وهو لابد آت، وجدت أجيالنا القادمة زاداً من ذاكرتها وغضبها يعينها على القيام بمسئولياتها تجاه المستقبل. ■



قصة قصيرة - مهداة للإنتفاضة

بقلم : محمد جابر غريب

والأسرة تجتمع قدام التليفزيون بعد العشاء تناولت زجاجة «حاجة ساقعة» .

بحثت عن المفتاح فى الثلاجة .

لم أجده . سألت أمى. أشارت نحو «ترابيزة السفرة» .

★ ★ ★

عيناى تبتسمان ، غمازتاى تضحكان .

قمورة .. مرحة .. حصلت على الإعدادية .. زغردت أمى ..

– اسم النبى حارسك وصاينك ..

فرقت الشربات ، وبخرتني .

★ ★ ★

بينما كنت أضع المفتاح فوق غطاء الزجاجة .. رأيت أطفالاً وشباباً يصوبون حجارة .. «بعزم مافيهم «نحو بنادق ورشاشات توجه إلى صدورهم بغير ساتر .

★ ★ ★

كنت أجلس في «حجر أمي» .. بينما أجذب الغطاء .. فارت دفقة مياه .. أندفعت من عنق الزجاجة لأعلى .. تناثرت على وجهينا .. أمي وأنا وبللت صدر بيجامتي .

★ ★ ★

كان أبي لا يثق في جيلنا .. قال : لقد أهدرتم قيم الآباء والأجداد .

★ ★ ★

لسعت المياه «زوري» .. استطعمتها .. كانت لذيذة .. آخذت جرعة ثانية ..

★ ★ ★

حين عادت أختي من الجامعة .. قالت : إن الدكتور قطع المحاضرة .. حذرهم من شراء أشياء مستوردة .. وأوضح أن أرباحهم منها تتحول إلى بنادق تصوب نحونا .

لم يخطر ببالي أن الزجاجة يمكن أن تكون صناعة أمريكية .. تناولت جرعة ثالثة .

★ ★ ★

حكت أختي عن زملائها .

تدوس أقدامهم قطعة قماش .. تتوسطها نجمة سداسية .

أصابع تدور بعود مشتعل .. تتطاير ألسنة لهب .

يهتفون .. يصرخون .. يطالبون بالسفر إلى هناك .

★ ★ ★

وقالت : أن قذائف قد تأتي عبر دخول حمام .. أو إعداد طعام .. أو عبر ركوع لصلاة فجر .. أو حبكة كوافيل طفل .. أو تنفيض سجاد ، أو ستارة ، أو نافذة .

★ ★ ★

كانت كفي تقبض على الزجاجة بشغف وحب كبيرين .. بينما كنت أسأل أمي : لماذا هاجر الآخر .. من بلاد متفرقة وجاء يسعى إلى بلادنا ؟

★ ★ ★

كنت قد أتيت على ثلاثة أرباع مافي الزجاجة .. حين خطر لي ما قالته أختي على لسان الدكتور .. قلت في نفسي ربما تكون مياه الزجاجة صناعة أمريكية.

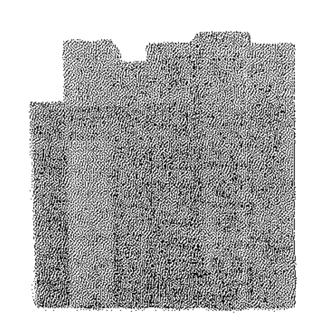
ارتعشت رموشي فوق عيني ..

وقرأت .. وأعدت القراءة .. كوكا كولا .

فتأكد لي وأيقنت بالفعل .. أنها مستوردة .

تدافع ما بجوفي إلى الخارج ..

ولم أعد مبتسمة ولا مرحة .



من ذخائر الكتب العربية

الشعر والشعراء

لابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦) هـ

بقلم

د. عبدالعزيز الدسوقي

يحتل كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، منزلة رفيعة، في التراث العربي، لأنه بمثابة موسوعة علمية دقيقة، تناولت عدداً كبيراً جداً من شعراء العرب بطريقة فنية، وبأسلوب علمي رفيع.

ولأن مؤلفه علم من أكبر علماء العرب، وأوسعهم ثقافة، وأقدرهم علي تناول الموضوعات المتنوعة، وهو صاحب منهج في التأليف والنقد، يقول عنه محقق الكتاب (أحمد محمد شاكر) «علم من أعلام الإسلام، وإمام حجة من أئمة العلم، وكان لأهل السنة، مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة».. ثم هو في النهاية أديب قادر علي تذوق الشعر وتحليله ونقده، إلي جانب ذاكرته القوية، وحافظته الفائقة. ألف الكثير من الكتب في علوم مختلفة مثل «غريب القرآن» و«غريب الحديث» و«أدب الكاتب» و«عيون الأخبار» و«المعارف» وغيرها من الكتب المهمة التي لاتزال نتداولها حتي يومنا هذا، واسمه «عبدالله بن مسلم بن قتيبة - أبو محمد الكاتب الدينوري»..

وقد حدد ابن قتيبة منهجه فى هذا الكتاب على النحو التالى : «هذا كتاب ألفته فى الشعراء.. أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم، وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان عرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره.. وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم.. وأخبرت عن أقسام الشعر وطبقاته.. وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل العلم والأدب، والذين يقع الاحتجاج بشعرهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله وحديث رسول الله.. فأما من خفى اسمه وقل ذكره.. وكسد شعره.. وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل»..

ثم تعرض بعد ذلك لقضية «القديم والحديث التى لا نزال نعيد الكلام فيها ونزيد. يقول « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه» (١) ثم بدأ يشرح ويحدد أركان الشعر فقال: «تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب:

ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه» (٢) وضرب منه «حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى (٣) «وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه» (٤) «وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه» (٥) وهذه القسمة الرباعية حاول من خلالها ابن قتيبة أن يجول جولة عريضة فى ميادين الشعر العربى، ويبين بطريقته الجيد منه والردىء وكان يحفظ معظم هذا الشعر الذى يرويه ويعرف أصحابه من الشعراء ويعرف طريقتهم فى نظم الشعر، كما كان يعرف أحوالهم وظروفهم ويعرف رأى الناس فيهم..

يضرب مثلا للشعر الذى حسن لفظه وجاد معناه قول أبى ذؤيب

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلي قليل تقنع

وعلق عليه بقوله «حدثنى الرياشى عن الأصمعى قال هذا أبدع بيت قاله العرب» (٦) وكقول حميد الثورى:

أرى بصرى قدراً بني بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلماً

ولم يقل فى الكبر شىء أحسن منه

وضرب مثلا للشعر الذى حلا لفظه فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى (٧) قول «عتبة بن زهير» :

ولما قضينا من مني كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت علي حدب المهاري رحالنا
ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

ويعلق عليها بقوله: «هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء : مخارج ومطالع ومقاطع وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح، ابتدأنا فى الحديث.. ثم يقول وهذا الصنف فى الشعر كثير».

وضرب مثلا للشعر الذى جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه قول لبيد (٨):

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويعلق عليه بقوله: «هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه ينقصه الماء والرونق».
وضرب مثلا للذى تأخر لفظه ومعناه قول الخليل بن أحمد العروضى

إن الخليط تصدع — فطر بدائك أو قع
لولا جوار حسان — حور المدامع أربع
أم البنين وأسما — ءوالرباب وبوزع
لقلت للراحل إرحل — إذا بدا لك أودع

ويعلق عليه بقوله وهذا الشعر بين التكلف ردىء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة .

وإذا كنا لا نوافق «ابن قتيبة» على كل آرائه فى جودة الشعر أو قبحه فى النماذج التى يوردها ، فإننا نلتمس له العذر، فنحن لا نزال حتى الآن نختلف حول جودة الشعر ورداءته.

ولعل بعض الأهواء والخلافات السياسية والاجتماعية والعلمية كانت تتحكم فى أحكام أبى محمد، وإن كان فى الأغلب الأعم من أحكامه دقيق التحليل والتعليل.

★ ★ ★

وفى الكتاب كثير من القضايا الهامة مثل حديثه عن الشعر المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذى قوّم شعره بالثقافة، ولقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة .. وكان الأصمعى زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم لقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول خير الشعر الحولى المنقح المحكك. وكان زهير يسمي قصائده الطويلة بالحوليات . ومن القضايا التى أثارها ابن قتيبة «بواعث الشعر» يقول: «وللشعر دواع تحث البطىء وتبعث المتكلف فمنها الطمع ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب ومنها الغضب» وكان يدعم عناصر كل قضية يتناولها بحكاية عن شاعر أو قصة سمعها يروى «قيل للحطيئة أى الناس أشعر فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية فقال هذا إذا طمع»(٩) وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخريمى:

مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد، يعنى كاتب البرامكة ، أشعر من مراثيك فيه وأجود فقال كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء.. وبينهما بون بعيد (١٠)».

وتناول المؤلف أيضا «قضية اختيار الشعر» والمختارات فى ميدان الشعر العربى كثيرة ولكن ابن قتيبة حدد أسباب اختيار الشعر فقال : «وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، لكنه قد يختار ويحفظ على أسباب، منها الإصابة فى التشبيه أو خفة الروى أو لأن قائله لم يقل غيره أو لأنه غريب فى معناه، أو لتبتل قائله.. وقد أورد – على طريقته – مثالاً – لكل سبب من هذه الأسباب.

والمطبوع من الشعراء – فى رأيه – «من سمح بالشعر، واقتدر على القوافى وأراك فى صدر بيته عجزه، وفى فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة(١١)».

وقد ترجم لعدد من الشعراء بلغ ٢٠٦، بدأهم بإمرىء القيس وختمهم بـ «أشجع

السلمى».. وكانت طريقته فى الترجمة للشعراء متفاوتة في الطول والقصر متفاوتة فى الشعر الذى يرويه للشاعر، ولكنه التزم فى كل تراجمه ببعض الحكايات والطرائف التى يعرفها عن الشاعر، وذكر بعض أشعاره.

فعندما ترجم لإمرىء القيس قال:

«هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندى وهو من أهل نجد ، من الطبقة الأولى. وهذه الديار التى وصفها فى شعره كلها ديار بنى أسد. قال لبيد بن ربيعة: أشعر الناس ذو القروح يعنى (امرأ القيس) » (١٢) ثم راح يحكى بعض الحكايات التى يعرفها عنه ويعطى بعض النماذج من شعره» فيقول مثلاً:

«ويستجاد من تشبيهه قوله:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً

لدي وكرها العناب والحشف البالي

وقوله:

كأن عيون الوحش حول قبابنا

وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب(١٣)

معنى ذلك أنه يدرس شخصية الشاعر بعد أن يعرف ظروفه الاجتماعية والنفسية وأحداث حياته، وبعد أن يقرأ شعره » قراءة فحص وتذوق فيعجب ببعضه، ويقول عنه «هذا ما يستجاد من شعره! ويعيب بعضه ويقول عنه «هذا ما يعاب من شعره».

وهذا فى رأيى هو النقد الأدبى، أو نقد الشعر.. أليس النقد فى جوهره القراءة المتأنية لتمييز الجيد من الردىء، وهذا ما فعله «ابن قتيبة» فى شعر «امرىء القيس»..

وكان يتابعه فى كل موضوعات شعره فقال عن وصفه للفرس «وقد أجاد فى صفة الفرس:

مكر مفر مقبل مدبر معا

كجلمود صخر حطه السيل من عل

له أيطلا ظبي وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (١٤)»

وعندما قرأ بعض أبياته فلم تعجبه قال: «ومما يعاب عليه من شعره قوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

تعرض أثناء الوشاح المفصل

وإنما قالوا: «الثريا لا تعرض لها، وإنما أراه الجوزاء ، فذكر الثريا على الغلط كما قال الآخر كأحمر عاد، وإنما هو كأحمر ثمود، وهو عاقر الناقة(١٥)»..

قد نختلف معه فى بعض تحليلاته للشعر، وقد نرى أن جودة الشعر لا تتوقف على صحة القضايا التى يتناولها.. فقد يكون (أعذب الشعر أكذبه) كما كان يقول القدماء ولهذا فبيت امرىء القيس «إذا ما الثريا» بيت جيد سواء تعرضت الثريا أو لم تتعرض.. وهذا لا ينفى اجتهاد ابن قتيبة أو يغض من إحكامه.

أما ما يروى من حكايات وطرائف تدور حول الشاعر الذى يدرسه، فهذا هو المنهج الاجتماعى الذى لايزال ساريا حتى الآن فى بعض الدراسات الأدبية والنقدية.

ونحن نستمتع بحكايات «ابن قتيبة» التى رواها وهو يدرس شخصية (امرىء القيس) ومن

الحكايات الطريفة حكاية «يوم الغدير – وهو يوم «دارة جلجل».

«وذلك ان الحى احتملوا ، فتقدم الرجال وتخلف النساء والخدم والثقل .. فلما رأى ذلك (امرؤ القيس) تخلف بعد ما سار غلوة، فكمن في غيابة من الأرض حتى مرت به النساء وفيهن عنيزة، فلما وردن الغدير قلن لو نزلنا فاغتسلنا فى هذا الغدير فذهب عنا بعض الكلال، فنزلن فى الغدير ونحين العبيد، ثم تجردن فوقعن فيه، فأتاهن امرؤ القيس، وهن غوافل، فأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها، وقال: والله لا أعطى جارية منكن ثوبها ولو ظلت فى الغدير يومها، حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها، فأبين ذلك عليه، حتى تعالى النهار، وخشين أن يقصرن عن المنزل الذى يردنه، فخرجن جميعا، – غير عنيزة – فناشدته الله أن يطرح إليها ثوبها، فأبى فخرجت فنظر إليها – مقبلة ومدبرة – وأقبلن عليه وقلن له: إنك عذبتنا وحبستنا ، واجعتنا، قال فإن نحرت لكن نافتى تاكلن منها، قلن: نعم فخرط سيفه فعرقبها ونحرها ثم كشطها، وجمع الخدم حطبا كثيرا فأججن نارا عظيمة، فجعل يقطع لهن من أطايبها ويلقيه على الجمر، ويأكلن ويأكل معهن، ويشرب من فضلة خمر كانت معه، ويغنين وينبذ إلى العبيد من الكباب، فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن أنا أحمل طنفسته ، وقالت الأخرى أنا أحمل رحله وانساعه، فتقسمن متاع راحلته وزاده، وبقيت عنيزة لم يُحملها شيئا، فقال لها يا ابنة الكرام لابد ان تحمليني معك، فإنى لا أطيق المشى، فحملته على غارب بعيرها ، وكان يجنح إليها فيدخل رأسه فى خدرها فيقبلها، فإذا امتنعت قال حدجها فتقول: عقرت بعيرى فانزل (١٦)»..

فبدون هذه الحكاية التى رواها «ابن قتيبة» وغيرها من الحكايات التى رويت عنه، ما كنا لندرك على وجه التحديد ما روى فى شعره من بعض أحداث حياته. فهذا المشهد رواه فى معلقته فقال:

ويوم عقرت للعذاري مطيتي ... فيا عجباً من رحلها المتحمل
يظل العذاري يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمتس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعدينا من جناك المعلل (١٧)

ولا يكتفى «ابن قتيبة» برأيه فى شعر امرىء القيس، بل كان ينقل آراء غيره.. يقول :

«قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يقول من فضله: أنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى فى الدمن، ووصف مافيها، ثم قال دع ذا رغبة عن المناسبة، فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا، واللقوة والسباع والظباء والطير، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف .. (١٨)

ثم تتبع «ابن قتيبة أثر امرىء القيس فيمن جاء بعده من الشعراء ، بقوله:

«فمما أخذه الشعراء من شعر امرىء القيس.. قال امرؤ القيس:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لا تهلك أسي وتجمل

أخذه طرفة فقال:

وقوفا بها صحبي على مطيهم
يقولون لا تهلك أسي وتجلد

وقال امرؤ القيس يصف فرسا:

وتخطو على صم صلاب كأنها
حجارة غيل وارسات بطحلب

أخذه النابغة الجعدى فقال:

كأن صواحبه مدبراً خضبن وان كان لم يخضب
حجارةغيل برضراضة كسين طلاء من الطحلب

★ ★ ★

بعد ذلك بين ما انفرد به الشاعر، فقال: ومما انفرد به قوله في العقاب

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدي وكرها العناب والحشف البالي

شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد وأحسن التشبيه (١٩) ..

★ ★ ★

والشاعر الثانى الذى اهتم به «ابن قتيبة» فى كتابه «زهير ابن ابى سلمى» وترجم له على هذا النحو «هو زهير ابن ربيعة بن قرط، والناس ينسبونه إلى مزينة، وإنما نسبه فى غطفان، وليس لهم بيت شعر ينتمون فيه إلى مزينة إلا بيت «كعب بن زهير» وهو قوله:

هم الأصل مني حيث كنت وإنني من المزليين المتصفين بالكرم .

«وكان لا يعاظل بين القول، ولا يتبع حوش الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه(٢٠)».

ويروى إبن قتيبة «قال عكرمة بن جرير، قلت لأبى من أشعر الناس، قال أجاهلية أم إسلامية: قلت : جاهلية .. قال زهير، قلت فالإسلام قال الفرزدق، قلت فالأخطل؟ قال الأخطل يجيد نعت الملوك، ويصيب صفة الخمر، قلت له فأنت ؟ قال أنا نحرت الشعر نحراً»(٢١).

وقال عبدالملك لقوم من الشعراء أي بيت أمدح: فاتفقوا على بيت زهير

إذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقيل لخلف الأحمر زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت كعبا أشعر منه.. يريد قوله:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
ولأنت أشجع من أسامة إذ دعي النزال ولج في الذعر
ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا تفري
لو كنت من سيء سوي بشر كنت المنور ليلة والبدر

وكان زهير يتأله ويتعفف فى شعره، ويدل شعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله:

يؤخر فيودع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم(٢٢)

وراح ابن قتيبة على طريقته ، يروى الحكايات حول زهير ويقدم شعره الذى استجاده ويقرأ حولياته ويروى ما يعجبه منها «قال ومما سبق إليه زهير فأخذ منه قوله يمدح هرما:

هو الجواد الذي يعطيك نائله
عفواً ويظلم أحيانا فيظلم

من ذخائر الكتب العربية

★ ★ ★

بعد ذلك ترجم لكعب بن زهير ، والنابغة الذبياني ، والمتلمس، والمرقش الأكبر ، والأفوه الأودى وعمرو بن كلثوم ، وحاتم الطائي والاعشى بن قيس ، وزيد الخيل ، ومهلهل بن ربيعة ، وعمرو بن قميئه ، وجرير بن عطية وذو الرمة، ومسكين الدارمي والعرجي وختمهم في الجزء الثاني بالشاعر اشجع السلمي وقال عنه: هو أشجع بن عمرو من بني سليم وكان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، وراح يروى ما يروق له من شعره قال: ويستجاد له في مدح الرشيد

وصلت يداك السيف يوم تقطعت
وعلي عدوك يا ابن عم محمد
فإذا تنبه رعته وماذا هدا
أيدي الرجال وزلت الأقدام
رصدان ضوء الصبح والإظلام
سلت عليه سيوفك الأحلام (٢٣)

***

وكانت تراجمه تقصر أو تطول حسب معلوماته وحكاياته عن الشخصية التي يترجم لها وحسب الشعر الذى يحفظه له.. ولكنه في كل التراجم كان يطبق منهجه الذي التزم به فيتحدث عن الشاعر ويروى أحداث حياته وطبيعة هذه الحياة والبلد الذى عاش فيه وثقافته وطريقته في نظمه ، ثم يقرأ شعره ويفهمه ، ويقول رأيه في الجيد والردىء منه، ويعطى نماذج مما يستجيده، ونماذج مما يعاب عليه. وكان لا يكتفي برأيه في الشاعر، بل كان يعود إلى آرا ، الشعراء والكتاب فيه، ولعل تلك الحصيلة الضخمة من الدراسات لنحو مائتين وستة شعراء قد صقلت ذوقة وأرهفت حسه ، وأذكت مشاعره وكونت له ملكة في نقد الشعر تعينه على معرفة الجيد والردئ وتحدد له منهجا في دراساته يسير عليه كما جاء في مقدمة كتابه .

★ ★ ★

بعد هذا الاستعراض ماذا نقول في الكتاب وفي المؤلف ؟ ونحاول أن نصنع صنيعه، عندما كان يستأنس بآراء غيره في الشاعر أو الذى يدرسه قال عنه صاحب كتاب «التحديث بمناقب أهل الحديث » (وهو أحد أعلام الائمة والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفا وأحسنهم ترصيفا . له زهاء ثلاثمائة مصنف، وكان يميل إلى مذهب أحمد واسحق، وكان معاصرا لإبراهيم الحربي ومحمد بن نصر المروزى . وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون: أمن استجاز الوقيعة في «ابن قتيبة» يتهم بالزندقة ويقولون كل بيت ليس فيه شئ من تصنيفه لاخير فيه »

ورجل هذه ثقافته وتلك مؤلفاته، يجعلنا نقرر في اطمئنان أن كتابه «الشعر والشعراء» كان بداية للنقد الأدبي بمعناه الدقيق، فقد تناول نصوص الشعراء وفهمها ودرسها وأصدر حولها «حكما » بقيمتها . ففي الكتاب دراسة وحكم وتحليل وتعليل. وللكتاب منهج التزم به صاحبه من أجل ذلك نختلف مع أستاذنا الدكتور محمد مندور رحمه الله عندما قرر ان «ابن قتيبة» ليس ناقدا وإنما هو مؤرخ أدب أكثر منه ناقدا فلاشك انه ناقد بكل المقاييس والمعايير ..

وان كان الدكتور محمد مندور وهو يحكم عليه حكما عاماً قد أنصفه وقال فيه قولاً جميلا

على الرغم من قوله إنه ليس ناقداً .

قال عنه «هو رجل تفكيره خير من ذوقه ، ونزعته خير من عمله ، دعا الى تحكيم الرأى الشخصى فأصاب، وعرف الشعر المتكلف فى أحد المواضع بأنه ماخلا نسجه من الوحدة فأصاب، وحاول ان يقسم الشعر تبعا لجودة ألفاظه ومعانيه فتخبط فى الحكم والذوق ، وقسمه إلى مطبوع ومتكلف فخلط بين الارتجال والطبع ، وبين التثقيف والتكلف وحاول ان يورد عن غيره بعض المقاييس فلم يتبصر ولم يعمل حسه ولا عقله ليضعها وضعها الحقيقى (٢٤)

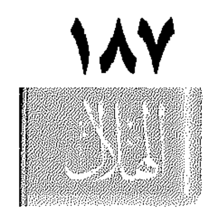
ويبدو ان الدكتور مندور لم يقرأ كتابه كاملاً ، ولم يقرأ له شيئاً من كتبه وإلا لما حكم عليه هذه الأحكام!

وان كان قد انصفه بعض الانصاف عندما قال « ومع ذلك يبقى له فضل وقوفه فى سبيل طغيان منطق اليونان على أدب العرب وفضل التعصب للقديم لقدمه أو الحديث لحداثته، وذلك رغم أنه لم يستطع ان يقيم محل مارفضه أسساً صحيحة أو نظرية متماسكة » . «٢٥»

ونحن نظلم « ابن قتيبة» إذا طالبناه فى القرن الثالث الهجرى أن يفكر على طريقتنا ويحدد معالم نظريته بأسلوبنا. ولكنه فى الوقت نفسه وهو يؤلف كتابه «الشعر والشعراء » حدد منهجه ورسم طريقه، والتزم بما قرر وحدد، وبما وضع من معايير وقواعد وهذه هى أسس نظريته فى نقد الشعر. ولقد وقف فى وجه ذلك التيار المدمر الذى حاول ان يفرض على الذوق الأدبى نظرات الفلاسفة والمتكلمين ولقد اعترف له استاذنا الدكتور محمد مندور رحمه الله بهذا الفضل عندما قال «وليس من شك فى أن (ابن قتيبة) كان ذا فضل فى مقاومة التيار الجديد، وحماية الدراسات الادبية من طغيانه وسوف نرى ان نزعته هى نزعة الآمدى وعبد العزيز الجرجانى : ذوق عربى، واستقلال فى الرأى وتنحية للفلسفة عن مجال الادب» (٢٦) .

المراجع

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة - الجزء الأول ص٦٥ وما بعدها بتصرف (الطبعة الثالثة ١٩٧٧) .
(٢) السابق ص٧٠ .
(٣) السابق ص٧٢.
(٤) السابق ص٧٤ .
(٥) السابق ص٧٥ .
(٦) السابق ص٧١ .
(٧) السابق ص ٧٣ .
(٨) السابق ص ٧٤ .
(٩) السابق ص٨٥ .
(١٠) المصدر والصفحة .
(١١) المصدر السابق ص٩٦ .
(١٢) السابق ص١١١ .
(١٣) المصدر السابق ص١١٦ .
(١٤) المصدر السابق ص١١٦ .
(١٥) المصدر السابق ص١١٧ .
(١٦) المصدر السابق ص١٢٩ ، ١٣٠ .
(١٧) المصدر السابق ص١٣٠ ، ١٣١ .
(١٨) المصدر السابق ص١٣٤ .
(١٩) المصدر السابق ص١٤٠ .
(٢٠) المصدر السابق ص٢٠ .
(٢١) ص١١٤ - ١٤٥ .
(٢٢) المصدر ص١٤٥ .
(٢٣) الجزء الثانى ص٨٦٦ .
(٢٤) الدكتور محمد مندور النقد المنهجى عند العرب ص ٣٣
(٢٥) المصدر السابق ص ٣٣
(٢٦) المصدر السابق ص ٣٣



ينابيع الشمس

رحلة القلب والعقل معاً

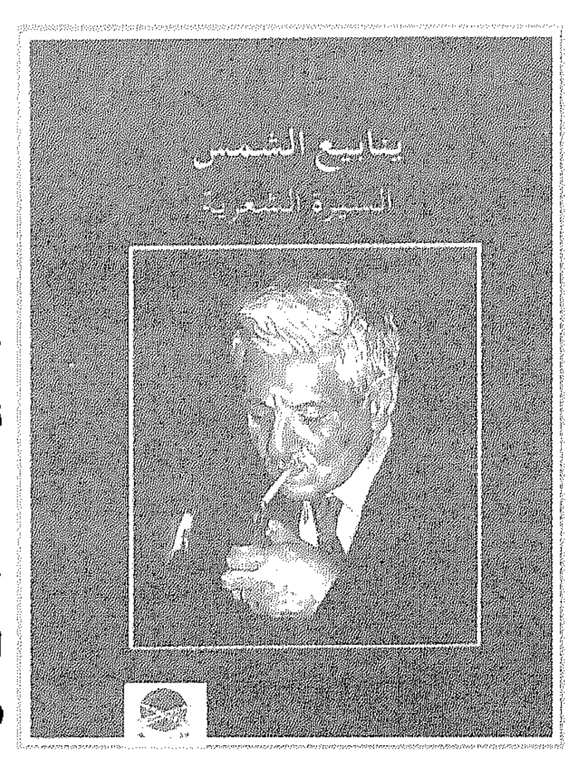
بقلم
عذاب الركابى

«ومن خلال فكرة وحدة الزّمان ، والموت في الحُبّ، عبّرتُ عن سنوات الرّعب والنفيّ والانتظار التي عاشتها الإنسانية عامة والأمة العربية خاصة، ومن خلال مرآة نفسي أنا أيضاً..».

عبدالوهاب البياتى تجربتى الشعرية ص ٤٤

فى السبعينات، بداية الوعى بالهم والكلمة، وفعلها والرّهان على زحف نيرانها الضرورى المقدس.. كان كتاب (تجربتى الشعرية) لعبد الوهاب البياتى من الكتب الطاغية على أذهاننا حتّى الهوس، كنا نقرأه مرات ومرات دون ملل لثرائه وصدقه.. وكان له تأثيره الفاعل على جيل جريح.. بل على أجيال قادمة وكأنه وحده الذى كان يجيب على الأسئلة المزمنة والمحيرة التى كنّا مثقلين بها، أضف إلى ذلك نفوذه الذى فاق فى سحره، وتأثيره مئات الدواوين الشعرية.

فكل كاتب.. وكل شاعر .. وأستاذ جامعى سرعان ما يعرف بارتعاشة جسدك شعراً، يطلب منك قراءة (تجربتى الشعرية)..!! وقد قرأته بظمأ، ولا أبالغ إذا قلت إننى حفظت منه عبارات، بل فقرات هامة، ومازالت عالقة فى ذهنى.. استفدت منها كثيراً فى أحاديثى.. وتنمية رؤاى الشعرية



والنقدية.. وإننى مدين لهذا الكتاب، وهو معى حتى هذه اللحظة (طبعة بيروت - دار العودة ١٩٧١).. وهو بداية حبى وهوسى بكتب السيرة ابتداء من «أيام» طه حسين، و«أوراق العمر» للويس عوض وحتى سير عباقرة هذا القرن هنرى ميللر، وكازنتزاكى، وبابلو نيرودا، وهرمان هسة!!

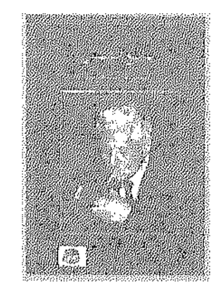
ويقول البياتى «إن الكتابة فى العالم الثالث عذاب وليست ترفاً لأن الكاتب عندما يتصور أن الكتابة مجرد كلمات وطموح نحو إبداع محض تتحول فى مثل هذه الحالة إلى خدوش باهتة فى سطح الواقع الفاسد».

★

حين وصلنى (ينابيع الشمس) سيرته الشعرية التى بعثها لى الصديق الشاعر الكبير عبدالوهاب البياتي، كنت أقرأ سيرة شاعر الهند العظيم طاغور (ذكرياتى)، وبقدر ما فيها من كثافة وعمق وصدق ، تفتقد إلى عنصرى الدهشة والجذب اللذين يساعدان فى توريطك بقراءة ممتعة موحية ،.. وإننى أجدهما فى كتابات الصديق البياتى الشعرية والنثرية، وهذه حقيقة يمكن أن يتفق معى فيها الكثيرون، ولهذا السبب قدمت اعتذارى لطاغور العظيم، وأنا أفتح قلبى ونوافذ ذاكرتي.. وحدائق أصابعي لكتاب البياتي الجديد (ينابيع الشمس) - السيرة الشعرية.. وهو لما يزل ساخناً سخياً..!!

«فكان شأنى وأنا أكتب السيرة - المذكرات هذه، كشأنى وأنا أكتب الشعر، إذ كلما انتهيت من كتابة قصيدة ، أشعر أنى سحابة أمطرت كلّ ما عندها ، وظلت تنتظر موسماً آخر لكى تستعيد عافيتها فتمطر من جديد..» - ينابيع الشمس ص ٧.

من الصعوبة بمكان الحديث عن شاعر بقامة البياتى بمعزل عن سيرته لأنها تكاد تكون الامتداد الطبيعى لذلك النزف الساخن - الشعر، بل هى الرئة التى يتنفس من خلالها الشعرُ هذا الكم من الهواء الصحى النقى.. والعكس صحيح ..!!



السيرة الشعرية

و(ينابيع الشمس) السيرة الشعرية لعبدالوهاب البياتي ليست سيرة حياة الشاعر البياتي وحده، وفيضه الشعري، ومصادر ثقافته وتكوينه الإبداعي والإنساني فحسب إنما هي سيرة الإنسان الجريح في كل مكان، وإنساننا العربي خاصة، وهي محاولة تتبع وبذكاء حركة كوننا المثقل بسحب الكوارث والهزائم والأخطار، وأنها سيرة وطن مغيب، قسراً، البياتي كشاعر مُقلق، جزء منه، بل عنصر هام من عناصر حركته، عند هذه النقطة فقط تكتسب هذه السيرة أهميتها.. وقوة جذبها للقارئ الظامئ لبارقة أمل نحيل، تشجعه على الحياة وترتب له سريراً دافئاً، وسط هذا الكون المضطرب!!

و(ينابيع الشمس) حديث النفس الجريحة.. لوحة صادقة مثيرة الإيقاع واللون، والظلال، رسمت بحنكة تحت تأثير وجع وهم كبيرين.. أطلقت الجرأة في هذه الأصابع الناحلة، التجربة الكبيرة التي عاشها الشاعر، وهو يفتح صدره لنبال النفي، والغربة، والجوع، والسهر، وقلق الكتابة القاتل، مبتسما بسخرية، إنه حديث النفس المضيئة بإنسانيتها، وحلمها، وشاعريتها بعيداً عن الأنانية، والغطرسة، والغرور.. حديث الشعر المطارد الذي استوطن جسد هذا الشاعر الكبير.. حتى صار وجهه وأصابعه وهويته .. وطريقه.. وامرأته :

«منذ نعومة أظافري بدأت أعي سر الموت وسر الغربة وسر الصمت، وكنت ألوذ بكتبي متأملاً الطيور والسحب التي كانت تغطي السماء في أيام الشتاء، حالما بالرحيل إلي مدن أخري وإلي بلاد بعيدة..» ص ٩.

وعبدالوهاب البياتي في (ينابيع الشمس) ينتصر للإنسان لأنه هو .. قصيدته التي دلته على (جلجامش)، وهو بدوره دله على ينابيع الشمس..، وينتصر للإبداع – السحر الذي بدونه لا يمكن أن يحتمل هذا العالم – حسب تعبير (هرمان هسة)!!.

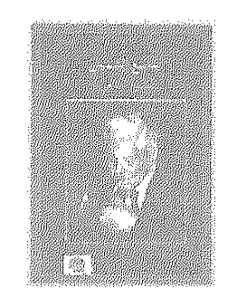
(ينابيع الشمس) كتابة بأحرف كبيرة .. مضيئة ومستفزة لسؤال البؤس الإنساني الذي أرقه ، بل ترك في جسده آثاراً لا تمحى.. قصائد ترفع راية الثورة والتمرد والعصيان على امتداد الأزمنة الثلجية التي عاشها الشاعر..، وهو سبب انكساره ، وحزنه، ووحدته.. وما من سبيل لنسيانه

والتغلب عليه إلا بالكتب: «وفي تلك المرحلة شعرت بالوحدة الهائلة، وشعرت بأن العالم السحري الذي كنت أملك مفاتيحه، وأستطيع من خلاله أن أجيب، وأجاب عن كل أسئلتي قد تقوض وانتهى فلجأت إلي الكتب» ص ٢٥.. وقد كان الشعر ضالته، قد فوض إليه أمره، وقد تكفل بتبديد كل ظلمات النفس:

«كنت أقتنص بيت شعر لشاعر جاهلي مثل طرفة بن العبد أو شاعر إسلامي أو عباسي، كنت أشعر بالفرحة لأن هذا البيت أو شطراً منه قد أضاء بعض ظلمات نفسي..» ص ٢٥.. يسعفه في عبور محنة الفقر، والبؤس الإنساني الحلم بثورات الفقراء، تقربها من نبض دمه الصادق ثقافة أصيلة غزيرة، يفتت بمصادرها ليل زمنه البهيم، ممتدة من أغاني الفلاحين، والحكايات الشعبية.. من طرفة وأبى نواس والمعرى والمتنبى والشريف الرضى، ومن الشعراء الصوفيين جلال الدين الرومى، وفريد الدين العطار والخيام، وحتى شعراء الحلم الإنساني، والفجر الإنسانى العالميين ابتداء من نيرودا، وايلوار، وناظم حكمت ولوركا وحتى مايكوفسكى، واضعا إصبعه النحيل على أهم ثلاثة مصادر لعبت دوراً كبيراً فى زاده الثقافى وتكوينه الإنسانى والفكرى، مبتدئا بكتاب (مقدمة ابن خلدون): «الذي اكتشفت فيه بعض الأفكار العلمية والمنطقية» ص ٣٠، وكتاب الأغانى (كأكبر موسوعة ملحمية عالمية فى نظرى) وألف ليلة وليلة الذى كانت قرأته (من أجل المتعة أو البحث عن شيء ضائع أحسه ولا أعيه).. لأن فى هذه الكتب أشياء جديدة: «ولا أزال أواصل قراءة هذه الكتب واكتشف بعد هذه السنوات الطويلة أشياء جديدة فيها أيضا» ص ٣١.

الرحيل

ورغم أن الكتب منحته هذه الذهنية المتوقدة وهذا القلب الصوانى الذى تفتت على جدرانه كل حراب الزمن الغادر، يعلن (شعوره بالإشباع) منها أحياناً، فيبدلها، لبعض الوقت، بزاد آخر - الرحيل .. يشعلُ فى دقائق جسده حب الحياة أكثر «فكنت أحاول إيجاد توازن بين حياتي الوجودية وحياتي الروحية، وهذا ما كان يتجلي في قلقي وكثرة أسفاري التي كنت فيها أشبه بمن يبحث عن النور فطاف في مدن العالم القديم



السيرة الشعرية

والحديث، ص ٣٣ .. غير متناس هذا الغذاء الروحي الذى (يحيا عليه شعره ولايزال) ، ولأن الكتب (خلاصة التجربة الإنسانية) استطاع البياتى بألمعية ذهنه، وتفوق حلمه أن يتعامل معها بحنكة، ودربة، وتأن، مضيفا على هذه الكتب التى تشغله ولا تشغله صفات الناس، فمنها الممتع، والغزير، والشيق، والدسم، ومنها الممل، والخامل، والضعيف، واضعا أمامه الهدف الأسمى المتمثل فى قدرتها على إيقاظه بعد كل قراءة، واستعدادها الجنونى (لتنمية مشاعره وموهبته)، فهى إما أن (أقتنيها ولا أقرأها) لأن قراءتها يمكن أن (تخلق حالة عكسية فى داخلى) أو (أقرأها من الألف إلى الياء ولا أعود إلى قراءتها من جديد) معتبراً المعرفة المباشرة من (خلال التجربة الإنسانية).. وهناك من الكتب التى (أعود إلى قراءتها مرات..) ص ٣٥.

فى (ينابيع الشمس) حديث دافىء عن المكان ودوره فى النضج الثقافى فقد اعتبره (البياتى) البذرة الأولى، التى حين توفر لها الماء والهواء والشمس أنبتت هذه الثمرة - الشاعر، الذى شغل بصوته ، وحنجرته الصافية، وإيقاع أصابعه، وأنين قلبه الدافىء، الناس كل هذا الزمن، فكان بحق (نور الشعر ومرآته)، وقد كانت بغداد - الأم ، متمثلة فى (دار المعلمين) مكان وجوده وبداية تفتح مواهبه الشعرية... قاعدته التى بدأ منها المغامرة - الشعر، محدداً فضل هذا المكان فى ثلاثة أقطاب هم كل قوته، وحماسه ، وحافزه الأعلى: (ناحية العمق فى قراءة التراث العربى القديم ودراسته) متمثلاً على وجه الخصوص فى (مقدمة ابن خلدون، وكتاب الأغانى وسواهما من الكتب التراثية المهمة) ص ٣٩، و(علاقتى ببعض الأساتذة الكبار الذين درسوا لنا فى تلك السنوات) متمثلة فى العلامة اللغوى الكبير د. مصطفى جواد، و د. عبدالفتاح السرنجاوى و د. محمد مهدى البصير، ثم هناك علاقته بزملائه من الطلبة الأدباء والشعراء متمثلة فى السياب كأحد شعراء الحداثة الكبار.

يقول البياتى «**فالنفي لدي ليس بالجسد وحسب، بل هناك نفي أشد، وهو الإحساس الداخلي بالنفي والشعور بالاستلاب، فقد أحسست بالنفي قبل حصول النفي نفسه، أي أنني أحسست**

بأني منفي منذ طفولتي، سواء في القـــرية أم في المدينة، واكتشفت أن العالم ما هو إلا منفي داخل منفي آخـر..» ص ٥٧.

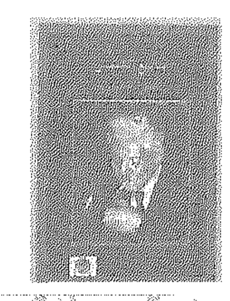
و«ينابيع الشمس» تكتب هامشاً ضرورياً لهذه القصيدة الملحمية، النفى، التى عاشها الشاعر، وكتبها بكل نبض، وكل دقيـقـة من دقـائق جسده الواهن، وقد كان فرحا به لا لأنه نبوءة العرافة: **«إن أمامي أزمنة طويلة للرحـيل، وهكذا تحـقـقت نبوءة العـرافـة هذه عندما غادرت بغداد بعد فصلي من الوظيفة عـام ١٩٥٤» ص ٥٢، وإنما «كنت أريد أن أكون سـيد نفسي دون أن أطأطيء رأسي لأحـد، أو أنحني أمـــام حـــاجب أو رئيس دائرة أو أي إنســان»** ص ٥٢.. وهذا مـا جـعل البـيـاتى ابن هذا العـالم، عـانى مـا عاناه من كوارث وهزائم، حتى صار جرحه إضافة جميلة وضرورية لجرح العالم، دون أن يشعر بالغربة المكانية فيه، رغم ما أعلنه فى أكثر من مقام بأنه جاء ليعاكس هذا العالم، فاضحاً مساوئه ومعاصيه. ليبدع على أنقاضه عـالما آخـر .. عـالم الحـرية والعـدل والإنسان والشعر..!! **«فعندما يولد الإنسـان ويعـيش في ظروف استـلاب اجـتـمـاعي وثقـافي وسيـاسي، يحس كـأنه طائر أو كأنه سحابة، في الظاهر، لأن هذين الكائنين يحصل كل منهما علي حـريتـه بالرحـيل، ولعلي بسبب ذلك أحسست بأني أكثر حـرية عندمـا جربت النفي في البداية» ص ٥٧.**

نفي القاهر

والنفى قد منح هذا الطائر الجميل – الشـاعر جناحين أسطوريين، مكناه من الرقص مع الشـمس تارة، وتـارة أخرى التـعلق فى خـاصرة السـحـابة المطرة لترقيق قلبها، فهناك عواصف هوجـاء فى الانتظار.. ومن هنا فـإن النفى بقدر مـا فـيـه من غربة روحية وصـوفـيـة، فـيـه من القـوة الأزليـة والحصانة: **«ولم تأخذ الغربة ولا النفي مني شيئـا، بل منحـاني الحصانة ضد التفاهة والعدمية والمجانيـة، ومنحـاني القوة في مـواجـهـة الشر والذل الكونى..» ص ٦١.**

ويقـــول عنه ناظم حكمت: **«إن البياتي شاعر أصيل، من أولئك الشـعـراء الحـقيـقيين الذين كـان تجديدهم تلبية لدواعي المحتوي الجديد، وليس سعيا وراء بدعة أو حذلقة»..**

السيرة الشعرية



حديث صادق

وفي «ينابيع الشمس» صفحات منداة بطيبة ودفء الشاعر الكبير، خصصها (البياتي) للحديث عن لقاءاته الإنسانية الدافئة والعميقة، بكتاب وشعراء الإنسانية الكبار، متمثلة في: ناظم حكمت، ماركيز، ألبرتي، السياب، خليل حاوي، وصلاح عبدالصبور... وقد كان حديث شاعرنا عن هؤلاء صافيا، صادقا، صباحيا... هو حديث الشاعر والمبدع المتجدد، الحالم أبداً بعلاقات إنسانية صباحية جديدة، تكون نافذة مطر يطل من خلالها ليقاوم بعض قساوة الحياة، وصلافة ورعونة عالمه... ولم تكن علاقته بهؤلاء الكتاب والشعراء الإنسانيين علاقة طارئة، عابرة، قذف بها الزمان، إنما هي علاقات عميقة عمق الشعر والحب، ومتجددة تجدد الإبداع والحياة.. وهو لم يؤجل الحديث عن هؤلاء في كل فرصة، وكل مناسبة، وكأنه التقاهم أمس، واليوم، وربما سيلتقي أحدهم غداً ، في زورق من صنع شوقه لهم.. وربما من صنع الشعر... وهذا إن دل على شيء إنما يدل على إنسانية الشاعر البياتي، وشفافيته، وحلمه ، وإيمانه بالزمن القادم... زمن الشعراء .. والفقراء.. والثوار.. والعشاق.. والمبدعين..

***

وقد تضمن كتابه (حدائق الشعراء) أيضا صورة رائعة لهذه الأحاديث وعن هذه اللقاءات، وكأنها منقوشة في ذاكرته نقشاً..!!

و«ينابيع الشمس» رحلة القلب والعقل معا... كلاهما يتحدثان يحكمان الحرف، فتاتي الكلمات في هذا الكتاب الهام إنسانية، دافئة ، حميمية، عميقة ، يحتفل الشعر في تلك السطور بخلوده، في حضرة التاريخ الذي كاد يصبح منسياً لولا كلمات الشاعر الضوئية... لولا الشعر الذي تفوق في (ينابيع الشمس) على التاريخ كثيراً.. بذاكرته التي كانت الأصفي والأنقى في نقل ووصف هذه المحطات الهامة في حياة شاعر.. هو أكبر شعراء الحداثة الاحياء..

إن السيرة الشعرية لعبدالوهاب البياتي إضافة هامة لكتب السيرة في الأدب العربي الحديث.. والمعاصر يتميز في ثرائه . وعمقه... فهو عرس للزمان والمكان اللذين عاشهما الشاعر، وتكريم للشعر والكلمة ، وهما يمنحان هذا القدر من الحرية والدفء والحياة. ■

قراءة متأنية فى حديث الرسول

شعر
يسرى خميسى

١- عندما نزل بشر الحافى
إلى سوق بغداد
هاله ما رأى
فخلع نعليه، ووضعهما تحت إبطه
وجرى فى اتجاه الصحراء
وظل يجرى، يجرى، يجرى
حتى يومنا هذا.

٢- ولما رأى ذو نواس
(آخر ملوك حمير فى اليمن)
لما رأى افتراق قومه
لما رأى انكسارهم وضعفهم
أمام حثالة الأحباش
لطم فرسه بالسوط
وشق البحر به
وظل يعدو، يعدو، يعدو
حتى يومنا هذا.

٣- ولما رأى الحاج خليل عفيفى
تاجر الأقطان بالزقازيق
تراخى المصريين وتنطعهم
فى الاكتتاب
لجلب جثمان الزعيم محمد فريد
من غربته فى برلين
سافر بنفسه وأحضره.

٤- بعض الأقوام
لهم أفئدة كأفئدة الطير
صدق رسول الله.



بقلم
صافى ناز كاظم

كنت حريصة على حضور عرض فيلم «اللمبى» ، قبل أن يصبح ، كما الآن ، حديث المدينة والأوساط الثقافية ، كان يهمنى أن أشاهد «عبلة كامل» ، وكان يهمنى أن أشاهد هذا الممثل الجديد المبهر «محمد سعد» ، الذى سبق أن شاهدته أول مرة فى لقطات قصيرة ظهر فيها غريباً لافتا بفيلم «الناظر» لعلاء ولى الدين ، وحرصت أن أتابعه فى «٥٥ إسعاف» . إنه نموذج لم تعرفه السينما المصرية من قبل ، يمثل «نمطا» من البشر موجود فى الحياة ، ليس السائد فيها لكنه إذا

قابلك فلن تنسه. هو «حثالة»، هو «عشوائى»، «عاطل»، «أمى»، «مسطول» متعثر فى النطق، عاجز عن صياغة جمله للتعبير عما يريد، منسحق آت من قاع الدمار الإنسانى، كلما حاول أن يستنشق نسمة هواء خارج بئره البائسة، تكالبت عليه الأيدى القوية لتدفع برأسه تغطسه فى الاختناق والفساد والحصار.

هذا «النمط» البشرى صوره الأدب العالمى والعربى، ليس تماماً «اللمبى» لكن شخصيات موازية له فى التفرد الطريف الذى يمكن أن ينشأ من مأساة التدمير الإنسانى. تجده عند «شتاينبك» فى «عن الفئران والرجال» وعند «كارسون ماكيللر» فى «موال المقهى الحزين» وعند «هارولد بنتر» فى مسرحية «الحارس»، وعند «خيرى شلبى» فى «صالح هيصة» وعند «حرافيش» نجيب محفوظ .. الخ. لكن الفنان «محمد سعد» بتجسيده «اللمبى» عرف كيف لايجعله اجترارا لأحد سبقه، لقد تقمص الشخصية حتى لم تعد هناك مسافة بينه وبينها، ومع ذلك فهو غير منحاز لها، غير موافق عليها، وإن تعاطف مع أزمتها . يجعلنا نضحك هذا الضحك الذى ندفع فاتورته فوراً بمعادل من الألم مواز تماماً للمتعة، فلا أنت مستقر فى الاستمتاع بالضحك ولا أنت مستسلم لشكات الوخز بالتوجع، وإن كنت فى الحالتين، الضحك والألم، لاتكف عن مسح دموعك. نضحك مع «اللمبى» قهقهات عالية مانلبث حتى نستعيدها وعيا يشدنا إلى واقع يجلب لنا الخزى والإحساس بالعجز.

★★★

لا أعرف من الذى ابتكر «اللمبى» ولماذا هو اسمه «اللمبى» - (هل هو استعارة محرفة لاسم اللورد اللنبى Al-lenby - الذى كان أحد رموز الاحتلال البريطانى لمصر فى مطلع القرن العشرين؟) - هل له دلالة خاصة، أم أنه واحد من الاقتباسات الشعبية التى تتعلق برنين الأسماء فتسمى : «فرنسا» و«ويزا» و«كتشنر» و«الجنرال» .. الخ. المهم أن مجموعة الشباب من المؤلف «أحمد عبد الله» والمخرج «وائل إحسان» مع الفنان «محمد سعد»، وجدوا أن هذه النواة الصغيرة التى برزت فى «الناظر» يمكن أن يقال بها ومن خلالها «الكثير» الحار والجارح فى أحوالنا التى تنجرف بسرعة متعاظمة نحو «الفظ» و«السوقى»، و«القبيح»، متناهى «الغلاظة»، والذى تتبدى ملامحه أكثر ماتتبدى فى شرائح الترف والثراء، قبل العوز والفقر . فهذه الشرائح المترفة تلعب بالفلوس لعبا لا ذوق فيه ولا رقة، فهي بالفلوس والثراء قد شيدت القرى السياحية، والقنوات الفضائية والملاهى والمنتجعات والأبنية الشاهقة باهظة التكاليف شديدة الدمامة - (مثال مبنى نقابة الصحفيين الجديد بشارع عبدالخالق ثروت، هل يمكن لغيره

أن يكون نموذجاً أكثر منه فى الدمامة والسوقية والغلاظة والفظاظة؟، إنه قبح متكامل الأركان يجسد مأساة الثراء فاسد الذوق الذى صار معمما كقيمة مطروحة للمحاكاة والاستنساخ).

لقد سادت ذائقة الأثرياء الجدد أصحاب الثراء المباغت، وفرضت هذه الفئة على المجتمع اختياراتها «الجمالية» القبيحة، المتمثلة فى التلهف نحو الفخامة الفجة الصارخة ، وشراهة المأكل والملبس والإسراف والتبديد والإهدار والضجيج العالى فى كل أوجه نشاطها وقيمها ، مما أدى إلى خلل ملحوظ فى اتجاهات المجتمع المصرى الذى وجد نفسه - بدفع الأمواج - مرتمياً فى معمعة الاستهلاك بما يفوق قدراته المالية ، فدخلت فى مفرداته كلمات مثل «مشروع»، «مشاريع»، «سياحة»، «استثمار»، ولأن هذا المجتمع لم يتدرب جيداً على التعامل مع هذه الجنيات المتطايرة حول رأسه تمنيه وترغبه بـ «مكسب المليون»، تمكن منهج «التلطيش» «واضربها وزى ماتيجى تيجى» من الجميع . وتحت سلطة القبح المتوحشة وامتداد أيديها الطويلة - كأيدى الأخطبوط - من كل الوسائل السمعية والبصرية، التفت حول الأعناق تلح على الأدمغة : هيا قلدونى ، هيا حاكونى، هيا اتبعونى، هيا ..... فماذا يفعل المسكين الجالس فى حيه العشوائى، الطافح بالمجارى، يشاهد كل هذا الضجيج على شاشة تليفزيون تئز فى مقهى المعسل والكيف والفقر المدقع؟ شهيته تتحرك للطعام الساحر، والحب الملتهب، والبيوت والحدائق والفيلات والقصور، ولم لا؟ عليه فقط أن يختار «المشروع» الذى يجلب الثراء ويصطاد الدولار. وبإمكانيات الأمية والتخطيط العشوائى تخرج الفكرة النيرة . فى نموذج «اللمبى» تقنعه أمه «فرنسا» العجلاتية - التى تؤديها عبلة كامل - بأنهما لو حملا «البسكليتات» إلى «شرم الشيخ» حيث «الخواجات» السائحات اللاتى يعشقن ركوب الدراجات، فسوف تنحل - بإذن الله - كل المشاكل المالية التى تواجههما، وتكون مهمة مناسبة لعمل «اللمبى العاطل» . ونرى رحلة الأم واللمبى والدراجات المتجهة إلى شرم الشيخ لتحقيق «المشروع» بـ «الدراع»، فهل أخبر أحد «فرنسا» وابنها «اللمبى» بضرورة التصريحات والأوراق والدمغة والموافقات لكى يحق لهما التمركز على الشاطىء وجذب السائحات إلى استئجار الدراجات التى زينتها «فرنسا» بالألوان والكرانيش؟ وفعلاً ينجح «المشروع» ويجرى الدولار «المقدس» فى أيدى اللمبى وأمه، وتتسع ضحكاتهما ويأكلان «الفينو» ويلبسان

«الجينز» و«البرانيط» لكن كل هذا لايدوم، تطاردهما شرطة السياحة وتخرب بيتهما، ويفران فراراً تاركين كل شيء لتصادره شرطة السياحة، رأس المال والمكسب والحلم، ناجيان فقط من الضبط والإحضار للحبس والبهدلة.

ويعود «اللمبى» إلى ما كان عليه من احباط وبطالة من دون أن يفهم ماهو الخطأ الذى ارتكبه ليستحق معه تدمير «مشروعه» الناجح ، فلا أحد من هؤلاء المسئولين قد اهتم بالتوضيح والإرشاد. ولا تيأس «فرنسا» فهى وراء ابنها تشجعه نحو «مشروع» عربة الكبدة التى ورثها عن أبيه المتوفى وينهض «اللمبى» ويغسل العربة ويطليها ويزينها كالعروس ويقف بها على الكورنيش، وينتعش بالإقبال على «ساندويتشات» الكبدة اللذيذة، ونرى مظاهر النعمة عليه، وتأتيه حبيبته «حلا شيحة» ، التى قرأ الفاتحة لخطبتها منذ ١٦ سنة، وقد آن الأوان ، بنجاح عربة الكبدة، ليتزوجها، ولكن .... مثل كل المرات، بوليس البلدية فى غارة من غارات مطاردته للباعة السريحة يصادر عربة الكبدة و«اللمبى» فى ذهول لايفهم منطق هذا التدمير المستمر لمحاولاته المخلصة فى الخروج من مستنقع البطالة والضياع الذى ينغمس فيه مع المساطيل . ليس من المفترض أن يكون «اللمبى» أكثر نضجاً ووعياً من الدولة التى أسقطته من حساباتها، ولا يرى منها إلا الوجه المتجهم اللاطم بالعقاب ، لذلك يكون من المنطقى أن يخترع «اللمبى» لنفسه قانونه الخاص ووسائله للتفاهم مع من يعترض طريقه ولو بمطواة قرن غزال، فهو لم يترب على وسائل أفضل. إنه «فاسد» رغم رغبته الدفينة فى الصلاح . مثل قط الشارع ليس أمامه سوى أن ينشب مخالبه إذا استشعر التهديد، لايخفف من شراسته صداقته بجاره عازف الكمان «باخ» الذى يؤديه «حسن حسنى».

و«باخ» هو نفسه فنان محبط، يعزف بالكمان «فصحى» الموسيقى التى لايتحملها «اللمبى»، لأنه غير مهيأ لمثل هذه الثقافة الناعمة بعد أن عجنته وصاغته الخشونة . لقد دمرت الفجاجة قدرته على التذوق مثلما دمرت المخدرات قدراته على التركيز والفهم والتعبير. والفيلم يشير إلى هذا العجز فى أول مشاهده حين يبدأ بـ «اللمبى» عائداً إلى بيته تائها يردد «وكف الخَلْكُ .. وكف الخَلْكُ..» . ولا يكمل، فهذا كل مااستطاع أن يلتقطه ويتذكره من قصيدة حافظ إبراهيم التى يسمعها تغنيها أم كلثوم : «وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى»! وتتبدى السخرية الكامنة فى الدلالة العكسية بين «قواعد المجد» و«اللمبى»، المواطن المنسحق ضحية الخلل الناشىء من «الرأسمالية العشوائية» - (الوجه الآخر لعملة الاشتراكية العشوائية) - التى عاثت فى البلد فساداً بلا حدود.

★★★

هذا الفيلم «اللمبى» الهازل جداً، حتى ليحسبه الجاهل عبثاً، الجاد جداً، حتى

يكون بإمكانى أن أضعه فى مرتبة «أهم» أفلام السينما المصرية منذ «العزيمة» و«سلامة فى خير» و«الكرنك»، بل وأضعه فوق كل «قفة» أفلام يوسف شاهين بأكملها، ليس فيلما «كوميديا»، إنه يدخل تحت «ألفارس» الذى ترجمته «فن الهزل» الذى نراه عند شارلى شابلن، والذى نادى به «ألفريد جارى»، أحد رواد المسرح الحديث وقد مات فى باريس سنة ١٩٠٧ وهو مبتدع الشخصية الهزلية «الملك أوبو» ليجسد بها كل مانكرهه فى العالم من دمامة وابتذال، المطلق للقبيح وتجسيم الشراهة والقسوة والنذالة، وقد قدم حسن الجريتلى هذه المسرحية منذ سنوات – فى المركز الثقافى الفرنسى، وكانت «عبلة كامل» من أبطال العرض وقد أدت دور «الأم أوبو» بتشرب دقيق للشخصية كما أرادها مؤلفها «جارى» وفق ملاحظاته التى أرفقها مع مسرحيته المدونة. وقد تقبل وقتها الجمهور «الثقافى» الهزل الجاد لجارى، وضحكوا بقهقهات عالية، ومصمصوا الشفاه فهما لعمق الجدية المستترة تحت الهزل البادى، ولذلك لم أجد مبرراً لكل هذا العنف فى الهجوم الذى انهال على فيلم «اللمبى» من معظم نقاد الصحف والمجلات، وقد ترددت بينهم كلمة «فيلم بلا دراما»! فهل هى كلمات مخطوفة من «اجترارات النقد السفسطائى» للتخويف؟ الحقيقة أنه فيلم يعج بالتكثيف الدرامى، كل جزئية من جزئياته تحمل دراميتها الخاصة، وكل شخصية لها تركيبتها الدرامية المتكاملة، والمخرج «وائل إحسان»، الشاطر جداً، استطاع فى هذا البحر المائج بالدراما أن يؤلف، وينسق، ويفنط، ويدمج، ويرتب ويجمع كل تلك الجزئيات الحادة الوهاجة فى بوتقة متأججة بالتفاعل، تأخذ وتعطى فى انضاج متبادل. ولقد فرحت بما كتبه هذا المخرج الشاب فى صوت الأمة ٢٠٠٢/٧/٢٢، يتكلم بثقة واعتداد عن عمله وبطله «محمد سعد»، نعم هكذا : لاتسكت ولا تخف. أنت فنان، ومعك كل الفريق الذى قدم هذا العمل الصعب والمحكم. وكما كانت بداية الفيلم تشير إلى عجز «اللمبى» عن التواصل مع الثقافة، تشير نهايته إلى عجزه عن الإمساك بخيط التقدم الصحى الصائب، فهو وإن تحسنت أوضاعه المادية والاجتماعية، يسير وراء التشويه العام لحقيقة التقدم فنراه يتابع خطوات إبنه فى تعلم «الكمبيوتر» وحروف اللغة الإنجليزية! ■



أربعة مجلدات
تجمع مقالاته وأبحاثه
فى ذكرى رحيله الثالثة

محمود الطناحى (١٩٣٥-١٩٩٩)

إذ يصبح الاشتغال بالتراث موقفا حضاريا

بقلم
أحمد عبد الرحيم

د. محمود الطناحى

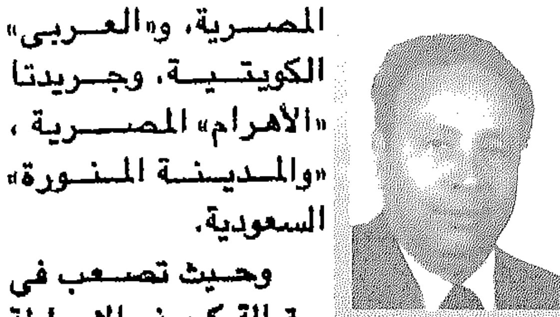
لم يكن محمود محمد الطناحى (١٩٣٥ - ١٩٩٩م) مجرد «محقق» عرف بإخراج الكتب «القديمة»، والاهتمام بالتراث .. بل كان نموذجاً للعالم المنتمى إلى حضارة أمته أشد وأعمق ما يكون الانتماء . فقد كان - رحمه الله - يصدر فى اشتغاله بالتراث عن موقف حضارى أصيل، يرى فيه إحياء التراث والاستفادة منه بداية النهوض الحقيقى لأمة ممتدة كأمتنا العربية العريقة، وكان يحارب الاعتقاد الساذج بأن الاشتغال بالتراث مجرد نبش فى القبور، ونوع من الاهتمام بالرمم والبلى .. كما يشيع كثير ممن لايقدرون هذا الجانب الحى من نسيج الحضارة قدره.

وقد ولج الطناحي إلى هذا العمق الحضاري عن طريق تحقيق النصوص، وكان الطناحي -- في تحقيقاته ونشراته - نموذجاً لهذا النمط العالي في الإتقان والتجويد اللازمين لكل محقق جاد، لايتخذ من التحقيق مهنة أو مصدر رزق كيفما اتفق!.. وقد ظهر هذا جلياً فيما أخرج.

***

وفي توقيت واحد موفق - يواكب ذكرى رحيله حيث توفي في ٢٣ مارس ١٩٩٩ الثالثة - صدرت أخيراً أربع مجلدات كبيرة، حوت أبحاث ومقالات الطناحي المتناثرة في المجلات والصحف المصرية والعربية ، منذ الستينيات وحتى وفاته - رحمه الله .. فعن دار الغرب الإسلامي (بيروت) صدر مجلدان بعنوان «في اللغة والأدب : دراسات وبحوث» غلب عليهما الطابع العلمي الأكاديمي، إذ حويا ماكتبه الطناحي من أبحاث علمية دقيقة نقد فيها كتباً ومطبوعات نقداً علمياً ضافياً، وبحث فيها مشكلات وقضايا في اللغة والأدب بحثاً وافياً .. وكثير منها نشر في المجلات العلمية المتخصصة، أو قدم إلى المؤتمرات والندوات العلمية البحثية.

وعن دار البشائر الإسلامية «بيروت» صدر مجلدان آخران تحت عنوان : «صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب: مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي»، وقد غلبت عليهما صفة المقالة الصحفية الأدبية، التي اهتم بها الطناحي منذ بداية شبابه، ودفع بها إلى عدد من المجلات والدوريات المهمة في مصر والعالم العربي وأهمها : «الهلال» المصرية، و«العربي» الكويتية، وجريدتا «الأهرام» المصرية ، «والمدينة المنورة» السعودية.



وحيث تصعب في مقالة كهذه الإحاطة بمثل هذا النتاج الضخم ، نظراً لتشعبه وضربه في كل مجال .. فإنه يمكن الاكتفاء - مؤقتاً - بتكثيف الرؤية العامة للطناحي - كما بدت في سائر إنتاجه ، ولا سيما في هذه المجلدات الأخيرة - في هذه النقاط.

***

أولاً : تمركزت حياة الطناحي - رحمه الله - على محور اللغة .. وهذا من منطلق إدراكه أن اللغة هي وعاء الحضارة ، وأن الاهتمام بها في كل مجال هو بداية النهضة الحقيقية لأية أمة ..فبسلامة اللغة تسلم للأمة - أية أمة - هويتها ، وتمتاز شخصيتها . بل إن وجودها المادي ذاته رهن بحالة اللغة فيها ، وحال أهلها معها .. وفي ذلك يقول الدكتور محمد سليم العوا - وكان من أخلص أصدقائه - : «كان الطناحي يعيش قضية اللغة وكأنها قضيته الشخصية الوحيدة ، وكان يتمثل تراثها كله ، وإنتاج النابغين والنابهين على امتداد حياتها كلها كتاباً واحداً متكاملاً، تزداد سطوره بكل جديد صالح. لقد كانت هذه اللغة الشريفة أهله وعشيرته وبيته ، وتاريخه الماضي، وعمله الحاضر، وأمله المستقبل .. كما كانت مرآة ثقافة الأمة، وعنوان حضارتها ، وسبيل الرقي بتلك الثقافة وتجديد هذه الحضارة».

وفى بحث ماتع جداً بعنوان «استثمار التراث فى تدريس النحو العربى» (دار الغرب الإسلامى - الجزء الثانى)، اهتم الطناحى برصد قضية ضعف الأجيال المتأخرة فى اللغة العربية - وفى النحو كأبرز معالمها - وردها إلى أربعة أسباب مفصلة، وهى : هجر الكتاب «القديم»، وطغيان المناهج الغربية فى الدرس، وما يتبع ذلك من جرأة على النحو وسخرية بالنحاة، والاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق .. والرابع : إهمال جوانب ضرورية فى تعليم النحو ، كملكة الحفظ، ومهارات الضبط الصوتى. ثم جمع هذه الأربعة فى سبب واحد كلى، هو نبذ التراث والانسلاخ منه، والهزء برموزه، والسخرية من أشياخه.

وهذا البحث جدير بأن يضم إلى بحث آخر فى ذات الكتاب بعنوان «لغتنا المعاصرة والثقة الغائبة»، بالإضافة إلى خمس مقالات أخرى (فى كتاب دار البشائر) هى: صيحة من أجل اللغة العربية، الحفظ وأثره فى ضبط قوانين العربية، الكتب الصفراء والحضارة العربية، البيان والطريق المهجور، النحو العربي والحمى المستباح ..

ثانياً : كلية النظرة إلى التراث .. حيث كان الطناحى - كما سبق - ينظر إلى التراث على أنه شىء واحد، من حيث وجوب العناية به : قراءة وتحقيقاً، ثم نقداً وتقويماً - وقد سبق وأن استفاد هذه النظرة الشاملة من شيخه محمود شاكر.

ومن أجل هذا ، كان الطناحى يهتم فى عمله اهتماماً بالغاً بقضية الفهرسة، حيث كان يردد دائماً : «الكتب بلا فهرسة .. كنز بلا مفتاح!.»، وهى كلمة حكيمة سمعها - كما يقول - من شيخ حكيم من شيوخ التراث أوائل اشتغاله بالمخطوطات . وذلك أن كتب التراث - كما يقول الطناحى - متداخلة الأسباب، متشابكة الأطراف، وقلما تجد كتاباً منها مقصوراً على فن بعينه دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى، لدواعى الاستطراد والمناسبة، وهذا يؤدى - لامحالة - إلى أن تجد الشىء فى غير مظانه.. ولذلك - كما يقول أيضاً - فإنه لن تستقيم لنا دراسة علم من العلوم على الوجه المرضى دون هذه الفهرسة الكاشفة ، التى تضم النظير إلى النظير، وتقرن الشبيه بالشبيه، والتى تستخرج القضايا من غير مظانها . وهو حين يتحدث عن «ثقافة المفهرس» يقول : «ويخطىء كل الخطأ من يظن أن فهرسة الكتب عمل ميكانيكى».. «إن عدة المفهرس عظيمة، ومهمته شاقة!».

وقد ذكرت قضية الفهرسة كمثال فقط على الرؤية الكلية للمكتبة العربية .. ولعل نظرة فى فهارس عمله الأكبر «طبقات الشافعية الكبرى» (والذى شاركه فيه صديقه وزميله المرحوم الدكتور عبدالفتاح الحلو) تجلى هذا الجانب بوضوح كامل.. إذ أنك تجد فيها إشارات وفوائد لا حصر لها فى فنون متواشجة، ومظان غير متوقعة.. وهى الطريقة التى كان يتميز بها السيدان الجليلان عبدالسلام هارون ومحمود شاكر.

ومما يتصل بهذا الجانب أيضا أنك تجد الطناحى يتنقل فى مقالاته بين الموضوعات والعلوم والفوائد - التى قد يظن عدم اجتماعها فى المقام الواحد -

بما لا تعتاده عند أحد من المعاصرين، ثالثا: الاحتفاء البالغ بطرق تلقى العلم.. ويبرز هذا الأمر دور المشافهة فى حياة الطناحى العلمية.. فسنة العلم - لاسيما علم أمتنا الشريف - تلقيه من أفواه الأشياخ والمزاحمة عليه بالركب.. وهذا ما حرص عليه قديما ومن لدن نعومة أظفاره.. وفى ذلك يقول عن نفسه: واتت الباحث ظروف حسنة - بغير حول منه ولا قوة، وإنما هو فضل الله وحده - حين اشتغل بالعلم منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب، حيث إنه التمس رزقه فى نسخ المخطوطات العربية (...) ثم تجمعت له من وراء ذلك خبرات واسعة جاءته من مجالسة كبار أهل العلم، فجالسهم وشافههم وتلقى عنهم وبعض ما تلقاه منهم لا يوجد فى كتاب.. ومن أجل ذلك تجده دائم الثناء على أساتذته هؤلاء ومكثرا من ذكرهم بكل خير، وإسناد ما استفاده منهم إليهم.. وأبرز هؤلاء الأشياخ هو محمود شاكر، الذى لازمه ما يقرب من أربعين عاما.. وعدد من كبار أهل العلم والفضل كالأساتذة الكبار: عبدالسلام هارون، ومحمد رشاد عبدالمطلب، وفؤاد سيد، ومحمد مرسى الخولى، ومحمد محيى الدين عبدالحميد، وشيخ المقارئ الراحل الشيخ الجليل عامر عثمان فضلا عن عشرات آخرين استفاد منهم، وكان دائم الثناء عليهم والتنويه بهم، حتى إنه كثيرا ما استفاض - فى مقالاته - فى تعدادهم حتى بلغوا فى أحد المواطن قرابة الثلاثين (من مصر والمغرب وسوريا والسعودية وتركيا وغيرها).

ومما يتصل بهذا أيضا حرص



الطناحى على تدريس كتب العلم الأصيلة فى أبوابها، التى حفظت شخصية الأمة قرونا متطاولة والتى هى جديرة بأن تؤدى هذا الدور الآن لو تجد لها فى دور العلم أنصارا!.. إذ كان - رحمه الله - يقرئ طلبته شرح ابن عقيل على الألفية فى النحو والصرف ويرفض أن يقرر عليهم مذكرة من صنعه، خشية أن يصرفهم بها عن وجه العلم الأصيل.. مع ملاحظة أنه لا وجه لمقارنة بين تحقيقاته وتدقيقاته العلمية وبين كثير جدا مما تسود به أوراق الجرائد الحائلة التى تدعى مذكرات التى يفرض عناء قراءتها فى الجامعات من غير مردود علمى حقيقى وبناء!

رابعا: القلق من حال التعليم الجامعى فى مصر والبلاد العربية والاهتمام الشديد بوجوب تقويم مساره.. وهو متصل بما سبق.. حيث حرفت أجيال الأمة عن السبيل القويم فى الطلب والتحصيل مما أوصلنا إلى هذا المستوى العلمى المتردى من الضعف والضحالة فى جامعاتنا ومدارسنا بل وفى مختلف نواحى حياتنا وقد حذر - رحمه الله - من خطورة استمرار هذا الوضع المخجل ودعا - فى ثنايا كثير مما كتب فى حياته - إلى وجوب المسارعة إلى التصحيح.. ولعل من اللافت أن آخر مقال كتبه (ونشر بعد وفاته فى مجلة الهلال المصرية - يونيو ١٩٩٩) كان فى هذه القضية، وكان عنوانه الرسائل الجامعية وساعة ثم تنقضى!

حيث رصد فيه مظاهر الخلل المعيب الذي شاب الحياة العلمية الأكاديمية، التي يفترض فيها الجد والإتقان.. وفي آخره وجه نداء / وصية إلى أهل العلم بقوله: «فيا زملائنا أعرف أن عندكم علما كثيرا، ولكني أدعوكم أن تخرجوه إلى الناس ولا تضنوا به. واعلموا أن ما تؤجرون عليه من المجلات الغنية وبرامج التليفزيون الخليجية إنما أخذتموه باسم الجامعة الضخم، وبالطيلسان الجامعي الفضفاض.. فأنتم في الأصل معلمون.. فأعطوا الجامعة حقها عليكم.. ثم أعيدوا للرسائل الجامعية بهاءها ووقارها وشرفها. أقول هذا واستغفر الله لي ولكم».. ورحمه الله.. فقد أعذر من أنذر!

وبعد..

فهذه إطلالة سريعة مكثفة على ملامح الرؤية الحضارية في تناول التراث والتعامل معه كما تظهر لدي واحد من أبرز أعلام المعاصرين.. ويبقى أن أقول أن بيان الطناحي في كل ما كتب بيان صاف مصفى، ينحدر من سلالة عربية نقية، ويتدفق عذوبة ورقة - كما وصف هو بيان شيخه الجليل الأستاذ عبدالسلام هارون - وأعتقد أن من الصعب جدا أن يتسلل إلى قارئ الطناحي الملل أو الشعور بصعوبة الكلام - على رغم دقته فيما يعرض من قضايا علمية - إذ أنه يتنقل بسهولة ولطف ما بين الفوائد والطرائف والنكات العلمية.. كل ذلك ببيان عال، وعقل ذكي، وروح خفيفة.

محمود الطناحي في سطور

- أتم حفظ القرآن وتجويده في الثامنة من عمره، وتلقي العلم في الأزهر الشريف وكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.
- عمل عقب تخرجه معيدا بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم خبيرا بمعهد المخطوطات العربية (التابع للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة).
- زاول التدريس بجامعة الملك عبدالعزيز (أم القري الآن) بالسعودية، وجامعتي القاهرة وحلوان.
- اختير خبيرا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وكان مرشحا للعضوية الكاملة بمجمع اللغة العربية قبيل وفاته.
- له أكثر من ٣٥ عملا ما بين تأليف وتحقيق فضلا عن عشرات المقالات والأبحاث التي جمعت مؤخرا في أربعة مجلدات.

التكوين

تشكل وجداني على محاور ثلاثة تجمع بين العلم والتربية الصارمة والاعتدال الإسلامي الحنيف

أحمد الطيب



قد يكون من العسير اصطناع الفصل بين التكوين العلمى للشخص واستعداده النفسى أو الوجدانى ، وكثيرا ما يجد الكاتب نفسه يجوس – على رغم منه – فى قلب سيرته الذاتية وهو يظن أنه يتحدث عن سيرته العلمية .. من هنا فإنى أبدأ باعتذارى للقارئ – الكريم – عما قد يبدو من بين السطور من حديث عن النفس – تصريحا أو تلميحا – ، قد لا يهم القارئ معرفته أو لا يستحق – فى نظره – أن يكون محل رضا وتقدير وأنا ممن يعتقدون أن «الاستعداد» الفطرى حاكم فى أغلب الأحيان على التكوين العقلى للإنسان ومحدد

لنوعيته، لأن هذا الاستعداد إذا ما استدّ على طريقه الطبيعى، ولم تقسره الظروف الطارئة على تغيير جلده فإنه يتدخل تدخلاً حاسماً فى تشكيل هذا التكوين وتحديد هويته ادبيا كان هذا التكوين أو علميا أو فنيا أو خليطا من كل ذلك، على تباين - يقل أو يكثر - فى غلبة هذا العنصر أو ذاك، فى هذا الخليط اللامتجانس .

نتمى إلى أسرة عرفت بالتدين، وعرف لها أهل القرية والقرى المجاورة مرجعيتها فى الدين ، وأيضا فى الأحداث الاجتماعية التى كانت تشغل الناس أيامئذ فقد كان والدى من الشيوخ الذين أتموا تعليمهم فى الأزهر القديم،وكان والده أيضا شيخا أزهريا مهيبا، وكانت الظاهرة الغريبة فى هذه الأسرة هى العزوف التام عن الوظائف الرسمية التى تتاح لأمثالهم ممن تخرجوا فى الأزهر فى ذلك الوقت .. وهكذا لم يشأ الجد بعد أن أنهى فترة المجاورة فى الأزهر، أن يسعى وراء الوظائف العامة، بل حزم كتبه وأمتعته وعاد إلى قريته (القرنة) - على البر الغربى من مدينة الأقصر - مكتفياً بما تدره عليه قطعة الأرض التى يمتلكها ، ومفرغاً نفسه لتعليم الناس وتنويرهم ومساعدتهم على حل مشاكلهم الأسرية والاجتماعية، وملتزما بالعبادة التى لم تكن لتفارقه ليلاً ولا نهاراً ومن الصور المحفورة فى ذاكرتى صورة هذا«الجد» الطاعن فى السن ، وهو محمول إلى المسجد، ومسبحته تلتف حول يده النحيلة المعروقة، والناس يزدحمون من حوله ليسمعوا منه مشورة أو فتوى فى الدين ..

ثم جاء دور «الوالد» فحاول أن يتقدم لامتحان العالمية بعد أن تأهل لها قرابة خمسة عشر عاماً فى حلقات الأزهر الشريف، إلا أن «الجد» أوصد الباب فى وجهه بعبارة حاسمة : {إن تقدمت لامتحان العالمية فأنا غير راض عنك لا فى الدنيا ولا فى الآخرة} ولم يكن أمام الوالد إلا أن يسلك نفس الطريق الذى سلكه الجد.. وقد كان

محاور ثلاثة

تشكل وجدانى فى الطفولة على محاور ثلاثة : محور العلم، الذى كانت تمثله المكتبة والكتب فى حجرة والدى ، وكانت الكعوب المذهبة للكتب المرصوصة من وراء زجاج المكتبة أول منظر جمالى داعب خيالى الصغير ، ومازال منظر الكتب يستوقفنى حتى الآن كلما مررت بالمكتبات أو دور النشر فى أى مكان ... والمحور الثانى هو محور التربية الصارمة، والتى لا مكان فيها للتدليل أو الملاطفة أو الحنان الغامر، وكان فيصل التفرقة بين طفل مقبول وطفل مرفوض من جيلى - هو الأدب واحترام الغير، وكنا نعير إذا خرجنا على الحدود المرسومة، بأن ابن فلان أو علان أكثر منا أدبا وسرعان ما تنهال عليه عبارات الثناء، والدعوات له بالحفظ والحراسة والوقاية من أعين الحاسدين ، وكم كانت هذه المقارنات أليمة على مشاعرنا الغضة وربما بعثت فينا العزم والتصميم

على التفوق على هذا الأنموذج الذى يضربه الأباء والأمهات مثلا لابنائهم ... أما المحور الثالث فهو محور الدين، وهو أهم المحاور وأخطرها على الإطلاق، إذ كان له تأثير بالغ ومزدوج فهو إحساس عاطفي ووجداني، ثم هو قواعد وأسس تضبط التفكير حيثما اتجه ، وكائنا ما كان موضوعه .

وثمة بعد رابع عمق كثيراً من التوجه الدينى فى هذه الأسرة ، وأعنى به : روحانية التصوف ، وما تستلزمه من زهد وتقشف شديدين، وقد أثر هذا الجو فى مشاعرى تأثيرا شديدا ، وأكسبنى منذ الطفولة ميلا إلى البساطة والبسطاء، وتوجساً من زهوة الدنيا ومباهجها ومن حسن حظى أن « التصوف » الذى تفتحت عليه مدارك طفولتى لم يكن تصوفا نظريا يهوم فى اللامعقول، أو من هذا النوع الذى يروج للخوارق والكرامات، أو يعتمد على الدعاوى للتكسب والارتزاق ،بل كان «تصوفا» منضبطاً - بشكل صارم - بأحكام الشريعة شكلا ومضموناً وبرغم أن مكتبة «الوالد» كانت تزخر بكتب التصوف وفى مقدمتها إحياء علوم الدين إلا أن الكتب التى اضطلع بتدريسها للناس فى المسجد لم تتعد كتب الفقة المالكى وكتب الحديث الشريف .. وكنت ألاحظ عليه تحكيم الشريعة فى التصوف وميزانه بها ، وكان يتصدى للدروشة التى تخرج على حدود الشرع، ويصفها بأنها من وحى الشيطان ولما تقدمت بى السنون علمت أن الطريقة الصوفية التى أهتم هو ووالده بنشرها فى ربوع الصعيد تشترط فى شيوخها أن يكونوا من علماء الشريعة، وعرفت أن من شيوخها من كان شيخاً للإسلام كالشيخ الحنفى ويكفى أن الشيخ الدردير - الفقيه المشهور - أحد شيوخها، وهو صاحب المصنفات الفقهية التى تدرس فى الأزهر وفى الجامعات الإسلامية حتى وقتنا هذا .. وقد كانت الضوابط الشرعية بمثابة تصحيح مستمر للسلوك فى هذه الطريقة، بناه على أساس من القرآن والسنة النبوية، وحال بينه وبين الخروج على أوامر الشريعة ونواهيها وقد عاصرت بنفسى أبناء هذه المدرسة فى بساطتهم والتزامهم بالكسب الحلال وتفانيهم فى مساعدة الناس إلى جانب العبادة والذكر وتصفية القلب وتهذيب النفس، ورأيت بنفسى أموراً حدثت على أيدى الصالحين منهم، لا يقصدون اليها، وهى من الغرابة بحيث لا يصدقها من لم يشاهدها، ولكن أنى للعاقل أن يتشكك فى يقين رأته عيناه، وحارت فى تفسيره كل قواعد المنطق التى حصلها فى أروقة المعاهد والجامعات ؟!

ولدت فى منزل بسيط، يتصل به مبنى فقير، يسمى «الساحة»، وهو أشبه بعنبر





كـبـيـر يأوي إليـه الفـقـراء والعـبـاد والمنقطعون، ويلتصق به مسجد متواضع مفروش بالحصير المتخذ من نبات الحلف، وكان ملمس الحصير قاسيا يؤثر فى وجوه المصلين فيخرجون وقد علق الغبار بجباههم ، وارتسمت فيها تعاريج غائرة من أثر السجود على هذا الفراش ولم تكن مهمة الساحة قاصرة على استضافة الغرباء وأبناء السبيل، بل كانت أشبه بساحة قضاء تعقد فيها جلسات الصلح بين العائلات المتخاصمة ، وكان المحكمون - وأغلبهم أميون - يتمتعون بحنكة خاصة ومهارة عالية فى وزن المشكلات وتقييمها، لأن كلمة واحدة غير محسوبة من أحد الفريقين المتخاصمين قد تشعل نيرانا لا تنطفئ إلا بالدماء ...

وعلى مسافة كيلو متر تقريبا من موقع الساحة والمسجد، يطل من الجهة الغربية - ومن بين أحضان جبل عال - معبد حتشبسوت، أو «الدير البحرى» فى شموخ صامت يتحدى الزمن منذ خمسمائة وثلاثة آلاف عام تقريبا وهو معبد جنائزى شيده المهندس «سلموت» (من أبناء أرمنت) للملكة حتشبسوت، وينفرد هذا المعبد بطراز معمارى وحيد من بين سائر المعابد الفرعونية فى طول مصر وعرضها ويقع فى ثلاثة طوابق، والطابق الثالث منحوت فى بطن الجبل على خلاف المعابد الأخرى، فإنها تبنى وتشيد ولا تنحت فى الصخر وكان وقوع المسجد والساحة على رأس الطريق المؤدى للمعبد مغرياً لراكبى الدرجات من السائحين للاستراحة فى الساحة وشرب الماء والشاى والمشاركة فى الطعام البسيط أحيانا ، وبعضهم كان يعود ليلاً ويحضر مجالس الذكر، ومن

د. أحمد الطيب فى شبابه

هؤلاء من دخل الإسلام متأثراً بإيحاءات غامضة انبعثت فى ربوعه من هذا المكان، كما حدثنى أحدهم فيما بعد.

بدايات التكوين العقلى

استطاع بعض أصدقاء والدى أن يقنعه بأن أسلك نظام التعليم العام، وفعلا تمت الترتيبات اللازمة وشراء الزى الخاص بالمدارس، لكن والدى غير رأيه فجأة فى صباح اليوم الذى بدأت فيه الدراسة، وبدل أن أذهب إلى المدرسة ذهب بى إلى مكتب تحفيظ القرآن الكريم. وكان يسمى «الكتاب» ويسمى المحفظ الخطيب لأنه كان يخطب الجمعة وهكذا كان القرآن الكريم هو أول عناصر التكوين العقلى والنفسى فى غالبية أبناء القرى فى ذلك الوقت، حيث يعيش الطفل أغلب يومه مع هذا الكتاب الكريم فالدراسة تبدأ مبكرة مع شروق الشمس، والبساطة الشديدة هى القاعدة أوالطابع السائد، حيث يجلس التلاميذ الصغار على الأرض، بينما يجلس «الخطيب» على «حصيرة» وإلى جواره أدوات العقاب

والتأديب التى لا تتوانى فى التعامل مع أى تلميذ يقصر فى حفظ المقرر، أو يحاول الخروج على لائحة السلوك المتعارف عليها فى «الكتاب» ولا أنسى درس الوصايا الذى كان يتلى علينا فى نهاية اليوم الدراسي قبل الانصراف مباشرة، وأذكر من هذه الوصايا تقبيل يدى الأم والأب ، وأن أقول لهما : نعم حاضر، وأن أخفض صوتى بحضرتهما ، وأن أقرأ «الماضى» - وهو القدر المتراكم الذى تم حفظه من القرآن - وكان علينا أن نذهب بدون إفطار لنبدأ فى حفظ اللوح وتسميعه على الخطيب - وكان الاعتقاد السائد أن الحفظ قبل الإفطار يثبت فى الرأس وينتقش فيه - وبعد التسميع نؤمر بمسح الألواح .وكتابة القدر الجديد الذى يمليه الخطيب، ثم تأتى عملية «التصحيح» وهى عملية مرعبة، لأن الخطأ فى الإملاء يعرض التلميذ للضرب على الظهر أو الأقدام، ومن الملاحظ أن الخطيب لم يكن ليصفع التلاميذ على وجوههم ولعل هذا التقليد كان مقصوداً أو هو أثر للحديث الشريف الذى يأمر بتجنب الوجه فى الضرب للتأديب ، وبعد التصحيح يسمح لنا بالإفطار - ثم يبدأ الحفظ والقراءة والتسميع وتعلم الهجاء وشئ من قواعد الحساب ، ويستمر الحال هكذا إلى ما بعد الظهر فإذا ما عاد التلميذ للمنزل وأكل واستراح قليلاً فعليه أن يبدأ رحلة المساء مع الحفظ، مرة أخرى إلى المغرب وهكذا كانت معايشة القرآن الكريم هى «الهم» اليومي للتلميذ من الصباح الباكر حتى المساء، وعلى مدى سنوات تتراوح بين ٥ ، ٦ سنوات، وهى فترة كافية فى أن تصيغ عقلية التلميذ ونفسيته صياغة خاصة، فلم يكن شعور التلميذ مبرمجاً على أنه يتعامل مع نص عادى، بل كان يتعلم قدسية هذا النص جنبا إلى جنب مع تعلم قواعد حفظه وتلاوته، وهذه القدسية شكلت ما يشبه الخلفية الثابتة لاحترام هذا النص ، والتعامل مع حروفه- كتابة ومحواً - بقواعد وآداب معينة، مثل المحافظة على الماء الممزوج بالحبر، والذى يتكون بسبب محو الألواح، وتجميع هذا الماء فى إناء خاص، وسكبه فى مكان طاهر من الأرض ، وأيضا : وضع المصحف فى كيس من القماش معد بطريقة معينة، والمسارعة بتقبيل القرآن ووضعه على الأعين إذا ما سقط على الأرض بدون قصد ، وحرق ما تآكل من أوراق المصحف ودفنها فى مكان معين من الأرض كل ذلك ألقى فى روع التلميذ بثوابت لا تتزحزح من مشاعر الرهبة الممزوجة بالحب إزاء هذا الكتاب الكريم ... وقد استطاع هذا النمط من التعليم - على فقره ومحدوديته - أن يقوم لسان الطفل منذ نعومة أظفاره فى نطق الكلمات ومخارج الحروف ويكسبه القدرة



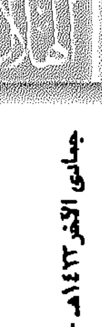
على النطق الصحيح، وهي ميزة تتميز بها الألسن التي حفظت القرآن في الصغير، ونفتقدها في نبرات البعض من المتحدثين والمتحدثات رغم علو منزلتهم العلمية ...

المعهد الديني الابتدائي

أتممت حفظ القرآن الكريم في سن العاشرة ، وحفظه معي في نفس السن بعض أبناء القرية، وظللنا نتدارسه يومياً صباحا ومساءاً استعدادا لدخول المعهد الديني الأزهري في مدينة قنا، وكان هو المعهد الثانوي - الابتدائي الوحيد في مديرتي قنا وأسوان، وتقدمنا لامتحان القبول وفوجئت باستبعاد اسمي من كشوف المقبولين بسبب صغر سني، لأن لائحة الأزهر تشترط سن الحادية عشرة كحد أدنى للقبول . وكان سني يومها عشر سنين وستة أشهر، وكان والدي بالقاهرة في ذلك الوقت ، وفوجئت به يرسل إلى شخصا ليذهب بي إلى مدينة «إسنا» حيث يوجد بها معهد أزهري ابتدائي أهلي، وبما أنه معهد أهلي فهو غير مقيد بلائحة تحديد السن، ومن ثم فمن حقه التجاوز عن هذا الشرط وجاءت هذه الفكرة كطوق نجاة. «وإلا فلا مفر من الانتظار عاما آخر، هذا المعهد أنشأه رجل فاضل من الوجه البحري أثناء عمله واعظا بمدينة إسنا ، «ولاأذكر الآن شيئا من تاريخ هذا العالم الجليل إلا اسمه، وهو : الشيخ عبد الوهاب شارب ، وسمته الوقور واحترام الناس له .. وكانت فكرة والدي أن أحصل على الشهادة الابتدائية من هذا المعهد الأهلي الذي يشرف عليه الأزهر ويباشر امتحاناته من أسئلة وتصحيح إلى آخره، ثم أواصل دراستي بالقسم الثانوي بقنا وقد كان وأذكر أنني سئلت في امتحان القبول بهذا المعهد ما يقرب من عشرين سؤالا في القرآن الكريم عن مواضع مختلفة وسور متفرقة، وكان أعضاء اللجنة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولم تكن بين أيديهم مصاحف ينظرون فيها وهم يمتحنون الطلاب كما يحدث الآن، وقد نجحت في الامتحان الشفهي في القرآن كما نجحت في امتحان التحريري في قواعد الحساب والإملاء والخط وهكذا انتظمت طالبا في المعهد الديني الابتدائي بمدينة إسنا ومعي بعض أبناء القرية وبدأت الدراسة ، لكن لم تمض أسابيع حتى قامت حرب ٥٦ ، وجاء أهلنا ليلتقطونا ويقفلوا بنا راجعين إلى الأقصر التي كانت غارقة في ظلام دامس بسبب الغارات الجوية التي استهدفت مطار المدينة الصغيرة ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عدنا إلى «إسنا» وانخرطنا في سلك الدراسة ، وكانت دراسة قوية ومعقدة ، ولك أن تتصور تلميذاً في هذا السن قادماً من كتاب، وليس في جعبته من المعارف والأفكار غير قواعد الإملاء وعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، ثم يطلب منه أن يتعامل مع «متون» «وشروح» «وحواش» صيغت صياغة فنيا غاية في الدقة والاختصار والإيجاز .

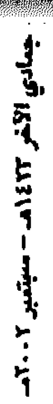
وهكذا أصبحنا وجهاً لوجه مع علوم : الفقة والنحو والصرف، والإملاء ومحفوظات الشعر والنثر والرياضة من حساب وهندسة وجبر، ومادة كان أسمها «الصحة» ولها مقرر وكتاب مستقل ، وأيضا كانت هناك مادة للخط مستقلة، ومادة للإنشاء مستقلة كذلك

ومما يجب تسجيله في هذا المقام أن



استمارة الالتحاق بالمعهد الدينى الابتدائى بها خانة لتحديد المذهب الفقهى الذى سيدرسه الطالب ويلتزم بدراسته فى مرحلتى الابتدائى والثانوى .. ومنا من كان يختار المذهب الحنفى ومن يختار المذهب المالكى ، والميزة الكبرى فى هذا النظام - والتى ربما لاتكون مقصودة الأهداف تربوية - هى أن الطالب الأزهرى منذ الخطوة الأولى فى تعليمه يتعود على اختلاف الآراء ، وتعدد وجهات النظر فى المسالة الواحدة ويتأقلم بهذا الجو ، ويوطن نفسه منذ البداية على مشروعية الرأى الآخر .. فقد كان الطلاب الأحناف والمالكية يعيشون فى حجرة واحدة ويصلى بعضهم خلف بعض، وصحيح أن البعض كان يتعصب للرأى الحنفى ويتعصب البعض الآخر للرأى المالكى لكنه كان تعصبا دراسيا ولم يكن عمليا ابدا فلم يحدث أن انتقل من دائرة الدراسة إلى دائرة الواقع ، ولم يحدث أبدا أن نفى أحدنا الآخر وصادر رأيه أو اتهمه بالمروق من الدين، رغم أن التعارض كان يرد على محل واحد ومسالة واحدة، ولكن لأننا علمنا منذ اليوم الأول أن اختلاف الأئمة رحمة، وتبرهن أمامنا علمياً وعملياً تعدد المذاهب والآراء، وأنها كلها حق وكلها مشروع، فقد سقطت منذ الدروس الأولى أقنعة التعصب والتفرقة والتشرذم وماتت الحساسيات المذهبية التى تبعثها المناهج الأحادية النظرة ، وتغذيها الدراسات الموجهة التى تهدف إلى تسويق مذهب معين وترويجه على حساب المذاهب الأخرى وفى يقينى أن الذى لايدرس وفقاً لهذا المنهج المفتوح يصعب عليه جدا أكتشاف وسطية الإسلام عقيدة وشريعة واختلافاً وأن ما نعانيه الآن من رفض الآخر ونفيه ودمغه بالزندقة والكفر ليس إلا ثمرة مرة أثمرها غياب هذا المنهج التربوى فى دراسة الإسلام فى كثير من الجامعات الإسلامية وهذا هو السر فى أنك لاتجد تطرفا بين خريجى الأزهر وهو السر نفسه فى أن المتطرفين يتهمون علماء الأزهر بالتفريط والتهاون، بينهما يتهمه الآخرون بالتشدد والانغلاق وحدث أن رسبت فى السنة الثالثة الابتدائية فى مادتى: النحو والحساب ، وكان على أن ادخل امتحان الدور الثانى قبيل نهاية الإجازة الصيفية، وقد عانيت كثراً من معاملة الأسرة ونظراتها المزرية بسبب هذا الإخفاق .. وأذكر أن الكتاب المقرر كان نصاً قديما معقداً، عنوانه «قطر الندى وبل الصدى لابن هشام» وهو عبارة عن متن وشرح ، ولم أنجح فى فهمه أو استيعابه طيلة العام الدراسى، وفوجئت بوالدى يلزمنى بحفظ المقرر من هذا الكتاب ، وتم فعلاً حفظه عن ظهر قلب فلما شرح المقرر وجدته سهلاً وأنطبع فى ذهنى، ورب ضارة





نافعة، فما أذكر أنني حصلت على أقل من الدرجة النهائية في مادتي : النحو والصرف بعد ذلك وبعد أن نجحت في الملحق وانتقلت للسنة الرابعة الابتدائية أحببت مادة النحو والصرف، وكنت من ضمن من يثني عليهم الأستاذ في الفصل، رغم قسوته في تعليم هذه المادة، فقد كان يلزم الطلاب بقراءة النص بعد فراغه من الشرح من النطق بتشكيل كل كلمة، وعدم اللجوء إلى التسكين حتى في الوقف ومن يخطئ يدفع قرشا إن كان من أهل اليسار، أو يضرب على يديه بعصا رفيعة ضربتين عن كل خطأ إن كان من الفقراء أذكر أيضا أن من ضمن المقررات في السنة الرابعة - وكانت تسمى الشهادة الابتدائية حفظ مائة بيت من ألفية ابن مالك ، ويمتحن فيها الطالب شفهياً في آخر العام، كتجهيز لدراستها في السنة الأولى من القسم الثانوي ..

المعهد الثانوي

فرغنا من امتحان الشهادة الابتدائية ، وظهرت النتيجة ، ونجح طالبان فقط وكنت أحدهما ورسب الباقون وكان عددنا ٢٥ طالبا فقط وانتقلنا إلى قنا لمواصلة الدراسة بالقسم الثانوي وكان ذلك في بداية ١٩٦١ ، وفي هذه المرحلة تفتحت أذهاننا على دراسات أوسع ولقاءات ثقافية أسبوعية كان لها أكبر الأثر في تشكيل عقولنا وأفكارنا فلأول مرة يسمح لنا بحضور الندوات التي كانت تعقد بقصر الثقافة ، ونجلس على كراسي مع جمهور المثقفين ، ويحاضر فينا أستاذ «أفندي» وتصافح عقولنا أفكار جديده .لاعهد لنا بها من قبل في الأدب والسياسة والاجتماع، وكان بعض من شيوخ المعهد يحضرون ويحاضرون أيضا، وكنا نعجب من شيوخنا الذين يفاجئوننا بمحاضرات لا تدور على متون ولا شرح ، يرسلون فيها القول طليقا حراً سهلاً فنعلم أن آفاق العلم واسعة وأنها غير منحصرة في علومنا التي نكب عليها إكبابا طويلا ولمعت في عقولنا لفظة الثقافة وكان لها بريق ورواء خاص، وفي قصر الثقافة بقنا تفتحت عيوننا على الكتب الأدبية والروايات ودواوين الشعر وكتب التراث والتاريخ وبدأت بكتب المنفلوطي، عملاً بنصيحة تشبه الوصفة الثابتة لكل شاد أو بادئ في تذوق الأدب، وتأثرت تأثرا بالغا بكتابة الرائع : العبرات، وألقى على مشاعري ظلالا كئيبة حزينة لا أبالغ لو قلت إنها مازالت - حتى الآن - تراوح وجداني بين الحين والحين ولغير ما علة ولا سبب معروف وقد اسلمتني هذه البداية إلى البحث عن هذا النوع من الأدب الحزين الباكي ودلني أستاذ الأدب على كتاب الرافعي المساكين، وكان هذا الكتاب نافذة على أدب الرافعي، ولم أستطع الفكاك من بلاغته الاسرة، واشتريت في هذه الفترة رغم ضيق ذات يدي - كتاب «وحي القلم» وهو الكتاب الذي وصفه أمير البيان العربي: شكيب أرسلان بقوله «بيان كان تنزيل من التنزيل «أو» قبس من نور الذكر الحكيم وما إن طالعت المقالة الأولى، حتى هالني عقل الرافعي وخياله وفلسفته وعالمه اللامحدود ، والذي تصطخب فيه القوة بالرقة والجمال بالبؤس واليقين بالحيرة والحب بالكبرياء الخ هذه المتضادات التي رسمتها ريشة الرافعي، وبلغت قمة الصراع في مقالته عن الراقصة التي

امتهنت الرقص وفى الوقت نفسه حافظت على نقائها وصفائها، فكانت إذا فرغت وخلت لنفسها توضأت وصلت، وكانت - على حد عبارته - كأنها تخلع روحا وتلبس أخرى، وأذكر أن عنوان هذا المقال هو : «فى اللهيب ولا تحترق » ولم ينحصر .إعجابى فى كتاب وحى القلم، بل تعداه إلى كتبه الأخرى : «رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب »و«حديث القمر» ثم كتابه الخالد «تحت راية القرآن » وهو الكتاب الذى دافع فيه عن القرآن الكريم بأسلوب فلسفى أدبى رغم القسوة فى الرد على الشبهات التى رددها الدكتور طه حسين فى موضوع «الشعر الجاهلى» وأستطيع القول بأن مؤلفات مصطفى صادق الرافعى كانت بالنسبة لى - خاصة : وحى القلم - أول اتصال حقيقى بعالم الأدب والأدباء ، وكان أدبه ومنهجة بمثابة بوصلة ظلت تضبط توجهاتى لفترة طويلة حتى استقر عندى أن الأنموذج الأمثل والمحترم للأديب هو الأنموذج الذى يعى تراثة ويفهمه أولا، لينطلق منه إلى المعاصرة والحداثة بعد ذلك، وما أذكر أنى خرجت كثيراً عن مؤلفات الرافعى فى المرحلة الثانوية، اللهم إلا إلى الصحف والمجلات، والمؤلفات الاشتراكية التى كانت فى أوج توهجها فى تلك الفترة، وكنا نقرأ يوميات العقاد فى أخبار الأربعاء، ونتهيب كلامه، ونعتقد أنه يكتب للأساتذة لا للطلاب، وذلك من كثرة ما سمعنا عن فلسفته المعمقة وكتبه الصعبة وكنت فى هذه الفترة أقرأ للأستاذ التابعى والأستاذ محمد زكى عبد القادر، وكنا نترقب مجلة الرسالة فى إصدارها الثانى لنستمتع بمقالات العلامة الأستاذ شاكر فى النقد والأدب والتراث، وكانت هناك سلسلة تصدر كل أسبوعين مع باعة الجرائد، عبارة عن كتاب باللغة الإنجليزية ومعه الترجمة العربية، وقد ساعدتنا هذه سلسلة على التعمق قليلا فى اللغة الإنجليزية، وكانت الإنجليزية تدرس فى القسم الثانوى دراسة حقيقة وجادة على مدى خمس سنوات واستطاع الأستاذ أن يحلل لنا قصة «سجين زندا» واستوعبناها سطراً سطراً، وأذكر أننى قرأت فى إحدى الإجازات فصولاً كاملة من رواية جين إير للأديبة الإنجليزية الشهيرة شارلوت برونتى وأظن - إن لم تخنى الذاكرة - أنها الرواية الوحيدة التى كتبتها هذه للأديبة، وأنها صورت فيها حياتها وآلامها /.. وكانت هذه القراءات هى «المتعة » الوحيدة فى الاجازات الصيفية شديدة الحر أما عن الدراسة فكانت عبئا ثقيلا لا يطاق، وكان حظى أن ادرس الثانوية الأزهرية بعد قرار التطوير مباشرة، وبمقتضاه انقسمت الثانوية الأزهرية إلى شعبتين : أدبى وعملى تبدآن من السنة الثالثة الثانوية وتنتهيان بالسنة



الخامسة، أما السنة الأولى والثانية فكانتا أشبه بشعبة عامة، ولك أن نتصور عدد المواد التى كان يدرسها الطالب الأزهرى فى هذه الحقبة، حيث كان عليه أن يدرس كل ما يدرسه زميله فى الثانوية العامة مادة مادة إضافة إلى المنهج الأزهرى كاملا كان يومنا الدراسى طويلا، وكان التدريس حقيقيا والامتحانات جادة ومخيفة ، وكان الأساتذة نماذج يقتدى بها فى العلم والخلق، ولم تكن بدعة الدروس الخصوصية قد ظهرت للوجود، وكان الطالب يقوم ويقاس بمقدار ما يقرا وما يحصل، حتى لو كانت ثيابه ممزقة، وكنا نسخر من الطالب الثرى إذا كان جاهلا وكان هو يستشعر ذلك ، ويدارى مظاهر الثراء ، ويتواضع، عله يعوض هذا النقص.

وفى هذه الفترة أعيد تأسيس التكوين الفكرى فى علومنا الأزهرية بصورة موسعة فكان الفقة يدرس يومياً - ما عدا الخميس - طيلة السنوات الخمس ، ودرسنا فيه كتابا مطولاً هو : الشرح الصغير فى الفقه المالكى، وكذلك فى مواد : التفسير والحديث والنحو والصرف والأدب والبلاغة والعروض وصناعة الإنشاء وقد اخترت القسم العلمى ، ولكن والدى أصر على دخول القسم الأدبى، فلم يكن يرضيه أن أكون مهندسا أو طبيبا أو طياراً، بل كان هاجسه الدائم أن أكون - يوما ما - من علماء الأزهر، وقد حاولت مع شيخ المعهد يومها أن يتركنى فى القسم العلمى فأصر على تحويلى للقسم الأدبى تحقيقا لرغبة والدى وكانا صديقين .. ، ورغم أنى كنت أدرس فى حقل مفروض علىَّ فقد وفقنى الله للمضى قدما فى هذا الطريق وكان ترتيبى أما الأول أو الثانى وحصلت على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٦٥، وبدأت مرحلة جديدة .

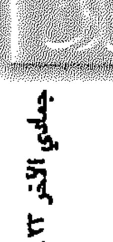
وقد أهلنى المجموع الذى حصلت عليه بالالتحاق بكليات عديدة، لكن والدى لم يرض، ولم يطب خاطره إلا حين استقر بى المقام فى كلية أصول الدين، وكنت حريصاً على رضاه، لأنه كان بالنسبة لى والداً وأستاذاً، درست على يديه «الفقه المالكى» وكان لا يمل من الغوص فى قضاياه وأحكامه، وقد أفدت منه الكثير فى هذا المجال، وفى كلية أصول الدين انفتحت أمامنا آفاق علمية سرعان ما استهوتنى وتجاوبت معها، ولدرجة أنى حمدت الله على هذا «الاختيار» الذى اضطررت اليه اضطراراً فقد جلست فى هذه الكلية أمام أساتذة كبار وشيوخ أجلاء، منهم من درس فى أوروبا ويحمل لقب دكتور ومنهم من أنضجته العلوم والدراسة التقليدية فإذا تكلم فى مادته فلا أقل من أن تبهرك الدقة والإحاطة وعمق التنظير، ومرة أخرى يترسخ فى وجداننا الرأى والرأى الآخر حين يخرج الأستاذ خروجا صريحاً أحيانا على ما يقرره القدماء فى هذه المسألة أو تلك

وقد تعجب لو قلت إن لك هذه المساجلة أو التلاقح لم يختص بحقل دون حقل آخر من مقررات أصول الدين ، وكان أبرز هذه الحقول هو ميدان الفقه والأصول، ثم الفلسفة، ثم علم الكلام وكلية أصول الدين هى الكلية الوحيدة التى تجمع فى منهجها

بين علوم المعقول والمنقول فمن علوم المعقول : الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وأصول الفقة والأخلاق ، ومن علوم المنقول : التفسير وعلوم القرآن والحديث وعلوم الحديث والسيرة .. وهذا بالاضافة إلى علوم الاجتماع والتاريخ، وبعض مواد أخرى اقتضتها طبيعة المرحلة آنذاك مثل : القومية العربية وما إليها وبعض المواد كان يسند تدريسها لأساتذة من خارج الأزهر ، مثل الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره الذى درس لنا الأحوال الشخصية فى عام ، وأصول الفقة فى عام تال، ومثل د. الخشاب الذى درس لنا علم الاجتماع على مدى عامين من الشخصيات العلمية التى تأثرت بها فى كلية أصول الدين الشيخ أبو زهرة والدكتور عبد الحليم محمود الذى كنا نهابه ونحبه فى آن، والدكتور سليمان دنيا الذى استطاع أن يجمع بين عقل الفليسوف وقلب الصوفى ، وهما أمران يعسر الجمع بينهما بحيث يتناغمان ولا يتنافران وكذلك تأثرت بالدكتور غلاب تأثراً بالغاً وهو ممن تلقى دراساته العليا فى باريس مثل د. عبد الحليم محمود و د . عبد الفتاح عفيفى، أما د. سليمان فقد تخرج من لندن .

تخرجت فى كلية أصول الدين عام ١٩٦٩ وجاء ترتيبى الأول فى قسم العقيدة والفلسفة، وكنت أظن أنه سيتم تكليفى معيداً، إلا أن الكلية تباطأت ، وأوهمنى البعض بأن الكلية ليست فى حاجة إلى معيدين، وعلىّ أن أشق طريقى فى الوظائف الأخرى، ومن المفارقات العجيبة أن بعض المسئولين فى إدارة الكلية نبهنى إلى أن تدبيراً يجرى بالكلية لاستبعادى من القائمة، وأن النية تتجة إلى تكليف الثانى والثالث، لكن لم يمض شهر على تخرجى حتى صدر قرار وزير الأزهر بتكليفى معيداً بكلية أصول الدين مع زملاء آخرين بدأنا الدراسات العليا واستبدت بى الرغبة فى تعلم اللغة الفرنسية رغم نصيحة أصدقائى بدراسة اللغة الانجليزية التى أتيح لى أن أتعرف على شئ منها فى القسم الثانوى، ولكن رغبتى فى تعلم الفرنسية لم تكن لتقاوم، فقد كان الأنموذج الذى يمثله الأساتذة المتخرجون فى السوربون فى كلية أصول الدين مغرياً بالإقتداء وكانت كتب الدكتور طه حسين التى انفتحنا عليها تدفع إلى ذلك دفعا، خاصة ما صوره عن باريس فى قصته «أديب» ، «صوت باريس» وتصادف أن أكتشفت – فى هذه الفترة – مع بعض زملائى «الدكاترة زكى مبارك »واستولى على إعجابنا فترة ليست بالقصيرة، وأذكر أننى اشتريت من كتبه : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى بجزئيه ، وليلى المريضة فى العراق ونكريات باريس والمدائح النبوية وعبقرية الشريف الرضى مرة واحدة، وأثر ذلك





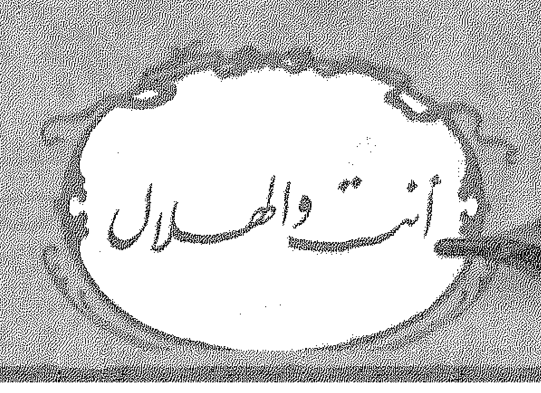
على الميزانية المحدودة .. وبدأت تعلم اللغة الفرنسية فى المركز الثقافى الفرنسى بالمنيرة إلى جوار الدراسات العليا، وواصلت دراستى فيه حتى انتهيت من الرحلة الأولى بعد أربع سنوات تقريبا ثم سافرت إلى باريس أملا فى الحصول على الدكتوراه من السوربون، ولكنى مرضت ، وتقررت عودتى وبقيت حتى أنهيت رسالة الدكتورة فى كلية أصول الدين، ثم سافرت إلى باريس مرة ثانية ولفترة عام تقريبا درست فيها اللغة الفرنسية والتقيت بالأساتذة المتخصصين فى الفقة الإسلامى وفى علم الكلام وهالنى أن وجدت كثيرا منهم على معرفة دقيقة بعلومنا وهناك رأيت كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا – وهو كتاب غاية فى الصعوبة – مترجما إلى اللغة الفرنسية ترجمته الآنسة جواشون، وهى متخصصة فى ابن سينا، وكانت رسالتها – على ما أذكر – بعنوان «الفرق بين الماهية والوجود» وهى نقطة بالغة الصعوبة والخصوية فى فلسفة الشيخ الرئيس ... ورأيت فى كلية الحقوق اهتماما كبيرا بالفقه والشريعة، والتقيت بالأستاذ «جيماريه» الذى قال : إنه ثانى اثنين فى علم الكلام الإسلامى «على مستوى العالم» وأهدانى رسالته للدكتوراه وهى بعنوان «نظرية خلق الأفعال» ولما قرأتها عجبت من انتماء الأستاذ للمدرسة الأشعرية ودفاعه المستميت عن عمق المذهب الأشعرى واتساقه المنطقى، واستطاع هذا الأستاذ .أن يكتشف نصوصا للأشعرى لم نكن لنعرفها وحققها ونشرها .

وقد أفدت من رحلتى هذه شيئا مهما، هو أنها لفتت نظرى إلى قيمة تراثنا الإسلامى وأهميته، وأن الهجوم الكاسح على هذا التراث ليس له من سبب إلا تجاهل قيمته أولا ثم التخلص منه – جملة وتفصيلاً – أو إهالة التراب عليه إن أمكن

وعدت من باريس سنة ١٩٧٧، وأنا أكثر حرصا على التزود من التراث والجمع بينه وبين المعاصرة، وقد أفادتنى أعمال عملاق الأدب العربى : العقاد، وتعلمت منها قيمة هذا التراث وأهميته – بعد تهذيبه – فى إشكاليات الحداثة وحضارة العولمة، ولم ينفرد العقاد بهذه الخاصية، بل كان هاجس المواءمة – مع المحافظة على الهوية – هو الهم الذى شغل معظم أدباء ومفكرى هذه الفترة، وهى فترة تشبه – كثيرا – ما نحن فيه الآن فيه من مواجهة للعولمة ، وربما كان أدباء تلك الفترة أكثر جدية فى تقدير الأخطار التى تتربص بالأمة.. وما إسلاميات العقاد وطه حسين والحكيم وهيكل وأضرابهم إلا خطة عملية محكمة كانت أشبه بمصدات للرياح العاتية التى حاولت قلع الشجرة من جذورها .. ونحن الآن فى أمس الحاجة إلى عمل من هذا القبيل حتى لاتغرق السفينة وتستقر فى القاع... وأمتنا تنتظر بعث أمثال هؤلاء فى أدبائها وكتابها الآن، وهم قادرون – إن أرادوا – أن يفوتوا الفرصة على الاستعمار الجديد كما فوتها العقاد وأصحابه على الاستعمار القديم .

إن هذا القرآن الذى حفظ الأمة من أن تتماع فى غيرها، هو نفسه، ما سيحفظها الآن – ومستقبلا – كلما هبت الأعاصير وتلبد الأفق بغيوم سوداء كالحة ... ■





القوة المعادية للثورة ودورها فى إعدام مصطفى خميس والبقري

كتبت الاستاذة صافى ناز كاظم فى عدد يوليو مقالا تناولت فيه إعدام مصطفى خميس ومحمد حسن البقرى فى الأحداث التى وقعت فى كفر الدوار فى أغسطس عام ١٩٥٢..

وتظهر من حين لآخر كتابات بعض المشككين من الكتاب فى ثورة ٢٣ يوليو الخالدة بأنها كانت ضد الطبقة العاملة المصرية منذ بدايتها مستشهدين فى ذلك بأن الثورة قبل أقل من شهر من قيامها قامت بإعدام مصطفى خميس والبقرى.

وعمال شركة مصر كفر الدوار للغزل والنسيج كان لهم بعض المطالب العمالية قبل قيام الثورة .. ولم تستجب الإدارة وعندما قامت الثورة بدأ العمال يطالبون بإبعاد عناصر الإدارة العليا بالشركة من النظام القديم «حسين سرى» و«حافظ عفيفى» و«إلياس اندراوس» .. وقد بدأت إدارة الشركة تعد نفسها لوضع خطط لتسوية حركة العمال وبدأت الأحداث الحقيقية فى الساعة العاشرة من مساء ١٢ أغسطس ١٩٥٢ عندما جاءت الوردية الثانية، واجتمع عمال الورديتين وعددهم أكثر من خمسة آلاف عامل، هتفوا ضد الإدارة الموالية للعهد السابق، واضعين فى الاعتبار أن الثورة التى أطاحت بالملك سوف تنصفهم ولم يدروا أن الأسماء الكبيرة فى إدارة الشركة كانت لاتزال قادرة على التآمر، وعلى تدبير أمور فى الخفاء ضد الثورة يكون العمال كبش فدائها.

بعد ذلك بدأت عمليات حرق وإتلاف المركز الرئيسى لإدارة الشركة وسياراتها وظلت المصانع وآلاتها سليمة .. وكان الحريق والتخريب بأيدى صبية دفعتهم الأيدى التى من مصلحتها إحداث هذا الدمار لتنسب إلى حركة العمال.

وفى الساعة الثالثة من فجر يوم ٢٣ أغسطس تحركت جماعات متفرقة من المتظاهرين أغلبهم من الصبية والأهالى، وحدثت مصادمات بينهم وبين الأجهزة الموجودة التى كان ولاؤها للنظام السابق، وهنا حدثت المأساة وتم القبض على «مصطفى خميس» و«محمد حسن البقرى» وألحقت بهما تهمة زعامة الحركة وتدبيرها.

محمد حسين

عش ألف عام

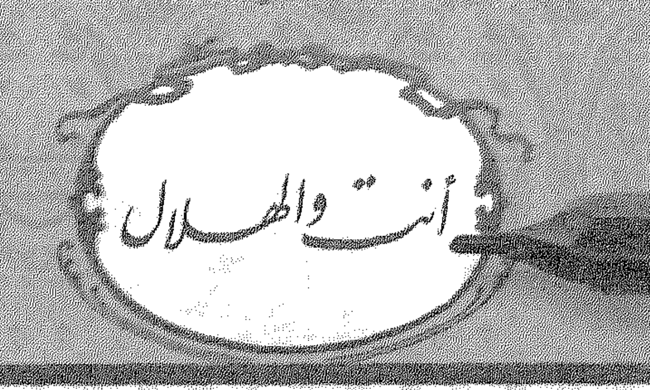
بمناسبة مرور إحدي عشر حقبة علي صدور العدد الأول من الهلال سبتمبر ١٨٩٢.

ساد الظلام بأرض الشرق فى زمن ..
فيه الجهالة سارت فى حواشينا
ما للخرافة باتت فى مسامعنا ..
كأنها الحق .. يمضى حكمه فينا
والزيف ينشر فى الأجواء شرعته..
والناس فى ظمأ من سوف يسقينا
لم يبق للعلم من أرض يلوذ بها..
لم يبق للشعر من صوت ينادينا
أين المؤرخ؟ .. أين النقد والأدب ..
بل أين من فسروا القرآن والدينا

***

تطلع الجمع نحو الشرق فى شغف..
لعل فيها ملاذا للمحبينا
كادت عيون الورى تغشى لمولده ..
هذا «الهلال» فذا أقصى أمانينا
سقام دهر مضى فى الروح مسكنها ..
فى راحتيه رحيق سوف يشفيها
ظلام ليل قضى - ما الله مرجعه ..
فالنور أمسى أنيسا فى ليالينا
أحيك يأس ماضينا منقحة ..
كأنهن زهورا فى روابينا
صا غ الحداثة منهاجا وتجربة ..
فأينع الغرس فى أرجاء وادينا
عش ألف عام أنيسا فى نوادينا ...
عش ألف عام تسامرنا وترويينا

مهندس محمد محمد أبو خشبة - دسوق



الهلال وثورة يوليو

أحسست بالسعادة وأنا أقرأ العدد التذكارى الرائع والبديع من الهلال بمناسبة مرور خمسين عاما على ثورة يوليو، التى غيرت وجه التاريخ، ورسمت ملامحه، وحققت منجزات ، وحددت أهدافا عزيزة المنال.

إنني لا أبالغ إذا قلت إن هذه الثورة كانت بمثابة النبراس الذى أضاء الطريق لعدد من الدول التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار وتعانى من سطوته وجبروته إلى أن تحررت ونفضت عنها غبار الذلة والمهانة، وحققت استقلالها، وحافظت على مواردها الطبيعية وعلى كرامتها.

ستظل هذه الثورة الشامخة المضيئة على خد الزمان.

إن عدد الهلال التذكارى أعاد لنا خاصة الأجيال الجديدة أن نتعرف على الدور التاريخى والمهم للضباط الأحرار ولجمال عبدالناصر .. فتحية لهذا الجهد. وخير شاهد على أن الهلال كانت سباقة فى مناسبة اليوبيل الذهبى لثورة يوليو بنفاد الطبعة الأولى والثانية.

محمد المصلي - المنصورة

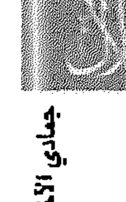
الهلال: نشكر القاريء العزيز وكل القراء الذين انهالت رسائلهم تنوه بالجهد الكبير والتميز تحريرا وإخراجا فى عدد يوليو.

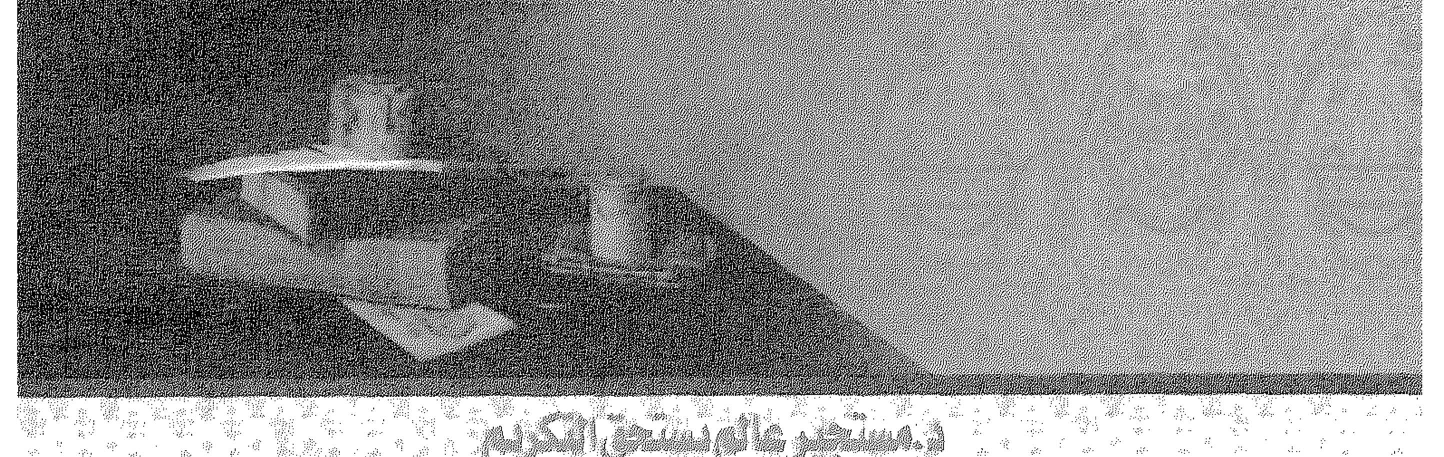
عولمة

يمر اليوم بعد اليوم ...
يأكل جسرى النحر
ويبقى الصمت تبقى الريح ...
يبقى الظلم والقهر
فأنت - تقول أغنية - ...
حياتك للعلا أسر
فليس الشعر باب الشمس ...
يفتح عينه العطر
وما لتجارة الأحلام ...
فى أيامنا قدر
فعصر داس فيه اللب ...
تحت حذائه القشر

وأقلام العطاء الحر ...
فى أيدى الوفا جمرٍ
وأحلام الشباب ترفُ ...
يحرق ريشها الغدر
وفى أرض النبوة فى ...
فلسطين الدما بحر
ويبقى العالم الحر ...
الذى يبغى فيغتر
ويبقى الحق للطغيان ...
يبقى للهوى النصر

شعر : عبدالرحيم الماسخ -سوهاج





د. مستجير عالم يستحق التكريم

حسنا فعلت الهلال بأن جعلت صورة غلافها لعدد أغسطس للعالم الكبير الدكتور أحمد مستجير، فهو يستحق ذلك وأكثر ليكون قدوة للشباب الجاد.

ود. مستجير هو العميد السابق بكلية الزراعة جامعة القاهرة وعضو المجمع اللغوى والذى قدم للمكتبة العربية ٤ كتب فى التحسين الوراثى للحيوان، و٣٠ كتابا مترجما فى مختلف جوانب العلوم والفلسفة و١٢ كتابا فى شئون الثقافة العلمية بمصر فى مختلف فروع العلوم والآداب.

من أقواله المأثورة للشباب «أحبوا الفلاح والنجاح يحبكم فالمهم هو الحب، فأنت لاتستطيع أن تكره شخصا يحبك».

ومن بين الاساتذة الذين تأثر بهم البريطاني الدكتور آلان روبرتربنسون الذى رأى فيه العالم الحقيقى المتواضع غزير المعلومات، بالاضافة إلى الذكاء المفرط.

وهو يطالب دائما بتطوير حقيقى للجامعات، والذى يبدأ أولا وأخيرا بتطوير وضع الاستاذ العلمي فالمادي ، ومساعدته فى توفير الامكانيات لمواصلة البحث العلمى ، تطوير المعامل وتوفير المراجع العلمية ووجود المكتبة العلمية الملائمة فى الجامعات والكليات المتخصصة وألا تغلب الجوانب الإدارية على الجوانب البحثية والعلمية.

فرج مجاهد عبدالوهاب

شربين - دقهلية

القوة التى يحتاج إليها العرب

ماهى القوة التى تنقص العرب والتى نحتاجها؟.. هذا هو السؤال الذى يطرحه اليوم العديد من المفكرين العرب .. فالاتحاديون لهم رأى والوحدويون لهم رأى وأيضا القوميون ورجال الدين والمستنيرين كل له رأيه .. ابتداء من مقولة اتحدوا الآن أو احفروا قبوركم! أو المطالبة بالقومية العربية والتى تعنى الاتحاد والوحدة معا، أو أن القوة التى تلزم العرب ، هى قوة الدين وقوة العقيدة.

ولكن أحد المفكرين يتساءل .. لماذا تنجح الرأسمالية فى الغرب ولاتنجح فى الشرق - والسبب ببساطة هو حضور القرار الاقتصادى السليم عندهم وغيبته عندنا.

وفى رأيى أن من بين الأسس التى تصلح لدولنا العربية لكى تحقق كل آمالها وأحلامها.

- فتح الحدود بين جميع الدول العربية .



– لاقيود من أى نوع على التنمية الاقتصادية والاستثمار.

– لاتقنين فى العلاقات الاقتصادية الرئيسية كالعلاقة بين المنتج والمستهلك، وبين المالك والمستأجر وبين العامل وصاحب العمل فجميع هذه الأطراف يكون لها هيئاتها المتخصصة التى تخدمها وترعى مصالحها والتى تدعمها الحكومات بالمال فقط.

– الشروع فى انجاز مشروع عملة واحدة لكل الدول العربية، وهو المشروع الذى بدأ الشروع فى تنفيذه على مستوى دول الخليج

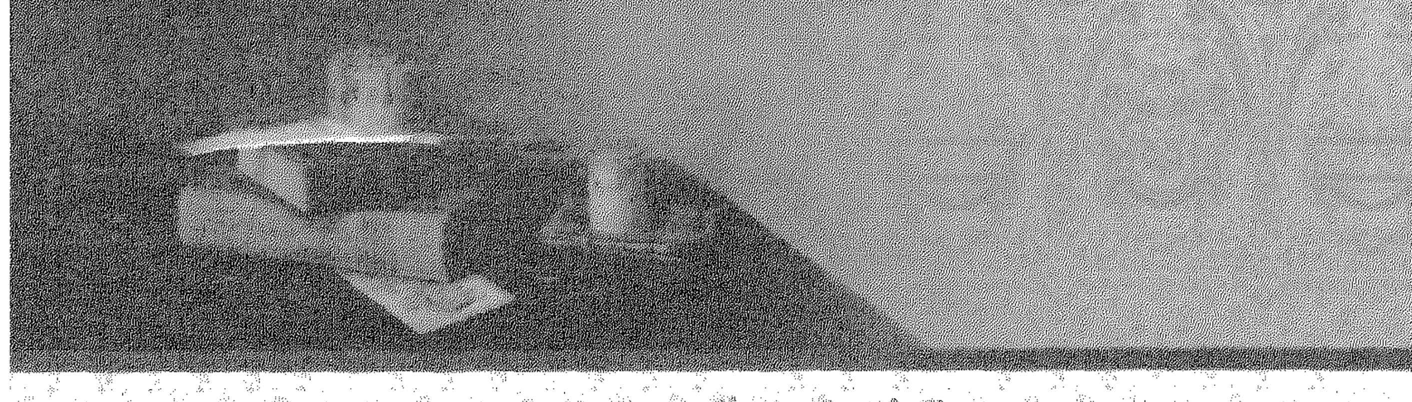
مهندس أمين محمود العقاد - الزقازيق

ياقدس

ياقدس لم يزل صوتك
الجسور يسكن آذاننا
ولم تزل صورتك العربية
تهوى رؤيتها عيوننا
ياقدس أنت العطر
الباقى من أجدادنا
فلن نستسلم لهم مهما
عانت منهم أجسادنا
أنت الأمل الأخضر الذى
يكافح من أجله صغارنا
فلن نتوقف عن نداء الحق
وإن خلعوا ألسنتنا
أنت ياقدس ماضينا
يومنا هذا ومستقبلنا
إليك ياقدس فى كل وقت
تتوجه بالصلاة جباهنا
وفى كل ساعة تدعوا
لك بالنصر أفئدتنا
ياقدس ... ياقدس
يا طاهرة ... يامجدنا

رمضان إبراهيم بشير - قنا - أبو دياب شرق





تحذيرات علمائنا وعدم الاهتمام

شهدنا فى الأونة الأخيرة الهلع نتيجة مايصيب الناس من تناول البطاطس المقلية..
وكان عدد من العلماء والأطباء المصريين قد حذروا كثيرا من هذا الأمر، ولكن أحدا لم يستمع إلى هذا النصح.
وقد أجريت بالمعهد العالى للصحة العامة التابع لجامعة الاسكندرية تجارب عديدة على البطاطس، وثبت وجود علاقة مؤكدة بين مادة الأكريلاميد التى تظهر فى البطاطس عند قليها فى درجة حرارة عالية والإصابة بمرض السرطان.
وبدأت التحذيرات العالمية، عندما توصل علماء من جامعة ستوكهولم فى السويد لهذه النتائج وخطورتها على الأطفال، خاصة وأن قلى البطاطس يكون فى درجة ٢٥٠ مئوية ويتسبب ذلك فى ظهور مادة الأكريلاميد.
ولابد على شركات ومطاعم الوجبات السريعة أن تغير من أسلوبها حتى يتجنب الناس مثل هذه الأمراض الخطيرة.
ما أحب أن أؤكد عليه أن هذه التحذيرات نبه إليها العلماء والأطباء عندنا ولم يهتم أحد بكلامهم!

د.جمال علي العطار
الاسكندرية - كامب شيزار

رحيل أبرز فلاسفة مصر

فقدت مصر واحدا من أهم فلاسفتها ومفكريها هو الدكتور عبدالرحمن بدوى، من مواليد قرية شرباص بفارسكور بالدقهلية (دمياط حاليا) وقد ولد فى ١٩١٧/٢/٤، حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٣٨ وكان ترتيبه الأول ، وحصل على الماجستير تحت إشراف لالاند وكراريه ١٩٤١ وعين استاذا مساعدا ١٩٤٩ وأستاذ عام ١٩٥٩، وظل رئيسا لقسم الفلسفة بآداب عين شمس لمدة ٢١ عاما.
وقد تنقل فى بلاد كثيرة : بيروت وبرن وعمل أستاذا بالسربون ثم ليبيا وطهران والكويت وظل بها أكثر من عشرين عاما وغادرها إلى باريس .. وطوال مشواره العلمى كان يجيد ست لغات وألف ١٥٠ كتابا من بينها «الزمان الوجودى، هموم الشباب دراسات فى الفلسفة الوجودية».

أبو رحاب الخولى

أنت والهلال

ملاحظات تحتاج الى تصحيح؟

من خلال قراءاتى فى الكتاب المقدس (العهد القديم خاصة) لاحظت عصبية عرقية عبرانية صهيونية، بل اهانات متكررة لأهل الشام غير اليهود، وخاصة للفلسطينيين وتتمركز هذه السياقات ضمن الأسفار التاريخية.

ومن ذلك كلام إن بنى اسرائيل المزعوم لهم ضمن سفر القضاه ١ : «لقد أخرجتكم من مصر وجئت بكم إلى الأرض التى حلفت أن أهبها لآبائكم، وقلت لا أنقض عهدى معكم إلى الأبد، وأمرتكم ألا تقطعوا عهدا مع أهل هذه الأرض، وأن تهدموا مذابحهم»..

إننى أسأل رجال الدين المسيحي .. هل يعقل أن تكون مثل هذه النصوص العنصرية كلام الله .. وهل يمكن أن تتلى هذه النصوص فى كنائس فلسطين والأردن وسوريا ولبنان ومصر؟!.

خليفة بن حمده بن كحلاء - تونس

نجيب الذي أحبه الناس

شدتنى تحية اللواء محمد نجيب لمجلتنا المحبوبه الهلال، وهي فخر لنا، وقرأت للدكتور عبدالقادر القط مقالا يقول فيه «وجاء الملك فارق وسلم على أعضاء البعثة ويده داخل قفاز، وبعد أن سلم على آخر طالب خلع قفازه وألقى به على الأرض .. فأى تصرف شاذ هذا؟!

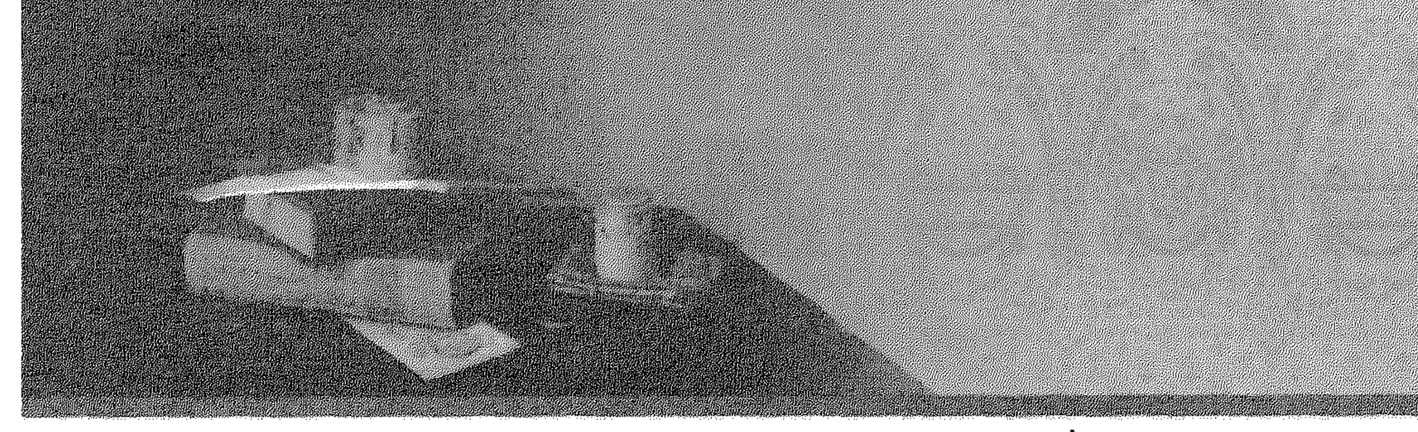
لقد كانت نهايته هى نهاية كل طاغية .. ثم جاء محمد نجيب فأحبه الناس لابتسامته الحنون، وأحبه أخواننا الأقباط وقالوا وقتها «محمد لكم» و«نجيب لنا»

لايفوتنى أن أنوه بالعدد التذكارى للهلال.

عاصم فريد البرقوقي
الاسكندرية - جليم

ترسيخ سلطة الشعب الدستورية

عن مكتبة الأسرة صدر كتيب بعنوان « الديمقراطية السياسية » للدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) وهذا الكتيب يعتبر وثيقة تاريخية نادرة إذ أنه يمثل نموذجا للخطاب السياسى للمثقفين المصريين ومطالبهم من السلطة السياسية العسكرية لثورة يوليو فى شهورها الستة الأولى وأهم مفرداته وبنوده : ضرورة تنفيذ مبدأ سيادة الأمة تنفيذا عمليا ، وأن الديمقراطية لا تعرف وسيلة لتحقيق سيادة الأمة غير إطلاق



حرياتها ، وأن المطالبة باطلاق حريات المواطنين لا تستند إلى حق فحسب ، بل إلى واجب مفروض على كل مواطن وهو الاشتغال بسياسة وطنه ، وأن تعدد الأحزاب السياسية ضرورة ملازمة لطبيعة الديمقراطية ، وأن تقرير الحقوق والحريات العامة للمواطنين وتعدد الأحزاب السياسية أى رد السيادة الحقيقية إلى الأمة هى السبيل الوحيد لخلق حالة الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، فضلا عن ضرورة احترام حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية .

وتبرز أهمية هذا الكتيب اذا وضعناه فى سياقه التاريخى إذ صدر فى غضون اعلان سقوط دستور سنة ١٩٢٣ فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وقبل إعلان الثورة لحل الأحزاب السياسية فى ١٧ يناير سنة ١٩٥٣

عمرو عبدالمنعم حمودة - برما - مركز طنطا

عجبت لهيئة الأمم ...
ومن فيها بلا ذمم ..
من الأوهام قمتها ...
وتستعلى على القمم ...
وكم جارت بأحكام ..
وساءت كل محتكم ..
ولم تسمع لآلام ..
ولم تنظر ولم ترم ..
وذى بغداد من زمن ...
على النيران والنقم ...
تعانى هجمة الدنيا ...
عليها وهى فى سقم ...
يحاصر كل ما فيها ...
ويعصر دون معتصم ...
فلا رجل ولا امرأة ...
ولا طفل بلا ألم ...
ولا طير ولا شجر ...
ولا غير بلا تهم ...
إذا سقطت هنا منا ...
فلا نمنا من الندم ...

* * *

وهذى القدس كم تصلى ...
جحيم الظلم والظلم ....
شهادتنا بها أحلى ...
من الإذلال فلنقم ...
لنعمل جهدنا حتى ...
نحررها من الألم ...
بلا عمل سنفقدها ...
من الأقصى إلى الحرم ...
هنا جينين لم تنصف ...
ولم يحكم لها بدم ...
دمانا فى الثرى سالت ...
وما الحكم من حكم ...
وكم للظلم مازالت ...
أياد دوننا كلم ...

حسن أبو الغيط - شبين الكوم

كمال سعد.. وداعـــا..

بقلم : مصطفى نبيل

كمال سعد

رحل عن دنيانا الصديق والزميل كمال سعد بعد صراع طويل مع المرض، خاضه ببسالة وكبرياء، وعانى الكثير، وواجه المرض بشجاعته المعهودة وعناده المعروف .

قابلت كمال سعد أول مرة فى مجلة آخر ساعة ، التى بدأ فيها حياته الصحفية، وهو نجم متألق من أفضل من يكتب التحقيق الصحفى ، ألقى بنفسه فى خضم الحياة، وهو القادم من أقصى الصعيد ، ويخوض أمواجها بذكاء واقتدار ، وكان من الدفعات الأولى لقسم الصحافة فى كلية الآداب ، ورأيت فيه «الشخصية المصرية» الطيبة والذكية فى آن معا . ومن يومها أخذت أتابع تحقيقاته ومقالاته ، فقد امتلك قدرة نادرة على أن يقول ما يعتقد أنه صحيح ، وأن يتبنى كل الأفكار الداعية إلى التقدم .

وعندما تولى أحمد بهاء الدين رئاسة دار الهلال ، انتقل كمال سعد من أخبار اليوم إلى دار الهلال فى إبريل ١٩٦٤، وتزاملنا فى دار الهلال منذ هذا الوقت . وتميز كمال سعد بقدرته على القيام بكل أنواع الأعمال الصحفية ، وهو مصنع أفكار وأذكر عندما أعلنت أخبار اليوم عن إصدار مجلة نسائية «هى» كمنافسة لمجلة «حواء» ، كونت السيدة أمينة السعيد ، مجموعة لتطوير مجلة «حواء» ، وكان كمال سعد أحد فرسانها .

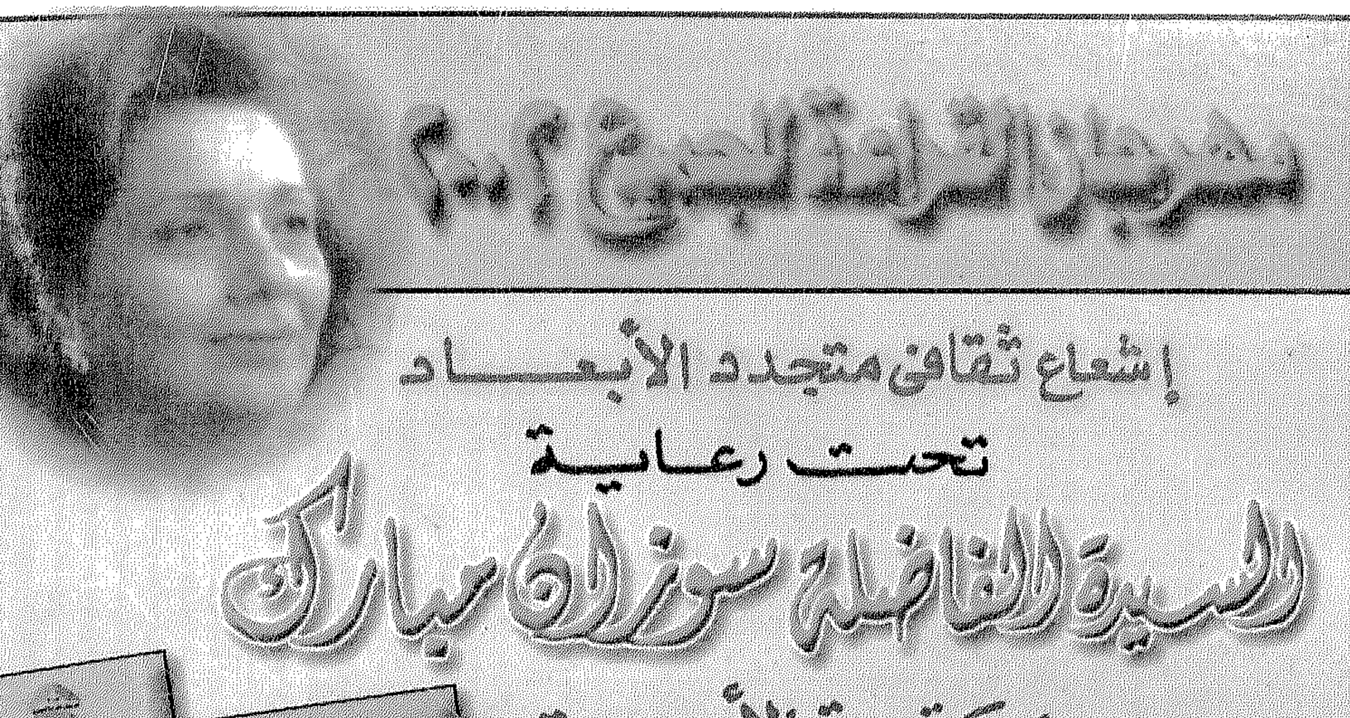
وهو كأى مواطن ، لا يظهر عليه الاهتمام بالسياسة ، ولكنه يدرك وقائعها ، وله موقف من أحداثها ، ولديه فى الوقت نفسه الاقتناع بضرورة العمل فى مجالات كثيرة من أجل نشر المعرفة وتناول البحث فى العقبات أمام النهضة .

وكلما دخلت عليه مكتبه وجدته منهمكا مع أحد شباب الصحفيين ، يراجع ويقدم إليه النصيحة ، ولم يكن غريبا أن يحصل على مقعد فى مجلس نقابة الصحفيين وهو الذى تمتع بحب زملائه فى بداية السبعينيات ، فى وقت شديد الحرج ، والبلاد تنتقل من عصر عبدالناصر إلى عصر السادات ، وأسفر هذا الذى لايبدو عليه أى إهتمام بالسياسة ، صلابة رافضا الخنوع والاستكانة ، وأخذ الموقف النقابى الصحيح فى الدفاع عن القوى الوطنية وحقها فى التعبير عن نفسها ، ودفع ثمنا غاليا عندما فصل من دار الهلال ومن مجلس نقابة الصحفيين .

كان يدهشنى بعمقه وبساطته ، من التروى والاندفاع ، تواضعه الجم وقدراته العالية ، شهامته ووقوفه إلى جانب زملائه دون ادعاء أو صخب ، يتمتع ويالعجب بالمرونة والصلابة معا ..

وهو رجل محب لأسرته باذلا أقصى جهده من أجل كل فرد فيها . لم ينقطع عن الكتابة حتى فى أسوأ حالاته المرضية ، فالقلم رسالة مقدسة ، وقد جمع الكثير من أعماله فى كتب ، تحفظ لنا الرسالة التى يدعو إليها ، فكان طموحه بلا حدود، وقد راعه عدم الاهتمام بجمع ودراسة أعمال بيرم التونسى، فجمع ما استطاع من أعمال ، وألقى الضوء على أعماله، وتناول الكثير من القضايا الفنية والثقافية مثل علاقة الشيخ زكريا أحمد بأم كلثوم .

رحم الله كمال سعد كاتبا مصريا ، أعطى لوطنه الكثير، وكان مثالا فريدا للانتماء للوطن ، الذى ينبع من إيمان عميق بحق المصريين فى حياة كريمة .



مكتبة الأسرة

أضخم مشروع ثقافي

تواصل إصداراتها من الأعمال الكاملة لكبار الكتاب والمفكرين والأدباء .. ولأول مرة تقدم البطل التليفزيوني :

في سلسلة اقرأ لطفلك

سعر النسخة جنيه صدر منها :

بكار والعصفورة الصغيرة * بكار يذهب إلى طبيب الأسنان * دقدقه يضحك هاهاهاها

هذا وتواصل مكتبة الأسرة إنجازاتها فتقدم لأول مرة :

في الأقاليم

ودرة هذا العام : موسوعة

أعظم موسوعة شاملة كتبها علماء الحملة الفرنسية المصاحبين لنابليون وتحوي وصفا علميا بالغ الدقة لكل جوانب الحياة في مصر المحروسة ...

إلى جانب قيمتها التاريخية العظمى

تنشر كاملة في جزءًا مزودة بالملاحق والصور والخرائط.

الهلال

أكتوبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

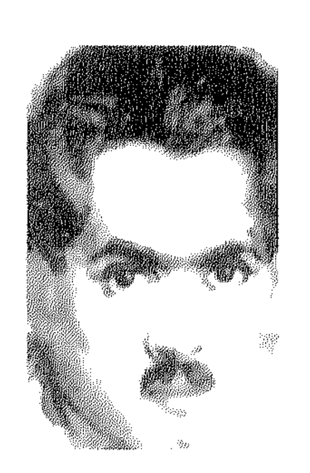


الإسكندرية مركز للعالم

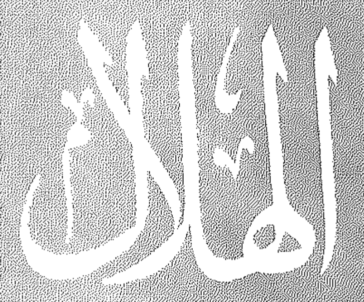


- هـزيمة النقـد الأدبـى
- خريطة جديدة للشرق الأوسط
- زيـادة نسبـة الطـلاق وقلـة الـزواج .. لماذا ؟

لوحة وفنان



لوحـــة : أمام الدوار
للفنان : محمود سعيد



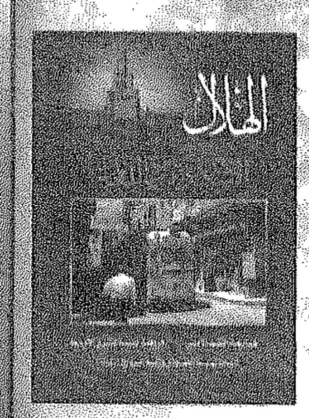
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
اسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة . القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب. ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهره ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس. ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى. **darhilal@idsc.gov.eg**

أثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ ,١دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادي عشر بعد المائة

رجب ١٤٢٣ هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ

مكتبة الإسكندرية

منارة الإسكندرية تبعث من جديد.

ستعود الإسكندرية منارة متألقة للفكر والفن .. ولن تصبح القاهرة مستحوذة علي كل النشاط الثقافى، بعد افتتاح «مكتبة الإسكندرية» افتتاحا رسميا خلال هذا الشهر، ولكى تؤكد أن المعرفة ليست حكرا على المدارس والجامعات.

والمكتبة التى أقيمت إحياء لتقاليد مكتبة الاسكندرية القديمة، أحد المفاخر التى يعتز بها سواء، من ناحية العمارة أو الأداء. وهى ليست مكتبة فحسب بل مجمعا علميا وفنيا وثقافيا.

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قد قامت فى ظل تفاعل حضارى بين الثقافات فى مدينة عالمية هى الاسكندرية، وتقوم - هذه المرة - المكتبة الجديدة فى ظل عالم جديد تميزه ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، وتقدم مصر من جديد ثقافة الحوار التى لاهيمنة عليها سوى للعقل والعلم والمعرفة.

وقد دعت المكتبة - قبل الافتتاح الرسمى - عددا من المشتغلين بالعلم والثقافة، لاجتماع ثان وتقليد سنوى يناقش نشاطات المكتبة كأحد المجمعات الثقافية، وتخدم مجالات عمل المكتبة واقتراح ما على المكتبة أن تقدمه إلى العالم الخارجي، وعلى أن تتميز عما تقدمه مؤسسات دولية مماثلة، كما تناول المجتمعون الأنشطة الثقافية والفنية التى تقوم بها المكتبة على أن تتكامل ولاتتنافس مع المؤسسات الثقافية الأخرى، وحدود حرية المكتبة فى الاقتناء واقامة الحوار وبناء جسور التعاون مع العالم، وضرورة أن يشارك المثقفون فى صناعة القرار حول ماينبغى عمله، ومايجب تصحيحه، وما يجب زيادته.

وقدم د.اسماعيل سراج الدين اقتراحا، أن يعتبر المجتمعون بمثابة جمعية عمومية تقدم الاقتراحات ، وتراجع النشاط وتناقش المسائل الرئيسية، وتكون هيئة استشارية أى البعد الثالث وحتى ترتبط ارتباطا عضويا بالحياة الفكرية فى البلاد.

وقد دارت المناقشات على مدى يومين حول ضرورة أن تجد مكتبة الإسكندرية مكانا خاصا ونشاطا مميزا، وأول مهامها الاهتمام بمدينة الإسكندرية فى العصور المختلفة - معرض يتناول صور الإسكندرية ص ١٠٢- والاحتفاء بكل من أنجبتهم الاسكندرية من مصريين وأجانب، والاحتفاء أيضا بمن كتبوا عنها مثل الشاعر اليونانى كفافى الذي ولد ودفن فى الاسكندرية، والروائى الإنجليزى داريل.

وأكدالمتحاورون ضرورة التوازن فى النظر إلى الثقافات والحضارات، وكما عبرت مكتبة الاسكندرية التاريخية عن تعدد الثقافات وضرورة التفاعل والحوار بينها، وهو مايحتاج إلى

إحياء، فلا يكفى الاهتمام بثقافات البحر الأبيض بل يجب الاهتمام أيضا بالحضارات مثل حضارة الهند والصين مع العناية بظهير مصر ، و البلدان العربية والدول الإفريقية.

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية ساحة للحوار فلابد أن تعتنى بالتراث العربى والفكر العربى المعاصر، وأن تصل إلى التوازن بين المحلية والعالمية.

فالأبعاد العالمية لمكتبة الاسكندرية هى سر عظمتها، وموقع مصر الجغرافي ومكانتها التاريخية ودورها الحضارى أعطى لهذه المكتبة أهميتها.

يؤكد «وول ديورانت» صاحب كتاب قصة الحضارة .. «كانت مكتبة الاسكندرية أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم العلوم والآداب، وظلت إلى آخر أيامها مكانا للحوار ومعهدا للدراسات الراقية أكثر مما كانت جامعة للطلاب».

وزمن مكتبة الاسكندرية هو زمن امتزاج الثقافات وصهرها فى بوتقة واحدة، ويقول وول ديورانت «الشرق هو بداية خلق روح الاستكشاف والاقتحام، وهذه الروح هى التى تعيد الاعتبار للانسان».

ولا توجد روح الاستكشاف والاقتحام دون الحرية، ووقف الجميع إلى جانب حرية التداول والحوار والنشر واتفق الكل على أن حرية البحث العلمى مكفولة، ولاتوجد أى قيود عليها، إدراكا من المجتمعين بدور المكتبة الجوهرى، فى إشاعة قيم الحرية والعقلانية، ووعيا بدورها فى حفز المجتمع على الإطلال على جميع ثقافات العالم مما يتطلب التعبير الحر الأصيل، كما أن فى عالم اليوم يستحيل المنع فى ظل ثورة المعلومات ذلك المنع الذى يقوم على أساس الوصاية على القارىء، وأن المواطن لايستطيع أن يأخذ قراراته!.

وتساءل البعض هل تفتح المكتبة أبوابها للجميع - فى حدود طاقتها - وبالغ صاحب السؤال فى حكايات حول نزع بعض الصفحات والصور من الكتب، وعدم احترام قدسية المكان، وأكد د. سراج الدين أن هذه الحوادث نادرة وهى حالات فردية لايجوز القياس عليها.

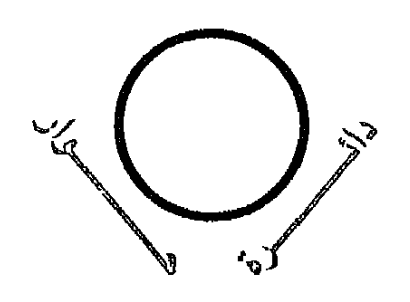
وألقيت على كاهل مكتبة الاسكندرية هموم وآمال وطموحات التقنية، ويضع المجتمعون على عاتق مكتبة الاسكندرية، كل قضايا الثقافة، وهو مالاتقدر عليه المكتبة وحدها، والبعض يذكر غلبة الأدب والفن على العلم فى حياتنا الثقافية ويطالبون المكتبة بعلاج ذلك، والبعض يرى أن الشباب لايحصلون على فرص متكافئة فى النشر والانتشار، ينتظرون من مكتبة الاسكندرية أن تعالج ذلك، والباحثون عن الدوريات من صحف ومجلات قومية ولايجدونها فى المكتبات العامة، يطلبون توفيرها وتوثيقها على سى.دى وتوفيرها للدارسين..

والبعض يضع على عاتق المكتبة معالجة المثلث المهم الذى يضم الإعلام والتعليم والثقافة.

والبعض يرى ضرورة الاهتمام بثقافة الطفل، وعلى العكس يرى البعض أن ثقافة الطفل، ليست من مهام المكتبة، ولايوجد مكان لمكتبة الطفل فى أى مكتبة عامة مثل مكتبة المتحف البريطانى مثلا.

والمكتبة الرقمية، هى مكتبة المستقبل، والتى تتميز بها مكتبة الاسكندرية وكما قال د.اسماعيل سراج الدين، لايوجد تسجيل دائم على مايظهر على الإنترنت فى مواقعه المختلفة سوى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية وفى مكتبة الاسكندرية، وأى مادة على أى موقع على الانترنت لاتظل مدة أزيد من مائة يوم وسيجد الباحث والدارس كل ماجاء على الانترنت على مواقعه المختلفة فى مكتبة الاسكندرية.

فمكتبة الاسكندرية حلم راود المفكرين والمثقفين فى شتى أنحاء العالم، وبدأ الحلم يتحقق، بإقامة مؤسسة ذات شخصية اعتبارية بعيدة عن متاهة البيروقراطية، لتكون مركز إشعاع حضارى، وبديلا عن منارة الاسكندرية إحدى عجائب الدنيا السبع التى انهارت يوما. ■

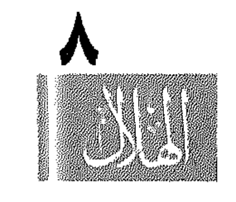


هزيمة النقد الأدبى

بقلم

د. محمد رجب البيومى

حاولت أن أبرّد عواطفى حين مسكت القلم لأكتب هذا المقال. إن وهجا سخينا قد شب فى عروقى حين سمعت أحد نقاد اليوم يتكلم فى حماسة حارة عن قصة ساذجة لبعض المبتدئات ممن لا يحسن قواعد الإملاء والنطق المتواضع فضلا عن تصوير الأحداث، واستشفاف الخوالج. وقد شاء حظ الكاتبة أن تقع قصتها فى يدى من قبل، فأخذت أقرؤها لأتفقه واستمتع!! فجعلت أتفكه وأسترجع، ثم يجىء الناقد فيرتفع بالقصة وكأنها أثر خالد لبعض العبقريات! هنا شب الوهج فى صدرى، وأخذت أقلّب كفا فوق كف.



وقبل كل شىء أعلن أنى أقدر أدب المرأة الموهوبة، وأعرف من شاعرات الأمس واليوم من يقفن مع كثير من الرجال فى مستوى رفيع! بل أعرف فى شعر المرأة حنانا يفجر الماء من يابس الصخر، ولوعة مكظومة تذيب لفائف القلوب، كما قرأت روائع القصص للمعاصرات من أمثال مى زيادة وسهير

القلماوى وبنت الشاطىء وأمينة السعيد ولطيفة الزيات ووداد سكاكينى وأمينة الصاوى، وإذن فلست خصيما لشعر المرأة وقصصها، ولكننى مشغوف بروائعه، ولست وحدى فى ذلك فإن توفيق الحكيم فى صدر شبابه حين كان يتباهى بأنه عدو المرأة قد أنصف مقدرتها القصصية وقال فيما قال بمجلة الثقافة ١٩٣٩/٢/٢٨:

«إن الشعور والتحليل هما الدعامة التى شيدت عليها المرأة كل آثارها الخالدة، فى تاريخ الأدب والفنون فمن شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام إلى سافو إلى مدام دستال وجورج ساند، وجورج إليوت، إلى كوليت ومارى وب وكاترين وسجريد أندست كلهن قد ارتفعن متألقات فى سماء الفن، على أجنحة العاطفة الرقيقة، وكلهن قد أظهرن من البراعة فى التحليل ما قصر عن إدراكه كثير من نوابغ أهل الفن من الرجال، والتحليل هو الملكة التى لابد منها لكل كاتب يعالج الرواية الخالصة، فهذا النوع من الأدب إنما يقوم على النفوذ الدقيق الى نفوس الناس، وضمائر الأشخاص. وهنا استطاعت المرأة بالفعل أن تظهر من طول الباع ، ومن قوة الجلد على تحليل التفاصيل ما أثبت لنقاد الأدب، أن الرواية الخالصة نوع توشك أن ترفع فيه المرأة علم السيادة».

هذا بعض ما قاله توفيق الحكيم لا كله، واذا كان ما قال شهادة رائعة للأدب القصصى الذى تبدعه المرأة فإنه من ناحية ثانية جعل هذا الابداع قائما على النفوذ الدقيق الى نفوس الناس، وضمائر الأشخاص ، وعلى قوة الجلد فى تحليل التفاصيل ، والعناية الكبرى بذكر ما يخفى على العين العابرة. ولم يتحدث الحكيم عن جمال التعبير الأدبى لأنه أمر مفروغ منه بدءا. ولابد لكل موهوب أن يمتلك ناصيته قبل أن يلج إلى تحليل المشاعر، وسرد التفاصيل، فإذا جئنا اليوم الى هذا الطوفان المكتسح الذى يتدفق فى السلاسل الأدبية الحكومية، وغير السلاسل الأدبية الحكومية، فهل نجد لدى الفتيات فى قصصهن الساذجة، غير ما نجد فى مذكرات التلميذات بالمدارس الثانوية! والهازلات منهن بنوع خاص ، هؤلاء اللاتى يجعلن الحب المبتذل كل شىء فيما يكتبن اذ لم أعرف لدى هؤلاء من عالجت غير مواقف الحب الشريف والداعر معا: ولكن أى معالجة، إنها الرصد لأحاسيس المراهقة فى نشوز أدبى لا يعرف طلاقة التعبير بل لايعرف القواعد الأصلية للإعراب! ثم يجىء ناقد فى البرنامج الثانى، أو على صفحة جريدة يومية فيقرن الشابة المسكينة بالشهيرات من أديبات الغرب، ويمزج الحديث بمختلط ركيك من المصطلحات التى لا يدرك من معناها الأصيل شيئا. وهو فى بعض أموره وأحواله دكتور ومدرس بالجامعة.

وقد قلت فى مقال متواضع نشرته بجريدة «صوت الأزهر» إن كثرة هذا النوع الجسدى المقزز لدى فتيات القصة



يؤكد أن هناك مخططا خافيا يهدف الى تسطيح الفكر الادبى، ويبعده عن النظر فى القضايا الاجتماعية والسياسية والإسلامية التى تصور هموم المجتمع الإسلامى والعربى معا، مع تيسير الوسائل السريعة لنشر هذه المنحدرات الهابطة على نطاق واسع، وما تكاد قصة ركـــــيكة من هذا الطراز ترى النور المطبعى حتى تقام الندوات للإشادة بها فى البـــرامج الأدبيـــة بالإذاعـــة وفى الصـــالونات المظهـــرية التى تحـــاول استرجاع عهد الآنسة مى دون كفاءة واعية، وفى أعمدة الجرائد والمجلات التى يحتلها أناس لايقرءون غير العنوان، ثم يخوضون فى تهويمات هى أشبه باللغو السقيم ! ولو قرءوا ما وصلوا إلى شىء.

تبجيل السذاجة

لقد ألزمت نفسى ألا أشير الى أسماء الفتيات والناقدين، وهذا ما يجعل المقال موضوعيا فى اتجاهه الهادف، ولكنى لا أجد مفرا من أن أضحك القارئ بما سمعت فى ندوة بالبرنامج الثانى تتحدث عن قصة تبجل «ايزيس» ذات الشخصية المصرية العريقة، ولكنه تبجيل السذاجة الغافلة التى لا تستند الى منطق، وقد قالت المؤلفة العظيمة عند نفسها، وعند الناقد والمذيعة فحسب ! إنها اختارت «إيزيس» بدل (ليلى) هذه الرِّمة المدفونة فى صحراء العرب ولا يحسها أحد فى مصر، وكنت انتظر من الناقد أن يستنكر هذا اللغو العابث، ولكن القول السخيف مضى دون تعقيب! ان اسم ليلى ياهذه يوجد فى كل صف من صفوف مدارس البنات بحيث يشتمل الصف الواحد على عدة ليلات! وما وجدت ايزيس فى كشف من كشوف الأسماء، فكيف تكون ليلى رمة مدفونة بصحراء العرب لا يحسها أحد فى مصر ولديك أسمـــاء الفنانات وهن أقرب الى التفرنج المبهر، فمن اسمائهن ليلى مراد وليلى فوزى وليلى حمادة ، وليلى طاهر وليلى علوى وليلى جمـــال وليلى نظمى ومن لا أعرف من حسان هذا الميدان! ولست أجحد مقام ايزيس فأنا مصرى عريق ولكنى استنكر هذه الطفولة العابثة التى تهتف بما لا تعرف! إن اسم ليلى فى الأدب العربى كاسم جوليبت فى الأدب الانجليزى واسم شرين فى الأدب الفارسى، وقد جرى المثل العربى بقول القائل (كل يغنى على ليلاه).

أتريد مثلا آخر لنفاق الناقد غير المستساغ؟ لقد تعرض أحدهم للحديث عن قصة مبتذلة لكاتبة واهنة، كتبت فى مجموعتها قصة شغلت ثلاث صفحات من صفحات الكتاب، وقد جعلت النصف الأسفل من الصفحة أبيض فارغا من أى حرف، وكنت أنتظر أن يسأل الناقد عن سبب هذا التجديد المباغت، ولكنه

تبرع من عند نفسه بالاجابة عن السر الذى لا يعرفه أحد. أيدرى القارئ ما قال هذا الناقد المتعمق؟ إنه قرر أن القصاصة المبدعة أرادت أن يتخيل القارئ أشياء نلهمها القصة فتركت له مزيدا من الفراغ، ليأخذ القلم.. ويدون فى السطور البيضاء ما أوحى اليه! ومعنى هذا أن فنحا جديدا قد ظهر فى عالم التأليف القصصى، اذ على الكاتب او الكاتبة فيما بعد أن يتركا نصف الصفحة بيضاء، ليسجل القارئ ما يتخيل! وياله من فتح!

أترك حديث الندوات النقدية الى بعض ما ينشره النقاد فى الصحف، إذ تجد من الغرائب ما لايصدق، فالناقد المحترم من هؤلاء لايجد ما يقوله بوضوح، فيلجأ الى تهويمات غامضة تقرأ سطورها فتفهم الألفاظ منفردة، ولكن المراد من السياق لا يسفر عن وجهه أبدا، ثم ينتهى بعد هذا الضباب المتراكم إلى مثل ما قاله ناقد بجريدة الأهرام عن قصة هلامية لا تعطى شيئا ما غير النفور الضائق.

«إن الأسلوب الكتابى ينهل من موهبة صاحبته فى التأمل والملاحظة والتقاط الصورة من بين الآلاف المشوشة فى الحياة اليومية، وهذه الموهبة تثرى الفن القصصى بنماذج حية، اذ الشحنات الوجدانية مهما كان من قيمتها بالنسبة للأديب فإنه من المؤكد كما يقول (مالرو) انه لن يكون فى وسعنا أن نحدد نوع نشاطه الفنى بالاقتصار على وجدانه أو إلهامه او خياله».

هذا ما ختم به الناقد تهويماته الغائمة! ! أما كيف جاءت الشحنات الوجدانية بأثرها الفعال فى التأمل والملاحظة والتقاط الصور فهو مالم يستطع الافصاح عنه! ولابد أن يذكر (مالرو) فى مجال التهويم ليدل على ثقافة الناقد أما صور العبث الجسدى البغيض فى المجموعة فهو بعض هذه الشحنات .

أنا لا أمنع التشجيع، والأخذ بالأيدى الضعيفة لتقوى وتشتد، فهذا حق الناقد، ولكن أى ناقد؟ إنه الذى يزن العمل بميزان متزن لا تميل فيه كفة عن وضعها الصحيح، ولكن ماذا تقول فى مجلس مداهنة كالحة يتشح ظاهريا بعباءة النقد لينتهى إلى تتويج من تخطىء فى الإملاء والقواعد، فتقول. «أخوكى، أرجوكى» مخاطبة زميلتها الأنثى، وتقول: تعرفى حبى لك، وتعلمى موقفى منك! ولا تكاد تنصب مفعولا، وهو أول ما يعرفه تلميذ المدرسة الابتدائية! أيترك هذا كله! ويترك معه تفاهة العرض، وسطحية الحوار، وانحدار الهدف، ثم يقتنع الناقد فى غفلة - متكلما أو كاتبا - بأنه أدى دوره الصحيح! وتخرج الكاتبة وقد أصبحت

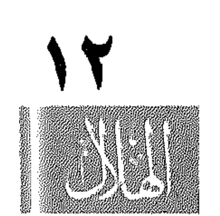


من رائدات القصة الحديثة، وتقول فى شموخ: لقد جاءنى من سيترجم قصصى! وقد وافقت! هكذا سمعت!.

حديث الترجمة

وحديث ترجمة القصص حديث لافت النظر، فنحن نعلم أن المستشرقين فى الزمن الماضى كانوا يهتمون بكتب التراث ترجمة وتحقيقا، ونبغ منهم فى هذا المجال من خدم اللغة والأدب صادقا أو غير صادق وفيهم من اهتموا بالقصة الحديثة - على قلة وندرة - فترجموا بعض آثار توفيق الحكيم ومحمود تيمور، ولم يكن نجيب محفوظ قد نال الشهرة معهما، فتريث به الزمن حتى ظفر بالجائزة النوبلية فترجمت آثاره، وتناقلها القراء فى مودة وتقدير! ثم ذهب أساتذة الاستشراق، وخلفهم من أضناه العمل فلم يحذ حذوهم فى شىء، ولكن فريقا من السياح وأشباههم قد اتصلوا بفريق من كتبة اليوم، ومنهم من ألحف فى رجاء ترجمة بعض آثاره باذلا نفقات الطبع فاستجيب له، ومن هنا تداول هؤلاء الناشئة حديث الترجمة على أنه مجد أدبى مرموق، ولن تكون الترجمة ذات مجد إلا اذا سعى اليها المترجم عارفا قدر من يترجم له. أما أن تترجم الدولة بعض الاثار استجابة لرغبة مؤلفيها فحسب، وأما أن يريق المؤلف وجهه طالبا ترجمة ما كتب، فكل ذلك لايجد الصدى الأدبى المنشود، وأنا أعرف أن كاتبة قصة قد ترجمت لها قصتان، وانتشرتا فى نطاق فسيح، ولكن ذلك لم يرجع الى جودة ما كتبت، بل الى انها ارضت اهواء الأوربيين حين هاجمت الشريعة الاسلامية ووصفت بنات جنسها فى الشرق بالتأخر والجمود بغيا دون حق، فوجد القراء والناشرون هناك ضالتهم المنشودة فى استماع الأراجيف، وإلا فلم لم تترجم آثار الملتزمات من أمثال سهير القلماوى ولطيفة الزيات وأمينة السعيد وبنت الشاطىء ووداد السكاكينى وغيرهن ممن يمثلن الفن الصحيح فى يقظة والتزام !.

ولى أن انتقل الى ما يسمى الآن «بالزمن الجميل» والقصد منه زمن الارتقاء السالف فى دنيا الأدب والنقد والفكر والفن حين كان أقطاب هذه الفنون أساتذة حقا، يملأون السمع والبصر، ويحتلون منازل الحب والتقدير، ولا ينكر أحد أن الأستاذ الدكتور طه حسين كان فى طليعة هؤلاء ! وكان فى دروسه الجامعية كما كان فى مقالاته النقدية يعطى النموذج الباهر للنقد المنصف، وللتقييم الصحيح. لقد تحدث عن مؤلفات الكثيربن من معاصريه حديث المعلم الموجه، وفيمن تحدث عنهم سيدات فضليات بعثن إليه آثارهن فقرأها قراءة واعية ليضعها موضعها



الصحيح دون تحيف أو مغالاة ! وكتب عن كل أثر من آثارهن فصلا نقديا يجب أن يقرأه الآن أساتذتنا المتصدرون للنقد، ومن حظهم أن الرجل الكبير قد جمع آكثر مقالاته فى آجزاء تعددت طبعاتها، واحتلت قلوب الناس قبل أن تحتل رفوف المكاتب، وسأكتفى بالإشارة هنا الى نموذجين من كتاب واحد كى تسهل العودة اليه لمن يريد الاستقصاء، والكتاب هو «فصول فى الأدب والنقد» وقد طبعته دار المعارف عدة طبعات. ثم انتقل الى دور النشر اللبنانية فبلغ حظا كبيرا من الاشتهار!

النصح والتقويم السديد!

أما النموذج الأول فهو ما كتبه عن قصة «حريم» للسيدة قوت القلوب الدمرداشية، وهى كاتبة مصرية شاعت أن تكتب مؤلفاتها باللغة الفرنسية، فقد أنصف المؤلفة حين ذكر أن كتابها أعطى أدق صورة وأصدقها لحياة كثير من الأسر المصرية فى جدها وهزلها وفى العظيم من أمرها واليسير، فالخطبة مصورة أصدق تصوير وأروعه وحفلة الزواج مصورة أصدق تصوير وأروعه، ويوم الزفاف، ومقدم المولود، وحفلة الأسبوع والحياة اليومية فى أيام الأعياد، والخلاف الزوجى الذى ينتهى إلى الطلاق، وهذه اللوعة التى تصيب الأسر حين يختطف الموت من بينها زعيمها وحاميها، وكل ذلك لا تنظر اليه الكاتبة من عل، وانما تعيش بين الناس وتصور ما ترى وتحس، وبعد أن أفاض النقاد فى تحليل الكتاب، وبسط ما تضمن من صور ومشاهد وأزمات، قال فى عطف تتخلله الرقة الحانية، ولكنه لايغفل واجب النصح الهادف، والتقويم السديد.

«وتسألنى عنه رأيى فى الكتاب، أراض أنا، أم ضائق به؟ فأما من الناحية الفنية الخالصة . فأنا راض عن الكتاب مثن عليه، آسف لأنه لم يكتب باللغة العربية. حريص على أن يترجم الى هذه اللغة. وأما من الناحية المصرية فقد أتحفظ على هذا الرضا بعض الشيء. لأن الأجانب يسجلون علينا ماسجلنه، فلندع لهم ذلك. وفى حياة المصريين ما نستطيع أن نسجله للأجانب فنرضيهم ولا نضحكهم. ولست أرى بأسا بأن يترجم هذا الكتاب إلى لغة أجنبية، فيعرف الأجانب أننا لا نشفق من تسجيل عيوبنا، والجد فى إصلاحها، فأما أن نصور هذه الخصائص مباشرة فى لغة أجنبية. لا لنظهر نحن عليها، بل ليظهر عليها غيرنا. فهذا الذى أقف منه موقف التحفظ. ومن المحقق أنى لن أقدم عليه، وليقل الناس إنى ضعيف فإنى أوثر هذا الضعف» ثم قال الدكتور: «وهل تأذن لى الكاتبة فى أن ألاحظ فى رفق أن الذين يقرءون كتابها قد يخدعون عنها أحيانا.



وقد يظنونها فرنسية لأنها تجهل عن المصريين ما لا ينبغى أن يجهل، فشيخ الإسلام مثلا هو الرئيس الأعلى للمؤمنين، وهو عند المصريين شيخ الجامع الأزهر فقط! ومحمد وأحمد اسمان لابنين من أبناء النبى صلى الله عليه وسلم، وهما عند المسلمين اسمان من أسماء النبى نفسه! وأنا شخصيا قد دهشت لما كتبته سيدة هى ابنة شيخ من كبار مشايخ الطرق الصوفية ، وقد نشأت فى جو الذكر والأدعية والأوراد والصلاة على رسول الله. ثم لا تعلم اسم نبيّها الكريم! لقد اكتفى الدكتور بتسجيل هذا الخطأ، ولكنى أرى أن الموقف كان يستدعى أكثر من التسجيل، لأن التى تجهل اسم نبيّها العظيم تجهل من الاسلام كل شيء!

أما النموذج الثانى مما كتبه الدكتور ، فهو ما كتبه عن قصة «سلمى وقريتها» التى ألفتها بالفرنسية الكاتبة مدام «أمى خير» وهى سيدة لبنانية عاشت فى المنصورة بأرض مصر، وثقفت الفرنسية، ولم تتحدث عن مصر بل تحدثت عن موطنها الأصلى فى احدى قرى لبنان، وقد قال الدكتور إنه لا يخفى رضاه عن الكتاب، واعجابه ببعض فصوله، ولكنه اعترف ان القصة التى تتضمن الأحداث ليست غريبة ولا طريفة، بل هى مألوفة نكاد نقرؤها فى كل كتاب من كتب الأدب العربى يتحدث عن العشاق الذين يضنيهم الحب حتى يفضى إلى الموت! فالبطلة قد حيل بينها وبين حبيبها لاعتراض أبيها وقد أرغم الوالد ابنته على الزواج بغيره، كما حدث لقيس بن ذريح تماما ! ثم قال الدكتور : «إن المؤلفة تنبئنا بأن كتابها صورة فتوغرافية لسلمى وقريتها، وقد يكون هذا حقا، وهو فى الوقت نفسه مصدر فضل الكتاب، وكم كنت أود لو أن هذا الكتاب لم يكن صورة فوتوغرافية ، بل كان صورة فحسب، صورة من عمل الإنسان، لا من عمل الآلة الفوتوغرافية. صورة تظهر فيها شخصية الكاتبة ظهورا واضحا نأنس إليه ونستعين به، على إساغة هذه الحقائق التى يشتمل عليها هذا الكتاب، ولكن القصة كانت كما أرادت مدام خير صورة فوتوغرافية فامتازت بالصدق والدقة، وفقدت شيئا كثيرا من الحياة والتأثير».

هذان نموذجان مما كتب الدكتور عن القصة النسوية، وفيهما ما يقدم المثال المنشود لناقد اليوم، فقد وصف الدكتور محاسن القصتين وأشاد بهما إشادة المشجع العطوف، وهذا ما نحرص عليه دون أن نجد اعتراضا ما يتجه اليه، ولكنه مع العطف المشجع. قد أبدى رأيه الناقد فيما وجده مستحقا للنقد الجاد. ولم يكن ناقدا فحسب، بل

كان أستاذا موجها يهدى للتى هى أقوم! ولعل الكاتبتين قد أفادتا من توجيهه، فعرفتا موضعى الخطأ والصواب.

وهنا ألفت النظر الى ناحية هى - على ضرورتها الملحة - ليست اليوم بذات شأن عند الكاتب والناقد معا، فكلاهما يعد الخطأ النحوى أمرا شكليا لا صلة له بجودة الفن، بل ربما نظرا باستخفاف الى من يحتم التزام القواعد النحوية، ويعدانه قاصرا عن استيعاب المنحى الفنى للقصة، وللدكتور طه حسين فى هذا المجال موقف حاسم، حكته الآنسة سهير القلماوى فى مقال نشر بمجلة الرسالة الصادرة فى (١٦/٤/١٩٣٤) تحت عنوان (غلطة نحوية) وخلاصته - لأن المقال طويل نسبيا - أن الطالبة سهير، نشرت بمجلة الرسالة مقالا يتضمن غلطة يسيرة فى عودة الضمير لجمع المؤنث، ولم تدر أن الدكتور طه قرأ المقال، ولكنها فوجئت به يتشدد فى طلب رؤيتها، حتى حسبت أن الأمر جد خطير وما حان موعد لقائه فى الغد، حتى نهضت اليه متوجسة، وقد ذهبت الظنون بها كل مذهب، تقول الآنسة سهير القلماوى متحدثة عن نفسها بضمير الغائب:

«ودخلت حجرته، فحيته وحياها، وهى تحاول فى جهد أن تتتبع كلامه، وأن تخفى عجلتها واشتياقها لمعرفة ما جاءت من أجله، وخفق قلبها، ولم تستطع حفظ مظهر الاتزان الذى تكلفته، ثم صاح الدكتور : يافريد، هات عدد الرسالة الماضى، انها غلطة تكبرك بكثير، وقد كلمت الاستاذ الزيات بشأنها، إنها غلطة نحوية كبيرة، إما أن تقعلى عنها ، وإما تطلعى على الناس بمذهب جديد لا يفرق فى الجمع بين المذكر والمؤنث، دونى فى مذكراتك أن أستاذك استدعاك من العباسية الى عابدين، من أجل غلطة نحوية» فقالت . «سأدوّن».

هذا لباب ماجاء فى المقال فماذا يرى الذين يستحسنون من القاصة الناشئة أن تقول لصاحبتها (أبوكى أرجوكى، تعرفى معزتى عندك ! ثم لا تقيم مثنى أوجمع مذكر على وجهه! وهى بذلك تطلع على الناس بمذهب جديد فى النحو، كما تهكم طه من قبل!

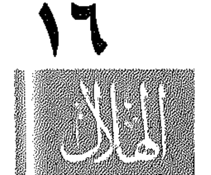
لقد كنت أحسب أن موجة التأليف النسائى للقصة المتهافتة ستنجلى حين تعرف الناشئة وجه الصواب فترجع اليه، ولكن (طبل) الناقد وهتافه المتواصل مما جعل الموجة تمتد الى أبعد الآماد، ومما جعلنى أقلل من طمعى فى العودة الى الصواب، وهو طمع لا تقوم الدلائل على يسر تحقيقه، بل دونه أهوال وصعاب، كتلك التى عناها الشاعر الصوفى حين قال :

ولي طمع في قلب ظمياء عهده
بعيد ، وكم خابت لديها المطامع

هيكلة عالم جديد

بقلم
د. مصطفى سويف

الحدث الواسم للثلث الأخير من الثمانينيات (فى القرن العشرين) هو انتهاء الاتحاد السوفييتى ، عمليا ورسميا ؛ فقد أعلن جورباتشوف فى مايو سنة ١٩٩٠ أنه على وشك أن يتقدم إلى مجلس السوفييت الأعلى بمجموعة من القوانين لتحويل اقتصاد البلاد إلى اقتصاد السوق بحيث تحكمه قوانين العرض والطلب ، وبذلك يسدل الستار على عهد عرف بعهد الاقتصاد الموجه الاشتراكى . وفى نوفمبر سنة ١٩٩٠ اجتمع ممثلو حلفى وارسو والأطلنطى ووقعوا بالحروف الأولى على معاهدة تنهى عقبة الحرب الباردة ، تمهيدا لاجتماع يعقده فى اليوم التالى رؤساء الحكومات الأعضاء فى الحلفين للاعتماد النهائى للمعاهدة . ولما لم يكن الاتحاد السوفييتى مجرد دولة ضمن سائر الدول فى العالم ، ولا كان مجرد دولة كبرى ضمن الأعضاء الخمسة الكبار فى مجلس الأمن ، ولكنه كان عاملا رئيسيا فى هيكلة العلاقات الدولية على نحو معين فقد جاءت خاتمته ايذانا بانتهاء طراز الهيكلة العالمية الذى كان قائما حتى نوفمبر سنة ١٩٩٠ ، ودليل عمل نقرأ فيه العلامات المبكرة لعملية هيكلة مغايرة لانزال نعايش أحداثها ومراحلها وهى بعد فى طريقها إلى التبلور فيما عساها تكتسبه من أبعاد مستقرة .



في محاولتي أن أفهم كيف وصل الاتحاد السوفييتي وتركيبة العالم من حوله إلى نهايته المشهودة لجأت إلى استعادة شريط الذكريات عن الثمانينيات وعن السنوات المتأخرة منها بوجه خاص ، وقد كانت جميعها سنوات معتمة بالنسبة للاتحاد ؛ بدأت بتورط جيوشه النظامية في مواجهة حرب عصابات داخل أفغانستان ، وبينما كانت هذه الحرب مشتعلة تستنزف قدرا لا يستهان به من طاقاته المادية والمعنوية ، ومن سمعته ، توالى على رئاسته أربعة رؤساء في خلال مالا يزيد على أربع سنوات (من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٥) ، وفي سنة ١٩٨٦ وقع انفجار المفاعل النووي في تشيرنوبل ، وأحاطت بهذا الانفجار ملابسات نالت بدورها من البقية الباقية من معنويات الدولة ومن صورتها في الداخل والخارج . هكذا تجمعت معا ، وفي محصلة واحدة ، ضغوط الحرب في أفغانستان مع التغيرات المتلاحقة في شغل منصب القيادة العليا للدولة في مدى زمني محدود جدا ، مع أحداث تشيرنوبل ، وتزامنت مع هذه الأحداث جميعا قلاقل قامت في بولنده تزعمتها منظمة عمالية تدعى منظمة تضامن ، ونمت واستشرت هذه القلاقل ، وبدا واضحا أن موسكو عاجزة عن السيطرة عليها ، وأضاف هذا مزيدا من الزخم لاندفاع عوامل الضعف والتآكل في سلطان الاتحاد السوفييتي . حدث هذا كله في غضون السنوات السبع الأولى من عقد الثمانينيات . وانقضى عام ١٩٨٧ في إتمام الإنسحاب من أفغانستان ، وبحلول الثلث الأخير من الثمانينيات كانت بقية دول الفلك السوفييتي قد وعت الدرس البولندي ، ففي أواخر سنة ١٩٨٨ بدأنا نسمع عن أشكال مختلفة من الاضطرابات تجتاح تشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وألمانيا الشرقية . وفي منتصف عام ١٩٨٩ أعلن أن الفنيين الغربيين يعتبرون أن الاتحاد السوفييتي أصبح منطقة كوارث نتيجة لما حدث في مفاعل تشيرنوبل ، ونتيجة لما تبين بعد ذلك من وجود مظاهر إهمال لا آخر لها في بناء كثير من المفاعلات النووية الأخرى وهو ما ترتب عليه زيادة كميات الإشعاع النووي في أرجاء الاتحاد بنسب تفوق كثيرا النسب المتعارف عليها دوليا . وصحب هذه الأخبار أنباء عن وقوع اضطرابات داخل الاتحاد السوفييتي ذاته .

وفي مارس سنة ١٩٩٠ أعلنت ليتوانيا الاستقلال من طرف واحد . وفي أكتوبر سنة ١٩٩٠ تم توحيد شطري ألمانيا وأصبح حائط التقسيم في برلين أثرا من آثار الماضي . هكذا غربت شمس الاتحاد السوفييتي ، وتداعى سياج الأمان الذي كان قد اصطنعه لنفسه على هيئة مجموعة من الدول تدور في فلكه . واكتملت الجولة في مايو سنة ١٩٩٠ عندما أعلن جورباتشوف عن تحويل اقتصاد البلاد إلى اقتصاد رأسمالي . ثم في نوفمبر سنة ١٩٩٠ عندما أعلن ممثلو الحلفين ، وارسو والأطلنطي ، عن انتهاء حقبة الحرب الباردة .

أما بعد – فقد بسطت الكلام عن هذه الأحداث في محاولة مني لكي أيسر

لنفسى وللقارىء متابعة الكيفية التى انتهى بها الاتحاد السوفييتى .

ولكنى أعترف ، مع ذلك ، بأن الأحداث كما سردتها تلقى بعض الضوء فقط على ما نحن بصدده ، غير أنها لا تكفى لتفسير هذا السقوط . ويقينى أن التفسير المطلوب يلزمه أن نضيف عنصرين إلى ما ذكرنا من وقائع (حتى ولو كانت هذه الإضافة على سبيل الافتراض ، وهو أمر لا غبار عليه ، ونحن نمارسه فى تفكيرنا العلمى من حين لآخر) ، العنصر الأول وجود قدر متراكم من التذمر بين فئات الشعب المختلفة ، والعنصر الثانى وجود مخطط كبير من الخيانة .

أما عن التذكر فكنا نقرأ الكثير ونسمع ماهو أكثر ، لكننا كنا دائما (كمواطنين خارج حلبة المؤدين السياسيين) فى حيرة حول كيفية الفصل بين ماهو دعاية مغرضة وماهو دعوى صادقة ، وكان حجم ما نكتبه أكبر بكثير من حجم ما نصدقه . هذا عن عنصر التذكر ، وأما عن افتراض الخيانة فمكتوب عليه أن بظل يعامل معاملة الفرض الذى ينقصه البرهان فى انتظار ما قد تكشف عنه الوثائق التى هى سرية الآن ، وسوف تخرج إلى العلن ولو بعد حين .

إعادة هيكلة العالم

كان واضحا لكل ذى عينين أن مظاهر الوهن السوفييتى التى بدأت مخففة فى أواسط الثمانينيات جاءت مصحوبة بعدد من مظاهر الاستئساد الأمريكى ، هكذا جرت أحوال التوازن الدينامى فى أواخر أيام الحرب الباردة . وقد ظل هذا التوازن محتفظا بدرجة عالية من السيولة حتى سنة ١٩٩٠ ، وعندئذ بدأنا نلحظ تزايد سرعته نحو درجة ملحوظة من التبلور . وكان هذا إرهاصا بما سوف تفصح عنه أشكال الهيكلة الجديدة على امتداد التسعينيات . والسؤال الآن كيف كانت تسير هذه الإرهاصات فى الثلث الأخير من الثمانينيات ، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه ؟ فى غمرة الأحداث المتدفقة حينئذ استطعت أن أتبين ثلاثة بنود رئيسية فى هذه الإرهاصات: بندان منهما يجريان بتفعيل واضح عن الولايات المتحدة ، والبند الثالث تتولى أمره إرادات مغايرة .

أما البند الأول فيتألف من محاولات ذكية لترويض الاتحاد السوفييتى على قبول ما آلت إليه أحواله . ففى مايو سنة ١٩٨٨ اجتمع ريجان وجورباتشوف وقاما بالتصديق على معاهدة للقضاء التدريجى على الصواريخ متوسطة المدى عند الطرفين ، وفى يوليه سنة ١٩٩٠ اجتمعت الدول السبع الصناعية الكبرى فى تكساس بالولايات المتحدة واتخذت قرارا بتقديم المساعدات المالية للاتحاد السوفييتى لإعانته على اتمام تحويل اقتصاده إلى اقتصاد السوق !! هذا عن البند الأول وهو يشف بوضوح عن

فاعلية التأثير الأمريكى . وأما عن البند الثانى فكان يمضى فى اتجاه مغاير ؛ كان فى ظاهرة حملة إعلامية ضد العراق تكشف من حين لآخر عن أصابع إسرائيلية .

ذلك أن العراق كان قد انتهى فى منتصف سنة ١٩٨٨ من حربه مع إيران ، وقد خرج من هذه الحرب شبه منتصر . وكان اقتصاده منهكا بسبب هذه الحرب فقد كلفته مائة مليار دولار (كما كلفت إيران مبلغا مساويا) حسب ما جاء فى تقارير نشرت فى ذلك الوقت . ومع هذا الإنهاك الذى كانت تسعى إليه الولايات المتحدة (بدليل أنها كانت تبيع السلاح للطرفين) ، ومع امتلاء الخليج بأساطيل أمريكا وانجلترا وفرنسا (والاتحاد السوفييتى أيضا) انتهازا لفرصة الحرب ، ومع توالى بضعة أحداث تمس الصراع العربى الإسرائيلى ، أصبح الجو مهيئا للإيقاع بالعراق فى شرك يبرر اصطياده لتفريغ انتصاره من أى مضمون قد يرغب العراق (وبعض العرب) فيه. هكذا ، مع أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠ بدأت حملة إعلامية منظمة فى الغرب ضد العراق . وعلق العراق على ذلك بالقول بأن هذه الحملة تأتى تمهيدا لهجوم عليه بوساطة إسرائيل أو بتحريض منها . وتوالت أحداث وأقوال مريبة من أطراف متعددة . ثم إذا بنا فجر اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ وقد احتلت الجيوش العراقية الكويت . وهكذا وقع الصيد فى الشرك . كان هذا مبررا كافيا لمجيء الجيوش الأمريكية إلى المنطقة ، بدعوى معلنة مؤداها طرد العراق من الكويت ، وبهدف غير معلن مؤداه وضع اليد بالقوة العسكرية المباشرة على أهم مصادر النفط فى العالم ، وهدف آخر أشد خفاء هو تحريك الخطوط الأمامية لما درجت أمريكا على تسميته بالأمن القومى الأمريكى إلى الحافة الجنوبية للاتحاد السوفييتى / الروسى ، والحضور المباشر فى أرض الشرق الأوسط العربى الذى تتوالى فيه النذر بقلاقل تحررية . هذا عن البند الثانى ، وهو يكشف كذلك (ولكن من وراء حجاب تمويهى) عن الأصابع الأمريكية متآزرة مع الجهود الإسرائيلية .

السياق العالمى

أما البند الثالث فيتناول بقية السياق العالمى ، وقد تجمعت معظم خطوط الفعل فيه حول بؤرتين ، تختص أولاهما بالصراع الفلسطينى الإسرائيلى ، وتختص الثانية بردود الأفعال إنهاء الحدث العراقى/ الكويتى..

فقد اندلع الغضب الفلسطينى الأول فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٨٧ ، وبخل الإعلام العالمى عليه بأن يسميه ثورة ، وقال إنه «انتفاضة» ، وفى تلك الأيام ، صيغ فى الإعلام كذلك تعبير «أطفال الحجارة» ، لأن الشباب الفلسطينيين كانوا يرجمون الإسرائيليين بالحجارة .

ومنذ البداية لجأت إسرائيل إلى قواتها المسلحة لمقاومة «الانتفاضة» . وفى نوفمبر سنة ١٩٨٨ اجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر ، وفى هذا الاجتماع أعلن عن قيام السلطة / الدولة الفلسطينية ، وبدأت بعض الدول (الأعضاء فى الأمم المتحدة) تعترف بالوجود الدولى لهذا الكيان الجديد ، وسرعان ما طلب ياسر عرفات تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة لعرض القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة ، ورفضت الإدارة الأمريكية منحة التأشيرة ، وأثار هذا الرفض نقدا شديدا من عدد من الدول. وقررت الأمم المتحدة الانتقال إلى چنيف حيث تجتمع للاستماع إلى شكوى ياسر عرفات ، وانتقلت واجتمعت واستمعت فعلا للشكوى فى چنيف ، وكان ذلك فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٨٨ . وبدهى أن هذه التحركات كانت تتم على غير هوى الولايات المتحدة ومن ورائها إسرائيل. وفى مايو ١٩٩٠ طلب ياسر عرفات تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ليعرض على مجلس الأمن شكواه من تعسف إسرائيل فى تصديها المسلح للفلسطينيين فى «انتفاضتهم» . ومرة أخرى رفضت الإدارة الأمريكية إعطاءه التأشيرة ، وقرر مجلس الأمن الانتقال إلى چنيف للاستماع إلى الشكوى ، وانتقل واجتمع واستمع فعلا ، وكان ذلك فى ٢٥ مايو سنة ١٩٩٠ ، هذا ما كان من أمر الفلسطينيين وقضيتهم فى الثلث الأخير من الثمانينيات . ويكشف مجمل هذه التحركات عن قدر من الإرادة السياسية المخالفة للإرادة الأمريكية ، وربما كان المقام المشترك وراء الجزء العربى / الإسلامى من هذه التحركات (التى تتراوح بين التحدى والعشم) هو محاولة تحصيل ما يعتبر مكافأة على التعاون العربى / الإسلامى مع الغرب (ومع أمريكا بوجه خاص) فى دحر الغزو السوفييتى لأفغانستان . وربما كان القاسم المشترك الأعظم وراء مجموع التحركات (العربية / الإسلامية) والدولية عموما هو أنها صدرت كرد فعل للحظة مفصلية فى التاريخ بين عهد يزول (عهد الحرب الباردة) وعهد يبزغ ولا يزال فى مرحلة سيولة ومن ثم يمثل فرصة لبزوغات جديدة لإرادات غير متأمركة . على أية حال ، هذا ما كان من أمر الجزء الأول (الفلسطينى الإسرائيلى) من البند الثالث .

أما غزو الكويت بوساطة الجيش العراقى فكان حدثا بالغ السوء بكل المعايير : وكان أسوأ ما فيه أنه أعطى للولايات المتحدة ذريعة لإرسال عشرات الآلاف من جنودها إلى المنطقة ، وحشد جزء كبير من الرأى العام الغربى لمساندتها فيما سوف تقدم عليه ، وإحداث فرقة معلنة بين دول العالم العربى / الإسلامى ، بل وبين قطاعات الرأى العام بعضها البعض داخل المنطقة العربية / الإسلامية . وقد رأيت فى هذا الحدث (العراقى الكويتى) برمته

فى تلك الأيام أنه يعيد التوازن للحسابات الأمريكية / الإسرائيلية فى مواجهة ما كان من إعلان قيام السلطة / الدولة الفلسطينية ، وما ترتب على هذا الإعلان من تحركات فى دوائر الأمم المتحدة ومجلس الأمن، كما أنه (الحدث نفسه) يأتى مناسبا لبذل الضغوط اللازمة لإعادة هيكلة هذا الجزء من العالم فى صالح القطب الواحد .

وماذا عن مصر ؟

لم يكن هناك بد من أن تشارك مصر فى مجموع الأحداث العالمية التى جرت فى المنطقة العربية فى الفترة التاريخية التى نحن بصددها . لكننى أتجه فى هذا الجزء من المقال إلى النظر فى بعض الأحداث المصرية ذات التوجه الداخلى ، لا إلى الأحداث المصرية المتوجهة إلى الخارج .

ففى فترة الثلث الأخير من الثمانينيات جرت فى مصر وبالتوازى مع الأحداث العالمية أمور أقل ما يقال فيها إنها لم تكن مرضية ، وأسوأ ما توصف به أنها تثير فى النفس من الأسف ما يلقى بظلال كثيفة على الحاضر والمستقبل المنظور ، لأنها تتعارض ومعانى إرادة الرقى المجتمعى ، وإلى القارىء بعض ما جرى من هذه الأمور . فى مطلع الفقرة التى نحن بصددها (مايو سنة ١٩٨٨) نشرت مجلة الأهرام الاقتصادى سلسلة من المقالات والتحقيقات عن المخالفات المالية والائتمانية الخطيرة التى ارتكبتها شركات توظيف الأموال . وكانت هذه المادة بمثابة دعوة موجهة إلى الدولة للتدخل وإيقاف هذا العبث . وفى يونيه من العام نفسه أمكن للحكومة أن تستصدر من مجلس الشعب (بصعوبة شديدة) قانونا يخضع هذه الشركات لرقابة الدولة ولقواعد تنظيم الأعمال المصرفية ، وقيل حينئذ إن الصعوبات التى لقيتها الحكومة فى هذا الصدد كانت ترجع إلى أن عددا من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب كانوا ممن يستثمرون أموالهم فى تلك الشركات . وقيل إن بعضهم كان يتلقى من هذه الشركات رواتب شهرية تصل أحيانا إلى ١٠٠٪ من إسهاماتهم فيها، على أساس أن هذه الرواتب أرباح لهذه الإسهامات ، وهو أمر بالغ العبث بكل المقاييس المصرفية والاقتصادية . ثم دخلنا بعد صدور القانون فى معركة استصدار اللائحة التنفيذية للقانون . أرجو أن يلاحظ القارىء أن هذه الفترة بالضبط هى الفترة التاريخية التى كانت تتقرر فيها ، على صعيد الأحداث العالمية ، تحولات كبرى فى مصير العالم . ففى منتصف سنة ١٩٨٨ كان جورباتشوف وريجان يجتمعان للتوقيع / معاهدة للقضاء على الصواريخ متوسطة المدى ، وفى سنة ١٩٨٨ أيضا كانت هناك اضطرابات تحررية تجتاح تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وألمانيا الشرقية ، وكان المجلس الوطنى الفلسطينى يجتمع فى الجزائر لإعلان

السلطة / الدولة الفلسطينية ، وكان «أطفال الحجارة» فى الانتفاضة / الثورة يلقون العذاب على أيدى الغاصبين الإسرائيليين . فى هذا الوقت بالذات يدفع المواطن المصرى دفعا إلى مناقشة ألف باء العمل المصرفى كما ينبغى أن يكون بصورته القانونية ، وتلقى الحكومة كل العنت فى استصدار القانون لهذه الألف باء من مجلس الشعب !!

هكذا تقضى سلوكيات البعض بأن يظل البلد واقعا «محلك سر» عند نقاط حدودية بين التخلف والمعاصرة ، فى عالم تلهث فيه الأحداث وراء مستقبل تكاد تنفرد الدول المتقدمة بصنعه .

وفى الفترة نفسها حدثت عدة أحداث داخلية لم يكن لها سوى دلالات مكئبة إذا نظرنا إليها على محك إرادة الرقى المجتمعى . ففى مايو سنة ١٩٨٨ شهدت محكمة جنايات القاهرة معركة بالأيدى (وأنا أنقل هنا عن جريدة الأهرام) بين «مجموعة من ضباط الشرطة كانوا متهمين فى قضية تعذيب ، وعدد من المحامين عن المدعين بالحق المدنى .. مما دفع هيئة المحكمة إلى الانسحاب حتى تمكنت فرق الأمن من السيطرة على القاعة ..» .

(الأهرام فى ١٢ مايو) . وفى مارس سنة ١٩٨٩ ثارت مجموعة من المحامين على مجلس الإدارة فى نقابتهم فاحتلت مقر النقابة وأفلت الزمام من الجميع لنصبح أمام شجار جسدى متخلف وانتهى الأمر بتدخل رجال الشرطة . وفى الشهر نفسه وقع حادث مماثل داخل مقر حزب العمل الاشتراكى . وفى الشهر ذاته أيضا وقعت واقعة مماثلة داخل مجلس الشعب بين بعض نواب المعارضة وممثلى الحكومة .

هنا ، فى هذا الموضع من المقال الراهن تبدو أهمية أن ننظر فى أحوالنا من حين لآخر بهذه النظرة الاسترجاعية ؛ فالأحداث عند وقوعها تقع متفرقة فى المكان والزمان ، وهو ما يثير الصعوبات أمامنا فى تقييمها (وفهم دلالتها ويجعلنا أقرب إلى أن ندرك كلا منها على حدة وكأنها عالم مستقل عما قبله وما بعده . أما عندما نسترجع سيرنها ونضعها جنبا إلى جنب على هذا النحو فالفهم والتقييم ميسران ، مالم نكن مصرين على مغالطة أنفسنا قبل مغالطة الغير . إن أقل ما توصف به وقائعنا الداخلية المؤسفة التى ذكرتها فى السطور القليلة الماضية أنها تنطوى على سلوكيات لا تقيم وزنا للقانون ، أو تشير إلى تزايد التوجه إلى أن يأخذ كلٌ منا «حقه بدراعه» ، وهى بهذا تدل على تدنى هيبة القانون في النفوس إلى مستوى ذى تأثير تدميرى بالغ فى حياة الأمة . فإذا أضيفت هذه الأحداث إلى موضوع شركات توظيف الأموال وحاولنا أن نستخلص ما وراء هذه المفردات جميعا من حصيلة دلالية فللقارئ أن يفكر فى

الناتج المتوقع ، وأن يقدر أى جهد يلزمنا أن نبذل (جهد وعى وجهد عمل) حتى نستطيع أن نواكب الركب العالمى فى حركته التى لا تتوقف ولا ترحم !

كيف أبصرت طريقى ؟

استمرت حياتى موزعة بين النشاط العلمى، والالتزام الاجتماعى ، والأسفار إلى الخارج . إلا أن تلك الفترة التاريخية تميزت عندى ببروز مقتضيات الالتزام الاجتماعى بصورة لافتة للنظر ؛ ففى مايو سنة ١٩٩٠ منحتنى جمعية علم النفس البريطانية (وأنا عضو عامل فيها أصلا) لقب أخصائى إكلينيكى معتمد ، وهو ما يعنى فى عرف التخصص اعترافا له وزنه فى مجال الممارسة العيادية . وفى يونيه سنة ١٩٩٠ منحت جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية . وفى يوليه سنة ١٩٩٠ شرفت برئاسة لجنة المستشارين العلميين المنبثقة عن «المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان» ، وبدأنا العمل فعلا ، الأساتذة الزملاء وأنا ، فى وضع خطة قومية بعيدة المدى فى هذا المجال . هكذا جاءتنى فى هذه الفترة المحدودة ثلاثة اعترافات بأدوار أقوم من خلالها بتوظيف علمى فى خدمة الحياة الاجتماعية ، واعتبرت هذا الذى تلقيت بمثابة جرعة مكثفة ، فيها الكفاية وأكثر ، لتجديد حالة الرضى فى نفسى عن توجهى العلمى / الاجتماعى الذى اخترت الانخراط فيه منذ بواكير الشباب .

أما عن أسفارى فقد اتصلت ، وكان من أبرزها فى تلك الفترة سفرتان ، إحداهما إلى منظمة العمل الدولية فى جنيف ، للتعاون مع فريق من خبرائها فى تقديم برنامج لتدريب عدد من العاملين فى مجالات الوقاية والعلاج وإعادة التأهيل من آثار تعاطى المخدرات وذلك فى اثنتى عشرة دولة عربية . وكانت السفرة الأخرى للإسهام فى الموسم الثقافى الذى تعقده جامعة الكويت ، وقد أسهمت فيه بمحاضرة عن «رسالة العلماء الوطنيين فى الوطن العربى» .

وإلى جانب الأسفار ومتعلقات الالتزام الاجتماعى استمرت نشاطاتى العلمية (أخذا وعطاء) على إيقاعها المعهود ، واستمر تحركى فى هذا الصدد بين العربية والانجليزية .

وكان أهم ما تفرغت لكتابته فى تلك الفترة مجلدا بالعربية يتألف من خمسة أجزاء أعرض فيه النتائج المفصلة لبحث ميدانى أنجزناه أنا وفريق الباحثين العاملين معى حول تعاطى المخدرات فى حدود عينة كبيرة من التلاميذ البنين فى مدارسنا الثانوية المصرية ، وكان فى مقدمة الأمور التى تروقنى فى إنجاز هذا العمل (من حيث الكيف لا من حيث الكم) إنه باعتباره حصيلة جهد علمى جماعى منضبط يصلح أن يقدم رمزا لمصر الجادة . ■

نكد العولمة

بقلم
د. جلال أمين

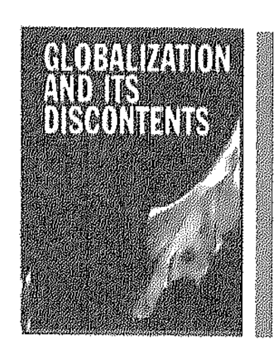
ما أكثر ما كتب اقتصاديون ينتسبون للعالم الثالث ، فى نقد العلاقات الاقتصادية الدولية السائدة، وصندوق النقد والبنك الدوليين، ولكن كم كان صدى هذا النقد ضعيفا وما أقل استجابة هاتين المؤسستين له. كانت هذه الانتقادات تعامل من جانب المهيمنين على النظام الاقتصادى أو المشتغلين بمثل هذه المؤسسات باستهانة تثير الغيظ وبتكبر وتعال، هذا بفرض أنهم تنازلوا وقاموا بالرد على هذه الانتقادات أصلا.

اقرأ مثلا ما كتبته مجلة مثل الايكونوميست البريطانية عن مظاهرات سياتل احتجاجا على سياسات التجارة الدولية ومنظمة التجارة العالمية فى نوفمبر ١٩٩٩، أو فلتتذكر الردود التى قابل بها رجال صندوق النقد الدولى ما وجه إليهم من نقد عندما وقعت أزمة جنوب شرقى آسيا فى ١٩٩٧، أو عندما قامت مظاهرات الارجنتين فى العام الماضى احتجاجا على ما جلبه اتباع توجيهات الصندوق من مآس للشعب الأرجنتينى، أو السهولة التى يتعامل بها رجال الصندوق مع سقوط «معجزة» بعد أخرى من المعجزات التى زعموا المرة بعد الاخرى أن سياساتهم وتوجيهاتهم تؤدى إليها، فإذا

GLOBALIZATION
AND ITS
DISCONTENTS
JOSEPH
STIGLITZ
Winner of the Nobel Prize
for Economics 2001

بهم يجدون لكل سقوط تفسيرا غير اتباع هذه التوجيهات، ويجدون دائما اعذارا ومسببات يلقون عليها بمسئولية الفشل. حدث هذا فيما يتعلق بمعجزة البرازيل ومعجزة أندونيسيا ويحدث الآن فيما يتعلق بمعجزة تركيا .. الخ.

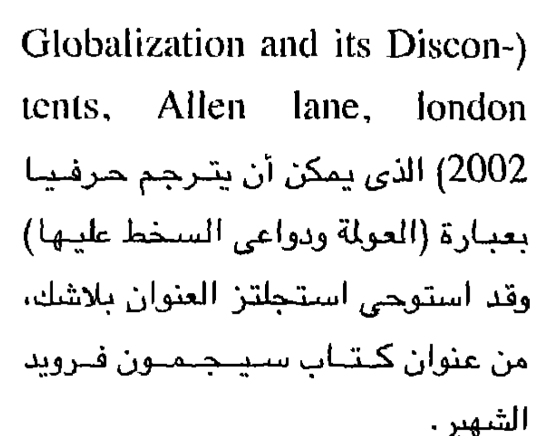
كان كل هذا يثير الغيظ والحنق، ولكن أخيرا جاءت الشهادة من واحد من أهلها، فوضع الحق فى نصابه وانتصر للحق الذى طالما نطق به المظلومون فلم يستمع إليهم أحد. حدث هذا بظهور كتاب لاقتصادى أمريكى شهير حصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى العام الماضى، وهو جوزيف استجلتز (Joseph Stiglitz) فأحدث ظهوره منذ شهور قليلة ضجة كبرى مازالت قائمة حتى الآن، ولم تستطع أى مؤسسة من الموسسات المناصرة لصندوق النقد الدولى أن تتجاهله، وهبت مجلة الايكونوميست البريطانية، الناطقة بنفس الفلسفة التى ينادى بها الصندوق، مذعورة تسب وتشتم هذا المؤلف الذى خان



أصدقاءه وتنكر للعقيدة التى يدينون بها.

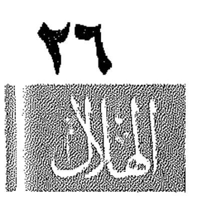
كان جوزيف استجلتز قد قضى الجزء الأكبر من حياته المهنية أستاذا وباحثا أكاديميا حتى لا تكاد تكون هناك جامعة أمريكية واحدة من جامعاتها الكبرى وأكثرها عراقة، لم يشغل فيها استجلتز كرسى الأستاذية، ثم اختاره الرئيس الأمريكى السابق كلينتون عضوا ثم رئيسا لمجلس مستشارية الاقتصاديين، ثم شغل فى أواخر التسعينات منصب كبير الاقتصاديين فى البنك الدولى ، وكأنه بقبول هاتين الوظيفتين الأخيرتين أراد أن يرى بعينيه ويلمس بيده كيف تتم صياغة السياسات الاقتصادية فى الواقع بعد أن ظل سنوات طويلة غارقا فى العمل الأكاديمى، يفكر فى النظريات ويصوغ الأفكار التى قد تكون بعيدة عما يجرى فى الحياة الواقعة.

ومن المؤكد ، كما يتضح لدى قراءة هذا الكتاب الأخير، ان الذى رآه فى الحياة الواقعية لم يعجبه، وهو ما يتضح أيضا من العنوان الذى اختاره للكتاب


(Globalization and its Discontents, Allen lane, london 2002) الذى يمكن أن يترجم حرفيا بعبارة (العولمة ودواعى السخط عليها) وقد استوحى استجلتز العنوان بلاشك، من عنوان كتاب سيجمون فرويد الشهير.

(Civilization and its Discontents) الذى أيضا أن يترجم حرفيا بعبارة (الحضارة ودواعى السخط عليها) ولكن من الممكن أيضا استخدام كلمة (النكد) فى ترجمة كلا العنوانين، نكد الحضارة فى حالة فرويد ونكد العولمة فى حالة استجلتز، فكلمة «النكد» تعبر تعبيرا جيدا عما يدور فى ذهنه، وحيث أن معظم الانتقادات ودواعى السخط التى يذكرها الكتاب موجهة الى صندوق النقد الدولى، فكلمة «النكد» لا تخلو من طرافة. إذ ما أكثر ما استخدمت هذه الكلمة فى التعبيرات الجارية فى مصر عند الاشارة إلى المآسى التى تجلبها سياسات هذا الصندوق، حتى ورد مرة فى حديث لرئيس الجمهورية المصرى اشارة سافرة الى الصندوق بانه «صندوق النكد الدولى»!

فما هذا الذى يغضب استجلتز فى العولمة بصفة عامة ، ومن صندوق النقد



الدولى بالذات؟

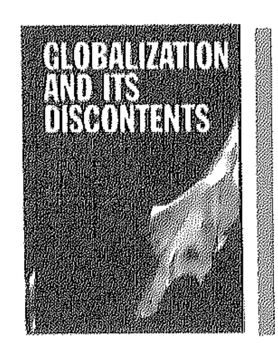
ليست شرا مطلقا ولا خيرا مطلقا

أما العولمة فاستجلتز يرى بحق أن العولمة لا يمكن اعتبارها خيرا مطلقا ولا شرا مطلقا. وهى على أى حال شىء حتمى لا فرار منه. ولابد أن نتفق مع استجلتز فى هذا، فالعولمة هى فيما يبدو النتيجة الطبيعية للتطور التكنولوجى والتطور التكنولوجى هو بدوره نتيجة طبيعية لذلك الحافز القوى الكامن فى الإنسان ويدفعه باستمرار إلى محاولة اكتشاف أى وسيلة جديدة من شأنها تخفيف أعباء الإنتاج ومشاق الصراع من أجل الحياة. هذا التطور التكنولوجى لابد أن يؤدى - ببطء أحيانا وبسرعة أحيانا أخرى، إلى مزيد من التقارب بين الناس (ولو تقاربا ماديا بحتا) وتضاؤل المسافات الفاصلة بين الأمم (المسافات المادية وغير المادية)، وهذا لابد بالضرورة أن يكون خيرا من نواح وشرا من نواح أخرى. العولمة، أو بتعبير أدق، الارتفاع المستمر فى معدل العولمة هى فيما يبدو لى ظاهرة طبيعية مثل هبوب الريح، وهبوب الريح قد يساعد القارب الشراعى على الوصول الى هدفه بسرعة أكبر وعناء أقل، ولكنه أيضا قد يؤدى إلى التهلكة. النتيجة تتوقف على عدة أمور، ليس فقط على قوة الريح، بل وأيضا على حجم القارب ووزنه، ونوع الشراع المستخدم ومدى ملاءمته ، وربما الأهم من هذا أو ذاك، كفاءة الملاح وذكائه.

لابد إذن أن نتفق مع استجلتز عندما يقول أن المهم فى تحديد النتيجة الصافية للعولمة هو مدى كفاءة الإدارة (Managemnent) بأوسع معانى «الإدارة» بالطبع، أى كيفية التعامل مع الظاهرة والتحكم فيها وتوجيهها الوجهة المطلوبة.

صندوق النقد الدولى وإدارة العولمة

ولكن الجزء الأكبر من الكتاب، وعلى الرغم من عنوانه، لا يناقش العولمة بوجه عام ، بل طريقة تعامل المؤسسات المالية الدولية وبالذات صندوق النقد الدولى مع مقتضيات العولمة، أو بعبارة أخرى مع المكونات الاقتصادية للعولمة، أى حركة السلع والخدمات (التجارة) وحركات رءوس الأموال، من معونات وقروض واستثمارات، وفى رأى استجلتز، وهذا هو الذى أثار الدنيا وجلب كل هذا الاهتمام بالكتاب، أن صندوق النقد الدولى بطريقة إدارته للعولمة، قد عاث فى الدنيا فسادا، وأن تدخله فى دولة بعد أخرى من الدول التى اضطرت إلى اللجوء اليه، لم يأت إلا بالكوارث



الاقتصادية والاجتماعية.

إن سبب قدرة الصندوق على إحداث هذه الكوارث لا ينبع فقط من قدرة الصندوق على المنح والمنع، فقدرات الصندوق المالية هى فى نهاية الأمر محدودة بالمقارنة بحجم ما تحتاجه الدول التى تتعامل معه، وإنما يرجع السبب إلى نفوذ الصندوق والأثر الذى يحدثه موقفه من دولة ما، على ما تتخذه المؤسسات الأخرى، دولا ومصارف وشركات، من نفس هذه الدولة. فالصندوق عن طريق ما يعطيه للدولة التى تتعامل معه من «شهادة حسن سير وسلوك» أو برفضه إعطاءها هذه الشهادة، يستطيع أن يفرض إرادته على الدولة وهذا الفرض لإرادة الصندوق هو فى نظر استجلتز سبب الكوارث والنوائب. لماذا بالضبط؟

مؤسسة تسيطر عليها الأصولية

يمكن صياغة الإجابة على هذا السؤال صياغات مختلفة، ولكنها كلها تصب فى النهاية فيما يلى.

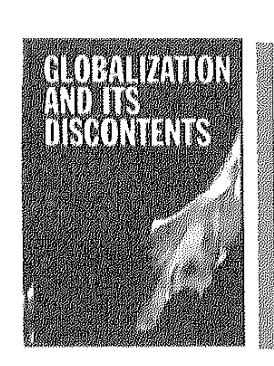
صندوق النقد الدولى فى رأى استجلتز مؤسسة تسيطر عليها أيديولوجية معينة لا تحيد عنها، وتحكم قراراتها وتصرفات العاملين بها . وهى مثل أى أيديولوجية ، لم تتكون نتيجة تفكير علمى وموضوعى محايد، بل نتيجة موقف مسبق قد لا تبرره الظروف الموضوعية ولا يستقيم دائما مع ما يتطلبه الواقع إنها أصولية (Fundamentalism) بمعنى الكلمة واستجلتز يستخدم بالفعل هذا التعبير دون تردد، والموقف الأصولى قد يصيب أحيانا ولكنه كثيرا ما يخطىء .

ولكن الأمر فى نظر استجلتز أسوأ من هذا، إذ أن دوافع الصندوق، ليست دوافع أخلاقية أو روحية، كما فى حالة بعض الأصوليين الآخرين، وإنما هى دوافع كثيرا ما تكون لا أخلاقية، تتعلق بمصالح اقتصادية لذوى القوة والبأس. فالصندوق إذن كثيرا ما يستلهم قراراته من «واشنطون» أو من «وول ستريت»، أى من مصادر اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الخاضعة لنفوذ أصحاب المصالح المالية والاقتصادية الكبرى ، فإذا فرضت مثل هذه القرارات على دولة من دول العالم الثالث، فإن النتيجة كثيرا ما تكون لغير صالح هذه الدولة بل قد تؤدى إلى كارثة محققة.

والذى يدفع الثمن، ثمن تطبيق هذه القرارات، هم فى رأى استجلتز، فقراء العالم الثالث ، لا أغنياؤه وأولى الأمر وأصحاب النفوذ فيها. فهؤلاء الفقراء هم الذين يتحملون مغبة سياسات الصندوق سواء فى صورة قبض يد الدولة عن التدخل لصالحهم، وإلغاء أو تخفيض ما يقدم من دعم للسلع والخدمات الضرورية ، من صحة وتعليم وسكن.. إلخ.. وشيوع البطالة وارتفاع أسعار الواردات الضرورية، أو زيادة معدلات الضرائب وفاء بديون لم تكن لها ضرورة أو تخفيضا لعجز فى الموازنة ليس من المصلحة دائما تخفيضه.. الخ.

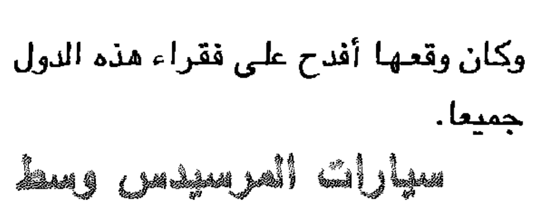
قوى السوق وتدخل الدولة

الصندوق لا يريد أن يعترف ، كما يقول استجلتز، فإن الاعتماد على قوى السوق ليس دائما هو الحل الأمثل. ولا يريد أن يعترف أن هناك حالات كثيرة تستوجب تدخلا من جانب الدولة لإصلاح ما أفسده السوق، أو لسد الثغرات التى تركها السوق دون علاج ، أو باستخدام مصطلحات النظرية الاقتصادية، لمواجهة تناقض السوق (Market imperfections) وحالات «فشل السوق» (Market failuvr) إن النظرية الاقتصادية ، ومعها الصندوق، تعترف بالطبع بوجود مثل هذه الحالات ولكن النظرية كما تعرضها المدرسة الكلاسيكية الحديثة وهى التى لازالت تسيطر على تدريس علم الاقتصاد فى العالم بأسره، تفترض صراحة أو ضمنا، أن هذه الحالات (حالات النقص أو الفشل فى نظام السوق) هى حالات عارضة سرعان ما تصلح نفسها بنفسها ولا تتطلب تدخلا من جانب الدولة. استجلتز يرفض هذا رفضا حاسما، كما رفضه من قبل الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز، فى الثلاثينيات من القرن العشرين، واضطر الجميع إلى الأخذ برأيه ، قبل أن يعود أنصار قوى السوق إلى السيطرة على الحياة الأكاديمية ومصادر صنع القرار على السواء. يقول استجلتز الآن، كما قال كينز من قبل، إن تدخل الدولة ضرورى للتنمية ولمكافحة البطالة ولإعادة توزيع الدخل وللقضاء على أسوأ صور الفقر والعوز ولحماية بعض الصناعات.. الخ.. وهذا هو ما يرفضه الصندوق رفضا باتا يترتب على هذا أن استجلتز يرى أن الخصخصة (أى بيع مشروعات القطاع العام) قد تؤدى فى بعض الحالات (وعلى الأخص إذا بيعت للأجانب) إلى أضرار أكبر من نفعها، كما أن الانتقال من نظام التخطيط وتدخل الدولة الصارم إلى نظام السوق، كما حدث بعد سقوط الشيوعية، يجب أن يجرى ببطء وبحذر. وإلا دفعت الدولة



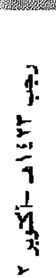
ثمنا باهظا فى صورة انخفاض شديد فى معدل النمو، وزيادة نسبة الفقراء والمعوزين، وارتفاع معدل البطالة، وشيوع الفساد، وهو ما حدث بالفعل. فى روسيا وبعض بلاد أوربا الشرقية الأخرى نتيجة تطبيق نصائح صندوق النقد الدولى الذى أوصى بسياسة (العلاج بالصدمة» (Shock Thera-py). ويرى استجلتز أن نجاح الصين حيث فشلت روسيا فى الانتقال الناجح من نظام تدخل الدولة إلى نظام السوق، يرجع إلى هذا التدرج وذلك الحذر اللذين التزمتهما الصين، فحققت تلك المعدلات الباهرة فى النمو. ولم تحدث مآس اجتماعية بالدرجة التى شهدتها روسيا ودول أخرى فى أوربا الشرقية.

ولكن استجلتز لا يلقى باللوم والمسئولية على صندوق النقد فيما حدث فى روسيا وأوربا الشرقية فقط، بل يرى الصندوق مسئولا عن حالات فشل كثيرة فى العالم، من الارجنتين الى افريقيا الى شرقى آسيا.. فحيث تدخل الصندوق وقعت اخطاء اقتصادية فادحة، وكان وقعها أفدح على فقراء هذه الدول جميعا.



سيارات المرسيدس وسط الفقر المدقع

استجلتز يكتب هذا بلغة بالغة الوضوح وأسلوب بالغ السلاسة ، ومن ثم فمن السهل على غير المتخصصين فى الاقتصاد استيعاب كل ما يقول . بل هو فضلا عن هذا يستخدم أحيانا أسلوبا شخصيا فى الكتابة يجعل الكتاب أقرب إلى قلب القارىء من المألوف فى الكتابات الاقتصادية. إن كل المعلومات التى يستخدمها مصدرها خبرة شخصية مباشرة، وليست مستمدة من تجارب الآخرين أو مما يقوله أو يكتبه غيره من المراقبين، وهو يمزج تحليله الاقتصادى ببعض المشاهدات الشخصية التى تضفى جاذبية على ما يقول. فى حديثه عن تجربة روسيا مثلا، يذكر كيف أنه ذهب لمعاينة الحال ومعه بعض زملائه من البنك الدولى فشاهد ، من بين ما شاهده، اكتظاظ الشوارع بالسيارات العاجزة عن الحركة من فرط كثرتها، تحمل الذاهبين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع إلى خارج موسكو، ولاحظ أن كثيرا من السيارات التى تكتظ بها شوارع موسكو ، من سيارات المرسيدس الفاخرة فعلق استجلتز على هذا مشيرا إلى المفارقة بين هذا المنظر،

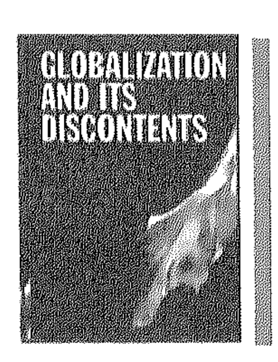


بالإضافة إلى اكتظاظ المحلات بالسلع الفاخرة المستوردة. وبين حالات الفقر والعوز الشديد التى بدأ يعانى منها فقراء الروس، وهم كثيرون، فى أعقاب سقوط الشيوعية. يقول استجلتز إنه بينما كانت نسبة الروس الذين يعانون من الفقر (أى الذين يحصلون على اقل من دولارين فى اليوم) لا تزيد على ٢٪ من السكان فى ١٩٨٩ ارتفعت هذه النسبة إلى ٢٣.٨٪ فى ١٩٩٨ (ص ١٥٣) عندما علق استجلتز على هذا عارضه زميله الذى يعمل فى البنك قائلا : «إن كثرة سيارات المرسيدس التى نراها دليل على ما جلبته السياسات الجديدة وترك الحرية لنظام السوق من رخاء». كان رد استجلتز على هذا بقوله «إن اكتظاظ الشوارع بسيارات المرسيدس فى بلد لايزيد متوسط الدخل فيه للفرد الواحدا على ٤٧٣٠ دولارا فى السنة (كما كان الحال فى روسيا فى ١٩٩٧) هو دليل على المرض والفشل الاقتصادى وليس دليلا على الصحة».

فما الذى يمكن أن يقوله استجلتز يا ترى تعليقا على نفس الظاهرة فى دولة كمصر لا يزيد متوسط الدخل فيها على ١٥٠٠ دولار فى السنة؟

ردود مجلة أمريكية على استجلتز

فى عدد ١٥ أغسطس ٢٠٠٢ من المجلة الأمريكية الشهيرة :«New york Review of Books» نشر عرض مفصل وتحليل ونقد لكتاب استجلتز، لخص فيه كاتبه (وهو بنيامين فريدمان الأستاذ بجامعة هارفارد) بأمانة ، رأى استجلتز وانتقاداته لصندوق النقد الدولى، ثم قدم بعض الرود على بعض هذه الانتقادات ، وانتهى إلى قوله إنه على الرغم من كل ما يمكن أن يقال فى الرد على استجلتز فإن كتابة يتضمن «بلا أدنى شك أقوى نقد تعرض له صندوق النقد الدولى وسياساته حتى اليوم» وقال إننا الآن فى انتظار ليس مجرد من يحاول الرد على هذا النقد أو ذاك من الانتقادات التى وجهها استجلتز . بل نحن فى انتظار كتاب يدافع عن سياسات الصندوق من أساسها وعن النظرة العامة التى يتبناها الصندوق فيما يدعو اليه. كما قال الكاتب ان المرجو أن ينهض بهذه المهمة اقتصادى كبير من وزن ستانلى فيشر Stanley Fischer الذى كان استاذا بمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا ، والذى شغل، خلال نفس الفترة التى يغطيها كتاب استجلتز، منصب النائب الأول لمدير صندوق النقد الدولى، ومن ثم يعتبره معظم المراقبين المسئول الأول عما طبقه الصندوق من اجراءات وسياسات خلال هذه الفترة.



ولكن فى انتظار هذا الدفاع الشامل، ما الذى يقوله بنيامين فريدمان نفسه فى الرد على استجلتز؟ إن ردوده تنحصر فى خمس نقاط:

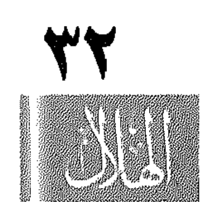
الأولى : هى أن الصورة التى يرسمها كتاب استجلتز للأحوال الاقتصادية فى الدول التى طبقت توجيهات الصندوق ليست فى الحقيقة بهذه الدرجة من السوء التى يصورها، ان هناك بعض أوجه التحسن التى لم يشر اليها استجلتز، ومعنى هذا أنه ليس صحيحا أن سياسات الصندوق لم ينتج عنها إلا الخراب، بل هناك أوجه النجاح إلى جانب أوجه الفشل.

والثانية : انه حتى بفرض أن الأحوال هى بهذا السوء، أليس من الممكن أن الأحوال كانت ستصبح أسوأ لو لم يتدخل الصندوق؟

والنقطة الثالثة هى ان صندوق النقد الدولى لم يفعل اكثر من انه تصرف مثلما تتصرف أى مؤسسة تقوم بإقراض الأموال أليس على أى مؤسسة مقرضة أن تفعل مثلما فعله الصندوق من فرض شروط معينة على المقترض؟وهى شروط لا يمكن ان تخلو من شدة وغلظة.

والنقطة الرابعة: ان استجلتز يتكلم كما لو كانت الدول الغنية، ومعها صندوق النقد مسئولة مسئولية اخلاقية عن مد يد المساعدة لفقراء العالم. ولكن الى أى مدى. هكذا يتساءل فريدمان، يمكن ان نعتبر أن هناك حقا مسئولية أخلاقية من هذا النوع، من جانب مواطنى دولة معينة. عن التخفيف من متاعب مواطنى دولة أخرى ؟ لقد ثبت من كتابات فلاسفة الأخلاق المحدثين من امثال جون رولز ان حسم هذه القضية هو أمر فى غاية الصعوبة، إن كان ممكنا على الاطلاق.

والنقطة الخامسة والأخيرة : إن كل الاعتبارات التى يثيرها استجلتز فى كتابة ويزعم أن سياسات الصندوق قد خرجت عليها، هى اعتبارات خلافية لا يتفق عليها الرأى بالضرورة . فإلى أى مدى يجب أن تعتبر مصالح الفقراء أهم من مصالح الدائنين ؟ وإلى أى مدى يجب أن يعتبر تخفيض معدل البطالة أهم من تخفيض معدل التضخم؟ وإلى أى مدى يجب أن تعتبر تحقيق تحسن



مباشر فى أحوال الفقراء أهم من رفع معدل النمو فى المدى الطويل.. الخ؟

دفاع عن موقف استجلتز

وأصارح القارىء بأن قرارة هذه الردود على كتاب استجلتز لم تنجح فى تغيير رأيى فى الكتاب ولا فى قوة ما يحتويه من انتقادات فمثلا لا أظن أن استجلتز نفسه سوف يرفض القول بأن هناك بعض مظاهر التحسن والتقدم، رغم تطبيق توجيهات الصندوق، ولكن دون ان يعنى ذلك اعفاء الصندوق من المسئولية عما حدث من أضرار.. وأما الزعم بأن أحوال كثير من بلاد العالم الثالث (وكذلك الدول التى تحولت من الشيوعية إلى نظام السوق) كان من الممكن أن تكون أسوأ فى حالة عدم تدخل الصندوق، فليس لدينا أى طريقة للقطع بصحته، ومن ثم نبقى مضطرين للحكم على سياسة الصندوق بناء على ما حدث بالفعل بعد تطبيقها ، مع استخدام ما نعرفه من مبادىء النظرية الاقتصادية لكى يعرف ما اذا كان من المحتمل أن تكون سياسات الصندوق هى المسئولة عما حدث من فشل وأعتقد أن استجلتز قدم فى هذا الصدد حججا مقنعة بما فيه الكفاية.

أما الردود الباقية فتتعلق بالأخلاق لا بالاقتصاد، وهنا يجب الاعتماد على الحس الأخلاقى لدى القارىء للفصل فيما إذا كان استجلتز على حق أو لم يكن هل يحس مثلا بمؤسسة مالية دولية تزعم أنها تعمل لصالح رفاهية الشعوب، ان تتصرف كما يتصرف الدائنون والمغرضون قساة القلب؟ هل يصبح من الناحية الأخلاقية ان تصرف الشعوب الثرية النظر، ومعها المؤسسات الدولية، عن مآسى غيرها من الشعوب، باعتبار أنها تنتمى إلى أمم أخرى أو ثقافات مغايرة او حتى ذات ألوان مختلفة للبشرة؟ وهل يصح حقا أن تعتبر الاختلاف حول أهمية الارتفاع بمستوى معيشة الفقراء والقضاء على البطالة بالمقارنة بتحقيق مصلحة الدائنين أو بتخفيض معدل التضخم، أو حتى برفع معدل النمو فى المدى الطويل، هل صحيح أن نعتبر مثل هذا الاختلاف مجرد اختلافا فى الأمزجة والأهواء ولا علاج له ولا طريقة لحسمه؟

بل وحتى إذا قبلنا كل هذه الردود، هل ينقذ هذا صندوق النقد الدولى مما وجهه إليه جوزيف استجلتز من اتهامات بالنفاق، والعناد، والمكابرة، والرضوخ لضغوط الأقوياء، والسكوت على مختلف مظاهر الفساد فى كثير من الدول التى يتعامل معها الصندوق، بل وبتشجيع هذا الفساد أحيانا؟ ■

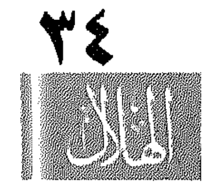
قراءة فى مذكرات عبد المنعم واصل...

هل تقوم جولة جديدة بين العرب وإسرائيل؟

بقلم
د. عاصم الدسوقى



بعد ثمانية وعشرين عاما على حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد فيض هائل من الكتابات عنها بأقلام عسكريين وسياسيين وصحافيين وعابرى سبيل أحيانا ، وبعد تنظيم عدة ندوات تناولت زوايا مختلفة عن الحرب عسكريا وسياسيا لعل أبرزها الندوة الاستراتيجية التى نظمتها هيئة البحوث العسكرية فى أكتوبر ١٩٩٨ بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على الحرب، كان لايزال فى جعبة قائد الجيش الثالث الميدانى الفريق عبدالمنعم واصل الكثير ليقوله عن هذه الحرب للتاريخ. لكنه آثر أن يؤرخ لها باعتبارها حلقة فى سلسلة الصراع العربى - الإسرائيلى منذ عام ١٩٤٨ الذى اصطلح على تسميته بعام النكبة. ومن هنا جاء كتابه مزيجا من الذكريات والمذكرات تخفق سطوره بحب عميق للوطن وإيمان مطلق بحق الفلسطينيين فى وطن ودولة أصدره فى عام ٢٠٠٢ فى أكثر من أربعمائة صفحة مزود بالخرائط والصور



وتبدو أهمية ما كتبه الفريق واصل فى عدة نقاط لعل أبرزها أنه جاء بقلم عسكرى محترف تعلم مبادىء العسكرية وفنونها، وشارك فى المعارك منذ الحرب العالمية الثانية حين كان قائدا لفصيلة خيالة، وتحصل على خبرات عالية من الغرب والشرق فى قيادة الدبابات حين تم إيفاده فى بعثة عسكرية لإنجلترا فى ١٩٥٠ وللولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٥٢ ثم إلى الاتحاد السوفييتى فى ١٩٥٨. وهذا ما يميزه عن بعض الكتاب الذين صبغوا كتاباتهم عن الحرب بلون السياسة بين الأبيض والأسود فى أحيان كثيرة والرمادى فى أحيان قليلة، فكانت كتاباتهم سببا فى تدمير عقل القراء وخاصة بين الشباب وإصابة تفكيرهم بكثير من الاضطراب والتشويش. ولعل إزالة هذا التشويش والاضطراب كان أحد أهداف عبدالمنعم واصل من الكتابة. ومن هنا حرصه على تسجيل الخطط العسكرية وتوضيح طبوغرافية المواقع العسكرية وتقدير القوة العسكرية بالتفصيل ودون مداراة حتى يكون القارىء على بينة من الأسباب والنتائج.

ومع هذا فمن الملاحظ أن واصل حرص على أن يكون متوازنا فى أحكامه كما سوف نرى، لا يريد أن يتورط فى الاشتباك الدائر مثلا حول هزيمة يونية ١٩٦٧ بين المسئولية السياسية (عبدالناصر القائد الأعلى ورئيس الجمهورية) والمسئولية العسكرية (المشير عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة). ويختار كلماته فى النقد السياسى والانتقاد بعناية مفرطة، ولكنه فى المسائل العسكرية يكون حاسما وقاطعا بخبرة رجل الميدان.

وهذا الكتاب الذى هو أساسا مذكرات وذكريات ميدانية يصبح فى بعض الصفحات مرجعا عاما حين يتناول الإطار السياسى المحلى والإقليمى والدولى لطبيعة الصراع ومعاركه، وهو أمر مطلوب على كل حال رغم عدم جدته، حتى لا تأتى الوقائع العسكرية منعزلة عن إطارها السياسى نظرا للتأثير المتبادل بين القرار السياسى والحركة العسكرية، وحتى يدرك القارىء طبيعة الأمور وحقيقة التوازن بين مسئولية القرار وعبء التنفيذ.

معيار العمل العسكري الناجح

ومن واقع خبرة العمل الميدانى (الدروس المستفادة) يضع عبدالمنعم واصل معيارا للعمل العسكرى الناجح ويتلخص فى وجود خيط رفيع بين السياسة وبين العسكرية فى الميدان، وعدم الالتزام به يؤدى إلى الهزيمة أو التعثر، على حين أن الالتزام به يؤدى إلى النصر. وقد قام بتطبيق هذا المعيار على كل معارك الصراع. وفى هذا يقول: إن القائد فى ميدان المعركة هو الأقدر على تقدير موقفه، وعلى كل من القيادة العامة



جمال عبد الناصر مع قادة وحدات الفرقة الرابعة المدرعة بعد انتهاء أحد المشروعات التكتيكية

العسكرية والقيادة السياسية العليا تقدير هذا المبدأ واحترامه والعمل على معاونة قائد الميدان على تنفيذ قراره.

وأما الهدنة أو قرار وقف إطلاق النار فإنه عملا سياسيا بالدرجة الأولى، وبالتالى فإنه يتصف بما تتصف به السياسة بصفة عامة من «التفاوض والمراوغة والخداع واختلاق الأسباب والأعذار للتنصل من المسئوليات لكسب الوقت لتغيير ميزان القوى، وعلى القيادة السياسية أن تكون مستعدة لاستمرار القوات فى القتال لعدة ساعات أو أيام تحت أى أسباب لتحقيق أوضاع عسكرية أفضل دون التورط فى إغضاب المجتمع الدولى». ومن استعراضه لمعارك الصراع اكتشف عدم الالتزام بالحدود بين ما هو سياسى وما هو عسكرى مما كان سببا فى الهزائم أو عدم اكتمال النصر بالمعنى الاستراتيجى.

والصراع العربى - الإسرائيلى عند عبدالمنعم واصل ذلك المحارب المحترف واضح تمام الوضوح ولا يقبل فيه أنصاف الحلول لأنه صراع وجود وليس صراع حدود، إذ ليس أمام العرب منذ إقامة إسرائيل فى تقديره إلا أحد اختيارين «إما القبول بالقيادة السياسية والاقتصادية الإسرائيلية كما أعلن الرئيس الأمريكى جونسون بعد الخامس





زيارة وفد عسكري للاتحاد السوفيتي في ١٩٧٢ للتعرف على مطالب مصر من السلاح

من يونية ١٩٦٧ من أن على العرب أن يبتلعوا ألسنتهم فى حلوقهم ويقبلوا الحياة فى هذه المنطقة تحت قيادة إسرائيل وبرعاية أمريكا، أو إغراق المنطقة العربية فى سلسلة الحروب والصراعات التى تفتت بدورها وحدتها وتستنفد قدراتها الاقتصادية والبشرية».

فى حرب ١٩٤٨ ورغم وقوع معظم العرب تحت النفوذ البريطانى - الفرنسى بدرجات متفاوتة، وضعف الانتماء للحق الفلسطينى عند العرب فى مقابل قوة الانتماء لدى اليهود بحقهم فى وطن، ورغم عدم وجود تنسيق عسكرى بين القوات المصرية والأردنية والعراقية والسورية واللبنانية، إلا أن القوات المصرية كانت على بعد ثلاثين كيلو مترا جنوب تل أبيب، والقوات العراقية كانت على مسافة ستة عشر كيلو مترا إلى الشرق من تل أبيب وذلك فى أقل من شهر على بدء القتال. وهذا يفسر فرض الهدنة فى ١١ يونيه ١٩٤٨ حيث نجحت إسرائيل فى تعديل مواقعها بالمخالفة لشروط الهدنة إلى أن تم توقيع هدنة رودس فى فبراير ١٩٤٩.

وفى حرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثى) كان الضباط الأحرار الذين اشتركوا فى حرب ١٩٤٨ وتعرضوا للحصار فى الفالوجا هم الذين قادو حركة التغيير

السياسى فى مصر فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالاستيلاء على الحكم، ودخل الحكم الجديد فى أكثر من صراع. فهناك المفاوضات مع الانجليز بشأن الجلاء، وهناك المواجهة مع الاخوان المسلمين، ومع عناصر النظام القديم، ومع بعض رفاق السلاح (أزمة مارس ١٩٥٤). وهناك استفزازات إسرائيل وأبرزها الهجوم على غزة (٢٨ فبراير ١٩٥٥) لدفع مصر فى طريق المواجهة. غير أن عبدالناصر الذى كان يسعى فى ذات الوقت لتقوية الجيش عددا وعدة، وتعاكسه إنجلترا وأمريكا فى هذا السبيل، جعله لا يدفع بقوات نظامية غير مستعدة للرد على الهجمات الإسرائيلية، وبدلا من ذلك قرر إحياء العمل الفدائى للرد على الغارات إلى أن نجح فى كسر احتكار السلاح بصفقة السلاح السوفييتى عن طريق تشيكوسلوفاكيا فى سبتمبر ١٩٥٥.

فلما وقع الهجوم فى آخر أكتوبر ١٩٥٦ وكان عبدالناصر يظنه هجوما إسرائيليا فقط كانت خطته صد الهجوم ثم القيام بأعمال «تعرضية» باتجاه فلسطين. ولكن بعد الإنذار الإنجليزى – الفرنسى المشترك اكتشف التواطؤ، فتقرر سحب الجيش من سيناء سلميا، وتركيز الدفاع عن منطقة القناة والدلتا والقاهرة بقوات «الدفاع الوطنى». ويرى عبدالمنعم واصل أن الهزيمة العسكرية فى ١٩٥٦ كانت «محدودة» على اعتبار أن التخلى عن «الأرض» فى شرم الشيخ لقوات الطوارئ الدولية ومرور سفن إسرائيل من مضيق تيران قد تم فى مقابل المحافظة على قوة الجيش ومنع تدميره، وهو «قرار مشروع سياسيا وعسكريا على مختلف المستويات».

النزاع على الزعامة

وأما فيما يتعلق بحرب يونيه ١٩٦٧ والهزيمة فقد تناولها واصل باستعراض الموقف السياسى وعلاقات مصر بعد ١٩٥٦ وتأثير تلك العلاقات على مجريات الحرب. ومن ذلك أن النزاع على الزعامة بين مصر وأنظمة عربية كالسعودية والعراق وسوريا وخاصة بعد الانفصال فى سبتمبر ١٩٦١ وتدخل مصر فى اليمن لتأمين ثورة سبتمبر ١٩٦٢، أحدث شرخا فى النسيج السياسى للوطن العربى زادته عمقا التوجهات الشخصية والحزبية والمصالح المشتركة والمتعارضة وما يتبعها من مناورات واستقطاب هنا وهناك.

ويؤرخ لهذه الحرب اعتبارا من قيام الطائرات الإسرائيلية بالإغارة على ضواحى دمشق فى ٧ أبريل ١٩٦٧ ردا على قيام المدفعية السورية بفتح النيران



على سكان المستعمرات الإسرائيلية وهم يجمعون المحصول. وقد فقدت سوريا فى هذه المواجهة ست طائرات ورسبت فى اختبار القوة. وبناء على هذا صدرت تعليمات المشير عبدالحكيم عامر (لا يذكره بالاسم وإنما يكتفي بقوله القيادة العامة للقوات المسلحة) فى ١٤ مايو برفع درجة استعداد القوات المسلحة، وإعلان التعبئة، والتدرب على الهجوم بالمخالفة للخطة الدفاعية الموضوعة سلفا التى تدربت عليها القوات المصرية، بل لقد نصت التعليمات على الاستعداد لتنفيذ عمليات هجومية محدودة فى سيناء باتجاه رفح والعوجة، ونقل المجهود الرئيسى للقوات البحرية من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر، وهكذا عندما بدأت القوات فى «الفتح والتحرك» إلى مواقعها الجديدة طبقا للتعليمات تبين «ضعف الحالة الفنية للعربات والمركبات وضعف كفاءة عناصر السيطرة على الطرق ومحاور التحركات».

وعمليات «الفتح والتحرك» قائمة على قدم وساق على ذلك النحو تبين أيضا عدم وجود حشود إسرائيلية أمام الجبهة السورية من واقع زيارة الفريق أول محمد فوزى لسوريا وهو ما أكدته تقارير المخابرات وكذا الصور الجوية. ومع ذلك كما يقول واصل «أصمت القيادة العامة آذانها» (أى المشير)، واستمرت أعمال «الفتح»، بل والقيام بتغيير فى الخطة شمل إنشاء وحدات جديدة وتحويل وحدات عاملة إلى احتياطية، فضلا عن إجراء تغيير فى قيادات التشكيلات المقاتلة مجاملة لبعض الضباط وثيقى الصلة بالمشير عامر وشمس بدران وزير الحربية مما كان له أثر بالغ السوء على كفاءة قيادة هذه التشكيلات أثناء الحرب.

وزارة حرب

وبعد ظهور الحشود الإسرائيلية على الجبهتين المصرية والسورية بعد انسحاب قوات الطوارىء الدولية بعد ١٦ مايو بناء على طلب مصر وتأليف وزارة حرب فى إسرائيل فى الأول من يونية ١٩٦٧، أعلن عبدالناصر فى مساء الثانى من يونية لقادة القوات المسلحة أن مصر لن تبدأ الحرب، واحتمال قيام إسرائيل بحرب وقائية خلال يومين أو ثلاثة، وأكد على ضرورة الاستعداد لتلقى الضربة الجوية الأولى وامتصاصها والرد بضربة مضادة، إلا أن القيادات العسكرية «لم تتخذ آية إجراءات بناء على هذا التحذير الواضح من رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة، وربما لم يكن هناك ما تفعله سوى تنفيذ أوامر هيئة العمليات من القيادة العامة فى القاهرة (المشير)» . أما الحقيقة التى

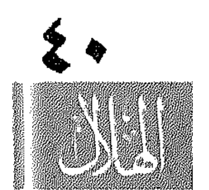

السادات يصافح الفريق عبد المنعم واصل فى أحد اللقاءات ويبدو في الصورة اللواء سعد مأمون

حرص عبدالمنعم واصل على إثباتها للتاريخ فى مذكراته قوله «إن جمال عبدالناصر لم يصدر أمر انسحاب الجيش من سيناء وأن الذى أصدره هو المشير عامر، بل إن ناصر طلب من عامر إلغاء أمر الانسحاب، وهو ما يفسر إعادة دفع بعض الوحدات تجاه الشرق لمواصلة القتال، ولكن بعد فوات الأوان».

وبعد الهزيمة العسكرية وتمسك الشعب المصرى بزعامة عبدالناصر، والتخلص من «جماعة» المشير عامر فى آغسطس ١٩٦٧، بدأ عبدالناصر فى إعادة بناء القوات المسلحة وإعدادها لإزالة اثار العدوان بعد فترة قدر لها من ثلاث إلى أربع سنوات، وعلى ثلاث مراحل يتم فيها «الصمود وتحقيق القدرة الدفاعية، ثم توفير القدرة الهجومية، وأخيرا التحول للعمليات الهجومية، وهو ما اصطلح على تسمينه مجازا «حرب الاستنزاف».

اغراق المدمرة ايلات

ولقد أثبتت القوات المسلحة فى مرحلة الصمود قدرات ملحوظة ابتداء من معركة رأس العش فى أول يوليو وانتهاء بإغراق الغواصة الإسرائيلية «داكار» فى البحر المتوسط قبالة شاطئ





الرئيس مبارك يصافح الفريق عبد المنعم واصل أثناء افتتاح المتحف التاريخي للجيش الثالث

الإسكندرية فى يناير ١٩٦٨ مرورا بإغراق المدمرة إيلات أمام شاطىء بورسعيد فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧. وفى سبتمبر ١٩٦٨ تم التحول إلى الدفاع النشط بوضع القوات الإسرائيلية تحت الضغط المستمر وإزعاجها وإرهاقها بعمليات الاستطلاع، ونصب الكمائن خلف خطوط العدو، وتطوير خطط الدفاع وصولا إلى الخطةالدفاعية ٢٠٠ للتحول منها إلى العمليات الهجومية، حتى إذا ما كان يوم ٨ مارس ١٩٦٩ بدأت حرب الاستنزاف عمليا بقصف مكثف من المدفعية على مواقع العدو وفيها وقع عبدالمنعم رياض شهيدا بقصف مضاد وهو يراقب العمليات من الخط الأمامي. واضطرت إسرائيل إلى الاحتفاظ بنسب عالية من قوات الاحتياطى لمدة طويلة مما كان له تأثير سلبي على معنويات الإسرائيليين وعلى حياتهم الاقتصادية بشكل عام.

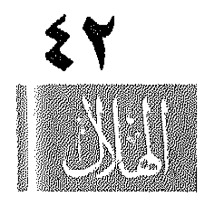
وكان هذا القصف المكثف وراء بناء خط بارليف واستخدام أسلوب الدفاع المتحرك بدلا من الثابت. وقد نجحت القوات المصرية فى الإغارة على إيلات، وإسقاط طائرة هليوكوبتر فى ٣٠ يونية ١٩٧٠ تحمل ثلاثة عشر خبيرا إسرائيليا

واثنتا عشرة طائرة فانتوم فى أسبوع واحد، وبلغت العمليات المتنوعة التى قام بها الجيش الميدانى الثالث ٤٥٠ عملية. ومن هنا فإن مبادرة روجرز فى أغسطس ١٩٧٠ التى وافقت عليها إسرائيل أشبه بقرارا الهدنة فى حرب ١٩٤٨ لأن استمرار حرب الاستنزاف من شأنه إضعاف القوة الإسرائيلية، وبمقتضى هذه المبادرة تمكنت إسرائيل من تخفيض نسبة التعبئة إلى أقل من ١٥٪ بالنسبة للقوات الحربية، وإلى أقل من ٣٠٪ للقوات الجوية.

وفى أثناء حرب الاستنزاف بدأ التدريب على عبور الموانع المائية تمهيدا لعبور قناة السويس منذ نهاية ١٩٦٧ وبداية ١٩٦٨ على ترعة «البعالوه» فى منطقة القصاصين بالشرقية، ثم فى الرياح البحيرى بمنطقة برقاش إلى الغرب من محافظة المنوفية. كما تم تطوير مضخة مياه لتحطيم الساتر الترابى على الضفة الشرقية الذى يخفى وراءه خط بارليف، وبناء ساتر ترابى على الضفة الغربية بفتحات ومصاطب لمرور الدبابات.

وقد اعترف القادة الإسرائيليون أنفسهم بأهمية حرب الاستنزاف وحيويتها فقد قال عنها عزرا وايزمان فى كتابه «النسور الزرقاء» إنها أول حرب لم تكسبها إسرائيل وهى التى مهدت الطريق أمام المصريين لشن حرب يوم الغفران».. ووصفها عبدالمنعم واصل بأنها «الأب الشرعى لنصر أكتوبر ١٩٧٣». ومع هذا تجد جنرالات المقاهى من بعض الكتبة فى مصر يصرون على اعتبار حرب أكتوبر مقطوعة الصلة بحرب الاستنزاف لا لشىء سوى كراهية لعبدالناصر على حساب الموضوعية.

أما بالنسبة لحرب أكتوبر فقد أفرد لها واصل نصف مذكراته تقريبا، وحشد كثيرا من التفاصيل الضرورية ابتداء من السرية التى أحاطت بتحديد ساعة الصفر إلى متابعة يوميات القتال بدقة شديدة على الخرائط. غير أن الفريق واصل يأخذ على السادات بشكل غير مباشر توجيهاته مساء يوم ١٢ أكتوبر بشأن تطوير الهجوم فى اتجاه الشرق نحو الممرات الجبلية اعتبارا من ١٤ أكتوبر وذلك دون أخذ رأى القيادات الميدانية التى هى أدرى بطبيعة الأمور. ومن هنا فشلت عملية تطوير الهجوم بسبب عدم الإعداد الكافى إذ كانت القوات المكلفة بالهجوم تفتقر للصواريخ المضادة للطائرات والمدفعية ذاتية الحركة، ولعناصر الاستطلاع المستمر خلف خطوط العدو، علاوة على الحماية الجوية لتأمين تقدمها. ويضاف إلى ذلك



أن وحدات المدفعية المرافقة كانت مجرورة ولا يتفق استخدامها مع طبيعة الأرض خاصة على محور ممر متلا مما أدى إلى تعثرها فى الكثبان الرملية.

وكان من نتائج هذا التطوير حدوث «الثغرة» الشهيرة التى فصلت الجيش الثانى عن الثالث يوم ٢٠ أكتوبر بعد أن أصبح شرق القناة من كبريت على يسار الجيش الثالث جنوبا إلى تل سلام على يمين الجيش الثانى شمالا تحت السيطرة الكاملة لإسرائيل من يوم ١٧ أكتوبر. وغرب القناة من جنوب الإسماعيلية إلى وادى العشرة وجنوبا حتى منطقة فنارة تحت سيطرة شبه كاملة الجيش الإسرائيلى من يوم ١٨ أكتوبر. كما تعزز هذا الوضع الإسرائيلى بالطائرات الأمريكية التى تدفقت بطياريها. ويستمر الوضع على ما انتهى عليه حتى يوم ٢٢ أكتوبر بقبول قرار وقف إطلاق النار. لكن الجيش الإسرائيلى حاول الاستيلاء على السويس رغم قرار وقف إطلاق النار لتحسين وضعه لكنه يفشل بفضل الجيش الثالث والمقاومة الشعبية إلى أن تتوقف الحرب تماما بتوقيع اتفاقية فض الاشتباك فى ١٧ يناير ١٩٧٤.

وفى الكتاب بعض النقاط الخلافية مع كتابات أخرى كثيرة فيما يتعلق بالنظر إلى بعض قرارات السادات السياسية على طريق الترتيب للحرب. ومن ذلك تفسير عبدالمنعم واصل لقرار طرد الخبراء السوفييت بعدم استجابة الاتحاد السوفييتى لتزويد مصر بالطائرات الحديثة القادرة على تنفيذ مهام هجومية فى عمق إسرائيل، وتفسيره تنحية الفريق محمد صادق (٢٦ أكتوبر ١٩٧٢) وتعيين أحمد إسماعيل باكتشاف عدم جدية صادق فى الاستعداد للحرب!!

غير أن الفريق واصل الذى نشأ عسكريا وتربى ذهنيا وعقليا ووجدانيا فى كنف الصراع العربى - الإسرائيلى لا يعترف بالسلام مع إسرائيل، ويؤكد أن الصراع صراع وجود وليس بصراع حول الحدود فيقول: إنه مهما اتخذت علاقات العرب بإسرائيل شكلا من أشكال السلام فيجب أن يكونوا على يقين من أن هناك وقتا سنحتاج فيه جميعا إلى المواجهة العسكرية. وإذا لم نؤمن بهذا فسوف تستمر المنطقة فى حالة العربدة الإسرائيلية المعتمدة على تقييد بعض دول المنطقة بالمعاهدات والتعهدات والعلاقات إلى غير ذلك حتى تتفرد إسرائيل بالشعب الفلسطينى، وأن المجتمع العالمى لن يجبر إسرائيل على الالتزام بالقرارات الدولية إلا إذا أيقن أن هناك موقفا عربيا واحدا وواضحا وجادا من شأنه أن يؤثر على مصالح تلك الدول مع العرب. ■

أوراق الخريف

بقلم
مصطفى نبيل

• تعمير سيناء

يجدر بنا أن نتذكر في أكتوبر «تعمير سيناء» وهى الغاية التى وضعناها أمام أعيننا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وهناك مشروع قائم بالفعل بنقل ثلاثة ملايين مواطن إلى سيناء، فذلك هو الأسلوب الأنجع من أجل تحقيق الأمن القومى، فلا يجوز أن نكتفى بالمنتجعات والقرى السياحية على سواحلها، ويظل قلبها رخوا بلا سكان.

فسيناء قدس أقداس مصر، وأرض التحدى والمستقبل، وهى المشكلة والحل معاً، وحان الوقت لكى تمتص تكدس الوادى وتتحول بأهلها وإنتاجها إلى درع للوطن، وها هو جرس الخطر يدق من جديد، عندما أعلنت الولايات المتحدة عن عزمها على سحب قوات المراقبة الدولية من على حدود سيناء .

●●●

يؤكد الجيولوجيون غنى سيناء بالمياه الجوفية ومياه الأمطار إذا اقيمت السدود المناسبة، كما يوجد مشروع ضخم ، مشروع ترعة السلام الذى سيروى ما يزيد عن ٦٥٠ ألف فدان فى مرحلته الأولى، لم تضخ بعد مياه الحياة فيه رغم طول المدة التى استغرقها المشروع.

ولا أدرى لماذا لا يصبح مشروع تعمير سيناء المشروع القومى رقم واحد، فعلاوة على ما يحققه من أمن وطنى فهو حل جذرى لمشكلة التكدس الذى يعانى منه الوادى، ويزيد من الحياة صعوبة فى هذا الوادى .

ومما لا شك فيه أن التعمير ليس مجرد قرارات فوقية تتخذ، بل هو خطط ومراحل مدروسة، وهو يواكب إن لم يكن يصاحب كافة مشروعات التنمية، والتعمير، وهى مهمة مراكز البحث والجامعات، ولجامعة قناة السويس كلية لعلوم البيئة



العلم المصري يرفرف فوق أرض سيناء بعد التحرير.. لتبدأ ملحمة التعمير التي نرجو أن تتواصل

وأخرى للتربية فى العريش.

وتجربة نقل مجتمعات بشرية إلى أرض جديدة لها شروطها ومقتضياتها، وهو تحد علينا أن نخوضه.

ولقد حان الوقت لكى تشهد سيناء تغييراً نوعيا فى أساليب التنمية والتعمير، وحان الوقت لكى نضع تصورا شاملا لتنمية كل طاقاتها وتوفير كل احتياجاتها، وأن يكون هذا التصور جذابا وملهماً، وأن يتجنب وطأة البيروقراطية وأمراض الوادى المستعصية، وأن ننقذ المشروع من مسالك الروتين المعقد، وخاصة ما يؤكده الخبراء من ثراء سيناء بالأنواع النباتية المختلفة، فهى الأراضى البكر المقدسة التى فيها ما يزيد عن ٥٢٧ نوعاً من النبات الذى لا يوجد بعضها فى الوادى، وهى مؤهلة لزراعة العديد من النباتات الطبية، وهى الأولى بالرعاية من توشكى .

ولا مستقبل لأى تجمع بشرى لا يقوم على الإنتاج، ولا يبحث عن تنمية موارده، ولا يقتصر على المصانع الكبيرة والتكنولوجيا المتقدمة، بل يشمل قرى الصعيد والرعى وأنواع جديدة من الزراعة، مستغلين ما تتمتع به أرض سيناء من تنوع ، ولا يتم ذلك إلا إذا شهدت سيناء روحا جديدة، وإيمانا عميقا بالمستقبل يستقر فى وجدان أهلها.

ونقطة البداية وجود «خطة حاكمة» يضعها خبراء فى كافة المجالات، لا تمنع المبادرات الفردية، وتقوم على المعلومات

والدراسات الصحيحة والدقيقة، وتوائم هذه الخطة بين الأهداف العمرانية والأمنية، على أن تحدد الأولويات وأشكال مستقلة ذات صلاحيات كاملة، مثل ما حدث في مشروع السد العالى.

ولا حاجة إلى التأكيد على القيمة الاستراتيجية لهذا المشروع، فلا تترك أطراف مصر فراغا، فالحدود الآمنة هى الحدود البشرية التى يعطيها الإنسان صلابة ومناعة.

والاستكمال الطبيعى لمشهد العبور المهيب الذى تحقق فى أكتوبر ١٩٧٣ ، هو تنمية سيناء وتعميرها ، وتعطينا الحافز فيض الصور المتلاحقة فى تلك الأيام التى مازالت حية فى ذاكرتنا، وهى كفيلة بمد الجميع بطاقة للعمل، ولعل عمق اللحظة ومشاعرها تظل حية فى نفوسنا من أجل العمل الدائم والمستمر لتعمير سيناء التى وصفت بأنها «القفر الموحش الجميل».. والتى بقيت طويلا ساحة الصراع والمعركة الدائمة بين الشرق والغرب، عبرته الجيوش المختلفة منذ فجر التاريخ، وشهدت أرض سيناء ما لايقل عن ٥٠ حرباً كبرى، من الهكسوس حتى الإسرائيليين، وامتزجت رمال سيناء بدماء المدافعين عن الدرب الذى يصل إلى قلب مصر.

وعلينا ألا ننسى القائمة الطويلة من شاروهز الهكسوس، وقادش تحتمس إلى قرقميش البابليين، وحطين صلاح الدين، وعين جالوت قطز، ومرج دابق الغورى، وعكا نابليون، وحمص ونصيبين محمد على.

إن هذا الدرب إذا نطق روى الكثير من بسالة دفاع أبناء الوادى عن بلادهم.

●●●

مازالت سيناء تشكو من إهمال الوادى..

وسنحاسب يوما لا على ما قمنا به تجاهها، ولكن على ما لم نقم به.

ولن نكف عن المطالبة بانجاز هذا المشروع، ولن نمل من المطالبة بتحقيقه حتى نراه على أرض الواقع..

ونرجو ألا نكتب فى العام المقبل مطالبين بذات المطالب، ونخشى عندئذ أن يكون قد فات الأوان.

●●●

شوارع القاهرة

ظل الكاتب الساخر محمد عفيفى يسيطر عليه هاجس ملح ، وكثيرا ما يردده، وهو توقف سير السيارات من الزحام فى شوارع القاهرة، فتتداخل فى الشوارع الضيقة ولا تملك حراكا، وتتوقف حركة المرور تماما .. ويعجز سكان القاهرة من الوصول إلى بيوتهم، أو الذهاب إلى أعمالهم.

وهو ما يبدو أنه نبوءة نقترب منها يوما بعد يوم.

ولا يراعى أحد قواعد البناء، وهى مسألة ظاهرة للعيان ولا تحتاج إلى دليل

أو برهان. فالعمارات الشاهقة التى لا تكترث بقانون الارتفاعات تؤثر على كافة الخدمات، وتؤدى إلى تكدس الطرقات، وتحولت شوارع القاهرة إلى مرآب عمومى، تقف فيه السيارات على الجانبين، وتحولت الجراجات إلى محلات، وحاصرت العشوائيات الأحياء جميعا، والتى تفاقمت ظاهرتها عندما لم تقدم الحكومة للأهالى ، مناطق يستطيعون أن يقيموا عليها مساكنهم.

فمن الطموح الإنسانى المشروع ، أن يكون للمرء مكان يسكنه، وتبدأ علاقة المرء بمسكنه من الشارع ثم المدينة بكاملها، والأسلوب الذى يقوم عليه تخطيط مدينة من جهة التصميم والبراح، والنغم القائم بين مبانيها، فالمعمار ونظامه ونسقه جزء من العمران على الأرض.

وبدلا من احترام البيئة قامت العشوائيات تحت غواية الحداثة أحيانا، وخرجت مبان لا تحظى بأى جمال أو راحة للعين، وتهادمت شخصية العمارة بخصائصها المميزة.

وحتى المدن الجديدة ، شوارعها ضيقة فى بعض أحياء ٦ أكتوبر، ولا مكان فيها للجراجات ولا للحدائق، وحتى الشرفات أخذت فى الانقراض وتحولت إلى غرف فى معظم العمارات.

●●●

لم نكتف بما شهدته شوارع القاهرة من انفلات فى ارتفاعات المبانى، ولا غياب الذوق أو التخطيط، ولا الحفاظ على تناغم فى المبانى المتجاورة كما يحدث فى كل عواصم العالم.

بل لايكاد يوجد ميدان أو شارع أو زقاق لم يلحقه تغيير الاسم الذى يطلق عليه أكثر من مرة

وعند زيارة أى عاصمة غربية، لندن أو باريس أو روما ستجد اسماء الشوارع والميادين لم تتغير منذ عشرات السنين أو يزيد، وتقرأ هذه الأسماء فى الأعمال الأدبية التى نشرت فى القرن التاسع عشر، فسرعان ما يصبح الاسم جزءاً من التاريخ. فإذا كان هدف المسميات هو تيسير التعرف على المكان، فالتبديل المستمر يجعل هذا الهدف صعب المنال.

كما أنه إذا كان مغزى الاسم أنه يسجل واقعة تاريخية أو يهدف إلى تكريم أصحابها وتقدير ما قاموا به، أو أى سبب آخر فى زمان إطلاق الأسم، فلا أحد فى مقدوره تغيير التاريخ، وينبغى الحفاظ على الذاكرة التاريخية، فإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز محو الأسماء أو تغييرها، ولا يليق اسنبدالها بغيرها.

آلا يشبه ذلك ما كان يقوم به الفراعنة فى العصور الغابرة، عندما يمحو الفرعون تاريخ من سبقه من على جدران المعابد ومن أوراق البردى، ويستبدلون به تاريخا من صنعهم، يعلى

شأنهم وينتقص من السابق عليه!.

وألا يدين هذا العمل صاحبه؟!

وما يثير الدهشة والاستغراب حقا، أنه فى الوقت الذى تستبدل فيه بأسماء الشوارع والميادين القديمة آخرى جديدة فى قلب القاهرة، نجد أن المدن والأحياء الجديدة لا تجد أسماء ذات دلالة يطلقون عليها، وتعطى مدينة السادس من أكتوبر والعاشر من رمضان الأحياء والميادين والشوارع أرقاما بلا أسماء، والأجدر أن تطلق الأسماء الجديدة للشخصيات ذات العطاء على هذه المدن والأحياء الجديدة.

ومسألة أخرى غريبة تكشف الشح والبخل فى التكريم، فهناك الكثير من الميادين التى أعدت لوضع تماثيل فيها، وبقيت قاعدة التمثال خاوية، فمثلا، قاعدة التمثال أمام جامعة القاهرة التى بقيت فارغة منذ زمن بعيد، ألا يستحق أحمد لطفى السيد أو د. طه حسين تمثالا يوضع على هذه القاعدة تحية لدورهما المشهود فى إنشاء الجامعة ووضع تقاليد عريقة لها. أيضا ميدان التحرير الذى جمعت التبرعات لوضع تمثال جمال عبدالناصر، وبقيت قاعدة التمثال من غير تمثال طويلا، ثم تمت إزالة القاعدة!.

والأسماء التى نطلقها على الميادين والشوارع والحارات والدروب ينبغى أن تكون ذات قيمة تاريخية بالضرورة، وهى تعبير عن رموز وشخصيات العصر الذى عاشت فيه، فضلا عن أنها تمد المؤرخ بمادة تاريخية، وتساعد على التعرف على معالم العصر. وهنا لا يجوز لنا أن نحب أو نكره، لأننا أمام تجربة تاريخية، والحدث التاريخى لا حب فيه ولا كره.

وبعض هذه الأسماء التى تغيرت أسماء يرجع تاريخها إلى عدة قرون، مثل شارع الخليج المصرى الذى أصبح شارع بورسعيد وقد كان هذا الشارع خليجا حفر أيام الفراعنة ثم ردمته شركة الترام عام ١٨٩٨ .

ولا يجوز فى هذا البلد الذى ابتكر تاريخ الخطط أن يعانى من هذا التخبط والعشوائية ، والخطط علم وفن أبدعه المؤرخون المصريون الذين عشقوا مدينتهم وكتبوا عنها العديد من الأعمال، وأبرزهم المقريزى صاحب الأثر النفيس «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وجاء بعده على باشا مبارك وكتب رائعته «الخطط التوفيقية» الذى اهتم فيها بالبشر قبل الحجر والذى أفرد ستة أجزاء من خططه المكونة من عشرين جزءا للقاهرة وحدها، وتجد فيه صورة تشبه الصورة الفوتوغرافية لأحياء القاهرة بأسمائها حتى عام ١٨٨٥ م.

وفن الخطط هو فن كتابة الموسوعات، وهو أشبه بتسجيل موسوعة شاملة عن المكان، وينطق من خلاله الأثر

والبشر، ويقدم على باشا مبارك كتابه بالقول: «لما كانت القاهرة المعزية.. كثر ذكرها فى كتب الخطط والتواريخ والسير، ووصف ما كان بها من المبانى والبساتين، وهى الآن غيرها فى تلك الأزمان لتغييرها عما كانت عليه.. بتغيير الدول وتقلب الأزمنة.. لم نر من يهدينا إلى تلك التقلبات.. فكم من أمور مرت فدمرت، وعبر جرت فغيرت».. فماذا سيقول اليوم إذا أراد تحديث كتابه؟! وبعد كل هذا التبديل والتخريب الذى تشهده القاهرة؟!

لقد حان الوقت لوضع ضوابط لأسماء الشوارع والميادين والأحياء، وعدم تركها للمحليات وحدها تفعل ما يحلو لها.

فهم لا يعرفون أنهم بذلك يعبثون بالتاريخ.

وأعتبر هذه رسالة إلى كل من محافظ القاهرة والجيزة، وكل من يعنيه الأمر.

●●●

وأصبحت القاهرة كأحد نتائج المركزية الشديدة.. رأسا كبيراً وجسماً هزيلا، تقعده زحام الأحياء الشعبية، وتتضخم العاصمة على حساب البلد كلها، وتعانى القاهرة من هذا التكدس والازدحام ، وأخذت مؤسسات القاهرة ومرافقها تئن تحت ضغط هذا الازدحام.

أقول تعانى القاهرة - التى كانت يوما عاصمة الدنيا - من التكدس والزحام، وغياب الذوق العام، ومن قذارة بعض شوارعها، وتحاصرها المتاعب بعد أن تضخمت ، وتحولت من مركز التحديث وقلب التطوير إلى عقبة كأداء أمام التطور والتغيير، وتقف القاهرة عاجزة عن وقف زحف القادمين إليها وعادة تنتقل الحداثة من العاصمة إلى ما حولها، أى أن حل مشاكل القاهرة هو المدخل الطبيعى بل والوحيد لحل مشاكل مصر كلها، وهى المدخل الحقيقى لمواجهة المستقبل.

وعلى أية حال.. لم يستطع التتار الجدد بمعاولهم، ولا أكداس العمارات الشاهقة ، ولا عشوائية الشوارع الطارئة ولا الأحياء التى نبتت كالفطر وتضخمت كالسرطان، لم يستطع كل ذلك أن ينال من طابع القاهرة، ولم تحجب الأسطح العالية مبانيها التاريخية العديدة، ولم تتمكن الضجة الهائلة من أن تخنق أصوات الحب والجمال، مبان عتيقة يتراكم عليها الزمن، وهى آية فى فن العمارة، تصون داخلها نماذج جميلة، تحكى فى صمت قصة أجيال من البنائين والمعماريين العظام، بناة الحضارة، الذين عملوا فى تبتل وورع، ومضوا..

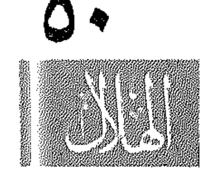
لم يسجل اسمهم أحد، ولا يكاد يعرفهم أحد، فلم تقم القاهرة فى يوم وليلة، وإنما هى عصارة الفن والحب لأجيال متعاقبة، لهذا تفتن القاهرة زوارها . ■

أزمة الخطاب الإعلامى العربى

بقلم
د. محمود عبد الفضيل

كان «منتدى الإعلام العربى ٢٠٠٢» المنعقد فى دبى، قد حدد لنفسه موضوعاً رئيسياً يتعلق «بإشكاليات الخطاب العربى فى الغرب»، وخاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وأجمع عدد كبير من المشاركين على ضرورة استخدام «الخطاب الإعلامى الصحيح» لعرض القضايا العربية بمنهج علمى مبادر يخاطب العقلية الغربية باللغة التى تفهمها، بحيث يمكن إبطال مفعول الانحياز الإعلامى الغربى ضد العرب والإسلام.

وليس هناك من شك أنه فى عالمنا المعاصر، أصبحت حرب الكلمة والصورة أقوى تأثيراً فى الرأى العام، فى كثير من الأحيان، من قذائف الطائرة والمدفع والدبابة. وإذا تأملنا فى طبيعة الخطاب الإعلامى العربى الرسمى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، نجد أن هذا الخطاب كان بالأساس خطاباً دفاعياً إعتذارياً، دون أن يحاول أن يتصدى بالجدية الكافية لأبعاد الإطار المفاهيمى الجديد الذى يستخدم لتزييف الوعى العام للمجتمع الدولى، من خلال مايمكن تسميته «حرب المصطلحات».



إذ إن أهم أبعاد تلك الحرب الإعلامية القائمة منذ الحادى عشر من سبتمبر هى محاولة تسويق مصطلحات ومفردات لغوية تحمل معانى ودلالات مغلوطة، يتم توظيفها لصالح الصهيونية والهيمنة الأمريكية. ولقد سبق أن أشار الدكتور محمد نور فرحات فى مقال له منشور فى مجلة المصور تحت عنوان . «لغة الصراع .. وصراع اللغة» إلى تلك القضية . إذ تقوم الاستراتيجية الإعلامية الإسرائيلية والأمريكية إلى صك مفردات ومصطلحات جديدة لتصبح عملة رائجة فى القاموس الإعلامى، تروجها وسائل الإعلام الغربية المسموعة والمرئية والمكتوبة، بهدف تشويه وقلب الحقائق وتطويع الرأى العام الدولى لوجهة نظر أحادية الجانب لتمرير رؤى ومخططات الهيمنة الإسرائيلية، على الصعيد الإقليمى، والأمريكية، على الصعيد الدولى

المصطلحات الجديدة

ودعونا نعطى قائمة بتلك المصطلحات التى راجت فى وسائل الإعلام الغربية، ولم ينجح الخط الإعلامى العربى الرسمى والشعبى فى التصدى لها بالعمق الكافى وبالبراعة الإعلامية الواجبة. ولعلنا نسمع ليل نهار تكرار مجموعة من المصطلحات المركزية التى تذخر بها كل الكتابات والبرامج والمواد الإعلامية الغربية ، يجىء على رأسها:

- مصطلح «الإرهاب» بكل تنويعاته وتخريجاته الأمريكية.
- مصطلح «العنف» و«العنف المفرط».
- مصطلح «حق الدفاع عن النفس» (وفق المفهوم الإسرائيلى).
- مصطلح «العمليات الانتحارية» (بدلاً من العمليات الاستشهادية).
- مصطلح «الدولة المارقة» (المارقة على الإملاءات الأمريكية).
- مصطلح «محور الشر» (ويطلق بصفة أساسية على دول «العتبة النووية» التى تشكل خطراً على إسرائيل).

وهى لاشك مصطلحات ومفردات إعلامية تم صكها بعناية بالغة، لكى تكون مطاطة صعبة التحديد، تحتمل العديد من التأويلات، ولكى يصبح استخدام كل منها «كلمة حق» يقصد بها «باطل»! فعندما يستخدم مصطلح «الإرهاب» هذا الاستخدام الواسع ، فإن المقصود به هو طمس حق الشعوب المشروع فى مقاومة الاحتلال وقوى البغى والعدوان عموماً. ووفقاً لهذا الاستخدام المغرض للمصطلح، كان لابد لنا أن ندين عمليات المقاومة البطولية ضد الاحتلال النازى فى بلدان

أوربا الشرقية والغربية أثناء الحرب العالمية الثانية. وضمن هذا السياق، يتم تمرير مصطلح «حق الدفاع عن النفس» بالنسبة لدولة إسرائيل، بينما يتم إهدار ونفى «حق مقاومة المحتل» من جانب الشعب الفلسطينى.

وينطبق نفس الحديث على مصطلح «العنف»، دون التمييز بين مستخدمى العنف: هل «الجلاد» أم «الضحية»؟ فعندما يلجأ «الجلاد» أو «المحتل» إلى العنف، كما هو الحال فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، يكون هذا العنف «حميداً» .. ويكون المطلوب فقط هو التخفيف من «العنف المفرط»! وعندما تستخدم قوى المقاومة المشروعة ضد المحتل «العنف» كأسلوب لدحر الاحتلال وقض مضاجع المحتل، يصبح هذا العنف، من خلال اللغة الإعلامية المستحدثة، إرهابا يجب استئصاله!

وهكذا، يتم يومياً المساواة اللغوية بين القمع وجرائم الحرب التى يرتكبها «شارون» وحكومته، من ناحية، وبين المقاومة المشروعة للشعب الفلسطينى الأعزل، من ناحية أخرى، تحت مصطلح واحد هو «العنف» لطمس طبيعة الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. ويتم التركيز فقط على «العمليات الاستشهادية» باعتبارها إرهاباً يوازى ماحدث فى نيويورك يوم الحادى عشر من سبتمبر.

وتحت غطاء «سحابة الدخان الإعلامية» هذه التى يتم تمرير المخططات الإسرائيلية والأمريكية تحت غطائها، كان حريا بوسائل الإعلام العربية الرسمية وتلك التى تعبر عن «المجتمع المدنى»، أن تسلك نهجا هجومياً يقتد نلك المصطلحات ويفضح محتواها المزدوج، واستخداماتها المطاطة . وبدلاً من ذلك «النهج الهجومى»، أضاع الخطاب الإعلامى العربى فى الكتابات والندوات والمؤتمرات (بما فى ذلك المؤتمر الذى عقدته الجامعة العربية) وقتاً ثميناً فى محاولة بائسة لما يسمى «تحسين صورة الإسلام لدى الغرب».

ولعله من الاستثناءات القليلة فى هذا المقام، ذلك المقال الهام الذى كتبه الأستاذ فهمى هويدى (الأهرام : ٢١ مايو ٢٠٠٢) بعنوان «الاحتلال أعلى درجات العنف». إذ تضمن هذا المقال صيحة فى الاتجاه الصحيح: إن مصطلح «وقف العنف» بصيغته الفضفاضة التى يسوقها الخطاب السياسى والإعلامى العربى لابد أن يستند إلى تحديد واضح ومحدد، «بحيث نفرق بين ما كان منه عدواناً على الحق، وبين ما كان ضرورياً ومفروضاً للدفاع

عن الحق. والأول هو الذى يستحق منا الإنكار بامتياز حيث يتربع الاحتلال على قمته بحسبانه أعلى درجات العنف».

كذلك أشار الأستاذ مكرم محمد أحمد (المصور . ١٠ مايو ٢٠٠٢) إلى مشكلة القصور الإعلامى العربى فى الخارج بقوله : «إن جدار الإعلام الغربى ليس مصمتا إلى الحد الذى يستحيل على الحق العربى اختراقه. لكن جوهر المشكلة اننا لانملك إدارة واضحة، ولا نملك خطة متكاملة، ولا نعد أشخاصاً ذوى كفاءة يتوفرون على تنفيذ هذه الخطة».

بيد أن الخطة الإعلامية العربية الهجومية يجب ألا تقتصر على الدفاع عن الحق العربى، بل يجب أن توجه سهامها إلى المفاهيم والأطر التحليلية والتراكيب اللغوية التى تستخدم لطمس الحقائق وتزييف الوعى، وإلغاء التمايزات بين الحق والباطل. وهذا النوع من العمل يحتاج إلى جهد جاد يشارك فيه مفكرون وباحثون متفقهون فى تاريخ العلاقات السياسية الدولية وفى القانون الدولى لإدارة «لغة الصراع» ضد الهيمنة الإعلامية الصهيونية والأمريكية، على أسس علمية وفقهية سليمة.

لماذا تحارب أمريكا؟

ولعل من أهم حلقات تلك الحرب الإعلامية - الفكرية المشتعلة منذ أحداث «الحادى عشر من سبتمبر» ذلك البيان الهام الذى وجهه ستون من المثقفين والأكاديميين الأمريكيين فى رسالة مفتوحة إلى العالم يوم ١٣ فبراير ٢٠٠٢، تحت عنوان مساند للإدارة الأمريكية: «من أجل ماذا تحارب آمريكا؟».

ويحمل هذا البيان توقيعات عدد من كبار المثقفين الأمريكيين على رأسهم : «فرانسيس فوكوياما» و«صمويل هنتجتون».

ويحاول البيان أن يبرر الحرب التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ضد مايسمى بالإرهاب على أنها «حرب عادلة»، تستند إلى أسس ومبادىء أخلاقية! ويقول البيان: «إذا امتلك المرء إثباتات دامغة على أن هناك أناساً أبرياء ليسوا فى وضع يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأنهم سيتعرضون لخطر كبير ما لم تستخدم القوة لوقف المعتدى، عندها يستدعى المبدأ الأخلاقى القاضى «بمحبة الجار» تدخلنا بقوة».

ثم يسترسل البيان ليتحدث عمن يسميهم «مجرمى ١١ سبتمبر» على النحو التالى . «هؤلاء القتلة المنظمون ذوو البعد العالمى يهددوننا جميعاً . وباسم المبادىء الأخلاقية والإنسانية العامة، وبوعى كامل لقيود ومتطلبات

«الحرب العادلة» ، نؤيد قرار حكومتنا ومجتمعنا باستخدام حد السلاح ضدهم». وتجيء خلاصة البيان لتقول . «إننا نرفع معاً صوتنا موحدا للقول بجدية شديدة إن انتصار أمتنا وحلفائها فى هذه الحرب هو أمر حيوى». وهكذا يعطى بيان كبار المثقفين والاكاديميين الموقعين على هذا البيان، غطاء أخلاقيا وفكرياً لانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقرار الحرب وباستخدام الحرب كوسيلة وحيدة للتعامل مع الموقف. وبالتالى إطلاق يد «البنتاجون» ورجاله لتجريب كل أنواع الأسلحة والطائرات والقنابل كما شهدنا فى أفغانستان.

ورغم أن البيان يعترف فى مقدمته بأنه منذ ١١ سبتمبر، يسأل ملايين الأمريكيين أنفسهم: لماذا نحن هدف لاعتداءات مفعمة بالبغضاء؟ ويرد موقعو البيان على هذا التساؤل بقولهم:

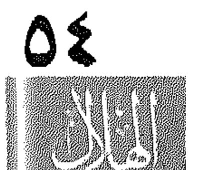
«نحن نعترف بأن أمتنا قد تصرفت، فى أوقات معينة، بغطرسة وتجاهل تجاه مجتمعات أخرى. وفى أوقات، اتبعت أمتنا سياسات طائشة وغير عادلة. وكثيراً ما أخفقنا كأمة فى اتباع ماننتهجه من مثاليات».

بيد أن البيان لايبذل أدنى جهد لتحليل تلك السياسات التى تعتبر المسئولة عن جذور ما يسمى بالإرهاب، واستهداف الولايات المتحدة والمصالح الأمريكية بصفة خاصة. إذ إن التوصل إلى بناء «سلام عادل ودائم»، على نحو ماجاء فى ختام البيان يستلزم بالضرورة التحليل بعمق وأمانة لأسباب الكراهية المتزايدة للسياسات الخارجية للولايات المتحدة عبر بقاع عديدة فى العالم، وعلى رأسها بلدان المنطقة العربية.

كانت الأمانة العلمية تقتضى أن يقوم هؤلاء المثقفون والأمريكيون بتحليل عميق للبحث فى جذور الأزمة التى تواجه الولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد العالمى، بعد انفرادها بعجلة القيادة فى أعقاب انتهاء ماسمى «بالحرب الباردة». إذ إن تفويض الحكومة الأمريكية بشن الحرب ضد كل بلد وكل نظام لاينصاع للإملاءات الأمريكية تحت شعار «محاربة الإرهاب»، هو بالتحديد ترخيص للادارة الأمريكية ، وللبنتاجون تحديدا، بممارسة «غطرسة القوة» واتباع سياسات طائشة وغير عادلة، على النحو الذى جاء فى مقدمة البيان.

رد الفعل العربى

ولعل رد الفعل من الجانب العربى على بيان «الستون مثقفا» - على حد علم الكاتب - جاء من السعودية من



تجمع يشمل أكثر من ١٥٠ شخصية، تضم قضاة ورجال دين وأعضاء في مجلس الشورى، ومثقفين ورجال أعمال تحت عنوان : «على أي أساس نتعايش؟!».

وقد اقتصر «البيان السعودى» على رفض «العلمانية» كخيار كما دعا الغرب إلى «انفتاح جاد على الإسلام وقراءة مشاريعه والتعامل بهدوء من الواقع الإسلامى». ومن ناحية أخرى، اقترب البيان من جوهر القضية، عندما أشار إلى . أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أكثر الدول مخالفة لإعلان حقوق الإنسان ولقيم العدل والحق. ويظهر هذا فى الوقوف الدائم مع الاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين، وتبرير كل الممارسات الظالمة ودعمها بأحدث الأسلحة التى تقتل الأطفال والشيوخ والنساء وتهدم المنازل».

وكان من الواجب أن تتعدد ردود الفعل من جماعات الكتاب والمثقفين والأكاديميين العرب للرد بشكل علمى وفقهى على بيان «الستون مثقفاً أمريكياً» ، الذى يبرر الحرب التى تشنها الولايات المتحدة ضد مايسمى «بالإرهاب» فى مناطق عديدة فى العالم لفترات طويلة وممتدة تحت شعار «الحرب العادلة»! فلقد أعلن نائب وزير الدفاع الأمريكى «بول وولفوفيتز » أخيراً أن الحملة العسكرية الأمريكية مستمرة وطويلة، ربما أقل طولاً من الحرب الباردة .. ولكن لا بأس أن نفكر بالمشابهة بالحرب الباردة (راجع جريدة الحياة ، ١٦ يوليو ٢٠٠٢).

مسئولية الحرب الإعلامية

لاحظنا فيما سبق مدى الارتباك والاضطراب الإعلامى العربى على الصعيدين الرسمى والشعبى، بعد أحداث «الحادى عشر من سبتمبر»، والقصور فى رسم سياسة إعلامية هجومية تتناسب مع حجم الهجمة الإعلامية الصهيونية وهيمنة وسائل الإعلام الأمريكية على الرأى العام العالمى.

بيد أن إدراك تلك الحرب الإعلامية بكفاءة ليست مسئولية العرب وحدهم، بل كل القوى الحية فى العالم . ونحن نجد إرهاصات وبدايات نقدية جيدة فيما يكتب فى بعض الصحف البريطانية مثل «الجارديان» و«الإندبندت»، بعد أحداث «الحادى

عشر من سبتمبر». كذلك نجد فى كتابات «باتريك سيل» الصحفى البريطانى المعروف المتخصص فى قضايا الشرق الأوسط محاولات جيدة لتقديم رؤية نقدية للمفاهيم والرؤى

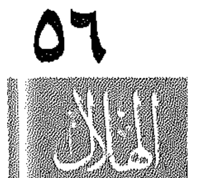
الأمريكية. كذلك هناك مقال مهم للكاتب الصحفى جون بلجر John Pilger يفند به مفهوم «الدولة المارقة The Rogue State» ، كما تطرحه الإدارة الأمريكية .

وهنا لابد من الإشارة إلى أهمية التمايز الأوروبى، سياسياً وإعلامياً بعد عمليات الاجتياح الإسرائيلى لمناطق السلطة الفلسطينية (مناطق «أ») بالضفة الغربية. إذ إنه عندما تمايز الموقف الأوروبى، بدأت آلة الدعاية الإسرائيلية والصهيونية فى توجيه تهمة «العداء للسامية» للبلدان الأوروبية التى رفضت العدوان الإسرائيلى على أراضى السلطة الفلسطينية وأدانته، وخاصة فرنسا وبلچيكا.

وأمام هذه الحملة الشرسة لآلة الدعاية الصهيونية والإسرائيلية، كتب «كريس باتن» (Chris Patten)، المفوض الأوروبى للعلاقات الخارجية والحاكم السابق لجزيرة «هونج كونج»، فى جريدة الهيرالد تريبيون (٨ مايو ٢٠٠٢) مقالاً هاماً بلهجة هجومية ضد تلك الادعاءات الصهيونية. وجاء فى مقال «باتن» الهام أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ المخضرمين فى الولايات المتحدة أخبر زائرا أوروبيا مؤخرا : «إننا اليوم كلنا أعضاء فى حزب الليكود الإسرائيلى، وبالتالى فإن أى انتقاد لفلسفة وسياسات الليكود تستدعى اتهام المرء بالعداء للسامية».

وبعد إيضاح تلك الخلفية لموقف أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ الأمريكيين، أوضح «كريس باتن» أن الموقف الأوروبى لدعم حق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم، والعودة إلى حدود عام ١٩٦٧ ليس موقفا «معاديا للسامية»، حسب صياغات الليكوديين فى أمريكا، بل هو موقف لمناصرة الحق وقيم العدالة.

إذ إن هذا النوع من «الرد الهجومى» (ولبس «الدفاعى الاعتذارى» على الطريقة العربية) هو السبيل الوحيد للتصدى لتلك الحملة الصهيونية الأمريكية الشرسة التى تقوم على الإرهاب الفكرى والـ Intimidation . لقد كانت لهجة المقال نموذجية من حيث «الرصانة»، من ناحية ، و«الهجومية»، من ناحية أخرى. فلقد وصف «باتن» ماكتبه كاتب عمود أمريكى مهم، چورچ ويل (George Will) فى جريدة «واشنطن بوست»، من حيث اتهام بعض المواقف الأوروبية «بالعداء للسامية» بأنه كلام فارغ، لأن تلك هى



اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الكتاب المتبجحون .

تحديات تواجه العرب

وهكذا يتضح أن حجم التحديات السياسية والإعلامية التى يواجهها العرب بعد أحداث «الحادى عشر من سبتمبر» قد ازدادت تعقيداً. ولم يعد مجدياً الاكتفاء بالعبارات الإنشائية والشعارات الرنانة ، إذ لابد من الفطام فى الحالة الإعلامية التى تحكمها «ثقافة الغضب» لكى نطلق من خلال استراتيجية إعلامية وسياسية هجومية تخاطب العمق المفاهيمى للحملة الإعلامية الصهيونية - الأمريكية ، وإدارة «حرب المصطلحات» بأسلوب علمى يستند إلى قدر كبير من الجهد والإبداع.

واقترح بهذا الخصوص تشكيل فريق عمل مركزى برعاية الجامعة العربية يتولى توجيه إدارة تلك المعركة الإعلامية الكبرى، وتتفرع عنه «فرق عمل» Task Forces متخصصة فى مجالات محددة. وأحسب أن لدينا شخصيات فكرية وأكاديمية لامعة فى الداخل والخارج قادرة على تشكيل فريق العمل المركزى ، وأذكر فقط على سبيل المثال فقط وليس الحصر، شخصيات مرموقة تجيد اللغات الأجنبية ومتميزة فى فهم الفكر الغربى: الدكتور كلوفيس مقصود (لبنان)، الدكتورة حنان عشراوى (فلسطين)، الدكتور جورج أبى صعب (الخبير القانونى الدولى المقيم بسويسرا- مصر)، الدكتور إدوارد سعيد (فلسطين) ، الدكتور كمال أبو المجد (مصر)، الدكتور صلاح عامر (مصر)، وعشرات آخرون من كبار المفكرين ورجال القانون فى المهجر وفى سائر أرجاء الوطن العربى.

وتكون مهمة هذا الفريق المركزى هى تغذية الكتاب والصحفيين والشخصيات العامة، والسياسيين والدبلوماسيين الذين يشاركون فى المناظرات والمقابلات التليفزيونية، ويكتبون المقالات فى الصحف الأجنبية، ويلقون الخطابات فى المحافل والمنتديات الدولية بالمادة الإعلامية الممنهجة والمناسبة، التى تقارع الحجة، بالحجة، وتوثق القول بالوثائق والوقائع.. بالإضافة إلى حسن العرض والبيان. وغنى عن القول أن هذه الحملة الإعلامية العربية المضادة يجب ألا تتقيد بحدود السياسات أو المواقف الرسمية للحكومات، لأن المعركة الإعلامية المفتوحة تمس المستقبل والمصير العربى فى الصميم.. ولا تتعلق بقضايا الحاضر والأجل القصير. ودعونا دائماً نتذكر الحكمة القائلة بأن : «الهجوم هو خير وسيلة للدفاع». ■

خريطة جديدة للشرق الأوسط

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

لعل الوقت مازال مبكرا لاصدار احكام تتسم بالموضوعية العلمية على تأثيرات أحداث سبتمبر ٢٠٠١ على جميع المستويات : النظام العالمى، والنظم الإقليمية، والدول ذاتها، غير أن مرور سنة على تلك الاحداث يمثل دون شك حافزا على امعان النظر فيما جرى ويجرى حتى الآن. لاحظت أن كثيرا من الشعارات الاعلامية فى يوم إحياء الذكرى الأولى للاحداث قد ركز على معنى «اليوم الذى تغير فيه العالم» . وحاولت أن امارس نوعا من التأملات العقلية الهادئة بهدف العثور على اجابة صحيحة لسؤال التغير: هل أصبح العالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حقيقة مختلفا عنه قبله؟ ربما يرجح باحث مثلى أن الأمر ليس كذلك بالتحديد على الرغم من إغراءات هائلة بالتوصل إلى استنتاج مخالف، فكثير مما ، يحدث فى العالم الآن له جذوره الممتده إلى عقد أو عقود سبقت من الزمن دون أن ننكر أن الأحداث ربما تكون أفضت الى فروق قد تكون كبيرة أو حتى هائلة فى الدرجة، وان صعب علميا قياسها ومن ثم مقارنتها بغيرها فى أحداث سابقة .

ولاشك فى أن مساواية الأحداث وجدة الأسلوب المستخدم فيها قد ساعدا على اشاعة الانطباع باننا لابد أن نكون إزاء عالم جديد لكن المرء يجد صعوبة حقا فى اثبات ذلك . آتكون الأحداث قد أفضت إلى عالم القطبية الأحادية؟ لقد عشنا مع هذه السمة ما يزيد على عقد من الزمان حتى الآن منذ تفكك الاتحاد السوفيتى رسميا فى ١٩٩١ وان كانت القطبية الأحادية الفعلية قد بدأت قبل ذلك بسنوات وهكذا يصبح أقصى تاثير لأحداث سبتمبر أن تكون قد ساهمت فى ترسيخ القطبية الأحادية وليس فى خلقها اتكون الاحداث قد أدت الى توحش أميريكى فى التعامل مع الخصوم الذين يراهم الكثيرون مجرد متهمين لم تثبت إدانتهم حتى الآن، ومن ثم يصعب قبول معاملتهم على هذا النحو؟ واذا كان الحال كذلك بماذا اذن نسمى السلوك الأميريكى فى فيتنام فى ستينات القرن العشرين والذى أحسب أنه تضمن من القتل والتدمير ما يفوق ما حدث فى أفغانستان فى أعقاب أحداث سبتمبر بكثير ، أيكون الجديد هو العمل الانفرادى خارج إطار الشرعية الدولية ؟لعل انتهاك هذه الشرعية يمثل على نحو منتظم وممل سمة بارزة فى التفاعلات الدولية ويكفى أن نتذكر للمرة الثانية المثال الفيتنامى حين تصرفت الادارات الاميريكية المتعاقبة، حتى دون قرار آميريكى باعلان الحرب، ناهيك عن غياب أى قرار دولى يدعم السلوك الأميريكى فى فيتنام أو حتى يبرره.

غياب الشرعية الدولية

كذلك قد يكون الالتفاف الأمريكى على قرارات مجلس الامن وتجاوزها فى الحالة العراقية مثالا إضافيا مفيدا، .كما قد تكون حرب يوغوسلافيا بشرعية أطلنطية مثالا ثالثا يؤكد الغياب المنتظم للشرعية الدولية عن أفعال عديد من القوى الدولية أيكون الجديد هو نلك الردة المقلقة عن بعض ضمانات الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الولايات المتحدة؟ ما القول اذن فى سنوات الرعب الأحمر فى مرحلة المكارثية فى خمسينات القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية التى عصفت بحقوق الانسان عصفا، استنادا الى مبررات واهية سوغتها الحرب الباردة ضد الشيوعية ومعسكرها ؟

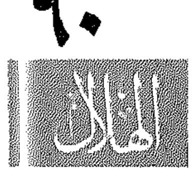
لا يعنى ما سبق بالتاكيد أننا نريد التقليل من شأن ما جرى من قبل الادارة

الأميريكية فى العالم فى أعقاب أحداث سبتمبر، ولكن الهدف منه هو إبراز معنى مهم يتمثل فى أن ما يجرى ليس سوى تعبير عن حقائق بنيوية فى السياسة الأميريكية موجودة قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر بكثير وان كانت الاحداث قد اطلقت قوى اليمين المتطرف، القابعة فى البيت الأبيض، من عقالها فراحت تفعل ما يحلو لها دون أن تجشم نفسها مشقة البحث عن شرعية ولو مزيفة أو كسب الانصار والحلفاء .

ومع ذلك فإن ثمة احتمالا وحيدا لأن تفضى احداث سبتمبر إلى تغيرات جذرية فى العالم فيما لو افضت الى تاكل حقيقى فى القوة الاميريكية نتيجة اتساع نطاق عملها. بعبارة أخرى فان الأمثلة التى سبقت الاشارة اليها على افعال أمريكية مماثلة سابقة على أحداث سبتمبر كانت جزئية ومنفصلة زمنيا، بمعنى أنه أتى على الولايات المتحدة حين من الدهر كانت متورطة فى قتال فى كوريا وحدها أو فيتنام وحدها .... الخ أما الآن فإن الأمر يبدو وكأنها تشعل حربا عالمية تواجه فيها خصوما عديدين، وليس واضحا حتى الآن الكيفية التى ستتطور بها المقاومة الحتمية للسلوك الأميريكى، وإن كان من المؤكد انها قائمة ومتجهة نحو التصاعد وكلما تسارعت حركة مقاومة السلوك العدوانى الاميريكى اقتربت القوة الأميريكية اكثر واكثر من مقولة بول كنيدى الشهيرة عن صعود الامبراطورية العالمية وسقوطها: فعندما تتجاوز تكلفة تلبية متطلبات حماية الامبراطورية العائد منها يبدأ التاكل فالسقوط .

الانحياز الكامل لإسرائيل

ولو حاولنا أن ننتقل من العام الى الخاص أى من العالمى الى العربى لوجدنا معطيات النموذج التحليلى نفسه تقريبا: اذ ما الجديد فى السلوك الأميريكى تجاهنا؟ انحياز لاسرائيل تعودنا عليه منذ نشأتها فى ١٩٤٨ وتطور دوما وفقا لمنحنى صاعد بغض النظر عن أية متغيرات امريكية أو إقليمية أو عالمية ؟ اعمال للقوة العسكرية ضد العراق نعايش وقائعه على نحو منتظم منذ حررت الكويت فى ١٩٩١، يتصاعد حينا الى حد يقترب من



الضربات الشاملة ويقتصر حينا اخر على ضربات محدودة تزعم الولايات المتحدة أنها وقائية أو حتى روتينية؟ اعلان لنية تغيير النظام فى العراق بالقوة يجسد بكل المقاييس صفاقة الخروج على المعايير الدولية وان كان لايجب ان ينسينا آن محاولات الولايات المتحدة لتغيير النظم فى المنطقة قديمة قدم بروز دورها القيادى فى الشئون العالمية مع فارق ينبغى الاعتراف به وتسجيله توخيا للموضوعية وهو أن تلك المحاولات قد اتسمت فى السابق بالسرية؟ أزمة فى العلاقات مع مصر بسبب مفتعل لايعدو أن يكون غطاء لعدم رضا أميريكى سابق عن السياسة الخارجية المصرية التى تحاول بصعوبة أن تحتفظ لنفسها باستقلالية عن السياسة الاميريكية فى القضايا المتعلقة بمصالحها الحيوية، على نحو افضى إلى أزمات بنيوية متكررة فى هذه العلاقات فى مرحلتها الراهنة . ضغط آميريكى لفرض اتفاق على طرفى الصراع الرئيسيين فى السودان من المرجح أن يفضى حال تطبيقه إلى تفكيك السودان الذى كان دوما هدفا معلنا أو غير معلن للسياسة الأميريكية، تسريب متعمد لافكار خطيرة بشأن مستقبل السعودية بلورتها مؤسسات بحثية وثيقة الصلة بدوائر صنع القرار الامريكى لايجب آن ينسينا آن اصابع الاتهام قد اتجهت من قبل الى دور خارجى فى اغتيال الملك فيصل بعد أن تبنى موقفا عربيا يتصادم مع المصالح الاميريكبة .

قد يرى البعض أن ثمة مبالغة فى الإصرار على القول بأن احداث سبتمبر لم تغير العالم كما يتصور الكثيرون أو أنها لم تحمل ملامح مختلفة جذريا عما ألفناه فى السياسة الآمريكية تجاه الوطن العربي، غير آن المعنى الذى يجب التأكيد عليه أو حتى الاصرار على التمسك به هو ما سبقت الإشارة إليه فى الحديث عن تأثيرات الاحداث على المستوى العالمى: فليتحدث المتحدثون عن خطورة السلوك الأميريكى وبشاعته وخروجه عن القانون الدولى كما يريدون غير أنهم لايجب آن ينسوا أن هذا السلوك يجد جذوره فى حقائق بنيوية راسخة فى السياسة الامريكية .

وبالتالى فان القول بأن السياسة

الأميريكية الراهنة تمثل استمرارا بنيويا لنموذج ألفناه منذ عقود طويلة لايعنى أننا نتصور أن ما يحدث فى المنطقة الآن ليس خطيرا، لقد كان كذلك قبل الاحداث فما بالنا وقد صاحبته فروق فى الدرجة تبدو بالنسبة للمنطقة العربية واضحة وبالغة الخطورة ؟

القضاء على المقاومة الفلسطينية

يكفى أن نشير الى ما ترتب على أحداث سبتمبر والاندفاعة الأميريكية فى «الحرب ضد الإرهاب» من إعادة تكييف الصراع العربى - الاسرائيلى بحيث أصبح من المنظور الأميريكى حربا ضد الإرهاب الذى تمثله المقاومة الفلسطينية وليس نضال شعب محتل من أجل نيل حقوقه وبالتالى أصبحت افكار التسوية الأميريكية تنطلق من ضرورة القضاء على الارهاب أى المقاومة الفلسطينية والقيادة الفلسطينية التى ترعى هذا الارهاب واذا كانت اسرائيل تتكفل، بدعم اميريكى مطلق، بالمهمة الأولى فلا مانع أن تنجز المهمة الثانية بوسائل «ديمقراطية» تصل بالمسعى الاميريكى المعلن لنشر الديمقراطية فى العالم قيما وممارسة الى الحضيض . واذا كنا نعيب على ديمقراطيتنا أن الفائز يتحدد فيها سلفا فها هى الولايات المتحدة الديمقراطية تحدد الخاسر مسبقا .

قد نضيف الى ما سبق الاستشهاد بالهدف الأميريكى المعلن فى إطاحة النظام العراقى بالقوة والذى من شأنه لو تحقق أن يؤسس سابقة خطيرة فى المنطقة، خاصة وان اشتراطات بوش المستحيلة فى خطابه امام الجمعية العامة فى الشهر الماضى (سبتمبر ٢٠٠٢) اذا أراد العراق أن يتفادى الضربة الأميريكية تحلول جميع النظم العربية، فمن من هذه النظم لايمكن اتهامه بأنه غير ديمقراطى أو يسئ معاملة أقلية أو أكثر فيه بما يجعلها كافة عرضة لمعاملة مماثلة لتلك التى يهدد النظام العراقى بها اذا ما تعكر صفو المزاج الأميريكى ؟

وقد نتأمل ثالثا، واخيرا فى دلالات الموقف الأميريكى الراهن من كل من مصر والسعودية اللتين لايمكن التشكيك فى متانة العلاقة التعاونية التى تربط كلا



منهما بالولايات المتحدة الاميريكية وحرصهما المشترك على هذه العلاقة، ومع ذلك فالواضح أن اليمين الأميريكى الجامح فى البيت الأبيض لم يعد يرضى بأقل من الاستتباع الكامل .

إعادة صياغة العالم العربى

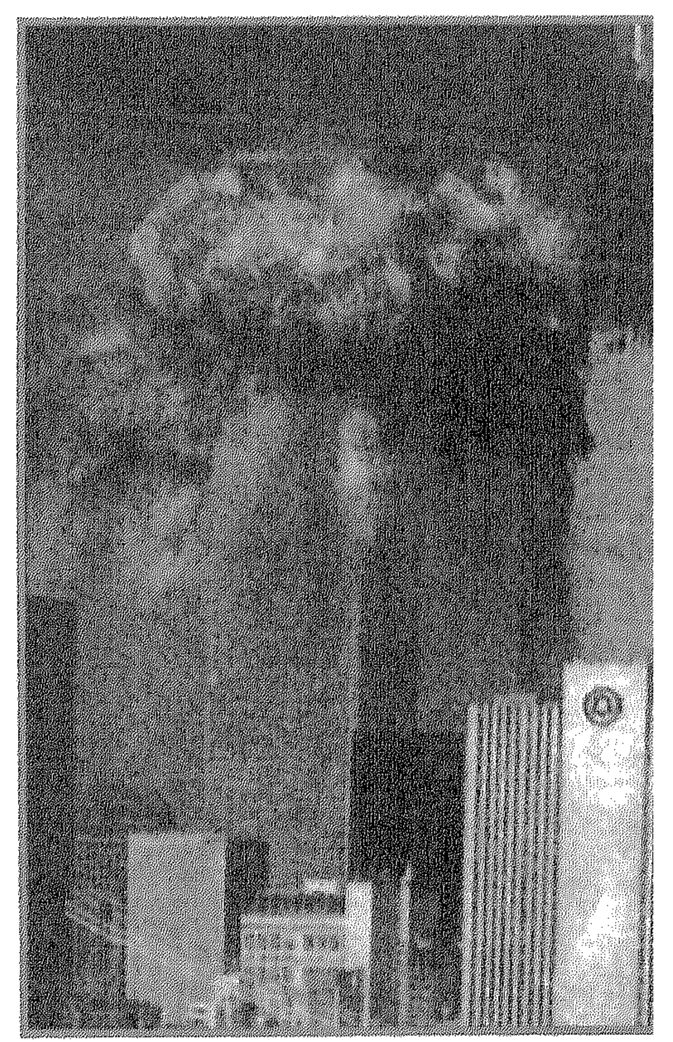
لقد خططت الولايات المتحدة للسيطرة على هذه المنطقة من العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبروز دورها القيادى العالمى، وتكفلت الحركة القومية العربية الصاعدة فى الخمسينات والستينات من القرن الماضى بالتصدى لها إلى أن وقعت هزيمة ١٩٦٧ . صحيح أن الصمود قد استمر بعدها حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ لكن الآثار البنيوية للهزيمة جنبا الى جنب مع المعالجات السياسية العربية الخاطئة سواء للصراع العربى - الاسرائيلى أو للعلاقة من ايران سمحت للولايات المتحدة الأميريكية بأن تعزز ما كانت قد حققته من مكاسب جزئية فى المنطقة، ثم جاء الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ ليعطى الولايات المتحدة الاميريكية المبرر الذى احتاجته طويلا للوجود العسكرى المباشر والكثيف فى المنطقة، وتكفل تفكك الاتحاد السوفيتى بتأمين هذا التطور الأخير، ثم وقعت احداث سبتمر لكى تعطى الولايات المتحدة الاميريكية شرعية التفكير فى إعادة صياغة العالم ومنه وطننا العربى، وفق اهدافها ومصالحها . ولو وضعت الأفكار الأمريكية الراهنة موضع التطبيق فسوف يعنى هذا اطاحة نظم وتفكيك دول واختفاء بعضها من الخريطة السياسية أصلا بما يتلاءم والمصالح الأمريكية . بعبارة أخرى سوف تكون أحداث ١١ سبتمبر هى العامل المساعد على وضع الحلم الأميريكى القديم بالنسبة لترتيب أوضاع المنطقة موضع التطبيق وقد أصابت السهام الأمريكية النظم العربية كافة ومن هنا فقد تكون ثمة بارقة أمل فى أن تتمكن هذه النظم من التفكير فى اطار جماعى والتحرك بالطريقة نفسها ومد الجسور مع شعوبها من أجل مواجهة مخططات خطيرة، صحيح أننا ألفناها، لكننا لم نشهد من قبل مثل هذه الاندفاعة المجنونة لتنفيذها... ■

رسالة نيويورك

من أحمد مرسى

أطول يوم فى التاريخ

جئت إلى نيويورك فى ١٩٧٤ وليس فى النية أن نبقى أكثر من خمس سنوات . وقد مضت حوالى ٢٨ سنة ومازلنا نقيم هنا لأسباب كثيرة ومختلفة ، ولكنها يمكن أن تلخص فى سبب واحد ، وهو أنك فى هذه المدينة - بالذات - لا تشعر بالغربة ، على عكس أى مدينة أخرى فى العالم ، وخاصة فى المعاملات الرسمية ، فيما قبل ٢٠٠١/٩/١١ بطبيعة الحال . فالمفترض أنك مواطن حتى لو كنت لا تعرف كلمة «انجليزية ، حتى تقول أنك غير مواطن. فالغالبية العظمى من سكان المدينة ، مواطنين أو مهاجرين شرعيين . أو غير شرعيين قد ولدوا فى بلدان أجنبية . أما على المستوى الشخصي ، فقد شعرت منذ بداية إقامتى أن المدينة تحتضنك بقدر إحتضانك لها ، بمعنى أنها لا تكشف عن كنوزها إلا لمن يعرف ما الذى يبحث عنه .



تحولت مأساة ١١ سبتمبر إلى ورقة ضغط سياسي أكثر بشاعة من الحادث نفسه !

وما الذى يطلبه شاعر ، كف عن كتابه الشعر عمداً لأنه شعر بأنه يشذ عن القطيع فى الجوهر والشكل ، ومن ثم كانت غربة روحية امتدت من ١٩٤٩م إلى ١٩٦٧م . وإنقطعت تقريبا عنه قراءة الشعر العربى الذى كان يكتب فى هذه السنوات الطويلة ، ولكننى واصلت قراءته بالانجليزية . وما الذى يطلبه فنان تشكيلى فى مدينة أصبحت عن جدارة كعبة الفن الحديث بكل ما فيه من حركات جادة وأخرى بهلوانية أو حتى عبثية مدينة تحتوى متاحفها على أغلى كنوز العالم . مدينة حولت الفنون والآداب إلى صناعات .

إن كل هذه الميزات لاتعدو أن تكون وسائل إغواء . ولكن هذا الإغواء – الذى لابد فى النهاية أن يفضى إلى التماهى – لايمكن أن يتحقق قبل نجاح عملية البحث ، لا عن المدينة الحقيقية ، ولكن عن الذات داخل المدينة وهذا هو ما فعلته وأستغرق حوالى ٢٣ سنة ، حينما بدأت عودتى إلى كتابة الشعر بقصيدة أهديتها إلى صديق العمر ، إدوار الخراط (١٩٩٧) . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أصدرت ثلاث مجموعات شعرية جديدة ، إلى جانب مجموعتين تحت الطبع . وقد كتبت معظم قصائدى سائراً فى شوارع نيويورك ، حتى أصبح كل شبر فى الطرق المختلفة التى أذرعها من بيتى فى منتصف المدينة إلى داون – تاون يشمل جزءاً عزيزاً من تاريخى ، بما فى ذلك المقاهى المعينة التى أتردد عليها كمحطة نهائية حسب الطريق الذى اختاره ، وحيث أدون القصيدة أو السطور التى تخلقت أثناء المشى وحتى مركز التجارة العالمى قد أودعته جزءاً – مؤلماً – من هذا التاريخ الذى أتردد فى وضع صفة له . فقد كنت أصحب ابنتى فى ساعة مبكرة من صباح الأحد لمدة غير قصيرة إلى أحد البرجين حيث كانت تقضى اليوم فى معمل كمبيوتر ، لقاء ٢٥٠ دولاراً فى كل مرة ، برغم أنها كانت تحمل درجة الماچستير فى الاقتصاد الدولى من جامعة ييل . ولكنها قررت أن تغير مسار حياتها . وهذا سلوك لايمكن أن يحدث فى أى مكان آخر .

مدينة موحشة .. جميلة

لم تكن هذه الرحلة ، بطبيعة الحال ، لمجرد الاطمئنان على سلامة ابنتى ، خاصة وأن قطارات الأنفاق تتحول فى ساعات النهار المبكرة أيام عطلات نهاية الأسبوع إلى مأوى للمشردين الذين ربما يقضون ليلهم داخل القطار ولكنى كنت أنتهز الفرصة لأجوب شوارع قاع المدينة الموحشة والجميلة فى نفس الوقت . خاصة وأن هذه المنطقة بالذات تحتوى على كنوز معمارية يرجع معظمها إلى بدايات القرن العشرين ، بما فيها منطقة مقر العمدة – السيتى هول – والميدان الفيدرالى وبقية المبانى الحكومية الباذخة ، «وول ستريت» بشوارعه الضيقة التى لاتزال تحمل عبق تاريخ المدينة ، منذ كانت عاصمة للولايات المتحدة .

وفى صباح ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، ومثل معظم سكان المدينة . بدأت الكارثة تتكشف لى بخبر من ثلاث أو أربع كلمات سمعته من إذاعة نيويورك تايمز للموسيقى الكلاسيكية – مجرد وقوع ارتطام طائرة بأخذ البرجين ، فسارعت إلى التليفزيون لأرى المأساة مشهداً بعد آخر حتى انهار

رسالة نيويورك

العملاقان وتقلصا إلى كومات من الحديد المصهور واللحم البشرى المحروق والغبار كريه الرائحة الذى تسلل إلى جميع أحياء مانهاتن .

لا أستطيع الآن ، بعد عام أن أصف بدقة المشاعر التى انتابتنى لحظة وقوع الكارثة . وكأى إنسان آخر ، تركز قلقى - الشخصى - على مصير أبنتى التى تعمل فى نفس المنطقة ولكن ليس فى البرجين بالذات . ولم يتبدد هذا الخوف إلا عندما اتصلت بى من الشارع وأبلغتنى أن الطريق مسدود وسوف تعود إلى البيت فى سيارة أحد الزملاء .

لاشك أن الذهول شل تفكيرى تماماً ، ولكن وقع الفاجعة على المستوى الإنسانى البحت بلغ من العمق حداً حولها إلى شىء أقرب إلى الواقع الوهمى أو اللاحقيقى ، على الأقل من قبيل التمنى ، حتى لا أواجه ببشاعة ولا معقولية الواقع .

ولم يخرجنى من غيبوبة الرفض إلا السرعة المذهلة التى حولت بها هذه التراچيديا الإنسانية التى اتخذت أبعاداً أسطورية إلى أداة شجن سياسى تعرت فيه جوانب لا تقل قبحاً وبشاعة عن الحادث . وإن كانت فى البداية لا تشوبها بقعة دم .

فقد تحولت ماكينات الميديا الجهنمية ، لا أقول فجأة ولكن بسرعة خارقة ، إلى أنياب تنهش فى جسد الإسلام والعرب الذين حملوهم وزر من ارتكبوا هذه الجريمة . وفى غمرة الذهول ونزيف الجرح الدامى ، الذى لم يبرأ بعد ، بدأ يطفو السؤال .. لماذا نحن مكروهون ؟

وقد أدلى كل بدلوه للرد على السؤال ، بما فيهم المسئولون عن إدارة بوش بمختلف المستويات ، وكان الرد المجانى والمريح والساذج هو الحقد عليهم لأنهم يتمتعون بالحريات والثروة والقوة . ولكن الذين ساقوا هذا الرد - الجاهز - لم يتعمقوا فى دراسة أوضاع مختطفى الطائرات الثلاث الانتحاريين ،الاجتماعية والثقافية ، ناهيك عن المتهم الأول زعيم تنظيم القاعدة .

وفى الحقيقة لم يقنع هذا الرد - دوافع الحسد والحقد - عددا من المفكرين الذين واجهوا الفاجعة ذات الأبعاد - الخرافية - بما تستحقه من تفكير جاد وعميق ، ولم يترددوا ، مهابة أو جبناً أو حتى لمجرد الخوف من اتهامهم بالانشقاق والخيانة فى محنة لم تواجه أمريكا مثلها من قبل ، فرفع بعضهم المرآة أمام مايرون أنه حقيقة لاينبغى إنكارها .

لقد نشرت الصحف المصرية والعربية الشىء الكثير مما كتب فى تلك الأيام العصيبة التي أعقبت ٩/١١ . ولذلك لن أتعرض لهذه الكتابات وسأكتفى فيما يلى بمقتطفات نشرت حديثاً فى كتب أو صحف أو مجلات ، وكان آخر مقال للروائية والمفكرة الجسور سوزان سونتاج .

فيما يلى مجرد سطور منتزعة من مراجعة للكاتب تونى چوديت لكتاب «تناقض القوة الأمريكية : لماذا لاتستطيع القوة العظمى الوحيدة فى العالم أن تفعل ماتريده وحدها» ، تأليف چوزيف ناى ، چونيور - مطبعة جامعة أوكسفورد» .. «قبل ١١ سبتمبر اقترح

الرئيس بوش زيادة ١٤ فى المائة (٤٨ مليار دولار فى إنفاق الدفاع لهذا العام ، وقد كانت الولايات المتحدة فى فئة خاصة بها وحدها . فهى لديها قواعد ، وسفن ، وطائرات ، وجنود فيما حول الكرة الأرضية . وتنفق واشنطن على قواتها العسكرية أكثر من أى بلد فى التاريخ وسوف تزيد ميزانية الدفاع الأمريكية عما قريب عن نفقات الدفاع السنوية للدول التسع التى تليها مجتمعة . حقا ، إن الدول الاعضاء بالأتحاد الأوروبى لديها جنود اكثر من الولايات المتحدة ، وإنفاق دفاعها جماعياً يبلغ مجموعة حوالى ٧٠ فى المائة من ميزانيات واشنطن فيما قبل ٢٠٠٢ ، ولكن النتائج فى التكنولوجيا والمعدات لا تقارن ببساطة . فالولايات المتحدة تستطيع أن تتدخل أو تشن حرباً فى أى مكان فى العالم تقريبا . ولا أحد حتى يقترب من ذلك .

لكن الـ «أمريكا» التى يفكر فيها جانب كبير من العالم لا تعرف بفرض النفوذ ، والقنابل الذكية ، أو حتى قواتها المسلحة . إنها أكثر حصافة وأكثر شيوعاً . وهى فى بعض الأماكن ذاكرة تحرير تتلاشى . وفى أماكن أخرى وعد بالحرية ، والفرصة والوفرة : استعارة سياسية وفانتازيا خاصة . وفى أماكن أخرى ، أو فى نفس الأماكن فى أوقات مختلفة ، تعرف أمريكا بالقمع المحلى . وباختصار ، أمريكا فى كل مكان - الأمريكيون - مجرد ٥ فى المائة من سكان العالم - يولدون ٣٠ فى المائة من إجمالى المنتج العالمى ، ويستهلكون تقريباً ٣٠ فى المائة من إنتاج البترول العالمى ، وهم مسئولون عن نصيب مماثل تقريباً من ناتج غازات الأحتباس الحرارى . إن عالمنا مقسم بطرق مختلفة : فقراء - أغنياء ، جنوب - شمال ، غربيون ، غير غربيين . والأكثر فالأكثر ، أن التقسيم الذى يعمل حسابه هو التقسيم الذى يفصل أمريكا عن أى أحد آخر.

«إن النزعة المعادية لأمريكا التى تشغل الآن المعلقين لاينبغى لذلك أن تعتبر مفاجأة . والولايات المتحدة ، بفضل وضعها الفريد ، معرضة لنظرة العالم النقدية فى كل شىء تفعله أو تفشل فى عمله ، وبعض الكراهية الفطرية التى تثيرها الولايات المتحدة هى وظيفة حقيقتها . وقبل أن ترقى لأمريكا إلى السيادة العالمية كان الزوار الأجانب ينتقدون ثقتها بالنفس الوقحة ، والثقة النرجسية للأمريكيين فى تفوق القيم والممارسات الأمريكية ، وعدم اكتراثهم الذى لا جذور له بالتاريخ والتقاليد - بتاريخهم وتقاليدهم وتاريخ تقاليد الشعوب الأخرى . وقد تضخمت عريضة الاتهام عندما اعتلت الولايات المتحدة المسرح العالمى ، لكنها لم تتغير كثيراً . وهذه المعاداة «الثقافية» للنزعة الأمريكية يتقاسمها الأوربيون ، والأمريكيون اللاتينيون والآسيويون، العلمانيون والمتدينون على حد سواء . إنها ليست كراهية للغرب ، أو الحرية ، أو التنوير أو أى فكرة تجريدية تمثلها الولايات المتحدة .

وإذا كانت أمريكا تثير الأشياء بما تمثله ، فهى تثير الكراهية بما تفعله . وهنا تغيرت الأشياء مؤخراً إلى الأسوأ»

ويعدد تونى چوديت ، نقلاً عن كتاب «تناقض القوة الأمريكية» الأفعال المثيرة للاستياء ، مثل عدم تسديد مستحقاتها للمنظمة الدولية . ويصفها ، فى هذا الصدد ، بأنها مواطن دولى منحرف فهى تتردد فى الانضمام إلى المبادرات أو الاتفاقيات الدولية ، سواء كانت عن ارتفاع حرارة المناخ الجوى ، أو الأسلحة البيولوچية ، والعدالة الجنائية أو حقوق المرأة ، والولايات المتحدة هى إحدى دولتين اثنتين (الآخر الصومال) رفضتا التصديق على إتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٨٩ . وقد سحبت إدارة بوش توقيع الولايات المتحدة على إتفاقية روما لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية وأعلنت عدم التزامها باتفاقية ڤيينا عن قانون الاتفاقيات ، والتى تحدد التزامات الدول بالتقيد بالأتفاقات التى توقعها . والقائمة التى يعددها الكاتب لا حصر لها . ولكنها فى النهاية ترد فى مجملها ضمنا على السؤال .. لماذا نحن مكروهون .

والمقال الثانى الذى أشرت إليه ، ضمن مجموعة كبيرة من المقالات الأخرى التى فى حوزتى ، هو المقال الذى «نشرته صحيفة نيويورك تايمز تحت عنوان ضخم «حرب»، «war» طبع ببنط لم يسبق أن أستخدمته الصحيفة من قبل لا فى مانشيتات الصفحة الأولى أو فى صفحة الرأى . ولكنه نشر فى نفس الوقت كعمل فنى يحمل توقيع الفنان الذى دبجه .تستهل سوزان سونتاج مقالها «حرب : معارك حقيقية واستعارات فارغة» بقولها .. منذ ١١ سبتمبر قالت إدارة بوش للشعب الامريكى أن أمريكا فى حرب . لكن هذه الحرب ذات طبيعة غريبة ، فى ضوء طبيعة العدو ، حرب بلا نهاية منظورة فأى نوع من الحروب هذه ؟

ثم تقول أن هناك سوابق : فالحروب على أعداء مثل السرطان ، والفقر ، والمخدرات ، يفهم أنها حروب بلا نهاية . وسوف يكون هناك دائما سرطان ، وفقر ، ومخدرات . كما سوف يكون هناك دائماً إرهابيون مقززون وسفاحون مثل أولئك الذين شنوا الهجوم منذ سنة - كما سوف يكون هناك مناضلون من أجل الحرية (مثل المقاومة الفرنسية والكونجرس الوطنى الأفريقى) اللذين كانا يسميان ذات مرة بإرهابيين من جانب أولئك الذين كانوا يعارضونهما ، ولكن التاريخ غير اسميهما .

«وعندما يعلن رئيس الولايات المتحدة الحرب على السرطان أو الفقر أو المخدرات . نعرف أن «الحرب» استعارة . فهل يعتقد أى أحد أن تلك الحرب هى «استعارة» هل يعتقد أى أحد أن هذه الحرب - الحرب التى أعلنتها أمريكا على الإرهاب - هى استعارة ؟

«إن الحروب الحقيقية ليست استعارات . والحروب الحقيقية لها بداية ونهاية حتى الصراع الرهيب مستعصى الحل بين إسرائيل وفلسطين سوف ينتهى ذات يوم . لكن هذه الحرب المعادية للإرهاب لايمكن أن تنتهى أبداً . وهذه علامة على أنها ليست حرباً ، لكنها بالأحرى ، ولاية لتوسيع استعمال القوة الأمريكية .

ثم تقــول ســـونتـــاج أن وصف السـيـاسـيـة الخـارجـيـة الأمـريكيـة بأنها أفعال تنفذ فى زمن حرب هو عائق قوى لعقد مناقشة تيار أساسي عما يحدث بالفعل . وهذا التردد فى توجيه أسئلة كان واضحا بالفعل فى أعقاب هجمات ١١ سبتمبر مباشرة . وأولئك الذين عارضوا لغة الجهاد التى استعملتها الحكومة الأمريكية (الطيب ضد الشرير ، والحضارة ضد البربرية) اتهموا بالتغاضى عن الهجمات .

وأوضحت الكاتبة أن الدعوة إلى التفكير قد تساوت بالانشقاق، وتساوى الانشقاق بالافتقار إلى الوطنية . وبينما ساوت بين ١١ سبتمبر ٢٠٠١ و٧ ديسمبر ١٩٤١ ، فيما يتعلق بتعرض أمريكا لهجوم مباغت . استبعدت أنه كان هناك تفكير فى ١٩٤٢ لتنظيم فعاليات تذكارية لرفع الروح المعنوية وتوحيد البلد وذلك لأن الحرب كانت حقيقية . ولكن الحرب الحالية هى حرب أشباح ، ومن ثم كانت هناك حاجة للاحتفال بالسنوية .

باعدت بين التراجيديا الإنسانية أسطورية الأبعاد ، وبين علاقتى التى ازدادت حميمية بالمكان بعد ٩/١١ وبين الحرب الشبحية التى شككت كل الأقلام الأمينة فى أغراضها .

أكدت «سونتاج» أنها لاتشك فى وجود عدو شرير وبغيض يعارض كل ما نعتزّ به - بما فيه الديمقراطية، والتعددية والعلمانية، والمساواة بين الجنسين، والرجال غير الملتحين والرقص وكل أنواع الملابس الفاضحة، وأيضا المتعة» وأنا لم تشك لحظة واحدة فى التزام الحكومة الأمريكية بأن تحمى حيوات مواطنيها. ولكن الشيء الذى تشك فيه هو «الإعلان - الكاذب لحرب - كاذبة فالاجراءات الضرورية لا ينبغى أن تُسمّى حربًا. فهناك حرب لا نهاية لها، ولكن هناك إعلانات بتوسيع استخدام القوة من جانب دولة تعتقد أنها لا يمكن تُتحدّى والبلد يقول بول أوستر «إن أقلية صغيرة فقط من النيويوركيين هم الذين صوّتوا لصالح جورج «دبليو بوش، ويميل معظمنا إلى النظر إلى سياساته بتشكّك. فهو ببساطة ليس ديموقراطيًا بما يكفينا فلا هو ولا حكومته قد شجّعوا عقد مناقشة مفتوحة عن القضايا التى تواجه البلد. ومع حديث الصحافة المستمّر عن غزو العراق، أصبح النيويوركيون قلقين.

وبينما اتهم زبيجنيو بريچنسكى، مستشار الأمن القومى فى إدارة كارتر، إدارة بوش وفى مقال بصحيفة النيورك تايمز، بالدخول فى حرب لا يدرى أحد إلى متى سوف تستمّر وإلى أين سوف تمتّد، فى ردّ فعل انفعالى على أحداث ١١ سبتمبر، وبدون محاولة منهم ومعالجة دوافع كراهية أمريكا التى تجلّت بصورة صادمة ومذهلة فى ذلك اليوم.

... وأستطيع أن أقول أننى لم أكن وحدى حين باعدت بين التراجيديا الانسانية أسطورية الأبعاد، وبين علاقتى التى ازدادت حميمية بالمكان بعد ١١/٩ وتبين الحرب الشبحية التى شككت تلك الأقلام الأمينة فى أغراضها. ■

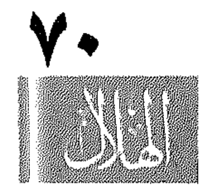


إشكالية الإبداع
والملكية الفكرية على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

انتقل التاريخ الإنسانى من العصر الحجرى إلى العصر الزراعى إلى الصناعى، والآن نستعد فى تجاوز عصر المعلومات. فى الماضى، كان الانتقال من عهد إلى آخر يحدث ببطء، وتتكشف فصوله على مدى عدة أجيال. ولكن عصر المعلومات الآن هز العديد من المجتمعات، وأحدث هزات مفاجأة فى جميع الاتجاهات. وقد حدث انفجار سكانى فى الفضاء السيبيرى. فتشير التقديرات الحديثة إلى أن حوالى ٦٠٠ مليون شخص فى العالم يستخدمون الإنترنت الآن بصورة متكررة، ويتوقع أن يصل عددهم إلى ٨٠٠ مليون عام ٢٠٠٣

وكما هو معروف أن الإنترنت ولد على يد علماء ومهندسى الكمبيوتر العاملين (DARPA) فى وكالة مشروعات البحوث المتقدمة التابعة لوزارة الدفاع لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى أواخر الستينات ، لكن انطلاق وازدهار الإنترنت كان فى الثمانينات ، وكان هؤلاء العاملون ينتمون إلى مؤسسات بحثية وأكاديمية فى الأقسام العلمية للحاسبات والهندسة . وهكذا ليس من المستغرب أن يكون تأثير علماء ومهندسى الحاسوب كبيرا على ثقافة الإنترنت، فمعظم المفردات التخصصية والمصطلحات على الشبكة موروثة من هذه المجموعة العلمية ! وأكثر من ذلك فإن معظم ، وإن لم يكن كل البرامج التى تبقى على جريان الإنترنت كتبت من قبل أعضاء هذه المجموعة . لذلك فإذا كانت ثقافة الإنترنت تملك «أسطورة أصيلة» فتقريبا كل لاعبيها الرئيسيين من علماء ومهندسى الحاسوب ! لكن الأوقات تتغير ، وتغيرت معها ديموجرافية الإنترنت تماما بطريقة درامتيكية ! وتواصل التغيير السريع فى السنوات القليلة الماضية ، فانكمش الطابع



الأكاديمى والبحثى والعلمى للإنترنت ، وساد الطابع الترفيهى والتجارى ! وهو ما توقعته بعض المقولات من انفجار وانهيار الشبكة بسرعة وبشكل كبير كما يحدث الآن ! فظاهرة الإنترنت لها ملمس الشهاب، الذى يندلع على غير توقع عبر السماء الليلية ويتوهج كنجم فى السماء ، ثم يختفى كما بدأ بشكل مفاجئ! رغم ذلك فكل الشواهد تدل على حدوث انفجار فى الابداع المنتج عبر خطوط الشبكة بشكل لم يسبق له مثيل! بفضل خاصية العمومية التى يتميز به الإنترنت ، وتجعله ليس خاضعا لأى نوع من السيطرة ، وهذه الخاصية مهددة الآن مع زيادة سيطرة الطابع التجارى عليه . وربما مع العمومية ، تطبق معها قيود محايدة أو عادلة كالرسوم التى يدفعها مستخدمو الشبكة لقاء الخدمة فى توفير المرافق اللازمة للاتصال (مثل ثمن تذكرة دخول إلى منتزه عام ، على سبيل المثال) فهى قيود لا يضعها المالك لتحقيق أهدافه !

فعمومية الإنترنت بهذا المعنى ، تجعل موارد وطاقات وإمكانيات الإنترنت «مجانية وللجميع » وتسمح لهم بالوصول إلى كل مكان يمكن تخيله من أنواع المعلومات ، جامعات ، مراكز بحوث ، مراكز المعلومات ، المكتبات العالمية فى أى مكان ، البنوك ، صحف وسائل اعلام المؤتمرات ، الندوات ، متاحف ، حفلات الموسيقى والأوبرا ، المستشفيات والمراكز الطبية .... كل ما يمكن أن يوجد فى العالم .

وعمومية الإنترنت توفر ميزات لكل الثقافات ، وخاصة الثقافات خارج الولايات المتحدة الأمريكية ، فمن ثقافات النظم الإقطاعية فى سويسرا واليابان إلى مجتمعات الرى فى الفلبين ، ومجتمعات الزراعة فى مصر . لكن الثقافة الأمريكية والمثقفين الأمريكيين يعتبرون عمومية الإنترنت موردا وخاصية معيوبة فيها . فالمثقفون الأمريكيون هم جسم «المأساة» ، كما وصفهم عالم البيئة المشهور (Gar-rett Hardin) جاريت هاردن، فهم يعتقدون دائما أن العالم يدار أفضل بدون الملكيات العامة ، والمشتركة ! ويؤيدون تماما الملكيات الخاصة !

حرية الإبداع فى تصميم الإنترنت

وتوصف الهندسة المعمارية لبنيان الإنترنت بأنها ذات ثلاثة مستويات ، المستوى القاعدى وهو البنية التحتية للإنترنت ويسمى المستوى الفيزيقى، وهى أجهزة الكمبيوتر والأسلاك والكابلات التى تربطها ، وفى الوسط مستوى الكود أو الشفرات ، وهى مجموعة البرتوكولات التنفيذية للتصميم ، وهى تمثل شفرات ولغات البرمجة، وهى موارد الإبداع ، ثم المستوى العلوى وهى المحتويات مثل النصوص ، وملفات الوسائط المتعددة المخدومة عبر الشبكة. وهذه المستويات الثلاثة لم تنظم كلها كقاعات عامة للجميع ، بمعنى لا يتوفر مبدأ العمومية فى كل تلك المستويات التى تبنى تصميم الإنترنت ! فأجهزة الكمبيوتر والكابلات والأسلاك فى المستوى الفيزيقى ملكية خاصة ، وليست مجانية أو تتسم بالعمومية ،

[illegible]ظم المحتوى المخدم [illegible]بر الشبكة فى مستوى المحتويات غالبا يعد محميا بحقوق الطبع وحقوق المؤلف ، هو أيضا ليس حرا أو مجانيا ، ولا تتوفر فيه العمومية ! إن العمومية تتوفر فقط فى مستوى الكود جوهر الشبكة ، وتمثل موارد الإبداع ، حيث البرتوكولات التنفيذية ، هنا فقط تتوافر العمومية ! وجاء هذا التصميم عمدا بحيث لا يستطيع أحد أن يسيطر على موارد ومصادر الإبداع ، الموجودة فى المستوى الوسطى وهنا كانت عبقرية الإنترنت ! فقد يسيطر الأفراد على البنية الفيزيقية ، ويملكون ويحكمون فى أجهزة الكمبيوتر والكابلات والأسلاك المرتبطة إلى الإنترنت ، لكن بمجرد دخولهم الإنترنت ، يصبح تصميم الإنترنت الأصلى الكود ، الشفرة ، الموجود فى المستوى الوسطى ، والتى تمثل منطق الإنترنت متوفرا للجميع ، ولا أحد يستطيع أن يسيطر عليه ، فهو مصدر الإبداع للشبكة ، ويوفر المجانية والعمومية للجميع بمجرد دخولهم فضاء الإنترنت . ولا توجد شبكة بهذا الكبر تترك شفراتها مجانا مثل شبكة الإنترنت

وكان هذا التصميم مبنيا على الذكاء فى الشبكة ، فهى تستطيع أن تحدد مواقع أنظمة اتصالات الكمبيوتر التقليدية ومكانها ، وتفرض سيطرتها عليها ، فالإنترنت ولد فى وقت كانت تتشكل فيه فلسفة مختلفة فى علوم الكمبيوتر ، صنفت هذه الفلسفة تواضعا بأنها تعرف كل شئ ، وتوقعت بأن مصممى الشبكة ليس لديهم فكرة واضحة حول كل الطرق والوسائل التى يمكن أن تستعمل فيها الشبكة ! ونصحت تلك الفلسفة المصمم بأن يترك جزءا قليلا منه يستكمل بناؤه بنفسه داخل الشبكة ! وتترك الشبكة حرة وعامة لتطويرها عند النهايات ، وهى التطبيقات التى نقترف منها فى الإنترنت ، ونستعملها ونستفيد منها فى تطبيقاتنا !

الحيادية

والإنترنت ما كان ينطلق وينجح وينتشر إذا كان الأفراد العاديون غير قادرين على الإتصال بالشبكة عن طريق مزودى خدمات الإنترنت (ISPS) من خلال خطوط التليفونات الحالية، ورغم ذلك فهذا الحق فى الاتصال لم يقدره أحد ! فقط فى الوقت الحاضر الإنترنت يبرز كمثال تنظيمى مختلف لاحتكارات التليفون . سابقا ، قبل الإنترنت ، كانت إحتكارات الهاتف حرة تماما فى السيطرة على أسلاكها كما تريد . وفى بداية أواخر الستينات ، وبعد ذلك بشدة أكثر على مدار الثمانينات ، بدأت الحكومات تطالب صناعة الهاتف أن تتصرف بشكل محايد - أولا بالإصرار بأن شركات الهاتف يجب أن تسمح للزبون باستخدام أجهزة مثل المودمات وغيرها من أجهزة مساعدة لكى يتصل بالشبكة ، وبعد ذلك طلبت من شركات الهاتف أن تسمح للآخرين بالدخول

والوصول إلى أسلاكهم .

هذا النوع من التنظيم اللوائحى كان شيئا نادرا فى احتكارات الاتصالات حول العالم . فى أوروبا وفى تجميع أنحاء العالم ، كانت احتكارت الاتصالات تسمح لنفسها للسيطرة على كل استعمالات شبكاتهم فى إطار المنافسة البيئية بينهم . لكن عندما قسمت الولايات المتحدة أكبر شركة محتكرة الاتصالات فيها، شركة AT & T فى ١٩٨٤، كانت الشركات الناتجة لا تملك حرية التحامل والتميز ضد الاستعمالات الأخرى لخطوطهم .

وعندما أراد مزودو خدمة الإنترنت الوصول إلى الخطوط المحلية لتمكين الزبائن بالاتصال بالإنترنت ، دقت الأجراس المحلية فى طول الولايات المتحدة تطالب بمنح الوصول على حد سواء للجميع ، وهذا مكن من وجود منافسة نشيطة فى الاتصال بالإنترنت ، ومعنى هذه المنافسة بأن شركات الاتصالات والهاتف لا تستطيع أن تتصرف بشكل استراتيجى ضد هذه التقنية الجديدة (الإنترنت) . وفى الواقع ، فإن السوق التنافسية ، والبناء الطبقى لتصميم الإنترنت الذى جعل شبكة الهاتف فى المستوى الفيزيقى التحتى لتصميم الشبكة، أعطى الفرصة لتصميمات متلاصقة يمكن أن تصفف فوقها .

وهكذا هذا الابتكار الذى يتصف بالعمومية ، وهو الإنترنت يرقد على بنية تحتية فيزيقية ، يتوفر فيها من خلال لوائحها التنظيمية ، مميزات مهمة بتتصف بالعمومية ، وهذه العمومية تضمن أن النظام الهاتفى لا يستطيع أن يميز أو يقف ضد منافس له صاعد، هو الإنترنت والإنترنت بنفسها خلقت ، من خلال تصميمها المتلاصق ، لتضمن المساواة وعدم التحيز ضد تطبيق أو استعمال معين لحساب أى إبداعات أخرى . فالحيادية موجودة فى المستوى الفيزيقى التحتى للبنية المعمارية للإنترنت ، وموجودة أيضا فى المستوى الوسطى ، وهو كود الإبداع فى التصميم . وتوجد حيادية مهمة أيضا فى مستوى المحتويات ، وهو المستوى العلوى فى تصميم الإنترنت . ويتضمن هذا المستوى كل المحتوى الذى يجرى عبر الشبكة (صفحات الويب بأشكالها وموضوعاتها ، الفورمات الموسيقية MP3S، البريد الاليكترونى، وأفلام الفيديو ، بالإضافة إلى كل برامج التطبيقات ، وبوابات البحث التى تجرى فى الشبكة وتغذيها بكل تلك الإبداعات .

منطق الكود المفتوح

وهذه البرامج والإبداعات متميزة بالبروتوكولات الموجودة فى مستوى الكود، وهى بشكل جماعى مدعومة باسم نظام السيطرة على الارسال TCP/IP وبروتوكولات شبكة الويب . وبروتوكول نظام السيطرة هذا PCP/IP يعتبر نطاقا عاما أو أملاك عامة للجميع ! وتتوفر فيه العمومية ! لكن الكود الأعلى

...لك البروتوكولات ...ست نطاقا عاما أو ...لكية عامة . وهذا الكود عوضا عن ذلك يتكون من نوعين : نوع امتلاكى ونوع غير امتلاكى . النوع الأول تتضمن الملكية فيه أنظمة مايكروسوف المألوفة لتشغيل خادمات الويب ، بالإضافة إلى البرامج من شركات البرامج الأخرى . والنوع غير الامتلاكى يتضمن مصدرا مفتوحا وبرامج مجانية، خصوصا نظم التشغيل مثل لاينكس Linux (or GNU/Linux)، والخادمات الرئيسية ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المضيفات الموجه التى تجعل الشبكة تجرى . والكود غير الامتلاكى هذا يوفر العمومية فى مستوى المحتويات من تصميم الإنترنت . والعمومية هنا ليست فقط فى المورد ، خاصة فى البرامج التى ربما نتزود بها على سبيل المثال نظم التشغيل وخادمات الويب ، لكن العمومية تتضمن أيضا كود البرمجة الأصلية للبرامج التى يمكن أن تسحب وتعدل وتتطور من قبل الآخرين . فالمورد المفتوح والبرامج المجانية يجب أن تتوزع بالكود الأصلى لها. والكود الأصلى يجب أن يكون مجانيا للآخرين، يأخذون منه ويعدلون فيه! هذه العمومية فى مستوى المحتويات ، تعنى أنه يمكن للآخرين أن يأخذوا ويبثوا موارد مفتوحة وبرامج مجانية أيضا ، هو أيضا يعنى بأن الكود المفتوح لا يمكن أن يؤشر أو يمتلك لمنع أى منافس معين ، وأن الكود المفتوح يمكن دائما أن يعدل من قبل المتبنين اللاحقين ، وتستمر المحايدة دائما بين المستعملين اللاحقين ، فليس هناك «مالك» لأى مشروع للكود المفتوح .

بهذه الطريقة ، وللمرة الثانية ، يحدث التوازى الموجود فى مبادئ تصميم الإنترنت فى مستوى الكود ، يجعل الكود المفتوح ابداعا لا مركزيا . فهو يبقى دائما منصة محايدة . وهذا الحياد تباعا يلهم المبتكرين للبناء وتعديل وتطوير تلك المنصة لأنه لا يلزم أن يخافوا من انقلاب المنصة عليهم . ويبقى الكود المفتح فرصة عامة للابداع والمبدعين فى مستوى المحتويات . ومثل العمومية فى مستوى الكود، يبقى الكود المفتوح فرصة للإبداع ويحمى المبدعين ضد السلوك الاستراتيجى للمنافسين . فالموارد الحرة المجانية تتضمن إبداعا .

هيمنة الكابل

ولد الإنترنت على خطوط الهواتف ، وبغض النظر عن رغبات شركات الهاتف تمكن مزودو خدمة الإنترنت بالوصول إلى الأسلاك المحلية لتلك الشركات ، وهم لم يسمحوا بالتمييز ضد خدمة الإنترنت . وهكذا ولد الإنترنت على تلك المنصة الطبيعية ليبقى بتنظيم محايد ، بتأثيراته الإيجابية فى توفير عمومية الوصول إلى الإنترنت . لكن حينما انتقلت الإنترنت من الخطوط السلكية الضيقة إلى الخطوط المتعددة الرسائل (الكابل)، تغيرت البيئة التنظيمية ، فتقنية الكابل هى المهيمنة فى الولايات

المتحدة حاليا . ويعيش هذا الكابل تحت بيئة تنظيمية مختلفة . ومجهزو الكابل عموما ليس لديهم التزام للسماح ومنح الوصول إلى تسهيلاتهم . وأعلنت شركات الكابل حقها فى ممارسة التمييز ضد خدمة الإنترنت . ولذلك ، بدأت شركات الكابل بدفع مجموعة مختلفة من المبادئ والأسس فى مستوى كود الشبكة . وطورت ونشرت شركات الكابل تقنيات تمكينهم فى التحكم من سريان الخدمة التى يقدمونها ! شركة سيسكو Cisco، على سبيل المثال، طورت تقنيات تمكن شركات الكابل للتيار بين المحتويات التى تتدفق بسرعة، وأخرى التى تتدفق ببطء عبر الشبكة ، وتقنيات أخرى تمكن شركات الكابل من ممارسة القوة والسيطرة على المحتويات والتطبيقات التى تجرى على شبكاتهم !

فكان الضغط الحادث من مستوى المحتويات على مستوى الكود أكثر دراماتيكية ، حيث جاء هذا الضغط جاء على شكلين . الأول ويتعلق مباشرة بوصف المحتوى ، ضمن انفجار تنظيم براءات الاختراع فى سياق البرامج ، والثانى زيادة استخدام حقوق ملكية الطبع والنشر فى ممارسة سيطرة ورقابة متزايدة على توزيع التكنولوجيات الجديدة.

براءات الاختراع

إن التغيرات فى اللوائح التنظيمية لبراءات الاختراع أكثر صعوبة للتوضيح ، ولكن النتيجة ليست صعبة فى أن تتعقب . قبل عقدين ، بدأت دائرة براءات الاختراع الأمريكية بمنح براءات الاختراع لبرامج الكمبيوتر والإنترنت كأنها اختراعات تكنولوجية ، وفى أواخر التسعينات ؛ المحكمة التى تشرف على براءات الاختراع صدقت وأباحت تلك الممارسة وأخيرا صدقت عليها ، والاتحاد الأوربى فى هذه الأثناء ، اتخذ موقفا أكثر تشككا نحو منح براءات اختراع للبرامج ، لكن الضغط من الولايات المتحدة أخيرا جعل الاتحاد الأوربى فى النهاية يؤيد السياسة الأمريكية فى منح براءات الاختراع للبرامج .

من حيث المبدأ ، يعتقد أن براءات الاختراع هذه صممت لتحفيز واستنهاض الابداع فى البرامج . لكن فى البرامج المتسلسلة والمكملة ، مثل هذه البراءات قد تكون جيدة ، ولكن هناك دلائل متزايدة بأنها سوف تسبب ضررا كبيرا . فمثل أى تنظيم ، تفرض عملية منح براءات الاختراع ضريبة على العملية الابداعية عموما . كما هو الحال مع أى ضريبة ، فالشركات الكبيرة تتحملها أكثر من الصغيرة ، والولايات المتحدة الأمريكية تتحملها أكثر من الدول الأجنبية . ومشروعات برامج الكود المفتوح مهددة من هذا الاتجاه السائد ، لأنهم أقل قدرة على المفاوضات فى الترخيص والتسجيل . والقيود الأكثر إثارة على الإبداع ، على أية حال، جاءت على يد ملكية حقوق الطبع والنشر أو

الملكية الفكرية . فحقوق الطبع والنشر والتأليف أو ما يسمى بالملكية الأدبية أو الفكرية صممت لضمان حق الفنانين والمفكرين والأدباء من امتلاك والسيطرة على إبداعاتهم لوقت محدود . وإن الهدف هو ضمان حقوقهم المادية والمعنوية حتى يتولد لديهم اهتمام ودوافع كافية لإنتاج ابداع جديد . لكن قوانين حقوق النشر صنعت فى عصر ما قبل الانترنت بفترة طويلة . وتأثيرها على الإنترنت سيكون فى زيادة السيطرة على الإبداعات، وتركيزها فى بضعة مدعين مركزيين .

الحقوق المحفوظة

إن المثال الأوضح لهذا التأثير هو الموسيقى العلى الخط فى الإنترنت . قبل الإنترنت . كان الانتاج وتوزيع الموسيقى مركزا ومكثفا بشكل غير عادى . ففى عام ٢٠٠٠ ، على سبيل المثال ، كان خمس شركات التوزيع تسيطر على ٨٤ بالمائة من توزيع الموسيقى فى العالم . وكانت أسباب هذا التركيز عديدة منها التكلفة العالية للترويج ، وكان تأثير المركزية فى توزيع وإنتاج الموسيقى عميقا جدا على تطوير وتنمية الفنان . وأصبح هناك فنانون قليلون جدا قادرون على جمع أموال من عملهم بسبب السوق الكبيرة من شركات التسجلات . الإنترنت كان عندها الإمكانية لتغيير هذا الواقع ، لأن تكاليف التوزيع كانت منخفضة جدا فيها ، ولأن الشبكة كان عندها الإمكانية أيضا لتخفيض تكاليف الترويج بشكل ملحوظ ، فتكلفة الموسيقى يمكن أن تنخفض ، وعائدات الفنانين يمكن أن ترتفع .

وقبل أكثر من خمس سنوات ، انطلقت سوق الموسيقى بنجاح فى الإنترنت ، وبدأ عدد كبير من مجهزى الموسيقى على الخط فى الإنترنت يتنافسون بالطرق الجديدة لتوزيع الموسيقى ، وزع البعض الفورمات الجديدة لموسيقى MP3s من أجل المال مثل (eMusic. com) ، وبنى البعض تقنية لإعطاء مالكى الموسيقى الوصول الأسهل إلى موسيقاهم مثل mp3.com . والبعض سهل كثيرا للمستعملين العاديين المشاركة بموسيقاهم مع المستعملين الآخرين مثل (Napster). وكما بدأت تلك الشركات بسرعة على الإنترنت ونجحت ، نجح المحامون الذين يمثلون أجهزة الإعلام القديمة ما قبل الإنترنت فى إغلاق تلك الشركات . وجادل هؤلاء المحامون بأن قوانين حقوق النشر أعطى الملاك حقوقا ضمنية للسيطرة على كيفية تنظيم استعمالها . والمحاكم الأمريكية وافقت . ولإبقاء هذا النزاع فى السياق، نذكركم بمثال آخر ، وهو التلفزيون الكابل ، فقد أنشأ مالكو أنظمة التليفزيون الكابل ايريال هوائيا فى الجو واختلسوا وسرقوا البث التليفزيونى المذاع ، وبعد ذلك باعوا تلك «المواد المسروقة» إلى زبائنهم ! لكن عندما طالبتهم المحاكم الأمريكية بوقف هذه «السرقة» ، رفضوا

وعندما رفع الأمر للمحكمة العليا ، قالت المحكمة العليا الأمريكية مرتين بأن هذا الاستعمال لمادة شخص آخر المحفوظة الحقوق غير متناقض مع قانون حقوق النشر .

وعندما تقدم الكونجرس الأمريكي أخيرا إلى تغيير القانون ، عمل عملية توازن ، منح مالكي حقوق النشر المحفوظة الحق في التعويض عن استعمال مادتهم على مواد الكابل المذاعة ، ولكن أعطى الحق لشركات الكابل في إذاعة المادة المحفوظة الحقوق . السبب لهذا الميزان ليس صعب الفهم . المالكون المحفوظ حقوقهم بالتأكيد عندهم الحق في تعويض عملهم . لكن الحق في التعويض يجب أن لا يترجم إلى قوة للسيطرة على الابداع . وبدلا من إعطاء مالكي الحقوق المحفوظة الحق لنقض أى استعمال جديد معين من عملهم) في هذه الحالة ، لأنه يتنافس مع أكثر من مادة مذاعة في الهواء، طمأن الكونجرس مالكي الحقوق المحفوظة على حصولهم على مقابل المادة التي أخذت منهم بدون امتلاك القوة للسيطرة على تلك المادة يعني – تعويض بدون تحكم وسيطرة !

نفس الاتفاق بنفس التوازن كان يمكن أن يتوصل إليه بالكونجرس ضمن سياق الموسيقى على الخط في الإنترنت . لكن في هذه المرة لم تتردد المحاكم في تمديد سيطرة مالكي الحقوق المحفوظة . وكانت الأهداف الاستراتيجية لشركات التسجيل كافية وبسيطة : ألغت النماذج الجديدة والمتنافسة من التوزيع واستبدلتها بنموذج لتوزيع الموسيقى على الإنترنت الأكثر تكيفا مع النموذج التقليدي . هذا الاتجاه كان مدعوما من قبل أعمال الكونجرس في ١٩٩٨ ، وعبر عنه الكونجرس بقانون حماية حقوق الطبع في الألفية الرقمية (DMCA)، الذي منع التقنيات التي تراوغ تقنيات حماية الحقوق المحفوظة ، وخلق حوافز قوية أيضا لمزودي خدمة الإنترنت لإزالة أي مواد منتهكة فيها حقوق الطبع والنشر من مواقعهم .

وتبدو على السطح كل التغييرات مدركة وواضحة بما فيه الكفاية . فتقنيات حماية الحقوق المحفوظة تشبه الأقفال . أي واحد له حق الدخول يجب أن يكسر القفل أولا ؟ وهنا يصبح مزودو خدمة الإنترنت في أفضل حالاتهم للاطمئنان أن انتهاكات الحقوق المحفوظة لا تحدث على مواقعهم ، فلم لا نخلق لهم الحوافز لإزالة أي مخالفات للمواد المحفوظة الحقوق ؟

عالمية حقوق الطبع

والازعاج الأكثر حدة ، هو تطبيق قانون حقوق طبع الألفية الرقمي عمليا على قاعدة عالمية . فالمبرمج الروسي ديميتري سكلياروف Dimitry Sklyarov ، على سبيل المثال ، كتب «كود» لتكسير تقنية موقع Adobe's eBook technology لكي يمكن المستعملين لتحريك الكتب الاليكترونية eBook من ماكينة جهاز إلى أخرى

ولإعطاء فرصة للمستعملين فاقدى البصر القدرة على القراءة المسموعة للكتب المشتراة ، وعندما كتب سكلياروف الكود وهو فى روسيا وأدخله الإنترنت ، كان ذلك قانونيا ، لكن عندما حاولت شركته بيع هذا الكود فى الولايات المتحدة ، أصبح الأمر غير شرعى . وعندما جاء المبرمج الروسى إلى الولايات المتحدة فى يوليو ٢٠٠١ للتحدث عن ذلك الكود ، أعتقله مكتب التحقيقات الفيدرالى . ويواجه سكلياروف اليوم جملة أحكام قضائية مدتها ٢٥ سنة لكتابة كود يمكن أن يستعمل لأغراض الاستخدام المعقول ، بالإضافة إلى انتهاك قوانين حقوق النشر .

وظهرت مشكلة مماثلة بالبند الذى يعطى مزودى خدمة الإنترنت الحافز لإزالة أى مواد مخالفة أو تنتهك حقوق النشر . فعندما يشعر مزود خدمة الإنترنت بأن المادة الموجودة على موقعهم تنتهك حقوق الطبع ، يقوم بإزالة المادة تفاديا للمسئولية . وهو أيضا لايملك أى حافز لتعريض نفسه إلى تلك المسئولية ، وعلى نحو متزايد ، شركات كثيرة حاولت حماية نفسها من النقد فاستعملوا هذا البند لإسكات النقاد . فى أغسطس ٢٠٠١ ، على سبيل المثال ، استعملت شركة صيدلية بريطانية قانون حقوق الطبع الألفية الرقمى لكى تجبر مزودى خدمة الإنترنت لمنع موقع حقوق الحيوان الذى انتقد الشركة البريطانية . وقال مزودو خدمة الإنترنت أنه من الواضح جداً أن الشركة البريطانية تريد إسكاتهم ولكننا لا نمتلك أى حافز لمقاومة إدعاءاتهم .

فى كل هذه الحالات ، هناك نمط مشترك . فى الدفع والضغط لإعطاء المالكين الحقوق المحفوظة حقوقا ليسيطروا على مادتهم ، ومنحهم القدرة أيضا لحماية أنفسهم ضد الإبداعات الجديدة التى قد تهدد نماذج عملهم الحالية . ويصبح القانون أداة لتأكيد أن الإبداعات الجديدة لا تزيح الإبداعات القديمة . وسوف تؤثر هذه اللوائح والقوانين ليس على الأمريكان فقط بل على العالم كله . فالسلطة الواسعة للقضاء الأمريكى تضغط وتدفع المنظمة العالمية للملكية الفكرية World intellectual property organization لتشريع تشريعات مماثلة فى كل أنحاء العالم ، وهذا يعنى أن السيطرة على إبداع الإنترنت سيكون على مستوى العالم كله . فليس هناك «محلى» عندما يتعلق الأمر بفساد مبادىء الإنترنت الأساسية . وهذه التغييرات ستضعف حركة المورد والكود المفتوح والبرامج المجانية ، والبلدان الكثيرة فى العالم التى كانت تكسب من منصة الإنترنت المفتوحة والمجانية سوف تخسر كثيرا أيضا ، وتلك الدول المتأثرة أغلبيتها من الدول النامية خاصة عندما تتم السيطرة على المحتويات ! ■

●«الإرهابيون لايسقطون من السماء، بل تفرضهم سياسات»

زيجينو بريجنسكي
مستشار الامن القومى الامريكى الأسبق


زيجنيو بريجنسكى

●«العلم ليس الا مظهرا واحدا من الحقيقه، ولا يجوز اهمال المظاهر الاخرى، وأولها الشعر»

شايلا جازانوف
الاستاذة فى جامعة هارفارد
والهندية الاصل

●«التفكير يمثل قوة معنوية للمتشدد الدينى، تجعل حياته معه محتملة فى وسط كافر »

مليزى روثفن
مؤلف كتاب غضبة من أجل الله


جيسواف ميووس

●«قدر الشعراء ان يعيشوا فى قلب الظلام »

جيسواف ميووس
الشاعر البولندى الفائز بجائزة نوبل
للأدب عام ١٩٨٠

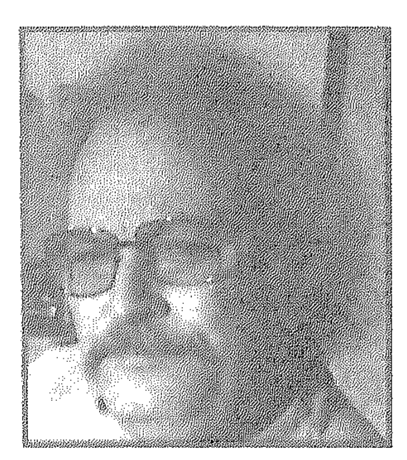
●لايوجد اشخاص عطوفون . هناك فقط اشخاص يصنعون بمهارة أعمال عطف بأيديهم وأفواههم وأقلامهم»


إيزابيل هوبير

دونا مارس اوكونون
مفكرة امريكية

●«التمثيل افضل من كل المسكرات، افضل من الكوكايين أو الهيروين، انه سم ساحر .»

النجمة الفرنسية ايزابيل هوبير



فارس التجريد في التصوير المصري المعاصر



بقلم
د. صبري منصور

في شهر نوفمبر القادم تحل ذكرى ميلاد الفنان حامد ندا الذي يمثل إبداعه الفني علامة مميزة وظاهرة في تاريخ الفن المصري المعاصر قل أن تجد له نظيراً، فهو نموذج لما يمكن أن يجسده فن التصوير المصري ؛حين يجمع بين رؤية أصيلة تتصل اتصالاً وثيقاً بروح المكان، وتضرب بجذورها في أعماق التراث المصري، وبين الصياغة الحديثة المبتكرة التي تشي برهافة الحس والسيطرة على عناصر التشكيل بفهم ووعي وذوق فني سليم.

من وحي الموسيقى الشعبية ١٩٨٥

ولقد ساهمت عوامل عديدة - والتى نادراً ماتكتمل - فى تكوين تلك الشخصية الفنية الفريدة التى تصلح كدرس لشباب الفنانين الذين يطمحون إلى أن يبلغوا تلك المكانة الرفيعة التى يحتلها فن حامد ندا.

اكتشاف الموهبة

كان الفنان والمربى حسين يوسف أمين يعمل مدرساً للرسم بمدرسة الحلمية الثانوية ، وفى عام ١٩٤٦ بدأ تجربته العبقرية - التى لم تتكرر فى حياتنا الفنية - حين وقع اختياره على مجموعة من تلاميذه الذين توسم فيهم الموهبة ، وكون منهم جماعة «الفن المعاصر» ، وكان بين هذه المجموعة اثنان قدر لهما ريادة التحديث ، وتخليق فن مصرى قلباً وقالباً، وهما عبدالهادى الجزار وحامد ندا . ولقد قام حسين أمين ذو الثقافة الموسوعية بدور الناصح الأمين والموجه الواعى القادر على تنمية المواهب الشابة، واستنفار قدراتها الإبداعية الذاتية، ومساعدتها على العثور على ملامح خاصة للفن المصرى، وكان من أهم توجهات الجماعة تأكيد العلاقة بين الفن والفكر، واعتبار الفن وسيلة - كالأدب - لنقل فلسفة ورؤية فكرية محددة، وأن الفن يجب أن يعبر عن حقيقة الواقع وعن طابع الشخصية المصرية وما تحويه داخلها من أصالة، ولاشك فى أن تلك التوجهات قد وجدت الصدى، وأحدثت الأثر فى نفس الفنان الشاب حامد ندا الذى عاش طفولته فى أحياء الخليفة والقلعة، واختزنت ذاكرته العديد من المشاهد والصور التى تعكس حياة البسطاء فى حوارى وأزقات القاهرة الشعبية ، فكان أسبق الجميع إلى تناول الموضوع الشعبى من منظور درامى يعكس معاناة الفقراء والمطحونين والمهمشين وأحلامهم المرتبطة بالسحر والشعوذة، وتظهر لوحاته الأولى مقدرة واضحة فى التشكيل والتصميم، وقد اختلف بهذه القدرة وتميز عن زملائه من أعضاء جماعة الفن المعاصر الذين شغلهم الموضوع، واستغرقهم التعبير عن المضمون الأدبى فانصرفوا عن الاعتناء بلغة الشكل ، ولقد ظلت تلك سمة من سمات فن ندا المهمة ، والتى قام بتطويرها وتعميقها فيما بعد، حتى أوصلته إلى ابتكار لغته التشكيلية ذات الخصوصية الشديدة ، ومن أهم أعمال تلك الفترة المبكرة من إبداع ندا لوحات : «العصافير» ١٩٤٦ «الدراويش» و«ظل القبقاب» ١٩٤٧ و«العرافة» ١٩٤٨ و«الزير» ١٩٥٤.

الدراسة فى الفنون الجميلة

وحين التحق ندا بالفنون الجميلة عام ١٩٤٦ كان لديه من الخلفية الثقافية ماجعله قادرا على الدراسة الاكاديمية بفهم ووعى بتحديد الأهداف التى تخدم فنه وتثريه، فلم تجرفه الرؤية الأكاديمية التى كان يقوم عليها منهج الدراسة بالكلية آنذاك ، وكان الأساتذة من أساطين الفن الأكاديمى التقليدى أمثال أحمد صبرى ويوسف كامل وبيكار يكرسون تجسيد الشكل الواقعى بحرفية الصانع ومهارته. ولقد جاءت استفادة ندا من دراسته استفادة مثالية هى نموذج لما يجب أن يلم به طالب الفن من التعرف على القواعد الأساسية لفن التصوير وقيمه الجوهرية، والتى انعكست فيما بعد على أعمال ندا الفنية حين استطاع أن يبلور أسلوبه الخاص وطريقته المميزة فى التحوير والاختصار، فعلى الرغم من المبالغات الشديدة فى



امرأتان وديك ١٩٧٩

تحريف الأشكال إلا أنها تأتى فى صورة وعلاقات تشكيلية مريحة للعين ، مقبولة للذوق . وتستحق تجربته فى هذا المجال أن تكون درساً للعديد من الفنانين المصريين المعاصرين الذين يتوهمون أن الدراسة الأكاديمية المنظمة لقواعد الفن غير مطلوبة حيث سمح الفن الحديث للفنان بأن ينطلق بعيداً عن دنيا الواقع وتمثيلها ، ويعتقدون بأن الفنان يستطيع إجراء تحريفات وتحويرات فى الشكل كيفما اتفق، ودون أن تكون لديه خبرة تدرك العلاقات والنسب الطبيعية التى تحكم أشكال الواقع .

وقد يكون من المفيد هنا إجراء مقارنة بين ندا والجزار من ناحية وبين سمير رافع زميلهما فى جماعة الفن المعاصر من جهة أخرى، فالاثنان قد درسا فن التصوير دراسة منهجية أتاحت لهما الإلمام بأصول هذا الفن التى منحت فنهما ثقلاً وثراء، أما سمير رافع - الذى اتجه فى دراسته الأكاديمية لفن الديكور - فعلى الرغم من خلفيته الثقافية الواضحة فى موضوعات لوحاته، إلا أن صياغتها التصويرية جاءت فى معظم أعماله بسيطة الأداء حيث تفتقد أساسيات فن التصوير، كطريقة بناء الشكل، وقيم الظل والنور، وأسلوب التلوين السليم.

تأثير الفن المصرى القديم

ولقد قاد انشغال ندا بإبداع فن مصرى صميم نحو البحث عن جذور فنية فى تراث مصر الفنى، فالفنان لا يبدأ من فراغ، وإنما عليه أن ينطلق من تقاليد فنية بعينها يتصل بها ويكون حلقة من حلقاتها، لهذا كان طبيعياً أن ينجذب ندا - الرافض لفكرة تقليد الفن الغربى واتباع مدارسه كما كان شائعاً - لجماليات الفن المصرى القديم ، وأتيحت له فرصة التفرغ للإبداع الفنى بمرسم الأقصر عام ١٩٥٧، ومنذ تلك الفترة اتخذ أسلوبه منحى جد مختلف عن توجهات زملاء جماعة الفن المعاصر ، وهجر التجسيم والبعد الثالث، وتحولت أعماله إلى ما يشبه الأبحاث المعملية التى تهدف إلى خلق لغة فنية معاصرة ذات جذور مصرية موغلة فى القدم ، وجاءت تجربته فى تحديث الأسلوب الفنى فى مصر القديمة نموذجاً فريداً لما يمكن أن يكون عليه التحديث على هدى القديم ، فقد استطاع ندا أن يقدم بمهارة رؤيته وأشكاله المعاصرة فى تكوينات ذات صلة حميمة بالإيقاع الفنى فى الرسوم الفرعونية ، كما أنها فى نفس الوقت على صلة بمعطيات الفن الحديث وما سمحت به للفنان من حرية فى المزج والتوليف والاختصار والتحريف ، وهو لم يبتعد عن عناصره المحببة كالقط والمرآة والزير والديك ولكنه جعلها تعيش وتتحرك على سطح اللوحة فى فلك فنى يتصل بفن القدماء، وقد اهتدى إلى استنبات إيقاع خطى ولونى يترسم خطى الإيقاع المصرى القديم ولكن فى صياغة شخصية تتسم بالحرية والتجديد ، كما استطاع أن يوظف اللون البنى المائل للحمرة واللون الأزرق فى أشكاله ذات الخلفية البيضاء المسطحة فى تذكرة برسوم الجداريات المصرية القديمة ، وهو فى النهاية يبدو كفنان مصرى قديم عاش منذ ثلاثة آلاف عام واستيقظ فى القرن العشرين ليتكلم بلغته التشكيلية الجديدة. ولعل أصدق مثال من أعماله يوضح ذلك لوحة «العمل فى الحقل» التى أنجزها عام ١٩٦٢.

أسلوب ندا الجديد

وفى أوائل الستينات بدأت تتبلور معالم الشخصية الفنية الجديدة والمتفردة لحامد ندا، والتى خلقها من مزيج أجاد تأليفه ، وقدم من خلاله أسلوباً فنيا ليس جديداً على الفن المصرى فحسب وإنما على ساحة فن التصوير العالمى، وقيمته لاتكمن فى أصالته وحداثته فقط، وإنما فى المستوى الفنى الرفيع الذى بلغه فنان من دولة مازالت حديثة العهد بالأشكال الراقية من التعبير بلغة فنان من دولة مازالت حديثة العهد بالأشكال الراقية من التعبير الفنى .

فلقد سمحت مراحل التكوين التى مر بها ندا بانطلاقه الفنى بثقة وثبات، وصياغة لأشكاله بحرية ، كما سمحت له بالابتكار فى نسب الأشكال والتأليف الحر بين الوحدات والعناصر، وتضمنت صياغته الفنية توليفاً بين أساليب وطرز فنية عديدة من بينها الفن الشعبى والفن المصرى القديم والإسلامى والفن البدائى والأشكال المعاصرة ، وكل ذلك نسجه ندا بأسلوب حديث يتسم برهافة الحس وبراعة التشكيل.

وخلال عشرين عاماً من ١٩٦٠ - ١٩٧٠ استطاع ندا أن يؤكد جماليات لغته التشكيلية المبتكرة التى تضمنت مفرداته الفنية السابقة فى ثوب تشكيلى جديد. وفى سنواته الأخيرة تسبدت



المغنية والعازفون ١٩٨٧

لوحـاته مـوضـوعـات الرقص والغناء والموسيقى وكأنه - وهو المصاب بضعف السمع الشديد - يتوق لسماع أصوات بهجة الحياة وفرحتها، مثل لوحته «الموسيقى الشعبية» و«البيانولا» و«الراقصات والبيانو» عام ١٩٨٦، و«من وحى الموسيقى» ١٩٨٨، حيث تتثنى فى هذه اللوحات الراقصات، ويطير الديك، وتعزف الحيوانات، وتتجسد الآلات الموسيقية فى أشكال البشر. فإذا كان ندا قد بدأ حياته الفنية بموضوعات درامية تعكس قسوة الحياة على

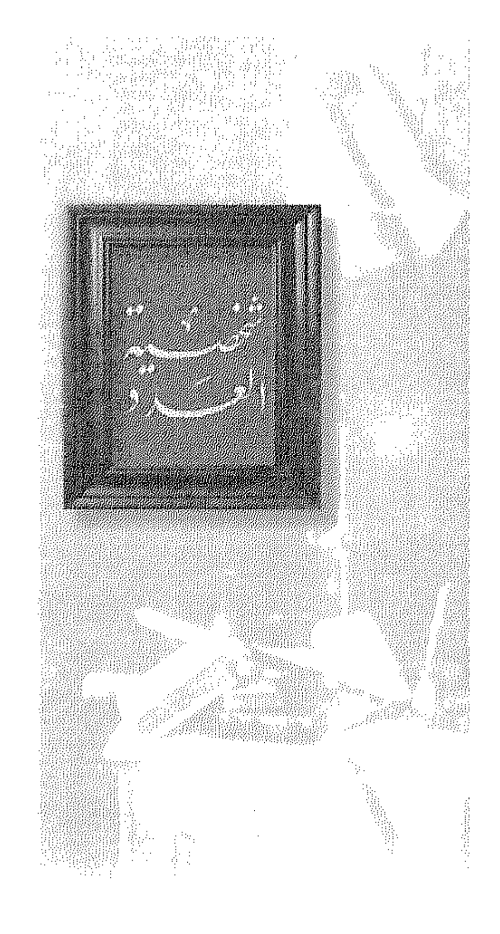
إيقاع راقص ١٩٨٨

شخصياته الواقعية المكروبة والمقهورة، فإنه قد أنهى هذه التجربة بموضوعات تجسد عالماً خارج إطار الزمان وحدود المكان، عالماً مفعماً بالحياة، نابضاً بالرغبة الحسية والمتعة ، وتعيش شخصياته أحلاماً خيالية، وتختلط عناصره البشرية برموز وكائنات خرافية فى سيمفونية كونية غريبة التركيب فريدة التوليف .

القيمة والتقدير

ويعتقد بعض الدارسين أن أسلوب ندا الفنى هو أسلوب سيريالى لتجاوزه حدود الواقع، ويرى البعض الآخر أنه فن رمزى حيث يتضمن العديد من الرموز الموحية، ولكننا نرى أن فن حامد ندا يتعصى على التصنيف وفقاً لمعايير المدارس الفنية الغربية المعروفة، وحامد ندا نفسه لم يكن حريصاً على الانطواء تحت أى منها، ونعتقد أنه كان متمرداً على قولبة الإبداع ضمن حدود بعينها، ولعل أصدق تصنيف لفنه هو أنه يأتى ضمن إطار المدرسة المصرية المعاصرة فى الفن، تلك المدرسة التى لم تحظ بأتباع كثيرين - فى ظل عوامل ثقافية وحضارية غير مواتية - ويظل ندا - إلى جانب محمود سعيد وراغب عياد وعبدالهادى الجزار - أحد أركانها الأساسية .

لقد كان ندا فناناً ملتزماً بالقيمة الفنية العالية بصرف النظر عن مدى استجابة الجمهور العادى لها، كما كان ولاؤه لفنه دافعاً نحو قيامه بمغامراته التشكيلية التى لايدرك جمالياتها إلا من كان له ذوق فنى رفيع، فلقد كان ندا مؤمناً بأنه على الرغم من أن الفنان التشكيلى يجب ألا يعيش فى برج عاجى منفصلاً عن واقعه ، إلا أنه ليس من الضرورى أن يمنح الناس الجرعة الثقافية التى نريدها ، والتى سوف تأتى - فى حالة مجتمع كمجتمعنا الأمى الثقافة - ذات مستوى متواضع ولهذا كان يؤمن بأن الفنان يجب أن يحترم القيمة الفنية الرفيعة ، ومادام فنه يأتى نابعاً من البيئة والتراث والزمن الذى يعيشه، فإن هذا الفن سيصبح مرتبطاً بالمجتمع وإن قصرت ثقافة العديد من أبنائه عن تقبل وتذوق لغة الفنان، مثل رواية رمزية يدرك أبعادها المثقفون ويجهل مراميها القراء السطحيون، **كما كان ندا مؤمناً بأن الفن حين يصبح مباشراً فإنه لاقيمة له، فوظيفة الفن إيقاظ الفكر وإثارة الخيال وإثراء الوجدان . ولهذا فإن فن حامد ندا مع تلك القيمة التى يمثلها كإضافة مهمة فى ثقافة مصر المعاصرة لم يلق مايستحقه من تكريم وتقدير، وغالباً لن يتم تقديره وإدراك قيمته إلا بعد أجيال عديدة - وهو لم يحصل على جائزة الدولة التقديرية إلا بعد وفاته، كما أن أعماله تشتتت وكان يجب جمعها وتخصيص إحدى قاعات متحف الفن المصرى الحديث لعرضها، أو على الأقل أن يتم نشرها فى كتاب لائق يحفظ إبداع فنان لن يسهل على مصر أن تحظى بمثيل له لفترة طويلة من الزمان.** ■



علاء الديب

سحب وسماء

بقلم
د. مارى تريز عبد المسيح *

بحصول الأديب الناقد علاء الديب على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب يكون قد توج مسيرته الابداعية التى بدأت قبل أكثر من أربعة عقود ومازال يواصل رحلة العطاء والإبداع حتى الآن بدأب وإصرار .

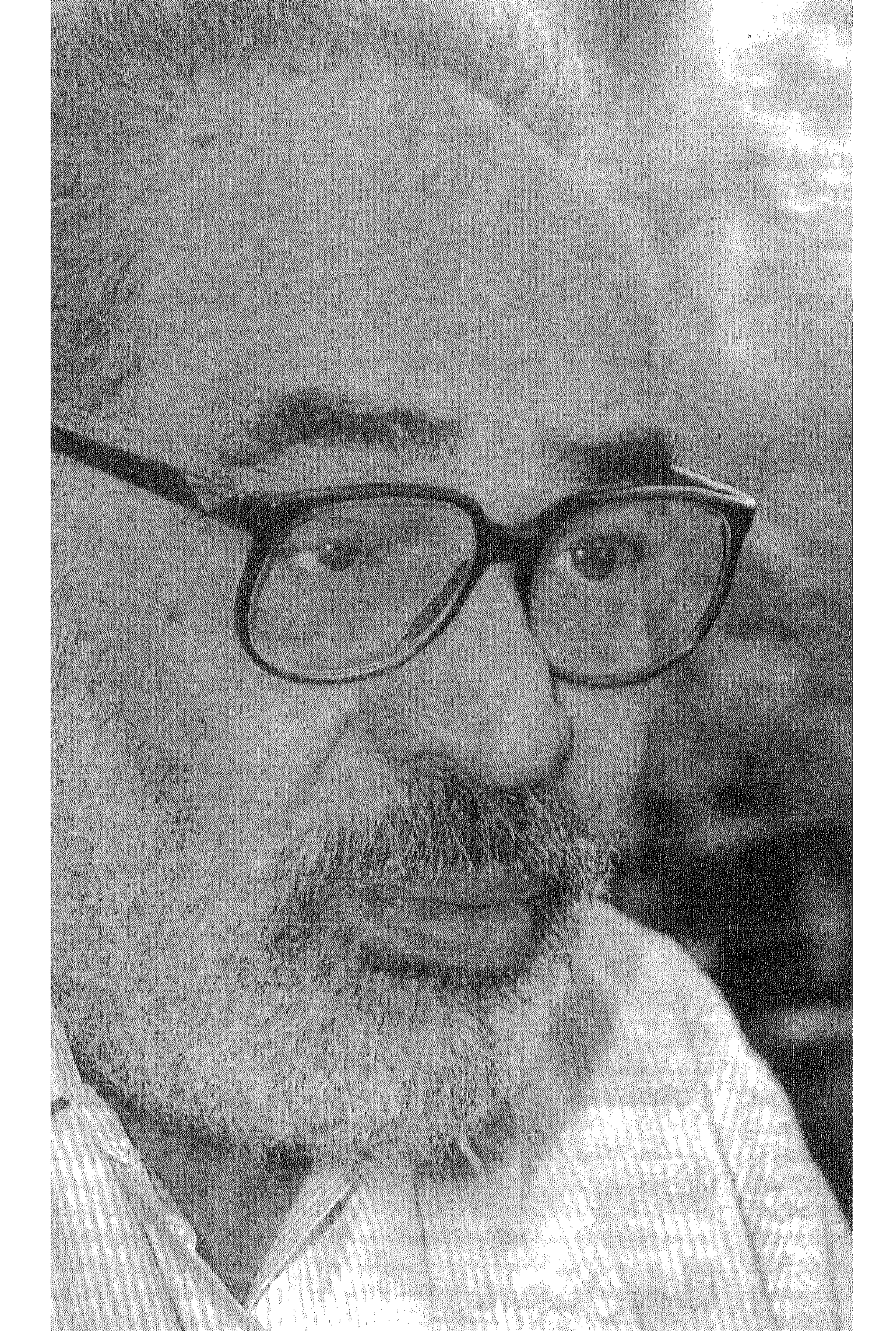
وقد جمع علاء الديب بين فن الرواية والنقد الأدبى، فتواصلت أعماله الروائية مثل «أطفال بلا دموع» و«زهر الليمون» و«قمر المستنقع» و«أوراق وردية» لتشكل علامات على طريق مسيرته الروائية الابداعية .

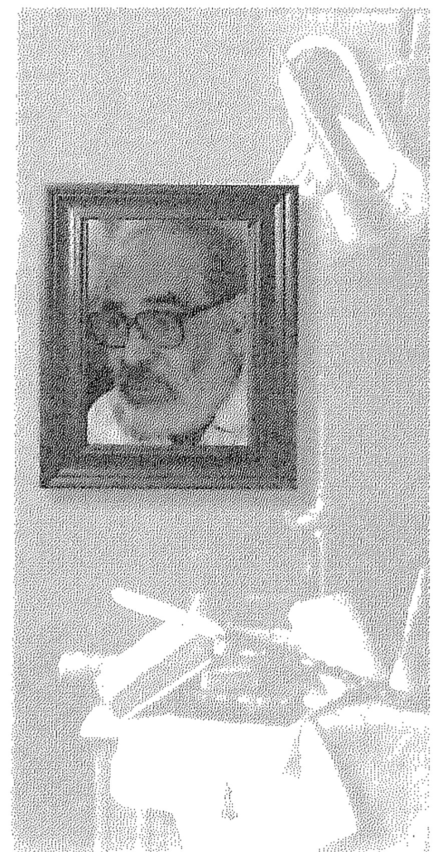
وفى نفس الوقت كان كتابه «وقفة قبل المنحدر - من أوراق مثقف مصرى» بمثابة واحدة من أرق وأعذب وأصدق ما كتب فى باب فحص النفس، وامتحان البشر على حد تعبير الناقد الكبير الراحل د . على الراعى .

ومازالت أعمال علاء الديب الإبداعية تكشف عن مكنوناتها ومدلولاتها العميقة .



* استاذ الأدب الانجليزي المقارن كلية الآداب جامعة القاهرة





جمع علاء الديب باقتدار بين فن الرواية والنقد الأدبي

كان لقائي الأول مع أعمال علاء الديب عند زهر الليمون . كنت عائدة من البحث فى أزمنة العصور الوسطى عن كيفية تشكّل هويتنا إزاء الآخر ، وكيفية تفاعل الثقافات عبر الحدود الجغرافية والمعرفية . كان على البحث في كيفية انطلاق الثقافة العربية الآن لإيجاد مكانا على الخريطة الثقافية بين بلدان العالم . لذا تطلعت إلى قراءة أدبنا المعاصر فى سباق آدب الجنوب بعامة ، وفى إطار سياقه الإفريقى بخاصة ، لتقارب التجربة التاريخية الآنية . وهذا لا يعنى انفصال الإبداع الثقافى العربى الأفريقى عن الثقافة العالمية ، ولكن حاولت دراسة أوجه استقلاليته وكيفية إبراز خصوصيته ليوجد لنا صوتا ومكانا يمثلنا فى الساحة الثقافية العالمية .

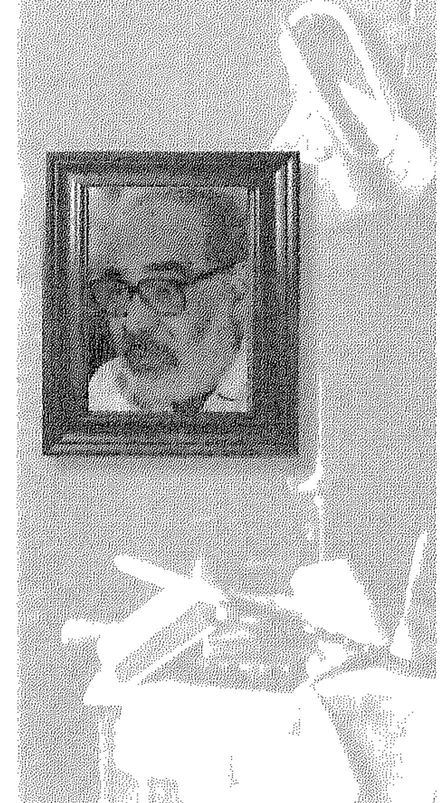
وما جذبنى إلى زهر الليمون بخاصة ، وأعمال علاء الديب بعامة، هو ما أسميته بجماليات المقاومة . والمقاومة هنا لا تقتصر على النضال ضد الاستعمار الآخر ، فروايات الديب تدور فى زمن ما بعد الاستقلال فى المرحلة الحرجة التى تسعى فيها الشعوب التى استقلت فى النصف الثانى من القرن العشرين لتحقيق الهوية القومية ، فتصطدم بالسلطة السياسية من جهة وسلطة الأعراف الاجتماعية التقليدية من جهة أخرى ، مما يؤكد للفرد حتمية المقاومة على المستويين السياسى والوجودى . لذا، فالشخصيات الرئيسية فى أعمال الديب لا تعد أبطالا تجيد طنطنة الشعارات ، وليس لديها القدرة على تحطيم الأغلال ، بل معظمها أسير حوار جدلى لا ينتهى ، تسعى الشخصيات من خلاله على تعرف ملامح هويتها . وبفعل آليات النص يمتد هذا الحوار الجدلى إلى القارئ فيجد نفسه مشاركا فى محاولة التوصل إلى مفهوم جديد للقومية ، ينطلق من خطاب مغاير ، قادر على مقاومة الخطاب السائد المعوق للنشاط المجتمعى المتوقع تفعيله لمصلحة الفرد والجماعة فى آن.

ظهرت كتابات علاء الديب فى مرحلة تاريخية حرجة تموج بالصراعات بين السلفيين المتشددين والتقدميين ، وهى ثنائية تتكرر فى روايات الديب ، حيث عملت المؤسسات الرسمية على تأكيدها ومطاردتها فى آن ، بينما أخفقت فى إيجاد مسار بديل

هذا على المستوى السياسى ، أما على المستوى الوجودى فقد افتقدت الشخصيات الرئيسية فى رواياته القدرة على التواصل لغياب الرؤية المشتركة بينها ، نتيجة وقوعها تحت أسر أنماط اجتماعية متكلسة تحدد العلاقات بما لا يتيح لها الانطلاق فى آفاق أرحب من التعاملات الإنسانية ، حيث يتطلب ذلك الاعتراف بضرورة توفير الحرية الشخصية للفرد، فمن دونها يستحيل الحرية العامة التى تؤهل للجماعة الاختيار الموفق . تنقل لنا روايات الديب تلك التناقضات، لا لمجرد تأملها تأملا فلسفيا، أو التعاطف مع الشخصيات والتماهى معها، بوصفها ضحايا أو أبطالا ، بل يمنح أسلوبه السردى للقارئ مجالات للرؤية نسمح بترتيب الأوراق المبعثرة ، والحقائب والصناديق التى تنفض عنها أشياء متناثرة . فمزج الماضى والحاضر، العام والخاص، الطنطنة المفتعلة للشعارات والمواقف الحياتية العابرة فى السياق السردى مما يدفع القارئ إلى إعادة ترتيب تلك النتف لايجاد نسق ذا دلالة بتعرف المأزق الوجودى - السياسى الذى تخفق الشخصيات الرئيسية فى اجتيازه . وتعرف هذا المأزق يحث القارئ على إعادة تقييم المفاهيم المعوقة للإبداع التى نشأ عليها ، والسعى لطرح بديل ثقافى برأب الصدع المجتمعى الواقع ، حتى يغدو فعل القراءة مشاركة من القارئ فى نقض الواقع ومحاولته فى التوصل إلى البدائل هو بمثابة فعل مقاومة . تلك هى مقومات الوعى التاريخى التى تساعد الفرد على إفساح موقع له فى المجتمع والمشاركة فى إعادة صياغته مما يوطد مكانته ويؤكد هويته على المستوى القومى ، وبدون ذلك التحقق الفردى يستحيل للمجتمع بأكمله تمثيل هويته على المستوى العالمى .

إشكالية اللغة

بختلف موقف النقاد من لغة الإبداع ، باختلافهم حول مفهوم اللغة . ينصب على اهتمام التيار المحافظ على التراكيب اللغوية الصحيحة ، حتى غدت اللغة مجرد طنطنة لفظية ، بلاغة جوفاء ، عند خضوعها لتعريف هذا التيار ، وأهم ما قدمه علاء الديب فى رواياته هو مفهوم جديد للغة بوصفها خطاب ، يستخدم إما للهيمنة السياسية أو الاجتماعية ، ودور المبدع هو نقض هذا الخطاب . وبتحقق ذلك لا يصقل لغة الكتابة لتحقيق مقياس جمالى اصطفائى ، بل يشحذ الحس الابداعى لاقتناص لغة الشخص العادى المتداولة فى الأحاديث الداخلية - أى المونولوج - والمحادثات مع الآخرين . فقد جعلنا الكاتب ندرك كم تلمح عاديات الحياة إلى ما يتجاوز السطح ، وكم تحمل الجمل المتقطعة المتبادلة بشكل عابر ، من جماليات بوسعها تمثيل أرفع درجات الحس ، كما تعبر عن مكنون النفس بما لا



تستطيعه معاجم اللغة الرسمية المركبة بأكملها . قد يهتم البعض بما يرمز إليه «زهر الليمون » ، أو «نبات الجهنمية الملتف حول شجرة السنديان » ، وهى قراءات قد تثرى تذوقنا للرواية ، ولكنها أيضا مفردات قابلة للتشكل وفقا لمنظور القارئ، ولا تتحدد بمعنى واحد ، فبتعدد مستويات القراءة تتعدد دلالات الصورة أو الموقف فى النص السردى ، بل تتغير علاقات الشخصيات بتلك المفردات وفقا للمتغيرات التى تطرأ على المكان أو فى زمن السرد .

إلى جانب ذلك ، تختلف روايات علاء الديب عن الرواية الواقعية التى تتركز حول تطور الشخصيات ، أما فى روايات علاء فلا تنمو الشخصيات بحيث تنجح فى صياغة مفردات التواصل مع المجتمع ، فهى تعيش عالما مليئا بالتناقضات ، وعند الاقتراب من مفتاح أية قضية سرعان ما تتبدد مقوماتها ،تغيب دلالاتها . وعجز الشخصيات للتوصل إلى دلالة محددة يعود لقلقها الوجودى الدائم الذى أوقعها فى عقدة الارتياب الراجعة إما إلى قصور شخصى ، أو إلى مؤامرة سياسية غير معلومة المصدر . وهنا يأتى دور القارئ لاكتشاف خبايا الأمور المختلطة ، فتعدد المواقف التى تتعرض لها الشخصيات وتنوع الأساليب السردية التى يلجأ إليها الراوى ، تتيح للقارئ خيارات متعددة لتشكيل السياق ، مما يفضى إلى صياغة خطاب لغوى مغاير . فإن كانت الشخصيات الرئيسية قد عوقتها الخيارات المحدودة ، المتباينة مما أودى بها إلى مهاوى الانغلاق الذاتى والانفصال عن الجماعة يظل القارئ فى مكان أفضل لما توفر له من خيارات متنوعة ، فآليات الكتابة لدى علاء الديب توفر له إمكانية قراءة الحدث بأكثر من منظور واحد مما يساعده على موازنة الملامح السلبية للخطاب السياسى والاجتماعى بمنظومته اللغوية المغلقة .

● ظهرت كتاباته فى مرحلة تاريخية حرجة تموج بالصراعات السياسية

زهر الليمون

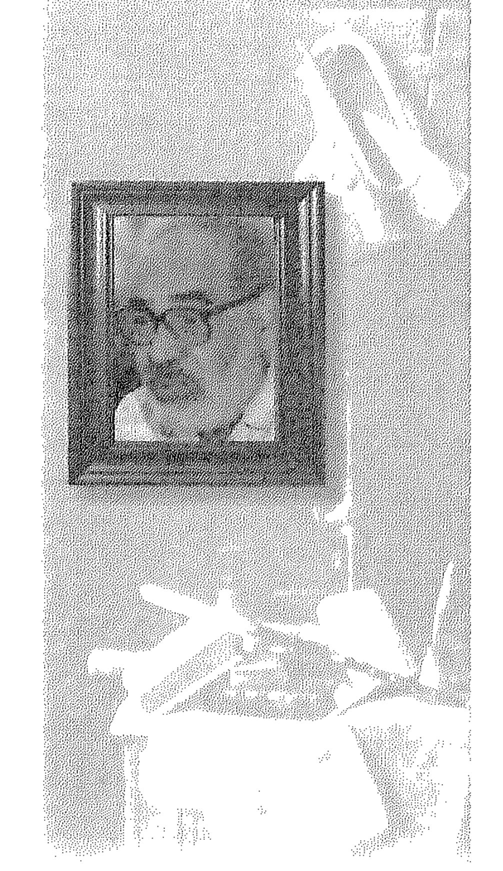
يمثل الحدث فى رواية زهر الليمون رحلة عبدالخالق المسيرى فى عطلة نهاية الأسبوع لزيارة أهله فى القاهرة ، بعد انتقاله للعمل موظفا بمكتبة أحد قصور الثقافة المهجورة بالسويس .، وعبدالخالق اختار السويس ظنا منه أن العزلة سوف تعينه على ترتيب أوراقه ، وتتيح له فرصة التفرغ لكتابة الشعر ، ولكن ساعدت عزلته على هدم قدرته على التواصل مع الجماعة ، بينما

أدت وظفيته العقيمة إلى جفاف قريحته الإبداعية قبل الأوان . والرحلة إلى القاهرة تمثل محاولة عبدالخالق للخروج من عزلته ، ولكنها تأتى بنتيجة عكسية حيث يصاب بسلسلة من المحبطات بدءا من موقف الأوتوبيس وانتهاء برحلة العودة . فهو يلتقى فى كل مكان برفاق النضال أيام الحلم الاشتراكى وقد ابتعدوا عن كافة المثل بل امتهنوا الآن الاتجار بكل شئ . واختلاف منظور الرؤية بين عبدالخالق وزملائه يفضى إلى اختلاف لغة التعاطى بينهم ، ويضاعف من عزلته ، فهو محاط بالتناقضات التى تفرض عليه ثنائية متضادة ، فإما التأقلم أو الانسحاب ، وذلك يؤكد مأزقه الوجودى .

فى الماضى تحققت لعبد الخالق القدرة على الموازنة بين الأضداد حيث أمدته علاقة الحب التى عاشها مع زوجته « منى المصرى» بطاقة خلاقة ساعدته على نظم الشعر . فاللغة المشتركة مع الحبيبة ساعدته على التواصل مع الجماعة عبر الشعر . ومتى انقطعت اللغة المشتركة بينه وبين الحبيبة ، برحيلها عنه عجز عبدالخالق عن التواصل مع الجماعة . وتتكشف للقارئ علاقة عبدالخالق ومنى عبر مشاهد مقتطفة تمثل مراحل علاقتهما المختلفة والصورة التى تتكون عن هذه العلاقة تحتمل عدة تفسيرات ، فالتفسير الوجودى قد يؤكد على العطب الذى أصاب العلاقة نتيجة تشكك الطرفين فى إمكانيات الآخر . أو قد يرجع سبب التفسخ للوضع السياسى العام ، فالحالة الاقتصادية لا تسمح بحياة إنسانية عادلة لزوجين فى أول الطريق ، والأعراف الاجتماعية قد غرست الفوارق بين البشر لتقف حائلا أمام كل من يسعى لتغييرها .ومن ثم يستشف القارئ العقم الذى أصاب تلك العلاقة الواعدة مثلما أصاب شجرة الليمون التى لم تعد تطرح زهرا يمتزج بالتربة ليجدد الثمار . كما تنهار علاقة عبدالخالق مع أصدقائه وعائلته ، ويضاعف ازدياد الفجوة الصراع بين الأجيال الناتج عن علاقات مبتورة لم تنمو وتتفاعل مع تغيرات الزمن، حتى يستسلم عبدالخالق تماما لعجزه اللغوى ، ويصير أسيرا لخيالاته وذكرياته، حتى أصبح الشعر أيضا أحلاما زائلة .

يعود عبدالخالق إلى السويس ليستلقى على السرير دون حراك ، كما يظل القارئ يتساءل عن كيفية التغلب على هذا المأزق الكونى الذى يعانى منه المجتمع بأكمله ، وإن كان عبدالخالق هو نقطة الربط بين الأحداث كافة، فالشخصيات الأخرى فى الرواية تشاركه البطولة لأنها تمثل التفكك الذاتى والاجتماعى والسياسي . يتتبع القارئ الأحداث فى رواية زهر الليمون على ثلاث مراحل : فى المرحلة الأولى يتبين لعبدالخالق – الشخصية الرئيسية – حتمية إيجاد دلالة لحاضر ينعقد دلالاته ، بعدما انفصل عن زوجته وأهله وأصدقائه . وفى المرحلة الثانية يظهر البعد الاجتماعى والسياسى للمدلول

اللغوى الذى يتعارض ورؤية عبدالخالق الشخصية ، وفى المرحلة الثالثة يتبين للقارئ ضرورة نقض الخطاب السائد المعوق لفهم الذات ، وفهم الآخر . وبقراءة التجربة المروية فى مستوياتها المتباينة يستمد القارئ الوعى التاريخى الذى يساعده على إعادة صياغة الواقع - أى التملك من ناصية اللغة - وصياغة الموقف بمفردات جديدة تنقض التنميط السياسى والاجتماعى المعتاد ، وبالتالى يشارك القارئ فى خلق خطاب بدليل .



أيام وردية

يظل علاء الديب مهموما بقضية الهوية، وما أصابها من تفكك نتيجة قصور اللغة المشتركة فمن دونها يستحيل التوصل إلى صياغة الحوار القومى تمهيدا للحوار مع الآخر . كما تفتقد أيام وردية أيضا تطور سردى خطى ساذج يفتعل السببية - وهى التقنية المستخدمة فى كافة رواياته ، حيث تتداخل الأزمنة والأمكنة لتمثل تشابك مقومات المعيشة اليومية ، وفشل محاولات تنسيقها فى تسلسل خطى ساذج - وهو ما سعت إليه الرواية الواقعية . تكاد تنعدم الأحداث فى الرواية . فهى تتبلور فى الانفصال التدريجى للشخصية الرئيسية عن المحيط التاريخى والجغرافى والبشرى إلى حد الاعتلال ، والنقل إلى مصحة «نابلس» الكائنة بإحدى ضواحى القاهرة ، لصاحبها الدكتور ألبير بشاى للاستشفاء. تمر مرحلة الاستشفاء الأولى بتحسن صحى ومعنوى وقدرة على التعاطى مع الآخرين ، بل التواصل على المستوى الإنسانى مع نزيلة فلسطينية بالمصحة . ويرتد المسار بعد أول صدام مع عالم القاهرة ، يتزامن مع انفصال عن الزوجة والأولاد ، لينتهى المطاف بأمين الألفى خارج الأمكنة هائما فى قرى مصر إلى أن يستقر به المقام فى مأوى خشبى أقامه أحد المعارف القدامى للسكنى ، فيشاطره أمين المكان ليواجه فيه فناءه .

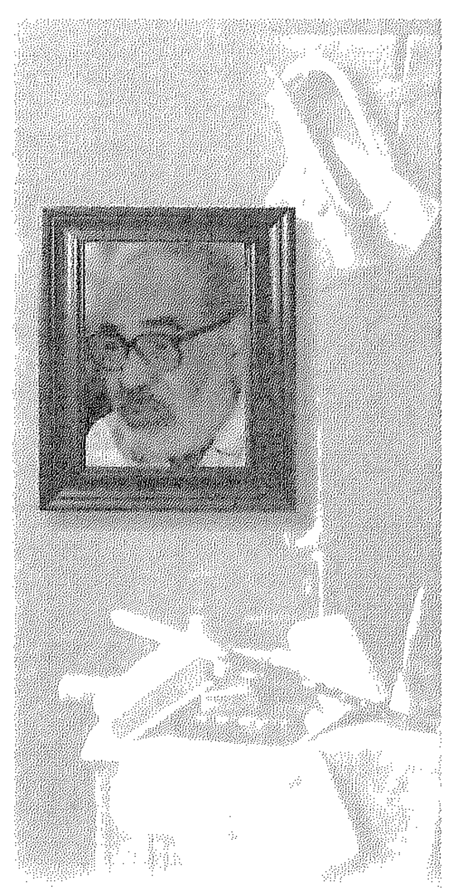
● صورة المرأة فى (أيام وردية) تتوازى وصورة فلسطين «توأم الروح»

ومن المحاور الرئيسية فى أعمال علاء الديب علاقة الرجل بالمرأة ، فهى الأساس الذى يتحرك منه الفرد نحو أى شئ يصبو إليه ، فهى مرآة الذات ومحركها ، وبدونها لا يتحقق للفرد اتزانه ، وفى أيام وردية تشكل علاقات أمين مع المرأة

أساس مأزقه الوجودى . فعلاقة الحب التى لم تكتمل بين أمين الألفى و«ف» فى الماضى لاتزال تحضره فى الذاكرة ، كلما راجع علاقته الحالية مع زوجته «مس شادن البيلى» التى تزداد عنه اغترابا لانعدام الحوار بينهما ، ونضوب المشاعر الدفينة التى تجمعهما ، لامتثال زوجته إلى الأعراف والطقوس السلفية ، رضوخا للخطاب السائد والمستخدم كمظلة واقية لحماية المكانة الاجتماعية لمروجيه . فإن كان أحد أسباب تدهور العلاقة الحميمة بين الزوج والزوجة فى زهر الليمون يرجع أيضا للضغوط الاجتماعية لاختلاف عقيدتهما ، ففى أيام وردية يشترك الزوجان فى العقيدة ، ولكنهما يختلفان فى كيفية تفعيلها فى حياتهما . بإيجاز تدهور العلاقة بين الحبيبين فى معظم أعمال علاء الديب ترجع لعدم اتفاق الخيارات الخاصة مع الفكر العام ، فيستحيل دوام الحب - كخيار ذاتى - بين شخصين فى مجتمع لا يحترم خصوصية الفرد ، مجتمع انتزع عن أفراده «الرأس والزعانف للزج بهم فى علبة سردين » مما يؤكد فى النهاية استحالة الفصل بين الخاص والعام ، أو الوجودى والسياسى عند تناول أية قضية.

وصورة المرأة فى أيام وردية تتوازى وصورة فلسطين «توأم الروح» فتاريخها وتاريخ مصر بتزاوجا على مر العصور ، وهى الحلم الوحيد الباقى بعد تداعى الأحلام الأخرى ، بتمسك به أمين الألفى والطبيب البير بشاى - مدير «مصلحة نابلس» الذى يتولى علاج أمين - فـفلسطين هى الأرض المشتركة التى تعنياهما وتربطهما ، حتى وإن اختلف منظور رؤيتهما لها . صارت فلسطين لهما الحرمة التى ينبغى أن تصان ، والهيكل الذى يوحد العبادات ، يبكيانه لأن هناك من يسعى لتدنيسه بطمسه فى خطاب دعائى ادعائى استباح كافة الحرمات مما أضاع القضية . ويتمثل ذلك التدنيس السياسى لقضية فلسطين على المستوى الذاتى فى الموقف الساخر الذى يقع فى مقهى «نابولى» أحد المقاهى التى يرتادها «المثقفين » (المتثاقفين) فى وسط العاصمة.

يصطحب أمين الألفى عفاف ، السيدة الفلسطينية نزيلة مصحة «نابلس» ، ورفيقته فى رحلة العلاج - يصطحبها إلى هناك تلبية لرغبتها فى التنزه بعيدا عن المصحة ، والحوار مع «ممثلى الفكر» من «المثقفين» المصريين ، فالرغبة فى التواصل هنا يثيره الاحتياج الشخصى وبالطبع له صدى سياسى . يسعد أمين بتلك الصحبة، فهو فى احتياج إلى بعض من المودة خاصة بعد أن طلبت منه زوجته الانفصال وانتزعت أولاده عنه ، وتطلع إلى أن يكون فى لقاء رفاق الأزمنة الوالية عهدا متجددا، وترحيبا بمناضلة



فلسطينية تعرضت للأذى . ولكن تنقلب محاولة التواصل الشخصى والجمعى إلى موقف فاضح ، ففى أثناء وجودهم بالمقهى يتقرب أحد الصحفيين إلى عفاف ، منجذبا لاسم عائلتها المعروف ، محاولا الاستئثار بها ، وبعد تعارف لم يدم سوى دقائق يفصح بها عن شهوته بفجاجة ، وهو موقف قد يثير ثائرة بائعات الهوى . فالتدنيس السياسى للقضية على المستوى الإعلامى يتمثل هنا فى محاولة تدنيس جسد المرأة على المستوى الشخصى . وينتهى الموقف كما يصفه الراوى «بجنازة الطفل الرضيع الذى مات مباشرة وهو يولد » ، جملة الراوى تلخص حالة البتر التى أصابت العلاقات الشخصية والجماعية لاختلاط كافة القيم والمفاهيم ، و«ممارسة كل الرذائل الأخلاقية والإنسانية بعد دهانها بكلمات الفن والثقافة» ، عمليات قتل على المستوى المحلى لا تختلف عن الجرائم التى ارتكبتها اسرائيل ضد العرب ، كما يجئ فى كتاب «اعترافات القتلة» التى أعطته عفاف إياه بعد تلك الواقعة ، مما جعل أمين يستنتج أن المنطقة كلها مريضة بالسرطان . فالقارئ يستنبط من تداعيات المواقف فى الرواية أن التشدد الاسرائيلى - الناتج عن فكر قومى متشدد - يولد بدوره التشدد العربى إزاء الآخر الاسرائيلى الغربى ، كما ينشط خطاب التشدد فى الداخل الذى يستبيح القمع والبطش تحت دعاوى الحفاظ على الهوية القومية ، أما من يزعمون التحرر والانفتاح فقط سقطوا إلى أسفل مستويات الدونية - أى أن الجميع يحتويهم خطاب العنف الذى يتم التداول بموجبه وفقا لثنائية الغالب / المغلوب .

● تنقل لنا روايات الليب التناقضات والصراعات فى المجتمع

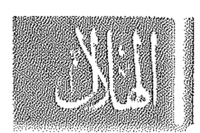
فى أيامه الأخيرة فى المصحة يتكشف لأمين الألفى أن «الحياة الوردية» التى عاشها برهة هى وهم آخر حان إزاحته ، ولكن ازاحته تعنى ارتداده لما كان عليه من تمزق ، واغتراب عن الذات وعن الآخر . يلاحقه الاغتراب أينما ذهب ، حتى عند لجوئه إلى قريته فالمنازل الأسمنتية التى تلبس رداء التمدين تؤكد البؤس وتدنى المحيط البيئى . تنوء القرية بما لحقها من استنزاف مادى ومعنوى فى الحقب السالفة تحت شعارات متباينة : الثورة - الإصلاح - التعمير - الالتزام بالطقوس ، وكلها مراحل لمسيرة واحدة يتبدل أبطالها وروادها تبعا لتفوق

الغالب على انتزاع الدفة من المغلوب الذى قد أصابه الوهن نتيجة الترف الذى أودى به إلى التراخى . يتتبع القارئ المتوازيات بين صورة القرية وصورة المدينة ، حيث يمارس فى القرية أنواع مغايرة من الفساد ، كما ضاعت هويتها بما لحقها من تغيرات سطحية خضعت للتحولات التاريخية الطارئة، وما ترتب عليه من تشويه لجغرافيتها . فالقرية ملحقة بالمدينة مثلما المدينة ملحة بالوطن الأم ، والوطن الأم بالجسد العربى ، والجسد العربى بالغريب المجاور للديار .

عالم تغمره السحب
أم يكشف السماء؟

تزخر أعمال علاء الديب بعالم ينوء بالفساد ، ولكن إن ازداد نطاقه وتوغلت أنيابه يتضاءل أحيانا قبالة نفحة زهرة ، أو حلم جميل ، أو لحظة عشق ، حتى يظل القارئ يتساءل بعد قراءة أعماله أيهما الأرسخ ، سلبيات الحياة أم إيجابياتها حيث تظل نهايات الروايات مفتوحة حتى وإن انتهى المشهد الختامى بصورة عبدالخالق المسيرى مستلقيا بلا حراك ، أو أمين الألفى متأملا لحظات احتضاره . وليس المقصود بهذا التساؤل اتخاذ موقف تأملى متباعد فحسب ، ففى الأوراق الملحقة بروايته أيام وردية يبوح لنا الكاتب إن هدفه فى الحياة هو الكتابة ، وبالفعل تنطوى كتاباته على شحنة دافعة لتجديد الخطاب اللغوى . يغدو فعل الكتابة مثل العشق الذى يطلق طاقة متجددة تدمج الذات مع الآخر فى نطاق العلاقات البشرية المقربة ، والكتابة لها تأثير التفجير الفدائى الذى يجدد الإحساس بقضية فلسطين على المستوى السياسى ، ففعل الكتابة يشعل شحنة الإبداع لدى القارئ الذى يعيد إنتاج النص أثناء القراءة مما يؤهله للمشاركة فى صياغة الكيان القومى ، ويهيئ الأمة للمشاركة فى الكيان العالمى . لم نعد فى زمن «الثورات الكبرى» ولم تعد تجرى محاولات قلب الأنظمة ، فقد كشف لنا التاريخ خطاب العنف المتخفى وراء ستار البطولة . فالأمة ليست مجرد كيان سياسى تصنعه الحروب والانتصارات ، بل هى جماعة حققت الترابط لتجتاز ثقافتها مرحلة الارتجال لتصل إلى مرحلة الوحى بكيفية بناء الذات .

وأنا أطوى الصفحة الأخيرة من كتاب أيام وردية - متتالية العنف والعشق ، الغفوة والصحوة ، البقاء والفناء - تستحضرنى كلمات من الأناشيد المصرية القديمة قد تزيح غيوم التساؤلات ، أو تحملنا فى رحاب السماء لنستطلع ثنائيات المتتالية فى سياقها المتكامل ، والكلمات مأخوذة عن نصوص الأهرام : «نغفو لكى نصحا ونموت لكى نحيا » . ■



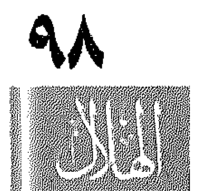
المكتبة ومتحف

شادي عبد السلام

فرعون السينما المصرية

شادي عبد السلام - ١٩٦٢

٩٨



رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

توجهت إلى مكتبة الإسكندرية، أزورها لأول مرة، وذلك قبل بضعة شهور، والربيع على وشك الرحيل .

وكانت المناسبة الاحتفال، في حضور الدكتور أحمد زويل، بنشر سيرته الذاتية بالإنجليزية، رحلة في الزمان .

وبينما أنا ونفر من المحتفلين في مجمع المكتبة، حيث متاحف العلوم والخطوط والآثار .

قال المرشد ، والآن إلى متحف فرعون السينما المصرية.

وتساءلت، مندهشا، هل للسينما فرعون، وإذا كان لها، فمن هو يا ترى؟

وما هي إلا ثوان، حتى كنت قد استرجعت على شاشة ذاكرتي الكتاب الذي أصدره معهد العالم العربي بباريس تحت عنوان «شادي عبدالسلام فرعون السينما المصرية».

وهو كتاب زاخر بصور ملونة، رائعة الجمال، من بينها رسومات للأفلام التي أبدعها، ورسومات أخرى للأفلام التي كان يرنو إلى ابداعها.

وعلى رأسها فيلمه حول مأساة اخناتون، ذلك الفرعون الملعون الذي عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

واعتلى عرش مصر، بعد وفاة والده آمون حوتب ومما يميزه عن الفراعين الآخرين الثورة الفكرية والدينية التي شاركته فيها زوجته نفرتيتي، وتعني بالفرعونية الجميلة تتهادى.

وانتهت بفشل وردّة إلى عبادة آمون.

إذن فالمقصود بفرعون السينما المصرية هو شادي عبدالسلام.

ومرة أخرى تساءلت ، كيف صار لشادي متحف، وهو الذي عاش مضطهدا، منذ نجاح فيلمه الروائي الطويل، الأول والأخير، المومياء أو ليلة حساب السنين.

وبقي مضطهدا، شبه ممنوع من ابداع فيلمه عن اخناتون، إلى أن أصيب بالسرطان ، وجاءه الموت، قبل ستة عشر عاما بالتمام (١٩٨٦/١٠/٨) ودون أن أصل إلى جواب، وجدتني في متحف فرعون السينما المصرية، أتنقل بين أشياء ثمينة، كنت أراها، في أثناء زياراتي لمكتب شادي في شارع ٢٦ يولية (فؤاد سابقا) .

رسوماته، صوره، كتبه، أرائكه، سجاجيده، جوائزه التي توجت المومياء وأفلامه القصيرة.

وأحسست وكأن روحه قد عادت، ومعا نسترجع الماضي.

وخرجت من المتحف بنفس مطمئنة على كل حال لأنني بعد مشاهدة أشيائه معروضة في متحف جميل، وأين؟ في مكتبة ذات تراث مجيد، أستطيع أن أقول أن معركتي من أجل المومياء، وأنا رقيب، قد توجت بنجاح منقطع النظير.

فعطاء الفنان يقاس لا بكم، بل بكيف

الأفلام.

ورب فيلم واحد آثمن وأبقى من مائة فيلم وهنا أرى لزاما أن أعود بالحديث إلى عام ١٩٦٧.

كان أول لقاء بينى وبين شادى بمكتبه، وأنا رقيب جاء ، ومعه سيناريو المومياء، ملتمسا إجازته فى أسرع وقت ممكن.

والشيء الذى استرعى انتباهى فى هذا اللقاء الأول هو مستوى شادى الثقافى الرفيع.

وما كان يمكن أن يدور فى خلدى، أن مستواه هذا، وعشقه لتاريخنا، سيكون وبالا عليه.

يتحول بأحلامه إلى كوابيس.

وعلى كل، فالتماسه الاسراع بإجازة السيناريو لم يكن أمرا غريبا.

الأمر الذى أثار دهشتى، وأدخل كل ما يتصل بالمومياء فى باب الغرائب، هو أن يكلمنى هاتفيا، فور زيارة شادى، رئيس مجلس إدارة شركة الإنتاج السينمائى، كى يطلب ما خلاصته الامتناع عن الموافقة على سيناريو المومياء، لا لسبب سوى أن الفيلم ، فيما لو رأى النور، سيكبد الشركة خسائر فادحة، هى فى غنى عنها، خاصة انها تعانى من ضائقة مالية، لن يكتب لها منها نجاة، إلا بفضل أفلام تحقق نجاحا فى الشباك.

والشيء الذى ليس فيه شك أن المومياء، بحكم موضوعه الجاد، لا يدخل فى عداد تلك الأفلام.

وقد يكون من الخير أن يمنع من المنبع، أى وهو فى مرحلة الرقابة، وذلك حتى تجنب الشركة خطر الإذعان لأمر وزير الثقافة، الواقع تحت تأثير نفر، لا يعنيه مصلحة الشركة فى قليل أو كثير.

وعندئذ ذكرت له أن احتمال فشل الفيلم تجاريا ليس من الموانع الرقابية التى تحول دون إجازة السيناريو، فالمنع وفقا للقانون محدود بمخالفة المصنف الفنى للنظام العام أو لحسن الآداب.

ومن الأكيد أن احتمال فشل الفيلم تجاريا لا يشكل مخالفة لكليهما لا من قريب ، ولا من بعيد.

وانتهى حديث الهاتف وديا، أو هكذا ظننت مدفوعا بحسن النية، وكم كنت واهما.

فما هى إلا أيام ، حتى كان قد عاد الحديث الهاتفى مرة ثانية، لاسمع صوت رئيس مجلس الإدارة يكرر المطالبة بعدم الموافقة على السيناريو، ويقيم طلبه فى هذه المرة على سبب متصل بالنظام العام ، لا بالشباك، هو اكتشاف أن الأفكار المنطوى عليها السيناريو معادية للقومية العربية.

ولأننى وجدت أنه لا جدوى من التحاور معه فى ذلك الاتهام الواضح الافتعال، فقد وعدته خيرا، وكان خير ما فعلته أن أسرعت بالموافقة على سيناريو المومياء .

وتمر الأيام أعواما بعد أعوام، ويصبح المومياء درة السينما المصرية.

ويصير لشادى فى مكتبة الإسكندرية متحف فرعون السينما المصرية !!

ميم . دال

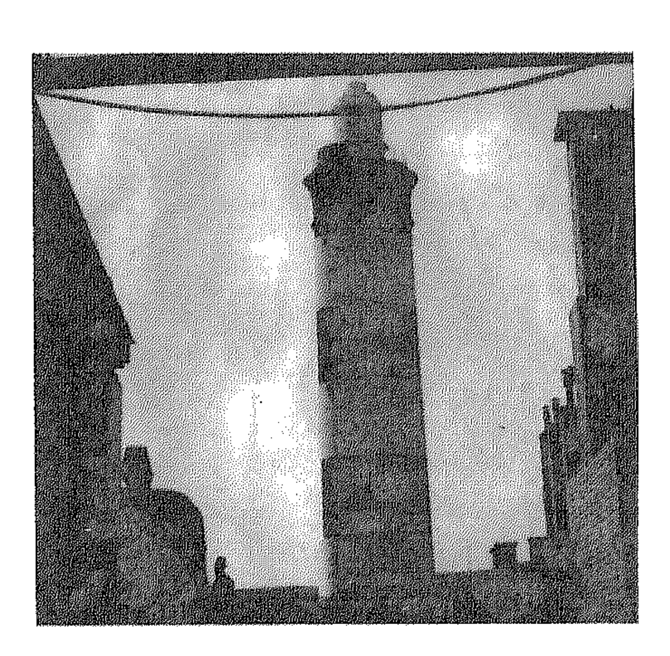


شادي عبد السلام وفريق العمل أثناء تصوير فيلم المومياء



مشهد من فيلم المومياء يجمع بين نادية لطفي وأحمد مرعي

منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية



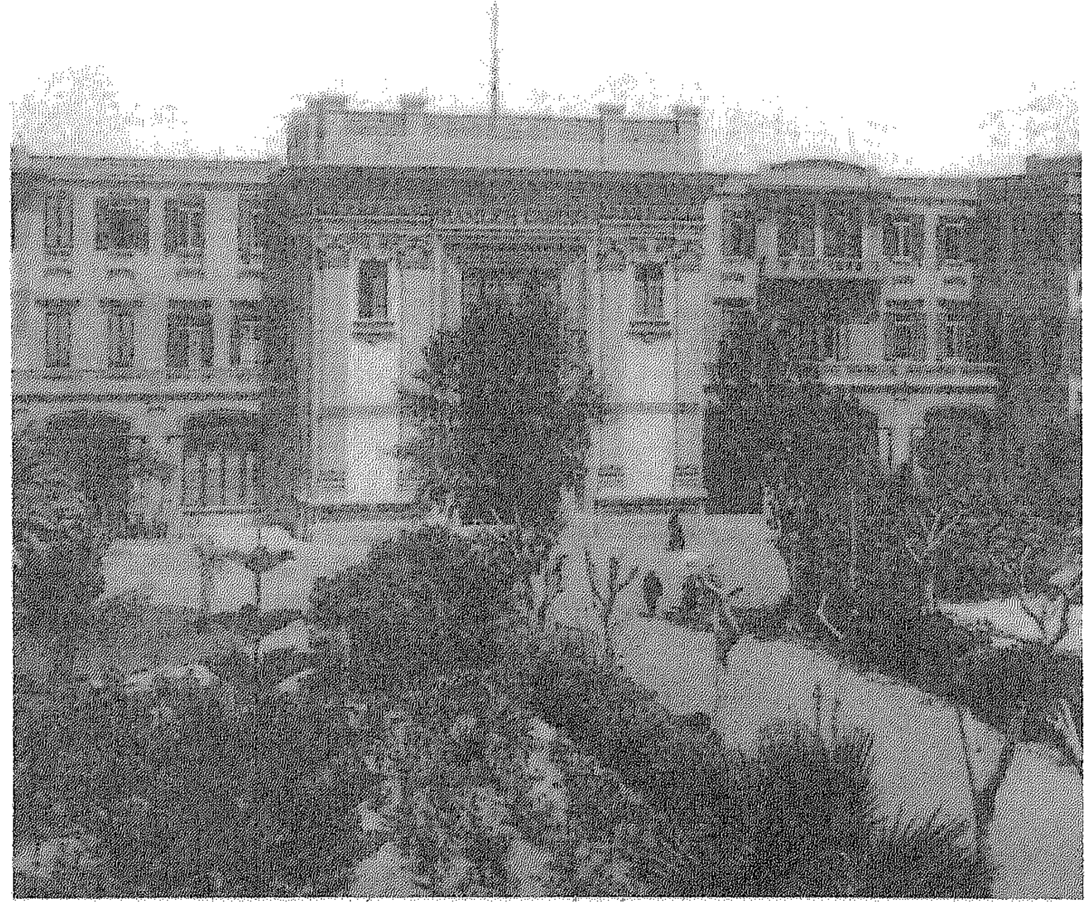
بقلم

عدلى رزق الله

العبور..

يفعلها المصريون أبدا. يفاجىء الانسان المصرى والذى يبدو نائما ومستتيما إلى اليأس المطبق حيث تتفاقم المشاكل وتزغرد اللامبالاة منطلقة فى كل مناحى الحياة. التلوث البصرى والسمعى يقتحم علينا حياتنا فى الشارع والبيت ويقتحم حياتنا حتى المخادع وأماكن الراحة. الاستسلام لتعليم تفاقمت مشاكله وتملأ بيوتنا شهادات وأوراق لاتنفع ولاتضر! .. إلخ منظومة التخلف وأنا فى غنى عن سرد ماتعرفونه أفضل منى، ينزوى الانسان المصرى بعيدا، يائسا وصامتا، أو منفجرا بالشكوى الدائمة التى تتحول من فرط تكرارها فى مجالسنا إلى لغو لامعنى له، فالجميع يشكو وكأنه غير مسئول.

فى مثل هذا الجو «عبر الجيش المصرى» بعبقرية وخيال خلاق وتعجب الصامتون اليائسون والشكاءون البكاءون.



كازينو الرمل « سان استيفانو » أحد أهم فنادق المدينة - أواخر القرن التاسع عشر

في مثل هذا الجو بنى المصريون السد العالي.

في مثل هذا الجو يعبر الانسان المصرى ببناء صرح ثقافى هو «مكتبة الاسكندرية» أول «علامة» لدخول القرن الـ ٢١.

اللقاء والعمارة الحديثة

في أحد أيام الربيع يصحبني المهندس الفنان محمد عوض في أولى زياراتي للمكتبة . بناء دائرى مرصع بكتابات ورموز ويغلب عليه اللون الرمادى الكابى بلفح تأثير معدنى طاغ. أنظر إلى السماء الزرقاء شديدة الصفاء. تتجول عيناى في مياه لازوردية يتماوج فيها الفيروزى بالتركوازى الذى يميل اخضراره إلى الزرقة، تتكسر أضواء الشمس البرتقالية في دلع تتميز به طبيعة عروس البحر الأبيض. أغمض عينى العائدة من دلع الطبيعة السكندرية الطاغية، حينئذ تغيب الشمس - فى مخيلتى - وتبرق وترعد السماء، وتتكسر الرعود صاخبة مجلجلة، وتتكاثر سحب تمطر على اللون المعدنى الكابى. أفيق من هذا الخيال الجامح

لأقــول لصـــديقى هذا البناء يليق ببحـور الشمـال. يبتسم المعمـارى الوقور ناصحا إياى بمشاهدة المبنى من الداخل.

مـلاحظة : لوحـة ركـيكة تجـاور المبنى من الخارج تخدش روعة البناء وبها العزيز مـيكى مـاوس وآخرون، مستوى أدائها يحتاج إلى مراجعة.

تدلف إلى داخل المبنى. يأخـذنى الفراغ الهائل، والذى لم أر له مثـيلا من قـبل حـتى فى زياراتى لمتـاحف ومكتبات عالمية، أتحمس لكل ما أرى وأدعو أصدقاء «بيت المائيات» لرؤية المجموعة التى أهداها المهندس الفنان محمد عوض الى المكتبة لمدة خمس سنوات قابلة للتجدد، وأترك المكتبة واعدا نفسى بضرورة العودة.

لقاء المثقفين

وراء كل عبور عظيم خيال أعظم، إيمان، قـدرة على الإنجاز تصل إلى حد الإبداع . قيادة تتميز وتملك كل تلك المواهب بل وقـادرة أيضـا على استقطاب القادرين.

إسماعيل سراج الدين

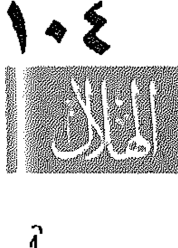
يمثل لى هذا الرجل نموذجـا جـديدا من القيادات المسلحة بالعلم الحديث فى آخر تجلياته متزاوجا مع ثقافة موسوعية تلم بكثير من الفنون القديمة والحديثة، يضاف إلى كل هذا خـبرة على مستوى العالم غربه وشرقه، قدرة على العمل المتواصل بتركيز لايصيبه الوهن أو الشحوب دون السقوط فى وهدة العاطفية. نموذج لو تكرر فى قياداتنا لدخلنا القرن الـ ٢١ بخسائر أقل.

عادل أبو زهرة

نحـيل، نحـيف، دقـيق الحـجم والملامح، مـتـحـمس أبدا لقـضـايا الجمال وضرورته لحياة البشر، مثلما هو متحمس لقضية بناء الإنسان الحر والخلاق، يعمل بلا كلل من أجل إنجـاح لقـاء المثـقـفين بمكتـبـة الاسكندرية.

اللقاء

تقليد جديد من قيادة جديدة. تعودنا أن يهرب المسئول من المثقفين، واقعا فى أحضان أصحاب المصالح ويستحسن أن تكون شخصية حتى يضمن المسئول عادة عدم خروج المحيطين به عن الطاعة الواجبة، أو سماع مايكره أحيانا، لقاء بدأ فى التاسعة والنصف صباحا واستمر حتى السادسة من اليوم التالى، الجميع حاضرون فاللقاء جديد، والحماس يعدى، والكل فرح بما يرى ويعيش. عرض جاد لما تم وما سيتم ، ونستمع إلى تعليقات الحاضرين، يضع الحالمون منا على عاتق المكتبة حل كل قضايانا من التعليم إلى محو الأمية، من التنمية إلى وصول صوت





شارع باب رشيد ، أحد شوارع المدينة الرئيسية – أواخر القرن التاسع عشر

المكتبة إلى النجوع والكفور، ويرى المعتدلون – وأنا منهم – ضرورة تصدى المكتبة للصناعة الثقيلة فى الثقافة والتصدى للمشاريع الجادة والأبحاث المتعمقة والمعارض التى لايمكن إقامتها إلا بجهد غير متوافر فى مناخنا الثقافى.

ونزور الأجنحة والمعارض القائمة والتى أرى أنها تتوافق حقا مع ماندعو إليه ونرى :

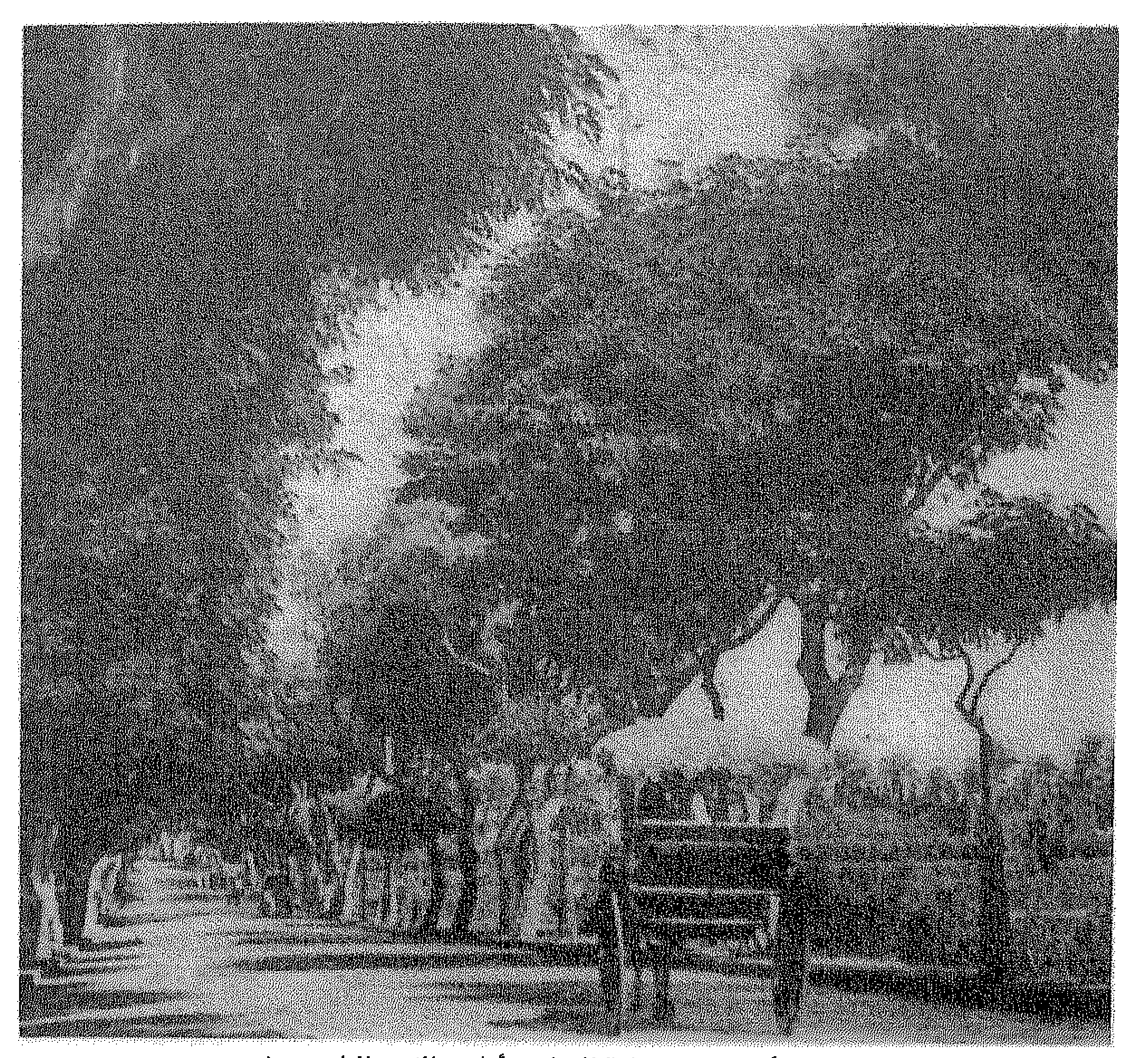
● متحف العلوم والتاريخ وهو هدية من فرنسا.

● متحف المخطوطات النادرة والأثرية، وما يلحق به من محاولة إخراجه إلى العالم المرئى بالوسائل التقنية الحديثة، وطباعة الكترونية يمكن اقتناؤها.

● معرض الخط العربى وأعتبره لبنة لمعرض أشمل.

● متحف الحضارات والمجموعة المستنقذة من بحر الاسكندرية.

● عرض تكون الكون وبداية


شارع «أبو قير» بمنطقة الرمل - أواخر الفرن الناسع عشر

الخليقة.

أما العنصر الذى يستحق منا عناء كثيرا فهو الخاص بالأطفال وقد وعد الدكتور سراج الدين بندوة تخصص للأطفال ومايقدم لهم بناء على دعوة السيدة نعم الباز، أما الدعوة الثانية العاجلة فهى تتلخص فى ضرورة وجود وحدة طباعية - وهو ما اقترحته فى اللجنة الثقافية - متطورة التقنية حديثة وصغيرة الحجم.

فى العمل الأخير الذى قدمه لنا الدكتور سراج الدين والذى يدلل فيه على أهمية لقاء الحضارات، ومحاولة إيجاد «الطريق» أو «الكود» للتعامل مع الآخر، ونحن نتفق تماما مع الدعوة، بل ولا حل لدخولنا عالم اليوم إلا ذلك المنهج الذى يدعو له الدكتور سراج الدين، وفى اعتقادى أن فى تكوينه العلمى والثقافى خير نموذج لما يدعو إليه.

لكنى أختلف مع الدكتور فى بعض



ميدان محمد على بعد إعادة بنائه - أوائل القرن العشرين

ما أثارته أمثلة الالتقاء التشكيلية التى قدمها لنا غير مخف لإعجابى بمعرفته الواسعة بفنانى الغرب والبلاد العربية.

«الشكل والمضمون لحمة واحدة، لايمكن فصل أحدهما عن الآخر، وإذا حدث وقعت الجريمة التشكيلية وسقطنا فى مستنقع التقليد، هضم التراث عالميا أو محليا ضرورة.. ثم انتاج الجديد. عندما قلد بيكاسو القناع الأفريقى فى «آنسات أفينيون» لم تستطع معدته الفولاذية هضم طبول الغابة الأفريقية - المضمون - ولكنه اكتفى بتقليد الظاهر فى عمل تجريبى تكمن قيمته فى تاريخيته فقط. ولم تنجح التكعيبية إلا حين لجأت إلى أبحاث سيزان وطورتها وحينئذ ابتعدت عن «تقليد الشكل». كما ان إفراغ الخط العربى من مضمونه وتحويله إلى شكل جرافيكى أفقده ويفقده القيمة التعبيرية الجمالية وإن أبقى على قيم زخرفية شكلية.

هذه عجالة وجب تسجيلها احتراما

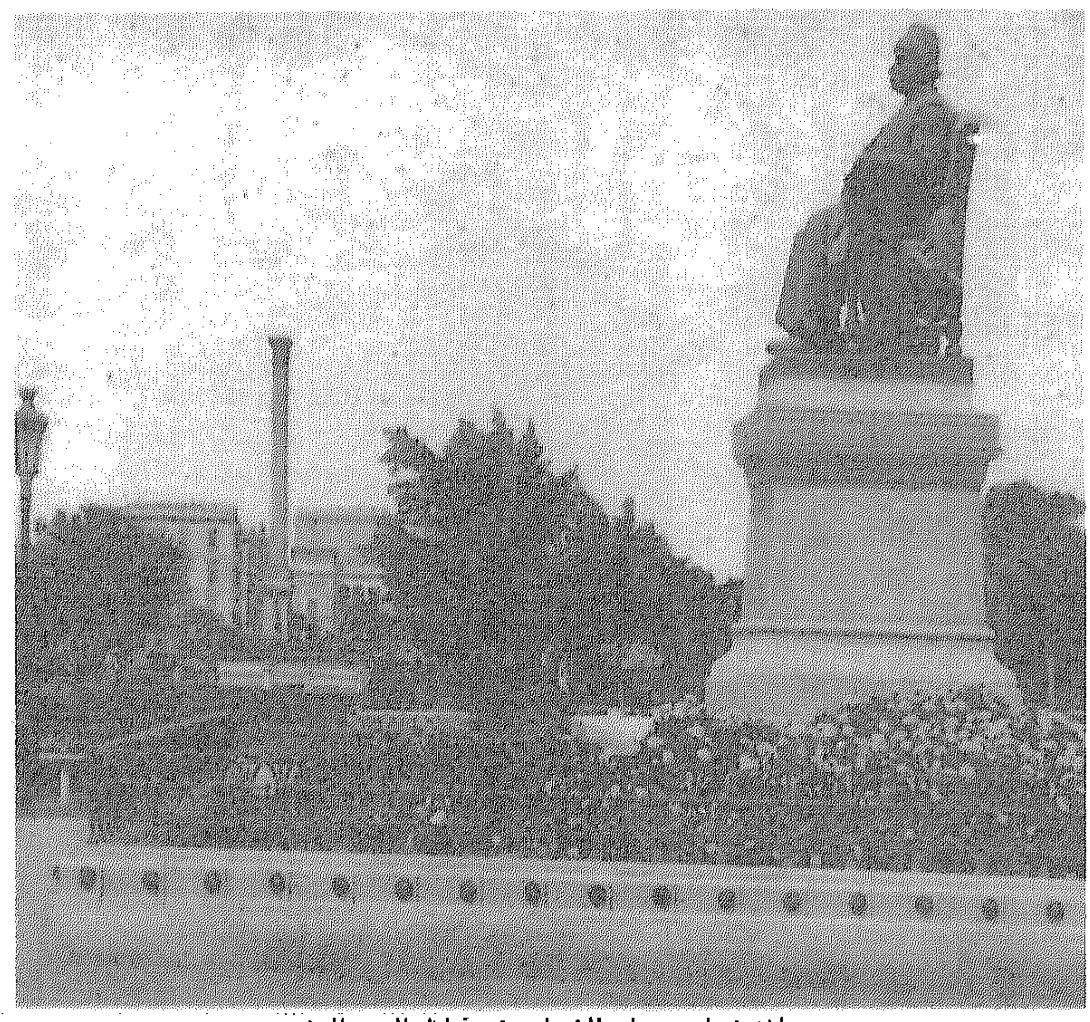


قصر رأس التين الذي بناه محمد علي ١٨١٨ ، والصوره من بدايات القرن العشرين بعد تجدبده وتوسيعه فى عهد الخديو اسماعيل

منا لما مثلته أعمال جادة حقا تستحق مناقشة يتاح لها الوقت وإمكانية الحوار وقد يكون هذا أحد الموضوعات الصالحة لأبحاث جادة، فما أحوجنا إلى «المضمون» ولانحتاج حقا إلا تقليد «شكل» الحضارة، وأعتقد أن فى هذا يكمن لب دور مكتبة الاسكندرية.

محمد عوض ومجموعته

يمثل لى المعرض الدائم لمجموعة محمد عوض المجاور لجناح المخطوطات النادرة - الذى يحتاج للكتابة عنه إلى زيارة خاصة لفرط أهميته - نموذجا جيدا لعرض تنفرد به المكتبة، كما يلقى الضوء على عاشق الاسكندرية محمد عوض، عاشق يتتبع أخبار محبوبته على كل المستويات، يوثق لها منذ أن رسمت خرائط متخيلة، ثم خرائطها الحقيقية، رسوم المستشرقين المتخيلة ثم الرسوم الحقيقية التسجيلية، تتبع لكل صورها



حدائق نوبار وميدان الخرطوم فى أوائل القرن العشرين

الفوتوغرافية منذ آن بدأت الفوتوغرافيا. والجزء الأخير يتمثل فى عشاقها من الشعراء والكتاب والفنانين، من لورانس داريل إلى ادوار الخراط وإبراهيم عبدالمجيد - جارى هذا العمل الآن - من كليابدارو إلى مارينتى، خرائط، وثائق، رسوم، صور فى سيناريو سلس آخاذ. ينبض حياة ومازال العمل مستمرا وما أجمل آن يستكمل هذا العمل - كنموذج - بفيديو يستمع فيه كل زائر إلى العاشق بنفسه يتحدث عن مجموعته، وعن بعض طرائف وقصص جمعتها تلك المجموعة الفريدة، هذا لمن لديه وقت للبحث والاستقصاء وليس الزائر المتعجل للهرم الرابع كما تقول ملصقات المدينة.

وبعد فهل نحلم بكلية فنون أو جامعة تتخلص من الروتين مثلما رأينا فى مكتبة الاسكندرية؟ هل أحلم، وهل الحلم مشروع!! ■

الحيوان
مجرد أصداء وألوان

بقلم
د. محمد المهدى

- استسلم الطين فبقى أثره وتمرد الحيوان فطمست معالمه

- جواتييه فى القرن الـ١٩: الحمار المصرى يختال.. كأنه يعرف أن أحد سلالته حمل العذراء والمسيح الى مصر

الحيوان حالة وسط لا هو بالصامت المستسلم بحيث تشكل منه ماتشاء، ولا هو بالناطق المعبر بحيث لاتستطيع أن تفرض عليه ما تشاء .

وتستطيع أن تتحدث عن شخصية عمارة الكرنك، أو بوابة عشتار، أو البتراء ، أو البارثينون، أو مسجد ابن طولون، أو الفاتيكان، أو نتردام.. ولكنك لاتستطيع أن تتحدث عن شخصية حيوان محدد الاسم والتاريخ.

استسلام الجماد للإنسان صنع له شخصية . قد تكون تابعة، ولكنها أيضا متفردة، وتمرد الحيوان بالغريزة غير الواعية أضاع تاريخه، وطمس معالمه.



من تناقضات الفنان روبنز -الذئب الذى يحمى الأطفال (١٦١٧-١٦١٨)

وتستطيع أن تتحدث عن جمال القط المصرى، أو عظمة الثور المجنح البابلى، أو هيبة الميناتور اليونانى، أو حكمة الحمار المسيحى، أو رشاقة الحصان العربى، أو وداعة الفيل الهندى، أو مرونة النمر الصينى، لكنها مجرد رموز تستدعى لك بالضرورة فى الذاكرة عملا نحتيا، أو تصويريا، أو أدبيا، أو أسطوريا، أو دينيا معنيا.

الحيوان على لسان الإنسان وجدناه فى أغانيه، وكتبه، وحكمته، وقصصه، ورواياته، وأساطيره، ولوحاته، ومنحوتاته.. مجرد أداه، رمز الحالة مكانية زمانية معنية.

حالة القط

للكاتب التركى «عزيز نسين» قصة اسمها «قصة القط السعيد» تحكى فيها فنانة عن حلم رأت فيه نفسها مع جماعة يسيرون فى الطريق، وفجأة يصدر صوت يأمرهم بالتوقف، ثم يأمرها بأن يخرج كل واحد منهم قطعة طباشير ويرسم دائرة حول نفسه.

يطيعون الأمر، ومن اعتذر منهم بعدم وجود قطعة طباشير أمر بأن يرسم الدائرة حول نفسه بأى قلم، ومن يعتذر منهم بعدم وجود قلم أمر بأن يرسم الدائرة فى الهواء.

وبعد أن قام الجميع بتنفيذ الأمر وجدوا أنفسهم محصورين فى دوائرهم، حتى الكسيح، والميت، والمشلول قاموا برسم دوائرهم فى أذهانهم تنفيذا للأمر، ظلوا فى حيرة لايستطيعون الخرج إلى آن ظهر القط، ظل يتجول بين دوائرهم فى حرية يدخل ويخرج حسب هواه، وفى سعادة تنتهى القصة بأن يصرخ كل واحد بدوره قائلا : لو أن واحدا فقط خرج من دائرته فإننى سأخرج.

ولم يخرج أحد.

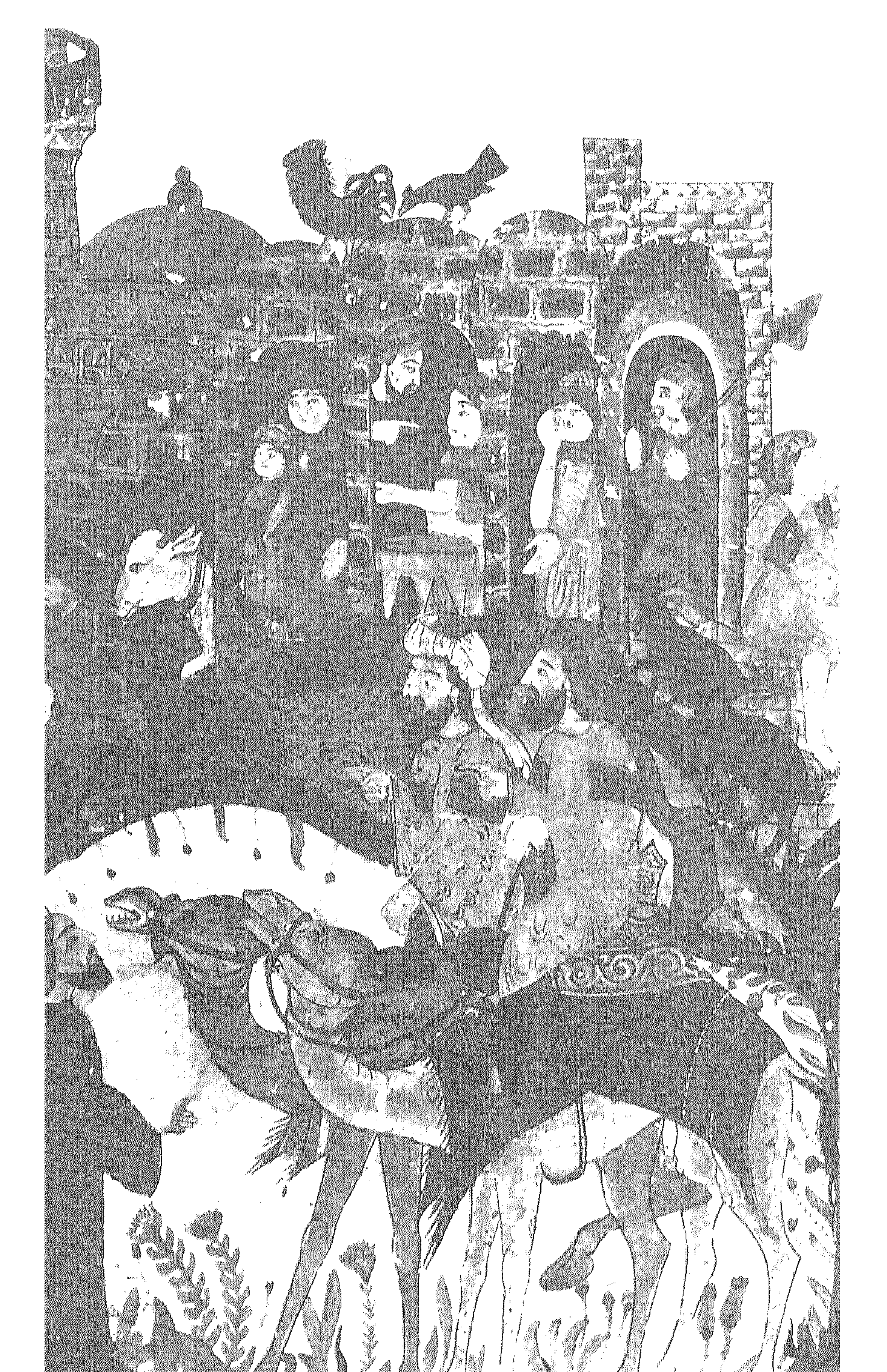
ونترك قصة «نسين» الفلسفية الى قصة الأديبة الفرنسية «كوليت» الواقعية، حيث كتبت الكثير عن عالم الحيوان، وخاصة القطة، فى قصتها «القطة» نرى شابا يحب قطته «ساها» ولا يستطيع أن يفارقها حتى بعد أن تزوج، تتبع الكاتبة الزوج والزوجة والقطة خلال ثلاثة أشهر القطة يصيبها القلق، فقد استبعدت من ارتياد فراش الشاب، فى داخل الزوجة شىء يلتهب لاتعرفه هل هى الغيرة.. الغيرة من قطة؟

تتوتر العلاقة بين الزوجة والقطة، وفى لحظة عصبية تطارد القطة وتلقى بها من تاسع دور، لكنها تسقط على ساتر فى الدور الثانى فلا تصاب إلا بخدوش، تعترف الزوجة بحالتها، يصاب الشاب بذهول ، يقرر الرحيل مع قطته، وتقول الزوجة لو إننى حاولت أن أقتل أو قتلت امرأة تنازعنى حبك، وتتنزعك منى، كنت ستغفر لى . ينظر إليها الشاب فى صمت ويرحل.

الصمت علاقة راقية، أن أعظم

الإبل فى لوحة نقاش بالقرب من قرية وردت فى معامات الحريري (يحيى الواسطى ١٢٣٧) - المكتبة الوطنية باريس◀





الفنون هى الموسيقى ، ففيها هذا التجريد الصامت، العالمية، الكونية، تتحدث بكل اللغات، ولكل الأجناس والطبقات، لغة لاتعرف وساطة الحروف، والجمل، وتحايل الصياغة، وبالتالى التأويل، تخترق الأعماق دون سدود أو حدود، هى أقرب إلى الصمت المعبر، أو القول دون صوت، لقد أصيب الحيوان بهذه العاهة، فى نظر الإنسان، ولكنه حين يدرك قيمتها عند الحيوان يألفه، يشعر أنه حصل على ثروة معنوية، وكانت هذه مشاعر الزوج فى قصة «كوليت» .

لكل زمان حماره

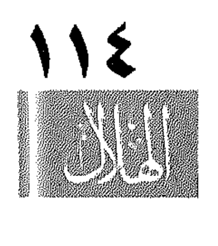
ويحدثنا الدكتور عبدالحميد يونس فى مقدمة ترجمته لـ «البنجا تنترا» أن قصة وفاء الكلب «جلبرت» المشهورة فى إنجلترا لها أصل هندى، يقول إن البرهمى ترك طفله فى حراسة النمس الأليف، وجاء الثعبان فقتله النمس .. وتستمر القصة الى النهاية، كيف وصل الأصل الهندى الى إنجلترا؟ هل هى مجرد توارد لخواطر الشعوب؟ ولماذا الكلب والذئب فى الرواية الإنجليزية، والنمس والثعبان فى التراث الهندى؟

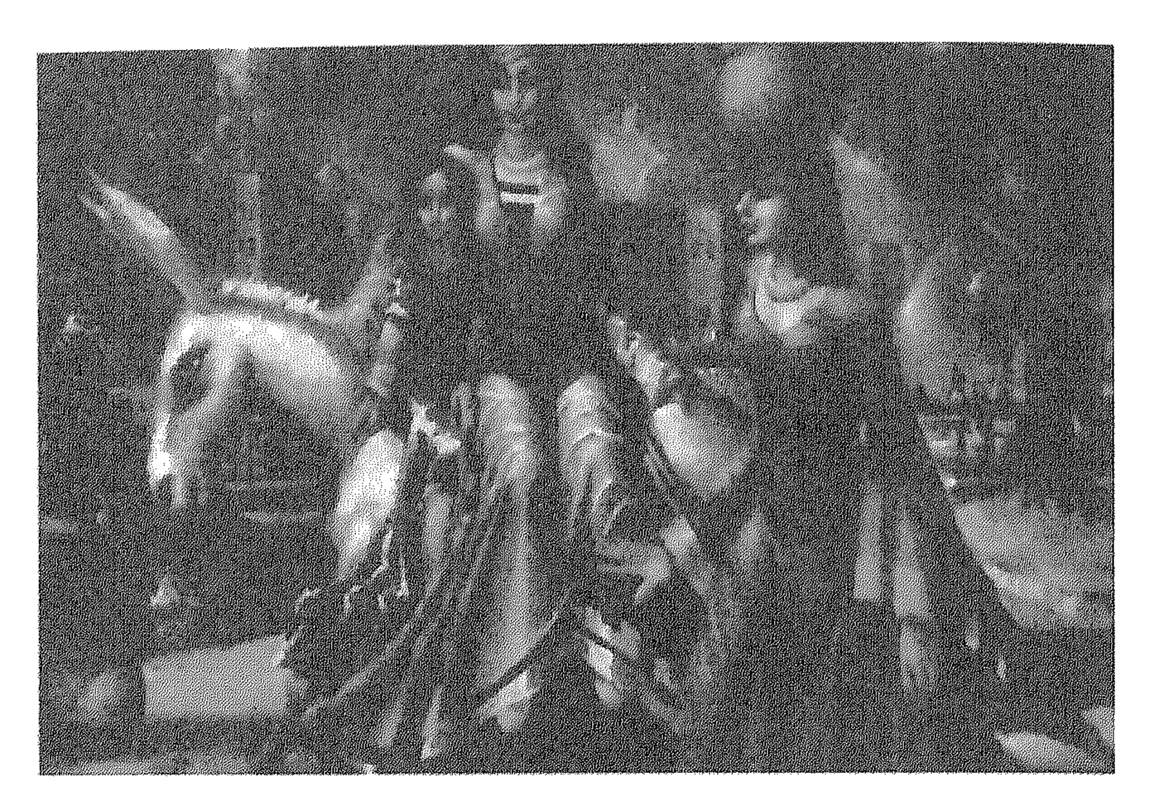
والحمار من أشهر شخصيات مسرح الحيوان العالمى، لكل زمان حماره الخاص، فهو إما غافل، أو بليد، أو صامت، أو حكيم، أو خبيث .. أو متنبىء

تحكى «البنجاتنترا» أو الأسفار الخمسة الهندية، أن الأسد العجوز مرض وطلب من مستشاره الثعلب أن يحضر له قلب وأذنى حمار ففيها شفاؤه، يستطيع الثعلب أن يخدع الحمار فيصور له الغابة مليئة بالأتن. يطاوعه الحمار، وما يكاد يصل إلى عرين الأسد حتى يخرج له مهاجما فيفر الحمار يسعى الثعلب من جديد لخديعة الحمار فيقول له إن نظره قد خدعه، وأنه تصور الأتان أسدا لشدة تعبه. يصدق الحمار، ويذهب معه ويقتله الأسد، يذهب الأسد ليؤدى طقوسه قبل الشروع فى أكل قلب الحمار وأذنيه، وحينما يعود لايجد للحمار قلبا، ولا أذنين فقد أكلهما الثعلب، يثور فيهدىء الثعلب من روعه، ويقنعه بأن هذا الحمار كان خاليا من القلب والأذنين.. ألم يكن أبلها خدعناه مرتين فكيف تكون له أذنان تسمع، أو يكون له قلب يعى!؟

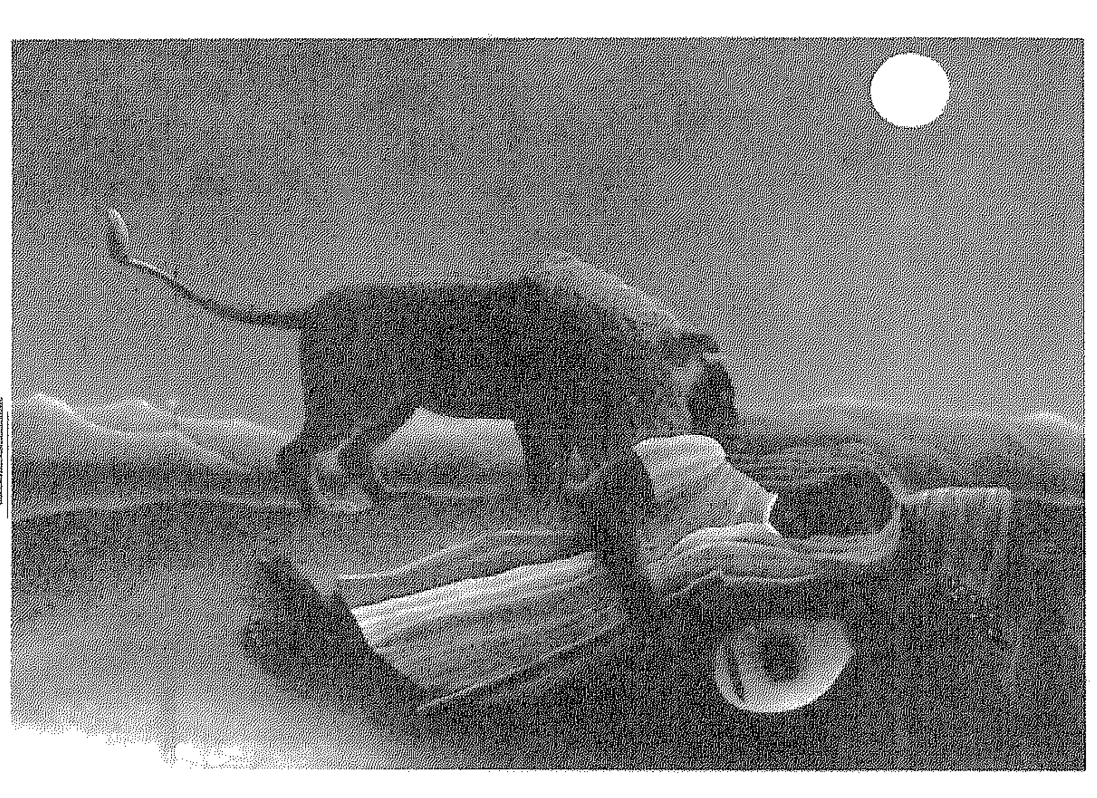
لكن الحمار فى ألف ليلة وليلة يأتى خبيثا، لقد نصح الثور المرهق بالعمل أن يتمارض حتى يتركه سيده، فعلها الثور فجاءت فوق رأس الحمار، لقد تحمل أعباء العمل وحده، جاء الحمار للثور وحدثه أنه سمع سيده ينوى ذبحه لأنه مريض، هب الثور لفوره واستأنف العمل.

والحمار الشهير الذى حدثنا عنه الكاتب الإسبانى «خوان رامون خمنييث» فى منظومته «أنا وحمارى» كائن بقلب كبير، ونفس رحبة، يحب الناس ويحبونه يدير الحوار فى صمت وحكمة، يعرف مصير الأشياء، ويدرك الأعماق، ولايطمع إلا فى القليل، وهو تقريبا «حمار





الحمار المصري بحمل الأسرة - من أعمال محمود سعيد ١٩٣٨



اسد الفنان روسو فى لوحة الغجرية النائمة - ١٨٩٧
متحف الفن الحديث - نيويورك

الحكيم»، وإن كان توفيق الحكيم قد أضاف للتأملات طابعا واقعيا لزمانه.

وكان الحمار المصرى قبل أن يلحقه احتقار واستغلال زماننا، مثار اعجاب الكثير من زوار مصر في القرن ١٩، في أوائل القرن يصوره «ادوارد وليم لين» في كتابه الشهير «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» مزدانا ببردعته ولجامه، شامخا بعنقه ورأسه، ويحدثنا الناقد الأديب «تيوفيل جوتييه» في آخر القرن فيقول إنه عرف أن القاهرة ثمانية آلاف حمار، تحظى بالرعاية والعناية، تسير متبخترة وكأنها تعرف أن أحد سلالتها قديما قد حظى بحمل العائلة المقدسة على ظهره من فلسطين وإلى مصر.

وفي التراث العربي

ونعرف في تراثنا حصان عنترة العبسي، ونعرف داحس والغبراء، لقد كان زعيم عبس يملك حصانا اسمه «داحس» وزعيم ذبيان يملك فرسا اسمها «الغبراء» جرى بينهما سباق سعى فيه زعيم ذبيان الى تعطيل داحس حتى تسبقه الغبراء، كشفت المحاولة ودارت الحرب.

ولكن هل كانت قضية حصان وفرس، أم كانت صراعا حول امتلاك الأرض؟

ونعرف من تراثنا العربى كتاب «الحيوان» للجاحظ، وربما نعرف أن أبا العلاء تحدث مع الحيوان في رحلته الشهيرة إلى العالم الآخر في «رسالة الغفران» تحدث مع الأسد، يجده مستمتعا بفريسته فيسأله ويجيب الأسد:

- أنا الأسد الكاسر الذى كان في طريق مصر فلما سافر عتبة بن أبى لهب يريد تلك الجهة وقال النبى: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، الهمت أن أتجوع له أياما، وجنته وهو نائم بين الرفقة، فتخللت الجماعة إليه .. وادخلت الجنة بما فعلت.

ويقابل أبو العلاء وأيضا الذنب، والحية فيكتشف أنها تقرأ الشعر، وتسكن بيوت الصالحين فتعرفهم، وبيوت الطالحين فتنفر منهم وللعقاد رأى خاص في الحمار اليهودى، يقول إن القبائل العربية استأنست الجمل، وأن الجمل بايقاعات أقدامه المنتظمة على الرمال ساعد الحادى على إخراج اللفظ المقفى، واختيار الكلمات المنظومة، تفوق في الشعر، وهو أقرب الفنون الى الموسيقى.

أما القبائل اليهودية فقد استأنست الحمار، والحمار متعثر الخطى في الرمال، فخرجت لغتهم خالية من الايقاع والخيال، واعطت فرصة للتزود بما يناسب مزاجهم من العد والحساب.

ومن أشهر من رسم الآبل، والخيول، والثيران، والبغال «الواسطى» في مقامات الحريرى «١٢٣٧م» تميزت رسومه للابل أكثر، فقد ظهرت في المقامات ٤/٥/٧/١١/١٩/٢١/٢٤/٢٥/٣١/٣٢/٤٣/٤٤/٤٧.

ويقول الدكتور ثروت عكاشة في كتابه «الواسطى» عن الابل في المقامة

البقرة المصرية حتحور (ربه المرح والحياه) ويسمانك – سقارة ٥٣٠ ق.م

١٢ «نراها هنا وقد رسمها متجمعة، وكانت ايقاعاته تتفق ووقع خفاقها على الأرض، وحركات سيقانها، واضطراب أعناقها وتطوح رءوسها، وخفق أذنابها»

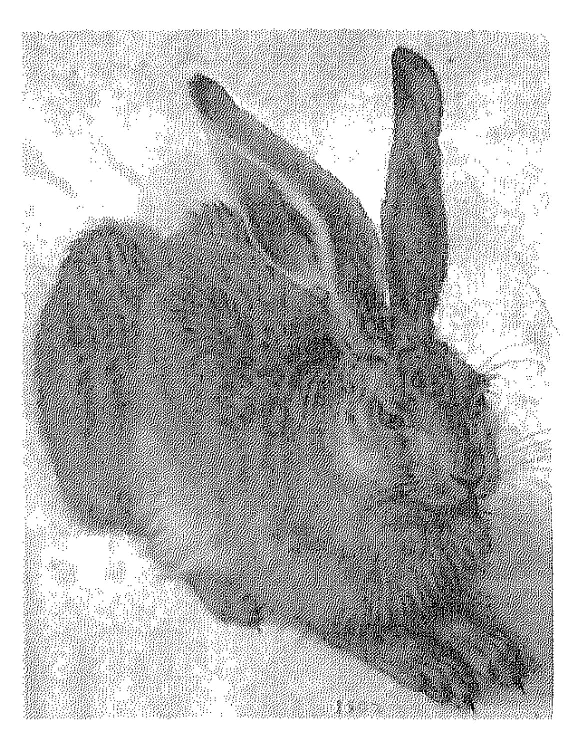
الحيوان والتشكيل

وإذا أردت تأمل عالم ساحر عن الحيوان أو الطيور قلب كتاب عن تاريخ الفن من عصر الكهوف الآن . ثيران كهف «لاسكو» أو لوحة الأسد السومرى الجريح، أو شموخ تمثال القط المصرى «باستت» أو لوحه «اوزات ميدوم» أو النحت اليونانى لصراع الإنسان مع السنتورس «كائن نصفه حصان، ونصفه إنسان» أو لوحة الفنان «دومينكو جيرلندو» من فلورنسا تصور البقرة، والحمار، والكبش، تشارك الإنسان وداعه تأمل الطفل المعجزة، تأمل الحصان التائه مع الإنسان الضئيل وسط جلال الطبيعية فى لوحات أهل الصين، أو القطة الارستقراطية فى منسوجاتهم.

تأمل فى عصر النهضة الأوربية أرنب «ديرر» أو فيما بعد أحصنة «ديلاكروا» أو ثيران «جويا» أو أسد «هنرى روسو» أو صرخة حصان «بيكاسو» أو فيل «ماكس ارنست» أو زرافة «دالى» المحترقة، والعديد مما لايحصى.

ورغم ذلك ظل الحيوان يمثل حالة الوسط، بكل طاقاته الغامضة .

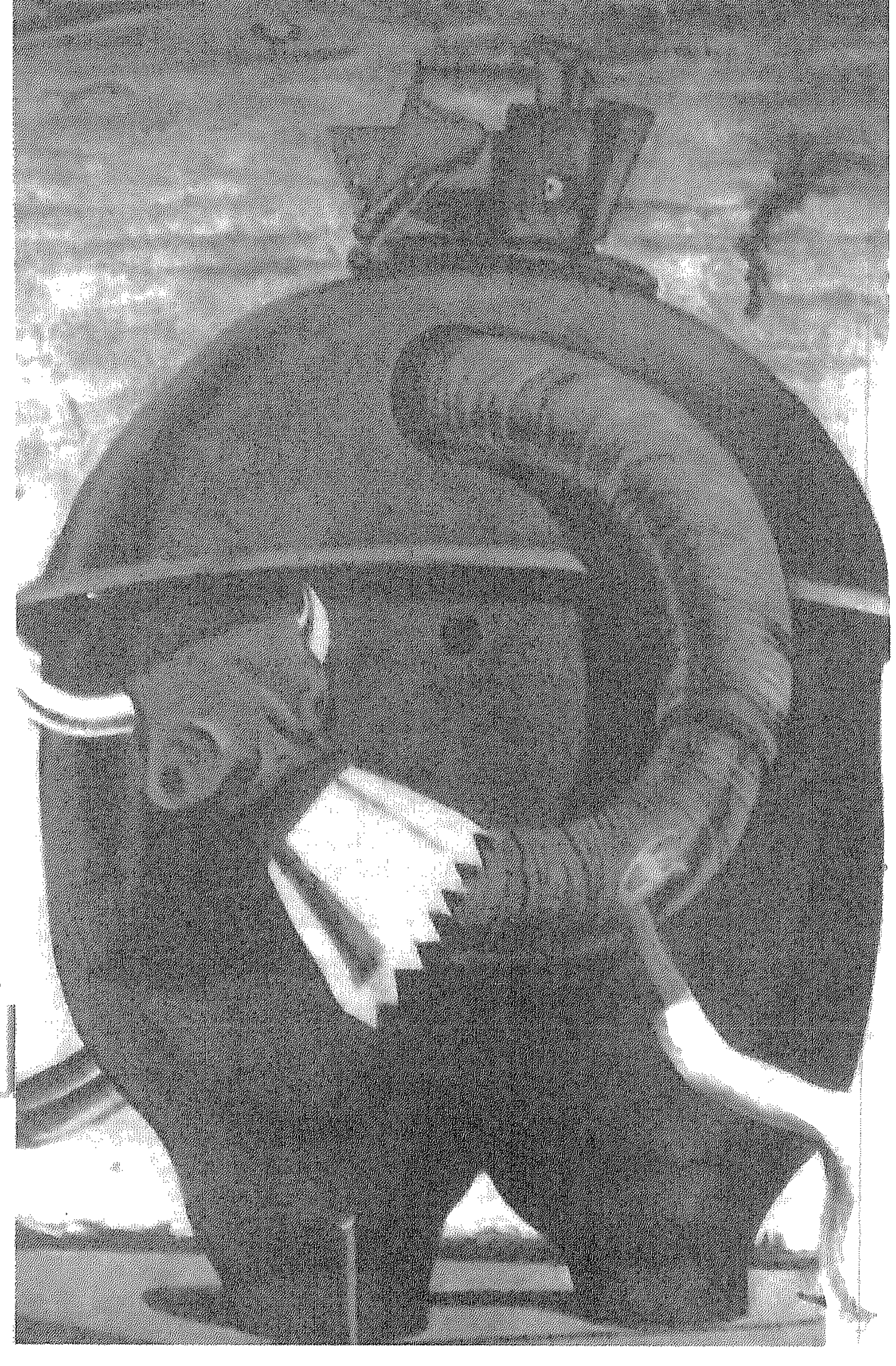
لحظة الميلاد، ولحظة الموت لم ولن يقدر لإنسان أن يسجلها، والحيوان جزء



أرنب الفنان (ديرر) - فيينا ١٥٠٢

من دائرة أسرار الوسط، الوسط الحائر، حاضر غائب، أو غائب حاضر.

مسكين الحيوان لا هو بالناطق المتحدث عن حالة يعرفها، ولا هو بالخامة التى تتشكل فى يد الصانع الماهر، وأسوأ مايصيب جماعة هو أن تصير فى درجة الأنعام، لا هى بدائية يمكن إعادة عجنها وتشكيلها، ولاهى بجادة المعالم يصعب أن تنحت فيها عوامل الزمن، وتسقط عنها الألوان، وأقصى ماتصل إليه حالة الوسط هى أن يحسن الغير تدريبها فى سيرك الحضارة . تسلية للزمن العابر، وسطور معدودة فى موسوعة العالم الواسع. ■



فيل الفنان السريالي (ماكس ارنست) ١٩٢١ - تيت جاليرى - لندن

كراسات
جميلة
صبري

١٢٠



رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

رائدة مصرية

في النهضة النسائية

بقلم
صافي ناز كاظم

سبع كراسات ، كل كراسة ، «كنظام وزارة المعارف العمومية» ، ٣٠ صفحة تقريبا ، مكتوب على واحدة منها : «حياة حافلة» ، دونت فيها ، بالقلم الرصاص أحيانا وبالريشة المحبرة أحيانا أخرى ، جميلة هانم صبرى ، ١٨٨٧ - ١٩٦٢ ، مذكراتها بصفتها رائدة مصرية فى النهضة النسائية والوطنية منذ مطلع القرن العشرين. وقد دونتها بعد بلوغها الستين ومقاربتها السبعين بناء على مناشدة المحيطين بها فعل ذلك. والكراسات ، على الرغم من التكرار فى سرد بعض الحوادث والوقائع ، على درجة كبيرة من الأهمية ، فقد احتوت على وصف شبه تفصيلى لشكل من أشكال الحياة فى البيت المصرى نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن العشرين ، وأظهرت التأكيد على هاجس النهضة الوطنية والاجتماعية الذى كان يعتمل فى الصدور ، والتصورات المتناقضة والمختلفة لشكل هذه النهضة وعواملها وكيفية التحضير لها.

كما أن بها تصحيحا وثبتا لبعض الأمور الخاصة بتاريخ الحركة النسائية ونشاطها الاجتماعى وحكاية تأسيس جمعية «ترقية الفتاة» وإنشاء مدارس بنات الأشراف التى اشتركت فى إقامتها بالإسكندرية بعد سنة ١٩١٤ مع السيدات : بلقيس يسرى، وزكية هانم حرم اتربى بك أبوالعز، والسيدة منيرة حرم عبدالرحمن بك السيد أحمد، والسيدة خديجة حرم مصطفى بك الخادم، وحرم أمين بك شرين، وحرم عبدالسلام رجب، وكيف استولت عليها الأستاذة نبوية موسى ونسبتها خطأ إليها.

وقد أسهبت كراسات السيدة جميلة صبرى فى تفصيل هذا الخطأ التاريخى وحكاية أصله وفصله فيما يمكن أن نورده فى مكانه المناسب من هذا التعريف المبدئى بهذه الرائدة المجاهدة، وبمذكراتها التى لم تنشر من قبل، فقد ظلت لسنوات صفحات مطوية مجهولة فى ملفات أصغر أبنائها زميلنا وصديقنا فنان الرسم والتصوير الضوئى محمد صبرى (٨-١٠-١٩٢٥) - رئيس قسم التصوير السابق بدار الهلال، قبل أن يتفضل بإهدائها إلىّ لتكون أمانة بعنقى، رغم اكتشافى - بعد قراءتى لها - أن السيدة الجليلة كتبت هذه الكراسات للنشر والذيوع، كما عبرت عن ذلك فى أكثر من

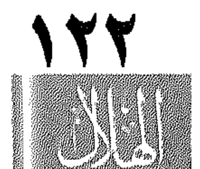
موقع بها حين أكدت أنها تسجل هذه المذكرات لكي يستفيد الوطن من تجاربها وخبراتها وآرائها وشهاداتها، ونراها ، حين ترصد قدرتها على تذكر أشياء حدثت لها وهي في الثالثة من عمرها، تؤكد أنها تسجل الظاهرة لعلها تكون مفيدة لبحث طبي! ولا تتردد في تدوين الوصفة المغربية التي عالجت وليدها وأنقذته من موت محقق بعد علة حار فيها الأطباء.

وتشيد كراسات جميلة صبري بالمجاهد أحمد عرابي وبنهضة مصطفى كامل الذي انتمت إلى حزبه الوطني حتى ثورة ١٩١٩، وسعد زغلول ، وتذكر بالاحترام والتقدير محمد فريد وجدي وزوجته الكاتبة فاطمة راشد، وبنات جيلها النابغات ملك حفني ناصف، والآنسة مي، ونبوية موسى. وعلاقتها الوثيقة بهدى شعراوي وسيزا نبراوي، ولا تشير من قريب أو بعيد إلى قاسم أمين، وتعبر بالنهاية عن فرحتها بقيام الجيش بحركته في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مستبشرة بالاتحاد والنظام والعمل، هذا الشعار الذي وجدت فيه التلخيص لسيرة حياتها منذ نشأتها: صبية وفتاة وزوجة وأما أنجبت عشرة عاش لها منهم ثمانية، خمسة ذكور وثلاث بنات. وبفضل هذا الشعار لم تعوقها مشغوليتها الوطنية وجهادها في سبيل نهضة الفتاة المصرية، عن مشغوليتها الأسرية، كما لم تعوقها أعباؤها الأسرية الثقيلة عن الانخراط في دعم حركة التوعية النسائية. فجميلة صبري هي نموذج فذ من تلك النماذج المصرية الرائدة التي لم تستطع أن تفصل بين واجباتها في الجبهتين لأنها عرفت جيدا ومبكرا جدا أن الوطن والبيت حقل واحد يستدعي جهد القادر على الحرث والزرع.

★★★

في صفحة من إحدى كراساتها تقول «جميلة صبري» هذه الشهادة:

«.. دعيت يوما مع السيدة هدى شعراوي لسماع محاضرة من الآنسة مي بقاعة يورت وكان موضوعها الجمعيات النسائية وتاريخ تكوينها ومن أنشأها، وعند ذكر جمعية ترقية الفتاة بالاسكندرية قالت إن المنشيء لها هي نبوية موسى، وتكلمت ما شاعت وشاء من أملاها، فقامت على الفور هدى هانم وأرسلت سيزا نبراوي تقول لي يجب حتما أن تكتبي تكذيبا لهذا القول على صفحات الجرائد لأنها سرقت جهادك وتعبك في تأسيس المدرسة ونسبتها لنفسها - (تقصد هنا نبوية موسى) - ولما كان هذا ليس من مبدئي أن أزاحم أحدا في نهضة قامت في بلدي مني أو من غيري، فوافقتها ليلتها ، بعد أن قالت لي اكتبيها باسمي - (أي باسم هدى شعراوي) - وأنا سأبين الحقيقة ولا





الرائدة جميله صبرى مع زوجها القاضى أحمد صبرى فى عرسهما سنة ١٩٠٠



.. ومعه عام ١٩١٠

آهضم لك تعبا، فكبر علىّ أن أكذب مىّ، تلك الآنسة البارزة الأديبة فى مثل هذا الموقف، ورأيت أن أتصل بها وأصحح الموضوع بطريقة مقبولة، وفعلا اتصلت بها - (بالآنسة مىّ) - تليفونيا لمقابلتها وقالت لى: إن يوم مقابلتى كل ثلاث - (ثلاثاء) - فأهلا وسهلا تفضلى، فذهبت إليها ووجدت عندها اجتماعا أدبيا غاية فى الاحترام ، قد جمع كثيرا ممن اشتهر بذلك، فصارحتها القول وقلت لها إننا سبع المؤسسات لهذه الجمعية، وبرزت بإشراف السيدة هدى هانم، وصدق على ذلك المرحوم داوود بركات

وقال لها إن دخول نبوية موسى كان لإدارة المدرسة فقط. وقد تكررت زيارتى للآنسة مىّ وطلبت منى أن آتيها يوما وأبين حقيقة هذه الجمعية - (جمعية ترقية الفتاة بالاسكندرية) - لأنها تنوى أن تؤلف كتابا فى تاريخ نهضة المرأة وتأسيس جمعياتها، فقلت لها يمكننى أن أساعدك فى ذلك لأن لى إلماما بمعظم هذه الجمعيات وبيان تاريخها لصلتى بمعظمها صلة صادقة، مبينة عندى فى دوسيه خصوصى، فطلبت منى هذا الدوسيه لتقتبس منه ما تريد، فوافقتها وفعلا قدمته لها - (ربما تكون هذه



جميلة صبري فى ٢٣ أغسطس ١٩١٤



ابنتها الكبرى فنحبة مع الصغرى دعاء فى عيد الفطر ٢٣ أغسطس ١٩١٤

المقابلة عام ١٩٢٩) - وبعد زمن قصير بلغنا نبأ وفاة والدها - (سنة ١٩٣٠) - فذهبت لتعزيتها فوجدتها مقفلة فى حجرتها لا تقابل أحدا، فقالت لى والدتها: ادخلى إنها تميل لك كثيرا وربما كان فى مقدورك تعزيتها وتهدئة أعصابها، فقلت لها دعيها فأحسن تعزية للعاقل انفراده، وإن شاء الله أعود لها ثانية، فلم يمض وقت طويل حتى توفيت والدتها - (سنة ١٩٣١) - وكان من مبدئى ألا أعزى الشخص فى وقت مصابه حتى يهدأ، فسألت عنها تليفونيا، قيل لى إنها مريضة وستسافر إلى أهلها ، فتكلمت فى جريدة الأهرام وقلت لهم: لى دوسيه مهم جدا طرفها وأود أن آخذه منها فقيل لى إنها أحرقت كل أوراقها فى حالة عصبية ولا يمكن الحصول عليه، فكان أسفى على هذا الدوسيه عظيما جدا لما حواه من اتصالى بكل جمعية ونشاطى فيها وأوراق واكتتابات وإيصالات الجمعية، جمعية ترقية الفتاة، وما حواه من تواريخ مهمة جدا لا يمكن أن أتذكر منها شيئا الآن بعد شيخوختى..» - (والواضح أن حرق الآنسة مىّ لأوراقها كان من الكذبات التى أشيعت فى ذلك الوقت من عصابة أهلها الذين استدرجوها فيما بعد ذلك إلى مستشفى الأمراض العقلية



المستشار أحمد صبري مع الهيئة القضائية ١٩٢٠

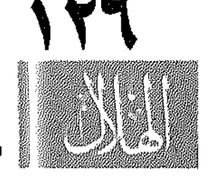
بالعصفورية بلبنان، تمهيدا لإعلان جنونها والحجر عليها، ومعظم أوراق الآنسة ميّ ومقتنياتها استولى عليها من استولى من أهلها وباعوها حين أصبحت مكسبا للباحثين. وتذكر الأستاذة سلمى حفار الكزبرى فى أبحاثها عن الآنسة ميّ «إن الآنسة ميّ قامت بإعادة خطابات كل من راسلها إليه، فكيف يمكن أن تقوم بحرق دوسيه هام لا يخصها مُثل دوسيه جميلة صبرى؟).

★★★

تحكى السيدة جميلة صبرى حكاية تأسيس جمعية الترقى فتقول فى إحدى كراساتها:

«.. كنت أهتم بكل ما يهم المرأة، من كل ناحية، خصوصا فى الوطنية ، واتفق وقتئذ نشر مقالات ملك حفنى ناصف باحثة البادية، فكنت أقرأها عليهن - (تقصد النساء اللاتى تجتمع بهن لتوعيتهن فى الوطنية والثقافة) - وأشرح لهن القصد من كلامها لفائدة المرأة، وكنت أقرأ لهن أيضا ما تحويه مجلة ترقية المرأة للسيدة فاطمة حرم مدير جريدة الدستور إدارة الأستاذ فريد وجدى، وكنت مشتركة فيها، كما كنت أشرح لهن أيضا ما تحتوى عليه جريدة اللواء، وقد كنت مشتركة فيها من أولها إلى آخرها، ومن يومها لم أغير تبعيتى

إلى الحزب الوطني - (مصطفى كامل) - حتى ظهرت الثورة، وهي وطنية حقيقية، فنقلت من الزقازيق واستمررنا (هي وأسرتها تبعا لعمل زوجها) - من بلد إلى بلد وأنا على نشاطي النسوي بقدر ما يسمح به وقتي مع عملي المنزلي ورعاية أولادي الأربعة..» وتكمل في كراسة أخرى: «نقلنا إلى الاسكندرية - (١٩١٣) - وكان معي ثلاثة أولاد وبنتان، وبعد أن نقلنا بسنة تقريبا توفي حماي وترك لنا أولاده الثلاثة، وكنت قد رزقت في تلك الأثناء ببنت سادسة ، فكنت أحضر لأولادي دراستهم وألحقهم بالابتدائي على طول، ولما كان غرضي أن أعلم البنت مثل الولد، ولم تكن هناك مدارس للبنات ابتدائية غير مدرسة العروة الوثقى للبنات، وكانت أهلية وليست على نظام الحكومة الابتدائي، ومن حسن حظي أن كان الأستاذ عبدالقادر حمزة مدير جريدة الأهالي صاحب زوجي، فساعدني أن أنشر بجريدته سلسلة مقالات تحت عنوان (في سبيل المرأة) أبين فيها رغبتي في ضرورة تعليم البنت مثل الرجل وقد نفعت تلك الحملة مني ومن المعضضين، وفعلا فتحت مدرسة محرم بك الأميرية الابتدائية للبنات، وكان ذلك وقت الحرب العظمى الأولى، فلما شملت المظاهرات البنات، وتظاهرت مدرسة محرم بك



للبنات أساءت إليهن ناظرتها الإنجليزية فعز علينا ذلك ودعونا على صفحات جريدة الأهالي لاجتماع نسائي بمنزل حافظ باشا المحافظ بمحرم بك، وألقينا الخطب الوطنية والحماسية ضد الاستعمار وتحكمه فينا، وأظهرنا سبب الاجتماع والقصد منه هو تأليف جمعية نسائية لتقوم بعمل مدارس أهلية راقية تتعلم فيها بناتنا التعليم الابتدائي والثانوي وبجانبها مدرسة عامة مجانا تدرس فيها الفقيرات مبادئ التعليم وبجانبها مشغل تشتغل به الفقيرة وعلينا مساعدتها.. وعندما ناقشنا الموضوع.. كان هناك تعاون أكيد واتحاد صادق لنصل إلى ما نريد، وتقدمت من المجتمعات نحو خمسين سيدة من ثريات الثغر وقيدن أسماءهن عندي بصفتي السكرتيرة.. واتفقنا أن نقيم أول اجتماع بمنزل حرم سليمان بك يسري، بلقيس هانم لترتيب القانون اللازم للتنفيذ وقد جمعنا.. في منزل الباشا المحافظ نحو أربعين جنيها، وبعدها بأسبوع اجتمعنا بمنزل بلقيس هانم.. وافتتحت صاحبة المنزل الاكتتاب بخمسين جنيها.. ووصل الاكتتاب إلى أكثر من مائة جنيه أضيفت إلى المبلغ الأصلي وأعطي لسليمان يسري لوضعه باسم الجمعية بالبنك، وبعد ثلاثة أشهر فقط انسحبت معظم العضوات بأسباب

تافهة ولم يبق منهن إلا سبعه فقط، عز علينا ذلك الفتور جدا والرجوع عن العزم الصادق .... جمعنا خمسمائة جنيه، فكرنا فى أن نجرب استثمارها حتى تنمو فاشترينا بالمبلغ أقمشة وخيوط. ولوازم تلك الأشغال ووزعناها علينا.. ولما كنا كلنا خريجات الراهبات ونتقن هذا العمل تماما .... رأينا أن نقيم سوقا خيرية تحت إشراف السيدة هدى هانم شعراوى......... فقبلت .. وطلبت من كل التجار تقديم الهدايا المشجعة لنا ....

وكنت عندما شرعنا فى فتح المدارس قد طلبت من السيدة نبوية موسى أن تقبل... أن تديرها شرطا بعد استقالتها من تفتيش الحكومة...... جمعنا نحو خمسة آلاف جنيه .... فعزمنا فورا فتح المدرسة من ابتدائية وثانوية ومشغل ، وفعلا استأجرنا منزل شقيقة منشة، بشارع منشة واشترينا كل ما يلزم من الأثاثات وتبرعت معظم السيدات الأعضاء بالشىء الكثير من عندهن، لأننا نوينا أن نقيم فيها قسما داخليا.. لبعض التلميذات والمعلمات الأجنبيات ... وانتقينا مدرسات راقيات ممتازات، وعينا الفراشات . كان ذلك فى زمن رجوع الوفد من سيشيل، وكنا قد سحبنا بنات العائلات الراقية من المدارس الأجنبية ، فانتخبت السيدة نبوية موسى منهن البعض وعلمتهن نشيدا مناسبا ليلقينه فى الجمرك عند وصول الوفد من سيشيل، أما نحن فقد أقمنا بالمدرسة بوفيه جميلا ودعونا كل الطبقات العالية، ولو أن السيدة نبوية لم تتركهن من غير أن يدفعن شيئا وقد كان ولو أنه على غير إرادتنا.. ولضرورة إلحاق إبنى بالجامعة نقلت إلى القاهرة، وأخبرت السيدة نبوية موسى أن تفى بوعدها معى لأن المدرسة مدرسة راقية لبنات الأشراف.. ولكن للأسف ذهبت لهن - (بعد سفرى) - وعملت الشروط التى تريدها قائلة لهن إننى أنا التى حررتها وعندما أتمت شغلتها جاءتنى وقالت لى إمضى هنا فقلت كيف ذلك؟ لأننى فهمت أن الشروط تجعل المدرسة بما فيها من أثاث ومنقولات وإدارة وجداول لها ولا شريك لها فى شىء.. ولم تستقل- (من وظيفتها بالحكومة كما سبق ووعدت) - ووضعت بنت أخيها منيرة ناظرة، وغيرت بها كل شىء.. واستبدلت المعلمات بغيرهن، ممن تعرفهن، المبعدات عن مدارس الحكومة، وطردت الطباخ وجاءت بغيره أرخص، فضجت العضوات وتأثرن وعندما عاتبنها قالت لهن: كل من له شىء يأخذه . فهى لى وأنا لى مطلق التصرف.. وما أشعر إلا وبلقيس قد حضرت إلى

بمصر. وقالت لى إن نبوية موسى أهانتنا وأهانت بنات الطبقة الراقية عندها. وعندما كلمتها قالت. إن كان لك كرسى ولا كنبة خذيها لأن المدرسة ملكى وليس لكم فيها شىء. وطلبت منى السيدة بلقيس كل الأوراق والشروط التى أخذوها عليها. فقلت. أما الشروط فلها وتلك غلطتنا أننا لم نقرأها، ويعز علىّ أن أشوش حول سيدة مربية مثل نبوية موسى بما لا يفيدنا، ونحن كلنا أرباب عائلات وأصحاب أولاد، فدعيها تفعل ما تشاء وعلى كل حال هى ستنفع البنت بأى وجه وكل ما هناك هو طمع منها فيما جمعناه، لا يصح محاسبتها عليه، وهى - (نبوية موسى) - لما شعرت ان بلقيس حضرت إلى مصر لتأخذ منى ما يثبت ملكيتنا للمدرسة وما فيها باعتها لوزارة المعارف، حيث إننى طلبت بالتليفون من المربية الكبيرة السيدة سنية عزمى قائلة لى إن نبوية موسى قد باعت مدرستك (ترقية الفتاة) إلى وزارة المعارف اليوم بستة آلاف جنيه (الاسم والتخت) فقط من غير الأثاث والمنقولات المدهشة. فسكت وقررت ألا أعاونهن فى شىء يحط من قدر نهضة المرأة واتحادها، وقلت إن كل شىء قد انتهى فدعوها تتصرف بدلا من عمل شوشرة حول تلك السيدة التى فى الحقيقة نحترمها لمركزها الحكومى وعلى كل حال هى ستأتى بنفع ولو كان بسيطا.. ولا يمكن أن نأخذ من تلك السيدة أكثر من ذلك ولا يليق مشاكستها حيث إنها ستغلب فى النهاية..........»

لماذا جميلة صبري؟

اختارت أن يكون اسمها جميلة صبرى، تبعا لاسم زوجها الحقوقى أحمد صبرى، أحد المحققين فى قضية ريا وسكينة الشهيرة عام ١٩٢٠ اسمها بالميلاد. جميلة حكمت محمد آغا الأرناؤوطى، ولدت بالزقازيق فى ١٨٨٧/٤/٢٠. أو كما تقول فى مذاكرتها. «ابتدأت حياتى عقب ثورة عرابى ببضع سنين، وكان الشعب لايزال ثائرا لما مر عليه من حوادث، وما كدت أن أفتح عينى إلا ووجدت عائلتى مهتمة بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية، تطالع الأهرام يوميا ومعظم المجلات كالهلال والمقتطف وطبيب العائلة وغيرها من الصحف المتزنة. فسرت معهم فى هذا التيار من الوطنية المشتعلة والاجتماعات الأدبية والعلمية والسياسية، فاختلطت بدمى من طفولتى، وشعرت بعد زواجى - (١٩٠٠) بضرورة مساعدة المرأة أخلاقيا ووطنيا حتى يتم وعيها وتبرز مواهبها لأنها، كما أفهمونى - (فى محيط عائلتى) - أنها حجر الزاوية فى حياة المجتمع وعليها يدور رقى الأمة وتقدم

البلاد..»

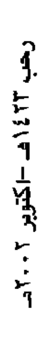
وقد كانت فى الثالثة من عمرها عندما توفى والدها، الألبانى المتمصر، وأوصى بها إلى أخيها الأكبر يوسف شهدى ليحسن تعليمها وتربيتها، إذ إنه كان ينوى إرسالها إلى استانبول لتتلقى التربية «العثمانلى» ، ولكن الأخ يوسف شهدى الذى حمل تبعات ومسئوليات الأسرة بعد وفاة الوالد رأى أن مصر، وفى الزقازيق، هى الأولى برعاية وتربية شقيقته الصغرى، والبنت الوحيدة للأسرة، فهيأ لها، بل وللأسرة كلها برنامجا تربويا وثقافيا منفتحا على كل الأفكار والعقائد واللغات والثقافات، أدخلها مدرسة الراهبات الفرنسية بالزقازيق، وظلت بها من عمر الخامسة ١٨٩٢ حتى عام زواجها سنة ١٩٠٠ ، تعلمت فيها اللغة الفرنسية وأتقنتها، وأشغال الإبرة والتطريز، وأحضر لها بالمنزل من يعلمها اللغة العربية والقرآن الكريم، وأرسلها إلى أسرة مغربية تخصصت فى صناعة السجاد والتطريز الشرقى فتعلمت منها النسيج والطبيخ المغربى وتلامست مع البعد الإنسانى العربى إلى جانب ما عرفته من العادات الغربية الطيبة عن الراهبات الفرنسيات وعن أسرة تاجر أقطان إنجليزى كان جارا لهم بالزقازيق وكان قد أرسل ولديه إلى أخيها يوسف شهدى ليتعلما العربية فى مقابل أن يتعلم هو وأخته اللغة الانجليزية ، كما علمها أخوها ركوب الحمار ثم ركوب الخيل! وفى ندوة أخيها التربوية التعليمية كان لها زملاء وزميلات من المعارف والأقارب والخدم وكل من تقدم برغبة فى التعلم! وهى تذكر من زملائها محمد أمين يوسف، ابن الشيخ أمين أبويوسف، المحامى بالزقازيق وتنوه بأنه والد الأخوين على ومصطفى أمين أصحاب دار أخبار اليوم. عندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها كثر خطابها فاختار لها أخوها زوجها متبعا نظرة فلسفية تعبر عنها قائلة فى مذكراتها.. «طلبت للزواج بمجرد ما شببت وكان الطالبون طبعا وقتئذ كثيرين ولكن لم ينتق لى - (أخى) - زوجا رزينا عاقلا مستقيم السير والسلوك، كما يزعم ذلك بعض الناس، بل كان ينتقى المنزل والعائلة التى سيصاهرها وسأكون بين أفرادها ، وذلك لشدة اعتقاده أننى أنا المرأة التى قد اهتم بتربية أخلاقها وبث روح الفضيلة والنظام فى نفسها لذلك سيكون عليها إصلاح أخلاق الرجل مهما كان عويصا».. وبناء على هذه الفلسفة زوجها من ابن رئيسه فى العمل وتقول هى فى هذا الأمر.. «انتقى لى أخى الشاب الصحيح الجميل الداير القادر على إخضاعى لقوة ذكائه وكبر عقله ، والمنزل النظامى النظيف المرتب

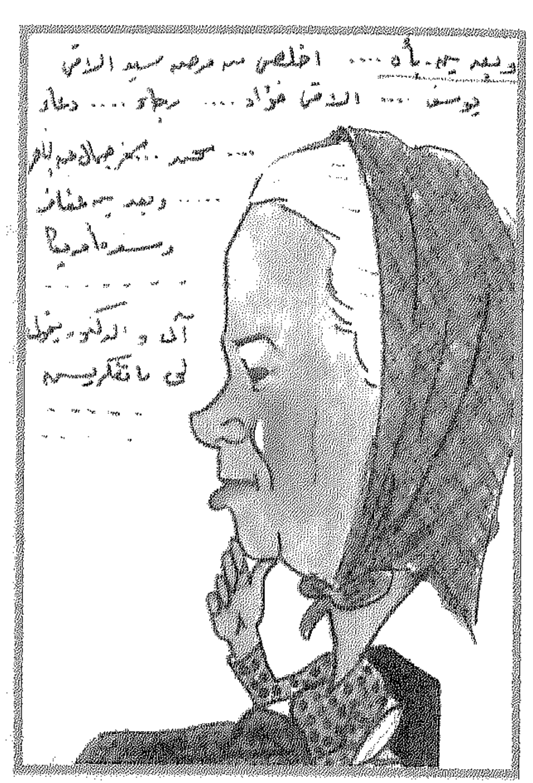


الرائدة جميلة صبرى فى منزل أكبر أبنائها السيد صبرى ١٩٥٠

فى صرفه وخدمه حتى كنت عنده فى وسط معقول لا يحط مما تعلمته من التوضيب والنظام ولين المعاشرة وعفة اللسان».

لكنها حين تكتب تحت عنوان «حياتى الزوجية» تقول: «تزوجت فى الرابعة عشرة من عمرى وكان زوجى فى الثانية والعشرين - (سنة ١٩٠٠) - جميل الطلعة ، خفيف الظل، محبوبا لدى الكثيرات، ولكنه كان قوى الإرادة، شهما ، نقادا، يدرك الصح من الغلط متوقد الذكاء، نبيها، بالرغم من أنه كان سهيرا سكيرا حاد الطباع، سريع الغضب، فقد هبته من أول مرة... فأنا لم أختلط به قط، وكان والده رجلا فى التقى والاستقامة والفصاحة وحائزا على كثير من مكارم الأخلاق، وكان موظفا مرموقا محبوبا من الجميع، فقد تعهد أن يرعانى هو بنفسه لأنه كان رئيسا لأخى وكان يحبه كثيرا ومطلعا على كل ترتيباته المنزلية، وكان يطلع من وقت لآخر على درج أعمالى المنزلية وجداول الترتيب والصرف، فكان ترتيب منزله من خدم ونظافة ورعاية على الطريقة العثملى وقد اتخذت كثيرا من .... النظام الانجليزى الذى اقتبسناه من جيراننا الإنجليز، فقد خرجت من عائلة هادية وموزونة كل الاتزان إلى تلك العائلة التى .. بها زوجى الثائر على الجميع، كان يحبنى





كاركاتير رسمه لها الفنان محمد صبري أصغر أبنائها يعبر عن اختلاط مشغولياتها ما بين الخاص والعام



وآخر صوره لها قبل وفاتها فى ١٩٦٢

ويعزنى ولكن طباعه الحادة لا يمكن إخفاؤها.. فقد فوجئت بذلك وأنا صغيرة لا أفهم لهذا الهياج سببا فكنت أقضى أوقاتى وأنا حيرانة ولا أفهم لهذا الاختيار - (الذى اختاره لى أخى) - سببا ولا معنى، فكنت أبكى وأستغيث بأخى فى بعض الأوقات بدون أن يعلم أحد، فأفهمنى أخى أنه - (زوجى) - معقول جدا وغلطاته كلها سطحية - (وقال) - يمكنك بحسن تصرفك إصلاحها هذا وإن هذا الزواج لا مفر منه فعالجى موقفك ولا تجعلى أحدا ينتقدك، عالجيه بالصبر وطول البال واللطف المتناهى مع الجميع، أنت والحق يقال محبوبة محترمة من جميع العائلة. ولكن حدة طباعه - (زوجى) - مع أهله والخدم كانت لا تطاق واستمراره فى السهر والشرب كانت علتى التى طال بى مقام المحاولة لإنهائها وقد تحسنت كثيرا وكثيرا جدا فكنت لا أؤاخذه على تغيبه وأظهر له كأننى كنت قد طلبت منه ذلك وكأنه صديق لى أعلم كل العالم بسريرة أخلاقه، وإذا ألقى لى حكاية صدقته، وإذا توعك من الشرب عالجته بقلب صادق وإخلاص كلى وذلك لأجذبه لى حتى يمكننى أن أتمكن من تنفيذ أغراضى المصلحة لحالته..». ■

ماذا حدث للمصريين ؟

معدلات الطلاق زادت... ونسبة الزواج تقل !

بقلم
د. هدى زكريا *

الطلاق نظام اجتماعي يترتب على الزواج، ويمثل أحد صمامات الأمن لتعاظم الخلافات الزوجية إلى درجة لايمكن تداركها فيصبح الطلاق هو الحل .

لكن الطلاق يمثل أهم أشكال التفكك الأسرى فى جميع المجتمعات بلا استثناء، فرغم ان الزوجين يرتبطان فى معظم الأحيان برباط الحب والميل العاطفى ويعيشان معا بهدف الاستمرار، إلا أن تباين احتياجات كل منهما يسمح بمساحة من الخلاف الذى قد يأخذ أشكالا بسيطة يمكن التعايش معها، أو أن تتفاقم الصراعات وتتعقد ومن ثم تحدث الرغبة فى فسخ الزواج والرحيل الإرادى.

وتختلف نظرة المجتمعات فى تحديدها للمستوى الذى يصبح معه الخلاف بين الزوجين أمرا لايطاق، ففى الولايات المتحدة يعد عدم الانسجام سببا جوهريا فى إنهاء علاقة الزواج بالطلاق بينما يعد هذا السبب «أمراً تافهاً» فى المجتمعات البسيطة كالفلاحين وسكان الواحات.

وبصفة عامة يعد الطلاق حادثا مشئوما بالنسبة للأشخاص الذين يشملهم كما يعتبر مؤشرا واضحا لفشل نسق الأسرة بالإضافة إلى كونه محنة شخصية، فالمتزوجون الهاربون إلى الطلاق يظهرون كمن يستجير من الرمضاء الزوجية بنار النظرة الاجتماعية .

ويعد ارتفاع معدلات الطلاق فى مجتمع ما دليلا على أن نسق الأسرة لايعمل

*استاذ مساعد علم الاجتماع كلية الآداب

بصورة مرضية ويهدد شبكة العلاقات القرابية المترتبة على الزواج، ويحرم الأبناء من الحصول على احتياجاتهم الإنسانية فى ظروف طبيعية حيث يحرمون من رعاية أحد الأبوين الذى ينفصل عن الأسرة، إن لم يكن من كليهما خاصة إذا اتجه كل منهما للزواج من جديد وتكوين أسرة جديدة وهنا «يأكل الآباء الحصرم .. والأبناء يضرسون».

أبغض الحلال في الأديان المختلفة

يحرم المذهب الكاثوليكى الطلاق تحريما قاطعا ولايبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه اعتماداً على قول السيد المسيح «لايصح أن يفرق الانسان ما جمعه الله».

لكن الكنيسة الروسية تتيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية وتحرم على من ارتكب جرم الخيانة أن يتزوج بعد ذلك.

أما المذهب الأرثوذكسى فلا يبيح الطلاق إلا للخيانة أو العقم والمرض المعدى، والخصام الذى يمتد أجله ويتعذر الصلح معه بينما لايبيح المذهب البروتستانتى الطلاق إلا فى حالات خاصة كالخيانة الزوجية والقسوة وسوء المعاملة وجنون أحد الزوجين.

أما الدين الاسلامى فرغم إباحته للطلاق لكنه ينصح الأزواج بألا يقدموا عليه لأسباب تافهة يقول تعالى «وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» صدق الله العظيم

وقد رتب الإسلام على الطلاق نتائج خطيرة من شأنها أن تحمل الزوجين على ضبط النفس وتدبر الأمر طويلا قبل الإقدام على الطلاق.

كما قرر الاسلام أن الطلاق لاتقع به الفرقة النهائية بل يجوز للزوج بعده أن يسترد زوجته بدون أى إجراء اذا كان الطلاق رجعيا، أى وقع بلفظ صريح فى الطلاق ولم تمض العدة بعده، أو يستردها بعقد جديد ومهر إن كان الطلاق بائناً.

وللمرأة فى الاسلام حق تطليق نفسها إذا اشترطت فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق فى حالة قبول زوجها ذلك، وكذلك حق «الخلع» وهو طلاق تطلبه المرأة مقابل تنازلها عن بعض الحقوق وردها لصداق الزوج.

الطلاق وتقسيم العمل حسب الجنس

شاعت ظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى حسب الجنس Sexual division of labour فى جميع المجتمعات البشرية على اختلاف درجات تقدمها وتطورها وذلك نتيجة لسيادة بعض الثقافات التى تؤكد أنه على الرجال أن يختصوا بالأعمال المرهقة لما لديهم من إمكانيات فيزيقية أكبر من النساء.

ويؤكد دوركايم أن هذا التقسيم يؤدى وظيفة اجتماعية محددة وهى خلق الشعور بالتضامن والتماسك بين الأشخاص الذين يمارسون أعمالاً مختلفة، وأنه على الرغم من أن كل ما يقال عن الاختلافات الفيزيقية والبيولوجية بين الرجل والمرأة فإنهما يؤلفان فى حقيقة الأمر كلا واحداً عن طريق ما بينهما من اتحاد وروابط بما ينشأ عنه

الترابط بين الزوجين.

لكن ماركس يرى فى تضامن الزوجين الظاهر صورة أخرى من تقسيم للأدوار حسب الجنس بشكل يجعل الرجال يختصون بالأعمال المأجورة ذات الأجر المرتفع بينما تصبح النساء مسئولات عن الأعمال غير المأجورة Non-Waged بالإضافة إلى الوظيفة الأساسية للمرأة وهى إنجاب قوى الإنتاج (الاطفال) وكذلك العمل المنزلى، وكلها أعمال مجانية لاتحصل المرأة فيها على شىء نتيجة لجهدها ببنما يكسب الأزواج من .

١- الخدمة المنزلية المجانية، ومن الهيمنة الناجمة عن تبعية الزوجة الاقتصادية للزوج.

٢ - من سوق العمل بحصولهم على أعلى الأجور وأرقى المهن. فلاشك أن أعمال المرأة المجانية أو الرخيصة الأجر تربط بين الأزواج والزوجات بعلاقات هيمنة من جانب الأزواج وخضوع من جانب الزوجات.

ويفترض جارى ببكر Gary Baker أن تقسيم العمل فى البيت إنما يأتى نتيجة اختيار عقلانى ، فطالما أن الرجال ينالون أعلى أجر فى السوق فإنه من المنطقى أن يخصصوا معظم طاقتهم لعمل السوق وليس للعمل المنزلى الذى يجب أن يترك للنساء إذا كان الهدف هو جلب المنفعة للأسرة، خاصة أن الزوج سيقوم بتعويض الزوجة عن العمل المنزلى بجلب الهدايا وإظهار الاهتمام مما يدفع الزوجة للشعور بالدين فتسهب فى التفانى اللا نهاني من أجل الزوج.

كما بؤكد هوتشى تشايلد Hotchy child أن الأنوثة ترسخ حالة من الدونية لدى النساء اللاتى سيعانين من افتقاد الثقة بالنفس بما يجبرهن على التعامل بمهارة وذكاء مع احتياجات الرجال فيحرصن على إخفاء مشاعرهن بهدف إسعاد الآخرين ويحرصن على استخدام لغة الجسد لإرضاء نوازع الرجال الذين سيعاملونهن كأشياء وليس كأشخاص.

وكلنا يذكر كيف كان النموذج الرجالى فى رائعة نجيب محفوظ الثلاثية «السيد أحمد عبدالجواد» وكيف كان يتصرف إزاء زوجته «الست أمينة» التى مثلت نموذج الخضوع والاستكانة والاستسلام التام للزوج الذى قام فى المقابل بدور القاهر المسيطر القوى الفاعل.

وياتى دور الكاتب فى ترسيخ صورة الزواج المثالى بين الست أمينة والسيد عبد الجواد عندما يسوق الصورة البغيضة للزوجة السابقة للسيد أحمد عبدالجواد وكيف طردها «السيد» من جنته الزوجية إلى جحيم الطلاق لتفقد مكانتها وتتعدد زيجاتها من رجال لاقيمة لهم ولامكانة، لتبرر لولدها ياسين بصوت ملؤه الحزن والعذاب كيف أن أباه طلقها لأنها لم تكن تقبل اليد التى كان يضربها بها!! فالعنف الأسرى هنا ظاهرة طبيعية يستكمل بها الرجال مظاهر القوة والهيمنة فى مجتمعات تتدنى فيها

أوضاع النساء ، ويعيد تاديب الزوجة سلوكا لاغبار عليه مادامت الثقافة الرجالية السائدة تعطى الرجل الحق فيه.

قواعد الزواج

وقد اطمأنت مجتمعاتنا إلى صلابة الأسرة كوحدة أساسية فى بنائها المتماسك. ومن خلال تاريخنا الطويل أرست قواعد الزواج كنظام مقدس يربط رجال المجتمع ونساءه فى أسمى علاقة تثمر فلذات أكباد المجتمع وأجياله الناهضة .

لذا لم يتوقع أحد أن نفاجأ بارتفاع نسبة أبغض الحلال عند الله بهذه الصورة خاصة فى السنوات الاخيرة وبالذات بين من لم يمض على زواجهم سوى عام واحد

ونسال الناس بقلق لماذا يسرع الازواج الشباب بقول أنت طالق للحبيبة التي سهروا من أجلها الليالي قبل الزواج ؟ ولماذا تسرع الزوجة الشابة للخروج من باب «بيت العدل» قبل أن تستقر إقامتها فيه .. فهل فقد الزواج قداسته .. أم أن الطلاق هو الذى فقد رهبته ؟!

قيمة الزواج ووظيفته الاجتماعية

تهدف كل جماعة انسانية للاستمرار والبقاء مع الاستقرار فيصبح الزواج هو النظام الاجتماعى الذى من خلاله يقوم المجتمع بإعادة إنتاج نفسه ، حيث يأتى نظام الزواج بأبناء المجتمع الجدد من خلال العلاقات الشرعية التى تقوم بين رجال المجتمع ونسائه.. ثم تتولى الأسرة المهمة الأساسية فى تنشئة المواليد الجدد وفقا لشروط المجتمع وقواعده فيكتسب الجيل الجديد سمات مجتمعه الشخصية وديانته وثقافته السائدة ونسقه القيمى وعاداته وتقاليده وعندما يصبح الزوج أبا والزوجة أما فإن ذلك لايحدث بالمعنى البيولوجي للكلمة ، وإنما أيضا بالمعنى الاجتماعى العميق، حيث تصبح الأمومة والأبوة أدوارا ووظائف اجتماعية مهمة، يحصل فى ظلها المواطنون الجدد على الرعاية والحنان والأمان فضلا عن التربية والتهذيب .. الخ

وتربط علاقة الزواج ليس فقط بين الشاب والفتاة ، وإنما ايضا بين أسرتيهما فى علاقة نسب وصلة قرابة تجعل من اخ الزوج عما ومن أخ الزوجة خالا، ومن أم الزوج «حماة» وهكذا يظهر لنا بقاء المجتمع واستمراره رهنا بنظام الزواج واستقراره ونجاحه فى أداء وظائفه العديدة وأدواره المتميزة .

لذا نلاحظ التكاتف الاجتماعى الواضح لحماية الزواج وصيانته بكل السبل والوسائل التى تمنع تعرض هذا النظام للخطر أو الانهيار لما يمثله ذلك من خطورة على النظام الاجتماعى كله..

ويؤكد بعض الأنثروبولوجيين مثل روسالدو وأوثر الفكرة الآتية :

إنه بسبب وظائف المرأة الإنجابية والتقسيم الجنوسى gender للعمل داخل المنزل وخارجه أصبحت النساء مقرونات بالمهمات الطبيعية Natuve كالإنجاب والخدمة أما الرجال فمقرونون بالثقافة cultuve والمجالات العامة .

وبالتبعية تعطى المجتمعات للمجالات الثقافية والعامة قيمة عالية اذا ما قارناها بأعمال الخدمة والمرتبطة بالطبيعة ، فلكل مجتمع خطته الخاصة بتقسيم الادوار الجنسية والتى تحدد الكيفية التى ستبنى على أساسها علاقات نساء هذا المجتمع برجاله وهى خطة تنبع أساسا من التوجه الثقافي للمجتمع ، فيصبح هناك عالمان، داخلى تكون فيه الطبيعة المقدسة التى تؤكد على الابداع النسائى، وعالم خارجى: تعلو فيه قيمة الانشطة الرجالية كمغامرين مهرة فترتفع قيمة كل ما هو إنسانى بالمقارنة بكل ما هو طبيعى .

وتتأسس هذه التوجهات الثقافية على ا لرعب البيئى الذى يرسم الأساطير المرتبطة بطرفى القوة الأساسيين فى العالم الأنوثة / الذكورة وكلما زادت ألوهية وسيطرة الرجال برز الفرق الجنوسى gender كنتاج مباشر لحظة تقسيم الادوار الجنسية فى المجتمع .

من كل ما سبق نلاحظ ان تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية قد طرأت على القطاع النسائى فدخلت المرأة مجالات العمل المختلفة وحققت قدراً واضحا من الاستقلال الاقتصادى دون أن يترتب على ذلك التحول تطور طبيعى مواكب فى تقسيم العمل حسب الجنس من حيث ملامح الادوار الرجالية والنسائية، فلا زالت مفاهيم الرجولة والأنوثة ثابتة لا يلمسها التغيير ومازالت الأدوار الرجالية والنسائية تحظى بثبات نسبى وسط أنواء التغيير .

وغالب الظن أن الرجال الذين تمتعوا قديما بمواقع اقتصادية وأدوار اجتماعية ميزتهم وصنعت مكانتهم قد حوصروا بين ما تطالبهم به الثقافة السائدة من تحمل المشاق وبذل الطاقة والقيام بالدور الاساسى فى تحمل الاعباء الأسرية، وبين تقلص المساحة المتاحة لهم فى ظروف المنافسة فى سوق العمل، خاصة أن الزوجات اللاتى يمارسن العمل خارج المنزل ويحصلن على دخول مرتفعة لا يعانين من ضغوط النسق القيمى أو الايديولوجى السائد والذى يعفيهن من المؤاخذة الاجتماعية اذا ما رفضن الإسهام بنصيبهن فى الانفاق على الأسرة .

إن ما يسميه علم الاجتماع العائلى «توقعات الدور الاجتماعى» والتى ترسم حدود الادوار التى تمارسها الزوجات فى مقابل الأدوار التى يمارسها الأزواج تتعرض لحالة من الارتباك الناجم عن تغير بعض ملامح البناء الأسرى ، وثبات البعض الآخر، مما يدفع بكل طرف من أطراف العلاقة الزوجية الى تفسير التحولات الاجتماعية لصالحه .

فلا يزال العديد من الرجال حملة المؤهلات العليا - يشترطون على الزوجة الاكتفاء بالعمل المنزلى لرعاية الاطفال مهما كان ما حصلت عليه من نصيب وافر من العلم يؤهلها للنزول لسوق العمل والحصول على المكانة المهنية والمرتب المرتفع فى نفس الوقت، ويضعون العودة إلى العمل المنزلي شرطاً من شروط استمرار الحياة الزوجية، ويصبح الطلاق هو نتيجة تحيزها لطموحها وآمالها فى العمل خارج المنزل

كما يشترط البعض على زوجته العاملة أن تسمح له بالسيطرة الكاملة على القرارات الخاصة بالانفاق بحيث لا تحصل من راتبها الا على مصروفها الشخصى الذى يخضع لمراقبة الزوج مما يضيق على الزوجة فرصة الشعور بالأمان والاستقلال المادى فيتراءى شبح الطلاق كنتيجة لاختيارين أحلاهما مر .

وفى المقابل تسعى بعض الزوجات لممارسة «الكيد العظيم» الذى تنميه لديهن الثقافة السائدة بتجريد الأزواج من كافة مظاهر السيطرة نتيجة لفقدانهن الثقة فى انفسهن وخوفهن مما تخفيه الايام من احتمالات غدر الزوج الذى قد يندفع وراء نزواته لزيجة ثانية، فيسعين إلى التأكد من «قصقصة ريش الزوج» باستمرار .

كما تمثل الهجرة للعمل ببعض دول الخليج سببا واضحا من اسباب الطلاق ، رغم ان الهدف من الهجرة يبدأ من أجل رفع مستوى معيشة الاسرة إلا آنه ينتهى بالصراع بين الزوجين على السيطرة على تحويشة العمر وثمن الغربة . والاسرة التى تهاجر الى العمل وفى يدها عقد العمل باعتباره جواز المرور الى الرفاهية تفاجأ كثيرا بأنها دفعت فاتورة الحساب من استقرارها وهنائها .

الزواج إضافة وميزة أم ضرر ونقصان ؟

والواقع أن الزواج فى صورته الحديثة اذا قام بين رجل وامرأة بعد أن حقق كل منهما شوطا فى تحقيق طموحه وآماله، فإن خوف كل طرف على ما حققه من مكاسب يجعله يتوجس من الطرف الآخر الذى رغم ما يكن له من عواطف قد يمثل أحد معوقات استمرار الطرف الآخر فى نجاحه الذى بدأه ، لذا فبمجرد تأفف احد الاطراف من حدة طموح الطرف الاخر ، يجعل الرفيق يبدأ العد التنازلى للزيجة التى تهدد المسيرة الفردية رغم استخدام كل منهما لتعبيرات الكيان الوحيد والشريك إلا أن «تضخم الذات » يمنع كل طرف من قبول فكرة الذوبان فى الكيان الواحد والتنازل عن بعض الانجازات .

تربية جديدة .. وتدريب

لا شك أن تطوير أسلوب جديد فى التربية تكون ضمن أساسياته تكوين شخصيات اجتماعية بطبعها تشعر بقيمة الزواج وتقدر مسئولياته ولا تقدم على الذهاب إلى المأذون إلا وقد تسلحت بالخبرة والمعرفة والتدريب اللازم لإنجاح مؤسسة الزواج وإتاحة كل فرص الاستقرار لها، فالحب لن يكفى لصيانة العلاقة الزوجية من الانهيار أمام ما تتعرض له من عواصف سواء من داخل الاسرة او من خارجها .

وانما النضج والشعور بالمسئولية والقدرة على التكيف مع «الحبيب» المختلف فى سماته الشخصية والاجتماعية والثقافية .

وهي مهمة تستحق ان تحتشد لها مؤسسات المجتمع والدولة وليس فقط الاسرة التى قد يفتقد فيها الكبار الي خبرات لا تكون الا لدى اخصائيين فى علوم الاجتماع والنفس يتمكنون لامن خلال محاضرات أكاديمية ، وإنما من خلال مؤسسات تدريب توفرها الدولة والمجتمع المدنى لحماية أهم كيان اجتماعى من التفكك والانهيار ..

طبيبة فرنسية

وهبتها اليمن الحياة

بقلم

أمين يسرى*

هل الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا ؟ وماذا لو حدث اللقاء وكان إنسانيا صرفا خالصا ، ليس مشوبا برأى مسبق فى الآخر ، وليس مدفوعا بأى رغبة شخصية أو مصلحة ذاتية للافادة من الآخر أو الحصول على منفعة ؟ هنا إذا حدث ، وهو نادر الحدوث ، ستنمحى الفوارق سواء أكانت ناتجة عن الطبيعة المختلفة لكل منهما ، أو كان وراءها فوارق مراحل التطور بين الشرق والغرب ، وهى متباعدة بضع مئات من السنين ، ساعتها سيولد هذا اللقاء ويفجر نبعا صافيا من الخير ينهل الطرفان من عذب مائه ، ويتحقق للشرقى وللغربى على السواء هذا الصفاء النفسى الذى هو الأساس الوحيد لقيام سلام عالمى .

كتاب الدكتورة كلودى فايان – الطبيبة الفرنسية – عن رحلتها إلى اليمن فترة حكم الإمام أحمد ، وإقامتها فيه لفترة من الزمن ، تجسد هذا اللقاء الإنسانى بين الغربى والشرقى مئات المرات ، وفى كل لقاء مع مريض أو مريضة بل مع حراسها ومرافقيها وهى تجوب اليمن ، وتعيش متعة هذه المشاعر الإنسانية الدافقة ، وتمتلىء اعجابا يتجدد كلما عاودنا قراءة هذا الكتاب رغم أنه قد مضى على صدوره ما يزيد على نصف قرن من الزمان .

فى أول الكتاب نتعرف على مادية الغرب ، التى هى فى بعض أوجهها ناتجة عن نشاط الروح ويقظة العقل وخصوبة الخيال ، وذلك من خلال تفسيرها لرغبتها الجامحة فى السفر إلى البلدان البعيدة ، فهى تعتبر من محاسن الصدف ان وقع بين أيديها مجلة علوم ورحلات مصورة ، وقد وجدت فيها عرضا واضحا وأمينا لظروف الطبيعة وما يمكن أن يرجوه الإنسان من الفنون الإنسانية ولذلك كما تقول حتى أحمل للبلدان البعيدة أفضل مافى حضارتنا قررت أن أصبح فيما بعد

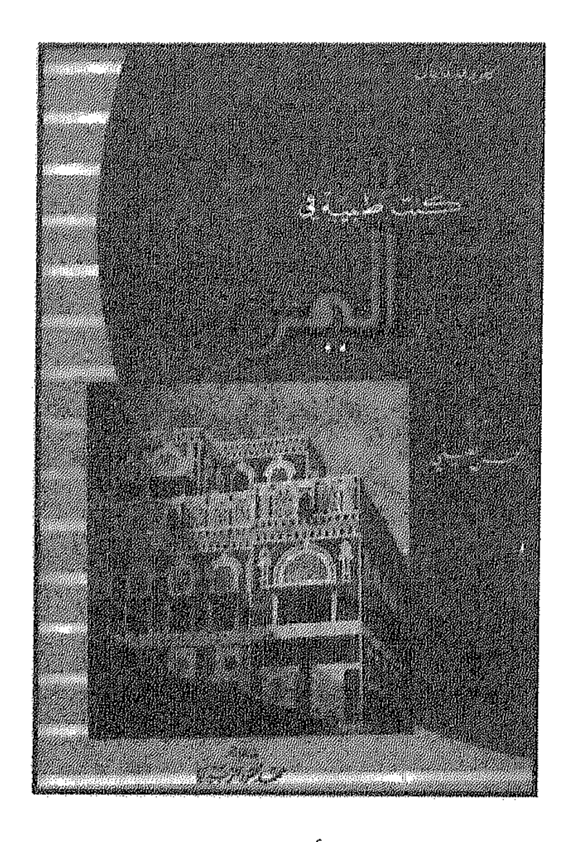
* سفير مصر الأسبق فى اليمن

طبيبة .

زوج وعدة أطفال ووظيفة ثانية لطبيبة فى العقد الرابع من العمر ، هذا ما يجعل فى العادة أية مغامرة بعيدة فى عداد المستحيلات .

وأى زوج هذا . إنها تحبه ، ولها منه أربعة من الأبناء ، ونستطيع أن نتعرف على نوعية هذا الحب .. عندما اعتقل الألمان المحتلين لفرنسا - زوجى وقرروا اعدامه رميا بالرصاص ، واستطعت أن انفذ سلسلة من الحوادث أدت إلى إطلاق سراحه وانقذته من أيديهم فى الوقت المناسب . وكانت موافقته على رحلتى أكثر من مكافأة { ، أنها فضلا عن ذلك دليل على الوفاق الحقيقى . فبعد سنوات كثيرة كنت فى أمس الحاجة إلى هذه الجرعة من الجمال والفائدة والعناء التى تعطى للحياة معناها الكامل ، وإذا كان رفيق حياتى مدركا أسبابى العميقة فقد سمح لى بالغياب عاما كاملا .. عام من الحرية وأنا فى سن ما أزال اتمتع فيه بالشباب فأقدر، وكبيرة فأدرك .. يالها من ثروة .. » .

وكان على الدكتورة كلودى أن تستعد استعدادا جديا لهذا السفر . وهنا مرة أخرى تتعرف على مادية الغرب التى فى بعض أوجهها نشاط الروح وتغطية العقل فقد بدأت فى متابعة دروس الدبلوم فى أصول السلالات البشرية ومميزاتها فى متحف الإنسان عام ١٩٥٠ . وهى تعترف أن هذه الدراسات لم تكن بالنسبة لها فى أول الأمر إلا مبررا . فعلم أصول السلالات البشرية ومميزاتها كانت هى الحجة للمغامرين ، إذ من هو الذى يخرج فى



رحلة طويلة دون أن يقوم بتحقيق صغير يصف فيه الشعوب المختلفة ومظاهرها المادية ونشاطها ؟ إن هذا يشغل حيزا فى حقيبة الرحلة الحقيقى .

... « وعندما كانوا يلومونني لهجر أسرتى سنة كاملة كنت أستطيع الاحتجاج بالفائدة العظمى التى نجنيها من معرفتنا لحياة الحريم . ولم يجرؤ أحد على الاعتراض خوفا من أن يتهم بأنه ضد العلم . وقد استسلمت الإدارة التى أعمل فيها أمام هذا الباعث المحترم، ومنحتنى إجازة سنة كاملة بدون مرتب ..» .

العلم واحترامه هو الذى جعل الغرب الأكثر تقدما حتى إن اتهام إنسان بأنه ضد العلم فيه ما يخيف .. والمغامرة من أجل العلم باعث محترم .

فى هذا الوقت كانت الدكتورة كلودى تبحث عن وظيفة طبيعية فى خارج

فرنسا أو عن بعثة إلا إن فرصا عديدة فاتتها وكانت السبل تغلق أمامها الواحدة تلو الأخرى حتى سمعت عن اليمن .

وتعترف الدكتورة كلودى أنها كانت تجهل كل شيء عن اليمن حتى موقعها وهذا جعلها تقترب مما تصبو إليه فالناس لا يذكرون اليمن إلا قليلا وهذا يرجع إلى أنهم لا يعرفون مثلها عنه شيئا كثيرا وهذا ما يدفعها إلى الذهاب إلى اليمن التى كانوا يطلقون عليها العربية السعيدة لجبالها الشاهقة التى تصطدم بها سحب المحيط الهندى وتسقط أمطارا غزيرة منتظمة تضمن لها الخصوبة والرخاء ، وقد ازدهرت فيها قبل ثلاثة آلاف عام حضارة ومدنيات بمعابدها ومدنها ولغتها وكتابتها أنها موطن بلقيس ملكة سبأ .

وحسب أقوال الذين سبقوها يكون السفر إلى اليمن بحثا عن المتاعب ولكن واحدة فقط رأت فى صنعاء مدينة جميلة وأن اليمنيين قوم طيبون وأن الصعوبات يمكن تذليلها لا سيما والمهمة عظيمة تبرر الاقدام على المخاطرة . لقد بدا هذا البلد للدكتورة كلودى محققا تماما لما تهفو إليه فقدمت ترشيحها إلى وزارة الخارجية فى يناير ١٩٥٠ . وكانت الوحيدة . وأخذوا ترشيحها هذه المرة مأخذ الجد وحولوا طلبها إلى الجهات المختصة . وبعد ستة أشهر جاء الرد : « صاحب الجلالة الامام أحمد ملك اليمن يوافق ويأذن للدكتورة كلودى فايان المحترمة بالوصول» وهنا مرة أخرى نرى هذه المرأة الغربية تأخذ الأمر مأخذ الجد فقضت الشهور الأخيرة لسنة ١٩٥٠ وهى تكمل استعدادها بالعناية بتزويدها نفسها بمزيد من العلم فعنيت بالاختبارات المتعلقة بعلم النفس فى مصحة الصحة الفعلية بمستشفى أمراض الأطفال وبالحصول على دبلوم فى طب المناطق الاستوائية وفى دراسة اللغة العربية وركوب الخيل إذ كانت تعلم أنها سوف تستعمل الحصان فى تنقلاتها . هكذا تتصرف المرأة الغربية .

ووصفها للرحلة من باريس إلى تعز عبر القاهرة ، جدة ، أسمره ثم جزيرة كمران ثم عدن هو مشوق للغاية ، فهى لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتتوقف عندها فتعيش معها تفاصيل الرحلة وكأننا نشاهد فيلما سينمائيا يحوى مشاهد مبهرة ليس فقط فى الوصف الدقيق للمناظر الطبيعية بل للبشر الذين التقت بهم فى هذه الأماكن سواء من الأجانب أو اليمنيين حتى إن المشاهد - القارىء - يحس بأنه هو أيضا قد التقى بهم وتعارف عليهم .

الحضارة فى المشاعر الصادقة

وعندما بدأت الدكتورة فايان مهمتها كطبيبة نبدأ فى التعرف على الشرق الذى التقت به هذه الغربية . وهى تصف لنا بدقة الطبيعة والمبانى والعادات والتقاليد خاصة فى هذه الفترة التى سبقت الثورة اليمنية حيث كان الاستبداد والتخلف والفقر هو السمة الغالبة . لكن الدكتورة فايان عندما تعاملت مع هذا الشرق بأحواله المتردية وجدت فى لقائها الإنسانى مع مرضاها ومع حراسها وأعوانها من اليمنيين شيئا آخر مختلفا تماما وخلصت إلى حقيقة إن الحضارة ليست فقط فى المدن

الحديثة والشوارع المرصوفة المعبدة والسيارات الفارهة ولكنها أيضا فى المشاعر الرقيقة والأنفة والصدق والتحمل بكبرياء .

ويتجدد بطول الكتاب وكلما التقت بمرضاها هذا اللقاء الإنسانى بين هذه الغربية وبين هؤلاء الشرقيين اليمنيين وتتوحد ذاتها مع ذواتهم فى صفاء ربانى يضفى عليهم وعليها سعادة كم كانت وكم كانوا فى أمس الحاجة إليها .

.. ذات يوم طلب منى عبده - مساعدها - أن أقوم بزيارة امرأة فقدت عقلها فى اليوم الذى غرق فيه ابنها فى بئر . وقد قال لى « أنى أعرف يا حكيمة أنك لا تستطيعين أن تفعلى شيئا ولكن زوجها تعس جدا فاذهبى .. وكان البيت متواضعا وقد ادخلونى حجرة طويلة خالية من كل شىء وفى أحد أركانها تستلقى المجنونة مدثرة بالأغطية .. رفعت الغطاء فوجدت وجها معذبا بالهم والرعب ونظرات شاردة استقرت على فيما بعد . وقد قال عبده « أنها تنظر إليك يا حكيمة .. أنها لم تكن ترغب فى رؤية أحد منذ مدة طويلة » ولعل مظهرى غير العادى وبدلتى الكاكى وعينى الزرقاوين .. لعل كل هذا قد أثارها فى أعماق غيبوبتها . ماذا استطيع أن أفعل من أجلها ؟ ولما كنت لا أملك شيئا فقد أخذت رأسها بين ذراعى وتحدثت إليها طويلا وباهتمام وباللغة الفرنسية . ولما لم يكن أحد يفهم ما أقول ، فقد قلت لها كل شئ يفكر فيه الإنسان ولا يقوله .. واجتمعت الأسرة ورائى فى نهاية الحجرة واستمعت إلى كلماتى باهتمام صامت .. وليس غرورا ولا وهما إذا قلت إن هذا الوجه المعذب قد أصبح أكثر هدوءا .. وتركتهم وقد استعادت من جديد نظرة الإنسان الحى .

وفى اليوم التالى انتظرنى عبده وقال لى بسرور عظيم «إن المجنونة قد تحسنت حالتها .. لقد نهضت .. وخرجت من غرفتها وذهبت بمفردها إلى دورة المياه وكانت قبل هذا لا تستطيع حراكا » .. وقد فرحت الأسرة لهذا ووجدت أنه لابد من الاستمرار حتى لا تعود المسكينة من جديد تحت هذا الكابوس . وكان متعذرا على ان أعالج مرضا عقليا بالإضافة إلى عملى اليومى وكان الحل الوحيد إن أجمع مرضاى بجوارها ، وقد قبل هذا زوجها راضيا وكان رجلا طاعنا فى السن ذا وجه طيب وكريم .

وقد بقيت فى ركنها المعتاد وأنا إلى جوارها والمرضى مزدحمون فى نهاية الحجرة يتقدمون الواحد بعد الآخر ويستلقون أمامى وقد أردت بصفة خاصة إن أجعلها تتقبل وجود شخص آخر معها وإن تقبل على حد أدنى من الحياة الاجتماعية وكانت تنظر إلى ما أمامها باستغراب وتعود إليها أحيانا مخاوفها وفزعها فتخفى نفسها من جديد تحت جلد الخروف وكان علينا إن نخرجها من تحته وأن نتحدث إليها وما أن تهدأ حتى أعود إلى فحص مرضاى .. وفيما عدا المجنونة كل ما كنت أفعله لا يجدى شيئا فالعلاجات باهظة الثمن بصورة مزعجة وقد اخبرنى المرض أنه لا يكاد يقدر على شراء العلاج إلا

لخمسة من كل عشرين مريضا وهؤلاء الخمسة لن يستطيعوا شراء العلاج مرة ثانية ولن يجدوا من يشرف عليهم وبالتالى لن يشفى أحد منهم بدون شك .

ماذا تبقى من جهودى كلها ؟ .. لقد تقدم منى طفل بعد عملى ذات يوم وكان يبدو فى صحة جيدة فسألت دهشة ما حكاية هذا الصغير ؟ وبحثت عن أمه بين الحاضرين لكنهم جميعا ابتسموا وقالت لى امرأة بلطف «أنه يريد أن يقبلك يا حكيمة» .. إن قبلة من طفل تبعد عن الإنسان القنوط والكآبة .

أعجوبة هذا البلد .. اليمن إن السلام يأتى دائما بعد الشدة لقد خرجت يوما من البيت بعد جلسة طويلة ، وكنت متعبة وأشد ارهاقا من أى يوم مضى ورأنى رجل عجوز يجلس على الأرض أمام بيته وكانت نظراته براقة وهاربه حتى لقد توقفت مبهورة أمام هذا الشعاع كما يقف الأرنب أمام ضوء سيارة فى الليل .. قال لى هذا العجوز « تفضلى وشاركينى طعامى .. » وقد أجبت عليه بأسف « لا أستطيع فلا يزال أمامى عدد من البيوت والمرضى لابد من زيارتها » فقال .. « إذن سيرى والله معك ..» لم يكن فى فمه وصفه عميقة .. لقد شعرت على الفور إنى أتخلص من التعب كله .. وقد أمضيت النهار يخالجنى الفرح والرضاء ..

ثم تكشف لنا صاحبتنا عن سر هذا الشرق الذى لم تعرفه فقط ولكنها تأثرت به .. « فقد قصصت بكل بساطة ما استطعت أن أعرفه عن حياتهم (اليمنيون) وفى أى مناسبات التقت حياتهم بحياتى ولكن قبل أن أتناول تلك الأقاصيص أجد من اللائق أن أحيى المؤثر الرئيسى فى حياتهم .. ذلك الموجود فى كل مكان ، الذى يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء .. أنه يعرف كل شىء ، ويعلم أنه على كل شئ قدير ، أنه أكبر من كل شئ ، متكبر ، غيور ، خبير ، له الحمد ، وله الثناء .. فهو بالإجمال ذات تجب معرفة الوصول اليها .. وقد انتهى اليمنيون إلى معرفة ذلك .. أنهم يفزعون إليه قبل كل شىء ويحمدونه فى السراء والضراء، إنه شاهد أبدى ورفيق لا يمل ، وهم يرددون اسمه فى كل وقت .. وبلا انقطاع ولربما التقيت به مرة لكنى قليلا ما أعرفه ولا أستطيع أن أتحدث عنه أكثر مما فعلت .

● ● ●

هذا عن الكتاب .. فماذا عنه وعن كاتبته بعد نشره .. هنا يحدثنا مترجمه الدكتور محسن العينى رئيس وزراء اليمن الأسبق ...

مكالمة هاتفية فى منتصف الليل فى باريس نقلت الخبر الحزين .. كلودى فايان انتقلت إلى جوار ربها فى الرابع من يناير عام ٢٠٠٢ وقد تجاوزت الثمانين . أثق أنها كانت منفعلة لما يجرى فى أفغانستان وفى فلسطين وما يشهده العالم فى بداية العام الثانى لهذا القرن .

سيرة انسانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .... من إذاعة باريس فى بداية الخمسينيات سمعت لحنا يمنيا جميلا شجيا والمذيع يسأل كلودى فايان

بماذا يذكرك هذا اللحن ياسيدتي ؟ فتسترسل في حديث شيق عن اليمن واليمنيين .. عن صنعاء وسكانها .. والعجوز الذي يجلس ويواظب على الجلوس تحت نافذتها كل مساء ليسمع في الظلام ألحان بيتهوفن وبرامز وعن مرضاها وكبريائهم وتحملهم للآلام وصبرهم ومعاناتهم .

وبحثت عنها ، وكانت هي تبحث عن هؤلاء الطلاب اليمنيين الأربعة الذين سمعت أنهم قد وصلوا للدراسة في باريس.

والتقينا وسمعنا قصة حبها للبمن وتجولت بنا في باريس وحدائقها ومتاحفها ومعالمها وأصدرت كتابها الذى لاقى رواجا في فرنسا وترجم إلى عدد من اللغات . وأقدمت على ترجمته إلى اللغة العربية نحت عنوان «كنت طبيبة في اليمن» وكما قال الاستاذ محمد محمود الزبيرى أنه كتب بلغة المحب البعيد عن التعالى الذى تعودناه من بعض المستشرقين والغربيين » كنت قد سألتها في باريس عن سر حبها لليمن وتجشمها السفر في باريس إلى ذلك القطر العربي النائي فلم تجب . وبعد صدور الكتاب في ترجمته العربية كتبت لى رسالة أجابت فيها على سؤالى وقالت ان زوجها وصديقا آخر وحدهما يعرفان سر ذهابها إلى اليمن وإن من حقي الآن أن أعرف السبب وأن أتلقى الجواب على سؤالى .

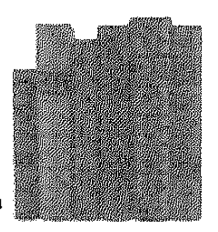
وروت في الرسالة ما تعرضت له من متاعب عاطفية ونفسية كادت تدفعها إلى الانتحار

ولكنها وهي المناضلة الاشتراكية لا يمكن أن تقدم على الانتحار وإذا كان لابد من الموت ففي الميدان وفي سبيل الواجب..

وقالت أنها أطلعت على أخبار انتشار أمراض معدية في اليمن فطلبت من الحكومة الفرنسية إرسالها إلى اليمن لمقاومة هذه الأمراض وكانت تتوقع أن تموت فذهبت ولكنها بدلا من أن تتعرض للموت وهبتها اليمن الحياة ... فقد نجحت في عملها وعلمها اليمنيون المرضى الرجال والنساء الأطفال والشيوخ حب الحياة فرغم ما يعانونه ويقاسونه من آلام وبؤس وشقاء كانت معنوياتهم عالية وتمسكهم بالحياة مثار الإعجاب . فلما أنهت مهمتها عادت إلى باريس إلى زوجها وأطفالها وأسرتها وأصدقائها محبة للحياة متفائلة مستعدة للعيش والنضال والعمل من جديد .

هذا ما كتبه الدكتور محسن العيني

وأضيف من عندى إن كتاب الراحلة الدكتورة كلودى فايان - الذى أعارنى إياه صديق - قد أصبح أليفا إلى نفسى ، وقرأته مرات ومرات ، حتى إني أفكر ألا ارتكب حماقة اعادته إلى صاحبه لفرط ما سجله هذا الكتاب من مواقف وأصوات إنسانية عندما يكون اللقاء إنسانيا صرفا بين الغرب والشرق . وأيضا لأنى عشت في اليمن قبل الوحدة مع الجنوب وبعدها ولأنى أيضا تعرضت أثناء اقامتي في صنعاء إلى فقد ابنى الأكبر ولكن كما وهبت اليمن للدكتورة فايان الحياة فقد وهبنى اليمنيون عزاء خلت معه أنه بات لى بعدد أبنائهم أبناء

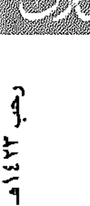


كتاب
صبح الأعشى في صناعة الإنشا
للقلقشندى

بقلم
د. ايمن فؤاد سيد

ظهرت البدايات الأولى لنَمط التأليف الموسوعى منذ القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى بفضل التّفوُّق الثقافى الذى شهده العراق فى العصر العباسى على أيدى كبار العلماء المسلمين الذين شاركوا فى إذْكاء هذا التيار، ونتيجة لحركة الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية التى ازدهرت على الأخصّ فى زمن خلافة المأمون العباسى.

وتمثل مؤلفّاتُ الجاحظ وابن قُتَيْبَة وأبى الفَرَج الأصفهانى نَمَط التأليف الموسوعى القديم، ويبدو هذا النَّمط أكثر وضوحاً في كتابى «الحيوان» للجاحظ و«عيون الأخبار» لابن قُتَيْبة، كما أنَّ مؤلّفاتٍ مثل «الأنساب» للسَّمعانى و«معجم البلْدان» لياقوت الحموى تُمثِّل مرحلة «تالية» من هذا التأليف الموسوعى.



ومع قيام دولة المماليك فى مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وسقُوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ثم انتقالها إلى مصر فى زمن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس، تحوَّل الثِّقل السياسى والثقافى والحضارى إلى القاهرة حيث انتقل إليها عدد غير قليل من علماء المشرق الإسلامى بعد اجتياح المغول للعراق، ساعد على ازدهار مناخ علمى أنتج العديد من المؤلفات فى فنون كثيرة.

وحقيقة الأمر أن العدد الأكبر من المصنفات التى كتبت فى هذا العصر كانت مؤلَّفات نقلية مثل «الشامل فى الطب» لابن النَّفيس، والقليل منها يمثل أصالةً فى موضوعه. واشتهر القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى بما ألِّف فيه من موسوعات بداية بموسوعة «مباهج الفكَر ومناهِج العبر» لابن الوطواط الكتبى وانتهاء بموسوعة « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » للقلقشَندى، التى تعد خير ما انتجه هذا العصر.

فقد أسْفَرَ النشاط الهائل لعلماء المسلمين على مدى ستة قرون عن تأليف عددٍ ضخم من الكتب فى كل حقل من حقولِ المعرفة، بحيث أن عمر العالمِ المختص لم يكن يكفى لقراءة كل ما كُتبَ فى ميدانه، ناهيك عن دراسته. ومن هنا كانت الحاجة إلى طلب الكتب الموسوعية المختصرة، وإن عارض ابن خلدون فى «مقدمته» الشهيرة هذه الظاهرة واعتبرها



دليلاً على التدهور الذى وصلت إليه الحياة العلمية فى عصره.

وظهرت كل هذه الموسوعات فى مصر والشام، كتبها عمال وعلماء حكومة سلاطين المماليك بغَرض خدمة كتبة الدواوين للاستفادة بها فى مجال عملهم، ولكن واقع الأمر أنها أفادت جمهوراً أعظمِ من المثقفين لأنها عالجت مسائل أعمّ وأكثر شمولاً فى جميع فروع العلم التى يريد المؤلف أن يُعرف بها.

والظاهرة اللافتة للنظر أن مؤلفى هذه الموسوعات لم يروا فى أنفسهم علماء، بل كانوا فى حقيقة الأمر كتَّاباً نابهى الشأن فى ديوان الإنشاء المملوكى واكتسبوا خبرةً كبيرةً فى هذا المجال. وأدَّت وحدة الوسط الذى نشأت فيه هذه الموسوعات إلى تشابهها فى الترتيب، وهو ترتيب

يعكس أحياناً بوضوح تام أثر التدريب الصارم في الشئون الديوانية. ويبدو هذا واضحاً أكثر ما يكون في موسوعة القلقشندى «صبح الأعشى في صناعة الإنشا».

وأوّل موسوعات عصر المماليك كتاب «مباهِج الفِكَر ومناهج العبر» لجمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبى الورّاق المعروف بالوَطْواط، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م. ولم يكن الوطواط من عُمَّال الحكومة الذين مارسوا العمل فى دواوينها، بل كان، كما يدلّ على ذلك لقبه، من المشتغلين بتجارة الكتب وأعمال الوراقة، يقول الصَّفَدى: «له معرفة بالكتب وقيمها.. وملكت بخطه تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل وقد ناقش المصنِّف فى حواشيه وغلَّطَه وواخَذَه (الوافى بالوفيات ٢:١٦)».

وكتاب «مباهِج الفِكَر» موسوعة فى العلوم الطبيعية والجغرافيا معروضة بأسلوبٍ أدبى وموضّحَة بالشَّواهد من شعر ونَثر. وتنقسم إلى أربعة فنون الأوّل: فى الفلك والأجرام السماوية، والثانى : فى الجغرافيا والأجناس، والثالث. فى الحيوان، والرابع: فى النبات. وأهم فنون هذه الموسوعة الفن الثانى الخاص بالجغرافيا والذى أمدَّنا فيه ابن الوطواط بمعلومات كبيرة القيمة عن نظام الزراعة والتقسيم الجغرافى للقُطْر المصرى وعلى الأخص فى العصر المملوكى الأوّل.

ولعب مصنف الوطواط دوراً كبيراً فى تطوير نَمَط التأليف الموسوعى فى العصر المملوكى، فقد نقل عنه مرارا معاصره شهاب الدين النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» واستعار منه طريقة التبويب إلى فنون محتفظا أحيانا بمحتويات كتابه وخاصةً فى القسم الخاص بالنبات.

وكتابُ «نهاية الأرب فى فنون الأدب» موسوعةٌ ألَّفها شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب البكرى النويرى، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. ويُعدّ النويرى خير ممثل للوسط الذى عملت فيه ومن أجله موسوعات عصر المماليك. وقسم النويرى موسوعته إلى الفنون الأربعة نفسها التى قسم إليها الوطواط كتابه وأضاف إليها قسماً خامساً عن «التاريخ» يعد أكبر أقسام الكتاب قيمةً سواء بالنسبة للفترة التى عاصرها، أو للفترات السابقة عليه بفضل اعتماده على مؤرخين فقدت اليوم مؤلفاتهم التى حفظ لنا النويرى نقولاً مطولة منها.

وتُعدّ موسوعة «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى، المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك ووصفها الصفدى معاصر ابن فضل الله العمرى بأنها «كتابٌ حافلٌ ما يعلم أن لأحد مثله». (الوافى بالوفيات ٨:٢٥٥).

ونقتصر مادة كتاب «مسالك الأبصار» على الجغرافيا والتاريخ فقط – كما يدل على ذلك عنوانها – بعكس

موسوعتي الوطواط والنويري اللتين عالجتا فنوناً أخرى غيرهما. وتبدو ثقافة ابن فضل الله العمري أكثر وضوحاً في موسوعته عن الوطواط والنويري اللذين تمثل موسوعتاهما مؤلفين نقليين بمعنى الكلمة. فكتاب «مسالك الأبصار» يعد من أهم آثار عهده بالنسبة لنظم دولة سلاطين المماليك ورسومها ووصف قلعة الجبل وآثارها، واعتمد عليه كثيرٌ من مؤرخي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي مثل القلقشندي وابن شاهين الظاهري والسيوطي ونسبوا إليه ما نقلوه عنه، أما شيخ مؤرخي مصري الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م فقد اعتمد عليه كثيراً في كتابه «المواعظ والاعتبار» المعروف بالخطط ونقل عنه أكثر معلوماته عن عصور سلاطين المماليك السابقة عليه، وأكثر عباراته وضوحاً في وصف قلعة الجبل.

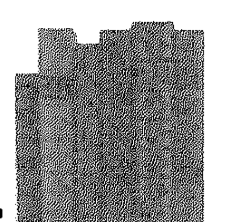
وموسوعة ابن فضل الله العمري مصدرٌ من الدرجة الأولى لدراسة عصر سلاطين المماليك، وعلى الأخص في فترة السلطنة الثالثة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (٣٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م)، ودراسة البلاد التي كانت تربطها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطعة بدولة المماليك. فقد هيَّأ له عمله الحكومي في ديوان الإنشاء الاطلاع على الوثائق الرسمية ولقاء الكثير من الرجال والسفراء، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكّنه من إخراج لوحة مفصلّة في وصف العالم المعاصر له.

أمَّا كتابُ «صُبْحُ الأعْشى في صناعة الإنْشا» لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي الفزاري القَلْقَشَنْدي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م فيعدُّ آخر موسوعة كبرى لعصر سلاطين المماليك. وموضوع هذه الموسوعة الرئيسي - كما يبدو من عنوانها - هو الكتابة الديوانية. وقد بدأ القلقشندي في تصنيف هذا الكتاب الضخم فور التحاقه بالعمل بديوان الإنشاء المملوكي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م (صبح الأعشى ١:٨) وانتهى من تأليفه في شوال سنة ٨١٤/هـ١٤١١م (نفسه ١٤:٤٠٤)، ولكنه ظل يزيد عليه إلى حين وفاته سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.

مهنة الكتابة

وينقسم «صُبْح الأعشى» إلى مقدمة، وعشر مقالات، وخاتمة. في المقدمة حلل القلقشندي مهنة الكتابة وفضلها في المجتمع البشري. وفي المقالة الأولى (الأجزاء من الأوّل إلى الثالث من طبعة دار الكتب المصرية) عالج المؤلف الكلام فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من المعلومات المتعلّقة بالخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العلمية بالنسبة له.

وأفرد المقالة الثانية (بقية الجزء الثالث إلى الجزء الخامس) للحديث عن الجغرافيا وتاريخ ممالك الإسلام. وتتميز هذه المقالة التي تناول فيها القلقشندي ذكر عواصم مصر الإسلامية منذ



الفسطاط وحتى قلعة الجبل وترتيب الدولة الفاطمية ونظام ورسوم الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية فى مصر، بتنوّع وغنى المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة هذه المقالة، وبينها مصادر كثيرة فُقِدَت اليوم مثل مؤلّفات : القُضاعى وابن الَمتوّج وابن الطُّوَيْر والمُسبِّحى وعلى بن خَلَف.

أمّا المقالة الثالثة (الجزءان الخامس والسادس) فتعالج المسائل العامة التى تشترك فيها كل المكاتبات والولايات ، حيث يعرض للناحية الشكلية المتعلقة بنوع الورق المستخدم والأقلام التى يكتب بها ونَوع الخط، كما يبحث فى الأسماء والكنى والألقاب ومواضع ذكرها واستعمال الصِّيغ المختلفة فى المكاتبات والمخاطبات.

الاستشهاد بأسلوب الكتاب

وتناول فى المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) المكاتبات وأنواعها ومصطلحها مع إيراد عدد كبير من الوثائق الرسمية برمتها للاستشهاد بأسلوب الكُتَّاب وطرق المخاطبة، وتُمَثِّل هذه الوثائق – سواء فى هذا القسم أو فى الأقسام الأخرى – عنصراً جوهريا فى أهمية هذا المصنف، فقد أتاح له عملُه بديوان الإنْشاء والمكاتبات الاطلاع على العديد من السِّجلاَّت والمناشير والمُخاطَبات الرَّسْميَة الصادرة عن الخُلفَاء والسَّلاطين والوُزَراء وكبار الكُتَّاب، ممّا يمثل لنا – فى غياب أرشيف لوثائق هذه العصور – مادة لا نظير لها لدراسة مختلف جوانب نظام الدواوين والإدارة وتولى المناصب وواجباتها فى مصر الإسلامية وتقدم المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع إلى الثانى عشر) لنا بعض المعلومات النظرية ونماذج لكُتُب الولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها، وتحتل هذه المقالة مكانة هامَّة فى الكتاب لأنها تلقى ضوءاً على النظام الإدارى المعقّد الذى ساد فى دولة المماليك، والنماذج التى أوردها فى هذه المقالة حافلةً بالكثير من المعلومات بشكل غير مسبوق.

أما بقية مقالات الكتاب فإنها صغيرة الحجم بمقارنتها بالمقالات السابقة، فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) تقدم صوراً من المكاتبات ممّا لا يخضع للتصنيف، وتحلِّل المقالة السابعة (من نفس الجزء) الوثائق المتعلقة بالإقطاعات، وتبحث المقالة الثامنة (فى نفس الجزء أيضاً) فى الأيْمان وصُوَر الأقْسام (جمع قَسَم) المختلفة واليمين، بينما تتحدّث المقالة التاسعة (الجزءان الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الهُدْنة بين المسلمين والكفار، وتتناول المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فُنوناً من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية لها.

أمّا خاتمة الكتاب فتحتوى على أبواب تبحث أساساً فى وسائل النقل والمواصلات والبريد وعلى الأخص فى عصر المماليك.

ونظرا لأن مصنف القلقشندى يمثل

مصنفاً نقليا فقد ضم بين دفتيه مادةً ضخمة جعلت منه مصنفاً فريداً فى نوعه، خاصةً بالنسبة للمقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) التى اشتملت على نماذج للمكاتبات الدبلوماسية المتبادلة بين سلاطين مصر وملوك الدول الأخرى المعاصرة، وقرارات تعيين الممثلين الرسميين، ولم يكتف القلقشندى بإيراد هذه المكاتبات فى صيغها الكتابية الخاصّة، بل أورد نماذج من الوثائق الأصلية المحفوظة فى ديوان الإنشاء، الأمر الذى يجعل من كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية للعالم الإسلامى - مع وضع مكانة خاصة لمصر - والأقطار المتصلة به طوال أربعة قرون من القرن الخامس وحتى أوائل القرن التاسع للهجرة.

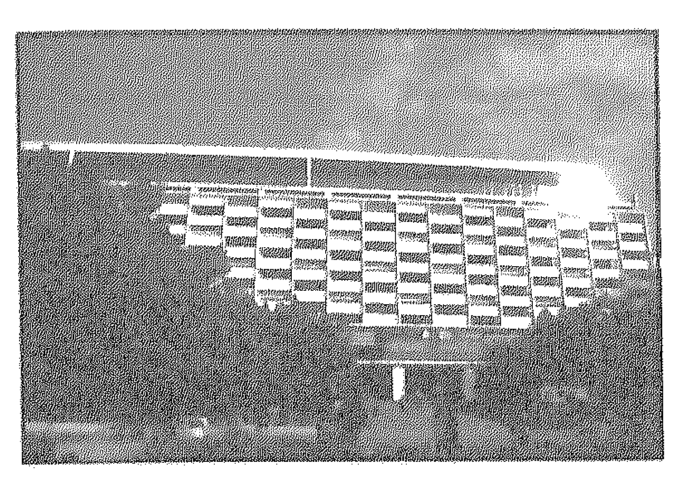
وأمام طول هذا الكتاب وغزارة المادة التى احتوى عليها، رأى القلقشندى أن يقوم بنفسه باختصار موسوعته فى مجلد واحد سمّاه «ضَوْء الصُّبْح المُسْفر وجَنْى الدَّوْح المثمر» طبع فى مصر سنَة ١٩٠٦.

مضبوطة صحيحة

وبفضل جهود العالم المحقق شيخ العروبة أحمد زكى باشا (١٨٦٧ - ١٩٣٤م)، الذى كان دائم السفر إلى أوروبا وتركيا بحثاً عن المخطوطات النادرة، وَفَّرَ لدار الكتب المصرية فى مطلع القرن العشرين نسخة كاملة من هذا الكتاب من مكتبات إستانبول، فأخرجت لنا فى باكورة منشوراتها نَشْرَة مضبوطة صحيحة لكتاب «صبح الأعشى» صدرت فى أربعة عشر جزءا بين سنتى ١٩١٣ و١٩١٩، وأعيد طبع بعض أجزائها فى عام ١٩٣٨، كما نشرتها وزارة الثقافة بالتصوير فى عام ١٩٦٥. ومنذ صدور الطبعة الأولى للكتاب توفر على دراسته عدد كبير من العلماء، وظهرت أول دراسة جادة لمحتويات هذا الكتاب عام ١٩٢٨ حيث كتب المستشرق الألمانى بيوركمان Bjorkmannكتابه المهم عن تطور النثر الدواوينى فى مصر الإسلامية.

وبمناسبة مرور ٥٥٠ عاماً على وفاة القلقشندى عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨ ندوة علمية فى القاهرة لدراسة شخصية القلقشندى واسهاماته العلمية والثقافية شارك فيها عشرة من كبار أساتذة التاريخ والجغرافيا والأدب، نشرت أبحاثها فى مجلد بعنوان «أبو العباس القلقشندى وكتابه «صبح الأعشى» صدر فى القاهرة عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٤.

كذلك قام الأستاذ محمد قنديل البَقْلى بوضع فهارس متنوعة للكتاب بأجزائه الأربعة عشر صدرت عن مكتبة عالم الكتب سنة ١٩٧٢ يسرت الاستفادة من معلومات الكتاب الغزيرة، وإن كانت فى حاجة إلى مزيد من العناية والتدقيق، ثم أصدر فى عام ١٩٨٤ دراسة مفيدة عن «مصطلحات كتاب «صبح الأعشى». ■



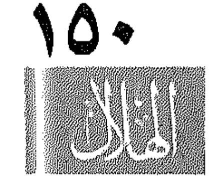
خفايا مخازن دار الكتب

العثور على ٨ آلاف خريطة أثرية

• المخازن بلا تنظيم منذ مائة عام وتنتظر إعادة اكتشافها من جديد

أمانى عبد الحميد

أعلنت دار الكتب والوثائق القومية خبرا مضحكاً عن اكتشافها لثمانية آلاف خريطة أثرية نساها الزمان داخل مخازنها دون أن يدرى أحد بوجودها هناك . الأمر الذى يفتح ملفاً جديداً، محزنا محزنا ويطرح عدة تساؤلات.. ماذا يوجد داخل مخازن الدار ولم يتم اكتشافه حتى الآن؟ هل قامت الدار بدورها كما ينبغى فى الحفاظ على تراثنا القومى؟ وهل يمكن إعادة اكتشافه مرة أخرى قبل أن يسقط فى بئر النسيان؟



ثمانية آلاف خريطة أثرية وكنز من المخطوطات والبرديات والوثائق تم اكتشافها مصادفة فى دار الكتب !!

على مدى ما يزيد على ١٣٠ عاما ظلت دار الكتب والوثائق القومية تمثل ذاكرة الوطن ووعيه وتحكى وتحفظ تاريخه الطويل. بكل أعماله الفكرية وانتاجه العلمى والأدبى والصحفى والوثائقى. وطوال عمرها المديد، كانت خير شاهد على حضارة الأمة المصرية بتعاقب أجيالها، بل وحفظت داخل جدرانها تاريخ أمم وحضارات خلت، ولم يعد هناك ما يؤرخ لها سوى برديات ومخطوطات دار الكتب الثمينة، حتى يقال عنها أنها تحوى ما يزيد على ثلث الذاكرة التراثية للعالم أجمع.

نظرا لهذا العمر الطويل والدور الحيوى والخطير فى الحفاظ على تراث الأمة وتاريخها. احتلت دار الكتب مكانة سامية ورفيعة جداً. مما جعلها دائماً مركز الاهتمام ومحط الخطورة فى آن واحد. فأى تلاعب أو خلل فى أداء الدور المنوط بها، سواء عن طريق الإهمال والتقاعس أو حتى الأداء بطريقة غير مرضية فإن ذلك يؤدى بالضرورة إلى تلاعب فى تاريخ بلادنا وتراثها الذى لا يقدر بثمن ونحن أمة نتباهى بين الأمم بعراقتنا وتاريخنا القديم.. فمصر أم الدنيا ومهد الحضارات».

خرائط أثرية مجهولة

طالعتنا الصحف بخبر اكتشاف ٨ آلاف خريطة أثرية . علت الفرحة على تصريحات المسئولين. نتيجة اكتشافهم لهذا الكنز داخل مخازنهم لكن

للأسف لم يكن وقع الخبر على نفوسنا وقعاً مفرحاً كما كان من المفترض أن يكون. فالاكتشاف الجديد يعيد فتح باب الجدال حول ماذا تحوى مخازن الدار من مخطوطات وبرديات ووثائق ومقتنيات لم يتم اكتشافها حتى الآن.

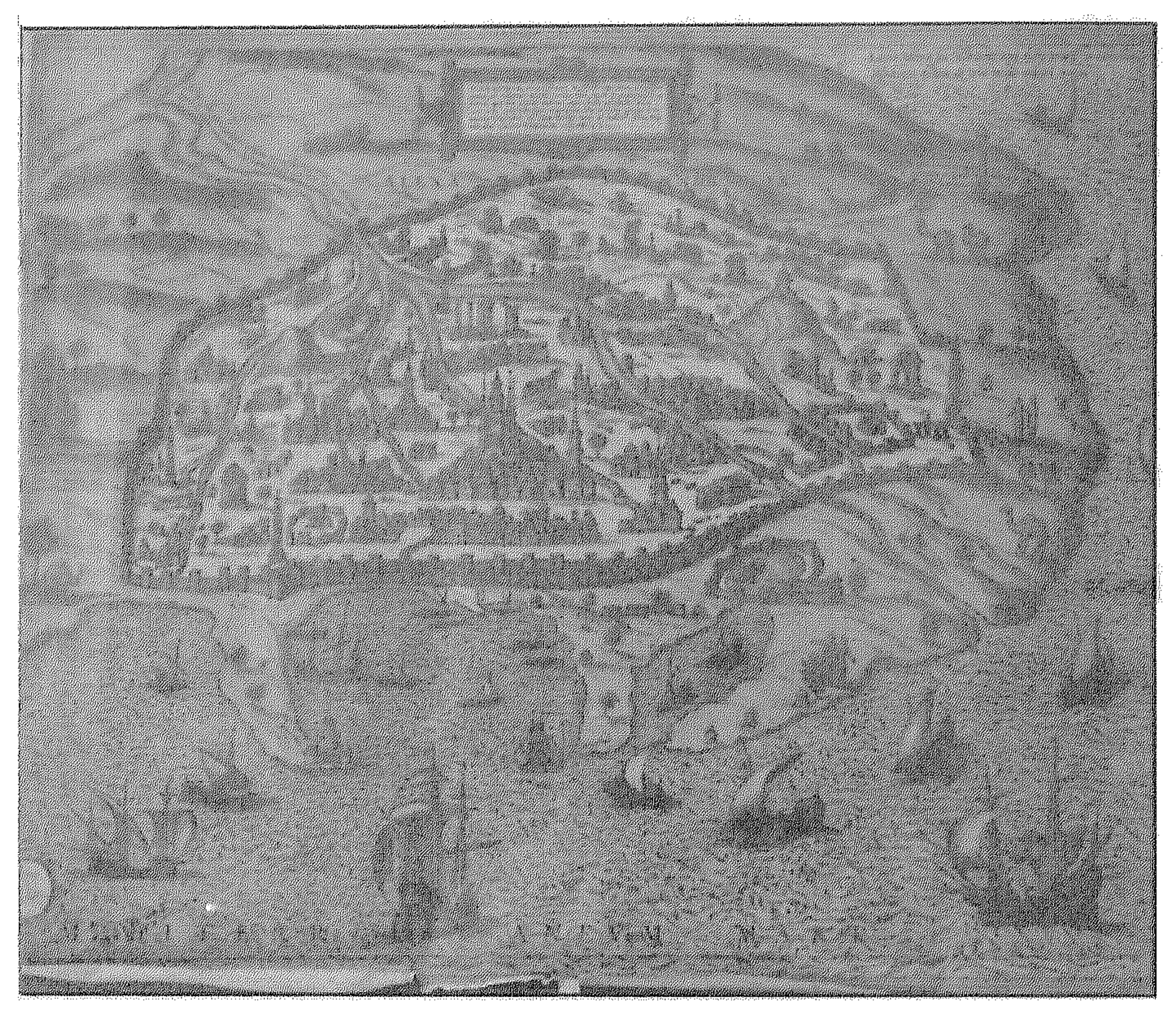
الأمر المحير أنه فى كل فترة تتوالى علينا الأخبار عن العثور على كنز جديد داخل دار الكتب الوثائق. وكأننا أمام صحراء تقوم فرق البحث والتنقيب عما يختبىء فى باطنها. وليس دارا بعراقة وتاريخ دار الكتب. ففى عام ١٩٩٦ أعلنت دار الكتب عن العثور على كنز مجهول أثناء عمليات ترميم مبنى باب الخلق، والكنز عبارة عن خزينة مغلقة ولا أحد يعلم ما بداخلها! وكيف يتم فتحها! وبعد فتحها تم اكتشاف ما يزيد على ١٣ ألف قطعة نقدية ذهبية وفضية. ويرجع أقدمها إلى بدايات العصر الإسلامى. حيث تؤرخ لبداية سك النقود فى عهد الدولة الأموية عام (٤١ هجرية - ٦٦١ ميلادية). وها نحن اليوم نعثر على كنز آخر اختفى داخل غياهب المخازن لفترة لا نعلم مداها دون أن يدرى أحد، أن دار الكتب تمتلك ثمانية آلاف خريطة أثرية يعود أقدمها إلى القرن السادس عشر الميلادى.

لا أعلم السبب الحقيقى وراء الفرحة التى تعلو وجوه كل من قابلناه داخل دار الكتب القومية. فالحقيقة غير مفرحة على الإطلاق بقدر ما هى محزنة بل مفزعة. فنحن نتحدث هنا عن تاريخ أمة. وتراث عريق من المخطوطات والبرديات والوثائق والمقتنيات علاوة على الخرائط بما يمثل ذاكرة الأمة. والخوف يتجلى عندما نكتشف أننا بدأنا فقط خلال عام ٢٠٠٢ باعادة اكتشاف ما تمتلك دار الكتب من كنوز تراثية. وأننا لا نعلم حتى الآن حجم ما تحتويه مخازنها. خاصة أن تصريحات د. صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب توضح «أن الدار تقوم كل عام بجرد مخزن واحد أو اثنين فقط» على أن تظل باقى المخازن البالغ عددها ثمانية على قائمة الانتظار تمهيدا لجردها خلال الأعوام القادمة، وإن كان د. فضل قد أكد أن عمليات الجرد تلازمها عمليات تطوير وتجهيز وترميم أيضا. لكن هذه التصريحات تشير بوضوح إلى إمكانية وجود مقتنيات غير مصنفة أو حتى معلومة داخل باقى المخازن التى لم يسعدها الحظ وتنالها يد التطوير والجرد حتى الآن.



كنز الكنوز

تعتبر دار الكتب أقدم المكتبات العامة على الاطلاق فى مصر وفى قارتى آسيا وأفريقيا. وطوال عمرها تفتخر مصر بما لديها من أكبر ثروة من المطبوعات والوثائق والمخطوطات. بل تعتبر الدار موطن كنز الكنوز. فتمتلك ما يزيد عن ١١٠ آلاف مخطوط قديم وأكثر من أربعة آلاف بردية ترجع إلى أبعد من ثلاثة آلاف عام. كذلك مجموعات نادرة من المخطوطات الفارسية المزينة بالصور وبماء الذهب. أقدمها تلك التى أهداها مصطفى باشا فاضل



الإسكندرية القديمة وميناؤها وتبدو اسوار المدينة القديمة

للدار وهى النسخة الوحيدة الباقية فى «الرسالة فى أصول الفقه» للإمام الشافعى والتى تحمل إجازة بخطه بنسخ الكتاب وهى مؤرخة بسنة ٢٦٥ هجرية. إلى جانب عدد ضخم من الوثائق التاريخية التى يزيد عمرها على الألف عام، ومئات المصاحف والمخطوطات التى تعود إلى العصور القبطية والإسلامية.

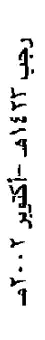
والمعروف أن وجود تلك الوثائق قد لعب دورا فى إثبات كثير من حقوقنا المشروعة دولياً مثل قضايا تأميم قناة السويس، ومشكلة طابا، إلى جانب وجود وثائق الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨. والحملة الانجليزية ١٨٠٧، والاحتلال الانجليزى ١٨٨٢. وثورة ١٩١٩. علاوة على ١٥٨ ألف دورية (صحيفة ومجلة) عربية وأجنبية، أقدمها صحف نابليون بونابرت أثناء حملته

على مصر والشام.

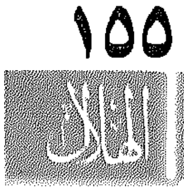
ويكفينا ما قاله له د. جلال غندور رئيس الإدارة المركزية لدار الكتب أن هناك دولاً أو مكتبات وطنية تفتخر بوجود مخطوط أو بردية واحدة فقط. بل وتخصص لها قاعة أو طابق كامل ليتناسب مع مكانتها الأثرية، كما هو الحال فى المكتبة الوطنية باسكتلندا. فما بال مصر التى تمتلك هذا الكم من المخطوطات والوثائق.

فى البداية قابلنا المهندسة عايدة حنفى المدير العام لخدمات القراء. وهى المسئولة عن عمليات البحث عن الخرائط وفهرستها وتصنيفها وأرشفتها. والفرحة تعلو وجهها أكدت لنا أن فريق العمل اكتشف موقع إقامته «كندا» على شبكة الانترنت خاص بالخرائط النادرة. اكتشفنا أن بعض أصولها تمتلكها دار الكتب!! وأوضحت أن الخرائط المكتشفة تنقسم إلى ثلاث أقسام الأول يصل عددها إلى ٦ آلاف خريطة تتعلق «بالزمام» أى المحافظات والمدن داخل الحدود المصرية. والقسم الثانى خاص بالدول العربية مثل بعض الخرائط الخاصة بفلسطين يرجع أقدمها إلى عام ١٩١٦ كذلك خرائط للحجاز والسعودية وسوريا والمغرب والسودان ومنطقة شبعا فى لبنان. والقسم الثالث وهى الخرائط الأجنبية وعددها ٢٥٠ خريطة بلغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والألمانية والفارسية والتركية والإسبانية. يعود أقدامها إلى عام ١٥٠٥ وهى خريطة مكتوبة باللغة الكاتولونية (الإسبانية القديمة) عن الموانئ والبحار والمحيطات وقارات العالم القديم. ويضم الكنز خريطة نادرة لمنابع النيل فى مصر والسودان. وتمتلك الدار خريطة مارتين والدسيمولر الجغرافى الألمانى الذى نشر فى عام ١٥٠٧ خريطته للعالم محفورة على الخشب. استمد المادة العلمية من تعاليم بطليموس الجغرافية عن العالم ومن رحلات الرحالة خاصة أميريكو فيسوبتشى مكتشف أمريكا الجنوبية، لتكون خريطة والدسيمولر أول خريطة ورد فيها اسم «أمريكا» وهو أول من أطلق هذا الاسم على الجزء الجنوبى من القارة الجديدة. مما أثر على رسم الخرائط خلال القرن السادس عشر الميلادى والذى ظهرت من بعدها أمريكا كقارة مستقلة وليس متصلة بقارة آسيا. ومن الخرائط الملونة الجميلة خريطة توضح رحلة الاسكندر الأكبر فى بلاده حتى وصوله لإيران يرجع تاريخها إلى (١٥٩٥ ميلادية) كذلك أول خريطة تظهر فيها مصر منفصلة عن باقى الدول المجاورة لها وهى بعنوان مصر الحديثة مؤرخة فى عام ١٦٦٢ ميلادية.

وعن مستقبل هذا الكم الضخم فى الخرائط أوضح الدكتور غندور أنه يحلم بإقامة معمل جغرافى متطور يقوم بحفظ الخرائط بأنواعها وأشكالها (جلد/ ورق/زجاج) وتبويبها وتصنيفها طبقا للأساليب العلمية الحديثة. ويحلم بنقلها على وسائط أخرى (اسطوانات ليزر) حتى تكون متاحة للجميع



خريطة توضح رحلة الإسكندر الأكبر حتي وصوله الى إيران مدونة بتاريخ ١٥٩٥



بشكل آمن حتى لا تتعرض الأصول للتلف. وبادرته بالسؤال الذى يحيرنا جميعا. لماذا تأخر اكتشاف هذا الكم من الخرائط فجاء رده بسيطا فهو أيضا يتساءل عن السبب. وإن كان يرى أن مخازن الدار انتظمت إلى حد ما «فنحن لانزال فى طريقنا ولا نستطيع أن ننظم جميع الأشياء خاصة أنها لم تخضع للتنظيم لمدة تزيد على المائة عام» والكلام هنا للدكتور غندور الذى يقول: إن الدار تأسست فى عام ١٨٧٠ وطوال عمرها بذلتُ مجهودات لكنها غير كافية نظراً لقلة الامكانيات» لكنه يؤكد «اليوم لدينا جميع الامكانيات سواء الفكرية أو التقنية، فإذا أن لم نورث الأجيال القادمة تراث قومى موثق فنحن سنصبح مقصرين ولا نملك العذر؟ لكنه يتعهد بـ «لن نجد بعد اليوم مخطوط تائه أو غير محصور أو بردية أو ورقة غير معلومة أو مصورة أو

مصنفة بعد اليوم!!

وهنا كان لنا وقفة، فعند زيارة القاعة المخصصة للخرائط الأثرية. فوجئنا بأنها متراصة أكوام فوق بعضها على طاولات ومقسمة إلى أقسام طبقا لنوعها، وإن كان المنظر يميل إلى العشوائية أكثر من التصنيف العلمى الدقيق.. صحيح كان الجميع يسارع بامدادنا بالمعلومات التى نريدها أو عرض أية خريطة نريد تصويرها، لكن الأمر كان غير منظم على الإطلاق، وكنا نأمل أن نرى الخرائط فى وضع أفضل إلى حين اعتماد الأموال المخصصة لإقامة المعمل الجغرافى المأمول.

مشكلة الترميم

وكان لابد فى مقابلة د. صلاح فضل الذى دافع عن آداء الدار بهمة بقوله «كان لدينا معلومات إجمالية عن وجود بعض الخرائط بمخازن الدار. لكن المعلومات التفصيلية عن محتواها لم تكن متوفرة بدقة حتى تاريخ رسم الخرائط لم يكن معروفا وهو ما نقوم به حتى الآن». بل يوضح «إن مسألة الاكتشاف مسألة نسبية. فالخرائط موجودة بالفعل لكننا سنعيد اكتشافها عندما نخصص لها طابقا كاملا لإتاحتها للباحثين. «بالإضافة إلى محاولة توفير التمويل المالى اللازم لإقامة المعمل الجغرافى. وهنا يطرح د. فضل مشكلة حرجة تعانى منها دار الكتب وهى مشكلة الترميم حيث يوضح أن «عملية حفظ المواد الورقية مثل الخرائط عملية مكلفة جداً نظراً لتعرضها للتلف والتدهور مع مرور الوقت، وهنا تتجلى مشكلة الترميم التى تواجهها الأصول بشكل متواصل. فلاتزال امكانيات الدار أقل بكثير لما تحتاج إليه من عمليات الترميم. فيقول «طاقة عمل معامل الترميم سواء الألية واليدوية لا تسد سوى ١٠٪ من احتياجات الدار». أى أن الدار تحتاج إلى عشرة معامل ترميم لتقوم بواجبها على أكمل وجه تجاه المادة التى تحتاج لترميم متواصل. ويشرح «أن المشكلة لا تنحصر على ترميم مقتنيات الدار بل يقع على عاتقنا ترميم مقتنيات جهات أخرى مثل مقتنيات رئاسة الجمهورية، هيئة قناة السويس...» لذا فهو يرى أن الدار تواجه تحديات أهمها التمويل المالى اللازم لاستكمال مشروعات التطوير وإقامة معامل الترميم واستكمال البنية المعلوماتية والالكترونية.

وبرغم كافة الجهود المبذولة إلا أن ملف دار الكتب يجب أن يظل مفتوحاً طوال الوقت خاصة أن المفقود داخلها كنز لا يقدر بثمن والموجود ثروة نفيسة، وأى تهاون أو تخاذل معناه فقدان جزء من تاريخ الأمة المدون. فلاتزال العديد من القضايا التى تتعلق باختفاء بعض الوثائق قيد التحقيق، مثال ذلك قضية اختفاء نحو ٨٠٠ وثيقة من أحد مخازن الدار وهى وثائق تتعلق بعلاقة محمد على بالجزيرة العربية والدولة الحجازية الأولى المعروفة باسم «الحجاز»، علاوة على ارتفاع أعداد المخطوطات والوثائق المتهالكة

أول رسم لمصر منفصلة عن آسيا وإفريقيا يعود إلى عام ١٦٦٢



التى تحتاج لترميم عاجل فى مقابل النقص الحاد فى معامل الترميم كما يؤكد د. فضل. فضلا عن سوء الأحوال داخل قاعات المطالعة والبحث التى تتزايد كل يوم الشكوى منها. وبرغم كافة الأموال التى صُرفت على عمليات التجديدات والتى مر بها المبنى المطل على كورنيش النيل.

ويكفينا أن نعلم أن ميزانية تطوير مبنى باب الخلق تعدت الخمسين مليون حتى الآن والتى لم يتم الانتهاء منها بعد

ونأمل أن تحرك عملية العثور على الثمانية آلاف خريطة الأثرية المياه الراكدة مرة أخرى. ونحلم كما يحلم د. فضل بدار كتب ووثائق قومية أكبر من حيث الامكانيات والتمويل ومن حيث الاتساع لتشمل كافة التوسعات المقترحة والأقسام الجديدة خاصة القسم الخاص بالخرائط القديمة. ■

المسرح التجريبى وإعادة ترتيب الأوضاع الثقافية

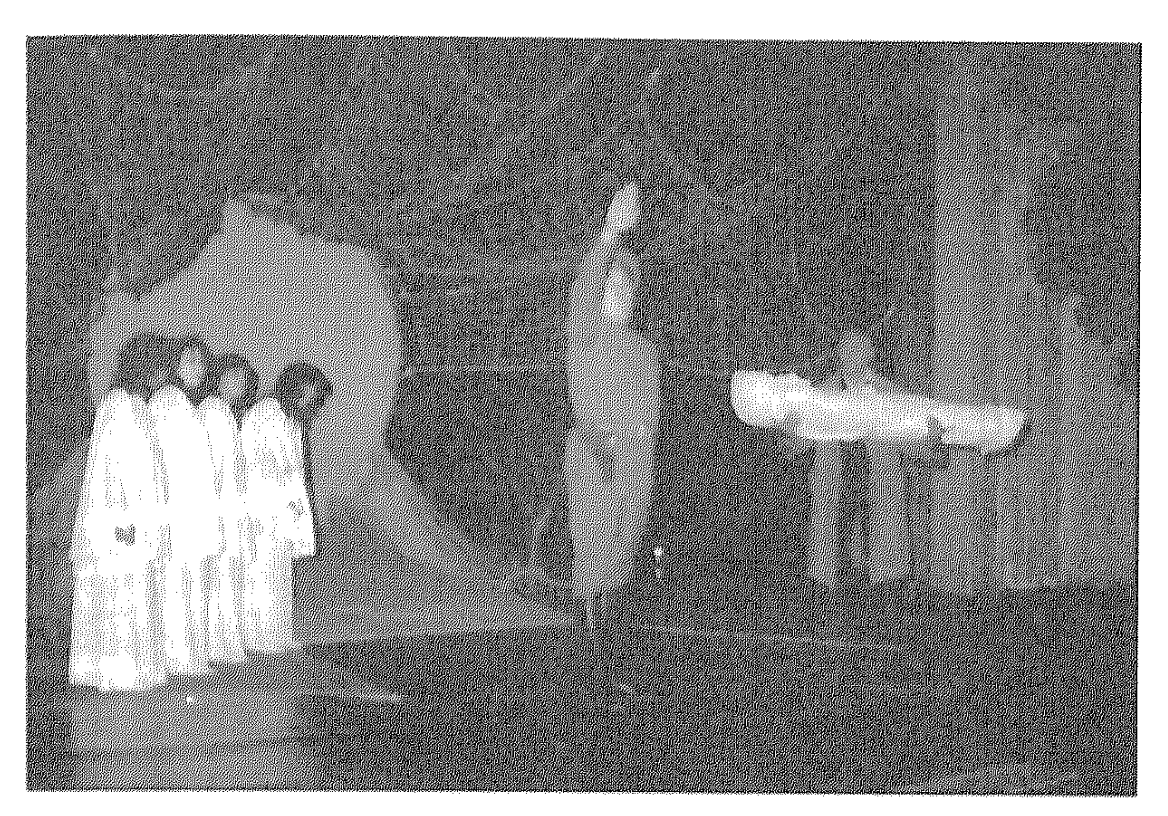
بقلم
د. حسن عطية

• تجريبنا اليوم صار تقليدا لتجريب الآخر



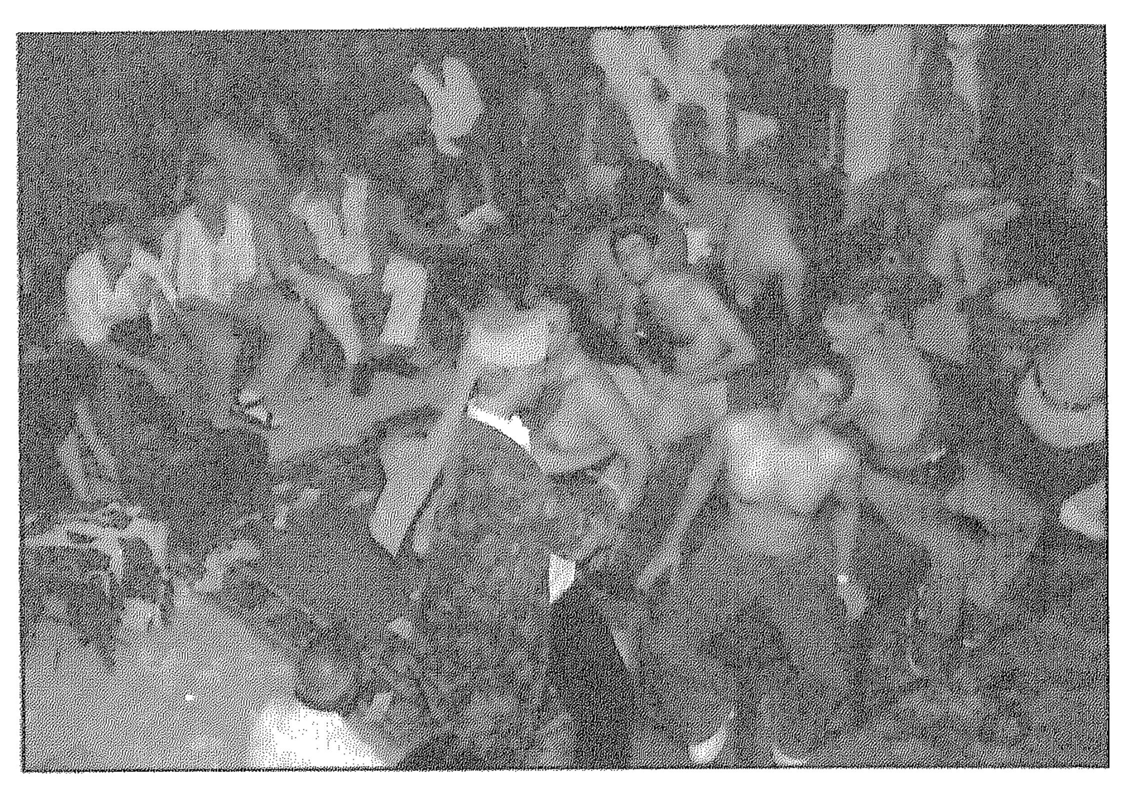
افتتح مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى فعاليات دورته الرابعة عشر مساء الأول من سبتمبر الماضى، والحياة الفنية فى مصر وفى العالم العربى مشغولة بالحديث عما حدث للذوق العام من تدهور ، تجلى أخيرا فيما سمى بظاهرة (اللمبى) وما طرحته بين المثقفين من ضرورة إعادة النظر فيما حدث لهذا الذوق وعلاقته بالمتغيرات الاجتماعية والفكرية التى مرت بالمجتمع ، بهدف إعادة تنظيم حركة الثقافة المصرية حتى لا تتعثر خطواتها ويتوه مستقبلها،

وأنهى المهرجان فعاليات دورته الأخيرة مساء الحادى عشر من سبتمبر الملتهب، والعالم يقف على ذنبه رعبا من حدوث فعل تدميرى آخر على الولايات المتحدة فى ذكرى مرور عام على نسف رموز الرأسمالية التجارية والسلطة السياسية فى قلب نيويورك وواشنطون ، أو حدوث هجوم كاسح مضاد من الولايات المتحدة على أية بقعة فى العالم باسم ضرب الإرهاب بالإرهاب ، وبهدف إعادة ترتيب أوضاع العالم لكى تسلم كل دولة أوراق سيادتها للقطب الأوحد.



المحطة الجانبية العاصفة - كازاخستان

فيما بين يومى الافتتاح الذى دشن بالعرض المصرى الراقص (تحت الأرض) لوليد عونى، والمعبر عن توجه نخبوى يتناقض تناقضا حادا مع منجز (اللمبى) وملايينه الساخرة بذاتها وبلسان منتجها لكل فن واقعى ولكل قيمة علمية فى حياتنا، والختام الذى أعاد تقديم العرض الفائز بجائزة أفضل سينوجرافيا أو ما يسمى بالتقنية المسرحية، وهو العرض التشيكى (عرائس خارون) ، والذى يقدم بالرقص عالما متوترا بين الموت والحياة، مانحا الجسد البشرى وضعا متشيئا اقرب لوضع التمثال الحى المقاوم لسكونية النهاية بانفعالات صحوة الموت، وفيما بين هذين العرضين الراقصين قدم المهرجان ما يقرب من ١١٥ عرضا مسرحيا ، بواقع عرضين لكل مسرحية، وصولا لثلاثة مع العرض الإنجليزى (مؤتمر هاملت) الذى فاز بجائزتى أفضل عرض وأفضل مخرج، حصل عليها المخرج الكويتى الأصل «سليمان البسام»، وذلك بسبب الهرج الذى تم أمام قاعة مركز الإبداع الصغيرة التى تقدمه (١٢٥ مقعدا)، وصل للتلاحم بالأيدى والأجساد بين المشاهدين ورجال الأمن، وتقلصا لعرض واحد مع المسرحية العراقية (البديل) على مسرح النيل العائم بالجيزة، والتى رفضت مجموعة عرضها تقديم ليلة ثانية لها، دون أدنى احترام لمن حضر من الجمهور والنقاد، وقدم المخرج لمدير دار العرض اعتذاره بسبب عدم ملاءمة دار العرض «جغرافيا وبيئيا»!! لمقتضيات عرضهم



حلم السمك العربي - الكويت

التكنيكية، فى مفارقة تقدس شكل الفعل على الفعل ذاته، وتحرص على كلاسيكية الصياغة فى مهرجان تجريبى، ووصل الأمر ذاته مع العرض المغربى (سوق العفاريت)، لولا وجود مجموعة صغيرة من النقاد المصريين والمغاربة ، احترم المخرج وفرقته حضورهم وقدموا العرض لهم.

فنانو الفنادق

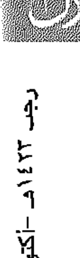
شارك فى المسابقة الرسمية للمهرجان ١٨ عرضا تم اختيارها من بين ٦٥ عرضا شاهدتها لجنة الاختيار والفرز الغربية، بواقع عرض واحد من كل من كوريا الجنوبية (ذكرى للسماء) وألبانيا (الملك يموت) والصين (ووشانج ونوودياو) وانجلترا (مؤتمر هاملت)والتشيك (عرائس خارون) واليونان (خاب سعى العشاق) واليابان (الحبل) وبلغاريا (كلب نائم) . ثم هولندا التى مثلها على غير المتعارف عليه عرضان هما : (تاجر البندقية) و(أرض المستحيل) ، إلى جانب ستة عروض عربية لكل من ليبيا (سرحان) والكويت (حلم السمك العربى)، والأردن (الزائر) ، والمملكة السعودية (السيمفونية) ، وسلطنة عمان (تحت الرماد) ، وقطر (القادم)، بالإضافة إلى العرضين المصريين (تحت الأرض) و(إنسان الطبيعة) ، بصفتها الدولة المنظمة ، بينما خرجت من المسابقة لبنان بعرضيها (بيروت صفرا) لفرقة (مقامات مسرحية) و(لوسى المرأة العمودية) لفرقة مسرح (شمس)، ومن إخراج المخرج المسرحى والسينمائى المعروف «روجيه عساف» ،

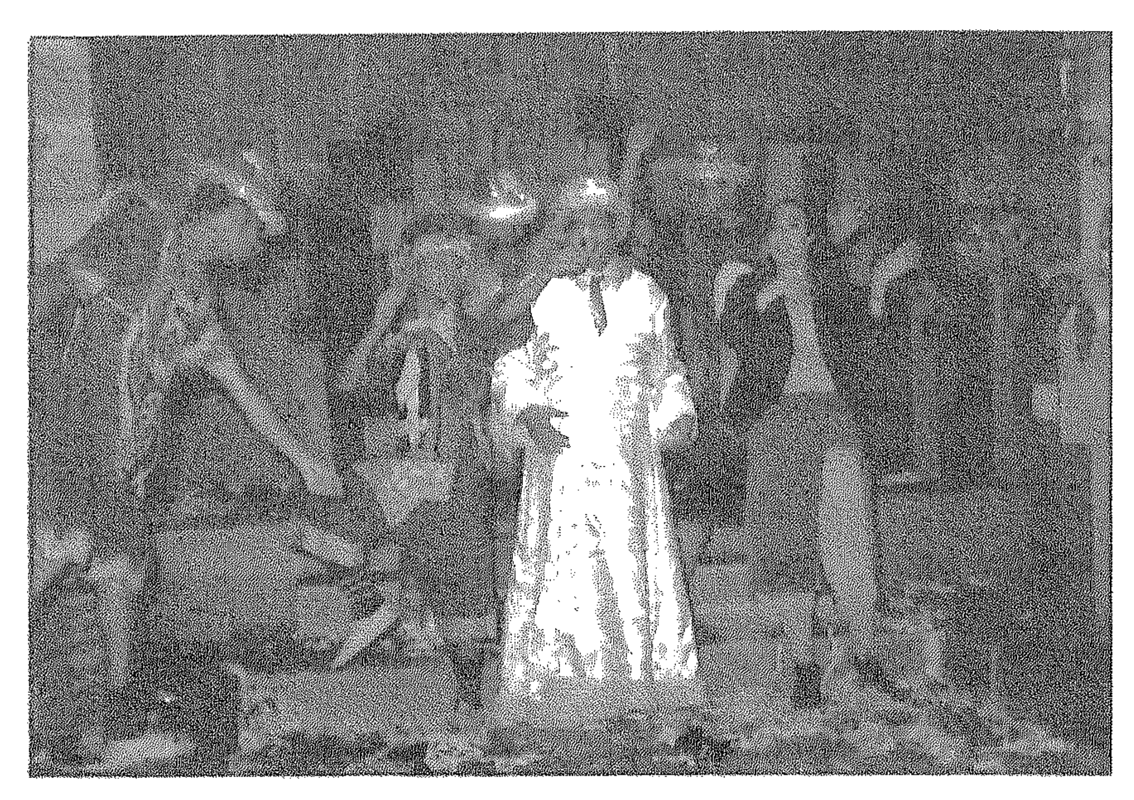
الذى أعلن قبيل تقديم عرضه بمسرح (العرائس) استياءه من عدم دخوله المسابقة الرسمية ، ومما زعمه من الكيل بمكيالين فى المهرجان فهناك كما قال (فنانو الشيراتون) و(فنانون سفير) و(فنانو سميراميس) نسبة إلى نوعية الاستضافة للضيوف فى الفنادق، فضلا عن التفرقة فى توزيع العروض على المسارح المجهزة والأقل تجهيزا، ثم زايد بادعائه أن ثمة تعمد لتغييب فلسطين فى هذه الدورة، والتأكيد على حضور المساندة لأحداث ١١ سبتمبر، خاصة فى كلمة رئيسة لجنة اختيار العروض للمسابقة الرسمية، الأمريكية «مارثا كوانييه»، فى حفل الافتتاح ، وقد رد الكاتب والناقد الكبير «نبيل بدران» على تلك المزايدة بقوله: إن فلسطين لم تغب يوما عن المهرجان ، بدليل حضورها بقوة فى السنوات الماضية، وحصولها على جائزة أفضل عرض مسرحى فى دورة العام الماضى، بمسرحية (قصص تحت الاحتلال)، كما أوضحت نشرة المهرجان (التجريبى) اليومية أن الدعوة قد وجهت من المهرجان رسميا لفلسطين للمشاركة ، افاد المستشار الثقافى لدولة فلسطين «غازى فخرى» بخطاب لإدارة المهرجان جاء فيه «برجاء التكرم بقبول اعتذارنا عن المشاركة فى هذه الدورة لظروفنا الحالية».

خصوصية التعبير الحركى

أكد المهرجان أنه مازال على العهد مهرجانا مفتوحا للتجريب، تنفتح فيه العين على اجتهادات شبابية تقتحم عوالم جديدة، وتسعى للتعبير عن أفكارها ورؤاها بشكل مغاير، خاصة التعبير الحركى بلغة الجسد، الذى ساعدت مجموعة من العوامل على تكريسه دون بقية أشكال ومناحى التجريب الأخرى، بداية من طبيعة المهرجان الدولية، حيث تقدم العروض القادمة من شتى أنحاء العالم بلغاتها الخاصة لجمهور لا يعرف الروسية واليابانية والإسبانية والكورية واليونانية وغيرها، بل ويصعب عليه تفهم بعض اللهجات العربية، ومنها اللهجة المغربية على سبيل المثال، مما دفع بمخرج العرض المغربى (التسر سيرة) (أى «الجرس»)، إلى الإعلان فى إحدى رسائل التليفزيون المتشابهة لدرجة الملل إلى أن «العائق الآن بين المسرح المغربى والجمهور العربى هو اللهجة المغربية، فاللهجة المغربية غير مفهومة فى كثير من الأقطار العربية، لذلك على المسرح المغربى لكى يتجاوز هذا العائق أن يعتمد كثيرا على السينوجرافيا، وعلى لعب الممثلين، وعلى اللغات الدرامية أو ما تسمى باللغات غير الكلامية، التى دشن المهرجان وجودها بتوجهه وتوجه جوائزه خلال السنوات الخمس عشرة السابقة.

إن غياب القدرة لدى المتلقى المسرحى على فك (كود) أو شفرة اللغة المنطوقة بألسنة الممثلين أدى لبروز اللغات غير المنطوقة أو غير الكلامية من سينوجرافيا وإضاءة وحركات الممثل وإيماءاته ، وقد ظن البعض أن تلك





وقت بدل ضائع- مصر

اللغات غير الكلامية سهل على المتلقى العربى - أو غير العربى - القيام بفك شفراتها وإعادة تركيبها فى ذهنه لإدراك معانيها والإمساك برسالتها أو خطابها الثقافى المبثوث بشكل فنى جمالى فى العرض المسرحى، رغم كراهية البعض من مروجى فنون التغييب لمصطلح (الرسالة) وتفضيله أحيانا لمصطلح (الخطاب) ، بل ونسفه لوجود خطاب أصلا للعمل الفنى، واكتفائه بتحقيقه لـ (حالة) وجدانية يسلب عقل متلقبها داخلها، تماثل فى شكلها الأرقى حالة الاستلاب العقلى التى تحققها أعمال مثل فيلم (اللمبى) ، وتشابه فى شكلها الأدنى جلسات تعاطى المخدرات.

فيما بعد أدرك هذا البعض المتحدث عن (عالمية) أو (عولمية) لغة الجسد ولغات المسرح غير المنطوقة، أن الجسد البشرى ليس منفصلا عن عقل صاحبه، وأن هذا العقل يخضع لثقافة مجتمعه الذى يعيش فبه ويعايشه، ومن ثم تصبح الحركة واللفتة والإيماءة دلالات خاصة لدى كل مجتمع، وتختلف بالضرورة عن بقية مجتمعات الأرض، فضلا عن أن النظر للجسد البشرى يختلف من مجتمع لآخر، ومن زمن لآخر داخل نفس المجتمع، فما تفعله الممثلة اللبنانية الأصل «سلمى حايك» على شاشات السينما المكسيكية والأمريكبة لا تستطيع آن تفعله فى فيلم إيرانى أو حتى عربى، وإلا كان الموت رجما جزاء تعبيرها بجسدها المتوهج على الشاشة الفضية، والفتاة المصرية التى كانت تخرج للشارع أوائل السبعينيات مرتدية

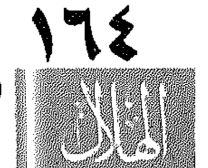
(الميكروجوب) دون حرج أو تعدى على حريتها ،لا تجرؤ اليوم على ارتدائه حتى داخل منزلها، والأمر كذلك بالنسبة لحركة الجسد وأطرافه ، فالألمانى أو الإسبانى يعبر عن ذاته بحركات تختلف عن حركات المصرى أو الكويتى، واللون الأبيض له دلالته فى الهند اختلافا مع دلالته المعروفة فى مصر.

أدى هذا الإدارك لمجتمعية التعبير الجسدى وخصوصية اللغة غير الكلامية مثلها فى ذلك مثل اللغة الكلامية ذاتها، إلى محاولة نسف كل شىء، بدءا من النظرية، التى أعلن أحد المشاركين الإنجليز فى دورة العام الماضى ضرورة تدميرها، وانتهى المهرجان وبرجا التجارة فى نيويورك يخترقا ويتداعيا كقصرين من رمال، مرورا بإلغاء قيمة الكلمة المنطوقة فى كافة عروض المهرجان ، بما فيها العرض العراقى (نار من السماء) لفرقة (مردوخ للرقص الدرامى) والتى تجمع مجموعة من الراقصين غير الدارسين لفن الدراما المسرحية، مع آخرين من الدارسين، والذين يقدمون عرضا راقصا، يتصورون أنه تجريبى ومرسل من دولة تعانى ما تعانيه لكى يدخل المسابقة الرسمية، التى تختار المحظوظين فيها لجنة غربية لا تعرف اللغة العربية، وتقييمها، إذا ما سعدت باختيار اللجنة لها، لجنة أجنبية فى غالبيتها ، ولا يمثل فيها غير عربى واحد، هو المخرج التونسى «المنصف السويسى» هذا العام ، والكاتب والناقد الروائى «إدوارد الخراط».

موت المؤلف المسرحي

المشكل فى أمر عروض المهرجان أن فرقها الغربية لا تمثل قيمة كبرى فى بلادها من جهة، وفيما تقدمه من تجريب على ساحة الإبداع المسرحى الدولى، فكل من يقرأ الجمهور عنهم ويترجم المهرجان نفسه كتبا لهم وعنهم لا نراهم بالفعل داخل فاعليات المهرجان، والمشكل الأعمق أن المهرجان دعم توجها فى المسرح، صار له القدح المعلى، فغيب الأشكال الأخرى تجريبية وغير تجريبية، وقضى على وجود المؤلف المسرحى المصرى، وكأنه تطبيق عملى لمقولة (موت المؤلف) التى راجت فى السنوات الأخيرة، فلم تظهر خلال العشرين سنة الماضية قامة تماثل قامات من قدمتهم الحياة المسرحية خلال العقود السابقة، بل ولم يستطع مخرج مسرحى، رغم قتل المؤلف ونصه، أن يؤكد وجوده المتميز بملامح فكرية فنية محددة خلال الفترة المنصرمة، وأدى الاستغراق فى مفهوم التعبير الحركى، إلى صعود نجم الراقص، وهبوط نجم الممثل، بل وغاب فن التمثيل ذاته، وندر بالتالى وجود الممثل المتمكن من أدواته، الواعى بحرفية الممثل وتكنيك الأداء الصوتى.

والمشكل الأكثر عمقا فى كل ذلك، أن التجريب فى مسرحنا العربى أصبح (تقليدا) لتجريب الفرق الأجنبية، وجذب لساحته جمهورا صغيرا لا يعرف عن



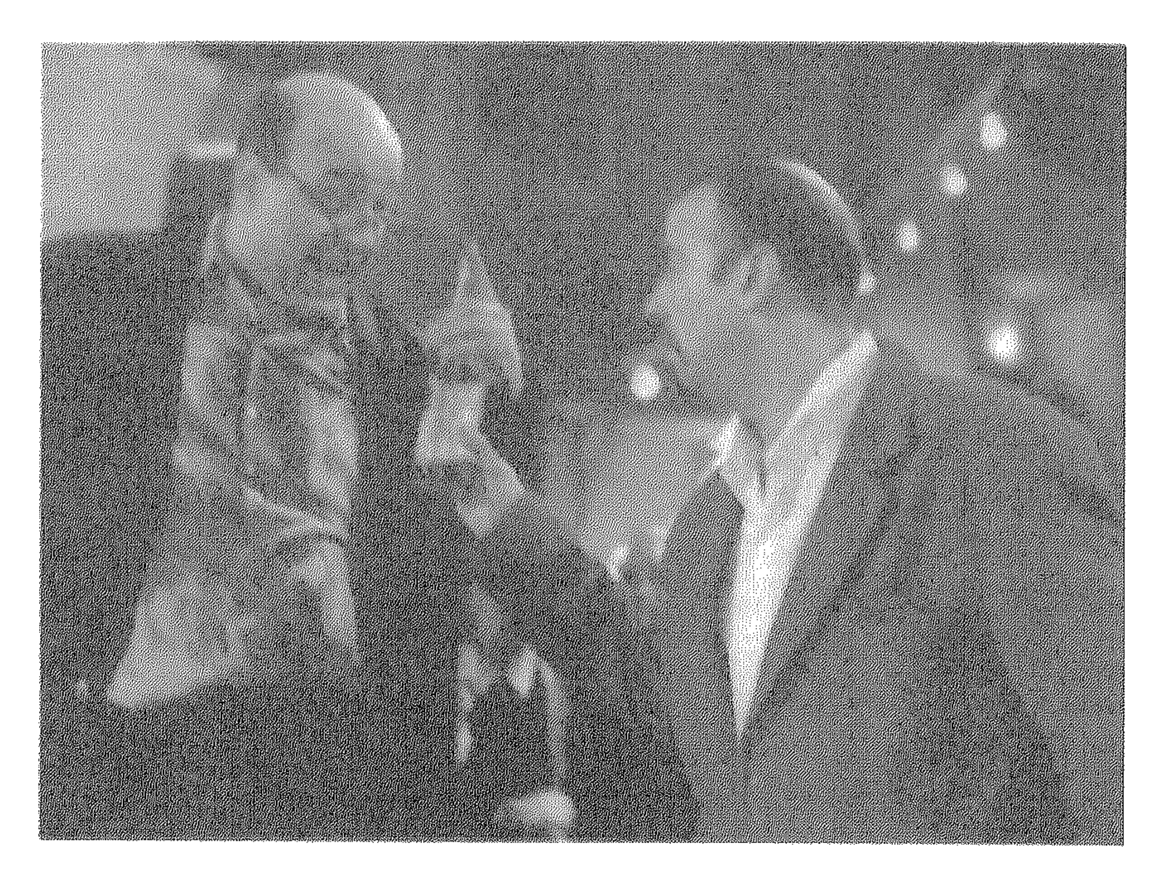
شكسبير وميلر وبريشت ومحمود دياب وعز الدين المدنى شيئا، وابتعد عن مساره الذى انتهجه من قبل بالتجريب مع الجمهور ومن أجله وليس ضده، وبالبحث عن أفضل سبل التواصل المسرحى مع جمهورنا العربى ولعل العرض الكويتى (حلم السمك العربى) للمؤلف والمخرج «حسين المسلم» ، يعد بوجوده داخل المهرجان استثناء لا يلغى القاعدة المشار اليها توا، حيث قدم رؤيته داخل باحة بيت زينب خاتون، فى شكل المقهى الشعبى أو (الديوانية) التى يلتقى داخلها الجمهور بالممثلين لقاء حميميا، يشربون معا الشاى ويدخنون النارجيلة ويتحدثون عن أحوالهم . فيدخلون معا عالم المسرح بحيويته المتفقة ، مناقشين قضية صغرى هى نفوق السمك على شواطىء الخليج، صاعدين بالدلالة المحلية لهذا (النفوق) والموت القادم من الخارج لدلالات أكثر عالمية، ويقف العرض المصرى (ميدان اسكتش) للمخرجة «عبير على» إلى جوار العرض الكويتى فى تأكيد أن المسرح لا ينفصل أبدا عن لحظته الزمنية وشرطه الجغرافى، هاربا لدنيا التجريد والمعميات، ورغم أن العرض المصرى يعتمد على نص للكاتب الالمانى «بيتر هندكة» ، ترجمة د. محمد شيحة، إلا أن المخرجة قامت بتمصيره، لتضعنا مع المواطن المصرى خلال يوم كامل فى احد ميادينا المزدحمة بالحياة، غير أن الاستثناء لا يلغى كما آشرنا القاعدة التى كرستها عروض المهرجان ، وآدت لترك الساحة فارغة، يتخبط داخلها الجمهور الأكبر بين «شعبولا» و«بابا أوبح» و«اللمبى»، ويخرج علينا شبابنا معلنين فى فرح حينا وفى حزن حينا آخر أن تلك (التعبيرات) المنتسبة للفن (تشبهنا) وتحاكى ما هو قائم فى حياتنا، ولولا البطالة والفراغ الثقافى لما وجدت تلك التعبيرات التى تبدو كظاهرة تعكس واقعا متردیا . وهو ما يتطلب منا العمل على إعادة النظر فى الدور الذى تلعبه مؤسساتنا الثقافية والتعليمية والسياسية، فالتجريب على الطريقة الغربية لم ولن يجعلنا عوليين فى زمن الكوكبية المزعومة، ومجاراة الذوق المتردى بحجة أنه قائم فى شوارعنا وحوارينا ، لن يدفعنا خطوة للأمام ، فالفن ليس محاكاة للواقع، ينقل ما هو قائم دون نقده، وهو أيضا ليس هروبا من هذا الواقع فى معميات ملتبسة المعنى، وكما تسعى الولايات المتحدة اليوم لترتيب أوضاع العالم، عالمها كما تود أن يكون، مطلوب منا أيضا أن نقف بموضوعية ودون آدنى حساسية من النقد، لنعمل على دراسة ما قدمناه حتى اليوم، علنا نعى إيجابياتنا فندعمها ونطورها، وندرك سلبياتنا، وهى سلبياتنا جميعا بلا استثناء ، لنتلافاها ونضع مكانها الجديد الواعى بقيمة الفن المتنور، وحاجة المجتمع إليه. ■

الرجـــل العنكبـــوت وأمريكـــا

بقلم
مصطفى درويـش

أغرب ما عجبت له، عند انهيار البرجين التوأم فى مانهاتن، قبل عام من عمر الزمان (٩/١١)، هو جنوح نفر من نقادنا فى مصر الى الجزم بأن عجلة الانتاج فى هوليوود سوف تتوقف عن صنع أفلام حركة من نوع السوبرمان، الرجل الوطواط ويوم الاستقلال.





واللمبى ومصر..

فشجيع هذه الأفلام الذى يقف وحده صامدا فى مواجهة الاشرار، حتى يلحق بهم الهزيمة، قبل ظهور كلمة النهاية بثوان، ذلك الشجيع الوحيد نوعه، لم يعد يقنع أحدا، بعد انهيار البرجين العملاقين، خلال دقائق معدودات ، بفعل فئة قليلة من الإرهابيين.

وعلى مصنع الأحلام فى هوليوود، اذا كان لا يريد لبضاعته أن تبور، أن يغير من مفهومه للبطولة، بأن يكف عن الزعم.

أولا : بأن البطولة أمر ينفرد به الأمريكى دون غيره من البشر .

وثانيا : بأن إلحاق الهزيمة بقوى الشر، أمر يرتهن بارادة وفعل البطل الفرد وحده، دون غيره من الأفراد والحق، أن منطق ذلك النفر من النقاد جاء مسكونا بالتبسيط المخل.

فانهيار البرجين المناطحين للسحاب، وإن كان يعد، ولاشك، حدثا جللا، إلا انه فى التقدير النهائى لا يعدو أن يكون حادثا على الطريق، سرعان ماتزال آثاره، دون أن تترك تأثيرا كبيرا على طبيعة نظام، ذى مؤسسات مستقرة، راسخة رسوخ الجبال.

فلقد مرت الأيام، بعد الانهيار، شهرا بعد شهر، حتى جاء صيف هذا العام

بأفلامه الدائر أغلبها حول الحركة والمغامرات والأساطير.

ريما وعادتها القديمة

فاذا بها ، ودون استثناء، تمجد البطولة الفردية، على الطريقة الهوليودية المألوفة فى هذا النوع من الأفلام واذا ببعضها المتسم بالغلو فى التمجيد للأبطال صانعى المعجزات، يحقق أعلى الايرادات.

فالأفلام الأولى فى سباق الايرادات كانت الرجل العنكبوت، حرب النجوم «هجوم المستنسخين» وسيد الخواتم وتمجيدها للبطولات الفردية، أمر لا يختلف فيه اثنان.

هذا ، وقد جرى ترشيح ثالثهم، سيد الخواتم، لثلاث عشرة جائزة أوسكار، فاز، من بينها، بأربع جوائز وعلى كل، فقد كان الرجل العنكبوت أكثر الأفلام الثلاثة تمجيدا لهذا النوع من البطولات، ومحققا، فى نفس الوقت أعلى الايرادات -(أكثر من أربعمائة مليون دولار من العروض داخل الولايات المتحدة وحدها).

وعنده أقف قليلا، لا لسبب، سوى إنه يعبر بفضل موضوعه وبطله، أحسن تعبير عن الاتجاه السائد فى السينما الأمريكية الآن.

القاعدة والاستثناء

بداية، الفيلم من إخراج «سام رايمو». ويؤدى الدور الرئيسى فيه، اى دور الرجل العنكبوت «توبى ماكجواير»، ذلك النجم الصاعد، الواعد، والسابق له أن امتعنا بأدائه الطبيعى، التلقائى فى الرائعتين «بلزنت فيل» (المدينة الممتعة)، «ومنزل عصير التفاح».

ولم يعرف عنه أنه من نجوم أفلام الحركة، فلا أوجه شبه بينه وبين نجوم على شاكلة شوار زنجر ، ستالونى وڤان دام.

فلا وجه قاس، صارم، خال من الابتسام ولا عضلات مفتولة، وعملقة فى القوام.

«توبى» باختصار فنى عادى، مثله مثل أغلب من له نفس سنه من الشبان.

وبالتالى لا يمكن تصوره متقمصا شخصية بطل أسطورى، منتصرا بمفرده للاخيار ضد جحافل الأشرار.

اختيار فريد

ومع ذلك، وقع اختيار المخرج «رايمو» عليه، كى يتقمص تلك الشخصية فى الرجل العنكبوت.

وأحداث الفيلم تبدأ به فتى عاديا «بيتر باركر»، يعيش يتيما مع عمه الطيب القلب «بن باركر»، ويؤدى دوره «كليف روبرتس» الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه لدور «شارلى» المعوق فى فيلم بنفس الاسم (١٩٦٨) وهو، أى «بيتر»، يدرس فى أحد معاهد بنيويورك وفى أولى مشاهد الفيلم، نراه معجبا ، أو بمعنى أصح محبا، لجارته وزميلته فى المعهد «مارى واطسن» ، وتؤدى دورها «كريستين دانست»، التى بهرتنا وهى صغيرة ، بتقمصها لشخصية مصاصة دماء فى فيلم «حديث صحفى مع مصاص دماء».

ولكن هيامه بها، لا يثير انتباهها



ربما لأنه يفتقد أهم مقومات النجاح مع الفتيات الطموحات.. الثراء، العيون الجريئة، والعضلات.

اللدغة الحاسمة

أما كيف تحول من فتى عادى، غير مثير، الى بطل أسطورى، نصير الأبرياء الأخيار، ومنقذ نيويورك من الدمار، فذلك كان بفضل لدغة عنكبوت، من نوع فريد.

فبعدها، حدثت تحولات فى جسمه، انتهت به رجلا خارقا، ولا كل الرجال، بطلا تضرب بشجاعته الأمثال.

وفى مشهد يذكرنا بمأساة البرجين التوأم، ينقذ فتاة أحلامه، مع آخرين، من هلاك أكيد.

وكما سبق القول، فالرجل العنكبوت ليس استثناء انه القاعدة، وما قصرت الحديث عليه الا لأنه أولا لأن بطله، ولأول مرة، انسان أمريكى عادى غير مفتول العضلات، ومع ذلك صانع معجزات ثانيا لأن الايرادات التى حققها لم تحقق لأى فيلم آخر جرى عرضه خلال فصل الصيف، شأنه فى ذلك شأن اللمبى عندنا.

واذا كانت قد أثارت عجبى الكتابات التى تنبأت بحتمية قيام مصنع الأحلام بتغيير مساره ، فقد أثارت عجبى اضعافا مضاعفة الهجمات الشرسة التى شنتها أقلام نفر من النقاد، مقت فيلم اللمبى مقتا شديدا، وود لوحيل بينه وبين أعين المتفرجين.

ضجة كبرى

وربما من طرائف الاشياء ان الفيلم كان يستقبل من الناس أحسن استقبال، وآية ذلك الاقبال منقطع النظير على مشاهدته، والرضا عنه كل الرضا ، الى درجة الافتتان، ومشاهدة البعض له بدل المرة، مرات.

وفى نفس الوقت، كان يتعرض لنقد حاد، كاد ينحدر الى حد المطالبة بسحب الترخيص الرقابى له بالعرض العام، وحظر تصدير أية نسخة منه الى الخارج، حفاظا على سمعة البلاد .

وقد تجرعت، مندهشا، الحملة ضد اللمبى مثلما تجرعها غيرى.

ولأننى كنت على وشك السفر الى شمال المانيا، فقد أجلت مشاهدته الى حين عودتى الى مصر.

وما أن عدت، بعد أسبوعين، حتى وجدتنى محاصرا بنفس الحملة، وقد ازدادت ضراوة، بسبب استمرار الاقبال على مشاهدته، وسقوط الأفلام الأخرى المنافسة له سقوطا مروعا .

ووسط هذه الحملة وضجيجها الذى انحدر الى درك المطالبة بمعاقبة الرقباء من جرم الترخيص بعرض الفيلم المتهم، رأيت اللمبى مرتين، مع الجمهور، فى دار سينما كاملة العدد، تباع تذاكرها فى السوق السوداء.

الجمهور عايز كده

وفى كل مرة كنت ألاحظ تفاعل الجمهور مع أسلوب أداء محمد سعد نجم الفيلم .

إما لماذا وقع الجمهور فى حب اللمبى، وتفاعل مع تمقص سعد لشخصيته، وآثر فيلمه على كل أفلام

موسم الصيف، بما فى ذلك أفلام كل من هنيدى، والسقا وعادل إمام ، فذلك أمر الاجابة عليه من الصعوبة بمكان، وليست من شأن النقاد. وإنما من شأن علماء النفس والاجتماع .

وفى اثناء الرؤية الثانية للفيلم لمحت فيه أبعادا لم ألمحها، وأنا أراه لأول مرة، ربما تأثرا بزعم بعض الأقلام المشهرة ضده، أنه فيلم تافه، وبعضها الآخر انه لا فيلم، ولا علاقة له بفن السينما لا من قريب، ولا من بعيد.

السخرية والهلامية

فاللمبى، والحق يقال، زاخر بدلالات، تجعل منه فيلما ساخرا بالماضى والحاضر معا .

والسخرية نلمسها بدءا من اللقطات الفاتحة له، حيث نرى اللمبى مترنحا، مرددا كلمتين «وكف الخلق» ويقصد بهما «وقف الخلق»، مطلع قصيدة «مصر تتحدث عن نفسها» ، حيث يفاخر شاعر النيل «حافظ ابراهيم» الامم باسم مصر قائلا «وقف الخلق جميعا ينظرون الىّ كيف ابنى قواعد المجد وحدى».

فهذه اللقطات بقدر ماهى فاضحة لتدنى مظهر اللمبى، وتردى قدراته الحسية.

بقدر ماهى معتزة، متفاخرة، بلسانه المتعثر، الفاشل فى محاكاة شدو أم كلثوم لقصيدة شاعر النيل بأمجادنا التى بنينا قواعدها نحن المصريين، على مر آلاف السنين.

وبطبيعة الحال، يفاجئنا الجمع فى شخص واحد، وتدنى المظهر، وتدنى القدرات بين هذين الضدين، وبدهشنا بغرابته، إلى حد انه يدفعنا الى التساؤل، كيف اجتمع فى شخص مثل اللمبى هذان الضدان.

وسرعان ما تزداد دهشتنا، عندما يقطع ضابط شرطة انيق، وكانه قادم من كوكب آخر، الطريق على اللمبى، ويأمره باثبات هويته.

فاذا ما عجز عن تقديم البطاقة المثبتة له، واستفسر منه الضابط عن السبب ارجعه اللمبى، وياللعجب، الى خلو سرواله من جيب.

والأغرب، انه عندما أمره الضابط، بدون سند من القانون، بالابتعاد عن الطريق، مع الامتناع عن المرور فيها مستقبلا، أطاع. دون اعتراض.

وفى نفس الوقت تساءل مستهبلا، وكأنه يسخر من عبثية الضابط، هل ألغى الطريق؟

اختلال عام

هكذا ، بدأ الفيلم، وقد رسم شخصيته المحورية، وحدد ملامحها الاساسية، على نحو لابد وأن تخلص معه الى أن صاحبها لا يعدو أن يكون كتلة هلامية، مادتها عبارة عن مجموعة من المعانى المشوهة، تغلفها ألفاظ ينقصها الكثير من قواعد الربط والتسلسل المنطقى، بل ينقصها الكثير من أحكام التطابق بين اللفظ المنطوق والمعنى المقصود.

وهذا الاختلال، ومرده عيوب تشرب النفس عند التنشئة ، يبقى ملازما

اللمبى، طوال الفيلم.

فهو أبدا لا ينطق الا متهتها بكلمات عبيطة، مكسورة، مضروبة، معروجة، ملخبطة، مثلها فى ذلك مثل طريقة مشيه، ومثل المحاور التى تتحرك عليها رقبته، ومثل نظرات عينيه الزائغة وقد يذهب الظن ببعضنا الى أن اللمبى ينفرد بهذا الاختلال فى اللياقة النفسية ولكن لا توجد شخصية فى الفيلم، الا ولها من هذا الاختلال نصيب، بدءا من ضابط الشرطة، ومروا بنوسة (حلا شيحة) حبيبة اللمبى وزوجته فى نهاية الفيلم، وباخ (حسن حسنى) جاره عازف الكمان وصديقه وخطيب أمه، وانتهاء بفرنسا الأم وتؤدى دورها بجدارة (عبلة كامل).

انفلات السلوك

فهذه الأم، وهى ثانى أهم شخصية فى الفيلم، علاقتها بابنها اللمبى تتسم بالانفلات والاضطراب فهى تخفى عنه اشياء، فمثلا تدعى الافلاس فى حين انها فى سبيلها الى أداء العمرة، وتدعى الزهد فى الارتباط برجل فى حين انها وعدت بالزواج «باخ» الجار وصاحب البيت، حيث تقيم.

إنها يقينا، ليست أما مثالية، تلك الأم المدرسة التى نادى بها شاعر النيل، وتغنى بفضائلها.

إنها على العكس من ذلك تماما، أم فهلوية، بشوشة، تلعب بالبيضة والحجر، تشع مشروعات فاشلة، مثل مشروع تأجير الدراجات فى شرم الشيخ، ومشروع العربة المطعم لبيع الكبدة فى القاهرة.

وليس أدل على انفلات سلوكها من ضوابط القيم الأساسية التى تراكمت على مر العصور، ليس أدل على ذلك، من المشهد الذى يحمل فيه اللمبى حقيبة كتبه على كتفه، مثل الأطفال، فنسمعها تقول له : قبل ذهابه الى فصل محو الأمية ، ناصحة .

«ساندوتشك أهم، وكتبك معاك، ومطوتك فى جيبك، اللى يغش منك قطعه، غش انت!!» ثم تمنحه نقودا كى يشرب بها بيرة.

تعاطف لا ارشاد

وعلى غير عادة فى أفلام الصيف نجح المخرج وائل إحسان، واللمبى اول فيلم روائى طويل له، مع كاتب السيناريو أحمد عبدالله فى عرض شخصيات الفيلم بكل انفلاتها واضطرابها من منطلق التعاطف معها، وليس من منطلق التعالى والوعظ والارشاد، آخذين فى الاعتبار تردى الأوضاع الاجتماعية على نحو كان لابد وأن يؤدى الى اختلالات اللياقة فى اللمبى وأمه والشخصيات الأخرى.

وختاما، لايفوتنى أن أشير إلى مهارة المخرج الشاب فى تقطيع اللقطات واختيار الزوايا وتحريك الممثلين ، وأن أشيد بأداء عبلة كامل لدور أم اللمبى على نحو أتاح لنا أن نضحك من القهر والشر وكلاهما، كما هو معروف، يضحك فى بعض الأحيان. ■

منزل الجاسوس

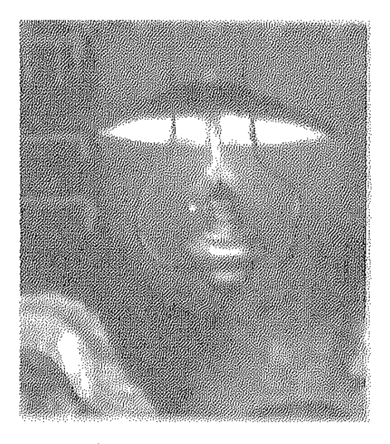
بقلم : مختار العطار

زمان .. أيام الفوضى .. كانت مدينة القاهرة تشبه هونج كونج .. أوطنجة كانت مهبطا للجواسيس والمتآمرين من أنحاء العالم . يجدون فيها من يبسط عليهم حمايته قديكون الملك نفسه أو المنتفعون ذوو النفوذ الذين يتقاضون مقابلا سخيا من الحكومات التى ينتمى اليها هؤلاء الجواسيس

أنا لم أقابل جاسوسا فى حياتى الا بين سطور الروايات البوليسية وحين استأجرت منزلا صغيرا فى نهاية شارع الهرم فى نزلة السمان، لم تكن لدى أدنى فكرة عن تلك القرى البعيدة عن العمران -القريبة من قلب المدينة فى نفس الوقت. لم يخطر فى ذهنى أنها أفضل الأماكن التى يلوذ بها هؤلاء الجواسيس بمجرد أن نترك الترام الذى كان يصل الى هناك فى ذلك الزمان لاتكاد تنحرف الى منحدر عن يمين أو يسار، حتى يغمرك الغبار، وتجد نفسك تضرب فى دروب قرية لاتختلف عن مثيلاتها فى الريف الا ببعض الفيلات التى نطرز واجهتها عند شارع الهرم نفسه مما خلا ذلك لاترى سوى بيوت الطين والحقول والبهائم، ود كاكين البقالة الرخيصة يقوم بينها بائع الثلج والبيرة، كشئ مكمل لوجود الفيلات

ولما كان أهل أى قربة يتعرفون

على بعضهم ولو بالشكل، فقد كنت أعرف سكان «نزلة السمان» حتى حين يركبون الترام معى من الجيزة . وكان بين من استلفتوا نظرى رجل قصير، أبيض له لحية حمراء ويلبس طربوشا كنت أشاهده أحيانا يتطلع الى لاشئ من خلال نافذة الترام. وبعد استقرارى فى مسكنى بالقرية رأيت معه سيدة فى مثل قامته بيضاء بدورها بضة ترتدى فستانا أسود على الدوام ولاتضع على وجهها مساحيق للتجميل لكن ذلك لم يكن يخفى جمالها الرائع بل كان يزيدها سحرا، ويزيدنى رغبة فى تأملها كلما صادفتها مع زوجها حتى أن الدقائق التى كان يستغرقها الترام حينذاك تتحول الى دقيقة ، أقضيها فى امتاع عينى بتقاطيعها المنمنة، والغموض الذى يكحل عينيها ويثير فى خيالى هواجس متضاربة تأملتنى مرة فى أول لقاء لنا فى الترام ثم مضت الشهور بعد ذلك وكأنها



لاتلاحظ وجودى أما زوجها فقد حدجنى بنظرة فاحصة ثم أهملنى بدوره إهمالا. ولم يكن لى مآرب – عندهما على أى حال سوى أن يبقى الباب الذى يفصل بيننا في الترام مفتوحا فقد كانا يفضلان الدرجة الأولى والواقع أنهما لم يحاولا مرة واحدة أن يغلقاه أو يفتحاه إذا أغلقه الكمسارى من خلفه وكانا لايتحركان أو يتحدثان فى الترام، بل يجلسان كتمثالين حتى يهبطا معى الى الطريق المترب بجوار ملعب الجولف .

.. على مر العامين اللذين قضيتهما فى ريع القرية، فكرت فيما يسكت الزوج على اصرارى على تفرس زوجته الفاتنة لكنى عزوت ذلك الى أننى فتى قوى لاقبل له بى . أو لأنه أوسع منى أفقا ويرانى تافها بالنسبة إليه وحين علمت أنه أستاذ فى الجامعة، خيل الى أنه لا يبغى الاهتمام بمسائل، تلهيه عن أبحاثه ومحاضراته .

كان بريطانى الجنسية أشهر اسلامه وأسمى نفسه «أبو بكر» سمعته مرة يلقى بالتحية لبعض الأعراب فى القرية فأدهشنى أنه يتحدث بالعربية الفصحى وأنبأنى البستانى الذى يرعى حديقتى أن الشيخ أبا بكر لايتحدث إلا بها . ولقد أضاف القرويون إلى اسمه لقب «شيخ» لانه يختلف الى الجامع فى أيام الجمعة فيتوضأ معهم فى الميضة فيصلى ركعتين تحية المسجد .. ثم لايترك مسبحته حتى تقام الصلاة .

علمت فيما بعد أن أهل القرية كانوا يلتمسون عنده البركة فيقبلون يده ويطلبون منه الوساطة عند الله . وكان من ناحيته لايدخروسعا فى الدعاء لهم وطمأنتهم

وذات يوم بينما كنا عائدين من أعمالنا ظهرا هبط من الترام قبلنا جميعا وفيما يسرع كعادته فى الطريق المترب شاهد شحاذا يجلس فى ظل سور الملعب فأخرج قرشا وضعه فى اليد الممدودة، وسمعت السائرين من حولى يمجدون أريحية الرجل الطيب، الذى عشق أرضنا ودان بديننا ثم لاحظت أن الاحسان عادة فيه كلما صادف وغادرنا الترام سويا.

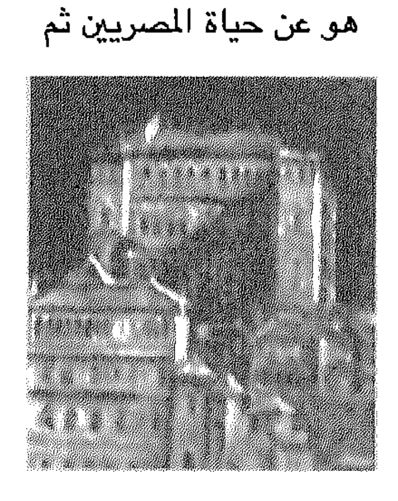
لم تشغل بالى حياة الشيخ أبى بكر بنوع خاص وكل ما عرفته عنه كان بطريق الصدفة أو أن يقص على الخادم أو البستانى شيئا من كراماته. حتى اقبل يوم ظننت فيه أننى اكتشفت منزله فقد استيقظت مبكرا فى شم النسيم، ودعوت صديقا لمشاهدة رأس أبى الهول فى الفجر، وكيف يبدو جليلا حين تسقط عليه أشعة الشمس فى لحظة الشروق وفى عودتنا من فوق الهضاب والرمال سلكنا طريقا تختلف عن تلك التى ذهبنا منها. فطالعنا بين الرمال بناء صغيرا جميلا تصميماته وزخارفه غريبة خالصة يتفرد كالواحة الفيحاء بين الرمال الضارية فى أنحاء الجبل .تحوطه حديقة مزهرة يسهل عليك أن تخطو فوق سياجها والبيت من الرقة بحيث يخيل اليك أن بابه لايحتمل دفعة حتى ينفتح على مصراعيه وأنبأنى صديقى وكان طالبا فى الجامعة أن الشيخ ابا بكر هو الذى يقطن هذا العش فسألت خادما أسمر كان يجلس أمام الباب إن كان السيد موجود فأجاب بالنفى فمضيت يومها تأكلنى الرغبة فى أن استطلع حياة الرجل الغريب عن كثب لكننى علمت فيما بعد أن المكان ملك لمصلحة الآثار وأن الشيخ يتخذه معملا للأبحاث التاريخية .

... رغم اهتمامى الذى تزايد على مر الشهور بالانجليزى الذى يلبس الطربوش ويطلق لحيته ويتحدث العربية الفصحى، فشلت كل محاولاتى للتقرب اليه حتى أحسست أننى أغازله كلما سألته عن الساعة أو طارحته تعليقا أثناء ركوبنا الترام كان يقتضب الحديث آنذاك ويسرع بالتطلع من النافذة شأن الفتيات الصغيرات ولما ثرثرت مع أصدقائى من المثقفين والأثرياء فى القرية علمت أن حالهم يشابه حالى واتفقوا فى أن الرجل يخشى على زوجته الحلوة الصبية من رجولة المصريين وخفة دمهم وقدرتهم على اجتذاب النساء الاجنبيات بنوع خاص . الا أن الرجل كان يخالط عامة القوم فالأعراب أصدقاؤه

والبقالون وصغار التجار والمزارعون بوجه عام . لكنه فى علاقته معهم لم يستضفهم فى منزله مرة واحدة كان يسلم أذنيه ولايجيب عليهم الا بابتسامات وديعة كابتسامات الطفل .

بعد عامين غادرت القرية الى القاهرة إذ تزوجت ولم تعد نزلة السمان تصلح مقرا لعروس تعيش وحدها طوال انشغالى بعملى .

حدث ذلك قبل الثورة بسنتين وبضعة شهور وكان التمرد يسود البلاد العربية ومصر خاصة بعد ان عاد جيشنا من فلسطين وقد خدعه الملك وعصابته وأسلموه للخيانة دون أسلحة تصلح للقتال واستثارت الروح الوطنية بين طلبة الجامعة حتى تلاحقت الاضطرابات والمظاهرات وفيما أتصفح جريدة ذات صباح علمت أن الحكومة قد استغنت عن خدمات الشيخ أبى بكر، بعد أن افتضح امره بين الطلبة وصار ابعاده مطلبا جماعيا ولما كان لى أصدقاء بين هؤلاء الطلبة استوضحت منهم أمر الشيخ فاخبرونى أنه جاسوس ودارت مناقشة طويلة بيننا كشفوا خلالها عن قرائن وادلة استقوها من المحاضرات التى كان يلقيها، والجدال الذى كان ينشب بينه وبين النابهين منهم. ومع أننى لم أفهم كثيرا من حديثهم الطويل، الا أننى راجعت فى ذاكرتى كل حركة وسكنة لاحظتها ابان اقامتى معه فى قرية واحدة واتضحت فى ذهنى تفسيرات لعلامات الاستفهام التى حيرتنى طوال العامين ابتعاده عن المثقفين وانعزاله ولبس الطربوش واطلاق اللحية على الطريقة التى تخيلها هو عن حياة المصريين ثم



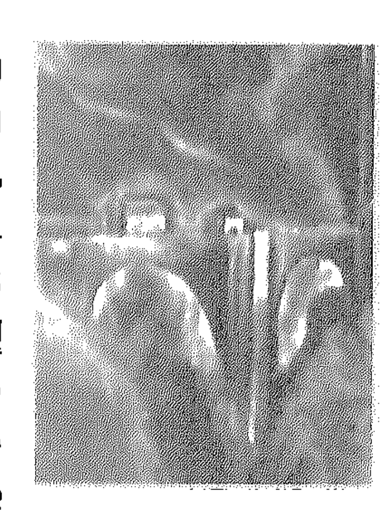
ضاع اهتمامى بالأمر بين طيات الحياة اليومية وأسرعت الشهور من جديد تمحو آثاره من ذاكرتى .

.. وذات يوم أقبل أخى من الريف يبحث عن مسكن فى القاهرة وكانت الايجارات آنذاك مرتفعة حتى أن الانسان ليحصل على غرفتين ضيقتين تستنزفان نصف مرتبه فاقترحت على شقيقى وزوجته وأولاده أن يشاركونى وزوجتى منزلا فسيحا جميلا، يمكن تيسيره بأجر زهيد فى قرية نزلة السمان حيث كنت أعيش وأنا أعزب وراقت الفكرة لنا. فشددنا الرحال لنزور صاحب مسكنى القديم وسألناه أن - كان يملك من منازل مسكناً يتسع لنا. فاعتذر ونصحنا أن نتفرج على البيت العظيم الذى كان يقطنه الشيخ أبو بكر ثم ظل خاليا قرابة العام، ولاشك فى أن صاحبه سيرضى بأجر بسيط لايجاوز السبعة جنيهات واشتعلت

الرغبة فى نفوسنا ورجوناه أن يفعل قبل أن تضيع الفرصة وفى اليوم التالى بكرنا فى الذهاب الى القرية .

لم تكن أرضها ممهدة، ومنازلها وطرقاتها لم تكن على مستوى واحد فبعضها عال وبعضها منخفض وعلى ربوة فى وسط البيوت داخل القرية، كان المنزل المقصود . أمامه ميدان يشبه الهضبة تنحدر من حوله السبل والمنزل يحوطه سور يبلغ ارتفاعه قامة الرجل مرتين وفى منتصفه باب من الخشب السميك، عريض بارتفاع السور، مطلى بلون زيتى داكن ومكتوب عليه من أعلا وبالخط الثلث «لا اله الا الله».

الواقع أن السور، والباب الهائل بلونه القاتم، دفعا بالاكتئاب الى صدورنا لكن الايجار كان مغريا للغاية فنادينا الخفير يفتح الباب، وكان أن طالعتنا حديقة فسيحة الأرجاء تسمق فيها أشجار عملاقة ونخيل .



الى جوار شجيرات عديدة تفصل بينها أحواض الخضر والأزهار إلا أن - الاهمال كان يضرب خمارا رماديا على كل شئ فالاحواض تضيق فواصلها والأترية تغمر المزروعات والجفاف يضرب الأرض فى قسوة فيشقها فى كل خطوة الا أن المانجو والبرقوق والخوخ، كانت لاتزال عالقة بالأشجار والتكعيبة التى تصنع ممرا بين الباب الهائل ومدخل الدار، كانت مرصعة بقطوف العنب المتوهج كالنبيذ فى أضواء الشمس

مضسينا ندوس الاوراق الجافة وقد تحول الأمر فى أنظارنا الى رحلة فى بلاد عجيبة وحين صعدنا درجات السلم الخشبى المفضى الى المنزل، استقبلتنا شرفة خشبية طويلة عريضة تسمح لك بأن تركب دراجة وتسرع فى إرجائها . وكانت الشرفة، شأن الحديقة والبيت بطابقيه، قديمة متهالكة، يسقط الطلاء الأخضر القاتم عن أعمدتها التى تسند أختها فى الدور العلوى .

دلفنا بعد ذلك الى البهو الفسيح، المهيأ بالبلاط المعصرانى المتآكل وتناثرت الغرف عن يميننا وشمالنا أبوابها مطلية باللون الكئيب مكتوب عليها آيات قرآنية تصلح لاستراحات المقابر، مثل «إنا لله وإنا اليه راجعون» أو ياأيتها النفس المطمئنة كلما دخلنا غرفة طالعتنا الآيات خلف الأبواب أيضا .. ثم تستمر فى اعلان الجداول فى إطار يدور حول السقف، بالطريقة التى تلاحظها فى المساجد .

داخلت الرهبة قلب زوجتى وزوجة شقيقى

ويكى الأطفال الا أن الخفير قاد خطواتنا فى ذلك التيه وظل طوال الوقت يقص علينا نوادر عن طيبة الشيخ أبى بكر وتنسكه وانصرافه للعبادة في جوف الليل وأنه كان يعيش مع زوجته دون بنت أو ولد أو خدم يقومون على راحتهما فى الطابق العلوى فقد اقتصر عمل الخفير وزوجته على رعاية السلاملك واعداد الطعام فى احدى حجراته، يصعدان به الى غرفة بابها على السلم، يضعانه على المنضدة ثم يعودان كلاهما أو أحدهما ليرفع بقاياه ! ولم يحدث أن شاهد الخفير باقى الدور العلوى طوال السنين التى عاشها مع الساكن الناسك وكان يعيش مع أسرته فى حجرتين فى الحديقة بجوار الباب الهائل الذى نفذنا منه أول مادخلنا .

ومن ثم صعدنا الى الطابق الثانى.

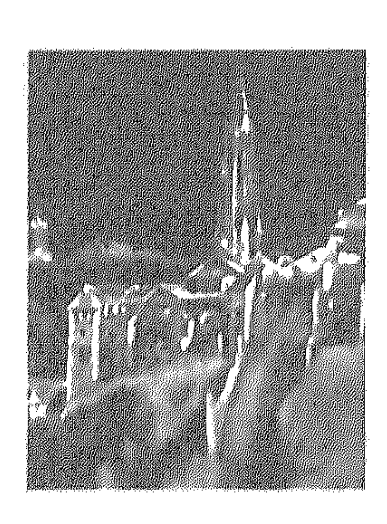
وكان درج خشبى يصعد من وسط البهو الأرضى حتى يبلغه، ثم يستمر فى تصعيده حتى يفضى الى السطح، مضينا نشب على الدراجات الخشبية المتوجعة تحت أقدامنا وخشينا أن نتكئ على السياج فيتهاوى تحت أيدينا . اذ كان بادى القدم، مقشورا فى أكثر من مكان وكأنما كنت أستشعر أنفاس الشيخ أبى بكر تختلط بأنفاسنا وتصورت أن خياله يطوف معنا بالبيت مسترجعا ما كان يجرى بين أرجائه، وتمنيت أن أسأله عن ذكرياتى عن آلات الاستقبال والارسال اللاسلكى عن التقارير التى سهر طوال الليالى يفحصها ويبحثها ويصوغها فى رسالة واحدة مكتوبة بالشفرة، يضمنها تفسيراته واقتراحاته عن أسماء أولئك الخونة الذين كانوا يمدونه بمعلوماتهم مهما كانت تافهة وتساءلت، ترى ما الذى كان يسعى لمعرفته جاسوس مثل الشيخ أبى بكر؟ ثم التمعت فى مخيلتى طلعة زوجته الحلوة الفاتنة التى تشبه العذراء فى الصور المقدسة بادية الطهارة والرقة ترى أى شيطان كان يتقمص روحها ابان الليل؟ .. الليل.. الذى يخفى كل شئ .. حتى الحقيقة ! ثم الخفير وزوجته وباقى الأعراب وايمانهم الراسخ بالشيخ المبروك لو أنه مات قبل أن يفتضح أمره، ربما أقاموا له ضريحا ينافس ضريح «الشيخ السمان» وأقيمت الموالد من حوله وعقدت الزيجات فى ذكراه مستجلبة بركته وشفاعته..



.. صعدنا الى الدور العلوى وكانت غرفه أشد منطقة للعجب فنوافذها مربعات صغيرة فى أعلا الجدران عند

السقف تسدها بالطول وبالعرض قضبان حديدية تتقاطع فى عقد كبيرة بنظام نوافذ المساجد والآيات القرآنية تنتظم الجدران أيضا وخلف الأبواب واللون الحزين يكسو كل شئ ويخلع على الحجرات رداء تعساء مما خيل الىّ أن غرف الاعدام بالسجين لابد وأن تكون على تلك الهيئة الموحشة وتساءلت مرة أخرى، ترى لماذا يفعل ذلك بحجراته التى لايرتادها أحد غير زوجته؟ربما لكى يسمح للخفير بمشاهدتها مرة واحدة يتركه بعدها ليمضى بالسيرة فى أنحاء القرية، متخذا منها دليلا على قداسة الشيخ فالرأى العام لو آمن بأكذوبة تحولت الى حقيقة على مر الزمن .

.. وقطعنا البهو العلوى فبلغنا الشرفة الطويلة العريضة مرة أخرى لكنها كانت أبدع وأجل من زميلتها فى أرض الحديقة، يسورها الياسمين البلدى وفروع



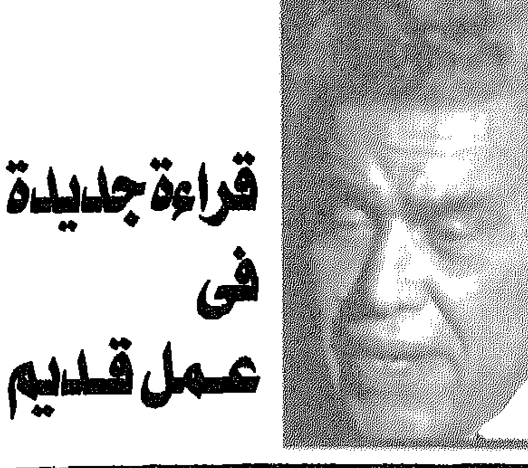
الجهنمية تصنع منها عشا كبيرا مبهجا ملهما بالافكار الحلوة الانسانية الا أن شيطانين كانا يطلان منها فى الليالى المقمرة يفكران فى أفضل الوسائل لتسديد طعنة محكمة الى الشعب البسيط الكريم، الذى أحبهما وافسح لهما هذا المكان الرائع فى أحضانه.

.. ربما أحس المستعمرون بأن جذوة الحرية المقدسة تضطرم فى صدر ابى الهول الهادئ وتنسموا روائح الدخان تنبئ باقتراب اندلاع النار على ضفاف النيل بعد شهور وطمعوا أن تغفل عين الثورة عن أبى بكر وزوجته فبقيا فى وكرهما كالجرثومة الخبيثة فى الجسد الالهى.

ظل الخفير يثرثر بحكايات الشيخ الطاهر وأساطيره وروى عن طيبته وبركته وحبه للناس مائة قصة وقصة .

.. ومع أن البيت كان زهيد الأجر، فسيح الأرجاء تترامى من حوله حديقة تغل فاكهة وثمرا وخضرا ومع أن برجين للحمام كانا يرتفعان فى آخر البستان، وحجرات تنتظم الأسوار بعضها مخصص للدواجن وبعضها للمدخر من الحبوب والغذاء فضلا عن غرفة واسعة مهيأة كيما تصلح فرنا للخبيز ... مع كل ذلك أحسست بشئ دنس يطوف بالمكان برفته وشممت رائحة الغدر والتربص تفوح من كل طوبة وكل شجيرة فرفضت استئجاره .

وعلمت بعد ذلك أنه سيهدم ليقام مكانه منزل نظيف جديد .. قد أفكر فى سكناه..،،



قراءة جديدة في عمل قديم

الأفيال لفتحى غانم

والنبوءة المبكرة لأحداث ١١ سبتمبر

بقلم
د. فهمى عبد السلام

«إن ما تفقده فى ملكوت الله سنعوضك عنه لكن ما تفقده فى عالم البشر فالويل لك من عالم البشر».



صدرت «الأفيال» رائعة فتحى غانم عن دار روز اليوسف عام ١٩٨١، وقد استلهم كاتبنا الكبير العمل الهام والجميل عن واقعة حقيقية اهتز لها المجتمع المصرى آنذاك، وهى إغتيال الشيخ الذهبي عام ١٩٧٨ بأيدى جماعة التكفير والهجرة. وتأتى أهمية الرواية من كونها صيحة تحذير مبكر من خطورة هذه الجماعات. والرواية تتضمن إدانة للغباء السياسى والبراجماتية القصيرة النظر التى تعالج بها الأنظمة السياسية أزماتها، فالعمل يظهر أن جماعات العنف السياسى كانت صناعة السلطة آنذاك، كى تستخدمها فى ضرب خصوم النظام من الناصريين والشيوعيين.

وما حذر منه فتحى غانم تحقق بشكل فاجع مأساوى، إذا انقلب السحر على الساحر، والمارد الذى أخرجته السلطة وشجعته

على أن يتوحش، سرعان ما انقلب عليها، وكان العقاب سريعاً ومن جنس العمل، وتجلى العقاب فى حادث المنصة الرهيب، وبعدها شهدت مصر ما يشبه الحرب الأهلية بين الدولة وبين الجماعات، وأريقت الدماء البريئة، ولم تتوقف النيران إذ سرعان ما امتدت إلى دول الجوار، ويكفى ما جرى على أرض الجزائر من مذابح رهيبة.

وعندما قام الاتحاد السوفييتى بغزو أفغانستان، إذا بالولايات المتحدة الأمريكية ترتكب الحماقة نفسها، فقد استعانت بالجهاد الإسلامى «لجهاد» «الإلحاد الروسى» فى أفغانستان، وخرج الاتحاد السوفييتى من أفغانستان مثخناً بالجراح، وكالعادة سرعان ما انتهى شهر العسل بين حلفاء الأمس. فأعلنت الجماعات حربها المقدسة ضد الولايات المتحدة، وكما عاقبت الجماعات السادات بحادث المنصة، عاقبت الجماعات في ١١ سبتمبر بمنصة جديدة، منصة هائلة تليق بالمقام الأمريكى، وكان التنفيذ المذهل يليق بالمنفذين الذين تلقوا تدريباتهم فى الـ CIA . فى رواية الأفيال حذر فتحى غانم من اللعب بالنار، ورأى بعين الفنان خطورة هذه التركيبة المدهشة من البشر المغسولة أدمغتهم بأشياء عجيبة شاذة، وحتى يتخيل القارىء الكريم بشاعة المسألة، لازلنا نذكر ذلك الشاب المأفون الذى حاول قتل أديبنا الكبير نجيب محفوظ حفظه الله من كل سوء، إنه لم يقرأ الرواية، وأن نجيب محفوظ نجا ولم يمت، لأنه نسى أن يسمى باسم الله وهو يذبح شيخنا الجليل، هذا هو الفكر الذى أتاحت له سلطات ذلك الزمان أن ينمو وأن يتوحش، الأمر الذى رصده فتحى غانم منذ الطعنة الأولى، ومن الروح الأولى التى تم قتلها وإزهاقها بسبب الغباء السياسى، وها هو الغباء السياسى يتكرر، وها هى منصة جديدة يتم ارتكابها، وها هى الأهوال تنهال على شعوب بأسرها.

★★★

وتتجلى قدرة فتحى غانم الروائية المذهلة فى البناء العظيم لرواية الأفيال، وفى قدرة فتحى غانم على التركيب فى الشخصيات والأزمنة والتداعيات والفلاش باك وتحريك الشخصيات والأحداث. فالعمل يمتلأ بالشخصيات الروائية التى تتقاطع كلها فى شخصية الرواية المحورية «يوسف منصور». والأحداث كلها تفضى إلى الحدث الأساسى فى الرواية، وهو اغتيال د. عبدالفتاح أبوالفضل بخناجر جماعة التقوى والتقية، فالمتهم الثانى فى القضية هو حسن يوسف منصور الابن الأوحد ليوسف منصور، وفى محكمة الجنايات تلقى القاتل الغلام ابن السابعة عشرة من عمره الحكم بثبات وقال لأبيه «المؤبد أحب إلى نفسى مما تدعوننى إليه».

الأحداث تبدأ بيوسف منصور منهاراً ضائعا، كل المصائب تهون إلا مصيبة

حسن، وعندما يرى صديقه المليونير أن يوسف لا يستطيع أن يستأنف الحياة ، يدبر له مراد حسنين رحلة إلى منتجع س . د السياحى الخيالى، يذهب يوسف كى ينسى الماضى كله، فالمنتجع مقطوع الصلات بالدنيا، فلا تلبفونات ولا إذاعة ولا تليفزيون، حتى مكان المنتجع مجهول للنزلاء، ويذهب يوسف كى يستريح من كل ماضيه، كى ينسى أنه زوج فاشل، ومؤلف تليفزيونى فاشل، وأن حسن وحيده قد ضاع. قبل ضياع حسن كان البيت قد تحول إلى جحيم، وكان حسن يشاهد أمه زينب وأبوه يتصارعات ويتشاتمان، واستيقظ حسن وهو فى الثانية عشرة من عمره على أمه واقفة تصرخ وهى هائشة الشعر وتمسك بسكين المطبخ والأب يقف يصرخ فيها قائلاً عايزة تقتلينى يا مجنونة. كان حسن قبلها قد بدأ التدين، وبدأ يوجه الاتهامات لأمه ولأبيه فى وقاحة فالصور المعلقة على الجدران كفر، والأم التى تعمل فى فندق برستيج كافرة، والأب الـذى لا يصلى كافر.

دخل يوسف فى مناقشات مع حسن فيقول لابنه:

«بأى حق تحكم على أمك التى ولدتك وعلى أبيك الذى أنجبك بالكفر.. ومن الذى يقوم بالحساب قبل يوم الحساب.

أنت تطلق الأحكام وتميز نفسك، وإبليس وحده الذى طلب التميز فناله وخرج من رحمة الله .

كان حسن لا يستطيع أن يرد فينهى المناقشة قائلاً هذه الأسئلة من وسوسة الشيطان.

ذهب يوسف ينسى الليلة الأليمة التى خرج فيها حسن، ولم يظهر بعدها إلا فى محكمة الجنايات، كانت ليلة عيد الأضحى حينما عاد يوسف حاملا علبة الحلوى ليجد زينب قد أغلقت باب الحجرة على نفسها، كان حسن قد اتهمها بالكفر لأنها متبرجة وعندما حاولت أن تنهره ازداد تطاولاً عليها وقال لها «لست قليل الأدب.. التبرج هو قلة الأدب» حاولت أن تصفعه فأمسك حسن بيدها بقوة. وقالت زينب ليوسف أنت أبوه وفى هذه السن أنت المسئول عن تربيته.

وانفجر بركان الغضب فى صدر يوسف، فضرب حسن، وانهال بالصفعات والركلات والولد يتحاشى الضربات، قال له حسن اخرج من بيتى، تحداه حسن وقال هذا بيتى ولن أخرج منه، وخرج حسن بالبيجامة والشبشب. وجلس يوسف يلهث. استطاع أن يفرض إرادته فى هذا البيت. وعاقب زينب التى تهينه وتذله بطرد ابنها، وأثبت لها أنه قادر على اتخاذ القرارات الحازمة، وأن زينب فهمت إذا كان يستطيع أن يطرد ابنه كما فعل، فهو قادر على أن يطلقها وأن يطردها. وعند الفجر أفاق يوسف من أوهام القوة وانتصاره على زينب وهاجس قلبى يؤكد له أن حسن قد ضاع. وكان التناقض فى ذروته، بين المصلين وهم يحتفلون بالعيد وتكبيرات العيد



الجميلة تصل إليه، وبين الحزن الكبير الذى يملأ بيته. راح يوسف يطمئن نفسه قبل أن يطمئن زينب أن حسن لا شك قد ذهب إلى عمته كريمة وأنها بعد ساعات ستتصل بهم كى يعود حسن، ومرت الساعات ولم تتصل كريمة، وبوجه متنمر قالت زينب لا تعد إلا وحسن معك.

ذهب يوسف إلى كريمة فى مصر الجديدة. ولم يجد حسن عندها وقالت له كريمة أنه سيعود ولا شك وأنه زهق من مشاجراتهما، ومن يأسه فى مصالحتهما. كانت كريمة تتحدث فى عصبية وهى تبتسم، إنها تلومه أنه جاء يفسد عليها العيد، ببته خراب أما بيتها فقد استعد للعيد وانتظروه، حولها أولادها ومع زوجها وأمامهم الملبس والشيكولاته وحديث كامل زوجها عن خوف حمادة من أكل اللحم المسلوق على الإفطار لأنه رأى ذبح الخروف، وسلوى تصرخ فى أذن يوسف أنها ستأكل اللحم كله. واستسلم يوسف للتفاؤل الذى فرضته عليه كريمة وزوجها والأولاد، انهم يدافعون عن عيدهم. ولم يكن لديهم أى رغبة أو استعداد للتورط فيما يعكر عليهم فرحة العيد. وكان على يوسف أن يكتم الصراخ والأنين الذى يتمنى لو استطاع أن يخرجه من صدره.

ذهب يوسف إلى مبنى التليفزيون، كى يساعده أحد فى العثور على حسن، ولم يجد أحداً يستمع إليه. الكل مشغول بنفسه فحكاية خروج حسن لا تثير إنزعاج أحد. كان البعض يتركه يروى حكايته وهو لا يستمع أو يقاطعه ليروى له خبراً أو نكتة. وقف يوسف معهم فى غرفة الكونترول بالاستوديو وخمس شاشات متراصة تجمد مشهد الممثلة الكوميدية «بطة» وهى تخرج لسانها، والمشرف العام على الأفلام يهرش رأسه ويعبر عن عدم ارتياحه لإخراج اللسان. إنه يخشى أن يكون التعبير بذيئاً. أيقطع المشهد!؟. أيحذف الصوت!؟. والتعليقات لا تنتهى. وبطة تختفى وتعود إلى الشاشة، ولم يستمع صفوت مخرج الأفلام إلى يوسف إلا بعد ساعة كاملة. وعاد يوسف إلى البيت. لم يجد زينب. لقد اختفت هى الأخرى. لا أكل ولا شراب فى البيت المهجور. لا لحم مسلوق أو مشوى وأضحية هذا العيد لحمها لا يؤكل. فجر هذا اليوم ضحى يوسف بابنه. وعندما أطل يوسف من النافذة لعله يرى حسن عائدا. وجد أن الشارع ممتلىء بالأولاد. ضجيجهم مرتفع. صراخ وبالونات وبمب. أصوات تملأ الشارع والكون إلا صوت حسن .

★★★

... لم تكن كارثة ضياع حسن إلا ذروة لسلسلة من المآسى التى ألمت بيوسف منصور، إنها لعنة المصير الذى كتب عليه وعلى طبقة كاملة بالإبادة. فيوسف منصور هو آخر سلالة الطبقة الارستقراطية المصرية، فالأب هو منصور بك الذى تعلم فى فيكتوريا كولدج، وفى أكسفورد، وفى جاردن سيتى بنى الأب منصور ڤيللا رائعة بأبراج كأنها القلعة، بناها مهندس إيطالى صديق، كان منصور بك يفتخر بأنها الڤيللا

الوحيدة المقامة على طراز الباروك، وعندما سأله يوسف عن معنى الباروك أجاب الأب بأنها كلمة برتغالية تعنى اللؤلؤة الكبيرة.

كان يوسف يقضى الصيف فى سرايا سالم باشا جد يوسف، وكان الباشا المهيب بحول السجاجيد الحمراء إلى أنهار وأحراش وجبال، كان قائداً بحرياً حارب فى ثلاث قارات تحت امرة إسماعيل باشا وسعيد باشا، كان يحكى أمجاده للحفيد يوسف على السجادة، هنا حاربنا فى المكسيك، وهنا حاصرنا الأعداء فى جبال اليونان، هكذا قاتلنا فى أحراش الحبشة.

وعندما حدثت الثورة العرابية، وطلب توفيق الخائن حماية الإنجليز، وانضم سالم باشا إلى الخديو وبعد هزيمة عرابى، كافأ الخديو رجاله الذين وقفوا معه، فمنح سالم باشا إقطاعية كبيرة بأرض البحيرة، هذه الثروة الملوثة بالخيانة كانت بمثابة لعنة حاقت بسلالة الباشا.

بدأت اللعنة بوفاة منصور بك المفاجئة، وبعدها بقليل لحق سالم باشا بالابن، فقام أعمام يوسف بالاستيلاء على التركة. والوصية التى تركها الباشا لحفيديه وأرملة ابنه، أنكرها الأعمام ولم يعترفوا بها، وعرف يوسف الحقد الأسود ينهش صدره الصغير وهو يرى أمه كوثر هانم تقف ذليلة عاجزة أمام جبروت الأعمام. فلجأت إلى شيخ الأزهر الشيخ عبدالسلام صبرى جارهم فى الشارع كى يتولى لها قضية الميراث.

... والمصير هو كلمة مرادفة للقضاء والقدر، والقدر عند فتحى غانم أشبه بالخيط غير المنظور الذى يغزل المأساة ، فالقدر أن الحرب العالمية الثانية كانت تدور رحاها، وهذه الحرب منعت لطيف بك صبرى من مغادرة البلاد للعمل كسفير مفوض خارج مصر، فمكث لطيف صبرى شقيق شيخ الأزهر عبدالسلام صبرى فى الخارجية بالقاهرة، تعهد الشيخ عبدالسلام إلى شقيقه لطيف صبرى بأن يتابع قضية ميراث أرملة منصور بك جارهم، لا سيما أن لطيف صبرى كان صديقاً حميما لمنصور بك.

وشعر المراهق يوسف بكراهية وبالنفور من اقتحام لطيف صبرى لحياتهم. ولظهوره الكثير فى اللؤلؤة ومن الأحاديث التى تدور بين لطيف وبين الأم، وعن الانتقادات التى كانت كوثر هانم توجهها إلى سلوك المرحوم لو كان يعلم أن النقود التى كان يبددها بهذا الشكل، سوف نحتاج إليها هذا الاحتياج الآن.. فيرد لطيف بك بالدعابات الارستقراطية فيقول :

«هناك مثل يونانى يقول إن من عدم اللياقة أن يعطى الابن ظهره لأبيه. لقد أخطأ منصور بك كجنتلمان عندما مات وأعطى ظهره لسالم باشا».

شعر يوسف بالمرارة وهو يرى أمه تبتسم للدعابة التى تنال من الأب الغائب .

وذات صباح تسلم يوسف خطاباً باسمه، وشعر يوسف بالسعادة وكان فى

الرابعة عشرة من عمره، أن يصله أول خطاب باسمه، أول خطاب يعترف بكينونته، ولم يكن فى الخطاب سوى قصاصة ورقية مكتوب عليها سطر واحد ، ظل هذا السطر يعذب يوسف إلى آخر حياته. «أمك كوثر هانم على علاقة آثمة بلطيف صبرى. الذى يتسلل كل ليلة كى يضاجعها على سرير والدك».

ستظل هذه القصاصة التى حملت توقيع جماعة اليد السوداء تلعب دوراً مشئوماً فى حياة يوسف، تلك الكلمات ستحطم يوسف وستورد حياته موارد التهلكة حمل يوسف القصاصة ونيران الغضب تحرقه، مشتتا بين رغبتين الأولى أن يمد يده كى يقتل أمه، وأن يغسل عاره، وفى الوقت نفسه يتمنى أن يهرع إلى صدرها باكياً لائذا بها أن تحميه من الدناءة والسفالة التى تتهدده وتترصده.

ولم يمد يوسف يده إلى أمه، ولم يهرع إلى صدرها ، لقد قدم لها الورقة. وفى اليوم التالى اقتحم يوسف مكتب لطيف بك فى الخارجية، وانقض يوسف على عنق عشيق الأم، واجتمع الشيخ عبدالسلام بيوسف وقال له أمك سيدة فاضلة، وكاتب هذه الورقة مجرم ولا يريد إلا الفضيحة، والورقة كلها أكاذيب وافتراء، وحتى تقطع آلسنة السوء سيتزوج لطيف من والدتك، وأذعن يوسف وهو يتمنى أن تنهال الصواعق تحرق هذه الدنيا البشعة، ورأى العالم كمخلوق بشع، وفى الوقت الذى خرج حسن متمرداً على يوسف وزينب، وفى الوقت الذى كان يوسف يشعر بالحزن الكثيف. على ضياع حسن، شعر يوسف فى وقت من الأوقات بالراحة لسلوك حسن، فقد تمرد حسن وعجز يوسف المراهق عن التمرد، وعاش يوسف بهذا العجز طيلة حياته، وهذا العجز الذى خرب العلاقة بين يوسف وزينب.

★★★

عندما تزوج يوسف من زينب ، كانت زينب الحادة الطباع ابنة الطبقات الشعبية تحب يوسف، وعندما اقتربت منه وجدته عاجزاً عن تبادل عاطفة حارة مفتوحة، اكتشفت زينب أنها حيال شخص غير حقيقى، شخص يحصن نفسه خلف الكلمات والمجاملات، تتدفق عواطفها فتتدفق كلماته، اكتشف أن كل همه هو أن يكسب العلاقة بالكلمات، كان هذا أهم عند يوسف من أن يتورط فى العلاقة فيتعرى أمامها، لقد لجأ يوسف إليها كملجأ وهو يحتفظ بالسر، يحتفظ بالخيبة داخل نفسه، لو بادلها المشاعر الحقيقية سيعرى نفسه وسيفضح أعماقه، وسترى حجم الهزيمة التى حاقت به عندما تحولت أمه من كوثر منصور إلى كوثر صبرى. سترى سبب عدم اكمال تعليمه الجامعى، وستعلم أنه كان يعاقب أمه بالرسوب فى الامتحان، يتشفى فيها عندما يرى دموعها وهو يرسب، إنه يقدم هدية الزواج لأمه بالرسوب، بعد زواج الأم قامت حوله هوة هائلة تفصل بينه وبين كل البشر، تفصل روحه عن أى روح أخرى، إنه محاصر بالفراغ الذى تعود عليه منذ زواج كوثر هانم، فراغ لم يدخله صديق ولا حبيب.

كرهته زينب الحادة الطباع وأحالت حياته إلى جحيم. ولم تفهم أنه ضحية عجزه، تقول له:

– انت خدعتني بأنك مثقف وأنك كاتب.. أنت مجرد تاجر، تاجر كلمات، سيناريوهاتك باردة لا روح فيها، مسروقة من ملفات تحقيقات إدارة التربية والتعليم.

لم تدر زينب الثمن الذى دفعه من كرامته واحترامه لنفسه حتى يفرض اسمه فى عالم التأليف التليفزيوني، أراق ماء وجهه، لقد عمل بواسطة الشيخ عبدالسلام صبرى فى إدارة التحقيقات بوزارة التربية والتعليم، وبدأ بقراءة ملفات التحقيق من باب التسلية. حكايات مدارس البنات المثيرة والفضائح، نصحه مراد حسنين أن يستفيد من هذه الهواية، أن يحول ما يقرأه إلى مسلسلات وإلى روايات، ودخل يوسف منصور إلى حلبة جهنمية، حلبة الوسط الثقافي والفني، كان عليه أن ينافق وأن يبتذل نفسه وأن يتحول إلى مهرج للمنتج وللنجم ولمدير أفلام التليفزيون. وكان عليه أن يبتسم وأن يرضى الجميع وأن يقبل اقتسام أجره مع المخرج كي يرضى بإخراج مسلسل من تأليفه، وأن يدفع ويرشو النقاد من أجل سطرين فى جريدة أو صورة وخبر عنه.

لم تكن زينب تعلم السر فى برود مؤلفاته ولا الثمن الذى دفعه يوسف فى غابة الثقافة أو غابة التليفزيون، فالعجز الذى حرم يوسف من القدرة على الحب، هو نفسه الذى حرم يوسف من وهج الإبداع الحقيقى وحرمه من حرارة الابداع الأصيل، وبعد سنوات الكراهية، جاءت سنوات الإذلال والمعارك ، لقد أكملت تعليمها الجامعى، حصلت على شهادة لم يحصل عليها يوسف، وبدأت حرب الاستقلال، لا تريد أن ينفق عليها، وعملت فى فندق برستيج رغما عن يوسف، لها عملها ولها نقودها ولها سيارتها، انتهت الكراهية وانتهت حرب الاستقلال، وأصبحت لا تأبه به ولا تعيره أدنى اهتمام، أغراب فى منزل واحد، ثلاثتهم يوسف وزينب وحسن، التربص فى العيون والنظرات، التحفز للانقضاض فى الحركات، حتى ضاع حسن، ثلث الأسرة ضاع وترك الثلثين لا يطيق أحدهما الآخر، لا تراه سوى إنسان كريه لا يطاق، وهو لا يرى فيها إلا مصدراً للتحدى وللإهانة.



من هذا البيت المخرب بأثر رجعى خرج الإرهابى حسن يوسف منصور، لبس الفقر أو التدين الاجتماعى، المسئولان عن صناعة الإرهاب كما يحدث فى المعالجات التليفزيونية التافهة، أو فى الروايات السطحية المباشرة ، فالحياة لا تحكمها قوانين الميكانيكا، وأيمن الظواهرى لم يكن ابناً لبواب، ومن هذه التركيبة المدهشة فى الأفيال لبيت الإرهابى، تتبدى عظمة فتحى غانم وعظمة رؤيته المركبة لواقع شعبنا.

ذهب يوسف إلى منتجع س. د السياحى لينسى هذا الماضى الأليم، وإذا

بالماضى يواجهه على هيئة نزلاء فى المنتجع، أولهم ميرزا الفلكى، وفى لقاءات يوسف وميرزا الفلكى، يعرف يوسف - كما يعرف القارئ - الأبعاد التى خفيت عليه وأن كارثته لم تبدآ بالقصاصة، فالمأساة بدأت قبل هذا.

كان ميرزا صديقاً من أصدقاء منصور بك، بدأت صداقتهما فى فيكتوريا كولاچ، كانت البداية تحدياً سافراً بين الاثنين، والحكاية أن الحاج الفلكى والد ميرزا كان قد ورث أرضاً آلت إليه فى البحيرة، وقالوا له أن الأرض عليها رهونات ومشاكل، وذهب الفلكى إلى المحكمة المختلطة بالإسكندرية، كان القاضى ومحامى البنك العقارى والمحامى الذى يدافع عنه من الأجانب، وتكلموا بالافرنجية، ولم ينطق بحرف واحد، ولم يفهم كلمة واحدة ، الشىء الوحيد الذى فهمه أنهم قالو له وهو يخرج من المحكمة أن الأرض لم تعد ملكه لأنه خسر القضية.

آقسم الحاج الفلكى أن يسلح أولاده بأن يعلمهم اللغات الأجنبية، والإنجليزية والفرنسية بصفة خاصة، وخرج ميرزا من قريته بالبحيرة إلى فيكتويا كولدج، وقال الأب لابنه ميرزا:

- ستجد من يسخر منك ومن ثيابك ومن لهجتك، وستجد من يقول لك أنا ابن فلان باشا وجدى فلان باشا ، فلا تخف ولا تضعف أمامهم فهم من نسل بزرميط، ستجد الواحد منهم ينتسب إلى صعلوك من الأناضول أو إلى خادم من التركمان أو من نسل عسكرى من الأتراك، فإذا سخر منك أحدهم فقل له أنا أعرف أجدادى بالاسم حتى الجد العشرين، وأطلب منهم أن يقول اسم جده الرابع فلن يعرفه.

وعندما سخر منصور سالم من ميرزا قائلاً فى تعالٍ

- لا أعرف كيف يدخلون شخصاً مثلك فى المدرسة .

كان ميرزا قد استعد للنزال بالأسلحة التى زوده بها الحاج الفلكى، فقال لمنصور سالم :

- أنا أعرف جدودى حتى الجد العشرين.. فهل تعرف اسم جدك الرابع.

ارتبك منصور سالم وحار جواباً معترفاً بالهزيمة، وتحولت العلاقة إلى صداقة متينة، وشعر ميرزا بالفخر وبالثقة فى نفسه، وقام الحاج الفلكى بزيارة إلى المدرسة وقد اصطحب معه عمتين لميرزا وهن بثيابهن الريفية، وعندما رآهم ميرزا فى الفناء بين التلاميذ، ود لو أن الأرض انشقت وابتلعته لكن الفاس كانت قد وقعت فى الرأس، وقال له الحاج الفلكى.

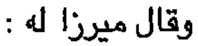
- قصدت وتعمدت أن أحضرهن بثياب الفلاحين، كى لا تبدد جهدك وتشتت نفسك أمام زملائك بأكاذيب عن أصلك، فيجب أن يعلموا وأن تعلم أنك فلاح ابن فلاح، وكى تعلم أن لا مهرب لك من هذا فنحن أسياد البلد والأرض ستكون لنا ، أحضرتهما حتى تعلم أن لا معنى لتعليمك هذا التعليم إلا لكى تحافظ على أرضنا وعلى أقدارنا فى

بلدنا، ولن يصمدوا أمامنا طويلاً، وسوف يأتى يوم قريب سيعرفون من له الكلمة فى هذا البلد.

بعد انتهاء الدراسة الثانوية فى فيكتوريا كولدج ، ذهب ميرزا إلى باريس وذهب منصور إلى أكسفورد، ولأن ميرزا كان قد حدد الهدف، عاد إلى مصر حاملاً شهادة فى الاقتصاد السياسى، أما منصور سالم فلم يعد يكمل تعليمه فى أكسفورد، ولم يحصل على شهادة ، اللهم إلا شهادة بأنه جنتلمان، يرتدى أحدث الأزياء ويتعطر بأفخر العطور وحريص على احتساء شاى الساعة الخامسة، وبالوساطات عمل منصور سكرتيراً خاصاً لرئيس وزراء مصر، وعندما استقال الوزير قدم منصور استقالته، ولم يعمل، ونصحه ميرزا بأن يعمل فى أرض البحيرة، أرض سالم باشا، لكن منصور لم يكن يحب الأرض، ولا يهتم بها، كان يهتم بالإيراد الذى يأتى منها.

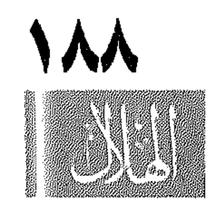
... فى الوقت الذى كان منصور بك يزجى الوقت فى النادى ومع عشيقته فاطمة هانم شريف، التحق ميرزا بوظيفة فى بنك مصر، وبينما كانت أرض سالم باشا تنكمش وتدور عليها النزاعات بين الأولاد (أعمام يوسف واخوة منصور غير الأشقاء)، كان الحاج الفلكى حريصاً كل الحرص على الأرض، وكان قد أعد نفسه وأولاده لاسترداد الأرض التى أخذها الخواجات، كان يشترى أى أرض يضعف مالكها ويوشك أن يفرط فيها، يشتريها ويضمها إلى ملكيته، وكان يركب الفرس ليطمئن على الأرض البعيدة، ويركب البغل ليطمئن على الأرض القريبة، كان يخرج من داره ساعة شروق الشمس، يسير على الأرض بقدميه ويقول أن أحسن سماد للأرض هى أقدام صاحب الأرض.

وتنجلى الحقائق أمام عينى يوسف، فيعلم من ميرزا الفلكى أن الورقة التى كانت سبباً فى تدمير حياته كانت ورقة ظالمة، وأن أمه لم تكن على علاقة بلطيف صبرى، وأن جماعة اليد السوداء لم تكن إلا فاطمة هانم شريف عشيقة والده، امرأة مجنونة لا أحد يوقفها عما تريد، لا تعرف أخلاقاً ولا تقاليد، بعد موت منصور قررت أن تقيم علاقة مع لطيف صبرى، وعندما رفضها لطيف، انتقمت من لطيف صبرى واستخدمت يوسف فى انتقامها.


وقال ميرزا له :

- أبوك كان السبب فى نكبتك... هو وأمثاله كانوا السبب فى ضياعنا وضياع البلد.. تعاملوا مع الحياة بخفة وبذروا فى سفه، لم يراعوا حرمة ولا تقاليد. اكتفوا بالمظاهر ونحن لم نكرههم، بالعكس حاولنا مساعدتهم، وتحملنا أوزارهم، وبسببهم فقدنا أملاكنا أولاً وبعدها فقدنا سلطتنا وهيبتنا بعد ذلك، لأنهم وضعونا معهم ومع فاروق فى مركب غارقة واحدة.

★★★



قدم لنا فتحى غانم البيت الذى أخرج الإرهابى، والانحدار السريع فى سلالة الطبقة التى حملت داخلها عوامل انحلالها وفناءها، والتى بدأت بقائد مهيب يملك آلاف الأفدنة بمن عليها، مروراً بجنتلمان زائف لم يأخذ من الغرب إلا القشرة الزائفة، لنصل إلى سيناريست ضائع يحمل عجزه حيثما حل، لننتهى بالمأساة تكتمل بإرهابى قاتل لم يتعد عمره السابعة عشرة.

وكما التقى يوسف منصور بميرزا الفلكى ممثل طبقة كانت تحمل مشروعاً حقيقياً للنهضة، وليكشف ليوسف ما كان يجهله عن والده، يلتقى بسعد الحوت اللواء السابق ومسئول التطرف الدينى فى مباحث آمن الدولة، ليكشف للأب كيف صنعت أجهزة الأمن من حسن المتمرد إرهابياً قاتلاً باسم الدين.

يقدم اللواء الحوت فلسفته الأمنية، أن البلاد مليئة بتنظيمات لا أول لها ولا آخر، تنظيمات شيوعية وناصرية وبعثية وقومية وجماعات تبع إيران وشيوعيون تبع ماو..، وهم أكثر من الجن والعفاريت الزرق، تنظيمات من كل لون، فلا توجد قوة تمنع وجودهم، مهمة الأمن هى الاختراق أولاً، ثم ايجاد توازن ما بين هذه التنظيمات وبعدها السيطرة عليها، من ناحية الاختراق يؤكد الحوت أن ما من جماعة سياسية أو منظمة تظن نفسها سرية أو لجنة نقابية أو جمعية ثقافية أو جلسة فى منزل أو مقهى أو ندوة أسبوعية بعيدة عن نظر الأجهزة، كلهم مخترقون ولدينا مصادرنا، والمصادر من نفس الجماعة، هذه هى البداية، إذا لم نستطيع فى ظروف نادرة أن نجند أحدهم، علينا بزراعة مصدر، وسلاحنا هو التقارير، وتأتينا التقارير من كل مكان، وهكذا تصبح هذه الجماعات تحت السيطرة، فنعلم من المصدر ماذا سيفعلون وخططهم، أما السيطرة الفعلية فهى استخدام هذه الجماعات ضد بعضها البعض، إذا ما قويت شوكة الشيوعيين نقوم بتحريض الإخوان عليهم ، وإذا ما اشتد عود الإخوان أخرجنا لهم الجماعات.. وهكذا، فالمهم أن يكون الجميع تحت السيطرة وبهذا يحدث التوازن وإلا تحولت إلى فوضى.

وعندما طرد يوسف ابنه حسن، كان حسن جاهزاً للتطرف، يمين أو يسار لا يهم، فحسن كمراهق فقد احترامه لمجتمع الكبار، ورآهم يفشلون فى إقامة علاقات إنسانية بينهم، الأم والأب يتشاجران ويتعاركان، وكما فقد حسن احترامه للبيت فقد احترامه للمدرسة ، وقد عرف أن الناظر والمدرسون كاذبون ولا هم لهم إلا الدروس الخصوصية، وبعد هزيمة ٦٧ كان حسن قد فقد احترامه للمجتمع كله، وعندما خرج حسن من البيت بالبيجامة والشبشب كانت الجماعات فى الانتظار.

يتحدث اللواء الحوت عن جماعة التقوى والتقية التى انضم لها حسن، كانت التقارير عند اللواء الحوت تفيد بأن هناك جماعة إسلامية تدعى التقوى والتقية، وكان بإمكانه أن يضربها ضربة قاصمة، ووفقاً لاستراتيجيته الأمنية قرر اللواء الحوت أن

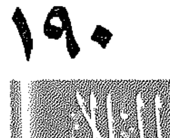
يتركهم، وأن يسيطر عليهم كي يستخدمهم بعد ذلك في تحقيق التوازن، وسارت الخطة على ما يرام ، فقد قام الحوت بزراعة مرءوسه زياد الطويل وهو ضابط شرس غليظ خلق للاستبداد وللتسلط في التقوى والتقية، ولم يشعر اللواء الحوت بالدهشة عندما أصبح زياد زعيماً للتنظيم خلال مدة وجيزة، وراح زياد يؤدى المهام المطلوبة بهمة عالية، إذا جاءت التقارير إلى الحوت أن الناصريون في الجامعة يدبرون لمظاهرة حاشدة ضد النظام ، اذهب يا زياد وامنع قيام المظاهرة، يأخذ زياد الشباب وقد سلحهم بالسنج والجنازير والسيوف والمطاوى، يازياد الشيوعيون يدبرون حشداً بدعوى إقامة أمسية شعرية، يذهب زياد وأتباعه.

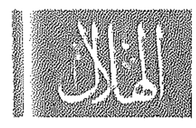
.. سارت الأمور على مايرام، وعندما خرج حسن من البيت مطروداً، طلب زياد رأى اللواء الحوت في ضم حسن إلى «التقوى والتقية»، وكان على اللواء الحوت الدقيق في عمله أن يقرأ ملف الأب، كان التقرير الأول يفيد بأن يوسف منصور شيوعي يلتقى بالشيوعيين كثيراً ويظهر معهم، لو كان الحوت ضابطاً غير دقيق لاكتفى بالتقرير الأول، ولكان قد طلب من زياد أن لا يضم حسن إلى التنظيم كي لا يحدث تسلل شيوعي إلى التنظيم، ولتغير مصير حسن ووالده، لكن دقة اللواء الحوت أضاعت حسن.

التقارير هي كومة أوراق وضابط أمن الدولة العادى يريد أن ينتهي، فيكتفي بالتقرير الأول، لكن الحوت لم يكتف، قرأ كل التقارير بعناية، واكتشف أن تقرب يوسف من الشيوعيين لأسباب انتهازية، كان يتقرب منهم في الفترة التى سيطر فيها الشيوعيين على وسائل الإعلام والصحافة، من أجل تمرير أعماله، بقية التقارير أثبتت أن يوسف مجرد انتهازى، فالتقارير التالية أكدت أنه هاجم الشيوعية، وفي تقرير ثالث أنه بكى في أمريكا كي يحصل على فرصة تأليف سيناريو عالمي يهاجم الشيوعية ويمجد المجتمع الأمريكي، وخلص اللواء الحوت أن الأب لا يعرف ولاءاً ولا انتماءاً لأى مذهب، فهو مجرد انتهازى لا أكثر، وبناء عليه أعطى اللواء الحوت موافقته على تجنيد حسن، وهكذا كانت دقة اللواء الحوت السبب في ضياع حسن.

... حكى اللواء الحوت في المنتجع السياحي أنه عندما وصلت إليه الأخبار من مدير أمن التليفزيون أن الأب يبحث عن ابنه، شعر بالشفقة على الأب، فاللواء الحوت أب في النهاية وهكذا يقول عن نفسه.. فلم يشأ أن يصدم الأب بأن حسن قد ضاع، وقال لنفسه فلنعطه بعض الأمل من باب الإنسانية، ومن هنا أخبر مدير أمن التليفزيون يوسف منصور أن حسن على قيد الحياة.

لكن إصرار الأب على البحث عن الابن الغائب ، ورحلته إلى السودان ليقتفى أثر حسن، جعلت اللواء الحوت يشعر بالقلق، أن يحدث هذا البحث لغطاً يفسد الأمر كله، فطلب اللواء الحوت مقابلة مع زياد على الرغم من خطورة هذه اللقاءات، وعندما





التقيا، طلب الحوت من زياد أن يخرج حسن من التنظيم، فرفض زياد، لأن حسن مستعد الآن لأن يغمد الخنجر فى صدره لو تلقى الأمر، وأنه يعرف كيف يغمده، حتى لو تم طرد حسن من التقوى والتقية، فلن يعود إلى أبيه، سيخرج حسن كى يكون تنظيمه الخاص، فالمسألة فات أوانها.

ويستمر اللواء الحوت فى اعترافاته، يقطعها بالصلاة وقد خرجا هو ويوسف منصور إلى الخلاء خارج مبنى المنتجع، أن أنظف ملف خدمة فى الداخلية كلها كان ملف الحوت، دقة وانضباط وقد درب نفسه على أن تعرف قدرها، انت مجرد خادم للسلطة ياسعد، لا تغتر فى يوم وتظن أنك سلطة، إلا فى هذه المرة، اعتاد الحوت ألا يخلط هدفين فى العمل، لكنه فى التقوى والتقية ارتكب هذه الجريمة المهينة، فقد أراد أن ينتقم من زياد الطويل لشراسته وجبروته، فزرعه فى الجماعة، حتى تشذب من شراسته بالخضوع لها والإذعان، وأن يستخدمه فى الوقت نفسه كعين على الجماعة، وهذا الخلط الذى لم يحدث للواء الحوت من قبل، حدث هذه المرة، ونسى نفسه وحول نفسه إلى سلطة، فكانت النهاية.

.. خدعه زياد، الذى خيل له الغرور أنه قادر على الاستيلاء على السلطة بمجموعته، وحينما جاءت التقارير أن الجماعة على وشك الانتقام من عميد الحقوق، رد الحوت على الوزير أن كل شىء على مايرام، وأن الجماعة كلها تحت السيطرة، وتكلم مع زياد الذى طمأنه، وإذا بسماعة التليفون تحمل إليه الخبر المشئوم، أن التقوى والتقية قتلت عميد الحقوق.. وكانت نهاية خدمة الحوت فى الداخلية، الذى ظن للحظة أنه سلطة وليس خادما لها ...

وتنتهى الرواية الفاتنة، ويوسف منصور ومن صنعوا ماضيه ودمروا مستقبله المتجسد فى حسم، وكلهم فى المنتجع السياحى الخيالى، مثل الأفيال (عنوان الرواية)، عرفوا أن دورهم على مسارح الأحداث قد انتهى ولم يتبق إلا انتظار الموت فى كبرياء وشجاعة لا شىء أمامهم إلا المنتجع، يزجون الوقت بالكروكيه وبالدومينو، لا أحد منهم قادر على العودة، ويمكث يوسف منصور فلماذا يعود؟، هل من الممكن أن تشعر زينب نحوه بالحب ثانية؟، هل سيعود حسن؟ هل يعود لينافق ويدجل ويكذب ويؤلف المسلسلات الباهتة؟.. لم يتبق أمامه سوى البقاء ينتظر النهاية بشجاعة.

هذه رؤية فتحى غانم العذبة العميقة، رؤية تختلط فيها السياسة بالمصير، ويختلط التاريخ بالأقدار، ويختلط الفن فيها بالرؤية السياسية النافذة، كل هذا وهم وطنى لا يفارق العمل، إنها رؤية لا تتأتى إلا لفنان كبير دانت له الصنعة ورأى الخلل الجسيم، فشاء أن يطلق صيحة تحذير من مغبة اللعب بالنار، لكن لا أهل السياسة ولا الرؤساء يقرأون الروايات، وآية ذلك أحداث ١١ سبتمبر والأهوال التى ستدفع الشعوب والأبرياء ثمنها الباهظ. ■

شئ آخر

شعر
د. أحمد مستجير

هذه واحدة من قصائد أعيدت إلى من شهور قليلة، كنت كتبتها فى الزمان العذب الجميل اما ترى انا نبحث فى أيامنا هذه عن نسمة رومانسية رقيقة تعيد الينا شيئا من بهجة نفتقدها ؟

لا شــى آخــر فيــك

شـــــئ آخــــــر !

شـــــئ أعمـــــق

لا ! ليســـت عيـــنك

ليست تلك الدعوة فى نظراتك

لا ! ليســـت شفـــتـــك

ليست تلك البسمة، تلك القبلة تلك الهمسة تحمل عطرك

ليـــس الحـــزن الآســـر يتخـــفى تحـــت البسمـــة

تحت الهمسة، فى عمق القبلة !

لا ! ليس الشلال الهادر فى صوتك كالأطيار يزغرد

شئ فيك غريب لا يوصف

شـــــئ معجـــــز

أتلاشى فيه وأغـــــدو..

طيفا سحريا شفافا ينبض

طيفا من موسيقى وأغـــان

يلتـــــف ويغمــــر

كلا! شئ آخر فيـــــك

يمتص وجودى شئ أكبـــر

لب الكون، المعنى الجوهـــر

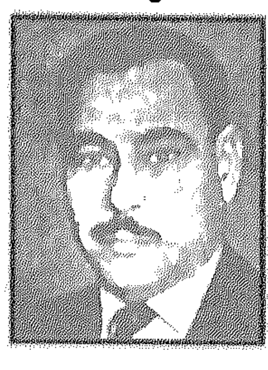
الأسمـــــى والأطهـــــر

الكـــــل .... وأكـــــثر !

غابوا .. وما غابوا

بقلم
وديع فلسطين


إبراهيم العريض


رضوان إبراهيم


چورج صيدح

إن اهتمام صحفنا وصفحاتنا الأدبية بالذين رفعوا راية العصيان على الشعر بأصوله التى قررها الخليل بن أحمد الفراهيدى، من أمثال أدونيس والماغوط وشعراء المقاومة بمنشوراتهم السياسية، قد صرفها عن الاهتمام بشعراء العصر الكبار الذين غادرونا فى سنوات قريبة مثل بدوى الجبل محمد سليمان الأحمد (١٩٠٤ - ١٩٨١) ومحمد مهدى الجواهرى (١٩٠٣ - ١٩٩٧) والشاعر القروى رشيد سليم الخورى (١٨٨٧ - ١٩٨٤) وآخرهم شاعر البحرين الكبير إبراهيم العريض (١٩٠٨ - ٢٠٠٢)، وكأن هؤلاء الشعراء غير معروفين لسدنة الأدب المهيمنين على صحافتنا المصرية.

ابراهيم العريض

فقد غاب في التاسع والعشرين من شهر مايو الماضي وجه الشاعر إبراهيم العريض عن ٩٤ عاما وهو بشخصيته وانتاجه الغزير يعد ظاهرة لا تتكرر فى الأدب العربى. فهو قد ولد فى بمباى بالهند فى عام ١٩٠٨ وتعلم فى مدارسها اللغتين الأوردية والانجليزية، وأتقن الفارسية، وتوفيت والدته بعد عام من ولادته فتعهدته سيدة هندية. وعندما نال شهادته الثانويه فى عام ١٩٢٦، وكان قد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، انتقل مع والده من الهند إلى البحرين. وكان حتى هذه السن العالية نسبيا يجهل اللغة العربية جهلا تاما. فعمل بتدريس اللغة الانجليزية، ولكنه عقد العزم على اتقان اللغة العربية إتقانا معجميا بدراستها فى كتب التراث ودواوين الشعراء حتى دانت له هذه اللغة بكل عبقرياتها. وعندما اكتشف موهبته الشعرية أخرج طائفة من الدواوين هى «ذكرى» و«العرائس» و«قبلتان» وملحمة «أرض الشهداء» عن فلسطين و«شموع» و«امعتصماه» وديوانه الجامع. كما ترجم عن الفارسية رباعيات عمر الخيام، ثم أصدر آخر مؤلفاته وهو «اللمسات الفنية عند مترجمى الخيام».

أما مؤلفاته الأخرى فمنها «الشعر والفنون الجميلة» و«فن المتنبى بعد ألف عام» و«الشعر وقضيته فى الأدب العربى الحديث» «ونظرات جديدة» فى الفن الشعرى عدا مختاراته من الشعر وقد صدرت فى كتابين هما «جولة فى الشعر العربى المعاصر» و«من الشعر الحديث ١٩٠٠ - ١٩٥٠».

وعلى مدى عمره الطويل كان إبراهيم العريض سفيرا لبلاده فى دنيا الأدب قبل أن يمنح هذا اللقب فعلا ويعتبر سفيرا واسع السلطات. عدا أنه اختير أول رئيس للمجلس التأسيسى فى البحرين. ومن آيات سفارته للأدب أنه كان على مدى أكثر من خمسين عاما يتواصل مع كثير من الهيئات الجامعية والأدبية والفكرية فى العالم العربى والخارج ومع أعلام الأدباء حتى بلغ عدد الرسائل التى تلقاها - ودع عنك ردوده عليها - أكثر من ٦٠٠ رسالة نشرت مؤخرا فى كتاب ضخم بعنوان «مراسلات إبراهيم العريض الأدبية ١٩٤٣ - ١٩٩٦» أشرف على إعداده منصور محمد سرحان بالتعاون مع إدارة المتاحف والتراث بوزارة شئون مجلس الوزراء والإعلام، ونشره نادى العروبة فى البحرين. وكنت شخصيا من جملة مراسليه بين عامى ١٩٥١ و ١٩٦٨ كما يتبين من رسائلى المثبتة فى هذا السفر.

وعندما عقد أول مؤتمر للأدباء العرب في القاهرة في عام ١٩٥١، دعي الشاعر إبراهيم العريض لتمثيل البحرين فيه. ولما توجه العريض إلى قاعة المؤتمر للالتقاء بالمدعوين، بحث عني دون أن يعثر لي على أثر. وأبدى دهشته لمن التقى بهم من سدنة المؤتمر، حيث تبين أنهم لا يعرفونني أصلا، ولهذا لم توجه إليّ دعوة لحضور هذه المؤتمر ولو كمتفرج . فقال لهم العريض كيف لا تعرفونه في مصر، مع أننا في البحرين نعرفه ونتابع آثاره في المجلات الثقافية الصادرة في مصر ولبنان وغيرهما؟ وعندئذ قرر أن يزورني في مكتبي في الجريدة التي كنت أعمل فيها، وقال لي: إذا كان مؤتمر الأدباء لم يسع إليك فنحن نسعى إليك. ولم أكن حتى هذه اللحظة أعرف العريض شخصيا، وإن كنت تابعت آثاره، سواء في مجلة «صوت البحرين» أو في مجلة «الأديب» اللبنانية. وطلب مني أن أقدمه إلى ندوة نجيب محفوظ التي كانت تعقد صباح كل يوم جمعة في كازينو الأوبرا، وفعلا رافقته إلى هناك حيث قابل مجموعة غير قليلة من الأدباء ، لكن نجيب محفوظ تخلف في ذلك اليوم لظروف خاصة

وكأي سائح يسجل ذكرياته بآلة التصوير، قام بالتقاط صورة للجمع الحاضر، ثم قمت بدوري بالتقاط صورة لهم يتوسطهم العريض. وكنت أحتفظ بهاتين الصورتين إلى أن «استعارهما» صحفي وأبى أن يردهما إليّ!

بعد ذلك سافر العريض إلى الاسكندرية ومن هناك كتب إليّ شاكرا صحبتي، ولما عاد إلى البحرين أخذ يوافيني تباعا بآثاره الأدبية بل كان يكلفني بأن أهديها إلى أدباء بعينهم يود أن يواصلهم، وكان في كل مرة يضع تحت تصرفي نسخا زائدة من كل كتاب تاركا لي حرية إهدائها لمن أحب.

ولست هنا بسبيل دراسة شعر إبراهيم العريض، فقد خصصته بفصل من كتابي «مختارات من الشعر المعاصر وكلام في الشعر» الذي نشره مركز الأهرام للترجمة والنشر، وإنما أحاول تصوير هذه الشخصية الأدبية الفذة للقارئ الذين حرمته صحافتنا من معرفتها.

ومن سنوات صدر عن العريض كتاب تذكاري بعد حفل أقيم لتكريمه، ومن أسف أنني لم أطلع على هذا الكتاب. ولو سئل العريض إلى من يهدي هذا الكتاب، فمن

المؤكد أنه كان يشير باهدائه إليّ.

يغيب إبراهيم العريض، وهو شاعر الخليج الأكبر، فلا يحرك غيابه ساكنا لدى صحفنا المهتمة بالأدب، باستثناء مقال منصف نشره فاروق شوشة فى ركنه في «الأهرام». ولا عجب، فهو قد كان غائبا عن مصر حتى فى حياته، ولست أذكر أننى طالعت شيئا ذا بال عنه فى صحفنا منذ ربع قرن على القليل، مع أنه كان غزير الإنتاج، وربما كان سبب ذلك أن العريض بقى شاعرا ملتزما الأصول الشعرية التى منها تألف ديوان العرب.

وإذا كان نجله الدكتور جليل العريض قد تخصص فى التربية وعلم النفس، فقد آثرت ابنته أن تعمل فى الصحافة العربية من حيث تقيم فى المملكة العربية السعودية. وقد أطلق اسم إبراهيم العريض مؤخرا على شارع فى المنامة.

رضوان ابراهيم

من الأسماء التى طواها النسيان تماما فلم يعد أحد يذكرها الأديب المصرى رضوان إبراهيم (١٩١٩ - ١٩٧٥) الذى بدأ حياته بعد تخرجه فى كلية در العلوم مدرسا للغة العربية، ثم انتقل إلى وزارة المعارف حيث عمل فى مكتب الوزير أحمد نجيب هاشم، وانتقل بعد ذلك إلى وزارة الحكم المحلى ثم إلى هيئة الخدمات الحكومية. هذا عن وظائفه ، وهى لم تضف شيئا إلى سيرته العملية، فالأدب لا يطعم خبزا، ولابد من التوكؤ على وظيفة سواء فى أجهزة الحكومة أو فى سواها، وأدرك رضوان إبراهيم أن جهل اللغات الأجنبية يؤود مسيرته العلمية، فاختار أن يتعلم الروسية حتى أجادها ، ثم اتصل بالمستشرقين الروس وترجم طائفة من آثارهم منها «نظريات ابن خلدون» للمستشرقة الدكتورة سيفتلانا باتسييفا و«العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون» لنفس المستشرقة ، وسبق له أن قام بتيسير مقدمة ابن خلدون ضمن سلسلة تيسير كتب التراث التى كانت وزارة الثقافة تتبناها. ومن مؤلفاته «أزمة التعبير الأدبى» بالاشتراك مع إبراهيم الابيارى و«جراح شعب» وهى مجموعة من الأقاصيص وسلسلة من الأقاصيص للأطفال، كما حقق ونشر ثلاثة كتب من مؤلفات راعى ابولو الدكتور أحمد زكى ابى شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) وهى : «شعراء العرب المعاصرون» و«عظمة الإسلام» و«الإسلام الحى» . وله كتاب عن فيلسوف الفريكة أمين الريحانى (١٨٧٦ -

١٩٤٠) مترجم عن المستشرق الروسي ليفين إيزاكوفيتش وهو مازال مخطوطا. كما أصدر كتابا عن أدباء تونس، ولهذا يعرفونه في تونس معرفة وثيقة ولاسيما لأنه زار هذه البلاد وعرف أعلامها.

كما كان رضوان إبراهيم شاعرا، وإن يكن مقلا، ولهذا لم يحاول جمع قصائده القليلة.

في صباح يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٥ هاتفني صديقي محمد عبدالغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) قائلا: هل سمعت أن رضوان إبراهيم لقي وجه ربه ؟ فقلت له : لم أسمع ذلك، وكنت حتى يومين مضيا أتحدث معه على الهاتف. فقال: انظر صفحة الوفيات في جريدة الصباح. فقلت له إنني قرأت الجريدة ولم ألحظ فيها نعيا لرضوان. ثم تنبهت إلى أن نسختي من الجريدة هي الطبعة الأولى وأن النعي نشر في الطبعة الثانية. فسألت عبد الغني عن موعد الجنازة ومكانها، فقال إنها تخرج من مسجد القبة الفداوية في العباسية صباح اليوم. وهرعت إلى هناك، فإذا حفنة من الأدباء اجتمعت لوداع رضوان إبراهيم هم الشاعر طاهر أبو فاشا (١٩٠٨ - ١٩٨٩) ومحمد عبدالغني حسن وعامر العقاد (١٩٨٥) والدكتور كامل السوافيري (١٩١٧ - ١٩٩٢) وأنا واثنان من أسرة الفقيد حيث لم يكن له أولاد من زوجته الأولى التي توفيت فجأة ولا من زوجته الثانية. ونقل جثمانه إلى سيارة توجهت إلى قريته طوخ أو قليوب (فلست أذكر على وجه التحديد). وعلمت بعدها أن رضوان كان في اليوم السابق يؤدي عمله في هيئة الخدمات الحكومية في الدقي، وأنه قاد سيارته الصغيرة بنفسه بعد انتهاء عمله ليعود الى بيته في العباسية. وفي الطريق هاجمته أزمة قلبية، فتحامل على نفسه وظل يجاهد وراء مقود السيارة إلى أن وصل إلى مدخل العمارة التي يقع فيا بيته في آخر نفس. وعندئذ تهاوى على مقعد السيارة غائبا عن الوعي تماما. فنقل إلى بيته وظل الأطباء يصارعون لإنقاذ حياته وإنعاش قلبه ساعات طويلة دون جدوى، ولفظ أنفاسه قرب منتصف الليل. مما آخر نشر نعيه في الطبعة الأولى من الجريدة.

وقد كان الفضل في تعريفي برضوان إبراهيم راجعا إلى رائد ابولو الدكتور أحمد زكي أبي شادي، فأحببت فيه دماثة خلقه وعفة لسانه وسعيه بين الأدباء بالخدمة والمشورة، ومتابعته الحثيثة للحركة الأدبية في العالم العربي والمهاجر. وعقد

صلات وثيقة مع كثيرين من الأدباء فى الداخل والخارج، كما كان عضوا نشطا فى رابطة الأدب الحديث ينتظم فى حضور جلساتها. ويعز علىَّ كثيرا أن ينسى رضوان إبراهيم مع أنه كان شخصية أدبية لها وزنها، وكان مرجوا للكثير من المآرب الأدبية لولا أنه لم يعش أكثر من ٥٦ عاما.

لقاء بعد أربعين عاما

بعد أربعين عاما اجتمع التلميذ جورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) الذى أصبح من أكبر شعراء المهجر ومؤرخيه مع معلم الدكتور فارس الخورى (١٨٧٩ - ١٩٦٢) الذى كان رئيسا لوزراء سورية وممثلا لها فى الأمم المتحدة يرأس مجالسها. أما اللقاء فكان فى مأدبة أقامها التلميذ لأستاذه فى نيويورك عام ١٩٤٧.

وعندما اجتمع الشاعر مع معلمه الذى لبى دعوته إلى الغداء، فاضت قريحة الشاعر بأبيات سجل فيها هذه المناسبة، وهى لا تخلو من روح الفكاهة. ولأن دواوين الشعراء لا تضم امثال هذه القصائد الاخوانية، فقد أخرجتها من بين أوراقى التى علتها الصفرة، عسى أن يجد فيها القارىء طرفة أدبية.

الدهر بدد شملنـا
فأخذت أندب حظنـا
وأقول للدنيا اغلطى
يوما ، وجودى بالمنى
حتى تفتق ثغرهـا
عن مثل بارقة السنا
ورأيت - ياللحلـم!
أستاذى بقربى. هاهنا.
حملقت فيه فلم أجـد
فى الوجه آثار الضنى
لا صوته عن قبل مختلف. ولا الظهر انحنى
والرأس تثقله الهموم، فيشرئب مفرعنا
ولى الشباب لم يزل
بردائه متزينا
فكأنه يحيا حياة الخلد فى دار الفنا.
لكن تغير طبعه القاسى، فأصبح لينا
أدعو فيقبل دعوتى متسامحا ما أمكنا
يدرى بأن صداقة الشعراء خير المقتنى
فينيلنى شرفا أهيم به
على هام الدنى
أهلا بأستاذى الكبير ومرحبا ياضيفنا
لولا وجودك لم يكن
هذا الغداء مطنطنـا

وعلى الموائد لم نجد
إلا حديثك مسمنـــا
فكأنما أنت المضيف
شكـــرت منته آنـــا
زادى تزود بالمحبـــة
فهو مأكـــول الهنـــا

وقد خلف فارس الخورى أوراقا كثيرة سجل فيها مواقفه من قضايا أمته، بما فى ذلك دفاعه عن هذه القضايا من على منابر الأمم المتحدة. وتعكف حفيدته الأديبة السورية توليت خورى على نشر هذه المذكرات لقيمتها التاريخية.

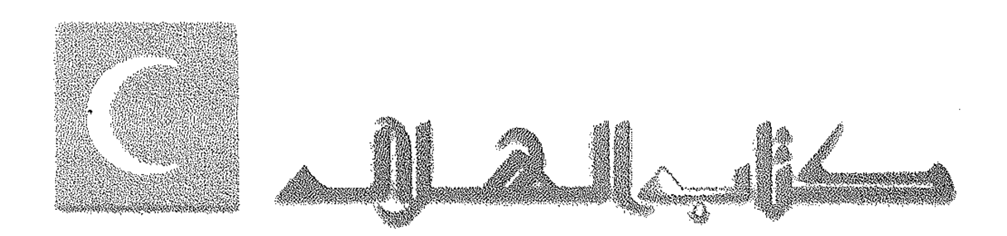
نظير زيتون وسجعه المرسل

عرف الأديب المهجرى نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) بأسلوبه الذى يترسل فيه سجعا حتى يملأ صفحات كاملات بسجعة واحدة، وهو أسلوب لم يكن يفارقه حتى فى الرسائل التى يبعث بها إلى أصدقائه ، وعندى منها عشرات.

وكان من أصدقاء نظير زيتون العلامة العراقى جعفر الخليلى (١٩٠٤ - ١٩٨٥) الذى جاءه ساعى البريد برسالة زيتونية مسجوعة يقول فيها «ألا إن الود ودك. والنبل شهدك. والعهد عهدك، والخير قصدك، والعلى وردك، والعبير وردك. والوفاء مجدك». ورغب الخليلى فى امتاع رواد ندوته بهذه الرسالة المسبوكة بالتبر التى تلقاها من كبير خطباء المهجر نظير زيتون، فتلاها عليهم وكلهم معجب بهذه المعانى النضيدة. واتفق ان كان من رواد الندوة الشاعر العراقى آنور شاؤول الذى أكد للحاضرين أن هذا الكلام المنثور هو فى حقيقته شعر موزون مقفى. وعلى الفور ارتجل قصيدة مستشهدا فيها بكلام نظير زيتون نصها.

أنا إن سئلت عن المودة.
قلت إن «الـــود ودك».
ولكم عهـــود أهمـلت
وتنوسيت و«العهد عهدك».
إن المقاصـــد لا تعـد
دروبها و«الخير قصـدك»
ورد الأنـــام مغـــانم
ومن «العلى قد كان وردك»
أما العبيـــر وقد تضـوع
فى المعـــانى «فهو وردك».
إنـــى أمجـــد بالـــوفا
و«وفاؤك» المشهود «مجدك».

فليقرأ هذا الأدب الجميل شعارير هذا الزمان إن استطاعوا أن يأتوا بمثله ■



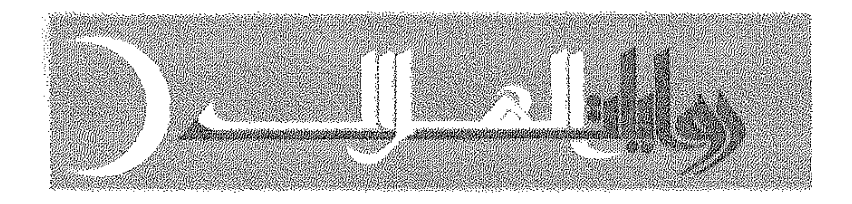
الإنسان والحضارة

بقلم

د.عبد الوهاب المسيرى

يصدر ٥ أكتوبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



٢٠١



رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

حلم ليلة أفريقية

تأليف : **سبريان إكوينسى**

ترجمة : **د.صبرى محمد حسن**

تصدر ١٥ أكتوبر
سنة ٢٠٠٢

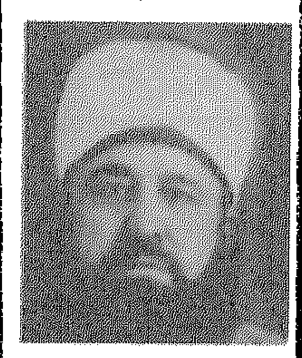
رئيس التحرير
مصطفى نبيل

جسر روحي بين الشرق والغرب

الشيخ عبد الرحمن عليش

بين القاهرة ودمشق وباريس

بقلم
سامي محمد عبد الحميد


محمد رشيد رضا


جمال الدين الافغانى


محمود سامى البادروى

يحفل تاريخ مصر المعاصر بالعديد من الأحداث المهمة التي صنعها بعض الأعلام الأفذاذ في شتي المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية..

وكان من هؤلاء الأفذاذ الشيخ عبدالرحمن عليش الذي لعب دوراً مؤثراً وعميقاً علي المستويين الوطني والعالمي.

لقد كانت تلك الثورة نتاج عوامل شتى أهمها تطلع مصر إلى النهوض منذ محمد على الذى وقفت له أوروبا بالمرصاد خوفا من قيام دولة قوية فى هذه المنطقة وهى التى كانت تتربص بالدولة العثمانية «الرجل المريض» الدوائر أملا فى سقوطها حتى تصبح المنطقة فريسة سهلة.

وقد أشار إلى ذلك رشيد رضا حين قال: إن محمد على أراد أن يجدد شباب الإسلام بدولة عربية.

ووقف الثائرون فى مواجهة الاستعمار البريطانى وظنوا أن فرنسا ستقف معهم فخابت ظنونهم لأن الدول الاستعمارية يومئذ لم تكن تفكر إلا فى مصالحها ولا تعنيها مصالح الشعوب

الأخرى بأى حال من الأحوال.. ووقفوا أمام الخديو توفيق الذى انحاز إلى المحتل رغم أن أباه إسماعيل قد عزل من الحكم وكان أمل الثائرين فى توفيق أنه رجل الإصلاح فكان من قراراته الأولى قرار نفى الثائر جمال الدين الأفغانى بإيعاز من حاشيته التى لا تريد لمصر صلاحاً ولا إصلاحاً.

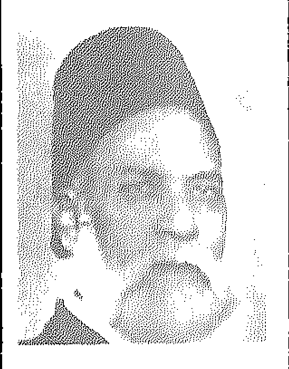
وكان فى مواجهة الثائرين بعض الخونة كباراً وصغاراً ومنهم محمد سلطان باشا الذى قام بدور كبير فى تجنيد الخونة ضد جيش مصر لصالح الإنجليز مقابل ثمن زهيد وإهمال شديد بعد الاحتلال حتى قضى نحبه وهو يشعر بالأسى والحزن لانه لم يقبض الثمن الذى كان يظن أن سادته سيؤدونه إليه.

أما الرجال.. أما الثائرون فإنهم مضوا فى طريقهم دون أن يفكروا طويلا فى حساب الأرباح والخسائر.. ومنهم رب السيف والقلم محمود سامى البارودى الذى لم يكن يريد أن يغمد سيفه رغم الهزيمة واقترح على عرابى الإنسحاب إلى الصعيد واستئناف المقاومة من هناك وهذا هو موقف الشاعر الفارس الذى يرفض الاستسلام والنكوص أمام الأعداء.

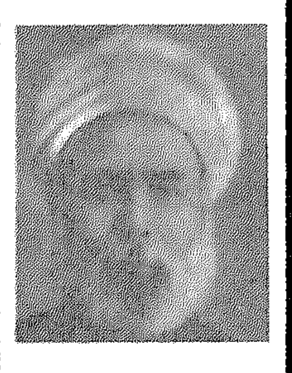
وقبل ذلك كله كانت وقفة الأمة كلها فى يوم مشهود من أيام مصر الخالدة .. إنه يوم ٢٢ يوليو ١٨٨٢ الذى صدرت فيه كما قال الزعيم أحمد عرابى فى مذكراته · «فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله شيخ الإسلام والمسلمين السيد محمد عليش وشيخ الإسلام الشيخ حسن العدوى والشيخ الخلفاوى وغيرهم من العلماء بمروق الخديو توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية لخيانته لدينه ووطنه وانحيازه لعدو بلاده» .

وبعد الاحتلال صدر أمر الخديو بإلغاء الجيش المصرى واعتقال الثائرين ومنهم علماء الأزهر شيخ الإسلام الشيخ محمد عليش وولده الشيخ عبدالرحمن عليش والشيخ حسن العدوى وآخرون ، وأبدى الشيخ حسن العدوى شجاعة نادرة عند محاكمته عندما سئل عن توقيعه على الفتوى بعزل الخديو فأنكر ذلك ولكنه استدرك قائلا : «ومع ذلك فإذا جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإنى أوقعه ، وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج

أحمد عرابى



محمد عبده



عبد القادر الجزائرى



عن الدين والوطن» .

كما اعتقل فى تلك الفترة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى صدر حكم بنفيه ثلاث سنوات .

وحكم بتجريد عدد كبير من علماء الأزهر من رتبهم وامتيازاتهم ومنهم الشيخ حسن العدوى .

فى دمشق

كما نفى الشيخ عبدالرحمن عليش حيث توجه إلى دمشق وهناك نزل ضيفاً على الأمير عبدالقادر الجزائرى بل إنه هو الذى تولى تجهيزه ودفنه فى عام ١٨٨٣ ، ومعروف أن الأمير عبدالقادر عاش سنواته الآخيرة فى دمشق حيث كان أول من نشر كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربى كما أنه دفن إلى جواره .

وكذلك كان الشيخ عبدالرحمن عليش الذى أفتى بعزل توفيق من أقطاب التصوف وله فى ذلك دور لا يعرفه إلا الأقلون ، ولابد أن نشير هنا إلى والده الشيخ محمد عليش الذى ولد بالقاهرة سنة ١٢١٧ هـ وتعلم فى الأزهر حتى صار من كبار العلماء ، ويقول خليل مردم بك فى كتابه «أعيان القرن الثالث عشر» إن الشيخ محمد عليش كان أحد مشايخ المالكية فى مصر وتعلم على يديه كثير من الأزهريين وله مؤلفات عديدة فى الفقه وقد توفى سنة ١٢٩٩هـ (التى توافق سنة ١٨٨٢م التى شهدت احتلال إنجلترا لمصر) .

ونشير أيضا إلى أن الشيخ عليش اتهم بالجمود لأنه لم يكن من الذين تقبلوا آراء جمال الدين الأفغانى .. وهذه مسألة تستحق البحث لأن إلقاء التهم والألقاب جزافا فى تاريخ مصر أمر يستحق التمحيص حيث يوصف البعض بأنه من المجددين والبعض الآخر بأنه من الجامدين .. ويحلو للبعض ترديد ذلك دون فهم أو تعمق للأمور .

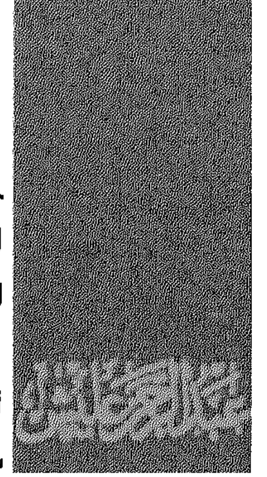
فالشيخ عبدالرحمن عليش الذى رفض إنشاء محفل ماسونى فى مصر لم يكن جاهلا بالماسونية بل إنه كان على معرفة بأوضاعها ورموزها ودورها فى أوروبا وأراد أن يستفيد من ذلك عن طريق شخصية فرنسية كبيرة لدفع الماسونية إلى القيام بدور نافع فى الغرب بدلاً من دورها الهدام ، وهكذا تكون أصالة الفكر وسداد الرأى وبعد ذلك فليقل من شاء إنه مجدد أو جامد أو زعيم

كانت وقفة عرابي الصامدة ضد الاحتلال الإنجليزي إحدى العلامات البارزة في تاريخ مصر المعاصر

للمجددين أو للجامدين .. فهذه الألقاب لا تجدى نفعا إنما الذى يجدى هو العمل الجاد وخدمة المبادىء والمصالح العليا لهذه الأمة بل للإنسانية كلها .

الشيخ «رينيه جينو»

أما الشخصية الفرنسية المهمة التى سبقت الإشارة إليها فهى شخصية فذة فى التاريخ المعاصر ويعتبر صاحبها من أكبر العقليات فى القرون الأخيرة فى أوروبا وهو العلامة الفرنسى رينيه جينو المعروف بالشيخ عبدالواحد يحيى الذى ولد عام ١٨٨٦ وجاء إلى القاهرة عام ١٩٣٠ ومكث فيها حتى رحل عن دنيا الناس فى مطلع عام ١٩٥١ ، وقد اعتنق جينو الإسلام فى عام ١٩١٢ ، ويعتبر من أقطاب التصوف على مدار التاريخ وهو يؤمن بالوحدة الجوهرية للعقائد الدينية لقيامها على أساس الإيمان بالوحدانية وقد تأثر أكبر الأثر بالشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ومن مؤلفاته المهمة «شرق وغرب» الذى استعرض فيه إمكانيات الاتفاق بين الشرق والغرب على أساس المبادىء حيث أشار إلى إمكانية هذا الاتفاق إذا تنازل الغرب عن زهوه وادعائه أنه «الحضارة» الوحيدة فى العالم، ومن مؤلفاته كتابه «أزمة العالم المعاصر» الذى



حلل فيه المنطلقات الفكرية للحضارة الأوروبية التى تنكر إسهام الحضارات الشرقية وتغمطها حقها بل إنها تستخف بالحضارة الأوروبية المسيحية فى العصر الوسيط .

يقول صادق سلام فى كتابه «الإسلام والمسلمون فى فرنسا» الذى صدر فى باريس سنة ١٩٨٧ إن رينيه جينو عنى فى مطلع شبابه بالعقائد الصينية والهندية والتصوف الإسلامى .. وأنه اتصل بالشيخ عبدالرحمن عليش الكبير منذ عام ١٩١٢ عن طريق رسام سويدى كان قد درس العربية واعتنق الإسلام .

ولكن الذى أفاض فى الحديث عن العلاقة بين رينيه جينو والشيخ عبدالرحمن عليش هو الكاتب الأوروبى المسلم ميشيل ڤالسان الذى رحل عام ١٩٧٤ فى كتابه «الإسلام ودور رينيه جينو» حيث أشار إلى أن جينو سلك طريق التصوف على يد الشيخ عليش الذى أهدى إليه جينو كتابه المهم «رمزية الصليب» الصادر عام ١٩٣١ بقوله : «إلى ذكرى الشيخ عبدالرحمن عليش الكبير .. العالم المالكى المغربى الذى يرجع إليه الفضل فى الفكرة الأولى لهذا الكتاب ، مصر القاهرة ١٣٢٩ - ١٣٤٩هـ» .

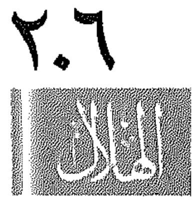
ويقول ڤالسان . لقد كتب إلينا جينو ذات يوم قائلا «إن الشيخ عليش هو شيخ طريقة شاذلية كما أنه فى عالم الظاهر شيخ المذهب المالكى فى الأزهر» .

ويتحدث فالسان عن دور جينو قائلا «إن الذين فهموا أعمال جينو يعلمون أن القوى الروحية فى الشرق قدمت من خلال هذه الأعمال مساعدة مهمة للغرب فى محاولة لتصحيح أوضاعه لصالح الإنسانية كلها» .

ويشير ڤالسان إلى العلاقات القديمة بين الطرق الصوفية فى الشرق والغرب وهى علاقة بين الصفوة ربما لا يشعر بها أحد مثلما حدث فى العصر الوسيط بين جماعة «أمناء الحب» الإيطالية والجماعات الصوفية الإسلامية والتى ظهر أثرها فى الدراسات الحديثة عن تأثر دانتى بالشيخ الأكبر ابن عربى أو أعمال أبى العلاء المعرى .

عبدالهادى أجيلى

أما دور الرسام السويدى چون چوستاف أجيلى (عبدالهادى أجيلى) كوسيط بين الشيخ عليش وجينو فإنه يتسم بأهمية كبيرة لأن



أجيلى أصدر فى العقد الأول من القرن العشرين مجلة اسمها «النادى بالعربية والإيطالية وقد اتجهت إلى الاهتمام بالتصوف بصفة عامة وابن عربى بصفة خاصة وكان لها أثرها الكبير على مجلة «لاجنوز» ومجلة «قوال ديزيس» اللتين صدرتا بعد ذلك فى باريس وكان أهم كاتب فيهما هو جينو ، وقد نشر الشيخ عليش فى هذه المجلة «النادى» مقالا موجزا عن ابن عربى فى عام ١٩٠٧ .. كما تحدث عبدالهادى كثيرا عن الشيخ عليش فى المجلة وعن والده «مجدد المذهب المالكى» مشيدا باستقامتهما ونزاهتهما وبعدهما عن المؤامرات السياسية ، وأوضح عبدالهادى أن الشيخ محمد عليش وابنه الشيخ عبدالرحمن قد اتهما بالتعصب لمشاركتهما فى الفتوى الشهيرة فى عام ١٨٨٢ إبان الثورة العرابية مما أدى إلى سجنهما والحكم عليهما بالإعدام ولكن الشيخ محمد عليش قضى نحبه فى السجن بينما خفف الحكم عن ابنه إلى النفى ، ورغم ذلك فإن الشيخ عبدالرحمن ظلت تحوم حوله الشبهات حيث انهمه البعض بأنه يسعى لكى يصبح خليفة للمسلمين أو إلى تولية سلطان المغرب الخلافة وانتهى الأمر بسجنه عامين ثم نفى إلى رودس ، إلى أن عفت عنه الملك فيكتوريا فعاد إلى مصر .

ويقول فالسان إن المجموعة التى كانت تصدر مجلة «النادى» بالقاهرة كانت تتبع النصائح الروحية للشيخ عليش حيث قررت إنشاء «جمعية لدراسة ابن عربى فى إيطاليا والشرق» تحت اسم «الأكبرية» ، ولكن بعض الدوائر فى القاهرة سعت ونجحت فى مسعاها إلى فرض حظر على المجلة التى صدرت منها أعداد محدودة ، وقد سافر عبدالهادى أجيلى إلى فرنسا حيث التقى مع جينو الذى كان يصدر مجلة «لاجنوز» التى توقفت عام ١٩١٢ .. بينما توقف نشاط عبدالهادى بعد نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ثم توفى فى برشلونة عام ١٩١٧ ، وخلاصة القول أن جينو سعى بتأثير الشيخ عليش إلى تذكير الغرب بتراثه مستفيدا من الإسلام الذى يعتبر الوسيط الطبيعى بين الشرق والغرب فى محاولة لإقامة جسر روحى بين العالمين مع الاعتماد فى ذلك على الصفوة من العقلاء .. وهكذا كان تأثير العالم الأزهرى المصرى الشيخ عبدالرحمن عليش على المستويين الوطنى والعالمى دون صخب أو دعاية جوفاء . ■

هذه لوحة نفسية من رسالة لم يقدر لها أن تصل إلى صاحبها والحمد لله

من هو؟

بقلم
د. يحيى الجمل

سيدي...

لا أحد يستطيع أن ينكر عليك حده ذكائك أو مقدرتك الفائقة على العمل والتنظيم . حتى أولئك الذين كانوا لا يحبونك ولا يرتاحون لتصرفاتك وقد يرميك بعضهم بما قد يكون فيك أو لا يكون من فساد لم يستطع أحد منهم أن ينكر عليك تلك الصفات .

وهذه الصفات هي التي جعلت ذلك الرجل المخلص المحدود التجربة القليل الخبرة بالناس يأنس إليك ويختارك إلى جواره في ذلك المنصب ذي الشأن لكي تكون عونا له في حمل ما عهد إليه به من مهام جسام .

وكنت تدرك جيداً أن بقاءك مرهون ببقائه وأن اختفاءه سيؤدي حتماً إلى اختفائك وجعلك ذلك تحرص على بذل مزيد من الجهد ومزيد من التنظيم ولكنك رغم كل هذه المزايا التي لا يستطيع أحد أن ينكرها كنت تشيع حولك جواً من النفور والكراهية والحقد الشديد.

لم يكن أحد قط يشعر نحوك بالحب أو الرضا أو الأمان. كان القريب منك كراكب البحر لا يعرف متى سيرغي ويزبد ويثور موجه كالطوفان. كانوا يخشونك ولا يحبونك وكنت أنت بطبيعتك المنحرفة سعيداً بذلك .لم تكن تسعى إلى المشاعر الراقية النبيلة فليس بينك وبينها صلة . كان كل همك أن يشعر الآخرون بأهميتك ومقدرتك على الإيذاء متى تريد وكثيراً ما كنت تريد .

كنت تحب أن تظهر بمظهر «الديك» المنفوش الريش المختال الذي يسير في الأرض مرحاً وكأنه قادر على أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا.

وخيل إليك لغرورك وفرط اعتدادك بنفسك أنك لاغنى عنك وأن القافلة لن تسير بغيرك .

كان الناس يدعونك في أفراحهم وولائمهم لأنهم يتملقونك ولأنهم إذا دعوا سيدك الذي يثق بك ثقة لا حدود لها فإنه كان عليهم أن يدعوك معه أو حتى يبادروا بدعوتك قبل دعوته مرضاة له ودرءاً لشرك

ورغم ذكائك الشديد فإنك لم تعرف قواعد اللعبة جيداً .

جاوزت الحدود التي يسمح لمثلك أن يتحرك في إطارها

كـــان هناك فى الملعب عـــدد من اللاعبين وكان بعضهم أقرب إلى أماكن أخرى من أماكن النفوذ والمال والسطوة الظاهرة والخفية ويبدو أنك حاولت أن تبدى لهم أنك تعرف من أمرهم ما كانوا حريصين على إخفائه عنك حتى لا تشاركهم فيه أو حتى لا تنقله إلى سيدك الذى جاء بك إلى حيث كنت .

وقيل إنك تطاولت مع بعضهم فى الحديث .

وقيل إنك نسيت حجمك

وقيل غير ذلك كثير .

وأدركت فى وقت من الأوقـــات أن الاستمرار قد لا يكون مأموناً وأن بقاءك فى موقعك قد لا يطول .

وشمرت عن ساعد الجد . ولم تترك فرصة إلا واهتبلتها . وكانت الفرص كثيرة ودسمة .

وحان ما كان لابد وأن يحين

وانطفـــاء النور ولفك ظلام دامس وكئيب .

ولم يعد أحد يدعوك إلى فرح أو إلى وليمة .

ولم يعد أحد يتملقك أو يسأل عنك أو يحادثك إذا رآك .

وفى البداية كنت تغشى مناسبات العزاء . وفى بلدنا فإن الأفراح والمعازى هى من أكثر الأماكن التى يلتقى فيها الناس وهى من أكثر الأماكن التى يعامل فيها الناس معاملات متباينة ومختلفة أشد الاختلاف.

وكنت قد اعتدت أن تكون فى صدر المكان وأن تكون محل ترحيب وتقدير .

ولكن الصورة تغيرت تماماً .لم يعد الجالسون فى الصدارة يرحبون بك . ولم يعد أهل « المعزى» يدعونك للجلوس إلى حيث كانوا يدعونك من قبل . بل إنهم أصبحوا لا يحفلون بك ولسان حالهم يقول ما الذى جاء بك .

وأدركت بذكـــائك هذا الذى حـــدث وبدأت تتـــحـــاشى أن توجـــد فى هذه التجمعات التى كنت فى يوم من الأيام أحد نجومها الكبار .

وانسحبت من الحياة العامة ولم يعد لك إلا بعض ملذاتك الخاصـــة وإلا تلك الأموال الكثيرة التى قيل إنك جمعتها من حرام .

وقد قدر لى أن أراك فى حاليك .

ولم أشعر قط فى الحالين نحوك بغير الرثاء .

وقد يعجب البعض من أن أشعر نحوك بالرثاء حين كنت فيما خيل لك أنه مجد ومقام كبير .

ولكن هذه هى الحقيقة فأنا أقيس الناس بمقياس مختلف عما تتصوره وتعتقده .

أنا أقيس الناس بقدر ما يحيطهم من ود وحب وعـــرفـــان وأنا أقـــيس الناس بعملهم وإخلاصهم فيه وحبهم لهذا البلد المسكين وعطائهم له وتفانيهم فى خدمته ومحاولة إقالته من عثرته .

وقد أكون مخطئاً إذا قلت لك إنى لم أجد فيك شيئاً من هذا كله . فلا وجدت أحداً يحبك أو يشعر نحوك بود وعرفان . ولم أعلم قط أنك كنت حريصاً فى يوم من الأيام على هذا البلد ومصالحه العليا قدر حرصك على المكاسب الرخيصة والقريبة . من أجل هذا كله كنت أحس بالرثاء لك وأنت منتـــفـخ الأوداج منفـــوش الريش وازددت رثاء لك والناس ينكرونك أشـــد الإنكار ويزورون عنك أشد الازورار بعد أن انطفأ النور وانفض السامر وحان الحين .

والبقاء لله . ■

تاريخ مصر كان مصدر ثقافتي وإلهامي

د. إبراهيم سعد الدين

حرصت منذ بداية تكويني علي قراءة تاريخ مصر كله وبصفة خاصة الإلمام بتاريخها الحديث وعلي مدار رحلة الحياة.

قرأت هذا التاريخ في مصادر علمية رصينة، وذلك مكنني التعرف علي تاريخ الحركة الوطنية المصرية، بدءا من ثورة عرابي ومروراً بثورة ١٩١٩ والفترة ما بين ١٩١٩ حتي ثورة ١٩٥٢ وحتي وقتنا هذا.

والدي من رجال القضاء، وكان يتنقل في بلاد كثيرة داخل القطر المصري.. ولهذا تنقلت في مدارس عديدة.

ففي المرحلة الابتدائية أمضيت السنة الأولي في الزقازيق الابتدائية، وقضيت السنة الثانية في أسيوط، وفي الصف الثالث الابتدائي بمدينة طنطا، ثم عدت لألتحق بالسنة الرابعة بمدرسة الزقازيق الابتدائية.

وفي المرحلة الثانوية التحقت بمدرسة القبة الثانوية بالقاهرة ثم عدت مرة أخري إلي مدرسة الزقازيق الثانوية وسبب ذلك كما أشرت في البداية أنني والأسرة كنا نرافق والدي إلي حيث ينتقل كرجل قضاء.



حصلت على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦، ومعنى هذا أننى التحقت بالتعليم الابتدائى عام ١٩٣٢، وقبيل ذلك كنت فى رياض الأطفال بالزقازيق.

كانت العودة دائما إلى الزقازيق موطن الأسرة، فأنا من قرية مشتول القاضى، مركز الزقازيق وهى على بعد أربعة كيلو مترات من مدينة الزقازيق، ولنا منزل نقيم به حتى أننا فى تنقلاتنا خارج المحافظة الزقازيق كنت أعود لقضاء اجازة الصيف فى قريتى.

والدى كانت لديه مكتبة محدودة، لأنه كان ضعيف النظر، فكان بالكاد يقرأ القضايا، ولم يكن يقرأ قراءات خارج عمله كثيرا إلا قراءة الصحف وبعض المجلات.

ولكن زوج خالتى الشيخ أحمد شاكر كانت لديه مكتبة كبيرة أغلب ما تتضمنه الكتب الدينية والأدبية بما فيها الشعر وكثيرا ما كنت أستعير بعض الكتب من هذه المكتبة للقراءة خصوصا فى الإجازات الصيفية.. حيث لم يكن لدى وقت أثناء الدراسة سوى المذاكرة ومتابعة مناهج الدراسة. ولم تبدأ قراءاتى خارج نطاق التعليم إلا فى المرحلة الثانوية ومن أهم الكتب التى أثرت فى أثناء هذه المرحلة كتاب المنتخب فى الأدب العربى، وهذا الكتاب كان يتضمن شعراً بدءا من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، وما لم نكن ندرسه فى المنهج الدراسى كان موضع اهتمام كبير، وكثيرا ما كنت أطلع عليه وأقرأه، وفى بعض الأحيان أحفظه حيث كان من شعرائه الذين أحببتهم عمرو بن كلثوم وجرير والفرزدق والبحترى وأبى تمام وأبو نواس وأبو العتاهية وأبوالعلاء المعرى وأبوفراس الحمدانى وغيرهم من الشعراء.

مثل هذه الكتب كانت تجعلنا نتشوق للاطلاع والمعرفة خاصة فى فصل الصيف وهى اجازة طويلة، وكانت القراءة هى الشىء الوحيد الذى يمكن أن نفعله فى زماننا، أيضا كان كتاب «الأدب التوجيهى» من أبرز الكتب التى أحببت قراءتها ودرسناه فى الصف الخامس الثانوى عام ١٩٤٠، وهو كتاب رائع لأن مؤلفيه كانوا جمهرة من علماء وأساتذة اللغة العربية من أمثال د. طه حسين وأحمد أمين ود. شوقى ضيف.. تضمن هذا الكتاب النقد ومقدمة فى النقد ثم الكتاب والقصص والمقامات.. كنت أسعد بقراءته، فهو موسع للمدارك، ليس فقط فى الأدب العربى، ولكن فى الآداب العالمية.

ولو عدت مرة أخرى للحديث عن

مكتبه الشيخ أحمد شاكر وهو الشقيق الأكبر للشيخ محمود شاكر أذكر أنها كانت تضم كتباً من بينها كتاب الأغانى الذى أحببت قراءته كما كان للشيخ أحمد شاكر كتاب عن الشعر والشعراء وكتابات مختلفة عن الشعراء .. كنت أحرص أيضا على قراءتها وما بين وقت وآخر وأنا أزور بيت خالتى ، كنت أحصل على بعض الكتب لقراءتها ثم إعادتها.

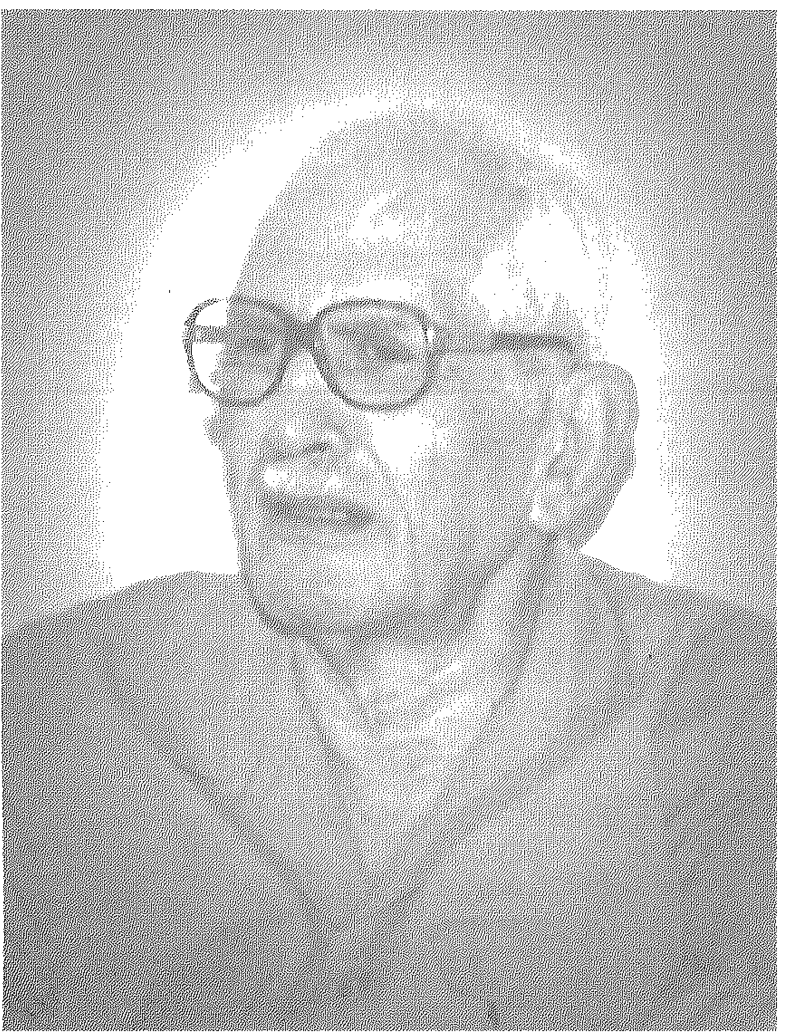
صحيح أنها لم تكن قراءة منهجية ولا منظمة ، إنما كانت تجىء نتيجة ما يستهوينى من الكتب التى تقع عليها عيناى.

تنوع الثقافات

فى فترة الشباب استهوتنى قراءة بعض المجلات من بينها مجلة المقتطف وكانت تحوى مقالات علمية متنوعة ، ثم بدأت أقرأ مجلتى الثقافة والرسالة بصفة مستمرة كما قرأت «اللطائف المصورة» وقصص جورجى زيدان التاريخية والإسلامية.

وكل هذه القراءات كانت تعد أبرز المصادر التى أستقى منها المعرفة العامة بالإضافة إلى دراستى، والتى اكتشفت من خلالها عشقى لقراءة التاريخ المصرى، وكانت تستهوينى قراءة الفترة الفرعونية والفترة الخاصة بتاريخ مصر الحديثة ابتداء من عهد محمد على وما بعدها.

ومما فتح لى المجال لقراءة الكتابات عن الفترة الفرعونية كان زوج أختى، وكان مدرسا للجغرافيا والتاريخ وفى الوقت نفسه كان قد التحق بالجامعة قسم الآثار لدراسة الآثار المصرية، وكانت مكتبته حافلة بالكتب التى تتناول التاريخ الفرعونى ولهذا وجدت فى مكتبته ذخراً كبيراً لقراءة هذا الجانب المهم من تاريخ



مصر.

فى المدارس كانت دراستنا للتاريخ بشكل محدود ، لكن ما أذكره أن أستاذ مادة التاريخ فى السنة الخامسة الثانوية كانت لديه شخصيته المحببة لدى، من خلاله أحببت القراءة فلم يكن يكتفى بإلقاء دروس التاريخ من الكتاب وينتهى الأمر، ولكنه كان دائما يحثنا على القراءة والتحصيل. ومن الكتب المهمة التى حرصت على الاطلاع عليها كتب عبدالرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديثة ، بدءاً من محمد على إلى ثورة ١٩١٩، وهى كتب تتميز بجمع المعلومات وتدقيقها وتغطيتها للفترات المختلفة تغطية دقيقة، بحيث تعد هذه الكتب مرجعا لكل من يودون التعرف على تاريخ هذه الفترات

كما أتيحت لى قراءة كتب سليم حسن وعدد من الكتاب الذين تناولوا بالكتابة التاريخ الفرعونى وتاريخ مصر القديمة وكل هذه الكتب وغيرها كانت تمدنى بالمعرفة والثقافة فى المجالين اللذين كنت شغوفا بهما.

الاهتمام بثقافة الغرب

كان اطلاعى على الثقافة الغربية قليلاً إلا ما قدمه عنها الأدباء المصريون من ترجمات ، فمثلا جاءت معرفتنا بشكسبير من خلال ترجمات د. محمد عوض محمد باللغة العربية، حيث كانت لغتنا الثانية هى اللغة الانجليزية ونحن طلاب بالمدارس الثانوية محدودة، ولا نستطيع أن نطلع على هذه الكتب بلغتها الأصلية وفى هذه الفترة أيضا كان من أجمل ما يقرأه المصريون «روايات الجيب»، وكان يتم من خلالها ترجمة كثير من القصص الفرنسية والانجليزية.

قرأنا الأدبيات لبلزاك وفولتير وجان جاك روسو وتولستوى وديستويفيسكى خاصة ما ترجم لهؤلاء ، خاصة أن هذه الفترة قد نشطت فيها حركة الترجمة، وكان المترجمون على مستوى عال.

وكان السبب الرئيسى لانصرافنا للقراءة فقط عدم وجود وسائل تسلية أخرى، فلم نكن نهتم بالسينما أو المسرح ، ولم يكن التليفزيون موجوداً، ولم يكن متاحا سوى ما نسمعه فى الراديو لعبد الوهاب وأم كلثوم وبعض تمثيليات لنجيب الريحانى.. فضلا عن شغفنا خاصة فى فترة الحرب العالمية الثانية بمعرفة ماذا يفعل هتلر من غزوات والاطلاع على ما يحدث فى هذه الحرب.

الجامعة.. مرحلة جديدة

التحقت بكلية التجارة فى عام ١٩٤١ وتخرجت عام ١٩٤٥ ، وكان من بين الدراسات التى درسناها مادة الاقتصاد.. وفى هذه المرحلة الجديدة من حياتى بدأت

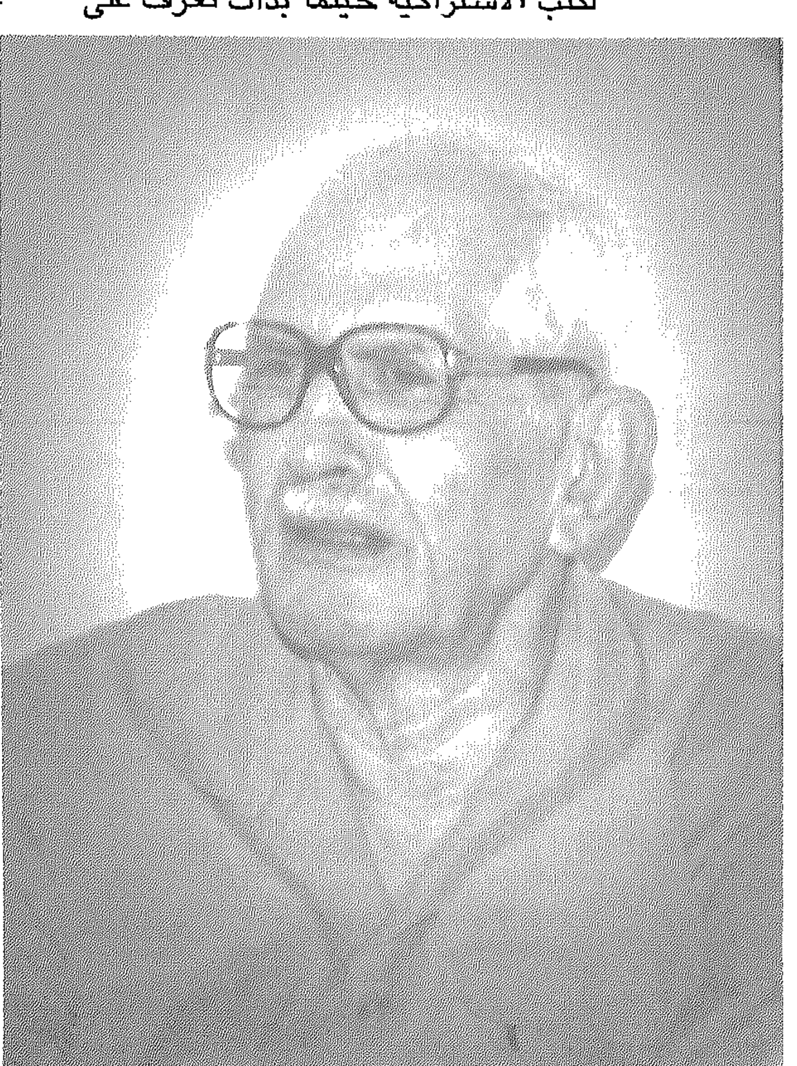
التكوين

تشدنى دراسات الاقتصاد والقراءة فى الاشتراكية ، وكان أحد أساتذتى المهمين جدا فى تلك الفترة الدكتور نظمى عبدالحميد، كان عالما وله توجهاته الاشتراكية ، حببنى فى دراسة علم الاشتراكية، وقراءة بعض الكتاب سواء باللغة العربية أو الانجليزية حول الموضوعات الاشتراكية على وجه التحديد.

فى هذه الفترة كنت اكثر تعلقا بحبى لكتب الاشتراكية حينما بدأت تعرف على النشاط الثقافى الذى كانت تمارسه عناصر اليسار، وتعرفت على لجنة نشر الثقافة الحديثة وكان مقرها شارع قصر العينى ، حيث كانت تقام فيها المحاضرات التى تتناول قضايا فكرية ودولية يقوم بها محاضرون من كبار المثقفين فى مقدمتهم الدكتور محمود عزمى وغيرهم ، كما كنت أذهب إلى دار الأبحاث العلمية بشارع نوبار، حيث كانت تتم مناقشة الموضوعات العلمية المختلفة، وكان يشارك فى نشاطها مجموعة من أساتذة كلية العلوم ومن بينهم د. عبدالمعبود الجبيلى ود. محمد القصاص ود. عبدالعظيم أنيس ود. عبدالرحمن ناصر ، ونشط هؤلاء الأساتذة فى مناقشة الموضوعات الاقتصادية والسياسية والأدبية أيضا.

وأتذكر على سبيل المثال من زملائنا الذين كانوا يشاركون معنا فى لجنة نشر الثقافة الحديثة الشاعر كمال عبدالحليم ود. عزالدين فوده ويوسف الشارونى وأحمد رشدى صالح وأحمد صادق سعد.

وابتدأت فى هذه الفترة أتعرف على الثقافة الماركسية والاشتراكية وكان اهتمامى بها كبيرا.



الانفتاح على ثقافات العالم

حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الدكتوراه عام ١٩٥١ بجامعة الينوى فى إدارة الأعمال ، شدتنى تماماً مكتبة هذه الجامعة هذه الجامعة العريقة ، خاصة وأنه قد خصص لكل طالب من طلاب الدكتوراة غرفة صغيرة يستطيع فيها أن يحصل على ما شاء من الكتب فى جميع الثقافات ، وإذا احتاج هذه الكتب لمدة أطول يمكنه ذلك، بحيث لا تعود إلى المكتبة، وتظل داخل الغرفة، ومن حسن حظى أن مكتبى الصغير داخل غرفتى كان مجاورا للجزء الخاص بالدولية الثالثة والكتابات الخاصة بالماركسية واللينينية ، فيمكننى أن أمد يدى فى أى وقت لأحصل على الكتاب الذى أريده.

وكلما شعرت برغبة فى الخروج من الانكباب على موضوع رسالة للدكتوراة، والترويح النفسى، كنت أقرأ فى هذه الكتب، خاصة أن مكتبة جامعة الينوى كما أشرت مكتبة غنية بالكتب فى مجال الثقافات المختلفة وبالتالى كان هذا متاحا لى.

كنت قد أيقنت اللغة الانجليزية، وذلك سهل على قراءة كل ما تقع عليه عيناى.

وفى أثناء الدراسة كنت أخرج من مجال الدراسة لقراءة الأدب المتاح ، سواء فى الأدب الانجليزى أو الأدب الأمريكى خاصة الكلاسيكيات فيما عدا شيكسبير ، لأن ذلك كان يستلزم دراسة خاصة.. وكل هذه القراءات التى شدتنى أثناء البعثة كانت فى فترة التكوين.

... بعد حصولى على الدكتوراه عام ١٩٥٥ عدت إلى القاهرة، وكان اطلاعى المستمر على ما ينشر فى مصر من كتابات أدبية أو تاريخية أو سياسية.

ففى الأدب بدأت أقرأ لطه حسين وتوفيق الحكيم، وأذكر أننى قرأت العبقريات للعقاد وأنا طالب فى المرحلة الثانوية ولم تشدنى كتاباته.. لأننى أحسست أن هذه العبقريات ليست كتبا علمية بالمعنى العلمى الصحيح، فمثلا فى عبقرية عمر نجده يختار مواقف عمر بن الخطاب، ليثبت أن عمر عبقريا.

وقس على ذلك فى كل العبقريات التى كتبها!

وذلك على عكس «على هامش السيرة».. لطه حسين، فنجد هذا الكتاب مشوقا تماما للقراءة وأيضا «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، فهو كتاب جيد.

وفى رأيى أن كتاب عبقرية محمد للعقاد لا يرقى إلى نفس قوة وتأثير كتاب

«حياة محمد» للدكتور هيكل.

فحينما تقرأ كتاب «حياة محمد» يعطيك هذا الكتاب تاريخا إنما العقاد يختار مواقف هو يقدمها باسم العبقرية، ولذلك لم يشدنى العقاد كثيرا لقراءة كتاباته.

أيضا حرصت على الاطلاع على أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس ، وكنت صديقا لنعمان عاشور ، وكنت أتابع كتاباته أولا بأول، وحضور جميع مسرحياته . وكنت على صلة مستمرة بأحمد رشدى صالح، وأحمد صادق سعد، فضلا عن أننى مارست الكتابة فى «الفجر الجديد».. كما شاركت فى النشاط الثقافى فى لجنة نشر الثقافة الحديثة، وقد قدمت دراسة عن ثورة ١٩١٩، ودراسة حول مشكلة الأرصدة الاسترلينية.

ففى أثناء الحرب العالمية تراكم لمصر حوالى أربعمائة مليون جنيه استرلينى كديون على بريطانيا كنتيجة لما حصلت عليه بريطانيا من خدمات فى مصر أثناء الحرب، منها خدمات السكك الحديدية، وغيرها، ووصلت مصر فى مفاوضات للحصول عليها، ورفضت بريطانيا دفع هذه الديون إلا بالتقسيط، بحيث ندفع ٢٥ مليون جنيه كل سنة وتناولت هذا الموضوع فى شكل محاضرة ، ثم نشرتها فى كتيب، ويعد أول اصدار باسمى فى عام ١٩٤٩ وكنتيجة طبيعية لدراساتى فى الخارج بدأت أقرأ بالانجليزية كل ما أحب الاطلاع عليه، وأصبح متاحا فى قراءة الكلاسيكيات الانجليزية ، وكذلك متابعة ما يصدر من كتابات سواء



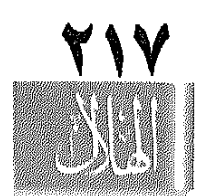
فى السياسة أو فى بعض المجلات الخاصة بالسياسة الدولية، ومن بين ما تابعته نشرة سوفييتية كانت تصدر بعنوان New Times بالإضافة إلى المجلات الأمريكية التى تصل إلى مصر.

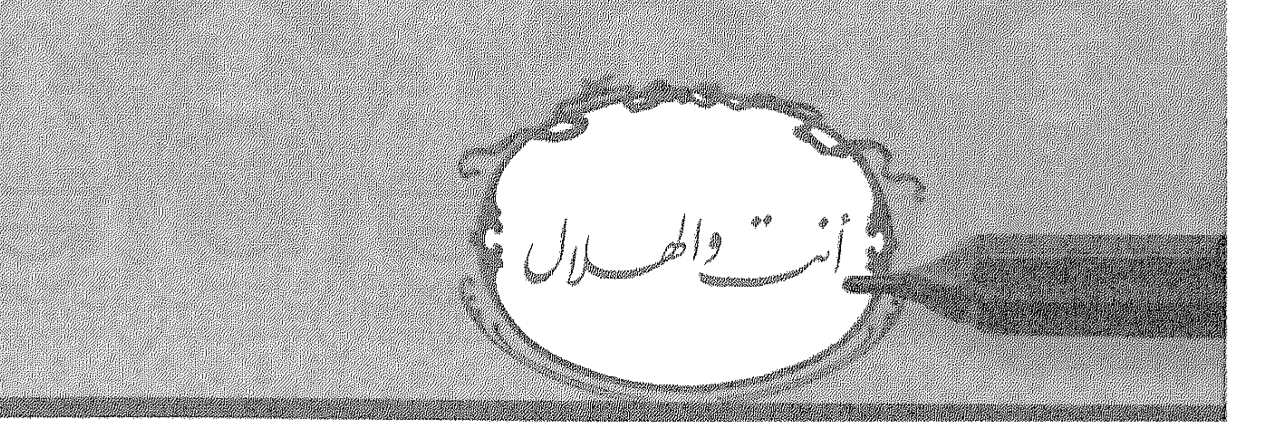
كما حرصت دائما على متابعة وقراءة كل ما يختص بالاشتراكية والتطور الاشتراكى والتخطيط الاشتراكى والتحولات الاشتراكية، والخلافات التى كانت تنشب بين الصين والاتحاد السوفييتى!.

.. إن ما أنصح به كل المصريين وخاصة الشباب.. هو معرفة تاريخ أمتهم.. فدراسة التاريخ المصرى ومعرفته مسألة أساسية بالنسبة لكل شاب.

د.إبراهيم سعد الدين

- ولد بقرية مشتول القاضى مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية
- حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦ من مدرسة الزقازيق الابتدائية بعد أن تنقل بين عدة مدارس بسبب طبيعة عمل والده بالسلك القضائى كان كثير التنقل بين محافظات مصر
- شغف بقراءة كتب التاريخ منذ مطلع شبابه خاصة مؤلفات عبد الرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديث ومؤلفات سليم حسن عن تاريخ مصر الفرعوني
- تخرج في كلية التجارة جامعة القاهرة عام ١٩٤٥ وشغف فى هذه المرحلة بدراسة الفكر الاشتراكي
- حصل على درجة الدكتوارة فى إدارة الأعمال من جامعة إلينوى بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٥
- بعد حصوله على درجة الدكتوراة عاد الى مصر ليشارك فى الحياة السياسية والفكرية وذلك فى مرحلة التحول الاشتراكي فى الستينيات من القرن العشرين ومازال يواصل العطاء حتى الأن لوطنه ولأمته العربية.





دور بناء للشباب المصري

يبدو أنه قد آن الأوان لنقلب معاً صفحات الهلال فى مسيرته الطويلة، دون أن نهمل أو نغفل قضايا الإنسان المصرى المعاصر، ربطا للماضى بالحاضر استشرافا للمستقبل ، فمنذ أكثر من خمسين عاماً طرح الهلال قضية المشاركة السياسية للشباب فى المجتمع المصرى بصورة أكثر طموحاً مما تطرح به اليوم ، ففى العدد الممتاز من الهلال - يناير سنة ١٩٤٨ - شباب الجيل ، أجرى الهلال استفتاء شارك فيه صالح حرب ، وعزيز المصرى ، ومنصور فهمى ، وعلى أيوب، وفتحى رضوان بعنوان «وزارة من الشبان» . وقدم الهلال للاستفتاء بقوله «نحن اليوم قادمون على حياة جديدة .. لابد أن تدب فى جميع مرافقها روح فتية جديدة ، ومناصب الحكم فى الشرق تكاد تكون مقصورة على الشيوخ والكهول». وتضمن الاستفتاء ثلاثة أسئلة. هل يصلح الشباب لتولى مناصب الوزارة؟ وكيف نعد الشباب للحكم؟ وإلى أى حد يجب أن نستفيد من عناصر الشباب؟ وكانت نتائج الاستفتاء تشير إلى أن الشباب المصرى ذو همم واستعداد وكفاية ويصلح لتولى مناصب الحكم والوزارة إلا أنه يحتاج إلى كثير من التجارب والمران والخبرة ، وأن يفسح المجال له فى ميدان الخدمة العامة والعمل الوطنى . وعن طرق وأساليب إعداد الشباب للحكم يرى البعض تعيين الشبان الأكفاء فى مناصب وكلاء برلمانيين للوزارات ، أو عن طريق التنشئة السياسية فى الأحزاب السياسية أو فى مكاتب الوزراء . أما عن مدى الاستفادة من عناصر الشباب فيرى البعض ألا تزيد نسبتهم الآن (سنة ١٩٤٨) عن الثلث فقط، والبعض الآخر لايرى تحديد نسبة خاصة للشباب أو للشيوخ ، ورأى ثالث يرى ألا يجعل لنسبة الشباب أو الشيوخ أى اعتبار فى تولى مناصب الوزارة.

ولنا أن نتساءل أين نحن الآن سنة ٢٠٠٢ من الأفكار التى طرحها الهلال فى قضية مشاركة الشباب السياسية فى المجتمع المصرى سنة ١٩٤٨. لقد أثبت الهلال أنه سابق لزمانه، وأنه مجلة الغد وبعد الغد.

عمرو عبدالمنعم حموده - برما - طنطا

الهلال : الفرصة متاحة الآن للشباب لبثبت قدرته على المشاركة، وكما فعل الهلال عام ١٩٤٨ نحن نطالب الشباب بأن يقوم بدوره كاملاً ويشحذ أسلحته بالعمل والتفانى وإثبات قدرته وكفاءته لتحمل المسئولية وهنا سوف تفتح له الأبواب المغلقة لأننا فى أمس الحاجة لهذه الكفاءات.



الأهرامات.. تغنى

مصر التى لاتعرفونها.
هى الندى،
الحواديت التى لاتآسر العير
انتقاماً للحداء
(آزهرها) المنيف يزهو باسقا
على قباب النور..
يتلو كل آسرار السماء
مصر السواقى ..
لا تضخ غير حلمنا الشفيف..
كم تروم رشفة الزيتون
فى حضن الذرا
لتستعير من شذاها
من أجل نوات الفداء
مصر الفراعين،
المماليك،
الأجاويد،
العروبة
النى تفور فى عروقنا بالانتماء
والوافدون
من ممرات الحنين ..
عاودوا
ملء الفؤاد
من ينابيع الإباء
من لاينام فى جنان دفتها
من لا يؤوب حبث فاء ظلها
مشرد
يعيش دوما بالآسى
محروم من
ترنيمها عند المساء!!

عبد الناصر أحمد الجوهري
دكرنس - الدقهلية

اضرب الضعيف.. يخاف القوي!

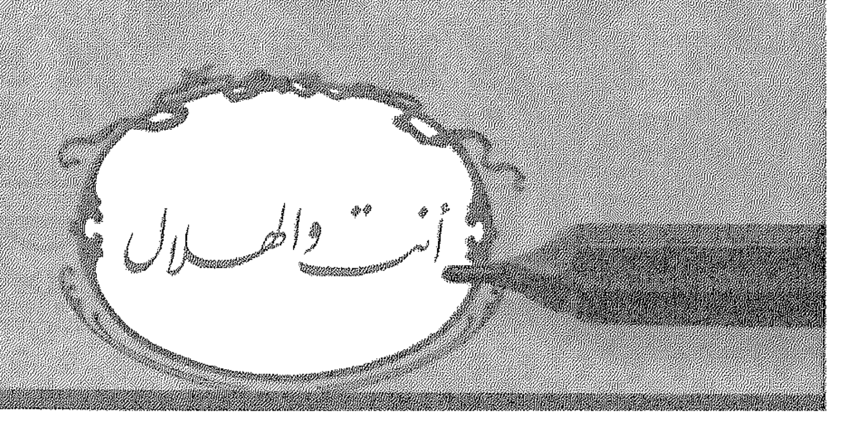
تخوض الولايات المتحدة الأمريكية حروبها خارج أراضيها، ولم يحدث آن خاضت حربا داخل أراضيها ، وما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وآسفر عن ٢٤٠٦ قتلي ومفقودين يعد زلزالا فى معنويات العسكريين الأمريكيين بدرجة غير مسبوقة.

وما حدث يعد انفجارا يستلزم الدفاع ضد أخطار مجهولة وغير مؤكدة وغير مرئية أو متوقعة.

ولهذا كله تعتمد آمريكا على إرهاب العالم كله بالقوة الجبارة التى تملكها من طائرات وصواريخ وقنابل وجنود وحاملات طائرات عملاقة تجوب البحار والمحيطات.

إنهم بدأوا يفكرون فى الآتى · اضرب الضعيف أولا حتى تظهر القوة للعالم ولذلك بدآوا بضرب أفغانستان بالقوة الجبارة وبكل أنواع الأسلحة برا وجوا وبحراً، وبدا

رجب ١٤٢٣هـ - اكتوبر ٢٠٠٢م



الدمار للعالم كله ودون رحمة أو شفقة لشعب أعزل لايملك من نفسه أمرا .

ولابد من جولة أخرى للتخويف والإرهاب . ضرب العراق مع أنهم يعرفون جيداً أن العراق ليس له أية علاقة بما يحدث .. ويقولون إنهم يحاربون الإرهاب لا .. إن منابع البترول هى الهدف .. وانهم سوف يضربون «المربوط» الضعيف حتى يخاف «السايب» القوى منهم.

والسؤال .. إلى متى العدوان والعالم يتفرج ليس على العراق، ولكن على فلسطين؟!

جمال العطار
الاسكندرية - كامب شيزار

الكيل بمكيالين والضحية هم العرب!

حول نفس الفكرة وبعد أحداث ١١ سبتمبر يتناول د. صمويل لبيب سيحه التداعيات التى حدثت بعد حرب أفغانستان وشن حرب لاهوادة فيها على تنظيم القاعدة وطالبان وتشريد مئات الآلاف ووقوع الضحايا ، ومع ذلك لم تؤت تلك الحرب ثمارها التى كانت ترجوها أمريكا بل أخذت أمريكا تكيل التهم لدول إسلامية بعينها واتهامها بالإرهاب، وظهرت مفاهيم مغلوطة تحت مسمى صراع الأديان مرة وصراع الحضارات وصراع الثقافات مرات أخرى. إن الإصرار على شن حرب ضد العراق مازال قائماً ، ونرى الرئيس بوش ليل نهار يصرح بذلك فى الوقت الذى نرى فيه نزيف الدم فى فلسطين ودون أن يقال عن إسرائيل بأنها دولة عنصرية تستحوذ على أسلحة الدمار الشامل كما يتهمون العراق بذلك..

لماذا يقف العالم مكتوف الأيدى وهو يرى مايحدث من أمريكا .. ولماذا لايتخذ العرب موقفاً موحداً تجاه هذا الغرور والصلف الأمريكى ؟

د. صمويل لبيب سيحه - المنيا



كـرامـة

مهداة إلى روح الشهيدة (وفاء إدريس)

العمر عمر واحد

دوما نكابد للوصول ..

وفى النهاية لانصل

وطن حزين مجهد ..

متفرق

وجراحه لاتندمل

الموت موت واحد

الموت آت .. ما العمل؟!

الموت آت.. .

مت ياوطن

مت مثلما ماتت وفاء

مت فى اعتزاز النخل .. مت هذا المساء

مت فى بكاء للقناديل التى لاتحتمل

مت فى انحسار البحر .. مت

مت فى مقاومة البلاد

مت فى صمود المسجد الأقصى

الذى كشف الغطاء

مت فى شموخ «محمد بن الدرة»..

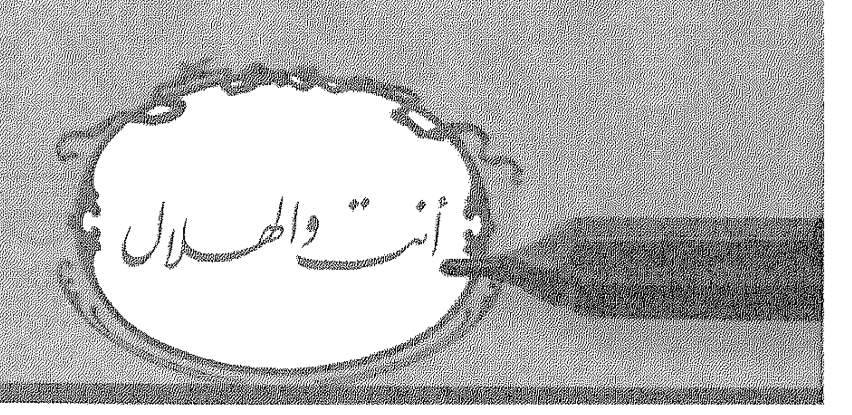
المذكور فى سفر الولاء

فى رمية الحجر المقاوم مت

ومت

فالموت ليس له انتهاء!!

محمود أحمد المصلي
شربين



ملحمة ثقافية

جاء عدد سبتمبر الماضى ليضفى علينا ضياء وقبسا من تزاوج الماضى بالحاضر ، وليصنع ملحمة ثقافية حملها الهلال خلال رحلة طويلة عمرها مائة وعشر سنوات من العطاء الثقافى والفكرى والعلمى المتنوع.

إن الهلال مجلة تميزت بتنوع هذه الثقافة التى يمكن أن يستفيد منها الأديب الشاب والعالم المتخصص ، وفي رأيى أن ذلك هو السبب فى تجدد شبابها ومسيرتها التى لم تتوقف على مدى هذه السنوات الطويلة.

والهلال من مصطفى مشرفة إلى أحمد مستجير، ومن طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم إلى محمد رجب البيومى ومن سلامة موسى ود. أحمد زكى إلى مصطفى سويف، سوف تظل هذه المنارة التى تضىء حياتنا الثقافية ، مهما توالت السنون والأيام ، بفضل التطوير الذى نشهده فيها، والحرص على التنوع فى مقالاتها وبحوثها وبفضل جهود القائمين عليها والبحوث المتميزة لكتابها.

فتحية لمجلتنا التى تبعث فينا الأمل دائماً بأن الفكر العربى سوف يظل شامخا بفضل كتابنا ومفكرينا ، وكل مانرجوه أن تواصل الرحلة تحمل لنا عطر الماضى الجميل، وترسم لنا طريق المستقبل الملىء بالخير، وتثبت للعالم أن حضارة العرب سوف تظل باقية مادامت ثقافتهم نابضة وأقلامهم حرة تشارك فى صنع حضارة الإنسان.

عبدالرحمن الدعليس - فلسطين

أكتوبر

أكتوبر يافرحة مصر
ياتاريخ النهضة والنصر
كم ضحى بنوك وأحبابك
ياأكتوبر فى وجه الشر
كم جاد بنوك بحياة
ونفوس فى يوم العسر
واقتحموا خطوط الأعداء
أولهم بارليف خر
وهزمنا جيشا لايقهر
ودعاوى من أهل الغدر
وابتسمت شمس عربية
وانتشر النور من النصر
إن كان تاريخك ياوطنى
معهود قد فاق الحصر
فتاريخك فى يوم أكتوبر
تيجان فى هذا العصر
ماننسى أبداً أيامك
أكتوبر يا أعظم شهر
أكتوبر مولد أمة
عربية فى هذا الدهر
أكتوبر كى يصبح وطنك
عربى مقدام حر
لابد علينا من وحدة
فى وجه عدو مغتر

أحمد نادى عبدالرحمن
ديروط - أسيوط



العشوائيات .. ومشكلات المرأة

جمعية نهوض وتنمية المرأة (٨ ش: متحف المنيل) قامت بدور مهم من خلال عملها بالمناطق العشوائية والتى تمثل أهمها فيما يلى:

قضايا المرأة المعيلة والتي تمثل ٢٠٪ من النساء فى مصر و٤٪ من النساء فى المناطق العشوائية مثل منشأة ناصر، وهذه الفئة تعانى من العديد من المشكلات فى مقدمتها المشكلات الاقتصادية الناتجة عن الفقر الشديد وعدم الوصول إلى الخدمات ومشكلات أخرى ثقافية واجتماعية ناتجة عن غياب المساواة والفروق الثقافية والاجتماعية ، وغياب الوعى الصحى والبيئى.

وتبرز قضية مهمة وهى حق الجنسية لأبناء المصرية المتزوجة من أجنبى وخاصة ، بالنسبة لتعليم أولادهن وعدم قدرتهن على دفع المصروفات واضطرارهن لتزويج بناتهن مبكراً للتخلص من هذه المشكلات .

أيضاً مشكلة الفتيات المراهقات المهمشات فى هذه المناطق واللاتى يتسربن بنسبة (٥٠٪) من التعليم.

هذه الفئات تعانى من عدم القدرة للوصول إلى صانعى القرار .. فهل نجد من يتقدم لحل تلك المشكلات وحتى لانفاجأ بظواهر عنيفة فى تلك المناطق العشوائية؟!

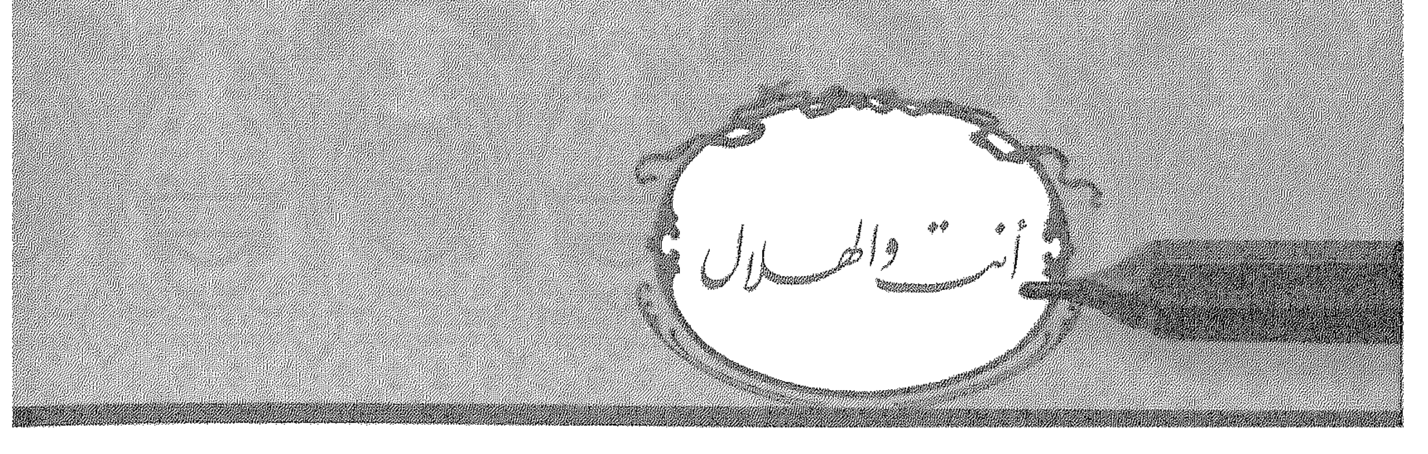
د. إيمان بيبرس
رئيس مجلس إدارة الجمعية

أمر لا يدعو للعجب ، قصة قصيرة ،

فى حركة تمثيلية فيها الكثير من البهلوانية ... شمر عن زنديه .. قدم رأسه إلى الأمام .. أطلق صيحة أيقظت عنكبوت السبورة ... وحركت الغبار المتكدس على الطاولة والمقاعد وفى زوايا الغرفة .. صرخة وحركة أشعلت المدفأة التى لم يزرها الوقود منذ تركيبها وقال . أنا أبو الورد .. إياكم من غضبى ووضع يده على شاربيه المحلوقين واستسلم الطلاب للضحك ، وصار فى الصف هرج ومرج.

قد لفت أنظار الطلاب الذين يترقبون مثل هذه النماذج البشرية .. شعروا بشىء ما سرق قدسية الصف والعلم فتثاءبت السبورة والكتب ، وامتد عليها العنكبوت . الصف حركة والسبورة جامدة .. الأصوات متداخلة والكتب مغلقة. الكرسى يئن من الحركة ومن ثقل أحاديثه المثقلة بالكذب والخيال المولد ..

أبو الورد وهناك من يقول : أبو القرد ، أضحى حديث الطلاب فى المدرسة ، ووصل الخبر إلى المدير والمدرسين ، وأعان الله.المدرس الذى يدخل القسم بعده ... ساءهم وضايقهم



مايسمعونه وما يتناقله الطلاب وذووهم ... أبو الورد حكواتي جيد ... ومتكلم مقنع .. وفوق هذا ملاكم ومصارع رشيق ... ازدادت حركة الخبر ، وتنامت مفرداته، فسيطرت الدهشة والغرابة عندما علم الجميع أن أبا الورد مكرم ومحتفى به نظراً لخدماته وعطائه وإلمامه باختصاصه ... ازداد تأثيرهم عندما كرمه الموجه ونصبه على رأس مجموعة في التصحيح ، فهذا هو على حد زعمه قدير ومعطاء ، ولذلك فضله مع بعض الصبية المدللين وأصحاب الحظوة لتمثيل المدرسين في معالجة ومناقشة الأسئلة في الندوات والامتحانات ... إزدادت دهشتي أكثر عندما عثرت على «أبو الورد» وقد سلمه الموجه مفتاح غرفته ونصبه بوابا وحارساً للغرفة على مرأى من الآخرين وهو راض فعرفت السبب بعد أيام أدرت ظهري ونخبت وجهي عندما شاهدته يقود أولاد الموجه بل أحفاده والموجه أمامه..!

محمود أسد - حلب - سوريا

تباين

لا أنا أنت وإلا
كنت يوما قاتلي
إن تكن أنت أناك
يستقر الوطن
يستفيد البدن
تنتهي كل القضايا
تبتدىء جنات عدن
في عناق الأبد
إن أكن إياي
لا أخشى تفاصيل التوتر والقلق
أو يجافيني منام المكره
إن يكن كل أناه
لن ترى لوني تغير
لن أقصر في اجتيازي للمسافات المقيمة
في طحالك
بين جلدك
فوق نفثك
لن تراني أتنفس
عندما يفتر دمي
أو تراني أتقلص

بين أوشاجي ودمي وعظامي
لن أعاني من قيودك
إنني إن صرت يوماً ذات نفسك
سوف أفنى .. أتبدد
إن يكن يوما كلانا في توحد
سوف نصلب
في ميادين الحقيقة
سوف نرجم
بالتفاصيل العقيمة
سوف نطعن بنصال
من تواريخ سقيمة

***

إن تباينا وأصبحنا كباين
اكتشفنا
إننا دوما خلقنا في تباين
لم نكن كلا موحد
لن يكون الكون كلا متجمد
لن يكون
لن يكون

د. حسنه عبد الحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس



المسيري أديبا

مرت ذكرى وفاة الأديب عبدالمعطى المسيرى (١٩٧٠/٩/٢٧) كاتب القصة الذى علم نفسه القراءة والكتابة، وصاحب مقهى المسيرى بدمنهور والذي كان مكتبة عامة ومعرضا للفنون، يرتاد حلقاتها الأدبية وندواتها المثقفون والفنانون من القاهرة : محمود تيمور، يحيى حقى - على أدهم - محمود البدوى - زكريا الحجاوى - محمود حسن إسماعيل، بالإضافة إلى توفيق الحكيم الذى كان أحد روادها الدائمين طوال فترة عمله وكيلاً للنيابة بمدينة دمنهور.

والمسيرى عالج كتابة القصة الواقعية التى أثارت انتباه القراء والنقاد حيث كتب عميد الأدب العربى د. طه حسين مقدمة لمجموعته القصصية (على رصيف المقهى) عام ١٩٢٣ مشيدا بفكر صاحبها ومدى احتضانه بالوعي والحب لأبطال قصصه من عامة الناس.

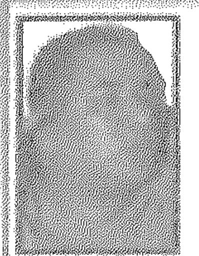
نشر المسيرى أيضاً (الظامئون - الصعاليك - روح وجسد)

أحمد إبراهيم خضير - فوه - كفر الشيخ

ليلة الإسراء

بأطياف من الذكرى ... تطوف الرحلة الكبرى
لعل قلوبنا تحيا ... وتحيى ليلة الإسرا
رسول الله كم عانى ... وكان عناؤه نصرا
أتاه الروح فى ليل ... وسبحان الذى أسرى
تحرك سارياً ركب ... من الأنوار كم سرى
فصار الليل فى صحو ... يريح بدوره الحيرى
ودار العطر فى جو ... فكل واجد عطرا
ورسل الله فى الأقصى ... بدور تنتظر البدرا
بهم صلى قضى أمراً ... ودار ليكمل الأمرا
بأمر الله ما يجرى ... فسبحان الذى أجرى
وخير خيرنا فاختار ... منهما الفطرة الخيرا
فذا لبن وذا خمر ... تحاشى منهما الخمرا
هداه الله لم ينظر ... لغير الفطرة العذرا
ويعرج كى يرى ربا ... ومن آياته الكبرى
رأت مولاه عيناه ... أو القلب استمع واقرا
فهذا قال بالأولى ... وقال سواه بالأخرى
وخاطب ربه الأعلى ... خطاب السر أو جهرا
سماء كان تحمله ... سماوات بها مرا
ومن فوق الطباق السبع ... أكمل بدرنا الأمرا
ليصبح ليلنا السارى ... صباحاً سائراً فجرا

حسن أبو الغيط -المصيلحة - منوفية

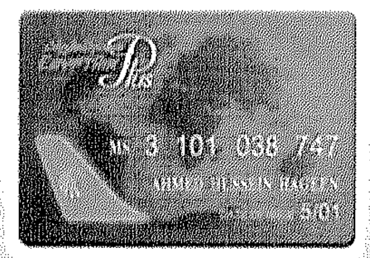


ذو الجين .. المصرى !

بقلم: محمد مستجاب

والجين هو الوحدة الاساسية فى الخلية الحية التى تنقل الصفات الوراثية فى الكائن (النبات والحيوان بانواعه المختلفة - شجرة أو انسانا أو بقرة أو قردا - ويمكنك أن تضيف الملائكة والشياطين دون اهتمام بأن ذلك خارج تخصصك وتخصصى أيضا وذو الجين لقب لم يطلقه بعد واحد من الخصوم أو الأصدقاء على عالم وراثة مصرى يعتقد أن اسمه الاصلى أحمد مستجير ولد فى مصر وتلقى تعليمه بين حوائطها وألواح كتاتيبها وجداول ضروبها، ثم لم يلبث أن وقع فى غرام علوم الزراعة ليقضى حياته فى التنقل والارتحال سعيا لاختراق الخلية الحية بين المنصورة والقاهرة وانجلترا وألمانيا وسويسرا وجبل المقطم وأسيوط وكل أنواع الدروب والسطوح وقنوات الرى أو البحيرات أو المستنقعات بين ادغال الذرة والقصب والأرز والقمح والنخيل والجميز وبلح الواحات وتين الاشواك ، يمعن ويفحص ويبتسم ويحتكم إلى اشعار أمثاله الذين ادمنوا الارتحال كالمتنبى وامرؤ القيس، ليقع فى شرائح فردوس الشعر وعزائه علاجاً لأحزان الفؤاد وارهاق مدرجات الجامعة وجهنم تحليل الخلايا بالعقل أو بالمجهر، مع إضافة قليل من الشجن الوطنى الذى يلازمه فى الاطلاع على البحوث العلمية أو مصادقة علماء الغرب ببساطتهم وهدوئهم ونجاتهم من اختناق الروتين المصرى العتيد، وإذا كان ثمه فرق بينه وبين زميل له يعرفه أصحاب المعرفة الاصيلة

- وأعتقد ان اسمه ذو النون المصرى والذى ظهر قبل ذى الجين المصرى بأحقاب قليلة لاتتعدى أثنى عشر قرنا من الزمان - فإن هذا الفرق يظهر واضحا فى قدرة ذى النون على ادراك علوم الشريعة وهى علوم الفقهاء من أهل الظاهر، ثم قدرته على اختراق علوم الحقيقة (وهى علوم الصوفية من أهل الباطن)، مع قدرته الفائقة على البحث فى الصنعة - وهى الكيمياء، والتى له فيها مصنفات منها (كتاب الركن الاكبر وكتاب الثقة فى الصنعة وكتاب العجائب) - مع عديد من العلوم والمعارف الأخرى، فإن ذا الجين المصرى له قدرات أخرى افترشها عقله العصرى الحديث لتصبح علوم لوراثة حديقته وغاباته وأدغاله وموطن نومه وهجوعه ويقظته وفطنته وذكائه وبساطته وانسانيته التى تزداد رقة كلما تحرك وبحث وترجم وحاضر وحاور وأشرف على الرسائل وعاد إلى زيارة كل عواصم الدنيا، ليصبح ذو الجين المصرى رسالة عصرية إلى قلوبنا التى تسعى كى ترتاح أو تهدأ أو تفخر بعض الوقت، وأن يحوز جائزة ذات شأن وطنى تصلح شأن الجين الجديد لثروة مقبلة .

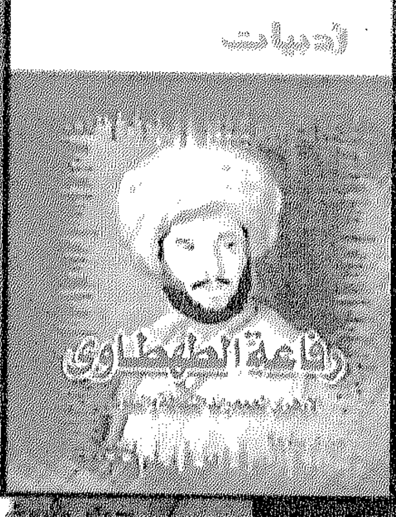


3 101 038 747
5/01

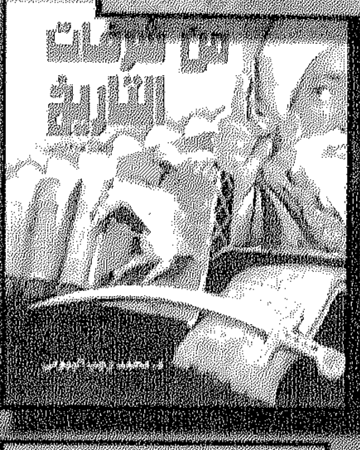


أدبيات

بين الأدب والثقافة المعاصرة

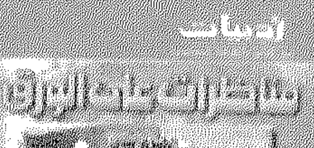














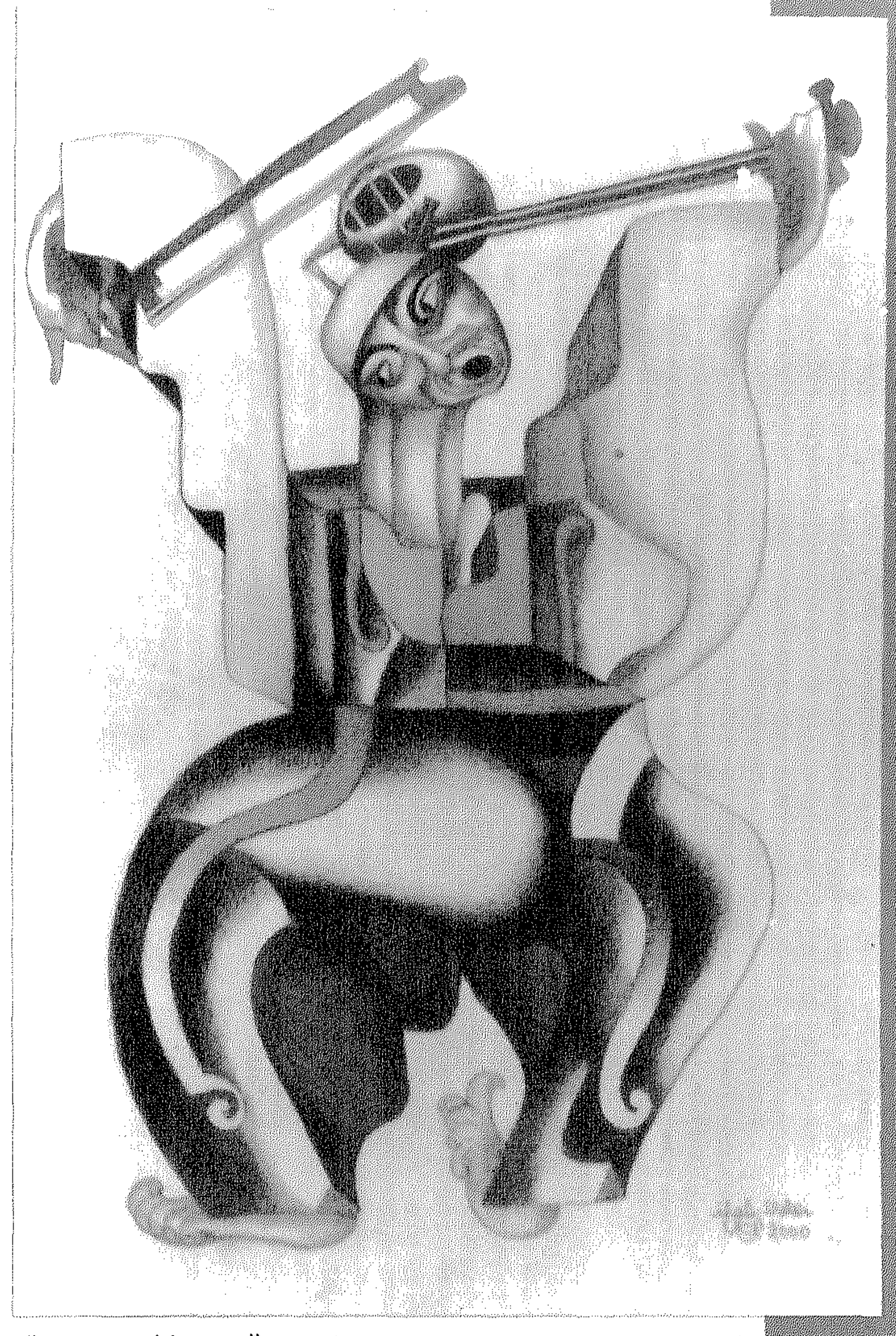
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

الهلال

نوفمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

- من هم الأغنياء فى مصر؟!
- التقريب بين المذاهب الإسلامية
- القدسية فى عمارة المسجد

شاعر الربابة فى رمضان



لوحة: عازف الربابة
للفنان: إيهاب شاكر
٢٠٠٠م

لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨٩١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

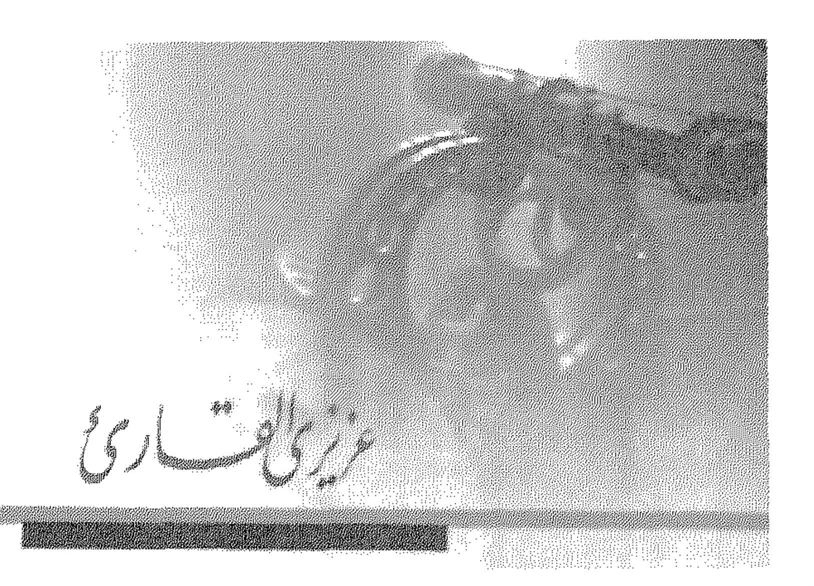
● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادى عشر بعد المائة
شعبان ١٤٢٣ هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



رحلة نجاح مطابع دار الهلال

رحلة طويلة مرت بها مجلة الهلال لكى تحقق ما وصلت إليه من تطور كبير فى فن الطباعة ، والذى استلزم جهودا كبيرة منذ صدورها عام ١٨٩٢م .

كانت مطابع دار الهلال فى عهودها الأولى مشهودا لها بالدقة والإتقان ، ولذلك كانت الصورة أهم ما يميزها . بل وكانت العنصر الذى وضع الهلال فى تحدٍ مستمر بأن تساير تطور فنون الطباعة فى العالم ، فاستوردت دار الهلال أحدث ماكينات الطباعة، خاصة بعد انتقالها إلى مبناها الجديد فى شارع المبتديان والذى تم بناؤه عام ١٩٤٥م. وكانت تضم فى جميع الأقسام أمهر العاملين فى مجالى المونتاج والرتوش ، ومع هذا التطور صدرت أهم المجلات فى مصر فى ذلك الوقت ، ومن بينها المصور والاثنين والدنيا، والكواكب وحواء ، وسمير وميكى وروايات الهلال وكتاب الهلال ، ووصل الأمر بهذه المطبعة العملاقة أن تطبع يوميا ست مجلات تجارية بالاضافة إلى إصدارات الهلال والتى صدر عنها بعد ذلك مجلة طبيبك الخاص والكتاب الطبى.

وجاءت الطفرة الكبرى مع بداية عام ١٩٦٥، حينما حصلت دار الهلال على أحدث ماكينات الطباعة، وليتواصل هدير المطبعة ما بين شارعى المبتديان وبورسعيد، ولتكون دار الهلال هى المنارة التى تضم كبار كتاب السياسة وأساطين النقد والشعر فى مصر ، وهم يؤدون فى تلك الحقبة دورا مهما لتسجيل تاريخ مصر ، ويصنعون حضارة سوف تظل الأجيال المتعاقبة تحمل مشعلها ، دليلا على الدور الهام لمطبعة دار

الهلال التى كانت لها الريادة ومازالت حتى الآن .

لم يهدأ العمل ، ولم يتوقف التحديث ، خاصة فى السنوات العشرين الأخيرة ، فبعد الاحتفال بالعيد المئوى للهلال عام ١٩٩٢ زودت مطابع دار الهلال بأحدث أجهزة الكمبيوتر فى الجمع التصويرى والمونتاج ، وأحدث ماكينات الطباعة وخطوط التجميع والتغليف ، لمواجهة التطور فى المجلات والكتب التى تصدرها الدار ، وليتحقق لها العديد من جوائز معرض الكتاب .

عزيزى القارئ ..

تتواصل رحلة النجاح للمطبعة ، وما نود الإشارة إليه ، ذلك التطور الفنى الكبير الذى تشهده مجلة الهلال منذ بداية عام ٢٠٠١ ، حيث فاز عدد يناير وهو أول عدد فى التطوير بجائزة معرض الكتاب ، وتسلم رئيس مجلس الادارة الجائزة من الرئيس مبارك ، والذى أثنى على الدور الكبير الذى تؤديه الهلال مجلة العرب الأولى ، والتى تواصل رسالتها نحو الحفاظ على الثقافة وحرية الكلمة ، لتثبت أنها مع تطور الزمن تزداد تألقا ، وتسطع فى سماء أمتنا العربية ، وهى تحمل عبء الحفاظ على اللغة العربية الفصحى ، وتناقش كل ما يستجد من آراء فى فكر الآخر وثقافته.

... الهلال حققت هذه القفزة النوعية من خلال جهود أبناء دار الهلال العاملين فى المطبعة وفى الأقسام الفنية ، فالمدير العام المهندس ماهر سلام ورجاله لا يألون جهدا فى تحقيق كل ما يتطلبه نجاح هذه المجلة الرائدة باختيار الورق المناسب والاهتمام بالجمع التصويرى والمونتاج والطباعة . وكل الجنود المجهولين فى المطبعة نوجه لهم الشكر، ولا ننسى مطبعتنا الجديدة بمدينة ٦ أكتوبر ، والتى تعد إضافة جديدة نوجه لهم أيضا التحية فجهد المهندس مصطفى قطب ورجاله لمسناه فى العدد الذى صدر الشهر الماضى، حيث طلبنا منهم التحسين والعناية ، فكانت رعايتهم واهتمامهم بالهلال دليلا على روح الفريق وحبهم وتفانيهم لمؤسستهم ، وتلك صفات أبناء هذه الدار العريقة التى تربعت على عرش الصحافة العربية ، وحققت أبرز أدوار الإعلام لأكثر من مائة وعشر سنوات لمصرنا الغالية . ■

المحـــــرر



بين الأمس واليوم

بقلم
د. مصطفى سويف

رحم الله ابن خلدون بقدر ما أنار بصيرتنا بدروسه فى تمحيص التاريخ ، تمهيداً للإفادة مما ينطوى عليه من موعظة واعتبار ؛ وهو القائل فى مقدمته : « ... فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، ... إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول .. وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » ..

الهلال
شعبان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

أما بعد .. فما أشبه الليلة بالبارحة، نشاهد فى هذه الأيام حلقة جديدة من مسلسل «العراق - أمريكا»، وقد جرت أحداث الحلقة السابقة فى سنة ١٩٩١ ، أى منذ ما يزيد قليلا على عشر سنوات ، فهى ماض قريب ، يقف فى الصف كجزء من التاريخ ، لكنه تاريخ يسمح بالنظر فى قسماته عن كثب ، والمقارنة بين هذه القسمات وملامح الحاضر مقارنة كاشفة عساها أن تكون معلمة .صحيح أن كثيرا من بواطن الأمور فيها لا يزال رهين محابس الوثائق السرية ، وسوف يظل كذلك إلى حين ، لكن مطلبى فى هذا المقام شديد التواضع، فكل ما أرجوه هو تيسير المقارنة بين الوقائع

كمــا وقـعت فى ذلك الماضى القـريب ، والوقـائع كـمـا يتـوالى حـدوثهـا فى هذه الأيام ، وفى زعمى أن هذه المقارنة كفيلة باسـتـحـداث نوع من البـصـيـرة تورث صـاحـبـهـا أقداراً مـتنامـيـة من الثـقـة بالنفس فى أبعادها الوطنية والقومـيـة . وفى زعـمى كـذلك أن بعث الذاكـرة من خـلال هذه المقـارنة يمكن أن يكون وقـاء ضـد الكثـيـر من أضـرار ألاعـيـب السـيـاسيين الذين يعتمدون أساساً فى تحـريك مـواطنيـهم على غـيـاب الذاكـرة المدققة عند هؤلاء المواطنين الأبرياء ، ولا أزال أؤكد للقارىء أننى لا أدعى فى هذا الحـديث أسـتـاذية فى شـرح التـاريخ ، ولكن كل ما أدعيه أننى أكتب عن تاريخ عايشته ، كما جرت هذه المعايشة : وقد جـاء الدور على عـقـد التـسـعـينيـات فى مجال الكلام عن مسيرتى ومصر والعالم فى دروب القرن العشرين ، ورب صدفة خير من ألف ميعاد .

الأمس القريب .. والأمس الأقرب

قـــرأت دلالة الأحـــداث فى الأمس القـريب (الثـمـانينيـات) والأمس الأقـرب (التسعينيات) على أن مفتاحها الرئيسى يكمن فى أفول نجم الاتحـاد السـوفـييـتى والتـلاشى المتــســارع لتـوترات الحــرب الباردة ، وما صحب ذلك (دون ايهال ولا إهمــال) من تنام مــتــســارع لمظاهر الاستئساد الأمـريكى ، وما تناثر حول هذه المظاهر من بؤر جــــديدة تؤذن بانبثاق نوع جديد من التوترات أقرب فى طبيعتها إلى شواظ الحرب الساخنة .

فـــمــع بداية العـــام ١٩٩١ أصـــبـح واضحا للجميع أن بؤرة ساخنة تتخلق، وأنها فى سبيلها إلى مزيد من السخونة ، وأن هذه البؤرة تضم فى التـهـاباتهـا شئون العراق والولايات المتحدة أساساً ، وأن خطوط القوى الفاعلة فيها شديدة النشـــاط ، ومن ثم فـــإن عـــمليـــات الاستقطاب المتداعية حولها جارية على قـدم وسـاق ، كـمـا أن المسـاومـات التى تصحب هذه العمليات لإكسابها ملامحها المفـصلة تجـرى هـى الأخـرى على قـدم وساق .

وفى إدارتـهـا شـئـون هذه البـؤرة حـرصت الولايات المتـحـدة على أن تقـوم بدور «الفــاعل» (فــهـى تـهب للدفــا ع عن الكويت أولا ، والمصالح الغربية البترولية ثانيـا) ، وحـرص العـراق على أن يقـوم بدور «المفعول به» (الذى تهدده الولايات المتـحـدة لأنه - فـيـمـا يدعى - يقـوم بتصحيح تاريخى لخريطة العراق). وكان من أهم مصـاحبات الدور الذى تقوم به الولايات المتـحـدة الغطرسـة والسـربعـة . وفى مقابل ذلك كان من أهم مصاحبات الدور كـمـا يقـوم به العـراق مـا يمكن تسـمـيتـه بالعناد الذى يفتـعل عقـلانيـة جوفاء .

وفى العاشر من يناير سنة ١٩٩١ ،

وتحت ضغوط عالمية ، التقى وزير الخارجية الأمريكية (جيمس بيكر حينئذ) مع وزير خارجية العراق (طارق عزيز حينئذ) فى جنيف بدعوى التفاوض بغية إيجاد حل سلمى للأزمة، وفى الطريق إلى جنيف كان بيكر يلقى بالكثير من التصريحات الاستفزازية ، وكان يلقى كذلك بالنداء تلو النداء مخاطبا أوروبا أولا والعالم بأسره ثانيا بأن يقف صفا واحدا تحت قيادة الولايات المتحدة ضد العراق الذى يتحدى بغزوه الكويت الشرعية الدولية ، وفى مقابل ذلك كان طارق عزيز يقول إنه ذاهب إلى جنيف بعقل مفتوح للحوار البناء . وانتهى الحوار بعد اجتماع دام سبع ساعات . وكان لبيكر ما أراد ، ذلك أنه أراد الفشل ، فحصل عليه . وفى الوقت نفسه وقبيل عقد هذه المفاوضات كانت الإدارة الأمريكية قد طلبت إلى الكونجرس الأمريكى أن ينعقد ويخولها الحق فى الهجوم المسلح على العراق إذا لم ينسحب من الكويت فى موعد أقصاه ١٥ يناير (السريعة) ... هذه وقائع وتواريخ بالغة الأهمية ، أذكرها بقدر معقول من التفصيل لأنها تشرح القول «ما أشبه الليلة بالبارحة»، وتقوم فى شرحه مثالا على البلاغة والإيجاز . جدير بالذكر أيضا فى هذا المقام ما يرويه بوب وودوارد فى كتابه بعنوان «الجنرالات» (وقد نشره سنة ١٩٩١) عن الرئيس بوش (الأب) أنه طلب فى تلك الأيام إلى المخابرات المركزية أن تعد خطة سرية لزعزعة نظام صدام حسين عساها تستطيع أن تزيحه من الحكم . ويستطرد المؤلف قائلا إن بوش كان يريد أن يتمكن من خنق الاقتصاد العراقى . وتحريض معارضى النظام سواء فى الداخل أو فى الخارج . والبحث عن زعماء جدد يحلون محل صدام ورجاله (هكذا !!) (ص ٢٣٧) .

الحرب وتداعياتها

فى الصباح الباكر من يوم ١٧ يناير سنة ١٩٩١ (أى بعد انقضاء سبعة أيام فقط على مفاوضات جنيف) بدأ الهجوم الجوى على العراق . وقد مضت هذه الأيام السبعة تتخللها مفاوضات ومساومات محمومة تقودها الولايات المتحدة لتنضج فيها مواقف الدول المختلفة على نار لا تهدأ . وعندما بدأ الهجوم الجوى كانت القوات الأساسية فيه أمريكية أولا وبريطانية ثانيا ، وشاركت الدول الأخرى بدرجات متفاوتة من الفاعلية ، فشاركت فرنسا بحجم من القوات أكبر مما شاركت به ايطاليا ، وهذه بقوات أكبر مما أسهمت به تشيكوسلوفاكيا ... الخ . وبعد أربعة أسابيع من بدء القصف كان عدد الغارات الجوية التى تلقاها العراق ٦٥ ألف غارة (أى بمعدل يبلغ حوالى ٢٣٠٠ غارة يوميا تقريبا .

وجاءت التداعيات التى أثارتها هذه الحرب لافتة للنظر بما تكشف من إصرار سواء فى المساندة أو فى الرفض : كانت بريطانيا أكثر الحلفاء تحمساً للموقف الأمريكى ومشاركة فى تنفيذه (لاحظ أن بريطانيا كانت حينئذ تحت إدارة المحافظين ولم تكن تحت إدارة العمال كما هو الحال الآن . وهو ما يعنى أننا كنا ومازلنا أمام توجه استراتيجى فى السياسة البريطانية) . أما فرنسا فقد تغير موقفها من المراوغة (من خلال تصريحات ميتران رئيسها حينئذ) قبيل الحرب إلى المساندة والمشاركة بعيد وقوعها . وأعلنت اليابان أنها ستقدم معونة إلى المجهود الحربى للحلفاء يصل حجمها إلى تسعة آلاف مليون دولار ، وصدر عن ألمانيا إعلان مماثل (دون ذكر لحجم إسهامها) .

وفى مقابل هذا الموقف الغربى الذى ينضح بمظاهر التكالب على افتراس العراق (بدوافع الرغبة والرهبة معاً) جاء الموقف فى المنطقة العربية يكشف عن قدر كبير من التأزم والتشرذم : فكان فى مقدمة المتوجهين ضد العراق المملكة العربية السعودية ومصر ، ولم تشارك مصر فى الحرب الجوية ولكنها وقفت على الحدود السعودية / العراقية للإسهام فى الدفاع عن المملكة إذا قرر العراق مهاجمتها ، وعلى النقيض من ذلك أعلنت حكومات عربية أخرى أنها تقف ضد هذه الحرب ، وكان فى مقدمة هذه الدول الأردن واليمن والسودان والسلطة الفلسطينية .

ولم تتوقف حصيلة ردود الأفعال التى أثارتها الحرب عند هذا الحد من التضارب ، بل تجاوزته إلى ما هو أشد تعقيدا ، فقد انطلقت تحركات دولية فى السبيل إلى طرح مبادرة سلام تدعو إلى إيقاف الحرب فوراً ، والبدء فى مفاوضات جديدة ، وكان فى مقدمة الدول الداعية بهذه الدعوة الهند وباكستان ودول المغرب العربى . وبالإضافة إلى ذلك بدأت أصوات لمؤسسات إعلامية وغير إعلامية تعلن عن مواقف معارضة للحرب (رغم مواقف حكوماتها) لاعتبارات مختلفة . وصدر نداء قوى من بابا الڤاتيكان يدعو جميع رؤساء الكنائس الكاثوليكية فى بلاد التحالف الأنجلو أمريكى وفى القدس وفى بغداد إلى اجتماع يعقد فى روما للنظر فى أمر هذه الحرب ، وقال البابا فى دعوته إن من حق شعوب الشرق الأوسط أن تنعم بسلام دائم . وصدرت كذلك ردود أفعال معارضة من أشخاص كانوا يقومون بأدوار هامة فى حكوماتهم فى تأجيج الصراع ، وكان فى مقدمة هؤلاء وزير الدفاع الفرنسى الذى استقال من منصبه فى ٢٩ يناير سنة

١٩٩١ وقال فى كتاب الاستقالة إن كل يوم يمر يبعد بقوات الحلفاء عن الهدف الأصلى المعلن للحرب وهو تحرير الكويت ... وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٩١ صدرت الأوامر (الأمريكية أولا ثم من حلفاء أمريكا واحداً بعد الآخر) بوقف جميع العمليا الحربية ... ويقول بوب وودوارد فى كتابه «الچنرالات» إن الحرب استغرقت ٤٢ يوما ، قتل خلالها عشرات الآلاف من العراقيين . أما الخسائر الأمريكية فكانت ١٣٧ قتيلا وسبعة أفراد اعتبروا من المفقودين .

أوجه الشبه بين الأمس واليوم

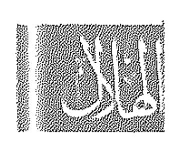
تكشف قصة حرب الخليج للعام ١٩٩١ كما رويتها فى الأسطر القليلة السابقة عن عدد من أوجه الشبه الزاعقة مع ما نشهد اليوم ونسمع حول حرب خليجية جديدة تناسب العام ٢٠٠٢ . وإلى القارىء ذكر بعض هذه التشابهات

أولا ، هناك الرغبة الأمريكية المشبوبة فى تغيير نظام الحكم وتغيير الحكام فى العراق .

وثانيا ، هناك الإعلان (الذى ازداد سفورا) عن محاولات لتجنيد أعضاء المعارضة المهاجرين خارج العراق للعمل (على أنغام أمريكية) ضد نظام الحكم فى بلدهم .

وثالثاً ، من الحجج التى تعلنها الولايات المتحدة ضد العراق استبداد نظام الحكم فيه (كأنما هذا شأن أمريكى قبل أن يكون شأنا عراقيا) .

ورابعا ، لا ذكر ولا حساب إطلاقا للمواطن العراقى العادى وما يقع عليه من موت ودمار وخراب ديار نتيجة للحرب . والسؤال الآن : وماذا فى هذا التشابه ؟ فيه الكثير ؛ فقد كان السبب المباشر والمعلن لقيام حرب ٩١ هو تحرير الكويت ، ولكن بقدرة قادر دفعت إلى السطح أسباب أخرى توحى بفرض الوصاية على الشعب العراقى ، حتى ولو كان ذلك عن طريق تدميره وتدمير مقدراته ! وهذا بدوره يوحى بأن موضوع تحرير الكويت إنما اتخذ ذريعة جرى توظيفها لأغراض أمريكية أخرى ، تماما كما يستغل اليوم موضوع الإرهاب لإعادة ضرب العراق (وللتلويح باحتمال ضرب جهات أخرى فى المنطقة) فى حين أن السعى يتصل نحو تحقيق الأغراض الأمريكية الأخرى . والسؤال الذى يفرض نفسه بعد ذلك هو: وما هى هذه الأغراض الأمريكية الأخرى ؟ هذه الأغراض هى إعادة هيكلة منطقة الشرق الأوسط كلها . وهذه الإجابة نفسها جزء من إجابة أوسع مساحة وأشد جذرية ، هى فى نهاية المطاف إعادة هيكلة العالم بما يتناسب



ومقتضيات الأحادية القطبية الأمريكية . ومعنى ذلك أننا هنا بصدد خطط بعيدة المدى للهيمنة الأمريكية علينا في هذه البقعة من الأرض ، وعلى جميع البقاع فوق الكرة الأرضية كاملة، ومع أنني أرى هذا التوجه / الحلم الأمريكي الأساس وقد أخذت تفعله أعداد متنامية من الأدمغة والألسنة الأمريكية والمتأمركة (المؤمنون منهم بالمرجعية العليا للقوة بوجه خاص) فلا يعني ذلك في رأيي حتمية تحققه في المستقبل المنظور ، بل على العكس من ذلك ، أرى عوامل كثيرة تتهدده ، يتمثل بعضها في قوى وتناقضات تنمو وتختمر داخل المجتمع الأمريكي نفسه . ويتمثل بعضها الآخر في إمكانيات أقطاب متناثرة حول العالم آخذة في التبلور ، ويتمثل بعضها الثالث في إرادات تملأ الأرض بتحركاتها وأصواتها وإبداعاتها في الطريق إلى مقاومة لا تنكسر. والمسألة في نهاية الأمر مسألة إرادات ، أكثر منها مسألة حشود وأساطيل وتهديدات .

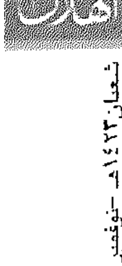
الأحوال فى مصر

أما عن الأحوال في مصر في تلك الفترة العصيبة فكانت تكشف عن كثير من أبعاد الأزمة التي تعصف بالمنطقة، هذا عن أحوالها المتوجهة إلى الخارج، وكانت لمصر أحوالها المتوجهة إلى الداخل أيضا لأن الحياة في مصر أغنى وأثقل من أن يطغى فيها الخارج على الداخل ، لكنني لا أجد للحديث عن الداخل متسعا في هذا المقال .

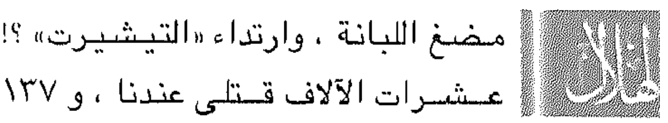
في مصر تعالت أصوات مدنية ضد الحرب : وتزايدت مع الأيام أعداد القائمين على هذه الدعوة وتنوعت فصائلهم: فقد أعلنت جريدتا «الشعب» و «الأهالي» معارضتهما الحرب منذ البداية ثم نشرت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية كراسة في رفض الحرب والتنديد بها تحوي العنوان الفرعي الآتي : «مجموعة وثائق تحمل وجهات نظر تعارض الحرب في الخليج» .

وقد صدرت هذه الوثائق عن ٢٢ منظمة نذكر منها : «منظمة تضامن الشعوب الأفرو آسيوية» و «اتحاد المحامين العرب» ، و«المنظمة العربية لحقوق الإنسان» و«ممثلي النقابات المهنية بمصر» ، «والنقابة العامة للأطباء» و «الجمعية العمومية لقضاة جمهورية مصر العربية» ، و «مجموعة من أساتذة الجامعات» و «مجموعة من المثقفين والكتاب» ، و «مجموعة من الصحفيين المصريين» و «اللجنة الشعبية المصرية لمقاومة الغزو الأمريكي الصهيوني للخليج العربي» . و «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ... الخ .

واندلع العديد من المظاهرات الطلابية ... وتشاكى الناس من تعطل



السياحة ، وساد الاعتقاد بأن عددا من الفنادق الكبرى سوف يغلق أبوابه . وتجولت بنفسى فى بعض هذه الفنادق، دخلت ميناهاوس ، ودخلت الماريوت ، ووجدت المطاعم فى الفندقين خاوية إلا من مائدة أو اثنتين . وسرعان ماتشاكى الناس من كساد يعم السوق كله ... وما من أحد من الأصدقاء أو الزملاء صادفته فى الطريق أو فى العمل أو على الهاتف إلا وكان حديثه مشبعا بالتعبير عن الغضب المكتوم ، والإحباط والاكتئاب من جراء ما يحدث فى العراق ... وفى حدود ذاكرتى وما تسترجعه عن تلك الأيام لم تكن هذه المشاعر والتعبيرات وقفاً على المثقفين أو ذوى التعليم رفيع المستوى ، ولكنى شهدتها وخبرتها عند بسطاء المواطنين ... وكنت أردد فى خاطرى بين الحين والحين : كم نتعرض للخداع ليل نهار ... أليست هذه هى الحرب على حقيقتها ؟! أم الحرب ما تقدمه لنا السينما الأمريكية من خلال مضغ اللبانة ، وارتداء «التيشيرت» ؟! عشرات الآلاف قتلى عندنا ، و ١٣٧ قتيلا وسبعة مفقودين ... عندهم .



الأنا والنحن

علاقة الأنا بالنحن علاقة بالغة التعقيد فى صدرى . فهما قطبان على تدريج متصل واحد ، وكلاهما دائم الحركة قربا وبعدا نحو القطب الآخر . ومع اشتداد حدة الأزمات المجتمعية من حولى يزداد توجه النحن إلى اجتذاب الأنا والسيطرة على مقدراته .

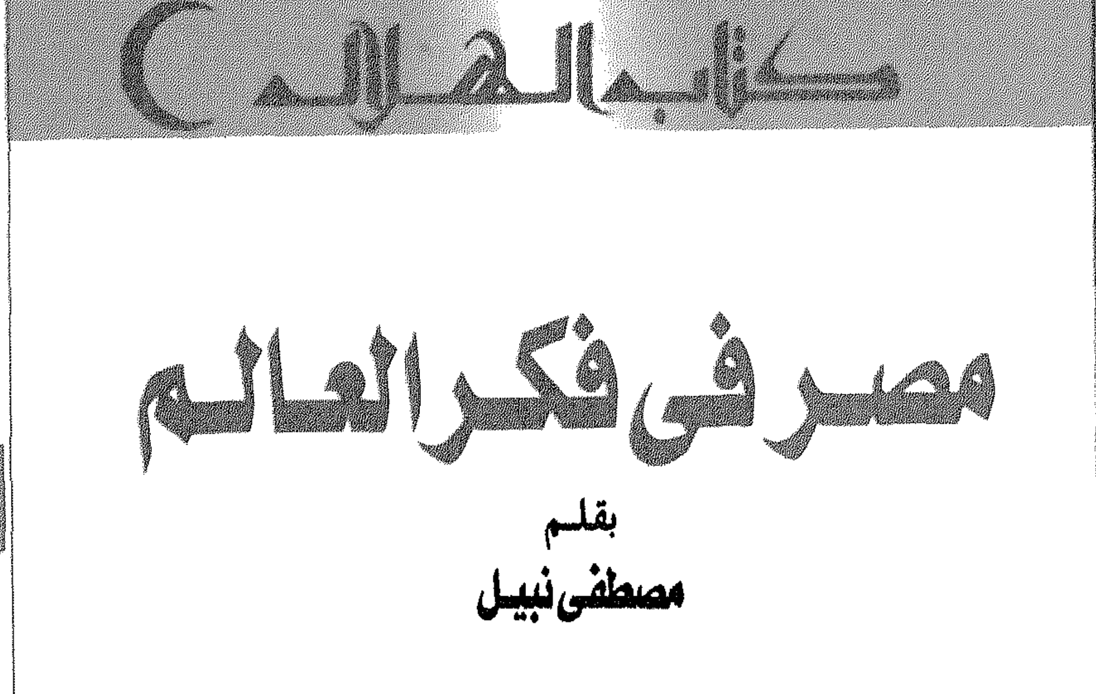
وقد تنبهت إلى عمليات ترسب أزمة العراق مع الولايات المتحدة منذ بدأت نذرها المبكرة فى سنة ١٩٩٠ . وكانت متابعتى إياها تزداد كثافة مع مرور الأيام . وكنت أشعر أننا مقبلون على زلزال اجتماعى عنيف . وأسوأ ما تصيبنا به هذه الزلازل وأمثالها أنها (على غير وعى منا) تغير الأوزان النسبية لاهتماماتنا وتوجهاتنا . وقد تعلمت على امتداد عمر الوعى والنضوج كيف أروض آثار هذه الزلازل فى نفسى حفاظا على صيغة التوازن الأمثل بين الأنا والنحن . وكان من أهم معالم الطريق أمامى فى هذا الشأن تفعيل قواعد المقاومة طويلة المدى .

فى فترة الحرب نفسها اشتد حرصى على أداء واجباتى العلمية والبحثية بوجه خاص . وازداد وعيى بأننى بذلك أقيم استراتيجياتى بكل مكوناتها فى مواجهة استراتيجيات قهر الإرادة وتدمير إمكانات الرقى بل وإمكانات الحياة .

فى تلك الفترة حرصت أنا والزملاء الأعضاء فى فريق البحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية على مواصلة أعمالنا الميدانية والمكتبية بأعلى

درجة من كثافة الوعى وكثافة التجويد وأنا أقرأ الآن محاضر اجتماعاتنا فى تلك الأيام وأعيد قراءتها وأعجب بشهادتها بأننا لم نترك لوهن الاكتئاب منفذا إلى نفوسنا بل على الضد من ذلك انطلقنا نعمل بإصرار يحدوه قدر محكوم من الغضب . كذلك اتصل عملى مع الأساتذة الزملاء فى لجنة المستشارين العلميين المنبثقة عن المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان. وعلى هذا النحو أيضا قمت بواجباتى التعليمية فى الجامعة .

• وأقرأ الآن فى مفكرتى حول تلك الفترة ما نصه : «... ربما كانت الفترة التى أعيش فيها الآن من أخصب فترات حياتى فيما يتعلق بالنشر باللغة العربية ... وفى هذا الإطار من الهم العام ، المجزن فى الحاضر ، والمهدد للمستقبل أواصل أعمالى ...» ولا أزال أرجو لمواطنى (المصريين والعرب جميعا) أن يتقنوا مهارات المقاومة الخلاقة ، (مزيد من التشبث بالعمل ، مصحوبا بتأكيد الهوية) ، وألا يتركوا نفوسهم مستباحة لهبات الهم العام وما تجلبه معها أحيانا من سموم موجهة أساساً لاقتلاع إرادة الحياة الكريمة . ■



الأغنياء والدولة

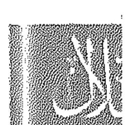
من هم الأغنياء فى مصر؟!

بقلم
د. جلال أمين

من المبادىء المشهورة فى الماركسية أن الدولة هى دائما أداة الطبقة العليا فى قهر سائر الطبقات، ليس هناك فى نظر الماركسية «دولة محايدة» بين الطبقات. بل الدولة دائما وسيلة تستخدمها الطبقة صاحبة الامتيازات الاقتصادية لحماية هذه الامتيازات ضد الطبقات الأخرى المحرومة منها.

والذين يتصورون أن الدولة يمكن أن تقوم بدور «الحكم» بين الطبقات أو أن من الممكن «إقناعها» بأن تتصرف لصالح الطبقات الدنيا، ولو كان هذا على حساب الطبقات العليا، الذين يتصورون هذا واهمون، فهم يطلبون المستحيل.

معنى هذا أن السلطة السياسية لابد أن تئول، عاجلا أو آجلا إلى أصحاب السلطة الاقتصادية، فإذا حلت طبقة محل أخرى فى اعتلاء أعلى درجات الثراء والقوة الأقتصادية فلابد أن تعتلى أيضا أعلى درجات النفوذ والسلطة السياسية.



ليس من الصعب أن نرى قوة هذه الفكرة وجاذبيتها، فالتاريخ يمدنا بأمثلة عديدة على صحتها، والمنطق البسيط يدعمها.

فى أوربا الاقطاعية كانت السلطة السياسية والقضائية والعسكرية فى أيدى كبار الاقطاعيين من ملاك الأراضى، فلما نمت ثروة التجار خلال ماعرف بعصر النهضة، تمتعت المدن الأوربية باستقلال نسبى ونما النفوذ السياسى للتجار مع نمو ثروتهم، بينما ضعفت سلطة الاقطاعيين مع زيادة احتياجهم لأموال التجار، وأخذ نجم الاقطاعيين فى الأفول، وعندما اشتد معدل نمو الصناعة فى القرن الثامن عشر وأصبحت هى والتجارة أهم مصادر الثراء ونموّ الدخل، قامت الثورات السياسية لتضع أرباب الصناعة والتجارة محل ملاك الأراضى على عرش السلطة، وكانت أشهر هذه الثورات الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ التى سماها ماركس «ثورة البورجوازية» والدولة الحديثة فى الغرب تستلهم سياساتها وقراراتها من مصالح أصحاب الشركات والبنوك، إذا احتاجوا إلى الحصول على مواد أولية رخيصة وأسواق جديدة لتصريف السلع أو لاستثمار فوائض رءوس الأموال، قامت من أجلهم بمهمة قهر شعوب دول أخرى فيما يسمى بالاستعمار، فإذا تطلب هذا احتلالا عسكريا سافرا شنت الدولة من أجلهم الحروب اللازمة، وإذا استلزم مجرد إغراق الدولة الأجنبية بالديون قامت دولتهم بتقديم الديون اللازمة تحت اسم «المعونات الأجنبية». وهكذا.

الأمثلة التاريخية على ذلك لانهاية لها، ولكن المنطق البسيط أيضا يدعم هذه النظرية ويؤيدها، إذ ما الذى يمكن أن يجبر أصحاب الثراء فى دولة ما، وأغنى أغنيائها، والمتحكمين فى مصادر الرزق فيها، على أن يقبلوا أن تصدر القوانين والقرارات الإدارية الحاسمة من وراء ظهورهم ودون استشارتهم؟ لماذا يترك أغنى الأغنياء فى دولة ما، موظفا أو سياسيا صغيرا يتحكم فيهم ويضع القيود على حركتهم ويوجه استثماراتهم كما يشاء، ويخضعهم لما أراد فرضه من ضرائب بينما هم قادرون، بما يتحكمون فيه من أموال أن يعزلوا هذا الموظف أو السياسى وأن يأتوا بغيره ممن يأتمر بأمرهم؟

فإذا لم يستطيعوا عزله فلماذا لايحاولون شراءه؟ وإذا لم يستطيعوا عزله ولاشراءه فلماذا لايدبرون مؤامرة لقتله؟ هذا إذا افترضنا أن جاذبية المال وفتنته لم تكونا كافيتين وحدهما لإخضاع السياسى من البداية وترويضه.

كل هذا مفهوم ويكاد يكون بديهيا، ولكن لابد أن نلاحظ أن قيام أصحاب السلطة السياسية بتحقيق مصالح أصحاب القوة الاقتصادية والسهر على خدمتهم لابد أن يتخذ صورا متعددة باختلاف الظروف والأحوال، ودرجة القهر التى يمكن أن تستخدمها الدولة

ضد الفقراء ولصالح الأغنياء لابد أن تختلف وفقا لما إذا كانت الظروف الاقتصادية مواتية أو غير مواتية، ظروف رخاء أم كساد.

نعم ، الدولة دائما «فى الخدمة»، ولكن هذه الخدمة يمكن أن تتخذ ألف صورة، من أكثر الصور وداعة إلى أشدها شراسة.

حماية الملاك!

لنفرض مثلا أن المجتمع يعيش أساسا على الزراعة ويتكون من نسبة ضئيلة جدا من السكان، هم الصفوة الثرية من ملاك الأراضى الكبار - وغالبية عظمى، قد تصل إلى ثمانين فى المائة أو أكثر، من المزارعين المعدمين أو شبه المعدمين، يعيش أغلبهم عند حد الكفاف، لابد فى هذه الظروف أن تسهر الدولة على حماية الملاك الكبار من أى عمل عدائى ضدهم قد يخطر ببال أحد من المعدمين أو أشباه المعدمين، ولابد لهذه الدولة أيضا السهر على تنفيذ مشروعات الرى والصرف اللازمة لاستمرار الإنتاج الزراعى وتجدده وربما أيضا لزيادته ونموه مما يعود على كبار الملاك بالنفع. ولكن فى ظروف الفقر المدقع التى يعيش فى ظلها الغالبية العظمى من السكان لايتصور بالطبع أن تفكر الدولة فى تمويل هذه المشروعات باقتطاع جزء من دخول هؤلاء المسكين، فالحقيقة أن هؤلاء ليس لديهم أى فائض يمكن أن تقتطع منه ضريبة أو إتاوة من أى نوع، إذ إن تحميلهم بأعباء هذه المشروعات لابد أن ينتهى إلى موتهم جوعا.

التمويل اللازم إذن لابد أن يأتى من جيوب نفس المستفيدين منه: كبار الملاك يدفعون ضريبة تقوم الدولة باستخدامها لتغطية تكاليف المشروعات اللازمة لخدمة نفس هؤلاء الملاك الكبار.

كانت هذه فى خطوطها العريضة الصورة العامة لدور الدولة فى مصر قبل ١٩٥٢ : دولة تقوم بحفظ الأمن وتسهر على سيادة النظام حماية للأغنياء الذين كانت الغالبية العظمى منهم من ملاك الأراضى الكبار. والسياسة الاقتصادية تكاد تنحصر فى حماية الانتاج الزراعى وتنميته فى الحدود الممكنة، فإذا احتاج هذا إلى أموال فالمصدر الأساسى لهذه الأموال هو «ضريبة الأطيان» (التى كانت تسمى باختصار «المال») وكان يدفعها كبار الملاك ويعفى منها صغارهم.

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ بتنحية هذه الطبقة من الأغنياء عن السلطة السياسية بل وقلمت أيضا آظافرهم الاقتصادية بقوانين الإصلاح الزراعى المتتالية وقوانين الحراسة والمصادرة ثم التأميم .. فلمن آلت السلطة؟ لقد آلت السلطة السياسية لعدة شرائح من الطبقة الوسطى، أو بالأحرى للطبقة التى كانت «وسطى» عند قيام الثورة من الضباط والمهنيين والتكنوقراط، من مهندسين وقانونيين ومديرين واقتصاديين ومحاسبين وآساتذة الجامعات .. الخ، ممن كانوا محرومين تماما من المشاركة

فى السلطة السياسية قبل الثورة مالم يكونوا هم أنفسهم من كبار ملاك الأراضى، كما كانوا بعيدين تماما عن فرص الإثراء الواسع. فتحت الثورة لهذه الطبقة (أو الشرائح الاجتماعية) فرص الارتقاء الاقتصادى، ولكنها فتحت لهم فى نفس الوقت، وبالضرورة فرص الارتقاء السياسى أيضا، فإذا بالسلطتين السياسية والاقتصادية، تتحدان من جديد، بعد انقضاء وقت قصير على قيام الثورة، كما كانتا متحدتين قبل الثورة، وتوجهت الدولة، فيما تصدره من قوانين وما تتخذه من إجراءات إلى خدمة هذه الطبقة الجديدة والحديثة العهد بالثراء والسلطة، طبقا للقانون العام: الدولة فى خدمة الطبقة صاحبة الامتيازات الاقتصادية.

إحلال طبقة محل طبقة

الحقيقة التى لايمكن الاختلاف عليها هى أن ثورة يوليو كان من أهم نتائجها إحلال طبقة محل طبقة فى الامتيازات الاقتصادية والسياسية على السواء ،ولعل هذا هو المبرر الأساسى لتسميتها «ثورة» على الإطلاق، ولكن من الواجب أيضا الإقرار بأن القوانين التى أصدرتها الثورة فى الخمسينات والستينات، وما اتخذته من اجراءات عادت بالفائدة على شرائح واسعة من السكان تتجاوز الطبقة الوسطى من الضباط والمهنيين وأصحاب الملكيات المتوسطة فى الريف والمدن، فمجانية التعليم مثلا، ومختلف صور الدعم التى قدمتها الثورة للسلع والخدمات الضرورية، وتوفير فرص العمل لأبناء الفلاحين فى الاستصلاح الزراعى وبناء السد العالى والصناعات الجديدة التى أنشأتها الدولة، كل هذا يجعل وصف الدولة المصرية فى الخمسينات والستينات بأنها كانت «فى خدمة الطبقة الوسطى» أو شرائح معينة من هذه الطبقة وصفا غير منصف تماما. ومع هذا فلا بد من الاعتراف أيضا، إحقاقا للحق بأن الدولة المصرية خلال هذين العقدين اتخذت كثيرا من الإجراءات التى كانت تحقق مصالح هذه الطبقة بالذات، أو شرائح معينة منها حتى لو تعارضت هذه الإجراءات تعارضا واضحا مع مصالح الطبقات الدنيا، كما أنها تجاهلت تجاهلا معيبا بعض الحاجات الأساسية لهذه الطبقة الدنيا عندما كان إشباع هذه الحاجات يتعارض مع مصالح الطبقة الوسطى أو تلك الشرائح منها التى كانت تملك مقاليد الحكم. أنظر مثلا إلى ما أعطته الصفوة الحاكمة لنفسها وللطبقة التى أتت منها من إمتيازات فى الحصول على أراضى البناء والشقق السكنية ، وفى بناء المصايف الجديدة والحلول محل أبناء الطبقات العليا (التى أزاحتها الثورة عن مكانها) فى احتلال المصايف القديمة، بل وفى تحديد مايتم إنتاجه واستيراده من سلع، وتقديم الدعم إلى بعض السلع والخدمات التى لا يستفيد منها إلا الطبقات متوسطة الدخل ولايمكن أن تطمح إلى شرائها الشرائح

الدنيا، كالسيارات وأجهزة تكييف الهواء والثلاجات، والسخاء المبالغ فيه فى تحديد ماتحصل عليه الشرائح العليا من الطبقة الوسطى من مرتبات أو مكافآت أو بدلات السفر، أو فى إنشاء النوادى المخصصة لاستخدام هذه الشرائح، مما لايمكن تبريره فى ظل متوسط الدخل للدولة الكل فى ذلك الوقت.

نعم، كان هناك الكثير من الخدمات المجانية أو المدعومة التى تقدم للطبقات الدنيا كذلك، ولكن كان هناك تفضيل واضح عند تحديد الأولويات لمطالب الطبقة الوسطى مما كان عليه التضحية به من أجل حاجات أكثر إلحاحا لأقل الناس دخلا، كتدشين برنامج طموح مثلا للقضاء على الأمية فى وقت قصير (وهو مالم يحدث حتى الآن) أو لتحسين مستوى الحياة فى القرى بمعدل أسرع بكثير مما كان يحدث بالفعل، سواء فى توفير المياه الصالحة للشرب فى بيوت الفلاحين أو تزويدها بالكهرباء أو فى تعميم وسائل نشر الثقافة والترفيه .. إلخ .

منافع الطبقة الجديدة

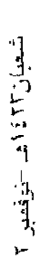
بهذا المعنى إذن تتأكد من جديد صحة قول ماركس : لابد أن تكون الدولة طبقية فى الأساس، وليس هناك دولة محايدة.

ولكن من أين آتى للدولة المصرية فى هذين العقدين التاليين للثورة مصادر التمويل اللازم لتحقيق هذه المنافع لهذه الطبقة الجديدة، ولشرائح واسعة كذلك من الطبقات الدنيا فى نفس الوقت؟.

كان المصدر الجديد للثروة فى هذين العقدين يتكون أساسا مما سمى «بمشروعات التنمية» فى الصناعة والزراعة والخدمات، مصانع جديدة من كل نوع، والسد العالى، ومشروعات كبرى لزيادة إنتاج الكهرباء وخدمات المواصلات والصحة والتعليم ... الخ .. فمن أين المال اللازم لتمويل هذا كله؟

الأغنياء القدامى قد أصابهم ما أصابهم ولم تبق لديهم قدرة تذكر على تمويل هذه المشروعات، والثورة لم تكن لديها لا الأيديولوجية الملائمة ولا القسوة اللازمة لاستخلاص أى فائض من الشرائح الاجتماعية الدنيا أو ملاك الأراضى الصغار أو مستأجريها الذين استفادوا من إعادة توزيع الأراضى الزراعية ووضع حد أقصى للإيجار الزراعى (كما فعلت روسيا السوفييتية مثلا) لقد لجأت الثورة، من أجل توفير المال اللازم لهذه التنمية، إلى مصادر «أجنبية» إما بمصادرة مشروعات كانت مملوكة لأجانب داخل مصر (كقناة السويس) أو البنوك والشركات الأجنبية التى جرى تأميمها أو تمصيرها، أو بالاقتراض من الخارج.

وليس من قبيل الشطط فى رأيى القول بأن هذا التدفق للأموال من مصادر «أجنبية» هو الذى سمح للدولة المصرية فى الخمسينات والستينات بأن تبدى هذا السخاء إزاء شرائح اجتماعية تقع فى أسفل السلم الاجتماعى ولا تتمتع بتمثيل حقيقى فى السلطة



السياسية التى كانت تحتكرها شرائح من الطبقة الوسطى مهما قيل وقتها عن اشتراط نسبة معينة من أعضاء المجالس النيابية لتمثيل العمال والفلاحين. كان من الممكن إذن أن تسمح الطبقة الممسكة بمقاليد السلطة فى الخمسينات والستينات، لشرائح واسعة من الطبقات الدنيا، بمشاركتها فى هذه المصادر الجديدة للرزق، دون أن يتجاوز هذا بالطبع حدا معينا، إذ يظل من الضرورى دائما أن تستأثر هذه الصفوة بنصيب الأسد، بحكم انفرادها بالسلطة السياسية.

ولكن إذا كان هذا التحليل الطبقى للدولة ينطبق على مصر حتى العقدين التاليين مباشرة لقيام ثورة يوليو، فما بالك بما آتى بعد ذلك من عقود؟

تغير الصورة

لقد استمر انطباق القاعدة نفسها، وبحذافيرها، فى العقود الثلاثة التالية (١٩٧٠ - ٢٠٠٠): الطبقة التى تمسك بمقاليد السلطة السياسية لابد أن تخدم نفسها فى الأساس. ولكن من الشيق جدا فى رأيى أن نلاحظ ما طرأ من تغير على الصورة التى اتخذتها هذه القاعدة بين فترة وأخرى.

لقد رأينا كيف اقترن تطبيق هذه القاعدة فى الخمسينات والستينات بالسماح بالنهوض بأحوال الطبقات الدنيا فى المجتمع، وقد زعمت أن هذا «السخاء» لم يكن ممكنا لولا توافر مصادر خارجية للدخل والثروة. والذى حدث فى السنوات العشر الواقعة بين منتصف السبعينات ومنتصف الثمانينات (بعد بضع سنوات كئيبة من الركود الاقتصادى ٦٧ - ١٩٧٥، أصيبت فيها هذه المصادر الخارجية بالجفاف الشديد) هو آن تدفقت على مصر مصادر جديدة للدخل، كانت هى أيضا مصادر خارجية، سمحت ايضا للجميع بالمشاركة فى الوليمة: الأموال المحولة من الخارج بسبب الهجرة والقروض السخية الآتية من الخارج كمقابل لتغيير اتجاه السياسة الخارجية والاقتصادية للدولة، وإيرادات سخية ايضا مقابل بيع البترول بعد الارتفاع الكبير فى أسعاره فى أعقاب حرب اكتوبر فى ٧٤/٧٣ ثم فى أعقاب الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩، وايرادات قناة السويس بعد إعادة فتحها فى ١٩٧٥، بل وإيرادات وفيرة أيضا من السياحة. لقد حققت مصر خلال هذه الفترة (٧٥ - ١٩٨٥) معدلا لنمو الدخل القومى غير مسبوق فى تاريخها الحديث (٨٪ أو كثر)، وهو ما سمح للأثرياء بتحقيق ثروات إضافية غير مسبوقة ايضا، وللنشطين والشطار وقناصى الفرص من غير الأثرياء بالانضمام إلى زمرة الأثرياء، ولكنه سمح أيضا بارتفاع عام فى مستوى المعيشة لشرائح واسعة من الطبقات الدنيا كان مصدره فى الأساس ما خلقته لهم الهجرة من فرص جديدة لزيادة الدخل.

هل استمرت الدول المصرية حتى منتصف الثمانينات تعمل لخدمة الطبقة صاحبة الامتيازات الاقتصادية؟ نعم



بالطبع، بل وبدرجة ربما لم تعرف مصر مثيلا لها منذ أسس محمد على الدولة المصرية الحديثة.

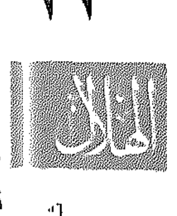
كان الرئيس الراحل السادات يفخر علنا بأن عهده شهد تضاعف ثروة الأغنياء بسبب تضاعف أسعار الشقق والعمارات وأراضى البناء، بل كان يميل الى قياس نجاح سياسته الاقتصادية بمثل هذا المقياس. وقد أخذ يقرب اليه ويضم إلى حكومته أكثر فأكثر، أشخاصا معروفين بأنهم حديثو الثراء، ومتربعون على عرش التجارة والمقاولات ، وأصبح من المعتاد أن يفتح أبناء المسئولين السياسيين الكبار، بمجرد حصولهم على الشهادة الجامعية، مكاتب للتصدير والاستيراد (كانت فى الأغلب للاستيراد أكثر منها للتصدير)، وان يحصلوا بسهولة فائقة على التوكيلات اللازمة لممارسة هذا النشاط، وعلى التصريحات والتسهيلات اللازمة للإثراء السريع، من حصول على مواد البناء بالأسعار المدعمة، أو على إعفاء من الضرائب الجمركية، أو على أراض مملوكة للدولة بأثمان بخس .. إلخ.

التضخم .. وطبقة الأثرياء

كان معدل التضخم فى هذه الفترة (٧٥ – ١٩٨٥) قد بلغ مستوى لم تعرفه مصر لا قبل ذلك الوقت ولا بعده (حتى تجاوز فى كثير من السنوات ٢٠٪ سنويا) وأفاد التضخم هذه الطبقة من الأثرياء الجدد، ولم يضر إلا بنسبة صغيرة من السكان، وهم أصحاب الدخول الثابتة، إذ سمحت الهجرة وتدفق الأموال من كل جانب للغالبية العظمى من السكان بزيادة دخولهم النقدية، بل لقد أفاد من التضخم شرائح واسعة من الحرفيين والعمال الزراعيين الذين ساهمت هجرة أعداد غفيرة منهم فى رفع أجور من تبقى منهم فى مصر بمعدلات أعلى من معدلات التضخم، ومن ثم ربما لم تزد نسبة الذين أضيروا من التضخم على نحو العشرين فى المائة من إجماع السكان.

تغير الأمر تغيرا جذريا ابتداء من منتصف الثمانينات.. نعم، استمرت الدولة فى خدمة الأغنياء (إذ هل من الممكن أن يحدث شيء آخر؟) ، ولكن حدث ما جعل الصورة أكثر قتامة بكثير.. فابتداء من منتصف الثمانينات انخفض بشدة معدل نمو الناتج والدخل القومى فى مصر. بسبب تضافر مجموعة من العوامل غير المواتية: انخفاض شديد فى أسعار البترول، وانخفاض شديد فى معدل الهجرة بل واتجاه أعداد كبير من المهاجرين الى العودة الى مصر، واتباع الحكومة لسياسة انكماشية قاسية تنفيذا لتوجيهات صندوق النقد الدولى، بالاضافة الى تقلبات عنيفة فى ايرادات السياحة بسبب ما سمى «بالأعمال الإرهابية» نتج عن كل هذا آن الخمسة عشر عاما الأخيرة من القرن العشرين (١٩٨٥ – ٢٠٠٠) كانت أعواما شديدة الوطأة، اتسمت بمعدل نمو يقل عن نصف المعدل الذى ساد فى السنوات العشر السابقة عليها (٧٥ – ١٩٨٥) ، وارتفاع كبير فى معدل البطالة المكشوفة او السافرة، خاصة بين خريجى الجامعات والمعاهد المتوسطة.

فى ظل هذا التدهور الاقتصادى



للبلد ككل، يمكن أن يتصور المرء أن يقع الضرر على الجميع أغنياء وفقراء. فحجم الكعكة لايكاد يزيد بنسبة زيادة السكان. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فالنتيجة الصافية لابد أن تتوقف على مدى قدرة الشرائح الاجتماعية المختلفة على المحافظة على مستوى معيشتها ومنع تدهوره، أو حتى رفعه على حساب الآخرين. والقادرون على ذلك هم بالطبع من يملكون مقاليد السلطة أو القريبون منها والمؤثرون فيها. ومن ثم فإنه من الممكن جدا، حتى في ظل كساد عام ونمو بطيء للغاية، أن يحقق البعض مكاسب كبيرة، وأن يضيفوا إضافات محسوسة إلى ثرواتهم ودخولهم ، ولكن الثمن لابد أن يدفعه هذه المرة الفقراء أنفسهم، إذ ليس هناك مصادر جديدة لزيادة الدخل زيادة محسوسة، يمكنها ان ترفع من مستوى معيشة الجميع.

الأغنياء يزدادون غنى!!

قد يستغرب البعض أن يكون هذا ممكنا.. هل يمكن حقا، في ظل ركود عام، ان يزيد الأغنياء غنى ويضيفوا إلى ثرواتهم عن طريق الاقتطاع من دخول الفقراء ونهب ممتلكاتهم؟ الحقيقة أن هذا ممكن جدا، وهو يحدث بطرق مألوفة ومعروفة للجميع. إذ ما معنى ان تفرض ضريبة جديدة (كضريبة المبيعات مثلا) يقع عبئها اساسا على الفقراء، وتحصل منها الدولة أموالا طائلة في الوقت الذي تباع فيه أراض مملوكة للدولة للأغنياء بأثمان أقل من قيمتها الحقيقية؟ أليس في هذا أخذ من الفقراء لإعطاء الأغنياء؟ أو ما معنى تعبئة الأموال من صغار المدخرين ثم قيام البنوك بإقراضها للأغنياء بأسعار فائدة أقل بكثير مما يتفق مع المخاطر المتوقعة والربح المنتظر من استغلالها، ودون ضمانات كافية مما يسمح للمقترضين بالهرب دون سداد ما عليهم من ديون؟ أليس هذا أيضا أخذا من الفقراء لكي يعطى للأغنياء؟ بل حتى مامعنى بيع مشروعات مملوكة للقطاع العام بأقل من قيمتها بكثير لأثرياء المصريين والأجانب وقد بنيت هذه المشروعات بأموال يشترك في ملكيتها المصريون جميعا. فقراؤهم وأغنياؤهم؟ وما معنى حصول موظف كبير وثري على رشوة من جل تسهيل صفقة معينة يفيد منها ثري آخر وتكون نتيجة هذه الصفقة ضررا محققا على فقراء المصريين سواء بتغذيتهم بغذاء فاسد، أو باستخدام مبيدات ضارة بالصحة، او حتى بناء عمارة شاهقة على حديقة كانت من قبل متاحة للاستخدام العام؟

كل هذا يدخل فيما يسمى عادة «بالفساد» ولكن كثيرا من صور الفساد يمكن أن تسمى أيضا أخذا من الفقراء لإعطاء الأغنياء وهو ما يكثر بوجه خاص في أوقات الركود الاقتصادي، عندما يصبح من الصعب ان يتحسن حال الجميع، ويصر الأغنياء على تحسين أحوالهم مع ذلك، ولو على حساب الفقراء ولتحقيق هذه المهمة لا يمكن ان يستغني الأغنياء عن الدولة، فهي التي تقوم لهم بدور الوسيط الذي يغترف من جيوب البعض ليملأ جيوب الآخرين. ■

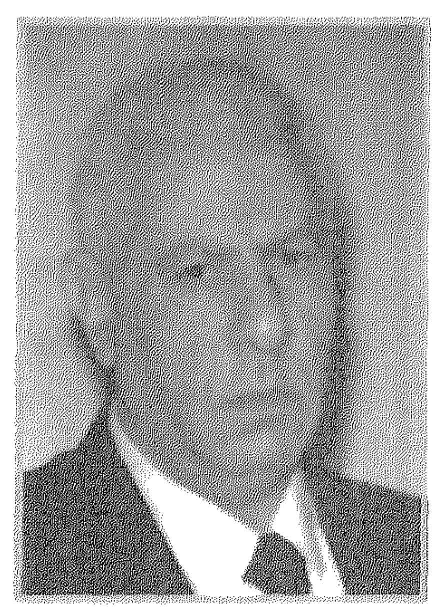
كتاب جديد

حوارات مكرم محمد أحمد في سجن العقرب

هل تراجعت «الجماعة الإسلامية» حقاً وصدقاً؟!

بقلم
د. عاصم الدسوقى

بعد حوار طويل مع أقطاب الجماعة الإسلامية (مجلس شورى الجماعة) فى سجن طره امتد ساعات، ومع قواعد الجماعة فى سجن وادى النطرون (أكثر من خمسمائة عضو) بحضور قادتهم من طره امتد إلى منتصف الليل، ثم فى دار الهلال مع خمسة من القياديين الذين تم الإفراج عنهم، خرج كاتبنا باقتناع واضح مفاده أن هذه الجماعة تابت عن أفكارها بعد أن عكفت على مراجعتها وهى فى المعتقل على مدى ستة عشر عاما، واعترفت بأخطائها بعد قراءة كل أمهات الكتب الإسلامية وكل مراجع الفقه وكل تفاسير القرآن والحديث. وخلص بعد هذه اللقاءات إلى ضرورة أن يستثمر المجتمع هذه الفرصة المواتية إذا ثبت بالفعل أنها حقيقية لإنهاء «دورة الشر» التى سحبت معها آلاف الشباب واستنزفت عمرهم هدرا، وأنه ما لم يتم استثمار هذه الفرصة المتاحة الآن فإن مصر سوف تفوت على نفسها فرصة التاريخ.


مكرم محمد أحمد

ولقد كان أساس الحوار الكتب الأربعة التى وضعتها الجماعة وأجازها الأزهر وهى: حرمة الغلو فى الدين، والنصح والتبيين فى تصحيح مفاهيم المحتسبين، وتسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء، ومبادرة وقف العنف: رؤية واقعية ونظرة شرعية.

غير أن مكرم الذى تعرض فى ١٩٩٣ لمحاولة قتل بتهمة العلمانية من أحد أفراد جماعة «الناجون من النار» وهم فرقة منشقة عن تنظيم «الجهاد» ارتفع فوق آلامه، وصفح عن مهاجميه ، وتنازل عن ثأره، واقتنع بصحة توبة الجماعة الإسلامية توبة نصوحا، وأنها ضحية فكر أضل المجتمع، وضحية الالتباس الذى يقدمه النص الدينى حين يأمر بالفعل دون حساب لنظام. هذا الفكر الذى تبلور كما يرى كاتبنا فى سجون «الفترة الناصرية ومن تحت عباءة الإخوان المسلمين، والتقطته عناصر مختلفة ابتداء من جماعة الفنية العسكرية (صالح سرية) إلى جماعة التكفير والهجرة (شكرى مصطفى) إلى الجهاد (عبدالسلام فرج)، وجميعهم تلاميذ لمؤلفات سيد قطب التى أشاعت فكرة جاهلية المجتمع ليصارعوا الدولة تحت راية الدين.

ويبدو من سياق حديث مكرم أن الجماعة أخذته إلى أرضها فى براءة واضحة بسحر البيان ونعومة الألفاظ وأدب الحديث. وفى خضم أدب الضيافة لم يلتفت كاتبنا إلى كثير من حقائق الموقف التى تاهت بين مترادفات اللغة وتنويعاتها ، وأخذ بظاهر الكلمات التى تحتمل أكثر من معنى، وغاب عنه أن التوبة كما جاءت فى أجزاء متفرقة من الحوار هى توبة عن الوسائل والطرق التى اتبعتها وليس عن الهدف الذى يتلخص فى «السعى لإعلاء دين الله وإقامة شريعته».

لماذا تم التراجع؟

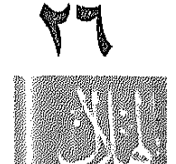
لماذا تراجعت الجماعة عن فكرة الجهاد وحلت الجناح العسكرى أخيرا؟.. لقد اكتشفت الجماعة - كما جاء فى الحوار - أن «الجهاد وسيلة لتحقيق غاية أسمى

هى هداية الخلائق إلى الحق.. فإذا تعارضت الغاية (الهداية) مع الوسيلة (الجهاد) وجب تقديم الغاية على الوسيلة خصوصا ان كان الجهاد قد أسفر عن مفاسد عظيمة وجرائم كبيرة استهدفت الشرطة والأقباط والسائحين» (ص ١٥٧). ولكن لم يأت فى الحوار أى ذكر لوسيلة أخرى غير الجهاد لتحقيق الهداية مما يعنى أن الهدف قائم..

وفيما يتعلق «بالحسبة» انتهت الجماعة إلى القول بأن الحسبة ليست لآحاد الناس فضلا عن أن المحتسب يجب أن يكون قد درس الدراسة الصحيحة وعرف ضوابط الحسبة. ولكن لأن الشرطة التى تقوم بدور المحتسب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتعذر وجود رجالها فى كل متر من أرض مصر للحيلولة دون وقوع جريمة واقعة لا محالة فإن مسئولية الفرد المسلم أن يتصدى للمنكر مساعدة للحكومة (ص ١٥٦). وهذا الفهم الجديد لا يلغى تطبيق مبدأ الحسبة وإنما يضفى عليه بعض التعديل بمعنى أنه لا ضرر من أن يقوم نفر من الناس بمساعدة الشرطة فى أداء واجبها بضوابط شرعية!!.

وتعترف الجماعة - طبقا للحوار - بأن الخطأ الذى وقعت فيه أنها كانت تقدم النص على المصلحة الشرعية وتجعل النص يتحكم فى المصلحة فكانت تجاهد دون أن تحسب حساب المصلحة والمفسدة التى سوف تترتب على هذا الجهاد. ولكن بعد المراجعة تغير فهم الجماعة وأصبحت المصلحة هى التى تحكم النص.. وأعطت مثلا لذلك بأنه إذا كان النص يقول مصلحتى سوف تتحقق من القتال أم من عدم القتال (ص ١١٨)!!.

وفى هذا تقول الجماعة إن الفكر الجديد لها يقوم على الفتوى الشرعية المتأصلة من كتاب الله وسنة رسوله التى تنظر إلى الواقع لأن الحكم الشرعى لا ينفصل عن الواقع.. أى يتعين قراءة الواقع وقراءة النص، وبعد ذلك يتم تطبيق النص على الواقع الحقيقى، لأن الخطأ يأتى من أن النص يكون صحيحا لكن تطبيقه يتم على واقع غير الواقع الذى يجب أن يطبق عليه. وأظن أن هذا ليس فكرا جديدا وإنما هو من باب المراوغة ذلك أنه لا يمكن تخطئة النص بحال من الأحوال ولا يمكن تعديله لصالح الواقع.. ولكن



تعديل الواقع هو الممكن حتى يحدث التطابق مع النص.. وتلك هى إشكالية الدعوة الدينية منذ بدأت فى مواجهة الحكومة المدنية وتقوم على تطويع المجتمع لصالح النص وليس العكس ، فضلا عن أن هذا الفكر الجديد لا يعنى تخلى الجماعة عن النص بسبب أن الواقع غير الواقع، بل يعنى أن تطبيق النص هدف قائم، ويبقى كيفية ايجاد الواقع الذى يتلاءم معه.

أما فيما يتعلق بالتراجع عن الغلو فى الدين وحرمته الذى قاد الجماعة إلى تكفير الحكومة ووصف المجتمع بالجاهلية اعتمادا على الآية الكريمة «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» فإن الفكر الجديد للجماعة قام على أساس شرح جديد أو تفسير للآية خلاصته أن هناك نوعين من الكفر.. كفر أكبر وكفر أصغر.. فالأكبر يخرج صاحبه عن الإيمان وذلك إن أنكر الحاكم ما هو معلوم من الدين بالضرورة.. أما الكفر الأصغر الذى لا يعدو أن يكون معصية لا تخرج صاحبها عن الإيمان، وربما يقع إذا وجدت ظروف ضاغطة تمنع الحاكم من تطبيق قواعد الشريعة حفاظا على الأمة أو مسايرة لروح العصر مثل الامتناع عن قطع يد السارق لأن قيم العصر لا تجيز ذلك، أو بسبب وجود اعذار تمنع الحاكم من تطبيق هذه الشرائع مع علمه بأنها من صميم الدين (ص ١٥٣).

وهذا معناه ببساطة شديدة أن امتناع الحاكم عن قطع يد السارق أو تطبيق حد السرقة مع علمه بأنه من صحيح الدين يعد معصية منه أو كفراً أصغر، بل إن أحد المفرج عنهم قال لكاتبنا فى دار الهلال إن بعض القوانين خاصة فى قانون العقوبات تخالف الشريعة الإسلامية مثل عقوبة جريمة الزنا والسرقة لأنها أحكام شرعية لا نستطيع أن نلغيها ونخالف الشريعة.. هى أحكام شرعها الله .. وهى باقية إلى قيام الساعة لا يمكن أن نغيرها. ولكننا نقبل عذر الحاكم عن عدم تطبيق الشريعة لعوامل أو ظروف مثل

الخوف من قيام فتنة بين المسلمين والمسيحيين، أو أن هناك قوى تتربص بنا.. أو أننا لسنا وحدنا فى هذا العالم.. (ص ١٢٩ - ١٣٠) . فما هو الجديد فى هذا الفكر.. وأين هو التراجع؟

وفى حديث الفتنة الطائفية التى رأت الجماعة في الحيلولة دون وقوعها عذرا للحاكم فى عدم تطبيق الشريعة نلاحظ أن خطاب المراجعة لا يحمل تراجعا حقيقيا.. فالجماعة لا تستخدم مصطلح المواطنة وإنما تستخدم خطاب أهل الذمة بلغة معاصرة.. فهم يقولون «إن الأقباط من نسيج الوطن ولهم حقوق كفلها الإسلام أكثر من الحقوق التى يكفلها لهم أى نظام آخر.. وأن الجماعة مع الحقوق التى يتمتع بها المسيحيون فى مصر وليست ضدها.. فالواقع يقول إن الأقباط أهل كتاب لهم ما لنا فى المجتمع وعليهم ما علينا» (ص ٣٤).. وأن استباحة أموال الأقباط كما حدث جاء بسبب خطأ البعض فى فهم «حكم الغنيمة من الكفار» الذى ينطبق على الحرب مع اليهود مثل حرب ١٩٧٣!!.

والحال كذلك فإن هذا الخطاب يقوم على التسامح وليس على المساواة.. ولا يقوم على أساس المواطنة بل يقوم على أساس قسمة المصريين إلى طائفتين إذ يقول إن العمل الإسلامى ليس مقصورا على أمور معينة كما يتخيل الناس بل إن رعاية اليتيم والإحسان إلى الفقراء وتحفيظ القرآن من العمل الإسلامى.. ولهذا يطالبون بتكوين جمعيات إسلامية تحض على الخير وتعلم الناس وتساعدهم اجتماعيا.. وهذا معناه أن يقوم مسلمون بمساعدة مسلمين ويقوم مسيحيون بمساعدة مسيحيين من خلال مؤسسات خاصة بكل منهم ولتذهب الدولة إلى الجحيم.

ويلاحظ فى هذا المقام أن الجماعة فى فكرها الجديد تعتبر أن دخول غير المسلمين البلاد بجواز سفر يعد أمانا لهم وذلك بمقتضى «فتوى عصرية تطبق على الكافر الذى يدخل بلادنا بجواز السفر وتطبق على المسلم عندما يدخل بلاد الكفر بجواز السفر والتأشيرة» (ص ٩٥).. أين الجديد.. وأين التراجع .. وأين المراجعة!!.

قتل التجار خطأ!

وعطفا على هذه النقطة فى العلاقة مع الآخر فإن الحوار مع الجماعة تناول رأيها فى تدمير البرجين الشهيرين للتجارة العالمية فى نيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر فقال أحدهم «إن قتل المدنيين وخاصة التجار خطأ.. وأنه فى يوم من الأيام كان سببا فى مصائب كثيرة حلت بالإسلام من قبل.. ومن هذه المصائب غزو التتار الذى كانت بدايته قتل المسلمين للتجار التتار» (ص ٨٨). فمن أين استقى هؤلاء معلوماتهم عن أسباب غزو التتار لديار المسلمين.. هل لو كان القتل قد طال رعاة أو مزارعين ما وقع الغزو؟؟.. ومن ناحية أخرى قالت الجماعة إن هدف ابن لادن مستحيل «لأنه يريد إخراج روسيا من الشيشان والهند من كشمير وضرب الجزائر وتونس وفرنسا وليبيا وإخراج أمريكا من الخليج».. ووجه الاستحالة هنا «أنه يحارب فى أكثر من جبهة والرسول طيلة عمره لم يحارب على جبهتين فى وقت واحد» (ص ٨٩). وهذا معناه أن الهدف مشروع لكن التكتيك خاطىء لتعدد جبهات المعارك فى وقت واحد!!. هل من تعليق آخر.؟

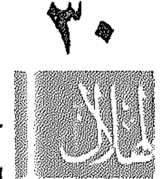
أما فيما يتعلق بمبادرة وقف العنف دون قيد أو شرط التى لفتت الأنظار إليها عندما أعلنت فى يوليو ١٩٩٧ وتعطلت بسبب حادث الاعتداء على السياح فى الأقصر ثم تأكدت فى مارس ١٩٩٩. فإنها عند الجماعة ليست من باب التكتيك بل إنها استراتيجية «لأننا نصالح أقواما مسلمين هم إخواننا وأبناء عمومتنا.. وكجماعة إسلامية لا نكفر احدا.. إذ نحن فى صلح مع المسلمين ولا يمكن أن يكون هذا الصلح مؤقتا أو تكتيكيا» (ص ٤٥ ، ٨٨) والمعنى أن الجماعة بعد الاجتهاد والمراجعة اكتشفت أخيرا أن الحكومة تتكون من قوم مسلمين وأن الشعب المصرى كذلك وأن الجماعة بالتالى أصبحت فى حالة صلح مع الحكومة والشعب». هكذا.. وبما أن الجماعة استخدمت مصطلح «الصلح» فيتعين الإشارة إلى أن التاريخ يقول لنا إن الصلح لا يمكن أن يكون دائما أو استراتيجيا.. ولو كان كذلك لما تجددت حروب بين دول عقدت فيما بينها اتفاقيات صلح وسلام.

وتقول الجماعة فى كتابها (مبادرة وقف العنف) أن «هدف المبادرة

الأصيل وقف اقتتال منعته الشريعة الغراء لمفاسده العظيمة وواجب شرعى تصدينا له بكل شجاعة ولكنها تتحفظ على هذا الإيقاف بعبارة لها دلالتها عندما تقول إن وقف القتال «أمر لا يتنافى مع واجب آخر يلزمنا جميعا هو السعى لإعلان دين الله وإقامة شريعته». ولقد تنبه الأزهر عند مراجعته لمخطوطة هذا الكتاب إلى اللغة المستخدمة ، إذ قال الذى راجع الكتاب إن المبادرة اسمها «وقف» الأعمال القتالية والأفضل أن تسمى «منع»، لأن «الوقف» يوحى بأنها هدنة وممكن قيام القتال بعد وقفه.. وأيضا القول بأن الجماعة «ستوقف القتال الدائر لأن الشرع يأمرنا بإيقافه.. ويقول المراجع إن الأصح أن يقال سنمنع القتال الدائر لأن الشرع يأمرنا بمنعه ، كما لاحظ الأزهر أيضا أن المبادرة تقول «هدفنا تعبيد الناس لربهم.. أى هداية الخلائق.. والأصح أن يقال «نسعى للدعوة ليهدى الله الخلائق»، لأن الهداية من الله تعالى (ص ٢١٣).

وبينما صدق مكرم محمد أحمد الجماعة الإسلامية فى مراجعاتها الفكرية نراه لا يصدق الإخوان المسلمين وخاصة عندما وقفوا صامتين عن تأييد مبادرة وقف العنف. فالإخوان المسلمين عنده يمثلون الحلقة الأولى فى دورة الشر منذ ١٩٤٨ وهم «تنظيم انقلابى لا يؤمن سوى بالعمل السرى مهما تعددت واجهاته العلنية» وقد ثبت له هذا من وثيقة «التمكين» التى تم ضبطها فى قضية تنظيم «سلسبيل».

إن الحوار مع الجماعة الإسلامية كشف أشياء كثيرة من بينها الخلط بين الدين والسياسة، والمطلق والنسبى، والبشرى والإلهى، وإساءة لفهم كثير من النصوص والمعاني، وهو خلط تحتاج إزالته إعادة تثقيف ذاتى لأفراد هذه الجماعة وغيرها وذلك بقراءة أمهات الكتب مصادر الفقه والتفسير والحديث ليس بمعرفتهم كما فعلوا وإنما على يد شيوخ هذه العلوم المعتبرين.. والتفكير فى كيفية إعادة صياغة هذه المصادر المعتمدة فى لغة عصرية تناسب العقول الشابة التى يخاطبها «أمراء» الجماعات، أولئك الذين انتحلوا صفة ليست فيهم. واعتلوا منابر لم يعدوا لها، ووجدوا فى الأقاليم البعيدة المغلقة على اهلها إلا من شاشات التليفزيون وخاصة فى الصعيد فرصة مناسبة وتربة صالحة لبث أفكارهم بكل ما فيها من خلط وسوء فهم وتقدير مستثمرين فى هذا الأزمة الاقتصادية وضيق فرص العمل ومجتمع التقاليد المحافظة. ■



أقوال معاصرة

● «ليس ثمة مبرر لكره الولايات المتحدة غير أنه لن يكون فى وسعها إزالة هذا الكره بالقاء القنابل على من يكرهها»

كريس باتن

آخر حاكم انجليزي لهونج كونج قبل عودتها إلي الصين الأم

● «الحرب التى يشنها مسلمو اليقظة الطالبانية على الولايات المتحدة إنما هى موضوعيا وعمليا حرب إلى حسابها وفى صالحها وفقا لميزان القوى»

الشاعر أدونيس

● «الأساس السيكولوجى للعزل المطلق هو نفسه الأساس السيكولوجى للاستسلام المطلق»

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

● «أقل ما يمكن أن يقال عن أيامنا بأنها محبطة وبائسة للملايين»

ميخائيل مارجيلوف

رئيس لجنة الشئون الخارجية بالمجلس الاتحادي (الشيوخ) الروسي

● «القضاء لا يفرق بين الوزير والخفير، ولا يقبل كبش الفداء»

المستشار سعيد عبدالواحد

رئيس محكمة جنايات الجيزة التي قضت ببراءة صغار العاملين المتهمين بالاهمال الذي أدي إلي فاجعة قطار الصعيد

● «الشعر فى أحد أشكال تعريفه هو لغة الحلم»

الشاعر محمود درويش

● «إذا لم نقم نحن بالتغيير الضرورى من داخل النظام، فإن الأعداء سيتدخلون لفرض الحلول على النظام من خارجه»

ابراهيم يزدي - وزير خارجية إيران الأسبق

● «إذا فكرت كثيرا فسيحملك ذلك إلى التهرب من القيام بأى شئ»

الممثلة الاسترالية كيت بلانشيت

● «النفط هو الشئ الوحيد الذى يملكه المسلمون!»

ماهاتير محمد - رئيس وزراء ماليزيا

● «لن تغسل الشعوب العربية إذلالها الذى عمره قرنان إلا إذا أدركت تخلفها»

جان بير شيفنيمان - وزير فرنسي سابق

● «الخطوة الأولى فى عملية تجريد الآخر المكروه من صفاته الإنسانية تتمثل باختزال وجوده إلى بضع عبارات وصور ومفاهيم بسيطة تكرر بالحاح»

المفكر الفلسطيني الأصل - ادوارد سعيد



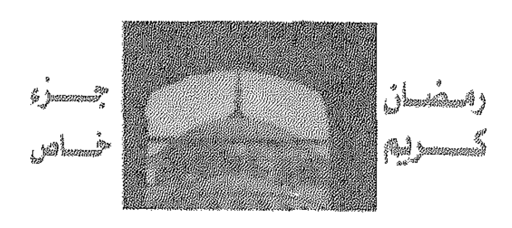
أدونيس



محمود درويش



مهاتير محمد





سهرات رمضان وشاعر الربابة

بقلم
د. محمد رجب البيومي

في يناير من سنة ١٩٣٩ كتب الأستاذ الكبير عبدالعزيز البشرى مقالا بمجلة الثقافة تحت عنوان (اسعفوا التاريخ) ، فحواه أن مصر تغيرت فى أيامه تغيرا كبيرا من حيث العادات والتقاليد، فاختفت من الوجود صور أمة لتحل بعدها صور أمة أخرى ، بحيث صار من عاش قبل ثلاثين عاما ينكر ما يشاهد اليوم بعد اختلاف الأوضاع ثم دعا من سماهم مشيخة المؤرخين أن يسعفوا الناس بتسجيل ما انقرض من العادات، وأخذ الكاتب يعرض نماذج من التقاليد المنقرضة التى لابسها فى صدر شبابه ويرى تسجيلها من ألزم اللوازم ليكون التاريخ الاجتماعى موصول الحلقات .

أبو زيد الهلالى ، عنترة العبسى و الزير سالم كلها بطولات آثارت الشوق دائما لحكايا شاعر الربابة





وقـــد طاف بذهـنـي حين أردت آن أكتب مقالى عن رمضان المعظم، مشهد من أجمل مشاهده التي انقرضت منذ أمـــد طويل ، والتي لا يزال أثرها فى نفسى قويا مجلجلا ، بحيث لا أقدر على تناسيه، هذا المشـهـد هو دور شـاعـر الربابة الذي يجد من ليالى هذا الشـهر أجمل مناسباته في الريف وفي الأحياء الشعبية بالقاهرة، إذا اتيح له أن يملك من عـواطف الجـمـاهـيـر مـا تملكه الآن مسـرحيات التليفزيون ومسلسـلاته فى هذا الشهر، بل إن كثرة هذه المسرحيات وتواليها المتدارك على شتي القنوات فى سـرعـة تنقطع مـعـها الآنفـاس مما زهد الكثيرين في متابعتها، أما شاعر الربابة فى عهده المزدهر فقد كان قبلة الانظار ، تحتفل الجماهير بمقدمه كما يحتفلون بفنان مرموق ملك قلوب السامعين .

كـان عـيـد الفطر فى الريف خـاتمة لثلاثين يوما من الأعياد هى أيام رمضان المبارك ، إذ كان كل يوم بفرحته الغامرة ، وبمصـابيحـه التى يحملها الأطفال فى الشـــوارع ، وبموائده التى تقـام قـبـيل الغروب أمام منازل الموسرين، وبدروسه الدينية فى ساحة المسجد بعد العصر وبعـد صـلاة المغـرب، وبالمئذنة المتـألقـة بالضياء، الصادحة بالآذان والتواشيح ، وبالزيارات الليلية المتصلة فى سـهرات المقارىء بالمنازل المترفة.. كان ذلك كله بعض مظاهر الاحـتـفـال ، أمـا الليـالت الثلاث التى يحييها شاعر الربابة بالمقهى فـهى تتويج لهذه النشـوات الغـامـرة، اذ كـان من المصطلح عليه آن يختص كل شاعر فى هذا الموسم الجهير بعشر قرى من قـرى الريف، يزور كل قرية فى ثلاثة إيام متفرقة قد حددت مواعيدها، وأبرم الاتفـاق عليـهـا بين صـاحب المقـهى والشاعر على نحو لا يقبل التراجع ، ولم يكن للراديو وقـد بدأ فى الظهـور أثره الخالب فى جذب الجمهور إلا ما كان من سـمـاع المشـاهير من القراء. وأميرهم يومئذ هو الاستاذ الشيخ محمد رفعت ، فإذا انقضت ساعة القراءة . كان المقهى برواده فى شـــآن آخـــر من شـــؤون الاستمتـاع ، أمـا الشاعر فقد اعتاد ان يصل بعد أداء صلاة العصر قادما من القرية المجاورة على جناح حمار مطهم، يقـوده ريفى مـتطوع، حـتـى يبلغ المكان المحدد ، ويتناقل القـوم أخبـار مـجيئه فـيـتـهـيـأون لليلة حـافلة ، فـاذا اسـتـراح بعض الأمـد، وأذن المغـرب تناول طعـام الإفطار عند من يتطوع مـــرحــبـــا باستضافته من الموسرين بعد استئذان

صاحب المقهى لأنه الداعى المضيف، ويفضل الزائر الكريم ان يصلى المغرب والعشاء بمنزل المضيف لا بالمسجد كى يكون استقباله بالمقهى عند بدء السهرة مما يليق تماما بمقامه الجهير ، وهو روح الاحتفال !

وكانت ليالى الصيف فى رمضان أبهج رونقا وأروح جلوسا من ليالى الشتاء ، إذ إن شتاء رمضان يجبر السامعين على الانكماش فى المقهى وهو على سعته النسبية لا يتيح مجال الانبساط والتبحبح ، أما صيف رمضان فتنتقل المقاعد فيه إلى الفضاء الفسيح خارج المقهى ، وتنتظم صفوفا متراصة وفق ترتيب يحبذه القائمون على شئون السهرة ، ويأخذ الشاعر راحته النفسية حين يجلس على أريكة عالية، يقلب نظره فى جمهوره وبين يديه ربابته الموسيقية التى يعشق الحاضرون أنغامها، وكأنها وحى سماوى خالد ، وهنا يتسع المجال لسيدات المنازل المجاورة كى يملأن النوافذ مصغيات، إلى ما يهتف به الشاعر، وقد تزغرد إحداهن اذا استمعت إلى مواقف الابتهاج بين عبلة وعنترة ، فيتردد التصفيق مجاوبا هذه الزغاريد ! ويطلب من الشاعر أن يعيد ما حكاه عن فرحة اللقاء بين الحبيبين فيستجيب وفى عينيه بريق النشوة والابتهاج !.

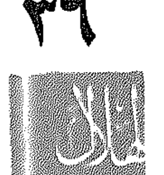
كان الريفيون فى هذا العهد يتلقون ثقافتهم المتواضعة من منبعين لا ثالث لهما، فالمسجد يتولى إمامه شرح المسائل الدينية وأهمها العبادات ثم سيرة الرسول ﷺ وبعض الاحاديث والآيات الداعية الى الاخلاق الحميدة، اما النبع الثانى فهو الشاعر المحتفل به إذ يتولى إذاعة الثقافة التاريخية الاسطورية فأقاصيص ابى زيد الهلالى وعنترة العبسى والزير سالم (المهلهل) هى مجال سمره، وموضع حديثه، وفى قرى أخرى تمتد هذه الأساطير فتشمل قصص سيف بن ذى يزن ، والظاهر بيبرس وحمزه البهلوان كما قد علمت من أبناء هذه الربوع، أما الريف فى الدقهلية فقد اكتفى شعراؤه بهؤلاء الثلاثة، ومع تكرار ما يقولون دائما كل عام، فإن الشوق لحديث شاعر الربابة لا ينقطع، بل إننا نجد من يتعقبه فى القرى المجاورة بعد أن سمعه فى قريته بالأمس ليستعيد لذة الإنشاد ونغم الربابة ، ثم يرجع ماشيا على قدميه. فى الليل وكأنه ظفر بمغنم كبير!.

الليلة الأولى

تعود القرويون ان يسمعوا فى الليلة الأولى قصة أبى زيد الهلالى ، وما يحوط بها من أنباء دياب بن غانم والزناتى خليفة، هذه الليلة هى أهم الليالى الثلاث، وأكثرها احتشادا،



اختصاما وأقول اختصاما لأن السامعين يمثلون عدة أحزاب متناحرة، فالفريق الكثير العدد يتشيع لأبى زيد ويراه البطل الذى لا يقاوم، ويتناول بالتحقير منافسيه ومن أشهرهم الزناتى خليفة، وله أيضا فريقه الذى يتعصب له ويصفه بالأصالة ورفعة النسب وشهامة الملوك ، وأما الفريق الثالث ففريق دياب بن غانم، وقد استقر الوضع على أن يجلس كل فريق فى صف أو صفين دون أن يتحاور مع احد من انصار خصومه ، ويأتى الشاعر بعد صلاة التراويح مهيبا جليلا ، وقد خرج على قومه فى زينته، فهو طويل القوام ممشوقه ، وغليه جبة صوف غالية، من تحتها قفطان براق اللون مع حزام حريرى مزركش، وفوق رأسه طربوش ينسجم وضعه انسجاما يدعو الى الالتفات لأنه لا يتحرك ولا يتقلقل مهما اهتز صاحبه فى نشوة الإنشاد، وبراعة التمثيل ، وحين يشرق بطلعته على الحفل، يثب الجموع وقوفا، وكأنهم يستقبلون زعيما سياسيا يؤمنون بمبدئه الحزبى، والرجل يرفع يديه معا إلى رأسه محييا، وشاكرا لهم حفاوة الاستقبال ويأخذ الربابة بين يديه ويكون ايقاعها إرهاصا حسنا لما يتلوه من قص محبوك، والشاعر يعلم أن القوم أشتات لا يجتمعون على محبة بطل واحد، وهو مضطر لأن يأتى بالأحداث على نمط يشبع جميع الاهواء قدر المستطاع ، والعيون شاخصة والأسماع متيقظة تترقب كل نبأة وصوت والقصة بطبيعة سياقها تعطى أبا زيد اكثر مما تعطى رفيقيه من أدوار الشجاعة والاستبسال ، فإذا تحدثت عن بطولة خارقة لأبى زيد وبطولاته خارقة دائما فإن موجة من الحماسة الدافقة تغمر مشاعر مؤيديه، وإن أصوات الإعجاب والاستزادة لتعلو علوا يتضايق منه المعارضون وهنا يميل الشاعر بحنكته الى حديث موقعة يحتلها الزناتى أو دياب ، فتتطلع إليه الانظار حتى إذا أسفر الموقف عن بطولة بارزة انتقل الضجيج إلى الصف المجاور وعلت الاصوات طالبة الاستعادة وقد رأيت من نوادر التشجيع مازلت أذكره مع انى كنت صبيا فى السابعة او الثامنة، اذ كانت ليالى الصيف فى رمضان تدفع صانعى العرقسوس الى بيعه وتوزيعه على المجتمعين بارتياح من صاحب المقهى وتسامحه ، وكنت انظر فأجد شابا ضخما يحمل على صدره إناء زجاجيا يتسع محتواه لأكثر من ستين كوبا ، وقد تسمر فى مكان ليسعى اليه



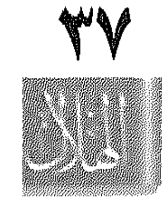


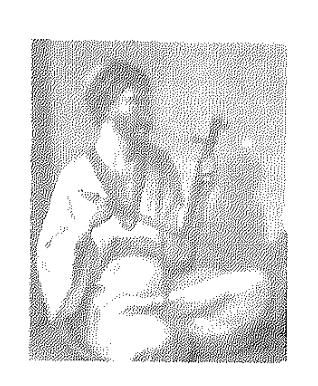
أنغام الربابة من الماضى إلى الحاضر تجذب عشاق السير الشعبية فى ليالي رمضان

من يريد الارتواء ، وكان الكوب بمليمين فحسب أى أن التجارة كلها لا تتجاوز اثنى عشر قرشا! فإذا عرف ان ثمن السكر والعرقسوس يبلغ ثمانية قروش فالليلة جميعها لا تدر على المسكين أكثر من اربعة قروش يأخذها سعيدا وينقلب إلى أهله مسرورا، أما ما أريده من تسجيل ظاهرة التشجيع الحماسى. فهو أن أحد المتحمسين للزناتى طرب لبعض ما سمع من مواقفه البطولية، فوقف صارخا ينادى بائع العرقسوس ويطلب منه ان يوزع كل ما معه على الجمهور مجانا على حسابه الخاص ابتهاجا بالنصر الحاسم ، وتم ذلك فى دقائق استراح بعدها البائع من عبئه الثقيل .

ثم استأنف الشاعر حديثه فانتقل إلى احدى بطولات ابى زيد ، وما كاد يفرغ من ابداعه، حتى نهض احد الانصار وهتف بصاحب المقهى ان يوزع كأس القرفة الساخنة على الحاضرين جميعا.

وكانوا أكثر من مائة وخمسين واشتغل صاحب المقهى فى جد عاجل مستعينا بذوى الخبرة من الجالسين، حتى تهيأت الكؤوس ! وإذا علم أن ثمن المشروب خمسة مليمات ! فقد دفع الرجل خمسة وسبعين قرشا ! وخمسة وسبعون فى هذا الزمن مما يرهق ميزانية فلاح متواضع، ولكنه أرضى نفسه حين طمس مأثرة سابقة قام بها من تحمس للزناتى فأغاظه وأغضبه.





والسؤال الذى يتردد على ذهنى ، يدور حول إعجاب هؤلاء القرويين البالغ بأحداث القصة ، وإقبالهم على استماعها كل عام، وكأنها شىء جديد مع أن الشاعر يعرض ما سبق أن كرره دون أن يكون له من الخيال القريب أو البعيد ما يضيف به الطريف، لماذا هذا النهم المحتد اشتياقا لشىء تعرفونه من قبل ؟ إن الجواب المتبادر هو أن القصة أصبحت أغنية . لاسيما بما تتمتع به من جمال الصوت لدى الشاعر، ومن ايقاع الربابة الساذج ذى التأثير البالغ فى النفوس الهادئة غير المركبة ! والأغنية اذا كررت مئات المرات لاتسأم، لذلك تسجل فى الأشرطة لتستعاد فى ساعات القلق والحيرة ! على أن القوم فى حاجة ماسة الى تجديد الرتابة المنتظمة طوال العام فإذا سمحت فرصة ما بليلة ذات غناء وقصص وسمر فلابد من انتهازها على أكمل وجه يتاح !

هذا وسامع حديث أبى زيد من هؤلاء يعتقد أنه تاريخ حقيقى لا شك فيه كما كان يعتقد أجداده منذ ثمانية قرون حين أخذت أحداث القصة تتداول فى أواسط العصر الفاطمى ثم تهيأ لها من الخلود الشعبى ما جعلها الملحمة الأولى لدى أبناء الشعب منذ هذا الزمن البعيد.

وقد قلت إن السامعين يعتقدون أن أحداث أبى زيد الهلالى ورفاقه واقع تاريخى وإذن فلا مجال للشك فى بطولة خارقة أو إعجاز نادر يؤكد ذلك ما سمعته من ريفى ساذج جاوز الثمانين، وقد كللته لحية بيضاء أضفت مهابة فائقة على حديثه، إذ كان القوم فى مبدىء الحرب العالمية الثانية، وقد عظم صيت هتلر حتى مايفوقه أحد . وكان المهاجرون من الاسكندرية يملأون الريف فرارا من طائرات روميل . وقنابل الشر المبيدة ، وحديثهم للعامة عن الطائرات مما يرعب ويهول، وقد استمع اليه الحاج عقل، هذا الريفى المعمر الذى اشرت إليه من قبل، فقال فى هدوء الواثق المطمئن : عليه العوض، لو كان ابو زيد الهلالى حاضرا اليوم لقطع رقبة هتلر الملعون.. وأمن بعض الناس على ماقال! ومهما يكن من شىء فإن ليلة أبى زيد هى الليلة الأولى بين الليالى الثلاث .

الليلة الثانية

أما الليلة الثانية وقد حلت بعد تسع ليال من الليلة الاولى ، فكانت خاصة بقصة عنترة ، ولهذه القصة حينئذ، ذيوع عام بين الريفيين. والسامعون جميعا يحبون عنترة ويقدرون رجولته وفروسيته

وإذن فليست هناك أحزاب تتعصب لفريق دون فريق كما فى ليلة أبى زيد وإنما الكل على وفاق تمام، وسرور متبادل ، وقد ابتدأ الشاعر بعد ان قال عبارته المشهورة (اول مانبدى اليوم نصلى على النبى) بذكر المعركة الاولى بين عبس وذبيان، وظهور ذبيان على عبس ظهورا كاد يؤدى الى أسر الرجال وسبى النساء ونهب الاموال ، ثم ظهر شداد والد عنترة متوسلا ضارعا لابنه كى يشارك فى الحرب ببسالته. ويطلب عنترة حريته فيجاب لها ، ويهجم هجوم الأسد الجسور فتفر ذبيان مندحرة، وتتحلق صبايا عبس حول عنترة وفيهن عبلة التى يعرف الناس شغف البطل بها ، فتسلم عليه وتعصبه بمنديل الفروسية بين التصفيق والهتاف ، ويأتى النبأ الى والد عبلة فتضيق به الارض، ويؤذن عنترة بالاغتيال ناسيا انه البطل الذى لايقاوم، وينجح الشاعر فى استدرار الدموع حسرة على عبلة وعنترة معا من الموقف المتأزم ، وهنا يهتف الشاعر بأبيات من الشعر الفصيح المنسوب تاريخيا إلى عنترة ، وأذكر مما انشد :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ولا أدرى كيف تذوق هؤلاء الاميون السذج حلاوة هذا الشعر العربى الفصيح فصاحوا يطلبون الإعادة، وهى عبرة نذكرها لمن يتحدثون اليوم بالعامية فى الندوات الثقافية على الشاشة ويقولون إن الجمهور بعد انتشار المعاهد والكليات والصحف والمجلات والكتب والدوريات لايفهم لغة القرآن !! وهى خيبة كبيرة يوصم بها هؤلاء الغافلون ! ثم يسلسل الشاعر الاحداث فيتحدث عن تعجيز والد عبلة لعنترة حين طلب المهر مائة من النوق العصافير وهى لاتوجد إلا فى العراق عند النعمان بن المنذر وبقدرة قادرة سافر عنترة وأحضر النوق بعد لقاء ودى مع النعمان وتم له ما أراد فسمح الوالد بالاقتران، وهنا تدوى الزغاريد من اللاتى يستمعن على بعد كما أشرت الى ذلك من قبل ، ومن طريف ما حدث فى هذه الليلة، وكانت ليلة جمعة أن عرسا ريفيا لبعض الأثرياء كان يقام فى الشارع المجاور، فنهض بعض الشباب إلى العرس واحضروا من الاطفال ولدا وبنتا صغيرين وهما فى زى الفرح البهيج ، وتقدموا بهما بين تصفيق الجميع ليجلسا على الأريكة ممثلين لعنترة وعبلة فكان المشهد المتواضع على سذاجته آخذا باللب، ولم تنقطع الزغاريد من الخارج إلا بعد أمد، وقبل أن ينتهى الحفل حضر القائمون



على العرس فدعوا الشاعر ونفرا من أصحابه الى تناول السحور فسار الموكب إلى مكان الدعوة وكأنه يبدأ باحتفال جديد !

أعود إلى بقية ما قال الشاعر عن عنترة ، فأذكر انه ختم حديثه بمأساة أليمة تتحدث عن مصرع البطل حين ذهب من سماه (الأسد الرهيص) وهو أحد خصوم البطل، إلى خيمة عنترة فرماه غيلة بسهم مسموم ، فأدركه الألم الحاد ، ولكنه نهض الى فرسه، وأمسك رمحه، وجعل يتعقب الحاقد ، حتى أدركه الموت، وهو على صهوة جواده دون أن يترجل ، وقد هابه العدو فلم يستطع الاقتراب منه، ثم لما طال وقوفه فوق الجواد دون حراك ، تقدم منه فعرف ان الموت حق !! قال الشاعر هذه العبارة ، فتنهدت صدور بالزفرات، وترقرقت جفون بالعبرات لأن القوم يصدقون كل كلمة تقال وهنا صعد من يتلو بعض آيات القرآن !

الليلة الثالثة

أما الليلة الثالثة فهي ليلة الوداع يشعر المستمعون أنهم لن يسعدوا بمثلها إلا في العام القادم، ويحس الشاعر ذلك الاحساس فتظهر على ملامحه سمات تدل على الرفق والتساؤل ، وقد اعتاد ان يقص في هذه الليلة سيرة (الزير سالم) والمراد به المهلهل بن رميحة بطل حرب البسوس، والسيرة التي يرويها تتضمن عناصر ثابتة في تاريخ أيام العرب في الجاهلية ولكنها تضم كثيرا مما اخترعه الخيال ، وصادف هوى في النفوس ، فكليب ملك العرب قد حارب تبعا الملك اليماني واسمه حسان، مع ان بينهما من الزمن قرابة قرنين كاملين وزرقاء اليمامة قد اخبرت أعداء المهلهل بقدوم جيشه متسترا بأغصان الشجر مع انها لم تكن في بلاد بكر ولا في زمن الحرب، بل كانت قصتها باليمامة مع عدو بلدها جذيمة الأبرش، وهكذا أضيفت روايات تنتمي الى قصة المهلهل وقد التزمت الصدق فيما تحدثت به عن مصرع كليب على يد جساس ، وعن موقف جليلة الحزين بين أهل زوجها وأسرة ابيها ، وهي عند رهط كليب عدوة أخت عدو، وعند أهلها ضالعة مع أقارب الزوج ! ولا أكتم القارىء ان الشعور العام أثناء تلاوة القصة كان ضد جساس باعتباره مجرما سفاحا ، وقد كنت أشعر بالبغض له أثناء إنشاد الشاعر، ولكنني فيما بعد



اخذت أقلل من هذا البغض حين أدركت من قراءاتى المتأنية ان كليبا كان ظالما متجبرا ، يحمى الأبعاد الشاسعة من الارض فلا يقربها احد سواه ، او من يلوذ به ، ويمنع الابار المائية عن الناس فلا يردها غير خاصته وحرام على الظمآن ان يرتوى منها ، وهذا كله مما حز فى نفس شاب أبى من أسرة مماثلة هى أسرة قرة بن بكر ، فاندفع الى الانتقام تحت تأثير جارة له استجارت بشهامته ولم تكن فى حاجة إلى ايغار صدره لأن الزيت كان قريبا من الوقود ! اما المهلهل فقد حاز رضا الجميع منتصرا ، وأسفوا عليه منهزما ، ولا أنكر انه فى القصة جاوز الحد فى الانتقام ،وكان عليه أن يقبل الصلح بعد مقتل جساس ووساطة الحارث بن عباد التى أجاد الشاعر تصويرها فى حماسة دافقة ! لقد كان الرجل مصورا بارعا، وكان الجمهور فى أشد مواقف اليقظة والانتباه ! والذى أعجب له هو وصف المهلهل «بالزير سالم» ، اذا أجهل منشأ هذا الوصف وقد يكون زيرا لأنه كان جليس النساء قبل مقتل كليب ، ولكن من أين كان الزير سالما !! .

وكما قلت في قصة عنترة أن الجمهور كان يتذوق الشعر الجاهلى الذى قاله البطل ورواه الشاعر فإنى أقول إن الجمهور كان يطرب لشعر المهلهل الحقيقى الذى رواه الشاعر منقولا عنه، ومنه قوله فى رثاء أخيه حين فوجيء بمصرعه الاليم ...

كأنى إذ نعى الناعى كليبا

تطاير بين جنبى الشرار

فسرت اليه من بلدى حثيثا

وطار النوم وامتنع القرار

ولست بخالع درعى وسيفى

إلى ان يخلع الليل النهار

وقبل ان يغادر الشاعر اريكته الى منزل المضيف يقبل السامعون عليه فردا فردا وهم بين معانق ومحتضن ومقبل ومكتف بالمصافحة ! ولكل سائلة قرار .. وبعد ..

فقد زرت القرية في رمضان منذ عامين وتذكرت ما كان فى غابر السنين، وعن لى أن اذهب الى المقهى المتواضع فإذا بناء من أربعة طوابق وإذا الساحة الرحيبة من قبل صارت شارعا ضيقا، واذا وجوه الناس غير الوجوه اذ لم يكد يعرفنى أحد ! واذا أقاصيص الشعر عن أبى زيد وعنترة والمهلهل قد توارت طى السنين وغمرها النسيان، فكدت أهتف بقول أبى تمام .

لا أنت أنت ولا الديار ديار

خف الهوى وتقضت الأوطار .



رمضان كريم — جزء خاص



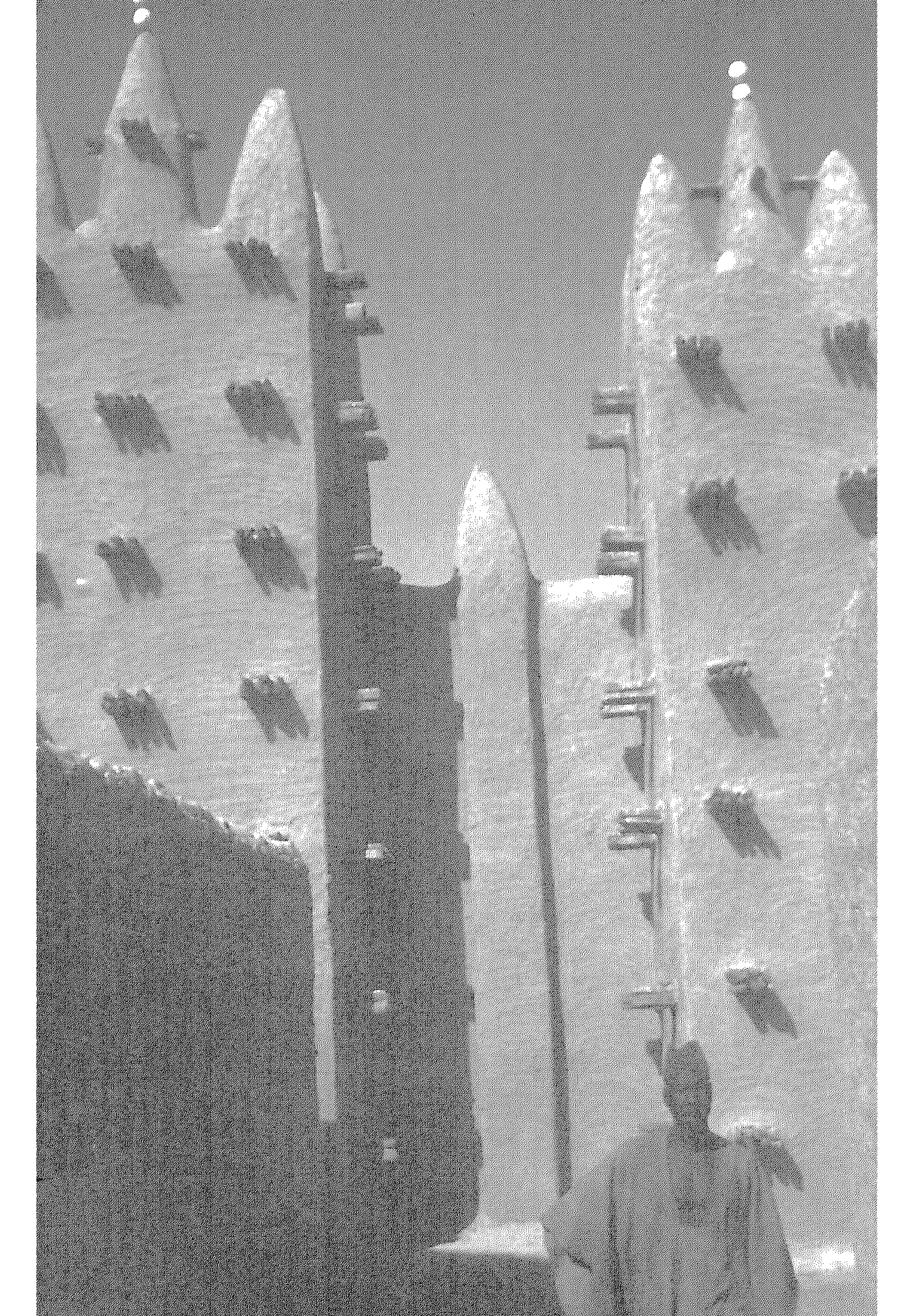
القدسية في عمارة المسجد

بقلم

د. طارق سويلم

المسجد هو الرمز المادى الظاهر للإسلام، وهو يشمخ بمئذنته السامقة فى كل مكان يتجمع فيه مسلمون ، ومنذ نشأته الأولى فى المدينة ومكة على أيام الرسول (ﷺ) مر المسجد بمراحل مختلفة سواء من ناحية دوره الدينى والتعليمى التقليدى فى المجتمع الإسلامى أو ما طرأ من تحضر على طرازه المعمارى والنقوش التى تزينه وفى محاولة علمية جادة لتتبع تاريخ المسجد وتطوره المعمارى والدور الذى يلعبه اليوم فى حياة المجتمعات الإسلامية أصدرت الجامعة الأمريكية فى القاهرة كتابا مصورا رائعا يحمل نفس الاسم «المسجد» ضم بين دفتيه دراسات للعديد من المتخصصين واساتذة الجامعات من الأجانب والمسلمين فضلا عن عشرات الصور التى تعتبر كل منها فى حد ذاتها لوحة فنية بديعة توضح إلى أى مدى برع المهندس والفنان المسلم فى التعبير عن ايمانه الروحى وثقافته المحلية من خلال اللجوء الي الرسم الهندسى والنقوش والخطوط وقوة المعنى فيها مبتعدا عن تصوير المحاذير التقليدية الثلاثة (الشخصيات الانسانية والحيوانات والطيور) .

نموذج للتطور الذى طرأ على عمارة الصحراء فى مسجد «دجيني» الكبير فى مالى ~١٩٠٩ م ◀



وريلعب المسجد دورا مهما فى حياة كل مسلم، بل وكان للمسجد عبر التاريخ دور مهم فى تطور المجتمع المحلى فى العالم الإسلامى ولكى يلعب أى مبنى الدور التقليدى للمسجد لابد من توافر عناصر معينة، المئذنة التى يمكن رؤيتها من خارج المسجد والتى يرفع منها الأذان. و المحراب الذى يحدد اتجاه القبلة والمنبر الذى يعتليه خطيب صلاة الجمعة ودكة المبلغ الذى يردد بصوت مرتفع تكبيرات الإمام خلال صلاة الجمع والأعياد التى يمتلئ فيها المسجد بالمصلين والعنصر الخامس هو الميضة لوضوء المصلين قبل شروعهم فى الصلاة.

وبالنسبة للطرز المعمارية للمسجد يوجد بوجه عام ثلاث أو أربع طرز. طراز الرواق الذى تحيط فيه صحن المسجد أروقة من جميع الجهات. والطراز الإيوانى حيث المسجد عبارة عن بناء به ساحة مفتوحة ولا يحتوى على أية أقواس (قناطر) وإنما يضم إيوانات كبيرة تفصل بين مدارس مذاهب الفقه الأربعة وقد ظهر هذا الطراز من البناء فى فترات لاحقة فى حوالى القرن الثانى عشر مع تطور الفقة واحتلاله مكانة مهمة لدى جمهور المسلمين وطراز القبب هو الطراز الثالث حيث تعلو القبب ساحات الصلاة وهو الطراز الأكثر شيوعا فى الدولة العثمانية. وإلى جانب تلك الطرز قد تضاف للمسجد عناصر أخرى مثل ضريح تعلوه قبة يدفن فيه غالبا الشخصية التى أنفقت على بناء المسجد وأوقفت بعض ثروتها للإنفاق عليه بعد وفاتها وربما إلحق بالمسجد سبيل يروى عطش عابر السبيل فى الأيام الحارة وأحيانا كتاب يحفظ فيه الأطفال القرآن الكريم .

وقد ينظر البعض إلى التنوع فى بناء المساجد وزخرفتها المغالى فيها على أنه شكل من أشكال البدع، إلا أن البعض الآخر يرى فى هذا التنوع وتلك الزخرفة انعكاسات للهوية الثقافية للمجتمع وتجسيدا لها .

ويسير محمد الأسد المؤرخ المعمارى الأردنى فى دراسته فى هذا الكتاب إلى أن الرسوم والنقوش الهندسية لعبت دورا مهما فى الفن المعمارى للمساجد ومع أن التصميمات المعمارية التى تنطوى على تعبير هندسى كانت معروفة قبل ظهور الإسلام بوقت طويل إلا أن الفنان المسلم قدم اسهاما عظيما للتقاليد البيزنطية والفارسية فى هذا المجال. والكعبة المشرفة فى مكة المكرمة وقبة الصخرة فى القدس ومسجد شاه في أصفهان وجامع دلهى الكبير ومسجد أمية فى دمشق هى أمثلة واضحة على التصميمات الهندسية . إلا أن المقرنصات هى من إبدا ع الفنان المسلم

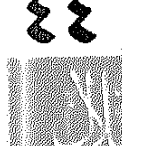
وقد نظر المسلمون إلى الهندسة على أنها حقل مهم للمعرفة واستمروا فى وضعها على نفس مستوى الحساب والفلك والموسيقى . ولكن على الرغم من أن معرفتنا بتطور علم الهندسة فى العالم الإسلامى تعد كبيرة إلى حد ما ، إلا أن

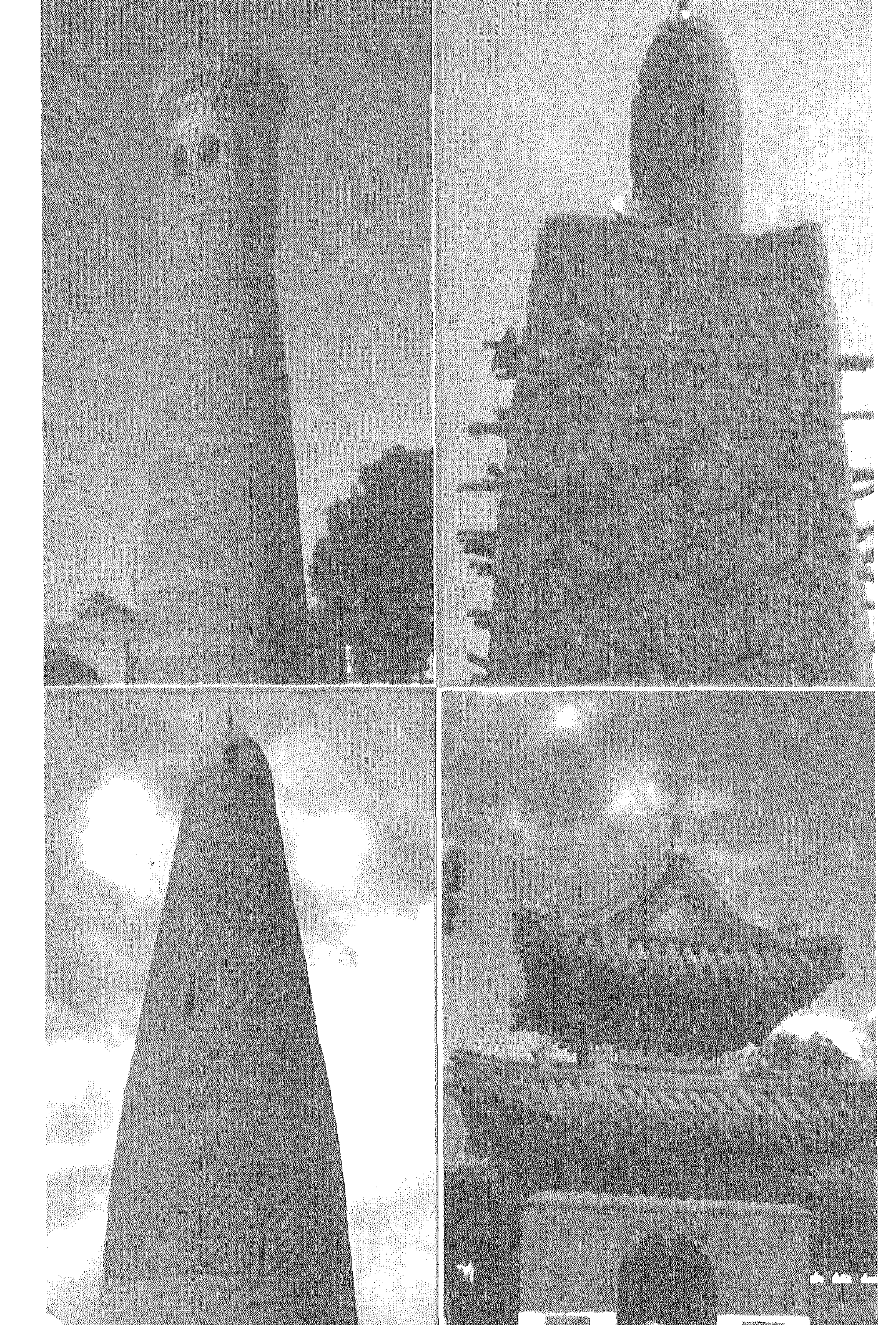
١- مئذنة مسجد دجينجيور بر فى مالى والذى يعود إلى القرن الرابع عشر

٢- مئذنة مسجد الجمعة فى بخارى باوزبكستان من القرن السادس عشر

٣- مسجد نو چى فى بكين - الصين١٣٦٢ م

٤- مئذنة مسجد أمين الذى يعود إلى ١٧٧٨ م فى مقاطعة زينجيانج بغرب الصين



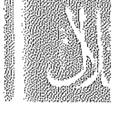


معرفتنا ليست كافية بالعمليات والمراحل التى انتقلت فيها المعرفة الهندسية النظرية إلى الحقل التطبيقى كهندسة معمارية . ويظهر تطبيق المبادئ الهندسية على الفن المعمارى فى العالم الإسلامى نهجا يتسم بالمرونة والشمول . وتتبدى هذه المرونة بوجه عام فى تصميم المساجد . غير أن فهمنا للتداعيات المحتملة التى يمكن أن تكون لها صلة باستخدام الهندسة فى فن العمارة فى العالم الإسلامى مازال ناقصا. كما أن هناك مسألة غامضة أيضا تتعلق بالتأثيرات النفسية للنماذج الهندسية . فهناك من يجادل من أن الفنون المعمارية مثل النماذج الهندسية يمكن أن توفر داخل المسجد جوا من التأمل يساعد على العبادة، غير أن هناك من أصحاب وجهات النظر المتزمتة من يذهب إلى أن مثل هذه النماذج الهندسية تشتت تركيز المصلين ودعوا بدلا من ذلك إلى استخدام الأسطح الملساء .

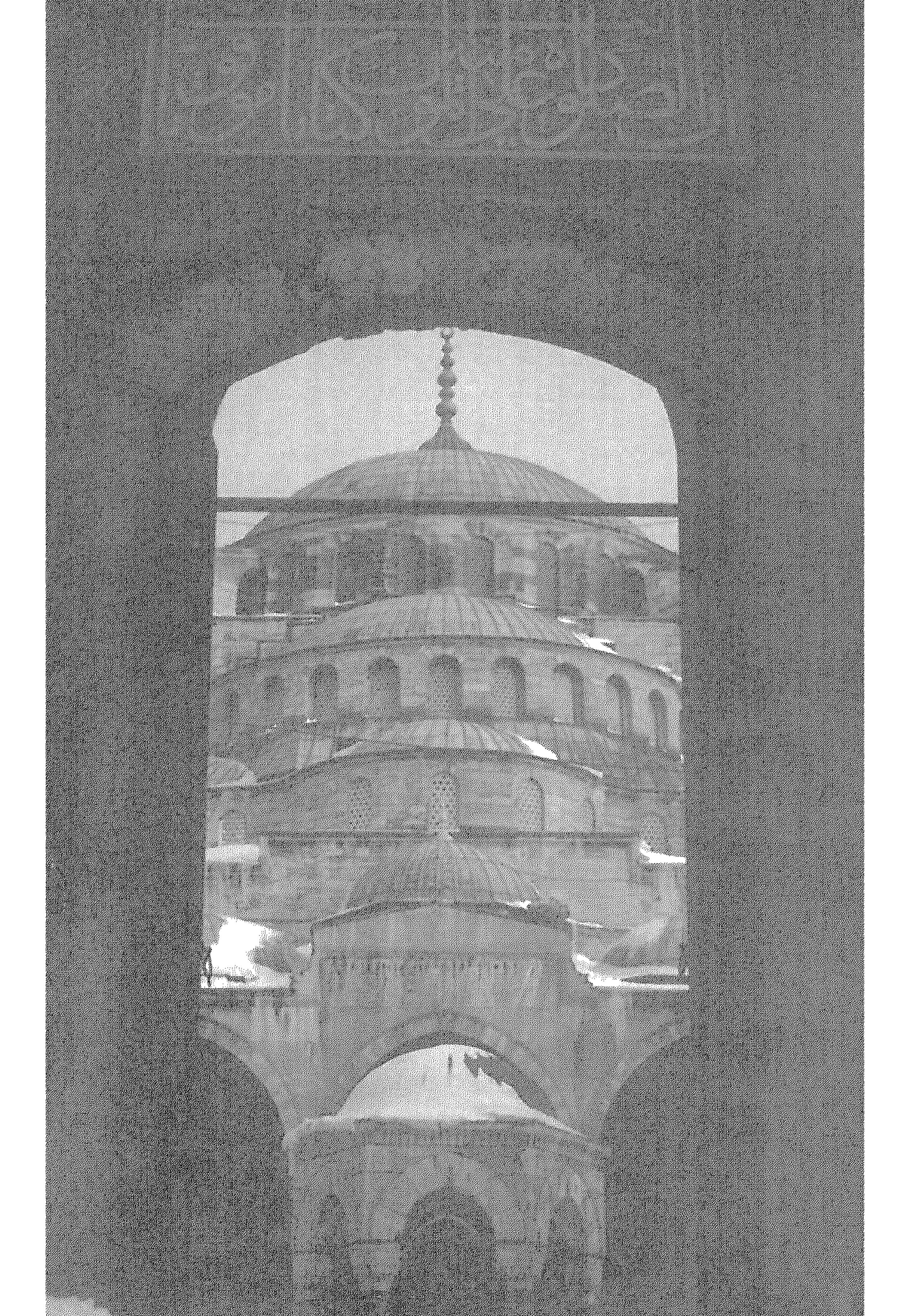
ولكن هل تؤثر المفاهيم الاجتماعية والتراث الثقافى والبيئة فى إقليم أو منطقة ما على الطراز المعمارى للمسجد؟ هذا التساؤل يحاول الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الاسكندرية المعروف بولعه بالعمارة الإسلامية الإجابة عليه فى بحثه المنشور بالكتاب حيث يشير فى معرض تأكيده لمحلية الطراز المعمارى للمسجد إلى مفهومين هما الخصائص الاجتماعية والطبقة الخارجية . إذ بينما تتحدد الخصائص الاجتماعية من خلال الظروف الجغرافية والمناخية والملامح الشكلية / المورفولوجيا / المحلية والممارسات الاجتماعية التى تمنح «الإحساس بالمكان» لمواقع بعينها و«الشخصية» لبيئة ما . فإن الطبقة الخارجية تشير إلى العملية التى يتفاعل فيها المظهر الثقافى للمبادئ الإسلامية فى أى مجتمع إسلامى مع الثقافات القائمة وإثراءه لتلك الثقافات التى يتصل بها سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية .

ويستند محتوى أى عمل معمارى على مستويين أولهما محتوى مادى مباشر يحدد الطراز، أما الثانى فهو إطار مرجعى أشمل ينطوى على أبعاد اجتماعية وثقافية واقتصادية يمنح العمل المعمارى معناه . وهو ما يفيد فى فهم الاختلافات المحلية / الإقليمية / فى المسجد كنموذج للبناء . فعلى سبيل المثال يرتبط الفن المعمارى السودانى بصلات قوية بمثيله فى جنوب الصحراء الكبرى ولفهمه يجب على المرء أن يتعرف على التفاعل الثقافى بين المنطقتين . ويقول الدكتور سراج الدين إن الفهم الواضح للمحتوى يجب أن يسبق محاولة إيجاد تفسير مناسب للمعنى الكامل لمحتوى الفن المعمارى للمجتمعات الإسلامية التى يعد المسجد واحدا من أبرز ملامحها .

ومن المعروف أن العمل المعمارى له بعدان واحد وظيفى والآخر فنى . إذ أن صحن المسجد يجب أن يكون مناسبا للغرض منه ، غير أن المبنى نفسه يجب أن يعكس سمو المجتمع المحلى الروحى وشخصيته الخاصة . والطريقة التى ينقل بها أى مبنى رسالته للمجتمع المحيط به تعتمد على الشفرة الخاصة التى صاغها تطور المجتمع فى حقبة ما . غير أن اختلاف هذه الشفرات من منطقة إلى أخرى لا ينفى وجود روح مشتركة ، غير أن التنوع الإقليمى أوجد




«الجامع الأزرق » أو جامع السلطان أحمد فى استانبول ، يرجع إلى بدايات القرن السابع عشر



لغة معمارية متميزة .

والاعتراف بالخصائص الاجتماعية يبدو جليا فى أعمال الإمام الشافعى (٧٦٧ - ٨٢٠) إذ أنه من المعروف أنه عندما أقام فى مصر أفتى بصورة مختلفة عما كان قد أفتى به خلال وجوده فى العراق ، فهو بذلك يعترف بتلك الاختلافات ويدافع عنها انطلاقا من الخصائص الاجتماعية . وإذا كان هذا الاختلاف مستساغا عند التعامل مع الشريعة ، فلابد وأن يلقى قبولا فى العمارة الإسلامية نظرا لانتشار الإسلام فوق رقعة واسعة من كوكبنا . ومع غياب أى نص لتصميم المسجد فلا غرابة أن يسمح بوجود تنوع هائل فى التعبير المعمارى فى بناء المسجد . ولا شك أن هناك أساسا مشتركا دينيا وتاريخيا يجمع بين المساجد يميزها عن غيرها من المبانى غير أن هذا الأساس المشترك لم يقف أمام التعبير عن الاختلاف الإقليمى فى الفن المعمارى للمسجد .

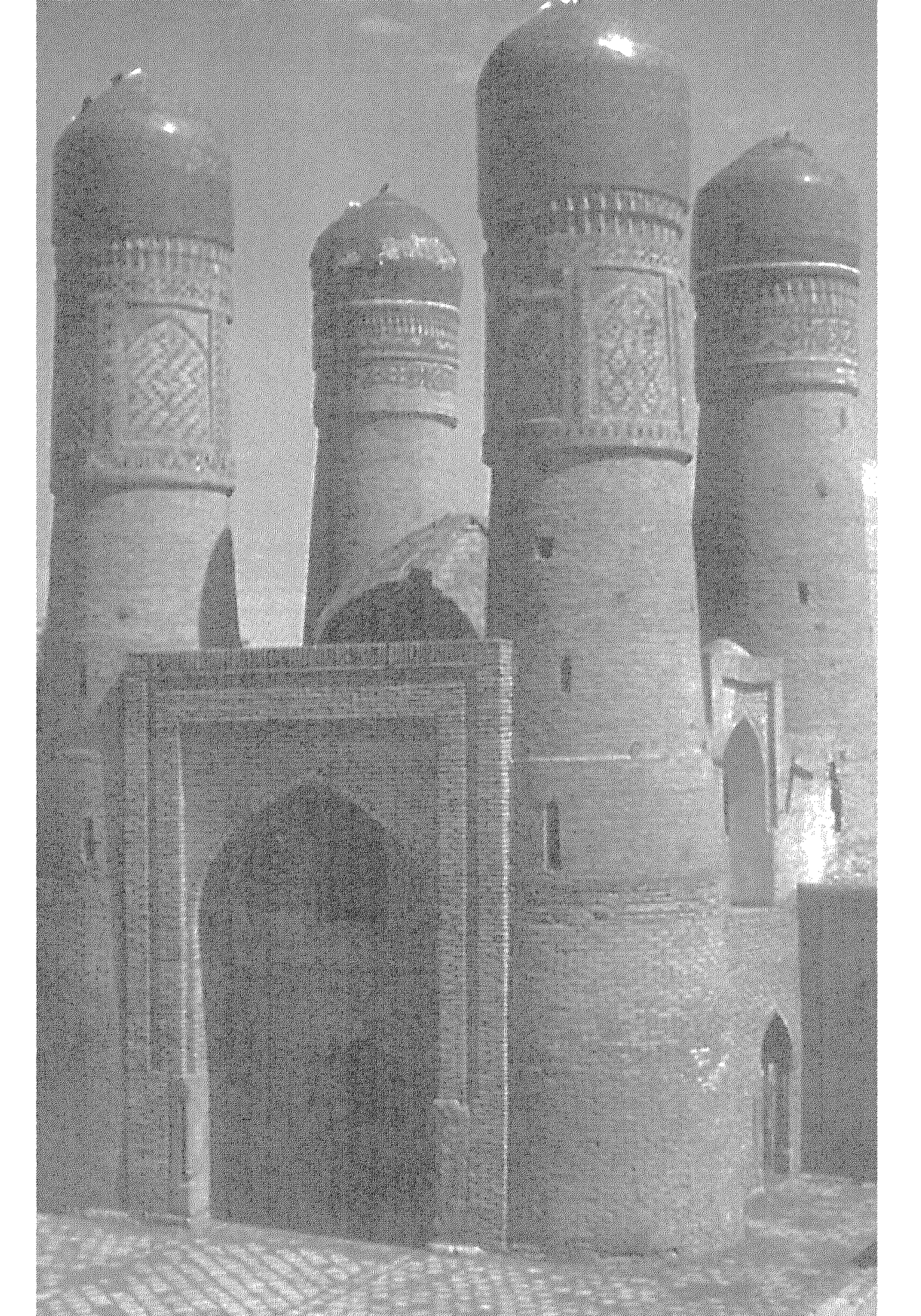
وفى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى تأثر الطراز المعمارى للمسجد ، كما يقول لايبل بيل بورسين الخبير المعمارى والباحث فى المتحف الوطنى للفنون الإفريقية فى واشنطن ، بالنوعية البسيطة للمواد المستخدمة فى بنائه . ويجمع الطراز المعمارى لمساجد هذه المناطق بين المفاهيم الإسلامية العامة والفن المعمارى التقليدى لأفريقيا حيث جرى استخدام قوالب الطوب اللبنى والأخشاب وأخذ البناء الشكل المخروطى مما أعطاه مظهرا متجانسا .

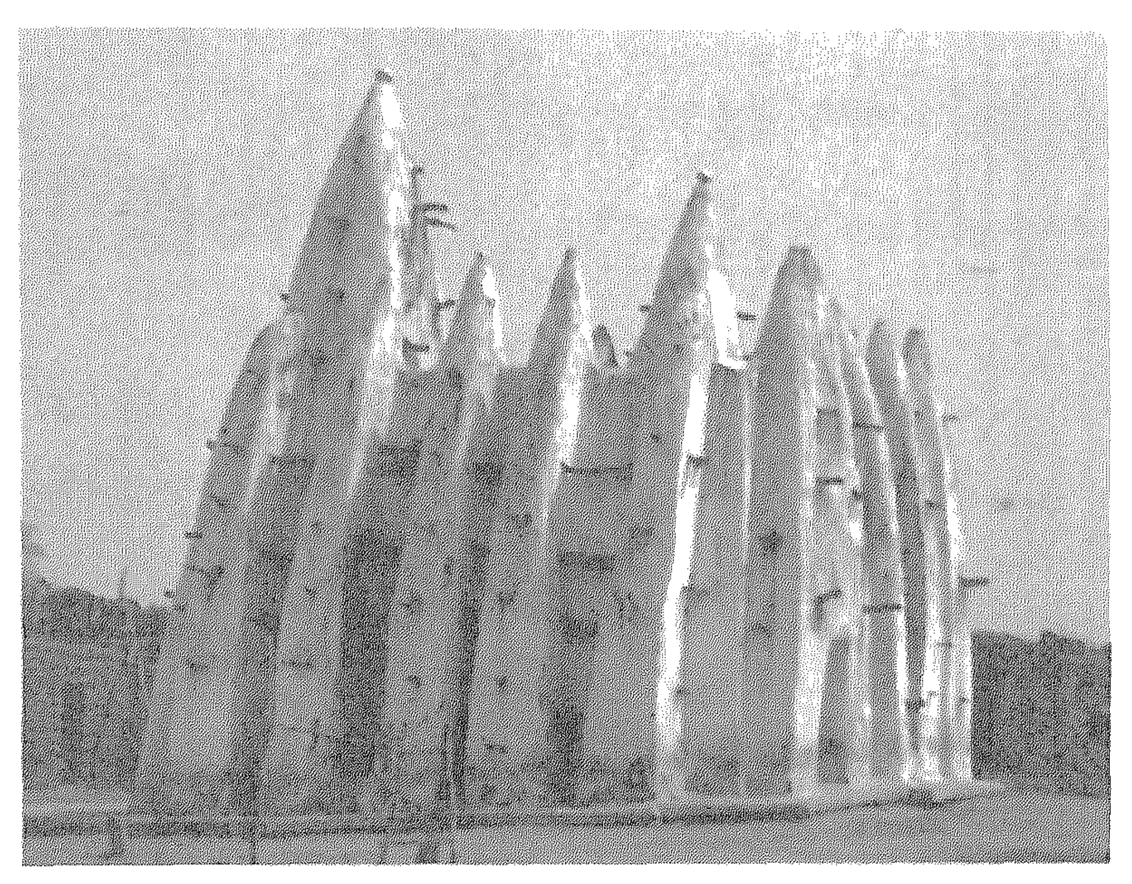
أما فى الهند فقد ساد طرازان معماريان ، طراز (ملكى) يميل إلى الفخامة والضخامة من القرن الثانى عشر إلى منتصف القرن السادس عشر . وطراز محلى يشير إلى مبان تتسم بطابع يشى باستقلال محلى أكبر . وفى الصين يشير ليو تشاوى أستاذ العمارة فى جامعة تونجى بشنغهاى إلى وجود طرازين معماريين للمسجد ، واحد جلب من الشرق الأدنى وينتشر فى المنطقة الواقعة شمال غرب الصين والآخر يرتكز على الطراز المعمارى الصينى التقليدى الذى عدل ليتلاءم مع متطلبات الشعائر الإسلامية وهو ينتشر فى منطقة واسعة من الصين . ودمجت المساجد التى بنيت علياالطراز الصينى ببراعة بين تأثير إسلام الشرق الأدنى مع التقاليد المعمارية المحلية وهو ما أثمر طرازا مميزا من تلك المبانى . وبشكل عام يبدو المسجد فى الصين مثل المعبد الصينى وإن كان بالداخل يزخر بنقوش الخط العربى الجميل .

وعن المساجد فى المجتمع الإسلامى اليوم يقول أوليج جرابر الأستاذ بجامعة برينستون إن مظاهر الحياة الحديثة لابد وأن تؤثر على المسجد إذ أن استخدام مكبرات الصوت جعل من السهل وصول الآذان إلى منطقة أكبر بصرف النظر عن طول المئذنة ، كما أن أجهزة التكييف ألغت الحاجة إلى الفناء المفتوح خلال الأيام الحارة ، وقلل استخدام أجهزة التسجيل من الوظيفة التقليدية للمؤذن ، غير أنه يبدو أن رعاة بناء المساجد غير مستعدين بعد لمراعاة هذه التطورات الجديدة فى تصميم المسجد فى الوقت الذى يسعون فيه وراء أحدث التطورات التكنولوجية سواء فى منازلهم أو أماكن عملهم .

ولكنه يقول إن أوجه الحياة الحديثة

نموذج فريد للمآذن الأربع التى تحيط بجامع بخارى بأوزبكستان ، وقد بنيت فى ١٨٠٧ م وكل منها مغلقة تماما ، ولا تؤدى وظيفتها كمئذنة

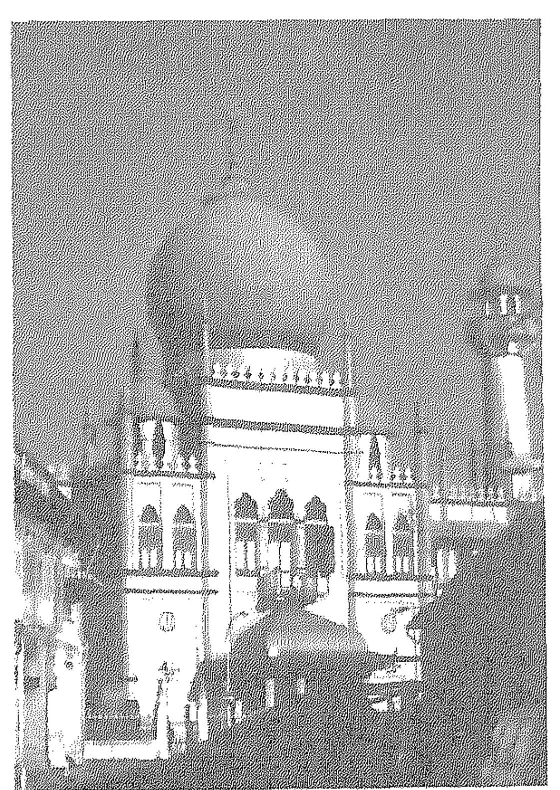




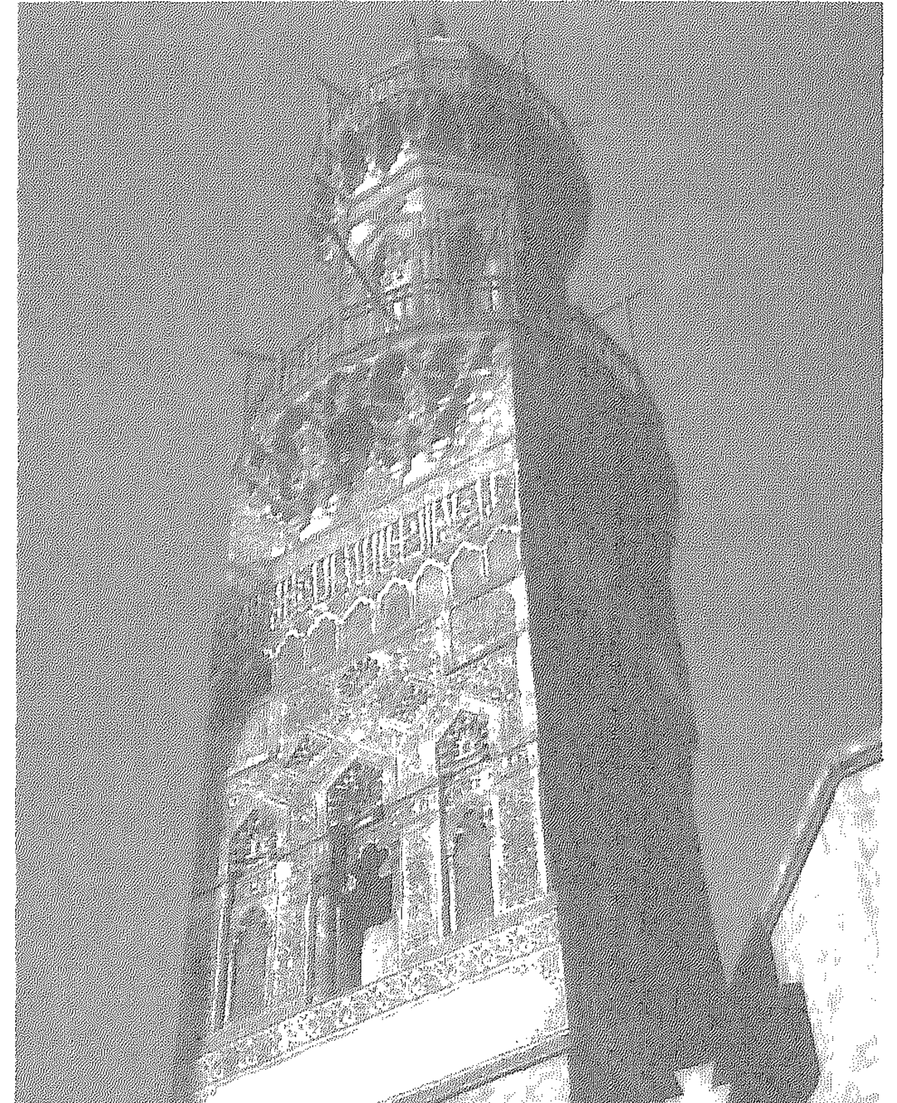
نموذج لمساجد شمال غانا فى أواخر القرن الثامن عشر



مسجد الجمعة فى سنجكارك بجزيرة سومطرة بأندونيسيا - القرن التاسع عشر



مسجد « السلطان» ، شيد في ١٩٢٤م بسنغافورة - ويبدو على عمارته التأثر بالعمارة الهندية



مئذنة مدرسة الناصر محـمـد بن قـلاوون ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م تعـد نموذجـاً رائعـاً لعـمـارة المسـاجـد

مثل الانتقال اليومى المعتاد بين المنزل ومكان العمل وتأثير التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى قد ساهمت فى تغيير الأنماط التـقليـدية لسلوك العـديد من المسلمين وإن عاجلا أو آجلا سيضطر المسجد إلى التلاءم مع هذه الظروف الجديدة . وسيعود الأمر إلى المهندسين المعـمـاريين لتطوير أشكالا مناسـبـة تتلاءم مع النظرة المستقبلية للمؤمن فى القرن الحـادى والعشـرين إذ يجب أن يسـتلهم النمط الجديد للمـسـجـد الاحتـيـاجـات الحـديثـة للحياة وليس بالضرورة أن يحاكى المساجد التى بنيت فى الماضى حتى لا يبدو غريبا عن بيئته الحضرية الحديثة . ■



بقلم
محمد يوسف عدس

«مايكل موركوك» مواطن أمريكى عادى من تكساس مسقط رأس عائلة بوش، بعث برسالة مطولة الى صحيفة الإندبندنت البريطانية استحوذت على اهتمامى لفترة من الوقت، كان حافزه لكتابة هذه الرسالة - كما أوضح - أمرين : أولهما الثناء على الصحفى والكاتب البريطانى «روبرت فيسك» مشيرا بسلسلة من المحاضرات الكاشفة ألقاها فى الولايات المتحدة حول حقيقة الصراع العربى الإسرائيلى، ثانيهما الاعتذار الى اخوانه البريطانيين عما ترتكبه أجهزة الاعلام الأمريكية من أكاذيب وتسطيح للحقائق، ويؤكد أن كل من يعرفه من الناس فى منطقته لا يصدقون تصريحات واشنطن فيما يتعلق بمشكلات الشرق الأوسط، مما تروجه هذه الأجهزة، لذلك انصرفوا عنها الى الفضائيات البريطانية والى ما ينشر فى شبكة الإنترنت من صحف أجنبية بحثا عن المعلومات الصحيحة.

ويختم موركوك رسالته بمعلومة مثيرة يقول : «إن الناس هنا يتندرون فى مجالهم بنكات ساخرة حول الشعارات التى تنطلق من الإدارة الأمريكية فيقولون (إن محور الشر الحقيقى هو إنرون ومونسانتو وإدارة بوش).

ليس كلام «مايكل موركوك» فريدا فى بابه، ففى الولايات المتحدة اتجاه

يتنامى على مهل ولكن بإصرار وقوة فى مواجهة جنون السياسة الأمريكية وتجلياتها الإمبريالية. ومعنى هذا أن صوت العقل والحكمة لا يزال ينبض بالحياة ولا يصح تجاهله أو التغاضى عنه .

فى إطار هذا المناخ العقلى أهدانى ابنى وصديقى كتابا أثار إعجابى ودهشتى، ذلك هو كتاب «الإسلام واكتشاف الحرية» من تأليف روز ويلدرلين Rose Wilder lane .

روز ويلدر لين

تردد هذا الاسم مجددا فى الدوائر الأدبية عندما اكتشف أحد الباحثين أن صاحبته هى المؤلفة الحقيقية لسلسلة كتب الأطفال الشهيرة بعنوان "Little House on the Prairie" ، تلك الكتب التى تحولت الى عشرات من المسلسلات التليفزيونية، وكانت قد سبق نشرها تحت اسم أمها «لورا إنجلز ويلدر» .

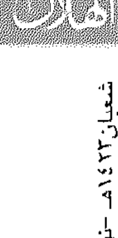
اشتهرت روز ويلدر لين فى حياتها الفكرية والعملية بالتزامها الأخلاقى بقضية الحرية فكرست حياتها الصحفية للدفاع عن هذه القضية، وألفت فى هذا الموضوع كتابا بعنوان «اكتشاف الحرية» وجعلت له عنوانا فرعيا يدل على محتواه «صراع الإنسان ضد طغيان السلطة».

تقول المؤلفة: «لقد أودعت حرارة قلبى فى هذا الكتاب»، ومع ذلك مالبثت أن سحبته من السوق بعد أن تبين لها أنها وقعت فى بعض أخطاء تاريخية. ولكن وكيلها الذى أعاد نشر الكتاب فيما بعد يؤكد أن هذه الأخطاء لم يكن لها أى تأثير سلبى على جوهر الرسالة التى تضمنها الكتاب، وبرر موقف المؤلفة بأنه شعور فائق بالمسئولية الأخلاقية هو الذى جعلها تسحب نسخ الكتاب من التداول.

ولدت روز ويلدر لين سنة ١٨٨٦، أمها «لورا» كما سبق أن ألمحنا، أما أبوها «ألمنظو ويلدر» Almanzo Wilder، ولهذا الاسم قصة مثيرة سنتبينها فى حينها. وبلغت قمة شهرتها سنة ١٩٣٦ عبر سلسلة من المقالات نشرت فى مجلة «ساترداى ايفننج بوست».

الاتصال بعالم المسلمين

كانت روز لين قد تطوعت للعمل كمراسلة صحفية مع منظمة الصليب الأحمر الدولية بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك لكى تشاهد بنفسها وتسجل تقاريرها عن أنشطة هذه المنظمة فى مناطق البلقان وروسيا والشرق الأوسط، وقد أتاح لها هذا العمل فرصة الاتصال المباشر بالعالم الاسلامى والمسلمين، وأكسبها خبرات



ثرية عمقت رؤيتها لحقائق هذا العالم الذى شغل عقلها ووجدانها زمنا طويلا منذ وعت فى طفولتها حقيقة مثيرة جرت تقليدا ثابتا فى أسرتها على مر العصور، ولعل هذا هو الذى فتح عقلها على الإسلام وتاريخه ومآثره، ذلك لأن روز لين كانت تعلم أنها لم تكن لتولد أو تظهر على وجه الدنيا لولا شهامة فارس عربى مسلم أنقذ جدها الأعلى من الموت أثناء الحروب الصليبية فى فلسطين .

كشف عن هذه الواقعة «هنرى جراى ويفر» فى كتاب له بعنوان «ينبوع التقدم الإنسانى» نشر سنة ١٩٥٣ ، يقول فيه إن جنديا إنجليزيا جرح فى الحروب الصليبية وكاد يهلك فأنقذه فارس عربى وعالجه ثم أطلق سراحه، واعترافا منه بهذا الجميل أوصى بأن يحمل أحفاده جيلا بعد جيل اسم منقذه، ومن هنا فإن والد روز ويلدر لين كان يحمل أسم ألمنظو.. يقول ويفر : ويبدو أن اصل الاسم كان هو «المنصور».

صراع أم حوار؟

رأى الدكتور عماد الدين أحمد ان ينشر الفصل المتعلق بالاسلام من كتاب «اكتشاف الحرية» لأنه فى تقديره - قد أصبح على جانب كبير من الأهمية خصوصا بعد ظهور كتاب صامويل هانتنجتون الذى ينذر فيه بصراع الحضارات، ذلك لأن كتاب اكتشاف الحرية يبشر - على العكس من ذلك - بحوار الحضارات واتصالها وتلاقحها ، ومن ثم قام بنشر هذا الجزء من الكتاب تحت عنوان «الاسلام واكتشاف الحرية» دون مساس بالنص، وانما قام بالتعليق فى هوامشه شارحا ومصححا حيث لزم الشرح والتصحيح .

والدكتور عماد من خريجى جامعة هارفارد وحاصل على درجة الدكتوراه فى علم الفلك والطبيعة الكونية من جامعة أريزونا وهو الآن رئيس معهد منارة الحرية للبحوث الإسلامية فى واشنطن، كما أنه يقوم بالتدريس فى جامعتى «جونز هوبكنز» وميرلاند»، وأول كتاب صدر له كان بعنوان آيات فى السماوات (سنة ١٩٩٢) ضمنه رؤية عالم مسلم فى الدين والعلم، وحول الموضوع نفسه قدم بحثا فى مؤتمر عقد بالفاتيكان سنة ١٩٤٤ تحت رعاية مؤسسة مراصد الفاتيكان الفلكية، وله جهود فكرية متعددة فى مجالات الحوار بين الإسلام والحضارة الغربية، ومن هنا جاء اهتمامه بنشر الجزء الخاص بالإسلام من كتاب روزلين، وهو كتاب يستحق منا كثيرا من التأمل والاهتمام .

ثلاث محاولات كبري في التاريخ

تبرز المؤلفة فى كتابها حقيقة ظهور محاولات جادة لبناء مجتمعات حرة فى

التـاريخ الإنسـانى وتؤكـد أن أهم هذه وأعظمها شأنا ثلاث محاولات بعينها :

● المحاولة الأولى : قام بها سيدنا ابراهيم عليه السلام، فقد نشأ هذا النبى العظيم فى مجتمع وثنى كان الناس فيه يؤمنون بأن كل شىء خـاضع لسطوة آلهة وثنية وأن البشر ليسوا أكثر من دمى فى أيدى هذه الأوثان، فجاء النبى إبراهيم ليـعلن للناس آن هذه الأوثان ماهى إلا حجارة صماء وأوهام لا قيمة لهـا ولا قـدرة بهـا، وأنه لاإله إلا الله الواحد الخالق الذى إليه المرجع والمآب.. وأن الله هـو الحق وأنه هـو الذى خلق الكون والانسـان بالحق، وهـو الذى سـيحكم على أفعال عباده يوم تقـوم الساعة.

وبدلا من خضـوع البشر لكائنات أرضية فانية فإن الله قد تفضل عليهم ومنحهم إرادة حرة وأنهم مسئولون عن نتائج أفعالهم الحرة أمام الله وحده .

وتلخص المؤلفة فكرتها عن التـاريخ باعتباره المجال الذى يدور فيه الصراع بين الفكرة الإبراهيـمية عن المسئولية الإنسـانيـة الفـردية وبين محـاولات السلطات الأرضيـة اخضـاع البشر وفرض العبودية عليهم، ومن ثم اعتبرت رسالة ابراهيم عليه السلام أول محاولة للثورة على الوثنية وعلى السلطة الجائرة فى آن واحد .

● أما المحاولة الكبرى الثـانيـة لتحرير الإنسانية فتتمثل ـ عند المؤلفة – فى رسالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وهى لا تغفل بل تعى تماما عظمة الرسالتين اللتين جاء بهما كل من النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ، ولكنها تعتبرهما – مع ما جاء به أنبياء آخرين – تفصيلا وتأكيدا للرسالة الأصليـة التى جاء بها أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام.

تقول المؤلفة إن رسالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) تميزت بشىء جديد، ألا وهو أنها أقامت حضارة على أسـاس من التـعـاليم الدينيـة والتى تضمنتها هذه الرسالة الخاتمة، فكانت أول حضارة ناجحة فى التاريخ تؤسس على قاعدة من المسئولية المباشرة أمام الله، آمن أتباعها أن الله قد استخلف الانسان فى الأرض وأوكل إليه مهمة عمارتها وإقامة العدل والخير فيها .

● ثم تأتى المحاولة الثالثة الكبرى متمثلة فى الثورة الأمريكية، ولم تتردد المؤلفة أن تقرر صراحة أن هذه الثورة قد أقيمت على قواعد من الثورتين السابقتين الإبراهيمية والمحمدية.

لم أجد فيما كتبته روزلين شرحا أو توضيحا لهذه النقطة التى تربط فيها الثورة الأمريكية بالثورتين السابقتين..

وهل حدث هذا عن وعي وتدبر أم أنها الفطرة والتوفيق؟.. تحتاج هذه النقطة الى نظر ومناقشة لا مجال لها هنا .. لذلك نمضي في متابعة أفكار المؤلفة عن الرسالة المحمدية ونكشف عن مصادر إعجابها بهذه الرسالة .

المساواة والحرية

تقول روزلين: عبّر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن فكرته بقوة عندما أعلن أنه لايوجد صنف من البشر متفوق على صنف آخر، بل إن الناس جميعا سواسية كأسنان المشط.. لقد أفسد الكهنة دين إبراهيم عندما افترضوا لأنفسهم حق الهيمنة على اليهود فجاء المسيح عليه السلام يفند مزاعم الكهنة الذين حرفوا الدين، ثم أتى من بعده القساوسة الكاثوليك واليونانيون ليفسدوا تعاليم المسيح حيث جعلوا من أنفسهم أوصياء على الناس ووسطاء بين الإنسان وبين ربه، تقول المؤلفة : «من أجل ذلك حرم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه الوساطة المزعومة بين الله والإنسان».

يزعم الكذابون أن الإسلام انتشر بالسيف ولكن «روز لين» ترد على هؤلاء قائلة : إن القوة الحقيقية الكامنة في الإسلام هي الحرية الإنسانية، وهي بعينها السر في سرعة انتشاره المذهل.. وتؤكد روز لين أن هذا الانتشار المثير لم يستطع المؤرخون الغربيون فهمه.. والسبب عندها هو أنهم لم يدركوا حقيقة القوة الكامنة في الرسالة المحمدية البسيطة، التي أخرجت الناس من عبودية البشر الى عبادة الله وحده.. وحررت الضمير الإنساني من كل سلطة جائرة.. ولم يكن عجيبا ـ على حد قول المؤلفة – أن يصبح العالم مسلما في عقود قليلة من المحيط الهندي الى المحيط الأطلسي، وأن يتحول البحر المتوسط الى بحيرة إسلامية، وأن تتخذ البوابة الغربية للعالم الأوربي اسما عربيا حيث اطلق عليها «مضيق جبل طارق» .. وأن يتلو هذا الفتح الواسع أول وأعظم جهد خلاق للطاقة الإنسانية المتحررة ليتبلور في إبداع أول حضارة علمية ظهرت على وجه الأرض .

الجامعات الإسلامية والتعليم الأمريكي

تنتقد المؤلفة نظام التعليم الامريكي في عبارات محددة وواضحة فتقول :

في المدارس الأمريكية يتعلم التلاميذ التاريخ الأوربي بدءا من الوثنية اليونانية والرومانية.. مرورا بالتحول الأوربي من سلطة الامبراطورية المقدسة الى سلطة الكنيسة في العصور الوسطى .. ثم ينتقلون الى عصر النهضة فيتعرفون على الملوك والبارونات.. ثم يتريثون قليلا عند عصر الإصلاح ليعبروا بعده الى

أوربا الحديثة حيث ارتفاع الطبقة الرأسمالية وثورة الجماهير .

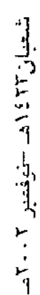
تقول روز لين: لما كان هذا هو كل ما يتعلمه الأمريكيون عن تاريخ أوربا فلابد أن نحكم عليه بأنه تعليم ناقص لأنه يتجاهل تماما دور الحضارة الاسلامية فى تطوير أوربا واخراجها من ظلمات العصور الوسطى الى عصر النهضة والتقدم، فلا أحد يستطيع أن ينكر أنه فى الوقت الذى كانت أوربا غارقة فى الظلام والتخلف كان العالم الإسلامى يزدهر ويتألق بحضارة خصبة مبهرة هى أقرب الى نوع الحضارة التى نشأت فى الولايات المتحدة، حضارة تمتع بثمراتها كل إنسان حى على غير مثال سابق فى التاريخ البشرى.. عاش فى كنفها ملايين بعد ملايين من الناس آمنوا جميعا إيمانا راسخا أن الله قد خلق البشر كلهم أحرارا متساوين، لذلك استطاعوا أن يبدعوا حضارة متميزة وظلوا قائمين على الإبداع فيها ثمانية قرون، فكان لهم الفضل فى نشأة الرياضيات والعلوم الحديثة مثل علم الفلك والملاحة والطب والجراحة والزراعة. بل تذهب المؤلفة أبعد من هذا فتقول : «إن العالم مدين لهؤلاء المسلمين باكتشاف القارة الأمريكية».

التعددية الحقيقية

كان هؤلاء المبدعون ينتمون الى جميع الأجناس والألوان والشعوب، ويمثلون الأديان والثقافات القديمة كلها.. نعم كان الإسلام هو السائد المهيمن ولكن هؤلاء المبدعين لم يكونوا جميعا من المسلمين بل كان منهم المسيحيون واليهود وغيرهم.. انصهروا فى بوتقة مجتمع واحد قائم على التعددية الحقيقية.. كانوا رعايا لإمبراطوريات سابقة فاختلط على الأوربيين جمعهم تحت اسم واحد فأطلقوا عليهم اسم «سراسين» بدلا من المسلمين. و«سراسين» كما تقول المؤلفة اسم ينطوى على صفات سلبية كريهة أسبغها الأوربيون تعبيرا عن الحقد والكراهية .. «وهى مشاعر ورثها الأمريكيون من الأوربيين فلم يروا المسلمين الا بعيون كارهة».

فما الذى حدث فى التاريخ ليجعل من بلاد المسلمين نورا ومن بلاد أوربا ظلاما وتخلفا؟، تحاول روزلين الإجابة على هذا السؤال فتفيض وتتألق فى حديث نحاول التركيز على أبرز معالمه :

لم يكد محمد (صلى الله عليه وسلم) يتخلى عن تجارته ويتفرغ لرسالته حتى كانت شرطة السلطة الإمبراطورية قد أغلقت جميع المدارس العلمية فى بيزنطة، فكان على العلماء إما أن يغلقوا أفواههم أو يعتزلوا الدنيا ويلجأوا الى صوامعهم بعيدا عن الناس والحياة، وإما



أن يخــرجــوا نهــائيــاً من أرض الإمبـراطورية المقدسـة.. وقد آثر عـدد كبير من هؤلاء العلماء أن يرحلوا بعيدا عن الإمبـراطورية البـيزنطية .. فى ذلك الوقت كـان الشق الغـربى من أوربا - حـيث العـاصـمـة هى رومـا - يعج بعصابات المجرمين التى انتشرت فى أنحـاء أوربا، وكـانت القبـائل الشـمـالية تعيش فى حالة بدائية بربرية.. أما روما نفسها فقد كانت مدينة للأشباح .

لكن اخـتلفت الصـورة قليـلا فى الشرق حيث كان الفرس يمارسون حرية نسبية أكثر .. لذلك توجه اليـها علماء بيـزنطة الفـارين من الإرهاب .. فلمـا انهــارت دولة الفــرس أمــام الزحف الإســلامى وارتفــعت راية الحـرية فى أنحاء الدولة الوليدة استقر هؤلاء العلماء فى هذا المناخ الحـر وبدأوا يتـرجـمـون كتبهم وعلومهم الى اللغة العربية.

وفى غضون قرن واحد أصبح العالم الإسـلامى ممتدا من شمـال الهند شـرقا الى المحيط الأطلسى غربا، مشتملا على بلاد الفـرس والجـزيرة العـربيـة وبلاد الشـام ومصـر وشمـال افريقيا وأسبانيا وجنوب ايطاليا وجنوب فـرنسا، وأصـبح الخليج الفارسى والبحر المتوسط والبحر الأحـمـر وبحـر قـزوين كلهـا بحـيـرات إسلامية .. فى هذه المساحات الشاسعة كلها سقطت الحواجز التى كانت تعوق حـركة الإنسـان فـأصبح الناس يتنقلون فـيـها بحـرية كـاملة من مكان الى مكان آخر بدون تأشيرة دخول ولا جواز سفر .. وهـى ظاهـرة فــريدة من الحــرية لم يسبق لها مثيل فى التـاريخ، ولاتكررت فى العصور اللاحقة.

تحرير الطاقة وعـشق المعرفة

تقول المؤلفة تفسيرا لإقبال المسلمين على المعـرفـة والبـحث العلمـى: عندمـا تتـحـرر الطاقـة الإنسـانيـة من طغـيان السلطة سـواء كـانت هذه سلطة الملك أو سلطة رجـال الدين تتـحـول هذه الطاقـة الى غزو للطبيعة لتجعل من الأرض بيئة صـالحة لحياة الناس.. ومن ثم يأتى دور المعرفة العلميـة.. ولم يكن هذا ليـتحـقق لولا أن المترجمين والعلمـاء والكتـاب قد وجدوا طريقـهم ميسرا ، فى مجـتمـعات نشأت على احترام العلم وعشق المعرفة، كما وجدوا من السلطة الحاكمة التشجيع والمكافـأة، ولم تطاردهـم شـرطة الحكام ولا مـحاكم التـفتيش الكنسـيـة كما كان الحـال فى أوربا.. من هنا كـان الإبداع وانتـشـار المكتبـات والمدارس فى بقـاع العـالم الإسلامى من طشقند الى بغداد الى غـرناطة .. ثم تحـولت هذه المدارس الى جـامـعـات ، فـأصـبـحت جـامـعـات المسلمين هـى أولى جامـعـات العـالم فى الوجود .

الجامعات الإسلامية

تقول المؤلفة : «عندما زرت القاهرة



كانت جامعة الأزهر العريقة قد أتمت ألف سنة من عمرها .. وكانت تضم فى ذلك الوقت أربعــين ألف طالب».. ثم تطرقت الى أسلوب التعليم وادارته فى الجامعات الإسلامية فقالت : «لم تكن هذه الجامعات فى الماضى تمنح درجات علمية ولا تخضع لنظم جامدة ولا قواعد متحجرة، وإنما كانت مؤسسات للتعلم لا للتعليم فقط.. بمعنى أن الطالب - شابا كان هو أو شيخا - يذهب اليها ليتعلم ما يريد هو أن يتعلمه لا ما يراد له أن يتعلم من جانب الآخرين.. كان الأمر - ببساطة - يشبه ما يفعله الأمريكيون عندما يذهب أحدهم الى البقال ليشترى من الطعام ما يريد لغذائه».

«فى هذه المؤسسات التعليمية تجد أناسا يعلمون أو يعتقدون أنهم يعلمون علما ما، ويرغبون أن يعلموه للآخرين الذين هم فى حاجة الى المعرفة .. نمت هذه المدارس ولحق بشيوخها علماء ومعلمون آخرون» .. وظهر أناس محبون للعمل العام فبنوا مدارس جديدة وأنفقوا عليها من أموالهم الخاصة.. وهذا نموذج راق للمجتمع المدنى الذى نفخر به فى أمريكا اليوم».

كان المعلمون يدرّسون فى فصول مفتوحة (أروقة) وأى شخص كان مسموحا له أن يجلس للاستماع بدون قيود، وكان طالب العلم يتنقل من شيخ الى شيخ آخر يستمع من هذا وذاك .. وعندما يستقر اختياره على شيخ بعينه يجلس اليه ليتناقش معه فيما يريد أن يتعلمه .. ثم ينتظم بعد ذلك فى حلقة الدرس ، فإذا انتهى من تحصيل ما يريد من علم أستاذه انتقل الى أستاذ آخر ليدرس موضوعا آخر .. وعندما يشعر بالامتلاء والثقة يستطيع أن يحصل من أساتذته على «إجازة» تفيد أنه قد أتقن هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة .. وأنه قد أصبح قادرا ومؤهلا للتدريس لغيره من الطلاب .

التجربة الأمريكية

تنتقل المؤلفة بنا من هذه الصورة التعليمية المبهرة فى بلاد المسلمين الى التجربة الأمريكية الحديثة فى هذا المجال فتقول : «بعد ألف سنة من بناء المسلمين لهذه الجامعات النموذجية الحرة، وفى قارة لم يرد على خاطرهم وجودها وهى القارة الأمريكية ظهر قائد ثورى هو توماس جيفرسون .. كان بدوره لا يعرف الا قليلا وربما لاشيء على الإطلاق أن المسلمين قد استطاعوا قبل ألف عام أن يحققوا حلم حياته عندما أنشأ جامعة فرجينيا .. وقد تمثل حلمه فى نوع جديد من التعليم غير معهود من قبل (فى أوربا).. كتب عنه

بفخر واعتزاز الى صديق له فى جامعة هارفارد التى كانت تتبع نظاما تعليميا من مخلفات العصور الوسطى : «سوف نتيح لطلابنا اختيارا غير مقيد للمحاضرات التى يرغبون فى حضورها، فجامعتنا سوف تعمل على أساس أن يترك لكل طالب الحرية لكى يأتى ويستمع لأى شىء يعتقد هو أنه يحسن حالته العقلية».

تعلق المؤلفة على ذلك فتقول: « «.. لم يعلم جيفرسون أن جامعة الأزهر قد اعتمدت منذ الف عام هذا المبدأ فى أسلوب تعليمها .. أما فى أوربا حتى الى عهد قريب فلم يعرف فيها هذا النظام من التعليم الذى يسعى فيه العقل لتحصيل ما يريد من المعرفة بالبحث النشط الدءوب ،. وإنما اتبعوا نظاما سلبيا تفرض فيه السلطات الحاكمة ما ترى أنه ينبغى على الطلاب أن يتعلموه .. أحبوا ذلك أم كرهوه».

الإسلام والنهضة

ثم تتطرق المؤلفة الى حقيقة أخرى كاملة مهمة طالما تجاهلها المؤرخون الأوربيون عمدا، تتعلق بتأثير الحضارة الإسلامية على النهضة العلمية الحديثة فى أوربا حيث تقول : «من أبرز المؤسسات التى عنى بها المسلمون المدارس الطبية والمستشفيات العلاجية التى أقاموها فى بلاد الاسلام الممتدة من نهر الجانج الى المحيط الأطلسى .. ومن المعروف أن أول مستشفى للطب والجراحة فى أوربا قد تم إنشاؤها فى إيطاليا بالذات دون غيرها من البلاد الأوربية .. فكان الإيطاليون أول من أجرى جراحة فى أوربا (بعد المسلمين) ، ويرجع السبب فى معرفتهم بالجراحة أنهم تعلموها فى المدارس الطبية الكبرى بالأندلس.. وكانت على مسيرة أسبوع من السفر .. ولم يكن فى استطاعة الإيطاليين أو غيرهم أن يتعلموا الجراحة فى أى مكان آخر بأوربا لأن الجراحة كانت محرمة حيث اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية رجسا من عمل الشيطان».

تزيد المؤلفة هذه النقطة ايضاحا عندما تكشف لنا عن أسباب سبق الإيطاليين غيرهم من الأوربيين بدخول عصر النهضة حيث تقول : «كان الإيطاليون هم الوسطاء التجاريون بين عالم المسلمين وبين أوربا، ومن ثم كانوا أكثر الشعوب الأوربية احتكاكا بالمسلمين وكانوا اول من أقبل على التعليم فى مدارسهم .. لذلك لم يكن غريبا أن تكون عناصر النهضة (من علوم وفنون وفلسفات) التى نمت وترعرعت فى الأندلس الاسلامية ثم انتقلت على أيدى الايطاليين وغيرهم الى

أوربا، هى التى فجرت عصر النهضة الأوربية.. بل إن المنهج التجريبى فى البحث العلمى الحديث كان ابداعا اسلاميا غير مسبوق نقله روجر بيكون الانجليزى من الأندلس ثم جاء فرانسيس بيكون بعده فقام بتطويره .. والى هذا المنهج التجريبى يرجع الفضل فى التقدم العلمى الهائل فى أوربا الحديثة».

الصدمة الثقافية في الحروب الصليبية

تتناول المؤلفة موضوعا آخر على جانب كبير الأهمية فقد عنيت بدراسة وجه من وجوه الحروب الصليبية طالما أغفله المؤرخون الأوربيون بل أنكروه، ذلك هو الوجه الحضارى من هذه الحروب فنراها ترسم لنا بدقة وتفصيل الصدمة الثقافية التى واجهت جنود الحملات الصليبية عندما اطلعوا على أحوال المسلمين ورأوا انها تختلف عما سمعوه فى بلادهم من أكاذيب، رأى الجنود الصليبيون كيف تعايشت طوائف المسيحيين واليهود مع المسلمين فى نسيج مجتمع واحد يتميز بالتسامح والإنسانية والازدهار وتعجبوا أن يظل المسيحيون أحياء مع الحكم الإسلامى لعدة قرون دون أن يتم القضاء عليهم، وهو الأمر الذى لم يكن ليحدث فى أوربا نفسها بين الطوائف المسيحية المختلفة.. تقول «روز لين» :إنها أوربا التى يقتل فيها المجدفون المختلفون فى عقيدتهم الدينية الى آخر طفل رضيع.. أما فى بلاد المسلمين فإن الناس آحرارا فى اختيار عقيدتهم لا سلطان لأحد عليهم، فشعار المسلمين المستمد من كتابهم المقدس هو (لا إكراه فى الدين) .. ثم تستطرد فتقول : «كان هذا الوضع الحضارى هو مصدر الصدمة الثقافية التى أذهلت الصليبيين الذين جاءوا من بلاد العنف والغضب والشراسة البدائية وقد امتلأت عقولهم بأكاذيب عن ذئاب همجية تفترس المسيحيين افتراسا، فإذا بهم يجدون المسيحيين ينعمون بسلام وآمن ورخاء يستحيل أن يجدوه فى أوربا .. ولم يلبث الصليبيون بعد أن استقروا فى مجتمعات المسلمين أن يندمجوا فى حضارتهم فبدأوا يحيون ويسلكون مثل المسلمين.. يأكلون طعامهم ويرتدون مثل ملابسهم.. ونشأ أبناءهم وقد تمثلوا كثيرا من روح التسامح الإسلامى فلما عادوا الى بلادهم بعد ذلك كانوا نشازا فى مجتمعات متعصبة ترفض التعددية الدينية ولا تعرف التسامح مع الآخرين». ■

ذو النون المصرى

من خلال «الكوكب الدرى» لابن عربى

بقلم
د. أحمد الطيب
مفتى الديار المصرية

كتاب «الكوكب الدرى» فى مناقب «ذى النون المصرى»، الذى ألفه الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى نص متميز من نصوص مناقب الصوفية، وهو يكتسب أهمية مزدوجة من حيث المؤلف، ومن حيث صاحب الترجمة أيضا، وحسبنا بهما قمتين سامقتين من قمم الحياة الروحية فى الإسلام.

وقد لا يكون من المفيد فى شىء الحديث عن مؤلف الكتاب: الشيخ الأكبر فى هذا البحث المختصر، خصوصا إذا لاحظنا أن الشيخ الأكبر يحظى من الاهتمام بدراسته ودراسة تراثه وتصوفه على يد أساتذة الغرب بأكثر وأعمق مما يحظى به على يد زملائهم الشرقيين عامة، وفى مصر على وجه الخصوص، يدلنا على ذلك كتاب «الكوكب الدرى..» نفسه، والذى ترجم إلى اللغة الفرنسية ترجمة ممتازة بقلم الأستاذ Roger Deladriere، وقرأه الناطقون باللغة الفرنسية فى طبعته التى صدرت سنة ١٩٨٨، بينما لايزال هذا النص فى لغته الأم: اللغة العربية حبيس المخطوطات حتى يومنا هذا، والنتيجة هى أن شخصية «ذى النون» ربما تكون الآن معروفة فى الغرب بتفصيل أوسع مما هى معروفة به فى الشرق العربى.

وتتفق الروايات كلها على أن ذا النون كان من قرية يقال لها: «إخميم» بصعيد مصر، وقد نُسب إليها في كثير من مصادر ترجمته فكان يقال «... الإخميمى»، ومن هنا تؤكد هذه المصادر أنه وُلد بإخميم، وإن كان يحتمل - فيما نرى - أنه ولد ببلاد النوبة ثم رحل إلى إخميم فى مرحلة تالية من حياته، وهذا الاحتمال قائم على أمرين: أولهما، أن أسرته من بلاد النوبة، وثانيهما ما يرويه ذو النون نفسه من أنه كان بالعلاقية والتقى فيها ببعض الزهاد. والعلاقية أو العلاقى واد بجنوب شرق مدينة أسوان، يقع منها على مسافة ١٧٠ كم تقريباً، ولا يزال يتسمى بهذا الاسم حتى الآن، كما يروى أيضاً أنه كان بمدينة قفط وبمدينة قوص، مما يشير إلى أن شأن ذى النون إنما بدأ ببلاد النوبة، وأنه انتقل أخيراً إلى إخميم ماراً ببعض المدن التى أشار إليها.

ثم تصمت المصادر من جديد عن تحديد تاريخ ولادته، وإن كان كثير من الباحثين يرجح أنه ولد حوالى سنة ١٥٥ هـ ، استناداً إلى ما تقوله أكثر الروايات من أنه توفى سنة ٢٤٥ هـ عن عمر ٩٠ عاماً.

كتاب «الكوكب الدرى»

وكتاب «الكوكب الدرى» مأخوذ من كتاب كبير، اسمه : أنس المنقطعين إلى الله تعالى، انتخبه الشيخ الأكبر لنفسه، كما يقول، من كتب المناقب والتراجم التى وقعت فى يده، وشكلت المصادر الأساسية لمعلومات هذا الكتاب.

من هذه المصادر:

١ - كتاب حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم المتوفى ٤٣٠ هـ :

٢ - كتاب صفة الصفوة لأبى الفرج بن الجوزى المتوفى ٥٩٧ هـ .

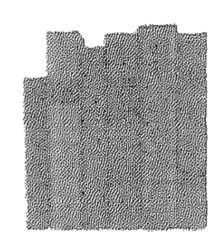
٣ - كتاب بهجة الأسرار ولوامع الأنوار لأبى الحسن على بن جهضم الهمذانى، وهو كتاب فى أخبار الصوفية وأحوالهم وتراجمهم . توفى ابن جهضم - فيما يقول الذهبى - سنة ٤١٤ هـ .

٤ - كتاب تهذيب الأسرار للإمام القدوة شيخ الإسلام أبى سعيد الملك ابن أبى عثمان الخركوشى، وهو كتاب فى طبقات الأخبار، مات أبو سعيد سنة ٤٠٧ هـ.

٥ - كتاب الرسالة لأبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، وهو كتاب معروف.

٦ - كتاب مناقب الأبرار ومحاسب الأخيار لتاج الإسلام أبى عبدالله الحسين بن خميس المتوفى سنة ٥٥٢ هـ . وقد حصلنا على نسخة مصورة من هذا المخطوط من دار الكتب المصرية.

كما يشير ابن عربى إلى مصدرين آخرين هما: كتاب المنقطعين لابن مغيث، وكتاب الذخائر والأعلاق لابن سلام الشلبى.. وهذان المصدران لا زالا مجهولين بالنسبة لى حتى هذه اللحظة. ولابن عربى مصدر آخر لمناقب الأولياء غير الكتب والمؤلفات هو: ما شاهده بنفسه من كرامات الأولياء، أو ما حدثه به شيخ من شيوخه من أخبار الصالحين



وحكايتهم. ونلاحظ أن الشيخ الأكبر - وهو ينقل عن هذه المصادر - يوثق رواياته التى ينقلها بسلاسل من الأسانيد والإجازات والسماعات من هذا النوع الذى يستخدمه الحفاظ في توثيق الأحاديث النبوية.

ويتميز عمل ابن عربى فى هذه المناقب: بمنهجية وتنظيم نفتقدهما كثيراً فى كتب المناقب الأخرى حيث درج هذا النوع من المصنفات على تجميع المناقب الخاصة بكل ولى وسردها مجتمعة دون ترتيب بالأخبار المنقولة عنه والمنقولة عن غيره، ودون فصل بين الأخبار التى تختص بمولده وحياته أو التى تتعلق بأقواله ومذهبه، وعلى العكس من ذلك نجد أخبار ذى النون فى كتاب الكوكب تتمتع بتنسيق يدور حول أقسام ثلاثة رئيسية وخاتمة.

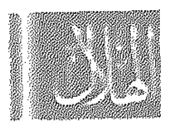
القسم الأول: فى حياة ذى النون الشخصية والروحية، وهذا الباب يشغل ٤٠ ورقة من أوراق المخطوط، عرض فيها ابن عربى لكل ما يتعلق بهذا الجانب من حياة ذى النون من اسمه ولقبه وصفته وتاريخ وفاته وفضله وعلمه وروايته للحديث وسبب توبته ومحنته وكراماته.

القسم الثانى: فيما يتعلق بطريق القوم وما ورد من مفاريد أقوال ذى النون حول ما يقرب من ٦٥ باباً من أبواب الأخلاق والآداب الصوفية. ويشغل هذا القسم من ورقة ٤٠ إلى ورقة ٩٩.

القسم الثالث: وهو قسم الأولياء وقد خصصه ابن عربى لما ورد من كلام ذى النون فى نعت الأولياء ووصفهم وتقسيمهم إلى طوائف مختلفة لكل طائف اسمها الخاص بها: كالنجباء والسائرين والعابدين والخائفين والثائرين والمهمومين والعارفين.. من الذين لقيهم ذو النون فى سياحاته أو رحل هو إليهم من الرجال والنساء العابدات والسائحات العجائز من أهل الله فى البلاد والسواحل والجبال والشعاب.

ويتحدث «ابن عربى» فى هذا القسم عن شيخه «ذى النون المصرى» وأستاذته: فاطمة النيسابورية، تلك التى يقول عنها أبوزيد البسطامى: «ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا وكان الخبر لها عياناً». كما يتحدث عن شخص بالمغرب سمع عنه ذو النون ورحل إليه، لكنه لم يحدد اسمه ولا شخصيته، غير أن الأستاذ «دلادرييه» استطاع عن طريق كتاب «رياض النفوس» لأبى بكر المالكى المتوفى ٣٥٦ هـ وكتاب معالم الإيمان لأبى زيد المغربى أن يحدد هذا الشخص هو «شقران العابد»، وأنه أستاذ «ذى النون» ويقع هذا القسم فى حوالى ٥٤ ورقة من ورقة ١٠٠ إلى ورقة ١٥٤.

أما الخاتمة: فهى باب جامع لأقوال ذى النون فى قضايا متفرقة من أمور التصوف والعرفان. وقد نقل «ابن عربى» غالبية أقوال «ذى النون» فى هذه المسائل من «ابن



باكويه» دون أن يذكر أسانيده المستعملة فى الأقسام السابقة، وهذا القسم يبدأ من ورقة ١٥٤ وينتهى بنهاية الكتاب فى ورقة ١٩٥.

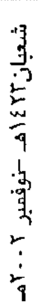
ولم يكن الشيخ الأكبر، فيما يقصه عن «ذى النون»، مجرد راو للمناقب والأقوال والحكايات، يحشدها وينقلها من مصادرها ثم يتركها دون تعليق، بل كان يتدخل لتوضيح معنى أو عقد مقارنة أو إشارة فى لمحة خاطفة تكثف ظلالاً لا نهائية من أنظار الشيخ ورؤاه: فقد نقل قول «ذى النون» فى تعريف حقيقة التوكل «بأنه علم العبد بأن الله يعلم ويرى ما هو فيه» ثم علق عليه بأن ذا النون يتابعه كثير من العلماء مثل أبى حامد الغزالى، ولكن المراد بالعلم هنا ليس المعرفة، بل العمل بالعلم، وإلا فالكل من أهل الإسلام يعلم أن الله يعلم ويرى الخلق وأحوالهم، ومع ذلك لا يصح لكثيرين منهم حقيقة التوكل، ومعرفتهم هذه ليست علماً، بل الأحرى أن تسمى رسما ودراية .

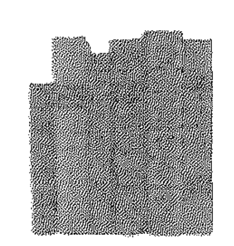
ولا ينسى «ابن عربى» أن ينبه من خلال تعليقاته التى يتدخل بها فى الوقت المناسب على الاختلاف الدائم بين مستوى الفقيه ومستوى الصوفى.

كل هذه التعقيبات والإيضاحات والإرشادات - وهى قليل من كثير - تثبت للقارىء وجود الشيخ الأكبر وحضوره الدائم بين السطور، وفى ثنايا الروايات، وأنه ليس مجرد مترجم ناقل. وأن المترجم هنا هو فى ذات الوقت من أكابر الأولياء. وهو إذ يكتب ما يكتب وينقل ما ينقل يضع فى حسبانه منظوراً آخر، هو منظور التماثل والتناظر بين المترجم وصاحب الترجمة ، فكلاهما مغرد فى ذات السرب، وهما وإن كان يفصل بينهما قرابة أربعة قرون من حساب الزمن إلا أنهما فى صفحات هذا الكتاب شقيقان، بل توأما روح واحدة، ورضيعا لبن واحد. ولعل «ابن عربى» فى كثير من مواضع كتابه هذا ما كان يتحدث عن «ذى النون» بل كان يتحدث عن نفسه وعن تجارب شبيهة بتجاربه، وأكبر الظن أن الشيخ الأكبر لم يضع كتابه هذا تاريخا لفترة من فترات الحياة الروحية فى الإسلام وضعه تاريخا «لذى النون» كشخص، وإنما وضعه ليلبى حاجة أساسية فى مذهبه الصوفى، هى أثر ذكر الصالحين فى تنزل الرحمات وفى انكسار القلب ورقة النفس وحفز السالك على المعزوف عن الدنيا، وكلها أصول وأنهاج ثابتة فى طريق القوم، وهو إذ يتحدث فى كتابه هذا عن «ذى النون المصرى» فهو فى واقع الأمر إنما يتحدث عن حقيقة الولاية المتعالية على الزمان وعلى المكان أيضاً.

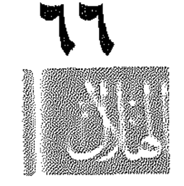
«ذو النون» ساحراً

ويبقى جانب غامض - إلى حد ما - فى حياة «ذى النون» الروحية والعلمية، وتعنى به: معرفته بالسحر والطلسمات واستخدامهما فيما كان يسمى بالكيمياء وتحويل المعادن، ومعرفته باللغة السريانية التى كان يفك بها الرموز والطلاسم المنقوشة على بعض الجدران والحوائط فى الأبنية والمعابد الأثرية. ونقول بداية: إن كتابات «المسعودى» و«ابن النديم» و«ابن القفطى» تدل على أن «ذا النون» كان عالما بالكيمياء





وله مؤلفات فى هذه العلوم، ولا يزال بعض منها محفوظاً ضمن مخطوطات دار الكتب المصرية، وقد أتيح لى أن أطلع على قصيدة رمزية فى الكيمياء منسوبة إليه، ووجدت الفرق بعيداً جداً بين أسلوب القصيدة وشرحها المعقد، وأسلوب «ذى النون» البديع الأخاذ، مما يدلنا على أن مثل هذه المصنفات منحولة على «ذى النون» . ولعل ما كتبه «المسعودى» وغيره فى هذا الموضوع هو ما شجع نيكولسون على التوسع فى أوهام وممارسة هواياته المفضلة فى محاولة إثبات تأثر التصوف الإسلامى بمصادر يونانية مسيحية ، وذلك من خلال إثبات أن «ذا النون» - وهو أول رائد للتصوف فى مصر - قد استقى أنظاره ورؤاه من هذه المصادر اليونانية والمسيحية ونحن نستطيع أن نستنتج من الروايات العربية فى هذا الشأن أن «ذا النون» كان على معرفة بالحكم القديمة المنقوشة على حوائط «بربا» «إخميم» و«دندرة» وغيرها، وأنه كان يقرأها بلغتها المكتوبة فى هذه الآثار القديمة. وينقل «أبو نعيم» عن «ذى النون» أنه قال: «قرأت فى باب مصر بالسريانية فتدبرته فإذا فيه: يقدر المقدرون والقضاء يضحك» .. ومعنى هذا أنه كان يعرف السريانية، لكن هل كان يعرف اللغة الهيروغليفية أو القبطية؟ القول الفصل فى ذلك يتوقف على تحديد اللغة التى نقشت بها هذه الحكم فى برابى إخميم و«دندرة» على وجه الخصوص. وهذا أمر لا سبيل إلى معرفته الآن بعد ما طمرت هذه البرابى وأصبحت أثرا بعد عين، وكل ما يمكن أن نخرج به من موضوع قراءة «ذى النون» للنقوش على جدران المعابد لا يتعدى بحال من الأحوال الدلالة على معرفته بلغات أخرى غير اللغة العربية، لكن هذا شىء، والقول بأن «ذا النون» كان يمارس سحر الطلسمات شىء آخر، ولذا لم يتحرج «ابن عربى» فى كتابه «الكوكب الدرى» أن يثبت روايات النقوش وقراءة «ذى النون» لها، لكن لم يرو فى طول الكتاب وعرضه ما يشير - ولو من بعيد - إلى معرفة «ذى النون» بالسحر والطلاسم وممارسته لهما. وأكبر الظن أن هذا الاعتقاد إنما كان أمرا مقصوداً سعى إليه «نيكولسون» ليخلط عن عمد بين مفهوم الكرامة من ناحية، وشعوذات السحر والطلسم من ناحية أخرى، وبينهما بعد المشرقين فى تشريعات الإسلام وأحكامه.



محنته

لم تكن حياة ذى النون من هذا النوع الهادىء الذى أتيح لكثير من العباد وشيوخ التصوف فى العصور المختلفة، بل كانت حياة مملوءة بالصعاب والتحديات ومواجهة الفقهاء والوشاية عند السلاطين والأمراء. ونحن وإن كنا لا نعلم كثيراً عن تفاصيل الحياة القاسية التى عاشها ذو النون إلا أن أقواله - وما يرويه عنه المؤرخون - تشير إلى نوع من الاغتراب والتوحد عاشهما هذا الولى ولازما حياته. ودخل بسببهما فى

صراع لم يتوقف حتى وهو محمول على النعش إلى مثواه الأخير. ويحدثنا ابن عربى فى الباب الذى عقده لمحنة ذى النون، أن السبب الأساسى فيما تعرض له هو انفراده بأنظار دقيقة فى العلوم ميّزته عن غيره، وقد حصلت له هذه الأنظار نتيجة المزج بين العلم والعمل، حتى «سما على المجتهدين فى العبادة، وفتح عليه فى المعرفة، وظهر عنه من العلم ما لم تبلغه أفهام أهل وقته». ويبدو أن ذا النون قد تعرض لهذا الصدام فى وقت باكر من حياته، فقد عقد «السراج» فى كتابه: اللمع، بابا خصصه لذكر جماعة المشايخ الذين رموهم بالكفر، وكان ذو النون أول من تصدر قائمة الاتهام بالكفر فى هذا الباب. ونستنبط مما يذكره السراج أن ذا النون واجه هذا الصدام وهو فى إخميم، إذ اتهمه فقاؤها بالزندقة والكفر ورفعوا أمره إلى سلطان مصر، لكن السلطان عرف له قدره ومنزلته. يقول ابن الفرجي: «كنت مع ذى النون فى الزورق، وإذا بزورق آخر فيه جماعة من الناس، فقيل لذى النون، هؤلاء هم ذا يمضون ليشهدوا عليك عند السلطان بالزندقة، فقال ذو النون: اللهم إن كانوا كاذبين فخذهم!، قال ابن الفرجي: فما استتم كلامه حتى انقلب الزورق وغرق القوم، قال: فقلت لذى النون: أحسب أن القوم فسقوا فى ممشاهم، فما ذنب الملاح؟. قال: – لم حمل الفساق؟. ثم قال: إذا قام هؤلاء يوم القيامة شهداء الغرق خير لهم من أن يقوموا شهداء الزور. قال: ثم انتفض انتفاضة ، وقال: وعزتك وجلالك لا أدعو على خلقك أبداً».

ولم يكن حال ذى النون بعد أن انتقل إلى القاهرة بأسعد حظا مما كان عليه فى إخميم، والسبب هو السبب ، أعنى ما ذكره ابن عربى من مواجهة ذى النون للفقهاء والعلماء بما يطيقون وما لا يطيقون من اشارات أهل الإلهام. وهذه حقيقة يؤكدها مؤرخو التصوف قبل ابن عربى من أمثال السلمى الذى ألف فى هذا الموضوع كتابا بعنوان «محن الصوفية»، ذكر فيه أن ذا النون كان «أول من تكلم ببلدية فى ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبد الله بن عبدالحكم، وهجره علماء مصر. وشاع أنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف، وهجروه حتى رموه بالزندقة. فقال أخوه: إنهم يقولون: إنك زنديق. قال :

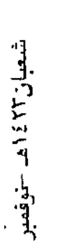
ومالى سوى الإطراق والصمت حيلة
ووضعى كفى تحت خدى وتذكارى

ويؤكد المؤرخون – أيضا – بعد ابن عربى ريادة ذى النون، للحياة الروحية في مصر وانه أول شيخ مصرى يتحدث فى علوم التصوف وفقه القلوب ويرقب دقائق النفس وخطراتها، ويشخص أدواءها وعللها، ويخرج على المألوف والمعهود من حدث العلماء والفقهاء والمحدثين، يقول ابن تغرى بردى: «وذو النون» هو أول من تكلم ببلده فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، فأنكر عليه «عبدالله بن الحكم».

ويقول ابن حجر: «هو أول من تكلم فى مصر فى ترتيب الأحوال وفى مقامات

الأولياء، فقال الجهلة هو زنديق». ويطول بنا المقام لو رحنا نسرد كل الروايات التى ذكرها المؤرخون فى هذا المقام . ونكتفى بالقول بأن هذه الروايات تؤكد على حقيقتين: الأولى : أن ذا النون هو أول شيوخ التصوف فى مصر. والثانية: أن فقهاء مصر بقيادة مفتى الديار المصرية فى ذلك الوقت: عبدالله بن عبدالحكم رفضوه ورفضوا علومه واتهموه بالزندقة والكفر. ولم يقف أمر الصراع بين ذى النون والفقهاء عند حد الاتهام بالمروق والخروج من الدين. وأنه أتاهم بعلوم لم يتحدث فيها السلف. بل تطور الأمر إلى الوشاية به عند الخليفة العباسى: المتوكل. وهنا تحدثنا الروايات أن ذا النون واجه محنة مؤلمة كلفته كثيراً وحُمل بسببها من مصر إلى بغداد مكبلاً بالقيود حتى دخل على الخليفة المتوكل. وقد سجل ابن عربى بعض المشاهد المؤثرة التي حكاها ذا النون نفسه والتى وصف فيها كيفية دخوله على المتوكل، حيث رمي به مقيداً على باب السلطان بعد وصوله إلى بغداد، ثم رأى سقاء يسقى الناس متزراً بمنديل مصرى فسأل ذو النون: هذا ساقى السلطان؟ فقيل له: لا، بل ساقى العامة، فأومأ إليه ذو النون فتقدم وسقاه، وشم ذو النون رائحة المسك من الكيزان فعرف أنه يسقى الناس لقاء آجر. فقال لمن معه: ادفع له ديناراً! فأعطاه الدينار وأبى السقاء أن يأخذه. فلما سأله ذو النون قال: أنت أسير، وليس من المروءة الأخذ من الأسير. ثم ينتقل ذو النون إلى مشهد امرأة زمنة، استحكمت علتها وطال عليها مرضها، وهى مقعدة فى كوخ يتصدق عليها فيه.. يقول ذو النون: «فالتفت فإذ امرأة زمنة فى كوخ يتصدق عليها. فقلت لها: أنا مظلوم. فقالت: فاقبل الآن منى إذ دخلت علي هذا الرجل «الخليفة المتوكل» فلا تهابنه ولاتري إنه فوقك، فإنكما مخلوقان من نطفة واحدة، ومن طينة واحدة، (وهو) فقير إلى مَن أنت إليه فقير. ولا تحتج عن نفسك محقاً كنت أو متهماً، قلت: ولم؟ قالت: إن هبته سلّط عليك، وإن احتججت عن نفسك لم يزدك إلا وبالاً، لأنك تباهت الله تعالى فيما يعلمه منك، وإن كنت بريئاً فادع الله تعالى ينتصر لك، ولا تنتصر فيكلك إليها». ثم يصور ذو النون مشهد محاكمته أمام المتوكل بأسلوبه المؤثر وكلماته المشعة، فيقول: «فلما دخلت عليه سلمت بالخلافة، فقال لى: ما تقول فيما قيل فيك؟ فسكت. قال وزيره: هو عندى حقيق بما قيل فيه. ثم قال لى: لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين: إن قلت : لا، أكذبت المسلمين فيما قالوا، وإن قلت: نعم، كذبت على نفسى بشىء لا يعلمه الله تعالى منى. فافعل ما ترى ، فإنى غير منتصر لنفسى. فقال أمير المؤمنين: هذا رجل برىء مما قيل فيه». لقد أدرك المتوكل على الفور أن الذى يقف أمامه موقف المتهم بالزندقة هو ولى من كبار الأولياء، فأمر بفك قيوده ورده إلى مصر معززاً مكرماً. وهنا تذكر المصادر أن المتوكل كان إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول: «إذا ذكر أهل الورع فحىّ هلا





بذى النون». وقد حدثت هذه المحنة عام ٢٤٤ هـ فيما يحدده ابن عربى فى كتاب الكوكب الدرى. وإذا كان ذو النون قد نسى آلامه ومتاعبه ومأساته بين القاهرة وبغداد وأمام المتوكل، فإنه ظل يذكر درساً مستفاداً من هذه المحنة تلخص عنده فى لقاء السقاء ولقاء المرآة الزمنة، فقد روى الشيخ الأكبر أنه كان يقول بعد ذلك: «من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاء الماء ببغداد، ومن أراد أن يسمع تجريد التوحيد وخالص التوكل فعليه بالنساء الزمنى بها»، وآخرى بذى النون ألا تقف همته العالية إلا على أبواب الحقائق الخالدة، والتى نذر حياته للبحث عنها. واستعذب الآلام والمحن والبلايا من أجل اكتشافها ومعانقتها. ويكفينا أن بدء شأن هذا الولى - أو ما يسميه بعض الشيوخ: سبب توبته - كان درساً من عالم الغيب وجه حياته كلها وجهة التوكل الخالص وإلى الأبد. فقد سأله أحد أصحابه يوماً: يا أبا الفيض! ما كان سبب توبتك؟ فقال: (...) أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى، ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء فسقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان (إناءان صغيران)، إحداهما ذهب، والأخرى فضة، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء، فجعلتْ تأكل من هذا. فقلت: حسبى، قد تبت، ولزمت الباب إلى أن قبلنى».

وفاته

أغلب الروايات على أن وفاته كانت سنة ٢٤٥ هـ . ويقول ابن عربى نقلاً عن أبى الفرج ابن الجوزى: إن وفاته كانت فى يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذى القعدة سنة ٢٤٦ هـ . ثم يذكر ابن عربى رواية أخرى تقول: إنه توفى سنة ٢٤٨ هـ. ويبدو لنا أن الروايتين الأخيرتين أدق وأضبط ، لأننا فى حلية الأولياء رواية عن يوسف بن أحمد المكفوف يقول فيها: «حدثنا أبو الفيض بن إبراهيم المصرى ذو النون سنة خمس وأربعين ومائتين بسر من رأى... إلخ ما قال» مما يدل على أنه مكث بعد محنته فى عام ٢٤٤ هـ عاماً آخر ظهر فيه بمدينة سر من رأى»، وأنه قفل راجعاً إلى مصر بعد ذلك فمات بها سنة ٢٤٦ هـ أو ٢٤٨ هـ. وقد توفى ذو النون بالجيزة وحملت جنازته فى قارب إلى الفسطاط، وذلك خوفاً أن تنقطع الجسور من كثرة الناس مع جنازته، ويقول ابن زيان - فيما ينقله ابن خميس - إنه رأى طيوراً خضراً تكتنف جنازة ذى النون وترفرف عليها، غير أن الفقيه أبا الحسن صاحب الإمام الشافعى يروى رواية أخرى يقول فيها: «حضرت جنازة ذى النون فرأيت الخفافيش تقع على نعشه وبدنه وتطير». أما أبو عبدالرحمن السلمى فيقول: لما مات ذو النون وجد على قبره مكتوباً : «مات ذو النون حبيب الله من الشوق، قتيل الله» ، ويعلق ابن عربى بقوله: «يريد كتابة غير معهودة». ■

التقريب

بين المذاهب الإسلامية

بقلم
د.محمد عمارة

فى الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التى يستخدمها الباحثون فى هذا الميدان .. «فالتقريب» بين المذاهب غير «التوحيد» للمذاهب .. وكلاهما متميز عن «احتضان» جميع المذاهب والاستفادة من الملائم فى أحكامها واجتهادات مجتهديها.

ثم إن «المذاهب» قد يراد بها «المذاهب الفقهية» .. وقد يراد بها «المذاهب الكلامية» .. لذلك، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات.



«فالتقريب»: هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة، والحفاظ على تمايزها واختلافها، مع العدول عن نفى مذهب للمذاهب الأخرى، بالتعصب لمذهب واحد، ورفض ماعداه.. فهو – التقريب – تعايش بين المذاهب المختلفة ، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها، ومناطق الاتفاق بينها ، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف.

أما «التوحيد» بين المذاهب: فإنه يعنى دمجها جميعاً فى مذهب واحد ،

ونفى قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف..

وبين هذين المصطلحين يأتى «الاحتضان» والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة، باعتبارها اجتهادات إسلامية فى إطار علم واحد وحضارة واحدة ودين واحد، والنظر إلى الأحكام التى أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة ، ومن ثم الاستفادة بالملائم منها، الذى يلبى حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف .. أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها .. ومفهوم «الاحتضان» هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات «التقريب».

أما مصطلح «المذاهب» ، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية، التى هى علم الفروع ، واجتهادات الفقهاء فى إطار الشريعة الإسلامية الواحدة ، التى هى وضع إلهى ثابت عبر الزمان والمكان .. وقد يطلق هذا المصطلح - «المذاهب» - على المذاهب الكلامية ، أى التصورات والاجتهادات التى أبدعها علماء أصول الدين فى إطار العقائد الإسلامية، وخاصة «الألوهية» وصفات الذات الإلهية .. و«النبوات والرسالات» ومايتعلق بها من المعجزات .. و«فلسفة العلاقة بين الحق والخلق» ، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان فى الكون، وأفعال هذا الإنسان ..الخ.

هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من مباحث الفكر الإسلامى.

☆☆☆

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التى بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ماعداه ، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها، لتلبية احتياجات التشريع للمستجدات العصرية .. فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) - فى التقرير الذى كتبه لإصلاح القضاء الشرعى - أن تكون أبرز هذه الدعوات فى عصرنا الحديث، لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامى ، والاستفادة من اجتهاداتها فى القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ - ١٣٤٢هـ، ١٢٩٩ - ١٩٢٢ م) تلتزم المذهب الحنفى وحده ، وبفقهه وحده يحكم القضاء ويفتى المفتون فى ولاياتها ، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة : الحنفى .. والمالكى .. والشافعى .. والحنبلى .. وللمذهب الحنفى وحده تم التقنين فى «مجلة الأحكام العدلية» عام ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩م - .. فلما درس الإمام

محمد عبده حال القضاء الشرعى بمصر ، دعا فى التقرير الذى كتبه فى نوفمبر عام ١٨٩٩م - إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه .. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهديها، لما فى ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها ، والتيسير على الناس، وتلبية حاجات المستجدات - (الأعمال الكاملة جـ٢ ص٢٠٩ - ٢٨٨).

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامى بمصر ، فى مقدمة الحركات التى وضعت دعوة الإمام محمد عبده فى الممارسة والتطبيق .. ففى التعديلات التى أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة - الأحوال الشخصية - تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة، بما فى ذلك المذهب الجعفرى - للشيعة الاثنى عشرية - والمذهب الزيدى - للشيعة الزيدية ..

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامى - موسوعة جمال عبدالناصر - اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها ، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديها جميعاً - وهى المذاهب السنية الأربعة . مع المذهب الجعفرى ، والمذهب الزيدى، والمذهب الإباضى، والمذهب الظاهرى .. فكانت «للفقه المصرى» - إذا جاز التعبير - الريادة فى انتهاج هذا الطريق ، الذى لايكتفى ، فقط «بالتقريب» بين المذاهب الفقهية، أى رفض التعصب لمذهب واحد ضد ماعداه ، وإنما تجاوز «الموقف المصرى» هذا «التقريب» إلى «احتضان» كل المذاهب، والعمل على الاستفادة من الملائم الملبى لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعاً .

☆☆☆

وفى أربعينيات القرن العشرين، قامت فى مصر «جماعة التقريب بين المذاهب» ، مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص.

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد على علوبة باشا (١٢٩٢ - ١٣٧٥هـ، ١٨٧٥ - ١٩٥٦) .. وكان فى مقدمة مؤسسيها والعاملين فى ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام : الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ، ١٨٨١ - ١٩٤٥م) والشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ، ١٨٨٥ - ١٩٤٦م) والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣هـ، ١٨٩٣-١٩٦٣م) والشيخ محمد المدنى (١٣٢٥ - ١٣٨٨هـ، ١٩٠٧ - ١٩٦٨م) والشيخ على الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨هـ، ١٨٩١ - ١٩٧٨م) والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ - ١٤١٥هـ،

١٩٠٩ - ١٩٩٤م) والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ، ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) والشيخ سيد سابق .. وغيرهم من أئمة علماء السنة.

كما ضمت هذه اللجنة - فى إطار «دار التقريب» - كوكبة من كبار علماء الشيعة الاثنى عشرية .. من مثل آية الله أقا حسين البروجردى .. والسيد محمد تقى الدين القمى - الذى تولى الأمانة العامة للجماعة - والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء .. والسيد شرف الدين الموسوى .. والسيد محمد جواد مغنية .. والسيد صدر الدين شرف الدين .. وغيرهم ..

وكانت مجلة «رسالة الإسلام» لسان حال هذه الجماعة، من أبرز المنابر الفكرية التى تجسدت فيها الجهود التى بذلت فى هذا اللون من التقريب بين المذاهب الإسلامية .. وفى إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص.

كذلك ، كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ماتمخضت عنه اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية .. فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة ، وجهود هذه الجماعة فقال :

«إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، هى دعوة الإسلام والسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام ، والتى كان عليها الأئمة الأعلام فى تاريخنا الفقهى، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول ، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذى لاريب فيه ، وأن على سائر الناس أن يتبعوه ، ولكن يقول : «هذا مذهبى، وما وصل إليه جهدى وعلمى، ولست أبيح لأحد تقليدى واتباعى دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ماقلت ، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتى، والحديث إذا صح فهو مذهبى».

«ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها، وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة، ثم تهيأ لى بعد ذلك ، وقد عهد إلىّ بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية .. وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لاهدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة . وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات فى شأنها وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على فكرتها ، أؤيدها فى الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل إلى

المتوضحين، أو أرد به على شبه المعترضين، وفيما أنشيء من مقال ينشر أو حديث يذاع، أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد، حتى أصبحت - والحمد لله - حقيقة مقررة تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون فى مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى، يثيرون فى موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان» - (كتاب مشيخة الأزهر) للشيخ على عبد العظيم. جـ٢ ص ١٨٧، ١٨٨.

هكذا تحدث الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، عن فكرة التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، والتقريب بين أرباب هذه المذاهب - أى بين علماء السنة والشيعة .. وعن شمول هذه الدعوة لكل المذاهب الفقهية الثابتة الأصول، المعتمدة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين .. وعن جواز التعبد بفقه جميع هذه المذاهب دون استثناء.. كما تحدث عن الجدل الذى دار حول فتواه بهذا الخصوص .. وعن تبنى الأزهر الشريف لهذا الاتجاه فى التقريب بين مذاهب الفقه الإسلامى.

☆☆☆

أما نص الفتوى التى أصدرها الشيخ شلتوت، والتى أثارت جدلا فكريا حول هذا الموضوع .. فلقد جاءت رداً على سؤال نصه :

«إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنا عشرية مثلا؟»..

فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال:

«إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين، بل نقول : إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادىء ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحاً، والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أى مذهب كان - ولا حرج عليه فى شىء.

إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة،

فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم ، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات» - كتاب (مشيخة الأزهر» جـ ٢ ص ١٨٨ ..

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت فى التقريب بين المذاهب الفقهية . وفى جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعاً دون تعصب لمذهب ضد ماعداه .. وجواز التعبد والتعامل - من قبل أهل السنة - وفق فقه المذهب الجعفرى للشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه التحديد .

ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيما وواسعاً ومستمراً فى الدوائر الشيعية ، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت فى هذه الدوائر ، حتى لقد تم الاحتفال به وبآية الله البروجردى - فى طهران عام ٢٠٠١م.. ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات .. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أى مرجع من مراجع الشيعة ، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعى وفق فقه المذاهب الفقهية السنية ، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى!..

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية - الصادر بعد الثورة الإسلامية - قد ذهب إلى الحد الذى جعل المذهب الجعفرى وحده هو مذهب الدولة ، ونص على أن المادة التى تقرر ذلك لايجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات !.. الأمر الذى يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور!..

☆☆☆

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التى بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، والتى أثمرت ثمرات طيبة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة .. وهى الجهود التي يحاول مواصلتها - قدر الإمكان .. وعلى نحو من الأنحاء - «المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب» - بطهران - فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها فى هذه النقاط.

أولاً : إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية ، هو جهاد فى غير الميدان الحقيقى الأولى بالجهاد .. أو - على أحسن الفروض - هو جهاد فى الميدان الأسهل، الذى لايمثل المشكلة الحقيقية فى الخلافات بين المذاهب الإسلامية .. وبين السنة والشيعة على

وجه التحديد – فالفقه هو علم الفروع .. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي كلما تمايزت الاجتهادات في الأحكام الفقهية .. ففتح الآفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذي يحرك العقل الإسلامي المجتهد، وليس التقريب – فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات – فقط يزيد احتضان الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة، والاستفادة بالملائم من أحكامها للتيسير على الناس ، ولمواكبة المستجدات .

وثانياً : إن الفقه هو علم الفروع .. وتمايز الاجتهادات فيه واختلاف المجتهدين في أحكامه لم يكن في يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة الأمة ، بل كان مصدر غنى وثراء للعقل الفقهي والواقع الإسلامي على السواء .. وفي الفقه كان الأئمة والعلماء، المختلفون في المذاهب، يتتلمذ الواحد منهم على من يخالفه في المذهب.. بل ورأينا في تراثنا من العلماء الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة في فقهه وعطائه، فيفتي وفق مذهب، ويقضي وفق مذهب ثان ، ويدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه!..

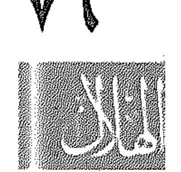
فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية في الفكر الإسلامي، وهو مصدر من مصادر الغنى والثراء لهذا الفقه، ولا يمثل آية مشكلة لوحدة أمة الإسلام .. ومن ثم ، فليس هو الميدان الحقيقي والأولى للجهاد الفكري في التقريب بين مذاهب المسلمين..

وثالثاً : إن الميدان الذي كان ولايزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة – التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني – هو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية في المذاهب الكلامية الإسلامية .. وعلى وجه التحديد أحكام «التكفير» و«التفسيق» التي نجدها في تراث هذه المذاهب ، والتي ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد..

إن اختلاف مذاهب الفقه – السنية والشيعية – حول «نكاح المتعة» مثلاً ، لايمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الإسلامية .. لكن الاجتهادات التي تكفر الصحابة الذين أخروا خلافة على ابن أبي طالب هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات ..

ومثلها الاجتهادات التي تكفر الشيعة في بعض كتب التراث السني، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨هـ، ١٢٦٣ – ١٣٢٨م) وبعض الأئمة «السلفيين».. ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التي توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية .. وبعض المواقف الحادة في ميدان التصوف والصوفيين.

فالتقريب بين المذاهب، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب، هو الذي يوحد الأمة في الأصول



والثوابت، وفى أمهات العقائد والمسائل الفكرية .. وهذا هو ميدان علم الكلام .. والجهد التقريبى - الغائب والمطلوب - هو نزع «الألغام الفكرية - التكفيرية» التى تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذاهب من المذاهب ، لأن التكفير هو نفى للآخر، يقصم وحدة الأمة .. وهو خطر لاعلاقة به بالفقه، الذى هو علم الفروع ، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية ، التى هى ظاهرة صحية ، تثمر الغنى والثراء فى الأحكام، واليسر والسعة للأمة كلها فى تطبيق هذه الأحكام.

وإذا كانت هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية»، التى تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء فى بعض الحوزات العلمية ، وفى بعض الدوائر الفكرية السنية .. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة .. إذا كانت هذه «الألغام» قد غدت راسخة، بل و«متكلسة»!.. فإن الموقف الممكن والعملى إزاءها يمكن تصوره فيما يلى:

١ - تحديد نطاق هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية» .. وأغلبها - لحسن الحظ - نابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق «أصول الاعتقاد»، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل «نفى .. وتكفير» للمخالفين..

٢ - اعتماد منهاج وسنة التدرج فى تطبيق خطة إزالة هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية» من الكتب التراثية، وخاصة الذى يدرس منها فى الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية، وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه .. وفق المنهاج المتعارف عليه فى «تهذيب» كتب التراث ..

٣ - الاتفاق - فى إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية - على منع تدريس هذه «الاجتهادات التكفيرية» فى الحوزات والجامعات الإسلامية التى تكون عقول العلماء فى مختلف بلاد الإسلام .. ولنا فى منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة فى هذا الميدان، فهو يحتضن كل مذاهب الأمة - الفقهية والكلامية - سلفها وخلفها على حد سواء، مع استبعاد التكفير والتفسيق لأى مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ، حفاظاً على وحدة الأمة، التى هى فريضة إلهية، تعلو فوق اجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين.

وصدق الله العظيم : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ - الأنبياء : ٩٢ ..

ذلك هو الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى فى التقريب بين المذاهب الإسلامية .. إنه علم الكلام .. علم الأصول فى الاعتقاد .. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية ، التى تتخصص فى الفروع ، واختلافاتها رحمة واسعة ، ولا تفسد الود بين المسلمين . ■

عصر الخداع أم عصر الشفافية؟!

ترويض الرأى العام

بقلم
محمود أحمد

تدريجيا تتهاوى أمام أعيننا اللافتات والشعارات والدعاوى التى يرفعها أصحاب سياسات العولمة ولا يملون الترويج لها بهدف فرضها فى النهاية على الناس فى كل انحاء الدنيا معتمدين على مالهم من قوة وقدرة على الإملاء وغير مبالين بصيحات الاحتجاج والرفض التى تتعالى ضدهم فى كل مكان .

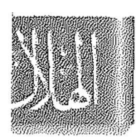
ويوما وراء يوم تتكشف دعاوى وشعارات مروجى العولمة عن حقائق تثبت أن معظم ما تقوم عليه سياسات العولمة المفروضة ما هى الا مجرد اضاليل وأوهام تخفى وراءها مصالح واهداف يراد فرضها على العالم .. حتى ولو أدى فرضها الى تكدس الملايين من الضحايا ولا يكاد مجال واحد من مجالات الحياة ينجو من هذا الاستهداف من جانب مروجى العولمة الذين لا يتورعون عن استخدام الوسائل الممكنة لفرض ارادتهم على المجتمعات والشعوب بدءا من التجارة والديناميكيات الجديدة للسوق المفتوحة واسقاط الحواجز التى تعترض استشراء الشركات العملاقة ومرورا بالملكية الفكرية التى تسمح بالتغلغل الثقافي وتحقيق غسيل الدماغ لشعوب بكاملها وحجب مقومات الحضارات الأخرى مهما بلغت عراقتها وانتهاء بفرض شروط السلام وترتيب أوضاع جديدة - تكون ضامنة للمصالح - فى هذا الركن أو ذاك من العالم !

إلا أنه على الرغم من انكشاف دعاوى أصحاب العولمة ومروجيها وهتك الاستار عن الأهداف الحقيقية فى كل يوم، ورغم تزايد الاحتجاجات ضد شراسة العولمة ولا انسانيتها - وهى احتجاجات انتشرت من سياتل إلى واشنطن، ومن جوهانسبرج إلى مونتريال - إلا أن قوى العولمة مازالت تصر على رفع شعارات الرخاء القادم مع رياح العولمة وما ستحققه ثورة المعلومات وانتشار الديمقراطية والشفافية من واقع جديد تسخر فى خدمته كل انجازات التطور التكنولوجى الهائل الذى تحقق فى العقود الأخيرة .

لاشك أن القوى العالمية العاتية التى تعمل بدأب لفرض سياسات العولمة، وفى مقدمتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تحاول باستمرار أن تطمس أى مغزى للاحتجاجات المتنامية ضد الاتجاهات الكاسحة للعولمة والتحذيرات من الكوارث التى سترافقها ومع ذلك فإن الناس آخذوا ينتبهون إلى هذه التحذيرات فى كل مكان ذلك أنه من الصعب على أمة فقيرة أو حتى متوسطة الدخل أن تتجاهل تحذيراً من أن الفارق فى دخل الفرد اليوم فى دولة صناعية غنية (مثل سويسرا) وبلد غير صناعى فقير (مثل موزا مبيق) قد اتسع إلى حد أن نسبته بلغت ٤٠٠ إلى واحد، بينما كانت هذه النسبة عند بدء العصر الصناعى قبل قرنين ونصف القرن لاتتجاوز ٥ إلى واحد ! كذلك فإنه يتعذر تجاهل تحذير كالذى أطلقه الباحثان الألمانيان هانز - بيتر مارتن وهارالد شومان وهما يسجلان فى مؤلفهما فخ العولمة أنه : «اذا سارت الأمور على منوالها الراهن فإن ٢٠ فى المائة فقط من سكان العالم هم الذين سيكون فى إمكانهم العمل والحصول على الدخل والعيش فى رغد وسلام أما البقية أى ٨٠ فى المائة من السكان فستمثل الفائضين عن الحاجة الذين لن يمكنهم العيش الا من خلال الاحسان والمعونات والتبرعات»، (فخ العولمة سلسلة عالم المعرفة - أكتوبر ١٩٩٨)

خرافة الإعلام المستقل

والتحذيرات كثيرة ومتواصلة. ومن حسن الحظ أنها تصدر غالبا عن دارسين جادين لا ينقصهم العلم والرصانة ومع ذلك ورغم ما يتكشف بوضوح كل يوم من أن شعارات العولمة لا تخفى وراءها غالبا سوى الأكاذيب والأوهام، فإن قوى العولمة لا تزداد مع الأيام الا شراسة وتصميما وللأسف فإن امتلاك هذه القوى للجانب الأكبر والأشد



تأثيرا من وسائل الإعلام الحديثة التقليدية والالكترونية واعتمادها المنهجى على تكنولوجيا المعلومات يجعلها فى وضع يمكنها من المضى فى تطبيق السياسات وتحقيق الآهداف والمصالح التى تريدها .. وهو ما يؤدى فى الوقت نفسه إلى إضعاف تأثير التحذيرات والاحتجاجات التى تطلق فى وجهها ولذا فإن هذا الجانب جدير بأن نوليه مزيدا من التدقيق والعناية والفحص، وسيكون من المفيد أن نركز بوجه خاص على الأساليب والتكنيك الذى تتبعه وسائل الإعلام العملاقة والخبرة الطويلة التى يعتمد عليها مروجو العولمة فى إفساح الطريق - والعقول - أمام فرض السياسات وتحقيق الأهداف

وينبهنا الباحث الأمريكى جاك شاهين أستاذ الاتصال الجماهيرى بجامعة الينوى الأمريكية إلى أمر مهم فيما يتبعه الإعلام الغربى - والأمريكى خصوصا - من تقنيات يطبقها بمهارة وإحكام للتعبير عن تلك المصالح وتحقيق الأهداف المتوخاة مستخدما فى ذلك قوة تأثيره وانتشاره على نطاق عالمى لايقاوم ويرى جاك شاهين - فى بحث له عن الصورة النمطية فى الثقافة الأمريكية stereotype أن الإعلام الأمريكى يعتمد بشكل واسع على خلق صورة نمطية معينة،، ثم ياخذ فى تغذية هذه الصورة النمطية ويكررها ويعيد انتاجها باستمرار إلى أن يفرضها وكأنها حقيقة لا تقبل الجدل وهو يقول انه إذا كان تاثير الصورة النمطية السلبية قويا فى كل وقت فإنه الآن أصبح أشد خطورة وآشمل تدميرا بعد أن أصبح بإمكان أجهزة الإذاعة والتلفزة والصحافة وتقنيات الطرق السريعة للمعلومات نقل الكلمة والصورة على نطاق واسع وبشكل فورى كما يؤكد آن آخر ما يفكر فيه صانعو الصورة النمطية عند توظيفها فى أى عمل دعائى - هو الموضوعية فهم يخصون الذات بكل السمات الحميدة: النبل والشجاعة والكرم والإنسانية (وبالطبع التزام الشفافية والأخذ بالديمقراطية واحترام حقوق الانسان.. الخ) بينما يلحون بالعكس- على تصوير (الآخر) على أنه يجسد كل السمات الكريهة .. من القبح الجسدى إلى البشاعة الأخلاقية (وآيضا الدكتاتورية وخنق الحريات الدينية وانتهاك حقوق الانسان.. الخ) .

ويسجل جاك شاهين، فى بحثة المشار إليه أن هناك إشكالية خطيرة تنجم عن اللجوء إلى خلق الصورة النمطية التى ينتجها الإعلام الآمريكى

وتكريسها وهذه الاشكالية تتمثل فى أن صنع الصورة النمطية هذه لا يعدو أن يكون ترسيخا لحكم مسبق وذلك عن طريق التلاعب بالعاطفة حتى ولو تطلب ذلك استخدام التزوير .. عن طريق تقنية المونتاج مثلا فى ابتكار صور ثابتة أو متحركة ويمكن أن تضيف إلى ذلك أن توليف صوت معين فى المعامل أصبح أمرا ممكنا بفضل تلك التقنيات الحديثة وهو ما يثير شكوكا حول كل ما يعرض ويراد منا تصديقه بما فى ذلك ما يقال عن الرسائل الصوتية المنسوبة لشخص مثل أسامة بن لادن الذى يطارده العالم كله !

الحرب الباردة .. الثقافية

وواقع الأمر، أن الآلة الجهنمية التى تبتكر - وتستخدم - هذه الأساليب كان لها باع طويل، وخبرة وتجارب تراكمت على مدى السنين، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن فى هذا المجال - الرجوع إلى كتابين مهمين صدرا فى الولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة.. وتضمنا حقائق كانت بمثابة أضواء قوية وكاشفة (وقد كان مفيدا أن يتنبه المجلس الأعلى للثقافة إلى أهمية الكتابين وأن ينشرا فى ترجمة كاملة لهما فى إطار سلسلة المشروع القومى للترجمة).

الكتاب الأول: من تأليف فرانسيس ستونر سوندرز وقد صدر عام ٢٠٠٠، وهو يكشف عن أساليب وكالة المخابرات الأمريكية «سى . آى . إيه» فى التلاعب بالثقافة والفكر لتحقيق أهداف سياسية خلال سنوات الحرب الباردة. ويكشف الكتاب كيف لجأ جهاز المخابرات الأمريكى الأخطبوطى إلى أساليب التزوير والخداع والتلفيق والكذب لخلق الصور النمطية التى استخدمها الإعلام الأمريكى ببراعة لتحقيق الأهداف المتوخاة وفى هذا السبيل لم تتورع السى اى إيه عن استغلال كبار رجال الثقافة والفكر والأدب - سواء بموافقتهم أو دون علمهم فى أغلب الأحيان - لتنفيذ برامج إعلامية ودعائية ذات أهداف ومردود سياسى مؤكد ويؤكد مؤلف الكتاب فرانسيس سوندرز أن الهيئات والاتحادات والنوادى واللجان والتى تعاقب تكوينها بالمئات وربما بالآلاف على مدى الخمسين سنة الماضية، قد ساهمت إلى حد كبير فى تقويض صورة الاتحاد السوفيتى ثم انهياره كما أنها ساعدت على تحقيق ما وصلت اليه الولايات المتحدة اليوم عندما نجحت هذه الأنشطة المتواصلة والمتراكمة فى

الترويج لفكرة أن العالم فى حاجة إلى سلام أمريكى وإلى عصر تنوير جديد تقود اليه وتهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية ولاشك أن قارئ الكتاب ستأخذه الدهشة وهو يطالع المعلومات الموثقة عن المشاهير الذين أمكن لجهاز المخابرات الأمريكى استخدامهم - حتى دون أن يفطن بعضهم - فى تنفيذ مخططاته.. من سكوت فيتزجيرالد وارنست هيمنجواى إلى اريك بلير وجورج أورويل، وحتى بعض أدباء فرنسا العظام من أمثال جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وأندريه مالرو!.

ويروى كتاب سوندرز - الذى حمل عنوان : الحرب الباردة الثقافية - تفاصيل مذهلة عن الأفكار التى نبتت فى عقول رجال المخابرات الأمريكيين، وكيف تحولت هذه الأفكار إلى حملات منظمة جرى تنفيذها ومتابعتها بدأب وكيف نجحت فى فرض أغرب الآراء مثل إشاعة اعتقاد بأن هناك ضرورة للتمييز بين قنابل ذرية مفيدة يملكها الغرب الذى لا يريد بالعالم إلا الخير والازدهار، وأخرى مؤذية هى التى يحوزها السوفييت الأشرار ومن يدور فى فلكهم

ويتحدث الكتاب بإسهاب عن العديد من المنظمات التى أنشئت لتكون واجهة للأنشطة المتعددة التى كان يديرها جهاز المخابرات الأمريكى منذ وقت مبكر. ومن خلال هذه المنظمات - مثل منظمة الحرية الثقافية - أمكن إصدار العديد من المجلات ذات الصبغة الثقافية ومنها كومنترى، ونيوريدر، وبارتيزان ريفيو وإنكاونتر وغيرها .. والتى استكتب فيها مفكرون وأدباء ذوى شهرة واسعة من أمثال أرنولد توينبى وبرتراند راسل وهربرت سبنسر.. وهى مجلات صدرت فى شتى انحاء العالم من انجلترا إلى استراليا ومن إيطاليا إلى الهند، وبالطبع فى الولايات المتحدة نفسها .

ويقول سوندرز انه بلغ من تأثير منظمة الحرية الثقافية التى أنشاها السى آى إيه أنها استطاعت الحيلولة دون فوز شاعر شيلى بابلو نيرودا بجائزة نوبل فى عام ١٩٦٤ وإآخرت فوزه بالجائزة حتى عام ١٩٧١ ومع هذا دبرت المخابرات الأمريكية قتله بعد عامين من فوزه بها .

كما بلغ من نجاح عمل جهاز المخابرات، فى هذا المجال، أن أنشأ ما عرف بنادى القلم الدولىpEN وحقق له من الانتشار أن أصبح له ٧٦ فرعا فى ٥٥ دولة، واستطاعت السى آى ايه تحويله إلى منبر لخدمة المصالح

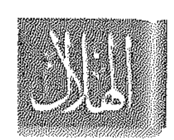
الأمريكية والأكثر من ذلك أنها نجحت أيضا فى إخضاع متحف الفن الحديث فى مدينة نيويورك لعرض أعمال فنية متحررة من القواعد الفنية المتعارف عليها بزعم أن التحرر من القوالب واعتماد التعبير التجريدى يعد من رموز الديمقراطية، وهكذا تمكنت المخابرات الأمريكية، إلى حد كبير، من أعادة بناء البنية الثقافية فى العالم وفرض النموذج الأمريكى لضمان انتشار الثقافة الأمريكية وتأثيرها على الوعى والوجدان من خلال الرواية الأدبية والدراما فى السينما والتليفزيون .. بل ومن خلال المعارض الفنية والحفلات الموسيقية. وكان الهدف دائما هو تحقيق تخلى الشعوب والمجتمعات عن أنماطها الثقافية الموروثة واكتسابها نمطا آخر أكثر جاذبية وعصرية .. هو النمط الأمريكى .

ويخرج سوندرز من ذلك كله بنتيجة مهمة يسجلها بقوله : والحق أن التغيير فى الثقافة هو ما اعتمد عليه ما سمى بالنظام العالمى الجديد أو العولمة وأداته الرئيسية منظمة التجارة العالمية التى أنشئت عام ١٩٩٥ والتى لم تعد مهمتها تقتصر على حرية التجارة وإنما أضيف لبرنامجها مبدأ الحرية الثقافية. أما الهدف الحقيقى، وربما النهائى فهو تحويل العالم كله إلى النموذج الأمريكى

قوى التحالف الأسود

والكتاب الثاني المهم : هو ذلك الكتاب الذى صدر عام ١٩٩٩ بعنوانwhitcout والذى حملت ترجمته العربية التى صدرت هذا العام اسم : التحالف الأسود والمقصود هو التحالف بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ومافيا المخدرات وأيضا الصحافة والإعلام من جهة ثالثة .

فى هذا الكتاب أيضا نجد أنفسنا أمام طوفان من التفاصيل المذهلة حول انغماس جهاز المخابرات فى عمليات أقل ما توصف به بأنها عمليات قذرة تشمل بصورة خاصة تجارة المخدرات وتستغل أرباحها فى محاربة الأنظمة المناوئة للولايات المتحدة فى بلدان أمريكا اللاتينية وغيرها، ثم تلجا إلى استخدام الصحافة وأجهزة الإعلام ذات الانتشار الواسع فى التغطية على هذه العمليات والتعتيم على أية تفاصيل يمكن أن تتسرب عنها .. بل ومطاردة و تدمير كل من يحاول كشفها وهذا بالضبط ما حدث لصحفى أمريكى يدعى جارى ويب كان قد حصل على أسرار صفقات مخدرات تمت بمساعدة رجال السى . آى. إيه وتجرأ على نشر هذه التفاصيل



في سلسلة من ثلاث مقالات في صحيفة سان خوزيه ميركوري نيوز التي تصدر عن مؤسسة وادي السليكون في ولاية كاليفورنيا وقد تعرض الصحفي سيئ الحظ إلى حملة رهيبة شاركت فيها - بإيعاز من وكالة المخابرات - كبريات الصحف مثل الواشنطن بوست والنيويورك تايمز فضلا عن شبكات التليفزيون ذات الانتشار الجماهيري الواسع .

وبغض النظر عن مقدار الإثارة فيما تضمنه الكتاب من تفاصيل فإن ما يعنينا - في هذا السياق - هو ما يثبته المؤلفان الكسندر كوكبرن وجيفري سان كلير، من أن ما يروج عن الحياد والاستقلال والموضوعية التي يتمتع بها الإعلام الأمريكي لا يبلغ، في أفضل الأحوال، هذه الدرجة التي يتوهمها الناس في معظم أنحاء العالم خارج الولايات المتحدة بل يدفعنا إلى القول إنها - في الأغلب الأعم - لاتعدو أن تكون مجرد خرافة !!

خدع العولمة وأضاليلها

هذه الخلفية الواسعة للأساليب التي ابتكرها وأتقنها خبراء الأجهزة الأمريكية ربما تكشف إلى أي مدى يبلغ حجم الخطر الذي تواجهه المجتمعات والشعوب وهي تتعرض للهجة الشرسة التي تقودها القوة الأعظم في العالم اليوم وهي تسعى لفرض سياساتها وتحقيق مصالحها من خلال العولمة التي تحاول إجبار الجميع على الخضوع لها .

ونحن نسمع بين الحين والآخر، من بين خبرائنا ومفكرينا من يقول - مع ذلك إنه لا ينبغي النظر إلى العولمة على أنها شر مطلق أو أنها خير صاف وربما يضيف البعض أن على المجتمعات والشعوب، في بلدان العالم النامي خصوصا، أن تتعامل مع العولمة بقدر من الواقعية لأنه لا قبل لها في الحقيقة بمقاومتها. ولكن ذلك لا يعني أن على هذه المجتمعات والشعوب أن تقبل ما تنطوي عليه سياسات العولمة، بينما هي تفرض عليها فرضا، مستسلمة لما يلقى اليها من خدع وتلفيق وأضاليل فالأجدر بهذه الشعوب أن تقبل على ما هو آت - على الأقل - بعيون مفتوحة وعقول واعية

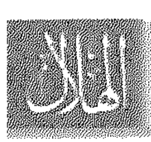
وربما يكون من المفيد ، ونحن نتعامل بحذر مع كل هذه النذر التي تحملها الينا سياسات العولمة، أن نفطن إلى ما تنطوي عليه من خدع وأضاليل كالقول إن النظم التي تقوم عليها انما هي نظم حتمية لا سبيل إلى مقاومتها. ويحسن أن نستمع، في هذا المجال إلى

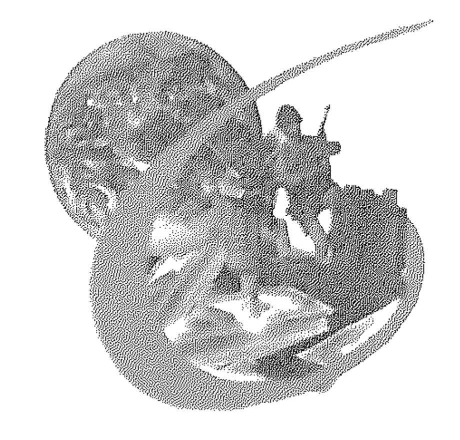


أصـوات المعـتدلين من أمـثـال الالمانيين مارتن وشومان صاحبى كتاب فخ العولة الذى سـبـقت الإشـارة اليـه فـهـذان البـاحـثـان ينتقـدان ما يروجه المنظرون الذين يقـولون إن العـولـة ذات الاتجـاه الليـبـرالى هـى من قـبـيل الحـتـمـيـات الاقـتـصـادية والتكنولوجـيـة الشـبـيـهـة بالأحداث الطبيعية (كالزلازل والأعاصير) التى لا يمكن الوقوف فى وجهها وهما يعتقدان على العكس بأن حتمية العولة إنما تنبع من سياسـات معنية خلقتها – بكل التصـمـيم والإرادة حكومـات ودول أقرت قـوانين ونظمـا ألغت بهـا الحـدود والحـواجـز أمـام حـركـة تنقل البـضـائع ورءوس الأموال وسحبت فى الوقت نفسه المكاسب التى حـققـهـا العـمال والطبـقة الوسطى فى السنين الماضية فـفى كل هذه الأمـور، لم تكن هـناك حـتـمـيـات لا يمكن تجنبـهـا، بل سـيـاسـات واعـيـة بما تفـعل وتعـبـر عن أهدافـهـا ومـصـالح الشركات العابرة للقارات التى تمثلها .

بل أن مـارتن وشـومـان ينكران بإصـرار مـا يقال من أن العـولة قد أدت إلى انصـهـار مـخـتلف الاقـتـصـاديات القروية والوطنية والإقليمية فى اقتصـاد عـالمى مـوحـد بعـد أن صـار العـالم كله سوقا واحدة .. وأن التجارة العالمية تنمو باضطراد ليستفيد منها الجميع بعد أن أصبح العـالم قـرية كـونيـة مـتـشـابهـة، وخـاصـة بعد الدور الذى تلعبـه الأقمـار الصـناعيـة وشـبكة الانتـرنت ومـخـتلف أشكال ثورة الاتصـالات. وهمـا يؤكـدان أنه باستثناء التوحد التليـفـزيونى الذى يربط من يعيشـون فى أفـريقـيا وآسيا وأمريكا، وبخـلاف بضع مدن تتركز فيها الصناعة الحديثـة و التـقنيات العـاليـة وتتـصـل ببـعـضـهـا البـعض وبالعـالم الخارجى بأكثر من اتصالها بالبلاد التى تنتمى إليها، فإن الجزء الأكبر من العالم يتـحـول – خـلافـا لما يقـال – إلى جـزر منفـصلة وإلى عـالم بؤس وفـاقـة ويكتظ بالمدن القذرة والفقيرة !

وفى هذا الصـدد، وبسـبب مـا أطلق عليه «التوحد التليفزيونى»، وبتأثير الميديا العملاقة التى يوظفها أصحاب سياسات العولة على اتساع المعمورة .. فإنه يجدر الانتـبـاه إلى أقصى حـد للحيل والخـدع التى يحـاول هؤلاء تسـريبـهـا إلى الوعى الجـمـاعى لشـعـوب العـالم الفـقـيـرة خصوصا باسم الشفافية والديمقراطية حينا، وباسم الحـريات الدينيـة وحـقـوق الإنسـان فى أحـيـان كـثـيـرة أخـرى. فـالهـدف الواضح هو إخضـاع شـعـوب ومـجـتـمـعـات بأسرها فى سـبيل تحـقيق مـصـالح وأهداف هذه القـوى الغـلابة .. والعاتية ! ■





كيف تواجه الصين العولمة؟

بقلم
د. محمد عبد الشفيع عيسى •

في أجواء العولمة والأزمة ، حدثت تطورات هائلة في القارة الاسيوية وقد تضررت من الأزمة الاسيوية (١٩٩٧ - ٩٩) دول عديدة بفعل العولمة المالية .

وفي هذا المقال نعرض للدول الاسيوية غير المتضررة مباشرة من الأزمة المالية الاسيوية لعام ١٩٩٧ ، أو التي لم يمسها الضر بنفس القدر الذي مس به مايسمى بالنمور الآسيوية . ونقصد هنا حالة الدولتين الآسيويتين الكبيرتين : الصين واليابان لما لهما من أهمية عظمى في سياق تقرير مستقبل النظام العالمي .

• استاذ العلاقات الاقتصادية الدولية معهد التخطيط القومي.

من أجل إلقاء الضوء على موقف الصين من العولمة ، حالاً ومآلا ، فى سياق الجدل الفكرى العالمى السائد فإننا نعرض فيما يلى ثلاثة إتجاهات معبرة عن زوايا مختلفة فى النظر إلى الموضوع وعن وجهات نظر متباينة إزاءه ، ونبدأ بعرض وجهة نظر من اليسار العربى والعالمى يمثلها المفكر الدكتور سمير أمين فى أحد أعماله الأخيرة ، ثم نقدم وجهة نظر من الولايات المتحدة الأمريكية يمكن وصفها بأنها (معتدلة) أو صديقة للصين ، بمعنى ما ، وإن كانت تصب - فى التحليل النهائى - فى المجرى الرئيسى للمصالح الأمريكية التى تمثها شركاتها العاملة على المستوى الدولى عموما وفى الصين خصوصاً . وأخيراً نقدم عينة لوجهات نظر بعض الدارسين الأكاديميين وأطلقنا عليها (وجهات النظر المدرسية) .. ثم نعقب عليها جميعا .

• وجهة نظر يسارية - راديكالية

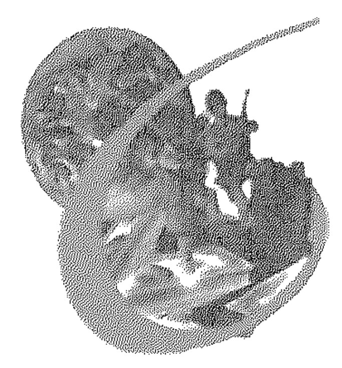
يذكر سمير أمين فى دراسة حديثة له عن الصين مايلى :

(إنطلاقا مما تحقق فى الصين حتى الآن فإن هناك ثلاثة مشروعات أو إمكانات مستقبلية محتملة فى طياتها تطورات متباينة فى مطلع القرن الحادى والعشرين :

- مشروع إمبريالى لتفكيك البلاد وتحول مناطقها الساحلية إلى النظام الكومبرادورى .
- مشروع رأسمالى «قومى» للتنمية .
- مشروع قومى وشعبى للتنمية ، يجمع بصورة «تركيبية» بين مبادىء مستقاة من رأسمالية السوق ومبادىء أخرى نابعة من منظور اجتماعى بعيد الأمد) .

ويضيف سمير أمين - من منظوره الراديكالى - مايلى :

(بالنسبة للخيار الأول المؤيد لقيام سوق «متحرر» إلى أقصى الحدود وللانفتاح الخارجى إلى أبعد مدى - وهو خيار الليبراليين الصينيين والأجانب - فإنه يتلاءم مع الاستراتيجية الإمبريالية ، ومن ثم يؤدى إلى مزيد من خنق الإرادة الشعبية ويعزز الهشاشة الخارجية للأمة والدولة الصينية .. أما بالنسبة للخيارين الثانى والثالث فبرغم صعوبة التمييز بينهما للوهلة الأولى ، إلا أن هناك فارقاً رئيسياً يتمثل فى مدى سيطرة الدولة على العلاقات الخارجية وفى نمط توزيع الثروة والدخل القومى بما يحقق مستوى مقبولاً من التضامن الاجتماعى والتوازن بين المناطق المختلفة للبلاد . وفى هذا المجال فإنه بينما يقوم الخيار الثالث - القومى التقدمى - علي إعطاء الأولوية للتنمية الموجهة للداخل ، أى للسوق المحلية ، مع تنظيم العلاقات الاجتماعية بطريقة تقلص الفوارق بين القوى الاجتماعية والمناطق



الجغرافية إلى أقصى حد ممكن ، وبالتالى يخضع العلاقات الخارجة إلى متطلبات هذا المنطق المحرك ، فإن الخيار الثانى - الرأسمالى «القومى» - مناقض لذلك : فهو يعتبر الإندماج المترسخ فى النظام الرأسمالى العالمى المحرك الأساسى للتنيمة الاقتصادية . ويرتبط هذا الخيار الأخير بالضرورة بتفاقم الفوارق (المناطقية) والفوارق الاجتماعية عموما .

ويذهب سمير أمين إلى القول :

(ليس هناك سوى هامش ضيق يسمح بنجاح خيار «رأسمالية قومية» قادرة فى النهاية على اللحاق بالعالم الثالث الرأسمالى المتقدم ، وتحويل الصين إلى قوة عظمى جديدة ودع عنك قوة عظمى ترغم القوى العظمى القائمة على العدول عن نزعتها للهيمنة . والحق أنه من غير المرجح أن تتمكن أية سلطة سياسية من المحافظة على وجهتها - القومية - ضمن هذا الهامش الضيق . ولذلك فإن خيار قيام نموذج رأسمالى قومى للتنمية يبقى خياراً نظرياً فقط . وبالتالى فليس هناك من الناحية العملية ما يحول دون الانحراف إما لليمين (ومن ثم الخضوع للمخطط الإمبريالى فى نهاية الأمر) أو إلى اليسار (بالتطور نحو النموذج الثالث).

ثم ينتيهى إلى القول ، مؤكداً حتمية الحل الاشتراكى فى الحالة الصينية من أجل إحداث التنمية وفق المشروع القومى والشعبى : (إننى من الذين يعتقدون بان الخيار المطروح أمام البشرية جمعاء هو : إما الاشتراكية أو الهمجية . وأن الرأسمالية لم يعد بإمكانها طرح آفاق مقبولة إنسانيا لأنها استنفدت دورها التاريخى التقدمى .. ولكن تحقيق ذلك يتطلب وقتاً طويلا - عبر مسيرة انتقالية بعيدة الأجل . ومن هذا المنظور أحاول أن أحكم على القدرة المحتملة لمشروع «اشتراكية السوق» الذى يبتبناه النظام الحاكم فى الصين حاليا ، على التحول إلى مرحلة إيجابية فى المسيرة الانتقالية الطويلة المقترحة .

إن التسمية بإشتراكية السوق ليس هو الأمر المهم .. ولكن المهم هو الإنطلاق من تطلعات الطبقات الشعبية نحو إقامة ديموقراطية حقيقية تتجاوز الإيديولوجيا الغربية السائدة (حول تعدد الأحزاب) أو أطروحات المجتمع المدنى المزعوم التى يروج لها دعاة ما بعد الحداثة ويستعيده «الشعبويون» فى العالم الثالث والصين .. وللأسف فإن الأدبيات الصينية التى أطلعت عليها تغفل هذه القضايا الجوهرية إلى حد كبير) .

(راجع «اشتراكية السوق الصيني بقلم سمير أمين) .

●وجهة نظر أمريكية (صديقة) :

يتضمن أحد الكتب الحديثة وجهة نظر من الولايات المتحدة الأمريكية ، تعتبر من ناحية أولى (صديقة) - بمعنى ما - للصين ، أى متفهمة للسياق التاريخى والعقائدى للصين الحديثة ، ومن ناحية ثانية ، توفيقية الطابع ، أى قادرة على إدماج عدة عناصر متناقضة معاً فى بناء غير متناسق تماماً وإن كان يبدو كذلك فى الظاهر .

وفى هذا الكتاب نقرأ مايلى ، على لسان مؤلفيه : (نحن نرفض فكرة أن الصين ستسعى إلى الهيمنة على العالم ، باعتبارها القوة العظمى فى القرن الواحد والعشرين ، بيد أننا نرفض كذلك فكرة أنها سوف تنهار تحت ثقل أعبائها وسوف تفشل فى ملاءمة نفسها مع النهج الغربى فى بناء الرأسمالية والديمقراطية) .

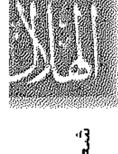
ويضيف المؤلفان (.. إن الصين لن تكون ، ولزمن طويل ، شمولية بالكامل ولا ديموقراطية تماماً ، ولن يكون اقتصادها خاضعاً للأوامر العليا ولا اقتصاد سوق حرة . كذلك وفى ضوء علاقات الصين مع الولايات المتحدة واليابان والبلدان الأخرى والنظام المؤسسى العالمى ككل ، لن تكون الصين مجرد فرصة اقتصادية كبرى ، ولا مجرد تحد استراتيجى واقليمى مشئوم . لذلك فالإجابة عن سؤال : أيهما وعلى مدى المستقبل البعيد هى : كلاهما) . (**راجع : الصين فى القرن ٢١**) .

ويكمن الهاجس الأمريكى الرئيسى وراء صياغة السؤال المتعلق بمستقبل الصين على النحو التالى :

(لم تعد المسألة هى ما إذا كانت هناك قوى ستجر الصين إلى الخلف لتسقط فى هاوية العقيدة الماوية الجامدة ، فهذا سيناريو بعيد الاحتمال ، ولعل الأصح هو السؤال عما إذا كانت الصين يمكنها أن تتجنب ثمرات الغلو الوطنى ، ومعاداة الأجانب ، وعملية إصلاح صماء وغلق الأبواب التى فتحها دنج هسياو بنج) .

الصين - وفق وجهة النظر هذه - تعيش صراعها الفكرى - السياسى الأساسي خلال العقدين الأخيرين ، بين معسكر تقليدى محافظ وفريق الإصلاح الأكثر ليبرالية .

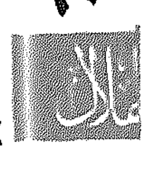
وتجدر الإشارة إلى أن ما يطلق عليه المؤلفان المعسكر التقليدى المحافظ إنما يقصد به - بتعبيراتنا نحن - الفريق الاشتراكى القومى من ورثة الماوية «العصرية» الساعية إلى المواءمة بين الدور المركزى للدولة وقوى السوق ذات الطابع الاجتماعى ، بينما يقصد بفريق «الإصلاح





الأكثر ليبرالية» : دعاة الليبرالية الجديدة الذين تتراوح دعاواهم بين الإندماج الكلى فى النظام الرأسمالى العالمى ، وفق ما يطلق عليه سمير أمين : المشروع الأمبريالى لمستقبل الصين ، وبين الخيار الرأسمالى ذى المسحة القومية .

وبينما تتجنب وجهة النظر التوفيقية المذكورة وصف التوجه الصيني الخارجى إزاء الاقليم الآسيوى خصوصاً ، والنظام العالمى عموما بالسعى إلى الهيمنة على الطريقة التى توصف بها الهيمنة الأمريكية لدى نقادها ، فإنه مع ذلك لايستبعد منطق الهيمنة كليا كمحرك للسياسة الصينية – وفى هذا يذكر المرجع المشار إليه بوضوح (أصبحت الصين الآن قوة الهيمنة الرئيسية فى آسيا ، وإن ظلت ترفض الاعتراف بذلك)



وفى عبارة موجزة إن مستقبل الصين كما يتخيله أفضل الدعاة الغربيين وفق المثال الذى نعرضه هنا – لايتجاوز منظور «الرأسمالية» وفق المفهوم الليبرالى للأسواق وللديموقراطية حسب الأنموذج الغربى ، مع خشية عميقة من النزعة القومية المتغلغلة فى الثقافة الصينية والتى تعتبر – من وجهة النظر الأمريكية والغربية عامة – محركاً محتملاً على الدوام للسعى نحو الهيمنة ، ونحو الانغلاق بما يجره هذا وذاك من مظاهر عديدة فى مقدمتها العداء لـ (الأجانب) ..!

● الأكاديميون

يسوق الدارسون الأكاديميون ، وإن تم ذلك بمستويات مختلفة من التحليل ، وجهات نظر متباينة إزاء وضع الصين أمام واقع (العولمة) وإزاء مستقبلها فى الأجل الطويل ..

ووفق مثال معبر عن بعض وجهات النظر من هذا القبيل ، نجد عرضا تحليليا للموقف الصينى المستقرأ من الوثائق والتصريحات وغيرها من مصادر (الخطاب الصينى) على النحو المتسلسل التالى : **(راجع : الصين وتايوان والعولمة . د. حنان قنديل)** .

تتحدد الرؤية الصينية لظاهرة العولمة فى جانبين : أولهما أن العولمة باتت تمثل واقعاً موضوعياً يتعين على مختلف دول العالم التعامل معه ، وأنها تقدم فرصاً حقيقية لابد من إنتهازها وخاصة من الرؤية الاقتصادية والتكنولوجية .

والثانى أن العولمة تحمل من المخاطر بقدر ما تشتمل عليه من فرص . ولذا ينبغى للصين أن تتحسب جيداً للجوانب السلبية من العولمة وبحيث لا تمتد بآثارها لتطال مبدأ الاستقلال والسيادة الدولية الصينية .

وتأسيسا على ذلك فقد انتهت القيادة

الصينية - حسب المثال المشار إليه - إلى إتباع (استراتيجيتين) للإفادة من إجيابيات العولمة : أولاهما تهدئة الخواطر وطمأنة دول العالم إلى نوايا الصين إزاء أسلوب إدارتها لقوتها الصاعدة . وثانيتهما تأكيد الالتزام الداخلى بسياسة الانفتاح ، بما يستتبعه ذلك من تغيير فى هيكل الاقتصاد الصينى .

وأما على صعيد مواجهة سلبيات العولمة فقد صممت القيادة الصينية استراتيجيتين أخريين هما : الالتزام باستقلالية السياسة الخارجية الصينية ، والتأكيد على الجوهر القومى للصين والإصرار على خصوصية تجربتها .

ويبدو - حسب المثال الدراسى السابق - أن استراتيجيات التعامل مع إيجابيات وسلبيات العولمة على النحو المذكور ، اشتقت منها سياسات محددة أعلنتها وطبقتها القيادة الصينية . فمن أجل الإفادة من فرص العولمة وضعت سياستين: -

١ - الإنضمام للمؤسسات الدولية والاقليمية ، خاصة منها ذات الطابع الاقتصادى ، وعلى وجه التحديد صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والجات ثم السعى إلى اكتساب عضوية منظمة التجارة العالمية .

٢ - القيام بالإصلاحات الداخلية الضرورية التى تتفق مع التزامات العضوية فى المؤسسات المذكورة ، ويتمثل ذلك أساسا فى سياسة (الانفتاح الاقتصادى) .

ومن أجل تجنب سلبيات وأضرار العولمة تبنت القيادة الصينية سياستين : -

١ - تفضيل المشاركة فى التنظيمات والاتفاقات الأمنية غير الملزمة مثل «المنتدى الاقليمى الآسيوى) .

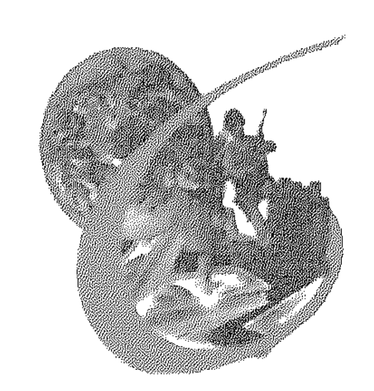
٢ - رفض تدخل الدول الأخرى فى الشئون الداخلية للصين ، لاسيما بالنسبة لقضيتى : تايوان ، و«حقوق الإنسان» .

وفى مثال آخر لتطبيق المقترب المدرسى القائم على استقراء المنطوق الظاهر لمخرجات السياسة الداخلية والخارجية الصينية وتوجهات قياداتها السياسية - نقرأ عن دعوة الصين إلي إقامة (نظام دولى جديد) معاكس لذلك النظام الذى دعا إليه جورج بوش غداة حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ (**النظام الدولى الجديد : الأهرام ٢٠٠١/٨/٧**) .

فماذا نستنتج من هذه الرؤى الثلاث المتضاربة حول الصين والعولمة ، فى الحاضر والمستقبل ؟ أو : ماذا نرى نحن بشأن ماضى الصين القريب ومستقبلها فى ظل العولمة ؟ هذا ما نعقب به فيما يلى:

الصين : بين ماضيها القريب ومستقبلها :

لا ريب فى آن الصين تواجه خيارات صعبة ، بفعل إرث تاريخها المعاصر



وبيئتها الإقليمية والعالمية .

ويتحدد إرثها المعاصر فى إرث الماوية على وجه التحديد ، وإن شئت فقل إرث التجربة الاشتراكية التى حققت إنجازات لايمكن نكرانها ، ولكنها انتهت إلى فوضى سياسية وفكرية عارمة فى غمار ماسمى بالثورة الثقافية قبل وبعد وفاة ماو.

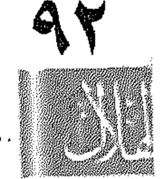
ومن قلب الفوضى العارمة برز دينج هسياو بنج ، داعيا ، ومن حوله لفيف كثيف من كوادر الحزب وقادة الرأى والمثقفين ، إلى نوع من تجاوز التجربة الماوية القائمة على التخطيط المركزى ووحدانية الملكية الاجتماعية بصيغها المختلفة - قطاع عام - جماعيات ..) وتوجه التنمية نحو الداخل (من حيث مصادر التراكم وتوليد الطلب) .

وفى مقابل ذلك دعا بنج إلى إدخال عنصر اقتصاديات السوق ، دون إخلال جوهرى مباشر بقاعدة الملكية العامة وبآلية الخطة ، وفتح الاقتصاد الصينى على العالم الخارجى للحصول على إمدادات الاستثمار والتكنولوجيا من جهة، والتوجه إلى الأسواق الدولية (خاصة السوق الأمريكية) بانتاج مخصص لهذا الغرض : الإنتاج للتصدير.

وقد حققت استراتيجية تجاوز الماوية إنجازاً باهرا ، من حيث حصيلة الاستثمارات الوافدة ونقل التكنولوجيا الغربية ومعدل نمو الصادرات والدخل القومى . والأهم من ذلك أن الصين قد نجيت إلى حد بعيد من الآثار التدميرية للأزمة الآسيوية عام ١٩٩٧ .

وفى مواجهة عواصف العولمة ، صمدت القيادة الصينية حتى الآن فى مواجهة تيار الليبرالية الكاملة وخاصة فتح حساب رأس المال ، وقاومت التوجه الأمريكى نحو الهيمنة وخاصة فى الاقليم الآسيوى ، ولكنها أبدت تصميما ملحوظا على الانضمام إلى عضوية منظمة التجارة العالمية ، ناهيك عن تثبيت قواعد النموذج الإنمائى القائم على استقبال الاستثمار الأجنبى وإرسال الصادرات نحو الخارج .

والحال أن النموذج الإنمائى المذكور يرتكز إلى مصالح مستقرة لجماعات طبقية بالغة القوة ، على قمة هرم الثروة والدخل ، وإن لم تنعكس هذه المصالح بوضوح - حتى الآن - على هرم السلطة والحزب . وبذلك ولدت إزدواجية قوية : ما بين اقتصاد مخترق من النتوءات «الرأسمالية» الطاغية ، المفتوحة على (الخارج) ، ونظام سياسى ذى بنية متمركز حول الحزب والجماعة القيادية المتنفذة . ودع عنك أن النموذج الإنمائى قد ولد تفاوتات عميقة بين الطبقات الاجتماعية فى توزيع الثروة والدخل وفى مستويات المعيشة ، وكذا بين



المناطق الجغرافية المختلفة على امتداد رقعة البر الصينى .

لذلك يبدو مستقبل الصين وقد لفه الغموض لدرجة يستحيل معها التنبؤ بصورة قاطعة بالاتجاه الرئيسى للتطور فى المستقبل المنظور ، ولذا تكفى الإشارة إلى الخطوط الرئيسية التى سيجرى من حولها الصراع الاجتماعى والسياسى فى الصين ، والتى يتوقف على حسمها تقرير نوع المستقبل : -

١ - خط الصراع حول استراتيجية النموذج الإنمائى : ما بين التوجه نحو الداخل ، والتوجه نحو الخارج .

٢ - خط الصراع حول اقتصاد السوق ، فى مواجهة الدور المركزى للدولة والخطة .

٣ - خط الصراع حول الملكيات الخاصة المرتبطة بالمصالح الخارجية ، والقابعة فى نطاقات الإنفتاح : المناطق الاقتصادية الخاصة ، المناطق الشاطئية .. الخ .

٤ - خط الصراع حول استقلالية الصين القومية ، وخاصة فى مواجهة التدخل الغربى - الأمريكى من بوابات تايوان ومسألة حقوق الإنسان .. الخ .

٥ - خط الصراع على السلطة السياسية : ما بين القوى الدافعة إلى خوض تجربة الليبرالية على النموذج الغربى (تعددية حزبية - مجتمع مدنى «حر» .. الخ) والقوى المتمركزة حول بنية السلطة الموروثة من المرحلة الماوية - وما بين القوى التى هى - بتعبير سمير أمين - وريثة أفضل ما فى الماوية ، أى الساعية إلى العمل وفق تطلعات الطبقات الشعبية وتطبيق نوع من الديمقراطية الحقيقية التى تتجاوز قشور الليبرالية الغربية .

هذه هى الخطوط الخمسة للصراع القادم فى الصين . ومن حولها سوق يتقرر المستقبل القريب والبعيد . وإنا لنراها وقد أسفرت عن تجمع للقوى الاجتماعية الممثلة للطبقات الشعبية فى سعى نحو صيغة للاشتراكية ذات الخصوصية الصينية ، وديمقراطية ملائمة ، واستقلالية ساعية إلى نظام دولى متعدد الأقطاب قابل للتطور نحو صيغة جماعية للعلاقات الدولية فى الأجل الطويل . ■

من الحكم الفرعونية

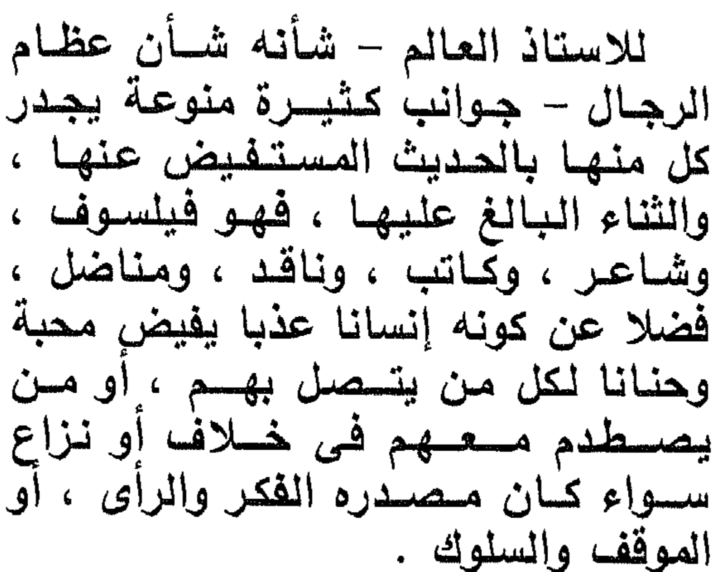
* المرأة الفاضلة صندوق مجوهرات يكشف يوما بعد يوم عن جوهرة جديدة
* ليست الحكمة أن تعرف الطريق بل أن تمشى فيه
* تهرب العصافير عندما تسقط الشجرة وتهرب الحشرات عندما تروى الأرض



محمود أمين العالم

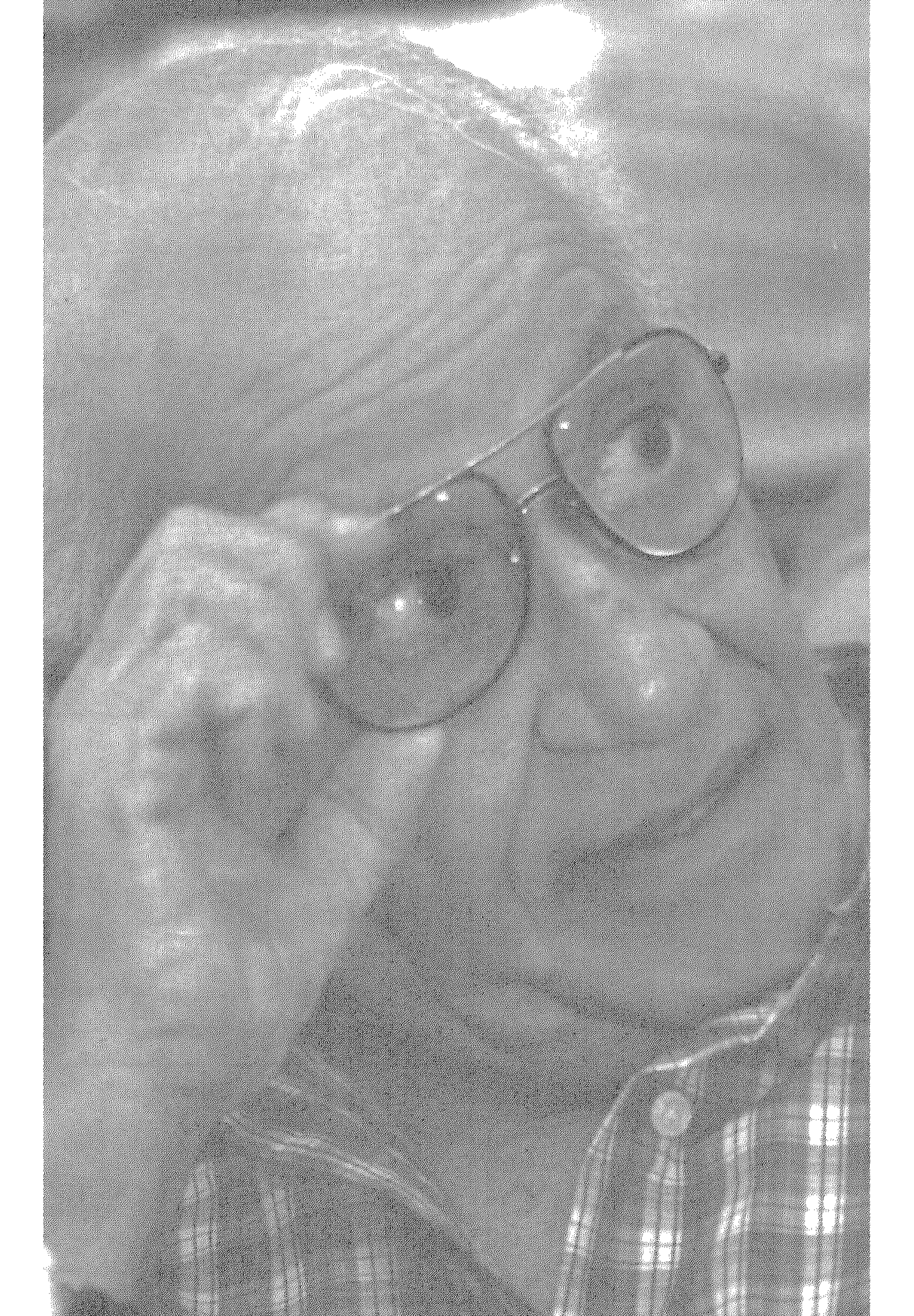
وتصعيد الواقع إلى مثال

بقلم
د. صلاح قنصوه



للاستاذ العالم - شأنه شأن عظام الرجال - جوانب كثيرة منوعة يجدر كل منها بالحديث المستفيض عنها ، والثناء البالغ عليها ، فهو فيلسوف ، وشاعر ، وكاتب ، وناقد ، ومناضل ، فضلا عن كونه إنسانا عذبا يفيض محبة وحنانا لكل من يتصل بهم ، أو من يصطدم معهم فى خلاف أو نزاع سواء كان مصدره الفكر والرأى ، أو الموقف والسلوك .

ومن ثم ، فلا مفر لى من اجتزاء جانب واحد من بين جوانبه الخصبة والرحبة ، وهو اجتزاء سأجتهد فى تناوله موضوعيا ، وربما تسرب إليه شئ من النقد الحميد ، إلا أنه فى كل الحالات صادر عن كل الإعزاز والتقدير





وينبغى أن أعترف بأن هذا الاجتزاء إنما يضمر اقرارا وإعلانا بأن شخصية العالم لا ينصفها مقال واحد يختزل جوانبها التي تفيض عن الحصر ، فيحبسها بين سطوره ، ويغلق عليها صفحاته .

بل هبنى كتبت عنه مزيدا من المقالات فلن يفى ذلك بالاحاطة بشخصيته ، ولابد من مؤلفين آخرين يلمون بجوانب أخرى من تجاربه ومواقفه .

وأكبر الظن ، أن استاذى «العالم» وصديقى فى آن واحد ، قد تعتريه الدهشة عندما يتصفح حديثى ، ولكن ذلك أمر طبيعى ، فصورة الإنسان عن نفسه ليست هى بعينها ما تتجلى أو تنعكس على مرايا الآخرين ، والنص العظيم هو النص الذى يتداوله الناس ويتناقلونه ولابد أن يخضع للتأويل لأن النص الباهت الفقير الدلالة لا يدفع قط إلى بذل أى جهد فى تفسيره أو تأويله ، والاختلاف حول دلالاته الثرية .

وينبغى لى أن ألفت النظر إلى أن اجتزائى أو انتقائى لجانب دون جانب آخر لا ينزع عن هذا الجانب المختار صلته الحميمة بسائر الجوانب ، سواء كانت سمات شخصية ، أو إبداعات فنية ، أو أدوات منهجية ، أو أرصدة ثقافية ، أو مواقف سياسية ، ولا مندوحة لى من الاعتراف مقدما بأن أحد الأعراض الناشئة عن أمراض المهنة التى أتكسب منها ، وهى الاشتغال بالفلسفة ، وهو الإسراع إلى التجريد واللهفة على التعميم، اعترف أنه غلبنى على أمرى فى حديثى عن الأستاذ «العالم» ولابد أن هذا الاعتراف من جانبى ينطوى على اعتذار صريح عما قد أنزلق إليه من اسراف فى التأويل .

● تقدير محمود أمين العالم لعبد الناصر ليس نوعاً من تبعية المنتفعين القدامى، لكنه اعتقد بأنه متوحد مع عبد الناصر ومشارك لنفس اهدافه السياسية

الواقع الرمز

لا ريب فى أن انحياز «العالم» اليسارى إلى مصالح الجماهير ومطالب الشعوب قد حملته على التلمذة على أساليبها وطرق أدائها فى توصيف الأمور وتفسيرها وهذا هو ما يبدو جليا فى تحيزه الصارم لجمال عبدالناصر ، رغم التزامه بالنظرة الماركسية التى لا تولى الفرد البطل تلك الأهمية الخارقة فى حركة التاريخ . وربما يكون رأى «العالم» هو أن جمال عبدالناصر لو لم يكن قد ظهر فى تلك اللحظة التاريخية ، لاستبدل به التاريخ شخصا آخر يحل مكانه ويقوم بدوره .

ولسنا فى حاجة إلى تفسير معين للماركسية لكى نبرز تلك المكانة التى أولاها «العالم» لعبدالناصر ، وذلك لأن طريقة

الشعوب ، على مر التاريخ الإنسانى كله ، هى صنع الرموز .

ويتم هذا الصنع أولا بتهميش السيرة الشخصية ، فتفرغها من أحشائها وجوارحها ، أى من محتواها الأصلى الذى تكون من أفعاله وردود أفعاله إزاء مواقف معينة ، وبشر ، فى لحظات . ومواقع بعينها ، ليبقى الهيكل الذى يعاد حشوه ، ورسم معالمه وتشكيله بتطلعات الجماهير وأمانيها وأهدافها لتغدو رمزا مستقلا عن الوقائع الحقيقية للسيرة الشخصية .

ويمتاز المصريون بعراقتهم فى صنع السير الخارقة فهم مبتكرو الأيقونات «الصور المقدسة» ، والأضرحة ، والقباب التى قد لا تضم تحتها مشايخ أو قديسين .

ولا يدل ذلك على سذاجة ، أو غياب وعى جماهيرنا ، بل يؤكد سخاءها وإسرافها فى إهداء دورها لرموزها التى تختارها وتصنعها على أعينها ، وما تلبث أن تتوحد معها ، فلا تتسامح قط مع من يمسها بالنقد أو التشكيك لأنها تحمل الشخصية المختارة ما تتمنى أو ما ينبغى أن تقوم به .

ولا يعنى هذا أن الرمز مجرد وهم ، لأنه سرعان ما يغدو واقعة حية تشق مجراها المؤثر فى حركة التاريخ . بل تكاد السيرة الخارقة أو الرمز أن يدنو من الانتماء إلى المجال الرفيع الذى تقف العقائد على قمته ، وتندرج معه أو توازيها الأفكار الملهمة ، والميول القومية .

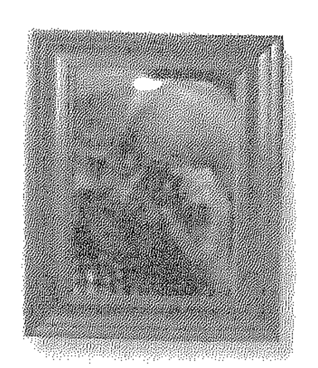
والسيرة الشخصية واقعة موضوعية فى محتواها لأنها تستند إلى وثائق وشهادات بينما السيرة الخارقة ، التى تحولت رمزا ، ليست موضوعية المحتوى ، ولكنها تكتسب موضوعيتها من تأثيرها ونفوذها فيما بعد فى وجدان الجماهير . وذلك بمعنى أن ما تعتقده الجماهير فى صحة ماتصنعه من الرموز ، وإذا ما تحول إلى حركة ملموسة ، فإنه يندرج فى سلك الوقائع المادية ، أى الموضوعية ، التى تجدر ببحث المؤرخين والمحللين .

فتقدير «العالم» إذن لعبدالناصر لايمكن تفسيره بنوع من الولاء أو التبعية الذى يميز المثقف «الأميرى» الذى يطوع قلمه لتجميل قرارات السلطة تحت أبهى الشعارات ، فهذا النوع من المثقفين مساير لكل سلطة وسرعان ما ينقلب عليها إذا ما تغيرت .

كما أنه ليس من المنتفعين القدامى الفاقدى الأهلية والموهبة الذين إذا ما انتهت فترة صلاحيتهم ، تشبثوا بالناصرية لإيهامنا بأنهم كانوا أصحاب مبدأ ومذهب . ولكنه أعتقد ، عن ثقة وإيمان ، وربما عن حسن نية ، بوصفه شخصا مخلصا عازفا عن المصلحة الشخصية ، اعتقد بأنه متوحد مع عبدالناصر طالما كان يحسبه مشاركا لنفس أهدافه السياسية ومنجزا لها . ولذلك يضفى «العالم» على تحليلاته ، سابقا ولاحقا ، مزيدا من الجدية والعقلانية ، فى ذات اللحظة التى يفيض فيها رومانسية وشاعرية على ما يعتقد أنه تجسيد واقعى مادى لرؤيته الأصلية .

غير أن عبدالناصر ليس كائنا واحدا ، بل شأنه شأن الشخصيات التاريخية المهمة كائنين اثنين .

الأول هو السيرة التاريخية الشخصية التى صنعها بنفسه نتيجة نزعاته وطموحاته ،



وانتصاراته وإخفاقاته ، وصعوده وانتكاساته ، وكذلك صورته عن ذاته ، ومقاصده الشخصية المباشرة .

أما الكائن الثاني ، فليس من صنع عبدالناصر نفسه ، بقدر ما هو من صناعة الجماهير التي تحوله إلى أسطورة أو سيرة خارقة Leyend فالجماهير تتغذى ، وتهضم، وتتمثل ما بلغها أو أتيح لها من علامات ، وإشارات ، وشعارات تجاوزت لحظتها التاريخية الواقعية الأصلية ، وكأنها نص من النصوص الذى أعلن فى مناسبة خاصة جدا ، ولكنه ما لبث أن انفصل منها ليصبح رمزا أو مثالا صاغته عمليات خيالية أقرب إلى الإبداع الفنى . وهى عمليات التأليف والتركيب التى تتطلب حذفا واستبعادا ، وكذلك إضافة واختراعا .

يصف العالم فكره بالواقعية العلمية، فهو يتعامل مع الوقائع الموضوعية بالمنهج العلمى غير أنه يدعو إلى «العقلانية» كمثل أعلى للفكر والسلوك

ولقد استلهم «العالم» روح الشعب فى انحيازه لهذا الكائن الرمزى الأسطورى لعبد الناصر حتى كاد يسقط الكائن الآخر ، التاريخى الشخصى ، من حسابه وتأملاته .

وكان فى ذلك مخلصا أمينا لما يتقنه الشعب المصرى فى صنع الأساطير ، سواء على المستوى السياسى ، أو المستوى الفلكلورى

فعلى المستوى السياسى صنعنا مثلا صلاح الدين ، ومصطفى كامل ، وعلى صعيد الموروث ، مجدنا أبا زيد الهلالى وأدهم الشرقاوى رغم أن الأول ناهب مغتصب لأملاك غيره ، والثانى قاتل قاطع طريق .

فصلاح الدين الأيوبى هو الذى كتم آخر أنفاس الدولة العربية بقضائه على الخلافة العربية الفاطمية ، والحاقه مصر بالدويلة التركمانية التى كان يعمل لحسابها فى الشام والجزيرة تحت إمارة «نور الدين بن زنكى» وإليه يرجع الفضل فى تمهيد السبيل لحكم المماليك فى مصر حتى تسلم التركمان الجدد من العثمانيين مقاليد الحكم ، فاستسلمت الجماهير لرقاد طويل تخللته الكوابيس ، ورغم كل ذلك ، صنع الشعب من صلاح الدين ناصرا للعروبة وبطلا لها تترقب وصوله لتحرير الوطن العربى .

أما مصطفى كامل ، فكان تابعا للخديو عباس حلمى وخادما للسلطان العثمانى الذى أنعم عليه بالباشوية ، وكان يشن حملة مغرضة على الثورة العرابية فى جريدته تقربا من الجناب العالى . كما اتخذت موقفا محقرا للمصريين ضد زواج على يوسف بكريمة السادات لأن على يوسف من علوج المصريين الذين لا يملكون شرفا أو حسبا .

ولعل وقوفنا عند حالة مصطفى كامل يكشف عن أهمية الفصل بين السيرة الشخصية والرمز .

فقد كان سعد زغلول معاصرا له وكان يصفه بالنصاب . غير أن قاسم أمين الذى كان يشن عليه مصطفى كامل حملة غير نزيهة فى جريدة اللواء زلفى للدهماء والسلطان ، اتخذ قاسم أمين موقفا مخالفا عن رأيه السابق الذى شارك فيه سعد زغلول عقب وفاة مصطفى كامل فقال لسعد زغلول : «إن اهتمام الناس بوفاته لدليل على تنبيه عام ، وحياة فى الناس جديدة ، وهذه قيمة تستحق الإعجاب» فقال له سعد زغلول ، «ولكننا نعلم أن الرجل ليس بشئ وأنه نصاب» فقال قاسم أمين هو كذلك ، ولكن النتيجة التى ترتبت عليه تستحق الاعجاب ، ويعبر سعد زغلول عن دهشته من قاسم أمين الذى رأى ، عقب وفاة مصطفى كامل أنه «موجد الحركة الوطنية فى مصر» . ماذا حدث إذن لقاسم أمين ، وهو الوطنى المستنير والجسور الذى ناصبه مصطفى كامل العداء فى حياته ؟

الذى حدث أنه أسقط السيرة الشخصية ، واكتشف أو وقف عند الرمز الباقى الذى صنعه الشعب المصرى لمصطفى كامل .

وهكذا فعل «العالم» مع عبدالناصر. ولا يعنى الرمز الخاص به أكذوبة ملفقة لأنه يتحول إلى واقعة مؤثرة . كالتى نجدها اليوم عند كثير من الشباب .

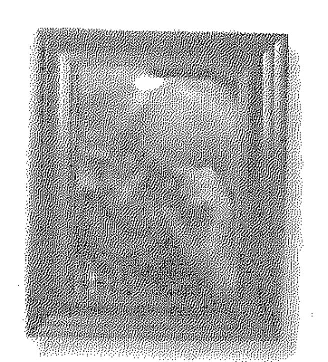
الواقع والعقلانية

يفضل «العالم» وصف فكره بالواقعية العلمية ، وهو وصف محمود لأنه يعنى أنه يهيب دوما بالوقائع الموضوعية ، ويتعامل معها بالمنهج العلمى . غير أنه يدعو كثيرا إلى «العقلانية» كمثل أعلى للفكر والسلوك الإنسانيين .

وهنا أحسب أن نزعة مثالية فلسفية تتسلل إلى ماديته أو واقعيته عبر نواياه النبيلة ، فهو لا يقف من هذه «العقلانية» موقفا نقديا ، بل يصعدها من مستواها أو دلالتها الاجرائية إلى مستوى المثل الأعلى والمذهب المكتفى بذاته . فأما الدلالة الإجرائية المقبولة لاستخدام العقل هى رفض الوصاية على أمور المعرفة والممارسة من قبل سلطة أو قوة تفرض الإذعان والتسليم. وكذلك إنكار الوساطة المصطنعة للتلفيق بين مجالات التواصل والتداول المختلفة حتى يتاح للإنسان القدرة على توجيه النقد إلى كل ما لا يخضع لفهم الإنسان والاقتناع به وتفسيره .

على حين تزعم الدلالة المثالية أن العقل ، طالما كان واحدا مشتركا بين البشر ، فإن استخدامه على أفضل وجه سيؤدى بالضرورة إلى نتائج لا يختلف عليها الناس جميعا ، ومن ثم تتحقق الموضوعية تلقائيا بانجاز الاتفاق بين الذين ثار الخلاف بينهم أول الأمر . وهذا هو ما يطالعنا صريحا معلنا لدى ديكارت وليبنتس وكانط وهيجل وسائر العقلانيين على اختلاف مذاهبهم الميتافيزيقية .

وعلى هذا النحو ، لا يتيسر لنا تجنب مزالق خطيرة فى استخدام مصطلح «العقلانية» ، وذلك لأنها تفترض منذ البداية أن ثمة أفكارا أو مبادئ أو تصورات أساسية صحيحة هى الأصل والمصدر الذى ينبغى أن نستمد منه ما يضمره من نتائج لابد أن يسلم بها الجميع باعتبارها حقائق يقينية ، وإلا كانت أراؤنا ومواقفنا زائفة



خاطئة .

فإذن شرط صحة العقلانية هو صحة مبادئها ، وصحة مبادئها مردودة إلى عقلانيتها ، أى أنها صحيحة لأن العقل يمليها علينا ، ومن هنا نتبين ما يسمى بالدور المنطقى» فى الاستدلال الذى يتوقف بمقتضاه ثبوت النتيجة على ثبوت المقدمة ، وثبوت المقدمة على ثبوت النتيجة .

ويخشى أيضا ، إذا ما ألححنا على أهمية العقلانية ، أن يتولد الاعتقاد بأن ثمة مبادئ مفطورة فيما يسمى بالعقل ، وهى التى تستمد مشروعيتها بأنها ليست فى حاجة إلى التجربة أو الخبرة أو الممارسة فى التحقق من صحتها وصدقها ..

بيد أن الأمر لا يجرى فى الواقع على هذا النحو ، فالأشياء جميعا تحدث فى خضم أو سديم ، ثم يتناولها الإنسان ، المشروط بالزمان والمكان والمصلحة والقرارات الذهنية فيعيد تصنيفها وترتيبها وفقا لخانات وفئات وأولويات ليست أصلا فى الأشياء ، ولكنها تنتمى إلى عالم الإنسان المصنوع ، المتغير والنامى ، وعندما يتم للإنسان ذلك التنضيد الذى يجريه على منوال «كلية» أو «شمولية» أى «معقولية» معينة ، يكاد ينسى أصلها » فيعيد ترجمة العالم أو الواقع حسب لغته العقلانية الراهنة .

الحوار المشاغب مع العالم ينبئ عن تقديرى البالغ لروحه الشعرية المرهفة التى يشغلها التزام عقلانى ينتسب إلى نزعة فلسفية عميقة

فالمعقولية هى جمع ما تشتت أو تفرق من معطيات أو وقائع أو حوادث ، فى نسق واحد يؤدى بتلك المتفرقات المناطة بالمشكلة أو الموضوع إلى أن تتخذ مواقعها ومنازلها فى هذا النسق دون أن تترك متبقيات خارجة لكى يفى النسق بشرط الاستيعاب والكلية والشمول ، وهو ما ينتج كل أنواع التعميم .

فهذه الكلية وهذا الشمول ليس فى الواقع ، ولكنه أداة لكى تجعل من الواقع أمرا مفهوما ، فالفهم عملية لا تتم إلا إذا أدرجنا الأمر المراد فهمه فى تعميم أو كلية سابقة : أى سبق الاعتقاد فى صحتها .

وأنا أعرف أن «العالم» ينكر القول بإضفاء الكلية من عندنا دفاعاً عن الاعتقاد بأن ثمة موضوعات خارجية علينا أن نعرفها على ما هى عليه . ولكن ألا يفترض ذلك أننى أعرف مسبقاً «ما هى عليه» فى الواقع لكى أقارن بين رأى وآخر ؟ بعبارة أخرى لكى أتحقق من صحة معرفتى ، أى مطابقتها للواقع على ما هو عليه ، لابد أن يفترض أننى أعرف ما هو عليه الواقع لكى أعود

فأقرر أن معرفتى صحيحة . ما الجهة أو المصدر المفوض عن الواقع الذى يضمن لى ذلك ، فكأننى أدعى علم الله لأنه وحده الذى يعلم الواقع الذى خلقه .

وإذن فتلك «الواقعية العلمية» وتلك «العقلانية» غارقة فى أحد أطياف المثالية لأن الفرق بين «الكلية» التى أزعم أنها موجودة موضوعياً فى الخارج ، وبين «الكلية» (أو المعقولية كما أسلفنا بيانها) التى نرى أنها أداة وأسلوب لفهم الواقع يمكن أن نعدل عنها إذا ما وجدنا أنها لا تستوعب كل ما تخضعه للبحث والنظر ، نعدل عنها إلى غيرها ، وهكذا إلى يوم الدين ، الفرق بين الكلية الخارجية والكلية المفروضة مؤقتاً . فرق فيما يؤلف النسق المعرفى من وحدات التحليل والعلاقات التى تضم النسق بعضه إلى البعض لكى يقيم كلا شاملاً يتيح القدرة على التفسير . والقول إذن بكلية موضوعية خارجية تكتشفها العقلانية هو عودة أو ردة إلى مقولة هيجل الشهيرة : «كل ما هو عقلى واقعى ، وكل ما هو واقعى عقلى» .

ومثل العقلانية مثل النزعات الفلسفية أو الآراء والنظريات بوجه عام، قد تقوم بوظيفة ثورية فى مرحلة ، ولكنها قد لا تكون كذلك فى مراحل أخرى . وعلينا أن نخرج من الدائرة الخانقة للمصطلح الواحد ، وأن نغترف من معين اللغة الدافق ما يحدد لنا بدقة ما نطلبه من المصطلح القديم الذى ابتذلته كثرة الاستخدام لأهداف متعارضة . فلقد بدت العقلانية مفتاحاً عمومياً لكل الغرف ، و«وصفة مجربة» بكل ما يحدق بنا من مشكلات . فالمنشود إذن هو تفكيك مصطلح العقلانية أو مطلبها ليغدو عملة قابلة للتداول ، وذلك بالتصريح بالأهداف الحقيقية التى تغرينا باستخدام ذلك المصطلح اليتيم . ينبغى إذن أن نصوب نحو مطالبنا مباشرة مثل : حرية البحث والحوار والنشر ، ورفض الوصاية مهما كانت سلطاتها ، والمواجهة الجسورة لمشكلاتنا الحقيقية، واعلاء كرامة المواطن، وهذه الأخيرة أهمها جميعاً . ولم يعد من الناجع مواجهة مشكلاتنا ومتغيراتنا الجديدة بوصفات جاهزة ، قديمة .

ومهما يكن من أمر دفاع الأستاذ العالم المشبوب عن الناصرية والعقلانية، إلا أنه دفاع ، إذا ماحاكينا أسلوبه الجميل من تصعيد الواقعى إلى المثالى ؛ دفاع عن «أفلاطونية» أقامها على قدميها بدلا من وقوفها على رأسها ، فبدلاً من أن يكون الواقعى فى نظر أفلاطون تقليدا وتشويها للمثال ، صار المثال لدى أستاذنا محمود أمين العالم واقعاً حياً بيننا .

ومهما يكن من أمر ما قد يبدو من حوار مشاغب مع الأستاذ العالم الذى يشغف دوما بالمشاغبة حيث يردد قولته المأثورة : «شاغبوا تصحوا» ! ، مهما يكن من أمر ذلك ، فإنه ينبئ ، أو يكشف عن تقدير بالغ منى لروحه الشعرية المرهفة التى تصوب نحو الرمز والمثال ، ويعمرها التزام عقلانى ينتسب إلى نزعة فلسفية عميقة . ■

عشرة قروش اشتراك لجنة التأليف والنشر

بقلم
حسين أحمد أمين

« من لم يعرف غير بلده لم يعرف بلده، ومن لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته .. »

أحمد أمين

كان عام ١٩١٤ عاما حاسما فى حياة أبى .

كان وقتها فى الثامنة والعشرين .. أحس من خلال صلته الوثيقة بناظر مدرسة القضاء الشرعي ، عاطف بركات ، (وهى المدرسة التى كان والدى يدرّس فيها مادة الأخلاق) ، ومن خلال علاقته بأصدقائه ، وبزملائه في هيئة التدريس ، وبفضل قراءاته فى بعض الكتب الهامة لكبار المستشرقين مما كان مترجما إلى العربية ، بحاجته الشديدة إلى تعلم لغة أجنبية .. فهاهم أصدقاؤه يقولون له إن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة، فإن تعلم لغة أخرى رأى الدنيا بعينين ، ويكررون أمامه المثل العربى القديم : «من لم يعرف غير بلده لم يعرف بلده، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه ، ومن لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته » .

وهاهم زملاؤه فى مدرسة القضاء يعتمد البعض منهم فى تحضير دروسه على مراجع فرنسية أو إنجليزية ، ويذهبون إلى أنها أكثر مسايرة للزمان من المراجع العربية . «فالكتاب المؤلف فى علم منذ عشر سنوات لا يصلح أن يكون مرجعا اليوم إلا بعد التعديل ، لا كالكتب الأزهرية التى يدعى أنها تصلح لكل زمان».

اهتدى إلى سيدة إنجليزية فى نحو الخامسة والخمسين تدعى مس بور ، لم تكتف بتدريس قواعد الانجليزية ومفرداتها له ، بل كانت تحادثه طويلا وتروى له ذكريات إقامتها فى فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة ، وتدعوه مع بعض أصدقائها الانجليز من رجال ونساء إلى الشاى ، ليتحدث إليهم ويتحدثوا إليه ، ويتعود سمعه نطقهم ، ويقف على تقاليدهم، ويصغى إلى آرائهم ، وأحيانا ترسله إلى سيدة إنجليزية مسنة أقعدها المرض ، ليفرج عنها وحدتها وكربتها ، ويستمع هو إلى ثرثرة منها لا تنقطع ، فيفيد من مفرداتها ونطقها .

كتب فى سيرته الذاتية «حياتى» يقول: «أصبحت ذا عينين .. كنت أعيش فى الماضى فصرت أعيش فى الماضى والحاضر . وكنت آكل صنفا واحدا من مائدة واحدة فصرت آكل من أصناف متعددة على موائد مختلفة . وكنت أرى الأشياء ذات لون واحد وطعم واحد، فلما وُضعت بجانبها ألوان أخرى وطعوم أخرى تفتحت العين للمقَارنة وتفتح العقل للنقد .. ولو لم أجتز هذه المرحلة ثم كنت أديبا لكنت أديبا يعنى بتزويق اللفظ لا جودة المعنى ، ويعتمد على أدب الأقدمين دون أدب المحدثين، ويلتفت فى تفكيره إلى الأولين دون الآخرين . ولو كنت مؤلفا لكنت جماعا أجمع مفترقا ، أو أفرق مجتمعا ، من غير تمحيص ولا نقد . فأنا مدين فى إنتاجى لهذه المرحلة بعد المراحل الأولى، ولهذه الزهرة الجديدة التى ألفت باقة مع الأزهار القديمة » .


أحمد زكى
محمد فريد أبو حديد
يوسف الجندى
صبري أبو علم

أصدقاء جدد

ثم كانت خطوة أخرى فى نفس الاتجاه ، وفى نفس العام ، حين تعرف إلى أصدقاء جدد من صنف غير الصنف الذى كان يعهده .. فقد تخرج عام ١٩١٤ من مدرسة المعلمين العليا بضعة من خيار الطلبة، عرفوا بالتفوق فى العلم والخلق ، وكان أكثرهم مرشحا للبعثة

إلى انجلترا ثم حال نشوب الحرب العالمية الأولى بينهم وبين السفر . كان من بينهم أحمد زكى ، وأحمد عبدالسلام الكردانى ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد عبدالواحد خلاف، ومحمد كامل سليم ، ومحمد أحمد الغمراوى .. شاءت الظروف أن يتعرف بهم ، ثم صار صديقا حميما لهم ، فإذا هو يرى ثقافتهم من غير جنس ثقافته : ثقافته أزهرية شرعية فى معظمها، عصرية فى قليلها ، وثقافتهم عصرية بحتة. هذا تخصص فى الأدب الإنجليزى، وهذا فى الكيمياء ، وهذا فى التاريخ العام، ورابع فى الجغرافيا ، وخامس فى الرياضة، وغيرهم فى الطبيعة ، وكلهم يعرف من العالم الجديد والمدنية الحديثة أضعاف ما يعرفه .

اختاروا للقاءاتهم قهوة فى ميدان عابدين .. هذا يعرض على الآخرين فحوى مقال سياسى قرأه مؤخرا فى مجلة «نيشن» البريطانية .. وهذا يلخص لهم رواية لتشارلز ديكنز فرغ من قراءتها فى اليوم السابق . وهذا يتحدث عن الطابع الخاص للنوادر والفكاهة الانجليزية واختلافه عن طابع الفكاهة عند الفرنسيين أو المصريين . وهذا يثنى على قدرة المؤرخين الأوروبيين على التحليل الدقيق ، وإرجاع الجزئيات إلى كلياتها ، وحريتهم فى تقويم الشخصيات التاريخية ، وفى الشك فى بطولة وعظمة أناس أجمع الناس على بطولتهم وعظمتهم ، وينتقد كتابة التاريخ عند العرب ، ويبين كيف أنهم أحسنوا فى رواية الأحداث ولم يحسنوا فلسفتها ، إلا ما كان من ابن خلدون .. وهذا عالم كيميائى عظيم الولع بشعر المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، يحفظه وينشده . أو عالم رياضى ثقافته الأدبية لاتقل عن الثقافة الأدبية لدى المختصين فيها، يقرأ فى «الأغانى» و«العقد الفريد» كما يقرأ أبى فيهما ويتذوقهما وينقدهما ..

كل هؤلاء كانوا مدرسة لأبى . مدرسة خلت من عبوس الجد ، وثقل المدرس ، وسماجة تحديد الموضوع والزمان ، وصداع الامتحان . مدرسة فيها الجد والفكاهة ، والعلم والأدب ، والدين والشعر، والتقريظ والنقد الحر ، وحرية القول وحرية السماع وحرية الموضوع . مدرسة كل من فيها أستاذ تلميذ ، يفيد غيره بعلمه الذى تخصص فيه ، ويستفيد من العلوم الأخرى التى تخصص فيها غيره .

ثم كان أن نبههم أحدهم إلى ضرورة العناية بتقويم البدن والترويح عن النفس عنايتهم بتقويم العقل . فإذا بهم عن بكرة أبيهم يشتركون فى أحد النوادى الرياضية بالجزيرة ، (كان والدى أول معمم يشترك فى مثل هذه النوادى ، له فى النادى خزانة يودعها العمامة والجبة والقفطان ، ويأخذ منها الفانيلا والشورت والحذاء الكاوتش ، ثم يمضى ليلعب كرة القدم مع رفاقه)!.



وفى أيام الجمعة يخرجون معا فى رحلات إلى جبل المقطم ، أو الغابة المتحجرة ، أو وادى دجلة ، أو وادى حوف قرب حلوان ، أو العين الساخنة . كما كانوا أحيانا يقصدون صالة منيرة المهدية لمشاهدة تمثيلياتها وسماع غنائها ، «فكان بعض أغنياتها يرن فى أذنى طوال الأسبوع» .

وانضم إلى تلك الجماعة بعد حين ثلاثة من نوابغ خريجى مدرسة الحقوق من ذوى الثقافة القانونية والسياسية ، هم صبرى أبو علم ، ويوسف الجندى ، وحسن مختار رسمى ، فأحدث انضمامهم تأثيرا عميقا فى اتجاهاتها . فهم الآن يناقشون أسباب

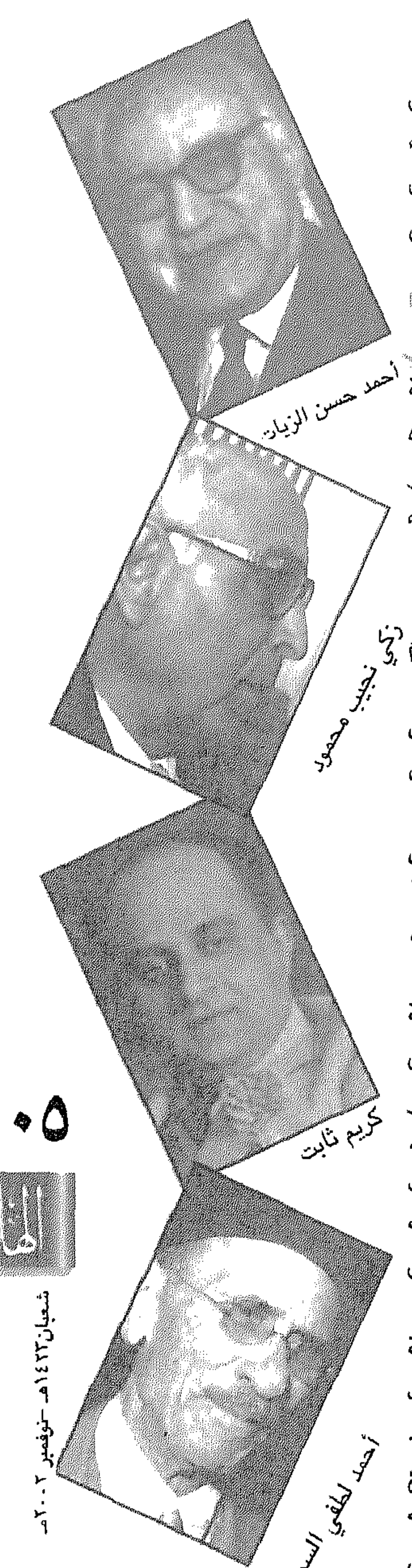
تخلف مصر وضعفها فى كافة الميادين ، ويقترحون سبل التصدى لهذه الأسباب ، ثم لا يكتفون ببيان الأدواء واقتراح الدواء ، أو بالنقاش والجدل وإبداء الآراء . بل يأخذون على عاتقهم مهمة الإسهام إسهاما إيجابيا فى البناء ، إسهاما يتفق مع مؤهلاتهم وإمكاناتهم .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

قرروا أن ينشئوا لجنة باسم «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ، سن قانونها أحد الأعضاء القانونيين ، وقرأه على الأعضاء مجتمعين فعدلوه ونقحوه . والتزم كل عضو أن يدفع عشرة قروش فى كل شهر ، وانتخبوا أعضاء مجلس الإدارة يجتمعون فى بيت عضو من أعضائها بصفة دورية . وبدأ بعض الأعضاء العلميين يؤلفون كتبا فى الكيمياء لطلبة المدارس الثانوية ، يحضر كل منهم فصلا ويقرؤه على الآخرين فينقحونه ويهذبونه ، فإذا فرغوا قدموا الكتاب للطبع ، فإن لم يكف ما جمع من عشرات القروش أقرض اللجنة بعض الأغنياء من الأعضاء ليتم طبع الكتاب .

كان هذا أول حجر فى بناء اللجنة عام ١٩١٤ . وكان والدى أول رئيس ينتخب لها، وظل رئيسا لها أربعين عاما يعاد انتخابه كل عام حتى وفاته عام ١٩٥٤ . وقد زاد عدد أعضائها بمرور السنين إلى أكثر من ثمانين عضوا من صفوة الأدباء والكتاب والعلماء ورجال التربية والقانونيين والسياسيين البارزين ، ونمت رابطة الألفة بين الأعضاء حتى شبهها الناس بالماسونية .. كل عضو يسهم من أجل شد أزرها بما يقدر عليه من مال وجهد . فإن تقدم أحدهم إليها بكتاب من تأليفه أو ترجمته حولت اللجنة الكتاب إلى خبيرين اثنين بالموضوع يبديان فيه رأيا بالصلاحية أو عدم الصلاحية أو الحاجة إلى التعديل

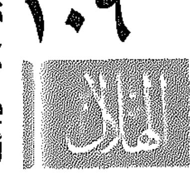
ثم كان أن احتاجت اللجنة إلى أن يكون لها مطبعة خاصة بها. غير أن المطبعة فى حاجة إلى مقرّ غير بيت العضو الذى كان أعضاء اللجنة يجتمعون فيه. فاستأجرت اللجنة مبنى متواضعا هو رقم ٩ من شارع الكرداسى بحى عابدين، تشغل المطبعة والمخازن منه الطابق الأرضى، ويخصص الطابق العلوى لموظفى


أحمد حسن الزيات
زكي نجيب محمود
كريم ثابت
أحمد لطفي السيد

اللجنة، ولمكتبتها، وصالة لاجتماعات الأعضاء. ثم نمت ميزانية اللجنة من قروش الاشتراكات ومن أرباح الكتب التى تنشرها حتى بلغت أكثر من ستين ألفا من الجنيهات، فقرر الأعضاء الانتقال من حيّ عابدين الشعبى إلى حى جاردن سيتى. واشتروا مقرا فاخرا للجنة فيه بنحو عشرين ألف جنيه ، وإذ لاحظت الحكومة نجاح اللجنة فى عملها خصصت لها منحة قدرها تسعمائة جنيه كل سنة، أفردت اللجنة لها دفاتر خاصة، وطبعت منها كتبا تأتيها من الخارج كانت تبيعها بسعر التكلفة، ثم تحاسبها الوزارة على هذا البند وحده.

كذلك أسست اللجنة مجلة «الثقافة» الأسبوعية عام ١٩٣٩، وكان والدى صاحب امتيازها والمسئول فى واقع الحال عن تحريرها. وقد استكتبت المجلة كبار المفكرين والأدباء فى العالم العربى كله، فكانت طوال الأعوام الأربعة عشر التالية - إلى جانب «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات، ومجلة «الهلال»، ومجلتى «الآداب» و«الأديب» البيروتيتين - إحدى المنارات القليلة للفكر العربى الحرّ المستنير. ثم جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ فتقرّر إغلاقها، واحتجبت عن الصدور عام ١٩٥٣.

لم تكن المجلة - رغم ذيوع صيتها، وإقبال المثقفين على قراءتها - تحقّق أرباحا ذات شأن، وكانت تعتمد اعتمادا كبيرا من أجل تغطية نفقات طباعتها وإصدارها ومكافآت كُتّابها على ما تدفعه لها وزارة المعارف من قيمة الاشتراك فيها لجميع المدارس الثانوية بالقطر المصرى كله. وأذكر بهذه المناسبة أنه حين وُلد للملك فاروق عام ١٩٥٢ ابنه أحمد فؤاد، طلعت كل الصحف والمجلات المصرية تهلّل كالعادة وتبارك، وتتظاهر بالفرح وتنافق، عدا مجلة «الثقافة» فكان أن اتّصل المستشار الصحفي للملك - وهو كريم ثابت باشا - بوالدى تليفونيا، يخبره أن جلالة الملك غاضب حانق (وكأنما الملك يقرأ «الثقافة»!)، وهدّده بأنه ما لم تنشر المجلة تهنئة لجلالته فى العدد التالى، فسيصدر الأمر إلى وزارة المعارف بوقف اشتراكات المدارس فيها، وهو ماكان سيؤدى فى واقع الأمر إلى إفلاسها.. فاجتمع أبى برئيس التحرير، زكى نجيب محمود، وأطلعه على حقيقة الموقف، وأخبره أنه شخصيا عاجز عن أن يخطّ بقلمه تهنئة للملك، أو أن يعبّر عن «فرح» لا يشعر به، وعن «أهمية» حدث لايراه هاما.. ثم ترك الأمر برمّته لزكى نجيب محمود ليرى فيه رأيه، فإن شاء تجنّب إفلاس «الثقافة» كتب الدكتور زكى تهنئة قصيرة، وإن رأى أن ضرر النفاق يفوق ضرر إغلاق المجلة لم يكتب.. وكان أن طلع العدد التالى يحمل فى صدارته مقالا بالغ القصر بعنوان «مولد أمير» بقلم زكى نجيب محمود، اتّسم بالفتور الجلىّ فى عبارات التهنئة فيه، وبدا واضحا أن هذا المقال المتأخّر قد خرج «من تحت ضرس» كاتبه ورغما عن إرادته!

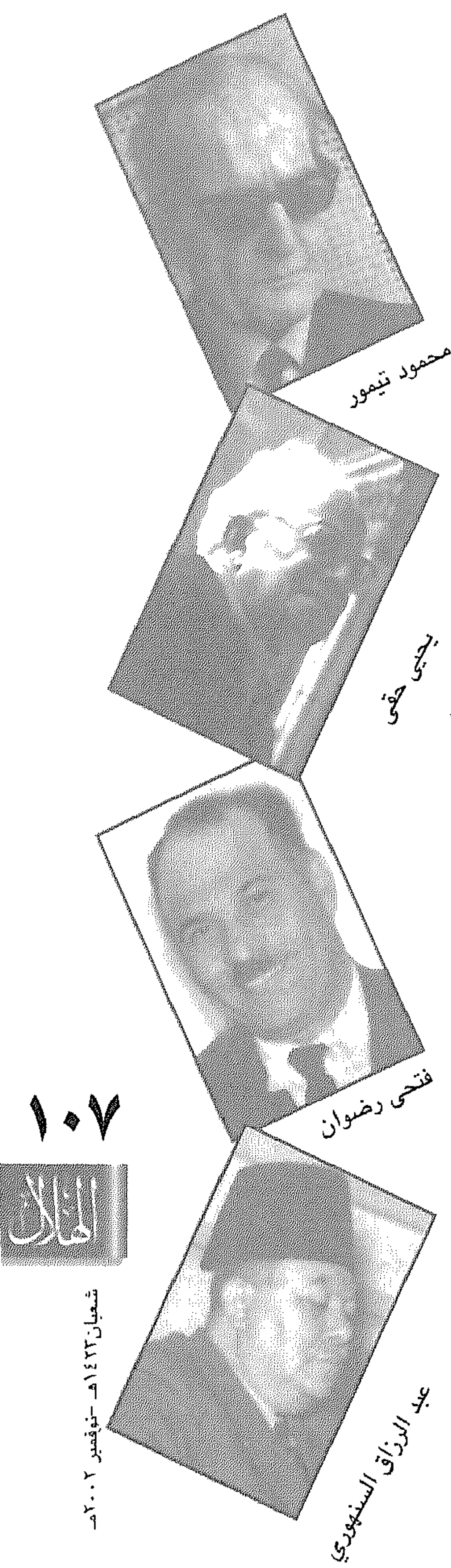


اجتماعات الخميس

كان والدى طوال الأعوام الأربعين التى رأس اللجنة خلالها، عماد اللجنة وروحها ومحرّكها الأول: يذهب إليها كل يوم يدير شؤونها، ويطّلع على مشاكلها، ويقرأ بريدها، ويؤشّر بما يلزم على ما يعرض عليه من أوراق.. أما عنّا نحن، أولاده، فلاتزال اللجنة، بعد عشرات السنين من اندثارها، تشكل جانبا ضخما من تكويننا وذاكرتنا . لقد تفتّحت أعيننا أول ما تفتحت على نسخ التصحيح من كتب والدى تصل إلى منزلنا

لتراجع، وسُعاة ينتظرون بالباب ليعودوا بها، ومطبعة اللجنة نمرّ عليها كل خميس حين كان والدى يصطحبنا إلى اجتماعاته بزملائه من الكُتّاب، فنراقب العمال يرصّون الحروف، ويديرون الآلات، ويبعثون الطرب فينا إذ يطبعون أسماءنا على بطاقات.. وكان لمنظر الورقة الكبيرة ناصعة البياض تمرّ بين الأسطوانتين السوداوين ثم تخرج فى مثل لمح البصر وقد امتلأ فراغها بأعمدة الكلمات والصور، أثره الغريب فى نفوسنا، نرقبه مأخوذين مفتونين.. فعرفنا وقتها الملزمة وعدد صفحاتها، وطريقة جمع الملازم وطيّها وتغليفها، وأنواع الورق وأثمان رزمته، وأوجه استخدام القصاصات المتخلّفة منه. فإن كان العامل وقت زيارتنا واسع الوقت، واسع الصدر، فقد يسمح لنا أن نجرّب أيدينا فى رصّ الحروف، أو إدارة الآلة، وتحويل الورقة الكبيرة المطبوعة إلى ملزمة.

غير أن أهم ما كان يعنينا من أيام الخميس تلك هو الالتقاء بقادة الفكر والرأى والأدب فى مصر فى اجتماعهم الأسبوعي. رجال من مختلف الأحزاب والمذاهب، والاتجاهات والتخصّصات والمشارب، نستمع إليهم يتناقشون فى هدوء وتحضّر. فهنا أحمد لطفى السيد، وعبدالعزيز فهمى، وطه حسين، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الوهاب خلاف، وفريد أبو حديد، وصبرى أبو علم، وزكى نجيب محمود، ويحيى حقى، وإسماعيل القبّانى، وأحمد زكى، وكامل الكيلانى، وإبراهيم مدكور، ومفيد الشوباشى، وفتحى رضوان، وعبد الرزاق السنهورى، وسليمان عزمى، والعشرات غيرهم، يكرّرون ما كان يفعله الأوائل فى قهوة ميدان عابدين، على مستوى أكثر نضجا وإحاطة بالأمور، ومع اهتمام أعمق بمشكلات مصر، وبقضاياها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية.. غير أن ثورة يوليو جاءت إلى الحكم بضباط يرون مثل تلك المناقشات «بيزنطية»، ويصفون أصحابها ساخرين بأنهم «بيتفلسفوا»، ويشيعون فى مصر مناخا لا يمكن لمثل تلك الجذوة فيه إلا أن تنطفىء، ولأفراد مثل تلك النّخبة إلا أن يتبعثروا، وأن يُهيّئوا أنفسهم للرّحيل، وأن يفسحوا الطريق لجيل «كامتّنا» وشعبان عبد الرحيم.■





بقلم
عبد الرحمن أبو عوف

الراصد والمحلل للحياة الأدبية والثقافية المصرية عبر العقدين الأخيرين من الألفية الثانية يلاحظ نهوض وثراء متعدد الرؤى والدلالة والأشكال والأساليب للكتابات الأنثوية فى أشكال القصة القصيرة والرواية بالذات وأيضا الشعر.

هذا النهوض المتميز والجدير بالدراسة والتقييم للكتابات الأنثوية ثمرة عوامل وإعتيادات متداخلة تتعلق بالتحولات السياسية والسيسيولوجية والاقتصادية والثقافية والأهم حساسية الكتابة وتقنيات الابداع شهدتها المرحلة التاريخية من أعوام التسعينات وحتى الوقت الحاضر على مستوى الأفق المصرى والعربي والعالمى .

وسوف يتوقف بحثنا عند دراسة مقارنة للقصة القصيرة المصرية عند كل من كاتبات السبعينات وكاتبات التسعينات .



ولا يزعم هذا البحث أنه يشتمل على دراسة كل الكاتبات من كلا الجيلين بل اختار وبمنهجية موضوعية ودراسة شاملة بعضا من (الرموز) المجتهدة والموهوبة منهن والأكثر قدرة وتعبيرا جماليا عن جدل العملية الاجتماعية وروح المرحلة التاريخية وسماتها السياسية والسيسيولوجية والاقتراب من إدراك تغيرات الواقع المصرى والمشهد العالمى.

فى ضوء هذا الاعتبار اخترت من (جيل كاتبات السبعينات) كلا من

(١) إبتهال سالم
(٢) سلوى بكر
(٣) نعمات البحيرى
(٤) اعتدال عثمان
(٥) حورية البدرى من الاسكندرية.

ومن جيل التسعينات كل من

١ - أمينة زيدان
٢ - نورا أمين
٣ - منار فتح الباب.
٤ - حنان سعيد من الإسكندرية.

ولكن وقبل أن نخوض في التحليل النقدي لأعمال كاتبات السبعينات والتسعينات نعود للخلفية النظرية والفكرية والجمالية لعوامل صعود ونهوض الكتابات الأنثوية ككل في أشكال القصة والرواية والشعر.

الخلفية النظرية لصعود ونهوض الكتابات الأنثوية

لا يمكن فهم حيوية نهوض الكتابات الأنثوية إلا في ضوء التحولات الشاملة التي نعيشها منذ عقدين من الألفية الثانية وحتى الآن والتي تتسم بالقلق السياسي والاجتماعي والثقافي والعشوائية والقلقلة في مفاهيم القيم الثقافية والفكرية والأدبية والأخلاقية كحصاد وثمرة لجدل تغيرات وتحولات الواقع المصري والعربي والعالمي.

فبلادنا الآن تعيش مخاضا اجتماعيا صعبا ومعقدا حيث تتحول ببطء وحذر سلطوي من النظام الشمولي لثورة يوليو ١٩٥٢ بكل ايجابياته وسلبياته وانتصاراته وإنتكاساته إلى التعددية الحزبية وهامش من حرية التعبير وحق الاختلاف وإحترام المعارضة والرأي الأخر وسيادة القانون مع (التحفظ على بقاء قانون الطوارىء) واستكمال العقد الاجتماعي المدني الجديد الذي يحترم الحرية الفردية في الاقتصاد المفتوح وكل البنى الحقوقية والسياسية والثقافية ولكن في إطار وسياق الوحدة الوطنية والممارسة السياسية الشرعية العلنية.

وهي بذلك تستجيب وتحاول أن تتكيف مع التأثيرات اللاهثة الإيقاع في العالم العربي والأوروبي وحتى الآسيوي من تأثيرات الثورة التكنولوجية وعلوم الاتصال والمعلومات والكومبيوتر والإنترنت



ابتهال سالم سلوى بكر

والفضائية والقرنية الكونية وبلبلة وخلط مفاهيم العولمة وهيمنة القطب الأوحد ونمط الحياة والثقافة الأمريكي والمركزية الأوروبية بجانب أزمات النظم الشمولية الماركسية الإستالينية والفاشية والبحث المضني عن طريق ثالث بين الليبرالية والاشتراكية وثورات ما بعد الحداثة وتحطيم النظريات الفلسفية والفكرية والجمالية ذات النسق والمنظومة الكاملة المطلقة وحيدة الجانب وسيادة النسبية وتشظي كلية ما كان يسمى نظرية معرفة أو (استوملجى).

في ضوء كل هذه العوامل يمكن القول نسبيا أن نوعا من حساسية وخصوصية الكتابة الأنثوية بدأت تتشكل وتتكون سماته وملامحه ومفرداته ومضامينه وجمالياته تنهض به المرأة المصرية المعاصرة في كبرياء وتمرد لتواجه به كل ندوب الوهن والتآكل والتدني والتخلف وأدران بقايا المجتمع الذكوري الشرقي البطريركي حيث تراتب القمع المراوغ مازال يمارسه الرجل الشرقي ويستلب حريات وإنسانية واستقلالية المرأة خاصة في مواجهة المد الأصولي الإسلامي المتطرف والدعوة للحجاب والنقاب وعودة المرأة إلى البيت.

فمازلنا للأسف ونحن في مطلع القرن الحادى والعشرين وفي مجتمعنا الشرقي رغم اختلاف ألوان الطيف والتطور السياسي وتحديث المجتمعات والنظم العربية نعاني من وجود بقايا رواسب قديمة مريضة للمجتمع الذكورى (الرجالى) ومشكلة ازدواجية أخلاقيات وتربية الرجل الشرقي في نظرته المتشيئة للمرأة كجسد ومتعة حسية حيوانية في الفراش بقايا نظرة مجتمع الجوارى والحريم.

عن كاتبات السبعينات في القصة القصيرة المصرية

ولد وتكون وعي جيل كاتبات السبعينات في عتامة أزمة النظام الناصرى الشمولي وتداعيات هزيمة ٦٧ والرحيل المبكر لعبد الناصر بعد ان حاول أن يعيد ترتيب واستعادة القدرة العسكرية للجيش وخاض حرب الاستنزاف وتولى السادات السلطة فقد عينه عبدالناصر لأسباب غامضة حتى الآن نائبا له وبدأت التراجعات وأعوام الضباب واللاحرب واللاسلم وانفجرت الانتفاضات الطلابية والعمالية وتحت ضغطها إتخذ السادات القرار التاريخي بالعبور المجيد في حرب ٦ أكتوبر وما أعقبها من مفاوضات وتغيرات في السياسة الخارجية والداخلية أدت لصراعات معقدة بين قوى سياسية متنازعة تراوحت بين اليمين والأصوليين الإسلاميين والقوى اليسارية الماركسية والناصرية والقومية، وازعج الأجيال التى عاش آباؤها على الحلم القومي الناصرى وانتصارات ثورة ١٩٥٢ في صعودها ازعجهم وصدمهم ما حدث من تقارب بل الارتماء في احضان امريكا حيث تعبير السادات المستفز (٩٩٪ من اوراق اللعبة في ايدى الولايات المتحدة الأمريكية) وتم الصلح مع إسرائيل واسترداد سيناء منزوعة السلاح وعشنا لنرى العلم الإسرائيلي يدنس ويرتفع على السفارة الإسرائيلية في القاهرة ومصر المحروسة.. وبدأ التحول الاقتصادى من المركزية والاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق والانفتاح الاستهلاكي أو (السداح مداح) على حد تعبير احمد بهاء الدين وظهور طبقة شرسة من الرأسمالية الطفيلية والسماسرة والكومبادادور كل هذا أحدث تدنيا في مجالات وقيم الأبعاد الاجتماعية والثقافية ومفاهيم القيم وما يهمنا هو الانعكاس والتعاكس الجدلي بين تغيرات الواقع والتجربة القصصية عند كاتبات السبعينات.

سنجد عند كل من ابتهال سالم وسلوى بكر وحورية البدرى نوعا من التقارب في المنظور والموقف الاجتماعي وشيء من تجربة الانتماء السياسي باختلاف ونسب تعود للتكوين والتجربة والموهبة ودرجات الصدق أو الادعاء ومدى إتقان تقنيات وحرفيات البنى الجمالية والأسلوبية التعبيرية واقتراب من استيعاب منجزات التعبير الحديثة والمعاصرة كالسينما والدراما والفنون البصرية والتشكيلية وتأثيرها على الأسلوب والصياغة اللغوية وحساسية الكتابة الأخرى المتجاوزة للأسلوب التقليدى والواقعية النقدية او التسجيلية.

عن ابتهال سالم وانكسار الحلم

في كل من مجموعات (النورس) و(مدينة صغيرة) و(تحت القمر) إبداع

قصصي يمتلك صوته الخاص ويعطينا اليقين أن ابتهال سالم قد أدركت بتلقائية ووعى مرهف أن كاتب القصة القصيرة لايبنى عالما بل يشق طريقا لا يرفع هرما، بل يصنع مسلة لا ينقلنا إلى صوره بمئات التفاصيل التى تحيط بالمشكلة بل يقنعنا بالمشكلة نفسها ولهذا كانت القصة القصيرة شبيهة بالشعر، فهى ليست صنعة تفكير ولا صنعة هندسة بل، ولا صنعة خيال بقدر ما هى صنعة حساسية .

إن قدرا عديدا من قصص – إبتهال سالم – يلتقط من العالم المحيط به – عن طريق العطف والفهم – نظرة خاصة إلى الأشياء – إدراكا بديهيا لما هو قيم وما هو تافه، وهذا الإدراك هو لب فنها هو الخلاصة الشعرية التى تكمن خلف كل قصصها.. ويبدو أنها ادركت لعمق شجاعتها كامرأة مثقفة وكاتبة مقهورة انه من غير هذا الإداراك الذكى العطوف لن تكتب قصة لها وزن، ولن يوجد أسلوب له أصاله.

ووحدة المكان كفعل قصصى عند ابتهال سالم هو مدينة بورسعيد التى انهكها وسلب بكارتها وأفزع النوارس على شاطئها الانفتاح الاستهلاكى الاقتصادى والمدينة الحرة وعبر النمط الاستهلاكي وأيضا مدينة القاهرة الوثنية وحوارى وأزقة أحيائها الشعبية المختنقة.

فى قضية (النورس) تصرخ الراوية فى وجه رئيسها فى العمل الذى يمارس سادية قهرها تعرف إيه عن الحرب، الحرب عند اللى زيك انتهت . لكن عندنا لسه) وتهرع باكية شاكية لزميلها يوسف – المهاجر أبدا فى البحر وهو يتكرر ظهوره دائما فى كل القصص .. وعبر



اعتدال عثمان نعمات البحيرى

حوار بجوار البحر الذى تتناقص النوارس على شطئانه يدور حوار عن إغتيال الأحلام وضياع الأمل فى طريق مصر السياسى وسط انهيارات الثورة المضادة للسادات .

وفى قصة (الصدى والحب) تقول الراوية (فيتغير العالم فوق جسدى وأنا ملقاة.. كهيكل عظمى على سريرى، إنها إنسانة تعيش فى حجرة / زنزانة والراديو صامت والتليفزيون يفتح عن حرب الخليج وصواريخ بيروت وإعلان عن بيرون الذى يغسل اكثر بياضا .. ودائما تهب رائحة العينين وتتلاشى ظلال الأشياء فى عقم الواقع وجهامته وسطوته الخانقة. إن قصص – إبتهال سالم – تكشف عن تداعيات القهر والسقوط غير أنها وعبر لغة الفن – تستعيد الواقع لكى يصبح أكثر إشراقا وبهجة واهم من ذلك انها تقدم الكتابة الأنثوية التى ترفض الثرثرة عن الحب والجنس والطلاق والوجاهة الاجتماعية وتنحو نحو التمرد.

عن سلوى بكر

إن الإبداع القصصى المميز والجاد لسلوى بكر يشكل لحد ما بصيرة جدلية واعية وشجاعة بقضايا وهموم وأزمات حياتنا وتكشف عن قدرات متعددة

تعبيرية وتمرس على البناء الجمالى وإتقان صياغة وتفجير اللحظة القصصية الدالة والكاشفة عن غنى وزخم وسيولة وجدل العملية الاجتماعية فى مجتمعنا الذى عاش وعانى انهيارات وقلقلة فى الأبنية الاجتماعية والسياسية والاخلاقية أحدثتها الثورة المضادة والتراجع والمهادنة والتبعية.

إن مجموعات (زينات فى جنازة الرئيس) ١٩٦٨ (ومقام عطية) ٨٨ وعن (الروح التى سرقت تدريجيا) ٨٩ ، كل قصص هذه المجموعات تؤكد التصاقها بالواقع الإنسانى المصرى وتصويرها الصادق الأمين العنيد للحياة بالفعل لا بطريقة جامدة او ساخرة ولكن بمحاولة نضالية لإظهار الواقع فى مرآتها كخطوة أولى لتخليصه واسترداده من جديد لقوة الحقيقة.

فى مجموعة (عجين الفلاحة) لسلوى بكر نجد فى قصة (النوم على الجانب الأريح) لقطة عن التناقض الطبقى فى المدينة حيث تعطى سيدة البيت الى الخادمة التى رزقت بمولود كتاب عن تربية الأطفال وعندما تحاول الخادمة أن تلتزم بما فيه من تعليمات تكتشف عالما آخر يعيش فيه أطفال آخرون وأمهات آخر يتمتعون بإمكانيات وسعة فى العيش والتغذية والنظافة وتقارن بين تكاليف هذه التعليمات ودخلها المحدود.

وفى قصة (شال الحمام) يسطو اللصوص على أتوبيس ركاب خط ابو السعود وعندما يقبض على اللصوص يكتشف المبلغ المسروق حوالى ثمانية وستين جنيها يرمز لتدهور الدخل القومى لحوالى ثلاثين راكبا.

إن الواضح ان وراء الواقع وأبعاده فى قصص سلوى بكر تنبعث فى بعض الأحيان حمى من السرد، حمى تنتزعه من التفاهة فى بعض الأحيان وتعطيه نفحة ليست نفحة النقل الماهر. وهنا تكتسب قصة غنائية تتنفس كالجسد وتدور حول نفسها لتعرى ندوب الواقع وينكشف وتكشف عن انسانية وجوهر الانسان المغمور فى مدينة وثنية تعيش وتتنفس وحل وكآبة التدنى والتفكك والانهيار والفساد.

عن حورية البدري وترنيمات الكناريا وأصوات الجوارى.

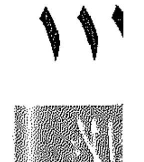
فى مجموعة حورية البدرى وهى قصاصة من الاسكندرية (ترنيمات الكناريا وأصوات الجوارى) تضرخ بطلتها الأساسية فى مجموعة قصص ينتظمها خط واحد رغم تقديم أحداثها وشخصياتها فى لقطات منفصلة مركزة مكثفة، تصرخ البطلة (جهاد) وهى شاعرة نقية تزوجت احد نماذج المرحلة المتدنية (جاد البحيرى) الذى يلوث حياتها بغرامياته وخياناته وسلوكياته المنحرفة فى العمل ورشوة (محاسن الدجوى) موظفة لجنة التسويات بالجمرك والمرتشية المحترفة عندما تسمع (جهاد) صوت (محاسن الدجوى) ساقطة الجمرك المرتشية صوتها المشروخ يبدأ بالطلبات والتوجيهات وعرض التسهيلات التى سوف تقدمها لجاد البحيرى.

اتفقنا يا باشا؟

فيرد جاد مزهوا باللقب:

– اتفقنا.

تردد جهاد لنفسها (هل هذه هى



الباشاوية؟ الحمد لله انى ابنتك ياعبدالناصر ، لقد كان عصرا مدانا ورديئا ومازال يلوث بيتى حتى الآن.. هل ترى هذا الباشا يا عبد الناصر لا عجب إنه لايحبك.. يتحامل عليك ويتهمك بكل ما يستطيع من الدنايا » .

تبتسم يا عبد الناصر فى عينى (جهاد) فتتحامل وتقف ويتردد صوتك فى بيتها بنبرات الكرامة والكبرياء فتطهو الطعام الطيب وتطلب الطلاق فى كل يوم وترفض التطبيع مع إسرائيل وتفرح لرفع العلم الفلسطينى على جزء من الأرض المحتلة وتصلى الصلوات الخمس وتدعو لبيتها ولكل شبر على أرض مصر الطيبة بالخلاص من دنس التطبيع.. يبتسم للبسمة الصادقة على وجه عبدالناصر الشامخ فى إباء وتردد هامسة : لا يا يأمى ليس كل الرجال كذلك ليس كل الرجال.

ويؤخذ على السرد القصصى عند حورية البدرى المباشرة وعلو النبرة ووضوح الدلالة دون لجوء إلى الرمز والاستعارة والشاعرية كذلك رغم ان قصصها تدور فى مدينة حضارية لها خصوصيتها وطبيعتها الساحرية وانفتاحها على البحر والعالم وتعدد الأجناس رغم كل ذلك لم تضمن آليات السرد والبناء المكان كعنصر فنى وفكرى فى عملية السرد القصصى.

عن نعمات البحيري (ضلع اعوج) ونساء وحيدات

إن الموضوع القصصى الأثير والأساسى عند نعمات البحيرى فى قصصها وخاصة مجموعة (ضلع أعوج) موضوع موحى بعديد الدلالات والرؤى والرموز والمجاز والشاعرية وتكتبه بحساسية أنثوية، هذا الموضوع هو عالم النساء الوحيدات ، الأرامل والمطلقات والعوانس، اشجار الصبار المتعطشة للرى والندى ويقين الاستقرار فى صخب وملهاة ومأساة الحياة الهادرة الوثنية، ونعمات البحيرى تدرك بموهبة غريزية تلقائية ان فن القصة القصيرة هو فن الوحدة والإحساس بالغربة والضياع والصراع الباطنى والتركيز على اللحظات العابرة التى قد تبدو عادية لا قيمة لها ولكنها تحوى من المعانى قدرا كبيرا.

فى قصة (سرقات نهارية) تتعرف على حياة وعالم المرأة الوحيدة النموذجية لدى الكاتبة عبر جولة لص فى شقتها فنتعرف على هويتها السياسية والثقافية عبر كتبها وصورها التذكارية ومكونات الأثاث والقضية تعلوها صورة عبدالناصر .

وفى قصة (صدفة) يتواطأ الجهل وقمع المفهوم الغيبى على قمع النساء فى القرية متجسدا فى شخصية (الشيخة صدفة) التى تتصدر المآتم (تبث الوصايا والعظات، وتروى سيرة الأنبياء والأولياء مشفوعة بالمصمصات للشفاه مثل نقيق الضفادع وإذا ما غضب رجل على امرأته ساقها أمامه حتى بيت (الشيخة صدفة) وعيال الكفر يزفونها (من ده بكره بقرشين).

ورغم ذلك التميز فى إختبار موضوع موحد مما اعطى المجموعة وحدة عضوية ووحدة انطباع فى الموضوع وتقنيات السرد الحداثى المركز والشاعرى الا ان

نعمات البحيري في عرض همها وموضوعها لازمة المرأة الوحيدة وقمع الرجل لها في مجتمعنا ثمة تقصير في إدراك شمولية القمع عندها.

ذلك ان قمع المألوف والعرف والدين والتراث والسلطة هو المسئول في الاساس عن وجود ازمة يعانيها كل من الرجل والمرأة في مجتمعنا ولن تتحقق حرية واستقلالية المرأة الا في سقوط وانتهاء هذا القمع على الاثنين معا بحيث يتجرد الرجل والمرأة معا وهنا تتخفف النساء الوحيدات من وحدتهن.

عن اعتدال عثمان ومحاولة في التجريب في وشم الشمس

قص اعتدال عثمان تتميز بالمزج الماهر والمصطنع بين الأسطورة والفانتازيا والتناصي والغنائية الشعرية وموسيقى اللغة في تشكيل مادة ونسيج ومكونات النص القصصي.

إن مجموعة (وشم الشمس) تتكون من ثلاثة اقسام تهاويل المحار، طرح البحر، مرج البحريني.

والقسم الأول والثاني يشتملان على نصوص تجريبية تعتمد على منجزات الأسطورة الشيئية والفانتازيا والتنامي، إنها قصص تعتمد لغة الشعر والعودة بها أحيانا للغة السحر.

وأوضح نموذج لذلك القسم الثاني في نص (مرايا الرمال) تدرس الكاتبة بقدر من الماحية. ازمة الطبقة المتوسطة في نموذج اسرة (الأب) ضابط عاني هزيمة ٦٧ وهاجر للعمل في دول الخليج والأم وهي الراوية تعاني الفراغ وامراض الانفتاح حيث الاستهلاك والتجمل الزائف والإبنة الكبرى التي عادت مشوهة مجروحة الكبرياء بعد زواج عقيم في دول النفط، فاتجهت إلى اقيون الجمعيات الإسلامية اما الأبنة الوسطى فهي النموذج الصحي في هذا العفن الانفتاحي تتجه للدراسات العليا والحب النقي في حين يغرق الابن في المخدرات وهلوسة الحبوب المخدرة والضياع ورمز الضياع في المجتمع.

جيل التسعينات ورفض الانتماء

على عكس الخطاب القصصي لجيل التسعينات من اهتمام وتركيز على قضية الانتماء وبروز الموقف السياسي والاجتماعي والوعي بالقضية الاجتماعية والايديولوجية بمعنى اكثر تحديدا علاقة النص القصصي بالسياق السياسي والاجتماعي والتاريخي، على عكس كل ذلك نجد أن الخطاب القصصي لغالبية كاتبات التسعينات مع استثناءات قليلة وبعد ما حدث من تحولات سياسية واقتصادية وثقافية في قلب جدلية المجتمع المصري كجزء من اللوحة العالمية من تغيرات.

نجد خطابهن القصصي يتجنب قضية الانتماء ويبدو لامباليا بالصراع السياسي والاجتماعي ، ليس له موقف يرفض المؤسسة واليسار الاصولي واليمني الاصولي الاسلامي المتطرف وابداعهن ليس ملتحما بالسياق السياسي والاجتماعي والتاريخ يضعهن في غالب تجاربهن ابداع منكفيء على ذاته وهمومه وإشكالياته الخاصة، الوجودية ، ويتضخم الأنا الأنطولوجي على حساب العلاقة مع الآخر والتي تبدو

جحيما وقيدا لذلك يبرز فى آليات السرد المونولوج على حساب الديالوج والاستبطان للنفس والتنفيس عن الذات والعالم الداخلى.

إن إبداع كاتبات التسعينات يعكس ويتعاكس مع الواقع ويحاول أن يعبر عن ظهور جيل من المرأة المثقفة المتحررة التى تحطم تابو وقيود واخلاقيات وقيم الطبقة المتوسطة المأزومة المنفصمة الشخصية بين رواسب التقاليد والمعاصرة غير ان تجربة هذا الجيل فى الحب والتواصل.. والصداقة مع الرجل محبطة تقترب من الضياع والبوار.. لبنات غير مستقرات فى مجتمع مفتوح متضخم الثروات والفقر فى نفس الوقت يشهد شكل خيولى من الاستقطاب الطبقى حيث هيمنة رأسمالية طفيلية (تلهب وتهرب) وحصصه غير محكومة الضوابط وعدم استقرار بالاخذ بنظام آليات السوق مع بقايا الهيمنة للدولة على الاعلام والعمل السياسى. وانبهار بكل ما يصدره الغرب والسيد الجديد للعالم الهيمنة الامريكية والعولمة على الاقتصاد والثقافة ونمط الحياة ومحاصرة للهوى قوالشخصية القومية.

كل هذا يشكل المناخ الذى اثمر تجربة فى القصة القصيرة المصرية تكتبها المرأة الجديدة.

ومحور الكتابة الأنثوية لجيل التسعينات فى القصة القصيرة هو الحضور الساطع للأنثى بخصوصيتها ولغتها ، وحساسيتها لغة الجسد ورهافة المشاعر والعواطف والغرائز التى هى نبع الحياة والخصوبة والتجدد والاستمرارية الخلاقة ولعل أخطر وأهم


نـور أمين — منـار فتح الباب

ما اضافة بعض رموز جيل كاتبات التسعينات فى القصة القصيرة يتعلق بالأسلوبية التعبرية حيث تتم هنا محاولة تأسيس نوع من الكتابة الأنثوية تنحى المتفق عليه والسائد والروح والجسد ليكون النسق والبناء الجمالى خارج النسق البطريريكى الذى ظل مسيطرا على عمليات الإبداع القصصى للمرأة المصرية العربية.

فى ضوء كل هذه الاعتبارات نتوقف عند ابداع بعض رموز كاتبات التسعينات ولا نزعم أننا وقد تركنا لضيق مجال البحث رموزا أخرى أعطت ابداعا جديرا بالنقد والتقييم مثال هناء عطية، ومنال القاضى؟

نتوقف عند كل من

١ – منار فتح الباب
٢ – نورا أمين
٣ – أمينة زيدان
٤ – حنان سعيد من الاسكندرية.

عن منار فتح الباب وترنيمة الجسد والمهمشين

إن الانطباع الأولى من قراءة نصوص وقصص مجموعة (القطار لا يصل إلى البحر) لمنار فتح الباب يعطينا اليقين النقدى بحضورها الأنثوى

وخصوصيتها ولغتها الشاعرية وإحساسها بلغة الجسد وعمق وتعقد حساسية المشاعر والغرائز لذلك نلمح نوعا مركبا من التشبيهات المجازية والوصف البصرى والتعبير بالصورة والرمز والمحسوس والوجود التشكيلى للسرد.

فى نصوص هذه المجموعة نوع من الشبق الجنسى والابروتيكية يؤكد الجسد والايروس وهيمنته على هواجسها وتجربتها الوجودية والحياتية مع عالم الرجل والذكورة والفحولة .

فى النص القصصى أجنحة الشاطىء المهجور صورة مركبة من الغرائزالشبقة المفعمة. بالرغبة الحسية حيث لغة الجسد تتقن بناءها التشكيلى المكثف السريالى لتجسد تعقد عملية لقاء جنسى بين زوج ظامىء وزوجة باردة الإحساس فى بيت مهجور على شاطىء البحر بأمواجه الهادرة، حيث يحوم فى اجوائه الخفافيش ، وخلال الملامسة والاحتواء وبداية الممارسة البشعة حيث اللذة والألم يحاصرهما لزوجة جسد الخفافيش فبعد شهوة اللقاء تتدحرج اصابع زوجهاوتلتوى وتتوغل رويدا رويدا فى جسدها لكنها لا تشعر بها ولا تبدى اى انفعال» ومنار هنا تقترب برؤيتها وفنيتها بعض الاقتراب من كتاب الجنس الكبار ولكن بخصوصيتها المصرية، وبدايات تجربتها .

عن نورا أمين

حالات التعاطف هى المجموعة الثالثة لنورا أمين سبقتها بدايات واعدة تتميز بتحطيم التابو والحرام والمسكوت عنه فى علاقات المرأة بالمرأة خاصة فى مجموعتها الأولى جمل اعتراضية.

ان بعضا من قصص الكاتبة تتخلص من قيود الميراث المعرفى الذكورى ليؤسس بوعى وتلقائية ورهافة حس للغة جديدة للكتابة الأنثوية ، ويتوارى فى البنية القصصية لنصوص حالات التعاطف ما يمكن اعتباره أحداثا ووقائع وعلاقات وأنماط إنسانية بالمعنى التقليدى ويتم استبداله بنهج حداثى حيث الحدس مقابل المنطق والشعور مقابل الوعى والتركيب، مقابل التحليل.

وتقدم نصوصها غالبا على لسان الراوية.. المرأة المتمردة الغارقة فى نوع من الضياع والبوار والغربة والا تحقق لترنيمات الجسد الجائع، تقول الكاتبة بصراحة قاتمة «تنبهت إلى شوقك إلى طفولتك ورجولتك وشهوتك المحبوسة ، ارسم وبين انفاسى وهمك فى امرأة مأمولة فأنطق لك بالكلمات التى نودها انصب عنقا كالذى تريد وظهرا يتحملنا عصيا لايلين امرء اليك نشوتك وعنقك.. الخ.

وهى كاتبة لها خصوصيتها ومفرداتها الجمالية فى اكتشاف عالمها الوجودى الملتبث والملىء بالهواجس والرؤى والظنون، غير انها تفرط فى الانكفاء على ذاتها واحباطاتها وانكساراتها أمام الذكر الرجل كذلك هى منكفئة على جسدها وانوثتها المنتهكة هذا ربما يعطى انطباعا بمحدودية تجربتها الحياتية بعمق الحياة وشمولها.

عن أمينة زيدان

فى نصوص مجموعة امينة زيدان (حدث سرا) نجد الكلمة المعتنى بها مركز استقطاب لعلائق عديدة نفسية

ووجدانية واجتماعية وسياسية عن معنى الموت والفقدان وشهوة وشبق الجنس وجوع الجسد وانكسار الروح والحب والوهن وفقدان المعنى للمحاربين المتقاعدين لحرب اكتوبر ٧٣ يعوضون صناعم بالغرق فى الجسد وتذوق الفن، كل ذلك فى التحام حميم بجسد شخصية مدينة السويس كفعل قصصى حيث لا نهائية البحر وسطوة وحضور جبل عتاقة بجهامته، والبيوت القديمة المتآكلة المتساندة تضم فى جوفها البسطاء المغمورين من الصيادين والمهمشين يسعون فى دروبها المختنقة بالغبار والملح وقد جرحتهم ندوب وويلات الحروب والتى عمدت المدينة بالدم، كل ذلك يدفعنا فى بحث دلالتها الى التنقل من الكلمةالى ما يتجاوزها الى العبارة ومحاولة التقاط هذا العالم النسبى الواقعى والعينى والوهمى والمتخيل فى الصورة. المجاز التى هى بدورها عالم كامل من الاشعاعات . وقراءة امينة زيدان، تشعرك بأن فى النص كما فى الإنسان فائضا للقراءة الأصح هى التى تعيد اعتياده.

عن حنان سعيد وأمطار تموز

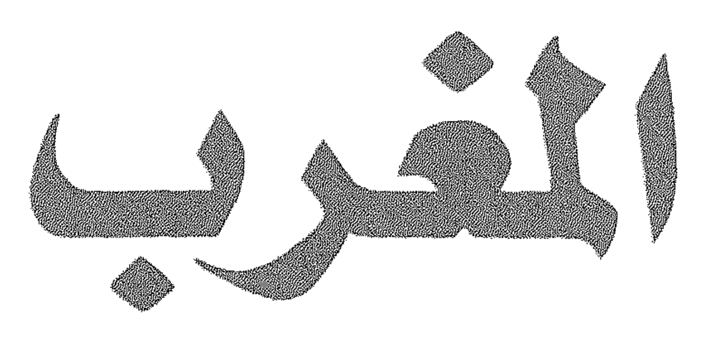
نجد فى قصص حنان سعيد تنويعات على لحن تفجر العلاقات بين الرجل والمرأة فى قصة حقائب زوجان لا يلتقيان الا على فراق. وتجسد الكاتبة غياب العلاقة بينهما فى حديث الحقائب.. حيث الزوج دائما على سفر والزوجة دائما تعود الى منزل ابيها.. والحقائب هى المعادل الموضوعى لمعنى عدم التواصل.

وفى قصة متقنة البناء وطازجة فى فكرتها (خصلات الشعر) ترصد الكاتبة بمهارة وشاعرية علاقة حب تنمو بين كوافير وفتاة يصفف شعرها.. هذا الكوافير الفنان يتعامل مع المرأة والفتيات من خلال شعرهن. فالشعر فى رأيه وجه المرأة الخلفى وتعترف الفتاة وكنت استريح اليه وأشعر أن شعرى قد خلق من أجل شطحاته).

إن الكاتبة فى رصد هذه العلاقة العاطفية تقدم معادلا موضوعيا هو حركة اصابع الكوافير في شعر الفتاة التى تشكل لغة هامسة شاعرية تنتهى بالاكتمال والتواصل والذوبان فى الحب الجميل البرىء بمعنى الامتلاء الحميم.

وأخيرا فقد حاولنا فى هذه القراءة المقارنة لكل من جيل السبعينات والتسعينات فى مجال القصة القصيرة المصرية أن نؤكد ونبرز أن المرأة المصرية العربية المعاصرة عضو فعال ونشيط من أجل تدعيم اسس وقيم المجتمع المدنى التعددى الحر الليبرالى الديمقراطى العقلانى فى عقده الاجتماعى وسط عالم يموج بالتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية.

لذلك يجب أن نستمع ونرحب بقصتها القصيرة الجديدة وبتمردها على قهر الرجل وقيم ورواسب المجتمع الشرقى مجتمع الحريم وإجباره على تغيير نظرته اليها. ■



بعيون فرنسية

بمناسبة مرور ١٧٠ عاما على رحيل ديلاكروا:

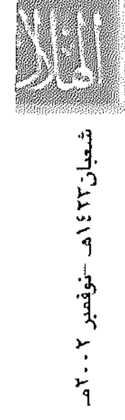
ماذا استوحى من بلاد البرتقال والورود والشمس والعيون الجميلة

بقلم
د. محمد المهدى

تميز أهل الرومانسية فيما كتبوه، أو صوروه باخلاصهم. قد لا يتفق مزاجنا الآن مع الروح الرومانسية، ولكن الحق يقتضى منا أن نسجل لهم الإعجاب بلحظات الإخلاص فيما سجلوه.

ومن الإصدارات المهمة لـ (معهد العالم العربى) فى باريس كتاب «ديلاكروا» الرحلة إلى المغرب (DELACROIX,LE,VOYAGEU,MAROC) بمناسبة إقامة معرض تحت نفس العنوان عام ١٩٩٥. استمر تقريبا ستة أشهر، وهى مدة رحلة (ديلاكروا) إلى المغرب من ٢٤ يناير عام ١٨٣٢ إلى يوليو من العام نفسه، أى أنه مر الآن ١٧٠ عاما على ذكريات هذه الرحلة.

غلاف كتاب ديلاكروا «الرحلة إلى المغرب » وعليه لوحة «بائع البرتقال»



يقع الكتاب فى ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير، والطباعة الفاخرة، مع ما يقرب من ٢٠٠٠ صورة بين لوحات زيتية، ومائية ، ورسوم أولية أو سريعة. تناولت فصول الكتاب (ديلاكروا والشرق) لـ موريس سيرلاز. و(الرحلة) لـ موريس أراما. و(أثر الرحلة على فتى ديلاكروا) للبروفيسير (لى جونسون) و(يوميات الرحلة) لـ أرليت سريان.

كتب المقدمة ابراهيم علوى، وكتب التمهيد الأديب المغربى الطاهر بن جلون.

ألف شيء جميل

أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر كانت عيونها تلمع فى الليل تحاول غزو الشاطىء الآخر. أو تتخابث فى النهار تحاول التسلل إلى القلوب اللينة. ووسط العيون الطامعة، والعيون الخبيثة ضاعت جهود البعض من أهل أوروبا ممن أحبوا شرقنا العربى، وسجلوا اعترافاتهم كتابة، أو رسما.

(ديلاكروا) كان يحمل عدته معه دائما: الأوراق، الأحبار، الأقلام، وعلبة ألوان مائية صغيرة، يسجل انطباعاته أولا بأول.

دعى عام ١٨٣٢ لزيارة المغرب العربى من قبل صديقه (شارل مورنيه) الذى عينه الامبراطور (لويس فيليب) قنصلا لفرنسا لدى مولاى عبد الرحمن حاكم المغرب.

وصل (ديلاكروا) إلى ساحل طنجة فى ٢٤ يناير عام ١٨٣٢. ثم زار مكناس، وعاد لطنجة. قضى ستة أشهر انتهت بزيارة مدينتى (وهران) و(الجزائر). اكتشف (ديلاكروا) الشرق. الضوء القوى، والألوان الصريحة. أخرج عدته منذ اللحظة الأولى وأخذ يسجل، رسم ستة (ألبومات) بين الخطوط الأولية بالحبر، أو الخطوط النهائية بالألوان المائية.. ضاع للأسف منها الكثير، ويقول فى رصد أعماله: إنها تغطى رحلته تقريبا يوما بيوم. يوميات الفنان بقيت حية فى ذاكرته، ففى أثناء الإقامة الجبرية الصحية فى (طولون) بعد العودة، رسم ثمانية عشر عملا مائيا، وأهداها لصديقه (شارل مورنيه) صاحب الفضل فى رحلة شحنته بالأضواء، والألوان، والتكوينات الخصبة.

سجل ديلاكروا أيضا انطباعاته عن المغرب تحريرا، وعلى طريقته الخاصة.

أرسل لصديقه (بيير) فى ٢٩ فبراير ١٨٣٢ رسالة يحدثه فيها عن سحر مغيب الشمس، حركة الناس فى الأسواق، بساطة العامة فى ملابسهم وتعاملهم، مع عجرفة القناصل، وأهل الغرب المتأنقين، وتأففهم وسط الناس.

وحينما كان قلمه يقصر عن متابعة الصور الحية الأخاذة فى خياله، كان يتوقف بين سطور الرسائل ليسجل بالرسم.. (انك لن تستطيع أن تصدق ما حصلت عليه ، لأنه أبعد بكثير عن الحقيقة. عن نبل الطبيعة) رسم (ديلاكروا) موضوعات عديدة





موكب إحدى الطرق الصوفية



«نساء الجزائر فى جناحهن» - اللوفر ١٨٣٢

«فرسان المغرب. المناظر الطبيعية . الناس فى الأسواق. الملابس، حرس السلطان كما يسميه. الوجوه المغربية. العيون الساحرة. الحياة الخاصة. الآثار القديمة. الآثار الإسلامية... (بلاد أشجار البرتقال الجميلة مغطاة بالورود، والفواكه، الشمس الجميلة.. العيون الجميلة ... وألف شيء آخر جميل).

انجازات المغرب

دهش (ديلاكروا) لنبالة مسلك وهيئة طبقات المجتمع المغربى، تخلص سريعا من تصنيفات مسبقة ظالمة شاعت فى أوروبا عن الشرق المتخلف. بدت له الشخصيات المغربية وكأنها خرجت لتوها حية من التاريخ القديم. كتب يقول (روما لم تعد فى موضع روما.. والقديم ما عادا فيه ماهو جميل. الألوان مرتعشة، والضوء المتفجر يحركها بعمق. ويدفع لحماس استخدامها كعنصر أساسى كون مسبقا على سطح الباليتة).

وعلى طول فترة اقامته فى المغرب كان (ديلاكروا) ينجز كل يوم مجموعة من رسومه الأولية بالقلم، أو بالألوان المائية مع تعليقات، كون هذا الإنجاز سبع مفكرات صغيرة بيعت مع بيع مرسمه. واحد منها الآن فى متحف (كونديه) فى شانتلى، واثنتان فى مكتبة الرسوم بمتحف (اللوفر) بباريس. والرابعة بيعت فى يونيو ١٩٨٣ فى مزاد (مونت كارلو)، وآلت بالشفعة لمتحف اللوفر. هذه الرسوم الأولية شكلت لـ (ديلاكروا) منبعا لا ينضب لمدة ثلاثين عاما قادمة من حياته.

وفى ذلك الوقت كان من الصعب جدا على الفنانين عمل دراسات عن المسلمين لولا دعوة نائب القنصل (فرانس جاك دى لابورت) لشخصيات محلية إلى القنصلية حتى تتاح لـ ديلاكروا مقابلتهم. وعلى العكس كان من السهل الحصول على شخصية يهودية ليرسمها. ومن بين الوجوه العديدة التى رسمها بورتريه لابنه ابراهيم بن شيمول المترجم اليهودى للبعثة. وقد أهديت مع ١٧ لوحة غيرها إلى الكونت (دى مورنيه) وبيعت بالمزاد العلنى بعد موت الكونت.

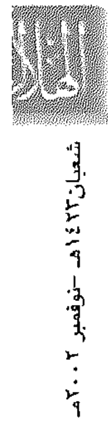
رحلة بعثة (ديلاكروا) فى مارس عام ١٨٣٢ إلى (مكناس) مع ١٢٠ فارسا و٣٠ جملا و٤٢ بغلا. وأتيح للفنان أن يرسم رسوما أولية للسطان (كما يسميه) . والذى أهدى بعد نجاح المفاوضات أسدا، ونمرا، ونعامة، وغزالين، وأربعة خيول للأمبراطور لويس فيليب.

رسم (ديلاكروا) مكناس رغم الظروف الصعبة، فقد كان ملاحقا من بعض من يهددونه. وكان يضطر أحيانا لقذف الحجارة، أو إطلاق الأعيرة النارية فى الهواء لمجرد الخروج إلى الشرفة.

على أن هذه الحوادث العابرة لم تذهب بمجمل تجربة كبيرة فكتب يقول :



فارس عربى يعطى الإشارة





الخطوط الأولية للوحة «تجمع مغربي»

لم أبدأ فى عمل شىء له أهمية إلا ابتداء من رحلتى إلى شمال أفريقيا.

وابتداء من اللحظة التى نسيت فيها التفاصيل الصغيرة. ولم أعد أتذكر فى لوحاتى إلا الجانب المثير والشاعرى. فحتى ذلك الوقت كنت مهتما بحب الدقة. تلك الدقة التى يعدها كثير من الناس الحقيقة بعينها).

هجرة شكسبير

رحلت بعثة (ديلاكروا) إلى الجزائر فى ٢٥ مارس ١٨٣٢. ويبدو أنه أثناء الأيام الثلاثة التى توقفوا فيها نجح فى زيارة حريم (الداى)، وأنجز لوحته الشهيرة (نساء الجزائر فى جناحهن) والمحفوظة فى (اللوفر)، تبدو النساء فيها مسترخيات غير مشغولات بعمل، يستعرضن مظاهر الإثارة فى جو شديد الملل.

هنا نتوقف مع (ديلاكروا) الأديب، وصاحب الموقف الفكرى والتشكيلى من القديم، جاءت رحلته إلى الجزائر كخاتمة لرحلته المشرقية، وبعدها تبلورت فى نظره التجربة. فبقدر هجرته التفاصيل الفاخرة على طريقة الفنان (دافيد)، سعى أيضا لهجرة التعبيرات الفاخرة على طريقة شكسبير.

كتب عام ١٨٣٣ يقول عن (جوته) فى (شخصياته مغالطات). أما أبطال (بيرون) فهى أشبه بالدمى لا جود لهم فى الحياة. وشخصيات شكبير (منتفخون متضخمون).







«تجمع مغربى » بعد التنفيذ بالألوان المائية مع بعض التعديل

ويسجل لـ (ديلاكروا) الكثير من الأعمال الأدبية، وإن اختفت أمام انجازاته الفنية، لقد شملت مراسلات عامة، وتقع فى خمسة أجزاء، ويومياته مكونة من ألف وخمسمائة صفحة. وتعد على حد قول (جوبان) عملا أساسيا فى الفن الفرنسى. وتقع فى ثلاثة أجزاء، ومقالاته أدبية تضم آراء فى الفن، وانطباعات، وتأملات. إلى جانب عدة أبحاث عن مشاهير الفنانين وتقع فى جزأين.

بالإضافة إلى عدة قصص ومسرحية، وقصائد شعرية. فضلا عن عدة دفاتر، وأبحاث، وخطابات مازالت مجرد مخطوطات.

ويمكن أن نجمل تجربة (ديلاكروا) فى ثلاث من كلماته:

- بلا جرأة، وبجرأة متطرفة.. لا يوجد جمال.
- إذا واليت الاعتناء بذهنك، لابد له أن ينجلى ذات يوم.
- من المؤسف أن الخبرة لا تأتى إلا عندما تذوب القوة.

ديلاكروا .. السلب والايجاب

أما عن السلب فى تجربة (ديلاكرو) فتحدثنا عنه الباحثة (رنا قبانى) فى كتابها (أساطير الغرب عن الشرق).. تأخذ على الاستشراق بشكل عام استغراقه فى تصوير عالم الحريم الشرقى بصورة مبالغة، وتأخذ لذلك مثلا من لوحة ديلاكروا



ملاحظات ورسوم من مكناس وطنجة

(موت سردانا بال) التى رسمها عام ١٩٢٧ أى قبل ذهابه إلى المغرب.

يصور فيها مخدع مستبد شرقى هو سردانا بال وهو يعانى سكرات الموت وعبيده من حوله يقومون بذبح محظياته وحريمه أمام عينيه لأنه لا يحق لهن العيش من بعده. ومع رنا قبانى الحق فى هذا النقد.

أما عن الايجاب فى تجربة ديلاكروا فيحدثنا عنه الناقد المعروف (هربرت ريد) فى كتابه (معنى الفن)، يقول عن صياغة الطبيعة التى سحرته فى الشرق كان التصوير مثل أى عنصر حيوى آخر بالنسبة له، وربما لم يوجد سوى (روبنز) من قبله، و(ماتيس) بعده اللذين استخدما التصوير بنفس الطريقة المباشرة، بمعنى أنهم استخدموا التصوير لا باعتباره وسيلة لنقل الفكر بطريقة واعية، وإنما باعتباره نشاطا غريزيا مصاحبا لنفس عملية الفكر وقد تبدو هذه التفرقة تفرقة ثابتة، ولكنها من الممكن أن تقارن بالتمايز القائم بين التركيب الشكلى، وبين الموسيقى. إذ نفترض أن العازف الذى يرتجل قد نظم نفسه أولا عن طريق التدريبات الشكلية المجهده، ويمكننا أن نكتفى تماما بالمتشابهات الموسيقية فى حالة ديلاكروا، لأنه كان عاشقا للموسيقى. وقد تحدث دائما عن لوحة ألوانه كما لو كانت سلما موسيقيا يؤلف عليه تناغماته، وهو يدين بالكثير لـ (كونستابل) بوصفه ملونا، ولكنه أمعن فى ذلك أكثر من (كونستابل)، كما أنه استخدم الأساليب التى استخدمها كونستابل فى

تحليل الطبيعة، استخدمها فى تكوين تركيب خيالى من إبداعه هو، وكان مغرما بقول أن الطبيعة ليست سوى قاموس.إننا نبحث فى الطبيعة عن النغم الصحيح، والشكل المعين تماما مثلما نبحث فى القاموس عن المعنى الصحيح لكلمة ما، ولكننا لا ننظر إلى القاموس باعتباره مؤلفا أدبيا مثاليا لابد من النقل عنه، ولم يعد من الواجب علينا أن ننظر إلى الطبيعة باعتبارها نموذجا لابد من النقل عنها، أن المصور يتوجه من أجل الإلهام إلى الطبيعة وما توحيه إليه من أفكار. وخاصة لكى يجد فكرته الرئيسية أو (القرار) الموسيقى لمؤلفه.

أما النغم الذى يشيده هو فوق القاعدة، فهو من صنع خياله وحده؟؟

فماذا كان نغم (ديلاكروا) التشكيلى الجمالى؟

كانت خطوته لقراءة الضوء والطبيعة، ووصوله إلى فكرة الخلق الخاص بالفنان مستقلا عن المرئيات فى صورتها المباشرة من نتاج احتكاكه بالشرق العربى. وهى خطوة اقتراب غير مقصودة من منطلق الحضارات العربية القديمة. ثم الحضارة العربية الإسلامية. وكانت هذه الخطوة هى مفتاح القراءة الجمالية الحديثة.

إصدار (معهد العالم العربى) فى باريس لكتاب (ديلاكروا .. الرحلة إلى المغرب). إنجاز علمى وفنى عظيم. نتمنى أن يستمر ليملأ ثغرات عديدة مهمة فى ثروة القرن التاسع عشر الفنية.. فقد كان قرنا ولا كل القرون. ■

نوبل ٢٠٠٢

إيميرى كيرتش

الهولوكوست.. يفوز بالجائزة

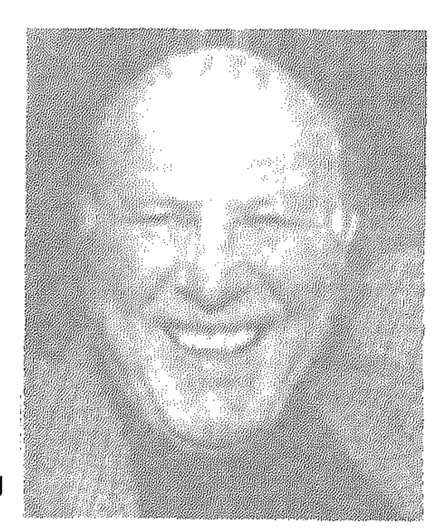
بقلم
محمود قاسم

فى بعض الأحيان تُمنح جائزة لنوبل فى الأدب لظاهرة ما أو مناسبة، أكثر مما تمنح لكاتب.
بالطبع لأن الكتب القليلة العدد، والقيمة التى ألفها المجرى إيميرى كيرتش لا تستحق أن تحصل على الجائزة، وإلا صارت الجائزة التى منحت لهذا الأدب تقديراً هامشياً لا يجب أن تنال هذا القدر من الاحترام، والترقب والانتظار..
الأرجح أن الذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب لعام ٢٠٠٢ هى معسكرات الاعتقال النازية التى يمر الآن ستون عاماً على انشائها، وهى لم تكن معسكراً واحداً، بل كانت أكثر من معسكر منها الاوسفتش والشواح، والبنشوالد، ولم تكن كلها لتجميع اليهود، بل إن عناصر كثيرة دخلت إليها، ولاقت ما لاقاه اليهود هناك .



ولعل ماحدث من جائزة نوبل هذا العام، يذكرنا بما حدث قبل عشر سنوات فى سنة ١٩٩٢، حين حصل الترندادى ديرك والكوت على الجائزة، ليس أبداً لقيمته، ترى أين هو الآن، لكن لأنه يمثل ثقافة منقرضة، كان سبب انقراضها مرورخمسة قرون على اكتشاف القارتين الأمريكيتين.

جائزة نوبل لعام ٢٠٠٢ منحت للأدب الذى تدور أحداثه فى هذه المعسكرات، كنوع من الاحتفاء، وتذكير الناس، بأن النازية اعتقلت أشخاصا مدنيين أبرياء، من جنسيات وعقائد عديدة على رأسهم اليهود، وأن الكثير



ايميرى كيرتش

ممن عاشوا هناك قد تفجرت فيهم موهبة الابداع، تبعا لما لا قوه، فكتبوا الروايات، واليوميات، والأفلام والمسرحيات التى ستظل تذكر الناس بما حدث فى هذه المعسكرات.

والدليل على ذلك ما صرح به كيرتش نفسه، أو ما كتب عنه عقب تلقيه خبر الفوز، انه ليس متدينا، وأن الأمر لا يهمه، وأنه ليس اليهودى التقليدى المعروف فى وسائل الاعلام، والابداع، لكن من الواضح انه كتب عن المعسكرات بواقع تجربته، فالكاتب الذى روى مثل هذه القصص لم يحقق أى شهرة، وكانت رواياته تقليدية للغاية قياسا إلى ما قرأنا من روايات عن نفس المعسكرات، ومنها «يوميات آن فرانك» التى ألفتها طفلة صغيرة فى الثانية عشرة، وماتت قبل اكتشافها، وهى اليوميات التى تم الاحتفاء بها فى الاعلام الغربى دوما، وأيضا رواية «هولوكوست» لداڤين جرين التى تحولت إلى مسلسل تليفزيونى أمريكى روج لنجاحه مثلما حدث مع كبريات المسلسلات ومنها «ديناستى» على سبيل المثال.

لنتبادل التهية

ولو أن جائزة نوبل أرادت أن تمنح نفسها حقيقة لكاتب مجرى موهوب، لذهبت بدون تردد إلى بيتر استرهازى الذى شارك كيرتش تأليف أحد كتبه - انظر موسوعة أدباء نهاية القرن العشرين لكاتب هذا المقال - فهو يستحقها عن جدارة، وهو صديق لكيرتش. ومقروء خارج المجر بقوة، بينما قيل فى الصحف الفرنسية على سبيل المثال عقب إعلان الجائزة، أن الطبعات المحدودة لروايات كيرتش قد نفدت، وأن هذا ساعد فى تهميش الكاتب.

لكن جائزة نوبل التى تحتفل بمرور ستين عاما على معسكرات الاعتقال على طريقتها، اختارت كاتبا أقل أهمية، ومغموراً كى تلقى الأضواء على هذه المعسكرات فى سنة الاحتفال بها، وفى وقت قلت فيه الكتابة عنها بشكل ملحوظ، وقد صار بيننا ستون عاما، رحل أغلب شهودها عن الدنيا، لكن الصغار الذين

كانوا هناك أمثال كيرتش قد بلغوا السبعين.

ذلك بالطبع لأن الأفلام والروايات المكتوبة عن هذه المعسكرات قد استنفدت أغراضها وصارت متكررة. بدليل أنه في الليلة التى استقبل فيها كيرتش نبأ حصوله على نوبل، كان قد استلم جائزة ألمانية تحمل اسم الكاتب هانس ساهل، وهو مفكر ألمانى ضد النازية منفى فى الولايات المتحدة، والذى بعث له يقول: «نحن آخر الأشخاص . فلنتبادل التحية..»

هناك الكثير من الروايات التى عن هذه المعسكرات كتبها أدباء غير يهود، ونالوا تقديراً وجوائز وتكريمات، مثلما فعل ويليام ستايرون فى روايته «اختيار صوفى» عام ١٩٧٨، ومثلما فعل الأسبانى خورخه سمبرون الذى كتب عن معسكرات البنشوالد..

وقد نشر فى وسائل الاعلام أن الكاتب كان محتجزاً فى معسكر الاوسفتش، وهذا غير صحيح، فالمعسكر الذى دخله وهو صبى صغير كان «شواح»، وهو المعسكر الذى أخرج عنه الأديب والسينمائى الفرنسى كلود لانزمان فيلما روائيا أقرب إلى الوثائقى عام ١٩٨٥ مدته سبع ساعات، رصدت له ابان عرضه حملة اعلامية ضخمة. إلا أن هناك مصادر أخرى تقول: إنه تنقل بين أكثر من معسكر.

يقول كيرتش، المولود فى بودابست عام ١٩٢٩، انه لا يكتب رواية إلا كلما تذكر المعسكرات وما كان يجرى فيها، وقد اختار الكاتب أن تدور أحداث رواياته فى الاوسفتش دونا عن غيرها.

لكن الغريب أن الكاتب قد نسى هذه الأحداث تماما لأكثر من ثلاثين عاما، باعتبار أن روايته الأولى «بلا مصير» قد نشرت عام ١٩٧٥، أى وهو فى السادسة والأربعين من العمر، إذن فهى رواية تنتمى إلى الحنين، حول صبى يعرف من الشارة الصفراء التى يعلقها على صدره أنه يهودى، وبسبب هذه الشارة قضى عاما بأكمله فى معسكر الاعتقال. وراح يتقدم الخطوة تلو الخطوة نحو دهاليز الألم أنه: «يتجول بنظرة طفل نحو الأحداث، دون أن يفهمها، ودون أن يراها شيئاً مألوفاً، أو فرداً».

قداس للطفل الذي لم يولد

والغريب أن الكتابة عند كيرتش كانت حالة من التذكر، أكثر منها ابداعاً حقيقياً، أو أن يكون لديه مشروع للكتابة، فالروايات الإحدى عشرة التى كتبها بين عامى ١٩٧٥ و١٩٩٨ ليست سوى رواية واحدة تعاد كتابتها بتفاصيل مختلفة، هناك تقريبا نفس الأشخاص، يعيشون فى أماكن متشابهة، وقد اختلفت الأسماء من رواية إلى أخرى. وقد أدهشت هذه الوتيرة الواحدة النقاد الذين يتابعون هذا النوع من الأدب، وتساءلت الناقدة كلير دفاريو: ولماذا لم يختاروا بريمو ليفى؟

بريمو ليفى كاتب إيطالى يهودى أكثر موهبة، لكن القدر لم يمهله حتى يبلغ الهولوكست سن الستين. أما كيرتش فقد أعلن دوما أن ضعف نصوصه قد جعل الكثير من الناشرين يرفضونها، وهو أمر من النادر أن يحدث فى أوروبا خصوصا بالنسبة للأعمال المكتوبة عن هذه المعسكرات، لذا تأخر التعرف عليه خارج بلاده إلى عام

١٩٨٩، حين انتقل للعيش فى ألمانيا، ومنها إلى فرنسا، لكنه ظل محدود القراء. حتى وإن كتب عن معسكرات الاعتقال.

وقد اعترف الكاتب لجريدة ليبراسيون الفرنسية (١٥ يناير ١٩٩٨) انه اختار الشكل الروائى بدلا من السيرة الذاتية، لأنه فى الرواية يوجد تخيل، ويمكن للكاتب أن ينوع صياغاته. أما السيرة الذاتية فتكتب فى العادة مرة واحدة.

وفى هذه الروايات ، ومنها «الفشل» عام ١٩٨٨، و«قداس للطفل الذى لم يولد بعد» عام ١٩٩٠، و«شخص آخر» ١٩٩٧، و«لحة صمت» ١٩٩٨، فإن كيرتش الذى يصير عجوزاً كلما مر الزمن، يحس أن المسافة تبتعد بينه وبين المعسكرات، والصبى الصغير الذى كان هناك، ومن أجل أن يقرب الزمن، فانه يصطنع حواراً بين الطرفين: العجوز والصبى. وغالبا ما يدور الحوار عما شهدته المجر خلال هذه السنوات، من الشيوعية إلى انحسارها، والرأسمالية التى صارت عليها المجر الآن، وقد بدا الحوار بين العجوز والصبى بالغ الوضوح فى الثلاثية التى دارت أحداثها فى المعسكر النازى: «اسمعنى جيداً فإن ما يبدو لى غير عقلانى، وما ليس له تفسير ليس هو الشر، بل على العكس: الخير».

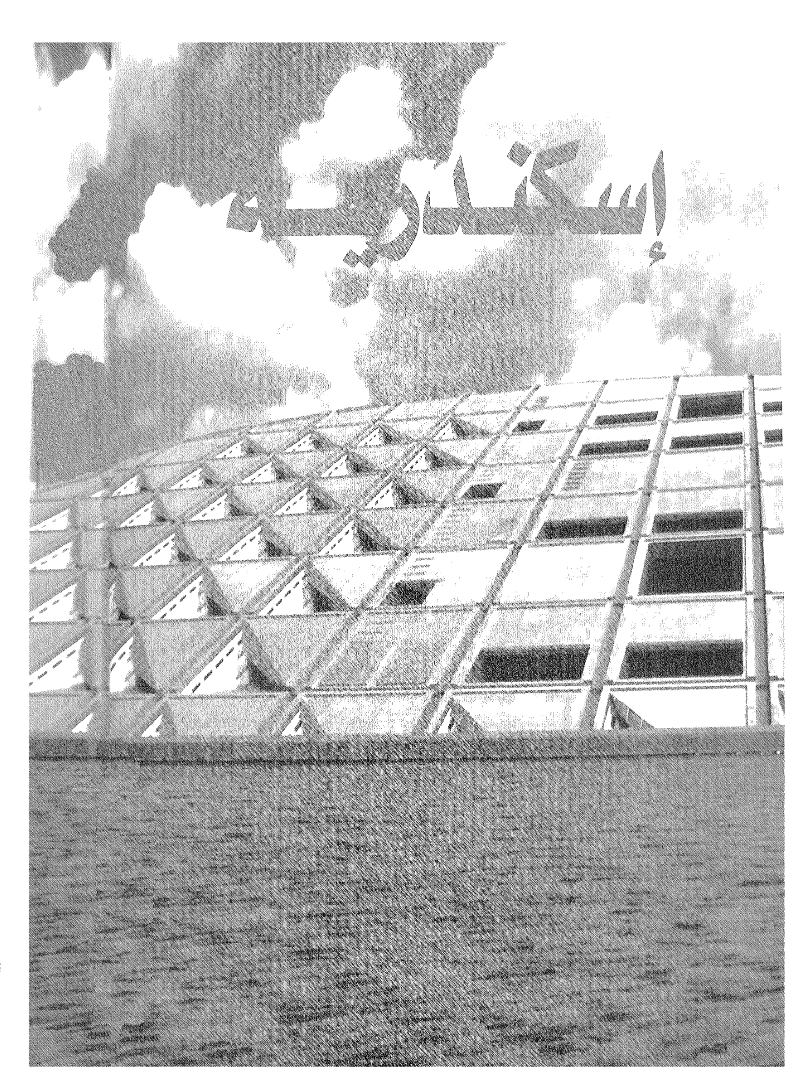
بدت مدينة بودابست غامضة وغريبة عندما عاد إليها كيرتش وهو السادسة عشر، أى عام ١٩٤٥، قرر فى البداية أن يعمل فى الصحافة، فكتب المقال إلى العديد من الصحف قبل أن يتخرج فى الجامعة ثم يذهب إلى التجنيد. وعاد مرة أخرى إلى الصحافة ليعمل بها فترة طويلة فى أعمال غير الكتابة.

والمعروف عن كيرتش انه انطوائى، ليست له صداقات فى الوسط الأدبى، كما أنه لم يقترن بامرأة، بغية العزلة، وعن تجربته يقول: «وأنا فى سن الخامسة والعشرين قررت أن أصير كاتبا لكن لم يكن لدى أدنى مشروع، وكانت تجربتى الكبرى تنحصر فى قراءة البير كامى. كان مجهولا بالنسبة لى عندما تصفحت رواية (الغريب) فى إحدى المكتبات، شدنى العنوان الذى كان يعنى بالمجرية «المختلف» وأحسست أن هذا الكتاب كُتب من أجلى. لم أكن أقرأ الأدب المجرى المعاصر. فهو أشبه بالعدوى. كان يجب أن أبحث عن لغز، وأن أخلق لنفسى عالمى الأدبى، فعشت فى عالم ليست الكلمة فيه حقيقة، وكان يجب أن أبقى على مسافة منها.

الفلسفة تفسد الإبداع

وعندما أراد اميرى كيرتش أن يترجم كتابات بعض الكتاب والفلاسفة إلى المجرية، فانه اختار أقرانه من اليهود، ومنهم إلياس كانيتى (نوبل ١٩٨١)، وفيليب روث، وفرويد، وشنتزلر، عجوز وصبى، هما نفس الشخص، بالاضافة إلى نيتشه، وغيره، وهذا يفسر لجوء الكاتب إلى أن يجعل بعض رواياته بمثابة حوار من أجل أن يتسنى له أن يضع فلسفته الخاصة، أو الفلسفة التى ينتهجها لنفسه، أو تعجبه بين ضفاف الحوار، وهو أمر قد يفيد الابداع أحيانا، لكنه يحوله إلى حوارات فلسفية فى أحيان كثيرة. ■

إسكندرية



شعر : سليم الرافعى

اسكندرية .. فى ذراك نزلت بعد تبحر
أغريتنى بالفجر حين مشيت بين الأعصر
الروم فى شرخ الشباب من الحجى المتفجر
بيت لسقراط الحكيم مكرم فى المهجر
نزلوا على الحقل الخصيب من الغمام الممطر
وفد الفلاسفة الكبار الغائبين الحضر
وأكاد أسمعهم وأحسب أننى فى محضر
أشجار تاريخ تفوح من الذكاء الأخضر
فوق الغصون رأيت (افلوطين) ملء المئزر
والفتية الأقحاح طلاب النهى من مصدر
ماذا يقول العقل عقل مدينة الإسكندر؟
هذا التراب المستنير هو التراب العبقرى
أحسنت للأمم التى تبنى .. ولم تتنكرى
ياغابة بيضاء ! هل نوديت عش الأنسر ؟
ما الفن الا الروح .. والتاريخ فن العسكر
يتألق الرومان بين هياكل فى مظهر
وهم البناة الصاعدون على الثرى المتحجر
نظموا الممالك والشرائع بالدهاء القيصرى
إن الخلود بمعول مثل الخلود بأسطر
أمشى من الإبداع بين روائع لم تقهر
الغرب يخلد بيننا .. والشرق غير مخير
اسكندرية بحرها فى الفكر بحر الجوهر



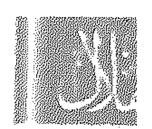
معارك البشرية بالأفكار وليس بالسلاح

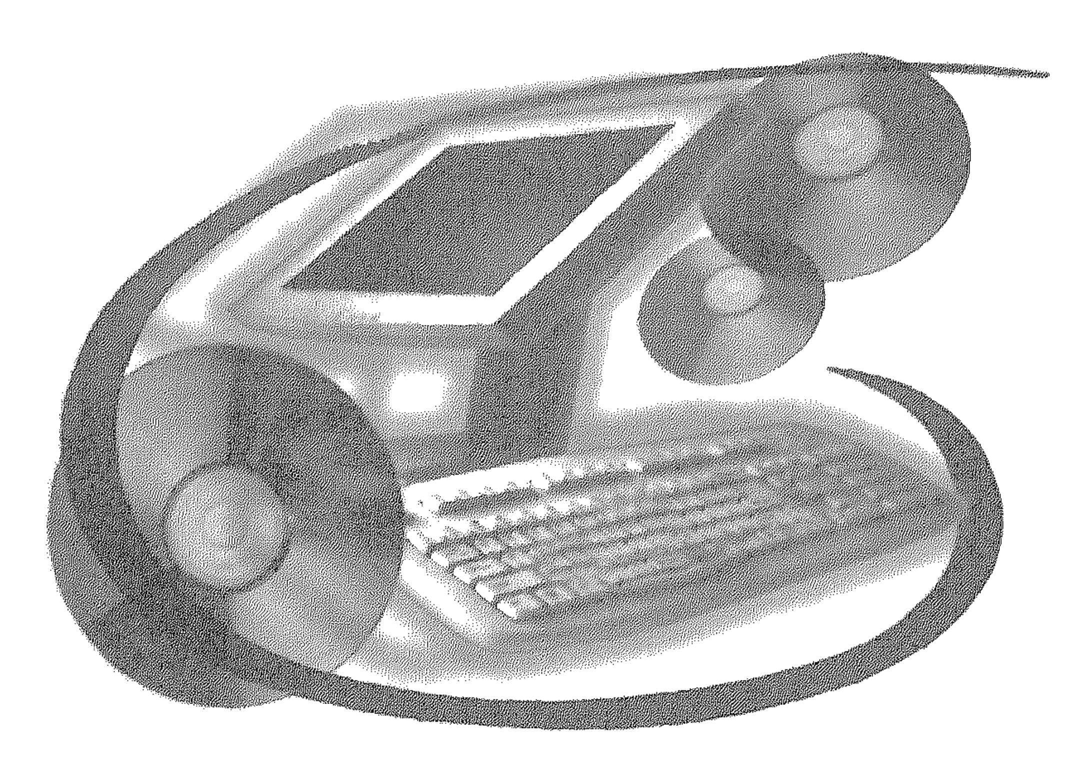
بقلم
د.أحمد محمد صالح

منذ حوالى ٢٦ عاما يعنى ربع قرن ويزيد، فى خريف عام ١٩٧٦، تحدى دكتور كينيث بودينج مجموعة العلماء فى جامعة ولاية آيوا بالتصريح الاستفزازي التالى:

«عوامل الإنتاج لم تعد هى الأرض، والعمل، والرأسمال. وإن عوامل الإنتاج هى مبادرات الأعمال الحرة، وهى تتكون من المعلومات والإبداع. وهكذا فإن عوامل الإنتاج فى عصر الاقتصاد الجديد هى المعلومات والإبداع «Information and creativi-ty». واختلف معه مجموعة العلماء، وبعضهم اختلف معه بقوة! ويعتقد أن دكتور بودينج وهو الاقتصادى العالمى، كان يعطى تصريحات جريئة، لجذب ردود فعل جمهور الحضور! ولكنه بالطبع كان جادا فى تصريحه!

وأخذ يثبت بالدلائل والأرقام والأمثلة لحالات عالمية على صحة مقولته، ووصل به الأمر إلى إثبات أن المعلومات نفسها لم تعد عاملاً محدداً لمعادلة الإنتاج، وأن الأفكار المبتكرة، والمستحدثات التكنولوچية أصبحت هى عامل الانتاج! وسنتناول اليوم موضوع الأفكار الجديدة، والمستحدثات التكنولوچية.





إن المعارك الكبرى التى خاضتها البشرية لم يكن سلاحها السيف بل الأفكار تغلغلت فى حياة الناس، وظهرت فى صورة تطوير اجتماعى ، فالتغيرات التى تحدثها الأفكار المستحدثة فى سلوكيات الناس لا تحتمل الشك، والأفكار العظيمة تملأ الفضاء حولنا، ولكنها لاتستقر إلا فى العقول المهيأة لاستقبالها، واستقبالها للأفكار الجديدة ليس عملا عفوياً أو طارئاً وإن كان يظهر كذلك أحياناً، فطبيعة الفكرة هى فى ذاتها عامل أساسى من العوامل التى تحدد موقفنا حيالها. والمشكلة دائماً هى إعادة التفكير فى الأفكار التى نؤمن بها من قبل لأنه لايوجد شىء جديد تحت الشمس.

ودائماً العقول العظيمة تناقش الأفكار، والعقول العادية تناقش الأحداث، فى حين أن العقول الضيقة هى التى تناقش أفعال الناس. ومن أعظم الآلام التى تعانى منها الطبيعة البشرية هى آلام خروج الأفكار الجديدة التى تعنى دائماً التغيير.

والفكرة الجديدة أو المستحدثة هى أى شىء يدركه الفرد على أنه جديد بمعنى أنه يسمع عنه لأول مرة وليست العبرة بوقت اكتشاف الفكرة أو الخبرة، إنما العبرة بإدراك الفرد لها عند سماعه عنها، فكلما كانت الفكرة والخبرة تبدو جديدة فى نظر المستمع أو الذى يراها لأول مرة فإنها تعد شيئاً مستحدثاً بالنسبة له، سواء كانت تلك فكرة تتناول مضمونا اجتماعيا أو اقتصادياً أو سياسياً أو ثقافياً أو تكنولوجياً ... الخ.

موجات التغيير التكنولوجى

والعالم مر بعدة موجات متتالية ومتعاقبة من المستحدثات الإبداعية التكنولوجية التى أحدثت تغييرا عميقاً! واتفق الاقتصاديون على وجود موجات طويلة «من التغيير أو دورات كوندراتيفية Kondratieff ، وتدوم الدورة الواحدة حوالى نصف قرن ! وهذه الموجات لها فترات كساد متعاقبة وفترات تحسن ونمو ونضج، تعتمد على تنمية وتطوير وانتشار المستحدثات الإبداعية التكنولوجية. وتبدو تلك الموجات فى المراحل المبكرة أنها ذات اتجاه صاعد، ويقوده بشكل كبير علم الإلكترونيات الدقيقة وشبكات الحاسوب.

وأول هذه الموجات كانت فى الفترة بين عام ١٧٨٠ حتى عام ١٨٤٠ ثمانينات القرن الثامن عشر حتى أربعينيات القرن التاسع عشر) وهى الموجة الأولى المبكرة

من التغيير التكنولوچى، وكان ملمحها الأساسى هو الثورة الصناعية، وتنحصر وسائل اتصالاتها فى الطرق البرية والقنوات المائية، ومصدر الطاقة المميز لتلك الفترة كانت الطاقة المائية ، والعامل المحدد لتلك الموجة كان القطن، زراعة وتجارة وصناعة .

ثانى موجة تغيير تكنولوچى مر بها العالم ، كانت فى الفترة بين عام ١٨٤٠ حتى عام ١٨٩٠ أربعينيات القرن التاسع عشر حتى تسعينيات نفس القرن) وكان ملمحها الرئيسى هو طاقة البخار والسكك الحديدية ، وانحصرت وسائل اتصالها فى التلغراف والسكك الحديدية ، ومصدر طاقتها كانت قوة البخار ، وكان العامل المحدد فى هذه الموجة هو صناعة الحديد والفحم.

موجة التغيير التكنولوچى الثالثة التى مر بها العالم ، هى الفترة بين عام ١٨٩٠ حتى عام ١٩٤٠ (من تسعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين) وكان ملمحها الحديد والصلب والكهرباء ، ووسائل اتصالها كانت التليفون والسكك الحديدية المصنوعة من الصلب ، ومصدر طاقتها كانت الكهرباء، والعامل المحدد فى تلك الفترة كان صناعة الصلب.

موجة التغيير التكنولوچى الرابعة، هى الفترة بين عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٩٠ (أربعينيات القرن العشرين حتى تسعينيات القرن نفسه)، وملمحها الأساسى كان الإنتاج الضخم الشامل، وانحصرت وسائل اتصالها فى الطرق السريعة والراديو والتليفزيون، وشركات طيران ، ومصدر طاقتها المميز كان البترول، والعامل المحدد فى تلك الفترة صناعة النفط والبلاستيك.

موجة التغيير التكنولوچى الخامسة هى الفترة بين ١٩٩٠ وحتى الآن (منذ تسعينيات القرن العشرين وحتى الفترة التى نعيشها فى بدايات القرن الحادى والعشرين، وهى موجة مستمرة من التغيير لحين إشعار تكنولوچى جديد فى المستقبل) هذه الفترة تميزت بملمح رئيسى هو الإليكترونيات الدقيقة وشبكات الكمبيوتر Micro-electronics & computer net-works ، وسيلة اتصالها الرئيسية حتى الآن هى الشبكات الرقمية، ومصدر طاقتها المميز حتى الآن هو النفط والغاز، والعامل المحدد فى تلك الموجة التى نعيشها الآن هى صناعة الإلكترونيات الدقيقة. والله أعلم بما يحمله لنا مستقبل الإبداعات التكنولوچية فى الخمسين سنة القادمة !

الاختراع والابتكار

منذ البداية المبكرة لحياة البشر على الكرة الأرضية، تشكل عالمنا بسلسلة طويلة من الإبداعات التقنية أو المستحدثات التكنولوچية، مثل :النار العجلة، الزراعة، الآلة البخارية، الكهرباء، السيارة، الحاسوب، الإنترنت. ودخلت الكثير من الطاقات التى يستعملها الإنسان لتطوير هذه التقنيات، التى تكون الحضارة التى نعيشها الآن. وخلقت هذه الإبداعات التقنية الكثير من الثروة – أحياناً للمخترع، وأحياناً للمبتكر – وهو الشخص الذى يأخذ الفكرة ويجعلها ناجحة تجارية – لكن فى الغالب للمستعملين، والمجتمع ككل.

وجاء مصطلح Innovation وهو المستحدث أو المبتكر على يد عالم الاقتصاد النمساوى، شومبيتر Schumpeter وهو يعنى المنتجات الجديدة، العمليات والإجراءات والمعالجات الجديدة، نماذج البزنيس الجديدة. ويجب ملاحظة الفرق بين مصطلح الاختراع Invention وهو خلق الأفكار والمفاهيم الجديدة ، وبين مصطلح Inno-vation وهو الإبتكار أو الإبداع الذى يأخذ تلك الأفكار والمفاهيم التى اخترعت ويجعلها

صالحة للتطبيق والممارسة، ويجعلها أيضاً ناجحة تجاريا. ونركز فى تلك العجالة على المبتكرات أو المستحدثات التكنولوجية Technological innovation ، والبعض يسميها الإبداعات التقنية، مع استثناء إبداعات الفن والأزياء..

أنماط المستحدثات التكنولوجية

وحتى فترة قريبة، كانت طريقة نشأة وتشكيل المستحدثات أو الإبداعات التقنية وطريقة انتشارها خلال اقتصاد معين يعتبر لغزا محيراً للعلماء. لكن فى الـ ٢٠ - ٣٠ سنة الأخيرة ، بدأت دراسة المستحدثات على قاعدة منهجية منظمة، ومعرفتنا بكيفية نشأة وانتشار المستحدثات زادت وقفزت بسرعة فائقة . ومعظم هذه المعرفة لم تصل إلى عامة الناس. وتقدمت فى هذا المجال إلى النقطة التى ميزت العديد من الأنماط التى تفسر تلك العملية، وبدأت تفهم بعض القضايا الهيكلية التحتية التى تحرك عملية نشأة وانتشار المستحدثات ، ويحاول هذا المقال أن يغطى المفاهيم الأساسية لتلك العملية . فيمكن أن تصنف انماط المستحدثات التكنولوجية إلى ثلاثة أنماط رئيسية:

١ - مستحدثات تدريجية أو تزايدية.

٢ - مستحدثات جذرية وراديكالية .

٣ - مستحدثات تكنولوجيات الأغراض العامة. فالمستحدثات تأتى فى العديد من الأشكال والحجوم، والتصنيف الثلاثى المذكور ينظر إلى المستحدثات كأصناف صغيرة متوسطة كبيرة. فالمستحدثات التدريجية التزايد تحدث تحسينات وإصلاحات صغيرة ربما لاتتعدى ١-٢٪ فى السنة . وتوصف عملية انتشارها وتبنيها بمنحنى التعلم، وبمصطلحات مثل التعلم بالعمل. مثل عمليات تطوير وتنمية قدرات الصناعات الكيماوية، ومثال آخر هى تطور قانون مور، فالتحسينات والتطورات فى تلك الأمثلة مستمرة، وهى تمثل إحدى المناطق القليلة التى يمكن أن تتوقع لها التحسينات المستقبلية باطمئنان . النوع الثانى من المستحدثات الإبداعية وهى الجذرية أو الراديكالية وهى التى تحدث وضعية جديدة تماماً حيث تصل تقنية جديدة كليا وتزيح تماماً التقنية القديمة، مثل الترانزستور الذى استبدل بالأنبوب المفرغ، والقرص المضغوط الذى أزاح سجلات الألعاب الطويلة، هذه التغييرات والتحسينات متقطعة وغير مستمرة، وكثيراً ماتسبب هذه التكنولوچيات الجذرية الكثير من التغييرات فى القيادات الصناعية! والنوع الثالث هو تكنولوچيات الأغراض العامة، وهو الاسم الذى سك وصيغ لوصف المستحدثات الإبداعية الكبيرة جداً مثل النار ، والسواقى أو عجل المياه، وطاقة البخار، وطاقة الكهرباء، ومحركات الاحتراق الداخلى ، والسكك الحديدية ، والإنترنت .... الخ . وهذه المستحدثات الإبداعية الكبيرة لها أربع خصائص تميزها: إحداث تأثيرات وإسهامات واسعة وعميقة ، لها مدى واسع من الاستعمالات أو تملك تشكيلة واسعة من الاستعمالات ، وإمكانيات وطاقات استعمالها تظهر فى مجموعة واسعة ومتنوعة من المنتجات والعمليات والمعالجات، وأخيراً تعتمد بقوة على التكامل مع تكنولوچيات أخرى عديدة.

وتطور ونمو المستحدثات الإبداعية له حدود يصل إليها ، فالمستحدثات الجذرية الراديكالية يأخذ تطورها على مر الزمن شكل منحنى على شكل حرف S حيث يصل تطور تلك التكنولوچيات لحد معين، وهناك طرق كثيرة لقياس التطور فى أداء تلك التكنولوچيات مثل قياس كفاءة وتكلفة فرن معين، أو قياس كفاءة وقود السيارة، وقياس مدى دقة صاروخ مثلا، وأيضاً ممكن قياس مدى راحة واستفادة المستعمل لتلك التكنولوچيا المستحدثة، ومن أهم الخصائص الرئيسية لهذا المنحنى أنه

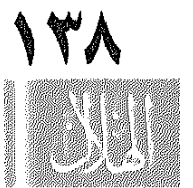
يمر بثلاث مراحل : المرحلة المبكرة وفيها يوصف أداء المستحدث بالضعف فى أول الأمر، وتفشل عملية استبدالها بشكل دائم بدلاً عن التقنيات القائمة، وهى تمثل مرحلة مهمة ومغزوية فى المنحنى حيث تحل فيها ببطء جميع مشاكل التقنية المستحدثة، وبالكاد يتحسن اداؤها تدريجيا، وفى تلك المرحلة يستخف عادة من تلك التقنيات ويقلل من شأنها من قبل التقنيات المنافسة! وفى المرحلة المتوسطة للمنحنى تحل فيها مشاكل التقنية الجديدة ، وتبدأ الزبائن فى تقبل انجازات تلك التقنية بشكل نهائى، وتبدأ أيضاً فى الانطلاق بشكل واسع بمساعدة خصائص منحنى التعلم.

وفى المرحلة الثالثة من المنحنى يصل المستحدث الإبداعى إلى حده الأعلى من التطور والانتشار، وتستنزف فى تلك المرحلة كل دروب تحسين الاداء ، ولا يمكن إضافة أى تحسينات ممكنة!

وإذا ركزنا فى المرحلة المبكرة من المنحنى سوف نلاحظ : العديد من التقنيات المستحدثة المتنافسة، والتى تسلك طرقا صعبة ومختلفة ، وهى فى حيرة وعدم استقرار حول من سيربح على المدى الطويل، ففى المراحل المبكرة فى تطوير صناعة السيارات كان هناك ٧٥ منتجا جديداً من السيارات فى الولايات المتحدة الأمريكية، مابين سيارات بخارية وسيارات كهربائية! وكان التقدم بطىء فى إيجاد حلول مميزة لمشاكل تلك التقنيات المستحدثة، وكثرت شكوك المنتجين المؤسسين، على سبيل المثال رفض المنتجين الأمريكيين للإطار الخارجى للعجلة طية داخلية من نوع راديال، حتى اقتحمت تلك الطية السوق بواسطة صناع السيارات أنفسهم! فالتكنولوچيات الجذرية تأتى كثيراً من خارج الإطار العام السائد، وغالباً من شركات تجارية صغيرة! فـ ٧٠٪ من المستحدثات الإبداعية الجذرية تأتى من خارج إطار الصناعة.

والمرحلة المتوسطة فى المنحنى تتميز بعدة خصائص منها: فترة النمو السريع للتقنية الجديدة، وفيها تحل أغلب مشاكلها! وفى هذه الفترة تظهر التقنية فى تصميم مهيمن على السوق ويعتبر أكثر تصميمات تلك التقنية نجاحاً، ويستحوذ غالباً على حصة الاسهم، ويختاره السوق كأفضل تقنيات معروضة، فعندما دخلت شركة IBM سوق أجهزة الكمبيوتر الشخصية PC أصبح تصميمها هو المهيمن على السوق، فهم نجحوا فى تجميع أفضل العناصر، من شاشة تليفزيونية ، ومحرك قياسى للأقراص، ورقاقة انتيل فى اللوحة الأم للجهاز، ولوحة مفاتيح مناسبة، وماوس مايكروسوفت، ونظام تشغيل دوس dos ، كان وقتها يمثل ثورة ضخمة، وهندسة معمارية للبرامج حرصوا أن تكون مفتوحة تتقبل كل الإبداعات والإضافات، كلها عوامل جعلت تصميمهم يسيطر على السوق! خاصة بعد أن نجحت IBM فى جلب أصول مالية محترمة متعددة إلى منضدة السوق، وأمثلة أخرى مثل نجاح نظام تشغيل النوافذ Windows ، والجسم الفولاذى الخارجى للسيارة، والطائرة دى سى ٣ Dc3 ، كلها تصميمات هيمنت على السوق. وبعد أن يظهر هذا التصميم المهيمن تتجه كل المنافسات نحو تحسين وتطوير هذا التصميم المهيمن، وينخفض عدد اللاعبين فى السوق فى أغلب الأحوال بشكل مثير، فمثلا، ظهر فى عام ١٩٢٣ الجسم المغلق الفولاذى للسيارات، وكان هناك فى تلك السنة حوالى ٧٥ مجهزاً لتلك التقنية، فى السنتين التاليتين هبط بنسبة الثلث، نفس الموضوع حدث فى صناعة الحاسبات، وشاهد اليوم مايحدث فى شركات التقنية العالية الدقة، حيث اتهمت مايكروسوفت بأنها قضت على الكثير من المنافسين لها!

وفى المرحلة الأخيرة من المنحنى تصبح



التقنيات الجديدة فى حالة تمام النضج، حيث اكتشفت كل طرق تحسينها وتطويرها، وتصل التقنية إلى ذروة حدودها، وتتباطأ التحسينات فيها لدرجة الزحف. ومن أهم خصائص تلك المرحلة أن المنتجات تصبح سلعة تتنافس مع سعرها منتجات أخرى، حيث تنتقل وجه المنافسة من اداء التقنية إلى سعرها! وهنا تصبح المنتجات قياسية، وتصبح الكلفة عاملاً محدداً فى شراء المنتج وأساساً لقاعدة التنافس. وتقول الدراسات ان ٨٠٪ من قرار المشترين يستند على السعر! ويطبق عليها هنا قانون الغلة المتناقصة، حيث لايمكن للبحث العلمى وعمليات تنمية المستحدث أن تحسن اداءه فى تلك المرحلة، فهو وصل لحدوده الطبيعية، وتظهر البشائر الأولى لمنافس جديد، وغالباً هذا المستحدث الجديد المنافس للتقنية السائدة فى السوق غالباً مايكون مادة للسخرية من قبل اللاعبين الرئيسيين للتقنية الحالية، ويعتقدون أن أداءها أقل كثير من اداء تقنيتهم الحالية.

والمنتج مرتبط بعملية الإبداع والابتكار، لكن ليس كل منتج جديد على أن يتبع نفس النمط فى عملية الإبداع، ولكنه يزود بصيرة المنافسة فى الصناعة، ويضيف لاستراتيجيات العمل، فعندما تظهر تقنية جديدة، تصاحبها كمية كبيرة من محاولات تجريب المنتجات الجديدة الناتجة عن تلك التقنية، ففى الفترة المبكرة فى صناعة السيارات، كانت هناك سيارات بخار، وسيارات كهربائية، وكل أنواع العروض، فى تلك المرحلة لايعير أحد اهتماما إذا كان المنتج الجديد مجنوناً أو منخفض الإبداع. وبينما يقرر السوق أى المنتجات تفضل، نجد معدلات إبداع المنتج تتباطأ، وتظهر تصميمات قياسية، وواحد من تلك التصميمات يهيمن على السوق، وعند هذه النقطة تصبح عملية التطوير مهمة للغاية، وتصبح الكلفة وحجم التقنية أكثر مرئية، كما حدث فى ظهور نموذج السيارة فورد ذاتية الحركة، فهناك موجات من التغيير التكنولوجى تتم فى عملية ثابتة تتسم بالتعاقب والتتالى المستمر فى السوق، وتميل موجات انتشار المستحدثات إلى المرور بفترات استقرار وتعزيز. وعندما تكتسح تقنية جذرية الصناعة، فهى تلغى واحداً أو أكثر من التقنينات الحالية! وتصبح مشكلة استراتيجيات الشركات وقتها هو كيفية الانتقال إلى التقنية الجديدة، وتكون وقتها أهم أسباب فشل الشركات هو عدم قدرتها على الانتقال للتقنية الجديدة. وتبدأ كل تقنية جديدة بأداء دون المستوى، وتتحسن معدلات الأداء تدريجيا وتتسارع فى النهاية لتصل معدلات الأداء إلى التفوق فى النهاية. ويأخذ دورته ويستبدل فى النهاية بالتقنية الموجودة وهكذا. عموماً اداء أى تقنية جديدة يتحسن تدريجياً مع المستعملين. وأحياناً قدوم تقنية تكنولوچية جديدة يحفز وينشط الاستجابات المنافسة! وتبذل جهود جبارة، يقودها اليأس من عدم القدرة على مواجهة التقنية الجديدة . فتتمكن التقنية الحالية من تحسين أدائها، وتتجاوز حدودها الطبيعية فى تحسين الأداء ، على سبيل المثال، فى الخمسين سنة بعد تقديم السفن البخارية، أجرى على المراكب الشراعية تحسينات وتطوير أكثر بما حدث لها فى الـ ٣٠٠ سنة السابقة لظهور السفينة البخارية! لكن هذه الجهود منكوبة ومدانة دائماً! لأن التقنية الجديدة عادة تملك طاقات وإمكانيات لتحسين الأداء أكثر بكثير من التقنية السائدة، وقد تنجح هذه الجهود الجبارة فى تأجيل انقراض واختفاء التقنية الحالية لفترة ما، ولكنها تفشل فى النهاية، حيث ينتصر التغيير! وأحداث مشابه حدثت فى مشروع الجينوم الممول من الحكومات أمام منافسة مشروع الجينات البشرية الممول من القطاع الخاص.

وفى كل تلك الموجات يظهر الدور المتغير للمعرفة المتراكمة، الذى يمكن أن

نفهمه بشكل واضح من قبل حالة الماكينة البخارية والترانزستور. فالماكينة البخارية طورت بسلسلة اختبارات تجريبية قامت على التجربة والخطأ، وبينما جيمس وات كان الفرد الذى وضع اللمسات الأخيرة فى الماكينة البخارية وجعلها ناجحة بشكل تجارى، فإن هناك العديد من الآخرين الذين ساهموا قبله منذ سنوات. فنظرية عمل المكائن البخارية جاءت بعد العديد من السنوات ، كان فيها التطوير قائم على التجارب تماماً. وهناك قصة تطوير الترانزستور التى حلت بشكل رائع من قبل ريتشارد نيلسن، وهى قصة مختلفة، فقد اخترع الترانزستور فى مختبرات هاتف بيل فى عام ١٩٤٦. ومثل الماكينة البخارية، كان تطوير الترانزستور انطلق من قاعدة المعرفة التى كانت قد طورت من قبل من خلال عدة أجيال من العلماء فى ذلك المختبر.

وأى مستحدث يستلزم وجود نظم تساعد على نجاحه، وهناك العديد من اللاعبين يشتركون فى نجاح أى تقنية مستحدثة مفردة، واللاعبين هم المخترع، وشخص يمول علمية تطوير المستحدث، قد يكون شركة، أو رأسمال مغامر، وهناك أيضاً المزودون والمجهزون لتلك التقنية للسوق، والزبائن المستعملين لتلك التقنية، وهناك أيضاً المنظمون، والمحامون، ووكلاء براءات الاختراع، وأفراد مدربون جيداً على استعمالها وصيانتها، ومحاسبون، وبورصة سوق الأوراق المالية، ورجال الأعمال أو المبتكرون الأوائل الذين أول من يتبنى التقنية الجديدة للسوق، الخ كلهم لاعبون فى عملية نجاح أو عرقلة المستحدث. مثال واحد فى دور الحكومة فى عرقلة مستحدث، كحالة النزاع بين الحكومة الأمريكية مع اليابان ضد ظاهرة إغراق السوق بالحواسب العملاقة! حيث اشتكت شركة كراى الأمريكية من منعها من بيع حواسبها فى اليابان، لأن الحكومة لم ترغب فى أن تنتج شركة NEC اليابانية من بيع حواسبها العملاقة المتفوقة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وظهرت النتيجة فى دراسة للبيت الأبيض بأن علماء المناخ ومتوقعى الطقس الأمريكيين كانوا سيئون جداً وسببوا اضراراً بالمقارنة بنظائرهم الأوربيين لمدة ٣-٥ سنوات، نتيجة عدم استطاعة الأمريكان الوصول والدخول على حواسيب NEC اليابانية المتفوقة.



تبني المستحدثات

وبعد تلك البانوراما السريعة للدورة الاقتصادية للمستحدثات التكنولوچية من حيث النشأة والتكوين والتطور، يستدعى اكتمال الصورة، تناول عملية انتشار وتبني تلك المستحدثات Diffusion and adoption ، فالمستحدثات تميل إلى آن يتم تبنيها وانتشارها من خلال نمط منتظم جداً. لكن الأحداث العشوائية المبكرة التى حدثت فى تطور المستحدثات، أصبحت مغلقة إلى الأبد ولا تتبع هذا النمط، مثل : ترتيب لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة، اتجاه دورات عقارب الساعة، عدد الساعات التى يتكون منها اليوم الواحد ٢٤ ساعة، قياس زاوية الدائرة ٣٦٠ درجة.

وعملية الانتشار Diffusion of Innovation هى عملية خروج المستحدثات من مصادرها إلى أكبر عدد من المستهدفين، وعملية الاقتناع والتبنى للأفكار المستحدثة Adoption of Innovation هى العملية العقلية التى يمر بها الفرد من لحظة سماعه عن المستحدث لأول مرة حتى مرحلة الرفض أو الاقتناع والتبنى عمليتان مرتبطتان ومتداخلتان، إلا أن عملية الانتشار ذات طبيعة جماهيرية تتم على مستوى التنظيم الاجتماعى، بينما

عملية التبنى تتم على مستوى الفرد، وتعتمد العمليتان على قواعد وشروط عملية الاتصال. وتتكون عملية نشر المستحدثات الجديدة: من أربعة عناصر أساسية هى :المستحدث، قنوات الاتصال، الزمن، النظام الاجتماعى. وتعتمد عملية الانتشار على وسائل الاتصال الجماهيرية: مثل الراديو التليفزيون الصحف المجلات .... الخ فى توفير المعلومات العامة عن المستحدث، فى حين أن المصادر الشخصية (الأعضاء الآخرين، والأقارب، الأصدقاء والجيران) وظيفتها تساعد فى عملية اتخاذ القرار بالقبول أو الرفض.

وعملية التبنى أو اتخاذ القرار حول قبول أو رفض المستحدث، ولغرض الملاحظة تتكون عادة من خمس مراحل:

١ - مرحلة الوعى والتنبيه والإدراك وفيها يتعرض الفرد للأفكار الجديدة من وسائل الإعلام المختلفة ، ولكن تنقصه الدراية والمعلومات الكاملة عنها.

٢ - مرحلة الاهتمام يصبح فيها الفرد على درجة من الاهتمام بالمستحدث بحيث يبدأ فى البحث عن معلومات عنه تشبع عنده حاجات حب الاستطلاع والمعرفة.

٣ - مرحلة التقييم وفيها يقوم الفرد بالتطبيق الذهنى والعقلى للمستحدث على موقفه الحاضر والمستقبلى، ومن ثم يقرر ما إذا كان ينوى تجربة الفكرة المستحدثة أم لا.

٤ - مرحلة التجريب أو المحاولة وفيها يستخدم المستحدث على نطاق ضيق ويقرر مدى فائدتها بالنسبة لموقفه.

٥ - مرحلة التبنى بالقبول أو الرفض وفيها يقرر قبول المستحدث أو الاستمرار فى القبول أو رفض المستحدث.

والفكرة المستحدثة قد ترفض فى أى مرحلة ، والتوقف عن قبول الفكرة المستحدثة هو قرار بالامتناع عن القبول بعد الإيمان بالفكرة المستحدثة وممارستها. وعموماً فإن أى قرار يتخذه الفرد بشأن الفكرة أو الخبرة الجديدة سواء بالقبول أو الرفض سوف يتوقف على :

أولا : خصائص الفرد الشخصية مثل العمر والتعليم والدخل والمعلومات، وسماته النفسية والاجتماعية مثل اتجاهاته ودوافعه ومكانته الاجتماعية ودرجة مشاركته الاجتماعية وانفتاحه على العالم، وسلوكه الاتصالي.

ثانياً : خصائص النظام الاجتماعى: من العادات والأنماط السلوكية المعتادة وأهداف وقيم ومعايير الأفراد ودرجة تقدمية المجتمع وإمكانية الانحراف على السلوك المعتاد.

ثالثاً : خصائص الفكرة المستحدثة نفسها، وهى :

١ - الميزة النسبية للفكرة سواء اقتصادية أو اجتماعية، وهى مدى أفضلية الفكرة الجديدة على الأفكار الأخرى التى جاءت لتحل مكانها . والأزمات المفاجأة قد تؤكد الميزة النسبية للفكرة وتؤثر فى معدل انتشارها، أو قد تعوق لازمة المفاجئة هذا المعدل.

٢ - درجة تمشى الفكرة المستحدثة مع القيم الاجتماعية .

٣ - درجة تمشى الفكرة مع نظم المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

٤ - درجة تمشى الفكرة المستحدثة مع ماسبقها من أفكار.

٥ - درجة تمشى الفكرة المستحدثة مع احتياجات الفرد.

٦ - مدى تعقد الفكرة المستحدثة أو

تشابكها وصعوبتها على الفهم.
٧ - إمكانية التجربة على نطاق ضيق..
٨ - إمكانية التجزئة.
٩ - إمكانية المشاهدة.
١٠ - القابلية للانتقال.

وعند ظهور أى فكرة مستحدثة أو خبرة جديدة، لايقوم كل أفراد المجتمع بتبنيها فى وقت واحد، ولكن عادة ماتبدأ أقلية منهم فى قبولها وتطبيقها، ثم تأخذ الفكرة أو الخبرة الجديدة بعد ذلك فى الانتشار بين بقية أفراد المجتمع على مر من الزمن.

وقد تأخذ الفكرة أو الخبرة الجديدة وقتا يطول أو يقصر حتى تنتشر بين جميع الأفراد، ويتوقف ذلك على طبيعة الفكرة المستحدثة، والنظام الاجتماعى السائد وغير ذلك من العوامل السابقة.

ويعد هؤلاء الأفراد الذين يقومون بتطبيق الفكرة المستحدثة عند ظهورها أكثر تقدمية من غيرهم، فدرجة التقدمية إذن هى درجة ميل الأفراد فى نظام اجتماعى معين لقبول وتبنى الأفكار والخبرات المستحدثة عند ظهورها.

وبينت الدراسات التى اهتمت بموضوع نشر وتبنى المستحدثات أن وسائل الإعلام الجماهيرية والمصادر الخارجية (الصادرة من خارج التنظيم الاجتماعى) تكون على أكبر درجة من الأهمية فى مرحلة الإدراك والوعى والاهتمام بالفكرة المستحدثة، فى حين أن وسائل الاتصال الشخصية ومصادر المعلومات المحلية (الصادرة من داخل التنظيم الاجتماعى) تكون مهمة فى مرحلة تقييم الأفكار المستحدثة .

وإذا كانت فترة التبنى هى الفترة اللازمة للفرد لكى يمر فى عملية التبنى متنقلا من مرحلة الإدراك إلى مرحلة قبول الفكرة المستحدثة، فقد أوضحت الدراسات العلمية أن الإدراك يتم بمعدل أسرع من معدل التبنى أو إقرار القبول والرفض. والنقص فى المعلومات المتعلقة بالأفكار المستحدثة من شأنها أن تؤخر تبنى الناس لها ، والمسافة الزمنية الواقعة بين مرحلة الإدراك والتجريب أطول دائماً من المسافة الزمنية بين التجريب والتبنى.

ورغم الأهمية الكبيرة لوسائل الإعلام، إلا أن التأثير الشخصى ووسائل الاتصال شبه شخصية مثل (التليفزيون والإنترنت) لها فعالية أكبر فى مجال التغلب على مقاومة التغير التى تعوق التأثير السريع لوسائل الإعلام الجماهيرية مثل عمليات التعرض الانتقالى والإدراك الانتقالى والحفظ الانتقالى. والمعايير الاجتماعية السائدة فى التنظيم الاجتماعى لها دور محورى فى درجة القابلية لتبنى المستحدثات الجديدة حيث تكون أسرع فى التنظيم الاجتماعى الذى تسود فيه معايير تشجع على ذلك.

المستقبل

والآن بعد هذه العجالة السريعة عن موجات التغيير التكنولوچى التى يمر بها العالم، ماذا عن الخمسين سنة القادمة بعد ثورة الجينات، وثورة الإنترنت، ماهى موجة التغيير التكنولوچى القادمة؟.

من المؤكد هناك قادم تكنولوچى جديد سيحدث تغييره المعتاد فى العالم ، فدروس التاريخ تقول ان الأزمات الاقتصادية التى يمر بها العالم منذ سنوات تحفز بيئة الإبداع! فالدوائر المدمجة فى السبعينيات ، وتطوير المعالجات الدقيقة والكمبيوتر الشخصى فى الثمانينات، وتطبيقات الإنترنت فى التسعينيات . والتاريخ يقول لنا أيضاً أن الصدمات الطارئة والأزمات التاريخية تحفز موجة الإبداعات فى العالم ، فأحداث

مثل : الحرب العالمية الثانية ، الحرب الباردة ، اطلاق الأقمار الصناعية، حرب فيتنام ، الحظر البترولي، الزلزال، وأحداث دراماتيكية مثل الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر، يمكن أن تحفز اقتصاديات إقليمية إلى مرحلة جديدة ! فالحاسبات، والاتصالات الرقمية، والإنترنت، والتقنيات البيئية، وتقنيات الأمن الجديدة، كلها نشأت وانتشرت متأثرة من تحفيز صدمات وأزمات العالم! والموجات القادمة من الإبداعات المستحدثة، والتى تحدث الآن، هى عادة تحدث فى نقط مجالات التغيير الاقتصادى، فالعالم يتطلع الآن إلى تعميق تطبيقات تقنيات تكنولوچيات المعلومات والاتصال فى كل من الاقتصاد والمجتمع ، فينتقل بعد المرحلة الأولى من الإنترنت نحو الإنترنت النقالة Mobile Internet ، وأدوات الإنتاج المعدلة والجديدة، وتطبيقات جديدة لتقنيات الاتصالات والمعلومات فى مجالات التعليم، والحكومة، والمجتمع. ويتوقع تقدم رئيسى فى التقنيات الحيوية، وأن تتلاقى وتدمج بتقنيات المعلومات والاتصالات فتخلق فرص جديدة فى الحقول التكنولوچية الصاعدة مثل: Biochips , biomaterials ، وهى تحمل معها تتجير النانو تكنولوچيا ، Nanotechnology ، بمعنى تحويل تطبيقات النانو تكنولوچيا إلى صورتها التجارية، والتى ستحدث ثورة جديدة فى صناعة رقائق الحاسوب، هذه الموجات المقبلة للتغيير التكنولوچى ستعجل بالمنافسة الاقتصادية فى العالم ، وخاصة بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية!

لكن ماذا عن منطقتنا العربية بعد خمسين عاماً. ببساطة شديدة المنطقة العربية بعد خمسين عاماً لن يتغير فيها شىء يذكر لأنها تعيش فى سجن الماضى، ومن يتمسك ويعيش فى الماضى ليس له مستقبل! فالمنطقة العربية بعد خمسين عاماً وهى فترة قصيرة فى حياة الشعوب ستصبح أحوالها كما هى الآن، سنجد نفس الأسماء والعائلات والمؤسسات التى تحكم كما هى، نفس الأفكار الجامدة، نفس المنظومة التى تحكم سلوكيات المجتمع حكاماً ومحكومين ، نفس البيانات الرسمية والإعلانات الإعلامية التى تبشر بالرخاء وعودة القدس عام ٢٣٠٠، سنجد نفس رجال الأعمال الذين ينهبون المال العام من البنوك مستمر بعد خمسين عاماً ، وسوف تأخذ مشاكل المنطقة الاقتصادية عمقاً اجتماعياً ، وسوف تتكرر نفس معارك وقضايا الإرهاب والفتنة الطائفية وحقوق المرأة ، والحجاب ، وحرية التعبير ، وستتكرر نفس المطالب بالديمقراطية، وإلغاء قوانين الطوارىء. والشفافية، والعجيب سنجد نفس رؤساء الأحزاب بعد خمسين عاماً ينتظرون ويتكلمون عن مستقبل الأحزاب المصرية ، وسنجد أيضاً نفس أعضاء مجلس الشعب المصرى سيد قراره فى نفس أماكنهم وأصبحوا أكثر شباباً، ونفس أصحاب الأعمدة الصحفية، وإسرائيل أيضاً ستكون موجودة بعد خمسين عاماً، والانتفاضة مستمرة أيضاً، وبيانات الشجب والغضب مستمرة أيضاً من الدول العربية ، وسنجد من يقول عام ٢٠٥٠ إن الفلوس التى وعد بها العرب فى مؤتمر القمة الأخير عام ٢٠٠٠ لدعم الانتفاضة لم تصل حتى الآن !! وسوف نقرأ فى الصحف تمنيات عن سوق عربية مشتركة فى الألفية الرابعة إن شاء الله، بصراحة شديدة الوطن والمنطقة العربية بعد خمسين عاماً هو نفس الوطن الذى كان منذ مائة عام.. لا جديد؟! ■



ذكريات صحفية

رحلة فى أحراش جنوب السودان

بقلم
د. صلاح عبد اللطيف

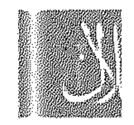
من خلال واحدة من رحلاتى لزيارة جنوب السودان ضمن وفد سياسى مصرى بدعوة من «جوزيف لاجو» الذى كان يشغل منصب النائب الثانى للرئيس السودانى الأسبق جعفر نميرى ، شاهدت عادات وتقاليد خاصة لأهل الجنوب ، والصراع من أجل وقف العمل فى قناة جونجلى حيث اعتبروا أن القناة مشروع لفائدة المصريين والسودانيين فى الشمال وليس لفائدتهم .

نقلتنا طائرة عسكرية من طراز C 130 إلى مدينة «واو» بأعالى النيل أمضينا فيها يومين ، وتم الترحيب بالوفد المصرى بذبح العجول مع دق الطبول والرقص المستمر طوال الزيارة من قبل الجنوبيين ، وتقتضى التقاليد الجنوبية بأن تذبح هذه العجول أمام الوفد الزائر الذى عليه أن يتخطى هذه العجول كما يفعل نائب رئيس الجمهورية وكبار المسئولين ، وتوجه الوفد إلى استراحة خاصة هى عبارة عن منزل من دورين به قاعة فسيحة تحيط به الأشجار وعرفنا أن هذا هو مقر نائب الرئيس . ففى عام ١٩٨٣ قدمت القوات المصرية المسلحة دعما لأبناء الجنوب تمثل فى إقامة كوبرى على نهر السوباط ، وإنشاء مستشفى عسكرى فى «جوبا» ، وجرت وقتها اتصالات بين السيد «جوزيف لاجو» والمشير «عبدالحليم أبوغزالة» وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة حول تقديم هذه المساعدات ، وكان من الواضح أن علاقة صداقة نشأت بين «جوزيف لاجو» والمشير «أبوغزالة» حيث وجد له دعوة لزيارة الجنوب لكن الزيارة لم تتم ربما لإنشغال المشير «أبوغزالة» فتحولت الدعوة إلى وفد مصرى يضم السفير الراحل «أحمد عزت عبداللطيف» الذى كان سفيرا لمصر فى الخرطوم وقتها والملحق العسكرى المصرى بالخرطوم وأنا .

وكانت زيارة مثيرة استغرقت عدة أيام وبدأت فى ١٣ يناير ١٩٨٣ .

لفت نظرنا من بين الوفد المرافق للسيد «جوزيف لاجو» شخصية جنوبية محاطة بالاهتمام وهو رجل طويل القامة







كانت الندوات والمؤتمرات السياسية والاحتفالات القبلية تقام تحت أشجار التيك المعمرة

قوى البنية يرتدى نظارة سوداء ، أحد كتفيه عار وظهرت عليه رسومات منحوتة بعناية على جسده ، محاطا بمجموعة من الحراس الأشداء ، من بينهم واحد على يمينه والآخر على يساره كلاهما عارى الصدر والكتف وعلى أجسادهم رسوم منحوتة وكل واحد يحمل فى يده حربة وعلى استعداد للدفاع عن هذا الرجل المهم فى أى وقت . ولاحظنا أن أحد الحراس الذى يقف وراء هذه الشخصية الجنوبية المهمة يحمل فى يده آنية من الفضة ملفوفة فى قطعة من القماش ، وعرفنا أن هذه الآنية هى عبارة عن «مبصقة» خاصة للرجل المهم ، إذا كح أو عطس أو أراد أن يبصق يسرع إليه الحارس بهذه الآنية التى يحملها ليبصق فيها الرجل المهم .

عرفنا أن هذا الرجل هو زعيم قبيلة «الشيلوك» التى تعيش فى أقليم أعالى النيل وهذا هو ملك القبيلة ويسمى (الملك) وله سلطة مقدسة على القبيلة وهى سلطة روحية وسياسية وقضائية لم يكن يتحدث مع أحد من الوفد المصرى وإنما حديثه كان مع السيد «جوزيف لاجو» ، وكان يبدو عليه أنه لا علاقة له بالقضايا السياسية التى تشغل السودانيين أو القضايا العامة الأخرى مثل قضية الشرق الأوسط ، أو قضايا السودان وإنما يشغله الأوضاع فى قبيلته والدعم المادى الذى يحصل عليه من الحكومة والذى كان هو محور الحديث مع

السيد «لاجو» .

وملك «الشـــيلوك» رغم أنه سلطان القبيلة ويملك كل شيء إلا أنه مهدد بالموت في كل وقت ، ولذا فإن له حراسة مشددة ، أما ذلك الذي يحمل «المبصقة» فهي لمنع السحر عنه ، فأي أثر منه قد يستخدمه أعداؤه في عمليات السحر ضده ، لذلك فله الحق في أن يقتل من يعاديه ويشيع في القبيلة أن ثعبانا قد لدغه .. أما من هم أعداؤه فهم عادة من نفس القبيلة ومن أخوته الذين ينافسونه في الوصول إلى قمة السلطة فإذا ما حدث عليه انقلاب بأن تعرض للقتل من قبل منافسيه فلا يبكى عليه أحد ، ويقام احتفال لمنافسه بتنصيبه ملكا على القبيلة أى أن التنافس على الوصول إلى منصب الملك في القبيلة مشروع والبقاء للأقوى.

وهناك شروط لمن يخلفه أو من له حق المنافسة فملك قبيلة «الشيلوك» يجب أن يكون ابن ملك ، وألا يكون «أشـــول» أي يستخدم يده اليسرى وأن يكون قوى البنية . ولم يحدث في تاريخ قبيلة «الشيلوك» أن تعرض أحد ملوكها لانقلاب عليه إلا مرة واحدة . ومن تقاليد القبيلة أيضا فيما يتعلق بملكها فإنه لايجب أن يمرض مرضا عضالا يمنعه عن ممارسة سلطاته ، وكأن الملك ليس من صفاته أن يمرض أو ينتابه الاعياء والضعف فإذا تعرض لمرض أفقده القدرة على الحركة وجعله عاجزا عن أداء عمله يتم الإجهاز عليه عن طريق أكبر سيدة مسنة في القبيلة حيث تقوم بخنقه حتى الموت في صمت ، ويعلن عن وفاته ليدفن في كوخ صغير دون اجراءات احتفالية بينما تجرى الاحتفالات لتنصيب الملك الجديد ، وبعد ستة أشهر يجرى له احتفال جنائزى كبير ويتم دفنه مرة أخرى في كوخ كبير .

والغريب أن الملك يعلم عند تنصيبه ملكا بهذا المصير ، ولذلك عليه أن يحتاط في كل تحركاته وأن يحافظ على قوته الجسدية وصحته ، وألا يمرض مرضا عضالا .

وملك «الشيلوك» يملك القبيلة كلها وله سلطات مطلقة ومعروف بتعدد زوجاته ، وإذا وقعت عيناه على أي امرأة أو فتاة ورغبها تضم إلى زوجاته حتى لو كانت متزوجة لذلك فإن نساء القرية يهربن عادة من الاحتفالات والمواكب التي يظهر فيها «الملك» خوفا من أن يستولي على واحدة منهن ويضمها إلى زوجاته، أما من ترغب في أن تكون إحدى زوجاته فلا تخفي نفسها فربما يقع عليها الاختيار .

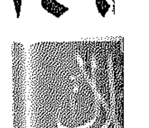
عادات وتقاليد

وللقبيلة عادات وتقاليد فأفرادها متعاونون ومتكاتفون ، ويشتهرون بتعدد الزوجات وتربية الأبقار ، والصغير يحترم الكبير والكبير يحنو على الصغار من أفراد القبيلة ، ويكون مسئولا عنهم ، ومن هذه التقاليد أنه إذا مات الأب فإن الابن الأكبر يرث زوجات أبيه ماعدا أمه وينجب منهن ويسمى الأبناء بأسماء أبيه أي أنهم يكونون بمثابة أخوته وإذا لم يكن له ابن فإن أخيه الأكبر هو الذي يرثه وذلك للحفاظ على ثروات القبيلة ومنعها من التفتت .

ولا يعتبر تأريث الزوجات زواجا ولكنه واجب عائلي على أكبر أفراد العائلة .

☆☆☆

أعطى «جوزيف لاجو» تعليماته بترتيب احتفالات اليوم التالي لزيارة الوفد المصري حيث كان علينا أن نتوجه بعد ذلك بالطائرة إلى «جوبا» عاصمة الإقليم





عندما يموت ملك الشيلوك يدفن في كوخ صغير وبعد ستة أشهر تقام له الاحتفالات الجنائزية، و يدفن مرة أخرى فى كوخ آكبر

الاستوائية .

فى اليوم التالى توجهنا بنفس الطائرة العسكرية إلى «جوبا» ، وعندما وصلنا المطار أجريت لنا نفس إجراءات الاستقبال من ذبح العجول ودق الطبول والرقص المستمر فذلك يعنى أن زائرا على مستوى كبير من الأهمية أو ضيفا عزيزا قد حل عليهم . توجهنا فى موكب من السيارات إلى استراحة الرئاسة وهناك تناولنا الافطار ثم قمنا بجولة فى المدينة وهى مدينة استوائية عامرة تبدو عليها القدم وبها جامعة جوبا ومكاتب للأمم المتحدة وبعض منظماتها مثل منظمة شئون اللاجئين واليونسيف وهى تمثل عاصمة الجنوب بها عدد من الكنائس وجمعيات تبشيرية تعنى بتعليم أبناء الجنوب وتدربهم على الزراعة والصناعة وارتداء الملابس الأوروبية ، وهناك أيضا مساجد وزوايا إسلامية ، وتتميز المدينة بالغابات المحيطة بها والأشجار الاستوائية المثمرة والفواكه مثل المانجو والعرديب (التمر هندى) والباباى و، وأشجار التيك والصندل وتكثر فى الغابات الحيوانات البرية مثل الأسد والنمر والفيل والخرتيت والحمار الوحشى والجاموس الوحشى وثعابين الأصلة التى يصطادونها بسهولة رغم ضخامتها ويحصلون منها على الجلد الذى يصنعون منه الحقائب والأحذية .

كان الجو والطبيعة ساحرين فرغم أننا كنا فى شهر يناير كان جو المنطقة استوائيا وتبلغ درجة الحرارة ٣٠ درجة



والسماء ملبدة بغيوم خفيفة يسقط منها رذاذ خفيف .

قبل أن نغادر «جوبا» حرص «جوزيف لاجو» على أن نزور موقع «قناة جونجلى» التى كان يجرى بها العمل ومع وجود عمليات عسكرية من قبل منظمات جنوبية عسكرية ترفض حفر القناة وتعتبرها تعديا على أراضى الجنوب وتغير طبيعة البيئة التى تقوم على المستنقعات والغابات والتى يتربى فيها الحيوانات البرية ويتكيف الجنوبيون معها ، ويعرفون كيف يتعاملون مع هذه الطبيعة بالصيد والزراعة ، وكانوا يعتقدون أن حفر القناة سيجلب عليهم المصاعب بظهور أراضٍ جديدة ومجتمعات جديدة لم يألفوها ولا يعرفون كيفية التعامل معها ، واعتبروا أن القناة مشروع لفائدة المصريين والسودانيين فى الشمال وليس لفائدتهم ، ولاحظت بالفعل أنه لم تحدث أى توعية للجنوبيين من قبل المصريين أو السودانيين الشماليين بفائدة حفر قناة جونجلى عليهم . وحكى لى مدير مكتب الكويت فى «جوبا» وقتها المرحوم عبدالله السريع الذى أصبح سفيرا لبلاده فى الخرطوم بعد ذلك أنه عند بداية حفر القناة تعرض المكتب لمظاهرة عنيفة من الجنوبيين احتجاجا على حفر القناة واعتقادا منهم أن مكتب الكويت هو مكتب تابع للسفارة المصرية .

كان المشروع ضخما يعمل فيه خبراء فرنسيون وساهمت مصر فيه بمبلغ ٩٠ مليون دولار بالتعاون مع دول أوروبية هى (فرنسا وبلجيكا) وهو عبارة عن حفر قناة طولها ٣٦٠ كيلومترا كان قد تم حفر ١٦٠ كيلومترا منها ، ويقوم بالحفر أضخم حفار فى العالم عمل مرة واحدة قبل أن يصل إلى الجنوب فى باكستان، واستغرق نقله إلى الجنوب عاما كاملا حيث قطعت أجزاؤه ونقلت بالبحر ، ثم أعيد تجميعها مرة أخرى عندما وصلت هذه الأجزاء إلى موقع العمل ، لكن الحركة الشعبية لتحرير السودان التى يتزعمها «جون جارانج» اعتدت على المشروع وقامت فى البداية بخطف اثنين من الخبراء الفرنسيين عام ١٩٨٤ ثم أفرجت عنهم ، وتوقف المشروع بعد ذلك تماما وبقى الحفار فى مكانه وأصبح الآن عبارة عن كتلة ضخمة من الحديد الصدىء .

☆☆☆

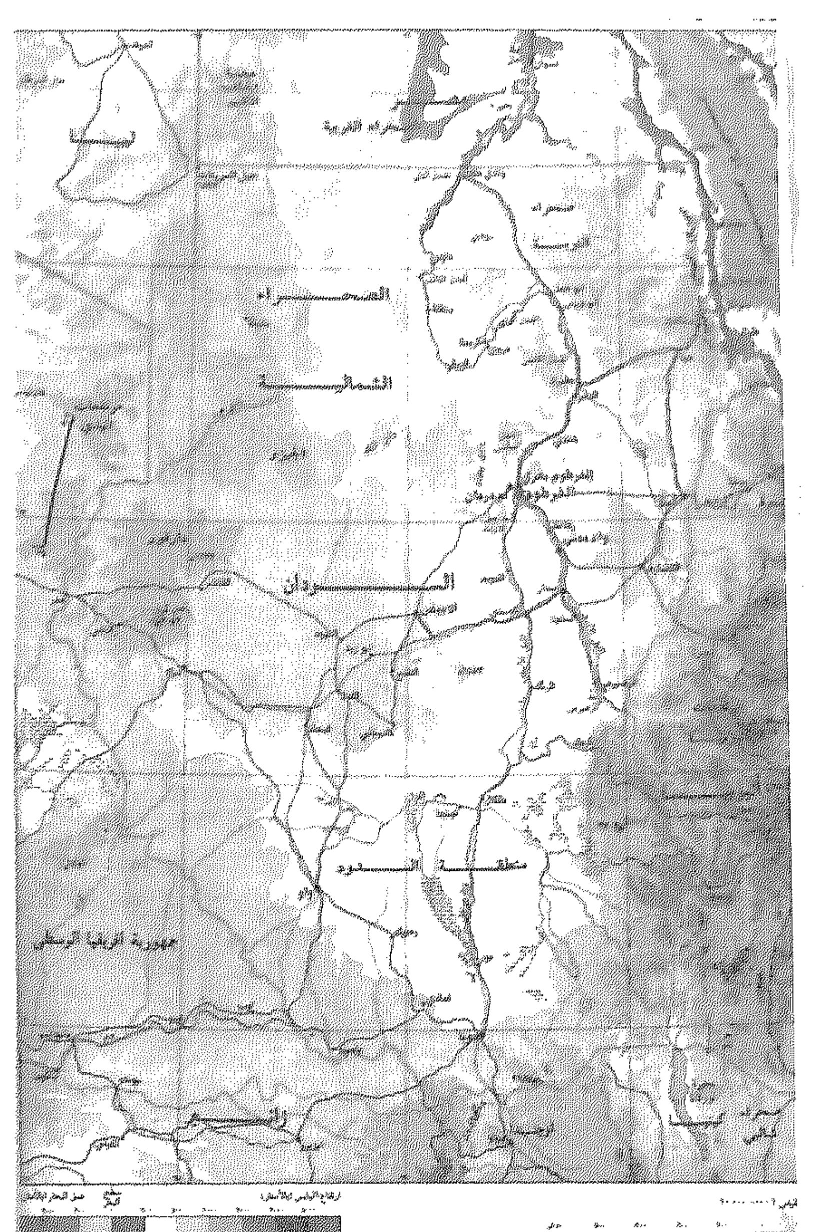
وكان علينا بعد أن أمضينا يوما فى «جوبا» أن نتوجه بالسيارات إلى مدينة «نيمولى» التى تقع على الحدود مع أوغندا وكنا ضيوفا على السيد «جوزيف لاجو» لأن هذه قريته التى حرص على أن نزورها ويحتفل بنا هناك ويرينا كرم ضيافة الجنوبيين ، وحبهم لأهل مصر. تبلغ المسافة بين «جوبا» و«نيمولى» نحو مائة كيلومتر وهى تقع شرقى مدينة «جوبا» على الحدود مع أوغندا التى يربط بينها وبين الأراضى السودانية كوبرى على النهر نصفه للأراضى السودانية والنصف الأخر للأراضى الأوغندية ، وفى المنطقة شلالات ومياه متدفقة وأشجار وغابات تعطى جوا ساحرا وخلابا للمنطقة كلها ، واصلنا رحلتنا بالسيارات فى طرق صخرية وجبلية شديدة الوعورة تحيط بنا الغابات والأكواخ وكان من السهل علينا أن نرى تلك الحيوانات البرية ترقد على جانبى الطرق فى وداعة مثل الفيلة والحمار الوحشى ومن بعيد ترى قطعانا من الجاموس الوحشى الخراتيت ذى

الجو الساحر في منطقة «نيمولى» حيث الشلالات والمياة المتدفقة بين الأشجار والغابات

القرن الواحد .. كان يرافقنا فى هذه السيارات وزراء جنوبيون مثل «صمويل أرو» ، وضباط عسكريون من الجيش السودانى ، فالزيارة فى حقيقتها عسكرية لتكريم رموز القوات المسلحة المصرية التى قدمت دعما للجنوب تمثل فى انشاء كوبرى على نهر السوباط وإقامة مستشفى عسكرى متنقل .

كانت السيارة تتوقف عند كل قرية تمر بها، وكان علينا أن نهبط من السيارات ونستمع إلى «جوزيف لاجو» وهو يشرح لنا طبيعة المنطقة وذكرياته العسكرية عندما كان قائدا لحركة «الأنيا - أنيا» عام ١٩٦٤ ، كان سعيدا بوجوده فى هذه المناطق ، يقفز فوق الصخور ويحمل عصا يشير بها إلى المواقع العسكرية التى قادها فى هذه المناطق .

وصلنا إلى قرية تقترب من «نيمولى» .. وقد أعد بفناء مدرستها الابتدائية مهرجانا شعبيا ، كان علينا أن نحضر هذا المهرجان ونستمع إلى خطاب من السيد «جوزيف لاجو» .. الذى قدم الوفد المصرى



لجمهور الحاضرين من أبناء الجنوب الذين وفدوا إلى المكان من القرى المجاورة .. في هذا الخطاب تحدث «لاجو» بلهجة عربية مكسرة وهي اللهجة العربية التي يتحدث بها أبناء الجنوب إضافة إلى لغاتهم المحلية حيث يوجد ١٢ لهجة في الجنوب موزعة على القبائل ، فلكل قبيلة لهجتها التي تختلف عن قبيلة أخرى .

تحدث «جوزيف لاجو» عن أصوله القبلية وذكر أن في عائلته مسيحيين ومسلمين ووثنيين وعمه «يوسف» مسلم وزوجته مسلمة من الشمال .. قال في جو صاخب أن والده كافح ضد الاستعمار الإنجليزى فقد كان والده رجل ديني مسيحي ومتزوج لكنه أحب فتاة في هذه القرية كانت بمثابة ملكة جمال وأراد أن يتزوجها فمنعه الانجليز ، ولكنه تحدى أوامر الانجليز وتزوجها في قرية أخرى وأنجب منها «جوزيف لاجو» فقد كانت هذه الفتاة هي والدته ، «ولاجو» بلغة قبيلة المادي تعني «الرجل الضاحك» وكانت هذه الصفة هي الغالبة على السيد «جوزيف» الذي بطبيعته لايكف عن الضحك .

كان الجو صاخبا ومثيرا وأقرب إلى الجو الكوميدي ، ففي نهاية المؤتمر الشعبي سألت «جوزيف لاجو» تعليقا على حديثه ، «ولكنك لم تذكر اسم والدتك» فقال اسمها راحيل وحرص على أن يقدمها لنا عندما وصلنا إلى بيته في «نيمولي» ، وهي سيدة جنوبية مسنة نحيفة الجسد ، تبدو عليها الحيوية .

عندما وصلنا إلى «نيمولي» كان في استقبالنا عدد من الشخصيات الجنوبية من سياسيين ووزراء كانت الشمس تقترب من المغيب ، ومعنى ذلك أننا قطعنا نهارا كاملا في الطريق من «جوبا» إلى «نيمولي» لايزيد على مائة كيلومتر .

القرية ترقد وسط الغابات على منطقة جبلية تضم عددا من المنازل المبنية على الطراز الحديث كان من بينها منزل بسيط من دور واحد على ربوة عالية يضم ثلاث غرف وصالة وحمام وستائر على نوافذه تكشف عن مناظر خلابة تحيط بالقرية ، ومنها تبدو شلالات النيل الأبيض



تعتبر « جوبا » عاصمة للجنوب ، بها عدد من الكنائس و الجمعيات التبشيرية التى تدرب أبناء الجنوب على الزراعة والصناعة

والأشجار الأستوائية . عرفنا أن هذا المنزل بنى عام ٦٣ كاستراحة خاصة للرئيس الراحل جمال عبدالناصر عندما زار جنوب السودان عام ١٩٦٣ ، وقد بنى المنزل خصيصا للرئيس عبدالناصر ومن يومها أعتبر استراحة لكبار الزوار ، وكانت الاستراحة من نصيب السفير أحمد عزت عبداللطيف والملحق الحربى للإقامة فيه أما بقية الوفد من مراقبين عسكريين وضيوف أخرين من الوزراء الجنوبيين فقد وزعوا على منازل أخرى .

بعد غروب الشمس بدأنا نسمع من بعيد دقات الطبول القادمة من قلب البلدة نفسها ورأينا سيارتين تحملان عددا من نساء وفتيات البلدة تصعدان الجب لتصلا إلى الموقع الذى نحن فيه اعتقدنا لأول وهلة أنها ربما تكون فرقة للفنون الشعبية قادمة لتقدم عرضا فولكلوريا للوفد المصرى .

امتدت الموائد فى ساحة فسيحة وجلس الضيوف على مصاطب ، ودقات الطبول تقترب من المكان والسيارتان تصعدان الجبل تنطلق منها صيحات النساء ، «وجوزيف لاجو» يرحب بضيوفه سعيدا بحضور الوفد المصرى ، ويبدو عليه الزهو أمام أبناء قبيلته من الجنوبيين وأمام سائر الوفود والشخصيات السودانية .

لقد نجح فى أن يأتى بمصر إلى هنا ممثلا فى وفد كبير دبلوماسى وعسكرى

وصحفي بعد أن قدمت مصر لأبناء الجنوب هذا الدعم الذى تمثل فى بناء مستشفى عسكري متنقل وكوبرى على نهر السوباط ومعنى ذلك أن الجنوب ليس معزولا أو مجهولا ولكنه واقع فى دائرة الاهتمام من قبل المصريين كان هذا المعنى هو الرسالة التى يريد أن يبلغها «جوزيف لاجو» لأهله من سكان الجنوب .

وصلت السيارتان اللتان تقلان عددا من نساء القرية اللاتى ارتدين الملابس المزركشة بألوانها الزاهية ، وبدا على وجوه الحاضرين من الجنوبيين البهجة .

لم تكن النساء اللاتى أقلتهن سيارتان كبيرتان أعضاء فى فرقة للفنون الشعبية ولكنهن مجموعة مختارة من فتيات ونساء القرية جئن للترحيب بالوفد المصرى وإقامة حفل «تريم ترم» كما يسمونه ، وهى عادة وتقليد من تقاليد بعض القبائل فى الجنوب للترحيب بضيوفهم . وهو بمثابة حفل زواج ، فالنساء ينزلن إلى هذه الساحة المحاطة بالمصاطب التى يجلس عليها الضيوف وأمامهم الموائد عليها مالذ وطاب من الطعام والشراب . يرقصن تلك الرقصات الجنوبية وكل واحدة من حقها أن تشير إلى من تختاره للرقص معها وإذا إستجاب لإشارتها فمعنى ذلك أنها ستكون زوجته فى هذه الليلة فليس الأمر مقصوراً فقط على الرقص والطعام .



كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل وحفلة «تريم ترم» على أشدها ، ينزل الرجال يرقصن مع النساء تلك الرقصات الأفريقية ودقات الطبول لا تتوقف . فجأة أشارت إحدى السيدات إلى السفير المصرى للرقص معها فنظر إلى من حوله مرتبكا متسائلا : «هل تقصدني أنا» ضحك «جوزيف لاجو» ومرافقوه فى سعادة قائلين «نعم تقصدك أنت» .

مهمة صعبة

أدرك السفير ساعتها أن أمامه مهمة صعبة فهو أمام موقف دبلوماسى عليه أن يتصرف فيه دون أن يدخل العامل الشخصى فيه أى أعتبار ، وكان عليه أن ينزل الساحة إستجابة لهذه السيدة نظر إلى وقال فى لهجة اختلط فيها الجد بالمزاح : «أياك أن تلتقط لى آية صورة .. الوحيد الذى رقص هنا هو «صلاح سالم» ، ونزل إلى ساحة الرقص وقد تخلص من جاكتته فصفق له الحاضرون واستجاب للسيدة الجنوبية ورقص معها كما يرقص الجنوبيون لمدة خمس دقائق ، بعدها أسرع إلى غرفته بالأستراحة معتذرا من «جوزيف لاجو» ومساعديه ، فلم يلحوا عليه ، وبقيت أنا .. وبجوارى العقيد محمود .. الضابط العسكرى الشمالى الذى رافقنا فى هذه الرحلة منذ أن خرجنا من الخرطوم .. طوال الرحلة كان وقورا متحفظا منضبطا يتحدث معنا فى أمور جادة خاصة أنه حصل على دورة عسكرية فى أمريكا . ما أن بدأت حفلة «تريم ترم» حتى رأيت العقيد «محمود» شخصا أخر . تبدد منه الوقار والتحفظ والانضباط ، وانطلقت الضحكات وفكت القيود، مثله مثل غيره من الحاضرين من وزراء ومرافقين شماليين وجنوبيين فالليلة ليلة الـ تريم ترم» .

وهممت بالانصراف والتوجه إلى غرفتى مثل السفير والملحق الحربى .. ولكنى منعت بتعليمات من «جوزيف لاجو» .

أدركت أننى فى موقف على أن أبذل كل جهدى للتخلص منه .. تأملت وجوه النساء وأجسادهن .. فحدث داخلى نوع من التراجع أدى إلى إستحالة قبول

الدعوة .. تظاهرت بأنى جالس فى مكانى ولن أتوجه إلى غرفتى ، وحمدت الله أننى لم أتلق حتى الآن إشارة من أى واحدة لكى أرقص معها ..

كانت الدعوة التى وجهت لى من قبل الجنوبيين يتمناها كل من جاء إلى هذا المكان من السودانيين سواء كانوا شماليين أو جنوبيين . عدت أتأمل مرة أخرى وجوه النساء بشكل محايد ، وجوه سوداء أبنوسية ، واضحة المعالم ، العيون واسعة والأنف كبيرة والشفتان كبيرتان .. يرقصن والابتسامة على وجوهن .

وفعلت ما فعله السفير .

استجبت لدعوة الرقص ، ونزلت إلى الساحة ملتزما الصمت وعدت إلى مقعدى راجيا السيد «جوزيف لاجو» ومساعديه أن يعفنى من قبول بقية الدعوة والاكتفاء بتلبية جزء منها ، وبعد محاولات معهم لاقناعهم بالأكتفاء بهذا القدر استجابوا لرغبتى وبذلك تحررت من أثار «تريم ترم» بينما اندمج رفاقنا من الشماليين فى هذه الاحتفالية الصاخبة التي امتدت لساعة متأخرة وامتلأ المكان بالضحكات والصخب والإثارة .

كسر البيت !

شرح لنا أحد الجنوبيين معنى هذا الاحتفال فقال: إنه يقام فقط لتكريم ضيف عزيز وأنتم كمصريين ضيوف وأخوة أعزاء ، ويعتبر هذا الاحتفال بمثابة زواج جماعى ، والفتاة هى التى تختار الرجل الذى تريده وهناك شرط قبل أن يدخل عليها وهو أن يدفع لها مايسمى .. «كسر البيت» وهو بمثابة مهر لها يتمثل فى مبلغ من المال أو هدية تلائم المناسبة ، وفى بعض القبائل يكون «كسر البيت» كمية من الأبقار أو قطعة حديد تستخدم فى الزراعة بديلا عن المال .. ومن يرفض قبول هذه الدعوة من الضيوف فكأنه أهان القبيلة وصاحب الدعوة .

فهمنا من الجنوبيين أن مثل هذا الاحتفال ليس احتفال «مسخرة» واختلاط الحابل بالنابل، ولكنه وفق تقاليد القبيلة زواج جماعى تقام فيه الأفراح والتعبير عن الفرحة والبهجة بالرقص المستمر ودق الطبول وتناول الطعام والشراب .. ومادام الرجل قام بما عليه وهو «كسر البيت» فالمرأة تصبح زوجته ولو لليلة واحدة وحتى لو انصرف كل واحد بعد ذلك إلى حال سبيله وإذا أنجبت منه يصبح الطفل ابنا لها هى التى تربيه وترعاه حتى لو اختفى ذلك الزوج .

أمضينا ليلتنا وسط أجواء وصفها السفير عزت عبداللطيف بأنها أجواء أوبرالية كوميدية، وأستقيظنا فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، تناولنا افطارنا مع السيد «جوزيف لاجو» والوزراء تحت شجرة ضخمة يبدو أن عمرها تجاوز مئات السنين ، هى من نوع شجر «التيك» ، وهذا النوع من الأشجار معمر، وكان المستكشفون الآوائل فى القرن التاسع عشر يستظلون تحت هذه الأشجار ولا ينسوا أن يكتبوا عليها أسماءهم التى ظلت مكتوبة لفترات طويلة ، وتحت هذه الأشجار تقام الندوات والمؤتمرات السياسية والاحتفالات القبلية .

☆☆☆

عدنا بالسيارات مرة أخرى إلى مدينة «جوبا» لنبيت فيها وفى اليوم التالى استقلينا نفس الطائرة العسكرية التى حملتنا من الخرطوم وعدنا إلى الخرطوم مباشرة دون التوقف فى مدينة أخرى . ▪

نذير وشلبية

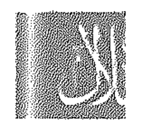
وصفاء القلب

قصة حب فى الفن وفى الحياة

بقلم

عادلى زرق الله

«الفتى نذير» ابن البستان الدمشقى، فى عنفوان سنوات الشباب الأولى حيث تدفق نبع الصبا فى بساتين دمشق الفيحاء، ومقاهيها الحنونة آنذاك، وتلك الدندشة فى المطرزات وذلك الوشى فى المجوهرات والمشغولات الذهبية وبريق الخزف الاسلامى الذى تألق فى الشام و.. و.. إلخ. جاء «الفتى نذير» الذى تربى على كل هذا الى القاهرة عام ١٩٥٩ لدراسة الفن بها. نذير ربع القامة، يميل الى الاعتدال فى كل شىء. معتدل الطول، معتدل القوام، معتدل الطبع، لا تفضحه إلا لفحات عشق وشبق للجمال فى الحياة. تشتعل عيناه ويلفح وهجها بريق عينيه لمن يريد أن يرى بقلبه. هذا كان حال فتانا حين جاءنا عام ١٩٥٩ .

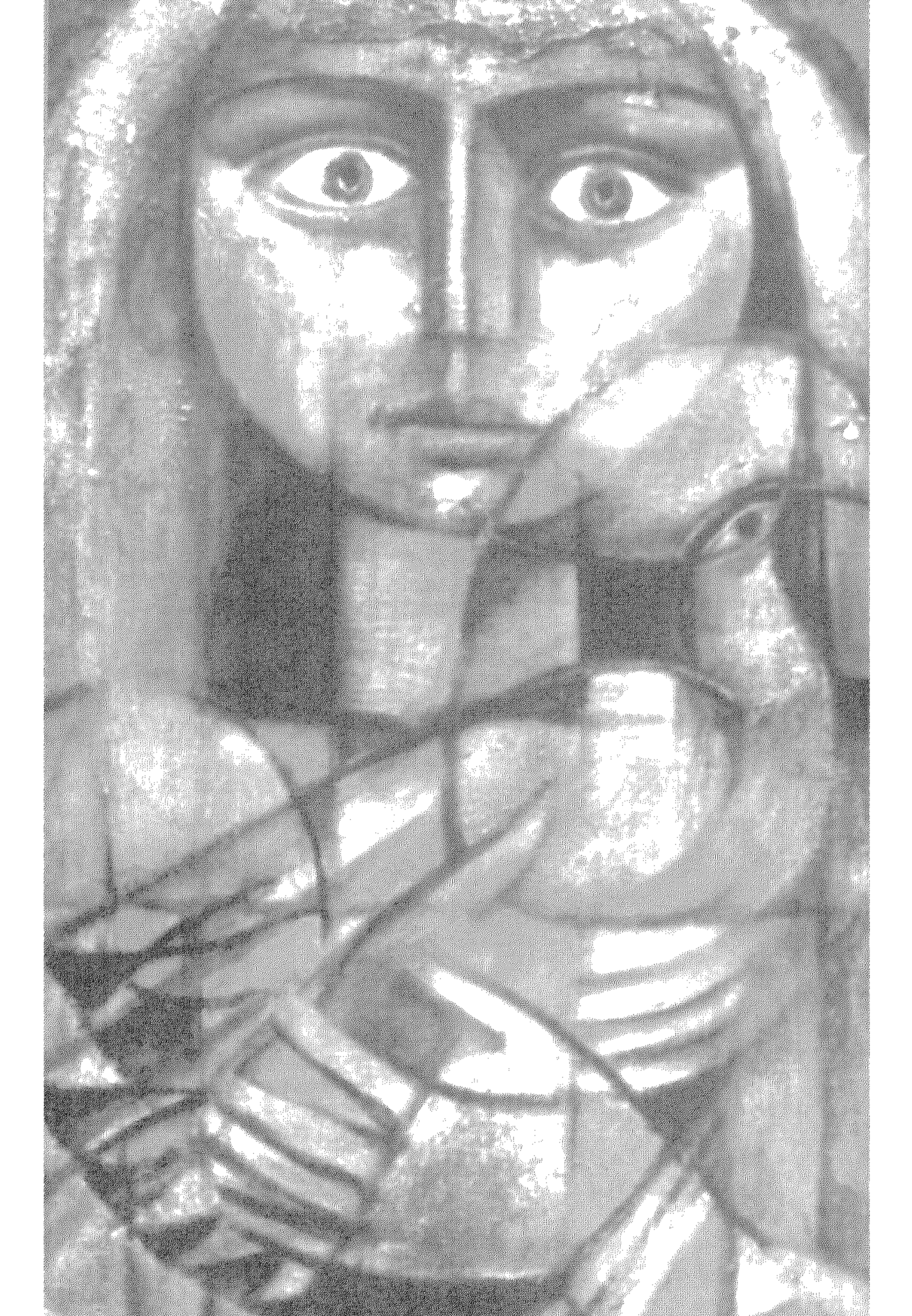


كل ما أكتبه ليس نقدا فى الفن التشكيلى ولو أن به بعضا منه، كما أنه ليس تأريخا ولو أن به بعض التوثيق الصادق لمن يريد. كتابتى يحلو لى أن أطلق عليها «نصا تشكيليا» وهذه التسمية ليست من عندى تماما.

الفتاة شلبية

«الفتاة شلبية» ابنة الدلتا الخيرة..

(الفتاة والطائر) للفنان نذير نبعة



ولدت وتربت فى أحضان طبيعة يرويها ماء النيل. تمرغت فى تراب أرض جزى إحدى قرى المنوفية. جنية لعوب بغواية طفلة شقية. عطشة الى الحكايات وخاصة تلك التى كان يرويها الأب. تقول شلبية: كان أبى يضفر لى شعرى فى جدائل طويلة. ما أرق الفلاح المصرى حين يحب. شلبية غجرية الملامح، صاعقة الجمال فى خفر وحياء. مقتحمة ولائذة بالخجل الرمانى، يتجلى كل هذا فى تتابع وتناغم يأسر القلوب التى «ترى» والعيون التى «تحس».

الحب:

يلتقى لفح العشق وشبق الحياة فى الفتى الدمشقى بغجرية الملامح، صاعقة الجمال بخفر وحياء فى الفتاة المصرية.

وكان لابد أن يحدث !

ماخلق الحب الا من أجلهما .

وصرع الحب قلب الفتاة، وذاب قلب الفتى وجدا. صريحة كأرض الدلتا المعطاءة. تدفق دفق الحب طبولا الى القلب الغجرى. لابد من البوح. أين لها من كلمات لا تملك حقا القدرة على التعبير عما يجيش فى داخلها؟ فتاها يرسم، فلترسم له رسالة حب .

وترسم له ..

خطوط تلقائية بها من جرأة رسوم الأطفال ما بها. رسوم بها من أحلام فتيات ريف مصر مابها . رسوم بها جنيات النيل وساحرات الحكى مابها. ويولد للفن المصرى إحدى جنياته ..

عاشقة للفن لا تعرف الحدود الفاصلة بين واقع وحلم. أتخيلها وهى تقدم له رسمها الأول. يتراقص قلبها دلعا وشقاوة. تحنى فتاة السابعة عشر رأسها فى خجل هاربة من عرامة حسية لا تملك لها دفعا حتى يومنا هذا .

بطرف عيون الأنثى ترى ألق عينين اشتعلت بشرارات حب ولدت متوهجة منذ الآن والى الأبد. يحتضن «الفتى نذير» «رسوم شلبية»، ولم يرض ابن البستان الدمشقى أن يسجن كل هذا الجمال فى رسائل حب شلبية له فشاركنا نحن زملاؤه فى هذا النعيم. يهمس استاذنا بيكار كعادته - وهمس بيكار أقوى من قرع الطبول - قائلا :

- اتركوها ترسم بكامل حريتها. لا تفسدوا تلقائيتها بالتعاليم الأكاديمية ذلك الطريق الوعر الذى هو لكم.

الزواج الفنى

أحب نذير شلبية الى حد الزواج..

وأصبح لأصدقائه بيتا يتجمعون فيه على مائدة ثرية الى حد البذخ «طبلية» مشتراة من سوق إمبابة الشعبى القريب من المساكن الشعبية والتى اقتسم فيها نذير المكان مع عائلة عامل مصرى. حلة العدس العبقة، واللبنة الدمشقية هى والحمص يرتعان فى زيت الزيتون. بعض الجرجير الطازج والفجل الأخضر اليانع، أكواب الشاى المنتقاة بعناية والتى تلمع من فرط نظافة الأنثى الفنانة تفوح منها روائح الشاى مختلطة بروائح النعناع العطرة. يلفحنا بخار الشاى الساخن والذى يزيل برودة صقيع ليالى الشتاء .

الى جوار كل هذا الدفء الانسانى تقدم لنا شلبية وجبة دسمة من رسومها وأشترى أول عمل منها بخمسة جنيهات مصرية وكان ذلك عام ١٩٦٢ .

طريق نذير الفنى

كان نذير رساما متمكنا منذ بداية الدراسة. لفتت قدراته العالية فى الرسم

« الفتـــاة والحبيـب» - شلبية ابراهيم







«دمشقيات» - نذير نبعة

أنظار الأساتذة وأنظارنا أيضا. أحب الفتى الدارس أستاذه «درويش» - رحمه الله - وكان سيزانى الهوى. ذهب الى حسين بيكار والذى كان قد تفرغ لمشوقته الصحافة تاركا التدريس، ولم يبخل بيكار عن إرواء عطش نذير الى التعلم ويذكره نذير دائما بكل خير. يعود نذير الى دمشق ويبدأ طريقه الفنى الذى تميز دائما بالتدفق، والجدية، والاستمرارية والتميز أيضا . بحث فى البداية عن وجه عربى لفنه وكان له ما أراد. يسافر الى باريس عام ١٩٧١ بعدى بشهور قليلة. كان لى شرف إخراج وتنسيق مجموعة اللوحات التى قدمها كمشروع للتخرج، وفاز نذير بالمرتبة الأولى على جميع أقسام كلية الفنون بباريس. تقلب طريق نذير بين تشخيص مخلص للطبيعة الى حد محاكاتها ، وتجريد شاعرى يذكرنا ببعض أعمال رمسيس يونان الأخيرة دون أى شبهة تأثر أو تأثير فالأصالة كامنة فى أعمال فنانا .

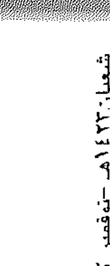
صفاء ابنة الفن

حين تزوج نيل مصر أرضها وهبتنا الحياة شلبية، وحين تزوجت الفلاحة المصرية البستان الدمشقى أعطتنا الحياة «عمار» الذى وهبنى حب الابن وتدفق احساس الأبوة. حين كنت أضيق بعالم الكبار كنا نصرخ معا «إحنا بنلعب بعيد» وكان لنا هذا العالم البرئ أهرب مع عمار إليه. قلت يوما لنذير: تركتما تعملان أنت وشلبية وصار لى إبنا .

أما عن صفاء فحدث ولا حرج. ولدت عام ١٩٧٠. درست الأدب الفرنسى. عادت بحنين الى مصر - الدم يحن - لتتزوج شابا مصريا . ترسم للأطفال وتمتهن تلك الحرفة التى برع فيها الأب والأم وورثتها الفتاة وراثة طبيعية حقا . يقع الاستاذ عبدالوهاب المسيرى - شفاه الله - فى هوى رسومها ويختارها لترسم له كتبه فى دار الشروق. لقاء آجيال ورمز للحب أيضا تستحقه الفتاة ويقدر عليه القادرون وفى مقدمتهم صديقى عبدالوهاب المسيرى. فى العادة لا يعجبنى العجب كما يقولون، لكننى أحببت ما تفعله صفاء لأنه بعيد كل البعد عن غوغائية تجارية طغت على حال الرسم للأطفال. أحسست تجاهها بأبوة فنية فيما يخص الرسم للأطفال مثلما أحسست تجاه عاصم شرف الفنان التشكيلى فيما يخص اللوحة . أقدم لكم نماذج من أعمالها لكننا ننتظر منها الكثير وهى فيما أرى قادرة وواعدة.

عائلة فنية ائتنست بها فى الفن والحياة. قلت لنذير بعد أن زارنى هو وشلبية فى «بيت المائيات»: البيت بعد زيارتكم ليس هو ما كان قبل الزيارة رسمت شلبية رسالة حب للمكان وصاحبه - ذكرتنى برسائل حبها الأولى - وقالت لى : هذا هو هدهدى الذى جاءنى فى الحديقة، وهذا هو الطاووس الملون رأيته حين أغمضت عينى. هذه - أنا - ضحكت فقد كانت لا تتعدى السابعة عشرة فى الرسم - وهذه وردة لك .. ونظرت اليها شاكرا . كلما كتبت عن تلك العائلة أحسست بعجز قلمى عن تعبير مستحق لذا سألجأ فى نهاية هذا المقال الى صناع الكلمة ومحترفيها فماذا قالوا :

يقول حسين بيكار





« عبـــلة» - صفاء نبعة

.. أمام لوحات شلبية يدرك الانسان قيمة الموهبة الجوهرة الكامنة فى أعماق الذات وتلافيف اللاشعور .. ويدرك أيضا معنى الثقافة بمفهومها العميق ومدلولها الأصيل.

وهذا الفيض المتدفق والسهل الممتنع. وهذه الشاعرية غير المفتعلة. هذا النقاء العذرى والصفاء الطفولى، هذه الرؤية التى تفيض كالنبع لتحيل الكون الى جنة وتحيل الحياة الى حلم جميل هى السر الذى يفتقده فنان العصر ..».

ويقول عبدالرحمن منيف :

«.. حين التقيت أول مرة بلوحة شلبية إبراهيم، ارتددت الى طفولة منسية، تيقظت فى داخلى مشاعر خلتها قد انتهت لفرط ما مر عليها الزمن ..

.. الأشياء فى لحظة تكونها، الحياة فى براءتها الأولى .

ويقول علاء الديب

«.. فى أعمال شلبية ابراهيم نجد أنفسنا حيال عالم حر يتكون لوحة بعد لوحة، وتمتد حدوده مع اتساع قدرة الفنانة على اكتشاف نفسها وعالمها اكتشافا حقيقيا لا زيف فيه ولا تقصير ولا افتعال، إنها لا تتوقف عند قواعد أو حدود لوحاتها. لا تقيم رمزا ولا تطلق شعارا .

إنها ترسم.. لكى تخاطبنا جميعا فى لغة قديمة جديدة، لغة هى فيها - وحدها - الناطقة، وهى وحدها المرجع والقاموس..»

وتقول نادية خوست :

«.. لا شىء ساكنا فى لوحاتها. ولا شى سجينا. أعضاء المرأة حرة وجسمها لين. لذلك تبدو كالطيور والأسماك والجنيات. وينساب شعرها المرسل كأعشاب البحر أو ذؤابات الخيول. ويتجول القمر فهو شاهد على سحر المرأة وهو لون وجهها . وهو الشريك فى العناق. يطل من النافذة وينام معها فى السرير، ويغسلها بالضوء..».

ويقول أسعد عرابى عن نذير:

«.. محترف نذير نبعة وعرض دائم، والعبور الى محرابه أشبه بالسفر فى حنايا منمنمة أو تحلية أو رقش إسلامى، أو محفورة زخرفية دمشقية، يعانق كل ما يحتشد فى البيت المحلى من مناخات حميمة وعناصر تعويذية أو مباركة، تتسرب من المحترف الى بواطن لوحاته. تسكن زواياها الحنونة وأجساد الراقصات اللواتى يمثلن بالأضاحى أمام المذبح، يغلفهن مع المعبد والقصر سحاب من البخور المشتعل بفوانيس ليلية، نعثر فى طقوس هذا الفراغ على أكداس الأرائك والطنافس. على أنواع الريحان والياسمين، على أصناف العقود والأحجبة والغطاءات الحريرية والسراويل المملوكية، والنحاسيات وأنواع الآلات الموسيقية الشرقية .. وعلى جماهير الفواكه العجائبية المحمولة على بساط الريح مما تحفل به غبطات ألف ليلة وليلة، ومما تزدان به مذكرات وذخائر طوق الحرير والبخور والعطور والتوابل والحكايات المنقولة على قوافل رحلات الشتاء والصيف. من أغوار الشرق البعيد المدفون خلف البحرات والأواين والمشربيات الدمشقية المنهارة والمندثرة فى بواطن الأسمنت..». ■

قصة قصيرة



نقوش طباشيرية

بقلم
نعمات البحيرى

ذات ليلة حين كنت أشب لأرفع صوت أم كلثوم سمعت أمى وهى عائدة من عند الجيران تقول لهم:

- «تصبحوا على خير»..

كان ضوء السلم شاحبا للغاية وكذلك وجه أمى، وكذلك صار صوت الست وأنا أسمع الجارة ترد ..

- «وأنتم من أهله»..

لم أكن أفهم ما هو الخير وكيف يصبح الجيران عليه وكيف يمكن أن نصير من أهله، كما لم أفهم لماذا ظلت أمى توبخ أختى الكبرى على تأخيرها عند صديقة لها، وحين أنزوت أختى باكية، عادت إليها أمى ليكتمل نشيد ونشيج الليلة، وانكسر عنف أمى وبدا ذلك واضحا فى عينيها وهى تربت على كتف أختى قائلة:

- «نخاف عليكى من كلام الجيران.. البنت سمعة».

أربكنى كلام أمى كثيراً ورحت أفكر كيف نخشى من الجيران وأنا أرى أختى فتاة جادة للغاية وأرى أبى رجلا محترما وأمى كذلك وأرى الجيران يحبوننا ونحبهم.

فى الصباح حين نزل الجميع كل إلى عمله ومدرسته وكليته، كانت الأسئلة مازالت تعيث فى دماغى ارباكا واضطرابا، وظللت وأمى فى البيت على الرغم من أن الوفاق العائلى لم يكن ليمتد بينى وبينها أكثر من دقائق معدودة وسرعان ما يتعكر صفوه، ثم تجلس مع أبى قليلا وتأتينا لتعلن فرماناتها بالمنع والحظر.

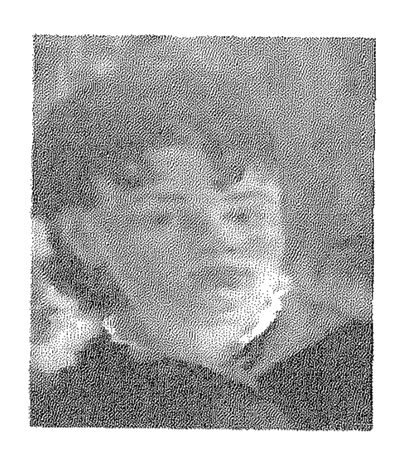
كنت الوحيدة القادرة على نسف فرمانات أمى وضربها عرض الحائط ربما لصغر سنى، وأنه لم يحن الأوان لمحاصرتى بفرمانات الحظر والمنع.

كنت آخذ الحجر وإصبع الطباشير وأغادر الشقة لأرسم على البسطة الممتدة بين شقتنا وشقة الجيران مستطيلا بمربعات من الطباشير، وأظل ألعب «الأولى» وحدى. لايثنينى للحظات إلا أن أفسح

مكانا ليمر النازل أو الطالع، كنت أسمع من خلال لعبتى أصوات الضحك والبكاء والشجار والحوارات القادمة من كل شقق الجيران.

لم يمض وقت طويل حتى عرفت كل قصص الحب، المعلنة والمستترة بين بنات الجيران وأبنائهم كما عرفت قصصا أخرى عن الفقر والحاجة والعوز، وكانت حاسة السمع عندى أقوى الحواس. كنت ألقى الحجر وأحجل حجلاتى فتأتينى قصص أخرى. ظلت اللعبة وظل الحجر هما المفتاح السحرى لعالم حكايات الناس. ألقيه وأحجل فتصلنى حكايات وأصوات ومشاجرات لا أفهم أغلبها لكننى كنت أتعاطف مع الناس جميعا.

كان الحجر يتجاوز المربعات الطباشيرية على البسطة ليخبط باب شقة الجيران. وحين أجرى لآتى به، تخبط أذنى كلمات الجارة بما يشبه كلام أمى لابنتها التى



تبكى وتذكرنى ببكاء أختى وتختمه الجارة بالجملة التى صارت قدر بنات الجيران فى البيت والشارع وربما الحى كله «البنت سمعة»..

كنت أنحنى لأحمل الحجر وأعود به إلى بداية المستطيل الطباشيرى الممتد وقد فهمت أن الجيران يخافوننا كما نخافهم، لكننى أيضا لم أفهم من «سمعة» هذا؟

ولما زاد بكاء بنات الجيران واحتد صوت الأمهات أخذت إصبع الطباشير وحجرى الصغير ونزلت الدرج بحثا عن حكايات مبهجة، وفى البسطة ما بين شقتين فى الطابق السفلى رسمت مربعا طباشيريا آخر، ووقفت ألعب لعبتى، ألقى بالحجر ثم أحجل خلفه حتى أدركه، وما أن أبلغ المربع الأخير حتى أسمع جارنا الذى ماتت زوجته منذ عام تقريبا يزجر ابنته التى تحادث ابن الجيران وزميلها فى الجامعة وهو أخى.

قال جارنا كلاما يشبه ذلك الذى قالته أمى لأختى وقالته جارتنا لابنتها وكأن «سمعة» هو العامل المشترك فى حالة خوف البنات وهلع الأمهات والآباء.

فهمت أن الجيران يخافون بعضهم البعض، كما فهمت أن «سمعة» هذا الذى لم أره أبدا يحتل الأحاديث السرية بين البنات والأمهات، سألت أخى عن «سمعة» فلم يضف إلىّ كثيرا، فقد كان مشغولا عنى بأحواله مع بنت الجيران.

وحين سألت خالى الذى أحبه ربما أكثر من أبى وأمى أو هكذا خيل إلىّ، ضحك وأخبرنى أننى مازلت صغيرة.

حين نزلت الشارع سألت صاحب محل «خردوات النهضة» ذلك

الذى لا تخلو دكانه من البنات، فضحك وأخبرنى أن «سمعة» هو اسم التدليل لإسماعيل، ولم يكن بين جيراننا وفى الحى كله ما نعرفه بهذا الاسم.

وفى وقت العصارى جلست أختى مع بنات الجيران، ورحن يشربن الشاى ويسمعن أغنيات محطة أم كلثوم وكل واحدة ترتب أن الأغنية القادمة هى حظها القادم. كانت الأغنية لعبد الحليم ولم أفهم معنى الكلمات لكننى كنت أحس بحزن وشجن ورأيت البنات يخرجن المناديل ويبكين مع الأغنية فسألتهن جميعا.

الغريب أنهن ما أن سمعن سؤالى هذا حتى تحولت حالة الشجن إلى ضحكات بعيون دامعة وتلا ذلك صمت مهيب.

لم تجبنى واحدة، حتى قطتى راحت تهز ذيلها رغبة فى أن تبول فى المكان المخصص لذلك، فأوصلتها إليه وسرت نحو سريرى وفى جيب فستانى نسيت الحجر.

فى الليل رأيت «سمعة»،هذا الذى يخيف الآباء والأمهات ويبكى البنات، هو بعينه، رجل قبيح، طويل، عريض، ومثل قطتى رحت أتشبث فى ثيابه وأتسلقه حتى أدركت منطقة قريبة من رأسه، وكنت قد تعبت فجلست فى ركن ناء من كتفه لأستريح ولو قليلا ثم بدأت أكسر رأسه بحجرى حتى حطمتها تماما، وكنت أسمع دقات قلبى وصوت أنفاسى وأنا ألهث من شدة التعب والفرح لأننى حطمت رأس «سمعة».

وفى لحظة رأيت الرجل وقد نبتت بين كتفيه رأس أخرى، وما



أن بدأت فى تكسيرها بحجرى حتى رأيت رأسا أخرى تنبت إلى جوارها ثم رءوساء، فتنشط فى نفسى الرغبة فى تكسير كل الرءوس واحدة واحدة.

كان الرجل يضحك مثل مارد ضخم تتطاير النيران من عينيه وفمه وفتحتى أنفه .

وعلى مبعدة من منطقة الحلم كبرت ودخلت الجامعة وانتميت إلى جمعية نسائية وعملت كصحفية فى إحدى المجلات وقرأت وعرفت وثرت وتحررت وكتبت كثيرا فى تحرير البنات من الخوف من رجل يدعى «سمعة» وكنت حقا هشمت رأس سمعة تماما.

كان صوت أمى يصرخ فى أذنى، كانت ترجنى بشدة لتوقظنى وهى تنهرنى لأننى قمت بتجريح طلاء الجدار الذى أنام إلى جواره. ■

بين الإيمان واليأس من مستقبل الانسان

بقلم
مصطفى درويش

الواقع الذى ليس فيه شك هو ان السينما فى مصر تعانى من حالة فوضى، ضربت بجذورها فى مجال عرض الفيلم، على نحو غير مألوف، فى بلد عنده صناعة سينما، لها من العمر سبعون عاما، أو يزيد.

ولكن نظرة يسيرة سريعة فى مسيرة السينما عندنا، بدءا من منتصف القرن العشرين، تكفى لاقناعنا بأن حظ حالة الفوضى هذه من الجدة، يوشك ألا يكون شيئا.

كل ما استجد هو استفحالها إلى حد، قد لا يرجى معه شفاء.

وليس أدل على ذلك، ما طرأ على مواعيد طرح الأفلام للعرض فى دور السينما.



فأيام زمان، كان الصيف يعتبر فصلا ميتا، لايعرض فى أشهره الا الساقط من الأفلام، لا لهدف سوى سد الفراغ.

وبالعكس كان رمضان شهرا مفترجا، تعرض فى أسابيعه أهم الأفلام.

الغزو الفكري

غير أنه ، تحت تأثير البث التليفزيونى المجانى، بدءا من عقد الستينات.

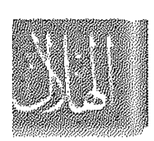
وتأثير الغزو الفكرى المؤثم للصورة المتحركة ، حال عرضها فى دور سينما ، وليس داخل البيوت، حيث لا تأثيم، مثلما يحدث فى السعودية ، حتى يومنا هذا.

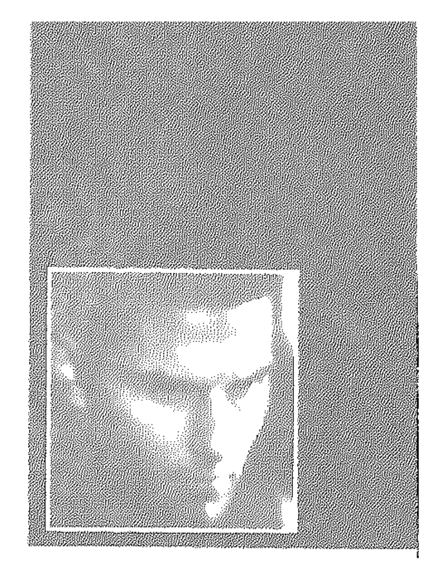
ضلت السينما فى مصر السبيل.

فاقتصرت عروض الأفلام المصرية على أشهر الصيف والاعياد.

وتوقف طرح أفلام جديدة، سواء كانت مصرية أم اجنبية ، فى أثناء شهر الصيام.

هذا إلى جنوح اصحاب هذه الدور، خاصة ما كان منها لايزال





مملوكا للقطاع العام، جنوحهم أثناء الشهر الكريم، إلى اغلاقها بالضبة والمفتاح.

ومن الأعاجيب الناجمة عن هذه الفوضى الخانقة، إنه ما أن يأخذ رمضان فى الاقتراب، حتى يكاد يصل إلى العدم عدد الأفلام المطروحة للعرض فى دور السينما.

وفى نفس الوقت، يزداد عدد الأفلام الأجنبية المطروحة، انتهازا من اصحابها لفرصة لا تعوض، هى سد الفراغ الناتج عن اختفاء الفيلم المصرى، وضرورة الإسراع بملئه بأفلامهم، وذلك قبل انتهاء الفسحة السابقة على ظهور هلال رمضان.

صعوبة الاختيار

ومن هنا كانت ظاهرة كثرة عدد الأفلام الأجنبية المطروحة فى دور السينما، على نحو يصعب معه الاختيار بين جيدها ورديئها.

ومن آثار هذا الطرح غير المحسوب حسابا علميا، ضياع كل ماله قيمة، وسط ركام الافلام.

وهذا ما حدث بالفعل لاربعة افلام قيمة هى محمد على، الهوية المجهولة، قبل وقوع الجريمة، وطريق الهلاك.

فلقد مر عرضها مر الكرام، رغم أن من بينها فيلمين لمخرجين سبق لهما الفوز بالاوسكار، هما ستيفن سبيلبرج وسام مندز.

والأول يعرف عنه ترشيحه أكثر من مرة، هو وبعض أفلامه للأوسكار، وفوزه بها هو وفيلمه قائمة شندلر، ثم فوزه بها عن اخراجه لانقاذ النفر رايان.

اما الثانى، فقد فاز بها، أى الأوسكار، هو وفيلمه الجمال الأمريكى.

وكم كنت اتمنى أن أعرض لفيلميهما الاخيرين تقرير الأقلية، وترجمته التجارية عندنا، قبل وقوع الجريمة، وطريق الهلاك. غير أن ضيق المكان والزمان، لا يتيح لى فرصة ان اعرض لهما فى حديث واحد.

وتبعا لذلك، كان لزاما على أن اختار.

وظل الاختيار بينهماأمرا متأرجحا تارة لصالح تقرير الأقلية وتارة أخرى لصالح الطريق الى الهلاك، إلى أن رجحت الكفة لصالح فيلم سبيلبرج، بفضل حادث عابر، ربما لولاه لكان

فيلم مندز هو الفيلم المختار ، لا لسبب سوى أن صاحبه مخرج شاب، لايزال فى بداية الطريق، لم يبدع للسينما حتى الآن إلا فيلمين، أولهما الجمال الأمريكى الذى أهله، بحق للفوز بالأوسكار.

قوة القدر

ورغم هذا الفوز الذى قل ان يجود بمثله الزمان السينمائى، رغم ذلك، فلا نعرف من امره الا أقل القليل.

وقد يضيف الحديث عن فيلمه الثانى الذى يتقاسم بطولته توم هانكس وبول نيومان، وكلاهما من كبار نجوم هوليوود المتوجين بالأوسكار.

اقول قد يضيف بعض الشيء إلى القليل الذى نعرفه عنه لماذا صعد صعودا مفاجئا، وهل سيكتب له الاستمرار نجما فى الإخراج لا يشق له غبار.

فى حين أن سبيلبرج عكس ذلك تماما ، مخرج غنى عن التعريف أفلامه وسيرته ملأت الدنيا، وشغلت الناس ورأى فى حياته موكب صيته يطوف من مشارق الأرض إلى مغاربها، وكأنه قيصر بعث حيا.

والسؤال، بعد هذا الاستطراد، ماهو الحادث العابر الذى غير الميزان؟

بينما كنت ابحث عن شريط فيديو صحراء التتار، فيلم المخرج الإيطالى الراحل «فاليريو زورلينى»، وهو بحث استغرق ساعات.

إذا بى اعثر على شريط لفيلم آخر، كنت أظنه ضمن اشرطة ضاعت، دون امل فى ان اجدها .

هذا الفيلم هو اوديسا الفضاء ٢٠٠١ لصاحبه المخرج الراحل ستانلى كوبريك.

وحتى أطمئن على حالته أدرت الشريط .

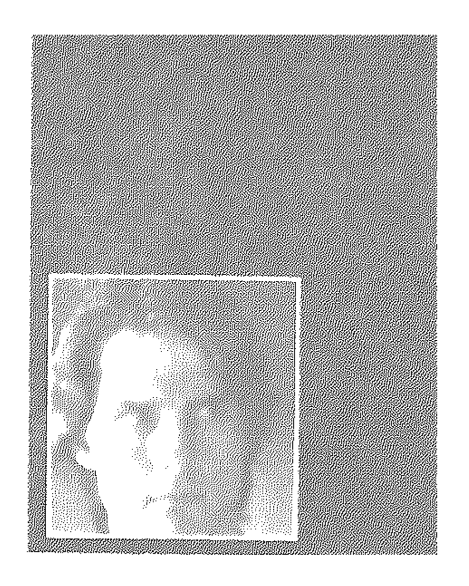
وعلى غير المعتاد، كان فى حالة جيدة، تبعث على الإطمئنان.

فجر الإنسانية

ولم يكن فى وسعى وقف عرض الفيلم، إلا بعد فوات عشرين دقيقة، المدة المذهلة التى خصصها كوبريك من فيلمه لما قبل التاريخ، تحت عنوان، فجر الإنسان.

ففى هذا الفجر نرى الإنسان كائنا بدائيا أقرب فى شكله إلى فصيل الغوريللات.

وبعد بضع لقطات، محكمة التوليف، يستوقفنا ظهور لوح غامض، مستطيل، وسط طبيعة أشبه بصحراء جرداء، ومن حوله تقفز الكائنات



الشبيهة ببني الإنسان.

وما هي إلا بضع لقطات، حتى نرى بعض هذه الكائنات.

وقد اتخذ من العظام أدوات واسلحة.

وكأن صاحب الفيلم اراد أن يقول إن اللوح الذي استوقفنا ظهوره يمثل الذكاء.

وإن الإنسان باكتسابه الذكاء، على وشك أن يدخل مرحلة قتل أخيه الإنسان.

وفي لقطة رائعة، مع خلفية، موسيقية من القصيد السيمفوني «هكذا قال زارا دشت» للموسيقار الألماني ريتشارد شتراوس، يدفع القاتل بالعظمة أداته في الانتصار،على خصمه، في الجو إلى أعلى.

فإذا بها تتحول ، وهي معلقة في السماء، لا إلى رميم، وإنما إلى سفينة فضاء، تتهادى سابحة على أنغام الدانوب الأزرق للموسيقار النمساوي يوهان ستراوس.

وما أن مرت الدقائق المخصصة من الفيلم لفجر الإنسانية حتى كنت على يقين من أمرين.

تشاؤم وايمان

ايمان كوبريك بأن وراء المحسوسات قوة لا يطالها الحس، فهي الجوهر، والمحسوسات أعراض لا غير، وهي المصدر والمآب.

وتشاؤمه من مصير الإنسان، وإن كان تشاؤمه ليس سوادا كله، بل فيه شيء من الاشراق لأن فيه شيئا من الأمل الذي يأتي من معرفة الإنسان بنفسه، انطلاقا من الذكاء.

والقدرة على المقاومة ، تأتيه من الإرادة، لا من شيء آخر .

ويبدو أن امل حياته، وهو في سني النضج الحكيم، انحصر في إخراج فيلم يبثه ايمانه وتشاؤمه.

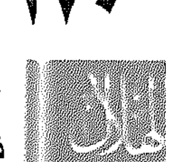
وبه يستكمل فيلمه اوديسا الفضاء الذي اخرجه قبل خمسة وثلاثين عاما.

ومن هنا قيامه بشراء قصة قصيرة من ذلك النوع المسمى بالخيال العلمي، للأديب براين الديس.

ويغلب على الظن انه احس بأنه ليس في وسعه ترجمتها إلى لغة السينما.

سرّ النجاح

فاختار بديلا مولعا بتجاوز امكانياته وتجريب قدراته والانفراد عن معاصريه فضلا عن جمعه بين الايمان



بما وراء المحسوسات، والتشاؤم غير المسبوغ بظلمة قاتمة، ولا بسواد مخيف.

وكان هذا البديل سبيلبرج الذى حقق امل حياة كوبريك فى فيلم اختار له اسم الذكاء الصناعى.

وكعهدنا بأفلام كوبريك ، كان الذكاء الصناعى، وإن كان من ابداع سبيلبرج ، فيلما صعبا، عميقا، متحديا، من بين مشاهده التى لا تنسى، مشهد مانهاتان فى نيويورك، غارقة تحت مياه المحيط، بعد أن ذابت الثلوج، وغمرت بمياهها الأرض ، ومن عليها.

ولأنه أى سبيلبرج ، محب للعمل الى حد العبادة، وربما هذا هو سر العظمة فيه، والخيال العلمى صادف هواه، فقد عمل على إخراج فيلم تقرير الأقلية، فى نفس وقت قيامه بإخراج الذكاء الصناعى.

السلطة والاستبداد

وفيه عرض لمشكلات الإنسان المتصلة بعلاقته بالسلطة خاصة بعد الهول الذى انتشر فى العالم، بحكم الحرب المعلنة ضد الإرهاب

فهذه السلطة تبدو لنا قوة قاهرة، ماكرة، ليس لاحد عليها سلطان، لا من الناس، ولا من الحكام انفسهم وهذه القوة هى القضاء المحتوم الذى لا يستطيع أحد لا حكامه نقضا، ولا تغييرا.

ومكانها واشنطن العاصمة الامريكية، فى زمن غير زماننا، وبالتحديد بعد منتصف القرن الحادى والعشرين باربعة آعوام.

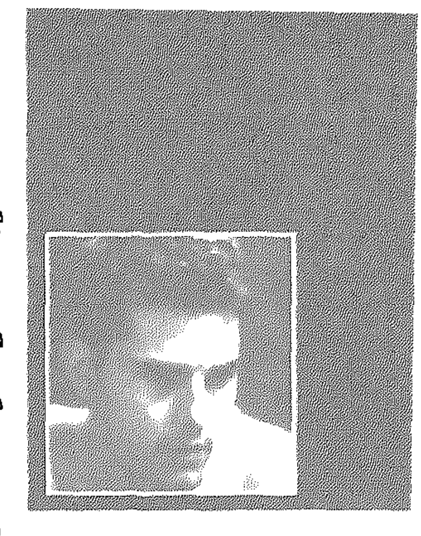
ففى ذلك الزمن الموغل فى المستقبل تنجح وزارة العدل الأمريكية فى امر كان يعد إلى عهد قريب من رابع المستحيلات.

فلهاهم ضحايا القتل العمد، قد انخفض عددهم حتى اصبح والعدم سواء بسواء.

وبطبيعة الحال، لم يكن هذا النجاح المذهل وليد صدفة، وانما وليد وتدبير ابحاث علمية، بفضلها اصبح فى الامكان الحيلولة بين الشخص الذى انصرفت نيته إلى ارتكاب جريمة القتل، وبين ارتكابها بالفعل.

العلم بالغيب

اما كيف تحقق هذا الاعجاز فى كشف ابشع الجرائم، قبل ارتكابها، ثم افشالها فى نهاية المطاف، فذلك كان بفضل ثلاث عرافات، فى وسعهن رؤية جرائم المستقبل، يقمن فى مكان امين،



بمعـــــزل عن الناس، عائمات فى مـــسبح بيــــضـاوى الشكل، معماره ذو طـــابـــع اغريقى، يذكرنا بالمعابد اليونانية حيث كانت تقدم القرابين.

ويتـبع هذا المكان الأمـين إدارة اطلق عليها وحدة تدارك الجريمة يرأسها الضابط جون اندرتون، توم كـروز الذى يعمل تحت امـرة رئيس اعلى لامار برجس ويؤدى دوره ماكس فون سيدو الممثل السويدى الذائع الصيت .

وفى محاولة من إدارة المباحث الاتحادية للتعرف على طبيعة نظام تدارك الجريمة، ومقدار نجاحه فى واشنطن ، حتى إذا اقتنعت به نظاما جديرا بالتطبيق عى نطاق قومى عملت على اعماله بطول وعرض البلاد.

اسندت إلى أحد ضباطها سدانى وتور» – كولين فارل – مهمة تفتيش وتقويم هذا النظام.

والفيلم يبدأ بمشهد رائع لزوج متربص لزوجته الخائنة، وكيف حالت وحدة تدارك الجريمة بينه وبين قتل زوجته، وهى فى احضان العشيق.

انقلاب الأوضاع

وما نكاد نفيق من هذا المشهد اللاهث ، حتى نفاجأ مع «اندرتون» - توم كروز - بصوره على الشاشات تبثها عقول العرافات.

وهاهو ذا متهم بجريمة قتل، سيقوم بارتكابها بعد ستة وثلاثين ساعة بالتمام.

وطبعا، يهرب ، وهو غير مصدق ، محاولا تبرئة نفسه من الاتهام.

وتتصاعد الاحداث على نحو نكتشف معه فى نهاية الامر أن حرية الإنسان امام نظام تدارك الجريمة ليست شيئا جديرا، فى نظر سدنته، بالحماية والاحترام .

وان مستقبل الإنسان ليس فى محاولة معرفة ما هو آت، فذلك لن يؤدى إلا إلى مزيد من الاستبداد.

شبح الديكتاتورية

وختاما ، يبقى لى ان اشير إلى ما قاله سبيلبرج عن فيلمه الذى يعتبر واحدا من احسن اعماله وهو فى مجال الاجابة عن بعض الأسئلة الموجهة إليه من المجلة الفرنسية استديو.

بعد ١١ سبتمبر اصبح موضوع الفيلم، لسوء الحظ، موضوع الساعة.

فلأننا فى حالة حرب مع الارهاب، حصل كل من مكتب المباحث الاتحادية والمخابرات المركزية الأمريكية على سلطات جديدة تفوق ما كان لهما من قبل.

والآن اصبح لوزارة العدل حق التدخل فى حياتنا الشخصية، فى كنائسنا ومدارسنا، من اجل التجسس علينا، اذا ما ذهب بهم الظن باننا نشكل تهديدا ما.

كان فيلمى قبل سنة، مجرد خيال فى خيال، وإذا به يصبح فى هذه السنة اقرب إلى الواقع منه إلى الخيال!! ■

كلمات عاشت

* ليس من الضرورى أن ينحط الأدب ليصبح شعبيا وليس من الضرورى أن يبقى الشعب حيث هو جاهلاً غافلاً يشقى بالخمول والجمود .

طـه حسين

* لأن الناس لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الموت والبؤس والجهل ، قرروا ألا يفكروا فيه، ليعيشوا سعداء.

باسكال

* عندما أفتش نفسى باحثاً عن أعمق أعماق ذاتى ، فأنا لا أعثر إلا على حب السعادة وتذوقها. هناك شمس لا تغيب فى قلب ما أكتب.

البير كامى

* لا يكون للمرء صبر على الجد ، حتى يأخذ من الهزل قدراً.

معاوية

* يجب على الأديب أن يهدم دون أن ينسى البناء.

سلامة موسي

* **العقل إذا تخلص من سكر الغضب ، أصابه ما يصيب المخمور إذا خرج من سكر شرابه.**

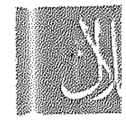
الجاحظ - رسالة في الجد والهزل

جولة بين



بقلم
وديع فلسطين

حديث الشعر والشعراء لا ينقضى ، فهم فصيلة من الناس عبر عنها الشاعر أحمد شوقى (١٨٦٩ - ١٩٣٢) خير تعبير بقوله: أنتم الناس أيها الشعراء، فهم يحملون معهم قرائح الشعر مهما طوحت بهم الحياة فى دنيا الله الواسعة . ولئن كان منصب السفير منصبا سياسيا لا مجال فيه للشعر بخيالاته ورؤاه ومشاعره ، لأن الحياة الدبلوماسية تفرض على صاحبها أن يتكلم بقدر وأن يراعى فى كل ما يقول نواميس البروتوكول التى تكاد تلجم اللسان ، فقد عرفت الحياة العربية شعراء من بين رجال الدبلوماسية نذكر منهم من الراحلين الشاعر السورى عمر أبو ريشة (١٩٠٨ - ١٩٩٠) الذى مثل الجمهورية العربية المتحدة فى أمريكا اللاتينية والشاعر السورى خير الدين الزركلى (١٨٩٣ - ١٩٧٦) الذى كان سفيرا للسعودية فى المغرب والشاعر الدكتور عبدالمنعم الرفاعى (١٩١٧ - ١٩٨٥) الذى كان سفيرا للأردن فى مصر. ونذكر من المعاصرين الشاعر عيسى درويش الذى كان حتى وقت قريب سفيرا لسوريا فى مصر ، والشاعر حسين سراج الذى كان سفيرا للأردن فى القاهرة والشاعر الدكتور غازى القصيبى الذى كان سفيرا للسعودية فى لندن والشاعر الشاذلى ذوكار الذى كان سفيرا لتونس فى اليمن والشاعر حسن عبدالله القرشى الذى كان سفيرا للسعودية فى موريتانيا والشاعر تقى الدين البحارنة الذى كان سفيرا للبحرين فى مصر بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٤ .



الوجه الآخر لمؤتمر عربي

وقد التقيت فى البحرين فى زيارة سريعة للمشاركة فى حفل تأبين الشاعر إبراهيم العريّض (١٩٠٨ - ٢٠٠٢) بالشاعر السفير تقى الدين محمد البحارنة الذى أسمعنى

بنفسه قصيدة جميلة نظمها فى عام ١٩٩٥ عندما توجه إلى الرباط فى المغرب للمشاركة فى المؤتمر البرلمانى العربى .

فقد اجتمع ممثلو الدول العربية لمناقشة القضايا المطروحة أمامهم ، ولم يلبث ضجيجهم أن تعالى وتفرقوا شيعا وأحزابا ، واتسعت رقعة الخلاف بينهم . فلما عضهم الجوع بنابه وتململت بطونهم الخاوية ، انعقد إجماعهم على طلب الطعام ، فالطعام قضية لا يختلف عليها أحد ولا تنتطح عليها عنزتان – كما يقال فى المثل الدارج .

محمد البحارنة

وغزا المؤتمرون غرفة الطعام ، لم يتخلف منهم أحد ، وطافت بالمدعوين فتاة مغربية بارعة الجمال تقدم لهم صنوف المآكل والمشارب ، فهفت جميع القلوب إلى « نادية » ، وإليها اشرأبت كل الأعناق دون أن يصرفهم ذلك عن الاغتراف من صنوف الطعام ومشتهياته . وقد أوحت هذه المفارقة ، وهى الخلاف على قضايا الأمة والاجماع على قضايا البطون ، إلى الشاعر تقى الدين محمد البحارنة بالقصيدة الجميلة التى صور فيها الوجه الآخر للمؤتمر والتى حرص على أن يسمعنى إياها ، وفيها يقول :

مرحى لأقطار العروبة ... تسعة وثمانيه
جاءوا من الشعب الغريب ... مزارها والنائيه
للمغرب المضياف فى ... كنف «الرباط» الزاهيه
وتحملوا تعب المسير ... بهمة متناهيه
يرجون وحدتنا ... وتحقيق الأمانى الغاليه
وتضامنا فى السر ... تخشاه العدى – وعلانيه
فى البرلمان تجمعوا ... وتفرقوا فى الزاويه
وعلا ضجيجهم ونادى ... كل رهط ناديه
حتى إذا تعبوا ... تململت البطون الخاويه
ومشوا إلى غرف الطعام ... مع الهنا والعافيه
فالكل يدعو (نادية) ... ويقول هاتى زاديه
إلا أنا ، فلقد فتنت ... بها ، وليست داريه
فأقول قد تأتى عساها ... صدفة وعسانيه
تشتاق نفسى للطعام ... إذا مشت بإزائيه
وافتر مبسمها وضوع ... عطرها فى الآنيه
فيقال : ذلك أشعب ... ويقال : بل كمعاويه
لاموا ولو عرفوا ... الحقيقة ما تجنوا ثانيه
إن الطعام يلذ من ... أيد لطاف حانيه

ويسوء إن جاءت به	حوشية وزبانيه
كرم الموائد زائل	والابتسامة باقيه
وطن العروبة سوف يبقى	والمصالح فانيه
إن أشرقت شمس العروبة	من سماء صافيه
فلها القلوب منازل	ولها المآذن سارية
ولها الخليج مشارق	ولها الكنانة راعيه
والنيل عذبا والفرات	ودجلة والباديه
ولها قلاع الشام حصنا	والأسود الضاريه
ومرافئ في المغرب	الأقصى عليها حانيه
بالدفء تمنحه عيون	ساهرات صاحيه
حلم تراءى في الضمير	وفي محاجر (ناديه)

مسابقة بين المعالفة

اجتمع فى منزل جورج معلوف (١٨٩٣ - ١٩٦٥) بالبرازيل رهط من الشعراء المعالفة وعدد من الأدباء ، كان من بينهم شاهين معلوف (المتوفى فى ١٩٥٤) وميشال معلوف (١٨٨٩ - ١٩٤٢) وشفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦) وفوزى معلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) والمؤرخ المهجرى توفيق ضعون (١٨٨٣ - ١٩٦٦) .وجورج معلوف هو شقيق شاهين وميشال وخال كل من شفيق وفوزى معلوف .

وجاءت الخادمة حاملة صينية القهوة، وتقدمت إلى زوجة جورج معلوف لتأخذ حصتها من الفناجين باعتبار أن السيدات مقدمات على الرجال ، فوقع الفنجان من يدها على الأرض وانكسر ، مما أورث صاحبى الدار حرجا شديدا . ولكن ربة البيت رغبت فى تدارك الموقف ، فاقترحت على الشعراء أن يرتجلوا شعرا فى هذه الواقعة ، وقالت إنها ترصد ساعة ذهبية ثمينة لصاحب القصيدة الفائزة واختيرت لجنة من الحاضرين لتكون حكما بين المتسابقين .

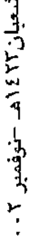


وهنا عرض كل من الشعراء بضاعته ، فقال شاهين معلوف :

ثمل الفنجان لما لامست شفتاه شفتيها واستعر
فتلظت من لظاه ، وهو لو يدرى بما يجنى اعتذر
وضعته عند ذا من كفها يتلوى قلقا أنى استقر
وارتمى من وجده مستعطفا قدميها وهو يبكى فانكسر

وقال ميشال معلوف :

عاش يهواها ولكن في هواها يتكتم
كلما أدنته منها لاصق الثغر وتمتم
دأبه التقبيل لا ينفك حتى يتحطم



وقال شفيق معلوف :

إن هوى الفنجان لا تعجب وقد طفر الحزن على ميسمها
كل جزء طار من فنجانهـــا كان ذكرى قبلة من فمهــــا

أما فوزى المعلوف الذى فاز بالجائزة فقال :

ها هو الفنجان مختارا ولو خيروه لم يفارق شفتيها
هى ألقته وذا حظ الذى   يعتدى يوما بتقبيل عليها
لا، ولا حطم اليأس فها هو يبكى شاكيا منها إليها
والذى أبقاه حيا سالما   آمل العودة يوما ليديها

روكس بن زائد العزيزي

واقترح توفيق ضعون أن يكتفى الفائز ببهجة الفوز وأن تؤول الساعة إلى صاحب أحقر ساعة بين الحاضرين ، والأرجح أنه يقصد نفسه . ولكن شفيق معلوف، وهو واسع الثراء لأنه يملك مصانع كبرى للحرير، أسف لعدم فوزه بالساعة وعزى نفسه قائلا :

ياســاعة ، ما أنت أول ســاعة   ضيعتهـــا من ذكريات حياتى
ما دمت ضيعت السنين فما أنا   بمحاسب دهرى على الساعات

كانت أمثال هذه الندوات الشعرية تعقد فى المهاجر فى العصر الذهبى للشعر العربى هناك، فلما تساقطت نجوم الضاد واحدا بعد واحد، وعمت الرطانة، اختفت هذه المساجلات الجميلة وضاعت أخبارها فى بطون الصحف المهجرية المندثرة .

روكس بن زائد العزيزى

فى شهر أغسطس الماضى بدأ علامة الأردن الكبير روكس بن زائد العزيزى عامه المئة ، فهو من مواليد عام ١٩٠٣، ولكنه مازال ينشغل بالمآرب الأدبية على الرغم من هذه السن العالية، وما زال يشارك فى أعمال مجمع اللغة العربية الأردنى لأنه عضو شرف فيه . ولم يكن غريبا أن يزوره فى بيته جلالة الملك عبدالله الثانى ملك الأردن أسوة بأبيه الراحل الملك الحسين ابن طلال .

ولعل العزيزى هو أكبر المعمرين من رجال الفكر، يليه المؤرخ الكبير الدكتور نقولا زيادة وحسن الكرمى صاحب المعاجم الضخام، وكلاهما فى الخامسة والتسعين من العمر :

وإذا كانت برامج السنة الثقافية للعاصمة الأردنية لم تتسع لتكريم العزيزى الذى تعرفه الأمة العربية كلها ، فلتكن الكليمات المتواضعة تعبيرا عن الاعتراف له بأياديه المترامية الفضل ، وحسبى هنا أن أورد بعضا من مؤلفاته التى أربى عددها على السبعين :

فهو قد أصدر «قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية» فى ثلاثة أجزاء ، و«معلمة للتراث الأردنى» فى خمسة أجزاء ، و«المنهل فى تاريخ الأدب العربى» فى ثلاثة



أجزاء ، و«الزنابق» فى سبعة أجزاء، وكتاب «سدنة التراث القومى» وكتاب «شاعر الانسانية» وكتاب «الخلاصة التاريخية» فى جزء ين وكتاب «المساعد فى الإعراب» وأربعة أجزاء بالاشتراك مع زميلين ، كما حقق بالاشتراك مع العلامة العراقى الأب انستاس مارى الكرملى (١٨٦٦ - ١٩٤٧) ثلاثة كتب هى : « نخب الذخائر» و«علم النميات» و«تاريخ اليمن» ، ونشر كذلك مذكرات الدكتور أحمد زكى أبى شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) .

وهو ذو بصر بالشعر وينظمه فى مساجلات بين أصدقائه الذين يتوزعون فى أنحاء العالم ، وإن كان عددهم تقلص بحكم ناموس الانقراض .

وفيما عدا فترة قصيرة قضاها العزيزى فى التعليم فى شبابه ، فقد أعلن رهبانية الفكر ، ورفض الوظائف، وتفرغ تفرغا كاملا لأعماله فى التأليف والتحقيق والنقد الأدبى ، حتى أنه نقد قاموس «المنجد» فى طبعته الأولى لأنه وجد فيه بعض المآخذ التى تدوركت فى الطبعات التالية .

وقد صافانى العزيزى موداته الغالية على مدى سنوات طويلة، وأكرمنى بآن زكانى هو وأكرم زعيتر (١٩٠٩ - ١٩٩٦) والدكتور همام غصيب أطال الله بقاءه لعضوية مجمع اللغة الأردنى فأسبغ على بذلك شرفا وفضلا لا أنساهما ، فقد عز عليه أن يكون هو من الخالدين وأن يبقى صديقه المصرى خارج هذه العصبة الكريمة ممن يطلق عليهم لقب «الخالدين» فليتقبل أستاذنا روكس بن زائد العزيزى هذه التحية الخالصة منى ، وهى لا توفيه حقه من الإعظام والتكريم وفرط الإعزاز .

الأديب البركانى سعيد تقى الدين

قد تتكرر شخصيات بعض الأدباء ، ولكن لا أظن أن أديبا فى أى لغة يمكن أن يكون شبيها بالأديب اللبنانى المهجرى سعيد تقى الدين (١٩٠٤ - ١٩٦٠) الذى وصف نفسه عندما هاجر إلى الفلبين بقوله : « فى الفلبين عشت ومت ٢٢ سنة ونصف . هناك استوردت كل ماتعرف من أصناف البضاعة . فتحت محطة بنزين . فتحت سينما . كنت «دوارا» - أى بائعا متجولا . أبحرت . طرت . سافرت على الخيل. ركبت على الجاموس. اغتنيت. افتقرت . لعبت بالبورصة . فتشت عن الذهب. كنت حانوتيا . مستوردا مصدرا. كومسيونجيا . اتجرت بمخلفات الجيش. بمخلفات الحيوانات . سوكرت (أى أمنت على حياتى) لأنتحر . أفلست ودفعت ديونى . سجننى اليابانيون ٥٣ يوما و٥٤ ليلة خلال سنى الحرب . واجهت الموت فى أكثر الأحيان مختبئا . عينت قنصلا للبنان ، ومشيت بالقنصلية على أصول دبلوماسية لم تطبع فى الكتب !» .

وصفه مواطنه يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ - ١٩٨١) بقوله : «نشاط محموم مستمر ، وخاطر سريع ، مع ملاحظة دقيقة . وخيال رحب خلاق .. كانت كتاباته كانفجار

البركان . يحمم الكلام . كل ذلك فى أسلوب شفاف جذاب بكر . فهو مدرسة خاصة فى النثر سهلها ممتنع . كان أخلص شاهد على جيله القلق المضطرب » .

قابلت سعيد تقى الدين للمرة الأولى فى القاهرة فى عام ١٩٤٨ ثم لقيته فى بيروت وللمرة الأخيرة فى عام ١٩٥٥، وكان قد أهدانى طائفة من مؤلفاته من الروايات والمسرحيات والخطب منها «لولا المحامى» و«نخب العدو» و«حفنة ريح» و«غابة الكافور» و«تبلغوا وبلغوا» و«سيداتى سادتى» و«رقات جناح» ، وهى كتب أصدرها فى خضم حياته المضطربة التى وصفها بصراحة جارحة كما أسلفنا . فمع أنه ينتمى إلى أسرة ميسورة الحال، ومع أنه كان يحمل درجة علمية محترمة من جامعة بيروت الأمريكية، فقد ركب مراكب الهجرة واختار الفلبين محطة لنشاطه فتعرض فيها لذل البحث عن عمل حتى كحانوتى . ولما كون ثروة طائلة عاد إلى لبنان فبدد هذه الثروة فى جريدة «الزوابع» التى أصدرها لتكون لسان حال الحزب القومى السورى . ولما أصبح خاوى الوفاض ، قرر الهجرة من جديد ، ولكن إلى المكسيك ثم إلى كولمبيا حيث وافته منيته .

سعيد تقي الدين

ولأن لبنان يكاد يكون أحرص دولة عربية على إحياء آثار الراحلين من أبنائه ، فقد سرنى أن أرى أديبا لبنانيا – هو جان داية – يتوافر على نشر تراث سعيد تقى الدين وتسجيل الفصول التى كتبت عنه والتى تناثرت فى الصحف والمجلات . وقد تلقيت بفضل السيدة سامية حلبى قرداحى ثلاثة كتب جديدة من منشورات جان داية هى «سيداتى سادتى» و«من شرفة المرصد» وهما من تأليف سعيد تقى الدين ، أما الكتاب الثالث فيضم ما كتبه الأدباء عن هذا الأديب المتفرد . وسبق لجان داية أن أصدر ثلاثة كتب عن سعيد تقى الدين .

ومن طريف ما أذكره عن سعيد تقى الدين أنه اصطنع لنفسه خاتما عليه عبارة «هذا كتاب أهديه لأننى لا أجد من يشتريه» وختم به آخر كتاب تلقيته منه قبل وفاته .

وفى حين كان شقيقه السفير القاص خليل تقى الدين (١٩٠٦ – ١٩٨٧) رجلا أرستقراطيا صبغته الدبلوماسية بالوقار والتؤدة، كان سعيد تقى الدين فوضويا – ربما بتأثير الحزب القومى السورى – فجنت عليه السياسة واختصرت عمره فلم يعش إلا ٥٦ عاما . ■

الشعر واللغة والشاعر

صمت الزامر وانفض سامر الشعر الحر

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

لا يواجه الشعر العربى المعاصر من صعوبات اللغة ما تواجهه أحيانا فنون النثر من قصة ورواية ومسرحية، حين يتصل موضوعها بأحداث الحياة اليومية، ولغتها العامية، وتبدو الفصحى وكأنها لا توفق فى التعبير الواقعى الدقيق عن هذه الأفكار والجوانب إلا من خلال ازدواجية الفصحى والعامية بين السرد والحوار.

ذلك أن للشعر على الدوام لغته المميزة موحية ومتوترة وقادرة على الإثارة، حتى حين ينبثق من مشكلات الحياة اليومية لأنه يصدر عن وجدان عميق، والتعبير عن الوجدان يستلزم ألفاظا ذات دلالات نفسية وشعورية خاصة، قادرة على تصوير إحساس الشاعر وعلى التأثير فى نفس القارىء أو السامع، لتحدث عنده إحساساً مماثلا، وتنقل إليه تجربة الشاعر كاملة.

كلمة لفظ هنا لا تعنى الكلمة مفردة لأن هذه لا توحى إلا بخواطر مبعثرة، لا تربط بينها صلة نفسية أو ذهنية واحدة، وإنما تستمد حياتها من وجودها فى سياق خاص، ومن اتصالها بكلمات

أخرى تتفاعل معها، وتؤثر فيها، وتتأثر بها.

مع أيام الشعر الأولى كان من السهل على الشاعر أن يقع على اللفظ الذى يريده، للمعنى الذى يفكر فيه، وللصورة التى يريد أن يرسمها، واللفظ محمل بمعناه، ولا يمكن أن نتصور لفظا من غير فكرة، والطفل يفهم قبل أن يتكلم، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك. ولم تكن أمام الشاعر الجاهلى نماذج يحتذيها، ومن ثم كانت لغة الشعر إذ ذاك قريبة من لغة الحياة، ومع الزمن كثرت النماذج وتعددت الأساليب، وأصبح فى مكنة الشاعر وبين يديه تراث سخى منها، يسترفده وينتفع به، ولم تّعد الملكة الشعرية وحدها منبع الإلهام، وأصبح للشعر تقاليد معروفة ولم يعد الشاعر يختار ألفاظه وعباراته من لغة الحياة العادية ، وإنما يستمدها من التراث السابق الذى درسه، وارتوى منه أساليب وأفكارا.

حركة البعث الشعرى

غير أن الألفاظ تخضع فى استخدامها، كأى ظاهرة إنسانية أخرى ، لقانون «الفعل ورد الفعل»، فحين انحدرت اللغة العربية مع الغزو العثمانى، وأصبحت السهولة انخذالا، والرقة تزايلا، وضاق حظ الشعر منها فأصبح لعبا بالمحسنات، وغرق فى البديع والزخرفة، وغاضت ينابيع الفكر والقوة فيه، وتعلق منها بكل ساقط وتافه، وجاءت حركة البعث على يد البارودى بالنقيض من ذلك كله: أحيا رائع القدامى، واختار الكلمة القوية، وآثر اللفظ الموحى، وأدار ظهره للشائع


أحمد شوقي


نزار قباني

الجارى على ألسنة العامة، ورد العربية إلى غابر مجدها، وزاهى عصورها. وسارت المدرسة الكلاسية بدءا بأمير الشعراء أحمد شوقى، وحتى أيامنا هذه، على الطريق نفسه، على حين اختار الرومانسيون الجانب المقابل، ويؤثرون البساطة، ويفضلون لغة الحياة، ويُحيون ما سقط منها جثة هامدة، واللغة تربة مهددة بالجدب والجفاف، مهما تكن

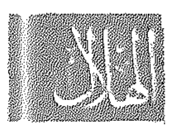
خصبة، ما لم يُقيض لها من يحيى مواتها، ويبعث فيها الخصوبة والنماء، يجدد ما شاخ من ألفاظها، أو اندثر من مفرداتها، وليس مثل الشعر فى القيام بهذه المهمة، إنه القادر على صون اللغة وإثرائها، والشعراء الغابرون يمدوننا بتراث لا ينفد من التقاليد الرائعة، تعيش بيننا منحدرة من الماضى، على حين يدفع الشعراء المحدثون باللغة إلى الأمام.

التجديد اللغوى

من المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق، وما من جيل يمكن أن يحس بنفس الطريقة التى كان يحس بها من سبقوه، وكل جيل يستخدم الألفاظ علىَ نحو مغاير، وإذا كان من غير الصواب أن يقال أن التجديد اللغوى يصدر عن الفرد، فمن الحق الذى لا ريب فيه أن كل فرد يدخل فى اللغة شيئا من التجديد خاصا به، وليس مبالغة القول بأنه يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد، وتاريخ الشعر فى جانب منه، إنما هو تاريخ متعاقب لأدوار من ولادة ألفاظ الشعر ونضجها وموتها ، وهى تولد دائما فى ثورة، ثم تتطور وتتسع قبل أن تجمد فى قوالب ، لتجف وتذبل، إلى أن يتاح لها شاعر يبعث فيها الحياة من جديد، فهو القادر على إثراء اللغة اشتقاقا، وإحياء مفردات وصورا ربما تكون قد توارت وانسحبت من حياتنا الثقافية، وإضافة ألفاظ جديدة، ذات دلالات معاصرة ، بما للشعر من حلاوة إيقاع، وعذوبة موسيقا، يجعلها مقبولة فى الأسماع، ومن هنا كان الشعر المورد الأول فى إثراء اللغة وتجديدها.

وهذا الدور يدعونا إلى احترام رؤية الشاعر، وإعطائها قدرها من التقدير، وإدراك دوره الإصلاحى، من خلال فهمه الواعى للماضى، وتفسيره الدقيق لقضايا الحاضر، وبصيرته الواعية فى استشراف المستقبل، وأثره فى ضبط حركة المجتمع وتحديثه ، وتشكيل عقول أبنائه وصياغة وجدانهم، ومن ثم فالشاعر الحق هو الذى يكون على مستوى الحدث، يصدق مع ذاته، وينطلق من واقعه، وله موقف جاد وواضح من مشكلات أمته، ويعرف قدر نفسه ورسالته ويمسك بها أن تنزلق فى مهاوى النفاق والرياء والمداجاة والرِّشى.

إن ولاء الشعر يجب أن يكون للغة التى ورثها، مهمته أن يحافظ عليها، وأن ينميها بابتداع أسلوبه الخاص، وأن يكون سيد ما ابتدعه وخادمه فى الوقت نفسه، وليس ثمة طبع، مهما كان قويا، يمكن أن يرتجل شعرا صادقا لا تكلف فيه، وفى القمة من الصياغة أيضا، دون أن يملك معجما لغويا ثريا ينتقى منه، لأن الشعر سهلاً أو معقدا يحتاج إلى جهد فى اختيار ألفاظه وتنقيحها ، حتى يصبح قدر المستطاع عذبا طريفا،

وحوليات زهير ابن أبى سلمى أشهر من أن أشير إليها.

وظيفة الشعر

إن وظيفة اللغة فى الشعر أن تعبر وتبين، ولكن تجارب الإنسان التى وجد الشعر للتعبير عنها دائما التغيير والتبديل، لأنها آخذة أبدا فى الازدياد، ولما نمت التجارب وازدادت وجب على لغة الشعر آن تجاريها، وأن تتماشى معها إذا أريد منها أن تكون صادقة التعبير، واللغة هنا بمنزلة الشجرة، والألفاظ منها بمكانة الورق، وعلى مدى السنين تتساقط الأوراق القديمة، وتنمو بدلا منها أوراق جديدة، والشجرة باقية كما هى. وهذا التشبيه الذى ساقه «هوراس» يمثل اللغة والألفاظ فى الشعر تمثيلا حسنا، ولكن يجب آلا ننسى آن الشجرة التى عناها هوارس لم تكن تفقد أوراقها جملة واحدة، بل كانت تشتمل دائما على أوراق قديمة وأوراق جديدة، وكذلك الحال فى لغة القريض، لابد من أن تستحدث أبداً ألفاظا جديدة وتهمل ألفاظا قديمة. ولا ينبغى أن نطالب الشاعر بآن يعتمد كلية على الألفاظ الشعرية المأثورة عن أسلافه، ولا جناح عليه أن يكون البادىء باستخدام ألفاظ شعرية جديدة، ومن الممكن - بالطبع - أن يصبغ الشاعر الألفاظ العادية المألوفة بصبغة شعرية رائقة، بأن يأتى بها بمهارة فى جمل وعبارات.

فكلمة «فستان» وهى أجنبية، حين استخدمها نزار قبانى جمعا، منحها جنسية عربية قبل أن يقر ذلك مجمع اللغة العربية:

حتى فساتينى التى أهملتها
فرحت به، رقصت على قدميه

وكلمة «آسمنت»، وهى أجنبية، وعيال «جمع عيّل» وهى دارجة، ارتفع بهما عبدالله البردونى، وهو شاعر كلاسى، إلى مستوى الكلمة الشعرية حين استخدمهما:

من أين يا أسمنت أمشى
ضاعت الدنيا حيالى
بيت ابن أختى فى «معمّر»
فى «الفليحى» بيت خالى
أين الطريق إلى «معمر» ؟
يابناتى ياعيالى.

والشعراء فى هذا مستويات، كل واحد منهم نمى أسلوبه تبعا لذوقه وإمكاناته، فمنهم المقتصد والمسرف، والهادىء والصاخب والجادون منهم وجهوا طاقاتهم واعين لإيجاد التعادل المحكم بين ما على الشاعر أن يستخدمه من ألفاظ ومايحدثه من تأثير، دون قيد يعوقه عن توظيف كل إمكانات اللغة، من البساطة الكاملة إلى البلاغة المعقدة، فهناك من يؤثر الإيجاز أو يميل إلى الإطناب والتكرار، ومن يفضل القفز فوق التفاصيل.

غير آن قيمة الألفاظ ليست فى

بساطتها أو جلالها، وإنما فى الطاقة أو العاطفة أو الحركة التى يسبغها عليها الشاعر، والشاعر الأصيل تتضح ألفاظه بالقيم، وتشع منها الموسيقا والمعنى، والبساطة والزخرفة والصورة والقوة الدرامية، والتكثيف الغنائى، والكناية واللون والضوء.

يخاطب الشاعر دائماً شخصاً آخر بطريق مباشر أو غير مباشر، هذا الشخص قد يكون القارىء، أو إنساناً ما ذا دور فى حياته، أو عواطف متباينة تتزاحم فى أعماق وعيه ، أو ورائه، وقد يتقمص الشاعر شخصية ما، نبى أو محب أو مفكر، أو راث أو ساخر أو هجاء، وقد يكون دوره الذى يختاره فرحاً ، أو تحديا أو يائسا أو حاقداً أو متسائلاً أو مطمئنا راضيا. وفى كل الحالات نحن نقوم القصيدة فى ضوء ما نحس من صوت الشاعر نفسه، وهو يسم الألفاظ بطابع يجعلها معبرة عن حقيقة مشاعره فى اللحظة التى أبدع فيها.

خصائص مميزة

مهما يكن تنوع لغة الشعر، فإنها يجب أن تتوفر على خصائص مميزة تتمثل فى :

- كثرة الألفاظ ذات الإيقاع الموسيقى، والقوة التصويرية ، مما لاتتطلبه الأجناس الأدبية الأخرى ضرورة، وإن تضمنت شيئاً منه تجملاً.

- استخدام عبارات ذات طابع نحوى معين ، بناء واشتقاقا، لتطويع الألفاظ لقانون الإيقاع، عروضا وقافية، فتجىء فى صيغ وأبنية لم نتعودها، وفى تراكيب قد لا يرضى عنها نحو العربية الصارم، وأحسب أن الشعراء كانوا ، فى البدء، وراء هذه الجمهرة من جموع التكسير فى اللغة العربية، لا مثيل لها فى أية لغة أخرى، وبعضها لايندرج تحت قاعدة محددة، ابتدعها الشعراء ونموها، وسلك الآخرون بعدهم طريقهم وتجاوزات أخرى أصطلحنا على تسميتها «الضرورات النحوية» أى تجاوز قواعد اللغة، وهو أمر مسموح به للشعراء دون غيرهم .

الصورة الشعرية

- وأخيراً فالملمح الجوهرى للغة الشعر يتمثل فى الصورة الشعرية، وهى والإيقاع يجريان سوياً فى حلبة الشعر، ويرتبطان على نحو لاينفصم، وهما الخاصيتان اللتان تميزان الشاعر عن غيره وتجعلان الشعر يختلف عن غيره من بقية أنواع الفنون، فالموسيقا والرسم - مثلا - ليس لهما معان، يدركها الذهن عند سماع اللحن ، أو تأمل خطوط اللوحة، وإنما تأخذان طريقهما مؤثرتين إلى الوجدان مباشرة، فيدركهما الإحساس، وينفذ بهما إلى الشعور ، ودور العقل فى هذا محدود، أما الشعر فيخاطب الوجدان، ويحيل الأفكار

الذهنية إلى أحاسيس، وهو يستخدم الألفاظ، ولها دلالات عقلية ونفسية خاصة، وإدراكنا لها يتم عن طريق الشعور والعقل، ولأن إدراك الألفاظ عقلية يقف فى طريق الشعر إلى نفوسنا، يستعين الشاعر بأدوات الفنون المجردة، ليغلب دلالات الألفاظ الشعورية على دلالاتها الذهنية، فيتخذ من إيقاع الوزن ، وجرس اللفظ، وموسيقا الجملة، وسائل ينفذ بها إلى عواطف سامعه أو قارئه، وكما تعتمد اللوحة على الخطوط والألوان فى إبراز إحساس الرسام ، كذلك تعتمد صورة الشاعر على جزئيات مؤتلفة، لو نظرت إلى كل جزئية منها مفردة لم تجد لها دلالة نفسية أو ذهنية ، إما باجتماعها فترسم لوحة شعرية متكاملة الجوانب.

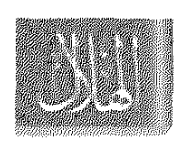
ترتبط الصورة الشعرية بتجربة الشاعر، تجسد فكرة أو عاطفة، وذات صلة قوية بالمشاعر التى تسيطر على القصيدة، وتتآزر مع بقية الأجزاء الأخرى لتنقل لنا التجربة كاملة، ويقوم الخيال بالدور الأساسى فى تشكيلها ، يلتقطها ببراعة من مشاهدات الواقع، وملابسات الحياة اليومية، أو يستمدها من مناظر الطبيعة ومهابط الجمال الرفيعة، ويمزج بين عناصرها المختلفة فتجيء خلقا جديداً يختلف فى طبيعته وخواصه عن العناصر الأولية التى تألف منها، فالمهمة الأولى، والأشد بساطة لدور الصورة الشعرية أن تجسد ماهو تجريدى، وأن تعطيه شكلا حسيا.

قضية اللغة

علينا ونحن نعرض لقضية اللغة فى الشعر أن نأخذ فى الاعتبار الأفكار التالية :

- الشعر يتجه إلى الوجدان.
- المفاهيم التجريدية تتجه بنفسها مباشرة إلى العقل والفهم.
- كل مايحرك المشاعر، ويتجه إلى الوجدان يصلنا عن طريق إحدى الحواس الخمس، أو من خلال أكثر من حاسة، ومن ثم فإن الشعر الحق يجب أن يؤثر فى الحواس أولاً. ولا يرد على هذه الفكرة الأخيرة أن ثمة ألفاظاً ذات مضمون تجريدى، كالحب والجمال والموت مثيرة للغاية، ولا يكاد يخلو ديوان شاعر من إحداها.

وهذا حق، ولكن هذه الألفاظ ، وما يشبهها تذكرنا رغم تجريدها بتجربة محددة حدثت لنا أول مرة عن طريق الحواس، لأننا لانحب معنى مجرداً، وإنما أشخاصاً أو كائنات أخرى محددة، رأيناها بأعيننا ، أو سمعناها صوتاً، وربما لمسناها أو تحسسنا كيانها، أو احتضناها. فعن طريق النظر أو السمع أو اللمس فحسب يتحقق الحب تجربة، وقديما قال بشار ابن برد ، وكان أستاذاً فى الغزل، وكفيفا: الأذن تعشق قبل العين أحياناً.



ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الجمال. لايكفى فى إدراكنا له أن نعرف أكثر من تعريف، أو أن نقرأ عنه أكثر من كتاب، وأن نقول : «الجمال كل مايمدنا بالمتعة» فسيظل ذلك معنى تجريديا لاقيمة له فى مشاعرنا، ولا يتجاوز المفهوم الثقافى الخالص، ما لم نجرب هذه المتعة حقاً، بتأمل شيء جميل، أو تذوقه، أو بسماع موسيقا حلوة .

وبقدر مايكون الانطباع الحسى أكثر دقة وأشد خصوصية، بقدر مايتضاعف تأثيره، ولهذا قلنا إن الكلمات العاطفية المجردة لاتصلح للشعر إلا على النحو الذى أشرنا إليه، لأن إدراكها عام وغامض، وهو أمر لايدركه الشادون فى الشعر حديثاً، أما كبارهم فيدركون تجربة وواقعا أنهم فى حاجة إلى شيء دقيق محدد.

ولكى ندرك مايمكن أن يحدثه تجريد الفكرة وتعميم الدلالة من تدمير للإبداع الشعرى، يكفى أن نتصور شاعراً تدور قصيدته حول الحكمة القائلة: «الجمال فى الحقيقة، والحقيقة فى الجمال»، يعرضها لنا عبر أبياته، فى تعريفات تجريدية ، أية إثارة يمكن أن تحدثها فينا هذه الأبيات غير تصور فكرة الجمال نفسها.

الشعر والوجد

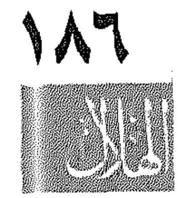
منذ أقدم العصور التى استخدم فيها مصطلح الشعر للدلالة على هذا الفن ، كان مفهوم الوزن جزءا منه. يقول أفلاطون فى رسالة «أيون» التى نقلها عنه سقراط: «إن الشعراء عندما ينشدون أشعارهم العذبة يكونون فى حالة من الوجد، فتفتنهم أوزانها وموسيقاها وتأخذ بمجاميع قلوبهم» وكان أرسطو يجعل الشعر فى مقابل النثر، ويعنى به الكلام الموزون.

وموقف علماء العربية من الوزن والقافية وأنهما من عمد الشعر الأساسية معروف، أما الشعر الخالى من الوزن ، أو المنثور، فهو من ابتكار شعراء القرن التاسع عشر فى فرنسا، قلدهم فيه المتشاعرون فى البلدان الأخرى، وحين مات فى فرنسا مات فى البلاد المقلدة أيضاً.

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت فى أوروبا حركة الشعر الحر، قام بها الشعراء أنفسهم، وهى لاتنكر الوزن، وإنما تدعو إلى التجديد، وانساق وراءها فريق من شعراء العالم الثالث أيضاً.

وماتت الحركة فى أوروبا، وحلت مكانها الدعوة إلى قصيدة النثر.

مع مضى نصف قرن من الزمان على حركة الشعر الحر فى مصر، صمت الزام، وانفض السامر، اختنق صوتها، وتبدد صداها، وخلفتها قصيدة النثر،



يلفها ادعاء عريض، وزهو مريض، وبعد مضى ربع قرن على مولدها، تخلى عنها الناقد الكبير د. محمد عبدالمطلب، بعد أن احتضنها، وعرف بها فى كتابه «قصيدة النثر» وسرعان ما أدرك هزالها وعبثها ووهنها، فعاد إلى الحق والرجوع إلى الحق فضيلة فتخلى عنها، وكتب : «من قصيدة النثر إلى نثر القصيدة»، وكان أستاذ المرحوم أحمد الشايب يسمى «نثر القصيدة» «حل الشعر»، وحل الشعر كحل النسيج يفك تماسكه، ويذهب بجماله، يخنق موسيقاه ويفتت كثافته، ويجعله غبارا تذروه رياح الزمان.

سقطت الحركتان رغم الزفة الصاخبة، غير البريئة، التى أحاطت بهما، لأن كلتيهما كان وافداً من وراء البحر، ولم يكن مبتكراً أصيلاً، وكل تقليد مآله إلى زوال، وكل ميلاد غير طبيعى نهايته الضعف والهزال والتلاشى، ولا يجدى معه العناد والادعاء!.

قالوا فى المرأة

* قال أعرابى حكيم : لا تتزوجوا من النساء سبعاً هن : الأنانة والمنانة والحنانة والحداقة والبراقة والشداقة والكنانة ، فالأنانة هى التى تكثر من الأنين والشكوى وعصب رأسها تظاهرا بالمرض ، والمنانة هى التى تكثر من المن على من فعلت فيه معروفاً، والحنانة هى التى تحن الى زوجها الأول ، والحداقة هى التى تنظر الى كل شئ وتشتهيه ولا تشبع ، والبراقة هى التى تقضى معظم يومها فى صقل وتزيين وجهها ، والشداقة هى التى تتشدق بالكلام على الفاضى والمليان ، والكنانة هى التى دائما تقول كان أبى كذا وكان يعمل كذا.

* يستطيع الرجل أن يجمع بين حب ثلاث نساء، فهناك امرأة يحبها ، وامرأة يعبث بها ، وامرأة يشكو إليها ، ولكن المرأة لا تؤمن إلا برجل واحد تحبه وتعبث به وتشكو إليه .

بلزاك

* قبل أن أتزوج كان عندى ست نظريات فى تربية الأطفال ، وأما الآن فعندى ست أطفال وليس لهم نظريات !

جان جاك روسو

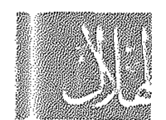
أنا والشعر

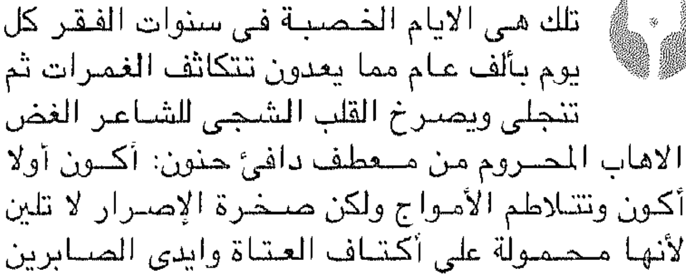
بقلم
الشاعر: د. حسن فتح الباب

تسقط من الشجرة المسحورة المقدسة أوراق كـثـيـرة حـتـى في أثناء زهو الربيع وتوهج الاخضرار.. ولكن الرمال الصفراء الزاحفة على خصب الذاكرة ترتد حسيرة على حافة أيام تتحدي قهر النسيان، لتغدو هى الحياة سامقة رغم قصرها، منتصرة على قوى الهدم والفناء، بهية وضاءة وهى خارجة من رحم العتمة وكهف الظلمة.

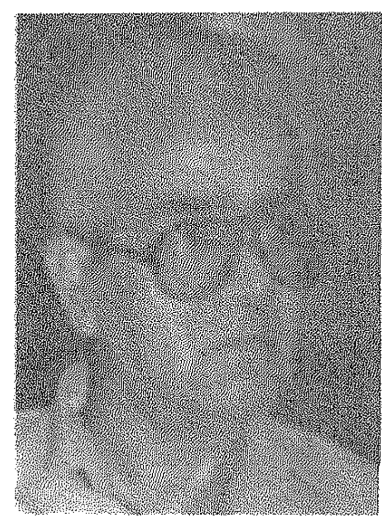
يوم يعدل أعواما، كل سنة تدور بسرعة ضوئية فى فلك الأبدية.. يوم مثل سفينة فضائية تبحر فى فضاءات الكشف ولا يرتل ربانها إلا صلوات المجد للإنسان الصاعد يغزو طلسم المجهول، منسوجة من براءة الحلم وصلابة الإرادة، مغفورة بخلايا الوجد وأنفاس الشاعر العاشق فى رحلة القمر عبر الآفاق القطبية فوق ضفاف الأرض الأم.

عرف الغلام اليتيم هذا اليوم غير مرة، ولولاه لظلت صخرة سيزيف معلقة على تخوم الحياة والعدم، ولاستمر سيزيف يصعد هاويا ويهوى صاعدا ولا خلاص.. تراها المصادفة التى تمد يدا رحيمة للغريق؟ أم هو النجم الثاقب يهدى إلى درب الحرية ويغسل جراح القلب المكلوم؟.



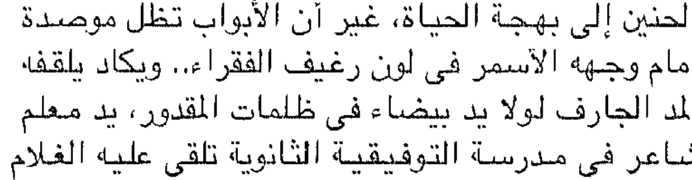


تلك هي الايام الخصبة في سنوات الفقر كل يوم بألف عام مما يعدون تتكاثف الغمرات ثم تنجلي ويصرخ القلب الشجي للشاعر الغض الاهاب المحروم من معطف دافئ حنون: أكون أولا أكون وتتلاطم الأمواج ولكن صخرة الإصرار لا تلين لأنها محمولة على أكتاف العتاة وايدى الصابرين الايدى القوية أيدى الرجال كما يصفها ناظم حكمت



حسن فتح الباب

قطرات الغيث الأول



بين الأيدى الصابرة يستنشق الصغير اليتيم عبير الحنين إلى بهجة الحياة، غير أن الأبواب تظل موصدة أمام وجهه الأسمر في لون رغيف الفقراء.. ويكاد يلقفه المد الجارف لولا يد بيضاء في ظلمات المقدور، يد معلم شاعر في مدرسة التوفيقية الثانوية تلقى عليه الغلام دروس اللغة العربية في مستهل الأربعينات وهو في الخامسة عشر من عمره.

ذات يوم لاينسى انتشلته هذه اليد من وهدة المغمورين ومدت له سلما يرتقى به إلى السماوات السبع، سماوات الشعر والمجد الذى لا يهون ولا يشحب جبينه رغم مرارة الأيام وجهامة الليالى القاسية، في الفناء الكبيرين «حصتين» والمعلم المهيب يسير وانى الخطى اقتربت منه فى تردد خجول، شجعتنى ابتسامته الحانية، فاقتربت أكثر حتى جاورته.. غالبت حيائى فعرضت عليه قصيدة كتبتها وكدت أطير بها نشوة كأننى حقا حفيد المتنبى. ضمت الورقة الصغيرة نبض قلبى وسر فرحتى بالحياة. ولا أدرى حتى اليوم من أين جئت بهذه الصور العجيبة ولم أكن حينها أعرف العشق الذى تحدثت عنه أبيات القصيدة، ولا عرفت هوى النواسى بالصبوح والغَبوق.. لا ريب أنها كانت من تراكمات الذاكرة اللغوية ونضح دروس «الإنشاء» «والمحفوظات»، ولكنها انبثقت فجأة كأننى لست قائلها:

هات كأس الراح ياصنو السنى
واسقنيها إننى نضوضنى
إن شكا أغيد فى طرق الرياح
عبثات الريح فالشاكى أنا
إن مصباحى جفاه نوره
ما لمصباحى يجفوه السنا

وغُصّ حلقى بالكلام بعد أن رأيت إمارات الارتياب ترتسم على وجه معلمى الجليل، وأنا الذى سعيت إليه ملتمسا على يديه بابا للنجاة من قدرى ويتمى. بابا أبز به أقرانى ممن كان بعضهم يتفوق علىّ بالملبس وأتفوق عليه بالمرتبة الأولى فى النجاح.. وتجسدت ريبته فى قوله: «أحقا أنت ناظم هذه الأبيات؟» وجمت وكادت الأرض تغوص بى لولا أن أدركتنى أبوته، فربت على كتفى بعد أن استجمعت عزيمتى وقلت بحسم: «أنا صاحب هذه القصيدة»، فهنأنى فاستعدت نفسى. فكان ذلك يوما بهيجا فى حياتى النفسية والأدبية.

أنا والشعر

بعثت بالقصيدة إلى مجلة (المجلة الجديدة) التى كان يصدرها ويرأس تحريرها الكاتب الكبير سلامة موسى، وإذا بيوم آخر أغر من ثمار يومى مع الشاعر المعلم على الجندى، فلقد اكتحلت عينى بنور قصيدتى منظورة على صفحات هذه المجلة التى كان لها شأنها فى الثلاثينات والأربعينات. ومازال رحيق الفخر على لسانى منذ ذلك الزمن البعيد.. أول نبتة خضراء فى صحرائى الموحشة، أول زهرة وأول حب فى محراب الإبداع.

ضابط فى القرية

الإرهاصة بالشعر الحر فى ديوانى الأول «من وحى بورسعيد» قدر لها أن تتجذر حتى تبلغ أوجها فى قصيدة التفعيلة عندى منذ عام ١٩٥٧، ولم يكن هذا التطور الدرامى ليتاح لى لولا تجربة عاصفة خضتها وكانت أهم تجارب حياتى وشعرى، ذلك أن المشيئة الإلهية كانت تدخر لى طريقا آخر غير الحقوق وغير الآداب، طريقا لم يذهب خيالى يوما إليه، وهو وظيفة ضابط شرطة.

ولكن سفينة الشاعر الضابط كانت منذورة لخوض أمواج عالية كالجبال، ورياح عاتية لا قبل لى بمقاومتها بأشرعة سفينتى الشاعرية وأجنحتها الرقيقة، فكانت مركبا للعذاب، وإن جاءت فى الوقت نفسه مشحونة بالإبداع. لقد أسندت إلىَّ وزارة الداخلية رئاسة نقطة شرطة فى الأقاليم، فوجدتنى غريبا فى زى غريب بسبب تلك العقدة التاريخية المتأصلة فى أعماق الريفيين، وهى كراهية الشرطة باعتبارها ممثلة للسلطة التى طالما اغتصبت أرضهم التى رووها بالدمع والدم، وفرضت عليهم الإتاوات، واختطفت الأبناء والآباء لتسخيرهم فى مزارع العثمانيين والمماليك والإنجليز دون مقابل إلا السياط تلهب الظهور ، وجندتهم فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

لقد طاردنى الفلاحون الفقراء بنظرات صامتة ولكنها أشبه باللعنات رغم محاولاتى الدائبة أن أقنعهم أننى ما جئتهم إلا للحفاظ على أمنهم ودرء الجرائم عنهم:

شربت أحزان القرى ، ولم تتبعنى
لم أكن بتابع أمين
كان ردائى صفرة نزفتها
من عرق السنابل
ولمن يكن لخطوتى التى جهدت كى تلين
غير أصداء السلاسل

وهكذا أشعل التناقض بين مهنتى كضابط شرطة وهويتى كشاعر خرج من صلب فقراء مصر شرارة قصيدتى (ضابط فى القرية) ١٩٥٧ وكثير من القصائد التى تضمنها ديوانى الثانى (فارس الأمل) سنة ١٩٦٥. كما تغنى هذا الديوان بالانتفاضات والثورات وحركات المقاومة فى الجزائر وفى فلسطين والعراق والأردن وفى أمريكا اللاتينية، فرثى أبطال الحرية الشهداء، وأشاد بالمناضلين الأحياء، فى نسيج شعرى كتب عنه الناقد الكبير مصطفى عبداللطيف السحرتى يقول: (يتمكن الشاعر حسن فتح الباب فى أداء قصائده من التجرد من التقريرية، والابتعاد عن الخطابية والتأدية الصاخبة المثيرة، وهى العيوب الشائعة فى شعرنا السياسى والنضالى. إن قصائده

تكتب نفسها بنفسها).

والقصيدة الثانية التى استقطبت أفكار النقاد المصريين والعرب بعد قصيدة (ضابط فى القرية) هى قصيدة (دم على البحيرة) وقد كتبتها أيضا سنة ١٩٥٧ ونصها :

لا تهبط أدنى الجسر
لا تهبط
ما أشقى صيادا ألقى شبكهْ
لكن الشبكة لم تنزف دم
...
(متولى) سأمان الليلة
لم يطعم زادا فى يومه
لم يخل إلى أولاده
منذ تبين أول خيط أسود
لم يسلم للظلمة نفسه
ومضى يمشى فوق الماء
صدر عريان وجبين يتشح الهم
والقارب أشلاء عظام منخوبة
فوق بحيرة:

وتتوالى الأحداث فى القصيدة حتى تنتهى بمثل ما بدأت به فى مقطعها الأول.

وهذه القصيدة مثل قصيدة (ضابط فى القرية) وغيرهما مما تضمنه ديوانى (فارس الأمل) من نضج الواقع الذى عشته فى القرى وعزفت فيه على قيثارة موالها الشجى. فالجسر أو السد الذى يلعب دوراً أساسيا فى تلك القصيدة وتتمحور حوله الرؤيا عائق فى البحيرة التى تفصل بين قرية (فيشا الكبرى) مقر نقطة الشرطة التى كنت أرأسها وبين قرية (فيشا الصغرى) بمحافظة المنوفية، وهو مبنى من الحجارة والأسلاك وأكوام التراب، وقد أقامه الإقطاعيون عند أضيق موقع فى مجرى البحيرة كى ترتطم به الأسماك فى حركتها فيسهل عليهم صيدها، على حين يضار الصيادون الفقراء من نقص الثروة السمكية فى سائر أجزاء البحيرة، ولا يجرءون على هدم السدود المحظورة قانونا مخافة بطش الإقطاعيين.

وكانت الشرارة التى فجرت هذه القصيدة هى استنفارى من خفراء البلدتين المذكورتين للحيلولة دون اشتباك أوشك أن يقع بين الإقطاعيين العتاة وبين الصيادين الصغار، ومنهم (متولى) الذى دلنى فى إحدى الدوريات الليلية التى كنت أقوم بها ممتطيا صهوة جواد وعن يمينى ويسارى جنديان من (الخيالة)، دلنى الرجل الذى يحمل اسم أحد أولياء الله الصالحين فى المعتقد الريفى إلى السد أو الجسر. واستطعت أن أفرق بين الجانبين المتنازعين. وتحولت الشرارة إلى قبس من نار الشعر المقدسة ومزج بين الواقع والخيال ، فتصورت أن المعركة قد نشبت وسالت فيها دماء أهل القريتين دون أن تقع المذبحة الضارية، وتخيلت متولى رسول سلام بين الشر والخير، وكأنه نبى يوحى ويوحى لى بصوته الضارع الصارخ فى البرية.

ومنذ تلك الليلة أصبح الصيادون الفقراء أبطالا لقصائدى، تتعدد اسماؤهم ويتوحد

مسارهم ومصيرهم حتى يتحقق العدل على الأرض بثورة الجموع ضد جلاديهم ومستغليهم، وشعارهم: الواحد للكل والكل فى واحد، وقد رسمت ملامح أحد هؤلاء الصياديين الكادحين المجهولين فى قصيدة بعنوان (شعبان الصياد) مطلعها:

صياد فوق بحيرة
وجه يحكى شبكة صيد
وقميص من زبد الموج

وقصائد أخرى من وحي هذه الفئة المغمورة التي تعيش على صيد الأسماك من مياه النيل ولم يلتفت إلى معاناتها الأدباء والشعراء والفنانون ،

تجربة المدينة

لم تكن القرية فى شعرى هى المطهر الذى لذت بصفائه ونقائه، ولا كانت الفردوس الذى حرمته حين عدت إلى المدينة الجحيم، أو كانت هى الأعراف التى تقع بينهما. ذلك أن تحولى من الرومانسية إلى الواقعية قد فتح عينى على التساوى بين القرية والمدينة، إذ لم أنظر إلى الطبيعة الخلابة فى الأولى ولا إلى الصخب والضجيج والزحام فى الثانية، وإنما نظرت إلى وجوه المتعبين المقهورين الصابرين فى الريف وفى قاع المدن على السواء، فعرفت عمق المأساة. وهكذا لم أكن شاعر الصدمة الحضارية التى تصيب من ينزح من القرية إلى القاهرة، فليست هذه إلا السطح الظاهرى وجانبا صغيرا من الحقيقة بل جانبا مخادعا، فالإنسان لا المكان هو الذى يسكن بصرى وبصيرتى، ولا يختلف إلا الإطار.

ومثل الشيخ العازف عرفت فى العاصمة باعة الفل والياسمين القادمين من الحوارى مثلي ومن الأزقة، وكتبت من وحيهم قصيدتى (شوارع المدينة)، كما كتبت عن عمال التراحيل الذين يبيعون عرقهم لقاء دراهم معدودة. وتخيلت أن أبناء متولى قد فارقوا قريتهم إلى القاهرة ابتغاء فرصة عمل، فدهمت أحدهم سيارة فارهة لأحد أبناء السراة المترفين وهو يبيع الياسمين أو يتجول ماسحا للأحذية، هكذا كتبتنى قصيدة (متولي) بعد خمسة عشر عاما من قصيدة (دم على البحيرة):

آه ماذا بعث الذكرى
آه (متولى) لماذا لا أقول:
إننى شاهدته كوما من اللحم مدلى
قمرا تحت الأفول
تحت أقدام السراة الراكبين
لم أكن أملك إلا أن أقول:
إننى شاهدت (متولى) صريعا فى المدينة
قمرا تحت الأفول
بينما كنت أغنى !!

مدينة الدخان والدمى

اتسع الأفق أمامي واكتسبت خبرة جديدة، وتعمقت رؤيتى للعالم حين أوفدتنى وزارة الداخلية سنة ١٩٦٥ فى بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية لبحث أساليب

مكافحة الجريمة. وهناك فى هذه الدنيا الجديدة العجيبة - كما كنا نسمى أمريكا - رأيت وسمعت ووعيت، وكتبت ديوانى الثالث (مدينة الدخان والدمى) الذى أصدرته هيئة الكتاب سنة ١٩٦٧.

وقد سميت بعض الشخصيات بأسمائها فى هذا الديوان مثل (إيفون) الجميلة، تلك الفتاة الأمريكية التى ترمز لعدم الانتماء إلا إلى ذاتها وتطلعاتها، وقد اقتلعتها من جذورها الأسرية النزعة المادية الاستهلاكية فى بلدها فافتقدت الدفء، وأصبح همها اقتناء سيارة واللهاث بعد الكدح اليومى الرتيب خلف هذا السراب والخواء الروحى:

(إيڤون) لم توقد لنا الشموع
أوقدت الضلوع
لما احتوتنى نارها
وانسدلت أستارها
وذابت الأحلام والدموع
والهفتنى
تناثر العبير
ورقرق الغدير

أما الشخصيات الأخرى التى فجرت قلبى بمأساتها أو بضياعها فلم أذكر فى شعرى أسماءها لأنها نماذج لكثيرين فى الموقع الاجتماعى ذاته، ولكنى ذكرت الشاعرة الأمريكية چيسى هاتكوك Gessie Hathcock عضو لجنة الحقوق المدنية المطالبة بحقوق الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية فى ولاية (أوهايو)

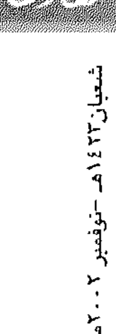
عيون منار

مرة أخرى يبتسم لى طالع الإبداع الشعرى إذ أرانى سنة ١٩٧٠ على ربى بيروت فى صحبة وفد المحامين المصريين الذين شرفونى بصحبتهم باعتبارى أحدهم مادامت كلية الحقوق هى بيتنا وأمنا التى وهبتنا للدفاع عن أصحاب الحق المهضوم. غير أن فرحة الإبداع قد تنبثق من مرارة الواقع، وكان هذا الواقع هو مأساة الفلسطينيين اللاجئين إلى لبنان، وليس لهم إلا المخيمات مأوى فى قيظ الحرور وفى برد الشتاء وعواصفه بعد أن طردهم أحفاد يهوذا من أرضهم واغتالوا أوطانهم وحاولوا أن يزوروا تاريخهم .

مسرات التنقل بين الروابى الخضر وأشجار الزيتون والأرز اللبنانية والوجوه النضرة ذابت فى تلك المأساة التى زلزلت روحى، وأشعرتنى مرة أخرى بمرارة العجز عن تغيير الأمر الواقع المفروض على اللاجئين إلا بأشعارى التى ذكرتنى ببيت أبى تمام الطائى المشهور: «السيف أصدق أنباءً من الكتب» فانتكأ الجرح الغائر الذى ألهمنى قصيدتى: (أغنية إلى جمال عبدالناصر) و(صوت منار) اللتين كتبتهما بدمى فى أعقاب كارثة حرب الساعات الست ١٩٦٧.

فكانت قصائد (عيون منار) امتدادا لهاتين القصيدتين وأن غلبت عليهما الأشجان الفلسطينية وجماليات المكان متمثلا فى الطبيعة اللبنانية الشاجية بهذه الأشجان وهى التي لا تروى العين من النظر إليها ولا يمل السمع من أغاريدها.

ولم يكن اختيارى هذا العنوان للديوان نسجا على منوال الشاعر الفرنسى العاشق



والمقاوم لويس أراجون فى ديوانه (عيون إلزا)، ولكنه جاء من وحى أبياتى الآتية :

رأيت فى «عين الصفا» عينى «منار»
وألهفتني يا وردتى على النهار
ينساب فى مراته الصغار
والهفى على العيون المشرعات والشهيد
منحدر على محفة الغروب
فى عبق الزيتون والبارود
وخفقة الصدور والصخور والشجر
مصعد بين أغاريد النساء والرفاق
سواعد ممدة
بنادق مسددة
فى وهجها يلتئم الجرح الدفين

وينتهى اللحن الجنائزى الثائر، ولكن المعزف سيظل بعد ذلك يغنى لفلسطين بعد أن أصبحت وترا أساسيا فى هذا المعزف يشدو للفجر القادم فى آخر النفق المعتم. ويتطور النفس الملحمي والسمة الدرامية فى ديوان (عيون منار) إذ يتوجه النص من خلال الشخصيات والأحداث بعيدا عن التهويم والتجريد، مما يجعل الفنان ممدوح عقل يحول نص قصيدة (شدوان) الملحمية التى كتبتها سنة ١٩٧٠ إلى عمل مسرحى، وهى إحدى قصائد الديوان التى تصور عذابات احتلال سيناء وبطولات حرب الاستنزاف. ويظل الحب أيضا مثلما فى سائر الدواوين وترا أساسيا آخر فى القيثارة الشعرية، وهو ما تصوره قصائد (لماذا تبعدين؟) و(ليلة صيف) و(عطر الياسمين) و(زيارة) و(غياب) مجدولا بخيوط من بهاء الطبيعة والإيمان بقدرة الإنسان على امتلاك مصيره، كما يتضح فى الديوان عبير المكان:

تخرج اليوم عصافير الخميلة
كلما طوقها الليل بعطر الياسمين
فتعالى نسمع الآن أغاريد الطفولة
وتعالى نرقب الآن شعاع الليل
يرتد على طول الأفق
وعلى الشرفة ظل الشمس يمتد
ويصحو الياسمين
ساكبا أنفاسه فوق الرماد المحترق

حبنا أقوى من الموت

كان الشعر ملاذى وصخرة النجاة التى أتشبث بها فى المحن، ولكنه كان همى ومحنتى أيضا، فلم أكد أمضى إلا عامين فى القاهرة وأستقر بها مع أسرتى بعد إصدار ديوانى الأول (من وحى بورسعيد) حتى طوحت بى قصيدتى : (أغنية إلى رائد الفضاء) إلى أقاصى الدلتا فى محافظة كفر الشيخ، وأسند إلى العمل فى (بندر كفر الشيخ). ولم يكن مقامى بالمدينة الريفية عند الظالمين محمودا، فنقلت منها إلى مركز

شرطة (سيدى سالم) حيث كان جوادى يكاد يطرحنى أرضا فى توثبه فزعا من عواء الذئاب فى البرارى الشاسعة المفروشة بالأشواك، وذلك فى أثناء قيامى مع شرطيين من رجال (السوارى) بالدوريات الليلية.. كان إبداعى الشعرى يشتتنى، فى حين يُثاب شعراء آخرون بإيفادهم فى نزهات ورحلات أو أعمال رسمية بالخارج. ولكن العام الذى قضيته فى (سيدى سالم) كان نهاية عهدى بعذابات العمل بالريف، وآن للطائر أن يعود إلى عشه، وأن يتحفظ كما أمر فى مخالطته للأدباء لأن منهم من يخرج بقلمه على السلطة أو يضمر بها شرا. غير أنى لم أحلف يمينا بتطليق عربة الشعر أو عدم النشر كما أريد بى، لأن فى هذا فراقا لحياتى وحكما بإعدامى دون جريرة.

وقد أتيح لى بعد أن انتقلت إلى القاهرة أن أصحب بعض الضباط إلى بعض مناطق الإشعاع والفخار الوطنى فى بلادنا، ومنها مدينة (السويس) وأطلال (خط بارليف) فى الضفة الشرقية لسيناء، وذلك فى أثناء الهدنة التى أعقبت وقف إطلاق النار وصدور القرار ٢٤٢ الشهير، ومهما أصف وأصور فلست بمستطيع أن أعبر عن حزنى حين مررنا بتلك المدينة الخالدة فى تاريخ المقاومة الشعبية فوجدناها قد تحولت إلى أنقاض وأشباح ، وباتت أثرا من بعد عين. كما أعجز أيضا عن التعبير عما شاهدت من آثار بطولات أبناء مصر الأكرمين والذين عبروا ودمروا الحصون المنيعة بأرواحهم الفدائية قبل أجسامهم وأسلحتهم فغسلوا عار ١٩٦٧، واستعادوا كرامة الشعب العربى كله وشرفوا الجندى المصرى خير أجناد الأرض كما جاء فى الحديث النبوى، وعدلوا ميزان التاريخ الذى اختل.

لقد حاولت أن أرتفع بشعرى إلى مستوى الحدث التاريخى العظيم، فكتبت قصيدتى الملحمية الطويلة (إلى الملتقى يا نخيل السويس) واستهللت بها ديوانى (حبنا أقوى من الموت) الذى صدرته بكلمة إهداء إلى زوجتى ، تلميحاً لا تصريحا، وربما لم أذكر اسمها الحبيب على عادة معظم شعراء العرب، فلعل بى أثرا جاهليا بالنظر إلى أصلى العربى الصعيدى. فكانت هذه الكلمة: (إلى التى علمتنى أن الحب عطاء يسع العالم كله، والذين علمونى أن الحرب دفاعا عن الحب شرف للإنسان ومنار للغد) وهكذا جمعت بين كل أحبابى عشاق الإنسان وأبناء الأرض الطيبة.

وظلت الروح بعد العودة من السويس وسيناء تجيش بالنغم المتفجر حينا والمنساب حينا آخر ، وتفيض شعرا كلما عدت إلى بيتى بعد يوم عمل شاق. فلم تبرح المشاهد خيالى وأصداء تكبيرة الجنود - كأننى حضرت المعارك - سمعى. وضممت القصيدة المذكورة إلى أخريات كنت قد كتبتها من وحى حرب الاستنزاف فاجتمعت لى مخطوطة ديوان عرضته على الناقد والكاتب المسرحى الدكتور رشاد رشدى إذ كان يرأس تحرير مجلة (الجديد) ويشرف على إصدار سلسلة شهرية تتناول الشعر والقصة والرواية، وتتبع المجلة و(مطبوعات الجديد) الهيئة المصرية العامة للكتاب. وكان الرجل يدفع ما أقدمه إليه من أشعار إلى الطبع معبرا لى عن إعجابه، وكتب على غلاف ديوانى (حبنا أقوى من الموت) الذى استلهمته من ملحمة أكتوبر شهادة سأظل معتزا بل فخورا بها: «بهرنى شعر حسن فتح الباب بطابعه الفنى والإنسانى.. إنه شاعر عالمى بكل المقاييس» والمقطع الآتى من القصيدة التى يحمل اسمها الديوان:

ثم كانت هجرتى إلى الجزائر منعطفا قاسيا فى حياتى وعلامة فارقة فى شعرى،



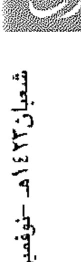
فما عانيت من قبل رغم تتابع الهموم محنة ، بمثل هذه الحدة، إذ اختلط الشعر عندى بالسياسة، وإن لم تكن تلك إلا سبيلا للمقاومة التى عرفها شعرى من قبل. ولم أهدأ أبدا فى تلك المرحلة من المسيرة . فكأننى كنت أتعجل الأحداث لأرى نهايتها قبل أن تؤذن شمس حياتى بالمغيب، وفى ظل المنفى الاختيارى كسرت كوابح القلم فأفصحت عما كان رمزا فى قصائدى. وعرفت رجالا كما شاهدت أنصاف رجال. ووعيت كيف يشوه العمل السياسى صاحبه إذا كانت الأهداف فيه مشروعة، ولكن الأساليب ميكافيلية. وزرت من البلدان فى أوقات متقاربة ما لم أكن أحلم بزيارته فى سنوات، ولم أخضع لمحاولات الاحتواء استغلالا لعاطفتى الوطنية والقومية وإحساسى الإنسانى. وكان فضل الجزائر أنها وطن الحرية للجميع، فلا محاولات للاحتواء سواء بالإغراء أو الوعيد لأن جذور الحرية ممتدة فى أرضها منذ ثورتها العظمى، ولتأثرها بحركات الحرية فى العالم وتأثيرها فيها ولإطلالها عبر البحر الأبيض على أوروبا حيث النظم الديموقراطية.

هكذا عشت عددا من السنين - والعمر قصير - أضعافاً مضاعفة معاناة وإبداعا، كأنما أفر من قدرى الموسوم بالأشباح خائنة الأعين وما تخفى الصدور إلى قدر مجهول، أو من قدر مجهول إلى قدر معلوم. وكان ديوانى (وردة كنت فى النيل خبأتها) الذى صدر فى تونس فى ديسمبر ١٩٨٥ الثمرة الأولى لتلك التجربة ، تجربة المنفى الاختيارى الذى انقطعت فيه عن بلادى عدة أعوام متوالية ولم أعد إلا بعد أن تغير النظام.

وكانت قصيدة (إسكندرية) هى أولى القصائد التى كتبتها في وهران، أما القصيدة الثانية التى بُعثت فيها من شدة وجدى على مصر وقد فارقتها مضطرا ومختارا، فكانت (أمسية فى وهران) التى كتبتها فى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٧، فكانت أول القطر الذى انهمر بعد ذلك حتى أصبح ديوان (وردة كنت فى النيل خبأتها)، وقد استوحيتها مثل كل قصائدى من حدث صغير فجر الأحاسيس والذكريات الكامنة عن ثورة التحرير الجزائرية ممتزجة بذكرياتى عن وطنى.. فجأة ، وانبثق المكان عن فتى عرفنى إذ كان من طلاب الحقوق فكان دليلى إلى حيث قصدت. وفجأة لمحت لافتة زرقاء صغيرة على رأس الطريق.. ويا للروعة إذ حملت اللافتة حروفا عربية باسم البطل الجزائرى الأسطورى (العربى ابن مهيدى) الذى دوخ الجيش الفرنسي الاستعمارى.

مواويل النيل المهاجر

تعددت رحلاتى إلى مختلف البلدان شرقا وغربا خلال سنة ١٩٨٦ ولاسيما فى عطلة الصيف، إنطلاقا من الجزائر حيث أستطيع أن أستقل طائراتها بتذكرة سفر أدفع ثمنها بالعملة المحلية مما يتبقى معى من مرتبى، فى حين أدخر العملة الصعبة المستحقة لى بمقتضى عقد العمل المبرم بين الجامعة وبينى، ريثما أعود إلى مصر فأعيش على هذا المدخر حيث كنت قد استقر رأيى على التفرغ للشعر وللأدب عامة بعد استقالتى من الوظيفة الجامعية . وكنت قانعا بالمرتب الجزائرى وإن كان أقل المرتبات فى الدول العربية، نظرا لما وفرته لى الإقامة فى هذا الوطن العربى الذى أحببت مقاومته التاريخية للاستعمار، ولما منحته الطبيعة من جمال يعدل وربما يفضل أجمل البلدان الأوربية، لأننى دخلت أخيرا فى قلوب كثير ممن عرفت من الوهرانيين بعد اختبار طويل، بالنظر



إلى ما طُبع عليه الجزائريون من توجس وارتياب فى الأجانب والغرباء ولو كانوا عربا بل ربما لأنهم بعض العرب الذين لم يعينوا الجزائريين فى كفاحهم كما أعانتهم مصر.

لقد اتيحت لى فرصة عمل فى ليبيا والكويت وكان فى مُكْنتى أن أجد مثلها فى دمشق أو بغداد ، ولكنى آثرت الجزائر التاريخ والطبيعة والأمل فى ولادة الثورة، آثرت مجتمعا يقوم على العدالة الاجتماعية والحرية، ويطمح إلى المشاركة بقسط موفور فى التقدم الحضارى، وفيها أحببت شخصيات نعمت بصداقتها، ولم أجد عناء مثل الكوابيس أحيانا إلا فى دهاليز البيروقراطية، وفى كثير ممن استلبتهم الحضارة الفرنسية فى قشرتها، فأعرضوا عن العناصر الوطنية من موروثهم وعن أشقائهم العرب ممن أوتوا وعيا متقدما وأحبوهم.

وولد ديوانى (مواويل النيل المهاجر) من رحم الحنين إلى الوطن ومن عذابات المخاض العربى والانكسارات المتعاقبة . كما ولد من بطولات المقاومة الفلسطينية والجنوب اللبنانى، فلم يكن تهويما رومانسيا، بل كان نضجا للواقع ذابت فيه آلامى فى بوتقة الهم الإنسانى، وتوحدت فيه بالوطن وبالعالم ، وتغنيت بالحب الذى تركت على ضفاف النيل، والعشق الذى شهدت على ضفاف الدانوب حين قدر لى أن أمضى بعض شهور الصيف فى بودابست . ولكن النيل كان يشع دائما على نهر السين فى باريس حين زرتها وعلى نهر الدانوب فى المجر وعلى طيفىْ دلال المغربى وسناء محيدلى وهما يصبغان أمواج النهرين بلون الورد والشفق والدم . مما انعكس على شعرى ألوانا للطبيعة وللنفس وللناس، للحب وللموت ، للماضى والواقع الآتى، واحدة من النقائض المتصارعة زمانا ومكانا وإنسانا.

ومن وحى السؤال الذى ألح علىّ بالجزائر عام ١٩٨٢ـ - وللتواريخ دلالتها - أن أقطع الغربة والمنفى الاختيارى فأعود إلى تراب مصر المضمخ بالطيب أو أواصل رحلة التشرد، كتبت قصيدتى (الجذور) التي طالت كأنها ملحمة مختزلة التجربة المرة، ومفعمة بالنغم الذى لم يتم ، ومصحوبة فى شكل القصيدة المدورة:

يراودك السابقون الألى أنكرونا
لأنا عشقنا وميض الرماد القديم
وطيب المساء على بيتنا المشرقى
وعينين فى المشربية أغنيتين
لطفل يتيم.. عشقت حصى قريتى..

وفى عام ١٩٩٠ أصدرت لى هيئة الكتاب ديوان (أحداق الجياد) وبعده فى عام ١٩٩٣ (كل غيم شجر.. كل جرح هلال) ثم نشرت لى هيئة قصور الثقافة سنة ١٩٩٥ ديوان (سلة من محار)، وبعده صدر لى ديوان (الخروج إلى الجنوب) سنة ١٩٩٨. كما نُشرت لي مسرحية شعرية بعنوان (محاكمة الزائر الغريب) وكانت ثالث مسرحية كتبتها، ولكن الأولى والثانية مازالتا مخطوطتين بين أوراقي.ومازلت - وأنا فى شتاء العمر - أتنفس شعرا ، فقد صدر هذا العام (٢٠٠٢) ديوانان، أولهما (العصافير تنفض أغلالها) عن هيئة قصور الثقافة، والثانى (البلبل والجلاد) عن هيئة الكتاب. وأتمنى أن ألفظ آخر أنفاسى وعلى صدرى ديوان شعر كما مات الجاحظ بعد أن سقطت عليه أكوام كتبه.

لا تزال كفها تغسل وجهى

بقلم
صافى ناز كاظم

فى واحد من صباحات عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣، صحوت وكفها تغسل وجهى على حوض الحمام بمنزلنا ١٦ شارع الرصافة بالإسكندرية، نظرت مستفهمة، ضحكت وهى تقول: «رايحين مصر». هى وأنا فقط ذاهبتان إلى «جماعتنا» فى مصر. «جماعتنا» كان تعبيرها المقصود به «بيت خالى» الذى به جدتى وخالتى. فرحانة هى بالسفر وأنا غير مهتمة سوى بالتساؤل: «طيب وفاطمة؟». «فاطمة» شقيقتى وصاحبتى تكبرنى بعامين، ولا أظن أننى كنت - قبل ذلك - قد افترقت عنها فى مشوار أو فسحة أكون فيها وحدى بدونها، قالت ماما: «فاطمة هذه المرة قاعدة مع بابا ومعصومة وإبراهيم وإسماعيل». كنت أعرف أن «فاطمة» ستغضب وستبكى وستقول: «اشمعنى صافى..» .. ولم يكن لدى مانع البتة من أن تأخذ ماما معها «فاطمة» وأظل أنا نائمة فى سريرى.

كانت هذه الرحلة أول وعى لى بـ «السفر». كان «السفر» بين القاهرة والاسكندرية يتم ولا أدركه. أذكر أننا كنا بالقاهرة. أذكر أننا بالإسكندرية، لكن كيف تم الانتقال؟ لا أذكر. هذه كانت المرة الأولى التى أذكر فيها الحنطور الذى ركبناه مع والدى إلى «محطة مصر». ركب معنا والدى القطار وجلس قبالتنا أنا وماما حتى تصورت أنه آت معنا إلى «مصر»، لكنه بعد أن دردش مع ماما قال: «سيدى جابر .. يا الله .. مع السلامة»، ونزل من القطار وأنا أحسب أن «سيدى جابر» صاحبه وهو ذاهب للقائه. ماما كانت منشرحة مبتسمة ممنونة. أنا قريبة منها وهى مهتمة بأن تنقل إلىّ إحساسها بالفرح،



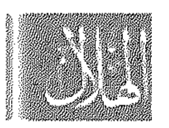
الرضيعة صافى ناز على حجر أمها بين آل كاظم - ديسمبر ١٩٣٧

وأنا غير مكترثة بالتميز الاستثنائى الذى حصلت عليه ولم تحصل عليه «فاطمة». قالت لى : «ح تشوفى أختك أمينة». «أمينة» كانت تقضى الإجازة السنوية فى «بيت خالى» مع صديقتها «ليلى بنت خالى» .كنت كأنى نسيتها خلال أشهر الإجازة . حين وصلنا كان الجميع مشغولا بالترحيب بأمى وأنا تائهة بين الأرجل الطويلة، أرسلونى مع الأسطى نصرى السائق لإحضار «أحمد» من المدرسة. بدا «أحمد» فرحا فرحا غامرا بى. أخذ يضحك ويلوح لزملائه: «صافى بنت عمتى». أبيض بدينا أحمر الخدين، لم يتجاوز العاشرة، إذ كنت أنا قد تجاوزت الخامسة بقليل. ظل يضحك بفرح حتى عدنا إلى البيت فجرى إلى عمته يرحب بها وعدت أنا إلى الإحساس بالغربة والوحدة. لو كانت معى «فاطمة» كان حالى سيكون أفضل. «أمينة وأحمد وليلى» رابطة فى عمر متقارب، أصدقاء، وأنا وحدى منكمشة بدون «فاطمة» المقتحمة القادرة على فرض مطالبها ووجودها. بين حين وآخر ماما تربت على، ولكنها مع والدتها وشقيقتها وشقيقها وبقية أقاربها، أأتنس بها فقط ساعة النوم إلى جانبها، وفى الصباح حين تحممنى وتغسل بكل كفها وجهى، بعدها يبدأ برنامجها الذى لا أذكر أننى كنت أصاحبها فيه، تتركنى مع جدتى وخالتى. حاولت أن «أشبط» فى الذهاب إلى بيت ابن عمها «الدكتور نشأت»

معها ومع «أمينة وليلى وأحمد» لكنها «حايلتنى» باعتذار لطيف، وحين تشبثت – كما تفعل «فاطمة» عادة – نهرنى خالى ففزعت وجفلت وأحسست بالإهانة التى لم تخففها محاولات جدتى وخالتى: «تعالى ياصافى، خذى ملانة واقعدى فى البلكونة..» .كانت «البلكونة» فى الطابق الثانى وتطل على الحديقة والنخل وشجر الجوافة والمانجو والنارنج، وحين جلست بها لم أكف عن البكاء من دون صوت، كما أننى لم أتوقف عن طرقعة «الملانة» وأكل حمصها الأخضر، بكاء وأكل متواصلان حتى غلبنى النوم، وصحوت فى الصباح وماما تضحك وجدتى وخالتي تتندران لأننى رغم البكاء لم «أعتق الملانة».

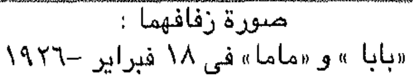
ماما فى شبابها عام ١٩٤١





★★★

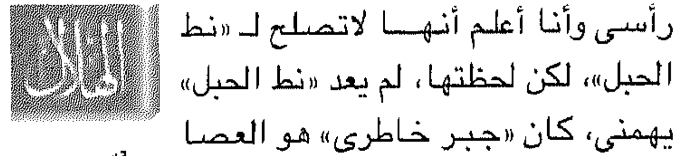
أذكر الحنطور الذى أعادنا إلى بيتنا بشارع الرصافة. وأذكر وجه «فاطمة» غضبان حاسدا رحلتى، وأنا فى شوق إلى صحبتها ولعبنا وتكاملى مع شخصيتها القائدة. هى صديقة لوالدي وأنا أحبه ولكننى أهاب الاقتراب منه. لقطة واحدة حين أذكرها تدمع عينى حتى الآن، صوّرتها فى شعر المراهقة:



صورة زفافهما :
«بابا » و «ماما» فى ١٨ فبراير -١٩٢٦

«أبى بعيونه الحلوة، يدلى الحبل لى لما، رآنى وحيدة أبكى، وكنا شلة تلعب، وأهتف: لن أكلمهم، فقد عدونى مخطئه، وقالوا هذى حمرقة، لما قلت : لم أخطىء..»».

وأصل الحكاية أن والدى كان يجلس فى الشرفة، ورآنى فى حوش اللعب مستبعدة من لعبة «نط الحبل»، وأقف كسيفة، فلم تكن «فاطمة» معى، التى بإمكانها أن ترهب الجميع وتأخذ لى حقى، فنادانى، بإشارة من يده، أم قال «صافي»؟، لا أذكر، وحين ذهبت إليه أعطانى «دوبارة» وكأنه قال : «نطى بها وحدك». فرحت بالاهتمام والعناية وتأثرت لتأثره من موقفى المهزوم. أخذت «الدوبارة» شاكرة بهزة رأسى وأنا أعلم أنها لاتصلح لـ «نط الحبل»، لكن لحظتها، لم يعد «نط الحبل» يهمنى، كان «جبر خاطرى» هو العصا السحرية التى غسلت هزيمتى وشدت قامتى. كيف أحسست فى طفولتى تلك، وأنا بنت خمس أو ست سنوات، بكل هذا الاحتشاد العاطفى الحنون فى لقطة صامتة لم تستغرق دقيقة أو دقيقتين؟



غيرها فلماذا أصر على تحديد «من زوجتى خديجة هانم» .. سوى أنه أراد أن يسجل لها هى «الولادة» قبل أن يسجل لى «الميلاد»؟

★★★

هو محمد كاظم أصفهانى، أحد رواد فن الخط العربى، لكنه كان يعتز بكونه «الخبير الفنى فى تحقيق الخطوط والأختام أمام الاستئناف العالى الأهلى والشرعى والمختلط وعموم النيابات»، حتى أننى وأنا طفلة كنت أجيب من يسألنى عن اسمى، قائلة: صافى ناز محمد كاظم أصفهانى الخبير، إذ تصورت أن «الخبير» لقب أصيل للعائلة. توفى فى ١٩٤٤/٤/٤ قبل أن أبلغ السابعة بأربعة أشهر ونصف، لكننى مازلت أذكره وهو جالس يكتب بالقلم «البسط» والحبر الشينى،

والدى محمد كاظم أصفهانى نموذج لأناقة شباب سنة ١٩٠٠!

★★★

دائما كنت أقرب إليها منه، ولعلى كنت أحبه لحبه لها.

كتب فى مفكرته الزرقاء لعام ١٩٣٧ فى صفحة : «الثلاثاء ١٧ أغسطس ولدت لى إبنة من زوجتى خديجة هانم أسميتها صافى ناز جعلها الله من أبناء السعادة». لم يكن لديه زوجة أخرى

ويجرب القلم فى عبارات ظريفة يلاطف بها أمى، خديجة أحمد على أبوحديد، مثل : «أنت فلة»، و«معلهش»، و«ماتزعلش»، و«إنت كويس». وأحيانا يكتب «زهقت جدا»، و«زهقت قوى، و«آه من الحب» كان معروفا بالتهذيب والمرح والقدرة على إطلاق النكتة يخاطب أمى فى خطاباته: «عزيزتى خديجة هانم حفظها الله...» و«حضرة حرمى العزيزة السيدة خديجة هانم حفظها الله وأبقاها بصحة هى والأنجال الكرام آمين..». ذاعت شهرته فى الفترة مابين ١٩٠٠ حتى وفاته ١٩٤٤، وكانت ذروة هذه الشهرة عندما تم اختياره عام ١٩٢٠ على رأس الخبراء الذين انتدبهم الدفاع لتحقيق الخطوط فى قضية «المؤامرة الكبرى» .عندما تزوج أمى فى ١٩٢٦/٢/١٨ قالوا إنه كان فى الأربعين وكانت فى العشرين، ولكننى رأيت أخيرا رؤيا منامية كان بها وسألته : «بابا حضرتك اتولدت سنة كام؟» فقال : «١٨٨٠»، وأنا أعتقد أن هذا التاريخ هو الأرجح لأن أوراقه تقول إنه كان نشطا فى التدريس والكتابة والعمل منذ ١٩٠٠، وبعد وفاة والده عام ١٩٠٢، أصبح هو المسئول مسئولية كاملة عن الأسرة: والدته وشقيقه الأصغر وشقيقته وابنة شقيقته، ولا يضيره أنه، بعد كل هذه المسئوليات، وجد فرصته للزواج وهو فى الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين، وقد عاشت أمى معه حياة سعيدة عزيزة، واحتفظت ، بعد وفاته، بكل أوراقه ومعظم آثاره، حتى ولو كانت زرا واحدا من أزرار قمصانه .

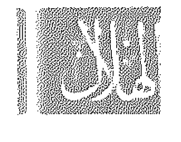
★★★

يبدو والدى فى صوره قبل الزواج من أمى وبعده، أنيقا أناقة عصره : الطربوش والمنشة والعصا والكتينة – (وهى سلسلة من الذهب نهايتها ساعة جيب بغطاء ذهب مزركش) – والشارب المفتول إلى أعلى. أصبحت أمى أرملة فى الثامنة والثلاثين، مسئولة عن الحفاظ على مستوى معيشتها ومعيشة أولادها كما كانت قبل رحيل الوالد، فابتكرت منطقا زرعته فى نفوسنا مفاده أنه من قلة التهذيب أن نأخذ مصروفا لنشترى به الحلوى، التى تعود التلاميذ شراءها فى المدرسة، وكان المصروف اليومى فى طفولتى حده الأقصى قرشين صاغ وحده الأدنى نصف قرش، أى خمسة مليمات، كانت هناك شيكولاتة نسميها «شيكولاتة» العفريت» تقضمها زميلاتى فى الروضة والابتدائى بتلذذ وتمط معهن بحشو العسل والكراميل. كانت تستهوينى حركة المط والمضغ، لكننى كنت أعرف أن «ماما» تستطيع أن تصنع لنا فى البيت شيئا مشابها أنظف وألذ .

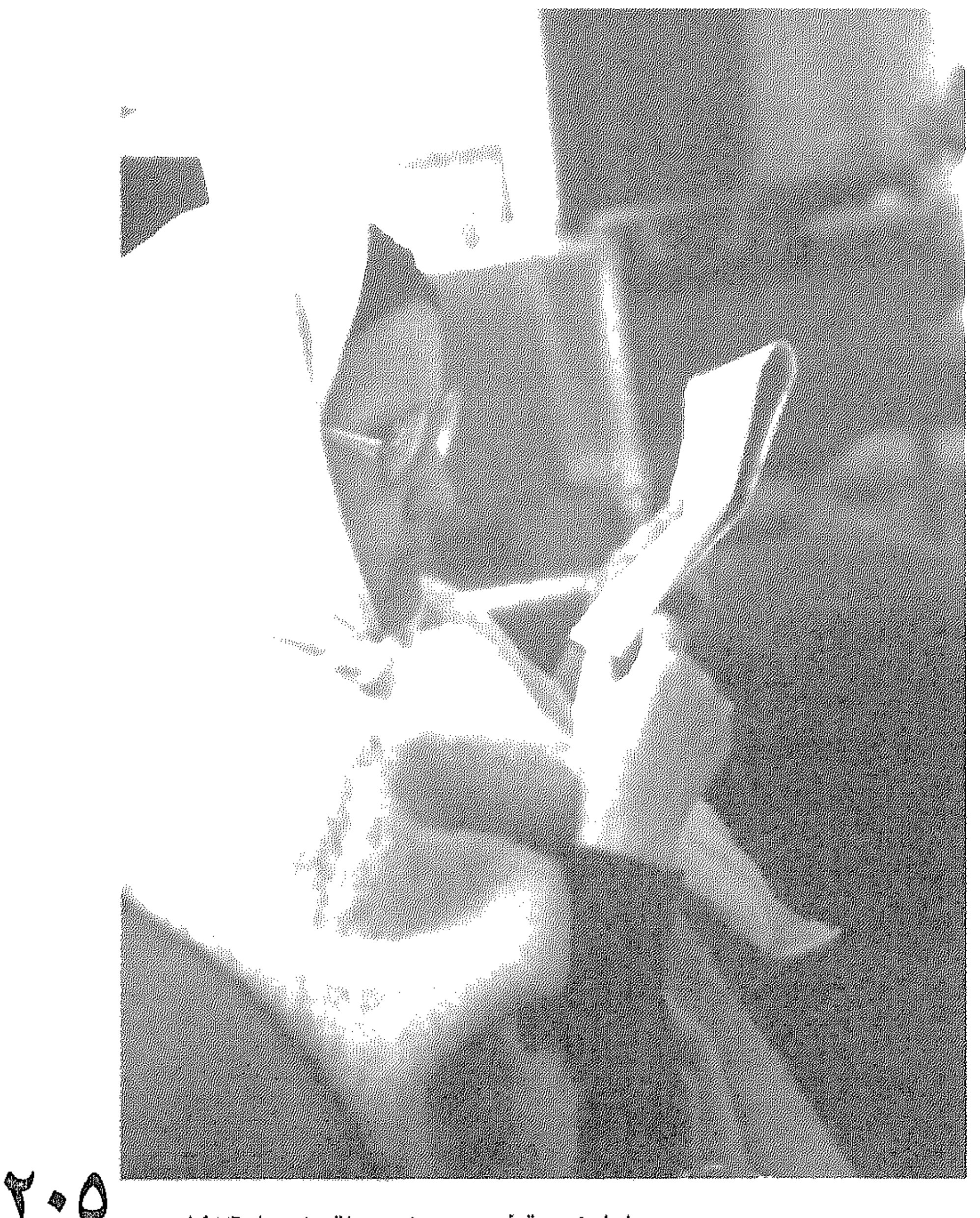
ترسخ فى أعماقى احتقار «الشبرقة» – أى شراء كل ماتهواه النفس، وماما تردد ليل نهار على مسامعنا بيت الشعر: «وخالف النفس والشيطان واعصهما، وإن هما محضاك النصح فاجتنب!» –

ومن عمق هذا الاحتقار للشبرقة كنت أتعجب من البنات أولاد الناس الطيبين اللاتي يهرعن - مثل «الغجر» - في كل فسحة بين حصص اليوم الدراسى لشراء الأيس كريم والبطاطا «المعسلة قوى»، واللب والسودانى وسائر بضائع عم أبو العلا الذى كان يقف بعربته خارج سور المدرسة. كان اهتمام أمى من بداية مسئوليتها، بعد وفاة أبى، بقيمتين : النظافة والتحصيل العلمى والثقافى. تحترم التقشف، وتحتقر الإهدار، وتتقزز من الإسراف، وشعارها : «ليس عيبا أن ترتدى قديمك، العيب أن ترتدى القذر». أما استراتيجيتها فتتلخص: «لا زواج لبنت أو ولد قبل الحصول على الشهادة العليا» .تعمل فى البيت من الفجر حتى العشاء، تطهو وتكوى وتخيط ملابسنا وتراجع مظهرنا العام قبل الخروج لتتأكد من النظافة والانضباط، وكنا بعد وفاة والدى قد انتقلنا إلى القاهرة عائدين إلى حى الأجداد «العباسية»، نسكن فى الشارع العمومى، شارع العباسية. كان بيتنا - الذى مازلت أحبه وأحن إليه رغم زواله من الوجود بالهدم عام ١٩٤٩ - مكونا من طابقين فى كل طابق شقتان، وكان من حق سكان الدور العلوى الحصول على غرفة إضافية بالسطح، استغلتها والدتى فى تربية الحمام والفراخ والأرانب، وكانت مهمتى هى إطعام هذه الدواجن، أحمل لها البرسيم وحب الفول والذرة والجزر وأمارس هوايتى للغناء بترديد ما أحب من الرصيد الفنى لحديث الأطفال لبابا شارو، أداعب الحمام وأغنى : «لاتخافى ياحمامة والقطى الحبّ الكثير، ثم عودى بالسلامة وأشكرى الله القدير» . لاحظت أمى عشقى للغناء وكنت قادرة عليه، تبتسم من ورائى وتقول بفخر : «صافى تحفظ سلوا قلبى لأم كلثوم» . تنقل لى «فاطمة» هذا الكلام لأن ماما لاتبديه أمامى أبدا حتى لا أطمع وأصير مغنية! هى نفسها كانت تغنى بحلاوة «على بلد المحبوب ودينى، زاد وجدى والبعد كاوينى»، ذلك قبل وفاة أبى، فى بيتنا بالاسكندرية وكنت أسمعها بشغف وهى منهمكة فى قلى «السمك والبساريا»، وكنت أقول : «ماما عاوزة تزور جماعتها فى مصر!». كانت تعتز بحفظها لثلاثة آجزاء من القرآن الكريم : «قد سمع»، و«تبارك»، و«عمّ». وتعتز بأنها تستطيع أن تراجع معنا دروس اللغة الإنجليزية بتسميع الكلمات، وتتأسف مرارا لأنها أضاعت - بنفسها - من يدها فرصة التخرج من معلمات السنية، وكان بإمكانها آن تكون مدرسة وناظرة ومفتشة! تقرأ جريدة «المصرى» و«أخبار اليوم» وكل مؤلفات شقيقها الأكبر - ومربيها بعد وفاة والدها - الأديب الرائد محمد فريد أبو حديد - تفتخر به وتحبه كأنه وطن، وقد ورثتنا هذا الافتخار الذي تعمق لدى بعد قراءتي المتأملة الدارسة لمؤلفاته الكاملة





- تحب المجاهد الوطنى مصطفى كامل - وغضبت من د.محمد أنيس عندما قال عنه كلاما لم توافق عليه! - تحفظ الكثير من الشعر والأمثلة الشعبية وتستخدمها فى اللوم والتقريع والتأديب، وإن كان معظم شخطها فينا باللغة الفصحى! خفيفة الظل جدا ولاذعة ، لماحة، تطلق الدعابة من دون أن تضحك تطبيقا لإيمانها العميق بأن «كثرة الضحك تميت القلب»، وكانت عندما تفلت منها أحيانا ضحكة لمفارقاتى ومشاغباتى معها تسارع بقولها: «والله مابضحك!» تكره السوقية واللفظ الفاحش ورفع الكلفة - ولو بين الأصدقاء والأنداد - وتحذر من «الدفلقة»، وتقول : «زد غبا تزدد حبا»، بمعنى أنه من الأفضل عدم تكثيف



ماما خديجة أبو حديد فى رحلة علاجها ١٩٧٦

الزيارات حتى مع الأقارب ليظل كل واحد «حافظ مركزه» على حد تعبيرها، فهى شديدة التمسك بكرامتها وكرامة أولادها وتحتاط حتى لايمس أحد هذه «الكرامة» من بعيد أو قريب. ولها مقولة تكررها : «اعرف صاحبك والزم» - وكنت أفهم من هذه المقولة أن معناها

تقرير

مقدم منا نحن الخبراء الموقعين عليه

فى قضية المؤامرة

المنظورة أمام المحكمة العسكرية

كلفنا من قبل الدفاع فى هذه القضية بلسان الأستاذ توفيق بك دوس المحامى للعمل ما يأتى

الموضوع

حيث أنه تقدم فى هذه القضية ورقة كبيرة قيل أنها بخط ياقوت [illegible] وعليها بعض تصليحات قيل أنها بخط محمد أفندى حسن الشبشيرى المحامى

وقد دعى المستر لوكاس مدير المعمل الكيماوى أمام المحكمة العسكرية ليبدى رأيه فى مضاهاة هذه الخطوط كخبير فقرر أن الخط الذى كتبت به التصليحات المذكورة يشابه خط الجواب المنسوب إلى محمد أفندى حسن الشبشيرى وأنه فى ذلك على ستة أدلة سنبينها فيما بعد.

الصفحة الأولى من التقرير التاريخى لخبراء الخطوط الخمسة : محمود حسنى ، والشيخ على عوض، والشيخ عبد الرزاق والشيخ حسن شهاب ، والذى تمت كتابته وتحريره بخط الخبير الخامس والدى محمد كاظم أصفهانى الخبير - راجع مقال د. يونان لبيب رزق عن قضية المؤامرة الكبرى أهرام ١٩٩٩/٨/٥-

بالتقريب هو: إذا بدر من أحد أى تصرفات جارحة أو غير مناسبة لايجوز أن نقترب منه مرة أخرى حتى لاتتكرر الإساءة. اتجه كل إخوتى للفرع العلمى وارتاحت لاتجاهى إلى الفرع الأدبى، وآمنت، منذ محاولاتى الصبيانية فى الكتابة، بموهبتى الأدبية وقدرتها بأكثر مما كنت أستحق. عندما قدمت لها كتابى الأول «رومانتيكيات» ، الذى أصدرته دار الهلال عام ١٩٧٠، وكانت كلمة الإهداء المطبوعة فيه «إلى أمى التى حملتها وطفت بها العالم»، قرأته فى جلسة واحدة وقالت بفخر : «زى أسلوب خالك!» والذى يعرف منزلة خالى أبوحديد لديها يعرف أنها رفعتنى بقولها فوق أعلى قمة من قمم الأدب، لكن الذى أضحكنى ساعتها أنها عادت وأردفت بجدية : «لازم عبدالناصر يقراه!».

★★★

استطاعت بجهادها ودعمها المعنوى أن تحقق بنا طموحاتها الثقافية وأحلامها العلمية فرأت ابنتها الكبرى «معصومة» حاصلة على دكتوراه فى طرق تدريس الرياضيات، ورائدة فى هذا الحقل سابقة فى عديد من أبحاثها العلمية للنساء والرجال، ومؤلفة مشاركة لأول كتاب فى الرياضيات الحديثة باللغة العربية، وابنها الغالى ابراهيم - «محمد ابراهيم كاظم» - دكتوراه فى أصول التربية ومؤسس وأول رئيس لجامعة قطر، و«اسماعيل» دكتوراه فى الطب وعلاج السرطان، وأمينة» دكتوراه فى علم النفس، و«فاطمة» دكتوراه فى الاجتماع الريفى، وحين اكتفيت أنا بالماجستير فى النقد المسرحى انحدرت من عينيها الدموع فى حسرة!.

★★★

حملت همّى فترة أزمتى المهنية حين صدر قرار بمنعى من النشر أغسطس ١٩٧١ ، وصعب عليها رؤيتى تحت وطأة الظلم الذى أوصلنى إلى المعتقل، وحين جاءتنى زائرة فى سجن القناطر للنساء - يناير ١٩٧٣ - مستبدا بها الهلع، قلت أخفف عنها: «عارفة ياماما السرير الذى كان ينام عليه سيدنا يوسف فى سجنه؟»، قالت: «ماله؟»، قلت : «أنا أنام عليه!» قالت بفرح ولهفة : «بجد والله؟!».

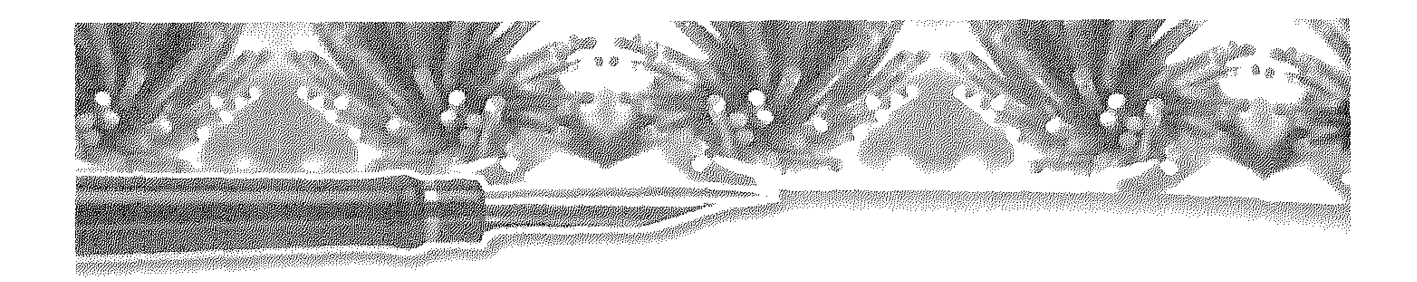
بعد اعتقالى الأول، جاء اعتقالى الثانى يناير ١٩٧٥، فتكالب عليها الحزن الثقيل وتولد عنه مرضها بالسرطان فى الغدد الليمفاوية، عالجها شقيقى «اسماعيل»، لكن أمنيتها تحققت بألا تتعذب طويلا، لأن الموت كما كانت تردد دائما «مكبَّة من ذهب»؟ رغم مرضها العضال وآلامه، لم يبد عليها شكل المرضى، فقد ظلت لآخر لحظة تمارس الرعاية لنا جميعا وتتقدم بالمساعدة. صعدت روحها إلى بارئها فى ١٩٧٦/١١/١١ بعد أن ظلت تتمتم : «لبيك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك»، وبدت ابتسامة الفرح بلقاء الله مرتسمة على وجهها إلى الأبد، ولاتزال كفها - حتى الآن - تغسل وجهى! ■

قدر غريب يؤلفني!

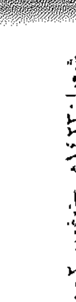
خيري شلبي



الخزنة التى وصفتها فى قصة لى بعنوان : أيام الخزنة - ضمن رباعية رواية : الوتد - كانت قريبة الشبه إلى حد كبير جدا بالحجرة التى كان علينا أنا وإخوتي أن نرقد فيها فى ليالى الشتاء. فيها - شأن معظم حجرات دارنا وكل دور القرية - دولاب غائص فى الحائط يتكون من قاع وعدة رفوف ، وله باب مشغول بزخارف شملها الهباب المتصاعد أبداً من مصباح الجاز نمرة عشرة الموضوع على رف معلق فى الحائط حيث اسود منه السقف والباب والحوائط والمحيط الخشبى لباب الدولاب حتى لكأنه مصنوع من الفحم. تحت هذا الدولاب مصطبة من الطين المخلوط بالتبن عبارة عن شريحة لايزيد عرضها على ستين سنتيمترا ، كان أبى ينام عليها مفترشا حصيرا على مقاسها ومخدة محشوة بقش الأرز وبطانية من أحرمة صوفية تصنعها مدينة فوه



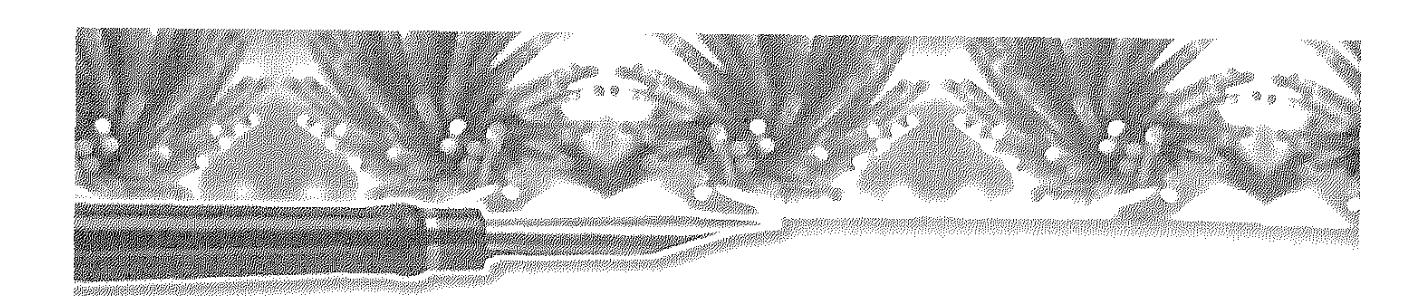
في أعماق بئر الوعي البعيدة جدا ، فيما بين الخامسة والسادسة من عمري ، تبرز صورة أبي وقد أتى بالمصباح وعلقه في مسمار مدقوق في أسفل خشب الدولاب ، وقد اندمج في القراءة رغم أنه بالكاد يرى أصابع يديه ، عينه تكاد تلتصق بالورق حيث اقترب به من المصباح ، وكثيرا ما يستخفه الطرب فيرفع صوته بالقراءة فيما نحن ممددون بالعرض أسفل المصطبة بعضنا يتأهب للنوم والبعض الآخر غاطس في غيبوبة من التعب . لا أظن أن يوسف وهبي وجورج أبيض وعبدالوارث عسر ونجيب الريحاني كانوا ممثلين حقا إذا ما قورنوا بأبي في مثل هذه اللحظات ، صوته في تلون مستمر مع كل مفردة ينطقها ، إحساسه مشع في صوته كأنه مؤلف هذا الكلام في لحظة تأليفه المخدرة بالشفافية ، ما أن تعلمت فك الخط في كتاب القرية وعرفت كيف تتكون الكلمات من الحروف عرفت أن هذه الكتب التي يقرأها أبي كتب حديثة: المكافحون لعبد الرحمن الخميسي ، يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، المعذبون في الأرض لطه حسين ، في منزل الوحي لمحمد حسين هيكل ، السحاب الأحمر لمصطفى صادق الرافعي ، سعد زغلول لعباس العقاد ، الشوقيات لأحمد شوقي ، وكتب أخرى كثيرة تمتلىء بها رفوف دولاب الخزنة ودولاب المندرة وأرضية الشبابيك ، كان مواظبا على شراء مجلات : الهلال والمقتطف ومجلتي لأحمد الصاوي محمد والمجلة الجديدة لسلامة موسى ، أما مجلات المصور وروز اليوسف والمسامرات والبعكوكة فقد كان له صحاب من علية القوم يشترونها بانتظام وبعد قراءتها يستعيرها أبي ليقرأها في المندرة مع شاي العصاري فيما بين آذان العصر وآذان المغرب ، فما أن يخرج المصلون من صلاة العشاء حتى تمتلىء مندرتنا بالرجال المولعين بالكلام في السياسة ، وهم جميعا من طبقة المتنورين في البلدة : أنصاف أزهريين ، معلمين ، أعيان في غير وظائف ، تجار ، فيما عدا زوج ابنة عمتي الشيخ عبدالمقصود أبو غلاب فقد حصل على عالمية الأزهر وعاد إلى القرية يشتغل بالفلاحة وإن أبقى على الجبة والقفطان والعمامة ، وكان خطيبا منبرياً لا يشق له غبار ، وكان إلى ذلك نصف فنان يعرف كيف يربط واقعنا المعاصر في القرية بما تضمنته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فيشنف آذان القوم يدفعهم إلى التفكير بدلا من البكاء من شدة الورع الزائف . وكان لي ابن عم



تخرج هو الآخر فى الأزهر ويملك مكتبة تحتل قاعة بأكملها فى دارنا الكبيرة .. دار العكايشة .. وفى نفس القاعة ينام هو وعياله على وتحت سرير بعمدان تحف به دواليب الكتب من جميع الجهات فتجعل من القاعة منظرا فريدا فى دارى العكايشة : دار أبى ودار أعمامى الكبيرة دار العائلة ، ولهذا كنا نحن عيال الدارين مغرمين باللعب فى هذه القاعة والمكوث فيها لوقت طويل ، وكان ابن عمى ينظر لنا بإعجاب وإلى الكتب بامتنان مرددا أن المكتبة فرضت علينا أن نكون عيالا محترمين لا نعبث بأى شىء فيها ولا نصخب فى اللعب ، وكانت هذه المكتبة هى فرجتى، متعتى ، عالمى .. ما أن يلتقى ابن عمى وأبى والشيخ عبدالمقصود فى مندرتنا حتى يحدث بينهم اشتباك عنيف يوهمنى أن العراك على وشك أن يتحول إلى ضرب ، وأسمع فى مناقشاتهم أسماء ابن خلدون وابن كثير والطبرى والقرطبى والجلالين وصحيح البخارى وصحيح مسلم ولسان العرب ومختار الصحاح والمصباح المنير ، والبيان والتبيين للجاحظ والأمالى لأبى على القالى والمعارف وأدب الكاتب لابن قتيبة وطبقات ابن سلام و يتيمة الدهر .. الخ الخ ، فما أن يطلع الصباح حتى أجرى إلى قاعة ابن عمى وأتأكد من أننى رأيت الأسماء التى سمعتها بالأمس مكتوبة بماء الذهب على هذه المجلدات ، فأشعر بمتعة فائقة . متعة أخرى موازية حينما أختلى فى المندرة مع تل هائل من مجلات المصور على أرضية الشباك أروح أتصفحها بشغف عظيم لاهث الأنفاس برؤية الملك والوزراء والفنانين والأدباء مفرودة على الصفحات ، أقرأ ما حولها من كلام ، أفتتن بمقالات فكرى أباظة وحلمى سلام وأمينة السعيد وحبيب جاماتى الذى كان يشعل خيالى بكتابته لتاريخ ما أهمله التاريخ . لقد لعبت مجلة المصور أكبر دور فى تقريب صورة العاصمة إلى خيالى ، ومجريات الأمور فى الحياة السياسية والأدبية والفنية والاجتماعية . وعلى أرضية شباك آخر كانت تلال من أجزاء السير الشعبية الساحرة.

سر كلمات أبي

شغفى بالقراءة كان مصدره رغبة دفينة فى اكتشاف سر الكلمات التى تجعل أبى يكاد يبكى وهو يقرأها من فرط التأثر ، وتجعلنى أنا شخصيا أنتفض ويقف شعر رأسى حينما أسمع القارىء يقرأ للناس أحداث السيرة الهلالية أو سيرة عنترة أو سيرة حمزة البهلوان ، من لى بمن يشرح لى ذلك السر الخفى وراء الكلمات ، ما الذى يجعلنا جميعا ننصت فى شغف وانتباه معلقى الأنفاس لقارىء يقرأ علينا



تفاصيل أحداث سمعناها مئات المرات وكأننا فى كل مرة نسمعها لأول مرة ؟ هل هى حرارة الأحداث ؟ أم طلاوة اللغة وسيولتها ؟ أم هى صنعة الراوى وحرفنته فى الحكى فى الوصف فى تجسيد المواقف ؟ أم لعلها كل هاتيك الأسباب ؟ ولكن لا ، فهناك كتب توفرت فيها كل هذه الأسباب مضافا إليها بعض البهارات والزخارف ومع ذلك قد لا نكمل قراءتها وإن قرأناها فمرة واحدة لا نعود إليها بعدها . هنالك إذن سر خفى فى صياغة هذه السير الشعبية جعلها تصبح قطعة من لحم الحى ، من قلوب المصريين ووجدانهم .

على أننى سرعان ما اكتشفت أن هذه الخصيصة الكامنة فى السير الشعبية ، خصيصة احتواء القارىء والسيطرة عليه ممسكة بكل مفاتيح ذهنه وعواطفه .. موجودة فى أعمال فنية أخرى كثيرة .

كان ابن عمتى - حماى فيما بعد - يملك دكان بقالة فى القرية ، حركة البيع فيه بطيئة يمكن أن يديرها واحد من عياله ، أما هو فينزوى فى ركن مجاور لشباك على الشارع العمومى ، منفردا بصديق عمره الشيخ الضرير محمد زيدان عصر ، الذى لم يكمل تعليمه فى المعهد الدينى لكنه بات أكبر مثقف حقيقى فى بلدتنا ، ثراؤه فى المعلومات فاحش، وقدرته على الحديث والخطابة فذة ، يتكلم فى أى موضوع بإفاضة ، بلغة لا تقل بحال عن لغة طه حسين بنفس الفخامة فى النطق ، وكان متذوقا للأدب العربى الحديث والمعاصر بصورة لا ينافسه فيها أحد .

ابن عمى أنور مصطفى السنهورى هو الآخر علم نفسه القراءة فأصبح مشغوفا بالأدب يستعير كتب طه حسين والعقاد والمازنى ومحمود تيمور ومصطفى صادق الرافعى ليقرأها وحده على انفراد قبل الإخلاد إلى النوم ، أما فى النهار ، من الضحى إلى أذان المغرب فإنه ينفرد بالشيخ محمد زيدان ليقرأ عليه واحدة من روايات تاريخ الإسلام لجرجى زيدان ، لم يكن للراديو أى وجود فى القرية ومع ذلك لا أدرى كيف تأتى لابن عمتى أن يقلد المذيع حسنى الحديدى فى القراءة السلسة المتدفقة فأشعر أنه فرح بقدرته على النطق السليم دون أخطاء فى التشكيل من فرط ما راجعه الشيخ محمد زيدان . وفى البداية كنت أرقب وجه الشيخ محمد زيدان أثناء استغراقه فى الاستماع فأرتاع من التأثيرات التى تتركها القراءة على وجهه القمحى المحروق ، وعلى كيانه كله فينقبض وينبسط ويبتهج ويتجهم ويقهقه أحيانا وأحيانا أخرى يرفع المنظار الأسود ليمسح دموعا تدفقت من عينيه وقد يجهش بالبكاء . شيئا فشيئا بدأت أدخل معهما فى نسيج الأحداث وسياقها فيحدث لى ما يحدث للشيخ محمد زيدان ، بل كانت العصبية تجتاحنى وتكاد تخرجنى عن طورى إذا ارتفع صوت أحد



وشوشر على صوت القراءة ؛ ثم بدأت أمسك بالرواية لأواصل القراءة ريثما يقضى ابن عمتى حاجته ويعود . على هذه الوتيرة قرأت سلسلة روايات تاريخ الإسلام كلها أكثر من مرة ، وتأكدت أنها تشترك مع ألف ليلة وليلة والسير الشعبية فى جذب القارئ وإمتاعه .

حكايتي .. شخصيتي

لم أكتشف سر هذه الخصيصة الفنية إلا بعد أن اشتغلت «نفرا» ضمن عمال التراحيل وكنت صبيا فوق العاشرة من عمرى بثلاث سنوات فحسب ، مجاميع هائلة من أنفار جيء بهم من جميع أنحاء القرى فى الوجه البحرى، يتم شحنهم فى اسطبل مهجور يبيتون فيه . كل واحد منهم حكاية مسروعة ، والحكى عند المصريين بطاقة هوية ، أن أقدم لك إثبات شخصيتى يعنى أن أحكى لك أطرافا من قصة حياتى ، وأنت بمجرد استماعك لى تقدم إثبات شخصيتك فتحكى أطرافا من قصة حياتك ، هنالك من هو شغوف بالحكى وموهوب فينخرط فى بوح حميم لا ينتهى ، وهنالك الحكيم المجرب الذى يحكى لك تلخيصات حياته فى مجموعة من الدروس والمواعظ والحكم ، وهنالك من يعمد إلى الثرثرة والدردشة للتسلية فيخترع مواقف ضاحكة ويبرع فى وصف شخصياتها لتحسيسك بعمق الورطة التى وقعوا فيها لكى تضحك من أعماقك .

الحكى للتعارف ، الحكى للتصافى ، الحكى للاتعاظ ، الحكى لاستقطاب رأيك فى مشكلة ، الحكى للشكوى من الظلم ، الحكى لتخفيف الآلام عن الحاكى وعن المستمعين معا ، الحكى لاستثارة المشاعر العامة ضد خروج الخولى عن السلوك السليم ، الحكى للضحك والتسلية والترويح عن النفس .

لكل حكى من هذه المحاكى فنونه الخاصة المتسقة مع أغراضه وأهدافه ، فالحكى فى المعازى لاستجلاب دمعك على الفقيد يختلف بالضرورة عن الحكى في الأفراح لاستجلاب البهجة والفأل الحسن . حينئذ عرفت أن جوهر الشخصية المصرية قد صيغ فى حكى بقدر ما صاغه الحكى عبر العصور المتعاقبة . وقد تجمع ميراث الحكى بجميع مقاصده فى الفولكلور المصرى الغنى ، حيث يكمن الحكى فى الأغنيات والمواويل والحواديت والألغاز وحتى فى الأقوال المأثورة تجد - على إيجازها الشديد - طاقة حكى عبقرى قادر على الاختزال ، بل ربما يكون المثل الشعبى نفسه جملة حوارية فى حدوتة أو فى موقف حياتى ثم انتشر بقدرته على النفاذ . الفولكلور المصرى لايزال حيا فى شخصيات عمال التراحيل وأبناء القرى عامة والأحياء الشعبية فى الحواضر ومن لم يقرأ الفولكلور المصرى ويلحظ منطوقه الحى لدى الطبقات الشعبية لا يحق له

الزعم بأنه يفهم الشخصية المصرية .

الصدق معبر الحكاية

اكتشفت - وفى وقت مبكر جدا - أن القاسم المشترك الأعظم بين كل هذه الألوان من الحكى الشعبى وفنونه المختلفة ، وبين السير الشعبية وألف ليلة وليلة والروايات والأشعار الجذابة هو .. الصدق في الأداء ، فى البناء ، الصدق مع النفس أولا ، مع الحقيقة، مع المتلقى ، إن حرارة الصدق هى الموصل الجيد للعمل الفنى ، فإن اشتبك المتلقى فى تفصيلة معينة واستشعر الكذب فيها بأى قدر على أى نحو سقط فى نظره العمل الفنى كله .

الصدق الفنى هو الإحساس بالجوهر الإنسانى فيما يرشح للكتابة ، ومتى أحس الفنان بقيمة التجربة التى لفتت نظره فإن الصدق فى التناول هو الذى يدفعه لاقتفاء الآثار واستكناه التفاصيل الدقيقة التى تجمعت فكونت الحدث ، إن الحدث بغير هذه التفاصيل الدقيقة لا يكون حدثا بل يكون مجرد خبر مبهم لا يصدقه أحد ، بل إن التفاصيل فى الفن أهم من الحدث فى أحيان كثيرة جدا .. ذلك أن هذه التفاصيل هى القاسم المشترك الأعظم بين جميع البشر فى جميع أنحاء الأرض ؛ والناس تتعرف على بعضها البعض من خلال هذه التفاصيل إذ هى المشترك الإنسانى ، فمثلا حينما كان أحد الأنفار يغنى لنا موال حسن ونعيمة الذى ألفه رجل أمى مجهول ، كان جسمى يقشعر فى المشهد الذى جىء فيه بأم حسن لكى تتعرف على جثة ولدها القتيل ، وها هى ذى ترفع الغطاء عن وجهه ؛ عندئذ يقول المغنى : «شافت ولدها بزازها باللبن حنت» . وكنت أنتفض من نداء الفكهانى على العنب بقوله مغنيا : « بلدك بعيدة يا عنب والغربة خطفت لونك» . وأهتز من أعمق أعماقى من تعديد المعددة حين تقول : « دخل الحكيم يركز على النبوت .... روح بلادك يا غريب لتموت» .... الخ.

أبى وأبطال الملاحم

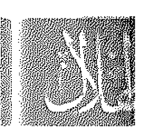
تعلمت من عمال التراحيل كيف أكتب. إنهم كائنات طالعة من كتاب الفولكلور مشبعة بزخم المشاعر المعاشة على الحقيقة حيث الحزن حزن والفرح فرح والزعل زعل والغضب غضب ، حيث كل شىء حقيقى غير مستعار غير مصطنع . لقد كنت أحلم بتعلم الكتابة لكى أكتب قصة حياة أبى ذلك العملاق الجبار المذهل ، الذى استأنف حياته بعد الستين من عمره فتزوج فتاة فى عمر أحفاده لينجب منها سبعة عشر ابنا وابنة كان ترتيبى الرابع فيهم، فكيف تأتى لمثل هذا الشيخ أن ينهض بهذه المسئولية الجسيمة وهو فى نهاية العمر ؟! هذا ما شغلنى فى طفولتى وصباى حيث ربط خيالى بين أبى

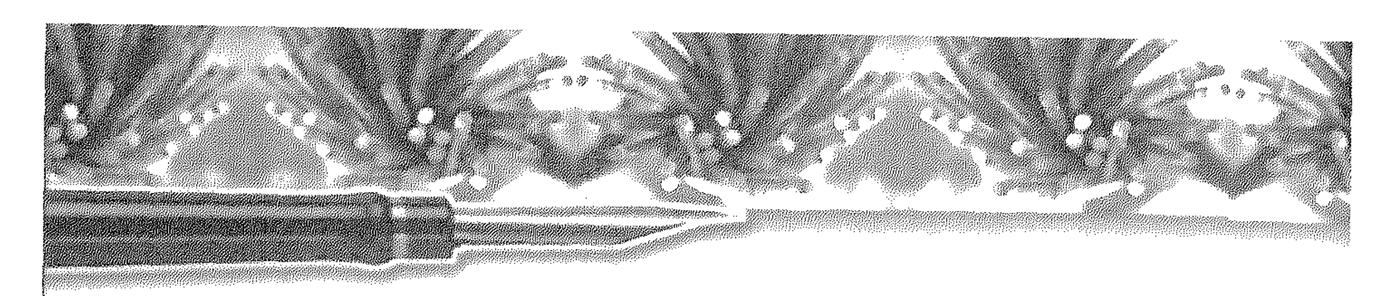
وأبطال الملاحم والسير الشعبية التى فتنت بها وحفظت الكثير من مقاطعها عن ظهر قلب ؛ وقد واكب هذا الحلم ظهور أستاذ من معلمى بلدتنا تم نقله من بلدة بعيدة إلى مدرسة بلدته ؛ ذلك هو الأستاذ محمد حسن ريشة عليه رحمة الله : كان مدرسا كشكولا يعنى يدرس جميع المواد ، وكان ضليعا فى اللغة العربية إلى درجة فاتنة ، ضلوعا يحببك فى لغة القرآن ، يشرح معانى المفردات الجميلة فإذا بالمفردة عالما كاملا من المعانى والرموز والإشارات ؛ ويشرح لنا قواعد النحو والصرف والبيان والبديع ببساطة مذهلة لدرجة أن فصلنا كله - ستة وثلاثون تلميذا بنينا وبنات - طرأت عليهم أعراض كتابة الشعر والقصص والخواطر والمقالات فأرشدهم الأستاذ إلى ما يسمى بمجلة الحائط وهى شىء لم نكن نسمع عنه من قبل فكان اكتشافنا هذا أروع شىء فى حياتنا ، كنا فى السنة السادسة الابتدائية وقد تكفل الأستاذ ريشة بأن يؤهلنا جميعا للتفوق فى امتحان الشهادة الابتدائية التى كانت ستمنح من مدرسة بلدتنا لأول مرة وهى فى الأصل أولية الزامية .. إلى هذا الرجل العظيم يرجع الفضل الأكبر فى تأسيسى لغويا ، وفى إثارة خيالى اللغوى وتدريبى على الاشتقاقات الصحيحة للمفردات، وعلى المفاضلة بين المترادفات لاختيار المفردة الأقرب إلى المعنى الذى أريد التعبير عنه ، ومن حسن الحظ أن مكتبة ابن عمى الأزهرى كان فيها كتاب صغير الحجم سرعان ما سطوت عليه وتشبثت بامتلاكه إلى اليوم ، ذلك هو كتاب (الألفاظ الكتابية) لبديع الزمان الهمذانى، حيث يورد المفردة فى وسط السطر، وتحتها عديد من المفردات تحمل كلها نفس الغرض المعنوى ولكن فى حالات مختلفة وأطوار متعددة ، من قبيل ذلك مفردة الأسد : حوالى مائة مفردة أو أكثر تطلق على هذا الحيوان المفترس ملك الغابة ولكن فى أطوار مختلفة من حياته حيث الشبل غير الأسد غير السبع غير الليث غير الضرغام .. الخ .

فصاحة العامية

أقول كانت أمنيتى من تعلم الكتابة أن أكتب ملحمة عن أبى شرط أن تكون كلها شعرا موزونا بقافية واحدة ؛ فما أن خالطت عمال التراحيل حتى نسيت قصة أبى أمام قصص حية تخالطنى ، كل قصة منها تفوق مافى قصة أبى من أهوال . اندمجت فيهم بمعنى الكلمة ، صرت واحدا منهم ، كنت اكتب لهم الخطابات إلى ذويهم والشكاوى إلى المسئولين فى تفتيش الوسية أو فى مركز الشرطة ، وحين أقرأ على الواحد منهم ما كتبته باللغة العربية







الفصحى ينفجر صائحا فى ضيق وغيظ : « بذمتك ! هل أنا قلت لك هذا الكلام ؟ اتق الله يا رجل ؟!» . فأقول : «هو كلامك بنصه إلا أنه باللغة العربية الفصحى! وحينئذ قد يكون عصبيا غليظا فيشوح فى وجهى مدمدما : « ديك أم الفسحى هذه ! يا بنى آدم أنت تكتب ما أمليه عليك ! لا تضع من دماغك كلمة واحدة!» هذه المشادات علمتنى أن اللغة ليست هى المفردات التى درسناها فى المدرسة أو التى تقرأها فى أدب مصطفى صادق الرافعى وطه حسين ومحمود تيمور ، إنما اللغة التى يجب أن أعبر بها لابد أن تكون فنية وبعيدة عن لغة الأدب الصرف ، أن تكون لغة الحياة ، تقوم موهبة القص بتفصيحها ووضعها فى مواقع من الاعراب؛ وكان أن اكتشفت ذات لحظة مشرقة أن جميع المفردات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية كلها فصحى ، كل ما هنالك أننا نتجاهل مواقعها من الاعراب ولهذا سميت بلغة العامة أو اللغة العامية ؛ وإذن فعلى من يريد استخدام هذه المفردات فى عمل فنى عليه أن يكون خبيرا بقواعد النحو والصرف ليضع هذه المفردات فى مواقعها الصحيحة من الإعراب ، ويكون قد كسب لغة الحياة وفى نفس الوقت ارتقى بها وأخضعها لقواعد اللغة بدون ترخص أو ابتذال . وقد جربت هذا الاكتشاف فى عمال التراحيل ،

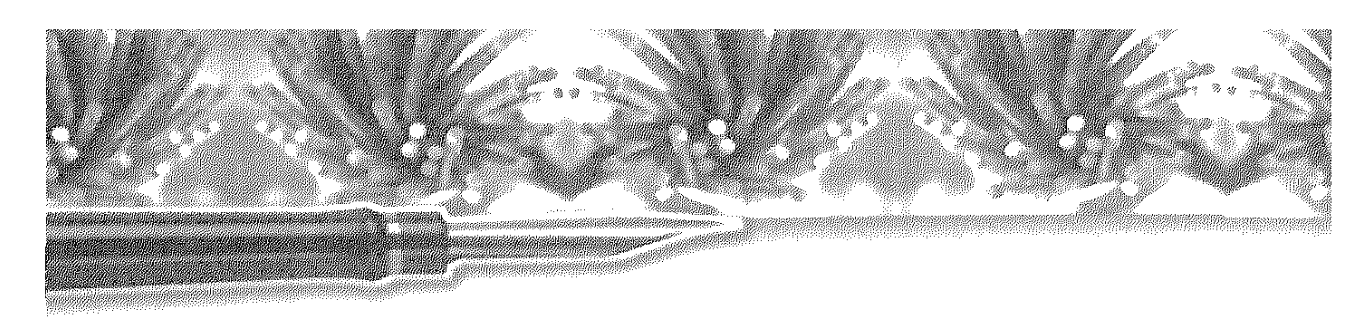
فحينما يطلب منى أحدهم أن أقرأ عليه ما أملاه على ، اقرأه بالعامية فيجد الرجل أن المفردات هى نفس ما قاله ، فى حين أنك لو درست المكتوب ستجده صحيحا تماما من الزاوية اللغوية من تطبيق لقواعدها . بعد حوالى عشرين عاما من هذه التجارب قدر لى أن أمارس نفس التجربة مع الدكتور طه حسين ، فقد كلفتنى إذاعة صوت العرب - فى أواسط ستينيات القرن الماضى - أن أعد رواية الأيام فى تمثيلية إذاعية ؛ فرفعت الأمر إلى الدكتور طه حسين طالبا موافقته ، فمكث بضع دقائق يسألنى أسئلة عامة وأجيبه عليها فيما خيل لى أنه اختبار لهذا الفتى الذى يراه لأول مرة وهل هو قادر على القيام بهذه المهمة أم لا ! فلما اطمأن أبدى موافقته مشترطا شرطا واحدا : أن يكون حوار التمثيلية باللغة العربية الفصحى ؛ فوافقت فى الحال وإن أسقط فى يدى كما يقول بلغاء العرب . أيامها كنت أقضى فترة تمرين فى جريدة الجمهورية ، ومن حولى كبار النقاد ، طلبت رأى الدكتور محمد مندور والأستاذ رجاء النقاش والأستاذ أحمد عباس صالح - وله تجربة إذاعية مهمة - فاستنكروا جميعا أن يتحدث صعايدة معاصرون فى الإذاعة بالعربية الفصحى فهذا معناه ببساطة أن أحدا من المستمعين لن يصدق التمثيلية وسوف يبوخ العمل الأدبى ويسقط العمل الإذاعى



، وقالوا إن لكل مجال فنى مقتضياته الفنية المحتومة . عندئذ تذكرت تجربتى مع عمال التراحيل فاسترحت فى الحال ، وعكفت على الرواية حتى استوعبتها جيدا ، ثم كتبت الحوار بلغة يمكن نطقها باللهجتين الفصحى والعامية دونما خلل فى بنيان اللغة ودونما أى ركاكة فى التعبير . وقد حدث ، وحينما ذهبت إلى الدكتور طه حسين لأقرأ عليه نص التمثيلية قرأت بالفصحى فى الوقت الذى يعرف فيه الممثلون المشاركون فى التمثيلية أن الحوار مكتوب بالعامية وأنهم سينطقون كما ينطق عامة الناس فى الحياة . من قبيل ذلك مثلا أن أقرأ على الرجل بالفصحى هكذا : «الأب : معى جواب أحلف بالله لو شافه مخلوق لرحت فى داهية» . أما الممثل عبدالوارث عسر – ممثل دور الأب – فسوف ينطقها فى استديو التسجيل بالعامية على هذا النحو : « الأب : معاى جواب .. أحلف بالله .. لو شافه مخلوق .. لرحت ف داهيه» . وهكذا جميع الحوار. وكنت أثناء القراءة أرقب وجه الدكتور مرتعشا وأرى ابتسامة تتسع على شفتيه فيما هو مستغرق فى الإنصات ، وأخيرا رفع رأسه صائحا : « الله يفتح عليك ! بديع بديع ! توكل على الله ! لقد أشفقت عليك ولكنى فرحت بك وبالنص !» . وفيما بين تجربتى مع عمال التراحيل وتجربتى مع الدكتور طه حسين كنت قد تلطمت فى الحياة : تعلمت النجارة والحدادة والسمكرة والخياطة والمكوة ، اشتغلت بائعا سريحا فى الاسكندرية وبائعا فى محل أقمشة فى دمنهور ، فتجمعت فى خزائنى تجارب حياتية لا حصر لها .

الطرب أهم مكوناتي

على أن مرحلة التكوين – من الطفولة إلى سن الخامسة عشرة من العمر – لا تكتمل صورتها بدون الإشارة إلى ماكينة الغناء كما كنا نسميها فى بلدتنا ، وهى جرامفون بنفير كبير كان من ممتلكات أبى ، ويوجد معه أربعة صناديق كبيرة تحتوى على أربعة آلاف أسطوانة ، كل أسطوانة محفوظة فى جراب من الورق المقوى ، مكتوب عليه – وعليها فى دائرة حمراء – اسم الأغنية واسم المطرب والمؤلف والملحن . فى طفولتى – باعتبارى أول ولد ذكر ينجبه أبى بعد طول انتظار وتمن – كان مسموحا لى أن أعبث بأى شىء إلا هذه الصناديق وهذه الماكينة ، ولم يجد أبى مفرا من أن يعلمنى كيف افتح علبة الإبر ، كيف أنزع الإبرة المتآكلة من ذراع الجرامفون وأركب بدلا منها إبرة جديدة مسنونة ، كيف أرفع الأسطوانة برفق وحرص لأقرأ ما عليها ثم كيف أضعها على جنب فى مساحة واسعة آمنة ، كيف أنزعها



من الجراب بأصابع تمسكها جيدا ، كيف اثبتها فوق الطارة التى ستدور بها ، كيف أدير يد الزمبرك لكى تمتلىء علبته بالحركة التى ستدور الاسطوانة بناء على رجوعها ، كيف أميل بالذراع لأجعل الإبرة تلامس حافة الاسطوانة .... الخ .

كانت متعة فائقة ، وقبل مجىء الراديو إلى قريتنا بعد ثورة يوليو كنت فى أواخر الأربعينيات قد أصبحت أعرف أم كلثوم وعبدالوهاب وسيد درويش وفتحية أحمد مطربة القطرين وحبيبه رشدى ومنيرة المهدية والشيخ أبو العلا محمد والشيخ درويش الحريرى والشيخ المسلوب ومحمود صبح وعبدالحى حلمى وابن شقيقته صالح عبدالحى ومحمد عبدالوهاب ومحمد العزبى وفايد محمد فايد وليلى مراد ورجاء عبده وأحلام وعيشة حسن وحورية حسن وشافية أحمد ومحمد أمين وجلال حرب وعبدالغنى السيد وإبراهيم حموده وكارم محمود وبعدالعزيز محمود وسعاد محمد ونور الهدى ونازك ولورد كاش وصلاح عبدالحميد ومحمود الشريف وأحمد صدقى وعزت الجاهلى وحليم الرومى ومدحت عاصم وفريد الأطرش وفريد غصن وزكريا أحمد وبيرم التونسى ويوسف بدروس وبديع خيرى ... الخ الخ .. كان عالم الغناء ولايزال يشكل ركنا مشرقا فى وجدانى ، وقد بلغ ولعى بالغناء إلى درجة جعلتنى أحاول تعلم العزف على بعض الآلات لعلنى أستطيع التنفيس بالآلة الموسيقية عن الغناء المتفجر بداخلى ، ولم يكن صوتى بقادر على نقل ما يتدفق فى صدرى من أنغام ، فلما فشلت فى المثابرة على تعلم العزف على آلتى العود والرق خيل إلى أننى أستطيع أن أعوض ذلك فى الكتابة . وفعلا ، فكثيرا بل كثيرا جدا ما يكون الدافع الواضح للكتابة هو رغبتى العميقة فى الغناء .



◆ عاطف مصطفى

هزيمة النقد الأدبى.. لماذا؟

«هزيمة النقد الأدبى» مقال الدكتور محمد رجب البيومى فى العدد الماضى حظى بالعديد من خطابات القراء نجتزىء بعضا مما تضمنته تلك الخطابات، يقول الأديب حمدى البطران: كتب الدكتور محمد رجب البيومى مقاله الرائع «هزيمة النقد الأدبى .. فى عدد اكتوبر الماضى قارن فيه بين نقاد الأمس من عمالقة الأدب ونقاد اليوم ، والواقع أن نقاد اليوم استهوتهم الصحافة والتليفزيون والمنتديات الناعمة ، ولم يعد هناك وقت لإعداد الدراسات الأدبية الرصينة التى تفيد الكاتب والقارىء معا ويقول البطران: إن الأجيال الحديثة من الكاتبات تشقفت وتكون وعيها فى ظروف بالغة الصعوبة، سواء فى الأحوال المعيشية أو السياسية، وشهد هذا الجيل الانفتاح الاستفزازى وسلب أموال البنوك والهروب وربما قرأ هذا الجيل عن ثقافات غريبة ، كما عاصر الصفعات المتتالية لرموز الثقافة المصرية ومن بينها محاولة اغتيال نجيب محفوظ ، واغتيال فرج فوده بسبب كتاباته.

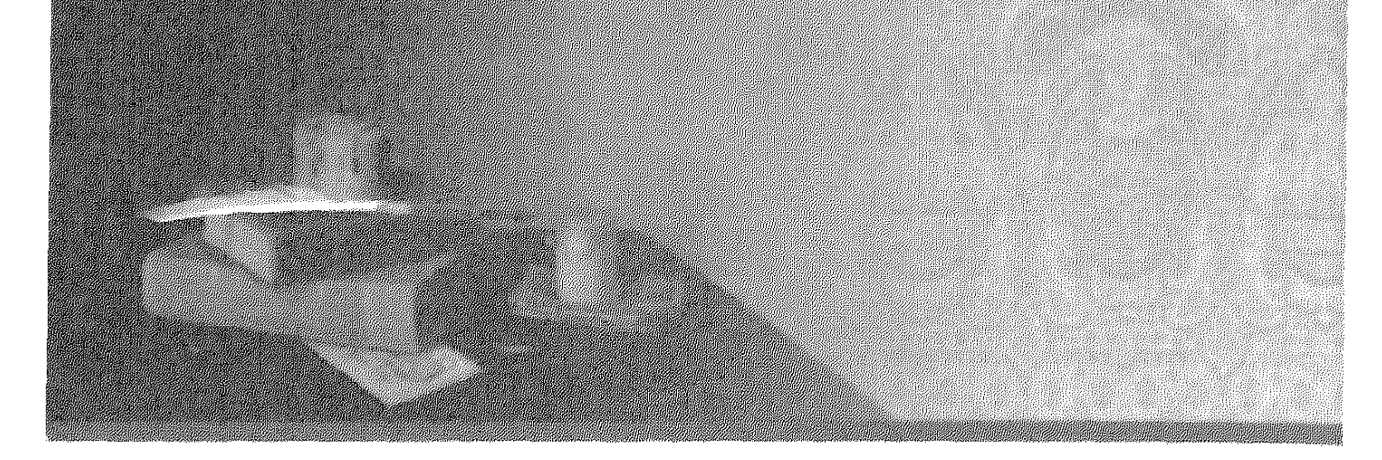
لقد لمس د. البيومى عصبا فى كل الكتاب الذين يشعرون بتجاهل النقاد لهم وجريهم وراء أنصاف الموهوبات وعديمات الموهبة ، وكنا ننتظر منه أن ينظر إلى نصف الكوب الممتلىء.

أما سامى منير عامر من الاسكندرية فقال : هزنى مقال د. محمد رجب البيومى هزا يخلع ماقد تبقى فىّ من أنفاس لاهثة بذلك العنوان المجتاح هزيمة النقد الأدبى.

وسبب هذا العنوان فى رأيى هو افتقاد سماع اللغة العربية سماعاً سليماً وافتقاد تصحيح اعوجاج نطق الألسن بها فى مراحل التعليم المختلفة، وصولاً إلى أقسام اللغة العربية بالكليات ولا يخفى عليكم أن النماذج التى يمكن أن تستظهر ليحتذى بها فى تصويب لغتنا قد انتفت معظمها من كتب وزارة المعارف سابقاً والتى تسمى الآن وزارة التربية والتعليم .

والنقد الأدبى لايهزم أبداً، فهو موجود، شامخاً بكم ياأستاذنا البيومى، إنما المفتقد فهو اللغة التى يتحدث بها هؤلاء الأدعياء الذين يشجعهم بعض من ليسوا أهلا للنقد .

ويقول صبرى عبدالله قنديل إن الدكتور البيومى يعلم أن المناخ الثقافى الذى كان سائدا فى عصر الدكتور طه حسين كانت من أهم ملامحه رعاية المواهب من وقت



مبكر وتتبع خطواتها حتى تأخذ طريقها الطبيعى ليس هو المناخ السائد اليوم، والا لكانت القاصة التى أشار اليها د. البيومى قد وجدت يد الرعاية الحقيقية، لكن وبعد أن اخترقت ثورة الاتصال كل المعاقل الفكرية والثقافية ، فقد أحالت المثقفين إلى جزر منعزلة ، كما أن العنصر البشرى المتمثل فى المذيعين والمذيعات يعتدى على حرمة اللغة العربية فى عشرات البرامج التليفزيونية المؤثرة حتى التى تناقش قضايا ثقافية وتمر هذه الاعتداءات دون مراجعة، كأن هذه اللغة بلا أهل حتى تحولت بفعل السكوت عليها عند المتلقين إلى يقين شبه مسلم به وهو مايكشف عن مبرر مغاير لفزع د. البيومى بعيداً عن هزيمة النقد الأدبى ، ألا وهو انحدار اللغة العربية ، فضلاً عن المناخ الثقافى السائد الآن والشللية والمصالح الشخصية.

ياليته خطيبى

ياليته .. ياليته خطيبى
بسمته تجعلنى سماء
صديقتى محظوظة وحظى
فى كفها خاتمها كنجم
وإن مشت مشى على يديها
تعرف أننى أغار منها
وأننى حاولت قبل شهر
أن أسرق الذى أراه بحراً
سحقاً لمن تشرى الرجال دوماً
ياليته يخطبنى وينسى
أكاد من غيظى أموت، ماذا
أأنت لى أم أننى سأبكى

نظرته لحن من المغيب
أنجمها من عسجد الغيوب
شوك على أنامل السهوب
يضىء ضوء البدر والدروب
زمرد من كوكب غريب
وأننى كالسيف فى الحروب
أن ألثم الجميل فى الغروب
أقول للسماء ذا نصيبى
بمالها الحراق كاللهيب
قبيحة كالسم فى الزجيب
تخبىء الأقدار ياحبيبى؟
مع الندى والغصن والطيوب؟

د. هيثم الحويج العمر
دمشق



شاعر وقصيدة

الراحل فتحي سعيد شاعر قال عنه الناقد الدكتور على شلش : فى شعره روح القدامى وشجن المحدثين وثورتهم تلك الروح هى التى أكسبت حياته خصوبة وقلبه رحابة وشعره مذاقاً خاصاً. يقول فتحى سعيد فى أحد أشعاره:

له الحب نبع عميق المدى
وفيه الأمانى لاتندثر
وقلب ترامى بقلب الوجود
حوى الكون والكائنات الأخر
تفجر فى جانبيه الصفاء
كنور الصباح إذا ما انتشر
فغايته فوق هام النجوم
وان عاش فى الأرض بين البشر


فتحى سعيد

عمل بجريدة الجمهورية ومجلة بناء الوطن وتولى رئاسة تحرير مجلة الشعر ونشر أشعاره فى معظم الصحف والمجلات التى تصدر فى مصر والعالم العربى ومثل مصر فى مهرجانات الشعر والأدب التى أقيمت بالخارج ونالت أشعاره جوائز عديدة وترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبية .. أصدر فتحى سعيد عدداً من دواوين الشعر منها فصل فى الحكاية ، أوراق الفجر ، مصر لم تنم، مسافر إلى الأبد، عصافير الحجارة. ومن دراساته الأدبية الغرباء، عشاق لكن شعراء، شوقى أمير الشعراء لماذا؟ ، دراسة عن الشاعر محمود أبو الوفا وله بعض الأشعار المغناة.

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

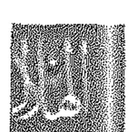


كفاك .. رحيلاً !!



لماذا تذيعين سراً قصيدى؟!
وكل القصائد ماتت بثغرك..
قبل انبلاج النهار
كفانا رحيلاً
فهذى طيوفك ضلت حنايا الديار
وقلبك ماعاد يهفو لطيرى
وما عاد يرنو انتظارى
كأنك مثل النجوم .. تدورين حولى
وتمضين بين المدار
بربك من ذا يمور بباب المساء؟!
ومن ذا يحن لدفء الأوار؟!
بربك من ذا يقبل وجه الشوارع..
هدء الحدائق
حتى رصيف القطار
فإنى أتيتك عند الغروب
أتيتك أشعل شوق المشاعر .. سهداً .. ووجداً
اتيتك قبل نزوح البحار

عبد الناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

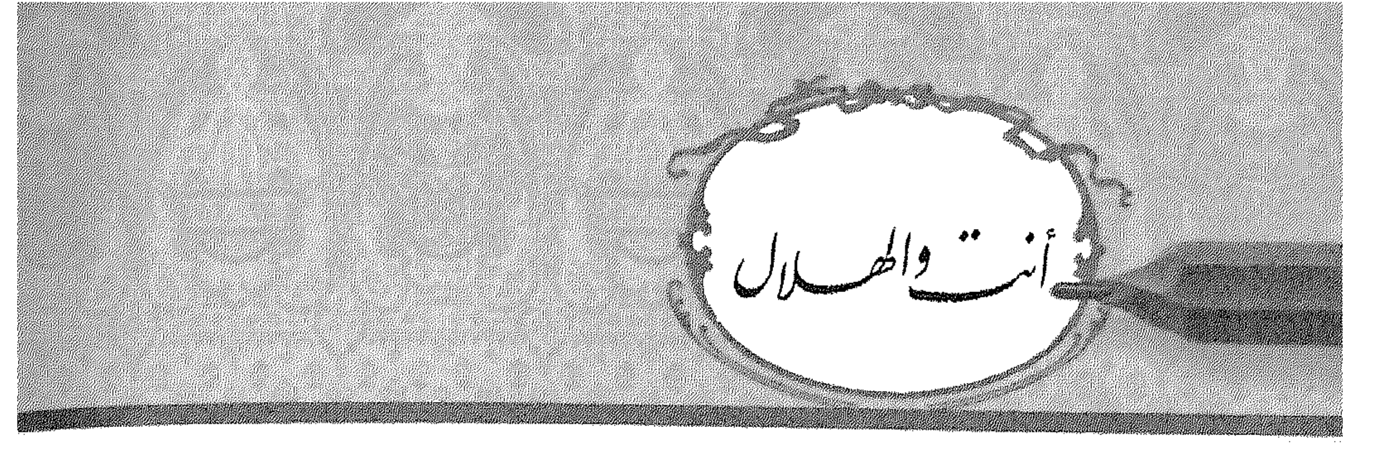


الأديب وديع فلسطين

أحرص دائماً على متابعة كل مايكتبه الأديب وديع فلسطين فى «الهلال» وموضوعاته تنال كل اهتمامى نظراً لطرافتها، وحرصه على تقديم شخصيات أدبية وشعراء يستحقون منا الاهتمام.

هل يمكن أن أتعرف على بعض جوانب هذا الأديب المتميز.

محمد الجفيرى
دولة قطر



الهلال : وديع فلسطين مصرى صعيدى، تخرج من الجامعة الأمريكية بقسم الصحافة عام ١٩٤٢ بدرجة بكالوريوس الصحافة والأدب .. وعمل بالصحافة فى مختلف فروعها، فاشتغل مدرساً بالجامعة الأمريكية لعلوم الصحافة على مدى عشر سنوات. وعمل بالتأليف والترجمة ، وصدر له أكثر من ثلاثين كتاباً بعضها يحمل اسمه والبعض الآخر لايحمل اسمه .. من أشهرها :

قضايا الفكر فى الأدب المعاصر، وثلاثة كتب عن فنون الصحافة وكتاب اسمه مختارات من الشعر المعاصر – وكلام فى الشعر، واشتغل فى إعداد بعض الموسوعات ، من بينها الموسوعة العربية الميسرة والموسوعة القبطية التى صدرت فى أمريكا فى ثمانية أجزاء باللغة الانجليزية .

وانتخب وديع فلسطين فى مجمعى دمشق والأردن، وكرم أخيراً فى ندوة الاثنينية التى يعقدها الشيخ عبد المقصود خوجه فى جدة، كما فاز بجائزة فاروق الأول للصحافة عام ١٩٤٩.

الشعر والأخطاء

تصلنا أعمال شعرية كثيرة .. أحيانا ننشر بعضها على سبيل التشجيع ، مع التجاوز عن أخطاء فى العروض ..وينبغى ألا يتم ذلك .. ولذا نود أن نلفت نظر أصدقاء «أنت والهلال» أننا سوف نحرص تماماً على نشر الأعمال الجيدة.

مثال لبعض مايصلنا هذه الكلمات:

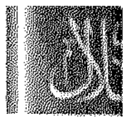
كالموج يقذفنى يصفعنى من موجة حبك.
إلى موجة الحرمان
تحدثني عيناك فى الغروب كالعشاق وفى الليل
تعلنى الإباء
عجيب حبك امرأة ملك القلب والروح والوجدان
وفى ساعات الموج تقذفنى بالحرمان

ولدينا نماذج كثيرة لاهى شعر ولا هى نثر ، وإنما خواطر فقط وقد نجد أحياناً قصيدة موزونة فى أول بيتين، ثم بعد ذلك تكسر الأوزان، وتبدأ الأخطاء النحوية.

وطالما أشرنا إلى ضرورة الاهتمام بقراءة الشعر كثيراً والاهتمام بدراسة العروض ، وكل ذلك لابد معه من موهبة حتى تكتمل عناصر الشاعر.

المحرر







كلمات



المجد

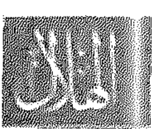
فى غير الهزل المتردى
هو فى الجد
يحسبه بعض موجوداً فى أى تحد..
يخطفه ند من ند
ذبلت أوراق الورد
ياند كفى

السلام

ذبحوه على ثغر حمامه ..
لن يسلم من ذبح سلامه ..
قد سقط الغصن على الأرض..
من قال بلا يسلم مجد؟!..
من قال بلا سلم مجد؟!.

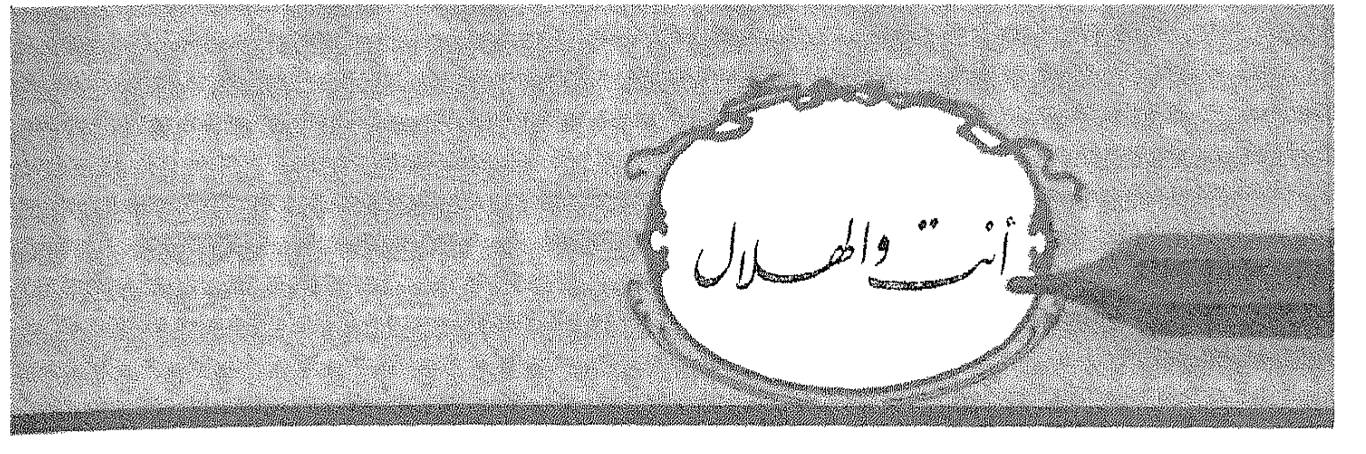
حسن أبو الغيط
كفر المصيلحة - منوفية

الهولوكوست سلاح إرهابى ضد الفلسطينيين



لقد اتخذت إسرائيل من الهولوكست سبيلاً للمتاجرة ، حتى وصل الأمر إلى اتهام العرب جزافاً بمعاداة السامية ، وأمام التقاعس والصمت العربى تجاه «الهولوكوست» الجديد الذى تمارسه إسرائيل فى الأرض المحتلة الآن .. أناشد العرب للتصدى لذلك الخطر الزاحف بعد أن أصبح الهولوكوست الإسرائيلى سلاحاً إرهابياً ضد الشعب الفلسطينى، فإسرائيل تقيم المحرقة للفلسطينيين والتى أتت على الأخضر واليابس «تجريف الأراضى الزراعية وأشجار الزيتون والبساتين .. وتجريف المنازل وهدم الطرقات» .

وعلينا من خلال مؤسساتنا الثقافية والسياسية بدءاً بجامعة الدول العربية ومؤسسات حقوق الانسان ومراكز البحوث والأحزاب السياسية



والجامعات وأجهزة الاعلام مواجهة مايحدث الآن للفلسطينيين وحتى لانندم بعد فوات الآوان»!

د. صمويل لبيب سيحه - المنيا

مع قراء الهلال

● الكاتب محمد يوسف عدس يسأل: لماذا لا تصل «الهلال» بانتظام إلى لندن، حيث يذهب إلى عدد من المكتبات بحثا عن الهلال، ويقولون له لقد وصلنا عدد قليل من النسخ ونفذت .. وفى الشهر التالى حاول حجز نسخة، ولكنه أيضاً عجز عن الحصول عليها.

يطلب أن تزداد الأعداد المرسلة إلى هذه العواصم الأوربية المهمة والتى تضم أعداداً كبيرة من العرب ومحبى الهلال .

ونحن بدورنا أحلنا هذا التساؤل إلى إدارة التوزيع لكى يتم تدارك هذه المشكلة، والتى تحدث فى بعض الأحياء فى القاهرة وحتى فى الاسكندرية وبعض محافظات الصعيد.

●● نظرة ياتوزيع .. ومزيد من المراقبة الشديدة على توزيع الهلال خاصة فى الأماكن الحيوية.

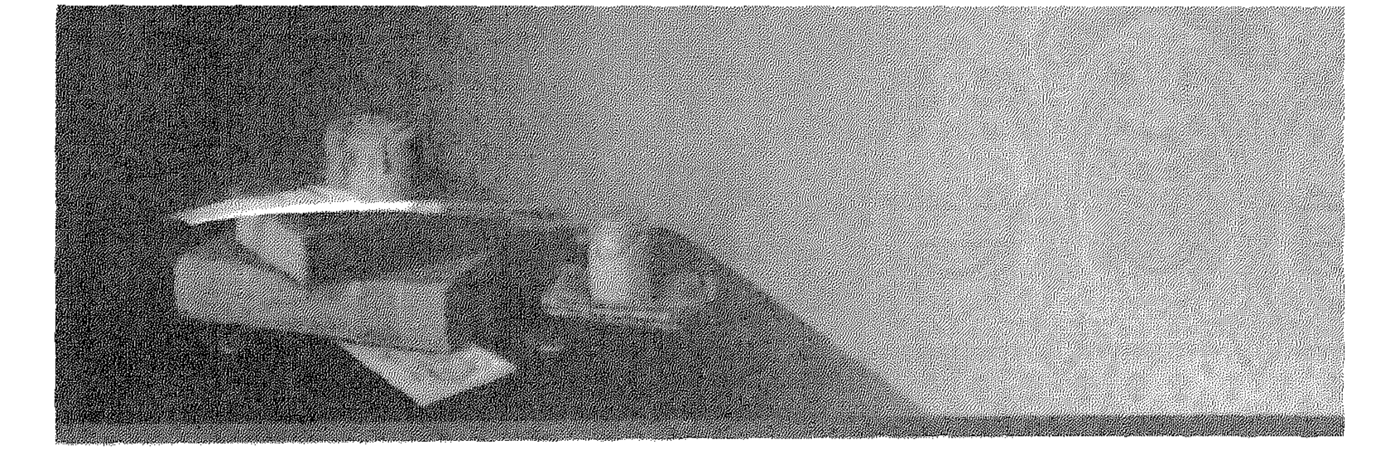
مطلوب من الشركة القومية للتوزيع زيادة الأعداد المرسلة إلى لندن وبلاد أوربا.

● محمد المناصرة من فلسطين ، وإبراهيم السيد أحمد من الاسكندرية، وعدد من االقراء اتصلوا بالمجلة هاتفياً يعلنون استياءهم من الألوان التى تطغى على صفحات الهلال، بحيث لايمكن قراءة الموضوع، فضلاً عن تفكك المجلة عند قراءتها..

أعلنوا أن الهلال هى أجمل مجلة عربية على الإطلاق ومن الضرورى تلافى هذه الأخطاء.

●● بدأ تدارك الأمر فى عدد أكتوبر ، وتم عمل عدة لقاءات مع المدير العام





للمطابع ماهر سلام، والذى يحرص حالياً على متابعة سلامة كل الأعداد التى يتم توزيعها على موزعى الهلال ونرجو أن يكون العدد الذى بين أيديكم قد نال جزء كبيراً من العناية.

● بعد أن قرأنا مقال رئيس التحرير الذى مس شغاف القلب عن سيناء أرض الفيروز والتى ينبغى الاهتمام بها وعدم إهمالها باستثناء بعض المشروعات السياحية التى نراها الآن ، نطالب الهلال بألا تكف إطلاقاً عن متابعة تعمير سيناء.

سامح عبد الحميد عمران
مينا القمح - شرقية

●● نحن معك ، والهلال تفتح صفحاتها للكتاب لتناول كل المشكلات التى ينبغى تذليلها حتى يتم تعمير سيناء والاستفادة، بكل الثروات الموجودة بها، ولماذا اهتم غيرنا بها ، ولم نحاول نحن أن نسير على خطاه ، على الأقل!.

● من الغريب جداً أن نشهد نقصاً فى بعض الكتب والدوريات المصرية بدار الكتب، ونحن نعلم أن دار الكتب كانت فى يوم من الأيام من أبرز الأماكن التى يعثر فيها الباحث على ضالته ..

وأقترح سد هذا النقص بتصوير الكتب التى لاتوجد بالأسواق لتستكمل هذه الدار العريقة أدواتها من جديد ولتواصل دورها الريادى فى المنطقة.

نور محمد كامل
الزيتون - مصر

●● فى زيارة لرئيس التحرير لدار الكتب ، حرص على مناقشة قضية مماثلة مع الأديب والكاتب الدكتور صلاح فضل، ونرجو أن يتحقق على يديه مطلب صديق الهلال نور كمال.

● الأخ مدير عام ثقافة بورسعيد ، الأعمال تصلنا من خلال أصدقاء الهلال، وننشر منها ماهو جيد ، ونحرص على أن ننشر لكل المبدعين من جميع أقطار الوطن العربى.



اسئلة عطية الصيرفى!

بقلم : صنع الله إبراهيم

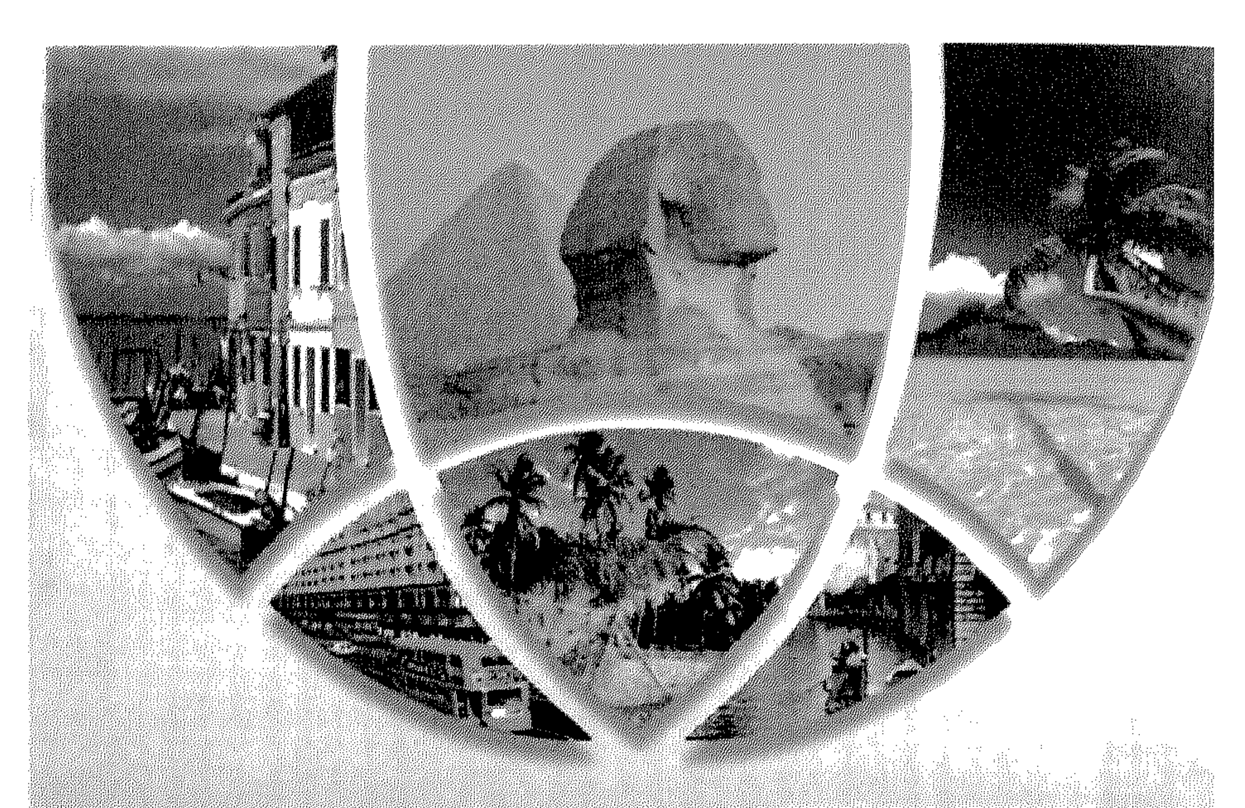
من الظواهر اللافتة للنظر أن جانبا مهماً من الدراسات التاريخية المصرية الحديثة ذات الطابع الموسوعى جرت على أيدى مؤلفين من خارج الجامعة، مثل طارق البشرى وإبراهيم عامر وشهدى عطية وفوزى جرجس وأحمد صادق سعد. ظاهرة أخرى لافتة للنظر أن اثنين من المؤرخين المحدثين استهلا الحياة العملية بالعمل كمساريا فى سيارات النقل العام، لكن أحدهما وهو «عبدالعظيم رمضان» أتاحت له الثورة استكمال تعليمه الجامعى والحصول على الدكتوراه بينما أتاحت للثانى وهو عطية الصيرفى -الذى ظل عاملا حتى يومنا هذا- دخول السجن.

خلال ذلك كله تمكن «عم عطية»، كما يخاطبه أصدقاؤه من تأليف عشرة كتب عن تاريخ الحركة العمالية والتاريخ المصرى عموما، معتمدا على قراءات واسعة فى المراجع الأساسية بالرغم من ضعف بصره.

ومنذ بضعة شهور أصدر على نفقته الخاصة كتابا ضخما استعرض فيه التاريخ المصرى كله فى محاولة للإجابة على الأسئلة التالية:

- لماذا انهارت الدولة الفرعونية؟
- لماذا ظل المصريون متمسكين بديانتهم طوال قرابة عشرة قرون تحت سيطرة الفرس والاغريق والرومان ثم اجتذبتهم المسيحية وغيروا ديانتهم ثم تغيروا إلى الإسلام وتغيرت لغتهم؟
- لماذا قاوموا روما المسيحية بالاستشهاد؟
- لماذا تفشت السلبية فى الحياة المصرية حتى يومنا هذا؟ عشق الموت.. الهروب والتواكل وتجنب الاصطدام مع الطغاة؟.. «إن الانتحار حالة مزاجية حادة من العدم والعدمية والغربة الاجتماعية السحيقة واليأس والقنوط والمخاطرة والاحتجاج والفدائية والمقاومة والخوف والهوس والجنون».. وهل هو المسئول عن ضآلة روح المقاومة والصمود فى مواجهة الطغاة والغزاة مما أدى إلى وهجرة المثقفين إلى الأديرة أو المهجر البعيد؟

ويستعرض المؤلف المكتسبات الاجتماعية التى تحققت فى ظل عبدالناصر وكيف جرى التراجع عنها دون أن ينفعل الشعب الذى سيطرت عليه اللامبالاة من جراء تغييبه وتغريبه بمساعدة المثقفين.





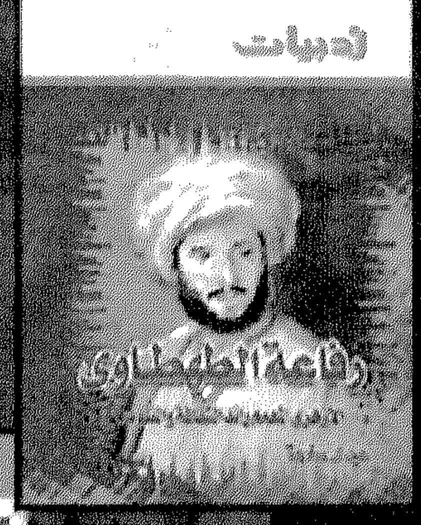
3 101 036 747



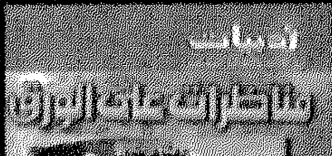
مصر للطيران
EGYPTAIR Plus


أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

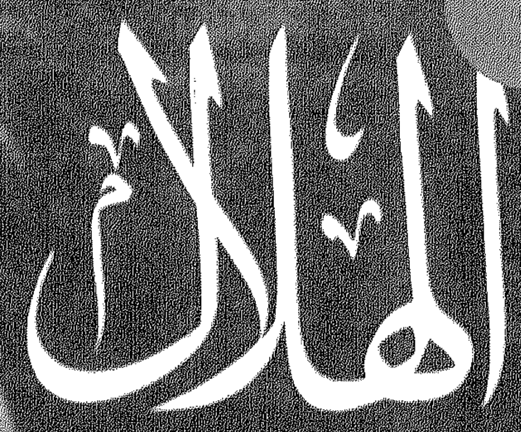

سيكولوجية الإرادة
أدبيات
الإعلام.. والمخدرات
الكعبة المشرفة


أدبيات




أدبيات


أدبيات



ديسمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

- قصة خروج اليهود من الاسكندرية
- المرأة والابداع
- بيرم التونسى والفرع السلطانى

"منيرة المهدية"

لوحة

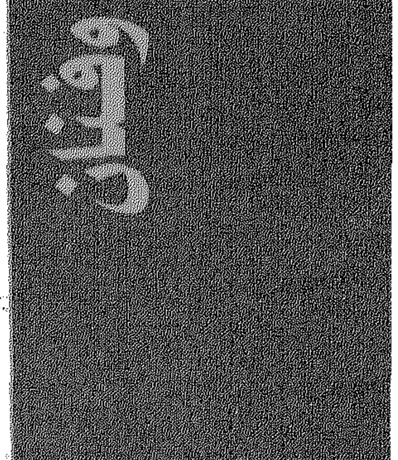
كاتب الخطابات

للفنان العالمي

ديفيد روبرتس

(١٨٣٨م)





الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٢ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

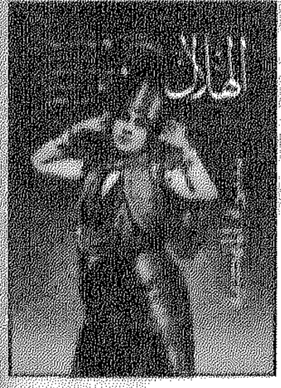
عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٢ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادى عشر بعد المائة
رمضان ١٤٢٣ هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

المرأة والإبداع

الأبواب الثابتة



الهلال.. والحدث الثقافى لعام ٢٠٠٣

مع التطور الهائل فى تكنولوجيا المعلومات حرصنا على وضع الهلال على أسطوانات رقمية ممغنطة «C.D» وليكون فى متناول الباحثين والدارسين والمراكز البحثية فى الجامعات، وقد واجهتنا صعوبات كثيرة فى رحلة البحث لتحقيق هذا المشروع الثقافى الكبير.

وجاء الاتفاق مع مكتبة الإسكندرية والذى يعد الحدث الثقافى الهام لعام ٢٠٠٣م ويتضمن طبع الهلال منذ صدورها فى سبتمبر ١٨٩٢ وحتى الآن، أى ما يزيد على ١١٠ سنوات.

وفور تسلم المكتبة للميكروفيلم الخاص بمجلة الهلال فى ٢٠ نوفمبر الماضى منذ صدورها حتى الآن ، أبدى الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة سعادته بهذا التعاون البناء مع دار الهلال، وحرصه على أن ينتهى مشروع طبع الهلال على C.D خلال عام ولتؤدى المكتبة واحدا من أهم أدوارها فى مجال الثقافة المصرية.

كما حرص الدكتور يوسف زيدان مدير إداراتى المخطوطات والتزويد بالمكتبة على شرح الاستعدادات التى بدأت بعمل توسع فى قسم الميكروفيلم لاستيعاب هذا المشروع، حيث تم التعاقد على شراء أجهزة لعمل «رقمنة» لهذه المادة خصوصا على الميكروفيلم بتقنيات متقدمة جدا بحيث تستطيع أن تنجز أكبر عدد من الصور والصفحات فى أقل وقت وبدقة عالية، كما راعت المكتبة بمجرد الاتفاق على هذا المشروع أن تبدأ فورا فى القيام بواجبها، تقديرا لمجلة الهلال ودورها الثقافى على مدى ١١٠ سنوات وذلك فى إطار خطة مكتبة

الإسكندرية لحفظ ذاكرة الوطن وخدمة الباحثين الذين من المتوقع أن يزداد طلبهم على الهلال التى تحمل الذاكرة المصرية منذ صدورها حتى الآن.

فلم تكن مصادفة أن تحتفل الهلال عام ١٩٩٢ بمرور مائة سنة على صدور العدد الأول منها، وأن يكون هذا الأحتفال احتفالا قومياً إلا لأنها تضم سجلا حافلا للحياة المصرية خلال قرن كامل، وحملت بين طياتها مقالات وبحوثا وقصائد شعر لكتاب ومفكرين وشعراء نذكر منهم جرجى زيدان وطه حسين والعقاد ود. محمد حسين هيكل وسلامة موسى والمنفلوطى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم إضافة إلى الأعداد الخاصة المتميزة لطه حسين والعقاد وشوقى ونجيب محفوظ وكان العدد الأخير بمثابة إشارة من الهلال إلى ما ينتظر محفوظ من العالمية التى حصل عليها عام ١٩٨٨م.

وفى مناسبة هذا التوسع الذى تم فى مكتبة الإسكندرية لمشروع طبع الهلال على C.D «إسطوانة ممغنطة»، يدخل مشروع آخر هو عمل نسخة رقمية تضم ١٤ ألف مخطوطة نادرة موجودة فى المكتبة البريطانية وقد وصلت الشهر الماضى على ميكروفيلم إلى مكتبة الإسكندرية، وسوف يتم نفس العمل، مع إضافة واحدة أنه في مجلة الهلال سوف تتم عمليات تبويب من واقع الاعداد نفسها وبذلك يمكن للمراكز البحثية وللباحثين الحصول على ما يحتاجونه من المواد المنشورة فى الهلال.

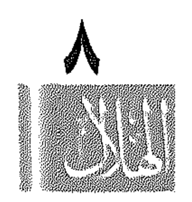
عزيزي القارىء

ومع هذا الاتفاق مع مكتبة الإسكندرية وعد الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب المصرية مشكورا بعمل فهرس للهلال يتم تنفيذه حاليا ليتحقق هذا الحلم الثقافى الكبير طبع الهلال على C.D وفهرس الهلال الذى يتضمن كل المواد التى نشرت وفهرستها وليكون ذلك بحق هو الحدث الثقافى لعام ٢٠٠٣.

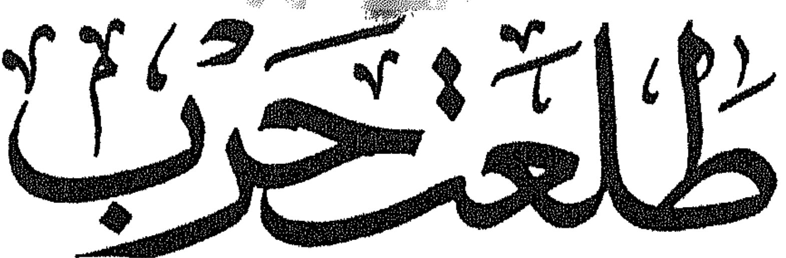
إن الطموحات كثيرة والتجديد والتطوير سوف يستمر فى مجلة الهلال أولى المجلات الثقافية فى الوطن العربى، من منطلق الحرص على أن يتواصل دورها الثقافى الكبير ولتظل منبر الثقافة الرفيعة وصاحبة الريادة فى كافة مجالات المعرفة. ■

المحـــرر

٨



رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م



كلمة السر لحل الكثير من المشاكل المعاصرة!

بقلم

مصطفى نبيل

ليس هذا حديثا عن الماضى بل يتناول الحاضر والمستقبل، يدور حول تجربة طلعت حرب وما تقدمه من نموذج فذ، نحن فى أشد الحاجة إليه، ففيه حل الكثير من القضايا الاقتصادية المعاصرة، فالوصفة التى كتبها في العشرينيات من القرن الماضى مازالت صالحة فى القرن الحادى والعشرين .

وهى مبادرة قامت فى ظروف صعبة، وفى ظل هيمنة الأجنبى. وسيطرة المحتل البريطاني، وتقوم على بث الروح فى القطاع الأهلى، أى القطاع الخاص، وهى تدرك هدفها فى زيادة «الكعكة» التى يشترك فيها الجميع، أى زيادة الاستثمارات..

وتتعامل هذه التجربة مع الواقع ، وليس لديها بقرات مقدسة، ولا قوالب جاهزة أو تحيزات فكرية، بل تنصت للواقع وتتابع خطاه.

من ليس له ماض، ليس له مستقبل..

هذا الكتاب وثيقة مهمة، حجبت طويلا، رغم ما يحمله من تجربة وعبرة، قام الدكتور رءوف عباس ومركز تاريخ مصر المعاصر فى كشف الغطاء عنه. وتقديمه للقارئ. وكأنه رد على الجدل الواسع الذى يدور فى مجتمعنا حول زيادة الاستثمارات وتحقيق التنمية.

وقد تحولت كلمات الكتاب الى أخطر مشروع تم إنجازه عقب ثورة عام ١٩١٩ .

ومن الملاحظات الجديرة بالاهتمام، وفرة الدراسات التى تتناول التاريخ السياسى، وندرة الدراسات التى تتناول التاريخ الاقتصادى والاجتماعى. وعندما شرعنا فى نشر «أهم مائة كتاب فى مائة عام»، كان كتاب طلعت حرب (١٨٦٧ ـ ١٩٤١) على رأس القائمة.

وسبق أن صدر هذا الكتاب سنة ١٩١٣، يقدم خلاله طلعت حرب مشروعه الكبير، ويعبر هذا الكتاب بحق عن فكر وحلم كاتبه، ويستعرض تطور الاقتصاد المصرى ويرسم ملامح



مستقبله.

ويطالب الاقتصادى الكبير - فى هذا الوقت المبكر من القرن العشرين - بأداة فاعلة من أجل تراكم رأس المال الوطنى وتوظيفه من خلال بنك وطنى يلبى الاحتياجات الاقتصادية، خاصة بعد أن زاحمت البضائع المستوردة، المنتجات المحلية، مما أدى الى فقدان التوازن بين الصادرات والواردات. ويطالب بعدم اقتصار إنفاق المدخرات المصرية على شراء الأراضى الزراعية والعقارات، وينادى بالتصنيع وعدم الاعتماد على المحصول الواحد وهو القطن. وأكبر دوافعه جاءت من استيلاء المرابين والأجانب على أراضى الفلاحين عن طريق النظام الربوى المتبع.

كما أدرك أن وجود البنك فى عصر الخديو اسماعيل كان يمكن أن يجنب مصر «صندوق الدين»، ونهب واحتلال مصر بعد ذلك.

وهو يدرك أن الاستقلال السياسى، لابد أن يصاحب الاستقلال الاقتصادى.

ولد طلعت حرب وترعرع فى «قصر الشوق» بحى الجمالية، وهو ابن شرعى للطبقة المتوسطة الصغيرة، وللحركة الوطنية المصرية، اختزن أهدافها، وعمل على تحقيقها، وجاءت فرصة تنفيذ مشروعه بعد قيام ثورة ١٩١٩ التى ألهبت الشعور الوطنى.

ومن المفارقات اللافتة للنظر أنه عمل فى بداية حياته فى بقالة صغيرة بالعباسية، وعندما لم يوفق انتقل الى تجارة الألبان ، ومرة أخرى لم يحالفه الحظ..

أول بنك وطنى

ونجح فى إقامة بنك وطنى مصرى، وهو المطلب القديم، الذى أخذ يتجدد مع تتابع الأزمات الاقتصادية، فارتفعت الدعوات بإنشاء البنك مع قيام صندوق الدين، وزادت إلحاحا بعد قيام الثورة العرابية، وتبنى الفكرة عبدالله النديم الذى دعا الى ضرورة تأسيس بنك وطنى. وجاءت هزيمة الثورة العرابية لتجهض هذه المحاولة وتزيد السيطرة الاستعمارية على الاقتصاد .

وكان من حظ طلعت حرب أن يحقق هذا الهدف الوطنى القديم، بعد أن أخذ ينادى بإقامة بنك مصرى منذ عام ١٩٠٧، وتحدث حول مشروعه فى المحافل الوطنية، وكتب فى الصحف، وكان من كتاب «الجريدة» - صحيفة لطفى السيد - وتناولت مقالاته القضايا الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.

وساهم طلعت حرب عام ١٩١٠ فى الحملة ضد مد امتياز قناة السويس .

***

وعادة تقوم الاحتفالات ، وتعقد الاجتماعات فى ذكرى القادة السياسيين

أو كبار الكتاب أو الفنانين، ولا نحتفى بنفس القدر بالعلماء أو الاقتصاديين ، أولئك الرواد الذين يقتحمون مجالات جديدة نحن فى أشد الحاجة اليها ..

وجاءت ثورة يوليو بعد ستة عشر عاما من رحيله وأقامت لطلعت حرب تمثالا فى أهم ميادين القاهرة..

وظاهرة طلعت حرب تؤكد أن أصحاب الأعمال الكبرى - عادة - يتمتعون بالحس العام، والاهتمام بشئون بلدهم، فهو من القلة النادرة الذين جمعوا بين الفكر والعمل.

قضية تحرر المرأة

يكتب فى الصحف، ويؤلف الكتب، وأول مؤلفاته كتاب تناول قضية المرأة سنة ١٨٩٩ ، عندما كانت هذه القضية محل جدل واهتمام الجميع. ورغم أن طلعت حرب، عارض دعوة قاسم أمين الى السفور ورد على ما طرحه فى كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» بكتابيه «تربية المرأة والحجاب» و«فصل الخطاب فى المرأة والحجاب»..

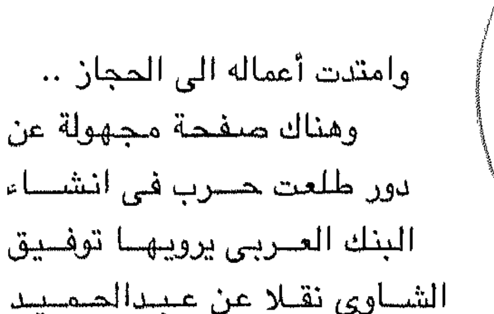
ويلاحظ أنه لم يكن ضد المساواة بين المرأة والرجل، ولكنه كان يؤكد أن «الاسلام» كان سباقا فى إعطاء المرأة حقوقها. وفسر رده على قاسم أمين بالقول: «كنت أقصد ضرورة الابتعاد عن التقليد الأعمى، وعن الطفرة حتى نحافظ على شخصية الأمة وانعكس ذلك على ما قام به بعد ذلك ، فتخرج فى مدرسة الطيران التى أنشأها بنك مصر أكثر من امرأة تعمل طيارة، وقامت النساء بالتمثيل على مسرح حديقة الأزبكية ، كما عملت الكثير من الفتيات فى مصانع شركة مصر للغزل والنسيج.

الاسلام والنهضة

كذلك نشر كتابه حول «دور العرب والإسلام» سنة ١٩٠٥، وترجم كتاب الشيخ محمد عبده فى الرد على هانانو الى اللغة الفرنسية. وكان واحدا من النخبة المثقفة التى تسعى لنهضة البلاد، وكتب مصطفى كامل فى ١٠ يوليو ١٩٠٥ مقالا يقرظ طلعت حرب فى جريدة اللواء.. يقول .. من الأشياء التى تسر كل مصرى يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهدا على كفاءة المصرى فى الأعمال الجسيمة، وتقدير الأوروبيين له حق قدره، فعزتلو حضرة المقدام محمد طلعت حرب، مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقا، هو أول مصرى ، نقدمه للقراء، انتخب مديرا لشركتين، هما شركة العقارات المصرية، وشركة كوم أمبو.. إن الثقة بهذا المصرى عظيمة، وستصل هاتان الشركتان الى شأن بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرها الجديد من سمو الإدراك، وسعة الاطلاع فى المسائل المالية».

وبعدها سجل اسمه فى التاريخ مقرونا بأهم أثاره وهو إقامة «بنك مصر»، أول بنك مصرى يقوم على الاكتتاب العام الذى يقتصر على أبناء الشعب من المصريين، وبلا معونة من

الحكومة وكعمل أهلى، بل ودون عطف منها على المشروع .



كان فى قلب الرجل جذوة الوطنية المقدسة، وأقيمت بالجهد الأهلى مؤسستان تعبران عن الحاجة الى نهضة شاملة، هما الجامعة المصرية وبنك مصر .

ومع أن نظام البنوك نظام أوربى، إلا أن لغة وأموال البنك عربية ويخدم البنك أهل المحروسة.

وأصبح بنك مصر هو طلعت حرب، وطلعت حرب هو بنك مصر.

النظرة العربية

وأدرك طلعت حرب بحاسته السياسية والاقتصادية معا ، أن البلدان العربية وحدة اقتصادية بقدر ما هى وحدة ثقافية، وأدرك أيضا من خلال ممارساته عمق الفكرة العربية.

فقد بدأت البنوك فى البلدان العربية بنوكا أجنبية مالا ولغة وإدارة ، ثم أقام بنكا وطنيا يسير على الأنظمة والأصول الأوروبية، ولكنه يستخدم اللغة العربية ويعمل لصالح الاقتصاد المصرى لا صالح الدول الأوروبية.

وتثبت تجربة طلعت حرب أن من يتلمس الواقع ويعرف حقائقه ، يقوده الى الإيمان بالعروبة ، فعندما اتسعت أعمال بنك مصر امتدت الى الخارج، ونشأ بنك مصر - سوريا - لبنان، وامتدت أعماله الى الحجاز ..

وهناك صفحة مجهولة عن دور طلعت حرب فى انشاء البنك العربى يرويها توفيق الشاوى نقلا عن عبدالحميد شومان مؤسس البنك العربى (مجلة العربى عدد ٢٨٢ مايو ١٩٨٢) .

يقول شومان .. «إن فكرة إنشاء البنك العربى كانت ثمرة اتصاله وإعجابه بطلعت حرب.. فقد خرجت من القدس متوجها الى نيويورك . معتمدا على ذراعى . فلم أدخل مدرسة ولا أحمل أية شهادة .

وعندما بدأت رحلة العودة، أخذت أحسب ما ادخرته، وأفكر فى المشروعات التى يمكن أن أقوم بها فى بلادى.

وسمعت حوارا بشأن رجل ظهر فى مصر، دعا الى إنشاء «بنك مصر»، وخطر لى أن أساهم فى هذا البنك بالمال الذى ادخرته. وكتب صديقى رسالة بهذا المعنى لطلعت حرب ، واقترحت أن يشترك معى فى تأسيس بنك حتى نستفيد من خبرة المصريين ومعاونتهم، واقترحت أن يكون اسمه «بنك مصر فلسطين»، وعندما تلقيت رده على رسالتى، كانت إجابة مشجعة، ورحب بالفكرة وقال : «إنه يتمنى أن ينشأ فى كل بلد عربى مثل هذا البنك، وان فلسطين هى الأقرب لبلادنا وقلوبنا .. وأنه يسعده أن يعرف أن المهاجرين

مازالوا يفكرون فى النافع لبلادهم».

وقـام أول بنك عـربى يولد فى رعـاية وحضانة مؤسس بنك مصر .

ويخـتـتم حـديثـه بالقـول : «إن طلعت حـرب كـان المثل الذى أقـتـدى به، فـالبنك العـربى الذى انشـأناه فى القـدس ، كـان امـتدادا لبنك مـصـر الذى أنشـأه طلعت حرب فى القاهرة».

تكامل البناء

وأدرك طلعت حـرب ضـرورة تكامل البناء، فلا يكفى أن يقوم على أساس مادى دون الوجـدانى لذا اهتم باقـامـة المصـانع كما اهتم باقامة المسارح والمطابع .

وإذا كانوا اليوم يتحدثون عما يطلقون عليه «التنمية المستدامة» فقد سبق وعمل طلعت حرب على تحـقيق ذلك، وأكد على وحدة العمل والتجربة ، فجمع بين ماهو مادى وماهو معنوى، وإحدى شركات البنك دار الطباعة وأخرى للسينما، وفى فترة مبكرة مهد طلعت حرب الطريق للسينما وفتح لها الأبواب، ووضعها على عتبة فن مصرى أصيل، وأقام مسرح الأزبكية على الطراز العربى ، وكـان ثانى مـسرح أقيم للتـمـثيل بعد الأوبرا، وحـول الاهتـمـام بظاهرة تكامل حلقات التقدم إلى حقيقة واقعة. استمع اليه وهو يقول .. «المطبعة والمكتبة والشركة المساهمة لصنع الورق حلقة.. ومن النقل تكونت حلقة أخرى بين النقل فى النهر، والنقل فى البحر والنقل فى الجو..» وهكذا .

★★★

وتظل عمارة بنك مصر تعبيرا صادقا عن شـمـول مـعنى النهضـة، واخـتـياره الطراز العربى حتى تتطابق الفكرة على المبنى .

وكـان يحـتـفى بكل مـاهـو جـديد. صناعة جديدة أو علم جديد ، ويشعر بمسئوليته عن زراعة الجديد فى التربة المصرية، هكذا تعـامل مع السـينمـا والطيـران وغيـرهمـا، وهـو أول من نادى بالتخطيط فى الاقتصاد يوم كانت فكرة التخطيط مازالت بعيدة وغير معلومة.

وسـبق زمـانه فـمنذ أن طرأت عليـه فكرة إنشـاء أول بنك مـصـرى ، وهو لا يأتى عملا الا بناء على تخطيط دقيق.

وكل منشـأة أقـامـهـا كـان الدافع وراءها غيرة وطنية وحاجة ضرورية.

وهو القـائل «لم يكن الذين اتفـقـوا على ضرورة إنشاء بنك مصر، إلا بضعة نفر آمنوا بالفكرة، وكان كل شىء قليلا الا الإخلاص والعزيمة».

بناء الاقتصاد أولا

ونأى بنفسه عن السياسة مثله فى ذلك مثل الشيخ الإمام محمد عبده والدكتور أحمد زكى وغيرهما من الشخصيات، وقد رأى كل منهم أنه لاجدوى من السياسة بدون بناء الإنسان، فمن الضرورى أن يسبق الاهتمام بها بناء الوطن.

فبعد التجارب السياسية الفاشلة للأستاذ الإمام، رأى أن إصلاح التعليم وتجديد الدين يسبق أى عمل سياسى، رأى ذلك أيضا د. أحمد زكى، الذى أقام المركز القومى للبحوث ورأى أن نشر

العلم وخاصة المنهج العلمي في التفكير يسبق أي عمل سياسي.. ورأى طلعت حرب أن بناء الاقتصاد المصرى يسبق بالضرورة العمل السياسي.. حقا .. إن أي عمل يصب في النهاية في السياسة، الا أنه سعى لحماية الصيرفة من بحر السياسة الهائج.

وكما قال محمد عبده «لعن الله السياسة»! يقول طلعت حرب : «تبا للسياسة مادخلت شيئا الا أفسدته».

وكما اهتم باقتصاد البلاد اهتم أيضا بلغة البلاد، لذلك نجده يؤكد «جاء بنك مصر لكي يثبت عمليا أن اللغة العربية يمكن أن تكون لغة بنوك ومحاسبة وأعمال وإدارة.. ويقول .. «أدعو من حيث يجهلون أو يتجاهلون منزلة لغتنا - أن العربية لا تصلح للتعليم، لأنها تقصر عن استيعاب علوم العصر..» وطالب بإقامة مجمع اللغة العربية.. يقول .. «واجب الجماعات العربية جعل اللغة الفصحى، واسطة النقل، وأن يعملوا دائما على توجيه اتجاهاتها بمجمع علمي عام مشترك».. وهو ما تحقق بعد ذلك.

الإيمان بالمؤسسات

وكان من الأوائل الذين أدركوا معنى المؤسسة، ككيان معنوى، ذاتى الحركة، لا يرتبط بالأشخاص وإنما الأهداف، وعمل على ألا يكون البنك مشروعا فرديا بل مؤسسيا، فلا ينتهى بحياة صاحبه ، وإنما يهدف الى إقامة هياكل وكيانات قادرة على الاستمرار.

هذا بعد أن رأى أمام عينيه اختفاء صحيفة «اللواء» باختفاء مصطفى كامل، واختفاء «المؤيد» بموت على يوسف لذلك كان هدفه إقامة مؤسسة تبقى ويطول عمرها .. وقد تحقق له ذلك.

ونجح الرجل في إقامة وإدارة أكبر مشروع اقتصادى شهدته مصر، وفشل في إدارة محل بقالة أقامه في العباسية في بداية حياته ..

ضحية المؤامرات

ولم يسلم الرجل بعد كل ما أداه لوطنه، من مؤامرات الحاسدين والحاقدين.

وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية، وما وقع من اضطراب اقتصادى، سحب عدد من المودعين الكثير من ودائعهم، وتدخلت الحكومة وأصدرت القانون رقم ٤٠ سنة ١٩٤١، لدعم البنك، وكان ثمن تدخلها تنحية طلعت حرب لسبب غريب انه استثمر أموال المودعين في بناء المصانع واقامة الشركات!!

و تمضى الأيام ، وتذهب المناصب بحلوها ومرها ، ويبقى خالدا ذلك الصرح الكبير، الذى كان خطوة كبيرة على طريق النهضة ونحو آفاق المستقبل. والذكرى العطرة لصاحبه.

أقوال معاصرة

● «كل سلطة تقمع شعبها تجد نفسها مقموعة أمام أعدائها فى نهاية المطاف»

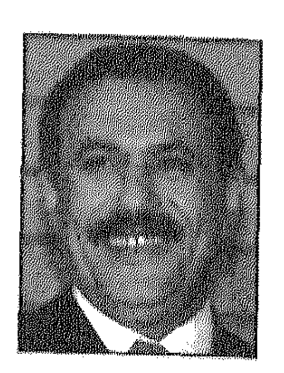
الكاتب السعودي عبدالله الحاق

● «الهزيمة أشد من القتل»

الأديب الفلسطيني أحمد رفيق عوض
صاحب رواية آخر القرن

● «الولايات المتحدة تبدو بتفكك الإتحاد السوفييتى إلى شظايا وكأنها اشترت ورقة يانصيب بدولار واحد فهبطت عليها من السماء جائزة بمليون دولار»

جورج كينان
السياسي الأمريكي المخضرم صاحب مذهب الاحتواء



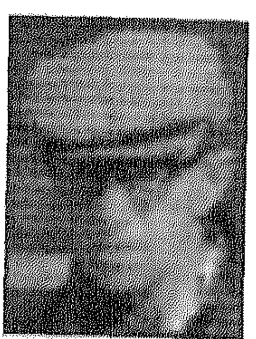
على عبد الله صالح

● «مشكلة اليمنيين أن كل واحد منهم يريد أن يكون وزيرا»

الرئيس اليمني علي عبدالله صالح

● «عندما تتقدم المرأة صفوف المجتمع فاشهدوا له بامتلاك إرادة التقدم»

بثينة شريط
وزيرة الأسرة والمرأة في الجزائر



وودى آلن

● «أنا فنان فاشل لا أعرف كيف أمثل ولا أتمتع بالموهبة كأحد عازفى الجاز أنا عادى للغاية وفى الواقع أقل من العادى»

وودي آلن الممثل والمخرج الفائز بأوسكار عن فيلمه آني هول

● «لا ينبغى على المسلمين أن يتبعوا بشكل أعمى رجل الدين»

الكاتب الإيراني المحكوم عليه بالإعدام
هاشم اغاجاري

● «أزمة العالم كله بمن فيهم العرب والمسلمون، تكمن فى التناقض ين الأفعال والتصريحات والسياسات»

د. أحمد راسم النفيس



محيى الدين عميمور

● «حماس المثقف والتزامه ليس توقيعا على بياض»

المفكر الجزائري د. محيي الدين عميمور

● «فى السماء الحقيقة واحدة، فى حين أنها على الأرض حقائق متعددة»

جوناثان ساكس رئيس حاخامي بريطانيا

● «لا شئ خال مائة فى المائة من المخاطر، ولكن المكسب من ركوبها يستحق الأقدام عليها»

رائد الفضاء الأمريكي جون جلين

الطفل الضائع في البيت والمدرسة والشارع

بقلم
د. محمد رجب البيومى



كلنا نحب الطفل ونحب إسعاده، فهو رجاء الغد، ورجل المستقبل، وها هو ذا ينوء بأثقال وقفت أمامه وألقيت عليه من حيث لا يحتسب فهل فعلنا له شيئا يقيه هذه الأهوال.

لقد كان الطفل فى أمسه خيرا منه فى يومه، بحيث لا يوجد وجه للمقارنة بين الأمس واليوم، فطفل الجيل الماضى ينشأ فى بيت يرعاه، ويعمل على أن ينبت نباتا حسنا، فهو يصد عنه كل مايوحى إليه بما يسوء، وقد فرغ المربون من تقرير قولهم إن الطفل هو الرجل، وأن الرجل فى كل أدواره متأثر بما كان عليه فى طفولته، فرغ المربون من ذلك حتى يعتبر الحديث عنه من قبيل تحصيل الحاصل، وهذا ما كان يعرفه الأب والأم معا، فيجتهدان ألا تمس طبيعته الخيرة، وفطرته النقية البريئة بما يعكس براءتها، إذ لا يرى إلا الحسن، فإذا اقترف بعض الهنات كان التهذيب الحانى أقوى الوسائل لهدايته، ومهما قلت ثقافة الأب والأم فهما يعرفان الضرورى من قواعد السلوك الصحيح، فيقولان له إن الكذب وبال، وإن السرقة جريمة وأن محبة الأخوة والأخوات واجب محتوم، وقد يسمع أحاديث لطيفة من الأم والجدة تدعو إلى الخير فى قصص ساذجة لها وقعها الطيب فى نفس ساذجة لم تتعلق بأوضار الحياة، فيتجه بما يسمع وما يعامل به إلى السلوك السوى

ويذهب إلى المدرسة وهو مهيأ تهيئة تامة للسلوك الحميد، ويجد زملاءه الصغار على شاكلته، تربوا تربيته، ونهلوا مما نهل من قصص هادفة، وتربية صالحة، فيتم التعارف على نسق من الحب الواعى، والود الذى يحذر النقائص، ويرتفع إلى الفضائل ثم تجىء دروس التربية الدينية لتنمى هذه البذور المغروسة فى النفوس فتشب الأعواد ناضرة خضراء، وارفة زاهية، وتترعرع السيقان، فلا ذبول ولا ظمأ، وإنما التشذيب والتهذيب! وقد يوجد من يشذ لعارض اعترض حياته المنزلية، ولكنه حين يجد الجو العام نفاحا بالطيبة رفافا بالمودة. يحاول أن يقتدى بالجمهرة الراضية المطمئنة والمعلم من ورائه يقوم ما أعوج، ويهدى للتى هى أقوم.

هذا طفل الأمس، يصل إلى مدرسته طاهرا نقيا، لا يعرف بابا للشر، ولا تهجس فى نفسه هامة بالأذى، وطبيعته فى أصلها خيرة ترحب بكل سار بهيج وتنأى عن كل شئين يعيب، فهو إلى السلامة أقرب، وإلى النجاة أهدى، فلنترحم عليه الآن فى أمسه الغابر. ثم نكر النظر إلى طفل اليوم لنخبر شأنه، وندرك ما ارتطم فيه من عثرات، إنه حين يعى ما حوله، يتجه إلى التليفزيون، وأمه فرحة بالتهائه واشتغاله لتفرغ إلى شأنها بعيدا عنه، وأبوه المرهق بأعبائه لا يجد فراغا لمحادثته وتسليته، وينظر الطفل إلى ما أمامه، فيجد مشاهد من الرعب تصل أحيانا إلى حد القتل، حيث تتوالى الجرائم آخذة بعضها بذيل بعض، كما يجد أحيانا مشاهد من الخلاعة تريه فنونا من التبذل فى الضم والتقبيل والعناق، وقد يسأل الكبير من اخوته فيشرح له شرحا يضل ولا يهدى، ثم يرى مرة أخرى فنوناً من المكر والاحتيال، ويقف على أساليب من الغش والخيانة ويسأل عن ذلك فيجد الإجابة التى تضل ولا تهدى! فقد أدرك المسكين فى عمره البض وبرعمه الغض شرورا مويقة تجسد له الرذيلة، وتصورها بالتمثيل والتشخيص، وبعد أن كان أخوه من قبل يسمع حديث الجدة الضاحك، ولا ينظر إلى مشهد من مشاهد الشر يوجهه إلى مسلك شاذ، بعد أن كان أخوه فى الجيل الماضى ذا حصانة واقية، نشأ المسكين وقد عرف من الشرور والآثام ما لا طاقة له باحتماله، فإذا توجه إلى المدرسة فإن زملاءه أيضا قد وردوا مورده، وجاء الجميع إلى المدرسة مزودا بأساليب الاحتيال، عارفا من مويقات السقوط والانحدار مالا مزيد عليه، وقد يستمع إلى من يزين له اقتراف السوء، من سرقة أو شهادة زور أو اتهام البرئ أو ما يعجز القلم عن تسطيره، فسرعان ما يستجيب، ولم لا؟ وقد تلقى من التليفزيون دروس الحرية بمختلف أنواعها، وعرف أسماء الممثلين

والممثلات، وسمع عنهم عبارات الاطراء، فلم يفرق بين الواقع والتمثيل، بل تأكد أن هؤلاء الذين يظفرون بالثناء، وتظهر صورهم باهرة مبهرة فى الندوات، هم أساتذته الذين فتحوا عينيه، وأن كل ما قاموا به من الأدوار الأليمة كان وساما يتألق على صدورهم، ويجىء مدرس اليوم فلا يؤدى واجبه كمدرس الأمس، لعوامل ندركها تماما، وقد تحدثت عنها من قبل، يجىء ليوصى فى درس الدين بحفظ آية لم يشرحها، فإذا سئل عن معناها قال أمامكم الكتاب! وهكذا تفقد المدرسة دورها فى التربية الدينية، كما فقد المنزل دوره فى التأديب والتهذيب! ولنواجه الحقيقة المرة، حين نقرر أن تسعين فى المائة من المدارس لا تقوم بدورها الجاد، لأن الدرس الخصوصى أصبح كل شىء! والذين يحاربون الدروس الخصوصية من الكبار يعطون أولادهم هذه الدروس إذ لا مفر منها لمن يريد النجاح! ففيم الخداع؟

تأثير وسائل الإعلام

إن معضلة التليفزيون والنشأة الأولى للطفل معضلة عسيرة، تتطلب الحل الجرىء لأن خطرها الداهم سيجعل من طفل اليوم مجرما فى الغد، وعندنا أكثر من مائة وخمسين كلية للتربية، بعد أن أصبحت مدارس المعلمين والمعلمات كليات للتربية النوعية فصارت ضغثاً على أباله، هذه الكليات الواسعة الانتشار فى العواصم والأقاليم تتحدث عن الاهتمام بالطفل ونشأته الأولى لا حديث من يرى المشكلات الواقعية تأخذ الطريق على الناشئة فيجد لها الحل الموائم، بل الحديث التقليدى الذى يقسم مراحل الطفولة إلى ثلاث مراحل، ويحدد خصائص كل مرحلة مما هو مكرر مسئوم، ثم حديث عن الخيال والواقع عند الطفل، والعالم الخارجى بالنسبة للطفل، والطفل ومنزلته فى الأسرة ذات العدد الكبير أو العدد المناسب، وكل ذلك قد يكون مطلوبا بقدر ما دون أن نغفل مشكلة المشاكل التى طرأت على واقع الطفل، فنجد لها الحل السريع، ثم تقول بعد ذلك إن كليات التربية النوعية أنشئت لتساعد على النمو الطبيعى، وتقضى حاجات البيئة! واترك هذه المقررات المسئومة لنبحث عن رسائل الماجستير والدكتوراه فى كليات التربية لنجد عشرات الرسائل فى ذكاء الطفل، وموقف الطفل من والديه، والغيرة عند الأطفال، وأكثرها مكرر فى مضمونه، مختلف فى عنوانه فحسب، لماذا لا نعقد مؤتمرا خاصا بتأثير وسائل الإعلام على الأطفال، ولماذا لا يدعى إليه الأصلاء المعتزلون من أعلام التربية دون أن نخص أصحاب المناصب وذوى الوجاهات، ثم يكون للمؤتمر توصياته التى تكون موضع التنفيذ العملى

السريع، لا التى تلقى فى الأدراج كأخواتها من قبل، دون أن يسأل سائل عن نتائج مؤتمر تعددت حلقاته، وانتفخ المقررون فى جلساته يوصون بضرورة مراعاة الوقت نظرا لكثرة البحوث، وإذا هم معترض بالتعقيب على موضوع يمس المتعارف عليه من الاتجاهات، قيل إن الوقت لا يسمح، وإن أجل المؤتمر محدود! ثم ينقضى المؤتمر كما ينقضى المؤتمر الشعبى للأولياء، بل إن المولد الشعبى يحدث من أدوات الترفيه ما لا يحدثه المؤتمر العلمى، ويسعد الأطفال بما يحمله الزائرون من الحلوى والمسليات!!

إن تأثير المسلسلات التليفزيونية التى أدمنها الأطفال إدمانا لا فكاك منه قد أصبح موضع الخطورة الحقيقية، وصفحات الحوادث تمتلىء بمزعجات إجرامية أساسها تقليد حلقات المسلسلات! وأنا أضرب مثلا شخصيا لتأثير القصة السهلة اليسرة فى نفس الطفلة الناشئة، وكيف أخذت تفكر فيها على مدى يومين دون انقطاع، ليعلم أولو الأمر ما تقدمه هذه المسلسلات الإجرامية من أوهام لا حد لتأثيرها بين الأطفال والشباب!

قصة خيالية

لقد مرضت ابنتى رباب ذات السنوات التسع - وكان ذلك منذ ربع قرن فأكثر، ورأيت أنها فى حاجة إلى من يؤنسها بالحديث بعد أن أخذت الدواء، وأنا أب وأم معا فلا مناص من الجلوس معها، فذكرت لها قصة واقعية ذكرتها بالتفصيل من زمن فى مجلة الأديب اللبنانية وأشير إلى موجزها الآن، وفحواها أن تاجرا كان يحمل بضائعه على عربة ينتقل بها من قرية إلى قرية، ومعه كلبه الأمين، وقد اضطر فى عودته ذات يوم إلى الاستراحة فى ظل شجرة، حتى ينقضى وهج الظهيرة، فهيأ لنفسه مضجعا للرقاد وطال به الوقت أكثر مما كان يقدر، فنهض فزعا من أن يدهمه الظلام، فيتعرض للصوص الطريق، وقد سقطت حافظة نقوده دون أن يدرك، وحين هم بالرحيل أخذ الكلب يعترضه ويقف أمامه وينبح نباحا شديدا، والتاجر حريص على السير العاجل، فلما أبرمه الكلب باعتراضه المتصل ونباحه المتكرر ضاق صبره وخاف سطوة الأشرار إن تأخر، فيفقد ثروته لحماقة هذا الكلب النابح، فأخرج مسدسه وأرداه قتيلا، وحين رجع إلى مأواه بعد العشاء التمس الحافظة فلم يجدها، فأسرع إلى المكان قبل أن يلتقطها أحد، واستعان ببعض أقاربه المسلحين، فلما بلغ الشجرة، وجد الأمر الهائل!! وجد الكلب صريعا وقد نام فوق حافظة النقود!! وكأنه فى لحظاته الأخيرة خاف عليها أن تغتصب فواراها بجسده الصريع، قلت هذه القصة ظانا

أنى أرفه على ابنتى بحديث مستطاب، ولكنى فوجئت بالدموع تنهمر من عينيها، ثم صاحت! بابا بابا، ماذا جنى الكلب المسكين؟ أهذا جزاؤه؟ واستمرت فى البكاء، فأدركت أنى لم أحسن اختيار ما أحكيه وأخذت أحاول الانتقال إلى موضوع

آخر، ولكن دموع المسكينة قد زادت فأقلقتنى ، وتصابرت منزعجا حتى نامت بعد أرق أليم وفى الصباح كانت أول كلمة قالتها: بابا التاجر فظيع، التاجر فظيع، والكلب مسكين ، فقلت إن القصة خيالية فلا تهتمى، قالت أنت قلت إنها حدثت فعلا قريبا من قرية دكرنس! وواصلت بكاءها ، وأدركتنى رهبة الموقف فبكيت أنا الأب الكبير متأثرا ببكائها فليت شعرى إذا كانت رواية قصة عابرة تترك فى ذات السنوات التسع هذا التأثير الحار الذى سقط بالدموع مرة خلف مرة، فماذا تفعل قصص الرعب، ومناظر المجون، ومشاهد السفه والبذخ فى نفوس غضة ترى ما يزعج المشاعر ، ويوقد الأحاسيس . أعجب العجب أنى رأيت فى إعلان التليفزيون حلوى تصنع على هيئة السيجارة ، ثم قرأت فى الصحف أن هذه الحلوى بيعت لتلاميذ إحدى المدارس فأصابت بعض الأطفال بالتسمم وحللت الحلوى فوجد فيها ما يضر تماما بالطاعم! أو ليس فى اختيار السيجارة بالذات إغراء حقيقى بالرجوع إلى الأصل، وهل منعت إعلانات التدخين، حتى نأتى بإعلانات الحلوى مؤكدة لها دون خوف من النتائج ذات الأثر البعيد.

أين القدوة الصالحة ؟

أعود إلى المدرسة التى ينتقل إليها التلميذ من البيت مباشرة ، فأتساءل : أيجد الآن فيها الدرس النافع أو القدوة الصالحة ؟ إن المدرسة ابتدائية وغير ابتدائية لم تعد مكانا لتربية السلوك وتنمية الشخصية بوجه من الوجوه، فهى دروس صورية تلقى على التلاميذ فى كثافة مفرطة ترهق الذهن الغض، وتأتى الامتحانات الشهرية لتكون إزعاجا لأولياء الأمور كى يدفعوا بلاءها بالدرس الخصوصى، أما المدرس القدوة فكيف يوجد؟ وهمه الأول حتى التلميذ المجتهد الذى لم يأخذ درسا عند مدرس المادة درجته هابطة، وأحيانا يفاجأ بالرسوب عن عمد ، كما ينظر فيجد زميله المهمل قد أخذ الدرجة النهائية لأن المدرس شمله بعطفه إذ كان مدرسه الخاص! أى قدوة يمثلها هذا المدرس الذى ينظر إلى التلميذ كما ينظر الصائد للعصفور! وأى تقدير يناله من تلميذ

يلمس الظلم صارخا أمام عينه، ولا حيلة إلا أن يلجأ إلى أبيه كى يسعفه بدرس يرفع درجته فى الامتحان، ويعفيه من نظرات المدرس القاسية، وتربصه إذا بدأ بحركة يعدها غير طبيعية فى رأيه إذ يتناوله بالسباب المفرط دون احتشام ، وبهذه المناسبة أذكر ما علمته بأن بعض المدرسات في كثير من المدارس رأت أن تكون أما لجميع التلميذات، لا بمعنى أن تبدى حنان الأم ورأفتها بالزهرات الغضة، بل بمعنى أن يكون لها هدية خاصة فى عيد الأم تحرص كل تلميذة على إهدائها ، ومن التلميذات من يستطعن إهداء الشىء النفيس، ومنهن من لا يجدن غير الإهداء وهو يعد ذو قيمة مادية مهما انحدر مستواه. ولكن المدرسة تستعرض الهدايا فى الفصل، وتقرع صاحبة الاهداء المتواضع ، صار ذلك عرفا متواضعا فى أكثر مدارس البنات، وللناظرة حظها من الهدية إذا رأت المدرسة مجاملتها كى تسكت! أليس هذا مثلا شاذا ، ولكنه عام قد انتشر عاما بعد عام حتى أصبح ضريبة مفروضة، فإذا كان ولى الأمر أبا لثلاثة فماذا يصنع حين يجابه بالدرس الخصوصى ويصبح أمرا لا فكاك منه، وحين يجابه بهدايا عيد الأم ثم يقال له إن التعليم مجانى، ولن تمس المجانية بحال!

فى هذه البيئة المدرسية تنحط القدوة إلى أسفل درجات الانحطاط وفيها يتحرش التلاميذ بمدرسهم إذا استطاعوا ، فقد سقطت الهيبة، وضاع التوقير، لقد مضى عهد كان فيه الأستاذ أبا رحيما، يعرف تلاميذه معرفة الوالد المشفق، ويتحسس مشاعر كل ولد من أولاده، فإذا شاهد ما يدل على الحزن فى سحنة تلميذ ، دعاه إلى مكتبه وسأله عما به ! وإذا لمس من مظهر التلميذ ما يدل على الحاجة سعى إلى ناظر المدرسة كى يمنح التلميذ ما يحتاج من صندوق الرعاية مالا أو كساء أو حذاء، كان هذا التكافل الاجتماعى الفريد مصدر عزة للمدرسة وموضع مهابة واجلال من التلاميذ، وكانت المدرسة برحلاتها وندواتها موضع استرواح للطلاب، وموئل متعة بما تقدم من ألوان النشاط! أين ذهب ذلك كله!! وهل سيعود؟

أطفال القرى والنجوع

ونترك أطفال المدارس إلى الأطفال الذين لم تتهيأ لهم سبل التعليم ، وخطرهم أفدح وأوجع ، وقد ابتليت بهم المدن الكبيرة، كما انتشروا فى القرى والنجوع، فإذا كانت العشوائيات فى المدن تضم أسرهم المسكينة فإن أكواخ القرى تعج بهم كالذباب الطائر فى كل

مكان، ومصيبة هؤلاء أن أولياء أمورهم لا يشعرون نحوهم بأدنى مسئولية.. بل يتخذونهم أداة للعيش بما يسلكون من أعوجاج، وقد جدت ظاهرة أليمة فى هذا الوسط البائس تلك ظاهرة الأب الخامل، الذى لا يتحمل أدنى مسئولية تجاه أسرته، ويدع للأم أن تبذل جهد الجن فى جمع الفتات مما يصلح للزاد، فتارة تكون خادمة، وتارة بائعة ألوان من الخضار ذى الثمن الزهيد، وتارة سائلة تتكفف، وفى يدها غلام، وعلى كتفها طفل، والأب حين يأنس من أطفاله بعض القوة يدفعهم إلى الكسب غير المشروع، عن طريق النشل أو التسول.. فترى الأطفال فى الأسواق وفى المقاهى، وفى عربات الترام يتسولون ، ويتعرضون لأقوى الأخطار فى القفز من عربة إلى عربة، وفى الوثب إلى الرصيف إن وجدوا من يحاول ايذاءهم، وقل بعد ذلك ما مستقبل الواحد من هؤلاء وقد شب على السرقة، ووجد الازدراء والإيذاء من الجمهور؟ كم يحمل من شحن الغضب والكراهية لكل من يراه مكفول الرزق، وطبيعى أن أمثال هؤلاء لم يسمعوا نصيحة تهدى إلى الخير ولم يعرفوا أى معنى للفضيلة، فإذا شبوا عن الطوق كان الإجرام أقوى وسائلهم للكسب ، وقد يجد الأطفال (معلما) خطيرا يجمعهم طوائف شتى ليرسم لهم طريق السلب، ويدفعهم إلى أماكن يعرف أنها ذات ازدحام ييسر الجريمة، ثم يأتون بما نهبوه لينالوا منه الفتات - ومن تقاعس عن أداء مهمته لقى العذاب، وشهر به بين زملائه الذين فهموا الشجاعة فهما خاطئا غرسه فى نفوسهم الأب الكسول الذى دفعهم إلى الموبقات المنكرة والمعلم الحقير الذى جعل السرقة أمرا مشروعا لا شىء فيه!!
إننا نعلم أن أبواب الخير قد اتسعت لإيواء بعض هؤلاء المشردين من الملاجىء والمبرات، ولكن طوفان النسل المتزايد يجعل هذه الأبواب قطرات متساقطة لا تسقى ظمأ، وأكبر الآفات أن تجد هذا الأب الكسول الخامل ذا الأولاد الخمسة، يسعى إلى أن يتزوج امرأة أخرى تأتى بخمسة آخرين ليؤدوا الرسالة المشروعة لديه، إذ نشهد - للأسف - فى الريف من يتزوج اثنتين أو ثلاثا دون أن يتحمل أدنى مسئولية فى الانفاق وعلى الأم أن تنفق عليه أولا، وعلى أولاده ثانيا وقد كنت أحسب أن السيدات اللامعات اللاتى يطالبن بحقوق المرأة فى الوزارة والنيابة، والقضاء يجعلن من رسالتهن العمل على إسعاد الأم البائسة!! أليست حقوق المأكل والمشرب والمأوى تقتضى اهتماما بالمرأة المسكينة ، يكون فى

الواقع ميدان العمل الجاد، وقد قال حافظ إبراهيم (الأم مدرسة) ليصور رسالة الأم فى نهضة جيل يشرئب إلى الكفاح الجاد ، فكيف تكون الأم مدرسة، وهؤلاء البائسات لا يجدن من يأخذ بأيديهن ممن ينادين بحقوق المرأة فى النيابة والوزارة والقضاء! وكان ذلك كله هو الأمل المنشود لربات الأزياء ورائدات الصالونات ، إن بائعة الخضراوات تتعرض لابتزاز بعض الفتوات ولا تجد من يحميها ، وإن الخادمة فى المنزل قد ترهق بأعباء ، لا تستطيع القيام بها فإذا توانت فالضرب والكى بالنار والحبس القهرى ولا تجد من يحميها، وإن جرائم الاغتصاب قد تعددت حتى زكمت رائحتها الأنوف ولا تجد من يأخذ بناصر الضحية فينادى بتشديد العقوبة على الجريمة النكراء! ألا تكون بائعة الخضراوات والخادمة والمغتصبة موضع عناية من ينادين بحقوق الوزارة والقضاء والنيابة! ويتصدرن الندوات ويملأن الصحف للإعلان عن ذواتهن ، وهن بعد زعيمات يسعين إلى تأكيد حقوق المرأة، وإنصافها من الرجل الظالم!

لقد طفح الكيل دون أن يعرف هؤلاء الرسالة الحقيقية للإصلاح النسوى المنشود!

قد لا نستطيع معالجة هذه الأوبئة على نحو سريع، ولكن السير خطوة خطوة مما يسعف بهذه المعالجة، وأول هذه الخطوات أن نفرض على الرجل ألا يتزوج بأخرى إلا إذا اتسعت موارد رزقه وقدم ما يثبت أنه ذو اقتدار على أن ينفق على منزلين لا على منزل واحد، كما نفرض على العاطل أن يبحث عن عمل قبل أن يقدم على الزواج!

وليس فى ذلك مخالفة للشرع الحنيف، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فالصوم له وجاء! وبذلك نحد من طوفان التشرد من منبعه ونرحم الأمة من وجود جيل قادم سينخر فى كيانها بما يرتكب من موبقات!

ويلى! لقد صرت خطيبا منبريا، ولا بأس، فاللسان والقلم سيان فى النصح التوجيهى، بل قد يتاح للسان من الحرية ما لا يتاح لصالح القلم، إذ يتكلم فى مجتمع محدود، وله تأثيره الذى يقضى مجاملته، أما أنا فقد أغفلت الكثير من الأسماء، والأماكن، والأحداث عامداً كيلاً أثير ثائرة من أخصهم بالانتقاد، أغفلت ذلك متألما، وأنا أردد قول الشاعر الجاهلى.

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة
أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا ■

مؤسسة الفكر العربى

ورؤى المستقبل



بقلم

د. أحمد يوسف أحمد

شهد شهر أكتوبر الماضى انعقاد المؤتمر الأول لمؤسسة الفكر العربى التى تشكلت بمبادرة من الأمير خالد الفيصل لتضيف إلى المؤسسات الفكرية العربية مؤسسة جديدة بدا أنها ولدت عملاقة - أو على الأقل قوية - بما يعالج جانباً مهما من جوانب القصور فى المؤسسات الفكرية العربية القائمة.

يعرف الوطن العربى عدداً من هذه المؤسسات التى عانت دونما استثناء من مشكلتين مزمنتين هما: شح التمويل وضآلة التأثير. أما المشكلة الأولى فقد ألجأت بعضها إلى التمويل الأجنبى بما يثيره من علامات استفهام فى بعض الأحيان، وشبهة عمالة فى أحيان أخرى، وكان أقل الاتهامات التى توجه عادة لهذه المؤسسات من قبل خصوم التمويل

الأجنبى أنها تعمل وفق جدول أعمال يفرض عليها من الخارج ، وبما لا يتفق بالضرورة مع الأولويات الوطنية، وحاول البعض الآخر الاعتماد على عائد جهوده الذاتية - كمركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية - مع قدر من التمويل العربى الذى خضع لتقلبات السياسة العربية، وعانى هذا الفريق عادة من أزمة مالية خانقة ومستحكمة بدا معها استمراره وكأنه نوع من المعجزات.

وأما المشكلة الثانية فتشير على نحو واضح إلى ضآلة التأثير الذى مارسته هذه المؤسسات على دوائر صنع القرار فى الوطن العربى نتيجة للفجوة بين الطرفين ، ومع ذلك فقد شهدت الخبرة العملية من حاول من هذه المؤسسات التقرب إلى دوائر صنع القرار فنجح، وتحول أو كاد إلى ترس صغير لدى هذه الدوائر، أو أخفق فظل يحوم حولها حتى ولو أدى ذلك إلى احتراقه. وشهدت الخبرة العملية أيضا من ترفع عن السعى إلى علاقة أصلاً - كما فى حالة المركزين السابقين بالإضافة إلى المركز العربى لبحوث التنمية والمستقبل - مركزاً جهوده على محاولة تنوير الصفوة وتثقيفها، آملاً أن يمتد هذا التأثير تدريجياً إلى قطاعات أوسع من المتعلمين، مدركاً أن هذا كله من شأنه أن يولد تحولاً إيجابياً ما، ولو بعد حين.

الميلاد

فى هذه الظروف ولدت مؤسسة الفكر العربى، غير أن متغيراً جديدا أُضيف إلى ما سبق، فقد ولدت فى عصر القطبية الأحادية والعولمة وعالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر وحالة من الضعف لم يصل إليها النظام العربى قبلاً، أو لنقل - على سبيل تحرى الدقة العلمية - أنها من أشد حالات الضعف منذ ميلاده ، وبدا وكأن هذه المؤسسة تحمل حلولاً ممكنة ومعقولة للمعضلات التى سبق للمراكز البحثية العربية أن واجهتها، فرئيسها الذى بادر بفكرتها رجل ينتمى إلى الأسرة الحاكمة فى بلد عربى غنى، وهو نفسه رجل حكم وليس مجرد عضو فى الأسرة، يشهد من يعرفونه بأنه يتمتع بشخصية أهلته لأن يجتذب حول فكرته نفراً من أبناء الأمة العربية من رجال

الحكم مثله ورجال المال والفكر أيضا.. من هنا مكمن قوة مؤسسة



الفكر العربى ومصدر التحديات التى ستواجهها فى آن واحد.

وفقاً للتركيبة السابقة تبدو مؤسسة الفكر العربى متفردة بين مؤسسات الأبحاث العربية، قد يقترب منها إلى حد ما منتدى الفكر العربى الذى أسسه ورأسه ومازال الأمير الحسن بن طلال ولى عهد الأردن السابق أو المركز العربى للدراسات الاستراتيجية الذى يرأسه السيد على ناصر محمد الرئيس الأسبق لما كان يسمى بالجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية، لكن الفارق الكبير بينهما وبين المؤسسة الوليدة أنهما لم يسلما من مشكلة التمويل على العكس من مؤسسة الفكر العربى التى تتشكل بنيتها على أساس من مثلث أحد أضلاعه رجال الحكم والثانى رجال المال والثالث رجال الفكر، ولا ندرى حتى الآن ماهية العلاقة بين هذه الأضلاع وإن كنا نفضل أن تكون متساوية.

التحديات

تستطيع مؤسسة الفكر العربى ببنية كهذه أن تحل مشكلتى التمويل والتأثير فى الوقت نفسه ، صحيح أن التأثير ليس مضموناً أن يكون شاملاً أو حتى قوياً، لكن فرصه بالتأكيد سوف تكون أكبر من المراكز التى تقوم على رجال الفكر وحدهم، غير أن هذه البنية ذاتها تفضى دون شك إلى تحديات تواجه المؤسسة لعل أولها تحدى الانتهازية، فالسلطة والمال يغريان بمحاولات التقرب، بل والاستماتة فى ذلك، والانتهازيون يملكون عادة من القدرات والوسائل ما يمكن بعضهم على الأقل من النجاح، وبالتالى فإن بعض السوس قد يبدأ مبكراً فى نخر عظام المؤسسة الوليدة . كما أن المؤسسة سوف تواجه أكثر من غيرها بمشكلة بناء علاقة صحية بين أضلاع المثلث الذى قامت عليه، بعيداً عن أن يسيطر ضلعا الحكم والمال على ضلع الفكر، ناهيك عن أن ضلع الفكر لا يبدو فى الوضع الراهن فى الحال الذى يمكنه من توجيه المؤسسة خاصة أن ضلعى الحكم والمال يبدو أنهما متحالفان أو

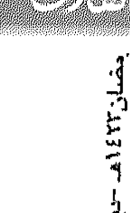
على الأقل متعايشان فى وئام منذ البداية ، وبعد هذين التحديين يبدو تحدى الكفاءة التنظيمية مهما، وإذا حكمنا بالمؤتمر الأول للمؤسسة فإن عدداً من الملاحظات المهمة يرد على تنظيمه لاشك أنه ليس بخاف عن دوائر صنع القرار فى المؤسسة ، غير أن هذه قصة أخرى.

الرؤى المستقبلية

غير أن الأهم من كل ما سبق يبدو متعلقاً برؤية المؤسسة لدورها لقد عرض على الحاضرين فى افتتاح المؤتمر الأول للمؤسسة فيلم قصير حمل رسالة مؤداها أن المؤسسة قامت لتواجه الخلافات العربية - العربية التى عانينا جميعاً منها، وكادت تقضى علينا ، يحكى الفيلم عن بناية سكنية تواجه مشكلات حقيقية يبادر أحد سكانها بالدعوة إلى اجتماع عاجل للنظر فى هذه المشكلات فيتصارع السكان حول أشياء مثل: من يرأس الاجتماع ؟ وأين يعقد؟ ومن يملى التوصيات؟ ثم تشتعل الخلافات على النحو الذى يؤدى إلى كوارث (أحد السكان الطيبين ينتهى به الأمر إلى أن يصاب بالاختناق ويسقط مغشيا عليه وتدهسه الأقدام) ، وينتهى الاجتماع بتوصيات مضحكة مثل التشكيل الفورى للجنة للنظر فى الأمر تجتمع كل عشر سنوات .. وهكذا . ويختتم الفيلم بلقطة توقفت عندها كثيرا ظهر فيها أبناء سكان البناية - جيل الشباب - وهم يتابعون هذه الخلافات باستياء وامتعاض، وتتشابك أياديهم من أجل مستقبل أفضل.

وعلى الرغم من هذه النهاية الجميلة للفيلم فقد أثارت لدى معضلة الرؤية التى تتبناها المؤسسة بالنسبة لفهم الحاضر وبناء المستقبل، ولو كانت هذه الرؤية تتشكل على هذا النحو المبسط الذى ذهب إليه الفيلم فإن المعنى الوحيد لذلك أن المؤسسة تواجه أزمة مبكرة، فلا العرب مختلفون لأسباب بينية مضحكة فحسب، ولا أجيال شبابهم للأسف خلو من أمراض الآباء. إن لم تكن هذه الأمراض قد ظهرت بأطوار أخطر فيهم نتيجة التعليم الأجنبى والاختراق الإعلامى الخارجى وفوارق الثروة ونمو الوعى الفطرى.. الخ.

لا أريد أن أحمل الأمور أكثر مما



تحتمل ، ولكنى أشدد على أن نقطة البداية السليمة التى سوف تمكن من استخدام الوقود الممتاز الموجود لدى المؤسسة فى المحرك القوى الذى تمتلكه هى أن يعرف الركاب بدقة إلى أين يريدون أن يذهبوا.

ويخيل إلى أن النقطة التى يجب أن تنطلق منها المؤسسة فى الاضطلاع بدورها ومسئولياتها هى تغيير الواقع العربى الذى ينطوى على جزر من النضال والتضحيات والصمود، غير أنها للأسف جزر معزولة بحواجز القطرية والخوف من قوى الهيمنة العالمية وإسرائيل ، مع أن الأمة تملك من الإمكانات ما يجعلها قادرة على أن تمد الجسور بين الجزر المعزولة ، وتحيل الوطن العربى كله إلى قاعدة صمود وبناء وحضارة. هذا الواقع العربى لا يمكن أن يكون مقبولاً فى الحاضر، ناهيك عن أن يكون صورة مستقبلنا ، ولذلك لابد من تغييره.

ولكى يتغير الواقع العربى لا يوجد سوى منهجين: إما الثورة وإما الإصلاح، وليست للثورة العربية فى الوقت الراهن أو الأمد المنظور قوى اجتماعية متبلورة وقادرة تستطيع أن تحمل مشروعها أو تتحمل تبعات تنفيذه وحمايته، فضلاً عن أن السياق العالمى الراهن سوف يكون معاكساً إلى أبعد حد لأى تطوير ثورى فى الوطن العربى، ومن هنا لابد - بالإضافة إلى التفكير فى معضلات التغيير الجذرى والسعى إلى إيجاد حلول لها - من أن نتشبث بالأمل فى إصلاح حقيقى للواقع العربى، وهو أمل تذكيه بعض الخطوات المتواضعة التى تمت على طريق التحول الديمقراطى فى الوطن العربى، فهل تستطيع مؤسسة الفكر العربى أن تحمل مشروعاً للإصلاح لعلها أكثر المؤسسات العربية البحثية ملاءمة له بحكم تركيبها؟

ولكى لا يكون مشروع الإصلاح العربى هذا فاقداً للمصداقية منذ بدايته، فلابد من أن يتضمن رؤية مستنيرة لقضايا الحكم والتنمية والعدالة الاجتماعية والعلاقات العربية - العربية والعلاقات مع الخارج. فهل يتحمل رجال الحكم المشاركون فى المؤسسة هذه الرؤية؟ من الانصاف أن نسجل أنهم دعوا للمشاركة فى المؤتمر

الأول للمؤسسة من يتبنون ما هو أكثر من رؤية للإصلاح واستمعوا إليهم، لكن من حقنا أن نتساءل : وماذا بعد؟ وهل يملك رجال المال المشاركون فى المؤسسة مشروعاً رأسمالياً عربياً مستقلاً؟ أو على الأقل غير تابع، بعيداً عن الأنشطة العقارية وأعمال التوكيلات التجارية وغيرها - يمكن أن يكون أساساً لإصلاح عربى شامل؟ أو على أقل تقدير هل نحن إزاء اتساع دور رأس المال العربى فى تمويل العمل البحثى بعدما اعتدنا فى الماضى على محدودية هذا الدور وارتباطه بالرؤى السياسية للاعبيه؟ هل يشكل بعض النماذج الموجودة فى عدد من الأقطار العربية رافعة لنشاط بحثى يسلمنا إلى بلورة مشروع نهضوى عربى.. أم أن طزاجة التجربة تحول دون موضوعية التقييم؟ وهل يملك المثقفون والمفكرون المنخرطون فى ميلاد المؤسسة وتطورها جرأة طرح ما يجب أن يطرح لوضع رؤى المستقبل موضع التطبيق والاختلاف مع ضلعى المثلث الآخرين عندما يكون ذلك ضرورياً؟

***

دار نقاش ممتد بينى وبين واحد من صفوة المثقفين العرب على هامش المؤتمر تساءل فيه عن ماهية المشروع الذى تحمله المؤسسة: أهو مشروع فرد؟ أم نظام حاكم؟ أم أنه أقرب ما يكون إلى «شركة فكرية متعددة الجنسيات» على الصعيد العربى؟ قد لا يكون مستقبل المؤسسة مرهوناً بالإجابة عن الأسئلة السابقة قدر ارتهانه بوجود رؤية واضحة ومتكاملة للمستقبل العربى تقيل الأمة من عثرتها التى تتفاقم يوما بعد يوم. ■

قالوا

* إن عظماء الرجال هم عظماء العواطف .. وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف

توفيق الحكيم

* كل الأفكار الجديدة يشتبه فيها ، ثم تقاوم ، لا لسبب الا لانها لم تصبح عادية بعد

جون لوك

*لن أعدل شيئا فى اقتناعى بأن الناس فى كل مكان يمكن أن يكونوا أحرارا

لنكولن

يؤمن الألفيون أن نهاية العالم فى القرن الواحد والعشرين





بارانويا السياسة الأمريكية

بقلم

محمد يوسف عدس

منذ عقود ثلاثة ألقى المؤرخ رينشارد هوفشتاتر محاضرة بجامعة أكسفورد حول بعض الخصائص الكامنة فى السياسة الأمريكية لم يلتفت إليها المؤرخون أو لم يعيروها ما تستحق من اهتمام وكان عنوان المحاضرة هو «أسلوب البارانويا فى السياسة الأمريكية» ، وتحت هذا العنوان نفسه نشرت له جامعة أكسفورد كتابا ضمنته محاضرات أخرى سنة ١٩٧٩ .

يؤكد هوفشتاتر أن أسلوب البارانويا ظاهرة متكررة فى السياسة الأمريكية تأتى على شكل موجات أو «نوبات» مختلفة الحدة عبر التاريخ مما يوحى بأن هذه السياسة تعانى من داء مزمن يتعذر استئصاله . وتشبه أعراض هذا المرض الأعراض الإكلينيكية للبارانويا التى تصيب عقل الإنسان ، مع فارق واحد وهو أن الشخص البارانوى يؤمن بأن عالما أو كائنا عدائيا يتربص به ويتآمر عليه بصفة شخصية ، بينما يؤمن المتحدث الرسمى للنظام الأمريكى بأن هذا العدو المتآمر لايخصه وحده كفرد وإنما يستهدف ملايين المواطنين .

لعلنا فى ضوء هذه الفكرة نستطيع أن

نفهم المناخ العقلى الذى كان مسيطرا على الإدارة الأمريكية فى أعقاب حادثة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م عندما أعلن الرئيس بوش أن العدو الذى قام بالعمل الإجرامى كان يستهدف الديمقراطية والحرية والرخاء الذى ينعم به الشعب الأمريكى .

نظرية المؤامرة

يتسق هذا الوصف مع نظرية المؤامرة التى تعاقب ظهورها فى التاريخ السياسى الأمريكى منذ تسعينات القرن الثامن عشر ، يرصدها هوفشتاتر فى كتابه بالتفصيل واحدة بعد الأخرى حتى ينتهى بالمؤامرة الشيوعية التى أتخذها ماك آرثر ذريعة له بعد الحرب العالمية الثانية ليشن حملة تطهير إرهاربية شملت العديد من المفكرين والمثقفين والمنظمات الأمريكية ، فأشاع بذلك الرعب بين المواطنين وانتهك الديمقراطية وحقوق الإنسان .

هذه المخاوف والهواجس الملحة التى تكمن فى نظريات المؤامرة يمكن فهمها جيدا فى إطار التقليد البارانوى فى السياسة الأمريكية وهى فى الحقيقة تعكس القلق الذى يؤرق قطاعا ربما يكون صغيرا نسبيا ولكنه يتمتع بصوت مرتفع ومسموع بين الجماهير الأمريكية .ولكى يضرب «هوفشتاتر» مثلا قريبا على تجليات نظرية المؤامرات الوهمية التى تعصف بالعقل الأمريكى بين الحين والآخر يستعير قصة (هى فى الحقيقة إشاعة قوية) كان الأمريكيون يرددونها فى الستينات من القرن العشرين ، نشرتها نيويورك تايمز فى ٢١ يولية ١٩٦٣ .. تقول القصة : إن خمسة وثلاثين ألفا من القوات الشيوعية الصينية يحملون أسلحتهم ويلبسون زيا عسكريا بلون أزرق إمعانا فى التمويه وأنهم يقتربون حثيثا من الحدود المكسيكية حيث يتأهبون لغزو سان دياجو .. وأن الحكومة الفدرالية الأمريكية قد سلمت أو هى فى سبيل تسليم زمام قيادتها البحرية والجوية إلى كولونيل روسى يعمل فى الأمم المتحدة .. وتقريبا كل أمريكى مشهور أو قائد كبير فى العالم الحر هو فى الحقيقة عميل شيوعى .. وأن الجيش الأمريكى الذى يقوم بالتدريب على حرب العصابات فى چورچيا فى عملية تسمى «أفعى الماء الثالثة» هو فى الحقيقة جيش للأمم المتحدة يلبس الزى العسكرى الأمريكى .. تمهيداً للاستيلاء على بلادنا ...!» .

النبوءات الدينية

نلاحظ فى ذيوع هذه الشائعة بين الجمهور الأمريكى هواجس غريبة وشكوكا راسخة ضد الأمم المتحدة وضد الحكومة الفدرالية نفسها ، هذه الهواجس ذات علاقة وطيدة بنبوءات دينية تسيطر على عقول الأصوليين البروتستانت مصدرها تأويلات لسفر دانيال وسفر النبوءات من العهد القديم والعهد الجديد ، لا مجال هنا لشرحها .

لاشك فى أن المزاج الأمريكى الجديد السائد الآن جذور نبوئية إنجيلية يروج لها جيش من الدعاة الأصوليين شرع يعمل بنشاط غير مسبوق بعد إنهيار الشيوعية ، فقد أحدث هذا الانهار المفاجىء أزمة هوية حادة فى المجتمع الأمريكى ، فمن أين جاءت هذه الأزمة وماهى طبيعتها ؟

الشيوعية

كانت الصورة الثابتة للاتحاد السوفييتى الشيوعى - على مدى عقود من الزمن - تمثل عند الأمريكيين الشر

المحض ، وفي مواجهته ثبتت صورة الولايات المتحدة تجسيداً للخير المحض .. في هذه الدائرة المحكمة كانت الطاقة تنساب بتلقائية طبيعية كما ينساب التيار المغناطيسي بين القطبين السالب والموجب ، ولكن باختفاء الخطر الشيوعي فجأة انكسرت هذه الدائرة وحدثت الأزمة ، ومن ثم شرع الأمريكيون يبحثون عن عدو آخر يتقمص دور الشيطان الأكبر ويكون على درجة من الشر والضغينة تؤهله لكي يضطلع بدور الشيوعية التي تبخرت .

الإسلام

كان عقد التسعينات سنوات ارتباك في أوساط الأصوليين الأمريكيين الذين أجهدوا أنفسهم في البحث عن عدو بديل مقنع ينطبق عليه نبوءة «نهاية الزمن» لتوجيه النضال النبوئي ضده . ولم يكن الأصوليون وحدهم هم الذين يبحثون عن عدو مناسب يوجهون إليه طاقة الغضب ويعيدون به ذلك التوازن المفقود إلى دائرة الطاقة الجهنمية ، فكانت أجهزة الاستخبارات في أوج نشاطها وكانت المناقشات الحامية تدور في حلف شمال الأطلنطي وفي شركات صناعة الأسلحة العملاقة ، والتحق بالركب كتاب انتهازيون من أمثال صامويل هانتنجتون وفوكوياما جاءوا يضخون أفكارهم السامة لتوجيه الإنتباه إلى العدو الجديد ، وكان الاتفاق مذهلا فقد أجمع الكل على أن العدو المناسب هو الإسلام والعرب جزء منه .

بات روبرتسون والتحالف الأصولي

يعتبر «بات روبرتسون» مهندس الاستراتيجية الجديدة لاندفاع الأصولية البروتستانتينية ، وهو مع مجموعة أخرى من المفكرين الدينيين يتحملون مسئولية إحياء البارانويا التقليدية في السياسة الأمريكية التي نشهد إفرازاتها الحالية عند اليمين السياسي المتطرف الذي يحكم الولايات المتحدة ، وفي ذلك يقول الكاتب الصحفي «مايكل ليند» في مقال له نشر في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» سنة ١٩٩٤ بأنه لم تظهر في التاريخ الأمريكي الحديث حركة شعبية متطرفة في السياسة الأمريكية بهذه القوة التي ظهر بها التحالف المسيحي الأصولي الذي أنشأه بات روبرتسون.

ويصف لنا المناخ الذي ساعد على انتشار هذه الحركة والتمكين لها في المجتمع الأمريكي، وهو مناخ سادت فيه الاضطرابات الاقتصادية وشاع القلق في الحياة الأسرية لهذه الأمة . وهو يعترف بأن الأزمة الاقتصادية التي تمر بها أمريكا الآن أقل حدة من سابقتها التي حدثت في ثلاثينات القرن العشرين ، ولكن لاينبغي الاستهانة بحدة القلق الذي تشعر به الطبقة العاملة خصوصا في مجال الصناعة التي أسرعت بإعادة هيكلة نفسها لتواجه المنافسات الرهيبة التي جاءت من الشرق الأقصى والعالم الثالث ، فقد بدأت هذه المناطق تنتج نفس السلع بنفس الجودة ولكن بأسعار أرخص وبقدرة على الانتشار أوسع .

ولذلك يرى المراقبون أن غياب الأمن الاقتصادي مع تفكك الأسرة قد أسهما معا في تشكيل المزاج البارانوي النبوئي خلال عقد التسعينات ، حيث اشتدت المخاوف من بلقنة الولايات المتحدة وانشقاقها إلى مجموعات عرقية متنافرة ، وهو هاجس أصبح يطوّق حياة الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا ، وهما يشكلان نصف المجتمع الأمريكي ، فأعضاء هاتين الطبقتين يفقدون وظائفهم

بصفة مستمرة ومن ثم يسقطون فريسة للتيار الدينى الأصولى .. إنهم يوجهون أصابع الاتهام إلى السلطات الفدرالية ويعتبرون الإدارة الأمريكية هى المسئولة عن سوء إدارة الاقتصاد ، كما يوجهون اللوم - بنفس القدر - إلى غول التكنولوجيا الحديثة التى أسهمت فى خلق الارتباك الاقتصادى وأصبحت بذلك عاملا أكيدا فى انتشار المزاج البارانوى

نهاية الزمن

هنا يلفت نظرنا «داميان تومسون» فى كتابه «نهاية الزمن» إلى حقيقة أخرى مهمة حتى لايتسرب إلى ظننا أن اليمين الأمريكى المتطرف مجموعة من الجهال أو ناقصى التعليم بل على العكس ، ومن ثم يبرز لنا حقيقة أن هؤلاء الناس من محترفى تجميع المعلومات ، حيث يقضون معظم أوقاتهم يتفحصون الصحف والمجلات والأناجيل والكتب الأخرى يلتقطون المعلومات لينسجوا منها السناريوهات المختلفة ، كما أنهم يدمنون زيارة المواقع الكثيرة فى شبكة الإنترنت التى تبث الشائعات والنبوءات المستندة إلى تأويلات إنجيلية مما يجعل هذه الشبكة مصدرا هائلاً لدعم أصحاب نظريات المؤامرة .

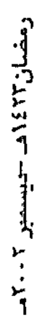
فى تحليلنا للمزاج الأمريكى الجديد نود أن نلقى الضوء على النقاط المهمة التالية :

أولا - لاشىء يقلق سلطات الأمن الأمريكية أكثر من نمو حركات من يطلق عليهم «الألفيون» الذين يبثون أفكارهم النبوئية الآن خلال شبكة الإنترنت ، وكانوا من قبل يشكلون مجموعات أو مليشيات منعزلة لايكاد الجمهور يشعر بوجودها إلا عندما تتفجر أحداث عنف كبيرة مثل الهجوم على مبنى المخابرات العامة المركزية فى أوكلاهوما ، وعمليات المواجهة التى نتج عنها كارثتا «واكو» و«روبى ريدج» فى التسعينات ، حيث جرى عليهما تعتيم إعلامى ووصفتهما التقارير الأمنية بأنهما عمليات إنتحار جماعية .

والألفيون - باختصار - هم الذين يؤمنون بأن نهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وأن تجلياتها مع شروق مطلع القرن الواحد والعشرين تتعاظم بشكل متسارع ، وأن أبرز هذه التجليات يتمثل فى تدفق يهود العالم إلى الأرض المقدسة باعتباره شرطا أساسيا لعودة المسيح الثانية إلى الأرض ، ليحكم العالم من القدس لمدة ألف عام ينشر فيها العدل والسلام والمسيحية .

وهم نبوئيون لأنهم يستمدون سناريوهات عودة المسيح من تفسيراتهم الخاصة للكتب المقدسة .

ثانيا -مع اقتراب حلول الألفية الثالثة اشتعلت شرارة الحماس الدينى فى الأوساط البروتستانتينية الأصولية وظهر فى الولايات المتحدة خلال العقود الثلاثة الأخيرة صحوة دينية لم يسبق لها مثيل ، حيث انخطرت الكنائس فى نشاط تبشيرى محموم يستهدف تنصير أكبر عدد من البشر وإعادة المنسيحيين المارقين إلى حظيرة الإيمان ، وكان من نتائج هذا النشاط نشوء ظواهر جديدة فى المجتمع الأمريكى مثل ظاهرة «المسيحيين العائدين» «Barm again» عرفنا منهم شخصيات كبيرة فى قمة السياسة الأمريكية كالرؤساء : جيمى كارتر ورونالد ريجان وبوش الأب وبوش الإبن ، تصاعد التأييد فى عهودهم للكيان الصيونى والعداء للعرب والمسلمين إلى المستوى المذهل الذى نشهده اليوم .



ومن الظواهر الأخرى استحداث الكنائس لوسائل جديدة فى التبشير المكثف ، وتبنيها لممارسات تعبدية غريبة لاجتذاب الجماهير كما تفعل كنيسة الـ «بنتكوستليست» التي توحي لرعاياها في الصلاة بتجلي الروح القدس عليهم واتصالها بهم اتصالا شخصيا يستشعرونه عندما تتدفق فى أرواحهم كتيار سحرى مفعم بالبهجة والسعادة وتستجيب أجسادهم بالرعشة والانجذاب والخفة فتصدر عنهم صيحات غريبة وقهقهات كضحك الأطفال الذين تداعبهم أمهاتهم حتى يستلقون على الأرض من فرط الانفعال .

وفى كنائس أخرى مثل كنيسة «العصر الجديد» New Age فى غمرة البهجة الروحية تنطلق ألسنة المتعبدين بلغات لم يعدوا التحدث بها من قبل وتحل فى أجسادهم الروح القدس فتبرئهم من العلل والأسقام والأمراض المستعصية التى لم يجد الطب لها علاجا .

تجتذب هذه الكنائس أعداداً هائلة من البشر الهاربين من الخواء الروحى والاضطرابات النفسية والقلق الاجتماعى ، الذين يتطلعون إلى بعض نسمات من النشوة الروحية والتخلص من الآلام والأمراض «النفسجسدية» التى تنغص حياتهم .



أما سر هذا النشاط الدينى المحموم فهو أن هؤلاء الناس جميعا يعتقدون أن عودة المسيح قد حان أوانها وأن احتمال وقوعها فى زمنهم احتمال مرجح ، وهم يريدون أن يقدموا خيرا يؤهلهم للخلاص ورضاء المسيح عليهم وصحبته فى ملكوت السعادة الأبدية لذلك يسابقون الزمن ويشمرون عن سواعد الجد فى هذه الفسحة الضئيلة من الزمن الذى يوشك على نهايته !

ثالثا - برهنت كارثتا واكو وروبى ريدج على أمرين : برهنت للسلطات الأمريكية أن العنف أصبح إمكانية واردة مع ازدهار وتشعب الجماعات والمليشيات المسلحة ، خصوصا أولئك النبوئيون المتطرفون فى المجتمع الأمريكي ، وبرهنت لهذه الجماعات على صحة عقائدهم ، لأن التدخل المسلح من جانب السلطات فى حد ذاته متوائم مع التوقعات التقليدية الواردة فى نبوءاتهم ، ويبدو هذا أكثر وضوحا عند جماعة معروفة باسم «مابعد الكارثة» - Past trilrlationists كما يسمون أنفسهم أيضا باسم «الفرقة الناجية» ، هؤلاء يؤمنون بأن عليهم أن يقاتلوا قتالا طاحنا خلال فترة الاضطراب العظيم الذى سيحل بالأرض كإرهاص ومقدمة لعودة المسيح .

تزايد عدد (المليشيات الانفصالية فى الريف الأمريكى المحافظ حتى بلغ وفقا لبعض التقديرات ثمانين ألف عضو انضم معظمهم إلى هذه المليشيات خلال عامين اثنين انقضى بين مجزرة واكو (١٩٩٢م) وتفجيرات أوكلاهوما (١٩٩٤م) .

لم تخلق مجزرة واكو مناخا جديدا فيما يتعلق بشيوع نظرية المؤامرة وموقف العداء من الحكومة الفدرالية ، فقد كان هذا المناخ سائدا من قبل ولكن «واكو» أكدت هذا المناخ وعززته ووجد الانفصاليون فى الالتحاق بالمليشيات التى تتدرب على العنف تعبيرا عن غضبهم المكبوت وشعورهم بالتهديد والتآمر المستمرين من جانب السلطات الفدرالية .

تعاظم نشاط هذه الجماعات والمليشيات خصوصا فى شمال الغرب الأمريكى على طول ساحل المحيط الهادى

، وهى مناطق غابات توفر ملاذات آمنة وحصينة لهذه الجماعات الثورية الانعزالية من اليمين المتطرف .

يقول داميان تومسون فى كتابه «نهاية الزمن» فى تصنيفه لهذه الجماعات : «إنهم يمثلون تفكيكا لثلاثة مدارس فكرية ، فمنهم «النازيون الجدد» المعجبون بالرايخ الألمانى الثالث (على عهد هتلر) ، ومنهم «المسيحيون الوطنيون» الذين يستشهدون بالانجيل والدستور الأمريكى ، وإلى جانبهم يوجد عشرون ألف عضو فى حركة تعرف باسم «الهوية المسيحية» تقف عقيدتهم فى موقع مابين النازيين والوطنيين ، ويؤمن هؤلاء بأن الأريين البيض هم الأحفاد الحقيقيون المباشرون للقبائل الإسرائيلية القديمة ، بينما اليهود هم «بذرة الشيطان» الدخيلة . وترجع جذور هذه الجماعة إلى نهاية القرن التاسع عشر وكان يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم «البريطانيون الإسرائيليون» ، عبرت هذه الجماعة خلال القرن العشرين المحيط الأطلسى لتستقر فى العالم الجديد وتتخذ هوية أمريكية ، وقد حملت معها كراهية شديدة لليهود .

يستطرد داميان تومسون فيوضح لنا أن هذه الاختلافات الأيديولوجية لا تمثل حاجزا حقيقيا عند هذه الجماعات من الناحية العملية، ذلك لأن العنصر المشترك والحاسم كمؤهل للالتحاق بها هو الشعور المشترك باقتراب نهاية العالم والخوف من أن يقع العالم فى أيدى القوى الشريرة ، وهم يعتقدون أن الحكومة الفدرالية جزء منها .

لذلك يرى بعض المحللين أن أحد عوامل هزيمة چورج بوش الأب فى إنتخابات تجديد الرئاسة يرجع إلى أنه – فى لحظة حماسه – أطلق عبارة «النظام العالمى الجديد» وهى عبارة سيئة السمعة فى الكتابات التقليدية لأصحاب العقائد النبوئية ، الذين تخلوا عن تأييده فخسر المعركة الانتخابية بعد أن خسر رصيده الذى اجتهد فى بنائه فترة من الزمن باعتباره «مسيحى عائد» .

حرب الثقافات

فى تحليل المزاج الأمريكى الجديد صدر كتاب بعنوان «حرب الثقافات» من تأليف چيمس داڤيسون هنتر (١٩٩١م) من جامعة ڤيرچينيا . يرصد المؤلف فيه الانقسامات الحادة التى وقعت خلال القرن العشرين فى الحياة الأمريكية العامة فمزقت الأحزاب السياسية والمؤسسات الدينية والمهنية ، حيث تدور حرب ثقافية ضارية بين التقليديين المحافظين من ناحية وبين الليبراليين من ناحية أخرى .

ظل هذا الكتاب موضع أخذ ورد ومناقشات واسعة فى الحياة الفكرية العامة لفترة طويلة . يعتبر هذا الكتاب إطارا فكريا لتحليل المعارك الدائرة بين الأطراف المتعارضة حول قضايا المرأة والإجهاض والقانون ، ولكنه إلى جانب هذا يلقى كثيرا من الضوء على القلق العام الذى يسيطر على كثير من الأمريكيين فى السنوات الأخيرة . هذا القلق ليس صادرا عن قصور أو عدم وضوح فى الرؤية وإنما تولد من الصراع المستعر بين رؤيتين مختلفتين لمستقبل أمريكا : رؤية ليبرالية ورؤية تقليدية ، يحاول أصحابها كل من ناحيته فرضها على المواطنين وبالتالى إجبارهم على أنماط جديدة من السلوك بإزاء القضايا المطروحة ، قد تكون قضية مفردة تدور حولها المعارك مثل حق المرأة فى الإجهاض أو حق الشواذ جنسيا فى

الالتحاق بالجيش أو حق الزواج المثلى (الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة) أو إلغاء عقوبة الإعدام .

وقد تدور المعارك حول قضية شاملة كالإصلاح السياسى أو غير ذلك من القضايا ، حيث يشعر الملايين من الأمريكيين الذين لاينتمون إلى أى من هذين التيارين بالتهديد الواقع عليهم من كلا الجانبين ،ويرون أنفسهم فى بؤرة الهدف الذى تصوب إليه سهام المتقاتلين فى هذه المعارك ، وهذا هو مصدر قلقهم الدائم .

كانت كارثة «واكو» تصويرا كلاسيكيا لهذا الموقف فى حرب الثقافات بين مؤسسة حكومية علمانية وبين الثائرين النبوئيين ، حيث يجهل كل من الطرفين العقيدة التى تحرك الآخر .

ويمكن النظر إلى كارثتى «واكو» و«روبى ريدج» باعتبارهما معركتين ساخنتين فى عملية صراع طويلة المدى ، كما يمكن النظر إليهما كزلزالين عند خط الانزلاقات الأرضية الذى يشق الأمة نصفين ، فهناك هوة سحيقة آخذة فى الاتساع بين كل من العقيدتين المتصارعتين، يرى چيمس هنتر أن الصراع بينهما ليس له نظر - من حيث الحدة والتشعب - فى أى أمة أخرى .

أمامنا حقيقة لاينبغى أن نستهين بها وهى أن عوامل التفكك فى المجتمع الأمريكى واقع وليس خرافة ، وأن القادة الأمريكيين يدركون هذا الواقع ويحاولون احتواءه أو التقليل من مخاطر ه. وليس السيناريو الإمبريالى الذى تتبناه الإدارة الأمريكية الحالية مقطوع الصلة بهذه المحاولات ، ذلك أن حشد الجماهير الأمريكية وراء حرب الإرهاب العالمى المزعوم من شأنه أن يجمد الصراعات الداخلية ويركز الانتباه على عدو خارجى قد يكون وهما ، ولكنه ليس هو الوهم الوحيد الذى يعشش فى عقول الأمريكيين

كانت تفجيرات أوكلاهوما هى التى نبهت الجمهور الأمريكى إلى وجود جماعات أمريكية من أشرس الأصوليين وأكثرهم تعصبا وأشدهم وطأة فى العالم ، وهى التى نبهت الأذهان إلى وجود مليشيات مسلحة منتشرة فى ٣٨ ولاية على الأقل . وقد سارعت وسائل الاعلام الأمريكية بإلصاق التهمة بالإرهاب الإسلامى ، وظلت كذلك معلقة فى رقاب المسلمين حتى تم اكتشاف الإرهابيين الحقيقيين ، وكان هذا بالصدفة المحضة وليس بالسعى والاجتهاد ولولا ذلك لبقيت مسئولية هذه الجريمة معلقة بالمسلمين إلى الأبد .

الجماعات الانفصالية

هذه الجماعات أخذت على عاتقها تنفيذ التعديل الثانى للدستور الفدرالى الذى ينص على «أن المليشيات المنظمة تنظيما جيدا ضرورة أمنية لأى ولاية حرة ، وأن حق الناس فى أن يحملوا أسلحة ويحتفظوا بها حق لاينبغى إنتهاكه» ، وبسبب هذا النص الدستورى فشل الرئيس السابق بل كلينتون إقناع الكونجرس بإصدار تشريعات تحرم على الأفراد حمل الأسلحة بعد أن تعددت حوادث القتل العشوائى فى المدارس وفى الأماكن العامة .

تؤمن هذه الجماعات بأن الحكومة الفدرالية حكومة فاسدة بطبعها وأن عملاءها فى حكومات الولايات إرهابيون متآمرون معها ولذلك فإنهم لايدينون بالولاء لهذه الحكومات .

تبدو هذه الظاهرة غير مفهومة وهى



غير معروفة فى العالم الخارجى بل كانت بعيدة عن بؤرة الاهتمام حتى بالنسبة للجمهور الأمريكى نفسه قبل حادثة أوكلاهوما ، ولكنها خضعت للدراسة والتحليل أخيرا وأفاض فى الكتابة عنها كثيرون لعل من أبرزهم «ستيفن روبنسون» الذى كتب عنها مقالا بعنوان «الأصوليون الأمريكيون» فى صحيفة «ديلى تلغراف» بتاريخ ٢٤ إبريل ١٩٩٥م ، وإيفانز - بريتشارد أمبروز الذى كتب عنها مقالا آخر بعنوان «الحرب المقدسة» فى «صنداى تلغراف (إبريل ١٩٩٥) ،وصدر فى نفس السنة كتاب عن الموضوع نفسه بعنوان «من داخل حركة المليشيات» ألفه وليام فولمان الذى التقى بعدد من أعضاء هذه المليشيات وتحدث إليهم . يصف فولمان أحدهم (يسميه مستر فليتشر) بأن كراهيته للحكومة الفدرالية تتوارى أمامها كل كراهية عرفتها فى حياتى ، ويكتب على لسانه يقول : «ليكن أعداؤنا على يقين بأن المتعاونين مع حركتنا موجودون فى الجيش والأسطول على جميع المستويات حتى أعلى القيادات» ويضيف متنكرا : «إننا نريد أن نفهم لماذا يبنى جيش الولايات المتحدة سجونا فى داخل قواعده ؟ ولماذا ينزلون تحت الأرض ويضعون كاميرات فى الأنفاق للمراقبة تحسبا من أن يلجأ إليها الوطنيون ... إننى أفكر فى هذه الأمور منذ عشرة أعوام ولا أجد لها جوابا شافيا» .

يقول جارى ويلز فى مقال له بعنوان «الثوريون الجدد» :

«لقد أصبحت الحكومة الفدرالية هى العدو الأول للحرية فى نظر الثوار الجدد على اختلاف مواقفهم الأيديولوچية» .

وبعد ..

إن الشك وانعدام الثقة فى الحكومة الفدرالية والكراهية الشديدة لها تجرى فى أعماق قطاعات كبيرة من المجتمع الأمريكى ، فلم تعد مقصورة على جماعات منعزلة أو هامشية . كذلك فإن شيوع نظرية المؤامرة والهواجس التى تتصل بفكرة «النظام العالمى الجديد» وعودة الحماس لتأكيد حقوق الولايات واستقلالها فى مواجهة الغول الفدرالى ، وانتشار المليشيات المسلحة التى تعمل تحت الأرض ، وانتصار اليمين الأصولى المتطرف وسيطرته الحالية على الإدارة الأمريكية والبنتاجون ، كل هذه مؤشرات تدل على أن الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت منعطفا خطيرا فى تاريخها السياسى .

ولم يعد الأمر مجرد تكهنات فقد خرجت أمريكا بعد حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى حملة إمبرالية للسيطرة على العالم تحت ستار حرب الإرهاب ، وحتى فى داخل المجتمع الأمريكى نفسه أسفرت اليد الباطشة عن نفسها فى سلسلة من القوانين الأستثنائية والإجراءات التعسفية ضد فئة من المواطنين الأمريكيين والمقيمين لمجرد أنهم مسلمون ، بحجة البحث عن إرهابيين !

هذه الهستيريا الهائجة والمصحوبة بنذر كارثة اقتصادية فى الأفق تعزز - فى نظرى - فكرة «ريتشارد هوفشتاتر» بأننا نشهد اليوم نوبة جديدة عارمة من نوبات البارانويا فى السياسة الأمريكية ، ويبدو لى أن الذين سيدفعون فاتورة إعادة التوازن العقلى لأمريكا هم المسلمون فى كل مكان ، لا من ثرواتهم فحسب بل من حريتهم وثقافتهم ووجودهم . ■

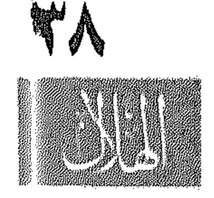
الدين والسياسة

فى الولايات المتحدة الأمريكية

بقلم
د. منار الشوربجى

حين استخدم بوش تعبير «الحرب الدينية» بعد أحداث سبتمبر، ثم تراجع عنه بعد أن أثار صدمة لدى الكثيرين، فإن تراجعه انما جاء نتيجة لما اتخذه ذلك التعبير من معان محددة بعد الحروب الصليبية فقد كان استخدامه من جانب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى سياق أحداث سبتمبر له دلالات بعينها لم تكن الادارة الأمريكية تريد تأكيدها لدى حلفائها فى العالم الإسلامى . إلا إن استخدام التعبير فى حد ذاته لايمثل حالة استثنائية فى السياق الأمريكى. ولا ينبغى لنا أن نندهش إذا ما أعيد استخدام ماشابهه. فهو جزء من منظومة كاملة من الأفكار والمعتقدات التى تضرب بجذورها فى عمق الثقافة الأمريكية ذاتها.

فرغم «علمانية» الدولة التى ينص عليها الدستور الأمريكى صراحة، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، كما وصفها صامويل هانتنجتون «أمة تحيا بروح الكنيسة» A nation with the soul of a church



فالعلمانية المنصوص عليها في الدستور معناها حظر اعلان دين رسمي للدولة ، ولكنها لاتعني حظر التدين ولا حظر دوره في الحياة السياسية. والخطاب العام في أمريكا حافل بعبارات ورموز وصور ذات دلالات دينية واضحة.

وتصف عبارة هانتنجتون في كلمات قليلة ظاهرة مهمة كتب عنها عدد كبير من الباحثين . «فالكنيسة» في عبارة هانتنجتون لاتعني المسيحية وانما هي ماتفق الباحثون على تسميته «بالدين المدني» .

و«الدين المدني» لايعني أنه تعبير عن دين الأغلبية، أي المسيحية، ولا هو تابع لمعتقدات كنيسة معينة. كما أنه - في الوقت ذاته - ليس في تنافس مع أي من الأديان أو المذاهب الدينية، وانما هو منظومة من القيم والأفكار والمعتقدات التي يؤمن بها العقل الجمعي الأمريكي.

والوظيفة الرئيسية لتلك المنظومة هي أنها تبني صورة خاصة متفق عليها للعالم وتنتج معنى محددا يساعد الجماعة على فهم معطيات الواقع والتعامل معها

أمة مختارة

أما عن مفردات تلك المنظومة فهي باختصار أن أمريكا «أمة مختارة»، يحميها الله ويباركها بل وكلفها برسالة سامية في هذا العالم . وكما هو واضح، فإن هذه الأفكار ذات طابع سياسي ولكن أساسها ديني في واقع الأمر. بعبارة أخرى، فان «الدين المدني» هو في الحقيقة منظومة فكرية سياسية ولكن جذورها دينية ولعل هذا هو السبب الرئيسي في صعوبة الفصل بين ماهو «ديني» وما هو «سياسي» عند فرز مفردات الخطاب الأمريكي رغم العلمانية المعلنة للدولة.

أما الأصول الدينية لهذه المنظومة الفكرية، فهي ترجع في الواقع إلى نشأة الدولة الأمريكية ذاتها . فالمهاجرون الأوائل إلى الولايات المتحدة الذين جاءوا من انجلترا كانوا من مذاهب بروتستانتية شتى. ولكن بعد فترة من الوقت صارت للبيوريتانية الهيمنة. فالثابت أن حوالي ٧٥٪ من السكان الذين ثاروا على انجلترا واعلنوا استقلال الدولة الأمريكية في ١٧٧٦ كانوا من البيوريتانيين.

والبيوريتانية ، أو التطهير، سميت بهذا الاسم لأنها سعت إلى «تطهير» الكنيسة في انجلترا مما اعتراها في ذلك الوقت . وقد هاجر الكثير من هؤلاء إلى «العالم الجديد» هرباً من الاضطهاد وأملاً في بناء حياة جديدة يعيدون فيها للمسيحية نقاءها الذي فقدته في أوربا. بعبارة أخرى كان هؤلاء المهاجرون الأوائل عميقي التدين، سعوا إلى بناء أمة أكثر تدينا ونقاء من تلك التي تركوها وراءهم في أوربا.

الاضطهاد لحكمة إلهية

وأثناء رحلتهم عبر الاطلنطي، تأمل هؤلاء التجربة الجديدة التي

يعيشونها، على أسس دينية أيضاً.

فـقـد نظروا إلى رحلتـهم تلك باعتبارها رحلة حجيج واعتبروا أنفسهم جماعة «مختاره» اصطفاها الله لتعيد البشرية إلى رشدها. ومن ثم اعتبروا الأرض الجديدة التى وطأوها هى «إسرائيل الجديدة» New Israel ، وخروجهم من أوربا بمثابة خروج اليهود من مصر ونظروا إلى تعميرهم للأرض «الجديدة» باعتباره عقدا جديداً مع الله مثل عهده مع نبيه إبراهيم، بما يعنى أن الله سوف يباركهم ويبارك ذريتهم – كما فعل مع نبيه إبراهيم – مقابل تنفيذهم لأحكامه فى تلك الأرض الجديدة .

وقد آمن هؤلاء بأن خروجهم مضطهدين من أوربا كان لحكمة إلهية . فقد اختارهم الله لمهمة محددة وهى أن ينجحوا فى اقامة مملكته على تلك الأرض الجديدة فيضربون بذلك المثل للبشرية ويؤكدون على أن الله يكافىء عباده المخلصين.

هذه المنظومة الفكرية الأصلية ذات الطابع الدينى الخالص تطورت عبر التاريخ الأمريكى وصارت تتخذ أشكالاً مختلفة فى العقل الجمعى الأمريكى هو ما يطلق عليه الباحثون «الدين المدنى»، و صارت جزءاً من الثقافة السياسية لكل الأمريكيين.

فكما سبق القول ، أمريكا «أمة مختاره» يحميها الله، هذه الفكرة ذات الأصل الدينى صارت لها تنويعات وصيغ شتى من بينها مثلاً أن أمريكا «مدينة على التل» City on the hill أى هى ذات طابع «استثنائى» يفصلها عن باقى الشعوب والحضارات فهى أسمى من كل تلك الأمم الأخرى.

وهى أيضاً قد وصلت إلى ماوصلت إليه لأنها بشكل ما تحظى بعناية الهية خاصة .

ويأتى الإيمان «بالعصر الألفى» الذى سيحكم فيه السيد المسيح على الأرض ليضيف إلى ذلك المعنى .

فالفكرة أصلها دينى بالتأكيد . ولكنها – مرة أخرى – قد أعيد إنتاج معناها سياسياً . فهى ليست بالضرورة اقامة مملكة الله على الأرض (وإن كان لهذه الفكرة من يؤمنون بها حرفياً ومن ثم يؤيدون بمقتضاها إسرائيل تاييداً مطلقاً على أساس أن بقاءها هو الخطوة الأولى نحو عودة السيد المسيح) وإنما هى تعنى أن السلام والرخاء سيعم الأرض، وهو سلام لايمكن أن يجلبه للعالم إلا أمريكا لأنها الأمة المختارة .

ومن هذا الأصل الدينى نفسه تم انتاج معنى زعامة أمريكا للعالم . فهى زعامة «يحتاجها» العالم ولا تملك أمريكا إلا توليها.

بعبارة أخرى فإن هذه المنظومة الفكرية تستخدم لإعادة انتاج المعنى



. فهى عملية حية، بمعنى انها تعيد إنتاج ذلك المعنى فى كل مرحلة تاريخية بناء على معطيات الواقع. وهى من ثم انتقائية بالضرورة أى يتم فى كل مرحلة استدعاء رموز بعينها وصبغها بصبغة تناسب الحاضر المعاش.

وهى لذلك تغذى نفسها بنفسها الأمر الذى يضمن استمرارها أيضاً.

فالتفوق الأمريكى التكنولوجى والعسكرى الراهن يغذى المنظومة نفسها . فالزعامة الأمريكية الحالية للعالم «نبوءة تحققت» وهى تؤكد صحة المنظومة الفكرية ذاتها.

ولأن أمريكا أمة مختاره وتباركها العناية الالهية فإنها بالضرورة تتسم «بالبراءة». ومن ثم فإن الثقافة السياسية الأمريكية تسقط من الذاكرة الجمعية ماقد يشوه هذه البراءة أو يدحضها فالقتل الجماعى للهنود الحمر فصل من التاريخ الأمريكى مسكوت عنه فى الثقافة السياسية الأمريكية. والخطاب السياسى المعاصر لايكف عن الاحتفاء بالتعددية الأمريكية باعتبارها أحد المصادر المهمه لثراء التجربة الأمريكية، بينما يسقط من هذا الخطاب الاعتراف بالاضطهاد الذى وقع على كل الاقليات حين هاجرت لأمريكا بل وبالعنصرية المؤسسية الموجودة حتى الآن فى الولايات المتحدة.

ويصدق الشىء نفسه على السياسة الخارجية الأمريكية. فكل حرب تدخلها الولايات المتحدة هى بالضرورة «حرب أخلاقية» تقف فيها الولايات المتحدة فى جانب «الخير». واللفظ الذى استخدمه بوش بعد أحداث سبتمبر استخدم على مدار التاريخ الأمريكى كله كلما دخلت أمريكا حرباً جديدة. والدلالة الأصلية للتعبير فى العقل الجمعى الأمريكى هى الطابع «الأخلاقى والرسالى» لأمريكا. فهى حرب أخلاقية تقف أمريكا فيها ضد الشر. وهو تعبير استخدم ضد كل «الاعداء» بمن فى ذلك الانجليز أثناء الثورة الأمريكية، والذين كانوا يعتنقون نفس الدين .

إن هذه المنظومة الفكرية – عميقة الجذور فى الثقافة السياسية الأمريكية – تلعب دورا مهماً فى المجتمع الأمريكى فهى تعطى معنى وهدفا تتوحد حوله أمة تتسم بتعددية شديدة فالمجتمع الأمريكى مجتمع مهاجرين أتوا ومن شتى انحاء المعمورة ومن ثم فإنه لا يوجد اصول مشتركة تمثل اساس الهويه الأمريكيه لذلك كان لابد من خلق ذلك العامل الموحد فكان هو السياسة فى الواقع. فالامريكى يعرف نفسه سياسيا . وهو ما يطلق عليه الأسلوب الأمريكى the American Way

أو العقيدة الأمريكية وهى عقيده كل مفرداتها بلا استثناء سياسية فالأمريكي هو الذى يؤمن بالحريات السياسية والديمقراطية والفردية .. الخ.

إلا أن هذا الدين المدنى، كأحد مكونات الثقافة السياسية له أيضا تداعياته الواضحة على السياسة الخارجية الأمريكية. فهو المسئول عن ذلك الطابع الرسالى الواضح فى الخطاب الأمريكى بشأن دور الولايات المتحدة فى العالم فليس صحيحا مايردده البعض من أن هذا الخطاب المستمر الذى يتسم بطابع رسالى واضح هو من باب التغطية فقط على أغراض اخرى ، فهو خطاب له قيمة فى ذاته وموجة للداخل الأمريكي وله وظيفة حيوية بل ويلقى استجابة تلقائية لدى الأمريكى العادى، بغض النظر عن تداعياته فى العالم أو عن زيفه ونفاقه فالثقافة السياسية لكل أمة تحوى تناقضات عده، وصورة الامة عن نفسها ليست بالضرورة أمينة، فهى صورة انتقائية يعاد انتاجها باستمرار لتوحيد ابنائها حول اهداف ما

الحرب الدينية !

غير أن أخطر ما فى هذه المنطوق فى مجال السياسة الخارجية هو ما ينتج عنها من حدية مطلقة وقت الازمات مع أمم أخرى. فالمسأله عندئذ لاتكون خصما يمكن التفاوض معه للتوصل إلى حلول «وسط» فالخصم يكون عدوا يمثل الشر المطلق، والشر بالضرورة لايجوز التفاوض معه والإ صار ذلك تنازلا عن قيم جوهرية .

ومن هنا تأتى التعبيرات التى يزخر بها الخطاب الأمريكى بدءاً من تعبير«أمبراطوريه الشر» الذى اطلقه ريجان، ومروراًبتعبيرات «محور الشر» و«الوضوح الاخلاقى»، ووصولاً إلى تعبير «الحرب الدينية » الذى استخدمه بوش .

إن استخدام مفردات مثل «الخير والشر»، «معنا أو ضدنا» ليس جديدا فى الحالة الأمريكية فهى مفردات ذات جذور ثقافية وتاريخية عميقة كل ما فى الامر انها تتوارى احيانا ثم تعود لتبرز على السطح من جديد .

ولأن الهوية الأمريكية ذات طابع سياسى بالأساس، فإن الدينى يختلط بالسياسى بشكل واضح فى لحظات الأزمات الكبرى، وهو ما يفتح ابواب الخطر إذا ما استغلته قوى امريكية بعينها ليتغلب الدينى فيه على السياسى عمداً. ■



شعر: سليم الرافعي

يقول الهوى الموتور: جرح تنسما ... إذا نام جرح الحب أيقظ نوما

ترقرق بعد الأربعين بكأسه ... ومن يحتسى الكأس التى خضبت فما؟

فهل لاح نهر غارق فى حبابها ... وهل سال من حر الينابيع مفعما؟

أما كان مختالا على ضفة الصبا ... أما كان صداح الهتاف.. محوما؟

جرى عارما يروى الثلاثين قصة ... وفى غابة عذراء صلى وسلما

يدين لمعبود قديم بوقفة ... تكلل منها الزهر وازدانت السما

يدين لعينين اكتسى محجريهما ... إلهان فنانان زانا وأنعما

تقدس حلم فى الربيع ونسمة ... سرت بين أدواح تهز متيما

تؤرقه الذكرى.. فيرجف موجه ... فهل تشعل الذكرى إذا خطرت دما؟

مضى النهر بالمجد المحطم ذاهلا ... كأن الهوى مجد إذا ما تحطما

يقولون للنهر استرح من عرامة ... فمازلت أندى فى الخريف وأكرما

ودع فلتات الزيغ فى ميعة الصبا ... وطيفا تلاشى فى العواصف مبهما

وهل عادت الأمواج بعد اندفاعها ... إلى مصور الإبداع إلا توهما؟

تلفع كوخ الورد بالشوك واكتسى ... تلاوين بركان غفا وتصرما

دم فى شظايا الورد شع معبرا ... عن العاصفات الهوج حين تضرما

وهل قسمات الحب دامت لعاشق ... فيخطر فى ضوضائها مترنما؟

أفق أيها النهر الحزين لدمعة ... مجنحة تسقى شعاعاً مهشما

فقد كان ذاك الحب زورق قبلة ... ورن الصدى فى اللازورد وهينما

تحن السماوات الحسان إذا سرى ... أو اختال فى آفاقها أو تكلما

ستنظمه الأطياف عنقود كرمة ... ويشربه العشاق فى الكأس ملهما

وترتعد الأشواق منه وتنحنى ... له قمم مبهورة.. كلما انتمى

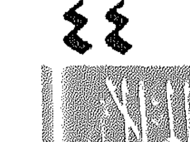
هيمنة أمريكية وخيانة وإجرام

بقلم
مصطفى درويش

تعذر علىَّ مشاهدة أفلام مهرجان القاهرة السينمائى الأخير.. أما لماذا تعذر علىَّ الأمر، فذلك لأننى آثرت مغادرة القاهرة، تحت تهديد سحابة سوداء، تعيث فى عيوننا وصدورنا فسادا، على البقاء سجين قاعات مغلقة، أشاهد أفلاما، يجرى عرضها بطريقة عشوائية، ودون احتفال بشعور المتفرجين.

وفعلا غادرت المدينة البدينة، متجها صوب منتجع الجونة، المطل على بحر الأساطير، حيث أتيح لى أن استنشق هواء نقيا، أرى شروقا ذهبيا، أقضى سحابة النهار سابحا، تحت سماء زرقاء صافية، لا أسمع من الأصوات سوى هديل اليمام.

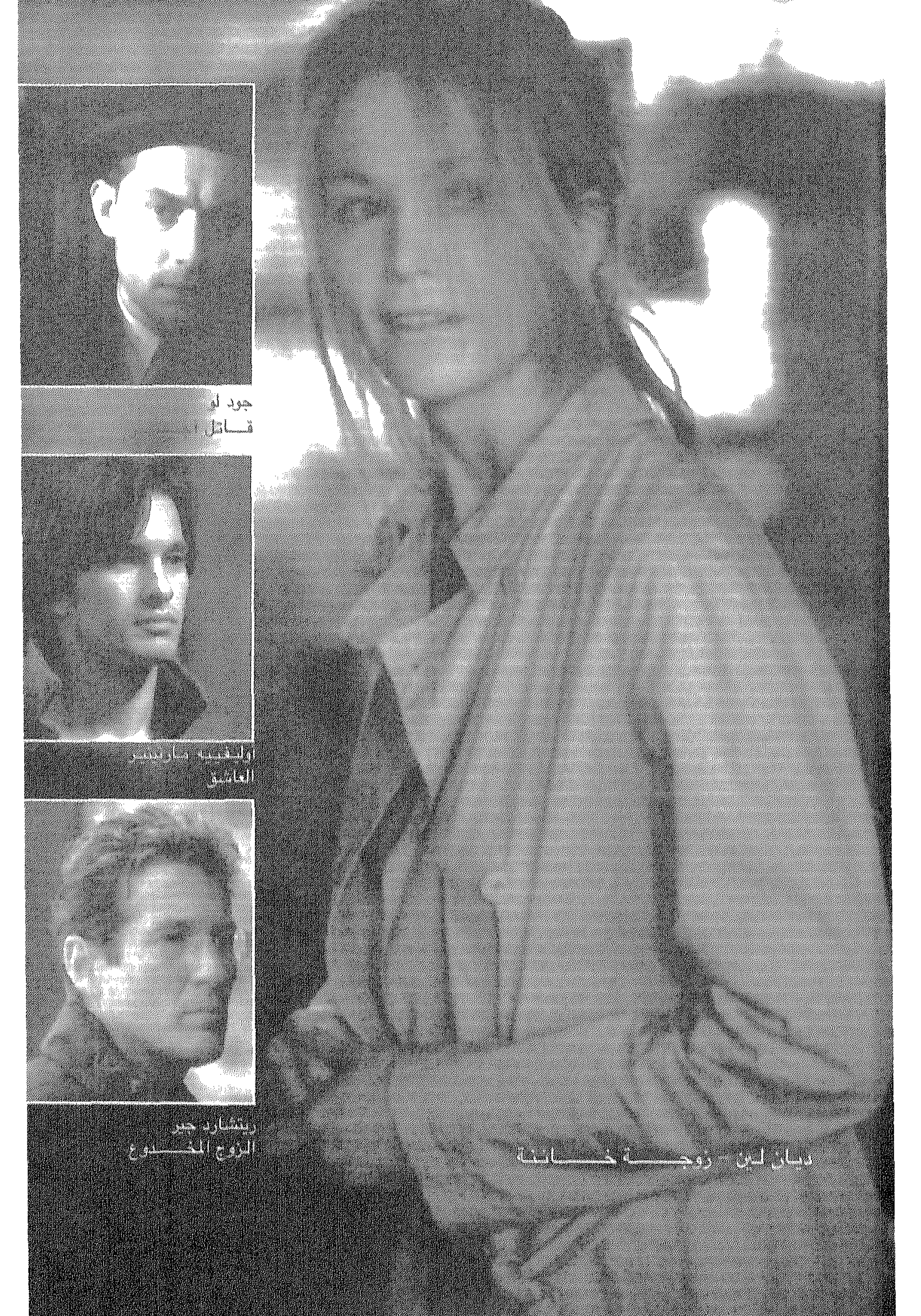
وفى سكون الليل، ووسط ظلام تزينه نجوم على بعد ملايين السنين الضوئية، أتابع قمرا فضيا.



الفردوس المفقود

كل هذا عشته أياما، فى أحضان طبيعة سخية، صفوا من الآلام والأحزان وما أن ذهبت تلك الأيام كالأحلام، حتى وجدتنى طريد الفردوس. أبحث فى عاصمتنا عن أفلام تستحق المشاهدة، فلا أصادف منها شيئا

وفيما أنا حائر، وجدت ما أنشده فى فيلم لادريان لين، وهو مخرج انجليزى، جذبه مصنع الأحلام فى هوليوود إلى فلكه، شأنه فى ذلك شأن الموهوبين من المخرجين الانجليز، بدءا



جود لو
قاتل
أوليفييه مارتينيز
العاشق
ريتشارد جير
الزوج المخدوع
ديان لين - زوجة خائنة

من الفريد هتشكوك، وعقد الثلاثينات في عامه الأخير، وانتهاء بسام منذر، والقرن العشرون على وشك الرحيل.

وفيلم لين اسمه الزوجة الخائنة.

وإذ شاءت لي المقادير أن يكون آخر فيلم، كتب لي أن أشاهده قبل مغادرتي القاهرة، هروبا من السحابة السوداء، هو الطريق إلى الجحيم، وصاحبه سام منذر، هو الآخر مخرج انجليزي، فقد رأيت أن الجمع بين فيلمي لين ومنذر في عرض واحد، قد يفيد في إلقاء بعض الضوء على ظاهرة هيمنة مصنع الأحلام، بعد أن أصبحت أشبه بأخطبوط التف بأذرعه حول كوكبنا، على نحو صار الفكاك منه، أمرا صعب المنال.

وابدأ بالطريق إلى الجحيم، لاقول ان بطولته يتقاسمها النجمان توم هانكس، وبول نيومان.

ولا أعني بتقاسمهما أن دور نيومان، وسنه الآن ثمانية وسبعون عاما. مساو لدور هانكس.

فالذي ليس فيه شك أن الزمن الذي يشغله هانكس بوجوده أطول بكثير من زمن نيومان.

ومع ذلك، فدور كليهما مكمل للآخر، بحيث لا يتصور الفيلم بدونه حتى ولوكان صغيرا.

دور جديد

وعكس نيومان، فتقمص هانكس لشخصية مجرم أجير لزعيم إحدى العصابات، يعد تجربة جديدة، لم يسبق له أن مر بها. طوال مسيرته السينمائية، وعمرها قارب ربع قرن من عمر الزمان.

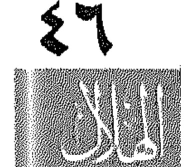
«فهانكس» السابق له الفوز مرتين بجائزة اوسكار أفضل ممثل رئيسي، ها هو ذا، يلعب، لأول مرة. في ثاني فيلم للمخرج منذر، السابق له هو الآخر، الفوز مع فيلمه الجمال الامريكي بنفس الجائزة، دور قاتل «مايكيل سوليفان» في زمن الأزمة الاقتصادية الكبرى، حيث انتشرت كعش الغراب، عصابات إجرامية، ليس للرحمة في قلوب أعضائها مكان.

يصدع لأوامر زعيم عصابة «جون روني»، من أصول ايرلندية، ينفذها بصرامة وكفاءة منقطعتي النظر.

أدى دور روني النجم «بول نيومان» بجدارة ومهارة، قل أن يكون لهما مثيل.

وكما رسم سيناريو «دافيد سلف» العلاقة بينه وبين مرؤوسه سوليفان، بدت لنا في الفيلم علاقة حميمة، أشبه بعلاقة أب بأبنه، بل ربما أقوى من علاقته بابنه من لحمه ودمه «كونور» ويؤدي دوره الممثل الانجليزي دانييل كريج الذي سبق لنا مشاهدته هنا في القاهرة، في فيلم تافه اسمه «لارا كروفت، غازية المقابر» ويقصد بها مقابر قدماء المصريين.

ولقد جرى التعبير عن العلاقة الحميمة بين الاثنين، بجمال، ودون كلمة تقال، في مشهد جمع بينهما،



بطريقة شبه عفوية، فى أولى لقطات الفيلم، حيث نراهما جالسين الى البيانو، يعزفان قطعة ثنائية، هادئة، وكونور الابن يرقبهما كاظم الغيظ، ونار الغيرة تنهش قلبه المريض.

أصل الحكاية

والفيلم يبدأ بصوت مايكيل الصغير، يقول، وقد أصبح رجلا «هناك حكايات كثيرة عن مايكيل سوليفان (يقصد أباه) بعضها يقول أنه كان رجلا فاضلا، وبعضها الآخر يقول أنه على العكس من ذلك تماما.

ولكنى مكثت معه ستة أسابيع، فى اثناء شتاء ١٩٣١ وهذه هى حكايتنا».

وكما يليق بحكاية مدارها عنف بلا حساب، استهل السيناريو أحداث الفيلم بمشهد فى أحد أكبر بيوتات روك، آيلاند يمتلكه رونى (نيومان)، حيث نراه فى إحدى اللقطات، محتضنا ولدى سوليفان الاكبر مايكيل «تايلور هوشلين» والأصغر بيتر «ليام ايكن»، على نحو بدا معه وكأنه جدّ عطوف.

فى حين أنه، على نقيض هذا المظهر الخادع، كان واحدا من أقطاب الجريمة فى العالم السفلى، ساعدا أيمن لآل كابونى، ذلك المجرم الذى ذاعت شهرته، حتى صار اسمه رمزا للاجرام، فى أشد صوره بأسا.

نصيحة مجرم

وللتدليل على متانة العلاقة بين الاثنين رونى وآل كابونى أورد على لسان الأول، من باب التناحر، ان الثانى نصحه قائلا «أنت تحكم هذه المدينة «شيكاغو» مثلما يحكم الرب الأرض، تعطى وتأخذ كيفما تشاء».

وأعود إلى العلاقة الحميمة، لاقول ان ولاء سوليفان لرونى، وأحد مظاهره الطاعة شبه العمياء، انما يرجع إلى أيام الصبا، وقت أن كان سوليفان يتيما، وتولى رونى أمر رعايته، والصعود بمستواه حتى أصبح له اسرة محترمة، من زوجة جميلة وولدين، لاينقصهما شىء من متاع الحياة.

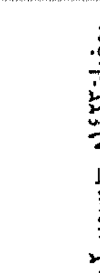
عبث الأقدار

وهنا يتدخل القضاء قاهرا، ماكرا، ليس لأحد عليه سلطان، كى يدمر من ناحية تلك العلاقة الحميمة بين رونى وسوليفان ومن ناحية أخرى علاقة رونى بآل كابونى.

فكان أن أوحى لولدى سوليفان أن يتساءلا عن طبيعة المهام التى يقوم أبوهما بها بغتة بين الحين والحين.

ومازال يغرى الولد الاكبر بضرورة التوصل إلى معرفة مهنة أبيه، حتى دفع به إلى التسلل من غرفته مساء، والاختباء فى سيارته، لا يغادرها إلى أن تصل بهما إلى مكان، حيث يراه مع كونور ابن الزعيم، وهما يطلقان النار فيسقط خصومهما قتلى، فى بحر من الدماء.

وسرعان ما يكتشف سوليفان أن مايكيل ابنه كان فى مسرح الجريمة، فيصطحبه إلى السيارة، مهموما.



وفى الطريق ، يطلب إليـــه أن يمـحـى من شـاشـة ذاكـرته كل مـا شاهده ، قبل ثوان، وألا يبوح به لاى كان.

ورغم الوعد الذى قطعه سوليفان على نفسه، بأن ابنه لن يبوح بالسر، الا أن كونور انتهز الفرصة للتخلص من الاب والابن معا.

وهاهو ذا ، ينصب لغريمه كمينا، كان لابد أن ينتهى به وابنه مقتولين.

ومـرة أخـرى ، يتـدخل القـضـاء المتـسلط، بحكم لا مـعـقب لحكمـه، فيكتب النجاة لهما، وفى نفس الوقت يعبث بكونور، فيضلله حتى يدفع به إلى قتل الأم زوجة سوليفان، والابن الصغير.

ويثبت سوليفان للكارثة، وبحكم تركيبته الشخصية، واحد عناصرها إرادة من حديد، وعـزم أكـيـد، يجـد نفسه مجبرا على الانتقام، لا مختارا

الهروب الكبير

وكما عبث القضاء بكونور وسخر منه، مضى يعبث بأبيه رونى، ويسخر منه.

فإذا به، يجد نفسه، بعد حيرة، مجبرا هو الآخر على تدبير أمر قتل سـوليـفـان، انقـاذا لابنه كـونور من الانتقام.

وفى سبيل تحقيق ذلك، أجر قاتلا محترفا، مهمته تعقب سوليفان، حتى قتله، مع تقديم الدليل.

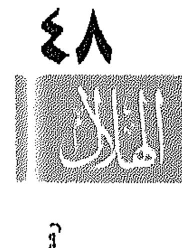
أدى دوره النجم الانجليـزى جـود لو، وقد سبق أن شاهدناه قبل بضعة شـهور بائع هوى فى الذكاء الصناعى، وقناصا روسيا فى العدو على الابواب.

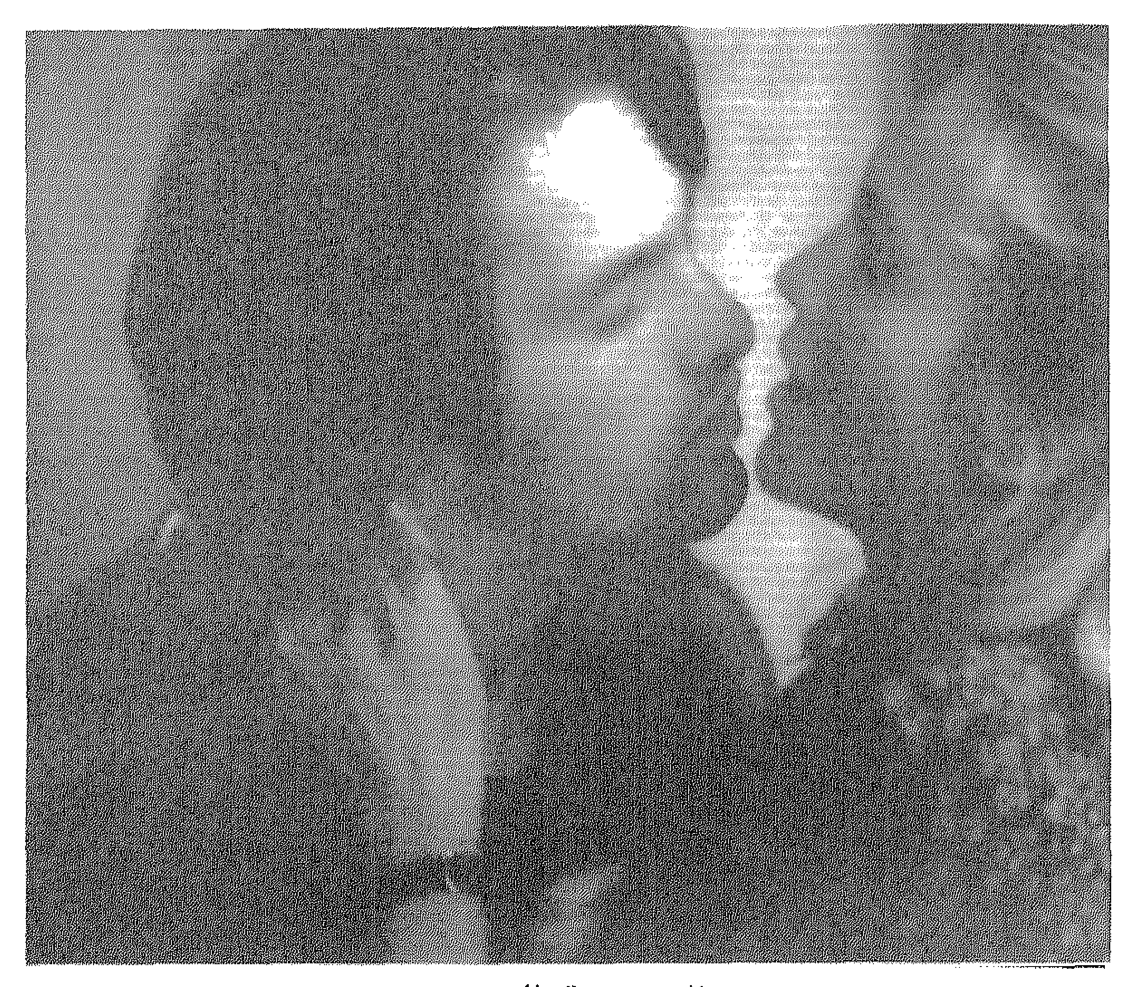
ويمضى القضاء مسخرا الجميع، حتى نهايتهم المحتومة، لا يفلت من ارادته الا من استثناه، وهو مايكيل بن سوليفان وما كتب له النجاة استثناء، الا ليكون شاهدا، يحكى حول ما حدث لابيه ومطارديه، اثناء بضعـة اسـابيع من شقاء عام استشرى فيه الاجرام، وهو هـول بحـتـمـيـتـه اشـبـه بمآسى المسرح الاغريقى القديم.

يبقى لى أن أقول أن الفيلم بأداء ممثليـه، وتصـويره ومـوسـيـقـاه، وتصـمـيـمات مناظره المعبرة أصدق تعبير عن عصر الأزمة الكبرى التى مهدت الطريق للحرب العالمية الثانية، انما يؤكد ، بكل هذا، موهبة مخرجه منذر، ويثبت بعد نظر المخرج والمنتج الأشهر «ستيفن سبيلبرج» عندما اسند له، بعد اكتشافه فى لندن، حيث كان يعمل مخرجا مسرحيا، إخراج الجمال الأمـريكى، وذلك رغم عـدم وجـود أية صلة بينه وبين السينما، لا من قريب، ولا من بعيد.

فـهـو لم يسبق له الالتـحـاق باحد مـعـاهد السـينمـا، فـضـلا عن انه لم يسـبق له، قـبل الجـمـال الامـريكى، إخـراج أى فـيلم، طويلا، كـان ام قصيرا.

والآن إلى أدريان لين، لأقـول أن





الــــزوجــة والعشيــق

موهبته لا ترتفع إلى مستوى موهبة منذر.

خيانة وقتل

ولكن الزوجـة الخـائنة، فـيلمـه الأخـيـر، يشـهـد له بـالصـعـود إلى مـسـتـوى فنى رفـيع، فى ذلك النوع السينمائى، الذى يؤثره على غيره من الأنوا ع، وهو العـلاقـات غـيـر السـوية بين الرجل والمرأة.

وبيـانا لذلك يكفى أن نسـتـرجـع ، على سـبـيل التـمـثـيل، بـعض الأفـلام التى قـام بإخـراجـهـا لحـسـاب مـصنع الأحــلام، أثنـاء وجـوده فـى بلاد العـم سـام، وهـى الإغـراء المـميت، ثمـانيـة أسـابيع ونصف، عـرض غـيـر مـهـذب، ولوليتا.

يكفى ذلك، حـتى يسـتـبـين لنا أن عالمه يدور وجودا وعدما حول ما يسمى بالحب المجنون، ذلك النوع من الحب الذى ما يكاد يبلغ القلوب، حتى يصبح فتنة ومحنة، لاتجد القلوب الى التخلص منه سبيلا.

والزوجة الخـائنة، مـأخوذ عن قصة وسـيـنـاريو للـمـخــرج الفــرنسى كلود شـايرول، أحد أشـهر مـخرجى الموجة، وأكـثـرهم نجـاحـا ودوامـا ، فـهو لايزال

يصنع أفلاما، حتى يومنا هذا.

ولقد سبق له ترجمة قصته هذه، السيناريو بطبيعة الحال، إلى لغة السينما فى فيلم أسماه المرأة الخائنة، وذلك قبل ثلاثة وثلاثين عاما.

وفيلمه يعرض لأسرة برجوازية، تجنح فيها الزوجة إلى الخيانة مع عشيق يقتله الزوج.

وكلاهما الخيانة والقتل، يعكس على الزوجين ظلالا ثقيلة، تصبح معها الحياة كابوسا.

عولمة القيم

وانتقال معالجة كاتبى سيناريو الفيلم الأمريكى «الفين موللر» و«ويليم برويز» بمكان الأحداث من فرنسا إلى الولايات المتحدة، وبالذات نيويورك وضواحيها، هذا الانتقال لم يغير شيئا من جوهر الفيلم القديم.

فأخلاقيات البرجوازية تكاد تكون واحدة فى كل مكان. لا تختلف فى فرنسا، عنها فى الولايات المتحدة كثيرا، رغم فاصل المحيط.

قد تكون البرجوازية الأمريكية أكثر وحشية، كما يذهب فى كتاباته نفر من مثقفى فرنسا.

غير أن هذه الوحشية ليس لها تأثير كبير على أخلاقيات البرجوازية الأمريكية، بحيث تجعلها مختلفة اختلافا كيفيا عن أخلاقيات البرجوازيات الأخرى، لاسيما البرجوازية الفرنسية.

ومن هنا كان انتقال هذين الكاتبين بالأحداث إلى نيويورك وضواحيها انتقالا مقنعا، غير مشوب بالتغريب وعندى أن فيلم الخائنة الأمريكية بايقاعه المواكب للعصر، أشد وقعا، وأكثر تأثرا من فيلم الخائنة الفرنسية.

حرارة الجسد

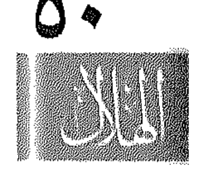
ومما جعله متميزا عن الفيلم القديم، اختيار «ديانا لين» لأداء دور «كونستانس سمنر» الزوجة التى خانت زوجها أدوارد (ريتشارد جير)، فى لحظة ضعف، ندمت عنها كثيرا .

وكانت تلك اللحظة، وما تبعها من آثار، مع شاب فرنسى، «بول مارتل يصغرها سنا، بتسعة أعوام، ويؤدى دوره أوليفييه مارتنيز ذلك النجم الذى تعلق عليه السينما الفرنسية، آمالا كبار فهى، والحق يقال، ادت دور الزوجة قبل الخيانة، وفى أثنائها وبعد انتهائها بقتل العشيق، أدته على خير وجه.

فكم أحسنت التعبير فى البداية، عند أول لقاء بالصدفة، مع بول مارتل، عن ترددها، أتستجيب لإغرائه، فتخون زوجها، أم لا.

وكم أحسنته، عندما خانت، فلم تكبح جماح غرائزها، وقد أطلقها من عقالها الالتصاق بجسد يشع حرارة الشباب.

وكم أحسنته، وعواطفها الجياشة، تعتمل داخلها، يتنازعها الرضاء على فعلتها تارة، والندم تارة أخرى.



النفس الطويل

ومما يثير الدهشة، وفى نفس الوقت، يؤكد توغل هوليوود، فى مجالات السينما الفرنسية، إلى حد نقل أفلامها بحذافيرها إلى السينما الأمريكية، أن الزوجة الخائنة ليس أول فيلم منقول عن فيلم فرنسى يمثله، النجم ريتشارد جير.

إنه ثالث فيلم، اذ سبقه على آخر نفس «١٨٨٣» وسومرسباى «١٩٩٣»، وكلاهما إعادة لفيلمين فرنسيين الأول بنفس الاسم، أخرجه جان لوك جودار أحد رواد الموجة الجديدة الفرنسية، وذلك قبل ثلاثة وأربعين عاما والثانى باسم آخر، هو عودة مارتين جوير «١٨٨٢» للمخرج الفرنسى «دانييل فينيى».

ومن الأكيد أن هذه الاعادة الامريكية المتكررة لأفلام فرنسية، وهى ظاهرة تستفحل على مر الأعوام، مؤداها على المدى الطويل، تقلص نفوذ السينما الفرنسية، وازدياد هيمنة هوليوود.

وختاما ، لا يفوتنى أن أذكر أن مقص الرقابة مزق المرأة الخائنة شر ممزق، باسم حمايتنا من أنفسنا الأمارة بالسوء وربما كان أكثر حماية لنا. ألا يتدخل المقص بالتمزيق ، تاركا لنا، نحن المتفرجين، حرية التقدير. ■



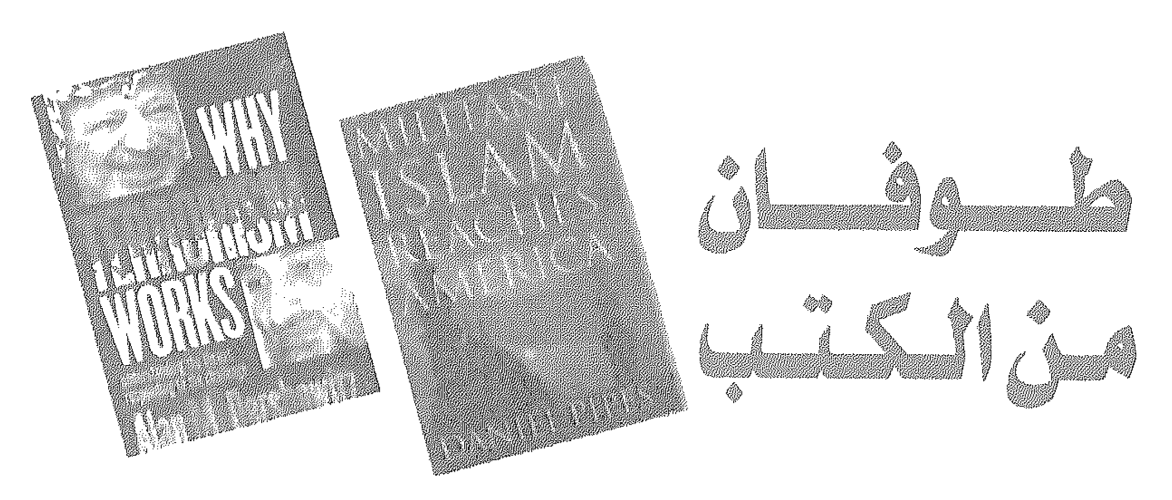
بول نيومان – زعيم العصابة



توم هانكس – قاتل محترف

رسالة أمريكا

صلاح المراكبى



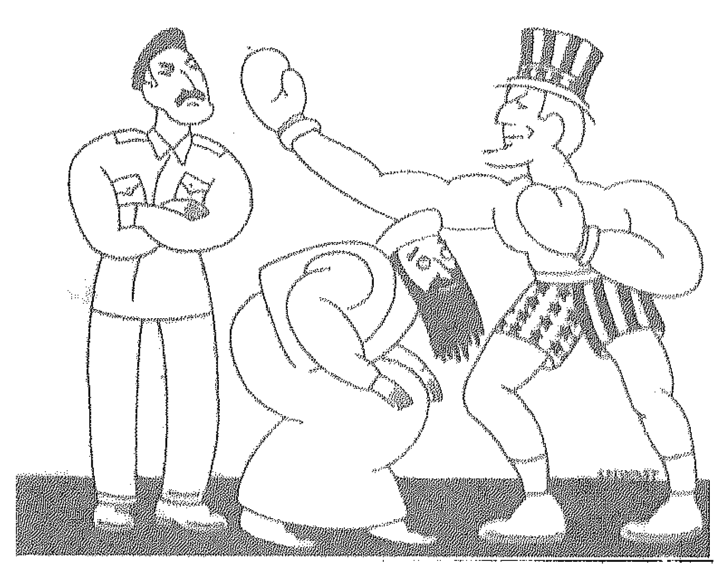
طوفان من الكتب

فى سنوية الانكسار الأمريكى

- كتاب يتساءل: لماذا لم يقف الله معنا في ١١ سبتمبر؟
- كل الكلمات التي قالها الضحايا قبل موتهم كانت كلمات فارغة!!

الميليشيات الاسلامية تغزو أمريكا !! مركز التجارة العالمى المدمر!! أمريكا من الأعماق!! عصر الرعب!! كيف حدث ذلك؟. كل الدلائل كانت موجودة هناك!! على نحو غير متوقع!! هل هو الترهل؟ دعونا نتطوح!؟ القدرة على التحمل !! لماذا فشلت الـ F.B.I والـ CI.A؟

هذه عينة بعض عناوين الكتب التى حاولت ملاحق الصحف الأمريكية تلخيص ١٥٠ كتاباً من بين طوفان من الكتب، صدرت خلال العام الماضى، وأهمها ماصدر في الأسابيع الأخيرة قبيل الحادى عشر من سبتمبر، الذى أسمته أجهزة الاعلام الأمريكية «اليوم الذى غيرّ أمريكا» وأسمته احدى أجهزة الاعلام العربية «اليوم الذى هز العالم»!؟



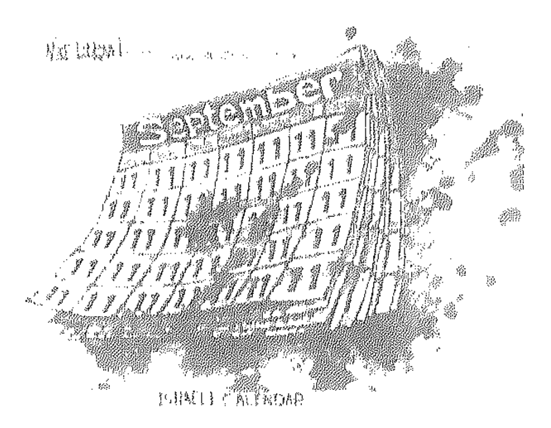
العرب والمسلمون بعد ١١ سبتمبر كما يصورهم الكاريكاتير الأمريكى

ربما الأهم بين هذا كله، هو تلك الابحاث والدراسات التربوية والنفسية ، والتى قام بها رجال التعليم والمهتمين به، وتركزت كلها حول سؤال يقول : ما الذى نقوله لأبنائنا الطلاب فى ذكرى هذا اليوم حيث تكون الدراسة فى بداياتها هذا العام؟! ماهو الدرس الذى نقوله لهم خلاصة لكل ما جرى؟ ما الذى نقوله لهم عن الذين قاموا بالعمل؟. وعن أنفسنا ومستقبلنا ؟! كيف نساعدهم للسيطرة على أنفسهم بين الذاكرة والأمل .. بين الحدث ونتائجه المستخلصة؟!

يقول رجال التعليم : إن هذه المرحلة ، مرحلة الطفولة والصبا وبزوغ الشباب - وهى أعمار طلاب المدارس هى الأهم فى شحنهم بأقصى درجات الفخر الوطنى والانتماء .. لتصبح هى أساس تكوين شخصية المواطن ، ليكون قادراً بعد ذلك فى سنوات نضوجه وعمله، على مواجهة مشكلات الحياة داخلية وخارجية .. وانطلاقه من أساس وطنى قوى، وليكن حتى مبالغا فيه .. فالحياة ووقائعها بعد ذلك تستفيد من هذه الطاقة ، وتدخل به فى معترك الصراع الذى يضع هذه الطاقة فى أماكنها الصحيحة.

هناك كتاب شغل رجال التعليم خلال الشهرين الماضيين وهو كتاب «فهم القرآن» لمايكل سلس الأستاذ بكلية هارفارد والمتخصص فى مقارنة الأديان .. والكتاب يركز على فترة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة ليبين مقدار الحرص والرحمة والموعظة الحسنة فى الدين الاسلامى .. وقد ثار خلاف نقاشى فى الصحف والمجلات، كان يتراوح بين رفض تدريس الكتاب وبين تأييد دراسته .. أغلب الذين طالبوا بتدريسه كانوا من الشباب والطلاب، وأبرز الرافضين كان توماس فريدمان الذى أشار إلى أنه بالمقابل يمكن طلب تدريس الانجيل فى مدارس المملكة السعودية على سبيل المثال!! وقد حسم القضاء الأمريكى الخلاف بالموافقة على تدريسه..

بالطبع .. فإن أغلب الكتب التى ظهرت بهذه المناسبة كانت معادية للعرب والمسلمين .. إضافة إلى كتب عن الضحايا ، وعمال الانقاذ ، والناجين ، وكتب عن فشل المخابرات الأمريكية، وبطولة عمال الحريق ، وكتب لأساتذة الجامعات، ومراسلى الصحف والإذاعة والتليفزيون .. وكتب للأطفال والشباب، وكتب للمرأة ، وكتب قانونية ، ورجال دين، ورجال بيئة وتقنية ، وكتب تصور برجى التجارة العالمى من الداخل



الأيام كلهاأصبحت «١١ سبتمبر » يوم المأساة، فى فكر رسام الكاريكاتير الأمريكى

والخارج قبل انهيارهما بالطبع .. ودواوين شعر .. وصور لأعلام لأمريكا والولايات المختلفة .. وكلمات وانجازات لمحافظ نيويورك السابق رودلف جوليانى : وهو الرجل الذى استطاع خلال سنوات عمله أن ينقل نيويورك من مدينة كانت تعانى من نقص الأمن والنظافة والبطالة إلى مدينة تخلصت من أكثر هذه المشكلات .. وترشحه بعض أجهزة الاعلام للرئاسة الأمريكية.

كتاب عنوانه «لن ننسى» وهو يناقش فكرة : (ماهو الخط الفاصل بين القدرة على حفظ التاريخ وضمان ذلك على وجهه الصحيح ..... وإذا كانت الذكرى تفتح الجروح فهل يقودنا ذلك إلى الخوف أم يعطينا طاقة عبور إلى ماهو أفضل).

أغرب الكتب وأكثرها جرأة هو كتاب لجون هورجان عنوانه (Where was God) ولترجمته بشكل لائق فان العنوان يقول : لماذا لم يساعدنا الله فى ١١ سبتمبر؟! والرجل يطرح أسئلة كثيرة يقول: إنه يطرحها غير المؤمنين، الذين اهتز إيمانهم بمفاجأة ما حدث!. ويجيب هو عن هذه الأسئلة بقوله : إنه يجب أن نسأل أنفسنا أين كنا نحن؟. لا أين كان هو ؟! يقول: اسأل نفسك أين كنت مساء أمس؟ ألم تكن فى غاية السكر تقود سيارتك وتكاد لاترى الطريق؟! أين كان الذين يموتون بالآلاف من مرض الايدز فى أفريقيا؟ أليسوا أكثر من ضحايا نيويورك وواشنطن؟! وأين كنا يوم ٢٦ يناير ٢٠٠١ قبل حادث نيويورك بتسعة أشهر عندما هز زلزال جوجارات فى الهند وقتل فيه ٢٠ ألفا وتشرد ١٥٠ ألفا؟!

– كتاب «وسط الغبار» وهذا هو عنوانه ، وهو لرجل دين ، كتبه بأسلوب قصيدة شعر أكثر منه موعظة دينية! يصور فيه الحدث من داخل البرجين .. ويقول ساخراً : هل تعرفون ماذا كانت مئات الكلمات الأخيرة التى سجلتهامن خلال الاتصالات التليفونية التى تمت فى دقائق ماقبل السقوط بين الضحايا وأهاليهم؟! إنها كلمات لا صلة لها بالله .. ولا بالدين كلها كلمات تافهة .. حمقاء: ياحبيبتى .. هناك أصوات فى الخارج سأحاول المجىء.. أتتذكرك الآن أنت وحدك ياحبيبى..

الرجل يقول: إذا تكرر الحدث – لتضحكوا – إذا تكرر فاعلموا أنها لحظات تدعو إلى إعادة اكتشافنا لله .. ليكون معنا .. ونكون معه .. ان الله مع الذين يعملون .. – كتاب «الميليشيات الاسلامية تغزو أمريكا» لدانيال بابيز يقول : الأمريكيون لايعرفون المسلمين جيداً .. انهم يعرفون البترول فقط .. نحن لسنا كالاستعماريين الأوروبيين القدامى ، الذين عاشوا مع الشعوب التى استعمروها .. نحن نعرف إسرائيل فقط .. والحرب الباردة .. وكيف أصبحنا قوة عظمى .. والعولمة .. حتى جاء يوم الثلاثاء الحزين .. إن المسلمين غير مسئولين عما حدث!. أتصور أنهم نحو ٧٠ ألف متطرف من ٥٠ دولة .. ولذلك يجب أن نقف مع المسلمين المتحضرين المعتدلين ، ونساعدهم حتى لا يسيطر عليهم المتطرفون ويسيطروا علينا!.

- «زوجة رجل إطفاء» كتبته كينى مارينى التى فقدت زوجها فى الحادث ، سجلت سيرة حياته وأفكاره ودعت أصدقاءه وزملاءه يشاركون فى الكتاب.

- نيل هيرمان الذى كان رئيساً لـ : F.B.I يقول فى كتابه «صدمة فقدان القدرة»: نعم .. هذا ما أرادوا فعله .. ولكن استغرق ذلك منهم وقتا طويلاً .. لقد انتصروا .. لقد كنا نعرف بعضهم .. وحاولنا أن نتغلغل بينهم ونكتشفهم .. لكنه كان ينقصنا المترجمون .. حاولنا تشغيل البعض .. لكنهم لم يكونوا كافين).

- ريتشارد برنسين مراسل صحفى يقول فى كتابه «على نحو متوقع» Out of Blue إن الصحف هى مسودات التاريخ .. الآن أعيد نشر ماكتبت فى الصحف ، ولكن من خلال بانوراما هائلة وبأحاسيس وتحليلات أوسع من مجرد الخبر والمقال .. إنه يجب أن نستقرىء التاريخ مروراً بالجهاد ووصولاً إلى مركز التجارة العالمى!.

إن الأمر يبدأ من جمال عبدالناصر الذى أفرخ سيد قطب ، ويبدأ من الشاه الذى أفرخ الخمينى ، وأحمد بن بيلا الذى أفرخ الكثير.. ويركز برنسين على (عبد الله عزام) الذى يحكى تاريخه كله ، منذ ولد عام ١٩٤١ فى جنين بفلسطين ، وبدأ يناضل الإسرائيليين ، ويقول : يقولون: إنه هو الذى أسس حماس ، وأنه فى عام ١٩٧٩ ذهب إلى بيشاور وبدأ تجنيد المتطوعين من مختلف البلاد لتكوين جيش إسلامى دولى لحرب السوفييت ، ثم ذهب عزام إلى أفغانستان .. ويسرد مايراه تاريخ الإرهاب الإسلامى حتى يصل إلى عمر عبد الرحمن .. وأحداث نيويورك وواشنطن..

فيلم يحرج أمريكا

١١ سبتمبر بعيون ١١ مخرجاً عالمياً

قرر المنتج والمخرج الفرنسى إيليان بريجاند أن يقدم رؤية فنية لأحداث ١١ سبتمبر من خلال فنانين من أنحاء العالم . وحتى يستغل أرقام الحدث ، فقد طلب من ١١ مخرجاً عالميا أن يقدم كل منهم فيلما قصيراً ، مدته ١١ دقيقة و٩ ثوان، ليجتمع عنده فى النهاية فيلم واحد طوله أكثر من ساعتين بدقائق قليلة .. على أن يحمل الفيلم تجسيداً يرمز للحدث..

ترك بريجاند للمخرجين - ومنهم يوسف شاهين ، الحرية الكاملة فيما عدا ٣ شروط : موعد الانتهاء ، وميزانية لاتزيد على ٤٠٠ ألف دولار لكل منهم ، وعدم اثارة الكراهية والعنف أو التهجم على أى دين أو ثقافة أو تقاليد . وحدد المنتج الفرنسى الفكرة العامة بأنها: (حقاً لقد كان الحدث صدمة للعالم كله .. ولكن ما الذى أثاره الحدث عندك) .. تحقق الانتاج الكبير ، واكتمل الفيلم ، الذى أصبح فى رأى المنتج (هو فيلم مركب .. أو شىء كالفسيفساء.. رؤاه المتعددة تصب فى فكرة واحدة هى صدى ١١ سبتمبر فى أنحاء الدنيا .. لكنه ليس ضد أمريكا) !؟



تمثال الحرية شاهد عيان على الأحداث فى نيويورك

عرض الفيلم فى مهرجان فينسيا – خارج المنافسة – وفى مهرجان تورنتو..

فى سطور قليلة نقدم الفكرة العامة لكل فيلم قصير ، والذى رأى فيها فنانون وصحفيون أمريكيون ، أن الفيلم بكل هذا الذى قدمه، هو خروج عن الهدف الرئيسى للموضوع وأنه يقصد به إحراج أمريكا ، والسخرية من آلامها على ما جرى وحدث!!

● المخرج يوسف شاهين – ٧٦ سنة ، أطلق واحدا من قتلى الأمريكيين فى عملية بيروت عام ١٩٨٣، يتحرك كشبح ، ويذهب فى زيارة أسرة فلسطينية فى الضفة الغربية المحتلة.. بينما شاب صغير ينطلق ليقوم بعملية فدائية .. والد الشاب وهو رجل عجوز يلوم أمريكا على دعمها لإسرائيل ويقول: على الرئيس بوش أن يحدد موقفه : من هم الإرهابيون؟

● المخرج الإسرائيلى أموس جيتاى صور عملية تفجير سيارة فى تل أبيب ، والمراسلة الإسرائيلية التى تغطى الحدث تليفزيونيا تحث المخرج فى الاستوديو أن يأخذ تقريرها على الهواء .. ولكن الارسال يتوقف ويقول المخرج للمراسلة : إنك لست على الهواء .. لأن شيئاً فى غاية الخطورة يحدث الآن فى نيويورك .. وكان التوقيت هو اللحظات نفسها التى يظهر فيها الحدث فى ١١ سبتمبر بنيويورك..

● المخرجة الإيرانية سميرة مخمل باف – ٢٢ سنة ، بدأت بصورة انطلاق الهجمة على مركز التجارة فى نيويورك ، لتجعل الهجمة تصل مباشرة إلى مخيم اللاجئين الأفغان فى إيران!. مدرسة شابة تقف بين تلاميذها تسألهم : عليكم أن تتخيلوا ماحدث فى نيويورك .. وضحايا هذا الحدث .. بعد لحظات سألتهم فوجدتهم لم يفهموا ماحدث .. أرادت أن تشرح لهم أكثر، فأخذتهم خارج الفصل .. وأشارت لهم إلى مدخنة عالية قريبة .. تطلق دخاناً كثيفاً!؟

● المخرج البوسنى دانيس تانوفتش – ٣٣ سنة والذى فاز هذا العام بجائزة الأوسكار عن فيلمه «No Man's Land» كأفضل فيلم أجنبى، قدم فيلمه بذكر ماحدث فى مذبحة سربرنيسا فى البوسنة والتى كان ضحاياها ٧ آلاف تركوا خلفهم ٧ آلاف من الأرامل، وكان ذلك فى ١١ يولية ١٩٩٥ تقول بطلة الفيلم وهى تشير إلى



ضحايا البوسنة بينما صور حدث نيويورك تتوالى .. إنهم يتذكرون ضحاياهم كل يوم ١١ من كل شهر .. وتقول فى نهاية الفيلم : (ولكن فى هذا الوقت : إنه زمانهم .. وزماننا أيضاً)!؟

● المخرج البريطانى الشهير كين لوتش قدم فى فيلمه خطابا جلس السياسى التشيلى فلاديمير ڤيجا يكتبه وهو فى لندن ، حيث يعيش لاجئا ومبعداً عن وطنه .. الخطاب يكتبه إلى عائلات ضحايا مركز التجارة فى نيويورك ، متذكرا اليوم نفسه ١١ سبتمبر ولكن سنة ١٩٧٣، حيث تم انقلاب على الرئيس التشيلى المنتخب سلفادور ألندى وساندت الولايات المتحدة هذا الانقلاب، يقول ڤيجا فى نهاية خطابه : (أيها الاصدقاء: إن رؤساكم قد شرعوا فى تدميرنا .. سوف نتذكر مأساتكم .. وآمل أن تتذكرونا)!.

● «١١ دقيقة من الصمت» للمخرج الفرنسى كلود ليلوش، يقدم فتاة صماء وعمياء جالسة تبكى وهى تنعى نهاية حبها .. بينما الهجوم على برجى التجارة ظاهراً على شاشة التليفزيون .. وهى لا ترى ولا تسمع!.

● اليهاندرو إيناريتو المخرج المكسيكى قدم «١١ دقيقة من صمت مثير» حيث تتساقط أجسام بشرية من برجى نيويورك على خلفية شاشة سوداء، بينما صوت صلاة يقطع الصمت مع تقارير إذاعية وأصوات متداخلة فى شوارع نيويورك.

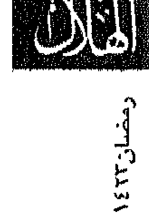
● فيلم المخرج «شان بن» ينشر الأسى .. هذه المرة من خلال أرمل كبير السن يبكى وينتحب، ينام وإلى جواره ملابس نوم زوجته التى ماتت فى سقوط البرجين فى نيويورك .. يضم ملابس زوجته إلى صدره .. وينعس .. ثم يفيق ، ليعيد الاختيار بين ملابسها .. بينما صور الحادث تتوالى .. فى اللحظة نفسها التى تشرق الشمس وتدخل مقتحمة عليه غرفته.. بمعنى أن الحياة يجب أن تستمر .. وأن نعيشها مع إشراقة شمس تمسح أحزاننا .. الفيلم أمريكى!!

● جيرانير المخرج الهندى صاحب فيلم «الزواج العاصف» قدم قصة واقعية نشرت فى الصحف الأمريكية ..وهى عن شاب باكستانى يقيم مع أسرته المهاجرة والتى تعيش فى نيويورك وكان خارج بيته .. وأعلنت أسرته اختفاءه .. وقيل فيما أشيع أنه كان مع «الإرهابيين الذين فجروا البرجين» .. ثم تبين أنه كان يقف فى الشارع فلما رأى الانهيار أسرع داخل البرج فى اللحظات الأولى يحاول انقاذ بعض الذين يسقطون مهرولين خارج المبنى هاربين .. فيكون مصيره سقوط المبنى عليه .. ثم ينشر عنه بعد معرفة دوره ومصيره أنه مات بطلاً!.

● من بوركينا فاسو كان فيلم إدريسا أو يدراوجو، ويدور حول خمسة أولاد يحلمون بالحصول على جائزة ٢٥ مليون دولار إذا استطاعوا القبض على أسامة بن لادن .. وتسليمه للأمريكيين .. ومع كل واحد من الخمسة يختلف الحلم .. وتختلف أحداثها الساذجة!.

● الفيلم الأخير للمخرج اليابانى إمامورا يلاحق بالكاميرا محارباً قديماً من الحرب العالمية الثانية ، تخيل نفسه ثعباناً يفر هارباً دون أن يصاب فى تفجير القنبلة الذرية .. فى نهاية الفيلم جملة تقول : (إنه لا توجد حرب مقدسة)!؟

وهكذا يقدم هذا الفيلم الذى أنتجه الفرنسى إيليان بريجارد .. ردود فعل مختلفة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر .. الفيلم الأمريكى هو الوحيد الذى جعل الشمس تشرق خروجا من آلام الحدث .. لأنهم أول من يرغب فى النسيان!! ■



فى الإبداع الحضارى



بقلم

د. محمد عمارة

الخصوصية الحضارية، هي مرتبة وسطي في نظرة أبناء حضارة من الحضارات إلى علاقة حضارتهم بغيرها من الحضارات.. وسطى بين «المغايرة الكاملة»، وبين «التماثل والتطابق التامين»..

فالخصوصية الحضارية تعنى «التمايز» الحضارى، و«التمايز» وسط بين «الوحدة» وبين «الفصل» التام.. وهذا يعنى وجود مشترك إنسانى عام بين مختلف الحضارات، لا تتمايز حقائقه وقوانينه ومعارفه باختلاف الحضارات وتعددها، ووجود خصوصيات تتمايز فيها وبها كل حضارة عن غيرها من الحضارات.. كمثل الإنسان، يشارك كل بنى جنسه، فى الإنسانية والخلق وفى كثير من معارف وحقائق الأعضاء ووظائفها، لكنه يتميز ويتفرد بالنفس والروح والمشاعر المميزة لذاته، وبالبصمة التى لا يشاركه فيها سواه من بنى الإنسان..

وإذا كانت التجارب فى علوم المادة – الطبيعية.. والدقيقة.. والمحايدة – قابلة للتكرار دون تغيير، ودون تبدل فى ثمرات هذه التجارب، من المعارف والحقائق والقوانين، وبصرف النظر عن القائم بهذه التجارب، شرقيا كان أو غربيا، متدينا أم غير متدين، مسلما كان أم غير مسلم.. فإن نطاق هذه المعارف والحقائق والقوانين، التى هى ثمرات التجارب فى العلوم ذات الموضوعات الثابتة.. هو إطار المشترك الإنسانى العام بين كل الحضارات الإنسانية، الذى لا تتمايز فيه أية حضارة من الحضارات..

وليس الأمر كذلك فى نطاق العقائد والفلسفات والآداب والفنون وعلوم الاجتماع والإنسانيات..

فالتجربة الروحية، والمجاهدة القلْبيَّة، والخاطرة النفسية، والتجربة الشعرية والفنية، لا تتكرر – على ذات النمط – لدى الإنسان الواحد، فضلا عن الأناسىّ داخل الحضارة الواحدة، ناهيك عنها بين أبناء مختلف الحضارات..

ذلك أن موضوعات هذه التجارب – الروحية والفنية والنفسية – ومثلها التجارب فى العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا تتم على مادة ثابتة – كحال التجارب على المادة الثابتة، فى العلوم الطبيعية والمحايدة وإنما تتم هذه التجارب على «نفس إنسانية» تتميز وتتفرد لدى كل إنسان، وتتكون معارفها وثمرات تجاربها بخلفيات الاعتقاد والموروث والعادات والتقاليد والأعراف والطبيعة والبيئة والمحيط وأساليب التربية والتنشئة والتهذيب.. وهى خلفيات ومواريث تقارب بين أبناء الحضارة الواحدة بالقدر الذى تمايز بينهم فيها وبين غيرهم من أبناء الحضارات الأخرى ..

وهكذا، يثمر الوعى بهذه الحقيقة – حقيقة اشتراك كل الحضارات فيما هو مشترك إنسانى عام، وتميز كل منها بخصوصيات – يثمر تصورا للعلاقة المثلى والحقيقية بين مختلف الحضارات الإنسانية.. هو تصور «التمايز» بين الحضارات، الجامع «للاشتراك» و«الخصوصية» فى آن واحد، والرافض «لوحدة التماثل التام»، و«لتناقض المغايرة الكاملة» فى سمات وقسمات هذه الحضارات..

★★★

وهذا التصور لموقع «الذات الحضارية» – وهى العربية الإسلامية فى حالتنا – فى علاقاتها بالذوات الحضارية الأخرى – غربية.. وصينية.. وهندية.. ويابانية .. إلخ – هو الذى يستدعى ويستوجب إعمال القانون الإسلامى فى علاقة «الذات» بـ«الآخر» – كل «ذات» بأى «آخر» – وهى علاقة «التدافع» – أى الاستباق والتسابق فى الخيرات – أى الفاعلية والإبداع – مع مراعاة أن هذا «التدافع» هو بين من يجمعهم – مع تمايزهم – مشترك إنسانى عام فهو تدافع لفرقاء لن يتم استباقهم إلى الخيرات إلا فى وجود الآخرين المسابقين والمنافسين.. فبدون التعددية، التى هى

ثمرة التمايز، لن تتولد لدى أى منهم دوافع وحوافز الاستباق، ولن توجد دواعى الفاعلية والإبداع..

لهذه الحكمة، كان الانحياز الإسلامى إلى «التدافع»، فى ذات الوقت الذى رفض فيه «الصراع» !..

ذلك أن «الصراع» هو درجة من علاقة «الذات» بـ «الآخر» مقاصدها «نفى» الآخر، والانفراد دونه بالميدان.. فهو يتغيا - موضوعيا - نفى التعددية، وطى صفحات «التمايز»، وقسر الجميع على قالب واحد ومركز واحد.. وإذا غاب التمايز غابت دوافع الحراك ودواعي الفاعلية والإبداع.. بينما «التدافع» هو «حراك» - وليس صَرْعا ولا إفناء - يتغيا تحريك المواقع وتعديل المواقف - من الظلم إلى العدل - ومن الغلو إلى الاعتدال والوسطية - دون نفى للآخرين .. فتظل سمات التمايز وقسمات التعددية معايشة للمشترك الإنسانى العام، ليظل التدافع والحراك حوافر للتسابق والفاعلية والإبداع، دائما وأبدا .. وليظل الفرقاء المستبقون إلى الخيرات بمنجاة من الصراع الذى «يُسوِّد» ذاتا على الذوات الأخرى، فينهى التعددية، ويلغى التمايز الحضارى، ويُغيب حوافز التسابق والفاعلية والإبداع فى علاقات شعوب وأمم الحضارات..

لقد استخدم القرآن الكريم مصطلح «الصراع» بهذا المعنى - إفناء الآخر.. (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية) - الحاقة: ٧ ، ٨- .. فهو إهلاك.. فلقد (أهلكوا بريح صرصر عاتية) - الحاقة: ٦ .

بينما كان الاستخدام القرآنى لمصطلح «الدفع .. والتدافع» - بالمعنى الايجابى - لأنه هو التعبير عن «الحراك» الذى يحفز إلى الاستباق فى الخيرات، بين فرقاء، تتعدل مواقعهم، على طريق الاستباق إلى الخير، مع الحفاظ على تعددية التمايز التى تديم حوافز الفاعلية والإبداع دائما وأبدا على هذا الطريق (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) - فصلت : ٣٤ -.. فالغاية من «الدفع» و«التدافع» ليست إفناء «الآخر»، وإنما تحويل موقعه - من موقع «العداوة»، إلى موقع «الولى الحميم».. فهو آلية الإصلاح (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) - البقرة : ٢٥١ - (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات.. مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا.. ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز) - الحج : ٤٠-.

فالعروة وثقى بين التمايز الحضارى، وبين التعددية الحضارية، التى تجعل علاقات الحضارات فى إطار «التدافع»، الحافز على الاستباق إلى التقدم والرقى، والمحرك لطاقات الفاعلية وملكات الإبداع..

وهى وثقى، أيضا، بين غيبة الإيمان



بهذا التمايز الحضارى - سواء بعزلة وانغلاق «المغايرة الكاملة» و«التناقض التام» - ومعه تنعدم ميادين التدافع والاستباق - أو «بتبعية التماثل والوحدة الحضارية» - ومعها يفقد التدافع دواعيه- .. ليثمر هذا الموقف، فى النهاية، ذبول طاقات الفاعلية ودواعى الإبداع الذاتى ..

خصوصية العصر .. وفاعلية الإبداع

وإذا كان هذا هو الدور التأسيسى للإيمان بالخصوصية الحضارية - خصوصية التميّز - فى الإيمان بالحاجة إلى نمط حضارى خاص - والحاجة هى داعية الفاعلية والإبداع - .. فإن الايمان بخصوصية «العصر»، هى الأخرى ذات دور تأسيسى فى خلق دوافع الفاعلية وتحريك ملكات الإبداع..

فكما أن الذين لا يؤمنون بتميز حضارتهم عن الحضارات الأخرى، سيستعيضون عن الفاعلية والإبداع بنقل وتقليد ومحاكاة النماذج الحضارية الأخرى، ومذاهب الغير فى التقدم، وطرئق الآخرين فى النهوض.. فإن الحال سيكون كذلك عند الذين لا يؤمنون بخصوصية عصرهم وتميز زمانهم عن عصور وأزمنة الاسلاف فهم - إذا غاب عنهم الإيمان بخصوصية العصر وتميز الزمن - سيكتفون بنماذج السلف فى حل مشكلات التاريخ، وبطرائق القدماء فى العيش، وبأنماطهم فى التعامل مع وقائع المجتمعات التى عاشوا فيها.. ومن ثم ستذبل فيهم ملكات الفاعلية وتتوارى الدوافع للإبداع.. فالنماذج مسطورة فى الكتب التراثية، والنقل والتقليد أكثر أمنا عند البعض، وأخف كلفة من معاناة فاعلية الإبداع!.

لكن .. كما أن الحالة المثلى لعلاقة «الذات» الحضارية بـ «الآخر» الحضارى، هى تلك التى تقف عند حدود «التمايز» - الذى يرى «المشترك الإنسانى العام» مع «الخصوصية الحضارية» - فيبرأ الموقف من «تبعية الذوبان» ومن «عزلة الانغلاق» - .. كذلك تكون الحالة المثلى فى علاقة «العصر الحاضر» بـ «الزمن السالف»، هى التى تبرأ من «القطيعة المعرفية» مع الموروث الفكرى، براءتها من «الاكتفاء بهذا الموروث»!..

وإذا كانت «الحداثة الغربية» هى داعية «القطيعة المعرفية» مع الموروث - لأنها تتغيا إحلال «عصرها الغربى» محل «موروثنا الإسلامى».. فإن «الجمود والتقليد» -- لدى البعض منا - هو الغلو المقابل لغلو هذه «الحداثة الغربية».. وبين هذين الغلوين يقف المنهاج الوسطى فى علاقة «العصر» بـ «الماضى» وعلاقة «المعاصرين» بـ «الأسلاف»..

فكما يميز منهاج «التفاعل الحضارى»- فى علاقة «الذات» بـ «الآخر» - بين «المشترك الإنسانى العام» وبين «الخصوصيات الحضارية» .. كذلك يميز منهاج «التجديد» - وهو وسط بين «حداثة القطيعة المعرفية مع الموروث» وبين «التقليد لكل الموروث» - يميز «التجديد»، فى الموروث، بين «المقدس الإلهى» - كما تمثل فى البلاغ الإلهى وفى بيانه النبوى

- الكتاب.. والسنة - وبين «الفكر البشرى»، الذى هو ثمرة للاجتهاد.. ففى المقدس: المعلم الإلهى، الكلى، والمطلق، والمحيط، والخالد.. وهو الذى يحفظ إسلامية الأمة، وإسلامية حضارتها، وإسلامية اجتهادها وإبداعها عبر الزمان والمكان، وبدونه تتحول إلى أمم وإلى حضارات، بتغاير الزمان والمكان..

يميز «التجديد» بين هذا «المقدس الإلهى» وبين الاجتهاد الفكرى والتجارب الإنسانية، فيلتزم بالأول - مع فقهه - ويحتضن الثانى - مع النقد له والاختيار منه، والبناء عليه، والتجديد فيه -..

كذلك يميز منهاج «التجديد» بين «ثوابت» الموروث وبين «المتغيرات» فيه.. فـ«المناهج» غير «التطبيقات».. وما اجمعت عليه الأمة وتلقته بالقبول مغاير لما مثل مذهب فرقة، أو تجربة دولة، أو أعراف جماعة أو تقاليد ميزت إقليما من الأقاليم..

«فالتجديد»، تطور - لكنه يتم داخل النسق الفكرى، وانطلاقا من ثوابته، والتزاما بالمقدس الذى تخلق من حوله ذلك النسق الفكرى.. وبهذا يفترق عن كل من «الحداثة» و«التقليد» .. ففيه «اتباع» فى «الثوابت»، وتجديد فى «المتغيرات»، على حين تقيم الحداثة قطيعة معرفية مع الكل الموروث.. ويحاكي المقلدون كل الموروث.. وإذا كانت الحداثة لا تثمر إبداعا، لأنها تحل «عصر» الآخر الحضارى محل «ماضينا».. فإن «التقليد الجامد» لا يحدث فعالية مبدعة، لأنه يكتفي بمحاكاة الموروث.. بينما التجديد هو الذى يحرك فى الأمة طاقات الفعل الإبداعى لبلورة «معاصرة متميزة»، محكوم تميزها بتميز «الأصالة» المتمثلة فى مقدسنا وفى ثوابتنا التراثية.

لقد عَرفت معاجمنا وكشافات اصطلاحات الفنون فى حضارتنا «الهوية» - والتى اشتق مصطلحها من «هُو.. هُو» بمعنى أصل الشىء وجوهره - بأنها «الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق.. فهى حقيقة الشىء، أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتى تميزه عن غيره..» - (التعريفات) للجرجانى - و(المعجم الفلسفى) مجمع اللغة العربية .

وهذه «الهوية».. التى تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن الحضارات الأخرى، هى المقدس الموروث - الوحى وميراث النبوة - والثوابت الفكرية التى اجتمعت عليها مذاهب الأمة وتلقتها شعوبها بالقبول من تراث الأسلاف.. وخصوصية هذه «الهوية» هى التى تجعل لنا - نحن «الخلف» - معاصرة متميزة - تبعا لتميز هويتنا الحضارية - ومن ثم، فإنها هى التى تدعونا إلى إبداع فاعل وفاعلية مبدعة لصنع وبلورة خصوصية معاصرتنا، ونمطنا فى التقدم، ومذهبنا فى النهوض.. وبدونها نقع فى تقليد «الآخر»، أو محاكاة «السلف» ، فتذبل فينا ملكات الفاعلية وطاقات الإبداع.■



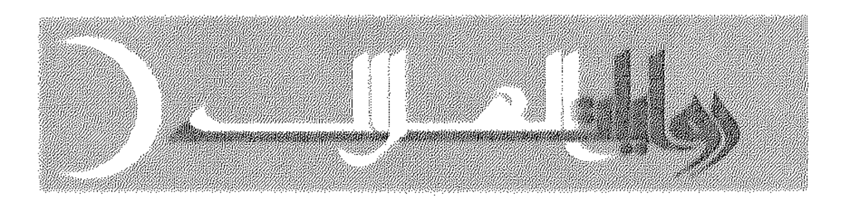
الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية

بقلم

د. رشاد الشامى

يصدر ٥ ديسمبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



٦٣

الهلال

رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

رجل أبله إمرأة تافهة

بقلم

محمد ناجى

تصدر ١٥ ديسمبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



دائرة حوار

هل الحوار بين الأديان ممكن؟
وإذا كان ممكناً، فهل هو مفيد؟

بقلم
حسين أحمد أمين

لطالما لمسنا فى العالم الإسلامى، وفى غيره، أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هى تلك التى تسود بين من تلاشت لديهم العقيدة. هنا يختفى التعصب وضيق الأفق والشك المتبادل والحيطة والحذر، ويصبح من المتصور ومن الممكن أن تقوم الصداقة الحرة، والألفة الحقيقية، حين يكون شعارهم بيت الشاعر القروى:

سلام على كفر يوحد بيننا
وأهلا وسهلا بعده بجهنم!

وربما وافقنى الكثيرون على أنه من المؤسف أن يكون للإلحاد مثل هذا الفضل ولايكون للعاطفة الدينية، وأنه من المحزن أن نرى المتدينين فى جميع الطوائف وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك إزاء متدينى الطوائف الأخرى، فى الوقت الذى تجابه الأديان جميعا قوى عاتية تعارضها وتسعى إلى هدمها، تتمثل فى المادية المفرطة، وفى نمط الحياة المعاصرة، وقد زاد عدد أولئك الذين بات الدين لايلعب دورا كبيرا أو صغيرا فى حياتهم، ولايعرفون القيم الدينية التى هى إحدى الوسائل المهمة لمقاومة فقر الحياة الروحية فى المجتمع الحديث، فبدون هذه القيم

يصعب أن يكون ثمة سلوك متجانس ويضحى سلوك الفرد فى أغلب الأحيان مجموعة من التصرفات وردود الفعل لا رابط يجمع بينها.

وقد أحست الكنائس المتصارعة فى الغرب بهذا الخطر الذي بات يتهددها جميعا، فسعت بقدر كبير من النجاح إلى رأب الصدع بينها، وفتح باب الحوار من أجل إقامة جبهة متحدة ضد العدو الحقيقى، بل ومدت يدها إلى اليهودية وإلى الإسلام للمشاركة فى الدفاع، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين فى حد ذاته، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت، وأيا كان موضوعها، فى سبيل إحداث التقارب، وتحقيق التلاقى.

تعزيز التسامح الدينى

غير أن بعض هؤلاء يخطىء حين يذهب من أجل دعم هذا الحوار إلى أن الاختلافات بين الأديان ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأنها جميعا متفقة فى جوهر تعاليمها، وأنه بالوسع التوفيق بينها، وتوحيد أسسها، كخطوة فى سبيل تعزيز التسامح الدينى .. مثل هذا الموقف التوفيقى يضع نفسه فوق الأديان جميعا، وينتحل صفة الإله وامتيازاته، ويحل الفلسفة محل الدين، وهو بالتالى موقف لادينى، وعندى أن كل معايشة، وكل حوار بين الأديان، يفقدان مغزاهما مالم يكونا دينيين، ولو صح هذا الرأى منهم لصارت حصيلة الفكر البشرى أشد فقرا وضحالة مما هى عليه اليوم، فلو كانت الأديان جميعا على اتفاق لما كانت ثمة حاجة إلى أكثر من دين، وإنما هى رؤى متباينة يعكس كل منها مفهوما مختلفا عن الكون والحياة والسلوك البشرى الواجب، وليس إله هذا الدين بإله ذاك، فما الإله غير حصيلة مكونات هذه الرؤية المباينة للرؤى الأخرى.

والاعتراف بهذه الحقيقة يدركها فى قرارة نفسه كل ذى دين يأبه له، خطوة إيجابية فى سبيل أى حوار بناء بين أتباع الأديان المختلفة، شريطة أن يستقر فى النفوس مبدأ أساسى: هو أن كل رؤية تحمل جانبا من الحقيقة لم تركز عليه سائر الرؤى، وأن ثراء الروح البشرية والفكر الإنسانى هو فى الإطلاع على كنه تلك الرؤى المباينة، ومحاولة الغوص إلى أعماقها للاستفادة من الجديد الفريد الإبداعى المتميز فيها، وأن معيار رقى الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوقيره لكل ضروب الفكر التى أسهمت فى تشكيل البشرية.

هنا فقط يمكن أن يكون الحوار بين الأديان مجديا .. ذلك أنه ما من امرىء يدخل فى حوار – دينى أو غيره – دون أن تحدوه من البداية الرغبة فى إدراك

الحق، إلا خرج من الحوار وهو على رأيه الأول الذى دخله به .. يقول الإمام الشافعى: «ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء، وما كلمت أحدا وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه» . فهناك إدراك لحقيقة أن الاستفادة لا الانتصار على «الخصم» هى ما ينبغى أن تدور المناظرة من أجله، وما من شأنه أن يهيء أنسب مناخ للحوار، أما الرغبة فى الانتصار، والإفحام، وفضح حجج الخصم وتفنيدها، فلا مفر معها من لجوء المحاور إلى إخفاء الحقائق، وإلى الاختراع والتلفيق، وإلي الكذب .. وقد قرأنا فى التاريخ كيف أن مسلمى عصر الفتوحات فى زمن الخلافة الراشدة والعصر الأموى حين شرعوا يدخلون فى حوارات مع أهل الذمة فى الأقطار المفتوحة، اضطروا حين حدثهم هؤلاء عن معجزات لأنبيائهم وعن نصوص فى كتبهم المقدسة، اضطروا إلى نسبة عدد متزايد من المعجزات إلى نبى الإسلام لم يذكرها قرآن أو رواية موثوق بها من السيرة، واقتبسوا من الكتاب المقدس من الأحاديث مانسبوه أيضا إلى النبى وركزوا أحيانا أخرى على القول بتحريف ذلك الكتاب المقدس.

هنا يمكن أن يكون الحوار بين الأديان ضارا ومضللا، غير أن ثمة آفة أخرى فى الحوار من أجل الانتصار نجدها فى الالتجاء أثناءه، من أجل إفحام الخصم، إلى الاستشهاد بنصوص من كتب مقدسة لايعترف الخصم بمصدرها الإلهى، وكأنما فى مجرد إيرادها حجة دامغة على صحة الرأى، عندئذ يُنسف أساس الحوار نسفا، وهو ما نلحظه يوميا تقريبا فى المناظرات التليفزيونية والحوارات الصحفية والندوات عندنا بين علماء الدين والمفكرين العلمانيين حين يواجه الأولون الأخيرين بنصوص دينية لايجرؤ العلمانيون على انكار صحتها والمجادلة بشأنها وإلا أصابهم من وراء ذلك شر مستطير .. وأرى هنا مناسبة أن أذكر نصا فريدا أورده الحميدى فى كتابه «جذوة المقتبس» عن كيف أن العالم الأندلسى أحمد بن محمد بن سعدي زار بغداد فى عصر البويهيين وحضر مجالس أهل الكلام فيها، وهى مجالس جمعت الفرق كلها، من مسلمى السنة والشيعة والمجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر

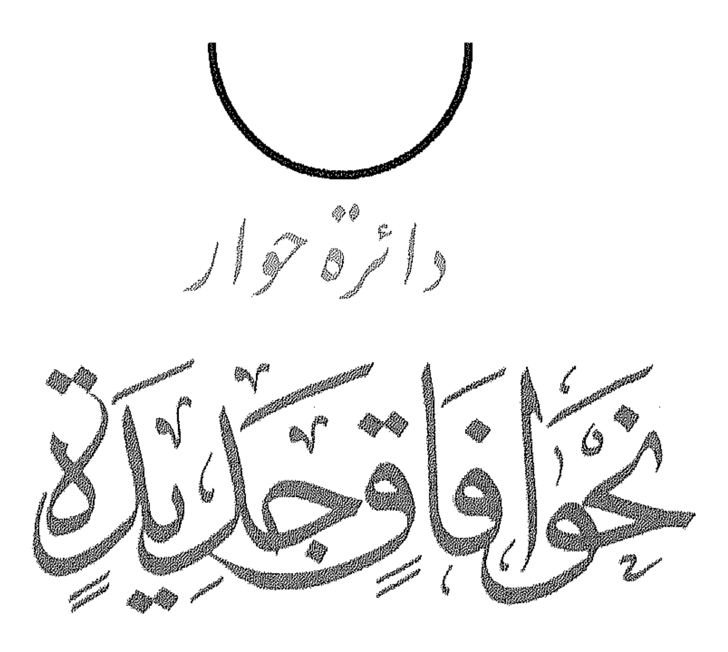
الأديان والمذاهب، لكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه وكان شرط الحوار والمناظرة ألا يحتج أحد على غيره بكتابه المقدس ولابقول نبيه، حيث إن الآخرين لايصدقون بذلك أصلا ولايقرون به، وإنما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس.

خطأ المتعصب

وأخيرا فإنه لابد من الاعتراف – رغم كل شيء – بأن الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها على أرواح البشر. وهي بالضرورة غيورة متميزة شأن مشاعر القبلية والوطنية. ولايكمن خطأ المتعصب في اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان، فهو أمر طبيعي ومشروع، ولو لم ير المرء لدينه الحق في الشمولية والعالمية لما كان هذا دينه، فهو لايلتمس لنفسه طريقا، وإنما يلتمس الطريق، ولا يسعى وراء حقيقة وإنما يسعى وراء الحقيقة وإنما يكمن خطؤه في عجزه عن إدراك مايدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى، وعن فهم حقيقة أنه ليس ثمة دين خاطيء إن كان معتنقوه يرونه كافيا لسد احتياجاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هديه، كذلك يكمن خطأ المتعصب في عزله نفسه عن الجوانب الإيجابية في الأديان الأخري، واتخاذه لمعتقده مقياسا للحكم على معتقدات الآخرين. ومن هنا تأتي أهمية الحوار وضرورة التلاقح والتلاقي فما تلاقي الأديان غير مظهر واجب آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقي، الحضارات والشعوب في عصرنا هذا، ولايعني ذلك مطالبة أتباع أي دين باطراح أية حقيقة جوهرية فيه، وإنما يعني تجاوزنا الاستماع في صبر، والجدال في أدب، إلى التفتح الذي يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين، بل وإلي تصحيح بعض مفاهيمنا عند الضرورة، وإلى التفرقة بعناية أكبر بين الجوهري وغير الجوهري في الدين، وبين الرمزي وغير الرمزي، ثم إعادة صياغة الجوهري، وإعادة تفسير الرمزي.

★★★

وهنا يكمن الأمل في أن يدرك هؤلاء وأولئك أن إقدام المرء على تعميق فهمه لديانات الآخرين يعني تعميق فهمه لدينه هو، وأن المتدين الحق ليس من كان بوسعه تفنيد الأديان الأخرى، والسخرية من معتقدات أهلها كما يفعل بعض الدجالين في كتاباتهم وبرامجهم التليفزيونية والإذاعية وإنما المتدين الحق هو من كان بمقدوره أن يميز الحقائق الواردة في الديانات المباينة، ثم ينتقل بعدها إلى ماهو أبعد من ذلك. ■



بقلم

د. رشدى سعيد

فى هذا المقال مناقشة لبعض القضايا التى شغل الكثير منها مصر عبر سنوات طويلة مثل قضايا السكان والتعليم والديمقراطية وكانت محل دراسات وكتابات الكثيرين منذ وقت طويل★ .

والمشاكل التى تواجهها مصر اليوم كثيرة فمن الواضح أن النظام الذى تسير عليه لم ينجح فى توظيف موارد البلاد لصالح أبنائها وبناتها حتى يكون لكل واحد عمل ونصيب فيها ، وربما عاد هذا الفشل إلى أنه ليس للنظام أهداف محددة أو استراتيجية واضحة فهو يسير بلا هدى تقوده الأحداث وما تمليه عليه المصالح الآنية للنخب المستفيدة منه أو ضغوط القوى الخارجية التى أصبح معتمدا عليها . وليس لدى شك فى أن الخروج من الأزمة التى تمر بها البلاد فى الوقت الحاضر ومجابهة عالم المستقبل الملىء بالتحديات يحتاج أولا إلى إعادة النظر فى الكثير مما درج عليه النظام تمهيدا لتحديد طريق إصلاحه أو إحلاله بنظام جديد

وليس لدينا نحن المصريين المغتربين الذين مازلنا نحمل هموم الوطن ونرجو له الرفعة والنجاح إلا أن نشجع النخبة المصرية على فتح هذا الملف الهام للحوار ذلك لأنى أخشى أن تدفع صعوبة الموضوعات التى يثيرها فتحه إلى تركه جانبا وعدم الاقتراب منه مما

سيكون له أوخم العواقب .

فلنفتح الملف

ولست فى حاجة لأن أبين هنا أهمية فتح هذا الملف فالأمثلة عديدة فى التاريخ الحديث عن ما فعلته عملية تحديد الأهداف فى حياة الأمم .. ولعل أبرز هذه الأمثلة هو ما حدث فى اليابان فى القرن التاسع عشر عندما رأت النخبة فتح ملف تحديد الأهداف التى ترغب فى تحقيقها واتخذت قرارا بقبول وتبنى مبادئ وطرق الحضارة الغربية الحديثة وتطبيقها فى بلادها وغنى عن القول فقد كان هذا القرار ثوريا بحق فقد كانت اليابان وحتى وقت اتخاذ هذا القرار مغلقة عن العالم الخارجى ومنكفئة على نفسها وليست لها رغبة فى الانفتاح على أحد فلم يكن يدخلها أحد أو يخرج منها أحد، وقد تسبب اتخاذ هذا القرار فى تغيير كامل لحياة هذه البلاد التى دخلت العالم الحديث بقرار موجه وباستراتيجية مخططة لم تكن وحى ساعة أو استجابة لطارئ فجاء دخولها وهى ممتلئة ثقة بالنفس وسببا فى تحقيقها نجاحا كبيرا فى وقت قصير -- وفى القرن العشرين كان قرار النخبة فى كوريا الجنوبية لبناء صناعة حديثة على الطريقة الغربية سببا لاقتحام هذه البلاد عالم التجارة الدولية بنجاح منقطع النظير .

وما لنا نذهب بعيدا ولدينا فى مصر نفسها مثال فقد دخلت مصر القرن العشرين بأهداف واضحة ومحددة اختارتها نخبتها التى كانت قد بزغت بعد الأحداث العاصفة التى مرت على البلاد خلال القرن التاسع عشر .. وكان الاستقلال أول هذه الأهداف وأهمها فقد ألح على النخبة إلحاحا لم تر لمصر أى مستقبل لها دون تحقيقه . وقد تفرع عن هذا الهدف هدفان آخران كان لهما أهميتهما فى تحقيق هذا الهدف وهما بناء الديمقراطية ونقل مصر إلى العصر الحديث . وكانت هذه الأهداف الثلاثة مترابطة فلم يكن الاستقلال ممكنا دون أن يتاح للناس الانتظام فى الأحزاب وغيرها من مؤسسات المجتمع المدنى ولم يكن من الممكن إنشاء هذه المؤسسات دون الأخذ بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة وما جاءت به من حريات سياسية كمبدأ فصل السلطات والمشاركة فى الحكم عن طريق التمثيل النيابى ، كما لم يكن من الممكن أن يتم الحصول على هذه الحقوق دون إنشاء الدولة الحديثة بكافة أجهزتها . والناظر إلى أحداث النصف الأول من القرن العشرين الذى شغلت فيه مصر بالكفاح للحصول على الاستقلال أنها كانت مرتبطة بطريق أو بآخر بهذه الأهداف .

محاولات الاستقلال

ففى مجال هدف الاستقلال كانت هناك حركة مصطفى كامل ثم ثورة سنة ١٩١٩ ونشوء حزب الوفد وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ والذى أعلنته بريطانيا من جانب واحد ليعطى لمصر بعض الحقوق السيادية ثم معاهدة ١٩٣٦ التى وقعتها جميع الأحزاب وتقررت فيها طبيعة التحالف بين مصر وبريطانيا والتى استفاد منها البريطانيون فى الحرب العالمية الثانية التى خاضوها مع حلفائهم ضد قوات المحور ثم إلغاء هذه المعاهدة فى سنة ١٩٥١ واستبدالها باتفاقية الجلاء فى سنة

١٩٥٤ ثم بخروج الانجليز من مصر بعد خذلانهم فى حرب سنة ١٩٥٦ . وفى مجال بناء الديمقراطية كان هناك صدور دستور سنة ١٩٢٣ الذى صيغ على مبادئ ليبرالية أكدت هوية مصر القومية كما كان هناك كفاح حزب الوفد للحفاظ على النظام البرلمانى ضد الملك وأحزاب الأقلية ، وفى مجال التحديث فقد كانت هناك عملية إنشاء مؤسسات الدولة الحديثة بدءا من القضاء الذى بدئ فى تحديثه وتوحيده ونهاية بالمدارس والجامعات التى بنيت على أساس حديث .

الديمقراطية والتحديث

ومن الملاحظ أن هذه الأهداف لم يتم تنفيذها بالجدية اللازمة أو بعزيمة المؤمنين بها فحتى هدف الاستقلال كانت هنك الكثير من العراقيل التى عطلته والتى جاء بعضها من أبناء النخبة نفسها والتى خشت من تحقيقه . أما عن هدفى الديمقراطية والتحديث فقد كانت أمام كل خطوة فى اتجاه تحقيقهما خطوتان تعودان بهما إلى الوراء. والأمور واضحة ولاتحتاج إلى بيان فى حالة الديمقراطية التى نالت مؤسساتها التعطيل وراء التعطيل مما أفقد الأحزاب والبرلمان كل مصداقية وتم التضييق على الأحزاب والنقابات وحل كل برلمان قبل أن يتم دورته وأبعد عن الحكم حزب الأغلبية البرلمانية فلم يتولاه إلا لسنوات قلائل وتحت ظروف صعبة خلال الثلاثين سنة التى طبق فيها دستور سنة ١٩٢٣ . أما عن هدف التحديث فقد كانت أمام كل خطوة تتم خطوات تعيده إلى الوراء ، ولعل التعليم هو أفضل مثال على هذا التخبط الشديد ففى الوقت الذى أدخلت فيه مصر نظام رياض الأطفال والمدارس المدنية والجامعات الحديثة كانت تقوم أيضا بالتوسع فى إنشاء الكتاتيب والمدارس الدينية ذات البرامج القديمة والنابعة من العصور الوسطى دون أى تعديل .

وأدى هذا التضارب إلى حالة من العجز والفوضى وإلى سقوط النظام بأكمله فى سنة ١٩٥٢ عندما جاءت ثورة الجيش بنخبة جديدة استهدفت تحقيق الاستقلال على كل من المستويين السياسى والاقتصادى وهو الهدف الذى استغرق جهود مصر للعشرين سنة التالية والذى أخذها لمساندة حركات التحرير وللوقوف مع دول عدم الانحياز ولإحياء مبدأ القومية العربية بغرض إيجاد تجمع إقليمى ودولى يمكن أن يسند هذا الاستقلال . وفى هذه السنوات العشرين توارى هدف الديمقراطية السياسية وراء هدف الديمقراطية الاقتصادية والتى حاولت النخبة تحت شعارها أن تعيد توزيع الثروة وأن تذيب الفوارق بين الطبقات وأن تعطى بعض الحقوق للفئات الكادحة .

الانفتاح على العالم

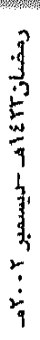
وفى سبعينات القرن العشرين تغير التوجه للمرة الثالثة وأصبح الهدف كما

يبدو وحتى الآن هو الانفتاح على العالم فى محاولة للدخول فى الاقتصاد العالمى . وتجتاح تحقيق هذا الهدف فى الوقت الحاضر صعوبات جمة حتى ليمكن القول أن الأمور قد وصلت اليوم إلى طريق مسدود - فالدخول إلى الاقتصاد العالمى يحتاج إلى خلق المناخ المشجع لاستقبال الاستثمارات الأجنبية وهو الأمر الذى لم تستطع مصر أن تحققه لأسباب كثيرة بعضها ليس بيدها كل مفاتيحه كمسائل الحرب والسلام وبعضها يتطلب تعديلات وتنازلات كبيرة يصعب تصور أن يقبلها الحكم ذاته الذى يحتاج إلى قبول تعديل نظامه لكى يتواكب ونظام السوق ويصبح أكثر انفتاحا وقبولا للمشاركة من القوى الجديدة التى سيفرزها مثل هذا النظام فيسمح بتبادل السلطة وتقبل الدور المتعاظم لمؤسسات المجتمع المدنى. والكثير من هذه التعديلات لازم بسبب طبيعة حركة انتقال رؤوس الأموال عبر الدول والتى تتجه إلى تلك البلاد التى تتمتع بميزات لا يبدو أن مصر لديها الكثير منها .

معوقات الاستثمار

أما الأسباب التى ليس لمصر كل خيوط حلها فهى الأسباب المتعلقة بالحرب والسلام فى المنطقة ذلك أنه على الرغم من الجهد الكبير الذى انفقته مصر والدول العربية لإنهاء النزاع وإقرار السلام فى المنطقة فإن شيئا لم يتحقق فى هذا المجال. وغنى عن البيان فإن استمرار النزاع هو من أهم الأسباب لتراجع تدفق رؤوس الأموال الأجنبية إلى المنطقة . وللحق فقد راهنت مصر على السلام ووضعت كل آمالها عليه وقامت بكل ما يمكن أن يساهم فى تحقيقه وامتنعت عن القيام بأى عمل عدائى ضد إسرائيل بدءا من تغيير برامج التعليم ونهاية بإنهاء المقاطعة وتبادل التمثيل السياسى وقبول تحييد شبه جزيرة سيناء وإرساء قوة دولية فيها. كما أنها قامت بتشجيع الفلسطينيين على الجلوس مع إسرائيل على مائدة واحدة على الرغم من التفاوت الكبير فى القوة بينهما على أمل أن تقف أمريكا موقف الحكم النزيه فتساعد الضعيف حتى يحدث الاتزان اللازم لابرام أى اتفاق يمكن أن تكون له صفة الدوام ، وقد خاب هذا الأمل .

أما الأسباب الأخرى التى تعيق تدفق الاستثمارات إلى مصر فهى تتعلق بحركة انتقال هذه الاستثمارات عبر الحدود . وقد فعلت مصر الكثير لتشجيع تدفق هذه الاستثمارات فغيرت من قوانينها وأوفدت البعثات لطرق الأبواب للترويج للميزات الكبيرة التى يمكن أن يجنيها المستثمرون حال استثمارهم لأموالهم فى مصر ومع ذلك فقد كان حجم تدفق الاستثمارات صغيرا تركز الجزء الأكبر منه فى عمليات البحث عن البترول والغاز واستخراجهما . والناظر إلى حركة انتقال رؤوس الأموال وعلى الأخص خلال العقد الأخير حين تزايدت بدرجة كبيرة يجد أنها تذهب إلى تلك البلاد التى تتمتع بإحدى الميزات الثلاثة الآتية والتى يجئ فى مقدمتها تلك البلاد التى توجد بها خامة أولية وفيرة وقابلة للاستخراج الاقتصادى ومطلوبة



بالأسواق ، وهى الميزة التى تتوافر لمصر فى حالة البترول والغاز واللذين لايجدان أى صعوبة فى جذب رؤوس الأموال لاستخراجهما فهما موجودان بمصر بوفرة نسبية ووسط سوق هام. ولا تتوافر بمصر أية خامة أولية أخرى يمكن أن تجذب رؤوس الأموال الأجنبية على أى مقياس .

أما الميزة الثانية التى يمكن أن تجذب رأس المال الأجنبى فهى إمكان إنتاج سلعة ما بطريقة رخيصة وهو أمر لا يمكن أن يحدث دون أن يكون هناك المناخ المناسب والذى لا يبدو أنه يتوافر فى مصر حاليا فليس فى مصر كوادر للعمالة المدربة والرخيصة لتخلف نظامى التعليم والتدريب المهنى فيها كما أن الخدمات مازالت على غاية البدائية فلم يتم بعد تطوير نظم الموانىء والجمارك والبريد والضرائب والتقاضى والتوثيق وغير ذلك من الخدمات حتى يمكن الإقلال من التكلفة واقتصاد الوقت .

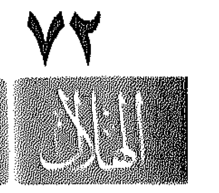
والميزة الثالثة التى يمكن أن تجذب رأس المال الأجنبى هى وجود سوق محلية كبيرة تسمح بإنتاج السلع على مقياس كبيرة وهو أمر لا يتوافر فى مصر فعدد الذين لهم دخول تسمح بالاستهلاك الترفى لايزيد بحال عن مليونى عائلة وهو عدد غير كاف لتبرير وضع الاستثمارات فيها.

وفى الوقت الذى كانت تنتظر فيه مصر قدوم الاستثمارات الأجنبية كانت قد مهدت لها بقبول الكثير من شروط الدخول فى الاقتصاد العالمى والتزمت لذلك أمام العالم بتوقيع العديد من البروتوكولات ومذكرات التفاهم الخاصة بتنظيم الخدمات وبالانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وقبول توصيات المؤسسات المالية الدولية .. والدخول فى الاقتصاد العالمى هو فى حقيقته الدخول فى عالم حرية التجارة والمنافسة على الأسواق فى ظل قواعد صارمة تضبط مواصفات الإنتاج وتنظم حقوق العمال ونوعية البيئة .

وأسعار الطاقة ونظام البنوك والائتمان ومختلف الخدمات .. ولا يشك أحد فى أن الانفتاح على العالم أمام التجارة هو أمر حسن ومفيد للمنتج القادر على غزو الأسواق والمنافسة فإن رغبت مصر فى الإفادة من هذا الانفتاح فعليها أن تقوم بإعادة تنظيم أحوالها حتى تستطيع أن يكون لها هذا المنتج وهو أمر يبدو حتى الآن صعبا .

مواجهة التحديات

ولست فى حاجة إلى أن أذكر النخب المصرية التى اتخذت قرار الدخول فى الاقتصاد العالمى بالتحديات الكبيرة التى عليها الآن أن تواجهها فالصعوبات التى يجدها المنتجون فى مصر سواء فى حقل الصناعة أو الزراعة كبيرة وتتردد على كل لسان . فقد فرض الدخول فى هذا العصر على الفلاحين والصناع أن يدخلوا فى



منافسة حرة مع فلاحى وصناع أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى دون أن يكون لهم ما يمكن أن يدعمهم ويعطيهم هامشا فى هذه المنافسة . وتمتلئ الصحف فى مصر من شكوى المزارعين والنساجين وصانعى السيارات والصلب وغيرهم من المنافسة غير المتكافئة التى يجدون أنفسهم فيها كما تمتلئ أيضا بالشكوى من تراجع الصادرات وتزايد عجز الميزان التجارى على الرغم من الجهود الكبيرة التى تبذلها الحكومة ومنظمات رجال الأعمال دون جدوى فكلها تجئ فى إطار أحوال مصر الحالية التى لا يمكن لأى عمل مجد أن يحقق هذا الهامش النبت فيها .

مواجهة الحقيقة

وهكذا فإن رهان الدخول فى الاقتصاد العالمى قد راح ولم ينب مصر منه غير خسران القليل من الصناعات التى كانت لديها ، بل وخسران وزنها الاقليمى بعد أن تبدد حلم السلام فى الشرق الأوسط وتوترت علاقاتها مع جيرانها فى الشرق والغرب والجنوب وأصبحت معتمدة وإلى حد كبير على دول النفط مع كل ما يأتى به هذا الاعتماد من فكر .

كل شئ فى مصر يدعو إلى المراجعة والوقفة مع النفس . هل كان قرار الدخول فى الاقتصاد العالمى مصيبا؟.. هل كان أمامنا خيار آخر.. وهل يمكن العودة عن هذا القرار ؟.. وإذا لم تكن العودة عنه ممكنة فهل يمكن إصلاح حاله حتى يمكن الدخول فيه بثقة أكبر والاستفادة من الفرص التى يتيحها ؟.. هل مازال موضوع التنمية المستقلة واردا فى مصر؟.. هل يمكن أن نعيد التفكير فى العودة إلى سياسة الاعتماد على المدخرات المحلية والعمل على زيادتها والاستفادة منها لتنمية اقتصاد مصر؟.. هل يمكن أن يكون لمصر مشروع قومى تنكفئ فيه على نفسها وتعيد رسم خريطتها ؟.. هل يتيح حجم السوق المصرية الفرصة لتنمية صناعة وطنية لا تعتمد على التصدير ؟.. ما هو أفضل طريق لتطبيق الديمقراطية فى مصر؟ هل نبدأ بإطلاق حرية التجمع أم ننتظر حتى نضع الضوابط المنظمة لهذه الحرية ؟.. كيف يمكن أن نعيد لعملية الانتخاب احترامها ولصوت الفرد قيمته بمنع التزوير والاستغلال الفج للمال ؟.. من تكون له حق ملكية وسائل الاعلام؟ هل نطلق حرية ملكيتها أم نضع الضوابط لها ؟ كيف نصلح تعليمنا حتى يصبح متاحا للجميع دون تمييز ؟

هذه وعشرات الأسئلة الأخرى تحتاج إلى أن يدور حولها نقاش فى إطار ميثاق للعمل الوطنى يحدد المبادئ الأساسية لضوابط العمل الوطنى حتى يجئ متمشيا مع بناء دولة ديمقراطية مدنية تأخذ بالطرق الحديثة فى الإدارة والتنظيم. ■

* هذا المقال هو مقدمة ملف «القضايا التى تلح على مصر» أحد ملفات الطبعة الجديدة لكتابى «الحقيقة والوهم فى لواقع المصرى المعاصر» والذى ستنشره قريبا مؤسسة دار الهلال .



جزر النيل

البشر و النهر حياة مختلفة وروح مليئة بالتفاؤل

أمانى عبد الحميد

رسوم: **محمد عبله**

الحياة تبدو مختلفة فوق جزر النيل ، أهلها ونهرها يعيشون وفاقا نادرا ينعكس على كل شئ فالبشر ليسوا كسائر البشر، نوع خاص تتحول معاشرتهم ومصادقتهم إلى تجربة فريدة تثرى النفس أمكنتهم أسرة تظل ذاكرها مختزنة لا تنمحى ، أرضهم ليست كباقى البقاع إنما جزر سابحة داخل ذلك النهر العظيم الذى ينبعث النور من أعماقه فينتشر الخير والسلام . فى هذا التحقيق نقوم برحلة غوص نرصد خلالها آخر أيام الفلاح المصرى على أرض جزر النيل قبل أن يجرف خضرتها السيل الطامع ويجتز حياتهم من الجذور.

النيل يجرى منذ ألوف السنين إلى البحر نفسه مارا من الصحراء بلا مطر أو صديق، لا يخسر بأسه يشق لنفسه طريقا من بين الرمال يقاوم الجفاف كما يقاوم الأهوار ويصل مصر إلى الدلتا إلى الموانئ إلى البحر إلى مهد جميع الأنهار. يقول عنه الدكتور رشدى سعيد فى كتابه «نهر النيل» ذو جاذبية خاصة بلا نظير نهر وحيد استطاع أن يحمل جزءا من مياه أفريقيا الاستوائية إلى البحر الأبيض عبر الصحارى والقفار على الرغم من قلة ا لمياه التى يحملها بالنسبة لمساحة حوضة الكبير وطوله الهائل ينفرد بانتظامه الرتيب وايقاعه المنتظم الذى جعل العيش فى ظله آمنا والتنبؤ بأحواله سهلا .

هو نهر يرصع مجراه على امتداده من الشلال حتى البحر عدد من الجزر يختلط بحوالى ٣٠٠ جزيرة من أدندان حتى المصبين أطلق عليه د. جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر بأنه نهر جزرى تتسم جزره بالديناميكية فهى متحركة أو قابلة للتحرك وعرضة للتغيير والتآكل قابلة للزحف والهجرة بالتدريج مع التيار نجدها منفردة أو متقاربة داخل النهر منها ما يندغم فى جزيرة واحدة ومنها ما يتفتت إلى عدة جزر ومنها ما يختفى تماما مع الزمن.

ويرى الدكتور حمدان أن واقع جزر النيل أصبح أكثر تغيرا وعدم ثبات بعد إقامة السد العالى تمزقت الجزر الكبيرة إلى مجموعات من الجزر الصغيرة بفعل النحر المتزايد وتولدت جزر جديدة بفعل التعريه لا بفعل ما كان النهر ينقله معه خلال جريانه.

والجزر أنواع منها ما هو صخرى وتقتصر على شلال أسوان وبعض أجزاء

النوبه مثل جزر الهيسا - فيله أو أنس الوجود، والفيل أو ما تعرف بأسوان والتي تضم مقياس النيل الشهير ومن الجزر ما هو رسوبي يبدأ مع بداية السهل الفيضي ويزداد طينية كلما اتجهنا شمالا ويبدأ هذا النوع بجزيرة بهريف.

وتحتوى منطقة القاهرة الكبرى على أكبر أرخبيل نهرى فى مصر فمن جزيرة الشعير والذهب عبر جزيرة الروضة والجزيرة الزمالك والتى تؤلف جزءا أساسيا من نسيج العاصمة وتلعب دورا فى جغرافية المدينة إلى جزيرة الوراق وغيرها فى القناطر الخيرية.

وعندما تضعف قوة التيار ويتغير معدل الانحدار بصورة محسوسة يذكر لنا د. حمدان أن قدرة النهر على حمل حمولته تقل فيلقى بها على شكل كوكبه من الجزر الضخمة فتظهر منفردة أو تتجمع فى أسراب فى الموضع الواحد وأحيانا تميل مع التيار يمينا أو يسارا فتجنح إلى الوقوع قرب الضفة الشرقية وبعدها تمثل جنب الضفة الغربية حتى أن جزر النيل تبدو كسلسلة أو خط متقطع يتوسط النهر تماما كما تتوسط جزر المرور شوارع المدن.

كما أن للجزر أشكالا متعددة فمنها ما هو طولى يتخذ شكل العين أو اللوزة مثل جزر الكلح وإسنا والقوصية وغيرها وإن كانت جزيرة العياط أكثر الجزر طولا حيث يصل طولها إلى حوالى ٢٠ كم لدرجة بدت معها كنمط الدودة النحيلة وهناك أيضا جزر عرضية مثل جزيرة منيل عروس فى بداية فرع رشيد وجزيرة



الرملة جنوب بنها بفرع دمياط وجزر أخرى يطلق عليها معششة أو خليجية أى أنها ذات أحجام صغيرة مثل الدميز جنوب إسنا وأخرى جزر قوسية مثل جزيرة الوراق، ووردان أعالى فرع رشيد، وميت أبو غالب فى نهايات فرع دمياط.

فطرة نقية

وإذا كانت تلك الجزر ذات أشكال وأحجام متباينة فإن الحياة داخلها تختلف كثيرا عما تبدو عليه فى الخارج فهى تعج بحياة بشر ينطبق عليهم وصف فيدن فى كتابة أرض مصر : «أمامك ترقد مصر القديمة بلا تحنيط وإنما محفوظة فى بلسم الشمس، فى غرائز السكان المحافظة» فالبشر نوع فريد استطاع أن يحافظ على الروح المصرية النقية القديمة. وهو الأمر الذى دفع الكثيرين ليتحدثوا عن عزلة الجزر النيلية سواء عزلة موقعها أو عزلة شخصية قانطيها لكن الأمر عن قرب يختلف كثيرا فالعزلة هنا نوع من الاعتزاز بالشخصية اعتزازاً يحافظ على كيانها المتميز وإن كان لا يحرمه من الانخراط فى حياة المدينة . أهل الجزر أغلبهم أنماط بشرية بسيطة (فلاح - صياد - بائع اللبن - مراكبى - موظف وحتى من لا عمل له).

وأهم ما تمتاز به الحياة فوق الجزر أنها أمكنة لا تحكمها القوى التى تحكم عالمنا نحن ساكنى المدينة على الشاطئ المقابل بل إن أهلها لا ينطبق عليهم تصنيفاتنا الطبقية الحديثة ، فهم أناس قد نتشابه معهم فى الملامح أو فى الشكل الخارجى فقط لكنهم مواطنون تختلف الحياة داخلهم ذوى فطرة نقية انقرضت داخل مجتمعنا الذى يقابلهم ولا نملك أمامهم سوى الشعور بالتقصير فلم نعط تلك الأمكنة ولا أولئك البشر حقهم من التأمل والدراسة وأجحفنا حقهم فى الدفاع عن حياتهم وموروثاتهم التى رضوا بها وارتضوها منهاجا لحياتهم فبدت رؤاهم وأفكارهم بسيطة فطرية وكان النهر هو العنصر المحرك لها على طول الدرب.

الذهب.. الحنين القديم

مشهد الخضرة الزاهية حرك داخلنا فطرة الفلاح الذى يتملكه الحنين لأرضه الخصبة، جزر الذهب إحدى الجزر النيلية اللصيقة بالعاصمة وهنا مكمن أهميتها وخطورة وضعها، النيل يحتضنها بذراعيه فشرقه قلب القاهرة وغربه تقع ضواحى الجيزة أهلها يصل عددهم إلى حوالى ٢٠ ألف مواطن أغلبهم يعملون بالزراعة والصيد. لكن الكثيرين من حولها يطمعون فى الاستيلاء على ما تبقى من أرض خضراء داخل زمام القاهرة وكأن منظر الخضرة والبيوت البسيطة تثير غضبهم كما يذكر لنا أحد سكانها لذا جاءت زيارتنا للجزيرة ومصادقة أهلها بهدف التعرف عليها وعليهم كمحاولة للتقليل من الشعور بالتقصير تجاههم ولتكون نموذجا للحياة على جزر النيل التى يحيط بها نهر النيل من كل جانب.

بل إن الحياة داخلها كشفت أننا نعيش داخل بلد عجيب تعاقبت عليه سنين طويلة أحدثت خلالها معاول التغيير انقلابات مثيرة فى حياته.. تغييرات فى المدن، فى البيوت، فى الآلهة، وحتى نفوس البشر تبدلت إلا ذلك الفلاح بقى فلاحا على حاله لا يعرف سوى الحرية وأرضه وزرعه وجاموسته . معظم أهل الجزر يحترفون الزراعة تلك المهنة التى مثلت العمود الفقرى فى تاريخ الحضارة المصرية. فوسط غيطان الخضرة ترى على مرمى البصر بطلا من أبطال الجزر هو الفلاح ذلك الحلم الخالد كما كان عليه من زمن يفلح أرضه فى صمت متصل بلا

انقطاع منذ شروق شمس الصباح وحتى غروبها وقت الأصيل.

كذلك احترف أهل الجزر حرفة الصيد ظلوا على حالهم يصطادون أسماك النيل من البلطى والقرموط وقشر البياض ليشكلوا حلقة السمك التى تتلقف الزائر، تجتمع داخلهم حياة البشر على وجه الأرض وعلى سطح الماء . عالمهم دائما فى النهر . مراكبهم هى البيت والرزق والمأوى ، والأمل . ينامون فيها ويعملون وزادهم شباكهم . وداخل العالم العجيب الذى يعيشون فيه . ترتفع عيونهم لترى ناطحات السحاب تطل عليهم من أعلى السماء . لكنهم برغم برودة المياه وحرارة الشمس يقيمون وسط عالم ساحر يتمتع بأجمل مناظر النيل .

منهم من يسكن أرض الجزيرة داخل عزب خاصة بهم «عزبة الصيادين» أغلبهم نزحوا من الجنوب من أسيوط . قدموا ليمارسوا مهنة الصيد . ومنهم من قدم من الشمال من الدلتا . لكن هؤلاء ينطبق عليهم وصف أنهم قدموا فى مهمة عمل . حيث يسكنون القوارب الصغيرة ينامون فى الخن الصغير داخل بطن المركب . يصطادون طوال اليوم فى عرض النهر وفى الليل يسكنون إلى شاطئ الجزيرة لقضاء الليل داخل مركبهم الخشبى حتى طلوع النهار . فى الأعياد تنتهى مهمة العمل ويأخذون إجازاتهم ويرحلون إلى بلادهم فى الشمال . ينتظرهم القارب عند شط الجزيرة. وهنا تتجلى العلاقة القائمة على بروتوكول التعامل فيما بين أهل الجزر وأهل المراكب فلا يتعدى أحدهم على الآخر ولا يتطفل على حياة الآخر برغم انعدام أية حواجز فيما بين الحياتين .

وإن كنا نجدهم يعيشون منفصلين داخل الجزيرة على هيئة قرى نوعية واحدة للصيادين وأخرى وسط الغيطان للفلاحين . وبعض البيوت الخاصة بالغرباء القادمين من البر الثانى والذين نالوا استحسان أهل الجزيرة والتزموا ببروتوكولات التعامل التى أقروها - فاشتروا عددا من الأراضى وبنوا عليها بيوتهم على نفس الطابع الفلاحى القديم . وبرغم كل شئ لم يفقدوا الصلة بالمدينة والمدنية . فعلى الشاطئ المقابل مدارسهم وأعمالهم ووظائفهم وأحلام بعضهم . فالمدينة رمز الراحة والثراء بالنسبة لبعض شبابهم . وإن كان ارتباطهم بالأرض والخضرة نابعا من ارتباطهم بذلك النهر النيلى الرزين .

حياة مختلفة

لم يكن دخول الجزيرة بالأمر الهين . فلا توجد وسيلة مواصلات حقيقية سوى «المعدية» - ذلك القارب الخشبى المتهالك الذى يشق طريقه كل يوم وكل ساعة داخل مياه النيل ذهابا وإيابا لينقل البشر بين البرين .

وعلى مقربة من الشاطئ ، يفترش باعة السمك مكونين حلقة صغيرة تتلقف عيونهم الزائر الغريب .

ننتظر برهة ولا يشغلنا سوى رائحة السمك الفواحة سواء المرصوصة على طاولات الشادر أو حتى التى تنتظر خروجها من المياه المعكرة قابعة داخل الشبكة المحكمة الغلق «الجوبية» . وتأتى المعدية تتهادى على مهل . تتصل بالشاطئ بجنزير حديدى . يقوم فتى يافع بجذبه ، وجهه غامض يقف دائما عند الحافة يقود المركب بلا كلام أو أمر فهو دائما صامت . ننزل إلى المعدية ونختار مقعدا بعيدا عن الجنزير حتى لا تبللنا



المياه المتناثرة من حركته الدائبة ولتأخذنا المعدية لمسافة قصيرة لا تتعدى المائة متر ، لكنها فى مفهومنا الثقافى تتعدى ذلك بكثير . فبعد نهاية تلك المسافة داخل النهر العظيم نصل إلى نقطة بداية مختلفة تماما عما خلفناه وراء ظهورنا . فخلف هذا الستار المكون من ورد النيل وزرع الهيش تكمن حياة مختلفة .

شاطىء الانتظار

يبدأ المشهد صباحا . أعداد كبيرة من أطفال الجزيرة تتلاعب رياح الصباح بأطراف ملابسهم المدرسية (مرايل صفراء حكومية) . تتداعب أطرافهم بشقاوة فالانتظار ليس من سمة الطفولة .. أحيانا المعدية تتأخر قليلا على البر الثانى .. فيجدون الوقت للعب والمزاح .

كان عم يوسف أبو جمعة أكبر أهل الجزيرة سناً فى انتظارنا وجهه منحوت تملؤه خطوط أزمنة متعاقبة نظراته شاردة برغم حدتها مبحرة نحو مكان بعيد . حافظ للقرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة ، تمثل له قناعاته فى الحياة . وبرغم لحيته البيضاء فمازال حب الحياة يملأ أنفاسه الصاعدة والهابطة . حكى لنا أن أبيه هو الذى زرع الأمل داخله ، الأمل فى الفوز بمحصول ناضج ، فى غد يشرق على أرضه من جديد ، الأمل فى الرحمة التى يبعث بها النهر كل عام ، لا يقسو لا يسطو على حصادنا ولا خزيننا ولا على أملنا الكبير فى الحياة » . أبيه «أبو جمعة» أول من سكن جزيرة «القرصة» . ورغم أن مياه النهر كانت تغمرها لفترات طويلة . وتحاصر منزله الطينى الصغير . فاعتلائه للربوة العالية كان يحميه طوال فترة الفيضان . وحتى يومنا هذا لا يزال منزل أبو جمعة قائما فوق الربوة . ذات الشموخ القديم . فتربتها غير سائر الأرض من حولها . سوداء قاتمة من طين النيل المدكوك والمتراكم على مدى السنين . تتزين بشجرتى صفصاف على جانبى

المنزل . يتعدى عمرهما السبعين عاما . فالذى يريد صعود الربوة عليه أولا تسلق جذع إحدى الشجرتين الضاربتين فى أنحاء المكان . لكى يصل إلى البيت الصغير المكون من غرفتين فقط والذى شهد فيضانات النيل واحداً تلو الآخر قبل بناء السد العالى . وكان لقاء عم «يوسف» هو جزء من بروتوكول التعامل المنصوص عليه بين أهل الجزيرة . فلقاء كبيرهم واستحسانه للشخص الزائر معناه قبوله كضيف عزيز من داخل بيوتهم . لم يتحدث معنا كثيرا سوى بضع جمل عن النهر والحياة . كلماته ذكرتنا بأنشودة النيل التى تغنى بها أجدادنا تقديسا للنهر الذى يهب مصر الحياة :

تنهمر عليك الحياة من السماء .
وتتدفق إليك مياه الحياة من الأرض
وتتوهج السماء بالبرق من أجلك
وقد اهتزت لك الأرض قبل ظهور الإله.

الابن الآخر هو عم أحمد أبو يوسف . تعدى السبعين من عمره ولا يزال يحرث أرضه بنفسه حتى اليوم . حديثه معنا كان عبارة عن رثاء لأيام الفيضان الذى كان يأتى ومعه الخير والطمى والرخاء . فيقول «ليت أيام الفيضان تعود . كانت الأرض خصيبة عفية .. نبذرها فينمو الزرع بقوة .. نحصدها فيأتى المحصول وفيرا يكفينا جميعا .. أما اليوم فقد هجرنا الفيضان فأصبحت الأرض مالحة . كل عام تفقد نضارتها . وعاما بعد عام ستتشيخ وتبور الأرض .

قناعات الماضى

ويبدو أن الفلاحين المصريين لا يغيرون معتقداتهم بسهولة فتظل راسخة داخل قناعاتهم . ففى الماضى كانوا



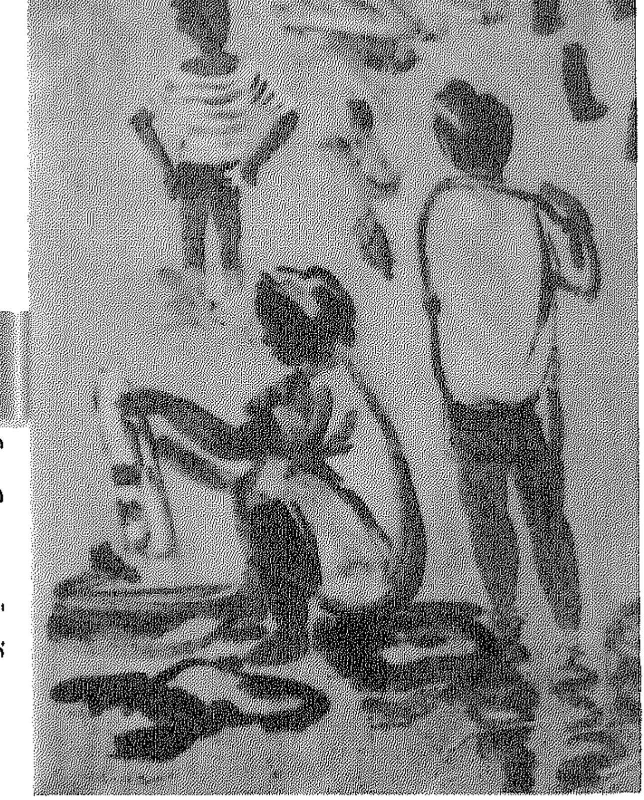
يحتفلون بالفيضان ويقيمون له الطقوس . « منادى النيل » يطوف الشوارع بالقاهرة ليعلن كل يوم عن ارتفاع مياه النيل . وفى ليلة الثانى عشر من شهر بؤونة يحتفل الأقباط بعيد «القديس ميخائيل» الذى يشفع للمصريين من أجل زيادة مياه النهر . وحتى بعد دخول العرب والإسلام احتفظ النهر بقداسته . فيذكر لنا العلامة ابن عبدالحكم عما جاء فى كتاب «تقويم النيل لأمين سامى باشا» أن الأقباط جاءوا إلى عمرو بن العاص وقالوا له «إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها . وهى القاء جارية مليحة فى نهر النيل فى مكان معلوم» . وعندما رفض لم يزد النيل طوال فترة ثلاثة أشهر. فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. الذى أرسل خطاباً يخاطب فيه نهر النيل يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك. أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك

فلا تجر. وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك. فنسأل الله تعالى أن يجريك» وألقى «ابن العاص» الخطاب فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد «فى ١٧ توت» فأجرى الله النيل فى تلك الليلة ستة عشر ذراعاً دفعة واحدة.

روح عازفة

وهكذا كانت تسير الحياة بين البشر والنهر.. ومن الغريب ألا نجد نظرة الأمل تلك. التى تملأ عيون كبارهم ، داخل عيون كثيرين من شباب الجزيرة حيث رأينا بعضاً منهم تملأ عيونهم الحسرة والحزن وقلوبهم تجرحها غصة. فالأرض لم تعد بالنسبة لهم مجرد محصول يأمل صاحبه حصده كل عام. لكنها كالجمرة، الاحتفاظ بها صعب والتخلى عنها أصعب. فهى بيتهم وطفولتهم وذكرياتهم الأولى. لكنها تحمل أيضا ملامح شظف العيش والبطالة الخانقة.. وإن كانت حياتهم تظل دوما دون أن تمس عازفة عن أن تكون أى شىء آخر غير ذاتها، الوسيطة بين المدينة والنهر.

وهناك مشكلة تواجه ساكنى هذه الجزر وتكمن المشكلة فى قانون ١٠٠ لعام ١٩٦٤ والذى ينظم ملكية الجزر وأراضى طرح النهر. ويحيل ولايتها وملكيتها لوزارة الزراعة. فتقوم الوزارة بإصدار عقود حق انتفاع - فقط - للفلاحين والمقيمين عن طريق «وضع اليد» وفى المقابل يدفع هؤلاء أموالا تقدر سنويا نظير ذلك. فتتقاضى الوزارة عن الفدان الزراعى حوالى ٨٠٠ جنيه سنويا وعن متر الأرض البور أو المبانى حوالى جنيهين سنوياً للمتر الواحد، دون أن يكون لهم حق امتلاك الأرض. وبالتالى تسقط عنهم بقية الحقوق مثل الحق فى مياه شرب نظيفة وصحية، وإقامة شبكة صرف صحى وتوفير بعض الخدمات الصحية والتعليمية وكأن المسئولين يستكثرون على الفلاح والصياد العيش وسط القاهرة بطريقتهم البسيطة. لذا قام سكان تلك الجزر بتوصيل كافة الخدمات عن مياه وكهرباء على حسابهم الشخصى. إلا أن الجهات الحكومية لاتزال تعترض على وجودهم برغم أنها لا تمنع ذلك بشكل حقيقى! فوزارة الزراعة تمنح عقود حق الانتفاع، ووزارة الاسكان تمنح تراخيص البناء والمجالس المحلية لا تعترض على أية تجاوزات ووزارة الرى تباشر مهامها من بعيد. وينحصر فى حماية شواطىء النيل دون أن يكون لها



دور تمارسه على أرض الجزر بل إن كافة الجهات تتهم سكان الجزر بالتسبب فى التلوث البيئى والعشوائى دون أن تكون هناك خطة لديهم لوقف أى تلوث ولا معالجة ولا حتى النهوض بحياة سكان تلك الجزر . وطبقا للاحصائيات الواردة فى وزارة الزراعة فإن المساحة الإجمالية للجزر تبلغ حوالى ٣٣ ألف فدان منها حوالى ٢٧ ألف فدان مساحات مزروعة. ومعنى ذلك أن أغلبها مساحات لا تسبب التلوث البيئى المقصود فهى أراضى زراعية.

آخر أيام الفلاحين

وكان من أهم من قابلناهم داخل «جزيرة الذهب» الحاج ماهر الشهير بلقب «العمدة» وعلى الرغم من أنه ليس أكبرهم سناً لكنه أكثرهم رجاحة عقل وقدرة على الاتصال بالمسئولين من الوزارات المعنية المترددين على الجزيرة وقد اختاره سكان هذه الجزيرة لكى يمثلهم لدى دوائر الدولة المختلفة ويكون حكمهم خلال النزاعات التى قد تنشب بين أفراد العزب المتناثرة. ويصفه أهل الجزيرة بالقول أنه «حلو اللسان رزين العقل» فاستحق مكانته عن جدارة بلا انتخاب أو ترشيح حكومى. يحدثنا عن أحوال أهل تلك الجزيرة «نحن نزرع الطماطم والخيار فى الشتاء فأرضنا دافئة بعكس أراضى البر المقابل» «كما نزرع اللوبيا والباذنجان والبطاطس والملوخية والذرة والبرسيم».. وإن كان يرى الموت قريبا إذا خرج من أرضه.

«ماذا أعمل وأنا أعيش داخل شقة داخل عمارة بعيداً عن الخضرة والزراعة وزرايب المواشى».

«أموت بالطبع» «فلا عمل لى ولا حياه بعيداً عن أرضى».



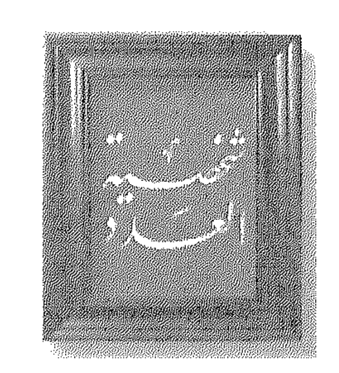
ويبدو أن ما يكسبه الحاج ماهر يكفيه ليومه. ولكن السؤال المقلق هل سيكفى العائد أبناءه من بعده؟ وبما يضمن بقاءهم على ولائهم للأرض وللزراعة. أم أننا أمام آخر أيام الفلاحين فى القاهرة خاصة مع تصاعد الصخب من حولهم؟

أما «سيد» الابن الأصغر لعائلة أبو جمعة فهو يمثل أحد أفراد الجيل الجديد. تعليمه متوسط. اختار العمل كبائع للألبان ومسئول عن «زريبة المواشى» التى تغذى محل الألبان الذى تمتلكه العائلة على البر الثانى. فضل البقاء بالجزيرة بعكس أخيه الذى فضل السكن داخل عمارة على البر الثانى لكن سيد يقول «لا مكان لى داخل متاهة المدينة.. فلا فرصة عمل وسط الزحام.. لكننى هنا داخل بيتى وأرضى وأعمل مهنة أجدادى.

وفى المساء فوق الجزيرة، وفوق النيل، يبوح النيل ببعض جماله الغامض وإن كان لايزال يحتفظ بأسراره. فهو كما يصفه اميل لودفيج فى كتابه «النيل: حياة نهر» «كالقسيس الذى يمنع المؤمنين من رؤية وحب الله». وتضاء قبة السماء بأنوار المدينة المقابلة بواسطة خطوط صفراء فاقعة اللون - وتتحول كافة الألوان إلى اللون الليلكى ويستولى السواد على السماء. ولا يملك السهران وسط السواد إلا أن يتأمل هذا النهر الخالد الذى شهد زوال كل شىء.. الحضارات والديانات والمعابد والحصون والفاتحين والمغلوبين. إنه النور، إنه النهر ينعكس على كل شىء. وياله من نهر، ويالها من أمكنة .. ويالهم من بشر! ■







٥٠ عاماً من الكاريكاتور ورسوم الكتب وأغلفة المجلات واللوحات والأفلام والعرائس

بقلم
محيى الدين اللباد

ضمن احتفال المجلس العالمى لكتب الأطفال (IBBY) بعيده الخمسين فى الشهر الماضى ، أعلنت قائمة الشرف لهذا العام، والتى ضمت ٣٨ كاتباً ورساماً ومترجماً فى ميدان كتب الأطفال، تم اختيارهم من قائمة أطول تضم الأسماء التى رشحتها المجالس الوطنية فى كل دولة من دول العالم . وضمت قائمة الشرف «المصفاة» اسم الرسام «إيهاب شاكر» (١٩٣٣) ، الذى زكته للقائمة رسومه فى كتاب «حكاية الأراجوز» (قصة : سميرة شفيق ، دار الشروق ٢٠٠٠)

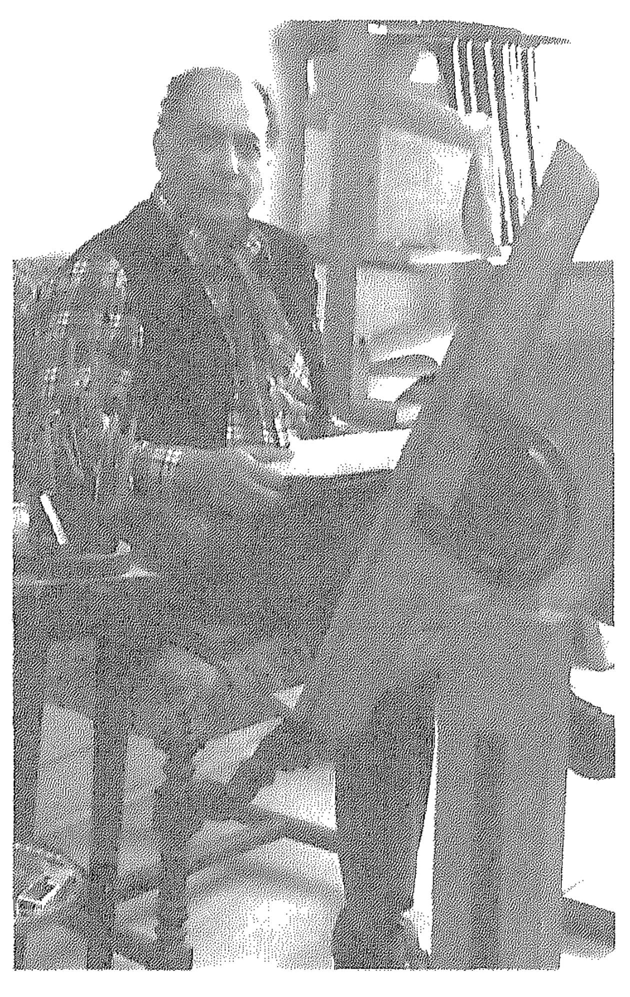
«إيهاب» واحد من جيل الكتاب والرسامين والصحفيين الذين ظهروا مع التغير السياسى / الاجتماعى / الثقافى الذى وقع عام ١٩٥٢، وأحد أوائل من شغلوا الأماكن المستحدثة فى المشروع الثقافى / الإعلامى الجديد لتلك الفترة . كان فى سن العشرين ، وفى عامه الدراسى الثانى فى كلية الفنون الجميلة ، حين اختاره أستاذنا «عبدالسلام الشريف» ليرسم كاريكاتوراً يومياً لجريدة «الجمهورية» التى كانت أول «لسان حال» لرجال ١٩٥٢ . وهكذا طلع «إيهاب» على قراء الجريدة كل صباح بكاريكاتوره على الصفحة الأخيرة ، وبرسم آخر مصاحب للزجل الذى كتبه على الصفحة الشاعر محمود بيرم التونسى على الصفحة نفسها كل يوم .

كان كاريكاتور «إيهاب» رسماً بسيطاً به كثير من الطزاجة والانشراح والفكاهة البريئة، وكان به – أيضاً – إدراك وتمثل لجديد «والت ديزنى» الذى اكتسح به الدنيا

عقب الحرب العالمية الثانية . كان رسم «إيهاب» – حينذاك – مختلفاً ، وكان واضحاً أنه لم يخرج من معاطف المعلمين الكبار «صاروخان» و«رخا» و«عبدالسميع» و«طوغان» ، ولا أى من رسامى دار الهلال وقتذاك (وأغلبهم من الخواجات المتمصرين) . ولم يكن «چاهين» و«البهجورى» قد نشر شيئاً من الكاريكاتور بعد .

ولا يعد اختيار «عبدالسلام الشريف» لإيهاب رساما للصحافة فى عامه الدراسى الثانى مبكراً أو سابقاً للأوان . إذ كان «إيهاب» – طوال دراسته الثانوية – دارساً منتظماً فى مرسم الطليانى «كارلوميونتى» بمصر الجديدة . ويتذكر «إيهاب» أنه وزملاءه فى مرسم المعلم «مينوتى» كانوا يجلسون إلى حوامل لوحاتهم ، بينما تملأ فضاء حجرة الدراسة مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية الغربية آتية من الحجرة المجاورة التى يشغلها موسيقار طليانى .

ايهاب شاكر فى مرسمه







● ظلت أضواء الموالد الشعبية تشاغل أنظار إيهاب طوال ممارسته الرسم والتصوير

جذورة الفنية

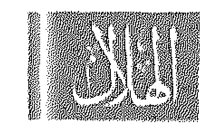
ولم تكن تلك هى معرفة «إيهاب» الأولى بالموسيقى الكلاسيكية الغربية ، بل كان والده الموظف الحكومى الكبير منشداً ضمن كورال الكنيسة فى رداء كنسى ، وفى كورال الأوبرا فى بدلة «فراك» . وكان هذا الوالد مشتركاً فى مجلة الرسم الفرنسية الشهيرة «إلستراسيونIllustration» ، التى تصله بالبريد كل شهر .

وفى الأمسيات ، كان جار العائلة ، فى ضاحية الزيتون ، يدخل عليهم مصطحباً آلة عرض سينمائى صغيرة ، ومحملاً بالأفلام القصيرة الصامته لشابلن وكيتون ولوريل وهاردى وغيرهم ، يعرضها لجيرانه فى ليالى الصيف .

كان هذا جانباً من صورة من صور الحياة الثقافية لقطاع من الطبقة الوسطى القاهرية التى عاشت العاصمة الكوزموبوليتانية حتى النخاع . كانت العاصمة تضم عالمين : أحدهما غربى كامل ، والآخر بلدى قح ، ولا يفصل بين العالمين حاجز قوى . وكان ذلك القطاع من الطبقة الوسطى قادراً على التنقل، بخفة ورشاقة ، بين العالمين ، وعلى الاستمتاع بمحاسن كل منهما .

تستطيع أن تتصور - فى ذلك الزمان - صبياً قاهرياً خارجاً من «جروبى» أو «ألامريكين» وسط القاهرة ، بعد أن استمتع بالجلاس الشهير - آنذاك - والمسمى : «ثلاثة خنازير صغيرة Trois Petits Couchons» ، متجهاً إلى حديقة الأزبكية (الغناء حينذاك) حيث ينادى ، من مجلسه على إحدى الآرائك الخشبية ، على بائعة حلاوة «على لوز» لتناوله الصحن المسطح ليلحس منه بملحسة عامة (تتداولها ألسنة الزبائن) عدة مربعات من تلك الحلاوة الشعبية .

وتستطيع أيضاً أن تتصور شاباً هاوياً يجول بين المكتبات الأوروبيــة فى وسط المدينة : «منجــوتسى» و«لاندوروك» و«هاشيت» التى كانت تبيع الكتب الصادرة فى أوروبا وأمريكا فى ذات الشهر ، ومجلاتها الصادرة فى الأسبوع ذاته . ثم

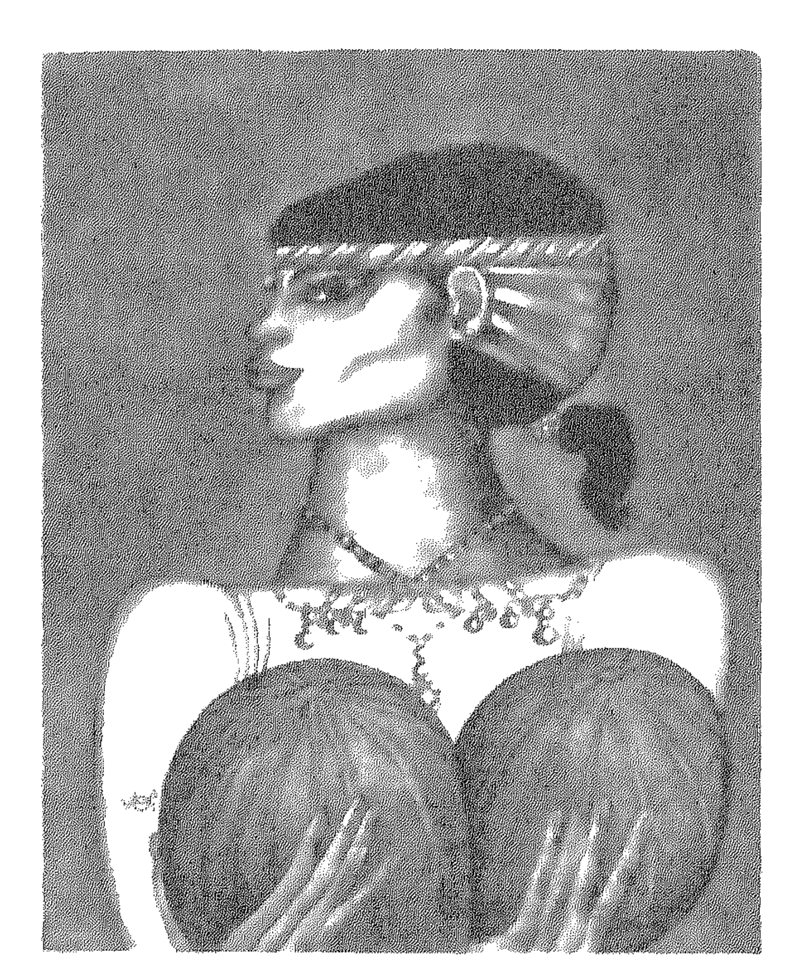




رسم تحضيرى لفيلم «رقصة الهوى» ١٩٩٧

كاريكاتير من سلسلة «جيل تليفزيونجى»، صباح الخير ٦٣-١٩٦٨





غلاف لمجلة «صباح الخير» – ١٩٩٣

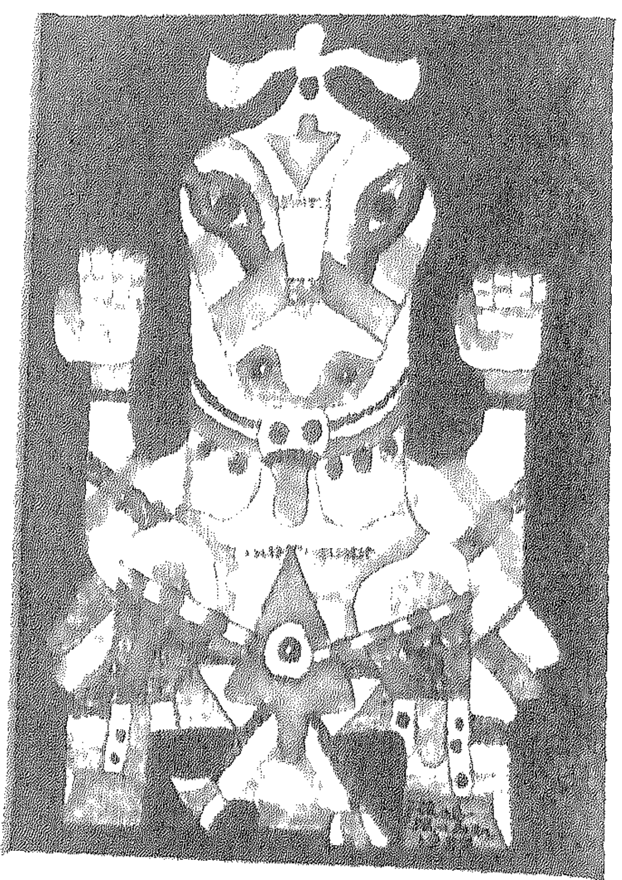
امتثل إيهاب دائمـــا لنداء الكاريكاتور ورسـوم الكتب والمجــلات والرسم للأطفــال

يخرج ليشترى مجلة «البعكوكة» ، ويتجه إلى حى الحسين ، ليواجه بالحاح باعة الكتب الجائلين فى المقاهى عليه بكتب السير الشعبية وألف ليلة وليلة ورجوع الشيخ ، ولا بأس ببعض الرسوم المطبوعة الملونة لأبطال السير والبراق النبوى .

وبدون أن تكون قد ارتكبت أى تعسف ، تستطيع أن تتصور فتى يخرج من دار الأوبرا القديمة بعد مشاهدة عرض أوبرا طليانية أو مسرحية لفرقة «الكوميدى فرانسيز» ، ثم ينعطف خلف الدار القديمة إلى شارع البيدق، حيث يستوقفه أحد عروض مسرح خيال الظل المتجول ، يضج بالعرائس المسطحة المتحركة رائعة الجمال ، وبالغناء والشتائم والهزر السوقى البذىء الرائع . يحرك العرائس ويؤدى حوار الشخصيات ، على تعددها ، فنان شعبى نصف جائع ودائم السعال ، لا يعلم أنه آخر تلاميذ الأسطى ابن دانيال أستاذ فن خيال الظل القاهرة قبل عدة قرون .

وبعد خيال الظل بخطوات قليلة ، لا بأس فى أن يمر الفتى على سور الأزبكة الشهير – والحقيقى حينذاك – ليتصفح بعضاً من الاف الكتب والمجلات والصحف





لوحة ١٩٨٩

القديمة ، عربية كانت أم أعجمية .

معالمه الفنية

ومن هذه الخلطة المعقدة والغنية ، تكون «إيهاب» (مثلما تكون بعض مجايليه) رساماً مصوراً ملوناً بالزيت وما بعده (٧ معارض فردية) ، ورساماً للكاريكاتور الصحفى (الجمهورية ، التحرير ، روزاليوسف ، صباح الخير) ، ورساماً لكتب الأطفال (١٩ كتاباً : دار المعارف ، دار الفتى العربى ، دار الشروق، بالإضافة إلى عدة دور فرنسية) ، ورساماً لمجلات الأطفال (سندباد ، سمير ، ميكى ، ماجد ، العربى الصغير ، علاء الدين)، وصانعاً لأفلام الرسوم المتحركة («الزجاجة» - ١٩٦٨ ، «١-٢-٣» ١٩٧٤ ، «أغانى الحيوانات» - ١٩٨٧ ، «رقصة الهوى» - ١٩٩٧) . ولم يترك «إيهاب شاكر» مسرح القاهرة للعرائس فى حاله ، بل كتب له مسرحية «عقلة الصباع» وصمم عرائسها (١٩٦١) ، كما صمم عرائس وديكور «دقى يامزيكا» (١٩٦٦) .

ومن عالم مؤثث بثنائية الثقافة الغربية والحياة البلدية ، اختار إيهاب أن يكون



موضوع مشروع تخرجه «السيرك الشعبى القاهرى» ، الذى تتبعه فى تجواله بين احتفالات الموالد الكبرى . وظلت أضواء تلك الموالد تشاغل أنظار «إيهاب شاكر» طوال ممارسته الرسم والتصوير التى امتدت ٥٠ عاماً .

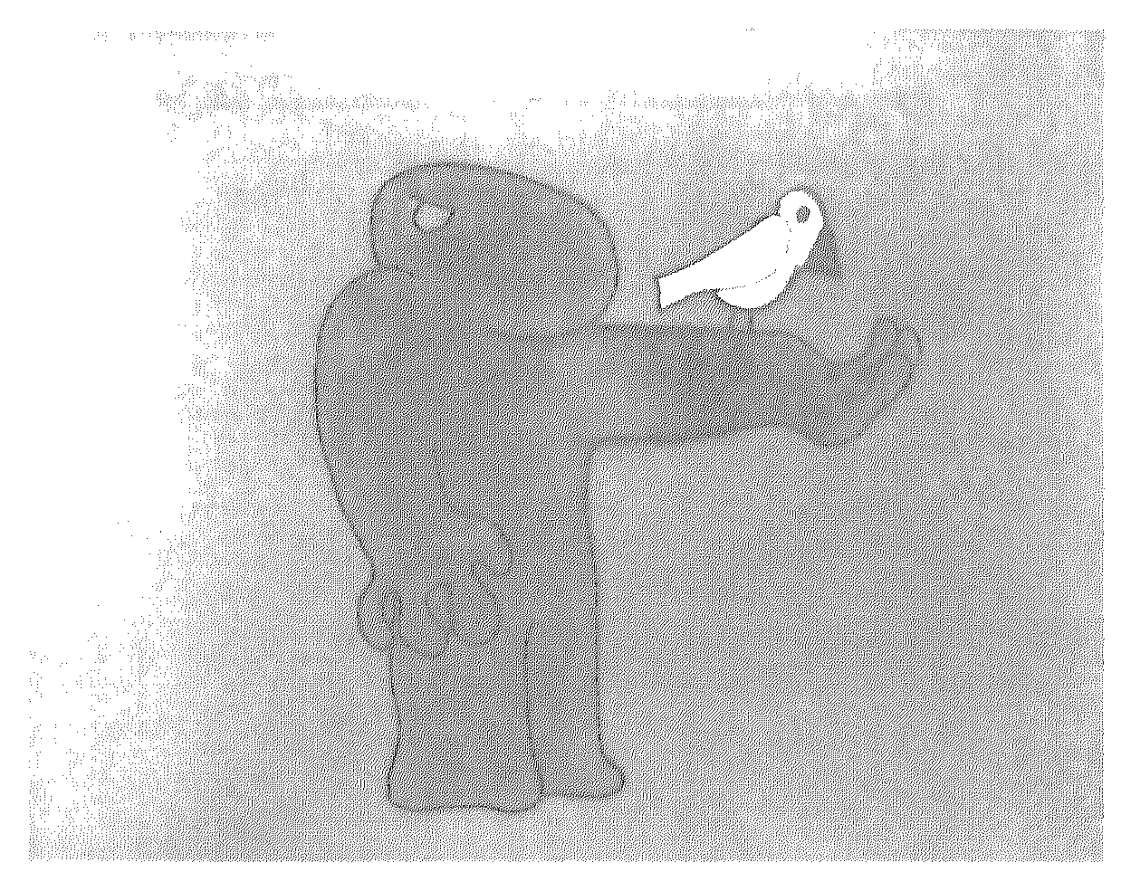
لم يترك «إيهاب» حامل اللوحة الخشبى والباليت والفرشاة إلا لماماً ، واهتم بعرض لوحاته فى معارض فردية وجماعية ، فى مصر وخارجها . لكن «نداهة» الكاريكاتور ، ورسوم الكتب والمجلات والرسم للأطفال ظلت دائماً تلح عليه بندائها . وامتثالاً لهذا النداء ، جلس «إيهاب» خمسين عاماً إلى طاولته ، يراكم - بأنفاس منتظمة هادئة - آلافاً من رسوم الكاريكاتور ورسوم الكتب والمجلات : متنوعة ومتعددة التجارب . و«إيهاب» رسام دؤوب لايمل ، ولا ترهبه الورقة البيضاء ، فعنده دائماً ما يملؤها : فقط أطلب منه واعطه فرصة وبعض الوقت .

أسس «إيهاب» بدأبه وبتراكم عمله اتجاهات ، ومهد طرقاً ، وصاغ شخوصاً وأساليب وأشكالاً للتناول ، نهل (أو نزح) منها الكثيرون من الشباب ومن مجايليه . وخلع صفة «التأسيس» على إيهاب» ليس مجرد إطراء ، فاللقب لا يستحقه إلا من أسسوا بالفعل ، وهم ليسوا كثر . ورغم حيازة «إيهاب» لقبه بجدارة ، إلا أنك - أيضاً - ترى فيه الشاب المجرب طالب التعلم الدائم ، وترى فيه الأخرق المزدحم بمشروعات كثيرة يكتمل بعضها والآخر لا يكتمل . يحرص على متابعة دؤوب للشباب الطالع ، ويأخذ بأيديهم ، ويرشحهم لمن بيده إعطاءهم فرصة العمل .

فى آخر كتبه «حكاية الأراجوز» ، رسم «إيهاب» محاولاً التعبير عن الخشونة و«الكيتش» ، ربما للرد على أناقة وصنعة وحرفية وأسلوبية أجادها جميعاً وأنجزها بيسر منذ مراهقته . وها هو يزهق من كل تلك الخبرات ، ويرغب فى «العودة إلى نفسه» - ذلك الحنين الذى يعصف بكل جنتلمان له بعض قلب وشئ من البصيرة .

عاد «إيهاب» إلى صباه : إلى الموالد وعربات الكشرى وحمص الشام والنشان والبطاطا ونصبة الحلوانى المزدحمة بالعرائس الحلاوة . وإلى الجوار ، دروة الأراجوز التى تطل من أعلاها

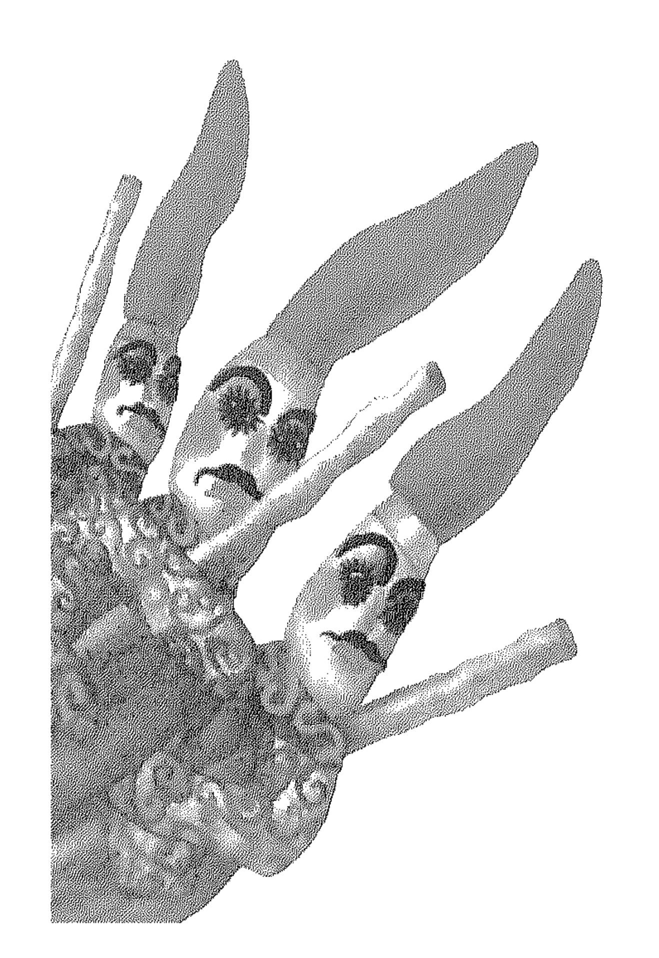
أسس اتجاهات ، ومهد طرقاً ، وصاغ شخوصاً وأساليب وأشكالاً للتناول



لقطة من فيلم «١-٢-٣» عام ١٩٧٤

دميتان فقيرتان لأراجوز بطاقية طويلة ومدببة حمراء كقرن فلفل حار ، وشرطي مفتر ، صنعهما الحرفى الفقير ، وكساهما على قدر حاله ، وحملهما خفة فى الروح وطولاً فى اللسان وإدراكاً لبهجة الحياة الحريفة . ومن ذكرياته مع مثل هذه العائلة الأراجوزية وعرائس المولد الحلاوة ، صنع «إيهاب» كتاباً للأطفال كبير المقاس (٣١×٣١سم) ، وكبير التأثير .

كتاب «حكاية الأراجوز» يستحق منا الاهتمام والفرجة المتأنية وبعناية . مثلما يستحق منا رسامه «إيهاب شاكر» كل الالتفات إليه والاهتمام بما يعمل ، وبالعناية به شخصياً . «إيهاب» رسام مهم ، وعمود من أعمدة النمو الرأسى القليلة فى حقل كتب الأطفال العربية . ■



من هو المقصود في قصيدة بيرم

القرع السلطانى

بقلم

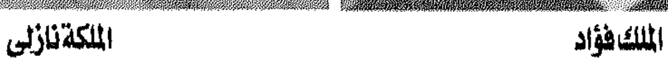
شكرى فؤاد



الملك فؤاد



الملكة نازلى



هل كان السلطان فؤاد على علاقة بنازلى قبل الزواج؟!

القصة الشائعة والمتداولة عن سبب نفى محمود بيرم التونسى من مصر تتلخص فى أن الملك فؤاد (السلطان فؤاد فى ذلك الوقت) تزوج من نازلى كريمة عبد الرحيم باشا صبرى (الملكة نازلى فيما بعد) فأنجبت له ابنهما الأول فاروق بعد ستة شهور من الزواج كما يقول بيرم فى «مذكراتى»، أو بعد أربعة شهور من الزواج كما يقول الأستاذ كمال سعد فى كتابه «صفحات ضائعة من حياة بيرم التونسى» فنشر بيرم قصيدته المشهورة «القرع السلطانى» أو «مرمر زمانى» فى مجلة «المسلة» التى كان يصدرها فى القاهرة بعد انتقاله إليها من الاسكندرية

وهاجم فى قصيدته السلطان فؤاد واتهم بأنه كان على علاقة غير شرعية بخطيبته قبل الاقتران بها «الوزة قبل الفرح مدبوحة» فاشتد غضب السلطان فؤاد وأصدر أمراً باغلاق المجلة ولم يتراجع بيرم فأصدر مجلة جديدة سماها «الخازوق» استمر يهاجم فيها السلطان فؤاد وأسرته وإذ كان بيرم تونسيا يتمتع بالحماية الفرنسية فقد طلب السلطان فؤاد من قنصل فرنسا ابعاده عن مصر فألقى القبض عليه وتم ترحيله إلى الاسكندرية ليستقل الباخرة من هناك فى طريقه إلى فرنسا وكانت تلك بداية سنوات طويلة فى المنفى.

ولأن فاروق ولد فى ١١ من فبراير ١٩٢٠ فلابد أن يكون بيرم - طبقاً لهذه القصة - قد نفى من مصر بعد هذا التاريخ ولأن بيرم يقول : إنه نفى مع بداية أيام عيد الأضحى كما جاء فى

قصيدته التى مطلعها

يوم الدبايح كان
آخــــر مواعيدك

فلابد أن يكون قد نفى فى أغسطس ١٩٢٠ . هذه القصة كان مصدرها الأساسى بيرم نفسه سواء فى مذكراته التى كتبها فى حلوان وانتهى منها فى أول يناير ١٩٦١ أى قبل وفاته ببضعة أيام.

أو رواها قبل ذلك لأصدقائه والمعجبين بشعره وهم كثر ، أصبحت هى الرواية «الرسمية» لنفى بيرم يتناقلها كاتب عن أخر ممن كتبوا عن حياة بيرم فى مصر دون أن يكلف أحد نفسه عناء توثيقها والتأكد من تفصيلاتها .

شكوك حول موضوع القصيدة

ومنذ بدأ اهتمامى بهذا الفنان العبقرى واستمتاعى بما كتب من قصائد ومقامات وأغان وما نشر عنه من كتب ومقالات ، ساورتنى شكوك كثيرة فى صحة هذه الرواية ومصداقيتها لأسباب كثيرة منها :

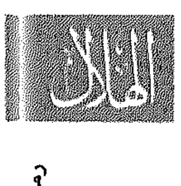
أولاً : أن السلطان فؤاد تزوج من نازلى فى ٢٤ من ماتيو ١٩١٩ وفاروق ولد فى ١١ من فبراير ١٩٢٠ أى بعد الزواج بثمانية شهور ونصف شهر وهو زمن كاف علمياً وطبياً للحمل والولادة دون حاجة إلى تبرير ذلك بعلاقة غير شرعية .

ثانيا : أن السلطان فؤاد بحكم وضعه وشخصيته وعقليته المحافظة لم يكن ممن يتورط فى علاقة نسائية ثم «يصلح غلطته» بالزواج من ضحيته .

ثالثا: ليس هناك ما يشير إلي أن زواج فؤاد من نازلي كان عن حب جارف أو علاقة سابقة علي الزواج بل يبدو أنه كان زواجاً تقليديا تم ترتيبه بين العائلتين إذ يقول الزعيم محمد فريد في مذكراته «من الأمور السارة ما بلغني من توفيق بك زاهر أن بنت عبد الرحيم باشا صبري (نازلي) التي كان خطبها السلطان فؤاد لتكون زوجة له رفضت بتاتاً الاقتران به عقب هذه الحوادث (ثورة ١٩١٩) لما علمت أن فؤاد طلب من الانجليز حرسا لحمايته ولم تكتف هذه الشابة بذلك بل دخلت في الحركة الوطنية واشتركت في مظاهرات السيدات وفي الأعمال الوطنية مثل تأسيس جمعيات أو ملاجيء للأيتام أو ما شاكل». ويعود محمد فريد بعد ذلك فيقول «بكل أسف لم يتأكد خبر رفض ابنة عبد الرحيم صبري الاقتران بالسلطان فؤاد كما كان قد بلغنا من توفيق زاهر ومن الأميرة أمينة هانم حرم حسين شيرين بك بل ذكرت الجرائد تلغرافاً من العاصمة بأنه عقد عليها» . يفهم من ذلك أن نازلي كانت مخطوبة لفؤاد ثم ترددت في اتمام الزواج ولكنها قبلت في النهاية ولعل شرف مصاهرة سلطان البلاد كان أمراً يصعب رفضه من جانب أسرتها وربما منها هي شخصيا أيضا، خصوصا أن عبد الرحيم صبري باشا تم تعيينه وزيرا للزراعة في وزارة محمد سعيد باشا في مايو ١٩١٩ .

رابعا: أن أي قراءة متأنية مدققة لقصيدة «القرع السلطاني» يستبين منها أن المقصود ليس السلطان فؤاد وخطيبته بل السلطان فؤاد وابنته إذ تقول القصيدة:

يا راكب الفيتون وقلبك حامى



حوّد على القبة
وســوق قدامى
تلقى العروسة مثل
محمل شامى
وأبوها يشبه فى
الشوارب عنتر

والإشارة إلي القبة المقصود بها سراي القبة، كما أن والد العروسة الذي يشبه في الشوارب عنتر إشارة واضحة إلي السلطان فؤاد، فلم يكن عبد الرحيم صبري «عنترا» في شيء بل كان فيما يبدو رجلاً لطيفا فكما يقول سعد باشا زغلول في مذكراته (الجزء الثامن) انه حضر «احتفال جمعية الاسعاف في الأوبرا وكان التمثيل في الغالب رقصا وغناء قام به جماعة من غواة وغاويات الاسرائيليين (يعني اليهود)..... وكنت مع عبد الرحيم صبري ونجله حسين، واسماعيل صدقي في لوج واحد وكانوا كلما لاحت فتاة تعجب الأب يتكلم مع الأبن عنها وعن جمالها».



بيرم التونسي

من المقصود بالقصيدة؟

وحقيقة الأمر في أصل هذه القصيدة أنه شاع في ذلك الوقت أن فوقية ابنة فؤاد من زوجته السابقة شويكار كانت علي علاقة عاطفية بجعفر فخري ولما رفض أن يتزوجها اقترن بها بدلاً منه شقيقه محمود باشا فخري وعينه السلطان فؤاد محافظاً للقاهرة، وهو الذي يعنيه بيرم في مقالة بعنوان «لعنة الله علي المحافظ» الذي نشره في العدد الأول والأخير من مجلة الخازوق كما سبقت الإشارة، وبعد إعلان استقلال مصر عام ١٩٢٢ أرسله الملك فؤاد وزيراً مفوضا لمصر في باريس وبقي في هذا المنصب أربعة عشر عاما وقيل أن سبب نقله إلي باريس وبقائه فيها كان بهدف إبعاد فوقية عن القاهرة نظراً لما عرف عنها من جرأة في سلوكها الاجتماعي لم تكن مما يتقبله مجتمع القاهرة في عشرينات القرن الماضي.

هذه هي المناسبة التي ألف فيها بيرم قصيدة «القرع السلطاني» كما جاء في كتاب ابن بيرم التونسي عن أبيه وكما أورده أكثر من واحد ممن كتبوا عن حياة بيرم.

خامساً: أن اعتذار بيرم عن مهاجمته للسلطان فؤاد وأسرته لم يبدأ بقصيدته المعروفة:

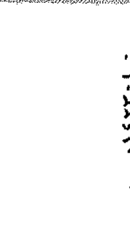
غلبت اقطــع تذاكــر
وشبعت يا قلبى غربة

التي وجهها إلي الملك فاروق ونشرها بعد عودته الثانية إلي مصر عام ١٩٣٨ كما يظن كثيرون بل له قصيدة واحدة علي الأقل . حاول فيها الاعتذار للملك فؤاد نفسه وسعي إلي استرضائه وهي قصيدة طويلة عنوانها «وأنا اللي جيت من سيالة» يبدأها بقوله

يا أبو الفاروق لما اسكندر
حكم على الدنيا ودبر

ثم ينتقل إلي الحديث عن الاسكندرية والاسكندرانية وانهم جميعا «شُضلية» ينفعلون فيخطئون ويندفعون في الخطأ حتي ينالهم من الأذي ما لا يطيقون:

الاسكندرانى إذا تحمس



يفقد صوابه ويتطلمس
لحد ما يروح متكربس
فى نقرة ابليس يخشاها

ويخاطب الملك فؤاد بعد ذلك قائلاً:

والحق نقطع له رؤوسنا
نقطعها احنا بأنفسنا
ما دام مليكنا وريسنا
عالدفة ماسك مجراها

....

ومين يا ريسنا يفوقك
دم الملوك مالى عروقك
وصل جدودك بفاروقك
ورعرع الشجرة اياها

ومن المستبعد أن يكون قد اتهم فاروق بأنه «ابن حرام» كما يقول الأستاذ كمال سعد ثم يأتي بعد أقل من عامين ليتوسل إلي الملك فؤاد ليعفو عنه .

حقيقة القصة

استمرت هذه الشكوك تساورني حتي اطلعت في السنوات الأخيرة علي بعض الكتب والدراسات التي نشرت عن بيرم التونسي خارج مصر فقطعت الشك باليقين وتأكد لي أن بيرم نفي من مصر عام ١٩١٩ أي قبل مولد الملك فاروق بشهور.

أول هذه الكتابات هي مذكرات بيرم التونسي نفسه، ولبيرم ثلاث مجموعات من المذكرات المنشورة هي «مذكراتي» التي كتبها في حلوان وانتهي منها في أول يناير ١٩٦١ أي قبل وفاته بخمسة أيام وهي أقرب إلي السيرة الذاتية منها إلي المذكرات اليومية. والمجموعة الثانية بعنوان «مرسيليا» وقد نشرها في حلقات أسبوعية في جريدة «الزمان» التونسية بين ٢٣ من مايو ١٩٣٣ و١٨ من يوليو ١٩٣٣ وتناول فيها فترة اقامته في مرسيليا عندما وصلها منفيا من مصر. أما المجموعة الثالثة - وهي التي تعنينا في هذا المقام - فعنوانها «مذكرات المنفي» نشر منها تسع حلقات في جريدة «الشباب» التونسية في الفترة بين ٢٩ من أكتوبر ١٩٣٦ و٥ من مارس ١٩٣٧ ثم حلقتين في جريدة «السردوك» التونسية في ٥ من أبريل ١٩٣٧ و١٤ من أبريل ١٩٣٧ ويستهل بيرم هذه المذكرات - علي أسلوب اليوميات - بتاريخ ١٧ أوت (أغسطس) ١٩١٩ قائلاً «وجدت تذكرة السفر التي صرفها لي قنصل فرنسا في الاسكندرية من تذاكر الدرجة الرابعة التي تتكرم بها الحكومة للمسافرين علي حسابها. قدمت الباخرة «تشيلي» وهي من بواخر «المساجيري ماريتيم» إلي الاسكندرية مشحونة بعشرات العائلات السورية الفقيرة المهاجرة ويبدأ الجزء التالي من المذكرات بتاريخ «٢٠ أوت» وهو مازال علي ظهر الباخرة ويستمر في الكتابة بعد ذلك ولكن بدون ذكر تاريخ لما يكتب فيتناول وصوله إلي مرسيليا ووصف احيائها وسكانها ومعاناته في البحث عن عمل .. إلخ.

ثم اطلعت بعد ذلك علي الدراسة القيمة التي نشرها الدكتور محمد صالح الجابري بعنوان «محمود بيرم التونسي في المنفي» وهي أطروحته التي نال عليها درجة الدكتوراه ويقول في ص ٦١ من الجزء الأول انه عثر «علي برقية في أرشيف وزارة الداخلية بتونس واردة من قنصل فرنسا بالاسكندرية موجهة إلي مصلحة الدولة التونسية مؤرخة بتاريخ ١٩١٩/١٢/٢ جاء فيها : يعلم قنصل فرنسا بالاسكندرية انه أبحر يوم ٢١ أكتوبر الماضي علي متن الباخرة «تشيلي» تونس يدعي محمود بيرم، مطرود من التراب المصري بسبب

تصرفاته التي من شأنها أن تسيء للسمعة الطيبة للجالية الفرنسية» ويضيف الدكتور الجابري أيضا «أنه يبدو حسب تلغراف صادر من مصلحة الأمن بمرسيليا بتاريخ ١٩١٩/١٠/٣١ إلي مدير الأمن بتونس أن بيرم غادر هذه المدينة (مرسيليا) في هذا اليوم في اتجاه تونس علي متن الباخرة «سترافانيل» وتفيد وثائق أرشيف وزارة الداخلية بتونس من خلال تقرير مؤرخ في ١٩١٩/١١/٦ لأحد المخبرين الذي كلفوا بتعقب بيرم «انه تم التعرف علي هذا الأخير وانه قضي المساء في مقهي فرنسا صحبة مختار الزواوي.. والمراقبة مستمرة» وأخيراً جاء كتاب الباحثة «مارلين بوث» باللغة الانجليزية وعنوانه «مصر بيرم التونسي» فأكدت في ضوء ما رجعت إليه من وثائق في محفوظات إدارات الأمن في مرسيليا وفي تونس أن بيرم غادر مصر منفيا في النصف الثاني من عام ١٩١٩.

جملة القول أن بيرم نفي من مصر في المرة الأولي عام ١٩١٩ أي قبل مولد فاروق الذي كان عام ١٩٢٠، وفي غياب مايفيد بتواريخ نشر قصائد بيرم يمكن تصور الأحداث علي الوجه التالي: انه نفي في المرة الأولي عام ١٩١٩ بسبب قصيدة «القرع السلطاني» ثم عاد إلي مصر متسللاً عام ١٩٢٢ وقبل وصوله أو بعده حاول استرضاء الملك فؤاد فمدحه بقصيدة «وأنا اللي جيت من سيالة» ليعفو عنه، فلما لم يفلح مسعاه وأعيد نفيه ، بعد بضعة شهور علي الأرجح، قضاها في مصر



عبد الرحيم باشا صبري

متخفيا، ثار غضبه فعاد إلي مهاجمة الملك فؤاد وكتب قصائد «ولما عدمنا في مصر الملوك» و«ما قلتيش يا راعي الرعيان» أما قصيدة «إسمع حكايتنا وبعدها هأ هأ» التي يقول الأستاذ يسري العزب إنها لم تنشر في الصحف وإنما شاعت بين الناس فإذا صحت نسبتها إلي بيرم فربما يكون قد أرسلها من فرنسا قبل أن يفكر في العودة إلي مصر أو بعد نفيه الثاني. الذى استمر حتي عام ١٩٣٨ عندما تسلل إلي مصر مرة أخري ومدح الملك فاروق فعفا عنه .

سبب نفي بيرم

أخيراً يبقي تساؤل عما جاء في مذكرات بيرم من أنه نفي من مصر بسبب قصائده عن الفضائح السلطانية - علي حد تعبيره - ولم يذكر من هذه الفضائح إلا قصة فؤاد ونازلي وأن فاروق ولد بعد ستة شهور من الزواج وهو ما نقله عنه عدد ممن كتبوا عن حياته . والأمر فى تقديرى لا يخرج عن احتمالين الأول أن تكون الذاكرة قد خانت بيرم أو اختلط الأمر عليه خصوصا وانه كتب المذكرات فى أيامه الأخيرة وكان يعانى من المرض وأزمات الربو، والثانى يكون قد شعر بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بالحرج بسبب قصائده فى مدح الملك فاروق واستعطافه فأراد أن يؤكد أنه أحد ضحاياه وأنه أول من هاجمه هو ووالده فؤاد . ■

المرأة والإبداع

٩٨



رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

منيرة المهدية

سلطانة عصر السلاطين

بقلم
مؤمن حسين

شهدت السنوات السابقة على ثورة ١٩١٩ مرحلة تطور فى الحياة الاجتماعية المصرية، عندما نضج الشعور الوطنى ونما فى وجه الاحتلال الإنجليزى، وعبر عن نفسه أروع تعبير من خلال وحدته الوطنية وإدراكه للأحداث الدولية من حوله.

انعكس هذا النضج أيضا على كثير من الفنون التى تجسدت فى إهابها المصرى، ورسخت مكانتها على أيدى جيل من الرواد فى المجالات المختلفة من شعر ورواية وموسيقا ومسرح. فعندما كان سلامة حجازى ومنيرة المهدية يتناوبان النجاحات على خشبة المسرح الغنائى كرائدين لهذا الفن، أصدر الدكتور محمد حسين هيكل أول رواية مصرية بالمفهوم الفنى للرواية «زينب» عام ١٩١٢، ونشر محمد تيمور أول قصة مصرية «فى القطار» عام ١٩١٧ .

كانت ريادة منيرة المهدية للمسرح الغنائى ريادة ذات ملامح خاصة، فابنة الريف المصرى الآتية من محافظة الشرقية، وبالتحديد من قرية المهدية، هى أول امرأة مصرية تعرفها مسارح القاهرة، وعندما وقفت لأول مرة على خشبة مسرح «الشانزليزيه» بالفجالة، مع فرقة عزيز عيد صيف عام ١٩١٥ لتغنى بين فصول مسرحية «صلاح الدين الأيوبى»، كان المسرح يمتلئ عن آخره بالحضور. وعلى الرغم من شهرة عزيز عيد وفرقته ورسوخ قدمه، فإن واقع الأمر أن من تجمعوا فى مسرح «الشانزليزيه» وملأوا كل مقاعده إنما جاءوا ليسمعوا هذه المطربة المصرية ذات الصوت القوى الجميل.

مسرح منيرة المهدية

أدركت منيرة المهدية بذكائها الفطرى مدى تأثيرها فى المستمعين، فلم ترض بهذا الوجود الهامشى الذى يقف بها عند الغناء بين فصول المسرحية فقط، دون المشاركة فى الأداء التمثيلى على خشبة المسرح، ففكرت فى تكوين فرقة خاصة بها، تستوعب طاقاتها الفنية وطموحها المتدفق، وتقدم من خلالها مايشبع جمهورها الذى كان يزداد يوما بعد يوم.

ومع حلول خريف عام ١٩١٥ كانت



السلطانة تزين صدرها النياشين

منيرة المهدية قد استقرت بها الحال على رأس فرقة من تأسيسها ، تقدم مسرحيات أستاذها وزميل ريادتها المسرحية الشيخ سلامة حجازى.

قدمت فرقة منيرة المهدية أعمالا ضخمة، لعبت فيها البطولة، ولكن فى أدوار الرجال، فقد كان التمثيل المسرحى حتى ذلك الحين رجاليا، والأدوار النسائية إما أن تسند لرجال يجيدون تقمص هذه الأدوار أو لنساء شاميات أتين وافدات على خشبة المسرح المصرى، فما كان أمام الست منيرة إلا أن تبلس ملابس الرجال، وتؤدى دور البطولة الرجالية فى عدة أعمال منها دور «روميو» فى مسرحية «شهداء الغرام»، ودور ««راعول» فى مسرحية «صلاح الدين الأيوبى» .. وغير ذلك من المسرحيات.

أزمة المسرح

استطاعت منيرة المهدية أن تستفيد من أدائها لهذه الأدوار الرجالية، التى أظهرت ملكاتها التمثيلية إلى جانب إمكاناتها الغنائية، فى الوصول الى قاعدة كبيرة من الجمهور، وملأت فراغا كبيرا من غياب الصوت النسائى المصرى، شغلته بصوت قوى معبر وذكاء أنثوى ، ومع بداية عام ١٩١٧ كانت منيرة المهدية ملء السمع والبصر، ولم يعد هناك من مطمح إلا الاستمرار والحفاظ على ما وصلت اليه من نجاح.

لم يكد الأمر يستقر حتى مثلت أشباح الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الحرب



سلامه حجازى

كامل الخلعى

تخايل الناس، فانصرفوا عن المسارح، وباتت فرق كل من جورج أبيض وسلامة حجازى وعبدالله عكاشة تعانى آثار الأزمة، وأصبحت فى وضع يهدد بالإغلاق، وما كان من منيرة المهدية الا أن تعاونت مع الكاتب المسرحى «فرح أنطون» فى محاولة للتغلب على الركود، فقدم لها مجموعة من الأوبرات العالمية لعلها تكون طوق نجاة فى بحر الكساد المتلاطم، فمثلت أوبرا «تاييس» وأوبرا «كارمن» التى كانت بداية لظهور المهدية كامرأة ممثلة لا تستتر وراء أردية الرجال، ولتصبح بحق أول ممثلة مصرية تقف على خشبة المسرح.

تعريب الأوبرا

ترجم فرح أنطون عدة أوبرات عالمية وقدمها لمنيرة المهدية، بعد أن قام بإجراء بعض التعديلات على أحداثها ومشاهدها حتى تتناسب مع إمكانات منيرة ومستمعيها، غير أن أهم مافى الأمر هو أن هذه الأوبرات قام بتلحينها كامل الخلعى، الذى عرب موسيقاها وأخضعها للمقامات الشرقية، ودونها لأول مرة فى نوتة موسيقية.

وبعيدا عن الاقتباس قدمت منيرة المهدية مجموعة من الأعمال المحلية تأليف الشيخ يونس القاضى. ونظرا لمواكبة هذه الأعمال لفعاليات وتوابع الثورة، ودعوة طلعت حرب لبناء اقتصاد مصرى، فقد امتلأت بالإسقاطات والتلميحات السياسية التى تُعرّض بالاستعمار وخطورة سلعه ومنتجاته الوافدة على سوق المنتج المحلى، فكانت مسرحيات «كلام فى سرك»و «كلها يومين» من تلحين سيد درويش، «والتالتة تابتة» من ألحان كامل الخلعى والتى غنت فيها منيرة :

يابويا اديني عقلك
الأجنبي بدو يكلك
لو شفته في البورصة وقابلك
سلم عليه وعد صوابعك

انفعلت منيرة بثورة ١٩ ، فهى مصرية تعيش نبض المصريين وانفعالاتهم وحبهم لزعيم ثورتهم، ومن هنا كان فى بعض أغانيها رجع صدى لهتافات الشعب، وانطلقت حنجرتها فى غناء حماسى، يشبه فى ايقاعاته المارش العسكرى .

شال الحمام حط الحمام
من مصر لما للسودان
زغلول وقلبي مال اليه
انده له لما احتاج اليه
يفهم لغاه اللي يناغيه
ويقول حميحم ياحمام

وتلتهب أكف السامعين تصفيقا لمنيرة التى تعيد وتكرر اسم زعيم الثورة فى تنويعات شجية، تستعرض فيها إمكاناتها الصوتية. لقد تجاوبت المهدية مع مشاعر الناس، واستطاعت أن تمرر هتاف

الثورة، وهذه المشاعر الجياشة فى سياق غنائى، بعيدا عن رقابة السلطات البريطانية.

وفى أوائل العشرينات، عندما تم اكتشاف مقبرة الفرعون الشاب توت عنخ آمون، عبرت منيرة عن فرحة الشعب وافتخاره بآثار أجداده، وكأنه أراد أن يقول للمستعمر الذى أجهض ثورته، ها نحن أولاء أصحاب مجد وحضارة منذ آلاف السنين، وها هى آثارنا تدل علينا.

كانت منيرة لسان حال الشعب فى التعبير عن ما يجيش فى نفسه، عندما جاء إليها أحد مؤلفى الأغانى عارضا عليها طقطوقة «توت عنخ آمون» تتحدث عن هذا الملك الشاب باعتباره جد المصريين، فما كان منها إلا أن أخذت الكلمات، ولم تمض أيام حتى كانت طقطوقة «توت عنخ آمون» مسجلة على أسطوانات شركة بيضافون وتقول كلماتها:

مايحبش زيى إن لف الكون
واحنا أبونا توت عنخ آمون
اسأل من التاريخ ينبيك
عن مجدنا وبعدين أماشيك
انت تورى الناس حتاويك
واحنا أبونا توت غنخ آمون

لقد غنت منيرة المهدية فى كل مناسبة، ولحن لها سلاطين الموسيقا فى عصرها.. سيد درويش، داوود حسنى، كامل الخلعى، سلامة حجازى ، محمد عبد الوهاب.. وتنوعت أعمالها المسرحية بين المحلى والمقتبس المترجم، وغنت مع التخت



لعبت منيرة المهدية دور البطولة الرجالية فى مسرحيات عديدة مثل «شهداء الغرام» و «صلاح الدين الأيوبى»

وعلى خشبة المسرح، وتنوعت كلمات أغانيها وأصابت كل غرض.

سلطانة الطرب

ظلت منيرة المهدية، لحوالى ثلث قرن من الزمان، مالكة أمر الطرب، وسلطانة مملكته المتوجة دون منافس، وعندما ظهرت أم كلثوم فى عشرينات القرن الماضى، لم تلق النجاح المرجو، فلم يطرب لها سميعة منيرة، وظلوا على وفائهم لسلطانتهم. وهاهو بطل ثلاثية نجيب محفوظ «السيد أحمد عبد الجواد»، هذا العاشق للطرب الأصيل الذى لم يسلم أذنه إلا لأصحاب الموهبة الكبيرة، فى جلسة مع ندمائه وجليلة العالمة، يتحاورون حول أم كلثوم ومنيرة ..



السلطانة فى سنواتها الأخيرة

- البعض يقولون إنها ستكون خليفة منيرة المهدية، ومنهم من يقول بأن صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها.

- كلام فارغ.. أين هذه الصرصعة من بحة منيرة؟!

وعندما غنت منيرة أمام الخديو عباس الثانى، أغدق عليها المال وقال لها «لو كنت رجلا لما ترددت فى الإنعام عليك برتبة الباشوية»..

وأخيرا.. هذه هى منيرة المهدية، وهذه ملامح ريادتها للمسرح الغنائى خاصة وللغناء المصرى عامة فى مطلع القرن الماضى، وإذا كان الخديو عباس الثانى قد تردد فى الإنعام عليها بالباشوية فإن جمهورها لم يتردد فى منحها لقب «السلطانة».. فهى بالفعل سلطانة .. سلطانة لعصر من السلاطين. ■

المـرأة والإبـداع

قصـة قصيـرة

إنهـا إمـرأة

بقلم
نفيسـة عبد الفتاح

هزتها السيارة بعنف .. ياله من سائق أجبرها الخبر على الركوب معه.

تنفست بعمق وضيق فالحقيقة أنها لم تكن لتستطيع الانتظار لمدة ساعة أخرى موعد انطلاق أول أوتوبيس إلى السويس.

كيف طاوعه قلبه فى أن يخفى عنها مثل هذا الأمر؟ أليست هى زوجته وحبيبته التى ستزف إليه بعد أقل من شهر؟!!.

هزتها السيارة ثانية،. تأففت مفتقدة سيارتها،، ماذا لو أن والدها مهندس الميكانيكا قد علمها السمكرة والدوكو فى أى ورشة مثلما علمها كل شىء عن السيارة حتى تصلح سيارتها فى هذه الناحية أيضا بنفسها؟.

شعرت أنها ربما كانت نعمة من الله أن لاتقود السيارة لهذا السبب وهى فى مثل تلك الحالة العصبية



السيئة.

كانت الفرد الأخير المتمم لركاب السيارة، اضطرت إلى أن تركب على مقعد غير مريح بالمرة فوق الإطار الخلفى تماما .. هكذا المضطر يركب الصعب، الرجل إلى جوارها يحرك ساقه بطريقة تجعلها تحتك بساقها، حاولت أن تتحرك مبتعدة بقدر ما يتيحه ضيق المكان ثم نظرت اليه كى تنبهه، ابتسم وأومأ بخبث واسكن ساقه. استشعرت نواياه، ذكرت كيف كانت فى بداية المرحلة الثانوية مع أول تعامل لها مع المواصلات العامة تلتمس اعذار إرغام الزحام أو المصادفة أو ... أو ... لكل من يتعدى خط الاقتراب الأحمر مثيرا هواجسها فكانت رحلتها من المدرسة إلى البيت وبالعكس - فى معظم الأوقات - سلسلة من التحركات المراوغة لتفادى تلك الملامسات حتى كانت تلك المرة التى تركت فيها أثرا لا يمحى، تركت لديها رادارا خاصا تستطيع أن تميز به بين المقصود وغير المقصود، يومها ألجمها الخجل وأعجزها الزحام عن المراوغة لكنها لم تصمد طويلا فقد صرخت فيه وانهارت باكية. ألهبتها التساؤلات الصامتة عما حدث .. انفجارات السباب المساندة .. كلمات الشفقة المتألمة وحتى محاولات الفاسق فى الدفاع عن نفسه بإتهامها بإلقاء التهم جزافا على الناس .. «وعشان ما أنت حلوة شوية فاكره كل الناس تبص لك» كل هذه

الأشياء مجتمعة جعلتها تتمنى لو لم تبك. كل قطع الحجارة التى تمر عليها السيارة تجعلها تقفز خفيفا فى جلساتها فتتشبث بظهر المقعد المواجه محافظة على أقصى درجات الثبات الممكن. الرجل إلى جوارها يحاول الاقتراب ولكنها تنكمش بجسدها حتى تلتصق بجانب السيارة. تذكرت كيف كرهت ضعفها يوم بكت وبدأت علامات الغضب فى الإرتسام على ملامحها فمن المؤكد أن حالة القلق الشديد على زوجها لاتحتاج إلي مثل هذا الرجل المستفز .. ارتسمت صورته أمام عينيها باسما مشجعا - هو كذلك دائما - رنت فى أذنيها ضحكته الصافية وهو يقول أمى تخاف علىّ منك تقول لى دائما أنك امرأة شديدة فأقول لها ابنك أسد كان ورائها دائما .. لم يثبط عزيمتها يوما وهى



تتصدى للصوص وتتسبب فى إيقاف المشروع الهندسى الضخم الملىء بالسلب والنهب وإحالة القائمين عليه إلى النيابة، ابتسمت بمرارة وهى تتذكر كل الإغراءات التى عرضت عليها وكل التهديدات التى تعرضت لها بوصفها مهندسة الحكومة المسئولة عن متابعة تنفيذ العملية، أين هم الآن بإغراءاتهم وتهديداتهم؟ لعل الوحشة والبرودة وضياع العمر خلف جدران السجن هم العقاب الأمثل لكل من هم على شاكلتهم. استغل الرجل شرودها وأعاد تحريك ساقه بنفس الطريقة، بغضب التفتت إليه ثم تراجعت وابتلعت بعضا من غضبها وضغطت على أسنانها .. يا استاذ!!!. ابتسم وأسكن ساقه مرة ثانية، أطلقت زفرة نفثت فيها غضبها. بالتأكيد كان يعلم أنها ستتوتر لهفا عليه ولهذا أخفى عنها الأمر .. وعكة صحية؟! ماحدود تلك الوعكة؟ ولماذا لم يعد إلى القاهرة؟ ربما كان الأمر أكبر بكثير مما قالته أخته وإلا ما احتاج إلى دخول المستشفى .. سترك يارب. من الواضح أن الأخت العزيزة قد هونت عليها الأمر بعد أن فوجئت بها لاتعرف شيئا على الإطلاق عن الموضوع.

يا الله .. السيارة تزمجر وتتلكأ منتفضة بين الحين والحين ثم تتوقف هذا التوقف هو ماكان ينقصها. ارتفع صوت السائق يسب ويلعن فيمن أصلحها له من قبل وخرج ليعمل

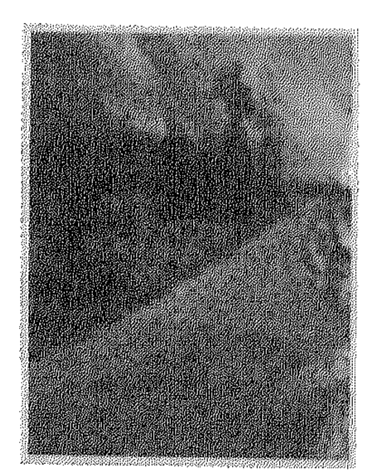
فى بعض أجزاء المحرك علها تسير. الدقائق طويلة طويلة والقلق لايسمح لها بمزيد من الصبر.

تحركت من مقعدها وخرجت اليه ووسط دهشته ودهشة الركاب طلبت منه أن يترك الأمر لها، أقل من خمس دقائق وكانت السيارة تعمل.

عادت إلى مقعدها محاصرة بنظرات الإعجاب والتعجب ودعوات السائق بعمار بيتها وسلامة يمينها، دقائق وعاد الرجل المجاور الى محاولاته، نفرت عروقها واندفعت الدماء إلى وجنتيها استدارت إليه وفى صمت رفعت قبضتها غاضبة مردعة وهوت بها فوق أنفه ثم اعتدلت فى مكانها. ألجمته المفاجأة .. انحشرت آه مكتومة فى حلقه. الرجل الثالث على نفس المقعد شاهد الموقف متسع الحدقتين فاغر الفاه ..لم ينبس بكلمة

.. كانت صدمة سال خيط رفيع من الدم القانى تحت أنف الرجل أخرج منديلا ووضعه على أنفه فى صمت ووجوم. ظهرت سنتيمرات فاصلة بينهما جمد الرجل عن تقليصها، تنفست محاولة الاسترخاء بترقب الطريق السويس أخيرا .. قفزت درجات سلم المستشفى قفزا بعد أن سألت عن غرفته، كل شىء فيها يرتعد، هذه هى الغرفة .. إحدى المرضات فى الممر الخارجي لاحظت وقفتها المرتبكة .. سألتها إن كانت تريد شيئا.

– مهندس محمود من شركة البترول .



– نعم هنا

فتحت لها الباب. ما أن رأته بأربطته وضماداته حتى أطلقت صرخة فزع مكتومة، طمأنتها الممرضة كسر فى الذراع وبعض الرضوض البسيطة. أعصابها لاتحتمل. كان نائما .. إقتربت منه ومدت يدها المحملة بلهفتها من خصلات شعره تتحسسه. اصطدمت أصابعها بضمادات رأسه الرطبة، أخرجت أصابعها المرتعشة مخضبة بالحمرة .. حملقت فى يدها مذعورة غابت عن الوعى، فتحت عينيها على محاولات الممرضة لافاقتها . التفتت إليه فأطلق زفرة ارتياح، ابتسم لها فى تودد .. افزعتنى .. أهكذا .. أهكذا تفعل بك بعض الضمادات .. يالها من صلابة يا أعظم مهندسة . ■



سحر الشرق ونفوذ الجارية

بقلم
حمدى البطران

منذ بداية القرن السابع عشر . بدأ المغامرون الأوروبيون يفدون إلى مصر بصفة خاصة ، والشرق بصفة عامة . كل منهم له هدف . سوء جاء بمبادرة شخصية منه للاستمتاع بسحر الشرق والجو الصحى والعلاج مثل ليدى أوف جوردون ، أو من جاء منهم مكلفا بمهمة من قبل جميعات أو دول مثل ريتشارد . ف بيرتون ، أو يكون الرجل مغامرا وله طموح سياسى مثل ستانلى وبيكر مكتشفا منابع النيل ، وفى أحيان أخرى يكون الرحالة من الكتاب أو الأدباء مثل الانجليزية إميليا إدواردز ، وجيرار دى نرفال الفرنسى .

كتبت إميليا تجربتها تحت عنوان «رحلة الألف ميل» ، وكتب نرفال «رحلة إلى الشرق» وكل من الكتابين يعتبر من روائع الأدب حيث يمتزج الأدب بالتاريخ وسحر الشرق ، والصدق ، سجل كل منهم تجربته بين المصريين .

رحلة نيرفال لمصر

أما رحلة جيرار دى نيرفال فقد كانت فى منتصف القرن الثامن عشر بعد وفاة محمد على وتولى ابنه عباس . بدأ نرفال رحلته إلى القاهرة من باريس ، وعندما وصل إلى القاهرة أستأجر ترجمانا اسمه عبدالله ، وكان عبدالله ككل التراجمة فى ذلك الوقت محاطا بكل الأبهة والفخامة ، وكان معه ترجمان آخر صغير وزنجى يحمل له غليونه ، وقاده الترجمان إلى الفندق الإنجليزى فى ميدان الأزبكية ، ورفض جيرار الإقامة فيه لارتفاع تكاليفه، وعرض عليه عبدالله الأقامة فى فندق دوميروج الفرنسى ، ورفض عبدالله أن يقيم معه فى هذا الفندق الرخيص لأنه يريد أن يحافظ على مستواه ولا يقيم فى فندق فرنسى

رخيص ، ومع ذلك فلم يكن الفندق رخيصاً في نظر نيرفال الذي يريد أن يقيم في القاهرة بأقل التكاليف ، ولا سيما في بلد يقل سعر كل شيء فيه ست مرات عن نظيره في فرنسا ، وعرض عليه عبدالله أن يستأجر له بيتا في المدينة ، ولما كان نيرفال يريد أن يحيا حياة شرقية تماماً فقد عرض عليه عبدالله عدة منازل مكونة من عدة طوابق ، وقاعات ازدانت بزينة رائعة مثل الأرضيات الرخامية والنافورات والدهاليز والسلالم على غرار قصور البندقية وجنوا ، هذا فضلا عن الأفنية المحاطة بالأعمدة والحدائق التي تظللها الأشجار النادرة ، ومع ذلك رفض نيرفال لأنه لايريد أن يعيش حياة المعسكرات بمفرده في ركن من أركان قصر شاسع ، وانتهي الأمر بمنزل أقل اتساعا .

وجاء شيخ الحارة لحضور عقد الاتفاق مع السيدة القبطية التي تمتلك المنزل بالوكالة عن بعض الأجانب حيث لم يكن لهم حق الملكية العقارية في ذلك الوقت ، كتب شيخ الحارة العقد باللغة العربية ، وكان على نيرفال أن يدفع نفقات العقد وهدايا لشيخ الحارة ومسجل العقود ورئيس أقرب نقطة لحراسة المنزل ، وسلمه شيخ الحارة مفتاح المنزل الخشبي ، وكان ضخماً لا يمكن وضعه في الجيب ولكنه يعلق في الرقبة ، وكان على نيرفال تأثيث المنزل وجاء المنجدون والنجارون وأحالوا المنسوجات الإيرانية في بضع ساعات إلى أرائك ووسائد ، وصنعوا له قفصاً طويلاً من جريد النخيل يستخدم كسرير ، ويقول نيرفال أن الباشا فقط هو الذي يمتلك أثاثاً كهذا ، وبعد أن جهز البيت فوجيء نيرفال بشيخ الحارة ومعه كاتبه والزنجي حامل النرجيلة ، وبدأ معه الحديث الذي ترجمه عبدالله :

— يجب ترك البيت .

— لماذا ؟

— يقول أن أحدا لايعرف على أي نحو، وماهي أخلاقك .

هل لاحظ أن أخلاقي سيئة ؟

ليس هذا مايقصده ، فهو لايدري شيئاً عن هذا الموضوع .

إذن فرأيه في هذا ليس طيباً .

يقول أنه كان يظن أنك سوف تعيش في المنزل مع امرأة .

ولكنني لست متزوجاً .

إنه لايعنيه في شيء أن تكون متزوجاً أو لا تكون ، ولكنه يقول إن جيرانك لهم نساء ، وسوف يقلقهم ألا تكون لك امرأة ، مهما يكن فهذا هو العرف هنا .

وماذا يريد مني أن أفعل ؟

— عليك أن تغادر البيت ، أو تختار لك امرأة لتعيش معك .

قال أنه ليس من اللائق في بلادنا أن يعيش المرء مع امرأة لا يكون زوجها .

ويقول نيرفال إن رد الشيخ على تلك الملحوظة الأخلاقية جاء مصحوبا بتعبير أبوي لم تستطع الألفاظ المترجمة أن تؤدي معناه فيما يبدو إلا بشكل ناقص ، وأخبره عبدالله أن شيخ الحارة يسدي له النصيحة، فهو يقول له أن أفنديا مثلك لاينبغي أن يعيش بمفرده ، وأنه من المشرف دائماً أن تأوي امرأة وتطعمها وتسدي لها الخير ، وأحسن من ذلك أن تعطم الكثيرات منهن ، إذا سمح لك الدين الذي تعتنقه بذلك .

وبعد ثمانية أيام أرسل شيخ الحارة بعض العمال صعدوا إلى سط البيت ، وكان نيرفال نائماً نوم القيلولة ، وأيقظه صخب العمال ، وقال له الترجمان عبدالله:

— لقد أنذرتك هذا الصباح ؟

— إنك تخطيء بجلوسك فوق سطح المنزل .

– لقـد قلت لى أنه من الأفـضل ألا أصعد إلا ليلاً حتى لا أزعج الجيران .
– ولكنك بقيت نائماً حتى طلوع الشمس

– وماذا حدث ؟
– يوجد الآن عـمـال يعملون لحسـابك فوق السطح ، وقد بعثـهم شيخ الحارة منذ ساعة .

وبالفعل كان العمال والنجارون يعملون على إقامة حاجز يحجب الرؤية عن ناحية بأسرها عن سطح المنزل ، وقال له عبدالله الترجمان :
– من هذه الجـهة توجد حديقة إحدى ربات البيوت (خانون) وقد تقدمت بشكوى أنك نظرت إلى منزلها .
– ولكنى لم أرها .
– أما هى فقد رأتك ، وفى هذا الكفاية.
– وكم تبلغ هذه السيدة من العمر .
– إنها أرملة فوق الخمسين .

وبدا هذا الأمر «لنيرفال» سخيفاً ، وقام بانتزاع العرائش التى أحاطوا بها السطح وقذف بها للخارج ، وانسحب العمال للخارج ، لأن أحـدا فى القـاهرة اللهم إلا إذا كـان الجنس التركى لايستطيع أن يقاوم الإفرنج . وبعد ساعة جاء شيخ البلد وأخبره عن طريق الترجمان عبدالله أنه قد أساء تقدير معروفه عندما أجر له البيت . وقال له إن الخانون ثائرة لاسيما أن نيرفال قذف بالعريشة التي أقاموها فوق السطح إلى حديقة منزلها . وأنه فى إمكانها تقديم شكوى للقاضى . وأدرك نيرفال أن الأمر سيسبب له سلسلة من المضايقات ، وقال له الشيخ :
– من اللائق أن تقـوم زوجـتك بزيارة الخانون ، وتقدم لها بعض الهدايا .

قال نيرفال بارتباك :
– ولكنك تعلم أننى حتى الآن ....

وصـاح الشـيخ وهو يضـرب الأرض بقدميه :
– مـا شـاء الله . إننى نسيت هذا أى قدر جعل الإفرنج يسكنون هذا الحى . لقد أمهلتك ثمانية أيام .

فى سوق الجوارى

وكان أحد أصدقاء نيرفال قد نصحه بالزواج حسب تعاليم الديانة المسيحية ولكنه رفض لأن الزواج حسب هذه الطريقة يكلفه الكثير ، وقاده عبدالله إلى وكالة النخاسين وهناك وجد أثنا عشر عبدا مصطفين ، وكان القلق يبدو عليهم أكثر من الحزن ، وكانوا يرتدون القمصان الزرقاء التى يرتديها عامة الشعب ، وأحاط بهم عدد كبير من التجار ، ووجدا هناك خمس أو ست زنجيات جالسات فى دائرة على الحصير ، وكان العدد الأكبر منهن يدخن ، وكن يقهقهن ضاحكات . ولم تعجب أى واحدة نيرفال الذى طلب مشاهدة أخريات تكون زاوية الوجه لديهن أكثر اتساعاً واللون الأسود أقل وضوحاً ، وقيل له إن الأمر يتوقف على السعر الذى تريد تقديمه ، والواحدة ممن تراهن هنا لن نكلفك سوى مائتين وخمسين فرنكا ، وهن مضمونات لمدة ثمانية أيام إذا ظهرت فيهن عيب أو عاهة . وكان التجار يعرضون أن يجردوهن من الثياب ، وكانوا يفتحون شفاههن حتى لرؤية أسنانهن ، وكانوا يأمروهن بالمشى ويولون اهتماما خاصاً لما تمتاز به نهودهن من مرونة ، ولم يعجب نيرفال ما رآه ، وذهب به عبدالله المترجم إلى عبدالكريم أشهر تاجر جوارى فى مصر ، وهناك شاهد خمس نساء على قدر من الجمال ، وكان الخيار شاقا فقد كن متشابهات ، ولما رأى التاجر حيرته . أمر بإدخال جارية أخرى ، وعندما شاهدها نيرفال صدرت منه صيحة إعجاب ،فقد تعرف على العين اللوزية الشكل ، والجبين المائل المميز للجاريات اللاتى رأى رسومهن فى هولندا ، وكانت وصلت البارحة فى القافلة . وقال نيرفال للمترجم إنها قضت الليل فى بيت عبدالكريم التاجر ، وفهم عبدالله المترجم مايعنيه نيرفال ، وأخبره أن

نساء عبدالكريم الشرعيات لن يتركنه يغازل امرأة أخرى غيرهن ، وفوق ذلك فهو تاجر، ولو عرف عنه ذلك فإنه سيفقد عملاءه جميعاً ، واشترى نيرفال الجارية ، وعندما عاد بها من السوق إلى البيت وجد نفسه محاصراً بطائفة من الأفكار التى لم تكن قد خطرت بباله عند الشراء ، فقد أكتشف أن عبدالكريم غشه ، فقد وجد تحت الشريط الأحمر الذى يحيط بجبتها موضع حرق فى عرض القطعة الذهبية من فئة الخمس جنيهات تبدأ من منبت الشعر، وحرق آخر بنفس الشكل على صدرها وفوق هاتين العلامتين كان هناك وشم فى ذقنها ، وكان منخرها الأيسر مثقوباً ، وشعرها مقصوصاً ، وعندما قدم لها الطعام فى الصباح رفضت تناوله ، ورآها تنظر من النافذة إلى بعض الشبان فى الملابس العسكرية كانوا يدخنون أمام البيت ، أخذته الغيرة كالشرقيين ولم يعثر على كلمة بالعربية يستطيع بها أن يفهمها أن ليس من المستحب أن تنظر إلى العسكريين فى الشارع ، وقرر الاستعانة بمدام بونوم الفرنسية والتى تعمل ممثلة لتقوم بدور المترجمة لعبدالله لأن أحد اليهود أخبره بأن المترجم لن يتورع عن نقل أفكار سيئة دون أن يشك فى الأمر . وقامت السيدة بدور المترجم ، وطلب منها أن تسألها عن اسمها وديانتها ومغامراتها قبل أن تصل إليه وسبب امتناعها عن تناول الطعام فى الصباح . أخبرته أن اسمها زينب وأنها اختطفت وهى صغيرة من على شاطئ البحر وبيعت لرجل طاعن فى السن ، ولما مات بيعت فى القاهرة ، وقال إنها مسلمة ، ولم تتناول الطعام فى الصباح لأنها صائمة ، كان القنصل قد دعا نرفال إلى رحلة الريف ، ولم يكن من اللائق أن يصحبها معه ، كما خاف أن يتركها ليوم كامل مع الطاهى والبواب . دله القنصل على منصور القبطى ، وكان من الأقباط الذين تبعوا الحملة الفرنسية عقب رحيلها ، وأقام فى مرسيليا ، وعندما استولى آل بوربون على الحكم طردوه بعد أن أبدى ولاءه للإمبراطور ، وعاد إلى القاهرة من جديد هو وزوجته . كان حلول القبطى فى المنزل كافيا لحمل الطاهى على مغادرة منزله لاعتقاده أن منصور وزوجته سيحلان محله ، ولم يكن الزوجان يعرفان فنون الطهى . طلب نرفال من منصور أن يخبر الجارية بأن دورها قد حان للقيام بالطهى ، وقال نرفال أنه عجز عن وصف تعبير الكبرياء المجروحة أو الكرامة المهدرة الذى بدا عليها . وقالت للمترجم :

– قل لسيدى : إننى سيدة لا خادمة ، وأننى سأكتب للباشا إذا لم يضعنى فى الموضع اللائق .

وصاح نرفال قائلاً :– الباشا .!. وما دخله بهذا الموضوع .؟... لقد اشتريت الجارية لخدمتى ، فإذا لم يكن لدى القدرة على كراء الخدم ، فإننى لا أرى سبباً يجعلها تحجم عن القيام بأعمال المنزل ، كما تفعل النساء فى كل البلاد .

وقال منصور :

– أنها تقول : إن لكل جارية الحق ، بتوجهها إلى الباشا ، وطلب إعادة بيعها ، وتغيير سيدها ، وأنها مسلمة ، ولن تقبل أبداً أداء الأعمال المهينة .

وشعر نرفال بالندم لأنه سيضطر للأنفاق عليها فيما تبقى له من الرحلة ولن يستفيد منها . وقرر أن يعلمها اللغة الفرنسية ليوفر نفقات المترجم ، وبالفعل بدأت خطوات بطيئة فى تعليم اللغة ، وطلبت منه أن يعطيها ورقة وقلما لأنها تريد أن تكتب بعض الطلبات التى تريدها من سيدها

ولم تكن تعلمت الكتابة . أخبرها عن طريق منصور أن تملى طلباتها ، كان البند الأول فى أنها تريد أن تلبس حبره من التافتاه الأسود على شاكلة نساء القاهرة فى ذلك الوقت . والبند الثانى رغبتها فى الحصول على فستان من الحرير الأخضر ، والثالث يعبر عن رغبتها فى الحصول على حذاء أصفر برقبة !

ذات صباح عاد نرفال إلى المنزل فوجد الجارية قد وضعت فى غرفتها إكليلا من البصل معلقا بعرض الباب ، ومجموعة أخرى من رؤوس الثوم مرصوصة بانتظام فوق الموضع الذى تنام فيه ، فما كان منه إلا أن أنتزع تلك الزينات غير اللائقة وقذف بها إلى الفناء . وما كاد يفعل ذلك حتى صاحت الجارية ثائرة ، وهرولت لالتقاط البصل وهى تبكى عندما حضر منصور القبطى الذى يعلمها الفرنسية أخبر نرفال أنه عندما ألقى البصل على الأرض فقد أهان طقسا من الطقوس المصرية من شأنه أن يمنع الأمراض والأوبئة عن المنزل وسكانه . وسرعان ما تحققت مخاوف الجارية وأصيبت بمرض غامض حاول نرفال من جانبه علاجها ولكنها لم تستجب لعلاجه أو نصائحه الطبية ، واستدعيت سيدتان من البيت المجاور وشيخة مشهورة أحضرت موقداً وأشعلت فيه النار وأحرقت عليه حجراً ، ومن شأن هذا الدخان أن يضايق الشياطين . وقامت الجارية وانحنت على الدخان ، مما سبب لها سعالاً شديداً ، والغريب أنها بدأت فى التحسن حتى شفيت تماماً .

كانت أموال نرفال قد بدأت تتناقص ، وفكر فى استكمال رحلته إلى لبنان وتركيا وكان يريد أن يتخلص من الجارية وقال لها

– يا طفلتى الصغيرة : إن كنت تريدين البقاء فى القاهرة أنت حرة .

وكان يتوقع منها الاعتراف بالجميل ، ولكنها قالت :

– حرة !‹... ماذا تريد أن أصبح . وأين أذهب ؟ .. من الأوفق أن تبيعنى مرة ثانية إلى عبدالكريم .

– لكن ياعزيزتى الأوروبى لايبيع النساء ، وقبوله مثل هذه النقود أمر شائن.

قالت باكية :

– وماذا إذن .. هل أستطيع أنا كسب عيشى . وهل أستطيع القيام بأى عمل .؟

– ألا تستطيعين الالتحاق بخدمة سيدة من دينك ؟

– أنا أصبح خادمة . أبداً بعنى مرة ثانية إلى عبدالكريم ، فيشترينى باشا من الباشاوات وأصبح عنده سيدة عظيمة .

وشعر نرفال أنها على حق ، ولما كان يعتبر نفسه مسئولا عن مصيرها فقد قال لها :

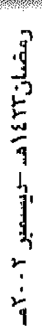
– حيث أنك لا ترغبين فى البقاء فى القاهرة ، فينبغى أن تتبعينى إلى بلاد أخرى

فقالت :

– أنا وأنت . سوا سوا .

على ظهر الباخرة

وأسعده هذا القرار ، وذهب إلى ميناء بولاق وحجز زورقا ليبحر إلى دمياط ومنها يستقل الباخرة «سانتا بربارا» إلى لبنان وتركيا . وكان على ظهر سانتا بربارا قبطان وساعده ينتميان إلى الكنيسة الرومانية ، وأرمنى ، أما باقى النوتيه والملاحين فهم أتراك مسلمون . وعند غروب الشمس لاحظ نرفال أن المؤذن يؤذن للصلاة ، ويتجمع النوتيه ويولون وجوههم شطر مكة ويؤمهم فى الصلاة أحد النوتيه له لحية شهباء ، وكان نرفال قد قرر بينه وبين نفسه أن يعتبر الجارية حرة بمجرد مغادرة مصر ، لذا فإنه لم يمنع الجارية من الصلاة مع النوتية الأتراك ، ولكنه لاحظ أن التركى ذو اللحية الشهباء يكثر من الحديث مع الجارية أكثر من غيره ،وفى أول الأمر لم يلفت الأمر



اهتمامه لأن النوتي في عمر جدها ، ولكنه مع تطور الأمر بدأ القلق يساوره ، وهو لايعرف فيما يتحدثان ، وكلف الأرمني أن يراقب الموقف ويخبره بما يسمعه . وبعد فترة عاد الأرمني إلى نرفال قائلاً :

– هؤلاء الناس يقولون : إن المرأة التي برفقتك ليست ملكاً لك .!

قال نرفال :

– إنهم مخطئون ، وفي إمكانك أن تخبرهم أن عبدالكريم قد باعني إياها في القاهرة بخمسين كيساً ، ومعي إيصال البيع ، ومع ذلك فهذا أمر لايعنيهم .!

– إنهم يقولون أن النخاس لايملك حق بيع امرأة مسلمة لرجل مسيحي .

– إن رأيهم هذا لايهمني ، وفي القاهرة يعرف القوم عن ذلك أكثر منهم ، وكل الإفرنج يقتنون العبيد والجواري سواء كانوا من المسلمين أو من المسيحيين.

– ولكن هؤلاء العبيد والجواري ليسوا زنوجاً ، فهم لايستطيعون الحصول على عبيد من الجنس الأبيض .

– أتراها بيضاء ؟

وهز الأرمني رأسه دلالة الشك ، وقال له نرفال :

– أصغ إلي . أما عن حقي فأنا لا أشك فيه ، فقد قمت قبل ذلك بالاستعلامات اللازمة ، ولأن عليك أن تقول للقبطان : أنه من غير اللائق أن يتحدث النوتية إلى الجارية .

وبعد أن ذهب الأرمني وتحدث مع الأخير عاد إلى نرفال قائلاً له :

– إن القبطان قال له إنه كان في مقدورك أن تبدأ بنهيها هي عن ذلك .

أجاب نرفال :

– لم أشأ أن أحرمها متعة الحديث بلغتها ، أو أن أمنعها من الانضمام إليهم في الصلاة ، وأياً كان الأمر فأن الحياة على ظهر السفينة تضطر الجميع إلى أن يكونوا معاً ، ومن الصعب منع تبادل بعض الكلمات

وكان نرفال يحمل خطاب توصية لوالي عكا من صديقه «أي» ، ومنذ تلك اللحظة عرف النوتية أن ضربات العصي التي وعدهم بها لم تعد خيالا ، وأحنوا رءوسهم له . ويقول نرفال : إنه بعد تلك المشادة بينه وبينهم ظهر نوع من البرود بينه وبين الجارية ، وعندما وصلت السفينة إلى بيروت وأثناء إقامتهم في الحجر الصحي أخبره القبطان أنه قد نمت علاقة بين الأرمني والجارية ، وكانا يتحدثان ، ويقول نرفال :

– لم أستطع أن أغفل مافي الأرمني من مزايا ، فهو مازال في ريعان الشباب ، وتميزه الوسامة الآسيوية ذات الملامح الواضحة النقية التي تميز تلك الشعوب التي ولدت والعالم لم يزل في المهد ، فقد كانت له سيما فتاة ساحرة تخفت في ملابس الرجال ، وها أنا ذا أصبحت في موضع ازدراء مزدوج ، إذ أنني علاوة على ذلك سيدها ، لقد كان من نصيبي أن أكون في آن واحد مخدوعا ومسروقا ،

وقرر في نفسه أن يتخذ قراراً حاسماً وقال للأرمني :

– أي عمل كنت تقوم به في مصر ؟

– كنت سكرتيرا لطوسون بك ، كنت أترجم له الكتب والجرائد الفرنسية وكنت أحرر خطاباته للموظفين الأتراك ، وقد مات فجأة ، وطردت من عملي .

– والآن ماذا تنوي أن تفعل ؟

– آمل في الدخول في خدمة والي بيروت ، أني أعرف أمين خزانته وهو من قومي .

– ألا تفكر في الزواج ؟

- لست أملك مالا لكى أقدمه مهراً ، ولن تقبل أى أسرة تناسبنى ، تزوجنى بناتها بغير هذه الطريقة .

يقول نرفال : وبعد فترة سكون قلت لنفسى : لنظهر كرم أخلاقنا ونمنح السعادة للاثنين ، وأشعرتنى تلك الفكرة بالسمو والنبل ، فسوف أعتق جارية ، وأتسبب فى عقد زواج شريف ، وأمسكت بيد الأرمنى وقلت له :

- إنها تروق لك ، تزوجها فهى لك .

وكانت الجارية حاضرة ، ولكنها تجهل موضوع الحديث ، ورفع الأرمنى ذراعه فى الهواء ، كما لو كان قد ذهل لتصرف نرفال هذا ، وقال له نرفال :

- أتتردد فى القبول ، أبعد أن تغرى امرأة فى حوزة غيرك ، وتنحيها عن واجباتها ، ترفض أن تتكفل بها بعد أن أعطيتها لك ؟

ولم يفهم الأرمنى شيئاً من عبارات اللوم تلك وقد عبر عن دهشته بسلسلة من الاعتراضات القوية ، وبلغ من استياءه من تلك الافتراضات أن أسرع إلى الجارية وأحاطها علماً ، ولما علمت الجارية بما قاله نرفال ، بدا لها أن ذلك قد جرح كبرياءها .

عندما وصلا بيروت أستأجر نرفال منزلا وسط منازل المسيحيين المارونيين ، ولكن الجارية لم تتوافق معهم ، وكانت تعتبر نفسها محاطة بمن هم أقل منها شأنا وكانت تطلب منهم خدمتها ، وذات صباح استيقظ نرفال فوجد فوق رأسه قسيساً مارونيا جاء إلى منزله بطريق الخطأ ، ولكنه تحدث معه وكانت الجارية حاضرة ، وأخبره نرفال بتاريخها ، كما أخبره بأنه سوف يمنحها حريتها ، لأنه لايستطيع أن يدخلها إلى فرنسا . وأخبره عن شدة تبجيلها للدين الإسلامى ، وأنه فى حقيقة الأمر شعور فطرى وطبيعى ، ولكن المارونيين الذين استضافوهم ، لم تعجبهم حركاتها ، وألحوا عليه فى بيعها ، وعرضوا عليه استحضار تركى لأتمام الأمر ، وكان الأب بلا نشيه قد عرض استضافتها فى الدير ، ويقول نرفال

- كنت أخشى أن يندفع الأب «بلانشيه» فى الخيال بدافع من قوة إيمانه، ويفكر فى أن يمنح الدير شرف تنصير إحدى المسلمات ، وكنت أخشى أن يصبح مصيرها فى منتهى التعاسة .

وحدث أن دعاه أمير بيروت لقضاء عدة أيام فى الجبل ، ودلوه على مدرسة فى بيروت للبنات تديرها سيدة من مرسيليا اسمها كارليس ، وكانت تلك المدرسة هى الوحيدة التى تمارس بها اللغة الفرنسية ، وبعد أسابيع من إقامتها فى المدرسة ، انتحت به مدام كارليس وقالت له : لن أيأس من الوصول إلى تبشيرها بالمسيحية .

غير أن الجارية أصرت عى موقفها ويقول نرفال فى خاتمة كتابه الذى نشر فى سنة ١٨٥١ :

- يبدو أن الجزء الأول من هذا المؤلف لقى ما لقى من نجاح بسبب ما اتسمت به قصة الجارية الهندية ، وهى حية ترزق ، وقد اضطررت إلى تغيير اسمها فى المطبوعة ، وهى الآن متزوجة فى إحدى مدن الشام ، وأن مصيرها استقر بصورة سعيدة إن الرحالة الذى ألقى نفسه دون تفكير عميق تسبب إلى الأبد فى تغيير حياتها ، لم يطمئن بالا على مستقبلها إلا حينما علم أن وضعها الحالى كان من اختيارها المطلق وقد ظلت على عقيدتها الإسلامية ، رغم كل الجهود التى حملتها على اعتناق الأفكار المسيحية ، ولن يستطيع الفرنسيون من الآن فصاعدا شراء الجوارى من مصر لأن أحداً منهم لن يجازف بإلقاء نفسه فى المتاعب التى تجرها مثل تلك المسئولية الأدبية . ■

تقارير السيدة راء

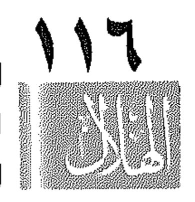
أعمال رضوى عاشور...

والتاريخ بين الواقعية والتجريب

بقلم
د. عزة مازن

تقارير السيدة راء للدكتورة رضوى عاشور . يستوقفك العنوان فيستغرقك التساؤل هل هى مجموعة قصصية كما يطالعك الغلاف، أم سيرة ذاتية للكاتبة كما يدل العنوان، أم أنه نص جديد يجمع بين خصائص النوعين ؟ تحملك الدهشة لتدلف داخل صفحات الكتاب فإذا بك بصدد نصوص بعضها ساخرة ضاحكة، ولكنها السخرية التى تغلف النقد اللاذع والرؤية الثاقبة، وبعضها الآخر يتدثر فى غلالة شفافة من الحزن

على مدى اثنى عشر تقريراً تطالعك راء نفس الاسم ونفس التكوين النفسى والأخلاقى ونفس الشخصية، ولكنها فى كل مرة فى محيط اجتماعى مختلف وفى مكان مختلف فهى تارة امرأة عاملة، وتارة امرأة وحيدة وأخرى أم العدد كبير من الأطفال وأحيانا أخرى هى شخصية اجتماعية مرموقة أو أستاذ أكاديمى متميز كل مرة شخصية جديدة ومكان جديد ولكن نفس الملامح النفسية والأخلاقية والعقلية، تتوقف التقارير عند أحداث مهمة فى تاريخ الأمة العربية، تتناولها فى تحليل عميق يكشف المتناقضات ويربط الأحداث، تقارير السيدة راء نص تجريبى جديد يناقش الحاضر بأبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويتوقف عند التواريخ المهمة فى حياة الأمة العربية ولكنه ليس النص التجريبى الأول للكاتبة، ففى روايتها أطياف (١٩٩٩) تقدم رضوى عاشور تجربة إبداعية جديدة تجمع بين الرواية والسيرة الذاتية فتدخل الكاتبة النص بوصفها أحد أبطاله، وعلى الجانب الآخر تقف شجر، الشخصية الأخرى



المتخيلة لتكون الصوت الآخر أو القرين الذى يسهم فى التعليق على الأحداث والتفاعل معها، فبين رضوى وشجر نقرأ صفحات مهمة وفاصلة فى حياة الأمة العربية فهل بهذين العملين الجديدين تدخل رضوى عاشور مرحلة إبداعية جديدة ومختلفة تاركة وراءها القالب الواقعى؟ وما موقع التاريخ فى هذه المرحلة الجديدة؟ هل يظل التاريخ محوراً أساسياً للعمل الأدبي كما كان الأمر فى رواياتها السابقة ذات القالب الواقعى؟ وما هى أهم السمات المميزة لهذه التجربة الإبداعية الجديدة ؟

لماذا العودة للتاريخ؟ سؤال طرحته على نفسى ولم أجد له إجابة صريحة، هل أحتمى بالتاريخ على ما فيه من الم، من واقع تستريع النفس منه ولا تملك التعامل الهادئ معه؟ هل أبحث فيه عن سند، عن فهم عن إجابات، هل هروب أم مواجهة ؟»

الأحداث محور أساسى

تطرح الأديبة والناقدة د. رضوى عاشور هذا التساؤل فى مقال لها بعنوان تجربتى فى الكتابة نشر عام ١٩٩٢ فى نهاية روايتها سراج يحتل التاريخ بؤرة اهتمام الكاتبة منذ روايتها الأولى «حجر دافئ» (١٩٨٥) وكان محورها مصر السبعينيات، تلتها خديجة وسوسن (١٩٨٩) لتركز على نفس الحقبة الزمنية فى تاريخ مصر. كانت هذه الفترة المضطربة المفعمة بالأحداث من تاريخ مصر محوراً أساسياً فى هاتين الروايتين، ولكن فى «سراج» (١٩٩٢) تعود الكاتبة إلى نهاية القرن التاسع عشر لتدور أحداث روايتها فوق جزيرة متخيلة لكنها تلقى بظلالها على





رضوى عاشور

واقع الأمة العربية فى تاريخها الحديث، وتمتد هذه الظلال لتتكاثف وتتشابك فى غرناطة (١٩٩٢) حيث تدور الاحداث فى مدينة غرناطة فى نهاية القرن الخامس عشر، فيتتبع النص المرحلة التالية لمعاهدة تسليم غرناطة وما شهدته من قمع الاحتلال وحرق الكتب ،وثورة البيازين، ومدى تأثير هذه الأحداث على تفاصيل الحياة اليومية لأسرة عربية مسلمة وتمتد غرناطة لتتواصل أحداثها فى «مريمة والرحيل» (١٩٩٥) رواية من جزءين تتابع حكاية الوجود العربى فى الاندلس بعد سقوط غرناطة، وفيها تتشكل مصائر شخصيات رواية غرناطة وشخصيات أخرى تظهر فى النص الجديد، لم تكن ثلاثية غرناطة ومريمة والرحيل مجرد نص روائى تدور أحداثه فى حقيبة تاريخية بعيدة فى أعماق الزمان، ولكن تحاور أحداثها واقع الأمة العربية فى تاريخها الحديث والمعاصر وتستحضر شواغلها ومخاوفها، يبقى التاريخ وظلاله وإيحاءات أحداثه إطاراً ومحوراً أساسياً الأعمال رضوى عاشور، فى رواياتها الخمس الأولى (حجر دافئ خديجة سوسن، سراج غرناطة مريمة والرحيل) يتخذ السرد

الطابع الروائى التقليدى، الأقرب إلى الشكل الواقعى من حيث الحدث الدرامى والتسلل الزمنى وتعدد الشخوص، وحيث يتوارى الكاتب خلف شخوص روايته ويبرز صوت الراوى العالم بكل شئ بين حين وأخر فى أرجاء النص .

فى أطياف (١٩٩٩) تتمرد رضوى عاشور على القالب السردى التقليدى لتقدم تجربة روائية جديدة تمتزج فيها الرواية بالسيرة الذاتية، ويلتقى الجانبان فى قراءة متانية ويلتقى الجانبان فى قراءة متانية لاوراق جيل، فيعود الاهتمام بالتاريخ العربى المعاصر يستغرق النص ولكن باسلوب جديد .

يبدأ النص بالحيث عن الأطياف فى صورة شعرية نستلهم أسطورة البعث المصرية القديمة، إنها أطياف عمال حفر قناة السويس الذين تم جلبهم للعمل بالسخرة فى حفر القناة، ومن بينهم كان زوج شجر الجدة وأخوها، ومع تكثيف الايحاء الاستعارى لهذه السطور قد يظن القارئ ضرورة انفراج الخطوط المتشابكة فى إطار من السرد الروائى التقليدى، حيث يبدأ النص ليحكى قصة شجر الجدة التى تحدث وصبرت ووقفت لتربى الأبناء بعد وفاة الأب، يدركها الكبر فتزورها الأطياف، ولكن فجاة يقفز النص من شجر الجدة إلى شجر الحفيدة، ثم من طفولة الحفيدة إلى كهولتها، وقبل أن يتساءل القارئ يفاجئه الحضور الواعى للمؤلف وتدخله فى السرد ليس بوصفه الراوى العالم بكل شئ ولكن بصفته المؤلف الذى يعى كتابته لنص أدبى .

ويبدأ انفراج الخطوط، ولكن فى اتجاه آخر غير ما يمليه نص تقليدى، فى إطار من التداعى الحر نبدأ التعرف على شجر الحفيدة، فنراها تحمل نفس سمات شخصية رضوى، بل ونفس تاريخ الميلاد، فقد ولدت شجر فى نفس يوم ميلاد رضوى فى بيت يطل على كوبرى عباس، ولكن من الجهة المقابلة لبيتها، جهة الجيزة.

بعد أن تتداخل الخيوط بين رضوى وشجر فى الفصل الأول تعود إلى الانفراج فى الفصل الثانى حيث تروى رضوى عن طفولتها المبكرة ولكنها رواية لاتخلو من إلقاء الضوء على حقبة تاريخية بعينها عاشها هذا الجيل وتفسر نظرة الأجانب المتحيزة دائما ضد أبناء البلاد ومحاولة طمس قدراتهم مهما تميزت هذه القدرات، فى مدرسة راهبات فرنسية يتكشف أمام الطفلة الصغيرة، رضوى عالم جديد عالم يدهشها، يخيفها ويفزعها فى آن، ولكن سرعان ما تألفه إلا أنها ألفة لاتخلو من شعور بالوحشة تتحول بعد ذلك إلى قدرة على قراءة خاصة لتلك الحقبة من التاريخ.

تتلاقى الخطوط وتمتزج أحيانا بين رضوى وشجر ويتقافز النص بينهما، بل وتغيب الفواصل أحيانا، ولكنهما تتحاوران وتشتركان معا فى رسم ملامح صورة جيل وقراءة ما بين سطور أوراقه اختارت الكاتبة لشجر المتخيلة أن تعيش فى بيت يطل على الجهة الأخرى المقابلة لمنزل أسرتها، ربما لترى شجر ما لاتراه رضوى تدرس شجر التاريخ وتتعمق فى دراسة التاريخ الفرعونى القديم ولكنها تختار دير ياسين موضوعا لرسالة الدكتوراه ، وهنا تستخدم الكاتبة شخصية شجر فى محاولة لإعادة قراءة تاريخ المنطقة العربية .

ومن خلال شجر تفند رضوى الوثائق التاريخية الخاصة بالواقعة وتسرد الشهادات المختلفة. تحمل شجر العبء



الأكبر فى القراءة التاريخية لأحداث المرحلة وإرهاصاتها فى مراحل تاريخية سابقة، تشاركها رضوى أحيانا ولكن يبقى لشجر دور أستاذ التاريخ المتخصص الذى تستعين الكاتبة بمعارفه فى الإضاءة التاريخية للأحداث والأماكن، ومن خلال شجر أيضا يتعرض النص لسلبيات اجتماعية جديدة وفقدان للقيم يمتد ليلوث حرم الجامعة وتبقى شجر وحيدة مع قلة من الشرفاء تتصدى لتيار الفساد الجارف، وتقاوم شجر حتى لا تجد سبيلا للمقاومة ويبقى أمامها الاختيار إما أن تغض الطرف عن الفساد لتحمى مكانتها العلمية أو تكون نموذجا آخر لجمال حمدان، وبالفعل تختار شجر أن تكون جمال حمدان، بل بمعنى أدق تضطر أن تكون جمال حمدان، بعد أن يتهمها العميد بالجنون فتقدم استقالتها وتذهب للتجول فى قاهرة جمال حمدان تتواصل مع المكان وتتطلع لأطياف آلهة المصريين القدماء تأتيها من أعماق التاريخ المصرى القديم فتتواصل مع حضارة المصريين القدماء وعلمهم وحكمتهم وقيمهم، ومثل جدتها شجر الكبيرة تزورها الأطياف وتتردد أصواتها فى الوادى من جديد

ملامح جيل

بين الدكتورة شجر عبد الغفار، أستاذ التاريخ والدكتورة رضوى عاشور أستاذ الأدب الانجليزى تكتمل الصورة لترسم ملامح جيل عاصر فترة تاريخية دقيقة بكل أحداثها، يسهم التحاور والامتزاج بين الشخصيتين - الحقيقة والمتخيلة فى القراءة المتأنية لأوراق هذا الجيل من هنا جاءت شخصية شجر كعنصر ضرورى أتاح للكاتبة تناول أحداث لم تكن هى نفسها طرفا فيها بشكل مباشر ولكنها أحداث محيطة لفتتها فجاءت شجر لتكون الصوت الداخلى لرضوى تحذو حذوها لو كانت طرفا مشاركا فى هذه الأحداث فشجر هى قرين رضوى وفى نفس الوقت أداة تقنية تمكن الكاتبة من ربط عناصر قد يكون هناك صعوبة فى ربطها، ومع ذلك تبقى شجر شخصية واقعية لها كيانها وانفعالاتها الخاصة، ومن ثم فإن ابتداع شخصية شجر أتاح ثراء للتجربة وعمقا للرؤية لتبقى «أطياف» تجربة إبداعية جديدة تجمع بين الرواية والسيرة الذاتية والقراءة المتأنية لأحداث تاريخية مهمة، ولا يتوقف الجهد الإبداعى الجديد فى هذه الرواية على ذلك المزج الروائى بين شخصية الكاتبة فى سيرة ذاتية تتابع أمام خلفية من الأحداث المهمة فى تاريخ مصر الحديث وشخصية أخرى متخيلة تتكامل وتتحاور معها وتشاركها قراءة الحاضر وتتيح لها التوغل بعيداً فى الزمان مستلهمة أحداثه، بل يتجلى هذا التوجه الإبداعى الجديد أيضاً فى ذلك الحضور الواعى لصوت الكاتبة الذى يتخلل السرد من أن لآخر وفى إثراء النص بأحداث وشهادات تاريخية .

إلى جانب الأطياف التى تزور شجر الجدة والأطياف التى تسعى اليها شجر الحفيدة تبقى «أطياف» (بدون أداة تعريف) عنواناً أكثر ملاءمة لهذه التجربة الإبداعية الجديدة تتفق ومنطق التداعى الحر الذى اختارته الكاتبة إطارا لهذا العمل الذى يزخر برؤى وشهادات من تاريخ مصر الحديث .

في مجموعتها القصصية الجديدة تقارير السيدة راء (٢٠٠١) تواصل د. رضوى عاشور قراءتها المتأنية لأحداث العصر والتقليب في أوراق تاريخية، وتواصل أيضا تمردها على أسلوب السرد التقليدي، فالمجموعة أقرب إلى شكل التقرير منها إلى شكل القصة بالمعنى الموبسانى أو الحداثي، ففيها يغيب الحدث الدرامي تماماً فعلى مدى أثنى عشر تقريراً هي لقطات فكرية شعورية تتشكل سيرة فكرية للكاتبة ترتبط بأحداث العصر وملامحه التاريخية في الوطن العربي على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي تتنوع التقارير في سياقاتها الزمانية والمكانية وتتماوج فيها الحركة بين شخصي وعام وتمتزج فيها الضحكات بالأحزان، وتبقى راء بتكوينها النفسي الخاص عنصراً مشتركاً بين التقارير جميعها، وإن اختلفت ملامحها الشخصية الخارجية ووضعها الاجتماعي ، تتسع شخصية السيدة راء لتشمل نوعا من البشر له تكوين خاص يجعله أكثر معاناة في واقع اختلت موازينه واضطربت قيمه، فهو يعاني من ضغوط مختلفة اقتصادية واجتماعية، إنسان تأجلت أحلامه وينتظر أن تتحقق دون جدوى.

تحاول راء أن تكتب القصة بأكثر من أسلوب على الطريقة الميلودرامية، أو على طريقة الأفلام الصامتة، فتتغير تفاصيل القصة ولكن تبقى تيمتها الأساسية، حلم تأجل وقد يضيع العمر انتظاراً لتحقيقه .

يفضي ذلك إلى التقرير الثاني - «تقرير السيدة راء عن الشهر الأخير في السنة» . تستخدم الكاتبة أسلوبا ساخرا ضاحكا، ولكنها السخرية المرة اللاذعة فلازال البحث المضني عن حلم تأجل قد يهلك الإنسان بحثاً عنه ولكنه سرعان ما يلملم شتات نفسه ليواصل البحث في هذا التقرير تستخدم الكاتبة أسلوب اللامعقول الذي يحدث في أفلام الكارتون، تقفز راء من الطابق الثالث في مشهد كوميدي تهرع إليها صديقتها لام ولكنها لاترى شيئا في الظلام فتأتي بكشاف ضوئي للبحث عن راء وهي تنتحب، فتوبخها راء وتطلب منها سرعة شراء شريط لاصق لمعالجة الأمر، فقد تفكك جسد راء، بالفعل تنجح لام في المهمة: «كان عليها أن تثبت الرأس في العنق واليد اليمني في الكتف اليمين وكان الوسط مخلوعاً واصلت عملها حتى أضاءت خيوط الفجر الأولى السماء فتمكنت من مراجعة ما أنجزته وتمتين اللصق والتثبت منه ».

وكما يحدث في أفلام الكارتون تعود راء لمواصلة حياتها الطبيعية.

قد يتوقف القارئ عند ذلك الأسلوب الساخر الذي تستخدمه رضوى عاشور للمرة الأولى، ولكنها ترى أن قدرة الكاتب على تضفير المبكيات بالمضحكات هي قمة الدراما الإنسانية، في روايتها السابقة «أطياف» تكتشف الكاتبة حاجتها إلى القدرة على الكتابة الساخرة حتى تأتي الكتابة أدق تعبيراً عن أكثر المواقف إيلاما ومعاناة : «كان إميل حبيبي بارعاً يعرف كيف يضحك قارئه ويضحك هو نفسه حتى وهو ينقل أكثر التجارب وطأة يضفر إميل حبيبي المضحكات بالمبكيات، يغلف المأساة بالهزل، تلتقط عينه عناصر المفارقة مهما كان الموقف مفجعاً لست كاتبة ساخرة مثله، ما العمل؟»من هنا تكتشف رضوى عاشور حاجتها إلى التعبير الساخر الذي شمل جزءا كبيراً من مجموعتها تقارير

السيدة راء.

جاء اختيار الكاتبة لعنوانى التقرير الأول والثانى بالغ الدلالة فى تأكيد البحث عن الحلم المؤجل فاختيار اليوم الأخير فى الأسبوع والشهر الأخير فى السنة يؤكد مواصلة البحث على مدى الزمن، فبين الأسابيع والشهور والسنين يمضى العمر.

تحقيق الحلم

تمتد تيمة انتظار تحقيق الحلم المؤجل لتتجاوز الجانب الاجتماعى الاقتصادى فى التقارير الثلاثة الأولى لتتفتح على انتظار تحقيق هذا الحلم على المستوى القومى والعربى، فى التقرير الرابع. (تأملات السيدة راء فى كامبريدج ذات النطاقين) - وهى لمحة مستمدة من رحلة للكاتبة إلى كامبريدج الثانية فى أمريكا - تقف راء بالقرب من تمثال جون هارفارد وفى نشرة سياحية عن المكان تقرأ أن فرك أحد أصابع قدميه يجلب الحظ، وهنا تتأمل الكاتبة فى نغمة لاذعة السخرية، ولكن تتجلى فيها قدرة بارعة على «تضفير المضحكات بالمبكيات»:

«لو أن راء زارت كامبريدج الثانية قبل ضياع ثلاثة أرباع فلسطين عام ١٩٤٨ ووقوع نكسة عام ١٩٦٧ التى أضاعت الربع الباقى، وأشياء أخرى لاداعى لذكرها الآن لكى لا نقلب مواجع القارئ .. لو أن راء عرفت بموضوع إصبع القدم هذا قبل قصف العراق مثلاً وقتل أطفاله بمنع وصول الدواء إليهم لهمت واهتمت وقضت ليلتها تفرك أصابع قدمى جون هارفارد جميعها وليس أصبعاً واحداً، بل كانت تجوب المدينة وتتوقف عند كل تمثال من تماثيلها، تشهق أسى وخيبة كلما وجدت تمثالاً نصفياً ولكنها لاتيأس وتواصل البحث عن تماثيل كاملة حافية الأقدام لأن الإنسان يجب أن يكرر على نفسه : من يدرى لعل وعسى يكون فى أصبع قدمى هذا التمثال حل قضايانا، وزوال النحس عن تاريخنا المعاصر

فى إطار ساخر استطاعت رضوى عاشور بإيجاز بالغ وبراعة فائقة إلقاء الضوء على كثير من التناقضات الفكرية العالمية والعربية على المستويين السياسى والاجتماعى، وكذلك السخرية من الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم.

يتتابع الأسلوب الساخر فى التقرير الخامس - «المقارنة الهولمزية» - فتختار الكاتبة الطريقة الهولمزية للبحث عن الحلم المفقود تتقمص راء شخصية شولوك هولمز، ولكن بأسلوب عصرى يستخدم الإنترنت والقنوات الفضائية، وفى نهاية التقرير تطرح تساؤلاً مهماً وخطيراً:

كيف يتحقق الحلم العربى وحلم العالم الثالث؟ هل بأساليب تنبع من الداخل أم أن الأمر يحتاج إلى وسائل حداثية نستقطبها من الخارج .

على الآن أن أفكر أيهما أقرب للهولمزية الأصيلة ايهما أنفع تاريخياً البلاد العالم الثالث؟ أيهما سكة السلامة هولمزية هولمز الأصلى أم الهولمزية الجديدة..؟ تعتقد راء أن الاجابة ستستغرق بعض الوقت ».

بينما تتعالى النغمة الساخرة فى التقاريرالأولى يظلل الحزن التقارير الخمسة الأخيرة ففى التقرير الثامن - «قتل نظيف» تستخدم الكاتبة رحلة لها إلى أسبانيا لتستعرض قسوة مصارعة الثيران

مقارنة ذلك الأسلوب فى القتل بما يحدث فى فلسطين والعراق، ومن كتاب لهيمنجواى بعنوان «الموت عصراً» تقتبس الكاتبة «إن المكان الوحيد الذى يستطيع فيه مشاهدة الحياة والموت أى الموت العنيف الآن بعد أن انتهت الحروب (يقصد الحرب العالمية الأولى، فالكتاب منشور عام ١٩٣٢) هو حلبة مصارعة الثيران». ومن كتاب هيمنجواى أيضاً تعرف راء أن «ثور المصارعة النموذجى ثور لا ذاكرة له، لم يسبق له المصارعة وتخلص إلى أن الذاكرة إذن، الذاكرة هى كل شئ ومن ذلك ربما يخلص القارئ إلى أن قتل ذاكرة الشعوب وطمس هويتها هو الهدف الأول الذى يسعى إليه الاستعمار فى جميع أشكاله .

فى التقرير العاشر - «تقرير السيدة راء عن رحلتها إلى أسبانيا فى الثالث من أكتوبر ٢٠٠٠ - تزور راء منزل الشاعر الأسبانى فيديريكو جارثيا لوركا وتستحضر تاريخ اعتقاله فى الحرب الأهلية الأسبانية عام ١٩٣٦ يستدعى المشهد أحداث الاعتقال والقتل فى فلسطين، يبدأ التقرير .بمتابعة راء لأخبار الانتفاضة الفلسطينية من أسبانيا، وفى الجزء التالى من التقرير نتابع حياة الشاعر الأسبانى فيديريكو جارثيا لوركا واعتقاله فى غرناطة، فى الجزء الثالث من التقرير تتداخل أحداث ثورة غرناطة ١٩٣٦ وأحداث فلسطين .

«عند التقاء الشارع بطريق النهر أقول هنا، على الأرجح حفر العمال خندقا لحمايتهم من اقتحام الكتائب للحى عام ١٩٣٦ أتذكر خندقا آخر أقامه أهل دير ياسين على مداخل قريتهم بعد ذلك بإحدى عشرة سنة، لا خندق الآن، هنا أو هناك».

تعود الكاتبة إلى تاريخ الأندلس القديم وملامح ومن ثلاثيتها غرناطة ومريمة والرحيل ليستدعى تاريخ اضطهاد المسلمين فى الأندلس وحرق كتبهم ما يحدث فى فلسطين :

«الحمام العربى القديم فى الجانب الآخر من الشارع، أعبر قصور قديمة، فى قصر منها سترى مريمة اللوحة فتضطرب وتتطير، فى اللوحة وعل جريح وصيادون وكلاب، أشبه بتلك النسجية التى رأيتها قبل ربع قرن فى متحف فى شمال نيويورك نسجية من سبعة أجزاء تصور حصاناً أسطوريا أبيض له قرن وحيد، ناهض يترصده الصيادون ثم نازف ومحاصر، ثم يسقط، ولكن الأغنية الشعبية تقول: إنه وحيد القرن النبيل، إنه يحقر رماح الصيادين، وإن طريقه وعرة ضيقة وتقوده إلى السماء حيث لا أحد يستطيع قتله ».

وفى نهاية التقرير تنسحب أحداث التاريخ الماضى إلى خلفية المشهد لتركز كاميرا الأحداث على أخبار الانتفاضة الفلسطينية وحدها :

« لم أفكر فى .. الشاعر الذى ولد فى الخامس من يونيه عام ١٨٩٨، وأعدم فى التاسع عشر من أغسطس عام ١٩٣٦، ولا فى الخندق الذى حفره العمال عند مدخل الحى فى ذلك الصيف ، ولم أفكر فى أبى جعفر ومريمة،، ولا فى سليمة التى أعدمت حرقاً فى ساحة باب الرملة، لم أكن أفكر سوى فى نشرة الأخبار : كم شهيداً؟ كم جنازة ؟ كم أصيبوا وكم منهم أطفال ؟ كم مظاهرة ؟ كم معتقلا ؟».

ومن بين تماثيل صغيرة كل منها نسخة طبق الأصل لتفصيلة من تفاصيل لوحة جرنيكا لبيكاسو تختار راء «المرأة التى لايظهر منها سوى رأس مندفع من نافذة تشرف .على المشهد وذراع تستطيل وهى

تقبض بعزم موتور على مصباح صغير» لتعود بها إلى القاهرة، بكل ما يحمله التمثال من أمل فى تحقيق الحلم المؤجل .

التقرير الأخير

فى «التقرير الحزين» تستدعى الكاتبة تاريخ ثورة الجزائر من خلال كتاب قديم عن جميلة بو باشا مؤكدة على استمرار تاريخ مقاومة الاستعمار على مدى الزمن، ويأتى اقتباس شهادة سيمون دى بوفوار عن الشهيدة الجزائرية مؤكداً بشاعة المستعمر وشرعية المقاومة واستمرارها .

فى بداية «التقرير الأخير» نقرأ: «رأيت فيما يرى النائم عربة طفل تسقط من أعلى سلم رخامى عال، تدرج عليه عجلاتها وتتدحرج فى اندفاع خاطف، تصطدم بدرجه وتهوى».

وهنا قد يتساءل القارئ: هل يعنى ذلك الاستسلام لضياع الحلم المؤجل؟ ولكنه تساؤل يجد إجابته فى الفقرة التالية فى اقتباس من مسرحية هاملت لشكسبير : «أيهما أكثر نبلا تتحمل سهام الدهر أم ترفع السلاح ؟... تنهى الألم بضربة واحدة تموت تنام لعلك تحلم

ياتى هذا التقرير بالغ القصر شديد الكثافة يميل نحو الأسلوب الشعرى، وفيه تختصر راء عمرها فى أربعة صور

«رأيت بأم عينى عربة طفل تهوى فى عنف من أعلى درج، ورأيت الفتى يصعد درج القلعة، والتهمت مع رفيقى كرات من الحلوى المثلجة فى نهار صيفى فى أعلى درج مشمس، ضحكنا ثم هبطنا معاً لزيارة بيت صيفى من غرفتين، معروض فى إحداهما أوراق لفتى فى الخامسة والعشرين ولآخر يكبره بأربعة أعوام، ماتا فقيرين وحيدين وتركا أشعاراً درستها لطلابى بعد مائتى عام من رحيلهما .. لاشئ سوى ذلك ».

فى هذا التقرير الأخير تختفى راء لتفاجئنا رضوى.

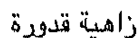
«تقارير السيدة راء» سيرة فكرية شعورية للكاتبة يلتقى فيها الرمز بالتعبير الساخر فى إطار من التداعى الحر، ويربطها خيط انتظار تحقيق الحلم المؤجل فى واقع مؤرق مضطرب على جميع المستويات، تتسع شخصية على كافة المستويات، تتسع شخصية السيدة راء فى التقارير الأولى لرؤية ساخرة بطلها الإنسان المعاصر، وعلى الأخص نوع من البشر يتميز بقدر عال من الحس المرهف، تتكثف سمات الشخصية فى التقارير الأخيرة حيث تستخدم الكاتبة لمحات من رحلات ومواقف لها توظفها توظيفاً خاصاً لبعث دفقات فكرية شعورية جديدة، المجموعة تجربة إبداعية جديدة تستلهم فيها الكاتبة نصوصاً من أعمال إبداعية عالمية تثرى النص وتضئ جوانبه، فى هذه المجموعة أيضاً يتجلى الحضور الواعى للكاتبة بوصفها المؤلفة، وهو نفس الأسلوب الذى اتبعته فى روايتها أطياف .

بين أطياف وتقارير السيدة راء» تقدم رضوى عاشور تقنية أدبية جديدة فى السرد الروائى والقصصى العربى، تتسع للرمز واستلهام الثقافات والبحث فى دهاليز التاريخ ومحاورة أحداثه وتكوين رؤية تاريخية اجتماعية سياسية تحلل الأحداث وتتفاعل معها. ■

مداعبات ونسائيات وموسوعات


مى زيادة

وداد سكاكيني



زاهية قدورة

بقلم
وديع فلسطين

من أجمل أغراض الشعر المداعبات، وهى تكون فى الأغلب الأعمّ ارتجالاً ومن وحى البديهة الحاضرة، وتكون أحياناً أدخل إلى الغزل منها إلى الدعابة المجردة. وللشعراء كباراً وصغاراً إسهام فى هذا الباب، سواء سجلته الدواوين أو لم تسجله، على أن بعض المداعبات ينحرف إلى الهجاء، وقد يكون مقذعا وما أكثر ما سمعت من أمثاله من الشاعر العوضى الوكيل (١٩١٥ - ١٩٨٣) الذى كان فى مداعباته مع الأصدقاء يكاد يقع تحت طائلة قوانين السب والقذف، لولا أن صدور الشعراء فى ذلك الزمان كانت واسعة، تتقبل هذه المداعبات بروح فكاهية تخفف من رتابة الجلسات الأخوية. على أن المداعبات قد تحدث حتى فى المجالس النيابية الملتزمة بالوقار والرصانة.

فقد روى الأديب السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى - أطال الله بقاءه - فى كتابه «ذكريات أيام السياسة» أنه عندما كان عضواً فى المجلس النيابى السورى كانت الرياسة معقودة للدكتور فارس الخورى (١٨٧٩ - ١٩٦٢) حتى عند غيابه فى هيئة الأمم المتحدة ممثلاً لبلاده ورئيساً لمجلس الأمن، وكانت أمانة السر معقودة للشاعر محمد سليمان الأحمد المكنى ببدوى الجبل (١٩٠٤ - ١٩٨١) بينما كان العجيلى ينتدب لأمانة السر متى غاب الأمين الثانى .

وفى إحدى الأمسيات رغب العجيلى فى غشيان «حلقة الزهراء»، وهى ندوة كانت تقيمها فى دمشق السيدة زهراء العابد زوجة محمد على العابد رئيس الجمهورية الأسبق، ورافقه فى التوجه إلى الحلقة - بعد تردد - الشاعر بدوى الجبل ، وكانت فى الحلقة فتاة جميلة اسمها سلمى سحرت جميع الحاضرين حتى كاد موعد جلسة المجلس النيابى يضيع على العضوين.

ولما انتظم عقد المجلس، واستقر بدوى الجبل على المنصة، فى حين جلس العجيلى فى القاعة بين كتلة من النواب الشباب نادى بدوى الجبل أحد السعاة وأعطاه وريقة مطوية وأمره بحملها إلى العجيلى الجالس فى القاعة، ولما فض العجيلى الورقة، قرأ فيها بيتاً واحداً هو:

لا تبالي، والخير في أن تبالى
ألهجر تصدّ أم لدلال؟

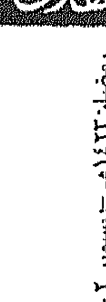
ويقول العجيلى: ضحكت ، وسألنى زملائى ماذا تريد الرياسة منى، فتهربت من الجواب، وكنت أعرف ماذا حرّك شيطان الشعر فى صديقى أو من حركه، فتناولت قلمى ورحت أجيبه بالأبيات التالية:

لو تراها وأومضت مُقلتاها
تسكب الشوق فى ثنايا السؤال
أين، لا أين ، شاعر بدويّ
ملهم الروح عبقرى الخصال
قلت أودى بلبه يا سليمى
خافق هام فى فنون الجمال
كلنا فى هواك صب عميد
مثل بدو السهول بدو الجبال!

وبعث العجيلى بالورقة مع الساعى إلى منصة الرياسة و«عينى عليه وكذلك أعين زملائى، ولحظنا جميعاً كيف قرأ البدوى الورقة ومال بها إلى الرئيس فارس الخورى يتلوها عليه ، وكيف كان الرئيس يهز هامته الضخمة لتلك التلاوة!!

وبعد قليل عاد الساعى حاملاً إلى العجيلى وريقة جديدة من بدوى الجبل، فلما فضها قرأ الأبيات التالية:

ما لسلمى بعد المشيب ومالى
بدعة الحب صبوتى واكتهالى
إن حب الجمال أصبح عندى
بعد شيبى عبادة للجمال
كلما لاح بارق من سناه
جُن قلبى ، وضل أى ضلال
وأنا الظامىء القنوع كفانى
عن ورود الغدير ومضة آل



أعــشق الحــسن نظرة وحنــــاناً
ورؤى حــالم وطــيف خــيــال
وأحب الجــمـال يلهـمنى السحـر
وأهـــواه مشـــرباً بالدلال!

ويقـول العـجيلى: قـرأت الورقـة ، وطويتها محتفظاً بها لنفسى غير مشبع فضول رفاقى ولا فضول الصحافيين الذين كانوا يرقبون من شرفتهم رواح السعاة ومجيئهم بين سدة الرياسة وبينى بهذه الأوراق المكتوبة، لقد ظنوها تتعلق بإحدى المناورات السياسية التى كان المجلس النيابى مسرحاً لها، فجاءوا إلىّ بعد انفضاض الجلسة يسألون ويلحون فى السؤال، غير أنى لم أطلع أحداً على خفى الحكاية، ولم أنشر هذه الأبيات التى أوحتها حسناء فى حلقة الزهراء ونظمها نائبان من نواب الأمة، حتى تلك الفاتنة لم تدر بما ألهمته من شعر وأثارته من اهتمام ، وبما شغلت به عدداً من النواب والصحافيين من حيرة السؤال .

هذا وقد راجعت ديوان بدوى الجبل فلم أقع فيه على هذه المداعبة الطريفة، ولولا أن العجيلى سجلها فى ذكرياته لما عرف القارىء أخبارها .

جنة من فواكه الشام

ومن المداعبات الشعرية الطريفة ما أرويه نقلا عن الشاعر العراقى الكبير حافظ جميل (١٩٠٨ - ١٩٨٤) الذى قابلته من نحو ربع قرن عندما زار القاهرة ونزل فى فندق عمر الخيام الذى كان يحتل حديقة فندق ماريوت فى ذلك الوقت، وقضيت معه نحو ساعتين كان كل حديثه فيهما يدور حول الشعر والمرآة والكأس، ولعله آثر أن يقيم فى فندق عمر الخيام تيمناً بصنوه الشاعر الفارسى.

وعندما سألت حافظ جميل عن قصيدة «ياتين ياتوت يارمان ياعنب» قال لى : وهل أتاك خبرها؟ فقلت : نعم، ولكننا لا نعرف حقيقة مؤلفها وهل هو أنت أو هو الشاعر الفلسطينى إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١) .

فقال، إن لهذه القصيدة قصة ترجع إلى أيام دراستى فى جامعة بيروت الأمريكية، فقد زاملنى وقتها الشاعر إبراهيم طوقان والشاعر الطبيب السورى وجيه بارودى، كما كان من بين طالبات الجامعة شقيقتان من عائلة «تين» السورية، وكانتا بقوامهما وبأنوثتهما تمثلان جنة من فواكه الشام، فأراد ثلاثتنا أن نداعبهما من خلال الفواكه الشامية من تين وتوت ورمان وعنب، فاشتركنا فى نظم هذه القصيدة التى ترددت فى رحاب الجامعة وصار الطلاب يرددونها بمسمع من الشقيقتين ليلى وأليس تين .

وسألت حافظ جميل : وماذا كان شعور هاتين الفتاتين؟ فقال إن الغوانى يغرّهن الثناء، أما القصيدة فهى طويلة ، وأجتزىء هنا بالمقاطع الثلاثة الأولى منها.

ياتين ، ياتوت، يارمان، ياعنب

يادُر، ياماس، ياياقوت ، يا ذهب
الله، الله، ما هذا الدلال وما
هذا الصدود، وما للقلب يضطرب؟
ياتين ، ياتوت، يارمان ، ياعنب
الشمس، ما الشمس، إن الشمس تنكف
البدر ، ما البدر، إن البدر ينخسف
والدمع ، ما الدمع ، إن الدمع ينذرف
يامنية القلب ، هل وصل وانصرف؟

***

ياتين ، ياتوت، يارمان ، ياعنب
ياتين ، ياليت سرح التين يجمعنا
ياتوت ، ياليت ظل التوت مضجعنا
وأنت ليتك يا رمان ترضعنا
والكرم ، ياليت بنت الكرم تصرعنا
ياتين ، ياتوت، يارمان ، ياعنب

معارضة شعرية من الكويت

كنت نشرت فى هلال أكتوبر الماضى أن الشاعر العراقى أنور شاؤول حول رسالة مجوعة وجهها الأديب المهجرى نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) إلى العلامة العراقى جعفر الخليلى (١٩٠٤ - ١٩٨٥) إلى قصيدة مطلعها :

أنا إن سئلت عن المودّة قلت إن الود ودك

وقد تلقيت بعد ذلك معارضة لهذه الأبيات من الأديب الكويتى فهد محمد نايف الدبوس جاء فيها :

أحييت يارب البيان قصائداً، فالجهد جهدك
وحفظت للأجيال كنزاً غالياً، فالمجد مجدك
إن كان قصدك نشر آثار مضت، قد طاب قصدك
اسلم، فقد فاق القصيد وسحره المكنون قولك

وقد سئلت عن الشاعر أنور شاؤول، فأجبت السائلين بأنه محام عراقى يهودى، ولكن العراقيين يذكرونه بكل خير، وقد ولد فى الحلّة عام ١٩٠٤ وأصدر ثلاثة دواوين بعنوان «الحصاد الأول» و«الحصاد الثانى» و«همسات الزمن» ووضع قصة سينمائية عنوانها «عليا وعصام» انتجت كأول فيلم عراقى فى عام ١٩٤٨ كما ترجم أقاصيص ومسرحيات لأدباء غربيين، وجمع معارضات لقصيدة «ياليل الصب».. وقام الأديب على الخاقانى المولود فى النجف عام ١٩٠٩ بنشر نماذج من شعر أنور شاؤول.. هذا وقد غادر شاؤول العراق - ويقال إلى إسرائيل - وتوفى هناك.

مى زيادة ووداد سكاكينى

أشادت السيدة حرم رئيس الجمهورية فى كلمتها فى مؤتمر المرأة والابداع بالأديبتين مى زيادة (١٨٨٦ - ١٩٤١) ووداد سكاكينى (١٩١٣ - ١٩٩١) فكانت هذه تحية كريمة وجهت إلى هاتين الأديبتين الكبيرتين ، وإذا كانت الأسباب لم تواتهما باللقاء، فقد عُنيت وداد سكاكينى بإعداد كتاب منصف عن مى زيادة ، ومن الأسف أنه بعد نفاده لم يعد طبعه .

وقد لقيت مى زيادة فى حياتها كثيراً من الظلم، وهو ظلم لاحقها بعد وفاتها، فعندما لقيت مى وجه ربها فى ١٩ أكتوبر ١٩٤١ أشرفت زعيمة النهضة النسائية هدى شعراوى (١٨٧٩ - ١٩٤٧) على تشييع جنازتها ودفنها فى قبر مستقل فى مقابر الموارنة بحى مصر القديمة، وكان الضريح محاطاً بمزروعات وورود لم تلبث أن ذبلت لانعدام الزائرين، سواء من ذوى القربى أو من معاصريها.

وقد زارت الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى - أطال الله بقاءها - ضريح مى وسجلت فى كتابها «مى زيادة أو مأساة النبوغ «صورة لهذا الضريح ووصفته قائلة «نقش على قبرها المتواضع ما يلى : هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب، المثل الأعلى للأدب والاجتماع المرحومة مى زيادة ، ودفنت فى ٢١ أكتوبر ١٩٤١ ، صلوا من أجلها».

وأضافت قولها : مازال هذا النقش واضحاً على قبر مى، إذ مازالت ترقد هناك فى أرض الكنانة التى أحبتها وكرمتها، أجل، مازالت مى زيادة ترقد فى قبر متصدع مهجور، لا من يزوره، ولا من يضع زهرة عليه، ولكن الطبيعة كانت ومازالت أكرم من أهليها وأبناء وطنها، إذ أنبتت على جوانبه أغصاناً ندية دائمة الاخضرار تحنو عليه وتباركه».

ومع الهجمة الاستثمارية التى لم تسلم منها حتى المقابر، ضنت إدارة مقابر الموارنة على مى بهذا الضريح المستقل الذى يشغل حيزاً عريضاً ، وعوضاً عن أن تقوم بترميمه، عمدت إلى هدمه لكى تبيع الأرض بالثمن الغالى، ونقلت التابوت إلى فجوة فى جدار تعلوها وتحيط بها فجوات أخرى لراحلين، وبعد ما أزيلت العبارة التى كانت منقوشة على الضريح، وضعت على الفجوة لوحة مختصرة نصها «الأديبة مى زيادة نابغة الشرق ١٩٤١».

وهكذا حوربت مى حتى فى رقدتها الأخيرة.

والأديبة السورية وداد سكاكينى أديبة عصامية علمت نفسها بنفسها وأصبحت مثالاً مشرفاً للمرأة السورية بما نشرته من كتب تدور محاورها حول النقد الأدبى والأدب الروائى بفنونه المختلفة والتراجم وقضايا المرأة والذكريات ، وهى تتميز بأسلوب ناصع البيان كنت فى شبابى أثر سمة وأحاول السير على منواله، وهى وإن لم تشتغل بالسياسة أو تهتم بها، فقد اختيرت عضواً فى البرلمان المصرى السورى فى زمن الوحدة تقديراً لشخصها واعترافاً بفضلها.

وقد تزوجت وداد سكاكينى من

العلامة السورى الدكتور زكى المحاسنى (١٩١١ - ١٩٧٢) الذى عمل أستاذاً فى الجامعات العربية واختير عضواً فى مجمع اللغة العربية فى مصر وله طائفة كبيرة من الدراسات الأكاديمية، فضلاً عن ديوان شعر مازال ينتظر أسباب نشره .

وقد عمل الدكتور المحاسنى مستشاراً ثقافياً فى السفارة السورية فى مصر عندما كان على رأسها العلامة الأمير مصطفى الشهاوي (١٨٩٣ - ١٩٦٨) رئيس مجمع دمشق بعد ذلك، فأصبحت السفارة السورية فى عهديهما منتدى للأدب والفكر والثقافة على نحو غير معهود فى دور السلك الدبلوماسى.

ولعل التكريم الوحيد الذى نالته وداد سكاكينى فى حياتها هو حفل تأبين أقيم لها فى مدينة صيدا اللبنانية التى ولدت فيها .

الدكتور زاهية قدورة

ويستدرجنى الحديث عن أديبات رائدات إلى الإشارة إلى الأديبة اللبنانية الدكتورة زاهية قدورة التى توفيت فى ٩ أكتوبر ٢٠٠٢ بعدما نيفت على الثمانين من العمر.

وهى من خريجات كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) وتزوجت من الأديب المصرى الدكتور محمد عبدالسلام كفافى (١٩٢١ - ١٩٧٢) الذى سبق إلى ترجمة كتاب «مثنوى» لجلال الدين الرومى قبل أن يتصدى لترجمته الدكتور إبراهيم شتا.

وعملت الدكتورة زاهية أستاذة للأدب العربى ثم عميدة لكلية الآداب بالجامعة اللبنانية.

وفى عام ١٩٩٩ أصدرت كتاباً كبيراً يتضمن سيرة حياتها بعنوان «رحلة العمر» تحدثت فيه بإعجاب شديد وتعلق عميق بمصر حيث وصفت الفترة التى قضتها فيها للدراسة بقولها «مصر مهد الحضارة وأرض الإبداع، مصر العروبة والعزة والكرامة ، وسيظل لها على الدوام مركز مميز وحميم في نفسى».

وقد نعى صديقى الدكتور ميشال جحا الدكتورة زاهية بقوله «إنها آمنت بالعروبة ذات الرسالة المتفتحة والمؤمنة بدينها السمح، لقد كانت داعية تفاهم وتعايش وسلام ووئام ، تعمل للصالح العام بكل اندفاع، وتؤمن بوطنها لبنان، قلائل هم الناس الذين تدل اسماؤهم على سيمائهم ، وزاهية قدورة هى من هؤلاء، وهى حقا زاهية».

ومن سنوات أنشأت الدكتور زاهية قدورة جمعية للجامعات فى لبنان وتولت رئاستها ولكن انشغال الجامعيات بمآرب الحياة عجل بنهاية هذه الجمعية وفقد لبنان أخيرا الأديبة إدفيك جريدينى شيبوب التى توفيت عن ٨٣ عاماً فى ١٥ سبتمبر (٢٠٠٢) الماضى، ولئن يرد اسمها ضمن الأديبات الرائدات اللائى

أشـيـد بـهن فى مـؤتمر المرأة والابداع، فـقـد ورد اسم زمـيلتـهـا روز غريب التى تقـضـى شـيـخـوخـتـهـا فى بيت للمسنين بعدما بلغت الثالثة والتسعين من العمر.

كلام عن موسوعات الأعلام

من مـتـابعـتـى لما تنشـره الصـحـف والمجلات من سير الأعلام والمعاصرين، ألاحظ أمرين : أولهما ورود أخطاء فيها ولا سـيـمـا فى التاريخ، وثانيـهـمـا وجـود فـجـوات واسـعـة قـد تعزى إلى المعـايير المسـتـخـدمـة فى تقـدير منزلة الأعـلام المتـرجم لـهم، وأورد فى هـذه الفـذلكة مـحـاولات جادة قام بها بعض الباحثين لإخراج موسوعات عن الأعلام.

ولعل أبرزهم هـو الأديب الســـورى خـيـر الدين الزركلى (١٨٩٣ - ١٩٧٦) بموسوعته الباذخة «الأعلام» التى نشرت لها أخيرا دراسـات حـاكـتـهـا واسـتـدركت عليها منها «ذيل الأعلام» للأديب الأردنى أحـمـد العـلاونة و«فـوات الأعـلام» للأديب السـعـودى عبدالعزيز الرفـاعى (١٩٢٣ - ١٩٩٣) و«إتمام الأعـــــلام لـلأديبـين السـوريين الدكـتـور نزار أباظة ومـحـمـد رياض المالح.

وهـنـاك «مـــعـــجم المؤلفين» للأديب الســورى عـمـر رضـا كـحـالة وهـناك مـوسـوعـة «مـصـادر الدراسـة الأدبيـة» للأديب اللبنانى يوسف أسـعـد داغـر (١٨٩٩ - ١٩٨١) ومـوسـوعـة «أعـلام الأدب العـربى المعـاصـر» للمسـتـشـرق روبرت كـامبل ومـوسـوعـة «مـعـجـم المؤلفين العراقيين» للعلامة العراقى كوركيس عواد (١٩٠٨ - ١٩٩٢) ومـوسـوعـة «من أعـلام الفكر والأدب فى فلسطين» للأديب الأردنى يعـقـوب العـودات المكنى بالبـدوى الملثم (١٩١٠ - ١٩٧١) وموسوعة «أعلام مصر والعـالم» للدكـتـور رؤوف سـلامـة مـوسى ومـوسـوعـة «أعـلام الفكر العـربى» لسـعيد جودة السـحـار ومـوسوعـة «المسـتـشـرقـون» لنجـيـب العـقـيـقـى (١٩١٦ - ١٩٨١) ومـوسـوعـة الأدب المهجرى لجورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) وعـنوانـهــــا «أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية» ومـوسـوعـة «ديوان الشــعــر العــربى فى القــرن العـشـرين» لـلأديب الفـلسـطيـنى راضـى صـدوق ومـوسـوعـة «شـعـر فلسـطين فى القـرن العـشـرين» لراضـى صـدوق وكـتـاب «قـــامـوس المؤلفين» فى شـرقى الأردن لكامير مصطفى هاشم و«مـوسـوعـة أعلام العرب فى القرن التاسع عشر والعشرين» الصادرة عن بيت الحكمة فى بغداد وكتاب «الأدباء العراقيون المعاصرون وإنتاجهم» لسـعـدون الريس وموسوعة «الأدب العربى السعودى الحديث» بإشراف سعد البازغى، عـدا عن مـجلدات «الإثنينية» التى تضم سير مئات من الأعلام المعاصرين الذين يكرمـهـم فى جـدة الشـيخ عـبد المقـصـود خوجة فى ندوته الأسبوعية.

ولعل هـنـاك مـــوســوعـــات أخـرى استعصت علىّ أخبارها. ■



الفنان الشامل

بين فن الصالون وبلاط صاحبة الجلالة

بقلم

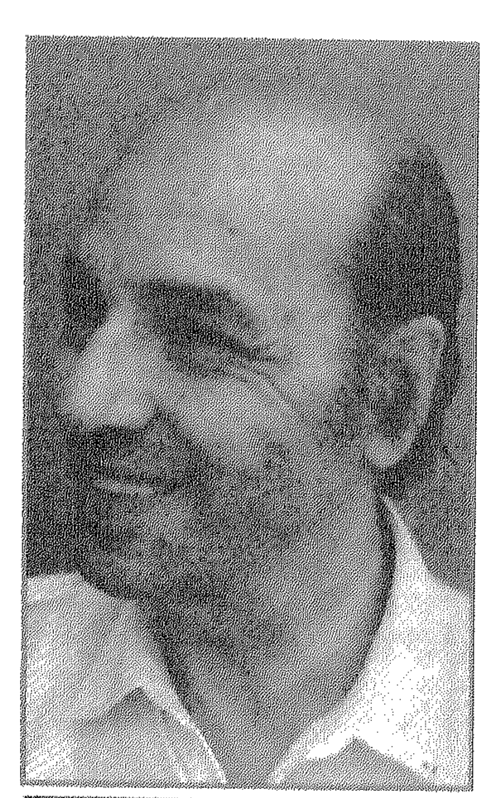
صلاح بيصار

ورحل بيكار

في السابع عشر من نوفمبر الماضى رحل الفنان حسين بيكار عن عالمنا، بعد رحلة من العطاء الفنى استمرت لأكثر من ستين عاما، وتميزت بريادته لفن أغلفة الكتب واسهامه فى الاخراج الفنى لصحف ومجلات أخبار اليوم .

وقد عرف عنه إلى جانب فنه عشقه للموسيقى ودعمه المستمر لتلاميذه من الفنانين وعلى الرغم من حصوله على العديد من الجوائز ألا أن سمة التواضع وعشقة للفن وللناس وللحياة لم تتغير أبداً رحم الله فناننا الذى أعطى لفنه الكثير .

الهلال



ليس من قبيل الصدفة دخول بيكار ميدان الرسم للأطفال حين قدمه زميله عبدالقادر رزق إلى د. طه حسين ليرسم كتاب «الأيام» عام ١٩٤٤ فيصبح ذلك عهدا جديدا لفن الكتاب العربى.

وليس غريبا أن يطلب منه على أمين التفرغ للصحافة فيترك قسم التصوير بالفنون الجميلة وكان رئيساً له عام ١٩٥٩ ويحمل لواء الريادة فى الرسم الصحفى.

وربما لا يكون مثيرا للدهشة أن يرشحه الاستاذ هيكل ليكتب قصة ويرسمها فيستوحى «المصباح الأحمر»، من واقعة حقيقية وتنشر بآخر ساعة حين كان هيكل رئيسا لتحريرها وتبدأ أولى كتاباته فى الصحافة.

وليست صدفة أيضا أن يقترح الأستاذ سعد كامل مدير تحرير الأخبار فى الستينات أن يقدم بيكار نافذة يطل منها القارىء على الإبداع التشكيلى التى تألقت بمصاحبة معزوفاته المنظومة.

تقول ذلك وقد امتدت شخصية بيكار بالريادة فى كل اتجاه مع فن البورتريه بالإضافة إلى شخصيته الموسيقية من العزف على البزق والطنبور.

وهذا ليس إلا أنه إنسان قبل أن يكون فنانا مع عمق موهبته وقدراته الفنية التى تهيأت لها المقادير لا الصدفة.

ولقد جاء كتاب «حسين بيكار الفنان الشامل» للناقد د. صبحى الشارونى عن دار الشروق بمثابة باقة حب وتحية عميقة ورقيقة إليه.. شفاه الله.

والكتاب رحلة فى عقل وقلب وفن بيكار.. وهو من القطع الكبير (٢٣,٥ فى ٣٣,٥ بغلاف سحبك).. تمتد صفحاته إلى ١٦٤ صفحة.. انيق فى عرضه واخراجه وطباعته.

من الفن إلى الصحافة

اختار الناقد صبحى الشارونى تلك الواقعة الشهيرة فى بداية الكتاب حين استدعى على أمين بيكار وقال له بالحرف الواحد:

«ليس من مبادئنا تعدد الزوجات لذلك انت مطالب بتطليق احدى زوجتيك وأنا أريدك ان تطلق زوجتك الحكومية وتتفرغ للصحافة ان مكانك هنا فى أخبار اليوم..

بعدها أصبح بيكار «سندبادا صحفيا، يسافر إلى بلاد العالم حاملا قلمه وريشته ليعود بانطباعاته الصحفية مكتوبه ومرسومة.. لقد استبدل الكاميرا بالريشة والألوان.

وتبدأ أولى رحلاته الصحفية إلى الحبشة ليكون الفنان المصرى الثانى الذى يسافر إلى هناك رساما بعد فنان الجيل الأول محمد ناجى وتوالت رحلاته إلى تونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان وأسبانيا واليابان.

والكتاب يصحبنا معه من مولده فى ٢ يناير عام ١٩١٣ بحى الانفوشى بالاسكندرية إلى نشأته بكل المؤثرات التى جعلت منه رائدا لفن الكتاب ورسوم الأطفال والرسم الصحفى.. مشيرا إلى مشاركته فى رسم كتب كامل الكيلانى وإبداعه لمجلة سندباد وكتاب «القراءة الجديدة» للمدارس الابتدائية الذى اشتهر باسم طريقة شرشر.

كما دفع بتلاميذه من الفنانين إلى ان يؤلف كل منهم قصة ويرسمها لتنشر فى سلسلة الكتاب العجيب التى اصدرتها دار المعارف فى بداية الستينات وشارك فيها جورج البهجورى وإيهاب شاكر ومحيى اللباد وفايزة نجيب.

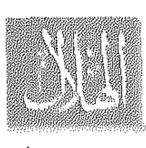
وكانت بدايات بيكار فى هذا المجال فى وقت كان الفنان المصرى يخطو أولى خطواته لتحقيق ذاته فى الحركة الفنية التى كان مفهومها قاصراً على اللوحة والتمثال وحدهما.. وكان الفنانون التشكيليون يعتقدون أن ملامسة الريشة لغير اللوحة امتهان لقداسة الفن وإهدار لكرامته وحط لمنزلته على حد تعبير بيكار نفسه.

من قنا إلى المغرب

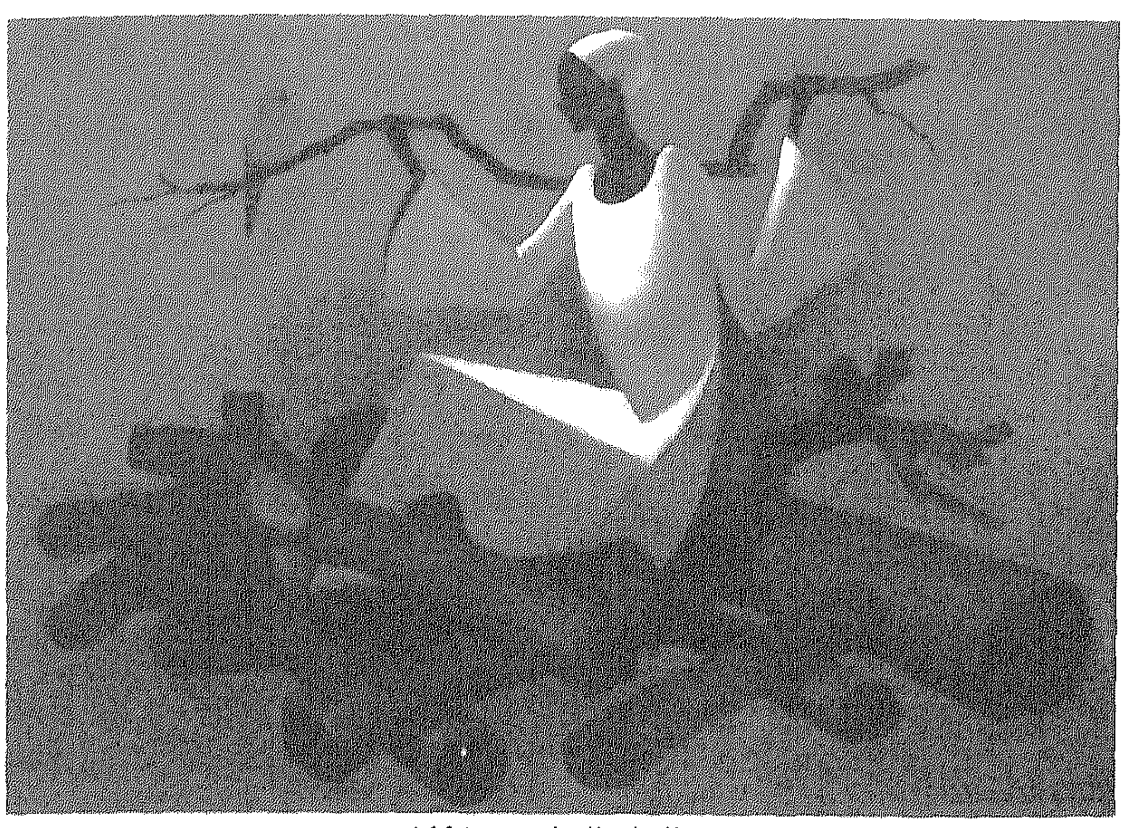
ويتعرض الكتاب إلى عمل بيكار بالتدريس بعد تخرجه عام ١٩٣٣ من مدرسة الفنون الجميلة العليا خاصة بمدرسة قنا الثانوية .. هناك بقنا بدأ يتعرف على مصر الحقيقية.. مصر

لوحة «ليلة الزفاف» ١٩٩٦ مجموعة السيدة نهى شلقال

١٣٣



رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م



« البلبل والحطب » - ١٩٩٤

الفرعونية وكان يشعر ان الوجوه المرسومة على جدران المعابد تتحرك معه وتكلمه وتأكل معه فى نفس الأناء الفخار..

وكان أستاذه حبيب جورجى رائد التربية الفنية ومفتش الرسم يأتى للتفتيش عليه فيحول التفتيش إلى جولات معه للرسم فى احضان الطبيعة هناك.

ومن قنا ينتقل إلى المغرب عام ١٩٣٩ حيث يقضى فى «تطوان» ثلاث سنوات وهناك تحتم عليه أن يرسم من غير موديل حيث لم يكن متاحا له فبدأ يرسم «فنتازيات» أى موضوعات خيالية ليس لها دخل بالواقع أو الطبيعة وكان هذا هو أحد المداخل التى قادته إلى ممارسة رسومه التوضيحية فى الكتب والمجلات فيما بعد فقد تدرب على ترجمة ما يتخيله.

وقد نشرت أولى رسومه التوضيحية فى تطوان عندما وضع مدرس اللغة الاسبانية كتابا لتعليم اللغة الأسبانية للتلاميذ المغاربة وطلب من بيكار مدرس الرسم ترجمة الكلمات إلى صور بسيطة ومن هنا نشأت أول علاقة بينه وبين الرسوم التعبيرية والرسم للأطفال.

العجيبة الثامنة

يمتد كتاب الشارونى إلى لوحات بيكار فى فيلم «العجيبة الثامنة» مؤكداً ان تاريخ الفنون الجميلة لا يعرف سوى عملين غير قابلين للتكرار وليس لهما مثيل ..

الأول: هو ما قام به الفنان الراحل «الحسين فوزى» من تسجيل بالرسم لمساجد مصر التى استغرق فى رسمها عامين كاملين.. ونشرت رسومه لها فى كتاب ضخم من جزأين على نفقة وزارة



من لوحات فيلم «العجيبة الثامنة» عن إنشاء معبد أبي سمبل .. الملك رمسيس الثاني وزوجته نفرتارى يفحصان تصميمات معبد «أبو سمبل»

الأوقاف .. والعمل الثانى: الذى يماثله عظمة وضخامة هو لوحات الفنان بيكار لفيلم «العجيبة الثامنة» الذى يحكى قصة معبد رمسيس فى أبى سنبل ونقله إلى أعلى الجبل بعيدا عن فيضان المياه بعد بناء السد العالى.

ان لوحات الفنان لهذا الفيلم تكشف عن سيطرة بيكار الكتابية على صنعته وفنه وقد ابدعها بيكار مستعينا بقوة الخيال مع المراجع التاريخية واستطاع ان يبعث الحياة فى حقبة كاملة من التاريخ موغلة فى القدم فبدت أمام عيوننا نابضة بالمئات من التفاصيل الدقيقة.

وكتاب الشارونى لم يغفل بيكار الكاتب والناقد والشاعر.

فهو يحكى عن تجربة بيكار فى كتابة القصة حين ألح عليه الاستاذ هيكل فى ان يكتب قصة ويرسمها فكانت «المصباح الأحمر» قصة حقيقية من واقع رحلته من المغرب إلى موزمبيق حين كان ذلك هو الطريق الوحيد لعودته إلى مصر خلال أحداث الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢ ومن ذلك الوقت صارت الكتابة عنده هى عمل أدبى فنى قبل أن تكون شرحا وتوضيحا .. بعد ذلك جاءت منظوماته التى أخذت شكل خماسيات وسداسيات وأخيرا رباعيات تتميز ببساطتها الشديدة وصدقها.. كما تألق بيكار فى مجال نقد الفنون الجميلة بأسلوب جذاب يتناسب مع المستوى الثقافى لقارىء الجريدة اليومية.. يقف موقف الاستاذ المعلم الذى يبسط المصطلحات ويعرض بوضوح وشاعرية

اعقد المشكلات وأدقها.. انه رائد فى مجال توصيل مفاهيم الفن إلى أكبر قطاع من الجماهير من خلال الصحافة الشعبية اليومية.

فنان البورترية والريف والنوبة

لم يشغل الفن الصحفى بيكار عن رسم اللوحات الزيتية خاصة لوحات «البورتريه» التى تصور ملامح الأشخاص.

وقد تألقت مئات الصور الشخصية بلمساته مما يجعله واحداً من القلائل فى فن الصالون.. وهو يرى فى الشكل الإنسانى الذى أبدعه الله جمالا لا يجب تشويهه وقد اتجه إلى اتباع انجازات عصر النهضة الأوروبية فى هذا المجال كما يقول صبحى فى كتابه.. فالتزم بالنسب الواقعية واختار الأوضاع الرسمية الوقورة كما أعطى للوجه واليدين اهتماما جعلهما أول ما يجتذب نظر المشاهد، وأحاط الرقبة والجسم بالحلى والثياب الفاخرة بالنسبة للمرأة مع احترام للكتلة وتأكيد الحضور الإنسانى عن طريق عدم أبراز أو تأكيد الخلفية وما بها من عناصر وتسود لوحات السيدات الملابس المصنوعة من الدانتيل أو الشيفون الشفاف والساتان اللامع بالاضافة إلى الفراء الفاخر ثم اللمسات اللامعة فى مقدمة الأنف والوجنتين مع البريق المتألق فى العينين وكلها عناصر تتضافر من أجل تقديم لوحة جديرة بموقع الصدارة فى صالون الأسر المتيسرة.

وتضم اللوحات الزيتية للفنان إلى جانب الصور الشخصية (البورترية) لوحات عن الريف المصرى وأخرى عن النوبة وتحتل المرأة الصدارة فى تلك اللوحات وهى تعبر عن الجمال فى كل أعماله يرسمها فى رشاقة ورقة فيحرص على إبراز تفاصيل الجسد مع الالتزام بالاحتشام ففى الموضوعات التى يبتكرها من خياله يعطى لنفسه حرية أكبر فى التعبير عن أنوثة المرأة.

ولقد منح الفنان للمرأة فى لوحات النوبة قدرا أكثر من الحركة الراقصة أو حركات الدلال التى تقترب من الرقص بينما نرى الرجال فى أوضاع هادئة نسبيا وأحيانا نجدها صدى لما تفعله المرأة وهو يتخذ الرجل فى موقف السنيد سواء بالتصفيق أو النقر على الدفوف وجميع الرجال النوبيين يرتدون الملابس البيضاء بينما ترتدى النساء الملابس الملونة.

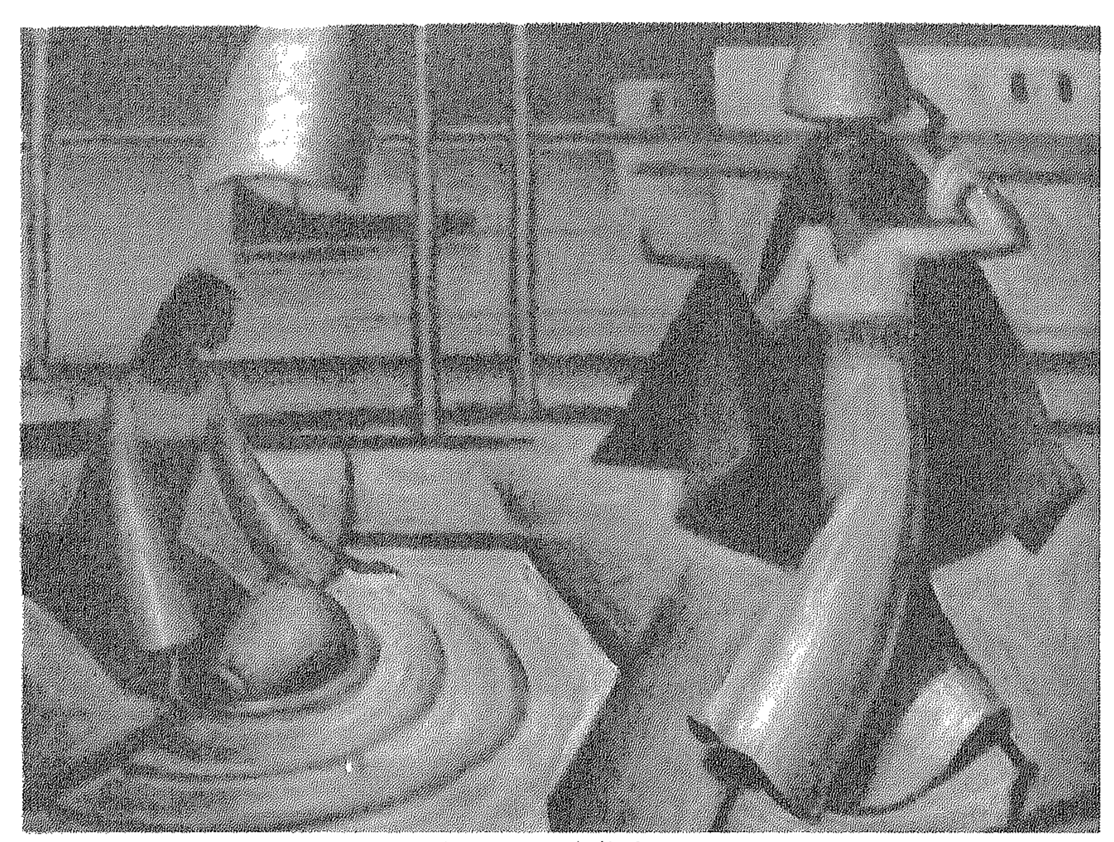
وبعد..

لاشك ان كتاب «حسين بيكار الفنان الشامل» يمثل اضافة حقيقية فى فن الكتاب بالنسبة للابداع التشكيلى المصرى وجاءت شاعرية اللغة عند الشارونى بمثابة تحية تناسب شخصية بيكار الفنية من لغته ولمساته التشكيلية.

لكن أغفل الكتاب بعض الأعمال الهامة لبيكار فى فن البورترية.. منها لوحة السيدة والدته وكان لها فضل كبير عليه ليس من ناحية التنشئة والتربية ولكن أيضا من جهة تنمية ميوله الفنية.

وأيضا بورترية أستاذه كلوزيل أستاذ النحت بمدرسة الفنون العليا وهو يمثل عنده نموذجا للأستاذ والمعلم وقد ابدع بيكار هذا البورتريه حين دعاه أستاذه وهو طالب ليرسمه بمنزله بالازبكية فى ذلك الوقت.

وأيضا أغفل الكتاب ثلاث صور شخصية للولا الأسبانية والتى التقت



«نداء النيل» – ١٩٩٨

ببيكار فى تطوان بالمغرب وربطتهما صداقة ومودة إنسانية كبيرة ومازالت تتصل به حتى الآن من أسبانيا.

وفى حجرة نوم الفنان الكبير تطل صورة كلوزيل بألوان الباستيل مع إحدى صور لولا.. فى لوحة بيضاوية تهمس بالشاعرية والجمال.

أيضا لم يعط الكتاب مساحة كافية لرسوم بيكار الصحفية والتى تعد بمثابة لوحات مكتملة خاصة رحلاته إلى مختلف العالم وما أجمل أعماله تلك والتى صورت الحبشة والمغرب واسبانيا وغيرها.

بالاضافة إلى هذا لم يحتف الكتاب ببيكار فنان الغلاف خاصة وقد قام بتصميم مئات الأغلفة بعضها يمثل تاريخاً هاماً فى قيمة فن الغلاف.. وقد بلغ فن الكتاب المصرى ذروته عام ١٩٤٨ حين صدر عدد من دواوين الشعر اصدرتها دار المعارف وشركة فن الطباعة للشعراء : (على الجارم وبشارة خورى مع ديوان نزار قبانى الثانى طفولة نهد» ..

وكان القاسم المشترك بين هذه الدواوين الشعرية الجميلة هو رسام أغلفتها ورسومها الداخلية حسين بيكار، وربما كانت لوحات ألف ليلة وليلة التي أبدعها بيكار (طبعة دار الشعب).

من أجمل ما قدمه بالأبيض والأسود ولم تمثل في الكتاب أيضا.

تحية إلى بيكار الرائد ودعوات بالشفاء.. وتحية إلى كتابه الذى قدمه الشارونى بعمق ما فيه من فن وأبداع. ■

موسم الجوائز الأدبية
الفرنسية ٢٠٠٢م

عطر اللغة ورائحة الجريمة

بقلم
محمود قاسم

تأخرت جائزة جونكور كثيراً فى الذهاب إلى باسكال كوينيار وهو أحد الذين يستحقونها بجدارة.

ولأن للجائزة نواميس خاصة لا تمنح لاسم الكاتب، بقدر ما تحصل عليها سنويا رواية متميزة، تدخل فى نطاق المنافسة مع بقية الروايات الصادرة فى نفس السنة، فإن كوينيار وجد نفسه دوما فى منافسة مع أقرانه من كافة الأجيال..

وكان استبعاد رواياته أمراً مثيراً للدهشة..

إلى أن جاءت الجائزة أخيرا. عن روايته «الظلال الشاردة» بعد أن تغيرت ملامحه، وصار أبيض الشعر، أصلع الرأس، لكنه لم يتوقف عن الإبداع، بغزارته التى عهدت عنه فى بداية حياته.

تجىء أهمية كوينيار أنه روائى صاحب رؤية، ووجهة نظر، وهو مُنّظر لما يكتبه، أسوة بما فعله من قبله كل من سارتر، وروب جرييه، وقد ظهر لأول عام ١٩٧٦، أى منذ ربع قرن إبان أزمة الرواية الفرنسية كى يحاول تجديد الشكل، وأن يعود بالرواية إلى صياغة مختلفة تجمع بين التجديد والتقليد.

ولد باسكال فى بلدة «فرنوى سير آقر» عام ١٩٤٨، تأثر كثيرا فى كتاباته بدراسته للأدب الاغريقى واللاتينى، وغاص فى التاريخ من خلال هذه الأعمال الروائية المتعددة المناقب، مارس الكتابة فى العديد من الأشكال، فهو كاتب مقال، ودراسة، وناقد، كما أنه عازف ماهر لآلة التشيللو.

عن بداياته الأدبية، واتجاهة تحدث: «لم يكن لدىّ قط أى اتجاه أو درب سوى العشق الذى لاينضب معينة بداخلى والذى يلتصق باحشائى وبرأسى، ذلك العشق الذى اعتقدت أنه على وشك أن يهجره، والذى كان يعود من جديد كارتداد الأمواج، هذا العشق هو رنين الجرس الذى يقتحم السكون، الكتابة ضجيج داخل سكون الجسد، وهو شىء شبيه بليل العالم القديم».

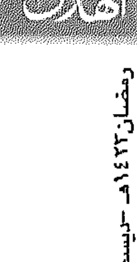
فى عام ١٩٧٦ ظهر لكوينيار كتاب بعنوان «القارئ».. وهو مقال أدبى قيم ودقيق، وحاد له طابع روائى، ثم صدر له كتاب آخر بعنوان «الواح خشب النفس» وهو عبارة عن مذكرات زوجة أحد المواطنين الرومان، وقد كان لهذا العمل الأدبى أصدائه الواسعة فى الأوساط الأدبية، حيث تجد فيه معالم الحضارة الرومانسية القديمة بتاريخها وروحها وشخصياتها بشكل يختلف عما اختزنته ذاكرتنا المدرسية.

لكل لغة .. عطرها

فى كل عام، يدفع كوينيار إلى الناشر برواية جديدة، وقد قام الكاتب بتغيير الناشر عدة مرات، وهو أمر قليل الحدوث لأقرانه فى فرنسا، ومن هذه الأعمال «كاروس» ١٩٧٨ و«قاعة فرتمبرج» ١٩٨٦، و«سلالم شامبور» ١٩٨٩ و«اليسيوس» ١٩٩٠ ودرته «كل صباحات العالم» ١٩٩١، و«معالجات صغيرة» ١٩٩٢، «الاسم على اللسان» ١٩٩٣ وشرفة روما» ٢٠٠٠، ثم «الظلال الشاردة «التى حازت جائزة جونكور عام ٢٠٠٢ والتى صدر الجزء الثانى لها عقب فوزه بالجائزة.

فى عام ١٩٨٦، نشر الروائى فرانسوا نورسييه، مقالا فى مجلة الفيجارو، قال فى خضم حديثه عن رواية «قاعة فرتمبرج» أن كوينيار كان يستحق جائزة جونكور عن هذه الرواية وأن منافسه ميشيل هوست قد انتزع الجائزة بصعوبة، مما يعنى أن كوينيار تأخر طويلا فى الحصول على جائزة كان يستحقها منذ سنوات.

البطل فى هذه الرواية مثل المؤلف، عازف تشيللو، هو مترجم وكاتب سيرة ذاتية للعديد من أعلام الموسيقى، وهو متمكن من اللغة بحيث يستطيع فهم ما وراء المعانى، ويمكنه أن يلعب



بالمصطلحات حسبما يشاء. عاش بين فرنسا وألمانيا.. ويتقن لغتيهما، وهو يقوم بالانتقال بينهما حسب الظروف، ففى ألمانيا يسمونه كارل، وفى فرنسا يتم تحوير الاسم إلى شارل، كما أنه واحد من عصر الاستهلاك، يحب الشيكولاته، والحلويات، ويبحث دوما عن لغة موازية للغتين اللتين يتقنهما.

يرى الراوية أن لكل لغة سماتها، وعطرها، ومغامراتها داخل القلب، وهى تدفع المرء إلى البحث عن المعانى الحقيقية للمشاعر.

نحن إذن، أمام رواية أقرب إلى الإبحار فى قواعد اللغة، ومعانيها، ويتوقف الراوية دوما عند معان بعينها ويتساءل هل هى مقصودة بنفس الدقة فى اللغة الثانية، أى هل أن البشر لهم نفس الأحاسيس عندما يرددون نفس الكلمة بلغاتهم المختلفة.

يقرر كارل أن يعتزل العالم فى بيته الريفى الألمانى، ويسترجع ذكريات قصص حب منتهية، ويغوص داخل أرشيفه الفنى القديم، وتغمره حالة من الحنين المتدفق، وكأنه يقول كلمته الأخيرة.

وقد أشارت مجلة «لوبوان» فى ٤ سبتمبر ١٩٨٩ أن كوينيار يستحق الجائزة عن روايته «سلالم شامبور»، ولعل هذا النحس الذى ظل يلازم الكاتب فى عدم حصوله على الجائزة، قد دفعة إلى أن تصدر روايته «كل صباحات العالم»، درة أعماله، فى خريف عام ١٩٩١، أى بعد نهاية موسم الجوائز الأدبية، وبدا أنه يتحدى الجائزة، وبالفعل قوبل كتابه باحتفاء ملحوظ، فقد كتبت ايزابيل ماركان فى «جريدة چينيف». الملحق الأدبى فى ٧ ديسمبر ١٩٩١ - أنه أجمل الكتب التى ظهرت فى الفترة الأخيرة، كما أن النقاد استقبلوا الكتاب بحفاوة مما مكنه من منافسة كافة الروايات الحائزة على الجوائز الأدبية فى تلك السنة.

موسيقى .. وزوجة

فى هذه الرواية، يبدو كوينيار وفيا للنوع الأدبى الذى كرس حياته للموسيقى: «خلال ثلاث سنوات كان ظهورها ماثلا أمام عينيه، وفى خلال خمس سنوات، راح صوتها يهمس دائما أذنيه».

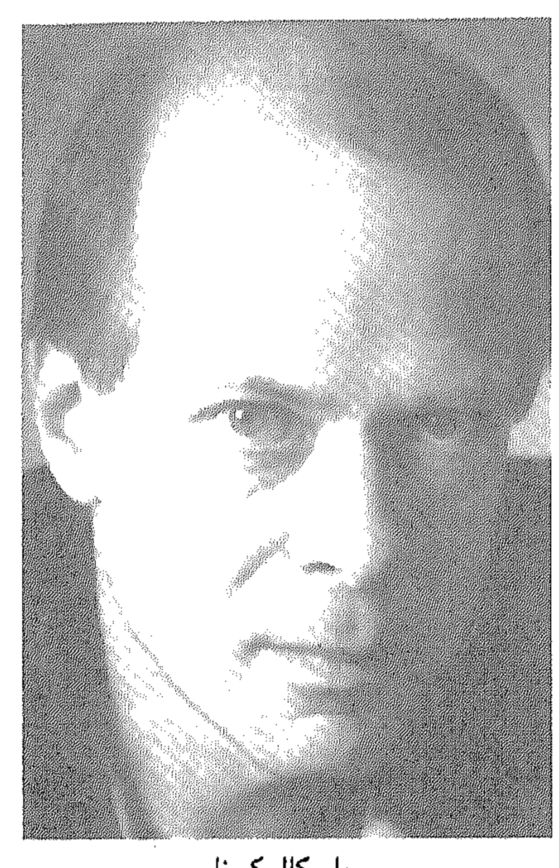
الموسيقى لم تكن بديل عن الزوجة الراحلة فى حياته، بل كانت بمثابة رسائل يكتبها إليها، حين يؤلف المقطوعات أو يعزفها، وقد احتفظ الزوج لنفسه بمقطوعة عزفها لأول مرة عند مقبرتها باسم «مقبرة الندم»، فهو لم يُسمعها لأى من ابنتيه، أو تلاميذه الذين يعلمهم الموسيقى، لأنها تخصه وحده، هى رسالته إليها، تضم مفردات حسية خاصة، هذا الرجل لا يشعر قط بالملل من الوقت الطويل الذى يقضيه فى مقصورته الخشبية المقامة بمدينة ريفية بعيداً عن المدينة. أنه يعزف خمس ساعات يومياً على الكمان دون توقف.

ظل الرجل يندمج داخل لحنه، ويغرق

فيه طوال اثنى عشر عاما، لدرجة أنه رأى شبح امرأته الراحلة يخرج له من الحديقة.. ويقترب منه، ويقوم بمس شعره، إذن، فلابد أن الموت كائن حى، يستمع بدوره إلى الموسيقى، ويتمايل لها، «إنها أداة للكلام إلى من لا نستطيع أن نكلمهم».

وفى تصرف فجائى غريب، يقرر الموسيقار أن يتخلى عن آلته، وأن يحتفظ بها فى مكان بعيد، وأن يتحول إلى موسيقار يعزف للملك وحاشيته، لكن هذه الوظيفة كانت سبباً حقيقيا إلى أن يعود من جديد إلى ماضيه، كى يرسل إلى زوجته تحيته الخاصة، الصامتة، المليئة بالتدفق، عبر ألحانه الوجدانية.

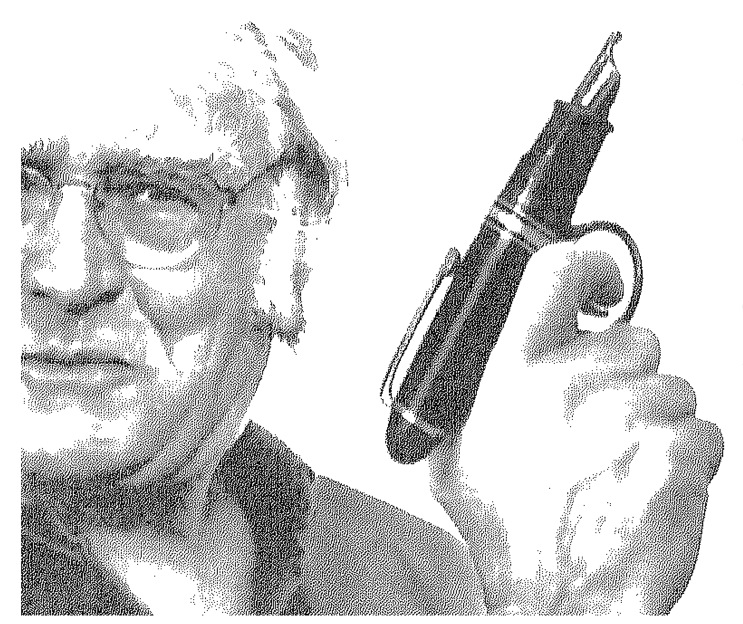
أما روايته «الاحتلال الأمريكى» ١٩٩٤، فتدور أحداثها عام ١٩٥٨، على ضفاف نهر «لا لوار» . فى تلك الآونة كانت فرنسا تستضيف حوالى ٢٧ ألفاً من الجنود الأمريكيين، فى تلك الآونة، التقى باتريك وماريان المراهقان، وسقطا فى قصة حب مرتجفة، انهما يتصارعان مثلما يتصارع نمطان مختلفان من الحياة، أى الحضارة الترفيهية السفيهة آنذاك، وهى حضارة الولايات المتحدة، وفى المقابل الحضارة الراقية التى كان يحن إليها الفرنسيون، ويحاولون استردادها فى الوقت الذى كانوا قد فقدوا الوسائل التى تمكنهم من ذلك، فالكوكاكولا كانت مشروبا ساما، وبربرياً قبل أن ينقض عليه الجميع. وكانت موسيقى الچاز



باسكال كوينار

تعد فى الأقاليم موسيقى الهمج المتوحشين، ثم جاء ديجول، ورحل الجنود الأمريكيون، وانطفأت نار العشق.

وقد كتب الناقد چان ماك بروشييه فى مجلة «ماجزان لتيرير» أنها رواية غريبة كنا «قد نسيناها كما نسينا عصر الامبراطورية الرومانية، حتى جاء



كوينيار ليفرضها على ذاكرتنا من جديد، إنها حجر إضافى داخل بناء كل صباحات العالم».

شرفة روما

فى روايته «شرفة روما» ٢٠٠١ يعود الكاتب إلى نفس الحقبة، القرن السابع عشر من خلال خطاط مولود عام ١٦١٧ ومات فى سن الخمسين، هناك أيضا امرأة فى حياة هذا الرجل، لكنها امرأة مختلفة، فهى تود أن تدخل حياته، لا تريد النظر إليه، أو أن تحبه، لكنها فى أعماقها ترغب فيه. ورغم أن هناك نساء كثيرات فى حياته، فإنه لايرغب سواها، ولهذا السبب فإنه يكرس حياته للسفر، والحفر، والحلم والرسم، والكتابة. يتجه إلى أسبانيا، وروما، ولا يكف عن العمل، فالحفر بالنسبة له «رؤية الأشياء للمرة الأولى».. أو «حتى لا يقع المرء فى دائرة النسيان»..

ورغم ذلك فإن ما يحفره يصبح بلا معنى، لأن المرأة غير موجودة حولة أسوة ببقية النساء، لذا فهو يعود مرة أخرى إلى قريته، كى يكون قريبا منها، فلعله يتنسم منها ما يجعل لما يفعله قيمه فنية حقيقية.

***

والمتابع للمجلات الأدبية الأوروبية والأمريكية، سواء كانت مجلات لها وزنها الثقافى، أو حتى صفحات الكتب فى العديد من المجلات، والصحف، سوف يلاحظ ذلك الاهتمام بحكايات الكتب حول الجديد فى عالم الرواية البوليسية سواء فى العناوين أو المؤلفين الجدد.

أهم ما فى الأمر أن تسمية «رواية بوليسية» قد صارت فى حد ذاتها قديمة، وانه قد ظهرت أسماء عديدة، لا توحى بالمرة أننا أمام روايات من هذا النوع، وعلى سبيل المثال اعتاد القارئ أن يكون غلاف السلسلة بالأسود، وحدث ذلك مع سلسلة الروايات الصفراء لدى ناشر آخر. وفى فترة لاحقة اتفق على تسميتها برواية القطب Polar أو فلنعتبر أنها ترجمة خاطئة لأن بعض هذه المصطلحات كاذب إلا إذا استخدمنا أصله.

ومن أجل كشف أهمية هذا النوع من الروايات، فإن مجلة «لوبوان» قد خصصت ملفين كبيرين عن هذا الموضوع، ونحن نستخدم مصطلح «مجلة سياسية» لنؤكد أن مطبوعة جادة تفتح هذا الملف يعنى أهميته.

لكن الغريب هنا، هو أنها فعلت ذلك مرتين، مرة فى بداية موسم الاجازات، فى ٢٨ يونيه الماضى، والمرة الثانية فى ٩ أغسطس لم يحدث هذا من فراغ فقد اكتشف المحررون الذين زاروا معرض الكتاب السابع فى مدينة «نيس» أن الاقبال على الروايات البوليسية يشكل ظاهرة يجب الالتفات اليها، وأن هذا النوع من الكتابة يكتسب دوما المزيد من القراء وأن هؤلاء لا يهمهم اسم الكاتب،

بقدر الغموض الداكن الذى تفوح روائحه من صفحات الروايات. ويعتبر هذا التحقيق الضخم انعكاسا لما يتم الآن فى ساحة التأليف الإبداعى، فهذا النوع من الكتب يحتاج إلى مؤلف له حاسة خاصة تجاه حبكة الجرائم واثارة أجواء غير مألوفة من الغموض، هذا الغموض الذى لا تنكشف أسبابه إلاّ فى الصفحات الأخيرة.

وهناك مجموعة من الملحوظات يمكن الوقوف عندها فى هذه الروايات الحديثة.

الدببة.. والثعابين

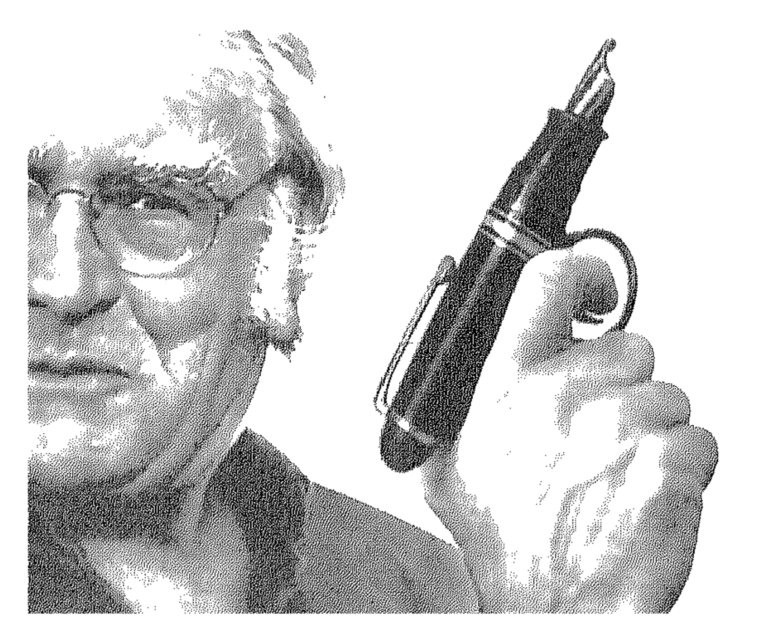
الأدباء الأمريكيون هم الأكثر حظوة، وموهبة فى هذا النوع من الروايات، يليهم الأدباء الفرنسيون، ثم الروس ولعل ازدهار هذه الروايات فى الولايات المتحدة، يفسر انتشار هذا الكم الهائل من الأفلام البوليسية التى اصطلح على تسميتها بالقصص البوليسية.

وقد رأت المجلة أن هناك ثلاثة أسماء بارزة من أجيال مختلفة قاموا بترسيخ هذه الروايات الـ Polar وكلهم من الولايات المتحدة، الأول داشيل هاميت، سيد النوع كما يسمى (١٨٩٤ - ١٩٦٠) الذى ابتدع شخصية المفتش الخاص (الذى لا يعمل فى مؤسسة رسمية) فيليب مارلو والذى ظهر فى العديد من الروايات التى أخرجت للسينما عدة مرات منها.. «الصقر المالطى» و«مفتاح من زجاج»، وقد اتسمت رواياته بالغموض المرتبط بتهديد يدفعه إلى اللجوء لمفتش تحر من أجل ابعاد الخطر عنه.

أما شستر هايمز، فهو أشهر من كتب فى الروايات السوداء وهو أبرز كتاب ما بعد الحرب مات عام ١٩٨٤، بعد أن ترك العديد من الروايات منها «الأعمى والمسدس ويعتبر من أحد رموز ثقافة الزنوج فى هارلم.

ويقال إن الكاتب جيمس تروملى، المولود عام ١٩٣٩ هو الوريث الشرعى لما كتبه الأساتذة وقد تتلمذ على دوستويفسكى وتولستوى، ودايلان توماس، وله العديد من الروايات منها القبلة الأخيرة، و«رقصة الدببة» وفى عام ١٩٩٦ نشر «ثعابين الحدود» ثم «الحاجز الأخير» ٢٠٠١.

وأهمية هذه الأسماء الثلاثة أنهم فى الأصل أدباء، طعموا الغموض بالمفرد اللغوى المنمق، بأشخاص لهم مشاعر انسانية فياضة، مما أبعد الأعمال التى تركوها عن الهامشية والغريب أن المجلة لم تتوقف عند أسماء لامعة فى هذا المجال لم تكن كتابتها أدبية، مثل أجاثا كريستى، لكن الأغرب أن كاتبا غزير الإنتاج من طراز جورج سيمنون لم يذكر له اسم بالمرة، أى أن ما يقل عن



عشرين رواية فى ابداع هامليت أكثر من الألف رواية التى خلفها كل من سيمنون وكريستى وراءهما.

لذا، فإن الفرسان الجدد فى هذا النوع من الروايات هم أقرب إلى الأدباء منهم إلى مؤلفى الروايات البوليسية ومن هنا فإن مصطلح «بولار» يكتسب قيمة لدى الناس. فالجرائم هنا ليست بهدف الغموض، ولكن الأشخاص فيها لهم دوافع إنسانية وهم يجبرون على ذلك مثلما حدث فى روايات الكاتبة باترشيا هايسميث.

من أبرز هذه الأسماء جون ساند فوردو واسمه الحقيقى جون كامب). الذى فاز بجائزة بوليتز - كصحفى - وقد استطاع أن يخلق عالما متفردا فى روايات الثلاث عشرة وبطل هذه الروايات مفتش شرطة يدعى لوكاس لكن الشخصية الرئيسية صحفية تدعى آنا بوتارى التى تعمل محررة فى التليفزيون ودورها هو اصطياد الجرائم أثناء حدوثها لعرضها فى برنامج تليفزيونى تقوم بإعداده وفى روايته الأخيرة ليل السعير يموت زميلها المصور فى ظروف غامضة.. ويصير الليل الذى تعمل فيه بمثابة جحيم، فهى تعرف أن القاتل يتربص بها.



انه شكل مختلف من الروايات الغامضة، فلسنا أمام جريمة قتل، تدور فيها الشبهات حول مجموعة من الأشخاص المعروفين، ويكون الفاعل فى النهاية شخص بعيد تماما عن الشكوك ولكن البطلة هنا تنتظر فاعلا مجهولا وتعيش فى رعب قاتل وباعتبار أن الخوف هو من الأحاسيس التى تتبلور فيها جميع سمات الإنسان.

الإيطاليون لا يحبون القتل!!

الأدباء الأمريكيون الآخرون، يمثلهم كل من جورج بيلكاتو، صاحب رواية «أبيض كالثلج» ومايكل كوناللى مؤلف «نهر الغموض» ونيك توشس صاحب «قطار الليل» أما الروسى بوريس أكونين فقد بيع من رواياته الأخيرة قرابة ٢٠٠ ألف نسخة، وهذا النوع من الروايات لم يكن موجودا فى الاتحاد السوفييتى، ولكن تغير شكل الحياة خلق نوعا مختلفا من الجرائم، وأسفر عن ظهور جيل من القراء يعشقون روايات الغموض فقد قام المؤلف بابتداع شخصية تتكرر فى روايته، مثلما يفعل كتاب الغرب، هو المفتش ارست بتروفيتش الذى يمتلك حاسة لاكتشاف الغموض مثلما كان يمتلك شرلوك هولمز، وفى روايته الأخيرة موت أخيل يبدو تأثره بالأدب اليابانى فالمفتش بتروفيتش يسافر إلى اليابان من أجل كشف النقاب عن جريمة لمقتل جنرال روسى كان موجودا فى اليابان ولا شك فى أن موته يعنى الكثير للشعب الروسى، فهو فى نظرهم بطل قومى، وينتقل المفتش بين بلدان عديدة ليعرف من يقف وراء هذا الاغتيال.

نحن بالفعل أمام رواية غموض لكنها أيضا رواية فيها الكثير من الملامح السياسية فى ظل التغيرات الحادة التى عرفتها رواسيا فى السنوات العشر الأخيرة.

أما الكاتب البريطاني جرهام هيرلى فإنه أحد الوافدين الجدد ولم يكن أمامه سوى اتباع خطى أساتذة النوع حيث يتكرر ظهور المفتش فاراداى فى رواياته الثلاث، وهو ارمل يعيش وحيدا مع ابنه الأخرس والذى يكن له كل مشاعره الخاصة، وكلا الاثنان يحبان البحر والطيور وبيتهما الأبيض المطل على المحيط وهو بيت يشبه السفينة أما الحى الذى يعيشان فيه فإنه مسكون بالفقراء، والبحارة والجريمة هنا تتمثل فى اختفاء أستاذ جامعى يقوم بأبحاثه عن البحر ما يدفع بالمفتش إلى فك لغز الاختفاء.

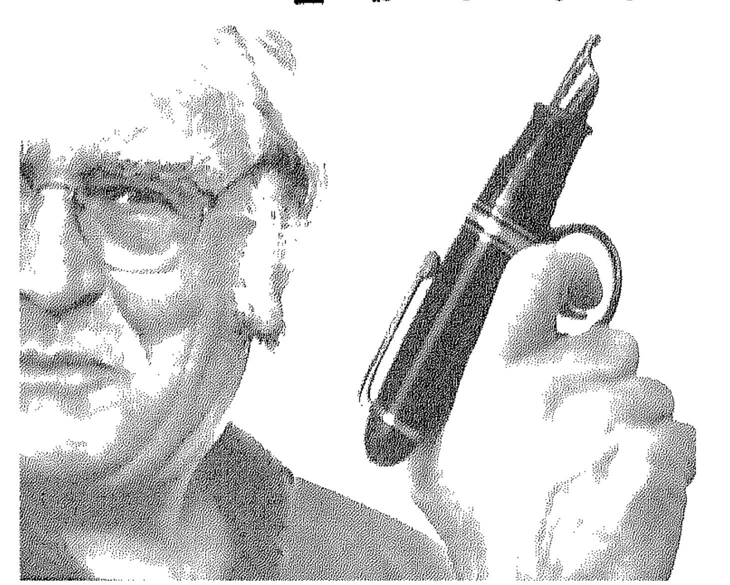
هذه الاجواء يمكن أن نجدها فى الكتابات الأدبية، لذا فإن واحدا من كتاب الـ «بولار» يمكنه أن يجعلها تدور فى عالم الغموض الأسود فلا يفقدك شعورك الانسانى بالتعاطف مع الناس.

وفى ايطاليا، هناك أيضا هذا النوع من الروايات تبرز فيه دوناليون التى تعيش فى فينسيا وهى كاتبة غزيرة التأليف ويقال : إن رواياتها تلقى شهرة خارج ايطاليا منها داخل وطنها، مما يعنى أن الرواية البوليسية تزدهر فى بلاد دون أخرى وفى روايتها الأخيرة «قضية باولا» تتوقف عند ما يسمى بالسياحة الجنسية، فقد امتلأت ايطاليا بالبنات الصغيرات القادمات من آسيا بهدف الدعارة حيث تقوم شركات السياحة باستغلالهن فى تنشيط أعمالها وبسبب موت إحدى هؤلاء البنات فى ظروف غريبة، يمكن التعرف على عالم جديد أسود من الدعارة.

الرافضون

فى فرنسا هناك كتاب أقل براعة، باختصار لأنهم أدباء أكثر منهم مؤلفى روايات بوليسية منهم من الجيل الجديد برجيت أوبير صاحبة موت الغابة التى حازت على جائزة الرواية الوليسية، أما باتريك كوتين، فهو كاتب مخضرم، قسم نفسه إلى شخصين، أحدهما اسمه كولتز يكتب الروايات البوليسية والآخر كوتين يكتب النصوص الأدبية وقيل انه يكتب ما يسمى بـ «البولار الأدبى» وقد جاءت روايته الأخيرة «دماء وردية» قطعة أدبية راقية مليئة بالغموض، لكنها مرصعة بالسحر الانسانى.

إذن، فكتاب هذا النوع من الرواية يرفضون استخدام مصطلح البوليسية لما يكتبونه وذلك عكس المشاهير الذين نعرفهم حاليا وأغلبهم من الكاتبات النساء مثل مارى هيجنز كلارك وروث راندل وف. د. جيمس، لذا فإن هؤلاء الأدباء يراهنون على الجوائز الأدبية من ناحية، وأيضا على بقاء هذه العوالم فى ذاكرة القراء لسنوات طويلة. ■





بديع الكسم ودرية:



بقلم
صافى ناز كاظم

وصلنى صوتها المميز، الذى يجمع بين الجمال والرقى والثقافة، فصحت فى فرح: «درية معقول!» كانت قد غابت ولم أعرف كيف أتصل بها حين قرأت عفوا خبر وفاة زوجها صديقها «بديع الكسم» ، الدكتور أستاذ الفلسفة .



هى وهو من أصدقائى الحميمين، تعرفت عليهما فى القاهرة فى الستينيات بواسطة السفير العلامة سامى الدروبى وزوجته الغالية إحسان بيات، رحمة الله عليهما، وشاء الله أن ألتقى بهما عام ١٩٦٩ خلال إقامتهما المكثفة بمهام الواجب العروبى فى الجزائر بعد أن أعير دكتور بديع الكسم من جامعة دمشق إلى جامعة الجزائر ليسهم فى خطة التعريب التى نهضت بها حكومة «هوارى بومدين» فى ذلك الوقت. ثم التقيت بهما - بعد عشر سنوات - فى دمشق عام ١٩٧٩ حين أخذتنى الغالية إحسان بيات «الدروبية»، وأنا فى ضيافتها، إلى ندوة الجمعة التى كانا يقيمانها فى منزلهما كل أسبوع على مدى سنوات طوال، لأن ندوة «بديع الكسم» - كما أكدت لى إحسان - واحدة من أهم معالم دمشق الثقافية التى يجب الحرص عليها.

ذكريات في القاهرة

كانت، «درية وبديع»، يحضران إلى القاهرة وكان لابد ، كل مرة، أن يكون لى معهما لقاء. تتباعد الأماكن والأزمنة، لكننى معهما دائما على تواصل وجدانى، وحين نلتقى يبدو وكأننا لم نفترق، كنت أضحك وأقول: «دائما معا على الخط». رغم كل ما بيننا من اختلاف ممكن فى المنطلقات والرأى أو الفكر ، كان هناك ذلك التآلف الروحى والتقارب النفسى. أصدقاء. ليس من الضرورى أن يتطابق الاتفاق فى الرأى بين الأصدقاء، أحكى ويضحكان. يحكيان وأنصت باستمتاع. «يحكيان»، نعم لم يمكننى أبدا أن أفصل بينهما وأقول «يحكى» و«تحكى» فهما رابطة غير منفصمة. ينطقان بلسان واحد وصوت واحد. أقول : «بديع الكسم ودرية: قصة غرام فلسفية». هو من دمشق وهى من القاهرة . عام ١٩٤٣ جاء موفدا من دمشق بعد أن أكمل دراسته الثانوية ليكمل دراسته الجامعية بجامعة فؤاد الأول، بكلية الآداب قسم الفلسفة. وكانت هى قد انتهت من دراستها الثانوية بمدرسة الأميرة فوقية، والتحقت بالجامعة والكلية والقسم نفسه.

لعله شاهدها، لعلها لاحظته لكن اللقاء القدرى لم يتم إلا فى العام التالى ، فى السنة الدراسية الثانية

١٩٤٤ - ١٩٤٥، بحث فى المنطق مراجعه فرنسية وانجليزية هو السبب، ثلاثة فقط كونوا مجموعة المرجع الفرنسي: سوريان: الطالب «وفيق العظمة» والطالب «بديع الكسم» وطالبة وحيدة: المصرية «درية عبدالحميد فؤاد». فى الدرس والبحث ينبثق الإعجاب المتبادل بين الدمشقى والقاهرية، وكلاهما فى العشرين ، بين مراجع المنطق وكتب الفلسفة والنشاط الخيرى لجمع المصروفات اللازمة للزملاء المتعثرين اقتصاديا، حيث تعزف «درية فؤاد» البيانو فى الحفلات المقامة بالقاعة الكبرى بالجامعة تنظمها «جمعية الطلبة العرب». كل عناصر الرومانسية المرجوة ليترعرع الحب حاضرة لتزداد الرابطة بين الدمشقى والقاهرية. فى حفل التخرج عام ١٩٤٧ يتقدم إلى والدها ليخطبها، لكن الموافقة لا تتم إلا حين عودته عام ١٩٤٨ لدراسة الماجستير فيتزوجان وتسافر «درية» معه إلى دمشق ليواصلا معا مشوار الحياة، على مدى ٥٢ سنة، من ١٩٤٨ حتى يوم رحيله ٥/١٠/٢٠٠٠ . زوجين زميلين، صديقين، متوحدين . أوفدته جامعة دمشق إلى جامعة جنيف سنة ١٩٥٤ فنال شهادة الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٩٥٨ عن رسالته «فكرة البرهان فى الميتافيزيقا». هل قلت «نال»، الأصح أن أقول «نالا»، فدرية تتكلم عن أطروحته، التى ترجمها من الفرنسية الى العربية الأستاذ جورج صدقنى تحت عنوان «البرهان فى الفلسفة» بشغف المشارك فى الهم العلمى، المتابع لكل فكرة ، لكل كلمة، والحارس للوثائق والأوراق، حتى يقول عنها مترجم «البرهان فى الفلسفة»: «وإذا كان كمال الفضل أن ينسب لأهله، فإنه ينبغى لى أن أعلن أن الفضل يعود إلى السيدة الفاضلة درية فؤاد الكسم رفيقة عمر فيلسوفنا الكبير فى إنقاذ.. الأوراق الثمينة من بين أوراق الفقيد الكثيرة، وفى وضعها بين يدى»..

مع درية بعد رحيله

فى شهر ذكراه الثانية، ٥/١٠/٢٠٠٢، جاءت «درية» إلى القاهرة، وأهدتنى بعض كتبه ومعها هذه الكلمات: «وأخيرا أخيرا وجدتك ياصافى، وجدتك وبلا بديع هذه

المرة..» ولم تكن هذه الكلمات صحيحة مائة بالمائة، فدرية لم تدر أنها ، بكلامها الذى لم يتوقف عنه، قد جسدته بانصهارها الروحى فيه. ورأيتها كما تعودت أن أراهما معا، بابتسامتها الباشة السعيدة المستغرقة فى «اعتناق» بديع الكسم. أنظر إليها وأراه، كما كنت أراه، إلى جوارها ناظرا إليها فى مودة بلا حدود تاركا لها انطلاقة الحديث بالنيابة عنه، أسأله فتجيب، يبدأ فتكمل، يختصر فتستطرد. يتذكر فتغذى ذاكرته بالتفاصيل . يعترض فتقدم حيثيات تدعم اعتراضه، لم تزل خطواتها منضبطة على إيقاع خطوه فكيف يجوز لها أن تبكى فقدانه؟

سيرة حياته

فى حفل تأبينه قال الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ، فيما قال:

«... ولد الدكتور بديع الكسم بدمشق عام ١٩٢٤، ونشأ فى أسرة عرفت بالتقوى والورع، وانصرفت إلى العلم والتفقه فى الدين . كان أبوه الشيخ محمد عطا الله الكسم – «١٨٤٤ ـ ١٩٣٨م» – من كبار فقهاء الحنفية بدمشق وأهّله علمه الواسع. .. لتولى منصب المفتى العام واحدا وعشرين عاما حتى توفاه الله.... وكان منزله منتدى العلماء والفقهاء والأدباء وكبار رجالات دمشق، تعقد فيه مجالس العلم، وتدور الأحاديث والمناظرات ، ويمضى بهم القول حينا إلى تناول ما يلم بالوطن الحبيب من وقائع ومظالم يقترفها المستعمر الغاشم... فى هذا الجو الذى تهيمن عليه المثل الأخلاقية ، والتعلق بالعلم، وحب الوطن والمذاكرة فى همومه وقضاياه نشأ الدكتور الكسم وترعرع وتفتحت نفسه لما رأى وسمع... لقد ظل الدكتور الكسم حياته كلها خدين الكتب لا يكاد يفارقها، وقد أولع بالفلسفة خاصة ولوعا شديدا... ولما أكمل الدكتور الكسم شوط دراسته بنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة عاد إلى ساحة التدريس فى جامعة دمشق تملؤه الحماسة والنشاط ... لقد رأى فى التدريس تحقيق غاية من أحب الغايات إلى نفسه، هى أن ينشىء جيلا من العلماء عارفى الفلسفة يؤدون رسالة الفكر فى نزاهة وإخلاص.

ومن هنا نرى أن هاجس الأستاذ الكسم الذى كان لا يغادره أمران: أولهما، السعى إلى نشر المعرفة فى مجتمعه وبين قومه... والثانى، تطلعه الدائم أن يبسّط ما أداه إليه النظر، وهو يتأمل أحوال قومه، ويلتمس الأسباب التى تدعو إلى نهضة العرب ليشاركوا فى الحضارة الإنسانية»...

وفى مشاركته قال الدكتور حسن حنفى :

«من القاهرة التى أحبها... أتيت... هو من الرعيل الثانى لرواد الفكر العربى وأساتذة الفلسفة العربية من الأربعينيات مع زكى نجيب محمود، وتوفيق الطويل، ومحمد عبدالهادى أبوريده، ومحمود أمين العالم، وسامى الدروبى، وعبدالرحمن بدوى، ومحمود قاسم، وعادل العوا، بعد الرعيل الأول مثل ابراهيم بيومى مدكور وعثمان أمين، ومحمد مصطفى حلمى، وأبو العلا عفيفى، وعلى سامى العشار، ومحمد على أبو ريده، تلاميذ المؤسس الأول للفلسفة فى البلاد العربية مصطفى عبدالرازق تلميذ محمد عبده تلميذ الأفغانى...»

وعن أسلوبه فى الكتابة قال أخوه الدكتور الناقد بدر الكسم: «كان يعمل إزميله فى صخور اللغة ليفجر منها مياها رقراقة ، صافية حيث لا زبد.. لغته لغة صلبة مرمرية ولكنها فى الوقت نفسه شفافة كالكريستال يرى المتأمل فيها حزما ضوئية تشع بألف لون ولون.. كان عاشقا للكلمة الحلوة يصطادها كالفراشات».

وللتأكيد على ذلك نقرأ هذه الأسطر المقتطفة من مقال للدكتور بديع الكسم بعنوان «الحرية أساسا»: «يقول مفكر فيلسوف : إن معاجم اللغات جميعا لم تعرف عبر تاريخها الطويل، لفظة أجمل من لفظة الحرية، باستثناء لفظة الحب، وواضح أن الجمال هاهنا ليس جمال الصورة البصرية ولا جمال الصورة السمعية، وإنما المقصود أن لفظة الحرية أحلى فى المذاق وأطيب طعما من كل لفظة ، أو أنها بتعبير آخر أكثر قدرة من غيرها على تجميع قوى النفس، وعلى تفتيح طاقاتها، وعلى تعريض الأفق أمامها آفاقا بعد آفاق.

قد يقال إن الحرية حريات، لأن حرية التصميم فى قرارة الأنا غير حرية التنفيذ فى ساحة الواقع، ولأن

التفكير الصامت غير حرية التفكير بصوت مرتفع، ولأن حرية الفرد الواحد غير حرية الإنسان أينما كان. والجواب البسيط أن الحرية واحدة. إنها ماهية ذات مظاهر، أو وجود ذو أبعاد باطنها قدرة على تعيين الذات بالذات، وانتفاء القسر فى كل صوره ، وظاهرها نسق من الحريات ، أو إذا شئتم من الحقوق الأساسية التى تتكون من خلال النشاط المشترك للعقل والعمل والمحبة والتطلع. فالإنسان كما قال ابن الخطاب حر منذ أن تلده أمه، ولكنه ليس حرية كله. إنه أيضا نزوع إلى وعى الواقع وامتلاكه. وانفتاح متصل على الناس، وتجاوز صاعد لا يقطعه إلا الموت. ولكن الإنسان لا يتحقق على كل صعيد إلا حين تحركه حريته الباطنة وترافق كل خطواته . إن الحرية أساس.........

الحرية هى أساس البرهان نفسه وإنها كالشمس لا تحتاج أبدا لكى نراها إلى أن نضىء الشموع... إن النفس تمتلىء بالمرارة والأسى حين توضع الحرية موضع الشك لحظة واحدة».

★★★

كلام الدكتور أستاذ الفلسفة الحكيم بديع الكسم هذا عن الحرية يفسر ما قالته لى درية: «لقد تحاشى بديع العمل السياسى وظل يردد : لقد خلقت لكى أكون معلما...»

وقد كان، ولهذا نوفيه «التبجيلا» لأن «المعلم» - كما قال الشاعر - كاد أن يكون رسولا! ■

قالوا عن المرأة

• بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهم .. ليستردوا شيئا من حريتهم المفقودة !

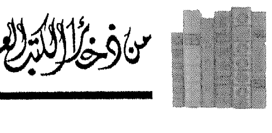
نجيب محفوظ

• تتزوج المرأة لتدخل الي المجتمع ، ويتزوج الرجل ليهرب منه !

شوبان

• الزواج خطوة هامة جدا، ولذلك يجب أن نتردد فيها حتى الموت !

أنيس منصور

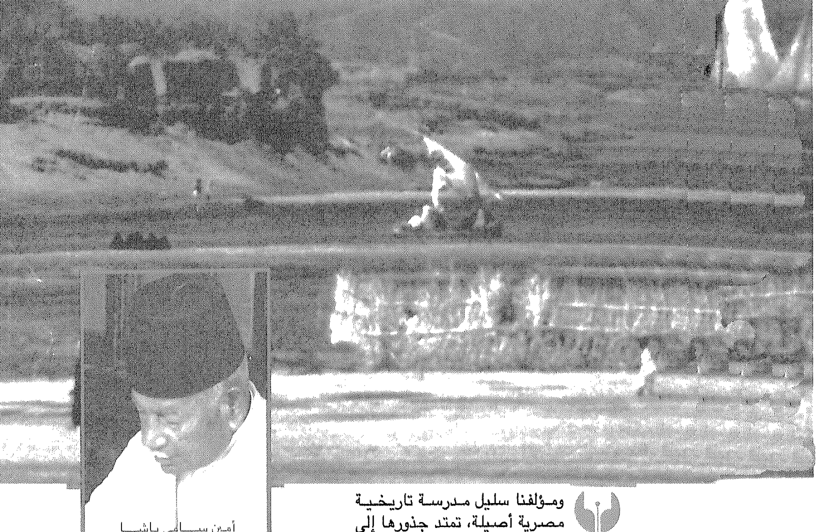


تقويم النيل
لأمين سامى باشا

بقلم
د. أحمد زكريا الشلق

يتفرد نهر النيل بين أنهار الدنيا، كما تتفرد مصر فى حوضه، ولسنا نبالغ إن قلنا إن مصر هى النيل، فتلك حقيقة أولية تتعلق بوجود مصر، فبدونه لاكيان لها، كما يقول جمال حمدان، ليس فقط من حيث مائه، وإنما كذلك من حيث تربته، فالنيل بأى مقياس، نهر غير عادى، جيولوجيا وجغرافيا، تاريخيا، وحضاريا.

وكانت تلك نقطة البداية فى تفكير مؤلفنا «أمين سامى باشا» حين اتخذ من النيل، فى سخائه وكرمه وفيضانه، ومن شحه وبخله وتحاريقه، تقويما حوليا وركيزة أساسية للكتابة، ليس فقط عن أحواله، وإنما عن مجمل أوضاع مصر، فتتبع أحوالها، مقرنا ذلك بأحوال النيل، ليضع لنا هذا السفر الضخم، الجليل والقيم، بعد أن أنفق فى تأليفه ماينوف عن ربع قرن من الزمان.


أمين سامى باشا

ومؤلفنا سليل مدرسة تاريخية مصرية أصيلة، تمتد جذورها إلى العصور الوسطى الإسلامية - وإن تطورت بعد ذلك تطورا عظيما - كانت لها تقاليدها ومناهجها، وكانت سمتها البارزة أن كتّابها كانوا يعتمدون على النقل الحرفى فى معظم الأحيان، عندما يؤرخون لعصور سبقتهم، ولايأتون بجديد، إلا عندما يصلون بكتاباتهم إلى التأريخ للعصر الذى يعيشون فيه، كما لم يحفلوا كثيرا بنقد الروايات أو تحليلها، أو حتى إبداء الآراء بشأنها، وبشكل عام كان معظمهم يتبعون طريقة «الحوليات» التى يؤرخون فيها لمصر، وللعالم الإسلامى، عاما فعام، وقليل منهم حاول التأريخ للموضوعات أو الدول، كما فعل ابن خلدون.

الحوليات

ولسنا نبالغ كثيرا إن قلنا إن المدرسة التاريخية المصرية شرعت تتنقل تدريجيا من تقاليد «الحوليات» إلى التاريخ العلمى، وإن ظل الاهتمام بالتسجيل الحولى قائما بدرجة أقل كثيرا مما سبق، وقد أسهمت جهود المؤرخين فى بلورة وعى تاريخى، ساهم بدوره فى تكوين الوعى القومى العام، وتكوين الأيديولوجية الوطنية والفكر قرائها الاجتماعى فى مصر «النهضة» كما يذكر أنور عبدالملك، كما يلاحظ أن هذه الجهود مرت بمرحلتين واضحتين أولهما مرحلة الجبرتى ومدرسته، والتى ينبغى النظر إلى كتاباتها فى إطار عصرها وفى دائرة قرائها المحدودة التى تتمثل فى كبار رجال الدولة والقادة، أما جمهور المثقفين فقد كان عليهم أن ينتظروا الطهطاوى الذى أطلعهم على الثقافة التاريخية وعلى الثقافة الحديثة فى شتى مجالاتها، وثانيها مرحلة الطهطاوى

ومدرسته وحركة الكتابة التاريخية فى عصر الخديو إسماعيل، حين حدث الاعتراف بالتاريخ كعلم لأول مرة، وصار مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن، يدرسها معلمون مختصون، وبينما أهتم تلاميذ الطهطاوى بترجمة الكتب التاريخية على نحو ما هو معروف، فإن عصر إسماعيل شهد اهتماما واضحا بتأليف الكتب .. وبفضل جهود فريقين من مدرسة الطهطاوى، فريق الأزهريين وفريق مدرسة الألسن، وجد المثقفون المصريون والعرب بين أيديهم مجموعة من المؤلفات التاريخية تعالج مختلف العصور فى العالم وبطريقة علمية حديثة.

وقد حظى النيل والتأريخ له، ولفيضانه وتحاريقه، باهتمام كتاب القرن التاسع عشر، فها هو المهندس محمود باشا الفلكى، أستاذ على مبارك وأمين سامى، والذى نشرت بحوثه فى المجلات العلمية الأوروبية، والتى مزج فيها بين الدراسات التاريخية والدراسات العلمية الخالصة، جمع بيانات موثقة عن فيضان النيل وتحاريقه عن الفترة مابين عامى (١٨٢٥ ـ ١٨٨٤) وضمنها فى كتاب كان مرجعا لمهندسى الرى والنيل، كما أن تلميذه على مبارك قد ضمن الأجزاء الثلاثة الأخيرة من خططه، دراسات مستفيضة عن النيل وفيضانه ومقاييسه وترعه، كما يصدق القول نفسه على كتاب له يحمل عنوان «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» الذى طبع بالقاهرة عام ١٨٧٢، وهو كتاب تتمثل أهميته فى دراسة تاريخ نهر النيل ونظم الرى ومشروعاته فى مصر، ثم جاء أمين سامى باشا، الذى كان تلميذا للفلكى وعلى مبارك، ليضع لنا كتابه الوثائقى المهم «تقويم النيل» الذى لم يكن مجرد كتاب عن النيل وأحواله، وإنما عن تاريخ مصر والمصريين.

أمين سامى ومؤلفاته

ومؤرخنا أمين سامى باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٤١) هو ابن الشيخ محمد حسن البرادعى المصرى، الذى ينسب إلى «البرادعة» إحدى قرى قليوب بالدلتا المصرية، وكان أبوه وجده شيخين للقرية مما يعنى أنه نشأ فى أسرة ميسورة من أسر شيوخ القرى المصرية فى القرن التاسع عشر، وبالرغم من أنه ليس لدينا معلومات كافية عن نشأته وسنى تعليمه الأولى، إلا أنه من الواضح أنه تلقى تعليما أوليا فى قريته، لم يلبث أن استكمله فى القاهرة، التى لاتبتعد كثيرا عن بلده، قبل أن يدخل مدرسة المهندسخانة، (التى كانت قد تأسست منذ عام ١٨٣٤) وذلك فى عهد نظارة محمود باشا الفلكى لها (١٨٧١ ـ ١٨٨٢) وفى هذه المدرسة تلقى أمين سامى تعليما فنيا، أهله لحياة عملية انتظم خلالها فى سلك التعليم الفنى، فعين مدرسا بمدرسة المساحة فى بنى سويف، وذلك فى أواخر عهد الخديو إسماعيل، وكانت هذه المدرسة تؤهل الطلاب للدراسة بمدرسة المهندسخانة، وقد شغل أمين سامى وظيفته تلك نحو خمس سنوات، قدم فيها لطلابه مختصرا لهندسة إقليدس.

انتقل مؤلفنا بعد ذلك للعمل مفتشا بنظارة المعارف حيث أظهر نشاطا كبيرا فى ظل رئاسة المسيو دوربيه السويسرى، الذي يعد أحد الشخصيات الأوربية المرموقة التى خدمت التعليم بمصر، وإليه يعزى تأسيس أول مدرسة للمكفوفين بمصر، وقد انتهى عهد الخديو إسماعيل (١٨٧٩) وأمين سامى فى وظيفته تلك، ونتيجة لنشاطه الجم وخبرته الواسعة وسمعته الطيبة، عهد إليه بإنشاء مدرسة ابتدائية بالمنصورة، فأسسها على أحدث طراز فى عصرها، وطورها بأن أضاف إليها فصولا تجهيزية (ثانوية) وكان من أنجب تلاميذه فيها أحمد لطفى السيد ـ أستاذ الجيل فيما بعد ـ الذى روى عنه فى ذكرياته أنه كان غلاما ذكيا ينزع إلى الفلسفة والتفكير مع حداثة سنة.

وفي مدرسة المنصورة قدم أمين سامي أسلوبا جديدا فى التربية والتعليم لتنشئة الطلاب، فكان يكلفهم بإعداد موضوعات معينة خلال الأسبوع ثم يحشد المعلمين وكبار الموظفين والنابهين ليتحدث إليهم الطلاب، كل في موضوعه من الذاكرة حديثا مرتجلا، وقد زار الخديو توفيق هذه المدرسة عام ١٨٨٣ حيث اصطف التلاميذ لاستقباله وهم يلبسون ثيابا بيضاء كالتي يلبسها الجند بالثكنات، وقد أبدى الخديو إعجابا شديدا ببناء المدرسة وتنظيمها ونظافتها وبنظام التعليم فيها، حتى أنه تولى بنفسه امتحان التلاميذ باللغة الفرنسية.

ويبدو أن أمين سامي عمل فترة في دار المحفوظات المصرية منذ عام ١٨٨٠، انتقل بعدها للعمل مفتشا بنظارة المعارف مرة أخرى، ومنها انتقل إلى وظيفة أكبر وأكثر أهمية عندما تولى نظارة مدرسة الناصرية (المبتديان) حيث مكث بوظيفته هذه نحو ربع قرن، بين عامى (١٨٨٥ ـ ١٩١٠) استطاع خلالها تأسيس مبنى عصرى للمدرسة بالمنيرة، حتى صارت مدرسة لأبناء الأعيان وصفوة المجتمع المصرى، باعتبارها أرقى مدرسة فى مصر حينئذ، وكانت أشبه بكليتي «هارو» و«إيتون» بانجلترا حيث يربى أبناء العائلات والأسر تربية خاصة، وقد ذكر أمين سامي أن اللورد كرومر، المعتمد السياسي البريطانى فى مصر قد زار المدرسة وأثنى على نظامها ونظافتها وبرامجها الدراسية، كما زارها الخديو عباس حلمي مرتين.

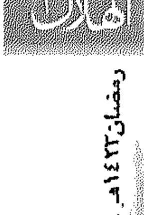
وقد أضاف أمين سامي في ذكرياته عن هذه المدرسة أنه ابتدع مخالطة المعلم لتلاميذه، والعناية بالرياضة، وإذكاء المنافسة بين الطلاب عن طريق الجوائز ولوحات الشرف وتنشئتهم على النهج الذى رسمه الدين الحنيف، وقد تهافت رجالات مصر وكبراؤها وأعيانها على المدرسة يضعون أبناءهم تحت رعايتي وإشرافي، وكانوا يفضلون إلحاقهم بالقسم الداخلي رغم سكناهم بالقاهرة... وقد تخرج من هذه المدرسة من كبار شخصيات مصر البارزين كلا من مصطفى النحاس وعلى ماهر وأحمد ماهر وعلى الشمسى وزكى العرابى وحافظ رمضان وغيرهم.

ونتيجة للسمعة العلمية والإدارية التى حازها أمين سامي، عهد إليه فى نهاية القرن التاسع عشر بنظارة مدرسة دار العلوم أيضا، وذلك فى عهد نظارة مصطفى فهمى باشا (١٨٩٥ ـ ١٩٠٨) الذي أطلق يده فى المدرسة ليعيد تنظيمها، حيث نجح فى مهمته نجاحا لقى عليه ثناء الأستاذ الإمام محمد عبده، الذى كان رئيسا لهيئة امتحان الطلاب بها، وقد شهد له الإمام بأنه أحيا اللغة العربية فيها، وقد تخرج على يديه منها عدد من كبار الكتاب والعلماء والشعراء.

لقد كان شغوفا بالعلم والتعليم طوال حياته، وقد ذكر الزركلى فى «الأعلام» أنه ألف كتابا مدرسيا بعنوان «النفحات العباسية فى المبادىء الحسابية»

المهم أن مؤلفنا بذل جهودا كبيرة فى سبيل نشر التعليم، وإصلاح التعليم الإبتدائي والثانوى فى عهدى الخديو توفيق وعباس حلمى، وكان من أنصار جعل التعليم الإلزامي فى مصر مجانيا وإجباريا للقضاء على الأمية، وفى حديث نشر له بمجلة الهلال عام ١٩٣١ ذكر أنه يتمنى أن يعيش حتى يتعلم آخر أمي في وطنه، وقد عبر عن اغتباطه لانتشار التعليم الإلزامي ثقة منه بأن تعليم الشعب هو أساس كل تقدم وفلاح، وكان يرى أن القضاء على الأمية وما يصحبه من تطور هو الخطوة الأساسية لمنافسة الشعوب الأخرى.

وعموما فإن المسئوليات التى تولاها فى شئون التعليم فضلا عن نشاطه الاجتماعية، قد هيأ له مكانة اجتماعية مرموقة، ومن ثم الاختلاط والتحرك داخل الدوائر



الاجتماعية العالية في مصر، فكان عضوا بالمجلس الأعلى للمعارف، كما عين عضوا مجمع اللغة العربية، وكانت نشاطاته الاجتماعية والثقافية العامة مدعاة اختياره عضوا في مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٢٨، وحتى وفاته عام ١٩٤١.

ومع ذلك كله فإن وجهات نظره وآرائه السياسية لم تنعكس على كتاباته التاريخية، كما كان نادرا ما يفصح عن آرائه الخاصة ويعبر عن مشاعره بشأن أي موضوع يكتب عنه.

مؤلفاته

أما عن مؤلفاته، فإنه باستثناء كتاباته المدرسية التي كتبها للطلاب، ولم تنتشر خارج هذا السياق، فإن أول كتاب ألفه ونشره كان المجلد الأول من «تقويم النيل» الذي يتضمن مقدمة الكتاب (١٣٤ صفحة) ثم الجزء الأول منه الذي يتناول أوضاع النيل وتاريخ مصر من الفتح الإسلامي حتى الفتح العثماني، وقد نشره عام ١٣٣٣ هـ ـ ١٩١٥م، ثم أعقبه بكتاب يحمل عنوان «التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤ و١٩١٥»، وبيان تفصيلي لنشر التعليم الأولي والابتدائي بأنحاء الديار المصرية» وقد نشره عام ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م، مدفوعا بأن عليه دين لمصر يجب أداؤه عند القدرة عليه، وبالرغم من أنه أراد أن يكتب عن التربية والتعليم منذ القرون الأولى وحتى عصره، إلا أنه ركز كتابه حول عامي ١٩١٤ و١٩١٥، مستعينا بالوثائق، والإحصائيات التي تناولت أعداد التلاميذ والمدارس وخطط التعليم، مما جعله مصدرا وثائقيا مهما لمؤرخي التعليم في مصر خلال هذه الفترة.

ثم شرع مؤلفنا بعد ذلك في استكمال إعداد ونشر مشروعه الطموح «تقويم النيل»، فنشر عام ١٩٢٨ مجلده الثاني الذي تناول تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى نهاية عصر محمد علي، ونتيجة لاتساع نطاق ومجال العمل لديه، لم يستطع أن يصدر المجلد الثالث، بأجزائه الثلاثة، فضلا عن جزء خاص بالملاحق، إلا في عام ١٩٣٦، وهي الأجزاء التي غطت عهود خلفاء محمد علي، عباس باشا ومحمد سعيد والخديو إسماعيل.

وبعد أن أتم أمين سامي نشر مجلدات «تقويم النيل» بين عامي ١٩١٥ ـ ١٩٣٦ كانت لديه بقية من علم ووثائق عن النيل وعن التعليم في مصر، لذلك صنفها في كتاب آخر، كان آخر مؤلفاته، حيث توفي بعد نشره بثلاث سنوات، وكان تحت عنوان «مصر والنيل، من فجر التاريخ إلى الآن» وقد نشرته دار الكتب المصرية عام ١٩٣٨، ويلاحظ أن الحديث فيه عن التعليم في مصر من عصر محمد علي وخلفائه، حتى عهد فاروق، اختلط بالحديث عن النيل ووفائه وفيضانه، كما امتلأ هذا الكتاب بالوثائق والإحصائيات التي لم يكن قد نشرها في أعماله السابقة.

تقويم النيل: الهدف والأهمية

يقع هذا السفر الضخم في مجلدات ستة اشتمل **المجلد الأول منها** على مقدمة طويلة، أوضح فيها أسس مشروعه الطموح وتحدث عن جهوده وأهدافه من هذا العمل، كما اشتمل على الجزء الأول الذي وضع له عنوانا فرعيا طويلا إلى جانب العنوان الرئيسي «تقويم النيل» هو «وأسماء من تولوا مصر ومدة حكمهم عليها وملاحظات تاريخية عن أحوال الخلافة العامة وشئون مصر الخاصة عن المدة المنحصرة بين السنة الأولى وسنة ١٣٣٣ هـ / ٦٢٢ ـ ١٩١٥م»، وكما أشرنا يتناول هذا الجزء الفترة التاريخية الممتدة من الفتح الإسلامي لمصر، وتعاقب حكام وولاة الدول الإسلامية عليها حتى نهاية حكم سلاطين المماليك، ليقف عند بداية دخول مصر تحت الحكم العثماني، ويلاحظ أن المؤلف وضع تقويما للنيل من حيث تواريخ تحاريقه

وفيضاناته، بتسلسل زمني في الصفحات اليمنى، وما يقابلها من الولاة والحكام وأهم أحداث عهودهم في الصفحات اليسرى، ملتزما هذه القاعدة في الجزء كله،كما يلاحظ أنه يذكر الكثير من مصادره في نهاية العديد من فقرات كتابته، فيشير بين قوسين إما إلى اسم المصدر أو اسم المؤلف،دون استكمال بقية معلومات المصادر.

أما المجلد الثاني فقد استكمل به حلقات تاريخ مصر في الفترة التالية أي منذ بداية الحكم العثماني مرورا بالغزو الفرنسي، ثم عودة مصر إلي حكم الدولة العثمانية، وولاية محمد على باشا عليها، لينتهي الجزء بوفاة إبراهيم باشا عام ١٨٤٨، وهناك عدد من الملاحظات بشأن هذا الجزء **أولها** أن المؤلف مر سريعا على فترة الحكم العثماني لينتقل إلى عصر محمد على الذى استغرق أكثر من أربعمائة صفحة (الجزء كله ٦٢١ صفحة) وقد ذكر أنه أراد توضيح أعمال «ولاة الدولة العثمانية من خير وشر، وقوة وضعف، وما كان من نفوذ الأمراء المصريين ـ يقصد المماليك ـ الذين صيروا نفوذ الولاة معدوما في أغلب الأحيان، حتى تسبب عن استمرار الخلافات بينهم تسهيل الاحتلال الفرنسي، «وقد أضاف أنه اجتاز القرون التي تخص هؤلاء مكتفيا بذكر أهم حوادثهم، ليصل إلى بغيته، أي إلى عصر محمد على باشا الذي يهم الناس معرفة حوادثه مفصلة لأهميتها والاتصال تاريخنا بها اتصالا تاما.

وثانيها أنه تخلى عن التقليد الذى اتبعه في الجزء الأول المتعلق بتقويم النيل وأحواله، فعرض بشكل أساسي للأحداث التاريخية، وجاء حديثه عن النيل في سياقها، حسبما توفرت مادة تاريخية له أو حسب تعبيره «دون ما تيسر له العثور عليه من أمر فيضان النيل وتحاريقه في المدة من ١٥١٥ ـ ١٨٤٨» وأضاف أن هناك سنوات خلت من معلومات عن النيل (حصرها في جدول) مبررا ذلك باضطراب الأحوال وباكتفاء المؤرخين بذكر وفاء النيل والاحتفال به، وقد أبدى أسفه لخلوه المدة بين عامي ١٨٠١ ـ ١٨٢٤ من بيان نهاية الفيضان ونهاية التحاريق وفسر ذلك بانهماك الوالي في سياسة الإنشاء والتجديد، وأضاف أنه بذل جهده في الحصول على معلومات عن النيل خلال هذه الفترة واتصل بأسر كبار المهندسين، الذين ذكرهم بالاسم، ممن تولوا الإشراف على الأعمال الهندسية في عهد محمد على، ووعد بأنه سيراجع الدفاتر الموجودة في مخازن خلف القلعة مرة أخرى.

وثالثها أن المؤلف، إلى جانب اهتمامه بسير الحكام وتطور الأوضاع السياسية والإدارية، أبدى اهتماما كبيرا بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد تحدث عن نظم ولوائح ترتيب الأراضي والأطيان، وإنشاء الفابريقات والصناعات، والمدارس وشئون التعليم، وتسعيرة الأصناف والبضائع والعملة، وإنشاء المستشفيات، وتنظيم الجيش وتحديثه، وحتى تسمية الشوارع وتنمير البيوت وتعداد أهالي القطر، وقد استقى معلوماته من نصوص الوثائق والأوامر والمراسيم والتقارير التي حصل عليها من الدفترخانة المصرية (دار المحفوظات) ومن جرنال الوقائع المصرية، ومن مصلحة الرسم بالمساحة العمومية، ومن نظارة الأشغال، فضلا عن مؤلفات العصر وكتبه.

أما المجلد الثالث الذي تضخم في الواقع، حتى جعله المؤلف ثلاثة مجلدات (الثالث والرابع والخامس) بثلاثة أجزاء، فتناول الجزء الأول منه عصري عباس باشا ومحمد سعيد باشا (١٨٤٨ ـ ١٨٦٣) بينما انفرد اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) بالجزءين الثاني والثالث بسبب وفرة المادة العلمية، ويلاحظ أن مؤلفنا في هذا المجلد بأجزائه

الثلاثة، تخلى أيضا عن تقليده القديم الذى التزمه فى المجلد الأول، بوضع تسجيل لتقويم النيل فى الصفحات اليمنى، وإن ظل ملتزما بالتسلسل الزمنى «الحولى» فى عرض الأحداث الكبرى، ويعد هذا المجلد على درجة كبيرة من الأهمية لندرة المادة الوثائقية المنشورة عن عصرى عباس الأول وسعيد باشا، خاصة أنه تناول موضوعات مهمة مثل إنشاء السكك الحديدية فى مصر، وتأسيس القناطر الخيرية، وأوضاع الحكم المصرى فى السودان، وإنشاء وترتيب المجالس والدواوين، كما قدم لنا المؤلف عن عصر إسماعيل معلومات ووثائق عن مختلف أوضاع مصر الداخلية والخارجية، خاصة ما يتصل بعلاقات مصر بالباب العالى، وتأسيس ونشاط مجلس شورى النواب، والمحاكم المختلطة، وتطور ميزانية مصر... إلخ.

وأخيرا أصدر أمين سامى المجلد السادس كملحق وثائقى يحمل عنوان «ملحق تقويم النيل عن الجسور والقناطر والكبارى والخزانات على النيل وفروعه بمصر والسودان، من فجر التاريخ إلى الآن» ضمنه ما استطاع من وثائق وخرائط وجداول وإحصائيات ورسوم توضيحية، استكمل بها موضوعات المجلدات السابقة.

وإذا تحدثنا عن أهداف أمين سامى باشا من وضع هذا العمل الكبير، فمن الواضح أنه كان مدفوعا إليه بشعور الإلتزام بخدمة العلم والتاريخ وبالرغبة فى خدمة الوطن، كما قصد منه تلبية احتياجات العلماء والمؤرخين والمهندسين، وحسب تعبيره فإنه يقدم هذا العمل «للقراء والباحثين.. ولم أرد بذلك إلا القيام بواجب العلم والتاريخ وخدمة الوطن العزيز...»، وقد حدد مؤلفنا ثلاثة أهداف أو مآرب لوضعه هذا العمل الكبير أولها أنه أراد أن يضع تقويما للنيل المبارك، تضمن فترات تحاريقه وفيضانه كل عام منذ بداية التاريخ الهجرى حتى عام ١٣٣٢ هـ/ ٦٢٢ - ١٩١٤م معتمدا فى ذلك على ما كتبه مؤرخو مصر، الذين سجلوا حالة النيل فى حولياتهم كل سنة هجرية، وثانيها أن يقرن ذلك بعرض تاريخى للوقائع والأحداث التى مرت بمصر خلال الفترة نفسها، وثالثها أن يوضح النتائج التى ترتبت على حالة النيل وتأثيرها على الحوادث التى حلت بمصر وسكانها، من رخاء وشدة عبر التاريخ، ورغم هذا الجهد الكبير واتساع العمل كلما اقترب مؤلفنا من السنوات التى عاصرها، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فإن القدر لم يمهله لإنجاز عمله كله، ومن هنا توقف به الجهد عند نهاية عصر الخديو إسماعيل (١٨٧٩).

مصادر الكتاب ومنهج المؤلف

إن قيمة أى عمل علمى تستمد من أهمية مصادره ومنهج وأسلوب الكاتب فى التعامل مع المعلومات والحقائق الواردة فى هذه المصادر، ونقدها نقدا تاريخيا لاستخراج الحقائق الصحيحة منها، وتوظيفها لبناء معرفة تاريخية علمية، وقد كشف لنا أمين سامى عن مقدرة عالية وعن تمكن ملحوظ فى الاستفادة من المصادر على نحو علمى، وربما كان هو أول مؤرخى مصر فى القرن العشرين الذين استخدموا الوثائق التاريخية على نطاق واسع، كما استطاع أن يخضع الكثير من هذه المصادر للنقد التاريخى، من خلال مقارنة الروايات والتحقيق والتدقيق فيما ورد بها سعيا وراء الحقيقة، ورغم استخدامه للشكل الحولى، إلا أن مضمون عمله جاء مختلفا عمن سبقوه.

ومن أشهر مصادره العربية ذكر أنه رجع إلى كتابين لأبى بكر بن عبدالله بن أيبك هما «درر التيجان»، «وكنز الدرر وجامع الغرر».

وفى معرض حديثه عن مصادره كذلك



ذكر أنه استفاد من كتاب عبداللطيف البغدادى «الإفادة والاعتبار...» وأنه عندما قرأ كتاب ابن إياس «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار» وجد فيه زيادة عن كتابه «النجوم الزاهرة».. كما قارن المعلومات التى استقاها من كتاب أبى السرور البكرى «قطف الأزهار...» بغيرها من المصادر للتحقق والتثبت من صحة ودقة هذه المعلومات.

وفيما يتعلق بالمصادر الحديثة، فيلاحظ أنه استفاد «بكشف فيضان النيل» (١٠٥٠ ـ ١٢١٥ هـ) الذى أعده المسيو لوبير، أحد رجال البعثة العلمية الفرنسية فى مصر، وقد أخذه عن عدد من مشاهير الكتاب العرب، فاقتضت أمانته أن يذكر أنه «غير واثق من دقته»، كما استعان بمحررات أستاذه محمود باشا الفلكى بين عامى (١٢٤١ ـ ١٣٠١هـ) أما ما يتصل بتحاريق النيل وفيضانه عن الفترة بين عامى (١٣٠٢ ـ ١٣٣٢ هـ) فقد استقى معلوماته من صحيفة الوقائع المصرية، طبقا لما سجلته وزارة الأشغال العمومية، ويستفاد من ذلك كله أن مؤلفنا استقى معلوماته من مصادرها الأصلية طبقا لطبيعة عصرها، سواء كانت مخطوطات أو مؤلفات أو تقارير ومحررات رسمية، سواء وجدت فى القاهرة، بدار المحفوظات ومصلحة المساحة ووزارة الأشغال، أو فى العواصم الأوروبية كباريس واستانبول وغيرها.

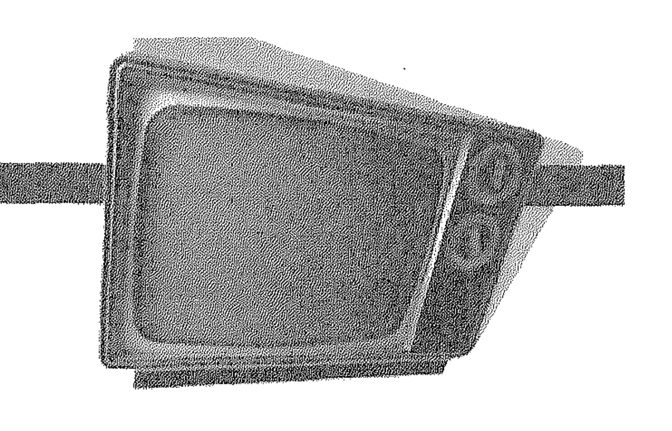
أما عن المعلومات التاريخية أو «الشذرات التاريخية» ـ كما كان يسميها ـ من حيث أهميتها والمنهج الذى اتبعه فى عرضها، فقد كشف أمين سامى عن وعى كبير بمناهج المؤرخين وطرائقهم، من قدماء ومحدثين، وربط بين ذلك وبين أهمية المعرفة التاريخية على نحو مهم.

وقد ذكر أمين سامى أنه اعتمد فيما كتبه على ثقات المؤرخين «وما أنا بالنسبة لهم إلا ناقل» «أمين» وإن كنا نعتقد أنه غمط نفسه حقها فى الجملة الأخيرة التى أراد بها الإشارة، فى تورية بلاغية، إلى أمانته فى النقل وإلى اسمه، لأنه لم يكن مجرد ناقل، وإنما كان باحثا مدققا وناقدا فى كثير من الأحيان.

ويبدو أن مؤلفنا على امتداد سنوات تأليفه للكتاب، كان يتلقى أسئلة تتعلق بالنيل وشئونه من قبل القراء، بعد أن نشر الجزء الأول عام ١٩١٥، وقد اعتذر لهم عن إبطائه فى الإجابة عن بعض ما أرسلوه إليه، معللا ذلك بأنه لايريد أن يجازف بالإجابة دون تحرى المسائل أشد التحرى، ولايجيب حتى يتأكد ويتثبت بأقصى ما فى وسعه «كما تقتضى بذلك أمانة العلم وكرامة النفس» حتى لقد كان ذلك يكلفه السفر ومراجعة المصادر فى مختلف المكتبات الأوربية، ليطمئن إلى أن كل ما أجاب به لم يكن إلا بعد التحرى العظيم والتثبت الشديد».

وأخيرا، يمكن القول أن أمين سامى باشا كان متنبها لتطور منهج البحث فى التاريخ، بفضل ثقافته الحديثة، وما داخلها من مؤثرات أوربية، فضلا عن معرفته بتراث ثقافته العربية، لقد تضمنت المجلدات التى تناولت عصر محمد على وخلفائه، ثروة ضخمة من الوثائق والتقارير الرسمية والفرمانات والأوامر العالية، التى أجاد مؤلفنا ربطها فى تطورها الزمنى، مخلفا لنا عملا موسوعيا فريدا، على درجة كبيرة من الأهمية لاتتوفر بسهولة فى مرجع آخر، ومساهما بذلك فى بناء الإرث القومى المصرى، كما تميز هذا العمل بشمولية واضحة جعلته لاغنى عنه لأى مثقف أو باحث أو مؤرخ، لذلك ضمنت له أبعاده الموسوعية الخلود والبقاء، وربما كانت القيمة الأعلى والأهم لذلك السفر الجليل، ليس باعتباره «تاريخا» فى حد ذاته، وإنما باعتباره «مصدرا» للكتابة التاريخية، والمصدر بطبيعة الحال أكثر أهمية وبقاء من التاريخ ذاته. ■

المتفرجة





السيد الوزير

برغم أناقته شكلا ولفظا ، أفشت خلجات وجهه قلقا يجتهد فى إخفائه عن زوجته الناعمة ، غير راغب فى الإيحاء بأهمية الضيف الذى ينتظران .

ولم تحل نعومة الزوجة دون حرص حاذق على حضور المقابلة ، فالبرغم مما أوضحه الضيف فور وصوله من خصوصية الأمر ، فقد جاء عرضها بتركهما وحدهما مصرحا بانعدام الجدوى ، فقد اعتاد السيد الوزير على أن يحكى لزوجة كل شىء ، .. وهكذا بقيت ، وإن لم تشارك فى الحوار ..

لم يضيع الضيف وقتا ، وإنما أكد للسيد الوزير أنه يبلغه بشكل شخصى بأنه تأكد من مصادره أثناء وجوده فى روما أن هناك أسلحة متقدمة مصنوعة فى المملكة المتحدة ، تم توريدها لجماعات إرهابية فى إيطاليا !! ومن فرط الذعر الذى ألمّ بالسيد الوزير سأل ضيفه فى حدة «ما معنى هذا الكلام؟» ، فأجابه الضيف ، بأن معناه أن التقدم التكنولوجى الذى حققته بريطانيا بتصنيعها متفجرات يمكن التحكم فيها عن بعد ، أصبح الآن فى أيدى الإرهابيين الإيطاليين . ويسأل

الوزير ضيفه ، ولماذا تخبرني بهذا الأمر ؟ ويجيبه الضيف «لكي تتصرف» .

يحاول الوزير مراوغة ضيفه ، بتذكيره ، بأنه جاء في زيارة شخصية ويبدأ كلامه على المستوى الشخصي وليس .. ويقاطعه الضيف بأن هذا صحيح ، ومع ذلك فهو يتوقع منه ، لوصفه وزيرا مسئولا في الحكومة البريطانية ، أن يفعل شيئا ، أي شيء ، للتصرف في هذه الكارثة .

في مكتب الوزير

وتتابع مشاهد التمثيلية التليفزيونية ، لتنقلنا إلى مكتب السيد الوزير ، وقد جلس قبالته مستشاره الحصيف ، وفي الركن ، قبع آخر ، لم نسمع له صوتا في الحوار الذي احتدم بين الوزير ، يدافع عن الإيطاليين ، ومستشاره يعجب من انفعاله ، والوزير يوضح ؛ أن الأسلحة التي ستقتل الإيطاليين لا محالة ، وصلتهم من بلده ، بريطانيا . وإذ بالمستشار يؤكد الوزير ، أن هذا شأن وزارة التجارة ، أو وزارة الخارجية ويحتد الوزير مؤكداً أن قيام بريطانيا بتوريد أسلحة فتاكة للإرهابيين في إيطاليا بما يترتب عليه قتل الأبرياء ، هو عمل غير أخلاقي . ويفاجيء المستشار وزيره بالسؤال : وما دخل الحكومة بالأخلاق ؟! ويتساءل الوزير : إن لم تكن الأخلاق من شئون الحكومة ، فما هي شئونها ؟! ويؤكد له المستشار ؛ أن شأن الحكومة هو الاستقرار عملا على منع الفوضى ، أما الأخلاق ، فليست من اختصاص الحكومة .

ويمضي المستشار المحنك ، باذلا كل جهد في تبصير وزيره المندفع ، وإثنائه عن رغبته العارمة في عرض الأمر على رئيس الوزراء ، فمثل ذلك العرض يستتبع بالضرورة ، إجراء تحقيق ، وفي هذا الشأن لا تعوزه الأمثله ، يكفي منها مثال ووترجيت ، والذي يؤكد مغزى ما سبق أن قاله «لينين» ؛ من أن أي شيء مرتبط بكل شيء ..

ولم تفلح رزانة منطق المستشار في تهدئة ثورة الوزير ، أو إثنائه عن عزمه على مقابلة رئيس الوزراء .. وما إن غادر السيد الوزير مكتبه ، حتى انبرى الذي كان قابعا في الركن ، ليدخل مع المستشار في لعبة جدل ، يبدأ بتصوير الأهوال ، وينتهي بالتآمر على السيد الوزير .

وفيما بدا أنه لعبة ، أبدى الخارج

عن صمته لماحية فى سبك خيوط التآمر مع أعلى الرءوس فى مكتب رئيس الوزراء ، للحيلولة دون إتمام المقابلة التى ابتغاها السيد الوزير وهو بالضبط ما يحدث فى المشهد التالى ، والذى يبدأ حين نرى السيد الوزير واقفا بباب رئيس الوزراء ، وما إن ينفتح الباب ، حتى يفاجأ السيد الوزير بأنه يقابل شخصا آخر ، وليس رئيس الوزراء .

ومن سياق الحوار ، تتكشف لنا مواهب من وصف لنا من قبل بحق ، بأنه أعلى الرءوس فى مكتب رئيس الوزراء ، ففى بساطة مذهلة ، يشرح للسيد الوزير استحالة لقائه برئيس الوزراء المشغول حاليا فى أمور أخرى جد خطيرة ، وحين تظهر نية السيد الوزير فى طلب ترتيب موعد آخر ، نجد الحوار يتحول إلى شبه تحقيق يتولاه المسئول رفيع المستوى الذى يفاجىء السيد الوزير بسؤاله إن كان حقا غير راض عن منصبه كوزير ، وإن كان حقا مستعدا للاستغناء عن هذا المنصب . وقبل أن ينطق الوزير بالرد نافيا ، نكون قد وقعنا من الضحك من امتقاع وجهه من صدمة السؤال خاصة وأن المسئول رفيع المستوى ، أتبع السؤال بسيل من التلميحات والتصريحات والتهديدات ، والتى تنصب جميعها فى اتجاه واحد هو نفسه الذى ذكره به مستشاره من قول لينين إن أى شىء مرتبط بكل شىء .

مشكلة الوزير

وأخيرا استوعب السيد الوزير الدرس ، وفهم أن عرض الأمر على رئيس الوزراء معناه إحراجه ، بما يحتم عليه فتح التحقيقات تلك التى يصعب التكهن بمن يقدر على الإفلات من أخطارها وتنتهى المقابلة ، وقد قنع الوزير ، بأن يلزم حدود واجبات عمله ، ولا يترك أبدا لحميته أى فرصة تأخذه إلى أبواب جهنم !!

وإذ ظننا أن المشكلة انتهت ، لا نلبث أن نجدها وقد ازدادت تعقيدا ، ففى المشهد التالى الذى نرى فيه السيد الوزير فى مكتبه ، يحاور مستشاره الحصيف ، ومساعده الألمعى ، نتعرف على التطور الجديد المعقد للأزمة فالخطاب الذى يقرأه الوزير وصله من ضيفه ذاك الذى أبلغه بأمر توريد بريطانيا لأسلحة ومتفجرات هى الآن فى أيدى الجماعات الإرهابية الإيطالية وطلب منه التصرف ، وما نسمعه من الوزير مقروءا من الخطاب ، يعرفنا باطمئنان

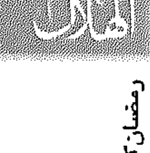
كاتب الرسالة إلى أن الوزير قد اتخذ الإجراء المتوقع منه ، وكذلك ثقته فى أن الحكومة البريطانية لابد أن تكون قد شرعت الآن فى اتخاذ ما من شأنه التعامل مع هذه الكارثة .

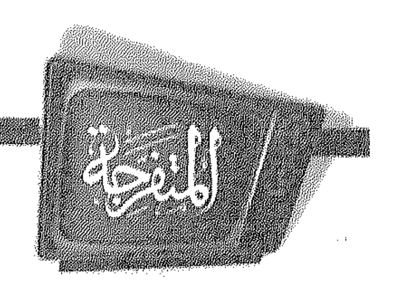
وفى اللحظة التى يظهر فيها على ملامح المستشار الحصيف ظل حيرة ، نجد المساعد الألمعى القابع فى الركن يخرج عن صمته ليقترح على السيد الوزير ضرورة إطلاع رئيس الوزراء على الأمر ، بأن يكتب له رسالة . وتنفرج أسارير المستشار ارتياحا للفكرة . وإذ يعجز الوزير عن استيعاب إمكان أن تكون الكتابة لرئيس الوزراء حلاً يسأل مستشاره» وما الفرق الآن ، ألن يتسبب إعلام رئيس الوزراء كتابة فى إحداث نفس نوع الحرج الذى يحتم عليه إصدار الأوامر بفتح التحقيق . وهنا ، يبادر المستشار الحصيف بتوضيح الفرق، مؤكدا للسيد الوزير أن الرسالة المطلوب كتابتها لرئيس الوزراء ، لابد أن تصاغ عباراتها فى إحكام ، بحيث تكون الألفاظ غامضة ، غير محددة ، تسمح بتفسيرات متعددة ؛ فالمطلوب إذن هو نوع من الغموض المحكم الذى يكون إبلاغا لرئيس الوزراء بأمر يستحيل معرفة كنهه ، أو فهم معناه ..

ولا يهمنى هنا أن أسرد بقية التفاصيل التى قادت أحداث التمثيلية التليفزيونية إلى نهايتها المحتومة لأن كلا من القراء الأعزاء يستطيع أن ينسجها فى خياله ، وأغلب الظن أن تصح كل التوقعات ..

فى عصر الفضائيات

كما أنه لا يهمنى هنا أن أشير إلى أسباب يستطيع كل قارئ أيضا أن يتكهن بها .. فالواضح أن اختيار هذا النوع من الموضوعات ، ووضعه فى الصيغة التى يذاع بها ، وهى صيغة الحلقات الدرامية المتصلة المنفصلة ، يعتبر من أكثر الصيغ ملاءمة للتمثيلية التليفزيونية فى عصر القنوات الفضائية .. إذ يتضح من السرد السابق أن المشاهد ، أى مشاهد ، فى أى مكان على وجه الأرض ، من الممكن أن يظل مشدودا للشاشة ، يستمتع بحوار محكم ، ومواقف تولد الضحك الصاخب ، وتتابع فى الأحداث وثيق ، وتطور للمواقف يعقدها ويصعدها ، وإذ تنفرج الأزمة فى النهاية ، تترك المشاهد وقد جنى حظا من المتعة لا يقارن ، وحظا آخر من الفهم والاستنارة والبصيرة بأمور الدنيا .. فما يشاهده من السيد الوزير





والمستشار والمساعد والمسئول الكبير فى مكتب رئيس الوزراء والضيف وزوجة السيد الوزير ، كل ذلك من الممكن أن يصدق على الكثيرين ممن يديرون شئون العالم .

ومع ذلك فهذا جانب واحد من الجوانب التى دعتنى للاستشهاد بهذه التمثيلية التى شاهدتها على شاشة التليفزيون البريطانى قبل عامين فى إطار الحلقات الشهيرة التى يعرضها منذ سنين تحت العنوان المصدر لهذا المقال السيد الوزير» .

الصيغة الأمثل

أما الجانب الآخر الأهم عندى ، فهو أن صيغة الحلقات التمثيلية المتصلة المنفصلة هى الصيغة الأمثل ، أرى ضرورة التوجه إليها لازم لإقالة الدراما التليفزيونية المعاصرة من عثرات كثيرة . والقنوات التليفزيونية التى تحذو حذو البريطانيين فى الأخذ بهذه الصيغة تتغلب ، إذ تفعل ، على المشاكل الناجمة عن صعوبة ربط المشاهد لأيام متتالية ، تتتابع عليها الحلقات إلى أن تنتهى .

والرأى عندى أن هذه الصيغة لازمة أيضا للتخلص من محترفى الثرثرة المقولبة فى شكل مسلسلات ذلك أن الكتابة فى صيغة الحلقات المتصلة المنفصلة والتى تعنى ثبات أشخاص الممثلين ، مع تغيير الموضوع فى كل حلقة ، هى من نوع الكتابة التى تحتاج إلى قلم حاذق كقلم الكاتبة النادرة «نهى حقى» التى مازلنا نذكر الحلقات التى كتبتها وأمتعتنا متابعتها على الشاشة الصغيرة تحت عنوان «اللقاء الثانى».

أما القول بأن الحلقات المتصلة المنفصلة ، تحتاج لتغيير أماكن التصوير ، مما يعنى زيادة فى عدد الديكورات ، فهو قول مردود عليه بأن تكلفة الإنتاج من الموضوعات المثيرة أصلا للجدل ، ويكفى فى هذا الشأن هنا أن نذكر ، بأن الحلقات التى أخرجها الأستاذ نور الدمرداش أوائل الستينات والتى مازالت صامدة للمنافسة تفضل كل المعروض حاليا على -- شاشاتنا - من حيث إحكام النص وسلاسة تغيير المناظر ودرامية الإضاءة ورفعة مستوى أداء الممثلين ، وبراعة الإخراج ، كل ذلك كان يتحقق بتكاليف زهيدة وبتقنيات أكثر زهدا ، وأترك للقارىء الكريم تبين أسباب الفروق الملحوظة ، استرشاداً بوقائع التمثيلية البريطانية «سيادة الوزير» . ■



ثورة المعلومات.. أم خداع المعلومات؟

بقلم
د. أحمد محمد صالح

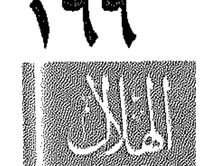
يحكى فى الصين القديمة ، أن بستانيا بسيطا اكتشف أداة جديدة للزراعة ، وعدت بتغيير وتحسين انتاج البساتين . هذا البستانى عندما أعلن اكتشافه ضحك محتقرا نفسه ، متذكرا مقولة معلمه التى تقول : عندما توجد اختراعات خادعة وماكرة سوف تؤدى إلى أداءات ونتائج ماكرة مخادعة أيضا ، وحيث هناك أداءات ماكرة ستكون هناك قلوب ماكرة . ومن يملك فى صدره قلبا ماكرا سوف يكذب ويشوه نقاء طبيعته ! ومن يشوه نقاء طبيعته ، سوف يزعج ويقلق هدوء روحه ، ومن يقلق هدوء روحه لن يشعر فى نفسه بالسكينة ابدا ! واسترسل البستانى قائلا : اننى يجب أن أكون خجلان لاستعمالى هذا الاختراع !

وبنفس خجل هذا البستانى البسيط ، أريد أن أبوح للقارىء بسر مثير صغير حول ثورة المعلومات ! أن تلك الفرص الجديدة والرائعة والمدهشة والرخيصة من كتل الأخبار التى تصلنا عبر وسائل الإعلام والإنترنت مشكوك فى صحة معظمها ومرتاب فيها ! أما محتوى المواد التى تحملها الميديا والإنترنت يصنف غالبيتها فى خانة المسابقات المعلوماتية أو الثقافية التى لها الطابع الترفيهى والتجارى (من يربح المليون ؟ وزنك ذهب ، مسابقات التليفونات عن الكرة والمسلسلات ، فوازير رمضان ... الخ) ، حتى الأخبار الفورية جدا التى تجارى أحداث العالم دقيقة بدقيقة كانت على حساب الصحافة المدروسة والأكثر دقة (أنظر سى إن إن وقناة الجزيرة مثلا) .

خصائص المعلومات

المعلومات هى محرك وجودنا ، وتضع أسس تصوراتنا ، وإدراكنا ، ومشاعرنا، وتكون قاعدة المنظورات التى نبنى عليها العالم من حولنا ، وهى التى تعطى الانطباعات وتقوى وتدعم الاعتقادات ، وفى النهاية توجهنا للقيام بالاختيارات ، والطريق الذى نسلكه وهى أيضا تخبرنا بما يحدث فى العالم حولنا ! وتكون اختياراتنا السياسية من المحلية إلى العالمية . لكن المعلومات التى تصلنا خلال الميديا من إذاعة وتليفزيون وصحافة وإنترنت ، تعتمد فى وصولها على معتقدات وعقائد ، وانحيازات الآخرين القائمين بعملية الاتصال ، فهى يمكن أن تقودنا وتوجهنا إلى اتجاهات ضارة - طبعا بالإضافة إلى فوائدها - حتى انها يمكن أن تبنى لنا صورا خاطئة ، وكاذبة وخادعة عن حياتنا ، وأعمالنا ، وتأثيرنا على العالم .

هذا يعنى أن المعلومات كيان فريد فى عالمنا ، ليست مثل الأجسام المادية ، وجودتها لاتقاس بالكتلة أو الحجم ، ولا يمكن أن تمسك! ولا تقاس بالوزن أو اللون ، فالصورة تساوى آلاف الكلمات ، وكل من الكلمات والصورة يمكن أن تغير حياتنا تماما ، وهى ليست مثل تدفق الطاقة التى تحيط بنا ، فبرميل من النفط إذا وزع بين عشرة مراسلين، كل واحد منهم يأخذ عشرة براميل ، بينما قصة عن النفط يمكن أن تعطى كاملة إلى كل واحد منهم ، وتلك القصة نفسها قد تصبح ١٠ قصص مختلفة ، اعتمادا على معرفة ونية وهدف المراسل . والمعلومات يمكن أن تكون العديد من الأشياء والمعانى للعديد من الناس . انها تنتشر وتتكاثر ، انها



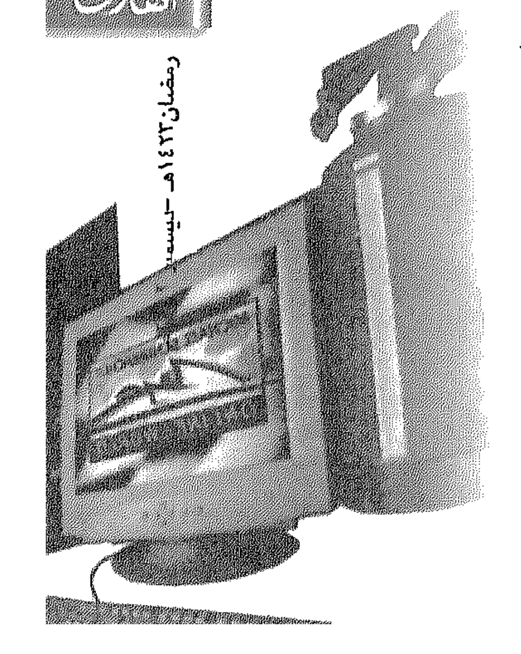
تؤثر وتصطدم وتفعل ! انها تركز الانتباه ، انها تلهى ، وتسلى وتصرف الانتباه ، أنها تضلل وتكذب ، وتلوى الحقائق ، انها كل ذلك ! فهى تصنع فهمنا الصحيح والخاطىء فى نفس الوقت للعالم حولنا . إنها تستطيع أن تغير تصورات وادراكات ، وأفعال الأمم والأشخاص . وهكذا تساعد المعلومات فى تدفق وسريان التاريخ وبناء عالم اليوم . فى الحقيقة ، المعلومات هى القاعدة الجذرية للعالم الحديث اليوم ، فالديمقراطية ، والتبادلات المالية ، والسياسية ، والثقافية تعتمد على التدفق السريع للمعلومات الدقيقة والموثوق فيها .

ماذا يفعلون بالمعلومات اليوم ؟

انهم يطلقون النار على عيون وآذان البشر . وتتزاحم وتتنافس كتل البيانات والمعلومات على الوصول بجرعات مكثفة ، تشبه الصدمة فى العيون والآذان ، انها خدع تسويقية ، وفيض وتخمة من البيانات والمعلومات النافع منها قليل للغاية ! فالمعلومات ليست المعرفة ، فمواد الإثارة والتشويق تلاحقنا كل يوم وتمسك بعقولنا ، لكن المهم التمييز بين مواد التشويق والحماس واستثارة العواطف ، وبين المواد المغذية للعقول !

فى عصر صرف الانتباه نجد الأصوات والضجيج والصور والبيانات تجرى فينا كالأنهار ، بدون توقف ، ومن كل اتجاه ، وهو شىء مدهش أن نسمع ، ونشاهد ، ونفهم خلال تلك الفوضى ! « يجب أن نحمى حياتنا من غزو التكنولوجيا » تلك المقولة تتردد من وقت لآخر بين المفكرين ، ففى عصر الإلهاء الذى نعيش فيه ، حيث يسيطر الحاسوب على جميع تفاصيل حياتنا الآن ! فى هذا العصر المحموم ، تكنولوجيات المعلومات تحاصرنا فى كل مكان ، فى هذا العصر كيف نقرر مانريد أن نفعله ؟! فى هذا العصر عصر المعلومات تصب فوقنا كميات هائلة من البيانات والمعلومات من مصادر عديدة ، تجعلنا نعيش فى صعوبة ، ولا نستطيع استمرار السيطرة على الذى نريده ، أو نحتاج للتفكير فيه !

لماذا لا نستمع إلى بعضنا البعض ؟ لماذا لانصغى لأفراد أسرتنا ؟ لأطفالنا ؟ لماذا لا نسمع المهمشين فى الأرض من الفقراء والبؤساء ؟ لماذا لا نشعر وننتبه للآخرين ؟ بل لماذا لا نسمع أنفسنا ؟ لسبب

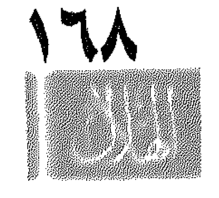


بسيط للغاية أننا نعيش عصر الإلهاء ! والمعلومات تقذف علينا كل ثانية بالقنابل وتفرغ عقولنا وتثير البلبلة ، وتفصلنا عن الآخرين ! وتلهينا بالتسالى العمياء ، وتفقدنا القدرة على الإصغاء !

وفى عصر الإلهاء وصرف الانتباه ، أصبحت قدرتنا على الكلام تفوق قدرتنا على الاستماع والإنصات للآخرين ! نحن نستطيع بسهولة أن نعطى لشخص ما جزءاً من انتباهنا العقلى ، لكننا نجد صعوبة شديدة فى تفهم وجهة النظر الأخرى ! وتوضح الدراسات الحديثة أن أقل من ٤٠٪ من ساعات استيقاظنا تنفق فى الاستماع ! ودقائق قليلة للغاية تنفق فى مناقشة الآخرين ! فى حين نتذكر حوالى ٢٥٪ فقط أو أقل من كتل المواد التى نسمعها ونشاهدها ، ومع مرور الوقت تضعف تلك النسبة بسرعة شديدة !

طبيعة العصر

عندما سيطر الطابع التجارى على المعلوماتية ، انطوى مضمونها على تحريض دائم وحاسم لإغراء الناس بالغوغائية والكسل، والاستسلام لسلوكيات السوق ، وتكوين رأى عام تتلاعب به الدعاية والإعلانات ، وهدم كل فكر ناقد ومسئول ، من خلال استطلاعات الرأى العام المغلوطة ، وغباء ألعاب الفيديو والكمبيوتر ، ومسابقات التليفزيون والإنترنت التى تلوح بإغراء الحصول على المال بسهولة ، ويزيد على ذلك انفجار الإباحية على الإنترنت والفضائيات ، لتكتمل الملهاة المعلوماتية . فنحن نعيش فى عصر التشويش ، عصر اللهو والتسلية ؟ عصر صرف الانتباه ! عصر الإلهاء ! عصر شرود الذهن . عصر اللامبالاة، عصر اللامبالين ، كلها تسميات أطلقها المفكرون على هذا العصر ! والمفارقة ، أننا دخلنا عصر معلومات بشكل متزامن أيضا مع عصر الإلهاء أو صرف الانتباه ، حيث تتحرك الحياة حولنا بسرعة أكبر ، وبطريقة إلكترونية أكثر إثارة وأعظم : وتقلصت محادثاتنا وضعف انتباهنا وتبددت رغبتنا فى انتظار الأشياء ، ونفد صبرنا ، واختصرت قدرتنا بسرعة على التفكير بشكل نقدى ، وأصبحنا منومين مغناطيسيا ، وتمت محاصرتنا بالصوت والحركة ، حتى فى اللحظات القليلة من اليقظة تحاصرنا الإعلانات على الأرصفة والمظلات ، والحوائط ، والملصقات -stick er على ثمار الفاكهة ، وترفرف رايات "الخدع المجانية" على شبكة الإنترنت : وأصبحت شاشات التلفزيون والإنترنت فى

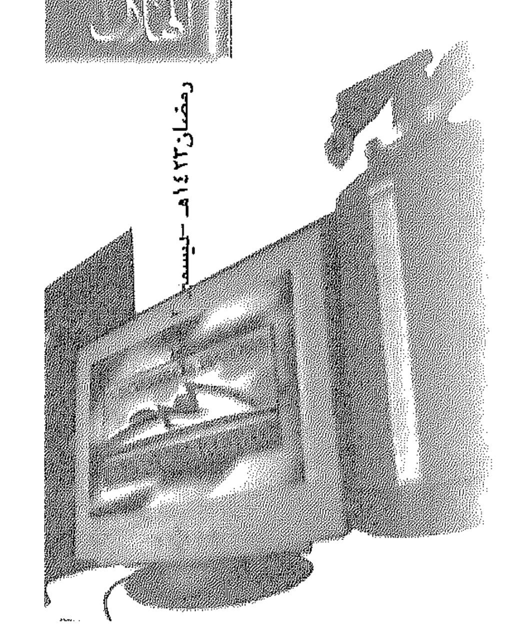


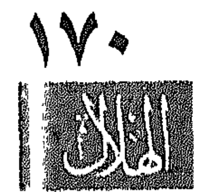
كل صالة ودهليز ، وفى كل مطعم ، وكل طائرة ، حتى فى الأنفاق الأرضية وسيارات الأجرة ! وعندما تتأمل كل هذه الملهيات معا ، تعتقد أنه لايمكن أن تكون هناك ملهيات جديدة بعد الآن ، وأنها تمثل كل الحياة ! لدرجة أصبحت المحادثات الطويلة والتسامر بين البشر ، ولحظات المسالمة والهناء ، وقصائد الشعر وقطع النثر التى تثير خيالك ، وممارسة الشعائر الروحية : أصبحت جوانب غير مألوفة فى الحياة ، وومضات غير متوقعة وشاذة !

الإلهاء السياسى بالمعلومات

هناك مقولة مشهورة لمارك توين Mark Twain تقول : احصل على الحقائق أولا ، فأنت يمكن أن تحرفها فيما بعد ! لقد استحثت المعلومات الخاطئة والكاذبة رفض العديد من الناخبين فى الانتخابات الرئاسية بفلوريدا إعطاء أصواتهم لبوش بدلا من جور ! وكانت المعلومات المضللة حول الفضيحة المالية لعملاق الطاقة إنرون واستثمارتها بالبلايين من الدولارات ، وحساباتها الرسمية المغلوطة ، وأثر ذلك على الاقتصاد الأكبر فى العالم . والمعلومات المغلوطة التى تبثها الميديا العالمية ، تملأ الدنيا ضجيجا بأن الاقتصاد يزدهر ، ونسبة البطالة أقل من أى وقت مضى ! لكن الحقيقة أن الناس تعمل ساعات أطول ، فى وظائف غير آمنة ، وتحصل على دخول أقل ، وتفشل فى تسديد ديونها . وكلنا أصبحنا نعرف من المعلومات التى تصلنا أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت القوة السوبر الوحيدة فى العالم تعطى الأوامر وتضع المعايير . لكن القليل جدا من الشعوب هى التى تطيع تلك الأوامر وتنصاع لتلك المعايير ، سواء فى الشرق الأوسط العربى ، أو الوسط الغربى الأوربى .

إن القوة الأمريكية السوبر لم تخلق أى سلام أو استقرار فى النظام العالمى الجديد ، لكن بالأحرى ساعدت على إحداث فوضى فى العالم الجديد من حروب إقليمية ، وزيادة التلوث البيئى ، وتزايد الفاقة . والتناقض أن الولايات المتحدة تهاجم الدول النامية ، وتخبرها بضرورة تطهير نواتجها من التلوث ، بينما هى نفسها المصدر الأعظم للقمامة والنفاية والسموم فى العالم ، وتتعامل مع





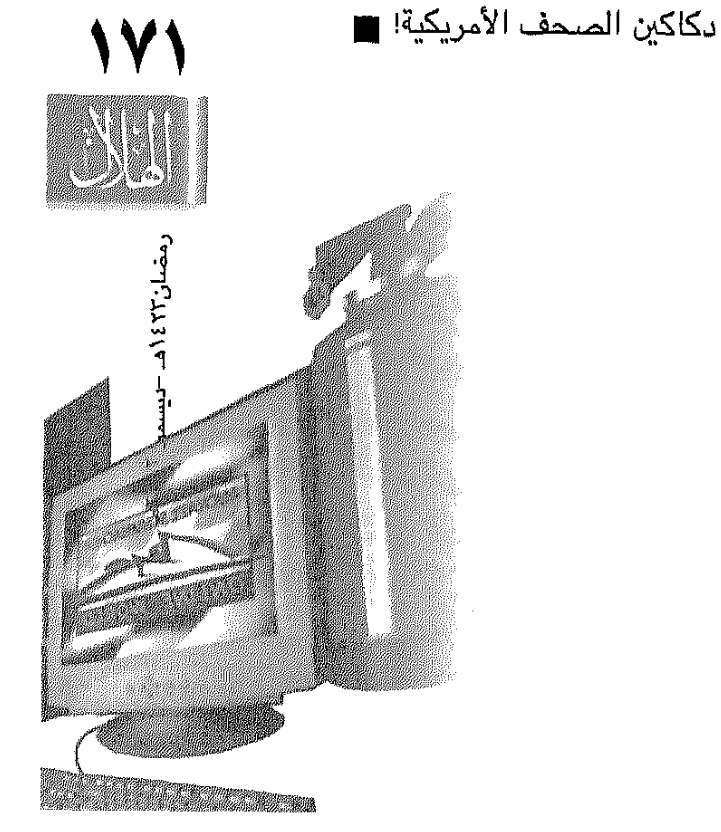
كوكب الأرض كمكان واسع لإلقاء النفاية والقمامة ، فالولايات المتحدة تحرق فى اليوم الواحد كمية من وقود بعض الأمم فى سنة كاملة فالقوة مفسدة ، والسلطة المطلقة تجعل صاحبها غبى جدا ، وخطر جدا ، وتمكنه أيضا من السيطرة على تدفق المعلومات والحقائق المحسوسة بدون أى حاجة للشرطة السرية أو الرقابة الرسمية . وهو تقريبا يسيطر تماماً على ماذا يقرأ ويشاهد ويفكر الناس ! والولايات المتحدة تمثل أقل من خمسة بالمائة من سكان العالم ، وتستهلك ٢٥ بالمائة من موارد العالم وتتجشأ أكثر من ٢٠ بالمائة من ثانى أكسيد الكربون فى الجو العالمى ، وفى عام ١٩٩٧ تجشأت الولايات المتحدة نسبة كربون أكبر من الصين رغم أن الأخيرة أكبر خمس مرات من سكان الولايات المتحدة . والآن تحاصر أمريكا الصين وتتهمها بتلويث البيئة ، منتهى التضليل !

فقد نجحت المعلومات المضللة فى نشر صورة الولايات المتحدة الأمريكية كأنها نصير العدالة والمساواة وحقوق الإنسان فى داخل أمريكا وخارجها ، والحقيقة أن حكومة الولايات المتحدة تنفق المال وتصدر القوانين وتفعل بالخارج فى الأغلب لإفادة أقلية من المواطنين الأغنياء ، لكنهم يخفون هذه الحقيقة بالبلاغة وإلهاء الرأى العام بمراقبة حقوق الإنسان فى دول العالم ، ولعب دور الشرطى العالمى لمعاقبة الدول المتمردة ، والتى تخرج عن قواعد السلوك المطلوب !

فالمعلومات المضللة لا تشتت فقط الناس وتلهيها عن القضايا الأكثر أهمية ، لكنها تحدث خلطا فى انتباه الناس ، ففى حكاية مونيكا فاضت المعلومات بأخبارها ، لدرجة أن الإنترنت امتلأت عن آخرها بمواقع جنس مع مونيكا بالصوت والصورة ، وانتشرت games ألعاب جنسية مع مونيكا فى برامج الكمبيوتر ، ونسى العالم القضية الأساسية ، وهى إعاقة العدالة وحلف اليمين الكاذبة والتحريض ، وبذلك يكون العالم التهى وشتت عن القضايا المهمة الرئيسية . نفس السيناريو كرر ، عندما طلب كلينتون استعمال صواريخ كروز ضد الدول المشاكسة مثل العراق والسودان ، وتزامن ذلك مع اللحظات السيئة فى نتيجة صراعه الفاشل والطويل لتجنب الاتهام فى قضية ليونسكى ، فى ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ ، ليلة عودة مونيكا ليونسكى من عند هيئة المحلفين ، فقط بعدها بثلاثة أيام

، وبعد اعتذار كلينتون وطلب الرحمة علنا فى التليفزيون ، أمر كلينتون بقذف مصنع فى الخرطوم للصناعات الصيدلية فى ضواحى المدينة وعملت إدارة كلينتون على تضليل الرأى العام العالمى بحكايات أن المصنع ينتج غاز أعصاب VX بتمويل من السعودى أسامة بن لادن ، المطلوب القبض عليه فى الهجوم على السفارات الأمريكية ، وكانت هذه الادعاءات الثلاثة التى اعتمد عليها الإعلام الأمريكى فى تبرير الضربة ، لإلهاء الناس عن الموقف الحرج لكلينتون فى قضية ليونسكى . وتبخرت هذه الادعاءات بسرعة مدهشة . حيث تأكد للجميع ، أن المصنع فعلاً يصنع الأدوية ، وتكرر نفس الموقف أخيرا مع حادثة سقوط الطائرة البوينج المصرية فى الأجواء الأمريكية ! وحاولت الآلة الجهنمية لوسائل الإعلام المعولة أو على الأصح المأمركة ، أن تلهى الرأى العام العالمى بحكاية انتحار طيار مصرى ، لتغطى على حقيقة واضحة كالشمس أن الطائرة ضربت بشكل أو بآخر وانفجرت فى الجو ! ونفس السيناريو يتكرر الآن مع العراق ، بتسريب معلومات عن تصنيع العراق لأسلحة الدمار الشامل !

وحتى إذا بلغتنا المعلومات الجادة ، فهى تصلنا عادة متأخرة جدا ، وفى خيوط غير مترابطة ، وتقدم بسرعة شديدة ، وبدون خلفية تاريخية ، أو ظروف السياق التى حدثت فيه ، فهى تقدم لنا خدعة سهلة وعلينا أن نقع فيها ! فكلنا عشنا حرب الخليج ، وكيف ضللتنا المعلومات التى تصلنا من وسائل الإعلام ، وأخذت تقدم لنا الخدعة بعد الأخرى بسهولة ويسر . وصدقت وزيرة الخارجية الأمريكية ، مادلين أولبرايت عندما قالت إن «شبكة C.N.N هى العضو السادس بمجلس الأمن بالأمم المتحدة» !؟ . لقد بدأت وزارة الدفاع الأمريكية فى إنشاء وحدة سرية لتزويد أجهزة الإعلام الأجنبية بقصص كاذبة تحول الأسود إلى أبيض والأبيض إلى أسود ! وتشوش الأخبار وتزرعها فى تقارير الأخبار الأجنبية ، وتلتقطها دكاكين الصحف الأمريكية! ■



الفنان وبشائر التحول

بقلم
عز الدين نجيب

على عكس ما كان غالبا على مسار الشريحة الفوقية من الفنانين المصريين، منذ أوائل السبعينات حتى الأمس القريب ، من إعطاء ظهورهم للماضى وللطبيعة إلى جانب عدم اكتراثهم باتخاذ موقف فكرى أو سياسى واضح تجاه مايجرى على أرض الواقع من متغيرات، وترفُّعهم عن أى دور أو رسالة نحو المجتمع والإنسانية، تتجاوز حدود الشكل البحت والخامات والتقنيات المدهشة، مكتفين بمخاطبة الذات والنخبة بالغة الصغر من تذوقى أنماط الحداثة الأوروأمريكية، أو بمخاطبة «الآخر» فى مسقط رأس تلك الاتجاهات خلف البحار .. على عكس ذلك كله : تومىء مجموعة من المعارض المتلاحقة فى الموسم الفنى الراهن الى بداية تحول فى قناعات كثير من الفنانين التجريديين أو التجريبيين أو المتشددين فى انحيازهم ضد الماضى والطبيعة والموقف والرسالة. ممن اعتنقوا نموذج الفن الغربى «سابق التجهيز» بكل توجهاته وتحولاته المحمومة.



القيامة - أحمد نوار

هكذا بزغت على استحياء بشائر هذا التحول، بعضها من خلال معرض مشترك، يستند إلى رؤية ناقدة لما آل إليه شأن الفن فى بلادنا، الذى بات «يحكمه النمط الجاهز إلى درجة أشرفت فيها الحقيقة على الموت!» حسبما جاء فى بيان أصحاب المعرض الذى أقيم بقاعة اخناتون الشهر الماضى للفنانين أحمد فؤاد سليم، مصطفى الرزاز، حلمى التونى، تحت عنوان «متحدون ومختلفون»، وقدموا من خلاله مختارات من جميع المراحل الفنية لكل منهم منذ الستينات حتى الآن، مايحمل حنينا إلى الماضى الجميل، وإلى رؤاهم الشبابية فترة التكوين والانغماس فى حملات التعبئة القومية للشعارات الناصرية .. وهكذا منحوا ماضيهم صكا بالبراءة من تهم الرجعية أو الدعائية أو الماضوية، التى اعتادوا أن يطلقوها على غيرهم بضمير مستريح!

أما المبادرات الفردية فتمثلت فى معارض استعاد فيها أصحابها مراحلهم الفنية من الماضى السحيق أو القريب، وقد تبنوا اليوم موقفا فكريا وثقافيا يحتفى بهذا الماضى بما يشمله من تجارب فنية تنبع من الطبيعة الخارجية أو من قاع الحياة الشعبية، أو يلتزم بموقف سياسى مباشر من قضايا العصر.

من بين هذه المبادرات الفردية كان معرض الفنان أحمد نوار تحت عنوان



تكوين محمد فؤاد سليم

«فلسطين : ٥٤ سنة احتلال» بمجمع الفنون بالزمالك، ومعرض الفنان مصطفى عبدالمعطى بقاعة خان المغربى تحت عنوان «مختارات من الستينات: المنظر الطبيعى فى رحاب جماعة التجريبيين» رمعرض الفنان ممدوح عمار (مختارات من الخمسينات) بقاعة سفرخان، ومعرض الفنان محمد عبلة بقاعة الزمالك تحت عنوان «الونس بالنيل والشجر» .. أما ذروة هذه المعارض الفردية فى اتجاه التأصيل والتحديث والبحث عن الجذور والموقف معا. فكان للفنان الغائب الحاضر دائما عبدالهادى الجزار، حيث نجحت قاعة إبداع بحى المهندسين فى تجميع أكبر مجموعة من تراثه كانت لدى أسرته أو لدى أصحاب المجموعات الخاصة وتضمنت أعمالا مجهولة عرضت لأول مرة.

نوار .. وفن الاحتجاج

ولنبدأ بمعرض الفنان أحمد نوار الذى شغل كل فضاءات الدور الأرضى بمجمع الفنون بالزمالك تحت عنوان «فلسطين : ٥٤ سنة احتلال» وكأنه استمرار لمعرضه السابق عام ٢٠٠٠ بنفس المكان ونفس الأسلوب والتقنيات.

وبدءا من العنوان ، وبعد مشهد الحديقة التى حفرت فيها ٥٤ مقبرة تطل منها رءوس وأصابع الشهداء وأطباق «الدش» المتجهة جميعا نحو نهر النيل الذى تشرف عليه الحديقة، وربما نحو



تكوين - مصطفى الزاز

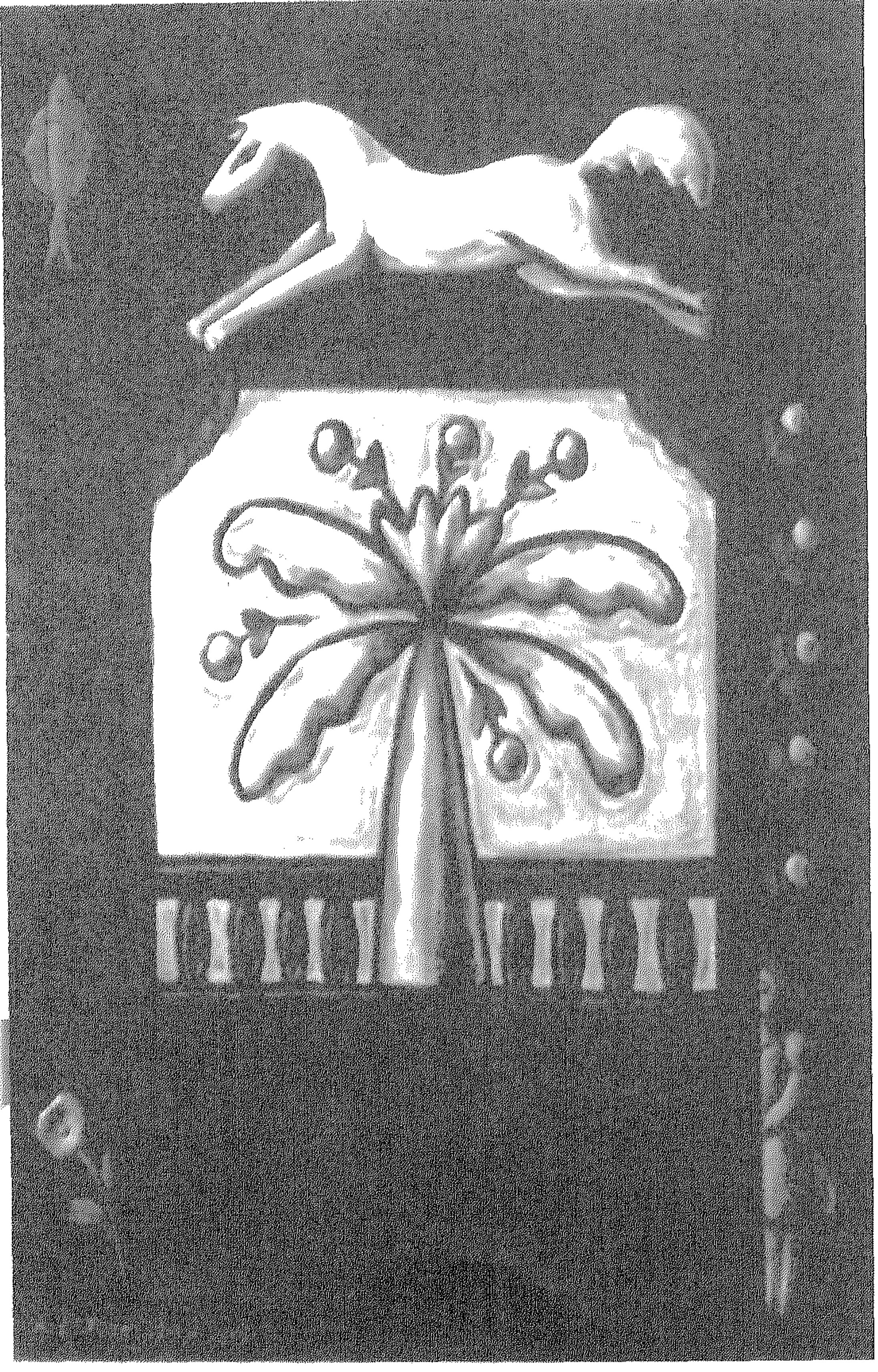
المسجد الأقصى فى فلسطين، ثم ظهور تمثال أبيض بالحجم الطبيعى ينهض من مقبرته متجاوزا ساحة الموت فى اتجاه النيل، تدرك أن الفنان يريد أن يرسل رسالة مباشرة إلى العالم، بعيدا عن الوسائل التقليدية وقاعات العرض الضيقة، بأسلوب الفن التعليمى أو السياسى (إذا جاز هذا المصطلح)، رسالة تحمل رأيا وموقفا احتجاجيا على استمرار الاحتلال والعدوان والذبح اليومى لأبناء الشعب الفلسطينى، بما ينحط إلى جرائم الحرب والإبادة المنظمة لهذا الشعب البطل، بتواطؤ ومساندة القوة الوحيدة المهيمنة على مصير كوكب الأرض وما فى سمائه ومافى باطنه أيضا، وصمت العالم إزاء كل ذلك .. جبنا أو تخاذلا أو عداء أو إيثارا للمصالح!

وتتصاعد نبرة التعبير الاحتجاجى المباشر إلى حد قيام الفنان بإدخال «كراكة» ضخمة إلى ساحة الحديقة، لتقوم - أمام الجمهور - باقتلاع شجرة زيتون، وبتمثيل حى لعملية هدم أحد البيوت وإحالته إلى أنقاض، ثم يقودك الفنان بعد ذلك للنزول إلى طابق تحت الأرض فى ظلام حالك، إلى درجة يستحيل عليك أن تتبين موطىء قدميك حتى تتعثر وتتعرض للسقوط فوق الدرجات غير المرئية حتى يتم ابتلاعك فى ظلمات القبو، لتجد نفسك بعد قليل فيما يشبه بيت الرعب، حيث تستقبلك

أصوات متداخله لصرخات الضحايا ودوى القنابل وصفير الصواريخ وضجيج الأبواق ، ووسط ذلك الكابوس تبزغ أمامك رءوس صواريخ مستعدة للانطلاق وقد كسيت بأعلام إسرائيل وأمريكا وبريطانيا، وفى مشهد آخر ترى نموذجا لبرج شاهق يرمز لأبراج نيويورك، يمتطى قمته جهاز تليفزيون يعرض صورا لإطلاق الصواريخ وتفجير قنبلة هيروشيما وغيرها من مظاهر الحروب العدوانية والدمار الناتج عنها فى بقاع العالم، فيما يشتعل البرج عند أدواره العليا بما يذكرنا بأحداث سبتمبر ٢٠٠١، وعلى أحد جانبى المبنى جهاز «دش» موجه إلى أشلاء جسد جالس فوق مقعد ولم يتبق منه غير زيه العسكرى الممزق وخوذته الملقاة على الأرض والتى غطاها اللون الأحمر حتى لتشعر بأنك تقف وسط بركة من الدماء، ثم يأخذك الفنان إلى قاعة المرايا أسفل الجدران المحيطة بك، فتتداخل أمامك حركة الأرجل المتخبطة وسط هذا الكابوس المركب، الذى يتضاعف بانعكاسات حركة الأرجل المهرولة المرتبكة على المرايا،ويزداد شعورك بالاختناق والعجز عن أى فعل، بل بالعجز عن التنفس، فتبحث لاهثا عن باب للخروج والنجاة وسط كتل الظلام وزحام الزائرين الذين يشعرون بأنهم وقعوا فى ورطة، وأخيرا تنجح فى الخروج متنفسا الصعداء! .. ليأخذك الفنان إلى القاعة الأخيرة (رقم٥) ليفاجئك أو يفجعك بمشهد الجثث المصفوفة فوق بعضها البعض من الأرض إلى السقف ملفوفة بالعلم الفلسطينى، وكأننا «داخل ثلاجة الحشر» على حد تعبير الفنان أحمد فؤاد سليم فى تقديمه للمعرض.

لسنا - إذن - بصدد عمل فنى عادى يقوم على معايير جمالية، حتى ولو نظر له الفنان «سليم» بأنه ينتمى إلى فن الحدث وفن الأرض وفن الجسد والتربيط، لسبب بسيط: وهو أن هذه الصيحات الفنية ترتبط بالأماكن المفتوحة وتستهدف مشاركة الجمهور فى العملية الفنية بما يحقق حالة من الاندماج الآنى والعمل الجماعى، فى إطار احتفالى أغلب الأحيان، ثم تنفض بانفضاض الجمهور، مما لايتوفر فى هذا المعرض، حيث يقف الجمهور موقف المتلقى للدرس، العاجز عن أى فعل أو مشاركة، لكننا بصدد صرخة احتجاج مدوية تنبع من ضمير معذب ازاء قضية شعب يذبح كل يوم، ويرفض الاستسلام، ويطمح الفنان إلى أن تصل صرخته إلى أقصى مدى ممكن، لتقوم بالتحريض ضد جميع قوى القهر فى الحاضر والمستقبل ولأن قيمة الرسالة أكبر من قيمة «المتعة الجمالية» التى ينبغى أن يتوخاها أى عمل فنى، فلقد اختار الفنان لغة خطاب مباشرة، تتضمن مؤثرات مسرحية ووسائل ميكانيكية والكترونية، وقرر أن يحتوى زائر معرضه

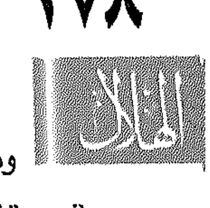




الحلم - حلمي التوني

لعدة دقائق داخل بيت الرعب المظلم أو مستودع الجثث، متطلعا إلى انتقال هذا الزائر من حالة الشعور السلبى إلى حالة الفعل الايجابى، غير أن تحقيق ذلك يتطلب اختيار مكان جماهيرى يلبى مطلب التفاعل المنشود، أما طبيعة قاعة اخناتون وموقعها النخبوى وسجل نشاطها المرتبط بفئة الفنانين وصفوة المشاهدين من مثقفين وإعلاميين فإنهم ليسوا فى حاجة إلى مزيد من الشحن والتحريض السياسى، بل قد يصابون بمزيد من الشعور بالاختناق والقهر والاحباط لأنهم عاجزون عن القيام بأى فعل ثورى إزاء ما يحدث من جرائم على أيدى قوى غير متكافئة مع قوى المقاومة والحق.

غير أن ذلك لايقلل من تقديرنا لنبل المقصد لدى الفنان نوار، الذى يؤكد دائما اهتمامه بموقف إيجابى للفنان نحو قضايا الوطن والعصر، موظفا موهبته لابتكار أشكال ورؤى فنية لبلوغ ذلك الهدف، مستفيدا من آخر منجزات الفن الحديث.



متحدون .. ومختلفون

تبدو الفكرة وراء معرض «متحدون ومختلفون» نبيلة ومبهرة، بالنظر إلى ما تضمنه البيان الذى يتصدر قاعة المعرض ، حيث يقول :

«خلال لقاءات حميمة تحدثنا فيها طوال الوقت عن همومنا الخاصة والعامة، وتطرق الحال من بين أحاديثنا عن أساليب فى الفن أخذ يحكمها النمط الجاهز إلى درجة أشرفت فيها الحقيقة على الموت، جاءت مبادرة حلمى التونى حين تساءل عما إذا كان يمكن أن نتقدم للناس بتجربة ونموذج يكونان بمثابة رسالة ورأى ...».

وبغض النظر عن ركاكة اللغة فى هذه العبارة، تظل الفكرة نبيلة ومبهرة، استنادا للحاجة الملحة إلى طرحها خاصة فى الآونة الراهنة، حيث تشهد تضخم الذات الفردية حتى حجبت أى منظور جماعى أو وحدوى للنشاط الفنى والثقافى، بينما غابت عن أفق الفنان كلمة رسالة أو رأى، بل واختفت من قاموسه كلمة «الناس» التى اتخذت مكانها كهدف فى هذا البيان .. فهل جاء المعرض على مستوى هذه الكلمات؟

لقد بحثت عن «الوحدة» المشار إليها فى عنوان المعرض بين أعمال الفنانين الثلاثة فلم أجد غير محاولة منسق المعرض لإزالة الحدود بين أعمال كل فنان وزميليه، دون تخصيص قاعات مستقلة لكل منهم، مايعنى أن الوحدة جاءت قرارا قسريا على الأعمال المختلفة عن بعضها البعض شكلا ومضمونا فلم تثمر غير الارتباك للمشاهد، الذى ما أن يبدأ فى الاندماج مع بعض لوحات أحدهم حتى يفاجأ بلوحة فنان آخر تقوم على رؤية فكرية وجمالية مختلفة، ليعود بعد عدة لوحات إلى الفنان الأول .. وهكذا تشتتت الرؤية دون أن تصل

إلى إدراك الرسالة من وراء هذا الخليط.

● فأعمال «سليم» منذ بدايات رحلته الفنية تنتمى إلى التعبيرية التجريدية فى إطار كونى لايسعى إلى استلهام مؤثرات محلية ولا يؤكد خصوصية ثقافية، بل يعتمد على منظومة لغوية تشكيلية شائعة فى الغرب وإن تعددت لهجاتها، لكنه يجتهد لممارستها بنزعة تفجيرية تحيل الأشكال المنطوية على كائنات عضوية هائمة إلى شظايا ومزق مبعثرة، مفصحا عن شحنة درامية صاخبة النبرة، سرعان ماتتبدد قبل أن تعرف لها مصبا تتجه نحوه : لا فى اتجاهنا كمشاهدين ولا فى اتجاه البناء الداخلى للوحة، باستثناء مجموعة لوحاته فى الثمانينات خاصة مجموعة صبرا وشاتيلا، التى يبلغ التعبير الدرامى فيها ذروة تتجاوز الإطار التجريدى الذى صيغت بداخله، إلى حالات من الجيشان الملحمى متعددة الأصوات الطبقات النغمية باللون والكتلة والمساحة، وقد تبلورت فوق مسطحاته أطراف الصراع في تمايز نغمى بين التصام والتماهى، أو بين الكونتربوينت والهارمونى، إذا شئنا استعارة مصطلحات الموسيقى.



من الزار - ممدوح عمار

● وأعمال «الرزاز» تشكل حالة من الالتباس، بمحاولة المزج فى لوحاته بين منظومتين متناقضتين من الأسس الجمالية: منظومة استلهام الموروث الشعبى بحس ملحمى، يقوم على الموتيف الزخرفى المتكرر والنمط

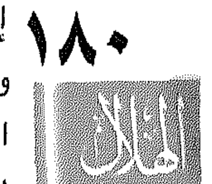
والفلكلورى المحفوظ والترصيص الشرقى للمشخصات، مع ميل إلى طابع السذاجة الطفولية، وبين منظومة البناء التكعيبى الذى يسعى للتحرر من التشخيص المباشرة، رغم احتفاظه بمجموعة الرموز القديمة التى تبدو محشورة أو متزايدة، فيتراوح أثرها بين الحلية الزخرفية وبين الإلغاز السريالى، وإن يكن قد نجح نسبيا فى فض هذا الالتباس فى أعمال التسعينات من خلال ترجيحه للحلول التجريدية بإيقاعات موسيقية متذبذبة، متوسلا بتقنيات وخامات متنوعة كالكولاج والمجسمات، لكنه فى المحصلة الأخيرة يبدو أقرب إلى لغة الخطاب الغربى، مبتعدا بمسافة شاسعة عن قاعدة انطلاقه الأولى على أرض الواقع الشعبى والوجدان المصرى.

● أما لوحات «التونى» فقد اتخذت منذ بداية مشواره الفنى نهجا ثابتا يقوم على استلام المأثور الشعبى أو على إعادة إنتاجه برؤية عصرية ، منطلقا من وحدة وتواصل الحلقات الحضارية للتراث المصرى والعربى، لكن هذا النهج الثابت لم يحل دون إقدامه على تحليل عناصر الوحدات المشخصة أو الزخرفية حتى تلامس حدود البناء المجرد، متحررا من الضرورة الوظيفية لها فى سياقها التاريخى والمعتقدى، كى يؤلف بواسطتها معزوفته الخاصة بمعطيات رمزية وسريالية تحمل دلالات ذهنية جديدة، وهو بذلك أقرب إلى مضمون الرسالة التى بشر بها بيان أصحاب المعرض، وليس غريبا أن يكون «التونى» صاحب الفكرة، لكن الغريب هو أن نقدم هذه الوحدة المفترضة بين الفرسان الثلاثة على ضلع واحد، فيما تبدو عوامل الاختلاف أكثر من عوامل الاتحاد، وتبدو المسافة شاسعة - ماتزال - بين هذا الحلم الطوباوى وبين إرسائه على أرض الواقع ليكون «بمثابة رسالة ورأى».

وبالرغم من ذلك، فأنا أسعد الناس بهذا التوجه الجديد، الذى ضاع من بين أقدام المسيرة الممتدة للمبدعين المصريين منذ عصر الجماعات الفنية فى الأربعينات، وإذا كانت التجربة قد بدأت بهذا الحلم ، فسوف تصل إلى مبتغاها بقدر صدق أصحابها فى حلمهم، وبقدر إرادتهم لتحقيقه.

ممدوح عمار وكنز الشباب

مازالت جعبة هذا الشيخ الساحر عامرة بالمفاجآت المثيرة، ولا أقول بالحيل، ذلك أن ممدوح عمار أبعد الناس عن ألاعيب الصنعة وعن شطارة «خفة اليد» فى اقتباس أساليب «الحركات» العالمية التى برع فيها نجوم الشكلانية فى مصر، أما مفاجآته فإنه يستدعيها من رقدتها فى قاع ذاكرته الإبداعية على امتداد ٥٢ عاما منذ ١٩٥٠، متمثلة فى لوحاته لمشروع التخرج بكلية الفنون





الفنان محمد عبلة - حياة نيلية

الجميلة وفى أعماله التالية خلال الخمسينات حول الموالد الشعبية والسيرك والدراويش وطقوس الحارة وتجليات حياتها اليومية.

كشف «عمار» أخيرا عن كنزه المدفون وقدمه فى معرض جديد بقاعة سفرخانة الشهر الماضى .. وياله من كنز! لقد تصادف موعد معرضه مع معرض الفنان الكبير الراحل عبدالهادى الجزار (وقد بيعت فيه لوحتان بمليون ونصف المليون من الجنيهات!) .. وأتاح هذا التزامن بين المعرضين الفرصة للمقارنة بينهما، خاصة وأن فارق السن بينهما لايتعدى ثلاث سنوات ، أى أنهما من جيل واحد ومناخ فنى واجتماعى واحد . وأعتقد أن موهبة عمار بإنجازها الابداعى فى تلك السنوات المبكرة قادرة على مناظرة الجزار ومحاورة عالمه بكفاءة، وإذا كان عالم الجزار فى حقبته المبكرة، خلال الأربعينات والخمسينات، قد انغلق على المهمشين والساقطين من ميزان العدل والإنسانية، والمخدرين بفعل الخرافة وطقوس الشعوذة والخوف من المجهول والباحثين عن لقمة العيش من بين الأسلاك الشائكة وأنياب الأفاعى، والممسوسين بشياطين الرغبات المكبوحة وقهر الطبقة والسلطة، فإن عالم عمار احتوى على نفس الموضوعات والدوافع

التعبيرية والهواجس السحرية، لكنه انطلق من سكونية الجزار المسكونة بشبح الموت وأبدية القهر، إلى ديناميكية زحام البشر واشتباكهم اليومى مع الحياة، حتى فى تصويره لحلقات الزار، فإنه أقرب إلى التعبير عن تحرير الأرواح من قبضة القهر، عبر مسعاه إلى فك قيود الجسد وإطلاق سراحه لممارسة رقصة الحياة، دون انشغال كبير بطقوس الزار لاسترضاء الجن والأسياد أما فى بنائه الفنى فإنه يبدو - فى تلك السن المبكرة - شديد السيطرة على فراغ اللوحة، ليجعل منها ساحة مفتوحة يصول فيها ويجول، من أعلاها إلى أسفلها ومن يمينها إلى يسارها وبالعكس، لينسج بزحام الأشخاص والألوان والملامس والأضواء ، نسيجا شديد التركيب والتماسك، بالغ الجرأة فى تحوير وتحريف نسب الأشخاص وعناصر الواقع المرئى، لينشىء بناء مفارقا للواقع، حتى ليمكن تجريد هذه العناصر إلي مساحات وخطوط وألوان، فتبدو اللوحة كعمل تجريدى مكتمل، وتمثل «اسكتشاته» فى تلك المرحلة سيطرة أستاذية فى اقتناص حركات الأشخاص حتى وهم مستغرقين فى رقصة الزار الهستيرية، مما يرتقى بها الى مستوى الأعمال المكتملة ولقد أحجم - من فرط شعوره باكتمال هذه العجالات الخطية أو الملونة - عن تنفيذها فى لوحات زيتية بمساحات كبيرة، موقنا بأنها خلقت لتعيش بحالتها الفطرية الأولى دون زيادة، إلا باستثناءات نادرة قام فيها بإعادة رسم بعض اللوحات التى فقدت عبر رحلة العمر، فعاد إلى تلك الاسكتشات واستعان بها فى رسم لوحات زيتية بمذاق جديد.

ويبقى السؤال الحائر بغير إجابة هو : كيف غاب عمار طوال عشرات السنين عن صدارة الحركة الفنية وعن جدران متحف الفن الحديث وعن دراسات النقاد والدارسين، وهو الذي تخرجت على يديه بكلية الفنون الجميلة أجيال وأجيال؟.. هل يدفع ثمن عزة نفسه وارتفاعه فوق الشلل والمصالح ، فى واقع يكرس هذين العاملين؟ هل يدفع ثمن انطوائه وعزوفه عن التزاحم حول «تورتة» الأجهزة الرسمية؟.. وهل بلغ هذا الثمن حد الكبح الذاتى لملكة الإبداع بداخله قهرا ويأسا من اعتدال الميزان؟.

أيا كانت الأسباب .. فما أتعسه من واقع يغتال أجمل من فيه!

ومع ذلك فها هو يقوم قيامته الثانية بعد سن السبعين، بدفقة إيمانية فريدة، ليدهشنا بإبداعات طازجة تسخر من أسباب اكتئابه وعبوس روحه، وتبشر بانطلاقة جديدة عبر لوحاته فى السنتين الأخيرتين.

الونس بالنيل والشجر

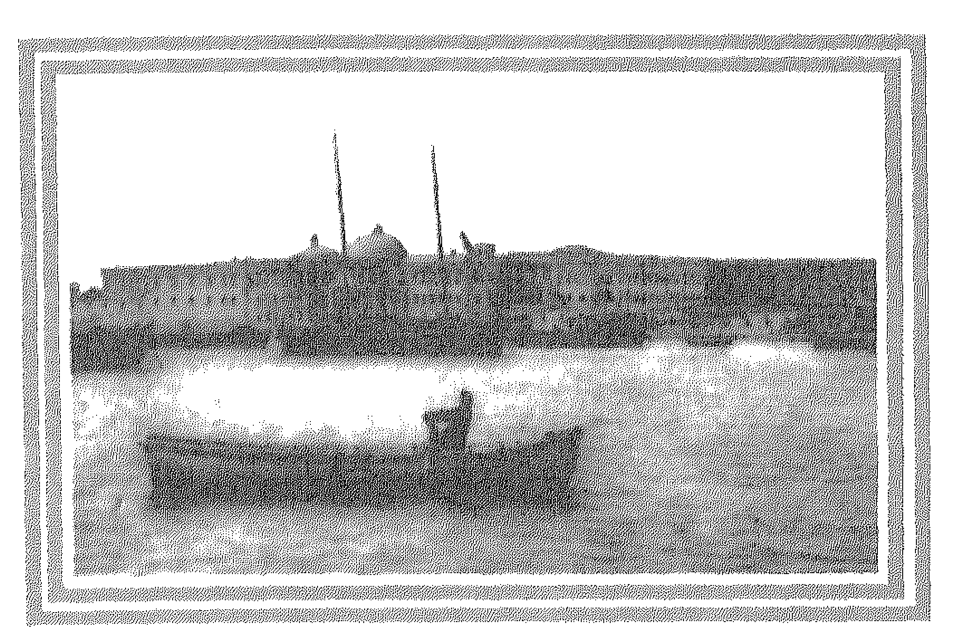
هل يستطيعه الفن أن يقاوم الإحباط بالأمل؟

يطرح الفنان محمد عبلة من خلال معرضه الأخير الشهر الماضى بقاعة الزمالك هذا السؤال الذى تبدو إجابته بديهية .. وهى نعم يستطيع .. ولكن كم يبدو ذلك عسير التحقيق على أرض الواقع .. فإذا كان النيل بكل مدلولاته التاريخية والحضارية والطبيعية رمزا للحياة والعطاء والخصوبة والاستمرار فقد أصبح يعنى الآن أنه ضحية للتلوث والإضرار بالحياة والإهدار لكل آيات الجمال فيه على أيدى ابنائه جيلا بعد جيل .. فكيف نتوقع أن يصلح النيل رمزا يتخذه الفنان لمقاومة الإحباط ودافعا لبلوغ الأمل؟

لكن عبلة – الذى سبق له التعبير فى أعمال فنية حازت جوائز دولية عن مأساة النيل بعد تلوثه بشتى المخلفات السامة – حاول أن يتجاوز هذا المعنى فى معرضه الجديد، بإحالة صفحة مياهه المتدفقة إلى مسرح يتراقص فوقه الأطفال والصبايا والطيور والحيوانات الأليفة، بل حتى الزواحف، فى تعايش حميم مع بعضهم البعض، حتى أنهم يتبادلون الملامح فى بعض الأحيان، ويمارسون حريتهم إلى آخر المدى باللعب، و«الونس» وسط أزهار اللوتس وورد النيل، فيما تتماوج ألوان الطيف وتلتمع على صفحة الماء من خلفهم.

لقد مضت المسيرة الفنية بمحمد عبله طوال ربع القرن الأخير فى طريق زجزاجى كجدول ماء يشق مجراه فى أرض صخرية، باحثا ومجربا شتى الأساليب والخامات، متنقلا من عالم الزحام فى المدينة إلى عالم المراكب وورد النيل، إلى عالم التلوث والنفايات المترسبة فى القاع، مستمتعا باكتشاف رؤى تتماهى من الواقع إلى اللاواقع، بل مستمتعا بإحداث الصدمات للمشاهدين، متنقلا من عالم إلى آخر ومن أسلوب إلى آخر، عبر الخامات والأشكال المتناقضة والوسائط المختلفة حتى الفوتوغرافيا والطباعة والفيديو والنحت، لكنه لم يجعل قط من التجريب والبحث غايته، وإذ يسعى دائما إلى اكتشاف نبض الحياة ولو بين شقوق الطين والنباتات العائمة فوق صفحة النيل .

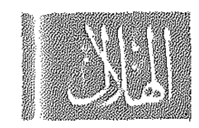
ولم يكتف بالتعبير عن الحياة على شاطئه أو فوق مياهه المتدفقة فى رحلتها الأبدية من الجنوب إلى الشمال ، وهو يراقبها من الخارج كرسامى المناظر الطبيعية، بل اختار أن يعيش ويقيم مرسمه فوق جزيرة صغيرة فى وسط مجرى النيل، وكأنه يريد أن يختزل العالم الذى سبق له التعبير عنه فى دائرة صغيرة تتمثل بداخلها سمات العالم بأسره، متحديا ذاته «كى يحول تلك الدائرة إلى عالم رحب يتسع لكل أحلامه» على حد قوله فى تقديم المعرض. ■



هذه الرواية مضى على صدورها مائة عام

السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين

بقلم
محمد جبريل



رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

صدرت الرواية في عام ١٩٠٢ ، أي أنه قد مضى على صدورها مائة عام . مؤلفها محمد كاظم ميلانى ، التاجر بشارع الميدان بالاسكندرية . قدم الراوى / الكاتب نفسه بأنه ولد من أب إيرانى وأم مصرية ، فضلا عن انتساب الأم إلى ذرية الحس بن على بن أبى طالب .



محمد كاظم

قبل أن يتم المرحلة الابتدائية (١٣٠٥ هجرية) ألزمه والده العمل فى الدكان الذى يملكه بسوق الطباخين ، الموازى لشارع الميدان . كما يصفه الكاتب ، أهم مركز تجارى للبضائع الشرقية : الأبسطة والشيلان وغيرها . لكن الكاتب فضل - بعد فترة - أن يتخذ لنفسه دكانا ملاصقا لدكان الأب ، جلب إليه أنواعا من الخردوات والأحجار الأصلية والتقليد والأصناف الاسلامبولية والافرنجية ، وعنى بخاصة بلوازم النساء الحديثة . وإذا كانت الظروف قد أجبرت الصبى كاظم أن يهجر الدراسة ، فإنه - على حد تعبيره - لم يترك المطالعة ، ولا آن ، وما كنت أسمع عن جمعية إلا وانضممت إليها ، ولا عن طغمة إلا وأنالها ، ولا عن جريدة إلا طالعتها ، ولا مجموعة إلا ذاكرتها » وثابر الراوى / الكاتب على القراءة فى اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية «لم أترك فيها المطالعة عند الفراغ من الأشغال ، ولا طلب الراحة من الأيام والليالى» . وظل الراوى الكاتب فى عمله ، إلى اللحظة التى أمسك فيها القلم ، وبدأ فى كتابة روايته .

* * *

ذات صباح ، دخلت الدكان فتاة «كأنها حور الجنان» ، تغزل الراوى فى جمالها بأبيات من الشعر - أشهد أنها من أجمل ما قرأت من موروث الشعر العربى ! - كان يتبعها خادم وخادمة حسب عادة أكابر السيدات إذا خرجن لقضاء مهمة فى الذهاب والعودة . وحين تكلمت لتطلب ما تريد أضاعت بعذوبة لفظها حواسه ما سمعت بأفصح وأرق منه كلام ، مهما اجتهد الأصمعى أو أبو تمام «ظهرت الفتاة فى حياته ومضت كأنها حلم - ونتذكر بياتريس فى الكوميديا الإلهية ! - وتحولت - فى اللحظة التالية - إلى شاغل له فى الصحو والمنام . أخذت عليه حياته ، فهو لا يفكر إلا فيها» ما بعدت عن ناظرى إلا ووقعت فى حيص بيص ، واستولت على الدهشة حتى صرت لا أميز بين الخبيص والبصيص . وأمضى الشاب أيامه التالية متنقلا بين الأسواق والدكاكين، يمنى النفس بلقاء فتاته ، حتى تصور أنها ليست حقيقة ، وأنها لم تكن من البشر ، أو أنها ملك من السماء . وبعد أن أوشك علىّ اليأس من لقائها ، لزم دكان جواهرجى فى ممر بشارع الضابطة. جعله موضعا يراقب منه حركة الطريق ، لعله يلتقى بفتاته . ولما أخفق الشاب فى العثور على فتاته فى

مدينة الاسكندرية ، أزمع أن يترك المدينة إلى القاهرة ، ربما قدمت المحبوبة منها لقضاء إجازة الصيف. وأقام في العاصمة ضيفا على صديق له هو «عارف» يقضي طيلة النهار في البحث عن محبوبته ، ويتعرف - في الوقت نفسه - إلى مشاهد وتصرفات لاتهملها ملاحظاته .

حكاية الفتاة

روى الشاب لصديقه عارف حكايته منذ زارت الفتاة دكانه ، واختفائها كأنها لم تكن . وعرض عارف على الراوي أن يصحبه إلى بعض الأماكن التي قد تتردد عليها فتاته للتسوق أو للنزهة . وكانت تلك فرصة للراوي كي يشاهد ويتأمل ويبدي الملاحظات ، بل ويعلن انتقاده للعديد من الظواهر السلبية . رجح عارف أن تكون الفتاة «من وجوه المصريات» ، فزيارتها إلى الاسكندرية لقضاء إجازة الصيف . واقترح عارف على صديقه أن يلزم نقطة في شارع الموسكي الموصل للسكة الجديدة ، أمام محل الخواجة سمعان ، والذي تتردد عليه أعداد كبيرة من النساء لشراء احتياجاتهن . لزم الراوي الموضع الذي حدده صديقه ، لم يتركه من الصباح إلى المساء ، ثم صحبه عارف إلى الأزبكية للقاء بعض الأصدقاء . وطالت ملاحظات الراوي على ما شاهده من تسابق في مضمار الملاهي وسوء المنقلب . واتجهت الجماعة - بعد ذلك إلى أحد المسارح «مارستان من الصراخ والضحك والشخر والنخر والهذيان» .

وفي صباح أحد الأيام ، ذهب الراوي إلى الموقع الذي حدده له عارف في ناصية الممر ، فطالعته مواكب ما يسمى بمولد الفار . وهي مواكب تمر من شارع محمد إلى مسجد السيدة نفيسة ، تتمة للاحتفالات بمولد السيدة نفيسة . وينتقد الكاتب الزحام والتصاق الأجساد وحركات البغي والضلال والصخب والصياح ..

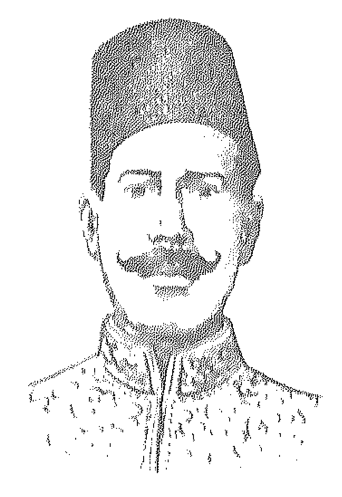
يدين الراوي الحضارة الغربية التي حاول البعض من الذكور والإناث تقليدها ، لقد حرص الأب ابنته على ما يمكن تسميته في ضوء المفهومات الأخلاقية بعامة - بالانحلال فهي تلتقي بضيوف أبيها ، وتجالسهم ، وتصادق الشاب الذي يستهويها ، وتميل لتصرفات ربما أراد الكاتب من تجسيدها أن يصور التطبيقات السلبية لدعوة قاسم أمين ، لو أن ذلك ما حدث ! وفي المقابل ، فقد وافق الشاب - أعماه الحب! - على أن الفتاة عنوان الفضيلة - هذا هو تعبيره ! والكمال من بعض شيمتها .

بين العشق والعقيدة

تعددت زيارات الشاب إلى بيت المحبوبة، وتعددت كذلك لقاءاتهما خارج البيت ، وأقامت أسرة محمد بك ، الأب والأم والابنة - في بيت الشاب ، بدعوة منه «وصارت العائلتان ببعضهما مولعة ، ولكن والدتي لم تستحسن خطة تبرج وحيدة ، وتأسفت كثيرا على تمسكها بالبدعة الجديدة ، وشاورتني باستقباحها لهذه البدعة الفاسدة ، وأظهرت عدم جواز تأهلي بها إن بقيت على هذه القاعدة ، فوعدتها بأني مهما كنت مغرما مفتون ، فلا أقبلها حليلة ولو ذقت

لبعادها المنون» . مع ذلك ، فقد تواصلت ليالى «المسامرة والمصاحبة والمزح والسرور والملاعبة» . أما النهار ، فقد شغله الراوى للبحث فى عقيدة أهل الشيعة .

وعادت مشكلة النظرة إلى الشيعة تفرض نفسها على ذهن الشاب : « كيف ينسبون الأعجام إلى ما ليس فيهم ، وأنا واقف على ظاهرهم وخافيهم . الكل أراه يدعى أنهم مخالفون وأرفاض ، ويرمونهم كما شاء وا وشاءت الأهواء والأغراض . هذا محض بهتان وزور ، وأشد باعث للنفور



محمد المويلحي

وانتهى إلى القول : « تعالوا إلى بلادنا (هو إذن ينسى ، أو يتناسى ، موطنه !) وانظروا الدين والتدين كيف يكون ، والشيعى كيف بمظاهر الإسلامية الحقة مفتون ، فلا نظر ولا سمع فى جميع بلادنا لهذا الآن عن أحد فرط لسانه بإهانة الدين، وفى بلادكم سبه متواترا جهرا بدون حذر وخوف من غضب الخالق ذى القوة المتين ، فلا حانة ولا خمارة عندنا ، ولا دار فحش وزنا تضلنا ، ولا محل ميسر ولا مرقص ولا أقل أثر من الآثام ولا مصدر للغصص . فبأى عيب ومذلة تباكتوننا .

أما كان الواجب عليكم أن تتقلدوا بأعمالنا ، وتفتخروا بانساننا ، وتقولوا نعم الاخوان إخواننا الشيعة ، ونعم الأمة أمة تمسكت بالشريعة ، وتساعدونا لإعلاء كلمة الدين ، ووضع أيديكم بأيدينا لقهر العدو وطرده من الكمين ، فالمسلمون ليسوا بالقليلين ولا بالضعفاء ، ولم يضعفهم غير التفرق من كثرة الاختلاف والشحناء . فتأملوا أيها السادة لقولهم واعتراضهم، وبرهانهم واقتراحهم . فلا يشك فى الحقيقة ، والحقيقة لذى العينين كالشمس ظاهرة ، ولا يخفى الصدق والصدق مؤثر للنفوس الطاهرة ، فلا فائدة حينئذ من هذا الحال ، وهلموا بنا للتقرب والوصال»..

أفرد الكاتب للشيعة الاثنى عشرية ، وجوانب اختلافها عن المذاهب الإسلامية الأخرى ، أكثر من نصف صفحات الرواية.

فضلا عن انتقاده لبعض سلبيات الحياة المصرية .

حاول الكاتب أن يجعل معلوماته وآراءه نبض مساجلات بينه وبين «العقلاء والفضلاء» الذين أحاطوا به من كل فج لمناقشته حسابات الدخل والخرج ، لكن المساجلات تحولت إلى ما يشبه الدراسة المطولة ، التى تناقش ما يبدو من أوجه الاتفاق والاختلاف ، وأنه «لا فرق ولا اختلاف فى الأساس ، وما سمعناه وما أشيع عن هذه الطائفة هو محض اختلاق ومساس» .

طالت رحلة الكاتب - والقارىء - فى توضيح سلامة المذهب الشيعى ، وأنه ليس كما يتصوره البعض من أهل

السنة . واختتم رحلته بالقول إنه لا يرغب بواسطة إثبات حق أهل البيت «استرجاع الحق المغصوب ، أو إصلاح الماضى وهو عكس ما أبحث عنه وكل مطلوب . فليس العاقل من يذهب لإصلاح الماضى ، أو المنصف من يحد سيفه الماضى . نعم ، لا فائدة من تجديد ماضى السيرة ، وهل يجوز الحكم على السريرة ؟ .. ومن رام مثل ذلك فهو ضال عن السبيل ، ومسبب لضياع بقية المسلم بغير تعليل » . ويضيف : « كفى ما حصل بين الفريقين من النقض والإبرام ، وما قاساه الطرفان إلى هذه الأيام ، فقد أصبحنا والحمد لله للاتحاد أقرب ، ولأسباب الانضمام على مشرب فالكلمة مفهومة وسهلة ، لا تحتاج لنظر أو مهلة . وبالحقيقة : لماذا تفرقنا مع تمسكنا بلا إله إلا الله ، وهى الكلمة الجامعة لمن هداه الله؟ كيف يجمعنا الدين ونتفرق ؟ وكيف تربطنا رابطة الكلمة ونتمزق ؟» .

سيرة الحبيبة

يعود الراوى إلى سيرة الحبيبة ، فقد التقى بها مصادفة فى أحد المتنزهات ، لاتعلو فيه غير ألحان الموسيقا والرقصات، ويزدحم بالشبان والفتيات اللائى يرتدين اليشمك للتحلية ، والحجاب الذى ليس فيه إلا الاسم . ويقف الراوى وصديق له على حافة بحيرة صناعية داخل المتنزة ، يشاهدان «الصارخ والصارخة ، والضاحك والباكية ، بعين الاستغراب والحيرة . وبينما أنا وصاحبى نتندم على هؤلاء النسوة اللاتى خلعن الحياء ، لركوبهن مع الرجال كى يتعلقن بهن .. ترى الواحدة تترامى على الثانى ، والثانية تتظاهر بحركاتها للآخر فيعانى ، وما أدراك ما يعانى» . ويلمح الراوى بين كل هؤلاء حبيبته وحيدة : « لا كان التقليد ولا كنا لزمانه ، ولا كان اليوم الذى يصرح فيه المجتمع باختلاط شبانه . من التى أراها ، وكنت أقسم بذيلها الطاهر (نسى مصارحته لأمه بانه مهما كان مغرما بالفتاة ، فلن يقبلها حليلة ولو ذاق لبعادها المنون !) وكيف بالاختلاط أصبحت كالعواهر ، خرجت تتسند على ذراع أحد الفتيان ، كأنه من الاقارب أو من الخصيان » . وواجه الشاب الفتاة بأنه قد أحلها من «كل رباط ووثاق بيننا ، فلا عهد ولا اتفاق بعد هذا يجمعنا» . وبعث كاظم رسالة إلى محمد بك ، أشار فيها إلى أن الله ضرب على نساء المسلمين حجابا مستورا ، فخرقه أحد الناس جهلا ، فأوسعتم الخرق باتباعكم إياه ظلما وفجورا .. فالمرأة مرأة خدرها وبيتها ، ولا تصلح لزوجها وبنيها ، وإن جاوزت بابها وسترها» وأكد على تمسك الايرانيات بالحجاب ، فلا يرى لهن أقل عضو ، لا عين ولا جبهة ولا أقل أثر للناظر منه يستفيد . ومع هذا الاحتجاب وعدم الاختلاط يربين أولادهن أحسن تربية مع ما يشتغلنه من الأشغال اليدوية التى عجزت عن تقليدها أوروبا بأجمعها ، فلا تناظرهن أعظم امرأة فى الغرب مهما كانت مترببة . فالمرأة لا تقوم مقام الرجل مهما فعلت ، ويكفيها وظيفتها ولو قدرنا أنها من التطبع بالرجل تبدلت الخ» . واختتم رسالته بسحب يده لعدم

توافق المشرب «وليس فى مذهبى هذا مما يستغرب . يجب على المسلم أن يتعصب لدينه وعرضه ، ولا يتساهل فيهما لميله وغرضه» .

* * *

الرواية تطرح قضيتها الأهم فى العنوان السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين ، وهو سبب - كما يشير فى الصفحات الأولى - إلى عناصر الاختلاف بين السنة والشيعة ، وكفى - على حد تعبيره - ما حوى هذا الاسم من الاشارة، وما فيه من المعنى ودليل العبارة .

يلحظ الراوى / الكاتب أن الايرانى «عند الجميع مذموم ، ويرمونه بسهام الطعن واللوم ، ويتقولون عنه بكل قبيح ، ويسلبون ماله من كل مليح ، مع أنهم قوم لم يخرجوا عن الحق ووافقوا الصواب ونطقوا بالصدق ، معترفين لله عز وجل بالوحدانية الأبدية ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الأزلية ، فليس لمسلم سبيل للطعن فيهم ، ولا يجوز مطلقا الافتراء عليهم» .

إعادة النظر إلى الشيعة - بتجرد وموضوعية - منطلق مهم لتحقيق الوحدة بين المذاهب الإسلامية - السنة والشيعة على وجه التحديد - « إذ لا يخفى ما لاتحاد الإسلام من الأهمية ، وما يعود بالنفع إذا اتفقا سوية ، فكفانا من الانحطاط الناتج عن نفور الطرفين ، والبغضاء المتسببة من أقاويل وشماتة الفريقين» . ويضيف الكاتب إن الاتحاد بين السنة والشيعة ممكن ، «إذا دفعنا ورفعنا العقبات ، وأزلنا من بيننا الإساءات، بحيث تنقشع السحابة المظلمة بين أهل الشيعة وأهل السنة ، وتتجدد الوصلة ، ويمحى المرض ، وتشفى العلة»



قاسم أمين

هل تأثرت بالكوميديا الالهية وحديث عيسى بن هشام ؟

الرواية تذكرنا - فى البداية - بالكوميديا الإلهية لدانتى ، ثم تذكرنا - فى رحلة البحث عن الحبيبة - بحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى .

ظهور الحبيبة فى حياة الرواى واختفائها كطيف ، فى لحظات كأنها السحر يذكرنا بظهور بياتريس واختفائها فى الكوميديا الإلهية . وكانت تلك اللحظات القصيرة هى انطلاقه الأحداث فى السبب اليقين وفى كوميديا دانتى . اختفى ما قبل ، ووضع الراوى انشغاله فيما بعد . ظلت الفتاة فى ذهنه ووجدانه ، فهو دائم التفكير فيها ، ودائم البحث عنها . أصبح البحث عن الحبيبة ومحاولة لقائها محور حياته جميعا . ويبين تأثر الكاتب بحديث المويلحى فى توالى المواقف التى يناقش الراوى من خلالها بعض قضايانا الاجتماعية . ثمة اختلاف - واتفاق - المذاهب الإسلامية ، ووضع المرأة ، والحجاب ، والأحوال الاقتصادية ، والمتنزة، والفندق ، والكازينو ، والمولد ، وشاطىء البحر ،

والمسرح ، وحديقة الأزبكية ، وغيرها فى السبب اليقين .

لقد كان المنيكلى باشا هو رفيق عيسى بن هشام فى الأماكن المختلفة التى زارها . وكان عارف هو رفيق كاظم ميلانى فى الأماكن التى تردد عليها ، بصرف النظر ما إذا كانت أماكن حقيقية أم فرضها الحدث الروائى . وكان الباعث للمنيكلى هو التأمل فى الحياة والبشر ، وما آلت إليه الأمور بعد انقضاء عقود على زمانه . أما كاظم فقد كان باعث رحلته التى صحب فيها - فيما بعد - صديقه عارف هو حبه لوحيدة ، منذ ظهورها فى حياته كطيف ، ما لبث أن اختفى ، فبدأ بالتالى رحلة البحث عنها .

ومن الواضح أن معظم آراء الراوى / الكاتب تصدر عن مفهوم أخلاقى ، ينتصر للصواب ، ويدين الخطأ . وهو ما ينتظم فصول الرواية جميعا ، العين ناقدة ، ترى وتتأمل وتصدر الحكم . فهو - على سبيل المثال - يدين اختلاط النساء بالرجال ، والتعرى فى حمامات السباحة ، وشرب الخمور ، ولعب القمار ، وغيرها من المظاهر السلبية التى أتاح له البحث عن فتاته أن يتعرف إليها .

وتبين دعوة قاسم أمين فى تحرير المرأة والمرأة الجديدة عن ملامح مؤكدة فى الحرية التى أتاحها الأبوان لابنتهما ، وكما تقول ، فإنهما أباحا لها «هذا التصرف ، وعود إلى متابعته ، بعدما استصوبا رأى فلان المنادى برفع الحجاب - تقصد قاسم أمين - ولزوم مخالطة الإناث بالرجال ، وشرح فضيلته» .

* * *

فى ١٩٠٠ أصدر قاسم أمين كتاب تحرير المرأة . وتولت نشره دار الترقى للطبع والنشر ، وعلى الرغم من أن عدد نسخ الطبعة الأولى لم يزد عن ألف ، فقد ظلت فى المكتبات عدة أعوام قبل أن تنفد . حدد قاسم أمين دعامتى التحرير الحقيقى للمرأة بأنهما : التعليم ونزع الحجاب . وذهب إلى أن «تربية النساء أهم من تربية الرجال فى الهيئة الاجتماعية» لأنه «يجب أن يكن عظيمات وفاضلات ليكون الرجال عظماء وفضلاء» «لأن الرجال يكونون كما تريد النساء» .

لم تنطلق دعوة قاسم أمين من مجرد الرغبة فى «تحرير المرأة» ، لكنه كان ينشد حلا لمشكلة بدأت تجد سبيلها إلى الظهور والتأكد ، وهى أن «رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانيهم المحبوبة ، فإنهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها ، وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم ، لا خادمة تستعمل فى كل شىء ، ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادىء الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة»

والحق أن قاسم أمين لم ينكر على المرأة دورها الأساسى ، وهو إنشاء الأسرة ، وتربية الأولاد ، كانت تلك عنده أفضل خدمة تقدمها المرأة للمجتمع . بل لقد اعتبرها «قضية بديهية» لا تحتاج إلى نقاش ، لكنه أضاف إلى ذلك دورها الغائب فى مواجهة الحياة بالعمل إذا

فرضت عليها الظروف ذلك والملاحظ كذلك أن قاسم أمين لم يطلب المساواة بين الرجل والمرأة فى التعليم - على سبيل المثال - فذلك فى تقديره كان غير ضرورى، وإنما طلب المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل . أما الحجاب ، فهو قد طالب بالاقتصار على الحجاب الشرعى «على ما جاء فى الشريعة الإسلامية ، والمتمثل فى «كشف المرأة وجهها وكفيها ونحن لا نريد أكثر من ذلك» .



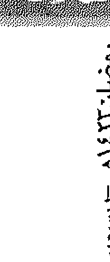
مصطفي كامل

واللافت أنه عندما دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة ، وإلى المرأة الجديدة ، فإن المعركة - التى شغلت حياتنا السياسية والاجتماعية جميعا - لم تقتصر على المقالات والكتب التي تناقش وتحلل وتؤيد وتعارض ، وتجعل من دعوة قاسم أمين معلما مهما ومؤثرا فى مسار الحياة المصرية ، وفى حياة المرأة المصرية على وجه الخصوص . فثمة إسهام مباشر فى المعركة لم يفطن إليه مؤرخو تلك الفترة ، رغم أنه شكل صوتا جهيرا فى المناقشات التى أثيرت ، مناصرة ورفضا لتحرير المرأة وسفورها وصعودها درجات فى سلم المساواة بالرجل . ويتمثل هذا الإسهام فى العديد من الأعمال الأدبية والفنية التى تتناول دعوة قاسم أمين ، وتبين عن ملابساتها ونتائجها فى حياة قطاعات مختلفة من المجتمع .

كانت القصة فنا مستحدثا ، لكن السمة التى غلبت على كل المحاولات الأولى، بدءا بعلم الدين وانتهاء بزينب ، ومرورا بليالى الروح الحائر وقلب الرجل وحديث عيسى بن هشام وليالى سطيح ومذكرات الأميرة يراعه ونظرات المنفلوطى وعبراته وغيرها ، أنها عانقت همومنا الاجتماعية ، وحاولت أن تناقش ما يعانى المجتمع من قضايا ومشكلات . وقد أحدثت دعوة قاسم أمين رد فعل عنيف فى أوساط المثقفين المصريين ، تمثل فى المواقف المؤيدة والمعارضة التى عبر عنها كتاب وساسة كبار وصغار . بل إن مصطفي كامل أفرد صفحات «اللواء» - لأشهر طويلة - للهجوم الضارى على قاسم أمين ، إلى حد التشكيك فى وطنية الرجل! .

ومع الأصوات المؤيدة والمعارضة لدعوة قاسم أمين ، فإن الشيخ على يوسف كتب فى «المؤيد» : «إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب مصدر تغير عظيم فى أفكار الأمة ، ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم فى أخلاقها» .

ولعل الظاهرة التى تبين عنها غالبية الأعمال التى حاولت أن تناقش دعوة قاسم أمين فى ضوء الظروف القائمة آنذاك ، أنها خلصت إلى إدانة حاسمة وشجب لدعوة قاسم أمين . وفى المقابل من تلك الأعمال ، فقد حاولت بعض الأعمال الأدبية الأخرى أن تناقش الدعوة ، وتستشرف نتائجها فى إطار



من الموضوعية والتفهم لطبيعة الظروف التى كان يحياها المجتمع المصرى آنذاك

لماذا فضل السجع ؟

أما تفضيل الكاتب أسلوب السجع ، فقد كان ذلك - حسب تعبيره - لحاجة فى نفسه يعقوب « ولم أتوفق إلا ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته لهذا الأسلوب» ، والحق أننا لم ندرك الحاجة فى نفسه التى جعلته يختار أسلوب السجع ، وإن لم تكن الكتابة فى تلك الفترة قد تخلصت من أسلوب المقامة ، أو أنها لم تكن تخلصت منها تماما .

نحن إذا استثنينا العدد الأقل من الأعمال الروائية التى صدرت فى الفترة منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية العقد الأول من القرن العشرين : عذراء دنشواى لمحمود طاهر حقى ، ليالى الروح الحائر لمحمد لطفى جمعة ، فتاة مصر ليعقوب صروف ، فتاة الفيوم ليعقوب صروف ، مذكرات الأميرة يراعة لصالح حمدى حماد ، وغيرها ، فإن المقامة كانت هى لغة الرواية فى تلك الفترة ، ثمة مقامات اليازجى ، وكتاب علم الدين لعلى مبارك ، والمقامة الحلوانية أو اللغزية لمحمود سلامة ، وحديث عيسى بن عصام لابراهيم المويلحى ، وحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى ، وليالى سطيح لحافظ إبراهيم ، وصهاريج اللؤلؤ لتوفيق البكرى ، وغيرها ، فراوية كاظم ميلانى تتسق - فى لغتها وأسلوبها - مع تلك الروايات . وحين قدم سليم تكلا طلب ترخيص «الأهرام» ذكر أن مقاصده طبع بعض الكتب كمقامات الحريرى .

والرواية تنتسب - تطبيقا - وقبل نشوء التعريفات والمصطلحات النقدية الحديثة - إلى رواية السيرة الذاتية . فالراوى محمد كاظم ميلانى هو كاتب الرواية ، وأبوه الحاج إبراهيم الميلانى تاجر بشارع الميدان بالاسكندرية . وأحداث الرواية يرويها الشاب كاظم ، وثمة أسماء معاصرة تتناثر فى فصولها كالشيخ سلامة وجوقة إسكندر فرح والجناب الخديوى - يقصد عباس الثانى - ومحل الخواجة سمعان بالموسكى الخ....

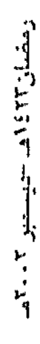
و«للسهولة جعلناها أقساما وفصولا» هذه هى الحبكة . التقسيم إلى أقسام وفصول لمجرد السهولة فى السرد ، وإن حفلت الرواية بالكثير من المصادفات المفتعلة . بل إن الكاتب يستدعى المصادفة ، حيث يقف على ناصية أحد الشوارع - فى الاسكندرية ، ثم فى القاهرة - يمنى النفس بأن يلتقى بالمحبوبة ، التى لم يرها من قبل سوى مرة واحدة ، ولا يعرف عن أحوالها شيئا . وحرص الكاتب على أسلوب الوعظ وتقديم العبرة ، كما حرص أن يذيل صفحات الرواية بهوامش تشرح معانى الكلمات الغامضة ، وتوضح بعض المعلومات التاريخية والاقتصادية وغيرها

قيمة هذه الرواية

قيمة هذه الرواية تتمثل فى التجليات التالية :

- إنها أول عمل روائى يناقش دعوة



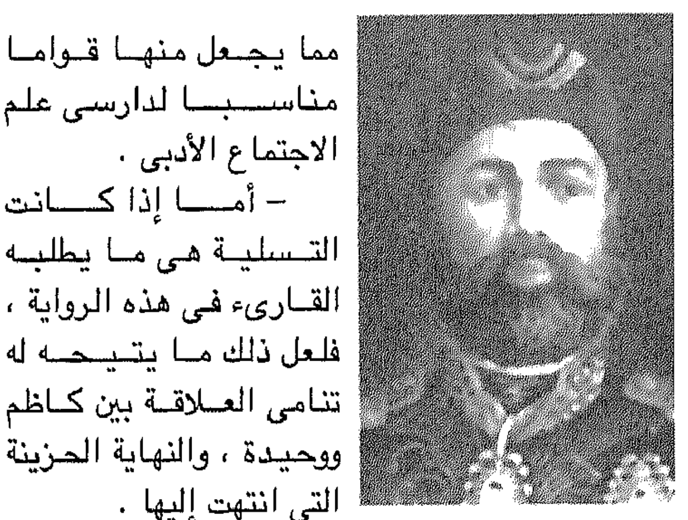


قاسم أمين فى كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة . إن أسرة محمد بك تعبير عن التيار المناصر لدعوة قاسم أمين ، والمأساة التى اصطدم بها فى إصراره على تطبيق تلك الدعوة ، وعانت نتائج المأساة وحيدته «وحيدة» .

– إنها أول عمل روائى يطرح المذهب الشيعى على القارىء غير المتخصص ، فضلا عن مناقشة العلاقة بين السنة والشيعة . وإذا كان الكاتب قد انتصر – فى وجهة نظره – للمذهب الشيعى ، فلأنه ينتسب إليه ، وإن كان من المهم – فى تقديرى – أن يتعرف القارىء على ذلك المذهب الذى تدين به واحدة من أهم دول المنطقة ، وهى إيران ، فضلا عن قطاعات عريضة من الشعب العربى .

– إنها تعرض للتيارات والظواهر الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، مما يجعل منها قواما مناسبا لدارسى علم الاجتماع الأدبى .

– أما إذا كانت التسلية هى ما يطلبه القارىء فى هذه الرواية ، فلعل ذلك ما يتيحه له تنامى العلاقة بين كاظم ووحيدة ، والنهاية الحزينة التى انتهت إليها .



الخديو عباس

* * *

هذه رواية تستحق القراءة لأكثر من سبب ، وإن كان من المهم أن توضع عملية القراءة فى إطار الزمن الذى كتبت فيه ، وكتبت له ..

لقد روى الكاتب أجزاء من سيرته الذاتية ، ومزج بين الواقع والخيال ، وناقش قضايا مهمة من أخطر ما عاناه المجتمع المصرى فى فترة الانسحاب من هزيمة العرابيين ، والتهيؤ لصحوة بلغت ذروتها فى ١٩١٩ ، وتلاحم الشعب المصرى – بكل طوائفه – فى ثورة ، شكلت معلما مهما فى مسار تاريخنا الحديث . ■

قالوا

* الإمبراطورية التى تقوم على الحرب تعيش بالحرب

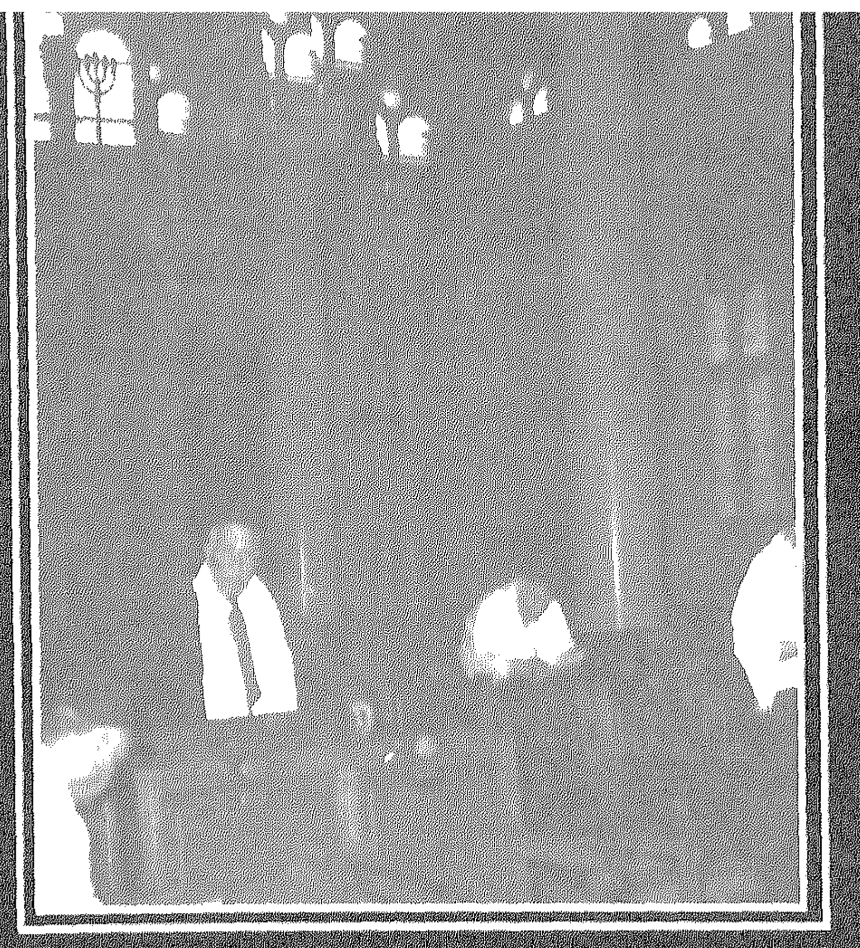
مونتسيكيو

*التاريخ حلم مزعج .. أحاول أن أنساه

جيمس جويس

* الإنسان الذى لا يفقد عقله أمام الاغراء لس لديه ما يفقده

ليسنج



اليهود فى الاسكندرية

الخروج من مصر

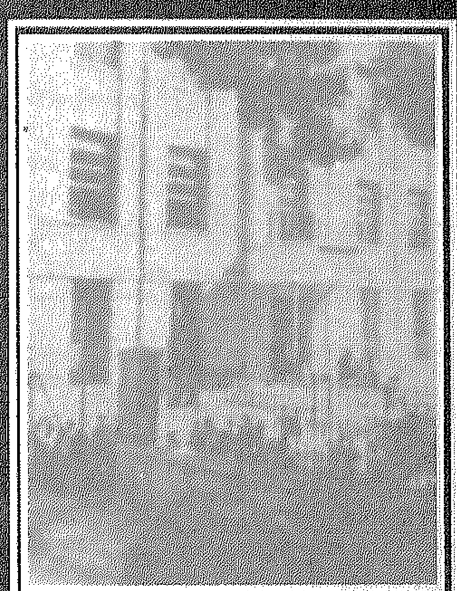
حكاية عائلة يهودية وقراءة بعيون مصرية

بقلم
د. محمد ابو الغار

لقد كان الانتهاء من بناء مكتبة الاسكندرية وافتتاحها حافزا لكثير من الكتاب والمفكرين ليكتبوا عن القلعة العلمية والثقافية العظيمة والتى تمركزت فى مكتبة الاسكندرية القديمة، وتناولت الكتابات أيضا مدينة الاسكندرية ذات الطابع الكوزموبوليتان فى نهاية القرن التاسع عشر وحتى العقد السادس من القرن العشرين.

ومما لا شك فيه أن الحنين (النوستالجيا) قد لعبت دورا مهما عند الكتابة عن تاريخ الاسكندرية الحديث، فالاجيال التى تعدى عمرها الستين عاما تتذكر الاسكندرية النظيفة الجميلة الهادئة المليئة بالمطاعم والكازينوهات والمقاهى الجميلة. وكانت المدينة مرتعا للفنون التشكيلية الرائعة المستوى

أمين صندوق الطائفة إيزاك دى بشوتو فى محل الأدوات الكهربائية الذى يملكه بشارع سعد زغلول



مدرسة الطائفة اليهودية بمحرم بك



الحاخام الأكبر حاييم ناحوم فى احتفال الطائفة اليهودية بالاسكندرية برأس السنة اليهودية عام ١٩٤٧

وكل من يتذكر روايات لورنس داريل يعيش الحياة السكندرية فى مطلع القرن العشرين، ومن يقرأ ترجمات نعيم عطية الراقية لأعمال كفافيس يحس بتأثير الأسكندرية الشعرى الساحر.. ومن المؤكد أن بعض المعاصرين يتذكرون ليالى الاسكندرية الساحرة والعشاء البسيط فى تافرنا وسط المدينة، ولم يكن أحد من المصريين سعيدا بتدهور أحوال الإسكندرية خلال أربعين عاما حتى أن العقل الباطن للكثيرين منا قدا أبدوا أسفهم على الهجرة الجماعية للأجانب التى حدثت فى خلال عقدين من الزمان، وكنت شخصيا أود أن تحتفظ الاسكندرية بطابع خاص لها كما تحتفظ أسوان أو الواحات بطابع خاص أيضا.. وتشاء الظروف أن أجد كتابا اسمه الخروج من مصر. يحكى الكتاب قصة حقيقية لعائلة يهودية عاشت فى الاسكندرية أكثر من خمسين عاما فى القرن العشرين وهاجرت بعد ذلك للخارج بقلم أحد أفراد الجيل الرابع لهذه العائلة، ولقد خرجت بعد قراءة الكتاب بانطباع بأن الكاتب صريح وصادق ويحكى تاريخ الأسرة ببساطة ودقة، وربما يكون من أسباب ذلك أن الكاتب كان شاهد عيان لكثير من الأحداث وأنه قابل بعض أفراد العائلة من الكبار الباقيين على قيد الحياة وجلس معهم للتوثيق والتأكد من معلوماته ، وهو لم يحاول أن يجمل وجه العائلة فى مصر بل ذكر كل مشاعرها الحقيقية والإساءات لمصر والمصريين .

والكاتب أندريه أكيمان ولد فى الاسكندرية وعاش بها طفولته وشبابه إلى أن غادرها فى عام ١٩٦٤ وقد درس فى جامعة هارفارد العريقة بالولايات المتحدة وهو يقوم حاليا بتدريس آداب اللغة الفرنسية فى جامعة برينستون .

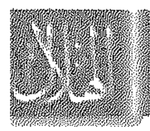
ترجع أصول العائلة اليهودية منذ مئات السنين إلى أسبانيا حين طرد اليهود منها فى عام ١٩٤٢ ميلادية وهاجرت الأسرة إلى تركيا وعاشت فى اسطنبول . وفى القرن التاسع عشر حاول أفراد العائلة مثل كثير من اليهود الأتراك البحث عن جنسية أوروبية أثناء إقامتهم فى تركيا وذلك بجانب جنسيتهم التركية والتى حملوها أجيالا. ونجح الكثيرون فى أن يدعو بأن أجدادهم القدامى الأسبان قد هاجروا إلى ميناء ليفورنو

الصغير فى إيطاليا بجوار بيزا وعاشوا هناك ، ولذلك فهم يستحقون الجنسية الإيطالية ، وفعلا حصل عليها الكثيرين من أفراد هذه العائلة ودخل بعضهم المدارس الإيطالية فى اسطنبول لتعلم الإيطالية وبقى الكثيرين من الذين يحملون الجنسية الإيطالية لا يعرفون حرفا من هذه اللغة .

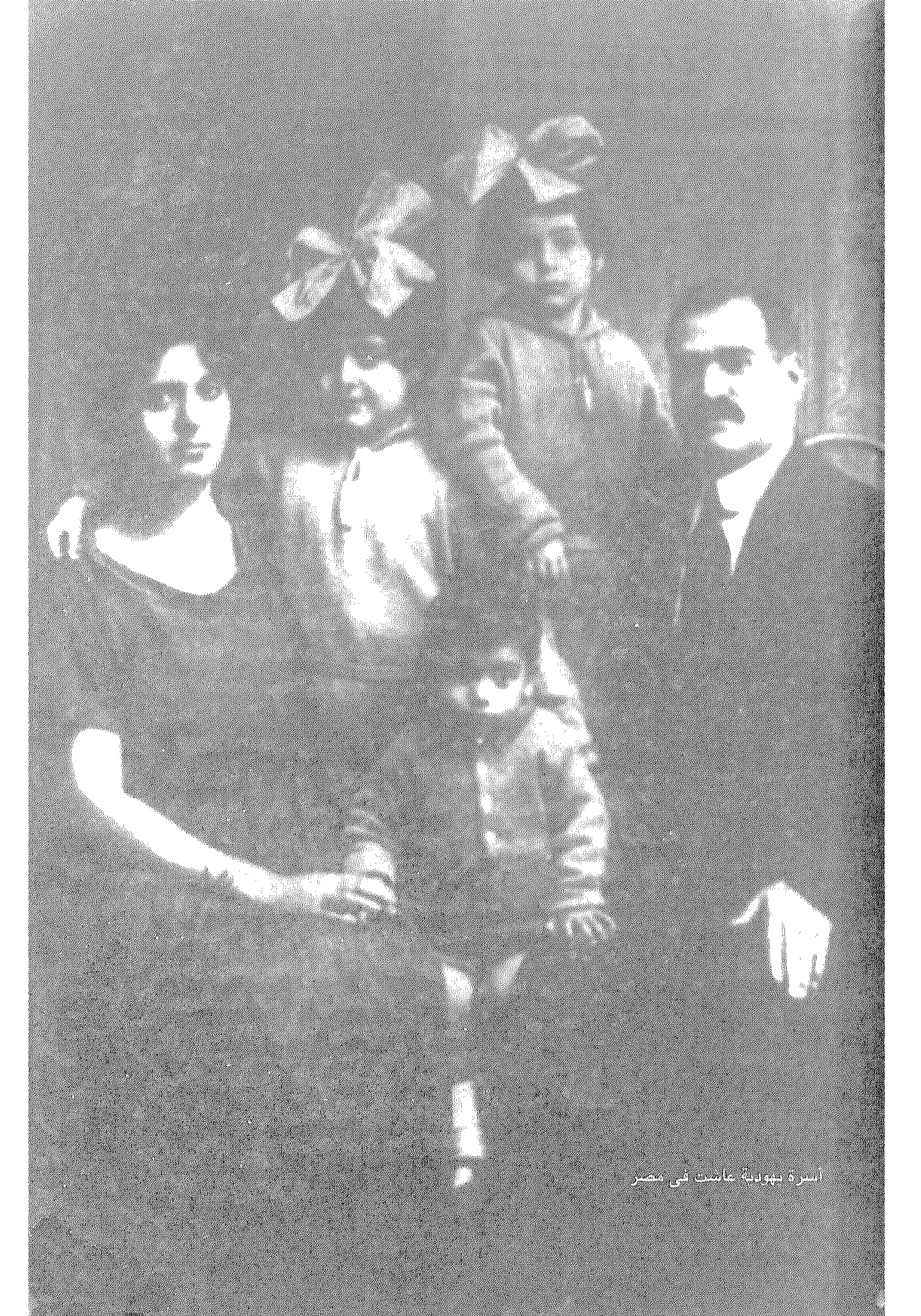
الهجرة إلى الأسكندرية

وقد بدأت هذه العائلة فى التفكير فى الهجرة من تركيا عندما أحست بأفول نجم الامبراطورية العثمانية . وكان الحافز الأكبر لاختيار مصر كبلد المهجر هو الصداقة الوثيقة التى ربطت بين أحد أبناء العائلة المدعو إيزاك (إسحق) وبين الأمير أحمد فؤاد ولى عهد مصر والذى أصبح سلطانا ثم ملكا بعد ذلك ، وقد بدأت هذه الصداقة فى إحدى الجامعات الايطالية حيث تزاملا معا فى نفس السنة الدراسية ، وفعلا هاجرت الأسرة بأبنائها الثلاثة نسيم وإيزاك وآرون (المسمى فيلى) وبناتها الأربعة إلى الاسكندرية عام ١٩٠٥ بعد أن باعت ممتلكاتها فى اسطانبول (وهى ليست بالكثيرة) واستوطنت الاسكندرية وعاشت فيها أكثر من نصف قرن حتى غادرها آخر فرع فى العائلة ومن ضمنهم مؤلف الكتاب فى عام ١٩٤٦ .

وقد توارثت العائلة لغة تسمى لادينو، وهى لغة قاربت على الانقراض تماما ، يتكلمها اليهود السفارديم فى البلقان وشمال أفريقيا واليونان وتركيا، وهى لغة مشتقة من إحدى اللهجات الاسبانية مختلطة بقليل من العبرية ويتكلمها الذين ينحدرون من سلالة اليهود الذين طردوا من أسبانيا فيالقرن الخامس عشر . وتكتب هذه اللغة بالحروف العبرية ولكن معظم من يتكلمها لا يكتبها ، وفى الوقت الحالى أصبح من يعرف هذه اللغة قليل جدا، وكان الابن الأصغر للعائلة المسمى فيلى شخصية غريبة الأطوار متعددة المواهب والقدرات وهى تمثل الشخصية اليهودية أصدق تمثيل، فبعد أن تعلم الإيطالية والفرنسية بجانب التركية واللادينو جند فى الجيش التركى وحارب معه ثم انضم للجيش الألمانى وحارب فى الحرب العالمية الأولى تحت العلم الألمانى وبالطبع أتقن اللغة، وعندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء انتقل للجانب الآخر وحارب



فى صفوف الجيش الإيطالى وهرب منه بعد الهزيمة المفجعة للإيطاليين وذهب ليعمل فى جزر البحر المتوسط، ثم لحق بالعائلة التى هاجرت إلى الاسكندرية، وفى الاسكندرية افتتح صالة للمزادادت تبيع التحف والأنتيكات.. وفى الثلاثينيات ومع ظهور الفاشية، كان من أكبر مؤيدى موسيلينى من الجالية الإيطالية فى الاسكندرية ، حتى أن موسولينى قد أهداه دائرة معارف موقعة منه شخصيا بيعت بعد ذلك لأحد المكتبات قبل مغادرتهم مصر نهائيا.. وكان يرسل خطابات تحية وتشجيع لهتلر ، وعندما طلبته المخابرات الإيطالية ليكون عميلا لها وقبل أن يوافق ذهب للمخابرات البريطانية فى الاسكندرية وعرض عليهم الأمر فانضم رسميا كجاسوس للتاج البريطانى عام ١٩٣٦، وتنقل فيلى بين روما والقاهرة وأثيوبيا التى كان موسولينى قد غزاها ليتجسس على الإيطاليين لصالح الانجليز، وكانت المخابرات الإيطالية تصدر له كميات هائلة من التحف والأثاث الإيطالى القديم من روما لصالة المزادات فى الاسكندرية وذلك بمبالغ رمزية حتى يكون هناك مبرر لسفره المتكرر لروما أمام عيون الانجليز.. وكان فيلى يتباهى بأن أخاه إيزاك وبالتالى هو شخصيا يضع الملك فؤاد ثم فاروق فى جيب الصديرى الصغير ، وقد ساعد الملك على تعيين فيلى عضوا فى مجالس الإدارة لعدد كبير من الشركات الكبرى فى مصر بمرتبات مرتفعة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كافاته الحكومة الانجليزية بمنحه الجنسية البريطانية، ولم تكن علاقة فيلى جيدة بالحركة الصهيونية فى مصر الذين اتهموه بأنه يتجسس لصالح الانجليز ضدهم فى الفترة التى سبقت قيام دولة إسرائيل، بل وحاولوا الاعتداء عليه. وبعد قيام دولة إسرائيل أحس فيلى بعقل وقلب الجاسوس أنه يجب أن يعد العدة فى وقت ما للرحيل من مصر وتأكد الإحساس بعد قيام الثورة فى عام ١٩٥٢، فبدأ يهرب أمواله الضخمة للخارج وبالتدريج باع كل ممتلكاته ما عدا فيلا قديمة مليئة ببعض الأثاث الذى لا يساوى شيئا.. ويبدو أن فيلى كان يرأس منظمة للتهريب وربما للجاسوسية ضد مصر.. وفى عام ١٩٥٥ وبينما الأسرة تنظم حفلا



أسرة يهودية عاشت فى مصر

ضخما استمر ثلاثة أيام الميلاد لمئات المدعوين احتفالا بعيد الميلاد المئوى للجدة الكبرى رأس العائلة التى هاجرت عام ١٩٠٥ إلى مصر وكان عمرها آنذاك خمسة وأربعون عاما وبلغت مائة عام وهى بصحة جيدة وذاكرتها قوية، وفى مساء اليوم الثالث والأخير لحفل عيد الميلاد ألقى ابنها الأكبر نسيم كلمة لتكريم أمه وتأكد من أن مائة شمعة قد أضيئت فى أنحاء المنزل وقالت الجدة كلمة تحية، بدأتها بالتركية التى كانت قد نسيتها وحاولت التكملة بالإيطالية الركيكة ولكنها غيرت إلى الفرنسية التى تجيدها ولم يكن هناك مكان للغة لادينو لأن أقل القليل من الحضور يعرفها.. وفجأة دخل أحد أصدقاء الأخوة وهو يلهث قادما من الخارج وطلب مقابلة فى لى على انفراد وأخبره بأن أحد أعضاء الخلية التى ينتمى إليها فيلى قد قبض عليه وضبطت معه ورقة بها بضعة أسماء من ضمنهم فيلى وبعض المعلومات الأخرى من ضمنها أرقام الحسابات فى سويسرا، ونادى فيلى بقية الإخوة وأخبرهم أنه سوف يغادر مصر نهائيا وفوراً الآن وطلب أن تستمر الحفلة بطريقة عادية حتى لا يلاحظ أحد شيئاً.. وقد رفض السفر هاربا على ظهر سفينة تجارية يونانية تغادر الميناء بعد بضع ساعات وأخذ حقيبة من المنزل بها بعض الملابس القديمة، وانطلق مع السائق إلى مطار القاهرة، وقبل أن يتم التبليغ بالقبض عليه ببضع ساعات كان قد غادر القاهرة. ومن عجائب القدر أن تستدعى الحكومة المصرية فيلى بعد أربع سنوات كخبير أجنبى لبيع مقتنيات العائلة المالكة بالمزاد العلنى!)..

ذهب فيلى صاحب الجنسية البريطانية لإنجلترا وغير اسمه لاسم انجليزى قح وغير ديانته للمسيحية واشترى ضيعة فى الريف الانجليزى ليتقاعد فيها دون أن يعلم أو يحس أحد بأنه أجنبى أو أن له تاريخا تشيب له الرؤوس.

وعندما ذهب مؤلف الكتاب لزيارة فيلى حين كان فى الثمانين من عمره فى ضيعته بانجلترا حيث يعيش مع أولاده وأحفاده رفض الحديث عن الاسكندرية، وعندما ذكر أمامه بعض أسماء الاصدقاء والأقارب قال: إن هذا التاريخ سيىء، والمهم هو الحاضر، وأليس المنظر رائعاً هنا فى

غلاف كتاب «الخروج من مصر»

الريف الانجليزى، وبعد قضاء يومين فى ضيافته عرف بالصدفة من أحفاد فيلى أنه قبل أن ينام يغلق الحجرة على نفسه بحيث لا يعرف أحد أنه يستمع كل ليلة لنشرة الأخبار بالفرنسية لمدة ساعة كاملة من محطة راديو إسرائيل.

الحياة فى الاسكندرية

وقد قام كل من المهاجرين الجدد لمصر من العائلة بعمل مشروع مختلف بدءاً من فتح صالة بلياردو إلى صالة مزادات إلى محل لبيع وإصلاح الدراجات، وتكبر العائلة فى الحجم والثروة ويزداد عددها وتسكن فى الإبراهيمية بالإسكندرية واسبورتنج، ثم تنتقل إلى سموحة. وكان لهم بيت بالمندرة ينتقلون إليه كل صيف، وكانوا فى بحبوحة من العيش عندهم الخدم والطباخين والسفرجية والسائق.

واستمرت العائلة فى حياة سعيدة بالرغم من القلق الشديد الذى راودها فى فترة معركة العلمين وخوفهم من انتصار الألمان وهو ما يعنى هروبهم من مصر أو احتمال القبض عليهم.

وكانت هذه الفترة من الفترات العصيبة فى حياة يهود الاسكندرية، وقد حددت الحكومة البريطانية إقامة الرعايا الإيطاليين والألمان خوفا من أن يكونوا طابورا خامسا لجيش روميل. ولكن هذه العائلة التى يحمل أفرادها جوازات سفر إيطالية لم تمس من قريب أو من بعيد لأنهم أولا يهود وثانيا لأن فيلى يعمل جاسوسا للانجليز. وفيما معركة العلمين ترك الجميع منازلهم وذهبوا إلى الجدة الكبرى فى منزلها الذى رفع منه الأثاث وفرشت المراتب على أرض البيت لينام الجميع رجالا ونساء وأطفالا كل يوم حتى انتهت المعركة بهزيمة روميل فعاد كل إلى بيته حتى قيام دولة إسرائيل. وعندئذ شعرت

الأسرة مرة أخرى بالخوف من الشعور المتوقع من المصريين تجاه اليهود وذهبوا مرة أخرى للجدة الكبرى وفرشت المراتب ونامت العائلة جميعها على الأرض حتى هدأت النفوس وعاد الجميع مرة أخرى لمنازلهم.

أما الأخ إيزاك فهو الصديق الشخصي للملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق، فقد وصلت درجة الصداقة إلى حد أن أيزاك أخبر الملك فؤاد بأن أخته قاربت على سن الأربعين ولم تتزوج بعد، فساعده الملك بتنظيم وترتيب زواج بين الأخت وبين يهودى يقيم فى مصر يسمى الدو خون ويعرفه العامة باسم خون باشا .

ولفرط ثقة الملك فؤاد وحبه للسيد إيزاك عينه في منصب مدير عام وزارة المالية وساعد إيزاك فيلى على الوصول لمناصبه الكثيرة وساعد فى تعيين أعداد كبيرة من أفراد العائلة شبابا وشيوخا فى مناصب إدارية كبرى فى الشركات والبنوك بمرتبات كبيرة مغرية. وقد بلغت مساعدات الملك لإيزاك حدا غير معقول عندما تدخل لمساعدة أحد أقارب العائلة فى الهروب من ألمانيا وأعطاه جوازاه سفر مصرية دبلوماسية له ولزوجته.

أما الأخ نسيم فلم يكن له دور واضح باستثناء حبه للهدوء والقراءة ولعب الجولف بصفة دائمة.

أما البنات فقد تزوجن من يهود من الاسكندرية ذو الأصول الغربية وكان اليهودى العربى القادم من حلب والذى تزوج إحدى الأخوات هو الوحيد من غير اليهود الأوروبيين الذين دخل هذه العائلة، وقد نظر إليه الأخوة جميعا بنظرة متعالية فيها بعض الاحتقار.

أثناء عدوان ١٩٥٦

ويحتل العدوان الثلاثى على مصر والذى اشتركت فيه انجلترا وفرنسا وإسرائيل جزءا مهما فى تاريخ هذه العائلة لأنه كان حدا فاصلا فى علاقتهم بالحكومة المصرية التى بدأ يشوبها بعض القلق بعد عام ١٩٥٢، وتطورت العلاقة تدريجيا حتى وصلت لقمة الأحداث أثناء عدوان ١٩٥٦ حين ظهر بوضوح إلى أى جانب يقفون، واتخذت الحكومة المصرية منهم موقفا شديد الحزم والحذر. ومن ناحية أخرى كان لاشتراك إسرائيل فى العدوان الثلاثى أثرا حاسما فى إثارة الشعور الشعبى ضد اليهود وخاصة بعد ما ظهر من تصرفاتهم

أثناء العدوان.

وهناك كثير من الأحداث التى كان الكاتب فيها شاهد عيان أثناء فترة الحرب تدل على عدم تعاطف وانتماء هذه العائلة ومثيلاتها إلى مصر.

الهجرة من مصر

وبدأت العائلة مناقشة الهجرة من مصر والتخطيط لها، والذى بدأ يتحقق على أمر الواقع لجميع أفراد العائلة ما عدا والد المؤلف الذى كان يملك مصنعا للنسيج يدر أرباحا هائلة، وكان يود أن يبقى مع عائلته فى الاسكندرية وفعلا بقى فيها ثمان سنوات حتى غادرها فى عام ١٩٦٤ وخلال هذه الأعوام تغيرت الأسكندرية وتغيرت الحياة فى مصر وأممت كلية فيكتوريا التى كان الصبى يدرس بها وتحولت إلى كلية النصر وأصبح تدريس اللغة العربية إجباريا وأصبح هو اليهودى الوحيد فى الفصل وكان عليه أن يحفظ أجزاء من القرآن كجزء من دروس اللغة العربية وعليه أن يحفظ الأناشيد التى تمجد العرب وتحقر من اسرائيل وكان أبوه مصر أن يستمر بالمدرسة لأنه إذا أراد أن يعيش فى مصر فى هذا العصر لابد أن يجيد لغتها وقد لاقى الصبى كثيرا من العنت فى هذه الفترة تارة من المدرسين وتارة من الزملاء حتى رضخ أبوه ونقله للمدرسة الأمريكية التى لم تكن اللغة العربية إجبارية فيها . وأضطر أبوه أن يغادر مصر نهائيا بعد أن أممت أملاكه بعد ذلك . ويذكر الكاتب أنه أثناء زيارة للمقابر اليهودية بالاسكندرية فى يوم كيبور بينما هم يخططون لترك مصر قال أباه أنه لمن المحزن أن نترك أحبائنا فى قبورهم يتقلبون بينما نخطط نحن للمغادرة، ولعلهم يسألوننا لماذا جئنا فى المقام الأول لمصر ونحن نكره هذه البلد التى دفنونا فيها.

وإذا أبديت بعض الملاحظات على الكتاب فأولها أن الكاتب كان أمينا فى رواية الأحداث الحقيقة التى مرت بعائلته وحاول جمع المعلومات ومقابلة الأحياء لاستكمال الأحداث ولم يحاول أن يجمل الشخصية اليهودية بل أظهر بوضوح أن الجميع لم يحب مصرنا ولا شعبنا وانما أحب اسكندريتهم وبحرها وجمالها .

● يعطى الكتاب انطباعا واضحا أن مصر كانت بها دولتان أحدهما للمصريين والأخرى للأجانب، فخلال صفحات هذا الكتاب التى قاربت

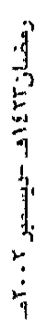
الثلاثمائة والذى يغطى أكثر من ٥٠ عاما من تاريخ مصر فى القرن العشرين لم نقرأ ولا حدث واحد عن ثورة ١٩١٩ أو مظاهرات ١٩٣٥ أو التغيرات السياسية المتلاحقة، ولم يذكر اسم زعيم أو وزير مصرى واحد ولا أى كاتب أو أديب أو فنان مصرى، ولا حتى راقصة مصرية . فالكتاب ملئ بالأسماء والشخصيات وكلها أجنبية أما الأسماء المصرية الكثيرة فهى فقط أسماء الخدم بكافة أنواعهم .

● العائلة اليهودية الكبيرة التى قد تفرعت عن طريق الزواج والانجاب حتى الجيل الرابع كانت مترابطة بشكل يفوق الخيال وكان ذلك واضحا خلال الأزمات الكبرى فى عام ١٩٤٢ و ١٩٤٨ و ١٩٥٦ وكانوا يتعالون على الجميع حتى على زوج أختهم اليهودى الحلبى الذى لا يتكلم لادينو .

● وكانت اللغة العربية عديمة الأهمية لهم، فلم يهتم أحد بتعلمها أو قراءة آدابها خلال خمسين عاما إلا فى الجيل الرابع عندما بدأ بعض الاهتمام بتعليم اللغة وقد قالت الجدة فى كلمتها احتفالا بعيد ميلادها المئوى أنها تعرف خمسين كلمة عربية بواقع كلمة عن كل سنة أقامتها فى مصر .

● وعند ذكر مواطنى مصر كان دائما يشار اليهم بالعرب وكثيراً ما كان يلى كلمة عرب صفة القذارة والجهل، وقد ذكر الكتاب جميع أسماء الخدم والطباخين والسائقين والغسالة والسفرجى الذين كانوا يعملون فى خدمة العائلة أما كلمة مصرى فلم تذكر إلا نادراً ، فمثلا عندما ذهبت الجدة للمستشفى الإسرائيلى بالاسكندرية لإزالة المرارة بجراحة كان جراح العائلة اليهودى قد تم القبض عليه بتهمة الجاسوسية وقام بإجراء العملية جراح مصرى شاب وتمت بنجاح وكان تعليقها أن هذا المصرى شاطر وربما يكون من هذا الجيل مصريين مختلفين وهذه هى المرة الأولى التى ذكر فيها كلمة مصرى فى الكتاب والمرة الأخرى التى ذكر فيها شخص باسم مصرى كان الصيدلى الذى اشتروا منه الدواء وعموما فيما عدا هذه الأمثلة فإن النظرة العامة للشعب فكانت نظرة فوقية متدنية للغاية .

● بالرغم من أن هذه العائلة بعد الخروج من مصر لم تذهب لإسرائيل إلا أن زعيمهم العم فيلى المقيم فى انجلترا كان يسمع كل ليلة لمدة ساعة



كاملة لنشرة الأخبار بالفرنسية من محطة إسرائيل . والعم إيزاك كان يتعلم العبرية الدارجة وهو فى الثمانين من عمره لأنه كان يتمنى أن يموت فى إسرائيل .

●لايمكن اعتبار أن معاناة تلميذ يهودى واحد بسبب دراسته لتاريخ الشرق الأوسط من وجهة النظر المصرية والتى تدين إسرائيل بسبب الكوارث التى سببتها فى الشرق الأوسط مختلفة عن معاناة آلاف التلاميذ الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية عندما يقرأون التاريخ الذى يمجد إسرائيل ولا يعترف بأى حقوق للعرب .

● معظم الأجانب واليهود الذين هاجروا إلى الاسكندرية كانوا فقراء فى أوروبا وبعد فترات وجيزة أصبحوا يعيشون حياة رغدة ومنهم من ربح أموالا طائلة ولم يشعر أى منهم باستثناء بعض اليونانيين أن هذا الوطن يمكن أن يكون وطنهم الدائم وأن يندمجوا فيه ويتعلموا لغته وحياته . وحقيقة الأمر أنه عندما أممت ممتلكات الأجانب اليهود كان ذلك جزءاً من سلسلة تأميمات سياسية للدولة والتى طالت كل الأغنياء المصريين أيضا فى قطاعات الصناعة والتجارة والزراعة . وعندما هاجرت العائلة لأوروبا مرة أخرى واستوطن معظمهم فى فرنسا أصبحت حياتهم بسيطة فى شقق صغيرة بدون الخدم والحشم والطباخين والسائقين .

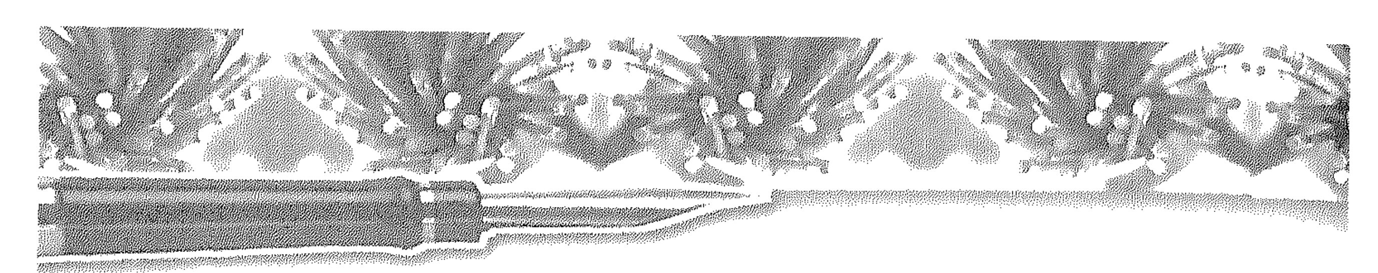
● وأخيرا، فإن ذكرى الاسكندرية ذات الطابع الكوزموبوليتان بسحرها وجمالها ونظافتها لاتزال عالقة بالأذهان، وقد فكرت كما فكر الكثيرين أنه كان من الممكن أن نحتفظ للاسكندرية بسكانها لو كنا قد فكرنا بطريقة مختلفة، ولكن عند قراءة هذا الكتاب كان واضحا لدىّ أن ذلك كان سرابا وأن المشكلة لم تكن فى مصر ولا المصريين وإنما المشكلة فى الأوروبيين واليهود الذين أرادو أن يعيشوا ملوكا وأمراء لهم دولتهم وعالمهم الخاص على أرض مصر ولتذهب حريتها وليذهب استقلالها للجحيم أما عن الولاء فكانت الصورة صارخة تعلن أنه لا ولاء لهذا الوطن الذى أحبوه وتغزلوا فى جماله وسحره لأنه المكان الوحيد فى العالم الذى أعطى لهم مميزات لم يحصلوا عليها فى وطنهم الأصلى . ■

التكوين

صراع جسم المجتمع بالثورة التي اعتقد الجميع أنها آتية

إبراهيم فتحي

كان والدى موظفاً صغيراً ينتقل من مديرية إلي أخرى فى المملكة المصرية. وكان من حسن حظى أن سبقنى فى الميلاد شقيقان: محمد قنصوة ومصطفى كمال قنصوة، والأول بفارق بعض السنوات التى كانت تبدو طويلة أيامها وتجعل منه مربياً ممتازاً لى. فهو أزهرى متفتح وفدى الهوى على غير الشائع فى طلبة الأزهر أيامها ويضيق بالزى الأزهرى. والثانى فنان متعدد المواهب يجيد الرسم والغناء والتمثيل ويعكف على القراءة.



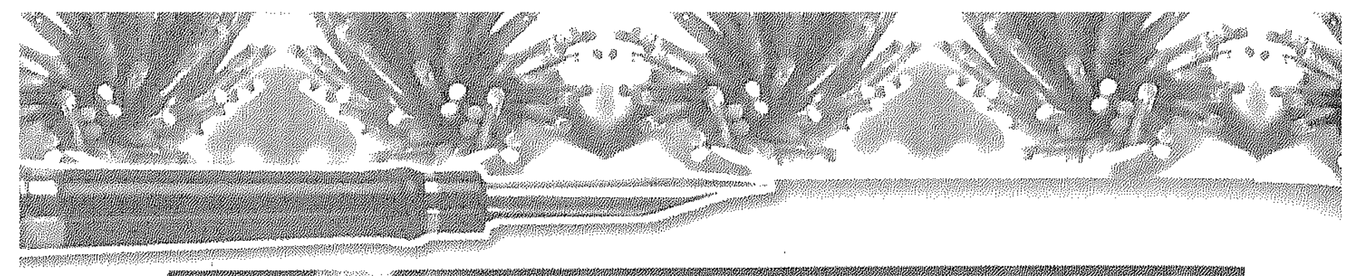
وأصل عائلتنا تلا منوفية، وإن كنت قد ولدت في القناطر الخيرية. وفي بعض السنوات كنا نمكث في تلا ولا نصاحب الوالد حيث تلقى به أوامر النقل توفيراً للنفقات. وذهبت إلى الكتاب وحفظت سوراً من القرآن الكريم وتعلمت بعض الحساب. وكان ينظر إلى «حامل كتاب الله» باحترام شديد باعتباره مباركاً، ولكنني كنت معفي من هذه النعمة لأن الأمل كان قوياً في أي يتمكن أبي من إلحاقي بالتعليم الابتدائي. وهذا التعليم غير التعليم الإلزامي أو الأولي، فهو يتطلب دفع مصروفات وارتداء بدلة وحذاء وطربوش، وتدرس فيه اللغة الإنجليزية وتصبح أفندياً بعد الحصول على الشهادة التي تؤهل حاملها لوظيفة حكومية. وكان التعليم أيامها والحصول على شهادة هو الطريق الملكي الوثير أمام قلة المحظوظين من أبناء الفقراء للصعود الطبقي وتحقيق «الحياة الكريمة». ورمز التعليم هو الكتاب - السلم المضمون للحصول على الاحترام والتميز. وكان المثقفون البارزون في الحياة العامة أمثال طه حسين والعقاد من أبناء الفقراء نماذج تحتذى على ألسنة الآباء والأمهات في البيوت. أما كلمة أديب فكانت لقباً عالي القدر للتشريف. ومنذ البداية كانت أمنيتي الغامضة متعلقة بأن أكون في المستقبل على صلة بتلك الهالة الأدبية، دون أن تصبح وظيفة لأكل العيش. وكان أخي الأكبر محمد يشركنا أنا وشقيقي القريب من عمري مصطفى كمال في قراءة ما يجلبه من كتب وروايات، ومعظم كلامه معنا يكاد يكون بالعربية الفصحى على عادة أزهرية ذلك الزمان. وكان مصطفى كمال سلس الأسلوب فيما يكتبه، ولكنني اتبعت نصيحة أحد مدرسي اللغة العربية الذي كان يرى أن خير طريقة لتجويد الأسلوب هي نسخ بعض كتب مصطفى صادق الرافعي بخط يدي في كراسات وحفظها عن ظهر قلب إن أمكن. وقد أثر ذلك زمنا طويلاً في إيثاري الأسلوب المعقد والتركيبات بعيدة الغور. ولم أتخلص من ذلك إلا بصعوبة. وكانت طريقتي في كتابة موضوعات الإنشاء تقارب طريقتي في الكلام لأن إخوتي وأنا كنا شبه منعزلين عن اللهجات العامية السائدة بحكم كثرة انتقالاتنا. ففي تلا المفروض أن أتكلم باللهجة المنوفية، وفي القاهرة بالمصراوية، وفي قنا بالصعيدية، لذلك كانت الفصحى الميسرة هي أفضل طريقة للحديث مع المتعلمين الذين

التكوين

اقتصرت علاقاتنا عليهم. وقد طبع ذلك طريقة كلامي بالحذلقة، وإن مكنني من الإلمام بمفردات غنية منذ البداية. ولم تكن أمي تعرف إلا أقل القليل عن البلاد التي تتنقل بينها، وظلت محتفظة برصيدها الذهبي من المأثور الشعبي المنوفي، فما أكثر الأمثال التي ترددها. وحينما كان الأولاد ينجحون وتشعر بالبهجة تردد التعديد (البكائيات) على أولادها الذين رحلوا في طفولتهم وأطلقت أسماء بعضهم على القادمين الجدد، وكأنها ترى في نجاح الأحياء بعثاً للأعزاء الموتى الذين تستحضرهم بالبكائيات، وبعد الفراغ من ترديدها الإيقاعي تحس بالراحة. وقد تعلمت الكثير منها ومن تفانيها وحكمتها في إدارة شئوننا بميزانية متواضعة، ومن انكبابها على الكدح البيتي من الفجر إلى المغرب، ومن عباراتها الساخرة من بعض ممارسات الأهل والأقارب والجيران ومن ممارستنا نحن. وربما كانت تلك الأم الأمية الواعية هي أول معلم لي. فقد كان أبي يستيقظ في الفجر للصلاة وأستيقظ معه وأجلس على ركبته حينما كنت طفلاً وهو يرتل أوراداً لا أفهم معناها وأتحرك معها من الأمام إلى الوراء في سعادة غامرة أحس معها بأنها تنفذ إلى عظامي. وهو لا يعود من عمله إلا بعد أن يحل الظلام. ويكاد يكون غائباً إلا يوم الجمعة حين تكون سعادته في إعادة ترتيب خزانة كتبه الدينية والتراثية وروايات «اللطائف المصورة» التي تعمل على «تكبير» المخ. وكان ينتمي إلى طريقة «خلوتية» يفخر وردها بأن أفرادها المعتكفين يجالسون ربنا. والصورتان الوحيدتان المعلقتان في حجرة الكتب عندنا (حجرة الجلوس) هما للشيخين فؤاد صاحب المقام والمولد في تلا (ويقص أبي أنه كان من أصفيائه المواظبين على حضرته، فالشيخ كان من قطاع الطرق ثم تاب وأصبح من أهل الطريقة الصوفية)، وخليفته الشيخ توفيق. وكان من المفهوم أننا جميعاً ننعم بالحراسة المشددة للوليين. كما كانت أمي وكنت معها نعتقد في فضل «حجاب» جلدي داخله أوراق لم أطلع عليها تضعه تحت إبطي أيام الامتحانات لكي أنجح، ولم يخذلني قط فيما أعتقد.

معالم التكوين في قنا

أما الفترة التي قضيناها في قنا وامتدت طويلاً فقد كانت من أهم محددات تكويني. حصلت فيها على الشهادة





الأشقاء الثلاثة من اليمين : مصطفى كمال ثم صلاح قنصوه وإبراهيم فتحى

الابتدائية وكنت الأول على المدرسة وعلى شهادة الثقافة، وكنت الأول على المنطقة. وقرأت أكشاكاً كاملة من روايات الجيب عن طريق الإيجار بخمسة مليمات والتبادل مع الزملاء، ومجلدات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال من مكتبة المدرسة العامرة. وكانت مدرسة قنا الثانوية الأميرية فى تلك الفترة من الأربعينات أثناء حكومات السعديين و«الدستوريين» وصدقى باشا الديكتاتورية الموالية للإنجليز والقصر منفى لأفضل المدرسن الذين يعارضون الأوضاع المتدهورة للبلاد، بعضهم ليبرالى وبعضهم يسارى وبعضهم يتمسك فحسب بالشرف الوطنى. وكان مدرس اللغة الإنجليزية مستر سينيور عالم مصريات أنشأ فى المدرسة «نادى اللغة الإنجليزية» حيث لا يكون الكلام إلا باللغة الإنجليزية، ويقوم الطلبة بتمثيل مسرحيات مقررة أو غير مقررة. وبالمثل كان أساتذة اللغة الفرنسية يعيروننا دواوين شعر فرنسية وروايات رائعة ويشرحون بالكتابة على هوامشها التعبيرات الصعبة بالإنجليزية. وكنا نلتقى بالأساتذة خارج المدرسة ونزور بعضهم ويقابلون آباءنا فى المناسبات ويتعرف عليهم أهل المدينة. أما المدرسون من أهل

المديرية فقد كان لهم دور كبير فى رعاية الطلبة القادمين من القرى والدفاع عن حقوقهم وتقديم المساعدة العلمية للجميع وحل المشاكل التى تنشأ بين الطلبة والإدارة.

وفى تلك الفترة عرفت قنا وباءين: الملاريا والكوليرا، وعرفت المدرسة الثانوية المظاهرات السياسية الصاخبة كأصداء لما كان يحدث فى القاهرة والاسكندرية. ويبرز السؤال عن مصير البلاد بحدة. ولم يكن الفقر فى قنا مماثلاً للفقر فى الوجه البحرى، فهى منطقة أهملت منذ زمن طويل وأرضها لاتزرع إلا مرة واحدة فى السنة، ولكن أهلها يتميزون بالتمسك الشديد بالكرامة والشرف وتقاليد النخوة العربية.

وفى تلك الفترة المبكرة كانت أفكارى خليطاً غير متجانس من اتجاهات متناقضة. كنت أميل عاطفياً إلى الوفد وأسكن منطقة «الأشراف» التى كان عميدها من رجال الوفد، ويناوىء مكرم عبيد زعيم حزب الكتلة المنشق عن الوفد الذى استقطب تأييد رجال «الحمادات» القبيلة المنافسة تاريخياً للأشراف.. وكان أخى محمد يخطب فى مناسبات احتفالات الأشراف بأعياد الجهاد وذكرى سعد. وكان الوفد بالمعارضة والمكان محاطاً بالشرطة. وبالقرب من بيتنا كانت جمعية الشبان المسلمين التى تعقد المحاضرات لمثقفين بارزين قادمين من القاهرة ولسياسيين لامعين. وأذكر محاضرة لصالح حرب باشا، وكانت المستوطنات الصهيونية تتدعم فى فلسطين وقوات الاحتلال البريطانية تدنس المدن المصرية، دعا فيها إلى الإعداد العسكرى للشباب كطريقة للتحرير، وندد فيها بإهمال الشباب لذلك الإعداد صائحاً: أيها الشباب المجرم. وقد أخذت الحماسة شيخاً كبيراً من الحاضرين فرفع عصاه مجيباً: أهينا، أى نحن هنا، وكانت كلمة مجرم الدارجة أيامها لا علاقة لها بالإجرام المتعارف عليه، بل تعنى الرجل القوى الذى يقاوم الظلم الرسمى، فضحك السامعون. ولم يدر أحد أين السبيل إلى ذلك الإعداد. وسمعت محاضرة عميقة لطالب دراسات عليا أيامها هو الدكتور الطاهر مكى بعد ذلك عن التصوف الإسلامى وجذوره العربية كان السامعون يقولون الله بصوت مرتفع مقاطعين المحاضر بإعجاب شديد عند نطقه بأبيات صوفية قد تتعارض مع العقيدة الراسخة لديهم (مثل سبحانك سبحانى للحلاج). وكانت الاستجابات الحماسية من جانب بعض أفراد الجمهور للصيغ الرنانة البلاغية التى لا يفهمونها أو

يفهمونها فهماً عكسياً تدفعنى إلى الحيرة فى مسألة صدقية التأثير الخطابى وجدواه، وتجعلنى أميل إلى التحليل الموضوعى المنطقى الذى قد لا يلقى استجابة مباشرة.

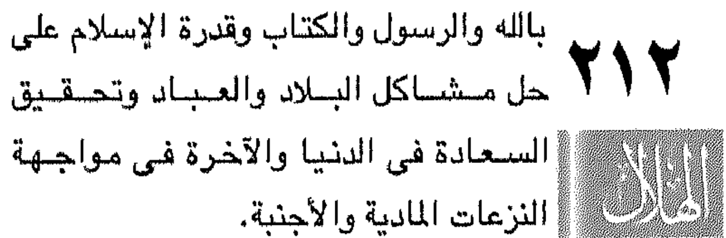
وفى هذه الفترة كان شقيقى مصطفى كمال نجماً مسرحياً فى فرقة تمثيل الشبان المسلمين حيث مثل على مسرح البلدية الواسع فى المدينة مسرحية «انتقام المهراجا» التى ترفض التغريب، ومسرحية «أصحاب الفيل» حيث يقول عبد المطلب أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه. وقد شعرت بالحيرة أيضاً إزاء التصفيق الحماسى الحار لأفكار تدعو إلى المناقشة والتأمل ومراعاة حدودها وأرجعته إلى براعة التمثيل.

وتأكد لى أننى لا أفضل مخاطبة المهتدين ليزدادو إيماناً على إيمانهم. ولا أفضل الخطابة والتأثير على جمهور يتفق مقدماً مع ما أنوى قوله، بل أفضل الكتابة التى قد تدافع عن آراء غير جماهيرية. وفى مظاهرات المدرسة كنت أشارك بالسير وأتعرض للضرب وقد وقعت على ركبتى فى إحداها، ومازالت ندبة الجرح ظاهرة حتى اليوم، لتضاف إليها ندوب أخرى من آثار التعذيب فى معتقلات مختلفة فى عهود مختلفة. ولكننى كنت أضحك من شعارات مثل «شباب الفاروق أسد العرين» و«اليوم حرام فيه العلم» و«أحرقوا كتب اللغة الإنجليزية» . وذات مرة فى مؤتمر داخل المدرسة أخذ ضباط البوليس الخطباء معهم معتقلين عن طريق المفاجأة، وأصيب الطلبة بالوجوم للمفاجأة وأمرنا الضباط بالانصراف. ولأننى لم أكن «مندمجا» وأحتفظ بمسافة نقدية تعودت عليها، فقد بدأت بالخبط على الكتب التى كنت أحملها، وفعل القريبون منى ذلك، وتجمع الطلبة حولى وأقاموا سداً يحمى زعماء جدداً يجيدون صياغة الشعارات. وترددت أقوال عن ضم التلميذ صاحب البنطلون الأبيض (ويبدو أن هذا البنطلون كان ملازماً لى) إلى اللجنة التنفيذية الجديدة. وما أن وصلت إلى البيت حتى جاء مخبران لاستدعائى إلى قسم الشرطة حيث احتجاز «الزعماء». وكان هذا الفاصيل شديد القصر فاتحة لاعتقالات متعددة لازمتنى من الصبا المبكر حتى الشيخوخة.

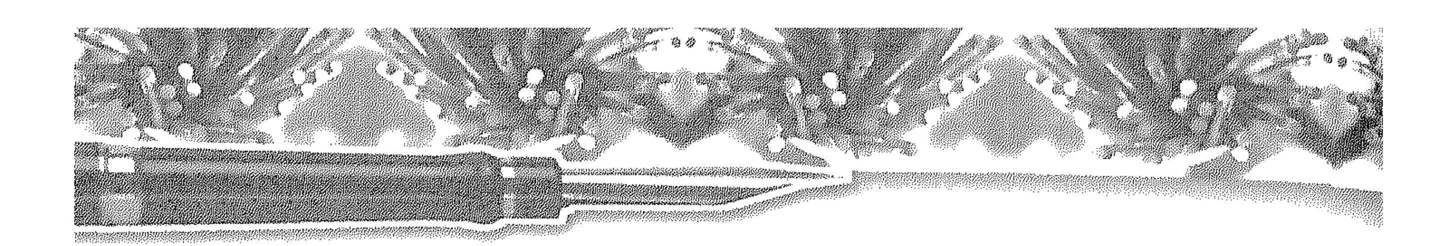
تأثرت بهؤلاء الأساتذة

وكان بعض المدرسين المنتمين إلى الإخوان المسلمين يدعوننا إلى الحضور فى «الشعبة» وتكوين جمعية للخطابة، وذهبت مرات قليلة من باب الفضول.

وكانت صورة الملك فاروق الضخمة تتصدر المكان والعداء كل العداء ليس للحكومات الرجعية بل للوفد. وكانت علاقات رجال الإخوان بالأعيان في القرى وبأبنائهم فى المدرسة تتوطد فهم الأرض الخصبة للدعوة، والمرشد العام كان مدرساً فى مدرسة قنا الثانوية منذ سنوات قليلة. وجاء فضيلته للخطابة فى شعبة قنا واستقبله المدير والحكمدار والمأمور وهم من «خيار الأصدقاء» كما وصفهم المرشد فى كلمة شكر تمهيدية. ومازلت أذكر أن هذا الرجل فى ثيابه البيضاء (غير الإفرنجية) وصوته العميق وتمكنه من اللغة ومرادفاتها الكثيرة كان ساحراً لا يقول شيئاً محدداً بل يخلق جواً روحياً يشيد بالله والرسول والكتاب وقدرة الإسلام على حل مشاكل البلاد والعباد وتحقيق السعادة فى الدنيا والآخرة فى مواجهة النزعات المادية والأجنبة.



وفى السنة الرابعة الثانوية جاء إلى المدرسة أستاذان كان لهما أثر كبير فى تكوينى. الأول عبد الفتاح لاشين مؤلف الكتب التعليمية المتعددة الرائدة وكبير مفتشى اللغة العربية بعد ذلك، وهو مثقف موسوعى لم يكن يسارياً، ولكنه يعيرنى ترجمات راشد البراوى لرأس المال (ولم أفهم من الكتاب فى ذلك الحين حرفاً) والتفسير المادى للتاريخ (وقد فهمت القليل منه) والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية (وقد ظننت أننى فهمته)، فقد كان يبحث عن منهج للإصلاح ويدرس المذاهب المختلفة فى العالم بطريقة حيادية، ويحترم الديمقراطية الإنجليزية. وفى حصة الإنشاء كان يترك لنا اختيار الموضوعات التى نحب الكتابة عنها ويتشدد فى الصحة اللغوية. وقد اخترت موضوعا ذات مرة أسميته العنكبوت المقدس (صححته المقدسة فالعنكبوت مؤنث كما علمنى) أهيم فيه على وجهى ثائراً بطريقة هوجاء على كل شىء، فعلق بهدوء ناصحاً بالتمييز بين الأشياء المختلفة التى أعتبرها قديمة، فلا أعتبرها متماثلة، وقال فى أخر التعليق «ولولا الرمز فى الهمز لأصابك ما لا أستطيع له دفعاً». ومن مكتبه أعارنى كتب العقاد ربان مرحلته الوطنية الديمقواطية قبل أن يربط مصيره بالقصر والسعديين، وكتب طه حسين عن أبى العلاء المعرى والمتنبى وابن خلدون شارحاً ما غمض على، ومسرحيات توفيق الحكيم الذهنية وكتب سلسلة عيون الأدب الغربى وخصوصاً «تس سليلة آل دربرفيل»



لتوماس هاردى ترجمة الشاعر فخرى أبو السعود، وكتب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة. وكان يحتفى دائماً بالقيمة الفنية من وجهة نظر شديدة المرونة لاتقف عند البلاغة القديمة. وكان تأثيره الدائم فى تكوينى قائماً على عدم التعصب المنغلق لمدرسة معينة فى الأدب مهما كنت ميالاً إليها. وقد أعارنى ترجمة رواية «إلى الأبد يا عنبر» التى ثارت ضدها ضجة تشبه ضجة «وليمة لأعشاب البحر» بعد ذلك معلقاً على الوضع التاريخى والسيكولوجى للبطلة، وهو الميال إلى كتابات محمد حسين هيكل الإسلامية التى كان يخفف منها بقراءته لما تيسر من «ثورة الأدب» لمحمد حسين هيكل نفسه.

وقد جعلنى تأثيره أتخيل نموذجاً مأمولاً للكاتب الذى أريد أن أكونه، وأعتقد أننى لم أحققه قط، نموذجاً يمزج بين عقلانية ومنطقية العقاد وتحليلية هيكل وموسيقية طه حسين ورومانسية ميخائيل نعيمة والتفلسف الحى لتوفيق الحكيم.

بين نظرية التطور والاشتراكية العلمية

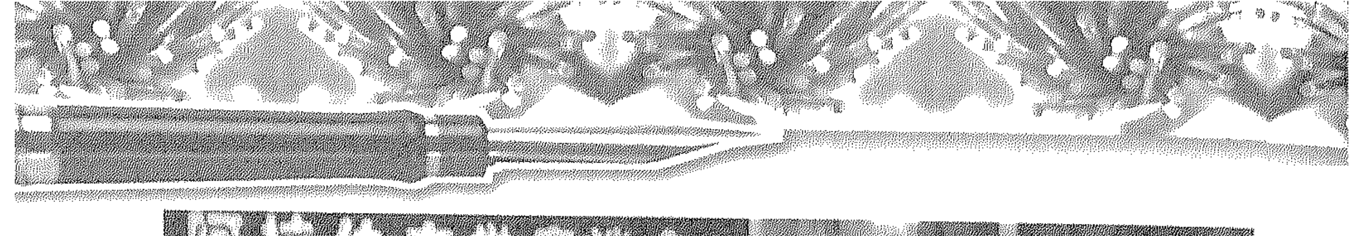
وقد تغير كل ذلك وأطيح بالتناسب بين عناصره مع مجىء دكتور فى علم الأحياء مغضوب عليه لأنه شيوعى إلى المدرسة وكان مسيحيا بالميلاد..ولما أنشأ جمعية للأحياء يدرس فيها بطريقة مبسطة نظرية التطور بالصور وشرائح الميكروسكوب فتبنى ذلك وتعرفت على منهج علمى تجريبى يضيف إلى المنهج العقلانى لمدرس اللغة العربية ولم أجد تعارضا بينهما. وثارت ثائرة الإخوان المسلمين الذين اعتبروا نظرية التطور إلحادا لمجرد أنها تقول «تطورا» وليس «تطويرا» عن طريق التدخل الإلهى فى أطوار ما قبل الإنسان.

وفى ذلك الوقت كان الإخوان أصدقاء للحكومات الرجعية وإن تطوع بعضهم فى فلسطين للكفاح ضد الصهيونية. وجاء إلى قنا الداعية سعيد رمضان الذى كان هناك حر الحركة خطيبا فى ساحة واسعة اسمها الفدان فى شارع «البحر» وجلجل صوته ذاكرا كيف كانت الملائكة تحارب متطوعى الإسلام. فإذا جاعوا حملت لهم الريح طعاما، بل إن اليهود يحارب بعضهم بعضا بعد أن أعمى الله عيونهم عن المسلمين. وأصابنى ذلك بصدمة رغم تكبير كثير من السامعين. وكان حل الأدواء الاجتماعية عندهم كجماعة منحصرا فى بركة الزكاة التى لم يجد

العاملون عليها فقيرا بعد صرفها في مصارفها الشرعية أيام عمر بن عبدالعزيز، وقد أدت قشور الماركسية بالإضافة إلى سوء ممارسات الإخوان وضربهم المخالفين والتشهير الكاذب بهم وقبولهم للنظام الاجتماعي والسياسي الجائر بعد ترقيعه وتعاليم الإمام القائلة احذر يا أخي المسلم أن يقع قرشك في يد غير مسلمة إلى أن تساورني الشكوك في بعض تفسيرات الدين، ولم أكن أجد أي تلازم بين مظاهر التدين الخارجية ومكارم الأخلاق أو الوطنية أو السلوك القويم، وبدأت أبحث عن تفسيرات مختلفة لنعيم الجنة الذي تجعله بعض التفسيرات الشائعة بعيدا عن الروحانية وقد وجدتها - للمفارقة - عند سيد قطب الذي لم يكن قد أصبح إخوانيا بعد في عبارة حفظتها عنه، فهذا النعيم ترجمة حسية للمتع الروحية التي وعد الله بها عباده المتقين، وظللت أحاول أن أجد توفيقا بين التفسيرات الشائعة ومقتضيات المنهج العلمي حتى عجزت تماما ووصل بي الأمر إلى تبني موقف توفيق الحكيم القائل بأن الإيمان مناطه القلب والعلم مناطه العقل ولا حل للتنازع بينهما .

في القاهرة

ونقل والدي إلى القاهرة وانتقلت إلى السعيدية الثانوية مدرسة أبناء الأغنياء بفضل مجانية التفوق ولم يكن هناك اتصال بأحد، وكانت سنة حاسمة في حياتي، فحرب فلسطين انتهت بالنكبة وانقلب الإخوان على النقراشي بعد طول ممالأة وظنوا أنهم وصلوا إلى مرحلة التمكين، وخرجت مظاهرات تهتف «بؤت بخزي يانقراشي» انتهت باغتياله، وكانت المواقف من القضية الفلسطينية في بؤرة الاهتمام. وكنت أرى بعض الطلبة الشيوعيين الذين لاتربطني بهم صلة يطالبون بالتقسيم وسط اشمئزاز عام من الطلبة وكانت الحجة التركيز على جلاء الإنجليز، وقد فتحت المعتقلات أبوابها لجميع الاتجاهات أيامها، وكنت معزولا عن أي تنظيم منكبا على الاستعداد لامتحان التوجيهية ومسابقة اللغة العربية ودخلت امتحان جائزة كيلرن في الإنجليزية ونجحت فيها جميعا وكان ترتيبي الثامن على المملكة والأول على منطقة الجيزة والمدرسة ومايزال اسمي مدرجا على لوحة شرف أوائل السعيدية.





مع د. فاطمة موسى ود. حمدى السكوت فى اتحاد كتاب شنغهاى بالصين - ٢٠٠١

وكان ذلك آخر عهدى بمنطق الصعود الطبقى بالشهادة التعليمية وانتقلت إلى منطق معاكس، بدأ بدخولى كلية الطب والانغماس فى العمل السياسى.

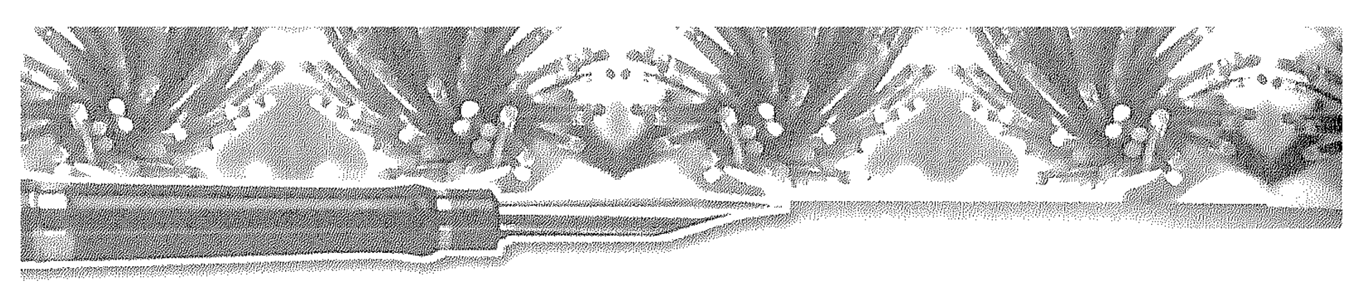
فى «حدتو»

وقد انضممت إلى حدتو فى تلك الفترة وهى المنظمة التى أسسها هنرى كورييل، وعلمت أن هناك تنظيمات أخرى فى الكلية: الراية بقيادة الرفيق خالد ولم يعرف أحد من هو إلا فى نهاية الخمسينيات (الدكتور فؤاد مرسى وزير التموين أيام السادات) والنجم الأحمر والديمقراطة الشعبية د.ش. وتظل شريفا طالما لم تنضم إلى أى من هذه التنظيمات وما أن تنضم إلى إحداها حتى تصبح انتهازيا أو عنصرا بوليسيا عند التنظيمات الأخرى، وكان الوفد فى الحكم أثناء تلك الفترة وبتعاون بعض طلبة الوفد مع البوليس السياسى الوفدى كما خرج الإخوان من المعتقلات وقابل مرشدهم حسن الهضيبى الملك فاروق وخرج من الزيارة معلنا أنها زيارة كريمة لملك كريم وكان الشغل الشاغل لطلبة الإخوان استخدام الكرابيج والقبضات الحديدية لضرب الوفديين واليساريين، وفى هذه الأيام كان أول مسئول التقيته فى حدتو

هو يوسف إدريس (وسيظل ينكر بعد ذلك أنه كان منظما على الإطلاق)، وكان يصدر جريدة أسمها الجميع، وأصدرت جريدة اسمها أسرة الطب وقد قدمنا إلى التحقيق فى الكلية وحاول الحرس مصادرة الجريدتين، وكانت كلية الطب أيامها تبشر بمستقبل باهر لخريجيها : عيادة وعربية وعمارة وعروسة (الأربع عينات) أو هكذا كانت الأحلام أما قصر العينى فقد كان جحيما للنزلاء ولرواد العيادات الخارجية، وكان كثير من الزملاء قد أصابهم اليأس من جدوى معالجة المرضى الفقراء وكانت جثث المشرحة من الموتى الذين بلا أهل قد مزق السل رئاتها، وكيف يشترى المريض المعدم الطعام أو الدواء حينما تفترسه الأنيميا.

وبدا لى أن علاج جسم المجتمع بالثورة التى أعتقد الجميع أنها آتية لاريب فيها - يشهد على ذلك اضرابات جميع الطوائف (حتى البوليس وممرضى المستشفى) أجدى من جهد أنانى عبثى لعلاج أجساد قليل من المرضى لا أمل فى شفائهم، وكانت هناك أمثلة لمحترفين ثوريين : شريف حتاتة، صلاح حافظ، سعد رحمى، جمال شلبى، عبدالحميد السحرتى، محمود حزين قضوا بعد ذلك أجمل سنوات عمرهم فى السجون أو المنفى، وليس ذلك بالطبع طريقا أمثل للكثرة، بل لعدد شديد الضآلة من الذين يدفعهم تكوينهم، واهتمامهم الفكرى فى أوقات الأزمة الحادة حينما تكون مصر حبلى بالثورة إلى أن يذوبوا فى قضية عامة هى المعنى العميق لحياتهم ولموتهم وقد استشهد فى تلك الفترة بعض طلبة الجامعة فى القنال وهم يحاربون الإنجليز.

لذلك عكفت على دراسات اجتماعية وفلسفية وسياسية وعلى كتابة تحليلات للأوضاع ومنشورات ومحاضرات عن دور الأدب فى الحركة الوطنية ونقد الاتجاهات المغرقة فى الرومانسية، ومن مآثر حدتو فى تلك الفترة لا مركزيتها فكانت لدينا أدوات طباعة بدائية سرية نستعملها فيما نراه ضروريا للعمل السياسى، وفى تلك الفترة تم إرساء تقاليد ماتزال مستمرة فى النشاط الطلابى تقليد جديدة الحائط





مع د. لطيفة الزيات ود. علي الراعى فى ندوة المرأة العربية

متعددة الموضوعات وحلقة النقاش الواسعة حولها.

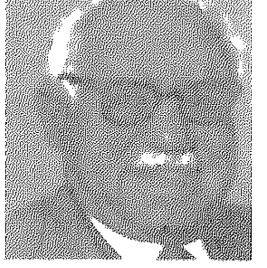
أفدت من انقسام الحركة الشيوعية

وقد أفدت من أنقسام الحركة الشيوعية التى لا تعترف بها موسكو، فالباب مفتوح لجميع الاجتهادات دون مرجع هو الحكم الملزم ، كما أدى الانقسام إلى ميوعة التنظيمات وانفضاح أسرارها وعدم ظهور زعماء من طراز ستالين رغم أن الكثيرين كانوا يربون شواربهم على طريقته ويتخذون من يوسف أو الحديدى اسماء حركية لهم، وحينما كان يحاط اسم «زعيم» بالتوقير المبالغ فيه كان ذلك مدعاة للسخرية عند الخصوم ينعكس على القاعدة وطوال تلك الفترة لم أقابل شيوعيا يهوديا واحدا فقد ساوم معظمهم على الخروج من المعتقل بالذهاب إلى فرنسا الجميلة تاركين مصر والشيوعية معا (ماعدا حلقة كورييل في فرنسا).

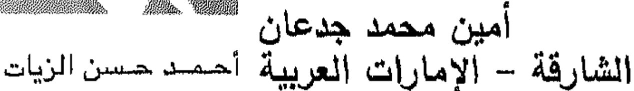
وكانت الكتابة والسياسة متآزرتين فى تكوينى أيام العهد الملكى قبل التحولات التى أتت بها ثورة ١٩٥٢ والتى صاحبت نضوج شقيقى صلاح قنصوه الذى كان الحوار والاختلاف معه من مصادر تطورى الفكرى المهمة ■



د. البيومي تلميذ لأحمد حسن الزيات



هل الدكتور محمد رجب البيومي الذي يكتب بانتظام مقالات بديعة آخرها مقال عازف الربابة والذي استوحى من خلاله الفنان محمد أبو طالب هذه اللوحة الجميلة التي تصدرت العدد عن عازف الربابة.. هل هو ذاته الذي كان يكتب في مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات؟



أمين محمد جدعان
الشارقة - الإمارات العربية

أحمد حسن الزيات

● **الهلال**: محمد رجب البيومي كان تلميذا لأحمد حسن الزيات، وقد كتب مقالات كثيرة بالرسالة وهو طالب بكلية اللغة العربية وبعد تخرجه منها ومقالاته في مجلة الرسالة من ١٩٤٥ حتى احتجبت سنة ١٩٥٢ وله أربعون مؤلفا بين الأدب والتاريخ والتشريع الإسلامي ونال خمس جوائز من مجمع اللغة العربية في المسرحية والتراجم الأدبية والشعر والبحث العلمي.. وهو الآن عضو بمجمع البحوث الإسلامية ورئيس تحرير مجلة الأزهر وأستاذ متفرغ بكلية اللغة العربية بالمنصورة بعد أن تولى عمادتها عشر سنوات متتالية وعنوانه الآن: كلية اللغة العربية بالمنصورة - ج.م.ع

د. محمد رجب البيومي

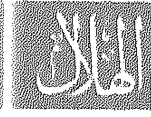


قضايا إسلامية مهمة تحتاج إلى الدراسة





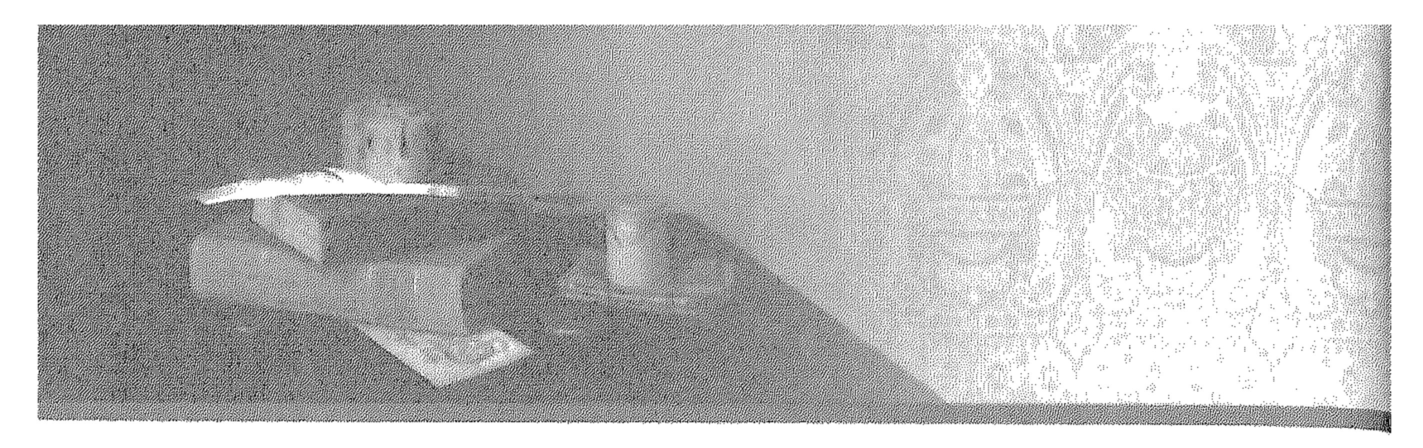
من المقالات التي أعجبتني في العدد الماضي مقال التقريب بين المذاهب، وهذا يدفعني للقول لماذا لا يجتمع علماء من الأزهر، ومن قم بإيران والزيتونة بتونس والقيروان بالمغرب مع جميع الدول الإسلامية ويقدموا للعالم الإسلام السمح ويردوا على الهجوم الذي يتعرض له الإسلام الآن؟!





عبدالرحمن محمد الجفيري - قطر

● **الهلال**: مدى علمنا أن اجتماعات تمت في الآونة الأخيرة من أجل الرد على ما يتعرض له الإسلام من حملات الغرب، وبالطبع فهذا لا يكفي ونحن نضم صوتنا إلى رسالة القارئ وخاصة في موضوع مهم مثل التقريب بين المذاهب الإسلامية فمثل هذه القضايا تحتاج إلى حسم وتوضيح لأن مفكري الغرب يبدأ هجومهم علينا في مثل هذه القضايا التي مازال الخلاف حولها برغم مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على انتشار الدين الإسلامي.



مفتي الديار المصرية وذو النون المصري


د. أحمد الطيب

لاحظنا أن الدكتور أحمد الطيب مفتى الديار المصرية كتب فى الأعداد الأخيرة من الهلال مقالا عن تكوينه الثقافى، ومقالا آخر عن «ذو النون المصرى» وفى مقاله الأخير لاحظنا مدى اهتمامه بالكتابة عن هذه الشخصية من خلال كتاب الكوكب الدرى لابن عربى والطريف فى الأمر أن «ذا النون» كما أشار الدكتور الطيب ربما يكون قد ولد فى اخميم بصعيد مصر، أو ببلاد النوبة، ثم رحل إلى اخميم فى مرحلة تالية من حياته، أو ولد بجنوب مدينة أسوان، وهى نفس المنطقة التى ولد ونشأ بها الدكتور الطيب.

وهذا المقال مهم جدا حيث تناول صورة قلمية متميزة عن حياة «ذى النون» من خلال منهجية ابن عربى والذى قسمه إلى ثلاثة أقسام.

وكل ما أرجوه أن نقرأ لمثل هؤلاء الكتاب الذين يحرصون على تناول كل ما يفيد القراء.

محمد السعيد الطنطاوي
وادي النطرون

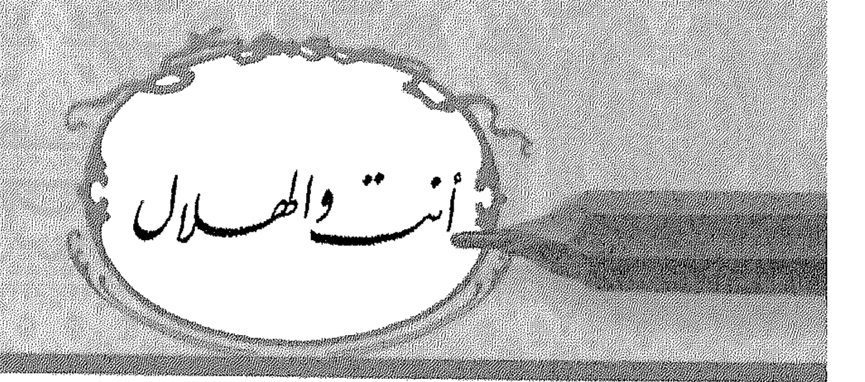
● **الهلال:** فى لقاء مع الدكتور أحمد الطيب أشار إلى أنه يحب الكتابة ولن يتوانى فى تزويد الهلال بمقالات من حين إلى آخر، وقد وعد بذلك فعلا.

أين دور العلماء في تحديث مصر؟!

تكتبون عن العلماء وتكرمونهم ومن بينهم على سبيل المثال الدكتور أحمد مستجير الذى برزت بحوثه واهتماماته فى مجال الهندسة الوراثية للحيوان وأيضا بحوثه فى مجال المحاصيل الزراعية حيث قرأنا بأنه نجح فى زراعة الأرز على المياه المالحة وهو اكتشاف يحقق أهمية كبرى فى مجال الزراعة فى مصر.

نحن نسمع ونقرأ ولكن تدهورت الزراعة فى مصر ونقص المعروض من لحوم الحيوان واستشرى غلاء اللحوم البلدية فأين دور هؤلاء العلماء الذين تكرمهم الدولة ولماذا لا نلمس جهودهم ولماذا لا يؤدون الدور المطلوب منهم؟!

مينا عبدالمسيح
القاهرة - العتبة



دقات.. من طبول الغضب

لا تعجبوا!!
حين اندلاع الشمس من جوف الأنين
لا تعجبوا!!
حين اخضرار العتق فى الرمل الحزين
لا تخبروا أحدا
بما يجرى هنا
إن الضياء.. مهاجر
والأرض تنزف كل حين
لا تقلقوا!!
فالأسد ملت نومها
تغتاظ من ذل العرين
ملك العرين
ما كان يرضى أن يموت أمامه
شبلا جريحا
واقفا يطوى الحنين
ملك العرين
أتراه يترك أى نخاس
ليهرب للسفين؟!
لا تقلقوا!!
لو ظل يرنو فى مهب القرفصاء..
مراقبا
أو ظل يوما يستكين
حتما سيغضب - إى وربى -
فالأسود على ذراها
لا تلين!!



عبدالناصر أحمد الجوهري - دكرنس - دقهلية



قضايا الملفات والسيطرة علي العالم!

منذ نعومة أظافرنا ونحن أطفال صغار وحتى الآن نسمع عن الملف الفلسطينى والقضية الفلسطينية ويتوقف بحث هذا الملف عند انتهاء فترة رئاسة أى رئيس أمريكى وإلى أن يجئ الرئيس الجديد يظل هذا الملف فى طى النسيان.

وبمرور الأيام بدأنا نتشكك فى أن يوجد حل لهذه القضية التى استمرت لأكثر من خمسين عاما، وتجئ أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ وليبدأ ملف جديد من تلك الملفات الإرهاب ثم أفغانستان وملف العراق والأسلحة الخطيرة التى يخفيها العراق وتشكل خطرا على الولايات المتحدة وعلى العالم.

إننى أتساءل عن الخبراء والعلماء الذين تجهزهم أمريكا لفتح هذه الملفات وهذا لن يحدث بالطبع فلقد أصبحت الدولة العظمى والتى لا يستطيع أن ينافسها أحد أو يسألها عن حدود الهيمنة والسيطرة على العالم كله!

د. جمال العطار
الاسكندرية - كامب شيزار

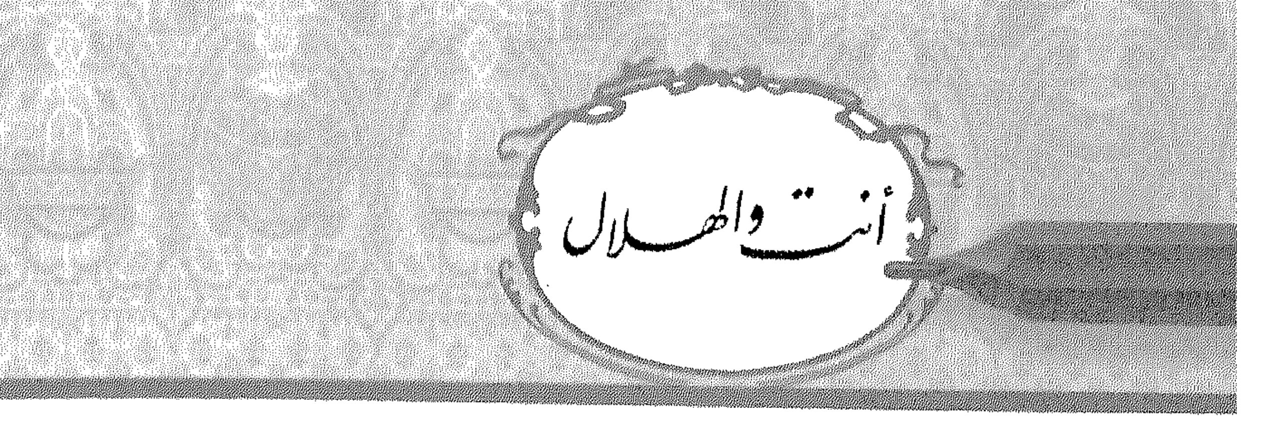
متي يتم ترشيد استخدام المياه؟!

تحتل قضية المياه اهتماما خاصا فى دول العالم أجمع ودول المنطقة ومصر بصفة خاصة فى السنوات الأخيرة ومع زيادة عدد السكان فى مصر والذى وصل حاليا إلى ٦٨ مليون نسمة، سوف تتضاعف مشكلات المياه فى السنوات القادمة حيث أن مصادر المياه شبه ثابتة فى مواجهة زيادة عدد السكان وتبخر المياه والفاقد الذى يتم أمام أعيننا دون أن نحرك ساكنا.

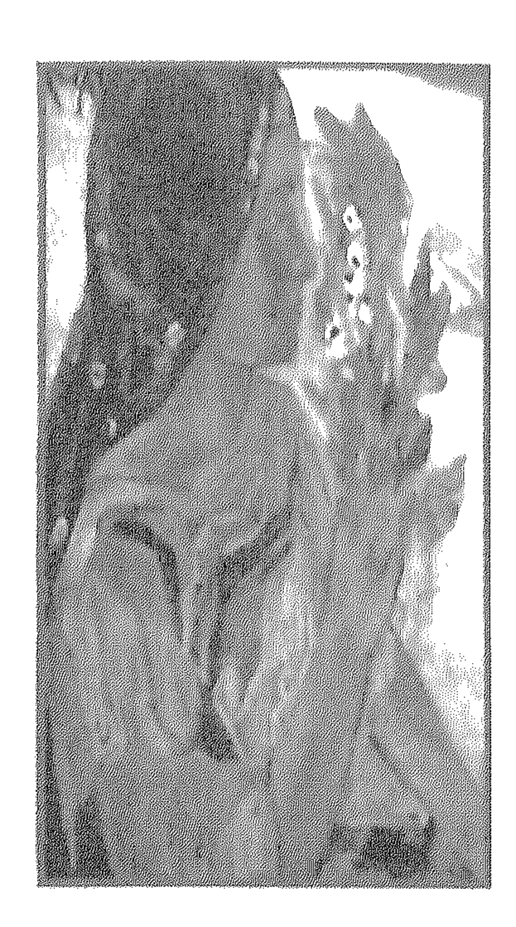
وعلى الرغم من برامج ترشيد استخدام المياه سواء فى الزراعة أو فى الاستخدام المنزلى فإننا وعلى سبيل المثال نجد أن القاهرة وحدها تحصل على حوالى من ١٦٠٠ - ١٨٠٠ مليون متر مكعب سنويا، وهو من أعلى معدلات الاستخدام للمياه فى العالم، كما وصل فاقد المياه بالشبكات الخاصة بالمياه والمنازل إلى ٣٥٪.

نسأل متى نحرص على استخدام المياه والتى يقول عنها ربنا تبارك وتعالى «وجعلنا من الماء كل شئ حى».

حازم علاء الدين كلية الآداب - قسم عبري

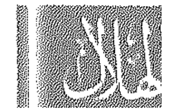


تواكـــل



عندما تخفت أنفاس الحياة
ويسيل الوقت من شريانها المفتوح
فالعمر انتهى
والصدر لم تبرحه آه
يولد الحب جديدا، أخضر النظرة
للأحلام فى عينيه ميزان الخطى يرسم عيدا
يتغنى بالنجاة
فلماذا نحرق الأوتار بالترحال
والصبر بتكرار السؤال؟
ركدت أيامنا: ملحا شتائيا وغابا
طحلبا منتفخ الصمت
زوايا من عظام الموت
صمتا واغترابا!
وبقينا نحرث الذكرى وننسى الحب والماء
ونرجو الغد نهرا
خارج الوادى
بلا شمس وناس وبلاد
عينه ترعى السماء!

عبدالرحيم الماسخ -نجع الماسخ - المراغة - سوهاج



عيوب نحرص على تلافيها!

سبق أن اتصلت بالسيد رئيس التحرير بخصوص التغليف السيئ والتجليد دون المستوى للمجلة، حتى أننى لا أستطيع قراءة العدد كله لأنه يصبح أوراقا متناثرة بعد قراءة مقال أو مقالين.

د. نبيل أمين مرجان -النزهة الجديدة



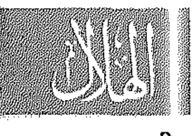
● **الهلال**: تحدثنا فى هذا الأمر مع مدير المطابع خاصة أن العدد الماضى قد حمل إشادة للعاملين فى مطابع دار الهلال فأكد لنا أنه ابتداء من هذا العدد لن تكون هناك أية شكوى حيث تعرف على السبب الذى أحدث تلك المشكلات.

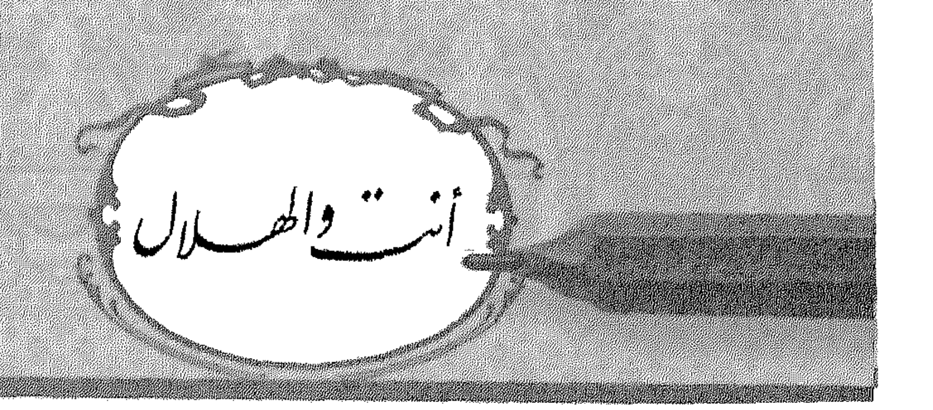
قصة قصيرة: البائع العجوز

ينادى البائع أبو حمدى بصوت ضعيف على بضاعته المنوعة من الخضراوات والفواكه الموضوعة فوق عربة كارو قديمة متهالكة يصلح كل يوم جزءا منها بعد انتهاء العمل اليومي.. رسم الزمن على وجهه خريطة صعبة تحمل الوهن والمشقة والحزن هاهو يدخل شارعا ضيقا حتى يبيع ويدعو الله أن تنفق بضاعته كانت الشمس ترسل له تحياتها عبر أشعتها القوية فالوقت وقت الظهيرة وكل دقيقة يمسح عرقه بمنديل كبير يمسكه بيده.

نهق الحمار عندما رأى مجموعة من الحمير موجودة فى مكان فى آخر الشارع وأسكته أبو حمدى وقال: هل هذا وقت إزعاج.. اهدأ

جاءت إليه مجموعة من النساء وقد تجمعن حول العربة وكل واحدة منهن تسأل عن فاكهة أو خضرة قالت إحداهن وقد عدلت من وضع شاشتها على رأسها: بكم هذا الكيلو من البندورة؟ فقال الكيلو بشيكل يا ابنتى فقالت لا هذا كثير هل آخذ رطل بشيكلين وكان متسامحا مع المشترين ولا يرفض طلب أحد فقال: خذى.. ثم أخذت المرأة تختار من حبات البندورة (الطماطم) واشترى منه أيضا معظم النسوة اللاتى تجمعن حوله.





ثم ذهب ليشترى بمكسب هذا اليوم كيس طحين فأولاده ينتظرون الغدا ، ولا يوجد لديهم رغيف خبز... حمل الكيس ووضعه بصعوبة على العربة ثم أنقد صاحب البقالة ثمنه.

ثم عرج بعربته إلى الطريق العام وكانت الحافلات مسرعة وتضايقه وبالكاد وصل إلى حارته.

أرسلت الشمس أشعتها الضعيفة.. لتنذر الناس بأن وقت مغيبها قد اقترب وقد التف حولها هالة باهتة.

حمل أبو حمدى الكيس فوق ظهره وقد تأوه كثيرا وتوجع من ثقله وقبل أن يدخل منزله هوى هو والكيس على الأرض!!

مدحت أمير الدربال
غزة - الزيتون



كيف أنشر في الهلال ؟

أكتب إليكم من ليبيا.. وأرجو أن تتاح لى فرصة الكتابة على صفحات مجلتكم العريقة، واسمى عائشة أحمد بازامه من مواليد ١٩٥٤ فى بنغازى وقد بدأت الكتابة فى سن مبكرة وأكتب حاليا مقالات بالصحف الليبية ولدى مقالات بعنوان تأملات امرأة فى زمن العولمة) أتمنى لو تنشر بمجلتكم.

عائشة

● الهلال : أهلا بمساهماتك.



مـــع الأصـــدقاء

● أشرف عبدالغنى: قنا - مركز أبو تشت - قرية الرواتب شكرا على رسالتك وعليك أن تواصل الكتابة وقصتك « الحضن الدافئ » تحتاج إلى مراجعة دقيقة فى اللغة وتتابع الأحداث حيث ينقصها أهم عناصر القصة القصيرة.

● محمود علام عبداللطيف - كلية التربية - قسم اللغة العربية أرسلت إلينا مساهماتك ، مصر فى خاطرى، ومكتبة الثغر تقول فى إحداها:

للمكتبات من الأنحاء زوار - وأنت من تملك الدنيا فتحتار

لما نظرت على مهل أشاهدها - أنكرت أن الذى شاهدت أحجار

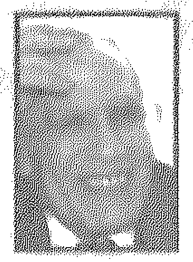
ماذا تقصد يا أخى وهل هذا شعر؟!

أنت طالب بقسم اللغة العربية وتعرف أدوات الشاعر جيدا أن تلم إلماما كاملا بدراسة علم العروض وهى مادة مقررة لابد أنك قد درستها فضلا عن الموهبة راجع ما تكتبه إلينا لتتأكد أنه ليس شعرا!

● عاصم فريد البرقوقى: الاسكندرية نعيش هذه الأيام فرحة وبهجة بافتتاح مكتبة الاسكندرية والتى أصبحت ملتقى للثقافات والحضارات وليعود للاسكندرية مجدها من خلال هذه المكتبة العريقة التى يأتى إليها عمالقة الفكر من جميع أنحاء العالم فى لقاءات وندوات فضلا عن أهم الكتب والموسوعات التى تضمها ولتصبح من أهم مكتبات العالم ومن يدخل أقسامها المتعددة يكتشف هذا الصرح الحضارى المتميز.

● أحمد طلعت أبو زيد - مصر الجديدة - القاهرة - أتمنى أن تهتم الهلال بإلقاء الضوء على محافظات مصر، خاصة المحافظات التى تضم تراثنا الفرعونى والرومانى والقبطى والإسلامى وسوف نكتشف بأننا سوف نتناول محافظات فى أقاصى الصعيد وفى الوجه البحرى أيضا.

الكلمة الأخيرة



البيولوجيا قبل الايديولوجيا

بقلم : د. أحمد مستجير

رجل اسمه نورمان بورلوج Norman Borlaug، هل سمعت اسمه قبلا؟ الأغلب أن ستكون إجابتك بالنفي . لكن هذا الرجل قد حصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٠، وأنقذ عشرات الملايين من فلاحي العالم الثالث من الموت جوعاً! إن فضله على البشرية لا ينسى، أبداً لن ينسى . هو الأب الحقيقي للثورة الخضراء، الثورة التي غيرت الحياة في العالم في ستينات وسبعينات القرن العشرين، والتي أثبتت أنه من الممكن بالعلم تحسين حياة مئات الملايين من الفقراء . لقد ساعد هذا الرجل العظيم الدول الفقيرة كي تساعد نفسها . كرس علمه لإنتاج سلالات من القمح القزم فائقة الإنتاج بشكل مذهل . مافائدة العلم إذا لم يوفر الرغيف أولاً لكل فم : الرغيف قبل الكمبيوتر !

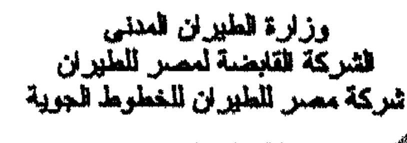
يقول بورلوج في محاضرته بحفل تسليم جائزة نوبل في ١١ ديسمبر ١٩٧٠ : «يكاد يكون من المؤكد أن لب العدل الاجتماعي هو توفير الطعام الكافي لكل البشر . الطعام هو الحق الأخلاقي لكل من يولد في عالمنا هذا . ورغم ذلك فنصف سكان العالم جوعى. إذا أردت السلام فلتزرع العدل (كذا يقول الميثاق التي يلتزم به الحاصلون على جائزة نوبل للسلام) نعم. لكنك في نفس الوقت لابد أن تزرع الحقل، وإلا .. فلا سلام».

نقل بورلوج سلالات قمحه القزم إلى باكستان وإلى الهند (ثم إلى غيرهما من بلدان العالم الثالث) فارتفع بها إنتاج القمح في باكستان من ٤,٦ مليون طن عام ١٩٦٥ إلى ٨,٤ مليون طن عام ١٩٧٠ ، وارتفع المحصول في الهند في نفس هذه الفترة من ١٤,٣ مليون طن إلى ٢٠ مليون طن ، بل لقد حصدت الهند مؤخراً من القمح ٧٣,٥ مليون طن. اكتفت الهند والباكستان من القمح اكتفاء ذاتياً، بل وأصبح لديهما فائض بفضل هذا الرجل

ضاقت الأرض بما تحمله من بشر . غدت المهمة الأولى لعلماء الزراعة في عصرنا هذا – كما يراها بورلوج – هي رفع الإنتاج من وحدة المساحة، نطعم به الأفواه الجائعة المتزايدة ، ونحفظ به البيئة . والمثال الذي ضربه في خطاب له في أكتوبر ٢٠٠٢ مثال يستحق الذكر. كان مزارعو الذرة في بلاده (أمريكا) ينتجون منذ ٦٠ عاماً٦٥ مليون طن متري من زراعة ٧٧مليون فدان، لكنهم في عام ٢٠٠٠ أنتجوا ٢٥٢ مليون طن متري من ٧٢ مليون فدان. لابد من اللجوء إلى البيوتكنولوجيا الحديثة – إلى الهندسة الوراثية .انبرى وهو مربي النبات التقليدي يدافع عن المحاصيل المهندسة وراثياً مؤكدا أن معارضيها إنما يحركهم كرههم للرأسمالية والعولمة، لا قضية أمان هذه المحاصيل كما يدعون ! البيولوجيا عنده قبل الايديولوجيا – حملة تذكرنا بـ «لايسنكو» وما فعله بالاتحاد السوفييتي : كانت الايديولوجيا عنده قبل البيولوجيا فـدمر الزراعة في بلاده .

نعرف الكثير عن هتلر وستالين وغيرهما من صناع الموت. أليس الأجدر بنا أن نعرف عن حياة صناع الحياة ؟!. ■

وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية





تنشيطـــا لحركة السياحة و السفـــر
بين **مصـــرو اليابـــان**
تعلـــن مصر للطيران
عن رحلة جديدة ثالثة **بدون توقـــف**
القاهـــرة / طوكيـــو
كل يوم احد
اعتبارا من ٢٢ ديسمبـــر
بالاضافـــة الـــى رحلاتنـــا حاليـــا
القاهرة / بانكوك / مانيلا / طوكيـــو
الثلاثاء والجمعـــة

القـــاهـــرة / اوزاكـــا
الجمعـــة و الاحـــد

املا وكم معنـــا

www.egyptair.com